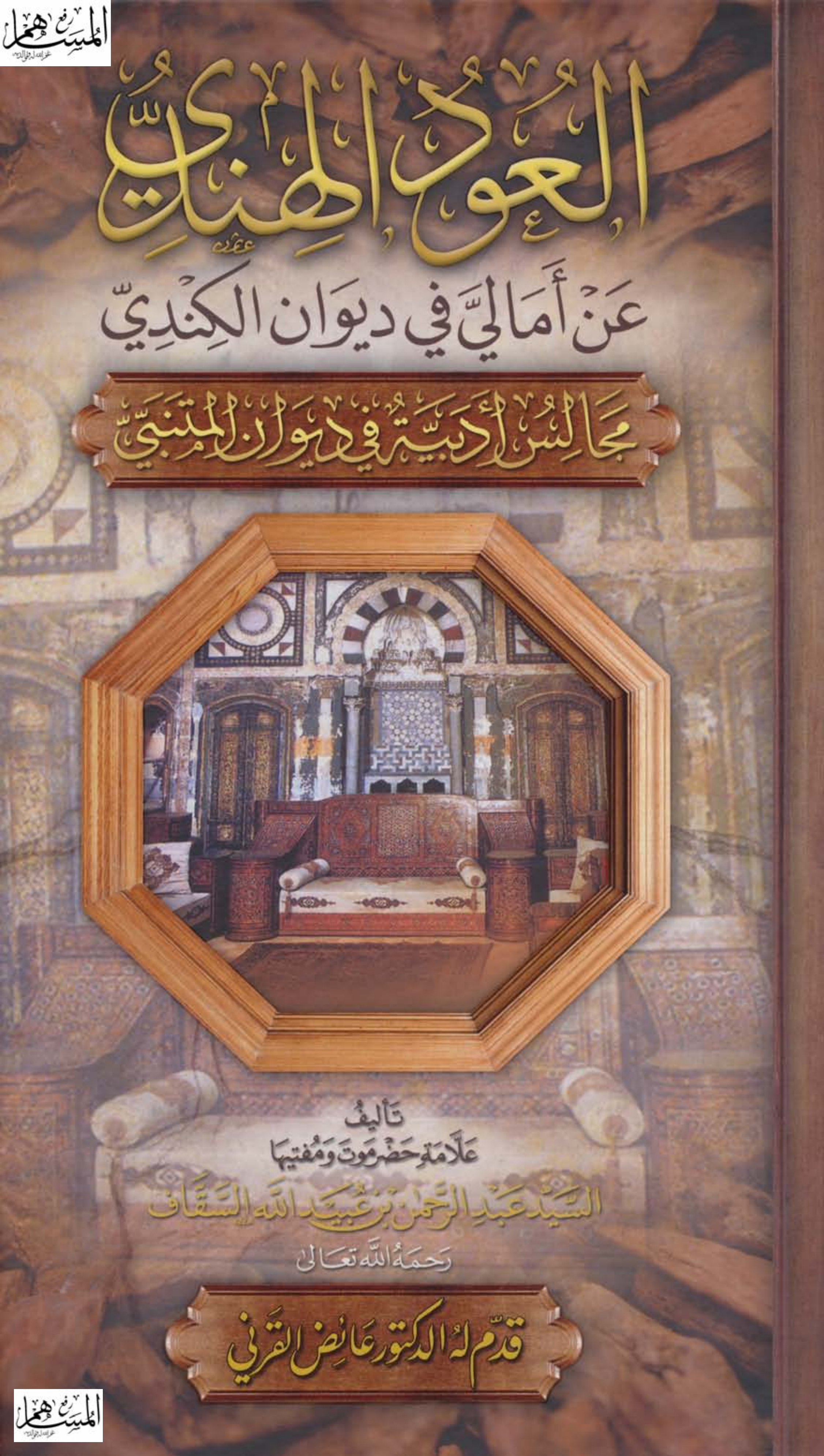
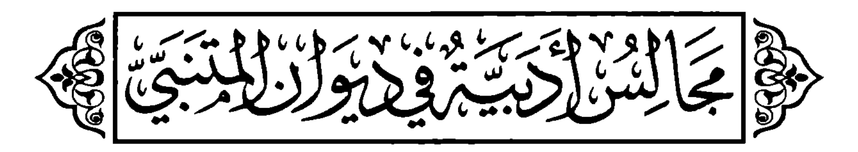


العود الهندي

دار المنهاج



عن أماليَّ في ديوان الكنديّ



تأليف
علّامة حضرموت ومفتيها
السيّد عبد الرحمن بن عُبيد الله السقّاف
رحمه الله تعالى
(١٣٠٠ - ١٣٧٥ هـ)

قدّم له
فضيلة الشيخ
الدكتور عائض القرني

دار المنهاج


العود الهندي
عن أمالي في ديوان الكندي







لبنان ـ بيروت ـ فاكس: ٧٨٦٢٣٠

الطّبعة الأولى

١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م



المملكة العربية السعودية ـ جدة

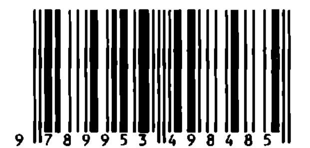
حي الكندرة ـ شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون

هاتف رئيسي 6326666 ـ الإدارة 6300655

المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392

ص. ب 22943 ـ جدة 21416

ISBN: 978 - 9953 - 498 - 48 - 5



www.alminhaj.com

E-mail: info@alminhaj.com

الموزعون المعتمدون داخل المملكة العربية السعودية

دار المنهاج للنشر والتوزيع ـ جدة هاتف 6322471 ـ فاكس 6320392	مكتبة دار كنوز المعرفة ـ جدة هاتف 6570628 ـ 6510421	مكتبة الشنقيطي ـ جدة هاتف 6893638
مكتبة المأمون ـ جدة هاتف 6446614	مكتبة الأسدي ـ مكة المكرمة هاتف 5570506	مكتبة نزار الباز ـ مكة المكرمة هاتف 5473838 ـ فاكس 5473939
دار البدوي ـ المدينة المنورة هاتف 0503000240	مكتبة الزمان ـ المدينة المنورة هاتف 8366666 ـ فاكس 8383226	مكتبة المزيني ـ الطائف هاتف 7365852
مكتبة جرير ـ الرياض وجميع فروعها داخل المملكة وخارجها هاتف 2741578 ـ فاكس 2741750	مكتبة العبيكان ـ الرياض وجميع فروعها داخل المملكة هاتف 2741578 ـ فاكس 2741750	مكتبة الرشد ـ الرياض هاتف 4593451 ـ 4583712 فاكس 4573381
دار التدمرية ـ الرياض هاتف 4924706 ـ فاكس 4937130	دار أطلس ـ الرياض هاتف 4266104	مكتبة المتنبي ـ الدمام هاتف 8413000 ـ فاكس 8432794



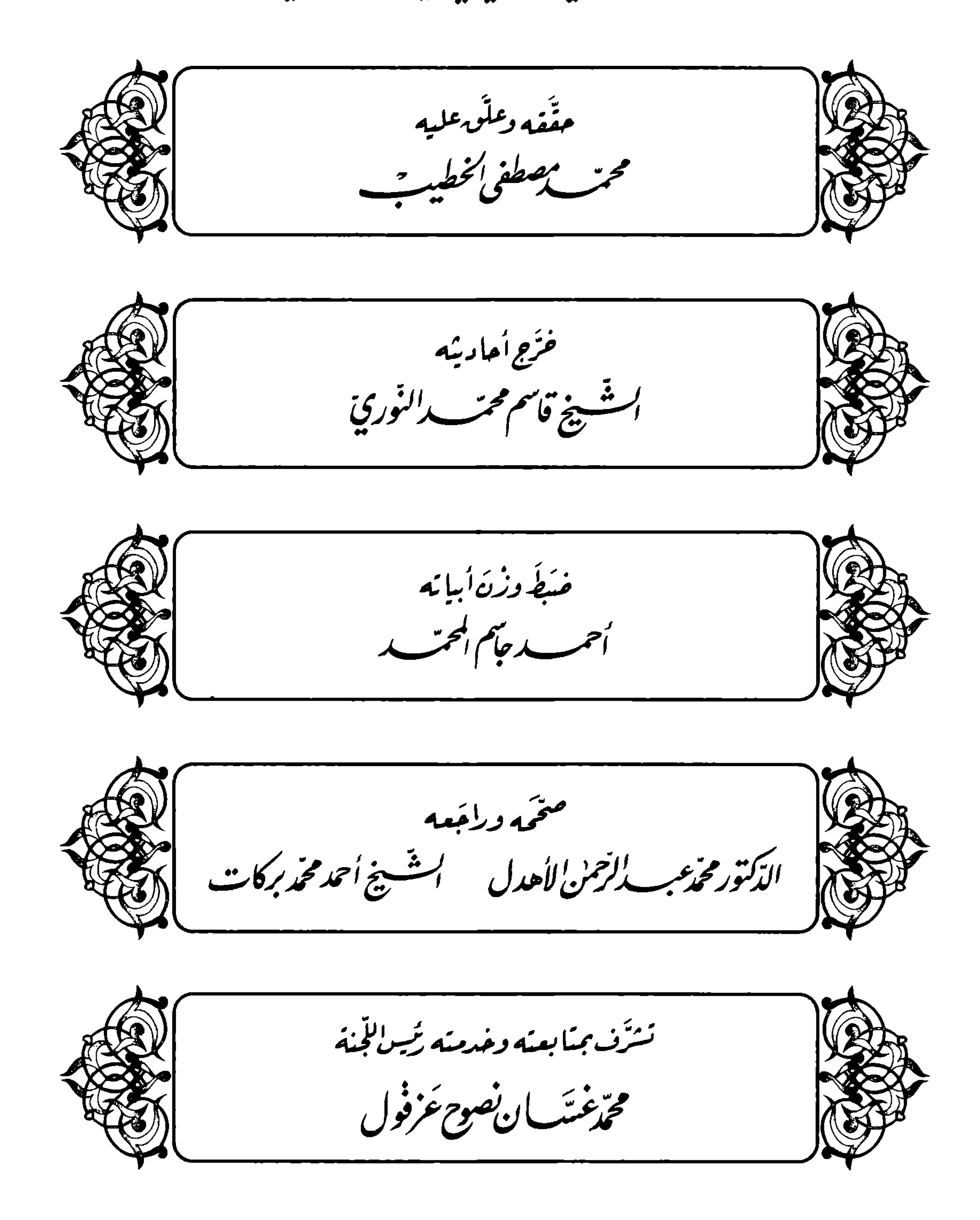
الموزعون المعتمدون خارج المملكة العربية السعودية

الإمارات العربية المتحدة مكتبة دبي للتوزيع ـ دبي هاتف 2211949 ـ فاكس 2225137 دار الفقيه ـ أبو ظبي هاتف 6678920 ـ فاكس 6678921	دولة الكويت مكتبة دار البيان ـ حَوَلي هاتف 2616495 ـ فاكس 2616490 دار الضياء للنشر والتوزيع ـ حَوَلي هاتف 2658180 ـ فاكس 2658180	الجمهورية اليمنية مكتبة تريم الحديثة ـ حضرموت هاتف 417130 ـ فاكس 418130 دار القدس ـ صنعاء هاتف 00967777711881
جمهورية مصر العربية دار السلام ـ القاهرة هاتف 2741578 ـ 2704280 مكتبة نزار مصطفى الباز ـ القاهرة هاتف 25060822 ـ جوال 0122107253	الجمهورية العربية السورية دار السنابل ـ دمشق هاتف 2242753 ـ فاكس 2237960 مكتبة المنهاج القويم ـ دمشق هاتف 2235402 ـ فاكس 2235402	الجمهورية اللبنانية الدار العربية للعلوم ـ بيروت هاتف 785107 ـ فاكس 786230 مكتبة التمام ـ بيروت هاتف 707039 ـ جوال 03662783
دولة قطر مكتبة الأقصى ـ الدوحة هاتف 4437409 ـ 4316895 فاكس 2291135	مملكة البحرين مكتبة الفاروق ـ المنامة هاتف 17272204 ـ 17273464 فاكس 17256936	المملكة الأردنية الهاشمية دار محمد دنديس ـ عمّان هاتف 4653390 فاكس 4653380
المملكة المغربية دار الأمان ـ الرباط هاتف 0537723267 ـ فاكس 0537200055	الجمهورية التونسية الدار المتوسطية للنشر ـ تونس هاتف 70698880 ـ فاكس 70698633	جمهورية أندونيسيا دار العلوم الإسلامية ـ سوروبايا هاتف 006231-60304660

الجمهورية التركية مكتبة الإرشاد ـ إستانبول هاتف 02126381633 فاكس 02126381700	جمهورية داغستان مكتبة دار الرسالة ـ محجع قلعة هاتف 0079285708188 هاتف 0079882010009



أسماء اللجنة العلمية لكتاب
العود الهنديّ عن أمالي في ديوان الكنديّ



حقَّقه وعلَّق عليه

محمّد مصطفى الخطيب

خرّج أحاديثه

الشيخ قاسم محمّد النوريّ

ضبطَ وزنَ أبياته

أحمد جاسم المحمّد

صحّحه وراجعه

الدكتور محمّد عبد الرحمن الأهدل　　**الشيخ أحمد محمّد بركات**

تشرّف بمتابعته وخدمته رئيس اللّجنة

محمّد غسّان نصوح عزقول



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

بقلم
فضيلة الشيخ
الدكتور عائض القرني

الحمدُ للهِ ، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ رسولِ اللهِ ، وعلىٰ آله وصحبِهِ ومن والاهُ .

وبعدُ :

ففي يوم مُشرقِ الطَّلعاتِ أهدىٰ لِي أحدُ الأصدقاءِ وأنا في الكويتِ كتابَ « العودِ الهندي » للعلامةِ عبدِ الرَّحمـٰنِ بنِ عبيدِ اللهِ السَّقَّافِ ، فأخذتُ الكتابَ وأنا في طريقي إلى المطارِ أتصفَّحُهُ ، فأسرني بسحرِهِ ، وسحرني بأسرِهِ ، وبهرني بنورِهِ ، وأبهجني بجمالِهِ ، حتَّىٰ صِرتُ في صالةِ المطارِ في شبهِ ذُهولٍ ، كأنَّني خرجتُ من عالمي لا أُحِسُّ بأحدٍ بجانبي ، ولا أدري أينَ أنا .

وكلَّما قلَّبتُ منهُ صفحةً . . زادني نشوةً وطرباً ، وملأني روعةً وعجباً ، فما تركت المجلدَ الأوَّلَ مِن يدي حتَّىٰ ختمتُهُ ، ثمَّ أتممتُ الكتابَ ، وأعدتُ النظرَ فيهِ أفلِّيه ، أترنَّم بهِ ، أذوقُهُ ، أشمُّهُ ، أَحتسيهِ ، أرفعُ عقيرتي بأبياتِهِ ، أبكي معَ المؤلِّفِ وأضحكُ معَهُ ، أُسافرُ في زورقِ إبداعِهِ ، أعجبُ مِن اطلاعِهِ ، وحسنِ سبكِهِ ، وجميل صياغتِهِ ، ولطيفِ إشارتِهِ ، وعذوبةِ عبارتِهِ ، ورقَّةِ طبعِهِ ، وسيلانِ ذهنِهِ ، وحضورِ ذاكرتِهِ ، وبراعةِ استدلالِهِ ، وقوَّةِ انتزاعِهِ ، وسلامةِ فطرتِهِ ، وصفاءِ مَشْربِهِ .

ثمَّ هوَ مشبوبُ العاطفةِ ، جيَّاشُ الفؤادِ ، غزيرُ الدَّمعةِ ، خفيفُ الرُّوحِ ، ذو ذاكرةٍ وقَّادةٍ ، وطبيعةٍ منقادةٍ ، يصيبُ المرمىٰ ويجيدُ التَّصويب ، معَ علمٍ غزيرٍ ومادَّةٍ حاضرةٍ .

فهوَ علاَّمةٌ ، فقيهٌ ، محدِّثٌ ، مفسرٌ ، أديبٌ ، شاعرٌ ، ينظمُ عقودَ جواهرِهِ بآيةٍ محكمةٍ ، أَوْ حديثٍ صحيحٍ ، أَوْ بيتٍ لطيفٍ ، أَوْ فائدةٍ شرودٍ ، أَوْ قصَّةٍ موحيةٍ ، أَوْ حكايةٍ مشجيةٍ ، أَوْ مَثَلٍ سائرٍ .

فهوَ يتأنَّقُ بكَ في روضاتٍ ممرعاتٍ دمثاتٍ ، وينزلُ بكَ في حدائقَ ذاتِ بهجةٍ مِنْ نصوصٍ مشرقةٍ ومحفوظاتٍ نافعةٍ ، وقدْ أحضرَ روحَهُ ، وسكبَ معَ قلمِهِ نبوغَهُ ، وأفرغَ شآبيبَ عبقريتِهِ معَ براعتِهِ ، وكأنِّي بهِ وهوَ يكتبُ هـٰذا السِّفرَ في وِهادِ حضرموتَ قدْ ودَّعَ نومَهُ ، وفارقَ كراهُ ، وتصدَّقَ على النجومِ بنعاسِ أجفانِهِ ، وتخيلتُ أنَّ دمعَهُ مازجَ حبرَهُ ، وأنْ ضحكَهُ صادقَ صريفَ أقلامِهِ ، وأنَّ تبسُّمَهُ شابَهُ بياضُ أوراقِهِ .

فللَّهِ هوَ ! ! كيفَ استطاعَ أنْ يقتحمَ معاقلَ قلوبنا ، وأنْ يستوليَ علىٰ ثكناتِ نفوسِنا ؟!

ولكنْ صدقَ المعصومُ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ مِنَ البيانِ لَسِحْراً » .

عشتُ معَ السَّقَّافِ في « عودِهِ الهنديِّ » فنسيتُ كلَّ كتابٍ أدبيٍّ أَوْ ديوانٍ شعريٍّ قرأتُهُ ، معَ العلمِ أَنَّني مِنَ الصِّبا وأنا أبدي وأعيدُ في الموسوعاتِ الأدبيَّةِ ، حتَّىٰ صِرتُ بمعالِمها أهدىٰ مِنْ سربِ القطا إلىٰ عشِّهِ ، فلَّما طالعتُ « العودَ الهنديَّ » . . صحتُ :

مَحا حُبُّها حُبَّ ٱلأُلَىٰ كُنَّ قَبْلَها وَحَلَّتْ مَحَلاًّ لَمْ يَكُنْ حَلَّ مِنْ قَبْلِ

وقلتُ : الآنَ يحقُّ للحضارمِ خاصَّةً والعربِ عامَّةً أَنْ يُفاخروا بهٰذا الكتابِ .

وقلتُ في نفسي : ليتَ السَّقَّافَ صبرَ وأكملَ لنا عشرَ مجلَّداتٍ علىٰ نفسِ السِّياقِ وعينِ هٰذا المساقِ ، لكنْ يظهرُ أنَّهُ أدركَ مشهدَ : ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [القيامة : ٢٩] ، فغفرَ اللهُ لهُ ، وأكرمَ نزلَهُ .

ولوْ طالعتَ مجلَّداتي مِنَ « العودِ الهنديِّ ».. لوجدتَها قد تفصَّمَتْ عراها ، ونحلَتْ أوراقُها ؛ مِنْ كثرةِ التَّقليبِ والتَّفتيشِ ، وقدْ ساعدني السَّقَّافُ على استخراجِ زفراتِ الحنينِ المدفونةِ في جوانحي ، واستنزافِ بقايا مِنْ دموعٍ غائرةٍ في محاجري .

قَدْ كُنْتُ أُشْفِقُ مِنْ دَمْعِي عَلَىٰ بَصَرِي فَٱلْيَوْمَ كُلُّ عَزِيزٍ بَعْدَكُمْ هَانَا

كنتُ أُحدِّثُ الناسَ في المجالسِ عنِ الكتابِ ، وأسرِهِ وسحرِهِ ، وسطوعِهِ ولموعِهِ ، وشواردِهِ وفوائدِهِ ، فلا أجدُ إلاَّ الواحدَ أوِ الاثنينِ يفهمني ؛ لكثافةِ الطَّبعِ ، وثخانةِ الخاطرِ ، وثقالةِ الدَّمِ ، والانهماكِ في المادِّياتِ مِنْ مَطْعَمٍ ومشربٍ وملبسٍ ومركبٍ ، حتَّىٰ صارَ العقلُ كتلةً مِنَ الفولِ السُّودانيِّ المدمَّسِ المثلَّجِ تحتَ درجةِ الصِّفْرِ ؛ لسقوطِ الهممِ ، وبرودِ العزائمِ ، وجمودِ القرائحِ ، وخمودِ الذَّاكرةِ ، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص : ٣٤] .

مَا فِي ٱلْخِيَامِ أَخُو وَجْدٍ نُطَارِحُهُ حَدِيثَ نَجْدٍ وَلاَ خِلٌّ نُجَارِيهِ

ولقدْ أمتعني السَّقَّافُ بدعاباتِهِ وفيضِ تعليقاتِهِ ، فمرَّةً يثني علىٰ صاحبِهِ المتنبي ويسيلُ قلمَهُ معجباً بهٰذا النُّبوغِ ، حتَّىٰ يسألَ اللهَ أَنْ يتجاوزَ عنهُ لحكمتِهِ وبراعتِهِ ، ثمَّ يعودُ عليه بالذمِّ صادقاً لهزالِ بعضِ أبياتِهِ ، ولكنْ بصدماتٍ كهربائيةٍ لاذعةٍ ؛ كقولِهِ : (هٰذهِ الأبياتُ لا تحصلُ إلاَّ بخذلانٍ مِنَ اللهِ) ، وكقولِهِ : (هٰذهِ الأبياتُ مِنْ رُقى الشيطانِ وتمائمِ إبليسَ) .

والسَّقَّافُ مدرسةٌ في الذَّائقةِ الجماليَّةِ الأدبيَّةِ ، فحسبُكَ بهِ معرفةً لجزلِ القولِ وناصعِ الكلامِ وخالصِ الحديثِ ، بلْ هوَ إمامٌ في النَّقدِ الأدبيِّ ، وهوَ كاتبٌ ساحرٌ إذا أرادَ ، وراويةٌ ملهمٌ ، وقاصٌّ مشجٍ ، وشاعرٌ لا يشقُّ لهُ غبارٌ ، معَ حفظِهِ لناموسِ الشَّريعةِ وهيبةِ الملَّةِ ومقامِ الدِّينِ ، وهٰذا الَّذي فاقَ بهِ علىٰ كلِّ الأدباءِ .

ولا أدري كيفَ استطاعَ أنْ يؤلِّفَ بينَ القرينِ وقرينِهِ مِنَ الشَّواهدِ ، فهوَ ينثرُ أمامَكَ المصادرَ ويعزو إليها في الغالبِ ، وعندَهُ ملكةُ الاصطفاءِ وموهبةُ الاختيارِ ، فلا تقعُ عينُهُ إلاَّ على الأجلِّ الأجملِ ، ولا يصطفي إلاَّ الغاليَ النَّفيسَ ، ويا لهُ مِنْ مؤلِّفٍ موهوبٍ يضعُ الآيةَ بجانبِ الأثرِ ، والبيتَ في صفِّ المثلِ ، والقصَّةَ تلو القصيدةِ .

ولنْ تملَّ معَ السَّقَّافِ أبداً ؛ لأنَّهُ لا يتركُكَ تملُّ ، إذ يشجيكَ ويبكيكَ ، ويضحكُكَ ويسبيكَ ، ويقصُّ عليكَ وينعشُكَ ، ويهزُّكَ ويطربُكَ .

وكلَّما سافرتُ معهُ في هٰذا الكتابِ الماتعِ الذَّائعِ الرَّائعِ الشَّائعِ.. صِحْتُ : أينَ أهلُ الأدبِ الهزيلِ والشِّعرِ الهشِّ والقولِ السَّاقطِ مِنْ هٰذا الفيضِ الوجدانيِّ والسِّحرِ الأدبِّي ؟!

وأينَ دعاةُ الهذيانِ مِنْ مملكةِ الإبداعِ وإيوانِ الإقناعِ ، وبهجةِ الخاطرِ الَّذي فتحَ لنا السَّقَّافُ آفاقَهُ وسكبَ فيهِ ترياقَهُ ، وألهبنا بأشواقِهِ وإشراقِهِ ؟!



وليتَ أهلَ العلمِ والفقهِ والفُتيا يرطِّبونَ مشاعرَهُمْ بهٰذهِ النَّفحاتِ الأدبيَّةِ ليعذبَ قولُهُمْ ، وتجملَ عباراتُهُمْ ، كما كانَ ابنُ عبَّاسٍ والشَّعبيُّ والشَّافعيُّ وغيرُهُمْ مِنْ علماءِ الأُمَّةِ ، حيثُ يذوبُ كلامُهُمْ رقَّةً وعذوبةً ، وحلاوةً وطلاوةً .

إنَّني أرشِّحُ كتابَ « العودِ الهنديِّ » للسَّقَّافِ منهجاً دراسيّاً في الأدبِ ، ومورداً عذباً في النَّوادي والجامعاتِ والمدارسِ ، ونهراً صافياً لروَّادِ البيانِ ورموزِ الفصاحةِ وصنَّاعِ الحرفِ الجميلِ ، ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسان : ٦] .

وسوفَ أجعلُ كتابَ « العود الهندي » بمشيئةِ اللهِ مادتي في دروسِ الأدبِ والشِّعرِ ؛ لأنَّني وجدتُ فيهِ ضالتي بعدَ ثلاثينَ سنةً مِنَ التَّرحالِ في شعابِ الأدبِ وأوديةِ الشِّعرِ ، ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ [الحج : ٣٦] .

ومِنْ حسنِ الطالعِ أنَّ السَّقَّافَ حَضرميٌّ والمتنبي كنديٌّ حضرميٌّ وصاحبُ الدارِ حضرميٌّ ، ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر : ١٢] .

وقدْ فاحَ طيبُ « العودِ الهنديِّ » في إيوانِ أبي الطيبِ الكنديِّ ، وهٰذا ما ميَّزَهُ عندي .

يَكُـونُ أُجاجـاً دُوْنَكُـمْ فَـإِذا ٱنْتَهَـى ... إِلَيْكُـمْ تَلَقَّـىٰ طِيبَكُـمْ فَيَطِيـبُ

لقدْ فهمَ السَّقَّافُ معجزةَ رسولِنا صلى الله عليه وسلم الخالدةَ القرآنَ الكريمَ ، وأنَّ مِنْ أعظمِ معالمِهِ البيانَ الآسرَ الَّذي أذعنَتْ لفصاحتِهِ العربُ العرباءُ ، وسلَّمَتْ لبلاغتِهِ فحولُ الشعراءِ ، فإنَّهُ دمغَ رؤوسَ الضلالةِ بهيبةِ جلالِهِ ، وأفحمَ أساطينَ القولِ بسيلٍ عرمرمٍ مِنَ الخطابِ المعجزِ ، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾ [الأنبياء : ١٨] .

ولقدْ عرفَ السَّقَّافُ أنَّ الأدبَ الخلاَّبَ والشِّعرَ الجذَّابَ أرفعُ مزايا العربِ أُمَّةِ اللَّفظِ السَّاحرِ والقولِ الآسرِ ، أهلِ سوقِ عكاظٍ وخطباءِ النَّوادي ، وفصحاءِ الحواضرِ والبوادي ، فأفرغَ علينا مِنْ ذاكرتِهِ الموحيةِ وقلمِهِ البارعِ ما ملأَ قلوبَنا رضاً ، ونفوسَنا سروراً ، وضمائرَنا نوراً .

وللهِ درُّ الحضارمِ ، لا يرضونَ إلاَّ بالنُّجوميَّةِ حتَّىٰ في التَّأليفِ ، كما قالَ المتنبي الكنديُّ الحضرميُّ :

إِذَا غَـامَـرْتَ فِـي شَـرَفٍ مَـرُومِ ... فَـلاَ تَقْنَـعْ بِمَـا دُونَ ٱلنُّجُـومِ

رحم الله السقاف ، وجمعنا به في جنات النعيم

وكتبه

الدكتور عائض القرني

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

بقلم
فضيلة الدكتور
محمد عبد الرحمن الأهدل

أَحمدُكَ ٱللَّهُمَّ ، وأَستَمنِحُكَ ٱلسَّدادَ ، وأُصلِّي وأُسلِّمُ على ٱلمبعوثِ بجوامعِ ٱلكَلِمِ ، مَنْ مَدَّت عليه ٱلفصاحَةُ رِواقَها ، وَشَدَّت بهِ ٱلبلاغَةُ نِطَاقَها ، ابنِ ٱلذَّبيحينِ ، وخيرِ ٱلثَّقلينِ ، وعلى ٱلآلِ ٱلغُرِّ ٱلميامينِ ، وصحابتِهِ ٱلدُّعاةِ ٱلمجاهدينَ ، وٱلتَّابعينَ لَهم في كُلِّ عَصرٍ وحين .

وبعدُ :

فإنِّي لا أَقصدُ بهٰذِهِ ٱلكلماتِ كَشفَ ٱلنِّقابِ عَنِ ٱلمزايا ٱلمتأَلِّقَةِ في سماءِ ٱلبيانِ ٱلَّتي تتلألأُ بها صفحاتُ هٰذا ٱلسِّجلِّ ٱلأدبيِّ ٱلحافِلِ بٱلدَّقائقِ ٱلأَدبيَّةِ ، ولَم أُعنَ بتوصيفِ مواهبِ ٱلمؤلِّفِ وبلاغتِهِ ٱلهاشميَّةِ ، ولَم أَصمُدْ إِلىٰ بَقْرِ محتوياتِ كتابِهِ على ٱلنَّحوِ ٱلاستقرائِيِّ ٱلَّذي يمنحُ ٱلمتأَهِّلَ ٱلحكمَ ٱلصَّائبَ علىٰ هٰذا ٱلسِّفْرِ ، ووضعِهِ في مرتبتِهِ ٱلأَدبيَّةِ ٱللاَّئقَةِ ؛ فقدِ ٱضطلعتْ بذلكَ ٱلمقدِّمَةُ ٱلرَّائِعَةُ ٱلَّتي نسجَ خيوطَها ٱلمحقِّقونَ .

وَعِندَ جُهينَةَ ٱلخبرُ ٱليقينُ

نعم ، لقد نعِمْتُ بمطالَعَةِ أَجزاءٍ منهُ ، ومتَّعتُ ٱلفكرَ في رياضِها ، وٱستنشقْتُ شذىٰ أَدبيَّاتها ، وأَفَدتُ مِن جواهرِها ٱلمكنونَةِ ، وقطَفتُ من أَزاهيرِها ٱلبَسَّامَةِ كُلَّ معنىً بديعٍ .

فٱجتمعَ لي بتصفُّحِ هٰذِهِ ٱلأَجزاءِ ٱلاستفادَةُ ٱلعلميَّةُ ، وٱلابتهاجُ ٱلرُّوحيُّ ، ٱلممزوجَانِ بٱلإِمتاعِ ٱلأَدبيِّ ، فكانَ لِزاماً أَن تتمخَّضَ تلكَ ٱلمطالعةُ عَن سَيَلانِ أَحاسيسي بنعوتِ ٱلإِعجابِ بهٰذا ٱلسِّفْرِ ٱلبديعِ .

لذلكَ أَعنَقَتْ يراعتي في ميدانِ ٱلإِشادَةِ بٱلقيمةِ ٱلأَدبيَّةِ لهٰذا ٱلسِّفْرِ ٱلممتعِ ٱلمفيدِ .

سَقَوْنِيْ وَقَالُوا لاَ تُغَنِّيْ وَلَوْ سَقَوْا ... جِبَالَ حُنَيْنٍ مَا سَقَوْنِيْ لَغَنَّتِ

وإِذَا كانَتِ ٱلكتابَةُ تَنِمُّ عَنْ وُجهةِ ٱلكاتِبِ ، وٱلمؤلَّفُ يُفصِحُ عَن قُدرةِ جامِعِهِ ، وينبىءُ عن معارِفِهِ ، ويحدِّدُ مكانَتَهُ ٱلعلميَّةَ . . فإِنَّنا بنظرةٍ فاحصةٍ في هٰذا ٱلكتابِ نَجزمُ مطمئِنِّينَ بأَنَّ ٱلفلسفَةَ ٱلأَدبيَّةَ ٱلَّتي نحاها هٰذا ٱلإِمامُ ٱلعَلَمُ ، وٱلتَّنوُّعَ ٱلَّذي ٱصطفاهُ . . لَيَشهدانِ بعُلُوِّ كَعبِهِ في مختلِفِ ٱلمعارِفِ ، ورُسوخِ قَدمِهِ في ٱلإِحاطَةِ ببنتِ عدنانَ ، وٱلتَّشبُّعِ بلطائِفِها ، وٱلهيمنَةِ علىٰ دقائِقِها ؛ فقد أَهدت إِلىٰ هٰذا ٱلسَّيِّدِ ٱلعبقريِّ كنوزَها ، وٱستسلَمَت لَهُ شواردُها وأَوابدُها ، هٰذا إِضافةً إِلىٰ ما تميَّزَ بهِ مِنْ حسنِ ٱختيارٍ لما يبهجُ ٱلأَنْفُسَ مِنْ أَدبيَّاتٍ ، وما تنتشِطُ بهِ ٱلأَفكارُ مِنَ ٱلفكاهاتِ .

أَمَّا تلكَ ٱلمباحِثُ ٱلعويصَةُ ، ذاتُ ٱلمسالِكِ ٱلضَّيِّقَةِ ، ٱلَّتي يطرحُها على ٱلبساطِ ٱلشَّرعيِّ ، ثُمَّ يرسِلُ عليها أَشعَّةَ تحقيقاتِهِ ، ويضعُ ٱلهناءَ على ٱلنَّقَبِ . . فإِنَّها منثورَةٌ في ثنايا هٰذا ٱلكتابِ ، وإِلىٰ أَدنىٰ مِنها أَهمِّيَّةً يرحلُ ٱلمتفقِّهونَ ،

ولا غرو . . فهوَ إمامُ وقتِهِ ، ومُفتي قُطرِهِ ، ما رأىٰ في عصرِهِ مثلَ نفسِهِ ، إلاَّ أَنَّ كُلَّ أحدٍ يُؤخَذُ مِنْ قولِهِ ويُرَدُّ . . إلاَّ مَنْ عُصِمَ .

ومعَ أَنَّ ٱلمؤلِّفَ قد جمعَ في كتابِهِ بينَ ٱلجدِّ وٱلهزلِ ، ومَزَجَ ٱلمعرفةَ بٱلإمتاعِ . . إلاَّ أَنَّهُ لم يُلْحَق شأْوُه في نمطِهِ ، ولم يَسبِقْ أَحدٌ إلىٰ طريقتِهِ ، أَلَم يُلَفِّعْ كتابَه بمِرطِ ٱلجودَةِ ، ويحلّيهِ بزينةِ ٱلإتقانِ ؟!

ولذا سالَتْ مِنْهُ حلاوةُ ٱلجِدَّةِ علىٰ قُربِ ٱلعهدِ .

وأَمَّا ما روَّح بهِ ٱلمؤلِّفُ على ٱلنُّفوسِ لهَزْمِ جيوشِ ٱلسَّآمَةِ . . فليست إلاَّ مفاكهاتٍ يتسامَرُ بأَمثالِها ٱلفضلاءُ ، ويَستملحُ لطائفَها ٱلكبراءُ ، مِمَّا لا يأْنفُ ٱلمحتشمونَ مِنَ ٱلمُسامَرةِ بأضرابِها ، وهي طريقَةُ ٱلأَلبَّاءِ ، ومُتَنَفَّسُ ٱلأُدباءِ في كُلِّ عصرٍ ومِصرٍ .

وهو بذلكَ لم يُقارِفْ ما يُخلُّ بٱلمروءَةِ ، ولَم يوضِعْ في فحش المُجونِ ، ولَم يصطدمْ بما يهزُّ ٱلآدابَ ٱلشَّرعيَّةَ ، بَلِ ٱتَّسمَتْ مفاكهاتُهُ بٱلملاحَةِ ، وٱنتظمَتْ في سِلكِ ٱلإمتاعِ وٱللَّطافَةِ ، ومِثلُ هٰذا ٱلقَدرِ يستعذبُهُ ٱلعلماءُ ، ويَتَندَّرُ بِخفَّتِهِ ٱلفُقهاءُ ، ويَلهَجُ بهِ عُشَّاقُ ٱلطُّرَفِ وٱلمُلَحِ ، وقلَّ أَن يخلوَ كتابٌ أَدبيٌّ مِن هٰذه ٱلمتعَةِ وتلكَ ٱلمؤانَسَةِ .

وإنِّي علىٰ يقينٍ تامٍّ بأَنَّ هٰذا ٱلسِّفْرَ ٱلبكرَ سيتربَّعُ بعدَ نشرِهِ علىٰ مَنصَّةِ ٱلقَبولِ ، وسيكونُ مَنهلاً عذباً مِن مناهِلِ ٱلأَدَبِ .

وَٱلْمَنْهَلُ ٱلْعَذْبُ كَثِيْرُ ٱلزِّحَامْ

بَل سيكونُ مرجعاً وثيقاً لِمَنْ يُعنىٰ بقواعِدِ ٱلنَّقدِ ، أَو يَهمُّهُ ٱلوقوفُ علىٰ نُكَتِ ٱلبلاغَةِ ، وطُرُقِ ٱلفصاحَةِ .

وما ذلكَ إلاَّ لما حواهُ مِنْ أَدَبٍ جَمٍّ ، وتِبيانٍ لدقائِقِ ٱلفصحاءِ ، وإبرازٍ لمحاسِنِ ٱلموهوبينَ مِنَ ٱلشُّعراءِ ، وٱلإتيانِ بٱلأَشباهِ وٱلنَّظائرِ مِنَ ٱلمعاني ٱلَّتي تواطأَ ٱلبلغاءُ علىٰ نظمِها في سِمطِ ٱلدُّرَرِ ، وٱلمقارنَةِ ٱلعادِلَةِ بينَ تلكَ ٱلنَّظائرِ ، وما أَبرزَتْهُ تحويراتُهم مِنْ حُسنٍ أَو إساءَةٍ ، ولئِنْ أَطلقتُ في نعتِهِ عِنانَ ٱلكلامِ . . فما مرامي إلاَّ أَنْ أَبلُغَ بهِ ما يستحقُّ مِنَ ٱلمكانَةِ ، ولا سيَّما وهوَ لم يَقرعْ مِنْ قَبلُ آذانَ ٱلمتأَدِّبينَ ، ولَم يصافحْ أَذهانَ ٱلمعنيِّينَ بٱلنَّقدِ ٱلأَدبيِّ ، فليسَ صنيعي هٰذا خروجاً عَنْ حَدِّ ٱلاعتدالِ ، ولا وقوعاً في ثَبَجِ ٱلغلوِّ .

بَل لا أَجدُني مبالغاً إنِ ٱعترفتُ بأَنَّ قَلَمي لَم يَقوَ على ٱلإفصاحِ عن كُلِّ خِصِّيْصَةٍ فيهِ ، ولَم يثبْ بَياني إلىٰ تِبيانِ جديدِهِ ، ولَم يَخُضْ فِكري فيما ٱفترعَهُ ٱلمؤلِّفُ مِن أَبكارِ ٱلفوائِدِ ، ٱلَّتي هي من نسجِ طبعِهِ ، وسَبْكِ فهمِهِ ، وصوغِ ذهنِهِ .

ولعلَّ في مقدِّمَةِ ٱلنَّاشرِ ما يرفعُ ٱلأَستارَ عَن تلكَ ٱلخصائِصِ جميعِها ، بيدَ أَنَّ ٱلَّذي يستدعيني ٱلمَقامُ أَنْ أَستهدفَهُ في هٰذهِ ٱلأَحرفِ ، وأُميطَ عنه لثامَ ٱلحقيقةِ . . هوَ ٱلإعلامُ بما يقاسيهِ ٱلأَدبُ ٱلعربيُّ في ٱلعصرِ ٱلحاضرِ مِن جفاءٍ ، وما يعانيهِ مِن قَطيعةٍ مِن بني جِلدَتِهِ ، سواءٌ في ذلكَ شعرُهُ ونثرُهُ ، وجِدُّهُ وهزلُهُ ، وقديمُهُ وجديدُهُ ، بَل رُبَّما وقفَ ذُو طبعٍ غليظٍ وحسٍّ متبلِّدٍ يهدمُ عمداً مآثِرَ ٱلشِّعرِ عامَّةً ، فتراهُ يتابعُ ٱلاستغفارَ وٱلاستنكارَ معاً إنْ صكَّ سمعَهُ بيتُ شعرٍ ترنَّم بِهِ أَديبٌ ، أَو تمثَّلَ بهِ أَريبٌ ، أَوِ ٱستدعتْهُ حادثَةٌ ، وهٰذا خلافُ ما عليهِ ٱلقومُ .

وكثيراً ما نسمعُ في مسامراتِنا مَنْ يتأَفَّفُ مِن إنشادِ ٱلأَشعارِ ، ويعتصِمُ بِنَصِّ ٱلتَّنزيلِ ٱلحكيمِ ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ

ٱلغَاوُۥنَ * أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾ ، ثُمَّ ينقطعُ نفَسُهُ فلا يتابعُ ٱلاستثناءَ ٱلَّذي يرفعُ ٱلملامَ عَنْ مُؤْمني ٱلشُّعراءِ ، فيكونُ صنيعُ هـٰذا ٱلمُستشهدِ بنصٍّ مبتورٍ شبيهاً بمَن يقرأُ : ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ﴾ ويَقِفُ ، وكِلا ٱلوقفينِ مَذمومٌ شرعاً .

وقد نتجَ عن هـٰذا ٱلعِداءِ وتلكَ ٱلجفوةِ هـٰذا ٱلانكماشُ ٱلملحوظُ في ٱلحركَةِ ٱلأدبيَّةِ ، وإيجادُ سَدٍّ متينٍ بينَ ٱلنَّاشئةِ وتُراثِهمُ ٱلأدبيِّ .

وأعانَ علىٰ تقويَةِ هـٰذا ٱلسَّدِّ ذلكَ ٱلهزالُ ٱلبيِّنُ ٱلَّذي يَنْخَرُ في معارفِ ٱلخرِّيجينَ مِنَ ٱلنَّاحيةِ ٱللُّغويَّةِ ، وحُقَّ لنا أَنْ نتمثَّلَ بقولِ ٱلأَوَّلِ (ضِغثٌ علىٰ إبالَةٍ)[1] فٱستحكمَ ٱلدَّاءُ ، وعَزَّ ٱلدَّواءُ .

ولستُ ملزماً هنا بسردِ مزايا ٱلأَدَبِ بسائرِ فنونِهِ ؛ ففي ٱلمقدِّمةِ ما يكفي ويَشفي ، وفي صحيحِ ٱلأَخبارِ ما يدحضُ هـٰذا ٱلاستنكارَ .

بيدَ أَنِّي أَذكرُ موقفاً خالداً مِن مواقفِ ٱلفاروقِ رضيَ ٱللهُ عنهُ ؛ فقد خرجَ على ٱلمسلمينَ في مسجدِ رسولِ ٱللهِ صلَّى ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم، وقامَ فيهم مُستفهماً ، فقالَ : أيُّكم يعرفُ هـٰذا ٱلحرفَ ؟ ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ ما ٱلتَّخوُّفُ ها هنا ؟ فأرمَّ ٱلقومُ ، فقامَ شيخٌ مِن أُخرياتِ ٱلمسجدِ فقالَ : أَنا أَعرفُ ذلكَ ، اَلتخوُّفُ ها هنا : ٱلتَّنَقُّصُ ، فقالَ لهُ عمرُ : أَوَ يَعرِفُ ٱلعربُ ذلكَ ؟ فقالَ لَهُ : نعم ، يقولُ شاعِرُنا :

تَخَـوَّفَ ٱلـرَّحْـلُ مِنْهَـا تَـامِكـاً قَـرِداً كَمَـا تَخَـوَّفَ عُـوْدَ ٱلنَّبْعَـةِ ٱلسَّفَـنُ[2]

(تخوَّفَ) : تنقَّصَ . (ٱلتَّامِكُ) : ٱلسَّنامُ . (ٱلقَرِدُ) : كثيرُ ٱلشَّعَرِ . و(ٱلنَّبعةُ) :شجرةٌ تُتَّخَذُ مِنها ٱلسِّهامُ . و(ٱلسَّفَنُ) : ٱلمبراةُ ـ فقالَ أَميرُ ٱلمؤمنينَ : (عليكم بأَشعارِ ٱلعربِ ؛ فإنَّ فيها معرفَةَ كلامِ ربِّكُم) . أَو قالَ نحو هـٰذا .

وهناكَ صِنفٌ مِنَ ٱلفضلاءِ تظهرُ عليهم سِماتُ ٱلاحتشامِ إذا ترامت إلىٰ مسامِعِهم نوادرُ يتروَّحُ بنسيمها ٱلمتأَدِّبونَ من هَجيرِ ٱلحياةِ ؛ إذ تتجهَّمُ وجوهُهم إن باسطَهم أَحدٌ بمزحٍ مُؤْنِسٍ ، أَو طرفةٍ لطيفَةٍ ، ويَعُدُّونَ هـٰذا ٱلهزلَ سخفاً يَصفعُ قَفا ٱلأَلبَاءِ ، وهَذراً يَستَتِرُ منهُ أُولو ٱلحشمَةِ بسجافِ ٱلمروءَةِ ، حتَّىٰ وإن كانَ مَزحاً لم يرتعْ في حمأَةِ ٱلفُحشِ ، ولَم يَكْلَمْ جسمَ ٱلحياءِ ، ولم يَسبح في يَمِّ ٱلمجونِ ٱلممجوجِ .

وقد غابَ عن هـٰؤلاءِ أَنَّ ٱلتَّرويحَ عنِ ٱلأَنفُسِ بما هو مباحٌ . فيهِ ٱستجمامٌ للفكرِ مِنْ عناءِ ٱلجدِّ ، وٱستملاحٌ يهفو إليهِ ٱلطَّبعُ ، وتفكُّهٌ بٱلممتعِ مِنَ ٱلنَّوادِرِ ، ومجلبةٌ لطيبِ ٱلخاطِرِ ، ومؤانَسةٌ تبعثُ على ٱلصَّفاءِ .

وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا

ولا يزالُ ٱلأَكابرُ في كلِّ عَصرٍ ومصرٍ يتعشَّقونَ هـٰذا ٱلفنَّ ٱللَّطيفَ ، وطالَما جنحوا إلىٰ مَلاحَتِهِ ، وٱلارتشافِ مِن دَنِّهِ .

وها هو ٱلوزيرُ أَبو عبدِ ٱللهِ ٱلحسينُ بنُ أَحمدَ بنِ سعدانَ ، ٱلمتوفَّىٰ مقتولاً سنةَ (٣٧٥هـ) قالَ للإمامِ ٱلعلاَّمَةِ

---

(١) الضِّغْثُ : القبضة من الحشيش . الإبالة : الحزمة من الحطب . وهو مثل عربي ، معناه : مصيبة علىٰ أخرىٰ .

(٢) يصفه بأَنَّه من كثرة أَسفاره علىٰ ناقتِهِ . . تنقَّصَ رحلُها مِن سنامِها كما تتنقَّصُ ٱلسَّهمَ ٱلمبراةُ .



أَبي حيَّانَ ٱلتَّوحيديِّ[1] : (تعالَ حتَّىٰ نجعلَ ليلتَنا هـٰذه مجونيَّةً ، ونأْخُذَ مِنَ ٱلهزلِ بنصيبٍ وافرٍ ؛ فإنَّ ٱلجِدَّ قد كَدَّنا ، ونالَ مِن قُوانا ، وملأَنا قَبضاً وكرباً) ، فٱندفعَ هـٰذا ٱلإمامُ يُسامِرهُ بأَخبارِ ٱلمُجَّانِ ، وأَحوالِهم في ذلكَ ٱلزَّمانِ .

ولا زالَ ٱلعلماءُ ـ علىٰ تنوُّعِ ٱختصاصاتِهم ـ يستملحونَ ٱلأَخذَ بطرَفٍ من هـٰذا ٱلبابِ ، ولم يرموا ٱلمؤلِّفينَ في هـٰذا ٱلبابِ بٱلعظائمِ .

وها هو أَحدُ أَئِمَّةِ ٱلشَّافعيَّةِ يملي في حلقةِ درسِهِ علىٰ أَتباعِهِ حينَ سُئِلَ : (هل يُقتَلُ ٱلحرُّ بٱلعبدِ ؟) وهيَ مسأَلةٌ خلافيَّةٌ أَعرقَ ٱلخلافُ فيها مِنَ ٱلقِدَمِ ، فأَجابَ مترنِّماً :

خُـذُوْا بِـدَمِـيْ هَـٰـذا ٱلْغَـزَالَ فَـإِنَّـهُ ... رَمَـانِـيْ بِسَهْمَـيْ مُقْلَتَيْـهِ عَلَـىٰ عَمْـدِ

وَلاَ تَقْتُلُـوْهُ إِنَّمَـا أَنَـا عَبْـدُهُ ... وَفِـيْ مَـذْهَبِـيْ لاَ يُقْتَـلُ ٱلْحُـرُ بِـٱلْعَبْـدِ

فجمعَ رحمهُ ٱللهُ تعالىٰ بينَ ٱللُّطفِ ، وجميلِ ٱلسَّبكِ ، وإصابَةِ ٱلغَرضِ ، وٱلجزمِ بٱلحُكمِ يزهو في حُلَلِ ٱلملاحَةِ ويَنضَحُ بوابلٍ مِنَ ٱلرِّقَّةِ . بَلْ ما تحرَّجَ ٱلإمامُ ٱلشَّافعِيُّ حينَ رَفَعَ إِليهِ شابٌّ سُؤَالَهُ قائلاً :

سَـلِ ٱلْعَـالِـمَ ٱلْمَكِّـيَّ هَـلْ فِـيْ تَـزاوُرٍ ... وَضَمَّـةِ مُشْتَـاقِ ٱلْفُـؤَادِ جُنَـاحُ

لَم يتحرَّجِ ٱلإمامُ مِنْ إِجابَتِهِ ، فقالَ لَهُ مجيباً :

فَقُلْـتُ مَعَـاذَ ٱللهِ أَنْ يُـذْهِـبَ ٱلتُّقَـىٰ ... تَـلاَصُـقُ أَكْبَـادٍ بهِـنَّ جِـرَاحُ

ولولا خشيةُ أَن تطولَ ذُيولُ هـٰذهِ ٱلأَحرفِ ، ويَؤُوبَ ٱلتَّقديمُ بَطيناً . . لأَعنقتُ في هـٰذا ٱلميدانِ مَليّاً .

بَل إِنَّ بعضَ ٱلأُدباءِ ٱلمتقدِّمينَ لَم يَتحرَّجْ مِن روايةِ أَشعارِ ٱلمجونِ في مؤلَّفاتِهِ ، وجُلُّها موغلٌ في ٱلإِفحاشِ ؛ إبرازاً لاقتدارِ شعراءِ ٱلمجونِ علىٰ إِيرادِ ٱلمعاني ٱللَّطيفَةِ ، وٱلتَّشبيهاتِ ٱلبديعةِ ؛ إِذْ غَدَتْ منتظمةً في سِلكِ ٱلملاحَةِ وٱلبلاغَةِ ، فرجَّحوا أَنَّ قيمتَها ٱلأَدبيَّةَ تستُرُ بِثَوبِها ٱلسَّابغِ فُحشَها ، وحسنَ نَسيجِها يُغطِّي قُبحَها :

وَتَحتَ ٱلرَّغْوَةِ ٱللَّبَنُ ٱلصَّرِيْحُ

بيد أَنَّ صنيعَهم هـٰذا محلُّ نظر ، ومثالاً علىٰ ذلكَ ٱلعلاَّمةُ ٱلمحقِّقُ مُحَمَّدٌ محيي ٱلدِّينِ عبدُ ٱلحميدِ لمَّا أَجمعَ ٱلعزمَ علىٰ تحقيقِ « يتيمةِ ٱلدَّهرِ في محاسنِ أَهلِ ٱلعصرِ » للأَديبِ ٱلمؤرِّخِ أَبي منصورٍ عبدِ ٱلملكِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ إِسماعيلَ ٱلثَّعالبيِّ ٱلنَّيسابوريِّ ٱلمتوفَّىٰ سنة (٤٢٩هـ) ، وهيَ مشحونَةٌ بأَشعارِ ٱلخلاعَةِ وٱلمجونِ . . قالَ : (وَلكنَّا لَم نَشأْ أَنْ نحذفَ شيئاً مِمَّا في هـٰذا ٱلكتابِ مِنَ ٱلمجونِ كما يفعلُ بعضُ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلنَّاشرينَ ؛ تحرُّجاً منهم وتأَثُّماً زَعموا ، وحِرصاً علىٰ مكارِمِ ٱلأَخلاقِ ظَنُّوا ؛ لأَنَّا لا نُؤَلِّفُ كتاباً نختارُ فيهِ ما نَشاءُ ، وندعُ ما نشاءُ ، وإِنَّما نحقِّقُ نصّاً قَيَّدَهُ صاحبُهُ في زَمَنٍ كانَ ٱلنَّاسُ فيهِ أَشَدَّ تحرُّجاً مِن هـٰذا ٱلزَّمَنِ ٱلَّذي نعيشُ فيهِ . . .

إِلىٰ أَن قالَ : (وٱللهُ يعلَمُ أَنَّنا لا نَقِلُّ عن هـٰؤلاءِ ـ ٱلمتأَدِّبينَ ٱلَّذين يفسدونَ كُتُبَ ٱلنَّاسِ ـ تحرُّجاً مِنَ ٱلمجونِ ،

---

(١) « الإمتاع والمؤانسة » (٢/ ٥٠) .



ولا حِرصاً علىٰ مكارِمِ ٱلأخلاقِ ، وإنَّما ٱلغَرَضُ مِن نشرِ ٱلكتابِ في رأْينا إنَّما هوَ أَن نَدُلَّ قُرَّاءَ ٱلأَدَبِ ٱلعربيِّ على ٱلحياةِ ٱلأدبيَّةِ ، وٱلحياةِ ٱلاجتماعيَّةِ وٱلسِّياسيَّةِ في هـٰذهِ ٱلحقبةِ ٱلَّتي كانَ ٱلشُّعراءُ يعيشونَ فيها ، وأَنْ نضعَ بينَ أَيديهِمُ ٱلنُّصوصَ ٱلَّتي تدلُّهم علىٰ ما يتوجَّهونَ إِليهِ مِن مناحي ٱلبحثِ)[1] .

فإذا كانَتْ هـٰذهِ ٱلحالُ في ٱلمجونِ ٱلمَمْجوجِ شرعاً . . فإنَّا نَبْرَأُ إِلى ٱللهِ تعالىٰ مِنْ أَنْ نَصِمَ أَديباً كبيراً وعالماً نِحريراً بٱللَّومِ ، أَو نغمزَهُ بٱلخروجِ عَن دائِرَةِ ٱلآدابِ ٱلشَّرعيَّةِ ، وهوَ لم يَزبُر في سفرهِ هجراً ، ولَم يرتَعْ في حمأَةِ ٱلمجونِ ، وما غرضُ هـٰذا ٱلشَّيخِ ٱلعلاَّمَةِ إلاَّ شحذُ ذِهنِ ٱلقارىءِ ، ودفعُ سآمَةِ ٱلجِدِّ ، ومحوُ عَنَتِ كَدِّ ٱلأَفكارِ في ٱلمعاني ٱلدَّقيقَةِ ؛ ليعودَ إِلىٰ جِدِّهِ مرتاحَ ٱلفكرِ خفيفَ ٱلرُّوحِ ، مُتَجدِّدَ ٱلنَّشاطِ .

ودارُ ٱلمنهاجِ قدِ ٱضطلعَتْ مشكورَةً بٱستخراجِ جواهِرِ ٱلتُّراثِ مِنْ أَعماقِ ٱلمكتباتِ ٱلمخطوطَةِ ، ودأَبَتْ علىٰ إِبرازِ كُنوزِنا ٱلثَّمينَةِ تتهادىٰ في حُلَلِ ٱلتَّحقيقِ ، وها هيَ ٱليومَ تُهدي إِلىٰ عُشَّاقِ ٱلأَدَبِ ٱلعربيِّ هـٰذا ٱلسِّفْرَ ٱلنَّافِعَ ، وسوفَ ترحبُ بهِ ٱلمكتبَةُ ٱلعربيَّةُ ، وتبتسِمُ لَهُ لغةُ ٱلضَّادِ .

وبعدُ :

فإنَّ هـٰذا ٱلكتابَ غزيرُ ٱلمعاني ، رفيعُ ٱلأُسلوبِ ، عَزيزُ ٱلمباحِثِ ، رقيقُ ٱلحواشي ، بطينُ ٱلمحتوىٰ ، عظيمُ ٱلفائِدَةِ ، جمعَ بين ٱلمتانَةِ وٱلحلاوَةِ ، وٱلسُّهولَةِ وٱلجزالَةِ ، وٱلغوصِ لانتقاءِ ٱلجواهِرِ ٱلثَّمينَةِ ، كيفَ لاَ ومُؤَلِّفُهُ فردُ دهرِهِ ، وشمسُ عصرِهِ ، ومفتي قطرِهِ .

وكتبه أبو عبد الباري عجلاً مُعجلاً
الدكتور محمد عبد الرحمن الأهدل
في (١٥) شعبان (١٤٢٢هـ)

---

(١) المقدمة لـ« يتيمة الدهر » (١/٥) .



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

بقلم

محمد مصطفى الخطيب

تمهيد

الحمدُ للهِ ٱلعليمِ ٱلعلاَّمِ ، ٱلرَّحيمِ ٱلرَّحمـٰنِ ، أنزلَ ٱلقرآنَ ، خَلَقَ ٱلإنسانَ ، عَلَّمَهُ ٱلبيانَ .

وٱلصَّلاةُ وٱلسَّلامُ علىٰ نبيِّهِ ٱلهادِ ، أفصحِ مَن نطقَ بٱلضَّادِ ، وعلىٰ آلهِ وصحبِهِ ذوي ٱلرَّأْيِ وٱلسَّدادِ .

أَمَّا بعدُ :

فقد قيلَ : راوِحوا ٱلقلوبَ ساعةً فساعةً ؛ فإنَّها إذا كَلَّتْ . . عَمِيَتْ .

فكما أَنَّ ٱلجسدَ يتعبُ ويطلُبُ ٱلرَّاحةَ ، فكذلكَ ٱلرُّوحُ وٱلنَّفْسُ ، وخصوصاً في هـٰذهِ ٱلأَيَّامِ ٱلَّتي كثُرَتْ فيها ٱلمشاغِلُ وٱلمنغِّصاتُ ، وصارَتِ ٱلحاجَةُ مُلِحَّةً إلىٰ ما يُستأْنَسُ بهِ ويُستروَحُ إليهِ بما لا يخرجُ عنِ ٱلإطارِ ٱلشَّرعيِّ .

ولولا أَنَّ ٱلإنسانَ مِن حينٍ لآخرَ يسمعُ كلاماً حسناً يميِّزُهُ بعينِ عقلِهِ ، أَو أَنَّهُ يرىٰ مَنظراً جميلاً يَراهُ بعينِ رأْسِهِ ، ثُمَّ ينعكِسُ ذلكَ إيجاباً علىٰ مِرآةِ فِكرِهِ . . لَتكالبَتْ عليهِ ٱلهمومُ وٱلغمومُ ، ولَعَلَتْهُ ٱلكآبَةُ وٱلحزْنُ .

وقد أَوضحَ هـٰذا ٱلمعنى ٱلشاعرُ في قولِهِ : [من الطويل]

أَفِـدْ طَبْعَـكَ ٱلْمَكْـدُوْدَ بِـٱلْهـمّ راحـةً ... بحـزمٍ وعللـه بِشَـيْءٍ مِـنَ ٱلْمَـزْحِ

وَلَـٰكِـنْ إِذَا أَعْطَيْتَـهُ ٱلْمَـزْحَ فَلْيَكُـنْ ... بِمِقْـدَارِ مَـا تُعْطَـي الطَّعَـامَ مِـنَ ٱلْمِلْـحِ

هـٰذا هو المِقياسُ .

وكتابُنا هـٰذا كٱلواحةِ لِطُلاَّبِ ٱلعلمِ ؛ فمؤَلِّفُهُ مِنَ ٱلعلماءِ ٱلبارزينَ وهوَ مَن هوَ في ٱلعالَمِ ٱلإسلاميِّ . . ولعلَّهُ مِن حُسنِ ٱلحظِّ وٱلطَّالِعِ أَنْ يُؤَلِّفَ عالِمٌ مثلُهُ كتاباً في هـٰذا ٱلفنِّ .

ومِنْ مقاصِدِ طباعةِ هـٰذا ٱلكتابِ أَنْ يكونَ حافزاً ومساعِداً لحفظِ ٱلشَّواهِدِ ٱلشِّعريَّةِ ، وٱلقَصَصِ ٱلأَدبيَّةِ وٱلأَمثالِ ٱلحِكَميَّةِ . . ٱلَّتي يُستأْنَسُ بها ، ويعذُبُ إيرادُها عندَ ٱلمناسبَةِ ، بَل وبها تقوى ٱلحُجَّةُ . . كما أَنَّ في بعضِ ٱلقصَصِ ٱلعِظةَ وٱلعبرَةَ ، كيفَ وٱلخالقُ سبحانَهُ يَقولُ : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ ؟!

وَإذا علِمنا ذلكَ . . فنقولُ : إنَّ ٱلإسلامَ ورسولَهُ صلَّى ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم قد أَوجدا لنا ٱلطريقَ وٱلخلاصَ من معاناة الروح ، وتعب النفس ، وبينوا لنا كيفية صفاء القلب ، فجعَلوا ٱلطَّريقَ إلىٰ تسليةِ ٱلرُّوحِ مباحاً ، ولكِنَّهم وَضَعوا لها ضوابطَ .

فهٰذا ٱلنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم كانَ يمزَحُ ولا يقول إلا حقاً .

فنراهُ عندما تأْتي إليهِ ٱلعجوزُ وتقولُ لهُ : ادعُ ٱللهَ أَنْ يجعلَني مِن أَهلِ ٱلجنَّةِ يقولُ لها : « **يَا أُمَّ فُلاَنٍ . . إِنَّ ٱلجَنَّةَ لاَ تَدْخُلُهَا عَجُوْزٌ** » فوَلَّتِ ٱلمرأَةُ وهيَ تبكي ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : « **أَخْبِرُوْهَا أَنَّهَا لاَ تَدْخُلُ ٱلْجَنَّةَ وَهِيَ عَجُوْزٌ ، إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ يَقُوْلُ** : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ » .

وجاءَتْهُ ٱمرأَةٌ أُخرىٰ ، فقالَت : يا رسولَ ٱللهِ . . احمِلني علىٰ بعيرٍ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : « **احْمِلُوْهَا عَلَى ٱبْنِ ٱلْبَعِيْرِ** » ، فقالَتْ : ما أَصنعُ بهِ ما يحمِلُني ؟! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : « **هَلْ مِنْ بَعِيْرٍ إِلاَّ ٱبْنُ بَعِيْرٍ** » فكانَ يمزحُ معَها .

وكذلكَ ٱلأَئِمَّةُ ٱلأَعلامُ ما كانوا لِيَخرجوا عَنِ ٱلطَّريقِ ٱلَّتي رسمَها لهم سيِّدُ ٱلأَنَام صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم فهٰذا الإمام ٱبنُ عبَّاسٍ رضيَ ٱللهُ عنهُما كانَ يقولُ ـ إذا أَكثَروا عليهِ في مسائِلِ ٱلقرآنِ وٱلحديثِ ـ : خُذوا في ٱلشِّعرِ وأَخبارِ ٱلعَربِ .

ونرى ٱلإمامَ عمرَ بنَ عبدِ ٱلعزيزِ يحثُّ علىٰ تعلُّمِ ٱلأَدَبِ قائلاً :

إنَّ في ٱلمحادَثَةِ تلقيحاً للعقولِ ، وترويحاً للقلوبِ ، وتسريحاً لِلْهَمِّ ، وتنقيحاً للأَدَبِ .

وأَنشدَ أَبو نُوَاسٍ : [من الرجز]

أُرَوِّحُ ٱلْقَلْبَ بِبَعْضِ ٱلْهَزْلِ تَجَاهُلاً مِنِّيْ بِغَيْرِ جَهْلِ
أَمْزَحُ فِيْهِ مَزْحَ أَهْلِ ٱلْفَضْلِ وَٱلْمَزْحُ أَحْيَاناً جَلاَءُ ٱلْعَقْلِ

وقَد كانَ أَصحابُ رسولِ ٱللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم يمزحونَ بحضْرَتِهِ ولا يُنكِرُ عليهم شيئاً مِن ذلكَ .

روى ٱلبُخاريُّ في « ٱلأَدَبِ ٱلمفرَدِ » : كانَ أَصحابُ رسولِ ٱللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم يتبادَحونَ ـ يترامون ـ بِٱلبِطِّيخِ ، فإذا كانَتِ ٱلحقائِقُ . . كانوا هُمُ ٱلرِّجالَ .

ورُوِي أَنَّ رجلاً أَتىٰ برجُلٍ إلىٰ عليِّ ٱبنِ أَبي طالبٍ فقالَ : إِنَّ هٰذا زعمَ أَنَّهُ ٱحتلمَ علىٰ أُمِّي فقالَ : أَقِمهُ في ٱلشَّمسِ وٱضرِبْ ظِلَّهُ ٱلحدَّ .

هٰذا وقد ينفعُ ٱلمِزاحُ في بعضِ ٱلأَحيانِ ويُنجي مِنَ ٱلشَّدائِدِ فقد حُكِيَ : أَنَّ بعضَهم أَهدىٰ لِلحجَّاجِ تيناً قبلَ أَوانِهِ ؛ ليأْخُذَ منهُ ٱلجائِزَةَ ، فلمَّا قَرُبَ مِن دارِ ٱلحجَّاجِ . . إذا بِٱلشُّرطِيِّ قد أَقبلَ ومعهُ طائِفَةٌ مِنَ ٱللُّصوصِ وقد هربَ منهُم واحدٌ فأَخذَ ٱلشُّرطِيُّ صاحبَ ٱلتِّينِ عوضاً عنهُ ، وقرنَهُ معهم ، فلمَّا عرضَه على ٱلحجَّاجِ . . أَمرَ بضربِ أَعناقِهم ، فلمَّا قُدِّمَ صاحبُ ٱلتِّينِ . . صاحَ : أَيُّها ٱلأَميرُ . لستُ منهُم فقالَ : ما شأْنُكَ ؟ فقصَّ عليهِ ٱلقِصَّةَ فقالَ : إِنَّا للهِ وإِنَّا إِليهِ راجعونَ ، كادَ ٱلملعُونُ يهلكُ ظُلماً ، ثُمَّ قالَ : ما تريدُ مِنَ ٱلجائِزَةِ ؟ فقالَ : أَيُّهَا ٱلأَميرُ . . أُريدُ فأْساً . قالَ : وما تصنعُ بِها ؟ قالَ : أَقطَعُ بِها جِذعَ ٱلشَّجَرةِ ٱلَّتي عرَّفَتْ بيني وبينَكَ . فضحِكَ ٱلحجَّاجُ وأَجازَهُ جائِزَةً سنيَّةً .

وٱلكتابُ ٱلَّذي بينَ أَيدينا . . هوَ كتابٌ مِنَ ٱلأَدَبِ ٱلرَّفيعِ ؛ فقد ٱستطاعَ مؤَلِّفُهُ بما ٱمتازَ بهِ مِنَ ٱلذَّكاءِ ٱلوَقَّادِ . . أن يقسمه إلىٰ أبواب وفصول ، حتَّىٰ يصلَ إِلىٰ فكرةٍ واضحة ومعنىً محدَّدٍ ، فلا تسمع بمعنىٰ من معاني ٱلشَّجاعَةِ ، وٱلشَّهامَةِ ، وٱلإِيثارِ ، وٱلفداءِ ، وٱلمحبَّةِ ، وٱلوفاءِ ، وٱلتَّضحيَةِ عندَ ٱلعربِ . إِلاَّ وتجدُ له فصلاً يتحدث عنه في



هٰذا الباب يبرزُهُ مؤلِّفُهُ في أَحسنِ صورةٍ ، معَ ما يتعلَّقُ بهِ مِنَ ٱلجانِبِ ٱلشَّرعيِّ . . ولذلكَ رُبَّما تجدُ موضوعاً ما وقد انتقل بهِ ٱلمؤَلِّفُ مِنَ الجانِبِ ٱلشِّعريِّ إلى ٱلجانِبِ ٱلشَّرعيِّ ، فتجدُهُ يغوص في ٱلتَّفسيرِ وٱلحديثِ وٱلتَّاريخِ بطريقةٍ فريدَةٍ ، تستطيعُ من خلالها أَنْ ترى ٱلموضوعَ ٱلواحِدَ مِنْ زوايا متعدِّدَةٍ ، ولهٰذا فنحنُ محظوظونَ بهٰذا ٱلمؤَلِّفِ . . . وفي هٰذا ٱلعصرِ بٱلذَّاتِ .

وفي تركيزِنا على ٱلمِزاحِ في واقعِ حياتِهِ صلَّى ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم إضاءَةٌ لجانبٍ مِن جوانبِ ٱلأَدبِ ٱلكثيرةِ ؛ حيثُ إِنَّ ٱلأَدبَ فَنٌّ مِنَ ٱلفنونِ ، يشملُ أَنواعاً كثيرةً .

مِنها : ٱلمزاحُ .

ومنها : ٱلكلامُ ٱلنَّثريُّ ٱلبليغُ .

ومنها : ٱلشِّعْرُ .

أَمَّا إذا أَردنا ٱلحُكمَ ٱلشَّرعيَّ لِكُلِّ نوعٍ مِن هٰذا ٱلفنِّ . . فعلينا أَنْ نلجأَ إِلى ٱلمشرِّعِ ٱلحكيمِ صلَّى ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم .

فأَمَّا ٱلنَّوعُ ٱلأَوَّلُ : فقد تكلَّمنا عنه بما فيهِ كفايَةٌ للموضوعِ .

وأَمَّا ٱلنَّوعُ ٱلثَّاني : فقد سأَلَ رسولُ ٱللهِ صلَّى ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم عمرَو بنَ ٱلأَهْتَم عَنِ ٱلزِّبرقانِ بنِ بدرٍ ، فقالَ عمرٌو : مُطاعٌ في أَدْنَيْهِ ، شديدُ ٱلعارِضَةِ ، مانعٌ لِما وراءَ ظهرِهِ .

فقالَ ٱلزِّبرقانُ : وٱللهِ يا رسولَ ٱللهِ . . إِنَّهُ ليعلمُ مِنِّي أَكثرَ مِمَّا قالَ ، ولكِنَّهُ حَسَدَني شَرَفي .

فقالَ عمرٌو : أَمَّا لَئِن قالَ ما قالَ . . فوٱللهِ ما علمتُهُ إِلاَّ ضَيِّقَ ٱلصَّدرِ ، زَمِرَ ٱلمروءَةِ ، أَحمقَ ٱلوالدِ ، لئيمَ ٱلخالِ ، حديثَ ٱلغنىٰ .

فلمَّا رأَىٰ أَنَّهُ خالَفَ قولُهُ ٱلآخِرُ قولَهُ ٱلأَوَّلَ ، ورأَى ٱلإِنكارَ في عيني رسولِ ٱللهِ صلَّى ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم . . قالَ : يا رسولَ ٱللهِ . . رضيتُ . . فقلتُ أَحسنَ ما علمتهُ ، وغضِبتُ . . فقلتُ أَقبحَ ما علمتُ ، وما كذبتُ في ٱلأُولىٰ ، ولقد صدقتُ في ٱلأُخرىٰ .

فقالَ رسولُ ٱللهِ صلَّى ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم عندَ ذلكَ : « **إِنَّ مِنَ ٱلْبَيَانِ لَسِحْراً** » .

وأَمَّا ٱلنَّوعُ ٱلأَخيرُ : فنراهُ أَحياناً يشدِّدُ في ٱلمنعِ فيقولُ : « **لأَنْ يَمْتَلِىءَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحاً . . خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِىءَ شِعْراً** » ، ويقولُ : « **لأَنْ يَكُوْنَ جَوْفُ ٱبْنِ آدَمَ مَمْلُوْءاً قَيْحاً . . خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَكُوْنَ مَمْلُوْءاً شِعْراً** » .

بينما نراهُ في ٱلحديثِ ٱلآخرِ يقولُ : « **إِنَّ مِنَ ٱلشِّعْرِ حِكْمَةً** » .

وكذلك فإِنَّ ٱلإِسلامَ لَم يُهمِلِ ٱلشِّعرَ بَلْ تبث له مكانته التي كانت له في الجاهلية ، وأَذكىٰ جَذْوتَهُ علىٰ لسانِ سيِّدنا رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم حينما قالَ لحسَّانَ : « اهْجُ ٱلْمُشْرِكِيْنَ ؛ فَإِنَّ رُوْحَ ٱلْقُدُسِ مَعَكَ » . بَل إِنَّهُ صلَّى ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم قد نصبَ لحسَّانَ منبراً في ٱلمسجدِ .

ثُمَّ ما كانَ فتحُ (مكَّةَ) إلاَّ استجابةً لأَبياتٍ حرَّكتِ ٱلحبيبَ صلَّى ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم حين أَنشدَهُ عمرو بنُ سَالمٍ الخزاعيُّ : [مِنَ ٱلرَّجز]

يَـــا رَبِّ إِنِّـــيْ نَـــاشِـــدٌ مُحَمَّـــدَا   حِلْـــفَ أَبِيْـــهِ وَأَبِيْنَـــا ٱلأَتْلَـــدَا



إِنَّ قُـرَيْشـاً أَخلَفُـوْكَ ٱلْمَـوْعِـدَا وَنَقَضُـوْا مِيْثَـاقَـكَ ٱلْمُـؤَكَّـدَا
وَقَتَّلُـوْنَـا رُكَّعـاً وَسُجَّـدَا[1]

فٱهتزَّ صلواتُ ٱللهِ عليه قائلاً : « نُصِرْتَ يَا عَمْرَو بْنَ سَالِمٍ . . نُصِرْتَ يَا عَمْرُو » .

وَلا يغيبُ عن أَحدٍ أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم أجازَ ببردَتِهِ ٱلشَّريفَةِ مَن أَباحَ دَمَهُ . . حينمَا أَنشدَهُ مفتتحاً بصريحِ ٱلغزلِ : [مِنَ ٱلبسيطِ]

بَـانَـتْ سُعَـادُ فَقَلْبِـيْ ٱلْيَـوْمَ مَتْبُـوْلُ مُتَيَّـمٌ إِثْـرَهَـا لَـمْ يُفْـدَ مَكْبُـوْلُ[2]
وَمَـا سُعَـادُ غَـدَاةَ ٱلْبَيْـنِ إِذْ رَحَلُـوْا إِلاَّ أَغَـنُّ غَضِيْـضُ ٱلطَّـرْفِ مَكْحُـوْلُ[3]
هَيْفَـاءُ مُقْبِلَـةً عَجْـزَاءُ مُـدْبِـرَةً لاَ يُشْتَكَـىٰ قِصَـرٌ مِنْهَـا وَلاَ طُـوْلُ[4]

وهٰكذا نجد أن الإسلام احتضن الشعر واهتم به لا سيما شعر الدعوة وما فيه حث علىٰ مكارم الأخلاق ، وَأينعَت هٰذهِ ٱلثَّمرةُ في صدرِ ٱلإسلامِ علىٰ لسانِ ٱلصَّحبِ ٱلكرام ، أَمثالِ حسَّانَ بنِ ثابتٍ ، وكعبِ بنِ زُهيرٍ ، وعبدِ اللهِ بنِ رواحةَ ، وغيرهم . . وإِنْ كَانَ مِنْ أَمثالِ لبيدِ بنِ ربيعة أَنِ ٱستثقلَ نفسَهُ أَنْ يتكلَّم بٱلشِّعرِ بعدَ أَن فاضَتْ في روحِهِ محبَّةُ كتابِ ٱللهِ وسُنَّةِ نبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم .

وٱلقولُ ٱلحقُّ في ٱلشِّعرِ هوَ قولُ ٱللهِ تعالىٰ : ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ .

وعن عائِشَةَ رضيَ ٱللهُ عنها قالَتْ : سُئِل رَسولُ ٱللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم عَنِ ٱلشِّعرِ فقالَ : « **هُوَ كَلَامٌ فَحَسَنُهُ حَسَنٌ ، وَقَبِيْحُهُ قَبِيْحٌ** » .

وإِذا علمنا هٰذا . . فلا أَروعَ ولا أَحلىٰ مِنَ ٱلأَدَبِ ؛ لفكِّ عُقَدِ ٱلنَّفسِ وتسليَتِها بما يفيدُها ، ودفع جيوش الهموم وتشحيذ الهمم وصقل المواهب الأدبية ويرحم الله القائل :

ولـولا خصـال سنهـا الشعـر مـا درى بغـات المعـالي كيـف تـؤتـى المكـارم

وتأكيداً لما قدمنا أحببنا عقد فصلٍ مستقل حولَ مفهومِ ٱلأَدَبِ ٱلعربيِّ وأَدوارِهِ ٱلَّتي مَرَّ بها .

* * *

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٩٤) .
(٢) **متبول** : أسقمه الحبُّ وأضناهُ . **ولم يُفْدَ** : لم يخلص من الأَسرِ . **مكبولٌ** : مقيَّدٌ .
(٣) **الأَغنُّ** : الظبي الصغير الذي في صوته غُنَّةٌ . **غضيضُ ٱلطَّرف** : فاترُهُ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٥٠٤) .



الأدب .. مفهومه وتاريخه

كلمةُ (أدب)[1] مِنَ ٱلكلماتِ ٱلَّتي تطوَّرَ معناها بتطوُّرِ حياةِ ٱلأُمَّةِ ٱلعربيَّةِ ، مِن دَورِ ٱلبَداوَةِ إِلىٰ أدوارِ ٱلمَدَنِيَّةِ وٱلحضارَةِ ، وقدِ تواردتْ عليها معاني متقاربَةٌ ، حتَّىٰ أَخذَتْ معناها ٱلَّذي يتبادَرُ إِلىٰ أَذهانِنا ٱليومَ وهوَ :

الكلامُ ٱلإِنشائيُّ ٱلبَليغُ ، ٱلَّذي يُقصَدُ بهِ ٱلتَّأثيرُ في عواطِفِ ٱلقُرَّاءِ وٱلسَّامعينَ ، سواءٌ أَكانَ شِعراً أَم نثراً .

وإِذا ما عدنا إِلى ٱلمُعجمِ ٱلعربيِّ للبحثِ عَنْ معنىٰ كلمةِ (أدب) . . فإِنَّنا نجدُ لفظَ (آدِب) بمعنى ٱلدَّاعي إِلى ٱلطَّعامِ ، ومِن ذلكَ (ٱلمَأْدُبَةُ) بمعنى ٱلطَّعامِ ٱلَّذي يُدعىٰ إِليهِ ٱلنَّاسُ .

وٱشتقُّوا مِنْ ذلكَ (أدَب يأدُب) بمعنىٰ صنعَ مأدُبةً ، أو دَعا إِليها .

وهٰكذا فأَصلُ ٱلأَدَبِ ٱلدُّعاءُ ، وبهٰذا ٱلمعنىٰ وَرَدَتْ في ٱلشِّعرِ ٱلجاهليِّ ؛ فقد جاءَ علىٰ لسانِ طرفةَ بنِ ٱلعبدِ : [مِنَ ٱلرَّمَلِ]

نَحْـنُ فِـيْ ٱلْمَشْتَـاةِ نَـدْعُـو ٱلْجَفَلَـىٰ لاَ تَـــرَى ٱلآدِبَ فِيْنَـــا يَنْتَقِـــرْ[2]

ومعَ مرورِ ٱلزَّمَنِ ٱنتقلَتْ دِلالَةُ ٱلكَلِمَةِ مِنْ معناها ٱلحِسِّيِّ إِلىٰ معناها ٱلمُجَرَّدِ ، شأْنُها في ذلكَ شأْنُ بقيَّةِ ٱلكلماتِ ٱلمعنويَّةِ ، ٱلَّتي تُستَخدَمُ أَوَّلاً في معنىً حسيٍّ حقيقيٍّ . . . ثُمَّ تخرجُ منهُ إِلىٰ معنىً ذِهنيٍّ مَجازيٍّ .

جاءَ في « تاجِ ٱلعروسِ » (ٱلأَدَب) محرَّكَةً : ٱلَّذي يتأَدَّبُ بهِ ٱلأَديبُ مِنَ ٱلنَّاسِ ، سُمِّيَ بهِ ؛ لأَنَّهُ يُؤَدِّبُ ٱلنَّاسَ إِلى ٱلمحامِدِ ، وينهىٰ عَنِ ٱلقبائِحِ .

وبهٰذا ٱلمعنى ٱلتَّهذيبيِّ وَرَدَتْ في حديثِ ٱلنَّبيِّ صلَّى ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم إِذ يقولُ : « أَدَّبَنِي رَبِّيْ فَأَحْسَنَ تَأْدِيْبِيْ » .

وقد حافَظَتِ ٱلكلمةُ علىٰ معناها ٱلتَّهذيبيِّ في عصرِ بني أُميَّةَ ، وأُضيفَ إِليها معنىً ثانٍ جديدٌ ، وهوَ معنىً تأديبيٌّ ؛ فقد وُجدَ طائفةٌ مِنَ ٱلمعلِّمينَ تُسمَّىٰ بـ (ٱلمؤَدِّبينَ) ، كانوا يُعلِّمونَ أَولادَ ٱلخلفاءِ ٱلشِّعرَ وٱلخُطَبَ ، وأَخبارَ ٱلعربِ وأَنسابَهم ، وأَيَّامهم في ٱلجاهليَّةِ وٱلإِسلامِ .

وأَتاحَ هٰذا ٱلاستخدامُ لكلمَةِ (أَدب) أَنْ تُصبحَ مقابلةً لكلمَةِ (ٱلعلمِ) ٱلَّذي كانَ يُطلَقُ حينئِذٍ على ٱلشَّريعَةِ ٱلإِسلاميَّةِ ، وما يَتَّصِلُ بها مِن دراسَةِ ٱلفقهِ وٱلحديثِ وتفسيرِ ٱلقرآنِ ٱلكريمِ .

وفي ٱلعصرِ ٱلعبَّاسيِّ تقاربَ ٱلمعنيانِ ـ ٱلتَّهذيبيُّ وٱلتَّعليميُّ ـ في ٱستخدامِ ٱلكلمةِ ؛ فقد سَمَّى ٱبنُ ٱلمُقَفَّعِ رسالَتينِ لهُ تَتضمَّنانِ ضروباً مِنَ ٱلحِكَمِ وٱلنَّصائحِ ٱلخُلُقيَّةِ وٱلسِّياسيَّةِ بٱسمِ « ٱلأَدَبِ ٱلصَّغِيْرِ » و« ٱلأَدَبِ ٱلكبيرِ » .

ولَم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتَّىٰ صارتِ ٱلكلمَةُ تُطلَقُ علىٰ معرفَةِ أَشعارِ ٱلعربِ وأَخبارِهم ، وقد أُلِّفتْ كُتُبٌ بهٰذا ٱلمعنىٰ ، سمَّوها كُتُبَ أَدَبٍ ، مثلَ « ٱلبيانِ وٱلتَّبيِيْنِ » للجاحظِ ٱلمتوفَّىٰ سنةَ (٢٥٥هـ) .

ومثلُهُ كتابُ « ٱلكاملِ في ٱللُّغَةِ وٱلأَدَبِ » للمبرِّدِ ٱلمتوفَّىٰ سنةَ (٢٨٥هـ) ، جاءَ في مقدِّمَةِ هٰذا ٱلكتابِ : (هٰذا

(١) اقتبسنا هٰذه المقدمة من كتاب « تاريخ الأدب العربي » للدكتور : شوقي ضيف ، و« تاريخ الأدب العربي » للأستاذ : أحمد حسن الزيات .

(٢) الجَفَلَىٰ : الدعوة العامة . ينتقر : أي يدعو دعوة خاصة وينتقي .



كتابُ أَلَّفناهُ ، يجمعُ ضُروباً مِنَ ٱلآدابِ ، ما بينَ كلامٍ منثورٍ ، وشِعرٍ مرصوفٍ ، ومَثَلٍ سائِرٍ ، وموعظَةٍ بالغَةٍ ، واختيارٍ مِن خُطبَةٍ شريفَةٍ ورسالَةٍ بليغَةٍ)[1] .

ومثل كتابِ « ٱلكامِلِ » للمبرد كتابُ « عُيونِ ٱلأَخبارِ » لابنِ قُتَيبةَ ٱلمتوفَّىٰ سنةَ (٢٧٦هـ) ، و« ٱلعِقدِ ٱلفريدِ » لابن عبدِ ربِّهِ ٱلمتوفَّىٰ سنةَ (٣٢٨هـ) ، و« زَهرِ ٱلآدابِ » للقيروانيِّ ٱلمتوفَّىٰ سنةَ (٤٥٣هـ) . وغيرِها .

هـٰذا ولَم تقفِ ٱلكلمَةُ عندَ هـٰذا ٱلمعنى ٱلتَّعليميِّ ٱلخاصِّ بصناعتَي ٱلنَّظمِ وٱلنَّثرِ وما يتَّصِلُ بهما مِنَ ٱلمُلَحِ وٱلنَّوادِرِ ؛ فقد ٱتَّسعتْ أَحياناً لتشملَ كُلَّ ٱلمعارفِ غيرَ ٱلدينيَّةِ ٱلَّتي ترقىٰ بٱلإنسانِ مِنْ جانبَيهِ ٱلاجتماعيِّ وٱلثَّقافيِّ .

وبهـٰذا ٱلمعنىٰ نجدُها عندَ (إخوانِ ٱلصَّفا) في ٱلقرنِ ٱلرَّابعِ للهجرَةِ ؛ فقد دَلُّوا بها في رسائِلِهم إِلىٰ جانِبِ علومِ ٱللُّغَةِ وٱلبيانِ وٱلتَّاريخِ وٱلأَخبارِ . . علىٰ علومِ ٱلسِّحرِ وٱلكيمياءِ وٱلحسابِ وٱلمُعاملاتِ وٱلتِّجاراتِ .

ولا نصلُ إِلى ٱبنِ خلدونَ ٱلمتوفَّىٰ سنةَ (٨٠٨هـ) حتَّىٰ نجدَها تُطلَقُ علىٰ جميعِ ٱلمعارفِ دِينيَّةً وغيرَ دِينيَّةٍ ، يقولُ ٱبنُ خلدونَ :

ٱلأَدَبُ هوَ حفظُ أَشعارِ ٱلعربِ ، وٱلأَخذُ مِن كُلِّ علمٍ بِطرفٍ .

وعلى ٱلعمومِ أَخذَتِ ٱلكلِمَةُ تدلُّ منذُ أَواسطِ ٱلقرنِ ٱلماضي علىٰ معنيينِ ٱثنينِ :

أَوَّلاً : معنىً عامٌّ : يتناولُ كُلَّ ما يُكتبُ في ٱللُّغَةِ ، سواءٌ كانَ عِلماً أَم فلسفَةً أَم أَدَباً خالِصاً ؛ فكلُّ ما ينتجُهُ ٱلعقلُ وٱلشُّعورُ يُسمَّىٰ أَدَباً .

ثانياً : معنىً خاصٌّ : يشملُ ٱلأَدَبَ ٱلخالِصَ ٱلَّذي لا يُرادُ بهِ مُجرَّدُ ٱلتَّعبيرِ عَن معنىً مِنَ ٱلمعاني ، بل يُرادُ بهِ أَيضاً أَنْ يكونَ جميلاً بحيثُ يؤثِّرُ في عواطِفِ ٱلقارىءِ وٱلسَّامعِ ، علىٰ نحوِ ما هوَ معروفٌ في صناعتَي ٱلشِّعرِ وفنونِ ٱلنَّثرِ .

تاريخُ ٱلأَدَبِ إِنَّ ٱلاختلافَ في تعريفِ (ٱلأَدبِ) يقودُ إِلى ٱلاختلافِ في ٱلمقصودِ مِن (تاريخِ ٱلأَدَبِ) ، وفي ٱلمجالِ ٱلَّذي تدورُ فيهِ مباحِثُ ٱلتَّأْريخِ ٱلأَدَبيِّ .

فإِذا أَخذنا بما قالَهُ ٱبنُ خلدونَ مِن أَنَّ ٱلأَدَبَ هوَ : (حفظُ أَشعارِ ٱلعربِ ، وٱلأَخذُ مِن كُلِّ علمٍ بطرفٍ) . . كانَ على ٱلمؤرِّخِ ٱلأَدبيِّ أَنْ يُؤَرِّخَ للحياةِ ٱلعقليَّةِ وٱلشُّعوريَّةِ للأُمَّةِ ٱلعربيَّةِ ؛ لأَنَّ ٱلأَخذَ مِن كُلِّ علمٍ بطرَفٍ يَعني : إِغناءَ ٱلأَدبِ بعلومِ ٱلعربيَّةِ (نحو ـ صرف ـ بلاغة . . . إلخ) ، وبٱلعلومِ ٱلشَّرعيَّةِ (حديث ـ تفسير . . . إلخ) ، وبٱلعلومِ ٱلإِنسانيَّةِ (فلسفة ـ اجتماع . . . إلخ) .

فهـٰذِهِ ٱلعلومُ كلُّها ترفدُ ٱلأَدَبَ ، وتعينُ علىٰ فهمِهِ . ولعلَّ أَهمَّ مَن أَرَّخَ لأَدبنا بهـٰذا ٱلمعنىٰ (بروكلمان) في كتابِهِ « تاريخُ ٱلأَدَبِ ٱلعربيِّ » .

وإِذا أَخذنا بٱلقولِ ٱلَّذي يقولُ : (ٱلأَدَبُ كلامٌ جميلٌ يُؤَثِّرُ في ٱلنَّفسِ) . . كانَ علىٰ مُؤَرِّخِ ٱلأَدَبِ أَن يَقصُرَ مباحِثَهُ علىٰ دراسَةِ ٱلأَدَبِ ، شعرِهِ ونثرِهِ ، فيعرِفَ موضوعاتِهِ ، ويلاحِقَ تطوُّرَهُ ، ويبرزَ ملامِحَهُ وسماتِهِ في كُلِّ عصرٍ مِنَ ٱلعُصورِ ، وكانَ عليهِ أَن يُلِمَّ بشخصيَّاتِهِ دراسةً وتحليلاً ؛ ليكشفَ عمَّا تأَثَّروا بهِ مِن أُمورِ ٱلثَّقافَةِ وٱلسِّياسةِ وٱلعقيدَةِ .

تقسيماتُ تاريخِ ٱلأَدَبِ وعصورِهِ اتَّجهَ معظمُ مؤرِّخي ٱلأَدَبِ ٱلعربيِّ في تقسيمِهِ إِلىٰ أَعصُرٍ تعادِلُ ٱلأَعصُرَ ٱلتَّاريخيَّةَ

(١) الكامل (١ / ٢) .



والسِّياسيَّةَ ، فجعلوا ٱلأدوارَ ٱلَّتي مرَّ بها تاريخُ ٱلأَدَبِ خمسةَ أَدوارٍ ، وهي :

١ـ **العصرُ ٱلجاهليُّ** : نهايتُهُ ظهورُ ٱلإِسلامِ وعمرُهُ قرنٌ ونصفٌ .

٢ـ **عصرُ صدرِ ٱلإِسلامِ** : بدايتُهُ ظهورُ ٱلإِسلامِ ، ونهايتُهُ سقوطُ ٱلدَّولَةِ ٱلأُمويَّةِ سنةَ (١٣٢هـ) .

ومِنَ ٱلمؤَرِّخينَ من يقسمُ هـٰذا ٱلعصرَ إِلىٰ قسمينِ .

أـ عصرُ صدرِ ٱلإِسلامِ : وهوَ إِلىٰ نهايةِ عصرِ ٱلخلفاءِ ٱلرَّاشدينَ .

ب ـ عصرُ ٱلدَّولَةِ ٱلأُمويَّةِ .

٣ـ **العصرُ ٱلعبَّاسيُّ** : أَوَّلُهُ سقوطُ بني أُميَّةَ ، وآخرُهُ سقوطُ (بغدادَ) بأَيدي ٱلتتار (٦٥٦هـ) .

٤ـ **عصرُ ٱلدُّوَلِ ٱلمُتتابعَةِ** : أَوَّلُهُ سقوطُ (بغدادَ) ، ونهايتُهُ نزولُ ٱلحملَةِ ٱلفرنسيَّةِ بـ (مصرَ) سنة (١٢١٣هـ) .

٥ـ **عصرُ ٱلنَّهضَةِ ٱلحديثَةِ** : ٱلَّذي يمتدُّ إِلىٰ أَيَّامِنا هـٰذهِ .

وٱلَّذي يخصُّنا في كتابِنا هـٰذا هوَ : ٱلعصرُ ٱلعبَّاسيُّ ٱلَّذي نشأَ فيهِ ٱلمتنبِّي ، فلنعقِد لهُ فصلاً خاصّاً مستعينين بٱللهِ .

العصرُ ٱلعبَّاسيُّ :

عصرُ ٱلدَّولَةِ ٱلعبَّاسيَّةِ هوَ عصرُ ٱلإِسلامِ ٱلذَّهبيُّ ، ٱلَّذي بلغَ فيهِ ٱلمسلمونَ أوج القوة واتساع الرقعة .

تنامتْ فيهِ ٱلفنونُ ٱلإِسلاميَّةُ ، وازدهرت ٱلآدابُ ٱلعربيَّةُ ، ونُقِلَتِ ٱلعلومُ ٱلأَجنبيَّةُ ، ونضجَ ٱلعقلُ ٱلعربيُّ ، فوجدَ سبيلاً إِلى ٱلبحثِ ، ومجالاً للتَّفكيرِ .

وملوكُ هـٰذهِ ٱلدَّولَةِ ينتمونَ إِلى ٱلعبَّاسِ عمِّ ٱلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، قامت خلافتهم إثر سقوط الدولة الأموية ، وجعلوا عاصمتها بـ (ٱلعراقِ) ، وملك منهم سبعةٌ وثلاثونَ خليفةً في خمسةِ قرونٍ وبعضِ ٱلقرنِ ، حتَّىٰ زعزع ذلكَ ٱلعرشَ (هولاكو) سنةَ (٦٥٦هـ) .

وتختلفُ هـٰذهِ ٱلدَّولةُ عَنِ ٱلدَّولَةِ ٱلأُمويَّةِ بأَحوالٍ سياسيَّةٍ وعمرانيَّةٍ ، كانَ لها ٱلأَثرُ ٱلظَّاهِرُ في أَدَبِ ٱللُّغَةِ .

فٱلدَّولَةُ ٱلأُمويَّةُ : كانَت عربيَّةً خالصَةً ، تعصَّبَتْ للعربِ ولغتِهم وآدابِهم ، وجعلَتْ قاعدَتها (دمشقَ) علىٰ حدودِ باديَتِهم .

وكانَ جنودُها وقوَّادُها وكُتَّابُها وسائِرُ عمَّالِها مِنَ ٱلعربِ ، فلم يحدُث في أَدبِ ٱللُّغَةِ تأْثيرٌ إِلاَّ ما ٱقتضاهُ ٱلتَّحضُّرُ وٱتِّساعُ ٱلعمرانِ .

أَمَّا ٱلدَّولَةُ ٱلعبَّاسيَّةُ : فقدِ ٱصطبغَتْ بصِبغَةٍ فارسيَّةٍ ؛ لأَنَّ ٱلفرسَ هُمُ ٱلَّذينَ أَوجدوها وأَيَّدوها ، فٱتَّخذَتْ قصبتَها (بغدادَ) ـ أَقرَبَ ٱلأَمصارِ إِلىٰ بلادهِم ـ وأَطلَقَ ٱلخلفاءُ أَيدي ٱلموالي في سياسَةِ ٱلدَّولَةِ فٱستقلُّوا بشؤُونها ، وٱستبدُّوا بأُمورِها ، وكالوا للعربِ مِنَ ٱلحقارَةِ وٱلمهانَةِ صاعاً بصاعٍ .

فضعفتِ ٱلعصبيَّةُ ٱلعربيَّةُ ، وعلا صوتُ ٱلشُّعوبيَّةِ ، ونتجَ مِن ذلكَ دخولُ ٱلعناصِرِ ٱلفارسيَّةِ وٱلتُّركيَّةِ وٱلسُّريانيَّةِ وٱلرُّوميَّةِ وٱلبربريَّةِ في تكوينِ ٱلدَّولَةِ ، وتمازُجُهم بٱلتَّزاوُجِ وٱلتَّناسُلِ ، وٱختلاطُ ٱلمدنيَّةِ ٱلآريَّةِ بٱلمدنيَّةِ ٱلسَّاميَّةِ ، ولكلٍّ مِنها لُغةٌ وأَخلاقٌ وعاداتٌ وٱعتقاداتٌ أَثَّرَتْ في ٱلأُخرىٰ .



ناهيكَ بما ٱمتازَتْ بهِ هـٰذهِ ٱلدَّولةُ مِن إطلاقِ ٱلحريَّةِ في ٱلدِّينِ وتعدُّدِ ٱلفِرَقِ[1] ، وشيوعِ المقالاتِ ٱلمختلفَةِ في ٱلإلحادِ وٱلسِّياسةِ ، وتكاثُرِ ٱلجواري وٱلغِلمانِ ، وٱلاسترسالِ في ٱلخلاعَةِ وٱلمجونِ ، وٱلتَّأنُّقِ في ٱلطَّعامِ وٱللِّباسِ ، وٱلتَّنافُسِ في ٱلبناءِ وٱلرِّياشِ .

وكُلُّ ذلكَ لَهُ أثرٌ بيِّنٌ في ٱللُّغَةِ وآدابِها ، وسنعقِدُ ٱلفصلَ ٱلتَّالي للدَّلالَةِ علىٰ ذلكَ .

أثرُ ٱلفتوحِ وٱلسِّياسةِ وٱلحضارَةِ في ٱللُّغَةِ : فَتَحَ ٱلمسلمونَ في أَواخِرِ ٱلدَّولَةِ ٱلأُمويَّةِ أكثرَ ٱلمعروفِ حينئذٍ مِنَ ٱلدُّنيا ٱلقديمةِ .

فٱمتدَّ ملكُهُم مِنَ (ٱلهندِ) و(ٱلصِّينِ) شَرقاً إلىٰ (جبالِ بيرانس) غَرباً ، وٱنبسطَ سلطانُهم علىٰ تلكَ ٱلشُّعوبِ ، وٱستولىٰ دينُهم على ٱلأَفئِدَةِ ، ولغتُهم على ٱلألسنَةِ ، فأَسلمتْ هـٰذهِ ٱلأُمَمُ ٱلمختلِفَةُ ، وٱمتزجَتْ تلكَ ٱلعناصِرُ ٱلمتباينَةُ .

وسارعوا إلىٰ تعلُّمِ ٱللُّغَةِ ٱلعربيَّةِ وٱلتَّكلُّمِ بها ؛ تقرُّباً مِنَ ٱلفاتِحِ ، وٱستدراراً للرِّزقِ ، وتفقُّهاً في ٱلدِّينِ ، فكثُرَ ٱللَّحنُ ، وسرَتْ عدواهُ إلى ٱلباديَةِ ، وقد كانَ قاصراً على ٱلحاضرَةِ .

وبقيَ داءُ ٱلعُجمَةِ يستفحلُ بينَ ٱلعامَّةِ وٱلصُّنَّاعِ ، بٱلرَّغمِ مِن محاربَةِ ٱلأئِمَّةِ وأُولِي ٱلأَمرِ لهـٰذا ٱلوباءِ بتدوينِ علومِ ٱللِّسانِ ، وتقبيحِ ٱلعامِّيَّةِ ، ومَقْتِ ٱلمتكلِّمينَ بها ، حتَّىٰ نشأَ في كلِّ إقليمٍ لغةٌ عامِّيَّةٌ مُؤلَّفَةٌ مِنَ ٱلعربيَّةِ ، ومِن لغةِ ٱلإقليمِ ٱلوطنيَّةِ .

وقدِ ٱتَّسعَتْ دائِرَةُ ٱللُّغَةِ بما ٱقتضاهُ تمدُّنُ ٱلدَّولَةِ ، ونقلُ ٱلعلومِ عَنِ ٱلفارسيَّةِ وٱلهنديَّةِ وٱليونانيَّةِ مِنَ ٱلمُصطلحاتِ ٱلعلميَّةِ ، وٱلألفاظِ ٱلإداريَّةِ وٱلسِّياسيَّةِ وٱلاقتصاديَّةِ وٱلمنزليَّةِ .

وكانَ لـ (دارِ ٱلحكمَةِ) ٱلَّتي أنشأَها ٱلمأمونُ ٱلفضلُ ٱلأكبرُ في تهذيبِ ٱلكُتبِ ٱلمُترجَمَةِ ، وتوحيدِ ٱلأسماءِ ٱلمُعرَّبَةِ .

ثُمَّ رقَّتِ ٱلألفاظُ ؛ لانغماسِ ٱلقومِ في ٱلحضارَةِ ، وإخلادِهِم إلى ٱلتَّرَفِ ، وإيثارِ ٱلموالي لِلكَلِمِ ٱلسَّهلِ وٱلأُسلوبِ ٱللَّيِّنِ ؛ لأنَّهُم حذَقُوا ٱللُّغَةَ بٱلدِّراسَةِ وٱلصَّنعةِ ، لا بٱلتَّلقينِ وٱلطَّبعِ .

وٱقتبستِ ٱلعربيَّةُ مِنَ ٱلفارسيَّةِ غيرَ ٱلألفاظِ كثيراً مِنَ ٱلأساليبِ .

١ـ كٱلتَّبجيلِ في ٱلخطابِ .

٢ـ وٱلاحتشامِ معَ ٱلمخاطَبِ .

٣ـ وإسنادِ ٱلشَّيءِ إلى ٱلحضرَةِ وٱلجَنابِ وٱلمجلِسِ .

٤ـ وإحداثِ ٱلألقابِ وٱلنُّعوتِ للخلفاءِ وٱلوزراءِ وٱلكُتَّابِ وٱلقُوَّادِ ، كـ : (ٱلسَّفاحِ وٱلرَّشيدِ وذي ٱلرِّئاستينِ وركنِ ٱلدَّولَةِ . . . إلخ) .

---

(١) نجمَتْ في ٱلأُمَّةِ ٱلإسلاميَّةِ مِن غيرِ أَهلِ ٱلسُّنَّةِ فرقٌ كثيرةٌ ، يُكفِّرُ بعضُها بعضاً ، وٱنشعبَتْ كُلُّ فرقةٍ إلىٰ فِرَقٍ متعدِّدَةٍ ، ترىٰ كُلُّ واحدَةٍ مِنها ٱلحقَّ معها دونَ ٱلأُخرىٰ .

ومِنْ أشهرِ هـٰذهِ ٱلفرَقِ : **ٱلمعتزلَةُ** وهم عشرونَ فرقةً ، **وٱلشِّيعةُ** وهمُ ٱثنتانِ وعشرونَ ، **وٱلخوارجُ** وهُم سبعُ فِرَقٍ .

وكُلُّ أُولـٰئِكَ : منهم جبريَّةٌ ، ومنهم مشبِّهَةٌ . . . ولِكلِّ شُعبةٍ لَقَبٌ تُعرفُ بهِ .



٥ـ وٱلإسهابِ في ٱلعهودِ وٱلرَّسائِلِ .

٦ـ وتأْدِيَةِ ٱلمعنى ٱلواحدِ بأَلفاظٍ كثيرةٍ ، وجُمَلٍ مترادِفَةٍ .

وغير ذلكَ مِمَّا زانَ ٱللُّغَةَ مِنْ جهَةٍ وشانَها مِنْ جهَةٍ أُخرىٰ .

وما زالتِ ٱللُّغَةُ تتَّسِعُ وتنمو بٱتِّساعِ ٱلمُلْكِ ، وتقدُّمِ ٱلعلمِ ونموِّ ٱلحضارَةِ ، وتنتشرُ وتسمو في حِمى ٱلدِّينِ وظِلِّ ٱلخلافَةِ وسُلطانِ ٱلعربِ ، حتَّىٰ خلافَةِ ٱلمُتوكِّلِ على ٱللهِ سنةَ (٢٣٢هـ) ؛ إِذِ ٱستفحَلَ أَمرُ ٱلأَتراكِ ٱلَّذينَ جلبَهُمُ ٱلمعتصِمُ مِنَ (ٱلتُّركستانِ) ، فأَخذوا يغالبونَ ٱلعرَبَ ، ويواثبونَ ٱلفرسَ ، ويغتصبونَ ٱلسُّلطانَ .

وكانَ ٱلأَمرُ للموالي بعدَ غلبَةِ ٱلمأْمونِ ـ وهُم شيعَةٌ ـ فجاءَ ٱلمتوكِّلُ فعضَدَ ٱلأَتراكَ ، ونصرَ ٱلسُّنَّةَ .

فتقاتَلَ ٱلعنصرانِ ، وتناضَلَ ٱلمذهبانِ ، وٱبتغىٰ كُلٌّ منهُما ٱلفَلَجَ وٱلفوزَ بقهرِ ٱلعربِ ، وكبتِ ٱلخلفاءِ ، حتَّىٰ ذهبَ جلالُ ٱلخلافَةِ مِنَ ٱلنُّفوسِ ، وزالَتْ هيبتُها مِنَ ٱلقلوبِ ، فٱستشرفَ ولاةُ ٱلأَطرافِ إِلى ٱلاستقلالِ .

وبدأَ بنو بويهِ فوضَعوا أَيديَهُم سنةَ (٣٣٤هـ) علىٰ شؤُونِ ٱلدَّولَةِ في (بغدادَ) ، وٱمتدَّ نفوذُهم إِلىٰ جُلِّ ٱلممالِيكِ ٱلشَّرقيَّةِ ٱلإِسلاميَّةِ ، فأَخذَ سلطانُ ٱلعربِ وٱلعربيَّةِ يتراجَعُ في ٱلشَّرقِ ، وهَبَّ أَحفادُ ٱلأَكاسِرَةِ ، وأَبناءُ ٱلدَّهاقينِ يستردُّونَ مجدَ أَجدادِهم ، ويطارِدونَ ٱللُّغَةَ ونفوذَها في بلادِهم .

وطَلبوا إِلىٰ شعرائِهِم مِنْ أَمثالِ (ٱلدِّقيِّ وٱلفردوسيِّ)[1] أَنْ يُجدِّدوا مفاخرَ ٱلأَسلافِ بتأْليفِ ٱلمنظوماتِ ٱلقصصيَّةِ ، وٱلأَناشيدِ ٱلقوميَّةِ .

ومِنَ ٱلعجيبِ أَنْ تَمَّ لَهُم ذلكَ سريعاً ؛ فإِنَّ ٱلمتنبِّيَ ـ وهوَ مِن رجالِ ٱلقرنِ ٱلرَّابعِ ـ يقولُ وقد زارَ (شِعبَ بوَّانَ) من بلادِ ٱلفرسِ : [من الوافر]

مَغَانِيْ ٱلشِّعْبِ طِيْباً فِيْ ٱلْمَغَانِيْ — بِمَنْزِلَةِ ٱلرَّبِيْعِ مِنَ ٱلزَّمَانِ
وَلٰكِنَّ ٱلْفَتَى ٱلْعَرَبِيَّ فِيْهَا — غَرِيْبُ ٱلْوَجْهِ وَٱلْيَدِ وَٱللِّسَانِ
مَلاَعِبُ جِنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيْهَا — سُلَيْمَانٌ لَسَارَ بِتَرْجُمَانِ

ثُمَّ ٱقتدىٰ بٱلفرسِ في ذلكَ ٱلأَتراكُ وٱلأَكرادُ .

ولكنَّ ٱلعربيَّةَ بقيَتْ في حِمى ٱلقرآنِ تدافِعُ سيلَ ٱلفارسيَّةِ وٱلتُّركيَّةِ ٱلجارفَ .

وقد عزَّ ٱلنَّصيرُ مِن أَهلِها ، حتَّىٰ غلبَ ٱلتَّتارُ علىٰ (بغدادَ) فغُلِبَتْ علىٰ أَمرِها ، وخضعَتْ لقانونِ ٱلطَّبيعَةِ ٱلقاهرةِ بعدما خلَّفت في تلكَ ٱلبلادِ شرائِعَ وعلوماً وآداباً لَم تقوَ علىٰ محوِها ٱلأَيَّامُ .

* * *

---

(١) أَلَّفَ ٱلفردوسيُّ كتاباً سمَّاهُ : « شاه نامه » ، وهوَ ستُّونَ أَلفَ بيتٍ مِنَ ٱلشِّعرِ ، يشتملُ علىٰ تاريخِ ٱلفُرسِ ، وهوَ قرآنُ ٱلقومِ ، وقد أَجمعَ فصحاؤُهم علىٰ أَنَّهُ ليسَ في لغتِهِم أَفصحَ منهُ .

ترجمة
مفخرة الأدب العربي، الشاعر الحكيم
أبي الطيّب المتنبّي
أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصّمد الكنديّ

رحمه الله تعالى

(٣٠٣ـ٣٥٤هـ)

بقلم
محمّد مصطفى الخطيب

نشأتُه وحياتُه :

أَبو ٱلطَّيِّبِ أَحمدُ بنُ ٱلحسينِ ٱلمُتَنبِّي ، وُلِدَ بـ(ٱلكوفةِ) من أَبوينِ فقيرَينِ .

كانَ أَبوهُ سقَّاءً بٱلكوفَةِ ، ثُمَّ سافرَ بِهِ وهو صغيرٌ إلى (ٱلشَّامِ) متنقِّلاً مِنَ ٱلباديَةِ إلى ٱلحاضرَةِ ، يُسلِمُهُ إلى ٱلمَكاتِبِ ، ويُرَدِّدُهُ في ٱلقبائِلِ ، ومخايلُهُ نواطِقُ بفضلِهِ ، ضوامِنُ لنُجحِهِ . . حتَّىٰ تُوُفِّيَ أَبوهُ ، وقد ترعرَعَ ٱلشَّاعِرُ ، ونالَ حظَّهُ مِن علومِ ٱللُّغَةِ وٱلأَدبِ ، فأَخذَ يضربُ في ٱلأَرضِ ؛ ٱبتغاءً للرِّزقِ وٱكتساباً للمجدِ .

وكانَ ٱلمُتنبِّي منذُ نشأَتِهِ كبيرَ ٱلنَّفسِ ، عاليَ ٱلهِمَّةِ ، طَموحاً إلى ٱلمجدِ ، بلغَ مِن كِبَرِ نفسهِ أَن دعا إلىٰ بيعتِهِ بٱلخلافَةِ وهو لَدْنُ ٱلعودِ ، حديثُ ٱلسِّنِّ .

وحينَ كادَ يتمُّ ٱلأَمرُ . . تأَدَّىٰ خبرُهُ إلىٰ والي ٱلبلدةِ . . فأَمرَ بحبسهِ ، فكتبَ إِليهِ مِنَ ٱلسِّجنِ قصيدةً : [مِنَ المتقاربِ]

أَمَالِكَ رِقِّي وَمَنْ شَأْنُهُ	هِبَاتُ اللُّجَيْنِ وَعِتْقُ ٱلْعَبِيْدْ
دَعَوْتُكَ عِنْدَ انْقِطَاعِ ٱلرَّجَا	ءِ وَٱلْمَوْتُ مِنِّيْ كَحَبْلِ ٱلْوَرِيْدْ
دَعَوْتُكَ لَمَّا بَرَانِيْ ٱلْبِلَىٰ	وَأَوْهَنَ رِجْلَيَّ ثِقْلُ ٱلْحَدِيْدْ

فأَطلقَهُ .

ولكنَّ حُبَّ ٱلرِّياسَةِ لَم يَزَلْ مُتمكِّناً مِنْ قلبِهِ إلىٰ أَنْ أَخلقَ بُردَ شبابِهِ ، وتضاعفَ عقودُ عُمُرِهِ .

وفي سنة (٣٣٣هـ) ٱدَّعى ٱلنُّبُوَّةَ في (ٱلشَّامِ) ، وفتنَ شِرذمةً مِنَ ٱلنَّاسِ بقوَّةِ أَدبِهِ ، وسحرِ بيانِهِ .

وصنَّفَ كلاماً عارضَ بهِ ٱلقرآنَ ، فلمَّا ٱشتهَرَ أَمرُهُ . . قَبَضَ عليهِ لؤلؤٌ أَميرُ حِمصَ ، نائِبُ ٱلإِخشيديَّةِ ، فأَوثقَهُ ، ثُمَّ أَطلقَهُ بعدَ أَنِ ٱستتابَهُ وَتفرَّقَ عنهُ أَصحابُهُ .

فطَفِقَ يَتَجشَّمُ أَسفاراً أَبعدَ مِن آمالِهِ ، ولا زادَ إِلاَّ صبرُهُ ، ولا عُدَّةَ إِلاَّ بأْسُهُ ، كما يتجلَّىٰ ذلكَ في مِثْلِ قولِهِ : [مِنَ ٱلطَّويلِ]

وَحِيدٌ مِنَ ٱلْخُلاَّنِ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ	إِذَا عَظُمَ ٱلْمَطْلُوبُ قَلَّ ٱلْمُسَاعِدُ

وقولِهِ : [مِنَ ٱلخفيفِ]

ضَاقَ صَدْرِيْ وطَالَ فِي طَلَبِ ٱلرِّزْ	قِ قِيَامِيْ وَقَلَّ عَنْهُ قُعُودِيْ
أَبَداً أَقْطَعُ ٱلْبِلاَدَ وَنَجْمِيْ	فِيْ نُحُوسٍ وَهِمَّتِيْ فِيْ سُعُوْدِ

ولَمْ يَزَلْ هٰكذا حتَّى ٱتَّصَلَ بأبي ٱلعشائِرِ ـ والي (أنطاكيَّة) مِنْ قِبَلِ سيفِ ٱلدَّولَةِ ـ وٱمتدَحَهُ فأكرَمَ مثواهُ ، وقدَّمَهُ إلىٰ سيفِ ٱلدَّولَةِ ، وعرَّفَهُ بمنزلتِهِ مِنَ ٱلشِّعرِ وٱلأَدَبِ .

فَضمَّهُ ٱلأميرُ إليهِ ، وحَسُنَ موقِعُهُ عندَهُ ، فسلَّمَهُ إلى ٱلرُّوَّاضِ فعلَّموهُ ٱلفروسيَّةَ ، وٱلطِّرادَ ؛ حتَّىٰ لا يفارِقَهُ في ٱلحربِ ولا في ٱلسِّلْمِ .

ودرَّت لَهُ أَخلافُ ٱلدُّنيا علىٰ يَديهِ ، حتَّىٰ كانَ مِن قولِهِ فيهِ : [مِنَ ٱلطَّويلِ]

تَـرَكْـتُ ٱلسُّرَىٰ خَلْفِـيْ لِمَنْ قَـلَّ مَـالُـهُ ... وَأَنْعَلْـتُ أَفْـرَاسِـيْ بِنَعْمَـاكَ عَسْجَـدَا

وَقَيَّـدْتُ نَفْسِـيْ فِـيْ هَـوَاكَ مَحَبَّـةً ... وَمَـنْ وَجَـدَ ٱلإِحْسَـانَ قَيْـداً . تَقَيَّـدَا

ولَم يَزَلْ معَهُ في حالٍ حَسَنَةٍ حتَّىٰ حَدَثَتْ بينَهما جفوةٌ ، ففارَقَهُ إلىٰ (مصرَ) في سنة (٣٤٦هـ) .

ومدحَ كافوراً ٱلإخشيديَّ وأَبا شجاعٍ .

وأقامَ في (مصرَ) خمسَ سنينَ يرقُبُ ٱلفرصَةَ مِن كافورٍ فيصعَدُ ٱلمجدَ علىٰ كاهِلِهِ .

فما هو إلاَّ أن قالَ : [مِنَ ٱلطَّويلِ]

أَبَا ٱلْمِسْكِ هَلْ فِيْ ٱلْكَأْسِ فَضْلٌ أَنَالُهُ ... فَـإِنِّـيَ أَغْنَـىٰ مُنْـذُ حِيْـنٍ وَتَشْـرَبُ

وقالَ : [مِنَ ٱلطَّويلِ]

وَهَـلْ نَـافِعِـيْ أَنْ تُـرْفَـعَ ٱلْحُجْـبُ بَيْنَنَـا ... وَدُوْنَ ٱلَّـذِيْ أَمَّلْـتُ مِنْـكَ حِجَـابُ

وَفِـيْ ٱلنَّفْـسِ حَـاجَـاتٌ وَفِيْـكَ فَطَـانَـةٌ ... سُكُـوْتِـيْ بَيَـانٌ عِنْـدَهَـا وَخِطَـابُ

حتَّىٰ أَوجَسَ كافورُ منهُ خِيفةً ؛ لتعاليهِ في شعرِهِ ، وطموحِهِ إلى ٱلمُلْكِ ، فزوىٰ عنهُ وجهَهُ ، فهجاهُ ، وقَصَدَ (بغدادَ) .

ولم يمدحِ ٱلوزيرَ ٱلمُهلَّبيَّ ؛ لأَنَّهُ كانَ يترفَّعُ عن مدحِ غيرِ ٱلملوكِ ، فشقَّ ذلكَ على ٱلوزيرِ ، فأَشلىٰ عليهِ شعراءَ (بغدادَ) فنالوا من عِرضِهِ ومن شِعرِهِ .

ولكنَّهُ لَم يُجِبْهم ، وذَهَبَ قاصداً (أَرَّجانَ) ؛ لزيارَةِ ٱلفضلِ بنِ ٱلعميدِ ، فكتبَ إليهِ ٱلوزيرُ ٱلصَّاحِبُ بنُ عبَّادٍ يستزيرُهُ بـ(أصبهانَ) ؛ طامعاً أَن يمدحَهُ . . فلَم يُقِمْ لهُ وزناً ، وأَمَّ عَضُدَ ٱلدَّولةِ بـ(شيراز) .

فأُوغِرَ عليهِ قلبُ ٱلصَّاحبِ ، وأَخَذَ يَتتَبَّعُ هفواتِهِ ـ وهو أَعلمُ ٱلنَّاسِ بحسناتِهِ ـ وشَنَّ عليهِ هو وأَشياعُهُ حرباً قَلَميَّةً ، وأَلَّفَ ٱلكتبَ في نقدِهِ ، ورمَوهُ بٱلسَّرقَةِ وٱلخروجِ عَنِ ٱلأَساليبِ ٱلعربيَّةِ ، وهو لا يأْبَهُ لهم ؛ ذهاباً بنفسِهِ وإعجاباً بشعرِهِ .

ولمَّا حَصَلَ عندَ عَضُدِ ٱلدَّولَةِ . . أَسبغَ عليهِ نعمتَهُ ، ووصلَهُ بثلاثَةِ آلافِ دينارٍ وخيولٍ وثيابٍ .

ثُمَّ دسَّ مَنْ يسأَلُهُ : أَينَ هٰذا ٱلعطاءُ مِن عطاءِ سيفِ ٱلدَّولَةِ ؟ فقالَ لهُ : هٰذا أَجزلُ . . لكنَّهُ مُتكلِّفٌ ، وسيفُ ٱلدَّولَةِ يُعطي طبعاً .

فغضِبَ عليهِ عضدُ ٱلدَّولَةِ مِن ذلكَ ، فجهَّزَ عليهِ فاتِكاً ٱلأَسديَّ ، ولمَّا بلغَهُ مغادَرَةُ ٱلمُتنبِّي لبلادِ فارسَ ، وعلمَ ٱجتيازَهُ بجبلِ ديرِ ٱلعاقولِ . . تتبَّعَ أَثَرَهُ .

وكانَ أبو ٱلطَّيِّبِ قد مَرَّ بأَبي نصرِ مُحَمَّدِ ٱلحلبيِّ ، فأَطلَعَهُ علىٰ حقيقةِ ٱلأمرِ ، وما ينويهِ فاتكٌ مِنَ ٱلشَّرِّ لَهُ ، ونصحَهُ بأَن يَصْحَبَ معهُ مَن يَستأْنِسُ بهِ في ٱلطَّريقِ .

فلَم يزدَدْ إلاَّ أَنفَةً وعناداً ، وأَبىٰ أَنْ يصحبَ معهُ أَحداً قائلاً : أَنَا وٱلجُرازُ[1] في عُنُقي فما بي حاجةٌ إِلىٰ مُؤْنِسٍ . ثُمَّ قالَ : وٱللهِ لا أَرضىٰ أَن يتحدَّثَ ٱلنَّاسُ بأَنَّني سِرتُ في خفارَةِ غيرِ سَيفي .

فحذَّرَهُ أَبو ٱلنَّصرِ كثيراً ، فما كانَ منهُ إلاَّ أَنْ أَجابَ :

أَبنَجوِ ٱلطَّيرِ تُخَوِّفُني ؟ ومِن عبيدِ ٱلعَصا تخافُ عَلَيَّ ؟!! وٱللهِ لَو أَنَّ مِخْصَرتي هـٰذهِ ملقاةٌ علىٰ شاطىءِ ٱلفراتِ ، وبنو أَسَدٍ معطَّشون لخَمسٍ ، وقد نظروا ٱلماءَ كبطونِ ٱلحيَّاتِ . . ما جَسَرَ لَهم خُفٌّ ولا ظِلفٌ أَنْ يَرِدَهُ ، معاذَ ٱللهِ أَن أَشغلَ فكري بهم لحظةَ عينٍ .

فقالَ لَهُ أَبو نصرٍ : قُلْ : إن شاءَ ٱللهُ .

فقالَ : هي كلمةٌ مقولَةٌ ، لا تَدفَعُ مَقضياً ، ولا تستجلِبُ آتياً .

ثُمَّ رَكِبَ وسارَ ، فلقيَهُ فاتِكٌ في ٱلطَّريقِ فقتَلَهُ وقتلَ معَهُ ولدَهُ مُحَسِّداً وغلامَهُ مُفلحاً .

وكانَ مقتَلُهُ في (٢٨) رمضان سنة (٣٥٤هـ) .

شعره :

ٱلمُتنبِّي شاعرٌ مِن شعراءِ ٱلمعاني ، وَفَّقَ بينَ ٱلشِّعرِ وٱلفلسفَةِ ، وجعلَ أَكثرَ عنايتِهِ بٱلمعنىٰ ، وأَطلقَ ٱلشِّعرَ مِنَ ٱلقيودِ ٱلَّتي قَيَّدَهُ بها غيرُهُ مِنَ ٱلشُّعراءِ ، وخَرَجَ بهِ عَنْ أَساليبِ ٱلعربِ ٱلتَّقليديَّةِ ، فهوَ إِمامُ ٱلطَّريقَةِ ٱلابتداعيَّةِ في ٱلشِّعرِ ٱلعربيِّ .

ولقد حَظِيَ في شعرِهِ بٱلحِكَمِ وٱلأَمثالِ ، وٱختصَّ بٱلإبداعِ في وصفِ ٱلقتالِ ، وٱلتَّشبيبِ بٱلأَعرابيَّاتِ ، وإِجادَةِ ٱلتَّشبيهِ ، وإِرسالِ ٱلمَثَلَينِ في ٱلبيتِ ٱلواحِدِ ، وحُسْنِ ٱلتَّخلُّصِ ، وصِحَّةِ ٱلتَّقْسِيمِ ، وإِبداعِ ٱلمديحِ ، وإِيجاعِ ٱلهجاءِ .

وأَخصُّ ما يميِّزُ ٱلمُتنبِّيَ بروزُ شخصيَّتِهِ في شعرِهِ ، وصدقُ إِيمانِهِ برأْيِهِ ، وقُوَّةُ ٱعتدادِهِ بنفسِهِ ، وصِحَّةُ تعبيرِهِ عَنْ طبائِعِ ٱلنَّفسِ ، ومشاغِلِ ٱلنَّاسِ ، وأَهواءِ ٱلقلوبِ ، وحقائِقِ ٱلوجودِ ، وأَغراضِ ٱلحياةِ .

لذلكَ كانَ شِعرُهُ في كُلِّ عصرٍ مَدداً لكُلِّ كاتِبٍ ، ومَثَلاً لكُلِّ خاطِبٍ .

نموذجٌ مِن بديعِ شعرِهِ :

قالَ يشكو ٱلزَّمانَ : [مِنَ ٱلبسيطِ]

لَـمْ يَتْـرُكِ ٱلـدَّهْـرُ مِـنْ قَلْبِـيْ وَلاَ كَبِـدِيْ ... شَيْئـاً تُتَيِّمُـهُ عَيْـنٌ وَلاَ جِيْـدُ

يَـا سَـاقِيَـيَّ أَخَمْـرٌ فِـيْ كُـؤُوْسِكُمَـا ... أَمْ فِـيْ كُـؤُوْسِكُمَـا هَـمٌّ وَتَسْهِيْـدُ ؟

أَصَخْـرَةٌ أَنَـا ! ؟ مَـا لِـيْ لاَ تُغَيِّـرُنِـيْ ... هَـٰذِيْ ٱلْمُـدَامُ وَلاَ تِلْـكَ ٱلأَنَـاشِيْـدُ ؟

---

(١) ٱلجُرازُ : السيف .

إِذَا أَرَدْتُ كُمَيْتَ ٱللَّوْنِ صَافِيَةً ... وَجَدْتُهَا وَحَبِيْبُ ٱلنَّفْسِ مَفْقُوْدُ
مَاذَا لَقِيْتُ مِنَ ٱلدُّنْيَا ؟ وَأَعْجَبُهَا ... أَنِّيْ بِمَا أَنَا بَاكٍ مِنْهُ مَحْسُوْدُ

وقالَ : [مِنَ ٱلوافرِ]

نَصِيْبُكَ فِيْ حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيْبٍ ... نَصِيْبُكَ فِيْ مَنَامِكَ مِنْ خَيَالِ
رَمَانِيْ ٱلدَّهْرُ بِٱلأَرْزَاءِ حَتَّىٰ ... فُؤَادِيْ فِيْ غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِيْ سِهَامٌ ... تَكَسَّرَتِ ٱلنِّصَالُ عَلَىٰ ٱلنِّصَالِ
وَهَانَ فَمَا أُبَالِيْ بِٱلرَّزَايَا ... لأَنِّيْ مَا ٱنْتَفَعْتُ بِأَنْ أُبَالِيْ

وقالَ : [مِنَ ٱلخفيفِ]

صَحِبَ ٱلنَّاسُ قَبْلَنَا ذَا ٱلزَّمَانَا ... وَعَنَاهُمْ مِنْ أَمْرِهِ مَا عَنَانَا
وَمُرَادُ ٱلنُّفُوْسِ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ ... نَتَعَادَىٰ فِيْهِ وَأَنْ نَتَفَانَىٰ
غَيْرَ أَنَّ ٱلْفَتَىٰ يُلاَقِيْ ٱلْمَنَايَا ... كَالِحَاتٍ وَلاَ يُلاَقِيْ ٱلْهَوَانَا
وَلَوَ ٱنَّ ٱلْحَيَاةَ تَبْقَىٰ لِحَيٍّ ... لَعَدَدْنَا أَضَلَّنَا ٱلشُّجْعَانَا
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلْمَوْتِ بُدٌّ ... فَمِنَ ٱلْعَارِ أَنْ تَمُوْتَ جَبَانَا

وقالَ : [مِنَ ٱلطَّويلِ]

وَأَتْعَبُ خَلْقِ ٱللهِ مَنْ زَادَ هَمُّهُ ... وَقَصَّرَ عَمَّا تَشْتَهِيْ ٱلنَّفْسُ وُجْدُهُ
فَلاَ مَجْدَ فِيْ ٱلدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ ... وَلاَ مَالَ فِيْ ٱلدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ
وَفِيْ ٱلنَّاسِ مَنْ يَرْضَىٰ بِمَيْسُوْرِ عَيْشِهِ ... وَمَرْكُوْبُهُ رِجْلاَهُ وَٱلثَّوْبُ جِلْدُهُ

وقالَ : [مِنَ ٱلطَّويلِ]

وَأَظْلَمُ أَهْلِ ٱلظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِداً ... لِمَنْ بَاتَ فِيْ نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

ومِن أَمثالِهِ ٱلسَّائِرَةِ : [مِنَ ٱلبسيطِ]

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّىٰ ٱلْمَرْءُ يُدْرِكُهُ ... تَجْرِيْ ٱلرِّيَاحُ بِمَا لاَ تَشْتَهِيْ ٱلسُّفُنُ

ومِنها أَيضاً : [مِنَ ٱلوافرِ]

وَلَمْ أَرَ فِيْ عُيُوْبِ ٱلنَّاسِ عَيْباً ... كَنَقْصِ ٱلْقَادِرِيْنَ عَلَىٰ ٱلتَّمَامِ

ومِنها أَيضاً : [مِنَ ٱلطَّويلِ]

أَعَزُّ مَكَانٍ فِيْ ٱلدُّنَىٰ سَرْجُ سَابِحٍ ... وَخَيْرُ جَلِيْسٍ فِيْ ٱلأَنَامِ كِتَابُ

ومِنها : [مِنَ ٱلطَّويلِ]

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِٱلسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ ... تَعَدَّدَتِ ٱلأَسْبَابُ وَٱلْمَوْتُ وَاحِدُ

ومنها : [مِنَ ٱلكاملِ]

وَٱلظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ ٱلنُّفُوْسِ فَإِنْ تَجِدْ ... ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لاَ يَظْلِمُ
ذُوْ ٱلعَقْلِ يَشْقَىٰ بِٱلنَّعِيْمِ بِعَقْلِهِ ... وَأَخُو ٱلْجَهَالَةِ فِيْ ٱلشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ
وَٱلْهَمُّ يَعْتَرِضُ ٱلْجَسِيْمَ نَحَافَةً ... وَيُشِيْبُ نَاصِيَةَ ٱلصَّغِيْرِ وَيُهْرِمُ

❊ ❊ ❊



ترجمة
علامة حضرموت ومفتيها
السيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف
رحمه الله تعالى[1]
(١٣٠٠ـ ١٣٧٥هـ)

بقلم
محمد أبو بكر باذيب

اسمه ونسبه :

هو : عبد الرحمـٰن بن عبيد الله بن محسن بن علوي بن سقاف بن محمد بن عمر بن طه بن عمر الصافي ابن عبد الرحمـٰن بن محمد بن علي ابن الشيخ الكبير عبد الرحمـٰن السقاف بن محمد (مولى الدويلة) ابن علي بن علوي ابن الإمام الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم محمد بن علي بن محمد (صاحب مرباط) ابن علي (خالع قسم) ابن علوي (صاحب بيت جبير) ابن محمد (مولى الصومعة) ابن علوي (صاحب سمل) ابن عبيد الله ابن المهاجر إلى الله أحمد بن عيسى بن محمد (النقيب) ابن علي (العريضي) ابن جعفر (الصادق) ابن محمد (الباقر) ابن علي (زين العابدين) ابن الإمام الشهيد السبط الحسين ابن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب وابن سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء البتول ابنة سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

نسبٌ تحسب العلا بحلاه   قلدتها نجومها الجوزاءُ

مولده ونشأته :

كان مولد نابغة حضرموت في السابع والعشرين من شهر رجب سنة (١٣٠٠هـ) ، في المحل المسمىٰ (عَلَمْ بَدْر)[2] ، بمدينة سيئون ، إحدىٰ أشهر المدن الحضرمية .

ونشأ مترجَمُنا نشأة صالحة في كنف أسرته ، وهي إحدى الأسر المرموقة المشهورة بالعلم والكرم ، وظهر منها علماء كبار ، وأعلام أفذاذ ، كانوا ولا زالوا بهجة العصر وزينة الوقت ، فاجتمع للمترْجَم طِيبُ النِّجار ، وشَرَفُ الدار .

فوالده العابد الصالح العالم الآتي ذكره لاحقاً ، وجده السيد الجليل الزعيم المصلح الحبيب محسن بن علوي السقاف المتوفىٰ سنة (١٢٩١هـ) ، الرجل الذي ملأت شهرته ربوع الوادي في عصره ، وكانت له مواقف سياسية واجتماعية مشهورة ، إلىٰ جانب زعامته الدينية والروحية .

شيوخه :

أولهم والده السيد عبيد الله ، الرجل الصالح العابد الزاهد الورع ، كانت ولادته في (١٢٦١هـ) ووفاته في (١٣٢٤هـ) ، وكان والده يصطحبه إلىٰ رحاب شيخه الإمام الرباني العلامة عيدروس بن عمر الحبشي صاحب

---

(١) هـٰذه الترجمة اقتطفت من ترجمة حافلة موسعة للسيد السقاف . . هي قيد الإعداد والجمع والمراجعة وستصدر في كتاب مستقل إن شاء الله تعالىٰ ، بقلم الأستاذ البحاثة محمد أبو بكر باذيب ، جزاه الله خيراً .

(٢) أصل هـٰذه الكلمة أو المسمىٰ هو (علي بن بدر) وإنما حرِّفت عن أصلها لكثرة تداولها . . ويبدو أنه كان مسمىٰ لأحد أمراء آل كثير في الماضي .



(الغرفة) ، المتوفىٰ بها سنة (١٣١٤هـ) ، فأخذ عنه أخذاً تاماً ، وهو دون سن البلوغ ، وكان تأثره وتعلقه به قوياً للغاية .

وكان ابتدأ تعلمه القرآن الكريم وقراءته علىٰ يد المعلم الصالح الشيخ عبد القادر بن عبد الله باحميد .

وقرأ النحو وما تعلق به على العلامة المتفنن الشيخ محمد بن محمد باكثير (ت١٣٥٥هـ) .

وقرأ الفقه ، حقق مسائله علىٰ شيخه العلامة الفقيه مفتي سيئون السيد علوي بن عبد الرحمٰن بن علوي السقاف (ت١٣٢٨هـ) .

وله جمع كبير من الشيوخ لا تتسع هٰذه العجالة لذكرهم .

ولقد كانت الاستعدادات الفطرية والمواهب الذاتية لدى المترجم له كبيرة جداً ، فقد رزقه الله عقلاً صافياً ، وفكراً نيراً ، وقريحة وقادة .

وكان قوي الذاكرة ، سريع الاستحضار والبديهة ، يغوص في العلم ومسائله حتىٰ يستخرج اللآلىء والدرر ، وما مصنفاته إلا شاهدة علىٰ صحة هٰذا القول وهٰذه الدعوىٰ .

فنظرة علىٰ « صوب الركام » أو « العود الهندي » ترد طَرْف الناظر حسيراً مملوءاً بالإعجاب والإكبار .

حتىٰ إنه ـ رحمه الله تعالىٰ ـ يقول : (كنت أيام شبابي أحياناً أضع يدي على الصفحة اليسرىٰ خوفاً من أن تقع عيني عليها ويسبق حفظي لها)!!

وقد قال عنه الشيخ حمد الجاسر رحمه الله تعالىٰ (ففضلاً عما لأسرته في (حضرموت) من المكانة وعلو المنزلة في نفوس أهل تلك البلاد . . بلغ مرتبةً من العلم أهّلته بينهم لأَنْ يحل أرفع المقامات ، فعُرف بعالم (حضرموت) ومفتي الديار الحضرمية ، وكان ذا نفوذ قوي في الشؤون العامة في تلك البلاد ، وصلة قوية بحكام أقاليمها ، وإسهام بارز في السعي لتوحيد أجزائها واستقلالها ، ورفع كابوس الاحتلال البريطاني الذي كان جاثماً عليها .

كما كان قوي الصلة بإمام (اليمن) يحيىٰ حميد الدين ، بحيث كان يرجع إليه في معالجة بعض القضايا العامة المتعلقة بالخلافات التي تقع بين حكام تلك البلاد ، كما يتضح من إشارات وردت في بعض كتبه) . انتهىٰ[1] .

بهٰذه العبارات التي أوردها الشيخ الجاسر رحمه الله تعالىٰ فقد لخص لنا صفحات وصفحات من سيرة هٰذا الرجل .

فلقد كان له المواقف المذكورة والجهود المشكورة ، وصولات وجولات ، تركنا التوسع فيها للترجمة الموسعة التي ستصدر عنه إن شاء الله تعالىٰ .

ولا بأس أن نذكر في هٰذه اللمعة موقفاً له مع الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله تعالىٰ . فلقد كانت له مواقف رجولية وبطولية كان فيها المتحدثَ الناصح والخبير بالشؤون السياسية وأمور الإصلاح .

فمما دار بينهما في مجلس عقد في موسم حج عام (١٣٥٢هـ) . . ما حكاه ابن عبيد الله بنفسه حيث يقول : (. . . ولما اجتمعت أنا بابن السّعود في ذلك العام ، بدأني بالحديث عن قضية الصلح بينه وبين إمام اليمن ، فكان موافقاً لما تحدث به إِليَّ ابن الوزير سواءً بسواءٍ ، وقال لي الملك عبد العزيز : إنني لما أبرقت إلىٰ ولدي فيصل بالجلاء عن

---

(١) مجلة العرب العددان ٥/٦ ، السنة (٢٦) تاريخ ذي القعدة وذي الحجة (١٤١١هـ) .



الحديدة. . أجابني بأن الانتحار أهون عليه من ذلك ، فأجبته : بأن انتحارك لا يقلل من عدد أبنائي وقد نيّفوا على الأربعين ، ثم هو هيّن عليَّ في سبيل حقن دماء المسلمين. . . هٰذا نص كلامه لي بمرأىً من ولده فيصل ومسمع)[1] .

وهكذا كانت تحركاته الواسعة داخل هٰذه الدائرة ، علت به إليها همته ، وحملته عزيمته ونيته .

وهنا يبرز لنا سؤال يفرض نفسه في هٰذا المقام : وهو بأي صفة كان يتكلم هٰذا الإمام مع الملوك والزعماء في السياسة والحروب وكأنه واحد منهم ؟ وكيف يتبادلون معه الأحاديث السياسية وكأنه خبير أو مستشار وهو لا يمثل دولة ؟ وليس له صفة سياسية ؟! إنه ولا شك يمثل دولة العلم ، إنها قوة الشخصية الممتلئة بالعلم والإيمان ، وبالحيوية والروح النورانية المكتسبة منذ الصغر من نظرات شيوخه العارفين[2] .

مؤلفاته :

صنف ابن عبيد الله مصنفات تشهد له بالبراعة وعلو الكعب ، وسنتحدث عن هٰذه المصنفات كدلائل وشواهد للجوانب العلمية التي حظي بها مترجمنا ، وكذلك لننفض الغبار عن الكنوز العظيمة التي خلفها الرجل ، عسىٰ ولعل أن تتاح الفرصة لنشرها وإظهارها ؛ ليعم النفع والانتفاع بها .

أولاًـ مصنفاته الفقهية :

١ـ صوب الركام في شؤون القضاء والأحكام ، مجلدان ، وهو مطبوع .

٢ـ حاشية علىٰ كتاب (فتح الجواد بشرح الإرشاد) .

٣ـ حاشية علىٰ كتاب (منهاج الطالبين) للإمام محيي الدين النووي رحمه الله .

٤ـ حاشية علىٰ « تحفة المحتاج بشرح المنهاج » .

ثانياًـ مصنفاته في الحديث :

١ـ بلابل التغريد فيما أفدناه أيام التجريد ، يقع في ثلاث مجلدات .

قال عنه الأستاذ الزركلي : هو أشبه بكتب الأمالي في ثلاثة أجزاء .

وقد صنفه أيام تدريسه للتجريد الصريح للجامع الصحيح « مختصر صحيح البخاري » للإمام العلامة الزبيدي الشرجي .

٢ـ حاشية على الشمائل النبوية للإمام الترمذي .

ثالثاًـ مصنفاته التاريخية :

١ـ بضائع التابوت في نتف من تاريخ حضرموت ، يقع في ثلاث مجلدات ضخام . قال عنه الزركلي : (وأتىٰ فيه بعلم غزير في تاريخ حضرموت وبيوتها وحكامها وأعلامها ، إلى استطرادات في فنون مختلفة من أدب وحديث

(١) السيد عبد القادر الخرد من مقدمته علىٰ كتابه « صوب الركام » .

(٢) المصدر السابق .



وفقه ، إلىٰ وثائق سياسية ومعاهدات وملحوظات)[1] .

٢ـ « إدام القوت » أو « معجم بلدان حضرموت » ، وهو الكتاب الذي قام الشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ـ بنشره في مجلة « العرب » طوال خمس سنوات ، وهو كتاب يعنىٰ بتاريخ بلدان حضرموت مع ذكر لبعض أعيانها وقد اختصره من كتاب « بضائع التابوت » ، وقد صدر الكتاب محققاً عن دار المنهاج للنشر والتوزيع في مجلد ضخم .

رابعاً ـ مؤلفاته الأدبية والنقدية :

الحديث عن الجانب الأدبي النقدي عند ابن عبيد الله حديث يطول ويطول ، فمن ذا يطاول قريع البلغاء وكبير الأدباء ، وحسبنا قبل أن ندلج إلىٰ وصف وذكر مصنفاته الأدبية التي أحدها كتابنا هـٰذا « العود الهندي » الذي نتشرف بنشره . . أن نبين إن استطعنا أننا أمام رجل غير عادي ، رجل صاحب فكر حر ، وذهن صافٍ ، وفهم صحيح ، وذكاء وقاد ، إلىٰ غير ذلك من الصفات التي قلما تجتمع في رجل .

انظر معي إلىٰ حسن استنباطاته ، ودقة فهمه ، ما جاء في مقدمة « ديوانه » حيث أنه فهم من قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أنها تدل علىٰ فضيلة الشعر وعلو مقامه ، بعكس مفهوم المفسرين فيها .

قال رضي الله عنه : (ومن أنصع الأدلة علىٰ تفضيله ـ أي : الشعر ـ صرف سيد البشر صلى الله عليه وسلم عن سبيله ، لأنه وإن كان الذكر علياً والفكر جلياً ، ويستحيل أن يشبه بلاغة القرآن غيره . . فإنه لا يمكن التشكيك إلا به عند من قل خيره ، فلو كان عليه السلام شاعراً . . لكان للشبهة مجاز ، فكونه أمياً لا يقرضه أبلغ في الإعجاز ، وأما ما ينسب إلى الشعر من المذام ، فراجع إلى العلة التي انتشرت بأهله كالجذام ، وهي التكسب القبيح بالغلو في المديح ، وقد صاننا الله عن ذلك ، فالساحة براء ، وبيننا وبين الذل ـ إلا لله وحده ـ سبل وعرة ، وأرض عراء . . . إلخ .

كذلك تأمل معي المجلس الأول من كتابنا هـٰذا ، والذي يدور حول بيتي المتنبي : [مِنَ ٱلخفيف]

بأبي من وددته فافترقنا ... وقضى الله بعد ذاك اجتماعا

فافترقنا حولاً ولما التقينا ... كان تسليمه عليّ وداعا

فيا ترىٰ ، ما السبب الداعي للبدء بالكلام علىٰ هـٰذين البيتين ؟! ولِمَ شِعرُ الفراق هو المقدَّم عند ابن عبيد الله .

إن لذلك سبباً يرجع إلىٰ حسن استنباطه أيضاً ، إنه الاستنباط الذي انطلق من قاعدة قوية هي هـٰذه الشخصية الفذة ، لتحلق في أفق عالية لم يصل إليها أحد .

ولتوضيح ذلك : لننظر إلىٰ هـٰذا الحوار الذي دار بين ابن عبيد الله وشيخه العلامة النابغة السيد أبي بكر بن عبد الرحمـٰن بن شهاب الدين رحمه الله .

لقد دار ذلك الحوار بين الشيخ وتلميذه ، وكان مداره حول اختيار أحسن مواضيع الشعر ، وأيها أبلغ تأثيراً في النفوس .

---

(١) الأعلام (٣/ ٣١٥) .

قال الشيخ ابن شهاب : أحسنها الغزل والنسيب ، ولهـٰذا كان شعراء العرب يقدمون النسيب والغزل في قصائدهم .

فاستوقفه تلميذه ابن عبيد الله السقاف قائلاً : أما أنا . . فالذي أراه أن أحسن مواضيعه المؤثرة : شكوى الفراق ، ولي دليل علىٰ ذلك من كتاب الله تعالىٰ .

فسأله شيخه : ما هو دليلك ؟

فأجابه : دليلي عليه من سورة يوسف ، قوله تعالىٰ لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ . . ﴾ ، وسورة يوسف كلها محتوية علىٰ شكوى الفراق .

فاستحسن الشيخ ابن شهاب هـٰذا الجواب من تلميذه النجيب النابغة ، وقبّل بين عينيه .

أعتقد أن الحوار لا يحتاج إِلىٰ أي تعليق ، فلقد قطعت جهيزة قول كل خطيب ، وإِنما أردنا بإِيرادنا لهـٰذين الاستنباطين التمهيد للقارىء الكريم ، للاِنطلاق والتحليق في أجواء كتابنا هـٰذا .

نعود إِلىٰ متابعة ذكر مؤلفاته الأدبية والنقدية :

١ ـ « العود الهندي عن أماليَّ في ديوان الكندي » .

وهو كتابنا الذي نقدمه للقارىء الكريم ، قال عنه الشيخ حمد الجاسر : (يعد كتاب « العود الهندي » من أحفل كتب الأدب بالفوائد والفرائد من الأشعار والأخبار ، مما يدل علىٰ ما يتصف به مؤلفه من سعة الاطلاع ، مع رحابة الصدر في إِيراد ما قد يتحاشى البعض من إِيراده من النكت والنوادر ، وقد يسوق بعد ما يورد من الشواهد طرائف من الشعر أو القصص الحديثة) .

وقال الشيخ الجاسر أيضاً في موضع آخر : (ومع أن السيد السقاف لم يتلق العلم ـ فيما علمت عنه ـ خارج الجزيرة ، إِلا أن المرء حين يطالع أحد مؤلفاته ككتابه عن المتنبي . . يعجب من سعة اطلاعه ، وقوة استحضاره للشواهد والنصوص عند الحاجة ، وسرعة بديهته) .

لقد اختار المؤلف تسمية كتابه هـٰذا بـ « العود الهندي » ذلك المندل الزكي الرائحة ليتناسب مع كلمة (الطيّب) في كنيته المتنبي ، وكأنه يستنشق أريج أشعاره .

كما جعل لهـٰذا الكتاب « مجالس » بدل « أبواب » أو « فصول » لأن الأشعار تتناسب معها مجالس الأدب والشعر ، وكأنه تخيل نفسه في مجالس مع المتنبي يستوحي ويستلهم من أشعاره الخالدة التي لا زالت الأقلام تأتي بالجديد والمفيد في فهمها وتحليلها ، لأنها أشعار في غاية البلاغة والجزالة وقوة السبك في صياغة شعرية لم يأت أحد بمثلها إلى المعاني التي تفرد بالكثير منها .

فتناول في مجالسه ـ هـٰذه ـ جل مواضيع شعر المتنبي من : غزل ، ومديح ، وفخر ، ورثاء وفراق ووفاق وغيرها .

وما دمنا نتكلم على اسم الكتاب فلا بأس أن نعرج إِلىٰ نسبة المتنبي إِلىٰ كندة :

أطلق ابن عبيد الله علىٰ كتابه الذي تذوق فيه ونقد بعض أبيات شاعر العربية الكبير المتنبي اسم « العود الهندي » ليوافق سجعة اللقب الذي أطلقه على المتنبي وهو « الكندي » .



إن الذين ترجموا للمتنبي أجمعوا أنه ولد بمحلة بالكوفة تسمىٰ « محلة كندة » وهـٰذه المحلة كانت خطة من خطط الكوفة نزلها في الصدر الأول جماعة من بطون كندة فسميت بهم .

فقد كان أهل اليمن وحضرموت يشكلون تعداداً قدره ستة آلاف دار في سنة (٣١٤هـ) نصيب كندة منها ثلاثة آلاف بيت[١] .

وقد تحدث الشيخ محمود شاكر عن هـٰذه المحلة وتطرق إلى الحديث عن نسب أبي الطيب المتنبي في كتابه (المتنبي) فليرجع إليه من أراد التوسع في الأمر .

٢ـ ديوان ابن عبيد الله :

ديوان حافل بأصناف وألوان القصائد ، وأرقها وأعذبها وأجزلها .

طبع الديوان في رمضان (١٣٧٨هـ) تحت نظر وتصحيح الشيخ حسنين مخلوف ، ومراجعة السيد حسن بن عبد الرحمـٰن ابن المؤلف ـ رحمهما الله ـ وجاء مع فهارسه في (٥٥٢) صفحة . وتوجد مجموعة أخرىٰ من شعره لم تأخذ طريقها للنشر بعد ، وتقع في حوالي (٥٠٠) صفحة وهو يعد الجزء الثاني لا يزال مخطوطاً .

وهو فعلاً كما قال عنه الشيخ حسنين مخلوف : (ديوان شعر وعلم وأدب وتاريخ وسِيَر ودين وأخلاق) .

٣ـ « معارضة البردة » : طبعت بعدن سنة (١٣٦٧هـ) .

٤ـ « الرحلة الدوعنية » : وهي عبارة عن رحلة منظومة ، وقد قام ابن عبيد الله بهـٰذه الرحلة سنة (١٣٦٠هـ) ، وهي تعد من روائع أدب الرحلات .

٥ـ « النجم المضي في نقد عبقرية الشريف الرضي » ، ويسمىٰ « مفتاح الثقافة » ، اطلع عليه الزركلي فوصفه قائلاً : (انتقد به بعض ما جاء في « عبقرية الرضي » للدكتور زكي مبارك في جزء لطيف) . وهو مخطوط ويقع في مجلد متوسط .

٦ـ « النقد العلمي الذوقي في الجواب عن أبيات شوقي » :

وهو جزء لطيف يقع مخطوطاً في (٣٢) صفحة ومطبوعاً في (٢٢) صفحة .

خامساً ـ محاضراته وخطبه :

كان ابن عبيد الله السقاف ـ رحمه الله تعالىٰ ـ خطيباً بارعاً ، مفوهاً مصقعاً ، ومع ما ترىٰ له من المؤلفات إلا أنه يُذْكَر أنه في الخطابة أعظم منه في الكتابة ، فسبحان المعطي الوهاب .

وله مجموعة لا بأس بها من الخطب الجُمَعية أو في مناسبات أخرىٰ قيل إنها جمعت في مجلد . ولنذكر في هـٰذه العجالة بعض محاضراته :

١ـ محاضرة « تحقيق الفرق بين العامل بعلمه وغيره وما يتصل بذلك من حد الولاية وحكم الإلهام » . طبعَهُ بمصر سنة (١٣٥٥هـ) في (٣٢) صفحة بتقريظ العلامة أحمد المطاع الصنعاني .

---

(١) المتنبي محمود شاكر (ص١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣) .



٢ـ كلمة عن العدالة والمساواة : ألقاها في درسه بسيئون في (٩) ربيع الثاني سنة (١٣٧٢هـ) بعد أن سئل عن حكم الإسلام في ذلك ، وكانت على البديهة ارتجالاً بدون تحضير سابق .

٣ـ كلمة حول « تحديد الملكية » ، وهي رد على مقال للشيخ محمد عرفة نشر بمجلة الأزهر ، وتاريخها (١٦) ربيع الثاني (١٣٧٢هـ) .

سادساًـ الردود :

نذكر منها :

١ـ « النجم الدري في الرد على السيد سالم الجفري » .

٢ـ « نسيم حاجر في تأكيد قولي عن مذهب المهاجر » .

٣ـ « السيف الحاد لقطع الإلحاد » ، طبع بعدن في شعبان (١٣٦٩هـ) في (١٣٨) صفحة . وهو رد على كتاب « توحيد الأديان » للأستاذ حسين الصافي من أهالي جيزان ، وقد رجع الصافي عن كتابه بعد ذلك[(١)] .

تلاميذه :

سنذكر منهم ما تسمح به هذه العجالة فمنهم :

١ـ ابنه السيد الأديب الشاعر الأستاذ حسن بن عبد الرحمن ، المولود سنة (١٣٣٥هـ) والمتوفى سنة (١٤٠٦هـ) . كان والده شديد العناية به ، وكتب معظم مصنفاته ، ومنها هذا الكتاب « العود الهندي » من أجله كما في مقدمته . وللسيد حسن ديوان شعر حكمي طبع مؤخراً .

٢ـ ابنه الآخر السيد عبد القادر (قيدان) بن عبد الرحمن ، ولد بسيئون وتوفي مهاجراً في سورابايا سنة (١٣٩٩هـ) ، وهو أكبر أبنائه ، كان فاضلاً أديباً ، درس في مدرسة النهضة بسيئون ، وكان له نشاط أدبي في مهجره ، رحمهما الله .

٣ـ السيد علوي بن عبد الله بن حسين بن محسن بن علوي السقاف (١٣١٥هـ ـ١٣٩١هـ) عالم نحرير ، فقيه محقق ، أجمع عليه أهل عصره واعتبروه زعيماً مخلصاً ، كما أجمعوا على أنه الثاني في الفقه بعد شيخه العلامة ابن عبيد الله .

٤ـ السيد محمد بن شيخ المساوى المتوفى سنة (١٤٠٥هـ) بسيئون . كان من تلامذة ابن عبيد الله النجباء النوابغ ، نشأ مجداً في الطلب حتى بزَّ الأقران ، وشغل وظيفة كبرى بمدرسة النهضة العلمية بسيئون وكان يقوم ببعض الدروس العلمية بمسجد طه .

٥ـ السيد سالم بن علوي بن عبد الرحمن خرد ، المتوفى بجدة سنة (١٣٩٨هـ) . وهو العالم الشاعر ، الحافظ لكتاب الله ، الخطيب المصقع ، الكثير السعي لخير الناس ، الصريح في آرائه ، الجريء في إبداء معلوماته ، مع رحابة صدر ، ولطف معشر . وقد أفرده بالترجمة ابنه السيد عبد القادر خرد في كتاب سماه (هذا أبي) .

---

(١) أخبرني بهذا تلميذ المترجم السيد جعفر بن محمد السقاف .



٦ـ السيد العلامة محمد بن سالم بن حفيظ ، المولود في (١٣٣١هـ) والذي اختطفه الشيوعيون الملاحدة في ذي الحجة (١٣٩١هـ) . كان عالماً نزيهاً صادعاً بالحق ، يتردد على ابن عبيد الله ، وقد استفاد منه .

٧ـ السيد عبد القادر بن سالم « الروش » السقاف ، المتوفىٰ بسيئون في (١٤١٥هـ) . دَرَس في مدرسة النهضة العلمية بسيئون ، وتخرج منها ، ثم درّس فيها ، وكان مواظباً علىٰ حضور مجالس شيوخه ، عظيم الرغبة في الطلب والتحصيل والبحث والمطالعة ، رحل في شبابه إلىٰ مكة المكرمة ، وأقام بها مدة ، لازم فيها شيخه السيد العالم الرباني عيدروس بن سالم البار وأخاه أبا بكر بن سالم .

٨ـ ومنهم خاتمة العقد ومسك الختام ، الإمام الجليل ، والحبر النبيل ، السيد الخليفة السند ، إمام العصر الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف . وكان من المترددين علىٰ مجالس ابن عبيد الله ، وأفاد من علمه وأدبه شيئاً جماً ، وكان يقول دائماً : إن النساء عجزن أن يلدن مثل ابن عبيد الله .

وهناك كثيرون وكثيرون جداً ، نذكر منهم :

٨ـ العلامة القاضي مبارك باحريش التريمي .

٩ـ السيد جعفر بن محمد السقاف .

ـ السيد الداعية الإمام أحمد مشهور الحداد (١٣٢٥هـ ـ ١٤١٦هـ) .

ـ السيد علي بن عبد الله بن حسين « القاضي » السقاف .

ـ السيد محسن بن علوي السقاف .

ـ السيد الشاعر صالح بن علي الحامد .

وليعذرنا من لم تتسع هـٰذه النبذة المختصرة لذكرهم ، وإن شاء الله تعالىٰ في ترجمة ابن عبيد الله الموسعة سنذكر الكثير والكثير الطيب عن ذلك وعن غيره .

وفاته :

لم يزل علىٰ حالة مرضية ، وطريقة سوية ، شعلةً بل شمساً تضيء وتنير في ظلمات الجهل ، فلقد كان رحمه الله جبلاً من جبال العِلْم ، حتىٰ توفي صباح الأربعاء (٢٦) جمادى الآخرة سنة (١٣٧٥هـ) ، فأصيب الناس بالذهول الشديد والحيرة والارتباك لوفاة هـٰذا العَلَم .

وما كان قيس هَلْكُه هَلْكُ واحدٍ ... ولكنه بنيان قومٍ تهدّما

وقد أقيمت بعد وفاته مجالس العزاء في حضرموت وأندونيسيا وكينيا وغيرها من بلدان العالم الإسلامي ، وقد رُثِيَ بقصائد شعرية نكتفي منها بأبيات من مرثاة تلميذه الشاعر صالح بن علي الحامد : [مِنَ ٱلكامل]

بكت الطروس عليك والأقلام ... والشرق ناح عليك والإسلام

نعت المكارمُ حظَّها وتنكست ... من أجل رزئك للعلا أعلام

وغدا نهارك للفجيعة قاتماً ... فكأنما أغشىٰ عليه ظلامُ



والشمس عبرىٰ في السماء كأنما ... غطىٰ محياها الحزين لثامُ

وبكىٰ عليك العلم والعلياء والـ ... ـشِّيَمُ العلىٰ والنقض والإبرام

ورثاك رواد المعارف والهدىٰ ... فاليوم بعدك كلهم أيتام

قدر المصيبة عند قدر مصابها ... ولذاك أرزاءُ العظامِ عظام

كم موقف لك في الخطابة خالد ... حمدت براعته لك الأقوام

لهفي على الروح الخفيفة كم ورت ... فينا المسرة والزمان غلام

تغذو المجالسَ بهجةً وفكاهة ... فكأن بهجتها عليك لزام

لا يعجب الأقران كيف سبقتهم ... في كل ما قعدوا إليه وراموا

أسرعتَ في كسب الجميل وأبطؤوا ... وسهرتَ في طلب الكمال وناموا

فجمعتَ أوصاف الكمال وإنما ... يغشى الخسوفُ البدْرَ وهو تمام

فعلى الخطابة والبلاغة بعده ... وعلى النبوغ تحية وسلام

فاذهب فإنك خالد بالذكر ما ... مضت القرون وكرت الأعوام

وإلىٰ هنا يقف القلم في ترجمة هٰذا العلم ، والمقصود أن نذكر تعريفاً ميسراً ، والمعروف كما قيل لا يعرَّف ، وحسب الإنسان أن ينظر في كتاب « الأعلام » للزركلي هٰذا الكتاب المشهور في التراجم ، فإننا نجد أن ترجمة أي علم فيه لا تتجاوز سطوراً ، وعندما أراد أن يذكره الزركلي في كتابه وكان الزركلي رحمه الله قد اجتمع بابن عبيد الله وعرفه واتصل به . . فإنه قد ذكره في عمودين[١] . وما ذاك إلا لأهمية الرجل ، والخواطر تتدافع . ونسأل الله أن يتقبل منا ، وأن يغفر لنا ما شط به القلم ، والله أعلم .

* * *

(١) « الأعلام » (٣/ ٣١٥ـ٣١٦) ، وتقع الترجمة في (٤٣) سطراً ، في عمود ونصف ، وهي طويلة جداً بالنسبة لغيرها من تراجم كبار الأعلام .

وقفة مع الأمالي والمجالس

بقلم
الناشر

كان المتنبي واحداً من أولئك العباقرة الذين تلمع مآثرهم في صفحات الآداب العربية ، ولقد كانت له يد طولىٰ في تفتيق المعاني ، وإثراء الأدب العربي ؛ إذ كشف اللثام عن مخدرات ما وقف عليها الأولون ، تستبيك خُرَّدها ، وتسلب لبك جآذرها ، لوحة إثر لوحة ، وصورة تتبعها صورة ، منها الجديد المبتكر ، ومنها الملهم الأخاذ الذي يسحرك ببيانه ، ويذهلك بإحسانه .

فلا غرو أن ترىٰ أبا العلاء ينعت « ديوان المتنبي » بـ« معجز أحمد » ، وترى الأدباء مولعين بعجائبه ومبتكراته التي ليس وراءها مرمىٰ ؛ ولذلك لم يأت بعده مثله ، ولم يلحق أحد شأوه .

علىٰ أنه في بعض المواطن تخال بعض أبياته قد انحطت عن مكانة المتنبي ؛ حتىٰ لتظن أنها مختلقة عليه ، وهٰذا ما ستلحظه في هٰذه الأمالي .

وفي جانب آخر ترىٰ تنوع المطالعين فيه ، من شاعر وناثر وعابد وزاهد ومليك ومملوك وشريف وصعلوك ؛ كل يرىٰ فيه طلبته ، ويستمتع بتلك الأساليب الشيقة التي ارتفعت عن الدون ، ولبست حلل الإبداع ؛ حتىٰ أخذت بأزمة المشاعر إليها .

وفي كتابنا هٰذا قام العلامة الأديب الأريب مفتي حضرموت السيد عبد الرحمٰن بن عبيد الله السقاف بجمع مجالس كان قد عقدها ، مستلطفاً أبياتاً من هٰذا « الديوان » ، يملي بها من عفو الخاطر ما تجيش به النفس تلك الساعة ، وما ثمَّ من المراجع إلا كتاب « شرح العكبري » ، ثم الفتوحات التي يفتحها الله على الشيخ مستمداً من ذوقه العربي وحصليته الأدبية وحافظته الفذة ؛ ما جعله أهلاً لأن يقارع كبير الأدباء .

فعطَّر بعَرْف « عوده الهندي » تلك المجالس ، وأعاد الريَّ لعود الشباب بإحياء فنِّ الأمالي الأدبية ، والتي كادت تنقرض لولا تلك الهمم القصيَّة .

وهٰذا هو الحافظ السيوطي يأسف لفوات حملة علم العربية علىٰ طريقة الأمالي وعقد المجالس إذ يقول : (وانقطع إملاء اللغة عن دهر مديد ، واستمر إملاء الحديث ، ولما شرعت في إملاء الحديث سنة اثنتين وسبعين وثمان مئة ، وجددته بعد انقطاعه عشرين سنة ؛ من سنة مات الحافظ أبو الفضل بن حجر . . أردت أن أجدد إملاء اللغة وأحييه بعد دثوره ، فأمليت مجلساً واحداً ، فلم أجد له حملة ولا من يرغب فيه ، فتركته)[1] .

الأمالي والمجالس الأدبية

ولعل الناظر في طريقة تدوين « العود الهندي » وأسلوب عرضه وطرافة مادته . . يدرك الأهمية البارزة في إعادة الهيبة لمجالس العلماء وإحياء طريقة الإملاء .

---

(١) المزهر في علوم اللغة (٢/ ٣١٤) .



فـ« العود الهندي عن أمالي في ديوان الكندي » هو مجالس أدبية عقدت حول أبيات مختارة من هـٰذا الديوان ، كان قد بيَّضها مؤلفها بعد ما جمعها لتكون ذخيرة أدبية للمطالع فيها ؛ لما حوت من عفو الخاطر في إيراد مادتها ، بعيداً عن عنت التكلف الذي يقف معه المؤلفون .

والأمالي : جمع إملاء ، وهو أن يعقد عالم مجلساً وحوله تلامذته بالمحابر والقراطيس ، فيتكلم العالم بما فتح الله سبحانه وتعالىٰ عليه من العلم ، ويكتبه التلاميذ ، فيصير كتاباً ، ويسمونه الإملاء والأمالي ، وكان هـٰذا دأب السلف من الفقهاء والمحدثين وأهل العربية وغيرها من العلوم ، فاندرست لذهاب العلم والعلماء ، وإلى الله المصير[١] .

فإذن ؛ ليست الأمالي وقفاً علىٰ مجالس الحفاظ والمحدثين ، بل كانت عامة في كل العلوم والفنون ، ولا بد وأن يكون المتصدر لها أحد الأفذاذ من العلماء المبرزين والحفاظ المتقنين ، أو ممن تفرَّد بمرويات انقطع حملتها ، فقصده الرواة يحملون عنه .

يقول السيوطي مبيناً انتشار مجالس الإملاء عند اللغويين والأدباء : (وقد أملىٰ حفاظ اللغة من المتقدمين الكثير ، فأملىٰ ثعلب مجالس عديدة في مجلد ضخم ، وأملى ابن دريد مجالس كثيرة رأيت منها مجلداً ، وأملىٰ أبو محمد القاسم بن الأنباري وولده أبو بكر ما لا يحصىٰ ، وأملىٰ أبو علي القالي خمسة مجلدات ، وغيرهم ، وطريقتهم في الإملاء كطريقة المحدثين سواء ، يكتب المستملي أول القائمة : « مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا » ويذكر التاريخ ، ثم يورد المملي بإسناده كلاماً عن العرب والفصحاء ، فيه غريب يحتاج إلى التفسير ، ثم يفسر ، ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده ، ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد ما يختاره)[٢] .

ثم قال : (وآخر من علمته أملىٰ علىٰ طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجي ، له أمالٍ كثيرة في مجلد ضخم ، وكانت وفاته سنة تسع وثلاثين وثلاث مئة ، ولم أقف علىٰ أمالٍ لأحد بعده[٣] .

قال ثعلب في « أماليه » : حضرت مجلس ابن حبيب ، فلم يمل ، فقلت : ويحك! أملِ ، ما لك ؟! فلم يفعل حتىٰ قمت ، وكان حافظاً صدوقاً في الحق ، وكان يعقوب أعلم منه ، وكان هو أحفظ للأنساب والأخبار منه .

قلت : في هـٰذا توقير العالم من هو أجل منه ، فلا يملي بحضرته)[٤] .

والواقف علىٰ كتب الأمالي والمجالس يجد تعاوراً ملحوظاً في إطلاق اللفظين دون مراعاة تفريق بينهما ، اللهم إلا أن ترىٰ ما دُوِّن قد جمع روايات المملي وغيره ؛ ممن يداخله في كلامه ، أو يسأله ويستفصله ، أو يعقب أو يُشكل ، فهـٰذا حري بإطلاق لفظ المجلس عليه ؛ لجمعه لكلام المملي وغيره ، أما المجالس التي اقتُصر فيها علىٰ تدوين كلام المملي دون غيره . . فهي بإطلاق لفظ الأمالي عليها أقرب منها للفظ المجلس ، ومع هـٰذا نرىٰ بعض المرويات أطلق عليها اللفظان معاً ، كـ« مجالس ثعلب » كما سماها السيوطي وغيره ، و« أمالي ثعلب » كما سماها البغدادي في « خزانته » مثلاً .

---

(١) كشف الظنون (١/ ١٦١) ، وزاد : (وعلماء الشافعية يسمون مثله التعليق) .

(٢) المزهر في علوم اللغة (٢/ ٣١٣) .

(٣) وهـٰذا باعتبار إيراد الأسانيد فيما يحدث ، وإلا . . فالأمالي بعده كثيرة .

(٤) المزهر في علوم اللغة (٢/ ٣١٤) .



ثم إن وحدة الموضوع في المجلس ـ علىٰ كثرة التفاريع والاستطرادات ـ تتجلىٰ واضحة أكثر منها في الإملاء ، وهٰذا ما نشهده بجلاء في « العود الهندي » ، ولذا نرى المملي العلامة السقاف يحيل علىٰ مجالس قديمة ، أو يعد بمجالس آتية في تبيين أو تفصيل .

والله ولي التوفيق



وصف النسخة الخطية

اعتمدنا في تحقيقِ هـٰذا الكتابِ علىٰ نسخةٍ خَطِّيَّةٍ نفيسةٍ ، بخطِّ المؤَلِّفِ رحمه الله تعالىٰ .

وهي مسوَّدةُ الكتابِ الأَصليَّة ، كانَ رحمَهُ ٱللهُ قد بيَّضَ الكتاب وأَرسله إِلىٰ (مصرَ) ليُطبع هناك . . فلم يُطبَع ولم تُرجع له المبيَّضةُ ، فاضطرَّ رحمه الله تعالىٰ لإِعادةِ النَّظر في المسَوَّدة ـ التي بين أيدينا ـ وإِضافة ما قد فاته ، وتصحيحِ ما أَخطأَ فيه .

وقد ظهر ذلكَ جليّاً بحيثُ كُتِبَتِ ٱلإِضافاتُ بلونٍ مُغايرٍ ، ونجدُه في بعضِ الأَماكنِ قد حكَّ وشطب .

تقع هـٰذه النُّسخةُ في (٥١٦) صفحة ، وسطورها بين (٢٨) و(٣٠) سطراً ، وكلماتُ السَّطرِ بين (١٠) و(١٣) كلمة .

خطها نَسْخي مستعجل ، وضعت أَبيات المتنبِّي الَّتي تخصُّ موضوعاً معيناً يُبنىٰ عليه البحثُ بلونٍ أَحمر .

وقد فَرَغَ من كتابتها في (١٧) جمادى الأُولىٰ (١٣٥٢ هـ) .

وهـٰذه النُّسخة من مقتنيات زوج ٱبنة المؤلِّف السَّيِّدِ محسن بن علويٍّ السَّقَّافِ حفظه الله تعالىٰ .

* * *

منهج العمل في الكتاب

ـ نسخُ ٱلمخطوطِ .

ـ مقابلةُ ٱلمنسوخِ على ٱلمخطوطِ .

ـ ترقيمُ ٱلكتابِ ، وترصيعُ أَحرُفِهِ بٱلحركاتِ ٱلإعرابيَّةِ ، وضبطُ ٱلقافيةِ ٱلمشدَّدةِ بشدَّةٍ وسكونٍ (ـّْ) ؛ لتدُلَّ علىٰ أَنَّ ٱلحرفَ مشدَّدٌ ، مثل : (نبيّْ) .

ـ عدمُ فكِّ إِدغامَ ٱلحرفِ ٱلمشدَّدِ إذا كانَ مِنَ ٱلبحرِ ٱلمدوَّرِ ؛ ٱلَّذي يكونُ مشترَكاً بينَ آخِرِ ٱلصَّدرِ وأَوَّلِ ٱلعَجُزِ ، وجعلُ ٱلحرف ٱلمشدَّد تارةً بآخِرِ ٱلصَّدرِ وتارةً بأَوَّلِ ٱلعجُزِ .

ـ تقسيمُ ٱلكتابِ إِلىٰ فقراتٍ لتسهُلَ مطالعتُهُ .

ـ عنونةُ ٱلكتاب بعنواناتٍ مناسبةٍ ، وجعلُها في صلب ٱلكتابِ .

ـ تخريجُ ٱلآياتِ ٱلقرآنيَّة .

ـ تخريجُ أَكثرِ الأَحاديثِ النَّبويَّةِ ٱلقوليَّةِ وٱلفعليَّةِ .

ـ ردُّ معظمِ ٱلآثارِ وٱلأَخبارِ وٱلقصصِ إِلىٰ مظانِّها مِنْ كتبِ ٱلأَدبِ وٱلعربيَّةِ والتَّاريخِ .

ـ تخريجُ ٱلأَشعارِ وإِحالتُها إِلىٰ دواوينِ قائِليها إِنْ كانَ ٱلدِّيوانُ متوفِّراً لدينا ، وإِنْ لَمْ يكُنْ متوفِّراً . أَحلنا إِلىٰ أُمَّاتِ كتبِ ٱلأَدبِ وٱلعربيَّةِ .

ـ جعلنا ٱلتَّخريجَ ضمنَ متنِ ٱلكتابِ بينَ معكوفتينِ [] ؛ وذلكَ تخفيفاً للكتابِ مِنَ ثِقَلِ ٱلحواشي .

ـ بحَّرنا ٱلأَبياتَ ٱلشِّعريَّةَ عقِبَ تخريجها ضمنَ ٱلمعكوفتين .

ـ خرَّجنا أَبياتَ ٱلمتنبِّي مِنْ شرحِ ٱلعُكبَريِّ بذكرِ رقمِ ٱلجزءِ وٱلصَّفحةِ .

ـ جعلنا ٱلأَبياتَ ٱلَّتي جعلَها ٱلمصنِّفُ مطلَعاً لبحثٍ معيَّنٍ في رأسِ صفحةٍ بخطٍّ مغايرٍ .

ـ ميَّزنا كلمتَي (قالَ النَّاظِمُ) و(قولُهُ) حيثُ أَرادَ بها ٱلمتنبِّي بحرفٍ مغايرٍ ، تمييزاً لأَشعارِ ٱلمتنبِّي عَنْ أَشعارِ غيرِهِ .

ـ شرحنا ٱلكلماتِ ٱلغامضةَ وٱلمبهمةَ شرحَ مفرداتٍ ، وفي بعضِ الأَحيانِ ذكرنا ٱلمعنى ٱلعامَّ للبيتِ إذا كانَ مبهماً .

ـ أَخذنا مِنْ كتبِ ٱلأَدبِ فنقلنا عنها بعضَ ٱلقصصِ وٱلأَخبارِ ٱلَّتي أَشار إِليها ٱلمؤَلِّفُ ولَمْ يذكُرْها ، أَو ذكَرَها بٱختصارٍ فأكملناها .

ـ قمنا بذكر أبيات بعض القصائد بالحاشية ، إذا كان له وقع وأثر في النفوس .

ـ أَضفنا في بعضِ ٱلمواضعِ ما ٱرتأَينا أَنَّ ٱلنَّصَّ لا يقومُ إِلاَّ بهِ ، وجعلناهُ بينَ معكوفتينِ [] .

❋ ❋ ❋

خاتمة

ومعَ ٱلانتهاءِ مِنَ ٱلعملِ ٱلنفيس في هـٰذا ٱلكتابِ . . لا بُدَّ للإنسانِ مِنْ أَنْ يقفَ وقفتينِ مهمتينِ :

أمَّا ٱلأُولىٰ :

فمَعَ ٱللهِ عزَّ وجلَّ : فأقولُ :

يا ربِّ . . عقلي عاجزٌ عنِ ٱلتَّفكيرِ . . ولساني عاجزٌ عنِ ٱلتَّعبيرِ . . وقلمي عاجزٌ عنِ ٱلتَّسطيرِ .

فيا إلـٰهي وسيِّدي ومولاي . . لكَ ٱلحمدُ علىٰ ما أَنعمتَ بِهِ عليَّ .

أينَ كانت قُدرتي عندما كنتُ في ٱلحشا ، تطعمني أَنتَ وتسقيني ؟!

أَم أَينَ كنتُ عندما تفضَّلتَ عليَّ وهديتني إِلى ٱلطَّريقِ ٱلَّذي أَسلكُهُ للوصولِ إِليكَ ؟!

أَم أَينَ كنتُ عندما تفضَّلتَ وتكرَّمتَ عليَّ وجعلتني مُسلماً ؟!

أَم أَينَ كنتُ عندما نوَّرتَ قلبي وهديتني عقلاً أُميِّزُ بهِ بينَ ٱلخيرِ وٱلشَّرِّ ؟!

ما ٱلفضل ٱلَّذي لي علىٰ غيري حتَّىٰ وهبتني كلَّ هـٰذهِ ٱلنِّعمِ ؟!

لا فضلَ لي ، لا حول لي!!

ولكنَّهُ كرمُكَ وجودُكَ ومَنُّكَ ، فيا ربِّ تمِّم وأَدِمْ كرمَكَ وجودَكَ وفضلَكَ .

ويا ربِّ . . عرِّفنا نعمكَ بدوامِها ، ولا تعرِّفنا ٱلنِّعمَ بزوالها .

لك ٱلحمد وٱلشُّكرُ علىٰ ذلكَ يا ربَّ ٱلعالمين .

وأمَّا الوقفةُ ٱلثانيةُ :

فمَعَ حديثِ سيِّدي رسولِ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم حيثُ يقولُ : « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ ٱلنَّاسَ . . لَمْ يشْكُرِ ٱللهَ » .

وعليهِ : أَتقدَّمُ بٱلشُّكرِ لكلِّ مَنْ ساهمَ في إِنجازِ هـٰذا ٱلعملِ ٱلجليل .

فأَتقدَّمُ بٱلشُّكرِ لوالديَّ ٱللَّذينِ يسَّرا لي سبيلَ طلبِ ٱلعلمِ ، وسهِرا عليَّ ٱللَّياليَ حتَّىٰ وصلتُ إِلىٰ ما وصلتُ إِليه .

وأَتقدَّمُ بٱلشُّكرِ لشيوخي ٱلَّذينَ ربَّوني وأَدَّبوني بأَدبِ ٱلإِسلامِ ، جزاهُمُ ٱللهُ عنِّي كلَّ خيرٍ .

وكذلكَ أَتقدَّمُ بٱلشُّكرِ للإِخوةِ ٱلَّذينَ بذَلوا قُصارىٰ جهدهم لإِنجاح هـٰذا ٱلعملِ . . ليخرُجَ ٱلكتابُ بأَبهىٰ حُلَّةٍ ، وأَبهجِ مظهرٍ .

وكذلكَ أَتقدَّمُ بٱلشُّكرِ للجنودِ ٱلمجهولينَ ٱلَّذين تعبوا في هـٰذا ٱلعملِ ، ولا أَخصُّ منهُم أَحداً وأَجرُهُم على ٱللهِ .

وفي ٱلختامِ :

إِنْ يكُنْ مِنْ خيرٍ . . فمِنَ ٱللهِ ، وإِنْ يكُنْ غير ذلك . . فمِنْ نفسي .

ورحمَ ٱللهُ مَنْ أَهدىٰ إِليَّ عيوبي ؛ فٱلإنسانُ ضعيفٌ ، وٱلمرءُ مرآة أَخيه .

وصلواتُ ربِّي وسلامُهُ علىٰ مَنْ قالَ : « كُلُّ ٱبْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ ٱلخَطَّائِيْنَ . . ٱلتَّوَّابُوْنَ » .

ورحمَ اللهُ مَنْ قالَ : [مِنَ ٱلطَّويلِ]

فَــلاَ بُــدَّ مِــنْ عَيْــبٍ فَــإِنْ تَجِــدَنَّــهُ ... فَسَامِحْ وَكُــنْ بِـٱلسَّتْـرِ أَعْظَـمَ مُفْضِـلِ

فَمَـنْ ذَا ٱلَّـذِيْ مَا سَاءَ قَطُّ وَمَـنْ لَـهُ ٱلْـــمَحَاسِنُ قَدْ تَمَّتْ . . سِوَىٰ خَيْرِ مُرْسَلِ

* * *





الحمد لله الذي خلق الإنسان ، وعلمه البيان .

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان ، علىٰ سيدنا محمد ، وعلىٰ آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان .

وبعد :

ومع الانتهاء من خدمة هـٰذا الكتاب . . فهناك مواقف يشعر فيها المرء بأن السكوت أبلغ من الكلام ، وأن عدم الكتابة كتابة .

فما عسىٰ أن يكتب مثلي بين يدي هـٰذا الكتاب .

وما دفعني للكتابة الآن . . إلاَّ تسطير الشكر إلىٰ من شارك في إخراج هـٰذا الكتاب ، وخصوصاً من تفضلوا بقراءة الكتاب قبل الطبع ، وأفادوا الكتاب بقراءاتهم كثيراً ؛ تصحيحاً ؛ وتعليقاً .

أَخُصُّ منهم :

الدكتور محمد عبد الرحمـٰن شميلة الأهدل الذي قرأ الكتاب كاملاً . جزاه الله خيراً ، وأتحفنا بكلمة قيمة صدرنا بها الكتاب .

وكذلك الدكتور بكري شيخ أمين الذي تفضل بقراءة بعض أجزاء متفرقة من الكتاب ، فجزاه الله خير الجزاء .

وفي النهاية :

فإننا نرحب بآراء القراء الكرام وانطباعاتهم ، بل وانتقاداتهم ، فنحن نريد الخير لأمتنا ، وأن ينتفع طلاب الأدب بهـٰذا السفر الجليل ؛ لما تضمنه من مباحث شيقة ومعانٍ رائقة وفوائد تسر طلاب المعرفة .

والله ولي التوفيق

وهو حسبنا ونعم الوكيل

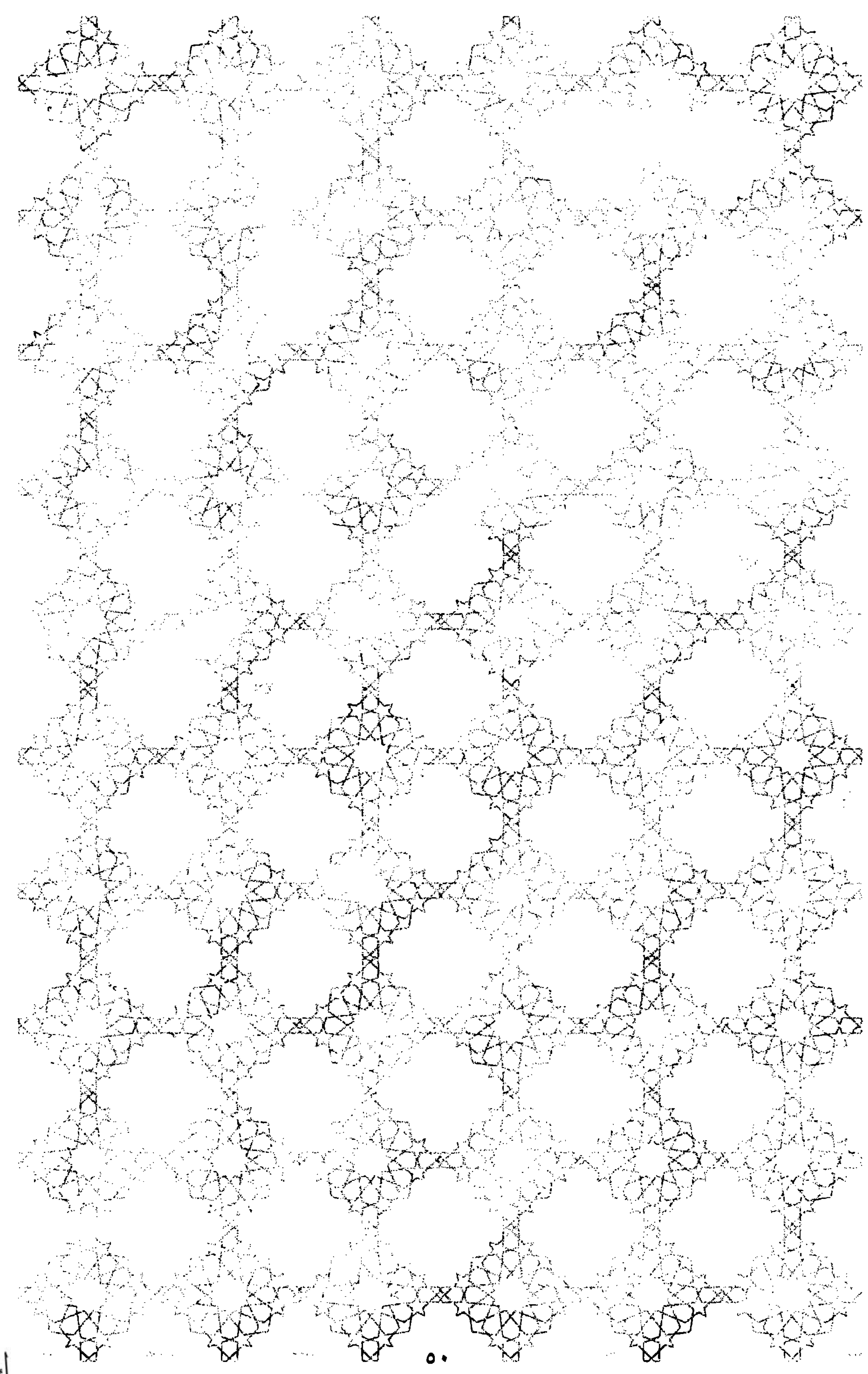








صور من النسخة المعتمدة



(١) العود الهندي عن أمالي في ديوان الكندي السقاف

تأليف وخط العلامة مفتي الديار الحضرمية الحبيب عبد الرحمن بن عبيد الله

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد

حمد المستحق الحمد والصلاة والسلام على نبيه وآله ومن بعده

فهذه مجالس في ديوان المتنبي كتبناها من غير التزام

ولا أن القلم [illegible] روية، ولا إرهاف فكرة

ولا كد قريحة، ولا [illegible] خاطر ولا [illegible] على [illegible]

أردنا بها الإحماض وإجمام الفكر من معاناة الفقه

لم نقصد بها التأليف ولا نسلك بها سبيل التصنيف

وإنما نقيد ما يجيء أثناء شرح المشكل كما يلم به

ولا يحضرنا ساعة القراءة كتاب سواه ثم [illegible] على

خزانة الحفظ ما علق بها من مسائل النظر في [illegible]

فنضيف إليه بلا تنسيق ولا ترصيف ولا ترتيب

ولا تصنيف ومتى مر بنا في [illegible] [illegible]

[illegible] التناء بهامش [illegible]

ويطول العزم قريبًا على مواصلة العمل [illegible]

[illegible] واستوفق [illegible] بما ذكرناه [illegible]

للنقص والزيادة والتعريف في الرواية ولا بدع أن

كثر الغلط لأننا لم نعتمد المراجعة [illegible] الأدب النبيهين

في بعض [illegible] ولا ما [illegible] الناسبة

ولا [illegible] الاستطراد إذ التصنيف [illegible]

المخصوص بالتسمية لم نأت على [illegible] الطريقة وإنما [illegible]

راموز الورقة الأولى من النسخة الخطية

٤٤٦

فيا ليتني من [illegible] عندنا [illegible] واستراح خاطرها

في [illegible] عشاء ليلة ١٧ من جمادى الأولى [illegible]

كما هي العادة بحضرة القراءة والكلام عليها [illegible]

ثم أخلو بنفسي ساعة من [illegible] احتياطا منها ما يكون

وحينئذ [illegible] وأخذت [illegible] ونظرت

في السماء [illegible] بالنجوم الزاهرة وبأنها من الآيات

الباهرة استفزت فكري واستجمع ذكري وانطلقت لساني

ببيت [illegible] في طبقات [illegible] لتقي الدين ابن تيمية رحمه الله

[illegible] ما [illegible] ذاتي

وأحسست من الوقت بطيب ومن [illegible] بخطيب فاستكانت

النفس وانشرح الصدر [illegible] وصح البدن [illegible]

[illegible] واعتمت [illegible]

والسماء [illegible] في الناظريات [illegible]

[illegible] واطربت

ساعة ثم [illegible] والحمد لله أولا وآخرا [illegible]

وصحبه وسلم تسليما كثيرا [illegible]

راموز الورقة الأخيرة من النسخة الخطية



عن أمالي في ديوان الكندي



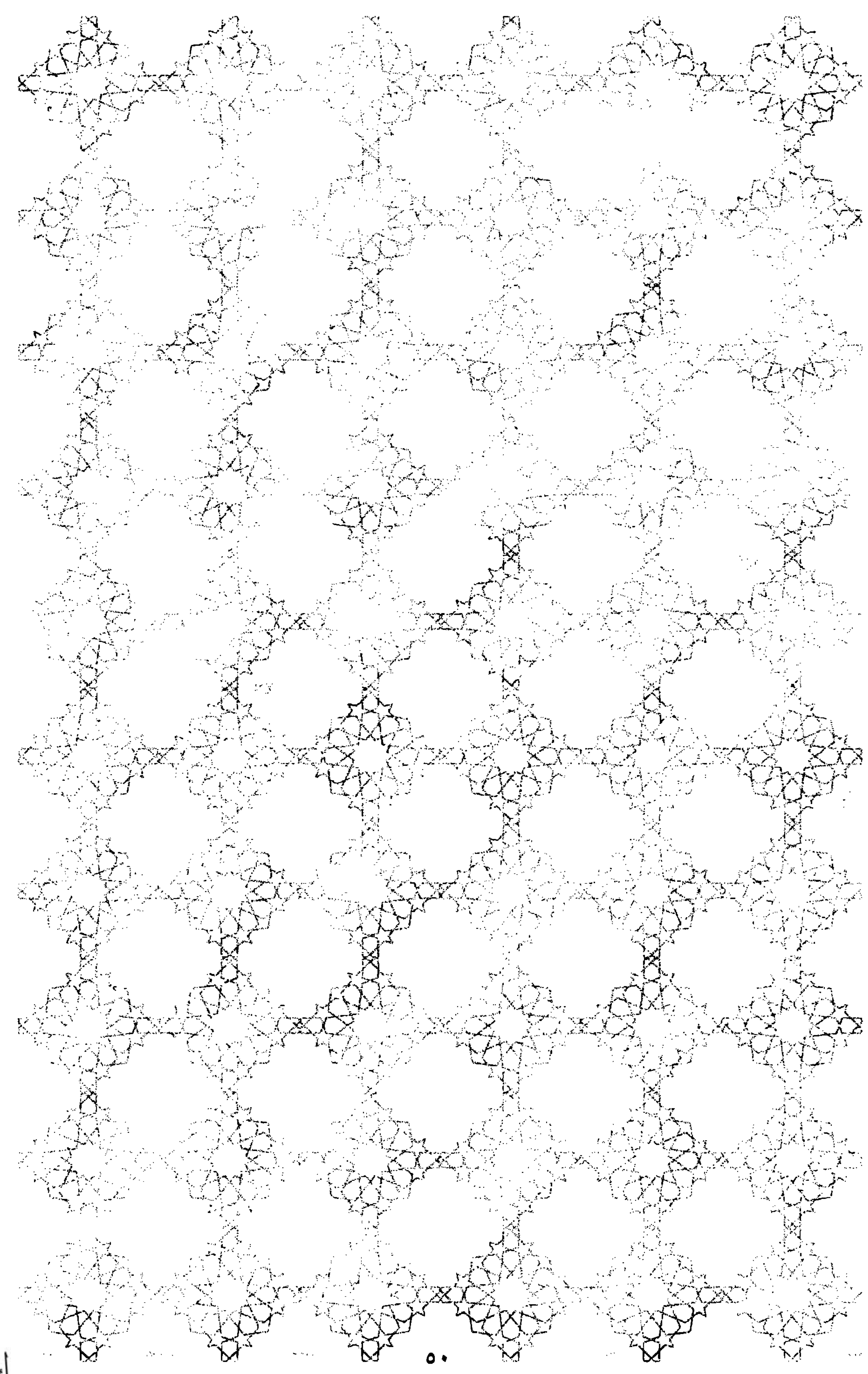
تأليف

علامة حضرموت ومفتيها

السيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف

رحمه الله تعالى

(١٣٠٠ - ١٣٧٥هـ)



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[مقدّمة المؤلف]

أمّا بعد :

حمداً لله مستحِقِّ الحمدِ ، والصلاةُ والسلامُ علىٰ نبيِّهِ وآلِهِ مِنْ بعدِ .

فهٰذِهِ مجالسُ في « ديوانِ المتنبّي » ، كتبناها مِنْ عفوِ الخاطِرِ ، ولسانِ القلمِ ، بلا إعناتِ رويَّةٍ ، ولا إرهاقِ فِكْرٍ ، ولا كَدِّ قريحةٍ ، ولا إتعابِ خاطِرٍ ، ولا جنايةٍ على العينِ ، أردنا بها الإحماضَ[1] وإجمامَ الفِكْرِ[2] مِنْ معاناةِ الفقهِ ، لَمْ نقصِد بها التأليفَ ، ولَمْ نسلُكْ بها سبيلَ التصنيفِ ، وإنَّما نعمِدُ لِمَا بينَ أيدينا مِنْ « شَرحِ العُكْبَريِّ »[3] ، فنُلِمُّ بهِ ، ولا يحضرُنا ساعةَ القراءةِ كتابٌ سواهُ ، ثمَّ نَعُوجُ لِمَا بقيَ بِخزانةِ الحِفظِ ، ممَّا عَلِقَ بها مِنْ سالفِ النظرِ في الأدبِ ، فنضيفُهُ إليهِ بلا تنسيقٍ ولا ترصيفٍ ، ولا ترتيبٍ ولا تصفيفٍ ، ومتىٰ مرَّ بنا شيءٌ أو تذكَّرناهُ ـ وهوَ يُناسِبُ موضعاً منها ـ ألحقناهُ بهامشِ المسوَّدَةِ[4] .

مِنْ أمثلةِ ذلكَ : ما ذكرناهُ في أثناءِ المجلسِ السادسِ ، ممَّا اتَّفقَ لنا بـ(مِنىً) ، سنةَ (١٣٥٤هـ) ، وكانَ العزمُ قويّاً علىٰ مواصلةِ العملِ ، غيرَ أنَّ القارىءَ ملَّ ، فانعكسَ الأملُ ، واستنوقَ الجَمَلُ[5] ، وممَّا ذكرناهُ يتمهَّدُ العذرُ للنقصِ والزيادةِ ، والتحريفِ في الروايةِ[6] ، ولا بدعَ إنْ كَثُرَ الغلطُ ؛ لأنَّا لَمْ نعتمدِ المراجعةَ لَهُ قطُّ ، إلاَّ معَ التبييضِ في بعضِ نقطٍ ، ولا محاسبةَ إنْ قلَّتِ المناسبةُ ، ولا إيرادَ إنْ لَمْ يعذُبِ الاستطرادُ ؛ إذِ التصنيفُ هوَ المخصوصُ بالنِّيقَةِ[7] ، لا ما كانَ علىٰ هٰذِهِ الطريقةِ ، وإنَّها معَ الارتجالِ ، وعدمِ الاتِّساعِ في المجالِ . لَوِعاءُ طُرَفٍ وأدبٍ ،

---

(١) الإحماضُ : الإفاضةُ فيما يُؤنِسُ منَ الكلامِ والأخبارِ لما فيها من مُلَحٍ وحكايات .

(٢) إجمام الفكر : إراحتهُ وصلاحهُ ونشاطهُ .

(٣) العُكْبَرِيُّ : هو أبو البقاء عبد الله بن الحسين ، العُكْبَرِيُّ الأصلِ ، البغداديُّ المولد والدار النحوي الضرير . و(عُكْبَرا) التي ينسب إليها بُليدة علىٰ (دجلة) ، ولد سنة(٥٣٨ هـ) ، وتوفي سنة (٦١٦ هـ) بـ(بغداد) .

قرأ علوم الدين والعربية علىٰ كبار مشيخة عصره بـ(بغداد) ، حتىٰ حاز السبق في العربية والفقه الحنبلي والحساب والفرائض وصار فيها من الرؤساء المتقدمين ، كان ثقة صدوقاً ، غزير الفضل ، كثير المحفوظ ، حسن الخلق ، متواضعاً ، رقيق القلب ، ومؤلفاته زادت على الأربعين منها : « إملاء ما من به الرحمٰن في إعراب وجوه القراءات في القرآن » و« إعراب الحديث » و« شرح ديوان المتنبي » المسمىٰ : « التبيان في شرح الديوان » ، وهي المعتمدة من المؤلف ومن فريق التحقيق في ضبط شعر المتنبي ، وبالله التوفيق .

(٤) المُسوَّدةُ : الصحيفةُ تكتبُ أوَّلَ كتابةٍ ، ثُمَّ تُنَقَّحُ وتُحرَّرُ وتُبيَّضُ ، وسُمِّيت : مسوَّدةً ؛ لأنَّ الكاتبَ يُسوِّدُها بالشطبِ هنا مرَّةً وهناكَ مرَّةً أُخرىٰ إلىٰ أن يستقرَّ بهِ الأمرُ فينقلُها علىٰ صحيفةٍ أُخرىٰ تسمَّىٰ : (المُبَيَّضَةَ) .

(٥) استنوقَ الجملُ : أي صارَ كالناقةِ ، مثلٌ يُضرَبُ للرجلِ يكونُ في حديثٍ أو صفةِ شيءٍ ثمَّ يَخلِطُهُ بغيرِه وينتقلُ إليه .
وأَصلُهُ : أنَّ طرفةَ بنَ العبدِ كانَ عندَ بعضِ الملوكِ ، والمُسَيَّبُ بنُ عَلَسٍ ينشدُهُ شعراً في وصفِ جَمَلٍ ، ثمَّ حوَّلَهُ إلىٰ وصفِ ناقةٍ ، فقالَ طرفةُ : (قد استنوقَ الجملُ) .

(٦) وبتوفيق الله تعالىٰ فقد عدنا إلىٰ غالب المصادر ، وضبطنا النُّصوص ما أمكنَ ، وإذا اقتضى الحال أوردنا من المصدر ما يُحقِّق به قصد القصَّة ، أو الأبيات ، أو المناسبة . وسيرى القارىء الكريم ذلك في ثنايا الكتاب . اهـ الناشر .

(٧) النِّيقَةُ ، يقالُ : تنَوَّقَ فلانٌ في مَطعمِهِ وملبسِهِ وأُمورِهِ : إذا تجوَّدَ وبالغَ .



ونُكَتٍ ونُخَبٍ ، وجِدٍّ وهَزلٍ ، ووقشٍ وجَزلٍ[١] ، وما ذاك بقليلٍ مِنْ مثلي علىٰ كثرةِ إضاعتِهِ ، وقلَّةِ بضاعتِهِ[٢] .

وقد بيَّضتُها لولدي حَسَنٍ ـ باركَ اللهُ فيهِ ، وفي إخوانِهِ وأَبيهِ ـ رجاءَ أَنْ تكونَ لَهُ فاتحةَ تهذيبٍ ، ولائحةَ تأْديبٍ ، وسميراً وجليساً ، وخليطاً وأَنيساً ، ولئنِ اتَّخذَها نجيّاً . . فلن يكونَ بها شقيّاً ؛ إِذْ هيَ أَيسرُ مؤونةً ، وأَكثرُ معونةً ، وأخفُّ روحاً ، وأَكثرُ فتوحاً ، وأَجملُ قشرةً ، وأَحسنُ عِشرةً مِنْ أُولئكَ الخُلطاءِ ، الذينَ ما منهم إلاَّ مَنْ غُذِيَ مِنَ اللُّؤْمِ بِلَبَانٍ ، وحضرَ شرُّهُ في كلِّ إِبَّانٍ[٣] ، واللهُ الموفِّقُ والمستعانُ[٤] .

* * *

---

(١) **الوَقْشُ** : صغارُ الحطبِ الذي تُشَيَّعُ بهِ النارُ ، **والجزلُ** : ما عَظُمَ مِنَ الحطبِ ويَبِسَ . والمرادُ : أَنَّها حوت من أَنواعِ الكلامِ سَهْلَهُ وصَعْبَهُ .

(٢) هـٰذا من تواضعه رحمه الله تعالىٰ ، وإلا فإنه قلَّ في المتأخرين مثله جمعاً وحفظاً .

(٣) **إِبَّانٌ** : إِبَّانُ الشيءِ ـ بالكسرِ والتشديدِ ـ : وَقْتُهُ .

(٤) وردَ في ذيل صفحة المخطوطِ : (تنبيهٌ : كنتُ بيضتُ هـٰذهِ « الأَمالي » ، حَسَبَما ذكرتُ في الخُطبةِ ، ثمَّ بعثتُ بها إِلىٰ (مصرَ) ؛ لتطبعَ بمعرفةِ الفاضلَينِ الشيخينِ : أَحمدَ باغفَّار ، وعليِّ باكثير ، فلم يتيسَّر الطبعُ ، ولم يرجع الكتابُ ، فاحتجتُ إِلى استئنافِ العنايةِ ، معَ إعادةِ النظرِ في المراجعِ ؛ إِذْ كانتْ حاضرةً بخلافِها عندَ الأَوَّلِ ، فجاءَ وفيهِ نقصٌ وفضلٌ ، وصحَّةُ روايةٍ ونضلٌ ـ أي : ضعف ـ فليُعلَمْ ذلكَ ، وباللهِ التوفيقُ) .



المجلس الأول

[قالَ أَبو الطيِّبِ المتنبِّيُّ في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٧٩] : [مِنَ الخَفيفِ]

بِـأَبِـي مَـنْ وَدِدْتُـهُ فَـافْتَـرَقْنَـا	وَقَضَـى اللهُ بَعْـدَ ذَاكَ اجْتِمَـاعَـا
فَـافْتَـرَقْنَـا حَـوْلاً وَلَمَّـا الْتَقَيْنَـا	كَـانَ تَسْلِيمُـهُ عَلَـيَّ وَدَاعَـا

[حلاوة اللقاء كمر النسيم]

يقولُ : أَفدي بوالدِي الحبيبَ الذي ودِدْتُهُ فافترقنا ، وقضى اللهُ الاجتماعَ بعدَ ذلكَ الافتراقِ ، غيرَ أَنَّها لَمْ تطُلْ مدَّةُ الاجتماعِ الثاني ، بل كانت متَّصلةً بالوداعِ .

[دفع العتاب عن المتنبي]

ولا معابةَ عليهِ في الاقتصارِ علىٰ أَبيهِ لتفديةِ محبوبهِ ؛ لأَنَّ العذرَ ممهَّدٌ بضيقِ الوزنِ ، وإِلاَّ فقد جمعَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لسعدٍ ما بينَ أَبويهِ الشريفينِ في يومِ أُحُدٍ ، فقالَ لهُ : « **ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي** »[(١)] .

[جواز التفدية]

ومنهُ أَخَذَ النواويُّ في « **أَذكارِهِ** » [ص/ ٥٨٧] أَنْ لا بأْسَ أَنْ يقولَ الإِنسانُ لآخَرَ : جُعِلتُ فِداكَ ، أَو فِداكَ أَبي وأُمِّي ، ولولا كثرةُ الأَدلَّةِ فيهِ . لكانَ قياساً معَ الفارقِ ، غيرَ أَنَّ الأَصلَ عدمُ الخصوصيَّةِ ، كما في « **الفتح** »[١٠/٥٦٩] ، وقدِ استوعبَ ما فيهِ مِنَ الأَدلَّةِ ابنُ أَبي عاصمٍ[(٢)] في أَوَّلِ كتابِهِ : « **آدابُ الحكماءِ** »[(٣)] وجزمَ بجوازِ ذلكَ .

[رد دليل منع التفدية]

ولا حجَّةَ على المنعِ ، فيما رواهُ مباركُ بنُ فَضَالَةَ : أَنَّ الزبيرَ دخلَ علىٰ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وهوَ شاكٍ ، فقالَ : كيفَ تجدُكَ جَعلَني اللهُ فِداكَ ؟ فقالَ : « **مَا تَرَكْتَ أَعْرَابِيَّتَكَ بَعْدُ** »[(٤)] ؛ لأَنَّهُ لا يقاومُ الأَحاديثَ الصحيحةَ[(٥)] ، ولأَنَّهُ ليسَ فيهِ تصريحٌ بالمنعِ . وغايةُ ما فيهِ الإِشارةُ إِلىٰ تركِ الأَولىٰ فيما يليقُ بمخاطبةِ المريضِ .

وقدْ ترجمَ البخاريُّ باباً للتفديةِ[(٦)] .

---

(١) أَخرجَهُ البخاريُّ (٢٩٠٥) ، ومسلمٌ (٢٤١١) .

(٢) هو أحمد بن عمرو بن الضحاك الحافظ الكبير المتوفىٰ سنة : (٢٨٧ هـ) .

(٣) أحد مصنفاته التي تزيد على الثلاث مئة .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٥٠١) عن فضالة عن الحسن .

(٥) كقولِ سيِّدنا أَبي طلحة عندما عثَرتْ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم ناقتُهُ : (يا نبيَّ اللهِ ، جعلني اللهُ فداكَ ، هَلْ أَصابَكَ مِنْ شيءٍ) عند البخاريِّ (٦١٨٥) ، وكقولِ سيِّدنا أبي بكر للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : (بِأَبي أَنْتَ وأُمِّي طِبْتَ حيّاً وميْتاً) عند البخاريِّ (٣٦٦٧) وغيره الكثير .

(٦) انظر « صحيح البخاريِّ » ، كتابَ الأدبِ ، ١ـ بابُ قولِ الرجلِ : فِداكَ أَبي وأُمِّي (١٠٣) . ٢ـ بابُ قولِ الرجلِ : جعلني اللهُ فِداكَ (١٠٤) .



[وقوع العتاب على المتنبي]

وإِنَّما المعتبَةُ على الناظمِ مِنْ حيثُ اللفظُ :

[كراهة التكرار]

أَوَّلاً : في تكريرِهِ (**افترَقنا**) في البيتينِ بصيغةٍ واحدةٍ مِنْ غيرِ كبيرِ فائدةٍ ، فإِنَّهُ لا يَسلَمُ مِنَ الاستثقالِ والكراهةِ .

[متىٰ يكون العطف قبيحاً]

وثانياً : في عطفِهِ لفظةَ (**افترَقنا**) مِنَ البيتِ الثاني علىٰ ما قبلَها ، معَ أَنَّها مسوقةٌ للتفسيرِ ، والواجبُ الفصلُ حينئذٍ ، كما في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ [طه : ١٢٠] .

أَو قولِهِ ـ تقدَّستْ أَسماؤُهُ ـ : ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ [يس : ٢٠ـ٢١] .

وإِنَّما وَجَبَ الفصلُ ؛ لأَنَّ العطفَ يقتضي التغايُرَ الكُلِّيَّ بينَ المُتعاطفَينِ ، وليسَ بالموجودِ .

[روعة التكرار في مكانه]

وقد وقعَ في نظيرِهِ مِنَ التَّكرارِ امرؤُ القيسِ ، لكنْ معَ السلامةِ مِنْ مذمَّةِ الوصلِ في غيرِ محلِّهِ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « ديوانه » ٨٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَقَطَّـعُ أَسْبَـابُ اللُّبَـانَـةِ وَالْهَـوَىٰ ... عَشِيَّـةَ جَـاوَزْنَـا حَمَـاةَ وَشَيْـزَرَا [1]

عَشِيَّـةَ جَـاوَزْنَـا حَمَـاةَ وَشَيْـزَرَا ... أَخُـو الْجَهْـدِ لاَ يَلْـوِي عَلَـىٰ مَـنْ تَعَـذَّرَا

[كثرة التفدية عند المتنبي]

وقدْ أَكثرَ الناظمُ في « **ديوانِهِ** » مِنَ التفديةِ ؛ **فمنها قولُهُ** [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٨٠] : [مِنَ البسيطِ]

[لَبَّـيْ نَـدَاكَ لَقَـدْ نَـادَىٰ فَـأَسْمَعَنِـي] ... يَفْـدِيـكَ مِـنْ رَجُـلٍ صَحْبِي وَأَفْـدِيكَـا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٨٥] : [مِنَ الوافِرِ]

فِـدىً لَـكَ مَـنْ يُقَصِّـرُ عَـنْ مَـدَاكَـا ... فَـلاَ مَلِـكٌ إِذَنْ إِلاَّ فَـدَاكَـا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٠٨] : [مِنَ الطويلِ]

فَـدَتْـكَ مُلُـوكٌ لَـمْ تُسَـمَّ مَـوَاضِيـاً ... فَـإِنَّـكَ مَـاضِـي الشَّفْـرَتَيْـنِ صَقِيـلُ [2]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣١٨] : [مِنَ الخفيفِ]

فَـاسْقِنِيهَـا فِـدىً لِعَيْنَيْـكَ نَفْسِـي ... مِـنْ غَـزَالٍ وَطَـارِفِـي وَتَلِيـدِي [3]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٣٨] : [مِنَ البسيطِ]

رُوَيْـدَ حُكْمَـكِ فِينَـا غَيْـرَ مُنْصِفَـةٍ ... بِـالنَّـاسِ كُلِّهِـمِ أَفْـدِيـكِ مِـنْ حَكَـمِ

---

(١) **اللُّبَانَةُ** : الحاجة من غير فاقة ، ولكن من نهمة . **حماة وشيزر** : بلدان معروفان في بلاد الشام .

(٢) **المعنىٰ** : فدتكَ ملوكٌ ترومُ شبهك في المضاء فتحاكي اسمكَ ، وتعادل قدرك ؛ فإِنَّكَ السيفُ اسماً وحقيقةً وتلقُّباً ، وحدُّكَ ماضي الشفرتينِ ، صقيلُ الصفحتينِ .

(٣) **الطريفُ** : ما استُحدثَ عندكَ مِنْ مالٍ . **والتليدُ** : ما كان عن إرث من الآباء . وبينهما طباق .

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ١٥٥] : [مِنَ الطويلِ]

مُفَدّىً بِآبَاءِ الرِّجَالِ سَمَيْدَعاً ... هُوَ الْكَرَمُ الْمَدُّ الَّذِي مَا لَهُ جَزْرُ[(١)]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٨٦] : [مِنَ الطويلِ]

يُفَدُّونَهُ حَتَّىٰ كَأَنَّ دِمَاءَهُمْ ... لِجَارِي هَوَاهُ فِي عُرُوقِهِمُ تَقْفُو[(٢)]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٨٦] : [مِنَ الطويلِ]

وَأَيُّ قَبِيلٍ يَسْتَحِقُّكَ قَدْرُهُ ... مَعَدُّ بْنُ عَدْنَانٍ فِدَاكَ وَيَعْرُبُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٥٥] : [مِنَ الطويلِ]

فِدىً مَنْ عَلَى الْغَبْرَاءِ أَوَّلُهُمْ أَنَا ... لِهَـٰذَا الأَبِيِّ الْمَاجِدِ الْجَائِدِ الْقَرْمِ[(٣)]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٩١] : [مِنَ الطويلِ]

فَعِشْ لَوْ فَدَى الْمَمْلُوكُ رَبّاً بِنَفْسِهِ ... مِنَ الْمَوْتِ لَمْ تُفْقَدْ وَفِي الأَرْضِ مُسْلِمُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ١٣٧] : [مِنَ الطويلِ]

فِدىً لأَبِي الْمِسْكِ الْكِرَامُ فَإِنَّهَا ... سَوَابِقُ خَيْلٍ يَهْتَدِينَ بِأَدْهَمِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٥٦] : [مِنَ الطويلِ]

فَدَيْنَاكَ مِنْ رَبْعٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبَا ... [فَإِنَّكَ كُنْتَ الشَّرْقَ لِلشَّمْسِ وَالْغَرْبَا]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٤٧] : [مِنَ الطويلِ]

فَدَيْنَاكَ أَهْدَى النَّاسِ سَهْماً إِلَىٰ قَلْبِي ... وَأَقْتَلَهُمْ لِلدَّارِعِينَ بِلاَ حَرْبِ[(٤)]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٧٠] : [مِنَ الطويلِ]

أَلاَ مَا لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ غَاضِبَا ... فَدَاهُ الْوَرَىٰ أَمْضَى السُّيُوفِ مَضَارِبَا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٩١] : [مِنَ البسيطِ]

وَلَيْتَ عَيْنَ الَّتِي آبَ النَّهَارُ بِهَا ... فِدَاءُ عَيْنِ الَّتِي آبَتْ وَلَمْ تَغِبِ[(٥)]

---

(١) السَّمَيْدَعُ : السيدُ الكريمُ ، والجمعُ : سَمَادِعُ . المدُّ : زيادةُ الماءِ . الجزرُ : نقصانُهُ .

(٢) والمعنىٰ : أنَّهم من محبَّتِهم لهُ يُفَدُّونَهُ ، فكأنَّ هواهُ جرىٰ أوَّلاً في عروقِهم قبلَ الدمِ ، ثمَّ تبعَهُ الدَّمُ .

(٣) الجائدُ : الفاعلُ ، مِنْ جادَ يجودُ . القرمُ : السَّيِّدُ .

(٤) المعنىٰ : فديتك يا أقصد العالمين سهماً إلىٰ قلبي ، يا من عينه تصيب بلحظها ولا تخطىء ، ويا أقتل الناس لأهل الدروع من غير حرب .

(٥) هكذا في « المخطوطِ » ، ويكونُ المعنىٰ علىٰ هـٰذهِ الروايةِ : ليتَ عينَ الشَّمسِ فداءُ عينِ هـٰذهِ المرأةِ الَّتي رَجعت ولم تَغِبْ .

ولكن في « الديوانِ » :

وَلَيْتَ عَيْنَ الَّتِي آبَ النَّهَارُ بِهَا ... فِدَاءُ عَيْنِ الَّتِي زَالَتْ وَلَمْ تَؤُبِ

فيكونُ المعنىٰ علىٰ هـٰذهِ الروايةِ : ليتَ عينَ الشَّمسِ فداءُ عينِ هـٰذه المرأةِ التي فارقت ولم تعُدْ .

والقصيدةُ قالها المتنبيُّ في رثاءِ أُختِ سيفِ الدولةِ عندما توفِّيت . واللهُ أعلمُ .

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٢٢] : [مِنَ الكاملِ]

بِأَبِي الشُّمُوسُ الْجَانِحَاتُ غَوَارِبَا ... اللاَّبِسَاتُ مِنَ الْحَرِيرِ جَلاَبِبَا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٦٩] : [مِنَ الطويلِ]

أَفْدِي ظِبَاءَ فَلاَةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا ... مَضْغَ الْكَلاَمِ وَلاَ صَبْغَ الْحَوَاجِيبِ (١)

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ١٨٨] : [مِنَ البسيطِ]

يَفْدِي بَنِيكَ ـ عُبَيْدَ اللهِ ـ حَاسِدُهُمْ ... بِجَبْهَةِ الْعَيْرِ يُفْدَىٰ حَافِرُ الْفَرَسِ (٢)

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٠٢] : [مِنَ الكاملِ]

لَوْ جَادَتِ الدُّنْيَا فَدَتْكَ بِأَهْلِهَا ... [أَوْ جَاهَدَتْ كُتِبَتْ عَلَيْكَ حَبِيسَا] (٣)

وغيرُ ذلكَ .

[التفدية عند البحتري]

ويعجبُني قولُ البُحتريِّ [في « ديوانهِ » ١/ ٣٤] : [مِنْ مجزوءِ الكاملِ]

نَفْسِي فِدَاؤُكَ إِنَّ حَظِّـ ... ـيَ كَوْنُ نَفْسِيَ فِي فِدَائِكْ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٢/ ٧٥٦] : [مِنَ الطويلِ]

بِأَنْفُسِنَا ، لاَ بِالطَّوَارِفِ وَالتُّلْدِ ... نَقِيكَ الَّذِي تُخْفِي مِنَ الشَّكْوِ أَوْ تُبْدِي

بِنَا ـ مَعْشَرَ الْعَافِينَ ـ مَا بِكَ مِنْ أَذىً ... فَإِنْ أَشْفَقُوا مِمَّا أَقُولُ فَبِي وَحْدِي

[فداء كثير لعبد العزيز بن مروان]

ودخلَ كُثَيِّرُ عزَّةَ يعودُ عبدَ العزيزِ بنَ مروانَ ، فقالَ [في « ديوانهِ » ٣١١] : [مِنَ الكاملِ]

وَنَعُودُ سَيِّدَنَا وَسَيِّدَ غَيْرِنَا ... لَيْتَ التَّشَكِّي كَانَ بِالْعُوَّادِ

لَوْ كَانَ يَقْبَلُ فِدْيَةً لَفَدَيْتُهُ ... بِالْمُصْطَفَىٰ مِنْ طَارِفِي وَتِلاَدِي (٤)

[فداء قس بن ساعدة لأخويه]

وقبلَ ذلكَ يقولُ قُسُّ بنُ ساعدةَ في رثاءِ أَخويهِ ـ اللَّذينِ بُنِيَ لهُ مسجدٌ بجوارِ قبريهِما يترهَّبُ فيهِ ـ مِنْ جملةِ أَبياتٍ [كما في « الأغاني » ١٥/ ٢٣٨] : [مِنَ الطويلِ]

فَلَوْ جُعِلَتْ نَفْسٌ لِنَفْسٍ وِقَايَةً ... لَجُدْتُ بِنَفْسِي أَنْ تَكُونَ فِدَاكُمَا (٥)

---

(١) يريدُ : تفضيلَ العربيَّاتِ ، وأَنَّهُنَّ فصيحاتٌ ، لا يمضغنَ الكلامَ ، ولا يصبغْنَ حواجبهنَّ كعادةِ نساءِ الحَضَرِ .

(٢) العَيْرُ : الحمار .

(٣) المعنىٰ : لو كانتِ الدُّنيا ذاتَ جودٍ وكرمٍ . . لفدتكَ بأَهلِها ، وأَبقتكَ خالداً . ولو كانَت غازيةً مجاهدةً . . لكانت وَقفاً عليكَ .

(٤) المصطفىٰ : المختار والمصفَّىٰ .

(٥) قالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ، لقد رأَيتُ مِن قسٍّ عجباً ، قالَ : « وَمَا رَأَيْتَ ؟ » قالَ : بَينا أَنا بجبلٍ يقالُ لهُ : سِمعانُ في يومٍ شديدِ الحرِّ . . إذا أَنا بقسِّ بنِ ساعدةَ تحتَ ظلِّ شجرةٍ عندَ عينِ ماءٍ ، وعندهُ سباعٌ ، كلَّما زأَرَ سبعٌ مِنها علىٰ صاحبهِ . . ضربَهُ بيدِهِ ، وقالَ : كُفَّ حتَّىٰ يشربَ الذي وردَ قبلكَ ، قالَ :

[فداء متمم لأخيه]

وقالَ متمِّمٌ : [مِنَ الطويلِ]

فَلَــوْ أَخَــذَتْ مِنِّــي الْمَنِيَّــةُ أَنْفُسِــي فَــدَيْتُــكَ مِنْهَــا بِــالسَّــوَامِ وَبِــالأَهْــلِ[1]

[التفدية عند الصوفية]

وكم في التفديةِ الواقعيةِ مِنْ حكاياتٍ جاءَتْ عنِ السادةِ الصوفيَّةِ بسلاسلِ الذهبِ مِنَ الأَسانيدِ ، لا أُطيلُ بذكرِها ، معَ إيماني بها وللهِ الحمدُ .

[فداء آدم لداوود]

ويزيدُني طُمأنينةً ما أَخرجَهُ الحاكمُ [في « المستدركِ » ٢/٣٢٥] علىٰ شرطِ مُسلمٍ ، وصحَّحهُ ، وأَقرَّهُ الذهبيُّ : (أَنَّهُ لَمَّا عُرِضتْ علىٰ آدمَ ذرِّيَّتُهُ . . أَعجَبَهُ وبيصُ[2] ما بينَ عَينَي داوودَ ، فسأَلَ عن عُمُرِهِ ، فقيلَ : ستُّونَ سنةً ، فقالَ : يا ربِّ ، زدهُ مِنْ عُمُري أَربعينَ ، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : إِذاً يُكتَبُ ويُختَمُ ، فلا يُبدَّلُ ، فلمَّا انقضىٰ عُمُرُ آدمَ . . جاءَهُ مَلَكُ الموتِ يقبضُ روحَهُ ، فقالَ : أَوَلَمْ يبقَ مِنْ عُمُري أَربعونَ ؟ فقالَ لهُ : أَوَلَمْ تجعَلْها لابنِكَ داوودَ ؟! قالَ : فَجَحَدَ . . فجحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، ونسيَ . . فنسيَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، وخَطِىءَ . . فخطِئَتْ ذرِّيَّتُهُ) .

[فداء زيد بن الدثنة للنبي صلى الله عليه وسلم]

وممَّا يتَّصلُ بهِ : أَنَّ قريشاً لَمَّا قَدِمَتْ بزيدِ بنِ الدَّثِنَّةِ للقتلِ . . قالَ لهُ أَبو سفيانَ : أَنشُدُكَ اللهَ يا زيدُ ، أَتحبُّ أَنَّ مُحَمَّداً عندَنا الآنَ تُضرَبُ عنقُهُ مكانَكَ ، وأَنتَ في أَهلِكَ ؟ قالَ : لا واللهِ ، ما أُحبُّ أَنَّ مُحَمَّداً في مكانِهِ تصيبُهُ شوكةٌ تؤذيهِ ، وإِنِّي جالسٌ في أَهلي ، ثمَّ قتلوهُ[3] .

[نماذج من فداء الصحابة له]

وقد وقاهُ صلى الله عليه وسلم سبعةٌ مِنَ الأَنصارِ يومَ أُحُدٍ ، حتَّىٰ رُزِقُوا الشهادَةَ أَجمعينَ[4] .

= ففزعتُ ، فقالَ : لا تَخف .

وإذا أنا بقبرينِ بينَهما مسجدٌ ، فقلتُ لهُ : ما هـٰذانِ القبرانِ ؟ قالَ : هـٰذانِ قَبرا أخوَينِ كانا لي فماتا ، فاتَّخذتُ بينَهما مسجداً أَعبدُ اللهَ جلَّ وعزَّ فيهِ حتَّىٰ أَلحقَ بِهما ، ثمَّ ذكرَ أَيَّامَهما ، فبكىٰ عليهما ، ثم أَنشأَ يقولُ :

خَلِيلَــيَّ هُبَّــا طَــالَمَــا قَــدْ رَقَــدْتُمَــا أَجِــدَّكُمَــا لاَ تَقْضِيَــانِ كَــرَاكُمَــا
أَلَــمْ تَعْلَمَــا أَنِّــي بِسِمْعَــانَ مُفْــرَدٌ وَمَــا لِــيَ فِيــهِ مِــنْ حَبِيــبٍ سِــوَاكُمَــا

القصيدةَ . فقالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « يَرْحَمُ اللهُ قُسّاً ، إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يُبْعَثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ » . أخرجه ضمن حديث طويل ابن شاهين عن ابن عباس رضي الله عنهما ، كما ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالىٰ في ترجمة قسٍّ من « الإصابة » (٥/٢٨٦) .

(١) السَّوَامُ والسَّائِمُ بمعنىً ، وهوَ المالُ الراعي اهـ .

(٢) وَبيصُ : بريقٌ .

(٣) قصَّةُ سيِّدنا زيدِ بنِ الدَّثِنَّةِ معَ قريشٍ يومَ الرجيعِ أَخرجها البخاريُّ في « صحيحه » (٣٠٤٥) ، أَمَّا سؤالُ أَبي سفيانَ لزيدٍ وجوابهُ لهُ . . فأَخرجهُ ابن إسحاقَ في « المغازي » ، كما في « سيرة ابن هشام » (٣/١٧١) .

(٤) ذكرَ ابنُ سعدٍ في « الطبقات » (٢/٤٢) بإسنادِهِ أَنَّ العصابةَ التي ثبتَتْ مع النبيِّ أَربعةَ عشرَ رجلاً ؛ سبعةٌ مِنَ المهاجرينَ فيهم أَبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ ، وسبعةٌ مِنَ الأَنصارِ .



ووقاهُ أيضاً عليهِ [الصَّلاةُ] والسَّلامُ طلحةُ بنُ عُبيدِ اللهِ يومئذٍ ، حتَّىٰ شَلَّتْ يدُهُ[1] .

وما زالتِ الصحابةُ ـ رضوانُ اللهِ عليهم ـ تقولُ لهُ عليهِ السلامُ : نحورُنا دونَ نحرِكَ ، وصدورُنا دونَ صدرِكَ[2] .

وفداهُ عليُّ ابنُ أبي طالبٍ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ بنفسِهِ ليلةَ الهجرةِ ، وباتَ معَ ذلكَ رخيَّ البالِ ، متلفِّعاً ببُردِهِ علىٰ فراشِهِ ، حتَّىٰ يُروىٰ أنَّ اللهَ جلَّ شأنُهُ باهىٰ بهِ الملائكةَ .

وقدْ أخذَ مِنْ هٰذا الفضلِ بالنصيبِ الأوفى الصِّدِّيقُ ، لياليَ الهجرةِ والغارِ .

وكانَ أبو طالبٍ يفديهِ ببنيهِ ، كلَّما نامَ بادلَهُ بأحدِ أبنائِهِ في مرقدِهِ ، طيلةَ ليالي الشِّعبِ .

[الأيام الحلوة تمر مسرعة عند المتنبي]

ثُمَّ إنَّ معنى الشطرِ الأخيرِ مِنَ البيتينِ متكرِّرٌ في « **ديوانِ الناظمِ** » ، **فمنهُ قولُهُ** [في « العُكْبَريّ » ٢/٢٣٨] : [مِنَ الطويلِ]

فَمَا جَلَسَتْ حَتَّى انْثَنَتْ تُوسِعُ الْخُطَا ... كَفَاطِمَةٍ عَنْ دَرِّهَا قَبْلَ تُرْضِعُ[3]

ولا يبعدُ عنهُ **قولُهُ** [في « العُكْبَريّ » ٢/٦٩] : [مِنَ الطويلِ]

تَفَضَّلَتِ الأَيَّامُ بِالْجَمْعِ بَيْنَنَا ... فَلَمَّا حَمِدْنَا لَمْ تُدِمْنَا عَلَى الْحَمْدِ

وهوَ مشترَكٌ بينَ الشعراءِ .

[وكذلك عند الشعراء كل شيء يهون من أجل الحبيب]

قالَ العَكَوَّكُ [في « ديوانهِ » ٧٦] : [مِنَ الرَّمَلِ]

كَابَدَ الأَهْوَالَ فِي زَوْرَتِهِ ... ثُمَّ مَا سَلَّمَ حَتَّىٰ وَدَّعَا[4]

وقالَ كُشَاجِمٌ [في « ديوانهِ » ٢٦٧] : [مِنَ الكاملِ]

لَمْ أَسْتَتِمَّ عِنَاقَهُ لِقُدُومِهِ ... حَتَّى ابْتَدَأْتُ عِنَاقَهُ لِوَدَاعِهِ

وقالَ ابنُ الأحنفِ [في « ديوانهِ » ٢٣١] : [مِنَ الخفيفِ]

سَأَلُونَا عَنْ حَالِنَا كَيْفَ أَنْتُمْ ؟ ... فَقَرَنَّا وَدَاعَنَا بِالسُّؤَالِ

مَا حَلَلْنَا حَتَّى افْتَرَقْنَا فَمَا نَفْـ ... ـرُقُ بَيْنَ النُّزُولِ وَالارْتِحَالِ

وقالَ أبو الشِّيصِ [في « ديوانهِ » ٥٣] : [مِنَ السَّريعِ]

يَا حَبَّذَا الزَّوْرُ الَّذِي زَارَا ... كَأَنَّهُ مُقْتَبِسٌ نَارَا

نَفْسِي فِدَاءٌ لَكَ مِنْ زَائِرٍ ... مَا حَلَّ حَتَّىٰ قِيلَ قَدْ سَارَا

---

(١) أخرجَ الخبرَ البخاريُّ (٣٨١١) .

(٢) ذكرَ ذلكَ البخاريُّ (٣٨١٢) .

(٣) أي : هي في سرعةِ توديعها كَمَن فطمت ولدَها قبلَ أنْ تُرضِعَهُ .

(٤) **المكابدةُ** : المعاناةُ والمقاساةُ .

ولا يخرجُ عنهُ قولُ أَبي عبادةَ البُحتريِّ [في « ديوانه » ١/ ٥٢٩] : [مِنَ الطويلِ]

كَفَىٰ حَزَناً أَنَّا عَلَى الْوَصْلِ نَلْتَقِي فَـوَاقـاً فَتَثْنِينَـا الْعُيُـونُ إِلَـى الصَّـدِّ[1]
فَلَـوْ تُمْكِـنُ الشَّكْـوَىٰ لَخَبَّـرَكَ الْبُكَـا حَقِيقَـةَ مَـا عِنْـدِي وَإِنْ جَـلَّ مَـا عِنْـدِي

[سيدنا إبراهيم الخليل الإمام في ذلك]

وكلُّهُ مِنْ صُنعِ الخليلِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ ، فإِنَّهُ يطوي البيدَ ـ كما في « **الصحيح** » [البخاري (٣٣٦٤)] ـ مِنْ (فلسطينَ) إِلى (الحجازِ) ؛ ليُطالعَ تَرِكَتَهُ[2] ، ثُمَّ لا يلبثُ أَنْ يعودَ مِنْ فورِهِ .

[أيهما الأسعد نظام الملك أم البستاني ؟!]

وفي « **طبقاتِ ابنِ السبكيِّ** » [٤/ ٣٢١] : أَنَّ نظامَ المُلْكِ استقبلَ ولدَهُ ، وفِلْذَةَ كبدِهِ غَداةَ يوم مرجعِهِ مِنْ سفرِ دراستِهِ ، وودَّعَهُ مِنَ العشيِّ إِلىٰ موضعِ عملِهِ ، ثُمَّ بَكىٰ ، ورأىٰ أَنَّ البستانيَّ أَسعدُ حالاً منهُ ، يأكلُ مِنْ عملِ يدِهِ ، ويتمتَّعُ بأَهلِهِ وولدِهِ .

[ابن حجاج وسرعة عزله عن عمله]

وممَّا ينخرطُ مِنَ النوادرِ في هـٰذا السلكِ : أَنَّ بعضَ الأُمراءِ قلَّدَ ابنَ حجَّاجٍ عملاً ، خرجَ إِليهِ يومَ الخميسِ ، فتبعَهُ كتابُ العزلِ في يومِ الأَحدِ ، فقالَ [في « يتيمةِ الدهرِ » ٣/ ٩٤] : [مِنْ مجزوءِ الكاملِ]

يَـا مَـنْ إِذَا نَظَـرَ الْهِـلاَ لُ إِلَـىٰ مَحَـاسِنِـهِ سَجَـدْ
وَإِذَا رَأَتْـهُ الشَّمْـسُ كَـا دَتْ أَنْ تَمُـوتَ مِـنَ الْحَسَـدْ
يَـوْمَ الْخَمِيـسِ بَعَثْتَنِـي وَصَـرَفْتَنِـي يَـوْمَ الأَحَـدْ
مَـا قَـامَ عَمْـرٌو فِـي الْـوِلاَ يَـةِ قَـائِمـاً حَتَّـىٰ قَعَـدْ

[تولية الرشيد لجعفر بن يحيىٰ وعزله]

وقبلَ ذلكَ ، الرشيدُ عقدَ لجعفرِ بنِ يحيىٰ علىٰ (خُراسانَ) ، فهنَّأَتْهُ الشعراءُ ، ومنهم أَشْجَعُ بقولِهِ [في « ديوانهِ » ٨٠ و٢٢٩] : [مِنَ المتقاربِ]

تُـرِيـدُ الْمُلُـوكُ مَـدَىٰ جَعْفَـرٍ وَلاَ يَصْنَعُـونَ كَمَـا يَصْنَـعُ
وَلَيْـسَ بِـأَوْسَعِهِـمْ فِـي الْغِنَـىٰ وَلَـٰكِـنَّ مَعْـرُوفَـهُ أَوْسَـعُ
فَقُـلْ لِخُـرَاسَـانَ تَحْيَـا فَقَـدْ أَتَـاهَـا ابْـنُ يَحْيَـى الْفَتَـى الأَرْوَعُ

ثُمَّ بدا للرشيدِ ، فعزلَهُ عنها ، فوَجَمَ جعفرٌ ، فقالَ أَشجعُ [في « ديوانه » ١٩٦] : [مِنَ السَّريعِ]

أَضْحَـتْ خُـرَاسَـانُ تُعَـزَّىٰ بِمَـا أَخْطَـأَهَـا مِـنْ جَعْفَـرِ الْمُـرْتَجَـىٰ
كَـانَ الـرَّشِيـدُ الْمُعْتَلِـي أَمْـرُهُ وَلَّـىٰ عَلَـىٰ مَشْـرِقِهَـا الأَبْلَجَـا

---

(١) الفواقُ : الفترةُ بين وقتي الحلاب ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ مَا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ [صٓ : ١٥] .
(٢) تَرِكَتُهُ : ابنهُ إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر . كما جاء في القرآن : ﴿ رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

ثُــــمَّ أَرَاهُ رَأْيُـــــهُ أَنَّـــــهُ أَمْسَــىٰ إِلَيْــهِ مِنْهُــمْ أَحْــوَجَــا[1]

[توليته صلى الله عليه وسلم لسعد وعزله يوم الفتح]

ولا ننسىٰ معَ هـٰذا ما كانَ مِنْ سرعةِ عزلِهِ صلى الله عليه وسلم لسعدِ بنِ عبادةَ عن الرايةِ يومَ الفتحِ ، وجعلِ اللواءِ إلى ابنهِ قيسِ بنِ سعدِ بنِ عبادةَ[2] .

[ما القول الفصل في هـٰذه المسألة]

وبعدُ : فما يذكرُهُ الشعراءُ مِنْ تقليلِ وقتِ الوصالِ ، وتقارُبِ حينِ النزولِ مِنْ حينِ الارتحالِ :

ـ إمَّا أَنْ يكونَ حقيقةً ، كما ذكرنا عنِ الخليلِ عليهِ السلامُ .

ـ وإمَّا أَنْ يكونَ علىٰ سبيلِ المجازِ ؛ لأَنَّ مدَّةَ الوصلِ قصيرةٌ عندَ المُحِبِّ ، علىٰ حدِّ **قولِ الناظمِ** [في « العُكْبَرِيِّ » ٥٩/٢] : [مِنَ الطويلِ]

نَسِيتُ وَمَا أَنْسَىٰ عِتَاباً عَلَى الصَّدِّ وَلاَ خَفَراً زَادَتْ بِهِ حُمْرَةُ الْخَدِّ[3]

وَلاَ لَيْلَــةً قَصَّــرْتُهَــا بِقَصُــورَةٍ أَطَالَتْ يَدِي فِي جِيدِهَا صُحْبَةَ الْعِقْدِ

والبيتُ الثاني هوَ الذي أُريدَ ، وهوَ مِنْ قولِ المجنونِ [في « ديوانهِ » ٢٩٢] : [مِنَ الطويلِ]

وَيَــوْمٍ كَظِــلِّ الــرُّمْــحِ قَصَّــرْتُ ظِلَّــهُ بِلَيْلَــىٰ فَلَهَّــانِــي وَمَــا كُنْــتُ لاَهِيَــا

[معاني القصيرة والمقصورة]

والقصيرةُ والقصورةُ تحتملُ عدَّةَ معانٍ ؛ لأَنَّهُ :

[١ـ قصر الخطو]

ـ إمَّا أَنْ يكونَ المرادُ منها : قِصَرَ الخطوِ ، ومنهُ قولُ القُحَيفِ العُقيليِّ : [مِنَ الطويلِ]

سَقَــىٰ وَرَعَــى اللهُ الأَوَانِـسَ كَـالـدُّمَـىٰ إِذَا قُمْــنَ جُنْــحَ اللَّيْــلِ مُعْتَجِــرَاتِ

إِذَا مِسْــنَ قُــدَّامَ الْبُيُــوتِ عَشِيَّــةً قِصَارَ الْخُطَـىٰ يَـرْفُلْنَ فِـي الْحِبَـرَاتِ[4]

دعَـوْنَ بِحَبَّـاتِ الْقُلُـوبِ فَـأَسْرَعَـتْ إِلَيْهِــنَّ بِــالأَهْــوَاءِ مُبْتَــدِرَاتِ

وقولُ أَبي العتاهيةِ [في « ديوانهِ » ٦١٢] : [مِنَ المتقاربِ]

بَــدَتْ بَيْــنَ حُــورٍ قِصَــارِ الْخُطَــىٰ تُجَــاهِــدُ بِــالْمَشْــيِ أَكْفَــالَهَــا

ويدخلُ فيهِ كلُّ ما يأتي في ثِقَلِ الروادفِ ، وعِظَمِ المآكمِ ، عندَما تنتهي إليهِ النوبةُ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

[قصر الخطو مذموم في الرجال]

وعلى استحسانِهِ في النساءِ ، فهوَ مذمومٌ في الرجالِ ، إذا جاوزَ الحدَّ الذي رسمَهُ لقمانُ في قولِهِ لولدِهِ : ﴿ وَٱقْصِدْ فِي

---

(١) القصة في « الأغاني » (١٨/ ٢٣٤) .

(٢) الخبر عند ابن سعد في « الطبقات » (٢/ ١٣٥) ، وكذا عند ابن سيد الناس في « عيون الأثر » (٢/ ١٧١) .

(٣) **الخَفَرُ** : الحياءُ .

(٤) **مِسْنَ** : تبخترنَ ، وكذلك : **يَرْفُلْنَ** . **الحِبَرات** ـ جمعُ حِبَرةٍ ـ : وهوَ ثوبٌ من قطنٍ أَو كِتَّانٍ أَو حريرٍ مخططٌ ، يُصنَعُ بـ(اليمنِ) .

مَشْيِكَ﴾ [لقمان : ١٩] ، ولا سيَّما إذا انتهىٰ إلى التماوتِ الممقوتِ فاعلُهُ .

[٢ـ قصر النظر]

ـ **وإمَّا أَنْ يكونَ المرادُ منها** : قَصْرَ النظرِ ، علىٰ حدِّ قولِهِ تعالىٰ : ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ [صٓ : ٥٢] .

ومنهُ قولُ قيسِ بنِ ذَرِيحٍ [في « ديوانهِ » ٨٨] : [مِنَ الطويلِ]

أَذُودُ سَــوَامَ الطَّـرْفِ عَنْـكِ وَمَـا لَـهُ ... عَلَــىٰ أَحَــدٍ إِلاَّ عَلَيْــكِ طَـرِيــقُ[١]

[٣ـ لزام الخدور]

ـ **وإمَّا أَنْ يكونَ معناهُ** : لزامَ الخُدورِ ، ومنهُ قولُهُ جلَّ شأنُهُ : ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن : ٧٢] .

وقالَ كُثيِّرٌ [في « ديوانه » ٣٦٩] : [مِنَ الطويلِ]

وَأَنْــتِ الَّتِــي حَبَّبْــتِ كُــلَّ قَصِيــرَةٍ ... إِلَــيَّ وَلَــمْ تَشْعُــرْ بِــذَاكَ الْقَصَــائِــرُ
عَنَيْــتُ قَصِيــرَاتِ الْحِجَــالِ وَلَــمْ أُرِدْ ... قِصَــارَ الْخُطَــىٰ ، شَــرُّ النِّسَــاءِ الْبَحَــاتِــرُ[٢]

وهٰذا لا يُخالِفُ ما سبقَ عنِ القُحَيفِ ؛ لِفَرْقِ ما بينَ البابينِ ؛ إِذِ المرادُ قِصَرُها ثَمَّ مِنَ الروادِفِ ، وهنا المذمومُ قِصَرُها مِنَ القماءَةِ[٣] .

وقالَ أبو قيسِ بنُ الأَسْلتِ [كما في « الأغاني » ١٧/١٣٣] : [مِنَ الطويلِ]

وَيُكْــرِمْنَهَــا جَــارَاتُهَــا فَيَــزُرْنَهَــا ... وَتَعْتَــلُّ عَــنْ إِتْيَــانِهِــنَّ فَتُعْــذَرُ
وَلَيْــسَ بِهَــا أَنْ تَسْتَهِيــنَ بِجَــارَةٍ ... وَلَٰكِنَّهَــا مِــنْ ذَاكَ تَحْيَــا وتَخْفَــرُ
وَإِنْ هِــيَ لَــمْ تَبْــرُزْ لَهُــنَّ أَتَيْنَهَــا ... نَــوَاعِــمَ بِيضــاً مَشْيُهُــنَّ التَّــأَطُّــرُ[٤]

[أنشدونا بيتاً خَفِراً]

وعنِ الهيثمِ بنِ عديٍّ ، قالَ : كُنَّا جلوساً عندَ صالحِ بنِ حسَّانَ ، فقالَ : أَنشِدونا بيتاً خَفِراً في امرأةٍ خَفِرَةٍ ، فقلنا قولَ الأعشىٰ [في « ديوانه » ٣٠٠] : [مِنَ البسيط]

كَــأَنَّ مِشْيَتَهَــا مِــنْ بَيْــتِ جَــارَتِهَــا ... مَــرُّ السَّحَــابَــةِ لاَ رَيْــثٌ وَلاَ عَجَــلُ

فقالَ : هٰذِهِ خرَّاجَةٌ ولاَّجَةٌ ، لكنَّ المقبولَ قولُ ابنِ الأَسْلتِ ، وأَنشدَ الأبياتَ .

---

(١) **أذودُ** : أمنعُ وأدفعُ . **أسامَ إليه ببصرِهِ** : رماهُ به .

(٢) **القصائرُ** : جمعُ قصيرةٍ وقصور ، وهيَ المرأةُ المحبوسةُ المحجوبةُ المصونةُ في البيتِ لا تُتركُ أن تَخرُجَ . **قصيراتُ الحجالِ** : الحَجَلةُ : مثلُ القبّةِ تُزيَّنُ بالثيابِ والأسرةِ والستورِ . **البحاترُ** ـ جمعُ بُحتُرةٍ ـ : وهي المرأةُ القصيرةُ المجتمعةُ الخَلْقِ . **والمراد** : أنها حبَّبت إليهِ كلَّ امرأةٍ مقصورةٍ في خِدرها لا القصيرةَ في خَلْقِها .

(٣) **القماءَةُ** ، يقال : قَمَأَتِ الماشيةُ : سَمِنَت . قال الشاعر : [من الطّويل]

تبيــنَ لــي أنَّ القمـــاءةَ ذِلَّـــةٌ ... وأنَّ أعـــزّاءَ الـــرجـــالِ طيـــالُهـــا

(٤) **التأطُّرُ** : التثنّي في المشي .

[العتبي والنساء الأعرابيات]

وقالَ العتبيُّ : خرجتُ إلى (المِربَدِ)[1] ، فإذا بأعرابيٍّ غَزِلٍ ، فمِلْتُ إليهِ ، وذكرتُ النساءَ ، فتنفَّسَ ، ثُمَّ قالَ : يا ابنَ أخي ، إنَّ مِنْ كلامهنَّ لَمَا يقومُ مَقامَ العذبِ على الظمأ ، فقلتُ : كيفَ نساؤُكُم ؟ فقالَ : [مِنَ الكامل]

رُجُحٌ وَلَسْنَ مِنَ اللَّوَاتِي بِالضُّحَىٰ ... لِذُيُولِهِنَّ عَلَى الطَّرِيقِ غُبَارُ

يَأْنَسْنَ عِنْدَ بُعُولِهِنَّ إِذَا خَلَوْا ... وَإِذَا هُمُوا خَرَجُوا فَهُنَّ خِفَارُ

[نفي المحكوم عليه بانتفاء صفته]

وقولُهُ : (لَسْنَ . . . لِذُيُولِهِنَّ عَلَى الطَّرِيقِ غُبَارُ) كنايةٌ عن ملازمةِ البيوتِ ؛ لأنَّهُم كثيراً ما يَقصِدونَ نفيَ المحكومِ عليهِ بانتفاءِ صفتِهِ ، كما دلَّ عليهِ سياقُ البيتِ .

[مثاله من القرآن]

وكما في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة : ٢٧٣] ، فإنَّهُ ليسَ المعنىٰ إثباتَ السؤالِ ، ونفيَ الإلحافِ عنهُ ، وإنَّما الغَرَضُ نفيُ السؤالِ مِنْ أصلِهِ .

[مثاله من السنة]

وكما في قولِهِم عن مجلسِهِ عليه السلام : (لا تُنْثَىٰ فَلَتاتُهُ)[2] ، فلا يُفهَمُ منهُ أنَّ هناكَ فَلَتاتٍ تُطوىٰ ولا تروىٰ ، ولٰكنَّ المرادَ أنْ لا فَلَتاتَ أصلاً .

[مثاله من الشعر]

ومنهُ قولُ كعبِ بنِ سعدٍ الغنويِّ [في « خزانةِ الأدبِ » ١٠/ ٤٣٥] : [مِنَ الطويل]

أَخِي مَا أَخِي لاَ فَاحِشٌ عِنْدَ بَيْتِهِ ... وَلاَ وَرِعٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ هَيُوبُ

فقد قصدَ فيهِ إلىٰ نفيِ الفُحْشِ بتّاً ، لا بقيدِ ما كانَ منهُ عندَ بيتِهِ .

[قول ابن الأثير في هٰذه المسألة]

ولقد أسرفَ علىٰ نفسِهِ أبو الفتحِ ابنُ الأثيرِ [الجزري] ؛ إذ قالَ في مثلِ هٰذا المبحثِ[3] : مكثتُ زمناً أطوفُ علىٰ أقوالِ الشعراءِ ؛ لأظفرَ بما يجري هٰذا المجرىٰ ، فلَم أجد إلاَّ قولَ امرئِ القيسِ : [مِنَ الطويل]

عَلَىٰ لاَحِبٍ لاَ يَهْتَدِي بِمَنَارِهِ ... [إِذَا سَافَهُ الْعَوْدُ النُّبَاطِيُّ جَرْجَرَا][4]

وَلِي فيهِ بيتٌ مِنَ الشِّعرِ ، وهوَ [في « المثل السائر » ٢/ ٦٢] : [مِنَ الكاملِ]

أَدْنَيْنَ جِلْبَابَ الْحَيَاءِ فَلاَ يُرَىٰ ... لِذُيُولِهِنَّ عَلَى الطَّرِيقِ غُبَارُ

---

(١) المربد : قالَ الأصمعيُّ : كلُّ شيءٍ جلست بهِ الإبلُ والغنمُ ؛ ولهٰذا قيلَ : مِربَدُ النَّعَمِ الذي بـ(المدينةِ) ، وبهِ سُمِّيَ مِربدُ (البصرة) ، وهوَ المقصودُ هنا .

(٢) أخرجهُ الطبرانيُّ في « الكبير » (٢٢/ ١٥٤) . وقوله : (لا تُنثىٰ فلتاته) . الفَلَتاتُ ـ جمعُ فَلْتَةٍ ـ : الزلاَّتُ ؛ أي : لم يكُن في مجلسهِ زلاَّتٌ فتُحفظ وتُحكىٰ .

(٣) في « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » (٢/ ٦٢) .

(٤) لاَحِبٌ : طريقٌ واضح .



[رد المؤلف عليه]

إذْ لَم يَزِدْ بهٰذا الانتحالِ علىٰ أَنْ فضَحَ نفسَهُ بما يضيقُ عنهُ ذَرعاً ، بشهادةِ التنافُرِ بينَ القسمينِ في بيتِهِ ، وتناسُبِهِما في بيتِ الأَعرابيِّ .

أَمَّا الشواهدُ الشعريَّةُ عليهِ : فستأتي أَوَّلَ المجلسِ الثالثِ ، بمناسبةِ **قولِهِ** [في « العُكْبَريِّ » ١/ ٣٠٤] : [مِنَ المنْسَرِح]

يُعْطِي فَلاَ مَطْلُهُ يُكَدِّرُهَا ... بِهَا وَلاَ مَنُّهُ يُنَكِّدُهَا

[تشبيه ليلة القرب وليل الصد وكثرته عند الشعراء]

ثُمَّ ما زالَ الشعراءُ يُشبِّهونَ ليلةَ القُربِ بفِترِ الضبِّ ، وإِبهامِ القَطاةِ[١] ، كما يَستعيرونَ لِلَيلِ الصدِّ ظلَّ الرُّمحِ ، وما أَشبهَ ذلكَ .

قالَ جريرٌ [في « ديوانه » ٢/ ٩٦٤] : [مِنَ الطويلِ]

وَيَوْمٍ كَإِبْهَامِ الْقَطَاةِ مُزَيَّنٍ ... لَدَيَّ صِبَاهُ غَالِبٍ لِيَ بَاطِلُهْ

وقالَ الوليدُ بنُ يزيدَ [في « ديوانه »] : [مِنَ البسيطِ]

لاَ أَسْأَلُ اللهَ تَغْيِيراً لِمَا صَنَعَتْ ... نَامَتْ وَقَدْ أَسْهَرَتْ عَيْنَيَّ عَيْنَاهَا

فَاللَّيْلُ أَطْوَلُ شَيْءٍ حِينَ أَفْقِدُهَا ... وَاللَّيْلُ أَقْصَرُ شَيْءٍ حِينَ أَلْقَاهَا

وقالَ آخرُ : [مِنَ الخفيفِ]

لَيْلَةٌ كَادَ يَلْتَقِي طَرَفَاهَا ... قِصَراً وَهِيَ لَيْلَةُ الإِجْتِمَاعِ

وقالَ غيرُهُ : [مِنَ الوافرِ]

ظَلَلْنَا عِنْدَ دَارِ أَبِي نُعَيْمٍ ... بِيَوْمٍ مِثْلَ سَالِفَةِ الذُّبَابِ[٢]

وقالَ ابنُ الأَحنفِ [في « ديوانه » ١٢٠] : [مِنَ السّريع]

الْيَوْمُ مِثْلُ الْحَوْلِ حَتَّىٰ أَرَىٰ ... وَجْهَكِ وَالسَّاعَةُ كَالشَّهْرِ

وقالَ الصِّمَّةُ بنُ عَبدِ اللهِ [في « ديوانه » ٧٩] : [مِنَ الوافرِ]

شُهُورٌ يَنْقَضِينَ وَمَا شَعَرْنَا ... بِأَنْصَافٍ لَهُنَّ وَلاَ سِرَارِ[٣]

فَأَمَّا لَيْلُهُنَّ فَخَيْرُ لَيْلٍ ... وَأَقْصَرُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّهَارِ

وقدْ يشبهُهُ قولُ ابنِ الروميِّ [في « ديوانه » ٤/ ١٤٧٣] : [مِنَ الطويلِ]

سَقَى اللهُ أَوْطَاراً لَنَا وَمَآرِباً ... تَقَطَّعَ مِنْ أَقْرَانِهَا مَا تَقَطَّعَا

لَيَالِيَ أَنْسَتْنِي حِسَابَ زَمَانِهَا ... بُلَهْنِيَةٌ أَقْضِي بِهَا الْحَوْلَ أَجْمَعَا[٤]

---

(١) يُضرَبُ المثَلُ في الأَشياءِ القصيرةِ التي هي كالخيالِ بفتْرٍ ـ شِبْرِ ـ الضَّبِّ وإِبهامِ القطاةِ ؛ لأَنَّهُ لا فتْرَ له ولا إبهام لها أصلاً .

(٢) سالفةُ الذبابِ : عُنقُ السيفِ ، والمعنىٰ : يومهم قصير كقصر عنق السيف .

(٣) السرار ـ سَرَرُ الشهر ، بالتحريك ـ : آخرُ ليلةٍ منه .

(٤) البُلَهْنِيَةُ : الرَّخاءُ وسَعَةُ العيش .



وقالَ الفقيهُ الشافعيُّ أَسعدُ بنُ يحيى السِّنجاريُّ [في « وفيات الأعيان » ١/ ٢١٦] : [مِنَ السَّريع]

لِلّٰهِ أَيَّـامِـي عَلَـىٰ رَامَـةٍ ... وَطِيبُ أَوْقَاتِي عَلَىٰ حَاجِرِ
تَكَادُ بِالسُّرْعَةِ فِي مَرِّهَا ... أَوَّلُهَا يَعْثُرُ بِالآخِرِ

[تمثل السيدة عائشة بشعر متمم بن نويرة]

ولا يخرجُ عنهُ قولُ مُتمِّمِ بنِ نويرةَ [في « المفضَّليَّاتِ » ٣/ ١١٧٧] ـ وقد تمثَّلتْ بهِ عائشةُ عندَ قبرِ أَخٍ لها[١] ـ : [مِنَ الطويل]

وَكُنَّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً ... مِنَ الدَّهْرِ حَتَّىٰ قِيلَ لَنْ نَتَصَدَّعَا[٢]
فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكاً ... لِطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا

وهُما مِنْ قصيدةٍ لهُ شاعرةٍ محرِّكةٍ ، يقولُ فيها [في « المفضَّليَّاتِ » ٣/ ١١٨٧ـ١١٨٨] : [من الطويل]

وَمَا وَجْدُ أَظْآرٍ ثَلاثٍ رَوَائِمٍ ... رَأَيْنَ مَجَرّاً مِنْ حُوَارٍ وَمَصْرَعَا[٣]
يُذَكِّرْنَ ذَا الْبَثِّ الْحَزِينَ بِبَثِّهِ ... إِذَا حَنَّتِ الأُولَىٰ سَجَعْنَ لَهَا مَعَا
بِأَوْجَعَ مِنِّي يَوْمَ فَارَقْتُ مَالِكاً ... وَقَامَ بِهِ النَّاعِي الرَّفِيعُ فَأَسْمَعَا

وبعدَها البيتانِ ، ثُمَّ قالَ [في « المفضَّليَّاتِ » ٣/ ١١٧٨] :

وَإِنْ تَكُنِ الأَيَّامُ فَرَّقْنَ بَيْنَنَا ... فَقَدْ بَانَ مَحْمُوداً أَخِي حِينَ وَدَّعَا
لَقَدْ كَفَّنَ الْمِنْهَالُ تَحْتَ رِدَائِهِ ... فَتَىً غَيْرَ مِبْطَانِ الْعَشِيَّاتِ أَرْوَعَا

ويأتي ما يشبهُها في تحريكِ الأَشجانِ ، وإِثارةِ البلابلِ ، عندَ شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٣٦] : [مِنَ الطويل]

وَلَوْ حُمِّلَتْ صُمُّ الْجِبَالِ الَّذِي بِنَا ... [غَدَاةَ افْتَرَقْنَا أَوْشَكَتْ تَتَصَدَّعُ]

مِنْ آخرِ المجلسِ الخامسَ عشرَ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

---

(١) تمثلت بهما السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ عند قبر أخيها عبد الرحمٰن ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم . انظر : « الأغاني » (١٧/ ٣٦١) .

(٢) **نَدماني جَذيمة** : هما عقيل ومالك ابنا فالج ، **وجَذِيمة** : هو ابن مالك الأسدي أول ملوك الحيرة ، ولهما معه قصة حاصلها كما في « الأغاني » (١٥/ ٣٠٢) :

أنَّ جَذيمةَ قالَ يوماً لجلسائه : قد ذُكِرَ لِي غلامٌ لخميٍّ مقيمٌ في أَخوالِهِ مِنْ إيادٍ ، لَهُ ظَرْفٌ ولبٌّ ، فلو بعثتُ إليه يكونُ في نُدمائي ، وولَّيتُهُ كأسي والقيام بمجلسي . . كانَ الرأيَ ؟ فأَبْدوهُ ، فبعثَ إليه ومكثَ عندَهُ مدَّةً طويلةً ، ثمَّ أَشرفَتْ عليهِ يوماً رَقاشِ أُختُ جَذيمةَ ، فلم تزلْ تُراسلهُ حتَّى اتَّصلَ بينَهُما ، ثمَّ قالت لهُ : يا عدي ، إذا سقيتَ القومَ . . فامزج لهُم ، واسقِ أَخي صِرفاً ، فإذا أخذتْ منهُ الخمرُ فاخطبني إليه ، فإنَّهُ يزوِّجكَ ، وأَشهدِ القومَ عليهِ إِنْ هوَ فعلَ ، ففعلَ الغلامُ ذلكَ وانصرفَ إليها بالخبر ، فقالت : عرِّسْ بأهلكَ ، ففعلَ ، فلمَّا أصبحَ . غدا مُضرَّجاً بالخَلوق ، فقالَ لهُ جَذيمةُ : ما هٰذه الآثارُ يا عدي ؟! قالَ : آثارُ العُرس ، قالَ : أَيُّ عُرس ؟!! قالَ : عرسُ رَقاشِ ، فغضبَ جَذيمةُ ، وهَرَبَ عديٌّ ، فطلبه جَذيمةُ فلم يدركهُ ، وسجنَ أُختَهُ في قصرِهِ ، واشتملت علىٰ حملٍ فولدت غلاماً وسمَّتهُ عَمراً ، وربَّتهُ حتَّىٰ كَبِرَ ، ثمَّ دخلَ علىٰ خالِهِ الملكِ بأبهىٰ حُلَّةٍ ، فأَحبَّهُ حبّاً شديداً ، وقرَّبَهُ إليه . ثمَّ إِنَّ الجنَّ اختطفتهُ ، فلَمْ يزل جَذيمةُ يبحثُ عنهُ فلم يسمَع لهُ بخبرٍ .

ثمَّ أقبلَ رجُلانِ ـ هما عقيل ومالك ابنا فالج ـ يريدانِ الملكَ بهديةٍ ، فنزلا علىٰ ماءٍ فبينا هما يأكلانِ إذ أقبلَ رجلٌ أشعثُ أغبرُ فناولاهُ شيئاً فأكلَهُ ، ثمَّ سألاهُ عَن اسمِهِ ، فقالَ : إِنْ تُنكراني أو تُنكرا نسبي فإنَّني عَمروٌ وعديٌّ أَبي ، فقاما إليه ، فحسَّنا هيئتَهُ ، وقالا : ما كُنَّا لنهدي إلى الملكِ هديةً أنفسَ عندَهُ مِن ابن أُختِهِ ، فبشَّرا الملكَ بهِ ، فسُرَّ سروراً عظيماً ، وقالَ لهُما : احكُما ، فلكُما حُكمُكُما ، قالا : منادمتُكَ ما بقيتَ وبقينا ، فمكثا عندَهُ أربعينَ سنةً علىٰ تلكَ الحالِ ، حتَّىٰ قُتِلَ الملكُ علىٰ يدِ الزَّبَّاءِ في قصَّةٍ لا حاجة لذكرها .

(٣) **أَظْآر** : جمعُ ظِئْرٍ ، وهي المرضعةُ لغير ولدها من الناس والإبلِ . **الروائمُ** ـ جمع رائِمٍ ـ : وهي الناقةُ العاطفةُ علىٰ ولدِها . **المجرُّ** : أَحشاءُ الحوارِ . **والحُوارُ** : ولد الناقةِ من حينِ يرضعُ إلىٰ أن يفطمَ ويفصلَ

[كن صياد فرص]

وقالَ ابنُ ميَّادةَ [في « ديوانه » ٢٠٦] : [مِنَ الطويل]

تَمَتَّـعْ بِـذَا الْيَـوْمِ الْقَصِيـرِ فَـإِنَّـهُ رَهِيـنٌ بِـأَيَّـامِ الـدُّهُـورِ الأَطَـاوِلِ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانه » ٣/ ١٥١_١٥٢] : [مِنَ الكامل]

مَـرَّتْ لَنَـا أَعْـوَامُ وَصْـلٍ بِـالْحِمَـىٰ فَكَـأَنَّهَـا مِـنْ قُصْـرِهَـا أَيَّـامُ
ثُـمَّ انْثَنَـتْ أَيَّـامُ هَجْـرٍ بَعْـدَهَـا فَكَـأَنَّهَـا مِـنْ طُـولِهَـا أَعْـوَامُ
ثُـمَّ انْقَضَـتْ تِلْـكَ السُّنُـونَ وَأَهْلُهَـا فَكَـأَنَّهَـا وَكَـأَنَّهُـمْ أَحْـلَامُ

وأَصلُ المعنىٰ مِنْ قولِ امرىءِ القيسِ [في « ديوانه » ١٥١_١٥٢] : [مِنَ الطويل]

وَلَيْـلٍ كَمَـوْجِ الْبَحْـرِ أَرْخَـىٰ سُـدُولَـهُ عَلَـيَّ بِـأَنْـوَاعِ الْهُمُـومِ لِيَبْتَلِـي
فَقُلْـتُ لَـهُ لَمَّـا تَمَطَّـىٰ بِصُلْبِـهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَـازاً وَنَـاءَ بِكَلْكَـلِ(١)
أَلَا أَيُّهَـا اللَّيْـلُ الطَّـوِيـلُ أَلَا انْجَـلِ بِصُبْـحٍ وَمَـا الإِصْبَـاحُ مِنْـكَ بِـأَمْثَـلِ
فَيَـا لَـكَ مِـنْ لَيْـلٍ كَـأَنَّ نُجُـومَـهُ بِكُـلِّ مُغَـارِ الْفَتْـلِ شُـدَّتْ بِيَـذْبُـلِ(٢)

والأَخيرُ مِنْ قولِ خالِهِ مُهَلْهِلٍ : [مِنَ الوافر]

فَـإِنْ يَـكُ بِـالـذَّنَـائِـبِ طَـالَ لَيْلِـي فَقَـدْ أَبْكِـي مِـنَ اللَّيْـلِ الْقَصِيـرِ(٣)
كَـأَنَّ الْجَـدْيَ فِـي مَثْنَـاةِ رَبْـقٍ أَسِيـرٌ أَوْ بِمَنْـزِلَـةِ الأَسِيـرِ(٤)

والثاني هوَ الَّذي أَعني .

وقالَ حُنْدُجٌ المُرِّيُّ [في « ديوانه »] : [مِنَ البسيط]

لَيْـلٌ تَحَيَّـرَ مَـا يَنْحَـطُّ فِـي جِهَـةٍ كَـأَنَّـهُ فَـوْقَ مَتْـنِ الأَرْضِ مَشْكُـولُ
نُجُـومُـهُ رُكَّـدٌ لَيْسَـتْ بِـزَائِلَـةٍ كَـأَنَّمَـا هُـنَّ فِـي الْجَـوِّ الْقَنَـادِيـلُ(٥)
مَـا أَقْـدَرَ اللهَ أَنْ يُـدْنِـي عَلَـىٰ شَحَـطٍ مَـنْ دَارُهُ الْحَـزْنُ مِمَّـنْ دَارُهُ صُـولُ(٦)

[تنوع المتأخرين في هٰذا الموضوع]

ثُمَّ تعاورتهُ أَيدي المتأخِّرينَ ، فتنوَّعوا فيهِ ، وكانَ الإِمامُ الرافعيُّ كثيراً ما يُنشِدُ لغيرِهِ : [مِنَ البسيط]

وَاللهِ مَـا سَهَـرِي إِلاَّ لِبُعْـدِهِـمِ وَلَـوْ أَقَـامُـوا لَمَـا عُـذِّبْـتُ بِـالسَّهَـرِ

---

(١) ناءَ : حَطَّ . الكلكلُ : الصدرُ من كل شيءٍ .

(٢) مُغارُ الفتل : الحبلُ المفتولُ جيِّداً . يذبُل : جبلٌ في بلادِ نجدٍ .

(٣) الذَّنَائِبُ : موضعٌ بنجدٍ ، قال ابن بري : هو علىٰ يسار طريق مكَّة .

(٤) مَثْناةُ ربقٍ : حبل تربط به صغار الغنم والمعز .

(٥) رُكَّدٌ : جمعُ راكدٍ ، وهُوَ الثابتُ الذي لا يتحرَّكُ .

(٦) الحَزْنُ : طريق بين المدينة وخيبر . صُولُ : مدينة في بلاد الخزر ، في نواحي باب الأبواب .

عَهْدِي بِهِمْ وَرِدَاءُ الْوَصْلِ يَجْمَعُنَا ... وَاللَّيْلُ أَطْوَلُهُ كَاللَّمْحِ بِالْبَصَرِ
وَالآنَ لَيْلِيَ إِذْ ضَنُّوا بِزَوْرَتِهِمْ ... لَيْلُ الضَّرِيرِ فَنَوْمِي غَيْرُ مُنْتَظَرِ

وقالَ بعضُ أَهلِ الأَندلسِ[1] : [من الطويل]

وَمُرْتَجَّةِ الأَعْطَافِ أَمَّا قَوَامُهَا ... فَلَدْنٌ وَأَمَّا رِدْفُهَا فَرَدَاحُ[2]
أَلَمَّتْ فَصَارَ اللَّيْلُ مِنْ قِصَرٍ بِهِ ... يَطِيرُ وَمَا غَيْرُ السُّرُورِ جَنَاحُ
وَبِتُّ وَقَدْ زَارَتْ بِأَنْعَمِ لَيْلَةٍ ... تُعَانِقُنِي حَتَّى الصَّبَاحِ صَبَاحُ
عَلَىٰ عَاتِقِي مِنْ سَاعِدَيْهَا حَمَائِلٌ ... وَفِي خَصْرِهَا مِنْ سَاعِدَيَّ وِشَاحُ

وقالَ ابنُ زيدونَ ـ مِنْ أَبياتٍ يودِّعُ بها وَلَّادَةَ مطلعَ الفجرِ مِنْ ليلةِ وصلٍ ـ [في « ديوانه » ١٢] : [مِنَ الرَّمَل]

إِنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلِي فَلَكَمْ ... بِتُّ أَشْكُو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَكْ

وقالَ [في « ديوانه » ٥] : [مِنَ البسيط]

حَالَتْ لِبَيْنِكُمُ أَيَّامُنَا فَغَدَتْ ... سُوداً وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضاً لَيَالِينَا

وقالَ أَبو عبادةَ [البُحتريُّ في « ديوانه » ٢/١٢٥٧] : [مِنَ السّريع]

طَوَّلَ هَـٰذَا اللَّيْلَ أَنْ لاَ كَرَىٰ ... يُرِيكَ مَنْ تَهْوَىٰ وَأَنْ لاَ هُجُوعْ

وقالَ [في « ديوانه » ٣/١٤٩٠] : [مِنَ الطويل]

لَقَاسَيْنَ لَيْلاً دُونَ (قَاسَانَ) لَمْ تَكَدْ ... أَوَاخِرُهُ مِنْ بُعْدِ قُطْرَيْهِ تُلْحَقُ[3]

وقالَ المعرِّيُّ [في « سَقْط الزَّند » ٢٣٠ـ٢٣١] : [مِنَ الطَّويل]

وَلَيْلَيْنِ : حَالٍ بِالْكَوَاكِبِ جَوْزُهُ ... وَآخَرُ مِنْ حَلْيِ الْكَوَاكِبِ عَاطِلُ
كَأَنَّ دُجَاهُ الْهَجْرُ وَالْفَجْرُ مَوْعِدٌ ... بِوَصْلٍ وَضَوْءُ الصُّبْحِ حِبٌّ مُمَاطِلُ
قَطَعْتُ بِهِ بَحْراً يَعُبُّ عُبَابُهُ ... وَلَيْسَ لَهُ إِلاَّ التَّبَلُّجَ سَاحِلُ[4]

وقالَ الوأْواءُ الدِّمشقيُّ [في « ديوانه » ٧٦] : [مِنَ الوافر]

وَلَيْلٍ مِثْلِ يَوْمِ الْبَيْنِ طُولاً ... إِذَا أَفَلَتْ كَوَاكِبُهُ تَعُودُ
بَدَائِعُ نَوْمِهَا فِيهِ انتِبَاهٌ ... فَأَعْيُنُهَا مُفَتَّحَةٌ رُقُودُ[5]

---

(١) وهو ابن الزقاق كما في « نفح الطيب » (٤/٢٩٨) .
(٢) اللَّدْنُ : اللَّيِّنُ من كلِّ شيءٍ . وامرأةٌ رداحٌ : عجزاءُ ثقيلةُ الأوراكِ تامَّةُ الخَلْقِ .
(٣) قاسان ـ ويقالُ : قاشان وكاشان ـ : بلدٌ في (إيران) ، بينَ (قُمَّ) و(أَصفهانَ) .
(٤) الليلان : هما الليلُ وفرسهُ الأدهمُ الذي يشبهُ الليلَ بسوادهِ . حالٍ : أي ليل حالٍ من الحلية ، وحليةُ الليل : نجومُه . جوزهُ : وسطهُ . عاطلٌ : ليسَ حالياً ، وهو فرسهُ الأدهم . التبلُّجُ : إشراقُ الصبح .
(٥) في « الديوان » : (يدافعُ نومَها) بدل (بدائع نومها) .

وقالَ أيضاً [في « ديوانه » ٨٦] : [مِنَ الوافرِ]

وَلَيْـلٍ مِثْـلِ يَـوْمِ الْحَشْـرِ طُـولاً ... كَـأَنَّ ظَـلاَمَـهُ لَـوْنُ الصُّـدُودِ
بَيَـاضُ هِـلاَلِـهِ فِيـهِ سَـوَادٌ ... كَـإِثْـرِ اللَّطْـمِ فِـي بِيـضِ الْخُـدُودِ[1]

وقالَ عليُّ بنُ الخليلِ : [مِنَ الطَّويلِ]

يَقُـولُـونَ طَـالَ اللَّيْـلُ وَاللَّيْـلُ لَـمْ يَطُـلْ ... وَلَٰكِـنَّ مَـنْ يَهْـوَىٰ مِـنَ الشَّـوْقِ يَسْهَـرُ
أَنَـامُ إِذَا مَـا اللَّيْـلُ مَهَّـدَ مَضْجَعِـي ... وَأَفْقِـدُ نَـوْمِـي حِيـنَ أُجْفَـىٰ وَأُهْجَـرُ
فَكَـمْ لَيْلَـةٍ طَـالَـتْ عَلَـيَّ لِصَـدِّهَـا ... وَأُخْـرَىٰ أُلاَقِيهَـا بِـوَصْـلٍ فَتَقْصُـرُ

وقالَ آخرُ : [مِنَ البسيطِ]

سَهِـرْتُ لَيْـلاَتِ وَصْـلٍ فَـرْحَـةً بِهِـمُ ... وَلَيْلَـةَ الْهَجْـرِ كَـمْ قَضَّيْتُهَـا سَهَـرَا
إِذَا تَقَضَّـىٰ زَمَـانِـي كُلُّـهُ سَهَـراً ... فَمَـا أُبَـالِـي أَطَـالَ اللَّيْـلُ أَمْ قَصُـرَا

[تفنن المتنبي في هٰذا الموضوع وكثرته عنده]

والمعنىٰ متكرِّرٌ عندَ الناظمِ بكَثْرةٍ ؛ **فمنهُ قولُهُ** [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٦٤] : [مِنَ الخفيفِ]

قَصَّـرَتْ مُـدَّةَ اللَّيَـالِـي الْمَـوَاضِـي ... فَـأَطَـالَـتْ بِهَـا اللَّيَـالِـي الْبَـوَاقِـي

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٥٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

ذَكَـرْتُ بِـهِ وَصْـلاً كَـأَنْ لَـمْ أَفُـزْ بِـهِ ... وَعَيْشـاً كَـأَنِّـي كُنْـتُ أَقْطَعُـهُ وَثْبَـا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٤٠] : [مِنَ الوافرِ]

وَمَـا لَيْـلٌ بِـأَطْـوَلَ مِـنْ نَهَـارٍ ... يَظَـلُّ بِلَحْـظِ حُسَّـادِي مَشُـوبَـا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٩٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَيَـالِـيَّ بَعْـدَ الظَّـاعِنِيـنَ شُكُـولُ ... طِـوَالٌ وَلَيْـلُ الْعَـاشِقِيـنَ طَـوِيـلُ[2]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٦٨] : [مِنَ الكاملِ]

اَلنَّـوْمُ بَعْـدَ أَبِـي شُجَـاعٍ نَـافِـرٌ ... وَاللَّيْـلُ مُعْـيٍ وَالْكَـوَاكِـبُ ظُلَّـعُ[3]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٧٢] : [مِنَ المنْسَرِحِ]

مَـا بَـالُ هَـٰذِي النُّجُـومِ حَـائِـرَةً ... كَـأَنَّهَـا الْعُمْـيُ مَـا لَهَـا قَـائِـدْ

---

(١) في « الديوان » : (يَقَقِ الخدود) بدل (بيض الخدود) . **واليَقَقُ** : شديد البياضِ ناصعهُ .

(٢) **الشُّكولُ** : جمعُ شكلٍ ، وشكلُ الشيءِ مثلُهُ . وجمعُ القلَّةِ : أشكال . وأتىٰ هٰهنا بجمعِ الكثرةِ لأنَّهُ أبلغُ في شكوى الحالِ .

(٣) **الظُّلعُ** : العرجُ ، وقصدَ : أنَّ النجومَ بطيئةُ السيرِ كنىٰ به عن أرقه .

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/١١٨] : [مِنَ البسيطِ]

مِـنْ بَعْـدِ مَـا كَـانَ لَيْلِي لاَ صَبَاحَ لَـهُ ... كَــأَنَّ أَوَّلَ يَــوْمِ الْحَشْــرِ آخِــرُهُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ١٣٥] : [مِنَ الكاملِ]

تُـدْمِي خُـدُودَهُـمُ الـدُّمُـوعُ وَتَنْقَضِي ... سَــاعَــاتُ لَيْلِهِــمُ وَهُــنَّ دُهُــورُ

وقدْ غَبَّرَ أَبو نُوَاسٍ في وجوهِ الشُّعراءِ القائلينَ في الموضُوعِ بقولِهِ : [مِنَ الخفيفِ]

لَسْــتُ أَدْرِي أَطَــالَ لَيْلِــيَ أَمْ لاَ ... كَيْــفَ يَــدْرِي بِــذَاكَ مَــنْ يَتَقَلَّــىٰ

إِنْ تَفَــرَّغْــتُ لِاسْتِطَــالَــةِ لَيْلِــي ... وَلِــرَعْــيِ النُّجُــومِ كُنْــتُ مُخِــلاَّ

[المعتمد وإحدىٰ حظاياه]

ومصداقُهُ ما حُكِيَ : أَنَّ المعتمدَ بنَ عبَّادٍ ودَّعَ حظاياهُ مِنْ (قُرْطُبةَ) ، لمَّا عزمَ بهنَّ إِلىٰ (إِشبيليَّةَ) ، وما زالَ يسايرُهُنَّ ، وهوَ مذهوبُ العقلِ مِنْ أَوَّلِ اللَّيلِ ، حَتَّىٰ برقَ الفجرُ ، فأَفاقَ مِنْ غشيتِهِ ، ورجعَ ، وقالَ في ذلكَ [كما في « ديوانه » ٣٦] : [مِنَ الكاملِ]

سَــايَــرْتُهُــمْ وَاللَّيْــلُ أَغْفَــلَ ثَــوْبَــهُ ... حَتَّــىٰ تَبَــدَّىٰ لِلنَّــوَاظِــرِ مُعْلِمَــا

فَــوَقَفْــتُ ثَــمَّ مُــوَدِّعــاً وَتَسَلَّمَــتْ ... مِنِّــي يَــدَا الإِصْبَــاحِ تِلْــكَ الأَنْجُمَــا

وقدْ سَنَحَ لي بمناسبةِ ذِكْرِ الوداعِ أَنْ أَتكلَّمَ علىٰ بعضِ ما جاءَ فيهِ ، ثُمَّ رَأَيتُ في الفرصِ الآتيةِ ما هوَ بهِ أَمسُّ ، فأَخَّرْتُهُ إِليها .

* * *

ولنختمِ المجلسَ بأَبياتٍ ثلاثةٍ للناظمِ تتَّصلُ بما نحنُ فيه ، وهيَ ممَّا قالَ في أَيَّامِ صِباهُ[1] :

[قالَ أَبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ١٨٥] : [مِنَ البسيطِ]

أَبْلَـى الْهَـوَىٰ أَسَفـاً يَـوْمَ النَّـوَىٰ بَـدَنِـي ... وَفَـرَّقَ الْهَجْـرُ بَيْـنَ الْجَفْـنِ وَالْـوَسَـنِ

[الهوى المتلف]

يقولُ : إِنَّ الهوىٰ أَتلفَ بَدَنَهُ يومَ الفراقِ ، مِنْ شدَّةِ الأَسفِ ، وأَكثرُ الشعراءِ يدَّعونَ ذلكَ ، وهوَ مقبولٌ ؛ إِذْ قَلَّ مَنْ سَلِمَ مِنَ البَيْنِ ومرارتِهِ ، ولم يَشْكُ مِنَ البُعدِ وحرارتِهِ ، وأَيُّ عينٍ لم تذرفْ ؟! بل كلُّ نفسٍ مفارقةٌ ، وإِنْ لم تعرِفْ .

[قالَ أَبو الطيِّبِ في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣٤٢] : [مِنَ المتقاربِ]

فَــوَاحَسْــرَتَــا مَــا أَمَــرَّ الْفِــرَاقَ ... وَأَعْلَــقَ نِيــرَانَــهُ بِــالْكُبُــودِ

---

(١) وهي مطالع الأبيات الثلاثة الآتية .

هوَ الذي ينطوي بهِ مِنَ الأفراحِ بساطُها ، ويتقطعُ مِنَ القلوبِ نياطُها ، ويكثُرُ مِنَ العقولِ اختلاطُها ، فلا كَبِدَ إلاَّ تفتَّتَ علىٰ ذاهبٍ ، غيرَ أَنَّ للناسِ فيما يعشقونَ مذاهبَ [كما قيل] : [مِنَ الطويل]

وَأَيُّ امْـرِىءٍ يَخْلُـو مِـنَ الْحُـبِّ قَلْبُـهُ أَلَـمْ تَـرَهُ حَتَّـى الْجَمَـادُ بِـهِ اهْتَـزَّا
وَلَـٰكِنَّهُـمْ شَتَّـىٰ فَمِـنْ هَـابِـطٍ بِـهِ إِلَـى الـدَّرَكِ الأَدْنَـىٰ وَمِـنْ صَـاعِـدٍ عِـزَّا
وَلاَ عِـزَّ إِلاَّ فِـي هَـوَى اللهِ وَحْـدَهُ وَحُبِّ الَّـذِي هَـانَـتْ بِـهِ اللاَّتُ وَالْعُزَّىٰ

[حقيقة العشق]

وقدِ اختلفوا في تعريفِ الهوىٰ ، واختلفتْ عباراتُهُم ، وتفاوتَتْ إشاراتُهُم ، وكلٌّ يشيرُ إلىٰ ذلكَ الجمالِ ، وحَسْبُكَ أَنَّهُ اجتمعَ بحضرةِ يحيىٰ بنِ خالدٍ ثلاثةَ عشرَ حكيماً ، فسأَلَهُم عن حقيقةِ العشقِ ، فكُلٌّ أَتىٰ بما عندَهُ ، وكانَ فيهِم أَبو الهُذيلِ ، فقالَ :

أَيُّها الوزيرُ ، العشقُ يختِمُ على النواظرِ ، ويطبعُ على الأَفئدةِ ، مرتعُهُ الأَجسامُ ، ومشرعُهُ في الأَكبادِ ، وصاحبهُ متصرِّفُ الظنونِ ، متفنِّنُ الأَوهامِ ، لا يصفو لهُ مرجوٌّ ، ولا يسلَمُ لهُ مدعوٌّ ، تُسرعُ إليهِ النوائبُ ، وتحلو لهُ المصائبُ ، وهوَ جُرعةٌ مِنْ نقيعِ الموتِ ، ونَقعَةٌ مِنْ حِياضِ الثَّكلِ ، غيرَ أَنَّهُ مِنْ أَريحيَّةٍ تكونُ في الطبعِ ، وطلاوةٍ توجدُ في الشمائِلِ . اهـ

[كمون الحب في الحشا]

وهوَ ـ بالحقيقةِ ـ وصفٌ لبعضِ أَعراضِهِ ، لا لهُ ، وإنَّما أَشارتْ إلىٰ وصفِهِ الأَعرابيَّةُ بقولِهَا [كما في « مصارع العشاق » ١/١٧٥] : جَلَّ عن أَنْ يخفىٰ ، وخفيَ عن أَنْ يُرىٰ ، فهوَ كامنٌ في الأَحشاءِ ، كمونَ النارِ في الزنادِ ، إنْ قدحتَهُ . . ورىٰ[1] ، وإنْ تركتَهُ . . توارىٰ .

وسيعادُ هـٰذا أَوائِلَ المجلسِ التاسعِ قُبيلَ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/٣١٥] : [مِنَ الخفيف]

يَتَـرَشَّفْـنَ مِـنْ فَمِـي رَشَفَـاتٍ هُـنَّ فِيـهِ أَحْلَـىٰ مِـنَ التَّـوْحِيـدِ[2]

[الهجر نفي النوم من العيون]

وقولُهُ : (**وَفَرَّقَ الْهَجْرُ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْوَسَنِ**) كذلكَ مِنَ الإغراقِ الذي لا بأسَ لهُ ، وهوَ متداولٌ كسابقِهِ ، إلاَّ أَنَّهُ أَقلُّ ابتذالاً ، وأَحسنُ منالاً منهُ قولُ الوزيرِ المُهلَّبيِّ : [مِنَ الطويل]

تَصَـارَمَـتِ الأَجْفَـانُ لَمَّـا صَـرَمْتَنِـي فَمَـا تَلْتَقِـي إِلاَّ عَلَـىٰ عَبْـرَةٍ تَجْـرِي

وقالَ بشَّارٌ [في « ديوانه » ٣/٢٤٩] : [مِنَ الوافر]

جَفَـتْ عَيْنِـي عَـنِ التَّغْمِيـضِ حَتَّـىٰ كَـأَنَّ جُفُـونَهَـا عَنْهَـا قِصَـارُ

---

(١) ورى الزَّنْدُ : خرجت نارُهُ .

(٢) وللبيتِ روايةٌ أُخرىٰ هي في « الديوانِ » :

. . . . هُـنَّ فِيـهِ حَـلاَوَةُ التَّـوْحِيـدِ

وأَخذَهُ التِّهاميُّ ، فقالَ [في « ديوانه » ٤٧٠] : [مِنَ الكامل]

قَصُـرَتْ جُفُـونِـي أَمْ تبَـاعَـدَ بَيْنُهَـا ... أَمْ مُقْلَتِـي خُلِقَـتْ بِـلاَ أَشْفَـارِ

وممَّا يُنظَرُ إليهِ مِنْ بعيدٍ : ما تغنَّتْ بهِ جاريةُ عبدِ اللهِ بنِ جعفرِ بنِ أَبي طالبٍ ، لابنِ أَبي عتيقٍ ـ رضوانُ اللهِ عليهم ـ وهوَ : [مِنَ الكامل]

بِهَـوَاكَ صَيَّـرَنِـي الْعَـذُولُ نَكَـالاَ ... وَرَأَى السَّبِيـلَ إِلَـى الْمَقَـالِ فَقَـالاَ
وَنَهَيْـتَ نَـوْمِـي عَـنْ جُفُـونِـي فَـانْتَهَـىٰ ... وَأَمَـرْتَ لَيْلِـي أَنْ يَطُـولَ فَطَـالاَ

[تكرار هٰذا المعنىٰ عند المتنبي]

والمعنىٰ متكرِّرٌ في « دِيوانِ » الناظمِ ؛ منهُ قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢٣] : [مِنَ المتقارب]

كَـأَنَّ الْجُفُـونَ عَلَـىٰ مُقْلَتِـي ... ثِيَـابٌ شُقِقْـنَ عَلَـىٰ ثَـاكِـلِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٢٢٠] : [مِنَ البسيط]

قَـدْ عَلَّـمَ الْبَيْـنُ مِنَّـا الْبَيْـنَ أَجْفَـانَـا ... تَـدْمَـىٰ وَأَلَّـفَ فِـي ذَا الْقَلْـبِ نِيـرَانَـا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٤٨] : [مِنَ الطويل]

فَـإِنَّ نَهَـارِي لَيْلَـةٌ مُـدْلَهِمَّـةٌ ... عَلَىٰ مُقْلَةٍ مِـنْ بَعْـدِكُـمْ فِـي غَيَـاهِـبِ
بَعِيـدَةِ مَـا بَيْـنَ الْجُفُـونِ كَـأَنَّمَـا ... عَقَـدْتُـمْ أَعَـالِـي كُـلِّ جَفْـنٍ بِحَـاجِـبِ

[المحب لا يعرف الراحة]

وصدقَ واللهِ ، فمَنْ نالَهُ مِنَ الحبيبِ شفونُهُ[1] . . يستحيلُ أَنْ تصطلحَ جفونُهُ ، ومَنْ ظهرَ لدى المعشوقِ ذنبُهُ . . فلنْ يستقرَّ بهِ جنبُهُ ، ومَنْ بَعُدَ عنهُ ريحانُهُ . . فلا بِدعَ أَنْ يطولَ امتحانُهُ .

[هلاَّ السلامة]

هُوَ الْحُبُّ فَاسْلَمْ بِالْحَشَا مَا الْهَوَىٰ سَهْلُ ... فَمَـا اخْتَـارَهُ مُضْنَـىً بِـهِ وَلَـهُ عَقْـلُ
نَصَحْتُـكَ عَلْمـاً بِـالْهَـوَىٰ وَالَّـذِي أَرَىٰ ... مُخَـالَفَتِـي فَـاخْتَـرْ لِنَفْسِـكَ مَـا يَحْلُـو
إِذَا شِئْـتَ أَنْ تَحْيَـا سَعِيـداً فَمُـتْ بِـهِ ... شَهِيـداً وَإِلاَّ فَـالْغَـرَامُ لَـهُ أَهْـلُ[2]

* * *

(١) شَفِنَهُ : نظر إليه بمؤخرِ عينيهِ بُغضَةً أو تعجُّباً . وقيل : نظره نظراً فيه اعتراض .

(٢) الأبيات لابنِ الفارضِ في « ديوانه » مِنَ الطويل .

[قالَ أَبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ٤/١٨٦] : [مِنَ البسيط]

رُوحٌ تَـرَدَّدُ فِـي مِثْـلِ الْخِـلاَلِ إِذَا	أَطَارَتِ الرِّيحُ عَنْهُ الثَّوْبَ لَمْ يَبِنِ[1]
كَفَىٰ بِجِسْمِي نُحُولاً أَنَّنِي رَجُلٌ	لَوْلاَ مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِي

[في البيت سؤالان]

في البيتِ الثاني سؤالانِ :

[الأول : ما هو المصدر المؤول ؟]

أَحدُهُما : أَنَّ (أَنَّ) المفتوحةَ مِنْ قولِهِ : (أَنَّنِي رَجُلٌ) تحتاجُ إِلىٰ أَنْ تُسْبَكَ بمصدرٍ ، فما تقديرُهُ ؟

وقد أَجابَ الشارحُ [العُكبَريُّ] : بأَنَّهُ كفىٰ بجسمي نحولاً انتفاءُ رؤيتي لولا مُخاطبتي .

[الثاني : الاسم الظاهر بمثابة الغائب فكيف الضمير]

والثاني : أَنَّ الأَسماءَ الظاهرةَ مِنْ قبيلِ الغائبِ ، فكانَ الأَوفقَ أَنْ يقولَ : (أَنَّنِي رَجُلٌ لولا مخاطبتهُ إِيَّاكَ لم ترهُ) .

وأَطالَ الشارحُ في الجوابِ ، والحاصلُ : أَنَّهُ مِنْ جنسِ قولِهِ جلَّ شأنُهُ : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل : ٥٥] ، فالخطابُ في ﴿تجهلونَ﴾ غيرُ مناسبٍ لقومٍ ، وإِنَّما هوَ أَنيسٌ بقولِهِ : ﴿أَنتم﴾ .

[الشواهد عليه]

ومثلُهُ قولُ الشاعرِ : [مِنَ الطويل]

أَأَكْـرَمُ مِـنْ لَيْلَـىٰ عَلَـيَّ فَتَبْتَغِـي	بِـهِ الْجَـاهَ أَمْ كُنْـتُ امْـرَأً لاَ أُطِيعُهَـا

فقدْ أَعادَ مِنْ (أُطيعُها) ضميرَ متكلِّمٍ وِفاقاً لـ(كنتُ) ، ولم يُعِدْ ضميرَ غائبٍ وِفاقاً (لامرىءٍ) ، والبيتُ لقيسِ بنِ المُلَوَّحِ [في « شرحِ شواهدِ المُغني » ١/٢٢١] ، أَو لابنِ الدُّمَيْنَةِ [في « ديوانه » ٢٠٦] ، أَو للصِّمَّةِ بنِ عبدِ اللهِ القشيريِّ [في « ديوانه » ١١٣] ، على اختلافِ الرواةِ في ذلكَ ، وقدْ أَوردهُ ابنُ هشامٍ شاهداً على اشتراطِ الصفةِ لِمَا وُطِّىءَ بهِ مِنْ خبرٍ ، أَو ، صفةٍ ، أَو حالٍ ، وقبلَهُ [في « ديوان الصِّمَّة » ١١٣] :

وَنُبِّئْـتُ لَيْلَـىٰ أَرْسَلَـتْ بِشَفَـاعَـةٍ	إِلَـيَّ فَهَـلاَّ نَفْـسُ لَيْلَـىٰ شَفِيعُهَـا

[قصة الصمة وريا]

وكانَ مِنْ خبرِها [كما في « الأغاني » ٦/١٢] : أَنَّ الصِّمَّةَ بنَ عبدِ اللهِ ـ علىٰ روايةٍ أَنَّها لهُ ـ كانَ يهوى ابنةَ عمٍّ لهُ تسمَّىٰ رَيَّا ، فخطبَها إِلىٰ عمِّهِ ، فزوَّجَهُ علىٰ خمسينَ مِنَ الإِبلِ ، فجاءَ إِلىٰ أَبيهِ ، فسأَلَهُ ، فساقَ عنهُ تسعاً وأَربعينَ ، فقالَ : أَكمِلْها ، فقالَ : هوَ عمُّكَ ، وما يناظِرُكَ في ناقةٍ ، فقالَ : واللهِ ما قالَ هـٰذا إِلاَّ استخفافاً بابنتي ، واللهِ لا أَقبلُها إِلاَّ كُمَّلاً ، فلجَّ عمُّهُ ، ولجَّ أَبوهُ ، فقالَ : واللهِ ما رأَيتُ أَلأَمَ منكُما ، وأَنا أَلأَمُ منكُما إِنْ أَقمتُ معكُما ، فرحلَ إِلى

---

(١) **الخِلالُ** : العودُ الدقيقُ الذي لا يُرىٰ .



(الشامِ) ، فلقيَ الخليفةَ ، فأُعجبَ بهِ ، وفرضَ لهُ ، وألحقهُ بالفرسانِ ، فكانَ يتشوَّقُ إِلىٰ (نجدٍ) ، ويحِنُّ إِليها ، وكانَ هـٰذا الشعرُ فيما قالهُ . كذا رأيْتُهُ ، وهو لا يلتئِمُ معَ البيتينِ ، وإِنَّمَا يلتئِمُ معَ ما سيأتِي عنهُ في المجلسِ الثاني .

[رد المؤلف على الشارح]

إذنْ : ففي البيتِ الذي نتكلَّمُ عليهِ نوعٌ مِنَ الالتفاتِ البديعِ ، **ثُمَّ** قالَ الشارحُ : **إِنَّهُ** مِنْ قولِ الأَخطلِ [في « ديوانه » ١٥٤] : [مِنَ الطويل]

ضَفَـادِعُ فِـي ظَلْمَـاءِ لَيْـلٍ تَجَـاوَبَـتْ ... فَـدَلَّ عَلَيْهَـا صَـوْتُهَـا حَيَّـةَ الْبَحْـرِ

وليسَ كذلكَ .

[أصل بيت المتنبي]

وإِنَّمَا أَصلُهُ قولُ الأَعشىٰ [في « ديوانه »] : [مِنَ الطويل]

فَلَـوْ أَنَّ مَـا أَبْقَيْـنَ مِنِّـي مُعَلَّـقٌ ... بِعُـودِ ثُمَـامٍ مَـا تَـأَوَّدَ عُـودُهَـا[1]

وقدْ تلاعبَ بِهِ الناظمُ حتَّىٰ أَذالَهُ ، **فمِنْ ذلكَ قولُهُ** [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/٢٨] : [مِنَ الكامل]

وَخَيَـالُ جِسْـمٍ لَـمْ يُخَـلِّ لَـهُ الْهَـوَىٰ ... جِسْمـاً فَيُنْحِلَـهُ السَّقَـامُ وَلاَ دَمَـا[2]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/١٤٩] : [مِنَ الطويل]

وَلَـوْ قَلَـمٌ أُلْقِيـتُ فِـي شَـقِّ رَأْسِـهِ ... مِنَ السُّقْمِ مَا غَيَّرْتُ مِنْ خَطِّ كَاتِبِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/٥١] : [مِنَ الطويل]

بَـرَانِـي السُّرَىٰ بَـرْيَ الْمُـدَىٰ فَـرَدَدْنَنِـي ... أَخَفَّ عَلَى الْمَرْكُوبِ مِنْ نَفَسِي جِرْمِي

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/٢٢٣] : [مِنَ الوافر]

بِجِسْمِـي مَـنْ بَـرَتْـهُ فَلَـوْ أَصَـارَتْ ... وِشَـاحِـي ثَقْـبَ لُـؤْلُـؤَةٍ لَجَـالاَ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/٣٦٣] : [مِنَ الخفيف]

حُلْـتِ دُونَ الْمَـزَارِ فَـالْيَـوْمَ لَـوْ زُرْ ... تِ لَحَـالَ النُّحُـولُ دُونَ الْعِنَـاقِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/٢٥٢] : [مِنَ الكامل]

دُونَ التَّعَـانُـقِ نَـاحِلَيْـنِ كَشَكْلَتَـيْ ... نَصْـبٍ ، أَدَقَّهُمَـا وَضَـمَّ الشَّـاكِـلُ[3]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/١٤] : [مِنَ الكامل]

وَشَكِيَّتِـي فَقْـدُ السَّقَـامِ لأَنَّـهُ ... قَـدْ كَـانَ لَمَّـا كَـانَ لِـي أَعْضَـاءُ

---

(١) **الثُّمامُ** : نبتٌ معروفٌ في البادية ، ولا تأكلهُ النَّعَمُ إلا في الجُدُوبةِ . **تأوَّدَ عودُها تأوُّداً** : إذا تثنىٰ .

(٢) في « العكبري » : (لَحماً) بدل (جِسْماً) ، ولعله الصواب .

(٣) **الشَّكلَةُ** : أَرادَ هنا التي تكونُ في الإعرابِ وهيَ الفتحةُ ، وهيَ من قولِهِم : شَكَلْتُ الدابَّةَ ؛ أي : ضبطتُها ، والشكلةُ تضبطُ الحروفَ ، وضمَّ الشاكلُ : الكاتبُ ، يريد بالضمِّ : القربَ ، ولم يُرِدِ الضم الذي في الإعراب الذي يسمىٰ رفعاً .

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/١٩٢] : [مِنَ البسيط]

كَتَمْـتُ حُبَّـكِ حَتَّـىٰ مِنْـكِ تَكْـرِمَـةً ثُـمَّ اسْتَوَىٰ فِيكِ إِسْرَارِي وَإِعْلاَنِـي
لأَنَّـهُ زَادَ حَتَّـىٰ فَـاضَ عَـنْ جَسَـدِي فَصَـارَ سُقْمِـي بِـهِ فِـي جِسْـمِ كِتْمَـانِـي[1]

وقدْ أَلَمَّ في هـٰذا بقولِ قيسِ بنِ المُلَوَّحِ [في « ديوانه » ٢٩٤] : [مِنَ الطويل]

لَقَـدْ كُنْـتُ أَعْلُـو حُـبَّ لَيْلَـىٰ فَلَـمْ يَـزَلْ بِـيَ النَّقْـضُ وَالإِبْـرَامُ حَتَّـىٰ عَـلاَنِيَـا

[ذوبان النفس في العشق ليس حكراً علىٰ أحد]

وهوَ مِنَ المعاني المشتركَةِ ، وقد تداولَهُ المولَّدونَ ، فمنهُ قولُ المجنونِ [في « ديوانه » ٨٠] : [مِنَ الطويل]

أَلاَ إِنَّمَـا غَـادَرْتِ يَـا أُمَّ مَـالِـكٍ صَـدَىً أَيْنَمَا تَـذْهَـبْ بِـهِ الرِّيحُ يَـذْهَـبِ

وقولُ المُؤَمَّلِ : [مِنَ السَّريع]

يَكَـادُ جِسْمِـي مِـنْ نُحُـولِ الـضَّنَـا تَحْمِلُـهُ أَنْفَـاسُ عُـوَّادِي

وقولُ خالدٍ الكاتبِ : [مِنَ البسيط]

غَـدَا خَلِيلُـكِ نِضْـواً لاَ حَـرَاكَ بِـهِ لَـمْ يَبْـقَ مِـنْ جِسْمِـهِ إِلاَّ تَـوَهُّمُـهُ[2]

وقولُ ابنِ المعتزِّ : [مِنَ البسيط]

مُسَهَّـدٌ خَـانَـهُ التَّفْـرِيـقُ فِـي أَمَلِـهْ أَضْنَـاهُ سَيِّـدُهُ ظُلْمـاً بِمُـرْتَحَلِـهْ
فَـرَقَّ حَتَّـىٰ لَـوَ انَّ الـدَّهْـرَ قَـادَ لَـهُ حَتْفـاً لَمَـا أَبْصَـرَتْـهُ مُقْلَتَـا أَجَلِـهْ

وقولُ ابنِ دُريدٍ : [مِنَ السَّريع]

إِنِّـي امْـرُؤٌ أَبْقَيْـتَ مِـنْ جِسْمِـهِ يَـا مُتْلِـفَ الصَّـبِّ وَلَـمْ يَشْعُـرِ
صَبَـابَـةً لَـوْ أَنَّهَـا قَطْـرَةٌ تَجُـولُ فِـي عَيْنَيْـكَ لَـمْ تَقْطُـرِ

وما أَحسنَ قولَهُ : (لَوْ أَنَّهَا قَطْرَةٌ) إلخ ، كما لا أَقبحَ مِنْ تعليقِهِ البيتَ الثاني بالأَوَّلِ ، وحشوِهِ بقولِهِ : (يَا مُتْلِفَ الصَّبِّ) ؛ فإنَّهَا ظُلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ ، لولا ما تتنفَّسُ بِهِ مِنْ ذلكَ الفجرِ الصادقِ .

[ما هـٰذه الخفة ؟!]

وقالَ بعضُهُم : [مِنَ الطويل]

وَلَـوْ شِئْـتُ فِـي طَـيِّ الْكِتَـابِ لَـزُرْتُكُـمْ وَمَـا شَعَـرَتْ بِـي أَحْـرُفٌ وَسُطُـورُ

[القذى الذي لا يؤذي]

وقالَ ابنُ العميدِ : [مِنَ الكاملِ]

لَـوْ أَنَّ مَـا أَبْقَيْـتِ مِـنْ جِسْمِـي قَـذىً فِـي الْعَيْـنِ لَـمْ يَمْنَـعْ مِـنَ الإِغْفَـاءِ

---

(١) في « العكبري » : (كَأَنَّهُ) بدل (لأَنَّهُ) .

(٢) النِّضْوُ : البعيرُ المهزولُ ، وقد يستعملُ في الإِنسانِ .

وأَغارَ الوأواءُ الدمشقيُّ علىٰ أَوَّلِ البيتينِ اللَّذينِ نحنُ بسبيلِهما ، فقالَ [في « ديوانه » ١٨٩] : [مِنَ الوافر]

وَمَـا أَبْقَـى الْهَـوَىٰ وَالشَّـوْقُ مِنِّـي ... سِـوَىٰ رُوحٍ تَـرَدَّدُ فِـي خَيَـالِ
خَفِيتُ عَلَـى النَّـوَائِـبِ أَنْ تَـرَانِـي ... كَـأَنَّ الـرُّوحَ مِنِّـي فِـي مَحَـالِ

وقالَ آخرُ : [مِنَ الطويل]

بَـرَانِـي الْهَـوَىٰ بَـرْيَ الْمُـدَىٰ وَأَذَابَنِـي ... صُـدُودُكَ حَتَّـىٰ صِـرْتُ أَنْحَـلَ مِـنْ أَمْسِ
فَلَسْــتُ أُرَىٰ حَتَّـــىٰ أَرَاكَ وَإِنَّمَـــا ... يَبِيـنُ هَبَـاءُ الـذَّرِّ فِـي أَلَـقِ الشَّمْـسِ

[تأييد المؤلف للشارح في بعض ورده لبعض]

وقدْ قضى الشارحُ بالتفضيلِ لهٰذينِ البيتينِ ، وحكمُهُ مقبولٌ بالنسبةِ للثاني ، ومردودٌ بالنسبةِ للأَوَّلِ .

وقالَ الصنوبريُّ : [مِنَ الخفيف]

ذُبْـتُ حَتَّـىٰ مَـا يُسْتَـدَلُّ عَلَـىٰ أَنِّـــــي حَـيٌّ إِلاَّ بِبَعْـضِ كَـلاَمِـي

[أعذب الشعر أكذبه]

وقالَ الخابزأَرُزِّي : [مِنَ السريع]

ذُبْـتُ مِـنَ الشَّـوْقِ فَلَـوْ زُجَّ بِـي ... فِـي مُقْلَـةِ النَّـائِـمِ لَـمْ يَنْتَبِـهْ
قَـدْ كَـانَ لِـي فِيمَـا مَضَـىٰ خَـاتَـمٌ ... وَالْيَـوْمَ لَـوْ شِئْـتُ تَمَنْطَقْـتُ بِـهْ

وهوَ مِنْ معاصري الناظمِ ، وبينَ بيتيهِ مِنَ التفاوتِ ما لا يخفىٰ ؛ إِذْ كيفَ يتمنطقُ مَنْ يكونُ القذىٰ أكبرَ منهُ .

وقدْ أَغارَ الوالدُ أَبو بكرِ بنُ شهابٍ ـ رحمه اللهُ ـ على الثاني منهُما ، ولكنَّهُ أَحسنَ الاتباعَ ، وذلكَ حيثُ يقولُ : [مِنَ البسيط]

لَـدْنُ الْقَـوَامِ دَقِيـقُ الْخَصْـرِ خَـاتَمُـهُ ... لَـوْ شَـاءَ مِـنْ غَيْـرِ تَكْلِيـفٍ يُمَنْطِقُـهُ

[السابق في المعنىٰ أبو تمام]

وقدْ سبقَ إِلىٰ أَصلِ المعنىٰ ، حبيبُ بنُ أَوسٍ ، في قولِهِ [في « ديوانه » ٣/ ١١٥] : [مِنَ الطويل]

مِـنَ الْهِيـفِ لَـوْ أَنَّ الْخَلاَخِيـلَ صُيِّـرَتْ ... لَهَـا وُشُحـاً جَـالَـتْ عَلَيْهَـا الْخَلاَخِـلُ

[سلطان العاشقين وإبداعه في هٰذه المسألة]

وقدْ تفوَّقَ في المعنىٰ سلطانُ العاشقينَ ، وأَفرغَهُ في عِدَّةِ قوالبَ ، منها قولُهُ [في « ديوانه » ٨] : [مِنَ الرَّمَل]

كَهِــلاَلِ الشَّــكِّ لَــوْلاَ أَنَّــهُ ... أَنَّ ، عَيْنِــي عَيْنَــهُ لَــمْ تَتَــأَيْ[1]

وقولُهُ [في « ديوانه » ٣٧] : [مِنَ الطويل]

كَـأَنِّـي هِـلاَلُ الشَّـكِّ لَـوْلاَ تَـأَوُّهِـي ... خَفِيـتُ فَلَـمْ تُهْـدَ الْعُيُـونُ لِـرُؤْيَتِـي

---

(١) هلالُ الشكِّ : الذي لم تثبت رؤيتُهُ . أَنَّ : مِنَ الأنين . عيني : باصرتي . عينُهُ : ذاتُهُ . لم تتأَيْ : لم تقصدْ .
والمعنىٰ : أنهُ صارَ في خفائهِ كهلالِ الشكِّ ، فلولا أَنينُهُ . لم يهتدَ إِليهِ .

وقولُهُ [في « ديوانه » ١٣٧] : [مِنَ الطويل]

خَفِيتُ ضَنىً حَتَّىٰ لَقَدْ ضَلَّ عَائِدِي ... وَكَيْفَ تَرَى الْعُوَّادُ مَنْ لاَ لَهُ ظِلُّ

وقولُهُ [في « ديوانه » ١٧٣] : [مِنَ الطويل]

تَحَكَّمَ فِي جِسْمِي النُّحُولُ فَلَوْ أَتَىٰ ... لِقَبْضِي رَسُولٌ ضَلَّ فِي مَوْضِعٍ خَالِي

وقولُهُ [في « ديوانه » ١٤٤] : [مِنَ البسيط]

وَحَبَّذَا فِيكَ أَسْقَامٌ خَفِيتَ بِهَا ... عَنِّي ، تقُومُ بِهَا عِنْدَ الْهَوَىٰ حُجَجِي

وقولُهُ [في « ديوانه » ١٦٤] : [مِنَ الطويل]

خَفِيتُ ضَنىً حَتَّىٰ خَفِيتُ عَنِ الضَّنَىٰ ... وَعَنْ بُرْءِ أَسْقَامِي وَبَرْدِ أُوَامِي(١)

وقولُهُ [في « ديوانه » ١٥٢] : [مِنَ الكامل]

أَخْفَيْتُ حُبَّكُمُ فَأَخْفَانِي أَسَىً ... حَتَّىٰ لَعَمْرِي كِدْتُ عَنِّي أَخْتَفِي

وقولُهُ [في « ديوانه » ٤٩] : [مِنَ الطويل]

فَلَوْ هَمَّ مَكْرُوهُ الرَّدَىٰ بِي لَمَا دَرَىٰ ... مَكَانِي وَمِنْ إِخْفَاءِ حُبِّكِ خُفْيَتِي

ويعجبني قولُ ابنِ زيدونَ [في « ديوانه » ٢٥٨] : [مِنَ البسيط]

لَوْ شَاءَ حَمْلِي نَسِيمُ الصُّبْحِ حِينَ جَرَىٰ ... وَافَاكُمُ بِفَتىً أَضْنَاهُ مَا لاَقَىٰ

وقولُ الآخرِ : [مِنَ الخفيفِ]

قَدْ سَمِعْتُمْ أَنِينَهُ مِنْ بَعِيدِ ... فَاطْلُبُوا الشَّخْصَ حَيْثُ كَانَ الأَنِينُ

وقولُ لسانِ الدين ابنِ الخطيبِ [في « ديوانه » ١/٣٩٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلَوْلاَ أَنِينِي مَا اهْتَدَىٰ نَحْوَ مَضْجَعِي ... خَيَالُكُمُ بِاللَّيْلِ حِينَ يَزُورُ

[المقبول من الغلو هو الذي يصدره الصوفية]

وجُلُّ ما في الموضوعِ مِنَ الغُلُوِّ الذي ينبو عنهُ السمعُ ، ولا يقبلُهُ الخاطرُ ، إلاَّ ما كانَ عنِ السادةِ الصوفيَّةِ ؛ فإنَّهُ لا بأْسَ بهِ ، ووجهُهُ أنَّها تتلاشىٰ جِسمانيَّتُهُم ، وتتغلَّبُ عليهِم الروحانيَّةُ ، وينفكُّونَ عن قيودِ المادَّةِ ، ويطيرونَ بنفوسِهِم إلىٰ حيثُ شاؤوا ، ممَّا قُسِمَ لهُم أَنْ يدخلوهُ مِنْ عوالمِ القُدْسِ ، علىٰ حَسَبِ مراتِبِهِم ، وتفاوتِ درجاتِهِم .

وقدْ قالَ بعضُهم : [مِنَ الطويل]

نَحَلْتُ فَلَوْ عُلِّقْتُ فِي رِجْلِ ذَرَّةٍ ... لَطَارَتْ وَلَمْ تَشْعُرْ بِأَنِّي تَعَلَّقْتُ

[سماع الصوفية]

ولهٰذا قصَّةٌ ، حاصلُها : أَنَّ جماعةً مِنَ الصوفيَّةِ كانوا علىٰ سماعٍ ليلةً ، فطرقَهُم شخصٌ عظيمُ الهامةِ ، طويلُ

---

(١) الأُوَامُ : شدَّةُ العطشِ وحرارتُهُ ، وقيل : أن يَضجَّ العطشانُ .

القامةِ ، عليهِ هيئةُ السفرِ ، فقالَ : ما هـٰذا ؟ قالوا : سماعٌ اجتمعَ عليهِ الإخوانُ ، فقالَ : إنْ أذنتُم لي . . دخلتُ ، فألفى الحاديَ يقولُ : [مِنَ الطويل]

خَلِيلَيَّ لاَ وَاللهِ مَا الْقَلْبُ سَالِمٌ وَإِنْ ظَهَرَتْ مِنِّي شَمَائِلُ صَاحِ
وَإِلاَّ فَمَا بَالِي وَلَمْ أَشْهَدِ الْوَغَىٰ أَبِيتُ كَأَنِّي مُثْخَنٌ بِجِرَاحِ

فطَرِبَ ، وركضَ برجلِهِ الأرضَ ، ورمىٰ للحادي ما كانَ علىٰ رأسِهِ ، ثُمَّ اندفعَ الحادي يقولُ : [مِنَ البسيط]

يَا بَانَةَ الْجِزْعِ لَوْلاَ رَنَّةُ الْحَادِي لَمَا تنَقَّلْتُ مِنْ وَادٍ إِلَىٰ وَادِ
وَلاَ سَلَكْتُ بِنَعْمَانِ الأَرَاكِ وَلاَ شَرِبْتُ مِنْ مَائِهِ مَا يُنْعِشُ الصَّادِي

فصَعِقَ الشيخُ ، وتدَلَّهَ[1] ، ورمىٰ جميعَ ما كانَ عليهِ مِنَ الثيابِ ، وبقيَ عُرياناً ، ثُمَّ غنَّى الحادي بالبيتِ المُشارِ إليهِ ، في جملةِ أبياتٍ ذهبتْ عن حِفظي ، فصاحَ الشيخُ صيحةً خرجتْ فيها رُوحُهُ .

[ومن العشق ما قتل]

ونظيرُها ما حكاهُ ابنُ دقيقِ العيدِ في مجلسِ درسِهِ بجامعِ ابنِ طولونَ : أَنَّهُ حضرَ سماعاً غنَّىٰ فيهِ مُغنٍّ بقولِ ابنِ الخيَّاطِ [في « ديوانه » ١٧٠ـ١٧١] : [مِنَ الطويل]

خُذَا مِنْ صَبَا نَجْدٍ أَمَاناً لِقَلْبِهِ فَقَدْ كَادَ رَيَّاهَا يَطِيرُ بِلُبِّهِ
وَإِيَّاكُمَا ذَاكَ النَّسِيمَ فَإِنَّهُ إِذَا هَبَّ كَانَ الْمَوْتُ أَيْسَرَ خَطْبِهِ
وَفِي الرَّكْبِ مَطْوِيُّ الضُّلُوعِ عَلَىٰ جَوىً مَتَىٰ يَدْعُهُ دَاعِ الْغَرَامِ يُلَبِّهِ

قالَ : وفي القوم فقيرٌ أخذَ يقولُ : لبيكَ ، لبيكَ ، ويصيح ، ورفعَ رأسَهُ ، فإذا هوَ ميِّتٌ .

[حكم ابن الأثير علىٰ بيت]

قالَ ابنُ الأثيرِ [في « المثلِ السَّائرِ في أدبِ الكاتبِ والشَّاعرِ » : ٢/٣٤٦] : وفي هـٰذهِ القصيدةِ بيتٌ يزعمونَ أَنَّهُ مخترَعٌ ، وهوَ [في « ديوانِ ابنِ الخيَّاطِ » ١٧١] :

أَغَارُ إِذَا آنَسْتُ فِي الْحَيِّ أَنَّةً حِذَاراً عَلَيْهِ أَنْ تَكُونَ لِحِبِّهِ

والحالُ أَنَّهُ مِنْ قولِ المتنبِّي [في « العُكْبَرِيّ » ١/٦] : [مِنَ الكامِلِ]

لَوْ قُلْتَ لِلدَّنِفِ الْمَشُوقِ فَدَيْتُهُ مِمَّا بِهِ . . لأَغَرْتَهُ بِفِدَائِهِ[2]

---

(١) تدلَّهَ : ذهب فؤاده من العشق أو نحوه .

(٢) الدَّنِف : الذي اشتدَّ مرضهُ وأشرف على الموتِ . وأغرته : من الغَيرة . وفي « الديوان » : (الحَزين) بدلَ (المَشُوق) . وقال ابن الأثير : (دخلت مدينة دمشق فوجدت جماعة من أدبائها يلهجون ببيت من شعر ابن الخياط في قصيدة له أولها : خذا من صبا نجد أماناً لقلبه ، ويزعمون أنه من المعاني الغريبة وهو :

أَغَار إذا آنست في الحي أَنَّةً حذاراً عَلَيْهِ أَنْ تَكُونَ لِحُبِّهِ

فقلت لهم : هـٰذا البيت مأخوذ من شعر أبي الطيب في قوله :

وقلت للدنف المشوق فديته مما به لأغرته بفدائه

وقول أبي الطيب أدق معنىٰ ، وإن كان قول ابن الخياط أرق لفظاً ، ثم إني أوقفتهم علىٰ مواضع كثيرة من شعر ابن الخياط قد أخذها من شعر المتنبي) . « المثل السائر » (٢/٣٤٦) .

أقولُ : وقدْ سبقَ إليهِ العبَّاسُ بنُ الأحنفِ في قولِهِ [في « ديوانه » ٣٤] : [مِنَ الكامِلِ]

لَـمْ أَلْـقَ ذَا شَجَـنٍ يَبُـوحُ بِحُبِّـهِ ... إِلاَّ حَسِبْتُـكِ ذَلِـكَ الْمَحْبُـوبَـا

حَـذَراً عَلَيْـكِ وَإِنَّنِـي بِـكِ وَاثِـقٌ ... أَنْ لاَ يَنَـالَ سِـوَايَ مِنْـكِ نَصِيبَـا

[لماذا لم يصعق الصحابة من السماع ؟]

فإنْ قالَ قائلٌ : إذا كانَ الموتُ علىٰ مثلِ تلكَ الحالِ كمالاً . . فهلاَّ كانَ هناكَ أَصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، ورضيَ عنهُم ، وهُم خيرُ القرونِ ؟

[بل صعق بعضهم عند سماع سورة الإنسان]

قلنا : أخرجَ الطَّبرانيُّ [في « الأوسطِ » ٢/١٦١] ، وابنُ مردويهِ ، وابنُ عساكرَ : (أَنَّ بعضَ أَصحابِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قضىٰ عندَ سماعِ سورةِ الإنسانِ ساعةَ نزولِها) .

وأخرجهُ أَحمدُ أَيضاً بصورةٍ لا تَبعُدُ عنها .

[قوا أنفسكم ناراً]

وصحَّ عنِ ابنِ عبَّاسٍ : أَنَّهُ لَمَّا نزلتْ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ [التحريم : ٦] . . تلاها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ذاتَ ليلةٍ ، أَو يوم ، فخَرَّ فتىً مغشيّاً عليهِ ، فوضعَ النبيُّ صلى الله عليهِ وآلهِ وسلَّم يدَهُ علىٰ فؤادِهِ ، فإذا هو يتحرَّكُ ، فقالَ : « يَا فَتَىٰ ، قُلْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ » ، فقالَها ، فبشَّرَهُ بالجنَّةِ ، وماتَ مِنْ ذلكَ[1] .

[الأول يتلو والثاني يموت]

وصحَّ : أَنَّ منصورَ بنَ عمَّارٍ تلاَ هـٰذِهِ الآيةَ ، فسمعَها فتىً يصلِّي ، فتفطَّرتْ مرارتُهُ ، ووقعَ ميْتاً[2] .

[باح للنبي صلى الله عليه وسلم ومات]

وأَخرجَ الحاكمُ في « المستدرك » [٢/٥٣٦] ، وابنُ أَبي الدنيا [في « الخائفين »] ، عن سهلِ بنِ سعدٍ : (أَنَّ فتىً مِنَ الأَنصارِ دخلتْهُ خشيةٌ مِنَ النارِ ، فكانَ يبكي مِنْ ذِكْرِها ، فذُكِرَ للنبيِّ صلى الله عليهِ وآلهِ وسلَّم ، فجاءَهُ إِلىٰ بيتِهِ ، فلمَّا دخلَ عليهِ . . اعتنقَهُ ، وخرَّ مَيْتاً) .

[وأكثرهم راسخون كالجبال]

ثُمَّ لا يُؤثِّرُ السماعُ ذلكَ التأثيرَ ، فيمَنْ بلغَ وقارَ الجبالِ مِنَ الصحابةِ ، وإِنْ غلبَهُمُ الخشوعُ ، واستولىٰ عليهِمُ الخضوعُ ، وفاضتْ مِنْ محاجرِهِمُ الدموعُ ، وإِنَّما يبلغُ ذلكَ الحدَّ فيمَنْ خفَّ نسيمُهُ ، ولم يَصِلْ إِلىٰ ما كانَ عليهِ سيِّدُ البشرِ ، وكُمَّلُ أَصحابِهِ ، مِنْ نهايةِ الثباتِ والوقارِ .

[رفقاً بالقوارير]

ومنهُ تعرفُ سِرَّ قولِهِ صلى الله عليه وسلم لأَنجشةَ : « رُوَيْدَكَ يَا أَنْجَشَةُ ، رِفْقاً بِالْقَوَارِيرِ »[3] ، فإِنَّما أَمرَهُ بالرفقِ بالنساءِ لِضَعفهِنَّ ، معَ رقَّةِ عواطفهِنَّ ، وصفاءِ قلوبهِنَّ .

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٢/٣٨٢) .

(٢) ذكرَها الذهبيُّ في « السير » (٩/٩٧) مطوَّلةً ، وكذلكَ أبو نُعيم في « الحلية » (١/٣٢٨ـ٣٢٩) .

(٣) ذكره الحافظ في « فتح الباري » (١٠/٥٩٤) .



[الرجل أقوىٰ]

أَمَّا الرجالُ : فقدْ وَكَلَهُم إلىٰ ما أَعطاهُمُ اللهُ مِنَ القوَّةِ والجلادَةِ ، وكم انشقَّتْ بِالوَجْدِ جيوبٌ ، وذابَتْ قلوبٌ ، وسالَتْ نفوسٌ .

[همَّام والإمام عليه السلام]

وقَدْ صَعِقَ همَّامٌ مِنْ خطبةِ أَميرِ المؤمنينَ في وصفِ المتقينَ ، حتَّىٰ فاضَتْ روحُهُ ، فقالَ لهُ قائلٌ : ما بالُكَ يا أَميرَ المؤمنينَ ؟ فقالَ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ : (إنَّ لِكُلِّ أَجلٍ وقتاً لا يعدوهُ ، وسبباً لا يتجاوزُهُ ، فمهلاً لا تعُدْ لمثلِها ، فإنَّما نَفَثَ الشيطانُ علىٰ لسانِكَ)[1] .

[السبب في الموت عشقاً]

وإنَّما زجرَهُ عن ذلكَ ؛ لأنَّهُ لا يلزمُ مِنْ موتِ العاميِّ بوعظِ العالمِ أَنْ يموتَ ذلكَ العالمُ لوعظِ نفسِهِ ؛ لأنَّ انفعالَ الأَوَّلِ بضعفِ نفسِهِ ، وضيقِ حَوْصَلَتِهِ . . أَشدُّ بكثيرٍ مِن انفعالِ العارفِ الذي لا تحرِّكُهُ العواصفُ ، ولا تزعزعُهُ القواصفُ ، ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل : ٨٨] .

[الأكوع : والبادي أظلم]

ويُذكرُ : أَنَّ واعظاً يقالُ لَهُ : الأَكوعُ ، كانَ يلحقُهُ في الوعظِ حالٌ ، وتُحملُ بينَ يديهِ الجنائزُ ، وكانَ لامرأَةٍ شابَّةٍ ولدٌ أَبيضُ السَّريرةِ ، منوَّرُ القلبِ ، فكانتْ تحميهِ عن حضورِ مجلسِهِ ، حتَّى انفلتَ عليها ذاتَ مرَّةٍ ، فشهدَهُ ، فماتَ ، فما كانَ منها إلاَّ أَنْ أَمهلَتْهُ ، ثُمَّ استقبلَتْهُ في يومِ حفلةٍ ، وقالَتْ : [مِنَ المتقارِبِ]

أَتَهْـدِي الأَنَـامَ وَلاَ تَهْتَـدِي ... أَلاَ إِنَّ ذَلِـكَ لاَ يَنْفَـعُ

فَيَـا حَجَـرَ الشَّحْـذِ حَتَّـىٰ مَتَـىٰ ... تَسُـنُّ الْحَـدِيـدَ وَلاَ تَقْطَـعُ

أَمَـا تَسْتَحِـي مِـنْ خُشُـوعِ الْقُلُـو ... بِ وَقَسْـوَةِ قَلْبِـكَ يَـا أَكْـوَعُ

فمَا كانَ مِنَ الشَّيخِ إلاَّ أَنْ لبَّىٰ مُطيعاً ، وخرَّ عن كُرسيِّهِ صريعاً ، فقالتْ : هـٰذِهِ بتلكَ ، والبادي أَظلَمُ ، أَو ما يُشبهُ ذلكَ ؛ فالرِّوايةُ بالمعنىٰ ، والعهدُ بالقصَّةِ ـ مِنْ شرحِ القصيدةِ للعلاَّمةِ ابنِ الأَميرِ ـ بعيدٌ .

[موت ابن وهب]

وأَخرجَ الحاكمُ : أَنَّ ابنَ وهبٍ ماتَ مِنْ سماعِ حديثٍ في الأَهوالِ[2] .

[موت النوري]

ولمَّا سمعَ النُّوريُّ حادياً يقولُ [في « الرسالة القشيرية » (٣٣٨)] : [مِنَ الكاملِ]

مَـا زِلْـتُ أَنْـزِلُ مِـنْ وِدَادِكَ مَنْـزِلاً ... تَتَحَيَّـرُ الأَلْبَـابُ دُونَ نُـزُولِـهِ

---

(١) ذكره في « نهج البلاغة » (٢٢٧) . ونذكرُ مقطعاً مِنَ الخطبةِ التي نوَّهَ بها الشيخُ المؤلِّفُ فنقولُ : قالَ الإمامُ رَضي اللهُ عنه ـ وهوَ يصفُ عبادَ اللهِ المتقينَ ـ : يعفو عمَّنْ ظَلَمَهُ ، ويعطي مَن حرمهُ ، ويصلُ مَن قطعهُ ، بعيداً فحشُهُ ، ليِّناً قولُهُ ، غائباً منكرُهُ ، حاضراً معروفُهُ ، مقبلاً خيرُهُ ، مُدْبراً شرُّهُ ، في الزَّلازلِ وَقورٌ ، وفي المكارهِ صَبورٌ ، وفي الرخاءِ شَكورٌ ، لا يحيفُ علىٰ مَن يُبْغِضُ ، ولا يأثمُ فيمن يحبُّ ، يعترفُ بالحقِّ قبلَ أن يُشْهَد عليهِ ، لا يضيعُ ما استُحفظَ ، ولا ينسىٰ ما ذكرَ ، ولا ينابزُ بالألقابِ ، ولا يضارُّ بالجارِ ، ولا يشمتُ بالمصائبِ ، ولا يدخلُ في الباطلِ ، ولا يخرجُ مِنَ الحقِّ .
إنْ صمتَ لَم يغمَّهُ صمتُهُ ، وإن ضحكَ لَم يَعْلُ صوتُهُ ، وإنْ بُغِيَ عليهِ صبرَ حتَّىٰ يكونَ اللهُ هوَ الذي ينتقمُ لهُ ، نفسهُ منهُ في عناءٍ ، والناسُ منهُ في راحةٍ ، أَتعبَ نفسَهُ لآخرتِهِ ، وأَراحَ الناسَ مِن نفسهِ ، بُعْدُهُ عمَّن تباعدَ عنهُ زهدٌ ونزاهةٌ ، ودنوُّهُ ممَّن دَنا منهُ لينٌ ورحمةٌ ، ليسَ تباعدُهُ بكبرٍ وعظمةٍ ، ولا دنوُّهُ بمكرٍ وخديعةٍ . فَصَعِقَ همَّامٌ عندها صعقةً كانَت فيها نفسُهُ .

(٢) أخرجه ابن رجب الحنبلي في « التخويف من النار » (١/ ٣٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٢٤) .



.. اندهشَ وغابَ ، وسكِرَ وطابَ ، ووقعَ في أَجَمَةِ قَصَبٍ جُذَّ[1] ، وبقيتْ أُصولُهُ مثلَ المُدىٰ ، أَخذَ يجيءُ فيها ويروحُ ، ويكرِّرُ البيتَ ، والدَّمُ يسيلُ منهُ ، حتَّىٰ ماتَ رحمةُ اللهِ عليهِ .

[عبد الله بن طاهر والجارية الشاعرة]

ويُحكىٰ : أَنَّ عبدَ اللهِ بنَ طاهرٍ استعرضَ جاريةً أَعجبَتْهُ ، فاستنطقَها ، فإِذا هيَ شاعرةٌ ، فقالَ لها : أَجيزي[2] :

[مِنْ مُخَلَّعِ البسيطِ]

بَعِيدَ وَصْلٍ طَوِيلَ هَجْرٍ ... جَعَلْتُهُ فِي الْهَوَىٰ مَلاَذَا

فقالتْ مُسرعةً :

فَعَاتَبُوهُ فَزَادَ شَوْقاً ... فَمَاتَ عِشْقاً فَكَانَ مَاذَا

فاشتراها ، فماتتْ مِنَ الغدِ .

[الجاحظ وغريقا العشق]

والحوادثُ في مثلِ هٰذا وراءَ العَدِّ ، ومِنْ أَلطفِها : ما ذكرَهُ أَبو عُثمانَ الجاحظُ ، قالَ : أَرادني المتوكِّلُ العبَّاسيُّ لتأْديبِ بعضِ ولدِهِ ، فلمَّا رآني . . استبشعَ منظري ، فصرفَني بعشَرَةِ آلافِ درهمٍ ، فركبتُ معَ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ في حرَّاقتِهِ[3] ، فأَمرَ بالغناءِ ، فغنَّتْ عوَّادةٌ ، وقالتْ :

[مِنَ الخفيفِ]

كُلَّ يَوْمٍ قَطِيعَةٌ وَعِتَابُ ... يَنْقَضِي دَهْرُنَا وَنَحْنُ غِضَابُ

لَيْتَ شِعْرِي أَنَا خُصِصْتُ بِهٰذَا ... دُونَ ذَا الْخَلْقِ أَمْ كَذَا الأَحْبَابُ

ثُمَّ غنَّتِ الطَّنبوريَّةُ بإِشارتِهِ ، وقالتْ :

[مِنْ مجزوءِ الكاملِ]

وَارَحْمَتَا لِلْعَاشِقِينَا ... مَا إِنْ أَرَىٰ لَهُمُ مُعِينَا

كَمْ يُهْجَرُونَ وَيُصْرَمُو ... نَ وَيُقْطَعُونَ فَيَصْبِرُونَا

قالتِ العوَّادةُ : فيصنعونَ ماذا ، فهتكَتِ الطَّنبوريَّةُ السِّتْرَ ، وبرزَتْ كأَنَّها فلقةُ قمرٍ ، وقالتْ : يصنعونَ هٰكذا ، وأَلقتْ بنفسِها في الماءِ ، وعلىٰ رأْسِ محمَّدٍ غلامٌ لا ينقصُ عنها جمالاً ، فنظرَ إِليها تتدافعُها الأَمواجُ ، وقالَ :

أَنْتِ الَّتِي أَغْرَقْتِنِي ... بَعْدَ الْقَضَا لَوْ تَعْلَمِينَا

[لا خير في عشق بلا موت]

وأَلقىٰ نفسَهُ علىٰ إِثْرِها ، فرأَيناهُما علىٰ بُعدٍ متعانقينِ ، ثمَّ غاصا ، وكانَ آخرَ العهدِ بهما ، فانكسَفَ محمَّدٌ ، وهالَهُ الأَمرُ ، وعظُمَتْ عليهِ الرَّزيَّةُ ، وقالَ : لَتُحدِّثُنِّي بما يُسلِّيني ، أَو لأُلحِقنَّكَ بهما ، فذكرتُ يزيدَ بنَ عبدِ المَلكِ ، وقدْ قعدَ للمظالمِ ، ومرَّتْ عليهِ بينَ القِصصِ رُقعةٌ فيها : إِنْ رأَىٰ أَميرُ المؤمنينَ أَنْ يُخرِجَ إِليَّ جاريتَهُ (نعمىٰ) حتَّىٰ تُغنيني ثلاثةَ أَصواتٍ . . فَعَلَ ، فاغتاظَ ، وأَمرَ بقتلِهِ ، ثُمَّ انثنىٰ ، وأَمرَ بإِدخالِهِ ، فقالَ لهُ : ما حملَكَ ؟ قالَ : الثِّقةُ

---

(١) **جُذَّ** : قُطِعَ .

(٢) **الإِجازةُ في الشعرِ** : أَنْ يأْتيَ شاعرٌ بشطرِ بيتٍ أَو بيتٍ تامٍ فينظمَ شاعرٌ آخرُ في وزنِهِ ومعناهُ ما يكونُ بهِ تمامُهُ .

(٣) **الحَرَّاقةُ** : ضربٌ مِنَ السُّفنِ ، فيها مرامي نيرانٍ .



بحِلمِكَ ، والاتِّكالُ علىٰ عفوكَ ، فأَجلسَهُ ، حتَّىٰ خرَجَ النَّاسُ ، فأَمرَ بالجاريةِ ، فأُخرِجتْ ، ومعها عُودُها ، فقالَ لها الفتىٰ : غَنِّي بهـٰذا [مِنْ شعرِ امرىءِ القيسِ في « ديوانهِ » ١٤٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَفَـاطِـمَ مَهْـلاً بَعْـضَ هَـٰـذَا التَّـدَلُّـلِ وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ صَرْمِي فَأَجْمِلِي

فغنَّتْهُ ، ثُمَّ قالَ لهُ يزيدُ : اقترحْ ، فقالَ : غنِّي بهـٰذا : [مِنَ البسيط]

تَـأَلَّـقَ الْبَـرْقُ نَجْـدِيّـاً فَقُلْـتُ لَـهُ يَـا أَيُّهَـا الْبَـرْقُ إِنِّي عَنْـكَ مَشْغُـولُ

فغنَّتْهُ ، فقالَ لهُ يزيدُ : قُلْ ، قالَ : تأمرُ لي برطلٍ مِنَ الشرابِ ، فما استتمَّ شربَهُ حتَّىٰ قامَ إِلىٰ أَعلىٰ قُبَّةٍ ليزيدَ ، ورمىٰ بنفسِهِ ، فانتثرَ دماغُهُ ، فقالَ يزيدُ : إِنَّا للهِ وإِنَّا إِليهِ راجعونَ ، أَوَظَنَّ الأَحمقُ أَنِّي أُخرِجُ إِليهِ جاريَتِي ، ثُمَّ أَرُدُّها ، خُذوا يا غلمانُ بيدِها ، واحملوها إِلىٰ أَهْلِهِ ، معَ ما يُعَزِّيهِم عنهُ مِنَ المالِ ، فلمَّا توسَّطتِ الدارَ . نظرتْ إِلىٰ بئرٍ هناكَ ، فجذبتْ يدَها منهُم ، وقالتْ : [مِنَ السّريع]

مَـنْ مَـاتَ عِشْقـاً فَلْيَمُـتْ هَـٰكَـذَا لاَ خَيْـرَ فِـي عِشْـقٍ بِـلاَ مَـوْتِ

قالَ أَبو عثمانَ [الجاحظ] : فسُرِّيَ عن محمَّدٍ ، وأَجزلَ صِلتي ، ولهـٰذهِ القصَّةِ تمامٌ يأتي أَوَّلَ المجلسِ السابعِ .

أقولُ : وفي هـٰذا تصديقٌ للخنساءِ في قولِها [من « ديوانها » ٥٠] : [مِنَ الوافر]

وَلَـوْلاَ كَثْـرَةُ الْبَـاكِيـنَ حَـوْلِـي عَلَـىٰ إِخْـوَانِهِـمْ لَقَتَلْـتُ نَفْسِـي

وتكذيبٌ لابنِ الروميِّ في قولِهِ : [مِنَ الخفيف]

لَيْسَ تَـأْسُـو جُـرُوحُ غَيْـرِي جُرُوحِـي مَـا بِهِـم مَـا بِهِـمْ وَمَـا بِـيَ مَـا بِـي

وفي « **تَزيينِ الأَسواقِ** »[1] العجبُ العُجابُ مِنْ ذلكَ ، وفي تراجمِ الصوفيَّةِ الكثيرُ الطيِّبُ منهُ .

[لا تستعجل ما هو لك]

وبقولِ العوَّادةِ السالفِ ، وهو : (كُلُّ يَوْمٍ قَطِيعَةٌ وَعِتَابُ) إِلىٰ آخرِهِ ، تذكَّرتُ قولَ الأَوَّلِ : [مِنَ الكامل]

وَلَقَـدْ عَلِمْـتَ فَـلاَ تَكُـنْ مُتَجَنِّيـاً أَنَّ الصُّـدُودَ هُـوَ الْفِـرَاقُ الأَوَّلُ
حَسْـبُ الأَحِبَّـةِ أَنْ يُفَـرِّقَ بَيْنَهُـمْ رَيْـبُ الْمَنُـونِ فَمَـا لَنَـا نَسْتَعْجِـلُ

وقولَ سعيدِ بنِ حميدٍ [في « ديوانه »] : [مِنَ الكامل]

أَقْلِـلْ عِتَـابَـكَ فَـالْبَقَـاءُ قَلِيـلُ وَالـدَّهْـرُ يَعْـدِلُ تَـارَةً وَيَمِيـلُ
وَلَعَـلَّ أَيَّـامَ الْحَيَـاةِ قَصِيـرَةٌ فَعَـلاَمَ يَكْثُـرُ عَتْبُنَـا وَيَطُـولُ ؟!

وقولَ معنِ بنِ أَوسٍ [في « ديوانه »] : [مِنَ الطويل]

لَعَمْـرُكَ مَـا أَدْرِي وَإِنِّـي لأَوْجَـلُ عَلَـىٰ أَيِّنَـا تَعْـدُو الْمَنِيَّـةُ أَوَّلُ
وَإِنِّـي أَخُـوكَ الـدَّائِـمُ الْعَهْـدِ لَـمْ أَحُـلْ أَبَـارَاكَ خَصْـمٌ أَوْ نَبَـا بِـكَ مَنْـزِلُ ؟

---

(١) لداود الأنطاكي ، متداول .

وقولَ الأعرابيِّ : [مِنَ الطويل]

فَأَكْرِمْ أَخَاكَ الدَّهْرَ مَا عِشْتُمَا مَعاً كَفَىٰ بِالْمَمَاتِ فُرْقَةً وَتَنَائِيَا

وقولَ الطُّغرَّائيِّ : [مِنَ الطويل]

رُوَيْدَكُمُ لاَ تَسْبِقُوا بِقَطِيعَتِي صُرُوفَ اللَّيَالِي إِنَّ فِي الدَّهْرِ كَافِيَا

[كتاب سليمان بن عبد الملك إلىٰ أخيه]

وقولَ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ في كتابِ شفاعةٍ إِلىٰ أخيهِ الوليدِ ، بشأْنِ يزيدَ بنِ المهلَّبِ : فواللهِ يا أَميرَ المؤمنينَ ، ما تدري ما بقائي وبقاؤُكَ ، ولا متىٰ يُفرِّقُ الموتُ بيني وبينَكَ ، فإِنِ استطاعَ أَميرُ المؤمنينَ ـ أَدامَ اللهُ سرورَهُ ـ أَنْ لا يأْتيَ علينا أَجلُ الوفاةِ إِلاَّ وهوَ لي واصلٌ ، ولحقِّي مُؤَدٍّ ، وعن مَساءَتِي نازعٌ . فليفعلْ ، إِلىٰ آخرِ الكتابِ .

وقولَ الناظمِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/١٤٨] : [مِنَ الطويل]

ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذْ وُسْعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا فَمُفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعُمْرُ[1]

وقولَهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/١٤٩] : [مِنَ الخفيف]

وَصِلِينَا نَصِلْكِ فِي هَـٰذِهِ الدُّنْـيَـا فَإِنَّ الْمُقَامَ فِيهَا قَلِيلُ

[إذ لا تشرب تظمأ]

وقالَ بشَّارٌ شيخُ المتأخِّرينَ [في « ديوانه » ١/٣٠٩] : [مِنَ الطويل]

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الأُمُورِ مُعَاتِباً صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ الَّذِي لاَ تُعَاتِبُهْ
فَعِشْ وَاحِداً أَوْ صِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهْ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَاراً عَلَى الْقَذَىٰ ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ ؟

وقالَ الرَّضيُّ [في « ديوانه » ٧٦٩ـ٧٧٠] : [مِنَ الطويل]

وَكَمْ صَاحِبٍ كَالرُّمْحِ زَاغَتْ كُعُوبُهُ أَبَىٰ بَعْدَ طُولِ الْغَمْزِ أَنْ يَتَقَوَّمَا[2]
كَعُضْوٍ رَمَتْ فِيهِ اللَّيَالِي بِفَادِحٍ وَمَنْ حَمَلَ الْعُضْوَ الأَلِيمَ . . تَأَلَّمَا
صَبَرْتُ عَلَىٰ إِيلاَمِهِ خَوْفَ نَقْصِهِ وَمَنْ لاَمَ مَنْ لاَ يَرْعَوِي كَانَ أَلْوَمَا
أَرَاكَ عَلَىٰ قَلْبِي وَإِنْ كُنْتَ عَاصِيَاً أَعَزَّ مِنَ الْقَلْبِ الْمُطِيعِ وَأَكْرَمَا
حَمَلْتُكَ حَمْلَ الْعَيْنِ لَجَّ بِهَا الْقَذَىٰ فَلاَ تَنْجَلِي يَوْماً وَلاَ تَبْلُغُ الْعَمَىٰ
إِذَا الْعُضْوُ لَمْ يُؤْلِمْكَ إِلاَّ قَطَعْتَهُ عَلَىٰ مَضَضٍ لَمْ تُبْقِ لَحْماً وَلاَ دَمَا

والكلامُ في الاستصلاحِ يَطلُبُ تفصيلاً مُقنِعاً نوفيهِ حقَّهُ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ في أَصلحِ المواطنِ لهُ .

---

(١) بينها : بُعدِها . جارانِ : الروحُ والجَسَدُ .

(٢) الغَمْزُ : العصر باليدِ ؛ أي : التليين .

[صعقة أمير المؤمنين عمر لسماع القرآن]

ولئِنْ قَلَّ بالوجدِ الموتُ في الصدرِ الأَوَّلِ . . فكثيرٌ مَنْ يَصعقُ لسماعِ القرآنِ ؛ منهُم عمرُ بنُ الخطَّابِ ، فلقدْ يَمرضُ مِنَ الآيةِ ، حَتَّىٰ يُعادَ .

[المحسن بن علوي ورقة قلبه]

ولقدْ كانَ جَدِّي المُحسنُ بنُ علويٍّ مِنْ أَرقِّ الناسِ عاطفةً ، وأَسلمِهم ذوقاً ، وإِنْ كانَ لَيقومُ بالآيةِ مِنَ القرآنِ يُكرِّرُها ، حتَّىٰ يصبحَ بينَ القلبِ الواجفِ ، والدمعِ الذارفِ ، وسمعَهُ الفاضلُ الأَريبُ السيِّدُ شيخُ بنُ محمَّدٍ الحبشيُّ ـ كما أَخبرني ـ يترنَّحُ ليلةً بقولِ الحدَّادِ [في « ديوانه » (٤٧٤)] : [مِنَ الكامل]

وَلَّـى الـزَّمَـانُ وَوَلَّـتِ الأَيَّـامُ فَعَلَـى الْمَنَـازِلِ وَالنَّـزِيـلِ سَـلاَمُ

ويردِّدُهُ إِلىٰ أَنْ كادَ يُغشىٰ عليهِ ، وبينا هوَ سائرٌ في بعضِ الأَزقَّةِ ، إِذ سمعَ منشداً ينشدُ قصيدةَ القطبِ الحدَّادِ ، المستهَلَّةَ بقولِهِ [في « ديوانه »] : [مِنَ الطويل]

تَفِيضُ عُيُونِي بِالدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ وَمَا لِيَ لاَ أَبْكِي عَلَىٰ خَيْرِ ذَاهِبِ

فَأَلقىٰ عصاهُ تحتَ جبهتِهِ ، ولم يزلْ يُذري الدموعَ ، حتَّىٰ سقطَ مغشيّاً عليهِ .

[مواراة عبد الله بن عمر]

وحدَّثني الفاضلُ الوجيهُ السيِّدُ حسنُ بنُ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ بلفقيهِ ، عمَّنْ حضرَ مواراةَ سيِّدِنا عبدِ اللهِ بنِ عمرَ بنِ يحيىٰ ، وكانَ يوماً مشهوداً ، لم يتأَخَّرْ عنهُ أَحدٌ مِن رجالاتِ (حضرموتَ) ، وهيَ إِذْ ذاكَ بهم ملآنةٌ ، قالَ : إِنَّهُم لَمَّا انصرفوا مِنْ دفنِهِ . . اجتمعوا في بيتِهِ ، فأَنشدَهُم بعضُ الحُداةِ بقصيدةِ الحدَّادِ المشارِ إِليها ، فلا تَسَلْ عمَّا حَصَلَ مِنَ النشيجِ ، وارتفعَ مِنَ الضجيجِ ، وسالَ مِنَ العَبَراتِ ، وتصاعدَ مِنَ الزفراتِ ، حتَّىٰ لقدْ كادتْ تُحملُ الجنائزُ .

[عبيد الله بن محسن]

وكذلكَ كانَ والدي المغفورُ لهُ عبيدُ اللهِ بنُ محسنٍ صحيحَ الشوقِ ، سليمَ الذوقِ ، غزيرَ الدمعةِ ، طويلَ الفكرةِ ، كلُّ آيةٍ تهزُّهُ ، وكلُّ صادحةٍ تُطربُهُ ، وكثيراً ما يمرُّ في مجالسِهِ مرورَ السهمِ ، ولا سيَّما في إِشاراتِ القومِ ، فأَتمثَّلُ لهُ بالبيتِ يصيبُ محزَّهُ ، فيَذوبُ وَجْداً ، ويأْخذُهُ حالٌ شديدٌ جِدّاً .

[الحداد وقوله : ولى الزمان]

وعلىٰ ذكرِ قولِ القطبِ الحدَّادِ : (وَلَّى الزَّمَانُ) إِلىٰ آخرِهِ . . . **أَقولُ** : إِنَّهُ بيتٌ يكادُ يضيءُ مِنْ غيرِ زيتٍ ، ذكرتُ بهِ مطلعَ قصيدتينِ لفحلينِ مِنْ أُمراءِ القريضِ[1] :

أَحدُهُما : أَبو نُوَاسٍ في قولِهِ [في « ديوانه » ٥٢١] : [مِنَ الكامل]

يَـا دَارُ مَـا فَعَلَـتْ بِـكِ الأَيَّـامُ ؟! لَـمْ تُبْـقِ فِيـكِ بَشَـاشَـةً تُسْتَـامُ

والثاني : هوَ الباروديُّ في قولِهِ [في « ديوانه » ٥٣٧] : [مِنَ الكامل]

ذَهَـبَ الصِّبَـا وَتَـوَلَّـتِ الأَيَّـامُ فَعَلَـى الصِّبَـا وَعَلَـى الـزَّمَـانِ سَـلاَمُ

---

(١) **القريضُ** : الشِّعْر .

ولنْ تنظرَ فيهما مليّاً ، حتّىٰ يتبيَّنَ لكَ الفرقُ جليّاً ؛ إِذْ بيتُ الحدَّادِ أجملُ شارةً ، وأعذبُ إشارةً ، وأصفىٰ زُجاجةً ، وأنصعُ دِيباجةً ، وأرقُّ طبعاً ، وأعذبُ وضعاً ، أَوَلا ترىٰ عَروضَهُ استوفىٰ مدحَ الماضي ، وذمَّ الحاضرِ ، بما لا تضبطُهُ العبارةُ ، ولا يدخُلُ تحتَ الحدِّ ؟! وإنَّما هوَ مِنْ جنسِ قولِهِ جلَّ شأنُهُ : ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : ٧٨] .

وقولِ الشاعرِ : [مِنَ الرَّجَزِ]

يَحْمِلْــــنَ كُــــلَّ سُــــؤْدَدٍ وَفَخْــــرِ ... يَحْمِلْــنَ مَــا نَــدْرِي وَمَــا لاَ نَــدْرِي

وذاكَ ما عجزَ عن أَقلِّهِ حكيمُ الشعراءِ ، صاحبُ (المعرَّةِ) ، بشهادةِ قولِهِ : [مِنَ الخفيف]

كَــمْ أَرَدْنَــا ذَاكَ الــزَّمَــانَ بِمَــدْحٍ ... فَشُغِلْنَــا بِــذَمِّ هَــٰذَا الــزَّمَــانِ

ولكنَّ الحدَّادَ لم يشغلْهُ هـٰذا عنِ الآخرِ ، بلْ أَصابَ الغَرَضينِ بسهمٍ واحدٍ ، وما زالتِ الأُدباءُ رافعةَ العقيرةِ بالثناءِ علىٰ قولِ أبي تمَّامٍ [في « ديوانه » ٢/١٦٦] : [مِنَ الكامل]

لاَ أَنْــتِ أَنْــتِ وَلاَ الــدِّيَــارُ دِيَــارُ ... خَــفَّ الْهَــوَىٰ وَتَقَضَّــتِ الأَوْطَــارُ

وإنَّما هو بعضُ معنىٰ قولِ الحدَّادِ : (وَلَّى الزَّمَانُ وَوَلَّتِ الأَيَّامُ) ؛ لأنَّهُ إذا ولَّى الزمانُ الطيِّبُ بعمومِهِ ، وولَّتْ أيَّامُ الأحبابِ بخصوصِها ـ المرادُ كلُّ هـٰذا مِنْ شطرِ البيتِ . فقدِ انقضى الهوىٰ ، وخفَّتِ الأوطارُ ، ولم يبقَ ما يقتضي لُزومَ الديارِ ، وموافقةَ الآثارِ ؛ إذْ لا هيَ ديارُ الأحبابِ ، ولا هُم سكَّانُها ، فالميزانُ راجحٌ ، والفضلُ في بيت الحدَّادِ واضحٌ ؛ إذْ ليسَ في بيتِ الحَكَميِّ[1] سوىٰ دارٍ واحدٍ ، يسألُهُ سؤالاً تقريريّاً ، ينحصرُ معناهُ في أنَّ الأيَّامَ مَحَتْ بشاشتَهُ بأَسرِها ، إنْ تأوَّلنا بأنَّهُ مِنْ نفي الشيءِ بإيجابِهِ ، أَو إلاَّ النزرَ الذي لا يُستامُ منها ، إنْ لم نجعلْهُ منهُ ، وهوَ معنىً ضئيلٌ ، إلىٰ ما لا يخفىٰ مِنِ استثقالِ لفظةِ : (تُستامُ) ، وعدمِ الحاجةِ إليها .

وأمَّا بيتُ الباروديِّ : فصورةٌ مصغَّرةٌ مِنْ بيتِ الحدَّادِ ، وكأنَّما هوَ مأْخوذٌ منهُ معَ التَّقصيرِ ، فهوَ دونَهُ بتفاوتٍ كبيرٍ في المعنىٰ ؛ إذِ الباروديُّ لا يَحِنُّ إلاَّ إلىٰ نزواتِ الصِّبا وخطواتِهِ ، بقرينةِ ذكرِهِ لَهُ في القسمينِ ، وأَتفِهْ بذلكَ مِنْ مَبكيٍّ عليهِ في جانبِ بيتِ الحدَّادِ ، ثُمَّ هل تجدُ لأحدِ البيتينِ شيئاً ممَّا لبيتِ الحدَّادِ ـ فوقَ اتِّساعِ المعنىٰ ، وبُعدِ المرمىٰ ـ مِنْ هيبةِ النَّسجِ ، وروعةِ اللَّفظِ ، ومائيَّةِ الأُسلوبِ ، فإنَّهُ يكادُ يَقطُرُ ماءً ، وينصَعُ رُواءً[2] ، ويَستحلبُ الدَّمعَ ، ويَدخُلُ على القلبِ قبلَ السَّمعِ ، إلىٰ بُعدٍ عنِ التَّعمُّلِ ، وبراءَةٍ عنِ التَّكلُّفِ ، وتناسُبٍ ظاهرٍ بينَ الأيَّامِ والزَّمانِ ، والمنازلِ والنَّزيلِ ، فهـٰذا هوَ السِّحرُ الحلالُ ، والعذبُ الزُّلالُ ، والمَطمعُ المؤنِسُ ، والسَّهلُ الممتنِعُ ، ثُمَّ إنَّ الباروديَّ لَمْ يأخُذْ بيتَهُ إلاَّ مِنْ قولِ ابنِ المعتزِّ [في « ديوانه »] : [مِنَ الخفيفِ]

أَخَــذَتْ مِــنْ شَبَــابِــيَ الأَيَّــامُ ... وَتَــوَلَّــى الصِّبَــا عَلَيْــهِ السَّــلاَمُ

ومعَ ذلكَ ، فلَمْ يُحسِنِ الاتِّباعَ ، وبيتُ الحدَّادِ هوَ الرَّاجحُ على الجميعِ ، ولا نِزاعَ .

---

(١) أي : أبي نواسٍ الشاعر .

(٢) الرُّواءُ : المنظرُ الحسنُ .



[حديث الشوق في الآخرين]

وإذِ انتهىٰ بنا حديثُ الشَّوقِ إلىٰ هُنا . . فلا نُدحَةَ لنا عن ذِكْرِ أَمثلةٍ سمعتُ بها في الأَخيرِ ؛ لنُلحِقَ التَّالِدَ بالطَّارفِ :

[يا قرة العين]

منها : أَنَّ بعضَ الأئِمَّةِ زوَّجَ ابنَهُ مِن ابنةِ أَخيهِ ، فانتسجَ بينَهُما مِنْ صادقِ الحبِّ ، ما لا يتَّسعُ للمزيدِ ، غيرَ أَنَّ الإمامَ سيَّرَ ابنهُ بإثرِ ذلكَ إلىٰ موضعِ عملِهِ ، وبقيتِ المرأةُ بقاعدةِ المَلِكِ ، فكانَ يُطالِعُها بأَشواقِهِ ، وتجيبُهُ بمثلِ ذلكَ ، وكانَ مِنْ عادةِ الإمامِ أَنْ يَقيلَ يومَ الجُمُعةِ بمنزلِ ولدِهِ ، فعثرَ منهُ مرَّةً علىٰ قصيدةٍ ، يشتكي لزوجهِ البُعدَ ، ويتوجَّعُ مِنَ الفِراقِ ، ويصفُ ما عندَهُ مِنَ الاحتراقِ ، يقولُ فيها : [مِنَ البسيطِ]

يَـا قُـرَّةَ الْعَيْـنِ يَـا نُـورَ الْبَصيْـرَةِ يَـا شَقِيقَـةَ الـرُّوحِ يَـا مَـنْ لاَ أُسَمِّيهَـا

فرَقَّ لَهُ أَبوهُ ، ورسمَ بوصولِهِ ، ولكنْ بعدَ ما سبقَ السَّيفُ العَذَلَ ، ولَمْ يُبقِ الحبُّ على الرَّمقِ ، فلمَّا كانَ ليلةَ وصولِهِ . . اشتدَّ الشَّوقُ ، فطارتِ الروحُ إلىٰ فوقٍ ـ وللهِ دَرُّ الَّذي يقولُ : [مِنَ الوافرِ]

[أبرح الشوق]

وَأَبْـرَحُ مَـا يَكُـونُ الشَّـوْقُ يَـوْمـاً إِذَا دَنَـتِ الـدِّيَـارُ مِـنَ الـدِّيَـارِ

وقالَ التِّهاميُّ [في « ديوانه » ٢٥٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

بَكَيْـتُ فَحَنَّـتْ نَـاقَتِـي فَـأَجَـابَهَـا صَهِيـلُ جَـوَادِي حِيـنَ لاَحَـتْ دِيَـارُهَـا

و(كانَ صلى الله عليه وسلم إذا أَبصرَ درجاتِ المدينةِ . . حرَّكَ دابَّتَهُ مِنْ حُبِّها)[(١)] ، فهوَ أَصلُ المعنىٰ في ذلكَ ـ ولم يدخُلِ الأَميرُ بلَدَهُ إلاَّ وروحُهُ خامدةٌ ، وجُثَّتُهُ هامدةٌ ، ولمَّا اتَّصلَ بالمرأَةِ نعيُهُ . . شخصَ بصرُها وبرقَ ، واصفرَّ جبينُها وعرقَ ، وكانتِ القاضيةُ .

[الشيخ حسين زايد وصنَّاعة القهوة]

ومنها : أَنَّ الشَّيخَ حُسينَ زايدِ الشَّاعرَ ، اليافعيَّ ، المشهورَ ، القريبَ العهدِ بـ(حضرموتَ) . . كانَتْ لَهُ امرأَةٌ مَلَكَتْ عقلَهُ ، وغلَبَتْ هواهُ ، وملأَتْ رِضاهُ ، فبينَا هوَ معها يوماً علىٰ قهوةٍ . . قالَ : أَتمنَّىٰ عليكِ أُمنيَّةً ، أُحبُّ أَنْ توافقيني عليها ، قالتْ : نَعَمْ ، قالَ : كائنةً ما كانَتْ ؟ قالتْ : نَعَمْ ، وأَخذَ عهدَها بذلكَ ، فقالَ : اصنعي القهوةَ عُريانةً ، فاستقالَتْهُ ، فلَمْ يَقبلْ ، ففعلَتْ ، ولمَّا أَدَّتِ الوظيفةَ . . قالَتْ : وأَنا أَتمنَّىٰ عليكَ أَمراً ، أَفتُعطِينيهِ ؟ قالَ : نَعَمْ . قالَتْ : كائناً ما كانَ ؟ قالَ : نَعَمْ ، وأَخذتْ عليهِ ميثاقاً غليظاً ، قالَتْ : تُطلِّقُني بالثَّلاثِ في الحالِ ، ولَمَّا فشِلَ في المراجعةِ ، ولَجَّتْ في التَّصميمِ . . لَمْ يَسعْهُ إلاَّ الوفاءُ بما اقتطعَهُ علىٰ نفسِهِ ، وإنْ كانَ فيهِ حتفُهُ ، ثُمَّ خرجَ هائماً علىٰ وجهِهِ ، وأَشارَ علىٰ أَخيهِ أَنْ يتزوَّجَها إذا حلَّت ، فامتثلَ ، وبعقبِ ذلكَ جاءَ لتهنئةِ أَخيهِ ، فدخلَتْ هيَ ، وأَلقتْ جانبَ السِّترِ ، فأَنشدَها أَبياتاً مِنْ شعرِهِ الحُمينيِّ ، يزعُمُ فيهِ : أَنَّهُ رآها وإِيَّاهُ مجتمعَيْنِ علىٰ شربِ قهوةٍ في فراشٍ واحدٍ ، فأَجابتْهُ مِنْ بحرِهِ وقافيتِهِ بما يقطعُ أَمَلَهُ ، ويخيِّبُ رجاءَهُ ، وكانَ ذلكَ في حينِ ذهابِ أَخيهِ لبعضِ شغلِهِ ،

---

(١) أورده الحافظ في « فتح الباري » (٣/ ٦٣٠) .



ومُذْ زوَّدتْهُ اليأسَ الحاضرَ . . استولاَهُ الضَّعفُ ، وزارهُ السِّقامُ ، ولزمتْهُ العِلَلُ ، واشتملَ عليهِ الفِراشُ ، ولمَّا استعرَ بِهِ الألَمُ ، واستحرَّ بِهِ الوجْدُ ، ونهكَهُ المرضُ . . طلبَ مِنْ أخيهِ وصولَ المرأةِ ؛ ليستحلَّها ، ويطلبَ العفوَ منها ، وربُّما خطرَ ببالِهِ ما خطرَ ببالِ مجنونِ عامرٍ في قولِهِ [مِنْ « ديوانه » ٢٤٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَـوْ شَهِـدَتْنِـي حِيـنَ تَـأْتِـي مَنِيَّتِـي ... جَـلاَ سَكَـرَاتِ الْمَـوْتِ عَنِّـي ابْتِسَـامُهَـا

أَو قولِ الأعشىٰ [في « ديوانه » ١٥٢] : [مِنَ السَّريع]

لَـوْ أَسْنَـدَتْ مَيْتـاً إِلَـىٰ نَحْـرِهَـا ... عَـاشَ وَلَـمْ يُنْقَـلْ إِلَـىٰ قَـابِـرِ

فَأشارَ عليها أَخوهُ بالذَّهابِ ، فامتنعتْ ، وقالَت لَهُ : أَولىٰ لكَ أَنْ لاَ تفعلْ ، فأَلَحَّ عليها ، وبمجرَّدِ دخولِها علىٰ حُسينٍ . . ازدهرتْ عيناهُ ، كأَنَّهُما سِراجانِ ، واستأْذنَها أَنْ يضعَ رأْسَهُ علىٰ فخِذِها ، فَأَذِنَتْ ، ولِحينِ ما وضعَهُ فاضتْ نفسُهُ ، ولم ينفعْهُ ما سبقَ عنِ الأعشىٰ والمجنونِ ، بلْ كانَ الأَمرُ كما قالَ غيرُهُما : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَمَّـا رَأَتْنِـي فِـي السِّيَـاقِ تَعَطَّفَـتْ ... عَلَـيَّ وَعِنْـدِي مِـنْ تَعَطُّفِهَـا شُغْـلُ
أَتَـتْ وَحِيَـاضُ الْمَـوْتِ بَيْنِـي وَبَيْنَهَـا ... وَمَنَّـتْ بِـوَصْلٍ حِيـنَ لاَ يَنْفَـعُ الْـوَصْلُ

وقالَ جريرٌ [في « ديوانه » ٢/٦٦١] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا مَـا رَجَـا الظَّمْـآنُ وِرْدَ شَـرِيعَـةٍ ... ضَـرَبْـنَ حِيَـالَ الْمَـوْتِ دُونَ الشَّـرَائِـعِ

ثُمَّ حرَّكوها ، فإِذا هيَ يابسةٌ .

[ربما قتل الشيخ ابن زامل في هـٰذا الطريق]

واختلفتِ الروايةُ عَنِ الشيخِ عليِّ بنِ زاملٍ باجرَيٍّ : فقدْ ذُكِرَ موتُهُ وموتُ محبوبتِهِ في تلكَ السبيلِ . والأُخرىٰ : أَنَّ العوامرَ قتلوهُ ، ولمَّا لُفَّ في مِلحفتِهِ . . أَصابتْها شرارةٌ ، فاشتعلتْ ناراً ، واحترقَ ، ومِنَ القصَّةِ تَعرِفُ ما كانَ عليهِ القومُ مِنَ الشهامةِ ، وكرمِ الطباعِ .

[عاشقة ابن عمها كيف تموت]

وبها ذكرتُ ما رويَ عن سعيدِ بنِ عبدِ اللهِ : أَنَّ فتاةً مِنَ العربِ عَلِقَتْ بابنِ عمٍّ لها عاقلٍ ، أَديبٍ ، فجعلتْ تُكثِرُ الاختلافَ عليهِ ، حَتَّىٰ خَلا لها وجهُهُ ، فتعرَّضتَ لهُ ، فصرفَها ، فتغيَّرَ حالُها ، واعتلَّتْ ، ولم يزلْ بها المرضُ حتَّىٰ سقطَتْ على الفراشِ ، فأَخبرتهُ أُمُّهُ بشأنِها ، فقالَ : عُوديها ، وقُولي لها : ما شأنُكِ ؟ فقالتْ : وَجَعٌ في فؤادي ، هوَ أَصلُ العلَّةِ ، قالتْ : فإِنَّ ابني يسأَلُكِ عنها ، فتنفَّستْ ، وقالتْ : [مِنَ الطويل]

يُسَـائِلُنِـي عَـنْ عِلَّتِـي وَهْـوَ عِلَّتِـي ... عَجِيـبٌ مِـنَ الأَنْبَـاءِ جَـاءَ بِـهِ الـدَّهْـرُ

فأَخبرتهُ بحالِها ومقالِها ، فقالَ : أَتحبُّ أَنْ أَصيرَ إِليها ، أَو تصيرَ إِليَّ ، فعرضتْ عليها ذلكَ أُمُّهُ ، فقالتْ : [مِنَ الطويل]

وَيُبْعِـدُنِـي عَـنْ قُـرْبِـهِ وَلِقَـائِـهِ ... فَلَمَّـا أَذَابَ الْجِسْـمَ مِنِّـي تَعَطَّفَـا
فَلَسْـتُ بِـآتٍ مَـوْضِعـاً فِيـهِ قَـاتِلِـي ... بِحَسْبِـي سِقَـامـاً أَنْ أَمُـوتَ تَلَهُّفَـا

ولمْ تزلْ لِما بها حتَّىٰ ماتتْ .

[يخرج روحه من نفسه ليعطيها لصديقه]

ومنها : ما بلغني أَنَّ اثنينِ مِنَ الحُمومِ[1] ، كانَ بينَهُما وِدٌّ وإخاءٌ ، فزارَ أَحدُهُما الآخرَ مرَّةً علىٰ بُعدِ الدارِ ، وشَحْطِ المزارِ ، وعليهِ آثارُ الضنىٰ ، فسأَلَهُ عمَّا بهِ فكتمَ ، حتَّىٰ أَلحَّ عليهِ ، فقالَ : إِنِّي استعرضتُ النساءَ في قَدمتي الأُولىٰ عليكَ ، فافتتنتُ بواحدةٍ منهنَّ ، صيَّرني هواها إِلىٰ ما رأَيتَ ، قالَ : هلْ تعرفُها لو رأيتَها ؟ قالَ : نَعَمْ ، فمرَّ بهِ على النساءِ ، فأَشارَ إِليها ، فقالَ لهُ : طِبْ نفساً عنها ، وقَرَّ عيناً بزواجِها ، ولم يزلْ يُعلِّلُهُ ، ويستمهِلُهُ ، حتَّىٰ أَعرسَ لهُ بها ، وزفَّها إِليهِ ، ولمَّا احتملَها إِلىٰ قومِهِ . أَخبرتْهُ أَنَّها كانتْ زوجةَ صاحبِهِ ، وأَنَّهُ كانَ مُحبّاً لها ، ولم يطلِّقْها إِلاَّ إِيثاراً لهواهُ ، فسُقِطَ في يدِهِ[2] ، وأَعظمَ الأَمرَ ، وشاءَ أَنْ يطلِّقها ، لولا أَنَّها اشتملَتْ منهُ علىٰ ولدٍ ، وأَيقنَ بالهلاكِ إِنْ هوَ فارقَها ، ثُمَّ زارَ صاحبَهُ بإِثرِ ذلكَ ، فأَلفاهُ رهينَ الفراشِ ، فسأَلَهُ عَن علَّتِهِ ، وهلْ لها مِن دواءٍ ؟! فقالَ : لقدِ استوصفتُ الأَطباءَ مِنْ أَهلِ باديتِنا ، وكلُّهم أَشارَ عليَّ بما لا يمكنُ وجودُهُ ، قالَ : ما هوَ ؟ قالَ : دمُ طفلٍ يكونُ وحيدَ أَبويهِ يذبحانِهِ بأَيديهما ، فلمَّا رجعَ إِلى امرأَتِهِ . قالَ لها : قدْ علمتِ ما أَثقلني بهِ صاحبي مِنَ المِنَّةِ ، وأَقدرني اللهُ علىٰ مكافأَتِهِ ، وشرحَ لها الحديثَ ، فذهبا بالولدِ ، ولمَّا قابلا الرجلَ . ذبحاهُ ، وأَفرغا عليهِ دمَهُ ، كما وصفَ لهُ الأَطباءُ في العلاجِ ، فتماثلَ ، ثُمَّ برأَ .

هـٰذا ما حدَّثني بهِ جماعةٌ مِنَ العوامرِ والحمومِ ، واللهُ أَعلمُ بحقيقةِ الحالِ . ولا شكَّ أَنَّهُ مِنَ النكارةِ والأُشنوعةِ والفظاعةِ بالدرجةِ الفاحشةِ ، ولكنْ للوفاءِ هِزَّةٌ مِنْ حيثُ كانَ ، فلا حرجَ أَنْ أُعجبنا بهِ مِنْ هـٰذهِ الجهةِ ، كما قرَّرناهُ عندَ ذكرِ مقتلِ أَبي جهلِ بنِ هشامٍ ، مِنْ كتابنا : « **بلابلُ التغريدِ** » .

[هل أنت تذبح ابنك لتشفي خراج الملك ؟!!]

وشبيهٌ بهـٰذهِ مِنْ ناحيةٍ : ما رأَيتُهُ في بعضِ الكتبِ : أَنَّ ملكاً ظهرَ فيهِ خُرَّاجٌ أَعيى الأَطباءَ علاجُهُ ، حتَّىٰ جاءَهُ أَحدُ النصَّابينَ منهُم ، فقالَ : لا يفيدُ فيهِ إِلاَّ دمُ صبيٍّ بلغَ العاشرةَ ، يذبحُهُ أَبواهُ بينَ يديكَ ، بحيثُ يقعُ دمُهُ على الخُرَّاجِ ، واتَّفقَ أَنَّ رجلاً كلَّما بلغَ أَحدُ أَبنائِهِ العاشرةَ . هلكَ ، وكانَ لهُ ابنٌ علىٰ رأسِها ، فلمَّا سمعَ بما جعلَهُ الملكُ مِنَ المالِ الجزيلِ لِمَنْ يبذُلُ ولدَهُ في هـٰذي السبيلِ . قالَ لامرأَتِهِ : قدْ علمتِ مِنَ العادةِ التي لا تتخلَّفُ أَنَّ هـٰذا الولدَ لا بُدَّ أَنْ يموتَ عَمَّا قليلٍ ، فلأَنْ نربحَ بهِ هـٰذهِ الثروةَ الضخمةَ . خيرٌ لنا مِنْ أَنْ يذهبَ ضياعاً ، فوافقتْهُ ، وتقدَّما بهِ إِلى الملكِ ، ولمَّا اعتزما ذبحَهُ بينَ يديهِ . ضحِكَ الصبيُّ ، فقالَ لهُ المَلِكُ : ممَّ تضحَكُ علىٰ ما أَنتَ فيهِ ؟ فقالَ : إِنَّ أَحنَّ الناسِ على الصبيِّ أَبوهُ وأُمُّهُ وسلطانُهُ ، وإِذا كانَ الثلاثةُ يرتكبونَ منِّي هـٰذا الأَمرَ الذي تقشعرُّ منهُ الأَبدانُ . . فكيفَ يرحمُهُم جبَّارُ السماءِ ؟! فارتاعَ الملكُ لقولِهِ ، وانفجرَ جرحُهُ ، وأَمرَ بالكفِّ عنهُ ، ودَفَعَ لهُمُ المالَ ، وعاشَ الولدُ ، وعوفيَ الملكُ ، والعهدةُ على الراوي .

[أرىٰ جسداً عليلاً وعينين صحيحتين]

ويتَّصلُ بحديثِ الحُمومِيِّ : ما ذكرَهُ عبدُ الملكِ بنُ عُميرٍ ، قالَ : كانَ أَخوانِ في ثقيفٍ مِنْ بني كُنَّةَ ، بينَهُما مِنَ الوُدِّ ما لا يعلمُهُ إِلاَّ اللهُ ، كلٌّ منهُما يرى الآخرَ عِدْلَ نفسِهِ ، فاتَّفقَ أَنْ سافرَ الأَكبرُ ، واعتمدَ على الأَصغرِ في حفظِ تركتِهِ ،

---

(١) قبيلةٌ مِنْ قبائلِ (حضرموتَ) .

(٢) سُقِطَ في يدِهِ : ندمَ .



وقضاءِ حاجةِ أَهلِهِ ، فبينا هوَ في دارِ أَخيهِ . . إذ مرَّتْ زوجُهُ ـ وكانتْ مِنْ أَجملِ البشرِ ـ فوقعَ في قلبهِ حبُّها ، وجعلَ لونُهُ يتغيَّرُ ، وجسمُهُ يذوبُ ، حتَّىٰ قدِمَ أَخوهُ ، فسأَلَهُ عن حالِهِ ، فقالَ : لا شيءَ ، فدعا لهُ الأَطباءَ ، فعَيَوا بأَمرِهِ ، ما سِوى الحارثِ بنِ كَلَدَةَ ؛ فإِنَّهُ قالَ : أَرىٰ عينينِ صحيحتينِ ، وما أَرىٰ ما بهِ إلاَّ مِنَ العشقِ ، وسأَسقيهِ شراباً ، وسَيبِينُ إنْ كانَ عاشقاً ، فجعلَ يسقيهِ ، فلمَّا أَخذَهُ الشرابُ . . اهتاجَ ، واستهلَّ بأَبياتٍ تدُلُّ علىٰ صدقِ ما تفرَّسَهُ الحارثُ ، غيرَ أَنَّهُ أَجملَ ، ولم يعيِّنْ ، فقالَ لهُ الأَخُ : أَنتَ طبيبُ العربِ ، فما الحيلةُ في التعيينِ ، حتَّىٰ نقضيَ غرضَهُ ؟ قالَ : سَأُعيدُ عليهِ الشرابَ ، حَتَّىٰ يُسَمِّيَ ، فلمْ يزلْ يكرِّرُهُ عليهِ ، حتَّىٰ سمَّى المرأَةَ ، فطلَّقَها أَخوهُ ليتزوَّجَها ، فقالَ المريضُ : عليَّ كذا وكذا إنْ تزوَّجتُها ، ولم يزلْ حتَّىٰ قضىٰ قتيلَ الغرامِ(١) .

[المتنبي والرمادي]

وخاتمةُ المجلس : أَنَّ لبيتِ الناظمِ الذي نحنُ بسبيلِهِ . . **قصَّةً حاصلُها** : أَنَّهُ لمَّا سمعَ بقولِ الرماديِّ يمدحُ أَبا عليٍّ القاليَّ [في « ديوانه » ١١١] : [مِنَ الكامل]

فِـي أَيِّ جَـارِحَـةٍ أَصُـونُ مُعَـذِّبِـي ... سَلِمَـتْ عَـنِ التَّعْـذِيـبِ وَالتَّنْكِيـلِ

. . قالَ : إنْ سلمَ منْ داءِ الحَلاَقِ . . فليجعلْهُ في استِهِ(٢) . فانتهتْ مقالتُهُ للرماديِّ ، وكانَ قد سمعَ **بقولِهِ** [مِنَ البسيطِ] :

كَفَـىٰ بِجِسْمِـي نُحُـولاً أَنَّنِـي رَجُـلٌ ... [لَـوْلاَ مُخَـاطَبَتِـي إِيَّـاكَ لَـمْ تَـرَنِـي]

فقالَ : ما أَشبهُ حينئذٍ بالضرطةِ ، فإِنَّها تُسمعُ ولا تُرىٰ ، والبيتانِ صحيحانِ ، غيرَ أَنَّ مَنْ تكلَّفَ الانتقادَ . . لم يَعْوَزْ إليهِ الطريقَ ، إمَّا سهلاً وإِمَّا وَعْراً ، إمَّا سَميناً وإِمَّا غثّاً ، كصنيعِ الرَّجُلينِ في البيتينِ ، وقدْ يكونُ الرماديُّ إنَّما انتقدَ قولَ الناظمِ الآتي عن قريبٍ وهوَ : [مِنَ البسيط]

وَضَـاقَـتِ الأَرْضُ حَتَّـىٰ صَـارَ هَـارِبُهُـمْ ... إِذَا رَأَىٰ غَيْـرَ شَـيْءٍ ظَنَّـهُ رَجُـلاَ

والأَوَّلُ أَشبَهُ ، والحفظُ يخونُ ، واللَّفظُ يزيدُ وينقصُ .

واللهُ أَعلمُ

* * *

---

(١) « المستقصىٰ في أمثال العرب » (١/٣٩) .

(٢) **الحَلاقُ** : المنيَّةُ .



المجلس الثاني

[قالَ أَبو الطيِّب المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٩٤] : [مِنَ المنْسَرِح]

أَهْــلاً بِـــدَارٍ سَبَــاكَ أَغْيَــدُهَــا   أَبْعَــدَ مَــا بَــانَ عَنْــكَ خُــرَّدُهَــا[1]

[عادة الشعراء البكاء على الأطلال]

جرتْ عادةُ الشعراءِ بالسلامِ علىٰ ديارِ الأَحبابِ ، والدعاءِ لآثارِهم بالسُّقيا ، وما أَشبهَ ذلِكَ ، فقالَ امرؤُ القيسِ [في « ديوانه »] : [مِنَ الطويل]

أَلاَ عِـمْ صَبَـاحـاً أَيُّهَـا الطَّلَـلُ الْبَـالِـي   [وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِي العُصُرِ الْخَالِي]

وقالَ القُطاميُّ [في « ديوانه » ٢٣] : [مِنَ البسيط]

إِنَّـا مُحَيُّـوكَ فَـاسْلَـمْ أَيُّهَـا الطَّلَـلُ   وَإِنْ بَلِيـتَ وَإِنْ طَـالَـتْ بِـكَ الطِّيَـلُ

[اقتداء المتنبي بهم]

وقدْ أَحبَّ الناظِمُ أَنْ يَتسمَّتَ آثارَهُم ، كما في قولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٥٦] : [مِنَ الطويل]

فَـدَيْنَـاكَ مِـنْ رَبْـعٍ وَإِنْ زِدْتَنَـا كَـرْبَـا   فَـإِنَّـكَ كُنْـتَ الشَّـرْقَ لِلشَّمْـسِ وَالْغَـرْبَـا

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٧٧] : [مِنَ البسيط]

فَعِـمْ صَبَـاحـاً لَقَـدْ هَيَّجْـتَ لِـي شَجَنـاً   وَارْدُدْ تَحِيَّتَنَــا إِنَّــا مُحَيُّــوكَــا[2]

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٣٦] : [مِنَ البسيط]

فَمَــا أَمُــرُّ بِــرَسْــمٍ لاَ أُسَـائِلُــهُ   وَلاَ بِـذَاتِ خِمَـارٍ لاَ تُـرِيـقُ دَمِـي

[مخالفته لهم]

غيرَ أَنَّهُ غايرَهُم في قولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٤٩ـ٢٥٠] : [مِنَ الوافر]

مُلِــثَّ الْقَطْــرِ أَعْطِشْهَــا رُبُــوعَــا   وَإِلاَّ فَــاسْقِهَــا السُّــمَّ النَّجِيعَــا[3]

أُسَــائِلُهَــا عَــنِ الْمُتَــدَيِّـرِيهَــا   فَــلاَ تَــدْرِي وَلاَ تُــذْرِي دُمُــوعَــا[4]

---

(١) الأغيَدُ : الناعم .

(٢) عِم صباحاً : كلمةُ تحيَّةٍ . وفي « الديوان » : (طَرَباً) : بدل (شَجَناً) .

(٣) في « الديوان » و« العكبري » : (السُّمَّ النَّقِيعَا) بدل (السُّمَ النَّجيعَا) . المُلِثُّ : الدائم المقيم . النجيعُ ، يُقالُ : نَجَعَ فيه الدواءُ وأَنجعَ : إذا عَمِلَ .

(٤) المُتَدَيِّرِيها : أي متَّخذيها داراً ، والأَصلُ : المتديرينَ فيها ، فأَضافَ إلى الضميرِ .

ولقد بالغَ المعرّيُّ في قولِهِ [في « سقطِ الزندِ » ١٩٦] : [مِنَ الطويل]

تَحِيَّـــةُ كِسْـرَىٰ فِـــي السَّنَـــاءِ وَتُبَّـــعِ ... لِـــرَبْعِـــكَ لاَ أَرْضَـــىٰ تَحِيَّـــةَ أَرْبُـــعِ[1]

[شرح المطلع]

والناظِمُ في البيتِ الذي نتكلَّمُ عليهِ يدعو للدارِ بأَنْ تكونَ مأهولةً ، وكانَ الواجبُ أَنْ يقولَ : (أَهْلاً لِدَارِ) ؛ لِيَتَّضِحَ معنى الدعاءِ للدارِ ؛ لأَنَّ مِنْ معاني (**اللامِ**) بيانَ المدعوِّ لهُ ، كما في قولِهِم : (سَقْياً لَهُ) .

أَمَّا (**الباءُ**) : فلا معنىٰ لها ، وإِنْ تكلَّفَ الشارحُ في تأويلِها .

وأَمَّا قولُهُ : (**أَبْعَدَ مَا بَانَ عَنْكَ خُرَّدُهَا**) . . فـ (**الخُرَّدُ**) : جمع خَريدةٍ ، وهيَ البِكرُ التي لَمْ تُمَسَّ . و (**أَبْعَدَ**) : أَفعَلُ تفضيلٍ .

[صيانة المرأة عند العرب]

ومعناه : أَنَّ أَهلَ الدارِ قد بَعُدوا كلُّهم ، غيرَ أَنَّ الخُرَّدَ أَبعَدُ . ثُمَّ لا يخلو أَنْ يُريدَ وصفَهُم بالبُعدِ حالَ الإقامةِ ، وفيهِ نظرٌ ؛ لأَنَّ وصفَ الرجالِ بالبُعدِ قد يُفهَمُ منهُ الإشارةُ إِلىٰ تَحِلِّهِم[2] ، أَو حالَ الارتحالِ ، وهوَ حينئذٍ ظاهِرٌ ؛ لأَنَّهُم وإِنْ تحمَّلوا معاً ، فأَوَّلُ مَنْ يُقدَّمُ النساءُ ، ثُمَّ يزدنَ بُعداً بالغَيرةِ والصيانةِ ، وكثيراً ما يوجدُ ذِكرُ بُعدِهِنَّ في أَفانينِ القولِ ، كما هوَ مُكرَّرٌ في « **ديوانِهِ** » منهُ **قولُهُ** [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٢٥] : [مِنَ الكامل]

سِـرْبٌ مَحَـاسِنُـهُ حُـرِمْـتُ ذَوَاتِهَـا ... دَانِـي الصِّفَـاتِ بَعِيـدُ مَـوْصُـوفَـاتِهَـا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ١١١] : [مِنَ الطويل]

دِيَـارُ اللَّـوَاتِـي دَارُهُـنَّ عَـزِيـزَةٌ ... بِطُـولِ الْقَنَـا يُحْفَظْـنَ لاَ بِـالتَّمَـائِمِ[3]

[قريب المرأىٰ بعيد المنال]

وهوَ مِنْ قولِ الطِّرِمَّاحِ [في « ديوانِهِ » ٣٥٠] : [مِنَ الطويل]

وَمَـا مُنِعَـتْ دَارٌ وَلاَ عَـزَّ أَهْلُهَـا ... مِـنَ النَّـاسِ إِلاَّ بِـالْقَنَـا وَالْقَنَـابِـلِ[4]

وقولُهُ ـ أَعني الناظِمَ ـ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١١١] : [مِنَ البسيط]

بَيْضَـاءَ تُطْمِـعُ فِيمَـا تَحْـتَ حُلَّتِهَـا ... وَعَـزَّ ذَلِـكَ مَطْلُـوبـاً إِذَا طُلِبَـا

كَـأَنَّهَـا الشَّمْـسُ يُعْيِـي كَـفَّ قَـابِضِـهِ ... شُعَـاعُهَـا وَيَـرَاهُ الطَّـرْفُ مُقْتَـرِبَـا

[تكرار هٰذا المعنىٰ عند الشعراء]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٧٥] : [مِنَ البسيط]

مَتَـىٰ تَـزُرْ قَـوْمَ مَـنْ تَهْـوَىٰ زِيَـارَتَهَـا ... لاَ يُتْحِفُـوكَ بِغَيْـرِ الْبِيـضِ وَالأَسَـلِ

---

(١) السناءُ : الرفعةُ . تُبَّعُ : مِنْ ملوكِ اليمنِ ، جمعُهُ تَبَابِعَةٌ : سُمُّوا بذلِكَ ؛ لأَنَّهُ يتبعُ بعضُهم بعضاً ، كلَّما هلكَ واحدٌ . . قامَ مَقامَهُ آخر متابعاً لَهُ علىٰ مثلِ سيرتِهِ . وتُبَّعٍ معطوفٌ علىٰ كسرىٰ ، أي تحيةُ كسرىٰ وتُبَّعٍ . لِرَبْعِكَ .

(٢) التَّحِلَّةُ : الإقامة .

(٣) في « الديوان » : (بِطُولَىٰ) بدل (بطُولِ) ، وهو مؤنث أطول ، من إضافة الصفة إلى الموصوف .

(٤) القنابلُ ـ جمعُ قَنْبَلَةٍ ـ : وهي الطائفةُ مِنَ الناسِ ومِنَ الخيلِ ، قيلَ : ما بينَ الثلاثينَ إلى الأربعينَ .

وقالَ كُثيِّرٌ [في « ديوانه » ٩٧] : [مِنَ الطويل]

كَـأَنِّـي أُنَـادِي صَخْـرَةً حِيـنَ أَعْـرَضَـتْ ... مِنَ الصُّـمِّ لَـوْ تَمْشِي بِهَـا الْعُصْـمُ زَلَّتِ(١)

وقالَ الطِّرِمَّاحُ [في « ديوانه » ٤٣٥] : [مِنَ الطويل]

تَـرَاهَـا عُيُـونُ النَّـاظِـرِيـنَ إِذَا بَـدَتْ ... قَـرِيبـاً وَلاَ يَسْطِيعُهَـا مَـنْ يَـرُومُهَـا

وقالَ ابنُ الأَحنفِ [في « ديوانه » ٢٢١] : [مِنَ المتقارب]

هِـيَ الشَّمْـسُ مَسْكَنُهَـا فِـي السَّمَـا ... فَعَـــزِّ الْفُـــؤَادَ عَـــزَاءً جَمِيـــلاً

وقالَ ابنُ عُيينةَ : [مِنَ الطويل]

فَقُلْتُ لأَصْحَابِي : هِيَ الشَّمْسُ ضَوْؤُهَا ... قَـرِيـبٌ وَلَـكِـنْ فِـي تَنَـاوُلِهَـا بُعْـدُ

ولا يخرجُ عنهُ قولُ جريرٍ : [مِنَ الكامل]

حُـورٌ حَـرَائِـرُ مَـا هَمَمْـنَ بِـرِيبَـةٍ ... كَظِبَـاءِ مَكَّـةَ صَيْـدُهُـنَّ حَـرَامُ

يُحْسَبْـنَ مِـنْ لِيـنِ الْحَدِيـثِ زَوَانِيـاً ... وَيَصُـدُّهُـنَّ عَـنِ الْخَنَـا الإِسْـلاَمُ

وما أَحسنَ قولَهُ معَ نظرِهِ إِلىٰ ما نحنُ فيهِ مِنْ قريبٍ : [مِنَ الطويل]

وَأَدْنَيْتِنِـــي حَتَّـــىٰ إِذَا مَـــا سَبَيْتِنِـــي ... بِقَـوْلٍ يُحِـلُّ الْعُصْـمَ سَهْـلَ الأَبَـاطِـحِ

تَجَـافَيْـتِ عَنِّـي حِيـنَ لاَ لِـيَ حِيلَـةٌ ... وَخَلَّفْـتِ مَـا خَلَّفْـتِ بَيْـنَ الْجَـوَانِـحِ

وفيهِ نَظَرَ إِلىٰ قولِهِ جَلَّ شأنُهُ : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ ﴾ [الحشر : ١٦] .

وفي معناهُ قولُ امرأَةِ ابنِ الدُّمَيْنَةِ [في « ديوانه » ٤٢] : [مِنَ الطويل]

وَأَنْـتَ الَّـذِي أَخْلَفْتَنِـي مَـا وَعَـدْتَنِـي ... وَأَشْمَـتَّ بِـي مَـنْ كَـانَ فِيـكَ يَلُـومُ

وَأَبْـرَزْتَنِـي لِلنَّـاسِ ثُـمَّ تَـرَكْتَنِـي ... لَهُـمْ غَـرَضـاً أُرْمَـىٰ وَأَنْـتَ سَلِيـمُ

فَلَـوْ أَنَّ قَـوْلاً يَكْلِـمُ الْجِسْـمَ قَـدْ بَـدَا ... بِجِسْمِـيَ مِـنْ قَـوْلِ الْـوُشَـاةِ كُلُـومُ

وقالَ العبَّاسُ بنُ الأَحنفِ [في « ديوانه » ٨٤] : [مِنَ البسيط]

أَبْكِـي الَّـذِيـنَ أَذَاقُـونِـي مَـوَدَّتَهُـمْ ... حَتَّـىٰ إِذَا أَيْقَظُـونِـي لِلْهَـوَىٰ رَقَـدُوا

وَاسْتَنْهَضُـونِـي فَلَمَّـا قُمْـتُ مُنْتَصِبـاً ... بِثِقْـلِ مَـا حَمَّلُـونِـي عَنْهُـمُ قَعَـدُوا

[لقاءٌ وعتاب]

وقالَ بعضُهُم [في « الأغاني » ٢/٥٣] : بينا أَنا وصديقٌ لي مِنْ قريشٍ . . إِذا بظِلِّ نسوةٍ في القمرِ ، فسمعتُ واحدةً تقولُ : أَهوَ هوَ ؟ فقالتِ الأُخرىٰ : نعَم ، فدنت منِّي ، وقالت : قُل لصاحبِكَ : [مِنَ البسيط]

لَيْسَـتْ لَيَـالِيـكَ فِـي خَـاخٍ بِعَـائِـدَةٍ ... كَمَـا عَهِـدْتَ وَلاَ أَيَّـامُ ذِي سَلَـمِ(٢)

---

(١) الصُّمُّ : جمعُ صَمَّاءَ ، وهيَ الصخرةُ الصلبةُ . العُصْمُ ـ جمعُ أَعصمَ ـ : والأَعصمُ مِنَ الظباءِ والوعولِ : الذي في ذراعيهِ بياضٌ .

(٢) خاخٌ : اسمُ مَوْضِعٍ بينَ الحرمينِ .

فلم يَحِرْ جواباً ، فقلتُ عنهُ : [مِنَ الطويل]

فَقُلْـتُ لَهَـا : يَـا عَـزُّ كُـلُّ مُصِيبَـةٍ ... إِذَا وُطِّنَـتْ يَـوْمـاً لَهَـا النَّفْـسُ ذَلَّـتِ

فدعتني إلىٰ بيتِها ، وقالت : ما أفظَّ جوابَكَ ، وبكت ، وشكت ما أضرَّ بها مِنْ هوىٰ صاحبي ، فدعوتُهُ لها ، فعاتبَتْهُ طويلاً ، ثُمَّ تمثَّلَت بأبياتِ امرأةِ ابنِ الدُّمَيْنَةِ ، ثُمَّ سكتت ، فقالَ الفتىٰ : [مِنَ الطويل]

غَـدَرْتِ وَلَـمْ أَغْـدُرْ وَخُنْتِ وَلَـمْ أَخُـنْ ... وَفِـي دُونِ هَـٰـذَا لِلْمُحِـبِّ عَـزَاءُ
جَـزَيْتُـكِ ضِعْـفَ الْـوُدِّ ثُـمَّ صَـرَمْتِنِـي ... فَحُبُّـكِ فِـي قَلْبِـي أَذىً وَشَقَـاءُ

فقالَتْ : [مِنَ الطويل]

تَجَاهَلْتَ وَصْلِي حِينَ لَجَّتْ عَمَايَتِي ... فَهَـلاَّ صَـرَمْـتَ الْحَبْـلَ إِذْ أَنَـا مُبْصِـرُ
وَلِي مِـنْ قُـوَى الْحَبْلِ الَّـذِي قَدْ قَطَعْتَهُ ... نَصِيـبٌ وَإِذْ رَأْيِـي جَمِيـعٌ مُـوَفَّـرُ
وَلَـٰكِنَّمَـا آذَنْـتَ بِـالْهَجْـرِ بَغْتَـةً ... وَلَسْـتُ عَلَـىٰ مِثْـلِ الَّـذِي جِئْـتَ أَقْـدِرُ

فقالَ الفتىٰ : [مِنَ الطويل]

لَقَـدْ جَعَلَـتْ نَفْسِـي ـ وَأَنْتِ اجْتَـرَمْتِـهِ ... وَكُنْـتِ أَحَـبَّ النَّـاسِ ـ عَنْـكِ تَطِيـبُ[1]

فبكت ، ثُمَّ قالت : أما وقد جعلتْ نفسُكَ تطيبُ . . فما فيكَ بعدَها خيرٌ ، والسلامُ .

وقالَ قيسُ بنُ المُلَوَّحِ [في « ديوانه »] : [مِنَ الطويل]

وَمَنَّيْتِنِـي حَتَّـىٰ إِذَا مَـا رَأَيْتِنِـي ... عَلَـىٰ شَـرَفٍ لِلنَّـاظِـرِيـنَ قَـرِيـبِ
صَـدَدْتِ وَأَشْمَـتِّ الْعَـدُوَّ بِقُـرْبِنَـا ... أَثَـابَـكِ يَـا لَيْلَـى الْجَـزَاءَ مُثِيـبِي

[ما أصعب الفطام بعد الرضاع]

وممّا يُنسبُ إلىٰ سيفِ الدولةِ قولُهُ [« في ديوانه »] : [مِنَ الطويل]

تَجَنَّـىٰ عَلَـيَّ الـذَّنْـبَ وَالـذَّنْـبُ ذَنْبُـهُ ... وَعَـاتَبَنِـي ظُلْمـاً وَفِـي شِقِّـهِ الْعَتْـبُ
وَأَعْـرَضَ لَمَّـا صَـارَ قَلْبِـي بِكَفِّـهِ ... فَهَـلاَّ جَفَـانِي حِيـنَ كَـانَ لِـيَ الْقَلْـبُ

[الباذلات المانعات]

وَأَنشدَ الأَصمعيُّ لِبعضِ الأعرابِ : [مِنَ الطويل]

ومُسْتَخْفِيَـاتٍ لَيْـسَ يَخْفَيْـنَ زُرْنَنَـا ... يُسَحِّبْـنَ أَذْيَـالَ الصَّبَـابَـةِ وَالـدَّلِّ
جَمَعْـنَ الْهَـوَىٰ حَتَّـىٰ إِذَا مَـا مَلَكْنَـهُ ... نَـزَعْـنَ وَقَـدْ أَكْثَـرْنَ فِينَـا مِـنَ الْقَتْـلِ
مَرِيضَاتِ رَجْعِ الطَّرْفِ خُرْسٍ عَنِ الْخَنَا ... تَـأَلَّفْـنَ أَهْـوَاءَ الْقُلُـوبِ بِـلاَ بَـذْلِ
مَـوَارِقَ مِـنْ خَتْـلِ الْمُحِـبِّ عَـوَاطِـفٍ ... بِقَتْـلِ أُولِـي الأَلْبَـابِ بِـالْجِـدِّ وَالْهَـزْلِ[2]

---

(١) اجترمَ : قطعَ .

(٢) يقال : مرقَ السهمُ من الرميةِ : إذا نفَذَ إلى الجانبِ الآخرِ .

يُعَنِّفُنِي الْعُذَّالُ فِيهِنَّ ، وَالْهَوَىٰ يُحَذِّرُنِي مِنْ أَنْ أُطِيعَ ذَوِي الْعَذْلِ

وقالَ المجنونُ [في « ديوانهِ » ١٨٣] : [مِنَ الطويل]

يُعَرِّضْنَ بِالدَّلِّ الْمَلِيحِ وَإِنْ يُرِدْ جَنَاهُنَّ مَشْغُوفٌ فَهُنَّ مَوَانِعُ

وقالَ ابنُ ميَّادةَ [في « ديوانه » ١٦٣-١٦٤] : [مِنَ الطويل]

مَوَانِعُ لاَ يُعْطِينَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ وَهُنَّ دَوَانٍ فِي الْحَدِيثِ أَوَانِسُ
وَيَكْرَهْنَ أَنْ يَسْمَعْنَ فِي اللَّهْوِ رِيبَةً كَمَا كَرِهَتْ صَوْتَ اللِّجَامِ الشَّوَامِسُ (١)

[الكانزات الباخلات]

وأَملىٰ أَبو بكرٍ الأَنباريُّ في بعضِ مجالِسهِ أَبياتاً في بحرِها ، وقافيتِها ، وبعضِ معناها ، وهيَ :

وَبِالْقَرْيَةِ الْبَيْضَاءِ إِنْ زُرْتَ أَهْلَهَا مَهاً مُهْمَلاَتٍ مَا عَلَيْهِنَّ سَائِسُ
خَرَجْنَ لِحُبِّ الرَّيْبِ مِنْ غَيْرِ رِيبَةٍ عَفَائِفُ بَاغِي اللَّهْوِ مِنْهُنَّ آيِسُ

[عمر بن أبي ربيعة وعبد الملك بن مروان]

ويروىٰ : أَنَّ عبدَ المَلِكِ بنَ مروانَ استقبلَ عُمرَ بنَ أَبي ربيعةَ ، فقالَ لهُ : لقد عَلِمَتْ قريشٌ أَنَّكَ أَطولُها صبوةً ، وأَبعدُها توبةً ، أَمَا لَكَ في نساءِ قريشٍ ما يكفيكَ عن نساءِ بني عبدِ مَنافٍ ؟ أَلستَ القائِلَ [كما في « ديوانهِ » ٢٠٧-٢٠٨] :

[مِنَ الطويل]

نَظَرْتُ إِلَيْهَا بِالْمُحَصَّبِ مِنْ مِنىً وَلِي نَظَرٌ ـ لَوْلاَ التَّحَرُّجُ ـ عَارِمُ (٢)
فَقُلْتُ : أَصُبْحٌ أَمْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ بَدَتْ لَكَ خَلْفَ السِّجْفِ أَمْ أَنْتَ حَالِمُ (٣)
بَعِيدَةُ مَهْوَى الْقُرْطِ إِمَّا لِنَوْفَلٍ أَبُوهَا وَإِمَّا عَبْدُ شَمْسٍ وَهَاشِمُ (٤)

فقالَ : يا أَميرَ المؤمنينَ ، إِنَّ بعدَ هـٰذا قولي [كما في « ديوانهِ » ٢٠٩] : [مِنَ الطويل]

طَلَبْنَ الْهَوَىٰ حَتَّىٰ إِذَا مَا وَجَدْنَهُ صَدَرْنَ وَهُنَّ الْمُسْلِمَاتُ الْكَرَائِمُ

فاستحيا منهُ عبدُ المَلِكِ ، ووصلَهُ ، وقضىٰ حوائجَهُ .

[الكاسيات العاريات]

وقالَ آخرُ في المعنىٰ : [مِنَ الطويل]

تَعَطَّلْنَ إِلاَّ مِنْ مَحَاسِنِ أَوْجُهٍ فَهُنَّ حَوَالٍ فِي الصِّفَاتِ عَوَاطِلُ (٥)
كَوَاسٍ عَوَارٍ صَامِتَاتٌ نَوَاطِقٌ بِعَفِّ كَلاَمٍ بَاخِلاَتٌ بَوَاذِلُ
بَرَزْنَ عَفَافاً وَاحْتَجَبْنَ تَسَتُّراً وَشِيبَ بِحَقِّ الْقَوْلِ مِنْهُنَّ بَاطِلُ
فَذُو الْحِلْمِ مُرْتَادٌ وَذُو الْجَهْلِ طَامِعٌ وَهُنَّ عَنِ الْفَحْشَاءِ حِيدٌ نَوَاكِلُ

---

(١) **الشوامس** : من شَمَسَ الفرس : إذا منع ظهرهُ .
(٢) **عارمٌ** : خارجٌ عن القصد .
(٣) **السِّجْفُ والسَّجْفُ** : السترُ .
(٤) **بعيدة مهوى القُرط** : كناية عن طول عنقها .
(٥) **حَوَالٍ** : صاحباتُ حليةٍ . **عواطلُ** : خاليات مِنَ الحلي .

ولَمْ ينسَ حظَّهُ البُحتريُّ مِنْ هـٰذا المعنىٰ ، في مثلِ قولِهِ [في « ديوانه » ١١٥٠] : [مِنَ الكامل]

مِـنْ كُـلِّ مُـرْهَفَـةِ الْقَـوَامِ غَـرِيـرَةٍ جُعِلَـتْ مَحَـاسِنُهَـا هَـوىً لِـلأَنْفُـسِ
تَبْــدُو بِعَطْفَــةِ مُطْمِــعٍ حَتَّــىٰ إِذَا شُغِـلَ الْخَلِـيُّ ثَنَـتْ بِصَـدَّةِ مُـؤْيِـسِ

[الكلام الحق]

ولكنَّ الباري عزَّ شأنُهُ يقولُ : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب : ٣٢] .

[إذا كنت ريحاً فقد واجهت إعصاراً]

وبَصُرَ بعضُهُم بامرأةٍ فتَّانةٍ علىٰ ضفَّةِ (الرُّصَافةِ) ، فقالَ : يَرحمُ اللهُ أَبا الجَهْمِ ، فقالت لَهُ : يَرْحمُ اللهُ أَبا العلاءِ .

أَرادَ : قولَ عليِّ بنِ الجَهْمِ [في « ديوانه » ٢٢٠] : [مِنَ الطويل]

عُيُـونُ الْمَهَـا بَيْـنَ الـرُّصَـافَـةِ وَالْجِسْـرِ جَلَبْنَ الْهَوَىٰ مِنْ حَيْثُ أَدْرِي وَلاَ أَدْرِي

وَأَرادتْ : قولَ أَبي العلاءِ ـ وهوَ موضعُ المناسبةِ ـ : [مِنَ الطويل]

فَيَـا دَارَهَـا بِـالْخَيْـفِ إِنَّ مَـزَارَهَـا قَـرِيـبٌ وَلَـكِـنْ دُونَ ذَلِـكَ أَهْـوَالُ

[أبو نواس يأكل الفتاة بعينيه ووقوعه في شر أعماله]

وذكرَ أَبو نُوَاسٍ : أَنَّ سماءً[1] أَصابتهُم في طريقِ الحجِّ ، فخرجَ يتنزَّهُ في بعضِ غياضِ العربِ ، حَتَّىٰ رُفِعَ لَهُ بيتٌ ، فإذا فيهِ عجوزٌ عندَها فتاةٌ مبرقعةٌ ، سحرَتْهُ بعينَيها النجلاوينِ[2] ، فاستسقاها الماءَ مرَّتينِ ، فقالتِ العجوزُ : [مِنَ الطويل]

هُمَـا اسْتَسْقَيَـا مَـاءً عَلَـىٰ غَيْـرِ ظَمْـأَةٍ لِيَسْتَمْتِعَـا بِـاللَّحْـظِ مِمَّـنْ سَقَـاهُمَـا

ـ ومِنْ هـٰذا أَخذَ البُرعيُّ قولَهُ [في « ديوانه » ١٢٢] : [مِنَ الكامل]

مَـا الْمَـاءُ مِـنْ طَلَبِـي وَلَـٰكِـنْ رُبَّمَـا مَـدَّتْ بِـهِ فَتَنَـالُ مِـنْ يَـدِهَـا يَـدِي ـ

فلمَّا رأَتْهُ العجوزُ يكادُ يأكلُ بعينِهِ الفتاةَ . . قالت : [مِنَ الطويل]

فَمَـا لَـكَ مِنْهَـا غَيْـرَ أَنَّـكَ نَـاكِـحٌ بِعَيْنَيْـكَ عَيْنَيْهَـا ، فَهَـلْ ذَاكَ نَـافِـعُ ؟

فقالَ : [مِنَ الطويل]

فَـإِنْ لَـمْ يَكُـنْ إِلاَّ تَعَلُّـلُ سَـاعَـةٍ قَلِيـلاً فَـإِنِّـي نَـافِـعٌ لِـي قَلِيلُهَـا

ولمَّا استباهُ لحظُها ، واستهواهُ لفظُها . . قالَ ـ يستطعمُها السُّفُورَ ـ : [مِنَ المتقارب]

إِذَا بَــارَكَ اللهُ فِــي مَلْبَــسٍ فَــلاَ بَــارَكَ اللهُ فِــي الْبُـرْقُـعِ
يُـرِيـكَ وُجُـوهَ الـدُّمَـىٰ غِـرَّةً وَيَكْشِـفُ عَـنْ مَنْظَـرٍ أَفْظَـعِ

---

(١) السماءُ هنا : المطرُ .
(٢) النَّجَلُ : سعةُ شَقِّ العينِ .

فنزعتْ بُرقُعَها ، فإذا وجهٌ يستحي القمرُ مِنْ جمالِهِ ، ذَكَرَ مِنْ حُسْنِهِ ما لا يحضرُني لفظُهُ ، فقالَ عندَ ذلِكَ : [مِنَ الطويل]

عَلَىٰ وَجْهِ مَيٍّ مَسْحَةٌ مِنْ مَلاَحَةٍ وَتَحْتَ الثِّيَابِ الْعَارُ لَوْ كَانَ بَادِيَا

فما كانَ منها إلاَّ أَنْ أخذَتْها هِزَّةٌ ، وخلعَتْ ما كانَ عليها مِنَ الثيابِ ، ووقفتْ عُريانةً ، قالَ : فإذا صدرٌ كأَنَّهُ صفيحةُ مَرمَرٍ ، فيهِ نَهدانِ كأَنَّهُما حُقًّا عاجٍ[1] ، ثُمَّ أَتىٰ في وصفِ أعضائِها ، بما ذهبَ عن حفظي أكثرُهُ ـ وهوَ موجودٌ في « ديوانه » ـ عندَ ذلِكَ قالَ : [مِنَ الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَاءَ يَخْبُثُ طَعْمُهُ وَإِنْ كَانَ لَوْنُ الْمَاءِ أَبْيَضَ صَافِيَا

فما كانَ منها إلاَّ أَنْ قطعَتْ أَملَهُ ، وزوَّدَتْهُ اليأسَ .

وبعقِبِ رجوعِهِم تعرَّضَ لها ، فألفاها بينَ أَربعٍ لا تنقصُ عنها واحدةٌ منهُنَّ في الحُسْنِ والجَمالِ ، فبقرَت لهُنَّ حديثها معهُ علىٰ مسمَعٍ منهُ ، فعاتبنَها في إعراضِها عنهُ ، معَ تعلُّقِهِ بهواها ، وقُلْنَ لها : ما يَضرُّكِ أَنْ تُنوِّليهِ ، وما معكِ إلاَّ مَنْ يسترُ عليكِ ؟! ولو أَنَّهُ عَلِقَ بإحدانا هواهُ . لَما كانَ لها أَنْ تُخيِّبَ رجاءَهُ ، فطمعَ فيها ، وواعدتْهُ إِلىٰ غارٍ ، دلَّتْهُ عليهِ ، فما هيَ إلاَّ ساعةٌ ، ودخلَ عليهِ عبدٌ أَسودُ ينعظُ بمثلِ ذراعِ البَكرِ[2] ، فولَّىٰ هارباً ، وما نجا فيما يقولُ إلاَّ بنفسِهِ بعدَ لأْيٍ ما ، وما أَحسبُهُ صادقاً في دعوى السلامةِ ، بلْ صرَّحَ ابنُ عبدِ ربِّهِ في « عِقْدِهِ »[3] بِعَدَمِها ، وما كانَ إلاَّ عُرضةَ ذلك ، ويا طالَما شَهَرَتْهُ عِنانُ وغيرُها بمثلِ ذلِكَ .

[قصة ذي الرمة ومي]

وبما أَنَّ جُلَّ أَشعارِ الحكايةِ مِنْ كلامِ ذِي الرُّمَّةِ . . فلا بُدَّ أَنَّ لَهُ قضيَّةً مِنْ نوعِها ، ثُمَّ رأَيتُ ابنَ خَلِّكانَ ذكرَها باختصارٍ[4] ، وذكرَ قولَهُ في البُرقعِ : [مِنَ الوافر]

جَزَى اللهُ الْبَرَاقِعَ مِنْ ثِيَابٍ عَنِ الْفِتْيَانِ شَرّاً مَا بَقِينَا
يُوَارِينَ الْمِلاَحَ فَلاَ نَرَاهَا وَيُخْفِينَ الْقِبَاحَ فَيَزْدَهِينَا

---

(١) الحُقُّ والحُقَّةُ ـ بالضم ـ : وعاءٌ منحوتٌ مِنَ الخشبِ والعاجِ وغيرِ ذلكَ ، ممَّا يصلحُ أَنْ ينحتَ منهُ .

(٢) ينعظُ بمثلِ ذراعِ البكرِ : يُحركُ بذَكرٍ كأنهُ من طولِهِ ذراعُ الفتيِّ مِنَ الإبلِ .

(٣) وهو الكتاب الشهير : « العقد الفريد » .

(٤) ذكرَ ابنُ خلكانَ في « وفياتِ الأعيانِ » (٤/ ١٢) : أَنَّ ذَا الرُّمَّةِ لَمْ يرَ ميَّةَ قطُّ إلاَّ في برقعٍ فأَحبَّ أَن ينظرَ إِلىٰ وجهِهَا فقالَ : [من الوافر]

جَزَى اللهُ الْبَرَاقِعَ مِنْ ثِيَابٍ عَنِ الْفِتْيَانِ شَرّاً مَا بَقِينَا
يُوَارِينَ الْمِلاَحَ فَلاَ نَرَاهَا وَيخفِينَ الْقِبَاحَ فَيَزْدَهِينَا

فَنزعتِ البرقعَ عَن وجهها ، وكانت باهرةَ الحسنِ ، فلمَّا رآها مسفرةً . . قالَ :

عَلَىٰ وَجْهِ مَيٍّ مَسْحَةٌ مِنْ مَلاَحَةٍ

البيتَ المتقدِّمَ ، فنزعتْ ثيابَهَا ، وقامَت عريانةً ، فقالَ :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَاءَ يَخْبُثُ طَعْمُهُ

البيتَ المتقدمَ ، فقالتْ لهُ : أتحبُّ أَنْ تذوقَ طعمَهُ ؟ قالَ : إِي واللهِ ، فقالت لهُ : تذوقُ الموتَ قبلَ أَن تذوقَهُ .

وذكرَ الأصفهانيُّ في « الأغاني » (١٨/ ٣٠) : أَنَّ هـٰذهِ الأَبياتِ منحولةٌ عَلَىٰ ذي الرُّمَّةِ وليست لهُ . والله أعلم بالصواب .



[وائل بن قاسط ووادي السباع]

وبينا وائلُ بنُ قاسطٍ بوادٍ في طريقِهِ إلى (الرَّقَّةِ) . . إذْ بَصُرَ بأسماءَ بنتِ دريمٍ القضاعيَّةِ ، وكانتِ امرأةً حَسَّانةً ، فيها بقيَّةٌ مِنَ الشبابِ ، فهمَّ بها حينَ رآها مسفرةً ، فقالت : واللهِ ، لئنْ قصدتَني بسوءٍ . . لأدعونَّ أَسبُعِي ، فقالَ : ما أَرىٰ في الوادي أَحداً ، فصاحتْ ببنيها : يا كلبُ ، يا ذيبُ ، يا فهدُ ، يا سرحانُ ، يا نَمِرُ ، يا حمارُ ، يا ضَبُعُ . . . إلىٰ آخرِها ، فسالَ الوادي رجالاً عِشرينَ ، جاؤوا يتعادَونَ بالسيوفِ ، كما قيلَ : [مِنَ البسيط]

سَالَتْ عَلَيْهَا شِعَابُ الْحَيِّ حِينَ دَعَتْ ... أَنْصَارَهَا بِوُجُوهٍ كَالدَّنَانِيرِ

فقالتْ لهُم : أَكرموا ضيفَكُم ، ولم تكشفْ لهُمُ الحديثَ ، وإلاَّ . . لتوزَّعوا لحمَهُ ، فعقروا ، وقالَ : ما أَرىٰ هٰذا الوادي إلاَّ واديَ السباعِ ، فأُطلِقَ عليهِ مِنْ يومئذٍ .

وفيهِ كانَ قتلُ الزبيرِ بنِ العوَّامِ مُنصَرفَهُ مِنْ حادثةِ الجَمَلِ ، وقدْ ذكرَهُ في شعرِهِ سُحَيمُ بنُ وَثيلٍ الرياحيُّ ، فقالَ :

[مِنَ الطويل]

مَرَرْتُ عَلَىٰ وَادِي السِّبَاعِ وَلاَ أَرَىٰ ... كَوَادِي السِّبَاعِ حِينَ يُظْلِمُ وَادِيَا

[وجوب التحفظ والحيطة على النساء]

وعلىٰ ذكرِ عِفَّةِ النساءِ وبُعدِهِنَّ نقولُ : إنَّهُ لا يمكنُ للإنسانِ أَنْ يَكِلَهُنَّ إلىٰ ما يثقُ بهِ فيهنَّ مِنْ ذلكَ ، فإنَّ البعيدَ يقرُبُ بالاحتيالِ ، والعُصْمَ تَسهُلُ بالاستنزالِ[1] ، وقد قالَ بعضُهُم : [مِنَ الكامل]

عُسُرُ النِّسَاءِ إِلَىٰ مُيَاسَرَةٍ ... وَالصَّعْبُ يَسْهُلُ بَعْدَ مَا جَمَحَا

وقالَ أخو خثعمَ : [مِنَ الطويل]

وَآلَتْ يَمِيناً كَالزُّجَاجِ رَقِيقَةً ... وَمَا حَلَفَتْ إِلاَّ لِتَحْنَثَ مِنْ أَجْلِي

[زوج الشهداء عاتكة بنت زيد]

وبهٰذا ذكرتُ قولَ عاتكةَ بنتِ زيدِ بنِ عَمرِو بنِ نُفيلٍ في رثائِها لبعضِ أَزواجِها [كما في « خزانةِ الأدبِ » (١٠/ ٣٨٠)] :

[مِنَ الطويل]

فَآلَيْتُ لاَ تَنْفَكُّ عَيْنِي حَزِينَةً ... وَآلَيْتُ لاَ يَنْفَكُّ جِلْدِيَ أَغْبَرَا

فاستأذنَ عليها أَميرُ المؤمنينَ عليُّ ابنُ أَبي طالبٍ صبيحةَ بنائِها علىٰ أَميرِ المؤمنينَ عُمرَ بنِ الخطَّابِ ، وقالَ لها : أَينَ قولُكِ : (فآلَيْتُ . . . إلىٰ آخرِهِ) ؟ فقالتْ : مَا أَكثرَ ما تنفسخُ عزائِمُ الرجالِ ، فضلاً عن عزائِمِ النساءِ ، أَو ما يقرُبُ مِن هٰذا المعنىٰ .

وكانتْ تحتَ عبدِ اللهِ ابنِ أَبي بكرٍ الصدِّيقِ ، فقُتِلَ عنها مِنْ سهمٍ رُمِيَهُ في (الطائِفِ) فتزوَّجها زيدُ بنُ الخطَّابِ ، فقُتِلَ عنها بـ (اليمامةِ) ، ثُمَّ كانتْ تحتَ عُمرَ بنِ الخطَّابِ ، فقُتِلَ وهيَ عندَهُ ، ثُمَّ تزوَّجها الزبيرُ بنُ العوَّامِ ، فقتلَهُ ابنُ جرموزٍ ، وهيَ في عصمتِهِ ، ثُمَّ خطبَهَا عليٌّ ، فقالتْ : أَضِنُّ بابنِ عمِّ رسولِ اللهِ عنِ القتلِ ، ولكنَّها تزوَّجتْ بابنِهِ

---

(١) العصم : هو الغزال ، والمقصود : أن المرأة ينبغي التحفظ عليها .



الحسينِ ـ كما رُويَ ـ فقُتلَ عنها ، فكانَ أَهلُ المدينةِ يقولونَ بَعدُ [كما في « الطبقات » ٣/١١٢] : مَنْ أَرادَ الشهادةَ . . فليتزوَّجْ بعاتكةَ . وفي أَحاديثِها لطائفُ ، وفي أَخبارِها نوادرُ ، وفي أَشعارِها بدائعُ ، وبحسبِنا في هٰذا الموضعِ ما أَشرنا إِليهِ .

[كما تدين تدان]

وأَولىٰ ما يتوسَّلُ بهِ المرءُ لتحصينِ أَهلِهِ . . التَّلَزُّمُ بالعفافِ في نفسِهِ ، وللهِ دَرُّ الخزاعيِّ ، أَو مسكينِ الدَّارِميِّ في قولِهِ : [مِنَ السّريع]

مَـا أَحْسَـنَ الْغَيْـرَةَ فِـي حِينِهَـا ... وَأَقْبَـحَ الْغَيْـرَةَ فِـي كُـلِّ حِيـنْ
حَسْبُـكَ مِـنْ تَحْصِينِهَـا ضَمُّهَـا ... مِنْـكَ إِلَـىٰ خُلْـقٍ كَـرِيـمٍ وَدِيـنْ
لاَ تَطَّلِـعْ مِنْـكَ عَلَـىٰ عَـوْرَةٍ ... فَيَتْبَـعَ الْمَقْـرُونُ حَبْـلَ الْقَـرِيـنْ

وفي الحديثِ : « **عِفُّوا تَعِفَّ نِسَاؤُكُمْ** »[1] .

وقالَ بعضُهُم [الشافعيُّ في « ديوانهِ »] : [مِنَ الكامل]

عِفُّـوا تَعِـفَّ نِسَـاؤُكُـمْ فِـي الْمَحْـرَمِ ... وَتَجَنَّبُـوا مَـا لاَ يَلِيـقُ بِمُسْلِـمِ
إِنَّ الـزِّنَـا دَيْـنٌ إِذَا أَقْـرَضْتَـهُ ... كَـانَ الْـوَفَـاءُ مِـنَ اهْـلِ بَيْتِـكَ فَـاعْلَـمِ

فالفسادُ دَينٌ يؤخذُ بهِ مِنْ أَهلِ الزاني وذرِّيَّتِهِ لا محالةَ ، ولو كانوا أَحمىٰ مِنْ جَبَهاتِ الأُسودِ ، وأَمنعَ مِنْ عُقبانِ الجوِّ ، والأَخبارُ في ذٰلِكَ كثيرةٌ ، والعِيانُ يؤكِّدُها ، واللهُ غيورٌ علىٰ عبادِهِ ، وهوَ العدلُ في أَحكامِهِ[2] .

[العفة حتى في النوم]

كانَ ابنُ سيرينَ يقولُ : ما غشيتُ امرأةً قطُّ في نومٍ ولا يقظةٍ ، غيرَ أُمِّ عبدِ اللهِ ، وإِنِّي لأَرى المرأَةَ لا تحِلُّ لي في المنامِ ، فأَصرفُ نظري .

[الشعراء في هٰذا الموضوع]

فأَلَمَّ بهِ الناظمُ في قولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ١/٢٦٨] : [مِنَ الطويل]

يَـرُدُّ يَـداً عَـنْ ثَـوْبِهَـا وَهْـوَ قَـادِرٌ ... وَيَعْصِي الْهَوَىٰ فِي طَيْفِهَا وَهْوَ رَاقِدُ

وقالَ المعرِّيُّ [في « سقط الزند » ٦٧] : [مِنَ الطويل]

كَـرِيـمٌ حَلِيـمُ الْجَفْنِ وَالنَّفْـسِ لاَ يَـرَىٰ ... إِذَا هُوَ أَغْفَىٰ مَا يَرَى النَّاسُ فِي الْحُلْمِ

وقالَ [في « سقط الزند » ٥٩] : [مِنَ الطويل]

مَضَىٰ طَاهِرَ الْجُثْمَانِ وَالنَّفْسِ وَالْكَرَىٰ ... وَسُهْدِ الْمُنَىٰ وَالْجَيْبِ وَالـذَّيْلِ وَالرُّدْنِ[3]

---

(١) أخرجهُ عن عائشة الصديقة الطبرانيُّ في « الأوسط » (٨/٢) مطولاً .

(٢) لِما أخرج ابن النجار في « ذيل تاريخ بغداد » عن أنس : « من زنىٰ . . زني به ولو بحيطان داره » .

(٣) الكَرَىٰ : النومُ ، ونقيضهُ : السُّهْدُ ، وقولُهُ : سُهْدِ المنىٰ : أَي أَنَّهُ إذا سَهِرَ في أَمرٍ يتمناهُ . . لَمْ يسهر إلاَّ فيما لا تبعةَ لَهُ . الرُّدْنُ : الكُمُّ .

وقالَ ابنُ طَباطَبا :   [مِنَ الكامل]

يَقَظَاتُهُ وَمَنَامُهُ شِرَعٌ ... كُلٌّ بِكُلٍّ مِنْهُ مُشْتَبِهُ
إِنْ هَمَّ فِي حُلُمٍ بِفَاحِشَةٍ ... زَجَرَتْهُ عِفَّتُهُ فَيَنْتَبِهُ

ولكنَّ التِّهاميَّ خضعَ لبعضِ القولِ ؛ إذْ يقولُ [في « ديوانهِ » ٣٣٦] :   [مِنَ البسيط]

إِنِّي لأَصْرِفُ نَفْسِي عَنْ مَحَاسِنِهَا ... تَكَرُّماً وَأَكُفُّ الْكَفَّ عَنْ لَمَمِ[1]
وَلاَ أَهُمُّ وَلِي نَفْسٌ تُنَازِعُنِي ... أَسْتَغْفِرُ اللهَ ، إِلاَّ سَاعَةَ الْحُلُمِ

[الضيف الأعمىٰ]

نزلَ خارجيٌّ علىٰ بعضِ إخوانِهِ منهُم مستتراً مِنَ الحَجَّاجِ ، فشخَصَ المنزولُ عليهِ لبعضِ شأنِه ، وقالَ لزوجِهِ : يا ظبيا ، استوصي بضيفي خيراً ، وكانتْ مِنْ أحسنِ الناسِ وجهاً ، ولمَّا عادَ بعدَ شهرٍ . . قالَ لها : كيفَ كانَ ضيفُكِ ؟ قالتْ : ما أَشغلَهُ بالعمىٰ عنْ كلِّ شيءٍ ، وكانَ أَطبقَ جفنيهِ حتَّىٰ لا يراها ، إلىٰ أَنْ عادَ زوجُها[2] .

* * *

[قال أبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٩٥] :   [مِنَ المنسرح]

ظَلْتَ بِهَا تَنْطَوِي عَلَىٰ كَبِدٍ ... نَضِيجَةٍ فَوْقَ خِلْبِهَا يَدُهَا

(**الخِلبُ**) : غشاءُ القلبِ ، أَو الكبدِ .

[شرح المطلع]

قالَ الشارحُ : وجعلَ اليدَ نضيجةً ، وأَضافَها إلى الكبدِ ؛ لأَنَّها دامَ وضعُها على الكبدِ ، فأَنضجَتْها بما فيها مِنَ الحرارةِ ، فلهٰذا جازَ إِضافتُها إليها ، والعربُ تسمِّي الشيءَ باسمِ غيرِهِ إذا طالَتْ صحبتُهُ لهُ ، والإِضافةُ أَهونُ . اهـ .

[رأي المؤلف]

وأقولُ : إنَّهُ أَصابَ في بعضٍ ، وأَخطأَ في آخرَ ، أَمَّا الذي أصابَ فيهِ : فتوجيهُ إِضافةِ اليدِ إلى الكبدِ بطولِ الملابسةِ والصحبةِ .

وأَمَّا الذي أَخطأَ فيهِ : فزعمُهُ أَنَّ الناظمَ جعلَ اليدَ نضيجةً ، والحالُ أَنَّهُ لمْ يتعرَّضْ لها بنضجٍ ولا غيرِهِ ، وإنَّما تعرَّضَ للكبدِ ، فجعلَها نضيجةً ، وهوَ المعقولُ ، والمحزونُ كثيراً ما يضعُ يدَهُ علىٰ كبدِهِ ؛ خَشيةَ الانفطارِ ممَّا يجدُهُ مِنْ حرارةِ الوجدِ ، ومثلُهُ كلُّ مَنْ فوجئَ بعظيمٍ يُهيلُ ، ولِما فيهِ مِنَ الفوائدِ يقولُ جلَّ اسمُهُ لموسىٰ : ﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ [القصص : ٣٢] .

---

(١) قال الشيخ عبد القادر القصاب الديرعطاني في مواعظه :
من كفَّ فكَّهْ ، وفكَّ كفَّهْ . . فذبابُ الشرِّ عنهُ كفَّهْ .

(٢) كذا في « المستطرف » (٢/ ٣٤٩) .

[اصطلام النار في الأكباد]

وقالَ ابنُ الدُّمَيْنَةِ [في « ديوانه »] : [مِنَ الطويل]

عَشِيَّـةَ أَثْنِـي الْبُـرْدَ ثُـمَّ أَلُـوثُـهُ عَلَـىٰ كَبِـدِي مِـنْ خَشْيَـةٍ أَنْ تَقَطَّعَـا

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٥] : [مِنَ الطويل]

لِيَهْنِـكِ إِمْسَاكِـي بِكَفِّـي عَلَـى الْحَشَـا وَرَقْـرَاقِ دَمْعِـي رَهْبَـةً مِـنْ مَطَـالِـكِ

وقالَ الصِّمَّةُ بنُ عبدِ اللهِ القشيريُّ [في « ديوانهِ » ٩٦] : [مِنَ الطويل]

وَأَذْكُـرُ أَيَّـامَ الْحِمَـىٰ ثُـمَّ أَنْثَنِـي عَلَـىٰ كَبِـدِي مِـنْ خَشْيَـةٍ أَنْ تَقَطَّعَـا

وقالَ عمرُ ابنُ أبي ربيعةَ في كتابٍ منهُ إلى الثريَّا [في « ديوانهِ » ٤٩٠] : [مِنْ مَجْزوءِ الوافر]

فَيُمْسِـكُ قَلْبَـهُ بِيَـدٍ وَيَمْسَـحُ عَيْنَـهُ بِيَـدِ

وقالَ معاذُ بنُ كُليبٍ : [مِنَ الطويل]

فَقَـدْ طَـالَ إِمْسَـاكِـي عَلَـى الْكَبِـدِ الَّتِـي بِهَـا مِـنْ هَـوَىٰ لَيْلَـى الْغَـدَاةَ صُـدُوعُ

وقالَ ابنُ ميَّادةَ [في « ديوانهِ » ١٣٣] : [مِنَ الطويل]

عَشِيَّـةَ أَثْنِـي بِـالـرِّدَاءِ عَلَـى الْحَشَـا كَـأَنَّ الْحَشَـا مِـنْ دُونِـهِ أُسْعِـرَتْ جَمْـرَا

وغنَّى المهديَّ في قصَّةِ تطفُّلِهِ بقطعةٍ يقولُ فيها : [مِنَ البسيط]

لَـهُ يَـدٌ تَسْـأَلُ الـرَّحْمَـٰنَ عَـافِيَـةً مِمَّـا بِـهِ وَيَـدٌ أُخْـرَىٰ عَلَـىٰ كَبِـدِهْ

وقالَ عبدُ الصمدِ بنُ المُعَذَّلِ : [مِنَ السّريع]

مُكْتَئِـبٌ ذُو كَبِـدٍ حَـرَّىٰ تَبْكِـي عَلَيْـهِ مُقْلَـةٌ عَبْـرَىٰ
يَـرْفَـعُ يُمْنَـاهُ إِلَـىٰ رَبِّـهِ يَـدْعُـو وَفَـوْقَ الْكَبِـدِ الْيُسْـرَىٰ

وقالَ بعضُ الفقهاءِ عندَ خروجِهِ إلى الحجِّ مِنْ (بغدادَ) ، كما ذكرَهُ ابنُ خَلِّكانَ [في « وفيات الأعيان » ٣/ ٢٦٠] :

[مِنَ الطويل]

مَـدَدْتُ إِلَـى التَّـوْدِيـعِ كَفّـاً مَـرِيضَـةً وَأُخْـرَىٰ عَلَـى الـرَّمْضَـاءِ فَـوْقَ فُـؤَادِي
فَـلاَ كَـانَ هَـٰذَا الْيَـوْمُ آخِـرَ عَهْـدِنَـا وَلاَ كَـانَ ذَا التَّـوْدِيـعُ آخِـرَ زَادِي

[تكرار هـٰذا المعنىٰ عند المتنبي]

وقدْ تكرَّرَ المعنىٰ في « **ديوانِ الناظمِ** » غيرَ أنِّي لا أذكرُ منهُ إلاَّ ما أشارَ إليهِ الشارحُ ، وهوَ **قولُهُ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٦] :

[مِنَ الخفيف]

فِيـهِ أَيْـدِيكُمَـا عَلَـى الظَّفَـرِ الْحُلْـوِ وَأَيْـدِي قَـوْمٍ عَلَـى الأَكْبَـادِ

[بيت للمؤلف في الموضوع]

وممَّا أبرّ في الموضوعِ قولي مِنْ قصيدةٍ [في « ديوان المؤلف » ق ٤٢] : [مِنَ الطويل]

وَيَهْفُو بِقَلْبِي الْوَجْدُ لَوْلاَ تَدَاوَلَتْ ... يَمِينِيَ فِي إِمْسَاكِهِ وَشِمَالِي

[اختلاف الإشارات في التعبير]

وربَّما وضعتِ المرأةُ يدَها علىٰ رَأْسِها ، أَو علىٰ وجهِها مِنَ الخجَلِ ، أَوِ الوجلِ ، ومنهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [الذاريات : ٢٩] .

[الملك المتواضع]

وقالَ رجلٌ مِنْ بني العنبرِ ، وكانَ مملَّكاً ، ورأَتْهُ زوجُهُ يطحَنُ لضيفِهِ : [مِنَ الطويل]

تَقُولُ وَصَكَّتْ وَجْهَهَا بِيَمِينِهَا ... أَبَعْلِيَ هَـٰذَا بِالرَّحَا الْمُتَقَاعِسِ ؟!

[لا حياء في تعلم أمور الدين]

وفي « **الصحيح** » : أَنَّ امرأَةً سَأَلَتْ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم : هَلْ على المرأَةِ مِنْ غُسلٍ إذا هيَ احْتلَمتْ ؟ فغطَّتْ أُمُّ سَلَمَةَ وجهَها ، وقالتْ : أَوَتحتلمُ المرأَةُ ؟ فقالَ لها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « **تَرِبَتْ يَمِينُكِ ، وَبِمَ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا ؟!** » ، ثُمَّ قالَ للسائلةِ : « **نَعَمْ ، إِذَا رَأَتِ الْمَاءَ** »[١] . أَو ما يقرُبُ مِنْ هـٰذا السياقِ .

والكلامُ في ماءِ المرأةِ إيجاباً وسلْباً وصفةً . . لا يليقُ بالاستطرادِ في هـٰذا المجلسِ لاقتضائِهِ التطويلَ ، فلهُ مكانُهُ ، ورأَيتُ فيهِ مِنْ زمانٍ تأليفاً للسيِّدِ أَحمدَ الحُسينيِّ المصريِّ .

[النساء واختلاف التعبير عند الفزع]

ويروىٰ : أَنَّ فَزَعاً أَدركَ نساءً ثلاثاً ، فوضعتْ يدَها إِحداهُنَّ علىٰ ثديِها ، والأُخرىٰ علىٰ بطنِها ، والثالثةُ علىٰ رَكَبِها[٢] ، فقالَ بعضُ أَهلِ الأَزكانِ[٣] : أَمَّا الأُولىٰ : فمرضعٌ ، وأَمَّا الثانيةُ : فحُبلىٰ ، وأَمَّا الثالثةُ : فبِكرٌ . فكانَ كما قالَ .

* * *

[قال أبو الطيِّبِ المتنبِّي في « **العُكْبَرِيِّ** » ١/٢٩٦] : [مِنَ المنسرِحِ]

يَا حَادِيَيْ عِيسِهَا وَأَحْسَبُنِي ... أُوجَدُ مَيْتاً قُبَيْلَ أَفْقِدُهَا
قِفَا قَلِيلاً بِهَا عَلَيَّ فَمَا ... أَقَلَّ مِنْ نَظْرَةٍ أُزَوَّدُهَا

[شرح المطلع]

يقولُ لحُداةِ عيسِها : قفوا بها عليَّ قليلاً ؛ لأَتزوَّدَ منها نظرةً ، وقدِ اعترضَ بينَ النداءِ والمنادىٰ بقولِهِ : (وأَحسبُني

---

(١) رواه عن أم سلمة البخاري (٢٨٢) في الغسل ، ومسلم (٣١٣) في الحيض .

(٢) الرَّكَبُ ـ بالتحريك ـ : العانةُ ، أو أصل الفخذين .

(٣) أَهلُ الأزكانِ : أَهلُ الفِراسةِ .

أَموتُ قُبيلَ تحرُّكِكُمْ بها) ، وهـٰذا يُؤيِّدُ احتمالَ وصفِهِ حينَ الارتحالِ ، والجملةُ المعترضةُ المذكورةُ مأخوذةٌ مِنْ قولِ العربيِّ : [منَ الخفيف]

لَيْـسَ بَيْـنَ الْحَيَـاةِ وَالْمَـوْتِ إِلاَّ ... أَنْ يَـرُدُّوا جِمَـالَهُـمْ فَتُـزَمَّـا[1]

[لِمَ العجلة ؟]

وقدْ سمعَهُ عليُّ بنُ جعفرٍ مِنْ جاريتِهِ الشطباءِ ، فطرِبَ ، وصاحَ ، وقالَ : يا سبحانَ اللهِ! ما هـٰذِهِ العجلةُ ؟ أَلا يُوكونَ قِربةً[2] ، أَلاَ يعلِّقونَ سُفْرَةً[3] ، أَلاَ يسلِّمونَ علىٰ جارٍ[4] ؟!

[الشعراء والموت من الفراق]

والمعنىٰ متكرِّرٌ عندَ الناظمِ ؛ منه قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٢٧ـ٣٢٨] : [منَ الكامِلِ]

اَلْيَـوْمَ عَهْـدُكُـمُ فَـأَيْـنَ الْمَـوْعِـدُ ؟ ... هَيْهَـاتَ لَيْـسَ لِيَـوْمِ عَهْـدِكُـمُ غَـدُ
اَلْمَـوْتُ أَقْـرَبُ مِخْلَبـاً مِـنْ بَيْنِكُـمْ ... وَالْعَيْـشُ أَبْعَـدُ بَعْـدَكُـمْ لاَ تَبْعَـدُوا[5]

ولقدْ أَجادَ الحِلِّيُّ في قولِهِ [في « ديوانِهِ » ٦١٧] : [منَ الطويلِ]

قِفِـي وَدِّعِينَـا قَبْـلَ وَشْـكِ التَّفَـرُّقِ ... فَمَـا أَنَـا مَـنْ يَحْيَـا إِلَـىٰ حِيـنِ نَلْتَقِـي

وَأَلَمَّ بِهِ البُرَعيُّ في قولِهِ [في « ديوانِهِ » ١٤١] : [منَ الكامل]

أَعِـدِ الْـوَدَاعَ فَمَـا أَرَاكَ تَـرَانِـي ... [وَأَطِـلْ بُكَـاكَ لِبَيْـنِ أَهْـلِ الْبَـانِ]

[استيقاف العيس عند الشعراء]

وما أَكثرَ استيقافَ العيسِ للتزوُّدِ بالنظرِ حينَ الوداعِ في أَشعارِ العربِ ، منهُ قولُ عمرِو بنِ كُلثومٍ [في « ديوانِهِ » ٧٨] : [منَ الوافر]

قِفِـي قَبْـلَ التَّفَـرُّقِ يَـا ظَعِينَـا ... نُخَبِّـرْكِ الْيَقِيـنَ وَتُخْبِـرِينَـا

وقولُ القُطاميِّ [في « ديوانِهِ » ٣١] : [منَ الوافر]

[قِفِـي] قَبْـلَ التَّفَـرُّقِ يَـا ضُبَـاعَـا ... وَلاَ يَـكُ مَـوْقِـفٌ مِنْـكِ الْـوَدَاعَـا
قِفِـي فَـادِي أَسِيـرَكِ إِنَّ قَـوْمِـي ... وَقَـوْمَـكِ لاَ أَرَىٰ لَهُـمُ اجْتِمَـاعَـا

وقولُ قيسِ بنِ الخَطيمِ [في « ديوانِهِ » ٥٣ـ٥٤] : [منَ المنسرِحِ]

رَدَّ الْجِمَـالَ الْخَلِيـطُ فَـانْصَـرَفُـوا ... مَـاذَا عَلَيْهِـمْ لَـوَ انَّهُـمْ وَقَفُـوا[6]

---

(١) زَمَّ البعيرَ : إذا أَلبَسَهُ الزمام ، وهوَ اللجامُ .
(٢) الوكاء : الخيط الذي يشد به الكيس وغيره .
(٣) السُّفْرَةُ : طعامٌ يُتخذُ للمُسافرِ ومنهُ سُمِّيَتِ السفرةُ التي يوعىٰ فيها الطعام مجازاً .
(٤) كذا في « الأغاني » (٢٤/ ٣٥٨) .
(٥) في « الديوانِ » و« العُكبَرِيِّ » : (أَبْعَدُ مِنْكُمْ) بدلَ (أَبْعَدُ بَعْدَكُمْ) .
(٦) الخليط : المخالطُ لهم في الدارِ .

لَـوْ وَقَفُـوا سَـاعَـةً نُسَـائِلُهُـمْ   رَيْـثَ يُضَحِّـي جِمَـالَـهُ السَّلَـفُ[1]

[أول من قال لفظة (السلف)]

وأوَّلُ ما سُمِعَتْ لفظةُ (السَّلفِ) التي أكثرَ الناسُ منها الآنَ مِنْ هـٰذا الشعرِ ، ثُمَّ من قولِهِ صلى الله عليه وسلم بعدَ مُواراةِ عثمانَ بنِ مظعونٍ : « نِعْمَ السَّلَفُ »[2] .

[تفسير السلف]

وفي بابِ الأذانِ مِنْ « حاشيةِ البجيرميِّ علىٰ فتحِ الوهَّابِ » تفسيرُ السَّلَفِ بالصحابةِ ، والخَلَفِ بمَنْ بعدَهُمْ ، وقالَ بعضُهُم : السلفُ مَنْ قبلَ الأربعِ مئةٍ ، والخَلَفُ مَنْ بَعدَهُمْ .

وفي بابِ الجماعةِ منها : أَنَّ السلفَ هُم أَهلُ القرونِ الثلاثةِ الأُوَلِ ، والخَلَفُ مَنْ بعدَهُم .

والبيتانِ مِنْ كلمةِ شاعرةٍ لقيسٍ ، وكانَ رجلاً شجاعاً ، جميلَ المنظرِ ، برَّاقَ الثنايا ، ما رأَتْهُ حليلةُ رجلٍ قطُّ إلاَّ ذهبَ عقلُها ، وتمنَّتْ أَنْ يكونَ لها قِياضاً عن صاحبِها ، وكانَ يقسِمُ أَيَّامَهُ ثلاثاً ، يوماً : يحكُمُ بينَ قومِهِ ، ويوماً : ينشدُ شعرَهُ ، ويوماً : ينظرُ في المرآةِ إلىٰ جمالِهِ .

وقالَ ابنُ الدُّمَيْنَةِ فيما نحنُ بسبيلِهِ [في « ديوانه » ١٣] :   [منَ الطويل]

قِفِـي قَبْـلَ وَشْـكِ الْبَيْـنِ يَـا ابْنَـةَ مَـالِـكٍ   وَلاَ تَحْـرِمِينَـا نَظْـرَةً مِـنْ جَمَـالِـكِ
قِفِـي يَـا أُمَيْـمَ الْقَلْـبِ نَقْضِـي لُبَـانَـةً   وَنَشْكُـو الْهَـوَىٰ ثُـمَّ افْعَلِـي مَـا بَـدَا لَـكِ

[طلبٌ وجيه]

قالَ حبيبٌ [أبو تمَّام في « ديوانه » ٢٤٢] :   [منَ الكامل]

مَـا فِـي وُقُـوفِـكِ سَـاعَـةً مِـنْ بَـاسِ   تَقْضِـي ذِمَـامَ الأَرْبُـعِ الأَدْرَاسِ

قالَ أبو عبادةَ :   [منَ الخفيف]

مَـا عَلَـى الـرَّكْـبِ مِـنْ وُقُـوفِ الـرِّكَـابِ   فِـي مَغَـانِـي الصِّبَـا وَرَسْـمِ التَّصَـابِـي

ولئنْ خرجَ هـٰذانِ عنْ خصوصِ الاستيقافِ يومَ الرحيلِ . فقد دخلا في عمومِهِ الشاملِ ؛ لقولِ ذِي الرُّمَّةِ :   [منَ الوافر]

تَمَـامُ الْحَـجِّ أَنْ تَقِـفَ الْمَطَـايَـا   عَلَـىٰ خَـرْقَـاءَ وَاضِعَـةَ اللِّثَـامِ

[نرجو من الله تعالىٰ]

وقالَ البغداديُّ [ابن زريقٍ في « ديوانه »] :   [منَ البسيط]

وَاعْطِـفْ عَلَـيَّ الْمَطَـايَـا سَـاعَـةً فَعَسَـىٰ   مَـنْ شَـتَّ شَمْـلَ الْهَـوَىٰ بِـالْبَيْـنِ يَجْمَعُـهُ

وقالَ الأندلسيُّ [إسماعيل بن محمد الشقندي في « نفح الطيب » ٣/ ٢٣٣] :   [منَ البسيط]

اسْتَوْقِفِ الرَّكْبَ قَدْ لاَحَتْ لَكَ الدَّارُ   وَاسْـأَلْ بِـرَبْـعٍ تَنَـاءَتْ عَنْـهُ أَقْمَـارُ
لاَ خَفَّـفَ اللهُ عَنِّـي بُعْـدَ بُعْـدِهِـمُ   فَـإِنَّنِـي سِـرْتُ وَالأَحْبَـابُ مَـا سَـارُوا

---

(١) بضحّي : من الضحاء وهو أن ترعى الإبل ضحىً . السَّلَفُ : القومُ الذين يتقدّمونَ الظُّعُنَ في السير .
(٢) ومثله في دعاء الميت : « واجعله لنا سلفاً » قيل : هو من سلف المال ، كأنه قد أسلفه وجعله ثمناً للأجر والثواب الذي يجازىٰ على الصبر عليه .

[ما سبب التفات المسافر العربي ؟]

ومِنْ مذاهبِ العربِ : التفاتُ المسافرِ رجاءَ العودِ .

قالَ شاعرُهُم : [منَ الطويل]

تَلَفَّتُّ أَرْجُو رَجْعَةً بَعْدَ نِيَّةٍ ... فَكَانَ الْتِفَاتِي زَائِداً فِي بَلاَئِيَا

ومنهُ قولُ الشريفِ الرضيِّ [في « ديوانهِ »] : [منَ الكامل]

وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَىٰ طُلُولِهِمُ ... وَرُسُومُهَا بِيَدِ الْبِلَىٰ نُهْبُ

فَوَقَفْتُ حَتَّىٰ ضَجَّ مِنْ لَغَبٍ ... نِضْوِي وَلَجَّ بِعَذْلِيَ الرَّكْبُ

وَتَلَفَّتَتْ عَيْنِي وَمُذْ خَفِيَتْ ... عَنِّي الطُّلُولُ تَلَفَّتَ الْقَلْبُ

وقيلَ : إِنَّهُ لم يقصدِ التفاؤُلَ للرجوعِ ؛ إِذْ لا فائدةَ فيهِ ، وقدْ صارتْ نُهْباً بيَدِ البِلىٰ ، وإِنَّما حملَهُ عليهِ فَرْطُ الوجْدِ ، وأَلَمُ التحسُّرِ .

[من بدائع الاتفاق]

وقد مرَّ بعضُهُم بديارِ الشريفِ الرضيِّ ، فتمثَّلَ بالأَبياتِ ؛ إِذْ رآها خاويةً علىٰ عُروشِها ، وعليها سِمَةُ الشرَفِ ، وأَثارَةُ العِزِّ ، وهوَ لا يدري بصاحبِ الديارِ ، ولا بأَنَّهُ قائلُ الأَبياتِ ، فكانَ مِنْ بدائعِ الاتِّفاقِ .

[أنت مسكين يا صمة]

وقالَ الصِّمَّةُ بنُ عبدِ اللهِ القشيريُّ [في « ديوانه » ٩٤] : [منَ الطويل]

تَلَفَّتُّ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّىٰ وَجَدْتُنِي ... وَجِعْتُ مِنَ الإِصْغَاءِ لِيتاً وَأَخْدَعَا[1]

مِنْ قصيدةٍ لهُ فخمةِ اللفظِ ، منقَّحَةِ المعنىٰ ، قالَها حينَ تعنَّتَ عليهِ عمُّهُ وردَّهُ عن بنتِهِ ريَّا ، وكانَ قدْ جمعَ الإِبلَ المعَيَّنَةَ لجَهازِها ، فلمَّا آيسَهُ عمُّهُ . أَطلقَ عُقُلَها ، وضربَها ، فعادَ كلُّ بعيرٍ إِلىٰ أَهلِهِ ، فقالتْ مخطوبَتُهُ : ما رأَيتُ كاليومِ رجلاً ضيَّعَهُ قومُهُ[2] !

ومطلعُ القصيدةِ [في « ديوانهِ » ٩٤] : [منَ الطويل]

حَنَنْتَ إِلَىٰ رَيَّا وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ ... مَزَارَكَ مِنْ رَيَّا وَشَعْبَاكُمَا مَعَا

ويأتي بعضُها في غضونِ هٰذهِ المجالسِ بحَسَبِ المناسباتِ ، وهيَ مِنْ أَعذبِ الشعرِ وأَشجاهُ ، وقد مرَّ في المجلسِ الأَوَّلِ ما يشيرُ إِلىٰ بعضِ هٰذا .

وقالَ آخرُ : [منَ الطويل]

لَحَظْنَاهُمُ حَتَّىٰ كَأَنَّ عُيُونَنَا ... بِهَا لَقْوَةٌ مِنْ شِدَّةِ اللَّحَظَانِ[3]

---

(١) اللِّيتُ : صفحةُ العنقِ . الأَخدعانِ : عرقانِ خفيَّانِ في موضعِ الحجامةِ مِنَ العنقِ .

(٢) « ديوان الحماسة » (٢/ ٦٢) .

(٣) اللَّقْوَةُ : داءٌ يكونُ في الوجهِ يَعْوَجُّ منهُ الشِّدْقُ .



وأمّا الشكايةُ مِنْ أَلَمِ النوىٰ ساعةَ الوداعِ : فممّا لا يُحصىٰ كَثْرَةً في أَشعارِهم ، ومنهُ قولُ امرىءِ القيسِ [في « ديوانهِ » ١٤٤] : [منَ الطويل]

كَـأَنِّـي غَـدَاةَ الْبَيْـنِ يَـوْمَ تَحَمَّلُـوا ... لَـدَىٰ سَمُـرَاتِ الْحَـيِّ نَـاقِـفُ حَنْظَـلِ (١)

وهوَ متكرِّرٌ عندَ الناظمِ ؛ منهُ قولُهُ [في « العُكْبَريِّ » ٢/٢٣٥] : [منَ الطويل]

حُشَـاشَـةَ نَفْـسٍ وَدَّعَـتْ يَـوْمَ وَدَّعُـوا ... فَلَـمْ أَدْرِ أَيَّ الظَّـاعِنَيْـنِ أُشَيِّـعُ

وقولُهُ [في « العُكْبَريِّ » ٤/٧ـ٨] : [منَ الكامل]

قَـدْ كُنْـتَ تَهْـزَأُ بِـالْفِـرَاقِ مَجَـانَـةً ... وَتَجُـرُّ ذَيْلَـيْ شِـرَّةٍ وَعُـرَامِ (٢)

لَيْـسَ الْقِبَـابُ عَلَـى الـرِّكَـابِ وَإِنَّمَـا ... هُـنَّ الْحَيَـاةُ تَـرَحَّلَـتْ بِسَـلَامِ (٣)

مُتَـلَاحِظِيـنَ نَسُـحُّ مَـاءَ شُـؤُونِنَـا ... حَـذَراً مِـنَ الـرُّقَبَـاءِ فِـي الآكَـامِ (٤)

أَرْوَاحُنَـا انْهَمَلَـتْ وَعِشْنَـا بَعْـدَهَـا ... مِـنْ بَعْـدِ مَـا قَطَـرَتْ عَلَـى الأَقْـدَامِ

وقولُهُ [في « العُكْبَريِّ » ٢/٢٥٩] : [منَ الكامل]

أَرَكَـائِـبَ الأَحْبَـابِ إِنَّ الأَدْمُعَـا ... تَطِسُ الْخُـدُودَ كَمَـا تَطِسْـنَ الْيَـرْمَعَـا (٥)

فَـاعْـرِفْـنَ مَـنْ حَمَلَـتْ عَلَيْكُـنَّ النَّـوَىٰ ... وَامْشِيـنَ هَـوْنـاً فِـي الأَزِمَّـةِ خُضَّعَـا (٦)

قَـدْ كَـانَ يَمْنَعُنِـي الْحَيَـاءُ مِـنَ الْبُكَـا ... فَـالْيَـوْمَ يَمْنَعُـهُ الْبُكَـا أَنْ يَمْنَعَـا

والأخيرُ مِنْ خالصِ الشعرِ ، ومختارِ الكلامِ ، وكنتُ أَظنُّهُ مِنْ مخترعاتِهِ ، حَتَّىٰ رَأَيْتُ أَبا ذؤيبٍ الهُذليَّ سبقَهُ إِلىٰ بعضِهِ في قولِهِ [في « ديوانه » ١٤٦] : [منَ الكامل]

وَلَقَـدْ أَرَىٰ أَنَّ الْبُكَـاءَ سَفَـاهَـةٌ ... وَلَسَـوْفَ يُـولَـعُ بِـالْبُكَـا مَـنْ يُفْجَـعُ

واقتفاهُ ابنُ مُطَيرٍ ، حيثُ يقولُ ـ مِنْ كلمةٍ لهُ مؤنَّقةٍ ـ [في « ديوانهِ » ٤٩] : [منَ الطويل]

وَكُنْـتُ أَذُودُ الْعَيْـنَ أَنْ تَـرِدَ الْبُكَـا ... فَقَـدْ وَرَدَتْ مَـا كُنْـتُ عَنْـهُ أَذُودُهَـا

ولا يبعدُ عنهُ قولُ كُثيِّرٍ [في « ديوانهِ » ٩٥] : [منَ الطويل]

وَمَـا كُنْـتُ أَدْرِي قَبْـلَ عَـزَّةَ مَـا الْبُكَـا ... وَلاَ مُـوجِعَـاتِ الـدَّهْـرِ حَتَّـىٰ تَـوَلَّـتِ

---

(١) غداةَ البين : صبيحةَ الفراقِ . السَّمُرَاتِ : شجرٌ في الحي ، جمع سَمُرة . ناقف الحنظل : أشقُّ الحنظل فتَدمعُ عيناي ؛ لشدةِ مرارتهِ ؛ لأنَّ مَن يَشُقُّهُ يَجدُ أثرَ مرارتهِ في حلقهِ وأنفهِ وعينيهِ .

(٢) المَجَانَةُ : الخلاعةُ . الشِّرَّةُ : الحدَّةُ والنشاطُ . العُرَامُ : الشدَّةُ والقوَّةُ والشراسةُ .

(٣) القبابُ : الهوادجُ . الركابُ : الإبلُ .

(٤) السَّحُّ : السكبُ المتتابع . الشؤونُ : جمعُ شأنٍ ، وهو مجرى الدمع . الآكامُ : جمعُ أَكَمةٍ ، وهي القُفُّ مِنْ حجارةٍ واحدةٍ ، وقيلَ : هو دونَ الجبالِ ، وفي « الديوان » : (نَسُخُّ) بدل (نَسُح) ، و(الأَكْمَام) بدل (الآكَام) .

(٥) وَطَسَ الشيءَ : كسرَهُ ودقَّهُ . اليَرْمَعُ : حجارةٌ بيضٌ صغارٌ رخوةٌ .

(٦) الأَزِمَّةُ : جمعُ الزِّمام ، وهو الحبلُ الذي يجعلُ في البُرَةِ والخشبةِ ، وفي عنقِ البعيرِ .

وقولُ المجنونِ : [منَ الطويل]

وَأَبْكَيْتُمَانِي وَسْطَ صَحْبِي وَلَمْ أَكُنْ ... أُبَالِي دُمُوعَ الْعَيْنِ لَوْ كُنْتُ خَالِيَا

ويأْتي بعضُ ما يشبِهُهُ في شرحِ **قولِهِ** [في « العُكْبَرِيِّ » ١/٣٠٨] : [منَ المنسرح]

أَصْبَحَ حُسَّادُهُ وَأَنْفُسُهُمْ ... يُحْدِرُهَا خَوْفُهُ وَيُصْعِدُهَا

وقُبيلَ **قولِهِ** [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/٣٤] : [منَ الطويل]

فَثِبْ ـ وَاثِقاً بِاللهِ ـ وِثْبَةَ مَاجِدٍ ... يَرَى الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فِي الْفَمِ

وفي الموضوعِ **قولُهُ** [في « العُكْبَرِيِّ » ١/٢٢٥] : [منَ الكامل]

يَسْتَاقُ عِيسَهُمُ أَنِينِي خَلْفَهَا ... تَتَوَهَّمُ الزَّفَرَاتِ رَجْعَ حُدَاتِهَا(١)

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/٢٤٦] : [منَ الكامل]

لَمَّا تَقَطَّعَتِ الْحُمُولُ تَقَطَّعَتْ ... نَفْسِي أَسىً وَكَأَنَّهُنَّ طُلُوحُ(٢)

وَجَلاَ الْوَدَاعُ مِنَ الْحَبِيبِ مَحَاسِناً ... حُسْنُ الْعِزَاءِ وَقَدْ جُلِينَ قَبِيحُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/١١٥] : [منَ البسيط]

وَكَاتِمُ الْحُبِّ يَوْمَ الْبَيْنِ مُنْهَتِكٌ ... وَصَاحِبُ الدَّمْعِ لاَ تَخْفَىٰ سَرَائِرُهُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/١٦٢] : [منَ الكامل]

قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُ بَيْنَهُمْ مِنْ قَبْلِهِ ... لَوْ كَانَ يَنْفَعُ حَائِناً أَنْ يَحْذَرَا(٣)

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/١٩٤] : [منَ الكامل]

إِنْ كُنْتِ ظَاعِنَةً فَإِنَّ مَدَامِعِي ... تَكْفِي مَزَاوِدَكُمْ وَتُرْوِي الْعِيسَا(٤)

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/٢٩٥] : [منَ الوافر]

نَظَرْتُ إِلَيْهِمُ وَالْعَيْنُ شَكْرَىٰ ... فَصَارَتْ كُلُّهَا لِلدَّمْعِ مَاقَا(٥)

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/٣٠٧ـ٣٠٨] : [منَ الطويل]

وَلَمْ أَرَ كَالأَلْحَاظِ يَوْمَ رَحِيلِهِمْ ... بَعَثْنَ بِكُلِّ الْقَتْلِ مِنْ كُلِّ مُشْفِقِ

---

(١) في « الديوان » : (زَجْرَ) بدل (رَجْعَ) . **الحُداة** : هم المغنُّونَ خلفَ الإبلِ .

(٢) **الطُّلوحُ** : جمعُ طَلْحٍ ، وهي شجرةٌ حجازيَّةٌ ، جَنَاتُها كجناةِ السَّمُرَةِ ، ولها شوكٌ أَحْجَنُ ، ومنابتُها بطونُ الأَوديةِ ، وهيَ أَعظمُ العِضاهِ شوكاً ، وأصلبُها عوداً ، وأجودُها صَمْغاً ، والطلح أيضاً : الموز .

(٣) **المعنىٰ** : كنت أحذر فراقهم قبل وقوعه ، ولكن الهالك لا ينفعه الحذر ، وفي « الديوان » : (خَائِفاً) بدل (حَائِناً) والصواب ما هو مثبت .

(٤) **مَزَاوِدكم** : جمع مِزْوَدٍ ، وهو وعاءٌ يجعلُ فيهِ الزادُ ، أو وعاءُ الماءِ الذي يُتزوَّدُ للسفرِ ، وهو المرادُ هنا . وفي « الديوان » و« العكبري » : (مَزَادَكُمْ) بدل (مَزَاوِدَكُمْ) .

(٥) **العينُ الشكرىٰ** : الممتلئةُ بالدمعِ . **المَاقُ** : طرفُ العينِ مِمَّا يلي الأنفَ وهو مخرجُ الدمعِ مِنَ العينِ .

أَدَرْنَ عُيُونـاً حَـائِـرَاتٍ كَـأَنَّهَـا ... مُـرَكَّبَـةٌ أَحْـدَاقُهَـا فَـوْقَ زِئْبَـقِ
عَشِيَّـةَ يَعْـدُونَـا عَـنِ النَّظَـرِ الْبُكَـا ... وَعَـنْ لَـذَّةِ التَّـوْدِيـعِ خَـوْفُ التَّفَـرُّقِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٣٤١] : [منَ الطويل]

هُـوَ الْبَيْـنُ حَتَّـىٰ مَـا تَـأَنَّـى الْحَـزَائِـقُ ... وَيَـا قَلْـبُ حَتَّـىٰ أَنْـتَ مِمَّـنْ أُفَـارِقُ (١)
وَقَفْنَـا ومِمَّـا زَادَ بَثّـاً وُقُـوفُنَـا ... فَـرِيقَـيْ هَـوىً : مِنَّـا مَشُـوقٌ وَشَـائِـقُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٢١ـ٢٢٢] : [منَ الوافر]

بَقَـائِـي شَـاءَ لَيْـسَ هُـمُ ارْتِحَـالاَ ... وَحُسْـنَ الصَّبْـرِ زَمُّـوا لاَ الْجِمَـالاَ
تَـوَلَّـوْا بَغْتَـةً فَكَـأَنَّ بَيْنـاً ... تَهَيَّبَنِـي فَفَـاجَـأَنِـي اغْتِيَـالاَ
كَـأَنَّ الْعِيـسَ كَـانَـتْ فَـوْقَ جَفْنِـي ... مُنَـاخَـاتٍ فَلَمَّـا ثُـرْنَ سَـالاَ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٣٤] : [منَ الكامل]

حِدَقُ الْحِسَانِ مِنَ الْغَوَانِي هِجْنَ لِي ... يَـوْمَ الْفِـرَاقِ صَبَـابَـةً وَغَلِيـلاَ (٢)

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٢٢٠] : [منَ البسيط]

قَـدْ عَلَّـمَ الْبَيْـنُ مِنَّـا الْبَيْـنَ أَجْفَـانَـا ... تَـدْمَـىٰ وَأَلَّـفَ فِـي ذَا الْقَلْـبِ أَحْـزَانَـا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ١٩٦] : [منَ الكامل]

بِنَّـا فَلَـوْ حَلَّيْتَنَـا لَـمْ تَـدْرِ مَـا ... أَلْـوَانُنَـا مِمَّـا امْتُقِعْـنَ تَلَـوُّنَـا (٣)
أَفْـدِي الْمُـوَدَّعَـةَ الَّتِـي أَتْبَعْتُهَـا ... نَظَـراً فُـرَادَىٰ بَيْـنَ زَفْـرَاتٍ ثُنَـا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣٤٢] : [منَ المتقارب]

فَـوَاحَسْـرَتَـا مَـا أَمَـرَّ الْفِـرَاقَ ... وَأَعْلَـقَ نِيـرَانَـهُ بِـالْكُبُـودِ

ويعجبُني قولُ بعضِهم في شكوى الفِراقِ : [منَ الخفيف]

إِنَّ يَـوْمَ الْـوَدَاعِ قَطَّـعَ قَلْبِـي ... قَطَّـعَ اللهُ قَلْـبَ يَـوْمِ الْـوَدَاعِ

وقولُ الآخرِ : [منَ الكامل]

وَلَقَـدْ عَلِمْـتُ بِـأَنَّهُـمْ نَـذَرُوا دَمِـي ... أَوَلِـي دَمٌ يَـوْمَ الْفِـرَاقِ يُـرَاقُ ؟!

وقولُ ابنِ الفارضِ [في « ديوانه » ١٥٢] : [منَ الكامل]

وَبِمَـا جَرَىٰ فِـي مَـوْقِـفِ التَّـوْدِيـعِ مِـنْ ... أَلَـمِ النَّـوَىٰ شَـاهَـدْتُ هَـوْلَ الْمَـوْقِـفِ

---

(١) تأنّى : تمهَّلَ وترَفَّقَ . الحَزَائقُ : الجماعةُ مِنَ الناسِ .

(٢) الغليلُ والغُلَّةُ : شدَّةُ العطشِ وحرارتُهُ .

(٣) حلَّيتنا : وصفتنا . امتُقِعَ : تغيَّرَ لونُهُ مِنْ حُزنٍ أو فزعٍ أو حياءٍ . وفي « الديوان » : (بِتْنَا) بدل (بِنَّا) ، و(اسْتُفِعْنَ) بدل (امْتُقِعْنَ) . ومعنى البيت : تفرَّقنا ، فلعِظَمِ ما نالنا من ألم الفراق ، لو أردت أن تصِفَنا . . ما قدرت ؛ لتغيُّرِ أوصافنا ، فكنت لا تدري بأي لون تصفنا .

وقولُ ابنِ عبدِ ربِّهِ [في « ديوانهِ » ١٤٠] : [منَ الخفيف]

وَدَّعَتْنِي بِزَفْرَةٍ وَاعْتِنَاقِ ... ثُمَّ قَالَتْ مَتَىٰ يَكُونُ التَّلاقِي ؟
إنَّ يَوْمَ الْفِرَاقِ أَفْظَعُ يَوْمٍ ... لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ يَوْمِ الْفِرَاقِ

[توديع ابن اللبانة للمعتمد بن عباد]

ومِنْ أرقِّ ما فيهِ، وأَبعثِهِ للأشجانِ، وتحريكِهِ للبلابلِ: قولُ [ابْنِ] اللَّبَّانَةِ في توديعِ المعتمدِ بنِ عبَّادٍ، وهوَ: [منَ البسيط]

تَبْكِي السَّمَاءُ بِدَمْعٍ رَائِحٍ غَادِي ... عَلَى الْبَهَالِيلِ مِنْ أَبْنَاءِ عَبَّادِ
عَلَى الْجِبَالِ الَّتِي هُدَّتْ قَوَاعِدُهَا ... وَكَانَتِ الأَرْضُ مِنْهُمْ ذَاتَ أَوْتَادِ
عِرِّيسَةٌ دَخَلَتْهَا النَّائِبَاتُ عَلَىٰ ... أَسَاوِدٍ مِنْهُمُ فِيهَا وَآسَادِ[1]
وَكَعْبَةٌ كَانَتِ الآمَالُ تَخْدِمُهَا ... وَالْيَوْمَ لاَ عَاكِفٌ فِيهَا وَلاَ بَادِي
يَا ضَيْفُ أَقْفَرَ بَيْتُ الْمَكْرُمَاتِ فَخُذْ ... فِي ضَمِّ شَمْلِكَ وَاجْمَعْ فَضْلَةَ الزَّادِ
لَمَّا دَنَا الْوَقْتُ لَمْ تُخْلَفْ لَهُ عِدَةٌ ... وَكُلُّ شَيْءٍ بِمِيقَاتٍ وَمِيعَادِ
إنْ يُغْلَبُوا فَبَنُو الْعَبَّاسِ قَدْ غُلِبُوا ... وَقَدْ خَلَتْ قَبْلَ حِمْصٍ أَرْضُ بَغْدَادِ
نُسِيتُ إلاَّ غَدَاةَ النَّهْرِ يَوْمَ غَدَوْا ... فِي الْمُنْشَآتِ كَأَمْوَاتٍ بِأَلْحَادِ
وَالنَّاسُ قَدْ مَلَؤُوا الْعِبْرَيْنِ وَاعْتَبَرُوا ... وَأَرْسَلُوا الدَّمْعَ حَتَّىٰ فَاضَ فِي الْوَادِي[2]
حَانَ الْوَدَاعُ فَضَجَّتْ كُلُّ صَارِخَةٍ ... وَصَارِخٍ مِنْ مُفَدَّاتٍ وَمِنْ فَادِي
سَارَتْ سَفَائِنُهُمْ وَالنَّوْحُ يَتْبَعُهَا ... كَأَنَّهَا إِبِلٌ يَحْدُو بِهَا الْحَادِي
كَمْ سَالَ فِي الْمَاءِ مِنْ دَمْعٍ وَكَمْ حَمَلَتْ ... تِلْكَ الْقَطَائِعُ مِنْ أَفْلاَذِ أَكْبَادِ

وفي وصفِ ذلِكَ اليومِ بعينِهِ يقولُ ابنُ حَمْدِيسَ [في « ديوانهِ » ٢٦٩] : [منَ الطويل]

وَلَمَّا رَحَلْتُمْ بِالنَّدَىٰ فِي أَكُفِّكُمْ ... وَقُلْقِلَ رَضْوَىٰ مِنْكُمُ وَثَبِيرُ[3]
رَفَعْتُ لِسَانِي بِالْقِيَامَةِ قَدْ دَنَتْ ... فَهٰذِي الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ تَسِيرُ

وقد نظرَ فيهِ إلىٰ قولِ ابنِ المعتزِّ في رثاءِ ابنِ الفراتِ [في « ديوانه » ٣٢٦] : [منَ السّريع]

هٰذَا أَبُو الْعَبَّاسِ فِي نَعْشِهِ ... قُومُوا انْظُرُوا كَيْفَ تَسِيرُ الْجِبَالْ

وأَغارَ عليهِ الناظمُ في قولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/١٢٩] : [منَ الكامل]

مَا كُنْتُ آمُلُ قَبْلَ نَعْشِكَ أَنْ أَرَىٰ ... رَضْوَىٰ عَلَىٰ أَيْدِي الرِّجَالِ تَسِيرُ

[ابن درّاج وزوجته]

ومَنِ الذي لا تهيجُ أَشجانُهُ ، ولا تضطربُ أَحزانُهُ ، ولا تضطرمُ نيرانُهُ عندَما يسمعُ قولَ ابنِ درَّاجٍ ، وقد عزمَ على

---

(١) العِرِّيسَةُ : مأوى الأسد .

(٢) العبرين : طَرَفا النهر .

(٣) قلقلَ : اضطرب . رضوىٰ : اسمُ جبلٍ بـ(المدينةِ) ، وثبيرُ : اسمُ جبلٍ بين (مكةَ) و(منىٰ) ، ومنه قيل : أشرق ثبير كما نغير .

المسيرِ ، وخنقهُ وزوجهُ الشهيقُ والزفيرُ [في « ديوانه » ٢٥٠] : [منَ الطويل]

تُـراجِعُنِـي عَهْـدَ الْمَـوَدَّةِ وَالْهَـوَىٰ وَفِـي الْمَهْـدِ مَبْغُـومُ النِّـدَاءِ صَغِيـرُ (١)

عَيِـيٌّ بِمَـرْجُـوعِ الْخِطَـابِ وَإِنَّـهُ بِمَـوْقِـعِ أَهْـوَاءِ [النُّفُـوسِ] خَبِيـرُ

[لله درك يا بن زريق]

وقولَ ابنِ زُريقٍ [البغداديِّ في « ديوانه »] : [منَ البسيط]

وَكَـمْ تَشَبَّثَ بِي يَـوْمَ الـرَّحِيـلِ ضُحىً وَأَدْمُعِـي مُستَهِـلاَّتٌ وَأَدْمُعُـهُ

وَكَـمْ تَشَفَّـعَ بِـي أَلاَّ أُفَـارِقَـهُ وَلِلضَّـرُورَاتِ حَـالٌ مَـا يُشَفِّعُـهُ

ولا نبخسُ الشيخَ البُرعيَّ حقَّهُ مِنَ الرقَّةِ والعذُوبَةِ في أَمثالِ قولِهِ [في « ديوانه » ١١١] : [منَ الكامل]

بِـأَبِـي مُـوَدِّعَـةٌ تَخَـافَـتَ صَـوْتُهَـا خَـوْفَ الـرَّقِيـبِ وَعَيْنُهَـا تَتَمَـالاَ

قَـالَـتْ : تُـوَدِّعُنَـا ، فَقُلْـتُ لَهَـا : نَعَـمْ قَـالَـتْ : فَتَنْسَـانَـا ، فَقُلْـتُ لَهَـا : لاَ

وقالَ شيخُنا العلاَّمةُ أَبو بكرِ بنُ شهابٍ مِنْ قصيدةٍ تخلَّصَ فيها إِلىٰ مدحِ جدِّي المُحسنِ : [منَ الوافر]

وَلَـمْ أَنْـسَ الْـوَدَاعَ وَمَـا جَـرَىٰ لِـي غَـدَاةَ الْبَيْـنِ إِذْ عَـزَّ الْمَقَـامُ

بَكَـتْ خَـوْفَ النَّـوَىٰ وَبَكَيْـتُ قَهْـراً دَمـاً فَبِهَـا وَبِـي لَعِـبَ الْغَـرَامُ

تَبُـثُّ إِلَـيَّ شَكْـوَاهَـا فَـأَشْكُـو إِلَيْهَـا وَالـدُّمُـوعُ لَهَـا انْسِجَـامُ

وَقَـالَـتْ لِـي : أَتَـرْجِعُ عَـنْ قَـرِيـبٍ ؟ فَقُلْـتُ : نَعَـمْ وَلِلـدَّهْـرِ احْتِكَـامُ

[قصيدة للمؤلف في الموضوع]

وكمْ لي فيهِ مِنْ مثيرِ غرامٍ ، ومدجِّجِ ضرامٍ ، منهُ قولي [في « ديوان المؤلف » ٥٢٥] : [منَ الطويل]

تَـذَكَّـرْتُ شَـرْقِيَّ الْحِمَـىٰ مَنْبِـتَ الأَثْـلِ وَمَا أَصْعَبَ الذِّكْرَىٰ عَلَىٰ ذِي الْوَفَا مِثْلِي (٢)

مَشَـارِفُ مَـا فِيهِـنَّ لِلْعَيْـنِ مَنْظَـرٌ يَـرُوقُ سِـوَىٰ شَيْءٍ مِـنَ السِّدْرِ وَالنَّخْلِ

فَمَـا زَرْعُهَـا زَاكٍ وَلاَ ثَـمَّ قَـاطِـنٌ بِهَـا غَيْـرُ شَـاكٍ قِلَّـةَ الأَمْـنِ وَالْعَـدْلِ

وَلَكِـنَّ فِيهَـا نَشْـأَتِـي وَوِلاَدَتِـي وَخَلَّفْـتُ فِيهَـا صِبْيَتِـي وَبِهَـا أَهْلِـي

فَمَـا فِـي بِـلاَدِ اللهِ أَرْضٌ كَمِثْلِهَـا لَـدَيَّ عَلَـىٰ تِلْـكَ الْمَخَـاوِفِ وَالأَزْلِ (٣)

وَلَـمْ أَنْـسَ فِـي يَـوْمِ الْـوَدَاعِ مَـوَاقِفـاً لَوَاعِجُهَا فِي الْقَلْبِ أَشْوَىٰ مِنَ الثُّكْلِ

تُـرَاجِعُنِـي فِيهَـا الْهَـوَىٰ أُمُّ شَـادِنٍ وَأَجْفَـانُهَـا تَجْـرِي وَأَشْجَـانُهَـا تَغْلِـي (٤)

وَتَلْـوِي بِلِيَّتْهَـا مَخَـافَـةَ طِفْلَـةٍ تَـرَىٰ مَا بِهَـا مِـنْ حَسْـرَةِ الْبَيْـنِ أَوْ طِفْلِ

---

(١) البَغْمُ : الصوتُ الرخيمُ .

(٢) الأَثْلُ : نوعٌ من أجود الشجر .

(٣) الأَزْلُ : الضيقُ والشدَّةُ .

(٤) الشَّادنُ : من أولاد الظباء الذي قويَ وطلعَ قرناهُ واستغنىٰ عن أُمِّهِ .

تَصُـدُّ لإِيهَـامِ الأُطَيْفَـالِ تَـارَةً ... وَتُقْبِـلُ أَحْيَـانـاً بِفَـوَّارَتَـيْ وَبْـلِ[1]
وَيَمْنَعُهَـا سَـوْقَ الْمَقَـالِ نَشِيجُهَـا ... سِـوَىٰ كَلِمَـاتٍ سَـاقَطَتْهَـا عَلَـىٰ رِسْـلِ
تَقُـولُ إِلَـىٰ أَيْـنَ السُّـرَىٰ بَعْـدَمَـا تَـرَىٰ ... فَلَيْـسَ لَنَـا ذَرْعٌ عَلَـىٰ فُـرْقَـةِ الشَّمْـلِ
فَقُلْـتُ : قَـرِيبـاً تَنْطَـوِي شُقَّـةُ النَّـوَىٰ ... وَيُعْقِبُهَـا مِـنْ فَضْلِـهِ اللهُ بِـالْـوَصْـلِ

[الخلاف في شأن التوديع]

ثُمَّ إِنَّ الأُدباءَ على اختلافٍ في شأْنِ التوديعِ :

[١ـ عصفور باليد أفضل من عشر على الشجر]

فمنهُم : مَنْ أَحبَّهُ لتقريبهِ مِنَ العناقِ والاتِّصالِ ، كما **قالَ الناظمُ** [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٦٠] : [مِنَ الطويل]

وَمَـنْ لِـي بِيَـوْمٍ مِثْـلِ يَـوْمٍ كَـرِهْتُـهُ ... قَـرُبْـتُ بِـهِ عِنْـدَ الْـوَدَاعِ مِـنَ الْبُعْـدِ

وقالَ الأَندلسيُّ [إبراهيم الحجاري في « نفح الطيب » ٣/ ٤١١] : [مِنَ الطويل]

لَئِـنْ كَـرِهُـوا يَـوْمَ الْـوَدَاعِ فَـإِنَّنِـي ... أَهِيـمُ بِـهِ وَجْـداً لأَجْـلِ عِنَـاقِـهِ
أُصَـافِـحُ مَـنْ أَهْـوَاهُ غَيْـرَ مُـرَاقَـبٍ ... وَسِـرُّ التَّـلاَقِـي مُـودَعٌ فِـي فِـرَاقِـهِ

وأَنشدَ المبرِّدُ : [مِنَ الخفيف]

مُتِّعَـا بِـالْفِـرَاقِ يَـوْمَ الْفِـرَاقِ ... مُسْتَجِيـرَيْـنِ بِـالْبُكَـا وَالْعِنَـاقِ
وَأَظَـلَّ الْفِـرَاقُ فَـالْتَقَيَـا فِيـ ... ـهِ فِـرَاقٌ أَتَـاهُمَـا بِـاتِّفَـاقِ
كَيْـفَ أَدْعُـو عَلَـى الْفِـرَاقِ بِحَتْـفٍ ... وَغَـدَاةَ الْفِـرَاقِ كَـانَ التَّـلاَقِـي

وهيَ أَبياتٌ باردةٌ متكلَّفةٌ .

[٢ـ درء المفاسد مقدم علىٰ جلب المصالح]

ومنهُم : مَنْ كرهَهُ لإِفضائِهِ إِلى الاحتراقِ ، ومبلغِ الروحِ التَّراقِ ، وبسطُ ما فيهِ يُفضي إِلى الإِملالِ ، فلندعْهُ إِلىٰ فُرصةٍ أُخرىٰ .

[المحب شقي علىٰ كل الأحوال]

وقالَ الحماسيُّ [في « ديوان الحماسة » ٢/ ١٢٤] : [مِنَ الوافر]

وَمَـا فِـي الأَرْضِ أَشْقَـىٰ مِـنْ مُحِـبٍّ ... وَإِنْ وَجَـدَ الْهَـوَىٰ حُلْـوَ الْمَـذَاقِ
تَـرَاهُ بَـاكِيـاً فِـي كُـلِّ وَقْـتٍ ... مَخَـافَـةَ فُـرْقَـةٍ أَوْ لاشْتِيَـاقِ
فَيَبْكِـي إِنْ نَـأَوْا شَـوْقـاً إِلَيْهِـمْ ... وَيَبْكِـي إِنْ دَنَـوْا خَـوْفَ الْفِـرَاقِ

وقدْ نظرَ إِليهِ الناظمُ في **قولهِ** [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢٦٦] : [مِنَ المنسرح]

وَاحَـرَبَـا مِنْـكِ يَـا جَـدَايَتَهَـا ... مُقِيمَـةً فَـاعْلَمِـي وَمُـرْتَحِلَـهْ ![2]

---

(١) **فوَّارتا الوبل** : المراد بهما العيونُ الدَّامعَةُ .

(٢) **الحَرَبُ** : الهلاكُ . **الجِدايَةُ** ـ بفتح الجيمِ وكسرِها ـ : الذَّكرُ والأُنثىٰ مِنْ أَولادِ الظِّباءِ . والمعنىٰ : أَنَّهُ يندبُ حظَّهُ مِنْ ظبيةِ هـٰذهِ الدارِ ؛ لأَنَّها إِذا أَقامتْ منعتْهُ مِنَ الوصولِ إِليها ، والسفرُ حائلٌ بينهُ وبينها ، فقربُها وبعدُها سيانِ .

وقولِه [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٣٠٤] : [منَ الطويل]

وَبَيْنَ الرِّضَا وَالسُّخْطِ وَالْقُرْبِ وَالنَّوَىٰ ... مَجَالٌ لِدَمْعِ الْعَاشِقِ الْمُتَرَقْرِقِ (١)

ويعجبُني قولُ بعضِهم : [منَ الطويل]

حَبِيبِي غَداً لاَ شَكَّ فِيهِ مُوَدِّعُ ... فَوَاللهِ مَا أَدْرِي بِهِ كَيْفَ أَصْنَعُ
فَيَا يَوْمُ لاَ أَدْبَرْتَ هَلْ لَكَ مَحْبِسٌ ... وَيَا غَدُ لاَ أَقْبَلْتَ هَلْ لَكَ مُدْفِعُ ؟
إِذَا لَمْ أُشَيِّعْهُ تَقَطَّعْتُ حَسْرَةً ... وَوَاكَبِداً إِنْ كُنْتُ مِمَّنْ يُشَيِّعُ

وقالَ الناظمُ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ١٤٨] : [منَ الوافر]

وَفَارَقْتُ الْحَبِيبَ بِلاَ وَدَاعٍ ... وَوَدَّعْتُ الْبِلاَدَ بِلاَ سَلاَمِ

وقالَ مِهْيَارٌ : [منَ الكامل]

صُلْبُ الْحَصَاةِ يَثُورُ غَيْرَ مُزَوَّدٍ ... مِنْ أَهْلِهِ وَيَسِيرُ غَيْرَ مُوَدِّعِ

[الاقتناع باليسير من المحبوب عند الشعراء]

وأمَّا الاقتناعُ باليسيرِ مِنَ المحبوبِ : فإنَّهُ كثيرٌ في الأَشعارِ ؛ منهُ **قولُ الناظمِ** [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٣] : [منَ الوافر]

وَجُودَكَ بِالْمُقَامِ وَلَوْ قَلِيلاً ... فَمَا فِيمَا تَجُودُ بِهِ قَلِيلُ (٢)

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ١٣٤] : [منَ الكامل]

وَقَنِعْتُ بِاللُّقْيَا وَأَوَّلِ نَظْرَةٍ ... إِنَّ الْقَلِيلَ مِنَ الْحَبِيبِ كَثِيرُ

وقالَ ابنُ الطَّثْرِيَّةِ [في « ديوانهِ » ٩٧] : [منَ الطويل]

أَلَيْسَ قَلِيلاً نَظْرَةٌ إِنْ نَظَرْتُهَا ... إِلَيْكِ ؟ وَكَلاَّ لَيْسَ مِنْكِ قَلِيلُ

وقالَ ابنُ أَبي ربيعةَ [في « ديوانهِ » ٢٧٥] : [منَ الخفيف]

لَيْتَ حَظِّي كَطَرْفَةِ الْعَيْنِ مِنْهَا ... وَكَثِيرٌ مِنْهَا الْقَلِيلُ الْمُهَنَّا
أَوْ حَدِيثٍ عَلَىٰ خَلاَءٍ يُسَلِّي ... مَا يُجَنِّي الْفُؤَادَ مِنْهَا وَمِنَّا
كَبُرَتْ رُبَّ نِعْمَةٍ مِنْكِ يَوْماً ... أَنْ أَرَاهَا قَبْلَ الْمَمَاتِ وَمِنَّا

وقالَ ذو الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » ٢/ ٩١٣] : [منَ الطويل]

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ تَعَلُّلُ سَاعَةٍ ... قَلِيلاً فَإِنِّي نَافِعٌ لِي قَلِيلُهَا

وقالَ ابنُ مُطَيْرٍ [في « ديوانهِ » ٥٤] : [منَ الطويل]

كَلاَمُكِ ـ يَا سَلْمَىٰ ـ وَإِنْ قَلَّ نَافِعِي ... فَلاَ تَحْسَبِي أَنِّي وَإِنْ قَلَّ حَاقِرُهْ

---

(١) **المترقرق** : الذي يجولُ في العينِ ولا ينحدرُ . وفي « الديوان » : (الْمُقْلَةِ) بدل (الْعَاشِقِ) .
(٢) أي : وجُدْ جودَكَ .

وقالَ إسحاقُ المَوْصِليُّ [في « معجم الأدباءِ » ٦/٤٠] : [منَ الخفيف]

إنَّ مَــا قَــلَّ مِنْـكِ يَكْثُـرُ عِنْـدِي ... وَكَثِيــرٌ مِمَّــنْ تُحِــبُّ قَلِيــلُ

وقالَ أبو نصرٍ الميكاليُّ : [منَ الوافر]

قَلِيــلٌ مِنْــكِ يَكْفِينِــي وَلَـٰكِــنْ ... قَلِيلُــكِ لاَ يُقَــالُ لَــهُ قَلِيــلُ

[وأجمله : عند سلطان العاشقين]

وقد تنوَّقَ[1] فيهِ سلطانُ العاشقينَ ، فقالَ [في « ديوانهِ » ٤٧] : [منَ الطويل]

وَمُنِّي عَلَىٰ سَمْعِي بِـ(لَنْ) إِنْ مَنَعْتِ أَنْ ... أَرَاكِ فَمِــنْ قَبْلِــي لِغَيْــرِيَ لَــذَّتِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٥٧] : [منَ الخفيف]

ذَابَ قَلْبِــي فَــأْذَنْ لَــهُ يَتَمَنَّــا ... كَ وَفِيــهِ بَقِيَّــةٌ لِــرَجَــاكَــا

وَإِذَا لَــمْ تُنْعِــشْ بِــرَوْحِ التَّمَنِّــي ... رَمَقِــي وَاقْتَضَــىٰ فَنَــائِي بَقَــاكَــا

أَبْــقِ لِــي مُهْجَــةً لَعَلِّــيَ يَــوْمــاً ... قَبْــلَ مَــوْتِــي أَرَىٰ بِهَــا مَــنْ رَآكَــا

أَوْ مُــرِ الْغُمْــضَ أَنْ يَمُــرَّ بِجَفْنِــي ... فَكَــأَنِّــي بِــهِ مُطِيعــاً عَصَــاكَــا[2]

وقالَ [في « ديوانهِ » ٥٦] : [منَ الطويل]

وَلِـي مِنْـكِ كَـافٍ إِنْ هَـدَرْتِ دَمِي وَلَـمْ ... أُعَــدَّ شَهِيــداً عِلْــمُ دَاعِــي مَنِيَّتِــي

[الروذباري والشاب الطريح]

وفي ترجمةِ الرُّوذَباريِّ المتوفَّىٰ سنةَ : (٣٢٠ هـ) مِنْ « **طبقاتِ ابنِ السبكيِّ** » [٣/٤٩] : أَنَّهُ مرَّ بشابٍّ طريحٍ فقالوا : إِنَّهُ اجتازَ بهـٰذا القصرِ وجاريةٌ تغنِّي وتقولُ : [من مجزوء الرَّمَل]

كَبُــــرَتْ هِمَّــــةُ عَبْــــدٍ ... طَمِعَــــتْ فِــــي أَنْ تَــــرَاكَــــا

أَوَمَــــا يَكْفِــــي لِعَيْنِــــي ... أَنْ تَــــرَىٰ مَــــنْ قَــــدْ رَآكَــــا

ومِنَ الغاياتِ في هـٰذا البابِ قَوْلُ ابنِ الدُّمَيْنَةِ [في « ديوانهِ »] : [منَ الطويل]

رَضِيـتُ بِسَعْـيِ الْـوَهْـمِ بَيْنِـي وَبَيْنَهَـا ... وَإِنْ لَـمْ يَكُـنْ فِـي الْوَصْلِ مِنْهُ نَصِيبُ

وقالَ آخرُ : [منَ الطويل]

قِفِــي نَــوِّلِينِــي نَظْــرَةً إِنْ نَظَــرْتُهَــا ... إِلَـى الْحَـوْلِ تَكْفِينِي عَـنِ الْمَـاءِ وَالـزَّادِ

وهو مثلُ **قولِ الناظمِ** [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/٤٧] : [منَ الخفيف]

هَـٰـذِهِ النَّظْــرَةُ الَّتِــي نَــالَهَــا مِنْـــــكَ إِلَــىٰ مِثْلِهَــا مِــنَ الْحَــوْلِ زَادُهْ

---

(١) تنوَّق فلانٌ في أُمورِهِ : إذا تجوَّدَ وبالغَ وأَحكمَ .

(٢) **الغُمْضُ** : النَّوْمُ .

[امرأة في الطواف]

وقالَ بعضُهُم [كما في «المستطرف» ١/ ٤٤٢] : رأيتُ امرأةً مستقبلةً البيتَ في الموسمِ ، وهيَ علىٰ غايةٍ مِنَ النحافةِ والضُّرِّ ، رافعةً يديها تدعو ، فقلتُ لها : هل لكِ مِنْ حاجةٍ؟ قالت : حاجتي أَنْ تُنادي في الموقفِ بقولي : [منَ الخفيف]

تَــزَوَّدَ كُــلُّ النَّــاسِ زَاداً يُقِيمُهُـــمْ ... وَمَــالِــيَ زَادٌ وَالسَّــلاَمُ عَلَــىٰ نَفْسِــي

ففعلتُ ، فَإِذَا أَنا بفتىً منهوكِ القوىٰ ، يقولُ : أَنا واللهِ الزادُ ، فمضيتُ بهِ إِليها ، فما زادوا على النظرِ والتباكي ، ثُمَّ قالتْ لهُ : انصرفْ مصاحباً ، فقلتُ : ما علمتُ أَنَّ التقاءَكُما يكونُ قاصراً علىٰ هـٰذا ، فقالتْ : أَمسكْ يا فتىٰ ، أَما علمتَ أَنَّ ركوبَ العارِ ودخولَ النارِ شديدٌ ؟! .

وقالَ بعضُهُم : [منَ الطويل]

أُقَلِّــبُ طَــرْفِــي فِــي السَّمَــاءِ تَــرَدُّداً ... لَعَلِّــي أَرَى النَّجْــمَ الَّــذِي أَنْــتَ تَنْظُــرُ

وَأَسْتَعْـرِضُ الـرُّكْبَـانَ مِـنْ كُـلِّ وِجْهَـةٍ ... لَعَلِّـي بِمَــنْ قَــدْ شَــمَّ عَـرْفَـكَ أَظْفَـرُ[1]

وَأَسْتَقْبِــلُ الأَرْوَاحَ عِنْــدَ هُبُــوبِهَــا ... لَعَــلَّ نَسِيــمَ الــرِّيــحِ عَنْــكَ يُخَبِّــرُ

وقالَ كُثَيِّرُ عَزَّةَ [في «ديوانه» ٤١٩] : [منَ الطويل]

وَإِنِّـي لأَرْضَـىٰ مِنْـكِ يَـا عَـزَّ بِـالَّـذِي ... لَـوَ ابْصَـرَهُ الْـوَاشِـي لَقَـرَّتْ بَـلاَبِلُـهْ[2]

بِـلاَ ، وَبِـأَنْ لاَ أَسْتَطِيـعُ ، وَبِـالْمُنَـىٰ ... وَبِـالْـوَعْـدِ ، وَالتَّسْـوِيـفِ قَـدْ مَـلَّ آمِلُـهْ

وَبِـالنَّظْـرَةِ الْعَجْلَـىٰ ، وَبِـالْحَـوْلِ يَنْقَضِي ... أَوَاخِــرُهُ مَــا نَلْتَقِــي وَأَوَائِلُــــهْ

وقالَ جَحْدَرٌ [في «خزانةِ الأدبِ» ١١/ ٢٠٩] : [منَ الوافر]

أَلَيْــسَ اللَّيْــلُ يَجْمَــعُ أُمَّ عَمْــرٍو ... وَإِيَّــانَــا فَــذَاكَ بِنَــا تَــدَانِــي ؟

نَعَــمْ ، وَأَرَى الْهِــلاَلَ كَمَــا تَــرَاهُ ... وَيَعْلُــوهَــا النَّهَــارُ كَمَــا عَــلاَنِــي

ويأْتي ما يتعلَّقُ بِهِ عندَ شرحِ **قولِهِ** [في «العُكبَرِيِّ» ٣/ ١٦٤] : [منَ البسيط]

يُجَــنُّ شَــوْقــاً فَلَــوْلاَ أَنَّ رَائِحَــةً ... تَـزُورُهُ مِـنْ رِيَـاحِ الشَّـرْقِ مَـا عَقَـلاَ

مِنَ المجلسِ السابعِ .

وعندَ **قولِهِ** [في «العُكبَرِيِّ» ١/ ٣١٩] : [منَ الخفيف]

أَيَّ يَــوْمٍ سَــرَرْتَنِــي بِــوِصَــالٍ ... لَــمْ تَــرُعْنِــي ثَــلاَثَــةً بِصُــدُودِ

أَواخرَ المجلسِ التاسعِ .

* * *

---

(١) العَرْفُ : الريحُ ، طيِّبَةً كانتْ أَوْ خبيثةً ، يُقالُ : ما أَطْيَبَ عَرْفه .

(٢) الوَاشِي : النَّمَّامُ . البَلابِلُ : شدَّةُ الهمِّ والوَسْوَاسِ في الصُّدُورِ .



[قالَ أَبو الطيِّبِ المتنبّي في « العُكْبَريِّ » ١/ ٢٩٧] : [منَ المنسرح]

بَـانُـوا بِخُـرْعُـوبَـةٍ لَهَـا كَفَـلٌ ... يَكَـادُ عِنْـدَ الْقِيَـامِ يُقْعِـدُهَـا[1]

[المرأة ممدوحة بكبر العجيزة]

يقولُ : ذهبوا بشابَّةٍ بَضَّةٍ[2] لها كَفَلٌ ، يكادُ يُقعدُها ما عليهِ مِنْ كثرةِ اللحمِ ، وهـٰذا أَيضاً يُؤَيِّدُ الاحتمالَ الثاني ، وهوَ : وصفُهُم حالَ الارتحالِ ، والمرأَةُ ممدوحَةٌ بِكِبَرِ العجيزةِ ، وقد تكرَّرَ عندَهُ ، فمنهُ **قولُهُ** [في « العُكْبَريِّ » ٣/ ٢١٠] : [منَ المنسرح]

يَجْـذِبُهَـا تَحْـتَ خَصْـرِهَـا عَجُـزٌ ... كَـأَنَّـهُ مِـنْ فِـرَاقِهَـا وَجِـلُ

وقولُهُ [في « العُكْبَريِّ » ٣/ ٢٣٤] : [منَ الكامل]

تَشْكُـو رَوَادِفَـكِ الْمَطِيَّـةُ فَـوْقَهَـا ... شَكْـوَى الَّتِـي وَجَـدَتْ هَـوَاكِ دَخِيـلاَ

وقولُهُ [في « العُكْبَريِّ » ٢/ ١١٧] : [منَ البسيط]

أَعَـارَنِـي سُقْـمَ جَفْنَيْـهِ وَحَمَّلَنِـي ... مِـنَ الْهَـوَىٰ ثِقْـلَ مَـا تَحْـوِي مَـآزِرُهُ

[جزء من حديث أم زرع]

وفي حديثِ أُمِّ زرعٍ : (عُكُومُها رَدَاحٌ)[3] ، وقد فسَّرَهُ بعضُهُم : بانتفاجِ العجيزةِ[4] ، وفيهِ أَيضاً : (فَوَجَدَ امْرَأَةً لَهَا ابْنَانِ مِثْلُ الصَّقْرَيْنِ يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِها بِرُمَّانَتَيْنِ)[5] ، وقد قيلَ : إِنَّ المرادَ بالرمَّانِ الحقيقةُ ، وأَنَّهُما يلعبانِ بِهما ، فلا يمسَّانِ ظهرَها ؛ لارتفاعِهِ بِعِظَمِ المآكمِ .

[حلم معاوية رضي الله عنه]

وكانتْ هندُ ابنةُ عتبةَ مَضْرِبَ المثلِ في ذلكَ ، حتَّىٰ لقد جوعِلَ[6] بعضُهُم علىٰ أَنْ يذكرَها لمعاويةَ ، فضربَ علىٰ عجيزتِهِ وهوَ يصلِّي ، وقالَ : ما أَشبهَها بعجيزةِ أُمِّكَ ، فلمَّا سلَّمَ . . قالَ لهُ : ما لكَ ولها ؟ إِنَّما كانَ يليها أَبو سفيانَ . وحملَهُ معَ ذلكَ ، وكساهُ ، ولكنْ ـ واللهُ أَعلمُ بصحَّةِ ذلكَ جميعِهِ ـ دسَّ مَنْ يحمِلُهُ على التحرُّشِ بزيادٍ ؛ ليشيطَ بدمِهِ ، فذهبَ إِلى (العراقِ) ، وسأَلَ زياداً عنْ أُمِّهِ ، وهوَ يخطُبُ ، فقالَ لهُ : يخبرُكَ عنها هـٰذا ، وأَشارَ إِلىٰ شرطيٍّ ، ذهبَ بهِ ، واحتزَّ الذي فيه عيناهُ .

---

(١) **الخُرْعُوبَةُ** : الشَّابَّةُ الحسنَةُ الجسيمةُ في قَوَامٍ ، وقال اللِّحْيَانِي : هيَ الرقيقةُ العظمِ ، الكثيرةُ اللحمِ ، الناعمةُ .

(٢) **البَضَّةُ** ، يقالُ : امرأَةٌ باضَّةٌ وبَضَّةٌ كثيرةُ اللحمِ .

(٣) أخرجه عن عائشة البخاري (٥١٨٩) في النكاح .

(٤) يقالُ امرأَةٌ نُفُجٌ : إذا كانت ضخمةَ الأَردافِ والمآكِمِ .

(٥) طرف من حديث عائشة السالف .

(٦) **جوعِلَ** : أي أُعطيَ جُعلاً ، وهوَ المالُ المؤدَّىٰ للإنسانِ ليفعلَ شيئاً .

[الأحنف يقطع يد رجل بحلمه وذكائه]

وبهٰذِه ذكرتُ ما رواهُ غيرُ واحدٍ : أَنَّ رجلاً جاءَ إِلى الأَحنفِ بنِ قيسٍ ، فلطَمَ وجهَهُ ، فقالَ : ما شأْنُكَ يا ابنَ أَخي ؟ وما دعاكَ إِلىٰ هٰذا ؟! قالَ : آليتُ أَنْ أَلطِمَ سيِّدَ العربِ مِنْ بني تميمٍ . قالَ : لَمْ تَبَرَّ يمينُكَ ؛ فما أَنا بسيِّدِها ، إِنَّما ذلكَ حارثةُ بنُ قدامة ، فذهبَ الرجلُ ، فلطَمَ حارثةَ ، فقامَ إِليهِ حارثةُ بالسيفِ ، فقطعَ يمينَهُ ، فبلغَ الأَحنفَ ، فقالَ : أَنا ـ واللهِ ـ قَطعتُها[1] .

[السبب في كون كبر العجيزة ممدوحاً]

وأَرادَ معاويةُ أَنْ يعبثَ بإِحدىٰ فُضلياتِ العربِ ، وعيَّرَها بثديها وكَفَلِها ، فقالتْ : إِنَّما كانَ يُضرَبُ المثلُ في كِبَرِ هٰذين بأُمِّكَ ، فقالَ لها : إِنَّا لم نَقُلْ لكِ إِلاَّ خيراً!! إِذا كَبُرَ ثديُ المرأَةِ . . رَوِيَ ولدُها ، واتَّسعَ صدرُها ، وإِذا انتفجَ كَفَلُها . . حَسُنَ مجلسُها . قالتْ : أَوَذاكَ ؟!!

[الثريا وانتفاج عجزها]

وأَخرجَ الأَصفهانيُّ بسندِهِ [كما في « الأغاني » ١/٢٢٥] : أَنَّ الثريَّا كانتْ تصُبُّ جرَّةَ ماءٍ علىٰ بدَنِها ، وهيَ قائمةٌ ، فلا يُصيبُ ظاهرَ فخذَيها شيءٌ منهُ ؛ لارتفاعِ عجُزِها .

وفيها أَو في عائشةَ بنتِ طلحةَ يقولُ ابنُ أَبي ربيعةَ [كما في « الأغاني » ١٧/١٣٣] : [منَ الطويل]

تَنُــوءُ بِــأُخْــرَاهَــا فَــلأْيــاً قِيَــامُهَــا ... وَتَمْشِــي الْهُــوَيْنَــا عَــنْ قَــرِيــبٍ فَتَبْهَــرُ[2]

[أخت الحجاج تنذر أن تعتمر ماشية]

ويُروىٰ : أَنَّ زينبَ ابنةَ يوسفَ ، أُختَ الحجَّاجِ ، نذرتْ أَنْ تعتمرَ ماشيةً مِنَ (الطائفِ) إِنْ شُفِيَ أَبوها مِنْ شَكْوٍ أَلَمَّ بِهِ ، ثُمَّ لم تصل (مكَّةَ) [إِلاَّ] علىٰ شهرٍ ؛ مِنْ سِمَنِها وامتلائِها ، وتَجاذُبِ أَطرافِها وروادِفِها ، وفي وجهِها ذلكَ يقولُ النُّميريُّ : [منَ الطويل]

تَضَــوَّعَ مِسْكــاً بَطْــنُ نَعْمَــانَ إِنْ مَشَــتْ ... بِــهِ زَيْنَــبُ فِــي نِسْــوَةٍ خَفِــرَاتِ[3]

يُخَبِّئْــنَ أَطْــرَافَ الْبَنَــانِ مِــنَ التُّقَــىٰ ... وَيَخْــرُجْــنَ جُنْــحَ اللَّيْــلِ مُعْتَمِــرَاتِ

وَلَمَّــا رَأَتْ رَكْــبَ النُّمَيْــرِيِّ أَعْــرَضَــتْ ... وَكُــنَّ مِــنَ انْ يَلْقَيْنَــهُ حَــذِرَاتِ

وفي ذلكَ خبرٌ طويلٌ .

وممَّنْ اشتهرَ بذلكَ ضُباعةُ ابنةُ عامرِ بنِ صعصعةَ ، كما وصفَها بعضُ الصحابةِ ، وقد رآها وهوَ غلامٌ يافعٌ تطوفُ بالبيتِ عُريانةً .

وحديثُ ذلكَ : أَنَّ عبدَ اللهِ بنَ جُدعانَ . . خطبَها ، وكانتْ عندَ رجلٍ مِنْ قُريشٍ ، فخببها عليهِ[4] ، وأَشارَ عليها أَنْ

---

(١) القصة في « المستطرف » (٢/٢٠٢) .

(٢) تَنُوءُ : نَاءَ بحملِهِ : نهضَ بجهدٍ ومشقَّةٍ ، والمرأةُ تَنُوءُ بها عَجِيزَتُهَا ؛ أي : تُثْقِلُهَا ، وهي تنوءُ بعجيزتها ، أي تنهضُ بها مُثْقَلَةً . اللَّأْيُ : بُطْءُ القيامِ . البُهْرُ : الإعْيَاءُ .

(٣) تضوَّعَ : فاحَ . خفراتٌ : حييَّاتٌ ، محفوظاتٌ من الفساد .

(٤) خبَّبها : أفسدها ، وفي الحديث عن أبي هريرة عند أبي داوود (٥١٧٠) ، والحاكم (٢/١٩٦) وصححه : « من خبب على امرىء زوجته أو مملوكه فليس منا » .



تتجنَّىٰ وتطلُبَ منهُ الطلاقَ ، فأَجابَها علىٰ شرطِ أَنْ لا تتزوَّجَ عبدَ اللهِ بنَ جُدعانَ ، فإِنْ خانتْ . . فعليها أَنْ تنحرَ مئةَ بَدَنةٍ ، وتنسجَ لهُ ثوباً في طولِ ما بينَ الأَخشبينِ ، وتطوفَ بالبيتِ ضحىً متجرِّدَةً عنِ الثيابِ ، فقبِلَتْ برأْيٍ مِنْ عبدِ اللهِ بنِ جُدعانَ ، ولمَّا انقضتْ عِدَّتُها . . تزوَّجَها ، وأَعطاها البُدْنَ ، فنُحرتْ ، ونسجَ لها إِماؤُهُ ثوباً في ذلكَ الطولِ ، بعثتْ بهِ لزوجِها الأَوَّلِ ، وطلبَ مِنْ قريشٍ أَنْ تُخَلِّيَ لهُ المطافَ ساعةً مِنْ نهارٍ ، فطافَتْ عُريانةً ، ولم يكُنْ للمسجدِ جدارٌ إِذْ ذاكَ . قالَ الراوي : فكنتُ فيمَنْ بقيَ حولَ الكعبةِ لصغرِ سِنِّي ، فلمْ أَرَ أَحسنَ منها مقبلةً ولا مدبرةً ، وإِنَّ رَكَبَها وكَفَلَها لمرتفعانِ ، تقولُ في طوافِها : [منَ الرَّجَز]

الْيَـــوْمَ يَبْـــدُو بَعْضُـــهُ أَوْ كُلُّـــهُ أَخْثَـــمَ مِثْـلَ الْعَقْــبِ بَـادٍ ظِلُّـهُ[1]

إِنَّما قالتْ : (بَعْضُهُ) ؛ لأَنَّها سترتْ بيديها [بعضَهُ] الآخرَ .

[ومنهن نائلة الكلبية]

وكانتْ نائِلةُ الكلبيَّةُ ابنةُ الفُرافِصةِ ممَّنْ تدخُلُ تحتَ الوصفِ .

[الشعراء في هذا الموضوع]

ونقلَ السيوطيُّ ، عَنِ الأَصمعيِّ ، وأَبي عمرٍو ، وغيرِهما : أَنَّهُ أَحسَنُ ما قيلَ في وصفِ امرأَةٍ عجزاءَ خميصةٍ قولُ أَبي وَجْزَةَ السعديِّ : [منَ الكامل]

أَدْمَـــاءُ فِـــي وَضَـــحٍ يَكَـــادُ رِداؤُهَـــا يَعْـــرَىٰ وَيَصْنَـــعُ مَـــا أَحَـــبَّ إِزَارُهَـــا[2]

وفي الموضوعِ يقولُ عَمرو بنُ كُلثومٍ [في « ديوانهِ » ٨٠] : [منَ الوافر]

وَمَـــأْكَمَـــةٍ يَضِيـــقُ الْبَـــابُ عَنْهَـــا وَكَشْـــحٍ قَـــدْ جُنِنْـــتُ بِـــهِ جُنُـــونَـــا[3]

وقالَ عروةُ بنُ الوردِ[4] : [منَ الكامل]

أَبَـــتِ الـــرَّوَادِفُ وَالثُّـــدِيُّ لِقُمْصِهَـــا مَـــسَّ الْبُطُـــونِ وَأَنْ تَمَـــسَّ ظُهُـــورَا

وقالَ النابغةُ الذُّبيانيُّ [في « ديوانهِ » ٢٣٥] : [منَ البسيط]

تَلُـــوثُ بَعْـــدَ افْتِضَـــالِ الْبُـــرْدِ مِئْـــزَرَهَـــا لَـــوْثـاً عَلَـــىٰ مِثْـلِ دِعْـصِ الـرَّمْلَـةِ الْهَـارِي[5]

وقالَ حسَّانٌ [في « ديوانهِ » ٢٩] : [منَ الكامل]

وَتَكَـــادُ تَكْسَـــلُ أَنْ تَجِـــيءَ فِـــرَاشَهَـــا فِـــي لِيـــنِ خَـــرْعَبَـــةٍ وَحُسْـــنِ قَـــوَامِ

(١) **الفرج الأخثم** : منتفخٌ قصيرُ السَّمْكِ خَنَّاقٌ ضَيِّقٌ ، والشطر الآخر يروىٰ :

ومـــا بـــدا منـــه فـــلا أُحِلُّـــهُ

(٢) **أدماء** : سمراء .

(٣) **الكَشْحُ** : ما بينَ الخاصرةِ إِلى الضِّلعِ الخلفيِّ .

(٤) البيت في « ديوان عمر ابن أبي ربيعة » (٤٩٢) .

(٥) **تَلُوثُ** : تمشي ببطءٍ لسمنِها . **الدِّعْصُ** : كثيبٌ مِنَ الرملِ مجتمعٌ .

وقالَ هدبةُ بنُ الخشرمِ [في « ديوانهِ » ١١٧] : [منَ الطويل]

خَرَجْنَ بِأَعْنَاقِ الظِّبَاءِ وَأَعيُنِ الْجَآذِرِ وَارْتَجَّتْ لَهُنَّ الرَّوَادِفُ (١)

وقال توبةُ بنُ الحميرِ الخفاجيُّ [في « ديوانهِ » ٤٢-٤٣] : [منَ الطويل]

أَمُخْتَرِمِي رَيْبُ الْمَنُونِ وَلَمْ أَزُرْ كَوَاعِبَ مِنْ هَمْدَانَ بِيضاً نُحُورُهَا

تَنُوءُ بِأَعْجَازٍ ثِقَالٍ وَأَسْوُقٍ خِدَالٍ وَأَقْدَامٍ لِطَافٍ خُصُورُهَا (٢)

وقالَ نُصَيْبٌ : [منَ البسيط]

وَذِي رَوَادِفَ لاَ يُلْفَى الإِزَارُ بِهَا يُلْوَىٰ وَلَوْ كَانَ سَبْعاً حِينَ يَأْتَزِرُ

وقالَ ابنُ ميَّادَةَ [في « ديوانهِ » ١٧١] : [منَ الطويل]

حَرَامِيَّةٌ أَمَّا مَلاَثُ إِزَارِهَا فَوَعْثٌ وَأَمَّا خَصْرُهَا فَلَطِيفُ (٣)

وقالَ العَرْجيُّ ـ وَهُوَ عبدُ اللهِ بنُ [عمرَ بنِ] عمرِو بنِ عثمانَ بنِ عفَّانَ ـ [في « ديوانهِ » ١٥٥-١٥٦] : [منَ الطويل]

أُسَائِلُ عَنْ أَسْمَاءَ فِي السِّجْنِ جَارَهَا لَعَمْرُ أَبِيهَا إِنَّنِي لَمُكَلَّفُ

مِنَ الْبِيضِ ، أَمَّا مَا يُوَارِي إِزَارُهَا فَفَعْمٌ وَأَمَّا مَا عَلاَهُ فَمُرْهَفُ (٤)

وقالَ أَبو دُلامةَ : [منَ الطويل]

وَقَدْ حَاوَلَتْ نَحْوِي الْقِيَامَ لِحَاجَةٍ فَأَثْقَلَهَا عَنْ ذَلِكَ الْكَفَلُ النَّهْدُ

وقالَ أَبو العتاهيةِ [في « ديوانهِ » ٦١٢] : [منَ المتقارب]

بَدَتْ بَيْنَ حُورٍ قِصَارِ الْخُطَا تُجَاهِدُ بِالْمَشْيِ أَكْفَالَهَا

وقالَ الحارثُ بنُ خالدٍ المخزوميُّ [في « ديوانهِ » ٦٨] : [منَ الكامل]

غَرْثَانُ سِمْطُ وِشَاحِهَا قَلِقٌ رَيَّانُ مِنْ أَرْدَافِهَا الْمِرْطُ (٥)

وما أَحسنَ قولَ القُطاميِّ لَوْ أَرادَ النساءَ [في « ديوانه » ٢٦] : [منَ البسيط]

يَمْشِينَ هَوْناً فَلاَ الأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ وَلاَ الصُّدُورُ عَلَى الأَعْجَازِ تَتَّكِلُ (٦)

[مساجلة المؤلف مع رجل من (اليمن)]

وقدْ نظرتُ أَنا إِلىٰ بيتِ عروةَ بنِ الوردِ السابقِ في قصيدةٍ ، سببُها أَنَّهُ وردَ (حضرموتَ) رجلٌ يتشاعرُ مِنَ (اليمنِ) ،

---

(١) **الجآذرُ** : جمعُ الجُؤذُرِ ، وهي البقرةُ الوحشيَّةُ ، أَو ولدُ البقرةِ .

(٢) **الخَدْلُ** : هوَ امتلاءُ الساقِ واستدارتُها كأَنَّما طُويت طيّاً .

(٣) **الحراميَّةُ** : نسبة لبني حَرام . **ملاثُ الإزار** : الموقع الذي يشدُّ عليه الإزار وهو العجز والكفل . **الوعثُ** : العسرُ المرتفع .

(٤) **الفَعْمُ** والأفعمُ : الممتلئُ ، وقيلَ : الفائضُ امتلاءً .

(٥) **غرثانُ** : جوعان . ووشاحٌ غرثانُ : لا يملؤهُ الخصرُ . **المِرْطُ** ـ جمعُهُ مروطٌ ـ : وهو كساءٌ مِنْ خزٍّ أَو صوفٍ أَو كتانٍ أَو غيرِهِ يُؤتزرُ بهِ . والمرأَةُ التي مرطُها ريَّانُ ـ أَيْ ممتلئٌ ـ كنايةٌ عَنْ ضخمِ روادفِها .

(٦) ومراد القطامي النوق .

فهابَهُ الناسُ ، حتَّىٰ ضمَّنا وإيَّاهُ مجلسٌ اضطرُّونا فيه للمباراةِ ، وعيَّنوا البحرَ والقافيةَ والموضوعَ ، فجئتُ في نحوِ ساعةٍ وربعٍ بأربعينَ بيتاً . قلتُ في (ريمِ صنعا) منها [في « ديوانِ المؤلف » ٥٠٦] : [منَ الطويل]

يَسِرْنَ الْهُوَيْنَا عَانَةً بَعْدَ عَانَةٍ ... قِصَارَ الْخُطَىٰ أَرْدَافُهُنَّ قُيُودُهَا[1]

تَدَاخَلُ مِنْ فَرْطِ الْحَيَا فِي رِيَاطِهَا ... فَتَأْبَىٰ لَهَا أَرْدَافُهَا وَنُهُودُهَا[2]

وجاءَ هوَ بأربعةٍ وعشرينَ بيتاً لا تسْفُلُ ولا تعلو ، غيرَ أنَّها انعقدَتْ بعدَهُ مجالسُ نُدعىٰ فيها إلى المباراةِ ، ويُقترحُ البحرُ والقافيةُ ، وفي كُلِّها يُحيلُ ، ونقولُ ، ومَنْ رَنا بعينِ المَعدلَةِ . . عرفَ أنَّني أحسنتُ الاتبّاعَ ، فكانَ لي الحقُّ في الأخذِ بخلافِ النّاظمِ فقدْ أغارَ علىٰ بيتِ ابنِ الوردِ ، فأغثَّ ولَمْ يجيءْ إلاَّ بالباردِ النَّاقصِ الثّقيلِ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « العُكْبَريِّ » ٢/ ٢٥١] : [منَ الوافر]

تُرَفِّعُ ثَوْبَهَا الأَرْدَافُ عَنْهَا ... فَيَبْقَىٰ مِنْ وِشَاحَيْهَا شُسُوعَا[3]

[سؤال عبد الملك بن مروان للأخطل عن تمنيه قول قصيدة لأحد الشعراء]

وعلىٰ ذكرِ بيتِ القُطاميِّ أقولُ : إنَّهُ مِنْ قصيدةٍ لهُ جزلةٍ بديعةٍ ، **يُحكىٰ** : [كما في « الأغاني » ١١/ ٢٦ و ٢٤/ ٤٩] أنَّ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ قالَ للأخطلِ : هلْ تُحبُّ أنَّ لكَ شِعرَ أَحدٍ مِنَ العربِ قياضاً بشعرِكَ ، أَو تحبُّ أنَّكَ قلتَهُ ؟ قالَ : لا واللهِ ، إلاَّ أنِّي وَدِدْتُ أنِّي قلتُ أبياتاً قالها رجلٌ مِنَّا ، كانَ مغدفَ القناعِ[4] ، قليلَ السماعِ ، قصيرَ الذراعِ ، قالَ وما هيَ ؟ فأنشدَهُ [مِنْ قولِ القُطاميِّ في « ديوانه » ٢٣ـ٢٤] : [منَ البسيط]

إِنَّا مُحَيُّوكَ فَاسْلَمْ أَيُّهَا الطَّلَلُ ... وَإِنْ بَلِيتَ وإِنْ طَالَتْ بِكَ الطِّيَلُ

لَيْسَ الْجَدِيدُ بِهِ تَبْقَىٰ بَشَاشَتُهُ ... إِلاَّ قَلِيلاً وَلاَ ذُو خِلَّةٍ يَصِلُ

مِنها [في « ديوان القُطاميِّ » ٢٥ـ٢٦] :

يَمْشِينَ رَهْواً فَلاَ الأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ ... وَلاَ الصُّدُورُ عَلَى الأَعْجَازِ تَتَّكِلُ

يَتْبَعْنَ سَامِيَةَ الْعَيْنَيْنِ تَحْسَبُهَا ... مَجْنونَةً أَو تَرَىٰ مَا لاَ تَرَى الإِبِلُ

وَالنَّاسُ مَنْ يَلْقَ خَيْراً قَائِلُونَ لَهُ ... مَا يَشْتَهِي وَلأُمِّ الْمُخْطِىءِ الْهَبَلُ[5]

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ ... وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

ومنها ـ وهوَ مِنْ حرِّ القولِ وخالصِ المدحِ ـ [كما في « ديوانِ القُطاميِّ » ٢٩ـ٣٠] :

أَهْلُ الْمَدِينَةِ لاَ يَحْزُنْكَ حَالُهُمُ ... إِذَا تَخَطَّأَ عَبْدَ الْوَاحِدِ الأَجَلُ

أَمَّا قُرَيْشٌ فَلَنْ تلقَاهُمُ أَبَداً ... إِلاَّ وَهُمْ خَيْرُ مَنْ يَحْفَىٰ وَيَنْتَعِلُ

مَنْ صَالَحُوهُ رَأَىٰ فِي عَيْشِهِ سَعَةً ... وَلاَ أَرَىٰ مَنْ أَرَادُوا ضَرَّهُ يَئِلُ[6]

---

(١) **العانةُ** : الجماعة ، وأصلها القطعة من حمر الوحش .

(٢) **رياطُها** ـ جمعُ ريطةٍ ـ : وهيَ الملاءَةُ التي كلُّها قطعةٌ واحدةٌ ونسجٌ واحدٌ .

(٣) **الوشاحانِ** : قلادتانِ تتوشحُ بهما المرأةُ ، ترسلُ إحداهما على الجانبِ الأيمنِ ، والأُخرىٰ على الأيسرِ . **والشُّسُوعُ** : البعيدُ .

(٤) أي : مُرسَلَ القناعِ . **أغدفَ** عليهِ ستراً : أرسلَهُ .

(٥) **الهَبَلُ** : الثُّكل .

(٦) **يَئِلُ** : ينجو ، ومنه الموئل وهو الملجأ .

وفيها بيتٌ يشبِّهُ فيهِ الآثارَ بالكِتابِ مسَّهُ البللُ ، نظرَ فيهِ إلىٰ قولِ لبيدٍ [في « ديوانه » ٢٩٩] : [منَ الكامل]

وَجَلاَ السُّيُولُ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَهَا أَقْلاَمُهَا[1]

وإلىٰ قولِ طَرَفَةَ [في « ديوانه » ٦] : [منَ الطويل]

لِخَوْلَةَ أَطْلاَلٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ تَلُوحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ[2]

وكانَ الشعبيُّ حاضراً ، فقالَ : إنَّ لِلقُطاميِّ أَحسنَ منها ، وأَنشدَ قولَهُ [في « ديوانه » ١٠٥] : [منَ الكامل]

طَرَقَتْ جَنُوبُ رِحَالَنَا مِنْ مُطْرِقِ مَا كُنْتُ أَحْسَبُهُ قَرِيبَ الْمُعْنَقِ

حتَّىٰ أتىٰ إلىٰ آخرِها ، فتحرَّكَ عبدُ الملكِ واهتزَّ ، وقالَ : هٰذا ـ واللهِ ـ الشعرُ ، ثكلتِ القُطاميَّ أُمُّهُ ، فانكسرَ الأخطلُ ، وقالَ للشعبيِّ : إنَّ لكَ فنوناً في الكلامِ ، وإنَّما لنا فنٌّ واحدٌ ، فإنْ رأيتَ ألاَّ تحملَني علىٰ أكتافِ قومِكَ . . فَأَدَعُهُمْ حَرَضاً[3] ، قالَ الشعبيُّ : لا أَعرضُ لكَ في شيءٍ مِنَ الشعرِ بعدَ هٰذا .

[تعليق المؤلف على القصة]

وعندي : أَنَّ القصيدةَ الَّتي اختارَها الأخطلُ أَجزَلُ وأَفحلُ ، إلاَّ أَنَّ فيها مِنْ صريحِ المدحِ لسائرِ قريشٍ ما يثقلُ هضمُهُ علىٰ عبدِ المَلِكِ ، ويسهلُ غمطُهُ[4] على الشعبيِّ ، ولا حجَّةَ في سكوتِ الأخطلِ ووقوفِهِ بموقفِ العاجزِ عَنِ الانفصالِ ؛ لمكانِ الهيبةِ ، وإيثارِ المصانعةِ ، واتِّباعِ مراضي السلطانِ .

وقولُ القُطاميِّ : (قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي . . إلخ) ، مأخوذٌ مِنْ قولِ عَدِيِّ بنِ زيدٍ العبّاديِّ [كما في « خزانةِ الأدبِ » ١/٣٥١] : [منَ السَّريع]

قَدْ يُدْرِكُ الْمُبْطِىءُ مِنْ حَظِّهِ وَالْخَيْرُ قَدْ يَسْبِقُ جُهْدَ الْحَرِيصْ

وبيتُ عديٍّ مأخوذٌ مِنْ قولِ جُمانةَ الجُعْفيِّ [كما في « خزانةِ الأدبِ » ١/٣٥١] : [منَ الطويل]

وَمُسْتَعْجِلٍ وَالْمُكْثُ أَدْنَىٰ لِرُشْدِهِ وَلَمْ يَدْرِ فِي اسْتِعْجَالِهِ مَا يُبَادِرُ

وقالَ ابنُ الروميِّ في عكسِ المعنىٰ [كما في « ديوانه » ٣/١١٤٧] : [منَ البسيط]

عَيْبُ الأَنَاةِ ـ وَإِنْ سَرَّتْ عَوَاقِبُهَا ـ أَنْ لاَ خُلُودَ وَأَنْ لَيْسَ الْفَتَىٰ حَجَرَا

[رواية أخرىٰ للقصة]

وفي القصَّةِ روايةٌ غيرُ هٰذهِ ، وهيَ : أَنَّ القُطاميَّ وردَ (دمشقَ) في أَيَّامِ الوليدِ ، فقيلَ لهُ : إنَّهُ بخيلٌ لا يُعطي الشعراءَ ، وقيلَ بلْ قَدِمَها في أَيَّامِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، فقيلَ لهُ : إنَّ الشعرَ لا يَنْفُقُ عندَهُ ، فامتدحَ عبدَ الواحدِ بنَ سليمانَ بقصيدتِهِ تلكَ ، فأَعطاهُ ثلاثينَ ناقةً موقَّرةً بُرّاً وتمراً وثياباً ، فكانَ ذلكَ أَوَّلَ ما حرَّكَ مِنَ القُطاميِّ ، ورفعَ من ذِكرِهِ .

---

(١) الزُّبُرُ : الكتب .

(٢) بُرْقَةُ ثَهْمَدٍ : موضعٌ معروفٌ في بلادِ العرب ، وقد ذكرهُ الشعراءُ .

(٣) الحَرَضُ : الهلاكُ والفسادُ . قال تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾ [يوسف : ٨٥] .

(٤) الغمطُ : الاستحقارُ .

[رواية أخرىٰ في القصيدة المتمناة]

ويروىٰ : أَنَّ الأَبياتَ الَّتي تمنَّاها الأَخطلُ ليستْ مِنْ تلكَ ، وإِنَّما هيَ قولُهُ [كما في « ديوانِ القُطاميِّ » ٨] : [مِنَ البسيط]

يَقْتُلْنَنَـــا بِحَـــدِيـــثٍ لَيْـــسَ يَعْلَمُـــهُ ... مَـــنْ يَتَّقِيـــنَ وَلاَ مَكْنُـــونُـــهُ بَـــادِي

فَهُـــنَّ يَنْبِـــذْنَ مِـــنْ قَـــوْلٍ يُصِبْـــنَ بِـــهِ ... مَـــوَاقِـــعَ الْمَـــاءِ مِـــنْ ذِي الْغُلَّـــةِ الصَّـــادِي (١)

وإِنَّها لعرضةُ ذلكَ نصاعةً وفصاحةً وبلوغَ مَرمىً وإِصابةَ محزٍّ ، وهيَ مِنْ قصيدةٍ يمدحُ بها زُفَرَ بنَ الحارثِ ، وقد مَنَّ عليهِ وأَكرمَهُ يقولُ فيها [في « ديوانِ القُطاميِّ » ٨٤ـ٨٨] :

إِنِّـــي وَإِنْ كَـــانَ قَـــوْمِـــي لَيْـــسَ بَيْنَهُـــمُ ... وَبَيْـــنَ قَـــوْمِـــكَ إِلاَّ ضَـــرْبَـــةُ الْهَـــادِي

مُثْـــنٍ عَلَيْـــكَ بِمَـــا اسْتَبْقَيْـــتَ مَعْـــرِفَتِـــي ... وَقَـــدْ تَعَـــرَّضَ مِنِّـــي مَقْتَـــلٌ بَـــادِي

فَلَـــنْ أُثِيبَـــكَ بِـــالنَّعْمَـــاءِ مَشْتَمَـــةً ... وَلَـــنْ أُكَـــافِـــىءَ إِصْـــلاَحِـــي بِـــإِفْسَـــادِ

وَمَـــا نَسِيـــتَ مَقَـــامَ الْـــوَرْدِ تَجْعَلُـــهُ ... بَيْنِـــي وَبَيْـــنَ حَفِيـــفِ الْغَـــابَـــةِ الْعَـــادِي

إِذِ الْفَـــوَارِسُ مِـــنْ قَيْـــسٍ بِشِكَّتِهِـــمْ ... حَـــوْلِـــي شُهُـــودٌ وَقَـــوْمِـــي غَيْـــرُ شُهَّـــادِ (٢)

إِذْ يَعْتَـــرِيـــكَ رِجَـــالٌ يَسْـــأَلُـــونَ دَمِـــي ... وَلَـــوْ أَطَعْتَهُـــمُ أَيْتَمْـــتَ أَوْلاَدِي

نَفْسِـــي فِـــدَاءُ بَنِـــي أُمِّـــي هُـــمُ خَلَطُـــوا ... يَـــوْمَ الْعَـــرُوبَـــةِ أَوْرَاداً بِـــأَوْرَادِ (٣)

فِـــي الْمَجْـــدِ وَالشَّـــرَفِ الْعَـــالِـــي ذَوِي أَمَـــلٍ ... وَفِـــي الْحَيَـــاةِ وَفِـــي الأَمْـــوَالِ زُهَّـــادِ

مَـــارَيْـــتُ قَـــوْمـــاً هُـــمُ شَـــرٌّ لإِخـــوَتِهِـــمْ ... مِنِّـــي عَشِيَّـــةَ يَجْـــرِي بِـــالـــدَّمِ الْـــوَادِي

منها :

تَقْـــرِيهِـــمُ لَهْـــذَمِيَّـــاتٌ تَقُـــدُّ بِهَـــا ... مَـــا كَـــانَ خَـــاطَ عَلَيْهِـــمْ كُـــلُّ زَرَّادِ (٤)

❋ ❋ ❋

[قالَ أَبو الطيِّب المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/٢٩٨] : [مِنَ المنسرح]

يَـــا عَـــاذِلَ الْعَـــاشِقِيـــنَ دَعْ فِئَـــةً ... أَضَلَّهَـــا اللهُ كَيْـــفَ تُـــرْشِـــدُهَـــا

بِئْـــسَ اللَّيَـــالِـــي سَهِـــدْتُ مِـــنْ طَـــرَبٍ ... شَـــوْقـــاً إِلَـــىٰ مَـــنْ يَبِيـــتُ يَـــرْقُـــدُهَـــا

[نصيحة لمن يعذل العاشقين]

يقولُ في البيتِ الأَوَّلِ : يا عاذلَ العاشقينَ علىٰ عشقِهِم ، دَعْ عنكَ لومَهم ، فإِنَّكَ لا ترشدُهم ، وقد أَضلَّهمُ اللهُ ،

---

(١) **ذو الغلة الصادي** : العطشانُ شديدُ العطشِ .

(٢) **الشِّكَّةُ** : السلاحُ ، وقيلَ : ما يلبسُ مِنَ السلاحِ .

(٣) **يومُ العَروبةِ** ـ بفتحِ العينِ وضمِّها ـ : الجمعةُ .

(٤) **اللَّهذميَّاتُ** ـ جمعُ لَهْذَمٍ ـ ويقالُ سيفٌ لَهْذَمٌ : حادٌّ ، وكذلكَ السنانُ والنابُ . **تَقُدُّ** : تقطعُ . **الزَّرَّادُ** : صانع الدروع .



وأَصلُ المعنىٰ موجودٌ بكثرةٍ ، ولا سيَّما في « **ديوانِ سلطانِ العاشقينَ** » ، فقدْ تصرَّفَ فيهِ ما شاءَ ، فمنهُ قولُهُ [في « ديوانهِ » ١٢٤] : [منَ الكامل]

يَـا عَـاذِلَ الْمُشْتَـاقِ جَهْـلاً بِـالَّـذِي ... يَلْقَـىٰ مَلِيّـاً لاَ بَلَغْـتَ نَجَـاحَـا

أَتْعَبْـتَ نَفْسَـكَ فِـي نَصِيحَـةِ مَـنْ يَـرَىٰ ... أَنْ لاَ يَـرَى الإِقْبَـالَ وَالإِفْـلاَحَـا

إِنْ رُمْـتَ إِصْـلاَحِـي فَـإِنِّـي لَـمْ أُرِدْ ... لِفَسَـادِ قَلْبِـي فِـي الْهَـوَىٰ إِصْـلاَحَـا

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ١٣٧] : [منَ الطويل]

وَفِـي حُبِّهَـا بِعْـتُ السَّعَـادَةَ بِـالشَّقَـا ... ضَـلاَلاً وَعَقْلِـي عَـنْ هُـدَايَ بِـهِ عَقْـلُ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ١٦٢] : [منَ الطويل]

وَمِـنْ أَجْلِهَـا طَـابَ افْتِضَـاحِي وَلَـذَّ لِـي ... اطِّـرَاحِـي وَذُلِّـي بَعْـدَ عِـزِّ مَقَـامِـي

وَفِيهَـا حَـلاَ لِـي بَعْـدَ نُسْكِـي تَهَتُّكِـي ... وَخَلْـعُ عِـذَارِي وَارتِكَـابُ أَثَـامِـي

[شرح البيت الأول من المطلع]

ثُمَّ إِنْ كانَ الناظمُ يتوهَّمُ أَنَّ العشقَ ضلالٌ بسائِرِ أَنواعِهِ . . فقد أَخطأَ ؛ لأَنَّهُ لا يُذَمُّ ما لَمْ يُفضِ إِلى الحرامِ ، بل ربَّما تدرَّجَ بهِ المرءُ في السلوكِ إِلىٰ سبيلِ السعادةِ ، كما قلتُ [في « ديوان المؤلف » ١٦٥] : [منَ البسيط]

للهِ فِـي الْحُـبِّ سِـرٌّ لاَ يُكَيِّفُـهُ الـ ... ـإِنسَانُ مَـا دَامَ فِـي ذَا الْقَـالَـبِ الطِّينِـي

وَفِيـهِ لِلْمَـرْءِ بِـالتَّـوْفِيـقِ مَـدْرَجَـةٌ ... إِلَـى السَّعَـادَةِ فِـي الـدُّنْيَـا وَفِـي الـدِّيـنِ

[« من عشق فعف » ومدى الاحتجاج به]

ولولا ما أَكثروا فيهِ مِنْ شأْنِ سويدِ بن سعيدٍ . . لصحَّ ما يدورُ عليهِ مِنْ طُرُقِهِ ، وهوَ حديثُ : « **مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ فَكَتَمَ فَمَاتَ . . فَهُوَ شَهِيدٌ** »(١) ، ولكنْ رواهُ الزبيرُ بنُ بكَّارٍ ، فقالَ : حدَّثنا عبدُ المَلِكِ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ المَاجشُونِ ، عَن عبدِ العزيزِ بنِ أَبي حازمٍ ، عن أَبي نَجيحٍ ، عنْ مجاهدٍ ، عَنِ ابنِ عبَّاسٍ ، عَنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قالَ : « **مَنْ عَشِقَ وَكَتَمَ وَعَفَّ وَصَبَرَ . . غَفَرَ اللهُ لَهُ ، وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ** »(٢) ، وكذلكَ رواهُ لعائِدِيهِ محمَّدُ بنُ داوودَ ، لكن بسندٍ فيهِ سويدُ بنُ سعيدٍ ، ثُمَّ أَنشدَهُم لنفسِهِ بعدَ أَنْ رواهُ لهُم قولَهُ : [منَ البسيط]

أُنْظُـرْ إِلَـى السِّحْـرِ يَجْـرِي فِـي لَـوَاحِظِـهِ ... وَانْظُـرْ إِلَـىٰ دَعَـجٍ فِـي طَـرْفِـهِ السَّـاجِـي(٣)

وَانْظُـرْ إِلَـىٰ شَعَـرَاتٍ فَـوْقَ عَـارِضِـهِ ... كَـأَنَّهُـنَّ نِمَـالٌ دَبَّ فِـي عَـاجِ

وأَنشدَ أَيضاً لنفسِهِ : [منَ الخفيف]

مَـا لَهُـمْ أَنْكَـرُوا سَـوَاداً بِخَـدَّيْـ ... ـهِ وَلاَ يُنْكِـرُونَ وَرْدَ الْغُصُـونِ

إِنْ يَكُـنْ عَيْـبَ خَـدِّهِ مَنْبَـتُ الشَّعْـ ... ـرِ فَعَيْـبُ الْعُيُـونِ شَعْـرُ الْجُفُـونِ

---

(١) أخرجه عن ابن عباس الخطيب في « تاريخ بغداد » في ترجمة محمد بن داوود الأصبهاني كما في « المقاصد الحسنة » (١١٥٣) ، وقد أطنب في ذكر طرقه والكلام عليه وأجاد ، وقد ألَّف فيه جزءاً أبو الفيض الغماري سمّاه : « درء الضعف عن حديث من عشق فعفَّ » .

(٢) قال المناوي عن سنده في « فيض القدير » (٨٨٥٣) : (إسناده صحيح ، وقد ذكره ابن حزم في معرض الاحتجاج وقال : رواته ثقات) .

(٣) **الدَّعَجُ** : شدةُ سوادِ العينِ معَ سِعَتِها . **وطرفٌ ساجٍ** : ساكنٌ .



فقالَ لهُ : نفطويهِ ـ وكانَ لهُ صديقاً ـ أنكرتَ القياسَ في الفقهِ ، وأثبتَّهُ في الغزلِ ؟! قالَ : غلبةُ الهوىٰ ، ومَلَكَةُ الوجدِ دَعَوَا إليهِ .

وقد ذكرَ الحديثَ ابنُ حزمٍ في معرضِ الاحتجاجِ ، فقالَ : [منَ الوافر]

فَـإِنْ أَهْلِـكْ هَـوىً أَهْلِـكْ شَهِيـداً ... وَإِنْ تَمْنُـنْ بَقِيـتُ قَـرِيـرَ عَيْـنِ

رَوَىٰ هَـٰذَا لَنَـا قَـوْمٌ ثِقَـاتٌ ... نَـأَوْا بِـالصِّـدْقِ عَـنْ كَـذِبٍ وَمَيْـنِ

وللقومِ فيهِ كلامٌ معروفٌ يُؤخَذُ مِنْ مَراجعِهِ ، إِذْ لا حاجةَ إلى الإسهابِ ، ويأتي لونٌ منهُ أَوَّلَ المجلسِ التاسعِ .

ولقد أَحسنَ أَبو الأَسودِ الدؤليُّ ، وأَجملَ وأَجادَ ، إِذْ قالَ في أَهلِ البيتِ [في « ديوانهِ » ١٥٤] : [منَ الوافر]

فَـإِنْ يَـكُ حُبُّهُـمْ رُشْـداً أُصِبْـهُ ... وَلَسْـتُ بِمُخْطِـىءٍ إِنْ كَـانَ غَيّـا

وما هوَ في شيءٍ مِنَ التشكُّكِ ، ولكنَّهُ مِنْ بابِ قولِهِ تقدَّستْ أَسماؤُهُ : ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ : ٢٤] .

[شرح البيت الثاني من المطلع]

وأَمَّا البيتُ الثاني : فقد قالَ الشارحُ إِنَّ أَصلَهُ : (بئسَ اللَّيَالِي لَيالٍ سهرتُها مِنْ طَربي شوقاً إِلىٰ مَن يَبِيْتُ يَرقُدُ فيها)

[حذف المخصوص بالذم]

وأَقولُ : أَمَّا حذفُ المخصوصِ بالذمِّ : فجائزٌ عندَ العلمِ بهِ مِنَ القرينةِ ، ومنهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال : ٤٠] ، و﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص : ٣٠] ، وسواءٌ كانتِ القرينةُ لفظيَّةً أَو معنويَّةً ، وإِنِ اقتصرَ في « **الخلاصةِ** » علىٰ بعضِ أَفرادِ الأُولىٰ في قولِهِ [في باب : (نعم وبئس)] : [منَ الرَّجَز]

وَإِنْ يُقَـدَّمْ مُشْعِـرٌ بِـهِ كَفَـىٰ ... كَـالْعِلْـمُ نِعْـمَ الْمُقْتَنَـىٰ وَالْمُقْتَفَـىٰ

بلْ كثيراً ما يُحذفُ الفاعلُ معهُ لها [أي : للقرينة] ، كما في الحديثِ الصحيحِ الناسخِ لوجوبِ غُسْلِ الجمعةِ ، وهوَ : « **مَنْ تَوَضَّأَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ . . فَبِهَا وَنِعْمَتْ ، وَمَنِ اغْتَسَلَ . . فَالْغُسْلُ أَفْضَلُ** »[1] .

تقديرُهُ : ونعمتِ الخَصلةُ الوضوءُ خَصلةً ، أَو ما يشبهُ ذلك .

وأَمَّا حذفُ عائدِ الصفةِ : فإِنَّهُ كثيرٌ ، ومنهُ قولُ امرىءِ القيسِ [في « ديوانهِ » ٩٦] : [منَ المتقارب]

فَـأَقْبَلْـتُ زَحْفـاً عَلَـى الـرُّكْبَتَيْـنْ ... فَثَـوْبٌ لَبِسْـتُ وَثَـوْبٌ أَجُـرّْ[2]

[الرد على الشارح]

وأَمَّا قولُهُ : كانَ الوجهُ أَنْ يقولَ : (يرقدُ فيها) بدلاً مِنْ (يرقدُها) . . فغلَطٌ ، وقد قالَ تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمِّل : ١ـ٢] .

وقالَ امرؤُ القيسِ [كما في « ديوانهِ » ١١٦] : [منَ الطويل]

فَـإِمَّـا تَـرَيْنِـي لاَ أُغَمِّـضُ سَـاعَـةً ... مِـنَ اللَّيْـلِ إِلاَّ أَنْ أُكِـبَّ وَأَنْعَسَـا

---

(١) أخرجَهُ عن سمرة بن جندب أبو داوودَ (٣٥٣) ، والتِّرمذيُّ (٤٩٧) وحسَّنهُ ، والنَّسائيُّ (١٣٨٠) ، وابنُ ماجه (١٠٩١) .

(٢) هـٰذا البيت من شواهد العربية ، وهو أنه يجوز الابتداء بالنكرة (ثوب) إذا كان المقصود بها التنويع .

والأمرُ أغنىٰ عَنِ التدليلِ بعدَ قولِهِم في المتونِ : إِنَّ كلَّ وقتٍ يقبلُ النصبَ على الظرفيَّةِ مُبهماً كانَ أَو مُخصَّصاً بوصفٍ ، أَو عددٍ ، أَو إِضافةٍ ، بل إِنَّ ما فعلَهُ الناظمُ هوَ الأَولىٰ ؛ لِما فيهِ مِنَ الإِشارةِ إِلى استغراقِ المحبوبةِ الليلَ بالرقادِ ، وهوَ شاهدُ النعمةِ ، ودليلُ الترفِ ، وقد قالَتْ أُمُّ زرعٍ : (فَعِندَهُ أَقُولُ فَلاَ أُقَبَّحُ ، وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ)[1] ، فلا معابةَ على الناظمِ في شيءٍ مِنَ المحذوفاتِ الأَربعةِ الَّتي ذكرَها الشارحُ ، وإِنَّما العيبُ عليهِ مِنْ جهةِ المعنىٰ ، فلو أَنَّهُ كانَ صحيحَ الهوىٰ . . لَمَا تبرَّمَ بما لحقَهُ مِنَ التعذيبِ فيهِ ، وللهِ دَرُّ ابنِ مُطَيرٍ في قولِهِ [في « ديوانه » ٦٠] : [مِنَ الطويل]

[البلوى المحببة]

وَحُبُّكِ بَلْوَىٰ غَيْرَ أَنْ لاَ يَسُرُّنِي ... وَإِنْ كَانَ بَلْوَىٰ أَنَّنِي لَكِ مُبْغِضُ
إِذَا أَنَا رِضْتُ النَّفْسَ فِي حُبِّ غَيْرِهَا ... أَتَىٰ حُبُّهَا مِنْ دُونِهَا يَتَعَرَّضُ
فَيَا لَيْتَنِي أَقْرَضْتُ جَلْداً صَبَابَتِي ... وَأَقْرَضَنِي صَبْراً عَلَى الشَّوْقِ مُقْرِضُ

[الكلام عن ديوان ابن الفارض]

أَمَّا « **ديوانُ ابنِ الفارضِ** » : فمنْ فاتحتِهِ إِلىٰ خاتمتِهِ في استعذابِ العذابِ مِنَ الأَحبابِ ، مِنْ ذلكَ **قولُهُ** [في « ديوانه » ١٤٤] : [مِنَ البسيط]

أَمْسَيْتُ فِيكَ كَمَا أَصْبَحْتُ مُكْتَئِباً ... وَلَمْ أَقُلْ جَزَعاً : يَا أَزْمَةُ انْفَرِجِي

وقولُهُ [في « ديوانه » ١٥٦] : [مِنَ الخفيف]

وَبِمَا شِئْتَ فِي هَوَاكَ اخْتَبِرْنِي ... فَاخْتِيَارِي مَا كَانَ فِيهِ رِضَاكَا

وقولُهُ [في « ديوانه » ٥٠] : [مِنَ الطويل]

وَكُلُّ أَذىً فِي الْحُبِّ مِنْكَ إِذَا [بَدَا] ... جَعَلْتُ لَهُ شُكْرِي مَكَانَ شَكِيَّتِي
وَمَا حَلَّ بِي مِنْ مِحْنَةٍ فَهْوَ مِنْحَةٌ ... وَقَدْ سَلِمَتْ مِنْ حَلِّ عَقْدِ عَزِيمَتِي

وقولُهُ [في « ديوانه » ١١٩] : [مِنَ الكامل]

هَلاَّ نَهَاكَ نُهَاكَ عَنْ لَوْمِ امْرِئٍ ... لَمْ يُلْفَ غَيْرَ مُنَعَّمٍ بِشَقَاءِ

وقولُهُ [في « ديوانه » ٣١] : [مِنَ الكامل]

أَمْسَىٰ بِنَارِ جَوىً حَشَتْ أَحْشَاءَهُ ... مِنْهَا يَرَى الإِيقَادَ لاَ الإِنْقَاذَا

وقولُهُ [في « ديوانه » ١٣٥] : [مِنَ الطويل]

وَتَعْذِيبُكُمْ عَذْبٌ لَدَيَّ وَجَوْرُكُمْ ... عَلَيَّ بِمَا يَقْضِي الْهَوَىٰ لَكُمُ عَدْلُ

وقولُهُ [في « ديوانه » ١٢ـ١٨] : [مِنَ الرَّمَل]

بَلْ أَسِيئُوا فِي الْهَوَىٰ أَو أَحْسِنُوا ... كُلُّ شَيْءٍ حَسَنٌ مِنْكُمْ لَدَيْ

---

(١) سلف قريباً . ومعنىٰ : أرقد فأتصبح : أي أنام إلىٰ وقت الضحىٰ .

أَيُّ تَعْـذِيـبٍ سِـوَى الْبُعْـدِ لَنَـا مِنْـكِ عَـذْبٌ حَبَّـذَا مَـا بَعْـدَ أَيْ

وقولُهُ [في « ديوانِهِ » ٣٥ـ٤١] : [منَ الطويل]

تُبِيـحُ الْمَنَـايَـا إِذْ تُتِيـحُ لِـيَ الْمُنَـىٰ وَذَاكَ رَخِيـصٌ مُنْيَتِـي بِمَنِيَّتِـي
وَمَا غَدَرَتْ فِي الْحُبِّ أَنْ هَدَرَتْ دَمِي بِشَـرْعِ الْهَـوَىٰ لَكِـنْ وَفَـتْ إِذْ تَـوَفَّـتِ
وَكَـمْ رَامَ سِلْـوَانِـي هَـوَاكِ مُيَمِّمـاً سِـوَاكِ وَأَنَّـىٰ عَنْـكِ تَبْـدِيـلُ نِيَّتِـي
وَقَالَ : تَلاَفَ مَا بَقِي مِنْكَ قُلْتُ : مَا أُرَانِـي إِلاَّ لِلتَّـلاَفِ تَلَفُّتِـي
إِبَـائِـي أَبَـىٰ إِلاَّ خِـلاَفِـيَ نَـاصِحـاً يُحَـاوِلُ مِنِّـي شِيمَـةً غَيْـرَ شِيمَتِـي

[التناقض عند المتنبي]

والأخيرُ هوَ صدرُ بيتٍ لأبي عبادةَ [في « ديوانهِ »] [منَ الطويل] عجزُهُ : (وَتَطْلُبُ مِنِّي مَذْهَباً غَيْرَ مَذْهَبِي) ، ولكنَّ موقعَهُ مِنْ بيتِ الشيخِ أمكنُ وأعذبُ ، فهوَ بهِ أحقُّ ، والناظِمُ كثيراً ما يدّعي أَنَّهُ معشوقٌ مُتمنِّعٌ كما في قولِهِ [في « العُكْبَريِّ » ٢/٣٠٦] : [منَ الطويل]

وَأَشْنَـبَ مَعْسُـولِ الثَّنِيَّـاتِ وَاضِـحٍ حَمَيْـتُ فَمِـي عَنْـهُ فَقَبَّـلَ مَفْـرِقِـي[1]

وذاتَ المرَّاتِ يعترفُ بأَنَّهُ مبغوضٌ مفروكٌ[2] ؛ فيقولُ [في « العُكْبَريِّ » ٣/٣٦٢] : [منَ البسيط]

وَا حَـرَّ قَلْبَـاهُ مِمَّـنْ قَلْبُـهُ شَبِـمُ وَمَـنْ بِجِسْمِـي وَحَـالِـي عِنْـدَهُ سَقَـمُ[3]

ويقولُ [في « العُكْبَريِّ » ١/١٧٦] : [منَ البسيط]

أَنْـتَ الْحَبِيـبُ وَلَكِنِّـي أَعُـوذُ بِـهِ مِـنْ أَنْ أَكُـونَ مُحِبّـاً غَيْـرَ مَحْبُـوبِ

ويقولُ [في « العُكْبَريِّ » ٤/٨١] : [منَ الطويل]

وَلَمَّـا الْتَقَيْنَـا وَالنَّـوَىٰ وَرَقِيبُنَـا غَفُـولاَنِ عَنَّـا ظَلْـتُ أَبْكِـي وَتَبْسِـمُ

ويقولُ [في « العُكْبَريِّ » ٤/٥٠] : [منَ الطويل]

جَفَتْنِـي كَـأَنِّـي لَسْـتُ أَنْطَـقَ قَـوْمِهَـا وَأَطْعَنَهُـمْ وَالشُّهْبُ فِي صُـورَةِ الـدُّهْـمِ[4]

ويقولُ [في « العُكْبَريِّ » ٤/٢٧١] : [منَ المنسرح]

تَبُـلُّ خَـدَّيَّ كُلَّمَـا ابْتَسَمَـتْ مِـنْ مَطَـرٍ بَـرْقُـهُ ثَنَـايَـاهَـا

وهٰذا يحتملُ معنيينِ ؛ لأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يكونَ المرادُ : أَنَّهُ يبكي كلَّما ضحكَتْ.. فيكونُ كقولِهِ : (..ظَلْتُ أَبْكِي

---

(١) الأَشْنَبُ : الثغرُ البَرّاقُ ، ويقالُ : المُحَدَّدُ الواضحُ الأَبيضُ .
(٢) مفروكٌ : لا يَحظىٰ عِندَ النساءِ .
(٣) الشَّبِمُ : البارِدُ ، والشَّبَمُ : البَرْدُ .
(٤) الشُّهْبُ : الخيلُ التي يخالطُها البياضُ والسوادُ . الدُّهمُ : السُّودُ . والمعنىٰ : أنَّها تغيَّرتْ أَلوانُها مِنَ الدماءِ والعَجاجِ .

وَتَبَسُم) وإِمَّا أَنْ يكونَ معناهُ : أَنَّ لعابَها يسيلُ ، وأَنَّها تتفلُ في وجهِهِ ، وكِلاهما لا يلتئِمُ معَ قولِهِ قبلَ ذلكَ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٢٧٠] : [منَ المنسرح]

فَقَبَّلَـتْ نَـاظِـرِي تُغَـالِطُنِـي وَإِنَّمَـا قَبَّلَـتْ بِـهِ فَـاهَـا

[امرؤ القيس كان مفركاً]

وفي أَخبارِ امرىءِ القيسِ : أَنَّهُ كانَ مُفْرَكاً يُفتَنُ بجمالِهِ ومقالِهِ النساءُ بادياً ، ثُمَّ يكرهنَهُ بعدَ المخالطَةِ ، فيحتملُ أَنَّ الناظِمَ مِثلُهُ ، أَو أَنَّهُ لمَّا كانَ كبيراً في صدرِهِ . . أَحبَّ أَنْ يتمثَّلَ بهِ فيما زانَ وفيما شانَ ، حتَّىٰ لو دخلَ جُحْرَ ضَبٍّ لدخلَهُ ، وكثيراً ما تُزيِّنُ لهُ الأُحموقَةُ القبيحَ ، كما ستأْتي مُثُلُهُ في هـٰذِهِ المجموعةِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، أَو أَنَّهُ لَمَّا لَمْ يكُنْ لَهُ قدمٌ راسخٌ في الحُبِّ . . قاسَ حالَهُ معَ النساءِ علىٰ حالِ ممدوحِيهِ ، فإِنَّ شأْنَهُم كما وَصَفَ يُقبِلونَ عليهِ بدءاً ، ويُعرِضونَ عنهُ عوداً .

[التناقض العجيب]

والبيتُ الَّذي نحنُ بسبيلِهِ ناظرٌ إِلىٰ قولِ أَبي نُوَاسٍ [« الأغاني » ٦/ ٣٢٦] : [منَ الطويل]

شَكَـوْنَـا إِلَـىٰ أَحْبَـابِنَـا طُـولَ لَيْلِنَـا فَقَـالُـوا لَنَـا مَـا أَقْصَـرَ اللَّيْـلَ عِنْـدَنَـا

ولا يبعدُ عنهُ قولُ العربيِّ ، وقَدْ تمثَّلَ بهِ أَميرُ المؤمنينَ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ في خطبتِهِ الشقشقيَّةِ[1] [« نهج البلاغة » ١٥] : [منَ السريع]

شَتَّـانَ مَـا يَـوْمِـي عَلَـىٰ كُـورِهَـا وَيَـوْمُ حَيَّـانَ أَخِـي جَـابِـرِ

[عمر بن أبي ربيعة وعائشة بنت طلحة]

وقالَ عمر ابنُ أَبي ربيعةَ يذكرُ عائِشةَ ابنةَ طلحةَ بنِ عُبيدِ اللهِ [في « ديوانه » ٩٤ـ٩٥] : [منَ الطويل]

رَأَتْ رَجُـلاً أَمَّـا إِذا الشَّمْـسُ عَـارَضَـتْ فَيَضْحَـىٰ وَأَمَّـا بِـالْعَشِـيِّ فَيَخْصَـرُ[2]
أَخَـا سَفَـرٍ جَـوَّابَ أَرْضٍ تَقَـاذَفَـتْ بِـهِ فَلَـوَاتٌ فَهْـوَ أَشْعَـثُ أَغْبَـرُ
وَأَعْجَبَهَـا مِـنْ عَيْشِهَـا ظِـلُّ غُـرْفَـةٍ وَرَيَّـانُ مُلْتَـفُّ الْحَـدَائِـقِ أَخْضَـرُ
وَوَالٍ كَفَـاهَـا كُـلَّ شَـيْءٍ يَهُمُّهَـا فَلَيْسَـتْ لِشَـيْءٍ آخِـرَ اللَّيْـلِ تَسْهَـرُ

فيُروىٰ [كما في « الأغاني » ١/ ٩٢] : أَنَّ حالاً أَسهرَها ليلةً مِنْ زوجِها ، فقالت : ليْتَ ابنَ أَبي ربيعةَ يَرىٰ ليلتي هـٰذِهِ حتَّىٰ يرجِعَ عَنْ بعضِ قولِهِ .

[حال العاشق والمعشوق عند الشعراء]

وقالَ عنترةُ [في « ديوانهِ » ١٩] : [منَ الكامل]

تُمْسِـي وَتُصْبِـحُ فَـوْقَ ظَهْـرِ حَشِيَّـةٍ وَأَبِيـتُ فَـوْقَ سُـرَاةِ أَدْهَـمَ مُلْجَـمِ[3]

---

(١) شقشقَ الكلامَ : أَخرجهُ أَحسنَ مخرجٍ .
(٢) يضحىٰ : يتعرَّضُ للشمسِ . يخصَرُ : يصيبه البرد .
(٣) الحَشِيَّةُ : الفِراشُ المحشو .

وقالَ : [منَ الكامل]

أَبْكِي وَيَضْحَكُ مِنْ بُكَايَ وَلَنْ تَرىٰ عَجَباً كَحَاضِرِ ضَحْكِهِ وَبُكَائِي

وقالَ قيسُ بنُ المُلَوَّحِ : [منَ الطويل]

فَوَاكَبِداً مِنْ حُبِّ مَنْ لاَ يُحِبُّنِي وَمِنْ زَفَرَاتٍ مَا لَهُنَّ فَنَاءُ

وَقالَ : [منَ البسيط]

أَطَعْتُهَا وَعَصَيْتُ النَّاسَ كُلَّهُمُ فِي أَمْرِهَا وهَوَاهَا وَهْيَ تَعْصِينِي

وقالَ نصيبٌ : [منَ الكامل]

وَذَكَرْتُ مَنْ رَقَّتْ لَهُ كَبِدِي وَأَبَىٰ فَلَيْسَ تَرِقُّ لِي كَبِدُهْ

وقالَ أَبو عبادةَ : [منَ الخفيف]

وَمِنَ الضَّيْمِ فِي هَوَى الْبِيضِ عِنْدِي أَنْ يَوَدَّ الْمَبْتُولُ مَنْ لاَ يَوَدُّهْ

وَفي المجلسِ الأَوَّلِ ذَروٌ مِنَ القولِ في طولِ الليلِ ، ومنهُ قَولُ بشَّارٍ [في « ديوانه » ٤/١٦٦] [منَ الرَّمَل] :

لَمْ يَطُلْ لَيْلِي وَلَٰكِنْ لَمْ أَنَمْ وَنَفَىٰ عَنِّي الْكَرَىٰ طَيْفٌ أَلَمْ
وَإِذَا قُلْتُ لَهَا : جُودِي لَنَا خَرَجَتْ بِالصَّمْتِ عَنْ لاَ وَنَعَمْ
نَفِّسِي يَا عَبْدُ عَنِّي وَاعْلَمِي أَنَّنِي يَا عَبْدُ مِنْ لَحْمٍ وَدَمْ
إِنَّ فِي بُرْدَيَّ جِسْماً نَاحِلاً لَوْ تَوَكَّأْتِ عَلَيْهِ لانْهَدَمْ
خَتَمَ الْحُبُّ لَهَا فِي عُنُقِي مَوْضِعَ الْخَاتَمِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَمْ

[رد علىٰ بشار بن برد]

وَأَخطأَ أَبو معاذٍ [بشَّارٌ] في قولِهِ : (خَرَجَتْ بِالصَّمْتِ عَنْ لاَ وَنَعَمْ) ، وَما أُوتيَ إلاَّ مِنْ جَهْلِهِ بِحَديثِ مُسلمٍ [١٤٢١ في النكاح عن ابن عباس] : « **إِنَّ إِذْنَ الْبِكْرِ صُمَاتُهَا** » .

[أعينوني على الليل]

وقالَ بعضُهُم : [منَ الطويل]

تَعَالَوْا أَعِينُونِي عَلَى اللَّيْلِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ عَيْنٍ لاَ تَنَامُ طَوِيلُ

فَلَمْ يشعر بعدَ أُمَّةٍ[1] مِنَ الزمانِ إلاَّ بطارقٍ يَقرعُ بابَهُ مِنْ نصفِ اللَّيلِ ، فانتبهَ فَزِعاً مرعوباً ، وقالَ لهُ : ما شَأْنُكَ ؟! قالَ : أَنتَ دعوتني بقولِكَ : (تَعَالَوا أَعِينُونِي . . . إلىٰ آخرِ البيتِ) ، فقالَ لَهُ : ياابنَ أَخي ، أَبطَأْتَ بِالإِجابةِ حتَّىٰ جاءَ اللهُ بالفرجِ .

---

(١) **أُمَّةٍ** : حينٍ ، أو نسيانٍ ، من أَمِهَ يأمَهُ أَمَهاً ؛ أي : نسي ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف : ٤٥] .

وإنَّما قالَ ابنُ الفارضِ [في « ديوانهِ » ١٤٤] : [منَ البسيط]

أَمْسَيْتُ فِيكَ كَمَا أَصْبَحْتُ مُكْتَئِباً [وَلَمْ أَقُلْ جَزَعاً : يَا أَزْمَةُ انْفَرِجِي]

[الأصل اجتماع الهموم على العشاق بالليل ومذاهب الشعراء في ذلك]

لأنَّ الأَصلَ اجتماعُ الهمومِ على المحبِّينَ باللَّيلِ ، وقَدْ تتفرَّقُ عنهم نهاراً بِما يُمارسونَ مِنَ الخلقِ وَالأَشغالِ ، كما قالَ قيسُ بنُ الملوّحِ أَوِ ابنُ الدُّمَيْنَةِ [في « ديوانِ ابنِ الدُّمَيْنَةِ » ٨٨] : [منَ الطويل]

أُقَضِّي نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبِالْمُنَىٰ وَيَجْمَعُنِي وَالْهَمَّ بِاللَّيْلِ جَامِعُ
نَهَارِي نَهَارُ النَّاسِ حَتَّىٰ إِذَا بَدَا لِيَ اللَّيْلُ هَزَّتْنِي إِلَيْكِ الْمَضَاجِعُ
لَقَدْ ثَبَتَتْ فِي الْقَلْبِ مِنْكِ مَحَبَّةٌ كَمَا ثَبَتَتْ فِي الرَّاحَتَيْنِ الأَصَابِعُ

وقَدْ سبقَ إِلىٰ أَصلِهِ امرؤُ القيسِ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ١٥٢] : [منَ الطويل]

أَلاَ أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلاَ انْجَلِ بِصُبْحٍ وَمَا الإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

وَأَخذَهُ الطِّرِمَّاحُ فقالَ [في « ديوانهِ » ٩٦] : [منَ الطويل]

أَلاَ أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلاَ اصْبِحِي بِفَجْرٍ وَمَا الإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَرْوَحِ

وقالَ جميلُ بنُ مَعْمَرٍ في عكسِ مَا سبقَ عَنْ ابنِ الدُّمَيْنَةِ [في « ديوانهِ » ٥١] : [منَ الطويل]

أَظَلُّ نَهَارِي مُسْتَهَاماً وَيَلْتَقِي مَعَ اللَّيْلِ رُوحِي فِي الْمَنَامِ وَرُوحُهَا

وقالَ ذُو الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ »] : [منَ الطويل]

أَنِينٌ وشَكْوَىٰ بِالنَّهَارِ طَوِيلَةٌ عَلَيَّ وَمَا يَأْتِي بِهِ اللَّيْلُ أَبْرَحُ

وقلتُ في رثاءِ ولدي بَصْري [كما في « ديوان المؤلف » ق/ ٩٥] : [منَ الطويل]

فَقُلْتُ : اتْرُكِينَا نُطْفِ بَعْضَ الْتِهَابِنَا بِغَزْرٍ مِنَ الآمَاقِ فِي اللَّيْلِ إِذْ يَسْرِي
يَطُولُ نَهَارِي بِالتَّجَلُّدِ وَالدُّجَىٰ بِهِ مِنْ بُرُودِ الدَّمْعِ شَيْءٌ مِنَ الْقَصْرِ

ومِنْ أَبلغِ مَا قيلَ في طولِ اللَّيْلِ قولُ النابغةِ [الذُّبيانيِّ في « ديوانهِ » ٤٦] : [منَ الطويل]

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرَتْنِي ضَئِيلَةٌ مِنَ الرُّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعُ[1]

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٥٥] : [منَ الطويل]

تَقَاعَسَ حَتَّىٰ قُلْتُ : لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرْعَى النُّجُومَ بِآيِبِ

وأَرادَ بـ (الَّذِي يَرْعَى النُّجُومَ) : الفجرَ ، وهيَ كنايةٌ عجيبةٌ ، وقالَ عليُّ بنُ هشامٍ : [منَ السريع]

لاَ أَظْلِمُ اللَّيْلَ وَلاَ أَدَّعِي أَنَّ نُجُومَ اللَّيْلِ لَيْسَتْ تَغُورْ
لَيْلِي كَمَا شَاءَتْ فَإِنْ لَمْ تَجُدْ طَالَ وَإِنْ جَادَتْ فَلَيْلِي قَصِيرْ

---

(١) ضَئِيلَةٌ : الحيَّةُ الدقيقةُ ، قليلةُ اللحمِ . الرقشُ : المنقَّطةُ . ناقعٌ : ثابتٌ عتيدٌ كامنٌ .

قالَ الحرَّانيُّ : [منَ البسيط]

جَاءَتْ تُسَائِلُ عَنْ لَيْلِي فَقُلْتُ لَهَا … وَسَوْرَةُ الهَمِّ تَمْحُو سَوْرَةَ الْجَذَلِ[1]
لَيْلِي بِكَفَّيْكِ فَاغْنَيْ عَنْ سُؤَالِكِ لِي … إنْ بِنْتِ طَالَ وإنْ وَاصَلْتِ لَمْ يَطُلِ

[أبلغ من قال في طول الليل]

ويُروىٰ عَنْ ثعلبٍ أَنَّهُ كانَ يقولُ : كُلُّ مَنْ تكلَّمَ في طولِ الليلِ لَمْ يبلُغِ الذُّروةَ مِنَ الإجادةِ سوىٰ خالدٍ الكاتبِ ، فقد جاوزَ الغايةَ ، إذْ يقولُ : [منَ المتقارب]

رَقَدْتَ وَلَمْ تَرْثِ لِلسَّاهِرِ … وَلَيْلُ الْمُحِبِّ بِلاَ آخِرِ
وَلَمْ تَدْرِ بَعْدَ ذَهَابِ الرُّقَا … دِ مَا صَنَعَ الدَّمْعُ بِالنَّاظِرِ

وقالَ التِّهاميُّ : [منَ الطويل]

أَبَا الْفَضْلِ طَالَ اللَّيْلُ أَمْ خَانَنِي صَبْرِي … فَخُيِّلَ لِي أَنَّ الْكَوَاكِبَ لاَ تَسْرِي

وقالَ ابنُ زُرَيقٍ [البغداديُّ في « ديوانه »] : [منَ البسيط]

لاَ يَطْمَئِنُّ بِجَنْبِي مَضْجَعٌ وَكَذَا … لاَ يَطْمَئِنُّ بِهِ مُذْ غِبْتِ مَضْجَعُهُ
وَمَنْ يُقَطِّعُ قَلْبِي ذِكْرُهُ وإِذَا … جَرَىٰ عَلَىٰ قَلْبِهِ ذِكْرِي يُقَطِّعُهُ

وَهُوَ خلافُ بيتِ النَّاظمِ الَّذي نحنُ بسبيلِهِ غيرَ أَنَّ «ديوانَهُ» لا يخلو مِمَّا يشبهُهُ كقولِهِ [في « العُكْبَريِّ » ٢/ ٢٨٣] : [منَ الطويل]

هَرَاقَتْ دَمِي مَنْ بِي مِنَ الْوَجْدِ مَا بِهَا … مِنَ الْوَجْدِ بِي وَالشَّوْقُ لِي وَلَهَا حِلْفُ

وهو بالرقىٰ أَشبهُ منهُ بالأَشعارِ ، وحاصلُ معناهُ قولُ الآخرِ : [مِنَ المنسرح]

وَجِدَتْ بِي مِثْلَ مَا وَجِدْتُ بِهَا … فَكِلاَنَا مُغْرَمٌ دَنِفُ

ولا يبعدُ عنهُ قولُ الأَوَّلِ ، وفيهِ لابنِ عائشةَ غناءٌ ، وهُوَ[2] : [مِنَ المنسرح]

وَارَحْمَتَا لِلْغَرِيبِ فِي الْبَلَدِ النَّا … زِحِ مَاذَا بِنَفْسِهِ صَنَعَا
فَارَقَ أَحْبَابَهُ فَمَا انْتَفَعُوا … بِالْعَيْشِ مِنْ بَعْدِهِ وَلاَ انْتَفَعَا

وقالَ البهاءُ زهيرٌ : [من مجزوء الكامل]

يَا لَيْلُ مَا لَكَ آخِرْ … كَلاَّ وَلاَ لِلشَّوْقِ آخِرْ[3]
لِي فِيكَ أَجْرُ مُجَاهِدِ … إنْ صَحَّ أَنَّ اللَّيْلَ كَافِرْ

---

(١) سَوْرةُ الشيءِ : شدتهُ وحِدَّتهُ وهياجهُ . الجَذَلُ : الفرحُ .

(٢) جاءَ في هامش المخطوط : ذكرَ ابنُ خَلِّكانَ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/ ٣٥٦] : أَنَّهُ لمَّا نُزِعَتْ ثيابُ عليِّ بنِ الجَهْمِ بعدَ موتِهِ . وُجِدَتْ فيها رُقعةٌ مكتوبٌ عليها هـٰذانِ ، لكنَّهُ لا يصحُّ أَنْ تكونَ لابنِ الجهمِ ، ويكونُ فيها غناءٌ لابنِ عائشةَ ؛ لتقدُّمِ هـٰذا على ابنِ الجهمِ بكثيرٍ .

(٣) وقد ورد هـٰذا البيت أيضاً بلفظ :

يَا لَيْلُ طُلْ أَوْ لاَ تَطُلْ … إنِّي عَلَى الْحَالَيْنِ صَابِرْ

وقالَ أَبو العتاهيةِ [في « ديوانهِ » ٥٤١ـ٥٤٢] : [منَ البسيط]

إِنَّ الْمُحِـبَّ إِذَا شَطَّـتْ مَنَـازِلُـهُ ... عَـنِ الْحَبِيـبِ بَكَـىٰ أَوْ حَـنَّ أَوْ ذَكَـرَا
وَاللَّيْـلُ أَطْـوَلُ مِـنْ يَـوْمِ الْحِسَابِ عَلَـىٰ ... عَيْـنِ الشَّجِـيِّ إِذَا مَـا نَـوْمُـهُ نَفَـرَا

* * *

[قالَ أَبو الطيِّب المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٠١] : [منَ المنسرح]

لاَ نَـاقَتِـي تَقْبَـلُ الـرَّدِيـفَ وَلاَ ... بِـالسَّـوْطِ يَـوْمَ الـرِّهَـانِ أُجْهِـدُهَـا

[شرح المطلع]

يقولُ : إِنَّ ناقتَهُ لا تقبلُ الرديفَ ، ولا تحتاجُ إِلىٰ أَن تُساقَ بالسوطِ ، وإِنَّما يعني : نعلَه ، ولو قالَ لا تقبلُ الانفرادَ . لكانَ أَولىٰ بالمحاجاةِ ؛ إِذْ لا تكونُ النعلُ إِلاَّ مَشفوعةً ؛ كَمَا قالَ الآخرُ : [منَ الطويل]

رَواحِلُنَـا سِـتٌّ وَنَحْـنُ ثَـلاثَـةٌ ... نُجَنِّبُهُـنَّ الْمَـاءَ فِـي كُـلِّ مَنْهَـلِ

[خصائص النعال وأصل معنىٰ بيت المتنبي]

فهوَ مِنْ خَصائِصِها ، بخلافِ غيرِها مِنَ النوقِ ، فكثيراً مَا تعجزُ عَنِ الارتدافِ ، ويقالُ إِنَّ أَصلَ المعنىٰ قولُ عنترة [في « ديوانهِ » ٣٣] : [منَ الكامل]

فَيَكُـونُ مَـرْكَبُـكَ الْقَعُـودَ وَرَحْلُـهُ ... وَابْـنُ النَّعَـامَـةِ يَـومَ ذَلِـكَ مَـرْكَبِـي

أَرادَ بـ(ابنِ النَّعامةِ) عرقاً يكونُ في باطنِ القدمِ ، يعني : أَنَّهُ راكبٌ أَخْمَصَهُ[1] .

وقالَ أَبو نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٥٨٥] : [منَ الطويل]

إِلَيْـكَ أَبَـا الْعَبَّاسِ مِنْ بَيْنِ [مَنْ] مَشَـىٰ ... عَلَيْهَـا امْتَطَيْنَـا الْحَضْـرَمِـيَّ الْمُلَسَّنَـا[2]
قَـلاَئِـصُ لَـمْ تَعْـرِفْ حَنِيناً عَلَـىٰ طَلـىً ... وَلَـمْ تَـدْرِ مَـا قَـرْعُ الفَنِيـقِ وَلاَ الْهَنَـا[3]

[ابن المطرز والشريف الرضي والجواب المفحم]

ومَرَّ ابنُ المطرِّزِ ـ الشاعرُ ، وفي رجلِهِ نعلٌ باليةٌ ـ على الشريفِ الرضيِّ ، فقالَ : أَنشدني قصيدتَكَ الَّتي مِنْها قولُكَ : [منَ الطويل]

إِذَا لَـمْ تُبَلِّغْنِـي إِلَيْـكَ رَكَـائِبِـي ... فَـلاَ وَرَدَتْ مَـاءً وَلاَ رَعَـتِ الْعُشْبَـا

---

(١) **الأخمص** : الموضع المنخفض من باطن القدم .

(٢) **الحضرميُّ المُلَسَّنُ** : النعلُ الذي فيه طولٌ ولطافةٌ علىٰ هيئةِ اللسانِ ، أَو النعلُ الذي جُعلَ طرفُ مقدَّمِها كطرفِ اللسانِ .

(٣) **قلائصُ** : جمعُ قلوصٍ ، وهي الناقةُ الشابَّةُ الفتيَّةُ . **الفنيقُ** : الفحلُ المكرَّمُ مِنَ الإِبلِ الذي لا يُركبُ ولا يُهانُ لكرامتِهِ عليهم . **الهناءُ** : القَطِرانُ ، ويقالُ : هَنَأَ الإِبلَ إِذا طلاها بالقَطِرانِ .

ففعلَ ، حَتَّى انتهىٰ إِلىٰ هـٰذا البيتِ ، فقالَ لَهُ : أَهـٰذِهِ ركائِبُكَ ؟! وأَشارَ إِلىٰ نعلِهِ ، فقالَ : لَمَّا صارَتْ هِباتُ مولانا إِلىٰ مثلِ قولِهِ : [منَ الخفيف]

فَخُـذِ النَّـوْمَ مِـنْ جُفُـونِـي فَـإِنِّـي ... قَـدْ خَلَعْـتُ الْكَـرَىٰ عَلَـى الْعُشَّـاقِ

عادَتْ ركائِبي إِلىٰ مَا ترىٰ ، فإِنَّكَ قَدْ خلعْتَ مَا لا تملكُ علىٰ مَنْ لا يقبلُ ، فأَعجبَهُ كلامُهُ وأَجازَهُ .

[كاد المنتعل أن يكون راكباً]

وقالتِ ابنةُ الخُسِّ في محاجاتِها المشهورةِ : كادَ المنتعلُ يكونُ راكباً .

وفي الثالثةِ والأَربعينَ مِنْ « مقاماتِ الحريريِّ »[1] ما يتَّصلُ بالموضوعِ .

[وفود أبي الشمقمق علىٰ يزيد بن المزيد]

وقالَ أَبو الشمَقْمَقِ ـ وقَدْ وفدَ إِلى (اليمنِ) علىٰ يزيدَ بنِ المزيدِ ـ : [منَ الكامل]

رَحَـلَ الْمُطِـيَّ إِلَيْـكَ طُـلاَّبُ النَـدَىٰ ... وَرَحَلْـتُ نَحْـوَكَ نَـاقَـةً نَعْلِيَّـهْ
إِذْ لَـمْ يَكُـنْ لِـي يَـا يَـزِيـدُ مَطِيَّـةٌ ... فَجَعَلْتُهَـا لَـكَ فِـي السِّفَـارِ مَطِيَّـهْ
تَخْـدِي أَمَـامَ الْيَعْمَـلاَتِ وَتَعْتَلِـي ... فِـي السَّيْـرِ تَتْـرُكُ خَلْفَهَـا الْمَهْـرِيَّـهْ[2]
مِـنْ كُـلِّ طَـاوِيَـةِ الصُّـوَىٰ مُـزْوَرَّةٍ ... قَطْعـاً لِكُـلِّ تَنُـوفَـةٍ دَوْسِيَّـهْ[3]
فَـإِذَا رَكِبْـتُ بِهَـا طَـرِيقـاً لاَحِبـاً ... تَنْسَـابُ تَحْتِـي كَـانْسِيَـابِ الْحَيَّـهْ
لَـوْلاَ الشِّـرَاكُ لَقَـدْ خَشِيـتُ جِمَـاحَهَـا ... وَزِمَـامُهَـا مِـنْ أَنْ تَمَـسَّ يَـدَيَّـهْ
تَنْتَـابُ أَكْـرَمَ وَائِـلٍ فِـي بَيْتِهَـا ... حَسَبـاً وَقُبَّـةُ مَجْـدِهَـا مَبْنِيَّـهْ
أَعْنِـي يَـزِيـداً سَيْـفَ آلِ مُحمَّـدٍ ... فَـرَّاجَ كُـلِّ شَـدِيـدَةٍ مَخْفِيَّـهْ
يَـوْمَـاهُ : يَـوْمٌ لِلْمَـوَاهِـبِ وَالنَّـدَىٰ ... خَضِـلٌ وَيَـوْمُ دَمٍ وَخَطْـفُ مَنِيَّـهْ[4]
وَلَقَـدْ أَتَيْتُـكَ وَاثِقـاً بِـكَ عَـالِمـاً ... أَنْ لَسْـتَ تَسْمَـعُ مِـدْحَـةً بِنَسِيَّـهْ[5]

فقالَ لهُ يزيدُ : صدقتَ ، وأَطلقَ عليهِ أَلفَ دينارٍ .

وممَّا يُعزىٰ للكسائيِّ قولُهُ للرشيدِ : [منَ الكامل]

قُـلْ لِلْخَلِيفَـةِ مَـا تَقُـولُ لِمَـنْ ... أَمْسَـىٰ إِلَيْـكَ بِحُـرْمَـةٍ يُـدْلِـي
مَـا زِلْـتُ مُـذْ صَـارَ الأَمِيـرُ مَعِـي ... عَبْـدِي يَـدِي وَمَطِيَّتِـي نَعْلِـي

---

(١) اسم هـٰذه المقامة : المقامة البكرية .
(٢) اليَعْمَلاتُ : جمعُ اليَعْمَلَةِ مِنَ الإبلِ ، وهي النجيبةُ المعتملةُ المطبوعةُ على العملِ . المَهْرِيَّةُ : إبلٌ نجائبُ تسبقُ الخيلَ ، منسوبةٌ لقبيلة مُهرة بن حيدان .
(٣) الصُّوىٰ : الطريق الوعر . مُزْوَرَّة : معوجة ، وأراد أن حذاءه عندما يسير إلى الأمير يسبق جميع الخيول السريعة . التنوفةُ : القفرُ مِنَ الأرضِ . الدوسيَّةُ : الدَّوْسُ شدَّةُ الوطءِ بالأقدام ، ومِنْ هـٰذا يقالُ : طريقٌ مَدُوسٌ .
(٤) الخَضلةُ : النعمةُ والرفاهيةُ .
(٥) بنسيّه : أي بنسيئةٍ ، وهوَ الدَّينُ المؤجَّلُ .



[منْ أيِّ الظهر ركوبك]

وحجَّ بعضُ نُسّاكِ أَرضنا ماشياً ، فسُئِلَ : مِنْ أيِّ الظهرِ رَكوبُكَ ؟ فقالَ : ذلولٌ ، كنَّىٰ بها عَنِ الأَرضِ مِنْ قولِهِ جلَّ شأنُهُ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ [الملك : ١٥] .

[وجهة نظر المؤلف في بعض أبيات النبهاني]

وعلىٰ ذكرِ النعلِ . . **أقولُ** : بينا أَنا أُطالعُ مرَّةً في كتابٍ للنبهانيِّ مِنْ عهدٍ بعيدٍ . . إذا بهِ يقولُ في ليلةِ الإسراءِ : [منَ الطويل]

عَلَىٰ رَأْسِ هَـٰذَا الْكَـوْنِ نَعْـلُ مُحَمَّـدٍ سَـرَتْ فَجَمِيـعُ النَّـاسِ تَحْـتَ ظِـلاَلِـهِ

لَدَى الطُّورِ مُوسَىٰ نُودِيَ اخْلَعْ وَأَحْمَدٌ عَلَـى الْعَـرْشِ لَـمْ يُـؤْمَـرْ بِخَلْـعِ نِعَـالِـهِ

فلمْ يعجبْني الكلامُ ، واطَّرحتُ الكتابَ ، ولمَّا كانَ الليلُ . . رأَيتُ النبهانيَّ ، أَو بعضَ محبِّيهِ فيما يرى النائمُ ، فاعترضْتُ قولَهُ وأَوسعتُهُ ردّاً ، وقلتُ لَهُ : إنَّ الأَليقَ بمدحِ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم هوَ ما أَقولُ ، وأَنشدتُهُ : [منَ الطويل]

يَقُـولُـونَ : إِنَّ الْمُصْطَفَـىٰ لَيْلَـةَ السُّـرَىٰ إِلَـى الْعَـرْشِ لَـمْ يَعْـزِمْ بِخَلْـعِ نِعَـالِـهِ

وَهَـٰذَا مُحَـالٌ لاَ يَلِيـقُ بِحَـالِ مَـنْ تَـوَاضُعُـهُ للهِ أَسْنَـىٰ خِـلاَلِـهِ

في منامٍ طويلٍ ، لا حاجةَ إلى استيعابِهِ ، إذْ قدِ استوفيتُهُ معَ ما يتعلَّقُ بهِ منَ البحثِ في كتابي « **بلابلِ التغريدِ** » ، ومنهُ أَنَّهُ مأمورٌ بما أَدَّبَ اللهُ بهِ موسىٰ عليهما [الصَّلاة و] السلام بنصِّ قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] . ولئنِ اعترَضَ بأَنَّ موسىٰ لَمْ يؤمَرْ بخلعِ النعلِ إلاَّ لنجاستِهِ . . **فجوابُهُ** : أَنَّهُ قولٌ لا يعوَّلُ عليهِ ، وأَمَّا الصلاةُ في النعالِ . . فهيَ مِنَ الرُّخصِ ، كما قالَ ابنُ دقيقِ العيدِ ، لا مِنَ المستحبَّاتِ .

[أمره صلى الله عليه وسلم بمخالفة اليهود بالصلاة بالنعال]

قالَ الحافظُ ابنُ حجرٍ [في « الفتح » ١/ ٤٩٤] : وروى الحاكمُ [في « المستدرك » ١/ ٣٩١] وأَبو داوودَ [في « سننه » (٦٥٢)] مِنْ حديثِ شدَّادِ بنِ أَوسٍ : « **خَالِفُوا الْيَهُودَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُصَلُّونَ فِي نِعَالِهِمْ وَلاَ خِفَافِهِمْ** » ، فيكونُ استحبابُ ذلكَ مِنْ جهةِ قصدِ المخالفةِ المذكورةِ ، ووردَ في كونِ الصلاةِ في النعالِ مِنَ الزينةِ المأمورِ بأَخذِها في الآيةِ حديثٌ ضعيفٌ جدّاً ، أَوردَهُ ابنُ عديٍّ في « **الكاملِ** » ، وابنُ مردويهِ في « **تفسيرِهِ** »(١) ، مِنْ حديثِ أَبي هريرةَ . انتهىٰ .

[استحباب قلع النعل لدخول (مكة)]

وقدْ صرَّحَ فقهاؤُنا باستحبابِ نزعِ النعلِ لدخولِ (مكَّةَ) وهوَ ممَّا يَرُدُّ كلامَ النبهانيِّ ، وهـٰذا كلُّهُ مِنْ حيثُ الفقهُ .

وأَمَّا مِنْ حيثُ الروايةُ : فقدِ اعترفَ هوَ نفسُهُ بأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ ما يدلُّ عليهِ ، وللهِ درُّ المعرِّيِّ في قولِهِ [كما في « سقط الزند » ١٥٩] : [منَ البسيط]

يَـا شَـاكِـيَ النُّـوَبِ انْهَـضْ طَـالِبـاً حَلَبَـا نُهُـوضَ مُضْنـىً لِحَسْـمِ الـدَّاءِ مُلْتَمِسِ(٢)

واخْلَـعْ حِـذَاءَكَ إِنْ حَـاذَيْتَهَـا وَرَعَـاً كَفِعْـلِ مُـوسَـىٰ كَلِيـمِ اللهِ فِـي الْقُـدُسِ

ويتَّصلُ به كثيرٌ ممَّا يأْتي في الآثارِ مِنَ المجلسِ الحادي عشرَ .

---

(١) أورده عنه ابن كثير في « تفسير القرآن العظيم » (٢/ ٢١٠) عن أنس مرفوعاً أنها نزلت في الصلاة بالنعال ، وقال : لكن في صحته نظر . والله أعلم .

(٢) **النُّوَبُ** : المصائبُ .



[تلوُّن المتنبي وتغيره في أشعاره]

ثُمَّ إِنَّ الناظِمَ كثيرُ التلوُّنِ في أَحوالِهِ ، فتارةً يتصعلَكُ ويتفقَّرُ ويعترفُ بالرجلَةِ ، كما في البيتِ ، وكما في **قولِهِ** [في «العُكْبَرِيِّ» ١/ ١٢٥] : [منَ الكامل]

وَحُبِيتُ مِنْ خُوصِ الرِّكَابِ بِأَسْوَدٍ ... مِنْ دَارِشٍ فَغَدَوْتُ أَمْشِي رَاكِبَا [(١)]

و(الدارشُ) : جلدٌ أَسودُ تصنعُ منهُ الأَحذيةُ ، **وقولِهِ** [في «العُكْبَرِيِّ» ١/ ١٤٠] : [منَ الوافر]

وَلَمَّا قَلَّتِ الإِبْلُ امْتَطَيْنَا ... إِلَى ابْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ الْخُطُوبَا

وقولِهِ [في «العُكْبَري» ٣/ ٢١١] : [منَ المنسرح]

وَمَهْمَهٍ جُبْتُهُ عَلَىٰ قَدَمِي ... تَعْجَزُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ الذُّلُلُ [(٢)]

بِصَارِمِي مُرْتَدٍ ، بِمَخْبُرَتِي ... مُجْتَزِىءٌ ، بِالظَّلاَمِ مُشْتَمِلُ [(٣)]

وقولِهِ [في «العُكْبَري» ١/ ٣٤٦] : [منَ المتقارب]

وَقَدْ كَانَ مَشْيُهُمَا فِي النِّعَالِ ... فَقَدْ صَارَ مَشْيُهُمَا فِي الْقُيُودِ

وقولِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٤/ ٢٩٠] : [منَ الطويل]

وَغَيْرُ كَثِيرٍ أَنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ ... فَيَرْجِعَ مَلْكاً لِلْعِرَاقَيْنِ وَالِيَا

وقولِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٣/ ٢٧٦] : [منَ البسيط]

لاَ خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلاَ مَالُ ... فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ

بينا هوَ كذلكَ . . إِذَا بِهِ يتطاولُ تارةً أُخرىٰ ، **ويقولُ** [في «العُكْبَرِيِّ ١/ ٢٧٠] : [من الطويل]

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ ... سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ [(٤)]

ويقولُ [في «العُكْبَرِيِّ» ١/ ٣٦] : [منَ الخفيف]

وَلَقَدْ أَفْنَتِ الْمَفَاوِزُ خَيْلِي ... قَبْلَ أَنْ نَلْتَقِي وَزَادِي وَمَائِي

ويقولُ [في «العُكْبَرِيِّ» ١/ ٣٨] : [منَ المتقارب]

إِذَا فَزِعَتْ قَدَّمَتْهَا الْجِيَادُ ... وَبِيضُ السُّيُوفِ وَسُمْرُ الْقَنَا

ويقولُ [في «العُكْبَرِيِّ» ١/ ١٧٣] : [منَ البسيط]

وَجَدْتُ أَنْفَعَ مَالٍ كُنْتُ أَذْخَرُهُ ... مَا فِي السَّوَابِقِ مِنْ جَرْيٍ وَتَقْرِيبِ

---

(١) **حُبيتُ** : أُعطيتُ . **خُوصُ الركابِ** : الإبلُ المتعبةُ . **والمعنىٰ** : أُعطيت بدلَ الإبلِ خفاً أسودَ أمشي فيهِ .

(٢) **المَهْمَهُ** : المفازةُ البعيدةُ والطريق ، والجمعُ المَهَامِهُ . **جُبْتُهُ** : قَطَعْتُهُ ، ومنه : ﴿ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ [الفجر : ٩] . **العرامِسُ** : النوقُ الصلابُ الشديدةُ . **الذُّلُلُ** : المذلَّلةُ بالعملِ ، المروَّضةُ بالسيرِ ، وهي جمعُ ذَلولٍ .

(٣) **المعنىٰ** : أنا مرتدٍ بسيفي ، متقلِّدٌ بهِ ، مكتفٍ بعِلْمي ، لم أَحتجْ إِلىٰ دليلٍ يدلُّني ويهديني الطريقَ ، لابسٌ ثوبَ الظلامِ ، مشتملٌ بهِ كما يشتملُ الرجلُ بثوبهِ .

(٤) **السَّبُوحُ** : الفرسُ الشديدُ الجري .

ويقولُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ١٥١] : [منَ الطويل]

عَلَـيَّ لأَهْـلِ الْجَـوْرِ كُـلُّ طِمِـرَّةٍ ... عَلَيْهَـا غُـلاَمٌ مِـلْءُ حَيْـزُومِـهِ غِمْـرُ [1]

وقولُهُ : (مَلْءُ حَيْزُومِهِ غِمْرُ) مِنْ قولِ امرىءِ القيسِ : (تَحَمَّلَ فِي الْقُلُوبِ حَنَقَا) .

وقولِ ربيعةَ بنِ مقرومٍ الضبيِّ [في « خزانةِ الأدبِ » ٨/ ٤٣٦] : [منَ الكامل]

وَأَلَـدَّ ذِي حَنَـقٍ عَلَـيَّ كَـأَنَّمَـا ... تَغْلِـي عَـدَاوَةُ صَـدْرِهِ فِـي مِـرْجَـلِ

ويقولُ الناظمُ أيضاً [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٧٩] : [منَ الطويل]

وَعَيْنِـي إِلَـىٰ أُذْنَـيْ أَغَـرَّ كَـأَنَّـهُ ... مِـنَ اللَّيْـلِ بَـاقٍ بَيْـنَ عَيْنَيْـهِ كَـوْكَـبُ [2]

ويقولُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٢٨٥] : [منَ الطويل]

وَجُـرْداً مَـدَدْنَـا بَيْـنَ آذَانِهَـا الْقَنَـا ... فَبِتْـنَ خِفَـافـاً يَتَّبِعْـنَ الْعَـوَالِيَـا

ويقولُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٣] : [منَ الطويل]

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَرْضَىٰ بِمَيْسُورِ عِيشَةٍ ... وَمَـرْكُـوبُـهُ رِجْـلاَهُ وَالثَّـوْبُ جِلْـدُهُ

ويقولُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٣٩] : [منَ البسيط]

لَيْـسَ التَّعَلُّـلُ بِـالآمَـالِ مِـنْ أَرَبِـي ... وَلاَ الْقَنَـاعَـةُ بِـالإِقْـلاَلِ مِـنْ شِيَمِـي

[لا مجد إلا بمال]

وقد أَلَمَّ في هٰذا ، وفي قولِهِ : (فَلاَ مَجْدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ) بقولِ قيسِ بنِ سعدِ بنِ عبادةَ [في « البيان والتبيين » ١/ ٥٩٦] : اللهمَّ هَبْ لي حمداً ومجداً ، لا حمدَ إلا بفعالٍ ، ولا فعالَ إلاَّ بمالٍ ، اللَّهمَّ إنَّ القليلَ لا يُصْلِحُنِي ، ولا أَصلُحُ عليهِ .

[تعريض الحمداني بالمتنبي ثم نفي المؤلف الذم عنه]

وما أَظنُّ أَبا فراسٍ الحمدانيَّ في قولِهِ [في « ديوانه » ١٩٦ـ١٩٧] : [منَ الكامل]

وَتَعَـافُ لِـي طَمَـعَ الْحَـرِيـصِ أُبُـوَّتِـي ... وَمُـرُوءَتِـي وَقَنَـاعَتِـي وَعَفَـافِـي

مَـا كُـلُّ مَـا فَـوْقَ الْبَسِيطَـةِ كَـافِيـاً ... فَـإِذَا قَنِعْـتَ فَكُـلُّ شَـيْءٍ كَـافِ

إلاَّ ويُعرِّضُ بالناظِمِ ، ويشيرُ إِلىٰ قولَيْهِ السابقَينِ ، ولكنْ نفىٰ عنهُ الذمَّ كلَّ النفي ما أَشرنا إِليهِ مِنْ دُعاءِ قيسٍ ، والثاني مِنْ أَبياتِ الحمدانيِّ ، هوَ مِنْ قولِ أَبي ذؤَيبٍ [في « ديوانه » ٥٦] : [منَ الكامل]

وَالنَّفْـسُ رَاغِبَـةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَـا ... وَإِذَا تُـرَدُّ إِلَـىٰ قَلِيـلٍ تَقْنَـعُ

---

(١) **الطِّمِرَّةُ** : الفرسُ العاليةُ المشرفةُ . **الحيزومُ** : الصدرُ . **الغِمْرُ** : الحِقْدُ . والمعنىٰ أَنَّهُ يقولُ : أَنا كفيلٌ بخيلٍ فرسانُها هؤلاءِ .

(٢) المعنىٰ : أَنَّهُ كانَ ينظرُ إِلىٰ أُذني فرسِهِ ، وذلكَ أَنَّ الفرسَ أَبصرُ شيءٍ ، فإِذا حَسَّ بشخصٍ مِنْ بعيدٍ نصبَ أُذنيهِ نحوَهُ . فيعلمُ الفارسُ أَنَّهُ أَبصرَ شيئاً ، ثُمَّ وصفَ فرسَهُ بأَنَّهُ قطعةُ ليلٍ في وجههِ كوكب .

[عودة علىٰ تناقض المتنبي]

وبينا صاحبُنا يعترفُ بقلَّةِ العَدِّ ، ويشتكي مِنْ صُفُورَةِ اليدِ ، **ويقولُ** [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٧٠] : [مِنَ الطويل]

أَهُــمُّ بِشَــيْءٍ وَاللَّيَــالِــي كَــأَنَّهَــا ... تُطَــارِدُنِــي عَــنْ كَــوْنِــهِ وأُطَــارِدُ

وَحِيــدٌ مِــنَ الْخُــلاَّنِ فِــي كُــلِّ بَلْــدَةٍ ... إِذَا عَظُــمَ الْمَطْلُــوبُ قَــلَّ الْمُسَــاعِــدُ

ويقولُ للمغيثِ العِجْليِّ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٢٠] : [مِنَ البسيط]

لَمَّــا أَقَمْــتَ بِــأَنْطَــاكِيَّــةَ اخْتَلَفَــتْ ... إِلَــيَّ بِــالْخَبَــرِ الــرُّكْبَــانُ فِــي حَلَبَــا

فَسِــرْتُ نَحْــوَكَ لاَ أَلْــوِي عَلَــىٰ أَحَــدٍ ... أَحُــثُّ رَاحِلَتَــيَّ الْفَقْــرَ وَالأَدَبَــا

إذا بِهِ ينتفشُ دماغُهُ ، ويمتلىءُ فراغُهُ ، ويعقصُ أَنفَهُ ، ويمدُّ إلى النجومِ كفَّهُ ، ولا يستحيْ أَنْ **يقولَ** للمغيثِ في نفسِ القصيدةِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٢٠ـ١٢١] : [مِنَ البسيط]

وَإِنْ عَمِــرْتُ جَعَلْــتُ الْحَــرْبَ وَالِــدَةً ... وَالسَّمْهَــرِيَّ أَخــاً وَالْمَشْــرَفِــيَّ أَبَــا[1]

بِكُــلِّ أَشْعَــثَ يَلْقَــى الْمَــوْتَ مُبْتَسِمــاً ... حَتَّــىٰ كَــأَنَّ لَــهُ فِــي قَتْلِــهِ أَرَبَــا

قُــحٍّ يَكَــادُ صَهِيــلُ الْخَيْــلِ يَقْــذِفُــهُ ... عَــنْ سَــرْجِــهِ مَــرَحــاً بِــالْعِــزِّ أَوْ طَــرَبَــا[2]

فَــالْمَــوْتُ أَعْــذَرُ لِــي وَالصَّبْــرُ أَجْمَــلُ بِــي ... وَالْبَــرُّ أَوْسَــعُ وَالــدُّنْيَــا لِمَــنْ غَلَبَــا

[امرؤ القيس وخالد السدوسي والإبل المسروقة]

فَانظُر كيفَ يطمعُ في المُلكِ الكبيرِ ، وما يجدُ ما يتبلَّغُ بِهِ مِنْ ناقةٍ أَو بعيرٍ ، فما أَشبهَهُ إِذنْ بخالدِ بنِ سدوسٍ النبهانيِّ ، إذ أَغارَتْ بنو جديلةَ على امرىءِ القيسِ ، وأَخذوا إِبلَهُ ، وهو في جوارِهِ ، فقالَ لهُ : أَعطني رواحلَكَ ؛ لأَلحقَ القومَ ، فأَرُدَّ الإِبلَ ، ففعلَ ، وركبَ خالدٌ حتَّىٰ أَدركَهم ، فقالَ : يا بنيْ جديلةَ ، أَغَرْتُمْ علىٰ إِبلِ جاري! قالوا : ما هوَ لكَ بجارٍ ، قالَ : بلىٰ ، وهـٰذه رواحلُهُ معي ، قالوا : أَكذلكَ ؟ قالَ : نعم ، فأَنزلوهُ عنها ، وأَخذوها فوقَ الإِبلِ ، فعادَ خالدٌ ينفضُ مذْرَوَيْهِ[3] ، قالَ لامرىءِ القيسِ : لا تخفْ فسأَردُّ عليكَ الجميعَ ، فقالَ امرؤُ القيسِ [في « ديوانه » ١٧٤] : [مِنَ الطويل]

وَدَعْ عَنْــكَ نَهْبــاً صِيــحَ فِــي حَجَــرَاتِــهِ ... وَهَــاتِ حَــدِيثــاً مَــا حَــدِيــثُ الــرَّوَاحِــلِ[4]

[نفي العذر عن المتنبي في تناقضه]

ولا يصحُّ أَنْ يُعتذرَ عنهُ بما سبقَ مِنْ **قولِهِ** [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٢٩٠] : [مِنَ الطويل]

(وَغَيْرُ كَثِيرٍ أَنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ . . إلىٰ آخرِهِ) لفرقِ ما بينَ الحالينِ ؛ إِذْ هوَ ثَمَّ طالبٌ وهُنا فاخرٌ .

---

(١) عَمِرتُ : عشتُ طويلاً .

(٢) القحُّ : الخالصُ .

(٣) المِذْرَوَانِ : الجانبانِ مِنْ كلِّ شيءٍ ، تقولُ العربُ : جاءَ فلانٌ يضربُ أَصْدَرَيْهِ ، ويَهُزُّ عطفَيْهِ ، وينفضُ مِذْرَوَيْهِ ، وهما منكباهُ .

(٤) القصة في « مجمع الأمثال » (١/ ٢٦٨) ، و« جمهرة الأمثال » (١/ ٤٥٢) . النهبُ : السلبُ وانتهاز الفرص لاختطاف الأشياء . حَجَرَاتُهُ : نواحيهِ . والمعنىٰ : دع عنك حديث إبلي التي سطا عليها هـٰؤلاء اللصوص ، وهات حدثني عن ذهاب رواحلك ، وكيف مكنتهم من أخذها ، يا سيِّءَ الجوار ، ويا ضعيف الدفع عن الجار ؟! .

ويقولُ الناظِمُ أَيضاً [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٤٤] : [مِنَ البسيط]

مِيعَادُ كُلِّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ غَداً ... وَمَنْ عَصَىٰ مِنْ مُلُوكِ الْعُرْبِ وَالْعَجَمِ[١]

ويقولُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٤١] : [مِنَ البسيط]

لأَتْرُكَنَّ وُجُوهَ الْخَيْلِ سَاهِمَةً ... وَالْحَرْبُ أَقْوَمُ مِنْ سَاقٍ عَلَىٰ قَدَمِ[٢]

وَالطَّعْنُ يُحْرِقُهَا وَالزَّجْرُ يُقْلِقُهَا ... حَتَّىٰ كَأَنَّ بِهَا ضَرْباً مِنَ اللَّمَمِ[٣]

ويقولُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ١٥٧] : [مِنَ الطويل]

وَجَنَّبَنِي قُرْبَ السَّلاَطِينِ مَقْتُهَا ... وَمَا يَقْتَضِينِي مِنْ جَمَاجِمِهَا النَّسْرُ

ويقولُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٧٣ـ٣٧٤] : [مِنَ الطويل]

سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَا وَمَشَايِخٍ ... كَأَنَّهُمُ مِنْ طُولِ مَا الْتَثَمُوا مُرْدُ[٤]

ثِقَالٍ إِذَا لاَقَوْا خِفَافٍ إِذَا دُعُوا ... كَثِيرٍ إِذَا شَدُّوا قَلِيلٍ إِذَا عُدُّوا

إِذَا شِئْتُ حَفَّتْ بِي عَلَىٰ كُلِّ سَابِحٍ ... رِجَالٌ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي فَمِهَا شَهْدُ

ويقولُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٩٣] : [مِنَ الطويل]

نُصَرِّفُهُ لِلطَّعْنِ فَوْقَ حَوَادِرٍ ... قَدِ انْقَصَفَتْ فِيهِنَّ مِنْهُ كِعَابُ[٥]

ومهما اعتذرنا للناظمِ ـ في تقلُّبِهِ بينَ الجزرِ والمدِّ ، والصَّعْرِ وضَرَعِ الخدِّ[٦] بأَنَّ الإنسانَ عُرضةُ ذلكَ ، ولهـٰذا كانَ أكثرُ حَلفِهِ صلى الله عليه وسلم بمقلِّبِ القلوبِ[٧] ـ فإنَّا لا نقدِرُ أَنْ نُؤَلِّفَ بينَ ما سمعْتَ مِن هَفْوِ الدعاوي الطويلةِ العريضةِ وبينَ قولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٣٤٤] : [مِنَ الخفيف]

لَيْتَ أَنَّا إِذَا رَكِبْتَ لَكَ الْخَيْـ ... ـلُ وَأَنَّا إِذَا نَزَلْتَ الْخِيَامُ

[اختلاف الأحوال والواردات على العارفين]

وَإِلاَّ . . فالعارفونَ ـ وهُمْ مَنْ هُمْ ـ تضطرِبُ أَحوالُهُم ، وتتلوَّنُ أُمورُهُم ، أَلا ترىٰ إِلى الشرفِ ابنِ الفارضِ بينا هوَ يقولُ ، وفي السماءِ أَنفُهُ ، وعلىٰ ناصيةِ الثريَّا كفُّهُ [في « ديوانهِ » ١٦٩] : [مِنَ الكامل]

وَإِذَا سَأَلْتُكَ أَنْ أَرَاكَ حَقِيقَةً ... فَاسْمَحْ وَلاَ تَجْعَلْ جَوَابِي لَنْ تَرَىٰ

---

(١) رقيقُ الشفرتين : السيفُ الذي رقَّتْ مضاربُهُ بكثرةِ الصقلِ .

(٢) ساهمةٌ : متغيِّرةُ الوجوهِ من هولِ ما ترىٰ .

(٣) اللممُ : الجنونُ .

(٤) أرادَ أنهمْ مجربونَ ، فلذلكَ جعلهم مشايخَ ، وأراد أنهم لا يفارقونَ الحربَ ، فلهـٰذا لا يفارقهم اللثام ، فكأنهم مُرْدٌ لعدم رؤيته لحاهم .

(٥) الحوادِرُ : الغليظُ السمينُ مِنَ الخيلِ .

(٦) الصَّعْرُ : إمالة الخدِّ ، وهو كناية عن التكبر ، والشموخ ، والترفع ؛ تهاوناً بالمنظور إليه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ [لقمان : ١٨] . ضَرَعُ الخَدِّ : إذلالهُ .

(٧) ولفظه : « يا مقلِّب القلوب » رواه عن ابن عمر البخاري ، وأبو داوود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، ومن دعائه صلى الله عليه وسلم كما في حديث أم سلمة عند ابن السني (٦٦٣) : « يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا علىٰ دينك » .

إذا به يتضاءَلُ ويذوبُ ، وينكسِرُ ويتوبُ ويقولُ [في « ديوانهِ » ٤٧] : [منَ الطويل]

وَمُنِّي عَلَىٰ سَمْعِي بِلَـنْ إِنْ مَنَعْـتِ أَنْ أَرَاكِ فَمِــنْ قَبْلِـي لِغَيْـرِيَ لَــذَّتِ

ويقولُ [في « ديوانهِ » ١٥٧] : [منَ الخفيف]

ذَابَ قَلْبِـــي فَـــأْذَنْ لَـــهُ يَتَمَنَّـــا كَ وَفِيْــهِ بَقِيَّــةٌ لِــرَجَــاكَــا

ويقولُ [في « ديوانهِ » ١٤٧] : [منَ البسيط]

وَارْحَـمْ تَعَثُّـرَ آمَـالِـي ، وَمُـرْتَجَعِـي إِلَـىٰ خِـدَاعِ تَمَنِّـي الْـوَعْـدِ بِـالْفَـرَجِ

وبينا هوَ يقولُ [في « ديوانهِ » ١٥٣] : [منَ الكامل]

وَإِنِ اكْتَفَـىٰ غَيْـرِي بِطَيْـفِ خَيَـالِـهِ فَـأَنَـا الَّـذِي بِـوِصَـالِـهِ لاَ أَكْتَفِـي

. . إِذَا بِهِ يقولُ [في « ديوانهِ » ١٢٦] : [منَ الكامل]

وَأَبِيــتُ سَهْــرَانــاً أُمَيِّــلُ طَيْفَــهُ لِلطَّـرْفِ كَـيْ أَلْقَـىٰ خَيَـالَ خَيَـالِـهِ

وهوَ خيرٌ مِنْ قَوْلِ النَّاظِمِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٥٣] : [منَ الكامل]

إِنَّ الْمُعِيــدَ لَنَــا الْمَنَــامُ خَيَــالَــهُ كَـانَـتْ إِعَـادَتُـهُ خَيَـالَ خَيَـالِـهِ

وبينا الشَّرفُ ابنُ الفَارضِ أيضاً يقولُ [في « ديوانهِ » ١٤٥] : [منَ البسيط]

عَذِّبْ بِمَا شِئْتَ غَيْرَ الْبُعْدِ عَنْكَ تَجِدْ أَوْفَـىٰ مُحِـبٍّ بِمَـا يُـرْضِيـكَ مُبْتَهِـجِ

ويقولُ [في « ديوانهِ » ١٤٤] : [منَ البسيط]

أَمْسَيْـتُ فِيـكَ كَمَـا أَصْبَحْـتُ مُكْتَئِبـاً وَلَـمْ أَقُـلْ جَـزَعـاً : يَـا أَزْمَـةُ انْفَـرِجِي (١)

ويقولُ [في « ديوانهِ » ١٥٦] : [منَ الخفيف]

وَبِمَـا شِئْـتَ فِـي هَـوَاكَ اخْتَبِـرْنِـي فَـاخْتِيَـارِي مَـا كَـانَ فِيـهِ رِضَـاكَـا

. . إِذْ بَطَلَ اختيارُهُ ، وعِيلَ اصطبارُهُ ، وبكأَتْ دَرَّتُهُ(٢) ، ولانَتْ مِرَّتُهُ ، وصارَ يقولُ [في « ديوانهِ » ١٥٨] : [منَ الخفيف]

بِـانْكِسَـارِي بِـذِلَّتِـي بِخُضُـوعِـي بِـافْتِقَـارِي بِفَـاقَتِـي بِغِنَـاكَـا
لاَ تَكِلْنِـي إِلَـىٰ قُـوَىٰ جَسَـدٍ خَـا نَ فَـإِنِّـي أَصْبَحْـتُ مِـنْ ضُعَفَـاكَـا

[دفع الإشكال بما ظاهره التناقض في القرآن الكريم]

وقامَ أحدُ المُلحدينَ يطعنُ في القرآنِ بما ظاهرُهُ التناقضُ مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٣٥ـ٣٦]، وقولِهِ جلَّ ذِكرُهُ: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ : ٣٨]

---

(١) **الجزعُ** : عدمُ الصبرِ .
(٢) **بكأتْ** : قلَّت .

معَ أمثالِ قولِهِ تقدَّست أَسماؤُهُ : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات : ٢٧] .

وأَجابُوا عَن ذلِكَ : بأَنَّ المنفيَّ مِنَ الكلامِ . . النافعُ ، وبأَنَّ اليومَ طويلٌ تختلفُ فيهِ الأَحوالُ ، فتارةً : يُمنَعونَ عَنِ التكلُّمِ لتلاطُمِ الأَهوالِ ، وأُخرىٰ : يُؤْذَنُ لهُمْ فيهِ للتبكيتِ والتقريعِ ، فالاعتراضُ مدفوعٌ مِنْ أَصلِهِ ، وإِنَّمَا يكونُ التعارضُ مَعَ اتِّحادِ الزمانِ .

[المتنبي جزوع منوع]

والناظِمُ يَلْبَسُ لكلِّ حالةٍ لَبُوسَها ، إِذْ لا يزالُ يعاني مِنَ الأَيَّامِ نعمتَها وبُؤْسَها[١] ، غيرَ أَنَّا لَمْ نَرَهُ في الخيرِ إِلاَّ مَنُوعاً ، وفي الشرِّ إِلاَّ جَزوعاً[٢] ، بعيداً مِنْ قولِ العربيِّ : [مِنَ البسيط]

لاَ مُتْـرَفـاً إِنْ رَخَـاءُ الْعَيْـشِ سَـاعَـدَهُ ... وَلَيْـسَ إِنْ عَـضَّ مَكْـرُوهٌ بِـهِ خَشَعَـا

ومِنْ قولِ حاتمٍ [في « ديوانِهِ » ٥٢] : [مِنَ الطويل]

عُنِينَـا زَمَـانـاً بِـالتَّصَعْلُـكِ وَالْغِنَـىٰ ... كَمَـا الـدَّهْـرُ مِـنْ أَيَّـامِـهِ الْعُسْرُ وَالْيُسْرُ

فَمَـا زَادَنَـا شَـأْواً عَلَـىٰ ذِي قَـرَابَـةٍ ... غِنَـانَـا وَلاَ أَزْرَىٰ بِـأَحْسَـابِنَـا الْفَقْـرُ[٣]

وقولِ ابنِ عبدلٍ الأَسديِّ [في « الأغاني » ٢/ ٨٤٤] : [مِنَ الطويل]

وَإِنِّـي لأَسْتَغْنِـي فَمَـا أَبْطِـرُ الْغِنَـىٰ ... وَأَبْـذُلُ مَيْسُـورِي لِمَـنْ يَبْتَغِـي قَـرْضِـي

وَأُعْسِـرُ أَحْيَـانـاً وَتَشْتَـدُّ عُسْـرَتِـي ... وَأُدْرِكُ مَيْسُـورَ الْغِنَـىٰ وَمَعِـي عِـرْضِـي

وقولِ كُثيِّرٍ [في « ديوانِهِ » ٢٣٩] : [مِنَ الطويل]

إِذَا قَـلَّ مَـالِـي زَادَ عِـرْضِـي كَـرَامَـةً ... عَلَـيَّ وَلَـمْ أَتْبَـعْ دِقَـاقَ الْمَطَـامِـعِ[٤]

وقولِ الآخرِ : [مِنَ الطويل]

وَكَـمْ أَزْمَـةٍ لِلـدَّهْـرِ أَلْقَـتْ جِـرَانَهَـا ... عَلَـيَّ فَلَـمْ تَكْشِـفْ مَـذَلَّتُهَـا سَتْـرِي[٥]

[كرم نفس أبي فراس الحمداني]

وإِنِّي لكثيراً مَا أَعجبُ لأَبي فراسٍ ، وأَستَدِلُّ علىٰ أُكرومتِهِ وَطيبِ أُرومتِهِ[٦] بقولِهِ وهوَ في غياباتِ السجنِ [في « ديوانِهِ » ٢٤٦ـ٢٤٧] : [مِنَ الطويل]

أَيَضْحَـكُ مَـأْسُـورٌ وَتَبْكِـي طَلِيقَـةٌ ... وَيَسْكُـتُ مَحْزُونٌ وَيَنْـدُبُ سَـالِـي ؟!!

لَقَـدْ كُنْـتُ أَوْلَـىٰ مِنْـكِ بِـالـدَّمْـعِ مُقْلَـةً ... وَلَـٰكِـنَّ دَمْعِـي فِـي الْحَـوَادِثِ غَـالِـي

---

(١) لعلَّه أخذه من قول الشافعيِّ :

البـس لكـلِّ حـالـةٍ لبـوسَهـا ... إمّـا نعيمَهـا وإمّـا بـؤسَهـا

(٢) اقتبس أسلوبه من قوله تعالىٰ : ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج : ٢٠ـ٢١] .

(٣) شَأْواً : بُعْداً . أَزرىٰ : عابَ .

(٤) **لَمْ أتبعْ دِقَاقَ المطامعِ** : أي لَمْ أَتبعِ المطامعَ الدقيقةَ الصغيرةَ التي يدفعُ إليها الفقرُ أَحياناً .

(٥) **الجِرَانُ** : الثقلُ .

(٦) **الأَرُومَةُ** ـ بفتحِ الهمزةِ وضمِّها ـ : الأَصلُ ، والجمعُ أَرُومٌ .

[عند الامتحان يكرم المرء أو يهان]

ولا نعدمُ مِنْ كلامِ الناظمِ ما يشبهُهُ غيرَ أَنَّهُ في حالِ السَّعَةِ ، وهـٰذا يقولُهُ في حينِ الضيقِ ، وكذلكَ الحرُّ الكريمُ ، والعربيُّ الصميمُ لَا تجدُهُ أَشدَّ ما يكونُ إلاَّ عندَ انقطاعِ الأسبابِ ، واستغلاقِ الأبوابِ ، كَما أَطلنا البحثَ فيهِ مِنْ كتابنا « **بلابلُ التغريدِ** » .

[إلحاحه صلى الله عليه وسلم علىٰ ربه يوم العريش]

وحالُهُ صلى الله عليه وسلم أَكملُ الأَحوالِ في ذلكَ ، ولهـٰذا اشتدَّ خوفُهُ ، وكَثُرَ إلحاحُهُ علىٰ ربِّهِ يومَ العريشِ ، والمهاجرونَ والأَنصارُ بينَ يديهِ تدورُ حَمَالِيقُهم[1] أَمثالَ الحيَّاتِ .

[ثباتة جأشه في الغار]

وثَبَتَ جأشُهُ ، وذهَبَ إيحاشُهُ يومَ الغارِ ، ويومَ حنينٍ ، ويومَ أُحُدٍ ، وَقَدِ اصفرَّتِ الجباهُ ، ويَبِسَتِ الشفاهُ ، وغارَتِ العيونُ ، وظُنَّتِ الظنونُ .

[والله يا عم لو وضعوا الشمس]

وهَلْ سمعْتَ بشدَّةٍ أَعظمَ مِنْ شدَّتِهِ ، وقد ظَنَّ أَنَّ عَمَّهُ سيُسلِمُهُ إلىٰ قريشٍ ؛ إنْ لَمْ يُجِبْهُ إلىٰ خَصلةٍ ممَّا عَرَضَ عليهِ ، فقالَ : « **واللهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي ، وَالْقَمَرَ فِي شِمَالِي ، عَلَىٰ أَنْ أَتْرُكَ هَـٰذَا الأَمْرَ حَتَّىٰ يُظْهِرَهُ اللهُ ، أَوْ أَهْلِكَ دُونَهُ ، مَا فَعَلْتُ** »[2] .

[تواضعه صلى الله عليه وسلم عند فتح (مكة)]

وهل بلغتْكَ رِقَّةٌ أَعظمُ مِنْ رِقَّتِهِ يومَ فتحِ (مكَّةَ) ؛ إذ دخلَها علىٰ رَحْلٍ مُطأْطِئاً رأسَهُ ، حتَّىٰ لَيَكادُ يَمَسُّ مُقدَّمَ رَحلِهِ ، مُردِفاً خلفَهُ عبداً في سوادِ الغرابِ ، وخلفَهُ ثمانيةُ آلافِ سيفٍ مُنتضاةٍ ، ومكَّنَهُ اللهُ مِنْ رقابِ أَعدائِهِ الَّذينَ فعلوا بهِ الأَفاعيلَ ، فما كانَ منهُ إلاَّ أَنْ جمعَهُم حولَ البيتِ ، وقالَ : « **مَا تَرَوْنِي فَاعِلاً بِكُمْ ؟** » ، فقالوا : إنْ تُعَذِّبْ . . فقد أَسأْنَا ، وإنْ تعفُ . . فخيرُ ابنٍ وَخَيْرُ أَخٍ ، فقالَ لهم : « **لاَ أَقُولُ لَكُمْ إلاَّ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ : لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ** »[3] أَو ما يقربُ مِنْ هـٰذا المعنىٰ[4] .

[سؤال عن عفوه وعن شدته]

وهـٰهنا سؤالٌ وهو : كيفَ عفا صلى الله عليه وسلم عن قريشٍ ، وقتلَ ما بينَ الصلاتينِ سبعَ مئَةٍ مِنَ اليهودِ ، لَمْ تأْخذْهُ

---

(١) وهـٰذا تعبيرٌ فيهِ كنايةٌ عن شدَّةِ هولِ الموقفِ الذي كانَ يمرُّ فيهِ الصحابةُ آنَ ذاكَ ، **والحِملاقُ** : باطنُ أَجفانِ العينِ ، **وحملقَ الرجلُ** : إذا انقلبَ حملاقُ عينيهِ مِنَ الفزعِ .
أخرج عن ابن عباس البخاري في « صحيحه » (٢٩١٥) في كتاب الجهاد والسير ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو في قبة يوم بدر : « اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم » فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك يا رسول الله ، فقد ألححت علىٰ ربك ، وهو [يثب] في الدرع ، فخرج وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۞ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر : ٤٥ـ٤٦] يعني من المرارة .

(٢) « السيرة النبوية » (٢/١٠١) .

(٣) كما في سورة يوسف عليه السلام [الآية : ٩٢] .

(٤) قصة دخوله صلى الله عليه وسلم على الصفة والهيئة المذكورة في « السيرة النبوية » (٤/٢٤) ، ولكنه لم يذكر أنه صلى الله عليه وسلم كان مردفاً عبداً . والله أعلم .



بِهِمْ رأفةٌ ، ولَمْ تعطِفْهُ عليهِمْ رحمةٌ ، معَ أَنَّهُ أَشفقُ الناسِ بالناسِ ، ومعَ أَنَّ ذنبَهُم لَمْ يَكُنْ مِثلَ ذنوبِ قريشٍ[1] ؟

والجوابُ : أَنْ لا هوادةَ عندَهُ ، وقد قتلَ الفريقينِ ، إلاَّ أَنَّ قريشاً لمَّا كانوا أَهلَ كَرَمٍ ، وبُعْدَ هِمَمٍ ، وطهارةَ شِيَمٍ . . كانَ قتلُهم بالعفوِ ، وأَمَّا اليهودُ : فإِنَّهُم لَمَّا اشْتملوا على اللُّؤْمِ ، واندمجوا على الخِسَّةِ بآيةِ أَنَّ ذنبَهُم كانَ الغدرُ . . لَمْ يكُنْ ليصلِحَهُمُ الحِلْمُ ، ولا ليتداركَهُمُ العفوُ ، لا جَرَمَ اضطرَّ إِلىٰ قتلِهم بالسيفِ ، وقد قالَ ابنُ المعتزِّ : [منَ الكامل]

ضَـرَّابُ هَـامِ الـرُّومِ مُنْتَقِمـاً وَفِـي ... أَعْنَـاقِهِـمْ مِـنْ جُـودِهِ أَعْبَـاءُ
لَـوْلاَ انْبِعَـاثُ السَّيْـفِ وَهُـوَ مُسَلَّـطٌ ... فِـي قَتْلِهِـمْ قَتَلَتْهُـمُ النَّعْمَـاءُ

إلاَّ أَنَّ عليهِ مؤاخذتينِ :

[اعتراض المؤلف على ابن المعتز]

إحداهُما : أَنَّ الإِحسانَ ذِمَّةٌ ، فلا يليقُ بالكريمِ أَنْ يؤذيَ غَذيَّ نعمتِهِ .

والأُخرىٰ : أَنَّهُ لا يُصارُ إِلى القتلِ بالسيفِ إلاَّ عندَ تعذُّرِهِ بِالنَّعْمَاءِ ، وإلاَّ كانَ الحِلمُ أَلْيَقَ ، والعفوُ أَجدرَ ، كمَا فعلَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم .

[الصفح عند الشعراء]

وقالَ أَبو عبادةَ [في « ديوانهِ »] : [منَ الطويل]

صَفُـوحٌ عَـنِ الْجَـانِـي وَصَفْحَـةُ سَيْفِـهِ ... إِذَا هِـيَ لَـمْ تَقْتُلْـهُ فَـالصَّفْـحُ قَـاتِلُـهُ

ووضَّحهُ أَبو الطيِّبِ في **قولِهِ** [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٨٨] : [منَ الطويل]

وَمَـا قَتَـلَ الأَحْـرَارَ كَـالْعَفْـوِ عَنْهُـمُ ... وَمَـنْ لَـكَ بِـالْحُرِّ الَّـذِي يَحْفَـظُ الْيَـدَا
إِذَا أَنْـتَ أَكْـرَمْـتَ الْكَـرِيـمَ مَلَكْتَـهُ ... وَإِنْ أَنْـتَ أَكْـرَمْـتَ اللَّئِيـمَ تَمَـرَّدَا
وَوَضْعُ النَّدَىٰ فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلاَ ... مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَىٰ

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ١٣٦] : [منَ الطويل]

وَأَحْلُـمُ عَـنْ خِلِّـي وَأَعْلَـمُ أَنَّـهُ ... مَتَـىٰ أَجْـزِهِ حِلْمـاً عَلَـى الْجَهْـلِ يَنْـدَمِ

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ١٨٥] : [منَ الكامل]

يَـا مَـنْ يُقَتِّـلُ مَـنْ أَرَادَ بِسَيْفِـهِ ... أَصْبَحْـتُ مِـنْ قَتْـلاَكَ بِـالإِحْسَـانِ

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٧٩] : [منَ الطويل]

وَيَصْطَنِـعُ الْمَعْـرُوفَ مُبْتَـدِئـاً بِـهِ ... وَيَمْنَعُـهُ عَـنْ كُـلِّ مَـنْ ذَمُّـهُ حَمْـدُ

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٣١٠] : [منَ الكامل]

لاَ يَشْهَـرُونَ عَلَـىٰ مُخَـالِفِهِـمْ ... سَيْفـاً يَقُـومُ مَقَـامَـهُ الْعَـذَلُ

وفي البحثِ طولٌ وفَّيْناهُ حقَّهُ في « **بلابلِ التغريدِ** » .

---

(١) « السيرة النبوية » (٣/ ٢٥٩) .

[عود علىٰ بدء]

ولنعُدْ إِلىٰ ما يتّصلُ بتناقضِ الناظِمِ ، فنقولُ :

[الأصمعي وبراذين الخلفاء]

حُكيَ : أَنَّ الأَصمعيَّ رُئِيَ علىٰ حمارٍ أَعجفَ ، فقيلَ لهُ : تركبُ هـٰذا بعدَ براذينِ الخلفاءِ ؟ فقالَ : [منَ الكامل]

وَلَمَّـا أَبَـتْ إِلاَّ انْصِـرَامـاً لِـوِدِّهَـا ... وَكَـدَّرَتِ الْمَـاءَ الَّـذِي كَـانَ صَـافِيَـا

شَـرِبْنَـا بِـرِيـقٍ مِـنْ هَـوَاهَـا مُكَـدَّرٍ ... وَلَيْـسَ يَعَـافُ الـرِّيقَ مَنْ كَـانَ صَـادِيَـا

[الضرورات تبيح المحظورات]

وَللنّاظمِ فيما يقرُبُ منَ الأَخيرِ **قولُهُ** [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٢٨١] : [منَ المنسرح]

غَيْـرَ اخْتِيَـارٍ قَبِلْـتُ بِـرَّكَ بِـي ... وَالْجُـوعُ يُـرْضِـي الأُسُـودَ بِـالْجِيَـفِ

ومثلُهُ قولُ بعضِهِم : [من مجزوء الكامل]

خُـذْ مَـا أَتَـاكَ مِـنَ اللِّئَـا ... مِ إِذَا نَـأَىٰ أَهْـلُ الْكَـرَمْ

فَـالأُسْـدُ تَفْتَـرِسُ الْكِـلاَ ... بَ إِذَا تَعَـذَّرَتِ الْغَنَـمْ

[ابن الرومي يطلب حاجة لا يتوقع قضاءها]

وسأَلَ ابنُ الروميِّ حاجةً مِنْ بعضِ الرؤَساءِ ، فقضاها لَهُ ، وما كانَ يتوقَّعُ ذلكَ منهُ ، فقالَ : [منَ الطويل]

سَـأَلْتُـكَ فِـي أَمْـرٍ فَجُـدْتَ بِبَـذْلِـهِ ... عَلَـىٰ أَنَّنِـي مَـا خِلْـتُ أَنَّـكَ تَفْعَـلُ

وَأَلْـزَمْتَنِـي بِـالْبَـذْلِ شُكْـراً وَإِنَّـهُ ... عَلَـيَّ مِـنَ الْحِـرْمَـانِ أَدْهَـىٰ وَأَعْضَـلُ

وَمَـا خِلْـتُ أَنَّ الـدَّهْـرَ يَثْنِـي بِصَـرْفِـهِ ... إِلَـىٰ أَنْ أَرَىٰ فِـي النَّـاسِ مِثْلَـكَ يُسْـأَلُ

لَئِـنْ سَـرَّنِـي مَـا نِلْـتُ مِنْـكَ فَـإِنَّـهُ ... لَقَـدْ سَـاءَنِـي إِذْ أَنْـتَ مِمَّـنْ يُـؤَمَّـلُ

[ابتسام الأيام بعد عبوسها]

وفيما يليقُ بموضوعِ البيتِ الَّذي نتكلَّمُ فيهِ ، يقولُ ابنُ الروميِّ أَيضاً في أَبي الصقرِ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٦٣٨] : [منَ الوافر]

غَـدَا يَعْلُـو الْجِيَـادَ وَكَـانَ يَعْلُـو ... إِذَا مَـا اسْتَفْـرَهَ السِّبْـتَ الـرِّقَـاقَـا[1]

أَعِنَّتُهَـا الشُّسُـوعُ فَـإِنْ عَـرَاهَـا ... حِفَـاءُ الْكَـدِّ أَنْعَلَهَـا طِـرَاقَـا

فَـزُوِّجَ بَعْـدَ فَقْـرٍ مِنْـهُ نُعْمَـىٰ ... أَرَانِـي اللهُ صُبْحَتَهَـا طَـلاَقَـا

[رجل خفيف الحمل]

وقالَ آخرُ : [منَ الخفيف]

أَتُـرَانِـي أَرَىٰ مِـنَ الـدَّهْـرِ يَـوْمـاً ... وَبِمِلْكِـي مَطِيَّـةٌ غَيْـرَ رِجْلِـي

وَإِذَا كُنْـتُ فِـي أُنَـاسٍ فَقَـالُـوا ... قَـرِّبُـوا لِلـرَّحِيـلِ قَـرَّبْـتُ نَعْلِـي

حَيْثُمَـا كُنْـتُ لاَ أُخَلِّـفُ رَحْـلاً ... مَـنْ رَآنِـي فَقَـدْ رَآنِـي وَرَحْلِـي

---

(١) **استفرَهَ** : تخيَّرَ الجيدَ . **السِّبتُ** : النعالُ المصنوعةُ مِنَ الجلدِ المدبوغِ . **الرقاقُ** : كنايةٌ عن الجديدِ مِنَ النعالِ ؛ لأنها لا رقعة فيها .

[اللهم مثلنا أو مثلهم]

وكانَ لبعضِ الفقراءِ مِنْ متأخِّري أَهلِ بلادِنا جيرانٌ أَغنياءُ ، فكانَ يقولُ مِنْ آخرِ الليلِ : (اللَّهمَّ مِثْلَنا أَو مِثْلَهُم) ؛ يريدُ أَنْ يفتقروا مثلَهُ أَو يثرىٰ مثلَهُم ، وكأَنَّما أَخذَهُ من قولِ بعضِهِم ، وهوَ مِنْ مَناسِبِ الموضوعِ : [مِنَ المتقارب]

تَسَـامَـى الـرِّجَـالُ عَلَـىٰ خَيْلِهِـمْ ... وَرِجْلِـيَ مِـنْ بَيْنِهِـمْ حَـافِيَـهْ

فَـإِنْ كُنْـتَ حَـامِلَنَـا رَبَّنَـا ... وَإِلاَّ فَـأَرْجِـلْ بَنِـي الـزَّانِيَـهْ

[لم يذهب إلا الفضول]

وذكروا : أَنَّ بعضَهُم رأَىٰ أَحَدَ بني هشامِ بنِ عبدِ المَلِكِ ، وعلىٰ ظهرِهِ قِرْبَةٌ ، فقالَ لَهُ : بعدَ الخلافةِ تكونُ علىٰ هـٰذا الحالِ ؟! قالَ : لَمْ يذهبْ إِلاَّ الفضولُ!!

[فخر الدولة ابن المعتمد يتعلم الصياغة]

ورأَى ابنُ اللَّبَّانةِ فخرَ الدولةِ ابنَ المعتمدِ بنِ عبَّادٍ ، وقد جلسَ في السوقِ ليتعلَّمَ الصياغةَ ، وهوَ ينفُخُ الفحمَ بالقصبةِ ، فقالَ [كما في « نفح الطيب » ٤/٩٧] : [مِنَ البسيط]

شَكَـاتُنَـا لَـكَ يَـا فَخْـرَ الْعُـلاَ عَظُمَـتْ ... وَالـرُّزْءُ يَعْظُـمُ فِيمَـنْ قَـدْرُهُ عَظُمَـا

طُـوِّقْتَ مِـنْ نَـائِبَـاتِ الـدَّهْـرِ مُخْنِقَـةً ... ضَـاقَـتْ عَلَيْـكَ وَكَـمْ طَـوَّقْتَنَـا نِعَمَـا

صَـرَفْـتَ فِـي آلَـةِ الصَّـوَّاغِ أَنْمُلَـةً ... لَـمْ تَـدْرِ إِلاَّ النَّـدَىٰ وَالسَّيْـفَ وَالْقَلَمَـا

يَـدٌ عَهِـدْتُـكَ لِلتَّقْبِيـلِ تَبْسُطُهَـا ... فَتَسْتَقِـلُّ الثُّـرَيَّـا أَنْ تَكُـونَ فَمَـا

يَـا صَـائِغـاً كَـانَـتِ الْعَلْيَـا تُصَـاغُ لَـهُ ... حُلْيـاً وَكَـانَ عَلَيْـهِ الْحُلْـيُ مُنْتَظَمَـا

لِلنَّفْخِ فِي الصُّورِ هَوْلٌ مَا حَكَاهُ سِوَىٰ ... هَـوْلٌ رَئَـاتُـكَ فِيـهِ تَنْفُـخُ الْفَحَمَـا

وَدِدْتُ إِذْ نَظَـرَتْ عَيْنِـي إِلَيْـكَ بِـهِ ... لَـوَ انَّ عَيْنِـيَ تَشْكُـو قَبْـلَ ذَاكَ عَمَـىٰ

مَا حَطَّكَ الـدَّهْـرُ لَمَّا حَطَّ عَنْ شَرَفٍ ... وَلاَ تَحَيَّـفَ مِـنْ أَخْـلاَقِـكَ الْكَـرَمَـا

لُـحْ فِي الْعُـلاَ كَـوْكَبـاً إِنْ لَـمْ تَلُـحْ قَمَـراً ... وَقُـمْ بِهَـا رَبْـوَةً إِنْ لَـمْ تَقُـمْ عَلَمَـا

وَاصْبِـرْ فَـرُبَّتَمَـا أُحْمِـدْتَ عَـاقِبَـةً ... مَـنْ يَلْـزَمِ الصَّبْـرَ يَحْمَـدْ غِـبَّ مَـا لَـزِمَـا

وَاللهِ لَـوْ أَنْصَفَتْـكَ الشُّهْـبُ لانْكَسَفَـتْ ... وَلَـوْ وَفَـىٰ لَـكَ دَمْـعُ الْعَيْـنِ لانْسَجَمَـا

أَبْكَىٰ حَدِيثُكَ ـ حَتَّى الدُّرَّ ـ حِينَ غَدَا ... يَحْكِيـكَ رَهْطـاً وَأَلْفَـاظـاً وَمُبْتَسَمَـا

[تغير أحوال أم جعفر البرمكي]

ودخلَتْ أُمُّ جعفرٍ البَرمكيِّ ـ في يومِ عيدٍ ـ علىٰ بعضِ الهاشميِّينَ ، فقالوا لها : صِفِي لنا حاليكِ ، قالت : لا أَزيدُكُم علىٰ أَنَّهُ مضىٰ عليَّ مثلُ اليومِ في العامِ الماضي وعلىٰ رأْسي مئةُ وصيفةٍ ، وعندي مئةُ أَلفِ دينارٍ ، وأَنا أَعُدُّ وَلَدِي مُقصِّراً في حَقِّي ، واليومَ أَطلبُ درهماً أَتبلَّغُ به في عيدي .

[قصة عجيبة علىٰ تغير الأحوال]

وقالَ محمَّدُ بنُ يزيدَ الشاعرُ : دعاني الفضلُ بنُ يحيىٰ ذاتَ ليلةٍ إِلىٰ دارٍ لَهُ واسعةٍ مؤثَّثةٍ بأَجملِ الرياشِ ، وإِذا هيَ



غَاصَّةٌ بالعلماءِ والشعراءِ والأُمراءِ والْخاصَّةِ والأعيانِ ، وأُخرِجَ مولودٌ عن يمينِ الفضلِ ، فقُرِىءَ القرآنُ حتَّى انتهَوا مِنَ الخَتمةِ ، فقامَ الشعراءُ والخطباءُ ، ونُثرتِ الدنانيرُ ولَمْ يحضرني غيرُ قولي : [منَ الطويل]

وَنَفْـرَحُ بِـالْمَـوْلُـودِ مِـنْ آلِ بَـرْمَـكِ وَلاَ سِيَّمَـا إِنْ كَـانَ مِـنْ وَلَـدِ الْفَضْـلِ
وَيُعْـرَفُ فِيـهِ الْخَيْـرُ حَـالَ وُجُـودِهِ بِسِيمَـا الْعُـلاَ وَالْمَجْـدِ وَالْجُـودِ وَالْبَـذْلِ

فأمرَ لي بعشَرَةِ آلافِ دينارٍ ، وقالَ : خُذها يا محمَّدُ ، فهيَ أَوَّلُ حقِّكَ ، فخرجتُ وأَنا مِنْ أَشدِّ الناسِ فرحاً ، وتأَثَّلْتُ المالَ والعَقَارَ ، ونعُمَ عَيشي ، وطابَ لي زماني ، ثُمَّ لَمْ تَطُلِ الأَيَّامُ حتَّىٰ حَلَّتْ بِهِمُ النازلةُ . ودخلتُ الحَمَّامَ بعدَ ذلكَ ، فأَشارَ قَيِّمُهُ علىٰ صبيٍّ حَسَنِ الوجهِ مِنَ الخَدَمِ أَنْ يَدْلُكَ بدني ، فتذكرتُ البرامكةَ وأَيَّامَهم ؛ لأَنَّهُم سببُ نعمتي ، فأَنشدتُ البيتينِ ، فاندهشَ الصبيُّ ، وسالَتْ دموعُهُ ، وسقطَ مغشيّاً عليه ، فظننتُ بهِ الجنونَ ، وعاتبْتُ القيِّمَ ، ولمَّا أَفاقَ ، وسأَلناهُ عَنْ أَمرِهِ . . امتنعَ ، وبعدَ الإلحاحِ قالَ : أَنا ذلكَ المولودُ الَّذي أَنشدتَ فيهِ الشعرَ ، وقد صِرْتُ إِلىٰ ما ترىٰ ، فعرضتُ عليهِ أَنْ أَنزلَ لَهُ عَنْ جميعِ مالي ؛ إِذ لا وارثَ لي علىٰ أَنْ أَعيشَ ما بقيَ مِنْ حياتي في كنفِهِ ، فأَبىٰ ، وقالَ : معاذَ اللهِ أَنْ أَرزأَكَ شيئاً مِمَّا خوَّلكَ أَبي ، وكانَ آخرَ عهدي بِهِ .

[النعمان بن بشير يخطب الرقة ابنة النعمان بن المنذر]

ولمَّا جاءَ النعمانُ بنُ بشيرٍ يخطبُ الرَّقَّةَ ابنةَ النعمانِ بنِ المنذرِ . . ردَّتْهُ ، وقالتْ له : كبرتَ عَنِ النكاحِ ، وإِنَّما أَرَدْتَ بنكاحي الفخرَ ؛ لتقولَ : أَخذتُ مملكةَ النعمانِ ، وتزوَّجتُ بنتَهُ ، فقالَ لها : صِفي لنا ما رأَيتِ ، فأَنشدَتْ : [منَ الطويل]

فَبَيْنَـا نَسُـوسُ النَّـاسَ وَالأَمْـرُ أَمْـرُنَـا إِذَا نَحْـنُ فِيهَـا سُـوقَـةٌ نَتَنَصَّـفُ
فَـأُفٍّ لِـدُنْيَـا لاَ تَـدُومُ بِحَـالَـةٍ تَقَلَّـبُ تَـارَاتٍ بِنَـا وَتُصَـرَّفُ

[موسى بن نصير وتغير حاليه]

ويُروىٰ : أَنَّ موسىٰ بنَ نصيرٍ فاتحَ (الأَندلسِ) كانتْ تُرفَعُ لَهُ الذخائرُ ، فيرمي بالذهبِ والفضَّةِ ، ولا يلتقطُ إِلاَّ ما كانَ مِنَ الجواهرِ المُثْمِنَةِ ، ثُمَّ آلَ بهِ الحالُ إِلىٰ أَنْ صارَ يتسوَّلُ[1] بـ (الطائفِ) ، وإِذا وقعَ لَهُ الدرهمُ . سُرَّ بهِ ، حتَّىٰ مَلَّهُ حبيبُهُ ، وباعدَهُ قريبُهُ ، وماتَ علىٰ ذلكَ .

[زوجة ملك تطلب الصدقة]

ولا حاجةَ للبُعدِ في استخراجِ العبرةِ ، وقد رأَيتُ زوجَ آخرِ ملوكِ آلِ عثمانَ تطلبُ الصدقةَ في (سنكافورةَ) ، فسبحانَ مَنْ لا يزولُ ملكُهُ .

[القصر الخرب]

ورأَيتُ قصرَ الأَميرِ الخطيرِ عبدِ اللهِ بنِ عليٍّ العَوْلَقيِّ خراباً يباباً في (حيدرَ أَبادَ الدَّكَن) : [منَ الطويل]

أَمْسَـىٰ خَـلاَءً وَأَمْسَـىٰ أَهْلُـهُ احْتَمَلُـوا أَخْنَـىٰ عَلَيْـهِ الَّـذِي أَخْنَـىٰ عَلَـىٰ لُبَـدِ[2]

---

(١) وسببه : أنه لم يؤخِّرْ فتح (الأندلس) ليكون في عهد ولي العهد ، وهٰكذا الأيام .

(٢) أخنىٰ عليه : أهلكه . لُبَدٌ : تزعمُ العربُ أَنَّ لقمانَ هو الذي بعثتهُ عادٌ في وفدِهَا إلى الحرم يستسقي لها فلما أهلكوا . . خُيِّرَ لقمانُ بين بقاء سبع بعرات سمرٍ من أظبٍ عفرٍ في جبلٍ وعرٍ لا يمسها القطرُ أو بقاءِ سبعةِ أنسرٍ كلما هلكَ نسرٌ . . خلفَ بَعْدَهُ نسرٌ ، فاختار النسور ، فكان آخر نسوره يسمىٰ لبداً ؛ لبقائِهِ ، لأنه لَبِدَ فبقي لا يذهبُ ولا يموت ، ومنه المثل : طالَ الأبدُ علىٰ لبد .

مَعَ مَا كانَ عليهِ مِنَ الثروةِ وضخامةِ المُلْكِ ، وما بالعهدِ مِنْ قِدَمٍ ؛ فإنَّما كانتْ وفاتهُ سنةَ : (١٢٨٤هـ) ، ولَمَّا اقتربَ أَجلُهُ . . قالَ لِمَنْ حضرَهُ : اعلموا أَنِّي تركتُ لولدي محسنٍ عشرينَ أَلفَ أَلفِ رُوبِيَّةٍ نقداً ، فضلاً عمَّا سوىٰ ذلك مِنَ العقارِ والأَثاثِ والمجوهراتِ ، ثُمَّ إِنْ كانَ فحلاً . . فلنْ يحتاجَها ، وإِنْ كانَ فَسْلاً . . فلنْ تنفعَهُ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـأَضْحَـوْا حَـدِيثاً كَـالْمَنَـامِ وَمَـا انْقَضَـىٰ ... فَسِيَّـــانِ مِنْـــهُ يَقْظَـــةٌ وَمَنَـــامُ

وما كانَ أَحقَّهُ بقولِ بعضِهِم : [مِنَ الكامل]

يَـا مَنْـزِلاً عَبـثَ الـزَّمَـانُ بِـأَهْلِـهِ ... فَـأَبَـادَهُـمْ بِتَفَـرُّقٍ لاَ يَجْمَـعُ
أَيْـنَ الَّـذِيـنَ عَهِـدْتَهُـمْ بِـكَ مَـرَّةً ... كَـانَ الـزَّمَـانُ بِهِـمْ يَضُـرُّ وَيَنْفَـعُ ؟!

وقولِ الآخرِ : [مِنَ البسيط]

بِـاللهِ رَبِّـكَ كَـمْ قَصْـرٍ مَـرَرْتَ بِـهِ ... قَـدْ كَـانَ مَـلآنَ بِـاللَّـذَّاتِ وَالطَّـرَبِ
نَـادَىٰ غُـرَابُ الْمَنَـايَـا فِـي جَـوَانِبِـهِ ... وَصَـاحَ مِـنْ بَعْـدِهِ بِـالْـوَيْـلِ وَالْحَـرَبِ[1]

[الصاحب ودار ابن العميد]

ويُحكىٰ [كما في « وفيات الأعيان » ٥/ ١١٠] : أَنَّ الصاحبَ بنَ عبَّادٍ مرَّ بدارِ ابنِ العميدِ بعدَ وفاتِهِ ، فقالَ : [مِنَ الخفيف]

أَيُّهَـا الـرَّبْـعُ لِـمْ عَـلاَكَ اكْتِئَـابُ ... أَيْـنَ ذَاكَ الْحِجَـابُ وَالْحُجَّـابُ ؟
أَيْـنَ مَـنْ كَـانَ يَفْـزَعُ الـدَّهْـرُ مِنْـهُ ... إِنَّـهُ الْيَـوْمَ فِـي التُّـرَابِ تُـرَابُ
قُـلْ بِـلاَ رَقْبَـةٍ وَدُونَ احْتِشَـامٍ ... مَـاتَ مَـوْلاَيَ فَـاعْتَـلاَنِـي اكْتِئَـابُ

[اعجب لصرف الدهر]

قالَ ابنُ خَلِّكانَ [في « وفيَّاتِ الأَعيانِ » ٥/ ١١٠] : ومثلُ هـٰذهِ الحكايةِ ما ذكرهُ عليُّ بنُ سليمانَ ، قالَ : رأَيتُ بـ(الرَّيِّ) دارَ قومٍ لم يبقَ منها إِلاَّ رسمُ البابِ مكتوبٌ عليهِ : [مِنَ المنسرحِ]

اِعْجَـبْ لِصَـرْفِ الـدُّهُـورِ مُعْتَبِـراً ... فَهـٰـذِهِ الـدَّارُ مِـنْ عَجَـائِبِهَـا
عَهْـدِي بِهَـا وَالْمُلُـوكُ زَاهِيَـةٌ ... قَـدْ سَطَـعَ النُّـورُ مِـنْ جَـوَانِبِهَـا
تَبَـدَّلَـتْ وَحْشَـةً بِسَـاكِنِهَـا ... مَـا أَوْحَـشَ الـدَّارَ بَعْـدَ صَـاحِبِهَـا

[قصر ابن سبكتكين]

واجتازَ بعضُ الأَفاضلِ بقصرِ ابنِ سُبُكْتِكِيْنَ بعدَ موتهِ ، وقد تشعَّثتْ فأَنشدَ : [مِنَ الطويل]

عَلَيْـكَ سَـلاَمُ اللهِ مِـنْ مَنْـزِلٍ قَفْـرِ ... فَقَدْ هِجْتَ لِي شَوْقاً قَدِيماً وَمَا تَدْرِي
عَهِـدْتُـكَ مِـنْ شَهْـرٍ جَـدِيـداً وَلَـمْ أَخَـلْ ... صُرُوفَ الرَّدَىٰ تُبْلِي مَغَانِيكَ فِي شَهْرِ[2]

وما أَحسنَ قولَ بعضِهِم : [مِنَ البسيط]

إِنْ شِئْـتَ أَن لاَ تَـرَىٰ صَبْـراً لِمُصْطَبِـرٍ ... فَـانْظُـرْ عَلَـىٰ أَيِّ حَـالٍ أَصْبَـحَ الطَّلَـلُ

---

(١) الحَرَبُ : الهلاكُ .

(٢) القصة في « وفيات الأعيان » (٥/ ١٧٦) .

ويأتي ما يتّصلُ بهٰذا في شرحِ قولِهِ [في « العُكْبَريّ » ٢/ ٣٣٤] : [منَ الكامل]

أَيْـنَ الأَكَـاسِـرَةُ الْجَبَـابِـرَةُ الأُلَـىٰ كَنَـزُوا الْكُنُـوزَ فَمَـا بَقِيـنَ وَلاَ بَقُـوا ؟

[أمير (كابل)]

وَأَذكرُ في الكتابِ أَميرَ (كابُلَ) الَّذي بحثَ عَنْ حَتْفِهِ بظِلْفِهِ[1] ، وجدعَ مارنَ أنفهِ بكفِّهِ[2] ، وباءَ بالصفقةِ الخاسرةِ ، وضيَّعَ الدنيا والآخرةَ ، فبعدَ أَنْ كانَ يغبطُهُ مَنْ رآهُ ، أَو سمعَ بنعمتِهِ . . تبرَّأَ مِنَ الإسلامِ ، فطُرِدَ عَنِ المُلْكِ ، وسُلِبَ المالَ ، وصارَ يرثي لَهُ كلُّ مَنْ رآهُ ، ولَعَذابُ الآخرةِ أَشَدُّ وأَبقىٰ .

[محمد علي باشا وأمان الله]

ومع هٰذا فقد أَخبرني الفاضلُ الثقةُ السيِّدُ عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرحمٰنِ بن طاهرٍ ، عَنْ محمَّدِ عليٍّ باشا بنِ توفيقٍ باشا خدَيْوِيِّ (مصرَ) السابقِ : أَنَّهُ قالَ : بينا أنا أتمشَّىٰ في (باريزَ)[3] . . إذ جاءَ أَمانُ اللهِ ـ وهُوَ وليُّ عهدِ دولتهِ ـ في أَتباعِهِ وحَشَمِهِ بأَلبستِهِمُ الوطنيَّةِ وشعائرِهِمُ الإسلاميَّةِ فاستلْفَتُوا الأَنظارَ ، ومَلَؤُوا الصدورَ ، واسْتحقُّوا الإِعجابَ ، وكانوا موضعَ الاحترامِ ، وزادَ الطِّينَ بِلَّةً أَنْ دخلَ وقتُ المغربِ . . فاستهلَّ مؤذِّنُهُ ثُمَّ أَقامَ ، ودخلُوا في الصَّلاةِ ، فبادرَتْ رجالُ الحكومةِ بالحرسِ ؛ لمنعِ النَّاسِ عَنِ المرورِ بين أَيديهم ؛ احتراماً لهم ولدينِهم ، فصاروا حديثَ النَّوادي ، ومحلَّ استحسانِ القومِ وإِعظامِهم ، قالَ محمَّدُ عليٍّ : فلا تسلْ عمَّا داخلَني مِنْ حَسَدٍ لَهُم ، وانكسارٍ في نفسي ، واحتقارٍ لزِيي الإفرنجيِّ ، مع أَنَّ بلادي أَعظمُ سلطاناً من بلادِهم ، وما رفعهم إِلاَّ التَّمسُّكُ بتقاليدِ بلادِهم ودينِهم .

ثُمَّ أُرجِعُ النظرَ في حالِ أَمانِ اللهِ خانٍ وصيورِ أَمرِهِ ، فلقد اتَّضعَ مِنْ حيثُ ارتفعَ ، واندفعَ مِنْ حيثُ انتفعَ ، نعوذُ باللهِ مِنْ عثراتِ الشَّورِ[4] ، ومن الحَوْرِ بعد الكَوْرِ[5] .

[ركب النميري]

ثُمَّ إِنِّي ذكرتُ بتعاظمِ الناظمِ عَنْ غيرِ حقيقةٍ قولَ النُّمَيْريِّ : [منَ الطويل]

وَلَمَّـا رَأَتْ رَكْـبَ النُّمَيْـرِيِّ أَعْـرَضَـتْ وَكُـنَّ مِـنَ انْ يَلْقَيْنَـهُ حَـذِرَاتِ

فقَدْ أَحفاهُ السؤَالَ عبدُ المَلِكِ بنُ مروانَ عَنْ ذلكَ الرَّكْبِ ، فقالَ لَهُ : لا واللهِ ما هوَ إِلاَّ أَتانٌ ضالعٌ .

[الجيش الكبير]

وقولَ ليلىٰ لأَبيها : أَرأَيتَ قولَ أَبيكَ : [منَ الطويل]

بجَيْـشٍ تَظَـلُّ الْبُلْـقُ فِـي حُجُـرَاتِـهِ بِيَثْـرِبَ أُخْـرَاهُ وَبِـالشَّـامِ قَـادِمُـهْ

كَمْ كانَ عددُهُ ؟ قالَ : أَنا وإِيَّاهُ وأَخوكِ فلانٌ ومعنا اثنانِ .

---

(١) بظلفه : بقدمه ، وقال أحدهم بمعناه :

إلـىٰ حتفـي مشـىٰ قـدمـي أرىٰ قـدمـي أراق دمـي

(٢) قالت الزباء : (لأمرٍ ما جَدَعَ قصيرٌ أنفَهُ) ، فضربت مثلاً .

(٣) أي : (باريس) عاصمة (فرنسا) .

(٤) الشَّورُ : الرأيُ بالحضرمية ، وكأنه مأخوذ من المشورة .

(٥) الحورُ بعدَ الكورِ : النقصان بعد الزيادة .

[ابن الحجام]

وقولَ ابنِ الحَجَّامِ[١] : [مِنَ المنسرح]

أَنَـا [ابْـنُ] مَـنْ دَانَـتِ الـرِّقَـابُ لَـهُ   مَـا بَيْـنَ مَخْـزُومِهَـا وَهَـاشِمِهَـا
تَـأْتِـي إِلَيْـهِ الأَنَـامُ طَـائِعَـةً   يَـأْخُـذُ مِـنْ مَـالِهَـا وَمِـنْ دَمِهَـا

[ابن الفوال]

وقولَ ابنِ الفوَّالِ[٢] : [مِنَ الطويل]

أَنَـا ابْـنُ الَّـذِي لاَ يُنْـزِلُ الـدَّهْـرُ قِـدْرَهُ   وَإِنْ نَـزَلَـتْ يَـوْمـاً فَسَـوْفَ تَعُـودُ

وقالَ ابنُ خَلِّكانَ [في « وفيَّات الأَعيانِ » ٧/٥٧] :

[القبران المتشاتمان]

قالَ عَوْثُ بنُ الزَّرعِ : حدَّثني مَنْ رَأىٰ بـ(الشامِ) قبراً مكتوباً عليهِ : لا يغترَّنَّ أَحدٌ بالدنيا ؛ فإِنِّي ابنُ مَنْ كانَ يُطلِقُ الريحَ إِذا شاءَ ، ويحبِسُها إِذا شاءَ ، وبإزائِهِ قبرٌ مكتوبٌ عليهِ : كذبَ الماصُّ بظْرَ أُمِّهِ ، لا يظنُّ أَحَدٌ أَنَّهُ ابنُ سليمانَ بنِ داودَ عليهِما السلامُ ، إِنَّما هو ابنُ حدَّادٍ يجمعُ الريحَ في الزِّقِّ ، ثُمَّ ينفخُ بها الجمرَ ، قالَ : فما رأَيتُ قبرينِ قبلهما يتشاتمانِ .

[الكلام على النعل]

والكلامُ في النعلِ يطولُ ، وقد أُفرِدَتْ بالتأْليفِ . وفي « **حاشيتي** » على « **الشمائِلِ** » جملةٌ صالحةٌ مِنهُ ، في ضمنِهِ قولُ « **التحفةِ** » : وورَدَ : « **امشوا حفاةً** »[٣] وفي روايةٍ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم مشىٰ حافياً ، وقد يؤْخذُ منهُ ندبُ الحَفاءِ في بعضِ الأَحوالِ بقصدِ التواضعِ ، حيثُ أَمِنَ مُؤْذِياً وتنجيساً ، ولو احتمالاً ، ويؤَيِّدُهُ ندبُهُ لنحوِ دخولِ (مكَّةَ) بهـٰذهِ الشروطِ . انتهىٰ .

ومِنْ محاسنِ الشريعةِ ، واعتنائِها بالعدلِ : كراهةُ المشي في نعلٍ واحدةٍ .

[من الممادح رقة النعال]

ومِن ممادحِ العربِ رِقَّةُ النعالِ ، كَما في قولِهِ [النابغةِ الذُّبيانيِّ في « ديوانهِ »] : [مِنَ الطويل]

رِقَـاقُ النِّعَـالِ طَيِّـبٌ حُجُـزَاتُهُـمْ   يُحَيَّـوْنَ بِـالـرَّيْحَـانِ يَـوْمَ السَّبَـاسِـبِ[٤]

---

(١) الذي يحجم الناس .

(٢) الذي يبيع الفول .

(٣) ثبت عن أبي هريرة عند البخاري (٥٨٥٥) ، ومسلم (٢٠٩٧) قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يمشِ أحدكم في نعل واحدة ، لينعلهما جميعاً ، أو ليخلعهما جميعاً » .

(٤) **الحجزةُ** : العشيرةُ يحتجز بها ، أي يُمتنَعُ . ورجلٌ طيِّبُ الحجزةِ عفيفٌ . السباسبُ : أَيَّامُ السَّعَانينِ ، وهو عيدٌ للنصارىٰ ، وفي الحديثِ : « إِنَّ اللهَ تعالىٰ أَبدلَكم بيومِ السباسبِ يومَ العيدِ » .



[ومنها لبس السبتية]

ولُبْسُ السِّبْتِيَّةِ منها ، كَما قالَ عنترٌ [في « ديوانه » ٦٥] : [مِنَ الكامل]

بَطَـلٍ كَـأَنَّ ثِيَـابَـهُ فِـي سَـرْحَـةٍ يَحْـذَىٰ نِعَـالَ السِّبْـتِ لَيْـسَ بِتَـوْأَمِ[1]

والسِّبْتُ : جلودُ البقرِ المدبوغةِ الَّتي لا تقربُها الكلابُ إِذَا ابتلَّت ؛ لإِتقانِ دَبْغِها .

[رقة النعل كناية عن سلامتها]

وأَمَّا رِقَّةُ النعلِ : فكنايةٌ عَنْ سلامتِها مِنَ الرقاعِ ؛ لأَنَّهم ملوكٌ لا تُخصَفُ نعالُهم ، وإِنَّما تخصفُ نعلُ من يُكثِرُ المشيَ ، ومِثلُهُ قولُهُم : (فلانٌ مُسمَّطُ النعلِ) ؛ يعنونَ أَنْ نعلَهُ طبقةٌ واحدةٌ غيرُ مخصوفةٍ . قالَ المرارُ الفقعسيُّ :

[مِنَ الوافر]

وَجَـدْتُ بَنِـي خَفَـاجَـةَ فِـي عَقِيـلٍ كِـرَامَ النَّـاسِ مُسْمَطَـةَ النِّعَـالِ

* * *

(١) مدحَهُ بأَربعِ خصالٍ كرامٍ : إحداها : أَنَّهُ جعلَهُ بطلاً شجاعاً ، الثانيةُ : أَنَّهُ جعلَهُ طويلاً ، شبَّهه بالسَّرْحَةِ ؛ وهي : شجرٌ عظامٌ طوالٌ ، الثالثةُ : أَنَّهُ جعلَهُ شريفاً ؛ للُبسه نِعالَ السِّبْتِ ، الرابعةُ : أَنَّهُ جعلَهُ متفرداً لا مثيل له .



المجلس الثالث

[قالَ أَبو الطيِّب المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٠٤] : [منَ المنسرح]

لَــــهُ أَيَــادٍ عَلَــيَّ سَــابِقَــةٌ أُعَــدُّ مِنْهَــا وَلاَ أُعَــدِّدُهَــا

[شرح المطلع]

الأَيادِيْ : جمعُ يدٍ ، وهي النِّعْمَةُ ؛ لأَنَّها التي تُجمعُ هـٰذا الجمعَ بخلافِ الجارحةِ ، فإِنَّها لا تُجمعُ عليهِ ، وزعمَ بعضُهم أَنَّها تُجمعُ عليهِ أَيضاً ، وذكروا لهُ أَمثلةً لا يحضرنيْ مِنْها الآنَ شيءٌ .

[الروايات في المطلع]

أَمَّا قولُهُ : (أُعَدُّ) فيروىٰ بفتحِ الهمزةِ [أَعُدُّ] ، وهوَ مِنْ قولهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، ويُروىٰ بضمِّها مبنيَّةً للمفعولِ ، ونائبُ الفاعلِ مستترٌ تقديرُهُ (أَنا) ؛ يعني : أَنَّ نفسَهُ معدودةٌ مِنْ جملةِ نِعَمِ الممدوحِ ، فهو كقولِ شاعرِ الحماسةِ : [منَ السريع]

لاَ تَنْتُفَنِّــــي بَعْــــدَ أَنْ رِشْتَنِــــي فَــإِنَّنِــي بَعْــضُ أَيَــادِيكَــا

[تلاعب المتنبي في معنى الجود]

وقد تلاعبَ بهـٰذا المعنىٰ في « **ديوانه** » **فقالَ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٨٠] : [منَ البسيط]

مَـا زِلْـتَ تُتْبِـعُ مَـا تُـولِـي يَـداً بِيَـدٍ حَتَّـىٰ ظَنَنْـتُ حَيَـاتِـي مِـنْ أَيَـادِيكَـا

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٠٥] : [منَ الكامل]

فَـاغْفِـرْ فِـدىً لَـكَ واحْبُنِي مِـنْ بَعْـدِهَـا لِتَخُصَّنِــي بِعَطِيَّــةٍ مِنْهَــا أَنَــا

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٤٧] : [منَ المتقارب]

وَفِـي جُـودِ كَفِّـكَ مَـا جُـدْتَ لِـي بِنَفْسِـي وَلَـوْ كُنْـتُ أَشْقَـىٰ ثَمُـودْ

[أن تكون واحدة من حسنات ممدوحك عند الشعراء]

وقالَ العتابيُّ : [منَ البسيط]

مَـا زِلْـتُ فِـي غَمَـرَاتِ الْمَـوْتِ مُطَّـرَحـاً يَضِيـقُ عَنِّـي وَسِيـعُ الـرَّأْيِ مِـنْ حِيَلِـي
فَلَـمْ تَـزَلْ دَائِبـاً تَسْعَـىٰ بِلُطْفِـكَ لِـي حَتَّـى انْتَزَعْـتَ حَيَـاتِـي مِـنْ يَـدَيْ أَجَلِـي

وقالَ غيرُهُ : [منَ البسيط]

رَدَدْتَ مَـالِـي وَلَـمْ تَبْخَـلْ عَلَـيَّ بِـهِ وَقَبْـلَ مَـالِـيَ قِـدْمـاً قَـدْ حَقَنْـتَ دَمِـي

وقالَ أبو تمَّامٍ : [منَ البسيط]

رَدَدْتَ رَوْنَقَ وَجْهِي فِي صَحِيفَتِهِ ... رَدَّ الصِّقَالِ بَهَاءَ الصَّارِمِ الْخَذِمِ
وَمَا أُبَالِي وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ ... حَقَنْتَ لِي مَاءَ وَجْهِي أَوْ حَقَنْتَ دَمِي

وقالَ : [منَ الطويل]

عَطَاؤُكَ لاَ يَفْنَىٰ وَتَسْتَغْرِقُ الْمُنَىٰ ... وَتَبْقَىٰ وُجُوهُ الرَّاغِبِينَ بِمَائِهَا

[مصعب بن الزبير وجوده علىٰ بعض من حاربه]

ويُروىٰ [كما في « تاريخ بغداد » ١٣/١٠٦] : أَنَّ مصعبَ بنَ الزبيرِ أَمرَ بقتلِ أَحدِ مَنْ حاربَهُ معَ المختارِ ، فقالَ : أَترضىٰ أَنْ أَتعلَّقَ بكَ يومَ القيامةِ ، وأَنتَ علىٰ ما نرىٰ مِنْ هـٰذا الجمالِ الباهرِ ، وأَقولُ : سَلْ مصعباً فيْمَ قَتَلَنِي ؟ فقالَ : أَطْلِقوهُ ، قالَ : اجعل ما وهبتَ لِي مِنْ عُمُرِي في عيشٍ طيِّبٍ ، فَأَمَرَ لَهُ بمئةِ أَلفٍ ، قالَ : بأَبي أَنْتَ وأُمِّي ، أُشهِدُكَ أَنَّ نصفَها لقيسِ الرُّقياتِ ؛ لقولِهِ فيكَ [في « ديوانه » ٩١] : [منَ الخفيف]

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ اللَّـ ... ـهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ

فضحكَ مصعبٌ ، وقالَ : لقد أَلطفتَ ، وإِنَّ فيكَ لموضعاً للصنيعةِ ، وأَمرَ لقيسٍ بخمسينَ أَلفاً ، وتركَ مئتَهُ بحالِها .

[إجارة معن بن زائدة على الخليفة المهدي]

ويُحكىٰ [كما في « المستطرف » ١/٣٠١] : أَنَّ بعضَ الشيعةِ سعىٰ للخروجِ في أَيَّامِ الدولةِ العباسيَّةِ ، فجعلَ الخليفةُ فيهِ مئةَ أَلفِ درهمٍ ، فأَخذَهُ رجلٌ مِنْ (بغدادَ) ، فمرَّ بهِ معنُ بنُ زائدةَ ، فقالَ : يا أَبا الوليدِ أَجِرْني . أَجارَكَ اللهُ ، فقالَ معنٌ للرجلِ : خَلِّ عنهُ ، فقالَ : إِنَّهُ طُلْبَةُ أَميرِ المؤمنينَ ، قالَ : خَلِّ سبيلَهُ ، فأَبىٰ ، فخلَّصَهُ مِنْهُ قهراً ، وأَردفَهُ خلفَ بعضِ أَعوانِهِ ، وذهبَ الرجلُ للخليفةِ ، فاستدعىٰ مَعْناً ، ولمَّا حضرَ . قالَ لَه : أَتجيرُ عليَّ ؟! قالَ : نعمْ ، قتلْتُ في طاعتِكُم خمسةَ عشرَ أَلفاً بـ (حضرموتَ) في يومٍ واحدٍ[1] ، فما تروننيْ أَهلاً لأَنْ أُجيرَ واحداً عَلَّقَ بي رجاءَهُ ؟ فاستحيا الخليفةُ ، ثُمَّ قالَ : قَدْ أَجرنا مَنْ أَجرتَ يا أَبا الوليدِ ، قالَ : إِنْ رأَىٰ أَميرُ المؤمنينَ أَن يصلَ جاري ، فأَمرَ لهُ بخمسينَ أَلفَ درهمٍ ، فقالَ معنٌ : إِنَّ ذنبهُ عظيمٌ ، وينبغي أَنْ تكونَ صلاتُ الخلفاءِ علىٰ قدرِ الجرائِمِ ، فقالَ : قد جعلتُها مئةَ أَلفٍ ، فرجعَ معنٌ إِلىٰ منزلِهِ ، ودفعَ المالَ للرجلِ ، وحذَّرَهُ مِنْ مساخطِ الملوكِ .

[إبراهيم بن سليمان يستجير عند رجل قد قتل أباه]

ولَمَّا أَفضَتِ الخلافةُ إِلىٰ بني العبَّاسِ . اختفىٰ بنو أُميَّةَ حتَّىٰ أَخذوا مِنَ السفَّاحِ الأَمانَ ، فحضرَ عندَهُ إِبراهيمُ بنُ سليمانَ بنِ عبدِ المَلِكِ ، وكانَ عالماً أَديباً ، فسأَلهُ السفَّاحُ عن أَعجبِ ما مرَّ بهِ في تغيُّبِهِ ، قالَ : بينا أَنا بـ (الحِيرةِ) . نظرتُ الأَعلامَ السودَ خارجةً مِنَ (الكوفةِ) ، فوقعَ لي أَنَّها تريدُني ، فخرجتُ متنكِّراً ، حتَّىٰ أَتيتُ (الكوفةَ) لا أَعرفُ أَحداً ، فتحيَّرتُ ، ثُمَّ ظهرَ لي بابٌ واسعٌ ، وإِذا رجلٌ وسيمٌ حسنُ الهيئَةِ ، فقالَ لي : مَنْ أَنتَ ؟ قلتُ : غريبٌ خائفٌ مستجيرٌ بكَ ، قالَ : ادخُلْ ، ولكَ الأَمانُ ، فدخلتُ ، وأَكرمَ مثوايَ ، ولَمْ يسأَلني عَنْ شيءٍ مِنْ أَمرِي ، ورأَيْتُهُ يركبُ في كُلِّ غداةٍ ، فسأَلتُهُ ، فقالَ : ذُكِرَ لي أَنَّ إِبراهيمَ بنَ سُليمانَ مختفٍ بهـٰذا الطرَفِ ، وقد قتلَ

---

(١) وفي « المستطرف » : خمسة آلاف .



أَبي صبراً[1] ، فأنا أركبُ في طلبِ ثأْري منهُ ، فأَيقنتُ أَنَّ القدرَ ساقني إِلى الهلاكِ ، وسأَلتُهُ عَنِ اسمِ أَبيهِ ، حتَّىٰ عرفتُ صحَّةَ ما يقولُ ، فقلْتُ لَهُ : قد وجبَ حقُّكَ عليَّ ، وإِنَّ منهُ أَنْ أَدُلَّكَ علىٰ خصمِكَ ، أَلاَ وإِنَّهُ الذي يكلِّمُكَ ، فافعلْ ما تحبُّ ، فقالَ : أَحسبُ الزمانَ أَضرَّ بكَ ، فأَحببتَ الراحةَ مِنَ الحياةِ ، فقلتُ : كلاَّ ، ولكنْ صدقتُكَ ، فلمَّا استيقنَ الأَمرَ . اربدَّ[2] وجهُهُ وتغيَّرَ لونُهُ ، واحمرَّتْ عيناهُ ، وأَطرقَ مليّاً ثُمَّ قالَ : أَمَّا أَنتَ ستلقىٰ أَبي عندَ حَكَمٍ عدلٍ ، يأْخذُ بثأْرِهِ مِنْكَ ، وأَمَّا أَنا فلا أَخْفِرُ ذمَّتِيْ ، ولكنْ لا آمنُ عليكَ نفسي ، فإِنْ شئْتَ أَنْ تنصرفَ آمناً إِلىٰ حيثُ تحبُّ ، وأَعطانِي أَلفَ دينارٍ ، فاعتذرتُ إِليهِ مِنْ قَبولِهِ ، وانصرفتُ ، فهٰذا أَكرمُ رجلٍ رأَيتُهُ بعدَ أَميرِ المؤمنينَ .

[وفاء الحارث بن عباد للمهلهل بعد قدرته عليه]

وأَقولُ : إِنَّ في تأَخُّرِ معرفةِ إِبراهيمَ بصاحبِ الدارِ لَنوعاً مِنَ النظرِ . والقصَّةُ أَشبهُ بقصَّةِ الحارثِ بنِ عبَّادٍ ، وقَدْ قَدَرَ علىٰ مهلهلٍ ، وهو لا يعرفُهُ ، وطلبَ منهُ أَنْ يدلَّهُ علىٰ مهلهلٍ بشرطِ الأَمانِ ، فاستعرَفَ عليهِ ، فجزَّ ناصيتَهُ ، وأَطلقَهُ ، وهُوَ قاتلُ ابنهِ بُجَيْرٍ ، وقالَ في ذلكَ : [مِنَ الخفيفِ]

لَهْـفَ نَفْسِـي عَلَـىٰ عَـدِيٍّ وقَـدْ أَسْـــقَـبَ لِلْمَـوْتِ وَاحْتَـوَتْـهُ الْيَـدَانِ[3]

وعَدِيٌّ هوَ اسمُ المهلهلِ .

إِلاَّ أَنَّ صاحبَ إِبراهيمَ مَنَّ مِنْ غيرِ شرطٍ بخلافِ الحارثِ ، وقصَّةُ ابنِ زائدةَ أَيَّامَ اختفائهِ مِنْ بني العبَّاسِ معَ الجندي الَّذي أَمسكَهُ ، ثُمَّ مَنَّ عليهِ وصغَّرَهُ في نفسهِ مشهورةٌ .

[المهلب يعفو عمن يريد قتله]

وظفرَ المهلَّبُ بخارجيٍّ يُريدُ اغتيالَهُ ، فقالَ لَهُ : قد ثبَتَ كيدُكَ لنا ، فاختر أَيَّ قِتلَةٍ تريدُ ، قالَ : سيفٌ ماضٍ لا يَنْبُو ، أَو عطفةُ كريمٍ تحتقرُ الضغائِنَ ، قالَ : هل فيكَ موضعٌ للصنيعةِ ؟ قالَ لَهُ : سينظرُ الأَميرُ ما يَسرُّهُ بعدَ التجربةِ ، قالَ : فإِنَّها عطفةُ كريمٍ يحتقرُ الذنوبَ ، فخلَّىٰ سبيلَهُ ، وأَكرمهُ ، فكانَ بعدَ ذلكَ مِنْ أَوثقِ أَصحابهِ عندَهُ .

[لا أبرح حتىٰ أعرف حديثك مع المأمون]

وذُكِرَ : أَنَّ المأمونَ استقدمَ رجالاً مِنَ (الشام) بعقبِ فتنةٍ اشتعلَتْ فيها ، ثُمَّ اعتقلَهُم ، ودفعَ أَكبرَ المتَّهمينَ في إِثارتِها لبعضِ خاصَّتِهِ ؛ ليأخذَهُ بأَنواعِ العذابِ ، حتَّىٰ يتفرَّغَ لقتلِهِ ، فأَخذَ الرجلُ يُسائِلُ أَسيرَهُ عَنِ (الشامِ) وأَهلِها ، وقالَ لَهُ : ما فعلَ فلانٌ ، لصديقٍ لَهُ بها ؟ قالَ : وما عِلمُكَ بهِ ، قالَ : لا أَقدرُ علىٰ مكافأَتِهِ ، وما نعمتي وحياتي إِلاَّ مِنْ حسناتِهِ ، فلقد أَهدرَ الخليفةُ دمي بإِثرِ حوادثَ ظُنَّتْ بي فيها الظنونُ ، ولُصِقَتْ بي فيها التُّهمُ ، فلجأْتُ إِليهِ عَنْ غيرِ سابقِ معرفةٍ ، فأَكرمَ مثواي ، وحقنَ دمي ، وحفظَ عليَّ ماءَ وجهي ، ثُمَّ جهَّزني بأَحسنِ الجهازِ ، كسا وحملَ ، وأَغنىٰ وأَقنىٰ ، ثُمَّ سالَمَتْني الأَيَّامُ ، وصارَتْ بي إِلىٰ ما ترىٰ ، ولَوَدِدْتُ أَنِّي أَظفرُ بهِ . فأُكافِئَهُ ببعضِ ما طوَّقني مِنَ النعمِ ، وأَسدىٰ إِليَّ مِنَ المننِ ، فقالَ الأَسيرُ : لقد أَظفرَكَ اللهُ بمطلوبكَ مِنْ غيرِ بحثٍ ولا تعبٍ ، قالَ : وأَينَ هو ؟ قالَ : نجيُّكَ ، وما زالَ يستعرفُ إِليهِ بالذكرياتِ . . حتَّىٰ أَثبتهُ معرفةً ، فأَطلقَ وثاقَهُ ، وعرضَ عليهِ الذهابَ ،

---

(1) القتلُ صبراً : هوَ أن يُحبَسَ ويُرمىٰ حتَّىٰ يموتَ .

(2) اربدَّ وجهه : تغيرَ منَ الغضبِ وصارَ كلونِ الرمادِ .

(3) أَسقبَ : قَرُبَ .



والتحكُّمَ في أَموالِهِ ، فقالَ : لا أَضرُّكَ بنفعي ، ولكنِ ائتني بعبدي فلانٍ حتَّىٰ أُوصيَهِ إِلىٰ أَهلي ، وتلكَ أكبرُ مكافأةٍ ، فقالَ : لا واللهِ ، حتَّىٰ أُبلِغَكَ مَأمنَكَ ، وأُوصلَكَ إِلىٰ أَهلِكَ قريرَ العينِ ، معَ ما يُغنيْكُم طولَ الحياةِ ، فقالَ : لا أَبرحُ حتَّىٰ أَعرفَ حديثَكَ معَ المأمونِ ، فإِنْ نجوْتَ كانَتْ نجاتي ، وإِلاَّ وَقيتُكَ بنفسي ، ثُمَّ إِنَّ المأمونَ سأَلَ صاحبَهُ عن أَسيرِهِ . فأَخبرَهُ بقصَّتِهِ ، فاغرورقَتْ عيناهُ ، وقالَ : قد وجبَتْ علينا مكافأَتُهُ ؛ لأَنَّ وجودَ مثلِهِ قليلٌ ، وأَكبرُ شيءٍ عدمُ إِيثارِهِ السلامةَ والانطلاقَ علىٰ نجاتِكَ ، ثُمَّ استدعاهُ ، وبالغَ في إِكرامِهِ ، وإِسباغِ الإِلطافِ عليهِ ، وصرفَهُ موفورَ الكرامةِ ، وجعلَهُ موضعَ سرِّهِ وأَمانتِهِ بـ(الشامِ) ، فكانَتْ كُتُبُهُ تَرِدُ على المأمونِ بعدَ ذلكَ فيطالعُ بها صاحبَهُ .

ولإِبراهيمَ بنِ المهديِّ في أَيَّامِ اختفائهِ ما لا يقلُّ مِنْ وجهٍ عنها .

[النعمان بن المنذر ويوم بؤسه]

ويتَّصلُ بها حديثُ النُّعمانِ وصاحبِهِ شريكِ بنِ عمرٍو معَ الطائيِّ الذي قدَّمَ نفسَهُ للقتلِ وفاءً بوعدِهِ ، فكانَ مِنْ بركةِ ذلكَ إِبطالُ النُّعمانِ لعادتِهِ السيِّئَةِ في يومِ بؤسِهِ(١) .

[يعود إلى السجن بعدما خرج منه وفاءً لمن هرَّبه]

ونظيرُها في زمانِنا : أَنَّ بعضَ اليافعيِّينَ ارتكبَ في (المُكَلاَّ) جريمةً توجبُ قتلَهُ ، فاعتقلَهُ السلطانُ ، فطلبَ مِنَ السجَّانِ أَنْ يجمعَهُ بالجليلِ السيِّدِ حُسينِ بنِ حامدٍ ، ففعلَ ، فاستعطفَهُ لِيُطلِقَهُ ليلةً ليوصيَ ، ويؤدِّيَ ودائعَهُ ، ويُخبرَ أَهلَهُ بدفائنِ أَموالِهِ قريباً مِنَ (الشَّحْرِ) علىٰ شرطِ أَنْ يعودَ في الليلةِ الثانيةِ ، فأَخذَ عهدَهُ ، وأَطلقَهُ علىٰ ذلكَ ، وكانَ أَعداءُ السيِّدِ حسينٍ مِنْ بطانةِ السلطانِ غالبِ بنِ عوضٍ يراقبونَ ذلكَ ، فأَخبروهُ ، فعاتبَ السيِّدَ حسيناً ، فأَنكرَ إِطلاقَهُ ، واتَّعَدوا علىٰ أَنْ يُفتِّشوا عنهُ في السجنِ مِنَ اليومِ الثاني ، ولمَّا كانَ الليلُ . عادَ إِلىٰ مكانِهِ منهُ ، وجاءَ السلطانُ علىٰ وعدِهِ ، فأَلفاهُ كما قالَ السيِّدُ حسينٌ ، فعادَ علىٰ أَصحابِهِ باللاَّئمةِ ، وأَوسعَهُم توبيخاً ، ولكنَّ السيِّدَ حسيناً شرحَ لَهُ القصَّةَ بعدَ أَنْ هدأَتْ عنهُ سَوْرَةُ غضبِهِ ، فأَطلقَهُ ، وعفا عنهُ ، وليسَتْ هٰذهِ بالقليلةِ مِنْ بلادِنا علىٰ فسادِ الزمانِ ، وتنكُّرِ الأَيَّامِ! فللَّهِ الحمدُ والمنَّةُ .

[عودٌ علىٰ شرح المطلع]

وقولُ الناظمِ : (**وَلاَ أُعَدِّدُهَا**) مناسبٌ للمعنى الأَوَّلِ ، وهو ناظرٌ إِلىٰ قولِهِ صلى الله عليه وسلم : « **سُبْحَانَكَ! لاَ نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ** »(٢) . وهو كثيراً ما يتأَثَّرُ السُّنَّةَ والقرآنَ ، ويستخرجُ منهُما ما يجعلُهُ في غيرِ مكانِهِ ، وهوَ **القائلُ** [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٨٨] : [مِنَ الوافر]

وَقَـدْ حَمَّلْتَنِـي شُكْـراً طَـوِيـلاً ثَقِيـلاً لاَ أُطِيـقُ بِـهِ حِـرَاكَـا

ولهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٨١] : [من البسيط]

وَقَـدْ وَجَـدْتَ مَكَـانَ الْقَـوْلِ ذَا سَعَـةٍ فَـإِنْ وَجَـدْتَ لِسَـانـاً قَـائِـلاً فَقُـلِ

ولهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١١٩] : [من البسيط]

مَحَـامِـدٌ نَـزَفَـتْ شِعْـرِي لِيَمْـلأَهَـا فَـآلَ مَـا امْتَـلأَتْ مِنْـهُ وَلاَ نَضَبَـا

---

(١) انظر خبره في « المستطرف » (١/ ٤٢٩) .

(٢) أخرجه عن عائشة الصديقة مسلم (٤٨٦) ، وابن خزيمة (١/ ٣٢٩) .



وله [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/٢٦٧] : [منَ الكامل]

وَمَتَىٰ يُـؤَدِّي شَـرْحَ حَـالِـكَ نَـاطِـقٌ   حَفِـظَ الْقَلِيـلَ النَّـزْرَ مِمَّـا ضَيَّعَـا

وله [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/١٢٦] : [منَ الطويل]

لَـهُ مِنَـنٌ تُفْنِـي الثَّنَـاءَ كَـأَنَّمَـا   بِـهِ أَقْسَمَـتْ أَنْ لاَ يُـؤَدَّىٰ لَهَـا شُكْـرُ

وغيرُ ذلك .

❊ ❊ ❊

[قالَ أبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٠٤] : [منَ المنسرح]

يُعْطِـي فَـلاَ مَطْلُـهُ يُكَـدِّرُهَـا   بِهَـا وَلاَ مَنُّـهُ يُنَكِّـدُهَـا

[شرح المطلع]

الضمائرُ في (**يُكَدِّرُهَا**) و (**بِهَا**) و (**يُنَكِّدُهَا**) تعودُ إلى الأيادي المذكورةِ في البيتِ قبلَهُ .

[نفي الشيء بنفي صفته والشواهد عليه]

يقولُ : إنَّهُ يعطي الأيادِيَ التي لا يكدِّرُها المطلُ ، ولا ينكِّدُها المَنُّ ، وليسَ المرادُ أَنَّ هناكَ مطلاً ومَنّاً غيرَ أَنْ لا تكديرَ ولا تنكيدَ منهُما ، ولكنَّ المرادَ نفيُ المَطلِ والمنِّ أَلبَتَّةَ علىٰ حدِّ ما سبقَ في المجلسِ الأوَّلِ مِنْ قولِ امرىءِ القيسِ : [منَ الطويل]

عَلَـىٰ لاَحِـبٍ لاَ يَهْتَـدِي بِمَنَـارِهِ   [إِذَا سَـافَـهُ الْعَـوْدُ النُّبَـاطِـيُّ جَـرْجَـرَا]

إذْ لَمْ يُرِد : أَنَّ لَهُ مناراً لا يهتدي بِهِ ، ولكنَّهُ عمدَ إلىٰ نفيِ المنارِ مِنْ أَصلِهِ .

ومثلُهُ قولُ الآخَرِ[1] في وصفِ مفازةٍ [في « خزانةِ الأدب » ١٠/١٩٢] : [منَ السريع]

لاَ يُفْـزِعُ الأَرْنَـبَ أَهْـوَالُهَـا   وَلاَ تَـرَى الضَّـبَّ بِهَـا يَنْجَحِـرْ

وقد ذكرَهُ الزمخشريُّ في « **الكشَّافِ** » [١/٦٣٩ـ٦٤٠] عندَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ﴾ [آل عمران : ١٥١] ، وقالَ : (فإنْ قُلتَ : كأَنَّ هناكَ حُجَّةً حَتَّىٰ نزَّلَها تعالىٰ ، فيصحُ لَهمُ الإشراكُ . . قلْتُ : لَمْ يَعْنِ أَنَّ هناكَ حُجَّةً إلاَّ أَنَّها لَمْ تنزلْ عليهم ؛ لأَنَّ الشِّركَ لا يستقيمُ أَنْ تقومَ عليهِ حُجَّةٌ ، وإنَّما المرادُ نفيُ الحُجَّةِ ونزولُها جميعاً) ، وذكرَ عجزَ البيتِ . فإنَّهُ لَمْ يُرِد : أَنَّ بها أَرنباً لا تَفْزَعُ ، وضباً لا يَنْجَحِرُ ، وإنَّما أَرادَ : نفيَ الحيوانِ رَأساً ، وهـٰذا ممَّا يتنافسُ فيهِ أَهلُ البيانِ ، ويسمِّيهِ البديعيُّونَ : (نفيَ الشيءِ بإيجابِهِ) ، وفسَّرهُ ابنُ رشيقٍ وابنُ أَبي الإِصبعِ[2] وغيرُهُما بأَنَّهُ : (الكلامُ الذي ظاهرُهُ إِيجابُ الشيءِ ، وباطنُهُ نفيُهُ) .

---

(١) وهوَ : عمرُو بنُ أَحمرَ .

(٢) ابن أَبي الإِصبعِ : هو عبد العظيم بن عبد الواحد العدواني البغدادي المصري ، شاعر أديب توفي سنة : (٦٥٤ هـ) .

ومنهُ قولُهُ جلَّ ذكرهُ : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ﴾ [مريم : ٦٢] ، فليسَ المرادُ ـ علىٰ أصحِّ الأقوالِ ـ : أنَّ في الجنَّةِ لغواً إلاَّ أنَّهم لا يسمعونَهُ ، ولكنَّ المرادَ : نفيُ اللغوِ مِنْ أصلِهِ ، ومعاذَ اللهِ أنْ يكونَ فيها لَغوٌ أو غولٌ[1] .

ومنهُ قولُ زهيرٍ : [منَ الطويل]

بِـأَرْضٍ خَـلاَءٍ لاَ يُسَـدُّ وَصِيـدُهَـا ... عَلَـيَّ وَمَعْـرُوفِـي بِهَـا غَيْـرُ مُنْكَـرِ[2]

فأثبَتَ لَها وَصيداً ، وأرادَ : أنْ ليسَ لها وصيدٌ يُسَدُّ عليهِ .

ومنهُ قولُ الزُّبيرِ بنِ عبدِ المطَّلبِ يَذْكُرُ عميلةَ بنَ السَّبَّاقِ بنِ عبدِ الدارِ ، وكانَ لَهُ نديماً : [منَ الطويل]

صَبَحْـتُ بِهِـمْ طَلْقـاً يُـرَاحُ إِلَـى النَّـدَىٰ ... إِذَا مَـا انْتَشَـىٰ لَـمْ تَحْتَضِـرْهُ مَغَـافِـرُهُ

ضَعِيفـاً بِحَـثِّ الكَـأْسِ قَبْـضُ بَنَـانِـهِ ... كَلِيـلاً عَلَـىٰ وَجْـهِ النَّـدِيـمِ أَظَـافِـرُهُ

فظاهرُ كلامِهِ : أنَّهُ يَخمِشُ وجهَ النديمِ ، إلاَّ أنَّهُ لا يؤذيهِ ؛ لِكَلَّةِ أظفارِهِ ، وما أرادَ إلاَّ أنَّهُ لا يعربدُ ، ولا يَمَسُّ وجهَ النديمِ بشيءٍ أصلاً .

وقالَ أبو زيدٍ يصفُ فرساً : [منَ الكامل]

مُتَغَلِّـقٌ أَنْسَـاؤُهَـا عَـنْ قَـانِـىءٍ ... كَـالْقُـرْطِ صَـاوٍ غُبْـرُهُ لاَ يُـرْضَـعُ[3]

فإنَّهُ لَمْ يُرد : أنَّ هناكَ لَبناً لا يُرضعُ ، وإنَّما أرادَ : أنْ لا لبنَ لَها حتَّىٰ يرضعَ .

وقالَ أبو كبيرٍ الهُذليُّ يصفُ هضبةً [في « ديوان الهُذليِّينَ » ٢/٩٦ـ٩٧] : [منَ الكامل]

وَعَلَـوْتُ مُـرْتَقِبـاً عَلَـىٰ مَـرْهُـوبَـةٍ ... حَصَّـاءَ لَيْـسَ رَقِيبُهَـا فِـي مَهْمَـلِ

عَيْطَـاءَ مُعْنِقَـةٍ يَكُـونُ أَنِيسَهَـا ... وُرْقُ الْحَمَـامِ جَمِيمُهَـا لَـمْ يُـؤْكَـلِ[4]

يريدُ : أنْ ليسَ بها جميمٌ حتَّىٰ يؤكَلَ ، كما يدلُّ علىٰ ذلكَ قولُهُ في البيتِ الأوَّلِ (حَصَّاءَ) ؛ وهي التي لا نبتَ فيها .

ومنهُ قولُ ذي الرُّمَّةِ [في « ديوانه » ١/٤٤] : [منَ البسيط]

لاَ تُشْتَكَـىٰ سَقْطَـةٌ مِنْهَـا وَقَـدْ رَقَصَـتْ ... بِهَـا الْمَفَـاوِزُ حَتَّـىٰ ظَهْـرُهَـا حَـدِبُ[5]

فإنَّهُ لَمْ يُردْ : أنَّ لها سقطةً ، لكنَّهُ لا يُشتكىٰ منها ، وإنَّما أرادَ : نفيَ السقوطِ رأساً .

ومنهُ قولُ مسلمِ بنِ الوليدِ : [منَ البسيط]

لاَ يَعْبَـقُ الطِّيـبُ خَـدَّيْـهِ وَمِفْـرَقَـهُ ... وَلاَ يُمَسِّـحُ عَيْنَيْـهِ مِـنَ الْكُحُـلِ

فالمرادُ : نفيُ الطِّيبِ والكحلِ مِنْ أصلِهما ، لا نفيُ العَبَقِ والمسحِ فقط .

---

(١) غول : ما ينشأُ عن الخمر من صداع أو سكر . قال تعالىٰ : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ [مريم : ٦٢] و : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ [الصافات : ٤٧] .

(٢) الوَصيدُ : فِناءُ الدار والبيتِ . قال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ [الكهف : ١٨] .

(٣) في « اللسان » (١٥/٣٢١) البيت لأبي ذؤيب ، والنسا : عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذين ، ثم يمر بالعرقوب حتىٰ يبلغ الحافر ، فإذا سمنت الدابة انفلقت فخذاها بلحمتين عظيمتين وجرى النَّسا بينهما واستبان . القانئُ : الأحمرُ . الصاوي : اليابس . الغُبْرُ : بقية اللبن في الضرع .
والمعنىٰ : شبَّه الضرع بقرط المرأة ولم يرد أن هناك بقية لبن لا يرضع ، إنما أراد أنه لا غُبْرَ هناك فيهتدي إليه .

(٤) العيطاءُ : الطويلةُ العُنُقِ . المُعْنِقَةُ : الطويلة . الجميمُ : ما نهضَ وانتشرَ مِنَ النباتِ ؛ وهو ما طالَ بعضَ الطولِ ولَمْ يتمَّ ؛ أي : لا يَرقىٰ فيها راقٍ ولا راعٍ ولا أحدٌ فيأكُلَ جميمَها . وُرْقُ الحمام : الحمامُ الخُضْرُ ؛ وهيَ التي فيها سوادٌ وغبرةٌ . والعربُ تطلقُ الخضرةَ على السوادِ .

(٥) السَّقْطَةُ : العثرةُ والفترةُ . حتَّىٰ ظهرُها حَدِبُ : أي قد تقوَّسَ مِنَ الهُزَالِ .

ومثلُهُ : **قولُ الناظمِ** [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٦٩] : [منَ البسيط]

أَفْـدِي ظِبَـاءَ فَـلاَةٍ مَـا عَـرَفْـنَ بِهَـا ... مَضْـغَ الْكَـلاَمِ وَلاَ صَبْـغَ الْحَـوَاجِيـبِ

وَلاَ بَـرَزْنَ مِـنَ الْحَمَّـامِ مَـائِلَـةً ... أَوْرَاكُهُـنَّ صَقِيـلاَتِ الْعَـرَاقِيـبِ[1]

فظاهِرُ الكلامِ : نفيُ بُروزِهنَّ مِنَ الحمَّامِ علىٰ تلكَ الهيئَةِ ، والمرادُ : عدمُ دخولِهنَّ الحمَّامَ أَصلاً ، فإنهُنَّ بَدَوِيَّاتٌ كظِباءِ الفلاةِ ، لا يعرفْنَ شيئاً مِنْ ذلِكَ .

[السبب في تكثير الأمثلة علىٰ هٰذه المسألة]

وإنَّما أَكثرتُ مِنَ الأَمثلةِ ؛ لقولِ ابنِ الأَثيرِ السابقِ في المجلسِ الأَوَّلِ : إِنَّه طافَ علىٰ أَقوالِ الشعراءِ فلَم يجد منها شيئاً حتَّى اضطرَّ إِلىٰ ما نبَّهنا عليهِ مِنَ الاختلاسِ ، والحالُ أَنَّها علىٰ طرفِ ذراعهِ ، فسبحانَ مَنْ لا يسهو .

[الخلاف في الوعد]

ثُمَّ اختلفَ القومُ في شأنِ الوعدِ :

[١ـ صنف أحبه قبل العطية]

فمنهُمْ : مَنْ أَحبَّهُ قبلَ العطيَّةِ ؛ ليحلوَ موقعُها ، وتكملَ بها اللذَّتانِ : (لذةُ الإعطاءِ ، ولذةُ الإنجازِ) ، فإِنَّ النفسَ إِذا تعلَّقتْ بالشيءِ . . حصلَ لها وَلْوَلَةٌ لا تزولُ إِلاَّ بحصولِهِ ، وتلكَ الولولةُ لا تَحُطُّ مِنْ قدرِ العطيَّةِ إِذا كانَ الوعدُ حقّاً ، وكانَ صاحبُهُ مناطَ الثقةِ

[من أصحاب هٰذا المذهب يحيى بن خالد]

وعلىٰ هٰذا الرأْي : يحيىٰ بنُ خالدٍ ، فقد كلَّمَهُ منصورُ بنُ زيادٍ في حاجةٍ لرجلٍ ، فقالَ : عِدْهُ قضاءَها ، قالَ منصورٌ : فقلتُ لهُ : أَصلحكَ اللهُ ، وما يدعوكَ إِلى العِدَةِ مَعَ القدرةِ ؟ قالَ : هٰذا قولُ مَنْ لَمْ يعرِفْ مواقعَ الصنائِعِ مِنَ القلوبِ ، فإِنَّ الوعدَ تَطَعُّمٌ ، والإِنجازَ إِطعامٌ ، وليسَ مَنْ فاجأَهُ الطعامُ كمَنْ وجدَ رائِحتَهُ ، وتَمَطَّقَ بهِ ، وتطعَّمَهُ ، ثُمَّ قُرِّبَ إِليهِ ، فدعِ الحاجةَ تُختمُ بالوعدِ ؛ ليكونَ بها عندَ المُصطَنَعِ إِليهِ حُسْنُ موقعٍ ، ولُطْفُ محلٍّ ، فإِنَّها إِذا لَمْ يتقدَّمْها موعدٌ يُنْتَظَرُ بهِ نُجحُها . . لَمْ يتجاذبِ النفسَ سرورُها .

[ومنهم أبو مسلم الخولاني]

وقالَ أَبو مسلمٍ الخولانيُّ : أَوقعُ المعروفِ في القلوبِ ، وأَبردُهُ على الأَكبادِ . . معروفٌ منتَظَرٌ بوعدٍ لا يُكَدِّرُهُ مَطْلٌ .

[ومنهم المهدي]

وقالَ المهديُّ : [من مجزوء الكامل]

اَلْـوَعْـدُ أَحْسَـنُ مَـا يَكُـو ... نُ إِذَا تَقَـدَّمَـهُ ضَمَـانُ

وقالَ غيرُهُ : [منَ الرجز]

حَـلاَوَةُ الْفَضْـلِ بِـوَعْـدٍ يُنْجَـزُ ... لاَ خَيْـرَ فِـي الْعُـرْفِ كَنَهْـبٍ يُنْهَـزُ[2]

---

(١) **العراقيبُ** : جمعُ عرقوبٍ ، وهوَ ما يكونُ عندَ الكعبِ .

(٢) **العُرْفُ** : المعروف . والمرادُ : أَنَّهُ لا خيرَ في معروفٍ يؤخذُ كالنهبِ والسرقةِ .



[شاهده من القرآن الكريم]

وقد يتأكَّدُ هٰذا بأمثالِ قولهِ جلَّ ذكرُهُ لموسىٰ وهارونَ : ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس : ٨٩] ، فإنهُ لَمْ يظهر أثرُ الإجابةِ ـ كما يُروىٰ ـ إلاَّ بعدَ أربعينَ سنةً .

وقالَ الإمامُ الرازيُّ في تأخُّرِ ظهورِ أثرِ الرؤيا الحَسَنةِ : (إنَّ مِنْ رحمةِ اللهِ الإعلامَ بالخيرِ متقدِّماً علىٰ ظُهورهِ بزمانٍ طويلٍ ، حتَّىٰ تكونَ البهجةُ بتوقُّعِ حصولِهِ أكثرَ وأتمَّ) . انتهىٰ بمعناهُ .

علىٰ أنَّهُ لا يبعدُ أنْ يكونَ الرَّيثُ في المواعيدِ الإلهيَّةِ بالدنيا مِنَ الامتحانِ الذي يَحسُنُ مِنَ اللهِ لا مِنَ الخَلْقِ فيما بينهُم .

[ومنهم الحارثي]

وقالَ الحارثيُّ : [منَ الطويل]

وَمَـا رَوْضَـةٌ داريَّـةٌ أَسَـدِيَّـةٌ ... مُنَمْنَمَـةٌ زَهْـرَاءُ ذَاتُ ثَـرىً صَعْـدِ

بِـأَحْسَـنَ مِـنْ حُـرٍّ تَضَمَّـنَ حَـاجَـةً ... لِحُـرٍّ فَـأَوْفَـىٰ بِـالنَّجَـاحِ مَـعَ الْـوَعْـدِ

[وكذلك ابن رشيق]

وقالَ ابنُ رشيقٍ [في « ديوانهِ » ١٥٠] : [منَ السريع]

أَحْسَنْـتَ فِـي تَـأْخِيـرِهَـا مِنَّـةً ... لَـوْ لَـمْ تُـؤَخَّـرْ لَـمْ تَكُـنْ كَـامِلَـهْ

وَكَيْـفَ لاَ يَحْسُـنُ تَـأْخِيـرُهَـا ... بَعْـدَ يَقِيـنِـي أَنَّهَـا حَـاصِلَـهْ

وَجَنَّـةُ الْفِـرْدَوْسِ يُـدْعَـىٰ بِهَـا ... آجِلَـةً لِلْمَـرْءِ لاَ عَـاجِلَـهْ

[٢ـ الصنف الثاني عكسهم واستدلالهم علىٰ ذلك]

وذهبَ آخرونَ إلىٰ خلافِهِ ، وأنَّهُ لا يحسنُ الاستنادُ إلى المواعيدِ إلاَّ عندَ عدمِ القدرةِ ، وقد يدلُّ لَهُ هَديُهُ صلى الله عليه وسلم (فقد كانَ لا يردُّ سائلاً ، وإنْ لَمْ يجدْ شيئاً . . وعدَ) .

وقولُهُ : « **اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَجْأَةِ الْخَيْرِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فَجْأَةِ الشَّرِّ** »[1] ولا يخرجُ عنهُ قولُهُ : « **أَبَى اللهُ أَنْ يَرْزُقَ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ إلاَّ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ** »[2] .

[أصحاب هٰذا المذهب كثر]

ولا يدخلُ تحتَ الحصرِ ما فيهِ مِنْ أقوالِ الشعراءِ . منهُ قولُ عبدِ اللهِ بنِ مصعبٍ الزبيريِّ : [منَ الطويل]

وَأَنْجَـزَ خَلْـقَ اللهِ مِـنْ قَبْـلِ وَعْـدِهِ ... أَرَاحَـكَ مِـنْ مَطْـلٍ وَمِـنْ طُـولِ كَـدِّهِ

[تكرارا هٰذا المعنىٰ بكثرة عند المتنبي]

وقد تكرَّرَ عندَ الناظمِ منهُ قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/٣٦٩] : [منَ المتقارب]

وَمَـالٍ وَهَبْـتَ بِـلاَ مَـوْعِـدٍ ... وَقِـرْنٍ سَبَقْـتَ إِلَيْـهِ الْـوَعِيـدَا[3]

---

(١) أورده عن أنس الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠/ ١١٥) وقال : رواه أبو يعلىٰ وفيه يوسف بن عطية متروك .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة القضاعيُّ في « مسند الشهاب » (١/ ٣٤١) .

(٣) القِرْنُ ـ بالكسر ـ : هوَ الكفءُ في الشجاعةِ والمماثلُ ، والقَرْنُ ـ بالفتح ـ : هوَ مثلُكَ في السِّنِّ . والمرادُ الأوَّلُ .



وقولُهُ [في « العُكْبَريّ » ١/ ٣٤٣] : [مِنَ المتقارب]

لَقَـدْ حَـالَ بِـالسَّيْـفِ دُونَ الْـوَعِيـدِ ... وَحَـالَـتْ عَطَـايَـاهُ دُونَ الْـوُعُـودِ

وقولُهُ [في « العُكْبَريّ » ١/ ٣٤٨] : [مِنَ البسيط]

مُحَمَّـدُ بْـنَ زُرَيْـقٍ مَـا نَـرَىٰ أَحَـداً ... إِذَا فقَـدْنَـاكَ يُعْطِـي قَبْـلَ أَنْ يَعِـدَا

وقولُهُ [في « العُكْبَريّ » ١/ ٣٧٧] : [مِنَ الطويل]

تَـوَالَـىٰ بِـلاَ وَعْـدٍ وَلَـٰكِـنَّ قَبْلَـهُ ... شَمَـائِلَـهُ مِـنْ غَيْـرِ وَعْـدٍ لَهَـا وَعْـدُ

وقولُهُ [في « العُكْبَريّ » ٤/ ٣٠] : [مِنَ الكامل]

نَصَـرَ الْفَعَـالَ عَلَـى الْمِطَـالِ كَـأَنَّمَـا ... خَـالَ السُّـؤَالَ عَلَـى النَّـوَالِ مُحَـرَّمَـا[١]

وقولُهُ [في « العُكْبَريّ » ٣/ ١٨٨] : [مِنَ الطويل]

وَحَـالَـتْ عَطَـايَـا كَفِّـهِ دُونَ وَعْـدِهِ ... فَلَيْـسَ لَـهُ إِنْجَـازُ وَعْـدٍ وَلاَ مَطْـلُ

وقولُهُ [في « العُكْبَريّ » ٣/ ٢٧٧] : [مِنَ البسيط]

وَأَجْـزِ الأَمِيـرَ الَّـذِي نُعْمَـاهُ فَـاجِئَـةٌ ... مِـنْ غَيْـرِ قَـوْلٍ وَنُعْمَـى النَّـاسِ أَقْـوَالُ

وقولُهُ [في « العُكْبَريّ » ٢/ ٢٨] : [مِنَ الطويل]

وَوَعْـدُكَ فِعْـلٌ قَبْـلَ وَعْـدٍ لأَنَّـهُ ... نَظِيـرُ فَعَـالِ الصَّـادِقِ الْقَـوْلِ وَعْـدُهُ

وقولُهُ [في « العُكْبَريّ » ٢/ ١٨٣] : [مِنَ الخفيف]

كُلَّمَـا جَـادَتِ الظُّنُـونُ بِـوَعْـدٍ ... عَنْـكَ جَـادَتْ يَـدَاكَ بِـالإِنْجَـازِ

وقولُهُ [في « العُكْبَريّ » ٣/ ٢٩٧] : [مِنَ الطويل]

وَأَهْـدَتْ إِلَيْنَـا غَيْـرَ قَـاصِـدَةٍ بِـهِ ... كَـرِيـمَ السَّجَـايَـا يَسْبِـقُ الْقَـوْلَ بِـالْفِعْـلِ

وقولُهُ [في « العُكْبَريّ » ٣/ ٨٧] : [مِنَ البسيط]

أَنْـتَ الْجَـوَادُ بِـلاَ مَـنٍّ وَلاَ كَـدَرٍ ... وَلاَ مِطَـالٍ وَلاَ وَعْـدٍ وَلاَ مَـذَلِ[٢]

وربَّما دخلَ بعضُ هـٰذهِ الأَبياتِ بتأويلٍ في القسمِ الأَوَّلِ ، ولا مُشاحَّةَ في ذلكَ ، فالخطبُ يسيرٌ .

[الشعراء وهـٰذا المعنىٰ]

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانه » ١/ ٥٧٤] : [مِنَ البسيط]

يُمْضِـي الْمَنَـايَـا دِرَاكـاً ثُـمَّ يُتْبِعُهَـا ... بِيـضَ الْعَطَـاءِ وَلَـمْ يُـوعِـدْ وَلَـمْ يَعِـدِ

---

(١) الفَعَالُ ـ بفتح الفاءِ ـ : الفِعلُ الجميلُ .

(٢) المَذَلُ : الفترةُ والضجرُ .

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٥٥٧] : [منَ البسيط]

رَطْبُ الْغَمَامِ إِذَا مَا اسْتُمْطِرَتْ يَدُهُ ... جَاءَتْ مَوَاهِبُهُ قَبْلَ الْمَوَاعِيدِ

وقالَ المعرِّيُّ [في « سقط الزند » ١٢٩] : [منَ الطويل]

فَيَا أَحْلَمَ السَّادَاتِ مِنْ غَيْرِ ذِلَّةٍ ... وَيَا أَجْوَدَ الأَجْوَادِ مِنْ غَيْرِ مَوْعِدِ

وقالَ آخرُ : [منَ الطويل]

عَلَىٰ عُدَوَاءِ الدَّارِ جَاءَتْ هِبَاتُهُ ... بِلاَ عِدَةٍ مِنْ قَبْلِ ذَاكَ وَلاَ مَنِّ[1]

فَأَوْلَيْتُهُ شُكْرِي وَلَكِنَّ بِرَّهُ ... لَدَيَّ الْهَنِيءُ الْجَمُّ مِنْ فَوْقِ مَا أُثْنِي

وأَنصعُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ قولُ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٩٣] : [منَ الطويل]

يَرَى الْوَعْدَ أَخْزَى الْعَارِ إِذْ هُوَ لَمْ تَكُنْ ... مَوَاهِبُهُ تَأْتِي مُقَدَّمَةَ الْوَعْدِ

فَلَوْ كَانَ مَا يُعْطِيهِ غَيْثاً لأَمْطَرَتْ ... سَحَائِبُهُ مِنْ غَيْرِ بَرْقٍ وَلاَ رَعْدِ

وَقالَ القاضي ظهيرُ الدينِ : [منَ البسيط]

جُودُ الْكَرِيمِ إِذَا مَا كَانَ عَنْ عِدَةٍ ... وَقَدْ تَأَخَّرَ لَمْ يَسْلَمْ عَنِ الْكَدَرِ

إِنَّ السَّحَائِبَ لاَ تُجْدِي بَوَارِقُهَا ... نَفْعاً إِذَا هِيَ لَمْ تُمْطِرْ عَلَى الأَثَرِ

[كلمة رشيقة للخابزأرزي]

وقالَ الخَابزأَرزيُّ في كلمةٍ رشيقةٍ لابأسَ باستيفائِها ؛ لعذوبتِها علىٰ ما فيها ممَّا سننبِّهُ عليهِ : [منَ الطويل]

خَلِيلَيَّ هَلْ أَبْصَرْتُمَا أَوْ سَمِعْتُمَا ... بِأَكْرَمَ مِنْ مَوْلىً تَمَشَّىٰ إِلَىٰ عَبْدِ ؟!

أَتَىٰ زَائِراً مِنْ غَيْرِ وَعْدٍ وَقَالَ لِي : ... أُجِلُّكَ عَنْ تَعْلِيقِ قَلْبِكَ بِالْوَعْدِ

فَمَا زَالَ نَجْمُ الْوَصْلِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ... يَدُورُ بِأَفْلاَكِ السَّعَادَةِ وَالسَّعْدِ

فَطَوْراً عَلَىٰ تَقْبِيلِ نَرْجِسِ نَاظِرٍ ... وَطَوْراً عَلَىٰ تَعْضِيضِ تُفَّاحَةِ الْخَدِّ

[ملاحظة المؤلف عليها من حيث المعنىٰ]

والَّذي نُلاحظهُ مِنْ حيثُ المعنىٰ : بطلانَ الاستفهامِ الإنكاريِّ في قولهِ : (. . .هَلْ أَبْصَرْتُمَا أَو سَمِعْتُمَا) بِمَا كانَ مِنْ هديهِ صلى الله عليه وسلم في زيارتهِ لأَصحابهِ وأَخدامهِ ، حتَّىٰ لقد زارَ غلاماً نَخَّاماً[2] مِنَ اليهودِ .

[ملاحظته عليها من حيث اللفظ]

ومِنْ حيثُ اللَّفظُ : جَمْعُهُ بينَ السَّعادةِ والسَّعدِ ، وهل هُما إلاَّ كشيءٍ واحدٍ ؟ وجاءَ في الخبرِ : أَنَّ (**عِدَةُ الكَرِيمِ دَيْنٌ**) ، و : أَنَّ (**لَيُّ الْوَاجِدِ ظُلْمٌ**)[3] .

---

(١) **عُدَوَاء الدَّار** : الدورُ البعيدةُ النائيةُ ، والعُدَوَاءُ : البعدُ .

(٢) **النخَّامُ** : المصابُ بالسعالِ .

(٣) أخرجه بنحوه عن الشريد أبو داوود (٣٦٢٨) ، والنسائي (٤٦٨٩) و(٤٦٩٠) ، وابن ماجه (٢٤٢٧) ، وابن حبان (٥٠٨٩) بإسناد حسن ، ونحو معناه حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٢٨٧) ومسلم (٤٦٨٨) بلفظ « مَطْلُ الغنيِّ ظُلْمٌ » .

وَمِنْ كلامِهِم : إِنَّ المسؤولَ حُرٌّ حتَّىٰ يَعِدَ .

ومِنْ ثَمَّ ذهبَ أَكثرُ الأَئِمَّةِ إلى القولِ بوجوبِ الوفاءِ بالوعدِ ، وهل بَيْعُ العُهْدَةِ[1] المعروفُ بأَرضِنا إِلاَّ مبنيٌّ عليهِ ؟ وإِنِّي لأَعجبُ مِنَ الإمامِ الشَّافعيِّ ؛ إِذْ لا يقولُ بوجوبِهِ مع صحَّةِ الأَحاديثِ فيهِ ، وكثرةِ الوعيدِ في الخُلْفِ!

[وفاء سيدنا أبي بكر عداته صلى الله عليه وسلم]

وقد وفَّىٰ أَبو بكرٍ الصِّدِّيقُ سائرَ عِدَاتِهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ بيتِ المالِ ، ولو لَمْ تكُنْ دَيناً لازماً . . لَمَا سدَّدَها منهُ . ودعوى الخصوصيَّةِ بهِ صلى الله عليه وسلم لابدَّ لها مِنْ دليلٍ .

[وفاء عدات سعيد بن العاص]

وما كانَ دَينُ سعيدِ بنِ العاصِ الَّذي بِيعَ فيهِ دارُهُ مِنْ معاويةَ بثلاثِ مئةِ أَلفٍ إِلاَّ مِنْ هـٰذا القبيلِ . منهُ صكٌّ لبعضِ قريشٍ لا يؤْبَهُ لَهُ ، سأَلوهُ عَنْ سببِهِ ، فقالَ : مشيتُ معهُ مرَّةً إِلىٰ دارِهِ حتَّىٰ بلغَها ، فقالَ : ما حاجتُكَ ؟ قلتُ : لا شيءَ إِلاَّ أَنِّي رأَيْتُكَ تمشي وحدَكَ ، فأَحببْتُ أَنْ أَصِلَ جناحَكَ ، فكتبَ لِي هـٰذا الصكَّ ، واعتذرَ بعُسْرَةٍ إِذْ ذاكَ ، فقالَ لَهُ عمرُو بنُ سعيدٍ : لا جرمَ ، لا تأْخُذْها إِلاَّ بالوافيةِ ، ولا تبرح مكانَكَ حتَّىٰ تقبضَها[2] .

[قصيدة شاعرة لبعض شعراء الحماسة]

وللهِ درُّ بعضِ شعراءِ الحماسةِ[3] في قولِهِ [في « شرحِ حماسةِ أَبي تمَّام » ٢/٩٢٣ـ٩٢٥] : [منَ الطويل]

مَـوَاعِيـدُهُـمْ صِـدْقٌ إِذَا مَـا تَكَلَّمُـوا ... بِتِلْـكَ الَّتِي قَـدْ سُمِّيَـتْ وَجَـبَ الْفِعْـلُ

وهو مِنْ كلمةٍ شاعرةٍ تقتضي الجزالةُ استيفاءَها وهيَ :

إِلَـىٰ هَضْبَـةٍ مِـنْ آلِ شَيْبَـانَ أُفْـرِغَـتْ ... لَهَـا الـذِّرْوَةُ الْعَلْيَـاءُ وَالْكَـاهِـلُ الْعَبْـلُ[4]

إِلَـى النَّفَـرِ الْبِيـضِ الَّـذِيـنَ كَـأَنَّهُـمْ ... صَفَـائِـحُ يَـوْمَ الـرَّوْعِ أَخْلَصَهَـا الصَّقْـلُ

إِلَـىٰ مَعْـدِنِ الْعِـزِّ الْمُـؤَيَّـدِ وَالنَّـدَىٰ ... هُنَـاكَ هُنَـاكَ الْفَضْـلُ وَالْخُلُـقُ الْجَـزْلُ

عِـذَابٌ عَلَـى الأَكْبَـادِ مَـا لَـمْ يَـذُقْهُـمُ ... عَـدُوٌّ وَفِـي الأَفْـوَاهِ أَسْمَـاؤُهُـمْ تَحْلُـو

عَلَيْهِـمْ وَقَـارُ الْحِلْـمِ حَتَّـىٰ كَـأَنَّمَـا ... وَلِيـدُهُـمْ مِـنْ أَجْـلِ هَيْبَتِـهِ كَهْـلُ

إِذَا اسْتُجْهِلُـوا لَـمْ يَعْـزُبِ الْحِلْـمُ عَنْهُـمُ ... وَإِنْ آثَـرُوا أَنْ يَجْهَلُـوا كَثُـرَ الْجَهْـلُ

هُـمُ الْجَبَـلُ الأَعْلَـىٰ إِذَا مَـا تَنَـاكَـرَتْ ... مُلُـوكُ رِجَـالٍ أَوْ تَخَـاطَـرَتِ الْبُـزْلُ[5]

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الْقَتْـلَ غَـالٍ إِذَا رَضُـوا ... وَإِنْ غَضِبُـوا فِـي مَـوْطِـنٍ كَثُـرَ الْقَتْـلُ

بُحُـورٌ تُـلاَقِيهَـا بُحُـورٌ غَـزِيـرَةٌ ... إِذَا غَضِبَـتْ قَيْـسٌ وَإِخْـوَانُهَـا ذُهْـلُ[6]

---

(١) ويسمَّىٰ أيضاً بيع الإقالة : وهو مستجمع لشروط الصحة ، إلا أن المشتري يعدُ البائع أنه إذا جاء بمثل الثمن له . . أقاله وردَّ عليه المبيع .

(٢) راجع القصَّةَ كاملة في « الأغاني » (٣٩/١) .

(٣) وهوَ : خَلَفُ بنُ خليفةَ مولىٰ قيسِ بنِ ثعلبةَ .

(٤) **الكاهلُ** : أَصلُ العنقِ ، وهوَ الحاركُ . **العَبْلُ** : الغليظُ ، وهـٰذا مثلٌ لشرفهم وعلوِّهم .

(٥) **تناكرتْ** : تجاحدتْ . **تخاطرتْ** : حركتْ أذنابَها . **البُزْلُ** : حسانُ الإبلِ . **والمعنىٰ** : أنهمْ بلغوا الذروةَ العُليا مِنَ المكارمِ والشجاعةِ والدهاءِ قولاً وفعلاً علىٰ عكسِ غيرهِمْ .

(٦) **قيسٌ وذُهل** : ابنا ثعلبةَ ، مِنْ بكرِ بنِ وائلٍ . وشيبانُ مِنْ ذُهلِ بنِ ثعلبةَ .



[ابن الزبعرىٰ يمدح بني عبد مناف]

وقالَ ابنُ الزِّبعرىٰ يمدحُ بني عبدِ منافٍ في حديثٍ لا حاجةَ بنا إلى الاستطرادِ بهِ [كما في «شعرِ ابنِ الزِّبعرىٰ» ٥٤] : [منَ الكاملِ]

يَـا أَيُّهَـا الـرَّجُـلُ الْمُحَـوِّلُ رَحْلَـهُ ... هَـلاَّ نَـزَلْـتَ بِـآلِ عَبْـدِ مَنَـافِ

الْخَـالِطِيـنَ فَقِيـرَهُـمْ بِغَنِيِّهِـمْ ... حَتَّـىٰ يَعُـودَ فَقِيـرُهُـمْ كَـالْكَـافِـي

وَالْقَـائِلِيـنَ بِكُـلِّ وَعْـدٍ صَـادِقٍ ... وَالظَّـاعِنِيـنَ لِـرِحْلَـةِ الإِيـلاَفِ

[الحطيئة يمدح آل شماس]

وقالَ الحطيئةُ يمدحُ آلَ شمَّاسِ بنِ لؤَيٍّ [كما في « ديوانه »] : [منَ الطويل]

أُولَـئِـكَ قَـوْمٌ إِنْ بَنَـوْا أَحْسَنُـوا الْبِنَـا ... وَإِنْ عَـاهَـدُوا وَفَـوْا وَإِنْ عَقَـدُوا شَـدُّوا

وَإِنْ قَـالَ مَـوْلاَهُـمْ ـ عَلَـىٰ جُلِّ حَـادِثٍ ... مِنَ الدَّهْرِ ـ رُدُّوا فَضْلَ أَحْلاَمِكُمْ رَدُّوا

أَقِلُّـوا عَلَيْهِـمْ ـ لاَ أَبَـا لأَبِيكُـمُ ـ ... مِنَ اللَّوْمِ أَوْ سُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا

[الشعراء والجود]

وقالَ أَيضاً [في « ديوانه » ٢٥ـ٢٦] : [منَ البسيط]

قَـوْمٌ إِذَا عَقَـدُوا [عَقْـداً] لِجَـارِهِـمُ ... شَـدُّوا الْعِنَـاجَ وَشَـدُّوا فَـوْقَـهُ الْكَـرَبَـا[١]

أُولَـئِـكَ الأَنْـفُ وَالأَذْنَـابُ غَيْـرُهُـمُ ... وَمَـنْ يُسَـاوِي بِـأَنْـفِ النَّـاقَـةِ الـذَّنَبَـا[٢]

ويُروىٰ للحَسَنِ السبطِ رضوانُ اللهِ عليهِ : [منَ البسيطِ]

وَلاَ أَقُـولُ نَعَـمْ يَـوْمـاً فَـأُتْبِعُهَـا ... خُلْفـاً وَلَـوْ ذَهَبَـتْ بِـالْمَـالِ وَالْـوَلَـدِ

فأَخذَهُ بعضُهُم ، وقالَ : [منَ الرَّمَلِ]

لاَ تَقُـولَـنَّ إِذَا مَـا لَـمْ تُـرِدْ ... أَنْ تُتِـمَّ الْـوَعْـدَ فِـي شَـيْءٍ : نَعَـمْ

فَـإِذَا قُلْـتَ : نَعَـمْ فَـاصْبِـرْ لَهَـا ... بِـوَفَـاءِ الْعَهْـدِ إِنَّ الْخُلْـفَ ذَمّْ

وقالَ ابنُ أَبي حاتِمٍ : [منَ الطويل]

إِذَا قُلْـتَ فِـي شَـيْءٍ : نَعَـمْ فَـأَتِمَّـهُ ... فَـإِنَّ نَعَـمْ دَيْـنٌ عَلَـى الْحُـرِّ وَاجِـبُ

وَإِلاَّ فَقُـلْ : لاَ ، تَسْتَـرِحْ وَتُـرِحْ بِهَـا ... لِئَـلاَّ يَقُـولَ النَّـاسُ : إِنَّـكَ كَـاذِبُ

وقالَ أَبو عبادةَ [في « ديوانه » ٢/٦٩٩] : [منَ الكامل]

عَجِـلٌ إِلَـىٰ نُجْحِ الْفَعَـالِ كَـأَنَّمَـا ... يُمْسِـي عَلَـىٰ وِتْـرٍ مِـنَ الْمَـوْعُـودِ[٣]

---

(١) يقول : إذا عَقدوا عقداً لجارهمُ . . وفوا بهِ وأحكموهُ ، وكنىٰ عن ذلكَ بالعِناجِ ، والعِنَاجُ : حبلٌ يشدُّ تحت الدلو ويتصل طرفاه من أعلاها بما يتصل به أذناها . الكَرَبُ : الحبلُ الذي يشدُّ في وسطِ خشبةِ الدلو فوقَ الرشاءِ ليقويه .

(٢) أَنفُ الناقةِ : قَصدَ بهِ بغيضاً وأَهلَ بيتهِ ، وكانوا يعيَّرونَ بهِ في الجاهليَّةِ ، فلمَّا قالَ الحطيئةُ هـٰذا البيت . . صار مدحاً لهم . والأذناب : قصد بها الزبرقانَ وأهلَ بيتهِ .

(٣) الوَتْرُ : الثأرُ .

وقالَ [في « ديوانه » ٢/ ٧٥٩] : [منَ الطويل]

كَـأَنَّ سَنَـاهَـا بِـالْعَشِـيِّ لِصُبْحِهَـا ... تَبَسُّـمُ عِيسَـىٰ حِيـنَ يَلْفِظُ بِـالْـوَعْـدِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ٢٠١٢] : [منَ الطويل]

إِذَا وَعَـدَ ارْفَضَّـتْ عَطَـاءً عِـدَاتُـهُ ... وَأَعْـرِفُ مِنْهُـمْ مَـنْ يَحُزُّ وَلاَ يُـدْمِـي (١)

وقالَ [في « ديوانه » ٢/ ٨٢٣] : [منَ الكامل]

شُكْـراً لأَنْعُمِـهِ الْجِسَـامِ وَلَـمْ تَضِـعْ ... نِعَـمٌ مَـلأْنَ لَـهُ الْبِـلاَدَ مَحَـامِـدَا

يُـولِيـكَ فَضْـلاً صَـدْرُ قَـاصِيـهِ الْغِنَـىٰ ... بِعَـوَائِـدٍ قَـدْ كُـنَّ أَمْـسِ مَـوَاعِـدَا (٢)

وقالَ [في « ديوانه » ٣/ ١٥٣١] : [منَ الطويل]

مَـوَاهِـبُ أَعْـدَادُ الأَمَـانِـي وَبَعْـدَهَـا ... عِـدَاتٌ يَكَـادُ الْعُـودُ مِنْهُـنَّ يُـورِقُ

وفي عكسهِ يقولُ بشَّارُ بنُ بردٍ ، وقد وعدَهُ خالدُ بنُ برمكٍ بجائزةٍ ، فتأَخَّرَتْ [في « ديوانه » ٤/ ٨٩] : [منَ الطويل]

أَظَلَّـتْ عَلَيْنَـا مِنْـكَ يَـوْمـاً غَمَـامَـةٌ ... أَضَـاءَ لَهَـا بَـرْقٌ وَأَبْطَـا رَشَـاشُهَـا

فَـلاَ غَيْمُهَـا يُجْلَـىٰ فَيَيْـأَسَ طَـامِـعٌ ... وَلاَ غَيْثُهَـا يَـأْتِـي فَتُـرْوَىٰ عِطَـاشُهَـا

[أبو العتاهية وعمر بن العلاء]

وامتدحَ أبو العتاهيةِ عُمرَ بنَ العلاءِ بقولِهِ [في « ديوانهِ » ٦٠٥ـ٦٠٦] : [منَ الكامل]

إِنِّـي أَمِنْـتُ مِـنَ الـزَّمَـانِ وَرَيْبِـهِ ... لَمَّـا عَلِقْـتُ مِـنَ الأَمِيـرِ حِبَـالاَ

لَـوْ يَسْتَطِيـعُ النَّـاسُ فِـي إِجْـلاَلِـهِ ... لَحَـذَوْا لَـهُ حُـرَّ الْـوُجُـوهِ نِعَـالاَ

إِنَّ الْمَطَـايَـا تَشْتَكِيـكَ لأَنَّهَـا ... قَطَعَـتْ إِلَيْـكَ سَبَـاسِبـاً وَرِمَـالاَ

فَـإِذَا وَرَدْنَ بِنَـا وَرَدْنَ مُخِفَّـةً ... وَإِذَا صَـدَرْنَ بِنَـا صَـدَرْنَ ثِقَـالاَ

فرسمَ لَهُ بسبعينَ ألفاً ، فتأَخَّرَتْ ، فكتبَ إليهِ [في « ديوانه » ٥٥٧] : [منَ الطويل]

أَصَـابَـتْ عَلَيْنَـا جُـودَكَ الْعَيْـنُ يَـا عُمَـرْ ... فَنَحْـنُ لَهَـا نَبْغِـي التَّمَـائِـمَ وَالنُّشَـرْ

أَصَـابَتْـكَ عَيْـنٌ فِـي سَخَـائِـكَ صُلْبَـةٌ ... وَيَـا رُبَّ عَيْـنٍ صُلْبَـةٍ تَقْطَـعُ الْحَجَـرْ

سَنَـرْقِيـكَ بِـالأَشْعَـارِ حَتَّـىٰ تَمَلَّهَـا ... فَـإِنْ لَـمْ تُفِـقْ مِنْهَـا رَقَيْنَـاكَ بِـالسُّـوَرْ

وقالَ أيضاً [في « ديوانه » ٥٦٨ـ٥٦٩] : [منَ البسيط]

يَـا ابْـنَ الْعَـلاَءِ وَيَـا ابْـنَ الْقَـرْمِ مِـرْدَاسِ ... إِنِّـي امْتَدَحْتُـكَ فِـي صَحْبِي وَجُلاَّسِـي (٣)

---

(١) **ارفضَّتْ** : تفرَّقَت وذهبَت . **العِداتُ** : جمع العِدَةِ ، وهي الوعد .

(٢) **المعنىٰ** : أنَّ مَنْ يرجعُ من عندهِ . . يرجعُ متحققَ الوعودِ بعطايا صيَّرتهُ غنياً .

(٣) **القَرْمُ** : سيِّدُ القومِ .

أُثْنِي عَلَيْكَ وَلِي حَالٌ تُكَذِّبُنِي ... فِيمَا أَقُولُ فَأَسْتَحْيِي مِنَ النَّاسِ
حَتَّىٰ إِذَا قِيلَ مَا أَوْلَاكَ مِنْ مِنَنٍ ... طَأْطَأْتُ مِنْ سُوءِ حَالِي عِنْدَهَا رَاسِي

فأمرَ حاجبَهُ أنْ يعجِّلَ لَهُ بدفعِ المالِ ، وقالَ : لا تُدخِلْهُ عليَّ حتَّىٰ يقبضَها ؛ فإنِّي مستحٍ منهُ .

وقد جرتْ للعلاَّمةِ ابنِ المقري قضيَّةٌ مِنْ نوعِها مستوفاةٌ في « ديوانِهِ » .

وقالَ محمَّدُ بنُ يزيدَ الأُمويُّ لعيسىٰ بنِ فرخانَ شاه يعاتبُهُ : [منَ الهَزَجِ]

لَقَدْ كُنْتُ أُرَجِّيكَ ... لِمَا أَخْشَىٰ مِنَ الدَّهْرِ
فَقَدْ أَصْبَحْتَ مِنْ أَوْكَدِ أَسْبَابِي إِلَى الْفَقْرِ
وَقَدْ أَفْنَيْتُ مَا أَفْنَيْتُ فِي شُكْرِكَ مِنْ عُمْرِي
مَوَاعِيدٌ كَمَا أَخْبَتْ ... سَرَابَ الْمَهْمَهِ الْقَفْرِ
فَمِنْ يَوْمٍ إِلَىٰ يَوْمٍ ... وَمِنْ شَهْرٍ إِلَىٰ شَهْرِ
لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَصْنَعَ لِي مِنْ حَيْثُ لاَ أَدْرِي

[دعبل وبعض الأمراء]

ووقفَ دِعبلُ الخزاعيُّ ببعضِ أُمراءِ (الرَّقَّةِ) ، فقالَ : إنِّي لا أَقولُ كما قالَ صاحبُ معنٍ [في « تاريخ بغداد » ١٣/٢٣٩] :

[منَ الوافر]

بِأَيِّ الْخُلَّتَيْنِ عَلَيْكَ أُثْنِي ... فَإِنِّي عِنْدَ مُنْصَرَفِي مَسُولُ
أَبِالْحُسْنَىٰ وَلَيْسَ لَهَا ضِيَاءٌ ... عَلَيَّ فَمَنْ يُصَدِّقُ مَا أَقُولُ
أَمِ الأُخْرَىٰ وَلَسْتَ لَهَا بِأَهْلٍ ... وَأَنْتَ لِكُلِّ مَكْرُمَةٍ فَعُولُ

ولكنِّي أَقولُ [كما في « ديوانِ دِعبل » ٢٢٠ـ٢٢١] : [منَ الكامل]

إِنْ قُلْتُ : أَعْطَانِي كَذَبْتُ وَإِنْ أَقُلْ : ... ضَنَّ الأَمِيرُ بِمَالِهِ . . لَمْ يَجْمُلِ
وَلأَنْتَ أَعْلَمُ بِالْمَكَارِمِ وَالْعُلاَ ... مِنْ أَنْ أَقُولَ : فَعَلْتَ مَا لَمْ تَفْعَلِ
فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا أَقُولُ فَإِنَّنِي ... لاَ بُدَّ مُخْبِرُهُمْ وَإِنْ لَمْ أُسْأَلِ

قالَ لَهُ : قاتلَكَ اللهُ ، وأَمرَ لَهُ بعشرةِ آلافِ درهمٍ .

[الضيف يخبر أهله]

وقد سبقَ إلى المعنىٰ حاتمٌ في قولِهِ : [منَ الكامل]

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الضَّيْفَ مُخْبِرُ أَهْلِهِ ... بِمَبِيتِ لَيْلَتِهِ وَإِنْ لَمْ يُسْأَلِ

ونحنُ ذاكروهُ بما يتعلَّقُ بهِ في غيرِ هـٰذا الموضعِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

[من روائع البحتري في الاستهزاء والهجاء]

وممَّا يستحقُّ أَنْ يُذكَرَ بالإعجابِ ـ وإنْ خلا عَنِ التصريحِ بالاقتضاءِ ، فلنْ يكونَ إلاَّ مِنْ أَجلِهِ ، وهو موضعُ المناسبةِ ـ

قولُ البحتريِّ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٩٧٩ ـ ١٩٨١] : [منَ الطويل]

وَأَصْيَدَ إِنْ نَازَعْتُهُ اللَّحْظَ رَدَّهُ … كَلِيلاً وَإِنْ رَاجَعْتُهُ الْقَوْلَ جَمْجَمَا[1]

ثَنَاهُ الْعِدَا عَنِّي فَأَصْبَحَ مُعْرِضاً … وَأَوْهَمَهُ الْوَاشُونَ حَتَّىٰ تَوَهَّمَا

وَقَدْ كَانَ سَهْلاً وَاضِحاً فَتَوَعَّرَتْ … رُبَاهُ وَطَلْقاً وَاضِحاً فَتَجَهَّمَا

أَلَسْتُ الْمُوَالِي فِيكَ غُرَّ قَصَائِدٍ … هِيَ الأَنْجُمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمَا ؟

وَلَوْ أَنَّنِيْ وَقَّرْتُ شِعْرِي وَقَارَهُ … وَأَكْرَمْتُ مَدْحِي فِيكَ أَنْ يُتَهَضَّمَا[2]

لأَكْبَرْتُ أَنْ أُومِي إِلَيْكَ بِإِصْبَعٍ … تَضَرَّعُ أَوْ أُدْنِي لِمَعْذِرَةٍ فَمَا

وَكَانَ الَّذِي يَأْتِي بِهِ الدَّهْرُ هَيِّناً … عَلَيَّ وَلَوْ كَانَ الْحِمَامَ الْمُقَدَّمَا

وَلَٰكِنَّنِي أُعْلِي مَحَلِّيَ أَنْ أُرَىٰ … مُدِلاً وَأَسْتَحْيِيكَ أَنْ أَتَعَظَّمَا

وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَؤُوبَ مُمَلَّكاً … فَأَصْبَحْتُ أَرْجُو أَنْ أَؤُوبَ مُسَلَّمَا

[من روائع ابن الرومي في الموضوع]

فهٰذا واللهِ الشِّعرُ يتفجَّرُ الحَجَرُ لمسِّهِ ، وتهتزُّ القلوبُ لجرسِهِ ، ولا يقصرُ عنهُ قولُ ابنِ الرُّوميِّ يُعاتبُ أَبا الصَّقرِ [كما في « ديوانه » ٢/ ٥١٨ـ٥٢٠] : [منَ الطويل]

عَقِيلَ النَّدَىٰ أَطْلِقْ مَدَائِحَ جَمَّةً … خَوَاسِيَ حَرَّىٰ قَدْ أَبَتْ أَنْ تُسَرَّحَا[3]

وَكُنْتَ مَتَىٰ تُنْشَدْ مَدِيحاً ظَلَمْتَهُ … يَكُنْ لَكَ أَهْجَىٰ كُلَّمَا كَانَ أَمْدَحَا

عَذَرْتُكَ لَوْ كَانَتْ سَمَاءٌ تَقَشَّعَتْ … سَحَائِبُهَا أَوْ كَانَ رَوْضٌ تَصَوَّحَا[4]

وَلكِنَّهَا سُقْيَا حُرِمْتُ رَوِيَّهَا … وَعَارِضُهَا مُلْقٍ كَلاَكِلَ جُنَّحَا[5]

فَيَا لَكَ بَحْراً لَمْ أَجِدْ فِيهِ مَشْرباً … عَلَىٰ أَنَّ غَيْرِي وَاجِدٌ فِيهِ مَسْبَحَا

غيرَ أَنَّ الأَوَّلَ أَفخمُ وأَملأُ للفمِ ، فما أَبدعَهُ مِنْ قولٍ يَعزُّ على الفصحاءِ في ميدانِهِ الجولُ .

[الشعراء في هٰذا الميدان]

وقالَ البحتريُّ أَيضاً فيما يشبهُ ما نحنُ فيهِ [كما في « ديوانهِ » ٤/ ٢٤٢٢] : [منَ البسيط]

يُطِيلُ تَسْوِيفَ وَعْدِي ثُمَّ يُخْلِفُهُ … عَمْداً وَيَمْطُلُ دَيْنِي ثُمَّ يَلْوِيهِ[6]

---

(١) الأَصْيَدُ : الرجلُ يرفع رأسَهُ كبراً ، وقيلَ للملكِ : أَصْيَدُ ؛ لأَنَّهُ لا يلتفتُ منَ الزهوِّ يميناً ولا شمالاً . جمجمَ : لم يبيِّنْ كلامَهُ .

(٢) يُتهضَّمُ : يُظلمُ ويُغتصبُ حقُّهُ .

(٣) الإبلُ المخيَّسةُ : هيَ الإبلُ المحبوسَةُ للنحرِ أو القسْمِ ولم تُطلَقْ ، وفي البيتِ استعارة ظاهرةٌ ، وهيَ تشبيهه المديحَ الذي هوَ أغلى الكلام كالإبل التي هي أغلىٰ شيءٍ عندَ العربِ . حَرَّىٰ ـ فَعْلَىٰ من الحرِّ ـ : وهيَ تأنيثُ حرَّانَ ، وهما للمبالغةِ ، يريدُ أنَّها لشدَّةِ حرِّها قد عطشَت ويَبِسَتْ منَ العطَشِ ، ومنهُ طرف الحديثِ : « في كُلِّ ذاتِ كبدٍ حرَّىٰ أجرٌ » رواه عن مخوَّل البهزي ابن حبان في « صحيحه » (٥٨٨٢) .

(٤) انقشعَ الغيمُ والسحابُ : إذا كشفتْهُ الريحُ . تصوَّحَ الروضُ : إذا تمَّ يبسُهُ .

(٥) الكَلاكِلُ : الجماعاتُ .

(٦) مَطَلَ : سوَّفَ الوعدَ مرَّةً بعدَ أُخرىٰ . لَوَىٰ : بمعنىٰ مَطَلَ .

وقالَ : [منَ الطويل]

لَئِـنْ غَـرَّنِـي مَطْـلُ الْبَخِيـلِ لَقَبْلَـهُ غُـرِرْتُ بِـإِسْعَـافِ الْخَيَـالِ الَّـذِيْ يَسْـرِي

وقالَ الناظمُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/٤١ـ٤٢] : [منَ البسيط]

أَمْسَيْـتُ أَرْوَحَ مُثْـرٍ خَـازِنـاً وَيَـداً أَنَـا الْغَنِـيُّ وَأَمْـوَالِـي الْمَـوَاعِيـدُ[1]

إِنِّـي نَـزَلْـتُ بِكَـذَّابِيـنَ ضَيْفُهُـمُ عَـنِ الْقِـرَىٰ وَعَـنِ التَّـرْحَـالِ مَحْـدُودُ

جُـودُ الـرِّجَـالِ مِـنَ الأَيْـدِي وَجُـودُهُـمُ مِـنَ اللِّسَـانِ فَـلاَ كَـانُـوا وَلاَ الْجُـودُ

وأَبطأَ رجلٌ بوعدِهِ لأَبي العتاهيَةِ فقالَ : [منَ المنسرح]

لاَ جَعَـلَ اللهُ لِـي إِلَيْـكَ وَلاَ عِنْـدَكَ مَـا عِشْـتُ حَـاجَـةً أَبَـدَا

مَـا جِئْـتُ فِـي حَـاجَـةٍ أُقَـرِّبُهَـا إِلاَّ تَثَـاقَلْـتَ ثُـمَّ قُلْـتَ غَـدَا

وقالَ بشّارُ فيما يشبهُ الكلامَ [في « ديوانه » ٤/٢١١ـ٢١٢] : [منَ الطويل]

وَلاَ تَبْخَـلاَ بُخْـلَ ابْـنِ قَـزْعَـةَ إِنَّـهُ مَخَـافَـةَ أَنْ يُـرْجَـىٰ نَـدَاهُ حَـزِيـنُ

إِذَا جِئْتَـهُ فِـي حَـاجَـةٍ سَـدَّ بَـابَـهُ فَلَـنْ تَلْقَـهُ إِلاَّ وَأَنْـتَ كَمِيـنُ

وقالَ كُثيِّرٌ [في « ديوانه » ٥٠٧] : [منَ الوافر]

لَـوَ اَنَّ الْبَـاخِلِيـنَ وَأَنْـتِ مِنْهُـمْ رَأَوْكِ تَعَلَّمُـوا مِنْـكِ الْمِطَـالاَ

وقالَ [في « ديوانه » ١٤٣] : [منَ الطويل]

قَضَـىٰ كُـلُّ ذِي دَيْـنٍ فَـوَفَّـىٰ غَـرِيمَـهُ وَعَـزَّةُ مَمْطُـولٌ مُعَنّـىً غَـرِيمُهَـا[2]

[العبد الموفَّق هو الذي يعمل ما يرضي سيده]

فيُحكىٰ [كما في « الأغاني » ٩/٣٦] : أَنَّهُ كانَ لكُثيِّرٍ عبدٌ يبيعُ لهُ الطِّيبَ مِنَ النِّساءِ ، وَيَنْسَؤُهُنَّ بالثمنِ ، فجاءَ يتقاضاهُنَّ ، فَأَدَّيْنَهُ إِلاَّ واحدةً ، لَمْ يعرفْها لمكانِ البُرقُعِ ، فتمثَّلَ ببيتِ مولاهُ هٰذا ، فقُلنَ لَهُ : أَتدري مَنْ هٰذهِ ؟! قالَ : لا ، قُلنَ لهُ : إِنَّها عَزَّةُ ، قالَ : أُشهِدُكُمْ أَنَّها في حِلٍّ مِمَّا عندَها ، وأَخبرَ مولاهُ فسُرَّ بصنيعِهِ ، وأَعتقَهُ .

[فتوىٰ في الحب]

ويُحكىٰ [كما في « الأغاني » ٩/٣٦] : أَنَّ عزَّةَ دخلَتْ علىٰ أُمِّ البنينِ ، فقالت لها : ما الدَّيْنُ الذي يتقاضاكِ كُثيِّرٌ ؟ قالتْ : قُبْلَةٌ وعدتُهُ إِيَّاها ، قالت : أَنجزيهِ ما وعدْتِ ، وإِثمُ ذلكَ عليَّ .

فكانتْ أُمُّ البنينِ تبكي كلَّما ذكرَتْ فتواها هٰذهِ لِعَزَّةَ ، وأَعتقتْ فيها رِقاباً ، وتصدَّقَتْ .

---

(١) أَرْوَحَ : منَ الراحةِ .

(٢) المعنَّىٰ : مِنَ العناءِ ، وهو المشقَّةُ والتعبُ .



[شر الآفات البخل]

وقالَ بعضُهُمْ : [مِنَ الطويل]

فَـإِنْ تُجْمَـعِ الآفَـاتُ فَـالْبُخْـلُ شَـرُّهَـا وَشَـرٌّ مِـنَ الْبُخْـلِ الْمَـوَاعِيـدُ وَالْمَطْـلُ

[لا شيء أفضل من الصراحة]

وَسَأَلَ بعضُهُمْ عَدِيَّ بنَ حاتمٍ حاجةً ، فصرَّحَ بالمنعِ ، فقالَ لهُ : كأَنَّكَ لَمْ تكُنْ مِنْ حاتمٍ ؟! فقالَ عديٌّ : إِنْ لَمْ أَكُنْ في الشطرِ الثاني . فإِنِّي منهُ في الأَوَّلِ ، يعني قولهُ [في « شرح ديوان حاتم » ٥١] : [مِنَ الطويل]

أَمَـاوِيَّ إِمَّـا مَـانِـعٌ فَمُبَيِّـنٌ وَإِمَّـا عَطَـاءٌ لاَ يُنَهْنِهُـهُ الـزَّجْـرُ[١]

[وصف لبخيل]

وقالَ أعرابيٌّ : فلانٌ لهُ وعدٌ عاقِبَتُهُ المَطلُ ، وثمرتُهُ الخُلْفُ ، ومحصولُهُ اليأسُ .

[أول من أخلف المواعيد]

وقالَ الثعالبيُّ : أَوَّلُ مَنْ أَخلفَ المواعيدَ ، ولَمْ يَفِ بشيءٍ منها : إِسماعيلُ بنُ صُبَيحٍ ، كاتبُ الرشيدِ ، وما كانتِ الرؤساءُ قبلَهُ تعرفُ المواعيدَ الكاذبةَ .

[دواء ينفع مع اللئيم الحريص]

واشتهرَ أَحدُ اللِّئَامِ بشدَّةِ الحِرصِ ، حتَّىٰ أَيسَ منهُ المكدُّونَ ، فتذاكروا غِلْظَةَ كَبدِهِ ، وتحجُّرَ يدِهِ ، فقالَ أَحدهُمْ : أَنا لَهُ ، فقالوا : لَنْ تَقدِرَ منهُ علىٰ شيءٍ ، وخاطَروهُ[٢] ، فغدا علىٰ بابِهِ يقرعُهُ قرعاً شديداً ، حتَّىٰ أَضجَرَهُ ، وآلىٰ أَنْ لا ينصرِفَ إِلاَّ بنوالٍ أَو وعدٍ ، فوعدَهُ بدانِقٍ إِلىٰ سَنةٍ ، فبكَّرَ إِليهِ مِنَ الغدِ ، وأَقلقَ راحتَهُ ، وقال له : احْسُبْ فقد مضىٰ مِنَ السنةِ يومٌ ، ولَمْ يزلْ يباكرُهُ بمثلِ ذلكَ . حتَّىٰ ضَيَّقَ عليهِ أَنفاسَهُ ، فرأَى التخلُّصَ بدفعِ الدانِقِ أَهونَ عليهِ ، فنقدَهُ إِيَّاهُ ، فاستحقَّ الخطرَ علىٰ أَصحابِهِ ، ومَا أَظنُّهُ اهتدىٰ لهـٰذهِ الحيلةِ إِلاَّ مِنْ حيثُ فتحَ لهُ بابَهَا شيخُ (المعرَّةِ) في قولِهِ[في « سقط الزند » ١٦٥] : [مِنَ الكامل]

إِنَّ الْبَخِيـلَ إِذَا يُمَـدُّ لَـهُ الْمَـدَىٰ فِـي الْجُـودِ هَـانَ عَلَيْـهِ وَعْـدُ السَّـائِـلِ

[الوعد في الحب]

أَمَّا اقتناعُ المحبِّينَ بالمواعيدِ : فإِنَّهُ حديثٌ آخرُ ، ومنهُ قولُ سلطانِهِمْ [في « ديوان ابن الفارض » ١٣٨] : [مِنَ الطويل]

عِـدِينِـي بِـوَصْـلٍ وَامْطُلِـي بِنَجَـازِهِ فَعِنْـدِي إِذَا صَـحَّ الْهَـوَىٰ حَسُـنَ الْمَطْـلُ

وقولُهُ [في « ديوانه » ١١] : [مِنَ الرَّمَل]

أَوْعِـدُونِـي أَوْ عِـدُونِـي وَامْطُلُـوا حُكْـمُ دِيـنِ الْحُـبِّ دَيْـنُ الْحِـبِّ لِـيْ[٣]

---

(١) يُنهنِهُهُ : يكفُّهُ .

(٢) التخاطر : التراهن ، وسمي الرهان : مخاطرةً ؛ لما فيه من احتمال فَقْدِ ما يكون فيه أو سلامته .

(٣) أَوْعِدُوني : هدِّدوني ، منَ الوعيدِ . عِدُوني : منَ الوعدِ ، يريدُ : أَنَّ حُكمَ دِينِ الحبِّ يُحلِّلُ المماطلةَ في أداءِ دَينِ المحبِّ . قال الشاعر :

وإنـي وإن أوعـدتـه أو وعـدتـه لمخلـف إيعـادي ومنجـز مـوعـدي

[الكمُّون والمواعيد]

ويأتِي ما يتعلَّقُ بهِ فِي فرصةٍ أنسبَ لهُ مِنْ هـٰذهِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، وما أَدري أَصحيحٌ ما يقالُ : إِنَّ الكمُّونَ يعيشُ بالمواعيدِ أَمْ لا[1] ؟ ففي ذلكَ ينشدونَ : [منَ البسيط]

يَـا لَيْتَنِـي كُنْـتُ كَمُّـونـاً بِمَـزْرَعَـةٍ ... إِنْ فَـاتَـهُ السَّقْـيُ أَغْنَتْـهُ الْمَـوَاعِيـدُ

[التنكيد والمن في العطاء في أصدق الكلام]

وأَمَّا قولُهُ : (وَلاَ يُنَكِّدُهَا) . . فناظرٌ إِلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ إِلىٰ آخرِ الآياتِ [البقرة : ٢٦٢ـ٢٦٤] .

ووجهُ مناسبةِ قولِهِ : ﴿والله غني﴾ لِمَا قبلَهُ أَنَّ اللهَ يتلقَّى الصدقةَ بيدِهِ كَما فِي « الصَّحِيحَيْن »[2] ، وإِنَّما ينالُهُ مِنْ عبادِهِ التقوىٰ ، واللهُ أَعلمُ بمرادِهِ .

[التنكيد والمن في العطاء عند الشعراء]

وقالَ الحطيئةُ [في « ديوانه » ٤١] : [منَ الطويل]

وَإِنْ كَـانَـتِ النَّعْمَـاءُ فِيهِـمْ جَـزَوْا بِهَـا ... وَإِنْ أَنْعَمُـوا لاَ كَـدَّرُوهَـا وَلاَ كَـدُّوا

وقالَ الأَعشىٰ يمدحُ المنتشرَ : [منَ البسيط]

مَـنْ لَيْـسَ فِـي خَيْـرِهِ مَـنٌّ يُكَـدِّرُهُ ... عَلَـى الصَّـدِيـقِ وَلاَ فِـي صَفْـوِهِ كَـدَرُ

وقالَ القطاميُّ [في « ديوانِهِ » ٣٨] : [منَ الوافر]

فَلَـمْ أَرَ مُنْعِمِيـنَ أَقَـلَّ مَنّـاً ... وَأَكْـرَمَ عِنْـدَمَـا اصْطَنَعُـوا اصْطِنَـاعَـا

مِـنَ الْبِيضِ الْـوُجُـوهِ بَنِـي نُفَيْـلٍ ... أَبَـتْ أَخْـلاَقُهُـمْ إِلاَّ اتِّسَـاعَـا

وقولُهُ : (أَقَلَّ مَنّاً) شبيهٌ بما مَرَّ القولُ فيهِ مِنْ نَفْيِ الشيءِ بإِيجابهِ ، والمرادُ : عدمُ المَنِّ ، كما في قولِهِمْ عَنْ وصفِهِ صلى الله عليه وسلم : (كانَ يُقِلُّ اللَّغْوَ) ؛ إِذِ المرادُ منهُ : أَنَّهُ لا يقولُ لغواً أَبداً .

وقالَ جريرٌ يمدحُ بني أُمَيَّةَ : [منَ البسيط]

أَعْطَـوْا هُنَيْـدَةَ يَحْـدُوهَـا ثَمَـانِيَـةً ... مَـا فِـي عَطَـائِهِـمُ مَـنٌّ وَلاَ سَـرَفُ

وقالَ الأَخطلُ [في « ديوانِهِ » ١٧٢] : [منَ البسيط]

بَنِـي أُمَيَّـةَ نُعْمَـاكُـمْ مُجَلِّلَـةٌ ... تَمَّـتْ فَـلاَ مِنَّـةٌ فِيهَـا وَلاَ كَـدَرُ

---

(١) يقال : إِنَّ الكمُّونَ عندما لا يبقىٰ ماء لسُقياهُ يقولون له : سنسقيك غداً ، فيغنيه هـٰذا الكلام عن السُّقيا ، قال الشاعر :

فَـأَصْبَحْـتُ كَـالْكَمُّـونِ مَـاتَـتْ عُـرُوقُـهُ ... وَأَغْصَـانُـهُ مِمَّـا يُمَنُّـونَـهُ خُضْـرُ

(٢) وذلكَ في الحديثِ الذي رواهُ البخاريُّ في (الزكاة) (١٤١٠) ومسلمٌ في (الزكاةِ) (١٠١٤) عَن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قالَ : « مَن تصدَّقَ بعدلِ تمرة مِن كسبٍ طيِّبٍ ـ ولاَ يقبلُ اللهُ إِلاَّ الطيِّبَ ـ فإِن اللهَ يتقبلها بيمينهِ ثم يربيِّها لصاحبها كما يُرَبِّي أَحدُكُم فلوَّهُ أَو قلوصَهُ ، حتَّىٰ تكونَ مثلَ الجبلِ » واللفظ للبخاري .

وقالَ أَبو قابوسٍ يمدحُ يحيىٰ بنَ خالدٍ البرمكيَّ : [منَ البسيط]

يَنْسَـى الَّـذي كَـانَ مِـنْ مَعْـرُوفِـهِ أَبَـداً ... إِلَـى الـرِّجَـالِ وَلاَ يَنْسَـى الَّـذِي يَعِـدُ

[لا تنس حاجتي أيها الأمير]

وقالَ رجلٌ لمسلمِ بنِ قريشٍ : لا تنسَ حاجتِي أَيُّها الأَميرُ ، قالَ : لنْ أَنساها إِلاَّ إِذا قضيْتُها .

وقالَ أَبو عبادةَ [في « ديوانه » ٣/ ١٣٩٧] : [منَ الطويل]

كَـرُمْـتَ فَمَـا كَـدَّرْتَ نَيْلَـكَ عِنْـدَنَـا ... بِمَـنٍّ وَلاَ أَتْبَعْـتَ وَعْـدَكَ بِـالْخُلْـفِ

[تكرار هٰذا المعنىٰ عند المتنبي]

وأَكثرَ الناظمُ في المعنىٰ فمنهُ **قولُهُ** [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٦٥] : [منَ المنسرح]

تَظُـنُّ مِـنْ فَقْـدِكَ اعْتِـدَادَهُـمُ ... أَنَّهُـمُ أَنْعَمُـوا وَمَـا عَلِمُـوا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٧٣] : [منَ البسيط]

إِلَـى الَّـذِي تَهَـبُ الـدَّوْلاَتِ رَاحَتُـهُ ... وَلاَ يَمُـنُّ عَلَـىٰ آثَـارِ مَـوْهُـوبِ(١)

وقولُهُ ـ وقد تقدَّمَ ـ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٨٧] : [منَ البسيط]

أَنْـتَ الْجَـوَادُ بِـلاَ مَـنٍّ وَلاَ كَـدَرٍ ... وَلاَ مِطَـالٍ وَلاَ وَعْـدٍ وَلاَ مَـذَلِ(٢)

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢٥٨] : [منَ الكامل]

سَتَـرُوا النَّـدَىٰ سَتْـرَ الْغُـرَابِ سِفَـادَهُ ... فَبَـدَا وَهَـلْ يَخْفَـى الـرَّبَـابُ الْهَـاطِـلُ ؟(٣)

[أم جعفر البرمكي تصف أولادها]

وقالَ بعضُ الهاشميِّينَ : كانتْ أُمُّ جعفرٍ البرمكيِّ تزورُنا ـ وهيَ امرأَةٌ جَزْلَةٌ ـ فسأَلتُها يوماً عَنْ حالِ ولديها : (الفضلِ وجعفرٍ) ، قالتْ : لا أَزيدُكَ علىٰ واقعةٍ لهما وهما طفلانِ : عادَ يحيىٰ إِلى البيتِ بعدَ فراغهِ مِنْ شُغْلِ السلطانِ ، فقالَ لجعفر : بلغني أَنَّكَ تلعبُ الشطرنجَ ، قالَ : نعم ، قالَ : فهل لكَ أَنْ تلعبَ معَ أَخيكَ ؟ قالَ : نعم ، فاعتذرَ الفضلُ ، فقالَ يحيىٰ : أَتلعبُ معهُ عَلى المُقامرَةِ ، وأَنا في جانبِهِ ؟ قال : نعم ، فامتنعَ الفضلُ واستحيا ، فانصرفَ ، فنرىٰ أَنَّ جعفراً أَخطأَ مِنْ جهاتٍ ، وعزمَ اللهُ للفضلِ بالثباتِ .

ولمّا ظنَنَّا أَنَّها قضَتْ لهُ علىٰ جعفرٍ . قالَتْ : فخلوتُ بجعفرٍ ، وقلتُ لهُ : تعرفُ أَنَّ أَباكَ يكرَهُ اللعِبَ ، وقد صارحتَهُ بأَنَّكَ تلعبُ! قالَ : ذاكَ أَهونُ عليَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَهُ . قلتُ لهُ : وحَرَصتَ علىٰ أَنْ تُخَجِّلَ أَخاكَ بغَلَبَتِهِ! قالَ : أَعرفُ تفوُّقَهُ عليَّ ، ولو ضَعُفَ . . لانغلبْتُ لهُ . قلتُ : وأَكبرُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ رضاكَ بالمُقامرةِ! قالَ : ما حملني عليها إِلاَّ أَنَّ

---

(١) **الدّولاتُ** : تعريضٌ بسيفِ الدولةِ ، يريدُ : أَنَّهُ ملكٌ عظيمٌ تصلُ عطاياهُ إِلى الدولاتِ .

(٢) **المَذَلُ** : الفترةُ والضجرُ .

(٣) **سَفِدَ يَسفَدُ سفاداً** : هو نَزْوُ الذكرِ على الأنثىٰ ، يقالُ ذلك في التيسِ والبعيرِ والثورِ والطيرِ والسباعِ . **والربابُ** : غيمٌ يتعلَّقُ بأَسافلِ السحابِ إِذا كثُرَ ماؤُهُ . **والمعنىٰ** : أَنَّهم يكتمونَ معروفَهم كما يكتمُ الغرابُ سفادَهُ ، ثُمَّ ذلكَ لا يُكتَمُ كما لا يخفى السحابُ الهاطلُ .

الرشيدَ أعطاني دواةً مِنَ الجوهَرِ ، ورأيتُ أَخي يستحسنُها ، وكرهْتُ أَنْ يرىٰ لي مِنَّةً عليهِ إِنْ أَنا أَهديتُها لَهُ ، فأَحببْتُ أَنْ يَأخذَها بالغَلَبَةِ ؛ لتكونَ أَهنأَ لهُ . قلتُ لهُ : وقاصِمَةُ الظَّهْرِ ، رضاكَ بمغالبَةِ أَبيكَ!! قالَ : قد عرفْتِ جوابَها مِنِ انْغِلابي لا محالةَ ، وإِنَّما أَردْتُ تشجيعَ أَخي على اللعِبِ حتَّىٰ يستأثِرَ بالدَّواةِ ، فصبرْتُ للجُرأَةِ علىٰ أَبي مِنْ أَجلِ ذلِكَ . قالَ الهاشميُّ : فقلتُ لَها : أَكانَ ذلكَ وقد بلغا الحُلُمَ ؟ قالتْ : أَينَ يُذهَبُ بكَ ؟! أَما قلتُ لكَ : إِنَّهما طفلانِ ، إِنَّ الصبيَّ إِذا بَلَغَ عشراً لَمْ نُمَكِّنْهُ أَنْ يتبسَّمَ بمحضرِ الرجالِ .

[أصبحت بيوتنا كالأسواق]

وأَقولُ : إِنَّ آخرَها ليسَ بأَكبرَ ممّا رُوِيَ عَنْ بعضِ أَجدادِنا العلويِّينَ أَنَّهُ قالَ : جئتُ وأَنا في التاسعَةِ مِنْ عُمُري ، وأُمِّي تُسبِّحُ الضُّحىٰ ، فرأَيتُ ما ارتفعَ لهُ صوتي قليلاً بالضحكِ ، فما انفتلَتْ أُمِّي مِنْ صلاتِهَا . . إِلاَّ وقد بَلَّتْ خِمارَها بالدموعِ تسترجعُ ، وتقولُ : لقد أَصبحَتْ بيوتُنا شبيهةً بالأَسواقِ ، وما كانَ يُسمَعُ فيها إِلاَّ ذِكْرُ اللهِ ، وتلاوةُ القرآنِ ، فقالتْ لِي أُختي مريمُ : هل لكَ في التوبةِ ؟ قلتُ : نَعم ، وتبتُ علىٰ يدها ، وأَخذْتُ ميثاقي علىٰ أَنْ لا أَعودَ إِلىٰ مثلِها ، وبقيَ الخدَمُ سنةً يُؤَنِّبوني ، ويقولونَ : توبةٌ مقبولةٌ .

[مديح البرامكة]

ولقد صدقَ أَشجعُ في قولِهِ عَنِ البرامِكةِ عامَّةً ، وعَنْ جعفرٍ خاصَّةً [في « ديوانه » ٢٢٠] : [مِنَ الكامل]

سَادَ الْبَرَامِكَ جَعْفَرٌ وَهُمُ الأُولَىٰ ... بَعْدَ الْخَلائِفِ سَادَةُ الإِنْسِ

[قصائد للمؤلف في مدح العلويين]

وصدقتُ أَنَا في قولِي عَنْ لَهاميمَ[1] السابقينَ مِنْ العلويِّينَ [في « ديوان المؤلف » ٢٢٦] : [مِنَ الطويل]

مَلائِكَةٌ فِي سَمْتِهِمْ وَلَدَى الْوَغَىٰ ... لُيُوثٌ لَهُمْ فِي الْمَشْرِفِيَّةِ أَخْيَاسُ

عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَارِي وَقَارٌ لأَنَّهُمْ ... بِأَرْوَاحِهِمْ فِي حَضْرَةِ الْقُدْسِ جُلاَّسُ[2]

وقولي [كمافي « ديوان المؤلف » ١٢١] : [مِنَ الطويل]

وَمَنْ دَرَجُوا عَنْ وَكْرِهِمْ مِنْ أَئِمَّةٍ ... بِبَأْسِ مُلُوكٍ فِي لِبَاسِ مَلائِكِ

نُجُومُ الْهُدَىٰ مِنْ بَأْسِهِمْ يَنْمَحِي الرَّدَىٰ ... وَتَعْنُو الْعِدَا مِنْ فَتْكِهِمْ فِي الْمَعَارِكِ[3]

وقولي [كما في « ديوان المؤلف » ٢٥١] : [مِنَ الطويل]

لَيَالِيَ كَانَ الْحَيُّ يَزْهُو بِجِيرَةٍ ... لَهُمْ حِلْيَةُ التَّقْوَىٰ إِلَىٰ رِقَّةِ الطَّبْعِ

---

(١) **لهاميم** ـ جمعُ لِهميم ـ : وَهوَ السابقُ الجوادُ .

(٢) في « الديوان » (٢٢٦) :

مَلائِكَةٌ فِي سَمْتِهِمْ وَلَدَى الْوَغَىٰ ... لُيُوثُ الشَّرَىٰ وَالْمَشْرَفِيَّاتُ أَخْيَاسُ

عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَارِي الْوَقَارُ وَكَيْفَ لاَ ... وَهُمْ بِالنُّهَىٰ فِي حَضْرَةِ الْقُدْسِ جُلاَّسُ

الشَّرىٰ : جبيلٌ بـ(تهامَةَ) كثيرُ السباعِ . **المشرفياتُ** : سيوفٌ معروفةٌ . **أخياسُ** : ملتفة ، وأصله الشجرُ الملتفُّ .

(٣) **تعْنُوا** : تخضعُ .



مَرَاجِيحُ سَبَّاقُونَ فِي الْمَجْدِ لَمْ يُرِدْ بِهِمْ [رَبُّهُمْ] لِلْعَالَمِينَ سِوَى النَّفْعِ[1]

في كثيرٍ مِنْ أَمثالِ ذلكَ .

[أبلغ ما روي في تعاظم السائل وسماحة المسؤول]

ومِنْ أَبلغِ ما سمِعنا في تعاظُمِ السائلِ ، وسماحةِ نَفْسِ المسؤولِ ، ما ذُكرَ عَنْ بعضِهِم ـ وأَظنُّهُ المهلَّبَ بنَ أَبي صُفرةَ بعدَ ذهابِ دولتِهِ ، وزوالِ نعمتِهِ ـ : أَنَّهُ تحمَّلَ أَلفَ بعيرٍ في الإِصلاحِ ، فقصدَ مَلِكَ (العراقِ) ، وهوَ الكوثرُ بنُ الصَّعرِ ـ فيما إِخالُ ـ وقالَ لهُ : الأَملُ أَوقفني ببابِكَ ، وحُسْنُ الظنِّ ساقني إِليكَ ، وكما لَمْ أَصُنْ وجهي عَنْ سؤالِكَ . . صُنْ وجهَكَ عَنْ رَدِّي ، وأَنهىٰ لَهُ القصَّةَ ، وأَنشدَ : [منَ الوافر]

وَكُنْتُ خَبَأْتُ آمَالِي لِيَوْمٍ فَهَـٰذَا الْيَوْمُ يَوْمُكَ وَالسَّلاَمُ
وَكُنْتُ أُطَالِبُ الدُّنْيَا بِحُرٍّ فَأَنْتَ الْحُرُّ وَانْقَطَعَ الْكَلاَمُ

فاهتزَّ ، وأَمرَ لهُ بها وبمثلِها معها ، فقالَ : أَمَّا هيَ . . فمقبولَةٌ ؛ لأَنَّها المَطلَبُ ، وأَمَّا الباقي . . فلا حاجَةَ لي فيهِ ، وليسَ الذي أَعطيتَني بأَفضلَ مِنَ الذي أَعطيتُكَ ـ يعني ماءَ وجهِهِ ـ فما كانَ مِنَ الأَميرِ إِلاَّ أَنْ نزلَ عَنْ تكرمتِهِ ، وأَقعدَ المهلَّبَ عليها ، وتوسَّلَ إِليهِ بضراعةٍ وإِلحاحٍ أَنْ لا يردَّ عطيَّتَهُ ، وأَنْ لا يقمَأَهُ[2] بعدَمِ قَبولِها ، ففعلَ وما كادَ .

[مديح المتنبي لطاهر بن الحسين وجلوس الممدوح بين يدي الشاعر]

ولا يبعدُ عنها ما كانَ مِنْ طاهرِ بنِ الحُسينِ ، فإِنَّ الناظمَ امتدحَهُ بطلبٍ مِنْ أَبي محمَّدِ بنِ طُغْجٍ ، ثُمَّ ركبَ إِليهِ هوَ وإِيَّاهُ ، فنزلَ طاهرٌ عَنْ سريرِهِ ، وأَجلسَ الناظمَ علىٰ مرتبتِهِ ، ثمَّ أَنشدَهُ القصيدةَ المُستهلَّةَ بقولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/١٤٧] : [منَ الطويل]

أَعِيدُوا صَبَاحِي فَهْوَ عِنْدَ الكَوَاعِبِ [وَرُدُّوا رُقَادِي فَهْوَ لَحْظُ الْحَبَايِبِ][3]

فخلعَ عليهِ خِلَعاً نفيسةً ، قالَ بعضُ مَنْ حضرَ : ما رأَيتُ ولا سمعتُ أَنَّ شاعراً جلسَ الممدوحُ بينَ يديهِ مستمعاً لمدحِهِ سوىٰ ما كانَ مِنْ طاهرٍ مَعَ أَبي الطيِّبِ .

[العفة في السؤال وحفظ ماء الوجه]

وما أَحسنَ قولَ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/٣٥٣] : [منَ البسيط]

مَا مَاءُ كَفِّكَ إِنْ جَادَتْ وَإِنْ بَخِلَتْ مِنْ مَاءِ وَجْهِيَ إِنْ أَفْنَيْتُهُ عِوَضُ[4]

وقولَهُ [في « ديوانهِ » ١/١٦٢] : [منَ البسيط]

أَعْطَىٰ وَنُطْفَةُ وَجْهِي فِي قَرَارَتِهَا تَصُونُهَا الْوَجَنَاتُ الْغَضَّةُ الْقُشُبُ[5]

---

(١) **مراجيحُ** : حلماءُ .

(٢) **يقمأه** : يُصغره .

(٣) **الكواعبُ** : جمعُ كاعبٍ ، وهي الجاريةُ التي قد علا نهدها .

(٤) **ماءُ الوجه** : رَونقُهُ ؛ أَي : إِنَّ كَرامتي أَعظمُ مِن أَخلاقكَ في حالتي الدفعِ والمنعِ .

(٥) **النطفةُ** : الماءُ القليلُ ، استعارَها لماءِ الوجهِ . **القرارةُ** : المطمئنُّ مِنَ الأَرضِ . **الغَضَّةُ** : الطريَّةُ . **القشُبُ** : البِيضُ .

لاَ يَكْـرُمُ الظَّفَـرُ الْمُعْطَـىٰ وَإِنْ حَصَلَـتْ ... بِـهِ الـرَّغَـائِـبُ حَتَّـىٰ يَكْـرُمَ الطَّلَـبُ

وقالَ أَبو عُبادةَ [في « ديوانه » ٤/ ٢٠٩٤] : [منَ الطويل]

وَمَـا خَطَـرِي دُونَ الْغِنَـىٰ إِنْ بَلَغْتُـهُ ... سُـؤَالاً وَلاَ عِـرْضِـي نَظِيرُ الـدَّرَاهِـمِ

وقالَ مهيارٌ [في « ديوانه » ٣/ ٣٤٦] : [منَ الطويل]

تَنَفَّسْـتُ عَـنْ عَتْـبٍ فُـؤَادِيَ مُفْصِـحٌ ... بِـهِ وَلِسَـانِـي لِلْحِفَـاظِ يُجَمْجِـمُ(١)

وَفِـي فِـيَّ مَـاءٌ مِـنْ بَقَـايَـا وِدَادِكُـمْ ... كَثِيـراً بِـهِ مِـنْ مَـاءِ وَجْهِـي أَرَقْتُـمُ

[جابر عثرات الكرام]

ويُحْكَىٰ : أَنَّ بعضَ الكرامِ أَملقَ في العهدِ الأُمويِّ ، وارتكبتْهُ الديونُ فقبَعَ في كِسْرِ بيتِهِ ، ولَمْ يشعُرْ في إِحدى الليالي إِلاَّ بطارقٍ يقرعُ بابَهُ ، وفي يَدِهِ خمسةُ آلافِ دينارٍ دفعَها إِليهِ ، فسأَلَهُ عَنِ اسمِهِ ، فلَمْ يزدهُ علىٰ أَنْ قالَ لَهُ : أَنا جابرُ عثراتِ الكرامِ ، فقضى الرجلُ دينَهُ ، وأَصلحَ شأْنَهُ ، وتجهَّزَ للوفادةِ على الخليفةِ ، فولاَّهُ تلكَ الناحيةِ ، وأَمرَهُ أَنْ يأخُذَ سَلَفَهُ بما عندهُ ، وأَنْ يناقشَهُ الحسابَ ، فسدَّدَ المعزولُ ما في جرائِدِهِ ، غيرَ أَنَّهُ عجزَ عَنْ خمسةِ آلافِ دينارٍ ، فأَودعهُ السجنَ مِنْ أَجلِها ، فأَرادتْهُ امرأَتهُ علىٰ أَنْ يستعرفَ للأَميرِ ، فلَمْ يرضَ ، فما كانَ منها إِلاَّ أَنْ ركبتْ إِليهِ بعدَ هدأَةٍ مِنَ الليلِ ، وقالتْ لهُ : تدري مَنْ في سجنِكَ ؟ قالَ : فلانٌ ، قالتْ : إِنَّهُ لَفلانٌ ، وإِنَّهُ لَجابرُ عثراتِ الكرامِ ، فاضطربَ ، واسترجعَ ، وكادَ أَنْ يُغشىٰ عليهِ ، وذهبَ مِنْ ساعتِهِ ، وأَطلقَ وثاقَهُ بيدِهِ ، ورفعَ قدرَهُ ، وأَكرمَ مثواهُ ، وطالعَ الخليفةَ بالحالِ ، فاستسنىٰ(٢) قيمتَهُما ، وبالغَ في الإِنعامِ عليهما ، وأَبقى العملَ شركةً بينهُما في تلكَ الناحيةِ ، فعاشا أَرغدَ عيشٍ وأَهناهُ ، فرحمةُ اللهِ علىٰ أَهلِ الجودِ والوَفَاءِ ، وأَنَّىٰ بهمْ الآنَ(٣) ؟!

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُونِ إِلَى الصَّفَا ... [أَنِيـسٌ وَلَـمْ يَسْمُـرْ بِمَكَّـةَ سَـامِـرُ](٤)

غَاضَ الْوَفَاءُ وَفَاضَ الْغَدْرُ وَانْفَرَجَتْ ... مَسَـافَـةُ الْخُلْـفِ بَيْـنَ الْقَـوْلِ وَالْعَمَـلِ(٥)

[الخلف أقبح من البخل]

وقالوا : إِنَّ الخُلْفَ أَقبحُ مِنَ البخلِ ؛ لاشتمالِهِ علىٰ ثلاثٍ مِنَ المذامِّ : الكذبُ ، واللؤمُ ، وتخييبُ الأَملِ .

وقالَ زيادٌ الأَعجمُ [في « شعره » ١٦١] : [من مجزوء الكامل]

للهِ دَرُّكَ مِـــــنْ فَتـــــىً ... لَـوْ كُنْـتَ تَفْعَـلُ مَـا تَقُـولْ

---

(١) **الحفاظُ** : المنعةُ والإباءُ . **يجمجمُ** : لا يبيِّنُ الكلامَ مِن غيرِ عِيٍّ .

(٢) **استسنىٰ** ـ مأخوذٌ مِنَ السناءِ ـ : وهو الرفعةُ . وأَسناهُ : رفعَ قيمته .

(٣) قال بهٰذا المعنىٰ أحدهم :

مـات الـرجـال ومضـوا وانقضـوا ... ومـاتـتْ معَهـم تلـك الكـرامـاتُ

وخلَّفـونـي فـي قـومٍ ذوي بُخْـلٍ ... لـو أبْصَروا طَيْـفَ ضيـفٍ فـي الكَرَىٰ مـاتـوا

وقال آخر :

رأى الصيـفَ مكتـوبـاً علـىٰ بـاب دارِهِ ... فصحَّفَـهُ ضيفـاً فمـاتَ مـن الـذعـرِ

(٤) البيت من الطويل .

(٥) هٰذا البيت من « لامية العجم » وهو من البسيط .



لاَ خَيْـــرَ فِـــي كَـــذِبِ الْجَـــوَا   دِ وَحَبَّـــذَا كَـــذِبُ الْبَخِيـــلْ

[كيف كانت البطيخة ؟ ؟]

ومِنْ أَقبحِ ما ذَكروا في المَنِّ : أَنَّ رجلاً أَهدىٰ بِطِّيخَةً إِلى الأَعمشِ ، فلاقاهُ في اليومِ الثاني ، وقالَ لهُ : كيفَ كانتِ البِطِّيخَةُ يا أَبا محمَّدٍ ؟! فقالَ : طيِّبةٌ ، فأَعادَ عليهِ القولَ ثانياً ، فقالَ لهُ : إِنْ كففْتَ وإِلاَّ قِئْتُها .

[أبو الهذيل والدجاجة المهداة]

وأَنَّ أَبا الهذيلِ أَهدىٰ إِلىٰ أُستاذٍ لهُ دجاجةً ، فجعلها تاريخاً لكلِّ كبيرٍ وصغيرٍ مِنْ شأنِهِ ، فيقولُ : جاءَ الأَميرُ يومَ أَهديْتُ الدجاجةَ ، وماتَ القاضي بعدَ إِهداءِ الدجاجةِ بعشرةِ أَيَّامٍ ، وهـٰكذا .

وما أَحسنَ قولَ البُحتريِّ [في « ديوانه » ١/ ٥١٠] : [منَ الخفيف]

وَمِـــنَ النَّـــاسِ مَـــنْ يُنَـــاكِـــدُ حَتَّـــىٰ   إِنَّ فَنّـــاً مِـــنَ النَّسِيئَـــةِ نَقْـــدُهْ[١]

وقولَ الناظمِ [في « العُكْبَريِّ » ٤/ ٢٣٦] : [منَ البسيط]

وَتَغْضَبُـــونَ عَلَـــىٰ مَـــنْ نَـــالَ رِفْـــدَكُـــمُ   حَتَّـــىٰ يُعَـــاقِبَـــهُ التَّنْغِيـــصُ وَالْمِنَـــنُ

وهوَ أَحدُ معاني **قولِهِ** [في « العُكْبَريِّ » ١/ ١٨٥] : [منَ الطويل]

وَأَظْلَـــمُ أَهْـــلِ الظُّلْـــمِ مَـــنْ بَـــاتَ حَـــاسِـــداً   لِمَـــنْ بَـــاتَ فِـــي مَعْـــرُوفِـــهِ يَتَقَلَّـــبُ

وقالَ شاعرُ (المعرَّةِ) [في « سقطِ الزندِ » ١٥٧] : [منَ البسيط]

وَدَعْ أُنَـــاســـاً إِذَا أَجْـــدَوْا عَلَـــىٰ رَجُـــلٍ   رَنَـــوْا إِلَيْـــهِ بِعَيْـــنِ الْمُغْضَـــبِ الْحَنِـــقِ[٢]

* * *

[قالَ أَبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَريِّ » ١/ ٣٠٨] : [منَ المنسرح]

أَصْبَـــحَ حُسَّـــادُهُ وَأَنْفُسُهُـــمْ   يُحْـــدِرُهَـــا خَـــوْفُـــهُ وَيُصْعِـــدُهَـــا

[صفات الخائف]

لا يُنكَرُ أَنَّ سَحْرَ[٣] الخائفِ كلَّما انتفخَ . . تصعَّدَ النَّفَسُ ، وكلَّمَا خلا . . انحدرَ ، ومِنْ لازمِ الانتفاخِ الضغطُ على القلبِ ، حتَّىٰ ربَّما بلغَ الحَنْجَرَةَ ، كما في الذِّكرِ الحكيمِ[٤] . وأَصلُ المعنىٰ مِنْ قولِهِ صلى الله عليه وسلم : « **نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ** »[٥] .

---

(١) **النسيئةُ** : التأخيرُ ، والدَّينُ المؤجل ، ومنه قول ابن عوف : ما بعت نسيئة ، ولا احتقرت ربحاً .

(٢) **أجدوا علىٰ رجلٍ** : أنعموا عليهِ ، مِنَ الجدا ، وهوَ العطاءُ . **رَنا** : أدامَ النظرَ . **الحَنِقُ** : الحاقدُ .

(٣) **السَّحْرُ** : الرِّئَةُ ، تقول عائشة رضي الله عنها : (قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سَحري ونحري) .

(٤) كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ [الأحزاب : ١٠] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ﴾ [غافر : ١٨] .

(٥) رواهُ عن جابرِ بن عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهما البخاريُّ (٣٣٥) ، وفي الباب : عَن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عند مسلمٍ (٥٢٣) .

[ماذا يعمل الخوف]

ولمَّا سُئِلَ أَميرُ المؤمنينَ [عليٌّ رضي الله عنه] عمَّا غرسَ لهُ الهيبةَ في القلوبِ . . قالَ : (إِنِّي أَعمدُ إلى الجَبانِ فأَصرعُهُ ، ثمَّ لا أَنثني إلى الشجاعِ إلاَّ وقد ذهبَ نصفُهُ) ، وهوَ في هـٰذا هاضمٌ لنفسهِ ، وإلاَّ . . فالأَمرُ مِنْ فوقِ ذلكَ .

[صور من شجاعة الإمام علي عليه السلام]

ولمَّا ارتدَّ عمرُو بنُ معدِي كربَ الزبيديُّ معَ مَنِ ارتدَّ مِنْ (مذحجٍ) . . وجَّهَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم خالدَ بنَ سعيدِ بنِ العاصِ ، وخالدَ بنَ الوليدِ ، وعليهم عليُّ ابنُ أَبي طالبٍ ، فيُروىٰ أَنَّهُ لمَّا بلغَ عَمْراً قُرْبُ مكانِهِمْ . . أَقبلَ في جماعةٍ مِنْ قومِهِ ، وقالَ : دعوني آتي هـٰؤلاءِ القومِ ؛ فإنِّي لَمْ أُسَمَّ لأَحدٍ قطُّ إلاَّ هابَنِي ، فلمَّا دنا منهُمْ . . قالَ : أَنا أَبو ثورٍ ، أَنا عمرُو بنُ معدِي كربَ ، فابتدرَهُ عليٌّ وخالدٌ [رضي الله عنهما] ، كلاهما يقولُ لصاحبِهِ : دعني وإِيَّاهُ ، ويفديهِ بأَبيهِ وأُمِّهِ ، فقالَ عمرٌو عندَ ذلكَ : العربُ تفزعُ منِّي ، وأَراني جَزْراً لهـٰؤلاءِ ، فانصرفَ عنهُمْ ، ثمَّ رجعَ إلى الإِسلامِ[1] .

ومِنْ هـٰذا أَخذَ مهيارٌ الديلميُّ قولَهُ [في « ديوانه » ٤/ ٣٢] : [مِنَ الكامل]

وَإِذا رَأَوْكَ تفَــرَّقَــتْ أَرْوَاحُهُـــمْ ... فَكَــأَنَّمَــا عَــرَفَتْــكَ قَبْــلَ الأَعْيُــنِ

فَــإِذَا أَرَدْتَ بِــأَنْ تفُــلَّ كَتِيبَــةً ... لاَقَيْتَهَــا فَتَسَــمَّ فِيهَــا وَاكْتَــنِ

وفي الجزءِ الثالثِ (ص ١٢٨) مِنْ « **شرح نهج البلاغة** » : أَنَّهم اجتمعوا بموضعٍ يقالُ لهُ : (كَسْرٌ) فاقتتلوا هناكَ ، وصمدَ[2] عمرٌو لعليٍّ ، فعاينَ منهُ ما لَمْ يحتسبْهُ ، ففرَّ مِنْ بينِ يدهِ هارباً بحشاشةِ نفسهِ ، وفرَّ معهُ رؤساءُ (مذحجٍ) وفرسانُهُمْ ، وغنِمَ المسلمونَ أَموالَهُمْ ، وسُبِيَتْ في ذلكَ اليومِ ريحانةُ أُختُ عمرٍو .

وقولُهُ : بموضعٍ يقالُ لهُ : (كَسْرٌ) لاَ يبعدُ أَنْ يكونَ المرادُ بهِ (كَسْرَ قُشَاقِشَ) الذي مِنْ قُراهُ الآنَ (هَينن) ؛ فإنَّ أَرضَ (مذحج) ليستْ بالبعيدةِ منهُ ، إِذْ مياهُها تصبُّ إلىٰ (حضرموتَ) .

ويقربُ ذلكَ أَنَّ فَرْوَةَ بنَ مُسَيْكٍ المراديَّ كانَ أَساءَ السيرةَ ، وطلبَ المددَ مِنْ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ولن يستجيشَهُ إلاَّ وهُمُ الغازونَ ، واللهُ أَعلمُ بحقيقةِ الحالِ .

[خوف المحارَب من الاسم عند الفرزدق]

ثمَّ ذكرْتُ أَنَّ الفرزدقَ سبقَ إلى المعنىٰ ؛ إذ يقولُ في رثاءِ مخلدِ بنِ يزيدِ بنِ المهلَّبِ [في « ديوانه » ١/ ١٩٣] : [مِنَ الطويل]

أَبُــوكَ الَّــذِي تُسْتَهْــزَمُ الْخَيْــلُ بِــاسْمِــهِ ... وَإِنْ كَــانَ فِيهَــا قِيــدُ شِبْــرٍ مُطَــرَّدِ[3]

وَقَــدْ عَلِمُــوا إِذْ شَــدَّ حَقْــوَيْــهِ أَنَّــهُ ... هُــوَ اللَّيْــثُ لَيْــثُ الْغَــابِ لاَ بِــالْمُعَــرْبِـدِ[4]

---

(١) في « شرحِ نهجِ البلاغة » (١٢/ ١٢٠) قريبٌ مِن هـٰذا اللفظ ، ولكنَّ الذي يناسبُ موضوعَنا هوَ ما جاءَ في « شرحِ نهجِ البلاغة » (١٠/ ٢٥٩) أَنَّ سيدَنا عمرَ بنَ الخطَّابِ كتبَ إلىٰ عمرِو بنِ معدي كربَ ـ وهوَ شجاعُ العربِ الذي تضربُ فيهِ الأَمثالُ ـ في أَمرٍ أَنكرهُ عليهِ :

أَمَا واللهِ ؛ لئن أَقمتَ علىٰ ما أَنتَ عليهِ . . لأَبعثنَّ إِليكَ رجلاً تستصغرُ معهُ نفسكَ ، يضعُ سيفَه علىٰ هامتِكَ ، فيخرجُه مِن بينِ فخذيكَ . فقالَ عمرٌو ـ لمَّا وقفَ على الكتابِ ـ : هدَّدني بعليٍّ واللهِ .

(٢) صَمَدَ لَهُ : ثَبَتَ لَهُ .

(٣) **مُطَرَّدٌ** : طويل تام . **والمعنىٰ** : أنها تخاف من ذكر اسمه ولو كان بينها وبينه المسافات الشاسعة .

(٤) **العِربيدُ** : هي الحيةُ التي تنفخُ ولا تؤذي ، ومنهُ اشتقَ اسمُ **المُعَربِدِ** : للرجلِ السكيرِ الشريرِ . **والمعنىٰ** : أنَّ ممدوحهُ ممَّنْ إذا قَالوا فَعلوا .



[في تكرار هـٰذا المعنىٰ عند المتنبي]

والمعنى الذي نحنُ فيهِ متكرِّرٌ عندَ الناظمِ ، فمنهُ **قولُهُ** [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٦٤] : [منَ الخفيف]

طَـاعِــنُ الطَّعْنَـةِ الَّتِـي تُـذْعِـرُ الْفَيْــــلَـقَ بِـالـذُّعْـرِ وَالـدَّمِ الْمُهْـرَاقِ[1]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢٤٣] : [منَ الكامل]

تَلَـفُ الَّـذِي اتَّخَـذَ الْجَـرَاءَةَ خُلَّـةً ... وَعَـظَ الَّـذِي اتَّخَـذَ الْفِـرَارَ خَلِيـلاَ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٣٩] : [منَ الخفيف]

مَـا مَضَـوْا لَـمْ يُقَـاتِلُـوكَ وَلَكِـــنَّ الْقِتَـالَ الَّـذِي كَفَـاكَ الْقِتَـالاَ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢٤٣] : [منَ الكامل]

سَمِـعَ ابْـنُ عَمَّتِـهِ بِـهِ وَبِحَـالِـهِ ... فَنَجَـا يُهَـرْوِلُ مِنْـكَ أَمْسِ مَهُـولاَ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٦٦] : [منَ الخفيف]

بَعَثُـوا الـرُّعْـبَ فِـي قُلُـوبِ الأَعَـادِي ... فَكَـأَنَّ الْقِتَـالَ قَبْـلَ الْقِتَـالِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٣٦٥] : [منَ البسيط]

قَدْ نَابَ عَنْكَ شَدِيدُ الْخَوْفِ وَاصْطَنَعَتْ ... لَـكَ الْمَهَـابَـةُ مَـا لاَ تَصْنَـعُ الْبُهَـمُ[2]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢٩٣] : [منَ الطويل]

فَـإِنْ تَـكُ مِـنْ بَعْـدِ الْقِتَـالِ أَتَيْتَنَـا ... فَقَـدْ هَـزَمَ الأَعْـدَاءَ ذِكْـرُكَ مِـنْ قَبْـلِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٥٩] : [منَ الكامل]

وَيُمِيــتُ قَبْـلَ قِتَـالِـهِ وَيَبَـشُّ قَبْـــلَ نَـوَالِـهِ وَيُنِيـلُ قَبْـلَ سُـؤَالِـهِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٤١] : [منَ الخفيف]

أَبْصَـرُوا الطَّعْـنَ فِـي الْقُلُـوبِ دِرَاكَـا ... قَبْـلَ أَنْ يُبْصِـرُوا الـرِّمَـاحَ خَيَـالاَ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٩٨] : [منَ الخفيف]

فَهُـمُ لاتِّقَـائِـهِ الـدَّهْـرَ فِـي يَـوْ ... مِ نِـزَالٍ وَلَيْـسَ يَـوْمَ نِـزَالِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١١٦] : [منَ الطويل]

فَخَـافُـوكَ حَتَّـىٰ مَـا لِقَتْـلٍ زِيَـادَةٌ ... وَجَـاؤُوكَ حَتَّـىٰ مَـا تُـرَادُ السَّـلاَسِـلُ[3]

---

(١) الفيلَقُ : هوَ الجيشُ .

(٢) البُهَمُ ـ جمعُ بُهمَةٍ ـ : همُ الأبطالُ الذينَ تناهَتْ شجاعتُهم .

(٣) المعنىٰ : أبدوا من مخافتكَ مَا يزيدُ على القتلِ ، وجاؤوكَ طائعينَ ، حتىٰ إنَّكَ لا تحتاجُ في أسرهِمْ إلى السلاسلِ .

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٥٦] : [منَ الطويل]

لَقَدْ حَالَ بَيْنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ سَيْفُهُ ... فَمَا الظَّنُّ بَعْدَ الْجِنِّ بِالْعُرْبِ وَالْعُجْمِ
وَأَرْهَبَ حَتَّىٰ لَوْ تَأَمَّلَ دِرْعَهُ ... جَرَتْ جَزَعاً مِنْ غَيْرِ نَارٍ وَلاَ فَحْمِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٦٢] : [منَ الوافر]

وَلَٰكِنْ هَبَّ خَوْفُكَ فِي حَشَاهُمْ ... هُبُوبَ الرِّيحِ فِي رِجْلِ الْجَرَادِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٧٠] : [منَ البسيط]

فَقَدْ تَرَكْتَ الأُلَىٰ لاَقَيْتَهُمْ جَزَراً ... وَقَدْ قَتَلْتَ الأُلَىٰ لَمْ تَلْقَهُمْ وَجَلاً[1]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٥٧] : [منَ الوافر]

إِذَا مَا لَمْ تُسِرْ جَيْشاً إِلَيْهِمْ ... أَسَرْتَ إِلَىٰ قُلُوبِهِمُ الْهُلُوعَا

والقصيدةُ التي مُسْتَهَلُّهَا (أَرَاعَ كَذَا كُلَّ الأَنَامِ هُمَامُ) تدورُ حولَ هٰذا المعنىٰ .

[جبن الأخطل وقصته مع الجحاف]

وذكرْتُ بهِ : أَنَّ الأَخطلَ استفزَّهُ القربُ مِنَ الخليفةِ ، فقالَ للجَحَّافِ وكانَ حاضراً [في « ديوانه » ٤٢٦] : [منَ الطويل]

أَلاَ سَائِلِ الْجَحَّافَ هَلْ هُوَ ثَائِرٌ ... بِقَتْلَىٰ أُصِيبَتْ مِنْ سُلَيْمٍ وَعَامِرِ ؟[2]

فقالَ الجحَّافُ : [منَ الطويل]

بَلَىٰ سَوْفَ نُبْكِيهِمْ بِكُلِّ مُهَنَّدٍ ... وَنُبْكِي عُمَيْراً بِالرِّمَاحِ الشَّوَاجِرِ

فانخزلَ الأَخطلُ ، وكأَنَّما كانَ في نشوةٍ فأَفاقَ ، وأَخذتْهُ الحُمَّىٰ مِنَ الفَرَقِ ، فقالَ له عبدُ الملكِ : ماذا عليكَ وأَنتَ في جِوارِي ؟ قالَ : هَبْكَ أَجرتني في اليقظَةِ ، فمن يُجِيرُنِي مِنهُ في المنامِ ؟ وكانَ عارفاً بشدَّةِ بأسهِ ، وأَصابهُ قلَقٌ أَقضَّ مضجعَهُ ، ونغَّصَ عيشَهُ ، حتَّىٰ أَوقعَ الجَحَّافُ وقعتَهُ المشهورةَ بِبني تغلبَ رهطِ الأَخطلِ ، فقالَ الأَخطلُ [في « ديوانهِ » ٢٧٢] : [منَ الطويل]

لَقَدْ أَوْقَعَ الْجَحَّافُ بِالْبِشْرِ وَقْعَةً ... إِلَىٰ اللهِ مِنْهَا الْمُشْتَكَىٰ وَالْمُعَوَّلُ[3]
لَئِنْ لَمْ تُغَيِّرْهَا قُرَيْشٌ بِمِثْلِهَا ... يَكُنْ عَنْ قُرَيْشٍ مُسْتَمَازٌ وَمَرْحَلُ[4]

قالَ عبدُ الملكِ : إِلىٰ أَينَ إِذنْ ؟ قالَ الأخطلُ : إِلى النَّارِ ، قالَ عبدُ الملكِ : أَولىٰ لكَ ، أَمَا وَاللهِ لَو قلتَ غيرهَا . . لم تطرِفْ عيناكَ[5] .

---

(١) الجَزَرُ : ما أُلقِيَ للسباعِ ، ويقالُ : (ما كانوا إلاَّ جزراً لسيوفِنا) أَي : الذينَ نقتُلُهم فنلقيهمْ للسباعِ .

(٢) الجَحَّافُ : من السُّلَمِيِّينَ أَعداءِ بني تغلبَ ، ولهُ يومُ البشرِ الذي أَوقعَ بالتغلبيِّينَ شرَّ وقعَةٍ .

(٣) المُعَوَّلُ : الاعتمادُ والمفزَعُ .

(٤) مُستَمازٌ : مِن (ماز) رَحَلَ وانتقلَ مِنْ مكانٍ إِلىٰ آخرَ .

(٥) تنظر القصة في « الأغاني » (١٢/ ٢٤٠) .

[إلىٰ أين أبا ليلى ؟]

وقولُ الأخطلِ إلى النَّارِ عكسُ قولِ النّابغةِ الجعديِّ إلى الجنَّةِ ، حينَ قالَ [في « ديوانه » ٧١] : [منَ الطويل]

بَلَغْنَـا السَّمَـاءَ مَجْدُنَـا وَجُـدُودُنَـا ... وَإِنَّـا لَنَبْغِـي فَـوْقَ ذَلِـكَ مَظْهَـرَا

فقالَ لهُ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « **إلىٰ أينَ يا أبا ليلىٰ ؟** » قالَ : إلى الجنَّةِ ، قالَ لهُ النبيُّ [صلى الله عليه وسلم] : « **فَنَعَمْ إذاً** »[1] ، وهٰذا مِنْ قصيدةٍ لَهُ منقَّحةِ اللفظِ ، جزلةِ المعاني إلاَّ أَنَّها تداخلَتْ معَ قصيدةٍ لزُفَرَ بنِ الحارثِ في بحرِهَا وقافيتِهَا ، وأَوَّلُها [في « ديوانِ النابغةِ الجعدي » ٨٧] : [منَ الطويل]

تَـذَكَّـرْتُ والـذِّكْـرَىٰ تُهَيِّـجُ لِلْفَتَـىٰ ... وَمِـنْ عَـادَةِ الْمَحْـزُونِ أَنْ يَتَـذَكَّـرَا

وَإِنِّـي لأَسْتَشْفِـي بِـرُؤْيَـةِ جَـارِهَـا ... إِذَا مَـا تَلَقِّيهَـا عَلَـيَّ تَعَـذَّرَا

مِنها :

حَسِبْنَـا زَمَـانـاً كُـلَّ بَيْضَـاءَ شَحْمَـةً ... لَيَـالِـيَ إِذْ نَغْـزُو جُـذَامـاً وَحِمْيَـرَا

إِلَـىٰ أَنْ لَقِينَـا الْحَـيَّ بَكْـرَ بْـنَ وَائِـلٍ ... ثَمَـانُـونَ أَلْفـاً دَارِعِيـنَ وَحُسَّـرَا

فَلَمَّـا قَـرَعْنَـا النَّبْـعَ بِـالنَّبْـعِ بَعْضَـهُ ... بِبَعْـضٍ أَبَـتْ عِيـدَانُـهُ أَنْ تَكَسَّـرَا

سَقَيْنَـاهُـمُ كَـأْسـاً سَقَـوْنَـا بِمِثْلِهَـا ... وَلكنَّنَـا كُنَّـا عَلَـى الْمَـوْتِ أَصْبَـرَا

بِنَفْسِـي بِـأَهْلِـي عُصْبَـةً سَلَمِيَّـةً ... يُعِـدُّونَ لِلْهَيْجَـا عَنَـاجِيـجَ ضُمَّـرَا[2]

وَنُنْكِـرُ يَـوْمَ الـرَّوْعِ أَلْـوَانَ خَيْلِنَـا ... مِـنَ الطَّعْـنِ حَتَّـىٰ نَحْسَبُ الْجَوْنَ أَشْقَرَا[3]

وَقَـالُـوا لَنَـا : أَحْيُـوا لَنَـا مَـنْ قَتَلْتُـمُ ... لَقَـدْ جِئْتُـمُ أَمْـراً مِـنَ الْقَـوْلِ مُنْكَـرَا

وَلَسْنَـا نَـرُدُّ الـرُّوحَ فِـي جِسْـمِ مَيِّـتٍ ... وَلَٰكِـنْ نَسُـلُّ الـرُّوحَ مِمَّـنْ تَنَشَّـرَا

مَلَكْنَـا فَلَـمْ نَكْشِـفْ قِنَـاعـاً لِحُـرَّةٍ ... وَلَـمْ نَسْتَلِـبْ إِلاَّ الْحَـدِيـدَ الْمُسَمَّـرَا

وَلَـو أَنَّنَـا شِئْنَـا سِـوَىٰ ذَاكَ أَصْبَحَـتْ ... كَـرَائِمُهُـمْ فِينَـا تُبَـاعُ وَتُشْتَـرَىٰ

منهَا :

وَلاَ خَيْـرَ فِـي حِلْـمٍ إِذَا لَـمْ تَكُـنْ لَـهُ ... بَـوَادِرُ تَحْمِـي صَفْـوَهُ أَنْ يُكَـدَّرَا

وَلاَ خَيْـرَ فِـي جَهْـلٍ إِذا لَـمْ يَكُـنْ لَـهُ ... حَلِيـمٌ إِذَا مَـا أَوْرَدَ الأَمْـرَ أَصْـدَرَا

أَتَيْنَـا رَسُـولَ اللهِ إِذْ جَـاءَ بِـالْهُـدَىٰ ... وَيَتْلُـو كِتَـابـاً كَـالْمَجَـرَّةِ نَيِّـرَا

فيُروىٰ [في « مجمع الزوائد » ٨/١٢٦] : أَنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قالَ لهُ : « **لاَ يَفْضُضِ اللهُ فَاكَ** » . فعاشَ مئةً وستينَ سنةً ، لم يُثْغَرْ لهُ سِنٌّ[4] .

---

(١) أورد الخبر بنحوه عن النابغة الهيثميُّ في « مجمع الزوائد » (٨/١٢٦) وقال : رواه البزار وفيه يعلى بن الأشدق وهو ضعيف .
ولفظه عنده :

علـونـا العبـاد عفـةً وتكـرمـا ... وإنـا لنـرجـو فـوق ذلـك مظهـراً

(٢) **سلميَّةٌ** : مِنْ بني سَلَيم . **العناجيجُ** : جمعُ عنجوجٍ ، وهو الرائعُ مِنَ الخيلِ . **الخيل الضمَّر** : التي ضَمُرَ بطنها ، وهي من أسرع أنواع الخيل .

(٣) **الجونُ هنا** : الأسودُ .

(٤) **لَمْ يُثْغَرْ** : لَمْ يُكسرْ ، أو لم يسقط .



[الجبن حتىٰ في النوم]

وما أَظنُّ أَشجعَ السلميَّ إلا ناظراً إلىٰ ما جرىٰ للأَخطلِ مِنَ الجحَّافِ ، حيثُ يقولُ للرشيدِ مِنْ كلمةٍ لهُ خالصةٍ [في « ديوانه » ٢٥٣] : [منَ الكامل]

وَعَلىٰ عَدُوِّكَ يَا ابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ رَصْدَانِ ضَوْءُ الصُّبْحِ وَالإِظْلاَمُ
فَإِذَا تنبَّهَ رُعْتَهُ وَإِذَا غَفَا سَلَّتْ عَلَيْهِ سُيُوفَكَ الأَحْلاَمُ

[المتنبي وهـٰذا المعنىٰ]

وَلَمْ ينسَ حظَّهُ الناظمُ مِنْ هـٰذا المعنىٰ إِلاَّ أَنَّهُ يغثُ تارةً كما في **قولِهِ** [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٦٤] : [منَ الوافر]

يَرَىٰ فِي النَّوْمِ رُمْحَكَ فِي كُلاَهُ وَيَخْشَىٰ أَنْ يَرَاهُ فِي السُّهَادِ

ويجيدُ أُخرىٰ كما في **قولِهِ** [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٤٤] : [منَ البسيط]

مَنْ لَوْ رَآنِيَ مَاءً مَاتَ مِنْ ظَمَأٍ وَلَوْ مَثَلْتُ لَهُ فِي النَّوْمِ لَمْ يَنَمِ

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٤٥] : [منَ الوافر]

إِذَا امْتَلأَتْ عُيُونُ الْخَيْلِ مِنِّي فَوَيْلٌ فِي التَّيَقُّظِ وَالْمَنَامِ

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٢٩] : [منَ البسيط]

يُقَاتِلُ الْخَطْوَ عَنْهُ حِينَ يَطْلُبُهُ وَيَطْرُدُ النَّوْمَ عَنْهُ حِينَ يَضْطَجِعُ

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٨٣] : [منَ البسيط]

وَكُلَّمَا حَلَمَتْ عَذْرَاءُ عِنْدَهُمْ فَإِنَّمَا حَلَمَتْ بِالسَّبْيِ وَالْجَمَلِ(١)

وقالَ السريُّ الرَّفَّاءُ [في « ديوانه » ٢٤٥] : [منَ البسيط]

تَرُوعُ أَحْشَاؤُهُ بِالْكُتْبِ وَهْوَ لَهَا خَوْفَ الرَّدَىٰ وَرَجَاءَ السِّلْمِ يَسْتَلِمُ
لاَ يَشْرَبُ الْمَاءَ إِلاَّ غَصَّ مِنْ حَذَرٍ وَلاَ يُهَوِّمُ إِلاَّ رَاعَهُ الْحُلُمُ

[المعري في الموضوع]

وأَلَمَّ بهِ شاعرُ المعرَّةِ إِلاَّ أَنَّهُ غَيَّرَ الموضوعَ ، فقالَ [في « سقط الزند » ١١١] : [منَ البسيط]

وَأَنْتَ مَنْ لَوْ رَأَى الإِنْسَانُ طَلْعَتَهُ فِي النَّوْمِ لَمْ يُمْسِ مِنْ خَطْبٍ عَلَىٰ خَطَرِ

[أبو الهيذام ورثاؤه لأخيه]

وقتلَ الرشيدُ أَخاً لأَبي الهيذامِ ، فجاءَ في رثيهِ بما يشبهُ قولَ الجحَّافِ إِذْ يقولُ : [منَ الطويل]

سَأَبْكِيكَ بِالْبِيضِ الرِّقَاقِ وَبِالْقَنَا فَإِنَّ بِهَا مَا يَطْلُبُ الْمَاجِدُ الْوَتْرَا
وَلَسْتُ كَمَنْ يَبْكِي أَخَاهُ بِعَبْرَةٍ يُعَصِّرُهَا فِي جَفْنِ مُقْلَتِهِ عَصْرَا

---

(١) ذكرَ الجملَ مع السبي ؛ لأنَ العربَ تحملُ السبايا على الجمالِ .

وَإِنَّـا أُنَـاسٌ مَـا تَفِيـضُ عُيُـونُنَـا ... عَلَـىٰ هَـالِـكٍ مِنَّـا وَإِنْ قَصَـمَ الظَّهْـرَا
وَلَـٰكِنَّنَـا نَشْفِـي الْفُـؤَادَ بِغَـارَةٍ ... تَلَهَّـبُ مِـنْ قُطْـرَيْ جَـوَانِبِهَـا جَمْـرَا

[عبد الله بن أبي ربيعة ورثاؤه لعثمان بن عفان رضي الله عنه]

وقبلَ ذلكَ يقولُ عبدُ اللهِ ابنُ أَبي ربيعةَ أَخو عيَّاشٍ عندما بلغَهُ مقتلُ عثمانَ [ابن عفان رضي الله عنه] : [منَ الطويل]

سَـأَبْكِـي أَبَـا عَمْـرٍو بِكُـلِّ مُهَنَّـدٍ ... وَبِيـضٍ [لها فِـي الـدَّارِعِيـنَ فُلُـولُ]

ثُمَّ لَمْ يزدْ علىٰ أَنْ خرجَ بمَنْ معهُ فلمَّا قربَ مِنْ (مكَّةَ) . . سقطَ عَنْ راحلتِهِ وماتَ .

[عبد الملك بن مروان ينهىٰ ولده عن البكاء]

وممّا قالَهُ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ ـ عندَ موتِهِ ـ للوليدِ ، وقد رآهُ يبكي عندَ رأسِهِ ، يشجّعهُ ، وينهاهُ عَنِ البكاءِ ، وحنينِ النساءِ لنفسِهِ أَو متمثِّلاً : [منَ الطويل]

بَنُـو الْحَـرْبِ لاَ نُعْنَـىٰ بِشَـيْءٍ نُـرِيـدُهُ ... وَلَسْنَـا عَلَـىٰ مَـا أَحْـدَثَ الـدَّهْـرُ نَجْـزَعُ
جِـلاَدٌ عَلَـىٰ رَيْـبِ الـزَّمَـانِ فَلَـنْ تَـرَىٰ ... عَلَـىٰ هَـالِـكٍ عَيْنـاً لَنَـا الـدَّهْـرَ تَـدْمَـعُ

[هيبة سيدنا ابن عباس من سيدنا عمر رضي الله عنهم]

وكانَ ابنُ الخطَّابِ عظيمَ الهيبةِ ، ولهـٰذا لم يقدرِ ابنُ عباسٍ علىٰ إِظهارِ قولِهِ في العَولِ حتَّىٰ ماتَ ، فقيلَ لَهُ : هلاَّ قلْتَ هـٰذا في حياةِ عمرَ ؟! قالَ : (هِبْتُهُ ، وكانَ امْرأً مَهيباً)[1] .

[من هيبة سيدنا عمر رضي الله عنه تضع المرأة حملها]

ويُروىٰ : أَنَّهُ استدعى امرأةً ليسأَلَهَا عَنْ أَمرٍ ، وكانَتْ حاملاً ، فلشدَّةِ هيبتِهِ أَلقتْ ما في بطنِهَا ميْتاً ، فاستفتىٰ أَكابرَ الصحابةِ ، فقالوا : لا شيءَ عليكَ ، قالَ لَهُ عليٌّ : إِنْ كانوا راقبوكَ فقد غشُّوكَ ، وإِنْ كانَ هـٰذا جُهْدَ رأْيِهِم فقد أَخطؤوا ، عليكَ غُرَّةٌ[2] ، فرجعَ عمرُ والصحابةُ إِلىٰ قولِهِ[3] .

[نهيه النساء عن رفع الصوت]

ومِنْ ذلكَ سكوتُ النساءِ لمّا دخلَ ، وأَصواتُهُنَّ عاليةٌ عندَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فقالَ لَهُنَّ : (يا عدوَّاتِ أَنفسهِنَّ ، أَتَهَبْنَنِي ، وَلاَ تَهَبْنَ رسولَ اللهِ ؟ قلْنَ : أَنتَ أَفظُّ وأَغلظُ)[4] .

[الاستهزاء بالجبان عندما يهدد]

وفي عكسِ معنى البيتِ الذي نتكلَّمُ فيهِ ، يقولُ جريرٌ [في « ديوانه » ٩١٦] : [منَ الكامل]

زَعَـمَ الْفَـرَزْدَقُ أَنْ سَيَقْتُـلُ مَـرْبَعـاً ... أَبْشِـرْ بِطُـولِ سَـلاَمَـةٍ يَـا مَـرْبَـعُ[5]

---

(١) أخرجه البيهقيُّ في « الكبرىٰ » (٦/٢٥٣) ، وابن حزم في « المحلىٰ » (٩/٢٦٣) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (١٠/٢٥٤ و٢٥٨) والعول : زيادة في سهام المسألة ونقص في مقاديرها .

(٢) الغُرَّةُ : ديةُ الجنينِ ؛ وهي عبدٌ أَو أَمةٌ ، وتقدَّرُ بنصفِ عشرِ الديةِ الكاملةِ ، والديةُ الكاملةُ : مئةٌ مِنَ الإِبلِ .

(٣) أخرجه البيهقي في « الكبرىٰ » (٦/١٢٣) .

(٤) أخرجه عن سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه البخاري (٣٢٩٤) في بدء الخلق .

(٥) مَربعٌ : لقبُ راويةِ جريرٍ المسمَّىٰ (وَعْوَعَةَ) ، وهو مِنْ بني أَبي بكرِ بنِ كلابٍ ، وكانَ نفَّرَ بأَبي الفرزدقِ وضربَهُ ، فيقالُ : إِنَّهُ ماتَ في تلكَ العِلَّةِ ، فحلفَ الفرزدقُ ليقتلنَّهُ .

وقالَ غيرهُ : [منَ الوافر]

تَـــوَعَّـــدَنِـــي لِتَقْتُلَنِـــي نُمَيْـــرٌ ... مَتَـــىٰ قَتَلَـــتْ نُمَيْـــرٌ مَـــنْ هَجَـــاهَـــا ؟

وقالَ : [منَ البسيط]

قَدْ هَبَّتِ الرِّيحُ طُولَ الدَّهْرِ واخْتَلَفَتْ ... عَلَـى الْجِبَـالِ فَمَـا نَـالَـتْ رَوَاسِيهَـا

وقالَ ابنُ أَبي عيينةَ : [منَ الكامل]

فَـدَعِ الْـوَعِيـدَ فَمَـا وَعِيـدُكَ ضَـائِـرِي ... أَطَنِيــنُ أَجْنِحَــةِ الــذُّبَــابِ يَضِيــرُ ؟

[شجاعة بني عبد المطلب]

وكتبَ معاويةُ إلىٰ عليٍّ يتهدَّدُهُ ، فأَجابَهُ بما معناهُ ـ إنْ أَخطأتُ لفظَهُ ـ [في « نهج البلاغة » ٣٣٣] : وذكرْتَ أَنَّهُ ليسَ لِي ولأَصحابي عندكَ إلاَّ السيفُ ، فلقد أَضحكْتَ بعدَ استعبارٍ[1] ، متىٰ أَلفيْتَ بني عبدِ المطلبِ عَنِ الهيجاءِ ناكلينَ ، وبالسيوفِ مخوَّفينَ ، لَبِّثْ قليلاً يلحقِ الهيجا حَمَلْ[2] ، وأَنا مُرْقِلٌ[3] نحوكَ في جحفلٍ مِنَ المهاجرينَ والأَنصارِ ، قد صَحِبَتْهُم ذريَّةٌ بدريَّةٌ ، وسيوفٌ هاشميَّةٌ ، عَرَفْتَ مواقعَ نصالِهَا في أَخيْكَ وخالِكَ وجدِّكَ ، وما هِيَ مِنَ الظالمينَ ببعيدٍ .

[قصة امرىء القيس مع قتلة أبيه]

ولمَّا أَكثرَ امرؤُ القيسِ الوعيدَ في قتلِ أَبيهِ . . قَدِمَ عليهِ قبيصةُ بنُ نعيمٍ في أَشياخِ بني أَسدٍ ، يراجعونَهُ في خطبِ أَبيهِ ، فقالَ قبيصةُ [في « جمهرة خطب العرب » ١/٣٦ و« الأغاني » ٩/١٢٤] :

أَمَّا بعدُ : فإنَّكَ مِنَ المحلِّ والقدرِ والمعرفةِ بتصاريفِ الدهرِ بحيثُ لا تَحتاجُ إلىٰ تذكيرِ مذكِّرٍ ، ولا تبصيرِ مجرِّبٍ ، ولكَ مِنْ سؤْدَدِ منصبكَ وشرفِ أَعراقِكَ وكرمِ أَصلِكَ . . مَحْتِدٌ[4] يَحمِلُ علىٰ إقالةِ العثرةِ ، واغتفارِ الزلَّةِ ، وإنَّ الهِمَمَ لا تتجاوزُ إلىٰ غايةٍ إلاَّ رجعَتْ إليكَ ، فوجدَتْ عندكَ مِنْ فضيلةِ الرأيِ ، وبصيرةِ الفهمِ ، وكرمِ الصفحِ ، ما يُطوِّلُ رغباتِهَا ، وقد كانَ ما كانَ مِنَ الخطبِ الجليلِ ، الذي عمَّتْ مصيبتُهُ العربَ ، ولَمْ تُخَصَّ بِهِ (كندةُ) دونَنا ؛ للشرفِ البارعِ كانَ لحجرٍ ، ولو يُفدىٰ هالكٌ بنفسٍ . . لَمَا بَخِلَتْ بِها كرائِمُنا علىٰ مثلِهِ ، ولكنْ مضىٰ بِهِ سبيلٌ لا يرجعُ آخرُهُ علىٰ أَوَّلِهِ ، وأَحمدُ الحالاتِ أَنْ تطلبَنَا في إحدىٰ ثلاثِ خِلالٍ :

إمَّا : أَنْ تختارَ مِنْ بني أَسدٍ أَشرفَها بيتاً ، وأَبعدَها صِيتاً ، فَقُدْناهُ إليكَ بِنِسْعَةٍ[5] ، يذهبُ معَ شَفَراتِ حسامِكَ ، ونقولُ : عظيمٌ امتُحِنَ بمَهْلِكِ عزيزٍ لَهُ ، فلَمْ تُستَلَّ سخيمةُ صدرِهِ إلاَّ بمكنتِهِ مِنَ الانتقامِ .

وإمَّا : فداءٌ بما يَروحُ علىٰ بني أَسَدٍ مِنْ نعَمِها ، فهي أُلوفٌ تكونُ فداءً ، رُجِعَتْ بِهِ القضبُ إلىٰ أَجفانِها .

---

(١) **الاستعبارُ** : البكاءُ .

(٢) **لَبِّثْ قليلاً يلحقِ الهيجا حمل** : مثلٌ عربي ؛ يعني : انتظر حتىٰ يتلاحق الشبان ، **والهيجاء** : الحرب ، **وحمل** : قال في « التاج » : هو ابن سعدانة الصحابي ، وفي « المحكم » : هو ابن بدر . قلت : وفيه نظر . اهـ كلام الزبيدي رحمه الله .

(٣) **مُرْقِلٌ** ، يقال : أَرقَلَ القومُ إلى الحربِ أَسرعوا .

(٤) **المحتدُ** : الأَصلُ والطبعُ .

(٥) **النِّسْعُ** : حبلٌ يُضفَرُ علىٰ هيئةِ أَعِنَّةِ النعالِ تُشَدُّ بِهِ الرحالُ .

وإمّا : أَنْ توادِعَنا إلىٰ أَنْ تَضعَ الحواملُ ، وتُسْدَلَ الأُزُرُ ، وتُعقَدَ الخُمُرُ فوقَ الراياتِ .

فما كانَ مِنِ امْرئِ القيسِ إلاَّ أَنْ أَطرقَ ساعةً ثُمَّ رفعَ رأسَهُ ، وقالَ : لقد علمَتِ العربُ أَنْ لا كفؤَ لحُجرٍ بدمٍ ، وأَنِّي لَنْ أَعتاضَ بهِ جملاً ، ولا ناقةً ، فأَكتسبَ بهِ سبَّ الأَبَدِ ، وفتَّ العَضُدِ . وَأَمَّا النظرةُ : فقد أَوجبَتْهَا الأَجنَّةُ في بطونِ الأُمَّهاتِ ، ولَنْ أَكونَ سبباً لِعَطَبِها ، وستعرفونَ طلائعَ (كندةَ) بعدَ ذلكَ ، تحملُ في القلوبِ حَنَقاً ، وفي الأَسنَّةِ عَلَقاً : [منَ المتقارب]

إِذَا جَـالَـتِ الْحَـرْبُ فِـي مَـأْزِقٍ   تُصَـافِـحُ فِيـهِ الْمَنَـايَـا النُّفُـوسَـا

أَتقيمونَ أَم تنصرفونَ ؟ قالوا : بل ننصرفُ بأَسوأِ الاختيارِ ، وأَبلى الاجترارِ بمكروهٍ وأَذيَّةٍ ، وحربٍ وبليَّةٍ ، وقالَ قبيصةُ يتمثَّلُ : [منَ الطويل]

لَعَلَّـكَ إِنْ تَسْتَـوْخِـمِ الْـوِرْدَ إِنْ عَـدَتْ   كَتَـائِبُنَـا فِـي مَـأْزِقِ الْحَـرْبِ تَمْطُـرُ

فقالَ امرؤُ القيسِ : لاَ واللهِ ، ولكنْ أَستعذبُهُ ، فرويداً ينفرجُ لَكَ دُجَاهَا عَنْ فرسانِ (كندةَ) وكتائبِ (حِمْيَر) ، ولقد كانَ غيرُ هٰذا أَولىٰ بي ؛ إِذْ كنْتُ نازلاً بربعي ، ولكنَّكَ قُلتَ فأَوجبتَ) .

[تعليق المؤلف على القصة]

وفي هٰذا الكلامِ مِنَ الجزالةِ والعذوبةِ ما يأْخذُ بمجامعِ القلوبِ إِلىٰ مَا يُشَفُّ عنهُ مِنَ السؤْددِ الضخمِ ، والكرمِ الخالصِ، والشمائلِ الراقيةِ، والهممِ العاليةِ، والنفوسِ القويَّةِ، واحترامِ الأَرواحِ البريئةِ، وغيرِ ذلكَ .

[تعليق المؤلف على العكبري في شرح المطلع]

ومِنَ الأعاجيبِ قولُ الشارحِ : إِنَّ البيتَ الذي نحنُ بسبيلِهِ شبيهٌ **بقولِهِ** [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣٣٥] : [منَ الكامل]

أَبْـدَى الْعِـدَاةُ بِـكَ السُّـرُورَ كَـأَنَّهُـمْ   فَـرِحُـوا وَعِنْـدَهُـمُ الْمُقِيـمُ الْمُقْعِـدُ

وما هو في شيءٍ مِنْ ذاكَ ؛ لأَنَّهُ لا يكونُ كذاكَ إِلاَّ لو أَرادَ المقيمَ المقعِدَ مِنَ الخوفِ ، وَإِنَّما أَرادَ المقيمَ المقعِدَ مِنَ الحزنِ ؛ كما تشهدُ بهِ فحوى الطباقِ ، فهو مِنْ جنسِ قولِ سويدِ بنِ أَبي كاهلٍ : [منَ الرَّمَل]

وَيُحَيِّينِـــــــي إِذَا لاَقَيْتُـــــــهُ   وَإِذَا يَخْلُــو لَــهُ لَحْمِــي رَتَــعْ

وقولِ سَدِيفٍ : [منَ الخفيف]

ذُلُّهَـــا أَظْهَـــرَ التَّـــوَدُّدَ مِنْهَـــا   وَبِهَـــا مِنْكُـــمُ كَحَـــزِّ الْمَـــوَاسِـــي

وقولِ المعرِّيِّ [في « سقط الزند » ٢٣٤] : [منَ الوافر]

وَيُظْهِـــرُ لِـــي مَـــوَدَّتَـــهُ مَقَـــالاً   وَيُبْغِضُنِـــي ضَمِيـــراً وَاعْتِقَـــادَا

وقولِ الناظمِ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣٦٣ـ٣٦٤] : [منَ الوافر]

فَـــلاَ تَغْـــرُرْكَ أَلْسِنَـــةٌ مَـــوَالٍ   تُقَلِّبُهُـــنَّ أَفْئِـــدَةٌ أَعَـــادِي
فَـــإِنَّ الْمَـــاءَ يَجْـرِي مِـــنْ جَمَـــادٍ   وَإِنَّ النَّـــارَ تَخْـــرُجُ مِـــنْ زِنَـــادِ

* * *

[قال أبو الطيِّب المتنبي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣١٠] : [منَ المنسرح]

قَـدْ أَجْمَعَـتْ هَـٰذِهِ الْخَلِيقَـةُ لِـي	أَنَّـكَ يَـا ابْـنَ النَّبِـيِّ أَوْحَـدُهَـا
وَأَنَّـكَ بِـالأَمْـسِ كُنْـتَ مُحْتَلِمـاً	شَيْـخَ مَعَـدٍّ وَأَنْـتَ أَمْـرَدُهَـا

[ادعاء التفرد للممدوح عند المتنبي]

أمّا البيتُ الأوَّلُ : فقلَّما تجدُ شاعراً إلاَّ يدَّعي لممدوحهِ التفرُّدَ ، ومنهُ **قولُهُ** لشجاعِ بنِ محمَّد الطائيِّ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٣٦] : [منَ الكامل]

كُـنْ حَيْـثُ شِئْـتَ تَسِـرْ إِلَيْـكَ رِكَـابُنَـا ... فَـالأَرْضُ وَاحِـدَةٌ وَأَنْـتَ الأَوْحَـدُ

وقولُهُ لَهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٨٤] : [منَ الطويل]

إِلَىٰ وَاحِـدِ الـدُّنْيَـا إِلَـى ابْـنِ مُحَمَّـدٍ ... شُجَـاعِ الَّـذِي للهِ ثُـمَّ لَـهُ الْفَضْـلُ

وقولُهُ لبدرِ بنِ عمَّارٍ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٧٢] : [منَ المتقارب]

فَـأَنْـتَ وَحِيـدُ بَنِـي آدَمٍ ... وَلَسْـتَ لِفَقْـدِ نَظِيـرٍ وَحِيـدَا

وقولُهُ لعُبيدِ اللهِ بنِ يحيىٰ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٧٩] : [منَ البسيط]

فَكُـنْ كَمَـا أَنْـتَ يَـا مَـنْ لاَ شَبِيـهَ لَـهُ ... فَكَيْـفَ شِئْـتَ فَمَـا خَلْـقٌ يُـدَانِيكَـا

وقولُهُ لابنِ العميدِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٥١] : [منَ الخفيف]

جَمَـعَ الـدَّهْـرُ حَـدَّهُ وَيَـدَيْـهِ ... وَثَنَـائِـي فَـاسْتَجْمَعَـتْ آحَـادُهْ

وقولُهُ لَهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ١٦٧] : [منَ الكامل]

أَنْـتَ الْـوَحِيـدُ إِذَا ارْتَكَبْـتَ طَـرِيقَـةً ... وَمَـنِ الـرَّدِيـفُ إِذَا رَكِبْـتَ غَضَنْفَـرَا ؟

وقولُهُ لكافورٍ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٢٤٦] : [منَ الطويل]

قَضَـى اللهُ يَـا كَـافُـورُ أَنَّـكَ أَوَّلٌ ... وَلَيْـسَ بِقَـاضٍ أَنْ يُـرَىٰ لَـكَ ثَـانِـي

وقولُهُ لَهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٧] : [منَ الطويل]

وَمَـا زَالَ أَهْـلُ الـدَّهْـرِ يَشْتَبِهُـونَ لِـي ... إِلَيْـكَ فَلَمَّـا لُحْـتَ لِـي لاَحَ فَـرْدُهُ

وقولُهُ لَهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٩٩] : [منَ الطويل]

جَـرَى الْخُلْـفُ إِلاَّ فِيـكَ أَنَّـكَ وَاحِـدٌ ... وَأَنَّـكَ لَيْـثٌ وَالْمُلُـوكَ ذِئَـابُ

وقولُهُ لابنِ كيغلغ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ١٢١-١٢٢] : [مِنَ البسيط]

مَـنْ قَـالَ لَسْـتَ بِخَيْـرِ النَّـاسِ كُلِّهِـمِ ... فَجَهْلُـهُ بِـكَ عِنْـدَ النَّـاسِ عَـاذِرُهُ[١]

أَوْ شَـكَّ أَنَّـكَ فَـرْدٌ فِـي زِمَـانِهِـمُ ... بِـلاَ نَظِيـرٍ فَفِـي رُوحِـي أُخَـاطِـرُهُ

وقولُهُ في عضدِ الدولةِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٢٥٦] : [مِنَ الوافر]

فَـإِنَّ النَّـاسَ وَالـدُّنْيَـا طَـرِيـقٌ ... إِلَـىٰ مَـنْ مَـا لَـهُ فِـي النَّـاسِ ثَـانِـي

وقولُهُ فِي يومِ الأَضحىٰ لسيفِ الدولةِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٨٦] : [مِنَ الطويل]

فَـذَا الْيَـوْمُ فِـي الأَيَّـامِ مِثْلُـكَ فِـي الْـوَرَىٰ ... كَمَـا كُنْـتَ فِيهِـمْ أَوْحَـداً كَـانَ أَوْحَـدَا

وقولُهُ لَهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ١١] : [مِنَ الكامل]

وَإِذَا امْتَحَنْـتَ تَكَشَّفَـتْ عَـزَمَـاتُـهُ ... عَـنْ أَوْحَـدِيِّ النَّقْـضِ وَالإِبْـرَامِ

وقولُهُ لَهُ في رثاءِ ولدِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٥٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَيَلْقَـىٰ كَمَـا تَلْقَـىٰ مِـنَ السِّلْـمِ وَالْـوَغَـىٰ ... وَيُمْسِـي كَمَـا تُمْسِـي وَحِيـداً بَـلا مِثْـلِ

وقولُهُ في بستانٍ لبعضِهِم [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ١١] : [مِنْ مَجزوءِ الكاملِ]

وَإِذَا رَجَعْـتَ إِلَـىٰ الحَقَـا ... ئِـقِ فَهْـيَ وَاحِـدَةٌ لأَوْحَـدْ

وقولُهُ في فرسِ بدرِ بنِ عمَّارٍ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢٤١] : [مِنَ الكاملِ]

فِـي سَـرْجِ ظَـامِئَـةِ الْفُصُـوصِ طِمِـرَّةٍ ... يَـأْبَـىٰ تَفَـرُّدُهَـا لَهَـا التَّمْثِيـلاَ[٢]

[شدة انتقاد المؤلف على المتنبي : إسرافه في المدح]

في كثيرٍ مِنْ أَمثالِهِ ، فكأَنَّما التفرُّدُ حِلْيَةٌ بيدِهِ ، يقلِّدُها جِيدَ كُلِّ مَنْ يُنيطُ بهِ أَمَلَهُ ، ويُعلِّقُ فيهِ رجاءَهُ ، وما ذاكَ إِلاَّ لأَنَّهُ يَكيلُ المدحَ جُزَافاً ، ويُسرفُ فيهِ إِسرافاً ، ولولا ذلكَ . . لَمَا احتاجَ إِلىٰ مثلِ قولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٢١٣] : [مِنَ البسيط]

مَـدَحْـتُ قَـوْمـاً وَإِنْ عِشْنَـا نَظَمْـتُ لَهُـمْ ... قَصَـائِـداً مِـنْ إِنَـاثِ الْخَيْـلِ وَالْحُصُـنِ

ولو أَنَّهُ استثنىٰ في بعضِ القولِ أَو علَّقَ . . لانْحَفَظَ لَهُ خَطُّ الرجعةِ ، ولكنَّهُ قطعَهُ علىٰ نفسِهِ ، فقد هجا كافورَ بعدَ قولِهِ لَهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٠٠] : [مِنَ الطويل]

وَإِنَّ مَـدِيـحَ النَّـاسِ حَـقٌّ وَبَـاطِـلٌ ... وَمَـدْحُـكَ حَـقٌّ لَيْـسَ فِيـهِ كِـذَابُ

[ثناء سيدنا عمر رضي الله عنه على ابن أبي سلمىٰ]

وقد أَثنى ابنُ الخطَّابِ علىٰ زهيرِ ابنِ أَبِي سُلمىٰ ، بِأَنَّهُ لا يُعاظِلُ[٣] الكلامَ ، ولا يمدحُ أَحداً إِلاَّ بما فيهِ علىٰ حدِّ

---

(١) في المخطوط : غَادِرُهُ .

(٢) الطِّمِرَّةُ : الفرسُ الوثَّابةُ ، وقيلَ : المرتفعةُ ، وظامِئَةُ الفصوصِ : عطاشٌ ، ليست برهلةٍ رخوةٍ ، وكذا خيولُ العربِ .

(٣) يُعَاظِلُ ، يعقِّد القول بالحوشي والغريب ورُوِيَ عَنْ عمرَ بنِ الخطَّابِ : أَنَّهُ قالَ لقومٍ مِنَ العربِ : (أَشعرُ شعرائِكُم مَنْ لم يُعَاظِلِ الكلامَ) أَي : لَمْ يحملْ بعضَهُ علىٰ بعضٍ ، ولَمْ يتكلَّمْ بالرجيعِ مِنَ القولِ ، ولَمْ يكرِّرِ اللفظَ والمعنىٰ .

ما يُروىٰ مِنْ قولِهِ : [منَ البسيط]

وَإِنَّ أَحْسَنَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ ... بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

[إن من البيان لسحراً]

ومِنْ هنا قضي لَهُ بالتفضيلِ على الشعراءِ أجمعَ ، وما أحسنَ ما تخلَّصَ بهِ عمرُو بنُ الأهتمِ ، وقد رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم يشمئزُّ مِنْ تناقضِ قولِهِ في الزبرقانِ بنِ بدرٍ ؛ إذْ مدحَهُ بادئاً ، ثُمَّ ذمَّهُ ثانياً ، فإنَّهُ قالَ : لقد صدقْتُ في الأُولىٰ ، ولم أكذبْ في الثّانيةِ ، ولكنَّا قومٌ إِذَا رضيْنَا . . ذكرنا أحسنَ مَا نجدُ ، وإذا غضبْنَا . . جئْنَا بأقبحِ ما نعلمُ ، فقالَ صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحراً »[1] ، أَو ما هـٰذا معناهُ ، أَو ما يقربُ منهُ ، ومَنْ لا حرجَ لهُ مِنَ الدِّينِ ، ولا زِمامَ عندهُ مِنَ المروءةِ ، ولا رقيبَ عليهِ مِنَ الضميرِ ، وكانَ الحاملُ لَهُ على المدحِ مجرَّدَ الطَّمعِ ، أَو الملقِ . . فلَنْ يكونَ ما يأتي بهِ إلاَّ كَذِباً صريحاً ، وغلوّاً قبيحاً ؛ ولهـٰذا قالَ ابنُ عبدِ السَّلامِ في « قواعدِهِ »[2] ، كما نقلَهُ ابنُ حجرٍ في « تحفتِهِ » : لا تكادُ تجدُ مدَّاحاً إلاَّ رَذْلاً ، ولا هجَّاءً إلاَّ نَذْلاً .

[المؤلف وهـٰذا الزمان]

وأَكبرُ مِنْ ذلكَ ما ابتُلِيَ بهِ ذُنَابَىٰ[3] البلادِ مِنْ إهانةِ الأدبِ ، وبذلِ المديحِ لِمَن لا يستحقُّهُ ، وكثيراً ما يعتقدُ المادحُ عكسَ ما يقولُ ، فتراهُ يمدحُ بلسانِهِ مَنْ يذمُّهُ بقلبِهِ ، ويتلوَّنُ أَلواناً ، ويتَّخذُ لكلِّ حالةٍ وجهاً ولساناً : [منَ الطويل]

وَأَقْتَلُ شَيْءٍ رُؤْيَةُ الْعَيْنِ ظَالِماً ... يُسِيءُ وَيُتْلَىٰ فِي الْمَحَافِلِ حَمْدُهُ

[إعجابه بأشراف النفوس]

وإنَّهُ ليعجبني ترفُّعُ ابنِ أَبي ربيعةَ وجميلٍ والفرزدقِ وأَضرابِهِم مِنْ أَشرافِ النفوسِ .

[شرف الفرزدق]

قالَ يزيدُ بنُ المهلَّبِ : ما رأَيْتُ أَشرفَ نفساً مِنَ الفرزدقِ ، مدحني سُوقةً ، وهجاني مَلِكاً .

[تلون المتنبي]

وإنَّ المتنبِّي علىٰ ما عندَهُ مِنَ البَأْوِ[4] وَالزَّهوِ ، ومعَ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/١٤٩] : [منَ الطويل]

إِذَا الْفَضْلُ لَمْ يَرْفَعْكَ عَنْ شُكْرِ نَاقِصٍ ... عَلَىٰ هِبَةٍ فَالْفَضْلُ فِيمَنْ لَهُ الشُّكْرُ

[أبو تمام يمدح ابن الزيات فيرد مديحه عليه]

. . لكثيراً ما يَخضعُ في القولِ ، ويُلَيِّنُ الجانبَ ، ويُسِفُّ[5] إلى الأَرضِ ، وما ذلكَ مِنْ تناقضهِ بغريبٍ ، وما كانَ أَحقَّهُ في بعضِ أَطوارِهِ بما فعلَ ابنُ الزيَّاتِ[6] معَ حبيبٍ [أبي تمامٍ] ، (فقد امتدحهُ بقصيدةٍ سائرةٍ بعقبِ ما امتدحَ بعضَ السقَّاطِ ، فوقَّعَ ابنُ الزيَّاتِ علىٰ ظهرِ قصيدةِ حبيبٍ لَهُ بهـٰذا : [منَ الطويل]

رَأَيْتُكَ سَمْحَ الْبَيْعِ سَهْلاً وَإِنَّمَا ... يُغَالِي إِذَا مَا ضَنَّ بِالشَّيْءِ صَاحِبُهْ

---

(١) أخرجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما البخاري (٥١٤٦) في النكاح ، وانظر الخبر في « جمهرة خطب العرب » (١/١٦٥) .

(٢) وتمام اسمه : « قواعد الأحكام في مصالح الأنام » .

(٣) الذُّنَابَىٰ : الأتباعُ .

(٤) البَأْو : العظمةُ والكِبْرُ والفخرُ .

(٥) أَسَفَّ الطائرُ والسحابةُ وغيرُهما : دنا مِنَ الأرضِ . والطائرُ يُسِفُّ : إذا طار علىٰ وجهِ الأرضِ .

(٦) ابنُ الزيَّات : هوَ محمدُ بنُ عبدِ الملكِ بنِ أَبَانَ ، وزيرُ المعتصمِ والواثقِ ، قويٌّ ، حازمٌ داهيةٌ .

فَـأَمَّـا إِذَا هَـانَـتْ بَضَـائِـعُ بَيْعِـهِ ... فَيُـوشِـكُ أَنْ تَبْقَـىٰ عَلَيْـهِ بَضَـائِعُـهْ
هُـوَ الْمَـاءُ إِنْ أَحْجَمْتَـهُ طَـابَ وِرْدُهُ ... وَيَفْسُـدُ مِنْـهُ أَنْ تُبَـاحَ مَشَـارِعُـهْ[1]

ويقالُ [في « الأغاني » ٢٣/٦٢] : إِنَّ أبَا تمَّامٍ أَجابَهُ عَنْ ذلكَ بقصيدةٍ يحتجُّ بها عليهِ ، ويعتذرُ مِنْ مدحِ غيرِهِ إِليهِ[2] ، منها [في « ديوانه » ١/ ١٦٤ـ١٦٥] : [منَ البسيط]

أَمَّـا الْقَـوافِـي فَقَـدْ حَصَّنْـتُ غُـرَّتَهَـا ... فَمَـا يُصَـابُ دَمٌ مِنْهَـا وَلاَ سَلَـبُ
مَنَعْـتُ إِلاَّ مِـنَ الأَكْفَـاءِ أَيِّمَهَـا ... إِذْ كَـانَ مِنْـكَ عَلَيْهَـا الْعَطْـفُ وَالْحَـدَبُ[3]
وَلَـوْ عَضَلْـتُ وَلَـمْ أُنْكِـحْ عَقَـائِلَهَـا ... وَلَـمْ يَكُـنْ لَـكَ فِـي أَطْهَـارِهَـا أَرَبُ[4]
كَـانَـتْ بَنَـاتِ نُصَيْـبٍ حِيـنَ ضَـنَّ بِهَـا ... عَلَـى الْمَـوَالِـي وَلَـمْ تَقْنَـعْ بِهَـا الْعَـرَبُ[5]

ولا شكَّ أَنَّهُ عذرٌ بأُمِّ دَوٍّ ، فقد تموتُ الحرَّةُ ولا تأكلُ بثديَيْها[6] ، وذَكَرتُ بهٰذا ـ والشيءُ يُذْكَرُ بما يشبهُهُ ، ولو مِنْ بعيدٍ ـ

[مديح الشماخ لعبد الله بن جعفر]

أَنَّ الشمَّاخَ امتدحَ عبدَ اللهِ بنَ جعفرٍ بقولِهِ [في « ديوانه » ٤٦٤ـ٤٦٧] : [منَ الرَّجز]

إِنَّـكَ يَـا ابْـنَ جَعْفَـرٍ نِعْـمَ الْفَتَـىٰ ... وَنِعْـمَ مَـأْوَىٰ طَـارِقٍ إِذَا أَتَـىٰ
وَجَـارُ ضَيْـفٍ طَـرَقَ الْحَـيَّ سُـرَىٰ ... صَـادَفَ زَاداً وَحَـدِيثـاً مَـا اشْتَهَـىٰ
إِنَّ الْحَدِيثَ طَرَفٌ مِنَ الْقِرَىٰ

[المبالغة في المديح ترفع الممدوح وتضع المادح]

وَامتدحَ عُرَابةَ الأَوْسيَّ إِزاءَ حُمُولَةٍ مِنَ التمرِ ، بما تحسدُهُ الثريَّا دُرَرَ لفظِهِ ، وجمالَ ديباجتِهِ ، كقولِهِ [في « الأغاني » ٩/ ٣٢٨٧ـ٣٢٨٨] : [منَ الوافر]

رَأَيْـتُ عُـرَابَـةَ الأَوْسِـيَّ يَسْمُـو ... إِلَـى الْخَيْـرَاتِ مُنْقَطِـعَ الْقَـرِيـنِ
إِذَا مَـا رَايَـةٌ رُفِعَـتْ لِمَجْـدٍ ... تَلَقَّـاهَـا عُـرَابَـةُ بِـالْيَمِيـنِ

---

(١) أورد الأصبهاني القصة في « الأغاني » (٢٣/ ٦٢) .

(٢) والذي في « الأغاني » (٢٣/ ٦٢) :

أَبَـا جَعْفَـرٍ إِنْ كُنْـتُ أَصْبَحْـتُ شَـاعِـراً ... أُسَـامِـحُ فِـي بَيْعِـي لَـهُ مَـنْ أُبَـايِعُـهْ
فَقَـدْ كُنْـتَ قَبْلِـي شَـاعِـراً تَـاجِـراً بِـهِ ... تُسَـاهِـلُ مَـنْ عَـادَتْ عَلَيْـكَ مَنَـافِعُـهْ
فَصِـرْتَ وَزِيـراً وَالْـوَزَارَةُ مَكْـرَعٌ ... يَغَـصُّ بِـهِ بَعْـدَ اللَّـذَاذَةِ كَـارِعُـهْ
وَكَـمْ مِـنْ وَزِيـرٍ قَـدْ رَأَيْنَـا مُسَلَّطـاً ... فَعَـادَ وَقَـدْ سُـدَّتْ عَلَيْـهِ مَطَـالِعُـهْ
وَللهِ قَـوْسٌ لاَ تَطِيـشُ سِهَـامُهَـا ... وَللهِ سَيْـفٌ لاَ تُفَـلُّ مَقَـاطِعُـهْ

(٣) **الأَيِّمُ** : التي لا زوجَ لها . **الحَدَبُ** : الإشفاقُ .

(٤) **عَضَلُ** المرأةِ عنِ الزواجِ : منعُها وحبسُها عنهُ . **أطهارُها** ـ مفردُها طهرٌ ـ : جعلَ القوافي كالنساءِ ، فإذا طهرَتِ المرأةُ احتيجَ إليها ، وتُعتزَلُ في الحيضِ .

(٥) **نُصَيْبٌ** : شاعرٌ أُمويٌّ ، كانَ أسودَ ، ومولىً لآلِ مروانَ . وكانَ لهُ بناتٌ يبخلُ بهنَّ على الموالي ، ولم تحفلْ بهنَّ العربُ لسوادِ أبيهنَّ .

(٦) مثل عربي ذكره الميداني في « مجمع الأمثال » (١/ ١٢٢) .



وقولِهِ : [مِنَ البسيط]

مِـنْ بَيْـتِ مَـأْثَـرَةٍ عِـزٍّ وَمَكْـرُمَـةٍ ... سَبَّـاقُ غَـايَـاتِ مَجْـدٍ وَابْـنُ سَبَّـاقِ

ضَخْـمُ الـدَّسِيعَـةِ مِتْـلَافٌ أَخُـو ثِقَـةٍ ... جَـزْلُ الْمَـواهِـبِ ذُو قِيـلٍ ومِصْـدَاقِ[1]

فقد ارتفعَ عُرابةُ بذلكَ إلى الذُّرىٰ ، وانحطَّ بهِ الشمَّاخُ ـ كما ذكروهُ ـ إلى الحضيضِ ، وسيعادُ هٰذا في المجلسِ الحادي عشرَ غفلةً عمَّا هنا .

[صغر نفس المتنبي]

وما رأيتُ الناظمَ أَقلَّ حياءً ، ولا أَصفقَ وجهاً[2] ، ولا أَصغرَ نفساً في قولِهِ ـ مِمَّا يتعلَّقُ بالموضوعِ ـ [في « العُكبَريِّ » ١١/٤] : [مِنَ الكاملِ]

إِنْ كَـانَ مِثْلُـكَ كَـانَ أَوْ هُـوَ كَـائِـنٌ ... فَبَـرِئْـتُ حِينَئِـذٍ مِـنَ الإِسْـلامِ

لولا اعتذارُهُم عنهُ في ذلكَ بصباهُ ، كما سيأتِي في موضعِهِ بَسْطُ القولِ فيهِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

[التفرد بالكمال مقرون بالحرمان]

ثُمَّ إِنَّ التفرُّدَ بالكمالِ علىٰ عِزَّتِهِ مَقرونٌ في الأَغلبِ بالحِرمانِ ، وقَلَّ مَنْ تقدَّمَ في أَمرٍ إلاَّ حُرِمَ ثمرتَهُ وفائدتَهُ ، والقولُ يطولُ في ذلكَ ، وما أَحسنَ قولَ الحمدونيِّ : [مِنَ البسيط]

إِنَّ الْمُقَـدَّمَ فِـي حَـذْقٍ بِصَنْعَتِـهِ ... أَنَّـىٰ تَـوَجَّـهَ فِيهَـا فَهُـوَ مَحْـرُومُ

وقولَ كُشَاجِمٍ [في « ديوانه » ٣٨٦] : [مِنَ الكاملِ]

مَـا كَـانَ أَحْـوَجَ ذَا الْكَمَـالِ إِلَـىٰ ... عَيْـبٍ يُـوَقِّيـهِ مِـنَ الْعَيْـنِ

[ترقب زوال الشيء إذا ما قيل : تم]

وحدَّثَ المعافىٰ بنُ زكريَّا : أَنَّهُ لمَّا بويعَ ابنُ المعتزِّ بالخلافةِ . . دخلُوا علىٰ شيخِنَا محمَّدِ بنِ جريرٍ الطبريِّ ، فقالَ : مَا الخبرُ ؟ قيلَ : بُويعَ ابنُ المعتزِّ ، قالَ : فمَنْ ذُكِرَ للقضاءِ ؟ قالوا : الحسنُ بنُ الحسنِ بنِ المثنىٰ ، أَو أَبو المثنىٰ ، قالَ : فمنْ رُشِّحَ للوزارةِ ؟ قالوا : محمَّدُ بنُ داودَ ، فقالَ : هٰذا الأَمرُ لا يتمُّ ؛ لأَنَّ كلَّ واحدٍ مِنْ هٰؤلاءِ متقدِّمٌ في فضلِهِ ، والدنيا مُوَلِّيَةٌ ، فما أَراهُ إلاَّ عائداً إلى الاضمحلالِ ، فكانَ كذلكَ .

[أول من أتي من داء الكمال في الإسلام سيدنا علي وصور من ذلك]

وغالبُ ظنِّي أَنَّ أَوَّلَ مِنْ أُتِيَ في الإِسلامِ مِنْ داءِ الكمالِ هو أَميرُ المؤمنينَ عليُّ ابنُ أَبي طالبٍ ـ كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ فقد كانَ أَهلُ (البصرةِ) يُبغِضونَهُ وكثيرٌ مِنْ أَهلِ (الكوفةِ) وأَهلِ (المدينةِ) ، وأَمَّا أَهلُ (مكَّةَ) : فإِنَّهم كانوا يكرهونَهُ قاطبةً ، وكانَتْ قريشٌ بأَسرِها علىٰ خلافِهِ ، وكانَ جمهورُ الخَلْقِ مع بني أُميَّةَ عليهِ .

ورَوىٰ عبدُ الملكِ بنُ عميرٍ ، عَنْ عبدِ الرحمٰنِ ابنِ أَبي بكرةَ قالَ [في « شرح نهج البلاغة » ١٠٣/٤] : سمعْتُ عليّاً ـ عليهِ السلامُ ـ يقولُ : ما لقيَ أَحدٌ مِنَ الناسِ ما لقيْتُ .

---

(١) الدسيعةُ : العطاءُ الجزيلُ .

(٢) أَصفقُ وجهاً ، يقالُ : وجهٌ صفيقٌ بيِّنُ الصَّفاقةِ : وَقِحٌ .

وروى الشعبيُّ عنهُ ـ عليهِ السلامُ ـ أنَّهُ يقولُ [في « شرح نهج البلاغةِ » ٤/١٠٤] : اللَّهُمَّ إنِّي أستعدِيكَ علىٰ قريشٍ ؛ فإنَّهُم قطعوا رحمي ، وأصغوا إنائيْ[1] ، وصغَّروا عظيمَ مَنزِلتي ، وأجمعوا علىٰ منازعَتي .

ورَوىٰ أبو عمرانَ النهديُّ قالَ : سمعتُ عليَّ بنَ الحسينِ يقولُ [كما في « شرح نهجِ البلاغة » ٤/١٠٤] : ما بـ(مكَّةَ) و(المدينةِ) عِشرونَ رجلاً يحبُّنا .

وللهِ درُّ ابنِ أَبي الحديدِ في قولهِ [كما في « شرح نهج البلاغة » ٤/١١٢] : [منَ الخفيف]

طَأْمَنَتْ مَجْدَهُ قُرَيْشٌ فَأَعْطَتْـ ـهُ إِلَىٰ سِدْرَةِ السَّمَاءِ رُقِيَّا[2]
أَخْمَلَتْ صِيتَهُ فَطَارَ إِلَىٰ أَنْ مَلأَ الأَرْضَ ضَجَّةً وَدَوِيَّا

وقالَ الآخرُ : [منَ الطويل]

لَقَدْ كَتَمَتْ آثَارَ آلِ مُحَمَّدٍ مُحِبُّوهُمُ خَوْفاً وَأَعْدَاؤُهُمْ بُغْضَا
وَلكِنْ فَشَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ نَبْذَةٌ بِهَا مَلأَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَا

ومِنْ كلامِهِ عليهِ السلامُ [في « نهج البلاغة » ٣٦] ما معناهُ : لا تزالُ الرعيَّةُ تشكُو ظُلْمَ الملوكِ ، ولٰكنَّني أشتكي الظلمَ مِنْ رَعيَّتي .

وقالَ لأَصحابِهِ [في « نهج البلاغة » ٣٦] : لقد ملأْتُم قلبي قَيحاً ، وشَحَنتُم صدري غيظاً ، وجرَّعتُموني نُغَبَ التَّهمامِ أنفاساً[3] ، حتَّىٰ قالتْ قريشٌ : إنَّ ابنَ أَبي طالبٍ رجلٌ شجاعٌ ، ولكنْ لا عِلْمَ لَهُ بالحربِ ـ للهِ أَبوهُم ـ وهل أَشدُّ لها مِراساً مِنِّي ؟! لقد دخلْتُ فيها دونَ العشرينَ ، وهاأنا قد ذَرَفْتُ فيها على الستِّينَ ، ولكنْ لا رأيَ لِمَنْ لا يُطاعُ .

[صور من امتحان النبي صلى الله عليه وسلم بالمنافقين]

بل إنَّ الأَمرَ أَعظمُ مِنْ ذلكَ ، فسيِّدُ أَهلِ الأرضِ والسماءِ ، وأَفضلُ مَنْ يشربُ عذبَ الماءِ . . كانَ مُمتحَناً بالمنافقينَ بشهادةِ سورةِ ﴿ براءة ﴾ مِنْ فاتحتِها إلىٰ خاتمتِها ، بل لَمْ يسلَمْ معَ ذلكَ مِنَ التواءِ فضلاءِ الصحابةِ عليهِ .

أَلا ترىٰ أَنَّهُم كرِهوا لقاءَ العدوِّ يومَ بدرٍ حتَّىٰ أُنزلَ فيهم : ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال : ٦] .

وقولُهُ تعالىٰ أَيضاً : ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ ﴾ [الأنفال : ٧] .

وخالفوا أَمرَهُ يومَ أُحُدٍ ، وأَسلموهُ حتَّىٰ أَلقتْهُ فَرَسُهُ بينَ القتلىٰ ، واستصرخَ فلَمْ يُجبْهُ غيرُ مَنِ اشتدَّ بِهِ اختصاصُهُ .

وقالَ اللهُ جلَّ شأْنُهُ فيهم : ﴿ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ ﴾ [آل عمران : ١٥٣] .

وعصَوْا أَمرَهُ في تبوكَ أَيضاً ، حتَّىٰ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ

(١) أصغى الإناء : أمالَهُ ليُفرِغَ ما فيهِ .
(٢) طَأمَنَ الأرضُ : انخفضَتْ .
(٣) نُغَبَ : جرعات . التَّهمامُ : الهمُّ . أنفاساً : جرعةً بعدَ جرعةٍ .

﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۞ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة : ٣٨-٣٩] .

فهٰذا عتابٌ للمؤمنينَ ، وشاهدٌ بأَنَّهُ لَمْ ينجُ مِنْ خلافِهم عليهِ ، وقد أَشرْنا في الفائدةِ الثامنةِ مِنْ « **بلابلِ التغريدِ** » إلىٰ تثاقلهم ليلةَ الخندقِ عَنِ استِكْناهِ خبرِ القومِ[1] ، وقد أَلَحَّ عليهم في ذلكَ ، وهوَ لا يُخالفُ ما نقرِّرُهُ مِنِ امتلاءِ صدورِهم بالإيمانِ ، وتقدُّمِهم بالنفوسِ المطمئنَّةِ إلىٰ شفراتِ السيوفِ ؛ لأَنَّهُ الأَكثرُ مِنْ أَحوالِهم ، ولأَنَّ الامتحانَ يعشقُ الكمالَ ، فاقتضىٰ عَلِيُّ قدرِهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ تلتويَ عليهِ الأُمورُ ، وتَعْصَوْصِبَ[2] لَهُ الأَهوالُ ، وتتنكَّرَ لَهُ الأَيَّامُ ، ويجمحَ عليهِ الزمانُ ؛ ليجاوزَ مدىٰ أُولي العزمِ مِنَ الرسلِ ، وتلكَ الغايةُ منوطةٌ بالمحنةِ ؛ ولهٰذا قالَ لَهُ جلَّ شأنُهُ : ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف : ٣٥] ، **وكانَ يوعَكُ كما يوعَكُ الاثنانِ مِنْ عُرْضِ الناسِ**[3] ، وكانَ يقولُ : « **أَشَدُّ النَّاسِ بَلاَءً الأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ** »[4] .

[الشعراء والتمام]

وللهِ درُّ أَبي تمَّامٍ في قولِهِ : [مِنَ البسيط]

مَـا زِلْـتُ أَرْمِـي بِـآمَـالِـي مَطَـالِبَهَـا ... لَـمْ يُخْلِـقِ الْعِـرْضَ مِنِّـي سُـوءُ مُطَّلَبِـي
إِذَا قَصَـدْتُ لِشَـأْوٍ خِلْـتُ أَنِّـيَ قَـدْ ... أَدْرَكْتُـهُ أَدْرَكَتْنِـي حِـرْفَـةُ الأَدَبِ[5]

وأَخذَهُ عليُّ بنُ محمَّدِ بنِ بسَّامٍ ، فقالَ في رثاءِ ابنِ المعتزِّ : [في « ديوانه » ٢٧] : [مِنَ البسيط]

للهِ دَرُّكَ مِـنْ مَلْـكٍ بِمَضْيَعَـةٍ ... نَـاهِيكَ فِـي الْعَقْـلِ وَالآدَابِ وَالْحَسَـبِ[6]
مَـا فِيـهِ لَـوٌّ وَلاَ لَيْـتٌ فَتُنْقِصُـهُ ... وَإِنَّمَـا أَدْرَكَتْـهُ حِـرْفَـةُ الأَدَبِ

وتلاعبَ بِهِ الشعراءُ بعدَ ذلكَ ، ويتَّصلُ بالموضوعِ قولُ بعضِهم : [مِنَ الكامل]

عَـابُـوا الْجَهَـالَـةَ وَازْدَرَوْا بِحُقُـوقِهَـا ... وَتَهَـاوَنُـوا بِحَـدِيثِهَـا فِـي الْمَجْلِـسِ
وَهِـيَ الَّتِـي يَنْقَـادُ فِـي يَـدِهَـا الْغِنَـىٰ ... وَتَجِيئُهَـا الـدُّنْيَـا بِـرَغْـمِ الْمَعْطِـسِ

وقالَ أَبو العتاهيةِ [في « ديوانه » ٦٤٥] : [مِنَ الطويل]

كَفَـاكَ عَـنِ الـدُّنْيَـا الـذَّمِيمَـةِ مُخْبِـراً ... غِنَـىٰ بَـاخِلِيهَـا وَافْتِقَـارُ كِـرَامِهَـا
وَأَنَّ رِجَـالَ النَّفْـعِ تَحْـتَ مَـدَاسِهَـا ... وَأَنَّ رِجَـالَ الضُّـرِّ فَـوْقَ سَنَـامِهَـا

---

(١) **استكناهُ خبرِ القومِ** : استقصاؤُهُ .
(٢) **يعصوصبُ** ، يقالُ : اعصوصبَ اليومُ والشرُّ : اشتدَّ وتجمَّعَ .
(٣) أخرجه عن ابن مسعود البخاري (٥٦٤٨) في المرضىٰ ، ومسلم (٢٥٧١) في البر والصلة . ولفظه عنده : « أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم » .
عُرْضُ الناسِ : عامتهم .
(٤) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (١/ ١٠٠) .
(٥) **حرفةُ الأَدبِ هنا** : الفقرُ .
(٦) **مَلْكٍ** كذا في المخطوطِ ، وفي « الديوانِ » : (ميتٍ) .

وقالَ آخرُ : [مِنَ السَّريع]

مَـــنْ يَـرْجُ بِـالْفَضْـلِ نَـوَالاً يَمُـتْ ... جُـوعـاً وَلَـوْ كَـانَ بَـدِيـعَ الـزَّمَـانْ
وَمَـــنْ يَقُـــدْ أَوْ يَتَمَسْخَـــرْ يَعِـــشْ ... عَيْشـاً رَخِيّـاً فِـي ظِـلاَلِ الأَمَـانْ[1]

ولابنِ نُباتَةَ السعديِّ : [من الكامل]

مَـا بَـالُ طَعْـمِ الْعَيْشِ عِنْـدَ مَعَـاشِـرٍ ... حُلْـوٌ وَعِنْـدَ مَعَـاشِـرٍ كَـالْعَلْقَـمِ
مَـنْ لِـي بِعَيْـشِ الأَغْبِيَـاءِ فَـإِنَّـهُ ... لاَ عَيْـشَ إِلاَّ عَيْـشُ مَـنْ لَـمْ يَعْلَـمِ

وقلتُ في « لزُومِيَّاتي » : [منَ الطويل]

أُعَـاتِـبُ فِـي التَّقْصِيرِ نَفْسِـي فَـلاَ أَرَىٰ ... مَجَـالَ عِتَـابٍ مُقْتَـضٍ لِلتَّنَـدُّمِ
وَلَٰكِـنْ شُفُـوفِـي خَـانَ حَظِّـي وَهٰكَـذَا ... تَـرَىٰ خَيْبَـةَ الآمَـالِ رَهْـنَ التَّقَـدُّمِ[2]
أَتَيْنَـا وَدَهْـرُ السُّـوءِ يَمْشِـي إِلَـى الْـوَرَىٰ ... وَمَبْنَـى الْمَعَـالِـي آخِـذٌ فِـي التَّهَـدُّمِ

[الكمال مقرون بعلو الهمة ولكن الأيام لا تساعد]

ومِنْ دَواعي تعبِ أَهلِ الكمالِ . . أَنَّهُ مقرونٌ بعلوِّ الهمَّةِ وكِبَرِ النَّفْسِ ، والزمانُ معاندٌ والأَيَّامُ لا تساعدُ .

وَإِذَا كَـانَـتِ النُّفُـوسُ كِبَـاراً ... تَعِبَـتْ فِـي مُـرَادِهَـا الأَجْسَـامُ[3]

لأَنَّها لا تقفُ عندَ غايةٍ ، ولا تفضي إِلىٰ نهايةٍ ، وقد قالَ اللهُ جلَّ شأْنُهُ لأَفضلِ الخلقِ عليهِ السلامُ : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الشرح : ٧-٨] .

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٣١] : [منَ الكامل]

خَـدَمَ الْعُلَـىٰ فَخَـدَمْنَـهُ وَهْـيَ الَّتِـي ... لاَ تَخْـدُمُ الأَقْـوَامَ مَـا لَـمْ تُخْـدَمِ
فَـإِذَا ارْتَقَـىٰ فِـي قُلَّـةٍ مِـنْ سُـؤْدَدٍ ... قَـالَـتْ لَـهُ الأُخْـرَىٰ : بَلَغْـتَ تَقَـدَّمِ[4]

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٧٢] : [منَ الوافر]

وَلَـوْ لَـمْ يَعْـلُ إِلاَّ ذُو مَحَـلٍّ ... تَعَـالَـى الْجَيْـشُ وانْحَـطَّ الْقَتَـامُ
وَلَـوْ لَـمْ يَـرْعَ إِلاَّ مُسْتَحِـقٌّ ... لِـرُتْبَتِـهِ أَسَـامَهُـمُ الْمُسَـامُ[5]

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٧٣] : [منَ المتقارب]

وَلَـوْ بِتُّمَـا عِنْـدَ قَـدْرَيْكُمَـا ... لَبِـتَّ وَأَعْـلاَكُمَـا الأَسْفَـلُ[6]

---

(١) يَقُدْ : يعملُ قَواداً .
(٢) الشُّفوفُ : نحولُ الجسمِ مِنَ الهمِّ والوَجْدِ .
(٣) البيت من الخفيف .
(٤) القُلَّةُ : رأسُ كلِّ شيءٍ .
(٥) القتام : العجاج . سامتِ السائمةُ : إِذا رَعتْ ، والمسامُ : الرعيَّةُ .
(٦) المعنىٰ : لو بتُّما ـ النجم والممدوح ـ وموضعُ كلِّ واحدٍ منكما علىٰ حسبِ فضلِهِ ، ومكانُهُ حيثُ يستحقُّ بقدرِهِ . . لَبِتَّ في مواضعِ النجومِ وباتَتْ في موضعِكَ ، تعلوها أَنتَ وتسفلُ منكَ ؛ لشرفِ قدرِكَ علىٰ قدرِها .

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/١٠٨] : [منَ الطويل]

وَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ فِي يَدِي ... بِأَصْعَبَ مِنْ أَنْ أَجْمَعَ الْجَدَّ وَالْفَهْمَا[1]

ومعيارُ العمومِ الاستثناءُ ، وقد قالَ لأبي العشائرِ [في « العُكبَريِّ » ٢/٣٦٤] : [منَ الخفيف]

لَيْسَ إِلاَّ أَبَا الْعَشَائِرِ خَلْقٌ ... سَادَ هَـٰذَا الأَنَامَ بِاسْتِحْقَاقِ

أَمَّا قولُهُ لسيفِ الدولةِ [في « العُكبَريِّ » ١/٢٧٢] : [منَ الطويل]

وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ دُونَ مَحَلِّهِ ... تَيَقَّنْتُ أَنَّ الدَّهْرَ لِلنَّاسِ نَاقِدُ

[صفات بني حمدان]

فَأصابَ فيهِ مِنْ جهةٍ ، والعادةُ قد تنخرقُ ، وعينُ الدهرِ قد تنامُ ، والطبيعةُ لها فَلَتاتٌ ، وبنو حمدانَ ـ كما قالَ المحقِّقُ التفتازانيُّ[2] ـ ملوكٌ ، وجوهُهم للصباحةِ ، وألسنتُهم للفصاحةِ ، وأيديهِم للسماحةِ .

[أوحد بني حمدان]

وأَخطأَ مِنَ الأُخرىٰ ؛ فإِنَّ أَوْحدَ بني حمدانَ بلاغةً وبراعةً وشجاعةً . . إِنَّما هو أَبو فراسٍ ، وقد أَدركَتْهُ حرفةُ الأدبِ ، وأصابَتْهُ عينُ الكمالِ ، فأسرتْهُ الرومُ في بعضِ وقائِعِها ، فازدادَتْ شاعريَّتُهُ رِقَّةً ولطافةً ، كما سبقَ بعضُ قولِهِ في غيرِ هـٰذا المجلسِ ، وهو القائلُ [في « ديوانه » ١٤٤] : [منَ الطويل]

أُسِرْتُ وَمَا قَوْمِي بِعُزْلٍ لَدَى الْوَغَىٰ ... وَلاَ فَرَسِي مُهْرٌ وَلاَ رَبُّهُ غَمْرُ[3]

وَلَـٰكِنْ إِذَا حُمَّ الْقَضَاءُ عَلَى امْرِىءٍ ... فَلَيْسَ لَهُ بَرٌّ يَقِيهِ وَلاَ بَحْرُ

[بدء الشعر بملك وختم بملك]

وقالَ الصاحبُ بنُ عبَّادٍ [في « قرى الضيف » ١/٥٧] : بُدِىءَ الشعرُ بمَلِكٍ ، وخُتِمَ بمَلِكٍ ؛ يعني : امرأَ القيسِ ، وأبا فراسٍ .

ومن أكبرِ بيِّناتِهِ اعتراضُهُ على الناظمِ يومَ أنشدَ قصيدتَهُ المُستهَلَّةَ بقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/٣٦٢] : [منَ البسيط]

وَا حَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ ... [وَمَنْ بِجِسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمُ]

وملاحظتُهُ عليها ، وتنبيهُهُ علىٰ مواضعِ الاختلاسِ فيها ، بِمَا لو روَّىٰ فيه امرؤٌ . . لَمَا دُوفعَ في حدَّةِ الفهمِ ، وإصابةِ السهمِ ، وغزارةِ العلمِ ، ومعجزاتِ الاطلاعِ ، كَما سنفيضُ فيهِ عندَما تنتهي إِليهِ النوبةُ ، إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

[عود علىٰ شرح البيت من المطلع]

وأَمَّا البيتُ الثاني : فـ (أَنْ) فيهِ مخففةٌ مِنَ الثقيلةِ ، وشرطُ اسمِها أَنْ يكونَ ضميراً محذوفاً ، وربَّما ثبتَ كقولِهِ :

[منَ البسيط]

فَلَوْ أَنْكِ فِي يَوْمِ الرَّخَاءِ طَلَبْتِنِي ... طَلاَقَكِ لَمْ أَبْخَلْ وَأَنْتِ صَدِيقُ

---

(١) الجَدُّ : الحظُّ والبَخْتُ .

(٢) التفتازاني : هو مسعود بن عمر بن عبد الله ، سعد الدين ، من أئمة العربية والبيان والمنطق ، له مؤلفات ، توفي سنة : (٧٩٣ هـ) .

(٣) الغمرُ : الذي لَمْ يجرِّبِ الأُمورَ .

وقولِ جنوبٍ ترثي أَخاها عمراً ذا الكلبِ : [منَ المتقارب]

بِـأَنْـكَ رَبِيـعٌ وَغَيْـثٌ مَـرِيـعٌ وَأَنْـكَ هُنَـاكَ تَكُـونُ الثُّمَـالاَ[1]

وهوَ مختصٌّ بحالِ الضرورةِ على الأَصحِّ .

[اقتباس البيت]

ومعناهُ[2] مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم : ١٢] .

[سيادة الصغير العمر عند المتنبي]

وقد تلاعبَ بهِ في « ديوانِهِ » ، فقالَ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٧٠] : [منَ البسيط]

لَيْسَ الْحَدَاثَةُ مِنْ حِلْمٍ بِمَانِعَةٍ قَدْ يُوجَدُ الْحِلْمُ فِي الشُّبَّانِ وَالشِّيبِ

تَرَعْرَعَ الْمَلِكُ الأُسْتَاذُ مُكْتَهِلاً قَبْلَ اكْتِهَالٍ أَدِيباً قَبْلَ تَأْدِيبِ

وقالَ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ١٠] : [منَ الكامل]

صَغَّرْتَ كُلَّ كَبِيرَةٍ وَكَبُرْتَ عَنْ لَكَأَنَّهُ وَعَدَدْتَ سِنَّ غُلاَمِ

وقالَ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢٣٢] : [منَ الوافر]

وَأَعْجَبُ مِنْكَ كَيْفَ قَدَرْتَ تَنْشَا وَقَدْ أُعْطِيتَ فِي الْمَهْدِ الْكَمَالاَ

وقالَ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٤٥ و٤٩] : [منَ الطويل]

بِمَوْلُودِهِمْ صَمْتُ اللِّسَانِ كَغَيْرِهِ وَلَٰكِنَّ فِي أَعْطَافِهِ مَنْطِقَ الْفَضْلِ

وَقَدْ مَدَّتِ الْخَيْلُ الْعِتَاقُ عُيُونَهَا إِلَىٰ وَقْتِ تَبْدِيلِ الرِّكَابِ مِنَ النَّعْلِ

وقالَ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٨١] : [منَ البسيط]

نَفْسٌ تُصَغِّرُ نَفْسَ الدَّهْرِ مِنْ كِبَرٍ لَهَا نُهَىٰ كَهْلِهِ فِي سِنِّ أَمْرَدِهِ

وقالَ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٨] : [منَ الطويل]

أَرَى الْقَمَرَ ابْنَ الشَّمْسِ قَدْ لَبِسَ الْعُلاَ رُوَيْدَكَ حَتَّىٰ يَلْبَسَ الشَّعَرَ الْخَدُّ

وَبَاشَرَ أَبْكَارَ الْمَكَارِمِ أَمْرَداً وَكَانَ كَذَا آبَاؤُهُ وَهُمُ مُرْدُ

وقالَ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٤٥] : [منَ المتقارب]

سَعَوْا لِلْمَعَالِي وَهُمْ صِبْيَةٌ وَسَادُوا وَجَادُوا وَهُمْ فِي الْمُهُودِ

وقالَ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٦٤] : [منَ المنسرح]

قَوْمٌ بُلُوغُ الْغُلاَمِ عِنْدَهُمُ طَعْنُ نُحُورِ الْكُمَاةِ لاَ الْحُلُمُ

---

(١) **المريع** : الخصيبُ الذي لا ينقطع . **الثُّمالا** : الماءُ القليلُ يبقىٰ في أسفلِ الحوضِ ، أو في أيِّ إناءٍ كانَ .

(٢) أي البيت الذي يتكلم عليه .

[بلوغ الغلمان عند يحيى بن زيد]

والأخيرُ مُنتزعٌ مِنْ قولِ يحيىٰ بنِ زيدِ بنِ عليِّ بنِ الحُسينِ رضوانُ اللهِ عليهم : [مِنَ الطويل]

خَرَجْنَا نُقِيمُ الدِّينَ بَعْدَ اعْوِجَاجِهِ ... سَوِيّاً وَلَمْ نَخْرُجْ لِجَمْعِ الدَّرَاهِمِ

إِذَا أَتْقَنَ التَّنْزِيلَ وَالْعِلْمَ طِفْلُنَا ... فَإِنَّ بُلُوغَ الطِّفْلِ ضَرْبُ الْجَمَاجِمِ

هٰذا واللهِ الشَّرفُ الَّذي يطأُ بأَخمَصهِ النُّجومَ ، ويغلبُ على النُّفوسِ عندَ ذِكْرِهِ الوجومُ ، ويُحاطُ دينُ اللهِ منهُ بالرّجومِ ، ويَعْذُبُ لِمَنْ سمعَهُ على الموتِ الهجومُ .

وما زالتِ الهاشميَّةُ نيرانَ الحتوفِ ، وأَربابَ الأَقلامِ والسّيوفِ ، ومصابيحَ النورِ ، وهُداةَ العُورِ ، ولئن قلَّ في الأَواخرِ الباسُ . . فسأَذكرُ ما يناسبُ طهارتَهم مِنَ الأَدناسِ .

[تربية الأسياد أولادهم]

كثيراً ما سمعتُ والدي يقولُ : كانَ لآلِ جديدٍ وآلِ بصريٍّ وآلِ علويٍّ ثلاثةُ ديارٍ ، عليها سورٌ بمدينة (تَرِيمَ) ، يقالُ لها : (الحوطةُ) ، كانوا يحوطونَ أَولادَهم فيها بالنظرِ ، ويلاحظونَهم بالتَّربيةِ حتَّىٰ لا يبرحوها ، ولا يطرُّ شاربُ الغلامِ منهم إِلاَّ وقد ورَىٰ زنادُهُ ، وتجوهرَ فؤادُهُ ، وشملتْهُ الأَسرارُ ، وأَشرقَتْ عليهِ الأَنوارُ ، والتَحقَ بالصّالحينَ الأَخيارِ ، فلا يخافونَ عليهِ بَعدُ مِنْ مخالطةِ الأَغيارِ .

[أصحاب مشورة سيدنا عمر رضي الله عنه]

وكانَ أَصحابُ مشورةِ عمرَ شبَّاناً ، وكانَ يدني عبدَ اللهِ بنَ عبَّاسٍ ، ويدخلُهُ معَ الأَشياخِ ، ولَمَّا قالوا لَهُ : إِنَّ لنا أَبناءً مثلَهُ . . قالَ : إِنَّهُ مِنْ حيثُ ترونَ .

ولا جرمَ ؛ فإِنَّ الفاروقَ لَمَّا قايسَ الناسَ بالفضيلةِ . . انبعثَتْ لها النفوسُ فارتفعَ الشأْنُ ، وسَعِدَ الزمانُ .

[تقديم الأسن عند الاستواء في الفضل]

أَمَّا قولُهُ صلى الله عليه وسلم : « كَبِّرْ كَبِّرْ »[(١)] في قضيَّةِ حويصةَ وأَخيهِ . . فإِنَّما هوَ لاستوائِهم في الفضلِ ، وبمثلِهِ قالوا في قولِهِ صلى الله عليه وسلم : « ثُمَّ لِيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ »[(٢)] : فإِنَّهم استوَوا في الإِقامةِ لتلقِّي العلمِ معَ انتفاءِ التفاوتِ في الأَفهامِ ، فكانوا غيرَ متفاوتينَ فيما تلقَّوْهُ مِنَ الفقهِ ، وبقيَتِ الأَرجحيَّةُ بالسنِّ ، وقد بحثَ المحبُّ الطبريُّ تقديمَ الأَسنِّ فيما إِذا أَسلموا معاً ، واستووا فقهاً ؛ لعمومِ هٰذا الحديثِ ، والأَكثرُ علىٰ أَنْ لا اعتبارَ للسنِّ في غيرِ الإِسلامِ ، والظاهرُ أَنَّ إِسلامَهم معاً ، فلعلَّ في الأَكبرِ فضيلةً زادَ بها عليهم ، فاستحقَّ التقديمَ ، أَو لعلَّ المرادَ بالأَكبرِ الأَكبرُ منزلةً وقدراً ، فيُرادُ منهُ الأَفقهُ حينئذٍ ، فيندفعُ مِنْ أَصلِهِ الإِشكالُ .

[سرعة بديهة يحيى بن أكثم]

ولمَّا وليَ يحيىٰ بنُ أَكثمَ قضاءَ (البصرةِ) . . أَرادوا العبثَ بهِ ، فسأَلوهُ عَنْ سِنِّهِ ، ولمَّا تجاوزِ العشرينَ ، فقالَ : أَنا أَكبرُ مِنْ عتَّابِ بنِ أَسِيدٍ[(٣)] حينَ وجَّهَ بهِ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قاضياً علىٰ (مكَّةَ) يومَ الفتحِ ، وأَنا أَكبرُ مِنْ

---

(١) أخرجه عن سهل بن أبي حثمة البخاري (٧١٩٢) في الأحكام ، ومسلم (١٦٦٩) في القسامة .

(٢) أخرجه عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه البخاري (٦٠٠٨) في الأدب ، ومسلم (٦٧٤) في المساجد .

(٣) عتَّاب بن أَسيد ابن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس، أبو عبد الرحمٰن ، والٍ صحابي قرشي أموي مكي ولد سنة : (١٣ ق.هـ) ومات سنة : (١٣ هـ).

معاذِ بنِ جبلٍ[١] حينَ وجَّهَ بهِ النبيُّ صلى الله عليه وسلم قاضياً على (اليمنِ) ، وأَنا أَكبرُ مِنْ كعبِ بنِ سورٍ[٢] حينَ وجَّهَ بهِ ابنُ الخطَّابِ قاضياً عليكُم ، فأَفحمهم ؛ إِذْ جعلَ كلامَهُ احتجاجاً وجواباً .

[المرء بأصغريه]

وقَدِمَ علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ وفدٌ ، فيهم حَدَثٌ ، رآهُ يشرئِبُّ للكلام ، فقالَ لهُ : كَبِّرْ كَبِّرْ ، فقالَ : لو كانَتْ بالسنِّ . لكانَ في مجلسِكَ هـٰذا مَنْ هوَ أَولىٰ منكَ بالخلافةِ ، إِنَّما المرءُ بأَصغريهِ ، فقالَ لهُ : تكلَّمْ ، فأَجادَ وشفىٰ ، وأَفادَ وكفىٰ[٣] .

[سيادة أبي جهل]

وسادَ أَبو جهلٍ ابنُ هشامٍ قبلَ أَنْ يَطُرَّ عِذارُهُ[٤] ، وكانَتْ مشيخةُ قريشٍ تُدخِلُهُ معها دارَ الندوةِ ، ولا تقطعُ أَمراً دونَهُ .

[سيادة عمرو بن كلثوم]

وسادَ عمرو بنُ كلثومٍ ـ صاحبُ المعلَّقةِ ـ لخمسَ عشرةَ سنةً ، ثُمَّ لَمْ يمُتْ إِلاَّ عن مئةٍ وخمسينَ ربيعاً ، وهو القائلُ [في « ديوانهِ » ١٠٠] : [مِنَ الوافر]

إِذَا بَلَـــغَ الْفِطَـــامَ لَنَـــا صَبِـــيٌّ ... تَخِـــرُّ لَـــهُ الْجَبَـــابِـــرُ سَـــاجِـــدِينَـــا

[سيادة أخ الخنساء]

وقالَتِ الخنساءُ [في « ديوانِها » ١٥] : [مِنَ المتقارب]

طَـــوِيـــلُ النِّجَـــادِ رَفِيـــعُ الْعِمَـــا ... دِ سَـــادَ عَشِيـــرَتَـــهُ أَمْـــرَدَا[٥]

[سيادة طرفة بن العبد]

وقالَتْ أُختُ طرفةَ بنِ العبدِ في رثائِهِ [كما في « خزانةِ الأدبِ » ٢/ ٤٢٣] : [مِنَ الطويل]

عَـــدَدْنَـــا لَـــهُ سِتّـــاً وَعِشْـــرِيـــنَ حِجَـــةً ... فَلَمَّـــا تَـــوَفَّـــاهَـــا اسْتَـــوَىٰ سَيِّـــداً ضَخْمَـــا

[محمد بن القاسم يبيد الأكراد وعمره سبع عشرة سنة]

ويروىٰ : أَنَّ الحجَّاجَ ولَّىٰ محمَّدَ بنَ القاسمِ قتالَ الأَكرادِ بـ(فارسَ) ، فأَبادَهم ، ثُمَّ ولاَّهُ (السِّنْدَ) و(الهندَ) ، فأُحمِدَ أَثرُهُ ، وسِنُّهُ إِذْ ذاكَ سبعَ عشرةَ سنةً ، فقالَ فيهِ بعضُ الشعراءِ [زياد الأعجم كما في « المستطرف » ١/ ٤٩٧] : [مِنَ الكامل]

قُـــدْتَ الْجُيُـــوشَ لِسَبْـــعَ عَشْـــرَةَ حِجَّـــةً ... يَـــا قُـــرْبَ ذَلِـــكَ سُـــؤْدُداً مِـــنْ مَـــوْلِـــدِ

---

(١) معاذ : صحابي خزرجي ، أبو عبد الرحمـٰن ، ولد سنة : (٢٠ ق . هـ) ومات سنة : (١٨ هـ) كان من أعلم الأمة بالحلال والحرام .

(٢) كعب بن سور بن بكر الأزدي ، تابعيٌّ من الأعيان المقدمين في صدر الإسلام توفي سنة : (٣٦ هـ) .

(٣) في « جمهرة خطب العرب » (٢/ ٤١٩) . فقال عند ذلك أمير المؤمنين : [من الطويل]

تَعَلَّـــمْ فَلَيْـــسَ الْمَـــرْءُ يُـــولَـــدُ عَـــالِمـــاً ... وَلَيْـــسَ أَخُـــو عِلْـــمٍ كَمَـــنْ هُـــوَ جَـــاهِـــلُ
وَإِنَّ كَبِيـــــرَ الْقَـــــوْمِ لاَ عِلْـــــمَ عِنْـــــدَهُ ... صَغِيـــــرٌ إِذَا الْتَفَّـــتْ عَلَيْـــهِ الْمَحَـــافِـــلُ

(٤) العِذار : ما طلعَ مِنْ وَبرِ جانبِ لحيتِهِ .

(٥) النجاد : حمائلُ السيفِ ، وطويلُ النجاد : كنايةٌ عن طولِ القامةِ . رفيع العماد ، يقال : رجلٌ معمدٌ ؛ أي : طويلٌ .

وقالَ جريرُ لعُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ : [منَ الوافر]

فَسُدْتَ النَّاسَ قَبْلَ سِنِيِّ عَشْرٍ　　كَـذَاكَ أَبُـوكَ قَبْـلَ الْعَشْـرِ سَـادَا

وقالَ الفرزدقُ يمدحُ يزيدَ بنَ المُهلَّبِ [في « ديوانهِ » ١/٣٧٨] : [منَ الكامل]

مَـا زَالَ مُـذْ عَقَـدَتْ يَـدَاهُ إِزَارَهُ　　وَسَمَـا وَأَدْرَكَ خَمْسَـةَ الأَشْبَـارِ

يُـدْنِـي كَتَـائِـبَ مِـنْ كَتَـائِـبَ تَلْتَقِـي　　فِـي ظِـلِّ مُغْتَبَـطِ الْغُبَـارِ مُثَـارِ

وَمِمَّا أَصابَ المَحزَّ ، وطَبَّقَ المِفصَل ، قولُ الحزينِ الكنانيِّ في الإمامِ زيدِ بنِ عليٍّ[1] رضوانُ اللهِ عليهم : [منَ الطويل]

وَلَمَّـا تَـرَدَّىٰ بِـالْحَمَـائِـلِ وَانْثَنَـىٰ　　يَصُـولُ بِـأَطْـرَافِ الْقَنَـا وَالْقَنَـابِـلِ

تبَيَّنَـتِ الأَعْـدَاءُ أَنَّ سِنَـانَـهُ　　يُطِيـلُ حَنِيـنَ الأُمَّهَـاتِ الثَّـوَاكِـلِ

تبَيَّـنَ فِيـهِ مُلْيَـمُ الْعِـزِّ وَالتُّقَـىٰ　　وَلِيـداً يُفَـدَّىٰ بَيْـنَ أَيْـدِي الْقَـوَابِـلِ

وقالَ العلويُّ صاحبُ الزنجِ : [منَ البسيط]

إِنِّـي وَقَـوْمِـيَ فِـي أَنْسَـابِ قَـوْمِهِـمُ　　كَمَسْجِـدِ الْخَيْـفِ فِـي بَحْبُـوحَـةِ الْخَيْـفِ

مَـا عُلِّـقَ السَّيْـفُ مِنَّـا بِـابْـنِ عَـاشِـرَةٍ　　إِلاَّ وَهِمَّتُـهُ أَمْضَـىٰ مِـنَ السَّيْـفِ

ومِنْ خالصِ الشعرِ ، ومختارِ الكلامِ ، قولُ مروانَ ابنِ أَبي حفصةَ[2] يمدحُ معنَ بنَ زائدةَ[3] [في « ديوانه » ٦٤ـ٦٥] :

[منَ الطويل]

نَجِيـبُ مَنَـاجِيـبٍ وَسَيِّـدُ سَـادَةٍ　　ذُرَى الْمَجْـدِ مِـنْ فَـرْعَـيْ نِـزَارٍ تَفَـرَّعَـا

لَبَـانَـتْ خِصَـالُ الْخَيْـرِ فِيـهِ وَأُكْمِلَـتْ　　وَمَـا كَمَلَـتْ خَمْسـاً سِنُـوهُ وَأَرْبَعَـا

لَقَـدْ أَصْبَحَـتْ فِـي كُـلِّ شَـرْقٍ وَمَغْـرِبٍ　　بِسَيْفِـكَ أَعْنَـاقُ الْمُـرِيبِيـنَ خُضَّعَـا

وَطِئْـتَ خُـدُودَ الْحَضْـرَمِيِّيـنَ وَطْـأَةً　　بِهَـا مَـا بَنَـوْا مِـنْ عِـزَّةٍ قَـدْ تَضَعْضَعَـا

فَـأَقْعَـوْا عَلَـى الأَسْتَـاهِ إِقْعَـاءَ مَعْشَـرٍ　　يَـرَوْنَ اتِّبَـاعَ الـذُّلِّ أَوْلَـىٰ وَأَنْفَعَـا

فَلَـوْ مُـدَّتِ الأَيْـدِي إِلَـى الْحَـرْبِ كُلُّهَـا　　لَكَفُّـوا وَمَـا مَـدُّوا إِلَـى الْحَـرْبِ إِصْبَعَـا

وما أَحسنَ قولَ بعضِهِم : [منَ الوافر]

إِذَا مَـا أَوَّلُ الْخَطِّـيِّ أَخْطَـا　　فَمَـا يُـرْجَـىٰ لآخِـرِهِ انْتِصَـارُ

وَإِنْ جَـازَ الْفَتَـىٰ عِشْـرِيـنَ عَـامـاً　　وَمَـا بَلَـغَ الْمُـرَادَ فَـذَاكَ عَـارُ

---

(١) زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب ، الإمام ، أبو الحسين العلوي الهاشمي القرشي ، ويقال له : زيد الشهيد ، عدَّه الجاحظ من خطباء بني هاشم . توفي سنة : (١٢٢هـ) . عن (٤٣) سنة .

(٢) هو مروان بن سليمان ابن أبي حفصة يزيد ، شاعر عالي الطبقة توفي سنة : (١٨٢ هـ) .

(٣) هو أشهر أجواد العرب وشجعانهم الفصحاء توفي سنة : (١٥١ هـ) .

ولكنَّ الإمامَ أبا حنيفةَ أمهلهُ إلىٰ خمسةٍ وعشرينَ عاماً ، فمتىٰ بلغَها . دُفعَ له مالُهُ ، وإنْ لَمْ يستجمعْ رشدَهُ ؛ لليأسِ مِنْ صلاحِهِ ، ولأنَّ السنَّ المذكورَ غايةُ ما ينتهي إليهِ الاستواءُ .

وقالَ أبو عبادةَ وقد أوفىٰ على الإجادةِ [في « ديوانه » ٣/ ١٤١٤ـ١٤١٥] : [منَ الكامل]

مُسْتَظْهِرٌ بِذَخِيرَةٍ مِنْ رَأْيِهِ ... تُمْضِي الأُمُورَ وَبَحْرُهَا لَمْ يُنْزَفِ
إلاَّ يَكُنْ كَهْلَ السِّنِينَ فَإِنَّهُ ... كَهْلُ التَّجَارِبِ فِي ضَجَاجِ الْمَوْقِفِ
تَبْدُو مَوَاقِعُ رَأْيِهِ وَكَأَنَّهَا ... غُرَرُ السَّوَابِقِ مِنْ يَفَاعٍ مُشْرِفِ(١)
وَإِذَا خِطَابُ الْقَوْمِ فِي الْخَطْبِ اعْتَلَىٰ ... فَصَلَ الْقَضِيَّةَ فِي ثَلاَثَةِ أَحْرُفِ

وممَّا يعجبني مِنْ هـٰذهِ القصيدةِ قولُهُ [في « ديوانه » ٣/ ١٤١٧] : [من الكامل]

قَاسَمْتَهُ أَخْلاَقَهُ وَهْيَ الرَّدَىٰ ... لِلْمُعْتَدِي ، وَهِيَ النَّدَىٰ لِلْمُعْتَفِي
فَإِذَا جَرَىٰ مِنْ غَايَةٍ وَجَرَيْتَ مِنْ ... أُخْرَى الْتَقَىٰ شَأْوَاكُمَا فِي الْمَنْصَفِ

وما زالَ الناسُ يُعجبونَ بقولِ ابنِ هانىءِ الأندلسيِّ : [منَ الكامل]

أَبَنِي الْعَوَالِي السَّمْهَرِيَّةِ وَالْمَوَا ... ضِي الْمَشْرَفِيَّةِ وَالْعَدِيدِ الأَكْثَرِ
مَنْ مِنْكُمُ المَلِكُ الْمُطَاعُ كَأَنَّهُ ... تَحْتَ السَّوَابِغِ تُبَّعٌ فِي حِمْيَرِ(٢)

حتَّىٰ وجدْتُ بعضَ لفظِهِ مِنْ قولِ البُحتريِّ [في « ديوانه » ٢/ ١٠٢٩] : [منَ الكامل]

وَتَنَاوَلَ الضَّحَّاكَ مِنْ خَلْفِ الْقَنَا ... وَالْمَشْرَفِيَّةِ وَالْعَدِيدِ الأَكْثَرِ

وبعضُ المعنىٰ مِنْ قولِهِ في القصيدةِ الَّتي نوَّهنا بها [في « ديوانه » ٣/ ١٤١٣ـ١٤١٤] : [منَ الكامل]

يَهْدِيهِمُ الأَسَدُ الْمُطَاعُ كَأَنَّهُ ... عِنْدَ اجْتِمَاعِ الْجَحْفَلِ الْمُتَضَايِفِ
عَمْرُو الْقَنَا فِي مَذْحِجٍ أَوْ حَاتِمٌ ... فِي طَيِّىءٍ أَوْ عَامِرٌ فِي خِنْدِفِ

إلاَّ أنَّ ابن هانىءٍ بتناسقِ قولِهِ ، وجزالةِ لفظِهِ ، واطِّرادِ سياقِهِ ، وحُسنِ اتِّباعهِ . كانَ الأحقَّ بِهِ .

[إلمام المتنبي بقول البحتري]

وقد ألَمَّ الناظمُ بقولِ البُحتريِّ : (فَصَلَ الْقَضِيَّةَ فِي ثَلاَثَةِ أَحْرُفِ) ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٨٥] :

[منَ الطويل]

يَقُومُ مَقَامَ الْجَيْشِ تَقْطِيبُ وَجْهِهِ ... وَيَسْتَغْرِقُ الأَلْفَاظَ مِنْ لَفْظِهِ حَرْفُ

وفي قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٩٧] : [منَ الطويل]

حُرُوفُ هِجَاءِ النَّاسِ فِيهِ ثَلاَثَةٌ : ... جَوَادٌ وَرُمْحٌ ذَابِلٌ وَحُسَامُ

---

(١) اليفاعُ : ما ارتفعَ منَ الأرضِ .

(٢) السمهريةُ : الرماحُ الصلبةُ الشديدةُ . السوابغُ ، يقالُ : سبغَ الشيءُ : طالَ واتَّسعَ ، وسبغتِ الدروعُ : فهيَ السوابغُ .

وبمناسبةِ ما سبقَ عَنْ يحيىٰ بنِ زيدٍ ، وما قيلَ في أبيهِ ، وما ذكرتهُ عَنْ صاحبِ الزنجِ ، وما سقتُهُ في كرامةِ آبائِنا ، وكونِ الممدوحِ في القصيدةِ الَّتي بينَ أَيدينا علويَّ النسبِ . . أَنعي على العلويِّينَ انقسامَهم وتخاذُلَهم وانحطاطَهم ، حتَّىٰ لقد نهبَ الصَّيْعَرُ[1] اثنتينِ مِنَ الإماءِ مرَّةً ، إحداهما لعلويٍّ ، والأُخرىٰ لدلاَّلٍ . فأَمَّا الثاني : فلَمْ يَصِلْ إلى (الريدةِ) لاستنقاذِها إلاَّ فِي أَربعِ مئةٍ مِنْ أَبناءِ جنسِهِ ، جاؤوا مدداً لَهُ مِنْ نواحي (حضرموت) . وأَمَّا العلويُّ : فلَمْ يلبِّهِ أَحدٌ ، ولَمْ يَصِلْ إلاَّ وحدَهُ ، فما أَحقَّهُ بأَنْ يتمثَّلَ لهُم بما سيأتي قُبَيلَ المجلسِ السابعِ : وكَمْ لها مِنْ أَخواتٍ تُعَدُّ بالمئاتِ ، لَمْ يَجُفَّ بعضُها بعدُ . ولولا ما في ذِكرِها مِنْ جَرحِ العواطفِ بلا كبيرِ فائدةٍ . . لسردْنا منها ، فإِنَّا نَعُدُّ منها ولا نعدِّدُها : [مِنَ البسيط]

لَـوْ كُنْـتُ مِـنْ مَـازِنٍ لَـمْ تَسْتَبِـحْ إِبِلِـي ... بَنُـو اللَّقِيطَـةِ مِـنْ ذُهْـلِ ابْـنِ شَيْبَـانَـا

لكِـنَّ قَـوْمِـي وَإِنْ كَـانُـوا ذَوِي عَـدَدٍ ... لَيْسُـوا مِـنَ الْخَيْـرِ فِـي شَـيْءٍ وَإِنْ هَـانَـا

والعَجَبُ أَنَّكَ لا ترىٰ أَحداً مِنَ الناسِ يتكلَّمُ في الأَخلاقِ ومدحِ الاجتماعِ مثلَهم ، ومعَ ذلكَ ـ ولا أُحاشي ـ تجدهُم مِنْ أَكثرِ الخَلْقِ نفاقاً ، وأَفسدِهم أَخلاقاً ، وإِنَّكَ لتجدُ الحاكمَ وَمَنْ دونَهُم يَفْضُلونَهُم في الهيئةِ الاجتماعيَّةِ بدرجاتٍ ، فما أَقلَّ حياءَهُم ، وما أَصفقَ وجوهَهُم ؛ إِذْ يتبجَّحونَ بالانتسابِ إِلىٰ ساداتِ الكونِ علىٰ بُعْدِ ما بينَهُم مِنَ الفرقِ والبَونِ ، وللهِ درُّ القائلِ : [مِنَ البسيط]

لَسْتُـمْ بَنِيهِـمْ وَلَسْتُـمْ مِـنْ سُـلاَلَتِهِـمْ ... إِنْ لَـمْ يَكُـنْ أَمْرُكُـمْ مِـنْ أَمْرِهِـمْ أَمَمَـا

وما أَحسنَ قولَ الناظمِ [في « العُكْبَريِّ » ١/١٥٦] : [مِنَ الطويل]

إِذَا عَلَـوِيٌّ لَـمْ يَكُـنْ مِثْـلَ طَـاهِـرٍ ... فَمَـا هُـوَ إِلاَّ حُجَّـةٌ للنَّـوَاصِـبِ[2]

وهو مِنْ قولِ شاعرٍ قبلَهُ ، يقولُ لبعضِ العلويِّينَ : [مِنَ الطويل]

إِذَا الْغُصْـنُ لَـمْ يُثْمِـرْ وَإِنْ كَـانَ شُعْبَـةً ... مِنَ الْمُثْمِرَاتِ اعْتَدَّهُ النَّاسُ فِي الْحَطَبْ

[متىٰ يبلغ البنيان التمام ؟!]

ولمَّا انحرفَتْ سيرةُ المُوسَوِيِّينَ بـ(بغدادَ) . . كتبَ لهُم أَحدُ محبِّيهِم ـ بما قَوْمُنا بِهِ الآنَ أَحقُّ منهم ـ وهو هٰذا : [مِنَ الطويل]

يَعِـزُّ عَلَـىٰ أَسْـلاَفِكُـمْ يَـا بَنِـي الْعُـلاَ ... إِذَا نَـالَ مِـنْ أَعْـرَاضِكُـمْ شَتْـمُ شَـاتِـمِ

بَنَـوْا لَكُـمُ مَجْـدَ الْحَيَـاةِ فَمَـا لَكُـمْ ... أَسَـأْتُـمْ إِلَـىٰ تِلْـكَ الْعِظَـامِ الـرَّمَـائِـمِ

إِذَا أَلْـفُ بَـانٍ خَلْفَهُـمْ هَـادِمٌ كَفَـىٰ ... فَكَيْـفَ بِبَـانٍ خَلْفَـهُ أَلْـفُ هَـادِمِ

والمعنىٰ موجودٌ في قولهِ تعالىٰ : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى

---

(١) الصيعرُ : قبيلة من قبائل (حضرموت) .

(٢) النواصب ـ جمع ناصبٍ ـ : وهم الخوارجُ الذين نصبوا العداوة للإمام عليِّ ابنِ أبي طالبٍ عليه السلام .



﴿ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٠]، وقولُهُ: ﴿يسيراً﴾ ممّا يحقُّ بهِ للأحزانِ أنْ تُشملَ رياطُها[١]، وللقلوبِ أنْ يتقطَّعَ نياطُها[٢]، فما لنبيٍّ معهُ إرادةٌ، ولا بينهُ وبينَ أحدٍ منْ خلقهِ هوادةٌ، فأنَّىٰ ينجو المقصِّرُ، أو يسعدُ الطالحُ، وقد قالَ اللهُ تعالىٰ لنوحٍ عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، وما أحسنَ ما قلتُ منْ قصيدٍ: [منَ الطويل]

إِذَا لَـمْ يَسِـرْ نَجْـلُ النَّبِـيِّ بِسَيْـرِهِ ... فَـلاَ بِـدْعَ إِنْ قَـالَ الْعِـدَا إِنَّـهُ دَعِـي

أيُّ حقٍّ نصروهُ ؟! وأيُّ باطلٍ أنكروهُ ؟! وأيُّ واحدٍ منهم تمعَّرَ وجهُهُ[٣] في ذاتِ اللهِ ؟! معَ عَرْضِ دعاويهم وطولِها، وكثرةِ مواعظِهم وفضولِها، بلْ أيُّ رذيلةٍ بـ(حضرموتَ) و(جاوه)[٤] لَمْ يقرعوا مروءتَها، ولَمْ يصعَدوا ذِروتَها ؟!

[قصيدة للمؤلف في العلويين]

أَرُونِـي امْـرَأً مِنْهُـمْ تَمَعَّـرَ عِنْـدَمَـا ... تَمَطَّـى الْبَـلاَ فِـي قُطْـرِنَـا بِظَـلاَمِـهِ
وَقَـامَ احْتِسَـابـاً يَـوْمَ حَلَّـتْ بِعُقْـرِنَـا ... طَـلاَئِـعُ كُفْـرٍ هَمُّهَـا فِـي الْتِهَـامِـهِ
أَيُغْضِـي عَلَىٰ هَـٰذَا الْقَذَا جَفْـنُ مُسْلِـمٍ ... يُـؤَمِّـلُ بِـالإِسْـلاَمِ مَحْـوَ أَثَـامِـهِ ؟
وَيَـرْضَـىٰ بِتَحْـرِيـفِ الشَّـرِيعَـةِ طَـامِـعٌ ... مِـنَ اللهِ أَنْ يَحْظَـىٰ بِحُسْـنِ خِتَـامِـهِ
وَيُـدْهِـنُ فِـي ذَاتِ الإِلَـٰـهِ وَلَـوْ عَـدَوْا ... عَلَـىٰ شَـاتِـهِ لَـمْ يَنْحَجِـزْ عَـنْ قِيَـامِـهِ
وَيَغْضَـبُ فِـي شَـرْوَىٰ نَقِيـرٍ وَيُكْثِـرُ ... الضِّجَـاجَ إِذَا مَـا زَادَ مِلْـحُ طَعَـامِـهِ
وَيَخْطِـرُ مِثْـلَ الْفَحْـلِ إِنْ قَصَّـرَ امْـرُؤٌ ... يُـلاَقِيـهِ فِـي تَقْبِيلِـهِ وَاحْتِـرَامِـهِ
إِذَا لَـمْ يَكُـنْ يَـرْجُـو وَإِلاَّ فَـإِنَّـهُ ... يُـلاَيِنُـهُ مِـنْ قَبْـلِ رَدِّ سَـلاَمِـهِ
فَهَيْهَـاتَ مِمَّـنْ كَـانَ ذَا وَصْفَـهُ التُّقَـىٰ ... وَإِنْ زَادَ فِـي تَسْبِيحِـهِ وَصِيَـامِـهِ
فَـزِيُّ صَـلاَحِ الْقَـوْمِ مَـا رَيْـتُ مِثْلَـهُ ... مِـنَ السُّحْـبِ إِلاَّ خَـالِيَـاتِ جَهَـامِـهِ[٥]

[هل صحيح أن الإنسان الذي يبلغ التمام في أمر يُنفد هـٰذا الأمرَ من ذريته ؟]

ولا أزالُ في وَجَلٍ مِنْ مقالةٍ طرقتْ سمعي في « **شرح النهج** » [١٢/٤٥]، حاصلُها: أنَّ سيِّدَنا عُمرَ بنَ الخطَّابِ استفرغَ عدلَ ذُرِّيَّتِهِ، فَلَمْ يتولَّ منهمْ عادلٌ إلاَّ نادراً بطريقةِ الشذوذِ؛ لأنَّ الأمرَ في أسلافِنا علىٰ مقرُبةٍ مِمَّا ذُكِرَ عَنِ ابْنِ الخطَّابِ في بلوغِ الغاياتِ مِنَ الفضائلِ، فنخافُ أن يكونَ السابقونَ إلىٰ عهدِ المُقدَّمِ[٦] استفرغوا ما لِمَنْ بعدَهم مِنَ الجهادِ والكفاحِ، وملاعبةِ الأسنَّةِ والصِّفاحِ، وأنْ يكونَ الفقيهُ ومَنْ بعدَهُ استفرغوا ما لأهلِ عصرِنا مِنْ خيرٍ وصلاحٍ، وفوزٍ ونجاحٍ، وتقوىً وعبادةٍ، وورعٍ وزهادةٍ، ورُبَّما شهدَ الزمانُ، ودلَّلَ العِيانُ.

وَكَـمْ سُقْـتُ فِـي آثَـارِهِـمْ مِـنْ نَصِيحَـةٍ ... وَقَـدْ يَسْتَفِيـدُ الظِّنَّـةَ الْمُتَنَصِّـحُ[٧]

---

(١) **الرباط**: الملاءةُ إذا كانتْ قطعةً واحدةً، وهو تشبيهٌ للأحزانِ بما ذكرنا.
(٢) **نياطُ القلب**: عِرقٌ نيطَ به القلب إلى الوتين.
(٣) **تمعُّرُ الوجهِ**: تغيُّرُه واعتلاءُ الصُّفرةِ عليه من الغيظ.
(٤) **جاوه**: وتعني (إندونيسية).
(٥) والأبيات من نظم المؤلِّفِ ـ رحمهُ اللهُ ـ في «ديوانه» (٣٠٢ـ٣٠٣) منَ الطويل. **الجَهَامُ**: السحابُ الَّذي لا ماءَ فيه، وقيل: الَّذي قد هَراقَ ماءَهُ معَ الريح.
(٦) أي: إلىٰ عهدِ الإمام شيخ الشيوخ الفقيه المُقدَّم: محمَّد بن عليٍّ الشريف الحسيني التريمي المتوفَّىٰ سنة: (٦٥٣ هـ) بـ(تريم) رحمه الله تعالىٰ.
(٧) البيت من الطويل، **الظِّنَّةُ**: التهمة.



[الكمال بين الناقصين ذنب]

ولكنَّهم قد وصلوا ـ مِنْ سوءِ الحالةِ ـ إلىٰ حدِّ أنَّهم يعدُّونَ للإنسانِ ذنباً كمالَهُ .

[قصيدة أخرىٰ للمؤلف في نعي أسلافه وحث إخوانه]

ولا بأسَ أن نختمَ المجلسَ ـ علىٰ طولِهِ ـ بذروٍ مِنَ القصيدةِ الَّتي ختمْتُ بها كتابي « صوبَ الرُّكامِ » ؛ لأنَّ فيهِ مناسبةً للمقامِ [في « ديوان المؤلف » ١٩٧] : [منَ الطويل]

وَقَـدْ أَلْجَـمَ الإِدْهَـانُ آلَ مُحَمَّـدٍ ... فَمَـا رَيْـثُ مَـنْ للهِ يَـرْضَـىٰ وَيَغْضَـبُ

كَـأَنْ لَـمْ يَكُـونُـوا مِـنْ عَلِـيٍّ وَلَـمْ يَمُـتْ ... لَهُـمْ فِـي قِـرَاعِ الْجَـوْرِ جَـدٌّ وَلاَ أَبُ

وَيَـا لَيْتَهُـمْ كَـانُـوا كَفَـافـاً وَلاَ جَنَـىٰ ... عَلَـى الـدِّيـنِ مِنْهُـمْ كَـاشِحُـونَ وَأَجْلَبُـوا

وَلَـوْلاَ افْتِـرَاقٌ بَيْنَهُـمْ عَـمَّ شَـرُّهُ ... لأَوْشَـكَ صَـدْعُ الْقُطْـرِ بِـالْجَـوْرِ يُشْعَـبُ

أَلَحُّـوا وَلَجُّـوا فِـي بِعَـادٍ وَبِغْضَـةٍ ... فَقَـدْ نَشَّبُـوا فِـي حَبْـلِ غَـيٍّ وَأَنْشَبُـوا[١]

وَفِـي شِعْـرِ حَـدَّادِ الْقُلُـوبِ نَظَيْـرُ مَـا ... ذَكَـرْتُ فَمَـاذَا يُنْكِـرُ الْمُتَحَـزِّبُ ؟[٢]

وَإِنْ خَـاضَ فِـي الإِصْلاَحِ بَعْـضٌ فَـإِنَّهَـا ... أَمَـانِـيُّ آرَاءٍ بِهِـمْ تَتَشَعَّـبُ

يُـرِيـدُونَـهُ مِـنْ غَيْـرِ أَبْـوَابِـهِ وَهَـلْ ... مَعَ التَّرْكِ لِلأَسْبَابِ يُرْجَى الْمُسَبَّبُ ؟

يَقُـولُـونَ مَـا لاَ يَفْعَلُـونَ وَإِنْ تَشِـمْ ... وَمِيـضَ وُعُـودٍ مِنْهُـمُ فَهْـيَ خُلَّـبُ[٣]

سِـرَاعٌ إِلَـىٰ مَـا فِيـهِ ضَـرٌّ بِقَـدْرِ مَـا ... يَفِـرُّونَ عَمَّـا فِيـهِ نَفْـعٌ مُـرَتَّـبُ

فَهُـمْ فِـي اضْطِـرَابٍ مِـنْ عُبَـابٍ مَذَاقُـهُ ... أُجَـاجٌ وَلٰكِـنْ لِلسِّفَـاهِيـنَ يَعْـذُبُ

لِسُـوقِ الْمَـلاَهِـي وَالسَّفَـاسِـفِ بَيْنَهُـمْ ... رَوَاجٌ وَلَكِـنْ لَيْـسَ لِلْحَـقِّ مَشْـرَبُ

وَلَمَّـا رَأَوْنِـي رَافِـعَ الصَّـوْتِ بِـالـدُّعَـا ... إِلَيْـهِ تَحَـامَـوْنِـي كَـأَنِّـيَ أَجْـرَبُ

يُقِـرُّونَ بِـالإِجمَـاعِ لِـي بِتَفَـرُّدِي ... وَمَـا لِـيَ فِيهِـمْ قَـطُّ سَهْـلٌ وَمَـرْحَـبُ

جَـزَاءُ قِيَـامِـي بِـالنَّصِيحَـةِ أَنَّنِـي ... إِذَا شِـدْتُ بُنْيَـانـاً مِـنَ الْمَجْـدِ خَـرَّبُـوا

يُـرِيـدُونَ أَنْ يُطْفُـوا بِضِغْـنِ نُفُـوسِهِـمْ ... سِـرَاجَ هُـدىً يُـزْكِيـهِ عِلْـمٌ فَخُيِّبُـوا

وَيَهْـوَوْنَ مَـوْتِـي وَهْـوَ مَـوْتٌ لِعِزِّهِـمْ ... فَلَيْـسَ لَهُـمْ إِلاَّيَ فِـي اللَّيْـلِ كَـوْكَـبُ

يَقُـولُـونَ لِـي : وَارِبْ فَتَـأْبَـىٰ أُبُـوَّتِـي ... وَأَصْلِـي وَطَبْعِـي ، وَالطَّبِيعَـةُ أَغْلَـبُ[٤]

وَعِـرْضٌ كَعَيْـنِ الـدِّيـكِ مَـا فِيـهِ نُكْتَـةٌ ... وَسَلْ هَلْ لِطَعْنٍ صَادِقٍ فِيَّ مَذْهَبُ ؟

عَفَـافٌ بِـهِ فِـي النَّـاسِ أَعْطِـسُ شَـامِخـاً ... كَـأَنِّـي عَلَـىٰ حُسْـنِ اعْتِـدَالٍ مُشَـذَّبُ[٥]

---

(١) نَشَّبُوا وأَنشبوا : تعلقوا بحبل الضلال .

(٢) حداد القلوب : هو الإمام عبد الله الحداد المتوفىٰ سنة (١١٣٢ هـ) رحمه الله تعالىٰ .

(٣) تَشِمْ : تنظر ، من شام البرقَ إذا نظر إليه . خُلَّبٌ : كاذب ، ومنه قولهم : برق خُلَّب .

(٤) في الأصل : أمومتي ، وهو تصحيف . وَارِبْ : خادِع .

(٥) مُشَذَّبٌ : مُهذَّب مُصلَّح .



عَلَـىٰ حِيـنَ لاَ عِـرْضٌ بِـلاَ مَثْنَـوِيَّـةٍ ... لأَعْـدَائِنَـا إِلاَّ بِعَـارٍ مُخَضَّـبُ[1]

وَغَـايَتُهُـمْ أَنْ يَفْتَـرُوا وَمَتَـى افْتَـرَوْا ... أَقُـومُ وَلاَ أَنْسَـى التَّحَـدِّي وَأَخْطُـبُ[2]

وَذَلِـكَ تَـارِيخِـي نَقِـيٌّ وَحُجَّتِـي ... يَخِـرُّ صَـرِيعـاً دُونَهَـا الْمُتَعَصِّـبُ

وَمَـنْ يَـكُ فِـي شَـكٍّ فَهَـا أَنَـا ذَا وَمَـا ... أَخَافُ وَلِي مِنْ نَاصِعِ الْحَقِّ مَرْكَبُ

إِذَا لَـمْ أُجِـبْ عَـنْ كُـلِّ قَـوْلٍ بِقَـاطِـعٍ ... فَلاَ عُذْنَ بِي الأَمْثَالُ فِي الْفَهْمِ تُضْرَبُ

ومنها :

بَعُـدْتُ بِفَضْلِـي عَنْهُـمُ قَـدْرَ مَـا دَنَـا ... رِفَاقُ الْخَنَا وَالشَّكْلُ لِلشَّكْلِ يَجْذُبُ

وَمَـا زَالَ لِـي بِـاللهِ جَـلَّ ثَنَـاؤُهُ ... عَلَـىٰ هَـامَـةِ الشِّعْرَىٰ خِبَـاءٌ مُطَنَّـبُ[3]

عَـلاءٌ بِـلاَ جُنْـدٍ وَلاَ رِيـحِ دَوْلَـةٍ ... عَلَـىٰ قُلَـلِ الشُّـمِّ الـذُّرَىٰ يَتَـوَثَّـبُ

سَـأَمْضِي بَـرَاحـاً لاَ ضَـرَاءَ إِلَـى الْعُلَـىٰ ... وَفِـي نَصْـرِ دِيـنِ اللهِ لاَ أَتَهَيَّـبُ[4]

وَلِـي قَلَـمٌ كَـالْمَشْـرَفِـيِّ وَمِقْـوَلٌ ... يُـذِيـبُ الصَّفَـا آنَـاءَ أُمْلِـي وَأَكْتُـبُ

واللهُ أعلمُ

* * *

---

(1) بلاَ مَثْنَوِيَّةٍ : بلا استثناء .

(2) في المخطوط و« الديوان » : أنسىٰ ، ولعله قال : أخشىٰ . والذي في « الديوان » :

وَغَـايَتُهُـمْ أَنْ يَكْـذِبُـوا وَمَتَـى افْتَـرَوْا ... أَقُـولُ تَعَـالَـوْا قَـابِلُـونِـي فَيَهْـرُبُـوا

يَعِيبُـونَنِـي غَيْبـاً وَفِـي كُـلِّ مَشْهَـدٍ ... أَقُـومُ وَلاَ أَنْسَـى التَّحَـدِّي وَأَخْطُـبُ .

(3) الشِّعْرَىٰ : كوكبٌ نيرٌ يَطْلُعُ عند شدةِ الحرِّ . خباءٌ مطنبٌ : بناءٌ من وبرٍ مشدودٌ بالحبالِ .

(4) البراح : الجهرُ . الضرّاءُ : الاستخفاءُ .

المجلس الرّابع

[قالَ أَبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَريِّ » ٣/ ١٦٠] : [مِنَ الطويل]

مُحِبِّي قِيَامِـي مَـا لِـذَالِكُـمُ النَّصْـلِ ... بَـرِيّـاً مِـنَ الْجَـرْحَـىٰ سَلِيمـاً مِـنَ الْقَتْـلِ

[نكوص أصحاب المتنبي عنه وتكليفهم إياه شيئاً ليس من شيمته]

إمَّا أَنْ يكونَ معناهُ : تُحِبُّونَ قيامي علىٰ أَنْ أَبقىٰ مكتوفاً ، لا يجرحُ نَصلي ، ولا يقتلُ ، وهوَ غيرُ شيمتِهِ الَّتي يتحدَّثُ عنها في مثلِ قولِهِ [في « العُكْبَريِّ » ١٤٨/٤] : [مِنَ الوافرِ]

وَمَـــا فِـــي طِبِّــهِ أَنِّــي جَــوَادٌ ... أَضَــرَّ بِجِسْمِــهِ طُــولُ الْجَمَــامِ[١]

وأَلَمَّ بهِ المعرِّيُ في قولِهِ [في « ديوانه » ٢٣٣] : [مِنَ الوافر]

إِذَا مَـا النَّـارُ لَـمْ تُطْعَـمْ ضِـرَامـاً ... فَـأَوْشِـكْ أَنْ تَمُـرَّ بِهَـا رَمَـادَا

وإمَّا أَنْ يكونَ معناهُ : كيفَ تحبُّونَ نُهوضي بالأَمرِ ، وقيامي بالثورةِ ، والحالُ أَنَّ سيوفَكُم الَّتي تعدُّونَها لنُصرتي لَمْ تتعوَّدْ على الجرحِ والقتلِ .

[تأمل الإمام من نكوص الأصحاب]

وبهِ تذكَّرتُ تألُّمَ أَميرِ المؤمنينَ مِنْ نُكوصِ أَصحابِهِ عَنِ الحربِ ، حتَّىٰ قالَ [في « نهج البلاغة » ٣٤] : ليتَ معاويةَ صارَفني بِكُم صرفَ الدينارِ بالدراهمِ ، فأَعطيتهُ عِشرينَ ، وأَخذْتُ منهُ واحداً . . وقالَ : يا أَشباهَ الرجالِ ، ولا رجالَ ، حلومُ الأَطفالِ ، وعقولُ ربَّاتِ الحِجالِ ، أَكُلَّما قلتُ لكُم : انفروا لقتالِ عدوِّكُم . . قلتُم : أَمهِلْنا حتَّىٰ تنسلخَ عنَّا حَمارَّةُ القيظِ ، وإنِ استنفرتُكم في الشتاءِ . . قُلتُم : أَمهِلْنا حتَّىٰ تذهبَ عنَّا صَبارَّةُ القرِّ[٢] ، أَكُلُّ هـٰذا فراراً مِنَ الحَرِّ والقَرِّ ؟! لأَنتُم ـ واللهِ ـ مِنَ السيفِ أَفرُّ .

وقالَ مرَّةً أُخرىٰ [في « نهج البلاغة » ٣٣] : ليتَ لي بكُم أَلفَ رأَسٍ مِنْ بني فراسِ بنِ غَنَمٍ .

هُنَـالِـكَ لَـوْ دَعَيْـتَ أَتَـاكَ مِنْهُـمْ ... فَــوَارِسُ مِثْــلُ أَرْمِيَــةِ الْحَمِيــمِ[٣]

وقالَ أَيضاً [في « نهج البلاغة » ٦٥] : الذَّليلُ مَنْ نصرتُموهُ ، والقليلُ مَنْ كثَّرتُموهُ ، مَنْ رمىٰ بكُم . . فقد رمىٰ بأَفْوَقِ ناصلٍ[٤] ، إنَّكم ـ واللهِ ـ لكثيرٌ في الباحاتِ ، قليلٌ تحتَ الرّاياتِ .

---

(١) الجَمَامُ : أَنْ يُترَكَ الفرسُ فلا يُركب .

(٢) صَبَارَّةُ القَرِّ : شدَّةُ البردِ .

(٣) البيت من الوافر ، الأَرمِيةُ : السحاب الشديد الوقع . الحميم : مطر القيظ .

(٤) أَفوقِ ناصلٍ : الفُوَقُ : ميلٌ أَو انكسارٌ في النصلِ ، وهوَ السهمُ .

فكلُّ هٰذا نوردُهُ بالمعنىٰ ؛ لبُعدِ العهدِ ، ولعلوِّ منالِ لهجةِ الإمامِ ، وفصاحةِ أُسلوبهِ . . يندفعُ الملامُ .

ويشبهُ بعضَهُ قولَ عُوَيْفِ القوافيِّ : [مِنَ الطويلِ]

وَمَا أُمُّكُمْ تَحْتَ الْخَوَافِقِ وَالْقَنَا بِثَكْلَىٰ ، وَلاَ زَهْرَاءَ مِنْ نِسْوَةٍ زُهْرِ
أَلَسْتُمْ أَقَلَّ النَّاسِ عِنْدَ لِوَائِهِمْ وَأَكْثَرَهُمْ عِنْدَ الذَّبِيحَةِ وَالْقِدْرِ ؟

[البطء عن الضيف والسرعة إلى الطعام تستوجب الهجاء]

ومثلهُ في عكسِ قولِهِ ـ عليهِ السلامُ ـ للأنصارِ : « **إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْجَزَعِ ، وَتَقِلُّونَ عِنْدَ الطَّمَعِ** » . . قولُ الآخرِ :

[مِنَ الطويلِ]

صِغَارٌ مَقَارِيهِمْ عِظَامٌ جُعُورُهُمْ بِطَاءٌ عَنِ الدَّاعِي إِذَا لَمْ يَكُنْ أَكْلاَ[1]

[كثرة كغثاء السيل]

وقولُ الحماسيِّ [في « شرحِ حماسة أبي تمّامٍ » ٢/١٠٥٧] : [مِنَ الطويلِ]

وَكَاثِرْ بِسَعْدٍ إِنَّ سَعْداً كَثِيرَةٌ وَلاَ تَرْجُ مِنْ سَعْدٍ وَفَاءً وَلاَ نَصْرَا
يَرُوعُكَ مِنْ سَعْدِ بْنِ عَمْرٍو جُسُومُهَا وَتَزْهَدُ فِيهَا حِينَ تَقْتُلُهَا خُبْرَا[2]

[البرق الخلبي]

وقولُ قُرادِ بنِ حَنَشٍ [في « شرحِ حماسةِ أبي تمّامٍ » ٢/ ١٠٣٥ـ١٠٣٦] : [مِنَ الطويلِ]

وَأَنْتُمْ سَمَاءٌ يُعْجِبُ النَّاسَ نَوْؤُهَا وَأَكْذَبُ شَيْءٍ بَرْقُهَا وَرُعُودُهَا[3]
فَوَيْلُ امِّهَا خَيْلاً بَهَاءً وَشَارَةً إِذَا لاَقَتِ الأَعْدَاءَ لَوْلاَ صُدُودُهَا[4]

وذكرتُ هنا ما لا يليقُ بالأَدبِ ذكرُهُ معَ كلامِ الإمامِ في كتابٍ فضلاً عَنْ مجلسٍ واحدٍ لولا سعةُ العُذرِ ؛ بأَنَّ مجالِسَنا كالكشكولِ[5] .

[أبو العتاهية يهجو عبد الله بن معن بن زائدة]

وقد جاءَ عَنِ السَّلفِ الطَّيِّبِ التَّرخيصُ في مثلِ ذلكَ ، وهوَ ما وقعَ مِنْ أَبي العتاهيةِ معَ عبدِ اللهِ بنِ معنِ بنِ زائدةَ ، وقولُهُ لهُ [في « ديوانهِ »] : [مِنَ البسيطِ]

لَمْ تَنْدَ كَفَّاكَ مِنْ بَذْلِ النَّوَالِ كَمَا لَمْ يَنْدَ سَيْفُكَ مُذْ قُلِّدْتَهُ بِدَمِ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٦٠٨] : [مِنَ الهزجِ]

فَصُغْ مَا كُنْتَ حَلَّيْتَ بِهِ سَيْفَكَ خِلْخَالاَ

---

(١) مقاريهم جمعُ مقراةٍ ، وهيَ القصعةُ الَّتي يُقرىٰ للضيفِ فيها . **جُعُورُهُم** : جمع جاعرة ، وهو حلقة الدبر ، وقصد بذلك كِبَرَهَا عندهم من كثرةِ أكلِهم .

(٢) **الخُبْرُ** : العلمُ بالشيءِ .

(٣) **نوؤُها** : ضوؤها . وقيل عن النوء : إنه سقوط نجم في المغرب وطلوع رقيبه من ساعته في المشرق ، وذلك في كل ثلاثة عشر يوماً .

(٤) **المعنىٰ** : أَنَّهم في الهيئة والبهاءِ والمنظرِ فرسانٌ ، إلاَّ أَنَّهُ لاَ خيرَ فيهم عندَ ملاقاةِ الأعداءِ .

(٥) **الكشكول** : وعاء المتسول يجمع فيه رزقه ، واسم كتاب لبهاء الدين العاملي . وأصل الكلمة آرامية .

فَمَــا تَصْنَـــعُ بِــالسَّيْــفِ إِذَا لَــمْ تَــكُ قَتَّـــالاَ

[عبد الله يأمر غلمانه بارتكاب الفاحشة من أبي العتاهية]

وما زالَ يهجوهُ بمثلِ ذلكَ ، وبما هوَ أَمضُّ منهُ . . حتَّى احتالَ عليهِ ، وأَظهرَ لَهُ المصافاةَ ، ودعاهُ ، فأَمرَ غِلمانَهُ أَنْ يرتكبوا منهُ الفاحشةَ بمرآهُ ، وتصالحا بعقبِ ذلكَ[1] .

[السيوف الممدوحة]

وفي عكسِ المعنىٰ يقولُ السَّمَوْءَلُ [في « ديوانه » ٤٩ـ٥٠] : [مِنَ الطويلِ]

وَأَسْيَـافُنَـا فِـي كُـلِّ شَـرْقٍ وَمَغْـرِبٍ بِهَـا مِـنْ قِتَـالِ الـدَّارِعِيـنَ فُلُـولُ
مُعَـــوَّدَةٌ أَنْ لاَ تُسَـــلَّ نِصَـــالُهَـــا فَتُغْمَـــدَ حَتَّـــىٰ يُسْتَبَــاحَ قَتِيــلُ

[هل عيب السيوف الفلول ؟]

والأَوَّلُ : شبيهٌ بقولِ النابغةِ الذبيانيِّ [في « ديوانه » ٦٠] : [مِنَ الطويلِ]

وَلاَ عَيْـبَ فِيهِـمْ غَيْـرَ أَنَّ سُيُـوفَهُـمْ بِهِـنَّ فُلُـولٌ مِـنْ قِـرَاعِ الْكَتَـائِـبِ

[معرفة عروة بن الزبير سيف أخيه]

ويروىٰ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/٢٥٧] : أَنَّ عروةَ بنَ الزبيرِ قَدِمَ علىٰ عبدِ المَلِكِ بنِ مروانَ دُبُرَ مقتلِ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ ، فطلبَ سيفَ أَخيهِ ، فعرضَ عليهِ عبدُ الملكِ سيوفاً كثيرةً فيها سيفُ عبدِ اللهِ ، فأَخذَ واحداً منها ، فقالَ لَهُ عبدُ الملكِ : بِمَ عرفتَهُ ؟ قالَ : بقولِ النابغةِ ، وأَنشدَ البيتَ .

[لا ينبغي لنبي لبس لأمة أن ينزعها حتىٰ يقاتِل]

وأَمَّا الثاني : فشبيهٌ بما صنعَهُ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يومَ أُحدٍ ، وذلكَ أَنَّهُ كانَ مِنْ رأيِهِ أَنْ لا يخرجَ عَنِ (المدينةِ) في لقاءِ قريشٍ ، ثمَّ لَمْ يزلْ بِهِ بعضُ أَصحابِهِ حتَّىٰ لَبسَ لأْمَتَهُ[2] ، ولَمَّا ظنُّوا أَنَّهم استكرهوهُ . . سُقِطَ في أَيديهم ، فقالوا لَهُ ، فقالَ [صلى الله عليه وسلم] : « **لاَ يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَنْزِعَهَا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ** »[3] .

[الشعراء وتلبية المنادي]

وقالَ الفرزدقُ [في « ديوانه » ١/١٣٩] : [مِنَ الطويلِ]

بِـأَيْـدِي رِجَـالٍ لَـمْ يُشِيمُـوا سُيُـوفَهُـمْ وَلَـمْ يُكْثِـرُوا الْقَتْلَـىٰ بِهَـا حِيـنَ سُلَّـتِ[4]

وقالَ بشَّارٌ [في « ديوانه » ٤/١٦٣] : [مِنَ الطويلِ]

إِذَا مَــا غَضِبْنَــا غَضْبَــةً مُضَــرِيَّــةً هَتَكْنَـا حِجَـابَ الشَّمْـسِ أَوْ قَطَـرَتْ دِمَـا

---

(١) ذكر القصة في « الأغاني » (٤/٢٦) .
(٢) **لأْمَتُهُ** : درعُهُ ، وقيلَ : سلاحُهُ .
(٣) أخرجه عن جابر ابن الجارود في « المنتقىٰ » (٢٦٦) بلفظ : « حَتَّىٰ يُقَاتِلَ » . وأورده الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٦/١٠٧) ، وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .
(٤) **لم يشيموا** : لم يغمدوا .

وقالَ البُحتريُّ : [منَ الوافر]

فَتـــىً هَـــزَّ الْقَنَـــا فَحَـــوىٰ سَنَـــاءً بِهَـــا لاَ بِـــالأَحَـــاظِـــي وَالْجُـــدُودِ

وقالَ يزيدُ المهلَّبيُّ : [منَ الطويل]

سَعَيْتُـــمْ فَـــأَدْرَكْتُـــمْ بِصَـــالِـــحِ سَعْيِكُـــمْ وَأَدْرَكَ قَـــوْمٌ غَيْـــرُكُـــمْ بِـــالْمَقَـــادِرِ

وقالَ الناظمُ [في «العُكْبَريِّ» ٤/ ٢٩١] : [منَ الطويل]

وَمَـا كُنْـتَ مِمَّـنْ أَدْرَكَ الْمُلْـكَ بِـالْمُنَىٰ وَلَـٰكِـنْ بِـأَيَّـامٍ أَشَبْـنَ النَّـوَاصِيَـا

وقالَ [في «العُكْبَريِّ» ١/ ٧١] : [منَ المنسرح]

أَحْسَـــنُ مَـــا يُخْضَـــبُ الْحَـــدِيـــدُ بِـــهِ وَخَـــاضِبِيـــهِ النَّجِيـــعُ والْغَضَـــبُ[١]

[يزيد بن المهلب والإمارة]

وسلَّمَتْ إحدىٰ حظايا يزيد بنِ المهلَّبِ بالإمارةِ عليهِ ، فقالَ متمثِّلاً بقولِ بشرِ بنِ قَطَنَةَ الأَسديِّ : [منَ الطويل]

رُوَيْـــدَكِ حَتَّـــىٰ تَنْظُـــرِي عَـــمَّ تَنْجَلِـــي غَمَـــامَـــةُ هَـــٰذَا الْعَـــارِضِ الْمُتَـــأَلِّـــقِ[٢]

[مكان الأمور الجسيمة]

وقالَ العتَّابيُّ [في «الأغاني» ١٣/ ١٣٧] : [منَ الطويل]

فَـــإِنَّ جَسِيمَـــاتِ الأُمُـــورِ مَشُـــوبَـــةٌ بِمُسْتَـــوْدَعَـــاتٍ فِـــي بُطُـــونِ الأَسَـــاوِدِ

[لا بد دون الشهد من إبر النحل]

وقالَ الناظمُ [في «العُكْبَريِّ» ٣/ ٢٩٠] : [منَ الطويل]

ذَرِينِـي أَنَـلْ مَـا لاَ يُنَـالُ مِـنَ الْعُـلاَ فَصَعْبُ الْعُلاَ فِي الصَّعْبِ وَالسَّهْلُ فِي السَّهْلِ
تُـرِيـدِيـنَ لُقْيَـانَ الْمَعَـالِـي رَخِيصَـةً وَلاَ بُـدَّ دُونَ الشَّهْـدِ مِـنْ إِبَـرِ النَّحْـلِ

[طعم الموت لا يتغير]

وقالَ [في «العُكْبَريِّ» ٤/ ١١٩ـ١٢٠] : [منَ الوافر]

إِذَا غَـــامَـــرْتَ فِـــي شَـــرَفٍ مَـــرُومِ فَـــلاَ تَقْنَـــعْ بِمَـــا دُونَ النُّجُـــومِ
فَطَعْـــمُ الْمَـــوْتِ فِـــي أَمْـــرٍ حَقِيـــرٍ كَطَعْـــمِ الْمَـــوْتِ فِـــي أَمْـــرٍ عَظِيـــمِ
وَكُـــلُّ شَجَـــاعَـــةٍ فِـــي الْمَـــرْءِ تُغْنِـــي وَلاَ مِثْـــلُ الشَّجَـــاعَـــةِ فِـــي الْحَكِيـــمِ
يَـــرَى الْجُبَنَـــاءُ أَنَّ الْجُبْـــنَ حَـــزْمٌ وَتِلْـــكَ خَـــدِيعَـــةُ الطَّبْـــعِ اللَّئِيـــمِ

وقالَ [في «العُكْبَريِّ» ٢/ ١١٤] : [منَ الطويل]

إِذَا لَـمْ تَجِـدْ مَـا يَبْتُـرُ الْفَقْـرَ قَـاعِـداً فَقُـمْ وَاطْلُـبِ الشَّـيْءَ الَّـذِي يَبْتُـرُ الْعُمْـرَا

---

(١) النَّجيعُ : الدَّمُ .

(٢) الخبر مفصلاً في «وفيات الأعيان» (٦/ ٣٠٣) .

وقالَ [في « العُكبَرِيّ » ١/ ٢٧٠] : [منَ الطويل]

أَهُمُّ بِشَيْءٍ وَاللَّيَالِي كَأَنَّهَا ... تُطَارِدُنِي عَنْ كَوْنِهِ وَأُطَارِدُ
وَحِيداً مِنَ الْخُلاَّنِ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ ... إِذَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعِدُ

ولا يُحصىٰ كثرةً ما لَهُ في إثارةِ العزائمِ ، وتنبيهِ الحِفَاظِ ، وإذكاءِ الغَيْرةِ ، وإحماءِ المعاطسِ .

[شجاعة زيد بن علي]

ولمّا خرجَ زيدُ بنُ عليٍّ . . حذَّرهُ بعضُ أبناءِ عمِّه ، وقالَ لهُ : إنَّ أهلَ (العراقِ) خذلوا آباءَكَ ، فهُمْ خاذلوكَ كما خذلوهُم ، فتأهَّبْ للموتِ أو دَع ، فقالَ متمثِّلاً [الأبيات لعنترة كما في « الأغاني » ٨/ ٢٤٨] : [منَ الكامل]

بَكَرَتْ تُخَوِّفُنِي الْحُتُوفَ كَأَنَّنِي ... أَصْبَحْتُ عَنْ عَرَضِ الْحُتُوفِ بِمَعْزِلِ
فَأَجَبْتُهَا : إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَنْهَلٌ ... لاَ بُدَّ أَنْ أُسْقَىٰ بِكَأْسِ الْمَنْهَلِ
فَاقْنِي حَيَاءَكِ لاَ أَبَا لَكِ وَاعْلَمِي ... أَنِّي امْرُؤٌ سَأَمُوتُ إِنْ لَمْ أُقْتَلِ

[شجاعة داوود بن علي وابنه موسىٰ]

ولمّا خرجَ داودُ بنُ عليٍّ بنِ عبدِ اللهِ وابنهُ موسىٰ . . عذلَهُم بعضُ أصحابهم ، وقالَ لهم : ما تفعلونَ بشيخِ العربِ يزيدَ بنِ عمرَ بنِ هُبيرةَ في فرسانهِ بـ(العراقِ) ؟ فقالَ أبو العبّاسِ السفّاحُ ـ وكانَ حاضراً ـ : يا عمُّ ، مَنْ أحبَّ الحياةَ ذَلَّ ، ثُمَّ تمثّلَ بقولِ الأعشىٰ [في « ديوانه » ٣١٧] : [منَ الطويل]

فَمَا مِيتَةٌ إِنْ مِتُّهَا غَيْرَ عَاجِزٍ ... بِعَارٍ إِذَا مَا غَالَتِ النَّفْسَ غُولُهَا[1]

فقالَ داودُ لابنهِ موسىٰ : صدقَ ابنُ عمِّكَ ، فلننهضْ معهُ ؛ فإمَّا أنْ نفوزَ ، وإمَّا أنْ نموتَ كراماً .

[عبد الله بن الزبير وأمه]

ويروىٰ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/ ٧٣] : أنَّ عبدَ اللهِ بنَ الزبيرِ دخلَ علىٰ أُمِّهِ ، وقد أَضَرَّتْ[2] ، فسلَّمَ ، ودنا ، فقبَّلَ يدَها ، قالتْ : هـٰذا وداعٌ فلا يبعدُ ، قال : إنِّي لأرىٰ هـٰذا اليومَ آخرَ أيامي في الدنيا ، وإذا قُتِلتُ . . فاعلمي أنّي لحمٌ ودمٌ ، لا يضرُّني ما عساهُمْ بي صانعونَ ، قالتْ : صدقتَ يا بنيَّ ، فأَقِمْ علىٰ بصيرتِكَ ، وامضِ أَمَماً في شأنِكَ ، وتنمَّرْ لعدوِّكَ ، ولا تمكِّنِ ابنَ أبي عقيلٍ منكَ ، ثُمَّ استدْنَتْهُ لتودِّعَهُ ، فدنا منها ، فقبَّلَتْهُ ، وعانقتْهُ ، فوجدَتْ مسَّ الدرعِ ، فقالتْ : ما هـٰذا صنيعُ مَنْ يريدُ الشهادةَ ، فقالَ : إنَّما لبستُهُ لأشُدَّ منكِ ، قالت : لا يشدُّ منِّي إلاَّ الثباتُ على الحقِّ ، فودَّعَها ، وخرجَ يحملُ علىٰ صفوفِ الشاميِّينَ فيفرِّقُها ، وأرسلتْ إليهِ إحدىٰ أزواجهِ ـ وقد رأتْ تفرُّقَ الناسِ عنهُ ـ أأخرجُ فأُقاتلُ معك ؟ فقالَ : لا ، وأنشدَ : [منَ الخفيف]

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا ... وَعَلَى الْغَانِيَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ

فلمَّا كانَ الليلُ . . قامَ يصلِّي إلىٰ قريبِ السَّحَرِ ، ثُمَّ احتبىٰ[3] بحمائلِ سيفهِ ، وأغفىٰ قليلاً ، ثُمَّ : قامَ فتوضَّأَ ،

---

(١) غولُها ـ بالرفع : ما يغتالها .
(٢) أَضَرَّتْ : أصبحت عمياء .
(٣) احتبىٰ : جلسَ علىٰ أليتيهِ وضمَّ فخذيهِ وساقيه إلىٰ بطنه بذراعيهِ ليستندَ ، واحتبىٰ بالثوبِ : أدارهُ علىٰ ساقيهِ وظهرِهِ وهو جالسٌ علىٰ نحوِ ما سبقَ ليستندَ ، وكذلكَ الاحتباءُ بالسيفِ .

وصلّىٰ ، وقرأ : ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : ١] ، ثُمَّ قالَ بعدَ انقضاءِ صلاتِهِ : مَنْ كانَ عنّي سائلاً . . فإنّي في الرعيلِ الأَوَّلِ ، ثُمَّ أنشدَ [في « شرحِ حماسةِ أبي تمّام » ١/٣٤١] : [منَ الطويل]

وَلَسْـتُ بِمُبْتَـاعِ الْحَيَـاةِ بِسُبَّـةٍ ... وَلاَ مُـرْتَـقٍ مِـنْ خَشْيَـةِ الْمَـوْتِ سُلَّمَـا

ثُمَّ حَملَ حتَّىٰ بلغَ (الحُجُونَ) ، فرُميَ في وجهِهِ ، فلمَّا وجدَ سخونةَ الدمِ . . قال [في « شرح حماسةِ أبي تمّام » ١/٣١٦] : [منَ الطويل]

وَلَسْنَـا عَلَـى الأَعْقَـابِ تَـدْمَـىٰ كُلُـومُنَـا ... وَلَكِـنْ عَلَـىٰ أَقْـدَامِنَـا تَقْطُـرُ الـدِّمَـا

ثُمَّ حَملَ علىٰ أهلِ (الشامِ) ، فغاصَ فيهم ، فاعتوروهُ بسيوفِهم حتَّىٰ سقطَ ، وجاءَ الحجَّاجُ فوقفَ عليهِ ، وهو مَيْتٌ ، ومعهُ طارقُ بنُ عمرٍو ، فقالَ : ما ولدتِ النساءُ أذكرَ مِنْ هٰذا! وكانَ قد انفضَّ مِنْ حولهِ عامَّةُ أصحابِهِ ، حتَّىٰ بعضُ أولادِهِ خرجوا إلى الحجَّاجِ في الأمانِ ، منهم : حمزةُ وخُبَيْبٌ ، وعزمَ اللهُ لهُ بالثباتِ كما شجعتهُ عليهِ أُمُّه في كلامِها السابقِ بعضهُ . وإنَّها لأُمورٌ تقفُ لها الشعورُ ، وتذرفُ لها العيونُ ، وتمتلئُ بها القلوبُ .

[المفضل الضبي وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن]

ورَوىٰ أبو الفرجِ الأصبهانيُّ [في « الأغاني » ١٩/٢٠٤] عَنِ المُفضَّلِ بنِ أحمدَ الضَّبِّيِّ قالَ : خرجَ إبراهيمُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ الحسنِ ، فلمّا كانَ بـ (المِربَدِ) . . استسقىٰ ماءً ، فأُتيَ بهِ ، فشرِبَ ، ثُمَّ تمثَّلَ بأبياتٍ منها [في « ديوان ضرار بن الخطاب » ٧٥ـ٧٦] : [من المنسرح]

إِنِّـي لأَنْمِـي إِذَا انْتَمَيْـتُ إِلَـىٰ ... عِـزٍّ عَـزِيـزٍ وَمَعْشَـرٍ صُـدُقِ[1]

بِيـضٍ سِبَـاطٍ كَـأَنَّ أَعْيُنَهُـمْ ... تُكْحَـلُ يَـوْمَ الْهِيَـاجِ بِـالْعَلَـقِ[2]

فقلتُ : لِمَنْ هٰذهِ ؟ فقالَ : يقولُها ضرارُ بنُ الخطَّابِ الفِهريُّ يومَ عَبَرَ الخندقَ علىٰ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وتمثَّلَ بها عليُّ بنُ أبي طالبٍ يومَ صفِّينَ ، والحسينُ يومَ الطَّفِّ ، وزيدُ بنُ عليٍّ يومَ السَّبخةِ ، ويحيىٰ بنُ زيدٍ يومَ الجوزجانِ ، فتطيَّرْتُ مِنْ تمثُّلِهِ بأبياتٍ لَمْ ينشدها أحدٌ إلاَّ قُتِلَ ، ثُمَّ سرنا إلىٰ باخمرىٰ ، فأتاهُ نعيُ أخيهِ محمَّدٍ ، فتغيَّرَ لونُهُ ، وجَرَضَ بريقِهِ[3] ، ثُمَّ أجهشَ باكياً ، وقالَ : اللَّهمَّ إنْ كنتَ تعلَمُ أنَّ محمَّداً خرجَ يطلُبُ مرضاتِكَ ، ويؤثِرُ أنْ تكونَ كلمتُكَ العليا . . فاغفرْ لهُ ، وارحمهُ ، وارضَ عنهُ ، ثُمَّ تمثَّلَ : [منَ البسيط]

اللهُ يَعْلَـمُ أَنِّـي لَـوْ خَشِيتُهُـمُ ... لآنَسَ الْقَلْبُ مِنْ خَوْفٍ لَهُمْ فَزَعَـا

لَـمْ يَقْتُلُـوكَ وَلَـمْ أُسْلِـمْ أُخَيَّ لَهُـمْ ... حَتَّـىٰ نَعِيـشَ جَمِيعـاً أَوْ نَمُـوتَ مَعَـا

قالَ المُفَضَّلُ : فجعلتُ أُعزِّيهِ ، وأُعاتبه علىٰ ما أَظهرَ مِنْ جزعهِ . فقالَ : إنّي ـ واللهِ في هٰذا ـ لَكَما قالَ دريدٌ [في « ديوانه » ٦٣ـ٦٥] : [منَ الطويل]

يَقُـولُ أَلاَ تَبْكِـي أَخَـاكَ وَقَـدْ أَرَىٰ ... مَكَـانَ الْبُكَـا لَكِـنْ بُنِيـتُ عَلَـى الصَّبْـرِ

---

(١) أنمي : أنتمي وأنتسبُ .

(٢) العلقُ : الدمُ الغليظُ ، وصفَهم بحمرةِ الأعينِ ؛ لشدَّةِ الغضبِ في الحربِ .

(٣) جَرَضَ بريقِهِ : ابتلعَ ريقَهُ علىٰ همٍّ وحزنٍ بالجهدِ .



لِمَقْتَلِ عَبْدِ اللهِ وَالْهَالِكِ الَّذِي | عَلَى الشَّرَفِ الأَعْلَىٰ قَتِيلِ أَبِي بَكْرِ
فَإِمَّا تَرَيْنَا لاَ تَزَالُ دِمَاؤُنَا | لَدَىٰ وَاتِرٍ يَسْعَىٰ بِهَا آخِرَ الدَّهْرِ
فَإِنَّا لَلَحْمُ السَّيْفِ غَيْرَ نَكِيرَةٍ | وَنَلْحَمُهُ طَوْراً وَلَيْسَ بِذِي نُكْرِ
يُغَارُ عَلَيْنَا وَاتِرِينَ فَيُشْتَفَىٰ | بِنَا إِنْ أُصِبْنَا أَو نُغِيرُ عَلَىٰ وِتْرِ
بِذَاكَ قَسَمْنَا الدَّهْرَ شَطْرَيْنِ بَيْنَنَا | فَمَا يَنْقَضِي إِلاَّ وَنَحْنُ عَلَىٰ شَطْرِ

قالَ المُفَضَّلُ: ثُمَّ ظهرت لنا جيوشُ أَبي جعفرٍ مثلَ الجرادِ، فأَنشدَ إبراهيمُ[1] متمثِّلاً [في «الأغاني» ١٩/ ٢٠٤] : [مِنَ الطويل]

إِنْ يَقْتُلُونِي لاَ تُصِبْ أَرْمَاحُهُمْ | ثَأْرِي وَيَسْعَى الْقَوْمُ سَعْياً جَاهِدَا
نُبِّئْتُ أَنَّ بَنِي جُذَيْمَةَ أَجْمَعَتْ | أَمْراً تُدَبِّرُهُ لِتَقْتُلَ خَالِدَا
أَرْمِي الطَّرِيقَ وَإِنْ رُصِدْتُ بِضِيقَةٍ | وَأُنَازِلُ الْبَطَلَ الْكَمِيَّ الْحَارِدَا[2]

فقلتُ لهُ: لِمَنْ هـٰذا يا ابنَ رسولِ اللهِ؟ قالَ: يقولهُ خالدُ بنُ جعفرِ بنِ كلابٍ يومَ (شِعْبِ جَبَلَةَ)، ثُمَّ انغمسَ في الحربِ، فقلتُ لهُ: أَتباشرُ القتالَ بنفسِكَ، وإِنَّما العسكرُ منوطٌ بكَ؟! فتمثَّلَ بأَبياتٍ لعويفِ القوافيِّ، والتحمتِ الحربُ، فقالَ: احكني بشيءٍ يا مفضلُ، فذكرتُ أَبياتاً لعويفٍ لمّا كانَ هو ـ عليهِ السلامُ ـ قد ذكرهُ، فأَنشدتُهُ: [مِنَ الطويلِ]

أَبَىٰ كُلُّ حُرٍّ أَنْ يَبِيتَ بِوِتْرِهِ | وَيُمْنَعَ مِنْهُ النَّوْمُ إِذْ أَنْتَ نَائِمُ
أَقُولُ لِفِتْيَانٍ كِرَامٍ تَرَوَّحُوا | عَلَى الْجُرْدِ فِي أَفْوَاهِهِنَّ الشَّكَائِمُ[3]
قِفُوا وَقْفَةً مَنْ يَحْيَ لاَ يَخْزَ بَعْدَهَا | مَنْ يُخْتَرَمْ لاَ تَتْبَعْهُ اللَّوَائِمُ
وَهَلْ أَنْتَ إِنْ بَاعَدْتَ نَفْسَكَ عَنْهُمُ | لِتَسْلَمَ فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ سَالِمُ ؟

فقالَ: أَعِدْها عليَّ، فأَعدتُها، فتمطَّىٰ في ركابيهِ، فقَطَعهما وحملَ، فغابَ في القومِ يفرِّقهم ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ، حتَّىٰ أَتاهُ سهمٌ عائرٌ[4] فقتلهُ رضوانُ اللهِ عليهِ[5] .

[أبو تمام والشجاعة]

وما أَحسنَ قولَ أَبي تمَّامٍ [في «ديوانه» ٢/ ٣٠٣ـ٣٠٤] : [مِنَ الطويلِ]

وَقَدْ كَانَ فَوْتُ الْمَوْتِ سَهْلاً فَرَدَّهُ | إِلَيْهِ الْحِفَاظُ الْمُرُّ وَالْخُلُقُ الْوَعْرُ
وَنَفْسٌ تَعَافُ الضَّيْمَ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ | هُوَ الْكُفْرُ يَوْمَ الرَّوْعِ أَو دُونَهُ الْكُفْرُ
فَأَثْبَتَ فِي مُسْتَنْقَعِ الْمَوْتِ رِجْلَهُ | وَقَالَ لَهَا مِنْ تَحْتِ أَخْمَصِكِ الْحَشْرُ
فَتىً مَاتَ بَيْنَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ مِيتَةً | تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِنْ فَاتَهُ النَّصْرُ
تَرَدَّىٰ ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْراً فَمَا دَجَىٰ | لَهَا اللَّيْلُ إِلاَّ وَهْيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ

---

(١) هو إبراهيمُ بنُ عبدِ اللهِ بن حسنٍ العلويُّ . «السير» (٦/ ٢١٨) .
(٢) الكميُّ : الشجاعُ المقدامُ الجريءُ كانَ عليهِ سلاحٌ أو لمْ يكنْ . الحارد : الغضبان .
(٣) الجردُ ـ جمع أجرد ـ : الحصان . الشكائمُ : جمع شكيمة ، ما يَلجم فمَ الفرسِ منَ الحديدِ .
(٤) سهمٌ عائرٌ : الطائشُ الذي لا يعرفُ راميهِ .
(٥) جاء في «الأغاني» (١٩/ ٢٠٥) .



وقالَ [في «ديوانهِ» ١/ ٤٠٤] : [مِنَ الوافرِ]

فَتَـى النَّكَبَـاتِ مَـنْ يَـأْوِي إِذَا مَـا ... يَطُفْـنَ بِـهِ إِلَـىٰ خُلُـقٍ وَسَـاعِ

يُثِيـرُ عَجَـاجَـةً فِـي كُـلِّ فَـجٍّ ... يَهِيـمُ بِهَـا عَـدِيُّ بْـنُ الـرِّقَـاعِ[1]

يَخُـوضُ مَـعَ السِّبَـاعِ الْمَـاءَ حَتَّـىٰ ... لَتَحْسَبُـهُ السِّبَـاعُ مِـنَ السِّبَـاعِ

يُلَبِّـي الْحَـزْمَ إِنْ حَـاوَلْـتَ يَـوْمـاً ... بِـأَنْ يَسْطِيـعَ غَيْـرَ الْمُسْتَطَـاعِ

فَلَـمْ يَـرْكَـبْ كَنَـاجِيَـةِ الْمَهَـارِي ... وَلَـمْ تُـرْكِـبْ هُمُـومَـكَ كَـالـزَّمَـاعِ[2]

وقالَ [في «ديوانهِ» ١/ ٣٩٣ـ٣٩٤] : [مِنَ الخفيفِ]

إِنَّ خَيْـراً مِمَّـا رَأَيْـتُ مِـنَ الصَّفْـ ... ـحِ عَـنِ النَّـائِبَـاتِ وَالإِغْمَـاضِ

عَـزْمَـةٌ تَقْتَـدِي بِعَـزْمَـةِ قَيْـسِ بْـ ... ـنِ زُهَيْـرٍ وَالْحَـارِثِ بْـنِ مُضَـاضِ[3]

غَـرَضَـيْ نَكْبَتَيْـنِ مَـا فَتِـلاَ رَأْ ... يـاً فَخَـافَـا عَلَيْـهِ نَكْـثَ انْتِقَـاضِ

مَـنْ أَبَـنَّ الْبُيُـوتَ أَصْبَـحَ فِـي ثَـوْ ... بٍ مِـنَ الْعَيْـشِ لَيْـسَ بِـالْفَضْفَـاضِ[4]

وَالْفَتَـىٰ مَـنْ تَعَـرَّفَتْـهُ اللَّيَـالِـي ... وَالْفَيَـافِـي كَـالْحَيَّـةِ النَّضْنَـاضِ[5]

كُـلَّ يَـوْمٍ لَـهُ بِصَـرْفِ اللَّيَـالِـي ... فَتْكَـةٌ مِثْـلُ فَتْكَـةِ الْبَـرَّاضِ[6]

[تسهيل الصعب بم يكون ؟]

وقالَ أَبو عبادةَ [البُحتريُّ في «ديوانهِ» ١/ ٦٣٣ـ٦٣٤] : [مِنَ الخفيف]

يَـا نَـدِيمَـيَّ بِـالسَّـوَاجِيـرِ مِـنْ شَمْـ ... ـسِ بْـنِ عَمْـرٍو وَبُحْتُـرِ بْـنِ عَتُـودِ[7]

أُطْلُبَـا ثَـالِثـاً سِـوَايَ فَـإِنِّـي ... رَابِـعُ الْعِيـسِ وَالـدُّجَـىٰ وَالْبِيـدِ

لَسْـتُ بِـالْعَـاجِـزِ الضَّعِيـفِ وَلاَ الْقَـا ... ئِـلِ يَـوْمـاً : إِنَّ الْغِنَـىٰ بِـالْجُـدُودِ[8]

وَإِذَا اسْتُصْعِبَـتْ مَقَـادَةُ أَمْـرٍ ... سَهَّلَتْـهُ أَيْـدِي الْمَهَـارَى الْقُـودِ[9]

---

(١) ذكرَ الاسمَ لمناسبتهِ للقافيةِ ، ولا علاقةَ لهُ بالموضوعِ .

(٢) **ناجيةُ المهاري** : الناقةُ الكريمةُ . **الزَّماعُ** : العزمُ علىٰ الرحيلِ ؛ أي : لم تُضعِ الرحلُ علىٰ شيءٍ يضاهي الناقة الكريمةَ ، ولَم تركبْ همومُكَ علىٰ دابةٍ مثلُ عزمِكَ علىٰ الرحيلِ .

(٣) **العزمُ** : الصبر على الشدائدِ . وعزمةٌ : خبرُ (إنَّ) في البيتِ السابقِ . وقيسُ بنُ زهير العبسي مشهورٌ ، حاربَ ذِبيانَ وانتقلَ في البلادِ كثيراً ، والحارثُ بنُ مضَاض ينتسبُ في جُرْهُمَ ، كانَ رئيساً في (مكةَ) أيامَ كانَ قومهُ فيها .

(٤) **أَبنَّ** : أقامَ .

(٥) **الحيةُ النضناضُ** : التي لا تثبتُ في مكانها لِشرَّتها ونشاطِها .

(٦) **البرَّاضُ** بن قيس الكناني توفي نحو (٣٥ ق .هـ) ، قتلَ عروةَ الرجال ، فاتك جاهلي ، يضرب بفتكهِ المثل ، كان فجّر حربَ الفجار التي وقعت بينَ قيسٍ وكنانةَ .

(٧) **السواجرُ** : نهرٌ مشهورٌ مِنْ عملِ (منبج) بـ(سوريا) .

(٨) **الجدودُ** : الحظوظُ .

(٩) **المهارىٰ** ـ جمعُ مهريَّةٍ ـ : وهي الناقةُ التي تسبق الخيل ، نسبةً إلىٰ بني مهرةَ بنِ حيدانَ ؛ وهم حيٌّ مِنَ العربِ اشتهروا بإبلهم . **القودُ** ـ جمعُ قوداءَ ـ : وهي الطويلةُ الأعناقِ .

[المتنبي والشجاعة]

وما أَحسنَ قولَ الناظمِ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/١٤٨ـ١٤٩] : [مِنَ الطويلِ]

أُطَاعِـنُ خَيْـلاً مِـنْ فَـوَارِسِهَـا الـدَّهْـرُ ... وَحِيداً ، وَمَا قَوْلِي كَذَا وَمَعِي الصَّبْرُ ؟!

وَأَشْجَـعُ مِنِّـي كُـلَّ يَـوْمٍ سَـلاَمَتِـي ... وَمَـا ثَبَتَـتْ إِلاَّ وَفِـي نَفْسِهَـا أَمْـرُ

تَمَـرَّسْـتُ بِـالأَيَّـامِ حَتَّـىٰ تَـرَكْتُهَـا ... تقُولُ : أَمَاتَ الْمَوْتُ أَمْ ذُعِرَ الذُّعْرُ ؟[١]

وَأَقْـدَمْـتُ إِقْـدَامَ الأَتِـيِّ كَـأَنَّ لِـي ... سِوَىٰ مُهْجَتِي أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وِتْرُ[٢]

ذَرِ النَّفْسَ تَـأْخُـذْ حَظَّهَـا قَبْـلَ بَيْنِهَـا ... فَمُفْتَـرِقٌ جَـارَانِ دَارُهُمَـا الْعُمْـرُ

وَلاَ تَحْسَبَـنَّ الْمَجْـدَ زِقّـاً وَقَيْنَـةً ... فَمَا الْمَجْدُ إِلاَّ السَّيْفُ وَالْفَتْكَةُ الْبِكْرُ

وَتَضْـرِيـبُ هَـامَـاتِ الْمُلُـوكِ وَأَنْ تُـرَىٰ ... لَـكَ الْهَبَـوَاتُ السُّودُ وَالْعَسْكَرُ الْمَجْرُ[٣]

وَتَـرْكُـكَ فِـي الـدُّنْيَـا دَوِيّـاً كَـأَنَّمَـا ... تَـدَاوَلَ سَمْـعَ الْمَـرْءِ أَنْمُلُـهُ الْعَشْـرُ

[ابن المقرب والشجاعة]

وفي « ديوانِ ابنِ المقربِ » الغثُّ والسمينُ ؛ فمِنْ سمينهِ الَّذي يذكي الحميَّةَ ، ويهيجُ الغَيْرَةَ ، ويكادُ يقذفُ بالمَوْتُورِ مِنْ سرجهِ إِلىٰ ساحةِ الوغىٰ . . قولُهُ : [مِنَ الوافرِ]

تُخَـوِّفُنِـي ابْنَـةُ الْعَبْـدِيِّ فَتْكِـي ... وَإِقْحَـامِـي الْمَهَـالِـكَ وَافْتِـرَاعِـي

وَتَعْـذِلُنِـي عَلَـىٰ إِنْفَـاقِ مَـالِـي ... وَتَـزْعُـمُ أَنَّـهُ لِلْفَقْـرِ دَاعِـي

فَقُلْـتُ لَهَـا وَقَـدْ أَرْبَـتْ وَزَادَتْ ... رُوَيْـدَكِ لاَ شُفِيـتِ فَلَـنْ تُطَـاعِـي

أَأَخْشَـىٰ الْفَقْـرَ وَالـدُّنْيَـا مَتَـاعٌ ... وَرَبِّـي بِـالْكِـرَامِ أَبَـرُّ رَاعِـي

وَلَـمْ يَحْفَـظْ مُضَـاعَ الْمَجْـدِ شَـيْءٌ ... مِـنَ الأَشْيَـاءِ كَـالْمَـالِ الْمُضَـاعِ

ذَرِينِـي وَالْمُلُـوكَ بِكُـلِّ أَرْضٍ ... أُكَـايِلُهَـا الـرَّدَىٰ صَـاعـاً بِصَـاعِ

فَمَـا أَيْمَـانُهُـمْ تَعْلُـو شِمَـالِـي ... وَلاَ أَبْـوَاعُهُـمْ تَعْلُـو ذِرَاعِـي[٤]

سَـأَطْلُـبُ حَـقَّ آبَـائِـي وَحَقِّـي ... وَلَـوْ مِـنْ بَيْـنِ أَنْيَـابِ الأَفَـاعِـي

[سرقة الشعراء من بعضهم]

وقولُهُ : (وَلَمْ يَحْفَظْ مُضَاعَ الْمَجْدِ شَيْءٌ . . . إلخ) مأخوذٌ بِرُمَّتِهِ مِنْ أَبي تمَّامٍ ، وقد أَخذهُ الناظمُ بمعناهُ ، فقالَ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ١٨٥] : [مِنَ الطويلِ]

إِلَـىٰ رَبِّ مَـالٍ كُلَّمَـا شَـتَّ شَمْلُـهُ ... تَجَمَّـعَ فِـي تَشْتِيتِـهِ لِلْعُـلاَ شَمْـلُ

---

(١) في « العكبري » : (بالآفَاتِ) بدل (بِالأَيَّامِ) .

(٢) الأَتِيُّ : السيل المندفع .

(٣) الهبواتُ : الغبارُ الكثيفُ . المَجْرُ ، يُقالُ : جيشٌ مَجْرٌ ، كثيرٌ جداً .

(٤) أبواعٌ ـ جمع باع وبوع : وهو وحدةُ قياسٍ مقدارُها ما بينَ الكفينِ حالَ بسطِهِمَا ، وتعادل : (٢) متراً . والذراعُ : وحدةُ قياسٍ مقدارُهَا ما بينَ طرفِ المرفقِ إِلىٰ طرفِ الإِصبَعِ الوسطىٰ . والبوع أيضاً عظم يلي إبهام الرجل .



وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٦٤] : [منَ الكامل]

أَبَـداً يُصَـدِّعُ شَعْـبَ وَفْـرٍ وَافِـرٍ وَيَلُـمُّ شَعْـبَ مَكَـارِمٍ مُتَصَـدِّعَـا[١]

إلاَّ أَنَّهُ أَرادَ أَنْ يمدحَ فذمَّ ؛ وذلكَ لاقتضاءِ كلامِهِ تصدُّعَ مكارمِ ممدوحهِ .

وقولُ أَبي تمَّامٍ السابقُ : (يَخُوضُ مَعَ السِّبَاعِ الْمَاءَ حَتَّىٰ . . . إلخ) مأخوذٌ مِنْ قولِ عبدِ اللهِ بنِ ثعلبةَ الأزديِّ : [من مجزوء الكامل]

تَـرِدُ السِّبَـاعُ مَعِـي فَتَحْـسَبُنِـي السِّبَـاعُ مِـنَ السِّبَـاعِ

[أجمل ما قيل في التحريض على الإباء]

والأشعارُ في التحريضِ على الإباءِ والأنَفِ مِنِ احتمالِ الضيمِ أكثرُ مِنْ أَنْ تُذكَرَ ، ويأتي في هٰذهِ المجموعةِ الكثيرُ الطيِّبُ منها بحسَبِ المناسباتِ ، ومِنْ أَحسنِها ، أَو أَحسنُها على الإطلاقِ عندي . . قولُ بعضِ الخوارجِ [في « شعرِ الخوارجِ » ١١٧ـ١١٨] : [منَ الطويل]

وَمَـنْ يَخْشَ أَظْفَـارَ الْمَنَـايَـا فَـإِنَّنَـا لَبِسْنَـا لَهُـنَّ السَّـابِغَـاتِ مِـنَ الصَّبْـرِ
وَإِنَّ كَـرِيــهَ الْمَــوْتِ عَــذْبٌ مَـذَاقُــهُ إِذَا مَـا مَـزَجْنَـاهُ بِطِيـبٍ مِـنَ الـذِّكْـرِ

* * *

[قالَ أَبو الطيِّبِ المتنبِّي ـ في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٦٠] : [منَ الطويل]

وَخُضْرَةُ ثَوْبِ الْعَيْشِ فِي الْخُضْرَةِ الَّتِي تُرِيكَ احْمِرَارَ الْمَوْتِ فِي مَدْرَجِ النَّمْلِ

[تشبيه المتنبي السيف]

شبَّهَ صفيحةَ السيفِ بمدرجِ النمل ؛ لِمَا فيهِ مِنْ آثارِ الفرِنْدِ[٢] ، وقالَ : إنَّ خفضَ العيشِ وطيبَهُ لا يكونُ إلاَّ في استعمالِ السيفِ الَّذي يميلُ صفاؤهُ إلى الخُضرةِ ؛ لأَنَّهُ أَفضلُ السيوفِ ، وفي المعنىٰ قولُهُ صلى الله عليه وسلم : « **وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي** »[٣] .

[أفضل المكاسب المغانم]

وصرَّحَ الفقهاءُ : بأَنْ أَفضلَ المكاسبِ المغانمُ ، فما جاءَ بها الناظمُ مِنْ كيسهِ ، ولا استنزلَها مِنْ سمائهِ ، ولا يُحصىٰ مَنِ افتخرَ مِنَ العربِ بصُفُورةِ اليدِ مِنَ المالِ مَعَ الاحتفاظِ بالسلاحِ .

---

(١) الشَّعبُ : مصدر شَعَبْتُ الشيءَ إذا لأَمتُه . الوفرُ : الغنىٰ . والمعنىٰ : يفرق المال ويجمع المكارم .

(٢) الفرِنْدُ : ما يُرىٰ في السيفِ مِنْ تموُّجاتِ الضوءِ . ومدرجُ النملِ : طريقهُ الذي يمشي فيهِ .

(٣) طرف الحديث أورده الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٥/ ٢٦٧) وقال : رواه الطبراني ، وفيه عبد الرحمٰن بن ثابت ، وثقه ابن المديني وأبو حاتم وغيرهما ، وضعفه أحمد وغيره ، وبقية رجاله ثقات .

[تمادح الشعراء بصفورة اليد إلا من عدة القتال]

قالَ أبو الأَبيضِ العَنْسيُّ [في « ديوان الحماسة » ١/ ١٧٩] : [منَ الطويل]

وَمَـا لِـيَ مَـالٌ غَيْـرَ دِرْعٍ وَمِغْفَـرٍ وَأَبْيَـضَ مِـنْ مَـاءِ الْحَـدِيـدِ صَقِيـلِ
وَأَسْمَـرَ خَطِّـيِّ الْقَنَـاةِ مُثَقَّـفٍ وَأَجْـرَدَ عُـرْيَـانِ السَّـرَاةِ طَـوِيـلِ (١)

وقالَ حاتِمٌ [في « ديوانِهِ » ٤٧] : [منَ الطويل]

مَتَىٰ مَا يَجِىءْ يَوْماً إِلَى الْمَالِ وَارِثِي يَجِدْ جَمْعَ كَفٍّ غَيْرَ مَلأَىٰ وَلاَ صِفْرِ
يَجِـدْ فَـرَسـاً مِثْـلَ الْعَنَـانِ وَصَـارِمـاً حُسَـامـاً إِذَا مَـا هَـزَّ لَـمْ يَـرْضَ بِـالْهَبْـرِ (٢)
وَأَسْمَـرَ خَطِّيّـاً كَـأَنَّ كُعُـوبَـهُ نَوَى الْقَسْبِ قَدْ أَرْبَىٰ ذِرَاعاً عَلَى الْعَشْرِ (٣)

هٰذا ما يقولُ أخو طيٍّ، أَمَّا صاحبنا: فقد شاءَ مِنْ ولعهِ بالغلوِّ أَنْ يزيدَ عليهِ ، فقالَ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٢٩٢] : [منَ الطويل]

وَأَسْمَـرَ ذِي عِشْـرِيـنَ تَـرْضَـاهُ وَارِداً وَيَـرْضَـاكَ فِـي إِيـرَادِهِ الْخَيْـلَ سَـاقِيَـا

وقالَ المجنُّ بنُ جُوَينٍ يمدحُ عمرَو بنَ معديكربَ الزُّبيديَّ حينما أَطلَقَهُ مِنَ الأَسرِ : [منَ الطويل]

فَتـىً جُـلُّ مَـا يَحْـوِيـهِ زَغْـفٌ مَفَاضَـةٌ وَطَـرْفٌ جَـوَادٌ وَالـرُّدَيْنِيَّـةُ السُّمْـرُ (٤)

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عَنَمَةَ الضبيُّ : [مِنَ البسيط]

وَقَـدْ أَرُوحُ أَمَـامَ الْحَـيِّ يَقْـذِفُنِـي صَافِي الأَدِيمِ كُمَيْتُ اللَّوْنِ مَكْسُوبُ
مُجَنَّـبٌ مِثْـلُ شَـاطِـي الـرَّمْـلِ مُخْتَفِـرٌ بِـالْعَقْـرَتَيْـنِ عَلَـىٰ أُولاَهُ مَصْبُـوبُ
فَـذَاكَ ذُخْـرِي إِذَا مَـا خَيْلُهُـمْ رَكَضَـتْ إِلَـى الْمَنُـونِ هَفَـا لِلـرَّوْعِ سَـرْحُـوبُ (٥)

وقالَ عمرُو بنُ براقِ الهمدانيُّ [في « الأغاني » ٢١/ ١٧٥ـ١٧٦] : [مِنَ الطويلِ]

وكيـفَ يَنَـامُ اللَّيْـلَ مَـنْ جُـلُّ مَـالِـهِ حُسَـامٌ كَلَـوْنِ الْمِلْـحِ أَبْيَـضُ صَـارِمُ
كَـذَبْتُـمْ وَبَيْـتِ اللهِ لاَ تَـأْخُـذُونَهَـا مُـرَاغَمَـةً مَـا دَامَ لِلسَّيْـفِ قَـائِـمُ
وَمَـنْ يَطْلُـبِ الْمَـالَ الْمُمَنَّـعَ بِـالْقَنَـا يَعِـشْ مَـاجِـداً أَوْ تَخْتَـرِمْـهُ الْخَـوَارِمُ (٦)

[الحجر الذي لا يعجبك بشجُك]

وذكرَ الزبيرُ بنُ بَكَّارٍ : أَنَّ نُهَيْكَ بنَ أَسافِ الحارثيَّ افتقرَ ، فقدمَ علىٰ مصعبِ بنِ الزبيرِ ، حينَ بلغهُ أَنَّ أَهلَ (الراذانِ) قـد خلعـوهُ ، فنـدبَ النـاسَ مـراراً ، فلـم ينتـدبْ لَـهُ إِلاَّ نهيـكُ ، قـامَ محتـزمـاً بحبـلٍ ، وعلـىٰ رأسـهِ

---

(١) الأسمرُ المثقفُ : الرمُح المسوَّىٰ . السراةُ مِن كلِّ شيءٍ : أعلاهُ ، وسراةُ الفرسِ أعلىٰ مَتنهِ .

(٢) الهبرُ : قِطَعُ اللحمِ .

(٣) القَسبُ : نوعٌ مِنَ التمورِ .

(٤) زَغفٌ مَفَاضَةٌ : درعٌ واسعةٌ . الرُّدَينيَّةُ : الرماحُ ، وسميتْ بذلكَ ؛ نسبةً إلى امرأةٍ كانتْ تسوي الرماحَ .

(٥) السرحوبُ : الطويلُ الحسنُ الجسمِ ، وفرسٌ سرحوبٌ : طويلةٌ علىٰ وجهِ الأرضِ .

(٦) في « الأغاني » : يعش ذا غنىً .



سَمَلُ[1] عمامةٍ مُتنكِّباً قوساً عربيَّةً ، فقالَ : أنا لهُم ، قالَ : ومَنْ أنتَ ؟ فانتسبَ لهُ ، فقالَ : اجلسْ ، وكأنَّهُ ازدراهُ ، ثُمَّ أعادَ القولَ فلمْ يقُمْ غيرُهُ ، فعلَ ذلكَ مراراً ، فقالَ لهُ مصعبٌ : ما عندكَ ؟ قالَ : عزمٌ إذا أبصرتُ ، ومشاورةٌ إذا شككتُ ، قالَ : أنتَ لها ، وعقدَ لهُ عليها ، وقالَ لهُ : إنْ أظفرَكَ اللهُ بها . . أطعمتُكها سنةً ، فخرجَ وظفرَ ، وبعثَ إلىٰ أُمِّهِ إبلاً مُحمَّلَةً ، وكتبَ إليها يقول : [مِنَ الطويلِ]

أَأُمَّ نُهَيْكٍ إِرْفَعِي الظَّنَّ صَاعِداً ... وَلاَ تَيْأَسِي أَنْ يُثْرِيَ الدَّهْرَ آيِسُ
سَأَكْسِبُ مَالاً أَوْ تَبِيتِنَّ لَيْلَةً ... بِصَدْرِكِ مِنْ هَمٍّ عَلَيَّ وَسَاوِسُ
وَقَدْ عَلِمَتْ خَيْلٌ بِرَاذَانَ أَنَّنِي ... شَدَدْتُ وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْقَوْمِ فَارِسُ
وَمَنْ يَطْلُبِ الْمَالَ الْمُمَنَّعَ بِالْقَنَا ... يَعِشْ مُثْرِياً أَوْ يُودَ فِيمَا يُمَارِسُ[2]

[الغلام القيسي]

وقال غُلامٌ مِنْ قيسٍ : [مِنْ مجزوءِ الرمَلِ]

اِقْذِفِ السَّرْجَ عَلَى الْمُهْـ ... ـرِ وَقَرِّطْهُ اللِّجَامَا
ثُمَّ صُبَّ الدِّرْعَ فِي رَأْ ... سِي وَنَاوِلْنِي الْحُسَامَا
فَمَتَىٰ أَطْلُبُ إِنْ لَمْ ... أَطْلُبِ الرِّزْقَ غُلاَمَا
سَأَجُوبُ الأَرْضَ أَبْغِيـ ... ـهِ حَلاَلاً أَوْ حَرَامَا
فَلَعَلَّ الظَّعْنَ يَنْفِي الْـ ... ـفَقْرَ أَوْ يُدْنِي الْحِمَامَا

[رثاء هدبة اليشكري]

وقالَ أيُّوبُ بنُ خولةَ يرثي هدبةَ اليَشكُريَّ ، وهو مِنَ الخوارجِ في أيَّامِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ [في « شعرِ الخوارجِ » ٧١] :

[مِنَ الطويلِ]

فَيَا هُدْبَ لِلْهَيْجَا وَيَا هُدْبَ لِلْفِدَا ... وَيَا هُدْبَ لِلْخَصْمِ الأَلَدِّ تُحَارِبُهْ
تَزَوَّدْتَ مِنْ دُنْيَاكَ دِرْعاً وَمِغْفَراً ... وَعَضْباً حُسَاماً لَمْ تَخُنْكَ مَضَارِبُهْ
وَأَجْرَدَ مَحْبُوكِ السَّرَاةِ كَأَنَّهُ ... إِذَا انْقَضَّ وَافِي الرِّيشِ حُمْشٌ مَخَالِبُهْ[3]

[القطامي والبداوة]

وقالَ القُطاميُّ [في « ديوانِهِ » ٧٦] : [مِنَ الوافرِ]

فَمَنْ تَكُنِ الْحَضَارَةُ أَعْجَبَتْهُ ... فَأَيَّ رِجَالِ بَادِيَةٍ تَرَانَا ؟
وَمَنْ رَبَطَ الْجِحَاشَ فَإِنَّ فِينَا ... قَنـاً صُلْباً وَأَفْرَاساً حِسَانَا

---

(١) السَّمَلُ : الخلَقُ مِنَ الثيابِ .

(٢) الأبيات في « الأغاني » (٢٤/ ١٤) لعبد الله ابن أبي معقلٍ في غير هـٰذا الموضوع .

(٣) وافي الريشِ : الجارح الذي كثر ريشه وتم . حُمْشٌ : شديدةٌ .

[رثاء الوليد بن طريف]

وقالتْ ليلىٰ بنتُ طريفٍ ترثي أخاها الوليدَ [في « وفياتِ الأعيانِ » ٦/ ٣٢] : [مِنَ الطويلِ]

فَتـىً لاَ يُحِـبُّ الـزَّادَ إلاَّ مِـنَ التُّقَـىٰ ... وَلاَ الْمَـالَ إلاَّ مِـنْ قَنـاً وَسُيُـوفِ

وَلاَ الـذُّخْـرَ إلاَّ كُـلَّ جَـرْدَاءَ صِلْـدِمٍ ... مُعَـاوِدَةٍ لِلْكَـرِّ بَيْـنَ صُفُـوفِ (١)

[المعري والمال المكتسب في الحروب]

وقد أغارَ علىٰ أوَّلِهِمَا المعرِّيُّ في قولِهِ [في « سقطِ الزندِ » ١٢٥] : [مِنَ الوافرِ]

رَأَيْتُـكَ سَـاخِطـاً مَـا جَـاءَ عَفْـواً ... وَلَـوْ جَـادَتْـكَ بِـالـذَّهَـبِ الْعِهَـادُ (٢)

فَمَـا تَعْتَـدُّ مَـالاً غَيْـرَ مَـالٍ ... حَبَـاكَ بِـهِ طِعَـانٌ أَوْ جِـلاَدُ (٣)

[فقراء بني النطَّاح]

وقالَ بكرُ بنُ النَّطَّاحِ : [مِنَ الطويلِ]

وَمَـنْ يَفْتَقِـرْ مِنَّـا يَعِـشْ بِحُسَـامِـهِ ... وَمَـنْ يَفْتَقِـرْ مِـنْ سَـائِـرِ النَّـاسِ يَسْـأَلِ

[صورة رائعة من شجاعة بكر بن النطاح]

فيُروىٰ [كما في « الأغاني » ١٩/ ١١٦] : أنَّهُ وفدَ علىٰ أبي دُلَفٍ العِجْليِّ ، فقالَ لهُ : أراكَ تتظاهَرُ بالشجاعةِ في أشعارِكَ ، وما رأيتُ لها أثراً في أفعالِكَ ، فقالَ : وما عسىٰ أنْ يكونَ مِنْ شيخٍ راجلٍ أعزلَ ، فقلَّدَهُ سيفاً ، وأعطاهُ فرساً ، فخرجَ لوجهِهِ ، وجمعَ مِنَ الذُّوبَانِ(٤) والصعالكِ ما أَلَّفَ بهِ جماعةً ، ثُمَّ عرضَ لقافلةٍ مِنْ قوافلِ الأميرِ فاستاقَها ، وقتلَ مَنْ فيها ، وأَغَذَّ السيرَ حتَّىٰ سبقَ الطلبَ ، فقالَ أبو دلفٍ : أنا الَّذي هيجتُهُ ، ثُمَّ استدعاهُ ، وسوَّغهُ ما أخذَ .

[رواية أخرىٰ للقصة]

ويُروىٰ : أنَّ القصَّةَ إنَّما كانتْ معَ بعضِ بني بكرٍ لا معهُ ، وأنَّ أبا دُلفٍ قالَ لهُ : أتستميحُ وأبوكَ القائلُ(٥) ؟! فقالَ لهُ : لقد أودعتَها أُذُناً واعيةً ، ثُمَّ فعلَ فِعلتهُ الَّتي فعلَ ، وهو مِنَ الظالمينَ ، واللهُ أعلمُ أيُّ ذلكَ كانَ ، فالرواياتُ تختلفُ .

[مديح بشار]

وقالَ بشَّارٌ يمدحُ [في « ديوانه » ٤/ ١٠٥] : [مِنَ الطويلِ]

إِذَا خَـزَنَ الْمَـالَ الْبَخِيـلُ فَـإِنَّمَـا ... خَـزَائِنُـهُ خَطِّيَّـةٌ وَدُرُوعُ (٦)

وَبِيـضٌ بِهَـا مِسْـكٌ لِمَـسِّ أَكُفِّهِـمْ ... عَلَـىٰ أَنَّهَـا رِيـحُ الـدِّمَـاءِ تَضُـوعُ (٧)

---

(١) **جرداء** : قصيرةُ الشَّعرِ ، وهوَ من علاماتِ العِتاقِ والكرامِ في الخيلِ . **الصِّلْدِمُ** : الشديدُ الحافرِ .

(٢) **العِهادُ** : المطرُ .

(٣) **الطعانُ والجلادُ** : القتالُ والثباتُ في مقارعةِ الأعداءِ .

(٤) **الذوبان** : اللصوصُ ؛ وسموا بذلكَ لأنهمْ كالذئبانِ ، وأصلهُ بالهمزِ لكنهُ خففَ فانقلبت واواً .

(٥) أي : أحد أولاد بكر بن النطاح ، وقد قال أبوه : ومن يفتقر منا . . .

(٦) **خطيةٌ** : رماحٌ منسوبةٌ إلىٰ بلدةِ (خَطٍّ) ، وهو موضعٌ بـ(اليمامةِ) .

(٧) **تضوعُ** : تنتشرُ وتفوحُ .

[اقتداء ابن المعتز به]

وهو معنىً جليلٌ حسدَهُ عليهِ ابنُ المعتزِّ ، فأَحسنَ اتِّباعَهُ حيثُ يقولُ [في « ديوانه » ١/ ١٠٥] : [مِنَ الطويلِ]

مُلُوكٌ إِذَا خَاضُوا الْوَغَىٰ فَسُيُوفُهُمْ مَقَابِضُهَا مِسْكٌ وَسَائِرُهَا دَمُ

[إجادة المديح عند المعري]

عَلَىٰ أَنَّهُ قد يؤخذُ علىٰ بشَّارٍ أَنَّ الرائحةَ المسكيَّةَ لا تكونُ إِلاَّ لدماءِ الشهداءِ ، فكيفَ يُثني علىٰ ممدوحهِ بحربهم ؟ وإِنَّما أَصابَ كبدَ المعنى الأَعمى الثاني في قولهِ [أَي المعرِّيّ في « سقطِ الزندِ » ١٦١] : [مِنَ البسيطِ]

كَأَنَّمَا الضَّرْبُ يَفْرِي مِنْ كُلُومِهِمُ أَكْبَادَ سِرْبٍ رَعَيْنَ النَّوْرَ فِي الْكُنُسِ[1]

سَالَتْ تَضَوَّعُ حَتَّىٰ ظَنَّ جَارِحُهُمْ قَسِيمَةَ الْمِسْكِ جُرْحَ الْفَارِسِ النَّدُسِ[2]

[الرثاء والمديح عند الشعراء]

وقالَ مروانُ ابنُ أَبي حفصةَ يرثي مَعْناً فيما نحنُ بسبيلهِ [في « ديوانه » ٨٠] : [مِنَ الوافرِ]

وَلَمْ يَكُ كَنْزُهُ ذَهَباً وَلَكِنْ حَدِيدَ الْهِنْدِ وَالْحَلَقَ الْمُذَالاَ[3]

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانه » ٢/ ٨٨٠] : [مِنَ الطويلِ]

قَلِيلُ فُضُولِ الزَّادِ إِلاَّ صَوَاهِلاً ظَهَارِيَّ طَعْنٍ أَوْ حَدِيداً يُظَاهِرُهْ[4]

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٧٠ـ٢٧١] : [مِنَ الكاملِ]

كُنَّا نَظُنُّ دِيَارَهُ مَمْلُوءَةً ذَهَباً فَمَاتَ وَكُلُّ دَارٍ بَلْقَعُ

وَإِذَا الْمَكَارِمُ وَالصَّوَارِمُ وَالْقَنَا وَبَنَاتُ أَعْوَجَ كُلُّ شَيْءٍ يَجْمَعُ[5]

وقالَ أَبو المنيعِ قرواشٌ معتمدُ الدولةِ [في « وفياتِ الأَعيانِ » ٥/ ٢٦٤] : [مِنَ الكاملِ]

مَنْ كَانَ يَحْمَدُ أَوْ يَذُمُّ مُوَرِّثاً لِلْمَالِ مِنْ آبَائِهِ وَجُدُودِهِ

فَأَنَا امْرُؤٌ للهِ أَشْكُرُ وَحْدَهُ شُكْراً كَثِيراً جَالِباً لِمَزِيدِهِ

لِي أَشْقَرٌ مِلْءُ الْعِنَانِ مُغَاوِرٌ يُعْطِيكَ مَا يُرْضِيكَ مِنْ مَجْهُودِهِ

وَمُهَنَّدٌ عَضْبٌ إِذَا جَرَّدْتُهُ خِلْتَ الْبُرُوقَ تَمُوجُ فِي تَجْرِيدِهِ

وَمُثَقَّفٌ لَدْنُ السِّنَانِ كَأَنَّمَا أُمُّ الْمَنَايَا رُكِّبَتْ فِي عُودِهِ[6]

فَبِذَا حَوَيْتُ الْمَالَ إِلاَّ أَنَّنِي سَلَّطْتُ جُودَ يَدِي عَلَىٰ تَبْدِيدِهِ

---

(١) النَّوْرُ : الزهرُ . الكُنُسُ : جمعُ كناسٍ ، وهو مأوى الظبي .

(٢) النَّدُسُ : الحاذقُ بالطعنِ .

(٣) الحَلَقُ المُذَالُ : الدرعُ المصنوعُ صناعةً جيدةً محكمةً .

(٤) الظهاريُّ : جمعُ ظِهري ، وهو البعيرُ القويُّ الظهرِ ، المُعَدُّ لوقتِ الحاجةِ .

(٥) راجع معنى الخيلِ الأعوجيةِ آخرَ هـٰذا المجلسِ .

(٦) اللَّدْنُ : اللينُ مِنْ كلِّ شيءٍ ، من عودٍ أو حبلٍ أو رمحٍ .

وَأَمَّا الاعتدادُ بالسلاحِ والكُراعِ ومجردُ وصفهِ : فأكثرُ وأكثرُ ، قالَ الشدَّاخُ : [منَ الطويل]

أَبَيْنَـا فَـلاَ نُعْطِـي مَلِيكـاً ظُـلاَمَـةً ... وَلاَ سُـوقَـةً إِلاَّ الـوَشِيـجَ الْمُقَـوَّمَـا
وَإِلاَّ حُسَـامـاً يُبْهِـرُ العَيْـنَ لَمْحُـهُ ... كَصَـاعِقَـةٍ فِـي عَـارِضٍ قَـدْ تبَسَّمَـا

وقالَ مالكُ بنُ حزيمٍ الْهَمدانيُّ : [منَ الطويل]

وَكُنْتُ إِذَا قَـوْمٌ غَـزَوْنِـي غَـزَوْتُهُـمْ ... فَهَـلْ أَنَـا فِـي ذَا يَـا الَ هَمْدَانَ ظَـالِـمُ ؟
مَتَـىٰ تَجْمَعُ الْقَلْـبَ الـذَّكِيَّ وَصَـارِمـاً ... وَأَنْفـاً حَمِيّـاً تَجْتَنِبْـكَ الْمَظَـالِـمُ

وقالَ يحيىٰ بنُ منصورٍ الحنفيُّ : [منَ الطويل]

وَلَمَّـا نَـأَتْ عَنَّـا الْعَشِيـرَةُ كُلُّهَـا ... أَنَخْنَـا مُخَـالِفَنَـا السُّيُـوفَ عَلَـى الـدَّهْرِ
فَمَـا أَسْلَمَتْنَـا عِنْـدَ يَـوْمِ كَـرِيهَـةٍ ... وَلاَ نَحْـنُ أَغْضَيْنَـا الْجُفُـونَ عَلَـىٰ وَتْـرِ

وقالَ عمرُو بنُ معديكربَ الزبيديُّ لسعدِ ابنِ أَبي وقاصٍ [في « ديوانه » ١٣٨] : [منَ الطويل]

أَيُـوعِـدُنِـي سَعْـدٌ وَفِـي الْكَـفِّ صَـارِمٌ ... سَيَمْنَـعُ مِنِّـي أَنْ أَذِلَّ وَأَخْضَعَـا
فَـوَاللهِ لَـوْلاَ اللهُ لاَ شَـيْءَ غَيْـرُهُ ... لَجَلَّلْتُـهُ الصَّمْصَـامَ أَوْ يَتَقَطَّعَـا[1]

وقالَ دريدُ بنُ الصِّمَّةِ الجشميُّ [في « ديوانه » ٦٠] : [منَ الوافر]

أَعَـاذِلُ إِنَّمَـا أَفْنَـىٰ شَبَـابِـي ... رُكُـوبِـي فِـي الصَّبَـاحِ إِلَـى الْمُنَـادِي
مَـعَ الْفِتْيَـانِ حَتَّـىٰ سَـلَّ جِسْمِـي ... وَأَقْـرَحَ عَـاتِقِـي حَمْـلُ النِّجَـادِ
أَعَـاذِلُ إِنَّـهُ مَـالٌ طَـرِيـفٌ ... أَحَـبُّ إِلَـيَّ مِـنْ مَـالٍ تِـلاَدِ
أَعَـاذِلُ عُـدَّتِـي بِـزِّي وَسَـرْجِـي ... وَكُـلُّ مَقَلِّـصٍ سَلِـسِ الْقِيَـادِ
وَيَبْقَـىٰ بَعْـدَ حِلْـمِ الْقَـوْمِ حِلْمِـي ... وَيَفْنَـىٰ قَبْـلَ زَادِ الْقَـوْمِ زَادِي

وقالَ امرؤُ القيسِ يصفُ رُمحاً ، وهوَ مِنْ أَبلغِ الكلامِ ، ويستشهدُ بهِ أَهلُ البيانِ علىٰ تفصيلِ التشبيهِ [في « ديوانه » ٢١٧] :

[منَ الطويل]

حَمَلْـتُ رُدَيْنِيّـاً كَـأَنَّ سِنَـانَـهُ ... سَنَـا لَهَـبٍ لَـمْ يَتَّصِـلْ بِـدُخَـانِ

وقالَ أَبو الهولِ الحميريُّ يصفُ سيفاً : [منَ الخفيف]

مَـا يُبَـالِـي إِذَا الضَّـرِيبَـةُ حَـانَـتْ ... أَشِمَـالٌ سَطَـتْ بِـهِ أَمْ يَمِيـنُ
وَكَـأَنَّ الْفِـرِنْـدَ وَالـرَّوْنَـقَ الْجَـا ... رِي عَلَـىٰ صَفْحَتَيْـهِ مَـاءٌ مَعِيـنُ
نِعْـمَ مِخْـرَاقُ ذِي الْحَفِيظَـةِ فِـي الْهَيْـجَـاءِ يَسْطُـو بِـهِ وَنِعْـمَ الْمُعِيـنُ

---

(١) جَلَّلْتُهُ الصمصامَ : علوتهُ بسيفي . الصمصامُ : السيفُ الصارمُ .

وقالَ ابنُ المعتزِّ [في « ديوانه » ٢/٦٣] : [منَ الطويل]

وَلِـي صَـارِمٌ فِيـهِ الْمَنَـايَـا كَـوَامِـنٌ ... فَمَـا يُنْتَضَـىٰ إِلاَّ لِسَفْـكِ دِمَـاءِ

تَـرَىٰ فَـوْقَ مَتْنَيْـهِ الْفِـرِنْـدَ كَـأَنَّـهُ ... بَقِيَّـةُ غَيْـمٍ رَقَّ دُونَ سَمَـاءِ

وقالَ أبو تمَّامٍ يصفُ رِماحاً [في « ديوانه » ١/ ٤٢٠] : [منَ البسيط]

مُثَقَّفَـاتٍ سَلَبْـنَ الـرُّومَ زُرْقَتَهَـا ... وَالْعُـرْبَ أُدْمَتَهَـا وَالْعَاشِـقَ الْقَضَفَـا(1)

وقالَ مزردٌ : [منَ الطويل]

وَمُطَّـرِدٍ لَـدْنِ الْكُعُـوبِ كَـأَنَّمَـا ... تَغَشَّـاهُ مِنْبَـاعٌ مِـنَ الـزَّيْـتِ سَـائِـلُ(2)

أَصَـمَّ إِذَا مَـا هُـزَّ مَـارَتْ سَـرَاتُـهُ ... كَمَـا مَـارَ ثُعْبَـانُ الـرِّمَـالِ الْمُـوَائِـلُ(3)

لَـهُ رَائِـدٌ مَـاضِ الْفِـرَارِ كَـأَنَّـهُ ... هِـلاَلٌ بَـدَا فِـي ظُلْمَـةِ اللَّيْـلِ نَـاحِـلُ

وقالَ البُحتريُّ يصفُ سيفاً [في « ديوانه » ٣/ ١٧٤٧ـ١٧٤٨] : [منَ الكامل]

مَـاضٍ وَإِنْ لَـمْ تُمْضِـهِ يَـدُ فَـارِسٍ ... بَطَـلٍ وَمَصْقُـولٌ وَإِنْ لَـمْ يُصْقَـلِ

يَغْشَـى الْـوَغَـىٰ فَـالتُّـرْسُ لَيْـسَ بِجُنَّـةٍ ... مِـنْ حَـدِّهِ وَالـدِّرْعُ لَيْـسَ بِمَعْقِـلِ

مُصْـغٍ إِلَـىٰ حُكْـمِ الـرَّدَىٰ فَـإِذَا مَضَـىٰ ... لَـمْ يَلْتَفِـتْ وَإِذَا قَضَـىٰ لَـمْ يَعْـدِلِ

مُتَـوَقِّـدٌ يَفْـرِي بِـأَوَّلِ ضَـرْبَـةٍ ... مَـا أَدْرَكَـتْ وَلَـوَ انَّهَـا فِـي يَـذْبُـلِ(4)

وَإِذَا أَصَـابَ فَكُـلُّ شَـيْءٍ مَقْتَـلٌ ... وَإِذَا أُصِيـبَ فَمَـا لَـهُ مِـنْ مَقْتَـلِ

وقولُهُ : (ماضٍ وَإِنْ لَم تُمْضِهِ . . . إلىٰ آخره) غلوٌّ لا يقبلُ ، وقد أَلَمَّ بهِ المعرِّيُّ فأحسنهُ بالمقاربةِ إذ قالَ [في « سقط الزند » ١٠٠] : [منَ الوافر]

تَكَـادُ قِسِيُّـهُ مِـنْ غَيْـرِ رَامٍ ... تُمَكِّـنُ فِـي قُلُـوبِهِـمُ النِّبَـالاَ

تَكَـادُ سُيُـوفُـهُ مِـنْ غَيْـرِ سَـلٍّ ... تُجِـدُّ إِلَـىٰ رِقَـابِهِـمُ انْسِـلاَلاَ

وقالَ ابنُ هانىءٍ الأندلسيُّ ، وفيه مناسبةٌ لما سبقَ مِنْ خُضرةِ السيفِ [في « ديوانه » ١٦١] : [منَ الكامل]

فُتِقَـتْ لَكُـمْ رِيـحُ الْجِـلاَدِ بِعَنْبَـرٍ ... وَأَمَـدَّكُـمْ فَلَـقُ الصَّبَـاحِ الْمُسْفِـرِ(5)

وَجَنَيْتُـمُ ثَمَـرَ الْـوَقَـائِـعِ يَـانِعـاً ... بِـالنَّصْـرِ مِـنْ وَرَقِ الْحَـدِيـدِ الأَخْضَـرِ(6)

---

(١) المثقفاتُ : الرماح المقوماتُ ، ثمَّ وصفهنَّ بقوله : سلبْنَ زرقةَ عيونِ الرومِ لأسنتهنَّ الزرقِ ، وسُمرةَ العربِ لأعوادِهنَّ ، وأخذْنَ مِنَ العاشقِ قضافتَهُ : أي لطافتَهُ .

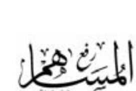
(٢) المُطَّرِدُ : الفرسُ . لَدْنُ الكعوبِ : ليِّن المفاصلِ ، شبَّههُ بالرمح ليِّن العُقَدِ .

(٣) مارَ : تحرّكَ وتدافعَ . السَّراةُ من الفرسِ : أعلىٰ ظهرِهِ . الموائِلُ : الذاهبُ إلىٰ ملجئِهِ .

(٤) يذبل : اسم جبل في (نجد) .

(٥) فُتِقَ المسكُ : استُخرجَتْ رائحتُهُ . الجلادُ : الحربُ .

(٦) ورقُ الحديدِ : السيوفُ .



وقولُهُ : (فُتِقَتْ لَكُمْ . . . إِلىٰ آخرهِ) يقربُ مِنْ **قولِ الناظمِ** [في « العُكْبَرِيّ » ٤/٢٢٨] : [منَ البسيط]

كَـأَنَّهُـمْ يَـرِدُونَ الْمَـوْتَ مِـنْ ظَمَـأٍ ... أَوْ يَنْشَقُـونَ مِـنَ الْخَطِّـيِّ رَيْحَـانَـا

وقالَ **الشريفُ الرضيُّ** [في « ديوانه » ١/ ٣٨٠] : [منَ الكامل]

وَاسْتَنْـزَلُـوا أَرْزَاقَهُـمْ بِسُيُـوفِهِـمْ ... فَغَنَـوْا بِغَيْـرِ مَـذَلَّـةٍ وَصَغَـارِ

نَـزَلُـوا بِقَـارِعَـةٍ تَشَـابَـهَ عِنْـدَهَـا ... ذُلُّ الْعَبِيـدِ وَعِـزَّةُ الأَحْـرَارِ

[الاعتداد بالسلاح عند المتنبي معنىً متكرر]

والبيتُ الَّذي نتكلَّمُ فيهِ مكرَّرُ المعنىٰ في « **ديوانهِ** » ، منه **قولُهُ** [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٢٢٢] : [منَ البسيط]

أَأَطْـرَحُ الْمَجْـدَ عَـنْ كِتْفِـي وَأَطْلُبُـهُ ... وَأَتْـرُكُ الْغَيْـثَ فِـي غِمْـدِي وَأَنْتَجِـعُ(١)

وَالْمَشْـرَفِيَّـةُ ـ مَـا زَالَـتْ مُشَـرَّفَـةً ـ ... دَوَاءُ كُـلِّ كَـرِيـمٍ أَوْ هِـيَ الْـوَجَـعُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ١٦٠] : [منَ البسيط]

مَـنِ اقْتَضَـىٰ بِسِـوَى الْهِنْـدِيِّ حَـاجَتَـهُ ... أَجَـابَ كُـلَّ سُـؤَالٍ عَـنْ هَـلٍ بِلَـمِ(٢)

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ١٧٣] : [منَ البسيط]

وَجَـدْتُ أَنْفَـعَ مَـالٍ كُنْـتُ أَذْخَـرُهُ ... مَـا فِي السَّـوَابِـقِ مِـنْ جَـرْيٍ وَتَقْـرِيـبِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٧٨] : [منَ البسيط]

لاَ أَكْسِـبُ الـذِّكْـرَ إِلاَّ مِـنْ مَضَـارِبِـهِ ... أَوْ مِـنْ سِنَـانٍ أَصَـمِّ الْكَعْـبِ مُعْتَـدِلِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ١٠٨] : [منَ الطويل]

وَلَـٰكِنَّنِـي مُسْتَنْصِـرٌ بِـذُبَـابِـهِ ... وَمُـرْتَكِـبٌ فِـي كُـلِّ حَـالٍ بِـهِ الْغَشْمَـا(٣)

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٣٧٣] : [منَ المنسرح]

كُـنْ لُجَّـةً أَيُّهَـا السَّمَـاحُ فَقَـدْ ... آمَنَـهُ سَيْفُـهُ مِـنَ الْغَـرَقِ

وقالَ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٢٢] : [منَ البسيط]

هِنْـدِيَّـةٌ إِنْ تُصَغِّـرْ مَعْشَـراً . . صَغُـرُوا ... بِحَـدِّهَـا أَوْ تُعَظِّـمْ مَعْشَـراً . . عَظُمُـوا

وقالَ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٢٥] : [منَ البسيط]

مُقَلَّـداً فَـوْقَ شُكْـرِ اللهِ ذَا شُطَـبٍ ... لاَ تُسْتَـدَامُ بِـأَمْضَـىٰ مِنْهُمَـا النِّعَـمُ

[تشبيه جوهر السيف بمدرج النمل عند الشعراء]

وأَمَّا تشبيهُ جَوْهرِ السيفِ بمدرجِ النملِ : فإِنَّهُ شائعٌ في أَشعارِهِمْ ، منهُ قولُ أَوسِ بنِ حجرٍ [في «ديوانه» ٨٥] : [منَ الطويل]

كَـأَنَّ مَـدَبَّ النَّمْـلِ يَتَّبِـعُ الـرُّبَـىٰ ... وَمَـدْرَجَ ذَرٍّ خَـافَ بَـرْداً فَـأَسْهَـلاَ

---

(١) **الانتجاعُ في الأصلِ** : طلبُ الكلأ ، ثمَّ صارَ كلُّ طلبٍ انتجاعاً .

(٢) **المعنىٰ كما قاله الواحدي** : من طلب حاجته بغير السيف . . أجاب سائله عن قوله : هل أدركت حاجتك ؟ بقوله : لم أدرك .

(٣) **ذبابُ السيفِ** : طرفُهُ . **الغشمُ** : الظلمُ .

عَلَىٰ صَفْحَتَيْهِ بَعْدَ حِينِ جِلاَئِهِ كَفَىٰ بِالَّذِي أُبْلِي وَأَنْعَتُ مُنْصُلاَ[١]

وقولُ ابنِ دريدٍ : [منَ الرَّجزِ]

وَصَاحِبَايَ صَارِمٌ فِي مَتْنِهِ مِثْلُ مَدَبِّ النَّمْلِ يَعْلُو فِي الرُّبَىٰ

وقالَ أبو العلاءِ المعرِّيُّ يصفُ سيفاً [في « سقطِ الزند » ١٥٣] : [منَ الطويل]

كَأَنَّ الْمَنَايَا جَيْشُ ذَرٍّ عَرَمْرَمٌ تَخِذْنَ إِلَى الأَرْوَاحِ فِيهِ مَسَارَا

وقالَ أيضاً [في « سقطِ الزندِ » ١٠٥] : [منَ الوافر]

سَلِيلُ النَّارِ دَقَّ وَرَقَّ حَتَّىٰ كَأَنَّ أَبَاهُ أَوْرَثَهُ السُّلاَلاَ[٢]
مُحَلًّى الْبُرْدِ تَحْسَبُهُ تَرَدَّىٰ نُجُومَ اللَّيْلِ وَانْتَعَلَ الْهِلاَلاَ
مُقِيمُ النَّصْلِ فِي طَرَفَيْ نَقِيضٍ يَكُونُ تَبَايُنٌ مِنْهُ اشْتِكَالاَ[٣]
تَبَيَّنُ فَوْقَهُ ضَحْضَاحَ مَاءٍ وَتُبْصِرُ فِيهِ لِلنَّارِ اشْتِعَالاَ
غِرَارَاهُ لِسَانَا مَشْرَفِيٍّ يَقُولُ غَرَائِبَ الْمَوْتِ ارْتِجَالاَ
إِذَا بَصُرَ الأَمِيرُ وَقَدْ نَضَاهُ بِأَعْلَى الْجَوِّ ظَنَّ عَلَيْهِ آلاَ[٤]
وَدَبَّتْ فَوْقَهُ حُمْرُ الْمَنَايَا وَلَكِنْ بَعْدَمَا مُسِخَتْ نِمَالاَ

وهٰذا موضعُ الشاهدِ ، وقد نظرَ فيهِ إلى البيتِ الذي نتكلَّمُ فيهِ ، وقالَ [في « سقطِ الزندِ » ١١٠] : [منَ البسيط]

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ جَفْناً قَبْلَ مَسْكَنِهِ فِي الْجَفْنِ يُطْوَىٰ عَلَىٰ نَارٍ وَلاَ نَهَرِ[٥]
وَلاَ ظَنَنْتُ صِغَارَ النَّمْلِ يُمْكِنُهَا مَشْيٌ عَلَى اللُّجِّ أَوْ سَعْيٌ عَلَى السُّعُرِ[٦]

[تسمية السيف بالهندي أو المشرفي]

ومتىٰ سُوِّيَ السيفُ بـ (الهندِ) . . فهو مُهَنَّدٌ وهنديٌّ وهندوانيٌّ ، وإذا عُملَ بـ (المشارفِ) ، وهي قرىً مِنْ أرضِ العربِ تدنو مِنَ الريفِ . . فهوَ مَشْرَفيٌّ .

* * *

---

(١) فأسهلَ : أتى السهلَ ، أي : أنَّ النملَ تركَ أعلى الوادي وأتى السهلَ لشدَّةِ البردِ . الجلاءُ : الصقلُ . المُنْصُلُ : السيفُ .
(٢) سليلُ النارِ : السيفُ الذي رقَّ من النارِ . السُّلالُ : داءُ السلِّ .
(٣) طرفي نقيضٍ هنا : الماءُ والنارُ .
(٤) آلاً : بَرْقاً .
(٥) الجفنُ : غمدُ السيفِ .
(٦) صغارُ النملِ : كنايةٌ عن تموجات الضوء علىٰ صفحة السيف . اللُّجُّ : الماءُ . السُّعُر : النار المشتعلة .

[قالَ أبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٦١] : [منَ الطويل]

أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِي بِمَا وَكَأَنَّهُ ... فَمَا أَحَدٌ فَوْقِي وَلاَ أَحَدٌ مِثْلِي

[الفخر والاعتداد بالنفس عند المتنبي]

يقولُ : لا تُشبِّهْني بأَحدٍ ، ولا تقلْ كَأَنَّهُ فلانٌ ، أَو ما أَشبههُ بفلانٍ ، وهي حماقةٌ فاحشةٌ ، وغرورٌ مستهجَنٌ ، ومثلُهُ قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ١٠٧] : [منَ الطويل]

تَغَرَّبَ لاَ مُسْتَعْظِماً غَيْرَ نَفْسِهِ ... وَلاَ قَابِلاً إِلاَّ لِخَالِقِهِ حُكْمَا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٢٣] : [منَ الخفيف]

إِنْ أَكُنْ مُعْجَباً فَغَيْرُ عَجِيبٍ ... لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدِ

[تعاظم أبي جهل]

ويشبهُ بعضُهُ قولَ أَبي جهلِ ابنِ هشامٍ : وهل فوقَ رجلٍ قتلتموهُ[١] .

[مقالة كتبها المؤلف يوم تأمير شوقي]

وذكرتُ بهٰذا مقالةً كتبْتُها يومَ تَعالمَ الناسُ بتأميرِ شوقي غِبَّ فَشَلِ مُؤْتمرِ الخلافةِ ، وذكرتُ أَنَّ الميزانَ العادلَ في استحقاقهِ التأميرَ عدمُه . . هو ما سيقولُهُ في ذلكَ الحفلِ ؛ لأَنَّهُ سيَتَنَأْنَقُ لهُ بطبيعةِ الحالِ ، فلَمْ تأْتِ الأَهرامُ[٢] إِلاَّ بقصيدةٍ تُستهلُّ بقولهِ [في « ديوانه » ١/ ٥٨٥] : [منَ الخفيف]

مَرْحَباً بِالرَّبِيعِ فِي رَيْعَانِهْ ... وَبِأَنْوَارِهِ وَطِيبِ زَمَانِهْ

أَحصينا عليها ببادىءِ النظرِ جملةَ ملاحظاتٍ لا يتَّسعُ لها الموضوعُ ، منها : عدمُ التناسبِ ، ومِنْها : أَنَّهُ شبَّهَ الربيعَ يمشي في السهلِ بالأَميرِ في البستانِ .

فإِنِّي بعدَ أَنْ طَرَدْتُ نظري في مسارحِ التشبيهِ . . لَمْ يظهرْ لي غيرَ أَنَّهُ أَرادَ تشبيهَ الربيعِ بما لا غايةَ بعدَهُ ، فلَمْ يجدْ أَكبرَ مِنْ نفسهِ يتمشَّىٰ في بستانهِ ، فكأَنَّهُ شبَّهَ الربيعَ بنفسهِ ، وهو حينئذٍ مِنْ قولِ الناظمِ السابقِ لَمْ يجدْ فوقَ نفسهِ مِنْ مَزِيدِ .

وبعثَ بتلكَ المقالةِ أَحدُ رفاقِنا لبعضِ الصُّحفِ ، فضاقتْ عنها .

[الفخر متكرر عند المتنبي]

وطالما تكرَّرَ معنى البيتِ الَّذي بين أَيدينا في « ديوانِ الناظمِ » منهُ قولُهُ يفتخرُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ١٤٣] : [منَ الطويل]

وَنَفْسٍ لاَ تُجِيبُ إِلَىٰ خَسِيسٍ ... وَعَيْنٍ لاَ تُدَارُ عَلَىٰ نَظِيرِ

---

(١) قالها أبو جهلٍ أثناءَ مصرعهِ في بدرٍ عندما سأَلَهُ ابنا عفراءَ : أأنتَ أبو جهلٍ ؟ فقالها ليدلَّ علىٰ أنهُ لا رجلَ فوقهُ .

(٢) **الأهرامُ** : صحيفةٌ مصريةٌ مشهورةٌ .



وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ١٠] : [منَ الكامل]

صَغَّـرْتَ كُـلَّ كَبِيـرَةٍ وَكَبُـرْتَ عَـنْ ... لَكَـأَنَّـهُ وَعَـدَدْتَ سِـنَّ غُـلاَمِ[١]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٨٤] : [منَ الطويل]

يَجِـلُّ عَـنِ التَّشْبِيـهِ لاَ الْكَـفُّ لُجَّـةٌ ... وَلاَ هُـوَ ضِـرْغَـامٌ ، وَلاَ الـرَّأْيُ مِخْـذَمُ[٢]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ١١٦] : [منَ الطويل]

وَلَـوْلاَ احْتِقَـارُ الأُسْـدِ شَبَّهْتُهَـا بِهِـمْ ... وَلَـكِنَّهَـا مَعْـدُودَةٌ فِـي الْبَهَـائِـمِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٢٦] : [منَ الوافر]

بِـلاَ مِثْـلٍ وَإِنْ أَبْصَـرْتَ فِيـهِ ... لِكُـلِّ مُغَيَّـبٍ حَسَـنٍ مِثَـالاَ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ١٢٧] : [منَ الطويل]

بِمَـنْ أَضْـرِبُ الأَمْثَـالَ أَمْ مَـنْ أَقِيسُـهُ ... إِلَيْـكَ وَأَهْـلُ الـدَّهْـرِ دُونَـكَ وَالـدَّهْـرُ ؟

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٣٧٩] : [منَ البسيط]

فَكُـنْ كَمَـا أَنْـتَ يَـا مَـنْ لاَ شَبِيـهَ لَـهُ ... أَوْ كَيْـفَ شِئْـتَ فَمَـا خَلْـقٌ يُـدَانِيكَـا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ١٣٣] : [منَ الخفيف]

فَـإِذَا مَـا اشْتَهَـىٰ حَيَـاتَـكَ دَاعٍ ... قَـالَ لاَ زُلْـتَ أَوْ تَـرَىٰ لَـكَ مِثْـلاَ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٧٩] : [منَ البسيط]

كَفَـاتِـكٍ وَدُخُـولُ الْكَـافِ مَنْقَصَـةٌ ... كَـالشَّمْـسِ قُلْـتُ : وَمَـا لِلشَّمْـسِ أَمْثَـالُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٢٠] : [منَ المنسرح]

مِثْلُـكَ يَـا بَـدْرُ لاَ يَكُـونُ وَلاَ ... تَصْلُـحُ إِلاَّ لِمِثْلِـكَ الـدُّوَلُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٢١٧] : [منَ السريع]

وَلَـمْ أَقُـلْ مِثْلُـكَ أَعْنِـي بِـهِ ... سِـوَاكَ يَـا فَـرْداً بِـلاَ مُشْبِـهِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ١٧٧] : [منَ الخفيف]

وَتَمَنَّيْـتُ مِثْلَـهُ فَكَـأَنِّـي ... طَـالِـبٌ لابْـنِ صَـالِـحٍ مَـنْ يُـوَازِي

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٢٩] : [منَ الوافر]

جَـوَابُ مُسَـائِلِـي أَلَـهُ نَظِيـرٌ ... وَلاَ لَـكَ فِـي سُـؤَالِـكَ لاَ ، أَلاَ لاَ[٣]

---

(١) عَدَدْتَ سِنَّ غلام : قصد أنَّه لا زال في سنِّ الشباب .

(٢) المخذمُ : السيفُ القاطعُ . والمعنىٰ : أنه أعظم من أن يشبه كفُّهُ بالبحر ، ونفسه بالأسد ، ورأيه بالسيف القاطع ؛ لأن ذلك كلَّه دونه .

(٣) المعنىٰ : إذا سألني سائلٌ ، فقالَ : هلْ له نظير ؟ فجوابه لا ، ولا لك نظير في سؤالِكَ عَن هـٰذا ؛ لأنَّ أحداً لا يجهلُ هـٰذا غيرَكَ ، فأنتَ في جهلكَ بلا نظيرٍ ، وكرَّرَ النفيَ بقولِهِ : (ألا ، لا) إشارةً إلىٰ أنَّ جهلَ هـٰذا السائلِ يوجبُ إعادةَ الجوابِ عليهِ .

وأَصلُ البيتِ الذي نحنُ بسبيلهِ مِنْ قولِ الأَوَّلِ : [منَ الطويل]

تَعَالَيْنَ عَنْ وَصْفٍ فَلَسْتُ بِذَاكِرٍ ... (كَأَنَّ) لَدَىٰ تَشْبِيهِهَا وَ(كَأَنَّمَا)

وَمِنْ قولِ أَبي نُوَاسٍ [في « ديوانهِ »] : [منَ الطويل]

خُلِقْتَ بَدِيعاً لاَ يُقَالُ كَأَنَّهُ ... تَعَالَىٰ وَلاَ يَسْمَعْ بِمِثْلِكَ سَامِعُ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانهِ » ٣/١٦٥٩] : [منَ الكامل]

لاَ تَطْلُبَنَّ لَهُ الشَّبِيهَ فَإِنَّهُ ... قَمَرُ التَّأَمُّلِ مُزْنَةُ التَّأْمِيلِ(١)

[تكذيب المؤلف لهٰذه الأشعار]

وجلُّها دعاوي مَكْذُوبةٌ ، ومبالغاتٌ مردودةٌ ، فإِنَّ الَّذي في السَّماءِ عرشُهُ ، وفي الأَرضِ بطشُهُ . . يُقَرِّبُ المنالَ ، ويضربُ لنفسهِ الأَمثالَ ، وما أَحسنَ قولَ حبيبٍ [في « ديوانه » ١/٣٦٩] : [منَ الكامل]

لاَ تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ ... مَثَلاً شَرُوداً فِي النَّدَىٰ وَالْبَاسِ

فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الأَقَلَّ لِنُورِهِ ... مَثَلاً مِنَ الْمِشْكَاةِ وَالنِّبْرَاسِ(٢)

[تفسير : ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ عند الجاحظ]

ومِنْ محاسنِ الجاحظِ قولُهُ في هٰذهِ الآيةِ : أَنَّها مَثَلٌ ضربَهُ اللهُ جَلَّ شأنُهُ لنبيِّهِ صلى الله عليه وسلم ، فإِنَّ تقاسيمَ وجهِهِ ، وأَساريرَ جبينهِ . . تَنطِقُ بنبوَّتهِ ، وتشهدُ بصدقِ رسالتهِ ، فما أَصدقَ فيهِ قولَ عبدِ اللهِ بنِ رواحةَ [في « ديوانه » ٩٥] : [منَ البسيط]

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ ... لَكَانَ مَنْظَرُهُ يُنْبِيكَ بِالْخَبَرِ

[تفسير : ﴿ليس كمثله شيء﴾]

أَمّا قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ : ١١] :

فإِمّا : أَنْ يُجعلَ (المِثْلُ) فيهِ بمعنى النَّفْسِ والذَّاتِ وهو شائعٌ في لسانِ العربِ . قالَ أَوسُ بنُ حجرٍ : [من مُخلَّع البسيط]

لَيْسَ كَمِثْلِ الْفَتَىٰ زُهَيْرٍ ... خَلْقٌ يُوَازِيهِ فِي الْفَضَائِلِ

ومنهُ ما سبقَ مِنْ قولِ **الناظمِ** : (وَلَمْ أَقُلْ مِثْلُكَ أَعْنِي بِهِ سِوَاكَ . . . إِلىٰ آخرهِ) .

فليس كمثلهِ شيءٌ . . نظيرُ (ليسَ كذاتهِ شيءٌ) إِلاَّ أَنَّها لا توجدُ في الثاني مبالغةُ النفي الموجودةُ في الأَوَّلِ ؛ لِمَا فيهِ مِنَ الكنايةِ الَّتي لا يُجهَلُ مكانُها في حُسْنِ الكلامِ ، وكثيراً ما تقولُ العربُ : (مِثْلُكَ لا يَبخَلُ) ؛ لتمكينِ انتفاءِ البُخلِ عنهُ مِنْ نفسِ السامعِ ، فإِنَّ تلكَ الجملةَ تفيدُ ما لا يفيدُهُ قولُهم : (أَنتَ لا تبخَلُ) .

---

(١) **المُزْنَةُ** : السحابةُ البيضاءُ .

(٢) والمَثَلُ قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [النور : ٣٥] .

وإمَّا : أَنْ يُجعلَ (المِثْلُ) بمعنى الصفةِ إشارةً إلىٰ أَنَّهُ وإنْ وُصِفَ جلَّ شأنهُ ، وتقدَّستْ أسماؤهُ بما يوصفُ بهِ البشرُ مِنْ نحوِ : السمعِ والبصرِ والعلمِ والإرادةِ وما أشبهَ ذلكَ . . فليستْ صفاتهُ عزَّ وجلَّ كمثلِ صفاتِ المخلوقينَ إلاَّ في مجرَّدِ الأسماءِ ، وإلاَّ . . فالبَوْنُ بعيدٌ ، والفرقُ عظيمٌ .

وَلِلْبَـــازِي وَلِلـــزُّنْبُـــورِ أَيْضـــاً لَـــدَى الطَّيَـــرَانِ أَجْنِحَـــةٌ وَخَفْـــقُ
وَلَكِـــنْ بَيْـــنَ مَـــا يَصْطَـــادُ بَـــازٍ وَمَـــا يَصْطَـــادُهُ الـــزُّنْبُـــورُ فَـــرْقُ[1]

وإمَّا : أَنْ يُجعلَ (المِثْلُ) بمعنى الذاتِ والصفةِ ، فيكونُ استعمالُهُ فيهما مِنْ بابِ استعمالِ المشتركِ في معنييهِ إنْ قلنا إنَّ المِثْلَ حقيقةٌ في كلٍّ مِنَ الذاتِ والصفةِ ، أَو مِن استعمالهِ في حقيقتهِ ومجازهِ إنْ قلنا إنهُ حقيقةٌ في أَحدِهما مَجازٌ في الآخرِ ، فينتجُ حينئذٍ أَنَّهُ لا يماثلهُ شيءٌ مطلقاً لا في الذاتِ ولا في الصفاتِ ولا في الأفعالِ .

أمَّا القولُ بزيادةِ الكافِ لتأكيدِ التشبيهِ في نفيِ المثليةِ كَما في قولِ الشاعرِ : [مِنَ الرجَز]

بِـالأَمْـسِ كَـانُـوا فِـي رَخَـاءٍ مَـأْمُـولْ فَـأَصْبَحَـتْ مِثْـلَ كَعَصْـفٍ مَـأْكُـولْ

فإنَّه داخلٌ في الاحتمالِ الأوَّلِ .

[تفسير الغزالي لـ : إن الله خلق آدم علىٰ صورته]

وقالَ الغزاليُّ في معنىٰ « إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ »[2] : المرادُ بالصورةِ المعنويَّةُ ، كَما يُقالُ : صورةُ المسألةِ كذا ، وآدمُ بهٰذا الاعتبارِ علىٰ صورةِ ربِّهِ في الذاتِ والأفعالِ والصفاتِ :

أمَّا في الذاتِ : فلأَنَّ الروحَ ليستْ بجسمٍ ، ولا عَرَضٍ ، ولا جوهرٍ متحيِّزٍ ، ولا تحُلُّ المكانَ والجهةَ ، ولا هي متَّصلةٌ بالبَدَنِ والعالمِ ، ولا منفصلةٌ عنهما ، وكذلكَ ذاتُ الباري عزَّ وجلَّ .

وأَمَّا الصفاتُ : فلأنَّهُ حيٌّ عالِمٌ ، قادرٌ مريدٌ ، سميعٌ بصيرٌ متكلِّمٌ ، واللهُ تعالىٰ كذلكَ .

وأمَّا في الأفعالِ : فإنَّ الإنسانَ إذا أَرادَ الكتابةَ في غرضٍ . . فأَوَّلُ فعلِهِ إرادةٌ يظهَرُ أَثرُها في القلبِ ، ثُمَّ يصعدُ إلى الدماغِ ، ثُمَّ إلى الأعصابِ ، ثُمَّ إلى الأصابعِ ، وبها يتحرَّكُ القلمُ بما ارتسمَ في خِزانةِ الخيالِ . فالقلبُ كالعرشِ ، والدماغُ كالكرسي ، والحواسُّ كالملائكةِ ، والأعصابُ كالسماواتِ ، والقدرةُ في الأصابعِ كالطبيعةِ المركوزةِ في الأَجسامِ ، والقرطاسُ والقلمُ والمِدادُ كالعناصرِ ، ومرآةُ التخيُّلِ كاللوحِ المحفوظِ .

ومِنْ هٰذهِ الموازنةِ تَعرفُ أَنَّ اللهَ خلقَ آدمَ علىٰ صورتهِ ، ولولا المضاهاةُ المذكورةُ لَمْ يقدِرِ الإنسانُ على الترقِّي مِنْ معرفةِ نفسهِ إلىٰ معرفةِ ربِّهِ ، كَما قالَ عليهِ السلامُ : « مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ . فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ »[3] كذا رأيتهُ في سياقٍ لهُ ، ومثلُهُ في ذهني عَنْ « مفاتيحِ الغيبِ » للإمامِ الرازي ، وقد قَفَّ شَعَري[4] ، وضاقَ صدري منهُ باديءَ الأمرِ إلاَّ أَنَّهُ

---

(١) البيتان من الوافر .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٢٥٥٩) مقتصراً على الشطر الأول في الاستئذان ، وأحمد (٢/٢٤٤) ، ومسلم (٢٦١٢) (١١٥) في البر والصلة ، ولفظ مسلم : « إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه ، فإن الله خلق آدم علىٰ صورته » .

(٣) انظر « المقاصد الحسنة » (١١٤٩) .

(٤) قفَّ الشَّعرُ : قامَ منَ الفزع .



يهونُ الخطبُ بما قرّرناهُ في الاحتمالِ الثاني ، واستشهدنا عليهِ بما بينَ البازي والزنبورِ مِنَ الفرقِ الكبيرِ ، والعهدةُ عليهم ، ولولا جلالةُ مقاديرهم . . لَمَا تجاسرتُ علىٰ حكايتهِ عنهم ، وأَولىٰ ما يكونُ بالقَبولِ في الموضوعِ الَّذي نتحدَّثُ فيهِ قولُ شاعرِ (المعرَّةِ) : [منَ الوافر]

ضَـرِيبُـكَ فِـي بَنِـي الـدُّنْيَـا كَثِيـرٌ ... وَعَـزَّ اللهُ رَبُّـكَ مِـنْ ضَـرِيـبِ

وَمَـا الْعُلَمَـاءُ وَالْجُهَـلاَءُ إِلاَّ ... قَـرِيـبٌ مِـنْ قَـرِيـبٍ مِـنْ قَـرِيـبِ

* * *

[قالَ أَبو الطيِّب المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٦٢] : [منَ الطويل]

وَذَرْنِـي وَإِيَّـاهُ وَطِـرْفِـي وَذَابِلِـي ... نَكُنْ وَاحِـداً نَلْقَ الْـوَرَىٰ وَانْظُرَنْ فِعْلِـي

[ادعاء المتنبي الشجاعة]

الطِّرْفُ : الفرسُ الكريمُ ، **والذَّابِل** : ما لانَ واهتزَّ مِنَ الرماحِ ، يقولُ : دعني وهٰذا السيفَ وفرسي ورمحي نجتمعُ ، فنكونَ واحداً في رأيِ العينِ . **يلقى الورىٰ** : أَي يحاربُهم ثُمَّ انظر إِلىٰ ما أَفعلُهُ فيهم .

[من أين أخذ المتنبي بيته]

قالَ ابنُ جِنِّيٍّ وقد لاذَ في هٰذا البيتِ بقولِ ذِي الرُّمَّة [في « ديوانه » ٢/ ١١٠٨ـ١١٠٩] : [منَ الطويل]

وَلَيْـلٍ كَجِلْبَـابِ الْعَـرُوسِ ادَّرَعْتُـهُ ... بِـأَرْبَعَـةٍ وَالشَّخْـصُ فِـي الْعَيْـنِ وَاحِـدُ

أَحَـمُّ غُـدَافِـيٌّ وَأَبْيَـضُ صَـارِمٌ ... وَأَعْيَـسُ مَهْـرِيٌّ وَأَرْوَعُ مَـاجِـدُ[1]

أَقولُ : ومثلُهُ قولُ السلاميِّ [في « خزانة الأدب » ٢/ ٢٩٥] : [منَ الطويل]

فَكُنْتُ وَعَـزْمِي فِي الظَّلاَمِ وَصَارِمِي ... ثَـلاَثَـةَ أَشْبَـاحٍ كَمَـا اجْتَمَـعَ النَّسْـرُ

[شجاعة الإمام]

وقولهُ : (يلقَى الوَرىٰ) ناظرٌ إِلىٰ قولِ أَميرِ المؤمنينَ [في « نهج البلاغة » ٣٥٩] : (واللهِ لو تظاهرَتِ العَربُ بأَسرِها علىٰ قتالي . . لما وَلَّيْتُ عنها ، وأَنا مِنْ رسولِ الله كالصِّنْوِ مِنَ الصِّنْوِ ، والذِّراعِ مِنَ العَضُدِ) .

[تعليق المؤلف على المتنبي]

والناظم كثيراً ما يَرْعىٰ غيرَ ماشِيَتِهِ ، ويَحطِبُ في حبلِ غيرهِ ، وقلتُ في عكسِ قولِ ذي الرُّمَّةِ من قصيدةٍ أَصِفُ بها فرسِي : [منَ الطويل]

إِذَا اعْتَـرَضَـتْ بِـي قَـالَ قَـوْمٌ ثَـلاَثَـةٌ ... وَمَـا ثَـمَّ غَيْـرِي لَـكِـنِ الـذَّيْـلُ وَالـرَّاسُ

---

(١) **الأحمُ الغدافيُّ** : الفرسُ الشديدُ السوادِ . **أَروعُ ماجدٌ** : فارسٌ شجاعٌ من خيرة الناس .

[الفارس والفرس والسلاح قطعة واحدة عند الشعراء]

وتَجدُ أَنْ لا مخالفةَ عندَ إمعانِ النَّظرِ ؛ لأَنِّي أَصفُ فَرَسِي مُعْتَرِضَةً ، وهو يصفُ بعيرَهُ مقبلاً أَو مدبراً ، وقد قالَ في نظيرِهِ الناظمُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢١٤] : [منَ المنسرح]

إِنْ أَدْبَــرَتْ قُلْــتُ : لاَ تَلِيــلَ لَهَــا ... أَوْ أَقْبَلَــتْ قُلْــتُ : مَــا لَهَــا كَفَــلُ(١)

ومِمَّا جاءَ في وصفِ الخيلِ قولُ امرىءِ القَيْسِ [في « ديوانه » ١٥٣_١٥٥] : [منَ الطويل]

وَقَــدْ أَغْتَــدِي وَالطَّيْــرُ فِــي وُكُنَــاتِهَــا ... بِمُنْجَــرِدٍ قَيْــدِ الأَوَابِــدِ هَيْكَــلِ(٢)

مِكَــرٍّ مِفَــرٍّ مُقْبِــلٍ مُــدْبِــرٍ مَعــاً ... كَجُلْمُــودِ صَخْــرٍ حَطَّــهُ السَّيْــلُ مِــنْ عَــلِ(٣)

لَــهُ أَيْطَــلاَ ظَبْــيٍ وَسَــاقَــا نَعَــامَــةٍ ... وَإِرْخَــاءُ سِــرْحَــانٍ وَتَقْــرِيــبُ تَتْفُــلِ(٤)

[أول من جعل الحصان قيداً للأوابد]

وكادَ الإجماعُ ينعقدُ علىٰ أَنَّهُ السابقُ إِلىٰ جعلهِ الحصانَ قيداً للأَوابدِ ، وعندي أَنَّه مخالفٌ لقولِهم : إِنَّ (زَادَ الرَّكبِ) فرسٌ معروفٌ منَ الخيلِ التي وصَفَها اللهُ بـ : ﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ [صَ : ٣١] ، سُمِّيَ بذلكَ ؛ لأَنَّه كانَ يلحقُ الصيدَ ، فكانَ الوفدُ إِذا نزلوا . . ركبَهُ أَحدُهم ، فصادَ لهم ما يكفيهم ، وهو مِنْ سليمانَ عليهِ السلامُ ، أَعطاهُ للأَزْدِ لمَّا وفدوا عليهِ ، فكيفَ يكونُ امرؤُ القيسِ السابقَ إِليهِ معَ هـٰذا ؟! ولكنَّهُ تنوَّعَ فيهِ وأَفرغهُ في عِدَّةِ قوالبَ ، منها قولهُ [في « ديوانه » ٥٣] : [منَ الطويل]

إِذَا مَــا رَكِبْنَــا قَــالَ وُلْــدَانُ أَهْلِنَــا ... تَعَــالَــوْا إِلَيْنَــا يَــأْتِنَــا الصَّيْــدُ نَحْطِــبِ(٥)

[الشعراء وجعلهم الحصان قيداً للوحوش]

وقالَ عمارةُ بنُ عقيلٍ [في « خزانة الأدب » ١/ ١٥٨] : [منَ الخفيف]

وَأَرَى الْــوَحْــشَ فِــي يَمِينِــي إِذَا مَــا ... كَــانَ يَــوْمــاً عِنَــانُــهُ بِشِمَــالِــي

وقالَ ابنُ مقبلٍ : [منَ البسيط]

لاَ يَنْفَــعُ الْــوَحْــشَ مِنْــهُ أَنْ تَحَــذَّرَهُ ... كَــأَنَّــهُ مُعْلَــقٌ مِنْهَــا بِخُطَّــافِ(٦)

وقالَ الناظمُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢٩٤] : [منَ الطويل]

وَخَيْــلٍ إِذَا مَــرَّتْ بِمَــرْجٍ وَرَوْضَــةٍ ... أَبَــتْ رَعْيَهَــا إِلاَّ وَمِــرْجَلُنَــا يَغْلِــي(٧)

---

(١) التليلُ : العنقُ .

(٢) وكناتُها : أَوكارُها . **المنجردُ** : الفرسُ القصيرُ الشعرِ . **الأوابدُ** : الوحوشُ . **وقَيْدُها** : إِمساكُها بقوةٍ ، فكأَنَّها لَمْ تبرحْ مكانَها . **الهيكلُ** : الفرسُ الطويلُ المتينُ الخلقِ .

(٣) **الجلمودُ** : الصخر الأَصمُّ . **مِنْ عَلِ** : مِنْ مكانٍ عالٍ .

(٤) **أَيطلا ظَبْيٍ** : خاصرتا ظَبْيٍ ؛ لضمورِهما . **وساقا نعامةٍ** : شبَّهَ ساقيهِ بساقي النعامةِ ؛ لصلابتِهما وقصرِهما . **وإِرخاءُ سِرْحانَ** : سرعةُ ذئبٍ في لينٍ . **وتقريبُ تتفلٍ** : وجري تتفل ؛ وهو ولدُ الذئبِ .

(٥) **نَحطِبُ** : نجمعُ الحطبَ ؛ للشواءِ والطبخِ .

(٦) **الخُطَّافُ** ـ بضمِ الخاءِ ـ : هو الحديدةُ المعوجَّةُ .

(٧) في « العكبري » : (بوَحْشٍ) بدل (بِمَرْجٍ) . **المرجلُ** : القِدْرُ ؛ أَي : وخيلُنا الكريمةُ تأبىٰ أَنْ ترتعَ في الرياضِ والكلأ إِذا رأَتِ الوحوشَ ، حتىٰ تجعلَ قدورَنا تغلي ، ونأكلَ مِنْ لحمِها .



وقالَ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/١٧٩] : [منَ الكامل]

مُتَقَيِّيِينَ ظِلالَ كُلِّ مُطَهَّمٍ أَجَلِ الظَّلِيمِ وَرِبْقَةِ السِّرْحَانِ[(١)]

[وصف البحتري للخيل]

وقالَ البُحتريُّ ـ وكانَ وَصَّافاً للخيلِ ـ [في « ديوانه » ٣/٢٠٢٧ـ٢٠٢٨] : [منَ الوافر]

أَرَاجِعَتِي يَدَاكَ بِأَعْوَجِيٍّ كَقِدْحِ النَّبْعِ فِي الرِّيشِ اللُّؤَامِ ؟[(٢)]

بِأَدْهَمَ كَالظَّلامِ أَغَرَّ يَجْلُو بِغُرَّتِهِ دَيَاجِيرَ الظَّلامِ

تَرَىٰ أَحْجَالَهُ يَصْعَدْنَ فِيهِ صُعُودَ الْبَرْقِ فِي جَوْنِ الْغَمَامِ[(٣)]

وقالَ [في « ديوانه » ٣/ ١٩٨٥ـ١٩٨٨] : [منَ الكامل]

أَمَّا الْجَوَادُ فَقَدْ بَلَوْنَا يَوْمَهُ وَكَفَىٰ بِيَوْمٍ مُخْبِراً عَنْ عَامِهِ

جَارَى الْجِيَادَ فَطَارَ عَنْ أَوْهَامِهَا سَبْقاً وَكَادَ يَطِيرُ عَنْ أَوْهَامِهِ

جَذْلانَ تَلْطِمُهُ جَوَانِبُ غُرَّةٍ جَاءَتْ مَجِيءَ الْبَدْرِ عِنْدَ تَمَامِهِ[(٤)]

وَاسْوَدَّ ثُمَّ صَفَتْ لِعَيْنَيْ نَاظِرٍ جَنَبَاتُهُ فَأَضَاءَ فِي إِظْلامِهِ

مَالَتْ جَوَانِبُ عُرْفِهِ وَكَأَنَّهَا عَذَبَاتُ أَثْلٍ مَالَ تَحْتَ حَمَامِهِ[(٥)]

وكَأَنَّ فَارِسَهُ وَرَاءَ قَذَالِهِ رِدْفٌ فَلَسْتَ تَرَاهُ مِنْ قُدَّامِهِ[(٦)]

لانَتْ مَعَاطِفُهُ فَتَحْسَبُ أَنَّهُ لِلْخَيْزُرَانِ مُنَاسِبٌ بِعِظَامِهِ

فِي شُعْلَةٍ كَالشَّيْبِ لاحَ بِمَفْرِقَيْ غَزِلٍ لَهَا عَنْ شَيْبِهِ بِغَرَامِهِ

وَكَأَنَّ صَهْلَتَهُ إِذَا اسْتَعْلَىٰ بِهَا رَعْدٌ تَقَعْقَعَ فِي ازْدِحَامِ غَمَامِهِ

مِثْلُ الْغُرَابِ مَشَىٰ يُبَارِي صَحْبَهُ بِسَوَادِ صِبْغَتِهِ وَحُسْنِ قَوَامِهِ

وقالَ [في « ديوانه » ٣/ ١٧٤٠ـ١٧٤٤] : [منَ الكامل]

وأَغَرَّ فِي الزَّمَنِ الْبَهِيمِ مُحَجَّلٍ قَدْ رُحْتُ مِنْهُ عَلَىٰ أَغَرَّ مُحَجَّلِ

كَالْهَيْكَلِ الْمَبْنِيِّ إِلاَّ أَنَّهُ فِي الْحُسْنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِي هَيْكَلِ

ذَنَبٌ كَمَا سُحِبَ الرِّدَاءُ يَذُبُّ عَنْ عُرْفٍ ، وَعُرْفٌ كَالْقِنَاعِ الْمُسْبَلِ

جَذْلانَ يَنْفُضُ عُذْرَةً فِي غُرَّةٍ يَقَقٍ تَسِيلُ حُجُولُهَا فِي جَنْدَلِ[(٧)]

---

(١) في « العكبري » : (يَتَقَلَّبُونَ) بدل (مُتَقَيِّيِينَ) . المُطَهَّمُ : الفرسُ التامُّ ، كُلُّ شيءٍ منهُ علىٰ حدتِهِ . والظليمُ : ذكرُ النعامِ . والرِّبْقَةُ : ما يكونُ في رقبةِ الشاةِ ، تحبسُها مِنَ التصرفِ . السرحانُ : الذئبُ .

(٢) القدحُ : السهمُ قبلَ أنْ ينصلَ ويراشَ . النَّبْعُ : شجرٌ تتخذُ منهُ السهامُ والقسيُّ . اللُّؤام ، يقالُ : سهمٌ لأمٌ ؛ أي عليهِ ريشٌ .

(٣) الأحجالُ : بياضٌ في قوائمِ الفرسِ . الجَونُ هنا : الأسودُ .

(٤) جذلان : فرحان .

(٥) العَذَبَةُ : طرفُ الشيءِ . الأَثْلُ : شجرٌ كثيرُ الأغصانِ .

(٦) قذال الفرس : مَعْقِدُ سَيْرَيِ اللجام ، خلفَ الناصية .

(٧) العُذْرَةُ : الشعْرُ علىٰ كاهلِ الفرسِ . اليَقَقُ : شدَّةُ البياضِ . جندلُ : مكان في مجرى النهر يشتد فيه التيار .

تَتَـوَهَّـمُ الْجَـوْزَاءَ فِـي أَرْسَـاغِـهِ   وَالْبَـدْرَ غُـرَّةَ وَجْهِـهِ الْمُتَهَلِّـلِ
فَكَـأَنَّمَـا نَفَضَـتْ عَلَيْـهِ صِبْغَهَـا   صَهْبَـاءُ لِلْبَـرَدَانِ أَوْ قُطْـرُبُّـلِ[1]
وَتَخَـالُـهُ كُسِـيَ الْخُـدُودَ نَـوَاعِمـاً   مَهْمَـا تُـوَاصِلْهَـا بِلَحْـظٍ تَخْجَـلِ
وَتَـرَاهُ يَسْطَـعُ فِـي الْغُبَـارِ لَهِيبُـهُ   لَـوْنـاً وَشَـدّاً كَـالْحَـرِيـقِ الْمُشْعَـلِ
هَـزِجُ الصَّهِيلِ كَـأَنَّ فِـي نَغَمَـاتِـهِ   نَبَـرَاتِ مَعْبَـدَ فِـي الثَّقِيـلِ الأَوَّلِ[2]
مَلَـكَ الْعُيُـونَ إِذَا بَـدَا أَعْطَيْنَـهُ   نَظَـرَ الْمُحِـبِّ إِلَـى الْحَبِيـبِ الْمُقْبِـلِ

[وصف أبي تمام للخيل]

وقالَ حبيبٌ [في « ديوانه » ١/ ٣٨٠] :   [منَ السريع]

إِنْ زَارَ مَيْـدَانـاً سَبَـىٰ أَهْلَـهُ   أَوْ نَـادِيـاً قَـامَ إِلَيْـهِ الْجُلُـوسْ
تَـرَىٰ رِزَانَ الْقَـوْمِ قَـدْ أَسْمَحَـتْ   عُيُـونُهُـمْ فِـي حُسْنِـهِ وَهْـيَ شُـوسْ[3]
كَـأَنَّمَـا لاَحَ لَهُـمْ بَـارِقٌ   فِـي الْمَحْـلِ أَوْ زُفَّـتْ إِلَيْهِـمْ عَـرُوسْ
عَـوَّذَهُ الْحَـاسِـدُ ظَنّـاً بِـهِ   وَرَفْـرَفَـتْ خَـوْفـاً عَلَيْـهِ النُّفُـوسْ

[وصف ابن المعتز للخيل]

وقالَ ابنُ المعتزِّ [في « ديوانه » ١/ ٥١] :   [منَ الكامل]

وَلَقَـدْ يَشُـقُّ بِـيَ الْكَتِيبَـةَ قَـارِحٌ   حَتَّـىٰ أُخَضِّـبَ بِـالـدِّمَـاءِ سِلاَحِـي
ذُو غُـرَّةٍ فِـي دُهْمَـةٍ فَكَـأَنَّـهُ   لَيْـلٌ تَبَـرْقَـعَ وَجْهُـهُ بِصَبَـاحِ

[وصف المتنبي للخيل]

وقالَ الناظمُ [في « العُكْبَريّ » ١/ ١٧٩ـ١٨٠] :   [منَ الطويل]

وَعَيْنِـي إِلَـىٰ أُذْنَـيْ أَغَـرَّ كَـأَنَّـهُ   مِـنَ اللَّيْـلِ بَـاقٍ بَيْـنَ عَيْنَيْـهِ كَـوْكَـبُ
لَـهُ فَضْلَـةٌ عَـنْ جِسْمِـهِ فِـي إِهَـابِـهِ   تَجِـيءُ عَلَـىٰ صَـدْرٍ رَحِيـبٍ وَتَـذْهَـبُ
شَقَقْـتُ بِـهِ الظَّلْمَـاءَ أُدْنِـي عِنَـانَـهُ   فَيَطْغَـىٰ وَأُرْخِيـهِ مِـرَاراً فَيَلْعَـبُ
وَأَصْـرَعُ أَيَّ الْـوَحْـشِ قَفَّيْتُـهُ بِـهِ   وَأَنْـزِلُ عَنْـهُ مِثْلَـهُ حِيـنَ أَرْكَـبُ
وَمَـا الْخَيْـلُ إِلاَّ كَـالصَّـدِيـقِ قَلِيلَـةٌ   وَإِنْ كَثُـرَتْ فِـي عَيْـنِ مَـنْ لاَ يُجَـرِّبُ

وقولُهُ : (وأَصْرَعُ أَيَّ الْوَحْشِ . . . إِلىٰ آخرهِ) مِنْ قولِ امرىءِ القيسِ [في « ديوانه » ١٥٦] :   [منَ الطويل]

فَعَـادَىٰ عِـدَاءً بَيْـنَ ثَـوْرٍ وَنَعْجَـةٍ   وَعَـادَ فَلَـمْ يَنْضَـحْ بِمَـاءٍ فَيُغْسَـلِ

---

(١) **قُطْرَبُّلٌ** : اسم قرية بين (بغداد) و(عكبرىٰ) ينسب إليها الخمر ، وما زالت متنزهاً للبطالين وحانة للخمارين ، وقد أكثر الشعراء من ذكرها . **البردان** : اسم بلدٍ قريبةٍ من (عكبرىٰ) و(قطربل) و(بغداد) .

(٢) **مَعبَد** : رجلٌ من أئمةِ الغناءِ . **الثقيل الأول** : ضرب من ضروب الإيقاع يبحث في علم الموسيقىٰ .

(٣) **أسمحتْ** : ذلَّت وانقادَت . **الأشوسُ** : الذي ينظر بطرفِ عينِهِ تكبُّراً .

[قضاء زوجة امرىء القيس لعلقمة]

وحديثُ امرىءِ القيسِ ، وما قضتْ عليهِ فيهِ زوجةُ لِعَلْقَمَةَ الفَحْلِ مشهورٌ[١] .

[وصف المعري للخيل]

وقالَ المعرّيُّ [في « سقط الزند » ٢٣٠] : [منَ الطويل]

وَقَـدْ أَغْتَـدِي وَاللَّيْـلُ يَبْكِـي تَـأَسُّفـاً ... عَلَىٰ نَفْسِهِ وَالنَّجْمُ فِي الْغَرْبِ مَائِلُ

بِـرِيـحِ أُعِيـرَتْ حَـافِـراً مِـنْ زُمُـرُّدٍ ... لَهَـا التِّبْـرُ جِسْـمٌ وَاللُّجَيْـنُ خَـلاَخِـلُ[٢]

كَـأَنَّ الصَّبَـا أَلْقَـتْ إِلَـيَّ عِنَـانَهَـا ... تَخُـبُّ بِسَـرْجِـي تَـارَةً وَتُنَـاقِـلُ[٣]

إِذَا اشْتَـاقَـتِ الْخَيْـلُ الْمَنَـاهِـلَ أَعْرَضَـتْ ... عَـنِ الْمَـاءِ فَـاشْتَـاقَـتْ إِلَيْهَـا المَنَـاهِـلُ

[الشعراء والخيل]

وَيُعْجِبُنِي قولُ بعضِهم : [منَ الكامل]

فَكَـأَنَّمَـا لَطَـمَ الصَّبَـاحُ جَبِينَـهُ ... فَـاغْتَـاظَ مِنْـهُ فَـدَاسَ فِـي أَحْشَـائِـهِ

وقالَ مُهذّبُ الدِّين : [منَ البسيط]

سُـودٌ حَـوَافِـرُهَـا بِيـضٌ جَحَـافِلُهَـا ... صِبْـغٌ تَـوَلَّـدَ بَيْـنَ الصُّبْـحِ وَالْغَسَـقِ

مِنْ طُولِ مَا وَطِئَتْ ظَهْرَ الدُّجَىٰ خَبَباً ... وَطَـوْلِ مَـا كَـرَعَـتْ مِـنْ مَنْهَـلِ الْفَلَـقِ[٤]

وهٰهنا وقفةٌ ؛ فَإِنَّ امرأَ القيسِ يقولُ عَنْ فرسِهِ [في معلقته] : [منَ الطويل]

كُمَيْـتٍ إِذَا اسْتَـدْبَـرْتَـهُ سَـدَّ فَـرْجَـهُ ... بِضَـافٍ فُـوَيْـقَ الأَرْضِ لَيْـسَ بِـأَعْـزَلِ

ويقولُ [في « ديوانه »] : [منَ المتقارب]

لَهَـا ذَنَـبٌ مِثْـلُ ذَيْـلِ الْعَـرُوسِ ... تَسُـدُّ بِـهِ فَـرْجَهَـا مِـنْ دُبُـرْ

والطِّرِمَّاحُ يقولُ في صفةِ فرسٍ لهُ ذَيَّالٍ[٥] [كما في « ديوانه » ٥٣٣] : [منَ الوافر]

فَسَـدَّ بِمَضْـرَحِـيِّ اللَّـوْنِ جَثْـلٍ ... خَـوَايَـةَ فَـرْجِ مِقْـلاَتٍ دَهِيـنِ[٦]

[المحمود من الخيل]

وكُلُّهُ مشكلٌ ؛ لأَنَّ المحمودَ في الخيلِ إِنَّما هو أن تَشُولَ بأذنابِها ، وتُبالغَ في رفعِ رُؤُوسِها ، حتَّىٰ تُظَنَّ ثلاثةً إذا

---

(١) وقصَّةُ علقمةَ : أَنَّهُ خلفَ على امرأَةِ امرىءِ القيسِ لمَّا حكمت له على امرىءِ القيسِ بأَنَّهُ أَشعرُ منهُ في صفةِ فرسِهِ ، فطلَّقها امرؤُ القيسِ ، فخلفهُ عليها ، وما زالتِ العربُ تسميّه بالفحلِ لذلكَ . « الأغاني » (١٠/٢٠٦) .

(٢) الحافرُ مِنْ زُمُرُّد : أَيْ حافرٌ أَخضرُ صلبٌ ، التبرُ : الذهبُ . اللجينُ : الفضَّةُ .

(٣) تَخُبُّ : مِنَ الخببِ ؛ وهو مِنْ ضروبِ السيرِ . النِّقَالُ : مِنَ المناقلةِ ؛ وهي المشي الليّنُ الرقيقُ .

(٤) الفلقُ : الصبحُ .

(٥) ذَيَّالٌ : هو الفرسُ الطويلُ الجسمِ الطويلُ الذيلِ . فإن كانَ قصيرَ الجسمِ طويلَ الذيلِ قيلَ لهُ : ذائلٌ ، أو ذَيَّالُ الذنبِ ، فيذكرونَ الذنبَ .

(٦) مضرحيُّ اللونِ : الأَبيضُ مِنْ كلِّ شيءٍ . الجثلُ : الكثيرُ الشعرِ ، الطويلُ الملتفُّ . الخوايةُ : الفرجةُ بين فخذي الناقةِ التي يسدُّها ذنبُها . المِقْلاَتُ : الناقةُ التي تلدُ واحداً ثُمَّ لا تحملُ ؛ وذلكَ أَقوىٰ لها . الدهينُ : الناقةُ القليلةُ اللبنِ ؛ وهو أَقوىٰ لها أيضاً .



اعترضتْ بالراكبِ ، كما سبقَ في قولي عنْ فرسِي ، وكما قالَ بشَّارٌ [في « ديوانه » ٤/ ٢٤] : [منَ الكامل]

وَالْخَيْـلُ شَـائِلَـةٌ تَشُـقُّ غُبَـابَهَـا مِثْـلَ الْعَقَـارِبِ رَفَّعَـتْ أَذْنَـابَهَـا

وكمَا قالَ الناظمُ في غارتهِ عليهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٩٩] : [منَ الطويل]

شَـوَائِـلَ تَشْـوَالَ الْعَقَـارِبِ بِـالْقَنَـا لَهَـا مَـرَحٌ مِـنْ تَحْتِهِـمْ وَصَهِيـلُ

وقد سبقتِ العربُ إلىٰ ذلكَ ، فقالَ أَحدُ بَني تَيْمِ اللهِ بنِ ثعلبةَ [في « ديوان الحماسة » ١/ ٣٥] : [منَ الكامل]

وَلَقَـدْ رَأَيْـتُ الْخَيْـلَ شُلْـنَ عَلَيْكُـمُ شَـوْلَ الْمَخَـاضِ أَبَـتْ عَلَـى الْمُتَغَبِّـرِ[١]

وقالَ غَنِيُّ بنُ مالكٍ : [منَ الوافر]

دَفَعْنَـا الْخَيْـلَ شَـائِلَـةً عَلَيْهِـمُ وَقُلْنَـا بِـالضُّحَـىٰ فَيْحَـىٰ فَيَـاحِ[٢]

وقالَ الحطيئةُ [في « ديوانه » ١٥٣] : [منَ الطويل]

عَـوَاسِـرَ بَيْـنَ الطَّلْـحِ يَـرْجُمْـنَ بِـالْقَنَـا خُـرُوجَ الظِّبَـاءِ مِـنْ حِـرَاجِ قِطَـانِ

إذِ العواسيرُ هِيَ الَّتي ترفعُ أذنابَها لقوَّتِها ، شَبَّهَ الخيلَ بالظباءِ الخوارجِ مِنَ الحِراجِ ، جمعُ حَرَجَة ؛ وهي ما التفَّ منَ الشجرِ ، وقِطَان : موضعٌ معروفٌ ، إلاَّ أنْ يقالَ : إنَّ الأَوَّلينَ أَرادوا وصفَها قائمةً في مرابِطِها ، فقد يكونُ علىٰ شيءٍ فيهِ مِنَ البعدِ ، ثُمَّ إنَّ قولَ التَّيْمي : (شَوْلَ المخاضِ) ، وقولَ بشار ، والناظمِ : مثلَ العقاربِ . . لا يخلو مِنَ الملاحظةِ ؛ لأَنَّ المحمودَ في الخيلِ إنَّما هوَ أنْ ترفعَ أذنابَها ثم ترُدَّها إلى الوَراءِ ، كهيئةِ الرسومِ الواقعةِ بالدنانيرِ الإنكليزيةِ[٣] ، لا أنْ تبالغَ في رفعِها إلىٰ ما ذكرهُ أُولئكَ ، غيرَ أَنَّهُ يمكنُ أَنْ يَردَ إليهِ ما سبقَ عنِ الطِّرِمَّاحِ ، وعنِ امرىءِ القيسِ ، ولا سيَّما ما كانَ في بيتهِ الثاني ؛ إذ لا يبعدُ أَنْ يكونَ المرادُ : أَنَّها تشولُ بِهَا ، ثُمَّ تردُّها حتَّىٰ تَسُدَّ به فروجَها ، فيجتمعُ حينئذٍ المدحُ بالطولِ والشولانِ .

[توجيه قول للبحتري]

أَمَّا قولُ البُحتريِّ السابقُ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٧٤٢] : [منَ الكامل]

ذَنَـبٌ كَمَـا سُحِـبَ الـرِّدَاءُ يَـذُبُّ عَـنْ عُـرْفٍ وَعُـرْفٌ كَـالْقِنَـاعِ الْمُسْبَـلِ

فلاَ شكَّ أَنَّهُ يصفُهُ قائماً ، وإلاَّ . . كانَ فيهِ عَيْبُ الإِرْخَاءِ وعَيْبُ التَّحْرِيكِ ؛ فإِنَّهُ لا يُحْمَدُ من الخيلِ ، وإِنَّما يُحْمَدُ من الإِبلِ ، كما قال أَبو نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٢٩٧] : [منَ الكامل]

تَثْنِـي عَلَـى الحَـاذَيْـنِ ذَا خُصَـلٍ تَعْمَـالُـهُ الشَّـذْرَانُ وَالْخَطْـرُ[٤]

---

(١) شُلنَ عليكُم : مِن شالَ الفرسُ بذنبهِ يشولُ شولاً ؛ أَي : رفعَهُ عندَ الجري . المخاضُ : النوقُ الحواملُ . الغبرُ : البقيَّةُ مِنَ اللبنِ في الضَّرعِ . والمعنىٰ : لقد رأيتُكم منهزمينَ والخيلُ تعدو عليكُم رافعةً أذنابَها رفعَ النوقِ الحواملِ لها إذا طُلِبَ حلبُ غبرِ لبنِها .

(٢) فيحىٰ فياحِ : انتشري واتَّسعي أَيَّتُهَا الغارةُ .

(٣) المراد الليرَة الذهبية الإنكليزية المعروفة الآن .

(٤) الحاذانِ ـ مثنَّىٰ الحاذي ـ : وهوَ ظاهرُ الفخذِ . ذا خصلٍ : يريدُ بِهِ ذنبَ الناقةِ . التَّعمالُ : الاضطرابُ . الشذرانُ : جمعُ الناقةِ قُطرَيها وَرَفْعُها ذَنَبَها . الخَطْرُ : أَنْ تضربَ الناقةُ بذيلِها يميناً ويساراً .

أَمَّـــا إِذَا رَفَعَتْـــهُ شَـــامِـــذَةً فتَقُـــولُ : رَنَّـــقَ فَـــوْقَهَـــا نَسْـــرُ[1]
أَمَّـــا إِذَا وَضَعَتْـــهُ خَـــافِضَـــةً فَتَقُـــولُ : أُرْخِـــيَ دُونَهَـــا سَتْـــرُ

[هل معقول أن سرعة الخيل الأعوجية تعادل سرعة القطا ؟]

والكلامُ في الخيلِ يطولُ ، وسنسيرُ عليهِ في الفُصُولِ ، كُلَّما سنَحتْ فرصةٌ . . نذكرُ منهُ حِصَّةً ، وهي ممّا أُفردَتْ بالتآليفِ العديدةِ ، ومِنْ أَشهرِها (الأَعوجيّةُ) منسوبة لفحلٍ كريمٍ كان لكندةَ ، ثُمَّ أخذَتْهُ سُليمٌ ، ثُمَّ صارَ لبني عامرٍ ، ثُمَّ لبني هلالٍ ، رُكِبَ رطباً ، فاعوجتْ أَرساغُهُ ، قيلَ لصاحبهِ : ما رأيتَ مِنْ شدةِ عَدْوهِ ؟ قال : عطشتُ في الفلاةِ ، ولا أَعرفُ منهلاً ، فما كانَ بأَسرعَ مِنْ سربِ قَطَا وارِدٍ ، فأَجريتُهُ في إِثرِهِ ، فوافينا الماءَ معاً ، وكنتُ أَغضُّ مِنْ عِنانِهِ .

وفيهِ مبالغاتٌ ؛ لأَنَّ القطا مِنْ أَشدِّ الطيرِ طيراناً ، وإِذا أَرادَ الماءَ . . اشتدَّ ، ومَا كفاهُ ذلكَ حَتَّىٰ قالَ : أَغضُّ مِنْ لجامهِ .

[أول من ركب الخيل]

وأَوَّلُ مَنْ ركبَ الخيلَ : إِسماعيلُ ـ عليهِ السلامُ ـ وكانتْ قبلَ ذلكَ وحشيَّةً ، كما سيأَتي بيانهُ في غيرِ هـٰذا المجلسِ .

واللهُ أَعلمُ

* * *

---

(١) الشامذةُ : الناقةُ التي تشيلُ ذنبهَا نشاطاً .



المجلس الخامس

[قالَ أبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٢٩] : [مِنَ الكامل]

غُصْنٌ عَلَىٰ نَقَوَا فَلَاةٍ نَابِتٌ ... شَمْسُ النَّهَارِ تُقِلُّ لَيْلاً مُظْلِمَا

[وصف المتنبي لحبيبته]

يصفُ حبيبتَهُ فيقولُ : هي (غصنٌ) يعني : قامتَها . (نابتٌ) علىٰ كثيبَيْ رملٍ ـ يعني : ردفَيها . ووجهُهَا شمسٌ تحملُ ليلاً مُظلِماً ـ يعني : فرعَها . و(نَقَوَا) ـ تثنيةُ نقاً ـ وهوَ : الكثيبُ مِنَ الرَّمْلِ . و(الفَلَاةُ) : المَفازةُ ، وتشبيهُ الكَفَلِ بالنَّقا شائعٌ ذائعٌ مرميٌّ في مدارجِ الطُّرقِ ، غيرَ أنَّ التَّثنيةَ قد تُخرجُهُ عَنِ الابتذالِ ، والمَرأةُ لها مأكمتانِ ، فشبَّهَ كلَّ واحدةٍ بنَقاً مِنَ الرَّملِ نابتٌ عليهما غصنُ القامةِ ، وذِكرُ الفلاةِ مِنَ الفضولِ ؛ إذ لاَ معنىٰ لَهُ غيرَ الاسترفادِ ، ما لَمْ تكُنِ المرأةُ أعرابيَّةً ، فيكونُ مِنْ بيانِ الواقعِ . وقولهُ : (نابتٌ) منَ الحشوِ أيضاً ؛ إذْ لا يزيدُ شيئاً علىٰ قولهِ : (غُصْنٌ عَلَىٰ نَقَوَا) ، وتشبيهُ المآكمِ بكُثبانِ الرَّملِ علىٰ ما ذكرنا مِنَ الشُّيوعِ .

[تشبيه المآكم بكثبان الرمل عند الشعراء]

وممَّا جاءَ مُحكماً فيهِ قولُ أبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ١٠٣] : [مِنَ البسيطِ]

كَمْ أَحْرَزَتْ قُضُبُ الْهِنْدِيِّ ـ مُصْلَتَةً ... تَهْتَزُّ ـ مِنْ قُضُبٍ تَهْتَزُّ مِنْ كُثُبِ[1]

وقولُ البُحتريِّ [في « ديوانه » ٣/ ١٩٥٤] : [مِنَ الكاملِ]

أَيْنَ الْغَزَالُ الْمُسْتَعِيرُ مِنَ النَّقَا ... كَفَلاً ، وَمِنْ نَوْرِ الأَقَاحِي مَبْسِمَا[2] ؟

ومرَّ كَثيرٌ ممَّا يتَّصلُ بهِ في المجلسِ الثَّاني عندَ قولهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٩٧] : (بَانُوا بِخُرْعُوبَةٍ لَهَا كَفَلٌ . . .) ، ولكنَّ الإجادةَ كلَّ الإجادةِ ما فعلَ ذو الرُّمَّةِ مِنْ عكسهِ التَّشبيهَ في قولهِ [في « ديوانه » ٢/ ١١٣١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَرَمْلٍ كَأَوْرَاكِ الْعَذَارَىٰ قَطَعْتُهُ ... وَقَدْ جَلَّلَتْهُ الْمُظْلِمَاتُ الْحَنَادِسُ[3]

[كثرة استعمال التشبيه تبليه إلا إن خرج عن بابه مع تظريف]

وكذلكَ تشبيهُ الوجهِ بالشَّمسِ والبدرِ ، والفرعِ باللَّيلِ[4] ، فإنَّهُ ممَّا أذالَهُ الابتذالُ ، فلَمْ يعُدْ يَحسُنُ إلاَّ معَ تظريفٍ

---

(١) القُضُبُ ـ مفردها قضيبٌ ـ : وهوَ السيفُ اللطيفُ القطَّاعُ . مُصْلَتَةٌ : مسلولةٌ ؛ والمعنىٰ : أنَّ تلكَ السيوفَ الهنديَّةَ إذا اهتزَّتْ . . سَبَتِ الذراري ، وأَحرزتِ النساءَ اللاَّتي تهتزُّ كالقُضبانِ في كُثبانِ الرملِ .

(٢) النقا : الرمل . والأقاحي : جمع أُقحوانٍ ، وهوَ نبتٌ طيِّبُ الريح .

(٣) الحنادسُ : ثلاثُ ليالٍ مِنَ الشهرِ لظُلمَتهنَّ .

(٤) الفرعُ : الشَّعرُ .

يُغرِّبُهُ فيخرِجُهُ عَنِ الامتهانِ ؛ كقولِ طَرَفَةَ [في « ديوانه » ١١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَوَجْـهٍ كَـأَنَّ الشَّمْـسَ حَلَّـتْ رِداءَهَـا ... عَلَيْـهِ نَقِـيُّ اللَّـوْنِ لَـمْ يَتَخَـدَّدِ[1]

وقولِ قيسٍ : [مِنَ الكامِلِ]

لَـوْ أَنَّ لَيْلَـىٰ حَـاكَمَـتْ شَمْـسَ الضُّحَـىٰ ... فِـي الْحُسْـنِ عِنْـدَ مُـوَفَّـقٍ . . لَقَضَـىٰ لَهَـا

وقولِ البُحتريِّ [في « ديوانهِ » ٤/ ٢٤١٠] : [مِنَ البسيطِ]

فِـي طَلْعَـةِ الشَّمْـسِ شَـيْءٌ مِـنْ مَـلاَحَتِهَـا ... وَلِلْقَضِيـبِ نَصِيـبٌ مِـنْ تَثَنِّيهَـا

وقولِ الآخَرِ : [مِنَ الطَّويلِ]

تَـرَاءَىٰ وَمِـرْآةُ السَّمَـاءِ صَقِيلَـةٌ ... فَـأَثَّـرَ فِيهَـا وَجْهُـهُ صُـورَةَ الْبَـدْرِ

وقولِ بعضِ قدماءِ المولَّدينَ[2] : [مِنَ البسيطِ]

قَـدْ قُلْـتُ لِلْبَـدْرِ وَاسْتَعْبَـرْتُ حِيـنَ بَـدَا ... مَـا فِيكَ يَـا بَـدْرُ لِـي مِـنْ وَجْهِهَـا خَلَـفُ

تُبْـدِي لَنَـا كُلَّمَـا شِئْنَـا مَحَـاسِنَهَـا ... وَأَنْـتَ تَنْقُـصُ أَحْيَـانـاً وَتَنْخَسِـفُ

وقولِ حبيبٍ [في « ديوانهِ »] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـرُدَّتْ عَلَيْنَـا الشَّمْـسُ وَاللَّيْـلُ مُظْلِـمٌ ... بِشَمْسٍ لَهُـمْ مِـنْ جَـانِبِ الْخِـدْرِ تَطْلُـعُ

فَـوَاللهِ مَـا أَدْرِي أَأَحْـلاَمُ نَـائِـمٍ ... أَلَمَّتْ بِنَا ، أَمْ كَانَ فِي الرَّكْبِ يُوشَعُ[3]

وَإِلىٰ مِثلِهِ يُشيرُ أبو العلاءِ في قولِهِ : [مِنَ الوافِرِ]

وَيُـوشَـعُ رَدَّ يَـوْمـاً بَعْـضَ يَـوْمٍ ... وَأَنْـتَ مَتَـىٰ سَفَـرْتَ رَدَدْتَ يُـوحَـا[4]

وما أَحْسَنَ قولَهُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَـدْ حَلَفَـتْ أَنْ تَسْأَلَ الشَّمْـسَ حَـاجَةً ... وَإِنْ سَـأَلَتْـكَ الْيُسْـرَ بَـرَّتْ يَمِينُهَـا

وقولَهُ [في « سقط الزَّند » ١٦١] : [مِنَ البسيطِ]

أَرَىٰ جَبِينَـكَ هَـٰذِي الشَّمْـسُ خَـالِقَهَـا ... وَقَـدْ أَنَـارَتْ بِنُـورٍ عَنْـهُ مُنْعَكِـسِ

وقولَ بَديعِ الزَّمانِ [في « ديوانهِ » ٣٤] : [مِنَ البسيطِ]

يَكَـادُ يَحْكِيـكَ صَـوْبُ الْغَيْـثِ مُنْسَكِبـاً ... لَـوْ كَـانَ طَلْـقَ الْمُحَيَّـا يُمْطِـرُ الـذَّهَبَـا

---

(١) الوجهُ المتخدِّدُ : المتجعِّدُ .

(٢) المولَّدينَ : المُحْدَثينَ ، والمولَّدُ لغة : المُحْدَثُ مِنْ كُلِّ شيءٍ ، واصطلاحاً : هوَ العربيُّ غيرُ المحضِ ، وُلِدَ عندَ العربِ ، ونشأَ معَ أَولادِهِم ، وتأدَّبَ بآدابِهِم ، فهوَ مولَّدٌ وليسَ بعربيٍّ صريحٍ .

(٣) والمعنىٰ : شبَّهَ سفورَ محبوبتِهِ ليلاً كأنَّها شمسُ النهارِ عادت ليلاً ، ثمَّ يستغربُ ويشكُّكُ فيما رأىٰ فيظنُّهُ تارةً حُلْماً وتارةً يظنُّ أنَّ يوشعَ بنَ نونٍ معَ الركبِ ، حيثُ إنَّ يوشعَ استوقفَ الشمسَ عندما كانَ يقاتِلُ الجبَّارينَ يومَ الجُمُعةِ ، فلمَّا أدبرتِ الشمسُ . . خافَ أَنْ تغيبَ قبلَ أَنْ يفرغَ مِنَ القتالِ ويدخُلَ السبتُ ، فلا يحلُّ لهُ القتالُ ، فدعا اللهَ ، فردَّ لهُ الشمسَ حتَّىٰ فَرَغَ مِنْ قتالِهِم .

(٤) سفرت : برزتَ مِنْ غيرِ حجابٍ . يوحا : اسمٌ مِن أسماءِ الشمسِ .

وَالدَّهْرُ لَوْ لَمْ يَخُنْ وَالشَّمْسُ لَوْ نَطَقَتْ ... وَاللَّيْثُ لَوْ لَمْ يُصَدْ وَالْبَحْرُ لَوْ عَذُبَا

وقولَ ابنِ المعتزِّ [في « ديوانه » ٢/ ١٥١] : [مِنَ الطَّويلِ]

سَقَتْنِيَ فِي لَيْلٍ شَبِيهٍ بِشَعْرِهَا ... شَبِيهَةَ خَدَّيْهَا بِغَيْرِ رَقِيبِ

فَأَمْسَيْتُ فِي لَيْلَيْنِ فِي الشَّعْرِ وَالدُّجَىٰ ... وَشَمْسَيْنِ مِنْ خَمْرٍ وَخَدِّ حَبِيبِ

[الرشيد وعلي بن الخليل]

ويروىٰ [كما في « الأغاني » ١٤/ ١٧٤] : أَنَّ شَيْخاً حسَنَ الهيئةِ قامَ في مجلسِ الرَّشيدِ للمظالمِ برُقعةٍ ، فأَمرَ بأَخذِها ، فقالَ الشَّيخُ : إنْ رأىٰ أَميرُ المؤمنينَ أَنْ يأذنَ لي بقراءتِها ؛ فإنِّي أَعرَفُ بخطِّي ، قال : اقرأْ ، فأَنشدَهُ قصيدةً منها : [مِنَ الكامِلِ]

لَمَّا رَأَتْكَ الشَّمْسُ طَالِعَةً ... سَجَدَتْ لِوَجْهِكَ طَلْعَةُ الشَّمْسِ

خَيْرُ الْبَرِيَّةِ أَنْتَ كُلِّهِمُ ... فِي يَوْمِكَ الْغَادِي وَفِي أَمْسِ

للهِ يَا هَارُونُ مِنْ مَلِكٍ ... عَفِّ السَّرِيرَةِ طَاهِرِ النَّفْسِ

حتَّىٰ أَتىٰ علىٰ آخِرِها . قالَ الرَّشيدُ : مَنِ الشَّيخُ ؟ قالَ : عليُّ بنُ الخليلِ ، الَّذي يُقالُ إِنَّهُ زِنْديقٌ ، قال : أَنتَ آمِنٌ ، وأَمرَ لَهُ بخمسِ مئةِ أَلفِ دِرهمٍ[١] .

[المتنبي وإغرابه في التشبيه]

وما أَكثرَ في « **ديوانِ النَّاظمِ** » مِنِ استعارةِ الشَّمسِ بتنكيتٍ[٢] تارةً ، وبدونهِ أُخرىٰ .

مِنْ ذلكَ **قولُهُ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٢٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

رَأَتْ وَجْهَ مَنْ أَهْوَىٰ بِلَيْلٍ عَوَاذِلِي ... فَقُلْنَ : نَرَىٰ شَمْساً وَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣١] : [مِنَ الكامِلِ]

لَمْ تَلْقَ هَـٰذَا الْوَجْهَ شَمْسُ نَهَارِنَا ... إِلاَّ بِوَجْهٍ لَيْسَ فِيهِ حَيَاءُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٣٠] : [مِنَ الكامِلِ]

كَالشَّمْسِ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ وَضَوْءُهَا ... يَغْشَى الْبِلاَدَ مَشَارِقاً وَمَغَارِبَا

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٨٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

بِفَرْعٍ يُرِيكَ اللَّيْلَ وَالصُّبْحُ نَيِّرٌ ... وَوَجْهٍ يُعِيدُ الصُّبْحَ وَاللَّيْلُ مُظْلِمُ[٣]

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١١٣] : [مِنَ البسيطِ]

بَيَاضُ وَجْهٍ يُرِيكَ الشَّمْسَ حَالِكَةً ... وَدُرُّ لَفْظٍ يُرِيكَ الدُّرَّ مَخْشَلَبَا[٤]

---

(١) وجاء في « الأغاني » : أَنَّهُ أَعطاهُ خمسةَ آلافِ درهمٍ .

(٢) **النكتةُ** : المسألةُ العلميَّةُ الدقيقةُ ، يتوصَّلُ إليها بدقَّةٍ وإنعامِ فكرٍ .

(٣) الباءُ في قولِهِ : (بِفَرْعٍ) متعلِّقةٌ بمحذوفٍ تقديرُهُ : تُقْبِلُ .

والمعنىٰ : قد جُمِعَتْ فيها الأَضدادُ ، فهيَ تجمعُ بينَ الليلِ والنهارِ ، تُريكَ النهارَ ليلاً بشَعرِها ، والليل نهاراً بوجهِها .

(٤) **المَخْشَلَبُ والمَشْخَلَبُ** : لُغتانِ ، وليستا عربيَّتينِ ، وإنَّما هُما لُغتانِ للنَّبَطِ ، وهوَ : خَرزٌ مِنْ حجارةِ البحرِ ، وليسَ بدُرٍّ .

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٨١] : [مِنَ البسيطِ]

شَمْسٌ إِذَا الشَّمْسُ لاَقَتْهُ عَلَىٰ فَرَسٍ ... تَرَدَّدَ النُّورُ فِيهَا مِنْ تَرَدُّدِهِ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٩٩] : [مِنَ البسيطِ]

تَكَسَّبُ الشَّمْسُ مِنْكَ النُّورَ طَالِعَةً ... كَمَا تَكَسَّبَ مِنْهَا نُورَهُ الْقَمَرُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١١٠] : [مِنَ الوافِرِ]

كَأَنَّ شُعَاعَ عَيْنِ الشَّمْسِ فِيهِ ... فَفِي أَبْصَارِنَا عَنْهُ انْكِسَارُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلاَ زَالَتِ الشَّمْسُ الَّتِي فِي سَمَائِهِ ... مُطَالِعَةَ الشَّمْسِ الَّتِي فِي لِثَامِهِ

وَلاَ زَالَ تَجْتَازُ الْبُدُورُ بِوَجْهِهِ ... تَعَجَّبُ مِنْ نُقْصَانِهَا وَتَمَامِهِ

[وصف السيدة فاطمة الزهراء]

وأَفضلُ ما فِي الموضوعِ : ما أَخرجهُ الحاكمُ [في « المستدركِ » ٣/ ١٧٦] عَنْ أَنسِ بنِ مالكٍ قالَ : سأَلتُ أُمِّي عَنْ فاطمةَ بنتِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فقالَتْ : كانَتْ كالقمرِ ليلةَ البدرِ ، أَوِ الشَّمسِ إذا خرجَتْ مِنَ السَّحابِ ؛ بيضاءَ مشرَّبةً حُمرةً ، لها شعرٌ أَسودُ ، مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ شبهاً برسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، هيَ ـ واللهِ ـ كما قالَ الشَّاعرُ :

[مِنَ الكامِلِ]

بَيْضَاءُ تَسْحَبُ مِنْ قِيَامٍ شَعْرَهَا ... وَتَغِيبُ فِيهِ وَهْوَ جَثْلٌ أَسْحَمُ(١)

فَكَأَنَّهَا فِيهِ نَهَارٌ مُشْرِقٌ ... وَكَأَنَّهُ لَيْلٌ عَلَيْهَا مُظْلِمُ

[وصف سيد الأنام صلى الله عليه وسلم]

وقالَ كعبُ بنُ زهيرٍ يمدحُ سيِّدَ المرسلينَ صلى الله عليه وسلم : [مِنَ البسيطِ]

تَجْرِي بِهِ النَّاقَةُ الأَدْمَاءُ مُعْتَجِراً ... بِالْبُرْدِ كَالْبَدْرِ جَلَّىٰ لَيْلَةَ الظُّلَمِ(٢)

وهوَ تشبيهٌ بليغٌ معَ وجودِ الأَداةِ ، وعدمِ الإِغرابِ ، وقلَّةِ النُّكاتِ ، وما وقعَ مِنَ القَبولِ بما هوَ عليهِ إِلاَّ مِنْ حيثُ إِنَّهُ صادفَ محلَّهُ ، وكانَ قبلَ ابتذالِ المعنىٰ إِلىٰ جَزالةِ تركيبٍ ، وفَخامةِ لفظٍ ، وتَناسُقِ سَبْكٍ ، واتِّفاقِ جِناسٍ ، وسلاسةِ تعبيرٍ ، ولا كذلكَ بيتُ النَّاظمِ الَّذي نتكلَّمُ فيهِ ؛ لخلوِّهِ مِنَ الإِغرابِ الَّذي لا يزالُ يتصيَّدُهُ ، وبيتُ كعبٍ هٰذا أَحدُ بيتينِ أَجمعَ أَهلُ العلمِ بالصِّناعةِ علىٰ تقديمِهما ، وقد شطَّرتُهما بما امتزجَ بهما امتزاجَ الماءِ بالرَّاحِ ، واختلطَ بهما اختلاطَ الأَجسامِ بالأَرواحِ ، فقلتُ : [مِنَ البسيطِ]

تَجْرِي بِهِ النَّاقَةُ الأَدْمَاءُ مُعْتَجِراً ... فِي الْغَزْوِ مَخْضُوبَةً أَخْفَافُهَا بِدَمِ

---

(١) الجثْلُ : الكثيرُ الملتفُّ . أَسحمُ : أَسودُ .

(٢) الأدماءُ : السوداءُ .

وَالْيَوْمُ بِالنَّقْعِ لَيْلٌ وَهْوَ مُتَّشِحٌ ... بِالْبُرْدِ كَالْبَدْرِ جَلَّىٰ لَيْلَةَ الظُّلَمِ
وَفِي عِطَافَيْهِ أَوْ أَثْنَاءِ رِيطَتِهِ ... جَلاَلَةُ الْوَحْيِ فِي مُسْتَحْسَنِ الشِّيَمِ[1]
وَبَيْنَ جَنْبَيْهِ قَلْبٌ مِلْءُ حَبَّتِهِ ... مَا يَعْلَمُ اللهُ مِنْ دِينٍ وَمِنْ كَرَمِ

[التوغل والاستغراق في المديح عند المتنبي]

وقد أَلَمَّ النَّاظمُ بالأخيرِ في قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٤٠] : [مِنَ الكامِلِ]

يَفْنَى الْكَلاَمُ وَلاَ يُحِيطُ بِوَصْفِكُمْ ... أَيُحِيطُ مَا يَفْنَىٰ بِمَا لاَ يَنْفَدُ ؟!

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٥٢] : [مِنَ البسيطِ]

لَمْ أُجْرِ غَايَةَ فِكْرِي مِنْكَ فِي صِفَةٍ ... إِلاَّ وَجَدْتُ مَدَاهَا غَايَةَ الأَبَدِ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٣٣] : [مِنَ الكامِلِ]

وَتَحَيَّرَتْ فِيهِ الصِّفَاتُ لأَنَّهَا ... أَلْفَتْ طَرَائِقَهُ عَلَيْهَا تَبْعُدُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٨٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا حَارَتِ الأَفْهَامُ فِي عُظْمِ شَأْنِهِ ... بِأَكْثَرَ مِمَّا حَارَ فِي حُسْنِهِ الطَّرْفُ

وقولِهِ ـ وقد أَساءَ الأَدبَ ـ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٢٠١] : [مِنَ الكامِلِ]

تَتَقَاصَرُ الأَفْهَامُ عَنْ إِدْرَاكِهِ ... مِثْلُ الَّذِي الأَفْلاَكُ فِيهِ وَالدُّنَا[2]

[التوغل والاستغراق في المديح عند الشعراء]

وقالَ بعضُهم : [مِنَ الوافِرِ]

مُرَامٌ شَطَّ مَرْمَى الْوَصْفِ فِيهِ ... فَدُونَ مَدَاهُ بِيدٌ لاَ تَبِيدُ

وقالَ ابنُ هانِىءٍ [في « ديوانهِ » ٩١] : [مِنَ البسيطِ]

أَتْبَعْتُهُ فِكْرَتِي حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتْ ... غَايَاتِهَا بَيْنَ تَصْوِيبٍ وَتَصْعِيدِ
أَبْصَرْتُ مَوْضِعَ بُرْهَانٍ يَلُوحُ وَمَا ... أَبْصَرْتُ مَوْضِعَ تَكْيِيفٍ وَتَحْدِيدِ

ومَا أَليقَ هـٰذا بالجَنابِ الأَقدسِ ، غيرَ أَنَّ هـٰؤلاءِ لاَ يوزَعونَ[3] عَنِ الغُلُوِّ في المخلوقينَ .

وقالَ العجَّاجُ فيما يُشبِهُ قولَ كعبٍ [في « ديوانهِ » ٣٩٧] : [مِنَ الرَّجَزِ]

يَحْمِلْنَ كُلَّ سُؤْدَدٍ وَفَخْرِ ... يَحْمِلْنَ مَا نَدْرِي وَمَا لاَ نَدْرِي

---

(١) الربطةُ : المَلاءةُ إِذا كانتْ قطعةً واحدةً ولم تكن لِفقَين .

(٢) مِثْلُ : الروايةُ الصحيحةُ بالرفعِ ، ويكونُ علىٰ تقديرِ : هوَ مِثْلُ ؛ يعني : أَنَّ الأَفهامَ تتقاصرُ عن هـٰذا الممدوحِ في معرفةِ حقيقتِهِ ، فهو مثلُ علمِ اللهِ تعالىٰ .

(٣) لا يوزَعونَ : لا يرتدعونَ .

قالَ الأَصمعيُّ ـ وأَصلُهُ قولُ الحارثِ بنِ حِلِّزَةَ ـ : [مِنَ الخفيفِ]

وَفَعَلْنَا كَمَا عَلِمَ اللهُ وَمَا إِنْ لِلْخَائِنِينَ دَمَاءُ[1]

وقالتِ الخنساءُ [في « ديوانها » ٢٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ ثَكِلَتْ أُمُّ الَّذِينَ مَضَوْا بِهِ إِلَى الْقَبْرِ مَاذَا يَحْمِلُونَ إِلَى الْقَبْرِ ؟!

وفي الذِّكرِ الحكيمِ منهُ الكثيرُ الطَّيِّبُ ، كقولهِ جلَّ اسمهُ : ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : ٧٨] ، وقولهِ : ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ [النجم : ١٦] ، وقولهِ : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩] .

[المؤلف ومفاضلته بين بيتٍ للبوصيري وبيت لابن الفارض في أحد المجالس]

واتَّفقَ أنْ حضرنَا مجلساً جَرَىٰ فيهِ ذكرُ قولِ البوصيريِّ [في « بردتهِ » ١٦] : [مِنَ البسيطِ]

فَمَبْلَغُ الْعِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ

فقلتُ : ما زالتِ الأُدباءُ تفاضِلُ بينهُ وبينَ قولِ ابنِ الفارضِ [في « ديوانهِ » ١٥٤] : [مِنَ الكاملِ]

وَعَلَىٰ تَفَنُّنِ وَاصِفِيهِ بِوَصْفِهِ يَفْنَى الزَّمَانُ وَفِيهِ مَا لَمْ يُوصَفِ

ومنهمْ منْ يرجِّحُ الأَوَّلَ ؛ لاقتضائهِ أَنَّ العلمَ لاَ يصلُ كُنْهَ صِفتهِ عليهِ السَّلامُ ؛ إِذْ صارَ كأَنَّهُ استجمعَ فضيلةَ كلِّ فاضلٍ ، وزادَ .

والحالُ : أَنَّ ذِكْرَ فضلِ سائرِ الفضلاءِ بلهَ الزِّيادةِ عليهِ لاَ يُحصىٰ في أَزمنةٍ ، فضلاً عَنِ الزَّمانِ الواحدِ ، فالأمرُ أَكثرُ مِنْ قولِ النَّاظمِ [في « العُكبَريِّ » ٢/٢٦٧] : [مِنَ الكاملِ]

لَوْ نِيطَتِ الدُّنْيَا بِأُخْرَىٰ مِثْلِهَا لَعَمَمْنَهَا وَخَشِينَ أَنْ لاَ تَقْنَعَا[2]

[إتمامه صلى الله عليه وسلم بيتاً للبوصيري في المنام]

ويحكونَ فيه مناماً ، حاصلُهُ : أَنَّ البوصيريَّ وقف بعدَ الشَّطرِ الأَوَّلِ مِنَ البيتِ ، ولمْ يدرِ ما يقولُ ، فرأى النَّبي صلى الله عليه وسلم يُتِمُّهُ لهُ كمَا هوَ ، ولكنَّ بيتَ ابنِ الفارضِ أَفخمُ ، وأَملأُ للفمِ ، وأَرقُّ دِيباجةً ، وأَلطفُ حاشيةً ، وأَجملُ سَبْكاً ، ولاَسيَّما مِنْ شطرِ بيتِ البوصيريِّ الأَخيرِ ، علىٰ أَنَّ (أَل) في المفردِ مِنْ صيغِ العمومِ ، فيساوي بيتَ البوصيريِّ حينئذٍ في المعنىٰ ، ويبقىٰ لهُ التَّفرُّدُ بفصاحةِ الأَلفاظِ ، وهيَ الَّتي لاَ تتفاوتُ الدَّرجاتُ وتتمايزُ المقاديرُ إلاَّ بهَا .

[المعاني موجودة حتىٰ عند العامة ولكن الفضل في نظمها]

أَمَّا المعاني : فقد تجدُ في كلامِ العامَّةِ ما لا تجدُ مثلَهُ منها في أَشعارِ الفحولِ ؛ ولهٰذا قالَ أَبو تمَّام : لمّا نظمتُ قصيدتِي المستهلَّةَ بقولي [في « ديوانهِ » ١/١٤٨ ـ ١٤٩] : [مِنَ الطَّويلِ] (عَلَىٰ مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلاعِبِ) ، ووصلتُ إِلىٰ قولي منها :

---

(١) الدِّمَاءُ : بقيَّةُ الروحِ في المذبوحِ ، أَو قوَّةُ قلبهِ .

(٢) لعَمَمْنَها : أَيْ هِمَّتُكَ وعزمُكَ وسعةُ صدركَ .

يَـرَىٰ أَقْبَـحَ الأَشْيَـاءِ أَوْبَـةَ آمِـلٍ كَسَتْـهُ يَـدُ الْمَـأْمُـولِ حُلَّـةَ خَـائِـبِ

(وَأَحْسَنُ مِنْ نَوْرٍ يُفَتِّحُهُ الصَّبَا) . . تبلَّدْتُ ولمْ أقدرْ علىٰ شيءٍ ، حتَّىٰ قامَ سائلٌ بالبابِ يقول : مِنْ بياضِ عطاياكُم في سوادِ مطالبِنَا ، فأتممتُ البيت هـٰكذا : (بَيَاضُ الْعَطَايَا فِي سَوَادِ الْمَطَالِبِ) .

علىٰ أَنَّ الشَّيخَ ابنَ الفارضِ لمّا فُتِحَ عليهِ بالبيتِ المذكورِ . . رقصَ طويلاً ، وتواجدَ وجداً عظيماً ، وتحدَّرَ منهُ عرقٌ كثيرٌ ، حتَّىٰ سالَ تحتَ قدميهِ ، وخرَّ إلى الأرضِ ، واضطربَ كما يضطربُ العصفورُ ، قالَ ولدهُ : ثمَّ سكنَ حالُهُ ، وسجدَ للهِ تعالىٰ ، وقالَ : فُتِحَ عليَّ بمعنىً لَمْ يفتحْ عليَّ بمثلهِ ، وأَنشدَ البيتَ . . . هـٰذا ما قلتهُ بمعناهُ إنْ تعذَّرَ لفظهُ .

[اعتراض بعض الحاضرين على المؤلف ورد المؤلف عليه]

وفي المجلسِ بعضُ مَنْ يدَّعِي العلمَ فأعادَ بعضَ كلامِي عَنْ بيتِ البوصيريِّ بعبارةٍ عاميَّةٍ مُبْتَذَلَةٍ ، وقضىٰ لهُ ، وقالَ : كيفَ لا يكونُ أَبلغَ مِنْ بيتِ ابنِ الفارضِ ، وقد أملاهُ عليهِ سيِّدُ البشرِ ؟! قلتُ لهُ : ذلكَ أدنىٰ لتفضيلِ بيتِ ابنِ الفارضِ عليهِ ؛ فاللهُ جلَّ ثناؤهُ يقولُ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [يٰس : ٦٩] .

ومِنْ هُنا نجدُ في القسمِ الثَّاني الَّذي ذكرَ أَنَّهُ أَملاهُ عليه السَّلامُ ضعفاً يزيدُنا إيماناً وطمأْنينةً بصدقِ رسالتهِ ، وحقيقةِ وحيهِ ، فانقطعَ الرَّجلُ عَنِ الحجَّةِ غيرَ أَنَّهُ لجَّ في المكابرةِ ، وأَبىٰ لهُ أَصحابهُ إلاَّ الغَلَبَ ، وإلى النَّاظرينَ الحُكمُ فيما شجرَ ، ويرحمُ اللهُ مَنْ نظرَ بعينِ المَعْدَلَةِ ، وتكلَّمَ بلسانِ الإنصافِ .

ثمَّ ذكرتُ : أَنَّ الأَخطلَ كما في « معاهدِ التنصيصِ » يقولُ : [مِنَ الطَّويلِ]

رَأَيْنَـا بَيَـاضـاً فِـي سَـوَادٍ كَـأَنَّـهُ بَيَـاضُ الْعَطَـايَـا فِـي سَـوَادِ الْمَطَـالِـبِ

فغلبَ على الظَّنِّ أَنَّ الطَّائيَّ[1] إنَّما انتحلَ حديثَ السَّائلِ ليواريَ مِنْ سوءَتِهِ ، ويُعَفِّيَ علىٰ سرقتِهِ .

واللهُ أَعلمُ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبي في « العُكبَريِّ » ٤/٢٩] : [مِنَ الكاملِ]

لَـمْ تَجْمَـعِ الأَضْـدَادَ فِـي مُتَشَـابِـهٍ إلاَّ لِتَجْعَلَنِـي لِغُـرْمِـيَ مَغْنَمَـا

[تشبيه المتنبي ما يلزم من العشق بالدِّين]

يقولُ : إنَّ مَا لزمهُ مِنْ عشقِ الحبيبةِ بمثابةِ الدِّينِ الثَّابتِ ، وهيَ لم تجمعِ الأَوصافَ الضِّدِّيَةَ في شخصِها المتمثِّلِ حُسْناً إلاَّ لتجعلنِي غنيمةً للمغرمِ الَّذي لزمنِي مِنْ هواها .

[شرح البيت]

قالَ الشَّارحُ : أَي لتستعبدَنِي وترتهنَ قلبي ، وأَقولُ : إنَّ الأَولىٰ : لتقتُلَني إذا غلقَ رهنُ قلبي بما فيهِ ؛ لأَنَّهُ الأَقربُ المتبادرُ مِنْ لفظِ البيتِ .

---

(١) هو الشاعرُ المعروفُ ، أبو تمام ، حبيبُ بنُ أَوسٍ الطَّائيُّ .

و(أَلْ) في الأَضدادِ للعهدِ المذكورِ في البيتِ قبلهُ مِنَ الهَيَفِ في القدِّ ، والضَّخامةِ في الكفلِ ، والضِّياءِ في الوجهِ ، والظَّلامِ في الفرعِ .

[معنى التشابه]

والتَّشابهُ ؛ وهو : التَّساوي ، وقد يرادُ بهِ المؤدِّي للالتباسِ ، ومنهُ قولهُ تعالىٰ : ﴿ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ [البقرة : ١١٨] ، وقولُهُ جلَّ ذكرهُ عن بني إسرائيلَ : ﴿ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا ﴾ [البقرة : ٧٠] وقولهُ تقدَّستْ أَسماؤهُ : ﴿ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ﴾ [الأنعام : ٩٩] ، ويدخلُ في التَّشابهِ التَّشبيهُ المعكوسُ ، وهو : أَنْ يُشبَّهَ كلٌّ مِنَ الشَّيئينِ بالآخرِ ، كقولِ الصَّاحبِ [في « ديوانه » ١٧٦] : [مِنَ الكامل]

رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَاقَتِ الْخَمْرُ ... فَتَشَابَهَا وَتَشَاكَلَ الأَمْرُ
فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلاَ قَدَحٌ ... وَكَأَنَّمَا قَدَحٌ وَلاَ خَمْرُ

[تناسب الأعضاء إلىٰ بعضها هو معيار الحسن]

والمرادُ مِنَ التَّشابهِ هنا ـ كما أَسلفنا الإشارةَ إِليهِ ـ : التَّساوي في الحُسنِ والجمالِ والتَّناسبُ فيهِ ؛ إِذْ لكلِّ عضوٍ مِنَ الأَعضاءِ جمالٌ يخصُّهُ حَسَبَ ما هو مشروحٌ في مواضعهِ ، ولكنها لاَ تغلو قيمةُ ذلكَ الجمالِ في العضوِ إلاَّ إِذا ناسبتْهُ الأَعضاءُ بأَسرِها ، وذلكَ هو الجمالُ المتناصفُ الممدوحُ ، بخلافِ المتفاوتِ ، فإِنَّهُ مذمومٌ ؛ ولذا قالَ جلَّ شأَنهُ : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ ﴾ [الملك : ٣] .

[ذكرني فوها حماري أهلي]

ولقد ذُكِرَ عن بعضِ العربِ[1] : أَنَّهُ خرجَ يمتارُ[2] لأَهلهِ علىٰ حمارينِ ، فرأَى امرأَةً مبرقعةً استهوتهُ بعينيها النَّجلاوينِ ، فتدلَّهَ ، وولَّهَهُ حسنُها ، حتَّى انفلتَ عليهِ الحمارانِ مِنْ حيثُ لاَ يشعرُ ، فلمَّا سفرَتْ عن وجهها . . رآهَا فوهاءَ لاَ يتناسبُ سحرُ عينيها بسَعةِ فمِها ، فأَفاقَ مِنْ غشيتهِ وانتبهَ مِنْ حيرتهِ ، وقالَ : ذكَّرني فُوها . . حمارَيْ أَهلي ، وقالَ : [مِنَ الكامل]

لَيتَ النِّقَابَ عَلَى النِّسَاءِ مُحَرَّمٌ ... كَيْ لاَ تَغُرَّ قَبِيحَةٌ إِنْسَانَا

ولو كانتْ تلكَ السَّعةُ في غيرِ ذلكَ الوجهِ المفرطِ الجمالِ . . لاحتُملتْ ، ولمْ تَشِنْهُ إِلىٰ تلكَ الغايةِ .

[سعة الفم ممدوحة في الرجال لا النساء]

وقد أَشكلَ علىٰ بعضهم معابةُ سعةِ الفمِ ، معَ ما جاءَ في وصفهِ صلى الله عليه وسلم بأَنَّهُ كانَ واسعَ الفمِ ، يفتتحُ الكلامَ ويختتمهُ بأشداقهِ ، والجواب : أَنَّ سعتَهُ مِنَ الرِّجالِ ممدوحةٌ ؛ لدلالتها على اللَّسَنِ وجهارةِ الصَّوتِ ، بخلافِها في النِّساءِ ، فإِنَّها مذمومةٌ ؛ لأَنَّها تدلُّ علىٰ سعةٍ أُخرىٰ لا تُحمدُ[3] .

---

(١) الخبر في « مجمع الأمثال » (١/ ٢٧٥) .
(٢) يمتار : يشتري الطعام .
(٣) كبذاءة الألفاظ واستطالتها .



[الجمال يكون بسواد أربعة]

ثمَّ إنَّ جمالَ المرأةِ بسوادِ أربعةٍ ، هي : شعرُ الرَّأسِ ، والحاجبينِ ، والأشفارِ ، والحَدَقتينِ .

[وبياض أربعة]

وبياضِ أربعةٍ ، هيَ : اللَّونُ ، وبياضُ العينينِ ، والثَّغرِ ، والظُّفُرِ .

[وحمرة أربعة]

وحُمرةِ أربعةٍ ، هيَ : الوجنتانِ ، والشَّفتانِ ، واللِّثَةُ ، واللِّسانُ .

[وكبر أربعة]

وكِبَرِ أربعةٍ ، هيَ : الثَّديانِ ، والركبتانِ ، والعجيزةُ ، والرَّكَبُ .

[وصغر أربعة]

وصِغَرِ أربعةٍ ، هيَ : الأُذُنانِ ، واليدانِ ، والرِّجْلانِ ، والفمُ .

[وسعة أربعة]

وسعةِ أربعةٍ ، هيَ : الجبينُ ، والعينانِ ، والسُّرَّةُ ، وأُصولُ الثَّديينِ .

[وضيق أربعة]

وضيقِ أربعةٍ ، وهيَ : المنخرانِ ، والأُذُنانِ ، والخَصرُ ، والفرجُ .

ولكلٍّ واحدٍ ما يخصُّهُ مِنْ كلامِ العربِ ، ولا بدَّ مِنَ الإلمامِ بهِ مجموعاً في غيرِ هٰذا المجلسِ .

[المراد من حمرة الشفة]

وليسَ المرادُ بحُمرةِ الشَّفَةِ حقيقةَ الحمرةِ ، إنَّما المرادُ : السُّمرةُ ؛ لأنَّها المحمودةُ في الشِّفاهِ ، ويقالُ لها : اللَّعَسُ ، كما في قولِ النَّاظمِ [في « العُكبَريِّ » ٢/١٨٧] : [مِنَ البسيطِ]

صَريعَ مُقْلَتِهَا سَآلَ دِمْنَتِهَا ... قَتِيلَ تَكْسِيرِ ذَاكَ الْجَفْنِ وَاللَّعَسِ[1]

وقالَ أُحيحةُ بنُ الجلاَّحِ : [مِنَ الوافرِ]

وَلاَعَبَنِي عَلَى الأَنْمَاطِ لُعْسٌ ... عَلَىٰ أَفْوَاهِهِنَّ الزَّنْجَبِيلُ[2]

وقالَ ذو الرُّمَّةِ [في « ديوانه » ١/٣٢] : [مِنَ البسيطِ]

لَمْيَاءُ فِي شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ ... وَفِي اللِّثَاتِ وَفِي أَنْيَابِهَا شَنَبُ

واللَّمىٰ والحُوَّةُ واللَّعَسُ شيءٌ واحدٌ ، وهو : الحمرةُ في الشفةِ .

[الملاحة والخلاف فيها]

وقالَ بعضُهم : إنَّ تساوي الأعضاءِ وتشابهَها في الجمالِ هو المَلاحةُ .

---

(١) الدمنَةُ : آثار الديار .

(٢) الأنماط ـ جمع نَمط ـ : وهو ضربٌ مِنَ البُسُطِ ، لهُ خملٌ رقيقٌ .

وقالَ آخرونَ : إنَّما المَلاحةُ أثرُ ذلكَ التَّناسبِ لاَ نفسُهُ ، فهيَ فيهِ : إمَّا حقيقةٌ ، وإمَّا مجازٌ .

ويتحصَّلُ منه : أنَّ كلَّ مليحٍ جميلٌ ، ولا عكسَ .

[الفرق بين المليح والجميل والخلاف فيه]

وقيلَ : إنَّ الجميلَ الذي يأخذُ ببصركَ على البعدِ ، والمليحَ : الذي يأخذُ بقلبكَ على القربِ .

وقيلَ : إنَّ الجميلةَ التي تعجبكَ بعيدةً ، فإذا دنتْ . . لمْ تكن عندَ ذاكَ ، والمليحةَ : التي تأْخذُ بمجامعِ القلوبِ على الحالينِ ، وفي القربِ أكثرَ .

[مواضع الحُسن]

وقال قومٌ : الحسنُ في الوجهِ صَباحةٌ ، وفي البشرةِ وَضاءَةٌ ، وفي الأَنفِ جمالٌ ، وفي العينينِ حلاوةٌ ، وفي الفمِ مَلاحةٌ ، وفي اللِّسانِ ظَرَفٌ ، وفي القدِّ رَشاقةٌ ، وفي الشَّمائلِ لباقةٌ .

وقد يتوسَّعونَ في إطلاقِ بعضِها علىٰ بعضٍ .

[الجمال عند العرب]

وقال آخرون : الجمالُ عندَ العربِ في اعتدالِ القامةِ ، وطولِ الجيدِ ، وبروزِ النَّهدِ ، وذبولِ العيونِ السُّودِ ، واحمرارِ الخدودِ ، وابيضاضِ الصُّدورِ ، وثِقَلِ الرَّوادفِ ، ونحولِ الخصورِ .

[الحُسن عند علي بن عبيد]

وقالَ عليُّ بنُ عبيدٍ الرِّيحانيُّ : اَلحُسنُ تناسبُ الصُّورةِ ، وزينتُهُ اعتدالُ الحركةِ ، ثُمَّ ما لا يُحسِنُ اللِّسانُ التَّرجمةَ عنهُ مِنْ خفَّةِ الرُّوحِ والقَبولِ ، وبمقدارِ هـٰذا يتمكَّنُ مِنَ القلوبِ ، ويستحكمُ سلطانُ الهوىٰ على العقولِ ، وأَحسنُهُ ما لَمْ يُجلَبْ بتزيينٍ وتضييقٍ ، وتحليةٍ وتزويقٍ ؛ ولهـٰذا **قالَ الناظمُ** [في « العُكبَريِّ » ١/١٦٨] : [مِنَ البسيطِ]

حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ ... وَفِي الْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبِ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/١١١] : [مِنَ البسيط]

هَامَ الْفُؤَادُ بِأَعْرَابِيَّةٍ سَكَنَتْ ... بَيْتاً مِنَ الْقَلْبِ لَمْ تَمْدُدْ لَهُ طُنُبَا[١]

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/٣٢٩] : [مِنَ الكاملِ]

عَدَوِيَّةٌ بَدَوِيَّةٌ مِنْ دُونِهَا ... سَلْبُ النُّفُوسِ وَنَارُ حَرْبٍ تُوقَدُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٠٠ـ٣٠١] : [مِنَ الكاملِ]

الْحُسْنُ يَرْحَلُ كُلَّمَا رَحَلُوا ... مَعَهُمْ وَيَنْزِلُ حَيْثُمَا نَزَلُوا
فِي مُقْلَتَيْ رَشَأٍ تُدِيرُهُمَا ... بَدَوِيَّةٌ فُتِنَتْ بِهَا الْحُلَلُ[٢]

---

(١) **الطنبُ** : الحبلُ الذي تشدُّ بهِ الخيمةُ .

(٢) **الرشأُ** : ولدُ الظبيةِ الصغيرُ . **الحُلَلُ** : جمعُ حُلَّةٍ ، وهيَ القومُ المجتمِعونَ في بيوتٍ مجتمعةٍ للنزولِ .

ولمَّا أرسلَ الحارثُ بنُ عَمرٍو ـ مَلِكُ (كِندةَ) ـ امرأَةً مِنْ قومِهِ ؛ لِتَخبُرَ لَهُ جمالَ ابنةِ عوفِ بنِ محلِّمٍ الشَّيبانيِّ ولَباقتَها. . رجعَتْ إليهِ ، فقالَ : ما وراءَكِ يا عصامُ ؟ ـ فذهَبتْ مثلاً ـ فقالَتْ : صرَّحَ المَخْضُ عَنِ الزَّبَدِ ، رأيتُ جبهةً كالمِرآةِ المصقولةِ ، يزيِّنُها شَعْرٌ حالكٌ ، إنْ أرسلتَهُ . خِلْتَهُ السلاسلَ ، وإنْ مَشَطْتَهُ . . قلتَ : العناقيدُ جَلاَّها الوابلُ[١] ، وحاجبينِ كأنَّما خُطَّا بالقلمِ الأسودِ ، تقوَّسَا علىٰ مثلِ عيونِ الظبيةِ ، بينَهُما أنفٌ في حدِّ السيفِ ، حُفَّتْ بهِ وجْناتٌ كالأُرجوانِ[٢] ، في وجهٍ كالبدرِ ، شُقَّ فيهِ فمٌ كالخاتمِ ، لذيذُ المبسمِ ، فيهِ الثَّنايا الغرُّ ، يزيِّنُها الأَشْرُ[٣] ، تَقَلَّبَ فيهِ لسانٌ ذو فصاحةٍ وبيانٍ ، بعقلٍ وافرٍ ، وجوابٍ حاضرٍ ، تلتقي فيهِ شفتانِ حمراوانِ ، تتحلَّبانِ ريقاً كالشَّهدِ ، في جيدٍ كإبريقِ الفضَّةِ ، رُكِّبَتْ فوقَ صدرٍ كأنَّهُ تمثالُ دميةٍ ، وعضُدَينِ مدمَّجينِ ، يتَّصلُ بهما ذراعانِ ، ليسَ فيهما عظمٌ يُمَسُّ ، ولا عِرْقٌ يُجَسُّ ، رُكِّبَتْ فيهما كفَّانِ ، دقيقٌ قَصَبُهُما ، ليِّنٌ عَصَبُهُما ، تكادُ تُعقَدُ منهُما الأناملُ ، في ذلكَ الصَّدرِ ثديانِ كالرُّمَّانتينِ يخرقانِ عليها ثيابَها ، تحتَ ذلكَ بطنٌ طُوِيَ طيَّ القباطي المدمَّجةِ[٤] ، يتكسَّرُ عُكَناً[٥] كالقراطيسِ المدرجةِ ، تحيطُ بها سرَّةٌ كالمُدْهُنِ[٦] المجلوِّ ، خلفَ ذلكَ ظهرٌ فيهِ مثلُ الجدولِ ، ينتهي إلىٰ خصرٍ لولا رحمةُ اللهِ . . لانبَتَرَ ، لها كَفَلٌ يُقعِدُها إذا نهضَتْ ، ويُنهِضُها إذا قعدَتْ ، كأنَّهُ دِعْصُ الرَّملِ لَبَّدَهُ سَقيطُ الطلِّ[٧] ، يَحمِلُهُ فَخِذانِ كأنَّما قُلِبا علىٰ نَضيدِ جُمانٍ[٨] ، تحتَهَا ساقانِ خَدْلَتانِ[٩] ، يحمِلْنَ قدمينِ كحذوِ اللِّسانِ ، فتباركَ اللهُ معَ صغرِهما كيفَ يطيقانِ حملَ ما فوقَهما[١٠] .

[عزَّة الميلاء تخطب وتصف]

وحكىٰ أَبو الفرجِ الأَصفهانيُّ [كما في « الأغاني » ١١/ ١٨٢] : أَنَّ مُصْعَبَ بنَ الزُّبيرِ لمَّا عزمَ علىٰ زواجِ عائشةَ بنتِ طلحةَ . . جاءَ هوَ وعبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ أَبي بكرٍ الصدِّيقِ ، وسعيدُ بنُ العاصِ إلىٰ عزَّةَ الميلاءِ ـ وكانتْ مِنْ أظرفِ الناسِ وأعلمِهم بأُمورِ النِّساءِ ، وكانَتْ تألَفُها الأشرافُ ـ فقالوا لها : إنَّا خَطبْنا فانظري لنا ، فقالَتْ لمصعبٍ : يا بنَ أَبي عبدِ اللهِ ومَنْ خطبْتَ ؟ قالَ : عائشةَ بنتَ طلحةَ ، قالتْ : فأَنتَ يا بنَ أُحيحةَ ؟ قالَ : عائشةَ بنتَ عثمانَ ، قالَتْ : فأَنْتَ يا بنَ الصدِّيقِ ؟ قالَ : أُمَّ الهيثمِ بنتَ زكريَّا بنِ طلحةَ ، فقالَتْ : يا جاريةُ ، هاتي مِنْقَلَيَّ ـ تعني : خُفَّيها ـ فلبستْهُما ، وخرجَتْ ، ومعها خادمٌ لها ، فبدأَتْ بعائشةَ بنتِ طلحةَ ، فقالَتْ : فديتُكِ ، كنّا في مأْدُبةٍ ـ أَو مأْتمٍ ـ لقريشٍ ، فتذاكروا جَمالَ النساءِ ، فذكرتُكِ فلَمْ أَدرِ كيفَ أَصفُكِ ، فديتُكِ ، فأَلقي ثيابَكِ ، ففعلَتْ ، وأَقبلَتْ

---

(١) جلاَّها الوابلُ : بلَّلها المطرُ .

(٢) الأُرجوانُ : شجرٌ له زهرٌ شديد الحمرة ، حسنُ المنظرِ ، ليست له رائحةٌ .

(٣) الأَشْرُ : هوَ تحزيزُ الأسنانِ .

(٤) القباطي المدمجة : ثيابٌ من كتّانٍ منسوبةٍ إلى القبط .

(٥) العُكَنُ : ما انطوىٰ وتثنَّىٰ مِنْ لَحمِ البطنِ سِمناً .

(٦) المُدْهُنُ : آلةُ الدُّهنِ .

(٧) لبَّدهُ سقيطُ الطَّلِّ : لزَّق بعضه ببعضٍ هطولُ المطرِ .

(٨) نضيدُ الجمانِ : اللؤلؤُ في سلكِهِ .

(٩) خدلتانِ : ممتلئتان .

(١٠) انظر تمام الخبر في « جمهرة خطب العرب » (١/ ١٤٢) ، و« مجمع الأمثال » (٢/ ٢٦٣) .



وأَدبرَتْ ، فارتجَّ منها كلُّ شيءٍ ، فقالَتْ لها عزَّةُ : خذي ثوبَكِ ، فقالَتْ : قد قضيْتِ حاجتَكِ ، وبقيَتْ حاجتي ، قالَتْ عزَّةُ : وما هي فديتُكِ ؟ قالَتْ : تغنِّيني صوتاً ، فاندفعت تغنِّي لَحْنَها لجميلِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ معمَرٍ العذريِّ [في « ديوانه » ١٧١_١٧٢] : [من الطويل]

خَلِيلَيَّ عُوجَا بِالْمَحَلَّةِ مِنْ جُمْلِ ... وَأَتْرَابِهَا بَيْنَ الأُصَيْفِرِ وَالْحَبْلِ(١)

نَقِفْ بِمَغَانٍ قَدْ مَحَا رَسْمَهَا الْبِلَىٰ ... تَعَاقَبُهَا الأَيَّامُ بِالرِّيحِ وَالْوَبْلِ

فَلَوْ دَرَجَ النَّمْلُ الصِّغَارُ بِجِلْدِهَا ... لأَنْدَبَ أَعْلَىٰ جِلْدِهَا مَدْرَجُ النَّمْلِ(٢)

وَأَحْسَنُ خَلْقِ اللهِ جِيداً وَمُقْلَةً ... تُشَبَّهُ فِي النِّسْوَانِ بِالشَّادِنِ الطِّفْلِ(٣)

فقبَّلَتْ عائشةُ ما بينَ عينيها ، ودعَتْ لها بأَثوابٍ وطرائفَ مِنَ الفضَّةِ ، فدفعتْهُ إِلىٰ مولاتِها ، وأَتَتِ النسوةَ علىٰ مثلِ ذلكَ تقولُ لَهنَّ ، ثُمَّ عادَتْ إِلى القومِ ، فقالوا : ما صنعْتِ ؟ فقالَتْ : يا بنَ أَبي عبدِ اللهِ ، أَمَّا عائشةُ ـ فلا واللهِ ـ ما رأَيْتُ مثلَها مُقْبِلةً ، ولا مُدْبِرةً ، محطوطةَ المتنينِ ، عظيمةَ العجيزةِ ، ممتلئةَ الترائبِ ، نقيَّةَ الثغرِ وصفحةِ الوجهِ ، فرعاءَ الشعَرِ ، ممتلئةَ الصدرِ ، خميصةَ البطنِ ، ذاتَ عُكَنٍ ، ضخمةَ السرَّةِ ، مسرولةَ الساقِ ، يرتجُّ ما بينَ أَعلاها إِلىٰ قدميها ، وفيها عيبانِ ، يواري أَحدَهُما الخمارُ ، ويسترُ ثانيهما الخفُّ ؛ كبرُ الأُذنِ والقدمِ ، وكانَتْ عائشةُ بنتُ طلحةَ كذلكَ .

وأَمَّا أَنْتَ يا بنَ أُحيحةَ : فإِنِّي ـ واللهِ ـ ما رأَيْتُ مثلَ خَلْقِ عائشةَ بنتِ عثمانَ لامرأَةٍ قطُّ ، ليسَ فيها عيبٌ ، ولكأَنَّما أُفرغَتْ إِفراغاً ، إِلاَّ أَنَّ في الوجهِ ردَّةً(٤) ، وإِن استشرْتَني . أَشرْتُ عليكَ ، قالَ : هاتِ ، قالَتْ : عليكَ بوجهٍ تستأَنسُ بهِ .

وأَمَّا أَنتَ يا بنَ الصدِّيقِ ـ فواللهِ ـ ما رأَيتُ مثلَ أُمِّ الهيثمِ ، كأَنَّها خُوطُ بانةٍ(٥) تتثنَّىٰ ، أَو كأَنَّها خَشْفٌ(٦) ينسابُ على الرملِ ، لو شئتَ أَنْ تَعقِدَ أَطرافَها . لفعلتَ ، ولكنَّها شَخْتةُ(٧) الصدرِ ، وأَنتَ عريضُ الصدرِ ، فإِذا كانَ كذلكَ . . كانَ قبيحاً ، لا ـ واللهِ ـ حَتَّىٰ يملأَ كلُّ شيءٍ مثلَهُ ، قالَ : فوصلَها الرجالُ والنساءُ ، وتزوجُوهنَّ .

[تشكك المؤلف في القصة]

وأَقولُ : إِنَّ عندي في القصَّةِ نظراً ؛ لأَنَّ أَبا الفرجِ نفسَهُ روىٰ [في « الأغاني » ١١/١٨٦] : أَنَّ عائشةَ بنتَ طلحةَ لمْ تتزوَّجْ مصعباً إِلاَّ بعدَ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ أَبي بكرٍ ، وأَنَّهُ(٨) ماتَ وهيَ عندَهُ ، اللَّهمَّ إِلاَّ أَنْ يكونَ مصعبٌ خطبَها قبلَ ذلكَ فتزوَّجت بعبدِ اللهِ وتركتْهُ .

---

(١) **الأُصيفرُ** ـ لعلَّهُ تصغيرُ أَصفر ـ : وهوَ موضعٌ . **الحبلُ** : الرملُ المستطيلُ .

(٢) **أَندبَ** : تركَ ندوباً ، أَي آثارَ جراحٍ .

(٣) **الشادنُ** : ولدُ الظبيةِ . **الطِّفلُ** : الناعمُ .

(٤) **وجهٌ رديدٌ** : فيه قبحٌ .

(٥) **خوطُ بانةٍ** : **الخوطُ** هو الغصن الناعم ، **والبان** : شجر معروف ، واحدهُ بانةٌ ، وامرأةٌ خُوطٌ بانيَّةٌ : مشبهةٌ بالخوط .

(٦) **الخَشْفُ** : الظبيُ ساعةَ ولادتهِ .

(٧) **الشَّختةُ** : نحيفةُ الجسمِ ، دقيقتُهُ .

(٨) أَي : عبد اللهِ .



وكيفما كانَ . . فالقصَّةُ لا تلتئمُ ، والاستطرادُ لا يَحتاجُ إِلىٰ إِمعانِ النظرِ ، ومعاودةِ البحثِ .

والبيتُ الذي نتكلَّمُ فيهِ لا يبعدُ عَنْ قولِ امرىءِ القيسِ [في « ديوانه » ١٤٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَـا ذَرَفَـتْ عَيْنَـاكِ إِلاَّ لِتَضْـرِبِـي ... بِسَهْمَيْـكِ فِـي أَعْشَـارِ قَلْـبٍ مُقَتَّـلِ (١)

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٩] : [من الكامل]

كَصِفَـاتِ مَـوْلاَنَـا أَبِـي الْفَضْـلِ الَّتِـي ... بَهَـرَتْ فَـأَنْطَـقَ وَاصِفِيـهِ وَأَفْحَمَـا (٢)

[جمع الأضداد في الصفات يستهوي المتنبي]

(بَهَرَ) : غلبَ ، ومنه : الشمسُ تبهَرُ النجومَ ، **يقولُ** : إِنَّ حبيبتَهُ استبَتْهُ بما جمعَتْ مِنْ تناسُبِ الأَضدادِ في جَمَالِها ، وكذلكَ مولاهُ أَبو الفضلِ استهواهُ بما جَمَعَ منها في الشَّرفِ ؛ فقد كانَ حُلْواً للأَولياءِ ، مُرّاً للأَعداءِ ، هَشّاً للضُّيوفِ ، عَبُوساً إِذا اشتجرَتِ السُّيوفُ(٣) ، وممَّا يُشبهُ ذلكَ ما ذَكَرَهُ في مثلِ **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٧٨] : [مِنَ الوافرِ]

نُصَـرِّعُهُـمْ بِـأَعْيُنِنَـا حَيَـاءً ... وَتَنْبُـو عَـنْ وُجُـوهِهِـمُ السِّهَـامُ (٤)

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١١٦] : [من الطَّويلِ]

حَيِيُّـونَ إِلاَّ أَنَّهُـمْ فِـي نِـزَالِهِـمْ ... أَقَـلُّ حَيَـاءً مِـنْ شِفَـارِ الصَّـوَارِمِ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٨٩] : [مِنَ البسيطِ]

دَانٍ بَعِيـدٍ مُحِـبٍّ مُبْغِـضٍ بَهِـجٍ ... أَغَـرَّ حُلْـوٍ مُمِـرٍّ لَيِّـنٍ شَـرِسِ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٠١] : [مِنَ الخفيفِ]

أَنْـتَ طَـوْراً أَمَـرُّ مِـنْ نَـاقِـعِ السُّـمِّ وَطَـوْراً أَحْلَـىٰ مِـنَ السَّلْسَـالِ (٥)

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١١٥] : [مِنَ البسيطِ]

تَحْلُـو مَـذَاقَتُـهُ حَتَّـىٰ إِذَا غَضِبَـا ... حَالَتْ فَلَوْ قَطَرَتْ فِي البَحْرِ مَا شُرِبَا (٦)

---

(١) **أعشارُ القلبِ** : أَجزاؤهُ .

(٢) في « العكبري » : (أَوْحَدِنَا) بدل (مَوْلاَنَا) .

(٣) **اشتجرتِ السيوفُ** : تداخلت وقتَ الطِّعانِ .

(٤) **نُصرِّعُهم** : يريدُ : صرعناهُم ؛ أَي : قَدرنا عليهم . تنبو : ترتفعُ ولا تصيب .

(٥) **السَّلسَالُ** : الماءُ العذبُ الذي يتسلسلُ في الحلقِ .

(٦) البحرُ : المكانُ الواسع ، ومنه سمي البحر بحراً ، وأراد بالبحر هنا العذبَ منه ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمـٰن : ١٩] ؛ يريد الملح والعذب ، وأهل (مصر) يسمون النيل بحراً .



وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١٤٢/١] : [مِنَ الوافرِ]

قَسَا فَالأُسْدُ تَفْزَعُ مِنْ قُوَاهُ وَرَقَّ فَنَحْنُ نَخْشَىٰ أَنْ يَذُوبَا

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٥٥/٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَهُ رَحْمَةٌ تُحْيِي الْعِظَامَ وَغَضْبَةٌ بِهَا فَضْلَةٌ لِلْجُرْمِ عَنْ صَاحِبِ الْجُرْمِ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢٥/١] : [مِنَ الكاملِ]

مُتَفَرِّقُ الطَّعْمَيْنِ مُجْتَمِعُ الْقُوَىٰ فَكَأَنَّهُ السَّرَّاءُ وَالضَّرَّاءُ

[الشعراء وجمع الأضداد]

فالمعنىٰ متكرِّرٌ عندهُ ، وهو عندَ غيرِهِ أكثرُ ، قالَ لبيدٌ [في « ديوانهِ » ١٩٧] : [مِنَ الرَّمَلِ]

مُمْقِرٌ مُرٌّ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ وَعَلَى الأَدْنَيْنَ حُلْوٌ كَالْعَسَلْ(١)

وقالَ النابغةُ الجعديُّ [في « ديوانهِ » ١٨٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَتَىً تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَىٰ أَنَّ فِيهِ مَا يَسُوءُ الأَعَادِيَا

وقالَ المرارُ الفقعسيُّ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَإِنِّي إِذَا احْلَوْلَيْتُ حُلْوٌ مَذَاقَتِي وَمُرٌّ إِذَا مَا رَامَ ذُو إِحْنَةٍ هَضْمِي(٢)

وقالَ قيسُ بنُ الخطيمِ [في « ديوانهِ » ١٠٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

أُمِرُّ عَلَى الْبَاغِي وَيَغْلُظُ جَانِبِي وَذُو الْقَصْدِ أَحْلَوْلِي لَهُ وَأَلِينُ(٣)

وفي سيرةِ ابنِ الخطَّابِ ـ رضوانُ اللهِ عليهِ ـ أَنَّهُ كانَ يقولُ : لانَ قلبي حتَّىٰ هو أَلينُ مِنَ الزُّبْدِ ، وخَشُنَ حتَّىٰ لَهُوَ أَشدُّ مِنَ الحجارةِ .

وقالَ أَبو تمَّام [في « ديوانهِ » ٢١٢/١] : [مِنَ الخفيفِ]

قَدْ بَثَثْتُمْ غَرْسَ الْمَوَدَّةِ وَالشَّحْـ ـنَاءِ فِي قَلْبِ كُلِّ قَارٍ وَبَادِي(٤)

أَبْغَضُوا عِزَّكُمْ وَوَدُّوا نَدَاكُمْ فَقَرَاكُمْ مِنْ بِغْضَةٍ وَوِدَادِ

لاَ عَدِمْتُمْ غَرِيبَ مَجْدٍ رَبَقْتُمْ فِي عُرَاهُ نَوَافِرَ الأَضْدَادِ(٥)

وقالَ أَبو نُوَاسٍ : [مِنَ الكاملِ]

حَذَرَ امْرِىءٍ نُصِرَتْ يَدَاهُ عَلَى الْعِدَا كَالدَّهْرِ فيهِ شَرَاسَةٌ وَلَيَانُ

(١) أمقرَ الشيءُ فهو مُمْقِرٌ إذا كانَ مُرّاً ؛ أي : شديدٌ علىٰ أعدائِهِ ، رحيمٌ عطوفٌ علىٰ أقاربهِ .

(٢) أَحِنَ عليه : حقد عليه .

(٣) أُمِرُّ : أَصير مُرّاً .

(٤) القاري : النازلُ القرىٰ . البادي : النازلُ الباديةَ .

(٥) ربقتُم : شَددتُم .

[أبو تمام يتكلف تأليف بيت من الشعر]

فذكرَ بعضُهُم : أَنَّهُ استأذنَ علىٰ أَبي تمَّامٍ ، وكانَ لا يستترُ عنهُ ، فأَلفاهُ في بيتٍ مُصَهْرَجٍ[1] ، يتقلَّبُ شمالاً ويميناً في الماءِ ، فقالَ لهُ : بلغَ بكَ الحرُّ مبلغاً شديداً ؟ قالَ : لا ، ولكنْ غيرُهُ ، ومكثَ ساعةً كذلكَ ، ثُمَّ قامَ كأَنَّما أُطلقَ مِنْ عِقالٍ ، فقالَ : الآنَ بلغتُ ما أَردْتُ ، وكتبَ شيئاً ، ثُمَّ قالَ : تدري ما كنتُ فيهِ مُذِ الآنَ ؟ قلتُ : لا ، قالَ قولَ أَبي نُواسٍ : (كالدَّهْرِ فِيهِ شَرَاسَةٌ وَلَيَانُ) ، فقد أَردتُ معناهُ ، فشَمُسَ عليَّ[2] ، فلَمْ أَزلْ علىٰ تلكَ الحالِ حتَّىٰ أَمكنني اللهُ منهُ ، فقلْتُ : [مِنَ البسيطِ]

شَرَسْتَ بَلْ لِنْتَ بَلْ قَانَيْتَ ذَاكَ بِذَا ... فَأَنْتَ لاَ شَكَّ فِيكَ السَّهْلُ وَالْجَبَلُ

[استهزاء المؤلف به]

ولعمري إِنَّهُ لبيتٌ ساقطٌ ، ينادي علىٰ نفسهِ بالخذلانِ ، لو تجسَّمَ . . لكانَ مِعوَلاً لتكسيرِ الحجارةِ ، وهـٰذا هو الشعرُ المتكلَّفُ الباردُ .

[عودة إلىٰ جمع الأضداد عند الشعراء]

وقالَ سَلْمٌ الخاسرُ ـ كما رأَيْتُهُ في « **المحاسن والمساوىء** » للبيهقي معزوّاً إِليهِ ـ : [مِنَ الكاملِ]

شُـدَّتْ مَنَـاكِـبُ مُلْكِهِـمْ بِخَلِيفَـةٍ ... كَـالـدَّهْـرِ يَخْلِـطُ لِينَـهُ بِشِمَـاسِ

وسيعادُ هـٰذا البيتُ أَوائِلَ المجلسِ الرابعَ عشرَ .

وقالَ أَبو الشِّيصِ الخزاعيُّ [في « ديوانهِ » ١٠٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكَـالسَّيْـفِ إِنْ لاَيَنْتَـهُ لاَنَ مَتْنُـهُ ... وَحَـدَّاهُ إِنْ خَـاشَنْتَـهُ خَشِنَـانِ

وقالَ أَبو عُبادةَ [في « ديوانه » ٣/ ١٨٣٧] : [مِنَ الكامل]

أَحْكَمْـتَ مَـا دَبَّـرْتَ بِـالتَّقْـرِيـبِ وَالـ ... ـتَّبْعِيـدِ وَالتَّصْعِيـبِ وَالتَّسْهِيـلِ
لَـوْلاَ التَّبَـايُـنُ فِـي الطَّبَـائِـعِ لَـمْ يَقُـمْ ... بُنْيَـانُ هَـٰـذَا الْعَـالَـمِ الْمَجْبُـولِ
قَـوْلٌ يُتَـرْجِمُـهُ الْفَعَـالُ وَإِنَّمَـا ... يُتَفَهَّـمُ التَّنْـزِيـلُ بِـالتَّـأْوِيـلِ
مَـاذَا نَقُـولُ وَقَـدْ جَمَعْـتَ شَتَـائِتـاً ... وَأَتَيْتَنَـا بِـالْعَـدْلِ وَالتَّعْـدِيـلِ ؟

[وصف الشريف الرضي للإمام]

وقالَ الشريفُ الرضيُّ : ما زلتُ أَستخرجُ العجبَ مِنَ الإِخوانِ بكلامِ الإِمامِ في الزهدِ ؛ لأَنَّ مَنْ سَمِعَهُ لا يظنُّهُ إِلاَّ كلامَ منقطعٍ في سفحِ جبلٍ ، أو قابعٍ في كِسْرِ بيتٍ ، ولا يحسبُ أَنَّهُ كلامُ مَن ينغمسُ في الحروبِ ، وينثني وسيفُهُ يسيلُ دماً ، ويقطرُ مُهَجاً ، أَو ما يُشْبِهُ هـٰذا ، وكنتُ معجباً بهِ إِلىٰ حدِّ الافتتانِ . . حتَّىٰ تبيَّنْتُ سَبْقَ الذِّكرِ الحكيمِ إِلىٰ هـٰذا المعنى الشريفِ في كُثُرٍ مِنَ الآياتِ منها قولهُ جلَّ ذكرهُ : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] ، وقولُهُ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح : ٢٩] ،

---

(١) الصَّهريجُ : حوضٌ يجتمعُ فيهِ الماءُ .
(٢) شمُسَ عليَّ : استغلق وتأبَّىٰ .



وكَمْ فيهِ مِنْ آياتِ الزهدِ التي تسيلُ رِقَّةً حَتَّىٰ لتكادُ تذوبُ لها الحجارةُ ، ومن آياتِ الحربِ التي تأخذُ بأُنوفِ الجُبَناءِ إِلىٰ عنانِ السَّمَاءِ .

[مديح أب لابنه]

ويعجبني قولُ عكرشةَ بنِ أَربدَ في ولدِهِ : [مِنَ الطَّويلِ]

رَأَيْتُ رِيَاطاً حِينَ تَمَّ شَبَابُهُ ... وَوَلَّىٰ شَبَابِي لَيْسَ فِي بِرِّهِ عَتْبُ
إِذَا كَانَ أَوْلاَدُ الرِّجَالِ حَرَارَةً ... فَأَنْتَ الزُّلاَلُ الْحُلْوُ وَالْبَارِدُ الْعَذْبُ
لَنَا جَانِبٌ مِنْهُ دَمِيثٌ وَجَانِبٌ ... شَدِيدٌ عَلَى الأَعْدَاءِ مُمْتَنِعٌ صَعْبُ[1]
وَتَأْخُذُهُ عِنْدَ الْمَكَارِمِ نَشْوَةٌ ... كَمَا اهْتَزَّ تَحْتَ الْبَارِحِ الْغُصْنُ الرَّطْبُ[2]

[هجاء أب لابنه]

وفي عكسِ هٰذا المعنىٰ يقولُ الحصينُ بنُ المنذرِ ـ أَحدُ بني عمرٍو بنِ شيبانَ الذهليِّ وكانَ صاحبَ الرايةِ معَ عليٍّ بـ(صفِّينَ) ـ في ولدِهِ غَيَّاظاً : [مِنَ الطَّويلِ]

نَسِيٌّ لِمَا أَوْلَيْتُ مِنْ صَالِحٍ مَضَىٰ ... وَأَنْتَ لِتَأْدِيبٍ عَلَيَّ حَفِيظُ
تَلِينُ لأَهْلِ الْغِلِّ وَالْغَمْزُ مِنْهُمُ ... وَأَنْتَ عَلَىٰ أَهْلِ الصَّفَاءِ غَلِيظُ
وَسُمِّيتَ غَيَّاظاً وَلَسْتَ بِغَائِظٍ ... عَدُوّاً وَلَٰكِنْ لِلصَّدِيقِ تَغِيظُ
فَلاَ حَفِظَ الرَّحْمَٰنُ رُوحَكَ حَيَّةً ... وَلاَ وَهْيَ فِي الأَرْوَاحِ حِينَ تَغِيظُ
عَدُوُّكَ مَسْرُورٌ وَذُو الْوِدِّ بِالَّذِي ... يُرَىٰ مِنْكَ مِنْ غَيْظٍ عَلَيْكَ كَظِيظُ[3]

[أنت ومالك لأبيك]

وأَخرجَ البيهقيُّ في « **الدَّلائلِ** » ، والطَّبرانيُّ في « **الأَوسطِ** » [٦/٣٤٠] و« **الصَّغيرِ** » [٩٤٨] بسندٍ فيهِ مَنْ لا يُعرفُ عن جابرٍ ، قالَ : جاءَ رجلٌ إِلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ، إِنَّ أَبي أَخذَ مالي ، فقالَ لهُ : اِذهبْ فَأتني بأَبيكَ ، فنزلَ جبريلُ ، فقالَ إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقرئُكَ السلامَ ، ويقولُ : إِذَا جاءَكَ الشيخُ . . فسلْهُ عمَّا قالهُ في نفسهِ ، ولم تسمعهُ أُذُناهُ ، فلمَّا جاءَ . . قالَ لهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **مَا بَالُ ابْنِكَ يَشْكُوكَ ، تَأْخُذُ مَالَهُ** » ؟ قالَ : سلْهُ هَلْ أَنفقتُهُ إِلاَّ علىٰ عمَّاتهِ وخالاتهِ ، أَو علىٰ نفسي ؟ فقالَ : « **أَخْبِرْنِي عَنْ شَيْءٍ قُلْتَهُ فِي نَفْسِكَ وَمَا سَمِعَتْهُ أُذُنَاكَ** ؟ » فقالَ الشَّيخُ : واللهِ ما يزالُ اللهُ يزيدُنَا بكَ يقيناً ، لقد قلْتُ في نفسي شيئاً ما سمعَتْهُ أُذُني ، فقالَ : « **مَا هُوَ** » ؟ فقالَ : قلتُ : [مِنَ الطَّويلِ]

غَذَوْتُكَ مَوْلُوداً وَمُنْتُكَ يَافِعاً ... تُعَلُّ بِمَا أَجْنِي عَلَيْكَ وَتَنْهَلُ[4]
إِذَا لَيْلَةٌ ضَافَتْكَ بِالسُّقْمِ لَمْ أَبِتْ ... لِسُقْمِكَ إِلاَّ سَاهِراً أَتَمَلْمَلُ

---

(١) دميثٌ ، يقالُ : دَمِثَ دَمَثاً ، فهوَ دَمِثٌ ودَمِيثٌ ، لاَنَ وسَهُلَ .
(٢) البارحُ ـ جمعُهُ بوارح ـ : وهيَ الرياحُ الشدائدُ التي تَحملُ الترابَ في شدَّةِ الهبواتِ ، وقيلَ : هيَ الريحُ الحارَّةُ في الصيفِ .
(٣) الكظيظُ : الممتلىءُ غيظاً .
(٤) مُنتكَ : كفيتُكَ مُؤنتك وحَاجتكَ .



كَـأَنِّـي أَنَـا الْمَطْـرُوقُ دُونَـكَ بِـالَّـذِي طُـرِقْـتَ بِـهِ دُونِـي فَعَيْنَـايَ تَهْمُـلُ
تَخَـافُ الـرَّدَىٰ نَفْسِـي عَلَيْـكَ وَإِنَّهَـا لَتَعْلَـمُ أَنَّ الْمَـوْتَ شَـيْءٌ مُـؤَجَّـلُ
فَلَمَّـا بَلَغْـتَ السِّـنَّ وَالْغَـايَـةَ الَّتِـي إِلَيْهَـا مَـدَىٰ مَـا كُنْـتُ فِيهَـا أُؤَمِّـلُ
جَعَلْـتَ جَـزَائِـي غِلْظَـةً وَفَظَـاظَـةً كَـأَنَّـكَ أَنْـتَ الْمُنْعِـمُ الْمُتَفَضِّـلُ
فَلَيْتَـكَ إِذْ لَـمْ تَـرْعَ حَـقَّ أُبُـوَّتِـي فَعَلْـتَ كَمَـا الْجَـارُ الْمُجَـاوِرُ يَفْعَـلُ
تَـرَاهُ مُعِـدّاً لِلْخِـلاَفِ كَـأَنَّـهُ بِـرَدٍّ عَلَـىٰ أَهْلِ الصَّـوَابِ مُـوَكَّـلُ

[بطلان قصة الحديث]

قالَ : فحينئِذٍ أَخذَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بتلابيبِ ابنهِ ، وقالَ : « **أَنْتَ وَمَالُكَ لأَبِيكَ** »[1] . وهٰذا الحديثُ موجودٌ في سورةِ الإسراءِ مِنَ « **الكشَّافِ** » ، وبلفظٍ يقربُ منهُ ، والقصَّةُ باطلةٌ مِنْ حيثُ الروايةُ كما علمتَ ؛ ولِمَا جاءَ أَنَّ الشعرَ لأُميَّةَ بنِ أَبي الصَّلتِ .

ومن حيثُ الطبيعةُ ؛ إِذْ يستحيلُ أَنْ يقولَ الشاعرُ شيئاً فيصبرَ عَنْ أَنْ يتغنىٰ بهِ ذاتَ المرَّاتِ .

[هل يجوز قول الرجل لغيره : يا مولاي ؟]

أَمَّا قولُ الرجلِ لغيرهِ : (يا مولايَ) . . ففيهِ للفقهاءِ كلامٌ :

قالَ أَبو جعفرٍ النحَّاسُ : لا نعلمُ خلافاً بينَ العلماءِ أَنَّهُ لا ينبغي أَنْ يُقالَ لأَحدٍ مِنَ المخلوقينَ (مولاي) .

وقالَ ابنُ حجرٍ : مَرَّ جوازُ إِطلاقِ (مولاي) .

[القول في التسييد]

ولا مخالفةَ بينَهُ وبينَ هٰذا ، فإِنَّ النَّحَّاسَ تكلَّمَ في المولىٰ بالأَلفِ واللاَّمِ . ولذا قالَ النَّحَّاسُ : يُقالُ : سيِّدٌ لغيرِ الفاسقِ ، ولا يقالُ : السَّيِّدُ ، لغيرِ اللهِ تعالىٰ . **والأَظهرُ** : أَنَّهُ لا بأْسَ بإِطلاقِ المولىٰ والسَّيِّدِ بالأَلفِ واللاَّمِ بشرطِهِ السَّابقِ . انتهىٰ كلامُهُ .

وما أَشارَ إِلىٰ مرورِهِ : هوَ ما ساقَهُ عَنِ النواويِّ [في « الأذكار » ص ٥٧٣] ـ في الجمعِ بينَ الأَحاديثِ الواردةِ في التَّسييدِ وما صحَّ مِنْ قولِهِ صلى الله عليه وسلم : « **لا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدٌ ؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُنْ سَيِّداً . فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ** »[2] ـ مِنْ قولِهِ : لا بأَسَ بإِطلاقِ (فلانٌ سيِّدٌ ، ويا سيِّدِي ونحو ذلكَ) إِذَا كانَ المُسَوَّدُ فاضلاً خَيِّراً لعلمٍ أَو صلاحٍ أَو غيرِهِما ، وإِنْ كانَ نحوُ فاسقٍ أَو متَّهمٍ في دِينِهِ . كُرِهَ أَنْ يُقالَ لَهُ سيِّدٌ[3] . انتهىٰ .

ولا شكَّ أَنَّ سيِّدِي أَو السيِّدَ أَشدُّ كراهةً ، وممَّا عمَّ الابتلاءُ بهِ أَنَّ الجُهَّالَ وأَهلَ المَلَقِ لا يتورعونَ أَنْ يُطلقوا الأَوصافَ الإِلهيَّةَ علىٰ مَنْ يدَّعونَ له الولايةَ أَو يُعظِّمونَ مِنْ أَبناءِ الدُّنيا .

---

(١) وقد أخرج الحديث المرفوع فقط عن عائشة ابن حبان في « صحيحه » (٤٢٦٢) بإسناد صحيح ، وكذا عن جابر أخرجه ابن ماجه (٢٢٩١) في التجارات ، والطحاوي في « معاني الآثار » (٤/ ١٥٨) في القضاء . .

(٢) أخرجه عن بريدة أبو داوود (٤٩٧٧) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٦/ ٧٠) بنحوه ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١/ ٢٦٧) بنحوه .

(٣) وعقّب بقوله : وقد روينا عن الإمام أبي سليمان الخطابي في « معالم السنن » في الجمع بينهما نحو ذلك .

ثم أورد أيضاً خبر أبي هريرة عند البخاري (٢٥٥٢) ، ومسلم (٢٢٤٩) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقل أحدكم : أطعم ربك ، وضىء ربك ، اسق ربك ، وليقل : سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم : عبدي أمتي ، وليقل : فتاي وفتاتي وغلامي » .



[شهامة شاعر]

ويعجبني قولُ عليِّ بنِ محمَّدٍ الكوفيِّ مِنْ قصيدةٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

كَـأَنَّ نَـذِيـرَ الشَّمْسِ يَحْكِـي بِبِشْـرِهِ عَلِـيَّ بْـنَ دَاوُدٍ أَخِـي وَنَسِيبِـي
وَلَـوْلاَ اتِّقَـائِـي عَتْبَـهُ قُلْـتُ سَيِّـدِي وَلَٰكِـنْ يَـرَاهَـا مِـنْ أَجَـلِّ ذُنُـوبِـي
نَسِيـبُ إِخَـاءٍ وَهْـوَ غَيْـرُ مُنَـاسِـبٍ قَـرِيـبُ صَفَـاءٍ وَهْـوَ غَيْـرُ قَـرِيـبِ

[خضوع البعض لممدوحيه]

ومما يُلاحظُ علىٰ شيخِنَا ابنِ شهابٍ خضوعُهُ في بعضِ القولِ لممدوحِيهِ ؛ فقد قالَ من قصيدةٍ هي في الاعتبارِ الأوَّلِ مِنَ الفصاحةِ والبلاغةِ وجمالِ الدِّيباجةِ ورقَّةِ الانسجامِ ، للأميرِ أحمدَ فضلِ العبدليِّ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَيَـا أَيُّهَـا الْمَـوْلَـىٰ وَمَـا غَيْـرُكَ امْـرُؤٌ نُسَمِّيـهِ مِـنْ بَعْـدِ الْـوَصِـيِّ بِمَـوْلاَنَـا[1]

ثُمَّ لَمْ يقفْ عندَ ذلكَ ، بل حَنِثَ في قولِهِ ، وخاطبَ بعدَ ذلكَ غيرَهُ بمثلِهِ .

ولو أَنِّي أخذتُ بيتَ شيخِنا لمخاطبةِ الحضرةِ المتوكِّليَّةِ . . لكُنتُ أَحقَّ بهِ ؛ لأَنَّني لَمْ أَسمح بذلكَ لأَحدٍ مِمَّنْ عاصرتُهُ سواهُ وسوىٰ سيِّدي الأُستاذِ الأَبرِّ عيدروسِ بنِ عُمرَ المتوفَّىٰ مِنْ نحوِ سبعٍ وثلاثينَ عاماً ، ويأتي ما لهُ تعلُّقٌ بهٰذا قُبيلَ المجلسِ الحادي عشرَ .

[الممادح التي توجد في الممدوح هي التي تنظم نفسها شعراً عند المتنبي]

وأَمَّا قولُهُ : (فَأَنْطَقَ وَاصِفِيهِ) . . فإِنَّهُ متكرِّرٌ عندهُ ، منهُ قولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ٨١] : [مِنَ البسيطِ]

وَقَـدْ وَجَـدْتَ مَكَـانَ الْقَـوْلِ ذَا سَعَـةٍ فَـإِنْ وَجَـدْتَ لِسَـانـاً قَـائِـلاً فَقُـلِ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٢/ ١٤٦] : [مِنَ الخفيفِ]

إِنَّمَـا أَحْفَـظُ الْمَـدِيـحَ بِعَيْنِـي لاَ بِقَلْبِـي لِمَـا أَرَىٰ فِـي الأَمِيـرِ
مِـنْ خِصَـالٍ إِذَا نَظَـرْتُ إِلَيْهَـا نَظَمَـتْ لِـي غَـرَائِـبَ الْمَنْثُـورِ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٤/ ٦٨] : [مِنَ المنسرحِ]

أَبَـا الْحُسَيْـنِ اسْتَمِـعْ فَمَـدْحُكُـمُ فِـي الـذِّهْـنِ قَبْـلَ الْكَـلاَمِ يَنْتَظِـمُ[2]

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ١/ ١٨١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَخْـلاَقُ كَـافُـورٍ إِذَا شِئْـتُ مَـدْحَـهُ وَإِنْ لَـمْ أَشَـأْ تُمْلَـىٰ عَلَـيَّ وَأَكْتُـبُ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٢/ ١٥٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا أَنَـا وَحْـدِي قُلْـتُ ذَا الشِّعْـرَ كُلَّـهُ وَلَٰكِـنْ لِشِعْـرِي فِيـكَ مِـنْ نَفْسِـهِ شِعْـرُ

---

(١) الوَصِيُّ : لعلّ المراد سَيِّدُنا الإمامُ الهمامُ ، عليُّ بنُ أبي طالبٍ عليه السلام .

(٢) في « العكبري » : (الفِعْلِ) بدل (الذِّهْنِ) .

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٩١] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَكَ الْحَمْدُ فِي الدُّرِّ الَّذِيْ لِيَ لَفْظُهُ ... فَإِنَّكَ مُعْطِيهِ وَإِنِّيَ نَاظِمُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٥٥] : [مِنَ الخفيفِ]

غَمَرَتْنِي فَوَائِدٌ شَاءَ فِيهَا ... أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ مِمَّا أَفَادَهْ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٧٥] : [مِنَ المنسرحِ]

تَقُودُ مُسْتَحْسَنَ الْكَلَامِ لَنَا ... كَمَا تَقُودُ السَّحَابَ عُظْمَاهَا

[وكذلك عند الشعراء]

[وقالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٧] : [مِنَ البسيطِ]

تَغَايَرَ الشِّعْرُ فِيهِ إِذْ أَرِقْتُ لَهُ ... حَتَّىٰ تَكَادَ قَوَافِيهِ سَتَقْتَتِلُ

وقالَ ابنُ الرُّوميِّ [في « ديوانه » ٦/ ٢٢٩٣] : [مِنَ الوافرِ]

وَدُونَكَ مِنْ أَقَاوِيلِي مَدِيحاً ... غَدَا لَكَ دُرُّهُ وَلِيَ النِّظَامُ

وقالَ : [مِنَ الكاملِ]

خُذْ مِنْ فَوَائِدِكَ الَّتِي أَعْطَيْتَنِي ... فَالدُّرُّ دُرُّكَ وَالنِّظَامُ نِظَامِي

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٦٠٢] : [مِنَ الطويلِ]

كَرُمْتُمْ فَجَاشَ الْمُفْحَمُونَ بِمَدْحِكُمْ ... إِذَا رَجَزُوا فِيكُمْ أَبَيْتُمْ فَقَصَّدُوا[(١)]

كَمَا أَزْهَرَتْ جَنَّاتُ عَدْنٍ وَأَثْمَرَتْ ... فَأَضْحَتْ وَعُجْمُ الطَّيْرِ فِيهَا تُغَرِّدُ

وقالَ أحمدُ ابنُ أبي طاهرٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا نَحْنُ حُكْنَا الشِّعْرَ فِيكَ تَسَهَّلَتْ ... عَلَيْنَا مَعَانِيهِ وَذَلَّتْ صِعَابُهَا

وقالَ أحمدُ بنُ إسماعيلَ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنِّي وَإِنْ أَحْسَنْتُ فِي الْقَوْلِ مَرَّةً ... فَمِنْكَ وَمِنْ إِحْسَانِكَ امْتَارَهَا لَفْظِي[(٢)]

وقالَ آخرُ : [مِنَ الخفيفِ]

مَا لَقِينَا مِنْ جُودِ فَضْلِ بْنِ يَحْيَىٰ ... تَرَكَ النَّاسَ كُلَّهُمْ شُعَرَاءَ

وأصلُ المعنىٰ قولُ عمرو بنِ معديكربَ [في « ديوانه » ٧٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ ... نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَّتِ

---

(١) المفحَمُ هنا : العييُّ الذي لا يقولُ الشِّعرَ .

(٢) امْتَارَهَا : اجتلبها .



وقالَ ابنُ الفارضِ [في « ديوانهِ » ١٤٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

مَحَاسِنُ تَهْدِي الْمَادِحِينَ لِوَصْفِهَا ... فَيَحْسُنُ فِيهَا مِنْهُمُ النَّثْرُ وَالنَّظْمُ

وقالَ أيضاً [في « ديوانهِ » ١٢٦] : [مِنَ الكاملِ]

تَفْدِيهِ مُهْجَتِيَ الَّتِي تَلِفَتْ وَلاَ ... مَنٌّ عَلَيْهِ لأَنَّهَا مِنْ مَالِهِ

وهو مِنْ قولِ النَّاظمِ : [مِنَ الكاملِ]

كَالْبَحْرِ يُمْطِرُهُ السَّحَابُ وَمَا لَهُ ... مَنٌّ عَلَيْهِ لأَنَّهَا مِنْ مَائِهِ

وقالَ ابنُ طَباطَبا : [مِنَ الكاملِ]

لاَ تُنْكِرَنْ إِهْدَاءَنَا لَكَ مَنْطِقاً ... مِنْكَ اسْتَفَدْنَا حُسْنَهُ وَنِظَامَهُ

وهوَ من بابِ شبيهٍ بقولِ الحَسَنِ بنِ محمَّدِ بنِ عليٍّ بنِ أَبي الضَّوءِ العلويِّ الحُسينيِّ ، نقيبِ مشهدِ بابِ التِّبنِ ، المتوفَّىٰ بـ(بغدادَ) سنةَ : (٥٣٧ هـ) ، أَو شاعرٍ آخرَ مِنْ معاصري البُحتريِّ ، يقالُ لَهُ : أَبو العبَّاسِ الخَثعميُّ على اختلافٍ في الروايةِ : [مِنَ الخفيفِ]

اِذْهَبَا بِي إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمَا عَقْـ ... ـرٌ إِلَىٰ جَنْبِ قَبْرِهِ فَاعْقِرَانِي

وَانْضَحَا مِنْ دَمِي عَلَيْهِ فَقَدْ كَا ... نَ دَمِي مِنْ نَدَاهُ لَوْ تَعْلَمَانِ

وهُما أَصلُ معنىٰ قولِ الزَّمخشريِّ في رثاءِ شيخهِ أَبي مُضَرَ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَائِلَةٍ مَا هَـٰذِهِ الدُّرَرُ الَّتِي ... تُسَاقِطُهَا عَيْنَاكَ سِمْطَيْنِ سِمْطَيْنِ (١)

فَقُلْتُ لَهَا الدُّرُّ الَّذِي كَانَ قَدْ حَشَا ... أَبُو مُضَرٍ أُذْنِي تَسَاقَطَ مِنْ عَيْنِي

وقالَ القاضي الأَرَّجانيُّ ـ وأَبدعَ وأَلطفَ ما شاءَ ـ [في « ديوانهِ » ٢/ ٤٠] : [مِنَ الكاملِ]

لَمْ يُبْكِنِي إِلاَّ حَدِيثُ فِرَاقِكُمْ ... لَمَّا أَسَرَّ بِهِ إِلَيَّ مُوَدِّعِي

هُوَ ذَلِكَ الدُّرُّ الَّذِي أَوْدَعْتُمُ ... فِي مَسْمَعِي أَلْقَيْتُهُ مِنْ مَدْمَعِي

وقالَ المعرِّيُّ [في « سقطِ الزندِ » ١٩٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَلْقَيْنَ لِي دُرّاً فَلَمَّا عَدَدْتُهُ ... غِنىً مَسَخَتْهُ شِقْوَةُ الْحَظِّ أَدْمُعِي (٢)

وقالَ بعضُهُم : [مِنَ الطَّويلِ]

تَعَلَّمْتُ مِمَّا قُلْتَهُ وَفَعَلْتَهُ ... فَأَهْدَيْتُ حُلْواً مِنْ جَنَايَ لِفَارِسِ

---

(١) السِّمطُ : هوَ الخيطُ ما دامَ اللؤلؤُ فيهِ منظوماً ، فإذا كانَ فارغاً . . سُمِّيَ سِلكاً .

(٢) يقول : إنَّ تلكَ الخيالاتِ لما طرقتهُ في النومِ . . أعطينهُ عقوداً أو دراً ، فانتبهَ مِن نومهِ فرحاً ، لكنَّهُ لم يرَ شيئاً ، فنافت دموعُهُ حسرةً علىٰ ما فاتَهُ ، وأوَّلَ الدُّرَّ بالدمعِ الذي تناثرَ مِن عينيهِ عندَ البكاءِ .

وقالَ آخرُ : [مِنَ البسيطِ]

إِنْ رَاقَ مَعْنـىً فَمِـنْ جَـدْوَاهُ مُعْتَصَـرُ أَوْ رَقَّ لَفْظـاً فَمِـنْ عَلْيَـاهُ مُهْتَصَـرُ[1]

[تعجز لغة الكلام عن التعبير في كثير من الأحيان]

وأمَّا قولُهُ : (وَأَفْحَمَا) . . فمِنْ قولِ أشجعَ [في « ديوانِهِ » ٢٤٨] : [مِنَ الوافرِ]

مَـدَحْنَـاهُـمْ فَلَـمْ نُـدْرِكْ بِمَـدْحٍ مَـآثِـرَهُـمْ وَلَـمْ نَتْـرُكْ مَقَـالاَ

وقولِهِ [في « ديوانِهِ » ١٨٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

جَهِـدْتُ فَلَـمْ أَبْلُـغْ مَـدَاكَ بِمِـدْحَـةٍ وَلَيْـسَ عَلَـىٰ مَـنْ كَـانَ مُجْتَهِـداً عَتْـبُ

وقدِ اختلسَهُ الماكيُّ فقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

جَهِـدْتُ وَلَـمْ أَبْلُـغْ مَـدَاكَ بِمِـدْحَـةٍ وَلَيْسَ مَعَ التَّقْصِيرِ عِنْدِي سِوَى الْعُذْرِ

وقالَ ابنُ الحجَّاجِ : [مِنَ الطَّويلِ]

هُـوَ الْبَحْـرُ إِنْ حَـدَّثْـتُ عَـنْ مُعْجِـزَاتِـهِ ضَعُفْـتُ عَـنِ اسْتِغْـرَاقِ تِلْـكَ الْعَجَـائِـبِ
وَإِنْ رَامَ شِعْـرِي أَنْ يُحِيـطَ بِـوَصْفِـهِ أَحَـاطَ بِشِعْـرِي الْعَجْـزُ مِـنْ كُـلِّ جَـانِـبِ

[إفحام أبي نواس للشعراء]

وفي يومِ إملاكِ[2] الرِّضا بابنةِ المأمونِ قامَتِ الشُّعراءُ والخطباءُ ، وأَبو نُواسٍ ساكتٌ ، فعُوتِبَ ، فألقى الأبياتَ الآتيةَ ـ التي كانَتْ بمثابةِ عصا موسىٰ عليهِ السَّلامُ ، تلقَّفَتْ ما كانوا يصنعونَ ـ وهيَ : [مِنَ الخفيفِ]

قِيـلَ لِـي : أَنْـتَ أَفْصَـحُ النَّـاسِ طُـرّاً فِـي الْمَعَـانِـي وَفِـي الْكَـلاَمِ النَّبِيـهِ
لَـكَ مِـنْ جَيِّـدِ الْقَـرِيـضِ مَـدِيـحٌ يَنْثُـرُ الـدُّرَّ مِـنْ يَـدَيْ مُجْتَنِيـهِ
فَلِمَـاذَا لَـمْ تَمْتَـدِحْ نَجْـلَ مُـوسَـىٰ وَالصِّفَـاتِ الَّتِـي تَحَكَّمْـنَ فِيـهِ
قُلْـتُ : لاَ أَسْتَطِيـعُ مَـدْحَ إِمَـامٍ كَـانَ جِبْـرِيـلُ خَـادِمـاً لأَبِيـهِ

[شدة القرب حجاب]

وقد نظرَ الناظمُ إلىٰ قولِ الأعرابيِّ : [مِنَ الوافرِ]

تَكَـاثَـرَتِ الظِّبَـاءُ عَلَـىٰ خِـدَاشٍ فَمَـا يَـدْرِي خِـدَاشٌ مَـا يَصِيـدُ

ومِنْ شدَّةِ الظُّهورِ الخفاءُ ، ومنهُ أَحجمَ فحولُ الشُّعراءِ عَنْ مدحِهِ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنَّهُ لا يُستطاعُ ؛ إذ هوَ فوقَ كلِّ كلامٍ ، ومِنْ وراءِ كلِّ عبارةٍ ، وكلُّ مدحٍ فيهِ تقصيرٌ .

---

(١) الهَصْرُ : الجذبُ والإمالةُ ، تقولُ : هَصَرْتُ الغصنَ إذا أملتَهُ إليك .
(٢) الإملاكُ : التزويج .

[ارتفاع بعض الممدوحين فوق مرتبة المديح]

وما أَحسنَ ما يُروىٰ للناظمِ في غيرِ « الدِّيوانِ » حينما عُوتبَ علىٰ تركِ امتداحِ أَهلِ البيتِ وهو قولُهُ : [مِنَ الكامِلِ]

وَتَـرَكْـتُ مَـدْحِـي لِلْـوَصِـيِّ تَعَمُّـداً ... إِذْ كَـانَ نُـوراً مُسْتَطِيـلاً شَـامِـلاَ

وَإِذَا اسْتَطَـالَ الشَّـيْءُ قَـامَ بِنَفْسِـهِ ... وَصِفَـاتُ ضَـوْءِ الشَّمْسِ تَـذْهَـبُ بَـاطِـلاَ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٣٢] : [مِنَ البسيطِ]

مَـنْ كَـانَ فَـوْقَ مَحَـلِّ الشَّمْسِ مَـوْضِعُـهُ ... فَلَيْـسَ يَـرْفَعُـهُ شَـيْءٌ وَلاَ يَضَـعُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٥٩] : [مِنَ الكامِلِ]

وَلَقَـدْ عَلَـوْتَ فَمَـا تُبَـالِـي بَعْـدَ مَـا ... عَـرَفُـوا أَيَحْمَـدُ أَمْ يَـذُمُّ الْقَـائِـلُ

أُثْنِي عَلَيْكَ وَلَـوْ تَشَـاءُ . . لَقُلْـتَ لِـي : ... قَصَّـرْتَ فَـالإِمْسَـاكُ عَنِّـيَ نَـائِـلُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٧٩] : [مِنَ البسيطِ]

وَعُظْـمُ قَـدْرِكَ فِـي الآفَـاقِ أَوْهَمَنِـي ... أَنِّـي بِقِلَّـةِ مَـا أَثْنَيْـتُ أَهْجُـوكَـا

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٩٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَجَـاوَزَ قَـدْرَ الْمَـدْحِ حَتَّـىٰ كَـأَنَّـهُ ... بِـأَبْلَـغِ مَـا يُثْنَـىٰ عَلَيْـهِ يُعَـابُ

وهو مِنْ قولِ البُحتريِّ [في « ديوانِهِ » ١٥] : [مِنَ الخفيفِ]

جَـلَّ عَـنْ مَـذْهَـبِ الْمَـدِيـحِ فَقَـدْ كَـا ... نَ يَكُـونُ الْمَـدِيـحُ فِيـهِ هِجَـاءَ

وللهِ درُّ البوصيريِّ في قولِهِ : [مِنَ البسيطِ]

مَـاذَا عَسَـى الشُّعَـرَاءُ الْيَـوْمَ قَـائِلَـةً ... مِنْ بَعْدِ مَا مَدَحَتْ (حامِيمُ تَنْزِيلُ)

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٤/ ٣٢] : [مِنَ الكامِلِ]

كَبُـرَ الْعِيَـانُ عَلَـيَّ حَتَّـىٰ إِنَّـهُ ... صَـارَ الْعِيَـانُ مِـنَ الْيَقِيـنِ تَـوَهُّمَـا

[عندما يرى الإنسان شيئاً يكذب عينيه والمتنبي أول من أوضح هٰذا المعنىٰ]

يقولُ : إِنَّ شأْنَ الممدوحِ عظيمٌ ، لَم يستقلَّ علىٰ عقلهِ ثبوتُهُ ؛ لاستعظامهِ إِيَّاهُ ، فكَبُرَ عليهِ حتَّىٰ تشكَّكَ فيهِ مِنْ كِبَرِهِ معَ المشاهدةِ ، وهوَ معنىً شريفٌ ، يجدُهُ مِنْ نفسهِ كلُّ مَنْ فوجىءَ بنعمةٍ عُظمىٰ ، أَو مصيبةٍ كُبرىٰ ، وينحلُّ بهِ إِشكالُ ما يوهِمُ تشكُّكَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فيما فاجأَهُ مِنْ أَمرِ الوحي لأَوَّلِ وهلةٍ ، كما قرَّرناهُ ، وأَكثرنا مِنْ مثلهِ في كتابِنا « **بلابلِ التغريدِ** » ، وهوَ وإِنْ كانَ مغروزاً في النفوسِ ، متداولاً بينَ الشُّعراءِ ، جارياً في الخِطابِ ما بينَ

الطَّبقاتِ . . فللناظمِ على الإطلاقِ فضيلةُ التَّوضيحِ ؛ إذ جلاَّهُ في أجملِ صورةٍ ، وأفرَغهُ في أبدعِ قالَبٍ ، وأكثرَ منهُ ، ولكنْ لا في مثلِ تنقيحهِ مِنْ هـٰذا البيتِ ، **فقالَ** [في « العُكبَريِّ » ١/٣٦٦] : [مِنَ المتقاربِ]

أَحُلْمـاً نَـرَىٰ أَمْ زَمَـانـاً جَـدِيـدَا   أَمِ الْخَلْـقُ فِـي شَخْـصِ حَـيٍّ أُعِيـدَا

وقالَ [في « العُكبريِّ » ٣/٣٤٩] : [مِنَ الكاملِ]

وَمِـنِ احْتِقَـارِكَ كُـلَّ مَـا تَحْبُـو بِـهِ   فِيمَـا أُلاَحِظُـهُ بِعَيْنَـيْ نَـائِـمِ[1]

[قول الشعراء في هـٰذا المعنىٰ]

وقالَ أبو نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٤٩٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ لاَ أَرَىٰ مِثْلِي امْتَرَى الْيَوْمَ فِي رَسْمِ   تَغَـصُّ بِـهِ عَيْنِـي وَيَلْفِظُـهُ وَهْمِـي[2]

وقالَ أبو عُبادةَ [في « ديوانهِ » ١٥٣٠ـ١٥٣١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَزَوْرٍ أَتَـانِـي طَـارِقـاً فَحَسِبْتُـهُ   خَيَـالاً أَتَـىٰ مِـنْ آخِـرِ اللَّيْـلِ يَطْـرُقُ

أُقَسِّـمُ فِيـهِ الظَّـنَّ طَـوْراً مُكَـذِّبـاً   بِـهِ أَنَّـهُ حَـقٌّ وَطَـوْراً أُصَـدِّقُ

أَخَـافُ وَأَرْجُـو بُطْـلَ ظَنِّـي وَصِـدْقَهُ   فَلِلّـهِ شَكِّـي حِيـنَ أَرْجُـو وَأَفْـرَقُ[3]

وَقَـدْ ضَمَّنَـا وَشْـكُ التَّـلاَقِـي وَلَفَّنَـا   عِنَـاقٌ عَلَـىٰ أَعْنَـاقِنَـا ثُـمَّ ضَيِّـقُ

فَلَـمْ تَـرَ إِلاَّ مُخْبِـراً عَـنْ صَبَـابَـةٍ   بِشَكْـوَىٰ وَإِلاَّ عَبْـرَةً تَتَـرَقْـرَقُ

فَـأَحْسِنْ بِنَـا وَالـدَّمْـعُ بِـالـدَّمْـعِ وَاشِـجٌ   تَمَـازُجُـهُ وَالْخَـدُّ بِـالْخَـدِّ مُلْصَـقُ

وقالَ : [مِنَ المنسرحِ]

فَـرِحْـتُ حَتَّـىٰ اسْتَخَفَّنِـي فَـرَحِـي   فَشِبْـتُ عَيْـنَ الْيَقِيـنِ بِـالْـوَهَـمِ

أَمْسَـحُ عَيْنِـي مُسْتَثْبِتـاً نَظَـرِي   أَخَـالُنِـي حَـالِمـاً وَلَـمْ أَنَـمِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٠٥٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

حَبِيـبٌ سَـرَىٰ فِـي خُفْيَـةٍ وَعَلَـىٰ ذُعْـرِ   يَجُوبُ الـدُّجَـىٰ حَتَّـى الْتَقَيْنَـا عَلَـىٰ قَـدْرِ

تَشَكَّكْـتُ فِيـهِ مِـنْ سُـرُورٍ وَخِلْتُـهُ   خَيَـالاً أَتَـىٰ فِـي النَّـوْمِ مِـنْ طَيْفِـهِ يَسْـرِي

وقالَ العلاَّمةُ ابنُ المقَّري : [مِنَ الكاملِ]

أَعْطَـىٰ فَظَـنَّ الْـوَافِـدُونَ بِـأَنَّهَـا   رُؤْيَـا فَظَلُّـوا يَمْسَحُـونَ الأَعْيُنَـا

وَيَقُـولُ بَعْضُهُـمُ لِبَعْـضٍ : أَنْتُـمُ   يَقْظَـىٰ ، وَهَـٰذَا كُلُّـهُ هِبَـةٌ لَنَـا

ويقربُ منهُ ـ وليسَ بهِ ـ قولُ أَبي تمَّام : [مِنَ الطَّويلِ]

تُجَـاوِزُ غَـايَـاتِ الْعُقُـولِ رَغَـائِـبٌ   تَكَـادُ بِهَـا لَـوْلاَ الْعِيَـانُ تُصَـدَّقُ

---

(١) المعنىٰ : أنتَ عظيمُ القدرِ ، تحتقرُ الأشياءَ العظيمةَ ، فإذا رأيتُ كثرة مواهبك التي تحتقرها . . ظننتُ أنِّي في نومٍ ؛ لأن العادة لم تجرِ بذلك في اليقظةِ .

(٢) امترىٰ : شكَّ .

(٣) أفرقُ : أجزعُ ويشتدُّ خوفي .

وقولُ البُحتريِّ [في « ديوانهِ » ٢/١٣١٦] : [مِنَ الكاملِ]

وَحَـدِيـثُ مَجْـدٍ عَنْـكَ أَطْـرَبَ حُسْنُـهُ   حَتَّـىٰ ظَنَنَّـا أَنَّـهُ مَـوْضُـوعُ

وقولُ النَّاظمِ[1] : [مِنَ الكاملِ]

لَمَّـا كَـرُمْـتَ أَتَيْـتُ فِيـكَ بِمَنْطِـقٍ   صِـدْقٍ فَلَـمْ أَكْـذِبْ وَلَـمْ أَتَحَـوَّبِ
وَلَـوِ امْتَـدَحْـتُ سِـوَاكَ كُنْـتُ مَتَـىٰ يَضِـقْ   عَنِّـي لَـهُ صِـدْقُ الْمَقَـالَـةِ أَكْـذِبِ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/١٢٦] : [مِنَ الكاملِ]

كَـرَمـاً فَلَـوْ حَـدَّثْتَـهُ عَـنْ نَفْسِـهِ   بِعَظِيـمِ مَـا صَنَعَـتْ لَظَنَّـكَ كَـاذِبَـا

وقولُ البديعِ [الهمذاني في « ديوانهِ » ١٢٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

مَحَـاسِـنُ يُبْـدِيهَـا الْعِيَـانُ كَمَـا تَـرَىٰ   وَإِنْ نَحْـنُ حَـدَّثْنَـا بِهَـا دَفَـعَ الْعَقْـلُ

وهو مِنْ قصيدةٍ خالصةٍ يهيِّجُ أَشجاني منها قولُهُ عن أَبيهِ :

إِذَا وَرَدَ الـرُّكْبَـانُ وَافَـىٰ رِكَـابَهُـمْ   بِفَـوَّارَتَـيْ دَمْـعٍ هُمَـا السَّجْـلُ وَالنَّجْـلُ[2]
يُسَـائِلُهُـمْ أَيْـنَ ابْنُـهُ ، أَيْـنَ دَارُهُ ،   إِلاَمَ انْتَهَىٰ ، لِمْ لَمْ يَعُدْ ، هَلْ لَهُ شُغْلُ ؟!

[الحديث عن كتاب الشكوك]

وهوَ لا يشبهُ شيئاً مِنْ مذاهبِ اللاَّأدريَّةِ[3] المنادي بإنكارِ حقائقِ الأَشياءِ ، الذي وضعَ فيهِ صالحُ بنُ عبدِ القدوسِ كتابَ « **الشُّكوكِ** » ، ثُمَّ ماتَ عليهِ ولدٌ ، فحزنَ عليهِ حزناً شديداً ، وقالَ لأَبي الهذيلِ العلاّفِ : إِنَّهُ لَمْ يشتدَّ وجدي عليهِ إلاَّ لأَنَّني أَقرأْتُهُ كتابَ « **الشُّكوكِ** » فأَتقنهُ ، قالَ لهُ : وما كتابُ « **الشُّكوكِ** » ؟ قالَ : مَنْ قرأَهُ.. يشكُّ في الموجودِ حتَّىٰ كأَنَّهُ معدومٌ ، وفي المعدومِ حتَّىٰ كأَنَّهُ موجودٌ ، قالَ لهُ : الخطبُ هيِّنٌ إِذَنْ ، فشُكَّ في ولدِكَ أَنَّهُ لَم يمتْ ، فانقطعَ .

[ما يجده المؤمن من الوسوسة في صدره ليس من هاذا القبيل]

وما يجدهُ أَهلُ الإِيمانِ مِنْ الوسوسةِ معَ التَّصميمِ وصحَّةِ عقودِ القلوبِ لونٌ آخرُ ـ أَيضاً ـ منهُ : ما جاءَ في « **مصابيحِ البغويِّ** » عَنْ جابرٍ قالَ: جاءَ ناسٌ مِنْ أَصحابِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلى النبيِّ ، فسأَلوهُ : إِنَّا نَجِدُ في أَنفسِنا ما يَتعاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتكلَّمَ بهِ ، قالَ : « **أَوَ قَدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟** » ، قالوا : نعمْ ، قالَ : « **ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ** »[4] .

إِذ الأَكثرُ علىٰ أَنَّ المدحَ إِنَّما جاءَ مِنْ جهةِ تعاظُمِهم لهُ ، لا مِنْ حيثُ وجودُهُ .

واللهُ أعلمُ

* * *

(١) بل هو من قول أبي تمام في « ديوانه » .
(٢) السَّجْلُ : الدَّلْوُ العظيمُ . النَّجْلُ : الماءُ السائِلُ .
(٣) وهم طائفةٌ مِنَ الفلاسفةِ يتردَّدونَ بينَ إثباتِ حقائقِ الأَشياءِ وإنكارِها ، وهم : فريقٌ مِنَ السفسطائيِّينَ ، ولهُم اسمٌ آخرُ : (الشكَّاكونَ) .
(٤) أخرجه عن جابر مسلم (١٨٨) في الإيمان ، وأبو داوود (٤٤٤٧) .

المجلس السادس

[قال أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٣٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِلَـىٰ أَيِّ حِيـنٍ أَنْـتَ فِـي زِيِّ مُحْـرِمِ ؟ وَحَتَّـىٰ مَتَـىٰ فِـي شِقْـوَةٍ وَإِلَـىٰ كَـمِ ؟

[متىٰ يبتسم الدهر ؟]

يقولُ : إلىٰ متىٰ وأَنتَ صِفرٌ مِنَ المالِ ، في زِيِّ المُحرِمِ المتجرِّدِ عَنِ اللِّباسِ ؟ وحتَّىٰ متىٰ هـٰذا الشَّقاءُ بالفقرِ ؟ وإلىٰ أَيِّ أَمدٍ مِنَ الزَّمانِ ينجلي البؤْسُ ويبتسمُ الدَّهرُ العبوسُ ؟

ويمكنُ أَنْ يكونَ المرادُ : إلىٰ متىٰ وأَنتَ مثلُ المُحرِمِ لا تقتلُ ولا تصيدُ ؟

وهـٰذا أَحلىٰ موقعاً .

وكانَ صلى الله عليه وسلم يستعيذُ مِنَ الفقرِ ، ويقولُ : « **كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْراً** »[1] .

[استعاذته صلى الله عليه وسلم من الدَّين والفقر]

ومِنْ دعائِهِ بالليلِ ـ كما عندَ « مسلم » [(٢٧١٣) في الذكر والدعاء] وغيرِهِ ـ : « **اَللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَ[ربَّ] الأَرْضِ ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، مُنَزِّلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ ، أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ أَحَدٌ قَبْلَكَ ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ أَحَدٌ بَعْدَكَ ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ أَحَدٌ فَوْقَكَ ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ أَحَدٌ دُونَكَ ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ ، وأَغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ** »[2] .

[أصول النعم]

وقالوا : أُصولُ النِّعمِ أَربعةٌ : الإِيمانُ ، والأَمانُ ، والغنىٰ ، والعافيةُ .

[في أيدينا لا في قلوبنا]

وقالَ سفيانُ : كانَ مِنْ دعائِهم : اَللَّهمَّ زهِّدنا في الدُّنيا ، ووسِّعها علينا ، ولا تَذْوِها عنّا ، وتُرَغِّبنا فيها .

[ارحموا ثلاثة]

ويُروىٰ عنهُ صلى الله عليه وسلم : أَنَّهُ كانَ يقولُ : « **ارْحَمُوا ثَلاَثَةً : عَزِيزَ قَوْمٍ ذَلَّ ، وَغَنِيَّ قَوْمٍ افتقَرَ ، وَعَالِماً بَيْنَ جُهَّالٍ** »[3] .

---

(١) أخرجه عن أنس القضاعي في « مسند الشهاب » (١/ ٣٤٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٥٣ و١٠٩) ، والعقيلي في « الضعفاء » (٤/ ٢٠٦) ، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (٢/ ٣٢٠) .

(٢) وأخرجه من حديث أبي هريرة أيضاً أبو داوود (٥٠٥١) ، والترمذي (٣٤٠٠) ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » (٧٩٠) ، وابن ماجه (٢٨٧٣) . وفي بعض رواياته : شيء بدل أحد ، وبدل عنّا : عني ، وبدل أغننا : أغنني .

(٣) أخرجه عن ابن مسعود القضاعي في « مسند الشهاب » (١/ ٤٢٧) بألفاظ متقاربة .

[جهد البلاء]

وقيلَ : جَهْدُ البلاءِ أَنْ تزولَ النِّعمةُ ، وتبقى العالةُ ، ثُمَّ لا تَعْدَمُ صديقاً مُؤَنِّباً ، وعدوّاً شامتاً .

[الفقر مجمع العيوب]

وكانَ يُقالُ : الفقرُ مَجْمَعُ العيوبِ .

قالَ حسَّان [في « ديوانهِ » ٤٠] : [مِنَ الخفيفِ]

رُبَّ حِلْمٍ أَضَاعَهُ عَدَمُ الْمَا ... لِ ، وَجَهْلٍ غَطَّىٰ عَلَيْهِ النَّعِيمُ

وقالَ عروةُ [في « ديوانهِ » ٩١] : [مِنَ الوافرِ]

ذَرِينِي لِلْغِنَىٰ أَسْعَىٰ فَإِنِّي ... رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمُ الْفَقِيرُ

وقالَ جريرٌ [في « ديوانهِ » ٢٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَرَادَفَهُمْ فَقْرٌ قَدِيمٌ وَذِلَّةٌ ... وَشَرُّ الرَّدِيفَاتِ الْمَذَلَّةُ وَالْفَقْرُ

[الصفة الواحدة للغني مدح وللفقير ذم]

وما مِنْ خَصلةٍ تكونُ للغنيِّ مدحاً . . إلاَّ كانَتْ للفقيرِ ذمّاً ، فإِنْ كانَ حليماً . . قيلَ : بليدٌ ، أَو شجاعاً . . قيلَ : أَهوجُ ، أَو لَسِناً . . قيلَ : مِهْذَارٌ ، وما أَشبهَ ذلِكَ .

[كم لك من الأصدقاء]

وقيلَ لبعضِ أَهلِ الحِجا : كَمْ لكَ مِنْ صديقٍ ؟ قالَ : لا أَدري ؛ لأَنَّ الدُّنيا مقبلةٌ ، والأَموالَ عندي موجودةٌ ، وإِنَّما يُعرفُ ذلكَ لو وَلَّتْ . أَلَمْ تسمعْ قولَ طريحٍ ؟! : [مِنَ الكاملِ]

وَالنَّاسُ أَعْدَاءٌ لِكُلِّ مُدَقَّعٍ ... صِفْرِ الْيَدَيْنِ وَإِخْوَةٌ لِلْمُكْثِرِ

[الناس مع صاحب الدنيا]

ولَمَّا استوزرَ عليُّ بنُ عيسىٰ ، ورأَى اجتماعَ النَّاسِ حولَهُ . . تمثَّلَ بقولِ أَبي العتاهيةِ [في « ديوانه » ٢٢] : [مِنَ البسيطِ]

مَا النَّاسُ إِلاَّ مَعَ الدُّنْيَا وَصَاحِبِهَا ... فَكَيْفَمَا انْقَلَبَتْ يَوْماً بِهِ انْقَلَبُوا

يُعَظِّمُونَ أَخَا الدُّنْيَا فَإِنْ وَثَبَتْ ... يَوْماً عَلَيْهِ بِمَا لاَ يَشْتَهِي وَثَبُوا

وقديماً قيلَ : إِذَا أَيسرْتَ . . فكلُّ رَحلٍ رَحلُكَ ، وَإِذا أَعسرْتَ . . أَنكرَكَ حتَّىٰ أَهلُكَ .

[ما أكثر الإخوان حين تعدهم]

وكانَ في الجاهليَّةِ رجلٌ حسنُ الحالِ ، يختلفُ إِليهِ إِخوانُهُ وبنو عمِّهِ ، فيعطيْهِم ، ويواسيْهِم ، ثُمَّ اختلَّ أَمرُهُ ، فجفَوهُ ، فعادَ إِلىٰ منزلهِ كئيباً ، فقالَتْ لَهُ امرأَتُهُ : ما شأْنُكَ ؟ فقالَ : دعيني عنكِ ، وأَنشأَ يقولُ [الأبيات في « المستطرف » ٢/٩٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

دَعِي عَنْكِ عَذْلِي مَا مِنَ الْعَذْلِ أَعْجَبُ ... وَلاَ بُدَّ حَالٌ بَعْدَ حَالٍ تَقَلَّبُ

وَكَانَ بَنُو عَمِّي يَقُولُونَ : مَرْحَباً ... فَلَمَّا رَأَوْنِي مُقْتِراً مَاتَ مَرْحَبُ

كَأَنَّ مُقِلاًّ حِينَ يَغْدُو لِحَاجَةٍ ... إِلَىٰ كُلِّ مَنْ يَلْقَىٰ مِنَ النَّاسِ مُذْنِبُ



[هيبة ذي المال]

ومرَّ رجلٌ مِنَ الأغنياءِ برجلٍ مِنْ أهلِ العلمِ ، فتحرَّكَ لهُ ، وأكرمهُ ، فقيلَ لهُ : هَلْ كانَتْ لكَ إليهِ حاجةٌ ؟ قالَ : لا ، ولكنَّ ذا المالِ مَهيبٌ ، وقد قيلَ فيهِ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَرَىٰ كُلَّ ذِي مَالٍ يُجَلُّ لِمَالِهِ ... وَمَنْ لَيْسَ ذَا مَالٍ يُهَانُ وَيُحْقَرُ
وَيَخْذُلُهُ الإِخْوَانُ ، إِنْ زَارَهُمْ جَفَوْا ... وَلَمْ يَسْأَلُوا إِنْ غَابَ بَلْ هُوَ يُهْجَرُ
سَأَقْنَعُ بِالْمَالِ الْقَلِيلِ تَكَرُّماً ... لأَغْنَىٰ بِهِ عَمَّا لَدَيْهِمْ وَأَصْبِرُ

[خسة العالم الذي يتواضع لغني]

وهٰذا العالِمُ لا شكَّ أنَّهُ مِنْ صغارِ النُّفوسِ ، وزُمناءِ المروءَةِ[1] ، وضعفاءِ الدِّينِ ، وإلاَّ . . فقد كانَ الأغنياءُ يتمنَّوْنَ أنْ لو كانوا فقراءَ في مجلسِ سفيانَ الثَّوريِّ ؛ لِمَا يرونَ مِنْ إيثارِهِ إيَّاهم ، وذلكَ هديُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، لا يُنزلُ النَّاسَ إلاَّ عندَ مواضعِهم في الفضلِ والدِّينِ ، وحديثُ عمرَ معَ صفوانَ بنِ أُميَّةَ وسهيلِ بنِ عمرٍو ، وتأخيرُهُ مجالسَهُم لرفعِ المهاجرينَ الأوَّلِينَ عليهم . . معروفٌ .

[الإمام يحب المساكين]

وفي وصفِ الإمامِ عليٍّ ـ كرَّمَ اللهُ وجههُ ـ أنَّهُ يحبُّ المساكينَ ، ويُقدِّمُ أهلَ الدِّينِ .

[إكرام العلماء عند أهل (اليمن)]

وما زالَ الحالُ في بلادِنا ـ حرسها اللهُ ـ علىٰ ما كانَ عليهِ السَّلفُ الصَّالحُ مِنْ إيثارِ أهلِ الدِّينِ ، حتَّىٰ لقد أخبرني الثِّقةُ عمَّنْ حضرَ اجتماعَ الأعيانِ بمحضرِ الإمامِ حسنِ بنِ صالحِ البحرِ للمُشاورةِ في غرضٍ مِنَ الأغراضِ : أنَّ السَّيِّدَ الجليلَ أحمدَ الجنيدَ ـ وكانَ بصيراً[2] ـ سبقَ إلىٰ مجلسٍ يقربُ مِنَ الصَّدرِ ، فأقامَهُ الشَّهمُ الهمامُ السَّيِّدُ حسينُ بنُ سهلٍ ، وقالَ لهُ : إنَّما الصَّدرُ للصدورِ مِنْ أهلِ العلمِ ، وأمَّا مجلسي وإيَّاكَ ومَنْ لفَّنا مِنْ أهلِ الثَّروةِ فإنَّما يكونُ في الأُخرياتِ ، نعمْ واللهِ ما زالَ عندنا الأمرُ كذلكَ حتَّىٰ هدمَ شرفَ الدِّينِ بُناتُهُ ، وأضاعَهُ حُماتُهُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ .

[الكلام في الغنىٰ والفقر]

والكلامُ في الغنىٰ والفقرِ معروفٌ ، والمفاضَلةُ بينَ الفقيرِ الصَّابرِ ، والغنيِّ الشَّاكرِ طويلةُ الذيلِ ، وعامَّةُ الصُّوفيَّةِ علىٰ تفضيلِ الأوَّلِ ، وآياتُ القرآنِ أكثرُ دلالةً عليهِ ، ولو لم يكنْ منها إلاَّ قولُهُ تقدَّستْ أسماؤُهُ : ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٣٣ـ٣٥] .

[وصف الإمام للنبي صلى الله عليه وسلم]

وممَّا ينسبُ لأميرِ المؤمنينَ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ في وصفهِ صلى الله عليه وسلم قولُهُ [في « نهج البلاغةِ » ١٨٧] : وقد

---

(١) زمناءُ المروءَةِ : أصابَ مروءَتَهمُ المرضُ .

(٢) قصد أنه أعمىٰ ، وهو من قبيل تسمية الشيء بضده تفاؤلاً .



زُويَتْ[1] عنهُ أَطرافُها[2] ـ ووُطِّئَتْ لغيرِهِ مِنَ الجبابرةِ أكنافُها[3] ـ فلينظرْ ناظرٌ بعقلِهِ ، هل أكرمَ اللهُ محمَّداً بذلكَ أو أهانَهُ ؟ فإنْ قالَ : أهانَهُ . . فقد جاءَ بالإفكِ العظيمِ ، وإنْ قالَ : أكرمَهُ . . فليعلمْ أنَّ اللهَ أهانَ غيرَهُ ممَّنْ بسطَ الدنيا لهُ .

[تواضعه صلى الله عليه وسلم]

وقالَ صلى الله عليه وسلم لعُمرَ حينَ لَمْ يملِكْ عينَهُ ، وقد رأَىٰ أثرَ الحصيرِ في جَنبِهِ ، ولَمْ يرَ ما يردُّ الطَّرفَ في بيتِهِ غيرَ القَرَظِ[4] والأُهُبِ ، وذكرَ حالَ كسرىٰ وقيصرَ : « **أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ ؟!** »[5] .

[تفضيل أهل الحديث الغنىٰ على الفقر]

وقالَ أهلُ الحديثِ : بتفضيلِ الثاني[6] ؛ لأنَّهُ الآخِرُ مِنْ أحوالِهِ صلى الله عليه وسلم ، ولِمَا سبقَ مِن استعاذتِهِ مِنَ الفقرِ ، وقرنِهِ إيَّاهُ بالكفرِ ، ولا يُشكِلُ هـٰذا بموتِهِ ودرعُهُ مرهونةٌ ؛ فإنَّ البلادَ قد افتُتحَتْ ، وأغنى الأرضِ ـ وهي (اليمنُ) ـ تجبىٰ إليهِ ، إلاَّ أنَّ دأبَهُ الإيثارُ ، فلا بأسَ أن يحصلَ ذلكَ معَ اتِّصافهِ بالغنىٰ بلا تغايرٍ .

[من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم]

ومِنْ خصائصِهِ : أنَّهُ لا يبيتُ عندَهُ درهمٌ ، إلاَّ درهمٌ يرصدُهُ لِدَينٍ ، وفي « **الصحيح** » [البخاري ١٢٢١] : أنَّهُ انصرفَ وقد أُقيمتِ الصلاةُ ؛ لتذكُّرِهِ تِبْراً في بيتِهِ ، ولم يعُد حتَّىٰ تبرَّأَ منهُ إلىٰ مَنْ يستحقُّهُ ، فهو الأَحقُّ بقولِ جوبةَ بنِ النضرِ :

[مِنَ البسيطِ]

إنَّـــا إذَا اجْتَمَعَـــتْ يَـــوْمـــاً دَرَاهِمُنَـــا ... ظَلَّـــتْ إلَـــىٰ طُـــرُقِ الْمَعْـــرُوفِ تَسْتَبِـــقُ
لاَ يَـــأْلَـــفُ الـــدِّرْهَـــمُ الْمَضْـــرُوبُ صُـــرَّتَنَـــا ... لَـــٰكِـــنْ يَمُـــرُّ عَلَيْهَـــا وَهْـــوَ مُنْطَلِـــقُ

وإلاَّ . . فأيُّ غنيٍّ يقدرُ أَنْ يقولَ مثلَهُ ؟ : « **مَنْ مَاتَ وَتَرَكَ مَالاً . . فَلِوَرَثَتِهِ ، وَمَنْ مَاتَ وَتَرَكَ دَيْناً أَوْ ضَيَاعاً . . فَعَلَيْنَا** »[7] .

[أفضل الأحوال الكفاف]

والكلامُ في ذلكَ يستدعي طولاً ، ومعَ اختلافِهِم فيما ذُكِرَ ، فقد اتَّفقوا علىٰ تفضيلِ الكفافِ ، ولهـٰذا سأَلَهُ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لأَهلِ بيتِهِ ، فقالَ : « **اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتاً** »[8] .

[استشكال حديث : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً »]

وفيهِ إشكالٌ ؛ لأنَّ المُشاهَدَ مِنْ آلِ البيتِ أنَّهُم كسائرِ النَّاسِ ، فيهمُ الغنيُّ والفقيرُ والمسكينُ والمتوسِّطُ الحالِ ، حَتَّىٰ لقد ذهبَ بها القطبُ

---

(١) زُوِيتْ : نُحِّيت ، وبُوعِدَت .

(٢) شيءٌ طريفٌ : طيِّبٌ ، والمعنىٰ : أنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ أبعدَ نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم عَن طيِّباتِ الدنيا ؛ ليدَّخِرَها لهُ في الآخرةِ .

(٣) أكنافُها : نَواحيها وجوانِبُها .

(٤) القَرَظُ : ورق شجر يدبغ به الأُهُب وهي الجلود .

(٥) أخرجه عن ابن عبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما البخاري (٤٩١٣) في التفسير ، وأحمد في « مسنده » (٣/ ١٣٩) .

(٦) أي : الغنى .

(٧) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مسلم (١٦١٩) في الفرائض بألفاظ متقاربة . الضياعُ : كلُّ من تلزمه نفقتهم ويضيعون بضياعه وفقده .

(٨) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مسلم (١٧٤٧) في الزكاة .



الحدَّادُ ـ معَ جلالةِ قدرِهِ ، وغزارةِ علمِهِ ، وبُعدِ نظرِهِ ـ عريضةً ، فتشكَّكَ في نسبِ مَنْ يُثري مِنْ أَهلِ البيتِ ، ويلزمُهُ نظيرُهُ فيمَن يُعْدِمُ ، وأحسنُ الأَجوبةِ أَنْ يُقالَ : إنَّ المرادَ مِنْ أَهلِ البيتِ في الحديثِ : إنَّما همُ الموجودونَ إذْ ذاكَ ، لا سائرُهُم في كلِّ زمانٍ .

وإلاَّ جاءَ ما قالَهُ الحدَّادُ ، أَو تبيَّنَ عدمُ قَبولِ الدُّعاءِ ، ويدخلُ في الموضوعِ كلُّ ما جاءَ في ذمِّ الدُّنيا ومدحِها ، وفي ذلِكَ إشكالٌ عظيمٌ ، يأتي حَلُّهُ في المجلسِ الثَّالثَ عشرَ بمَا يشفي ويكفي ، إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

[خير الغنىٰ]

وقالَ أَوسُ بنُ حارثةَ : خيرُ الْغنى القُنُوعُ ، وَشرُّ الفَقرِ الخضُوعُ ؟

[الشعراء واالغنىٰ والفقر]

وقالَ سالمُ بنُ وابصةَ : [مِنَ الطَّويلِ]

غِنَى النَّفْسِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ حَاجَةٍ ... فَـإِنْ زَادَ شَيْئـاً عَـادَ ذَاكَ الْغِنَـىٰ فَقْـرَا

وقالَ الأَضبطُ بنُ قُرَيْعٍ : [مِنَ المنسرحِ]

اِرْضَ مِـنَ الـدَّهْـرِ مَـا أَتَـاكَ بِـهِ ... مَـنْ قَـرَّ عَيْنـاً بِعَيْشِـهِ نفَعَـهْ

وقالَ الجُرهميُّ : [مِنَ البسيطِ]

الْعَيْـشُ لاَ عَيْـشَ إلاَّ مَـا قَنِعْـتَ بِـهِ ... قَـدْ يَكْثُـرُ الْمَـالُ وَالإِنْسَـانُ مُفْتَقِـرُ

وأَلَمَّ بهِ النَّاظمُ في قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٥٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـنْ أَنْفَـقَ السَّـاعَـاتِ فِـي جَمْـعِ مَـالِـهِ ... مَخَـافَـةَ فَقْـرٍ فَـالَّـذِي فَعَـلَ الْفَقْـرُ

وأَنشدَ الأَصمعيُّ : [مِنَ البسيطِ]

فَـالْهَـمُّ فَضْـلٌ وَطُـولُ الْعَيْـشِ مُنْقَطِـعُ ... وَالـرِّزْقُ آتٍ وَفَضْـلُ اللهِ مُنْتَظَـرُ

ومِمَّا يُروىٰ للشافعيِّ : [مِنَ البسيطِ]

لَكِسْـرَةٌ مِـنْ جَـرِيـشِ الْخُبْـزِ تُشْبِعُنِـي ... وَنَهْلَـةٌ مِـنْ زُلاَلِ الْمَـاءِ تُـرْوِينِـي
وَقِطْعَـةٌ مِـنْ غَلِيـظِ الْقُطْـنِ تَسْتُـرُنِـي ... حَيّـاً وَإِنْ مِـتُّ تَكْفِينِـي لِتَكْفِينِـي[1]

ويُروىٰ لهُ : [مِنَ الخفيفِ]

أَمْطِـرِي لُـؤْلُـؤاً جِبَـالَ سَـرَنْـدِيـ ... ـبَ وَفِيضِـي جِبَـالَ تَكْـرُورَ تِبْـرَا
أَنَـا إِنْ عِشْـتُ لَسْـتُ أَعْـدَمُ قُـوتـاً ... وَإِذَا مِـتُّ لَسْـتُ أَعْـدَمُ قَبْـرَا

وكانَ القاضي يحيىٰ بنُ أَكثمَ كثيراً ما ينشدُ : [مِنَ البسيطِ]

حَتَّـىٰ مَتَـىٰ أَنَـا فِـي حَـطٍّ وَتَـرْحَـالِ ... وَطُـولِ سَعْـيٍ وَإِدْبَـارٍ وَإِقْبَـالِ
وَلَـوْ قَعَـدْتُ أَتَـانِـي الـرِّزْقُ فِـي دَعَـةٍ ... إِنَّ الْقُنُـوعَ الْغِنَـىٰ لاَ كَثْـرَةُ الْمَـالِ

---

(١) أي : للوقتِ الذي أُلبَسُ فيهِ الكَفَنَ .

وكانَ بعضُ أَصحابهِ ينالُ مِنْ فضلِ معروفهِ ، غيرَ أَنَّهُ يلقىٰ عَنَتاً في الوصولِ إليهِ ، وذُلاً في الوقوفِ ببابهِ ، فأَخذَهُ الأَنَفُ مِنْ ذلكَ ، وانجمعَ في بيتِهِ ، فعاتَبَتْهُ امرأَتُهُ ، فقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

تُكَلِّفُنِي إِذْلاَلَ نَفْسِي لِعِزِّهَا ... وَهَانَ عَلَيْهَا أَنْ أُهَانَ لِتُكْرَمَا

تَقُولُ : سَلِ الْمَعْرُوفَ يَحْيَىٰ بْنَ أَكْثَمٍ ... فَقُلْتُ : سَلِيهِ رَبَّ يَحْيَىٰ بْنِ أَكْثَمَا

وقالَ بعضُهُم : [مِنَ السَّريعِ]

مَنْ كَانَ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَلَمْ ... يَقْنَعْ فَذَاكَ الْمُوسِرُ الْمُعْسِرُ

الْفَقْرُ فِي النَّفْسِ وَفِيهَا الْغِنَىٰ ... وَفِي غِنَى النَّفْسِ الْغِنَى الأَكْبَرُ

[القناعة هي الحياة الطيبة]

ويُروىٰ عَنِ الحسنِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] : إِنَّها القناعةُ .

[كيف تصبح ملكاً ؟]

وقيلَ لمحمَّدِ بنِ واسعٍ : أَوصني ، فقالَ : كُنْ ملكاً في الدُّنيا وفي الآخرةِ ، فقيلَ لهُ : وكيفَ ؟ قالَ : ازهدْ في الدُّنيا ، واقنعْ .

أخذَ بعضَهُ الطُّغرائيُّ فقالَ : [مِنَ البسيطِ]

مُلْكُ الْقَنَاعَةِ لاَ يُخْشَىٰ عَلَيْهِ وَلاَ ... يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى الأَنْصَارِ وَالْخَوَلِ

[القليل الكافي خير من الكثير الملهي]

وصحَّ مِنْ حديثِ أَبي الدَّرداءِ مرفوعاً : « **مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ إِلاَّ بُعِثَ بِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، هَلُمُّوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ، فَإِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَىٰ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَىٰ** »[1] .

[الغنىٰ غنى القلب]

وصحَّ مِنْ حديثِ أَبي ذَرٍّ يرفعهُ : « **إِنَّمَا الْغِنَىٰ غِنَى الْقَلْبِ ، وَالْفَقْرُ فَقْرُ الْقَلْبِ** »[2] .

[عودة إلى الشعراء]

وقالَ أَبو فراسٍ الحمدانيُّ [في « ديوانهِ » ٢٤٨] : [مِنَ الهزَجِ]

غِنَى النَّفْسِ لِمَنْ يَعْقِـ ... ـلُ خَيْرٌ مِنْ غِنَى الْمَالِ

وَفَضْلُ النَّاسِ فِي الأَنْفُـ ... ـسِ لَيْسَ الْفَضْلُ فِي الْمَالِ

وقالَ نابغةُ ذبيانَ [في « ديوانهِ » ٢٣٢] : [مِنَ الوافرِ]

وَلَسْتُ بِخَابِىءٍ لِغَدٍ طَعَاماً ... حِذَارَ غَدٍ لِكُلِّ غَدٍ طَعَامُ

---

(١) أخرجه عن أبي الدرداء أحمد في « مسنده » (٥/١٩٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٦٦٢) .

وتمام الحديث : « ولا آبت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان ، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : اللهم . أعط منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً مالاً تلفاً » .

(٢) أخرجه عن أبي ذر الحاكم في « المستدرك » (٤/٣٦٣) ، وابن حبان في « صحيحه » مطولاً (٦٨٥) بإسناد صحيح .

وقالَ قيسُ بنُ الخَطيمِ [في « ديوانهِ » ١٠١] : [مِنَ الوافرِ]

غَنَـاءُ النَّفْـسِ مَـا عَمِـرَتْ غَنَـاءُ وَفَقْـرُ النَّفْـسِ مَـا عَمِـرَتْ شَقَـاءُ

[وجهة نظر الخليل الفراهيدي إلى الغنىٰ والفقر]

وقالَ النَّضرُ بنُ شميلٍ : أَقامَ الخليلُ في خُصٍّ مِنْ أَخصاصِ (البصرةِ) ، لا يقدرُ علىٰ فَلْسٍ ، وأَصحابُهُ يكسبونَ بعلمِهِ الأموالَ ، ولقد سمعتُهُ يقولُ : إِنِّي لأُغلِقُ عليَّ بابي ، فما يجاوزُهُ همِّي ، وكتبَ إِليهِ سليمانُ بنُ حبيبِ بنِ المهلَّبِ ، وهو والي (الأهوازِ) و(فارسَ) ، يستدعيهِ ، فكتبَ الخليلُ في جوابِهِ : [مِنَ البسيطِ]

أَبْلِـغْ سُلَيْمَـانَ أَنِّـي عَنْـهُ فِـي سَعَـةٍ وَفِـي غِنـىً غَيْـرَ أَنِّـي لَسْـتُ ذَا مَـالِ
شُحّـاً بِنَفْسِـيَ أَنِّـي لاَ أَرَىٰ أَحَـداً يَمُـوتُ هُـزْلاً وَلاَ يَبْقَـىٰ عَلَـىٰ حَـالِ
وَالـرِّزْقُ عَـنْ قَـدَرٍ لاَ الضَّعْـفُ يُنْقِصُـهُ وَلاَ يَـزِيـدُكَ فِيـهِ حَـوْلُ مُحْتَـالِ
وَالْفَقْرُ فِي النَّفْسِ لاَ فِي الْمَالِ تَعْرِفُهُ وَمِثْـلُ ذَاكَ الْغِنَـىٰ فِي النَّفْسِ لاَ الْمَالِ

[خير الرزق ما كان مياومة]

وَأَغارَ البُحتريُّ علىٰ بيتِ النابغةِ السَّابقِ فقالَ : [مِنَ الوافرِ]

إِذَا مَـا كَـانَ عِنْـدِي قُـوتُ يَـوْمٍ طَـرَحْـتُ الْهَـمَّ عَنِّـي يَـا سَعِيـدُ
وَلَـمْ تَخْطُـرْ هُمُـومُ غَـدٍ بِبَـالِـي لأَنَّ غَـداً لَـهُ رِزْقٌ جَـدِيـدُ

وقالَ آخرُ : [مِنَ البسيطِ]

مَـنْ كَـانَ لَـمْ يُعْـطَ عِلْمـاً فِي بَقَـاءِ غَـدٍ مَـاذَا تَفَكُّـرُهُ فِـي رِزْقِ بَعْـدِ غَـدِ

وقالَ غيرُهُ : [مِنَ البسيطِ]

لأَصْبِـرَنَّ عَلَـىٰ عُسْـرِي وَمَيْسَـرَتِـي يَـوْمـاً بِيَـوْمٍ كَمَـا تَجْبِـي الْعَصَـافِيـرُ[1]

[الطمع هو الفقر والقناعة هي الغنىٰ]

وصحَّ أَنَّهُ عليهِ السَّلامُ قالَ : « **عَلَيْكَ بِالإِيَاسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ ، وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعَ ؛ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ ، وَصَلِّ صَلاَتَكَ وَأَنْتَ مُوَدِّعٌ ، وَإِيَّاكَ وَمَا تَعْتَذِرُ مِنْهُ** »[2] .

وقالَ أَبو العتاهيةِ [في « ديوانهِ » ١٤١] : [مِنَ الوافرِ]

أَطَعْـتُ مَطَـامِعِـي فَـاسْتَعْبَـدَتْنِـي وَلَـوْ أَنِّـي قَنِعْـتُ لَكُنْـتُ حُـرَّا

---

(١) لما أخرجه عن الخليفة الراشدي عمرَ رضي الله عنه ابنُ حبان في « صحيحه » (٧٣٠) بإسناد جيد وغيره ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لو أنكم توكَّلون على اللهِ حقَّ توكُّلِهِ ؛ لرزقَكم كما يَرزُقُ الطيرَ تغدو خماصاً وتروح بطاناً » . **خماصاً** : جياعاً . **وتروح بطاناً** : ترجع شباعاً ممتلئة البطون .

(٢) أخرجه عن سعد ابن أبي وقاص الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٦٢) ، وفي الباب :
عن جابر رضي الله عنه رواه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٧/ ٣٧٠) .

وقد سبقَ في غيرِ هَـٰذَا المجلسِ تعريضُ أَبي فراسٍ بالنَّاظمِ في قولِهِ : [مِنَ البسيطِ]

لَيْسَ التَّعَلُّلُ بِالآمَالِ مِنْ أَرَبِي ... وَلاَ الْقَنَاعَةُ بِالإِقْلاَلِ مِنْ شِيَمِي

وقالَ المعريُّ [في « ديوانهِ » ١٢٣] : [مِنَ الوافرِ]

أَأَخْمُلُ وَالنَّبَاهَةُ فِيَّ لَفْظٌ ... وَأَقْتُرُ وَالْقَنَاعَةُ لِي عَتَادُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢٢٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنِّي لَمُثْرٍ يَا بْنَ آخِرِ لَيْلَةٍ ... وَإِنْ قَلَّ مَالٌ فَالْقُنُوعُ ثَرَاءُ[1]

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٩٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنَّ الْغِنَىٰ وَالْفَقْرَ فِي مَذْهَبِ النُّهَىٰ ... لَسِيَّانِ بَلْ أَعْفَىٰ مِنَ الثَّرْوَةِ الْعُدْمُ
فَمَا نِلْتُ مَالاً قَطُّ إِلاَّ وَمَالَ بِي ... وَلاَ دِرْهَماً إِلاَّ وَدَرَّ بِيَ الْهَمُّ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢١١] : [مِنَ البسيطِ]

وَالْمَوْتُ أَحْسَنُ بِالنَّفْسِ الَّتِي أَلِفَتْ ... عِزَّ الْقَنَاعَةِ مِنْ أَنْ تَسْأَلَ الْقُوتَا

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢٥٢] : [مِنَ الوافرِ]

وَمَا يَنْفَكُّ ذُو مَالٍ عَتِيدٍ ... فَتَىً جَعَلَ الْقُنُوعَ لَهُ عَتَادَا

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢٦٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

سَيَطْلُبُنِي رِزْقِي الَّذِي لَوْ طَلَبْتُهُ ... لَمَا زَادَ وَالدُّنْيَا حُظُوظٌ وَإِقْبَالُ

وهو مِنْ قولِ عروةَ بنِ أُذَيْنَةَ : [مِنَ البسيطِ]

لَقَدْ عَلِمْتِ وَمَا الإِسْرَافُ مِنْ خُلُقِي

وَقالَ المعريُّ أَيضاً : [مِنَ الطَّويلِ]

وهَلْ يَدَّخِرُ الضِّرْغَامُ قُوتاً لِيَوْمِهِ ... إِذَا ادَّخَرَ النَّمْلُ الطَّعَامَ لِعَامِهِ

وفي هـٰذا يطولُ الكلامُ ، وقد وفَّيْناهُ حقَّهُ مِنَ التَّفصيلِ في كتابِنا « **بلابلِ التغريدِ** » .

[علم ابن ميادة أن عنده ناقة حلوباً فاستغنىٰ عن الملوك]

وأَزمعَ ابنُ ميَّادةَ الوفادةَ على المنصورِ ؛ ليمدحَهُ بقصيدتِهِ التي يقولُ فيها [في « شعرهِ » ١٠] : [مِنَ الكاملِ]

قَوْمٌ إِذَا جُلِبَ الثَّنَاءُ إِلَيْهِمُ ... بِيعَ الثَّنَاءُ هُنَاكَ بِالأَرْبَاحِ

فأَراحَ عليهِ خادمُهُ بلَبَنِ لَقْحَةٍ لهُ[2] ، فشربَ حتَّىٰ رُئِيَ الرِّيُّ يخرجُ مِنْ أَظفارِهِ ، وصارَتْ بطنُهُ مثلَ القدحِ ، فقالَ : أَيوجدُ معنا هـٰذا كلَّ يومٍ ؟ قالَ لَهُ : نعمْ ، فثنَىٰ عزمَهُ ، وحلَّ رحلَهُ .

---

(١) ابنُ آخرِ ليلةٍ : هوَ الذي حملَت بهِ أمُّه في آخرِ ليلةٍ مِن طُهرِها ، وفي اعتقادِ العربِ أنَّ الولدَ الذي حُملَ بهِ علىٰ هـٰذا النَّحوِ ولدٌ نميمٌ .
(٢) **اللقحةُ** : الناقةُ الحلوبُ الغزيرةُ اللبنِ .

[البخيل يبخل بالمال فابخل بماء وجهك]

ويعجبني قولُ مهيارٍ [في « ديوانه » ٣/ ١٣٨] : [مِنَ الكامِلِ]

يُلْحِي عَلَى الْبُخْلِ الشَّحِيحُ بِمَالِهِ ... أَفَلاَ تَكُونُ بِمَاءِ وَجْهِكَ أَبْخَلاَ ؟!

أَكْرِمْ يَدَيْكَ عَنِ السُّؤَالِ فَإِنَّمَا ... قَدْرُ الْحَيَاةِ أَقَلُّ مِنْ أَنْ تُسْأَلاَ

وَلَقَدْ أَضُمُّ إِلَيَّ فَضْلَ قَنَاعَتِي ... وَأَبِيتُ مُشْتَمِلاً بِهَا مُتَزَمِّلاَ

وَأَرِي الْعَدُوَّ عَلَى الْخَصَاصَةِ حَالَةً ... تَصِفُ الْغِنَىٰ فَيَخَالُنِي مُتَمَوِّلاَ

وَإِذَا امْرُؤٌ أَفْنَى اللَّيَالِيَ حَسْرَةً ... وَأَمَانِياً . . أَفْنَيْتُهُنَّ تَوَكُّلاَ

[الإخلاص في التوكل]

غيرَ أَنَّ القولَ الجامعَ قولُهُ صلى الله عليه وسلم : « **لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ . . لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً** »[١] ، فَلَمْ يُثْنِ على القعودِ ولزومِ البيوتِ ، وإِنَّما أَشارَ بالعملِ ، ونهىٰ عَنِ الالْتِفاتِ إِليهِ ، وحثَّ على الأَسبابِ ، وأَمرَ بالاعتمادِ علىٰ مسبِّبِها .

[صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من الشعر لحكمة]

ويعجبُني ما ذكرَ ابنُ السُّبكيِّ [في « طبقاته » ٤/ ٢٣١] عَنِ الإِصطَخريِّ : أَنَّ أَبا إِسحاقَ الشِّيرازيَّ أَنشدَهُ ، ولم يُسمِّ قائلاً ، وهو : [مِنَ الطَّويلِ]

صَبَرْتُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَذَىٰ خَوْفَ كُلِّهِ ... وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَقَرَّتِ

وَجَرَّعْتُهَا الْمَكْرُوهَ حَتَّىٰ تَدَرَّبَتْ ... وَلَوْ حُمِّلَتْهُ جُمْلَةً لاشْمَأَزَّتِ

فَيَا رُبَّ عِزٍّ جَرَّ لِلنَّفْسِ ذِلَّةً ... وَيَا رُبَّ نَفْسٍ بِالتَّذَلُّلِ عَزَّتِ

وَمَا الْعِزُّ إِلاَّ خِيفَةُ اللهِ وَحْدَهُ ... فَمَنْ خَافَ مِنْهُ خَافَهُ مَا أَقَلَّتِ

سَأَصْدُقُ نَفْسِي إِنَّ فِي الصِّدْقِ حِكْمَةً ... وَأَرْضَىٰ بِدُنْيَايَ وَإِنْ هِيَ قَلَّتِ

وَأَهْجُرُ أَبْوَابَ الْمُلُوكِ فَإِنَّنِي ... أَرَى الْحِرْصَ جَلاَّباً لِكُلِّ مَذَلَّةِ

إِذَا مَا مَدَدْتُ الْكَفَّ أَلْتَمِسُ الْغِنَىٰ ... إِلَىٰ غَيْرِ مَنْ قَالَ اسْأَلُونِي فَشَلَّتِ

إِذَا طَرَقَتْنِي النَّائِبَاتُ بِنَكْبَةٍ ... تَذَكَّرْتُ مَا عُوفِيتُ مِنْهُ فَقَلَّتِ

وَمَا نَكْبَةٌ إِلاَّ وَللهِ مِنَّةٌ ... إِذَا قَابَلَتْهَا أَدْبَرَتْ وَاضْمَحَلَّتِ

تَبَارَكَ رَزَّاقُ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا ... عَلَىٰ مَا أَرَادَ لاَ عَلَىٰ مَا اسْتَحَقَّتِ

فَكَمْ عَاقِلٍ لاَ يَسْتَبِيتُ وَجَاهِلٍ ... تَرَقَّتْ بِهِ أَحْوَالُهُ وَتَعَلَّتِ[٢]

وَكَمْ مِنْ جَلِيلٍ لاَ يُرَامُ حِجَابُهُ ... بِدَارِ غُرُورٍ أَدْبَرَتْ وَتَوَلَّتِ

تَشُوبُ الْقَذَىٰ بِالصَّفْوِ وَالصَّفْوَ بِالْقَذَىٰ ... وَلَوْ أَحْسَنَتْ فِي كُلِّ مَالٍ لَمَلَّتِ

* * *

---

(١) أخرجه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٥٤) ، وسلف في التعليق .

(٢) لا يستبيتُ : أي ليس له بيتُ ليلة ، والبيتُ : القوتُ .



[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبي في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٣٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِلاَّ تَمُتْ تَحْتَ السُّيُوفِ مُكَرَّماً تَمُتْ وَتُقَاسِي الذُّلَّ غَيْرَ مُكَرَّمِ

[حث المتنبي على الإقدام]

يحثُّ على الإقدامِ ؛ لطلبِ العزِّ ، ويقولُ : إِنَّ الموتَ لا بدَّ منهُ ، فإمَّا : تحتَ بارقةِ السُّيوفِ على الشَّرفِ ، وإمَّا : حتفَ الأَنفِ على الذُّلِ والمهانةِ .

[الشعراء تشجع الجبان وتحث على الإقدام]

وما زالتِ الشُّعراءُ تشجِّعُ الجبانَ بمثلِ هٰذا ، وأَحسنُ الخَلْقِ قولاً فيهِ الخوارجُ .

قالَ قَطَرِيُّ بنُ الفجاءَةِ [كما في « حياتهِ وشعرهِ » ٦٨] : [مِنَ الوافرِ]

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شَعَاعاً مِنَ الأَبْطَالِ وَيْحَكِ لاَ تُرَاعِي(١)
فَإِنَّكِ لَوْ سَأَلْتِ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الأَجَلِ الَّذِي لَكِ لَمْ تُطَاعِي
فَصَبْراً فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْراً فَمَا نَيْلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ
سَبِيلُ الْمَوْتِ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ وَدَاعِيهِ لأَهْلِ الأَرْضِ دَاعِ
وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ إِذَا مَا عُدَّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٦٩ـ٧٠] : [مِنَ الكاملِ]

لاَ يَرْكَنَنْ أَحَدٌ إِلَى الإِحْجَامِ يَوْمَ الْوَغَىٰ مُتَخَوِّفاً لِحِمَامِ(٢)
فَلَقَدْ أُرَانِي لِلرِّمَاحِ دَرِيَّةً مِنْ عَنْ يَمِينِي مَرَّةً وَأَمَامِي(٣)
حَتَّىٰ خَضَبْتُ بِمَا تَحَدَّرَ مِنْ دَمِي سَرْجِي وَسَائِرَ شِكَّتِي وَلِجَامِي(٤)
وَرَجَعْتُ مَوْفُورَ الْكَرَامَةِ فَائِزاً جَذَعَ الْبَصِيرَةِ قَارِحَ الأَقْدَامِ(٥)

[لي عندك يد يا أمير المؤمنين]

وقدمَ أَحدُ العربِ علىٰ معاويةَ في يومِ حفلِهِ ، فقالَ : لي عندكَ يدٌ يا أَميرَ المؤمنينَ ، قالَ : وما هي ، قالَ : أَمَا تذكر بـ(صفِّينَ) يومَ انتفخَ سحْرُكَ(٦) ، واحولَّتْ عيناكَ ، ووضعْتَ رجلَكَ في الرِّكابِ ؛ لتفرَّ ، وقد لاحَ الظَّفَرُ لأَهلِ (العراقِ) ، فأَخذْتُ بيدِكَ ، وقلْتُ لكَ : إِنَّ العربَ أَعطتْكَ قيادَها ، وقلَّدتْكَ أَزمَّتَها ، وأَعطتْكَ مِنْ أَنفُسِها

---

(١) طارَتْ شَعاعاً : تفرَّقَت وانتشَرت مِن الخوفِ .
(٢) يَرْكَنْ : يميلُ . الإِحجامُ : النكوصُ والرجوعُ .
(٣) الدَّرِيَّةُ : العلامةُ التي توضعُ للرماةِ ؛ ليتدربوا على الرمايةِ ، وتسمّىٰ أيضاً : دريئةً .
(٤) شِكَّتي : سلاحي . في الديوان : أَكْنَافَ سَرْجِي أَوْ عَنَانَ لِجَامِي .
(٥) الجَذَعُ : القويُّ الفتيُّ . قارحُ الأقدام : مجروحها .
(٦) انتفخَ سَحْرُكَ : تعبير استخدمته العربُ لمن ملأ الخوف جوفه .

شهرينِ ، فأَعطِها مِنْ نفسِكَ ساعةً ، وواللهِ لو كانَتْ هندُ بنتُ عتبةَ مكانَكَ . . ما فرَّتْ ، ولاختارَتْ أَنْ تموتَ كريمةً ، فقلْتَ لِي : اخفضْ صوتَكَ لاَ أُمَّ لكَ ، فتماسكْتَ ، وتراجعَتْ إليكَ نفسُكَ ، وتمثَّلْتَ بشعرٍ أَحفظُ منهُ : [مِنَ الوافرِ]

وَقَـوْلِـي كُلَّمَـا جَـأَشَـتْ وَجَـاشَـتْ مَكَـانَـكِ تُحْمَـدِي أَوْ تَسْتَـرِيحِـي[1]

فقالَ معاويةُ : صدقْتَ ، ولوَدِدْتُ أَنَّكَ الآنَ خفضْتَ مِنْ صوتِكَ ، يا غلامُ ، أَعطِهِ خمسينَ أَلفَ درهمٍ ، ولو كنْتَ أَحسنْتَ الأدبَ . . لَكُنَّا أَحسنَّا في الزِّيادةِ . والروايةُ بالمعنىٰ ، واللَّفظُ يزيدُ وينقصُ[2] .

[ثلاثة من الفرسان جزعوا ثم صبروا]

وقالَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ : جزِعَ ثلاثةٌ مِنْ فرسانِ العربِ ثُمَّ صبرُوا ، وهم :

عمرُو بنُ معديكَرِبَ في قولِهِ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَجَـاشَـتْ إِلَـيَّ النَّفْـسُ أَوَّلَ مَـرَّةٍ فَـرُدَّتْ عَلَـىٰ مَكْـرُوهِهَـا فَـاسْتَقَـرَّتِ

وَابنُ الأَطنابةِ في قولِهِ : [مِنَ الوافرِ]

وَقَوْلِي كُلَّمَا جَأَشَتْ . . . . [البيت السابق] .

وعنترُ في قولِهِ [في « ديوانه » ٢٩] : [مِنَ الكاملِ]

إِذْ يَتَّقُـونَ بِـيَ الأَسِنَّـةَ لَـمْ أَخِـمْ عَنْهَـا وَلَـٰكِنِّـي تَضَـايَـقَ مُقْـدِمِـي[3]

[وثلاثة لم يجزعوا أصلاً]

وأَمَّا ثلاثةٌ . . فلَمْ يجزعُوا أَصلاً ، وهم :

قيسُ بنُ الخطيمِ في قولِهِ [في « ديوانه » ١٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنِّـيَ فِـي الْحَـرْبِ الضَّـرُوسِ مُـوَكَّـلٌ بِـإِقْـدَامِ نَفْـسٍ مَـا أُرِيـدُ بَقَـاءَهَـا

وعامرُ بنُ الطُّفَيلِ في قولِهِ [في « حياتِه وشعرِه » ٩٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَقُـولُ لِنَفْـسٍ مَـا أُرِيـدُ بَقَـاءَهَـا أَقِلِّـي احْتِـرَاساً إِنَّنِـي غَيْـرُ مُـدْبِـرِ

---

(١) جَأَشَتْ نفسهُ : ارتفعت من حزنٍ أو فزعٍ . جَاشتْ نفسهُ : هَمَّتْ بالفرار .

(٢) وسياق القصة في « المزهر » (٢/٢٦٦) ، و« المستطرف » (١/١٣٩) من كتبِ الأدبِ على النحو التالي :

قالَ ثعلبٌ في « أَماليهِ » : أَخبرَنا عبدُ اللهِ بنُ شبيبٍ قالَ : حدثني ثابتُ بنُ عبدِ الرحمٰنِ قالَ : كتبَ معاويةُ بنُ أَبي سفيانَ إِلىٰ زيادٍ : إِذَا جاءَكَ كتابي . . فأَوفدْ إِليَّ ابنكَ عبيدَ اللهِ ، فأَوفدهُ عليهِ ، فما سأَلَهُ عَن شيءٍ إِلاَّ أَنفذَهُ لهُ ، حتىٰ سأَلهُ عنِ الشعرِ فلَم يعرفْ منهُ شيئاً ، قالَ : فما منعكَ مِن روايتِه ؟ قالَ : كرهتُ أَن أَجمعَ كَلامَ اللهِ وكلامَ الشيطانِ في صدري ، فكتبَ إِلىٰ أَبيهِ : باركَ اللهُ لكَ في ابنكَ ، فأَروِهِ الشعرَ فقدْ وجدتهُ كاملاً ، وإِنِّي سمعتُ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : ارووا الشعرَ ؛ فإِنَّهُ يدلُّ علىٰ محاسنِ الأَخلاقِ ، ويقي مساويها ، وتعلَّموا الأنسابَ ، فربَّ رحمٍ مجهولةٍ قد وصلتْ بعريانِ النسبِ ، وتعلَّموا مِنَ النجومِ ما يدلُّكم علىٰ سُبُلِكمْ في البرِّ والبحرِ .

ولقدْ هممتُ بالهربِ يومَ صفِّينَ فما ثبَّتني إِلاَّ قولُ ابنِ الأَطنابةِ :

وَقَـوْلِـي كُلَّمَـا جَـأَشَـتْ وَجَـاشَـتْ مَكَـانَـكِ تُحْمَـدِي أَوْ تَسْتَـرِيحِـي

(٣) الخَيْمُ : الجبنُ .

والعبَّاسُ بنُ مِرداسٍ في قولِهِ : [مِنَ الوافرِ]

أَشُدُّ عَلَى الْكَتِيبَةِ لاَ أُبَالِي ... أَحَتْفِي كَانَ فِيهَا أَمْ سِوَاهَا

[الرجال لا تفر من القتال]

وممّا يُروىٰ للأعورِ السلميِّ ، قالهُ في (صفِّينَ) : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا مَا فَرَرْنَا كَانَ شَرُّ فِرَارِنَا ... صُدُودَ خُدُودٍ وَالْتِوَاءَ مَنَاكِبِ

نُشِيحُ قَلِيلاً وَالْقَنَا مُتَشَاجِرٌ ... وَلاَ تَبْرَحُ الأَقْدَامُ عِنْدَ التَّضَارُبِ

وقد سبقَ في غيرِ هٰذا المجلسِ قولُ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانه » ٢/٣٠٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَدْ كَانَ فَوْتُ الْمَوْتِ سَهْلاً فَرَدَّهُ ... إِلَيْهِ الْحِفَاظُ الْمُرُّ وَالْخُلُقُ الْوَعْرُ[١]

وهو مِنْ قولِ الأعرابيَّةِ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَبَوْا أَنْ يَفِرُّوا وَالْقَنَا فِي نُحُورِهِمْ ... وَلَمْ يَبْتَغُوا مِنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ سُلَّمَا

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَرُّوا لَكَانُوا أَعِزَّةً ... وَلَكِنْ رَأَوْا صَبْراً عَلَى الْمَوْتِ أَكْرَمَا

[مكتوب علىٰ ذي الفقار]

ويُروىٰ بضعفٍ : أَنَّهُ كانَ مكتوبٌ علىٰ ذي الفقارِ[٢] هٰذا البيتُ : [مِنَ البسيطِ]

فِي الْجُبْنِ عَارٌ وَفِي الإِقْدَامِ مَكْرُمَةٌ ... وَالْمَرْءُ بِالْجُبْنِ لاَ يَنْجُو مِنَ الْقَدَرِ

[قصة الحصين بن الحمام وبني جوشن]

وقالَ الحصينُ بنُ الحُمامِ : [مِنَ الطَّويلِ]

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ ... لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَا

وسببُهُ : أَنَّ بني جوشنَ ـ مِنْ غطفانَ ـ قتلتْ جاراً لبني سهمٍ ، رهطِ الحصينِ وعقيلِ بنِ علقمةَ ، وكانَ عقيلٌ غائباً ، فبعثَ بأَبياتٍ يحرِّضُ أَماثِلَ[٣] بني سهمٍ علىٰ غسلِ العارِ بالدمِ ، فقالَ الحصينُ : إِياي عَنَىٰ ، وبي نَوَّهَ ، وامتشقَ الحُسامَ ، وأَبلىٰ أَحسنَ البلاءِ ، وقالَ البيتَ السَّابقَ ، مِنْ قصيدةٍ سبقَ بعضُ أَبياتِها في خلالِ المجالسِ ، ومنها [في « شرحِ الحماسةِ » ١/٣١٦ـ ٣٤٠ـ ٣٤١] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلَسْنَا عَلَى الأَعْقَابِ تَدْمَىٰ كُلُومُنَا ... وَلَكِنْ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا تقطُرُ الدِّمَا

نُفَلِّقُ هَاماً مِنْ كِرَامٍ أَعِزَّةٍ ... عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا

وَلَمَّا رَأَيْنَا الصَّبْرَ قَدْ حِيلَ دُونَهُ ... وَقَدْ كَانَ يَوْماً ذَا كَوَاكِبَ مُظْلِمَا

صَبَرْنَا وَكَانَ الصَّبْرُ مِنَّا سَجِيَّةً ... بِأَسْيَافِنَا يَقْطَعْنَ كَفّاً وَمِعْصَمَا

---

(١) **الحفاظُ المرُّ** : الذَّبُّ الشديدُ عنِ المحارمِ . **الخُلُقُ الوَعْرُ** : الشدَّةُ عندَ المنازعَةِ .

(٢) **ذو الفَقَار** : اسمُ سيفٍ للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وسمِّي بذلك لأنه كان لظهره مثل فقار الظهر .

(٣) **الأماثل** : الأخيار .

وَلَمَّـا رَأَيْـتُ الْـوُدَّ لَيْـسَ بِنَـافِعِـي عَمَـدْتُ إِلَـى الأَمْـرِ الَّـذِي كَـانَ أَحْـزَمَـا
فَلَسْـتُ بِمُبْتَـاعِ الْحَيَـاةِ بِسُبَّـةٍ وَلاَ مُـرْتَـقٍ مِـنْ خَشْيَـةِ الْمَـوْتِ سُلَّمَـا

[الموت آت علىٰ كل حال]

وقيلَ للمهلَّبِ بنِ أَبي صفرةَ : إِنَّكَ لتُلقي نفسَكَ في المهالكِ ، فقالَ : إِنْ لَمْ آتِ الموتَ مسترسلاً . . أتاني مستعجلاً ، إِنِّي لستُ آتي الموتَ مِنْ حُبِّهِ ، ولكنِّي آتيهِ مِنْ بُغْضِهِ ، ثُمَّ تمثَّلَ بقولِ الحصينِ :

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الْحَيَاةَ . . . البيت

[المدح بالقتل]

وما زالتِ العربُ تَمادَحُ بالقتلِ ، وتتهاجىٰ بالموتِ على الفراشِ ، فتقولُ : فلانٌ ماتَ عَبْطَةً[1] ، وماتَ حتفَ أنفهِ .

[لا يموت السيد في فراشه]

وقالَ السمَوْءَلُ [في « ديوانهِ » ٤٦ـ٤٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا مَـاتَ مِنَّـا سَيِّـدٌ فِـي فِـرَاشِـهِ وَلاَ طُـلَّ مِنَّـا حَيْـثُ كَـانَ قَتِيـلُ[2]
تَسِيـلُ عَلَـىٰ حَـدِّ الظُّبَـاتِ نُفُـوسُنَـا وَلَيْسَـتْ عَلَـىٰ غَيْـرِ الظُّبَـاتِ تَسِيـلُ[3]

وقد أَنِفَ عامرُ بنُ الطُّفيلِ أَنْ يموتَ علىٰ فراشهِ ، فركبَ ظهرَ دابتهِ .

وتوجَّعَ خالدُ بنُ الوليدِ مِنْ موتهِ على الفراشِ ، وما مِنْ موضعِ أَربعةِ أَصابعَ مِنْ بدنِهِ إِلاَّ فيهِ طعنةٌ برمحٍ ، أَو ضربةٌ بسيفٍ ، وقالَ : ويلٌ للجبناءِ!

[نعي المصعب بن الزبير إلىٰ أخيه عبد الله]

وذكرَ الأَصفهانيُّ [كما في « الأغاني » ١٩/١٤٠] : أَنَّهُ لَمَّا جاءَ نعيُ المُصعبِ بنِ الزُّبيرِ إِلىٰ (مكَّةَ) . . أَضربَ عبدُ اللهِ أَيَّاماً عَنِ الكلامِ ، حَتَّىٰ تُحُدِّثَ بهِ في الطُّرقاتِ ، فصعدَ المنبرَ ، وجلسَ مليّاً لا يتكلَّمُ ، والكآبةُ عليهِ باديةٌ ، والعرقُ يترشَّحُ مِنْ جبينِهِ ، فقالَ واحدٌ لآخرَ : مَا لَهُ لا يتكلَّمُ ، وهو واللهِ الخطيبُ المِصْقَعُ[4] .

قالَ الآخرُ : أَراهُ يريدُ أَنْ يذكرَ سيِّدَ العربِ المُصعَبَ ، فهو يتصعَّدُ بهِ[5] ، حَتَّىٰ قالَ :

الحمدُ للهِ ، الَّذي لهُ الخلقُ والأَمرُ ، ملِكِ الدُّنيا والآخرةِ ، يُعِزُّ مَنْ يشاءُ ، ويُذِلُّ مَنْ يشاءُ ، أَلا وإِنَّهُ لا يَذِلُّ مَنْ كانَ الحقُّ معهُ وإِنْ كانَ ضعيفاً مفرداً ، ولا يَعِزُّ مَنْ كانَ على الباطلِ وإِنِ استظهرَ عُدَّةً وعدداً ، أَلا وإِنَّهُ أَتانا خبرٌ مِنَ (العراقِ) فساءَنا وسرَّنا . أَتانا أَنَّ مصعباً قُتل ، فأَمَّا الَّذي أَحزننا . . فإِنَّ لفراقِ الحميمِ لذعةً ولوعةً ، يجدُها حميمُهُ عندَ المصيبةِ ، ثمَّ يرعوي أُوْلو الرَّأْيِ إِلى الصَّبرِ ، وأَمَّا الَّذي سرَّنا منهُ . . فإِنَّ قتلَهُ كانَ لهُ شهادةً ، وإِنَّ اللهَ جاعلٌ لنا ولهُ في ذلكَ الخيرةَ ، أَلا وإِنَّ أَهلَ (العراقِ) أَهلُ الغدرِ والشِّقاقِ ، باعوهُ بأَقلِّ الأَثمانِ وأَخسرِها ، وأَسلموهُ إِسلامَ

---

(١) العَبْطَةُ : الصحيحُ الشابُّ .
(٢) المعنىٰ : لم يمت منا سيِّد دون أن يأخذَ بثأرِه . وطُلَّ دمُ فلانٍ : هدرَ وَلَمْ يُثأَرْ لهُ .
(٣) الظُّباتُ ـ جمعُ ظُبَةٍ ـ : وهيَ السُّيوفُ .
(٤) المِصْقَعُ : البليغُ .
(٥) يتصعَّدُ بهِ ـ أي ذِكْر مصعب ـ : يتعب تعباً شديداً .



النَّعَمِ المُخطَمَةِ[1] ، حتَّىٰ قُتلَ ، ولئنْ قُتلَ . . فقد قُتلَ أَبوهُ وعمُّهُ وأخوهُ ، وكانوا الخيارَ الصَّالحينَ ، وإنَّا واللهِ مَا نموتُ حتفَ آنافِنا ، ولكِنْ قعصاً[2] بالرِّماحِ ، وضرباً بالسُّيُوفِ ، لا كَما تموتُ بنو مروانَ ، واللهِ ما قُتلَ منهم رجلٌ في جاهليَّةٍ ولا إسلامٍ ، وإنَّما الدُّنيا عاريةٌ مِنَ المَلِكِ الجبَّارِ الذي لا يزولُ سلطانُهُ ، ولا يَبيدُ ملكُهُ ، فإنْ تُقبلِ الدُّنيا عليَّ . . لا آخذْهَا أَخذَ اللَّئيمِ البَطِرِ ، وإنْ تدبرْ عنِّي . . لا أَبكِيْ عليها بكاءَ الخَرِفِ المهترِ[3] ، ثُمَّ نزلَ .

[آل الزبير أعرق الناس في القتل]

وقدْ قالَ ابنُ دريدٍ : أَعرقُ النَّاسِ في القتلِ آلُ الزُّبيرِ ، فقد قُتلَ عمارةُ بنُ حمزةَ وأبوهُ بـ(قُديدٍ) ، وقُتلَ عبدُ اللهِ بـ(مكَّةَ) ، وقُتلَ مصعبُ وابنُهُ بـ(العراقِ) ، وقُتلَ الزُّبيرُ بـ(وادي السِّباعِ) ، وقُتلَ العوَّامُ في يومِ الفِجَارِ ، وقُتلَ خويلِدُ بنُ أَسَدٍ في حربِ خزاعةَ ، عدا مَنْ قُتل مِنْ أَبنائِهم وأَحفادِهم ، وكانَ قتلُ عمرِو بنِ الزُّبيرِ علىٰ يدِ أخيهِ عبدِ اللهِ ، كانوا يضربونَهُ ، والقيحُ ينضحُ مِنْ ظهرِهِ وأكتافِهِ ، ثُمَّ أَرسلُوا عليهِ الجُعلانَ[4] ، فأَكلَ منهُ ، وهو مقيَّدٌ مغلولٌ ، يستغيثُ فلا يغاثُ ، حتَّىٰ ماتَ علىٰ تلكَ الحالةِ .

فبِحَقٍّ ما يقولُ عبدُ اللهِ ، وما يقولُ فيهم الشَّاعرُ ، ونصُّهُ : [مِنَ المتقاربِ]

وَآلُ الــزُّبَيْــرِ بَنُــو حُــرَّةٍ ... مَــرَوْا بِــالسُّيُــوفِ صُــدُوراً حِنَــاقَــا[5]

يَمُــوتُــونَ وَالْقَتْــلُ دَاءٌ لَهُــمْ ... يُغِيثُــونَ يَــوْمَ السِّبَــاقِ السِّبَــاقَــا

إِذَا فَــرَجَ الْقَتْــلُ مِــنْ عِيصِهِــمْ ... أَبَــىٰ ذَلِــكَ الْعِيــصُ إِلاَّ اتِّفَــاقَــا[6]

فما كانَ أَحقَّهم بقولِ السَّموءَلِ [في « ديوانه » ٤٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

يُقَــرِّبُ حُــبُّ الْمَــوْتِ آجَــالَنَــا لَنَــا ... وَتَكْــرَهُــهُ آجَــالُهُــمْ فَتَطُــولُ

وللهِ درُّ أَبيْ تمَّامٍ في قولِهِ [كما في « ديوانه » ٢/ ٣٠٧] : [مِنَ البسيطِ]

فِيمَ الشَّمَــاتَــةُ إِعْلاَنــاً بِــأُسْدِ وَغَــىٰ ... أَفْنَــاهُــمُ الصَّبْــرُ إِذْ أَبْقَــاكُــمُ الْجَــزَعُ

[قول ماوية لزيد الخيل عندما أراد خطبتها]

ولمّا انتَدَبَ لِخطبةِ ماويةَ ، حاتمٌ ، وأَوسُ بنُ حارثةَ بنِ لامٍ ، وزيدُ الخيلِ . . قالَتْ لزيدٍ : أَمَّا أَنتَ يا زيدُ ، فقد وترتَ العربَ بأَسرِها ، وبقاؤكَ مع الحُرَّةِ قليلٌ[7] ، فيا بردَ ذلكَ الكلامِ علىٰ قلبهِ ، وما أَرفعَهُ لرأسِهِ ، وأَشمخَهُ لأنفهِ ، وإنْ كانَ فيهِ ردُّهُ ، وفي القصَّةِ طولٌ ، ولولا خشيةُ الإملالِ . . كنتُ أَمْلَلْتُهَا بحذافيرِها ؛ فإنَّها مِنْ طرائفِ الأَخبارِ ، وهي موجودةٌ في « أَمالي الزجَّاجي » [ص/ ١٠٦ـ١٠٩] .

---

(١) **المُخطمَةُ** : التي وضع في أنفها الزمام أو المُلجمةُ .

(٢) **قَعصاً** : طعناً ، ووردت في المخطوط : قصعاً ، وهو تصحيف .

(٣) **المهترُ** : المخطىءُ في كلامِهِ .

(٤) **الجُعَل** : دابَّةٌ سوْداءُ مِن دوابِّ الأرضِ .

(٥) **مَرَوا بالسيوف** : زينوا .

(٦) **عِيصُ الرجُلِ** : منبتُ أَصلِهِ ، **والمعنىٰ** : كلَّما حاوَلَ القتلُ تشتيتَ شملهِم . . التأموا .

(٧) وتمام قولها : وأما أنت يا أوس فرجلٌ ذو ضرائرَ ، والصبر عليهن شديد ، وأمّا أنت يا حاتم فمرضيُّ الخلائق ، محمود الشيَم ، كريم النفس وقد زوجتك نفسي .

[قصيدة للطرماح يتمنىٰ فيها أن يموت أفضل ميتة]

وقالَ الطِّرِمَّاحُ [في « ديوانهِ » ٣٣٣ـ٣٣٥] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

وَإِنِّـــي لَقَيَّـــادٌ جَـــوَادِي فَقَـــاذِفٌ ... بِـهِ وَبِنَفْسِـيَ الْيَـوْمَ إِحْـدَى الْمَتَـالِـفِ

لأَكْسِـبَ مَـالاً أَوْ أَؤُوبَ إِلَـىٰ غِنـىً ... مِـنَ اللهِ يَكْفِينِـي امْتِنَـانَ الْخَـلاَئِـفِ

فَيَـا رَبِّ إِنْ حَـانَـتْ وَفَـاتِـي فَـلاَ تَكُـنْ ... عَلَىٰ شَرْجَعٍ يُكْسَىٰ بِخُضْرِ الْمَطَارِفِ[١]

وَلَـٰكِـنَّ قَبْـرِي بَطْـنُ دَوٍّ مَقِيلُـهُ ... بِجَـوِّ سَمَـاءٍ فِـي نُسُـورٍ عَـوَائِـفِ[٢]

وأُمْسِـي شَهِيـداً ثَـاوِيـاً فِـي عِصَـابَـةٍ ... يُصَابُـونَ فِـي فَجٍّ مِـنَ الأَرضِ خَـائِـفِ[٣]

فَـوَارِسُ أَشْتَـاتٌ يُـؤَلِّـفُ بَيْنَهُـمْ ... هُـدَى اللهِ نَـزَّالُـونَ عِنْـدَ الْمَـوَاقِـفِ

[لم يتحقق حلمه ومات علىٰ عكس ما أراد]

قالَ ابنُ شُبرمَةَ : بينا أنَا في بعضِ شوارعِ (الكوفةِ) . . إذا جنازةٌ عليها مُطْرَفُ خزٍّ أخضرُ ، فسأَلتُ عن صاحبِها ، فقيلَ : الطِّرِمَّاحُ ، فعلمتُ أَنَّ اللهَ تعالىٰ لَمْ يستجبْ لَهُ .

[الشعراء والشجاعة]

وقالَتْ أُمُّ معدانَ الأعرابيَّةُ عَنْ بَنِيهَا : [مِنَ البسيطِ]

كَـانَـتْ لَهُـمْ هِمَـمٌ فَـرَّقْـنَ بَيْنَهُـمُ ... إِذَا القَعَـادِيـدُ عَـنْ أَمْثَـالِهَـا قَعَـدُوا[٤]

فِعْـلُ الْجَمِيـلِ وَتَفْـرِيـجُ الْجَلِيـلِ وَإِسْـــدَاءُ الْجَـزِيـلِ الَّـذِي لَـمْ يُسْـدِهِ أَحَـدُ

وقالَ عنترُ [في « ديوانهِ » ١١٤] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

فَيَـا رَبِّ لاَ تَجْعَـلْ حَيَـاتِـي دَنِيَّـةً ... وَلاَ مِيتَتِـي يَـا رَبِّ بَيْـنَ النَّـوَائِـحِ

وَلَـٰكِـنْ صَـرِيعـاً بَيْـنَ أَرْمَـاحِ فِتْيَـةٍ ... طِـوَالِ الْقَنَـا مِـنْ فَـوْقِ أَجْـرَدَ سَـابِـحِ

وقد سبقَ قولُ أَبي تمَّامٍ في غيرِ هـٰذا المجلسِ (فَتىً مَاتَ بَيْنَ الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ . . .) إلىٰ آخرِ الأبياتِ .

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢٤٤] : [مِنَ البسيطِ]

قَلُّـوا وَلَـٰكِنَّهُـمْ طَـابُـوا فَـأَنْجَـدَهُـمْ ... جَيْـشٌ مِـنَ الصَّبْـرِ لاَ يُحْصَـىٰ لَـهُ عَـدَدُ

إِذَا رَأَوْا لِلْمَنَـايَـا عَـارِضـاً لَبِسُـوا ... مِـنَ الْيَقِيـنِ دُرُوعـاً مَـا لَهَـا زَرَدُ[٥]

نَـأَوْا عَـنِ الْمُصْـرِخِ الأَدْنَـىٰ فَلَيْـسَ لَهُـمْ ... إِلاَّ السُّيُـوفُ عَلَـىٰ أَعْـدَائِهِـمْ مَـدَدُ[٦]

---

(١) الشَّرْجَعُ : السريرُ يحملُ عليهِ الميتُ ، وهوَ النعشُ . المطارفُ ـ جمعُ مُطْرَفٍ ـ : وهو ثوبٌ مربَّعٌ مِن خزٍّ .

(٢) الدوُّ : الفلاة الواسعة . النسورُ العوائفُ : التي تدورُ حول الشيءِ تريدُ الوقوعَ عليهِ .

(٣) طريقٌ خائفٌ : أي مخيفٌ يخيفُ الناسَ .

(٤) القَعَاديدُ مِن الرجالِ : الجُبناءُ القاعِدونَ عَن الحربِ والمكارمِ .

(٥) العارضُ : ما اعترضَ في الأُفقِ فسدَّهُ . الزَّرَدُ : حلَقُ المغفرِ والدرعِ .

(٦) المُصْرِخُ : المغيثُ .

وقالَ أَبو عبادةَ [في « ديوانهِ » ٣/١٩٤١-١٩٤٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَبَا غَانِمٍ أَرْدَىٰ بَنِيكَ اعْتِقَادُهُمْ ... بِأَنَّ الرَّدَىٰ فِي الْحَرْبِ أَكْبَرُ مَغْنَمِ
مَضَوْا يَسْتَلِذُّونَ الْمَنَايَا حَفِيظَةً ... وَحِفْظاً لِذَاكَ السُّؤْدُدِ الْمُتَقَدِّمِ
وَمَا طَعَنُوا إِلاَّ بِرُمْحٍ مُوَصَّلٍ ... وَلاَ ضَرَبُوا إِلاَّ بِسَيْفٍ مُثَلَّمِ
دَعَتْهُمْ أَفَانِينُ الرَّدَىٰ فَتَتَابَعُوا ... تَتَابُعَ مُنْبَتِّ الْفَرِيدِ الْمُنَظَّمِ[1]
سَلاَمٌ عَلَىٰ تِلْكَ الْخَلاَئِقِ إِنَّهَا ... مُنَزَّهَةٌ مِنْ كُلِّ عَارٍ وَمَأْثَمِ
مَسَاعٍ عِظَامٌ لَيْسَ يَبْلَىٰ جَدِيدُهَا ... وَإِنْ بَلِيَتْ مِنْهَا رَمَائِمُ أَعْظُمِ
أَحَبَّ بَنُوكَ الْمَكْرُمَاتِ فَفَرَّقَتْ ... جَمَاعَتَهُمْ فِي كُلِّ دَهْيَاءَ صَيْلَمِ[2]
تَدَانَتْ مَنَايَاهُمْ بِهِمْ وَتَبَاعَدَتْ ... مَضَاجِعُهُمْ عَنْ تُرْبِكَ الْمُتَنَسَّمِ
فَكُلٌّ لَهُ قَبْرٌ غَرِيبٌ بِبَلْدَةٍ ... فَمِنْ مُنْجِدٍ نَائِي الضَّرِيحِ وَمُتْهِمِ
قُبُورٌ بِأَطْرَافِ الْبِلاَدِ كَأَنَّمَا ... مَوَاقِعُهَا مِنْهَا مَوَاقِعُ أَنْجُمِ

وقالَ بعض شعراءِ الحماسةِ [في « شرحِ الحماسةِ » ١٢/١١٣-١١٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

سَأَغْسِلُ عَنِّي الْعَارَ بِالسَّيْفِ جَالِباً ... عَلَيَّ قَضَاءُ اللهِ مَا كَانَ جَالِبَا
وَأَذْهَلُ عَنْ دَارِي وَأَجْعَلُ هَدْمَهَا ... عِرْضِيَ مِنْ بَاقِي الْمَذَلَّةِ حَاجِبَا
وَيَصْغُرُ فِي عَيْنِي تِلاَدِي إِذَا انْثَنَتْ ... يَمِينِي بِإِدْرَاكِ الَّذِي كُنْتُ طَالِبَا[3]
فَإِنْ تَهْدِمُوا بِالغَدْرِ دَارِي فَإِنَّهَا ... تُرَاثُ كَرِيمٍ لاَ يُبَالِي الْعَوَاقِبَا
أَخِي عَزَمَاتٍ لاَ يُطِيعُ عَلَى الَّذِي ... يَهُمُّ بِهِ مِنْ هَايِلِ الأَمْرِ عَاتِبَا
إِذَا هَمَّ أَلْقَىٰ بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ ... وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِبَا
إِذَا هَمَّ لَمْ تُرْدَعْ عَزِيمَةُ هَمِّهِ ... وَلَمْ يَأْتِ مَا يَأْتِي مِنَ الأَمْرِ هَائِبَا
وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِي شَأْنِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ ... وَلَمْ يَرْضَ إِلاَّ قَائِمَ السَّيْفِ صَاحِبَا

وقالَ ابنُ هانىءٍ الأَندلسيُّ [في « ديوانهِ » ١٤٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَمْ أَجِدِ الإِنْسَانَ إِلاَّ ابْنَ سَعْيِهِ ... فَمَنْ كَانَ أَسْعَىٰ كَانَ بِالْمَجْدِ أَجْدَرَا
وَبِالْهِمَّةِ الْعَلْيَاءِ تَرْقَىٰ إِلَى الْعُلاَ ... فَمَنْ كَانَ أَعْلَىٰ هِمَّةً كَانَ أَظْهَرَا
وَلَمْ يَتَأَخَّرْ مَنْ أَرَادَ تَقَدُّماً ... وَلَمْ يَتَقَدَّمْ مَنْ أَرَادَ تَأَخُّرَا

وقالَ أَبو نصرِ بنُ نُبَاتَةَ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ ... تَعَدَّدَتِ الأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدُ

---

(١) الفريدُ : اللؤلؤُ المنظومُ . المنبتُّ : الذي انقطعَ . والمعنىٰ : أنَّهم يتتابعونَ كما هوَ حالُ العقدِ إذَا انقطعَ ، وهوَ كنايةٌ عَنْ شدَّةِ سرعتِهم إلىٰ ما رموا إليهِ .
(٢) الدهياءُ : ما يصيبُ الإنسان مِن نوائبِ الدهرِ . الصَّيلَمُ : الأمرُ الشديدُ .
(٣) التِّلادُ : المالُ القديمُ الموروث .

وقالَ أبو فراسٍ [في « ديوانه » ٢٩٢] : [مِنَ الوافرِ]

مَتَىٰ مَا يَدْنُ مِنْ أَجَلِي كِتَابِي أَمُتْ بَيْنَ الأَسِنَّةِ وَالأَعِنَّةْ

وقالَ الموسويُّ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَيَسْتَقْبِحُونَ الْمَوْتَ وَالْمَوْتُ رَاحَةٌ وَأَتْعَبُ مَيْتٍ مَنْ يَمُوتُ بِدَاءِ

وقالَ بكرُ بنُ عبدِ العزيزِ : [مِنَ الخفيفِ]

إِنَّ مَوْتَ الْفِرَاشِ ذُلٌّ وَعَارٌ وَهْوَ تَحْتَ السُّيُوفِ فَضْلٌ شَرِيفُ

[الشهداء أحياء]

وهنا ذكرتُ قولَهُ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

[أمنية الشهيد]

وقولَهُ صلى الله عليه وسلم : « **لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ، ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ، ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ** »(١) .

[شجاعة الإمام]

وقولَ ابنِ أبي طالبٍ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ [في « نهجِ البلاغةِ » ١٤٢] ـ : (واللهِ لأَلْفُ ضربةٍ بالسَّيفِ أهونُ عليَّ مِنْ ميتةٍ على الفراشِ) .

[تقديم النبي صلى الله عليه وسلم آل بيته في القتال عند إحجام الشجعان]

وقولَهُ ـ رضوانُ اللهِ عليهِ ـ [في « نهجِ البلاغةِ » ٣١٤] : (وكانَ صلى الله عليه وسلم إِذَا اشتدَّ البأسُ ، وأَحجمَ النَّاسُ . . قدَّمَ أهلَ بيتِهِ ، فوقىٰ بهِمْ أصحابَهُ حرَّ الأَسنةِ والسُّيوفِ ، فقُتِلَ عُبيدةُ [بنُ الحارثِ] يومَ بدرٍ ، وقُتِلَ حمزةُ يومَ أُحُدٍ ، وقُتِلَ جعفرٌ يومَ مؤتةَ ، وأَرادَ مَنْ لو شئتُ . . ذكرتُ اسمَهُ مثلَ الَّذي أَرادوا مِنَ الشَّهادةِ ، غيرَ أَنَّ مناياهُم عُجِّلَتْ ، ومنيَّتَهُ أُجِّلَتْ) .

والمرادُ بالنَّاسِ في قولِهِ عليهِ السَّلامُ : (وَأَحْجَمَ النَّاسُ) هم مراجيحُ الأبطالِ ، ولهاميمُ الرِّجالِ ، فأَهلُ البيتِ حينئذٍ كما قالَ أبو تمَّامٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَتىً كُلَّمَا ارْتَادَ الشُّجَاعُ مِنَ الرَّدَىٰ مَفَرّاً غَدَاةَ الْمَأْزِقِ ارْتَادَ مَصْرَعَا

وفيهم أَقولُ [كما في « ديوان المؤلف » ٨٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

مَسَاعِيرُ لاَ يَقْضُونَ حَتْفَ أُنُوفِهِمْ وَلَكِنْ كِرَاماً فِي مَجَالِ الْوَغَىٰ جُزْرَا

[بكاء زين العابدين]

ويُروىٰ : أَنَّ زينَ العابدينَ السَّجَّادَ كانَ لا ترقأُ لهُ دمعةٌ(٢) ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : كيفَ ؟! وقد رأيتُ ثمانيةَ عشرَ مِنْ آبائي وإخواني يُنحرونَ كما تُنحرُ الإبلُ في غداةٍ واحدةٍ ، وهو هاضمٌ لنفسهِ في مقالتهِ ، وإلاَّ . . فالمعروفُ مِنْ

---

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي اللهُ عنهُ البخاري (٣٦) في الإيمان ، ومسلم (١٨٧٦) في الإمارة .

(٢) **لا ترقأ** : لا تهدأ .

حالِهِ في كثرةِ بكائِهِ الخشيةُ مِنَ الْباري عزَّ وجلَّ ؛ ولهٰذا كانَ يصفرُّ كلَّما دخلَ في الصَّلاةِ ، ويُغشىٰ عليهِ عندما يشرعُ في التَّلبيةِ ، ومعَ ذلكَ فالبكاءُ علىٰ نجومِ الأرضِ داخلٌ في البكاءِ مِنْ خشيتِهِ تعالىٰ ؛ لأَنَّ مصائبَهُم ثلومُ الإِسلامِ : [مِنَ الطَّويلِ]

عَلَىٰ مِثْلِهِمْ فَلْتَلْطُمِ الْعَيْنُ خَدَّهَا ... بِسَبْعٍ مِنَ الْحُمْرِ الْقَوَانِي عَلَىٰ سَبْعِ

وقد رخَّصَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم فيما كانَ مِنْ دمعِ العينِ ، وحزنِ القلبِ[1] ، والسَّجَّادُ لا محالةَ واقفٌ عندَ ما رسمَ لهُ جَدُّهُ مِنْ ذلكَ ؛ لأَنَّهُ مِنَ القومِ الذينَ يقولُ فيهم ابنُ أَوسٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلَمَّا دُعُوا لِلْمَوْتِ لَمْ تَبْكِ مِنْهُمْ ... عَلَىٰ حَادِثِ الدَّهْرِ الْعُيُونُ الدَّوَامِعُ

[ربما يكون البكاء دواء عند الشعراء]

وقد قالَ الملكُ الضِّلِّيلُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ لَوْ سَفَحْتُهَا ... وَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ ؟

وقالَتِ الخنساءُ : [مِنْ مَجزوءِ الكاملِ]

إِنَّ الْبُكَاءَ هُوَ الشِّفَا ... ءُ مِنَ الْجَوَىٰ بَيْنَ الْجَوَانِحْ

وقالَ ذُو الرُّمَّةِ [في « ديوانِهِ » ٢/ ٣٣٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَعَلَّ انْحِدَارَ الدَّمْعِ يُعْقِبُ رَاحَةً ... مِنَ الْوَجْدِ أَوْ يَشْفِي نَجِيَّ الْبَلَابِلِ

وقالَ أَبو عُبادةَ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَنْضَحْ جَوَاكَ بِعَبْرَةٍ ... غَلَا فِي التَّمَادِي أَوْ قَضَىٰ فِي التَّسَعُّرِ

وقالَ : [مِنَ الوافرِ]

تَعُودُ عَوَائِدُ الدَّمْعِ الْمُرَاقِ ... عَلَىٰ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنِ احْتِرَاقِ

وقالَ [في « ديوانِهِ » ٣/ ١٧٦٣] : [مِنَ الخفيفِ]

عَلَّ مَاءَ الدُّمُوعِ يُخْمِدُ نَاراً ... مِنْ جَوَى الْقَلْبِ أَوْ يَبُلُّ غَلِيلَا

وقالَ [في « ديوانِهِ » ١/ ١٩٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَإِنْ أَبْكِ لَا أَشْفِ الْغَلِيلَ وَإِنْ أَدَعْ ... أَدَعْ حُرْقَةً فِي الصَّدْرِ ذَاتَ تَلَهُّبِ

[الأنفة والإباء عند المتنبي]

وبعضُ ما يناسبُ هٰذا معَ الإحالةِ علىٰ ما هنا ، أَوائلَ المجلسِ الثَّاني ، ثُمَّ إِنَّها تداخلَتْ علينا الشَّواهدُ في

---

(١) وذلكَ في الحديثِ الذي رواهُ عن أَنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ البخاريُّ (١٣٠٣) في الجنائزِ ، قالَ : دخلْنا معَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم علىٰ أَبي سيفٍ القَيْنِ ، وكانَ ظئراً لإبراهيمَ عليهِ السلامُ ، فأَخذَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إبراهيمَ فقبَّلَهُ وشمَّهُ ، ثمَّ دخلْنا عليهِ بعدَ ذلكَ ، وإبراهيمُ يجودُ بنفسِه ، فجعلَتْ عينا رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم تذرفانِ ، فقالَ لَهُ عبدُ الرحمٰنِ بنُ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُ : وأَنتَ يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « يا بنَ عوفٍ ، إِنَّها رحمةٌ » . ثمَّ أَتبَعَها بأُخرىٰ ، فقالَ صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ العينَ تدمعُ ، والقلبَ يحزنُ ، ولاَ نقولُ إِلاَّ ما يَرْضَىٰ ربُّنا ، وإِنَّا بفراقكَ ـ يا إبراهيمُ ـ لمحزونونَ » .

الموضوعِ ، وكلَّما خرجنا عن مبحثٍ . . رجعنا إليهِ بحكمِ تداعي الأفكارِ ، ولا معابةَ مَعَ اتحادِ الجنسِ في اضطرابِ الفروعِ ؛ إذْ كلُّها تدندنُ حولَ الأنفةِ والإباءِ ، والابتعادِ عَنْ مواقعِ الذلِّ ، ومرامي الهوانِ ، وجُلُّ « **ديوانِ النَّاظمِ** » مِنْ هٰذا القبيلِ منهُ **قولُهُ** [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٦١] : [مِنَ المنسرحِ]

يَـأْنَـفُ مِـنْ مِيتَـةِ الْفِـرَاشِ وَقَـدْ ... حَـلَّ بِـهِ أَصْـدَقُ الْمَـوَاعِيـدِ
وَمِثْلُـهُ أَنْكَـرَ الْمَمَـاتَ عَلَـىٰ ... غَيْـرِ سُـرُوجِ السَّـوَابِـحِ الْقُـودِ[1]

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٤١] : [مِنَ الخفيفِ]

وَلَـوْ أَنَّ الْحَيَـاةَ تَبْقَـىٰ لِحَـيٍّ ... لَعَـدَدْنَـا أَضَلَّنَـا الشُّجْعَـانَـا
وَإِذَا لَـمْ يَكُـنْ مِـنَ الْمَـوْتِ بُـدٌّ ... فَمِـنَ الْعَجْـزِ أَنْ تَكُـونَ جَبَـانَـا

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٤٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَنَـالَ حَيَـاةً يَشْتَهِيهَـا عَـدُوُّهُ ... وَمَـوْتـاً يُشَهِّـي الْمَـوْتَ كُـلَّ جَبَـانِ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢١٣] : [مِنَ البسيطِ]

كَـمْ مَخْلَـصٍ وَعُـلاً فِي خَـوْضِ مَهْلَكَـةٍ ... وَقَتْلَـةٍ قُـرِنَـتْ بِـالـذَّمِّ فِـي الْجُبُـنِ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١١٩ـ١٢٠] : [مِنَ الوافرِ]

فَطَعْـمُ الْمَـوْتِ فِـي أَمْـرٍ صَغِيـرٍ ... كَطَعْـمِ الْمَـوْتِ فِـي أَمْـرٍ عَظِيـمِ
يَـرَى الْجُبَنَـاءُ أَنَّ الْعَجْـزَ عَقْـلٌ ... وَتِلْـكَ خَـدِيعَـةُ الطَّبْـعِ اللَّئِيـمِ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٧١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأُورِدُ نَفْسِـي وَالْمُهَنَّـدُ فِـي يَـدِي ... مَـوَارِدَ لاَ يُصْـدِرْنَ مَـنْ لاَ يُجَـالِـدُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٢١ـ٣٢٢] : [مِنَ الخفيفِ]

عِـشْ عَـزِيـزاً أَوْ مُـتْ وَأَنْـتَ كَـرِيـمٌ ... بَيْـنَ طَعْـنِ الْقَنَـا وَخَفْـقِ الْبُنُـودِ
أُطْلُـبِ الْعِـزَّ فِـي لَظَـىٰ وَدَعِ الـذُّلَّ ... وَلَـوْ كَـانَ فِـي جِنَـانِ الْخُلُـودِ

والأخيرُ مِنْ قولِ عنترةَ [في « ديوانِهِ » ١٩٨] : [مِنَ الكاملِ]

مَـاءُ الْحَيَـاةِ بِـذِلَّـةٍ كَجَهَنَّـمٍ ... وَجَهَنَّـمٌ بِـالْعِـزِّ أَطْيَـبُ مَنْـزِلِ

[لا عز في طريق النار ولا ذل في طريق الجنة]

وهو مِنْ فاحشِ الغلطِ ، لولا جهلُ الأوَّلِ ، وجاهليَّةُ الثَّاني ؛ إذْ لا ذُلَّ في طريقِ الجنَّةِ ، ولا عِزَّ في طريقِ النَّارِ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون : ٨] ، وما هٰذا إلاَّ مِنِ امتحانِ الإسلامِ بمن لا يفهمُ أسرارَهُ ، وإلاَّ فهو دينُ العزِّ والشَّرفِ ، ودينُ المجدِ والأنَفِ ، لقد حَظَرَ على الإنسانِ أنْ يذلَّ نفسَهُ ، وجعلَهُ حرّاً في سائرِ أطوارِهِ ، معَ

(١) السَّوابحُ ـ جمعُ سابحٍ ـ : وهوَ الشديدُ الجري ، كأنَّهُ يسبحُ في جريهِ . **القُودُ** : الطوالُ مِنَ الخيلِ ، وفرسٌ أقودُ ؛ أي : طويلُ الظهرِ والعنُقِ .

الاعترافِ بالعبوديَّةِ لخالقه بأَداءِ الفرضِ ، ومعَ التَّلَزُّمِ بقانونهِ المُفْضِي إلىٰ سعادةِ الدَّارينِ ، وعمارةِ الأَرضِ ، وسيأَتي ما يتعلَّقُ بهِ في محلِّهِ مِنَ الكلامِ على البيتِ المذكورِ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٤/ ٣٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَثِبْ وَاثِقاً بِاللهِ وِثْبَةَ مَاجِدٍ ... يَرَى الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فِي الْفَمِ

[تحريض المتنبي على القتال]

يقولُ لصاحبهِ أَو لنفسهِ علىٰ سبيلِ التَّجريدِ : قمْ مبادراً للحربِ مبادرةَ كريمٍ شريفٍ ، يجدُ في طعمِ الموتِ حلاوةَ العسلِ ، وكثيراً ما يدَّعي النَّاظمُ ذلكَ لنفسهِ ، ولعسكرهِ الخيالي ، **كما في قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٧٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا شِئْتُ حَفَّتْ بِي عَلَىٰ كُلِّ سَابِحٍ ... رِجَالٌ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي فَمِهَا شَهْدُ

[شجاعة الإمام عليه السلام]

وهٰذهِ الدَّعوى الضَّخمةُ لا نعرفُ صِدقَها إِلاَّ لعليِّ بنِ أَبي طالبٍ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ إِذْ قامَ بوردِهِ مِنَ الصَّلاةِ (ليلةَ الهريرِ)[1] ، والسِّهامُ كالمطرِ حفافيةً[2] ، حَتَّىٰ عذلَهُ في ذلكَ أَحدُ الحَسَنَينِ ، فقالَ لهُ : لا يبالي أَبوكَ وقعَ على الموتِ ، أَوْ وقعَ الموتُ عليهِ ، فهوَ الَّذي لهُ في قتلِهِ أَرَبٌ ، وهوَ الَّذي يرىٰ قتالَهُ أَفضلَ القُرَبِ ، وهوَ الأَولىٰ بقولِ الحماسيِّ [حارثةَ بن بدرٍ الغدانيِّ في « شرحِ الحماسةِ » ١/ ٤٢٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنَّا لَتَسْتَحْلِي الْمَنَايَا نُفُوسُنَا ... وَنَتْرُكُ أُخْرَىٰ مُرَّةً مَا نَذُوقُهَا

وقولِ الآخرِ : [مِنَ الوافرِ]

رَخِيصٌ عِنْدَهُ مُهَجُ الْعَوَالِي ... كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي فَكَّيْهِ شَهْدُ

وقولِ المزينيِّ : [من الوافر]

دَعَوْتُ بَنِي قُحَافَةَ فَاسْتَجَابُوا ... فَقُلْتُ : رِدُوا فَقَدْ طَابَ الْوُرُودُ

وقولِ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانه » ٢/ ٩] : [مِنَ البسيطِ]

يَسْتَعْذِبُونَ مَنَايَاهُمْ كَأَنَّهُمُ ... لاَ يَخْرُجُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قُتِلُوا

[تمييزه بين العسل الطائفي وغيره في أحلك الظروف]

بلْ هوَ أَكبرُ مِن ذلكَ وأَجلُّ ، ولقدِ استسقىٰ لَيلتَئِذٍ ، فأَتاهُ بعضُ الهاشميِّينَ بماءٍ فيهِ عَسَلٌ ، فقالَ لهُ : عسلُكَ هٰذا طائفيٌّ ، فقالَ : يا عمُّ ، في مثلِ هٰذا الموقفِ الَّذي شخصَتْ فيهِ الأَبصارُ ، وذُهلَتِ العقولُ ، وطاشَتِ الأَحلامُ ،

---

(١) **ليلةُ الهريرِ** : اسمُ واقعةٍ حدثت بين سيدنا علي ومعاوية بظاهر (الكوفة) وسميت بالهرير ؛ لأنهم لما عجزوا عن القتال صار بعضهم يهرُّ علىٰ بعض .

(٢) **حفافيةً** : محيطة مِن كلِّ جانبٍ .

وبلغَتِ القلوبُ الحناجرَ ، تُفرِّقُ بينَ العسلِ الطائفيِّ ممزوجاً ، وبينَ غيرِهِ ؟! فقالَ لهُ : يا بنَ أخي ، لَمْ يملأْ صدرَ عمِّكَ هَوْلٌ قطُّ ، فمَا كانَ أحقَّهُ بقولِ الأعرابيِّ : [مِنَ البسيطِ]

لاَ يَمْلأُ الْهَوْلُ صَدْرِي قَبْلَ مَوْقِعِهِ ... وَلاَ أَضِيقُ بِهِ ذَرْعاً إِذَا وَقَعَا

وقولِ مهيارٍ : [مِنَ الكاملِ]

جَبَلُ الْعُلاَ سَعْيُ الْهُمُومِ فُؤَادُهُ ... وَتُنَاطُ مِنْهُ بِقَارِحٍ مُتَعَوِّدِ

[معرفة أبي العلاء ماء وطنه وقد مزج بماء الفرات وهو بالعراق]

ونظيرُهَا ما حُكِيَ : أَنَّ أبا العلاءِ لمَّا وَرَدَ (العراقَ) . . تشوَّقَ إلىٰ وطنِهِ ، فقالَ مِنْ أثناءِ قصيدةٍ [كما في « ديوانه » ٢٨٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَيَا بَرْقُ لَيْسَ الْكَرْخُ دَارِي وَإِنَّمَا ... رَمَانِي إِلَيْهِ الدَّهْرُ مُنْذُ لَيَالِي

فَهَلْ فِيكَ مِنْ مَاءِ الْمَعَرَّةِ قَطْرَةٌ ... تُبَلُّ بِهَا ظَمْآنَ لَيْسَ بِسَالِي

[الإمام آنس بالموت من الطفل بثدي أمه وتفصيل هٰذا الكلام]

فيقالُ : إنَّ الأميرَ استدعىٰ ماءً علىٰ خيلِ البريدِ مِنْ مَعَرَّةِ النُّعمانِ ، وقدَّمهُ لهُ ممزوجاً بماءِ الفراتِ ، فقالَ : هٰذا ماؤُهَا ، فأينَ هواؤُها ؟ ولكنْ هيهاتَ هيهاتَ! فهٰذا يقولُهَا في رخاءِ البالِ ، وسَعَةِ الحالِ ، والإمامُ يقولُهَا وقدْ تقلَّصَتِ الخُصىٰ[1] ، وتقاصرَتِ الخُطَا ، وشتَّانَ ما بينَ المقامينِ ، وبصدقٍ يقولُ : واللهِ لابْنُ أبي طالبٍ آنسُ بالموتِ مِنَ الطِّفلِ بثدي أُمِّهِ .

وهٰذا أبلغُ ممَّا يشبِّهُ الناظمُ وغيرُهُ الموتَ بالعسلِ ، وأَصدقُ من وجوهٍ :

أحدُهَا : مطابقتُهُ للواقعِ وتظاهرُ البيِّناتِ بهِ .

ثانيها : أَنَّ اللَّبنَ أفضلُ مِنَ العسلِ ، كما صرَّحَ بهِ فقهاؤُنا ، ولهٰذا كانَ صلى الله عليه وسلم يحمدُ اللهَ كلَّما تناولَ شيئاً ، ويسألُهُ خيراً منهُ إلاَّ اللَّبنَ ، فإنَّهُ يحمدُ اللهَ عليهِ ، ويستزيدُهُ منهُ[2] .

ثالثُها : أَنَّ التذاذَ الطِّفلِ باللَّبنِ أكثرُ مِنْ غيرِهِ ، بل لا لذَّةَ لهُ سواهُ ، ولا صلاحَ لهُ بغيرِهِ .

رابعُها : أَنَّ ثديَ الأُمِّ آنسُ لطفلِها مِنْ سائرِ الثُّدَىٰ والألبانِ .

خامسُها : الإشارةُ إلىٰ ما جاءَ في « **الصحيح** » : « **مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ . . أَحَبَّ اللهُ لقاءَهُ** »[3] ؛ ولذا قالَ آخرَهُ سيِّدُ

---

(١) **تقلصَّت الخُصىٰ** : تشمَّرت إلىٰ أعلىٰ من شدَّة الهول والفزع .

(٢) كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند أبي داوود (٣٧٣٠) ، والترمذي (٣٤٥٥) وحسنه وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أكل أحدكم طعاماً . فليقل : اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه ، ومن سقاه الله تعالىٰ لبناً . فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ، فإنه ليس شيء يجزىء من الطعام والشراب غير اللبن » .

(٣) أخرجه عن عبادة رضي الله عنه البخاري (٦٥٠٧) في الرقاق ، وفيه قول عائشة ، ومسلم (٢٦٨٣) في الذكر والدعاء . وفي الباب : عن عائشة عند مسلم (٢٦٨٤) ، والترمذي (١٠٦٧) ، والنسائي (٤/ ١٠) وابن ماجه (٤٢٦٤) .



المرسلينَ : « الرَّفِيقَ الأَعْلَىٰ »[1] ، ففي الكلامِ مِنَ البدائعِ ما لا تتَّسعُ لها المداركُ ، ولا تستقرُّ لها العقولُ .
ولا غرابةَ في صدورِها عن بابِ مدينةِ علمٍ[2] مَنْ لا ينطقُ عَنِ الهوىٰ .
هـٰذا واللهِ الكلامُ الذي تزلُّ العُصْمُ عَنْ صفاتِهِ ، وتختلجُ الفصحاءُ عَنْ مرقاتِهِ ، فلو أَنَّ قلباً تقطَّعَ ، أَو حجراً تصدَّعَ لعذوبةِ هـٰذا الكلامِ وحلاوتهِ وجزالتهِ وطلاوتهِ . . لكانَ محقوقاً بذلكَ ، فيا سبحانَ المانحِ ! .

[استعذاب الموت في طلب العز عند الشعراء]

وممّا يتّصلُ بما الكلامُ فيهِ مِنِ استعذابِ الموتِ في طلبِ العزِّ . . قولُ عليِّ بنِ محمدٍ الصُّليحيِّ القائمِ بـ(اليمنِ) :

[مِنَ الكامل]

وَأَلَــذُّ مِــنْ قَــرْعِ الْمَثَـانِـي عِنْـدَهُ ... فِـي الْحَـرْبِ أَلْجِـمْ يَـا غُـلَامُ وَأَسْـرِجِ
خَيْـلٌ بِـأَقْصَـىٰ حَضْـرَمَـوْتَ مَغَـارُهَـا ... وَصَهِيلُهَـا بَيْـنَ الْفُـرَاتِ وَمَنْبِـجِ

وقولُ العلويِّ صاحبِ الزّنجِ : [مِنَ الكامل]

وَإِذَا تُنَـازِعُنِـي أَقُـولُ لَهَـا قِـرِي ... مَـوْتُ الْمُلُـوكِ عَلَـىٰ صُعُـودِ الْمِنْبَـرِ
مَـا قَـدْ قُضِـي سَيَكُـونُ فَـاصْطَبِـرِي لَـهُ ... وَلَـكِ الأَمَـانُ مِـنَ الَّـذِي لَـمْ يُقْـدَرِ

[شدة ثبات جأش عبد الله بن الزبير]

وسُئِلَ ابنُ أَبي مُليكةَ عن عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ ، فقالَ : ما رأَيتُ أَثبتَ مِنْ نفسِهِ ؛ مرَّ حجرُ المنجنيقِ بينَ جنبِهِ وصدرِهِ ، وهو قائمٌ يصلِّي ، فما اضطربَ لَهُ ، ولا خشعَ بصرُهُ ، ولا قطعَ قراءتَهُ ، ولا ركعَ دونَ الرُّكوعِ ، فكأَنَّما عناهُ أَبو تمّامٍ بقولِهِ [في « ديوانهِ » ٢/١٢٢] : [مِنَ الطَّويل]

يَـرَى الْعَلْقَـمَ الْمَـأْدُومَ بِـالْعِـزِّ أَرْيَـةً ... يَمَـانِيَّـةً وَالأَرْيَ بِـالـذُّلِّ عَلْقَمَـا[3]

[تشبيه الموت بالعسل اليماني]

وفي هـٰذا البيتِ مضربُ المثلِ بالعسلِ اليمانيِّ ، ولاَ شكَّ أَنَّ أَفضلَهُ عسلُ (حضرموتَ) ، فلهُ أَكبرُ شرفِ البيتِ ، وهو شبيهٌ بما سبقَ عن بعضِ الخوارجِ قبيلَ قولِ الناظمِ [في « العُكبَريِّ » ٣/١٦٠] : [مِنَ الطَّويل]

وَخُضْرَةُ ثَوْبِ الْعَيْشِ فِي الْخُضْرَةِ الَّتِي ... تُرِيكَ احْمِرَارَ الْمَوْتِ فِي مَدْرَجِ النَّمْلِ

[الأحق بهـٰذه الأشعار هو ابن الزبير]

ولابنُ الزُّبيرِ أَحقُّ مِنِ ابنِ أَبي عُيينةَ بقولِهِ : [مِنَ الطَّويل]

وَإِنِّـيَ مِـنْ قَـوْمٍ كَـأَنَّ نُفُـوسَهُـمْ ... بِهَـا أَنَـفٌ أَنْ تَسْكُـنَ اللَّحْـمَ وَالـدَّمَـا

وقولِ أَبي تمّامٍ أَيضاً [في « ديوانهِ » ٢/٢٣٣] : [مِنَ البسيط]

وَحَـنَّ لِلْمَـوْتِ حَتَّـىٰ ظَـنَّ مُبْصِـرُهُ ... بِـأَنَّـهُ حَـنَّ مُشْتَـاقـاً إِلَـىٰ وَطَـنِ

---

(١) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٦٥٠٩) في الرقاق و(٣٦٦٩) ، ومسلم (٢٤٤٤) في فضائل الصحابة .
(٢) كما جاء في حديث علي رضي الله عنه عند الترمذي (٣٧٢٥) قال : « أنا دار الحكمة وعلي بابها » .
(٣) الأَرْيُ : العَسَلُ .



لَوْ لَمْ يَمُتْ تَحْتَ أَسْيَافِ الْعِدَا كَرَماً ... لَمَاتَ إِذْ لَمْ يَمُتْ مِنْ شِدَّةِ الْحَزَنِ

وقولِهِ [في «ديوانه» ٢/١٦٩] : [مِنَ الكاملِ]

لِحِيَاضِهَا مُتَوَرِّدٌ وَلِخَبْطِهَا ... مُتَعَوِّدٌ وَبِدَرِّهَا مَلْبُونُ

[الجمال لا ينافي الشجاعة]

وللهِ درُّ القائلِ : [مِنَ الكاملِ]

عُقْبَانُ رَوْعٍ وَالسُّرُوجُ وُكُورُهَا ... وَلُيُوثُ حَرْبٍ وَالْقَنَا آجَامُ(1)

وَبُدُورُ تِمٍّ ، وَالشَّوَائِكُ فِي الوَغَىٰ ... هَالاَتُهَا وَالسَّابِرِيُّ غَمَامُ(2)

جَادُوا بِمَمْنُوعِ التِّلاَدِ وَجَوَّدُوا ... ضَرْباً تُحَذُّ بِهِ الطُّلاَ وَالْهَامُ(3)

وَتَجَاوَرَتْ أَسْيَافُهُمْ وَجِيَادُهُمْ ... فَالأَرْضُ تُمْطَرُ وَالسَّمَاءُ تُغَامُ

[يستمهل السجان كي يتم لعبة الشطرنج]

ومازالتِ العربُ تسيرُ إلى الموتِ بالخطا الواسعةِ ، وتتلقَّاهُ بالصُّدورِ الرَّحبةِ ، أَوَ ما رأَيتَ هُدبةَ بنَ الخشرمِ لَمْ ينزعجْ لمّا دُعِيَ للقتلِ! ؟ ولكنّهُ استمهلَ السَّجّانَ ريثَما يُتمُّ لعبتَهُ بالشَّطرنجِ ، فهوَ واللهِ صادقٌ إِنْ أَرادَ نفسَهُ في قولِهِ [في «شعره» ١٠٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَخُو الْحَرْبِ مَنْ لا يَجْتَوِيهَا إِذَا اجْتَوَتْ ... وَلاَ يُظْهِرُ الشَّكْوَىٰ وَإِنْ كَانَ مُوجَعَا

وسنستوفي حديثَهُ في مجلسٍ آخرَ .

[شجاعة أبي نعامة]

وصدقَ أَيضاً أَخو الشُّراةِ أَبو نعامةَ في قولِهِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَوْ قَرَّبَ الْمَوْتَ الْقِرَاعُ لَقَدْ أَنَىٰ ... لِمَوْتِيَ أَنْ يَدْنُو لِطُولِ قِرَاعِيَا

أُغَادِي قِتَالَ الْمُعْلَمِينَ كَأَنَّنِي ... عَلَى الْعَسَلِ الْمَاذِيِّ أُصْبِحُ غَادِيَا(4)

[شجاعة ابن محكان]

وَأَمرَ مصعبُ بنُ الزُّبيرِ رجلاً مِن بني أَسدٍ بقتلِ مُرَّةَ بنِ مَحْكانَ ، فتقدَّمَ بجأْشٍ رابطٍ ، وأَنشأَ يقولُ : [مِنَ الطَّويلِ]

بَنِي أَسَدٍ إِنْ تَقْتُلُونِي تُحَارِبُوا ... تَمِيماً إِذَا الْحَرْبُ الْعَوَانُ اشْمَعَلَّتِ(5)

وَلَسْتُ وَإِنْ كَانَتْ إِلَيَّ حَبِيبَةً ... بِبَاكٍ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا تَوَلَّتِ

ولو رَوَّىٰ في هٰذا الشِّعرِ صاحبُ دعَةٍ . . لَمَا نَقَّحَهُ هٰذا التَّنقيحَ وأَبدعَهُ .

---

(1) **الآجامُ** : الشجرُ الكثيرُ الملتفُّ ، وهو كنايةٌ عن كثرةِ الرماحِ .

(2) **السابري** : الدرع .

(3) **الطُّلا** : الأعناق .

(4) **الماذي** : الأبيض الرقيق .

(5) **العوانُ اشمعلَّتِ** : الحرب اتسعت وتكررت معاركها .

[عبد بن يغوث ينوح علىٰ نفسه قبل قتله بقصيدة شعرية رائعة]

ولمّا أُسِرَ عبدُ بنُ يغوثَ ، وشدُّوا لسانَهُ مخافةَ الهجاءِ . . التمسَ منهُم أَنْ يُطلِقوهُ ؛ لينوحَ علىٰ نفسِهِ ، وعاهدَهُم ألاّ يهجوَهُم ، فأَطلقوا لسانَهُ[1] ، فقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ لاَ تَلُومَانِي كَفَى اللَّوْمَ مَا بِيَا ... فَمَا لَكُمَا فِي اللَّوْمِ خَيْرٌ وَلاَ لِيَا
أَيَا رَاكِباً إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ ... نَدَامَايَ مِنْ نَجْرَانَ أَنْ لاَ تَلاَقِيَا
جَزَى اللهُ قَوْمِي بِالْكُلاَبِ مَلاَمَةً ... صَرِيحَهُمُ وَالآخَرِينَ الْمَوَالِيَا
أَبَا كَرِبٍ وَالأَيْهَمَيْنِ كِلاَهُمَا ... وَقَيْساً بِأَعلَىٰ حَضْرَمَوْتَ الْيَمَانِيَا
أَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ ... أَمَعْشَرَ تَيْمٍ أَطْلِقُوا مِنْ لِسَانِيَا[2]
فَإِنْ تَقْتُلُونِي تَقْتُلُونِي بِخَيْرِكُمْ ... وَإِنْ تُطْلِقُونِي تَحْرُبُونِي بِمَالِيَا[3]
وَتَضْحَكُ مِنِّي شَيْخَةٌ عَبْشَمِيَّةٌ ... كَأَنْ لَمْ تَرَىٰ قَبْلِي أَسِيراً يَمَانِيَا[4]
وَقَدْ عَلِمَتْ عِرْسِي مُلَيْكَةُ أَنَّنِي ... أَنَا اللَّيْثُ مَعْدُوّاً عَلَيْهِ وَعَادِيَا
وَكُنْتُ إِذَا مَا الْخَيْلُ سَمَّمَهَا الْقَنَا ... لَبِيقاً بِتَعْرِيفِ الْقَنَاةِ بَنَانِيَا
وَعَادِيَةٍ سَوْمَ الْجِرَامِ وَزَعْتُهَا ... بِكَفِّي وَقَدْ أَنْحَوْا إِلَيَّ الْعَوَالِيَا[5]
كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَاداً وَلَمْ أَقُلْ ... لِخَيْلِيَ : كُرِّي مَرَّةً عَنْ رِجَالِيَا
وَلَمْ أَسْبَأِ الزِّقَّ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ ... لأَيْسَارِ صِدْقٍ : أَعْظِمُوا ضَوْءَ نَارِيَا[6]

وعرضَ عليهِم أَلفَ ناقةٍ في فدائِهِ ، فلمْ يقبلُوا ، وإنَّها لعزَّةٌ باهرةٌ وشهامةٌ ظاهرةٌ .

[شجاعة طرفة بن العبد]

أَمَّا طرفةُ بنُ العبدِ . . فلم يَتَجَلَّجْ[7] عندَ القتلِ ، غيرَ أَنَّهُ خضعَ في بعضِ القولِ ؛ إذْ أنشدَ حينئذٍ [في « ديوانه » ١٧٢ـ١٧٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَبَا مُنْذِرٍ كَانَتْ غُرُوراً صَحِيفَتِي ... وَلَمْ أُعْطِكُمْ فِي الطَّوْعِ مَالِي وَلاَ عِرْضِي
أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَنَا ... حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

[عبيد بن الأبرص يخاف الموت]

وَأَمَّا عَبيدُ بنُ الأَبرصِ . . فتلعثمَتْ لسانُهُ خوفَ القتلِ ، ولمَّا قالَ لهُ النُّعمانُ يومَ بُؤْسِهِ : أَنشدني . . قالَ : حالَ الجَريضُ دونَ القريضِ[8] .

---

(١) انظر الأبيات والقصة في « الأغاني » (١٦/ ٣٦١ـ٣٦٢) .

(٢) النِّسعُ : حبلٌ مضفورٌ يُجعلُ زماماً للبعيرِ وغيرِهِ .

(٣) تحرُبوني : تسلِبوني جميعَ ما أَملكُ .

(٤) عبشميَّةٌ : أي من بني عبد شمس .

(٥) العاديَةُ : الخيلُ تَعدو . السَّومُ : سرعةُ المَرِّ مع قصدِ الصوب ، وسَوْمُ الرياح : مُرُّها . الجِرْمُ : أَلواحُ الجسدِ وجثمانُهُ . وَزَعتُها : فرَّقتُها .

(٦) سَبَأَ الخمر : إذا حملَها مِن بلدٍ إلىٰ بلدٍ واشتراها ليشربَها . الزِّقُّ : هوَ وعاءٌ من جلد تنقلُ فيهِ الخمرُ .

(٧) الجلجُ : القلقُ والاضطرابُ .

(٨) الجريض : الغصةُ بالريقِ مِنْ هَمٍّ أو نحوِهِ . القريضُ : الشِّعرُ ، وَهُو مثلٌ عربيٌّ ، أصلُهُ : أَنَّ رجلاً كانَ لهُ ابنٌ نبغَ في الشِّعرِ ، فنهاهُ أبوهُ عن ذلكَ ، فجَاشَ بهِ



[تميم بن جميل يتكلم خطبة حال قتله يعجز عنها من هو في الدَّعَة]

ومِنْ خيرِ مَا في الموضوع : حديثُ تميمِ بنِ جميلٍ ، فقد جاشَ خاطرُهُ حينَ قدَّمهُ المعتصمُ للقتلِ بأَبياتٍ[1] ، لو رَوَّىٰ شاعرٌ في مثلِها حولاً . . لَما بلغَ أصغرَ آنيتِهِ ، وهـٰذا ما بالذهن منها : [مِنَ الطَّويلِ]

أَرَى الْمَوْتَ بَيْنَ السَّيْفِ وَالنِّطْعِ كَامِناً ... يُلاَحِظُنِي مِنْ حَيْثُ مَا أَتَلَفَّتُ[2]

وَأَيُّ امْرِىءٍ يُدْلِي بِعُذْرٍ وَحُجَّةٍ ... وَسَيْفُ الْمَنَايَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ مُصْلَتُ

يَعِزُّ عَلَى الأَوْسِ بْنِ تَغْلِبَ مَوْقِفٌ ... يُسَلُّ عَلَيَّ السَّيْفُ فِيهِ فَأَسْكُتُ

وَمَا جَزَعِي مِنْ أَنْ أَمُوتَ وَإِنَّنِي ... لأَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ شَيْءٌ مُوَقَّتُ

وَلَـٰكِنَّ خَلْفِي صِبْيَةً قَدْ تَرَكْتُهُمْ ... وَأَكْبَادُهُمْ مِنْ حَسْرَةٍ تَتَفَتَّتُ

فَإِنْ عِشْتُ عَاشُوا خَافِضِينَ بِغِبْطَةٍ ... أَذُودُ الرَّدَىٰ عَنْهُمْ وَإِنْ مِتُّ مُوِّتُوا[3]

وَكَمْ قَائِلٍ : لاَ يُبْعِدُ اللهُ دَارَهُ ... وَآخَرَ جَذْلاَنٌ يُسَرُّ وَيَشْمَتُ

[علي بن الجهم يصلب وهو حي عرياناً]

وقالَ عليُّ بنُ الجهمِ ، وقد صلبوهُ وهوَ حيٌّ عُرياناً [في « ديوانه » ١٧١ـ١٧٢] : [مِنَ الكاملِ]

لَمْ يَنْصِبُوا بِالشَّاذِيَاخِ عَشِيَّةَ الْـ ... إِثْنَيْنِ مَغْلُولاً وَلاَ مَجْهُولاَ[4]

نَصَبُوا بِحَمْدِ اللهِ مِلْءَ عُيُونِهِمْ ... حُسْناً وَمِلْءَ صُدُورِهِمْ تَبْجِيلاَ

مَا ضَرَّهُ أَنْ بُزَّ عَنْهُ لِبَاسُهُ ... فَالسَّيْفُ أَهْوَلُ مَا يُرَىٰ مَسْلُولاَ

[نجدة القرآن وشهامته]

ومِنْ مفاخرِ العربِ إجابةُ الصَّوتِ ، وإغاثةُ الصَّريخِ ، والاستهانةُ بالموتِ في سبيلِ ذلك ، حتَّىٰ لقد قامَ أَحدُ عظماءِ الأَدبِ المصريِّينَ بمنىٰ عامَ حَجَجْنا ، فقالَ :

إنَّني تأمَّلتُ القرآنَ . . فوجدتُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحجرات : ٩] ، ما يشبهُ قانونَ جمعيَّةِ الأُمَمِ ، فلمَّا انتهىٰ إليَّ القولُ . . تعرَّضْتُ لمقالِهِ ، مِنْ إعجابي بموضوعِهِ ، وقلْتُ : أَمَّا نجدةُ القرآنِ وشهامتهُ ، وتمكينُهُ للسلام بالعدلِ ، والانتصافِ مِنْ وراءِ كلِّ قياسٍ . . لا يوزنُ بهِ اليومَ شيءٌ مِنْ أَحوالِ الناسِ ، لكنْ بينَ أَيدينا مثالٌ مِنْ أَعمالِ أهلِ الجاهليَّةِ الجهلاءِ ، يزيدُ علىٰ ما في قانونِ تلكَ الجمعيَّةِ ، مِنْ وجوهِ ذلكَ ، المثالُ هو حلفُ الفضولِ ، الذي يقولُ عنه صلى الله عليه وسلم : « **لَقَدْ شَهِدْتُ حِلْفاً فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَدعَانَ ، مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ ، وَلَوْ دُعِيتُ بِهِ فِي الإِسْلاَمِ . . لأَجَبْتُ** »[5] .

= صدرُهُ ومَرِضَ حتىٰ أشرفَ على الهلاكِ ، فَأَذِنَ لهُ أبوهُ في قولِ الشِّعرِ فقالَ هـٰذا القولَ .

(١) انظر خبره في « جمهرة خطب العرب » (٣/١٤٥) .

(٢) **النِّطْعُ** : بساط من الجلدِ يقتل عليه المحكوم بالقتل .

(٣) **خافضين** : من الخفض ، وهو الدَّعَةُ .

(٤) **الشَّاذياخُ** : ضاحيةٌ مِن ضواحي (نيسابورَ) .

(٥) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/٣٦٧) عن طلحة بن عبيد الله ، ومحمد بن إسحاق الفاكهي في « أخبار مكة » (٥/١٩١) بنحوه .



[وجوه فضل حلف الفضول]

وأَمَّا وجوهُ فضلِهِ :

فمنها : أَنَّ قانونَ تلكَ الجمعيّةِ لا يتعهَّدُ بنصرِ مَنْ لم ينضمَّ إليها ، وإِنَّما هو مقصورٌ علىٰ أَهلِها فقط ـ فيما إِخالُ ـ بخلافِ حلفِ الفضولِ ، فقدِ اقتطعَ علىٰ نفسِهِ نصرةَ المظلومِ ، أَيّاً كانَ ، مِنْ غيرِ شرطٍ ولا قيدٍ .

[السرعة في إجابة المنادي دون أي سؤال]

ومنها : أَنَّ نصرَ جمعيّةِ الأُممِ ضمارٌ[1] ووعدٌ ، ونصرَ هٰذا خلاصٌ ونقدٌ ، وما بينَ المظلومِ وبينَهُ إِلاَّ أَنْ ينادِيَ يا آلَ حِلفِ الفضولِ ، فتتبادرهُ السيوفُ ، ثُمَّ لا تنحجزُ عنهُ حَتَّىٰ تستخرجَ لَهُ حقَّهُ ممَّنْ كانَ ، وللهِ درُّ بَشامةَ بنِ حَزَنٍ إِذْ يقولُ [في « الكاملِ » ١/ ١٤٦] : [مِنَ البسيطِ]

إِنَّـا لَمِـنْ مَعْشَـرٍ أَفْنَـىٰ أَوَائِلَهُـمْ ... قِيلُ الْكُمَـاةِ أَلاَ أَيْـنَ الْمُحَـامُـونَـا

لَوْ كَانَ فِي الأَلْفِ مِنَّا وَاحِدٌ وَدَعَوْا : ... مَـنْ فَـارِسٌ ؟ خَـالَهُـمْ إِيَّـاهُ يَعْنُـونَـا

وَلاَ تَـرَاهُـمْ وَإِنْ جَلَّـتْ مُصِيبَتُهُـمْ ... مَـعَ الْبُكَـاةِ عَلَـىٰ مَـنْ مَـاتَ يَبْكُـونَـا

وقالَ طرفَةُ [في « ديوانِهِ » ٢٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا : مَنْ فَتىً ؟ خِلْتُ أَنَّنِي ... عُنِيـتُ فَلَـمْ أَكْسَـلْ وَلَـمْ أَتَبَلَّـدِ

وقالَ بعضُ العربِ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا مَـا دُعُـوا لَـمْ يَسْـأَلُـوا مَـنْ دَعَـاهُـمُ ... لأَيَّـةِ حَـرْبٍ أَمْ بِـأَيِّ مَكَـانِ

وقالَ سلاَّمةُ بنُ جندَلٍ [في « ديوانِهِ » ١٢٥] : [مِنَ البسيطِ]

إِنَّـا إِذَا مَـا أَتَـانَـا صَـارِخٌ فَـزِعٌ ... كَـانَ الصُّـرَاخُ لَـهُ قَـرْعَ الظَّنَـابِيـبِ[2]

وقالَ الحُطيئَةُ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا مَـا دُعُـوا لَـمْ يَسْـأَلُـوا مَـنْ دَعَـاهُـمُ ... وَلَـمْ يُمْسِكُـوا فَـوْقَ الْقُلُـوبِ الْخَـوَافِـقِ

أَحَلُّـوا حِيَـاضَ الْمَـوْتِ فَـوْقَ جِبَـاهِهِـمْ ... مَكَـانَ النَّـوَاصِـي مِـنْ وُجُـوهِ السَّـوَابِـقِ

وقالَ الكلحبةُ [في « المفضَّلِيّاتِ » ١/ ١٤٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقُلْـتُ لِكَـأْسٍ : أَلْجِمِيهَـا فَـإِنَّمَـا ... نَـزَلْنَـا الْكَثِيـبَ مِـنْ زَرُودَ لِنَفْـزَعَـا[3]

وقالَ الرَّاعي : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا مَـا فَـزِعْنَـا أَو دُعِينَـا لِنَجْـدَةٍ ... لَبِسْنَـا عَلَيْهِـنَّ الْحَـدِيـدَ الْمُسَـرَّدَا[4]

---

(١) **الضِّمارُ** : ما لا يُرجىٰ من الدَّينِ والوعدِ ، وكلُّ ما لا تكونُ منهُ علىٰ ثقةٍ .

(٢) **الظُّنبوبُ** : حرفُ الساقِ اليابسِ ، وعَنىٰ بذلكَ سرعةَ الإجابةِ ، وجعلَ قرعَ السوطِ علىٰ ساقِ الخفِّ في زجرِ الفرسِ قرعاً للظُّنْبُوب .

(٣) **كأس هنا** : اسمُ ابنتِهِ . **زَرُود** : اسمُ مكانٍ . **الكثيبُ** : الرمل المجتمعُ .

(٤) **السَّرْدُ** : اسمٌ جامعٌ للدروعِ وغيرِها مِن سائرِ الحِلَقِ .



وقال قُرَيْطٌ [في « شرحِ الحماسةِ » ١٢/٣٥٨] : [مِنَ البسيطِ]

لاَ يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ ... فِي النَّائِبَاتِ عَلَىٰ مَا قَالَ بُرْهَانَا
قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَىٰ نَاجِذَيْهِ لَهُمْ ... طَارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانَا

وقالَ الحماسيُّ [سعد بن مالك بن ثعلبة في « شرح الحماسةِ » ١/١٩٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

دَعَوْتُ بَنِي قَيْسٍ إِلَيَّ فَشَمَّرَتْ ... خَنَاذِيذُ مِنْ سَعْدٍ طِوَالُ السَّوَاعِدِ(١)
إِذَا مَا قُلُوبُ الْقَوْمِ طَارَتْ مَخَافَةً ... مِنَ الْمَوْتِ أَرْسَوْا بِالنُّفُوسِ النَّوَاجِدِ(٢)

ويعجبني قولُ أَبي حوية ، وهوَ ابنُ عمِّ الأَميرِ قرواشِ بنِ المقلَّدِ ـ صاحبِ (الموصلِ) ـ : [مِنَ الكاملِ]

قَوْمٌ إِذَا الْتَحَمَ الْعَجَاجُ رَأَيْتَهُمْ ... أُسُداً وَخِلْتَ وُجُوهَهُمْ أَقْمَارَا
لاَ يَبْخَلُونَ بِرِفْدِهِمْ عَنْ سَائِلٍ ... عَدَلَ الزَّمَانُ عَلَيْهِمُ أَوْ جَارَا
وَإِذَا الصَّرِيخُ دَعَاهُمُ لِمُلِمَّةٍ ... بَذَلُوا النُّفُوسَ وَأَرْخَصُوا الأَعْمَارَا
وَإِذَا زِنَادُ الْحَرْبِ أُخْمِدَ نَارُهَا ... قَدَحُوا بِأَطْرَافِ الأَسِنَّةِ نَارَا

[سرعة النبي إلىٰ إجابة الصوت]

تلكَ هي شمائلُ العربِ ، الَّتي كانَ بعضُهَا يأكلُ الميْتاتِ ، ويدفنُ البناتِ علىٰ قيدِ الحياةِ ، ثُمَّ جاءَ الإِسلامُ بإتمامِ مكارمِ الأَخلاقِ(٣) ، وكانَ صاحبُ شريعةِ الإِسلامِ صلى الله عليه وسلم أَسرعَ النَّاسِ إلى الصَّوتِ ، حَتَّىٰ لقد كانَ فَزَعٌ بـ(المدينةِ) ، فركبَ علىٰ فرسٍ عُرْيٍ لأَبي طلحةَ ، وسبقَ النَّاسَ إلى الصَّريخِ ، وقالَ : « **إِنْ وَجَدْنَاهُ ـ يعني : الفرسَ ـ لَبَحْراً** »(٤) .

[السبب في شجاعة الصحابة رضوان الله عليهم أنها جبلَّة ودين وملَّة]

ومَا بالكَ بقومٍ علمْتَ مِنْ أَنَفِهم وحميَّتِهم وحفاظِهم ما علمْتَ ، وأكرمَهُم اللهُ بالإِسلامِ ، حَتَّىٰ خالطَ قلوبَهم ، وامتزجَ بلحومِهم ودمائهم ، ثُمَّ أنزلَ اللهُ عليهم أمثالَ قولِهِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ [الصف : ١٠ـ١٣] ، وقولِهِ : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٤١] ، وقولِهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

فإنَّهم بعدَ أَنْ كانَتْ حميَّتُهُم جبلَّةً صارَتْ ديناً وملَّةً ، فلا جرمَ علىٰ قلَّةِ العَدَدِ ، وضعفِ العُدَدِ ، انكفؤُوا علىٰ عروشِ

---

(١) الخِنْذِيذُ : هوَ الشجاعُ الذي لا يُهتدىٰ لقتالِهِ .
(٢) النواجد : الشجعان .
(٣) لما ورد عن أبي هريرة عند أحمد والحاكم والبيهقي قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .
(٤) أخرجه عن أنس رضي الله عنه البخاري (٢٦٢٧) في الهبة ، ومسلم (٢٣٠٧) في الفضائل .

الملوكِ ، وأبلَوا ما يشهدُ بهِ التَّاريخُ في القادسيَّةِ واليرموكِ ، ولله درُّ القائلِ فيهم : [مِنَ الرمَلِ]

قِـفْ عَلَـى الْيَـرْمُـوكِ وَاخْضَـعْ جَـاثِيـاً ... وَتَيَمَّـمْ مِـنْ صَعِيـدِ الْقَـادِسِيَّـهْ
تُـرْبَـةٌ طَيِّبَـةٌ طَـاهِـرَةٌ ... وَقُبُـورٌ مِـنْ حَيَـا النَّقْـعِ نَـدِيَّـهْ
يَـا قُبُـوراً مُحِيَـتْ وَانْـدَرَسَـتْ ... أَنْـتِ نِبْـرَاسُ الْهُـدَىٰ وَالْـوَطَنِيَّـهْ
هَـاهُنَـا مَثْـوى الصَّنَـادِيـدِ الأُلَـىٰ ... دَوَّخُـوا الْكُفْـرَ بِبِيـضِ الْمَشْـرَفِيَّـهْ
دَوَّخُـوا الـرُّومَ وَثَلُّـوا عَـرْشَهَـا ... وَطَـوَوْا حُمْـرَ الْبُنُـودِ الْفَـارِسِيَّـهْ

فحدِّثْ ولا حرجَ عنهم ، فإنَّ لهم في إرخاصِ النُّفوسِ ، واستعذابِ البؤْسِ ، وإغاثةِ الصَّريخِ ، ونصرِ المظلومِ ، وكسبِ المعدومِ . . ما صغَّرَ كلَّ عظيمٍ ، وحَثَا في وجهِ كلِّ مُقْرِمٍ[1] ، وغبَّرَ في قبلةِ كلِّ شجاعٍ ، ولقد ألقىٰ بعضُهم تمراتٍ في يدِهِ استعجالاً للشهادةِ[2] .

وقالَ آخرُ : إنِّي لأَشمُّ رائحةَ الجنَّةِ مِنْ جهةِ أُحدٍ ، في كثيرٍ مِنْ تلكَ الأَمثالِ .

[الصحابة الكرام أحق بجميع الأشعار المادحة والثناء البالغ]

فما أَحقَّهم بقولِ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانه » ٧٨] : [مِنَ الكاملِ]

مُتَـرَسِّلِيـنَ إِلَـى الْحُتُـوفِ كَـأَنَّمَـا ... بَيْـنَ الْحُتُـوفِ وَبَيْنَهُـمْ أَرْحَـامُ

وقولِ البُحتريِّ : [مِنَ الكاملِ]

مُتَـرَسِّلِيـنَ إِلَـى الْحُتُـوفِ كَـأَنَّهَـا ... وَفْـرٌ بِـأَرْضِ عَـدُوِّهِـمْ يُتَنَهَّـبُ[3]

وقولِهِ أيضاً [في « ديوانه » ١/١٧٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَسَـرَّعَ حَتَّـىٰ قَـالَ مَـنْ شَهِـدَ الْـوَغَـىٰ ... لِقَـاءُ أَعَـادٍ ، أَمْ لِقَـاءُ حَبَـائِـبِ ؟!

وقولِ بعضِهِم : [مِنَ الكاملِ]

قَـوْمٌ شَـرَابُ سُيُـوفِهِـمْ وَرِمَـاحِهِـمْ ... فِـي كُـلِّ مُعْتَـرَكٍ دَمُ الأَشْـرَافِ
يَتَحَنَّنُـونَ إِلَـىٰ لِقَـاءِ عَـدُوِّهِـمْ ... كَتَحَنُّـنِ الأُلاَّفِ لِـلأُلاَّفِ
وَيُبَـاشِـرُونَ ظُبَـا السُّيُـوفِ بِـأَنْفُـسٍ ... أَمضَـىٰ وَأَقْطَـعُ مِـنْ ظُبَـا الأَسْيَـافِ

وقولِ النَّاظمِ [في « العُكبَريِّ » ٢/١٤٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَقْـدَمْـتُ إِقْـدَامَ الأَتِـيِّ كَـأَنَّ لِـي ... سِوَىٰ مُهْجَتِي أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وِتْرُ[4]

---

(١) المُقرِمُ : السيِّدُ العظيم ، المقدَّمُ في المعرفةِ وتجاربِ الأمورِ .

(٢) وذلكَ في الحديث الذي أخرجهُ مسلمٌ (١٩٠١) في الإمارةِ ، عَن أَنسِ بن مالكٍ رَضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يومَ بدرٍ : « قوموا إلىٰ جنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ » ، قالَ : يقولُ عميرُ بنُ الحُمَامِ الأنصاريُّ : يا رسولَ الله ، جنَّةٌ عرضُها السماواتُ والأرضُ ؟ قالَ : نَعَمْ ، قالَ : بَخٍ بَخٍ ، قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : مَا يحملُكَ علىٰ قولِ بَخٍ بَخٍ ؟ قالَ : لا واللهِ يا رسولَ اللهِ إلاَّ رجاءَةَ أَن أكونَ مِن أَهلِها ، قالَ : فإنَّكَ مِن أَهلِها ، فأَخرجَ تمراتٍ مِن قرنِهِ فجعلَ يأكلُ منهنَّ ، ثُمَّ قالَ : لئِن حييتُ حتَّىٰ آكلَ تمراتي هـٰذه إنَّها لحياةٌ طويلةٌ ، قالَ فرمىٰ بما كانَ معهُ مِنَ التمرِ ، ثمَّ قاتلَ حتَّىٰ قُتِلَ » .

(٣) الوَفْرُ : الكثير الواسع من المال والمتاع .

(٤) الأَتِيُّ : السيلُ الذي لا يُرَدُّ .

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٢١] : [مِنَ البسيطِ]

بِكُـلِّ أَشْعَـثَ يَلْقَـى الْمَـوْتَ مُبْتَسِمـاً حَتَّـىٰ كَـأَنَّ لَـهُ فِـي قَتْلِـهِ أَرَبـا

وقولِ أَبي فراسٍ [في « ديوانهِ » ٣٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

صَبُـورٌ وَلَـوْ لَـمْ تَبْـقَ مِنِّـي بَقِيَّـةٌ قَـؤُولٌ وَلَـوْ أَنَّ السُّيُـوفَ جَـوَابُ

وَقُـورٌ وَأَحْـدَاثُ اللَّيَـالِـي تَنُـوشُنِـي وَلِلْمَـوْتِ حَـوْلِـي جَيْئَـةٌ وَذَهَـابُ

[أجمع الآيات في النجدة]

ومِنْ أَجمعِ الآياتِ في النجدةِ والوفا . . قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] ، فلقد صحَّ أن اليمانَ وابنَهُ حذيفةَ لمَّا قاما في الصَّفِّ يومَ بدرٍ . . قالا لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : إِنَّ بعضَهم أخذَ علينا العهدَ بعدما مَنَّ علينا أَلاَّ نشهرَ السِّلاحَ عليهِ ، فعسىٰ أَلاَّ يكونَ في حربهم علينا حرجٌ ، فأخذَ بأيديهما ، وقالَ لهما : « **فُوَا لَهُمْ** . . »[1] .

فأَيُّ وفاءٍ بربِّكَ يشبهُ هٰذا الوفاءَ معَ الحاجةِ ؟! وأَيُّ صدقٍ كمثلِ هٰذا الصِّدقِ ؟! وقد ارتفعتِ العجاجَةُ .

[تمهيد المؤلف العذر لنفسه في هٰذا الاستطراد]

وقد كانَ بعضُ هٰذا المقالِ أَولىٰ بالتَّأْخيرِ إِلىٰ عندِ مثلِ **قولِ النَّاظمِ** [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٧٣] : [مِنَ الرَّجزِ]

إِنْ تَـدْعُ يَـا سَيْـفُ لِتَسْتَعِينَـهُ يُجِبْـكَ قَبْـلَ أَنْ تُتِـمَّ سِينَـهُ

أَو قولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٠٢] : [مِنَ المتقاربِ]

سَبَقْـتَ إِلَيْهِـمْ مَنَـايَـاهُـمُ وَمَنْفَعَـةُ الْغَـوْثِ قَبْـلَ الْعَطَـبْ

أَو قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٩٩ـ٣٠٠] : [مِنَ الوافرِ]

وَإِنْ نَقَـعَ الصَّـرِيـخُ إِلَـىٰ مَكَـانٍ نَصَبْـنَ لَـهُ مُـؤَلَّلَـةً دِقَـاقَـا[2]

فَكَـانَ الطَّعْـنُ بَيْنَهُمَـا جَـوَابـاً وَكَـانَ اللَّبْـثُ بَيْنَهُمَـا فُـوَاقَـا[3]

غيرَ أَنَّ الحديثَ شُجونٌ ، والاستطرادَ جُموحٌ ، والفائدةَ صيدٌ ، والحزمَ في استعجالِ القيدِ ، وإِذْ ذكرنَا بعضَ ما يهزُّ الرُّؤوسَ ، ويحمي الأُنوفَ مِنْ كلامِ النَّاسِ في الموضوعِ ، واعترَفنا بالعجزِ عمَّا للصحابةِ رضوانُ اللهِ عنهمْ فيهِ ؛ لأَنَّهُ الفضاءُ الواسعُ ، الَّذي لا تأتي علىٰ أَطرافهِ النُّسورُ . . فلنتبرَّكْ بذكرِ شيءٍ ممَّا قالَهُ السَّادةُ الصُّوفيَّةُ في استعذابِ التَّعذيبِ ، واختيارِ الموتِ في مرضاتِ الحبيبِ ، ولَئِنْ اختلفتِ الأَلوانُ . . فالجامعُ قولُ مسلمِ بنِ الوليدِ : [مِنَ البسيطِ]

يَجُـودُ بِـالنَّفْسِ إِذْ ضَـنَّ الْجَـوَادُ بِهَـا وَالْجُـودُ بِـالنَّفْسِ أَقْصَـىٰ غَـايَـةِ الْجُـودِ

---

(١) أخرجه عن حذيفة الطبراني في « الكبير » (٣/ ١٦٥) ، والسيوطي في « الجامع الصغير » وتمامه : « ونستعين الله عليهم » ونسبه لأحمد .

(٢) **النَّقعُ** : رفعُ الصوتِ وبُعدهُ . **الصريخُ** : المستغيثُ . **المؤلَّلَةُ** : المحدَّدَةُ . **الدِّقاقُ** : الرقاقُ ، وهي صفةٌ للآذانِ ، وآذانُ الخيلِ توصفُ بالدقَّة .

(٣) **الفُواقُ** : قدرُ ما بينَ الحلبتَينِ ، ويضربُ مثلاً للسرعةِ .

[كل شيء من الحبيب حبيب]

قالَ أَبو حامدٍ الغزاليُّ كما ذكرهُ ابنُ السُّبكيِّ في « طبقاتهِ » [٢/ ٢٢٢] : [مِنَ المديدِ]

سَقَمِــي فِــي الْحُــبِّ عَــافِيَتِــي ... وَوُجُــودِي فِــي الْهَــوَىٰ عَــدَمِــي

وَعَــذَابٌ تَــرْتَضُــونَ بِــهِ ... فِــي فَمِــي أَحْلَــىٰ مِــنَ النِّعَــمِ

مَــا لِضُــرٍّ فِــي مَحَبَّتِكُــمْ ... عِنْــدَنَــا وَاللهِ مِــنْ أَلَــمِ

[سلطان العاشقين يستعذب العذاب]

وقالَ ابنُ الفارضِ [في « ديوانهِ » ٢٦] : [مِنَ الكاملِ]

إِنْ كَــانَ فِــي تَلَفِــي رِضَــاكَ صَبَــابَــةً ... وَلَــكَ الْبَقَــاءُ وَجَــدْتُ فِيــهِ لَــذَاذَا

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٥١] : [مِنَ الكاملِ]

مَــا لِــي سِــوَىٰ رُوحِــي وَبَــاذِلُ نَفْسِــهِ ... فِــي حُــبِّ مَــنْ يَهْــوَاهُ لَيْــسَ بِمُسْــرِفِ

فَلَئِــنْ رَضِيــتَ بِهَــا فَقَــدْ أَسْعَفْتَنِــي ... يَــا خَيْبَــةَ الْمَسْعَــىٰ إِذَا لَــمْ تُسْعِــفِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٥٢] : [مِنَ الكاملِ]

لَــوْ أَنَّ رُوحِــي فِــي يَــدِي وَوَهَبْتُهَــا ... لِمُبَشِّــرِي بِقُــدُومِكُــمْ لَــمْ أُنْصِــفِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٥٦] : [مِنَ الخفيفِ]

وَتَــلاَفِــي إِنْ كَــانَ فِيــهِ ائْتِــلاَفِــي ... بِــكَ ، عَجِّــلْ بِــهِ جُعِلْــتُ فِــدَاكَــا

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٤٥] : [مِنَ البسيطِ]

مَنْ لِي بِإِتْلاَفِ رُوحِي فِي هَوَىٰ رَشَأٍ ... حُلْــوِ الشَّمَــائِــلِ بِــالأَرْوَاحِ مُمْتَــزِجِ(١)

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٤٤] : [مِنَ البسيطِ]

مَــا بَيْــنَ مُعْتَــرَكِ الأَحْــدَاقِ وَالْمُهَــجِ ... أَنَــا الْقَتِيــلُ بِــلاَ إِثْــمٍ وَلاَ حَــرَجِ

وَدَّعْــتُ قَبْــلَ الْهَــوَىٰ رُوحِــي لِمَا نَظَرَتْ ... عَيْنَــايَ مِــنْ حُسْــنِ ذَاكَ الْمَنْظَــرِ الْبَهِــجِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٢٩] : [مِنَ البسيطِ]

وَهَــٰذِهِ سُنَّــةُ الْعُشَّــاقِ مَــا عَلِقُــوا ... بِشَــادِنٍ فَخَــلاَ عُضْــوٌ مِــنَ الأَلَــمِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٣٤ـ١٣٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَكِــنْ لَــدَيَّ الْمَــوْتُ فِيــهِ صَبَــابَــةً ... حَيَــاةٌ لِمَــنْ أَهْــوَىٰ عَلَــيَّ بِهَــا الْفَضْــلُ

فَــإِنْ شِئْــتَ أَنْ تَحْيَــا سَعِيــداً فَمُــتْ بِــهِ ... شَهِيــداً وَإِلاَّ فَــالْغَــرَامُ لَــهُ أَهْــلُ

---

(١) الرَّشأُ : ولدُ الغزالِ .

فَمَنْ لَمْ يَمُتْ فِي حُبِّهِ لَمْ يَعِشْ بِهِ ... وَدُونَ اجْتِنَاءِ النَّحْلِ مَا جَنَتِ النَّحْلُ[1]
وَقُلْ لِقَتِيلِ الْحُبِّ : وَفَّيْتَ حَقَّهُ ... وَلِلْمُدَّعِي هَيْهَاتَ مَا الْكَحَلُ الْكُحْلُ[2]
فَمَنْ لَمْ يَجُدْ فِي حُبِّ نُعْمٍ بِنَفْسِهِ ... وَلَوْ جَادَ بِالدُّنْيَا إِلَيْهِ انْتَهَى الْبُخْلُ[3]

وقالَ [في « ديوانه » ٥٠-٥١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا حَلَّ بِي مِنْ مِحْنَةٍ فَهْوَ مِنْحَةٌ ... وَقَدْ سَلِمَتْ مِنْ حَلِّ عَقْدِ عَزِيمَتِي
فَكُلُّ أَذىً فِي الْحُبِّ مِنْكِ إِذَا بَدَا ... جَعَلْتُ لَهُ شُكْرِي مَكَانَ شَكِيَّتِي
نَعَمْ وَتَبَارِيحُ الصَّبَابَةِ إِنْ عَدَتْ ... عَلَيَّ مِنَ النَّعْمَاءِ فِي الْحُبِّ عُدَّتِي[4]
وَمِنْكِ شَقَائِي بَلْ بَلاَئِيَ مِنَّةٌ ... وَفِيكِ لِبَاسُ الْبُؤْسِ أَسْبَغُ نِعْمَةِ
فَحَلَّيْتِ لِي الْبَلْوَىٰ وَخَلَّيْتِ بَيْنَهَا ... بَيْنِي فَكَانَتْ مِنْكِ أَجْمَلَ زِينَةِ

وقالَ [في « ديوانه » ٥٤-٥٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَقَالَتْ : هَوَىٰ غَيْرِي قَصَدْتَ وَدُونَهُ اقْـ ... ـتَصَدْتَ عَمِيّاً عَنْ سَوَاءِ مَحَجَّتِي
وَنَهْجُ سَبِيلِي وَاضِحٌ لِمَنِ اهْتَدَىٰ ... وَلَكِنَّهَا الأَهْوَاءُ عَمَّتْ فَأَعْمَتِ
حَلِيفُ غَرَامٍ أَنْتَ لَكِنْ بِنَفْسِهِ ... وَإِبْقَاكَ وَصْفاً مِنْكَ بَعْضُ أَدِلَّتِي
فَلَمْ تَهْوَنِي مَا لَمْ تَكُنْ فِيَّ فَانِياً ... وَلَمْ تَفْنَ مَا لَمْ تُجْتَلَىٰ فِيكَ صُورَتِي
فَدَعْ عَنْكَ دَعْوَى الْحُبِّ وَادْعُ لِغَيْرِهِ ... فُؤَادَكَ وَادْفَعْ عَنْكَ غَيَّكَ بِالَّتِي[5]
وَجَانِبْ جَنَابَ الْوَصْلِ هَيْهَاتَ لَمْ يَكُنْ ... وَهَا أَنْتَ حَيٌّ إِنْ تَكُنْ صَادِقاً مُتِ
فَقُلْتُ لَهَا : رُوحِي لَدَيْكِ وَقَبْضُهَا ... إِلَيْكِ وَمَنْ لِي أَنْ تَكُونَ بِقَبْضَتِي
وَمَا أَنَا بِالشَّانِي الْوَفَاةَ عَلَى الْهَوَىٰ ... وَشَأْنِي الْوَفَا تَأْبَىٰ سِوَاهُ سَجِيَّتِي[6]
وَمَاذَا عَسَىٰ عَنِّي يُقَالُ سِوَىٰ قَضَىٰ ... فُلاَنٌ هَوىً مَنْ لِي بِذَا وَهْوَ بُغْيَتِي
أَجَلْ أَجَلِي أَرْضَى انْقِضَاهُ صَبَابَةً ... وَلاَ وَصْلَ إِنْ صَحَّتْ لِحُبِّكِ نِسْبَتِي
وَإِنْ لَمْ أَفُزْ حَقّاً إِلَيْكِ بِنِسْبَةٍ ... لِعِزَّتِهَا حَسْبِي افْتِخَاراً بِتُهْمَتِي
وَدُونَ اتِّهَامِي إِنْ قَضَيْتُ أَسىً فَمَا ... أَسَأْتُ بِنَفْسٍ بِالشَّهَادَةِ قَرَّتِ
وَلِي مِنْكِ كَافٍ إِنْ هَدَرْتِ دَمِي ، وَلَمْ ... أُعَدَّ شَهِيداً ، عِلْمُ دَاعِي مَنِيَّتِي
وَلَمْ تَسْوَ رُوحِي فِي وِصَالِكِ بَذْلَهَا ... لَدَيَّ لِبَوْنٍ بَيْنَ صَوْنٍ وَبِذْلَةِ[7]

---

(١) ما جنَت : أي ما ارتكبت من جنايةٍ ، وهي لَسعُها لمن يجني عسلَها .
(٢) الكَحَلُ : سواد طرف أجفان العين خلقةً .
(٣) نُعمٌ : اسمُ المحبوبةِ .
(٤) التباريحُ : الشدةُ .
(٥) في الكلام اكتفاء ؛ إذ المقصود ظاهرٌ ؛ أي : بالتي هي أحسن .
(٦) الشاني : المبغض . شأني : عادتي .
(٧) تسوَ : من قولنا : هـٰذا المتاعُ يسوىٰ ديناراً مثلاً . البَونُ : البعدُ . البِذلَةُ : مِن الابتذالِ والامتهانِ .

فَـإِنْ صَـحَّ هَـٰـذَا الْفَـأْلُ مِنْـكِ رَفَعْتِنِـي وَأَعْلَيْـتِ مِقْـدَارِي وَأَغْلَيْـتِ قِيمَتِـي
فَهَـا أَنَـا مُسْتَـدْعٍ قَضَـاكِ وَمَـا بِـهِ رِضَـاكِ وَلاَ أَخْتَـارُ تَـأْخِيـرَ مُـدَّتِـي

[ذم وهجاء من يبطىء في إجابة الصوت]

وفي عكسِ ما سبقَ مِنْ إجابةِ الصَّوتِ يقولُ قُرَيطٌ [في «شرحِ الحماسةِ» ١/١٥٧ـ١٥٩] : [مِنَ البسيطِ]

لَـوْ كُنْـتُ مِـنْ مَـازِنٍ لَـمْ تَسْتَبِـحْ إِبِلِـي بَنُـو اللَّقِيطَـةِ مِـنْ ذُهْـلِ بْـنِ شَيْبَـانَـا[1]
لَكِـنَّ قَـوْمِـي وَإِنْ كَـانُـوا ذَوِي عَـدَدٍ لَيْسُـوا مِـنَ الشَّـرِّ فِـي شَـيْءٍ وَإِنْ هَـانَـا

وقالَ أبو عمرِو بنُ العلاءِ : [مِنَ الطَّويلِ]

دَعَـا قَـوْمَـهُ حَـوْلِـي فَجَـاؤُوا لِنَصْـرِهِ وَنَـادَيْـتُ قَـوْمِـي بِـالْمُسَنَّـاةِ غُيَّبَـا[2]
وَرُبَّ بَقِيـعٍ لَـوْ هَتَفْـتُ بِخَـوِّهِ أَتَـانِـي كَـرِيـمٌ يَنْفُضُ الـرَّأْسَ مُغْضَبَـا[3]

وقالَ أبو عليٍّ الضَّريرُ : [مِنَ البسيطِ]

كَـأَنَّنِـي يَـوْمَ أَدْعُـوهَـا لِنَـائِبَـةٍ أَدْعُـو لَهَـا مِـنْ بُطُـونِ الأَرْضِ أَمْـوَاتَـا

وقد سبقَ أوّلَ المجلسِ الرَّابعِ قولُ الحماسيِّ [في «شرحِ الحماسةِ» ٢/١٠٥٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكَـاثِـرْ بِسَعْـدٍ إِنَّ سَعْـداً كَثِيـرَةٌ وَلاَ تَـرْجُ مِـنْ سَعْـدٍ وَفَـاءً وَلاَ نَصْـرَا[4]

معَ جملةٍ مِن أمثالِهِ .

ولمّا سُئِلَ خالدُ بنُ صفوانَ عن حالِ ابنيهِ . . أنشدَ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَبُـو مَـالِـكٍ جَـارٌ لَهُـمْ وَابْـنُ مَـرْثَـدٍ فَيَـا لَـكَ جَـارَيْ ذِلَّـةٍ وَصَغَـارِ

وقالَ إبراهيمُ بنُ العبَّاسِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنِّـي إِذَا أَدْعُـوكَ عِنْـدَ مُلِمَّـةٍ كَـدَاعِيَـةٍ بَيْـنَ الْقُبُـورِ نَصِيـرُهَـا

وقالَ ريقانُ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَـا دَارُ عَمِّـي لِـي بِـدَارِ خَفَـارَةٍ وَلاَ عَهْـدُ عَمِّـي لِـي بِعَهْـدِ جِـوَارِ

وقالَ الحُطيئَةُ : [مِنَ البسيطِ]

لَمَّـا بَـدَا لِـيَ مِنْكُـمْ ذَاتُ أَنْفُسِكُـمْ وَلَـمْ يَكُـنْ لِجِـرَاحِـي فِيكُـمْ آسِـي[5]

---

(١) بنو مازن : حيٌّ من تميم ، وهو مازنُ بنُ مالكِ بنِ عمرِو بنِ تميم ، وهم أشرافُ ولدِ عمرِو بنِ تميم ، فلذلك تمنَّى الشاعرُ أن يكون منهم . وذُهلُ بنُ شيبانَ : حيٌّ من بكرِ بن وائلٍ ، وكانتِ الحربُ بين تميمٍ وبكرٍ . واللقيطةُ : المنبوذةُ الملقوطةُ ، وجعلَها كذلكَ مبالغةً في الهجوِ .

(٢) المُسَنَّاةُ : بلدةٌ .

(٣) بخوِّه : بفضائه .

(٤) المكاثرةُ : المباهاةُ بالكثرةِ ، أي : عددُهم كثيرٌ ، وغِناهُم قليلٌ ، وهم : سعدُ بنُ زيدِ مناةَ بنِ تميمٍ ، وهم أكثرُ تميمٍ وأعزُّها .

(٥) الآسي : هوَ المداوي والمعالجُ . قال المتنبي يصف الأسد :

أَزْمَعْتُ يَـأْسـاً مُبِيناً عَـنْ جِـوَارِكُـمُ ... وَلَـنْ تَـرَىٰ طَـارِداً لِلْحُـرِّ كَـالْيَـاسِ

وقالَ النَّاظمُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/٢٣٦] : [مِنَ البسيطِ]

رَأَيْتُكُـمْ لاَ يَصُـونُ الْعِـرْضَ جَارُكُـمُ ... وَلاَ يَـدِرُّ عَلَـىٰ مَـرْعَـاكُـمُ اللَّبَـنُ

جَـزَاءُ كُـلِّ قَـرِيـبٍ مِنْكُـمُ مَلَـلٌ ... وَحَـظُّ كُـلِّ مُحِـبٍّ مِنكُـمُ ضَغَـنُ(١)

[السبب في حرب البسوس]

ولمَّا طَعنَ كليبُ وائلٍ ناقةَ الجرميِّ الَّذي كانَ في جوارِ البسوسِ خالةِ جسَّاسٍ . . قالَتْ : [مِنَ الطَّويلِ]

لَعَمْـرِيَ لَـوْ أَصْبَحْـتُ فِـي دَارِ مُنْقِـذٍ ... لَمَـا ضِيـمَ سَعْـدٌ وَهُـوَ جَـارٌ لأَبْيَـاتِـي

وَلَـٰكِنَّنِـي أَصْبَحْـتُ فِـي دَارِ غُـرْبَـةٍ ... مَتَىٰ يَعْدُ فِيهَا الذِّيبُ يَعْدُ عَلَىٰ شَاتِي

فَيَـا سَعْـدُ لاَ تُغْـرَرْ بِنَفْسِـكَ وَارْتَحِـلْ ... فَـإِنَّـكَ فِـي قَـوْمٍ عَـنِ الْجَارِ أَمْـوَاتِ

[ذم القرآن الكريم للمنافقين]

فحميَ عندَ ذلكَ أنفُ جسَّاسٍ ، ولَمْ يَزلْ يترصَّدُ غُرَّةَ كُليبٍ . . حتَّىٰ قتلَهُ ، ودامتِ الحربُ أربعينَ سنةً ، وكانَ ذلكَ قبلَ مبعثِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بستِّينَ سنةً ، واللهُ جلَّ شأنهُ يقولُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [الحشر : ١١-١٢] .

[أصعب السهام التي تأتيك من أخيك وأشد الآلام النزيف الداخلي]

وفي لونٍ آخرَ مِن هـٰذا البزِّ(٢) يقولُ ابنُ الرُّوميِّ [في « ديوانه » ٥/١٩١١] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَخِـذْتُكُـمُ دِرْعـاً حَصِينـاً لِتَـدْفَعُـوا ... نِبَـالَ الْعِـدَا عَنِّـي فَكُنْتُـمْ نِصَـالَهَـا

وَقَـدْ كُنْـتُ أَرْجُـو مِنْكُـمُ خَيْـرَ نَـاصِـرٍ ... عَلَـىٰ حِيـنِ خِـذْلاَنِ الْيَمِيـنِ شِمَـالَهَـا

فَـإِنْ كُنْتُـمُ لاَ تَحْفَظُـونَ مَـوَدَّتِـي ... ذِمَـامـاً فَكُـونُـواْ لاَ عَلَيْهَـا وَلاَ لَهَـا(٣)

قِفُـوا وِقْفَـةَ الْمَعْـذُورِ عَنِّـي بِمَعْـزِلٍ ... وَخَلُّـوا نِبَـالِـي لِلْعِـدَا وَنِبَـالَهَـا

وقالَ آخرُ : [مِنَ الكاملِ]

أَعْـدَدْتُكُـمْ لِـدِفَـاعِ كُـلِّ مُلِمَّـةٍ ... عَـوْنـاً فَكُنْتُـمْ عَـوْنَ كُـلِّ مُلِمَّـةِ

وَتَخِـذْتُكُـمْ لِـي جُنَّـةً فَكَـأَنَّمَـا ... نَظَـرَ الْعَـدُوُّ مَقَـاتِلِـي مِـنْ جُنَّتِـي(٤)

فَـلأَنْفُضَـنَّ يَـدَيَّ يَـأْسـاً مِنْكُـمُ ... نَفْـضَ الأَنَـامِـلِ مِـنْ تُـرَابِ الْمَيِّـتِ

= يطـأُ الثـرىٰ متـرفقـاً مـن تيهـهِ ... فكـأنـه آسٍ يجـسُّ عليـلاً

(١) الضِّغْنُ : الحقدُ .

(٢) البَزُّ : السَّلبُ .

(٣) الذِّمامُ : كلُّ حرمةٍ تلزمكَ إذا ضيَّعتها المذمَّةُ .

(٤) جُنَّةً : أي ساتراً .



وقالَ ابنُ الرُّوميِّ أَيضاً : [مِنَ الخفيفِ]

خِلْتُكُـمْ عُـدَّةً لِصَـرْفِ زَمَـانِـي ... فَـإِذَا أَنْتُـمْ صُـرُوفُ زَمَـانِـي[1]

وقالَ آخرُ : [مِنَ الرَّمَلِ]

رُبَّ مَـنْ تَـرْجُـو بِـهِ دَفْـعَ الأَذَىٰ ... سَـوْفَ يَـأْتِيـكَ الأَذَىٰ مِـنْ قِبَلِـهْ

وقالَ غيرُهُ : [مِنَ الخفيفِ]

كُنْـتُ مِـنْ كُـرْبَتِـي أَفِـرُّ إِلَيْهِـمْ ... فَهُـمُ كُـرْبَتِـي فَـأَيْـنَ الْفِـرَارُ

[الجدار القصير تقفز عليه الكلاب]

وقدمَتْ (مكَّةَ) امرأَةٌ وضيئَةٌ ، فاستهامَ بها ابنُ أَبي ربيعةَ ، وأَخذَ يتعرَّضُ لها ، ويؤْذيها في المطافِ ، فقالَتْ لبعضِ رجالِها : طُفْ معي ، فلمَّا رآهُ معها . . انزجرَ . فقالَتْ : [مِنَ البسيطِ]

تَعْدُو الـذِّئَابُ عَلَىٰ مَنْ لاَ كِلاَبَ لَـهُ ... وَتَتَّقِـي صَـوْلَـةَ الْمُسْتَـأْسِدِ الْحَـامِـي

[وا حسرتا علىٰ من ليس له أحد]

وللهِ درُّ القائِلِ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا الْمَرْءُ لَـمْ يَغْضَـبْ لَـهُ حِيـنَ يَغْضَـبُ ... فَوَارِسُ إِنْ قِيلَ : ارْكَبُوا الْمَوْتَ يَرْكَبُوا
وَلَـمْ يَحْبُـهُ بِـالنَّصْـرِ قَـوْمٌ أَعِـزَّةٌ ... مَقَـاحِيـمُ فِـي الأَمْـرِ الَّـذِي يُتَهَيَّـبُ
تَهَضَّمَـهُ أَدْنَـى الْعَـدُوِّ وَلَـمْ يَـزَلْ ... وَإِنْ كَـانَ عَضْبـاً بِـالظَّـلاَمَـةِ يُضْـرَبُ[2]

[ثاني اثنين في التنور]

وقيلَ للجاحظِ : لِمَ خذلْتَ ابنَ الزيّاتِ ، وهربْتَ منهُ لمّا أَصابتْهُ المِحنةُ ؟ فقالَ : خشيتُ أَن يُقالَ : ثانيَ اثنينِ إِذْ هما في التَّنُّورِ ، وكانَتْ عقوبةُ ابنِ الزيّاتِ أَن عُذِّبَ في التَّنُّورِ الذي كانَ يُعذِّبُ بهِ مَنْ شاءَ أَنْ يَنْتَقِمَ منهُ ، ولحديثِ امرئِ القيسِ معَ جارهِ السَّابقِ في غيرِ هٰذا المجلسِ اتصالٌ بالموضوعِ .

واللهُ أعلمُ

* * *

---

(1) صَرْفُ الزمانِ : نوائبُهُ . وقال أحدهم نحوه :

وإخـوانٍ حسبتهـم دروعـاً ... فكـانـوهـا ولكـن لـلأعـادي
وخلتهـم سهـامـاً صـائبـات ... فكـانـوهـا ولكـن فـي فـؤادي
وقـالـوا قـد صفـت منـا قلـوب ... فقلـت نعـم ولكـن مـن ودادي

(2) الأعضَبُ من الرجالِ : الذي لا ناصرَ لهُ ، والعضْبُ : السيفُ القاطعُ .

المجلس السابع

[قال أبو الطيِّب المتنبي في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٢] : [مِنَ البسيطِ]

أَحْيَـا! وَأَيْسَـرُ مَـا قَـاسَيْـتُ مَـا قَتَـلاَ ... وَالْبَيْـنُ جَـارَ عَلَـىٰ ضَعْفِـي وَمَـا عَـدَلاَ

[العجب من الحياة مع قسوة وعسر معاناة أسبابها]

يتعجَّبُ مِن نفسهِ ؛ إذ بقيَ علىٰ قيدِ الحياةِ ، وأيسرُ ما يلاقيهِ قاتلٌ ، وإذا كانَ أيسرهُ قاتلاً . . فما بالُكَ بأعسرِهِ ، ثُمَّ ذكَرَ أنَّ البينَ جارَ علىٰ ضعفهِ وما عَدَلَ .

ومِنَ المعلومِ أنَّ مَنْ جارَ . . لَمْ يَعدِلْ ، غيرَ أنَّهُ يريدُ التَّأْكيدَ ، ويدَّعي أنَّهُ جارَ عليهِ في سائرِ أحوالهِ ، ولَمْ يُنصِفْهُ وقتاً ما ، فيمكِنُ أنْ يَدخُلَ إذاً تحتَ قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ [النحل : ٢١] ؛ إذْ مِنَ البَدَهيِّ أنَّ الميْتَ غيرُ حيٍّ ، ولكنَّ المعنىٰ : أمواتٌ لا حياةَ لَهُم أبداً .

وإسنادُ الجَورِ إلى البَينِ يحتمِلُ أنْ يكونَ حقيقةً ، ويحتمِلُ أنْ يكونَ مجازاً عقليّاً باعتبارِ جانيهِ .

[الفراق مر المذاق]

وكيفما كانَ الأمرُ . . فالفِراقُ مُرُّ المَذاقِ .

وللهِ درُّ القائِلِ : [من الكامل]

يَـوْمُ الْفِـرَاقِ مِـنَ الْقِيَـامَـةِ أَطْـوَلُ ... وَالْمَـوْتُ مِـنْ أَلَـمِ التَّفَـرُّقِ أَجْمَـلُ

قَالُوا الرَّحِيلُ ، فَقُلْتُ : لَسْتُ بِرَاحِلٍ ... لَكِـنَّ مُهْجَتِـيَ الَّتِـي تَتَـرَحَّـلُ

[الشاب العاشق]

وقد سبقَ في المجلسِ الأوَّلِ عَنْ أبي عُثمانَ الجاحظِ حديثُ الشَّابِّ الَّذي اقترحَ علىٰ يزيدَ بنِ عبدِ المَلِكِ أنْ يسمَعَ غناءَ جاريتهِ نُعمىٰ . ومِنْ تتمَّتِهِ : أنَّ ذلكَ الشَّابَّ كانَ مِنْ أوفرِ النَّاسِ حظّاً في المالِ والجَمالِ ، وأنَّهُ اشترىٰ تلكَ الجاريةَ مِنْ (بغدادَ) بمئةِ ألفٍ ، وأنَّ الحجَّاجَ اغتصبها منهُ ؛ لِيَختصَّ بها ، ولمَّا استجهرَهُ[1] جمالُها . . استيقنَ أنْ سيرتفعُ أمرُها للخليفةِ ، فوجَّهَ بها إليهِ مِنْ ليلتِهِ ، فتولَّهَ الشَّابُّ ، وانكفأَ إلى (الشَّامِ) ، وبقيَ بها مُنكَّدَ العيشِ ، مُفرَّقَ البالِ ، مَذهوبَ العقلِ ، يمشي بينَ النَّاسِ في الأسواقِ مُتمثِّلاً بقولِ عبدِ اللهِ بنِ عجلانَ ـ الآتي ذِكْرُهُ ـ وهوَ في « الأغاني » ٢٢/ ٢٣٧ : [مِنَ الطَّويلِ]

غَـداً يَكْثُـرُ الْبَـاكُـونَ مِنَّـا وَمِنْكُـمُ ... وَتَـزْدَادُ دَارِي عَـنْ دِيَـارِكُـمُ بُعْـدَا

إلىٰ أنْ سَوَّلَتْ لَهُ نفسُهُ ما سبقَ اقتصاصُهُ .

---

(١) استجهرَهُ : كشفَهُ وفضحَهُ .

[العشق عذاب]

وكَمْ نَفْسٍ مِنْ حَرِّهِ مذابةٌ ؟ ومُهَجاتٍ حرَّىٰ[١] تُقاسي عذابَهُ ؟

[قصيدة للمؤلف في الموضوع]

وما أَحسنَ ما قُلتُ مِنْ مرثيَةٍ لبعضِ الهَلْكىٰ في تلكَ السَّبيلِ[٢] [في « ديوانِ المؤلِّفِ » ٥٣٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

ضَعِيــفٌ تَــوَلاَّهُ الْغَــرَامُ بِمِثْلِــهِ ... فَأَشْوَاهُ مِنْ فَرْطِ الْجَفَا بِالضَّنَا الْحُبُّ[٣]

وَمَــاتَ ذَلِيــلاً فِــي الطَّــرِيـقِ وَهَكَـذَا ... يَمُوتُ الشَّجِيُّ الْقَلْبِ وَالْوَالِهُ الصَّبُّ

وَكَــمْ مِــنْ قَتِيــلٍ نَحْــوَهُ فِــي سَبِيلِـهِ ... ذَوَىٰ تَحْتَ تَأْثِيرِ النَّوَىٰ غُصْنُهُ الرَّطْبُ[٤]

مَسَــاكِيــنُ أَهْـلُ الْعِشْـقِ مَـاذَا تَجَـرَّعُـوا ... مِنَ الْعِشْقِ ؟ لَكِنْ مُرُّهُ عِنْدَهُمْ عَذْبُ

[جميل وبثينة]

ولقد سأَلَ عبدُ المَلِكِ بنُ مروانَ يوماً كُثيِّراً عَنْ حالِ جميلٍ وبثينةَ ، فقالَ : يا أَميرَ المؤمنينَ . . سايرتُهُ يوماً إِليها حتَّىٰ قرُبنا منهُم ، فأَقبلَتْ معَ نسوةٍ ، فلمَّا رأَينَهُ . . وَلَّيْنَ ، ووقفا يتحادَثانِ مِنْ أَوَّلِ اللَّيلِ حتَّىٰ طَلَعَ الفجرُ ، ولمَّا أَزمعَ الرَّحيلَ . . استَدْنتْهُ ، وسارَّتْهُ ، فخرَّ مغشيّاً عليهِ ، ولمَّا أفاقَ . . أَنشدَ [في « ديوانه » ١٥٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَــا مَــاءُ مُــزْنٍ فِــي جِبَــالٍ مُنِيفَــةٍ ... وَلاَ مَــا أَكَنَّــتْ فِــي مَعَــادِنِهَــا النَّحْــلُ

بِـأَشْهَـىٰ مِنَ الْقَـوْلِ الَّـذِي قُلْـتِ بَعْـدَمَـا ... تَمَكَّــنَ مِــنْ حَيْـزُومِ نَــاقَتِـيَ الــرَّحْــلُ[٥]

[مصعب بن الزبير يقلد جميلاً]

ودخلَ مُصعبُ بنُ الزُّبيرِ يوماً علىٰ عائِشةَ بنتِ طلحةَ وهيَ تمتشطُ وتتمثَّلُ بقولِ جميلٍ [في « ديوانه » ٧٠] : [مِنَ البسيطِ]

مَا أَنْسَ ، لاَ أَنْسَ مِنْهَا نَظْرَةً عَرَضَتْ ... بِــالْحِجْــرِ يَــوْمَ جَلَتْهَــا أُمُّ مَنْظُــورِ

وكانتَ أُمُّ منظورٍ هـٰذهِ موجودةً في سلطانهِ ، فاستحضرَها ، واستخبرَها عَنْ شأْنِ البيتِ ، فقالَتْ :

كنتُ ماشطةَ بُثينةَ ، فزيَّنْتُها يوماً ، وجميلٌ مُقبلٌ علىٰ بعيرٍ لَهُ ، موّارٍ عليهِ[٦] ، فرآها بمؤَخَّرِ عينهِ ، فأَنشدَ البيتَ ، فأَمرَها مُصعبٌ أَنْ تصنعَ بعائشةَ ما فعلتْهُ ببُثينةَ ، وصنعَ هوَ مثلَ ما صنعَ جميلٌ .

[جميل يبكي من حب قاتلته]

وفي وجهِهِ ذلكَ يقولُ جميلٌ [في « ديوانه » ١٧٥ـ١٧٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَقَـدْ فَـرِحَ الْـوَاشُـونَ أَنْ صَـرَمَـتْ حَبْلِي ... بُثَيْنَـةُ ، أَوْ أَبْـدَتْ لَنَـا جَـانِـبَ الْبُخْـلِ[٧]

---

(١) حرَّىٰ : عطشىٰ .

(٢) الأبيات قالها علىٰ سبيل المداعبة عندما رأىٰ كلباً ميتاً علىٰ قارعة الطريق .

(٣) أشواهُ : أَحرقَهُ وأَهلكَهُ .

(٤) ذوىٰ : ذَبُلَ .

(٥) الحيزومُ : الصَّدرُ . الرَّحْلُ : مركبٌ للبعيرِ والنَّاقةِ ، والمُرادُ بقولِهِ : (تمكَّنَ مِنْ حَيْزُومِ نَاقَتِيَ الرَّحْلُ) . . وقتُ السَّفرِ .

(٦) موّار : يقال : بعير موّار وناقة موّارة ؛ إذا كانت سهلة سريعة السير .

(٧) صَرَمَتْ : قطعَتْ .



يَقُولُونَ : مَهْلاً يَا جَمِيلُ وَإِنَّنِي ... لأُقْسِمُ مَا لِي عَنْ بُثَيْنَةَ مِنْ مَهْلِ
إِذَا مَا تَنَاشَدْنَا الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا ... جَرَى الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْ بُثَيْنَةَ بِالْكُحْلِ
كِلاَنَا بَكَىٰ ، أَوْ كَادَ يَبْكِي صَبَابَةً ... إِلَىٰ إِلْفِهِ فَاسْتَعْجَلَتْ عَبْرَةً قَبْلِي
فَيَا وَيْحَ نَفْسِي حَسْبُ نَفْسِي الَّذِي بِهَا ... وَيَا وَيْحَ أَهْلِي مَا أُصِيبَ بِهِ أَهْلِي
أَبِيتُ مَعَ الْهُلاَّكِ ضَيْفاً لأَهْلِهَا ... وَأَهْلِي قَرِيبٌ مُوسِعُونَ أُولُو فَضْلِ[1]
خَلِيلَيَّ فِيمَا عِشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا ... قَتِيلاً بَكَىٰ مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي[2]

[عفَّةُ جميل وقصة موته وموت بثينة]

وعنِ العبَّاسِ بنِ سهلٍ السَّاعديِّ [كما في « مصارعِ العشَّاقِ » ١/ ٣١١] قالَ : قالَ لي رجلٌ : هل لكَ في عيادةِ جميلٍ ؛ فإنَّهُ مريضٌ ؟ فدخَلْنا عليهِ ، فإذا هوَ يجودُ بنفسهِ ، فنظرَ إليَّ ، وقالَ : ما تقولُ في رجلٍ لَمْ يَزْنِ ، ولَمْ يشرَبْ خمراً ، ولَمْ يسفِكْ دماً ، يشهدُ أَنْ لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ ، وأَنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ ، منذُ خمسينَ سنةً ؟ فقلْتُ : مَن هـٰذا ؟ فإنِّي لا أَراهُ إلاَّ ناجياً . قالَ : أَنا ، قلْتُ : وكيفَ! وأَنتَ تُشبِّبُ[3] ببُثَينةَ طيلةَ هـٰذهِ المدَّةِ ؟! قالَ : أَنا في آخرِ يومٍ مِنَ الدُّنيا ، لا نالتني شفاعةُ محمَّدٍ . . إنْ كنتُ وضعتُ يدي عليها لريبةٍ ، وأَكثرُ ما يكونُ منِّي أَنْ أُسنِدَ يدَها إلىٰ قلبي ، أَستريحُ بها ساعةً ، ثُمَّ أُغميَ عليهِ ، ثُمَّ قالَ : مَنْ ينعاني إلىٰ بثينةَ ، ولهُ هـٰذهِ الحُلَّةُ ؟ فراحَ رجلٌ حتَّىٰ جاءَ الحيَّ ، فأَنشدَ ما أَمرَهُ جميلٌ ، وهوَ [في « ديوانهِ » ١١٩] : [مِنَ الكاملِ]

بَكَرَ النَّعِيُّ وَمَا كَنَىٰ بِجَمِيلِ ... وَثَوَىٰ بِمِصْرَ ثَوَاءَ غَيْرِ قُفُولِ[4]
قُومِي بُثَيْنَةُ فَانْدُبِي وَتَهَتَّكِي ... وَابْكِي خَلِيلَكِ دُونَ كُلِّ خَلِيلِ

فما كانَ بأَسرعَ مِنْ خروجِ بُثينةَ مكشوفةً ، تقولُ [في « مَصارعِ العشَّاقِ » ٢/ ٥٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنَّ سُلُوِّي عَنْ جَمِيلٍ لَسَاعَةٌ ... مِنَ الدَّهْرِ لاَ حَانَتْ وَلاَ حَانَ حِينُهَا
سَوَاءٌ عَلَيْنَا يَا جَمِيلُ بْنَ مَعْمَرٍ ... إِذَا مِتَّ بَأْسَاءُ الْحَيَاةِ وَلِينُهَا

ثُمَّ قالَتْ للنَّاعي : يا هـٰذا ، إنْ كنتَ صادقاً . . فقد قتلتَني ، وإنْ كنتَ كاذباً . . فقد فضحتَني ، فقالَ لها : واللهِ إنِّي لَصادقٌ ، وأَطلَعَها على الحُلَّةِ ، وكانتْ رأَتْها معَ جميلٍ ، فصرخَتْ ، وصكَّتْ وجهَها ، وأَقبلَ معها النِّساءُ يبكينَ ، حتَّىٰ خرَّتْ مغشيّاً عليها ، وما زالَتْ تردِّدُ قولَها : (وَإِنَّ سُلُوِّي . . .) البيتينِ ، حتَّىٰ ماتَتْ . لَمْ يُسمَعْ منها سواهُما .

[الخلاف في اسم المجنون]

وأَمَّا المجنونُ : فقد اختُلِفَ في اسمهِ ونسبهِ .

---

(١) **الهُلاَّكُ** : الفقراءُ والصَّعاليكُ الَّذينَ ينزلونَ بالنَّاسِ طلباً لمعروفِهِم مِنْ سوءِ الحالِ .
(٢) القصَّةُ في « الأَغاني » (٨/ ١١٩) .
(٣) **شَبَّبَ بالمرأةِ** : تغزَّلَ بها ووصفَ حُسْنَها .
(٤) **ما كَنَىٰ** : ما ستَرَ ولا تكلمَ بصورةِ الكنايةِ . **غير قفول** : غير رجوع .

[قصة حبه لليلىٰ]

والصحيحُ : أَنَّهُ عامرُ بنُ مُلَوِّحِ بنِ مُزاحمٍ ، أَحدُ بني عامرٍ .

وكانَ إِلىٰ أَبيهِ أَحبَّ بنيهِ ، ولَمْ يزلْ في نعمةٍ وثروةٍ ، ونشأَ معَ ليلىٰ ، فتداخلَتْ بينَهُما المحبَّةُ مِنَ الحَدَاثةِ ، كما قالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

تَعَلَّقْتُ لَيْلَىٰ وَهِيَ غِرٌّ صَغِيرَةٌ ... وَلَمْ يَبْدُ لِلأَتْرَابِ مِنْ ثَدْيِهَا حَجْمُ

صَغِيرَيْنِ نَرْعَى الْبَهْمَ يَا لَيْتَ أَنَّنَا ... إِلَى الآنَ لَمْ نَكْبَرْ وَلَمْ تَكْبَرِ الْبَهْمُ

[سبب جنونه]

ولَمْ يزلْ يحادِثُها . . حتَّى اشتهرَ بحبِّها ، فحجبُوها عنهُ ، ومنعوهُ منها ، فخطبَها ، ودفعَ لهُ أَبوهُ خمسينَ بعيراً وراعيها في مهرِها ، فأَبىٰ أَبوها ؛ لأَنفَةِ العربِ مِن تزويجِ مَنِ اشتَهرَ الخاطبُ بهواها ؛ لئلاَّ يصدقَ الظنُّ ، ويقولَ الناسُ : إِنَّما أَرادَ سترَ مَا أَخذَ مِن عُذْرَتِها . ولمّا يئِسَ منها . . قلقَ قلقاً ذهبَ بعقلِهِ ، فهامَ علىٰ وجهِهِ ، وجزعَتْ هي لذلكَ جَزعاً أَدَّىٰ إِلىٰ سُقمِها ، فحجَّ بِها أَهلُها ، وزوَّجوها من ثقفيٍّ خطبَها هناكَ ، بعدَ أَنْ تكاثرَ عليها الخُطَّابُ ، وردُّوهم . ولمّا اتصلَ بهِ الخبرُ . . قالَ [في « ديوانه » ٢٢٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ إِنَّ لَيْلَى الْعَامِرِيَّةَ أَصْبَحَتْ ... تَقَطَّعُ إِلاَّ مِنْ ثَقِيفٍ حِبَالُهَا

هُمُ حَبَسُوهَا مَحْبَسَ الْبُدْنِ وَابْتَغَىٰ ... بِهَا الْمَالَ أَقْوَامٌ أَلاَ قَلَّ مَالُهَا

خَلِيلَيَّ هَلْ مِنْ حِيلَةٍ تَعْلَمَانِهَا ... فَيُدْنِي بِهَا تَكْلِيمَ لَيْلَى احْتِيَالُهَا

فَإِنْ أَنْتُمَا لَمْ تَعْلَمَاهَا فَلَمْ أَكُنْ ... بِأَوَّلِ بَاغٍ حَاجَةً لاَ يَنَالُهَا

كَأَنَّ مَعَ الرَّكْبِ الَّذِينَ اغْتَدَوْا بِهَا ... غَمَامَةَ صَيْفٍ زَعْزَعَتْهَا شَمَالُهَا

إِذَا الْتَفَتَتْ مِنْ خَلْفِهَا وَهِيَ تَعْتَلِي ... عَلَى الْعِيسِ جَلَّىٰ عَبْرَةَ الْعَيْنِ حَالُهَا(١)

[لحوقه بالوحوش]

ولمَّا اشتدَ هَيمانُهُ بها . . أَشارَ قومُهُ علىٰ أَبيهِ أَنْ يذهبَ بهِ (مكَّةَ) ؛ علَّ اللهَ يخِّففُ عنهُ بعضَ ما بهِ ، فذهبوا بهِ ، وجرَتْ لَهُ في حجِّهِ غرائبُ ، ثُمَّ انفلَتَ عليهم ، والتحقَ بالوحوشِ ، وأَنِسَتْ بهِ لـمَّا طالَتْ شعورُهُ وأَظافرُهُ ، فكانَ يردُ معها الماءَ ، ويأَكلُ الشجرَ ، ويكثرُ مِنْ ذكرِ جبلٍ ، كانَ يرعىٰ بهِ الغنمَ هو وليلىٰ ، يقالُ لهُ : (التوبادُ) ، فتارةً يشرفُ على (الشامِ) ، ويرىٰ ناساً لا يعرفُهُم ، فيقولُ لهم : أَينَ (التوبادُ) ؟ فيقولونَ لهُ : وأَينكَ منهُ ؟ ويدلُّونهُ عليهِ بالنجومِ ، فيشرفُ على (اليمنِ) ، ويقعُ لهُ معَ أَهلهِ مثلُ ما وقعَ لهُ بـ(الشامِ) ، إِلىٰ أَنْ لاحَ لهُ (التوبادُ) ، فعرفَهُ ، فقالَ [في « ديوانه » ٢٧٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَجْهَشْتُ لِلتُّوبَادِ حِينَ رَأَيْتُهُ ... وَكَبَّرَ لِلرَّحْمَٰنِ حِينَ رَآنِي

وَأَذْرَيْتُ دَمْعَ الْعَيْنِ لَمَّا عَرَفْتُهُ ... وَنَادَىٰ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ فَدَعَانِي

---

(١) القصة في « الأغاني » (٢/ ٤٤) .



فَقُلْتُ لَـهُ قَـدْ كَـانَ حَـوْلَـكَ جِيـرَةٌ وَعَهْـدِي بِـذَاكَ الصَّـرْمِ مُنْـذُ زَمَـانِ

وَقُلْـتُ لَـهُ أَيْـنَ الَّـذِيـنَ عَهِـدْتُهُـمْ بِقُـرْبِـكَ فِـي خَفْـضٍ وَطِيـبِ أَمَـانِ ؟!

فَقَـالَ : مَضَـوْا وَاسْتَـوْدَعُـونِي دِيَـارَهُـمْ وَمَـنْ ذَا الَّـذِي يَبْقَـىٰ عَلَـى الْحَـدَثَـانِ[1]

وَإِنِّـي لأَبْكِـي الْيَـوْمَ مِـنْ حَـذَرِي غَـداً فِـرَاقَـكَ وَالْحَيَّـانِ مُـؤْتَلِفَـانِ[2]

[استئناس المجنون بواحد يروي أشعاره]

ولمْ يزلْ كذلِكَ حالُ عامرٍ معَ الوحشِ ، لا يأْلفُ أحداً مِنَ النَّاسِ ، كما قالَ ابنُ الفارضِ [في « ديوانه » ٤٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَبْعَـدَنِـي عَـنْ أَرْبُعِـي بُعْـدُ أَرْبَـعٍ شَبَـابِـي وَعَقْلِـي وَارْتِيَـاحِـي وَصِحَّتِـي[3]

فَلِـي بَعْـدَ أَوْطَـانِـي سُكُـونٌ إِلَـى الْفَـلاَ وَبِالْوَحْشِ أُنْسِي إِذْ مِنَ الإِنْسِ وَحْشَتِي

إلاَّ واحداً ، تألَّفهُ [أي : المجنون] لنقلِ أَخبارِهِ وأَشعارِهِ ، فيُروىٰ : أنَّهُ قالَ لهُ يوماً : يرحمُ اللهُ قيساً [ابن ذريح] في قولِهِ [في « ديوانه » ١٠٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَبِيـتُ وَتُضْحِـي كُـلَّ يَـوْمٍ وَلَيْلَـةٍ عَلَـىٰ مَنْهَـجٍ تَبْكِـي عَلَيْـهِ الْقَبَـائِـلُ

قَتِيـلٌ لِلُبْنَـىٰ صَـدَّعَ الْحُـبُّ قَلْبَـهُ وَفِـي الْحُـبِّ شُغْـلٌ لِلْمُحِبِّيـنَ شَـاغِـلُ

فقالَ أَنا أَشعرُ منهُ في قولي : [مِنَ الطَّويلِ]

سَلَبْـتِ عِظَـامِـي لَحْمَهَـا فَتَـرَكْتِهَـا مُعَـرَّقَـةً تَضْحَـىٰ إِلَيْـهِ وَتَصْحَـرُ[4]

وَأَخْلَيْتِهَـا مِـنْ مُخِّهَـا فَكَـأَنَّهَـا قَـوَارِيرُ فِـي أَجْـوَافِهَـا الرِّيـحُ تَصْفِـرُ

إِذَا سَمِعَـتْ ذِكْـرَ الْفِـرَاقِ تَقَطَّعَـتْ عَـلاَئِقُهَـا مِمَّـا تَخَـافُ وَتَحْـذَرُ

خُـذِي بِيَـدِي ثُـمَّ انْهَضِـي بِـي تَبَيَّنِـي بِـيَ الضُّـرَّ إِلاَّ أَنَّنِـي أَتَسَتَّـرُ

وَأَنَّهُ حرَّكهُ يوماً بذكرِ شيءٍ مِن شِعرِ قيسٍ ، فقالَ لهُ : أَنا أَشعرُ منهُ في قولي [كما في « المستطرف » ٨٦/٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَـا وَجْـدُ مَغْلُـوبٍ بِصَنْعَـاءَ مُـوثَـقٍ بِسَـاقَيْـهِ مِـنْ ثِقْـلِ الْحَـدِيـدِ كُبُـولُ

قَلِيـلُ الْمَـوَالِـي مُسْتَهَـامٌ مُـرَوَّعٌ لَـهُ بَعْـدَ نَـوْمَـاتِ الْعِشَـاءِ عَـوِيـلُ

يَقُـولُ لَـهُ الْحَـدَّادُ : أَنْـتَ مُعَـذَّبٌ غَـدَاةَ غَـدٍ أَو مُسْلَـمٌ فَقَتِيـلُ

بِـأَعْظَـمَ مِنِّـي لَـوْعَـةً يَـوْمَ رَاعَنِـي فِـرَاقُ حَبِيـبٍ مَـا إِلَيْـهِ سَبِيـلُ

[موت المجنون]

وَأَنَّهُ قالَ : لَمْ أَزَلْ أُعاوِدُهُ إِلىٰ أَن وجدتهُ يوماً ميْتاً بينَ الأَحجارِ .

---

(١) الحَدَثانِ : الليلُ والنهارُ .

(٢) القصة في « الأغاني » (٤٩/٢) .

(٣) أربُعي : جمع رَبع ، المنزِلُ .

(٤) المعروقُ : هو عظمٌ أُكِلَ اللحم الذي عليهِ .



[ابن عجلان في نهر غسان واستباء هند عقله ولبه]

وأمّا عبدُ اللهِ بنُ عجلانَ . . فإنَّهُ مِنْ قضاعةَ ، وقد عَلِقَ بهندٍ ابنةِ كعبِ بنِ عمرِو بنِ ليثٍ النهديِّ ؛ وذلكَ أنَّهُ خرجَ يوماً إلىٰ شِعْبٍ مِنْ شعابِ (نجدٍ) ينشدُ ضالَّةً لهُ ، فشارفَ ماءً يُقالُ لهُ : (نهرُ غسَّانَ) ، تقصدُهُ بناتُ العربِ وتغتسلُ فيهِ ، فرآهنَّ مِنْ ربوةٍ تشرفُ عليهِ مِنْ بعيدٍ ، فمكثَ ينظرُ إليهنَّ مستخفياً حتَّىٰ صدرنَ ، وبقيَتْ هندٌ تُمشِّطُ شعرَها ، وترسلُهُ علىٰ بدنِها ، وكانَ طويلاً جَثْلاً[1] ، وهو يتأمَّلُ شفوفَ بياضِ جسمِها مِنْ خلالِ سوادِ شعرِها ، ولمّا نهضَ ليركبَ راحلتَهُ . . عَجَزَ ، وأُقعدَ ساعةً ، وكانَ مِنَ الأَيْدِ[2] بحيثُ يَصُفُّ أربعَ رواحلَ ، يثبُ الثلاثَ ، ويركبُ الرابعةَ ، فقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

لَقَـدْ كُنْـتُ ذَا بَـأْسٍ شَـدِيـدٍ وَهِمَّـةٍ	إِذَا شِئْـتُ لَمْسـاً لِلثُـرَيَّـا لَمَسْتُهَـا
أَتَتْنِـي سِهَـامٌ مِـنْ لِحَـاظٍ فَـأَرْشَقَـتْ	بِقَلْبِـي وَلَـوْ أَسْطِيـعُ رَدّاً رَدَدْتُهَـا[3]

ثُمَّ قال : هـٰذا واللهِ الضالَّةُ التي لا تردُّ ، ثُمَّ عادَ ، وقد تمكَّنَ الهوىٰ منهُ ، فأخبرَ صديقاً لَهُ ، فقالَ : اكتمْ واخطُبْهَا إلىٰ أَبيها ، فإنَّهُ مُزوِّجُكَ ما لَمْ يشتهر حبُّكَ لها ، وإلاَّ . . حُرِمْتَها ، ففعلَ وتزوَّجَها ، وأَقامَتْ عندَهُ ثماني سنينَ ، لا يزدادُ فيها إلاَّ غراماً وكَلَفاً ، غيرَ أنَّها لَمْ تحمِلْ ، وكانَ أَبوهُ مثرياً ، فأَقسمَ عليه ليتزوَّجَنَّ أُخرىٰ للولدِ ، فأَبَتْ مِنَ الضَّرَّةِ ، فَأَلَحَّ عليهِ في طلاقِها ، فلَمْ يفعلْ ، حتَّىٰ سكرَ ، فأَرسلَ إليهِ يدعوهُ ، فمنعَتهُ هندٌ ، وقالَتْ : واللهِ لا يدعوكَ لخيرٍ ، وما أَراهُ إلاَّ عرفَ سكرَكَ ، فدعاكَ للطلاقِ ، فأَبىٰ إلاَّ الخروجَ ، فجاذبَتْهُ ، ويدُها مخلَّقَةٌ بالزَّعفرانِ ، فأَثَّرَتْ في ثوبِهِ ، ولمّا جلسَ مع أَبيهِ ، وعندَهُ أَكابرُ العربِ . . أَخذوا يعنِّفونَهُ ، ويتناوشونَهُ باللَّومِ مِنْ كلِّ مكانٍ ، حتَّى استحيا فطلَّقَها ، فاحتجبَتْ منهُ فوَجِدَ وَجْداً شديداً كادَ يقضي منهُ ، وعندما أَرادتْ أَنْ تتحمَّلَ عنهُم قالَ [كما في « الأغاني » ٢٢/٢٤٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

خَلِيلَـيَّ زُورَا قَبْـلَ شَحْـطِ النَّـوَىٰ هِنْـداً	وَلاَ تَـأْمَنَـا مِـنْ دَارِ ذِي لَطَـفٍ بُعْـدَا[4]
وَلاَ تَعْجَـلاَ لَـمْ يَـدْرِ صَـاحِـبُ حَـاجَـةٍ	أَغَيّـاً يُـلاقِـي فِـي التَّعَجُّـلِ أَمْ رُشْـدَا
وَمُـــرَّا عَلَيْهَـــا بَـــارَكَ اللهُ فِيكُمَـــا	وَإِنْ لَـمْ تَكُـنْ هِنْـدٌ لِـوَجْهَيْكُمَـا قَصْـدَا
وَقُـولاَ لَهَـا لَيْـسَ الضَّـلاَلُ أَجَـازَنَـا	وَلَكِنَّنَـا جُـزْنَـا لِنَلْقَـاكُـمُ عَمْـدَا
غَـداً يَكْثُـرُ الْبَـاكُـونَ مِنَّـا وَمِنْكُـمُ	وَتَـزْدَادُ دَارِي عَـنْ دِيَـارِكُـمُ بُعْـدَا

[موته وموت هند متعانقين]

ثُمَّ إنَّ هنداً تزوَّجتْ في بني نُميرٍ ، وعبدُ اللهِ ينمو شوقُهُ ، ويتضاعفُ وجدُهُ ، وكانَتْ بينهم ثاراتٌ ودماءٌ ، فحذَّرَهُ أَبوهُ مِنَ الخروجِ إليهِم ، فخرجَ سِرّاً ، حَتَّىٰ أَتاها ، وهي جالسةٌ علىٰ حوضٍ ، وزوجُها يسقي إبلاً لهُ ، فلمّا تعارفا . . شَدَّ كُلٌّ منهما علىٰ صاحبِهِ ، واعتنقا ، وسقطا إلى الأَرضِ ، فجاءَ زوجُها ، فوجدَهُما مَيْتينِ .

---

(١) الجَثْلُ : هوَ الضخمُ الغليظُ .

(٢) الأَيْدُ : القوَّةُ .

(٣) الرَّشقُ : الرميُ .

(٤) الشَّحْطُ : البعدُ ، اللَّطَف : اسم فعل البرِّ والترفق .



[عشق ابن عجلان يضرب به الأمثال]

وكانَ موتُهُ قبلَ عامِ الفيلِ بأَربعةِ أَعوامٍ ، وهوَ ممَّنْ تُضرَبُ بهمُ الأَمثالُ في الهوىٰ ؛ ولهٰذا يقولُ قيسُ بنُ ذُريحٍ [في « ديوانه » ١٢٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَـا وَجِـدَتْ وَجْـدِي بِهَـا أُمٌّ وَاحِـدٍ ... وَلاَ وَجِـدَ النَّهْـدِيُّ وَجْـدِي عَلَـىٰ هِنْـدِ
وَلاَ وَجِـدَ الْعُـذْرِيُّ عُـرْوَةُ فِـي الْهَـوَىٰ ... كَوَجْدِي وَلاَ مَنْ كَانَ قَبْلِي وَلاَ بَعْدِي

وقالَ أَبو عُيينةَ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَـا وَجِـدَ النَّهْـدِيُّ إِذْ مَـاتَ حَسْـرَةً ... عَشِيَّـةَ بَـانَـتْ مِـنْ حَبَـائِلِـهِ هِنْـدُ
وَلاَ عُـرْوَةُ الْعُـذْرِيُّ إِذْ طَـالَ وَجْـدُهُ ... بِعَفْـرَاءَ حَتَّـىٰ شَـفَّ مُهْجَتَـهُ الْـوَجْـدُ
كَـوَجْـدِي غَـدَاةَ الْبَيْـنِ عِنْـدَ الْتِفَـاتِهَـا ... وَقَـدْ طَـارَ عَنْهَـا بَيْـنَ أَتْـرَابِهَـا الْبُـرْدُ

وقالَ آخرُ : [مِنَ الوافرِ]

وَقَبْلِـي مَـاتَ مِـنْ وَجْـدٍ بِهِنْـدٍ ... أَخُـو نَهْـدٍ وَصَـاحِبُـهُ جَمِيـلُ
وَعُـرْوَةُ وَالْمُـرَقَّـشُ هَـامَ دَهْـراً ... بِـأَسْمَـاءٍ فَلَـمْ يُغْـنِ الْعَـوِيـلُ

فأَمَّا النهديُّ . . فقد اقتصصْنَا حديثَهُ .

[عروة بن حزام وعفراء]

وأَمَّا عروةُ بنُ حِزامٍ . . فإِنَّهُ عذريٌّ ، توفِّيَ أَبوهُ ، ولهُ مِنَ العمرِ أَربعُ سنينَ ، وكَفَلَهُ أَبو عفراءَ ، فنشأا معاً ، فلمَّا استوىٰ . . خطَبها إِلىٰ عمِّهِ ، فوعدَهُ ، ثُمَّ أَخرجهُ إِلى (الشامِ) في عيرٍ لَهُ ، وجاءَ ابنُ أَخٍ لَهُ ـ يقالُ لهُ : أُثاثةُ بنُ سعيدِ بنِ مالكٍ ـ يريدُ الحجَّ ، فرأَىٰ عفراءَ ، فأَصابَتْ حبَّةَ قلبهِ ، فخطبَها مِنْ عمِّهِ ، فزَوَّجَهُ إِيَّاهَا ، ولمّا احتمَلَها . . أَقبلَ عروةُ ، فعرفَها مِنْ بعيدٍ ، فقالَ [في « ديوانهِ » ٢٤ـ٢٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

بِنَـا مِـنْ جَـوَى الأَحْـزَانِ وَالْبُعْـدِ لَـوْعَـةٌ ... تَكَـادُ لَهَـا نَفْـسُ الْجَلِيـدِ تَـذُوبُ[1]
عَشِيَّـةَ لاَ عَفْـرَاءُ مِنْـكَ بَعِيـدَةٌ ... فَتَسْلُـو وَلاَ عَفْـرَاءُ مِنْـكَ قَـرِيـبُ

وَبِإِثرِ ذلكَ اشتدَّ قلقُهُ ، وكثُر تعبُهُ ، وزادَ ضناهُ ، وجفاهُ نومُهُ ، وامتنعَ عليهِ طعامُهُ ، ومرَّ بهِ ابنُ أَبي عتيقٍ ، وهو نِضوٌ ، تلاطفهُ أُمُّهُ ، فسأَلَهَا عَنْ شأنِهِ ، فأَخبرتْهُ ، فقالَ : ارفعي عنهُ الغطاءَ ، فإِذا بهِ مثلُ الخيالِ ، فرَقَّ عليهِ ، واستنشدَهُ ، فأَنشدَهُ بعضَ أَبياتِهِ النونيَّةِ ، التي يصرِّحُ فيها بأَنَّ عمَّهُ اشتطَّ عليهِ في المهرِ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « ديوانه » ٤٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

يُكَلِّفُنِـي عَمِّـي ثَمَـانِيـنَ نَـاقَـةً ... وَمَـالِـيَ وَالـرَّحْمَـٰنِ غَيْـرُ ثَمَـانِ

[موت عروة وعفراء]

ولمّا أَيسَ مِنَ الشفاءِ . . حُمِلَ إِلى (البلقاءِ) ، حيثُ يَشَمُّ رائحةَ عفراءَ ، ويسارقُهَا النظرَ في مظانِّ ورودِها ، ولم يزَلْ

---

(١) الجَوىٰ : شدّة الوجد من العشق أو الحزن .



هناكَ حتَّىٰ عرفَهُ رجلٌ مِنْ عذرَةَ ، فجاءَ إلىٰ زوجِ عفراءَ ، وقالَ لَهُ : متىٰ قدمَ عليكُم هـٰذا الكلبُ الذي فضحَكُم بنسيبِهِ فيكم ، قالَ : ومَنْ تعني ؟ قالَ : عروةُ بنُ حزامٍ ، قالَ : واللهِ لأنتَ أحقُّ بما قلْتَ فيهِ ، وأسرعَ في طلبهِ حتَّىٰ لقيَهُ ، وأقسمَ عليهِ بالمحرَّجاتِ ألاَّ ينزلَ إلاَّ عندَهُ ، فأجابَهُ ، وأضمرَ في نفسهِ أنْ يركبَ الليلَ ، فمضىٰ ، واشتدَّ بهِ الألمُ ، وماتَ بـ(وادي القُرىٰ) ، ولمّا اتَّصلَ موتُهُ بعفراءَ . . استأذنَتْ زوجَها في ندبهِ والخروجِ إلىٰ قبرِه ، فأذنَ لها ، وعندما وصلَتْ إليهِ تمرَّغَتْ عليهِ ، وقالَتْ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ أَيُّهَـا الـرَّكْـبُ الْمُخِبُّـونَ وَيْحَكُـمْ ... بِحَـقٍّ نَعَيْتُـمْ عُـرْوَةَ بْـنَ حِـزَامِ[1]

فَـإِنْ كَـانَ حَقّـاً مَـا تَقُـولُـونَ فَـاعْلَمُـوا ... بِـأَنْ قَـدْ نَعَيْتُـمْ بَـدْرَ كُـلِّ ظَـلاَمِ

فَـلاَ لَقِـيَ الْفِتْيَـانُ بَعْـدَكَ رَاحَـةً ... وَلاَ رَجَعُـوا مِـنْ غَيْبَـةٍ بِسَـلاَمِ

وَلاَ وَضَعَـتْ أُنْثَـىٰ تَمَـامـاً بِمِثْلِـهِ ... وَلاَ انْفَـرَجَـتْ مِـنْ بَعْـدِهِ بِغُـلاَمِ

[الشجرتان المتعانقتان]

وما فرغَتْ مِنْ شِعرِها إلاَّ وألقَتْ بنفسِها على القبرِ ، فحرَّكَها أصحابُها ، فإذا هي ميْتةٌ ، فدفنُوها إلىٰ جانبهِ ، فنبتَ مِنَ القبرِ شجرتانِ ، التفَّتَا لَمّا صارتَا علىٰ حدِّ القامةِ بهيئَةِ المتعانقينِ[2] .

[رواية للأصفهاني عن عروة]

وأخرجَ أبو الفرجِ [في « الأغاني » ١٣٧/٢٤] مِنْ طريقِ الكلبيِّ عَنْ أبي صالحٍ قالَ :

كنتُ معَ ابنِ عبَّاسٍ بـ(عرفةَ) ، فحُمِلَ إليهِ فتىً لَمْ يبقَ إلاَّ خيالُهُ ، فقالُوا : ادعُ لَهُ ، قالَ : ومَا بِهِ ؟ قالوا : الهوىٰ ، ثُمَّ خفقَ في أيديهم ، فما رأيتُ ابنَ عبَّاسٍ في عشيَّتِهِ يسأَلُ اللهَ إلاَّ العافيةَ ممَّا ابتُلِيَ بِهِ الفتىٰ ، وسأَلْتُ عنهُ ، فقالوا : عروةُ بنُ حزامٍ ، وهـٰذهِ الروايةُ تناقِضُ التي قبلَها ، والأُولىٰ أثبتُ ، وأذكرُ في الناسِ .

[المرقش والخلاف في اسمه وشجاعته]

وأمَّا المرقَّشُ : فالمرادُ بهِ الأكبرُ ، واسمهُ عمرٌو ، وقيلَ : عوفُ بنُ سعدِ بنِ مالكٍ ، ينتهي نسبُهُ لبكرِ بنِ وائلٍ ، وإنَّما سمِّيَ المرقَّشَ ؛ لقولِهِ [كما في « البيان والتَّبيين » ١٩٦/١] : [من الكامل]

الـدَّارُ وَحْـشٌ وَالـرُّسُـومُ كَمَـا ... رَقَّـشَ فِـي ظَهْـرِ الأَدِيـمِ قَلَـمْ[3]

أَو لأنَّهُ قَتلَ نَمِراً وَأَسَداً وَمرَّ بالحيِّ مُلْتحِفاً جِلْدَيْهما فسمَّوْهُ .

[عشقه لأسماء بنت عوف]

ولهُ ذكرٌ في حربِ وائلٍ ومكانٌ فيها ، وبأسٌ وشجاعةٌ ونجدةٌ ، وكانَ مِنْ خبرِه [كما في « مصارع العشاق » ٢٢٧/١] : أنَّهُ عشقَ ابنةَ عمِّهِ أسماءَ بنتَ عوفٍ ، فخطبَها ، فقالَ : لا أُزوِّجُكَ حَتَّىٰ تُعرفَ بالبأسِ ، وأعطاهُ المواثيقَ ، فانطلقَ

---

(١) المخِبُّونَ : المضطربونَ ، وهـٰذا نتيجة الخَبَب ، وهو ضرب من العَدْو .

(٢) القصَّةُ بنحوها في « مَصارِعِ العُشَّاقِ » (٣١٧/١) .

(٣) الرَّقْشُ : الكتابةُ والتنقيطُ .



المرقَّشُ إلىٰ بعضِ الملوكِ ، وأَقامَ عندَهُ زماناً يمدحُهُ ، فأكرمَ مثواهُ ، وأَجازَهُ ، وأَصابَ عوفاً مَحْلٌ وجَهدٌ ، فأَتاهُ رجلٌ مِنْ مرادٍ ، فزوَّجَهُ أَسماءَ علىٰ مئةٍ مِنَ الإبلِ ، ثُمَّ تنحَّىٰ عَنْ بني سعدِ بنِ مالكٍ ، وأَخذَ امرأَتَهُ معهُ ، وجاءَ المرقَّشُ ، واتَّفقَ أَهلُهُ علىٰ أَن لا يخبِروهُ بزواجِها ، وأَجمعوا علىٰ أَن يقولُوا لَهُ : ماتَتْ ، وبقيَ الأَمرُ علىٰ ذلكَ مدَّةً ، وأَثَرُ الضَّنىٰ يظهرُ عليهِ ، حتَّىٰ استيقنَ دُخلَةَ[1] الأَمرِ مِنْ بعضِ الصبيانِ ، فدعىٰ بوليدةٍ لَهُ وزوجٍ لَها مِنْ بني عقيلٍ ، واحتملُوا معاً إِلى (اليمنِ) ، واشتدَّ بهِ المرضُ في الطريقِ ، فأَنزلُوهُ بكهفٍ يقربُ مِنْ أَرضِ مرادٍ ، ثُمَّ انصرفا عنهُ ، وقالا : ماتَ ، ولَمْ يزلْ بذلكَ الكهفِ ، حَتَّىٰ أَقبلَ عليهِ راعي غنمٍ ، فسأَلَهُ عَنْ شأْنِهِ ، فقالَ : أَنا مِنْ مرادٍ ، وأَنت راعيْ مَنْ ؟ قالَ : راعي فلانٍ ـ لزوجِ أَسماءَ ـ قالَ : هَل تستطيعُ أَنْ تكلِّمَ امرأَةَ صاحبِكَ ؟ قالَ : لا ، ولا أَدنو منها ، غيرَ أَنَّ جاريتَها تأْتيني كلَّ ليلةٍ فأَحلبُ لها ما تشاءُ ، فقالَ لهُ : خُذْ خاتمي هـٰذا ، فإِذا حلَبْتَ . . فاجعلْهُ في اللَّبنِ ، فإِنَّها ستعرفُهُ ، وستصيبُ بهِ خيراً لَمْ يصبْهُ راعٍ قطُّ ، ففعلَ ، وانطلقَتِ الجاريةُ باللَّبنِ ، وتركتْهُ بينَ يدي أَسماءَ ، فلمَّا سكنَتِ الرغوةُ . . أَخذَتْهُ ، فشربَتْهُ ، وكذلكَ كانَتْ تصنعُ ، فقَرَعَ الخاتَمُ ثنيتَها ، فأَخذَتْه ، وعرفَتْهُ ، فسأَلَتْ عنهُ الجاريةَ ، فقالَتْ : لا علمَ لي بهِ ، فاستدعَتْ زوجَها ؛ ليستفْهِمَ العبدَ عَنِ الخاتمِ ، فأَخبرَهُمْ بِمَنْ دفعَهُ لَهُ ، وأَنَّهُ في الكهفِ بآخرِ رمقٍ ، فركبَتْ معَ زوجِها في الخيلِ ، حتَّىٰ طرقاهُ ، واحتملاهُ إِلى الحيِّ ، وماتَ عندَهُم في أرضِ مرادٍ .

[هناك مرقش آخر هو عم طرفة بن العبد]

ولهمُ مرقَّشٌ آخرُ : هو ابنُ أخي الأوَّلِ ، وهو عَمُّ طَرفَةَ بنِ العبدِ ، وهو مِنْ عشَّاقِ العربِ أَيضاً ، كانَ يهوىٰ فاطمةَ بنتَ المنذرِ الملكِ ، وكانَ يُشبِّبُ بِها ، وكانَتْ لَهُ في حربِ وائلٍ مواقفُ لا تقلُّ عن مواقفِ عمِّهِ[2] .

[إحالة الحديث عن ابن ذريح إلىٰ مكان آخر]

وأَمَّا قيسُ بنُ ذُريحٍ . . فسنتركُ حديثَهُ إِلى الكلامِ علىٰ **قولِ الناظمِ** [في « العُكبَريّ » ٣/١٦٥] : [مِنَ البسيطِ]

عَـلَّ الأَمِيـرَ يَـرَىٰ ذُلِّـي فَيَشْفَـعَ لِـي ... إِلَـى الَّتِـي تَـرَكَتْنِـي فِـي الْهَـوَىٰ مَثَـلاَ

فإِنَّ لهُ بهِ اتِّصالاً قويّاً ، وما ذكرناهُ هنا كافٍ لمناسبةِ تعجُّبِهِ مِنَ العيشِ معَ كثرةِ ما يجورُ البينُ ، ويقتلُ الهوىٰ ، وما أَحسنَ قولَ عروةَ [في « ديوانه » ٢٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا عَجَبِي مَـوْتُ الْمُحِبِّيـنَ فِي الْهَـوَىٰ ... وَلَكِـنْ بَقَـاءُ الْعَـاشِقِيـنَ عَجِيـبُ

وقولَ قيسِ بنِ ذريحٍ أَو ابنِ الدُّمَيْنَةِ على اختلافِ الرِّوايةِ [في « ديوان قيس بن ذريح » ٤٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَفِـي عُـرْوَةَ الْعُـذْرِيِّ إِنْ مُـتُّ أُسْـوَةٌ ... وَعَبْـدِ بْـنِ عَجْـلاَنَ الَّـذِي قَتَلَـتْ هِنْـدُ
فَبِـي مِثْـلُ مَـا قَـدْ نَـابَهُـمْ غَيْـرَ أَنَّنِـي ... إِلَـىٰ أَجَـلٍ لَـمْ يَـأْتِنِـي وَقْتُـهُ بَعْـدُ
وَفَيْـضُ دُمُـوعِ الْعَيْـنِ بِـاللَّيْـلِ كُلَّمَـا ... بَـدَا عَلَـمٌ مِـنْ أَرْضِكُـمْ لَـمْ يَكُـنْ يَبْـدُو

* * *

(١) الدُّخلَةُ : باطن الأَمرِ وحقيقته .
(٢) كما في « الأغاني » (٦/١٣٦) .

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٦٣] : [مِنَ البسيطِ]

وَالْوَجْدُ يَقْوَىٰ كَمَا تَقْوَى النَّوَىٰ أَبَداً وَالصَّبْرُ يَنْحَلُ فِي جِسْمِي كَمَا نَحِلاَ

[من دلائل صدق الهوىٰ ذوبان الجسم في الحب]

يقولُ : إِنَّ الوجدَ يقوىٰ ، والنوىٰ يزيدُ ، والصبرَ يذهبُ ، والجسمَ ينحلُ ، وهٰذا دليلُ صحَّةِ الهوىٰ وصدقِ الحبِّ .

قالَ المجنونُ [في « ديوانه » ٩٧-٩٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ الْجِلْدُ والْعَظْمُ عَارِياً وَلاَ عَظْمَ لِي إِنْ دَامَ مَا بِي وَلاَ جِلْدُ
أُقَلَّبُ بِالأَيْدِي وَقَوْمِي تَعُولُنِي يُفَدُّونَنِي لَوْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْدُوا[1]

[أيزيد أم ينقص الحب ؟]

وقالَ [في « مَصارعِ العشَّاقِ » ٢/ ٩١] : [مِنَ الوافرِ]

ذَكَرْتُ عَشِيَّةَ الصَّدَفَيْنِ لَيْلَىٰ وَكُلَّ الدَّهْرِ ذِكْرَاهَا جَدِيدُ[2]
عَلَيَّ أَلِيَّةٌ إِنْ كُنْتُ أَدْرِي أَيَنْقُصُ حُبُّ لَيْلَىٰ أَمْ يَزِيدُ[3]

وقالَ قيسُ بنُ ذريحٍ [في « ديوانهِ » ٦٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلِلْحُبِّ آيَاتٌ تبَيَّنُ لِلْفَتَىٰ شُحُوبٌ وَتُبْرَىٰ مِنْ يَدَيْهِ الأَشَاجِعُ[4]

وقالَ جميلٌ [في « ديوانهِ » ٦٣-٦٤] : [من الطويلِ]

عَلِقْتُ الْهَوَىٰ مِنْهَا وَلِيداً وَلَمْ يَزَلْ إِلَى الْيَوْمِ يَنْمُو حُبُّهَا وَيَزِيدُ
وَأَفْنَيْتُ عُمْرِي فِي انْتِظَارِ نَوَالِهَا وَأَفْنَتْ بِذَاكَ الدَّهْرَ وَهْوَ جَدِيدُ

[الحب النامي]

وقالَ هو أَو قيسٌ [كما في « ديوان قيس بنِ ذريحٍ » ١٢٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَعَلَّقَ رُوحِي رُوحَهَا قَبْلَ خَلْقِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا كُنَّا نِطَافاً وَفِي الْمَهْدِ
فَزَادَ كَمَا زِدْنَا وَأَصْبَحَ نَامِياً وَلَيْسَ إِذَا مِتْنَا بِمُنْفَصِمِ الْعَقْدِ
وَلَكِنَّهُ بَاقٍ عَلَىٰ كُلِّ حَادِثٍ وَإِنَّا لَنَرْجُو الْوَصْلَ فِي ظُلْمَةِ اللَّحْدِ

---

(١) **الإعالةُ** : المساعدة .
(٢) **الصدفانِ** : جبلانِ متلاقيانِ ، كنَّىٰ عن بعدها .
(٣) **الألية** : الحلفة واليمين .
(٤) **الأَشاجِعُ** : هيَ أُصولُ الأَصابعِ التي تتَّصلُ بعصَبِ ظاهرِ الكَفِّ .

وقالَ كثيِّرٌ [في « ديوانه » ١٠٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـلاَ يَحْسَـبِ الْـوَاشُـونَ أَنَّ صَبَـابَتِـي بِعَـــزَّةَ كَـانَــتْ غَمْـرَةً فَتجَلَّـتِ[١]

وقالَ ذو الرُّمَّةِ [في « ديوانه » ٢/ ١١٩٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَصَـرَّفُ أَهْــوَاءُ الْقُلُــوبِ وَلاَ أَرَىٰ نَصِيبَـكِ مِــنْ قَلْبِـي لِغَيْـرِكِ يُمْنَـحُ

فَبَعْضُ الْهَوَىٰ بِـالْهَجْرِ يُمْحَىٰ فَيَنْمَحِي وَحُبُّـكِ عِنْـدِي يَسْتَجِـدُّ وَيَـرْجَـحُ

وقالَ المجنونُ أو غيرُهُ [في « ديوانه » ٢٤٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَجِــدَّكَ لاَ تُنْسِيــكَ لَيْلَــىٰ مُلِمَّــةٌ تُلِـمُّ وَلاَ يُنْسِيــكَ عَهْـداً تَقَـادُمُـهُ[٢]

[الحب الصادق لا يبلىٰ مدى الدهر]

أَمَّا قولُ زهيرِ بنِ جَنَابٍ : [مِنَ الوافرِ]

إِذَا مَــا شِئْــتَ أَنْ تَنْسَــىٰ حَبِيبــاً فَــأَكْثِــرْ دُونَــهُ عَــدَدَ اللَّيَــالِــي

فَمَــا سَلَّــىٰ حَبِيبــاً مِثْـلُ نَـأْيٍ وَلاَ أَبْلَــىٰ جَـدِيــداً كَــابْتِــذَالِ

فقد ردَّهُ عليهِ جميلُ بنُ معمرٍ في قولِهِ [في « ديوانه » ٢٩٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَحَـا اللهُ أَقْـوَامـاً يَقُـولُـونَ : إِنَّنَـا وَجَـدْنَـا طِـوَالَ النَّـأْيِ لِلْحُـبِّ شَـافِيَـا

وهـٰذا البيتُ موجودٌ أيضاً في قصيدةِ المجنونِ المشهورةِ ، وبعدَهُ [في « ديوانه » ٢٩٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَعَهْـدِي بِلَيْلَـىٰ وَهْـيَ ذَاتُ مُـؤَشَّـرٍ تَـرُدُّ عَلَيْنَـا بِـالْعَشِـيِّ الْمَـوَاشِيَـا[٣]

فَشَـبَّ بَنُـو لَيْلَـىٰ وَشَـبَّ بَنُـو ابْنِهَـا وَأَعْـلاَقُ لَيْلَـىٰ فِـي فُـؤَادِي كَمَـا هِيَـا[٤]

[القلب العاشق لا يعرف الملل]

وقالَ ابنُ زيدونَ [في « ديوانه » ٦٥] : [مِنَ البسيطِ]

لاَ تَحْسَبُـوا نَـأْيَكُـمْ عَنَّـا يُغَيِّـرُنَـا إِنْ طَـالَمَـا غَيَّـرَ النَّـأْيُ الْمُحِبِّينَـا

وَاللهِ مَـا طَلَبَـتْ أَهْـوَاؤُنَـا بَـدَلاً مِنْكُـمْ وَلاَ انْصَـرَفَـتْ عَنْكُـمْ أَمَـانِينَـا

وقد نظرَ فيهِ إلىٰ قولِ الحارثِ بنِ كِلدَةَ يعاتبُ أَصحابَهُ : [مِنَ الوافرِ]

كَتَبْـتُ إِلَيْهِــمُ كُتُبــاً مِــرَاراً فَلَـمْ يَـرْجِـعْ إِلَـيَّ لَهَـا جَـوَابُ

فَمَــا أَدْرِي أَغَيَّــرَهُــمْ تَنَــاءٍ وَطُـولُ الْعَهْـدِ أَمْ مَـالاً أَصَـابُـوا

فَمَــنْ يَــكُ لاَ يَــدُومُ لَــهُ وِصَــالٌ وَفِيــهِ حِيــنَ يَغْتَــرِبُ انْقِــلاَبُ

---

(١) الغَمْرةُ : الشِّدَّة .

(٢) أجِدَّكَ : سبقت ، ومن معانيها أجدُك بالتخفيف ، أو ما لك ؟ .

(٣) المُؤَشَّر : المُرَقَّق . وفي الديوان : (ذات مؤصدٍ) ، وهو : القميص الصغير الذي يلبس تحت الثوب . والمعنىٰ : أنها صغيرة .

(٤) أعلاقُ : جمعُ عِلقٍ ، وهو ما تعلَّقَ به القلبُ .

فَعَهْــدِي دَائِــمٌ لَهُــمُ وَوُدِّي عَلَــىٰ حَــالٍ إِذَا شَهِــدُوا وَغَــابُــوا

وقالَ حسَّانُ بنُ إسحاقَ[1] ـ وهو مولىٰ بني مرَّةَ بنِ عوفٍ ـ : [مِنَ الطَّويلِ]

بِقَلْبِـي بَــلاَءٌ لَسْــتُ أُحْسِــنُ وَصْفَــهُ عَلَــىٰ أَنَّــهُ مَــا كَــانَ فَهُــوَ شَــدِيــدُ
تَمُــرُّ بِــهِ الأَيَّــامُ تَسْحَــبُ ذَيْلَهَــا فَتَبْلَــىٰ بِــهِ الأَيَّــامُ وَهُــوَ جَــدِيــدُ

[قصائد للمؤلف في رثاء ولده]

ويَنخَرِطُ في السلكِ قولي مِنْ رِثاءِ ولدي بَصريٍّ ، في اللاَّميَّةِ [كما في « ديوانِ المؤلِّفِ » ق ٩٦] : [مِنَ الوافرِ]

وَعِنْــدَ الصَّــدْمَــةِ الأُولَــىٰ تَــرَانِــي صَبَــرْتُ وَبَعْــدَهَــا قَــلَّ احْتِيَــالِــي
فَكَــذَّبْــتُ الَّــذِي قَــدْ قَــالَ قَبْلِــي وَقَــرَّبَ لِــي الْبَعِيــدَ مِــنَ الْمُحَــالِ
(إِذَا مَــا شِئْــتَ أَنْ تَنْسَــىٰ حَبِيبــاً فَــأَكْثِــرْ دُونَــهُ عَــدَّ اللَّيَــالِــي)

وقلتُ في الرائيَّةِ [كما في « ديوانِ المؤلِّفِ » ق ٩٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَحَــدٌّ لَبِيــدٍ فِــي الْبُكَــاءِ لِمِثْلِــهِ مِنَ الشَّيْبِ أَمَّا ذَا . . فَمُبْكِي إِلَى الْحَشْرِ
وَلِـي نَــوْعُ سَلْــوَىٰ بِــاعْتِقَــادِي نَجَــاتَــهُ وَمَــا أَنَــا رَاجٍ فِي احْتِسَابِي مِنَ الذُّخْرِ
وَمَــا شَــابَ عِلْمِــي مِــنْ شُكُــوكٍ بِمَــوْتِــهِ فَمَــا زَالَ مَــلآنــاً بِتَمْثِيلِــهِ سِــرِّي
ثَــوَىٰ ذِكْــرُهُ فِــي خَــاطِــرِي وَخَيَــالُــهُ بِعَيْنِــي وَمِــنْ رَيَّــاهُ فِــي الأَنْــفِ كَــالْعِطْــرِ

وقلتُ مِنَ اللزوميَّةِ : [مِنَ الطَّويلِ]

لِحَــوْلَيْــنِ مَــرَّا مِــنْ فِــرَاقِــكَ يَــا بَصْــرِي تَجَــدَّدَ قَــرْحٌ مَسَّنَــا مِنْــكَ فِــي الْعَصْــرِ
فَبِتْنَــا وَمَــا زِلْنَــا إِلَــى الْيَــوْمِ فِــي أَسَــىً وَلَــمْ تُمْــسِ إِلاَّ ـ وَالنَّبِيِّيــنَ ـ فِــي قَصْــرِ

وقلْتُ في الداليَّةِ [كما في « ديوانِ المؤلِّفِ » ق ١٠٠ـ١١٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

شُجُــونٌ عَلَــى الأَحْشَــاءِ ذَاكَ وَقُــودُهَــا وَإِنْ قُــدِّمَــتْ أَسْبَــابُهَــا وَعُهُــودُهَــا
تَمُــرُّ اللَّيَــالِــي وَهِــيَ تَــزْدَادُ جِــدَّةً كَــأَنْ لَــمْ يَكُــنْ إِلاَّ قَــرِيبــاً وُجُــودُهَــا
تَكَــادُ حَصَــاةُ الْقَلْــبِ تَنْشَــقُّ لَــوْعَــةً لِــلاَعِــجِ أَحْــزَانٍ طَــوِيــلٍ خُلُــودُهَــا[2]
كَــأَنَّ فَضَــاءَ اللهِ فِــي ثَقْــبِ إِبْــرَةٍ عَلَــيَّ فَــأَنْفَــاسِي شَــدِيــدٌ صُعُــودُهَــا
كَــأَنَّ خَــرِيــقَ الــرِّيــحِ يَهْفُــو بِمُهْجَتِــي لِتِــذْكَــارِ بَصْــرِي مِــنْ هُمُــومٍ تَعُــودُهَــا
مُصَــابٌ لَــهُ دَمْعِــي عَــزَاءٌ وَمَحْجِــرِي قَــرِيــحٌ وَأَشْجَــانِــي تَــوَالَــىٰ وُفُــودُهَــا[3]
فَيَــا طَلْعَــةً كَــانَ الْــوَثِيــرُ فِــرَاشَهَــا تَــوَسَّــدَتِ الصَّخْــرَ الأَصَــمَّ خُــدُودُهَــا[4]

---

(١) وهي عند الجاحظ لأبي يعقوب الخريمي كما في « البيان والتبيين » (١٢٦/١) .

(٢) **اللاعج** : الهمُّ المحرقُ من الحبِّ .

(٣) **المَحْجِرُ** : العينُ .

(٤) **الفراشُ الوثيرُ** : المحشوُّ المريحُ .

وقلتُ في خطابِ جيرانهِ ـ وهم أجدادُهُ لأُمِّهِ ـ مِنَ الميميَّةِ [في « ديوانِ المؤلِّفِ » ق ١٠٣] : [مِنَ الوافرِ]

فَهَلْ كَانَتْ وَدِيعَتُنَا لَدَيْكُمْ مُكَرَّمَةً بِرَعْيٍ وَاحْتِرَامِ
فَبَيْنَ جَوَانِحِي مِنْهَا لَهِيبٌ وَمِنْ جَفْنَيَّ صَوْبُ الدَّمْعِ هَامِي
كَأَنَّ حَشَاءَنَا فِيهِنَّ سُمٌّ يُقَطِّعُهُنَّ أَوْ وَخْزُ السِّهَامِ
أَرَدْنَا مِنْ خَوَاطِرِنَا سُلُوّاً فَقُلْنَ لَنَا : السُّلُوُّ مِنَ الْحَرَامِ
وَإِنْ غَيَّىٰ لَهُ حَوْلاً لَبِيدٌ فَرَأْيُ أَخِي هُذَيْلٍ لِلْقِيَامِ

أَرَدتُ قولَ لبيدٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَدِ اعْتَذَرْ

وقولَ أَبي صخرٍ الهذَليِّ [في « ديوانِ الحماسةِ » ٢/٦٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَيَا حُبَّهَا زِدْنِي جَوَىً كُلَّ لَيْلَةٍ وَيَا سَلْوَةَ الأَيَّامِ مَوْعِدُكِ الْحَشْرُ

وإنِّي لأُكاثِرُ التهاميَّ بما قلْتُهُ في رِثاءِ وَلَدي بَصريٍّ ؛ لأَنَّهُ كانَ عَنْ ذوقٍ سليمٍ ، ولذْعٍ في الصميمِ ، ولا يظهرُ صدقُ قولي إلاَّ لِمَنْ بِرُمَّتِها رآها ، إِذِ القَدْرُ الذي كانَ محلَّ الشاهدِ هنا ليسَ مِنْ ذُرَاها ، وإِنِّي لَكَما قالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/١٧١] : [مِنَ الكاملِ]

وَيُسِيءُ بِالإِحْسَانِ ظَنّاً لاَ كَمَنْ هُوَ بِابْنِهِ وَبِشِعْرِهِ مَفْتُونُ

غيرَ أَنَّ الحقَّ لا يتلثَّمُ ، والصدقَ مَنْ قالَهُ لا يتأَثَّمُ .

[بيت من الشعر يخرج الأحوص من السجن]

وقالَ الزُّهريُّ : دعاني يزيدُ بنُ عبدِ المَلِكِ ، وقد غنَّتْهُ حَبابةُ بهٰذا [في « ديوانِ الأَحوصِ » ٢/٢٤٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا رُمْتَ عَنْهَا سَلْوَةً قَالَ شَافِعٌ مِنَ الْحُبِّ مِيعَادُ السُّلُوِّ الْمَقَابِرُ
سَيَبْقَىٰ لَهَا فِي مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَا سَرِيرَةُ وُدٍّ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ

وقالَ : لِمَن هٰذا ؟ فقلْتُ : للأَحوصِ ، وهو في سجنِكُم ، فأَمرَ بإِطلاقِهِ ، وأَنْ تُدفعَ لَهُ أَربعُ مئةِ دينارٍ ، ثُمَّ استقدمَهُ ، وأَحسنَ جائزتَهُ . وإِنَّهُ لأَهلٌ لِما صنعَ بهِ في هٰذهِ الرِّقَّةِ والإِحسانِ .

[ومن العجيب أن البيت نفسه يكون سبباً في حرمانه العفو]

وَمِنَ العجبِ! أَنَّ هٰذا البيتَ كانَ سببَ حِرمانِهِ العفوَ مِنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ؛ وذلكَ أَنَّهُ كانَ يشبِّبُ بنساءَ ذواتِ أَخطارٍ مِنَ المدينةِ ، فرُفعَ أَمرُهُ إِلىٰ سليمانَ بن عبدِ الملكِ ، فنفاهُ إِلىٰ (دَهْلَكَ) ، فأَقامَ بها سلطانَهُ ، ولمّا وَلي عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ . كتبَ إِليهِ يستعطفُهُ ، ويقولُ لَهُ [كما في « الأحوص ـ حياته وشعره » ١٨٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكَيْفَ تَرَىٰ لِلْعَيْشِ طِيباً وَلَذَّةً وَخَالُكَ أَمْسَىٰ مُوثَقاً فِي الْحَبَائِلِ

وكلَّمَهُ فيهِ رجالٌ مِنَ الأَنصارِ ، فقالَ لهم : مَنِ القائلُ : (سَيَبْقَىٰ لَهَا فِي مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَا) . . . البيتَ ؟ قالوا :

هوَ ، قالَ : إِنَّهُ عنها يومئذٍ لمشغولٌ ، واللهِ لا أَرُدُّهُ ما كانَ لي سلطانٌ[1] .

[تعليق المؤلف على القصة]

والذي فعلَهُ يزيدُ أَدنىٰ إلى الصوابِ ، وأَشبهُ بسيرةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، فقد تمنَّىٰ أَنْ لو كانَ النضْرُ حيّاً . . فوهبَهُ لقُتَيلَةَ ؛ لمَّا اهتزَّ مِنْ شعرِها المعروفِ[2] ، معَ أَنَّ قتلَهُ لَمْ يكنْ إلاَّ عَدْلاً ، ولكنَّهُ أَرادَ لو لَم يسبقِ السيفُ العَذَلَ[3] أَنْ يغمرَهُ فضلاً .

[متىٰ يجوز العفو عن التعزير ؟]

وقالَ فقهاؤُنا : بجوازِ العفوِ عَنِ التعزيرِ إِذا عفا صاحبُهُ ، أَو كانَ لحقِّ اللهِ تعالىٰ ؛ علىٰ أَنَّ الأَحوصَ قد تُجُوِّزَ بهِ حدُّ العقوبةِ ، فما سبيلُهُ إِلاَّ أَنْ يتمثَّلَ لابنِ عبدِ العزيزِ بقولِ أَبي عُبادةَ : [مِنَ البسيطِ]

إِذَا مَحَاسِنِيَ اللاَّتِي أَدِلُّ بِهَا ... صَارَتْ ذُنُوباً فَقُلْ لِي كَيْفَ أَعْتَذِرُ

[شكوى الفراق وحفظ العهد]

وممَّا يُعجبني في شكوى الفراقِ ، وحفظِ العهدِ ، قولُ جميلِ بنِ معمرٍ [في « ديوانه » ١٥٢ـ١٥٣] : [مِنَ الخفيفِ]

مَنَعَ النَّوْمَ شِدَّةُ الاِشْتِيَاقِ ... وَادِّكَارُ الْحَبِيبِ يَوْمَ الْفِرَاقِ
لَيْتَ شِعْرِي إِذا بُثَيْنَةُ بَانَتْ ... هَلْ لَنَا بَعْدَ بَيْنِهَا مِنْ تَلاَقِي
وَلَقَدْ قُلْتُ يَوْمَ نَادَى الْمُنَادِي ... مُسْتَحِثّاً بِرِحْلَةٍ وَانْطِلاَقِ
لَيْتَ لِي الْيَوْمَ يَا بُثَيْنَةُ مِنْكُمْ ... مَجْلِساً لِلْوَدَاعِ قَبْلَ الْفِرَاقِ
حَيْثُ مَا كُنْتُمُ وَكُنْتُ فَإِنِّي ... غَيْرُ نَاسٍ لِلْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ

[البين يفتت الأكباد]

وإِذا كانَ البينُ بمجرَّدِهِ يُذيبُ الجمادَ ، ويفتِّتُ الأَكبادَ . . فما بالُكَ بالبَينِ الذي لا يرجعُ صداهُ ، ولا ينتهي مداهُ ؛ ولهـٰذا **قالَ الناظمُ** [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٧٥] : [مِنَ البسيطِ]

فَمَا صَبَابَةُ مُشْتَاقٍ عَلَىٰ أَمَلٍ ... مِنَ اللِّقَاءِ كَمُشْتَاقٍ بِلاَ أَمَلِ

[كثير وقبر عزة]

وقالَ كُثَيِّرٌ ، وهوَ واقفٌ علىٰ قبرِ عزَّةَ [في « ديوانه » ٤٦٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَفْتُ عَلَىٰ قَبْرٍ لِعَزَّةَ نَاقَتِي ... وَفِي الْبُرْدِ رَشَّاشٌ مِنَ الدَّمْعِ يُسْفَحُ
فَيَا عَزُّ أَنْتِ الْبَدْرُ قَدْ حَالَ دُونَهُ الْـ ... ـتُّرَابُ وَوَارَاهُ الصَّفِيحُ الْمُضَرَّحُ
وَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي مِنْ فِرَاقِكِ حَيَّةً ... وَأَنْتِ لَعَمْرِي الْيَوْمَ أَنْأَىٰ وَأَنْزَحُ

---

(١) القصة في « طبقات فحول الشعراء » (٢/ ٦٥٧) ، و« الأغاني » (٤/ ٢٤٤) .

(٢) والنضرُ هوَ ابنُ الحارثِ ، وكانَ مِنْ أَكثرِ المؤذينَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وقتلَهُ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، بعدَ أَسرِهِ في غزوةِ بدرٍ .

(٣) **العَذَلُ** : هو قبول اللوم والاعتذار ، وقولُه : سبقَ **السيفُ العَذَلَ** ، مَثلٌ يُضرب لما قد فات ، وأصل ذلك : أن الحارث بنَ ظالمٍ ضربَ رجلاً فقتلَهُ ، فأُخبرَ بعذره فقال : سبقَ السيفُ العذَلَ .



فَـلاَ زَالَ رَمْـسٌ ضَـمَّ عَـزَّةَ سَـائِـلاً ... بِـهِ نِعْمَـةٌ مِـنْ رَحْمَـةِ اللهِ تُسْفَـحُ[1]

[القلب الخافق]

وقالَ قيسٌ [بنُ ذريح في « ديوانه » ٦٤ـ٦٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَـوْلاَ رَجَـاءُ الْقَلْـبِ أَنْ تَعْطِـفَ النَّـوَىٰ ... لَمَـا حَمَلَتْـهُ بَيْنَهُـنَّ الأَضَـالِـعُ

لَـهُ وَجَبَـاتٌ إِثْـرَ لُبْنَـىٰ كَـأَنَّهَـا ... شَقَـائِـقُ بَـرْقٍ فِـي سَحَـابٍ لَـوَامِـعُ[2]

[لا ينفع الوطن بلا سكن]

وقالَ الشريفُ أَبو جعفرٍ ، مسعودُ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ المحسنِ بنِ الحسنِ البياضيُّ في مجرَّدِ الرثاءِ : [مِنَ البسيطِ]

خَلِّ الْـوُقُـوفَ عَلَـى الأَطْـلاَلِ وَالـدِّمَـنِ ... فَلَيْـسَ يَنْفَـعُ مَسْكُـونٌ بِـلاَ سَكَـنِ

أَمَـا تَـرَانِـيَ لاَ أُثْنِـي عَلَـىٰ طَلَـلٍ ... بَعْـدَ الْفِـرَاقِ وَلاَ آوِي إِلَـىٰ وَطَـنِ

وَكَيْـفَ يَـأْنَـسُ قَلْبِـي بِـالـدِّيَـارِ وَقَـدْ ... أَصَـابَ فِيهَـا الـرَّدَىٰ مَـنْ كَـانَ يُـؤْنِسُنِـي

إِنَّ الَّـذِيـنَ أَذَاقُـونِـي فِـرَاقَهُـمُ ... أَفْنَيْـتُ بَعْـدَهُـمُ دَمْعِـي مِـنَ الْحَـزَنِ

للهِ مَـنْ لَعِبَـتْ أَيْـدِي الْمَنُـونِ بِـهِ ... ضَنّـاً بِمَـا فِيـهِ أَنْ يَبْقَـىٰ عَلَـى الـزَّمَـنِ

جَعَلْـتُ رُوحِـي لَـهُ مِـنْ رُوحِـهِ عِـوَضـاً ... مُقِيمَـةً مَعَـهُ فِـي ذَلِـكَ الْكَفَـنِ

فَصَـارَ كَـالْحَـيِّ إِذْ رُوحِـي تُحِيـطُ بِـهِ ... وَصِـرْتُ كَـالْمَيْـتِ إِذْ لاَ رُوحَ فِـي بَـدَنِـي

يقولُها في جاريةٍ لبنتِ فخرِ الدولةِ هامَ بها ، حَتَّىٰ شاعَ أَمرُهُ ، فمرضَتْ . . فمرضَ ، ولمَّا ماتَتْ . . لَمْ يعِشْ بعدَها إِلاَّ أَيَّاماً يسيرةً .

[خمرة العاشق ريق الحبيب]

وأَوردَ ابنُ خَلِّكَانَ [في « وفياتِ الأعيانِ » ٥/١٩٨] لَهُ قصيدةً لا بأسَ بإيرادِ شيءٍ منها ؛ لأَنَّها لا تخرجُ عن موضوعِ البحثِ في الجُملةِ ؛ إِذْ هيَ في شكوى الفراقِ ، قالَ : [مِنَ الكاملِ]

إِنْ غَـاضَ دَمْعُـكَ وَالـرِّكَـابُ تُسَـاقُ ... مَـعْ مَـا بِقَلْبِـكَ : فَهُـوَ مِنْـك نِفَـاقُ

لاَ يَبْعُـدَنْ زَمَـنٌ مَضَـتْ أَيَّـامُـهُ ... وَعَلَـىٰ مُتُـونِ غُصُـونِـهِ أَوْرَاقُ

أَيَّـامَ نَـرْجِسُنَـا الْعُيُـونُ وَوَرْدُنَـا ... خَمْـرُ الْخُـدُودِ وَخَمْـرُنَـا الأَرْيَـاقُ

وَلَنَـا بِـزَوْرَاءِ الْعِـرَاقِ مَـوَاسِـمٌ ... كَـانَـتْ تُقَـامُ لِطِيبِهَـا الأَسْـوَاقُ

فَلَئِـنْ بَكَـتْ عَيْنِـي دَمـاً شَـوْقـاً إِلَـىٰ ... ذَاكَ الـزَّمَـانِ فَمِثْلُـهُ يُشْتَـاقُ

أَيْـنَ الْمَصَـابِيـحُ الأُلَـىٰ لَـوْلاَهُـمُ ... مَـا كَـانَ طَعْـمُ هَـوَى الْجَمَـالِ يُـذَاقُ

شَنُّـوا الإِغَـارَةَ فِـي الْقُلُـوبِ بِـأَعْيُـنٍ ... لاَ يُـرْتَجَـىٰ لأَسِيـرِهَـا إِطْـلاَقُ

وَاسْتَعْـذَبُـوا مَـاءَ الْعُيُـونِ فَعَـذَّبُـوا الْـ ... ـعُشَّـاقَ حَتَّـىٰ دَرَّتِ الآمَـاقُ

وَنَمَـى الْحَـدِيـثُ بِـأَنَّهُـمْ نَـذَرُوا دَمِـي ... أَوَلِـي دَمٌ يَـوْمَ الْفِـرَاقِ يُـرَاقُ ؟!

---

(١) الرمس : القبرُ .

(٢) وجبَ القلبُ : اضطربَ .



ومِنَ القِحَّةِ[1] ما رُوِيَ عَنِ الحسنِ البصريِّ : أَنَّ مِنَ الأدبِ أَلاَّ يُعزَّى الرجلُ في زوجتِهِ . وما رُوِيَ : أَنَّ عبدَ اللهِ بنَ زيادٍ سأَلَ أَبا بكرَةَ عَنْ موتِ الأَهلِ ، فقالَ : موتُ الأَبِ قاصمةُ الظهرِ ، وموتُ الولدِ صدعٌ في الفؤادِ ، وموتُ الأَخِ قَصُّ الجناحِ ، وموتُ الزوجةِ حزنُ ساعةٍ . . فإنَّه أَنكرُ وأَقبحُ ممَّا سبقَ مِنْ قولِ زهيرِ بنِ جنابٍ ، ومخالفٌ معَ ذلكَ لفحوىٰ قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] ؛ إِذْ كيفَ السُّلوانُ يكونُ لمنْ ذهبَ معَ إِلفِهِ السكونُ ؟

[شدة وفاء النبي صلى الله عليه وسلم للسيدة خديجة]

ولقد كانَ حزنُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ علىٰ خديجةَ شديداً ، بآيةِ أَنَّهُ سمَّىٰ عامَ موتِها عامَ الحزنِ ، وكانَتْ لا تخرجُ عَنْ لسانِهِ مدَّةَ حياتِهِ ، حتَّىٰ غارَتْ عائشةُ مِنْ ذلكَ ، فقالَتْ يوماً : ما تَذْكُرُ مِنْ عجوزٍ حمراءِ الشدقينِ ، قد هلكَتْ في غابرِ الدهرِ ، وأَبدلَكَ اللهُ خيراً منها ، قالَ : « ما أَبدَلَنِيَ اللهُ خَيْراً مِنْهَا ، لَقَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِيَ النَّاسُ ، وصدَّقَتْنِي حِينَ كَذَّبَنِيَ النَّاسُ ، وأَشْرَكَتْنِي فِي مَالِهَا حِينَ حَرَمَنِيَ النَّاسُ ، وَرَزَقَنِيَ اللهُ مِنْهَا الْوَلَدَ ، وَحَرَمَنِي وَلَدَ غَيْرِهَا »[2] .

وإِنْ كانَ ليذبحُ الشاةَ فيبعثُ بها في خلائِلِهَا ، وتدخلُ عليهِ العجوزُ الشوهاءُ فينعمُ الإِقبالَ عليها ، والتفتُّحَ لها ، ويسأَلُها عَنْ كلِّ كبيرٍ وصغيرٍ مِنْ شأْنِهَا ، ويقولُ : « إِنَّها كَانَتْ تَأْتِينَا فِي أَيَّامِ خَدِيجَةَ ، وإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ »[3] .

وكانَتْ لَهُ عيبةَ نُصْحٍ[4] ، ووزيرة صدقٍ ، وكانَ لا يسمعُ ما يَسوؤُهُ . . إِلاَّ فرَّجَ اللهُ بها عنهُ ، فتثبِّتُهُ وتصدِّقُهُ ، وتخفِّفُ عنهُ ، وتهوِّنُ عليهِ ما يَلقىٰ مِنْ قومِهِ ، وتشجِّعُهُ على المضيِّ في سبيلِ ما هوَ بصددِهِ .

عَلَىٰ أَنَّنَا لاَ نَدَّعِي أَنَّ جِنْسَهَا ... سَوَاءٌ فَفَرْقٌ بَيْنَهُنَّ بَعِيدُ
فَمِنْهُنَّ جَنَّاتٌ تَفِيءُ بِظِلِّهَا ... وَمِنْهُنَّ نِيرَانٌ لَهُنَّ وَقِيدُ[5]

[رثاء المؤلف لزوجته الأولىٰ]

وما أَحسنَ ما قلتُ مِنْ قصيدةٍ رَثيتُ بها أَوَّلَ زوجٍ لي ماتَتْ : [مِنَ الكاملِ]

فَقْدُ الأَلِيفِ هُوَ الْغَرَامُ وَإِنَّمَا ... يَدْرِي بِهِ أَهْلُ الْوَفَا أَمْثَالِي

وذلكَ أَنَّهُ لا يتأَثَّرُ بالفراقِ إِلاَّ أَهلُ النفوسِ الكريمةِ ، أَلاَ ترىٰ أَنَّكَ لو ربطتَ حماراً بجانبِ فرسٍ ، ثُمَّ فرَّقتَ بينهُمَا فإِنَّ الحمارَ لا يتأَثَّرُ ولكنَّ الفرسَ تكثرُ الحنينَ .

[أَلأم بيت قالته العرب]

وقد قالوا : إِنَّ أَلأَمَ بيتٍ قالتهُ العربُ . . قولُ إِبراهيمَ بنِ العبَّاسِ الصوليِّ ، أَو مسلمِ بنِ الوليدِ ، على اختلافٍ في

(١) القِحَّةُ : العيبُ الشديدُ ، أَوِ الوقاحَةُ .

(٢) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها الإمام أحمد في « مسنده » (٢٤٨٦٤) والطبراني في « الكبير » (٢٣/ ٢٢) ، وبنحوه عند البخاري (٣٨٢١) تعليقاً ، ومسلم (٢٤٣٧) في فضائل الصحابة . حمراء الشدقين : أي سقطت أسنانها لكبر سنها حتىٰ ظهرت الحمرة في شدقها .

(٣) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها الحاكم في « مستدركه » (١/ ٦٢) والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩١٢٢) .

(٤) العَيبةُ : أصحابُ السرِّ .

(٥) البيتان من الطويل .



الروايةِ [الأبيات في « ديوان الحماسة » ١/ ٩٨] : [مِنَ البسيطِ]

لاَ يَمْنَعَنَّـكَ خَفْـضَ الْعَيْـشِ فِـي دَعَـةٍ ... نُـزُوعُ نفـسٍ إِلَـىٰ أَهْـلٍ وَأَوْطَـانِ

تَلْقَـىٰ بِكُـلِّ بِـلاَدٍ إِنْ أَقَمْـتَ بِهَـا ... أَهْـلاً بِـأَهْـلٍ وَجِيـرَانـاً بِجِيـرَانِ

[اقتداء المتنبي به]

ولَئِنْ اقتفاهُ الناظمُ في مثلِ **قولهِ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٢٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا بَلَـدُ الإِنْسَـانِ غَيْـرُ الْمُـوَافِـقِ ... [وَلاَ أَهْلُـهُ الأَدْنَـوْنَ غَيْـرُ الأَصَـادِقِ]

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢١٢] : [مِنَ المنسرحِ]

فِـي سَعَـةِ الْخَـافِقَيْـنِ مُضْطَـرَبٌ ... وَفِـي بِـلاَدٍ مِـنْ أُخْتِهَـا بَـدَلُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٩١] : [مِنَ الطَّويلِ]

غَنِـيٌّ عَـنِ الأَوْطَـانِ لاَ يَسْتَفِـزُّنِـي ... إِلَـىٰ بَلَـدٍ سَـافَـرْتُ عَنْـهُ إِيَـابُ

[تكفيره عن نفسه]

. . فقد كَفَّرَ عن كلِّ سيِّئَةٍ زلفَها في هـٰذا السبيلِ ببيتِهِ الَّذي هوَ كالغُرَّةِ الشادِخَةِ مِنَ الكَمْتِ[1] ، أَوِ القرحةِ[2] الواضحةِ مِنَ الدُّهْمِ ، أَلا وهوَ **قولُهُ** [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٨٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

خُلِقْـتُ أَلُـوفـاً لَـوْ رُدِدْتُ إِلَـى الصِّبَـا ... لَفَـارَقْـتُ شَيْبِـي مُـوجَـعَ الْقَلْـبِ بَـاكِيَـا[3]

[الحكمة عند أمية بن أبي الصلت]

وقالَ أُميَّةُ بنُ عبدِ العزيزِ ابنِ أَبي الصَّلْتِ الدانيُّ الأَندلسيُّ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا كَـانَ أَصْلِـي مِـنْ تُـرَابٍ فَكُلُّهَـا ... بِـلاَدِي وَكُـلُّ الْعَـالَمِيـنَ أَقَـارِبِـي

وَلاَ بُـدَّ لِـي أَنْ أَسْـأَلَ الْعِيـسَ حَـاجَـةً ... تَشُـقُّ عَلَـىٰ شُـمِّ الـذُّرَىٰ وَالْغَـوَارِبِ[4]

فَأصابَ في الثاني ، وأَخطأَ في الأَوَّلِ .

[من لزوميات المؤلف]

ومِنْ لُزوميَّاتي [كما في « ديوانِ المؤلِّف » ق ٤٥ـ٤٦] : [مِنَ البسيطِ]

مَا إِنْ تَذَكَّرْتُ مِنْ دَهْرِي الَّذِي انْصَرَمَا ... إِلاَّ وَأَذْكَـىٰ بِـأَحْشَـائِـي الْجَـوَىٰ ضَـرَمَـا

وَلَـوْ مَضَـىٰ رَغَـدٌ فِـي الْعَيْـشِ أَنْـدُبُـهُ ... أَوْ لَـوْ عَلِمْـتُ الَّـذِي أَرْثِـي فَـلاَ جَـرَمَـا

لَكِنَّنِـي لَـمْ أَزَلْ مُـذْ كُنْـتُ فِـي مِحَـنٍ ... قَبْـلَ الْكُهُـولَـةِ سَـاقَـتْ لِلْقُـوَى الْهَـرَمَـا

---

(١) **الغرةُ الشادخةُ** : البيضاءُ الواسعةُ . **الكَمْتُ** : الفرسُ الذي لونهُ بينَ الأحمرِ والأسودِ .

(٢) **الأقرحُ** : الذي في جبهتِهِ بياضٌ بقدرِ الدرهمِ فما دونهُ .

(٣) قال الواحديُّ في شرحِ « ديوان المتنبي » : هـٰذا البيتُ رأسٌ في صحَّةِ الأُلف ، وذلكَ أنَّ كلَّ واحدٍ يتمنَّىٰ مفارقَةَ الشيبِ . أمَّا هو فيقول : لو فارقت شيبي إلى الصِّبا . لبكيتُ عليهِ ؛ لإلفي إيَّاهُ إذْ خُلقتُ أَلُوفاً .

(٤) **الغواربُ** : جمع غارب ، وهو الأعلىٰ من كلِّ شيءٍ .

فَكَّرْتُ فِي مُقْتَضَىٰ هَـٰذَا الْحَنِينِ فَلَمْ … أَعْـرِفْـهُ لاَهُـمَّ إِلاَّ الإِلْـفَ وَالْكَـرَمَـا[1]

إِنَّ الْكَـرِيـمَ حَنُـونٌ كَيْـفَ كَـانَ كَمَـا … أَنَّ اللَّئِيـمَ إِذَا اسْتَغْنَـى امْتَلَـىٰ وَرَمَـا

وَرُبَّمَـا اسْتَشْعَـرَتْ نَفْسُ اللَّبِيبِ عَلَىٰ … غِلْظِ الْحِجَابِ بِأَنْ قَدْ فَارَقَتْ حُرُمَا

جَـاءَتْ مِـنَ الْمَـلأِ الأَعْلَـىٰ مُـدَبِّـرَةً … لِلْجِسْـمِ وَالْعُـودُ مَضْمُـونٌ إِذَا انْخَـرَمَـا

ولا أَضجرُ بما ليَ في هـٰذا الموضوعِ مِنَ الأَشعارِ ، فإِنَّها كثيرةٌ جدّاً .

[دموع الأسف في ديوان السيد الحداد]

وما أَرقَّ نسيمَ مولانا عبدِ اللهِ بنِ علويٍّ الحَدّادِ ؛ فإِنَّ « ديوانَهُ » ممتلِىءٌ بدموعِ الأَسفِ علىٰ فراقِ الأَحبابِ ، حتَّىٰ لقد كانَ جَدِّي المحسنُ يسمِّيهِ : النائِحةَ الثكلىٰ ، ومِنْ ذلكَ قولُهُ فِي رثاءِ زوجِهِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلاَ تَنْـسَ مَـا بَيْـنَ الْقُبُـورِ بِـزِنْبِـلٍ … لِقَبْـرٍ بِقَلْبِـي ذِكْـرُهُ قَـطُّ لاَ يُنْسَـىٰ

تَضَمَّـنَ إِلْفـاً صَـالِحـاً وَمُبَـارَكـاً … فَـأَكْـرِمْ بِـهِ قَبْـراً وَأَكْـرِمْ بِـهِ رَمْسَـا

دَفَنْـتُ بِـهِ مَـنْ فِيـهِ رُوحِـي وَرَاحَتِـي … فَعَـادَ أَغَـضُّ الْعَيْـشِ مِـنْ بَعْـدِهِ يَبْسَـا

فَيَـا رَحْمَـةَ الـرَّحْمَـٰنِ زُورِيـهِ وَاعْكُفِـي … عَلَـىٰ قَبْـرِهِ حَتَّـىٰ تَطِيبِـي لَـهُ نَفْسَـا

وَقُـولِـي لَـهُ : إِنَّـا عَلَـى الْعَهْـدِ وَالْـوَفَـا … وَإِنَّ الْفَنَـا قَـدْ عَمَّـمَ الْجِـنَّ وَالإِنْسَـا

[قصائد للمؤلف في رثاء ولده بصري والبكاء عليه]

ولاَ أَلُومُ سليمانَ بنَ عبدِ الملكِ ، إِذْ لاذَ بالدموعِ حينَ كادَ ينفطرُ قلبُهُ علىٰ ولدِهِ أَيُّوبَ ، فقد ذُقْتُ مثلَهُ علىٰ ولدي بصريٍّ ، وأَكثرتُ فيهِ مِنَ المراثِي ، كَمَا عُلِمَ ممَّا مرَّ ، وقلْتُ [كما في « ديوان المؤلف » ق ٩٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا زَالَ حَـرْبٌ بَيْـنَ صَبْـرِي وَرَحْمَتِـي … وَإِنِّـي لَـرَاجٍ فِيهِمَـا كَـامِـلَ الأَجْـرِ

وَقَـدْ أَنْكَـرُوا فِعْـلَ الْفُضَيْـلِ وَمَشْيَـهُ … لِـدَفْـنِ ابْنِـهِ فِـي حِبْـرَةٍ ضَـاحِـكَ الثَّغْـرِ[2]

وَخَيْـرُ الْـوَرَىٰ فِـي غَيْـرِ مَـا مَـوْقِـفٍ ذَرَىٰ … وَبَـلَّ الثَّـرَىٰ دَمْعـاً يَفُـوقُ عَلَـى الـدُّرِّ

لَـــهُ وَلأُمِّ الْمُـــؤْمِنِيـــنَ وَصِهْـــرِهِ … وَسِبْطَيْـهِ وَالـزَّهْـرَا صَـلاَةٌ بِـلاَ حَصْـرِ

ولا أَزالُ أَتمثَّلُ بقولِ ديكِ الجنِّ [في « ديوانه » ٩٣] : [مِنَ الكامِلِ]

لَـوْ كَـانَ يَـدْرِي الْمَيْـتُ مَـاذَا بَعْـدَهُ … بِـالْحَـيِّ مِنْـهُ بَكَـىٰ لَـهُ فِـي قَبْـرِهِ

غُصَـصٌ تَكَـادُ تَفِيـضُ مِنْهَـا نَفْسُـهُ … وَيَكَـادُ يَخْـرُجُ قَلْبُـهُ مِـنْ صَـدْرِهِ

وقولِ العُذريِّ [عروةَ بنِ حزامٍ في « ديوانه » ٣٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

كَـأَنَّ قَطَـاةً عُلِّقَـتْ بِجَنَـاحِهَـا … عَلَـىٰ كَبِـدِي مِـنْ شِـدَّةِ الْخَفَقَـانِ

---

(١) **لاهُمَّ** : لغة في (اللَّهمَّ) .

(٢) **الفُضَيلُ** : هو الفضيل بن عياض ، والأمر الذي أنكروه عليه هو ما رواه القشيري في « الرسالة » (١/ ٨٥) قال : قال أبو علي الرازي : صحبت الفضيل ثلاثين سنة ، ما رأيته ضاحكاً ، ولا متبسماً . . إلا يوم مات ابنه علي ، فقلت له في ذلك !! فقال : إن الله أحبَّ أمراً فأحببت ذلك الأمر .

وقولِ الآخرِ : [مِنَ المنسرحِ]

كَــأَنَّ قَلْبِــي إذَا تَــذَكَّــرَهُ ... فَــرِيسَــةٌ بَيْــنَ سَــاعِــدَيْ أَسَــدِ

وإنِّي وإنْ كنتُ قليلَ الزِّيارَةِ لهُ كَما قُلْتُ مِنَ اللاَّمِيَّةِ [كما في « ديوان المؤلف » ق ٩٨] : [مِنَ الوافرِ]

بِــوُدِّي أَنْ أَزُورَكَ كُــلَّ يَــوْمٍ ... فَقَــلَّ عَلَــىٰ زِيَــارَتِــكَ احْتِمَــالِــي

إِذَا عَــايَنْــتُ قَبْــرَكَ كَــادَ قَلْبِــي ... يَطِيــرُ فَــأَنْثَنِــي لاَ عَــنْ مَــلاَلِ

فكلَّما رأيتُهُ تمثَّلَ لي قولُ المعرّيِّ [في « سقط الزند » ٦٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَــوَاْ قَبْــرُ! وَاهِ مِــنْ تُــرَابِــكَ لَيِّنــاً ... عَلَيْــهِ وَآهِ مِــنْ جَنَــادِلِــكَ الْخُشْــنِ[1]

لأَطْبَقْــتَ إِطْبَــاقَ الْمَحَــارَةِ جَفْنَهَــا ... بِلُــؤْلُــؤَةِ الْمَجْــدِ الْجَــدِيــرَةِ بِــالْخَــزْنِ

وقولُ الآخرِ [مقاتل بن عطية كما في « المستطرف » ٢/ ٥٩٢] : [مِنَ البسيطِ]

كَــانَ الْــوَزِيــرُ نِظَــامُ الْمُلْــكِ جَــوْهَــرَةً ... مَكْنُــونَــةً صَــاغَهَــا الْبَــارِي مِــنَ الشَّــرَفِ

عَــزَّتْ فَلَــمْ تُــدْرِكِ الأَيَّــامُ قِيمَتَهَــا ... فَــرَدَّهَــا غَيْــرَةً مِنْــهُ إِلَــى الصَّــدَفِ

وشيءٌ مِنْ هٰذا لا يخالفُ قولَ معنِ بنِ أَوسٍ يَمدحُ ابنَ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما [في « شعره وحياته » ١٦٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وإِنَّــكَ فَــرْعٌ مِــنْ قُــرَيْــشٍ وَإِنَّمَــا ... تَمُــجُّ النَّــدَا مِنْهَــا الْبُحُــورُ الْفَــوَارِعُ

ثَــوَوْا قَــادَةً لِلنَّــاسِ بَطْحَــاءُ مَكَّــةٍ ... لَهُــمْ وَسِقَــايَــاتُ الْحَجِيــجِ الــدَّوَافِــعُ

وَلَمَّــا دُعُــوا لِلْمَــوْتِ لَــمْ تَبْــكِ مِنْهُــمُ ... عَلَــىٰ حَــادِثِ الــدَّهْــرِ الْعُيُــونُ الــدَّوَامِــعُ

ولا ما سبقَ في المجلسِ الثالثِ مِنْ قَولِ أَبي الهيذامِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنَّــا أُنَــاسٌ مَــا تَفِيــضُ عُيُــونُنَــا ... عَلَــىٰ هَــالِــكٍ مِنَّــا وَإِنْ قَصَــمَ الظَّهْــرَا

ولا ما مرَّ أَواخرَ المجلسِ السادسِ مِنْ قَولِ بَشَامةَ بنِ حَزنٍ : [مِنَ البسيطِ]

وَلاَ تَــرَاهُــمْ وَإِنْ جَلَّــتْ مُصِيبَتُهُــمْ ... مَــعَ الْبُكَــاةِ عَلَــىٰ مَــنْ مَــاتَ يَبْكُــونَــا

وقولِ الأَميرِ تميمِ بنِ المُعزِّ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَبِــي كُــلُّ مَــا يُبْكِــي الْعُيُــونَ أَقَلُّــهُ ... وَإِنْ كُنْــتُ مِنْــهُ دَائِمــاً أَتَبَسَّــمُ

وإنَّما هوَ مِنْ قَبيلِ التداوي بإرسالِ الدموعِ في الخَلا ، حَسَبَما قرَّرْناهُ ، وذَكرنا الشواهدَ عليهِ في المجلسِ السادسِ .

[التداوي بإرسال الدموع]

وما زالتِ الأَشرافُ تنفثُ بما لا بأْسَ فيهِ خشيةَ أَنْ تتفطَّرَ القلوبُ ، وتتقطَّعَ الأَكبادُ ، ولكنَّها تحرِصُ جهدَها علىٰ أَنْ لا يشعرَ الناسُ بذلكَ ؛ ولهٰذا يقولُ امرؤُ القيسِ [في « ديوانه » ٧٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

ظَلِلْــتُ رِدَائِــي فَــوْقَ رَأْسِــيَ حَــاسِــراً ... أَعُــدُّ الْحَصَــىٰ مَــا تَنْقَضِــي عَبَــرَاتِــي

---

(١) الجنادِلُ : الحِجارَةُ .

وَقالَ أَبُو فراسٍ [في « ديوانه » ١٤٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا اللَّيْلُ أَضْوَانِي بَسَطْتُ يَدَ الْهَوَىٰ وَأَذْلَلْتُ دَمْعاً مِنْ خَلَائِقِهِ الْكِبْرُ[١]

[الحرص على التكتم بالبكاء]

وممَّا يؤكِّدُ حِرصَهُم على التجلُّدِ والتكتُّمِ بالبكاءِ متى اضطُرُّوا إِليهِ . . قولُ المجنونِ [في « ديوانه » ٢٩٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَبْكَيْتُمَانِي بَيْنَ صَحْبِي وَلَمْ أَكُنْ أُبَالِي دُمُوعَ الْعَيْنِ لَوْ كُنْتُ خَالِيَا

فإِنَّهُ معَ مضربِ المثلِ بهِ في الوجدِ والهُيَامِ لا يزالُ يُؤْثِرُ التستُّرَ ، ويتكلَّفُ التجلُّدَ .

وخيرٌ مِنْ ذلكَ كلِّهِ . . ما اقتصَّهُ اللهُ جلَّ ذِكرهُ علينا مِنْ حالِ سيِّدِ المفجوعينَ في قولِهِ : ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٨٤] فقد أبَتْ لهُ الشهامةُ أَنْ يظهَرَ أمامَ ولدِهِ بمظهَرِ الحزنِ حتَّىٰ فارقَهُم وتولَّىٰ عنهُم .

[الفناء عن الناس عند السادة الصوفية]

أَمَّا ما يؤْثَرُ عنِ السَّادَةِ الصوفيَّةِ مِنَ الفَناءِ في المحبَّةِ عنِ النَّاسِ . . فإِنَّهُ لونٌ آخرُ ، ومنهُ قولُ سلطانِ العاشقينَ [في « ديوانه » ٤٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَأَبْثَثْتُهَا مَا بِي وَلَمْ يَكُ حَاضِرِي رَقِيبٌ بَقَا حَاظٍ بِخَلْوَةِ جَلْوَةِ[٢]

[الفرزدق يرثي ولده وأم ولده]

وأَمَّا قولُ الفرزدقِ [في « ديوانه » ٢/ ٨٩٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَجَفْنِ سِلَاحٍ قَدْ رُزِئْتُ فَلَمْ أَنُحْ عَلَيْهِ وَلَمْ أَبْعَثْ لَدَيْهِ الْبَوَاكِيَا
وَفِي جَوْفِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ لَوَ انَّ الْمَنَايَا أَمْهَلَتْهُ لَيَالِيَا[٣]

. . فلاَ يخلو مِنَ القسوةِ ؛ إِذْ لَمْ يذكرِ الحُزنَ ولا دمعَ العينِ جملةً ، وإِنْ لَمْ يُصرِّح بانتفائِهما ولكنَّ الشِّعرَ نظيرُ الخلوةِ يباحُ فيهِ ما يباحُ فيها ، كما قلتُ [في « ديوان المؤلف » ٦٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا فِي اقْتِصَاصِي وَاقِعَ الْحَالِ وَصْمَةٌ لَدَىٰ عَارِفِي سِرَّ الإِحَالَةِ فِي الشِّعْرِ

[القلب هو قبر الحبيب]

ومِنْ أَرَقِّ الرِّثاءِ وأَبعثِهِ للأَشجانِ ، قولُ محمَّدِ بن عبد الملكِ بنِ الزَّيَّاتِ في أُمِّ ولدِهِ [في « الأغاني » ٢٣/ ٥٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

يَقُولُ لِيَ الْخُلَّانُ : لَوْ زُرْتَ قَبْرَهَا فَقُلْتُ : وَهَلْ غَيْرُ الْفُؤَادِ لَهَا قَبْرُ ؟!

[البكاء هو الدواء]

وقولُهُ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلَا تُلْحِيَانِي إِنْ بَكَيْتُ فَإِنَّمَا أُدَاوِي بِهَٰذَا الدَّمْعِ مَا تَرَيَانِي

---

(١) أضواني : أتاني .
(٢) حاظٍ : اسمُ فاعلٍ مِن حَظِيَ ؛ أي : صاحب حظ . الجلوةُ : مِن جلوةِ العروسِ ، وهيَ : عرضُها علىٰ زوجها مجلوَّةً .
(٣) دارمٌ : هو ابن مالك بن حنظلة أبو حي من تميم وهو جد الفرزدق .

وَإِنَّ مَكَـانـاً فِـي الثَّـرَىٰ خُـطَّ لَحْـدُهُ ... لَقَـدْ كَـانَ مِـنْ قَلْبِـي بِكُـلِّ مَكَـانِـي
وَهَبْنِـي عَـزَمْـتُ الصَّبْـرَ عَنْهَـا لأَنَّنِـي ... جَلِيـدٌ فَمَـنْ بِـالصَّبْـرِ لابْـنِ ثَمَـانِ ؟
ضَعِيفُ القُـوَىٰ لاَ يَعْـرِفُ الأَجْـرَ حُسْبَـةً ... وَلاَ يَـأْتَسِـي بِـالنَّـاسِ فِـي الْحَـدَثَـانِ
أَيَـا مَـنْ أُمَنِّيـهِ الْمُنَـىٰ وَأُعِـدُّهُ ... لِعَثْـرَةِ أَيَّـامِـي وَحَـرْبِ زَمَـانِـي
وَيَـا مَـنْ إِذَا مَـا جِئْـتُ أَكْـرَمَ مَجْلِسِـي ... وَإِنْ غِبْـتُ عَنْـهُ حَـاطَنِـي وَرَعَـانِـي

[الفوادح تجفف الدموع]

وقَالَ عِزُّ الملكِ الأَميرُ المختارُ المسبِّحي يرثِي أُمَّ ولدِهِ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلا فِـي سَبِيـلِ اللهِ قَلْـبٌ تَقَطَّعَـا ... وَفَـادِحَـةٌ لَـمْ تُبْـقِ لِلعَيْـنِ مَـدْمَعَـا
أَصَبْـراً وَقَـدْ حَـلَّ الثَّـرَىٰ مَـنْ أَوَدُّهُ ؟ ... فَلِلَّـهِ هَـمٌّ مَـا أَشَـدَّ وَأَوْجَعَـا
فَيَـالَيْتَنِـي قُـدِّمْـتُ لِلْمَـوتِ قَبْلَهَـا ... وَإِلاَّ فَلَيْـتَ الْمَـوْتَ أَذْهَبَنَـا مَعَـا

والأَخيرُ شبيهٌ بقولِ التِّهاميِّ [في « ديوانه » ٤٧٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـوَاللهِ لَـوْ أَسْطِيـعُ قَـاسَمْتُـهُ الـرَّدَىٰ ... فَمُتْنَـا جَمِيعـاً أَوْ لَقَـاسَمَنِـي عُمْـرِي

وما أدري أيُّهُما أَخذَ عَنِ الآخرِ ؛ فإنَّهما مُتعاصِرانِ .

[حياة عزيزة وموت مشرف]

ويعجبني قولُ بعضِهِمْ وقد رواهُ أبو عليٍّ القاليُّ عَنِ ابنِ دُرَيدٍ عَنْ أَبي حاتمٍ السِّجستانيِّ [في « أَماليهِ »] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ فِـي سَبِيـلِ اللهِ مَـاذَا تَضَمَّنَـتْ ... بُطُـونُ الثَّـرَىٰ واسْتُـودِعَ الْبَلَـدُ الْقَفْـرُ
بُـدُورٌ إِذَا الـدُّنْيَـا دَجَـتْ أَشْـرَقَـتْ بِهِـمْ ... وَإِنْ أَجْـدَبَـتْ يَـوْمـاً فَـأَيْـدِيهِـمُ الْقَطْـرُ
حَيَـاتُهُـمُ كَـانَـتْ لأَعْـدَائِهِـمْ عَمَـىً ... وَمَـوْتُهُـمُ لِلْفَـاخِـرِيـنَ بِهِـمْ فَخْـرُ
أَقَـامُـوا بِظَهْـرِ الأَرْضِ فَـاخْضَـرَّ سَهْلُهَـا ... وَصَارُوا بِبَطْنِ الأَرْضِ فَاسْتَوْحَشَ الظَّهْرُ

[قصيدتان لتهييج العواطف]

وممَّا يحرِّكُ البلابِلَ ، ويهيِّجُ العواطِفَ ، ويثيرُ الأَشْجَانَ ، ويبعثُ الأَحزانَ قصيدةُ ابنِ زريقٍ الكاتبِ ، ونونيَّةُ ابنِ زيدونَ ، وهما مشهورتانِ .

[ابن زيدون يصبِّرُ أمه]

ويُشجِينِيْ مَا وَقَعَ لابنِ زيدونَ معَ أُمِّهِ ، وقد زَارتْهُ في سجنهِ ، وهوَ قولُهُ [في « ديوانهِ » ١١٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَمَقْتُـولَـةَ الْعَيْنَيْـنِ مَـا لَـكِ وَالِهـاً ... أَلَـمْ تُـرِكِ الأَيَّـامُ حُـرّاً قَضَـىٰ قَبْلِـي(١)
أَقِلِّـي بُكَـاءً لَسْـتِ أَوَّلَ حُـرَّةٍ ... طَوَتْ بِالأَسَىٰ كَشْحاً عَلَىٰ مَضَضِ الثُّكْلِ(٢)
وَفِـي أُمِّ مُـوسَـىٰ عِبْـرَةٌ إِذْ رَمَـتْ بِـهِ ... إِلَى الْيَمِّ فِي التَّابُوتِ فَاعْتَبِرِي وَاسْلِي

---

(١) والهاً : الشديدةُ الحزنِ علىٰ فقدِ وَلَدِها .

(٢) طوىٰ كشحهُ : أضمرَ وسترَ ما في قلبهِ .



وَللهِ فِينَـا عِلْـمُ غَيْـبٍ وَحَسْبُنَـا بِهِ عِنْدَ جَوْرِ الدَّهْرِ مِنْ حَكَمٍ عَدْلِ

[إشارة إلىٰ مراثي الشيخ محمد عبده]

ورأيتُ ما قيلَ في رثاءِ العلاَّمةِ الجليلِ محمَّدٍ عبدُه ، ولمْ يبقَ لشيءٍ منهُ علىٰ كثرتِهِ طنينٌ بأُذُنِي سِوَىٰ مرثيَّةِ حافظٍ ، ومَطلعِ قصيدةٍ لغيرِهِ ، لا أزالُ آمرُ بعضَ الحُداةِ بتكريرِهِ ، حتَّىٰ نستفرغَ الدمعَ ، وهوَ : [مِنَ الكاملِ]

لِـمْ لاَ تُجِيبُ وَقَـدْ دَعَـوتُ مِـرَاراً يَكْفِـي سُكُـوتُـكَ أَرْبَعِيـنَ نَهَـارَا

وكثيراً ما يتندَّىٰ خدِّي مِن قولِ حافظٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

[الخطوب تعقد الألسنة]

دَعَـانِي رِفَـاقِي وَالْقَـوَافِـي مَـرِيضَـةٌ وَقَـدْ عَقَـدَتْ هُـوجُ الْخُطُـوبِ لِسَـانِـي
مَلِلْـتُ وُقُـوفِـي بَيْنَكُـمْ مُتَمَلْمِـلاً عَلَـىٰ رَاحِـلٍ فَـارَقْتُـهُ فَشَجَـانِـي
أَفِـي كُـلِّ يَـوْمٍ يَقْطَـعُ الْحُـزْنُ قِطْعَـةً مِـنَ الْقَلْـبِ إِنِّـي قَـدْ فَقَـدْتُ جَنَـانِـي
تفَـرَّقَ أَصْحَـابِـي وَأَهْلِـي وَأَخَّـرَتْ يَـدُ الْمَـوْتِ وَقْتِـي فَـانْتَظَـرْتُ زَمَـانِـي
فَمَـالِـي صَـدِيـقٌ إِنْ عَثَـرْتُ أَقَـالَنِـي وَلاَ لِـي حَبِيـبٌ إِنْ قَضَيْـتُ بَكَـانِـي

[الوحدة صعبة]

والأَخيرُ يُشبهُ قولَ عمرِو بنِ معدِيكربَ الزُّبَيْديِّ [في « ديوانهِ » ٨٢] : [مِنْ مجزوءِ الكاملِ]

ذَهَـبَ الَّـذِيـنَ أُحِبُّهُـمْ وَبَقِيـتُ مِثْـلَ السَّيْـفِ فَـرْدَا

[المفاضلة بين الشيخ أبي بكر ابن شهاب وحافظ إبراهيم]

وعلىٰ ذِكرِ حافظٍ . . تذكَّرتُ أَنِّي قلتُ مرَّةً لِشيخِنا أَبي بكرِ ابنِ شهابٍ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ : أَلَسْتَ أَشْعَرَ منهُ ؟ قالَ : لولا قولُهُ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٦١] : [مِنَ البسيطِ]

إِنِّـي أَرَىٰ وَفُـؤَادِي لَيْـسَ يَكْـذِبُنِـي رُوحـاً يَحُـفُّ بِهَـا الإِجْـلاَلُ وَالْعِظَـمُ
أَرَىٰ جَـلالاً أَرَىٰ نُـوراً أَرَىٰ مَلَكـاً أَرَىٰ مُحَيّـاً يُحَيِّيـنَـا وَيَبْتَسِـمُ
اللهُ أَكْبَـرُ هَـٰذَا الْـوَجْـهُ نَعْـرِفُـهُ هَـٰذَا فَتَـى النِّيلِ هَـٰذَا الْمُفْـرَدُ الْعَلَـمُ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٦٩] : [مِنَ البسيطِ]

كَـمْ غَـادَةٍ فِـي ظَـلاَمِ اللَّيْـلِ بَـاكِيَـةٍ عَلَـىٰ أَلِيـفٍ لَهَـا يَهْـوِي بِـهِ الطَّلَـبُ
لَـوْلاَ طِـلاَبُ الْعُـلاَ لَـمْ يَبْتَغُـوا بَـدَلاً مِـنْ طِيـبِ رَيَّـاكَ لَكِـنَّ الْعُـلاَ تَعَـبُ

[استهزاء المؤلف ببعض الثقلاء]

ثُمَّ ذَكرتُ هـٰذا بعدَ أُمَّةٍ مِنَ الزَّمانِ لجماعةٍ مِنَ الإِخوانِ ، وفي المجلسِ ثقيلٌ اعترضَ فَضْلَ القِطعةِ الأَخيرةِ ، وزعمَ أَنَّها كلامٌ عاديٌّ لا تُوضعُ اليدُ عليهِ ، ولا تُعقدُ الخناصِرُ لهُ .

فقلتُ للحاضرينَ ـ وإِلىٰ غيرِهِ يُساقُ الحديثُ ـ : أَرأَيتمْ لو أَنَّ رَجُلاً مَجْدُوراً قبيحَ المنظرةِ ، أُخيفشَ[1] ، كثيفَ اللِّحيةِ ـ وهيَ صفةُ المعترضِ ـ وجدْتُموهُ يَبكي ـ ولَو علىٰ ضَوءِ النَّهارِ ـ ويتأَلَّمُ ، ويشتكِي ويتظَلَّمُ ، أَلا تترطَّبُ لهُ خدودُكمْ ، وتهتزُّ عواطِفُكم وتُشفِقُ قلوبُكم ؟!

قالوا : بلىٰ .

قلتُ : فمَا بالُكم لو أَنَّها غادةٌ بَضَّةٌ ، كأَنَّما صِيغَتْ مِنْ فِضَّةٍ ، تغبطُها الْحُورُ ، ويحسدُها النُّورُ ، وقد شاهدْتُموها باكيةً بعبرةٍ مسفوحَةٍ ، وكبدٍ مقروحَةٍ ، وحشَىً رَجَّافٍ ، وقلبٍ وَجَّافٍ ، أَلاَ يكونُ أَبْعَثَ لخشوعِكُم ، وأَذْرَفَ لدموعِكُم ؟

قالُوا : بلَىٰ .

قلتُ : هـٰذا معَ عدمِ العلمِ بالسببِ ، فأَمَّا إِذا علمْتُم بِأَنَّ ما عندَها مِنَ الاحتِراقِ . . نشأَ عنِ الافتِرَاقِ ، وأَنَّهُ هو الَّذي أَقضَّ مهدَها ، وبلغَ جُهدَها ، وأَذاقَها الصَّابَ[2] ، وجرَّعَها الأَوصابَ[3] ، ما مبلغُ حنانِكُم يكونُ ؟! فأَنَّىٰ تُؤْفكونَ ؟

فأَكثَروا مِنَ الاسترجاعِ ، وظهرتْ عليهمُ الأَوْجَاعُ .

قلتُ : وأَيضاً ، فإِنَّها تقاسي الآلامَ في جُنحِ الظَّلامِ ، بلا جليسٍ يَبُلُّ لوعةً ، ولا أَنيسٍ يَسُلُّ روعةً ، وأَعظمُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ اعتلاجُ جوفِها بينَ رجائِها وخوفِها ، فالأَملُ يَنشُرُ ، واليأْسُ يطوي ، إِذِ الطلبُ لا يزالُ بصاحبِها يهوي ، لَمْ يَقِرَّ لَهُ قرارٌ بعدُ ، ولم تدرِ ماذا يتلقَّاهُ ، نحسٌ أَو سعدٌ ، فكأَنَّما ذلِكَ القلبُ الحائرُ معلَّقٌ في جناحِ طائرٍ .

فقالوا : رويدَكَ ، فإِنَّ الحزنَ تأَثُّلٌ ، والخيالَ تمثُّلٌ ، وشملتْهمُ الهِزَّةُ[4] ، وأَخذَتْ صاحبنا العزَّةُ .

فقلت لهُم : هـٰذا كلُّهُ في بيتِ حافظٍ ، ما لهُ مِنْ لافظٍ .

ثُمَّ إِنَّ على البيتِ سِمَةً ممَّا ذكرناهُ في غيرِ هـٰذا المجلسِ لأَبي عُبادةَ وهوَ قولُهُ [في «ديوانه» ٣/١٩٤١] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَـدَانَـتْ مَنَـايَـاهُـمْ بِهِـمْ وَتَبَـاعَـدَتْ مَضَـاجِعُهُـمْ عَـنْ تُـرْبِـكَ الْمُتَنَسَّـمِ

[من محاسن البحتري]

وذكرتُ بهِ بيتاً آخرَ لأَبي عُبادةَ لا يُناسِبُ الموضوعَ كثيراً ، وَلكنَّهُ معدودٌ مِنْ محاسِنِ البُحتريِّ ، وهوَ قولهُ : [مِنَ البسيطِ]

قَلْـبٌ يُطِـلُّ عَلَـىٰ أَفْكَـارِهِ وَيَـدٌ تُمْضِـي الأُمُـورَ وَنَفْـسٌ لَهْـوُهَـا التَّعَـبُ[5]

[الناس في الفراق]

والحاصلُ ممَّا مرَّ في شأْنِ الفراقِ : أَنَّ الناسَ علىٰ قسمينِ :

---

(١) الأَخفشُ : هوَ الذي يبصرُ بالليل دونَ النَّهار ، أَو هوَ فسادٌ في الجفون بلا وجعٍ .

(٢) الصابُ : عصارةُ شجرٍ مرٍّ ، إذا أصابتِ العينَ أتلفتها .

(٣) الوصب : الوجعُ والمرضُ .

(٤) الهزة ـ بالكسر ـ : النشاط والارتياح .

(٥) عَدُّوا هـٰذا البيت من محاسن البُحتري ؛ لأن قوله : (قلب يطل علىٰ أفكاره . . .) من الكلمات الجوامع ، ومراده بذلك : أن قلبه لا تملؤه الأفكار ولا تحيط به ، وإنما هو عالٍ عليها . يصف بذلك عدم احتفاله بالقوادح ، وقلة مبالاته بالخطوب التي تحدث أفكاراً تستغرق القلوب . « المثل السائر » (٦٦/١) .



[١ـ قسم ينسىٰ مع الزمن]

منهُم : مَنْ ينسىٰ حبيبَهُ لمرورِ الأَيَّامِ .

[٢ـ قسم لا ينسىٰ]

ومنهُم : مَنْ لا ينساهُ إِلىٰ يومِ القيامِ .

[٣ـ قسم متردد]

ويبقىٰ قسمٌ ثالثٌ علىٰ شكٍّ مِنْ أَمرِهِم ، منهُم ابنُ ميَّادَةَ في قولِهِ [في « ديوانه » ٧٢ـ٧٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأُشْفِـقُ مِـنْ وَشْـكِ الْفِـرَاقِ وَإِنَّنِـي ... أَظُـنُّ لَمَحْمُـولٌ عَلَيْـهِ فَـرَاكِبُـهْ

فَـوَاللهِ مَـا أَدْرِي أَيَغْلِبُنِـي الْهَـوَىٰ ... إِذَا جَـدَّ جِـدُّ الْبَيْـنِ أَمْ أَنَـا غَـالِبُـهْ

وكُثيِّرٌ في قولِهِ [في « ديوانه » ٤٠٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـوَاللهِ مَـا يَـدْرِي كَـرِيـمٌ مُمَـاطَـلٌ ... أَيَنْسَـاكِ إِذْ بَـاعَـدْتِ أَمْ يَتَصَـدَّعُ

وأَخذهُ ابنُ أبي أُميَّةَ فزادهُ إِحساناً ، إِذ يقولُ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَدَيْتُكَ لَمْ تَشْبَعْ وَلَمْ تَرْوَ مِنْ هَجْرِي ... أَيُسْتَحْسَـنُ الْهِجْـرَانُ أَكْثَـرَ مِـنْ شَهْـرِ

أَرَانِـي سَـأَسْلُـو عَنْـكَ إِنْ دَامَ مَـا أَرَىٰ ... بِـلاَ ثِقَـةٍ لَكِـنْ أَظُـنُّ وَلاَ أَدْرِي

[لا يحل هجر فوق ثلاث]

وقولُهُ : (مِنْ شَهْرِ) ممَّا تفرَّدَ بهِ ، وما حملهُ علىٰ ذلكَ إِلاَّ مجيئُهُ في طريقِ الْقافيةِ ، وإِلاَّ فقدِ اقتصرتِ السُّنَّةُ[1] علىٰ ثلاثٍ إِذا كانَ لغيرِ سببٍ ، وإِلاَّ فإِلىٰ ما شاءَ اللهُ ، وعليهِ تُحمَلُ مُهاجرةُ السلفِ الطيِّبِ ، علىٰ أَنَّ الهيتَميَّ يقولُ في « **تحفتهِ** » قالَ بعضُ شُرَّاحِ « **البخاريِّ** » : وإِنَّمَا يَحرُمُ هجرٌ أَكثرَ مِنَ الثلاثِ . إِنْ واجهَهُ ولم يكلِّمْهُ ـ حتَّىٰ بالسلامِ ـ أَمَّا لو لم يواجِهْهُ . فلا حُرمةَ ، وإِنْ مكثَ سنينَ ، وهوَ ظاهرٌ اهـ .

وفيهِ سَعَةٌ كبرىٰ لِمَا يقعُ بينَ السلفِ الصالحِ رضوانُ اللهِ عليهِمْ .

وما أَشبهَ هـٰذا الشاعرَ في قولِهِ : (أَكْثَرَ مِنْ شَهْرِ) بذلكَ الخطيبِ الذي قالَ : إِنَّ اللهَ خلقَ السمَاواتِ والأَرضَ في ستَّةِ أَشهرٍ ، فقالوا لهُ : إِنَّها ستَّةُ أَيَّامٍ ، فقالَ : أَمَا واللهِ لقد قلتُها وأَنا أَتقالُّها ، ففرَّجتُم عنِّي .

[شعراء من القسم الثاني]

وممَّا يتعلَّقُ بالقسمِ الثاني مِنَ النَّاسِ قولُ ابنِ مُطيرٍ [في « ديوانهِ » ٦٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

قَضَـى اللهُ يَـا أَسْمَـاءُ أَنْ لَسْـتُ بَـارِحـاً ... أُحِبُّـكِ حَتَّـىٰ يُغْمِـضَ الْعَيْـنَ مُغْمِـضُ

وقولُ بشَّارٍ [في « ديوانه » ٤/ ١٢٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكَيْـفَ تَنَـاسِـي مَـنْ كَـأَنَّ حَـدِيثَـهُ ... بِـأُذْنِـي وَإِنْ غُيِّبْـتُ قُـرطٌ مُعَلَّـقُ ؟

---

(١) وذلك كما في الحديث الذي رواه عن أبي أيوب رضي الله عنه البخاري (٦٠٧٧) في (الأدب) ، ومسلم (٢٥٦٠) في (البر والصلة) ، عن رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أنه قال : « لا يحلُّ لرجلٍ أَنْ يهجرَ أخاه فوق ثلاث ليالٍ ، يلتقيان فيعرض هـٰذا ، ويعرض هـٰذا وخيرهما الذي يبدأ صاحبه بالسلام » .

وقالَ الأعمى الثاني [في « سقطِ الزندِ » ١٥٩] : [مِنَ البسيطِ]

لاَ أَنْسَيَنَّكِ إِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِنَا وَكَمْ حَبِيبٍ تَمَادَىٰ عَهْدُهُ فَنُسِي[١]

وقالَ ابنُ حَيُّوسٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَحَسَّنْتُمَا لِي سَلْوَةً وَتَنَاسِياً وَلَمْ تَذْكُرَا كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَيْهِمَا

وقالَ المعريُّ أيضاً [في « سقطِ الزند » ٢١٤ـ٢١٥] : [مِنَ الطويلِ]

وَلِي حَاجَةٌ عِنْدَ الْعِرَاقِ وَأَهْلِهِ فَإِنْ تَقْضِيَاهَا فَالْجَزَاءُ هُوَ الشَّرْطُ
سَلاَ عُلَمَاءَ الْجَانِبَيْنِ وَفِتْيَةً أَبَنُّوهُمَا حَتَّىٰ مَفَارِقُهُمْ شُمْطُ[٢]
أَعِنْدَهُمُ عِلْمُ السُّلُوِّ لِسَائِلٍ بِهِ الرَّكْبُ لَمْ يَعْرِفْ أَمَاكِنَهُ قَطُّ

* * *

[قالَ أبو الطَّيبِ المتنبي في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٣] : [مِنَ البسيطِ]

لَوْلاَ مُفَارَقَةُ الأَحْبَابِ مَا وَجَدَتْ لَهَا الْمَنَايَا إِلَىٰ أَرْوَاحِنَا سُبُلاَ

[شرح بيت الناظم والأقوال فيه]

قيلَ : إنَّ المرادَ بـ (**اللَّهَا**) جمعُ (لهاةٍ) ، وقيلَ : هو جارٌّ ومجرورٌ متعلّقٌ بـ (**وَجَدَتْ**) ولا حشو في ذلكَ ؛ لأنَّكَ تقولُ : ما وجدتُ سبيلاً إِلىٰ كذا ، وتقولُ : ما وجدتُ لي سبيلاً إِلىٰ كذا ، كلاهُما جارٍ في استعمالِ الفصحاءِ وأَهلِ النيْقَةِ[٣] في الكلامِ ، غيرَ أَنَّ ابنَ هشامٍ يقولُ [في « المغني » ١/ ٢٨٤] : إِنَّ فيهِ تعدِّيَ فعلِ الظاهرِ إِلىٰ ضميرِهِ المتَّصلِ ؛ كقولِكَ : (ضربَهُ زيدٌ) وذلكَ ممتنعٌ ، فينبغي أَنْ يُقدَّرَ صفةً في الأصلِ لـ (**سُبُلاً**) ، فلمَّا قُدِّمَ عليهِ صارَ حالاً منهُ ، كما أَنَّ قولَهُ : (**إِلَىٰ أَرْوَاحِنَا**) كذلكَ ؛ إِذِ الْمَعنىٰ سُبُلاً مسلوكةً إِلىٰ أَرواحِنا . انتهىٰ .

وأَقولُ : لا مانعَ من تعلُّقِها بـ (**المنايا**) ، لإِشارَتِها إِلىٰ معنى الفعلِ وتقدُّمِها رُتبةً ويسقطُ ذلكَ التكلُّفُ .

[الفراق هو الطريق إلى الموت والدليل عليه]

والبيتُ مِنْ خالصِ الشِّعرِ ومختارِ الكلامِ ، وإِنْ كانَ مأْخوذاً مِنْ قولِ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانه » ٢/ ٣١] : [مِنَ الكاملِ]

لَوْ جَاءَ مُرْتَادُ الْمَنِيَّةِ لَمْ يَجِدْ إِلاَّ الْفِرَاقَ عَلَى النُّفُوسِ دَلِيلاَ[٤]

---

(١) في المخطوط : تمادىٰ عهدي .

(٢) شرح لصاحبَيهِ حاجتَهُ وهيَ : أَن يسأَلا علماءَ (بغدادَ) هل يعلمونَ لهُ دواءً مِن الشوقِ الذي غلبَ عليهِ ، والذي لم يهتدِ إِليهِ . **والجانبانِ** : جانبا (بغدادَ) . **وأَبَنُّوهُما** : مِن أَبنَ بالمكانِ : أَي أَقامَ بهِ . **والشَّمَطُ** : بياض الشَّعر في السواد .

(٣) **أهلُ النيقةِ** : هُم المبالغونَ في تجويدِ الكلامِ .

(٤) **مرتادُ المنيَّةِ** : طالبُ الموتِ .

وقد أَخذهُ أَبو تمَّامٍ من قولِ قيسِ بنِ الملوَّحِ : [مِنَ الطَّويلِ]

لَعَمْرُكَ لَوْلاَ الْبَيْنُ مَا مَاتَ عَاشِقٌ وَلَوْلاَ الْهَوَىٰ مَا نَاحَ بِاللَّيْلِ آلِفُ

وقالَ قيسُ بنُ ذُرَيحٍ [في « ديوانهِ » ١٤٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنِّي لَمُفْنٍ دَمْعَ عَيْنَيَّ بِالْبُكَا حِذَارَ الَّذِي قَدْ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنُ
وقَالُوا غَداً أَوْ بَعْدَ ذَاكَ بِلَيْلَةٍ فِرَاقُ حَبِيبٍ لَمْ يَبِنْ وَهْوَ بَائِنُ
وَمَا كُنْتُ أَخْشَىٰ أَنْ تَكُونَ مَنِيَّتِي بِكَفَّيْكَ إِلاَّ أَنَّ مَا حَانَ حَائِنُ

وقالَ أَبو عُبادةَ [في « ديوانهِ » ٤/٢٠٨١] : [مِنَ الكاملِ]

هَلْ رَكْبُ مَكَّةَ حَامِلُونَ تَحِيَّةً تُهْدَىٰ إِلَيْهَا مِنْ مُعَنًّىً مُغْرَمِ
إِنْ لَمْ يُبَلِّغْكِ الْحَجِيجُ فَلاَ رَمَوْا فِي الْجَمْرَتَيْنِ وَلاَ سُقُوا مِنْ زَمْزَمِ
وَمُنُوا بِرَائِعَةِ الْفِرَاقِ فَإِنَّهُ سِلْمُ السُّهَادِ وَحَرْبُ نَوْمِ النُّوَّمِ

فالفِراقُ بريدُ الحِمامِ ، وفاتحةُ الأَسقامِ ، وحسبُكَ ما اتَّفقَ ليعقوبَ عليهِ السلامُ .

[ما هي صورة الفراق لو تجسَّم ؟!]

وقالَ ابنُ خَلِّكانَ [في « وفيات الأعيان » ٤/٣٧٥] : كانَ الشهرستانيُّ يَروي بسندهِ المتَّصلِ إِلى النَّظَّامِ البلخيِّ ـ العالمِ المشهورِ واسمهُ إِبراهيمُ بنُ سيَّارٍ [ت : ٢٣١ هـ] ـ أَنَّهُ كانَ يقولُ : لو كانَ للفراقِ صورةٌ . . لارتاعتْ لها القلوبُ ، وانهدت منها الجبالُ ، ولَجَمْرُ الغَضىٰ أَقلُّ توهُّجاً مِنْ حملِهِ ، ولو عذَّبَ اللهُ أَهلَ النارِ بالفراقِ . . لاستراحوا إِلىٰ ما قبلَهُ مِنَ العذابِ .

[قصة الصمة بن عبد الله وصاحبته ريا]

وكلُّ ما أَسلفناهُ مِن مصارعِ العشَّاقِ ، وشُهداءِ الأَشواقِ ، في شرحِ البيتينِ قبلَهُ . . يدخلُ في الكلامِ علىٰ هٰذا ، ونزيدُ عليهِ : حديثَ الصمَّةِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ رَقَّاشٍ التغلبيِّ وصاحبتِهِ ريَّا بنتِ مسعودِ بنِ رَقَّاشٍ ، وقد مرَّ ذروٌ[1] منهُ في المجلسينِ الأَوَّلِ والثاني ، وتمامهُ [كما في « الأغاني » ٦/١١] : أَنَّهُ لمَّا ذهبَ إِلى العراقِ بعدَ لجاجِ عمِّهِ وأَبيهِ في البعيرِ ، وقولُ ريَّا : ما رأَيتُ رجلاً أَضاعهُ أَبوهُ وعمُّهُ ببعيرٍ إِلاَّ الصمَّةَ . . أَضرَّ بهِ النوىٰ ، وأَضناهُ الجوىٰ ، وكانَ شهْماً أَديباً شجاعاً عارفاً بأَيَّامِ العربِ ، ويُذكرُ أَنَّهُ أَدركَ أَوائِلَ الإِسلامِ ، فمنعتهُ الشهامةُ أَنْ يرجعَ إِلىٰ أَهلهِ بغيرِ طلبٍ منهم ، ولم يزَلْ حتَّىٰ أَضناهُ السُّقْمُ ، وأَعيتهُ الحيلةُ ، وقدمَ أَحدُ مَذْحِجَ علىٰ مسعودٍ ، فخطبَ ريَّا بثلاثِ مئةِ ناقةٍ برُعاتِها ، فزوَّجَهُ بها فحملَهَا إِلىٰ مذحجٍ ، فبلغَ الصمَّةَ الخبرُ فاشتملَ عليهِ الفراشَ ، وقالَ قصيدتَهُ التي سبقَ شيءٌ منها ، ومنها [في « ديوانهِ » ٨٧ وما بعدُ] : [مِنَ الطَّويلِ]

حَنَنْتَ إِلَىٰ رَيَّا وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ مَزَارَكَ مِنْ رَيَّا وَشَعْبَاكُمَا مَعَا
كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَدَاعَ مُفَارِقٍ وَلَمْ تَرَ شَعْبَيْ صَاحِبَيْنِ تَقَطَّعَا

---

(١) ذروٌ : قليل .

بَكَتْ عَيْنُكَ الْيُمْنَىٰ ولَمَّا زَجَرْتَهَا ... عَنِ الْغَيِّ بَعْدَ الرُّشْدِ أَسْبَلَتَا مَعَا[1]

وَلَمَّا رَأَيْتُ البِشْرَ أَعْرَضَ دُونَنَا ... وَجَالَتْ بَنَاتُ الشَّوْقِ تَحْتِي نُزَّعَا[2]

تَلَفَّتُّ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّىٰ وَجَدْتُنِي ... وَجِعْتُ مِنَ الإِصْغَاءِ لِيتاً وأَخْدَعَا[3]

وَأَذْكُرَ أَيَّامَ الْحِمَىٰ ثُمَّ أَنْثَنِي ... عَلَىٰ كَبِدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصَدَّعَا

أَمَا وَجَلاَلِ اللهِ لَوْ تَذْكُرِينَنِي ... كَذِكْرَاكِ مَا نَهْنَهْتُ لِلْعَيْنِ مَدْمَعَا[4]

فَقَالَتْ : بَلَىٰ وَاللهِ ذِكْراً لَوَ انَّهُ ... تَضَمَّنَهُ صُمُّ الصَّفَا لَتَصَدَّعَا[5]

وقالَ [في « ديوانه » ١٣٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَرَى الدَّهْرَ بِالتَّفْرِيقِ وَالْبَيْنِ مُولَعَا ... وَلِلْجَمْعِ مَا بَيْنَ الْمُحِبِّينَ آبِيَا

فَـأُفٍّ عَلَيْهِ مِنْ زَمَانٍ كَأَنَّنِي ... خُلِقْتُ وَإِيَّاهُ نُطِيلُ التَّعَادِيَا

[موته وموتها من العشق]

ولمْ يزل يشتدُّ بِهِ البأْسُ ، ويتجاذبهُ اليأْسُ . . إِلىٰ أَن سمعَ امرأَةً تنادي بنتاً لها وتقولُ : يا ريَّا . . فخرَّ مغشياً عليهِ ، ثُمَّ أَفاقَ وقالَ [في « ديوانه » ٨٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَعَزَّ بِصَبْرٍ لاَ وَرَبِّكَ لاَ تَرَىٰ ... بُيُوتَ الْحِمَىٰ إِحْدَى اللَّيَالِي الْغَوَابِرِ

كَأَنَّ فُؤَادِي مِنْ تَذَكُّرِهِ الْحِمَىٰ ... وَأَهْلَ الْحِمَىٰ يَهْفُو بِهِ رِيشُ طَائِرِ[6]

ولمْ يزلْ يردِّدُهَا . . حتَّىٰ فاضَتْ نفسُهُ[7] .

ولمَّا اتَّصلَ نعيهُ بريَّا . . داخلَهَا مِنَ الْوَجْدِ ما منعهَا عنِ الطعَامِ والشَّرابِ ، وجعلَتْ تبكي حتَّىٰ ماتَتْ .

وقولُهُ : (تَلَفَّتُّ نَحْوَ الْحَيِّ) شبيهٌ بقولِ الآخرِ : [مِنَ الطَّويلِ]

لَحَظْنَاهُمُ حَتَّىٰ كَأَنَّ عُيُونَنَا ... بِهَا لَقْوَةٌ مِنْ شِدَّةِ اللَّحَظَانِ[8]

[مشابهته للمجنون]

وما سمعَهُ من دعاءِ المرأَةِ بنتها شبيهٌ بما نذكرهُ أَوائِلَ المجلسِ السادسَ عشرَ من قولِ المجنونِ [في « ديوانه » ١٦٣] :

[مِنَ الطَّويلِ]

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ مِنْ مِنَىٰ ... فَهَيَّجَ أَشْوَاقَ الْفُؤَادِ وَمَا يَدْرِي

---

(١) أَسبَلَتا : انهمرَ الدمعُ منهما بغزارَةٍ .

(٢) البشرُ : جبلٌ في أطرافِ (نجدٍ) من جهةِ (الشام) .

(٣) اللِّيتُ : صفحةُ العنقِ . الأخدعانِ : عِرقانِ في جانبَي العنقِ .

(٤) النهنهةُ : الكفُّ .

(٥) الصُّمُّ : الحجرُ الصلبُ . الصفا : العريضُ الأملسُ من الحجارةِ .

(٦) هَفَا الطَّائِرُ بجناحِهِ : أي خفقَ وطارَ .

(٧) انظر « الأغاني » (٨/٦) .

(٨) اللَّقوةُ : داءٌ يصابُ بِهِ الشدقُ فيعوجُّ .

دَعَا بِاسْمِ لَيْلَىٰ غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا ... أَطَارَ بِلَيْلَىٰ طَائِراً كَانَ فِي صَدْرِي

[وفاة العباس بن الأحنف عشقاً]

وقالَ أبو بكرٍ الصوليُّ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/٢٦] : قالَ أبو زكريا البصريُّ : حدَّثني رجلٌ من قريشٍ قالَ : خرجتُ حاجّاً معَ رِفقةٍ لي ، فمِلنا عنِ الطَّريقِ لنصَلِّيَ ، فجاءَ غلامٌ يقولُ : هل فيكم أحدٌ من أهلِ البصرةِ ؟ قلنَا كلُّنا مِنْ أَهلِها ، فقالَ : إنَّ مولايَ يدعوكُم فقمنَا إليهِ ، فإذا مريضٌ بآخرِ رمقٍ ، منعَنا ضعفُهُ أَنْ نسأَلَهُ عنِ اسمِهِ ، فلمَّا أحسَّ بنا . . رفعَ طرفَهُ وما كادَ ، وأنشَا يقولُ [في « ديوانِ العبَّاسِ بنِ الأحنفِ » ٢٨٧] : [مِنَ المديدِ]

يَا بَعِيدَ الدَّارِ عَنْ وَطَنِهْ ... مُفْرَداً يَبْكِي عَلَىٰ شَجَنِهْ
كُلَّمَا جَدَّ الرَّحِيلُ بِهِ ... زَادَتِ الأَسْقَامُ فِي بَدَنِهْ

ثُمَّ أُغميَ عليهِ طَويلاً ونحنُ حولَهُ ، إذ أَقبلَ طائرٌ ، فوقعَ علىٰ شجرةٍ كانَ تحتَها ، وجعلَ يغرِّدُ ، ففتحَ عينيهِ ، وجعلَ يستمعُ تغريدَ الطائرِ ، ثُمَّ أنشأَ يقولُ [في « ديوانهِ » ٢٧٨] : [مِنَ المديدِ]

وَلَقَدْ زَادَ الْفُؤَادَ شَجاً ... طَائِرٌ يَبْكِي عَلَىٰ فَنَنِهْ
شَفَّهُ مَا شَفَّنِي فَبَكَا ... كُلُّنَا يَبْكِي عَلَىٰ سَكَنِهْ

ثُمَّ تنفَّسَ نفَساً عالياً فاضتْ معهُ روحهُ ، فجهَّزناهُ ثُمَّ سأَلنا عنهُ الغلامَ ، فقالَ : إنَّهُ العباسُ بنُ الأَحنفِ ، وكانتْ وفاتُهُ سنةَ : (١٩٣ هـ) .

[رواية أخرىٰ في تاريخ وفاته]

وهـٰذا يعارضُ ما يروىٰ [في « خزانة الأدب » ١/٤٢٥] من موتهِ وموتِ الكسائيِّ وهُشَيْمَةَ الخمَّارَةِ في يومٍ واحدٍ ، وأنَّ الرشيدَ أمرَ المأمونَ أَنْ يُصَلِّيَ عليهِم ، وأنَّهُ قدَّم العبَّاسَ لقولِهِ [في « ديوانهِ » ٨١] : [مِنَ الكاملِ]

وَسَعَوْا إِلَيَّ بِهَا وَقَالُوا إِنَّهَا ... لَهِيَ الَّتِي تَشْقَىٰ بِهَا وَتُكَابِدُ
فَجَحَدْتُهُمْ لِيَكُونَ غَيْرَكِ ظَنُّهُمْ ... إِنِّي لَيُعْجِبُنِي الْمُحِبُّ الْجَاحِدُ

[الدنوُّ يفضح الأحباب]

وهوَ مثلُ قولِهِ أيضاً [في « ديوانهِ » ٧٤] : [مِنَ الكاملِ]

اللهُ يَعْلَمُ مَا أَرَدْتُ بِهَجْرِكُمْ ... إِلاَّ مُصَانَعَةَ الْعَدُوِّ الْكَاشِحِ
وَعَلِمْتُ أَنَّ تَبَاعُدِي وَتَسَتُّرِي ... أَدْنَىٰ لِوَصْلِكِ مِنْ دُنُوٍّ فَاضِحِ

وقولِهِ [في « ديوانهِ » ٩٩] : [مِنَ المتقاربِ]

سَأَهْجُرُ إِلْفِي وَهِجْرَانُهُ ... إِذَا مَا الْتَقَيْنَا صُدُودُ الْخُدُودِ
كِلاَنَا مُحِبٌّ وَلَكِنَّنَا ... نُدَافِعُ عَنْ حُبِّنَا بِالصُّدُودِ

وقولِهِ [في « ديوانهِ » ١٩٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

كَذَبْتُ عَلَىٰ نَفْسِي فَحَدَّثْتُ أَنَّنِي ... سَلَوْتُ لِكَيْلاَ يُنْكِرُوا حِينَ أَصْدُقُ

وَمَا عَنْ قِلَىً مِنِّي وَلاَ عَنْ مَلاَلَةٍ | وَلَكِنَّنِي أُبْقِي عَلَيْكِ وَأُشْفِقُ
عَطَفْتُ عَلَىٰ أَسْرَارِكُمْ فَكَسَوْتُهَا | قَمِيصاً مِنَ الْكِتْمَانِ لاَ يَتَخَرَّقُ

[كتمان الحب مخافة الواشين]

وهوَ معنىً متداولٌ بينَ الشُّعراءِ ، منهُ قولُ جميلٍ [في « ديوانهِ » ٩٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَطَرْفَكَ إِمَّا جِئْتَنَا فَاحْبِسَنَّهُ | فَزَيْغُ الْهَوَىٰ بَادٍ لِمَنْ يَتَبَصَّرُ
وَأَعْرِضْ إِذَا لاَقَيْتَ عَيْناً نَخَافُهَا | وَظَاهِرْ بِبُغْضٍ إِنَّ ذَلِكَ أَسْتَرُ
فَقُلْتُ لَهَا : يَا بُثْنُ أَوْصَيْتِ حَافِظاً | وَكُلُّ امْرِىءٍ لَمْ يَرْعَهُ اللهُ مُعْوِرُ
سَأَمْنَحُ طَرْفِي حِينَ أَلْقَاكِ غَيْرَكُمْ | لِكَيْمَا يَرَوْا أَنَّ الْهَوَىٰ حَيْثُ أَنْظُرُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٦٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَيَحْسَبُ نِسْوَانٌ مِنَ الْحَيِّ أَنَّنِي | إِذَا جِئْتُ إِيَّاهُنَّ كُنْتُ أُرِيدُ
فَأَقْسِمُ طَرْفِي بَيْنَهُنَّ فَيَسْتَوِي | وَفِي الصَّدْرِ بَوْنٌ بَيْنَهُنَّ بَعِيدُ

وقالَ مجنونُ عامرٍ : [مِنَ الوافرِ]

كِلاَنَا مُظْهِرٌ لِلنَّاسِ بُغْضاً | وَكُلٌّ عِنْدَ صَاحِبِهِ مَكِينُ
وَأَسْرَارُ الْمَلاَحِظِ لَيْسَ تَخْفَىٰ | وَقَدْ تُغْرِي بِذِي اللَّحْظِ الْعُيُونُ

وقالَ هوَ ، أَو غيرُهُ [في « ديوانِ المجنونِ » ٥٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ أَيُّهَا الْبَيْتُ الَّذِي لاَ أَزُورُهُ | وَإِنْ حَلَّهُ شَخْصٌ إِلَيَّ حَبِيبُ
هَجَرْتُكَ إِشْفَاقاً وَزُرْتُكَ خَائِفاً | وَفِيكَ عَلَيَّ الدَّهْرَ مِنْكَ رَقِيبُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٥٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَحْبِسُ عَنْكِ النَّفْسَ وَالنَّفْسُ صَبَّةٌ | بِذِكْرَاكِ وَالْمَمْشَىٰ إِلَيْكِ قَرِيبُ
مَخَافَةَ أَنْ يَسْعَىٰ الْوُشَاةُ بِظِنَّةٍ | وَأَحْرُسُكُمْ أَنْ يَسْتَرِيبَ مُرِيبُ

وقالَ بعضُهم في قصَّةٍ ذكرَها أَبو العبَّاسِ المبرِّدُ [مِنَ البسيطِ] :

غُضِّي جُفُونَكِ عَنِّي وَانْظُرِي أَمَمَا | فَإِنَّمَا افْتُضِحَ الْعُشَّاقُ بِالْمُقَلِ

وقالَ ابنُ مُطيرٍ [في « ديوانهِ » ٤٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

سَلاَمٌ عَلَى الْبَيْتِ الَّذِي لاَ نَزُورُهُ | مِنَ الْخَوْفِ إِلاَّ بِالْعُيُونِ اللَّوَامِحِ
وَلَوْلاَ حِذَارُ الْكَاشِحِينَ لَقَادَنِي | إِلَيْهِ الْهَوَىٰ قَوْدَ الْجَنِيبِ الْمُسَامِحِ[1]

---

(١) الكاشحُ : العدوُّ المبغضُ . الجنيبُ : الطائعُ المنقادُ .

وقالَ [في « ديوانِه » ٥١] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَتَهْجُـرُ بَيْتـاً بِـالْحِجَـازِ تَكَنَّفَـتْ جَـوَانِبَـهُ الأَعْـدَاءُ أَمْ أَنْـتَ زَائِـرُهْ[1]
فَـإِنْ آتِـهِ لَـمْ أَنْـجُ إِلاَّ بِظِنَّـةٍ وَإِنْ يَـأْتِـهِ غَيْـرِي تُنَـطْ بِـي جَـرَائِـرُهْ

وقالَ الأَبِيوَرْدِيُّ [في « ديوانِه » ٢/١٩٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَهَيْفَـاءَ لاَ أُصْغِـي إِلَـىٰ مَـنْ يَلُـومُنِـي إِلَيْهَـا وَيُغْـرِينِـي بِهَـا أَنْ أَعِيبَهَـا
أَمِيـلُ بِـإِحْـدَىٰ مُقْلَتَـيَّ إِذَا بَـدَتْ إِلَيْهَـا وَبِـالأُخْـرَىٰ أُرَاعِـي رَقِيبَهَـا
وَقَـدْ غَفَـلَ الْـوَاشِـي وَلَـمْ يَـدْرِ أَنَّنِـي أَخَـذْتُ لِعَيْنِـي مِـنْ سُلَيْمَـىٰ نَصِيبَهَـا

وممَّا يُعْزَىٰ إِلىٰ سيفِ الدَّولةِ قولُهُ : [مِنَ الخفيفِ]

رَاقَبَتْنِـي فِيـكَ الْعُيُـونُ فَـأَشْفَقْـ ـتُ وَلَـمْ أَخْـلُ قَـطُّ مِـنْ إِشْفَـاقِ
وَرَأَيْـتُ الْعَـدُوَّ يَحْسُـدُنِـي فِيـ ـكَ مُجِـدّاً يَـا أَنْفَـسَ الأَعْـلاَقِ
فَتَمَنَّيْـتُ أَنْ أَكُـونَ بَعِيـداً وَالَّـذِي بَيْنَنَـا مِـنَ الْـوِدِّ بَـاقِـي
رُبَّ هَجْـرٍ يَكُـونُ مِـنْ خَـوْفِ هَجْـرٍ وَفِـرَاقٍ يَكُـونُ خَـوْفَ فِـرَاقِ

قالَ ابنُ خَلِّكانَ [في « وفياتِ الأعيانِ » ٣/٤٠٢] : والأَبياتُ بعينِها في ديوانِ عبدِ المحسنِ الصّوريِّ .

[نفي الشيء بإيجابه]

فإنْ قيلَ : إنَّ جحودَ العبَّاسِ لا لإيهامِ الرقيبِ التنصُّلَ مِنَ الهوىٰ ، ولكِنْ لإحالةِ الشقاءِ علىٰ ما سواهُ ، فبينَ كلامهِ وبينَ ما سردتهُ مِنَ الشواهدِ بونٌ كبيرٌ . قلتُ : لا يقولُ ذلكَ إلاَّ مَنْ لم يعرفْ أَنَّهُ قريبٌ مِنْ نفيِ الشيءِ بإيجابِهِ ، وإلاَّ . . فجُحودُ المُسبَّبِ جحودٌ للسَّبَبِ ، فلا تباينَ .

[سؤال عن الأحباب]

ووقفَ بعضُهم علىٰ أعرابيٍّ ينشدُ : [مِنْ مجزوءِ الوافرِ]

أَبِـنْ لِـي أَيُّهَـا الطَّلَـلُ عَـنِ الأَحْبَـابِ مَـا فَعَلُـوا
تُـرَىٰ سَـارُوا ؟ تُـرَىٰ نَـزَلُـوا ؟ بِـأَرْضِ الشَّـامِ أَمْ رَحَلُـوا ؟

فقالَ لهُ : بلْ ماتُوا ، فأَخذَ الأَعرابيُّ يردِّدُ قولَهُ : بلْ ماتُوا حتَّىٰ فاضَ .

[الضيف مبلغ الرسائل وموت العشاق]

ومِنْ أَغربِ ما في الموضوعِ ، ما أَخرجهُ الحافظُ مغلطايُ في « الواضح »[2] عنِ الأَصمعيِّ وقد قالَ لهُ الرشيدُ : حدِّثني بأَعجبِ ما رأَيتَ ، قالَ أَخبرني السُّميدَعُ بنُ عمرٍو الكلابيُّ ـ وقد جاوزَ المئَةَ ـ قالَ : كنتُ كثيرَ الأَسفارِ فمررتُ في قَصدي إِلى (اليمامةِ) ، وقد قرُبَ اللَّيلُ ببيتٍ ، فأَردتُ المبيتَ عندهُ ، فقالتِ امْرَأَةٌ عندهُ : أَضيفٌ أَنتَ ؟

---

(١) تكنَّفت : أحاطت .

(٢) وتمام اسمه : « الواضحُ المُبينُ فيمن استشهِدَ من المحِبِّين » ومغلطاي هو ابن قَلِيج المصري الحنفي الحافظ المؤرخ ت سنة : (٧٦٢ هـ) .

قلتُ : نعم ، فقالتْ : على الرَّحبِ والسَّعةِ ، وعيَّنَتْ لي مكاناً أَجلسُ فيهِ ريثَما يأْتيْ صاحبُ المنزلِ ، وحملتْ لي معَ جاريَتها تمراً وثريداً ، وقالتْ : تعلَّل بهٰذا ، فقلتُ : في دونِهِ الكفايةُ ، فأَكلتُ ، وتوسَّدتُ ذراعَ ناقتي ، وأَخذتْني عيني ، فلم أُفقْ إلاَّ وشابٌّ علىٰ أَحسنِ ما يكونُ ، معهُ عبيدٌ أَقبلوا بحطبٍ ونارٍ ، فأَضرموها ، وجاؤُوا بكبشٍ فذُبحَ وكُشطَ وطبَخوا وثرَدوا ، وقُدِّمَ إلينا . . فأَكلنا ، ولمَّا أَشرفَ الصبحُ . . فعلَ كما فعلَ في الليلِ ، وقالَ : أَقِمْ عندنا اليومَ ، فقلتُ : سمعاً وطاعةً ، وركبَ هوَ لبعضِ شأْنهِ وبقيتُ ، فدعَتني ربَّةُ المنزلِ وأَرختْ جانبَ السترِ ، وقالَتْ : أَينَ تريدُ ؟ قلتُ : (اليمامةَ) ، قالتْ : فاحفظْ عنِّي هٰذهِ الرسالةَ وأَعِدْ عليَّ جوابَها ، قلتُ : وما هيَ ؟ قالَتْ : إذا جئتَ (الحضرمَةَ) . . فتغنَّ بهٰذهِ الأَبياتِ : [مِنَ الخفيفِ]

أَعَلَى الْعَهْدِ مَالِكُ بْنُ سِنَانِ ... أَمْ سَقَاهُ أَفَاوِقَ الْغَدْرِ سَاقِي[1]

إِنْ يَكُنْ خَانَ أَوْ تَسَلَّىٰ فَإِنِّي ... لَعَلَى الْعَهْدِ لَمْ أَخُنْ مِيثَاقِي

مَا أَلَمَّ الرُّقَادُ مُذْ بِنْتَ إِلاَّ ... بِجُفُونٍ قَرِيحَةِ الآمَاقِ

فَعَلَيْكَ السَّلاَمُ مَا ابْتَسَمَ النُّو ... رُ وَمَا أَبَّ فِي الثَّرَىٰ عِرْقُ سَاقِ[2]

فلمَّا خرجتُ في اليومِ الثاني . . سارَ في توديعي صاحبُ المنزلِ ، وقالَ : يا ابنَ عمّي ، هل أَنتَ مبلِّغٌ رسالَتي وعائدٌ بجوابِها إذا انصرفْتَ ؟ فقلتُ : نعم ، ونعمةُ عينٍ ، قالَ : قِفْ بقرَّانِ بني سُحيمٍ ، ثُمَّ تغنَّ بقولي : [مِنَ الطَّويلِ]

أَيَا سَرْحَتَيْ قَرَّانَ بِاللهِ خَبِّرَا ... عَنِ النَّاقَةِ الْعَيْسَاءِ كَيْفَ نِزَاعُهَا ؟

فَلَوْ أَنَّ فِيهَا مَطْمَعاً لِمُتَيَّمٍ ... نَأَتْ دَارُهَا عَنْهُ وَخِيفَ امْتِنَاعُهَا

لَهَانَ عَلَيْهِ جَوْبُ كُلِّ تَنُوفَةٍ ... يُخَافُ عَلَيْهَا جَوْرُهَا وَضَيَاعُهَا[3]

تَغَرَّبْتُ عَنْ نَفْسِي وَأَيْقَنْتُ أَنَّهَا ... تُرِيدُ وَدَاعاً يَوْمَ جَدَّ وَدَاعُهَا

فلمَّا وصلتُ (اليمامةَ) . . وقفتُ حيثُ وصفَ ، ورفعتُ عَقيرَتي[4] بأَبياتهِ . . فما كانَ بأَسرعَ منْ جاريةٍ حاسرةٍ ، كأَنَّها مُهرةٌ عربيَّةٌ تقولُ : [مِنَ الطَّويلِ]

تَحَمَّلْ رَعَاكَ اللهُ مِنِّي تَحِيَّةً ... إِلَيْهِ جَدِيدٌ كُلَّ يَومٍ سَمَاعُهَا

وَخَبِّرْ عَنِ الْعَيْسَاءِ أَنْ قَدْ تَوَخَّمَتْ ... عَلَيْهَا مَرَاعِيهَا وَطَالَ نِزَاعُهَا

لَقَدْ قَطَّعَ الْبَيْنُ الْمُشَتِّتُ أُلْفَةً ... عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ يُحَمَّ انْقِطَاعُهَا[5]

ثُمَّ شَهَقَت شهقةً ، كانتْ فيها نفسُها ، ولمَّا جئتُ (الحضرمةَ) . . تغنيتُ بأَبياتِ المرأَةِ ، فإذا فتىً كنصلِ السيفِ يجاوبني بقولهِ : [مِنَ الخفيفِ]

لَمْ يَحُلْ عَنْ وَفَائِهِ ابْنُ سِنَانٍ ... لاَ وَلاَ زَالَ وَجْدُهُ بِالْفِرَاقِ

---

(١) الأَفاوقُ : ما اجتمعَ من السحابِ من ماءٍ ، فهوَ يمطِرُ ساعةً بعدَ ساعةٍ .

(٢) الأَبُّ : ما أَنبتتِ الأَرضُ .

(٣) التنوفةُ : الفلاة التي لا ماءَ فيها ولا أَنيسَ .

(٤) العقيرَةُ : صوتُ المغنِّي والباكي والقارىء .

(٥) حُمَّ الأَمرُ : قُضيَ .



إِنَّ بَيْــنَ الْحَشَــا لَهِيـبَ اشْتِيَــاقِ ... لَيْـسَ يُطْفِـي جَـوَاهُ إِلاَّ التَّــلاقِـي
إِنَّمَــا أَبْقَــتِ الْهُمُـــومُ خَيَــالاً ... بَــالِيــاً مُمْسِكــاً بِبَــاقِــي رِمَــاقِــي

ثُمَّ تنفَّسَ نفَساً عالياً ، اقتضبَ حيازيمَهُ[1] ، فكانَ آخرَ أنفاسهِ ، فلمَّا رجعتُ إلى الحيِّ . . أخبرتُ المرأةَ بجوابِ صاحبِها ، فلم أَستتِمَّ الكلامَ إلاَّ وهيَ هامدةٌ ، فارتفعتِ الأصواتُ ، وأقبلَ صاحبُها الشَّابُّ ، فقالَ لي : ما شأنُها ؟ فبقرتُ لهُ الحديثَ علىٰ وجههِ ، ثُمَّ أنشدتهُ جوابَ أبياتهِ ، فقالَ : هـٰأنذا ميِّتٌ ، ثُمَّ اضْطَجَعَ فكأنَّما كانتْ نفسهُ في يدهِ .

[يجود بنفسه وكأنها في يده]

ويُشْبِهُ هـٰذهِ القصَّةَ ، ما ذكرهُ العتبيُّ قالَ : تذاكرنا الهوىٰ يوماً ، وعندنا شيخٌ ساكتٌ ، فقلنا لهُ : أَلا تحدِّثُنا بما عندكَ في هـٰذا ، قالَ : جلَسنا يوماً للشربِ ، ومعنا قينةٌ ، فغنَّتْ : [مِنَ مجزوءِ المتقاربِ]

عَــــلامَــــــةُ ذُلِّ الْهَـــوَىٰ ... عَلَــى الْعَــاشِقِيــنَ الْبُكَــا
وَلاَ سِيَّمَــا عَــاشِـــقٌ ... ذَا لَــمْ يَجِــدْ مُشْتَكَــىٰ

فقالَ شابٌّ في المجلسِ : أَحسنتِ واللهِ ، أَفتأذنينَ لي أَنْ أَموتَ ؟ فقالَتْ : مُتْ راشداً إِنْ كنتَ صادقاً ، وكانَ يهوى القَينةَ ، فاضطَجَعَ فإذا هوَ ميْتٌ ، فتنغَّصَ المجلسُ علينا ، ثُمَّ دخلتُ إلىٰ أَهلي ، فأَخبرتُهم بالقصَّةِ ، وكانَتْ لنا ابنةٌ تهوىٰ ذلكَ الشابَّ ـ ونحنُ لا ندري ـ فلمَّا سَمِعَتِ الخَبرَ . . قامَتْ إلىٰ خلوةٍ لَها ، وأَبطَأَتْ عنَّا ، فإذا هيَ مَيْتَةٌ على الهيئةِ الَّتي ماتَ عليها الشابُّ ، ولمَّا خرجنا بجنازتِها وخرجَ أَهلُ الشابِّ بجنازتهِ . . إذا جنازةٌ ثالثةٌ للقينةِ الَّتي كانت تغنِّينا ، وذلكَ أَنَّها كانتْ تهوى ابنتَنا ، فلمَّا اتَّصلَ بها نعيُها . . سقطتْ مَيْتَةً .

هـٰذا والشوطُ بَطينٌ ، والبابُ واسعٌ ، وقد أُفردَ بالمؤلَّفاتِ ، ونحنُ ذاكرونَ في هـٰذهِ المجالسِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ما تيسَّرَ بحسبِ المناسَباتِ .

[المتنبي يتكلم في الفراق]

وقد قالَ الناظمُ فيما يشبهُ البيتَ الذي نحنُ بطريقِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٦٤ـ٢٦٥] : [مِنَ المنسرحِ]

لاَ تَحْسَبُــوا رَبْعَكُــمْ وَلاَ طَلَلَــهْ ... أَوَّلَ حَــيٍّ فِــرَاقُكُــمْ قَتَلَــهْ
قَــدْ تَلِفَــتْ قَبْلَــهُ النُّفُــوسُ بِكُــمْ ... وَأَكْثَــرَتْ فِــي هَــوَاكُــمُ الْعَــذَلَــهْ

[كل البلاء من الفراق]

فالفراقُ ـ كما قلنا ـ مرُّ المذاقِ ، لاَ كَبِدَ إلاَّ بهِ تفتَّت ، ولا عظيمةَ إلاَّ منهُ تأتَّتْ ، ويا لهُ ، كمْ في المحبينَ مِنْ حيفٍ ، وجورٍ أَشوىٰ من وقعِ السيفِ ، لا يُحصىٰ مَنِ اشْتَملَ عليهِ الترابُ مِنْ قتلاهُ ، ولا يخلصُ مَنِ اعتصمَ بالأَجلِ من سوءِ بلاهُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا كُـلُّ نِيـرَانِ الْجَـوَىٰ تُحْـرِقُ الْحَشَـا ... وَلاَ كُــلُّ أَدْوَاءِ الصَّبَــابَــةِ يَقْتُــلُ

---

(١) الحيزومُ : ما اكتنفَ الحلقومَ من جانبِ الصدرِ .

[وصفة لشفاء العشاق]

وأنفعُ ما يَبُلُّ بهِ المرءُ غليلَ الجوىٰ ، ويتعلَّلُ بهِ المنكوبُ إذا أضرَّ بهِ النَّوىٰ . . تحقُّقُ أنَّ الحياةَ ليسَ لَها بَقَاءٌ ، وأنَّ الافتِراقَ ليسَ إلاَّ إلى الْمُلْتَقَىٰ ، وقد قالَ الأوَّلُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَهَـوَّنَ بَعْـضَ الْـوَجْـدِ عَنِّـيَ أَنَّنِـي ... أُجَـاوِرُهُ فِـي دَارِهِ الْيَـوْمَ أَوْ غَـدَا

وقالَ ابنُ زريقٍ : [مِنَ البسيطِ]

وَإِنْ تَنَـلْ أَحَـداً مِنَّـا مَنِيَّتُـهُ ... لاَ بُـدَّ فِـي غَـدِهِ الثَّـانِـي سَيَتْبَعُـهُ

وقلتُ [كما في « ديوانِ المؤلِّفِ » ق ٦٩ـ٧٠] : [مِنَ الوافرِ]

وَلَـوْلاَ أَنَّ هَـٰذَا الْيَـوْمَ صَعْـبٌ ... تَحُـفُّ بِـهِ الْمَخَـاوِفُ وَالصِّعَـابُ

لَكَـانَ أَجَـلَّ مَـرْغُـوبٍ لَـدَيْنَـا ... فَـوَاشَـوْقَـاهُ لِـلأَحْبَـابِ غَـابُـوا

وقلتُ [كما في « ديوان المؤلفِ » ق ٣٢] : [من الوافرِ]

وَلَـوْلاَ نَـوْعُ سَلْـوَىٰ بِـالتَّمَنِّـي ... لأَهْلَـكَ كُـلَّ مَـنْ عَشِـقَ النُّـزُوحُ

وَلَكِـنْ فِـي التَّعَلُّـلِ بَعْـضُ طِـبٍّ ... وَإِنْ زَمَّـتْ عَلَـى الْخَلَـلِ الْقُـرُوحُ

وقلتُ [كما في « ديوان المؤلفِ » ق ٣٢] : [من الطَّويلِ]

إِذَا كُنْـتُ أَلْقَـىٰ مَـنْ أُحِـبُّ هُنَـالِكَـا ... فَـآلَيْـتُ أَنْ لاَ أَبْكِـيَ الـدَّهْـرَ هَـالِكَـا

وَلَكِنَّنِـي لاَ عِلْـمَ لِـي بِـالَّـذِي لَـهُ الْـ ... ـمَآبُ مِـنَ الـدَّارَيْـنِ مِـنْ بَعْـدِ ذَلِكَـا

سَلَكْنَـا وَلَـمْ نَـأْخُـذْ دَلِيـلاً مُضِيعَـةً ... فَكَيْـفَ النَّجَـا وَاللَّيْـلُ قَـدْ كَـانَ حَـالِكَـا ؟

لَقَـدْ فَـازَ مَـنْ كَـانَـتْ لَـهُ مِـنْ يَقِينِـهِ ... مَطَـايَـا تَعَـوَّدْنَ السُّـرَىٰ وَالْمَسَـالِكَـا

تَلَـوَّتْ عَلَيْنَـا الْحَـالُ وَاعْصَـوْصَبَ الْبَلاَ ... فَحُـلَّ بِفَضْـلٍ مِنْـكَ عَنَّـا الشَّبَـائِكَـا

وَفَـرِّجْ عَلَيْنَـا وَاكْفِنَـا كُـلَّ مِحْنَـةٍ ... وَهَبْنَا الرِّضَىٰ وَالْطُفْ بِنَا فِي قَضَائِكَا

ويُروىٰ : أنَّ يوسفَ عليهِ السلامُ ، عاتبَ أباهُ علىٰ فَرْطِ ما انقادَ لَهُ منَ الأحزانِ ، وقالَ لهُ : أَما علمتَ أنَّ الموقفَ يجمعُنا ؟ قالَ لهُ : بلىٰ ، ولكنْ خشيتُ أن تموتَ علىٰ غيرِ دينِ آبائِكَ ، فيُذهَبَ بكَ إلىٰ غيرِ طريقِهم . نسألُ اللهَ الثباتَ عندَ نزولِ المماتِ .

[العاشق المعتكف على القبر]

ومما يتّصلُ بهٰذا المعنىٰ وسابقِهِ . . ما رُويَ [كما في « مصارع العشّاقِ » ١/٢٦ بتصرُّفٍ] عنِ ابنِ دريدٍ عنْ بعضِهم ـ [عبيدِ النُّعاليِّ غلامِ أبي الهُذيلِ] ـ قالَ : اشتدَّت بيَ الهاجرةُ ، فملتُ إلىٰ ظِلٍّ أتفيَّأُ بهِ ، فسمعتُ صوتاً أطربَني ، فطرقتُ البابَ أستسقِي ، فأَذِنَ لي ، فإذا شابٌّ علىٰ أحسنِ صورةٍ ، ما خلا أنَّ العلَّةَ لم تبقِ إلا رسمَهُ ، فأمر جاريتَه فسقَتْني ، ثُمَّ أدخلني إلىٰ منزلٍ مؤثَّثٍ بأفخرِ الرياشِ ، وأقبلَ يضاحِكُني حَتَّىٰ حضرَ الطعامُ ، فأكلَ معي متغصِّصاً مُختنِقاً

بالعَبَراتِ ، ثُمَّ قامَ بي إِلىٰ بيتٍ لطيفٍ فيهِ قبرٌ ، فشربَ وسقاني ثُمَّ أَنشدَ : [مِنَ الكاملِ]

أَطَأُ التُّرابَ وَأَنْتِ رَهْنُ حُفَيْرَةٍ هَالَتْ يَدَايَ عَلَىٰ صَدَاكِ تُرَابَهَا ؟ ![1]
إِنِّي لأَعْذَرُ مَنْ مَشَىٰ إِنْ لَمْ أَطَأْ بِجُفُونِ عَيْنِي مَا حَيِيتُ جِنَابَهَا

ثُمَّ أَكبَّ على القبرِ مغشَّياً عليهِ، فجاءَتِ الجاريَةُ تَرشُّ عليهِ الماءَ . . حَتَّىٰ أَفاقَ ، فشربَ وسقَانِي ، وأَنشدَ : [مِنَ الكاملِ]

الْيَوْمَ ثَابَ لِيَ السُّرُورُ لأَنَّنِي أَيْقَنْتُ أَنِّي عَاجِلاً بِكِ لاَحِقُ
فَغَداً أُقَاسِمُكِ البِلاَ وَيَسُوقُنِي طَوْعاً إِلَيْكِ مِنَ الْمَنِيَّةِ سَائِقُ

ثُمَّ قالَ لي : قد وجبَ عليكَ حقِّي ، فاحضُرْ غداً جنازَتي ، فدعوتُ لهُ بطولِ البقاءِ ، فقالَ : عققتَني إِنْ لم تقلْ لي : [مِنَ الكاملِ]

جَاوِرْ خَلِيلَكَ مُسْعَداً فِي رَمْسِهِ كَيْمَا يَنَالَكَ فِي الْبِلَىٰ مَا نَالَهُ

فانصرفتُ عنهُ ولم أَعرفِ النَّومَ حَتَّىٰ أَصبحتُ ، فأَتيتُ ذلكَ المنزلَ ، فإِذا هُوَ مَيْتٌ ، فشهدتُ دفنَهُ بجانبِ ذلكَ القبرِ ، ثُمَّ سَأَلتُ عن خبرِهِ ؟ فقالوا : إِنَّه كانَ يهوَى ابنةَ عمِّهِ ، فدفعهُ أَبوها ، ولمَّا ماتَ . . تزوَّجها ولم تقم معهُ إِلاَّ ثلاثَ ليالٍ ، ثُمَّ حُمَّتْ وماتَتْ ، وأَقامَ بعدَها كما رأَيتَ ، إِلىٰ أَنْ ماتَ بعدَها بثلاثةَ عشرَ يوماً .

ثُمَّ ذكرتُ أَنَّ عُروةَ بنَ حزَامٍ يقولُ في نونيَّتِهِ المشهورةِ [في « ديوانه » ٤١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنِّي لأَهْوَى الْحَشْرَ إِذْ قِيلَ إِنَّنِي وَعَفْرَاءَ يَومَ الْحَشْرِ مُلْتَقِيَانِ

ويأْتي ما لهُ اتصالٌ بهٰذا أَوائِلَ المجلسِ الثالثَ عشرَ[2] .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبي في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٣] : [مِنَ البسيطِ]

بِمَا بِجَفْنَيْكِ مِنْ سِحْرٍ صِلِي دَنِفاً يَهْوَى الْحَيَاةَ ، وَأَمَّا إِنْ صَدَدْتِ فَلاَ

[الحياة من أجل الأحباب]

يُقسمُ عليها بسِحْرِ أَجفانِها . . إِلاَّ ما وصلَتْ مريضاً قد أُدنفَ ، يهوى الحياةَ إِن وصلَتهُ ، وأَمَّا إِنْ صَدَّتْ عنهُ . . فلا يهوى الحياةَ ، بلْ يُفضِّلُ عليها المماتَ ، وهُوَ قريبٌ مِنْ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٤٦] : [مِنَ الخفيفِ]

كُلُّ عَيْشٍ مَا لَمْ تُطِبْهُ حِمَامٌ كُلُّ شَمْسٍ مَا لَمْ تَكُنْهَا ظَلاَمُ

---

(١) هالَ التراب : صبَّهُ . صداكِ : جثَّتكِ .

(٢) وللمتنبي فيما له اتصال بالموضوع :

إنـي لأجبـن مـن فـراق أحبتـي وتحسُّ نفسي بالحمام فأشجع

والأصلُ قولُ الحُطَيئةِ في مديحِ علقمةَ بنِ عُلاثَةَ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَإِنْ تَحْيَ لاَ أَمْلَلْ حَيَاتِي وَإِنْ تَمُتْ ... فَمَا فِي حَيَاةٍ بَعْدَ مَوْتِكَ طَائِلُ[1]

وقالَ دِعبِلٌ [في « ديوانه » ٢١٧] : [مِنَ السَّريعِ]

مَا أَطْيَبَ الْعَيْشَ فَأَمَّا عَلَىٰ ... أَنْ لاَ أَرَىٰ وَجْهَكِ يَوْماً فَلاَ

وقالَ بعضُ الأَقدمينَ [معقل بن عيسىٰ كما في « الأغاني » ١٠/ ١٠٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَعَمْرِي لَئِنْ قَرَّتْ بِقُرْبِكِ أَعْيُنٌ ... لَقَدْ سَخِنَتْ بِالْبُعْدِ عَنْكِ عُيُونُ[2]

فَسِرْ أَوْ أَقِمْ وَقْفٌ عَلَيْكَ مَوَدَّتِي ... مَكَانُكَ مِنْ قَلْبِي عَلَيْكَ مَصُونُ

فَمَا أَوْحَشَ الدُّنْيَا إِذَا كُنْتَ نَازِحاً ... وَمَا أَحْسَنَ الدُّنْيَا بِحَيْثُ تَكُونُ

ولم ينسَ حظَّهُ القطبُ الحدَّادُ مِنْ هٰذا المعنىٰ ، بل أَكثرَ منهُ في « ديوانِه » ، منه قولهُ [في « ديوانه » ٤٧٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وأَحْسَنُ عَيْشٍ لَيْسَ فِيهِ وُجُودُكُمْ ... وَإِنْ كَانَ مُلْكَ الأَرْضِ فَهُوَ ذَمِيمُ

وقولُهُ [في « ديوانه » ٥٢٨] : [مِنَ الكامِلِ]

وأَرَى الحَيَاةَ إِذَا خَلَتْ عَنْ وَصْلِكُمْ ... أَنَّ الْمَمَاتَ أَسَرُّ مِنْهَا وَالْفَنَا

[من شاء بعدك فليمت]

وقالَ إبراهيمُ بنُ العبَّاسِ الصوليُّ ـ في صبيٍّ ماتَ عليهِ ، وبعضُهم يرويها لأَحدِ الصحابةِ ، وأَنَّهُ قالها بعقبِ مَوتِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، والأَوَّلُ أَثبتُ ـ : [في « وفيات الأعيان » ٦/ ٣٣٩] : [مِنْ مجزوءِ الكاملِ]

كُنْتَ السَّوَادَ لِنَاظِرِي ... فَعَمِي عَلَيْكَ النَّاظِرُ

مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ فَلْيَمُتْ ... فَعَلَيْكَ كُنْتُ أُحَاذِرُ

ووجهُ اتِّصالِ هٰذا بذاكَ . . بغضُ الحياةِ في بيت الناظمِ ، وعدمُ المبالاةِ بالمصائِبِ في هٰذا .

[حكمة من أعرابية]

ولقد ماتَ ابنٌ لأَعرابيَّةٍ فجزعتْ عليهِ ، ثُمَّ قالتْ : لقد سلأَني عنهُ أَنَّني أَمِنتُ مَسَّ المَصائِبِ من بعدِهِ .

[ذهب الغالي . . لا أسف علىٰ الرخيص]

وقالَ أَبو نُوَاسٍ يرثي الأَمينَ [في « وفياتِ الأعيانِ » ٦/ ٣٣٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ المَوْتَ وَحْدَهُ ... فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أُحَاذِرُ

وقالَ [أبو موسىٰ] التيميُّ في يزيدَ بنِ مَزْيَدٍ الشيبانيِّ [في « الأغاني » ٢٠/ ٥٧] : [مِنَ الوافرِ]

فَإِنْ يَهْلِكْ يَزِيدُ فَكُلُّ حَيٍّ ... فَرِيسٌ لِلْمَنِيَّةِ أَوْ طَرِيدُ

---

(١) انظر خبر الحطيئة مع علقمة في « الأغاني » (١٦/ ٣١٨) .

(٢) سُخونةُ العينِ : بُكاؤها . قرَّت العين : هدأت واستقرت .

لَقَــدْ عَــزَّىٰ رَبِيعَــةَ أَنَّ يَــوْمـاً ... عَلَيْهَــا مِثْـلَ يَــوْمِـكَ لاَ يَعُــودُ

وقالَ فيهِ أيضاً [كما في « ديوانِ الحماسةِ » ١/٣٧٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ فَلْيَمُـتْ مَـنْ شَـاءَ بَعْـدَكَ إِنَّمَـا ... عَلَيْـكَ مِـنَ الأَيَّـامِ كَـانَ حِـذَارِيَـا

وقالَ مُتمِّمُ بنُ نُوَيرةَ في أَخيهِ مالكٍ [في « وفياتِ الأعيانِ » ٦/١٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَقُـولُ لِهِنْـدٍ حِيـنَ لَـمْ أَرْضَ خُلْقَهَـا ... أَهَـٰـذَا دَلاَلُ الْعِشْـقِ أَمْ أَنْـتِ فَـارِكُ[1]

أَمِ الصَّـرْمَ تَهْـوَيْـنَ فَكُـلُّ مُفَـارِقٍ ... عَلَـيَّ يَسِيـرٌ بَعْـدَ مَـا مَـاتَ مَـالِـكُ

وقالَ مطيعُ بنُ إِياسٍ يرثي يحيىٰ بنَ زيادٍ الحارثيَّ [كما في « تاريخ بغدادَ » ١٤/١٠٦] : [مِنَ السَّريعِ]

أَقُـولُ لِلْمَـوْتِ حِيـنَ نَـازَلَـهُ ... وَالْمَـوْتُ مِقْـدَامَـةٌ عَلَـى البُهَـمِ[2]

اذْهَـبْ بِمَـنْ شِئْـتَ إِذْ ذَهَبْـتَ بِـهِ ... مَـا بَعْـدَ يَحْيَـىٰ فِـي الـرُّزْءِ مِـنْ أَلَـمِ

وقالَ ابن المُقفَّع [في « ديوانِ الحماسةِ » ١/٣٥٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

رُزِئْنَـا أَبَـا عَمْـرٍو وَلاَ حَـيَّ مِثْلُـهُ ... فَلِلّٰـهِ دَرُّ الْحَـادِثَـاتِ بِمَـنْ تَقَـعْ

فَـإِنْ تَـكُ قَـدْ فَـارَقْتَنَـا وَتَـرَكْتَنَـا ... عَلَـىٰ خَلَّـةٍ مَـا فِي انْسِـدَادٍ لَهَـا طَمَـعْ

لَقَـدْ جَـرَّ نَفْعـاً فَقْـدُنَـا لَـكَ أَنَّنَـا ... أَمِنَّـا عَلَـىٰ كُـلِّ الـرَّزَايَـا مِـنَ الْجَـزَعْ

وقالَ إِسحاقُ بنُ خلَفٍ يرثي بنتاً لَهُ ـ ولكنَّهُ تصرَّفَ في المعنىٰ ـ : [مِنَ البسيطِ]

قَـدْ كُنْـتُ أَخْشَـىٰ عَلَيْهَـا أَنْ تُقَـدِّمَنِـي ... إِلَـى الحِمَـامِ فَيُبْـدِي وَجْهَهَـا الْعَـدَمُ

فَـالآنَ نِمْـتُ فَـلاَ هَـمٌّ يُـؤَرِّقُنِـي ... تَهْـدَا الْعُيُـونُ إِذَا مَـا أَوْدَتِ الْحُـرَمُ[3]

وقالَ آخرُ [عقيلُ بن عُلَّفَةَ في « ديوان الحماسةِ » ١/٤١٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

لِتَغْـدُ الْمَنَـايَـا حَيْـثُ شَـاءَتْ فَـإِنَّهَـا ... مُحَلَّلَـةٌ بَعْـدَ الْفَتَـى ابْـنِ عَقِيـلِ[4]

فَتًـىٰ كَـانَ مَـوْلاَهُ يَحُـلُّ بِنَجْـوَةٍ ... فَحَـلَّ الْمَـوَالِـي بَعْـدَهُ بِمَسِيـلِ[5]

ولاَ يخرجُ عنهُ قولُ جميلٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَيَـا رَبِّ إِنْ تَهْلِـكْ بُثَيْنَـةُ لاَ أَعِـشْ ... فُـوَاقـاً وَلا أَفْـرَحْ بِمَـالِـي وَلاَ أَهْلِـي[6]

وقد وطِيءَ علىٰ هٰذهِ الأَعقابِ حافظٌ في قولِهِ [في « ديوانه » ٢/١٤٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَقَـدْ كُنْـتُ أَخْشَـىٰ عَـادِيَ الْمَـوْتِ قَبْلَـهُ ... فَـأَصْبَحْـتُ أَخْشَـىٰ أَنْ تَطُـولَ حَيَـاتِـي

---

(١) المرأةُ الفاركُ : المبغضةُ لزوجها .

(٢) البُهمُ : هم الشجعان الذين لا يُهتدىٰ لقتالهم .

(٣) أودت : هلكت . الحُرَمُ : نساءُ الرجلِ وأهلُ بيتِهِ .

(٤) لتغدُ : لِتصبْ . محلَّلةٌ : مطلقةٌ . والمعنىٰ : لم تبق صعوبةٌ للمنايا بعدَ الفتى ابن عقيلٍ ، فلتذهبْ إِلىٰ مَن شاءَتْ .

(٥) النَّجوَةُ : ما علا من الأرضِ . المسيلُ : ما انخفضَ منها . والمعنىٰ : لم يبقَ لأحدٍ مِن أقاربهِ عزٌّ بعدَهُ ، فتحولوا من العزِّ إلى الذلِّ .

(٦) الفُوَاقُ : هو المدَّةُ بين الحلبَتَينِ ، والمراد الكناية عن قِصَرِ عمرِهِ .

[المؤلف يتكلم عن إحساس النفس بالفراق]

ثُمَّ كلُّ نَفْسٍ تُحِسُّ بأَلَمِ الفراقِ ؛ لانفصالها عَنْ عالمِ القدسِ ، لهٰذا لا تزالُ تحنُّ وتئِنُّ ، شعرَتْ بذلكَ السببِ أَم لم تشعرْ ، والأَغلبُ عدمُ الشعورِ ، لانحجابها بالمادَّةِ ، فلا يخطُرُ لها أَنَّ شوقَها إِليهِ ، بل تظنُّهُ إِلىٰ غيرِهِ ، إِلاَّ أَنَّها كلَّما كَلِفَت[1] بشيءٍ . . لم تَنْطَفِ حرارتُها بإدراكِهِ ، بل تبقىٰ تلكَ اللَّوعةُ التي لا بدَّ وأَنْ تظهرَ مهما خفيَتْ ، ولا سيَّما عندَ تناشدِ الآثارِ ، وذكرِ الدِّيارِ ، والتغنِّي بما في شكوى الفراقِ مِنَ الأَشعارِ ، فدلَّ بقاؤُها علىٰ أَنَّ المطلوبَ غيرُ ذلكَ الذي حصلَ ، وإِلىٰ هٰذا الإشارةُ بقولِ القطبِ الحدَّادِ : [مِنَ الوافرِ]

مُحِبٌّ لَيْسَ يَدْرِي مَنْ يُحِبُّ ... وَلاَ مَاذَا يُحِبُّ أَيُسْتَتَبُّ

إِذَا سَجَعَتْ حَمَامَاتُ العَلاَلِي ... عَلَىٰ أَغْصَانِهِنَّ تَرَاهُ يَصْبُو

وَإِنْ مَرَّتْ أَحَادِيثُ الغَوَانِي ... بِهِ يَبْكِي بَلاَ دَمْعٍ يُغَبُّ

ولا يزالُ أَهلُ الهممِ العاليةِ يتدرَّجونَ في معارجِ الشوقِ . . حتَّىٰ يحلِّقَ بهم إِلىٰ فوقُ ، فهُم في سلوكِهِم كما قالَ حبيبٌ [في « ديوانه » ٢/١٣١] : [مِنَ الكاملِ]

فَإِذَا ارْتَقَىٰ فِي قُلَّةٍ مِنْ سُؤْدَدٍ ... قَالَتْ لَهُ الأُخْرَىٰ : بَلَغْتَ تَقَدَّمِ[2]

وما أَحسنَ قولَ لسانِ الدينِ بنِ الخطيبِ : [مِنَ الطَّويلِ]

جَزَى اللهُ عَنِّي زَاجِرَ الشَّيْبِ خَيْرَ مَا ... جَزَىٰ نَاصِحاً فَازَتْ يَدَاهُ بِخَيْرِهِ

سَلَكْتُ طَرِيقَ الْحُبِّ حَتَّىٰ إِذَا انْتَهَىٰ ... تَعَوَّضْتُ حُبَّ اللهِ عَنْ حُبِّ غَيْرِهِ

وطَالما قرَّرنا هٰذا المعنىٰ نظماً ونثراً في غيرِ موضعٍ ، ومنهُ قولُنا [كما في « ديوانِ المؤلِّفِ » ٤٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

يَقُولُونَ : مَا مِنْ عَاشِقٍ قَطَّعَ النَّوَىٰ ... حَشَاهُ وَأَضْنَاهُ الْجَوَىٰ وَكَوَاهُ

وأَضْرَمَ فِيهِ الوَجْدُ إِلاَّ وَتَنْطَفِي ... ـ إِذَا دَامَ طِيبُ الوَصْلِ ـ نَارُ هَوَاهُ

وَلَكِنَّ فِي الإِنْسَانِ سِرّاً تَفَسَّخَتْ ... قَوَائِمُهُ مِنْ حَمْلِهِ وَقُوَاهُ

إِذَا مَا تُنُوشِدْنَ المَآثِرَ هَزَّهُ ... لِمَوْطِنِهِ الأَعْلَى الْقَدِيمِ جَوَاهُ

فَمَا مِنْ جَمَالٍ حَادِثٍ هَامَ وَامِقٌ ... بِرُؤْيَاهُ إِلاَّ وَالْمُرَادُ سِوَاهُ[3]

غيرَ أَنَّ كلامنا في الموضوعِ خالٍ عنِ الذَّوقِ ، وأَحمدهُ تعالىٰ إِذ أَوجدَ لي إِليهِ نوعاً منَ الشَّوقِ .

أَمَّا القطبُ الحدَّادُ وأَمثالهُ . . فإِنَّما يعبِّرونَ بأَلسنتهم عمَّا يجدونَهُ من بواطنِهِم ، وعمَّا ساروا عليه بكشفِهم وإِلهامهم ، إِذِ الظَّنُّ بمثلِه أَنَّهُ لم يَقرأْ عنه شيئاً ، وإِنَّما مشىٰ عليهِ بحالهِ .

[لا قيمة للحياة إلا باجتماع الأحباب]

ومِن هٰذا القبيلِ ما سبقَ في غيرِ هٰذا المجلسِ عَنِ ابنِ أَبي طالبٍ وأُنسِهِ بالموتِ ، وقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ :

---

(١) الكَلَفُ : هو حبُّ الشيءِ وشدَّة تعلُّقِ القلبِ بهِ .

(٢) القُلَّةُ : رأسُ كلِّ شيءٍ .

(٣) الوامِقُ : المحبُّ .

ـ وقد خيَّرهُ مَلَكُ الموتِ ـ « **اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَىٰ** »[1] ، وما قَصَّ اللهُ علينا مِن خبرِ يوسفَ الصدِّيقِ ؛ فإنَّهُ لمَّا انقطعتْ بهِ الأمانيُّ . . لم يرغبْ إلاَّ في كمالِ الأُنسِ بانفصالِ النَّفسِ عَن عالمِ الحسِّ ، والتحاقها بعالمِ القُدسِ فقالَ ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] .

ولمَّا تذاكَروا الموتَ علىٰ عهدهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . قالَ أَحدُ أَصحابهِ ـ وظنِّي أَنَّهُ أَبو الدرداءِ ـ : (**حبيبٌ جاءَ علىٰ فاقةٍ**)[2] .

وقالَها أحدُ أَصحابِ القطبِ الحَّدادِ ، فانتهرَه وقالَ : لاَ يقولُها إلاَّ من صدَّق دعواهُ بعملٍ يشبهُ عملَ أَبي الدرداءِ .

وقد كانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ مزهوّاً قبلَ الخلافةِ ثُمَّ اخشوشَنَ ، ولمَّا قيلَ لهُ في ذٰلِكَ . . قالَ : إنَّ لي نفساً ذوَّاقةً توَّاقةً ، كلَّما حصلَتْ علىٰ شيءٍ . . طمعَتْ فيما وراءَهُ ، ولم يبقَ لي طمعٌ في غيرِ الجنَّةِ[3] .

ولاَ شوقَ إلاَّ فيما يقرِّبُ منها ، فالدنيا قبيحةٌ ، وكفَاها الموتُ فضيحة ، وهيَ دارُ ترحٍ لا دارُ فرحٍ ـ لولا أَنَّها طريقٌ إلى الأُنسِ الدائمِ والسعدِ المقيمِ ـ وما يجدُ طالبُ ذٰلِكَ معَ إفراغِ الجهدِ وصدقِ القصدِ مِنْ وَعْثاءِ الطريقِ . . هوَ أَقلُّ ممَّا يجدهُ المسافرُ في طلبِ الفوزِ المحققِ والنجاحِ المضمونِ ، وإنَّ لهُ في خلالِ ذلكَ من مسامراتِ الأمانيِّ ، ومناغاتِ الآمالِ ما ينسيهِ كلَّ أَلمٍ ، ويهوِّنُ عليهِ كلَّ تعبٍ ، بلْ ما يَجدُ معهُ ، التعبَ لذَّةً ، والمشقَّةَ نعمةً ، وتحمُّلَ المكروهِ ليسَ بضائرٍ ما كانَ واسطةً إلىٰ محمودٍ .

وفيما نقرِّرُه من أَحوالِ المحبينَ ـ ولا سيما ما نسوقُهُ مِن كلامِ سلطانِ العاشقينَ ـ شاهدٌ عدلٌ علىٰ ذٰلِكَ ؛ إذِ المحبوبُ خيرٌ منَ الحياةِ ، والمكروهُ بالطبيعةِ شرٌّ مِنَ الموتِ .

أَمَّا الأُنسُ بالفاني . . فلَولا حكمةُ اللهِ التي تَسْتَنْزِلُ عَنْ قضايَا العقولِ لِما أَرادَ مِنْ عمارةِ الدنيا . . لَمَا عُدَّ إلاَّ مِن صريحِ الجنونِ ، لاَ سيَّما وقد **قالَ الناظمُ** [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٢٤] : [مِنَ الوافرِ]

أَشَـدُّ الْغَـمِّ عِنْـدِي فِـي سُـرُورٍ … تَيَقَّـنَ عَنْـهُ صَـاحِبُـهُ انْتِقَـالاَ

[لا يستأنس العاقل الموفق بالفاني]

نظرَ بعضُهم إلىٰ بُنَيٍّ لهُ صغيرٍ . . أَعجبهُ حسنهُ ، وشدهَهُ جمالُهُ ، وراقهُ بِلَهوِهِ وخفَّةِ روحِهِ ، فقالَ : لَولا الموتُ . . لعلَّقتُ قلبي بكَ .

والْتفتَ ابنُ مطيعٍ إلىٰ دارِهِ ، فأَعجبهُ حسنُها ، فبكىٰ ثُمَّ قالَ : لَولا أَنِّي أَتمثَّلُ خروجَ جنازَتي عنها . . لكنتُ بها مسروراً ، ولولا ما أَصيرُ إليهِ مِنْ ضيقِ القبرِ . . لَقَرَّتْ بها عيني ، ثُمَّ ارتفعَ نحيبُهُ .

وقالَ أَميرُ المؤمنينَ : وما أَصنعُ بفدكٍ ، وغيرِ فدكٍ[4] ؟ والنفسُ مظانُّها في غدٍ جَدَثٌ[5] تنقطعُ في ظلمتهِ آثارُها ،

---

(١) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٤٤٦٣) في كتاب المغازي ، ولمسلم (٢١٩١) نحوه في السلام .

(٢) أورده الهندي في « كنز العمال » عن حذيفة (٣٦٩٧٤) ونسبه إلى ابن أبي شيبة .

(٣) الخبر في « وفيات الأعيان » (٣٠١/٢) ، و« المدهش » (٢٢٨) .

(٤) **فدك** : قرية بالحجاز بينها وبين خيبر (٤٠ كم) ، أفاءها الله علىٰ رسوله صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ سنة سبع صلحاً .

(٥) **الجدث** : القبرُ .



وتغيبُ أَخبارُها ، وحفرةٌ لو زيدَ في فُسحَتِها ، وأَوسعتْ يَدَا حافرِها . . لأَضْغطَها الحجَرُ والمدَرُ ، وسدَّ فُرَجَها الترابُ المتراكِمُ[1] .

هُوَ الْمَوْتُ لاَ مَنْجَىٰ مِنَ الْمَوْتِ لِلْفَتَىٰ   وَمَـا هُـوَ بَعْـدَ الْمَـوْتِ أَدْهَـىٰ وَأَصْعَـبُ[2]

غيرُه : [مِنَ الطَّويلِ]

فَهُـنَّ الْمَنَـايَـا أَيَّ وَادٍ سَلَكْتُـهُ   عَلَيْهَـا طَـرِيقِـي أَوْ عَلَـيَّ طَـرِيقُهَـا

[لا يستأنس من هو على خطر الفراق]

ولَئِنْ خرجَ بنا الاستطرادُ عنْ موضوعِ البيتِ فالمناسبةُ بحالِها ؛ إِذْ حاصلُهُ أَن لا قيمةَ للحياةِ إِلاَّ باجتماعِ شملِ الأَحبابِ ، وأَنَّىٰ يكونُ الأُنسُ باجتماعِ الشملِ المهدَّدِ في كلِّ طرفةِ عينٍ بالافتراقِ ؟!

إذن : فلا أُنسَ إِلاَّ فيما أَشرنَا إِليهِ ، ممَّا يشبهُ ما جاءَ بمناسبةِ علاجِ ثوبانَ[3] مِمَّا خالطهُ مِنْ فراقهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . أَلا وهوَ قولُهُ تقدَّستْ أَسماؤُهُ ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

[قال الإمام الحداد في « ديوانه » ٣٦٥] : [مِنَ الكامِلِ]

يَـا رَبِّ وَاجْمَعْنَـا وَأَحْبَـابـاً لَنَـا   فِـي دَارِكَ الْفِـرْدَوْسِ أَطْيَـبِ مَـوْضِـعِ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبي في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٦٤] : [مِنَ البسيطِ]

إلاَّ يَشِـبْ فَلَقَـدْ شَـابَـتْ لَـهُ كَبِـدٌ   شَيْبـاً إِذَا خَضَّبَتْـهُ سَلْـوَةٌ نَصَـلاَ[4]

[حرقة الكبد وحرارة الفؤاد سبيل الهرم]

يقولُ : إِنْ لم يشِبْ ذلكَ المدنفُ . . فقد شابَتْ كبدهُ ، فإِنْ آنسَ ساعةً سلُوّاً . . يخضِبُ شيبَ كبدهِ نصلُ ذلكَ الخضابِ ، لأَنَّ السُّلوانَ سرعانَ ما يزولُ وقلَّما يلبَثُ ، وهوَ من قولِ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانه » ١/ ٢٠٨] : [مِنَ الخفيفِ]

شَـابَ رَأْسِـي وَمَـا رَأَيْـتُ مَشِيـبَ الـ   ـرَّأْسِ إِلاَّ مِـنْ فَضْـلِ شَيْـبِ الْفُـؤَادِ

---

(١) « شرح نهج البلاغة » (١٦/ ٢٠٨) .

(٢) البيت من الطويل .

(٣) كانَ سيِّدُنا ثوبانُ رضيَ اللهُ عنهُ شديدَ الحبِّ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، قليلَ الصبرِ عنهُ ، فأَتاهُ ذاتَ يوم وقد تغيَّرَ لونُهُ ، ونَحُلَ جسمُهُ ، يعرَفُ في وجههِ الحُزْنُ ، فقالَ لَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « يا ثوبانُ ؛ ما غيَّرَ لونَكَ ؟! فقالَ : يا رسولَ اللهِ . . ما بي ضُرٌّ ، إِلا أَنِّي إِذا لَمْ أَركَ اشتقْتُ إِليكَ ، واستوحشتُ وحشةً شديدةً حتَّىٰ أَلقاكَ ، ثمَّ ذكرتُ الآخرةَ ، وأَخافُ أَلاَّ أَراكَ هناكَ ؛ لأَنِّي عرفتُ أَنَّكَ تُرفَعُ معَ النبيِّينَ ، وأَنِّي إِنْ دخلتُ الجنَّةَ . . كنتُ في منزلةٍ هيَ أَدنىٰ مِنْ منزلتِكَ ، وإِنْ لَمْ أَدخلْ . . فذلكَ حينٌ لا أَراكَ أَبداً ، فأَنزلَ الله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] . القرطبي (٥/ ٢٧١) .

(٤) **السلوَةُ** : ذهابُ المحبَّةِ . **النَّصَلُ** : ذهابُ الخِضابِ .



فنقلَ الناظِمُ شيبَ الفُؤَادِ إلى الكبدِ ، قالَ الشارحُ : وهُوَ قبيحٌ ، وعندِي أَنْ لا قبحَ في تلكَ الاستعارةِ ؛ لأَنَّ لكلٍّ مِنَ القلبِ والكبدِ اتصالاً بالشيبِ مِنْ حيثُ تعلُّقُه بالدمِ ، فللكبدِ طبخُهُ ، وللقلبِ تفريقُه على العروقِ ، فمتىٰ قصَّرَ أَحدُهما في وظيفتِهِ . . لحقَ بالإنسانِ الضعفُ ، وتبعَ ذلكَ الهرمُ والشيبُ لا محالةَ ، فأَحدُهما مِنَ الآخرِ كالصِّنوِ[1] مِنَ الصنوِ يَقتسمانِ العملَ ، ويشتركانِ في النَّتيجةِ ، وما أَكثرَ ما تسمعُ حرقةَ الكبدِ بدلاً من حرارةِ الفؤَادِ ، وكلٌّ ذلكَ إلى الهمِّ طريقٌ ، وهُوَ إلى الهرمِ سبيلٌ ، وقد قالَ الناظمُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١٢٤] : [مِنَ الكاملِ]

وَالْهَـمُّ يَخْتَـرِمُ الْجَسِيـمَ نَحَـافَـةً ... وَيُشِيـبُ نَـاصِيَـةَ الصَّبِـيِّ وَيُهْـرِمُ

[الشعراء والشيب وأسبابه عندهم]

وأَكثرُ ما يقعُ أَثرُ الهمِّ علىٰ ذَيْنِكَ العضوينِ ، والشيبُ في الأَغلبِ إنَّما هُوَ أَثرُ الانفعالِ الواقعِ علىٰ أَحدِهما ، ومنهُ يتبيَّنُ أَنْ لاَ قبحَ في استعارةِ الناظمِ ، وللهِ دَرُّ التهاميِّ في قوله [في « ديوانهِ » ٤٧١] : [مِنَ الكاملِ]

وَتلَهُّـبُ الأَحْشَـاءِ شَيَّـبَ مَفْـرِقِـي ... هَـٰـذَا الشُّعَـاعُ شُـوَاظُ تِلْـكَ النَّـارِ[2]

وكثيراً ما يدَّعي العشَّاقُ على المعشوقينَ أَنَّهم أَشابُوهم ، ثُمَّ نفروا عنهم من أَجلِ الشيبِ .

قالَ أبو عُبادةَ [في « ديوانهِ » ١/ ٨٤] : [مِنَ الخفيفِ]

عَيَّـرَتْنِـي المَشِيـبَ وَهْـيَ بَـدَتْـهُ ... فِـي عِـذَارِي بِـالصَّـدِّ وَالِاجْتِنَـابِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ١٢٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَحَمَّلْتِنِـي ذَنْـبَ الْمَشِيـبِ وَإِنَّـهُ ... لَذَنْبُكِ إِنْ أَنْصَفْتِ فِي الْحُكْمِ لاَ ذَنْبِي

وقالَ كشاجمُ [في « ديوانهِ » ٤٥] : [مِنَ الكاملِ]

أَوَ تُنْكِـرِيـنَ الشَّيْـبَ أَنْـتِ جَلَبْتِـهِ ... بِجِنَـايَـةٍ وَقَطِيعَـةٍ وَعِتَـابِ
لَـوْ لَـمْ تَـرُوعِـي بِـالغُـرُورِ وَبِـالنَّـوَىٰ ... طَـوْراً لَطَـالَ تَمتُّعِـي بِشَبَـابِـي

[مسألة الدور عند الشعراء]

وقالَ بعضُهم ـ وكأَنَّهُ مِنَ الفقهاءِ ، ويشبهُ أَنْ يكونَ ابن سريجٍ[3] ، فإِنَّهُ صاحبُ مسأَلةِ الدورِ في الطلاقِ ـ :

[مِنْ مجزوءِ الرَّجَزِ]

مَسْـأَلَـةُ الـدَّوْرِ أَتَـتْ ... بَيْنِـي وَبَيْـنَ مَـنْ أُحِـبّ[4]
لَـوْلاَ مَشِيبِـي مَـا جَفَـا ... لَـوْلاَ جَفَـاهُ لَـمْ أَشِـبْ

---

(١) الصِّنْوُ : الشبيهُ ، أَوِ الأَخُ الشقيقُ .

(٢) الشواظُ : اللهبُ الذي لا دخانَ فيهِ .

(٣) ابن سريج : هو أحمد بن عمر أبو العباس ، أخذ عن الأنماطي صاحب المزني ، ونَشَرَ مذهب الشافعي في (بغداد) ، وهو الفقيه القاضي ، توفي سنة : (٣٠٦ هـ) ، وله مصنفات كثيرة قيمة .

(٤) الدور : هو توقف الشيء علىٰ ما يتوقف عليه ، وله أنواع : فمنه الدور المصرح ، والدور المضمر . صرح في البيت : أنَّ سبب شيبه جفاء محبوبه ، ولو لم يكن جافاه لم يشب .

ولاَ يبعدُ عنهُ قولُ الناظمِ [في « العُكبَريِّ » ١/٣٢٨] : [مِنَ الكاملِ]

قَالَتْ وَقَدْ رَأَتِ اصْفِرَارِيَ : مَنْ بِهِ ؟ ... وَتَنَهَّـــدَتْ فَـــأَجَبْتُهَـــا : الْمُتَنَهِّـــدُ

وقولُ أَبي فراسٍ [في « ديوانهِ »] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَقَالَتْ : لَقَدْ أَزْرَىٰ بِكَ الدَّهْرُ بَعْدَنَا ... فَقُلْـتُ : مَعَـاذَ اللهِ بَـلْ أَنْـتِ لاَ الـدَّهْـرُ

وقالَ محمَّدُ بنُ يحيىٰ بنِ حزمٍ [في « نفح الطيب » ٣/٤٥٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَتَجْـزَعُ مِـنْ دَمْعِـي وَأَنْـتَ أَسَلْتَـهُ ... وَمِـنْ نَـارِ أَحْشَـائِـي وَمِنْـكَ لَهِيبُهَـا

وقولُ مالكِ بنِ أَسماءَ بنِ خارجةَ [في « البيان والتبيين » ١/٤٧٤] : [مِنَ البسيطِ]

عَيَّـرْتِنِـي خَلَقـاً أَبْلَيْـتِ جِـدَّتَـهُ ... وَهَـلْ رَأَيْـتِ جَـدِيـداً لَـمْ يَعُـدْ خَلَقَـا ؟[١]

[استعجال الشيب من حرقة الهوىٰ]

وأَمَّا دعوى استعجالِ الشيبِ من حرِّ الهوىٰ . . فلن يُحصىٰ كثرةً في أَقوالِ الشعراءِ قديماً وحديثاً ، ومنهُ قولُ الناظمِ [في « العُكبَريِّ » ٤/٣٦] : [مِنَ البسيطِ]

بِحُـبِّ قَـاتِلَتِـي وَالشَّيْـبِ تَغْـذِيَتِـي ... هَـوَايَ طِفْـلاً وَشَيْبِـي بَـالِـغَ الْحُلُـمِ

وقولُ القيروانيِّ : [مِنَ الكاملِ]

وَلَــرُبَّ بَــاكِيَــةٍ رَأَتْ فِــي لِمَّتِــي ... وَخْــزَ الْمَشِيــبِ تَــأَلَّقَــتْ ضَحِكَــاتُــهُ

قَــالَــتْ : أَغُصْنــاً قَــدْ عَــلاَهُ فَــلاَ أَرَىٰ ... زَهْــرَ الــرِّيَــاضِ وَنَــوَّرَتْ وَرَفَــاتُــهُ[٢]

فَــأَجَبْتُهَــا قَــارَعْــتُ فِــي جَنْــبِ الْهَــوَىٰ ... صَــرْفَ الــزَّمَــانِ وَهَــٰذِهِ نَكَبَــاتُــهُ

وللشُّعراءِ في البكاءِ على الشَّبابِ الكلامُ الطَّويلُ العريضُ ، وسنذكرُ ما يليقُ فيما يناسبُ مِنَ المجالسِ ، كما سنذكرُ عندَ الفرصةِ ما يقلِّلُهُ النّاسُ مِنْ أَوقاتِ الصَّفاءِ ، وما اختلفَ فيهِ أَهلُ الأَدبِ مِنَ المطالبةِ وعدمِها ، بمالَهم عندَ المحبوبينَ مِنَ الدخولِ ، الذي من أرقِّ ما فيهِ قولُ المجنونِ [في « ديوانهِ » ٢٢٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

[المطالب العاشق والعافي المشفق]

أَقُــولُ لإِلْــفٍ ذَاتَ يَــوْمٍ لَقِيتُــهُ ... بِمَكَّــةَ وَالأَنْضَــاءُ مُلْقَــىً رِحَــالُهَــا[٣]

بِــرَبِّــكَ خَبِّــرْنِــي أَلَــمْ تَــأْثَــمِ الَّتِــي ... أَضَــرَّ بِجِسْمِــي مِــنْ زَمَــانٍ خَيَــالُهَــا ؟!

فَقَــالَ : بَلَــىٰ واللهِ سَــوْفَ يَمَسُّهَــا ... عَــذَابٌ وَبَلْــوَىٰ فِــي الْحَيَــاةِ تَنَــالُهَــا

عَفَــا اللهُ عَنْهَــا ذَنْبَهَــا وَأَقَــالَهَــا ... وَإِنْ كَــانَ فِــي الــدُّنْيَــا قَلِيــلاً نَــوَالُهَــا

---

(١) الخَلَقُ : القديمُ البالي .

(٢) وَرَفَ النباتُ : إذا رأَى الناظرُ لخضرتِه بهجةً مِن ريِّهِ ونعمتِه .

(٣) الأنضاءُ : جمع نِضوٍ ، وهو البعيرُ المهزولُ .

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٦٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

حَـلاَلٌ لِلَيْلَـىٰ شَتْمُنَـا وَانْتِقَـاصُنَـا ... هَنِيئـاً وَمَغْفُـوراً لِلَيْلَـىٰ ذُنُـوبُهَـا

وقولُ كثيِّرٍ [في « ديوانهِ » ١٠٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

هَنِيئـاً مَـرِيئـاً غَيْـرَ دَاءٍ مُخَـامِـرٍ ... لِعَـزَّةَ مِـنْ أَعْـرَاضِنَـا مَـا اسْتَحَلَّـتِ[1]

* * *

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبي [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٦٤] : [مِنَ البسيطِ]

يُجَـنُّ شَـوْقـاً فَلَـوْلاَ أَنَّ رَائِحَـةً ... تَـزُورُهُ فِـي رِيَـاحِ الشَّـرْقِ مَـا عَقَـلاَ

[رائحة الأحباب تطفىء نار العذاب]

يُروىٰ (يَحِنُّ) بالحاءِ المهملةِ ، و(يُجَنُّ) بالمعجمةِ من أَسفلَ ، والمعنىٰ : أَنَّ هـٰذا الدنفَ يطولُ حنينُهُ ، أَو يعتادُه جنونُه ، ولولا أَنَّهُ يجدُ رائحةً شرقيَّةً مِنْ قِبلِ أَحبابهِ . لَما عادَ إِليهِ عقلُهُ ، وَلكنَّهُ إِذَا وجدَ ريحَ الشرقِ تهبُّ مِن جهةِ أَحبابهِ . كانَ لهُ فيها نوعٌ مِنَ الوِصالِ فخفَّ جنونُهُ ، وضَرْبُ البيتِ يؤكِّدُ روايةَ الجيمِ ، وقد نظرَ فيهِ إِلىٰ قولِ ابنِ الدُّمينةِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَسْتَنْشِقُ النَّسْمَـاءَ مِـنْ نَحْـوِ أَرْضِكُـمْ ... كَـأَنِّـيْ مَـرِيـضٌ وَالنَّسِيـمُ طَبِيـبُ

وقولِ المجنونِ [في « ديوانهِ » ٩٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَقَـدْ عَـارَضَتْنَـا رِيـحُ لَيْلَـىٰ بِهَبَّـةٍ ... عَلَـىٰ كَبِـدِي مِـنْ طِيـبِ أَرْوَاحِهَـا بَـرْدُ

فَمَـا زِلْـتُ مَغْشِيّـاً عَلَـيَّ وَقَـد مَضَـتْ ... أَنَـاةٌ وَمَـا عِنْـدِي جَـوَابٌ وَلاَ رَدُّ[2]

وقولُهُ أَو قيسٍ [بن ذريح][3] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَمُـرُّ الصَّبَـا صَفْحـاً بِسَـاكِـنِ ذِي الغَضَـا ... وَيَصْـدَعُ قَلْبِـي أَنْ يَهُـبَّ هُبُـوبُهَـا[4]

إِذَا هَبَّـتِ الـرِّيـحُ الشَّمَـالُ فَـإِنَّهَـا ... جَـوَابِـي بِمَـا يُهْـدِي إِلَـيَّ جَنُـوبُهَـا

قَـرِيبَـةُ عَهْـدٍ بِـالْحَبِيـبِ وَإِنَّمَـا ... هَـوَىٰ كُـلِّ نَفْـسٍ حَيْـثُ حَـلَّ حَبِيبُهَـا

وقولُ ذِي الرُّمَّةِ [في « ديوانه » ٢/ ٦٩٤ـ٦٩٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا هَبَّـتِ الأَرْيَـاحُ مِـنْ نَحْـوِ جَـانِـبٍ ... بِـهِ أَهْـلُ مَـيٍّ . . هَـاجَ قَلْبِـي هُبُـوبُهَـا

---

(١) مخامرٌ : مخالطٌ .

(٢) أناةٌ : مدَّةٌ .

(٣) الأبيات للمجنون في « ديوانه » ٦٩ ، وليست لقيس بن ذريح .

(٤) الصبا : الريحُ التي تهبُّ من مطلعِ الشمسِ إذا استوى الليلُ والنهارُ .

هَـوَىً تَـذْرِفُ الْعَيْنَـانِ مِنْـهُ وَإِنَّمَـا ... هَـوَىٰ كُـلِّ نَفْـسٍ حَيْـثُ حَـلَّ حَبِيبُهَـا

وقولُ المجنونِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلاَ هَبَّـتِ الـرِّيـحُ الْجَنُـوبُ لأَرْضِهَـا ... مِـنَ اللَّيْـلِ إِلاَّ بِـتُّ لِلـرِّيـحِ جَـانِيـا

وقولُهُ [في « الأغاني » ٥/٢٤٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَيَـا جَبَلَـيْ نَعْمَـانَ بِـاللهِ خَلِّيَـا ... نَسِيمَ الصَّبَـا . . يَخْلُـصْ إِلَـيَّ نَسِيمُهَـا

فَـإِنَّ الصَّبَـا رِيـحٌ إِذَا مَـا تَنَسَّمَـتْ ... عَلَـىٰ نَفْـسِ مَحْـزُونٍ تَجَلَّـتْ هُمُـومُهَـا

وفي هٰذا لطيفتانِ :

[المجنون يخرج في طلب الميرة]

حاصلُ الأُولىٰ : أَنَّ المجنونَ خرجَ في أَصحابهِ ليمتَارُوا من وادي القُرىٰ ، فمرُّوا بجبَلي نَعمانَ ، فقالوا لهُ : هٰذانِ جَبَلا نعمانَ ، وقد كانَت لَيلىٰ تنزلُهما ، قالَ : فأَيُّ ريحٍ تجري من نحوِ أَرضِها إِلىٰ هٰذا المكانِ ؟ قالوا : الصَّبَا ، قالَ : واللهِ لا أَبرحُ حتَّىٰ تهبَّ ، فأَقامَ في ناحيةٍ ، وذَهبَ أَصحابُهُ فامْتَاروا لَهُم ولهُ ، ثُمَّ رَجعوا إِليهِ ، فحبَسَهم بعدَ رجوعِهم ثلاثةَ أَيَّامٍ ، حتَّىٰ هبَّت ، فرحلَ مَعهُم وقالَ البيتينِ ، وبعدَهُما : [من الطَّويلِ]

وَيَـا رِيـحُ مُـرِّي بِـالـدِّيَـارِ فَخَبِّـرِي ... أَبَـاقِيَـةٌ أَمْ قَـدْ تَعَفَّـتْ رُسُـومُهَـا ؟

أَلاَ إِنَّ أَدْوَائِـي بِلَيْلَـىٰ قَـدِيمَـةٌ ... وَأَقْتَـلُ أَدْوَاءِ الـرِّجَـالِ قَـدِيمُهَـا

[ابن الجوزي الواعظ وزوجته نسيم]

وأَمَّا الثانيةُ : فهيَ أَنَّ ابنَ الجوزيِّ[1] الواعظَ الشهيرَ ، كانتْ لهُ امرأَةٌ يقالُ لها (نسيمُ) فحصلَ منها حالٌ أَمَضَّهُ ، فطلَّقها ، ثم تبعتْها نَفسهُ ، وكانت تحضرُ مجلسَ وعظهِ ، فرآها من بينِ امرأَتينِ كبيرتينِ ، فجعل يتخلَّلُ بكلامِهِ ، ويهدرُ في مقالهِ ، ويخِبُّ في مجالهِ ، حتَّى انتهىٰ إِلىٰ موضوعٍ يحسنُ أَنْ يتمثَّلَ عندهُ بهما ، فأَنشدَهما ـ وهُوَ إِيَّاها يعني وبها ينوه ـ فعرفتِ الإِشارَةَ ، وانسلَّتْ مِنْ بينِ الناسِ .

[الشعراء ورياح الأحباب]

ويدخلُ في المعنىٰ قولُ الصمَّةِ بنِ عبيدِ اللهِ [في « ديوانه » ٣١] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا مَـا أَتَتْنَـا الـرِّيـحُ مِـنْ نَحْـوِ أَرْضِكُـمْ ... أَتَتْنَـا بِـرَيَّـاكُـمْ فَطَـابَ هُبُـوبُهَـا[2]

وقالَ غيرُهُ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا هَـبَّ عُلْـوِيُّ الـرِّيَـاحِ وَجَـدْتُنِـي ... كَـأَنِّـي لِعُلْـوِيِّ الـرِّيَـاحِ نَسِيـبُ

وقالَ كلابُ بنُ عقبةَ : [مِنَ الطَّويلِ]

بِنَفْسِـي وَأَهلِـي مَـنْ تَجَنَّبْـتُ دَارَهُ ... وَمَـن لاَ أَرَىٰ لِـي مِـنْ زِيَـارَتِـهِ بُـدَّا

---

(١) هو عبد الرحمٰن بن علي ، أبو الفرج ، جمال الدين ، الحافظ ، صاحب المؤلفات الكثيرة النافعة في الفقه والتفسير والحديث والأخبار والوعظ والتاريخ والطب ، توفي سنة : (٥٩٧ هـ) .

(٢) ريَّا كُلِّ شيءٍ : طيبُ رائحته .

وَمَـنْ رَدَّنِـي إِذْ جِئْـتُ زَائِـرَ بَيْتِـهِ   وَلَـو زَارَ بَيْتِـي مَـا أُهِيـنَ وَلاَ رُدَّا
وَمَنْ لاَ تَهُـبُّ الـرِّيحُ مِـنْ نَحْـوِ أَرْضِـهِ   فَتَبْلُغُنِـي إِلاَّ وَجَـدْتُ لَهَـا بَـرْدَا

وقالَ عليُّ بنُ علقمةَ ، أَو مجنونُ عامرٍ [في « ديوانِهِ » ١١٩] :   [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا الـرِّيحُ مِـنْ نَحْـوِ الْحَبِيـبِ تَنَسَّمَـتْ   وَجَـدْتُ لِمَسْـرَاهَـا عَلَـىٰ كَبِـدِي بَـرْدَا
عَلَـىٰ كَبِـدٍ قَـدْ كَـادَ يُبْـدِي بِهَـا الْجَـوَىٰ   نُـدُوبـاً وَبَعْـضُ الْقَـوْمِ يَحْسِبُنِـي جَلْـدَا

وقالَ عبيدُ اللهِ بنُ قيسِ الرقيَّاتِ [في « ديوانِهِ » ١٨٢]   [مِنَ المنسرحِ] :

هَبَّـتْ رِيَـاحٌ مِـنْ جَـانِـبِ السَّنَـدِ   فَقُلْـتُ : يَـا بَـرْدَهَـا عَلَـىٰ كَبِـدِي[1]
جَـاءَتْ بِـرَيَّـا الْحَبِيـبِ تَحْمِلُهَـا   مِـنْ بَلَـدٍ نَـازِحٍ إِلَـىٰ بَلَـدِ

وقالَ أُسَيدُ بنُ الحارثِ :   [مِنَ الطَّويلِ]

حَسِبْتُ الْغَضَا يَشْفِي هُيَامِي فَلَمْ أَجِدْ   شَمِيـمَ الْغَضَـا يَشْفِـي غَلِيـلَ فُـؤَادِيَـا[2]
بَلَـىٰ لَـوْ أَتَيْـتُ الـرِّيـحَ تَـدْرُجُ مَـوْهِنـاً   بِـرِيـحِ الْخُـزَامَـىٰ كَـانَ أَشْفَـىٰ لِمَـا بِيَـا[3]

وقالَ غيرُهُ :   [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنِّـي لأَسْتَشْفِـي بِكُـلِّ غَمَـامَـةٍ   يَهُـبُّ بِهَـا مِـنْ نَحْـوِ أَرْضِكُـمْ رِيـحُ

وقالَ آخرُ :   [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ يَـا نَسِيـمَ الصُّبْـحِ مَـا لَـكَ كُلَّمَـا   تَقَـرَّبْـتَ مِنَّـا فَـاحَ نَشْـرُكَ طِيبَـا ؟
كَـأَنَّ سُلَيْمَـىٰ نُبِّئَـتْ بِسِقَـامِنَـا   فَـأَعْطَتْـكَ رَيَّـاهَـا فَجِئْـتَ طَبِيبَـا

وقالَ أَبو عُبادةَ :   [مِنَ الطَّويلِ]

يُـذَكِّـرُنَـا رَيَّـا الأَحِبَّـةِ كُلَّمَـا   تَنَفَّـسَ فِـي جُنْـحٍ مِـنَ اللَّيْـلِ بَـارِدِ

وقالَ غيرُهُ :   [مِنَ الطَّويلِ]

وَمُغْتَـرِبٍ بِـالْمَـرْجِ يَبْكِـي لِشَجْـوِهِ   وَقَدْ غَابَ عَنْهُ الْمُسْعِدُونَ عَلَى الْحُبِّ
إِذَا مَـا أَتَـاهُ الـرَّكْـبُ مِـنْ نَحْـوِ أَرْضِـهِ   تَنَفَّـسَ يَسْتَشْفِـي بِـرَائِحَـةِ الـرَّكْـبِ

وقد قالَ امرؤُ القيسِ قبلَ ذلكَ [في « معلقته »] :   [مِنَ الطَّويلِ]

نَسِيمُ الصَّبَا جَاءَتْ بِرَيَّا الْقَرَنْفُلِ

---

(١) **السَّنَدُ** : ما قابلكَ مِنَ الجبلِ .
(٢) **الغضا** : شجرٌ صلب ينبتُ في الصحراءِ ، وحطبه مِن أَجودِ الوقودِ عندَ العربِ . **الهُيامُ** : أَشدُّ العطشِ . **شميمُ الغضا** : شديد اجتذاب رائحة تلك الأشجار . **الغليلُ** : حرارةُ العطشِ .
(٣) **تَدرُجُ** : تمرُّ مرّاً ليسَ بالقويِّ ولا الضَّعيفِ . **مَوْهِناً** : الوقتُ المتأَخِّرُ مِنَ اللَّيلِ . **الخُزامىٰ** : شجرٌ طَيِّبُ الريحِ .

[القول الحق هو قوله تعالىٰ]

وخيرٌ من الجميع قولُهُ جلَّ ذِكرُهُ : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ۝ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٩٤ـ٩٦] .

وجاءَ في بعضِ طرقِ حديثِ إبراهيمَ الطويلِ : أَنَّ إسماعيلَ لما عادَ منْ قنصهِ . . اشتمَّ رائحةَ أَبيهِ .

[أمية بن الأشكر يطالب الفاروق برد ولده كلاب]

وكانَ أُميةُ بنُ الأَشكرِ من فضلاءِ الصحابةِ ومِن خيارِ المسلمينَ ، وكانَ لهُ ولدٌ مِن أبطالِ العربِ يُدعىٰ كِلاباً ، فسيَّرهُ عمرُ إِلىٰ (الشام) ، وكانَ برّاً بوالدِهِ ، وكانَ أبوهُ قد عميَ وَعَيِيَ ، فاشتدَّ عليهِ بُعدُهُ ، وأَخذَ يطالبُ عمرَ بردِّهِ ، فلم يجبْهُ ؛ لِما كانَ مِنْ غَناءِ[1] كلابٍ في فتوحِ (الشامِ) ، فما كانَ منهُ إلا أَنِ استقبلَهُ في المسجدِ بأَبياتٍ يتشوَّقُ بها إِلىٰ ولدِهِ ، ويخرُجُ فيها إِلىٰ عُمرَ يُعاتبهُ وهيَ : [مِنَ الوافرِ]

أَمَـا وأَبِيـكَ مَـا بَـالَيْـتُ وَجْـدِي ... وَلاَ شَغَفِـي عَلَيْـكَ وَلاَ احْتِـرَاقِـي
وَإِبْقَـائِـي عَلَيْـكَ إِذَا شَتَـوْنَـا ... وَضَمَّـكَ تَحْـتَ صَـدْرِي وَاعْتِنَـاقِـي
فَلَـوْ فَلَـقَ الْفُـؤَادَ شَـدِيـدُ وَجْـدٍ ... لَهَـمَّ سَـوَادُ قَلْبِـي بِـانْفِـلاَقِ
سَـأَسْتَعْـدِي عَلَـى الْفَـارُوقِ رَبّـاً ... لَـهُ دَفْـعُ الْحَجِيـجِ إِلَـىٰ بِسَـاقِ[2]
وَأَدْعُـو اللهَ مُجْتَهِـداً عَلَيْـهِ ... بِبَطْـنِ الأَخْشَبَيْـنِ إِلَـىٰ دُفَـاقِ[3]
إِنِ الْفَـارُوقُ لَـمْ يَـرْدُدْ كِـلاَبَـا ... عَلَـىٰ شَيْخَيْـنِ هَـامُهُمَـا زَوَاقِـي[4]

[أمية يشم رائحة ولده]

فاستكانَ لها عمرُ ، ودمعَتْ عيناهُ ، واستقدمَ كِلاباً على البريدِ ، ولمَّا حضرَ . . خَبأَهُ ، واستدعىٰ أَباهُ ـ وكانَ أَمَرَهُ أَنْ يحلبَ ناقةً فحلبَها ـ وقدَّم إِليهِ اللَّبَنَ عمرُ ، فقالَ : إِني لأَجدُ منهُ ريحَ كلابٍ ، واختنقتهُ العبرةُ ، فقلنَ لهُ نسوةٌ كنَّ هناكَ : لقد كبرتَ ، وخرفتَ ، وذهبَ عقلكَ ، كلابٌ بظهرِ (الشام) وتزعمُ أَنَّكَ تجدُ ريحَه ، فقالَ : واللهِ إِنِّي لأَجدُ ريحهُ مِن هـٰذا اللبنِ ، وإِنْ لم تردَّهُ عليَّ يا عمرُ . . لأُجاثينَّكَ بينَ يديِ اللهِ ، وأَعادَ الأَبياتَ السابقةَ ، فأَشارَ ابنُ الخطَّابِ بعدَ ذلكَ علىٰ كِلابٍ أَن يخرجَ فخرجَ ، وحصلَ بينهُ وبينَ أَبيهِ ما يُبكي الطيرَ ، ويذيبُ الحجارةَ[5] .

[حسان بن ثابت يشتم رائحة آل جفنة وقصة جبلة بن الأيهم]

وقد جاءَ [في « الأغاني » ١٥/١٦٣] : أَنَّ حسَّانَ بنَ ثابتٍ اشتمَّ رائحةَ آلِ جفنةَ لمَّا جاءَ إِلىٰ عمرَ ـ وعندهُ رسولُ الرومِ ـ

---

(١) الغناءُ : النفع .

(٢) البِسَاقُ : جبلٌ بـ(عرفات) .

(٣) دُفَاقٌ : موضعٌ قربَ (مكَّةَ) .

(٤) هامُهُما : رأساهما . زَوَاقي : مِن قولِهم : أزقيتُ هامةَ فلانٍ إذا قتلتُهُ .

(٥) انظر القصة في « الإصابة » (١/١٣٧) .



وكانَ لاَقىٰ جَبَلَةَ بنَ الأَيهمِ هناكَ ، وتحمَّلَ عنهُ هديَّةً لحسَّانَ ، فأَنشأَ يقولُ [في « ديوانه » ١/ ٤٣٩] : [مِنَ الكاملِ]

إِنَّ ابْــنَ جَفْنَــةَ مِــنْ بَقِيَّــةِ مَعْشَــرٍ ... لَــمْ يَغْــذُهُــمْ آبَــاؤُهُــمْ بِــاللُّــومِ

لَــمْ يَنْسَنِــي بِــالشَّــامِ إِذْ هُــوَ رَبُّهَــا ... كَــلاًّ وَلاَ مُتَنَصِّــراً بِــالــرُّومِ

في خبرٍ طويلٍ وحكايةٍ مشهورةٍ ، أَنكرَ بعضَها ابنُ الشجريِّ ، وذكرَها المؤرِّخونَ[1] .

وأَشارَ إِليهَا المعريُّ في قولِهِ [في « سقطِ الزند » ١٢٤] : [مِنَ الوافرِ]

بَنُــو أَمْــلاَكِ جَفْنَــةَ قَــرَّبَتْهُــمْ ... إِلَــى الــرُّومِ اللَّجَــاجَــةُ وَالْعِنَــادُ[2]

أَرَادَتْ أَنْ تَقِيــدَهُــمُ قُــرَيْــشٌ ... وَكَــانُــوا لاَ يُنَــالُ لَهُــمْ قِيَــادُ[3]

[القبر يدل على المقبور]

وعرفَ قيسُ بنُ ذريحٍ قبرَ لُبنىٰ ، وكانُوا عمّوهُ عليهِ كما في روايةٍ ، فما زالَ يتشمَّمُ القبورَ حتَّى اهتدىٰ إِليهِ فقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَرَادُوا لِيُخْفُــوا قَبْــرَهَــا عَــنْ مُحِبِّهَــا ... وَلَكِــنَّ طِيــبَ الْقَبْــرِ دَلَّ عَلَــى الْقَبْــرِ

[قبور العاشقين]

وعرفَ بعضهمُ قبرَ ابنِ الفارضِ بطيبهِ ، وآثارِ الذلِّ الغراميِّ عليهِ ، فقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

مَسَــاكِيــنُ أَهْــلُ الْعِشْــقِ حَتَّــىٰ قُبُــورُهُــمْ ... عَلَيْهَــا تُــرَابُ الــذُّلِّ بَيْــنَ الْمَقَــابِــرِ

[كل ما يتصل بالحبيب حبيب]

وممَّا يتَّصلُ بمعنى البيتِ الذي نتكلَّم عليهِ . . قولُ قيسِ بنِ ذريحٍ أَوِ المجنونِ ، فقد عُزيَ إِلىٰ كلٍّ منهما ، أَو هِيَ أَبياتٌ لَهُما ، تداخلَت في بعضِها فكانَتْ من أَرقِّ النسيبِ ، وَهِيَ [في « ديوانِ المجنون » ٥٢ـ٥٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

جَرَى السَّيْلُ فَاسْتَبْكَانِيَ السَّيْلُ إِذْ جَرَىٰ ... وَفَــاضَــتْ لَــهُ مِــنْ مُقْلَتَــيَّ غُــرُوبُ[4]

وَمَــا ذَاكَ إِلاَّ حِيــنَ أَيْقَنْــتُ أَنَّــهُ ... يَكُــونُ بِــوَادٍ أَنْــتِ مِنْــهُ قَــرِيــبُ

يَكُــونُ أُجَــاجــاً دُونَكُــمْ فَــإِذَا انْتَهَــىٰ ... إِلَيْكُــمْ تَلَقَّــىٰ طِيبَكُــمْ فَيَطِيــبُ

فَيَــا سَــاكِنِــي أَكْنَــافِ نَخْلَــةَ كُلُّكُــمْ ... إِلَــى الْقَلْــبِ مِــنْ أَجْلِ الْحَبِيــبِ حَبِيــبُ

أَظَــلُّ غَــرِيــبَ الــدَّارِ فِــي أَرْضِ عَــامِــرٍ ... إِلَــىٰ كُــلِّ مَهْجُــورٍ هُنَــاكَ غَــرِيــبُ

ويشبهُهَا قولُ الناظمِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٩٦ـ٩٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا كَــانَ شَــمُّ الــرِّيــحِ أَدْنَــىٰ إِلَيْكُــمُ ... فَــلاَ بَــرِحَتْنِــي رَوْضَــةٌ وَقَبُــولُ

---

(١) انظر « الأغاني » (١٥/ ١٦٣) ، و« البداية والنهاية » (٨/ ٦٦) .

(٢) **اللجاجةُ** : التمادي في العنادِ .

(٣) **تُقِيدهُم** : تقتصُّ منهُم .

(٤) **الغُروبُ** : جمعُ غربٍ ، وهوَ الدلوُ العظيمةُ .

وَمَا شَرَقِي بِالْمَاءِ إِلاَّ تَذَكُّراً لِمَاءٍ بِهِ أَهْلُ الْحَبِيبِ نُزُولُ[1]

[الخلاف في مسألة القناعة في الحب]

وكأنِّي بِمَن ينكرُ تباينَ ما سقْنَا مِنَ الشواهدِ لذكرِ الروائحِ والنسائمِ مِنْ حيثُ إنَّ بعضَهم يتعلَّلُ بها ويتسلَّىٰ ، ويحصلُ لداءِ غرامِهِ بعضُ الشفا ، وتزيدُ آخرينَ وجداً وغراماً وتبَلاً[2] واضطراماً ، ونقولُ لاَ مُشَاحَّةَ ما دامَتْ نوعاً مِنَ الوصالِ المختلَفِ فيهِ أَيضاً ؛ إِذْ لا يقتنعُ بعضُهم حَتَّىٰ تمتزجَ الأَرواحُ ـ كما سيأْتِي في غيرِ هٰذا الموضعِ ـ ويقتنعُ بعضُهم بأَدنىٰ شيءٍ ، كما سبقَ في المجلسِ الثاني حيثُ ذكرْنا قولَ ابنِ الدُّمينةِ : [مِنَ الطَّويلِ]

رَضِيتُ بِسَعْيِ الْوَهْمِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْوَصْلِ مِنْهُ نَصِيبُ

وقولُ كُثيِّرٍ [في « وفيات الأعيان » ١/ ٣٦٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنِّي لأَرْضَىٰ مِنْكِ يَا عَزُّ بِالَّذِي لَوَ ابْصَرَهُ الْوَاشِي لَقَرَّتْ بَلاَبِلُهْ

... الأَبيات .

وقولُ جحدرٍ [في « البداية والنهاية » ٩/ ١٢٥] : [مِنَ الوافرِ]

أَلَيْسَ اللَّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْرٍو وَإِيَّانَا فَذَاكَ بِنَا تَدَانِي

والذي بعدهُ .

وقالَ قيسُ بنُ ذريحٍ فيما يشبهُ قولَ جحدرٍ [في « ديوانهِ » ٦٠ـ٦١] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلَيْسَتْ لُبَيْنَىٰ تَحْتَ سَقْفٍ يُكِنُّهَا وَإِيَّايَ ؟ هٰذَا إِنْ نَأَتْ لِيَ نَافِعُ[3]
وَيَلْبَسُنَا اللَّيْلُ الْبَهِيمُ إِذَا دَجَا وَنُبْصِرُ ضَوْءَ الصُّبْحِ وَالْفَجْرُ سَاطِعُ
تَطَا تَحْتَ رِجْلَيْهَا بِسَاطاً وَبَعْضُهُ أَطَأْهُ بِرِجْلِي لَيْسَ يَطْوِيهِ مَانِعُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٤٣] : [مِنَ الكاملِ]

وَيَقَرُّ عَيْنِيَ وَهْيَ نَازِحَةٌ مَا لاَ يَقَرُّ بِعَيْنِ ذِي الْحُلُمِ
أَنِّي أَرَىٰ وَأَظُنُّهَا سَتَرَىٰ وَضَحَ النَّهَارِ وَعَالِيَ النُّجُمِ

[ذكر زيارة الطيف وإلمام الشعراء به]

وكثيرٌ مَن يتمتعُ بالخيالِ ، ويتعلَّلُ بالآمالِ ، وأَوَّلُ مَن ذكرَ زيارةَ الطيفِ ـ فيما يُروىٰ ـ جرانُ العودِ في قولِهِ [في « ديوانه » ٥٥] : [مِنَ البسيطِ]

سَقْياً لِزَوْرِكَ مِنْ زُورٍ أَتَاكَ بِهِ حَدِيثُ نَفْسِكَ عَنْهُ وَهْوَ مَشْغُولُ[4]

---

(١) الشَّرَقُ : الاختناق بالماءِ أَو الريقِ أَو النَّفَسِ .

(٢) تَبَلَ الحبُّ الإنسانَ : أَسقمهُ وأَفسدَهُ وذهبَ بعقلِهِ .

(٣) الكِنُّ : وقاءُ كلِّ شيءٍ وسترهُ .

(٤) الزَّوْرُ : الزائرُ . والزُّورُ : الكذبُ .

ثُمَّ اقتفاهُ العبَّاسُ بنُ الأحنفِ ، وتلقَّاهُ أَبو تمَّامٍ ، وأَكْثَرَ التصرُّفَ فيهِ أَبو عُبادةَ ، ومِن أَحسنِ ما لَهُ فيهِ قولُهُ [في « ديوانِهِ » ٣/ ١٥٠٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَكَـمْ غُلَّـةٍ لِلشَّـوْقِ أَطْفَـأْتُ حَـرَّهَـا ... بِطَيْـفٍ مَتَـىٰ مَـا يَطْـرُقِ اللَّيْـلُ يَطْـرُقِ

وقولُهُ [في « ديوانِهِ » ٢/ ١٠٠٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكَـمْ فِـي الـدُّجَـا مِـنْ فَـرْحَـةٍ بِلِقَـائِهَـا ... وَمِـنْ تَـرْحَـةٍ بِـالْبَيْـنِ مِنْهَـا لَـدَى الْفَجْـرِ
إِذَا اللَّيْـلُ أَعْطَـانَـا مِـنَ الْـوَصْـلِ بُلْغَـةً ... ثَنَتْنَـا تَبَـاشِيـرُ النَّهَـارِ إِلَـى الْهَجْـرِ
وَلَـمْ أَنْـسَ إِسْعَـافَ الْكَـرَىٰ بِـدُنُـوِّهَـا ... وَزَوْرَتَهَـا بَعْـدَ الْهُـدُوِّ وَمَـا تَـدْرِي
وَأَخْـذِي بِعِطْفَيْهَـا وَقَـدْ مَـالَ رِدْفُهَـا ... بِطَيِّعَـةِ الْعِطْفَيْـنِ مَهْضُـومَـةِ الْخَصْـرِ
عِنَـاقٌ يُـرَوِّي غُلَّتِـي وَهْـوَ بَـاطِـلٌ ... وَلَـوْ أَنَّـهُ حَـقٌّ شَفَـىٰ لَـوْعَـةَ الصَّـدْرِ

وقولُهُ [في « ديوانِهِ » ٣/ ١٤٧٥] : [مِنَ الكاملِ]

وَلَـرُبَّمَـا كَـانَ الْكَـرَىٰ سَبَبـاً لَنَـا ... بَعْـدَ الْفِـرَاقِ إِلَـى اللِّقَـاءِ فَنَلْتَقِـي
مُتَـذَاكِـرَانِ عَلَـى الْبِعَـادِ فَمَـا يَنِـي ... يُهْـدِي الْغَـرَامَ مُغَـرِّبٌ لِمُشَـرِّقِ[1]

وقولُهُ [في « ديوانِهِ » ٣/ ١٢٣٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـلاَ وَصْـلَ إِلاَّ أَنْ يَطِيـفَ خَيَـالُهَـا ... بِنَـا تَحْتَ جُـؤْشُـوشٍ مِـنَ اللَّيْـلِ أَسْفَـعِ[2]
أَلَمَّـتْ بِنَـا بَعْـدَ الْهُـدُوِّ وَسَـامَحَـتْ ... بِـوَصْـلٍ مَتَـىٰ نَطْلُبْـهُ فِـي الْجِـدِّ تَمْنَـعِ

وقولُهُ [في « ديوانِهِ » ٣/ ١٩٨٤] : [مِنَ الكاملِ]

أَهْـلاً بِـزَائِـرِهِ الْمُلِـمِّ لَـوَ انَّـهُ ... عَـرَفَ الَّـذِي يَعْتَـادُ مِـنْ إِلْمَـامِـهِ[3]
جَـذْلاَنَ يَسْمَـحُ فِـي الْكَـرَىٰ بِعِنَـاقِـهِ ... وَيَضِـنُّ فِـي غَيْـرِ الْكَـرَىٰ بِسَـلاَمِـهِ

وقولُهُ [في « ديوانِهِ » ٣/ ١٦٠٧ـ١٦٠٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَيْلَـةَ هَـوَّمْنَـا عَلَـى الْعِيـسِ أَرْسَلَـتْ ... بِطَيْـفِ خَيَـالٍ يُشْبِـهُ الْحَـقَّ بَـاطِلُـهْ
فَلَـوْلاَ بَيَـاضُ الصُّبْـحِ طَـالَ تَشَبُّثِـي ... بِعِطْفَـيْ غَـزَالٍ بِـتُّ وَهْنـاً أُغَـازِلُـهْ[4]
وَكَـمْ مِـنْ يَـدٍ لِلَّيْـلِ عِنْـدِي حَمِيـدَةٍ ... وَلِلصُّبْـحِ مِـنْ خَطْـبٍ تُـذَمُّ غَـوَائِلُـهْ[5]

وقدْ أَغارَ الناظمُ على الأخيرِ في قولِهِ [في « العكبري » ١/ ١٦١] : [مِنَ البسيطِ]

أَزُورُهُـمْ وَسَـوَادُ اللَّيْـلِ يَشْفَـعُ لِـي ... [وَأَنْثَنِـي وَبَيَـاضُ الصُّبْـحِ يُغْـرِي بِـي]

---

(١) ينِي : يتوانىٰ .
(٢) الجُؤْشُوشُ : الصدرُ . أَسفَعُ : السُّفعة ، السوادُ المشرَّب بالحمرة .
(٣) يعتاد : ينتابُ . إلمامُ الطيفِ : زيارتُهُ .
(٤) الوهن : حين إدبارِ الليلِ .
(٥) غوائلُهُ : عواقبُهُ .

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/١٧٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكَـمْ لِظَـلامِ اللَّيْـلِ عِنْـدِيَ مِـنْ يَـدٍ ... تُحَـدِّثُ أَنَّ الْمَـانَـوِيَّـةَ تَكْـذِبُ[١]

وقالَ الحُطيئَةُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَفِـي كُـلِّ مُمْسَـىً لَيْلَـةٍ وَمُعَـرَّسٍ ... خَيَـالٌ يُـوَافِـي الـرَّكْـبَ مِـنْ أُمِّ مَعْبَـدِ[٢]

وقالَ قيسُ بنُ ذريحٍ [في « ديوانِهِ » ١٥٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنِّـي لأَهْـوَى النَّـوْمَ مِـنْ غَيْـرِ نَعْسَـةٍ ... لَعَـلَّ لِقَـاءً فِـي الْمَنَـامِ يَكُـونُ

تُخَبِّـرُنِـي الأَحْـلامُ أَنِّـي أَرَاكُـمُ ... فَيَـا لَيْـتَ أَحْـلامَ الْمَنَـامِ يَقِيـنُ

وقالَ المجنونُ [في « ديوانِهِ » ٢٩٩ـ٣٠١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنِّـي لأَسْتَغْشِـي وَمَـا بِـيَ نَعْسَـةٌ ... لَعَـلَّ خَيَـالاً مِنْـكِ يَلْقَـىٰ خَيَـالِيَـا[٣]

وَأَخْـرُجُ مِـنْ بَيْـنِ الْبُيُـوتِ لَعَلَّنِـي ... أُحَـدِّثُ عَنْـكِ النَّفْـسَ بِـالسِّـرِّ خَـالِيَـا

وقالَ عمرُو بنُ قميئَةَ [في « الأغاني » ١٨/١٤١] : [مِنَ المتقارِبِ]

نَـأَتْـكَ أُمَـامَـةُ إِلاَّ سُـؤَالاَ ... وَإِلاَّ خَيَـالاً يُـوَافِـي خَيَـالاَ

يُـوَافِـي مَـعَ اللَّيْـلِ مِيعَـادُهَـا ... وَيَـأْبَـىٰ مَـعَ الصُّبْـحِ إِلاَّ زَيَـالاَ

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ الأَسديُّ : [مِنَ الكاملِ]

سَقْيـاً لِطَيْفِـكِ مِـنْ خَيَـالٍ طَـارِقٍ ... وَلَّـىٰ وَحُسْـنُ حَـدِيثِـهِ لَـمْ يُسْـأَمِ

أَنَّـى اهْتَـدَيْـتِ وَأَنْـتِ غَيْـرُ خَبِيـرَةٍ ... لِمَبِيـتِ شُعْـثٍ كَـالأَسِنَّـةِ سُهَّـمِ[٤]

وقالَ النظَّارُ الفقعسيُّ [في « الأغاني » ١٩/٢٤٤] : [مِنَ الكاملِ]

أَنَّـى اهْتَـدَت لِمُنَـاخِنَـا جُمْـلُ ... وَمِـنَ الْكَـرَىٰ لِعُيُـونِنَـا كُحْـلُ

طَـرَقَـتْ أَخَـا سَفَـرٍ وَنَـاجِيَـةً ... خَـرْقَـاءَ يُعْـرِقُ نَيَّهَـا الـرَّحْـلُ[٥]

فِـي مَهْمَـهٍ هَجَـعَ الـدَّلِيـلُ بِـهِ ... وَتَعَلَّلَـتْ بِصَـرِيفِهَـا الْبُـزْلُ[٦]

وقالَ قيسُ بنُ الأَسلتِ أَو قيسُ بنُ الخطيمِ [بل لقيسِ بنِ الخَطيمِ كما في « ديوانِهِ » ١٦] : [مِنَ الكاملِ]

مَـا تَمْنَعِـي يَقْظَـىٰ فَقَـدْ تُـؤْتِينَـهُ ... فِـي النَّـوْمِ غَيْـرَ مُصَـرَّدٍ مَحْسُـوبِ[٧]

---

(١) المانويَّةُ : قومٌ يُنسبون إلىٰ (ماني) ، وهوَ رجلٌ يقولُ : الخيرُ مِن النهارِ ، والشرُّ مِنَ الليلِ ، وانتحلَ هـٰذا المذهبَ .

(٢) المعرَّسُ : آخرُ الليلِ .

(٣) غشاءُ كلِّ شيْءٍ : غطاؤُهُ .

(٤) الأشعثُ : المغبرُّ الرأسِ . سُهَّمٌ : ضامرٌ ، متغيِّرُ اللونِ ، ذابلُ الشفتينِ ، عابسٌ من شدَّةِ الهَمِّ .

(٥) الخرقاءُ : هيَ الدابَّةُ التي في أُذنِها ثقبٌ . يُعرِقُ : مِنَ التعرُّقِ . نيَّها : شحمَها .

(٦) تعلَّلَت : أَي شربَتْ المرةَ بعدَ الأُخرىٰ . الصريفُ : الحليبُ حينَ يحلبُ . البُزْلُ : أَي النوقُ .

(٧) مُصَرَّدٌ : مقلَّلٌ . محسوبٌ : قال الشريف المرتضىٰ : تحتمل في البيت معنيين : أحدهما : من الحساب وهو العدُّ ؛ لأن الشيء القليل يوصف بأنَّهُ معدود ومحسوب ، والثاني : أن يكون « محسوب » من الحُسبانِ وهو أنه غير متوقَّع .

[الخلاف في اسم أول من وصف الطيف]

وقدِ اختُلِفَ في جرانِ العودِ الذي قيلَ : إنهُ أَوَّلُ من وصفَ الطيفَ ، **فقيلَ** : إِنَّهُ جاهليٌّ ، ولا إِشكالَ حينئذٍ ، **وقيلَ** : إِنَّهُ إِسلاميٌّ وبهِ وجهٌ مِنَ النظرِ ، لما مرَّ بكَ من شعرِ الجاهليِّينَ فيهِ ، وقيلَ : إِنَّهما اثنانِ .

[ليس الغنم بالغرم]

وكثيرٌ مِن أَهلِ الأَدبِ من يخافُ أَنْ يحميَ معشوقَهُ المنامَ ، كما يأْتي في شرحِ **قولِهِ** [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣١٩] : [مِنَ الخفيفِ]

أَيَّ يَـــوْمٍ سَـــرَرْتَنِـــي بِـــوِصَـــالٍ ... لَـــمْ تَـــرُعْنِـــي ثَـــلاَثَـــةً بِصُـــدُودِ

[التناوم من أجل رؤيا خيال الحبيب]

ومنهم : مَن يتطلَّبُ الإِغفاءَ لِكَي يصطادَ بهِ الخيالَ ، كما سيأْتي مِن قولِ مِهْيَارٍ [في « ديوانه » ٣/ ٣٢٨] : [مِنَ الرَّمَلِ]

وَابْعَثُـــوا أَشْبَـــاحَكُـــمْ لِـــي فِـــي الْكَـــرَىٰ ... إِنْ أَذِنْتُـــمْ لِجُفُـــونِـــي أَنْ تَنَـــامَـــا

وقولِ سلطانِ العاشقينَ [في « ديوانهِ » ١٥٧] : [مِنَ الخفيفِ]

أَوْ مُـــرِ الْغُمْـــضَ أَنْ يَمُـــرَّ بِجَفْنِـــي ... فَكَـــأَنِّـــي بِـــهِ مُطِيعـــاً عَطَـــاكَـــا

[زيادة النار حطباً]

أَمَّا قولُ نديمِ المتوكِّلِ عليِّ بنِ النجمِ [في « وفيات الأعيان » ٣/ ٣٧٤] : [مِنَ المديدِ]

زَارَنِـــي طَيْـــفُ الْحَبِيـــبِ فَمَـــا ... زَادَ أَنْ أَغْـــرَىٰ بِـــيَ الأَرَقَـــا

فليسَ بأَغربَ مِمَّا يأْتِي عَن أَهلِ المحبةِ الصادقةِ أَوائِلَ المجلسِ السادسَ عشرَ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبي في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٦٥] : [مِنَ البسيطِ]

عَـــلَّ الأَمِيـــرَ يَـــرَىٰ ضَعْفِـــي فَيَشْفَـــعَ لِـــي ... إِلَـــى الَّتِـــي تَـــرَكَتْنِـــي فِـــي الْهَـــوَىٰ مَثَـــلاَ

[الذل في الهوىٰ والشفاعة فيه]

يقولُ : علَّ الأَميرَ الممدوحَ يطَّلِعُ علىٰ ذُلِّي وضَعفي في الهوىٰ ، فيشفعَ لي إِلى التي تركتْني مضربَ المثلِ في الغرامِ ، لتواصِلَني بشفاعتِهِ ، وهُوَ من قولِ أَبي نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٥٨٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

سَأَشْكُو إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَىٰ بْنِ خَالِدٍ ... هَـــوَاهَـــا لَعَـــلَّ الْفَضْـــلَ يَجْمَـــعُ بَيْنَنَـــا

وقولُ أَبي نُوَاسٍ أَحسنُ ؛ لأَنَّ الجمعَ قد يكونُ بأَن يعطيَهِ ما يتوصَّلُ بهِ إِلى المحبوبةِ ، وأَمَّا الشفاعةُ فباللسانِ وذلكَ نوعٌ مِنَ القيادةِ ، كذا قالَ الشارحُ .

[تعصب الفضل بن يحيىٰ على أبي نواس]

ولم يكنِ السببُ في الزرايةِ علىٰ هـٰذا إِلاَّ أَنَّ الفضلَ بنَ يحيىٰ كانَ متعصِّباً علىٰ أَبي نُوَاسٍ ، يفضِّل عليهِ مسلمَ بنَ



الوليدِ ، حتَّىٰ لقد استؤْذنَ لهُ يوماً فأَعظمهُ ، وأَكرمهُ ، واستنشدهُ ، وخلعَ عليهِ ، وأَجازهُ ، فما انصرفَ حتَّىٰ جاءَ أَبو نُوَاسٍ ، فامتنعَ مِنَ الإذنِ لهُ ، حتَّىٰ سأَله بعضُ مَن حضرَ أَنْ يأْذنَ لَهُ ، ففعلَ علىٰ تكرُّهٍ منهُ ، فلمَّا دخلَ . . سلَّم ، قالَ الراوي : فما علمتُ أَنَّهُ ردَّ عليهِ ولاَ أَمرهُ بالجلوسِ ، ولاَ رفعَ إِليهِ رأْسهُ ، فلمَّا طالَ عليهِ الوقوفُ . . قالَ معيَ أَبياتٌ أَفأُنْشِدُها ؟ قالَ : نعَم ، فقالَ [في « ديوانه » ٥٨٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

طَرَحْتُمْ عَلَى التَّرْحَالِ أَمْراً فَغَمَّنَا وَلَوْ قَدْ فَعَلْتُمْ صَبَّحَ الْمَوْتُ بَعْضَنَا

حتَّىٰ بلغَ قولَهُ : (سأَشْكُو إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَىٰ بْنِ خَالِدِ) . . البيتَ ، فقطَّبَ وجهُ الفضلِ ، وقالَ لأَبي نُوَاسٍ : أَمسِكْ ، عليكَ لعنةُ اللهِ ، وأَمرَ بإِخراجهِ محروماً ، والتفتَ الفضلُ إِلىٰ أَنسِ ابنِ أَبي شيخٍ وقالَ : ما رأَيتُ مثلَ هـٰذا الرَّجلِ ، ولا أَقلَّ تمييزاً في كلامهِ ، قالَ أَنسٌ : إِنَّ اسمَهُ كبيرٌ ، فقالَ : عندَ مَنْ ؟ ويلكَ! ليسَ إِلاَّ عندَ مَنْ يُشاكِلُهُ مِنَ السُّقَّاطِ ، قالَ أَنسٌ : وأَينَ هوَ مِنْ مُسلمٍ ، فقالَ الفضلُ : واللهِ لأَحجبنَّكَ ثلاثاً ، ولا كلَّمتُكَ سبعاً ؛ إِذ كانَ هـٰذا مبلغَ علمكَ ، ونهايةَ تمييزكَ ، واللهِ إِنَّ مُسلماً ليفضُلُ عندي الطَّبقةَ المتقدِّمةَ .

[ليست الشفاعة من باب القيادة]

والحقُّ : أَن لا غضاضةَ في شيءٍ ممَّا فعلَهُ المتنبِّي وأَبو نُوَاسٍ ؛ إِذ للسَّلفِ مِنْ مثلِهِ الكثيرُ الطَّيِّبُ .

[شفاعته صلى الله عليه وسلم لمغيث عند بريرة]

وهـٰذا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يشفَعُ لمغيثٍ عندَ بريرةَ أَن تستديمَ نكاحَه بعد أَن عَتَقَت ، فلَم تقبلْ[1] ، فهلْ مِن غضاضةٍ في رجوعِ مغيثٍ إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وتشفُّعِهِ بهِ إِلىٰ بريرةَ ؟ لا واللهِ .

[ابن أبي عتيق يسعىٰ في طلاق لبنىٰ لتعود إلىٰ قيس]

وهـٰذا ابنُ أَبي عَتيقٍ يَسعىٰ في طلاقِ لُبنىٰ مِنْ زوجِها ؛ لِتَرجعَ إِلىٰ قيسٍ ، وفيهِ يقولُ [في « ديوانه » ٨٥] : [مِنَ الوافِرِ]

جَزَى الرَّحْمَـٰنُ أَفْضَلَ مَا يُجَازِي عَلَى الإِحْسَانِ خَيْراً مِنْ صَدِيقِ
فَقَدْ جَرَّبْتُ إِخْوَانِي جَمِيعاً فَمَا أَلْفَيْتُ كَابْنِ أَبِي عَتِيقِ
سَعَىٰ فِي جَمْعِ شَمْلِي بَعْدَ صَدْعٍ وَرَأْيٍ حِدْتُ فِيهِ عَنِ الطَّرِيقِ[2]
وَأَطْفَأَ لَوْعَةً كَانَتْ بِقَلْبِي أَغَصَّتْنِي حَرَارَتُهَا بِرِيقِي[3]

[قصة ابن ذريح ولبنىٰ]

وقيسٌ هـٰذا : هوَ ابنُ ذُريحٍ مِنْ بني عُذرةَ ، وكانَ رضيعَ الحُسينِ بنِ عليٍّ ـ رضيَ اللهُ عنهُما ـ أَرضعَتْهُما أُمُّ قيسٍ ، وكانَ خرجَ لبعضِ حاجتهِ ، فمرَّ بخيامِ بني كعبِ بنِ خزاعةَ ، والحيُّ خُلوفٌ[4] ، فوقفَ يَستسقي ببابِ خيمةٍ ،

---

(١) وذلك لما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري (٥٢٨٣) في الطلاق أَنَّ زوجَ بريرةَ كانَ عبداً ، يقالُ لهُ : مغيثٌ ، كأَنِّي أَنظرُ إِليهِ يطوفُ خلفَها يبكي ، ودموعُهُ تسيلُ علىٰ لحيتهِ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ لعبَّاسٍ : « يَا عَبَّاسُ ؛ أَلاَ تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثاً ؟ » فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ « لَوْ رَاجَعْتِهِ » قالَتْ : يا رسولَ اللهِ . . أَتأمرُني ؟ قالَ : « إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ » ، قالت : لا حاجةَ لِي فيهِ .

(٢) صَدْعٌ : تفرُّقٌ .

(٣) انظر « خزانةَ الأدب » (١/ ٣٣٢) .

(٤) أي : والحيُّ خالٍ مِنَ النَّاسِ ، قد ذهبوا يَستقونَ ، وخلَّفوا أَثقالَهُم ، ويُقالُ : هُم خُلوفٌ ، أَي : غُيَّبٌ .

فخرجَتْ إليهِ لُبنىٰ بنتُ الْحُبابِ الكعبيَّةُ ، وكانتِ امرأةً مديدةَ القامةِ ، شهلاءَ[1] ، حلوةَ المَنظرةِ والكلامِ ، فوقعَتْ في نفسِهِ ، وعرضَتْ عليهِ القِرىٰ ، فنزلَ وأكرمَهُ أبوها ، ثُمَّ انصرفَ وفي قلبه حرٌّ لا يُطْفَىٰ ، فجعلَ ينطقُ بالشعرِ فيهَا ، حتَّىٰ شاعَ ورواهُ الناسُ ، ثُمَّ أتاها يوماً آخرَ وقدِ اشتدَّ وجدهُ بها فسلَّم ، فظهرتْ لهُ وردَّتْ سلامَهُ ، فشَكا إليها ما يجدُ من حبِّها ، فبكَت وشكَت إليهِ مثلَ ذلكَ ، وعرفَ كلٌّ منهُما ما لصاحبِهِ عندَ الآخرِ .

وانصرفَ إلىٰ أبيهِ وسألَهُ أَنْ يخطِبَها لهُ ، فأَبىٰ عليهِ ، وقالَ لَه : بناتُ عمِّكَ أحقُّ بكَ ، وكانَ موسراً كثيرَ المالِ ، فكرهَ أَنْ يخرجَ ابنهُ إلى الغريبةِ ، فشكا إلىٰ أُمِّهِ ما لقيَ من والدهِ ، واستعانَ بِهَا علىٰ أبيهِ ، فلَمْ يجدْ عندَها الذي يحبُّ ، فأَتى الحسينَ بنَ عليٍّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ـ وشكَا إليهِ ما بهِ ، وما ردَّ عليهِ أبوهُ ، فقالَ : أنا أكفيكَ ، ومشىٰ معهُ إلىٰ وَالدِ لُبنىٰ ، فلمَّا بصُرَ بهِ . . أعظمهُ ، ووثبَ إليهِ ، وقالَ : يا ابنَ رسولِ اللهِ ما جاءَ بكَ ؟ أَلاَ بعثتَ إليَّ فآتيكَ ، قالَ : إنَّ الذي جئتُ فيهِ يوجبُ قصدَكَ ، جِئْتُكَ أخطبُ ابنتكَ لبنىٰ لقيسِ بنِ ذريحٍ ، فقالَ : يا ابنَ رسولِ اللهِ ، ما كنَّا لنعصيَ لكَ أمراً ، وما بنا رغبةٌ عَنِ الفتىٰ ، وأَحبُّ الأَمرِ إلينا أَنْ يُشرِكَ أَبوهُ في الخطبةِ ؛ لِئَلاَّ يكونَ عاراً وسُبَّةً علينا ، فأَتى الحسينُ ذُريحاً وهُوَ في قومهِ ، فقاموا إليهِ إعظاماً لهُ ، فقالَ لِذريحٍ : أَقسمتُ عليكَ إلاَّ خطبتَ لُبنىٰ علىٰ قيسٍ ، قالَ : السمعُ والطاعةُ لأمركَ ، فخرجَ معهُ في وجوهِ قومهِ حتَّىٰ أَتوا حيَّ لبنىٰ ، فخطبَها ذريحٌ على ابنهِ إلىٰ أَبيهَا ، وبَنَىٰ عليها ، وأَقامَ معَها مدَّةً ، فمرضَ ، فقالَتْ أُمُّهُ لأَبيهِ : لقد خشيتُ أَنْ يموتَ قيسٌ ولا يتركَ خَلفاً ، وقد حُرِمَ الولدَ من هـٰذي المرأةِ ، وأَنتَ ذو مالٍ فيصيرَ مالكَ إلى الكلالةِ ، فزوِّجه بغيرِها ، علَّ اللهَ أَن يرزقَه الولدَ ، وأَلحَّتْ عليهِ في ذلكَ ، فعرضَ عليهِ ذلكَ ذريحٌ ، فقالَ : لستُ متزوِّجاً بغيرِها أَبداً ، قالَ : فَتَسرَّ بالإِماءِ ، قالَ : وَلاَ أَسوؤُهَا بِشيءٍ أَبداً ، قالَ : فإني أُقسمُ عليكَ إلاَّ ما طلَّقْتَها ، فأَبىٰ ، وقالَ : الموتُ أَسهلُ عندي مِن فراقِها ، قالَ : لاَ أَرضىٰ أَوْ تطلِّقَها ، وحلفَ أَنَّهُ لاَ يكنُّه سقفٌ أَبداً أو يطلِّقَ قيسٌ لبنىٰ ، فكانَ يقفُ في حرِّ الشمسِ ، فيجيءُ قيسٌ إلىٰ جانبِهِ يظلُّهُ بردائِهِ ، ويَصْلَىٰ هُوَ بحرِّها حتَّىٰ يفيءَ الفيءُ فينصرفَ عنهُ إلىٰ لُبنىٰ ، ويعانقُها ويَبكِي وتَبكي معهُ ، وتقولُ لهُ : لاَ تطعْ أَباكَ ؛ فتهلكَ وتهلكَني معكَ ، فقالَ : ما كنتُ لأُطيعَ فيكِ أَحداً أَبداً ، فيقالُ : إنَّهُ مكثَ سنةً كذلكَ ؛ ثُمَّ طلَّقَها ، فلمَّا بانتْ منهُ . . استطيرَ عقلُهُ ، وذهبَ لبُّهُ ، وخالَطَهُ مِثلُ الجنونِ ، وقالَ في ذلِكَ أَشعاراً كثيرةً ، منها قولُهُ [في « ديوانهِ » ٢٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكُـلُّ مُصِيبَـاتِ الـزَّمَـانِ وَجَـدْتُهَـا ... سِـوَىٰ فُـرْقَـةِ الأَحْبَـابِ هَيِّنَـةَ الْخَطْـبِ[2]

وقولُهُ [في « ديوانه » ٨٣ـ٨٤] : [من الطَّويلِ]

وَدِدْتُ ـ وَبَيْـتِ اللهِ ـ أَنِّـي عَصَيْتُهُـمْ ... وُحمِّلْـتُ فِـي رِضْـوَانِهَـا كُـلَّ مُـوبِـقِ
كَـأَنِّـي أَرَى النَّـاسَ الْمُحِبِّيـنَ بَعْـدَهَـا ... عُصَـارَةَ مَـاءِ الْحَنْظَـلِ الْمُتَفَلِّـقِ[3]
فَتُنْكِـرُ عَيْنِـي بَعْـدَهَـا كُـلَّ مَنْظَـرٍ ... وَيَكْـرَهُ سَمْعِـي بَعْـدَهَـا كُـلَّ مَنْطِـقِ

---

(١) الشَّهلاءُ : هيَ المرأَةُ الَّتي في عينها زُرقَةٌ .

(٢) انظر « الأغاني » (٩/٢١٢ـ٢١٤) .

(٣) الفَلْقةُ : شجرةٌ مرَّةٌ بـ(الحجاز) و(تهامةَ) ، والحبشةُ تسُمُّ بها السلاحَ فيقتلُ من أَصابهُ .

وقولُهُ لمَّا تحمَّلتْ [في «ديوانه» ٧٩ـ٨٠] : [مِنَ البسيطِ]

قَدْ كُنْتُ أَحْلِفُ جُهْدِي لاَ أُفَارِقُهَا ... أُفٍّ لِكَثْـرَةِ زَيْـفِ الْقَـوْلِ وَالْحَلِـفِ
هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ قَدْ أَمْسَتْ مُجَاوِرَةً ... أَهْـلَ الْعَقِيـقِ وَأَمْسَيْنَا عَلَـىٰ سَـرِفِ[1]
حَـيٌّ يَمَانُـونَ وَالْبَطْحَـاءُ مَنْـزِلُنَـا ... هَـٰذَا لَعَمْـرُكَ شَمْـلٌ غَيْـرُ مُـؤْتَلِـفِ

وَعن عمروِ بنِ دينارٍ قالَ [في «الأغاني» ٩/٢١٥] : قالَ الحسنُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لذُريحٍ : أَحَلَّ لكَ أَنْ تفرِّقَ بينَ قيسٍ ولبنىٰ ، وقد قالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ : ما أُبالي أَفرَّقتُ بينَ الرجلِ وامرأَتِه ، أَم مشيتُ إِليهما بالسيفِ!

[لا عيب في الحبيب في نظر العاشق]

ويرویٰ [في «الأغاني» ٩/٢٢٦] : أَنَّ أُمَّهُ أو الطبيبَ أَرسَلوا لهُ من يعيبُ لبنىٰ ، وقالوا : لاَ ينفعُهُ إِلاَّ ذكرُ مساوئها ، فقالَ [في «ديوانه» ٥٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا عِبْتُهَـا شَبَّهْتُهَـا الْبَـدْرَ طَـالِعَـا ... وَحَسْبُـكَ مِـنْ عَيْـبٍ لَهَـا شَبَـهُ الْبَـدْرِ
لَقَـدْ فُضِّلَـتْ لُبْنَـىٰ عَلَـى النَّاسِ مِثْلَمَـا ... عَلَـىٰ أَلْـفِ شَهْـرٍ فُضِّلَـتْ لَيْلَـةُ الْقَـدْرِ

[زواج لبنىٰ]

ثُمَّ إِنَّ لُبنىٰ تزوَّجَتْ بـ(المدينةِ) ، فقصدَها قيسٌ ومعهُ إِبلٌ ، باعَ ناقةً منها لرجلٍ لا يعرفهُ ، فقالَ لهُ : وافني بالثمنِ غداً إِلىٰ دارِ كثيرِ بنِ الصَّلتِ ، فجاءَ وطرقَ البابَ ، فأَدخلهُ وقد صنعَ له طعاماً ، وقام لبعضِ شأْنهِ ، فقالتِ المرأَةُ لخادِمتها : سليهِ ما لوجهِهِ متغيِّراً شاحباً ؟

[حال من فارق الأحباب]

فتنفَّسَ الصُّعَداءَ ، وقالَ : هـٰكذا حالُ من فارق الأَحبَّةَ ، فقالَت : استخبريهِ عن أَمرهِ ؟ فشرعَ يحكي لها ، فرفعتِ الحجابَ ، وقالتْ : حَسبكَ ، قد عرفناكَ ، فبهتَ ساعةً لا ينطقُ ، ثُمَّ خرجَ علىٰ وجههِ ، فاعترضهُ الرجلُ ، فلم يكلِّمهُ ، فعرفَ أَنَّه قيسٌ[2] .

[شفاعة ابن أبي عتيق لقيس]

ولمَّا اشتدَّ بهِ الأَمرُ . قصدَ ابنَ أَبي عتيقٍ في ذلكَ ، وَكانَ من أَكثرِ أَهلِ زمانِهِ مروءَةً ، فجاءَ ابنُ أَبي عتيقٍ إِلى الحسَنيْنِ وقالَ لَهما : لي إِليكُما حاجةٌ ، قالاَ : ما هِيَ ؟ قالَ : تسعداني علىٰ فلانٍ ـ لزوج لُبنىٰ ـ في حاجةٍ لي عندهُ ، فمَضَوا إِليهِ ، وكلَّموه ، فقالَ : سَلوا ما شِئْتُم ، قالَ ابنُ أَبي عتيقٍ : ما كانَ بِلا استثناءٍ ، قالَ : نعم ، قالَ : نُريدُ أَن تطلِّقَ لبنىٰ ولكَ ما شئْتَ عندِي ، قالَ : أُشهدُكم أَنها طالقٌ ثلاثاً ، فاستحيَوا منهُ ، وعوَّضَهُ الحسنُ مئَةَ أَلفِ درهمٍ ، وقالَ : لو علمتُ الحاجةَ ما جئْتُ ، وانتقلَتْ لُبنىٰ إِلى العِدَّةِ ، ثم اختلفَ الرواةُ :

[الأقوال في عودة لبنىٰ لقيس]

فمِن قائلٍ : أَنَّها أَكملت عدَّتها وأَنَّ قيساً تزوَّجَها وأَقامَتْ معهُ إِلى الموتِ .

---

(١) سَرِفٌ : اسم موضع يبعدُ ستَّةَ أميالٍ عن (مكَّةَ) . والعقيقُ : وادٍ بـ(اليمامة) . ومكان آخر بجوار (المدينة المنورة) .
(٢) انظر «الأغاني» (٩/٢٣٧) .



ومِنْ قائلٍ : أَنَّها ماتَتْ في العِدَّةِ ، وأَنَّهُ أَكبَّ علىٰ قبرها يبكي حَتَّىٰ أُغميَ عليهِ ، فرفعهُ أَهلهُ وهُوَ لا يعقلُ ، فلم يزلْ عليلاً لاَ يفيقُ ولا يجيبُ مكلِّماً حَتَّىٰ ماتَ بعدَ ثلاثٍ .

ومِنْ قائلٍ : أَنَّهم أَخفَوا عنهُ قبرَها فعرفهُ برائحتهِ ، كما سبقَ ذكرُ ذلكَ[1] .

[المعروف من ابن أبي عتيق الظرف]

فإِنْ قيلَ : قد صحَّ أَنَّ ابنَ أَبي عتيقٍ قالَ لقيسٍ [كما في « المثل السائر » ٢/٢٥٩] : كفَّ عنْ بعضِ شكركَ لي علىٰ هـٰذا الصنيعِ ؛ لئَلاَّ يظنَّ مَنْ سمعهُ أَنِّي قوَّادٌ[2] . وهـٰذا ينافي ما سبقَ منكَ في تبريرِ الناظمِ وأَبي نُوَاسٍ ، ودفعِ المعرَّةِ عمَّا زعمَ بعضهُمْ لصوقَها بهِ من كلامِهم . . فالجوابُ ما عرفَ من حالِ ابنِ أَبي عتيقٍ وظرفهِ ونادرَتِه ولينِ جانبهِ ودماثةِ أَخلاقهِ ، فأَخرجها مخرجَ التندُّرِ والتمليحِ ، لا يريدُ بها حقيقةً ، ولا يخشىٰ منها لوماً ، علىٰ أَنَّهُ يحتملُ أَنْ يريدَ منها هضمَ النفْسِ ، وتلطيفَ الصنيعةِ ، فإِنَّها صالحةٌ لِذلكَ ، والصنيعةُ عظيمةٌ ، وهُوَ من ساداتِ التواضعِ ، وإِلاَّ فقد فعلَ ما هُوَ أَدنىٰ إِلى اللَّومِ مِنْ ذلك ، ولم يبالِ :

[من رسولي إلى الثريا ؟]

فإِنَّه لمَّا سمعَ قولَ ابنِ أَبي ربيعةَ [في « ديوانهِ » ١/١٠٦] : [مِنَ الخفيفِ]

مَـنْ رَسُـولِـي إِلَـى الثُّـرَيَّـا فَـإِنِّـي ... ضِقْـتُ ذَرْعـاً بِهَجْـرِهَـا ، وَالْكِتَـابِ[3]

. . قالَ إِيَّايَ عَنىٰ ، وبِي نوَّهَ ، وما حلاوةُ الحياةِ إِذا تكدَّرَ ما بينَ الثريَّا وعمرَ ؟ وَشَخَصَ مِنْ فورهِ إِلىٰ (مكَّةَ) و(الطائفِ) ، وأَصلحَ بينهُما ، ولم يخلطْ عملَه ذلكَ بنسكٍ قطُّ[4] .

[طلحة الطلحات]

ويذكرُ [كما في « النهاية » ٣/١٣١] : أَنَّ طلحةَ الطَّلَحَاتِ إِنَّما أُطلقَ عليهِ ذلكَ اللقبُ ؛ لأَنَّهُ جمعَ بينَ مئَةِ عربيٍّ ومئةِ عربيَّةٍ بأَكملِ الجهازِ والصَّداقِ ، ووُلدَ لكلٍّ ولدٌ سمَّاهُ طلحةَ .

[أمنية الفاروق]

ويروىٰ [كما في « مصارع العشاق » ١/٣٢٠] : أَنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ قالَ : لو أَدركتُ عروةَ وعفراءَ . . لَجمعْتُ بينَهما .

وبعضُ ما ذكرَ في هـٰذهِ الأَخبارِ لا يساعدُ عليهِ التاريخُ ، والعهدةُ على الرواةِ ، ولاَ حاجةَ إِلى البحثِ ؛ لانتخالِ الصحةِ ؛ لأَنَّها غيرُ مقصودَةٍ بالذَّاتِ .

[الحسين يتزوج امرأة ليعيدها إلىٰ زوجها]

وقد فعلَ الحسينُ بنُ عليٍّ عليهما السلامُ ما لا يخرجُ عَنْ هـٰذا الموضوعِ ؛ إِذْ تزوَّج علىٰ زينبَ[5] ـ أَرادَ زينبَ بنتَ إِسحاقَ ، مطلَّقةَ عبدِ اللهِ بنِ سلامٍ ـ وقالَ : ما أَردتُ إِلاَّ أَنْ أُحَلِّلها له ، كما في روايةٍ عنهُ بذلكَ .

---

(١) انظر « الأغاني » (٩/٢٥٢ـ٢٥٤) .
(٢) القوَّاد : سمْسَارُ النساءِ .
(٣) أي : أُقسمُ بالكتابِ .
(٤) في « الأغاني » (١/٢٢٣) .
(٥) في بعض المصادر « أرينب » .



[ثواب من جمع بين اثنين]

وفي الحديثِ « مَنْ جَمَعَ بَيْنَ اثْنَيْنِ . . كُنْتُ أَنَا وَإِيَّاهُ فِي الجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ ، وأَشَارَ إِلَىٰ أُصْبُعَيْهِ الْوُسْطَىٰ وَالسَّبَّابَةِ »[1] .

[شفاعة زبيدة زوجة الرشيد لعاشقين في حجها وافتخارها بذلك]

وقد أخذتْ بهٰذا زبيدةُ ابنةُ جعفرٍ زوج الرشيدِ في حديثِها المشهورِ ، وهُوَ : أَنَّها رأَت علىٰ حائطٍ في طريقِ (مكَّة) هٰذينِ البيتينِ : [مِنَ الطويلِ]

أَمَـا فِـي عِبَـادِ اللهِ أَوْ فِـي إِمَـائِـهِ ... كَـرِيـمٌ يُجَلِّـي الْهَـمَّ عَـنْ ذَاهِـبِ الْعَقْـلِ

لَـهُ مُقْلَـةٌ ، أَمَّـا الْمَـآقِـي فَقَـرْحَـةٌ ... وَأَمَّـا الْحَشَـا فَـالنَّـارُ فِـي طَيِّهَـا تَغْلِـي

فنذرتْ أَنْ تَجدَّ في طلبِ قائِلهما ؛ حتَّىٰ تسرِّيَ عنهُ فإنَّها لَبِـ(المزدلفةِ) إذ سمعتْ مَن ينشدُهما ، فاستدعتْ بهِ ، فزعمَ أَنَّ لهُ بنتَ عمٍّ يهواها ، وقد حلفَ أَهلهُ علىٰ أَنْ لاَ يزوِّجُوهُ مِنها ، فوجَّهَت إِليهم ، وأَرغَبَتْهم بالمالِ ، حَتَّىٰ أَطلبوه ، وإذا المرأَةُ أَعشقُ مِنَ الرَّجلِ لهِ ، فكانتْ زبيدةُ تعدُّ ذلكَ مِنْ أَعظَمِ حسناتِها ، وتقولُ : ما سررتُ بشيءٍ من نفسي في حَجِّي ، سروري بِالْجَمْعِ بينَ الفتىٰ والفتاةِ .

[من أفضل الشفاعات]

وبعدَ هٰذَا تذكَّرتُ أَنَّ السيوطيَّ أَخرجَ في « جامعِهِ » مرفوعاً : « إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ الشَّفَاعَاتِ . . أَنْ تَشْفَعَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فِي نِكَاحٍ ، حَتَّىٰ تَجْمَعَ بَيْنَهُمَا »[2] .

[لكل مقام مقال]

ثُمَّ للقرائنِ الحاليَّةِ حكمُها في تخصيصِ الأَحكامِ ، كما هُوَ مقرَّرٌ في مواضعِهِ مِنَ الأُصولِ والبيانِ ، ولَولا اعتبارُ ذلكَ . . لفسدَ الكلامُ ، وشملَ الملامُ ، فلا أُشنوعةَ فيما قالهُ الناظمُ ، ولاَ فيما قالهُ أَبُو نُوَاسٍ ، معَ بياضِ أَعراضِ الممدوحينَ ، أَمَّا لو كانَ أَحدُهم مَغْموصاً عليهِ ، أو متَّهماً بشيءٍ مِنَ القَاذوراتِ . . فإِنَّهُ يلحقُ القائِلَ في ذلكَ مِنَ العيبِ ما لصقَ بأَبي النجمِ في قولِهِ لهشامٍ [في « خزانة الأدب » ١/٢١] : [مِنَ الرَّجزِ]

صَفْـرَاءُ قَـدْ كَـادَتْ وَلَمَّـا تَفْعَـلِ ... كَـأَنَّهَـا فِـي الأُفْـقِ عَيْـنُ الأَحْـوَلِ

فلمْ ينلهُ الملامُ إِلاَّ من سوءِ تحفُّظِهِ في مخاطبةِ الأَحولِ ، بما يقتضي التعريضَ بهِ ، فاستحقَّ الحرمانَ من هٰذهِ الجهةِ ، لا من جهةِ قوَّةِ التشبيهِ وغرابتهِ ، فإِنَّهُ بديعٌ .

[الخطأ في التقدير قد لا يحرم الثواب]

ويروىٰ : أَنَّ بعضَ الشعراءِ تقدَّمَ إِلىٰ زبيدةَ زوجِ الرشيدِ فقالَ : [مِنْ مجزوءِ الكاملِ]

أَزُبَيْـــدَةُ ابْنَـــةَ جَعْفَـــرِ ... طُـوبَـىٰ لِـزَائِـرِكِ الْمُثَـابْ

تُعْطِيـــنَ مِـــنْ رِجْلَيْـــكِ مَـا ... تُعْطِـي الأَكُـفُّ مِـنَ الـرِّغَـابْ

---

(١) لم نقف له علىٰ أصل فيما بين أيدينا من مصادر .

(٢) أخرجه أبو بكر ابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٥/٩٦) .



فتبادرهُ العبيدُ ليوقِعوا بهِ ، فقالتْ زبيدةُ : كفُّوا عنهُ ، فلمْ يردْ إلاَّ خيراً ، وإنَّما سمعَ قولَهم : قفاكَ أحسنُ من وجهِ غيرِكَ ، وشِمالكَ أندىٰ منْ يمينِ سِواكَ .

فقدَّر أَنَّ هـٰذا مثلُه ، فأَعطُوهُ ما أَمِل ، وعرَّفوهُ ما جهلَ ، وما قالتْ ذاكَ ؛ إلاَّ لبراءَةِ ذيلِها مِنَ التُّهَمِ ، ولو علِقتْ بها ريبةٌ . . لما تأخَّرتْ عن إراقةِ دمِهِ .

[أمسُكَ أيمنُ من يومِه]

وأَصلهُ : من قولِ النابغةِ للنعمانِ بنِ المنذرِ : أَيفاخرُك ذرٌّ فائِشٌ ـ وأَنتَ سائسُ العَربِ ، وعروةُ الحسبِ والأَدبِ ؟ لأَمْسُكَ أَيمنُ من يومِهِ ، وعبدُكَ أَكرمُ من قومِهِ ، وقفاكَ أَحسنُ من وجههِ ، ويسارُكَ أَندىٰ من يمينهِ ، وظنُّك أَصدقُ من يقينِهِ ، ووعدكَ أَثلجُ من رِفدِهِ ، وخالُكَ أَشرفُ من جدِّهِ ، ونفسكَ أَمنعُ مِنْ جندِهِ ، ويومكَ أَزهرُ من دهرِهِ ، وفِتْرُكَ أَبسطُ من شبرِه .

[قفاك خير من وجهه]

وقولِ حسَّانَ لعمروِ بنِ الحارثِ بنِ أَبي شمرِ الغسَّانيِّ [في « جمهرة خطب العرب » ١/٣٢] : أَيفاخركَ ابنُ المنذرِ اللَّخميُّ ، وقفاكَ خيرٌ من وجههِ ، وشمالُكَ خيرٌ من يمينهِ ، وأُمُّكَ خيرٌ من أَبيهِ ، ولطمتكَ خيرٌ من كلامِهِ ؟ في خطبةٍ طويلةٍ قالَ في آخرِها [في « الأغاني » ١٥/١٥٨] : [مِنَ المتقارب]

قَـذَالُـكَ أَحْسَـنُ مِـنْ وَجْهِـهِ ... وَأُمُّـكَ خَيْـرٌ مِـنَ الْمُنْـذِرِ[1]
وَيُسْـرَىٰ يَـدَيْـكَ إِذَا أَعْسَـرَتْ ... كَيُمْنَـىٰ يَـدَيْـهِ فَـلاَ تَمْتَـرِي

[الشعراء وهـٰذا المعنىٰ]

وقالَ أَبو نُواسٍ : [مِنَ الخفيفِ]

بِـأَبِـي أَنْـتَ مِـنْ غَـزَالٍ غَـرِيـرٍ ... بَـذَّ حُسْـنَ الْـوُجُـوهِ حُسْـنُ قَفَـاكَـا[2]

ولا شكَّ أَنَّ فيهِ ضميراً مستتراً ، يُعرفُ مِمَّا اشتهرَ بهِ أَبو نُواسٍ .

وقال الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٤/١٥٣ـ١٥٤] : [مِنَ المتقاربِ]

فَـأَجْـوَدُ مِـنْ جُـودِهِـمْ بُخْلُـهُ ... وَأَحْمَـدُ مِـنْ حَمْـدِهِـمْ ذَمُّـهُ
وَأَشْـرَفُ مِـنْ عَيْشِهِـمْ مَـوْتُـهُ ... وَأَنْفَـعُ مِـنْ وُجْـدِهُـمْ عُـدْمُـهُ

[ابن الأثير ينتقد أبا نواس]

وها هنا فائدةٌ : وهيَ أَنَّ ابنَ الأَثيرِ انتقدَ قولَ أَبي نُواسٍ [في « ديوانه » ٥٢٢] : [مِنَ الكاملِ]

أَصْبَحْـتَ يَـا ابْـنَ زُبَيْـدَةَ ابْنَـةِ جَعْفَـرٍ ... أَمَـلاً لِعَقْـدِ حِبَـالِـهِ اسْتِحْكَـامُ

وقولَهُ : [مِنَ الوافرِ]

وَلَيْـسَ كَجَـدَّتَيْـهِ أُمُّ مُـوسَـىٰ ... إِذَا نُسِبَـتْ وَلاَ كَـالْخَيْـزُرَانِ

---

(١) القَذَالُ : جماعُ مؤخَرِ الرَّأسِ .
(٢) بَذَّ : فاقَ .



[ذكر الأم في الشعر القبيح]

وقالَ : إنَّ ذكرَ الأُمِّ هنا قبيحٌ ، وما أَوقعهُ في تلكَ العثرةِ إلاَّ قولُ جريرٍ : [مِنَ الوافرِ]

وَتَبْنِــي الْمَجْـدَ يَـا عُمَـرَ ابْـنَ لَيْلَـىٰ ... وَتَكْفِــي الْمُمْحِـلَ السَّنَــةَ الْجَمَــادَا

وأمَّا قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « بَشِّرْ قَاتِلَ ابْنِ صَفِيَّةَ بِالنَّارِ »[1] . . فإنَّما نسبهُ إليها رفعاً بقدرِهِ في قربِ نسبهِ .

[رد المؤلف على ابن الأثير وميزان المسألة عنده]

وأقولُ : إنَّ الأمرَ اختلطَ عليهِ ، وكثيراً ما كانَ يخلطُ الحابلَ بالنابلِ ، ولو تدبَّرَ . . لعرفَ أَنَّ المدارَ علىٰ براءَةِ العرضِ ، وشرَفِ الحسَبِ ، فمَتَىٰ كانتْ شريفةً عفيفةً . . لم يقبحْ ذكرُها ، وقد قالَ هارونُ عليهِ السلامُ : ﴿ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ﴾ [طه : ٩٤] .

وكثيراً ما ينسُبُه مُدَّاحُهُ ـ عليهِ الصلاة والسلامُ ـ إلىٰ آمنةَ ، مع أَنَّها ليسَت كعبدِ اللهِ في الشرفِ ، ولكنَّ الميزانَ ما ذكرنا ، ثُمَّ لم يكتفِ مُدَّاحهُ بنَسْبِهِ إلى امرأَةٍ واحدةٍ حَتَّىٰ نسبوهُ إلىٰ عدَّةِ نساءٍ ، فقالوا : يا ابنَ العواتِكِ ، وما زالَ آلُ إلياسَ فاخرينَ بالانتسابِ إلىٰ خندفَ ، وأَولادُ فاطمةَ بهِ إليها ، وكذلكَ الأَنصارُ بهِ إلىٰ قَيْلَةَ ، وقال سَلْمٌ الخاسرُ يمدحُ الأمينَ في حفلِ الرشيدِ : [مِنَ الكاملِ]

قَـدْ بَـايَـعَ الثَّقَـلاَنِ مَهْـدِيَّ الْهُـدَىٰ ... لِمُحَمَّـدِ ابْـنِ زُبَيْـدَةَ ابْنَـةِ جَعْفَـرِ

وَلَّيْتَــهُ عَهْــدَ الأَنَــامِ وَأَمْــرَهُــمْ ... فَـدَمَغْـتَ بِـالْمَعْـرُوفِ رَأْسَ الْمُنْكَـرِ

فاستحقَّ بذلكَ مئَةَ أَلفِ درهمٍ .

وقالَ أشجع يمدح الأَمينَ أَيضاً [في « ديوانه » ١٩٦] : [مِنَ الكاملِ]

مَلِــكٌ أَبُــوهُ وَأُمُّــهُ مِــنْ نَبْعَــةٍ ... فِيهَــا سِــرَاجُ الأُمَّــةِ الْــوَهَّــاجُ

شَــرِبَــتْ بِمَكَّــةَ فِــي رُبَــىٰ بَطْحَـائِهَـا ... مَــاءَ النُّبُــوَّةِ لَيْــسَ فِيــهِ مِــزَاجُ

فاستحقَّ مثلَ سَلْمٍ .

فلا معابةَ في ذكرِ الأُمِّ علىٰ ما شرطناهُ مِنَ الطهارةِ ، إنما يكرهُ أَنْ ينسبَ إلىٰ أُمِّه مَنْ كانَ علىٰ مثلِ حالِ زيادٍ[2] .

حتَّىٰ لقد أَرادتْ عائشةُ ـ حبيبةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ورضيَ عنها ـ أَنْ تكتبَ إليهِ في غرضٍ عَنَّ لها ، فلم تدرِ ما تقولُ ، وتحيَّرَتْ في ذلكَ زماناً ، حَتَّى انحطَّ رَأْيُهَا علىٰ أَنْ تقولَ [في « الكامل » ٣/٣٠٢] : مِنْ أُمِّ المؤمنينَ إلى ابنِها زيادٍ ، فلمَّا وردهُ الكتابُ . . قالَ : لقد لاقَتْ أُمُّ المؤمنينَ عناءً مِن هـٰذا العنوانِ .

وأَنا في إشكالٍ بعدُ مِنْ إضرابِ الفرزدقِ عن رثاءِ زوجِهِ ، حَتَّى اضطرُّوا لِرَائِيَّةِ جرير في امرأَتِهِ ، وهِيَ المستهلَّةُ بقولِهِ

---

(١) أخرجه من قول علي المرتضىٰ أحمد في « المسند » (٦٨١) بإسناد حسن ، وابن سعد (٣/١٠٥) ، وابن أبي شيبة (١٢/٩٣) وابن أبي عاصم في « السنة » (١٣٨٨) . وأورده ابن عبد البر في « التمهيد » (١٨/٣١) . **وابن صفية** : هو الزبير بن العوام ابن عمته صلى الله عليه وسلم .

(٢) **زياد** : يعرف بـ : ابن أبيه ، أمير من الدهاة والقادة الفاتحين من أهل (الطائف) والدته سمية جارية الحارث بن كلدة ، واختلفوا في أبيه ، فقيل : عبيد الثقفي ، وقيل : أبو سفيان ، وأدرك النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ولم يره ، توفي سنة : (٥٣هـ) .

[في « ديوانه » ٢/ ٨٦٢] : [مِنَ الكاملِ]

لَـوْلاَ الْحَيَـاءُ لَهَـاجَنِـي اسْتِعْبَـارُ وَلَـزُرْتُ قَبْـرَكِ والْحَبِيـبُ يُـزَارُ

ثُمَّ إنْ علَّلتَهُ بالتجلُّدِ وإظهارِ الشدَّةِ . . فإنَّما يكونُ عذراً عمَّا لا يحسنُ ، كالجزعِ في المَلأ ، بخلافِ الشِّعرِ الذي يجوزُ ويحسنُ فيهِ ما لا يجوزُ ولا يحسنُ في غيرِهِ ـ حسبَما قرَّرناهُ أوائِلَ المجلسِ ـ وإنْ علَّلناهُ بالقسوةِ كَمَا أَسلَفنا القولَ فيهِ ثمَّ عندَ إيرادِ قولِهِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَجَفْنِ سِلاَحٍ قَدْ رُزِئْتُ فَلَمْ أَنُحْ عَلَيْـهِ وَلَـمْ أَبْعَـثْ لَـدَيْـهِ الْبَـوَاكِيَـا

. . فكثيراً ما يختلفُ حالُ الأزواجِ ، بقرينةِ أَنَّهُ بعثَ هُنا البواكيَ ، ولا يصحُّ أَنْ نعلِّلَهُ بالغَيْرةِ على اسمِهَا لمناقضتهِ بمثلِ قولِهِ : [مِنَ الوافرِ]

نَـدِمْـتُ نَـدَامَـةَ الْكُسَعِـيِّ لَمَّـا غَـدَتْ مِنِّـي مُطَلَّقَـةً نُـوَارُ

وَكَـانَـتْ جَنَّتِـي فَخَـرَجْـتُ مِنْهَـا كَـآدَمَ حِيـنَ أَخْـرَجَـهُ الضِّـرَارُ

معَ أَنَّ الحنينَ في إثْرِ المطلَّقةِ أَلْوَمُ ، وأَدلُّ منهُ على الضعفِ في إثْرِ القاضيةِ .

وهلْ مِن مانعٍ أَنْ نعلِّلَ سكوتَه بفرطِ الوجدِ ؟ فكثيراً ما يتصعَّدُ معهُ الكلامُ ، وقد **قالَ الناظمُ** [في « العُكبريِّ » ٤/ ١٩٥] :

[مِنَ الكاملِ]

اَلْحُبُّ مَا مَنَعَ الْكَلاَمَ الأَلْسُنَا

وقالَ ذو الرُّمَّةِ : [مِنَ الكاملِ]

عَشِيَّـةَ مَـا لِـي حِيلَـةٌ غَيْـرَ أَنَّنِـي بِلَقْطِ الْحَصَىٰ وَالْغَطِّ فِي التُّرْبِ مُولَعُ

ومنهُ البيتُ الآتي أَوائِلَ المجلسِ السادسَ عشرَ ، عندَ **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٣٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَىٰ عَلَى الْقُرْبِ وَالنَّوَىٰ فَمَـا عَـاشِـقٌ مَـنْ لاَ يَـذِلُّ وَيَخْضَـعُ

[الحزن يخرس الألسنة]

ولَكَمْ أَخرسَ الحُزنُ مِنْ مَقاولَ ، منهمُ ابنُ الزُّبيرِ يومَ نعىٰ إلى النَّاسِ المُصعبَ .

[الثناء علىٰ جرير]

أَمَّا ابنُ المَراغةِ[1] : فقد أَخذَ بأَطرافِ الكمالِ في قولِهِ : (لَوْلاَ الْحَيَاءُ . .) ؛ إذْ لَمْ يمنعهُ الحياءُ عَنْ مُجرَّدِ إرسالِ الدُّموعِ ، وإنَّما منعَهُ عَنِ الاختناقِ بالعَبَراتِ .

والكلامُ في الموضوعِ يطولُ ، فإلىٰ آونةٍ أُخرىٰ .

[المراد من هـٰذا البحث نفي مذمة الشفاعة عند العاشقين]

وبعدُ : فإنِّي لاَ أُريدُ بشيءٍ مِمَّا أَطلتُ فيهِ الثَّناءَ علىٰ بيتِ النَّاظمِ الَّذي بينَ أَيدينا ، فإنَّني أَعترفُ بأَنَّهُ كلاحِقهِ مِنْ أَتفهِ الشِّعرِ وأَرذَلِهِ ، ولكنَّني أُحاولُ دفعَ ما زعموهُ مِنْ مذمَّةِ الشَّفاعةِ في مِثْلِهِ ، لأَنَّهُ باللازمِ غضٌّ مِنْ هدي سيِّدِ

(١) ابنُ المَراغةِ : جريرٌ الشَّاعرُ ، والمَراغةُ : لقبٌ لقَّبَ الفرزدقُ بِهِ أُمَّ جريرٍ ؛ لأنَّها وُلِدَتْ في مَراغة ، والمراغةُ هيَ المكانُ الَّذي تتمرَّغُ ـ ترعىٰ ـ فيه الإبلُ .

المُرسلينَ ، وأقدسِ الطَّاهرينَ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، ولا تَعَلُّ[1] مِنْ ذلكَ تحمى الأُنوفُ ، وترعُفُ الأَقلامُ والسُّيوفُ .

[السجال بين ابن حجر والإمام العيني]

وقد أَفتىٰ شيخُ الإسلامِ الحافِظُ ابنُ حَجَرٍ العسقلانيُّ بتعيُّنِ مُؤَاخذةِ الإمامِ العَينيِّ مؤاخذةً عظيمةً لِمَا هوَ أَدنىٰ بكثيرٍ منهُ .

ولا بأْسَ باقتصاصِهِ ، وهوَ : أَنَّ المَلِكَ المؤَيَّدَ بنىٰ جامعاً بـ(مصرَ) ، وأَعلىٰ منارَتَهُ ، فسقطَتْ ، فقالَ الحافظُ مُعرِّضاً بالعَينيِّ : لِما بينَهُ وبينَهُ ممَّا يكونُ بينَ المُتعاصِرينَ : [مِنَ الطَّويلِ]

لِجَـامِـعِ مَـوْلاَنَـا الْمُـؤَيَّـدِ رَوْنَـقٌ ... مَنَـارَتُـهُ تَـزْهُـو مِـنَ اللُّطْـفِ وَالـزَّيْـنِ
تَقُـولُ وَقَـدْ مَـالَـتْ عَلَيْنَـا : تَعَجَّبُـوا ... فَلَيْـسَ عَلَـىٰ حُسْنِـي أَضَـرُّ مِـنَ الْعَيْنِـي

قالَ ابنُ حجَّةَ : ولَمْ يكُنِ العَينيُّ يُحسِنُ النَّظْمَ ، فدفعَ للنواجيِّ دراهمَ ، فنظَمَ لَهُ هـٰذينِ البيتينِ : [مِنَ البسيطِ]

مَنَـارَةٌ كَعَـرُوسِ الْحُسْـنِ إِذْ جُلِيَـتْ ... وَهَـدْمُهَـا بِقَضَـاءِ اللهِ وَالْقَـدَرِ
قَالُوا : أُصِيبَتْ بِعَيْنٍ ، قُلْتُ : ذَا خَطَأٌ ... مَـا آفَـةُ الْهَـدْمِ إِلاَّ خِسَّـةُ الْحَجَـرِ

فتقدَّمَ الحافِظُ بفتواهُ ، وقالَ : إِنَّهُ أَنكرَ ما أَثبتهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ بقولِهِ : « **إِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ** »[2] .

والحالُ أَنَّ العَينيَّ لَمْ يُرِدْ إِنكارَ أَحقيَّةِ العينِ ، وإِنَّما أَنكرَ خصوصَ انهدامِ المَنارةِ بها ، ولا حرجَ في ذلكَ .

[ليس الإفراط من الدين]

وأَكبرُ مِنْ ذلكَ ما ادَّعاهُ أَبو بكرٍ ابنُ العربيِّ مِنْ إِفتائِهِ بقتلِ رجلٍ كَرِهَ الأَحمرَ ، وقالَ : لأَنَّهُ كَرِهَ لبسةً لبسَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ[3] ، وذُكِرَ أَنَّهُ قُتِلَ بفتواهُ ، مع أَنَّ في المسأَلةِ تفصيلاً ، ولا يُحصىٰ كثرةُ مَنْ قالَ بكراهةِ الأَحمرِ البحتِ ، وحَمَلوا حمرةَ حُلَّتِهِ ـ عليهِ السَّلامُ ـ على التَّخطيطِ .

نعوذُ باللهِ مِنَ الإِفراطِ والتَّفريطِ .

[إلمام المتنبي بالموضوع]

والحاصِلُ : أَنْ لا اعتراضَ مِنْ حيثُ المعنىٰ على النَّاظمِ ، ولئِنْ أَغثَّ وأَخلَّ بالبلاغةِ في هـٰذا البيتِ . . فقد أَجادَ في بعضِ المعنىٰ ؛ **إِذ يقولُ** [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٨٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

أُحِـبُّ الَّتِـي فِـي الْبَـدْرِ مِنْهَـا مَشَـابِـهٌ ... وَأَشْكُـو إِلَـىٰ مَـنْ لاَ يُصَـابُ لَـهُ شَكْـلُ[4]

وهـٰذا هُوَ الَّذي يشبهُ بيتَ أَبي نُوَاسٍ السَّابقَ ، وكانَ مِن واجبِ الشَّارحِ التَّنبيهُ عليهِ ، ففاته .

---

(١) تعَلُّ : تبقىٰ وتظلُّ .

(٢) القصةُ بنحوها في « شذرات الذهب » (٤/ ١٤٥) ، والحديثُ أَخرجَهُ عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاريُّ (٥٧٤٠) في الطب .

(٣) لحديث البراء بن عازب عند البخاري (٥٠٩١) في اللباس ، قال : (ما رأيت أحداً من الناس أحسن في حلة حمراء من رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ) والترمذي في « الشمائل » (٦٥) ، والنسائي (٥٠٦٠) في الزينة .

(٤) الشَّكْلُ : الشبيهُ والنظيرُ .



[من غرائب المتنبي]

ومِن غرائِبِ الناظمِ في تناقضهِ ، أَنَّهُ بينَا هُوَ يطلبُ الشَّفاعةَ إِلى المحبوبِ . . إِذِ انقلبَ عليهِ الموضوعُ ، فصارَ شافعاً ، ونَصَّبَ ممدوحَهُ للريبةِ ، وسلكَ مسلكَ القِيادةِ في قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٣٠٢ـ٣٠٣] : [مِنَ الكاملِ]

لَــوْ أَنَّ فَنَّـــاخُسْــرَ صَبَّحَكُــمْ ... وَبَــرَزْتِ وَحْــدَكِ عَــاقَــهُ الْغَــزَلُ[١]

وَتَفَــرَّقَــتْ عَنْــهُ كَتَــائِبُــهُ ... إِنَّ الْمِــلاَحَ خَــوَادِعٌ قُتُــلُ[٢]

مَــا كُنْــتِ فَــاعِلَــةً وَضَيْفُكُــمُ ... مَلِــكُ الْمُلُــوكِ وَشَــأْنُــكِ الْبَخَــلُ

أَفَتَمْنَعِيــنَ قِــرَىً فَتَفْتَضِحِــي ... أَمْ تَبْــذُلِيــنَ لَــهُ الَّــذِي يَسَــلُ

بَــلْ لاَ يَحُــلُّ بِحَيْــثُ حَــلَّ بِــهِ ... بُخْــلٌ وَلاَ جَــوْرٌ وَلاَ وَجَــلُ

فهوَ إِذاً علىٰ عكسِ قولِ المجنونِ [في « ديوانه » ١٩٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

مَضَــىٰ زَمَــنٌ وَالنَّــاسُ يَسْتَشْفِعُــونَ بِــي ... فَهَــلْ لِــي إِلَــىٰ لَيْلَــى الْغَــدَاةَ شَفِيــعُ ؟

* * *

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبي في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٦٦] : [مِنَ البسيطِ]

أَيْقَنْــتُ أَنَّ سَعِيــداً طَــالِــبٌ بِــدَمِــي ... لَمَّــا بَصُــرْتُ بِــهِ بِــالــرُّمْــحِ مُعْتَقِــلاَ[٣]

[إن سفكت الحبيبة دم العاشق أُخذ له بثأره]

نقلَ الشارحُ عنِ الواحديِّ أَنَّهُ مِنْ قولِ المؤَمَّلِ [في « الأغاني » ٢٢/ ٢٥٤] : [مِنَ البسيطِ]

لَمَّــا رَمَــتْ مُهْجَتِــي قَــالَــتْ لِجَــارَتِهَــا ... إِنِّــي قَتَلْــتُ قَتِيــلاً مَــا لَــهُ خَطَــرُ[٤]

قَتَلْــتُ شَــاعِــرَ هَــٰذَا الْحَــيِّ مِــنْ مُضَــرٍ ... وَاللهِ وَاللهِ مَــا تَــرْضَــىٰ بِــذَا مُضَــرُ

أَقولُ : وشتَّانَ ما بينَهما ، فإِنَّهما وإِنِ اتفقا في جنسِ المعنىٰ . . فقدِ اختلفا في نوعهِ ، ومِن هنا جاءَ تفاوتُ القيمةِ ؛ إِذِ المؤَمَّلُ يدَّعي أَنَّها قالَتْ ذلكَ ، وهُوَ جميلٌ ، والناظمُ يقولُ ذلكَ من قِبلِ نفسِهِ ، وهِيَ حطَّةٌ وقلَّةُ أَدبٍ ، غيرَ أَنَّها لاَ تنكرُ معَ مثلِ قولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٤١] : [مِنَ المتقاربِ]

أَيَــا خَــدَّدَ اللهُ وَرْدَ الْخُــدُودِ ... وَقَــدَّ قُــدُودَ الْحِسَــانِ الْقُــدُودِ[٥]

---

(١) فَنَّاخُسْرَ : من أَسماءِ الديلمِ ، وهوَ اسمُ عضُدِ الدولةِ .

(٢) في « العكبري » : (عَنْكُمْ) بدل (عَنْهُ) .

(٣) الاعتقالُ : هوَ أَن يحملَ الرجلُ رمحهُ بينَ ساقهِ وركابهِ .

(٤) الخطرُ : الدِّيةُ والعِوَض .

(٥) خدَّدَ : شقَّقَ . قدَّ : قطع . القدودُ : جمعُ قدٍّ ، وهوَ القامةُ . والمعنىٰ : أَنَّهُ دعا علىٰ وردِ الخدودِ أَن يشقِّقَهُ اللهُ ويزيلَ حسنَهُ ، وأَن يقطِّعَ قدودَ الحسانِ ، وهوَ دعاءٌ علىٰ التعجُّبِ والاستحسانِ .



وقد أنكروا عَلى الفرزدقِ قولَهُ [في « ديوانهِ » ٢/٧٧٨] : [مِنَ الكاملِ]

يَـا أُخْـتَ نَـاجِيَـةَ بْـنِ سَـامَـةَ إِنَّنِي ... أَخْشَـىٰ عَلَيْـكِ بَنِـيَّ إِنْ طَلَبُـوا دَمِـي

وقولَ الآخرِ : [مِنَ الطَّويلِ]

خَلِيلَـيَّ إِنْ حَـانَـتْ وَفَـاتِـيَ فَـاطْلُبَـا ... دَمِـي مِـنْ سُلَيْمَـىٰ وَاطْلُبَـا بِجَمِيـلِ

وقولَ قيسِ بنِ ذريحٍ [في « ديوانهِ » ٤٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

خُـذُوا بِـدَمِـي إِنْ مِـتُّ كُـلَّ خَـرِيـدَةٍ ... مَـرِيضَـةِ جَفْـنِ الْعَيْـنِ وَالطَّـرْفُ فَـاتِـرُ

وقولَ جميلٍ [في « ديوانهِ » ٥٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

رَمَـى اللهُ فِـي عَيْنَـيْ بُثَيْنَـةَ بِـالقَـذَىٰ ... وَفِـي الغُـرِّ مِـنْ أَنْيَـابِهَـا بِـالْقَـوَادِحِ[(١)]

[قتيلنا لا يودىٰ]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ جندبٍ : خرجتُ مرةً فرأيتُ جماعةً بينهم فتاةٌ ، كأنَّها منحوتةٌ من فضَّةٍ ، فتمثلتُ بقولِ قيسِ بنِ ذُريحٍ : (خُذوا بِدَمِي إِن مِتُّ) . . . البيتِ ، فقالتِ المرأةُ يا ابنَ جندبٍ : إِنَّ قَتِيلَنا لاَ يُودىٰ ، وأَميرَنا لا يُفدىٰ .

[قتيل الهوىٰ هَدَر]

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ : (قتيلُ الهوىٰ هَدَرٌ ، لاَ عقلَ ولاَ قَوَدَ)[(٢)] .

[ما هي دية قتيل العشق عند الشعراء ؟!]

قال أبو حيَّةَ النُّميريُّ [في « ديوانهِ » ٨٦ـ٨٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

رَمَيْـنَ فَـأَقْصَـدْنَ الْقُلُـوبَ وَمَـا نَـرَىٰ ... دَمـاً مَـائِـراً إِلاَّ جَـوًى فِـي الْحَيَـازِمِ[(٣)]

وَلَكِـنْ لَعَمْـرُ اللهِ مَـا طَـلَّ مُسْلِمـاً ... كَغُـرِّ الثَّنَـايَـا وَاضِحَـاتِ الْمَـلاَغِـمِ[(٤)]

وَإِنَّ دَمـاً لَـو تَعْلَمِيـنَ جَنَيْتِـهِ ... عَلَـى الْحُـرِّ جَـانِـي مِثْلِـهِ غَيْـرُ سَـالِـمِ

وقالَ جميلٌ [في « ديوانهِ » ٦٢ـ٦٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا قُلْـتُ : مَـا بِـي يَـا بُثَيْنَـةُ قَـاتِلِـي ... مِـنَ الْحُـبِّ قَـالَـتْ : ثَـابِـتٌ وَيَـزِيـدُ

وَإِنْ قُلْتُ : رُدِّي بَعْضَ عَقْلِي أَعِشْ بِهِ ... مَـعَ النَّـاسِ قَـالَـتْ : ذَاكَ مِنْـكَ بَعِيـدُ

جَـزَتْـكِ الْجَـوَازِي يَـا بُثَيْـنُ سَـلاَمَـةً ... إِذَا مَـا خَلِيـلٌ بَـانَ وَهْـوَ حَمِيـدُ

يَقُـولُـونَ : جَـاهِـدْ يَـا جَمِيـلُ بِغَـزْوَةٍ ... وَأَيَّ جِهَـادٍ غَيْـرَهُـنَّ أُرِيـدُ

لِكُـلِّ حَـدِيـثٍ بَيْنَهُـنَّ بَشَـاشَـةٌ ... وَكُـلُّ قَتِيـلٍ بَيْنَهُـنَّ شَهِيـدُ

---

(١) الغُرُّ : البيضُ . الأنيابُ : الأَسنانُ . القوادحُ : السوادُ الذي يظهرُ في الأَسنانِ أَو آفاتُ الأَسنانِ .

(٢) لم أقف عليه . العقلُ : الديةُ . القودُ : القصاصُ .

(٣) المائرُ : السائلُ .

(٤) الملاغِمُ من كُلِّ شيءٍ : الأَنفُ والفمُ والأَشداقُ .

ولقد أَحسنَ مسلمُ بنُ الوليدِ في قولِهِ [في « مصارع العشاق » ١/ ٣٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَدِيرَا عَلَيَّ الْكَأْسَ لاَ تَشْرَبَا قَبْلِي ... وَلاَ تَطْلُبَا مِنْ عِنْدِ قَاتِلَتِي ذَحْلِي[1]

إِذَا مَا عَلَتْ مِنَّا ذُؤَابَةَ وَاحِدٍ ... تَمَشَّتْ بِهِ مَشْيَ الْمُقَيَّدِ فِي الْوَحْلِ[2]

وقالَ الحسينُ بنُ الضحاكِ : [مِنَ الوافرِ]

غَزالٌ مَا اجْتَلاَهُ الطَّرْفُ إِلاَّ ... تَحَيَّرَ فِي مَلاحَةِ وَجْنَتَيْهِ

خُذُوا بِدَمِي مَحَاسِنَهُ وَخُصُّوا ... مُقَبَّلَهُ وَبَرْدَ ثَنِيَّتَيْهِ

[عذاب الحب للعشاق عذب]

وممَّا يشبهُ هذا النوعَ ـ وليسَ بهِ ـ قولُ أَحمدَ بنِ يوسفَ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَفِي الْمَوْتِ لِي مِنْ لَوْعَةِ الْحُبِّ رَاحَةٌ ... وَلَكِنَّنِي أَخْشَىٰ نَدَامَتَهَا بَعْدِي

وقالَ المجنونُ [في « ديوانه » ٤٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

يَقُولُونَ : لَيْلَىٰ عَذَّبَتْكَ بِحُبِّهَا ... أَلاَ حَبَّذَا ذَاكَ الْحَبِيبُ الْمُعَذِّبُ

وقالَ [في « ديوانه » ١١٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَشَكَّى الْمُحِبُّونَ الْغَرَامَ وَلَيْتَنِي ... تَحَمَّلْتُ مَا أَلْقَاهُ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدِي

فَكَانَتْ لِنفْسِي لَذَّةُ الْحُبِّ كُلُّهَا ... فَلَمْ يَلْقَهَا قَبْلِي مُحِبٌّ وَلاَ بَعْدِي

وقالَ إِبراهيمُ بنُ العبَّاسِ : [مِنَ الوافرِ]

بِنَفْسِي مَنْ إِسَاءَتُهُ اعْتِمَادُ ... وَمَنْ إِحْسَانُهُ مِنْ غَيْرِ عَمْدِ

وَمَنْ أَصْفَيْتُهُ فِي الْوُدِّ جُهْدِي ... فَعَارَضَ فِي الْجَفَاءِ بِمِثْلِ جُهْدِي

وقالَ أبو العتاهيَةِ [في « ديوانه » ٤٩٩] : [مِنَ البسيطِ]

وَلِي فُؤَادٌ إِذَا طَالَ الْعَذَابُ بِهِ ... هَامَ اشْتِيَاقاً إِلَىٰ لُقْيَا مُعَذِّبِهِ

وقالَ ابنُ وَكيعٍ : [مِنَ المُجْتَثِّ]

إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا بِي ... وَأَنْتَ بِي لاَ تُبَالِي

فَصَارَ قَلْبُكَ قَلْبِي ... وَصِرْتَ فِي مِثْلِ حَالِي

بَلْ عِشْتَ فِي طِيبِ عَيْشٍ ... تَفْدِيكَ نَفْسِي وَمَالِي

دَعَوْتُ إِذْ ضَاقَ صَدْرِي ... عَلَيْكَ ثُمَّ بَدَا لِي

وقالَ آخرُ : [مِنْ مجزوءِ الرَّمَلِ]

أَيُّهَا الْمُعْرِضُ صَفْحاً ... عَنْ خِطَابِي وَجَوَابِي

---

(١) الذَّحلُ : الثأرُ .

(٢) الذُّؤابةُ من كلِّ شيءٍ : أَعلاهُ .

لاَ أَرَانِــــي اللهُ مَـــوْتِــي أَوْ يُــرِينِـي بِـكَ مَـا بِـي
رَبِّ فَـــاجْعَلْـــهُ دُعَـــاءَ خَـــائِبَـــاً غَيْـــرَ مُجَـــابِ
رَقَّ قَلْبِـــي أَنْ يَـــرَىٰ قَلْـــبَـــكَ فِـي مِثْـلِ عَـذَابِـي

وقال الناظمُ [في «العُكبَريِّ» ٢/٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

سُهَـادٌ أَتَـانَـا مِنْكَ فِـي الْعَيْـنِ عِنْـدَنَـا رُقَـادٌ ، وَقُـلاَّمٌ رَعَـىٰ سِـرْبُكُـمْ نَـدُّ[(١)]

وقال [في «العُكبَريِّ» ٢/ ٢٨٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

ضَنىً فِي الْهَوَىٰ كَالسُّمِّ فِي الشَّهْدِ كَامِناً لَـذِذْتُ بِـهِ جَهْـلاً وَفِـي لَـذَّتِـي حَتْـفُ

وقالَ [في «العُكبَريِّ» ١/ ٦] : [مِنَ الكاملِ]

وَالْعِشْـقُ كَـالْمَعْشُـوقِ يَعْـذُبُ قُـرْبُـهُ لِلْمُبْتَلَـىٰ وَيَنَـالُ مِـنْ حَـوْبَـائِـهِ[(٢)]

وقالَ ابنُ الفارضِ [في «ديوانه» ١٤٤] : [مِنَ البسيطِ]

مَـا بَيْـنَ مُعْتَـرَكِ الأَحْـدَاقِ وَالْمُهَجِ أَنَـا الْقَتِيـلُ بِـلاَ إِثْـمٍ وَلاَ حَـرَجِ

[أقسام الناس في الثأر]

وحاصلُ ما سقناهُ منَ الأَشعارِ ، أَنَّ الناسَ أَقسامٌ :

[١ـ قسم يطلبون]

منهُم : من ضلَّ وغوىٰ ، وطلبَ الثأرَ في الهوىٰ ، وفي مقدِّمتِهم النَّاظمُ وشاعرُ (المعرَّةِ) في قولِهِ [في «سقطِ الزندِ» ٢٥٦ـ٢٥٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَسَـرْتِ أَخَـانَـا بِـالخِـدَاعِ وَإِنَّـهُ يُعَـدُّ إِذَا اشْتَـدَّ الْـوَغَـىٰ بِقَبِيـلِ
فَـإِنْ تُطْلِقِيـهِ تَمْلِكِـي شُكْـرَ قَـوْمِـهِ وَإِنْ تَقْتُلِيـهِ تُـؤْخَـذِي بِقَتِيـلِ

[٢ـ قسم رضي بالمقام الذي هو فيه]

ومنهُم : مَن عرفَ رقَّهُ ، ووفَّى الأَدبَ حقَّهُ ، واعترفَ أَنَّ جنايتَهُ جُبارٌ[(٣)] ، ورضيَ لدمِهِ بالإِهدارِ ، لأَنَّهُ بالحقيقةِ إِنَّما جنىٰ علىٰ نفسِهِ بطرفِهِ ، وقطعَ مارنَ أَنفهِ بكفِّهِ .

[القتيل القاتل!!]

وللهِ درُّ الناظمِ في قولِهِ [«العُكبَريِّ» ٣/ ٢٥٠] : [مِنَ الكاملِ]

وأَنَـا الَّـذِي اجْتَلَـبَ الْمَنِيَّـةَ طَـرْفُـهُ فَمَـنِ الْمُطَـالَـبُ وَالْقَتِيـلُ الْقَـاتِـلُ ؟!

---

(١) **القُلاَّمُ** : نبتٌ خبيثُ الرائحةِ . **النَّدُّ** : عودٌ طيِّبُ الرائحة يُتبَخَّرُ بِهِ . **والمعنىٰ** : السهادُ إذا كان لأجلِكم . . رقادٌ عندنا ، والقُلاَّمُ علىٰ خُبث ريحِهِ إذا رعتْه إبلُكم . . صار كالندِّ عندنا ، وروايةُ «الديوانِ» (ورد) .

(٢) **الحوباءُ** : النفسُ .

(٣) **جُبارٌ** : هَدَرٌ ، ومنه حديث : «جرح العجماء جبار» . **العجماء** : الدابة .

[٣ـ قسم يطالب ثم يعفو]

ومنهم : مَن جاشَتْ نفسهُ فأنَّت ، ثُمَّ رجعت إلىٰ معروفِها فاطمأنَّتْ .

[٤ـ قسم يستعذب العذاب]

ومنهم : مَنِ استعذَبَ العذابَ ، وتحمَّلَ الكَلَفَ حتَّى انذاب ، وهـٰؤلاءِ هُمُ الْجَمَّاءُ الغفيرُ[١] كما سبقَ ، ويأتي منهُ الطيِّبُ الكثيرُ .

[أحوال سلطان العاشقين]

أمَّا سلطانُ العاشقينَ : فتارةً يستعذبُ غيرَ البعدِ ، كما في قولهِ [في « ديوانه » ١٤٥] : [مِنَ البسيطِ]

عَذِّبْ بِمَا شِئْتَ غَيْرَ الْبُعْدِ عَنْكَ تَرَىٰ ... أَوْفَـىٰ مُحِـبٍّ بِمَـا يُـرْضِيـكَ مُبْتَهِـجِ

وأُخرىٰ يستلينُ ما سوى القِلىٰ والبغضِ ، فيقولُ [في « ديوانه » ١٣٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا الصَّـدُّ إِلاَّ الْـوُدُّ مَـا لَـمْ يَكُـنْ قِلـىً ... وَأَصْعَـبُ شَـيءٍ غَيْـرُ إِعْـرَاضِكُـمْ سَهْـلُ

وقد تتلاشى الأَغراضُ ، فيسهلُ عندَهُ حَتَّى الإِعراضُ ، كما في قولِهِ [في « ديوانه » ٧٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَكُـلُّ الَّـذِي تَـرْضَـاهُ وَالْمَـوتُ دُونَـهُ ... بِـهِ أَنَـا رَاضٍ وَالصَّبَـابَـةُ أَرْضَـتِ

[ذو النون المصري يقدم العراق ليأخذ بثأر أحد تلاميذه]

وممَّا يتَّصلُ بحديثِ البيتِ ما ذكرهُ ابنُ خَلِّكَان [في « وفيات الأعيان » ١/٣١٦ـ٣١٧] : أَنَّ أَحدَ تلاميذِ ذي النونِ المصريِّ[٢] جاءَ إلىٰ (بغداد) ، وحضرَ بها سماعاً طابَ فيهِ القومُ ، فدارَ ذلكَ التلميذُ ، ثُمَّ صرخَ صرخةً فاضتْ فيها نفسُهُ ، فارتفعَ للشيخِ خبرُهُ ، فقدِمَ (العراقَ) في أَصحابِهِ واستدعىٰ ذلِكَ الحادِي ، واستفسرَهُ عنِ القصَّةِ فساقَها ، فلم يزدْ على التبريكِ ، ثُمَّ شرعَ هُوَ وأَصحابُهُ في السماع ، ولمَّا رقَّ وراقَ ، وهاجَتِ الأشواقُ . . صاحَ الشيخُ في وجهِ الحادي الأَوَّلِ فوقعَ ميْتاً ، فقالَ : قد أَخذنا ثأْرَ صاحِبنَا ، وتجهَّزَ مِنْ فورهِ للرجوعِ .

[الحب طريق مسلوك]

وقد سبقَ في المجلسِ الأَوَّلِ حديثُ المرأَةِ معَ الأَكوعِ ، والشوطُ بطينٌ ، وللهِ في خلقهِ شؤونٌ ، وكم في الإِنسانِ مِنَ العجائِبِ ، ولو أَنَّ الناظمَ ومَن علىٰ شاكلتِهِ انبرَوا للثَّأْرِ بالوجدِ المُثارِ . . لأَمِنوا العِثَارَ ، لأَنَّها طريقٌ مسلوكٌ ، لا هوادةَ فيهِ للسُّوقَةِ ولا الملوكِ .

[المالك الظالم]

ويعجبني قولُ ديكِ الجنِّ بعدَ أَنْ فعلَ فعلتَهُ التي فعلَ ـ وهُوَ مِنَ الكافرينَ ـ [في « ديوانه » ١٨٨] : [مِنَ البسيطِ]

كَيْـفَ الـدُّعَـاءُ عَلَىٰ مَـنْ جَـارَ أَوْ ظَلَمَـا ... وَمَـالِكِـي ظَـالِـمٌ فِـي كُـلِّ مَـا حَكَمَـا

لاَ آخَـذَ اللهُ مَـنْ أَهْـوَىٰ بِجَفْـوَتِـهِ ... عَنِّـي وَلاَ اقْتَـصَّ لِـي مِنْـهُ وَلاَ أَثِمَـا

---

(١) الجماء الغفير : مجتمعون كثيرون .

(٢) واسمه : ثوبان بن إبراهيم الإخميمي أبو الفياض ، أحد الزهاد والعباد المشهورين بـ(مصر) توفي سنة : (٢٤٥ هـ) .



وقولُ المازنيِّ [في « النجوم الزاهرة » ٣/ ١٢٩] : [مِنَ البسيطِ]

كَـأَنَّمـا الشَّمْـسُ مِـنْ أَعْطَـافِـهِ لَمَعَـتْ حُسْنـاً أَوِ البَـدْرُ مِـنْ أَزْرَارِهِ طَلَعَـا
مُسْتَقْبَـلٌ بِـالَّـذِي يَهْـوَىٰ وإِنْ كَثُـرَتْ مِنْـهُ الـذُّنُـوبُ وَمَعْـذُورٌ بِمَـا صَنَعَـا
فِـي وَجْهِـهِ شَـافِـعٌ يَمْحُـو إِسَـاءَتَـهُ مِـنَ الْقُلُـوبِ وَجِيـهٌ حَيْثُمَـا شَفَعَـا

* * *

[قالَ أبو الطَّيبِ المتنبي في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٦] : [مِنَ البسيطِ]

قَيْـلٌ بِمَنْبِـجَ مَثْـوَاهُ ، وَنَـائِلُـهُ فِـي الأُفْـقِ يَسْـأَلُ عَمَّـنْ غَيْـرَهُ سَـأَلاَ

[الجود يسأل عن طلابه ممن يطلبون من غير صاحبه]

يقولُ : إنَّهُ مقيمٌ بـ(منبجَ) مِن أَرضِ (الشامِ) ، ونائِلُهُ يطوفُ في الآفاقِ ، يسألُ عَنِ العُفاةِ[1] الذينَ يسألونَ غيرَهُ .

والقصدُ أَنَّهُ اشتهرَ بالجودِ حَتَّىٰ صرفَ العافينَ عن سائِرِ الناسِ إليهِ ، و(**القَيلُ**) ـ بلغةِ حِميرٍ ـ : المَلِكُ العظيمُ ، كذا قالهُ الشارحُ ، وأَشكلَ عليَّ قولهُ : (العظيم) علىٰ حينِ لم يحضرْنا شيءٌ من معاجمِ اللُّغةِ . ومنشأُ الإشكالِ من حُجْرِ بنِ وائلٍ الحضرميِّ ، فقدْ كانَ قَيْلاً مِن أَقيالِ (اليمنِ) .

وجرىٰ لهُ مع ذلِكَ ما لا يليقُ بأَدنىٰ رياسةٍ ـ فَضلاً عَنِ العَظَمةِ ـ وذلِكَ أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أَمرَ معاويةَ أَنْ ينطلقَ بهِ إِلىٰ رجُلٍ مِنَ الأَنصارِ ينزلُهُ عليهِ ، قالَ : فانطلقتُ معهُ ، وهُوَ علىٰ ناقتِهِ ، وأَنا أَمشي في يومِ صائِفٍ ، فقلتُ : احملْني ، قالَ : لستَ مِن أَردافِ الملوكِ ، قلتُ : أَنا ابنُ أَبي سفيانَ ، قالَ : قد سمعتُ رسولَ اللهِ يقولُ ذلكَ ، قلتُ : فأَلقِ إِليَّ نعلَكَ ، قالَ : لا تُقِلُّهُما قَدَماك ، ولكنْ امشِ في ظلِّ ناقتي ، وكفاكَ شرفاً بذلِكَ ، ثُمَّ لم يوزعْ أَنْ قَدِمَ علىٰ معاويةَ في سلطانِهِ . فأَكرمَ وفادتَهُ ، وقضىٰ حوائِجَهُ[2] . وبَعيدٌ ما يروىٰ مِن تنزُّهِهِ عن قَبولِ جائِزتِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ كانَ من أَصحابِ عليٍّ ففارقَهُ ورضيَ بعدُ أن يكونَ شرطيّاً لزيادٍ ، فقد بعثَهُ بحجر بنِ عديٍّ ورفاقِهِ إِلىٰ معاويةَ في أَحدَ عشرَ راكِباً ، فمِنْ أَينَ تأتي العظمةُ لمن هٰذا وصفُهُ ؟

وقد يستنتجُ منهُ متأَهِّلُ الحضارمةِ في الأَلقابِ وإِطلاقِ الإِمارةِ ، أو ما هوَ أَكبرُ منها علىٰ مَن لا يستحقُّ مِمَّنْ لا طَوْلَ لهُ ولا حولَ .

[متىٰ يقال : (ملك) ومتىٰ يقال (سلطان)]

وقد قالَ ابنُ السبكيِّ في ترجمةِ السلطانِ محمودِ بن سُبكتكينَ [كما في « الطبقات » ٥/ ٣١٤] : ولا أَستطيعُ أَن أُسمِّيَ نورَ الدينِ الشهيدَ سلطاناً ؛ لأَنَّهُ لم يسمَّ بذلِك ، وسببُه أَنَّ مصطلحَ الدول أَنَّ السلطانَ مَنْ ملكَ إِقليمينِ فصاعداً ، فإن كانَ

(١) العُفاة : جمع عافٍ ، وهو طالب المعروف .

(٢) أُنظر القصَّة بنحوها في « سير أَعلام النُّبلاء » (٢/ ٥٧٤) ، والصَّحابيُّ هوَ : وائلُ بنُ حُجْرٍ وليسَ حُجْرُ بنُ وائلٍ .



لا يملكُ إلاَّ إقليماً واحداً . . سميَ بالملكِ ، وإنِ اقتصرَ علىٰ مدينةٍ واحدةٍ . . لم يسمَّ بالملكِ ولا بالسلطانِ بل بأميرِ البلدِ وصاحبِها ، ومِنْ ثَمَّ تعرفُ خطأَ كُتَّابِ زمانِنا حيْثُ يسمُّونَ صاحبَ (حماة) سلطاناً ، ولا ينبغي أن يسمَّىٰ سلطاناً ولا ملكاً ؛ لأنَّ حكمهُ لا يعدوها . انتهىٰ .

[المتنبي وسريان جود الممدوح إلىٰ محتاجه]

والمعنىٰ متكرِّرٌ عندَ الناظمِ فمنهُ قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَنْفُسُهُـمْ مَبْـذُولَـةٌ لِـوُفُـودِهِـمْ وَأَمْـوَالُهُـمْ فِـي دَارِ مَـنْ لَـمْ يَفِـدْ وَفْـدُ[1]

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/١١٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

سَرَى النَّوْمُ عَنِّي فِي سَرَايَ إِلَى الَّذِي مَـوَاهِبُـهُ تَسْـرِي إِلَـىٰ كُـلِّ نَـائِـمِ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٢٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـنْ فَـرَّ مِـنْ إِحْسَـانِـهِ حَسَـداً لَـهُ تَلَقَّـاهُ مِنْـهُ حَيْثُمَـا سَـارَ نَـائِـلُ

[أصل بيت المتنبي]

وأَصلُهُ مِن قولِ أَبي جويريةَ العبديِّ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَيُـدْلِـجُ فِـي حَـاجَـاتِ مَـنْ هُـوَ نَـائِـمُ وَيُـورِي كَـرِيمَـاتِ النَّـدَىٰ حِيـنَ يَقْـدَحُ

[سريان الجود والشعراء]

وقد تمثَّل بهِ أبو تمَّامٍ لبعضِ الأُمراءِ فاستجادَهُ ـ كما سنقتصُّ خبرَهُ في غيرِ هـٰذا المجلسِ ـ ولمَّا رآهُ استحسنهُ أَكثرَ منهُ فقالَ [في « ديوانهِ » ٨٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـأَضْحَـتْ عَطَـايَـاهُ نَـوَازِعَ شُـرَّدَا تُسَـائِـلُ فِـي الآفَـاقِ عَـنْ كُـلِّ سَـائِـلِ[2]

وقالَ : [مِنَ الكاملِ]

وَفَـدَتْ إِلَـى الأَقْطَـارِ مِـنْ مَعْـرُوفِـهِ نِعَـمٌ تُسَـائِـلُ عَـنْ ذَوِي الإِقْتَـارِ

وقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـإِنْ لَـمْ يَفِـدْ يَـوْمـاً إِلَيْهِـنَّ طَـالِـبٌ وَفَـدْنَ إِلَـىٰ كُـلِّ امْـرِىءٍ غَيْـرِ طَـالِـبِ

وقالَ أَبو العتاهيةِ [في « ديوانهِ » ٦٤٨] : [مِنَ المتقاربِ]

وَإِنْ نَحْـنُ لَـمْ نَبْـغِ مَعْـرُوفَـهُ فَمَعْـرُوفُـهُ أَبَـداً يَبْتَغِينَـا

[الإمام الهمام والجود الساري]

وقالَ أَميرُ المؤمنينَ كرَّمَ اللهُ وجههُ [في « شرح النهج » ١٩/٩٩] : يا كُميلُ مُر أَهلكَ بالمكارمِ ، ويفِدوا في قضاءِ حاجَةٍ من

---

(١) الوفودُ : جمع وفدٍ ، وهم الذين يقدمونَ على الملوكِ .
(٢) نوازعُ : من نَزعَ إليهِ إذا اشتاقَ لهُ .

هوَ نائِمٌ ، فوالذي وسعَ سمعُهُ الأَصواتَ ، ما مِن أَحدٍ يودعُ قلباً سروراً . . إلاَّ وخلقَ اللهُ مِنْ ذلكَ السرورِ لُطفاً ، حَتَّىٰ إذا نزلَتْ بالمحسنِ نازلةٌ ، أو جاءَتْهُ جائحةٌ . . كانَ ذلكَ السرورُ أَسرعَ إِليها مِنَ الماءِ إِلىٰ انحدارِهِ ، حَتَّىٰ يطرُدَها كما تُطْرَدُ الغريبةُ مِنَ الإِبلِ عَنِ الحوضِ . أَو ما هَـٰذا معناهُ .

[عودة إلى الشعراء]

وقالَ مروانُ ابنُ أَبي حفصةَ يمدحُ عبدَ اللهِ بنَ طاهرٍ ، وقد وافاهُ نائِلُهُ على البعدِ [في « ديوانه » ١١٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَعَمْـرِي لَنِعْـمَ الْغَيْـثُ غَيْـثٌ أَصَـابَنَـا ... بِبَغْـدَادَ مِـنْ أَرْضِ الْجَـزِيـرَةِ وَابِلُـهْ
فَكُنَّـا كَحَـيٍّ صَبَّـحَ الْغَيْـثُ أَهْلَـهُ ... وَلَـمْ تَـرْتَحِـلْ أَظْعَـانُـهُ وَرَوَاحِلُـهْ[1]

وقالَ أَبو عبادةَ : [مِنَ الطَّويلِ]

جَـزَى اللهُ خَيْـراً وَالْجَـزَاءُ بِكَفِّـهِ ... بَنِي السِّمْطِ أَخْدَانَ السَّمَاحَةِ وَالْمَجْدِ
هُـمُ وَصَلُـونِـي وَالمَهَـامِـهُ بَيْنَنَـا ... كَمَا ارْفَضَّ غَيْثٌ مِنْ تِهَامَةَ فِي نَجْدِ

وفي التلميحِ إِلىٰ هـٰذا يقولُ المعَرِيُّ [في « سقطِ الزندِ » ٢١٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

شَكَـرْتُهُـمُ شُكْـرَ الْـوَلِيـدِ بِفَـارِسٍ ... رِجَـالاً بِحِمْصٍ كَـانَ جَـدَّهُـمُ السِّمْطُ[2]

وقالَ ابنُ الروميِّ : [مِنَ الكاملِ]

يَسْـرِي السَّحَـابُ إِلَـى البَعِيـدِ بِغَيْثِـهِ ... فَيَظَـلُّ مِنْـهُ وَادِعـاً وَيُجَـادُ[3]
وَلأَنْـتَ أَوْلَـىٰ أَنْ تَجُـودَ لِمُجْـدِبٍ ... عَفْـواً وَلَـمْ تُشْـدَدْ لَـهُ أَقْتَـادُ[4]

ولا يبعدُ عنهُ قولُ الناظمِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٣٠] : [مِنَ الكاملِ]

كَـالشَّمْسِ فِـي كَبِدِ السَّمَاءِ وَضَوْؤُهَـا ... يَغْشَـى الْبِـلاَدَ مَشَـارِقـاً وَمَغَـارِبَـا
كَـالْبَحْـرِ يَلْفِـظُ لِلْقَـرِيـبِ جَـوَاهِـراً ... جُـوداً وَيَبْعَـثُ لِلْبَعِيـدِ سَحَـائِبَـا

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٩٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَيْـسَ الَّـذِي يَتَّبَّـعُ الْـوَبْـلَ دَائِمـاً ... كَمَـنْ جَـاءَهُ فِـي دَارِهِ رَائِـدُ الْـوَبْـلِ[5]

وما أَحسَنَ قولَهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٣٢] : [مِنَ الكاملِ]

وَعَطَـاءُ مَـالٍ لَـوْ عَـدَاهُ طَـالِـبٌ ... أَنْفَقْتَـهُ فِـي أَنْ تُـلاَقِـي طَـالِبَـا

وقالَ بعضُ شُعراءِ « اليتيمَةِ » [كما نقله في « وفيات الأعيان » ٥/ ٤١٨] : [مِنَ المنسرحِ]

وَلِـي صَـدِيـقٌ مَـا مَسَّنِـي عُـدْمٌ ... مُـذْ وَقَعَـتْ عَيْنُـهُ عَلَـىٰ عُـدْمِـي

---

(١) الأظعانُ والرواحلُ : المطايا .

(٢) شكرُ الوليدِ : أَرادَ بالوليدِ البُحتريَّ . السمطُ : جماعةٌ مِن آلِ حمصَ كانَ البُحتريُّ يمتدحُهم ويشكرُ نعمَهُم .

(٣) وادعاً : ساكناً . يُجادُ : مِنَ الجودِ .

(٤) عفواً : ابتداءً مِن غيرِ طلبٍ . الأَقتادُ : خشباتُ الرحلِ ، والمعنىٰ : أَنَّكَ كريمٌ تعطي الإنسانَ مِن قبلِ أَن يأتيَ إليك ويطلب منكَ .

(٥) الرائدُ : الذي ترسلهُ القومُ فيطلبُ لهمُ الكلأَ .

أَغْنَــىٰ وَأَقْنَــىٰ وَمَــا يُكَلِّفُنِــي تَقْبِيــلَ كَــفٍّ لَــهُ وَلاَ قَــدَمِ
قَــامَ بِــأَمْــرِي لَمَّــا قَعَــدْتُ بِــهِ وَنِمْــتُ عَــنْ حَــاجَتِــي وَلَــمْ يَنَــمِ

وهو ناظرٌ إلى البيتِ الذي أنفذَهُ سيفُ الدولةِ للناظمِ ليُجيزَهُ ، وكانَ مِنْ شعرِ الصوليِّ إبراهيمَ شَكَرَ بهِ عمرو بنَ سعدةَ عَن صنيعةٍ أَسداها إليه ، وهوَ [في « ديوان الحماسة » ٢/ ٢٦٦] : [مِنَ الطَّويل]

[المسارعة في قضاء الحاجة]

رَأَىٰ خَلَّتِي مِـنْ حَيْـثُ يَخْفَـىٰ مَكَـانُهَـا فَكَـانَـتْ قَـذَىٰ عَيْنَيْـهِ حَتَّـىٰ تَجَلَّـتِ[1]

[تقسيم المعطين في العطاء]

والناسُ علىٰ مراتبَ :

[١ـ قسم سبق ذكرهم]

فمنهُم : مَنْ سبقَ وصفُهم .

[٢ـ قسم يكتفون بالسلام عن السؤال]

ومنهم : مَن يستغْني عَنِ السؤَالِ بالسلامِ .

قالَ أُميَّةُ [في « ديوانه » ٣٣٣ـ٣٣٤] : [مِنَ الوافر]

أَأَذْكُـرُ حَـاجَتِـي أَمْ قَـدْ كَفَـانِـي حَيَــاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَــكَ الْحَيَــاءُ
إِذَا أَثْنَـىٰ عَلَيْـكَ الْمَـرْءُ يَـوْمـاً كَفَــاهُ مِــنْ تَعَـرُّضِـهِ الثَّنَــاءُ

وقالَ ابنُ الروميِّ [في « ديوانه » ٢/ ٥٣٩] : [مِنَ الكاملِ]

يَـامَـنْ إِذَا التَّعْـرِيـضُ صَـافَـحَ نَفْسَـهُ أَغْنَـى الْعُفَـاةَ بِـهِ عَـنِ التَّصْـرِيـحِ

وقالَ آخرُ [في « روضة العقلاء » ١/ ٢٥١] : [مِنَ الكاملِ]

وَإِذَا طَلَبْـتَ إِلَـىٰ كَـرِيـمٍ حَـاجَـةً فَلِقَــاؤُهُ يَكْفِيــكَ وَالتَّسْلِيــمُ
وَإِذَا رَآكَ مُسَلِّمــاً عَــرَفَ الَّــذِي حَمَّلْتَــهُ وَكَــأَنَّــهُ مَلْــزُومُ

وقالَ الرياشِيُّ : [مِنَ الوافرِ]

وَحَسْبُـكَ مِـنْ تَقَـاضِـي الْمَـرْءِ يَـوْمـاً لِحَـاجَتِـكَ ، الـزِّيَـارَةُ وَالحَـدِيـثُ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٩٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

أُخِـفُّ سَلاَمِي حُبَّ مَا خَفَّ عِنْدَكُمْ وَأَسْكُــتُ كَيْمَــا لاَ يَكُــونَ جَــوَابُ
وفِـي النَّفْـسِ حَـاجَـاتٌ وَفِيـكَ فَطَـانَـةٌ سُكُــوتِــي بَيَــانٌ عِنْــدَهَــا وخِطَــابُ

---

(١) الخَلَّةُ : الحاجةُ والفقرُ . فكانت قذىٰ عينيهِ : أي لم يصبرْ عنها كما لا يصبرُ الرَّجلُ علىٰ قذىٰ عينيهِ .

[٣ـ قسم يحتاج إلىٰ إعادة السؤال]

ومنَ الناسِ : مَنْ يحتاجُ إلىٰ إعادةِ السؤالِ ، قالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانه » ١/ ١٢٢] : [مِنَ الخفيفِ]

لَـوْ رَأَيْنَـا التَّـأْكِيـدَ خُطَّـةَ عَجْـزٍ مَـا شَفَعْنَـا الأَذَانَ بِـالتَّثْـوِيـبِ[1]

وقالَ بشَّارٌ [في « ديوانهِ » ٤/ ٢٢٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

هَـزَزْتُـكَ لاَ أَنِّـي وَجَـدْتُـكَ نَـاسِيَـا لأَمْـرِي وَلاَ أَنِّـي أَرَدْتُ التَّقَـاضِيَـا[2]

وَلَكِـنْ رَأَيْـتُ السَّيْـفَ مِـنْ بَعْـدِ سَلِّـهِ إِلَـى الْهَـزِّ مُحْتَـاجاً وَإِنْ كَـانَ مَـاضِيَـا

[٤ـ وشرهم من لا يستفتح إلا بالإلحاح]

وشرُّهم مَن لا يستَفتِحُ إلاَّ بالإِلْحاحِ ؛ ولهٰذا قالَ أَشجعُ [في « ديوانهِ » ١٩٧] : [مِنْ مجزوءِ الرَّمَلِ]

لَيْـسَ لِلْحَـاجَـاتِ إِلاَّ مَـنْ لَـهُ وَجْـهٌ وَقَـاحُ

وقالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانه » ٢/ ٣٤١] : [مِنَ الوافرِ]

وَخُـذْهُـمْ بِـالـرُّقَـىٰ إِنَّ المَهَـارِي يُهَيِّجُهَـا عَلَـى السَّيْـرِ الحُـدَاءُ[3]

[ما يلحق بالقسم الثاني]

ويلتحقُ بالقسمِ الثاني قولُ ابنِ الروميِّ : [مِنَ الوافرِ]

نُـذَكَّـرُ بِـالـرِّقَـاعِ إِذَا نَسِينَـا وَنَـذْكُـرُ حِيـنَ تَمْطُلُنَـا الكِـرَامُ

فَـإِنَّ الأُمَّ لَـمْ تُـرْضِـعْ صَبِيّـاً مَـعَ الإِشْفَـاقِ لَـوْ سَكَـتَ الغُـلاَمُ

[ومن البلية أن تحب ومن تحب يحب غيرك]

وقولُ الناظمُ : (**يَسْأَلُ عَمَّنْ غَيْرَهُ سَأَلاَ**) يشبهُ في الجوهرِ ـ وإنْ خالفَ العَرَضَ ـ قولَ الأَعشىٰ [في « ديوانه » ٣٠٣] :

[مِنَ البسيطِ]

عُلِّقْتُهَـا عَـرَضـاً وَعُلِّقَـتْ رَجُـلاً غَيْـرِي وَعُلِّـقَ أُخْـرَىٰ ذَلِـكَ الـرَّجُـلُ

وما أنشدَهُ الأَصمعيُّ لِبعضِ العربِ [في « معجم البلدان » ٥/ ٢٢٩] : [مِنَ الكاملِ]

قَتَلَتْـكَ أُخْـتُ بَنِـي لُـؤَيٍّ إِذْ رَمَـتْ وَأَصَـابَ نَبْلُـكَ إِذْ رَمَيْـتَ سِـوَاهَـا

وَأَعَـارَهَـا الْحَـدَثَـانِ مِنْـكَ مَـوَدَّةً وَأَعَـارَ غَيْـرَكَ وُدَّهَـا وَهَـوَاهَـا

---

(١) **التثويبُ** : الدعاءُ إلى الصلاة وغيرها ، وأصله : أن الرجل إذا جاء مستصرخاً . لوَّح بثوبه ليُرىٰ ويشتهر ، فكان ذلك كالدعاء ، فسمي الدعاء تثويباً ، أو هو تثنية الدعاء مطلقاً .

(٢) **التقاضي** : طلبُ قضاءِ الدين .

(٣) **الرُّقىٰ** : جمع رُقْيَة ـ وهيَ العُوذةُ ـ ، والمقصودُ : أتلُ عليهم مِنْ أشعارِكَ الَّتي تعملُ فيهم عملَ التَّعاويذِ والسِّحرِ ؛ حيثُ إنَّ كلامَكَ عليهم يؤثِّرُ فيهم ما لا تؤثِّرُهُ تلكَ الرُّقىٰ ، ثُمَّ يأتي بدليلٍ حِسِّيٍّ مشاهَدٍ ، وهوَ : أنَّ الإبلَ إذا سمعَتِ الأشعارَ . طَرِبَتْ وأسرعَتْ في مشيِها .
المهاريُّ : الإبلُ المنسوبةُ إلىٰ مهرة بنِ حيدانَ .



وخيرٌ مِنَ الجميعِ قولُ الآخرِ [في « البداية والنهاية » ٨/٣١٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

جُنِنَّا بِلَيْلَىٰ وَهِيَ جُنَّتْ بِغَيْرِنَا وَأُخْرَىٰ بِنَا مَجْنُونَةٌ لاَ نُرِيدُهَا

فالعافي في بيتِ الناظمِ سَأَلَ غيرَ الممدوحِ ، ولم يأتِهِ النائِلُ إلاَّ مِن جهتِهِ ، وحاصلُ الأُخرَيَاتِ : أَنَّه عشقَ امرأَةً ، فعشقَت غيرَهُ ، وزِدْنَ عليهِ بأَنَّ أُخرىٰ عشقَته فلم يلتفتْ إليها ، فالجامعُ بينها ظاهرٌ وإنِ اختلفَ الوجهُ .

[السعي في حاجات النيام والشعراء]

وعلىٰ ذكرِ السعي في حاجةِ النيامِ . . ذكرتُ قولَ بعضِ الشعراءِ : [مِنَ الكاملِ]

وَيَظَلُّ يَحْفَظُنَا وَنَحْنُ بِغَفْلَةٍ وَيَبِيتُ يَكْلَؤُنَا وَنَحْنُ نِيَامُ

وكذبَ واللهِ ، إنَّما ذلكَ الملكُ الجبَّارُ ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [الأنبياء : ٤٢] .

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانه » ٤/٢٢٥٣] : [مِنَ الكاملِ]

لَمْ تَكْرَ عَنْ قَاصِي الرَّعِيَّةِ عَيْنُهُ فَتَنَامَ عَنْ وِتْرِ الْقَرِيبِ الدَّانِي

وقالَ [في « ديوانه » ٣/١٩٧١] : [مِنَ البسيطِ]

طَرْفٌ مُطِلٌّ عَلَى الآفَاقِ يَكْلَؤُهَا بِنَاظِرٍ لَمْ يَنَمْ عَنْهَا وَلَمْ يُنِمِ

وقالَ [في « ديوانه » ١/٥٤٦] : [مِنَ الكاملِ]

يَسْتَقْصِرُ اللَّيْلَ التَّمَامَ إِذَا انْتَحَىٰ بِالْخَيْلِ نَاحِيَةَ الْعَدُوِّ الأَبْعَدِ

لاَ نَاهِلُ الأَجْفَانِ إِنْ كَانَ الْكَرَىٰ خِمْساً لِصَادِيَةِ الْعُيُونِ الْوُرَّدِ[1]

وقالَ : [مِنَ البسيطِ]

مَا غَابَ عَنْ عَيْنِهِ فَالْقَلْبُ يَكْلَؤُهُ وَإِنْ تَنَمْ عَيْنُهُ فَالْقَلْبُ يَقْظَانُ

وكذَبَ أَبو عُبادةَ ؛ إنَّما ذاكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ؛ (تنامُ عينهُ ، ولا ينامُ قلبُهُ)[2] .

وقالَ مروانُ ابنُ أَبي حفصةَ [في « ديوانه » ٣٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

يَكُونُ غِرَاراً نَوْمُهُ مِنْ حِذَارِهِ عَلَىٰ بَيْضَةِ الإِسْلاَمِ وَالْخَلْقُ رَاقِدُ[3]

وهوَ مِن كلمةٍ لهُ مختارةٍ ، يقولُ فيها للمهديِّ [في « ديوانه » ٣٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَجَاذَبَتْ بِنَا الْبِيدَ خُوصٌ كَالْقِسِيِّ شَوَارِدُ[4]

---

(١) **ناهلٌ** : شاربٌ . **خِمْساً** : مِن إظماءِ الإبلِ ، وهوَ أَن ترعىٰ ثلاثةَ أَيَّامٍ ، وترِدَ الرابعَ على الماءِ . **الصادي** : الشديدُ العطشِ .
وفي البيتِ : مجازٌ شبَّهَ الشاعرُ فيهِ النومَ بالماءِ ، والاستسلامَ لهُ بعدَ التعبِ بالإخماسِ الذي هوَ للإبلِ . وشدَّةَ حصولِ النُّعسِ والحاجةَ إلى النومِ بذلكَ الإنسانِ الشديدِ العطشِ الذي اشتدَّت حرارتُهُ عندَهُ حتَّىٰ أَلهبت صدرَهُ .
والمعنىٰ : أَنَّ ممدوحَهُ هٰذا إنسانٌ عظيمٌ ، يقومُ الليلَ عندما يكونُ غيرُهُ مستسلماً استسلاماً شديداً للنوم . واللهُ أعلم .

(٢) أخرجه عن عائشة البخاري (١١٤٧) في التهجد ، ومسلم (٧٣٨) (١٢٥) في صلاة المسافرين ولفظه : « يا عائشة إن عَيْنَيَّ تنامان ولا ينام قلبي » .

(٣) **الغِرارُ** : النومُ القليلُ .

(٤) **تجاذبَتْ** : أَسرعت واندفعت . **الخوصُ** : النوقُ الضامرةُ . **الشواردُ** : جمعُ شرودٍ ، وهي الناقةُ النافرةُ المستعصيةُ الذاهبةُ علىٰ وجهها .

إِلَىٰ مَلِكٍ تَنْدَىٰ إِذَا يَبِسَ الثَّرَىٰ ... بِنَائِلِ كَفَّيْهِ الأَكُفُّ الجَوَامِدُ
أَيَادِي بَنِي الْعَبَّاسِ بِيضٌ سَوَابِغٌ ... عَلَىٰ كُلِّ قَوْمٍ بَادِيَاتٌ عَوَائِدُ
وَهُمْ يَعْدِلُونَ السَّمْكَ مِنْ قُبَّةِ الْهُدَىٰ ... كَمَا تَعْدِلُ الْبَيْتَ الْحَرَامَ الْقَوَاعِدُ[1]
سَوَاعِدُ عِزِّ الْمُسْلِمِينَ وَإِنَّمَا ... تَنُوءُ بِصَوْلاتِ الأَكُفِّ السَّوَاعِدُ
يَكُونُ غِرَاراً نَوْمُهُ مِنْ حِذَارِهِ ... عَلَىٰ بَيْضَةِ الإِسْلاَمِ وَالْخَلْقُ رَاقِدُ
كَأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدَا ... لِرَأْفَتِهِ بِالنَّاسِ لِلنَّاسِ وَالِدُ

[المتنبي والإسراع في حاجات النيام]

وتلاعبَ بالمعنى **الناظمُ فقالَ** [في « العُكبريِّ » ٤/٢٦] : [مِنَ البسيطِ]

نَفَتْ رُقَادَ عَلِيٍّ عَنْ مَحَاجِرِهِ ... نَفْسٌ يُفَرِّجُ نَفْساً غَيْرَهَا الْحُلُمُ

وقالَ [في « العُكبريِّ » ٤/ ٢١٥] : [مِنَ البسيطِ]

غَضُّ الشَّبَابِ بَعِيدٌ فَجْرُ لَيْلَتِهِ ... مُجَانِبُ الْعَيْنِ لِلْفَحْشَاءِ وَالْوَسَنِ

وقالَ [في « العُكبريِّ » ١/ ٢٢١] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَنَا مَلِكٌ لاَ يَطْعَمُ النَّوْمَ ، هَمُّهُ ... مَمَاتٌ لِحَيٍّ أَوْ حَيَاةٌ لِمَيِّتِ

وقالَ [في « العُكبريِّ » ٢/ ١٢٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

كَثِيرُ سُهَادِ الْعَيْنِ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ ... يُؤَرِّقُهُ فِيمَا يُشَرِّفُهُ الذِّكْرُ[2]

وقالَ [في « العُكبريِّ » ٢/ ٢٨٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

قَلِيلُ الْكَرَىٰ لَوْ كَانَتِ الْبِيضُ وَالْقَنَا ... كَآرَائِهِ مَا أَغْنَتِ الْبِيضُ وَالزَّغْفُ[3]

وقالَ [في « العُكبريِّ » ١/ ١٠٤] : [مِنَ المتقاربِ]

وَأَنْتَ مَعَ اللهِ فِي جَانِبٍ ... قَلِيلُ الرُّقَادِ كَثِيرُ التَّعَبْ

[مدح العرب للساري في حاجات النيام]

وما زالتِ العربُ تَمادحُ بذلكَ ، فمنهُ قولُ بعضِهِم : [مِنَ الطَّويلِ]

كَمِيشُ إِزَارٍ يَجْعَلُ اللَّيْلَ إِثْمِداً ... وَيَغْدُو عَلَيْنَا مُشْرِقاً غَيْرَ وَاجِمِ

وقالَ تأبَّطَ شرّاً [في « ديوانه » ٢٩٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

قَلِيلُ غِرَارِ الْعَيْنِ أَكْبَرُ هَمِّهِ ... دَمُ الثَّأْرِ أَوْ يَلْقَىٰ كَمِيّاً مُدَجَّجَا

---

(١) **السَّمْكُ** : السقفُ .
(٢) **السهادُ** : هوَ السهرُ ، ولكن لا يستعملُ إلا في الساهرِ في الشِّدَّةِ .
(٣) **الزغفُ** : الدروعُ اللينةُ .

وقالَ أبو كَبيرٍ يمدحُهُ [كما في « ديوان الهُذليِّينَ » ٢/٩٢] : [مِنَ الكامل]

فَـأَتَـتْ بِـهِ حُـوشَ الْفُـؤَادِ مُبَطَّنـاً ... سُهُـداً إِذَا مَـا نَـامَ لَيْـلُ الْهَـوْجَـلِ[١]

[سيدنا الفاروق والعجوز]

ويُروىٰ : أَنَّ عجوزاً أَضلَّت ناقةً علىٰ عهدِ ابنِ الخطَّابِ ، فجاءَتْ تسأَلُهُ عنها ؟ فقالَ : وهل كنتُ عندَها ؟ قالَت : ما ظننتُ أَنَّ شاةً تضيعُ علىٰ جانبِ الفراتِ إِلاَّ أَنتَ عنها مسؤولٌ ؟ ولمَ تكونُ أَميرَ المؤمنينَ إِذَنْ ؟

[إسراؤه في الرعية]

فساقَتْ حفاظَهُ ؛ لِمَا بِهِ الحرصُ عليهِ مِن حياطةِ المسلمينَ ، وتفقُّدِ أَحوالهم ، فكانَ علمُهُ بِمَن نأَىٰ مِنْ رعيَّتِهِ وأُمرائِهِ . كعلمِهِ بِمَن باتَ معهُ علىٰ فراشٍ واحدٍ . وكانتِ الأَخبارُ تردُهُ في كلِّ مَمْسىً وَمَصْبَحٍ .

[مِنَ المقتدين به]

وتَسَمَّتَهُ[٢] معاويَةُ في ذلكَ فانتظمَ أَمرُهُ .

[أنا أعرَفُ بك منك]

وجَرىٰ في آثارهم زيادُ ابنُ سميَّةَ[٣] ، فبثَّ الأَرصادَ والعُيونَ في كلِّ ناحيةٍ ، واستطلعَ أَحوالَ الناسِ واستظهرَ أَخبارَهم . حتَّىٰ إِنَّ رجلاً استعرَفَ إِليهِ وقالَ لَه : أَنا فلانُ بنُ فلانٍ فتبسَّمَ ، وقالَ تتعرَّفُ إِليَّ وأَنا أَعْرَف بكَ مِنْك ، واللهِ إِنِّي لأَعرِف أَباكَ وجدَّك ، وأُمَّك وجدَّتَك ، وأَهلَ بيتك ، وهـٰذا البردَ الذي عليكَ ، وهُو لفلانٍ . فبهتَ الرجلُ حتَّىٰ كادَ أَنْ يُغْشىٰ عليهِ[٤] .

وهِيَ سياسةُ أَزدَشِير[٥] بنِ بَابكَ مِن ملوكِ الأَعاجمِ ، وأَخذَ بها جماعةٌ مِنَ الأُمراءِ فكانوا من أَحوالِ الناسِ علىٰ بصيرةٍ .

[متىٰ تكون سياسة بث الأرصاد والعيون ناجحة ؟]

وإِنَّما تكونُ وسيلةً للنجاحِ عندَ كرمِ الطباعِ وغلبةِ الصدقِ ، وإِلاَّ فقد تَدَسَّسَ منها في الأَخطاءِ الفاحشةِ جملةٌ مِنَ الْمُلوكِ ، منهُم : السلطانُ عبدُ الحميدِ ؛ إِذ سلكَها معَ انتشارِ اللؤْمِ ، وغلبةِ الكذبِ ، وفيوضِ الغشِّ ، فكانتِ الجواسيسُ تبيعُ الضمائرَ ، وتفسدُ ما بينَهُ وبينَ رجالاتِ الأَعمالِ ، حتَّىٰ آلَ الأَمرُ إِلىٰ ما لم تحمدْ عقباهُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إِلاَّ باللهِ .

[المهلب ابن أبي صفرة والحجاج]

ولَمَّا قدمَ الْمُهلَّبُ ابنُ أَبي صُفْرَةَ بعدَ فراغهِ مِنَ الأَزارقةِ على الحَجَّاجِ . أَكرمهُ وأَظهر برَّه ، وأَجلسهُ إِلىٰ جانبهِ ،

---

(١) حوشُ الفؤادِ : ذكيُّ الفؤادِ . المبطَّنُ : الخميصُ البطنِ . السُّهُدُ : السَّهرُ . الهوجلُ : الثقيلُ الكسلانُ .

(٢) تسمَّتَهُ : سارَ علىٰ سَمْتِهِ وطريقهِ .

(٣) هو زيادُ ابنُ أبيه .

(٤) في « المستطرف » (٢/٢٠٨) .

(٥) أزدشيرُ : اسمٌ أطلقهُ العربُ علىٰ ملوكِ الفرسِ مِنَ الأسرةِ الساسانيَّةِ . والمقصودُ بها هنا : واحدٌ منهم .



وقالَ : يا أَهلَ (العراقِ) ، لقد طوَّقكم المُهلَّبُ مِنَ الفَضلِ ما جعلَكم بهِ عبيدَ قِنٍّ لهُ ، أَنتم واللهِ كما قالَ لقيطٌ [في « ديوانه » ٨٥ـ٨٦] : [مِنَ البسيطِ]

فَقَلِّـــدُوا أَمْــــرَكُــــمْ للهِ دَرُّكُــــمُ ... رَحْـبَ الـذِّرَاعِ بِـأَمْـرِ الحَـرْبِ مُطَّلِعَـا

لاَ يَطْعَــمُ النَّـــوْمَ إِلاَّ رَيْـــثَ يَبْعَثُـــهُ ... هَــمٌّ يَكَــادُ حَشَــاهُ يَقْضِـبُ الضِّلَعَــا[1]

لاَ مُتْـرَفـاً إِنْ رَخَـاءُ الْعَيْـشِ سَـاعَـدَهُ ... وَلاَ إِذَا عَــضَّ مَكْـرُوهٌ بِــهِ خَشَعَــا

مَـا زَالَ يَحْلُـبُ هَـٰذاالـدَّهْـرَ أَشْطُـرَهُ ... يَكُـــونُ مُتَّبِعـــاً طَـــوْراً وَمُتَّبَعَـــا[2]

حَتَّـى اسْتَمَـرَّتْ عَلَـىٰ شَـزْرٍ مَـرِيـرَتُـهُ ... مُسْتَحْكِـمَ الـرَّأْيِ لاَ قَحْمـاً وَلاَ ضَـرَعَـا[3]

[من هو الفتىٰ ؟]

وجاءَ جماعةٌ إِلىٰ حسَّانَ فقالوا مَنِ الفتىٰ ؟ فقالَ : [مِنَ الكاملِ]

إِنَّ الْفَتَــىٰ لَفَتَــى الْهَــوَاجِـرِ وَالسُّـرَىٰ ... وَفَتَــى الطِّعَـــانِ وَمِـــدْرَهُ الْحَـدَثَـــانِ[4]

ذَاكَ الفَتَـــىٰ إِنْ كَـــانَ كَهْــلاً أَوْ فَتَـــىٰ ... لَيْـــسَ الْفَتَـــىٰ بِمُنَعَّـــمِ الشُّبَّـــانِ

[المتنبي الشجاع]

ومِن خيرِ ما في الموضوعِ **قولُ الناظمِ** [في « العكبَريّ » ٣/٣٦٩] : [مِنَ البسيطِ]

الخَيْـلُ وَاللَّيْـلُ وَالْبَيْـدَاءُ تَعْـرِفُنِـي ... وَالسَّيْـفُ وَالـرُّمْـحُ وَالْقِـرْطَـاسُ وَالْقَلَـمُ[5]

[مدح الكرام وذم اللئام]

وفي عكسِ ذلكَ يقولُ بعض المتأَخِّرينَ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا مَـــا قَطَعْتُـــمْ لَيْلَكُـــمْ بِمُـــدَامِكُـــمْ ... وَأَفْنَيْتُـــمْ أَيَّـــامَكُـــمْ بِمَنَـــامِ

فَمَـنْ [ذَا] الَّـذي يَـرْجُـوكُـمُ فِـي مُلِمَّـةٍ ... وَمَـــنْ ذَا الَّـــذِيْ يَغْشَـــاكُـــمُ بِسَـــلاَمِ

رَضِيتُـــمْ مِـــنَ الـــدُّنْيَـــا بِـــأَيْسَـــرِ بُلْغَـــةٍ ... بِشُـــرْبِ مُـــدَامٍ أَوْ بِلَثْـــمِ غُـــلاَمِ

وَلَـــمْ تَعْلَمُـــوا أَنَّ اللِّسَـــانَ مُـــوَكَّـــلٌ ... بِمَـــدْحِ كِـــرَامٍ أَوْ بِـــذَمِّ لِئَـــامِ

وَلَكِـــنَّ رَأْسَ الشَّـــرِّ تَلْبِيـــسُ قَـــادَةٍ ... يَغُـــرُّونَكُـــمْ زُوراً بِبَيْـــعِ ذِمَـــامِ

[العيش والموت سَّواء]

وقالَ آخرُ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا كُنْــتَ لاَ تُــرْجَــىٰ لِــدَفْــعِ مُلِمَّــةٍ ... وَلَـمْ يَـكُ فِـي الْمَعْـرُوفِ عِنْـدَكَ مَطْمَـعُ

---

(١) **الريثُ** : المقدارُ .

(٢) **حَلَبَ فلانٌ الدهرَ أشطرَهُ** : مرَّت عليهِ ضروبٌ من خيرهِ وشرِّهِ حتىٰ صار ذا خِبْرةٍ ومعرفة .

(٣) **الشزرُ** : فتلُ الحبلِ مما يلي اليسارَ ، وهو أشدُّ لفتلهِ . **مريرته** : طاقةُ الحَبْلِ . **القحمُ** : الشيخ النكِدُ الكبيرُ . **الضَّرَعُ** : الغمرُ الضعيفُ منَ الرجالِ . والقصة بنحوها عند ابن الأثير في « الكامل » (٤/١٨٣) .

(٤) **المِدْرَهُ** : السَّيدُ الشَّريفُ ، والمقدَّمُ في اللسانِ واليدِ عند الخصومةِ والقتالِ .

(٥) في « العكبري » : (وَالضَّرْبُ وَالطَّعْنُ) بدل (وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ) .



وَلاَ أَنْـتَ مِمَّــنْ يُسْتَعَــانُ بِجَـاهِـهِ   وَلاَ أَنْـتَ يَـوْمَ الْحَشْـرِ مِمَّـنْ يُشَفَّـعُ

فَعَيْشُـكَ فِـي الـدُّنْيَـا وَمَـوْتُـكَ وَاحِـدٌ   وَعُـودُ خِـلاَلٍ مِـنْ وِصَـالِـكَ أَنْفَـعُ[1]

وتعرَّضَتْ للمنصورِ امرأَةٌ فلم يعطِها شيئاً ، فقالَتْ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا لَـم يَكُـنْ فِيكُـنَّ ظِـلٌّ وَلاَ جَنَـىٰ   فَــأَبْعَــدَكُــنَّ اللهُ مِــنْ شَجَـراتِ

* * *

(١) عُودُ الخِلال : هوَ العودُ الذي يُتَخلَّلُ بهِ ؛ أَي : يزيلُ الإنسانُ بهِ ما علقَ مِنَ الطعامِ بينَ الأَسنانِ . والمقصودُ بهِ هنا : الشيءُ التافهُ الذي لا قيمةَ لهُ .

المجلس الثامن

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبي في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٦٧] : [مِنَ البسيطِ]

يَلُوحُ بَدْرُ الدُّجَىٰ فِي صَحْنِ غُرَّتِهِ ... وَيَحْمِلُ الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَاءِ إِنْ حَمَلاَ[1]

[الممدوح الجميل الشجاع]

يقولُ : إنَّ وجهَهُ مشرقٌ كبدرِ الدُّجىٰ ، وإذا حملَ علىٰ أعدائِهِ . . حملَ إليهمُ الموتَ الزُّؤَامَ[2] ، ولفظةُ (الدُّجىٰ) ليسَت مِنَ الْحشوِ المردودِ ، وإن كانَ القمرُ لا يُسمَّىٰ بدراً إلاَّ في الدُّجىٰ ؛ لأَنَّ المرادَ منها التأْكيدُ .

ثمَّ إنَّهُ لا مناسبةَ بينَ الإِضاءَةِ والشَّجاعةِ إلاَّ بتأْويلِ أَنَّ الحربَ كانَ ليلاً ، وادَّعىٰ إِشراق وجهِ الممدوحِ ، أَو أَنَّ اليومَ أَظلمَ مِنَ ارْتفاعِ الغبارِ فاستضاءَ الناسُ بمحيَّاهُ ، ويحتملُ أَن يكونَ لبيانِ الواقعِ ، فلا تثريبَ .

[كثرة التشبيه بالشمس والقمر]

وقد أَشرنا في أَولِ المجلسِ الخامسِ لكثرةِ ما يشبِّهُ النَّاسُ الوجوهَ بالأَقمارِ والشموسِ ، بتفاوتٍ بينَ مقاديرِ الكلامِ ، فمِن قويٍّ ورثٍّ ، وسمينٍ وغثٍّ ، وقالَ بعضُ كِنْدَةَ يمدحُ عمرَو بنَ هندٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

هُوَ الشَّمْسُ لاَحَتْ يَوْمَ سَعْدٍ فَأَفْضَلَتْ ... عَلَىٰ كُلِّ ضَوْءٍ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ

فأَخذَهُ النابغةُ وقالَ [في « ديوانِهِ » ٧٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ ... إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وقالوا : إنَّ فيهِ اعتذاراً عن رجوعهِ إِلىٰ غيرهِ أَيَّامَ هجرهِ ، وهوَ معَ حسنِهِ أَخفىٰ مِنْ دبيبِ النملِ .

وقالَ مهلهلُ بنُ ربيعةَ عَنْ أَخيهِ كليبٍ : [مِنَ السَّريعِ]

تَنْفَرِجُ الظَّلْمَاءُ عَنْ وَجْهِهِ ... كَاللَّيْلِ وَلَّىٰ عَنْ صَدِيعٍ أَنِيقِ

وقالَ بعضُ العربِ [مِنَ البسيطِ]

لَوْ عَارَضَ الشَّمْسَ أَلْفَى الشَّمْسَ مُظْلِمَةً ... أَوْ زَاحَمَ الصُّمَّ أَلْجَأَهَا إِلى المَيْلِ

وقالَ حاتمٌ الطَّائيُّ يصفُ زوجتَهُ ماويَّةَ [في « ديوانِهِ » ٨١] : [مِنَ الطَّويلِ]

يُضِيءُ لَهَا الْبَيْتُ الظَّلِيلُ خِصَاصُهُ ... إِذَا هِيَ يَوْماً حَاوَلَتْ أَنْ تَبَسَّمَا[3]

---

(١) الغرَّةُ : هيَ غرَّةُ الوجهِ ، وأَصلها البياضُ الذي يكونُ في وجهِ الفرس .

(٢) هٰذا هوَ المعنى الَّذي رآهُ المؤلِّفُ ـ رحمَهُ اللهُ ـ وهوَ لا يكونُ إلاَّ بنصبِ كلمةِ (الموتَ) ، أَمَّا العُكبريُّ : فيقولُ عندَ شرحِ البيتِ : « وإذا لقيَ الأَعداءَ . . فإنَّ الموتَ يحملُ معهُ ، ويصولُ عليهم فيقتلُهُم ، فالموتُ مِن أَعوانه » وهٰذا يكونُ برفعِ (الموتُ) .

(٣) الخِصاصُ : الفُرَجُ في البناءِ وغيرِهِ .

وقالَ أَبو جويريةَ العبديُّ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذا اعْتَـمَّ بِـالْبُـرْدِ الْيَمَـانِـيِّ خِلْتَـهُ ... هِـلاَلاً بَـدَا مِـنْ جَـانِـبِ الأُفْـقِ يُلْمَـحُ

أَمَّا قولُ الآخرِ [وهو الفرزدق في « الأغاني » ١٠/٣٢٣] : [مِنَ الوافرِ]

تَـرَى الْغُـرَّ الْجَحَـاجِـحَ مِـنْ قُـرَيْـشٍ ... إِذَا مَـا الأَمْـرُ فِـي الْحَـدَثَـانِ عَـالاَ[1]

قِيَـامـاً يَنْظُـرُونَ إِلَـىٰ سَعِيـدٍ ... كَـأَنَّهُـمُ يَـرَوْنَ بِـهِ هِـلاَلاَ

[الافتنان في المديح]

. . فقد جَمعَ فيهِ إِلى الوسامةِ اهتمامَ النَّاسِ بالنَّظرِ إِليهِ ؛ لتعويلِهم عليهِ ، واعتدادِهم بهِ في المهمَّاتِ ، فهوَ قريبٌ مِنْ قولِ البُحتريِّ [في « ديوانه » ٢/١٠٧٢] : [مِنَ الكامِلِ]

وَافْتَـنَّ فِيـكَ النَّـاظِـرُونَ فَـإِصْبَـعٌ ... يُـومِـي إِلَيـكَ بِهَـا وَعَيْـنٌ تَنْظُـرُ

وقولِ النَّاظمِ [في « العُكبَريِّ » ٢/٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

بِمَـنْ تَشْخَـصُ الأَبْصَـارُ يَـوْمَ رُكُـوبِـهِ ... وَيُخْرَقُ مِـنْ زَحْـمٍ عَلَـى الرَّجُـلِ الْبُـرْدُ

وَتُلْقِـي وَمَـا تَـدْرِي الأَكُـفُّ سِـلاَحَهَـا ... لِكَثْـرَةِ إِيمَـاءٍ إِلَيْـهِ إِذَا يَبْـدُو

[إضاءة الوجوه والشعراء]

ومِنْ أَحسنِ ما جاءَ في إِضاءَةِ الوجوهِ . . قولُ أَبي الطَّمحانِ القينيِّ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَضَـاءَتْ لَهُـمْ أَحْسَـابُهُـم وَوُجُـوهُهُـمْ ... دُجَـى اللَّيْـلِ حَتَّـىٰ نَظَّـمَ الْجَـزْعَ ثَـاقِبُـهُ[2]

وقد أَلَمَّ بهِ النَّاظمُ إِذ يقولُ [في « العُكبَريِّ » ٤/٦٦] : [مِنَ المنسرحِ]

تُشْـرِقُ أَعْـرَاضُهُـمْ وَأَوْجُهُهُـمْ ... كَـأَنَّهَـا فِـي نُفُـوسِهِـمْ شِيَـمُ[3]

وقالَ ابنُ أَبي السِّمطِ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَتَـىً لاَ يُبَـالِـي الْمُـدْلِجُـونَ بِنُـورِهِ ... إِلَـىٰ بَـابِـهِ أَلاَّ تُضِـيءَ الْكَـوَاكِـبُ[4]

وقالَ القاسمُ بنُ حنبلٍ [في « ديوان الحماسة » ٢/٣٠٤] : [مِنَ الوافرِ]

مِـنَ الْبِيـضِ الْـوُجُـوهِ بَنِـي سِنَـانٍ ... لَـوَ انَّـكَ تَسْتَضِـيءُ بِهِـمْ أَضَـاؤُوا

وقالَ الحُطيئةُ [في « الأغاني » ٢/١٥١] : [مِنَ البسيطِ]

نَمْشِي عَلَـىٰ ضَـوْءِ أَحْسَابٍ أَضَـأْنَ لَنَـا ... مَـا ضَـوَّأَتْ لَيْلَـةُ الْقَمْـرَاءِ لِلسَّـارِي

---

(١) الجَحاجِحُ : الأَسيادُ ، جمع جَحجاحٍ . عالَ : شقَّ على الرجالِ إِتيانُهُ .

(٢) الجَزْع : ضرب من العقيق .

(٣) عِرضُ الرجُلِ : هو موضعُ الذمِّ والمدحِ منهُ .

(٤) المدلج : الذي يسيرُ مِنَ الليلِ .

وقالَ غيرُهُ : [مِنَ الطَّويلِ]

سَرَيْنَا وَنَجْمٌ قَدْ أَضَاءَ فَمُذْ بَدَا ... مُحَيَّاكَ أَخْفَىٰ ضَوْؤُهُ كُلَّ شَارِقِ[1]

وقالَ أَشْجَعُ [في « ديوانهِ » ٢٦٢] : [مِنْ مجزوءِ الكاملِ]

مَلِكٌ بِحُسْنِ جَبِينِهِ ... نَسْرِي وَبَحْرُ اللَّيْلِ طَامِي[2]

وقالَ مسلمٌ [في « وفيات الأعيان » ٦/ ٢٢٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَجِدَّكِ هَلْ تَدْرِينَ إِنْ بِتُّ لَيْلَةً ... كَأَنَّ دُجَاهَا مِنْ قُرُونِكِ يُنْشَرُ
صَبَرْتُ لَهَا حَتَّىٰ تَجَلَّتْ بِغُرَّةٍ ... كَغُرَّةِ يَحْيَىٰ حِينَ يُذْكَرُ جَعْفَرُ

وقالَ العُقَيليُّ [في « البيان والتبيين » ١/ ٥٠٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وُجُوهٌ لَوَ انَّ المُدْلِجِينَ اعْتَشَوْا بِهَا ... صَدَعْنَ الدُّجَىٰ حَتَّىٰ تَرَى اللَّيْلَ يَنْجَلِي[3]

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ١٢٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وُجُوهٌ لَوَ انَّ الأَرْضَ فِيهَا كَوَاكِبٌ ... تَوَقَّدُ لِلسَّارِي لَكَانُوا كَوَاكِبَا

وقالَ أَبو عُبادةَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٧٢٢] : [مِنَ الكاملِ]

نَجْلُو بِغُرَّتِهِ الدُّجَىٰ فَكَأَنَّنَا ... نَسْرِي بِبَدْرٍ فِي اللَّيَالِي السُّوَّدِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٥٩٨] : [مِنَ الكاملِ]

وَرَأَوْكَ وَضَّاحَ الْجَبِينِ كَمَا يُرَىٰ ... قَمَرُ السَّمَاءِ السَّعْدُ لَيْلَةَ يَكْمُلُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٧٥٠] : [مِنَ الكاملِ]

اَلْيَوْمَ أُطْلِعَ لِلْخِلاَفَةِ سَعْدُهَا ... وَأَضَاءَ فِيهَا بَدْرُهَا الْمُتَهَلِّلُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٦٣٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَأَسْفَرَ وَجْهُ الشَّرْقِ حَتَّىٰ كَأَنَّمَا ... تَبَلَّجَ فِيهِ الْبَدْرُ بَعْدَ أُفُولِهِ[4]

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٨٤٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

بِوَجْهٍ هُوَ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ نَفَى الدُّجَىٰ ... سَنَاهُ وَأَخْلاَقٍ هِيَ الأَنْجُمُ الزُّهْرُ
أَضَاءَ لَنَا أُفْقَ الْبِلاَدِ وَكَشَّفَتْ ... مَشَاهِدُهُ مَا لاَ يُكَشِّفُهُ الْفَجْرُ

---

(١) المحيا : الوجهُ .

(٢) بحرٌ طام : أي ممتلىءٌ .

(٣) اعتشوا : ساروا وقتَ العشاءِ .

(٤) أسفرَ : أضاءَ . بلجَ الصبحُ : أضاءَ .

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/١٩٢٩] : [مِنَ الوافرِ]

يُضَاهِـي جُـودُهُ جُـودَ الثُّـرَيَّـا وَيَحْكِـي وَجْهُـهُ بَـدْرَ التَّمَـامِ

[أجمل ما في الموضوع]

وقالَ العرجيُّ يتغزَّلُ : [مِنَ البسيطِ]

مَحْجُـوبَـةٌ سَمِعَـتْ صَـوْتِـي فَـأَرَّقَهَـا مِـنْ أَوَّلِ اللَّيْـلِ حَتَّـىٰ بَلَّهَـا السَّحَـرُ
تُـدْنِـي عَلَـىٰ جِيـدِهَـا ثِنْيَـيْ مُعَصْفَـرَةٍ وَلِلْحُلِـيِّ عَلَـىٰ لَبَّـاتِهَـا خَصَـرُ(١)
فِـي لَيْلَـةِ النِّصْـفِ لاَ يَـدْرِيُ مُضَـاجِعُهَـا أَوَجْهُهَـا عِنْـدَهُ أَبْهَـىٰ أَمِ الْقَمَـرُ

وقالَ عمروُ بنُ شَأْسٍ ـ ولَهُ صحبةٌ ـ [في « ديوانهِ » ١٠٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذا نَحْـنُ أَدْلَجْنَـا وَأَنْـتِ أَمَـامَنَـا كَفَـىٰ لِمَطَـايَـانَـا بِـوَجْهِـكِ هَـادِيَـا

وقالَ النَّاظمُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٤٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَيْـلٌ دَجُـوجِـيٌّ كَـأَنَّـا جَلَـتْ لَنَـا مُحَيَّـاكَ فِيـهِ فَـاهْتَـدَيْنَـا السَّمَـالِـقُ(٢)

[إشراقة وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم]

وقد جاءَ في نعتهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم [كما في « الجامع » لمَعْمَر بن راشد ١/٢٥٩] : (**أَنَّ ضوءَه يتلألأُ في الجُدُرَاتِ إذا مشىٰ بينَها في الظلامِ**)

فأغارَ عليهِ صاحبُنا ، وكانَ كما قلتُ ـ غيرَ مرَّةٍ ـ : لا يدعُ شاذَّةً ولا فاذَّةً إلاَّ نظمَها في أَسلاكِ شِعرهِ ، وذلكَ حيثُ **يقولُ** [في « العكبَريِّ » ٢/ ٨١] : [مِنَ البسيطِ]

شَمْـسٌ إِذَا الشَّمْـسُ لاَقَتْـهُ عَلَـىٰ فَـرَسٍ تَـرَدَّدَ النُّـورُ فِيهَـا مِـنْ تَـرَدُّدِهِ

وقبْلَ هـٰذا في ديوانهِ بيتٌ اضطَرَبَ الشارحُ في تفسيرهِ ، وتخبَّطَ في معناهُ ، **ونصُّهُ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٨٠] : [مِنَ البسيطِ]

ذَمَّ الـزَّمَـانُ إِلَيْـهِ مِـنْ أَحِبَّتِـهِ مَـا ذَمَّ مِـنْ بَـدْرِهِ فِـي حَمْـدِ أَحْمَـدِهِ

والذي أَراهُ : أَنَّ المعنىٰ ظاهرٌ ، وإِنَّما ضربَ الشارحُ عريضةً في تأْويلهِ ، وحاصلُ ما فهمتُه منهُ : أَنَّ الضميرَ في (إِليهِ) وفي (أَحبَّتهِ) عائدٌ إِلى الشخصِ الذي جرَّدهُ من نفسهِ ، فكأَنَّه يقولُ : وجوهُ أَحبَّتي أَقمارٌ ، ولكنَّ الزمانَ ذمَّ إِليَّ من أَنوارِها بالنسبةِ إِلىٰ نورِ (أَحمدَ) الممدوحِ وثنائهِ ، كما أَنَّ الزمانَ ذمَّ أَيضاً مِنَ القمرِ الطَّالعِ بالنِّسبةِ لإِشراقِ (أَحمدَ) الممدوحِ وحمدهِ . واللهُ أَعلمُ .

[وصف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم]

ويُروىٰ عن عائشةَ رضي الله عنها [كما في « الاستيعاب » ١/ ٣٤١] : أَنَّها وصفَتْ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ

---

(١) **اللبَّةُ** : المنحرُ . **الخَصَرُ** : البَردُ .

(٢) **دجوجيٌّ** : مظلمٌ . **جَلَتْ** : كشفت وأظهرت . **المحيَّا** : الوجهُ . **السَّمالِقُ** : جمعُ سَمْلَقٍ ، وهيَ الأرض البعيدةُ ، وهوَ مرفوعٌ على الفاعليَّةِ لـ : (جلت) .

فقالَتْ : كانَ واللهِ كما قالَ شاعِرُهُ حسَّانُ [في « ديوانه » ١/ ٤٦٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

مَتَىٰ يَبْدُ فِي الدَّاجِي الْبَهِيمِ جَبِينُهُ ... يَلُحْ مِثْلَ مِصْبَاحِ الدُّجَى الْمُتَوَقِّدِ
فَمَنْ كَانَ أَو مَنْ قَدْ يَكُونُ كَأَحْمَدِ ... نِظَامٌ لِحَقٍّ أَوْ نَكَالٌ لِمُلْحِدِ ؟!

ويُحكىٰ أَنَّها قالَتْ : أَدخلتُ الخيطَ في الإبرةِ علىٰ ضوءِ جبينهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وأَنَّها تمثَّلت عندَ ذلكَ بقولِ أَبي كبيرٍ [في « ديوان الهُذَليِّين » ٢/ ٩٤] : [مِنَ الكاملِ]

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَىٰ أَسِرَّةِ وَجْهِهِ ... لَمَعَتْ كَبَرْقِ الْعَارِضِ الْمُتَهَلِّلِ[١]

وهوَ مِن قصيدةٍ لأَبي كبيرٍ الهُذَليِّ .

[تأبط شراً وزوج أمه]

وكانَ مِن حديثِها [في « ديوان الحماسة » ١/ ٢٠] : أَنَّه كانَ ناكِحاً أُمَّ تأَبَّطَ شرّاً ، فلمَّا بلغَ مبلغَ الرجالِ . . ساءَهُ دخولُه علىٰ أُمِّهِ ، فقالَ لَها : إِنِّي لأَعرفُ الشرَّ في عينِ الغلامِ مِنْ دخولي عليكِ ، فقالَتْ : عرِّضهُ للقتلِ حتَّىٰ نستريحَ ، فغزا بهِ ، ولمَّا قاربَ حيَّ عدوِّهِ . . أَمرهُ أَنْ يقتبسَ منهم ناراً ، وتأَبَّطَ شرّاً لا يدري أَنَّ لَهم وِتراً عندَ أَبيهِ يطلبونَه بثأْره ، فلمَّا رأَوهُ . . اسْتَلُّوا لقتْلِهِ ، فسبقَهم وأَردىٰ منهم اثنينِ ، وعادَ إِلىٰ أَبي كبيرٍ رابطَ الجأْشِ هادِىءَ البالِ كأَنَّما صادَ عصفوراً ، وأَخبرهُ الخبرَ ، فاشتدَّ خوفُ أَبي كبيرٍ ، فتملَّقه ومدَحهُ بقصيدةٍ سائرةٍ ـ منها هٰذا البيتُ ـ وفارقَ أُمَّهُ خوفاً مِنْ شرِّهِ .

[ابن الزبير يطلق أمه من زوجها]

وبهِ ذكرتُ ما رُوِيَ [كما في « البداية والنهاية » ٨/ ٣٤٦] : أَنَّ عبدَ اللهِ بنَ الزبيرِ طلَعَ علىٰ أَبيهِ وفي يدهِ الحسامُ صلْتاً ، وقالَ لهُ : مِثْلِي لا توطَأُ أُمُّهُ ، فطلِّقْها ، وإِلاَّ فهوَ علىٰ رأْسِكَ ، فما كانَ مِنَ الزُّبيرِ غيرُ الامتثالِ .

[مكاتبة عمرو بن مسعدة لأحد الملوك وقد تزوجت أمُّه]

وذكرَ غيرُ واحدٍ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/ ٤٧٦] : أَنَّ بعضَ الرؤَساءِ تزوَّجَتْ أُمُّهُ ، ومِن عاداتِهم التراسلُ فيما يشبهُ ذلكَ مِنَ الحوادثِ ، فحارَتِ المُلوكُ فيما تكتبُ إِليهِ ، وتصعَّدَها الكلامُ ، حتَّىٰ فرَّجَ عنهم عمرُو بنُ مسعدةَ ـ كاتبُ المأْمونِ ، أَو أَبو الفضلِ ابنُ العميدِ ـ وكتبَ ما معناهُ :

الحمدُ للهِ أَنقذَ مِنَ الحَيرةِ ، وجدَعَ بالدِّينِ أَنفَ الغَيرةِ ، ومنعَ من عضلِ الأُمهاتِ[٢] ، كما منعَ من وَأْدِ البناتِ ؛

---

(١) أسرَّتُهُ : طرائقهُ . العارضُ : هو الذي يجيءُ معارضاً في السماءِ . المتهلِّلُ : الممطِرُ . والحديثُ أخرجهُ عن عائشةَ رضي الله عنها البيهقيُّ في « الكبرىٰ » (٧/ ٤٢٢) بغير هذه الصيغةِ ولفظهُ عندهُ :
قالت : كنتُ قاعدةً أَغزِلُ ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يخصفُ نعلَهُ ، فجعلَ جبينُهُ يعرَقُ ، وجعلَ عرقُهُ يتولَّدُ نوراً . فبُهِتُّ ، فنظرَ إِليَّ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « مَا لَكِ يَا عَائِشَةُ بُهِتِّ ؟! » قلتُ : جعلَ جبينُكَ يعرقُ ، وجعلَ العرقُ يتولَّدُ نوراً ، ولو رآكَ أَبو كبيرٍ الهُذَليُّ . لعلمَ أَنَّكَ أَحقُّ بشعرهِ . قالَ : « وَمَا يَقُولُ أَبُو كَبِيرٍ ؟ » قالت : قلت : يقولُ :

وَمُبَرَّأً مِنْ كُلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ ... وَفَسَادِ مُرْضِعَةٍ وَدَاءٍ مُغْيِلِ
فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَىٰ أَسِرَّةِ وَجْهِهِ ... بَرَقَتْ كَبَرْقِ الْعَارِضِ الْمُتَهَلِّلِ

قالت : فقامَ إِليَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وقبَّلَ بينَ عينيَّ ، وقالَ : « جَزَاكِ اللهُ يَا عَائِشَةُ عَنِّي خَيْراً ، مَا سُرِرْتِ مِنِّي كَسُرُورِي مِنْكِ » .

(٢) عضلُ الأُمَّهاتِ : منعُها منَ الزواجِ .



استنزالاً للنفوسِ الأَبيَّةِ عن حميَّةِ الجاهليَّةِ ، ثمَّ استرسلَ فيما يليقُ بالمقامِ ، واقتفى الكُتَّابُ أَثَرهُ ، ووطِئوا عقبَه :

[من الكامل]

وَالذِّيبُ يَعْسِلُ فِي طَرِيقِ الضَّيْغَمِ

[الإمام زين العابدين ونور وجهه]

ورأَيتُ في مطالَعتي مِن زمانٍ بعيدٍ ، أَنَّ بعضَهم جاءَ في الحرمِ عشاءً إِلىٰ مقربةٍ مِن سيِّدنا عليِّ بنِ الحسينِ ، وأَخذَ يتأَمَّلُ في شيءٍ معهُ ، فسُئِلَ عَن شأْنِهِ ؟ فذكرَ أَنَّ عندَه كتاباً استغلقَت عليهِ قراءَتُه في ضوءِ السراجِ ، فجاءَ يقرؤُه علىٰ غرَّةِ زينِ العابدينَ ـ الذي اجتمعَ في أَساريرهِ الجمالُ الفارسيُّ ، والشهامةُ الهاشميَّةُ ، والوقارُ الإلهيُّ ، والأَشعَّةُ النَّبويَّةُ ، ولا أَذكرُ اسمَ الكتابِ الذي بقيَ بذِهْني منهُ هـٰذا .

[هشام بن عبد الملك والإمام زين العابدين في الطواف]

ولا غروَ ؛ فقد تواترَ [كما في « الأغاني » ١٠/ ٣٨٠] : أَنَّه لمَّا حجَّ . . استجْهَرَ الناسَ بجمالِهِ حتَّىٰ أَفرجوا لَهُ عَنِ الحجرِ ، عندَما عجزَ عَنِ الوصولِ إِليهِ هشامُ بنُ عبدِ الملكِ ـ وهُوَ وليُّ العهدِ يومَئِذٍ ـ فقالَ الناسُ : مَن هـٰذا ؟ فقالَ هشامٌ : لا أَعرفُهُ ، فقالَ الفرزدقُ : ولكنِّي أَعرفهُ ، فقالوا : مَنْ هُوَ يَا أَبا فراسٍ ؟ فقالَ [في « ديوانه » ١٧٨ـ١٧٩] : [مِنَ البسيطِ]

هَـٰـذَا ابْـنُ خَيْـرِ عِبَـادِ اللهِ كُلِّهِـمُ ... هَـٰـذَا التَّقِـيُّ النَّقِـيُّ الطَّـاهِـرُ الْعَلَـمُ[1]
هَـٰذَا الَّـذِي تَعْـرِفُ الْبَطْحَـاءُ وَطْأَتَـهُ ... وَالْبَيْـتُ يَعْـرِفُـهُ وَالْحِـلُّ وَالْحَـرَمُ[2]
وَلَيْسَ قَوْلُكَ : مَنْ هَـٰذَا ؟ . . بِضَائِرِهِ ... الْعُـرْبُ تَعْـرِفُ مَـنْ أَنْكَـرْتَ وَالْعَجَـمُ
إِذَا رَأَتْـهُ قُـرَيْـشٌ . . قَـالَ قَـائِلُهَـا ... إِلَـىٰ مَكَـارِمِ هَـٰذَا يَنْتَهِـي الْكَـرَمُ
يُغْضِـي حَيَـاءً وَيُغْضَـىٰ مِـنْ مَهَـابَتِـهِ ... فَمَـا يُكَلَّـمُ إِلاَّ حِيـنَ يَبْتَسِـمُ[3]

في قصَّةٍ معروفةٍ لا حاجةَ بنا إِلىٰ سردِها ـ معَ شُهرتِها ـ وهيَ مِن أَكبرِ الأَدلَّةِ علىٰ شهامةِ الفرزدقِ ، وقوَّةِ نفسهِ ، وصحَّةِ دينِهِ ، وقد تداخَلَتْ في القصيدةِ أَبياتٌ يرويها بعضُهُم للحزينِ الكنانيِّ ، ويرويها آخرونَ للحزينِ الليثيِّ .

[هل إثبات العقل للجماد ومعرفته للممدوح جائز ؟!]

وقولُه : وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ ، وقولُه [في « ديوانه » ١٧٩] : [مِنَ البسيطِ]

يَكَـادُ يُمْسِكُـهُ عِـرْفَـانَ راحَتِـهِ ... رُكْـنُ الْحَطِيمِ إِذَا مَـا جَـاءَ يَسْتَلِـمُ

يشبهُ قولَ عُروةَ بنِ أُذَيْنَةَ [في « ديوانه » ٨٣] : [مِنَ الكاملِ]

وَلَهُـنَّ بِـالْبَيْـتِ الْعَتِيـقِ لُبَـانَـةٌ ... وَالْبَيْـتُ يَعْـرِفُهُـنَّ لَـوْ يَتَكَلَّـمُ[4]
لَـوْ كَـانَ حَيًّـا قَبْلَهُـنَّ ظَعَـائِنـاً ... حَـيَّ الْحَطِيـمُ وُجُـوهَهُـنَّ وَزَمْـزَمُ[5]

---

(١) **العَلَمُ** : سيِّدُ القومِ .
(٢) **البطحاءُ** : مسيل واسع فيه دقاق الحصىٰ ، ويطلق على الأرض المحيطة بـ (مكَّةَ) .
(٣) **يغضي** : يخفضُ بصرَهُ من الحياءِ .
(٤) **اللُّبانةُ** : الحاجة التي يهمُّ الشخصَ قضاؤها .
(٥) **الظعائنُ** : النساءُ في الهوادجِ . **الحطيم** : حجر إسماعيل .

[اشتياق البقاع إلىٰ أحبابها]

ثمَّ تلاعبَ بهِ المتأخِّرونَ ، فقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/١٧٩] : [مِنَ الخفيفِ]

لَـوْ سَعَـتْ بُقْعَـةٌ لإِعْظَـامِ حَـيٍّ ... لَسَعَـىٰ نَحْـوَهَـا الْمَكَـانُ الْجَـدِيـبُ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانه » ٢/١٠٧٣] : [مِنَ الكاملِ]

فَلَـوَ انَّ مُشْتَـاقـاً تَكَلَّـفَ فَـوْقَ مَـا ... فِـي وُسْعِـهِ لَمَشَـىٰ إِلَيْـكَ الْمِنْبَـرُ

[افتنان المتنبي في الموضوع]

وافْتَنَّ فيهِ الناظمُ فقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/٢٠٣] : [مِنَ الكاملِ]

لَـوْ تَعْقِـلُ الشَّجَـرُ الَّتِـي قَـابَلْتِهَـا ... مَـدَّتْ مُحَيِّيَـةً إِلَيْـكِ الأَغْصُنَـا

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٢/٣٨٤] : [مِنَ الخفيفِ]

وَإِذَا لَـمْ تَسِـرْ إِلَـى الـدَّارِ فِـي وَقْـتِـكَ ذَا . . خِفْـتُ أَنْ تَسِيـرَ إِلَيْكَـا

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/٢٢٢] : [مِنَ البسيطِ]

يَضُمُّـهُ الْمِسْـكُ ضَـمَّ الْمُسْتَهَـامِ بِـهِ ... حَتَّـىٰ يَصِيـرَ عَلَـى الأَعْكَـانِ أَعْكَـانَـا[1]

وقالَ [في « العُكبَريّ » ١/٢٣٤] : [مِنَ الكاملِ]

أَعْجَبْتَهَـا شَـرَفـاً فَطَـالَ وُقُـوفُهَـا ... لِتَـأَمُّـلِ الأَعْضَـاءِ لاَ لأَذَاتِهَـا[2]

وقالَ [في « العُكبَريّ » ١/١٤٦] : [مِنَ البسيطِ]

فَلِـمْ يَهَـابُـكَ مَـا لاَ حِـسَّ يَـرْدَعُـهُ ؟ ... إِنِّـي لأُبْصِـرُ مِـنْ شَـأْنَيْهِمَـا عَجَبَـا!

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/٧] : [مِنَ الوافرِ]

فَلَـوْ قَـدَرَ السِّنَـانُ عَلَـىٰ لِسَـانٍ ... لَقَـالَ لَـكَ السِّنَـانُ كَمَـا أَقُـولُ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/٩٨] : [مِنَ الخفيفِ]

طَـالَ غِشْيَـانُـكَ الْمَكَـارِهَ حَتَّـىٰ ... قَـالَ فِيـكَ الَّـذِي أَقُـولُ الْحُسَـامُ

[من أكبر مفاخر قريش . . معرفة البطاح]

ومعرفةُ البطاحِ مِنْ أَكبرِ مفاخرِ قريشٍ ؛ لأَنَّه لا يتديَّرها إِذ ذاكَ إِلاَّ صَميمُها ، وأَمَّا لهازِمُها . . فبالظَّواهرِ .

وما أَحسنَ ما قالَ بعضُ العلويِّينَ : [مِنَ الكاملِ]

وَحَلَلْـتُ مُعْتَلِـجَ الْبِطَـاحِ إِذَا غَـدَا ... غَيْـرِي وَرَاحَ عَلَـىٰ مُتُـونِ ظَـوَاهِـرِ[3]

كَجِبَـالِهَـا شَـرَفِـي ، وَمِثْـلُ سُهُـولِهَـا ... خُلُقِـي ، وَمِثْـلُ ظِبَـائِهِـنَّ مَجَـاوِرِي

---

(١) الأَعكانُ : جمع عكنة ، وهو ما يتكسَّرُ أسفل البطنِ من الشحمِ .

(٢) الضميرُ في (أعجبتها) عائدٌ على (الحُمَّىٰ) في البيت قبلهُ .

(٣) الأرضُ المعتلجةُ : هي التي استأسدَ نباتُها والتفَّ وكثُرَ . ومعْتَلَجُ البطاحِ : بطنُ (مكَّةَ) .

وقالَ الكُمَيْتُ يمدحُ هشامَ بنَ عبدِ الملكِ [في « ديوانِه » ١/ ١٧٣] : [مِنَ الخفيفِ]

لَـمْ تَجَهَّـمْ لَـهُ الْبِطَـاحُ وَلكِـنْ وَجَـدَتْهَـا لَـهُ مَعَـانـاً وَدُورَا[1]

وقالَ لهُ أيضاً [في « ديوانِه » ١/ ١٨٩] : [مِنْ مجزوءِ الكاملِ]

وَحَلَلْـتَ مُعْتَلِـجَ الْبِطَـاحِ وَحَـلَّ غَيْـرُكَ بِـالظَّـوَاهِـرْ

ولم ينسَ حظَّهُ القطبُ الحدَّادُ بل أخذَ بمجامعِ الفخرِ في قولهِ [مخمَّساً في « ديوانه » ٥١٣] : [مِنَ المديدِ]

نَعْـرِفُ الْبَطْحَـا وَتَعْـرِفُنَـا وَالصَّفَـا وَالْبَيْـتُ يَـأْلَفُنَـا

وَلَنَـا الْمَعْـلا وَخَيْـفُ مِنَـىٰ فَـاعْلَمَـنْ مَـا قُلْـتُ وَاسْتَكِـنِ[2]

ويعجبني قولُ بعضِهم في مراعاةِ النَّظيرِ يمدحُ أهلَ البيتِ [في « خزانةِ الأدبِ » ١/ ٢٩٤] : [مِنَ الكاملِ]

أَنْتُـمْ بَنُـو طَـٰهَ وَنُـونٍ وَالضُّحَـىٰ وَبَنُـو تَبَـارَكَ وَالْكِتَـابِ الْمُحْكَـمِ

وَبَنُـو الأَبَـاطِـحِ وَالْمَشَـاعِـرِ وَالصَّفَـا وَالـرُّكْـنِ وَالْبَيْـتِ الْعَتِيـقِ وَزَمْـزَمِ

[علي الرضا ودخوله خراسان]

وعلىٰ ذكرِ الوضاءَةِ . . نلمُّ بحديثِ عليٍّ الرِّضَا ، فقد دخلَ (خراسانَ) وعليهِ غشاءٌ . . فتلقَّاهُ الناسُ ، وفي مقدِّمتِهم الحافظانِ أبو زرعَةَ ومحمدُ بنُ أَسلمَ الطُّوسيُّ ، فتوسَّلا إليهِ أَنْ يكشفَ لَهُم عَن وَجهِهِ ، وأَنْ يَرويَ حديثاً عَنْ آبائِهِ ، فَحَسَرَ اللثامَ عَن وجهٍ كالبدرِ انكشف عنهُ الغمامُ ، فمن صارخٍ وباكٍ وممرِّغٍ خدَّهُ بالأرضِ ، وآخذٍ من ترابِ حافرِ بغلَتِهِ ، وقالَ : حدَّثني أَبي ، موسى الكاظمُ ، عن أَبيهِ جعفرٍ الصَّادقِ ، عن أَبيهِ محمدٍ الباقرِ ، عَنْ أَبيهِ عليٍّ زينِ العابدينَ ، عن أَبيهِ ـ شهيدِ كَربلاءَ ـ حسينِ بنِ عليٍّ وابنِ فاطمةَ ، عَن أَبيهِ عليٍّ ابنِ أَبي طالبٍ ، عَن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، عَنْ جبرائيلَ ، عَنْ رَبِّ العزَّةِ ، قالَ : « **لا إلٰهَ إلا اللهُ حِصْني ، فَمَنْ دَخَلَ حِصْني . . أَمِنَ مِنْ عَذَابي** »[3] فابتدرَتْهُ الأَقلامُ ـ وكانتْ أَكثَر مِنِ اثْنَيْ عشرَ أَلفاً ـ وصاروا يكتبونَ ذلكَ الإِسنادَ للمرضىٰ ، فيعاجِلُهم اللهُ بالشِّفاءِ ، وكيفَ لا ؟! وهُم كما قِيلَ : [مِنَ السَّريعِ]

سَبْعَـةُ آبَـاءٍ هُـمُ مَـنْ هُـمُ أَفْضَـلُ مَـنْ يَشْـرَبُ صَـوْبَ الْغَمَـامِ

[ابن معايا يمدح الخليفة الأندلسي]

ولقد أَذكرَني توسُّلُ الحافظَينِ إلى الرِّضا بأَنْ يُسَرِّيَ عَنْ وَجْهِهِ اللِّثامَ . . بقولِ ابنِ مَعايا يمدحُ إِدريسَ بنَ حمُّودٍ الخليفةَ بـ (الأَندلسِ) [كما في « نَفحِ الطِّيبِ » ١/ ٢١٤] : [مِنَ الرَّمَلِ]

أَنْظِـرُونَـا نَقْتَبِـسْ مِـنْ نُـورِكُـمْ إِنَّـهُ مِـنْ نُـورِ رَبِّ الْعَـالَمِيـنْ

---

(١) تَجَهَّمْ : تنكرُ . المَعانُ : المحلُّ .

(٢) وعجز البيت كما جاء في « ديوانه » (ص ٢٨٦) :

. . . . فـــاعلمَـــنْ هٰـــذا أو كُـــنْ وكُـــنِ

(٣) حديث قدسي أورده عن ابن عساكر من حديث علي المتقي الهندي في « كنز العمال » (١٥٨) و(١٧٦٩) ، وابن النجار (٢٣٥) . وفي الباب نحوه عن أنس عند ابن النجار من حديث أنس كما في « كنز العمال » (١٦٨) و(٢٣٥) .

[خرق الخليفة للأستار وبروزه للشاعر]

وكانَ مِنْ وَرَاءِ سبعةِ أَستارٍ حالَ الإنشادِ ، فلمَّا بلغَ هـٰذا البيتَ : أَمرَ برفعِها حتَّىٰ نظرَ إليهِ ، وكانتِ العادةُ عندَ خلفاءِ (المغربِ) أَنْ لا يسمَعوا الإنشادَ إلاَّ مِن وراءِ الحِجَابِ .

[ورود كلمة (أَذِين) في اللغة]

ورأيتُ بعضَهم ينتقدُ لفظةَ (الأَذِينِ) مِنْ قولِه في هـٰذهِ القصيدةِ [كما في « نَفْح الطِّيب » ١/ ٢١٤] : [مِنَ الرمل]

وَاسْقِنِيهَا قَبْلَ تَكْبِيرِ الأَذِينْ

وقالَ : إِنَّها لا توجدُ في كتبِ اللُّغةِ ولا في أَشعارِ العربِ ، ولا يحضُرُنا شيءٌ منهَا الآنَ ، ولا أَراهُ إلاَّ وَهِماً في انتقادِهِ ؛ فقدِ استعمَلَها المولَّدونَ بكثرةٍ ، ومنهُم أَبو العلاءِ المعريُّ في قولِهِ [في « سقط الزند » ٢٧٥] : [مِنَ الوافرِ]

فَلَيْـتَ أَذِيـنَ يَـوْمِ الْحَشْـرِ نَـادَىٰ   فَـأَجْهَشَـتِ الـرِّمَـامُ إِلَـى الـرِّمَـامِ[1]

[تلثُّم الجميل يدرأ من إتلاف المهج]

وأَمَّا تلثُّمُ الرِّضا . فذكرتُ عندَه قولَ الناظمِ [في « العُكبَرِيّ » ٢/ ٣٤٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

خَـفِ اللهَ وَاسْتُـرْ ذَا الْجَمَـالَ بِبُـرْقُـعٍ   فَإِنْ لُحْتَ ذَابَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَـوَاتِـقُ[2]

وإِنَّه وَاللهِ لأَكبرُ مِنْ ذلكَ ، وما كانَ أَحقَّه بأَنْ يُقالَ فيهِ : [مِنَ الطَّويلِ]

خَـفِ اللهَ وَاسْتُـرْ ذَا الْجَمَـالَ بِبُـرْقُـعٍ   فَإِنْ لُحْتَ ذَابَتْ فِيَ الصُّدُورِ الْخَوَافِقُ

جَـلاَلٌ إِلَـىٰ فَـرْطِ الْجَمَـالِ عَلَيْهِمَـا   مِـنَ اللهِ نُـورٌ فِـي الـدُّجُنَّـةِ شَـارِقُ[3]

وما أَحسنَ قولَ بعضِهم [كما في « البيان والتبيين » ١/ ٤٣٨] : [مِنَ الوافرِ]

إِذَا لَبِسُـوا عِمَـائِمَهُـمْ طَـوَوْهَـا   عَلَـىٰ كَـرَمٍ وَإِنْ سَفَـرُوا أَنَـارُوا

[الابتسام في ساحات القتال والشعراء]

ثمَّ يَحتَمِلُ أَنَّ في البيتِ إِشارةً إِلىٰ أَنَّ الممدوحَ لا يَشينُهُ العبوسُ . إذا شبَّتِ الحَربُ الضَّروسُ ، وهُوَ مِثْلُ قولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ٣٨٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَمُـرُّ بِـكَ الأَبْطَـالُ كَلْمَـىٰ هَـزِيمَـةً   وَوَجْهُـكَ وَضَّـاحٌ وَثَغْـرُكَ بَـاسِـمُ[4]

وقولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ٤/ ٢٨١] : [مِنَ المنسرحِ]

مُبْتَسِـمٌ وَالْـوُجُـوهُ عَـابِسَـةٌ   سِلْـمُ الْعِـدَا عِنْـدَهُ كَهَيْجَـاهَـا

---

(١) أجهشَ : خاف أو هرب . الرِّمامُ : البالي .

(٢) البرقعُ : نقابٌ للعربِ ، يغطَّىٰ به الوجه والجبين ، ولا يكونُ فيهِ إلاّ ثقبانِ للعينين تنظرانِ منهما . والعواتقُ : الجواري اللاتي قاربنَ الحلمَ . والخدورُ : جمع خِدرٍ ، وهوَ الكِنُّ ، والبيتُ الذي يسترُ فيه العواتقُ .

(٣) الدُّجُنَّةُ : الظلمةُ . الشارقُ : القمرُ .

(٤) كلْمىٰ : جرحىٰ . هزيمةٌ : مهزومةٌ .

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/٢٩٩] : [مِنَ الوافرِ]

فَــلاَ تَسْتَنْكِــرَنَّ لَــهُ ابْتِسَــامــاً إِذَا فَهِــقَ الْمَكَــرُّ دَمــاً وَضَــاقَــا[١]

وقولِ الأَعشىٰ : [مِنَ البسيطِ]

كَـأَنَّـهُ ـ بَعْـدَ صِـدْقِ القَـوْمِ أَنْفُسَهُـمْ بِـالْيَـأْسِ ـ تَلْمَـعُ مِـنْ قُـدَّامِـهِ الْبَشَـرُ[٢]

وقولِ المعكبَرِ الضبيِّ [في « ديوانِ الحماسةِ » ٢/١٩٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

كَـأَنَّ دَنَـانِيـراً عَلَـىٰ قَسَمَـاتِهِـمْ وَإِنْ كَـانَ قَـدْ شَـفَّ الْـوُجُـوهَ لِقَـاءُ[٣]

وقولِ دريدِ بنِ الصِّمَّةِ يمدحُ ربيعةَ بنَ مكدمٍ ، وكان أَرْدىٰ عليهِ ثلاثةَ فوارسَ يومَ الظَّعينَةِ [في « ديوانهِ » ٩٥] : [مِنَ الكاملِ]

أَرْدَىٰ فَـوَارِسَ لَـمْ يَكُـونُـوا نُهْـزَةً ثُـمَّ اسْتَمَـرَّ كَـأَنَّـهُ لَـمْ يَفْعَـلِ[٤]
مُتَهَلِّـــلاً تَبْـــدُو أَسِـــرَّةُ وَجْهِـــهِ مِثْـلَ الْحُسَـامِ جَلَتْـهُ كَـفُّ الصَّيْقَـلِ[٥]

وقولِ الفرزدقِ في رثاءِ وكيعِ ابنِ أَبي الأَسودِ الغدانيِّ [في « ديوانهِ » ١/٤٠٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا الْتَقَـتِ الأَبْطَـالُ أَبْصَـرْتَ وَجْهَـهُ مُضِيئـاً وَأَعْنَـاقُ الْكُمَـاةِ خُضُـوعُ

وقولِ مروانَ ابنِ أَبي حفصةَ يمدحُ مَعْناً [في « ديوانهِ » ١٠٦] : [مِنَ الكاملِ]

يُمْضِــي أَسِنَّتَــهُ وَيُسْفِــرُ وَجْهُــهُ فِــي الـرَّوْعِ عِنْـدَ تَغَيُّــرِ الأَلْــوَانِ
جَلَـبَ الْجِيَـادَ مِـنَ الْعِـرَاقِ عَـوَابِسـاً قُـبَّ الْبُطُـونِ يُقَـدْنَ بِـالأَرْسَـانِ[٦]
حَتَّـىٰ أَغَـرْنَ بِحَضْـرَمَـوْتَ شَـوَازِبـاً مُقْــوَرَّةً كَكَــوَاسِــرِ الْعُقْبَــانِ[٧]

وقولِ مسلمٍ [في « الأغاني » ١٢/١١٨] : [مِنَ البسيطِ]

يَفْتَـرُّ عِنْـدَ افْتِـرَارِ الْحَـرْبِ مُبْتَسِمـاً إِذَا تَغَيَّـرَ وَجْـهُ الفَـارِسِ الْبَطَـلِ

وقولِ أَبي عُبادةَ [في « ديوانهِ » ٣/١٤٩٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

ضَحُـوكٌ إِلَـى الأَبْطَـالِ وَهْـوَ يَـرُوعُهُـمْ وَلِلسَّيْـفِ حَـدٌّ حِيـنَ يَسْطُـو وَرَوْنَـقُ

وفي عكسِ ذلكَ يقولُ عنترةُ [في « ديوانهِ » ١٥٢] : [مِنَ البسيطِ]

لاَ أَبْعَـدَ اللهُ عَــنْ عَيْنِـي غَطَـارِفَـةً إِنْسـاً إِذَا نَـزَلُـوا جِنّـاً إِذَا رَكِبُـوا[٨]

---

(١) فَهِقَ : امتلأَ . المَكَرُّ : مجالُ الضربِ وساحةُ القتالِ .

(٢) لمعانُ الجسدِ : بريقُ لونهِ . البَشَرُ : ظاهرُ الجلدِ .

(٣) القَسماتُ : مجاري الدموعِ . شفَّ : أَهزَلَ مِن شدَّةِ الهمِّ .

(٤) النُّهزَةُ : الشيءُ المعرَّضُ لكَ كالغنيمةِ .

(٥) الصَّيقَلُ : شحَّاذُ السيوفِ وجلاَّؤُها الذي يزيلُ عَنها الصَّداَ .

(٦) العوابسُ : الشديدةُ الجادَّةُ . قُبُّ البطونِ : ضوامرُها .

(٧) الشوازبُ : جمعُ شازبٍ ، وهوَ الضامرُ . المُقْوَرَّةُ : الضامرةُ . الكاسرُ من العقبانِ : هيَ التي تكسرُ جناحيها وتضمُّها إذا أَرادتِ السقوطَ ، وهي من أقوى العقبانِ .

(٨) الغطارفَةُ : جمع غطريفٍ ، وهو السيِّدُ الشريفُ السخيُّ .

ويقولُ ابنُ مَيَّادةَ [في « ديوانهِ » ٦٠] : [مِنَ البسيطِ]

الطَّيِّبُـــونَ إِذَا طَـــابَـــتْ نُفُـــوسُهُـــمُ ... شُوسُ الحَـواجِبِ وَالأَبْصَارِ إِنْ غَضِبُوا[١]

ويقولُ الفرزدقُ [في « طبقات فحولِ الشُّعراءِ » ٢/٣٦٣] : [مِنَ الكاملِ]

أَحْـلاَمُنَـا تَـزِنُ الْجِبَـالَ رَكَـانَـةً ... وَتَخَـالُنَـا جِنّـاً إِذَا مَـا نَغْضَـبُ[٢]

ويقولُ نصيبٌ : [مِنَ الكاملِ]

يَحْيَـوْنَ بَسَّـامِيـنَ طَـوْراً وَتَـارَةً ... يَحْيَـوْنَ عَبَّـاسِيـنَ شُـوسَ الْحَـوَاجِبِ

ويقولُ بكرُ بنُ النطَّاحِ : [مِنَ الخفيفِ]

يَتَلَقَّـى النَّـدَىٰ بِـوَجْـهٍ حَيِـيٍّ ... وَصُـدُورَ الْقَنَـا بِـوَجْـهٍ وَقَـاحِ

[المتنبي وعدم المبالاة بملاقاة الأعداء]

وقد أَغارَ عليهِ صاحبُنا ؛ لأنَّه يتلقَّفُ[٣] كلَّ ما صنَعوا . فقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/٧٨] : [مِنَ الوافرِ]

نُصَـرِّعُهُـمْ بِـأَعْيُنِنَـا حَيَـاءً ... وَتَنْبُـو عَـنْ وُجُـوهِهِـمُ السِّهَـامُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/١١٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

حَيِيُّـونَ إِلاَّ أَنَّهُـمْ فِـي نِـزَالِهِـمْ ... أَقَـلُّ حَيَـاءً مِـنْ شِفَـارِ الصَّـوَارِمِ[٤]

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٢/٦٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَيْسَ حَيَـاءُ الْـوَجْـهِ لِلذِّئْـبِ شِيمَـةً ... وَلَكِنَّـهُ مِـنْ شِيمَـةِ الأَسَـدِ الْـوَرْدِ

وهوَ مِن قولِ أَبي تمَّامٍ [بل البحتري في « ديوانه »] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا الْكَلْبُ مَحْمُـومـاً وَإِنْ طَـالَ عُمْـرُهُ ... وَلَكِنَّمَـا الْحُمَّـىٰ عَلَـى الأَسَـدِ الْـوَرْدِ

غيرَ أَنَّه حرَّفَ الكَلِمَ عَن مَواضِعِهِ ؛ لِيَستُرَ اختلاسَهُ عَنِ العيونِ .

[حياء وشجاعة النبي صلى الله عليه وسلم]

(وقد كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم أَشدَّ حياءً مِنَ العَذْراءِ في خدرِها)[٥] ، وهوَ أَشجعُ الناسِ بِالاتِّفاقِ .

[الشجاعة والحياء]

وقد قالتْ لَيلى الأَخْيَلِيَّةُ [في « ديوانها » ٨٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَتًـىٰ كَـانَ أَحْيَـىٰ مِـنْ فَتَـاةٍ حَيِيَّـةٍ ... وَأَجْـرَأَ مِـنْ لَيْـثٍ بِخَفَّـانَ خَـادِرِ[٦]

---

(١) الشَّوَسُ : النظرُ بمؤخَّرةِ العينِ تكبُّراً وتغيُّظاً .
(٢) الأحلامُ : العقولُ . الرَّكَانَةُ : الثِّقَلُ .
(٣) لقف : تناول بسرعة أو ابتلع .
(٤) الشفارُ : جمع شفرةٍ . الصوارمُ : جمعُ صارم ، وهوَ السَّيفُ القاطعُ .
(٥) أخرجه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه البخاري (٣٥٦٢) في المناقب ، ومسلم (٢٣٢٠) في الفضائل .
(٦) الخِفَّانُ : مأسدةٌ قربَ الكوفةِ . الخادِرُ : المقيمُ في عَرِينِهِ .

ولَئِن لم يكُن في الأَمثلةِ الأَخيرةِ تصريحٌ بالتَّبَسُّمِ في حالِ القتالِ الذي نتكلَّمُ فيهِ . . فإِنَّه موجودٌ فيها باللازِمِ ؛ إِذِ الحياءُ مِن لازمهِ الابتسامُ ، والأَسَدُ من طبيعتهِ الاقتِحامُ ، فلم نخرجْ عَن موضعِ الكلامِ .

[احذر من تبسم الليث]

ومِمَّا يتردَّدُ بينَ القسمينِ ـ معَ القربِ من الثاني ـ قولُ عنترةَ [في « ديوانهِ » ٦٤] : [مِنَ الكامِلِ]

لَمَّـا رَآنِـي قَـدْ نَـزَلْـتُ أُرِيـدُهُ ... أَبْـدَىٰ نَـوَاجِـذَهُ لِغَيْـرِ تَبَسُّـمِ

وتَسوَّرَ عليهِ أَبو تمَّامٍ فقالَ [في « ديوانه » ٢/ ٨٥] : [مِنَ البسيطِ]

قَـدْ قَلَّصَـتْ شَفَتَـاهُ مِـنْ حَفِيظَتِـهِ ... فَخِيـلَ مِـنْ شِـدَّةِ التَّعْبِيـسِ مُبْتَسِمَـا[1]

وأَجادَ ـ واللهِ ـ الناظمُ في قولهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٦٨] : [مِنَ البسيطِ]

إِذَا رَأَيْـتَ نُيُـوبَ اللَّيْـثِ بَـارِزَةً ... فَـلاَ تَظُنَّـنَّ أَنَّ اللَّيْـثَ يَبْتَسِـمُ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبي في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٧٠] : [مِنَ البسيطِ]

كَـمْ مَهْمَـهٍ قُـذُفٍ قَلْـبُ الـدَّلِيـلِ بِـهِ ... قَلْبُ الْمُحِبِّ ، قَضَـانِي بَعْدَ مَا مَطَلا

[شجاعة المتنبي وثبات جأشه]

(**المَهْمَهُ**) الفلاةُ الواسعةُ و(**القُذُفُ**) البعيدةُ ؛ كأَنَّها تتقاذفُ بمن يسلُكُها ، يقولُ : كم من فلاةٍ بعيدةٍ يَدُلُّني فيها رجلٌ خائفٌ قلبُهُ كقلبِ المحبِّ في الاضطرابِ . . قطعتُها بعدَ طولِ السيرِ فيها ، وهـٰذا هُوَ المرادُ من قولِهِ : (**قَضَانِي بَعْدَ مَا مَطَلاَ**) وهي استعارةٌ مليحةٌ ؛ لأَنَّ الْمَهْمَهَ بطولِهِ . . كالغريمِ المماطِلِ بالقضاءِ .

وفي البيتِ نكتةٌ لا أَظنُّ أَحداً تعرَّضَ لَها ، وهيَ : أَنَّه كثيراً ما يمتدحُ بالجرأَةِ وقوَّةِ القلبِ ، والاستغناءُ بذلكَ عَنِ الأَدِلَّةِ ، وهُوَ محلُّ ذلكَ غيرُ مُنازَعٍ ؛ ولهـٰذا أَبىٰ أَنْ يسيرَ في خفارةٍ[2] غيرِ سيفِهِ ، ولم يأْخذْهُ في ذلكَ لومٌ ولا تفنيدٌ ، وقالَ : أَنا والجرازُ[3] في عنقي لاَ أَخافُ إِلاَّ اللهَ ، فهوَ ثابتُ الجأْشِ في تلكَ المهامِهِ ، وإِنَّما وَصَفَ الدليلَ بالضعفِ والجبنِ ، واضطرابِ القلبِ ، وإِذا كانَ الدليلُ بهـٰذهِ المثابةِ . . فكأَنَّه لا شيءَ ، فلم تنخرقْ عادتُهُ ، ولم تنخرمْ شهامتُهُ ، ولم يخالفْ قولَه [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٤٢ـ١٤٤] : [مِنَ الوافرِ]

مَلُـومُكُمَـا يَجِـلُّ عَـنِ الْمَـلاَمِ ... وَوَقْـعُ فِعَـالِـهِ فَـوْقَ الْكَـلاَمِ

ذَرَانِـي وَالْفَـلاَةَ بِـلاَ دَلِيـلٍ ... وَوَجْهِـي وَالْهَجِيـرَ بِـلاَ لِثَـامِ

---

(١) **الحفيظةُ** : الغضبُ .

(٢) **الخِفارةُ** : العهدُ والذمّةُ أو الجوارُ .

(٣) **الجُرازُ** : السيفُ القاطعُ .



فَـإِنِّـي أَسْتَـرِيـحُ بِـذَا وَهَـٰـذَا ... وَأَتْعَـبُ بِـالإِنَـاخَـةِ وَالْمُقَـامِ
فَقَـدْ أَرِدُ الْمِيَـاهَ بِغَيْـرِ هَـادٍ ... سِـوَىٰ عَـدِّي لَهَـا بَـرْقَ الْغَمَـامِ[1]
يُـذِمُّ لِمُهْجَتِـي رَبِّـي وَسَيْفِـي ... إِذَا احْتَـاجَ الْـوَحِيـدُ إِلَـى الـذِّمَامِ[2]

* * *

[قالَ أبو الطَّيب المتنبي في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٧٠] : [مِنَ البسيطِ]

عَقَـدْتُ بِـالنَّجْـمِ طَـرْفِـي فِـي مَفَـاوِزِهِ ... وَحُـرَّ وَجْهِـي بِحَـرِّ الشَّمْـسِ إِذْ أَفَـلاَ

[لماذا سميت الصحراء مفازة ؟]

(**المَفاوزُ**) الفلواتُ المهلكةُ ، وسمَّوها كذلكَ تفاؤُلاً ، مِن مجازِ الضدِّ ، كما قالوا : للأعمى (البصيرِ) ، و(**الطرفُ**) العينُ ، و(**حُرُّ الوجهِ**) أشرفُ مكانٍ منهُ ، و(**أفلَ**) غابَ .

[من الممادح كثرة ركوب الليل ، واجتياز الصحراء ، وحرق الوجه من حر الشمس]

يقولُ : إنَّه يسيرُ لَيلاً ونهاراً، ففيْ الليلِ يعقدُ طرفَهُ بالنجمِ، وإذا جاءَ النهارُ. نصَّبَ وجهَهُ للشمسِ، يهْتدي نهاراً كما يهْتدي بالنجومِ ليلاً، وما زالتِ الْعَرَبُ تَمدحُ بركوبِ الليلِ وكثرةِ الأَسفارِ، قالَ الأَعشىٰ في رثاءِ الْمُنْتَشِرِ: [مِنَ البسيطِ]

مُهَفْهَـفٌ أَهْضَـمُ الْكَشْحَيْـنِ مُنْخَـرِقٌ ... عَنْـهُ الْقَمِيـصُ ، لِسَيْـرِ اللَّيْـلِ مُحْتَقِـرُ[3]

وما أَثنىٰ عليهِ بانخراقِ القميص. . إلاَّ لطولِ أَسفارِهِ حتَّىٰ تَشقَّقَتْ ثيابُهُ .

وقالَ ذو الرُّمَّةِ يصفُ مسافِراً أَغفىٰ إغفاءَةً ثمَّ انتبهَ سريعاً [في « ديوانه » ٣/ ١٦٩١ـ١٦٩٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

طَـوَىٰ طَيَّـةً فَـوْقَ الكَـرَىٰ جَفْـنَ عَيْنِـهِ ... عَلَـىٰ رَهَبَـاتٍ مِـنْ جَنَـانِ الْمَحَـاذِرِ
قَلِيـلاً كَتَحْلِيـلِ الأُلَـىٰ ثُـمَّ قَلَّصَـتْ ... بِـهِ شِيمَـةٌ رَوْعَـاءُ تقْلِيـصَ طَـائِـرِ[4]

وقالَ مضرِّسُ بنُ ربعيٍّ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَيَـوْمٍ مِـنَ الشِّعْـرَىٰ كَـأَنَّ ظِبَـاءَهُ ... كَـوَاعِـبُ مَقْصُـورٌ عَلَيْهَـا سُتُـورُهَـا[5]
تَـدَلَّـتْ عَلَيْهَـا الشَّمْـسُ حَتَّـىٰ كَـأَنَّهَـا ... مِـنَ الْحَـرِّ يَـرْمِـي بِـالسَّكِينَـةِ نُـورُهَـا
نَصَبْـتُ لَـهُ وَجْهِـي وَكُلِّفْـتُ حَمْيَـهُ ... أَفَـانِيـنَ حُـرْجُـوجٍ بَطِـيءٌ فُتُـورُهَـا[6]
وَلَيْـلٍ يَقُـولُ الْقَـوْمُ مِـنْ ظُلُمَـاتِـهِ ... سَـوَاءٌ بَصِيـرَاتُ الْعُيُـونِ وَعُـورُهَـا

---

(١) قال ابن السكِّيتِ : إذا عدَّتِ العربُ للسحاب مِئَةَ برقةٍ. . لم تشكَّ بأنَّها ماطرةٌ قد سقت ، فتتبعُها على الثقةِ بالمطرِ .

(٢) **يُذِمُّ** : أي يعطيني الذمامَ ، وهوَ العهد والخِفَارَةُ .

(٣) **المهفهَفُ** : الدقيقُ الخصرِ . **الأَهضَمُ الكشحينِ** : لطيفُهُما .

(٤) **الأُلىٰ** ـ جمع أَلْيَةٍ ـ : وهي اليمينُ . **قلَّصت بهِ شيمةٌ** : أي أَشخصتهُ طبيعةٌ روعاءُ عنِ المقامِ . روعاءُ : أي رائعةٌ .

(٥) الأبيات للأعشىٰ في « ديوانه » (١٧٠/ ١٧١) . **الشِّعرىٰ** : كوكبٌ نيِّرٌ يطلعُ في شدَّةِ الحرِّ .

(٦) **الحُرجُوجُ** : الريحُ الباردَةُ .



كَـأَنَّ لَنَـا مِنْـهُ بُيُـوتـاً حَصِينَـةً مُسُـوحٌ أَعَـالِيهَـا وَسَـاجٌ كُسُـورُهَـا[1]
تَجَـاوَزْتُـهُ فِـي لَيْلَـةٍ مُـدْلَهِمَّـةٍ يُنَـادِي صَـدَاهَـا نَـاقَتِـي يَسْتَجِيـرُهَـا

وقالَ : [مِنَ الوافرِ]

وَفِتْيَـانٍ بَنَيْـتُ لَهَـا خِبَـاءً عَلَـىٰ قَـوْسَيْـنِ خَفَّـاقـاً مَـرُوحَـا
كَـأَنَّـا رَابِطُـونَ بِـهِ فُلُـوّاً شَـدِيـدَ النَّـزْوِ قَمَّـاصـاً رَمُـوحَـا[2]
نُقَـوِّمُـهُ وَتَهْتِكُـهُ عَلَيْنَـا سُهُـومٌ تَسْفَـعُ الْـوَجْـهَ الْـوَضُـوحَـا[3]

وقالتْ جنوبُ ابنةُ العجلانِ ؛ ترثي أخاها عَمْراً ذا الْكَلبِ [في « خزانة الأدب » ٢/ ٣٠٣] : [مِنَ المتقاربِ]

وَخَـرْقٍ تَجَـاوَزْتَ مَجْهُـولَـةٍ بِـوَجْنَـاءَ حَـرْفٍ تَشَكَّـى الْكَـلاَلاَ[4]
فَكُنْـتَ النَّهَـارَ بِـهِ شَمْسَـهُ وَكُنْـتَ دُجَـى اللَّيْـلِ فِيـهِ الْهِـلاَلاَ
وَخَيْـلٍ سَمَـتْ لَـكَ فُـرْسَـانُهَـا فَـوَلَّـوْا وَلَـمْ يَسْتَقِلُّـوا قِبَـالاَ
وَكُـلُّ قَبِيـلٍ وَإِنْ لَـمْ تَكُـنْ أَرَدْتَهُـمُ مِنْـكَ بَـاتُـوا وِجَـالاَ

وقالَ بعضُ العربِ : [مِنَ البسيطِ]

وَسَمْحَـةِ الْمَشْـيِ شِمْـلاَلٍ ، قَطَعْـتُ بِهَـا أَرْضـاً يَحَـارُ بِهَـا الْهَـادُونَ دَيْمُـومَـا
مَهَـامِهـاً وَحُـزُونـاً لاَ أَنِيـسَ بِهَـا إِلاَّ الصَّـوَائِـحَ وَالأَصْـدَاءَ وَالْبُـومَـا[5]

وقالَ الفرزدقُ [في « ديوانهِ » ٢/ ٢٩١ـ٢٩٢] : [مِنَ الوافرِ]

وَغَيَّـرَ لَـوْنَ رَاحِلَتِـي وَلَـوْنِـي تَـرَدِّيَ الْهَـوَاجِـرَ وَاعْتِمَـامِـي
أَقُـولُ لَهَـا إِذَا ضَجَّـتْ وَعَضَّـتْ بِمَـوْرِكَـةِ الْـوِرَاكِ مَـعَ الـزِّمَـامِ[6]
عَـلاَمَ تَلَفَّتِيـنَ وَأَنْـتِ تَحْتِـي ؟ وَخَيْـرُ النَّـاسِ كُلِّهِـمُ أَمَـامِـي

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٢١٣] : [مِنَ البسيطِ]

مُسْتَقْبِلِيـنَ رِيَـاحَ الشَّـامِ تَضْـرِبُنَـا بِحَـاصِـبٍ كَنَـدِيـفِ الْقُطْـنِ مَنْثُـورِ[7]
عَلَـىٰ عَمَـائِمِنَـا تُلْقَـىٰ وَأَرْحُلِنَـا عَلَـىٰ زَوَاحِـفَ نُـزْجِيهَـا مَحَـاسِيـرِ[8]

---

(١) **السَّاج** : ضرب عظيم من الشجر . **الكسر** : جانب البيت .
(٢) **الفُلوُّ** : المهرُ . **الرمَّاحُ** : الذي يضربُ الحصىٰ برجلِهِ .
(٣) **تسفَعُ** : تلفحُ وتغيِّرُ لون بشرته .
(٤) **الخَرقُ** : الأرض القفراء الواسعة . **الوجناءُ** : الضخمة . **الحَرْفُ من الإبل** : النجيبةُ الماضيةُ التي أمضتها الأسفارُ . **الكَلالُ** : الإعياءُ .
(٥) **الحزون** : التلالُ المرتفعةُ .
(٦) **المَوركَةُ** : المرفقةُ التي تكونُ عندَ قادمَةِ الرحلِ ، يضعُ الراكبُ رجلَهُ عليها ؛ ليستريحَ من وضعِ رجلِهِ في الركابِ . **والوِراكُ** : ثوبٌ يُزيَّنُ بهِ المَوركُ .
(٧) **الحاصبُ** : الريحُ الشديدةُ تحملُ الحصباءَ .
(٨) **الزواحفُ** : النياقُ المعييةُ . **نُزجيها** : نسوقُها . **محاسيرُ** : جمعُ محسورٍ ، وهوَ الكليلُ .

وقالَ [في « ديوانه » ٢/ ٢٦ـ٢٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

بَـدَأْنَـا بِهَـا مِـنْ سِيـفِ رَمْـلِ كُهَيْلَـةٍ وَفِيهَـا نَشَـاطٌ مِـنْ مِـرَاحٍ وَعَجْـرَفُ[1]
فَمَـا بَلَغَـتْ حَتَّـىٰ تَقَـارَبَ خَطْـوُهَـا وَبَـادَتْ ذُرَاهَـا وَالْمَنَـاسِـمُ رُعَّـفُ[2]
وَحَتَّـىٰ قَتَلْنَـا الْجَهْـلَ عَنْهَـا وَغُـودِرَتْ إِذَا مَـا أُنِيخَـتْ وَالْمَـدَامِـعُ ذُرَّفُ
وَحَتَـىٰ مَشَـى الْحَـادِي الْبَطِـيءُ يَسُـوقُهَـا لَهَـا بَخَـصٌ دَامٍ وَدَأْيٌ مُجَلَّـفُ[3]
وَحَتَّـىٰ بَعَثْنَـاهَـا وَمَـا فِـي يَـدٍ لَهَـا إِذَا حُـلَّ عَنْهَـا رُمَّـةٌ وَهْـيَ رُسَّـفُ[4]

من قصيدةٍ طويلةٍ أَغارَ علىٰ كثيرٍ مِن مَعانيها مروانُ بنُ أَبي حفصةَ إِذْ يقولُ [في « ديوانه » ١٦ـ١٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِلَـىٰ وَاحِـدِ الـدُّنْيَـا تَخَطَّـتْ رِكَـابُنَـا تَنَـائِـفَ فِيمَـا بَيْنَهَـا الـرِّيـحُ تَلْغَـبُ[5]
كَـأَنَّ دَلِيـلَ الْقَـوْمِ بَيْـنَ سُهُـوبِهَـا طَـرِيـدُ دَمٍ مِـنْ خَشْيَـةِ الْمَـوْتِ يَهْـرُبُ
بَـدَأْنَـا عَلَيْهَـا وَهْـيَ ذَاتُ عَجَـارِفٍ تَقَـاذَفُ كِبْـراً فِـي الْبُـرَىٰ حِيـنَ تُجْـذَبُ[6]
فَمَـا بَلَغَـتْ صَنْعَـاءَ حَتَّـىٰ تَبَـدَّلَـتْ حُلُوماً وَقَدْ كَانَتْ مِنَ الجَهْلِ تَشْغَبُ
إِلَـىٰ بَـابِ مَعْـنٍ يَنْتَهِـي كُـلُّ رَاغِـبٍ يُـرَجِّـي النَّـدَىٰ أَوْ خَـائِـفٍ يَتَـرَقَّـبُ
جَـرَىٰ سَـابِقـاً مَعْـنُ بْـنُ زَائِـدَةَ الَّـذِي بِـهِ يَفْخَـرُ الْحَيَّـانِ بَكْـرٌ وَتَغْلِـبُ
مُحَـالِـفُ صَـوْلاتٍ تُمِيـتُ وَنَـائِـلٍ يَـرِيـشُ فَمَـا يَنْفَـكُّ يُـرْجَـىٰ وَيُـرْهَـبُ[7]

وإِنَّما استوفيتُها لعذوبتِها وإِنْ خرجَ بعضُها عنِ الموضوعِ ، وقولُه : ـ (كَأَنَّ دَلِيلَ الْقَوْمِ) إِلىٰ آخرِ البيتِ ـ يناسبُ بيتَ الناظمِ الذي قبلَ هـٰذا .

وقالَ لبيدٌ [في « ديوانه » ٧٦] : [مِنَ الوافرِ]

عُـذَافِـرَةٌ تَقَمَّـصُ بِـالـرُّدَافِـي تَخَـوَّنَهَـا نُـزُولِـي وَارْتِحَـالِـي[8]

وقالَ المؤَمَّلُ بنُ أُمَيْلٍ [في « البيان والتبيين » ١/ ٤٣٢] : [مِنَ الكاملِ]

كَـانَـتْ تُقَيَّـدُ حِيـنَ تَنْـزِلُ مَنْـزِلاً فَـالْيَـوْمَ صَـارَ لَهَـا الكَـلالُ قُيُـودَا
وَالْقَـوْمُ كَـالْعِيـدَانِ يَفْضُـلُ بَعْضُهُـمْ بَعْضـاً كَـذَاكَ يَفُـوقُ عُـودٌ عُـودَا

---

(١) **السِّيفُ** : الساحلُ . **كُهَيلةُ** : موضعٌ . **مِراحٌ وعجرَفٌ** : الأشر والاختيال .
(٢) **ذُراها** : أَعالي أَسنمَتِها . **المناسمُ** : جمعُ منسِمٍ ، وهوَ خفُّ البعيرِ . **رُعَّفُ** : ترعفُ دماً .
(٣) **البَخَصُ** : لحمُ الخفِّ . **الدأْيُ** : فقارُ الظهرِ . **مُجلَّفٌ** : مُقشَّرٌ .
(٤) **الرُّمةُ** : القطعةُ من الحبْلِ . **رُسَّفٌ** : مشيةُ المقيَّدِ .
(٥) **تَلْغَبُ** : تتعبُ .
(٦) **العجارفُ** : جمعُ عجرَفةٍ ، وهي السرعةُ في المشيِ . **البُرىٰ** : جمعُ بَرِّيَّةٍ ، وهيَ الصحراءُ .
(٧) **رَاشَ** : أَعطىٰ .
(٨) **العُذافِرَةُ** : الضخمةُ القويَّةُ . **تَقَمَّصُ** : تنزو بهِ . **الرُّدافي** : راكبها الذي يرتدفُ خلفَ الراكبِ ، وإِنَّما ذلكَ مِن نشاطها ومَرَحِها . **تخوَّنَها** : تنقَّصها وذهبَ بلحمِها .

وقالَ الأَخطلُ [في « ديوانهِ » ٢٦٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَا زَالَ عَنْهَا السَّيْرُ حَتَّىٰ تَوَاضَعَتْ عَرَائِكُهَا مِمَّا تَحُلُّ وَتُرْحَلُ[١]

وقالَ جريرٌ [في « ديوانه »] : [مِنَ الطَّويلِ]

ظَلِلْنَا بِمُسْتَنِّ الْحَرُورِ كَأَنَّنَا لَدَىٰ فَرَسٍ مُسْتَقْبِلِ الرِّيحِ صَائِمِ[٢]

أَغَرُّ مِنَ الْبُلْقِ الْعِتَاقِ يَشُفُّهُ أَذى الْبَقِّ إِلاَّ مَا احْتَمَىٰ بِالقَوَائِمِ[٣]

وَظَلَّتْ قَرَاقِيرُ الْفَلاَةِ مُنَاخَةً بِأَكْوَارِهَا مَعْكُوسَةً بِالْخَزَائِمِ

أَنَخْنَ لِتَغْوِيرٍ وَقَدْ وَقَدَ الْحَصَىٰ وَذَابَ لُعَابُ الشَّمْسِ فَوْقَ الْجَمَاجِمِ

وقالَ الطَّائِيُّ [أبو تمام في « ديوانهِ »] : [مِنَ الكاملِ]

سَفَعَ الدُّؤُوبُ وُجُوهَهُمْ فَكَأَنَّهُمْ وَأَبُوهُمُ سَامٌ أَبُوهُمْ حَامُ[٤]

وقالَ [في « ديوانه »] : [مِنَ الكاملِ]

مَا ابْيَضَّ وَجْهُ الْمَرْءِ فِي طَلَبِ الْعُلاَ حَتَّىٰ يُسَوِّدَ وَجْهَهُ فِي الْبِيدِ

وقالَ [في « ديوانه »] : [مِنَ الطَّويلِ]

سَلِي هَلْ عَمَرْتُ الْقَفْرَ وَهْوَ سَبَاسِبٌ وَغَادَرْتُ رَبْعِي مِنْ رِكَابِي سَبَاسِبَا[٥]

وَغَرَّبْتُ حَتَّىٰ لَمْ أَجِدْ ذِكْرَ مَشْرِقٍ وَشَرَّقْتُ حَتَّىٰ قَدْ نَسِيتُ الْمَغَارِبَا

فأَغارَ عليهِ الناظمُ في قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/١٨٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَشَرَّقَ حَتَّىٰ لَيْسَ لِلشَّرْقِ مَشْرِقٌ وَغَرَّبَ حَتَّىٰ لَيْسَ لِلْغَرْبِ مَغْرِبُ

وقالَ الأَخطلُ يمدحُ بِشْرَ بنَ مروانَ [في « ديوانهِ » ٢٢٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمُسْتَقْبِلٍ لَفْحَ الْحَرُورِ بِحَاجَةٍ إِلَيْكُمْ أَبَا مَرْوَانَ شُدَّتْ رَوَاحِلُهْ

[الشجاع لا يثني عزمه عن الخروج النساء الجميلات]

وقالَ الحُطَيئَةُ فيما لا يخرجُ عنهُ يمدحُ سعيدَ بنَ العاصِ [في « ديوانه » ٨٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

إذا هَمَّ بِالأَعْدَاءِ لَمْ يُثْنِ عَزْمَهُ كَعَابٌ عَلَيْهَا لُؤْلُؤٌ وَشُنُوفُ[٦]

---

(١) **عرائِكُها** : جمعُ عريكةٍ ، وهوَ السنامُ .

(٢) **مستنُّ الحرورِ** : مشتدُّ حرِّها . **صائمٌ** : أي قائمٌ علىٰ قوائمهِ الأربعِ من غير أن يطعَمَ شيئاً .

(٣) **البَلَقُ** : السوادُ في البياضِ .

(٤) **سفعت الشمسُ وجهَهُ** : لفحتْهُ لفحاً شديداً وَغيَّرتْ لونَ بشرتِهِ وسوَّدتهُ . **الدؤوبُ** : المبالغةُ في السيرِ . **سامٌ وحامٌ** : ابنا سيِّدِنا نوح عليه السلام ، اللذانِ تفرَّعَ مِن نسلِهما البشرُ ، فتفرَّعَ مِنَ حامٍ العرقُ الأَسودُ ، ومِن سامٍ العرقُ الأَبيضُ .

(٥) **السَّبسَبُ** : القفرُ والمفازةُ .

(٦) **الكَعَاب** : جمع كاعبٍ ، وهيَ التي بدا نهدُها . **الشنوف** : جمع شَنْفٍ ، وهو القُرْطُ .

حَصَـانٌ لَهَـا فِـي الْبَيْـتِ زِيٌّ وَبَهْجَـةٌ   وَمَشْـيٌ كَمَـا تَمْشِـي الْقَطَـاةُ قُطُـوفُ[1]
وَلَوْ شَاءَ وَارَى الشَّمْسَ مِنْ دُونِ وَجْهِهِ   حِجَـابٌ وَمَطْـوِيُّ السَّـرَاةِ مَنِيـفُ[2]

[مناشدة عاتكة بنت يزيد لعبد الملك بن مروان في عدم الخروج لمصعب بن الزبير]

ولمَّا اعتزمَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ لقتالِ مصعبِ بنِ الزبيرِ . ناشدتْهُ عاتِكَةُ بنتُ يزيدَ بنِ معاويةَ ـ وكانَتْ زوجَه ـ أَنْ لا يخرجَ بنفسِهِ ، وأَمسَكَتْ بثوبِهِ فلمْ يُجِبْ ، فبكَتْ عندَ ذلكَ ، وبكَتْ حشَمُها وخدمُها لبكائِها ، فقالَ : قاتلَ اللهُ ابنَ أَبي جمعةَ ، فلكأَنَّما نظرَ إِلينا في قولِهِ :   [مِنَ الطَّويلِ]

إِذا مَـا أَرَادَ الْغَـزْوَ لَـمْ تَثْـنِ هَمَّـهُ   حَصَـانٌ عَلَيْهَـا عِقْـدُ دُرٍّ يَـزِينُهَـا
نَهَتْـهُ فَلَمَّـا لَـمْ تَـرَ النَّهْـيَ عَـاقَـهُ   بَكَـتْ فَبَكَـىٰ مِمَّـا شَجَـاهَـا قَطِينُهَـا[3]

غيرَ أَنَّه يؤخذُ عليهِ ما أُخذَ علىٰ قيسِ بنِ الخَطيمِ في قولِهِ [في « ديوانه » ٧٠] :   [مِنَ الطَّويلِ]

وَجِيـدٍ كَجِيـدِ الـرِّئْـمِ صَـافٍ يَـزِينُـهُ   تَـوَقُّـدُ يَـاقُـوتٍ وَفَصْـلُ زُمُـرُّدِ[4]
كَـأَنَّ الثُّـرَيَّـا فَـوْقَ ثُغْـرَةِ نَحْـرِهَـا   تَـوَقَّـدُ فِـي الظَّلْمَـاءِ أَيَّ تَـوَقُّـدِ

[مَن يُزَيِّنُ من ؟!]

وإِنَّما الأَليقُ بالمقامِ ما كانَ من نوعِ ما تمثَّلَ بِهِ خالدُ بنُ عبدِ اللهِ العنبريُّ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ لمَّا وَلِيَ الخلافةَ ، وهوَ قولُ الشاعرِ [في « البيان والتبيين » ١/ ١١٢] :   [مِنَ الخفيفِ]

وَإِذَا الـدُّرُّ زَانَ حُسْـنَ وُجُـوهٍ   كَـانَ لِلـدُّرِّ حُسْـنُ وَجْهِـكَ زِينَـا

وقد يُتأَوَّلُ لهما بأَنَّ الحليَّ كما يزدانُ بالجمالِ ، كذلكَ يزينهُ ، وقد قالَ ابنُ الروميِّ [في « ديوانِهِ » ٢/ ٧٨٢] :   [مِنَ الخفيفِ]

أَنْـتِ زِنْـتِ الْقَـلائِـدَ الـزُّهْـرَ قِـدْمًـا   ضِعْـفَ مَـا زَانَـتِ الْقَـلائِـدُ جِيـدَكْ

وبهِ ينتفي المقالُ ، وينحلُّ الإِشكالُ .

[الرباب بنت مصعب بن الزبير تفضح اللؤلؤ بجمالها]

ويُذكرُ [في « المنتظم »(حتىٰ سنة ٢٥٧) ٧/ ١٧٦] : أَنَّ سكينةَ ابنةَ الحسينِ كانتْ لَها ابنةٌ مِنْ مصعبِ بنِ الزبيرِ ، قد سمَّتْها على اسمِ أُمِّها بالرَّبابِ ، وكانَتْ تلبسُها اللؤْلُؤَ وتقولُ : إِنَّما أُلبسُها إِيَّاهُ لتفضحَه بجمالِهَا .

[من الثناء بالضرب في الأرض : إيلاف قريش]

ويدخلُ في الثناءِ بالضربِ في الأَرضِ إِيلافُ قريشٍ ، فقد أَهلكَ اللهُ أَصحابَ الفيلِ ؛ لينتظمَ لقريشٍ إِيلافُهم رحلةَ الشتاءِ والصيفِ ، وليزيدَ احترامُهم وتهيُّبُهم في نفوسِ العرب ، فيمتارونَ في رِحْلَتيهم آمنينَ مطمئِّنينَ ، بينَما غيرُهم يُتخطَّفونَ ، ويُغارُ عَليهم وهم آمنون ، ولا سيَّما بعدَ مَهلِكِ أَصحابِ الفيلِ ، وفي هٰذهِ السورةِ مِنَ الشَّرفِ لآلِ عبدِ

---

(١) الحصانُ : الشريفةُ العفيفةُ . القُطوفُ : البُطء في المشي .
(٢) مطويُّ السَّراةِ : مدمَّجُ الأَعلىٰ .
(٣) القصة في « طبقات فحول الشعراء » (٢/ ٥٤٣) .
(٤) الرئمُ : ظبيٌّ خالصُ البياضِ .



مَنَافِ ما ينحدرُ عنهُ السيلُ ، ولا يرتقي إِليهِ الطيرُ ؛ وذلكَ أَنَّهم هُمُ الذين أَخذوا العَصْمَ مِنْ الملوكِ لِتَسهيلِ السبيلِ ، فالإِيلافُ إِيلافُهم على الخصوصِ ، لا إِيلافُ قريشٍ إِلاَّ بطريقِ التبعيَّةِ ، ولكنَّ اللهَ جلَّ شأنُهُ شرَّفَ قدرَهم فجعلَهُم الكلَّ ، وسائِرُ قريشٍ ضمائِمُ إِليهم ، علىٰ حدِّ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **الحجُّ عَرَفَةُ** »[1] .

وبيتُ الناظمِ الذي نخوضُ فيهِ ناظرٌ إِلىٰ قولِ حُميدٍ : [مِنَ البسيطِ]

تَيْهَـاءُ لا يَتَخَطَّـاهَـا الـدَّلِيـلُ بِهَـا … إِلاَّ وَنَـاظِـرُهُ بِـالنَّجْـمِ مَعْقُـودُ

[المتنبي وكثرة مدحه في الضرب في الأرض]

وما أَكثرَ ما يذكرُ الناظمُ الرحلةَ والتجوُّلَ في البلادِ ، ويمدحُ بهِ ، فلا نقدرُ أَنْ نحصيَ ما له في ذلكَ ، ولكنْ نذكرُ بعضَهُ ، **فمنهُ قولُهُ** يمدحُ سيفَ الدولةِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٤٤] : [مِنَ الخفيفِ]

كُـلَّ يَـوْمٍ لَـكَ احْتِمَـالٌ جَـدِيـدٌ … وَمَسِيـرٌ لِلْمَجْـدِ فِيـهِ مُقَـامُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٠٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

يَقُولُونَ لِي : مَا أَنْتَ ؟ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ … وَمَا تبْتَغِي ؟ مَا أَبْتَغِي جَلَّ أَنْ يُسْمَىٰ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٩٧] : [مِنَ الكاملِ]

وَقَطَعْتُ فِي الـدُّنْيَا الْفَلاَ وَرَكَـائِبِي … فِيهَـا وَوَقْتَـيَّ الضُّحَـىٰ وَالْمَـوْهِنَـا[2]

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٤٢] : [مِنَ الوافرِ]

أُعَـرِّضُ لِلـرِّمَـاحِ الصُّـمِّ نَحْـرِي … وَأَنْصِـبُ حُـرَّ وَجْهِـي لِلْهَجِيـرِ
وَأَسْـرِي فِـي ظَـلاَمِ اللَّيْـلِ وَحْـدِي … كَـأَنِّـي مِنْـهُ فِـي قَمَـرٍ مُنِيـرِ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٥١] : [مِنَ الخفيفِ]

صَحِبَتْنِـي عَلَـى الْفَـلاَةِ فَتَـاةٌ … عَـادَةُ اللَّـوْنِ عِنْـدَهَـا التَّبْـدِيـلُ[3]

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٢٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَـوَهَّمَـهُ الأَعْـدَاءُ سَـوْرَةَ مُتْـرَفٍ … تُـذَكِّـرُهُ الْبَيْـدَاءُ ظِـلَّ السُّـرَادِقِ[4]

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٥١] : [مِنَ الطَّويلِ]

بِـأَيِّ بِـلاَدٍ لَـمْ أَجُـرَّ ذَوَائِبِـي … وَأَيُّ مَكَـانٍ لَـمْ تَطَـأْهُ رَكَـائِبِـي
إِلَـيَّ لَعَمْـرِي قَصْـدُ كُـلِّ عَجِيبَـةٍ … كَـأَنِّـي عَجِيـبٌ فِـي عُيُـونِ الْعَجَـائِبِ

---

(١) أخرجه عن عبد الرحمٰن بن يعمر الديلي أبو داوود (١٩٤٩) ، والترمذي (٨٨٩) ، والنسائي (٣٠٤٤) ، وابن ماجه (٣٠١٥) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٦٣٥) ، وابن خزيمة في « صحيحه » (٤/ ٢٥٧) ، والبيهقي (٥/ ١٥٢) بألفاظ متقاربة ، قال النواوي في « المجموع » (٨/ ٩٩) : صحيح .

(٢) **الموهِنُ** : آخرُ الليلِ .

(٣) **الفتاةُ** : الشمسُ ، وجعلَها فتاة ؛ لأنَّ الزمانَ لا يؤثِّرُ فيها .

(٤) **السَّورةُ** : الوثبةُ . **المترفُ** : المتنعِّمُ . **السرادقُ** : ما يكونُ حولَ الفسطاطِ .

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ١/ ١٩٢ و ٢٠٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَغَيْـرُ فُـؤَادِي لِلْغَـوَانِـي رَمِيَّـةٌ ... وَغَيْـرُ بَنَـانِـي لِلـزُّجَـاجِ رِكَـابُ[1]

وَمَـا كُنْـتُ لَـوْلاَ أَنْـتِ إِلاَّ مُهَـاجِـراً ... لَـهُ كُـلَّ يَـوْمٍ بَلْـدَةٌ وَصِحَـابُ

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٢/ ٢٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

يُكَلِّفُنِـي التَّهْجِيـرَ فِـي كُـلِّ مَهْمَـهٍ ... عَلِيقِـي مَـرَاعِيـهِ وَزَادِيَ رُبْـدُهُ[2]

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٤/ ٥١-٥٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

بَـرَانِـي السُّـرَىٰ بَـرْيَ المُـدَىٰ فَـرَدَدْنَنِـي ... أَخَفَّ عَلَى الْمَرْكُوبِ مِنْ نَفَسِي جِرْمِي[3]

وَأَبْصَـرَ مِـنْ زَرْقَـاءِ جَـوٍّ لأَنَّنِـي ... إِذَا نَظَـرَتْ عَيْنَـايَ شَـاءَهُمَـا عِلْمِـي[4]

كَـأَنِّـي دَحَـوْتُ الأَرْضَ مِـنْ خُبْـرَةٍ بِهَـا ... كَـأَنِّي بَنَـى الإِسْكَنْـدَرُ السَّـدَّ مِـنْ عَزْمِـي[5]

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٤/ ١٣٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

سَجِيَّـةُ نَفْـسٍ لاَ تَـزَالُ مُلِيحَـةً ... عَـنِ الضَّيْـمِ مَـرْمِيّـاً بِهَـا كُـلُّ مَخْـرِمِ[6]

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٣/ ٣٦٩ و ٣٧٢] : [مِنَ البسيطِ]

صَحِبْتُ فِـي الْفَلَـوَاتِ الْـوَحْـشَ مُنْفَـرِداً ... حَتَّـىٰ تَعَجَّـبَ مِنِّـي الْقُـورُ وَالأَكَـمُ[7]

فَـالْخَيْـلُ وَاللَّيْـلُ وَالْبَيْـدَاءُ تَعْـرِفُنِـي ... وَالسَّيْـفُ وَالـرُّمْـحُ وَالْقِـرْطَـاسُ وَالْقَلَـمُ

أَرَى النَّـوَىٰ يَقْتَضِينِـي كُـلَّ مَـرْحَلَـةٍ ... لاَ تَسْتَقِـلُّ بِهَـا الْـوَخَّـادَةُ الـرُّسُـمُ[8]

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٣/ ٢٢٤-٢٢٥] : [مِنَ الوافرِ]

أَلِفْـتُ تَـرَحُّلِـي وَجَعَلْـتُ أَرْضِـي ... قُتُـودِي وَالْغُـرَيْـرِيَّ الْجِـلاَلاَ[9]

فَـلاَ حَـاوَلْـتُ فِـي أَرْضٍ مُقَـامـاً ... وَلاَ أَزْمَعْـتُ عَـنْ أَرْضٍ زَوَالاَ

عَلَـىٰ قَلَـقٍ كَـأَنَّ الـرِّيـحَ تَحْتِـي ... أُوَجِّهُهَـا جَنُـوبـاً أَوْ شَمَـالاَ

---

(١) رميّةٌ : هي الطريدةُ التي تُرمىٰ . والمعنىٰ : أني لستُ غزِلاً زِيراً ، ولا أُحبُّ الخمرَ . فَبَناني لا يركبُها الزجاجُ ؛ لأنِّي لا أحملُ كأسَ الخمرِ بيدي .

(٢) الربْدُ : النعامُ التي خالط سوادَها بياضٌ . والمعنىٰ : أنَّ قلبي يكلِّفُني السيرَ في كلِّ هاجرةٍ ، وفي كلِّ فلاةٍ بعيدةٍ ، لا لفرسي عَليقٌ إلاَّ نبتُها ولا زادَ لي إلاَّ النعامُ أَصيدُها فآكلُها .

(٣) المُدىٰ : جمع مديةٍ ، وهيَ السكينُ . جِرْمِي : جسمي .

(٤) جوّ : قصبةُ اليمامةِ . زرقاءُ : اسمُ امرأةٍ من أهلِ جوٍّ ، حديدَةُ البصرِ ، كانت تدركُ ببصرِها الشيءَ البعيدَ ، فضربت العربُ بها المثلَ .

(٥) دَحوتُ : بسطتُ . الإسكندرُ : هو ذو القرنينِ .

(٦) المليحَةُ : المشفقةُ من أن تُضامَ ، والتي أصابها الخوفُ . المَخرمُ : الطريق في الجبلِ .

(٧) القورُ : جمعُ قارَةٍ ، وهيَ الأكمَةُ .

(٨) النوىٰ : البعدُ . الوخدُ والرَّسمُ : ضربانِ من السيرِ .

(٩) قتودي : جمع قَتَدٍ ، وهو خشبُ الرحلِ . والغريريُّ : فحلٌ كانَ في الجاهليَّةِ تنسبُ إليهِ كرامُ الإبلِ . والجِلالُ : ما يوضعُ على الدابَّةِ . والمعنىٰ : أنا كثيرُ الأسفارِ ، ومِن شدَّةِ ما أُسافرُ فكأنَّ الأرضَ بالنسبةِ لي خشباتُ الرَّحلِ ، وكأنَّ فرسي غطاءُ ذلكَ الرحلِ . والله أعلم .

وقولُهُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلِـي كَبِـدٌ مِـنْ رأيِ حِمَّتِهَـا النَّـوىٰ فتُرْكِبُنِي مِنْ عَزْمِهَا الْمَرْكَبَ الْوَعْرَا
أَخُـو هِمَـمٍ رَحَّـالَـةٌ لاَ تَـزَالُ بِـي نَـوىً تَقْطَـعُ الْبَيْدَاءَ أَوْ أَقْطَـعَ الْعُمْرَا
وَمَـنْ كَـانَ عَـزْمِـي بَيْـنَ جَنْبَيْـهِ حَثَّـهُ وَخُيِّـلَ طُـولُ الأَرْضِ فِـي عَيْنِـهِ شِبْـرَا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٥٥-١٥٦] : [مِنَ البسيطِ]

حَتَّـامَ نَحْـنُ نُسَـارِي النَّجْـمَ فِـي الظُّلَـمِ وَمَـا سُـرَاهُ عَلَـىٰ خُـفٍّ وَلاَ قَـدَمِ
تُسَـوِّدُ الشَّمْـسُ مِنَّـا بِيـضَ أَوْجُهِنَـا وَلاَ تُسَـوِّدُ بِيـضَ الْعُـذْرِ وَاللِّمَـمِ[1]
طَـرَدْتُ مِـنْ مِصْـرَ أَيْـدِيهَـا بِـأَرْجُلِهَـا حَتَّـىٰ مَـرَقْـنَ بِنَـا مِـنْ جَـوْشَ وَالْعَلَـمِ[2]
تُبْـرِي لَهُـنَّ نَعَـامُ الـدَّوِّ مُسْـرَجَـةً يُعَـارِضُ الْجُـدُلَ الْمُـرْخَـاةَ بِـاللُّجُـمِ[3]

[المفاضلة بين بيت المتنبي وبيت للطغرائي]

وقد سُئِلتُ مرَّةً عَنِ البيتِ الأخيرِ ، وعَنْ قولِ الطغرائيِّ [وهو من قصيدته المعروفة بلامية العجم ، في « وفيات الأعيان » ٢/ ١٨٧] : [مِنَ البسيطِ]

فَـادْرَأْ بِهَـا فِـي نُحُـورِ الْبِيـدِ جَـافِلَـةً مُعَـارِضَـاتٍ مَثَـانِـي اللُّجْـمِ بِـالْجُـدُلِ

وقيلَ لي : أَيُّهما أفضلُ ؟ فقلتُ : شَبَّه الناظمُ خيلَه بنعامِ الدَّوِّ ، وزعمَ أَنَّها انبرَت تعارضُ أَزِمَّةَ الإبلِ بأَعِنَّتِها ، و(الجُدُلُ) في البيتينِ جمعُ (جَدِيلٍ) وهو الزِّمامُ .

والطغرائيُّ جعلَ الإبلَ معارضةً وجرَّدَ من نفسِهِ شخصاً قالَ لَه : ادْرَأْ بها ـ يعني العيسَ المعلومةَ مِنَ المقامِ ، بقطع النظرِ عمَّا قبلَ البيتِ فإنِّي لا أذكرُهُ ـ وهيَ جافلةٌ في نحورِ البيدِ ، ودَعْها تعارضُ بِأَزِمَّتِها مَثانِيَ لُجُمِ الخيلِ فَهما سواءٌ في أَصلِ المعنىٰ .

وكلٌّ مِنَ الخيلِ والإبلِ يصلُحُ لأَن يكونَ الأَصلَ في وصفِ السيرِ بالسرعةِ والجدِّ ؛ لأَنَّ الخيلَ معروفةٌ بشدَّةِ عَدوها ، والإبلَ معروفةٌ بِأَنَّها أَصبرُ مِنها علىٰ قطعِ المسافاتِ البعيدةِ ، فكلَّما أَردتُ أَنْ أَخُصَّ كلامَ أَحدِهما بنوعٍ مِنَ القلبِ ، والخروجِ عَنْ مقتضى الظاهرِ . رَدَّني الآخَرُ إِليهِ ، غيرَ أَنَّ في بيتِ الناظمِ على التشبيهِ البليغِ للخيلِ بالنعامِ ثلاثة أَشياء :

أَحدُها : أَنَّ المباراةَ والمعارضَةَ شيءٌ واحدٌ .

ثانيها : أَنَّ لفظةَ (**المرخاةِ**) لا تَخلو عَنِ الرخاوةِ .

ثالثها : أَنَّ البيتَ متعلِّقٌ بما قبلَه غيرُ مستقلٍّ بنفسِهِ ، ولفظةُ (**لَهُنَّ**) فيه لا تُعرفُ مِنَ المَقامِ ، فلَيستْ مثلَ لفظةِ (بِها) في بيتِ الطُّغرائيِّ ، كما قرَّرناه .

---

(١) **العُذْرُ** : جمع عذارٍ ، والأصلُ عُذُرٌ وسكَّن الذالَ ضرورةً . واللمَمُ : جمع لِمَّةٍ ، وهيَ الشَّعرُ الذي يلمُّ بالمنكبِ .

(٢) **جوشُ والعلَمُ** : موضعانِ ، وهما جبلانِ . ومرقنَ : شبَّهها بالسهمِ ؛ لسرعةِ سيرها فاستعارَ لها المروقَ .

(٣) **تُبري** : تعارضُ . **الدَّوُّ** : الفلاةُ المستويَةُ . وأراد بنعامِ الدوِّ الخيلَ ، شبَّهها بالنعامِ لسرعتها وطولِ أعناقها .

ويمتازُ بيتُ الطُّغرائيِّ بأمورٍ :

أحدُها : قيامُه بذاتِه .

ثانيها : التجريدُ وهُوَ حَسَنٌ .

ثالثُها : (نُحورُ البيدِ) فإنَّه بديع .

رابعُها : (المثاني) فإنَّها من فرائدِ الألفاظِ .

خامِسُها : ما يحتملُ مِنَ الاستعارةِ البليغةِ في لفظةِ (ادْرَأْ) ؛ إذ لا مانعَ أَنْ يستعارَ فيها مَسيلُ الأرضِ البعيدةِ للعيسِ المتراميةِ في المرامي السحيقةِ ، وعلىٰ كُلِّ حالٍ . فكِلا البيتينِ تركيبُهُ جَزْلٌ ، ومعناهُ ضخمٌ ، غيرَ أَنَّ بيتَ الطُّغرائيِّ أبلغُ وأَفْخَمُ وأملأُ للفمِ ، وللناظمِ فضيلةُ السبق ، واللهُ أَعلمُ .

وأَمَّا قولُهُ : (تُسَوِّدُ الشمسُ منَّا بيضَ أَوجُهِنا . . . إلىٰ آخرِهِ) فقدْ عَكَسَ فيهِ بعضَ قولِ أَبي عبادةَ [في « ديوانهِ » ٣/١٧٥٩] : [مِنَ البسيطِ]

رَدَّ الْهَجِيـرُ لِحَـاهُـمْ بَعْـدَ شُعْلَتِهَـا ... سُـوداً فَعَـادُوا شَبَـاباً بَعْـدَ مَـا اكْتَهَلُـوا

[أفضل مراكب العرب الإبل وسبب ذلك]

وعلىٰ ذكرِ الإبلِ نقولُ : إنَّها أَفضلُ مراكبِ العرب ، وإنَّما اختاروها لِكثرتِها ، وصبرِها على التعبِ والعطشِ ، ومنهُ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم « **مَعَهَا سِقَاؤُهَا** »[1] ، ولِهدايتِها إلى الطريقِ ، ولأَن عُنُقَها سُلَّمٌ إليها ، ولِكمالِ انقيادِها ، وحسنِ تسخيرِها ، حتَّىٰ إنَّ الصبيَّ الصغيرَ يأْخذُ بزِمامِها ، فيذهبُ بِها حيثُ شاءَ فتتبعُهُ ، قالَ الحطيئةُ [في « ديوانه » ٦٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَتَشْـرَبُ بِـالقَعْـبِ الصَّغِيـرِ وإنْ تُقَـدْ ... بِمِشْفَـرِهَـا يَـوْمـاً إِلَـى الـرَّحْـلِ تَنْقَـدِ[2]

[وصف ابنة الخُس للإبل]

قالتِ ابنةُ الخُسِّ [في « المستطرف » ٢/ ٢١٤] : ما خلقَ اللهُ خيراً مِنَ الإبلِ ، إنْ حملَتْ أَثقلَتْ ، وإنْ سارَتْ أَبعدَتْ ، وإِنْ حُلِبَتْ أَروَتْ ، وإنْ نُحِرَتْ أَشْبَعَتْ .

[من عجائب الإبل]

ومِنْ عجائِبِها : التأَثُّرُ بالحُداءِ ، إلىٰ حدٍّ أَنَّها تُهلِكُ نفسَها بطيِّ المهَامِهِ الشاسعَةِ ، في المدَّةِ القريبةِ ، بالأَحمالِ الثقيلَةِ .

[عجيبة أخرة في هدايتها الطريق]

ومِنْ هدايتِها : ما حكاهُ الإمامُ الرازيُّ قالَ [في « تفسيره » ٣١/ ١٥٧] :

كنتُ معَ جماعةٍ فضلَلْنَا الطريقَ ، فقدَّموا جملاً وتبعوهُ ، فكانَ ذلكَ الجملُ ينعطفُ مِنْ تلٍّ إلىٰ تلٍّ ، ومِنْ جانبٍ إلىٰ

(١) أخرجه عن زيد بن خالد الجهني البخاري (٩١) في العلم ، ومسلم (١٧٢٢) ، وأبو داوود (١٧٠٤) في اللقطة .

(٢) **القَعْبُ** : القدَح . **المشفرُ** : شفةُ البعير الغليظة .



جانبٍ ، حتَّىٰ وصلَ بنا إلى الطريقِ بعدَ زمانٍ طويلٍ ، وقد كِدْنا نَهلكُ لولاهُ ، فتعجَّبنا مِن قوَّةِ تخيُّلِهِ وانحفاظِ الطريقِ لهُ مِنْ مَرَّةٍ ، بما فيها مِنَ المعاطفِ .

[ذكرها في القرآن الكريم وعند العرب]

ومِنْ أَوبارِها تُتَّخذُ الأَكسيةُ الفاخرةُ ، وحسبُكَ ما أَشارَ إليهِ اللهُ مِنْ عجائبِها في مثلِ قولهِ : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية : ١٧-٢٠] ولولا كثرةُ عجائبِها . . لَمَا قرنَها اللهُ جلَّ شأْنهُ بهٰذهِ المخلوقاتِ العظيمةِ ، فوَجهُ التناسبِ بينَ هٰذهِ المعْطوفاتِ . . كثرةُ الآياتِ ، إِلىٰ ما للعَربِ بها مِن دوامِ الملابساتِ ؛ إِذِ العربيُّ لا يزالُ في سَفرٍ ، أَوِ انتجاعِ مطرٍ ، وحينئذٍ لا يَرىٰ إلاَّ جَملَهُ ، والسماءَ مِنْ فوقِهِ ، والأَرضَ مِن تحتِهِ ، والجبالَ حوالَيْهِ ، وفي كلٍّ مِنْهَا الآياتُ الواضحةُ ، والبراهينُ الراجحَةُ ، وكَم للعربِ فيها من أَشعارٍ .

وحسبُكَ أَنَّ كعبَ بنَ زهيرٍ استغْرَقَ طائفةً من قصيدَتِهِ ـ التي أَدركَ بها خيرَ الدارينِ ـ في وَصفِ ناقتِهِ ، فلا أَحبَّ إِليهِم مِنْها ، ولذا كانَتْ أَذْكَرَ مِنَ الخيلِ في أَخبارِهِم ـ معَ كثرةِ الخيلِ لَديهِم أَيضاً ، واعتنائِهِم بها ومعرفَتِهِم بأَحوالِهَا ـ وقد أُفردَ جميعُ ذلكَ بالتأْليفِ ، وسبقَ في غيرِ هٰذا المجلسِ تناقضُ الناظمِ ، وادِّعاؤُهُ الفروسيَّةَ بكثرةٍ ، واعترافُهُ بالرجلةِ ذات المرَّاتِ ، وبالبيتِ الذي نتكلَّمُ فيهِ ذكرتُ قولَ البوصيريِّ : [مِنَ الخفيفِ]

يَتَّقِي حُرُّ وَجْهِيَ الشَّمْسَ وَالْبَرْ ... دَ وَقَدْ عَزَّ مِنْ لَظَى الاِتِّقَاءُ

[تعرض النبي صلى الله عليه وسلم للشمس يوم عرفة]

وأَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : تعرَّضَ للشمسِ بـ(عرفةَ) ، عامَ حجةِ الوداعِ ، ولم يثبُت أَنَّه استظلَّ بِها معَ شدَّةِ الحرِّ ، وطولِ الوقْتِ .

وقد حجَّ بعضُهم فأَرادَ أَنْ يتعرَّضَ للشمسِ ـ علىٰ ضعفِهِ وكِبَرِ سنِّهِ ـ فقالَ لهُ أَصحابُهُ : لو أَخذْتَ بالتَّوسِعَةِ . . فقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

ضَحَيْتُ لَهُ كَيْ أَسْتَظِلَّ بِظِلِّهِ ... إِذَا الظِّلُّ أَضْحَىٰ فِي القِيَامَةِ قَالِصَا[1]

فَوَا أَسَفَا إِنْ كَانَ سَعْيُكَ بَاطِلاً ... وَوَاحَسْرَتَا إِنْ كَانَ حَجُّكَ نَاقِصَا

* * *

[قالَ أَبو الطَّيب المتنبي في « العُكبريِّ » ٣/ ١٧١] : [مِنَ البسيطِ]

أَنْكَحْتُ صُمَّ حَصَاهَا خُفَّ يَعْمَلَةٍ ... تَغَشْمَرَتْ بِي إِلَيْكَ السَّهْلَ وَالْجَبَلاَ

[شرح المطلع]

(**أَنْكَحْتُ**) كنايةٌ عَن شدَّةِ الإِيطاءِ كما تنكحُ المرأَةُ . (**الصُّمُّ**) الصِّلابُ مِنْ كلِّ شيءٍ ، والضميرُ في (**حَصَاهَا**) عائدٌ

---

(١) ضحىٰ : خرجَ للشمسِ وبرزَ لها . **قلَصَ الظِّلُّ** : انقبضَ ونقصَ .



إلى المفازةِ . (تَغَشْمَرَتْ) تعسَّفَتْ ، يقولُ : أَوْطَأْتُ خُفَّ يَعْمُلَتِي ـ أَيْ : ناقَتي القويَّةِ ـ حَصا تلكَ المفازةِ ، وتقحَّمَتْ بي ناقَتي إِليكَ الحَزنَ والسهْلَ .

[من عادة العرب ذكر ما يلاقون في أسفارهم لممدوحيهم]

ومِنْ عادةِ العربِ أَنْ يَذْكروا في أَشعارِهم ما يلاقونَ من وعثاءِ السفرِ ، ونَكَدِ الطريقِ ، ليجبَ حقُّهُم على الممدوحينَ وتعظمَ منَّتُهم عليهِم ، فقد أَخرجَ ابنُ سعدٍ [في « طبقاته » ١/ ٣٥٠] : عَنْ هشامِ بنِ محمَّدٍ عَن عمروِ بنِ مهاجرٍ الكنديِّ قالَ : قدمَ من (حضرموتَ) على النبيِّ ـ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ـ كُلَيْبُ بنُ أَسَدٍ فقالَ حينَ لاقاهُ : [مِنَ البسيطِ]

مِنْ وَشْزِ بَرْهُوتَ تَهْوِي بِي عُذَافِرَةٌ ... إِلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ يَحْفَىٰ وَيَنْتَعِلُ[1]

شَهْرَيْنِ أَعْمَلْتُهَا نَصّاً عَلَىٰ وَجَلٍ ... أَرْجُو بِذَاكَ ثَوَابَ اللهِ يَا رَجُلُ

وَقَالَ مروانُ ابنُ أَبي حفصةَ للمهديِّ [في « ديوانه » ٩٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

قَصَرْنَا إِلَيْكَ النِّصْفَ مِنْ صَلَوَاتِنَا ... مَسِيرَةَ شَهْرٍ بَعْدَ شَهْرٍ نُوَاصِلُهْ

ولا يُحصىٰ كَثرةً ما في كلامِهم مِن مثلِهِ ، فهوَ أَظهرُ مِن أَنْ يُستظهَرَ عليهِ بالشواهدِ والأَمثالِ ؛ لأَنَّهُ كلَّه من هٰذا القبيلِ .

[ورود ابن نباتة على ابن العميد]

وقالَ ابنُ خَلِّكَانَ [في « وفيات الأعيان » ٥/ ١٠٥ـ١٠٦] : وَرَدَ ابنُ نباتَةَ السعديُّ على ابنِ العميدِ في (الريِّ) ، فمدحَهُ بقصيدةٍ يقولُ فيها : [مِنْ مجزوءِ الكاملِ]

بَـرَحُ اشْتِيَاقِـي وَادِّكَـارِ ... وَلَهِيبُ أَنْفَاسٍ حِـرَارِ

وَمَـدَامِـعٌ عَبَـرَاتُهَـا ... تَـرْفَضُّ عَنْ نَـومٍ مُطَـارِ[2]

للهِ قَلْبِـي مَـا يُجِـنُّ ... مِـنَ الْهُمُـومِ وَمَـا يُـوَارِي

لَقَـدِ انْقَضَـىٰ سُكْـرُ الشَّبَـا ... بِ وَمَـا انْقَضَـىٰ وَصَبُ الْخُمَـارِ[3]

وَكَبِـرْتُ عَـنْ وَصْلِ الصِّغَـارِ ... وَمَـا سَلَـوْتُ عَـنِ الصِّغَـارِ

سَقْيَـاً لِتَغْلِيسِـي إِلَـىٰ ... بَـابِ الـرُّصَـافَـةِ وَابْتِكَـارِي

أَيَّـامَ أَخْطِـرُ فِـي الصِّبَـا ... نَشْـوَانَ مَسْحُـوبَ الإِزَارِ

حَجِّـي إِلَـىٰ حَجَـرِ الصَّـرَا ... ةِ وَفِـي حَـدَائِقِهَـا اعْتِمَـارِي[4]

وَمَـوَاطِـنُ اللَّـذَّاتِ أَوْ ... طَـانِـي وَدَارُ اللَّهْـوِ دَارِي

مِنْهَا :

وَإِذَا اسْتَهَـلَّ ابْـنُ الْعَمِيـدِ تَضَـاءَلَـتْ دِيَـمُ الْقِطَـارِ[5]

---

(١) الوَشْزُ : ما علا وارتفعَ مِنَ الأرضِ . برهوتُ : اسمُ بئرٍ في (حضرموتَ) . العذافرةُ : الناقةُ العظيمةُ الشديدةُ ، الوثيقةُ الخطوِ .

(٢) ارفضَّ الدمعُ : سالَ وتتابعَ سيلانُهُ . مُطارٌ : منفيٌّ .

(٣) الوصبُ : الوجعُ والمرضُ . الخُمار : ألم الخمر وصداعها وأذاها .

(٤) الصَّراةُ : نهرٌ بـ(العراق) .

(٥) استهلَّ : تبيَّنَ . دِيَمٌ : جمعُ ديمةٍ ، وهيَ المطرُ الذي ليسَ فيهِ رعدٌ ولا برقٌ ، وأقلُّهُ ثُلُثُ النهارِ أو ثُلُثُ الليلِ . القِطارُ : المطرُ .

خِـــرْقٌ صَفَـــتْ أَخْـــلاَقُـــهُ   صَفْـــوَ السَّبِيـــكِ مِـــنَ النُّضَـــارِ[1]
وكَـــأَنَّ نَشْـــرَ حَـــدِيثِـــهِ   نَشْـــرُ الْخُـــزَامَـــىٰ وَالْعَـــرَارِ[2]

[تأخر الصلة عن ابن نباتة وتبيينه لوجوب حقه على ابن العميد والسجال بينهما]

فتأَخَّرتْ صلَتهُ عنهُ ، فشفعَ القصيدةَ بأُخرىٰ ، وأَتبعَها برقعَةٍ ، فلَم يزدهُ ابنُ العميدِ إلاَّ إهمالاً واطِّراحاً ، فتوسَّلَ إلىٰ أَنْ دَخلَ عليهِ في مجلسٍ حفلَ بأَربابِ الدَّولةِ ، وأَعيانِ الديوانِ ، فوقفَ وقالَ :

إِنِّي لزمتكَ لُزومَ الظلِّ ، وذللتُ لكَ ذُلَّ النعلِ ، وأَكلتُ النوى المحرَّقَ ؛ انتظاراً لصلتكَ ، وما بي مِنَ الحرمانِ ، ولكنْ شماتةَ الأَعداءِ ، وهم قومٌ نَصَحوني فأَغْشَشْتُهم ، وصَدَقوني فاتَّهمْتُهُم ، فبأَيِّ وجهٍ أَلقاهُم ؟ ولم أَحصلْ مِن مديحٍ ، بعدَ مديحٍ ، ونثرٍ بعدَ نظمٍ إلاَّ على الندمِ المؤْلمِ ، والبأْسِ المسقمِ ! !

فحارَ رُشْدُ ابنِ العميدِ ، ولم يدرِ ما يقولُ ، ثمَّ رفعَ رأْسَهُ وقالَ : إِنَّ الوقتَ يضيقُ عنكَ في الاستزادةِ ، وعَني في الإِطالةِ المعذرةُ ، وإِذا تواهَبْنا ما دَفَعنا إِليهِ . . استأْنفنا ما نتحامدُ عليهِ .

فقالَ ابنُ نباتةَ : هـٰذهِ نفثةُ مصدورٍ مِن زمانٍ ، وفضلةُ لسانٍ خَرِسَ منذُ دهرٍ ، والمطلُ لُؤْمٌ .

فاستشاطَ ابنُ العميدِ وقالَ : واللهِ ما أَستوجبُ هـٰذا العتبَ من أَحدٍ ، ولستَ وليَّ نِعمتي فأَحْتَمِلَك ، ولا صَنيعتي فأُغْضيَ عَنك ، وبعضُ ما قرَّرْتَه في مَسامِعي ينغِّصُ مرَّةَ الحليمِ ، ويبدِّدُ صبرَ الوقورِ ، هـٰذا : وما استقدَمتُك بكتابٍ ، ولا استدعيتُكَ برسولٍ ، ولا سأَلتُكَ مدحي ، ولا كلَّفتكَ تقريظي .

فقالَ ابنُ نباتةَ : صدقتَ ، ولكنَّكَ جلستَ في صدرِ ديوانِكَ بأُبَّهتكَ ، وقلتَ : لا ينازِعُني خَلْقٌ في السياسَةِ ، ولا يخاطِبُني أَحدٌ إلاَّ بالرئاسةِ ، فإِنِّي زَعيمُ الحضرةِ ، وكاتبُ رُكْنِ الدولةِ ، فكأَنَّكَ دعوتَني بلسانِ الحالِ ، فثارَ ابنُ العميدِ مغضَباً ، وتقوَّضَ المجلسُ ، وماجَ الناسُ .

وخرجَ ابنُ نباتةَ يقولُ : واللهِ لَسَفُّ الترابِ ، والمشيُ على الجمرِ ، أَهونُ مِن هـٰذا ، فلعنَ اللهُ الأَدبَ ، إِذا كانَ بائِعُهُ مَهيناً ، ومُشْتَرِيهِ مُماكِساً ، ولمَّا سَكَنَ غَيظُ ابنِ العميدِ ، وثابَ إِليهِ حِلْمُهُ . . التَمَسَهُ مِنَ الغدِ ليكرِمَه ، فكأَنَّما غاصَ بينَ سمعِ الأَرضِ وبَصرِها ، فكانَتْ حَسْرةً في قلبِ ابنِ العميدِ ، حتَّىٰ ماتَ .

قالَ ابنُ خَلِّكَانَ [في « وفيات الأعيان » ٥/١٠٧] : ثمَّ وجدتُ صورةَ المجلسِ لغيرِ ابنِ نباتَةَ ، وكشفتُ « **ديوانَهُ** » فما وجدْتُ القصيدةَ ، وإِنَّما وجدتُها بعدُ في كتابٍ لأَبي حيَّانَ التوحيديِّ معزوَّةً لأَبي محمَّدٍ عبدِ الرزاقِ بنِ الحسنِ ، المعروفِ بابنِ السبابِ البغداديِّ اللغويِّ المنطقيِّ الشاعرِ ، ووجدتُ هـٰذهِ المخاطبةَ لشاعرٍ من أَهلِ الكرخِ يعرفُ بمَمْويه ، وإِلىٰ هُنا انتهىٰ كلامُ ابنِ خَلِّكانَ بنوعٍ مِنَ الاخْتصارِ .

[قدوم بشار علىٰ خالد بن برمك]

وبمناسبةِ قولِ ابنِ العميدِ : ما استقدمتُكَ بكتابٍ . . . إلخ ذكرتُ [ما رُوي في « الأغاني » ٣/١٩٩] : أَنَّ بشَّارَ بنَ بُرْدٍ قدمَ

---

(١) **الخِرْق** : السيد السخي الكريم . **السبيكُ** بمعنى المسبوكِ ، وهوَ المصبوبُ مِنَ الذهبِ . **النُّضارُ** : الذهبُ .

(٢) **الخُزامىٰ والعَرارُ** : نبتانِ طَيِّبَا الرَّائحة .



علىٰ خالدِ بنِ برمكَ بفارسَ ، فأنشدهُ قولَهُ [في « ديوانه » ٤٧ـ٤٩] [مِنَ الطَّويلِ]

أَخَالِدُ لَمْ أَهْبِطْ عَلَيْكَ بِذِمَّةٍ ... سِوَىٰ أَنَّنِي عَافٍ وأَنْتَ جَوَادُ[1]

أَخَالِدُ إِنَّ الأَجْرَ وَالْحَمْدَ حَاجَتِي ... فَأَيَّهُمَا تَأْتِي فَأَنْتَ عِمَادُ

فَإِنْ تُعْطِنِي أُفْرِغْ عَلَيْكَ مَدَائِحِي ... وَإِنْ تَأْبَ لَمْ تُضْرَبْ عَلَيَّ سِدَادُ[2]

رِكَابِي عَلَىٰ حَرْفٍ وَقَلْبِي مُشَيَّعٌ ... وَمَالِي بِأَرْضِ الْبَاخِلِينَ بِلاَدُ[3]

إِذا أَنْكَرَتْنِي بَلْدَةٌ أَوْ نَكِرْتُهَا ... خَرَجْتُ مَعَ الْبَازِي عَلَيَّ سَوَادُ[4]

[إكرام خالد لبشار]

فدعا خالدٌ بأَربعةِ آلافٍ ، في أَربعةِ أَكياسٍ : ووضعَ واحداً عَنْ يمينِهِ ، وآخرَ عن شمالِهِ ، والثالثَ بينَ يديهِ ، والرابعَ مِن خلفِهِ ، وقالَ : هلِ استقلَّ العمادُ يا أَبا معاذٍ ؟ قالَ : إِي واللهِ .

[ابن زريق البغدادي يقصد بعض الملوك طالباً معروفه]

وذَكَرَ غيرُ واحدٍ [منهم ابن السبكي في « طبقاته » ١/ ٣١١] : أَنَّ ابنَ زُرَيقٍ البغداديَّ الكاتبَ أَقشعَ[5] بهِ وطنهُ ، وحدَّثتهُ نفسهُ ، وناجتهُ آمالهُ ، فانتجعَ[6] بعضَ الملوكِ في أَرضٍ نائيةٍ ، ولمَّا وردهُ . امتدحهُ بقصيدةٍ ، فأَعطاهُ شيئاً يسيراً ؛ ليتعلَّلَ بهِ ريثما يتفرَّغُ لإِكرامهِ ومكافأَتِهِ ، فظنَّهُ آخر سهامِ الكنانةِ ، فانكسرتْ نفسهُ وقالَ :

[خيبة أمله وموته كمداً]

تكبَّدْتُ المشاقَّ ، وقطعتُ الصعابَ ، وخضتُ البحارَ ، وترامتْ بيَ القفارُ إِلىٰ هٰذا الأَميرِ ، ثمَّ لم يعطِني إِلاَّ هٰذا النزر الحقيرَ ، ولزمتهُ العلَّةُ حتَّىٰ ماتَ ، فانتبهُ الأَميرُ لشأْنِهِ ، واستدعاهُ فوجَدوا بابَ بيتِهِ مغلقاً مِنْ داخلٍ ، فاقتحموهُ . فأَلفوهُ ميْتاً وتحتَ رأْسِهِ القصيدةُ المستهلَّةُ بقولِهِ : [مِنَ البسيطِ]

لاَ تعْذُلِيهِ فَإِنَّ الْعَذْلَ يُولِعُهُ ... قَدْ قُلْتِ حَقّاً وَلَكِنْ لَيْسَ يَسْمَعُهُ

فتحرَّكَ لها الأَميرُ ، واهتزَّ ، وفاضتْ عَبرتُهُ ، وقالَ : وددتُ أَنْ لو كانَ حيّاً . . فأُشاطرَهُ مُلكي ، ثمَّ طالعَ أَهلَهُ بحالِهِ ، وبعثَ لَهم بأَربعةِ آلافِ دينارٍ .

[سكينة بنت الحسين تفاضل بين الشعراء]

وقدمَ الفرزدقُ علىٰ سُكَينةَ بنتِ الحسينِ رضوانُ اللهِ عليهِم ، فقالتْ لهُ [كما في « المنتظم (حتىٰ سنة ٢٥٧) » ٧/ ١٧٦] : مَن أَشعرُ الناسِ ؟ قالَ : أَنا ، قالت : كذبتَ ، أَشعرُ مِنكَ الذي يقولُ [جرير في « ديوانه »] : [مِنَ الوافرِ]

بِنَفْسِي مَنْ تَجَنُّبُهُ عَزِيزٌ ... عَلَيَّ وَمَنْ زِيَارَتُهُ لِمَامُ[7]

---

(١) العافي : طالبُ المعروفِ والرزقِ .

(٢) السدادُ : ما يُسدُّ به فمُ القارورة .

(٣) الحرفُ : الناقة الضامرةُ . مشيَّعٌ : شجاعٌ .

(٤) البازي : الصقرُ ، وهو أبكرُ الطيور خروجاً . السوادُ : المقصود به سوادُ الليلِ .

(٥) القشعُ : يبوسُ الجلدِ ، والمرادُ بهِ الفاقةُ التي أَصابتهُ في وطنهِ .

(٦) انتجعَ : أَتىٰ إِنساناً يطلبُ معروفَهُ .

(٧) لِمامٌ : أي في الأحايينِ .

وَمَـــنْ أَمْسَـــىٰ وَأَصْبَـــحَ لاَ أَرَاهُ   وَيَطْـــرُقُنِـــي إِذَا هَجَـــعَ النِّيَـــامُ

ثمَّ عادَ مِن الغدِ ، فقالتْ : مَن أشعرُ الناس ؟ قالَ : أنا ، قالتْ : كذبتَ ، أَشعرُ منكَ الذي يقولُ [الأحوص في « وفيات الأعيان » ٢/٢٩٧] :   [مِنَ الكاملِ]

يَـــا دَارَ عَـــاتِكَـــةَ الَّتِـــي أَتَعَـــزَّلُ   حَـــذَرَ الْعِـــدَا وَبِـــهِ الْفُـــؤَادُ مُـــوَكَّـــلُ

فقالَ : يا ابنةَ رسولِ اللهِ . . إنَّ لي حقّاً بإقبالي عليكِ مِن (مكَّةَ) ، فلمْ تسمعي شِعْري ، ولمْ تزيدِيني على التكذيبِ ، معَ أنِّي لأخافُ لما أصابني أَن أموتَ ، فإذا مِتُّ . . فَحاجتي إليكِ . تُكَفِّنِيني في هـٰذهِ الثيابِ ـ وأَشارَ إلىٰ جاريةٍ لَها ـ فقالت : هيَ لكَ ، وضمَّتْ إليها كسوةً وجائزةً .

وموضعُ الشاهدِ مِنْ هـٰذا . . قولُهُ : إنَّ لي حقّاً عليكِ إلىٰ آخرهِ ، وصدقَ في ذلكَ ، فإنَّ مَن علَّقَ رجَاءَهُ بإنسانٍ ، وقطعَ إليهِ السهوبَ ، واجتازَ المهالِكَ يختبطُ الدُّجىٰ ، ويعتلجُ صدرَهُ اليأسُ والرجاءُ . لجديرٌ أن تعجَّلَ أَوبتُهُ ، وتُجْزَلَ مثوبتُهُ .

[قبول النبي صلى الله عليه وسلم الشعر والأئمة الأعلام]

ومِنْ هديهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : قَبولُ الشِّعرِ ، وإجزالُ الثوابِ عليهِ ، وحديثُهُ معَ كعبٍ مشهورٌ ، فلقد حقنَ دمهُ ، وكساهُ بردتَهُ ، وأكرمَهُ ـ كما في روايةٍ ـ بمئَةٍ مِن الإبلِ ، واقتفاهُ الخلفاءُ ، والأُمراءُ ، وآلُ البيتِ ، وغيرهُم مِنَ الناسِ .

[الفاروق يمنع الحطيئة من قول الشعر]

غيرَ أَنَّ ابنَ الخطَّابِ منعَ الهجاءَ ، فاضطرَّ الحُطيئَةُ أَنْ يقولَ :   [مِنَ الكاملِ]

يَـــا أَيُّهَـــا الْمَلِـــكُ الَّـــذِي أَمْسَـــتْ لَـــهُ   بُصْـــرَىٰ وَغَـــزَّةُ سَهْلُهَـــا وَالأَجْـــرَعُ[1]

وَمَلِيكُهَـــا فَجُبَـــاتُهَـــا عَـــنْ أَمْـــرِهِ   تُعْطِـــي النَّـــوَالَ لِمَـــنْ تَشَـــاءُ وَتَمْنَـــعُ

أَشْكُـــو إِلَيْـــكَ بَلِيَّتِـــي مِـــنْ صِبْيَـــةٍ   لاَ يَشْبَعُـــونَ وَأُمُّهُـــمْ لاَ تَشْبَـــعُ

وَبُعِثْـــتَ لِلشُّعَـــرَاءِ مَبْعَـــثَ دَاحِـــسٍ   أَوْ كَـــالْبَسُـــوسِ بِـــرَدْعِهَـــا تَتَكَـــوَّعُ[2]

وَمَنَعْتَنِـــي شَتْـــمَ الْبَخِيـــلِ فَلَـــمْ يَخَـــفْ   ضُـــرِّي وَأَصْبَـــحَ آمِنـــاً لاَ يَفْـــزَعُ

[عمر بن عبد العزيز والأحوص]

ولمَّا توقَّفَ ابنُ عبدِ العزيزِ عَن إعطاءِ الشعراءِ . . ذكَّرهُ الأَحوصُ ، وأَشارَ إلىٰ ما سبقَ من روايةِ أَنَّهُ عليهِ السلامُ أعطىٰ كَعباً مئَةَ ناقةٍ ، بقولِهِ [في « المنتظم » ٧/٤١] :   [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَبْلَـــكَ مَـــا أَعْطَـــىٰ هُنَيْـــدَةَ جُلَّـــةً   عَلَى الشِّعْـرِ كَعْبـاً مِـنْ سَـدِيسٍ وَبَـازِلِ[3]

رَسُـــولُ الإِلَـــٰـهِ الْمُسْتَضَـــاءُ بِنُـــورِهِ   عَلَيْـــهِ السَّـــلاَمُ بِـــالضُّحَـــىٰ وَالأَصَـــائِـــلِ

وهـٰذهِ قد تغايرُ ما سبقَ مِن ثَواءِ الأَحوصِ بالسجنِ طيلةَ خلافةِ ابنِ عبدِ العزيزِ .

---

(١) الأرضُ الجَرعةُ : هيَ الأرضُ الطيبةُ المنبتِ لا وعوثةَ فيها .

(٢) الردعُ : تلطيخُ الدم . تتكوَّعُ : تمشي علىٰ كوعها من شدَّةِ الحرِّ وهي مشيةُ الكلبِ ، والكوعُ طرفُ الزندِ ممَّا يلي الرسغَ .

(٣) السديسُ مِنَ الإبلِ : ما دخلَ في الثامنةِ ، والبازلُ : ما دخلَ في التاسعةِ وبعدَها .

[سبب اتصال مروان بن أبي حفصة بالعباسيين]

وسببُ اتصالِ مروانَ ابنِ أَبي حفصةَ بخلفاءِ بني العباسِ . . أَنَّ المنصورَ سمعَ شعراً لهُ في بعضِ الرؤَساءِ يذكرُ فيهِ وراثةَ بني العباسِ ، فاستحضرهُ ، فوافاهُ في علَّةِ الموتِ ، فقالَ لهُ الربيعُ : الْحَقْ بالمهديِّ ، فقدمَ عليهِ ، وقد مدحهُ بأَربعِ قصائدَ : مطلعُ الأُولىٰ [في « ديوانه » ٩٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

صَحَا بَعْدَ جُهْدٍ فَاسْتَرَاحَتْ عَوَاذِلُهْ ... وَأَقْصَرَ عَنْهُ حِينَ أَقْصَرَ بَاطِلُهْ

والثانيةِ [في « ديوانه » ١٠٤] : [مِنَ الكاملِ]

طَافَ الْخَيَالُ فَحَيِّهِ بِسَلَامِ ... أَنَّىٰ أَلَمَّ وَلَيْسَ حِينَ لِمَامِ

والثالثةِ [في « ديوانه » ٧٠] : [مِنَ الكاملِ]

إِعْصِ الْهَوَىٰ وَتَعَزَّ عَنْ سُعْدَاكَا ... فَلِمِثْلُ حِلْمِكَ عَنْ هَوَاكَ نَهَاكَا

والرابعةِ [في « ديوانه » ٣٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

مَرَىٰ الْعَيْنَ شَوْقٌ حَالَ دُونَ التَّجَلُّدِ ... فَفَاضَتْ بِأَسْرَابٍ مِنَ الدَّمْعِ حُشَّدِ(١)

فأَعطاهُ ثلاثينَ أَلفَ درهمٍ ، فانصرفَ إِلى (اليمامةِ) ، ثمَّ عادَ بعدَ مدَّةٍ واتصلَ بيعقوبَ بنِ داوودَ ، فاتفقَ أَنْ غضبَ المهديُّ علىٰ يعقوبَ ، واعتقلَهُ ، فتوسَّلَ مروانُ بالحسنِ الحاجبِ ، فتحمَّلَ عنه قصيدتينِ ، في إِحداهُما استعطافٌ للمهديِّ ، وفي الأُخرىٰ هجاءٌ ليعقوبَ ، ووضعَهما في يدِ المهديِّ ، فاستَحسَنَهما وضربَ لهُ موعداً يومَ الخميسِ ، فجاءَ . . فإِذا وجوهُ بني العبَّاسِ يدخلونَ ، فلما تتامَّ المجلسُ . . دُعيَ ، فدخلَ فسلَّمَ ، فردَّ السلامَ ، وقالَ : إِنَّما حبسكَ عن الدخولِ انقطاعكَ إِلى الفاسقِ ابنِ داوودَ ، فافتتحَ النشيدَ بما قالَ في يعقوبَ : ثمَّ أَنشدهُ قولَهُ فيهِ : [مِنَ الكاملِ]

طَرَقَتْكَ زَائِرَةً فَحَيِّ خَيَالَهَا

فاهتزَّ المهديُّ ، وتحرَّكَ ، وقالَ : جزاكَ اللهُ خيراً ، فقالَ مروانُ : اشهَدوا ، هـٰذا واللهِ الشرفُ ، يقول لي أَميرُ المؤمنينَ : جزاكَ اللهُ خيراً ، ثمَّ أَنشدَهُ قصيدتَه التي يقولُ في أَوَّلها : [مِنَ الطَّويلِ]

أَعَادَكَ مِنْ ذِكْرِ الأَحِبَّةِ عَائِدُ

وقد سبقَتْ طائفةٌ مِنها في غيرِ هـٰذا المجلسِ ، وهي من مختارِ الكلامِ ، فلمَّا انتهىٰ إِلىٰ قولِهِ مِنها : [مِنَ الطَّويلِ]

كَأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّداً ... لِرَأْفَتِهِ بِالنَّاسِ لِلنَّاسِ وَالِدُ
عَلَىٰ أَنَّ مَنْ قَدْ خَالَفَ الْحَقَّ مِنْهُمُ ... سَقَتْهُ بِهِ الْمَوْتَ الْحُتُوفُ الرَّوَاصِدُ
يَزِينُ بَنِي سَاقِي الْحَجِيجِ خَلِيْفَةٌ ... عَلَىٰ وَجْهِهِ نُورٌ مِن الْحَقِّ شَاهِدُ

. . أَشارَ عليهِ فأَمسكَ ، فقالَ المهديُّ : يا بَني العبَّاسِ ، هـٰذا شاعركُم المنقطعُ إِليكُم ، المعاديْ فيكُم ، ففرضَ لهُ أَهلُ بيتِهِ أَربعينَ أَلفَ درهمٍ في كلِّ سنةٍ ، سِوىٰ صِلاتهِ هُوَ وبرِّهِ .

---

(١) مرىٰ : استدرَّ . حُشَّدٌ : غزيرةٌ .



[امتداح المؤمل للمهدي وإجازة المهدي له]

وأَقولُ : إنَّ اللهَ غارَ لمروانَ ابنِ أَبي حفصةَ في وفاةِ المنصورِ قبلَ اجتماعِهِ بهِ ، وإلاَّ . . لَحرمَهُ أَوْ قلَّلَ عطاءَهُ ، فكانتْ سُنَّةً مِن بعدِهِ .

فقد شخصَ المؤَمَّلُ [كما في « الأغاني » ٢٢/٢٤٨] : إلى المهديِّ بـ(الريِّ) فامتدحهُ ، فأَمرَ لهُ بعشرينَ ألفَ درهمٍ فرُفعَ الخبرُ إلى المنصورِ فاستقدمه فقالَ : أَتيتَ غلاماً غرّاً فخدعتَهُ ، فقالَ المؤمَّلُ : بل غلاماً كريماً ، مدحتهُ فأَكرَمني ، فقالَ : ما قلتَ فيهِ ؟ فأَنشدهُ : [مِنَ الوافرِ]

هُـــوَ الْمَهْــــدِيُّ إلاَّ أَنَّ فِيــــهِ ... مَشَــابِــهَ صُــورَةِ الْقَمَــرِ الْمُنِيــرِ

تَشَــابَــهَ ذَا وذَا فَهُمَــا إِذَا مَــا ... أَنَــارَا يُشْكِــلاَنِ عَلَــى الْبَصِيــرِ

فَهَــٰذَا فِــي الظَّــلاَمِ سِــرَاجُ لَيْــلٍ ... وَهَــٰذَا بِــالنَّهَــارِ سِــرَاجُ نُــورِ

وَلَكِــنْ فَضَّــلَ الــرَّحْمَــٰنُ هَــٰذَا ... عَلَــىٰ ذَا بِــالْمَنَــابِــرِ وَالسَّــرِيــرِ

لَقَــدْ مَلَــكَ الْمُلُــوكَ أَبُــوكَ حَتَّــىٰ ... تَــرَاهُــمْ بَيْــنَ كَــابٍ أَوْ أَسِيــرِ[1]

وَجِئْــتَ وَرَاءَهُ تَجْــرِي حَثِيثــاً ... لِغَــايَــاتِ الْكَمَــالِ بِــلاَ فُتُــورِ

فَقَــالَ النَّــاسُ : مَــا هَــٰذَانِ إلاَّ ... بِمَنْــزِلَــةِ الْخَلِيــقِ مِــنَ الْجَــدِيــرِ

وإِنْ بَلَــغَ الصَّغِيــرُ مَــدَىٰ كَبِيــرٍ ... فَقَــدْ خُلِــقَ الصَّغِيــرُ مِــنَ الْكَبِيــرِ

[استكثار المنصور للإجازة وتنقيصه منها]

فقالَ المنصورُ : ما أَحسنَ ما قلتَ! إلاَّ أَنَّه لا يساوي ما أَخذتَ ، فخُذ منهُ يا ربيعُ ستَّةَ عشرَ أَلفاً ، وسوِّغْهُ الباقي ، فلمَّا ماتَ المنصورُ واستخلفَ المهديُّ . . رفعَ المؤمَّلُ قصَّتَهُ إلىٰ والي المظالمِ ، فعرضَها على المهديِّ ، فضحكَ حتَّى استلقىٰ ، وقالَ : هـٰذهِ مظلمةٌ ؟! ردُّوا عليهِ مالَه ، وزيدوهُ عشرينَ أَلفاً .

وقدْ عرفتَ مِن فريضةِ المهديِّ لمروانَ ورسمِهِ بردِّ ما رزأَهُ أَبوهُ على المؤمَّلِ . . أَنَّهم يرونَ ذلكَ حقّاً لازماً ، ودَيناً ثابتاً .

[الجود يعدي]

ويروىٰ [في « ديوان الحماسة » ٢/٢٨٨] : أَنَّ ابنَ الخيَّاطِ دخلَ على المهديِّ فمدحَه ، فأَمرَ لهُ بخمسينَ أَلفَ درهمٍ ، فلمَّا قبضَها . . فرَّقها على الناسِ ، وأَنشأَ يقولُ : [مِنَ الطَّويلِ]

لَمَسْــتُ بِكَفِّــي كَفَّــهُ أَبْتَغِــي الْغِنَــىٰ ... وَلَــمْ أَدْرِ أَنَّ الْجُــودَ مِــنْ كَفِّــهِ يُعْــدِي

فَــلاَ أَنَــا مِنْــهُ مَــا أَفَــادَ أُولُــو الْغِنَــىٰ ... أَفَــدْتُ وأَعْــدَانِــي فَفَــرَّقْــتُ مَــا عِنْــدِي[2]

فأَغارَ عليهِ البُحتريُّ إلاَّ أَنَّه أَحسنَ الاتباعَ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « ديوانه » ٤/٢٢٢٧] : [مِنَ الكاملِ]

مَــلأَتْ يَــدَاهُ يَــدِي وشَــرَّدَ جُــودُهُ ... بُخْلِــي فَــأَفْقَــرَنِــي كَمَــا أَغْنَــانِــي

---

(١) الكابي : من الكبوةِ وهيَ العثرَةُ ، ورجلٌ كابي اللونِ : عليهِ غبرةٌ ، وفرسٌ كابي : الذي إذا أَعيا قامَ فلم يتحرَّك من الإِعياءِ .

(٢) أفادَ : استفاد .



[وكذلك الحلم]

وقد سبقهُ أبو تمَّامٍ إلىٰ أخذِهِ ، غيرَ أنَّه غيَّرَ الموضوعَ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « ديوانه » ١/٢٩١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَـوْ لَـمْ يَـزَعْنِـي عَنْـكَ غَيْـرُكَ وَازِعٌ   لأَعْـدَيْتَنِـي بِـالْحِلْـمِ إِنَّ الْعُـلاَ تُعْـدِي(1)

[أصل المعنىٰ]

وأَصلُ المعنىٰ قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « اَلْمَرْءُ مِنْ جَلِيسِهِ »(2) .

وقد يدخلُ فيهِ قولُ الناظمِ [في « العُكبَريِّ » ١/١٨٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

إذا لَـمْ تُنِـطْ بِـي ضَيْعَـةً أَوْ وِلاَيَـةً   فَجُـودُكَ يَكْسُـونِـي وَعَـدْوَاكَ تَسْلِـبُ(3)

إنْ كانتِ الروايةُ (وَعَدْوَاكَ) كما ذكرتُ ، أَو ما يشبهُها وإلاَّ خرجَ عنهُ .

[فطانة شاعر مع المهدي]

ويروىٰ : أَنَّه دخلَ على المهديِّ بـ(المدينةِ) أَربعةٌ ، وهُم : المغيرةُ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ المخزوميُّ ، وابنُ أُختِ الأَحوصِ ، وأَبو السائِبِ ، وابنُ لُؤلُؤِ الرَّطبُ ، وكلهم أَنشدهُ شعراً ـ لا أَذكرُ منهُ شيئاً ـ فأَجازَ الثلاثةَ الأُولَ : بعشرةِ آلافِ دينارٍ ووعدَ الرابعَ ، فسايرهُ . . حتَّىٰ مرَّا بدارٍ ، فقالَ : لِمَنْ هـٰذهِ الدارُ ؟ قالَ : للأَحوصِ الذي يقولُ [في « ديوانه » ١٥٢] : [مِنَ الكاملِ]

يَـا دَارَ عَـاتِكَـةَ الَّتِـي أَتَعَـزَّلُ   حَـذَرَ الْعِـدَا وَبِـهِ الْفُـؤَادُ مُـوَكَّـلُ
وَأَرَاكَ تَفْعَـلُ مَـا تَقُـولُ وَبَعْضُهُـمْ   مَـذِقُ اللِّسَـانِ يَقُـولُ مَـا لاَ يَفْعَـلُ

فقالَ لَهَ : لا جَرَمَ ، لأُعجلنَّ جائزتَكَ ، فقدْ أَبلغتَ ، ودفع لهُ عشرةَ آلافِ دينارٍ ، وأَمرَ الربيعَ أَن يدفعَ له مثلَها ، فقبضَها في يومٍ واحدٍ .

[الأثبت أن القصة لأبي بكر الهذلي مع المنصور]

والأَثبتُ أَنَّ الذي تمثَّلَ بهـٰذا البيتِ . . إنَّما هو أَبو بكرٍ الهذليُّ للمنصورِ ، وكانَ أَمرَ الربيعَ أَنْ يوجِّهَ إِليهِ بجاريةٍ لَها أَدبٌ وظرفٌ وهيئةٌ ومعرفةٌ ، تسلِّيهِ عَنِ امرأَةٍ لهُ ماتَتْ ، وكانتْ أُمَّ ولدهِ والقيِّمةَ علىٰ أَمرِه ، فوجدَ عَليها ، ولمَّا تأَخَّرتْ وحَجَّ معهُ . . تمَثَّلَ بهِ ، فقالَ المنصورُ : وفي الدنيا من يعدُ ولا ينجزُ ، ويقولُ ولا يفعلُ ، قال : نعم ، قالَ أميرُ المؤمنين للربيع : أَعطه ما وعدناه ، وضاعف له ما وعدته بهِ .

وقدِ اختلفتِ الرواياتُ في حديثِ هـٰذا البيتِ اختلافاً كثيراً ، ورويَ علىٰ أَلوانٍ شتَّىٰ ، ولا مانعَ من تعدُّدِ الوقائِعِ .

[جود معن بن زائدة]

وذكرَ الخطيبُ في « تاريخهِ » [١٣/٢٣٦] : عن حاجبِ معنِ بنِ زائِدةَ قالَ : بينَما أَنا علىٰ رأسِهِ . . إذا هُوَ براكبٍ

---

(1) يزعني : يكفني .

(2) لم نجده بهـٰذا اللفظ وهو بمعنىٰ ما أخرجه عن أبي هريرةَ الهنديُّ في « كنز العمال » (٢٤٧٣٣) ونسبه لمالك وأحمد وابن أبي الدنيا في كتاب « الإخوان » والحاكم : « المرء علىٰ دين خليله . . . » .

(3) في « العكبري » : (وَشُغْلُكَ) بدل (وَعَدْوَاكَ) .



يوضعُ ، فقالَ معنٌ : ما أَحسبُ الرجلَ يريدُ غيري ، فلا تحجبوهُ ، فلمَّا مَثُلَ بينَ يديهِ . . أَنشدَ : [مِنَ المنسرحِ]

أَصْلحَكَ اللهُ قَلَّ مَا بِيَدِي ... فَمَا أُطِيقُ الْعِيَالَ إِذْ كَثُرُوا

أَلَحَّ دَهْرٌ رَمَىٰ بِكَلْكَلِهِ ... فَأَرسَلُونِي إِلَيْكَ وَانْتَظَرُوا

فقالَ معنٌ ـ وأَخذتْهُ الأَريحيَّةُ ـ : أَما واللهِ لأَعجلنَّ أَوبتَكَ ، ثمَّ قالَ : يا غلامُ ، ناقتي الفلانيَّةُ وأَلفُ دينارٍ ، فدفعَها إِليهِ وهوَ لا يعرفُهُ .

[لا نعلم مركوباً غير هٰذا]

وقدمَ عليهِ مرَّةً أَعرابيٌّ ، فقالَ له [في « قرى الضيف » ٣/٢٢٨] : قصدتُكَ مِن بعيدٍ ، فاحملني أَيُّها الأَميرُ ، فأَمرَ لَه بناقةٍ وفرسٍ وبغلٍ وحمارٍ وجاريةٍ ، وقالَ : لو علمتُ مركوباً غيرَها . . لَحملتُكَ عَليهِ .

[وكذلك لا نعلم لباساً غير هٰذا]

ونظيرُها [في « قرى الضيف » ٣/٢٢٨] : أَنَّ الزعفرانيَّ استكْسى الصاحبَ بنَ عبَّادٍ بقولِهِ : [مِنَ المتقاربِ]

أَيَا مَنْ عَطَايَاهُ تُهْدِي الْغِنَىٰ ... إِلَىٰ رَاحَتَيْ مَنْ نَأَىٰ أَوْ دَنَا

كَسَوْتَ الْمُقِيمِينَ وَالزَّائِرِينَ ... بِمَا لَمْ يُخَلْ مِثْلُهُ مُمْكِنَا

وَحَاشِيَةُ الدَّارِ يَمْشُونَ فِي ... ضُرُوبٍ مِنَ الْخَزِّ إِلاَّ أَنَا

فأَمرَ لهُ مِن الخزِّ بجبَّةٍ ودُرَّاعةٍ[١] وقميصٍ وسراويلَ وعمامةٍ ومنديلٍ ومِطْرَفٍ[٢] ورداءٍ وجوربٍ ، وقالَ : لو علمتُ لباساً آخرَ يتخذُ مِنَ الخزِّ . . لأَعطيتُكَهُ .

[احطط رحالك وقوِّ آمالك]

ودخلَ رجلٌ علىٰ معاويةَ ، فقالَ لَه : هَزَزْتُ ذَوائِبَ الرحالِ إِليكَ ؛ إِذ لا معوَّلَ إِلاَّ عليكَ ، أَمتطي إِليكَ الليلَ والنهارَ ، وأَسِمُ في طريقي إِليكَ المجاهِلَ بالآثارِ ، يَقودُني نحوَكَ رجاءٌ ، ويسوقُني إِليكَ بَلاءٌ ، والنفسُ مستعجلةٌ ، والاجتهادُ عاذِرٌ إِذ بلغتُكَ ، فقالَ لَه معاويةُ : احطُطْ رِحالَكَ ، وقَوِّ آمالَكَ ، وكُن علىٰ ثقةٍ مِنَ الإِنصافِ والإِسعافِ .

[الحذاقة في كلام بني تيم]

وقدِمَ وفدُ بني تَيْمٍ علىٰ عبدِ الملكِ ، وفيهم عمروُ بنُ عتبةَ ، فقالَ : يا أَميرَ المؤمنينَ ، نحنُ من تعرفُ ، وحقُّنا لا ينكرُ ، جئناكَ من بعيدٍ ، نمتُّ إِليكَ بالقريبِ ، وما تُعطينا من خيرٍ . . فنحنُ أَهلُه ، وما ترىٰ من جميلٍ . . فأَنتَ أَصلُهُ ، فضحكَ عبدُ الملكِ وقالَ : يا أَهلَ الشامِ ، هٰؤلاءِ قومي ، وهٰذا كلامُهم .

[رجل يقصد أبان بن الوليد]

ودخلَ رجلٌ علىٰ أَبَانَ بنِ الوليدِ فقالَ : أَصلحَ اللهُ الأَميرَ ، أَحفيتُ إِليكَ الرِّكابَ ، وقطعتُ العُقابَ[٣] ، وأَخلقتُ الثيابَ ، فقالَ أَبَانُ : ما دعاكَ إِلىٰ ذلكَ ؟ أَقرابةٌ ، أَمْ جِوارٌ ، أَمْ عشرةٌ متقدِّمةٌ ، أَم وُصلةٌ متأَكِّدَةٌ ؟ فقالَ : لَم يكن

---

(١) دُرَّاعةٌ : جبَّةٌ مشقوقةٌ من قدام .

(٢) المِطرفُ : ثوبٌ مربَّعٌ من خزٍّ له علمانِ في طرفيهِ .

(٣) العُقابُ : المرقىٰ في عُرضِ الجبلِ .



شيءٌ من ذلكَ ، ولكِنِّي سمعتُ الناسَ ينشدونَ لكَ بيتاً ، قالَ : ما هُوَ ؟ قالَ : قولك : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا شِيمَ لِي بَرْقٌ وَإِنْ كَانَ نَازِحاً فَيُخْلِفُ إِذْ بَعْضُ الْبَوَارِقِ خُلَّبُ

[العَود أحمد]

هٰذا يشبه ما سبقَ مِن حديثِ ابنِ العميدِ معَ صاحبهِ وما بعدَهُ ، وقريبٌ منهُ ما ذكرهُ ابنُ خَلِّكَانَ [في « وفيات الأعيان » ٦/٢٨٥] : أَنَّ رجلاً قدمَ علىٰ مخلدِ بنِ يزيدَ بنِ المهلَّبِ فقالَ لَه : أَلم تكُن أَتيتَنا فأَجَزْناكَ ؟ فقالَ : بلىٰ ، قالَ : فما الذي ردَّكَ إِلينا ؟ قالَ قول الكميتِ فيكَ [في « ديوانه » ١/١٤١] : [من الوافر]

فَأَعْطَىٰ ثُمَّ أَعْطَىٰ ثُمَّ عُدْنَا فَأَعْطَىٰ ثُمَّ عُدْتُ لَهُ فَعَادَا
مِرَاراً مَا أَعُودُ إِلَيْهِ إِلاَّ تَبَسَّمَ ضَاحِكاً وَثَنَى الْوِسَادَا

فأَضعف للرجلِ ما كانَ أَعطاهُ .

[ابن نباتة يضمن لأحد الشعراء لأنه غشه بقول له في فخر الدولة]

وامتدحَ فخرَ الملكِ بنَ عضدِ الدولةِ بنِ بويهِ أَحدُ الشعراءِ ، فلم يُرضِهِ ، فعمدَ إِلىٰ عبدِ العزيزِ بنِ نباتةَ وقالَ لهُ : أَنتَ الذي غَشَشْتَنِي بقولِكَ فيهِ : [مِنَ الوافرِ]

لِكُلِّ فَتَىً قَرِينٌ حِينَ يَسْمُو وَفَخْرُ الْمُلْكِ لَيْسَ لَهُ قَرِينُ
أَنِخْ بِجَنَابِهِ وَاحْكُمْ عَلَيْهِ بِمَا أَمَّلْتَهُ وَأَنَا الضَّمِينُ

فأَرضاهُ ابنُ نباتةَ مِن عندِهِ ، ثمَّ انتهى الخبرُ إِلىٰ فخرِ الملكِ . فسيَّرَ لابنِ نباتةَ العطايا الطائلةَ ، وأَوَّلُ بيتَيهِ مسروقٌ مِنْ قولِ الشمَّاخِ السائرِ في عرابةَ[(١)] .

[يا يزيد بن مزيد]

ومِنْ هٰذا النوعِ ، ما ذكرهُ ابنُ خَلِّكَانَ [في « وفيات الأعيان » ٦/٣٣٧] : أَيضاً عَن بعضِهم قالَ : كنتُ بالليلِ معَ يزيدَ بنِ مزيَدٍ ، فإِذا صائحٌ يهتفُ باسمهِ ، فقالَ : عليَّ بهِ ، فلمَّا مثلَ بينَ يديهِ . قالَ : ما حملكَ علىٰ ما فعلتَ ؟ قالَ : نقعتْ[(٢)] دابَّتي ، ونفِدَتْ نفقَتي ، وسمعتُ قولَ الشاعرِ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا قِيلَ مَنْ لِلْمَجْدِ وَالْجُودِ وَالنَّدَىٰ فَنَادِ بِصَوْتٍ يَا يَزِيدُ بْنَ مَزْيَدِ

فهشَّ لكلامهِ فأَجزلَ عطيَّتَهُ .

[الثقة بالعطاء من الممدوح عند الشعراء]

وقالَ ذُو الرُّمَّةِ يمدحُ بلالَ بنَ أَبي بردةَ [في « ديوانه » ٣/١٥٣٤] : [مِنَ الوافرِ]

سمِعْتُ النَّاسَ يَنْتَجِعُونَ غَيْثاً فَقُلْتُ لصَيْدَحَ انْتَجِعِي بِلاَلاَ[(٣)]

---

(١) « وفيات الأعيان » (٥/١٢٤) .

(٢) نقعت : نحرت . والنقيعةُ من الإِبلِ : ما يصنع منهُ الطعامُ للقادمِ من السفرِ .

(٣) انتجعنا فلاناً : إِذا أَتيناهُ نطلبُ معروفَهُ . الصيدحُ : اسم ناقته ؛ سميت بذلك لشدة صوتها .

وقالَ أبو نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٢٩٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْتِهَا خَفَّ مَحْمَلِي ... عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَاكَ تَسِيرُ
أَمَا دُونَ مِصْرٍ لِلْغِنَىٰ مُتَطَلَّبٌ ... بَلَىٰ إِنَّ أَسْبَابَ الْغِنَىٰ لَكَثِيرُ
دَعِينِي أُكَثِّرْ حَاسِدِيكِ بِرِحْلَةٍ ... إِلَىٰ بَلَدٍ فِيهِ الْخَصِيبُ أَمِيرُ(١)

وقالَ المازنيُّ [في « وفيات الأعيان » ١/ ٢٨٥] : أَشخصَني الواثقُ ، فلمَّا دخلتُ عليهِ سأَلَني عنِ اسمي ، فأَخبرتُهُ ، فقالَ : هلْ لكَ من ولدٍ ؟ قلتُ : نعم ، بُنَيَّةٌ ، قالَ : فما قالَتْ لكَ حينَ فارقْتَها ؟ قلتُ : أَنشدَتني قولَ الأَعشىٰ [في « ديوانهِ » ٤١٠] : [مِنَ المتقاربِ]

فَيَا أَبَتَا لاَ تَرِمْ عِنْدَنَا ... فَإِنَّا بِخَيْرٍ إِذَا لَمْ تَرِمْ(٢)
أَرَانَا إِذَا أَضْمَرَتْكَ الْبِلاَدْ ... نُجْفَىٰ وَيُقْطَعُ مِنَّا الرَّحِمْ(٣)

قالَ : فبِمَ أَجبتَها ؟ قلتُ : بقولِ جريرٍ : [مِنَ الوافرِ]

ثِقِي بِاللهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ ... وَمِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ بِالنَّجَاحِ(٤)

ويعجبني قولُ الناظمِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٩٧ـ٢٩٨] : [مِنَ الوافرِ]

تَرَكْنَا مِنْ وَرَاءِ الْعِيسِ نَجْداً ... وَنَكَّبْنَا السَّمَاوَةَ وَالْعِرَاقَا(٥)
فَمَا زَالَتْ تَرَىٰ وَاللَّيْلُ دَاجٍ ... لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْمَلِكِ ائْتِلاَقَا(٦)
وَلَوْ سِرْنَا إِلَيْهِ فِي طَرِيقٍ ... مِنَ النِّيرَانِ لَمْ نَخَفِ احْتِرَاقَا

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٦٤ و١٦٩ و١٧٠] : [مِنَ الكاملِ]

أُمِّي أَبَا الْفَضْلِ الْمُبِرَّ أَلِيَّتِي ... لأُيَمِّمَنَّ أَجَلَّ بَحْرٍ جَوْهَرَا(٧)
أَرَأَيْتَ هِمَّةَ نَاقَتِي فِي نَاقَةٍ ... نَقَلَتْ يَداً سُرُحاً وَخُفّاً مُجْمَرَا(٨)
تَرَكَتْ دُخَانَ الرِّمْثِ فِي أَوْطَانِهَا ... طَلَباً لِقَوْمٍ يُوقِدُونَ الْعَنْبَرَا(٩)
وَتَكَرَّمَتْ رُكُبَاتُهَا عَنْ مَبْرَكٍ ... تَقَعَانِ فِيهِ وَلَيْسَ مِسْكاً أَذْفَرَا(١٠)

---

(١) **الخصيبُ** : اسمُ الممدوحِ .
(٢) **رِمتَ** : برحت وزلتَ ، وأكثرُ ما يستعمل في النفي .
(٣) **أضمرتهُ البلادُ** : غيَّبتهُ إما بموتٍ وإما بسفرٍ .
(٤) **فقالَ لهُ الواثقُ** : على النجاحِ ، وأَمرَ لهُ بأَلفِ دينار ، وردَّهُ إلىٰ أَهلهِ مكرَّماً .
(٥) **العيسُ** : الإبلُ البيضاءُ . **السماوةُ** : فلاةٌ بين (الشام) و(العراق) .
(٦) **الداجي** : المظلمُ . **الائتلاقُ** : البريقُ واللمعانُ .
(٧) **أُمِّي** : اقصدي . **والمعنىٰ** : يقول : لما حلفتُ أني أقصدُ أجلَّ بحرٍ . برَّت يميني بقصدهِ ؛ لأَنَّهُ أجلُّ مَن يُقصدُ .
(٨) **السرُحُ** : السهلةُ السيرِ . **الخفُّ المجمرُ** : الشديدُ الصلبُ .
(٩) **الرمثُ** : نبتٌ يوقدُ به ، وهوَ مِن مراعي الإبلِ ، وهو من الحمضِ .
(١٠) **رُكباتُها** : جمع ركبة . **الأذفرُ** : الشديدُ الرائحةِ .

فَـأَتَتْـكَ دامِيَـةَ الأَظَـلِّ كـأَنَّمـا ... حُـذِيَـتْ قَـوائِمُهَـا الْعَقِيـقَ الأَحْمَـرَا[1]

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/٣٣٦] : [مِنَ الكاملِ]

كُـنْ حَيْـثُ شِئْـتَ تَسِـرْ إِلَيْـكَ رِكَـابُنَـا ... فَـالأَرْضُ وَاحِـدَةٌ وَأَنْـتَ الأَوْحَـدُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/٥٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَثِقْنَـا بِـأَنْ تُعْطِـي فَلَـوْ لَـمْ تَجُـدْ لَنَـا ... لَخِلْنَـاكَ قَـدْ أَعْطَيْـتَ مِـنْ قُـوَّةِ الْـوَهْـمِ

[المجاعة في عهد هشام بن عبد الملك]

ويروىٰ [كما في « المستطرف » ١٠٨] : أَنَّها أَصابتِ الناسَ مجاعةٌ في أَيَّامِ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ ، فوفدتْ عليهِ أَحياءُ العربِ مِن كلِّ ناحيةٍ ، فدخلَ عليهِ وجوهُهُم ، وفيهم درواسُ بنُ حبيبٍ الفجليُّ ، فكأنَّه ازدراهُ ؛ لِشَمْلَتِهِ وسملِ عباءَتِه[2] ، فاستنكفَ مِن دخولِهِ عليهِ ، وأَحسَّ بذلكَ درواسٌ ، فقالَ : إنَّ دُخولي عليكَ شرَّفَ من قَدري ، ولم يَضَعْ من شأْنِكَ ، وقدْ رأَيتُ الناسَ دَخلوا لأَمرٍ فسكَتوا عنهُ ، فإِنْ أَذِنْتَ . . تكلَّمتُ قالَ : هاتِ ما عندَكَ ، فما أَرىٰ لَهم غيرَكَ .

[فطانة درواس بن حبيب في الطلب]

قالَ : يا أَميرَ المؤمنينِ ، تتابعتْ على الناسِ سنونَ ، **أَمَّا الأُولىٰ** : فأَذابتِ الشحمَ ، **وأَمَّا الثانيةُ** : فأَكلتِ اللَّحمَ ، **وأَمَّا الثالثةُ** : فأَنقتِ المخَّ ومصَّتِ العظمَ ، وفي أَيديكم ـ وللهِ الحمدُ ـ فضولُ الأَموالِ ، فإِنْ تَكنْ للهِ . . فاعطِفوا بها علىٰ عبادِهِ ، وإِن كانَتْ لَهم . . فعلامَ تحبسونَها عَنهُم بعدَ الحاجةِ ؟ وإِنْ كانَتْ لَكم . . فتصدَّقوا بِها علَيهِم ؛ فإِنَّ اللهَ يَجزيْ المتصدِّقينَ .

[عطاء هشام]

فقالَ هشامٌ : للهِ أَبوكَ ما تركتَ لَنا في واحدةٍ من الثلاثِ ، وأَمرَ بمئةِ أَلفِ [دينار] ، فقسمتْ في الناسِ ، وأَمرَ لدرواسٍ بمئةِ أَلفِ [درهمٍ] ، فأَبىٰ إِلاَّ أَن يكونَ مثلَ الناسِ وردَّها ، فأَعادها إِليهِ ، فقسمَ تسعينَ أَلفاً في تسعةٍ مِن أَحياءِ العربِ ، واحتبَس لنفسهِ مِنْها عشرةَ آلافٍ فقط ، فبلغَ ذلكَ هشاماً ، فقالَ : للهِ درُّهُ ، إِنَّ صنيعَ مثلِهِ ليبعثُ على الاصطناعِ .

[رحم الله من تصدق]

ونظيرُها في بديعِ التقسيمِ . . ما رويَ [في « المثل السائر » ٢/٢٨٩] عَن أَعرابيٍّ وقفَ علىٰ حلقةِ الحسنِ البصريِّ فقالَ : رحمَ اللهُ من تصدَّقَ من فضلٍ ، أَو واسىٰ مِن كفافٍ ، أَو آثرَ مِن قُوتٍ ، فقالَ الحسنُ : لم يتركِ البدويُّ أَحداً إِلاَّ وقد سأَله ، وأَوجبَ عليهِ .

[ما الذي يناله ابن آدم من الدنيا]

وخيرٌ مِنْ ذلكَ كلِّهِ في البابِ . . قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم « **وَهَلْ لَكَ يَا بْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَبْقَيْتَ** »[3] .

---

(١) **الأَظلُّ** : باطنُ الخفِّ الذي يلي الأَرضَ . **حُذيَت** : جعل لها حذاءً ، وهوَ النعلُ .

(٢) **الشَّمْلَةُ** : كساءٌ من صوف يُتَلَفَّفُ به . **سملَ الثوبُ** : إذا صارَ خَلَقاً بالياً .

(٣) أخرجه عن أبي مطرف مسلم (٢٩٥٨) في الزهد والرقائق ، والترمذي (٢٣٤٢) ، والنسائي (٦/٢٣٨) ، وأحمد (٤/٢٤) .



وبعدُ : فقدِ استرسلَ الكلامُ ؛ إذ أَلقيْنا حبلَه علىٰ غاربِهِ ـ حَسَبَما يليقُ بالأَمالي ـ ومعَ ذلكَ فلَم يخرجْ عَنِ العطاءِ والاستِعطاءِ ، والرِّفْدِ والاسترفادِ ، والوِفادَةِ والانتجاعِ .

[العرب تصف أحوالها ولكنها تميل إلى المبالغة]

والعربُ ـ كما قرَّرنا ـ تصفُ شُؤُونَها ، وتشْرحُ خبرَها ، وتقتصُّ وقائعَ أَحوالها ، غيرَ أَنَّها قد تميلُ إِلى المبالغَةِ أَحياناً بما اقتضتْهُ ضمائِرُها مِنَ البلاغةِ ، وساقَتها إِليهِ غرائزُها مِنَ البيانِ ، وكذلكَ الناظمُ فيما يصفُ من اقتحامِ العِقَابِ الكأْدَاءِ وافتراعِ الْجِبالِ الشَّمَّاءِ ، والسهوبِ الفيحاءِ [كما في « العُكبَرِيّ » ١/١٨] : [مِنَ الكاملِ]

وَعُقَــابُ لُبْنَــانٍ وَكَيْــفَ بِقَطْعِهَــا وَهُــوَ الشِّتَــاءُ ، وَصَيْفُهُــنَّ شِتَــاءُ

. . فإِنَّهُ في ذلكَ بارٌّ راشدٌ ، إِنَّما العجبُ مِمَّن يذكُرُ العيسَ والمهاريْ ، والبيدَ والصَّحاريْ ولَعلَّه لَمْ يركَبِ الجَمَلَ ، ولَمْ يعرفِ الفلاةَ ، فذلكَ عنوانُ العجزِ ، وبرهانُ الضَّعفِ ، ودليلُ التَّبلُّدِ ، وشهيدُ التَّكلُّفِ .

[تلميذ المؤلف يهديه قصيدة فيردها عليه]

ومنهُ قولُ بعضِ الدَّرَسَةِ ـ مِنْ قصيدةٍ تقدَّمَ بها إِليَّ علىٰ قُربِ الجوارِ ، وتلاصُقِ الدِّيارِ ؛ إذ لَمْ يكُن بيني وبينَهُ إِلاَّ رَميةٌ بحجَرٍ ـ وهوَ : [مِنَ الكاملِ]

وَلَقَـدْ أُرَحِّـلُ فِـي ظَـلاَمِ اللَّيْـلِ أَنْــضَـاءَ الْمُطِـيِّ بِهَـا أَجُـوبُ السَّبْسَبَـا[1]
فَيَقُـولُ أَصْحَـابِي وَقَـدْ مَلُّـوا السُّرَىٰ : مَـاذَا تَـؤُمُّ أَمَشْـرِقـاً أَمْ مَغْـرِبَـا ؟
فَـأَقُـولُ : كَـلاَّ ، إِنَّمَـا أَزْجَيْتُهَـا كَيْمَـا تُبَلِّغَنَـا الْفِنَـاءَ الأَرْحَبَـا[2]

فما أَبغضَهُ وما أَثقلَهُ ، ولا سيَّما في قولِهِ : (أَمَشرِقاً) أَمْ (مَغربا) ؛ إِذْ لا يمكنُ أَنْ تخفىٰ علىٰ أَصحابِهِ الجهةُ بعدَ الشُّروعِ في السَّيرِ ، فَضْلاً عَنِ الإِمعانِ فيهِ ، حتَّىٰ ولو كانوا في بلادةِ الحميرِ .

وما أَراهُ إِلاَّ سمعَ بقولِ مُسلمِ بنِ الوليدِ الَّذي سَرَقَهُ أَبو تمَّامٍ[3] . . فأَحبَّ أَنْ يكونَ لَهُ مثلُهُ وهوَ قولُهُ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/ ٨٤] : [من البسيط]

أَمَطْلِـعَ الشَّمْـسِ تبْغِـي أَنْ تَـؤُمَّ بِنَـا ؟ فَقُلْـتُ : كَـلاَّ ، وَلَكِـنْ مَطْلِـعَ الْجُـودِ

غيرَ أَنَّا نبسُطُ لَهُ مِنَ العُذرِ ما بَسَطَتْهُ زُبيدةُ ، بما سقناهُ عنها في شرحِ قولِ النَّاظمِ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ١٦٥] : [مِنَ البسيطِ]

عَــلَّ الأَمِيـرَ يَـرَىٰ ذُلِّـي فَيَشْفَـعَ لِـي إِلَـى الَّتِـي تَـرَكَتْنِـي فِـي الْهَـوَىٰ مَثَـلاَ

فليَسَعْ صاحبَنا ما وسِعَ صاحبَها .

---

(١) السبسبُ : المفازةُ والأرضُ المستويةُ .

(٢) أزجيتها : سقتُها .

(٣) وهوَ حَسَبَما قالَ ابنُ خلِّكانَ في « وفيات الأعيانِ » (٣/ ٨٤) :

يَقُـولُ صَحْبِـي وَقَـدْ جَـدُّوا عَلَـىٰ عَجَـلٍ وَالْخَيْـلُ تَسْتَـنُّ بِـالـرُّكْبَـانِ فِـي اللُّجُـمِ
أَمَطْلِـعَ الشَّمْـسِ تبْغِـي أَنْ تَـؤُمَّ بِنَـا ؟ فَقُلْـتُ : كَـلاَّ ، وَلَكِـنْ مَطْلِـعَ الْكَـرَمِ

[بعض قصص الخائبين]

وإذ ذكرنا بعضَ مَنْ نجحَ طَلَبُهُ ، وأثمرَ تعبُهُ ، وأُكرِمَتْ وِفادتُهُ ، وأُجزلَتْ رِفادتُهُ . . فلا بأسَ أَنْ نذكُرَ شيئاً ممَّا يتعلَّقُ بنقيضِهِ ، علاوةً علىٰ ما سبقَ مِنَ الإشارةِ إلىٰ بعضِهِ في صنيعِ المنصورِ معَ المؤمِّلِ .

ثمَّ نحنُ بالخيارِ ، إنِ اتسعَ الوقتُ . . توسَّعْنا ببعضِ أَخبارِ البخلاءِ ونوادِرِهم ، وإلاَّ . . أَخَّرناها لموضعٍ آخرَ . فنقولُ :

[حسن الظن بالبخيل لا يقع إلا بخذلان الله ، والطمع فيه بسوء التوكل على الله]

كتبَ بعضُهم إلىٰ صاحبٍ لَهُ يستشيرهُ في القدومِ علىٰ ذِي ثروةٍ ، فكتبَ إليهِ في الجوابِ : لا تفعَلْ ، فإنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِهِ لا يقعُ إلاَّ بخذلانِ اللهِ ، والطَّمعَ فيهِ لا يخطرُ إلاَّ بسوءِ التوكُّلِ على اللهِ ، والرجاءَ لما في يدِهِ لا ينبغي إلاَّ بعدَ اليأسِ مِن رحمةِ اللهِ ، فإنَّه يرىٰ أَنَّ التقتيرَ هو التبذيرُ ، وأَنَّ الاقتصادَ هُوَ السرفُ ، وأَنَّ بني إسرائيلَ لم يستبدِلوا البصلَ بالسلْوىٰ إلاَّ لفضلِ أَحلامِهم ، ويرىٰ أَنَّ الصنيعةَ مرفوعةٌ ، والصلةَ موضوعةٌ ، والسخاءَ مِن همزاتِ الشياطينِ ، وأَنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ لا يغفرُ أَنْ يؤثِرَ المرءُ علىٰ نفسِهِ ، ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لمنْ يشاءُ ، وكأَنَّهُ لم يسمعْ بالمعروفِ إلاَّ في الذينَ قطعَ اللهُ أَدبارَهم ، ونهىٰ عنِ اتباعِ آثارِهم ، فهوَ يَرجو الثوابَ في الإقتارِ ، ويَخشى العقابَ في إقالةِ العثارِ ، فأَقِم رحمكَ اللهُ بمكانِكَ ، واصبرْ علىٰ عسركَ ، علَّ اللهَ أَن يبدِلَنا وإيَّاكَ خيراً منهُ ، وأَقربَ رُحْماً ! ! .

[يحب أن يحمد بما لم يفعل]

وفي قريبٍ منهُ ـ وما أَلْيَقَهُ بمن أَحبَّ أَنْ يُحمدَ بما لَم يَفعلْ من أَهلِ زمانِنَا ـ يقولُ بعضُهم : [مِنَ البسيط]

إنِّـي لأَعْجَـبُ مِـنْ قَـوْلٍ غُـرِرْتُ بِـهِ ... حُلْـوٍ يَلَـذُّ إِلَيْـهِ السَّمْـعُ وَالْبَصَـرُ
لَـوْ تَسْمَعُ الْعُصْمُ فِي صُمِّ الْجِبَالِ بِهِ ... ظَلَّـتْ مِـنَ الـرَّاسِيَـاتِ الْعُصْمُ تَنْحَـدِرُ
كَـالْخَمْرِ وَالشَّهْـدِ يَجْرِي فَـوْقَ ظَاهِـرِهِ ... وَمَـا لِبَـاطِنِـهِ طَعْـمٌ وَلاَ خَبَـرُ
وَكَـالسَّـرَابِ شَبِيهـاً بِـالْغَـدِيـرِ وَإِنْ ... تَـأْتِـي السَّـرَابَ فَـلاَ عَيْـنٌ وَلاَ أَثَـرُ

[أعطوه بدرة يدخلها]

وقدمَ علىٰ خالدِ بنِ عبدِ اللهِ القسريِّ أعرابيٌّ ، فأَلحفَ وأَبرمَ ، فقالَ خالدٌ : أَعطُوهُ بَدْرَةً[1] يُدخِلُها في حِرِ أُمِّهِ ، فقالَ الأعرابيُّ : وأُخرىٰ لاستِها يا سيِّدي ، لا تبقىٰ فارغةً ، فضحكَ ، وقالَ : وأُخرىٰ لاستِها .

[لقد أسمعت لو ناديت حياً]

واجتمعَ بشَّارٌ ويحيىٰ بنُ زيادٍ وحمَّادُ عجردٍ على الطعامِ ، فوقفَ سائِلٌ بالبابِ ، وقالَ : يا مسلمينَ ، فقالَ يحيىٰ : ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون : ١٠١] فقالَ : ارحموني ، فقالَ حمَّادٌ : قد رحمناكَ ، فقالَ : اسمعوا قَولي : قالَ بشَّارٌ : [مِنَ الوافرِ]

لَقَـدْ أَسْمَعْـتَ لَـوْ نَـادَيْـتَ حَيّـاً ... وَلَكِـنْ لاَ حَيَـاةَ لِمَـنْ تُنَـادِي

---

(١) البدرةُ : عشرةُ آلافِ درهمٍ .



[أفلاطون والرجل البخيل]

وكتبَ أَفلاطونُ إِلىٰ رجلٍ في رجلٍ ليواسيَهُ بشيءٍ ، فاعتلَّ ولم يعطِهِ شيئاً ، فكتبَ إِليهِ ثانيةً يقولُ لهُ : إِنْ كنتَ أَردتَ أَن تعطيَهُ فلم تقدرْ . . فمعذورٌ ، وإِن كنتَ قدرتَ فلمْ تفعلْ . . فسيأْتيك يومٌ تريدُ فيهِ فلا تقدرُ .

[ارفق يا حبيب بتيسك]

وقدمَ علىٰ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ جماعةٌ ـ فيهم معنُ بنُ أَوسٍ ـ فلم يُحسِنْ قِراهُم فقالَ معنٌ : [مِنَ الطَّويلِ]

نَـزَلْنَـا بِمُسْتَـنِّ الـرِّيَـاحِ غُـدَيَّـةً ... إِلىٰ أَنْ تَعَـالَـى الْيَـوْمُ فِـي شَـرِّ مَحْضَـرِ
لَـدَى ابْـنِ الـزُّبَيْـرِ جَـالِسِيـنَ بِمَنْـزِلٍ ... مِـنَ الْخَيْـرِ وَالإِحْسَـانِ وَالْبِـرِّ مُقْفِـرِ
رَمَـانَـا أَبُـو بَكْـرٍ وَقَـدْ طَـالَ مُكْثُنَـا ... بِتَيْـسٍ مِـنَ الشَّـاءِ الْحِجَـازِيِّ أَعْفَـرِ[1]
فَقَـالَ : اطْعَمُـوا مِنْـهُ وَنَحْـنُ ثَـلاَثَـةٌ ... وَسِتُّـونَ إِنْسَـانـاً فَيَـا لَـوْمَ مُخْبِـرِ[2]
فَقُلْنَـا : ابْتَعِـدْ عَنَّـا فَـإِنَّ أَمَـامَنَـا ... جِفَـانُ ابْـنِ عَبَّـاسٍ الْعُـلاَ وَابْـنِ جَعْفَـرِ
وَكُـنْ آمِنـاً وَارْفُـقْ بِتَيْسِـكَ إِنَّـهُ ... لَـهُ أَعْنُـزٌ يَنْـزُو عَلَيْهَـا وَأَيْسِـرِ[3]

[لعن الله ناقة حملتني إليك]

وقدمَ عليهِ آخرُ فلم يُرضِهِ ، فقالَ : لعنَ اللهُ ناقةً حملَتْني إِليكَ ، قالَ ابنُ الزبيرِ : إِنَّ ، وَرَاكِبَها[4] . و(إِنَّ) هـٰذهِ بمعنىٰ نَعَم .

وقد قالَ بعضُهم : بمثلهِ في قولهِ تعالىٰ : (إِنَّ ، هذان لساحران) .

وأُعجِبَ بهِ إِسحاقُ ، كما قاله صاحبُ « **الكشافِ** » .

(فَساحرانِ) خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ ، و(اللامُ) داخلةٌ على الجملةِ ، تقديرُهُ : (لَهُمَا ساحرانِ) وفيهِ تكلُّفٌ لا يخفىٰ ، وقعوا فيهِ إِذ بعُدوا باللامِ فقدَّروا لَها مبتدأً محذوفاً ، والأَولىٰ أَن يبقىٰ (ساحرانِ) علىٰ أَصلِ ما كانَ عليهِ من الخبريَّةِ ، وإِنَّما دخلتْ عليهِ اللامُ لِشَبَهِ إِنْ التي قبلَ المبتدأِ بالمؤكِّدَةِ ، وهو ظاهرٌ ، ونظائرُهُ موجودةٌ .

[اضربوا أهل الصفة]

وكانَ زيادُ بنُ عبدِ اللهِ الحارثيُّ والياً على (المدينةِ) ـ وفيهِ بخلٌ ـ فأُهديَ لهُ طعامٌ وكانَ قد تغدَّىٰ ، فغضبَ ، وقالَ : علامَ يبعثُ أَحدُهم الشيءَ في غيرِ وقتِهِ ؟ ودعا لَهُ أَهلَ الصُّفَّةِ ، فلمَّا حضَروا . . كشفَ عن سلالِ الطعامِ . . فإِذا فيها ما لا يظُنُّهُ مِن أَخبصَةٍ وحلوٍ وفراخٍ وجداءٍ ، فقالَ : ارفعوها ، واضربوا كلَّ واحدٍ من أَهلِ الصفَّةِ عشرةَ أَسواطٍ ، فإِنَّهُ بلغَني أَنَّهم يَفْسُونَ في مسجدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ .

[بخلاء العرب أربعة]

وكانَ يقالُ [كما في « الأغاني » ٢/ ١٥٥] : بخلاءُ العربِ **أَربعةٌ** : الحطيئةُ ، وحميدٌ الأَرقطُ ، وخالدُ بنُ صفوانَ ، وأَبو الأَسودِ الدُّؤليُّ .

---

(١) **الأعفرُ** : الذي يشبه لونه لون التراب .

(٢) في « الأغاني » : ثلاثة وسبعون .

(٣) « الأغاني » (١٢/ ٧٤) .

(٤) « مجمع الأمثال » (١/ ١١٣) .



[١ـ الحطيئة]

أمّا الحُطيئَةُ : فقد مرَّ بهِ بعضُهم فقالَ لهُ [كما في «الأغاني» ٢/١٦٣] : السلامُ عليكُم ، قالَ : قلتَ ما لا يُنكَر ، فقالَ : إنِّي خرجْتُ مِن أَهْلي بغيرِ زادٍ ، قالَ : لَم أَضمنْ لأهلِكَ قِراكَ ، فقالَ : أفتأْذَنُ لي أَنْ أَستظلَّ بفَيءِ بيتكِ ؟ قالَ : فيءُ الجبلِ أَوسعُ ، قالَ : أَنا ابنُ الحمامةِ ، قالَ : انصرِفْ وكُن أَيَّ طائرٍ تريدُ ، واعترضَه رجلٌ وهُوَ يرعىٰ غَنمهُ وبيدِهِ عَصا فرفعَها ، فقالَ الرجلُ : إِنَّما أَنا ضيفٌ ، قالَ : لِلضِّيفانِ أَعدَدْتُها .

[٢ـ حميد الأرقط]

وأمّا حميدٌ الأَرقطُ : فكانَ [كما في «المستطرف» ١/٣٧٧] هجّاءً للضيفانِ ، وكانَ لا يُقيلُهم[1] إلاّ حيثُ لَم يَجِدْ بُدّاً منهم ، وهُوَ القائِلُ : [مِنَ البسيطِ]

لاَ مَـرْحَبـاً بِـوُجُـوْهِ الْقَـوْمِ إِذْ نَـزَلُـوا ... كَـأَنَّهُـمْ إِذْ أَنَـاخُـوهَـا الشَّيَـاطِيـنُ
فَـأَصْبَحُـوا وَالنَّـوَىٰ عَـالِـي مُعَـرَّسِهِـمْ ... وَلَيْـسَ كُـلَّ النَّـوَىٰ تُلْقِـي الْمَسَـاكِيـنُ

[٣ـ خالد بن صفوان]

وأمّا خالدُ بنُ صفوانَ : فكانَ إذا أَخذَ جائزتَهُ . . قالَ للدرهَم : بأَبي أَنتَ وأُمِّي ، كم أَرضٍ قطعْتَ ، وكيسٍ خرقْتَ ، وخامِلٍ رفعْتَ ، ورفيعٍ أَخملْتَ ، لكَ عندي أَنْ تَعرىٰ ولاَ تَضْحىٰ ، لأُطِيلَنَّ حَبْسَكَ ، وَلأُدِيمَنَّ لُبْثَكَ .

[٤ـ أبو الأسود الدؤلي]

وأمّا أَبو الأَسودِ الدُّؤليُّ : فقدْ بلغَ بهِ الشحُّ أَنَّ أَعرابياً وقفَ عليهِ وهو يأْكلُ ، فلم يَعْرِضْ عليهِ الأَكلَ ، فقالَ الأَعرابيُّ : أَما إنِّي مررتُ بأَهلكَ ، قالَ : كانَ ذاكَ طريقَكَ ، قالَ : وهُم صالحونَ ، قالَ : كذلكَ تركتُهُم ، قالَ : وامرأَتُكَ حبلىٰ ، قالَ : كذلكَ عَهْدي بِها ، قالَ : ولَدَت ، قالَ : ما كانَ لَها بدٌّ مِنْ الوِلادةِ ، قالَ : غلامينِ ، قالَ : كذلكَ كانَتْ أُمُّها ، قالَ : ماتَ أَحدُهما ، قالَ : ما كانَتْ تقوىٰ علىٰ إِرضاعِ اثنينِ ، قالَ : ثُمَّ ماتَ الآخرُ ، قالَ : ما كان ليبقىٰ بعد أَخيهِ ، قالَ : ثُمَّ ماتَتْ الأُمُّ ، قالَ : حُزناً علىٰ وَلَدَيها ، وواللهِ لا ذُقْتَ مِن طَعَامي شيئاً ! !

[هل لك علم بكلبنا نفاع ؟!]

ونظيرُها : أَنَّ الحجَّاجَ بعثَ بأَحدِ رجالِهِ إِلىٰ أَرضٍ بعيدةٍ ليعملَ فيها ، فجاءَهُ إِنسانٌ من بلادِهِ بعدَ مدَّةٍ طويلةٍ ، انقطعَتْ فيها عنهُ أَخبارُ أَهلِهِ ، فسأَلَهُ عنهُم ، وقالَ : هَلْ لكَ عِلْمٌ بكَلْبِنا (نَفَّاعٌ) ؟ قالَ : قد ملأَ الْحيَّ نباحاً ، قالَ : وما فعلَ ولَدي عميرٌ ؟ قالَ : قد ملأَ الْحَيَّ أَولاداً ، قالَ : فأُمُّ عميرٍ ؟ قالَ : لا تدخلُ مِنَ البابِ إِلاّ منحرفةً ، قالَ : وجَمَلُنا (زريقٌ) قالَ : ما أَعظمَ سَنامهُ ، وأَكثرَ منفعتهُ ، قالَ : وما حالُ الدارِ ؟ قالَ : عامرةٌ بأَهلِها ، ثمَّ قامَ عنهُ وأَكلَ ، ولم يَدْعُهُ ، ولما فرغَ من أَكلِهِ . . أَقبلَ عليهِ ، وقالَ : أَعدْ عليَّ خبرَكَ يا مبارَكَ الناصيةِ ، وقد مرَّ كلبٌ ، فقالَ : أَين كلبُنا (نفَّاعٌ) مِن هـٰذا ؟ قالَ : وأَينَكَ من (نفاع) ؟ قالَ : أَلم تقُل لي : إِنَّه ملأَ الحيَّ نباحاً ؟ فقالَ : كلاَّ ، ولكنَّه قد ماتَ ، قالَ : وما سببُ موتهِ ؟ قالَ : اختنقَ بعظمٍ من عظامِ زريقٍ ، قالَ : وماتَ زريقٌ ؟! قالَ : نَعَم ؛ مِنْ كثرةِ ما يحملونَ عليهِ الماءَ إِلىٰ قبرِ أُمِّ عميرٍ ، قالَ : وماتَتْ أُمُّ عميرٍ ؟! قالَ : نعَم ؛ حزناً علىٰ ولدِها عميرٍ ، قالَ : وماتَ عميرٌ ؟! قالَ : نعم ؛ سقطت عليهِ الدارُ .

---

(١) لا يُقِيلُهم : لا يسقيهمُ اللبن في منتصفِ النهارِ .



[العجب من بخل أبي الأسود]

وإنّي لأتعجَّبُ كثيراً مما يصفون بهِ أبَا الأَسودِ مِن البخلِ ، مع طولِ صحبتِهِ لأميرِ المؤمنينَ ، والمرءُ مِن جليسِهِ ، وذاكَ مَن لا تزنُ عندهُ الدنيا ورقةً خضراءَ في فمِ جرادةٍ تقضمُها ، وهُوَ الذي يقولُ فيهِ معاويةُ : أَما واللهِ لو كانَ لهُ بيتٌ مِن تبنٍ وبيتٌ مِن ذهبٍ . . لنفدَ بيت ذهبِهِ قبلَ أَن ينفدَ بيتُ تِبْنِهِ ، غيرَ أَنَّ الطبيعةَ أَغلبُ ، والأَحوالَ تختلفُ ، والعادَةَ تنخرقُ ، والمسبَّباتِ كثيراً ما تتخلفُ ، فضلاً عن هـٰذا .

ولقدْ أَرادَ بعضُهم أَن يتصدَّقَ ، فغلَبَهُ طبعُهُ ، فلم يقدرْ ، مَعَ حَزْوَةٍ[1] علىٰ نفسِهِ .

[مثل البخيل والمنفق من الحديث النبوي]

وفي « الصحيح » : « مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ ثُدُيِّهِمَا إِلَىٰ تَرَاقِيهِمَا ، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ : فَلاَ يُنْفِقُ إِلاَّ سَبَقَتْ عَلَىٰ جِلْدِهِ ، حَتَّىٰ تُخْفِيَ بَنَانَهُ وتعفُوَ أَثَرَهُ ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ : فَلاَ يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئاً إِلاَّ لَزِقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مَكَانَهَا ، فَهُوَ يُوسِعُهَا فَلاَ تَتَّسِعُ »[2] .

[مثل المنفق]

وللهِ دَرُّ ابنِ الروميِّ إذ يقولُ في معنى الشقِّ الأَوَّلِ [في « ديوانهِ » ١/٣٩٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

سَجَايَا إِذَا هَمَّتْ بِخَيْرٍ تَسَرَّعَتْ … إِلَيْهِ وَإِنْ هَمَّتْ بِشَرٍّ تَنَاءَتِ

[مثل البخيل]

وفي معنى الشقِّ الثاني يقولُ الآخرُ : [مِنَ الطَّويلِ]

يُعَالِجُ نَفْساً بَيْنَ جَنْبَيْهِ كَزَّةً … إِذَا هَمَّ بِالْمَعْرُوفِ قَالَتْ لَهُ مَهْلاَ[3]

وقالَ بعضُ العربِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَدُونَ النَّدَىٰ فِي كُلِّ قَلْبٍ ثَنِيَّةٌ … لَهَا مَصْعَدٌ حَزْنٌ وَمُنْحَدَرٌ سَهْلُ[4]

[وجوب إكرام الوافد]

وَمِمَّا يَتعَلَّقُ بوجوبِ إكرامِ الوافدِ ، ولزومِ حقِّهِ علىٰ من قصدَهُ . . ما بلغنا أَنَّ بعضَ طلبةِ الحديثِ سافر إلىٰ بلدٍ بعيدٍ للسماعِ عنْ بعضِ المشايخِ ، فلمَّا قدمَ عليهِ . . تشاغلَ عنهُ بإلقاءِ الخبزِ لكلبٍ كان عندَهُ ، فوقعَ في نفسِهِ ، فلمَّا فرغَ من إطعامِ الكلبِ ، أَقبلَ عليهِ وقالَ لهُ : ما منعَني أَن أَلتفتَ إِليكَ قبلُ ، إلاَّ أَنَّ هـٰذا الكلبَ علَّقَ أَملَه بي ، فكرهتُ أَن أَقطعَهُ ، وروىٰ لهُ بسندهِ حديثَ : « مَنْ قَطَعَ رجَاءَ مَنِ ارْتَجَاهُ . . قَطَعَ اللهُ مِنَ الْجَنَّةِ رَجَاءَهُ »[5] .

---

(١) الحَزوةُ : حرقةٌ في الحلقِ والصدرِ والرأسِ مِنَ الوجعِ والغيظِ .

(٢) أخرجهُ عن أبي هريرة رضيَ اللهُ عنهُ بنحوهِ البخاريُّ (٥٧٩٧) في اللباس ، ومسلمٌ (١٠٢١) في الزكاةِ .

(٣) كزَّةٌ : صلبةٌ .

(٤) الثنيَّةُ : العَقَبَةُ .

(٥) ذكره الإمامُ العجلونيُّ في « كشفِ الخفاءِ » (٢٥٧٣) وقالَ : عزاهُ بعضُهم للإمامِ أحمدَ عن أبي هريرةَ مرفوعاً ، لكن قالَ السخاويُّ : هوَ مختلقٌ على الإمامِ أحمدَ .



واللهُ أَعلمُ بحالِ هٰذا الحديثِ ، ولكنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم يكرمُ الوفودَ ، ويقولُ : « **أَجِيزُوا الْوَفْدَ بِمِثْلِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُ** »[1] .

[تأثير الأخفاف والحوافر في الحصىٰ عند الشعراء]

أَمَّا ما يذكرُهُ الشعراءُ من تأْثيرِ الأَخفافِ والحوافرِ بالحصىٰ . . فإِنَّه لاَ يُحصىٰ كثرةً ، ومنهُ قولُ امرىءِ القيسِ [في « ديوانه » ٨٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

كَـأَنَّ الْحَصَـىٰ مِـنْ خَلْفِهَـا وَأَمَـامِهَـا ... إِذَا نَجلَتْـهُ رِجْلُهَـا خَـذْفُ أَعْسَـرَا[2]

كَـأَنَّ صَلِيـلَ الْمَـرْوِ حِيـنَ تُشِـذُّهُ ... صَلِيـلُ زُيُـوفٍ يُنْتَقَـدْنَ بِعَبْقَـرَا[3]

وقولُ عنترةَ [في « ديوانه » ٥٩] : [مِنَ الكاملِ]

خَطَّـارَةٌ غِـبَّ السُّـرَىٰ زَيَّـافَـةٌ ... تَطِـسُ الإِكَـامَ بِـذَاتِ خُـفٍّ مِيثَـمِ[4]

وقولُ الحُطيئَةِ [في « ديوانه » ٦٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَتَـرْمِي يَـدَاهَا بِالْحَصَـىٰ خَلْفَ رِجْلِهَا ... وَتَـرْمِـي بِـهِ الـرِّجْـلاَنِ دَابِـرَةَ الْيَـدِ[5]

وقولُ شريحِ بنِ الحارثِ يمدحُ حبيبَ بنَ مسلمةَ الفهريَّ صاحبَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ورضيَ اللهُ عنهُ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ كُـلُّ مَـنْ يُـدْعَـىٰ حَبِيباً وَلَـوْ بَـدَتْ ... مُـرُوءَتُـهُ يَفْـدِي حَبِيـبَ بَنِـيْ فِهْـرِ

هُمَـامٌ يَقُـودُ الْخَيْـلَ حَتَّـىٰ كَـأَنَّمَـا ... يَطَأْنَ بِرَضْرَاضِ الْحَصَىٰ حَاجِمَ الْجَمْرِ[6]

وقولُ أَبي حَزْرَةَ : [مِنَ الكاملِ]

يَـدَعُ الـرَّضِيـمَ إِذَا جَـرَىٰ فِلَقـاً ... بِتَـوَائِـمٍ كَمَـوَاسِـمٍ سُمُـرِ[7]

وقولُ طفيلِ الغنويِّ [في « ديوانهِ » ٣٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَهَصْنَ الْحَصَـىٰ حَتَّـىٰ كَـأَنَّ رُضَـاضَـهُ ... ذُرَىٰ بَـرَدٍ مِـنْ وَابِـلٍ مُتَحَلِّـبِ[8]

وقولُ الفرزدقِ [في « ديوانهِ » ٢/ ٥٧٠] : [مِنَ البسيطِ]

تَنْفِـي يَـدَاهَـا الْحَصَـىٰ فِـي كُـلِّ هَـاجِـرَةٍ ... نَفْـيَ الـدَّرَاهِـيـمِ تَنْقَـادُ الصَّيَـارِيـفِ

---

(١) أورده المباركفوري في « تحفة الأحوذي » (٦/ ٢٥٨) .

(٢) **نَجلَتْهُ** : رمَتْهُ بمناسمِها . **الخَذفُ** : الرمي . **الأَعسرُ** : الذي يعملُ بيدهِ اليسرىٰ .

(٣) **صليلُ المروِ** : صوتُ الحجارةِ . **تُشِذُّهُ** : تطيِّرُهُ . **الزيوفُ** : الدراهمُ الزائفةُ التي لا فضَّةَ فيها . **عبقرٌ** : وادٍ زعموا أَنَّهُ كثيرُ الجنِّ ، وإليه تنسبُ نفائسُ الأشياءِ وبدائعُ الفكرِ ، فيقالُ : هٰذا بساطٌ عبقريٌّ ، وهٰذا رأيٌ عبقريٌّ .

(٤) **خطارةٌ** : تخطِرُ بذنبها وتحرِّكُهُ وترفَعُهُ . **زيَّافةٌ** : سريعةٌ . **الوَطْسُ** : الضربُ الشديدُ . **ميثَمٌ** : عدَّاءٌ .

(٥) **دابرُ اليدِ** : موضعُ الحافرِ منَ اليدِ .

(٦) **الرَّضراضُ** : الحصى الصغيرُ .

(٧) **الرضيمُ** : الصخورُ العِظامُ . **السمُرُ** : شجرُ الطلحِ .

(٨) **الوهصُ** : شدَّةُ الوطءِ . **رضاضُهُ** : ما انكسرَ منهُ . **ذُرىٰ بَرَدٍ** : أَعاليهِ .

وقولُ أَبي الطَّمحانِ : [مِنَ الطَّويلِ]

تَـرُضُّ حَصَـىٰ مَعْـزَاءَ جَـوْشٍ وَأَكْمَـةٍ ... بِـأَخْفَـافِهـا رَضَّ النَّـوَىٰ بِـالْمَـرَاضِـحِ(١)

وقولُ أَبي الشِّيصِ [في « ديوانِه » ٧٣] : [مِنَ الكامِلِ]

وَعِصَـابَـةٍ صَـرَفَـتْ إِلَيْـكَ وُجُـوهَهَـا ... نَكَبَـاتُ دَهْـرٍ لِلْعُـلاَ عَضَّـاضِ

شَـدُّوا بِـأَعْـوَادِ الـرِّحَـالِ مَطِيَّهُـمْ ... مِـنْ كُـلِّ أَهْـوَجَ لِلْحَصَـىٰ رَضَّـاضِ

يَـرْمِيـنَ بِـالْمَـرْوِ الطَّـرِيـقَ وَتَـارَةً ... يَحْـذِفْـنَ وَجْـهَ الأَرْضِ بِـالـرَّضْـرَاضِ

وقولُ ابنِ دريدٍ : [مِنَ الرَّجزِ]

يَـرُضُّ بِـالْبِيـدِ الْحَصَـا فَـإِنْ رَقَـىٰ ... إِلَـى الـرُّبَـىٰ أَوْرَىٰ بِهَـا نَـارَ الْحِبَـا

وقولُ ابنِ المعتزِّ : [مِنَ الكامِلِ]

وَكَـأَنَّمَـا نَقَشَـتْ حَـوَافِـرُ طِـرْفِـهِ ... لِلنَّـاظِـرِيـنَ أَهِلَّـةً فِـي الْجَلْمَـدِ(٢)

وقولُ أَبي تمَّام [في « ديوانِه » ٢/ ٢٦٧] : [مِنَ البسيطِ]

فَلَـوْ تَـرَاهُ مُشِيحـاً وَالْحَصَـىٰ فِلَـقٌ ... تَحْـتَ السَّنَـابِـكِ مِـنْ مَثْنَـىٰ وَوُحْـدَانِ(٣)

[تأثيرها عند المتنبي]

وقد تكرَّرَ المعنىٰ وما يقاربهُ في « **ديوانِ النَّاظمِ** » ، فمنهُ **قولُهُ** [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٦٦] : [مِنَ المنسرحِ]

أَوَّلَ حَـرْفٍ مِـنِ اسْمِـهِ كَتَبَـتْ ... سَنَـابِـكُ الْخَيْـلِ فِـي الْجَـلاَمِيـدِ(٤)

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٧٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا اللَّيْـلُ وَارَانَـا أَرَتْنَـا خِفَـافُهَـا ... بِقَدْحِ الْحَصَىٰ مَا لاَ تُـرِينَـا الْمَشَـاعِـلُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٧] : [مِنَ الوافرِ]

مَشَـىٰ الأُمَـرَاءُ حَـوْلَيْهَـا حُفَـاةً ... كَـأَنَّ الْمَـرْوَ مِـنْ زِفِّ الـرِّئَـالِ(٥)

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٨٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَمَـاشَـىٰ بِـأَيْـدٍ كُلَّمَـا وَافَـتِ الصَّفَـا ... نَقَشْـنَ بِـهِ صَـدْرَ الْبُـزَاةِ حَـوَافِيَـا(٦)

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٢٩] : [مِنَ الوافرِ]

إِذَا وَطِئَـتْ بِـأَيْـدِيهَـا صُخُـوراً ... يَفِئْـنَ لِـوَطْءِ أَرْجُلِهَـا رِمَـالاَ(٧)

---

(١) **المراضحُ** : جمع مِرضاحٍ ، وهوَ الحجرُ الذي يُرضَحُ ـ أي يكسرُ ـ به النوىٰ . **معزاءُ** : أرضٌ معزاء ؛ أي : شديدةٌ صلبةٌ .

(٢) **الطِّرْفُ** : بكسر الطاء : الكريمُ مِنَ الخيلِ . **الجَلْمَدُ** : الصخرُ .

(٣) **السنابك** : مفردُهُ سنبكٌ ، طرفُ الحافرِ . **المشيحُ** : أشاحَ بوجههِ أعرضَ متكرِّهاً .

(٤) **الجلاميدُ** : الصخورُ والحِجارُ .

(٥) **المروُ** : حجارةٌ برَّاقةٌ ، يكونُ فيها النارُ . **الزِّفُّ** : صغار الريشِ . **الرئالُ** : جمعُ رَأْلٍ ، وهوَ ولدُ النعامِ .

(٦) **الصفا** : الصخرُ . **البُزاةُ** : جمعُ بازٍ . **حوافياً** : جمعُ حافٍ .

(٧) **يَفِئْنَ** : يعدنَ .

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٥٩] : [مِنَ الكامِلِ]

أَرَكَـائِـبَ الأَحْبَـابِ إِنَّ الأَدْمُعَـا تَطِسُ الْخُـدُودَ كَمَـا تَطِسْـنَ الْيَـرْمَعَـا[1]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٢٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَلْمُـومَـةٌ سَيْفِيَّـةٌ رَبَعِيَّـةٌ يَصِيحُ الْحَصَىٰ فِيهَا صِيَاحَ اللَّقَالِقِ[2]

[القول في تأثير أقدامه صلى الله عليه وسلم في الصخر]

وإذا انتهى الكلامُ إلىٰ هنا في الموضوعِ . . فقدْ يُسأَلُ عمَّا يأْتي ذِكرُهُ في المدائحِ النَّبويَّةِ بكثرةٍ ، مِنْ لينِ الصَّخرِ لأَقدامِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وتأْثيرِها فيهِ إذا مشىٰ عليهِ ، وأَرجو أَنْ لا يُعَدَّ مِنْ سوءِ الأَدبِ علىٰ حضرتِهِ الشَّريفةِ ومقامِهِ الكريمِ . . قرنُهُ إلىٰ ما سبقَ ، لاختلافِ الأَلوانِ والجهاتِ ، ولأَنَّ القصدَ الفائدةُ لَيسَ غيرُ ، فنقولُ في الجوابِ عنهُ : ما قالهُ السُّيوطيُّ : مِنْ أَنَّهُ لَمْ يقفْ لَهُ علىٰ أَصلٍ ولا سَنَدٍ ، ولا رأَىٰ مَنْ خرَّجَهُ في شيءٍ مِنْ كتبِ الحديثِ .

[أثر قدمي إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الحجر]

وأَمَّا أَثَرُ قَدَمَي إِبْراهيمَ [عليه الصلاة والسلام] في الحَجَرِ الَّذي كانَ يبني عليهِ البيتَ ، وأَنَّه المَقامُ : فقدْ وردَ ذلكَ ، أَخرجهُ الأَزرقيُّ في « **تاريخِ مكَّةَ** » مِنْ طريقِ أَبي سعيدٍ الخُدريِّ ، عَنْ عبدِ اللهِ بنِ سلامٍ ـ رضيَ اللهُ عنهُما ـ موقوفاً عليهِ بسندٍ صحيحٍ .

وأَخرجَهُ عبدُ بنُ حُميدٍ في « **تفسيرِهِ** » عَنْ قَتادةَ . وأَخرجهُ أَيضاً عَنْ عِكرمةَ ، وقد أَفضْتُ القولَ فيما يتعلَّقُ بهِ في « **حاشِيَتي على الشمائِلِ** » ، وبما أَنَّ ما بقيَ مِنْ أَوراقِها عَنِ الأَرَضَةِ[3] . . مُبَعْثَراً ، فاستئنافُ النَّظرِ فيها يُكلِّفُ تعَباً ، ويستغرِقُ وقتاً ، وفيما ذكرناهُ الكفايةُ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٨] : [مِنَ البسيطِ]

وَضَـاقَـتِ الأَرْضُ حَتَّـىٰ إِنَّ هَـارِبَهُـمْ إِذَا رَأَىٰ غَيْـرَ شَـيْءٍ ظَنَّـهُ رَجُـلَا

[الدفاع عن المتنبي]

أَكثرُ الناسِ على استهجانِ هـٰذا البيتِ ، وما يكثرونَ بهِ في انتقادِهِ ليسَ عندي بالمقبولِ ، ووجهُ الأَخذِ عليهِ أَنَّ غيرَ الشيءِ معدومٌ ، والمعدومُ ليسَ بشيءٍ ، وهُوَ أَخذٌ يسيرٌ ، يمكنُ دفعهُ :

أولاً : بأَنَّ طائفةً من المعتزلَةِ والفلاسفةِ . . ذَهبوا إلىٰ أَنَّ المعدومَ شيءٌ بمعنىٰ أَنَّهُ حقيقةٌ متقرِّرَةٌ في الخارجِ بحجتينِ :

---

(١) **تطِسُ** : تدقُّ . **اليرمَعُ** : حجارةٌ بيضٌ صغارٌ رخوةٌ .

(٢) **الملمومةُ** : الكتيبةُ المجتمعةُ . **سيفيَّةٌ** : منسوبة إلىٰ سيف الدولة . **ربَعيَّةٌ** : منسوبةٌ إلىٰ ربيعةَ ، وهيَ قبيلةُ سيفِ الدولةِ . **اللقالقُ** ـ جمع لقلقٍ ـ : وهو طائرٌ كبيرٌ ، يسكنُ العمرانَ في أرضِ (العراق) .

(٣) **الأَرَضَةُ** : نوعٌ مِنَ الدُّودِ الصغارِ تأْكلُ الأَشياءَ ، ومنها الأوراق .

بقولِهِ جلَّ شأنُهُ : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل : ٤٠] ، وَبِأَنَّ المعدومَ معلومٌ متميِّزٌ ، وكلُّ متميزٍ ثابتٌ ، فالمعدومُ ثابتٌ .

وثانياً : بأَنَّ المرادَ مِن الرؤيةِ التوهُّمُ ، فكثيراً ما تتراءَىٰ للخائفِ وغيرِهِ أَشباحٌ من غيرِ حقيقةٍ ، وذلكَ الذي يريده أَبو الطيِّبِ ، وقد أَلمَّ فيهِ بقولِ جريرٍ : [مِنَ الكامل]

مَـا زَالَ يَحْسَـبُ كُـلَّ شَـيْءٍ بَعْـدَهُـمْ   خَيْـــلاً تَكُــرُّ عَلَيْهِـــمُ وَرِجَـــالاَ

[الخوف بقطع الجوف]

وهوَ مِن قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [المنافقون : ٤] كذا قلتُهُ ـ واللهِ ـ من أَوَّلِ وهلةٍ عندَ اقتراءِ البيتِ ، ثمَّ رأَيتُ الشارحَ ذكرَ مثلَهُ عَنِ الأخطلِ ، فَسَرَّني مِنْ نَفْسي ، وقد تكرَّرَ ما يشبهُهُ في « **ديوانِهِ** » منهُ **قولُه** [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٤٤] : [مِنَ المتقارب]

يَـرَوْنَ مِـنَ الـذُّعْـرِ صَـوْتَ الـرِّيَـاحْ   صَهِيـــلَ الْجِيَـــادِ وَخَفْـــقَ الْبُنُـــودْ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٤١٩] : [مِنَ البسيط]

حَيْرَانَ يَحْسَبُ سَجْفَ النَّقْعِ مِنْ دَهَشٍ   طَـوْداً يُحَـاذِرُ أَنْ يَنْقَـضَّ أَوْ جُـرُفَـا[1]

وقالَ يصفُ جباناً [في « ديوانه » ١/ ١٠٢] : [مِنَ البسيط]

مُـوَكَّـلٌ بِيَفَـاعِ الأَرْضِ يَشْـرُفُهَـا   مِنْ خِفَّةِ الخَوْفِ لاَ مِنْ خِفَّةِ الطَّرَبِ[2]

وقالَ الآخرُ : [مِنَ الطَّويل]

لَقَـدْ خِفْـتُ حَتَّـىٰ لَـوْ تَمُـرُّ حَمَـامَـةٌ   لَقُلْـتُ : عَـدُوٌّ أَوْ طَلِيعَـةُ مَعْشَـرِ

وقالَ لَبيدٌ [في « ديوانه »] : [مِنَ الطَّويل]

كَـأَنَّ بِـلاَدَ اللهِ وَهْـيَ عَـرِيضَـةٌ   علَـى الْخَـائِـفِ الْمَطْلُـوبِ كِفَّـةُ حَـابِـلِ[3]

[قصة المنزوف ضرطاً]

وكانَ مِن حديث المنزوفِ ضرطاً [كما في « مجمع الأمثال » ١/ ١٨٠] : أَنَّ امرأَةً مِنَ العربِ تزوَّجَتْ برجلٍ ينامُ إِلى الضُّحىٰ ، فكانت تأْتيهِ معَ صواحبَ لهُ بصبوحِهِ[4] فتقولُ لهُ : قُم فاصطَبِحْ ، فيقولُ : لو لعادِيَةٍ تنبِّهيني ، فنبَّهَتْهُ مرَّةً وقالَتْ لَهُ : هٰذهِ نَواصي الخيلِ ، فجعلَ يقولُ : (الخيلُ الخيلُ) ويَضْرِطُ حتَّىٰ ماتَ فَرَقاً ، فضربَ بهِ المثلُ .

[رواية أخرىٰ للقصة]

وقيلَ [كما في « مجمع الأمثال » ١/ ١٨٠] : إِنَّما هيَ دخْتَنوس بِنْتُ لقيط بنِ زرارَةَ كانَتْ تحتَ عمرِو بنِ عمرٍو وهُوَ شيخٌ أَبرصُ ، نامَ يوماً في حجرِها ، فجخفَ[5] ، وسالَ لعابُهُ ، فرفعَ رأْسَهُ وهيَ تُؤَفِّفُ ، فقالَ : تحبينَ أَنْ أُطلقَكِ ؟

---

(١) **سجفُ النقع** : سترُ الغبار . **الطودُ** : الجبلُ . **الدَّهَشُ** : الخوفُ . **الجُرُفُ** : ما تجرفهُ السيولُ وتأْكلهُ مِنِ الأرضِ .

(٢) **اليفاعُ** : ما ارتفعَ من الأرضِ . **يشرفهُ** : يعلوهُ .

(٣) **الكِفَّةُ** : حبالةُ الصائدِ . **الحابلُ** : الذي يصيدُ بالحبال .

(٤) **الصَّبوحُ** : اللبنُ الذي يُحلبُ بالغداةِ .

(٥) **الجخيفُ** : صوتٌ يخرجُ من الجوفِ ، أَشدُّ منَ الغطيطِ .



قالَتْ : نعم ، فنكحها رجلٌ جسيمٌ جميلٌ ، واسمه عميرُ بنُ عمارةَ بنِ معبدِ بنِ زرارةَ ، وبعقبِ ذلكَ أغارَتْ بكرٌ على بني دارِمٍ ، وكانَ زوجُها نائماً فنبهتهُ تظُنُّ بهِ خيراً ، فلمْ يزلْ يحبقُ[1] حتَّىٰ مات خوفاً ، وأُخِذَتْ دختنوس فركبَ في أثرِها عمرُو بنُ عمرٍو ولحقَ بالقومِ ، وأَثخنَ فيهِم ، قتلَ أربعةَ أَو ثلاثةً ، واسترجَعَها مِنْهُم ، وقالَ لَها :

أَيَّ خَلِيلَيْــــكِ وَجَــدْتِ خَيْــراً   أَأَلْعَظِيــــمُ فَيْشَــــةً[2] وَأَيْــراً

أَمِ الَّذِي يَأْتِي الْعَدُوَّ سَيْراً ؟!!

[القتال في النوم]

وقالَ الحجَّاجُ لحميدِ الأَرقطِ ـ وقد أَنشدَ قصيدةً يصفُ فيها الحربَ ـ : يا حميدُ ، هل قاتلتَ قطُّ ؟ قالَ : نعم ، مرَّةً في النومِ ، قالَ : وكيفَ كانَتْ وَقعَتُكَ ؟ قالَ : انتبهتُ وأَنا منهزمٌ .

[أسرع من الغزال في الفرار]

وقالَ بعضُهم : [مِنَ الوافرِ]

وَفِــي الْهَيجَــاءِ مَــا جَــرَّبْــتُ نَفْسِـي   وَلَكِــنْ فِــي الْهَــزِيمَــةِ كَــالْغَــزَالِ

وكفىٰ بذلكَ تجربةً ، إِذ كيفَ يصبرُ للهيجاءِ مَن كانَ بتلكَ المثابةِ من فراغِ الجوفِ .

[العطب مقرون بالشجاعة]

وقالَ أَبو الغمرِ : [مِنَ البسيطِ]

بَــاتَــتْ تُشَجِّعُنِي عِــرْسِــي وَقَــدْ عَلِمَــتْ   أَنَّ الشَّجَــاعَــةَ مَقْــرُونٌ بِهَــا الْعَطَــبُ
لِلْحَــرْبِ قَــوْمٌ أَضَــلَّ اللهُ سَعْيَهُــمُ   إِذَا دَعَتْهُــم إِلَــىٰ مَكْــرُوهِهَــا وَثَبُــوا
وَلَسْــتُ مِنْهُــمْ وَلاَ أَهْــوَىٰ فِعَــالَهُــمُ   لاَ الْجِــدُّ يُعْجِبُنِــي مِنْهُــمْ وَلاَ اللَّعِــبُ

[قتلة واحدة خير]

وأُتِيَ الحجَّاجُ برجلٍ من أَصحابِ ابنِ الأَشعثِ فقالَ لهُ : أَسأَلُكَ أَن تقتُلَنِي وتخلِّصَني ، فقالَ لَهُ الحجَّاجُ : لِمَ ؟ فقالَ : إِنِّي أَرَىٰ كلَّ ليلةٍ في المنامِ أَنَّكَ تقتلُني ، وقَتلةٌ واحدةٌ خيرٌ ، فضحِكَ وخلَّىٰ لَهُ سبيلَهُ .

[الغضب في الحياة خير من الرضا في الممات]

وقيلَ لأَسلمَ بنِ زرعةَ : إِنِ انهزمتَ من أَصحاب مِرداسٍ . غَضِبَ عليكَ عبيدُ اللهِ بنُ زيادٍ ، قالَ : لأَن يغضبَ عليَّ وأَنا حيٌّ ، خيرٌ من أَنْ يرضىٰ عَنِّي وأَنا ميْتٌ .

[ليس لي غير رأسي]

قالَ بعضُهُم [كما في « ديوان الحماسة » ٢/ ٣٩٤] : [مِنَ الوافرِ]

يَقُــولُ لِــيَ الأَمِيــرُ بِغَيْــرِ نُصْــحٍ   تَقَــدَّمْ حِيــنَ جَــدَّ بِنَــا الْمِــرَاسُ[3]
وَمَــا لِــي إِنْ أَطَعْتُــكَ مِــنْ حَيَــاةٍ   وَمَــا لِــي بَعْــدَ هَــٰذا الــرَّأْسِ رَاسُ

---

(١) حبَقَ : أخرجَ ريحَ الحدَث مع صوتٍ .
(٢) الفَيْشَةُ : رأسُ الذكرِ .
(٣) المِراسُ : الشِّدَّةُ في القتالِ .



[روح بن عدي يأمر أبا دلامة للخروج في القتال]

وآلى المنصورُ ليُخرجنَّ أَبا دُلامةَ للحربِ ، وأَلحقهُ برَوْحِ بنِ عديٍّ بنِ حاتمٍ المهلبيِّ لقتالِ الشُّراةِ[1] ، فلمَّا التقى الجمعانِ . . خرجَ واحدٌ من صفِّ الشُّراةِ يطلبُ البرازَ ، فقالَ لهُ رَوحٌ [كما في « وفيات الأعيان » ٢/٣٢٣] : اخرجْ إليهِ ، فقالَ : [مِنَ البسيطِ]

إِنِّـي أَعُـوذُ بِـرَوْحٍ أَنْ يُقَـدِّمَنِـي ... إِلَـى الْقِتَـالِ فَتَخْـزَىٰ بِـي بَنُـو أَسَـدِ
إِنَّ الْبِـرَازَ إِلَـى الأَقْـرَانِ أَعْلَمُـهُ ... مِمَّـا يُفَـرِّقُ بَيْـنَ الـرُّوحِ وَالْجَسَـدِ
إِنَّ الْمُهَلَّـبَ حُـبَّ الْمَـوْتِ أَوْرَثَكُـمْ ... وَمَـا وَرِثْـتُ اخْتِيَـارَ الْمَـوْتِ عَـنْ أَحَـدِ
لَـوْ أَنَّ لِـي مُهْجَـةً أُخْـرَىٰ لَجُـدْتُ بِهَـا ... لَكِنَّهَـا خُلِقَـتْ فَـرْداً فَلَـمْ أَجُـدِ

فضحكَ وأَعفاهُ . وفي القصَّةِ طولٌ ونادرةٌ مشهورةٌ[2] .

[إياك أن تفرِّط بالغالي]

وقالَ زفرُ بنُ الحارثِ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ لاَ تَلُـومَـانِـي عَلَـى الْجُبْـنِ إِنَّنِـي ... أَخَـافُ عَلَـىٰ فَخَّـارَتِـي أَنْ تَحَطَّمَـا
وَلَـوْ أَنَّنِـي أَبْتَـاعُ فِـي السُّـوقِ مِثْلَهَـا ... إِذا شِئْـتُ مَـا بَـالَيْـتُ أَنْ أَتَقَـدَّمَـا

[ليس الإقدام شجاعة في كل حين]

وقالَ معاويةُ يوماً : لقد علمَ الناسُ أَنَّ الخيلَ لا تجري بمِثْلي ، فكيفَ قالَ النجاشيُّ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَنَجَّـى ابْـنَ حَـرْبٍ سَـابِـحٌ ذُو عُـلاَلَـةٍ ... أَجَـشُّ هَـزِيـمٌ وَالـرِّمَـاحُ دَوَانِـي[3]

فقالَ لهُ ابنُ العاصِ : أَعياني ، شجاعٌ أَنتَ أَم جَبانٌ ؟ فقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

شُجَـاعٌ إِذا مَـا أَمْكَنَتْنِـي فُـرْصَـةٌ ... فَـإِنْ لَـمْ تَكُـنْ لِـي فُـرْصَـةٌ فَجَبَـانُ

[من بلاغة العرب تحسينهم كل شيء حتى الفرار]

ومِن بلاغةِ العربِ : أَنْ حَسَّنوا كلَّ شيءٍ ، حتَّى الفرارَ ، ومهَّدوا عنهُ الاعتذارَ ، وفي « **بلابلِ التغريدِ** » جملةٌ صالحةٌ منهُ ، استطردْنا بها في حديثِ بدءِ الوحيِ ، بمناسبةِ سؤَالِ الحارثِ بنِ هشامٍ عن كيفيَّتِهِ .

وقالَ نعيمٌ التميميُّ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـإِنْ يَـكُ عَـاراً يَـوْمَ فَلْـجٍ أَتَيْتُـهُ ... فِـرَارِي فَـذَاكَ الْجَيْـشُ قَـدْ فَـرَّ أَجْمَـعُ[4]

---

(١) **الشُّراةُ** : ويقالُ : الشُّرى : اسمٌ اتَّصلَ بالخوارجِ ، حيث قالوا : نحن الشراة لقوله عز وجل : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٠٧] ، وهوَ عندَهم لقبُ جماعةٍ تتألَّفُ مِن أَربَعينَ رَجلاً أَو أكثرَ تكونُ إلىٰ جانبِ الأئمَّةِ ؛ مهمَّتُها بادىءَ الأمرِ امتحانُ الأئمَّةِ بما يستدلُّونَ به علىٰ سرائرِهم وخفاياهم ، فيُرَجِّحونَ للإمامةِ مَنْ هوَ أَهلٌ لَها ، وبعدَ البَيعةِ يفرضونَ على الإمامِ رقابتَهم ، ويُسْدُون له النصيحةَ ، ويُشيرونَ عليهِ باتخاذِ ما يرونَهُ مناسباً مِنَ القراراتِ ، فهُم أَهلُ حَلٍّ وعقدٍ ، وهم أيضاً أصحابُ شورىٰ .

(٢) والقصَّةُ ذكرهَا ابنُ خَلِّكَانَ في « وفيات الأعيان » (٢/٣٢٣) .

(٣) **السابحُ** : الفرسُ الشديدُ العَدوِ . **العُلالَةُ** : بقيَّةُ سيرِ الفرسِ ، وهيَ أَشدُّ ما يكونُ مِن عَدْوِهِ . **الأجشُّ** : الغليظُ الصَّهيلِ ، وهوَ مِمَّا يُحمدُ في الخيلِ . **الهَزِيمُ** : الشديدُ الصَّوتِ .

(٤) **فلجٌ** : اسم موضع بـ(اليمنِ) من مساكن عاد .



وقالَ ثعلبةُ الباهليُّ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـلاَ تَعْـذُلاَنِـي فِـي الْفِـرَارِ فَـإِنَّمَـا ... فَـرَرْتُ لِمَـا قَـدْ فَـرَّ قَبْلِـيَ عَـامِـرُ
فَـإِنْ لَـمْ أُعَـوِّدْ نَفْسِـيَ الْكَـرَّ بَعْـدَهَـا ... فَـلاَ وَأَلَـتْ نَفْـسٌ عَلَيْهَـا أُحَـاذِرُ[1]

[صور عن الذين فروا]

وقولُهُ : (قد فرَّ قَبلي) يعني بهِ : عامرَ بنَ الطفيلِ ، فقد فرَّ عن أخيهِ يومَ الرقمِ .

كما هربَ عُيينةُ والسيوفُ تنوشُ أَباهُ يومَ السَّنابرِ .

وتولَّىٰ بسطامُ بنُ قيسٍ عن قومِهِ وقد أثخنتْهُم الحربُ يومَ العَطالىٰ .

ولم ينجُ عتيبةُ بنُ الحارثِ بنِ شهابٍ يومَ ثَبْرَةَ إلاَّ بجُرَيعَةِ الذَّقَنِ ، وكانَ قد هربَ عن ابنهِ حزرةَ ـ وهوَ بِكْرُهُ ـ فقتلتهُ بنو تغلبَ .

وما من شجاعٍ إلاَّ ذُكِرَتْ لهُ فرَّةٌ ، وأُحصيَتْ عليهِ هفوةٌ ، لا أَستَثْني أَحداً بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . إلاَّ عليَّ بنَ أَبي طالبٍ رضوانُ اللهِ عليهِ .

[عوانة بن زيد يراود جارية عن نفسها ، ولكنها تربطه بوتر قوسه]

وخرجَ عوانةُ بنُ زيدٍ يوماً يتصيَّدُ علىٰ فرسِهِ ، فعرضَتْ لَهُ جاريةٌ تحملُ وَطْباً[2] من لَبَنٍ ، فهَمَّ بِها ، ودَنا منْها ، وقالَ : تُمَكِّني طائِعةً أَو مُكرهةً ، قالَتْ : لا يكونُ شيءٌ مِن ذلكَ ، فلمَّا رأَتْ منهُ الجِدَّ . . أَخذَتْ ساعدَيهِ تعصرُهُما ، لا يدفعُ عن نفسِهِ ، حتَّىٰ تركتْهُ لا يستَطيعُ أَنْ يحرِّكَهُما ، ثمَّ كَتَّفَتْهُ بوترِ قوسِهِ ، وشدَّتْ حَبْلَ الفرسِ في جيدِهِ ، وأَقبلَتْ بهِ تقودُهُ ، حتَّىٰ شارفَ الحيَّ ، فبَصُر بجندبِ بنِ العنبرِ ـ وهوَ لهُ منافسٌ ـ فناداهُ : أَيُّها المرءُ . . أُنصر أخاكَ ظالماً أَو مظلوماً ، فأَطلقَهُ معَها ، وقالَ لها : اذهبي لِطيَّتِكِ[3] ، في حديثٍ طويلٍ استوفاهُ الميدانيُّ [في « مجمع الأمثال » ٢/ ٣٣٤] في الكلامِ علىٰ قولِهِ (أُنصُرْ أَخَاكَ) إلىٰ آخرِهِ .

[حنين امرأة إلىٰ زوجها الأول ورجولته]

ويُذكرُ : أَنَّ بعضَ العربِ تزوَّجَ امرأَةً ، فبَيْنا هوَ مَعَها في ذلكَ العَمَلِ مِنْ بَطْنِ وادٍ ، إِذْ عَنَّ لَهم فأْرٌ أَزعجَهُ ، واندهشَ لَهُ ، ثمَّ قامَ يطارِدُهُ حتَّىٰ أَعياهُ ، ولَم يقدِرْ عليهِ ، ثمَّ عادَ إلى المرأَةِ فلم ينتفع بنفسِهِ ، فتأَوَّهَتْ حتَّىٰ كادتْ تنقدُّ أَضلاعُها ، كما عَناها ذو الرُّمَّةِ بقولِهِ [في « ديوانه » ١/ ٣٨١] : [مِنَ البسيطِ]

يَعْتَـادُنِـي زَفَـرَاتٌ حِيـنَ أَذْكُـرُهَـا ... تَكَـادُ تَنْقَـدُّ مِنْهُـنَّ الْحَيَـازِيـمُ

نسأَلها عَنْ ذلكَ فلم تخبرهُ ، حتَّىٰ أَلحَّ عليها ، فقالَتْ : كُنتُ معَ زَوجي الأَوَّلِ علىٰ مثلِ ما كنتُ معكَ عليهِ قبلُ ، إذ طلعَ أَسدٌ ، فنهضَ لَهُ وقدّه نصفينِ ، ثمَّ عادَ لعمَلِهِ ، وأَتَمَّ وطرَهُ ، كأَنْ لم يزعجْهُ شيءٌ .

---

(١) وأَلتْ : لجأَتْ وطلبتِ النجاةَ .
(٢) الوطْبُ : سقاءُ اللبنِ ، وهو جلد الجَذَعِ فما فوقَه .
(٣) الطيَّةُ : الوطنُ والمنزلُ .



[ماءٌ ولا كصداء ، ومرعىً ولا كالسعدان]

ويُروىٰ [بنحوه في « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » ١/ ٢٠١] : أَنَّ أَعرابيَّةً نزلَتْ معَ زوجِها في ظلِّ سرحةٍ من بطنِ وادٍ ، فتأوَّهت ، فقالَ : مَهيمْ[١] ؟ قالَتْ : كنتُ مع سابقِكَ هُنا ، فإذا ليثٌ يزْأَرُ قد كشَّرَ عَن أنيابِهِ ، فما زالَ يصاوِلُهُ حتَّىٰ أَرداهُ ، ثمَّ عادَ وشمَّني شمَّةً ، وضمَّني ضمَّةً ، فيا لَيتني كُنْتُ مِتُّ ثَمَّ ، فما كادَتْ تُتِمُّ كلامَهَا . . حتَّىٰ أَقبلَ الأَسدُ ، فنهضَ لَه ، وصنعَ بهِ مثلَ ما صنعَ الأَوَّلُ ، علىٰ حدِّ قولِ أَبي عبادةَ [في « ديوانه » ١/ ٢١٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

حَمَلْتَ عَلَيْهِ السَّيْفَ لاَ عَزْمُكَ انْثَنَىٰ   وَلاَ يَدُكَ ارْتَدَّتْ وَلاَ حَدُّهُ نَبَا

ثمَّ عادَ وشمَّها وضمَّها ، وقالَ لَها : أَينَ هٰذهِ مِن تلكَ ؟ فقالَت : ماءٌ ولا كَصدَّاء[٢] ، ومَرعىً وَلا كالسَّعدانِ[٣] ، فطلَّقَها .

* * *

---

(١) مَهْيَمْ : كلمةٌ تُقالُ في الاستفهام ، وتعني : ما حالُكَ وما شأنُكَ .

(٢) صدَّاءُ : اسم بئرٍ من أعذبِ الآبارِ ، وقولها هٰذا أضحىٰ مثلاً للإنسانِ الذي يُحمَدُ أمرُهُ أَوَّلاً ثُمَّ تنطفىءُ بعدَ ذلكَ شموعُهُ . ذكره الميداني في « الأمثال » (٣٨٤٢) .

(٣) السعدانُ : نبتٌ من أَفضلِ مراعي الإبلِ ، وهو مثل أيضاً عن العبدري في « تمثال الأمثال » (٢/ ٥٥٩) ، و« المستقصىٰ » (١٢٥٩) .



المجلس التاسع

[قالَ أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ١/ ٣١٣] : [مِنَ الخفيف]

كَمْ قَتِيلٍ ـ كَمَا قُتِلْتُ ـ شَهِيدِ ... بِبَيَاضِ الطُّلَىٰ وَحُمْرِ الْخُدُودِ

[الميت عشقاً شهيد]

يقولُ : كمْ قتيلٍ مِثْلي ببياضِ الأعناقِ وتورُّدِ الخدودِ . . كانَ قتلهُ شهادةً ، و(**الطُّلىٰ**) : الأعناقُ ، قالَ الواحديُّ : وجَعْلُ قتيلِ العشقِ شهيداً . . من قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : « **مَنْ عَشِقَ** ، **وَعَفَّ** ، **وَكَتَمَ** . **كَانَ شَهِيداً** » ، وقد سبقَ ـ في المجلسِ الثاني ـ بعضُ ما يتعلَّقُ بهـٰذا الحديثِ في شرحِ **قولِ الناظم** [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٩٨] : [مِنَ المنسرح]

يَا عَاذِلَ الْعَاشِقِينَ دَعْ فِئَةً ... أَضَلَّهَا اللهُ كَيْفَ تُرْشِدُهَا

ونزيدُ هُنا ، أَنَّ الحافظَ علاءَ الدينِ أَبا عبدِ اللهِ مغلطايَ قالَ : هـٰذا حديثٌ إسنادُهُ صحيحٌ ، وإنْ كانَ جماعةٌ مِنَ العلماءِ أعلُّوهُ بما ليسَ بعلَّةٍ يُرَدُّ بها .

[الاختلاف في قتيل العشق عند الفقهاء]

وقدِ اختلفَ كلامُ الفقهاءِ في شهيدِ العشقِ :

فمِنهُم : من أَطلقَ الشهادةَ عليهِ مِنْ غيرِ قيدٍ .

ومنهُم : مَن اشْترطَ ما في الحديث ، وما دامَ مستندَهُم الحديثُ : فالمطلَقُ منهُم محمولٌ على المقيَّدِ ، وعبارةُ « **التحفةِ** » : وميْتٌ عشقاً لِمَنْ يَحلُّ نكاحُها ، بشرطِ العِفَّةِ والكتْمِ ، كَما في الخبرِ ، ولا يبعُدُ في عاشقِ غيرها اضطِراراً أَنَّهُ شهيدٌ أَيضاً ، بل واختياراً أَيضاً إذا عفَّ وكَتَمَ . انتهىٰ .

[لا ينافي الكتم ما ينفث به الشاعر من شكوى الصدود]

ثمَّ إنَّهُ لا يُنافي الكتْمَ ما ينفثُ بِهِ الشاعِرُ مِنْ شَكوى الصُّدودِ وما أَشبهَهُ ، ولا سيَّما إذا خرجَ الأَمرُ عنِ اختيارِهِ ، ما لمْ يعيِّنْ ، قالَ في « **التحفةِ** » : ما لم يعرِّضْ بِامرأَةٍ معيَّنَةٍ ، بأَنْ يذكرَ صِفاتِها من نحوِ طولٍ وحُسْنٍ وَصُدغٍ[1] . . فيحرُمُ ؛ لِما فيهِ مِن الإيذاءِ ، وهَتْكِ السترِ ، إذا وصفَ الأَعضاءَ الباطنةَ . وَمحلُّهُ في غيرِ حليلتِهِ ، أَمَّا هِيَ : فإنْ ذكرَ مِنها ما حقُّهُ الإخفاءُ . . حرُم كما في « **شرح مسلم** » ، لكنْ جزَما بكراهتِهِ ، وإلاَّ . . فلا ؛ فقد شبَّب كعبٌ بزوجِهِ ، ولَم ينكِرْ عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم[2] .

---

(١) الصُّدغُ : هوَ الشَّعرُ المتدلِّي علىٰ ما بينَ العينِ والأُذُنِ .

(٢) وذلكَ في قصيدتهِ المشهورةِ :

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

وَمَا سُعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا ... إِلاَّ أَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ

ويقعُ لبعضِ فَسقَةِ الشعراءِ نصبُ قرائِنَ تدلُّ على التعيينِ ، وهـٰذا لا شكَّ أَنَّهُ معيَّنٌ . انتهىٰ ما أَردْتُ مِنَ الكلامِ باختصارٍ ، وفيهِ شبهُ تناقضٍ ، إذ أَوَّلهُ قاضٍ بحرمةِ التشبيبِ بالمعيَّنَةِ مطلقاً ، سواءٌ وصفَ الأَعضاءَ الباطنةَ أَم اقتصرَ على الظاهِرَةِ ، من نحوِ ما مثَّلَ بهِ مِنَ الطولِ والحسنِ والصُّدغِ ، وقولُهُ بعدَ ذلكَ : إذا وصف الأَعضاءَ الباطنةَ . . قد يخصِّصُ الحرمةَ بحالَتِئِذٍ . إلاَّ أَنْ يُقالَ : إنَّ تحريمَ التشبيبِ بالمعيَّنَةِ إنْ كانَ بالأَوصافِ الظاهرةِ . . فَلِعِلَّةِ الإيذاءِ فقط ، وإنْ كانَ بالأَوصافِ الباطنةِ . . فلعلَّةِ الإيذاءِ وهَتكِ السترِ .

[القتلى الشهداء عند الشعراء]

وقد قالَ أَبو الوليدِ الباجيُّ [كما في « تلخيص الحبير » ٢/١٤٢] : [مِنَ الوافرِ]

إذَا مَـاتَ الْمُحِـبُّ جَـوىً وَعِشْقَـا ... فَتِلْـكَ شَهَـادَةٌ يَـا صَـاحِ حَقَّـا
رَوَاهُ لَنَـا ثِقَـاتٌ عَـنْ ثِقَـاتٍ ... إلَـى الْحَبْـرِ ابْـنِ عَبَّـاسٍ تَـرَقَّـىٰ

وقالَ الحسنُ بنُ هانئٍ [أبو نواس] : [مِنْ مجزوءِ الرَّمَلِ]

وَلَقَـدْ كُنَّـا رَوَيْنَـا ... عَـنْ سَعِيـدٍ عَـنْ قَتَـادَهْ
عَـنْ سَعِيـدِ بْـنِ الْمُسَيِّـبْ ... أَنَّ سَعْـدَ بْـنَ عُبَـادَهْ
قَـالَ مَـنْ مَـاتَ مُحِبّـاً ... كَـانَ مِـنْ أَهْـلِ الشَّهَـادَهْ

ويعجبني قولُ بعضِهم : [مِنْ مجزوءِ الكاملِ]

لاَمُـوا عَلَيْـكَ وَمَـا دَرَوْا ... أَنَّ الْهَـوَىٰ سَبَـبُ السَّعَـادَهْ
إنْ كَـانَ وَصْـلٌ فَـالْمُنَـىٰ ... أَوْ كَـانَ هَجْـرٌ فَـالشَّهَـادَهْ

[أصل بيت المتنبي من قول جميل]

وبيتُ الناظمِ مأْخوذٌ مِن قولِ جميلٍ [في « ديوانه » ٦٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

لِكُـلِّ حَـدِيـثٍ بَيْنَهُـنَّ بَشَـاشَـةٌ ... وَكُـلُّ قَتِيـلٍ بَيْنَهُـنَّ شَهِيـدُ

وهُوَ البيتُ الذي فضَّلَتْهُ بهِ سُكَينةُ بنتُ الحسينِ علىٰ أَقرانِهِ ، في الحكايةِ المشهورةِ[١] .

[المتنبي وقتلى العشق]

وقد تكرَّرَ معناهُ في « ديوانِ » الناظم ، منهُ قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/٣٤٢] : [مِنَ المتقاربِ]

وَكَـمْ لِلْهَـوَىٰ مِـنْ فَتَـىً مُـدْنَـفٍ ... وَكَـمْ لِلنَّـوَىٰ مِـنْ قَتِيـلٍ شَهِيـدِ[٢]

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/٦] : [مِنَ الكاملِ]

إنَّ الْقَتِيـلَ مُضَـرَّجـاً بِـدُمُـوعِـهِ ... مِثْـلُ الْقَتِيـلِ مُضَـرَّجـاً بِـدِمَـائِـهِ

[الكلام علىٰ ديوان ابن الفارض]

أَمَّا « ديوانُ ابنِ الفارِضِ » : فَمِنْ فاتحتِهِ إلىٰ خاتِمَتِهِ يدورُ علىٰ هـٰذا المِحوَرِ ، ويُدَندِنُ حَولَ هـٰذا المقصودِ .

---

(١) والقصَّةُ في « الأَغاني » (١٦/١٧٠) .

(٢) المدنفُ : الذي لازمهُ المرضُ .

[من فوائد الحب]

وأدنىٰ ما يكونُ مِن فوائدِ الحُبِّ : أَنَّهُ يُلَطِّفُ ويُنَظِّفُ ويُظَرِّفُ ، ومتىٰ رَقَّتْ طبيعةُ الإنسانِ . . استعدَّ لقَبولِ المواعظِ الحسَنةِ ، ومتىٰ قبلَها . . تدَرَّجَ في معارِجِ السعادةِ إِلىٰ أَنْ ينتهيَ إِلى الغايَةِ التي لا أَمَدَ وراءَها . . **وهِيَ : محبَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ** ، كَما أَشرْنا إِلىٰ ذلكَ في غيرِ موضعٍ .

[العشق محمود]

فالعشقُ بأَنواعِهِ محمودُ العاقبةِ ، ما لم يقترِنْ بمحظورٍ شرعيٍّ .

[درء المفاسد مقدم علىٰ جلب المصالح]

علىٰ أَنَّ بعضَ الفقهاءِ أَفتىٰ بأَنَّه يجوزُ للعاشِقِ أَنْ يَنالَ ما دونَ الفرجِ إِذا تعيَّنَ طريقاً لِشفائِهِ ؛ فقد سُئِلَ الرمليُّ عمَّنْ عشِقَ أَجنبيَّةً ، لَو لَم يقبِّلْها . . أَدَّىٰ إِلىٰ هلاكِهِ ، فهلْ يجوزُ لهُ تقبيلُهَا ؟ ويجبُ عَلَيها تمكينُهُ ؟ وهلِ الأَمردُ كذلكَ ؟

فأَجابَ بأَنَّه : يجوزُ تقبيلُها ، بَلْ يجبُ عليهِ حيثُ قَدَرَ ؛ إِبقاءً لمهجَتِهِ ، كما يجبُ علىٰ مَنْ غصَّ بلقمةٍ إِساغَتُها بالخمرِ إِذا لَم يجِدْ غيرَها ، وكما يجبُ علىٰ مَنِ انتهىٰ بهِ العطشُ إِلى الهلاكِ . . شربُها حيثُ لم يجدْ غيرَها ، وكَما يجبُ على المضْطَرِّ أَكلُ الميتَةِ .

وقد قالَ ابنُ عبدِ السلامِ : أَجمعوا علىٰ دَفعِ أَعظمِ المفسدَتَينِ بارتكابِ أَدوَنِهما ، ويجبُ عَلَيها تمكينُهُ ، وحكمُ الأَمردِ كذلكَ ، انتهىٰ كلامُهُ باختصارٍ .

وهُوَ ظاهرٌ إِلاَّ في وجوبِ المساعدَةِ على المعشوقِ ، فإِنَّه محلُّ نظرٍ ؛ لِما في الأَمرِ مِنَ الخَطَرِ ، والرُّخْصَةُ باليقينِ منوطَةٌ ، وبالشَّهادةِ من الأَطبَّاءِ مشروطَةٌ ، وإِلاَّ في تقييدِهِ . . الإِباحةَ بخشيةِ الهلاكِ ، ولعلَّهُ بالنسبَةِ لِما هو أَكبرُ من القبلةِ مما دونَ الفرجِ ، وإِلاَّ . . فإِنَّه ليسَ بأَكبرَ من نظرِ الطَّبيبِ إِلىٰ بدنِ المريضةِ وجَسِّهِ .

وقد قالَ ابنُ حجرٍ في « **تحفتِهِ** » : يعتبرُ في الوجهِ والكفِّ أَدنىٰ حاجةٍ ، وفيما عداها مبيحُ تيممٍ ، إِلاَّ الفرجَ وقريبَهُ . . فيعتبرُ زيادةً علىٰ ذلكَ ، وهيَ أَنْ تشتَدَّ الضرورةُ ، حتَّىٰ لا يعدَّ الكشفُ لذلكَ هتكاً للمروءَةِ . انتهىٰ .

[سلوا المفتي المكي]

وذكرَ ابنُ خلِّكَانَ أَو غيرُهُ[1] : أَنَّ سائِلاً سأَلَ عطاءَ ابنَ أَبي رباحٍ عن مثلِه ، فأَجابَ بنحوِهِ ، فقالَ الشاعرُ : [مِنَ الطَّويلِ]

سَلُوا الْمُفْتِيَ الْمَكِّيَّ هَلْ فِي تَزاوُرٍ ... وَضَمَّةِ مُشْتَاقِ الْفُؤَادِ جُنَاحُ ؟

فَقَالَ : مَعَاذَ اللهِ أَنْ يُذْهِبَ التُّقَىٰ ... تَلاَصُقُ أَكْبَادٍ بِهِنَّ جِرَاحُ

[إحياء عبد من الناس واجب]

وقالَ إِسحاقُ بنُ معاذٍ المعريُّ [في « روضة المحبين » ١٠٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

سأَلْتُ إِمَامَ النَّاسِ نَجْلَ ابْنِ حَنْبَلِ ... عَنِ الضَّمِّ وَالتَّقْبِيلِ هَلْ فِيهِ مِنْ بَاسِ

فَقَالَ : إِذا جَلَّ الْعَزَاءُ فَوَاجِبٌ ... لأَنَّكَ قَدْ أَحْيَيْتَ عَبْداً مِنَ النَّاسِ

---

(١) ذكر ذلك ابن قيِّم الجوزية في كتابه « روضة المحبين » (١٠٧) ، ولم نجدها عند ابن خلِّكانَ .



[هل في وصلهن حرام]

وذكرَ الحاكمُ في « مناقبِ الشافعيِّ » ، عَنْ محمَّدِ بنِ الجهمِ ، أَنَّه قالَ : سمعتُ الربيعَ يقولُ : حضرتُ الشافعيَّ بـ(مكَّةَ) ، وقد دُفعَ إِليهِ رُقعةٌ فيها : [مِنَ الطَّويلِ]

أَقُولُ لِمُفْتِي خَيْفِ مَكَّةَ وَالصَّفَا ... لَكَ الْخَيْرُ هَلْ فِي وَصْلِهِنَّ حَرَامُ ؟
وَهَلْ فِي صَمُوتِ الْحَجْلِ مَهْضُومَةِ الْحَشَا ... عِذَابِ الثَّنَايَا إِنْ لَثَمْتُ حَرَامُ ؟[1]

فوقَّعَ عليها : [مِنَ الطَّويلِ]

فَقَالَ لِيَ الْمُفْتِي وَفَاضَتْ دُمُوعُهُ ... عَلَى الْخَدِّ مِنْ عَيْنَيْهِ وَهْيَ تُؤَامُ[2]
أَلاَ لَيْتَنِي قَبَّلْتُ تِلْكَ عَشِيَّةً ... بِبَطْنِ مِنَىً وَالْمُحْرِمُونَ قِيَامُ

[سؤال ابن نباتة لأبي الفتح السبكي]

وفي « طبقاتِ ابنِ السبكيِّ » [٩/١٨٦] : أَنَّ ابنَ نباتةَ سألَ أَبا الفتحِ السبكيَّ عمَّا يشبهُهُ ، فأَجابهُ بقريبٍ مِمَّا رويَ عمَّن سبقَ[3] .

[فيمَ بقاء المعشوق بعد العاشق]

وقالَ الجاحظُ : بلغَني أَنَّ عاشقاً ماتَ عشقاً بالهندِ ، فلمْ يكنْ مِنَ المَلكِ إِلاَّ أَنْ بعثَ إِلى المعشوقِ . . فقتلَهُ .

---

(١) الحَجْل : الخلخال . صَموتُ الحَجْلِ : لا يسمعُ لخلخالِها صوتٌ لامتلاءِ ساقِها .
(٢) تُؤَامٌ : متشابكةٌ .
(٣) كتبَ ابنُ نباتةَ إِلى الشيخِ أَبي الفتحِ ـ رحمهُ اللهُ ـ استفتاءً صورتُهُ :

يَا إِمَاماً قَالَ الْمُقَلِّدُ وَالْعَا ... لِمُ فِيهِ بِوَاجِبِ التَّفْضِيلِ
مَا عَلَى عَاشِقٍ يَقُولُ عَلَى حُكْـ ... ـمِ التَّدَاوِي بِالضَّمِّ وَالتَّقْبِيلِ
وَافِرِ الدِّينِ مَعْ بَسِيطِ اقْتِدَارٍ ... حَذِرٍ مِنْ عِقَابِ يَوْمٍ طَوِيلِ
لا كَمَنْ يَنْتَحِي بِمَعْشُوقِهِ النَّحْـ ... ـوَ فَمِنْ فَاعِلٍ وَمِنْ مَفْعُولِ

فَأَجابَهُ :

يَا مَلِيّاً بِكُلِّ فَضْلٍ جَزِيلِ ... وَعَلِيّاً بِكُلِّ وَصْفٍ جَمِيلِ
وَجَمَالاً تَجَمَّلَ الْعِلْمُ مِنْهُ ... بِصِفَاتٍ زَيْنٍ بِمَجْدٍ أَثِيلِ
جَاءَنِي دُرُّكَ الَّذِي قَلَّدَ النَّحْـ ... ـرَ بِعِقْدٍ مُنَضَّدِ التَّكْلِيلِ
فَتَعَجَّبْتُ ثُمَّ قُلْتُ : وَمَنْ يَقْـ ... ـذِفُ بِالدُّرِّ غَيْرَ بَحْرٍ أَصِيلِ
جَاءَ فِي صُورَةِ السُّؤَالِ فَقُلْ فِي ... سَائِلٍ فَضْلُهُ عَلَى الْمَسْؤُولِ
فَتَنَسَّمْتُ مِنْهُ رِيحَ شِمَالٍ ... وَتَرَشَّفْتُ مِنْهُ طَعْمَ الشَّمُولِ
وَأَتَانِي وَقَدْ فَرَغْتُ عَنِ الآ ... دَابِ وَالْحُبِّ مِنْ زَمَانٍ طَوِيلِ
فَتَوَقَّفْتُ عَنْ جَوَابٍ وَلَكِنْ ... أَمْرُ مَوْلاَيَ وَاجِبٌ بِالدَّلِيلِ
وَجَوَابُ الْهَوَى التَّسَامُحُ فِي الأَمْـ ... ـرِ فَقُلْ إِنْ أَحْبَبْتَ بِالتَّسْهِيلِ
إِنَّ مَنْ يَدَّعِي الْغَرَامَ بِظَبْيٍ ... صَادَ أَهْلَ الْهَوَى بِطَرْفٍ كَحِيلِ
قَدْ أَسَالَ الدُّمُوعَ مِنْهُ عِذَارٌ ... سَائِلٌ فِي رِيَاضِ خَدٍّ أَسِيلِ
كَامِلٌ قَدُّهُ بِشَعْرٍ مَدِيدٍ ... وَافِرٌ رِدْفُهُ بِخَصْرٍ نَحِيلِ
لَجَدِيرٌ بِكُلِّ عُذْرٍ بَسِيطٍ ... فِي التَّدَاوِي بِالضَّمِّ والتَّقْبِيلِ



[هل من سبيل إلىٰ خمر ؟ والفاروق ونصر بن الحجاج]

وكانَ ابنُ الخطَّابِ ليلةً يعسُّ بـ(المدينةِ) [كما في « مصارع العشاق » ٢/٢٦٦] . . فسمعَ امرأةً ـ هِيَ الفارعةُ أُمُّ الحجَّاجِ ، وكانتْ إذْ ذاكَ تحتَ المغيرةِ بنِ شعبةَ ـ تُغَنِّي وتقولُ : [مِنَ البسيطِ]

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَىٰ خَمْرٍ فَأَشْرَبَهَا أَمْ هَلْ سَبِيلٌ إِلَىٰ نَصْرِ بْنِ حَجَّاجِ ؟

فقالَ : أَمَّا وعمرُ حيٌّ . . فَلا ، فلمَّا أَصبحَ . . بعثَ إِلىٰ نصرِ بنِ حجَّاجٍ ، فإذا رَجلٌ جميلٌ ، فحَلَقَ رأْسَهُ ، فظهرَ لهُ وجهٌ كأَنَّهُ فلقةُ قمرٍ .

وللهِ درُّ القائلِ : [مِنَ الخفيفِ]

حَلَقُوا رَأْسَهُ لِيَكْسُوهُ قُبْحَا خِيفَةً مِنْهُمُ عَلَيْهِ وَشُحَّا

كَانَ مِنْ قَبْلِ ذَاكَ لَيْلاً وَصُبْحَا فَمَحَوْا لَيْلَهُ وَأَبْقَوْهُ صُبْحَا

فقالَ عمرُ لهُ : اخرجْ ، لا تُساكِنِّي بـ(المدينةِ) ، فخرجَ إِلى (البصرَةِ) .

[تعلق امرأة مجاشع بن مسعود بنصر بن الحجاج وتعلقه بها]

وكانَ يدخُلُ علىٰ مجاشعِ بنِ مسعودٍ [كما في « مصارع العشاق » ١/٢٧٩] ، وكانَتْ لهُ امرأَةٌ جميلةٌ ، فأَعجبَهَا نصرٌ ، وأَحبَّتْهُ وأَحبَّها ، فبينَما هُم جالسونَ . . كتبَ نصرٌ في الأَرضِ ، فقالتِ المرأَةُ : وأَنا ، فعلمَ مُجاشعٌ أَنَّها جوابُ كلامٍ ، وكانَ لا يكتبُ ، فكفأَ علَيها إِناءً ، ودَعا كاتباً ، فإِذا هُوَ : إِنِّي لأُحبُّكِ حبّاً ؛ لو كانَ فوقَكِ . . لأَظلَّكِ ، ولَو كانَ تحتَكِ . . لأَقلَّكِ ، وبلغَ نصراً ما فعلَ مجاشعٌ ، فاستَحيا ، ولزمَ البيتَ ، واعتلَّ ، وضنيَ جسمُهُ حتَّىٰ صارَ كالفرخِ ، فقالَ مجاشعٌ لامرأَتِهِ : اذهبي إِليهِ ، فأَسنديهِ إِلىٰ صدركِ ، وأَطعميهِ الطعامَ بيدِكِ ، فأَبَتْ ، فعزمَ عليها ، فأَتَتْهُ ، وأَسندتْهُ إِلىٰ صدرِها ، وأَطعمتْهُ بيدِها ، فدبَّ البُرءُ فيهِ من وقتِهِ ، حتَّىٰ قالَ بعضُ مَنْ حضرَ : قاتلَ اللهُ الأَعشىٰ إِذْ يقولُ [في « ديوانه » ١٥٢] : [مِنَ السَّريعِ]

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتاً إِلَىٰ صَدْرِهَا عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَىٰ قَابِرِ

ثمَّ اختلفتِ الروايةُ ، فقيلَ : إِنَّهُ تماثلَ وخرجَ مِنَ (البصرةِ) ، وقيلَ : إِنَّهُ عاودهُ المرضُ بعدَ انصرافِها ، ولَمْ يزلْ لِما بِهِ حتَّىٰ ماتَ ، وفي الخبرِ طولٌ ، وموضعُ الشاهدِ منهُ : هُوَ أَنَّه يباحُ مثلُ ما فعلَهُ [مُجاشِعُ] بنُ مسعودٍ عندَ الضرورةِ ، إِذا تعيَّنَ طريقاً للدواءِ ، كما مرَّ .

[بعض أهل الأدب والإمام مالك]

وجاءَ بعضُ أَهلِ الأَدبِ إِلىٰ إِمامِ دارِ الهجرةِ ، فقالَ لهُ : اجعلني في حلٍّ مِنْ أَبياتٍ قلتُها وذكرتُكَ فيها ، فتغيَّرَ وجهُ الإِمامِ وظنَّ أَنَّه هجاهُ ، وأَحلَّهُ معَ ذلكَ ، ثمَّ استنشدَهُ الأَبياتَ ، فإِذا هيَ تشبهُ ما سبقَ عنِ الشافعيِّ لفظاً ومعنىً ، فسُرِّيَ عنهُ[1] .

---

(١) الرجلُ الذي أَتى الإِمامَ مالكاً ـ رحمهُ اللهُ تعالىٰ ـ هوَ : ابنُ سرحونَ السُّلَميُّ .



[حكم الإحلال من الغيبة قبل العلم بتفصيلها]

وفي الإحلالِ مِنَ الغِيبَةِ ، قبلَ العلمِ بتفصيلِها . . خلافٌ ، وعبارةُ « التُّحْفَةِ » : ولا أَثَرَ لتحليلِ وارثٍ ، ولا معَ جهلِ المُغْتَابِ بما تحلَّلَ منهُ ، كما في « الأذكارِ » . انتهىٰ .

ثمَّ رأيتُ ابنَ السبكيِّ ـ بعدَ أَنِ استوفى القصةَ وذكرَ الأَبياتَ في الكلامِ على ابنِ الفِركاحِ[1] ـ يقولُ [كما في « الطَّبقات » ٩/٣٢٧] : وفي هـٰذا مِنْ مالكٍ دليلٌ علىٰ جوازِ الإبراءِ عَنِ الكلامِ في العرضِ ، وإِنْ كانَ مجهولاً ، وأَنَّه كانَ يرى التحليلَ مِن هـٰذا أَولىٰ مِن عدمِهِ .

ونقلَ أَبو الوليدِ ابنُ رُشدٍ[2] أَنَّ مذهبَ الشافعيِّ . . أَنَّ تركَ التحليلِ مِنَ الظلاماتِ والتبعاتِ أَولىٰ ؛ لأَنَّ صاحبَها يستوفيها يومَ القيامةِ بحسناتِ من هيَ عندَهُ ، وبوضعِ سيِّئَاتِهِ علىٰ مَن هيَ عندَهُ ، كما شهدَ بهِ الحديثُ ، وهوَ لا يدري هلْ يكونُ أَجرُهُ على التحليلِ موازياً ما لَهُ مِنَ الحسناتِ في الظلاماتِ ، أَو يزيدُ أَو ينقصُ ، وهُوَ محتاجٌ إِلىٰ زيادةِ حسناتِهِ ونقصانِ سيِّئَاتِهِ ؟

قالَ : ومذهبُ غيرِهِ : أَنَّ التحليلَ أَفضلُ مطلقاً ، قالَ : ومذهبُ مالكٍ التفرقةُ بينَ الظلاماتِ فلا يُحلِّلُ منْها ، والتبعاتِ فيحلِّلُ مِنْها ؛ عقوبةً لفاعلِ الظلاماتِ ، وهُوَ تفصيلٌ عجيبٌ . انتهىٰ .

وفي أَواخرِ الغِيبَةِ مِن كتابِ آفاتِ اللسانِ من « الإحياءِ » [٣/١٥٠] و« شرحِهِ » . . ما يتعلَّقُ بذلكَ ، فليرْجِعْ إِليهِ مَن لمْ يكتفِ بهـٰذا .

[الفضيل بن عياض يتمنى الدعاء للعشاق]

وكانَ الفضيلُ بنُ عياضٍ يقولُ : لَو أَنَّ لي دعوةً مجابةً . . لدعوتُ اللهَ أَنْ يغفرَ للعشَّاقِ ؛ لأَنَّ حركاتِهم اضطراريَّةٌ لا اختياريةٌ .

[الدعاء للعشاق أفضل من عمرة]

ورُئيَ أَبو السائبِ المخزوميُّ متعلِّقاً بأَستارِ الكعبةِ ، وهُوَ يقولُ [كما في « روضة المحبين » ١٣٤] : اللَّهم ، ارحمِ العاشقينَ ، وقوِّ قلوبَهم ، وعطِّفْ عَلَيهم قلوبَ المعشوقينَ ، فقيلَ لَهُ في ذلكَ : فقالَ : واللهِ لَلدُّعاءُ لَهم . . أَفضلُ مِنْ عُمرةٍ مِنَ (الجعرانَةِ)[3] ، ثمَّ أَنشدَ : [من الكامل]

يَا هَجْرُ كُفَّ عَنِ الْهَوَىٰ وَدَعِ الْهَوَىٰ ... لِلْعَاشِقِينَ يَطِيبُ يَا هَجْرُ
مَاذَا تُرِيدُ مِنَ الَّذِينَ جُفُونُهُمْ ... قَرْحَىٰ وَحَشْوُ قُلُوبِهِمْ جَمْرُ ؟
مُتَذَلِّلِينَ مِنَ الْهَوَىٰ أَلْوَانُهُمْ ... مِمَّا تَجِنُّ قُلُوبُهُمْ صُفْرُ
وَسَوَابِقُ الْعَبَرَاتِ فَوْقَ خُدُودِهِمْ ... دُرَرٌ تَفِيضُ كَأَنَّهَا قَطْرُ

---

(١) ابن الفركاح : هو عبد الرحمـٰن بن إبراهيم ، مؤرخ من علماء الشافعية ، توفي سنة : (٦٩٠هـ) .

(٢) ابن رشد : هو محمد بن أحمد ، قاضي الجماعة بـ(قرطبة) ، من أعيان المالكية ، الحافظ الناقد ، توفي سنة : (٥٢٠هـ) .

(٣) الجعرانة : موضعٌ بينَ (مكَّةَ) و(الطائفِ) علىٰ سبعةِ أَميالٍ مِن (مكَّةَ) .



[تفسير : لا تحملنا ما لا طاقة لنا به]

وقالَ بعضُهم [كما في « روضة المحبين » ١٣٥] : في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] : إنَّه العشق .

[تفسير : خلق الإنسان ضعيفاً]

وقالَ عُبيدُ بنُ طاووسٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨] : يَعني : أَنَّهُ لا يصبرُ أَنْ ينظرَ إِلى النساءِ .

[حكم النظر إلى الأجنبيات]

وفي مجرَّدِ النظرِ . . كلامٌ يطولُ ، وفَّيناهُ حقَّهُ منَ التحقيقِ في كتابِنا « بلابلُ التغريدِ » حينَما تكلَّمنا علىٰ ما جرىٰ للفضلِ بنِ العباسِ معَ الخثعميةِ ، وهو رديفُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم(١) .

ومنهُ قولُ الإمامِ الرافعيِّ : النظرُ إلىٰ وجهِ الأَجنبيَّةِ وكفَّيها حرامٌ معَ خوفِ الفتنةِ ، وإلاَّ . . فوجهانِ :

[الأوَّلُ] : قالَ أكثر الأَصحابِ ـ لا سيَّما المتقدِّمون ـ : يحلُّ ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [النور : ٣١] وهوَ مُفَسَّرٌ بالوجْهِ والكفَّينِ ، لكنْ يكرهُ ، قالهُ الشيخُ أَبو حامدٍ .

والثاني : يحرمُ ، قالهُ الإصطخريُّ وأَبو عليٍّ الطبريُّ ، واختارَهُ الشيخُ أَبو محمَّدٍ ، وبهِ قطعَ صاحبُ « المهذَّبِ » .

[الجمع بين العاشقين]

ويُروىٰ : أَنَّ معاويةَ ابنَ أَبي سفيانَ اشترىٰ جاريةً مِنَ (البحرينِ) ، فأُعجبَ بِها إعجاباً شديداً ، ثمَّ سمعَها يوماً تقولُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَفَارَقْتُهُ كَالْغُصْنِ يَهْتَزُّ فِي الثَّرَىٰ ... طَرِيراً وَسِيماً بَعْدَ مَا طَرَّ شَارِبُهُ(٢)

فسأَلَها مَنْ هوَ ؟ فقالتْ : ابنُ عمٍّ لي ، فردَّها إليهِ ، وفي قلبهِ منها حرُّ النارِ .

وما أَحسنَ قولَ بعضِهم ـ [البُحتريُّ في « ديوانه » ٣/١٧٦٢] [مِنَ الخفيفِ] وسيعادُ عندَ ذكرِ الآثارِ من المجلسِ الحادي عشرَ ؛ لأَنَّه بها أَنسبُ ـ وهُوَ :

قِفْ مَشُوقاً أَوْ مُسْعِداً أَوْ حَزِيناً ... أَوْ مُعِيناً أَوْ عَاذِراً أَوْ عَذُولاَ(٣)

ويروىٰ : أَن زبيدةَ استمعتْ في حجِّها لِصَبٍّ يترنَّمُ بأَبياتٍ ، فجمعتْ بينَهُ وبينَ عشيقَتِهِ ، واعتدَّتْ ذلكَ من أَفضلِ أَعمالِها ، كما سبقَ ذلكَ في المجلسِ السابعِ .

---

(١) أخرجه عن جابر بن عبدِ اللهِ أحمدُ في « المسند » (٣/٢١٧) ، والبخاري (١٥٥٧) ، ومسلم (١٢١٨) ، وفيه : (وأردف الفضل بن عباس ، وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً ، فلما دفع رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ مرت به ظُعُنٌ يجرين ، فطفق الفضل ينظر إليهن . . .) .
وعند الترمذي (٨٨٥) عن علي قال صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « رأيت شاباً وشابة فلم آمن الشيطان عليهما » .

(٢) الطريرُ : ذو الهيئةِ الحسنةِ .

(٣) المُسعِدُ : المعينُ ، وقيلَ : المعينُ على البكاءِ .



[العفة تنجي]

أَمَّا ما يتعلَّقُ بالعفافِ : فمِنْ خيرِ ما فيهِ حديثُ الشيخينِ ، في الثلاثةِ الذينَ انطبقَ عَلَيهم الغارُ[1] .

[بشر الأسدي وهند الجهنية وموتهما]

وحديثُ بِشْرِ الأَسديِّ وهندِ الجهنيَّةِ ، وكانَتْ بـ(المدينةِ) علىٰ ممرِّ بِشرٍ إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، فعَلِقَتْهُ وتعرَّضَت لَهُ ، فلمْ يُجبْها إِلىٰ ما تريدُ ، ولمَّا رأىٰ إلحاحَها . . تركَ تلكَ الطريقَ وعادَ يأْتي إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم من غيرِهِ ، فاشتملَ علَيها الفراشُ ، وهمَّ زوجُها أَن يتطبَّبَ لها ، فقالتْ لهُ : لا تفعلْ ، وأَنا أَعرَفُ بعلَّتي ، واحتالَتْ علىٰ زوجِها حتَّى انتقلَ بِها إِلىٰ موضعٍ يشرفُ على الطريقِ التي يمرُّ فِيها بِشْرٌ ، فكانَتْ تنظرُ إِليهِ كلَّما اجتازَ ، فتماثَلَتْ ، ثمَّ أَفضَتْ بشأْنِها إِلىٰ عجوزٍ ، فوعدَتْها أَن تجمعَها بهِ ، ثمَّ تعرَّضَتْ لهُ وقالَتْ : إِنَّ مَعي كتاباً أُريدُ أَنْ تقرأَهُ لي ، فقرأَهُ لَها ، وهِنْدٌ تسمعُ كلامَهُ ، ثمَّ ما زالَتِ العجوزُ تتحيَّنُ الفرصَ . . حتَّىٰ خرجَ زوجُ المرأَةِ لبعضِ شأْنِهِ ، فاحتالَتْ علىٰ بِشْرٍ حتَّىٰ جاءَتْ بهِ إِلىٰ عندِ الجهنيَّةِ ، وأَغلقتْ عليهِمُ البابَ ، فجاءَ زوجُ المرأَةِ وطلَّقَها بمجردِ ما رأَى الواقعَ ، ثمَّ رُفعَ الرجلُ إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم وقالَ لَهُ : سلهُ لِمَ دخلَ داري بلا استئذانٍ ؟ فقالَ بشرٌ : والذي بعثَكَ بالحقِّ ، ما كفرتُ منذُ أَسلمتُ ، وَلا زنيتُ مذ عرفتُكَ ، ولكنَّ الحالَ كَذا ، وبقَرَ له الحديثَ . . فأَدَّبَ العجوزَ ، وقالَ لَها : أَنتِ أَصلُ البليَّةِ ، وانصَرَفوا ، ولم يلبثْ بِشرٌ أَن ابتُلِيَ بمحبَّةِ هِنْدٍ ، وراسلها فامتنعَتْ ، فلمْ يزلْ حتَّىٰ ماتَ ، فجاءَتْ لتَشهَدَ جنازتَهُ ، وعندما رأَتْها . . سقطَتْ مَيْتَةً ، ودُفِنا معاً ، فجاءَتِ العجوزُ إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم تعتذرُ إِليه ، وتُخلِصُ في التوبةِ ، هـٰذا حاصلُ الخبرِ وفيهِ طولٌ ، وهُوَ مشهورٌ ، ذكرهُ غيرُ واحدٍ ، ولا مخالفةَ في أَخذِ هـٰذا بالعزيمةِ لشيءٍ ممَّا سبقَ .

[في النساء صباحة وفي الفتيان عفة]

وقالَ سعيدُ بنُ عقبةَ لأَعرابيٍّ [كما في « مصارع العشاق » ٢/١٨٦] : مَنْ أَنتَ ؟ قالَ : من قومٍ إِذا عشِقُوا . . ماتُوا ، قالَ : عذريٌّ وربِّ الكعبةِ ، قالَ : ولِمَ ؟ قالَ : لأَنَّ في نسائِنا صباحةً ، وفي فتيانِنا عفَّةً .

[مرضىٰ ليس لهم داء إلا الحب]

وقالَ رجلٌ لعروةَ بنِ حزامٍ : أَصحيحٌ ما يُقالُ : إِنَّكم أَرقُّ الناسِ قلوباً ؟ قالَ : نعم ، ولقد تركْتُ في الحيِّ ثلاثينَ شاباً خامَرَهُ الموتُ ، وما لَهم داءٌ غيرُ الحبِّ .

[لو رأيتم النواظر الدعج]

وقالَ رجلٌ مِن فزارةَ لرجلٍ من عذرةَ [كما في « مصارع العشاق » ١/٢٠٤] : إِنَّكم تعدُّونَ الموتَ بالحبِّ مزيَّةً وفضيلةً ، وإِنَّما هُوَ ضعفٌ وخورٌ في طباعِكُم ، فقالَ لَه : أَمَا واللهِ لَو رأَيتمُ النواظرَ الدُّعْجَ[2] ، فوقَها الحواجبُ الزجُّ ، تحتَها المباسِمُ الفلُجُ ، والشفاهُ السُّمْرُ . . لاتَّخذْتُموها اللاَّتَ والعزَّىٰ ، ثمَّ أَنشدَ : [مِنَ الطَّوِيلِ]

تَتَبَّعْتُ مَرْمَى الْوَحْشِ حَتَّىٰ رَمَيْنَنِي ... مِنَ النَّبْلِ لاَ بِالطَّائِشَاتِ الْخَوَاطِفِ[3]

---

(١) أخرجه عَنِ ابنِ عُمَرَ رضيَ اللهُ عنهما البخاريُّ (٢٢٧٢) و(٣٤٦٥) ، ومسلم (٢٧٤٣) .

(٢) النواظرُ : العيونُ . الدَّعجُ : سوادُ العينينِ مع سعتهما .

(٣) السهمُ الطائشُ : الذي يَحيدُ عَنِ الهدفِ . الخواطِفُ : السهامُ التي تقعُ على الأَرضِ .



ضَعَـائِـفُ يَقْتُلْـنَ الـرِّجَـالَ بِـلاَ دَمٍ فَيَـا عَجَبـاً لِلْقَـاتِـلاَتِ الضَّعَـائِـفِ

[عفة الرشيد]

وعشقَ الرشيدُ جاريةً ، فلمَّا رَاودَها عن نفسِها . قالتْ لهُ : إنَّ أَباكَ قد أَلمَّ بي ، فكفَّ عَنْها حتَّىٰ كادَتْ تتلفُ نفسُهُ ، فقالَ [في « ديوانهِ » ٣٠] : [مِنَ الوافرِ]

أَرَىٰ مَـاءً وَبِـي عَطَـشٌ شَـدِيـدٌ وَلَكِـنْ لاَ سَبِيـلَ إِلَـىٰ الـوُرُودِ

فقالَ لهُ بعضُ القضاةِ : أَوَ كُلَّما قالتْ جاريةٌ شيئاً صدَّقتَها ؟!

قالَ بعضُهم : فتعجَّبْ مِن ورعِ الجاريةِ ، وعفَّةِ الرَّشيدِ ، وسوءِ نيَّةِ القاضي ، وسقوطِ نفسِهِ .

[المتنبي والعفاف]

وما زالتِ العربُ تفتخرُ بالعفافِ ، ومن أَحسنِ ما فيهِ قولُ الناظمِ [في « العُكبَريِّ » ٣/٢٩٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

عَفِيـفٌ تَـرُوقُ الشَّمْـسَ صُـورَةُ وَجْهِـهِ فَلَـوْ نَـزَلَـتْ يَـوْمـاً لَحَـادَ إِلَـى الظِّـلِّ(1)

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/٣٠٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

ومَـا كُـلُّ مَـنْ يَهْـوَىٰ يَعِـفُّ إِذَا خَـلاَ عَفَـافِي وَيُـرْضِـي الْحِبَّ وَالْخَيْـلُ تَلْتَقِي(2)

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/٢٦٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

يَـرُدُّ يَـداً عَـنْ ثَـوْبِهَـا وَهْـوَ قَـادِرٌ وَيعْصِـي الْهَـوَىٰ فِـي طَيْفِهَـا وَهْـوَ رَاقِـدُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/٢٢٧-٢٢٦] : [مِنَ الكاملِ]

وَتَـرَى الْفُتُـوَّةَ وَالْمُـرُوَّةَ وَالأُبُـوَّةَ فِـيَّ كُـلُّ مَلِيحَـةٍ ضَـرَّاتِهَـا
إِنِّـي عَلَـىٰ شَغَفِـي بِمَـا فِـي خُمْـرِهَـا لأَعِـفُّ عَمَّـا فِـي سَـرَابِيـلاَتِهَـا(3)

ومرَّ بعضُ ما يشبهُ ذلكَ في أَوائِلِ المجلسِ الثاني .

[المرأة المتعرضة لطاووس]

وتعرَّضَتْ لطاووسٍ امرأَةٌ ، فواعدَها المسجدَ ، فلمَّا حضرتْ إِليهِ والرحبةُ ملآنةٌ . . قالَ : هـٰهنا ، قالَتْ : أَلا ترى الناسَ ؟ قالَ : إِنَّ مولاهُم يَرانا حيثُما كنَّا ، فاقشعرَّتِ المرأَةُ ، وتابَتْ وانزجَرَتْ .

[لا يرانا إلا الكواكب]

وقالَ أَعرابيٌّ : خرجتُ في لَيلةٍ حالكَةٍ ، فإِذا بجاريةٍ كأَنَّها عَلَمٌ . . فراودْتُها ، فقالَتْ : أَما لَكَ زاجرٌ مِن عقلٍ إِنْ لَم يكُنْ لكَ ناهٍ مِن دينٍ ؟ فقلتُ : إِنَّه لا يَرانا إِلاَّ الكواكبُ ، قالَتْ : وأَينَكَ عَنْ مُكَوْكِبِهَا ؟!

---

(1) تروقُ : تعجبُ .

(2) يقولُ : ليسَ كلُّ عاشقٍ شجاعاً مثلي ، يعني : أنَّهُ يَشْجُعُ في الوغىٰ ، ويعفُّ عندَ الهوىٰ .

(3) خُمرها : جمعُ خمارٍ ، وهوَ ما تغطي به المرأة رأسَها . . . والسرابيلاتُ ـ جمع السربال ـ : وهو القميص ، والمعنىٰ : أني مع حُبِّي لوجوهِهِنَّ أَعِفُّ عن أبدانِهِنَّ .

[يجب أن تكون عالماً بالمساحة]

واجتمعَ بعضُ الأعرابِ بامرأةٍ ، فلمَّا قعدَ مِنْها مقعدَ الرجلِ مِنَ المرأةِ . . ذكرَ الآخرةَ فاستعصمَ وقامَ عَنها ، وقالَ : إنَّ مَن باعَ جَنَّةً عرضُها السماواتُ والأَرضُ بمقدارِ أَربعةِ أَصابعَ لقليلُ العلمِ بالمِساحةِ .

[تساوي النساء في البضاعة]

وانقطعَ بعضُ أَولادِ الملوكِ عن أَصحابِهِ ، ودخَلَ منزلَ امرأةٍ أَعجبتْهُ فراودَها ، فقالَتْ : حتَّىٰ تتغدَّىٰ ، وقدَّمَتْ لَهُ خُواناً[1] عليهِ عشرونَ سُكُرُّجةً[2] كلُّها بطعْمٍ واحدٍ ، ففطِنَ إِلىٰ أَنَّها تشيرُ إِلىٰ تساوي النساءِ ، وأَنَّ الذي معَها مثلُ الذي معَ زوجَتِهِ فانكفَّ عَنْها .

وفي « الصحيحِ » : ما معناهُ : « **أَيُّما رَجُلٍ أَعجبتْهُ امرأَةٌ . . فَلْيَذْهَبْ إِلَى امْرَأَتِهِ ؛ فَإِنَّ مَعَها مِثْلَ الَّذِي مَعَها** »[3] .

[الخلوة والعفة]

وقالَ بعضُهم : [مِنَ الطَّويلِ]

خَلَوْتُ بِهَا لَيْلاً وَلَمْ أَقْضِ حَاجَةً ... وَلَسْتُ عَلَىٰ ذَاكَ الْعَفَافِ بِنَادِمِ

وسمعتِ امرأَةٌ رَجُلاً ينشدُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكَمْ لَيْلَةٍ قَدْ بِتُّهَا غَيْرَ آثِمٍ ... بِمَهْضُومَةِ الْكَشْحَيْنِ رَيَّانَةِ الْقَلْبِ

فقالَتْ لهُ : أَخزاكَ اللهُ ، أَلا أَكرمْتَ مَثْواها ، وجبرْتَ خاطِرَها ، لَمَا وقعْتَ فيهِ مِنَ الإِثمِ . . شرٌّ مِمَّا تركتَهُ .

[هـٰذا مهري فاخطبني]

وافتتَنَتِ امرأَةٌ مِنَ العربِ بفتىً ، فدعاها يوماً . . فأَجابتْهُ ، فغنَّىٰ مغنٍّ عندَهما بهـٰذا : [مِنَ الوافرِ]

مِنَ الْخَفِرَاتِ لَمْ تَفْضَحْ أَخَاهَا ... وَلَمْ تَرْفَعْ لِوَالِدِهَا شَنَارَا[4]

فقالَتْ : معاذَ اللهِ أَنْ أَتدنَّسَ بِما يجلُبُ المذمَّةَ بعْدَ هـٰذا ، ثمَّ بعثَتْ للفتىٰ بأَلفِ دينارٍ ، وقالَتْ : هـٰذا مَهري ، فإِنْ أَردْتَني . . فاخطُبني مِن أَهْلي .

[شهادة عمر ابن أبي ربيعة علىٰ نفسه عند وفاته]

ولمَّا اشتدَّ المرضُ بعمرَ ابنِ أَبي ربيعةَ . . بكىٰ أَخوهُ ، فرفعَ إِليهِ طرفَهُ ، وقالَ : لعلَّكَ تُشْفِقُ عليَّ ممَّا تظنُّ ؛ بسببِ ما تَسمعُ مِن شِعْري ، قالَ : نعم ، قالَ : ما أَملكُ عُتُقٌ إِنْ كنتُ وطئْتُ امرأَةً حراماً قطُّ ، فقالَ : الحمدُ للهِ ، لَقَدْ هوَّنْتَ عليَّ الأَمرَ .

---

(١) **الخُوانُ** : ما يُؤكَلُ عليهِ .

(٢) **السُّكُرُّجة** : إناءٌ صغير يؤكل فيه الشيءُ القليلُ من الأُدْم .

(٣) أخرجهُ عن جابرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ابنُ حِبَّانَ في « صحيحه » (٥٥٧٢) ولفظه :
أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ رأى امرأَةً ، فدخلَ علىٰ زينبَ ، فقضىٰ حاجتَهُ ، وقالَ : « **إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا أَقْبَلَتْ . . أَقْبَلَتْ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ ، فَإِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً أَعْجَبَتْهُ . . فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ ؛ فَإِنَّ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِي مَعَهَا** » . بإسناد صحيح ، وبنحوه عند مسلم (١٤٠٣) ، وأبي داوود (٢١٥١) ، والترمذي (١١٥٨) .

(٤) **الشنارُ** : الفضيحةُ والعارُ .



[العفة في العشق]

وقالَ أَبو زيدٍ : كانَ الرجلُ إِذا عشقَ امرأَةً ، فراسلَها سَنَةً . . رضيَ بأَنْ تمضغَ عِلكاً فتبعثَهُ إِليهِ .

[الأحوص يشبب بأم جعفر وهو لا يعرفها]

ولمَّا أَكثرَ الأَحوصُ التشبيبَ بأُمِّ جعفرٍ الخطميَّةِ . . انتقبَتْ وجاءَتْهُ ، وهُوَ في نَادي قومِهِ ، فقالَتِ : ادفعْ ثَمنَ الأَغنامِ التي ابتعتَ مِنِّي ، قالَ : ما ابتعتُ منكِ شيئاً ، فقالَتْ لقومِهِ : قولُوا لَهُ : لا يجحدُ الحقَّ ، فقالوا لَهُ : إِنْ كانَ حقاً ما تقولُ . . فلا ينبغي الجحودُ ، قالَ : واللهِ ما عرفْتُها قطُّ ، فارتفعَ الشِّجارُ ، واشتدَّ الخصامُ ، وكشفَتْ عَن وجهِهَا ، وقالَتْ : لعلَّهُ لَم يَستَثْبِتْنِي ، فلينعمِ النظرَ ، فقالَ : واللهِ ما عرفْتُها ولا رأَيتُها منذُ خَلَقني اللهُ تعالىٰ ، فقالَتْ : ما بالُكَ تشبِّبُ بي وتفضحُني ؟! فخجلَ وانزجرَ ، وكذَّبتْهُ عشيرتُهُ .

وقد ذكرنا في « **بلابلِ التغريدِ** » جملةً صالحةً مِن أَشعارِ العربِ في العفافِ ، لا بَأْسَ إِنْ أَعَدْنا مِنْها ما يقتضيهِ الاستطرادُ في مجلسٍ آخرَ .

يعجبني قولُ الرضيِّ [في « ديوانه » ٢/ ٦٥٠] : [مِنَ البسيطِ]

دُونَ الْقِبَـابِ عَفَـافٌ مِـنْ خَـلاَئِقِهَـا ... وَالصَّـوْنُ يَحْفَـظُ مَـا لاَ تَحْفَـظُ الْخِيَـمُ

[العاشقون في الطواف والعاشق المأجور]

وسمعَ بعضُ النُّسَّاكِ امرأَةً في المطافِ تقولُ لأُختِها [كما في « مصارع العشاق » (٢/ ٢١٧)] : [مِنَ البسيطِ]

لاَ يَقْبَـلُ اللهُ مِـنْ مَعْشُـوقَـةٍ عَمَـلاً ... يَـوْمـاً وَعَـاشِقُهَـا غَضْبَـانُ مَهْجُـورُ

فقالَتِ الأُخرىٰ : [مِنَ البسيطِ]

وَلَيْـسَ يَـأْجُـرُهَـا فِـي قَتْـلِ عَـاشِقِهَـا ... لَكِـنَّ عَـاشِقَهَـا فِـي ذَاكَ مَـأْجُـورُ

فقالَ لهنَّ : في مثلِ هـٰذا الموطنِ تقلنَ هـٰذا ؟ فقالَتْ لهُ إِحداهُنَّ : إِليكَ عنَّا ، فإِنَّه الحبُّ ، قالَ : وما هُوَ ؟ قالتْ ـ كما سبقَ في المجلسِ الأَوَّلِ ـ : جلَّ عَنْ أَنْ يخفىٰ ، وخفِيَ عن أَنْ يُرىٰ ، فهوَ كامنٌ في الأَحشاءِ كمونَ النارِ في الزنادِ ، إِنْ قدحْتَهُ وَرىٰ ، وإِنْ تركتَهُ توارىٰ ، ثمَّ أَنشدَتْ قولَ جريرٍ ـ السابقَ معَ ما يناسبُهُ أَوائِلَ المجلسِ الثاني ـ وهُوَ [في « ديوانِ بشَّارٍ » ٤/ ١٩٢] : [مِنَ الكاملِ]

حُـورٌ حَـرَائِـرُ مَـا هَمَمْـنَ بِـرِيبَـةٍ ... كَظِبَـاءِ مَكَّـةَ صَيْـدُهُـنَّ حَـرامُ

يُحْسَبْـنَ مِـنْ لِيـنِ الْحَـدِيـثِ زَوَانِيـاً ... وَيَصُـدُّهُـنَّ عَـنِ الْخَنَـا الإِسْـلاَمُ

[اللهم لا تعذب هـٰذه الوجوه المليحة بالنار]

ويروىٰ [بنحوه في « بغية الطلب في تاريخ حلب » ٩/ ٤١٣٣] : أَنَّ ابنَ أَبي حازمٍ سمعَ امرأَتينِ ترفثانِ في المطافِ ، وكانتَا علىٰ غايةٍ مِنَ الجمالِ ، ولمَّا عاتبَهُما . . قالَتْ لَهُ إِحداهُنَّ : دَعْنا عنكَ ، فإِنَّا مِمَّن قيلَ فيهنَّ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَمَـاطَـتْ رِداءَ الْخَزِّ عَـنْ حُـرِّ وَجْهِهَـا ... وَأَلْقَـتْ عَلَـى الْمَتْنَيْـنِ بُـرْداً مُهَلْهَـلاَ(١)

هُـنَ الـلاَّءِ لَـمْ يَحْجُجْـنَ يَبْغِيـنَ قُـرْبَـةً ... وَلَكِـنْ لِيَقْتُلْـنَ الْبَـرِيءَ الْمُغَفَّـلاَ

---

(١) ثوبٌ مهلهلٌ : سخيفُ النسجِ .



فلمْ يكنْ منهُ إلاَّ أَنْ رفعَ يديهِ إلى السماءِ ، وقالَ : اللَّهمَّ لا تعذبْ هـٰذهِ الوجوهَ المليحةَ بالنارِ ، فانتهى الخبرُ إلى الشعبيِّ ، فقالَ : ما أَرقَّ نسيمَ أَهلِ الحجازِ ، أَما لَو كانَ أَحدُنا مكانَهُ . . قالَ لهُنَّ : اخزينَ يا عدوَّاتِ أَنفسِهنَّ ، عليكُنَّ كَذا وكَذا .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّب المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ١/ ٣١٥] : [مِنَ الخفيفِ]

يَتَـــرَشَّفْـــنَ مِـــنْ فَمِـــي رَشَفَـــاتٍ هُـــنَّ فِيـــهِ أَحْلَـــىٰ مِـــنَ التَّـــوْحِيـــدِ

[الأقوال والتأويلات في شرح المطلع]

قالَ بعضُهم : (**التوحيدُ**) نوعٌ منَ التمرِ ، وهُوَ المرادُ ، وهـٰذا كلامٌ باردٌ ، لا يقولُهُ إلاَّ ثقيلٌ ، ولا يقبلُهُ إلاَّ أثقلُ منهُ ، وقيلَ : إنَّ المرادَ مِنَ التوحيدِ الإفرادُ ، ومعناهُ أَنَّ الرشَفَاتِ المتعدِّداتِ . . أَحلىٰ من الواحدةِ ، وهـٰذا أَبردُ وأَثقلُ وأَقبحُ ، **والصحيحُ** : أَنَّ المرادَ بالتوحيدِ كلمتُهُ ، فإنْ قالوا هـٰذا إفراطٌ . . قُلنا : لا ـ وإن كانَ المتنبِّي لا يبالي بالإفراطِ ـ ولكنَّ هـٰذا ليسَ منهُ ، والجوابُ مِن وجوهٍ :

أَحدُها : أَنَّ أَفعلَ التفضيلِ هُنا للمقاربةِ في التشبيهِ ، لا للتفضيلِ ، وهُوَ ما ذكرهُ الشارحُ .

ثانيها : أَنَّه أَخبرَ بحالِهِ ، وأَنَّ الشهواتِ عندَهُ أَحلىٰ مِنَ العباداتِ ، وهيَ حالُ الجمَّاءِ الغفيرِ مِنَ الناسِ ، ولَولاهُ لَمَا شُرِعَ التثويبُ في أَذانِ الصبْحِ ، وهوَ أَمرٌ طبيعيٌّ ، لا يؤَاخذُ بهِ المكلَّفُ . ومتىٰ جعلَ المتنبِّي كلمةَ التوحيدِ مضربَ المثلِ في الحلاوةِ ؟! إلاَّ أَنَّ الرشَفاتِ عندَهُ أَحلىٰ مِنْها ، فخلاه ذَمٌّ ؛ وإنَّ ذلكَ لَكثيرٌ منهُ .

وقد قالَ السبكيُّ : ليسَ مِنَ التنقيصِ قولُ مَنْ سُئِلَ عَن شيءٍ : لَو جاءَني جبريلُ أَو النبيُّ . . ما فعلتُهُ ؛ لأَنَّ هـٰذهِ العبارةَ تدلُّ علىٰ تعظيمِهِ عندَهُ .

وما أَرى الناظمَ يريدُ هـٰذا المعنىٰ ؛ لأَنَّه لا يناسبُ حالَهُ ، وإنَّما أَرادَ أَنَّ الرشَفَاتِ عندَهُ . . أَحلىٰ من كلمةِ التوحيدِ عندَ العارفينَ ، ومعَ ذلكَ فأَيُّ واعظٍ لا يقولُ : ما لِلشهواتِ أَحبُّ إليكُم مِنَ الصلواتِ ؟ وقد شملتكُمُ القساوةُ حتَّىٰ صارَ اللهوُ عندكُم أَلذَّ مِنَ التلاوةِ ، واللهُ جلَّ شأْنُهُ يقولُ : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥] .

ولَو كانَ الناظمُ مِمَّن يجدُ للتوحيدِ أَدنىٰ حلاوةٍ . . لنفعَهُ ذلكَ ، فقد أَخرجَ أَحمدُ [في « مسنده » ٢/ ٤٤٧] : بسندٍ جيِّدٍ عَن أَبي هُريرةَ ، أَنَّ رجلاً قالَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : إنَّ فلاناً يُصلِّي ، فإذا كانَ من آخرِ الليلِ . . سرقَ ، فقالَ لَه صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **أَمَّا إنَّهُ سَيَنْهَاهُ ما تقولُ** » أَو ما هـٰذا معناهُ .

[ليس التسبيح مشابهاً لحالك]

وذكرتُ بهِ ما رويَ : أَنَّ عبدَ اللهِ بنَ جعفرٍ ، مرَّ بامرأَةٍ مُزَيَّنَةٍ مطيَّبَةٍ ، جالسةٍ علىٰ بابِ دارِها ، تسبِّحُ اللهَ وتذكرُهُ ، فقالَ لَها : ما التسبيحُ بمُشابهٍ لِحَالِكِ ، فأَنشدَتْ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَللهِ عِنْـــدِي جَـــانِـــبٌ لاَ أُضِيعُـــهُ وَلِلَّهْـــوِ مِنِّـــي وَالْبَطَـــالَـــةِ جَـــانِـــبُ



[لا يجوز الاستهتار بالدين]

وإنَّما يَنْصَبُ اللَّومُ مِنْ كُلِّ ناحيَةٍ . . علىٰ مِثْلِ قولِ أَبي عبادة [في « ديوانهِ » ٤/ ٢٢٥٠] : [مِنَ البسيطِ]

إِنِّـي أَعُـدُّكُـمُ رَهْطِـي وأَجْعَلُكُـمْ أَحَقَّ بِـالصَّوْنِ مِنْ عِـرْضِي وَمِنْ دِينِي

[العفو عن حديث النفس]

فإنَّ ما يجدُهُ الإنسانُ مِنْ نفسِهِ ، مِنِ استمراءِ الشهواتِ أكثرَ مِنَ العباداتِ . . فغيرُ ملومٍ فيهِ متىٰ جاهدَ نفسَهُ ، واحترمَ دينَهُ .

[صور من تناقض المتنبي]

ثمَّ إنَّ الناظمَ كثيرُ التناقضِ ـ كما قرَّرْناهُ غيرَ مرَّةٍ ـ ومِن تناقضِهِ قولُهُ هُنا : (يَتَرَشَّفْنَ) وفحواهُ : أَنَّهُ لا يترشَّفُ هُوَ مِنْهُنَّ ؛ لِتعاظُمِهِ في نفسِهِ ، وأَنَّه معشوقٌ لا عاشِقٌ ، ومطلوبٌ لاَ طالبٌ ، وما هِيَ سبيلُ الكرامِ ، ولا سجيَّةُ أُولي الأذواقِ السليمَةِ ، كما سنفيضُ فيهِ عندَ شرحِ **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٣٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَىٰ عَلَى الْقُرْبِ وَالنَّوَىٰ فَمَـا عَـاشِـقٌ مَـنْ لاَ يَـذِلُّ وَيَخْضَـعُ[١]

ويزعمُ مرَّةً أُخرىٰ أَنَّه لا يُمَكِّنُهُنَّ مِن رَشْفِ ثغرِهِ ، كَما في **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٠٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وأَشْنَـبَ مَعْسُـولِ الثَّنِيَّـاتِ وَاضِـحٍ حَمَيْـتُ فَمِـي عَنْـهُ فَقَبَّـلَ مَفْـرَقِـي[٢]

وفي مواضِعَ يَظهرُ بأَلوانٍ أُخرىٰ ، **فيقولُ** [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٧] : [مِنَ الكاملِ]

وَلَطَـالَمَـا أَفْنَيْـتُ رِيـقَ كَعَـابِهَـا فِيهَـا ، وأَفْنَـتْ بِـالْعِتَـابِ كَـلاَمِـي[٣]

ويقولُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٧٠ـ٢٧٢] : [مِنَ المنسرحِ]

وَقَبَّلَـتْ نَـاظِـرِي تُغَـالِطُنِـي وَإِنَّمَـا قَبَّلَـتْ بِـهِ فَـاهَـا[٤]
حَيْـثُ التَقَـىٰ خَـدُّهَـا وَتُفَّـاحُ لُبْـنَـانَ وَثَغْـرِي عَلَـىٰ حُمَيَّـاهَـا[٥]

ويقولُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٣٧] : [مِنَ البسيطِ]

قَبَّلْتُهَـا وَدُمُـوعِـي مَـزْجُ أَدْمُعِهَـا وَقَبَّلَتْنِـي عَلَـىٰ خَـوْفٍ فَمـاً لِفَـمِ

[لا يكون التعارض إلا باتحاد الزمان والمكان]

وقد سبقَ في غيرِ هـٰذا المجلسِ ما يعرفُ منهُ أَنَّ التعارضَ لا يتحقَّقُ إلاَّ باتحادِ الزمانِ والمكانِ ؛ لأَنَّ الأَوقاتَ تختلفُ ، والأَحوالَ تضْطَرِبُ ، وظروفَ الوقائعِ تتلوَّنُ ، غيرَ أَنَّ الإفراطَ والتفريطَ اللَّذينِ لا يزالُ الناظمُ يَتَكَسَّعُ[٦]

---

(١) في « العكبري » : (تَذَلَّلْ لَهَا وَاخضَعْ) بدل (تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَىٰ) .

(٢) **الأشنبُ** : الثغرُ البرّاقُ .

(٣) **الكَعابُ** : الكاعبُ ، وهيَ الجاريةُ التي كعَبَ نهدُها . والهاء في قوله : كعابها : عائدة إلى الدِّمَنِ في البيت الذي قبله .

(٤) **الناظرُ** : موضعُ البصرِ من العينِ ، كالمرآةِ ، إذا قابلهُ شيءٌ أدّىٰ صورتَهُ ؛ أي : أوهمتني أنها قبَّلت عيني ، وإنما قبَّلت فاها الذي رأته في ناظري .

(٥) **لُبنانُ** : جبلٌ معروف في (الشام) ، من جبالِ (بعلبكَّ) ، وهو كثير الجنانِ والمياهِ . **الحميَّا** : الخمرُ .

(٦) **يتكَسَّعُ** : يذهب في ضلالِهِ .



بينَهُما ، مِمَّا لا سبيلَ إلى الاعتذارِ عنهُ ، وإنْ شئتَ.. فقارنْ بينَ تعاظُمِهِ وترفُّعِهِ عن مغازلةِ العقائلِ في كثيرٍ مِن أشعارِهِ ، وبينَ **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٨/٤] : [مِنَ الكامل]

لَيْتَ الَّذِي خَلَقَ النَّوَىٰ جَعَلَ الْحَصَىٰ ... لِخِفَافِهِنَّ مَفَاصِلِي وَعِظَامِي

ثُمَّ انظرْ إلىٰ تفديتِهِ المطايا بالغَواني في **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٣٦/٢] : [مِنَ المتقارب]

أَلاَ كُلُّ مَاشِيَةِ الْخَيْزَلَىٰ ... فِدَا كُلِّ مَاشِيَةِ الْهَيْدَبَىٰ[١]

تجدِ الشأْوَ بعيداً ، والفرقَ كبيراً ، والجمعَ مُحالاً ، والتأليفَ مُتعذراً ، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ٨٢] .

[الإنكار علىٰ جميل]

وقد أنكروا علىٰ جميلٍ قولَهُ [في « ديوانه » ٢١٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَسْتُ وَإِنْ عَزَّتْ عَلَيَّ بِقَائِلٍ ... لَهَا بَعْدَ صَرْمٍ : يَا بُثَيْنُ صِلِينِي[٢]

أنحى ابنُ أَبي عتيقٍ علىٰ عمرَ ابنِ أَبي ربيعةَ في قولِهِ [في « ديوانه » ١٥١] : [مِنَ الرَّمَلِ]

بَيْنَمَا يَنْعَتْنَنِي أَبْصَرْنَنِي ... مِثْلَ قَيْدِ الْمِيلِ يَعْدُو بِي الأَغَرّ[٣]
قَالَتِ الْكُبْرَىٰ : أَتَعْرِفْنَ الْفَتَىٰ ؟ ... قَالَتِ الْوُسْطَىٰ : نَعَمْ هَـٰذَا عُمَرْ
قَالَتِ الصُّغْرَىٰ وَقَدْ تَيَّمْتُهَا : ... قَدْ عَرَفْنَاهُ وَهَلْ يَخْفَى الْقَمَرْ

[تذلل لمن تهوىٰ]

وقالَ لهُ : إِنَّما نسبتَ بنفسِكَ ، وكانَ نولَكَ أَنْ تقولَ : قلنَ لي : ضعْ خدَّكَ بالأَرضِ ، فوضعتُهُ ، فوطِئْنَ عليهِ .

ويَأْتِي في غيرِ هـٰذا المجلسِ ، ما كانَ مِن ابنِ المعتزِّ ، ثمَّ مِن سلطانِ العاشقينَ في ترسُّمِ ما ذكرهُ ابنُ أَبي عتيقٍ .

[القاتلة المتجبرة]

وما أَرَقَّ نسيمَ أَبي فراسٍ في مراجعتِهِ التي يقولُ فيها [في « ديوانه » ١٤٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

تُسَائِلُنِي مَن أَنتَ ؟ وَهِيَ عَلِيمَةٌ ... وَهَلْ بِفَتَىً مِثْلِي عَلَىٰ حَالِهِ نُكْرُ ؟!
فَقُلْتُ : كَمَا شَاءَتْ وَشَاءَ لَهَا الْهَوَىٰ ... قَتِيلُكِ ، قَالَتْ : أَيُّهُمْ ؟ فَهُمُ كُثْرُ
فَقُلْتُ لَهَا : لَوْ شِئْتِ لَمْ تَتَعَنَّتِي ... وَلَمْ تَسْأَلِي عَنِّي وَعِنْدَكِ بِي خُبْرُ

[انتقاد كثير علىٰ عمر ابن أبي ربيعة]

وانتقدَ كُثيرٌ علىٰ عمرَ ابنِ أَبي ربيعةَ ـ أَيضاً ـ قولَهُ [في « ديوانه » ١٤٥] : [مِنَ المنسرحِ]

قَالَتْ لَهَا أُخْتُهَا تُعَاتِبُهَا : ... لاَ تُفْسِدِنَّ الطَّوَافَ فِي عُمَرِ

---

(١) **الخيزلىٰ** : مشيةٌ فيها استرخاءٌ ، من مشيةِ النساءِ . **الهيدبىٰ** : مشيةٌ فيها سرعةٌ ، من مشيِ الإبلِ ، **والمعنىٰ** : فدت كلُّ امرأةٍ تمشي الخيزلىٰ كلَّ ناقةٍ تمشي الهيدبىٰ ، يريدُ أنَّهُ ليسَ من أهلِ الغزلِ ، ولا يميلُ إلى النساءِ ، وإنَّما هوَ من أهلِ السفرِ يحبُّ مشيَ الجمالِ .

(٢) **الصرمُ** : الهجرُ والقطيعةُ .

(٣) **الأغرُّ** : أراد به فرسهُ الذي في جبهتِهِ بياضٌ .

قُـــومِـــي تَصَـــدَّيْ لَـــهُ لأَبْصِـــرَهُ ثُـــمَّ اغْمِـــزِيـــهِ يَـــا أُخْـــتُ فِـــي خَفَـــرِ
قَـــالَـــتْ لَهَـــا : قَـــدْ غَمَـــزْتُـــهُ فَـــأَبَـــىٰ ثُـــمَّ اسْبَطَـــرَّتْ تَشْتَـــدُّ فِـــي أَثَـــرِي[1]

وقالَ لهُ : أهٰكذا يقالُ للمرأةِ ؟ إنَّما توصفُ بأنَّها مطلوبةٌ متمنعةٌ . كما هيَ عادةُ العربِ ؛ نتيجةَ غيرتِهم عليهِنَّ .

وممَّا يُعَابُ مِن هٰذا القبيلِ عليهِ ـ أيضاً ـ قولُهُ [في « ديوانه » ٤٨٨] : [مِنَ الكاملِ]

فَتَنَـــاوَلَـــتْ رَأْسِـــي لِتَعْلَـــمَ مَسَّـــهُ بِمُخَضَّـــبِ الأَطْـــرَافِ غَيْـــرِ مُشَنَّـــجِ[2]

[المرأة الأديبة عاشقة عمر ابن أبي ربيعة التي ترسل جاريتها في طلبه]

وهٰذا مِنْ قطعةٍ لهُ فيها قصَّةٌ عجيبةٌ ، حاصلُها كمَا أخرجَها الأصفهانيُّ بسندِهِ [في « الأغاني » ١/١٩٧] : أنَّ ابنَ أبي ربيعةَ كانَ جالساً ليلةً بمنىً في مضربِهِ ، وحولَهُ غلمانُهُ ، إذْ أقبلتْ امرأةٌ برزةٌ[3] ، عليها أثرُ النعمةِ ، فسلَّمَتْ ، وقالَتْ : أينَ عمرُ ؟ قالَ : ها أنا هُوَ ، قالَتْ : هَل لَكَ في محادثةِ أحسنِ النساءِ وجهاً ، وأتمِّهِنَّ خلقاً ، وأكملِهِنَّ أدباً ، قالَ : ما أحبَّ ذلكَ إليَّ ، قالَتْ : علىٰ شرطٍ ، قالَ : اشترطِي ما شئْتِ ، قالَتْ : تُمَكِّنُنِي مِن عينيْكَ حتَّىٰ أشدَّهُما ، وأقودُكَ ، حتَّىٰ إذا وصلْتَ الموضعَ الذي أعني . . حللْتُ الشدَّ ، ثُمَّ أفعلُ بكَ ذلكَ عندَ عودكَ ، قالَ : شأنُكِ ، ففعلَتْ ، قالَ : فلمَّا انتهيتُ إلى المضربِ الذي أرادت ، وحصَّلَتْني في داخِلِهِ . . كشفَتْ عَنْ وَجْهِي ، فإذا بامرأةٍ علىٰ كرسيٍّ ، لم أرَ مثلَها جَمالاً وكَمالاً ، فسلَّمتُ وجلَسْتُ ، فقالتْ : أنتَ عُمَرُ ابنُ أبي ربيعة ، قلتُ : نعم ، قالَتْ : أنتَ فاضحُ الحرائرِ . قلتُ : وما ذاكَ جعلَني اللهُ فداكِ ؟ قالَتْ : ألستَ القائلَ [في « ديوانه » ٤٨٨] : [مِن الكاملِ]

قَـــالَـــت : وَعَيْشِ أَبِـــي وَعِـــدَّةِ إِخْـــوَتِـــي لأُنَبِّهَـــنَّ الْحَـــيَّ إِنْ لَـــمْ تَخْـــرُجِ
فَخَـــرَجْـــتُ خَـــوْفَ يَمِينِهَـــا فَتَبَسَّـــمَـــتْ فَعَلِمْـــتُ أَنَّ يَمِينَهَـــا لَـــمْ تَحْـــرَجِ
فَتَنَـــاوَلَـــتْ رَأْسِـــي لِتَعْلَـــمَ مَسَّـــهُ بِمُخَضَّـــبِ الأَطْـــرَافِ غَيْـــرِ مُشَنَّـــجِ
فَلَثَمْـــتُ فَـــاهَـــا آخِـــذاً بِقُـــرُونِهَـــا شُـــرْبَ النَّـــزِيـــفِ بِبَـــرْدِ مَـــاءِ الْحَشْـــرَجِ

قمْ فاخرجْ ، ثمَّ قامَتْ ، وجاءَتِ المرأةُ ، فشدَّت عَيني ، وأخرجتْني ، حتَّى انتهَتْ بي إلىٰ مَضْربِي ، وانصرفتْ ، فحلَلْتُ عَيني ، وقد دَخلَني مِن الحزنِ والكآبةِ ما بهِ اللهُ أعلمُ منِّي ، وبتُّ ليلَتي ، فلمَّا كانَتْ الليلةُ الثانيةُ . . إذا أنابها ، فقالتْ : هَلْ لَكَ في العودِ علىٰ مِثْلِ ذلكَ الحالِ ؟ فقلتُ : نعم ، ففعلَتْ مَعي كما فعلَتْ في الليلةِ الماضيةِ ، وإذا بتلكَ الفتاةِ علىٰ كرسيٍّ ، فقالَتْ : إيهاً يا كاشفَ الأَستارِ ، ومبيحَ الأَسرارِ ، ألستَ القائلَ [في « ديوانه » ٤٩٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

ونَـــاهِـــدَةِ الثَّـــدْيَيْـــنِ قُلْـــتُ لَهَـــا : اتَّكِـــي عَلَـــى الـــرَّمْـــلِ مِـــنْ جَبَّـــانَـــةٍ لَـــمْ تَـــوَسَّـــدِ
فَقَـــالَـــتْ : عَلَـــى اسْـــمِ اللهِ أَمْـــرُكَ طَـــاعَـــةٌ وَإِنْ كُنْـــتُ قَـــدْ كُلِّفْـــتُ مَـــا لَـــمْ أُعَـــوَّدِ
فَلَمَّـــا دَنَـــا الإِصْبَـــاحُ قَـــالَـــتْ : فَضَحْتَنِـــي فَقُـــمْ غَيْـــرَ مَطْـــرُودٍ وَإِنْ شِئْـــتَ فَـــازْدَدِ

---

(١) اسبطرَّت : أَسرعت .
(٢) المخضَّبُ : المصبوغ بالحنّاء . الأَطرافُ : رؤوسُ الأَصابع . المشنَّجُ : المتجعِّدُ .
(٣) برزَةٌ : تبرزُ للقوم يجلسونَ إليها ويتحدَّثونَ وهي عفيفةٌ .



قُمْ فاخرجْ عنّي ، فخرجْتُ ، ثمَّ رُدِدْتُ ، فقالَتْ : لَولا وشكُ الرحيلِ ، وخوفُ الفوتِ ، وحبّي لِمُناجاتِكَ ، والاستكثارِ مِن محادثَتِكَ . . لأَقصَيتُكَ ، هاتِ الآنَ حدِّثني وأَنشدْني ، فكلّمتُ آدَبَ الناسِ وأَعلَمَهم بكلِّ شيءٍ ، ثمَّ نهضتُ ، فإذا بتورٍ[1] فيهِ خلوقٌ[2] ، فأَدخلْتُ يدي فيهِ ، ثُمَّ خبأْتُها في رِدْني ، ثُمَّ جاءَتِ العجوزُ ، فشدَّتْ عَينيَّ ، ونهضَتْ بي تقودُني ، حتَّىٰ إذا صرتُ علىٰ بابِ المضربِ . . أَخرَجتُ يَدي ، فضربْتُ بِها عليهِ مِن خارجٍ ، ثمَّ دعوتُ غِلْماني ، وقلتُ لَهم : أَيُّكم يَقفُني علىٰ بابِ مَضربٍ عليهِ خلوقٌ كأَنَّهُ أَثرُ كَفٍّ . . فَهُوَ حرٌّ ، ولهُ خمسُ مئةِ درهمٍ فلم أَلبثْ حتَّىٰ جاء بعضُهم ، فقالَ : قُمْ ، فنهضْتُ فإذا أَثرُ يَدي في مضربِ فاطمةَ بنتِ عبدِ الملكِ تتأَهَّبُ للرحيلِ ، ولمَّا نفرتْ . . نفرتُ معَها ، ولمَّا عرفَتْ مَكاني . . أَرسلَتْ تناشدُني الرَّحِمَ أَنْ لا أَتبعَها ، وقالَتْ : لا تفضَحْني وتشيطَ بدمِكَ ، فأَبيتُ أَوْ تُوجِّهَ إليَّ بقميصِها الذي يَلي جلدَها فوجهَّتْ بهِ ، فزادَني ذلكَ شغفاً وهُياماً ، ولم أَزلْ أَتبعُها . . حتَّىٰ إذا صاروا علىٰ أَميالٍ مِن (دمشقَ) . . انصرفتُ ، وقلتُ في ذلكَ [في « ديوانه » ١٥٣] : [مِنَ الكاملِ]

ضَـاقَ الْغَـدَاةَ بِحَـاجَتِـي صَـدْرِي	وَيَئِسْـتُ بَعْـدَ تَقَـارُبِ الأَمْـرِ
وَذَكَـرْتُ فَـاطِمَـةَ الَّتِـي عُلِّقْتُهَـا	عَـرَضـاً فَيَـا لَحَـوَادِثِ الـدَّهْـرِ
فَكَـأَنَّ فَـاهَـا بَعْـدَ مَـا رَقَـدَتْ	تَجْـرِي عَلَيْـهِ سُـلاَفَـةُ الْخَمْـرِ[3]
لَمَّـا رَأَيْـتُ مُطِيَّهَـا حِـزَقـاً	خَفَـقَ الْفُـؤَادُ وَكُنْـتُ ذَا صَبْـرِ[4]
فَتَبَـادَرَتْ عَيْنَـايَ بَعْـدَهُـمُ	وَانهَـلَّ مَـدْمَعُهَـا عَلَـى الصَّـدْرِ
وَلَقَـدْ عَصَيْـتُ أُولِـي قَـرَابَتِهَـا	طُـرّاً وَأَهْـلَ الْـوِدِّ وَالصِّهْـرِ
حَتَّـىٰ إِذَا قَـالُـوا وَمَـا كَـذَبُـوا	أَجُنِنْـتَ أَمْ بِـكَ نَفْثَـةُ السِّحْـرِ

وتروىٰ علىٰ غيرِ هـٰذا النحوِ ، وأَبعدُ شيءٍ مِن هـٰذهِ الروايةِ . . اتِّباعُهُ لهم إلىٰ أَميالٍ مِن (دمشقَ) .

[إشكال وحله في بيت المطلع]

ثمَّ إنَّ قولَ الناظمِ : (**هُنَّ فِيهِ أَحْلَىٰ . . .** إلىٰ آخرهِ) ـ والحالُ أَنَّ الضميرَ في فيهِ عائدٌ إلىٰ فيهِ ـ لا يخلو مِنَ الإشكالِ ؛ إذ كيفَ يذوقُ الحلاوةَ إِذَن ، وهُنَّ المترشفاتُ دونَهُ ، والجوابُ عَن ذلكَ مِن وجهينِ :

الأَوَّلُ : أَنَّه كانَ يجدُ لترشُّفِهنَّ من فيهِ برداً علىٰ كبدهِ ، وسروراً علىٰ صدرِهِ ، وحلاوةً علىٰ لسانهِ ، فهوَ من جنسِ قولِ الوأْواءِ الدمشقيِّ [في « ديوانه » ٢٦٦ـ٢٦٧] : [مِنَ البسيطِ]

قَـالَـتْ لِطَيْـفِ خَيَـالٍ زَارَنِـي وَمَضَـىٰ	بِـاللهِ صِفْـهُ وَلاَ تَنْقُـصْ وَلاَ تَـزِدِ
فَقَـالَ : خَلَّفْتُـهُ لَـوْ مَـاتَ مِـنْ ظَمَـأٍ	وَقُلْتِ : قِفْ عَنْ وُرُودِ الْمَاءِ لَمْ يَرِدِ
قَالَتْ : صَدَقْتَ الْوَفَا بِالْعَهْدِ شِيمَتُهُ	يَـا بَـرْدَ ذاكَ الَّـذِي قَـالَـتْ عَلَىٰ كَبِدِي

والثاني : يحتملُ أَنْ يكونَ أَرادَ يترشَّفْنَ مِن فَمي ، وأَترشَّفُ مِن أَفواهِهِنَّ رَشَفَاتٍ ، هُنَّ أَحلىٰ في فَمِي مِن التوحيدِ ،

---

(١) **التَّورُ** : الإناءُ الذي يشربُ بهِ .

(٢) **الخلوقُ** : ضربٌ من الطيب ، تغلبُ عليهِ الحمرةُ والصفرةُ .

(٣) **سُلافةُ الخمرِ** : أَفضلها وأَحسنُها يتحلَّبُ من غيرِ عصرٍ .

(٤) **الحَزَقُ** : شدَّةُ الربطِ .



ويندفعُ حينئذٍ بعضُ ما دَلَّلْنا بهِ علىٰ تعاظمِهِ ، قبلَ نفيهِ إيجازَ الاختزالِ ، وهُوَ نوعٌ قريبٌ مِن الاحتباكِ والاكتفاءِ ، وليسَ بواحدٍ منهُما ؛ لأنَّ **الاحتباكَ هُو** : أَنْ تُذكَرَ جملتانِ في كلٍّ منهُما متقابلانِ ، فيحذفُ مِن كلٍّ واحدٍ منهُما ضدُّ ما يذكرُ في الأخرىٰ ، ومثَّلُوا لهُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾ [آل عمران : ١٣] وتقديرُهُ : فئةٌ مؤمنةٌ تقاتِلُ في سبيلِ اللهِ ، وأُخرىٰ كافرةٌ تقاتلُ في سبيلِ الشيطانِ ، ولا تضادَّ هُنا في بيتِ الناظمِ . . حتَّىٰ ينطبقَ عليهِ ما ذكروهُ في حدِّ الاحتباكِ المذكورِ ، غيرَ أَنَّ التغايرَ وهُوَ أخوهُ غذَتْهُ أُمُّهُ بِلبانِهِ . . موجودٌ في البيتِ ، وأَمَّا قربهُ مِن الاكتفاءِ : فواضحٌ أيضاً ؛ لأَنَّه ذَكرَ ترشُّفَهُنَّ من ريقِهِ ، وسكتَ عَنِ التعريفِ بمقدارِ الْتِذاذِهِنَّ بهِ ، إمَّا لأنَّهُ لا يعلمُ ما عندهُنَّ لهُ ، وإمَّا اكتفاءً بما يعرفُ من قولِهِ : (**هُنَّ فِيهِ أَحْلَىٰ مِنَ التَّوحِيدِ**) ؛ لأَنَّ عندهُنَّ لهُ مثلَ الذي عندَهُ لَهنَّ ، كما قالَ ابنُ أَبي ربيعةَ [في « ديوانه » ١٣٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَمَّـا تَـلاقَيْنَـا وَجَـدْتُ الَّـذِي بِهَـا ... كَمِثْلِ الَّذِي بِي حَذْوَكَ النَّعْلَ بالنَّعْلِ

وحذفَ ذِكْرَ ترشُّفِهِ من أَفواهِهنَّ ، اكتفاءً بما نصبَهُ علامةً عليهِ مِن مبلغِ لذَّتِهِ عندَهُ ، ومثَّلوا للاكتفاءِ بقولِهِ جلَّ ذكرهُ : ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل : ٨١] :

وقولِ أَبي ذُؤَيبٍ [في « ديوانه » ٣٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

عَصَيْتُ إِلَيْهَـا النَّـاسَ إِنِّـي لأَمْـرِهَـا ... مُطِيـعٌ وَمَـا أَدْرِي أَرُشْـدٌ طِـلاَبُهَـا

[استعذاب ريق المحبوب عند الشعراء]

أَمَّا استعذابُ ريقِ المحبوبِ : فما أَكثرَهُ فِي أَشعارِهِم ، قالَ امرؤُ القيسِ [في « ديوانه » ٩٦] : [مِنَ المتقاربِ]

كَـأَنَّ الْمُـدَامَ وَصَـوْبَ الْغَمَـامِ ... وَنَشْـرَ الْخُـزَامَـىٰ وَرِيـحَ الْعِطْـرْ[1]

يَعَـلُّ بِـهِ بَـرْدُ أَنْيَـابِهَـا ... إِذا غَـرَّدَ الطَّـائِـرُ الْمُسْتَحِـرْ[2]

ويعزىٰ إِليهِ ـ واللهُ أَعلمُ بصحَّةِ ذلكَ ـ أَنَّه قالَ : [مِنَ المتقاربِ]

وَثَغْـرٍ لَهَـا طَيِّـبٍ وَاضِـحٍ ... لَـذِيـذِ الْمُقَبَّـلِ وَالْمُبْتَسَـمْ

وَمَـا ذُقْتُـهُ غَيْـرَ ظَنِّـي بِـهِ ... وَبِـالظَّـنِّ يُقْضَـىٰ عَلَـىٰ مَـا اكْتَتَـمْ

وقالَ النابغةُ [الذُّبيانيُّ في « ديوانه » ٣٧] : [مِنَ الكاملِ]

زَعَـمَ الْهُمَـامُ وَلَـمْ أَذُقْـهُ بِـأَنَّـهُ ... عَـذْبٌ مُقَبَّلُهَـا شَهِـيُّ الْمَـوْرِدِ[3]

وقالَ أَيضاً [في « ديوانه » ٢٣٥] : [مِنَ البسيطِ]

كَـأَنَّ مَشْمُـولَـةً صِـرْفـاً بِـرِيقَتِهَـا ... مِـنْ بَعْـدِ رَقْـدَتِهَـا أَوْ شَهْـدَ مُشْتَـارِ[4]

---

(١) **صوبُ الغمام** : ماءُ السحابِ . **الخُزامىٰ** : نباتٌ طيبُ الرائحةِ . **نشرُ الخُزامىٰ** : ما يصدرُ من طيبِ رائحتِهِ .

(٢) **الطائرُ المستحَرُ** : الذي يغرِّدُ وقتَ السحرِ .

(٣) **الهُمامُ** : الملك ، وهو السيِّدُ ، وإنما سمِّيَ بذلك لأنَّهُ إذا همَّ بأمرٍ . أمضاهُ ، ويقالُ : لبعدِ همَّتهِ .

(٤) **المشمولةُ** : الخمرُ الباردةُ .

وقالَ عنترةُ [في « ديوانهِ » ٥٥] : [مِنَ الكاملِ]

إِذْ تَسْتَبِيكَ بِذِي غُرُوبٍ وَاضِحٍ ... عَذْبٍ مُقَبَّلُهُ لَذِيذُ الْمَطْعَمِ[1]
وَكَأَنَّ فَارَةَ تَاجِرٍ بِقَسِيمَةٍ ... سَبَقَتْ عَوَارِضَهَا إِلَيْكَ مِنَ الْفَمِ[2]

وقالَ عَبيدُ بنُ الأبرصِ [في « ديوانهِ » ٣٤] : [مِنَ البسيطِ]

كَأَنَّ رِيقَتَهَا بَعْدَ الْكَرَى اغْتُبِقَتْ ... مِنْ مَاءِ أَدْكَنَ فِي الْحَانُوتِ فَضَّاحِ
أَوْ مِنْ مُشَعْشَعَةٍ كَالْمِسْكِ نَشْرَتُهَا ... أَوْ مِنْ أَنَابِيبِ رُمَّانٍ وَتُفَّاحِ

وقالَ كُثَيِّرٌ [في « ديوانه » ٢٩٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا قَرْقَفٌ مِنْ أَذْرِعَاتٍ كَأَنَّهَا ... إذا سُكِبَتْ مِنْ دَنِّهَا مَاءُ مَفْصَلِ[3]
يُصَبُّ عَلَىٰ نَاجُودِهَا مَاءُ بَارِقٍ ... وَعَاهُ صَفاً فِي رَأْسِ عَنْقَاءَ عَيْطَلِ[4]
بِأَطْيَبَ مِنْ فِيهَا لِمَنْ ذَاقَ طَعْمَهُ ... وَقَدْ لاَحَ ضَوْءُ النَّجْمِ أَوْ كَادَ يَنْجَلِي

إلاَّ أَنَّ المؤاخذةَ ظاهرةٌ عليهِ في قولهِ : (لِمَنْ ذَاقَ طَعْمَهُ) مَا لَم يَعْنِ صاحبَها فقطْ ، كما سبقَ عَنِ النابغةِ .

[المجنون وزوج ليلىٰ]

ومن أَخبارِ المجنونِ : أَنَّه مرَّ بزوجِ ليلىٰ في حيٍّ بني عامرٍ عندَ صاحبٍ لهُ يصطَلِي ، فقامَ علىٰ رأْسِهِ ، وقالَ [في « ديوانهِ » ٢٨٦] : [مِنَ الوافرِ]

بِرَبِّكَ هَلْ ضَمَمْتَ إِلَيْكَ لَيْلَىٰ ... قُبَيْلَ الصُّبْحِ أَوْ قَبَّلْتَ فَاهَا
وَهَلْ زُفَّتْ عَلَيْكَ قُرُونُ لَيْلَىٰ ... زَفِيفَ الأُقْحُوَانَةِ فِي نَدَاهَا[5]

فقالَ [كما في « ديوان المجنون » ٢٨٦] : أَمَّا إِذ حلَّفتَني . . فنعم ، فصاحَ المجنونُ ، وأَمسكَ الجمرَ بِكلتا يديهِ ، ثمَّ سقطَ مغشياً عليهِ .

[عودة إلى الشعراء]

وقالَ سليكُ بنُ سُلَكَةَ [في « ديوانهِ » ٦٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَبَسَّمُ عَنْ أَلْمَى اللِّثَاتِ مُفَلَّجٍ ... خَلِيقِ الثَّنَايَا بِالْعُذُوبَةِ وَالْبَرْدِ[6]
وَمَا ذُقْتُهُ إِلاَّ بِعَيْنِي تَفَرُّساً ... كَمَا شِيمَ مَاءٌ فِي السَّحَابَةِ مِنْ بُعْدِ

---

(١) تستبيك : تذهبُ بعقلكَ . ثغرٌ ذو غروبٍ : ذو أسنان واضحةٍ بيضاءَ .
(٢) الفارةُ : أرادَ بها فارةَ المسكِ ، وهيَ ما تفورُ منهُ رائحةُ المسك . التاجرُ هنا : العطَّارُ .
(٣) قرقفٌ : الخمرُ . أذرعاتٌ : بلدٌ بديارِ الشامِ ، يضربُ المثلُ بجودةِ خمرها . مفصلُ : الشقُّ بين صخرتينِ من الجبل ، وماءُ المفاصلِ يكونُ في غايةِ الصفاءِ . وفي المخطوط : سُلِبَتْ .
(٤) الناجودُ : زقُّ الخمرِ . العنقاء : الهضبةُ المرتفعةُ الطويلةُ . العيطلُ : الطويلةُ السامقةُ .
(٥) الزفيفُ : تحريك الريح .
(٦) اللَّمَىٰ : سُمرةٌ في الشفةِ تُستحسنُ عند العربِ . مُفَلَّجٌ : مُنفرجُ ما بينَ الأسنانِ . الخَليقُ من الأسنانِ : الأَمْلَسُ .

وقالَ نصيبٌ ، أَو قيسُ بنُ الملوّحِ [في « ديوانِ قيسٍ » ٢٠٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

كَـأَنَّ عَلَـىٰ أَنْيَـابِهَـا الْخَمْـرَ شَجَّهَـا ... بِمَـاءِ النَّـدَىٰ مِـنْ آخِـرِ اللَّيْـلِ غَـابِـقُ

وَمَـــا ذُقْتُــهُ إلاَّ بِعَيْنِـــي تَفَـــرُّســـاً ... كَمَـا شِيـمَ فِـي أَعَلَـى السَّحَـابَـةِ بَـارِقُ

وقالَ النميريُّ [في « ديوانهِ » ٥٠] : [مِنَ البسيطِ]

كَـــأَنَّ رِيقَتَهَـــا وَاللَّيْـــلُ مُعْتَكِـــرٌ ... بَعْـدَ الـرُّقَـادِ وَقَـدْ مَـالَـتْ بِهَـا الْـوُسُـدُ

صَهْبَـاءُ صَـافِيَـةٌ أَغْلَـى التِّجَـارُ بِهَـا ... مِـنْ خَمْـرِ عَـانَـةَ يَطْفُـو فَـوْقَهَـا الـزَّبَـدُ[1]

وقالَ سُحيمٌ [في « ديوانهِ » ٤٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

كَـــأَنَّ عَلَـــىٰ أَنْيَـــابِهَـــا بَعْـــدَ هَجْعَـــةٍ ... مِـــنَ اللَّيْـــلِ نَـــامَتْهَـــا سُـــلاَفـــاً مُبَـــرَّداً

وقالَ أَبو صعترةَ البولانيُّ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَـا نُطْفَـةٌ مِـنْ حَـبِّ مُـزْنٍ تَقَـاذَفَـتْ ... بِـهِ جَنْبَتَـا الْجُـودِيِّ وَاللَّيْـلُ دَامِـسُ

فَلَمَّـــا أَقَـــرَّتْـــهُ اللِّصَـــابُ تَنَفَّسَـــتْ ... شِمَـــالٌ بِـــأَعلَـــىٰ مَـــائِـــهِ فَهْـــوَ قَـــارِسُ[2]

بِـأَطْيَـبَ مِـنْ فِيهَـا ومَـا ذُقْـتُ طَعْمَـهُ ... وَلَكِنَّنِـي فِيمَـا تَـرَى الْعَيْـنُ فَـارِسُ

وقالَ بشَّارٌ : [مِنَ البسيطِ]

يَـا أَطْيَـبَ النَّـاسِ رِيقـاً غَيْـرَ مُخْتَبَـرٍ ... إِلاَّ شَهَـــادَةُ أَطْـــرَافِ الْمَسَـــاوِيـــكِ

وقالَ ابنُ الروميُّ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَبَّلْـتُ أَفْـوَاهـاً عِـذَابـاً كَـأَنَّهَـا ... يَنَـابِيـعُ خَمْـرٍ حُصِّبَـتْ لُـؤْلُـؤَ الْبَحْـرِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/٩٠٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـــا سِـــرُّ عِيـــدَانِ الأَرَاكِ بِـــرِيقِهَـــا ... تَنَـــاوُحُهَـــا فِـــي أَيْكِهَـــا تَتَهَصَّـــرُ[3]

لَئِـنْ عَـدِمَـتْ سُقْيَـا الثَّـرَىٰ إِنَّ رِيقَهَـا ... لأَعْـذَبُ مِـنْ هَـاتِيـكَ سُقْيـاً وَأَخْصَـرُ

وَمَـــا ذُقْتُـــهُ إِلاَّ بِشَيْـــمِ ابْتِسَـــامِهَـــا ... وَكَـمْ مَخْبَـرٍ يُبْـدِيـهِ لِلْعَيْـنِ مَنْظَـرُ[4]

بَـدَا لِـي وَمِيـضٌ شَـاهِـدٌ أَنَّ صَـوْبَـهُ ... غَـرِيـضٌ وَمَـا عِنْـدِي سِـوَىٰ ذَاكَ مُخْبِـرُ[5]

وقالَ المتوكِّلُ الليثيُّ [في « ديوانهِ » ٢٧٠ـ٢٧١] : [مِنَ الوَافرِ]

كَـــأَنَّ مُـــدَامَـــةً صَهْبَـــاءَ صِـــرْفـــاً ... تُصَفَّـــــــقُ بَيْـــــــنَ رَاوُوقٍ وَدَنٍّ[6]

---

(١) **الصهباءُ** : الخمرُ ، وسميت بذلك للونها ، **والصُّهبة** : الصفرةُ . **عانةُ** : بلدٌ مشهورةٌ بين (الرقةِ) و(هيت) ، وتنسبُ العربُ إليهِ الخمرَ .

(٢) **اللصابُ** : الشِّعبُ الصغيرُ في الجبلِ . أَضيقُ من اللِّهبِ وأَوسعُ من الشِّعبِ .

(٣) **الهصرُ** : التكسُّرُ .

(٤) **المخبَرُ** : خلافُ المنظرِ .

(٥) **الغريضُ** : ماءُ المطرِ .

(٦) **الرَّاوُوقُ** : المصفاةُ .

تَعَـلُّ بِهَـا ثَنَـايَـا أُمِّ سَلْمَـىٰ فِـرَاسَـةُ مُقْلَتِـي وَصَحِيـحُ ظَنِّـي

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٠١] : [مِنَ الكاملِ]

مَـا أَسْـأَرَتْ فِـي الْقَعْـبِ مِـنْ لَبَـنٍ تَـرَكَتْـهُ وَهُـوَ الشَّهْـدُ وَالْعَسَـلُ[١]

هـٰذا بعضُ ما قيلَ في استعذابِ الرِّيقِ ، وقدِ امتزجَ علينا فيهِ الكلامُ ، بينَ مَن تحدَّثَ عنْ ذوقٍ ، وبينَ مَن تحدَّثَ عَن شَيْمٍ صادقٍ ، ولا حرجَ ؛ إذِ الظنُّ المؤكَّدُ . لَهُ حكمُ اليقينِ ، حتَّىٰ في الأَحكامِ الشرعيَّةِ ، أَمَّا ما جاءَ في الشواهدِ مِن طيبِ النكهةِ . فإِنَّما هُوَ ضَميمةٌ إِليهِ ؛ لأَنَّ لَها بخصوصِها ، وللطيبِ بعمومِهِ مواضعَ غيرَ هُنا ، ولنذكُر بعضَ ما قالَ فقهاؤُنا فيما يتَّصِلُ بالبحثِ : فنقولُ :

[أقوال الفقهاء في الريق وحكمه]

صرَّحوا بحرمةِ تناولِ البصاقِ[٢] ، قالَ ابنُ حجرٍ في الأَطعمةِ : وهُوَ مَا يرمىٰ مِنَ الفمِ ، بخلافِ الريقِ ، وهُو : ما فيهِ، فَلا يحرمُ ؛ لأَنَّه غيرُ مستقذَرٍ ما دامَ فيهِ ، ومِن ثَمَّ : (كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم يمصُّ لسانَ عائِشةَ)[٣] .

وصحَّ في الحديثِ : « **هَلاَّ بِكْراً تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ ، مَا لَكَ وَلُعَابُهَا** »[٤] ـ بضمِّ اللامِ ـ فالإِغراءُ علىٰ ريقِها صريحٌ في حلِّ تناوُلِهِ ، انتهىٰ .

وقالَ في الصِّيامِ : ولا يفطرُ ببلعِ ريقِهِ مِن معدنهِ ، فلوِ ابتلعَ ريقَ غيرِهِ . . أَفطرَ جزماً ، وما جاءَ : (أَنَّه صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم كانَ يمصُّ لِسانَ عائِشةَ وهُوَ صائِمٌ) واقِعةُ حالٍ فعليَّةٌ محتمِلَةٌ أَنَّه يمصُّه ثمَّ يمجُّهُ ، أَو يمصُّهُ ولا ريقَ فيهِ ، انتهىٰ .

ومنهَ تعرفُ قبحَ ما يتعاطاهُ المترسمونَ مِنَ النفثِ بالريقِ في الماءِ ؛ ليتبرَّكَ بهِ الناسُ ، وحقَّ ما صرَّحوا بهِ مِن حرمةِ إِعادةِ ماءِ المضمضَةِ إِلى الخوابي ؛ لأَنَّه يقذِّرُها .

[لا تعذليني يا أخيَّة]

وعذلَتْ عائِشةُ أَخاً لَها في اشتغالِهِ بإِحدىٰ حَظَاياهُ[٥] عَن باقي أَزواجِهِ ، فقالَ لَها : لا تعذُليني يا أُخيَّةُ ، فواللهِ لكأَنَّما أَترشَّفُ برُضابِها[٦] حبَّ الرمَّانِ .

[رقية النبي صلى الله عليه وسلم]

ولا ننسىٰ ما جاءَ في « **الصحيحينِ** » : **أَنَّه صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ** كانَ يقولُ في الرقيةِ : « **بِاسْمِ اللهِ تُربَةُ أَرْضِنَا ، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا ، يُشْفَىٰ سَقِيمُنَا ، بِإِذْنِ رَبِّنَا** »[٧] ومعناهُ : أَنَّه يأخذُ من ريقِ نفسِهِ علىٰ إِصبعِهِ السَّبَّابَةِ ، ثمَّ يضعُها

---

(١) **أسأَرَت** : أَبقتْ ، والسؤر : ما يتركهُ الشاربُ لغيره .

(٢) كالنخامة لقذارتها ؛ لأن المحرمات من المطعومات ، يتناولها أحد أمور : إما لضررها ، أو قذارتها ، أو حرمتها ، أو نجاستها .

(٣) أورده عن عائشةَ رضي الله عنها الهنديُّ في « كنز العمال » (١٨٣٤٨) وعزاه إلى الترقفي في « جزئه » .

(٤) طرف حديث أخرجه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما سعيد بن منصور (٥١٠) ، والبخاري (٥٠٨٠) في النكاح ، ومسلم (١٤٦٦) م (٥٧) في الرضاع ، وأبو داوود (٢٠٤٨) ، والترمذي (١١٠٠) ، والنسائي (٣٢١٩) ، وابن ماجه (١٨٦٠) في النكاح .

(٥) **إحدىٰ حظاياهُ** : أي إحدىٰ نسائِهِ التي تحظىٰ بمنزلةٍ أَسمىٰ مِن غيرها عند زوجها .

(٦) **الرُّضابُ** : الريقُ المرشوفُ .

(٧) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥٧٤٥) في الطب ، ومسلم (٢١٩٤) في السلام ، وأبو داوود (٣٨٩٥) وغيرهم .

بالترابِ ، فيعلقُ بِها منهُ ما يعلقُ ، ثمَّ يمسحُ بهِ علىٰ موضعِ الوجعِ مِن المريضِ ، وقدِ اختلفَ في قولِهِ : (تربةُ أرضِنا) هلِ المرادُ أرضُ (المدينةِ) خاصةً ، أو سائرُ الأرضِ ؟ والأكثرُ على الثاني ، وفيهِ كلامٌ طويلٌ لا يليقُ بالموضوعِ استقصاؤُهُ .

وفيهما أيضاً عَن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : (كَانَ يَنْفُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ فِي الْمَرَضِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ ، فَلَمَّا ثَقُلَ . . كُنْتُ أَنْفُثُ عَنْهُ بِهِنَّ ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِهِ ؛ لِبَرَكَتِهَا)[1] .

[كيفية النفث الوارد في الحديث]

قالَ معمرٌ : فسألتُ الزهريَّ ، كيفَ ينفثُ ؟ قالَ : كانَ ينفثُ علىٰ يديهِ ، ثمَّ يمسحُ بِهما وجهَهُ .

وفي « الصحيح » عَن عائشةَ قالَتْ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ إذ أوىٰ إلىٰ فراشِهِ نفثَ في كفَّيهِ بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وبالمعوِّذتينِ جميعاً ، ثمَّ يمسحُ بهِما وجهَهُ ، وما بلغَتْ يداهُ مِن جسدهِ ، قالَتْ : فلمَّا اشتكىٰ . . كانَ يأمُرُني أنْ أفعلَ ذلكَ بهِ)[2] .

[ما هو النفث المراد بالحديث ؟]

وقدِ اختلفوا في النفثِ ، فقالَ بعضُهُم : إنَّه لا ريقَ فيهِ ألبتةَ ، وصوَّبَ الحافظُ ابنُ حَجَرٍ أنَّ فيهِ ريقاً خفيفاً .

[الحكمة الطبيّة من النفث والريق]

وقالَ البيضاويُّ كَما نقلهُ عنهُ في « الفتح » [٢٠٨/١٠] : قد شهدَتِ المباحثُ الطبيَّةُ علىٰ أنَّ للريقِ مدخَلاً في النضْجِ ، وتعديلِ المِزاجِ ، وترابُ الوطنِ لَه تأْثيرٌ في حفظِ المزاجِ ، ودفعِ الضَّررِ ، فقد ذكَروا أنَّهُ يَنْبَغي للمسافرِ أنْ يستصحبَ ترابَ أرضِهِ إنْ عَجَزَ عَنِ استصحابِ مائِهَا ، إذا وَرَدَ المياهَ المختلفةَ . . جعلَ منْهُ شيئاً في سقائِهِ ؛ ليأْمَنَ مِن المضرَّةِ ، ثمَّ إنَّ الرقىٰ والعزائمَ لَها آثارٌ عجيبةٌ ، تتقاعَدُ العقولُ عن الوصولِ إلىٰ كنهِهَا ، انتهىٰ .

وَمَتَىٰ صَحَّ فِي الْحَدِيثِ بِأَنَّ الـ ... رِّيقَ لِلْمُدْنَفِينَ فِيهِ دَوَاءُ
فَرِضَابُ الْحَبِيبِ أَوْلَىٰ بِصَبٍّ ... تَتَرَامَىٰ بِقَلْبِهِ الأَهْوَاءُ[3]

* * *

[قالَ أبو الطَّيبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٣١٧/١] : [مِنَ الخفيفِ]

هَـٰذِهِ مُهْجَتِي لَدَيْكِ لِحَيْنِي ... فَانْقُصِي مِنْ عَذَابِهَا أَوْ فَزِيدِي

[شرح المطلع]

(المُهْجَةُ) : دمُ القلبِ ، ويرادُ بِها الروحُ ، و(الحَيْنُ) : الموتُ ، يقولُ : هـٰذهِ روحِي بينَ يديكِ لِهلاكي ، فانقصي إنْ شئْتِ مِن عذابِها ، وَزيدي فيهِ . . إنْ شئْتِ .

---

(١) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥٠١٦) في فضائل القرآن و(٥٧٣٥) في الطب ، ومسلم (٢١٩٢) (٥١) في السلام .

(٢) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥٠١٧) في فضائل القرآن و(٥٧٤٨) في الطب ، ومسلم (٢١٩٢) في السلام .

(٣) البيتان من الخفيف .



[ملاحظات على البيت]

وفيهِ أشياءُ :

مِنْها : أَنَّ البيتَ بدونِ لفظَةِ (**لِحَيْنِي**) أَجْمَلُ مِنه معَ وجودِها ؛ إِذ لا فائدةَ مِنْها ، فهيَ بالحشوِ أَشبهُ ، ما لم يدَّعِ مُدَّعٍ أَنَّ المعنىٰ : هٰذه مهجتي لَدَيكِ لهلاكي بالعشقِ ، وفيهِ ما فيهِ .

ومِنْها : أَنَّ الأَنسبَ بقولِهِ : (**هٰذِهِ مهجَتِي لَدَيكِ**) أَنْ يقولَ : فتقبَّليها بسلامٍ ، أَو ردِّيها بلا ملامٍ .

[الاستسلام للحبيب الأعظم]

وما أَجملَ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ في دعائِهِ عندَ المنامِ : « **اللَّهُمَّ إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي . . فَارْحَمْهَا ، وإِنْ أَرْسَلْتَهَا . . فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ** »(١) .

[الاستسلام للمحبوب سجية الكرام]

وما زالَ الاستسلامُ لِلمحبوبِ سجيَّةَ الكرامِ ، ويدخلُ فيهِ كُلُّ ما سبقَ في الكلامِ علىٰ **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٩٨] :

[مِنَ المنسرحِ]

يَـا عَـاذِلَ الْعَـاشِقِيـنَ دَعْ فِئَـةً ... أَضَلَّهَـا اللهُ كَيْـفَ تُـرْشِـدُهَـا

وما استطرَدنا إِليهِ قبيلَ المجلسِ السابعِ ، وفي شرحِ **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٤] : [مِنَ البسيطِ]

إِلاَّ يَشِـبُّ فَقَـدْ شَـابَـتْ لَـهُ كَبِـدٌ ... شَيْبـاً إِذَا خَضَّبَتْـهُ سَلْـوَةٌ نَصَـلاَ(٢)

[إعجاب المؤلف بأبيات لأبي نواس]

ويعجبُني قولُ أَبي نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ١٤٠] : [مِنَ البسيطِ]

ظَبْـيٌ كَـأَنَّ الثُّـرَيَّـا دُونَ مَفْـرِقِـهِ ... وَالْمُشْتَـرِي وَضِيَـاءَ الشَّمْـسِ وَالسُّـرُجَـا

مُحَكَّـمُ الطَّـرْفِ يُـدْمِـي لَحْـظُ نَـاظِـرِهِ ... إِذَا انْتَضَـاهُ لِفَتْـكٍ قَـالَ : لاَ حَـرَجَـا

لاَ فَـرَّجَ اللهُ عَنِّـي إِنْ مَـدَدْتُ يَـدِي ... إِلَيْـهِ أَسْـأَلُـهُ مِـنْ حُبِّـهِ فَـرَجَـا

وموضعُ الإِعجابِ : الأَخيرُ علىٰ ما فيهِ من مخالفَةِ الهديِ النبويِّ ، كما سيأْتي ، وكَما في قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : « **لاَ تَتَمَنَّوْا لِقاءَ الْعَدُوِّ ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ** »(٣) .

أَمَّا الأَوَّلُ . . ففيهِ ما فيهِ ، ولَو لَم يَكنْ إِلاَّ ذكرهُ السرجَ بعدَ ضياءِ الشمسِ .

[أعاصير الحب وبراكينه وامتحاناته]

وقالَ بعضُهُم : [مِنَ الطَّويلِ]

تَمَنَّـتْ سُلَيْمَـىٰ أَنْ أَمُـوتَ صَبَـابَـةً ... وَأَهْـوَنُ شَـيْءٍ عِنْـدَنَـا مَـا تَمَنَّـتِ

---

(١) أخرجه عن أبي هريرةَ رضي الله عنه البخاريُّ (٦٣٢٠) في الدعوات ، ومسلم (٢٧١٤) .

(٢) **النصولُ** : ذهابُ الخضابِ .

(٣) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٢٩٦٦) في الجهاد ، ومسلم (١٧٤٢) .

وقالَ جميلٌ [في « ديوانه » ١٠٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَـوْ سَـأَلَـتْ مِنِّـي حَيَـاتِـي بَـذَلْتُهَـا وَجُـدْتُ بِهَـا إِنْ كَـانَ ذَلِـكَ مِـنْ أَمْـرِي

وقالَتْ بثينةُ [كما في « مصارع العشاق » ٢/ ٥٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

سَـوَاءٌ عَلَيْنَـا يَـا جَمِيـلُ بْـنَ مَعْمَـرٍ إِذا مِـتَّ بَـأْسَـاءُ الْحَيَـاةِ وَلِينُهَـا

وقالَ العبَّاسُ بنُ الأَحنفِ : [مِنَ الطَّويلِ]

نُسِبْـتُ إِلَـىٰ ذَنْـبٍ وَلَـمْ أَكُ مُـذْنِبـاً وَحَمَّلْتِنِـي فِـي الْحُـبِّ مَـا لاَ أُطِيقُـهُ

وَمَا طَلَبِي لِلْوَصْلِ حِرْصاً عَلَى الْبَقَا وَلَكِنَّـهُ أَجْـرٌ إِلَيْـكِ أَسُـوقُـهُ

وقالَتْ عُليَّةُ بنتُ المهديِّ [في « ديوانها » ٧٢ـ٧٣] : [مِنَ الرملِ]

جُبِـلَ الْحُـبُّ عَلَـى الْجَـوْرِ فَلَـوْ أُنْصِـفَ الْمَحْبُـوبُ فِيـهِ لَسَمُـجْ

لَيْـسَ يُسْتَحْسَـنُ فِـي شَـرْعِ الْهَـوَىٰ عَـاشِـقٌ يُحْسِـنُ تَـأْلِيـفَ الْحُجَـجْ

وقالَتْ هِيَ أَيضاً ، أَوِ العبَّاسُ بنُ الأَحنفِ ، فقد اختلفَتِ الروايةُ [كما في « ديوانِ » العبَّاسِ بنِ الأحنفِ ٦٢ـ٦٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَحْسَـنُ أَيَّـامِ الْهَـوَىٰ يَـوْمُـكَ الَّـذِي تُـرَوَّعُ بِـالْهُجْـرَانِ فِيـهِ وَبِـالْعَتْـبِ

إِذا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُبِّ سُخْطٌ وَلاَ رِضَا فَـأَيْـنَ حَـلاَوَاتُ الـرَّسَـائِـلِ وَالْكُتْـبِ ؟

وقالَ جميلٌ [في « ديوانهِ » ١١٩] : [مِنَ البسيطِ]

لاَ خَيْـرَ فِـي الْحُـبِّ وَقْفـاً لاَ تُحَـرِّكُـهُ عَـوَارِضُ الْيَـأْسِ أَوْ يَـرْتَـاحُـهُ الطَّمَـعُ

لَوْ كَانَ لِي صَبْرُهَا أَوْ عِنْدَهَا جَزَعِي لَكُنْـتُ أَمْلِـكُ مَـا آتِـي وَمَـا أَدَعُ

وقالَ آخرُ : [مِنَ الخفيفِ]

رَاحَتِـي فِـي مَقَـالَـةِ الْعُـذَّالِ وَشِفَـائِـي فِـي قَـوْلِهِـمْ : لاَ يُبَـالِـي

لاَ يَطِيـبُ الْهَـوَىٰ وَلاَ يَحْسُـنُ الْحُـ ـبُّ لِصَـبٍّ إِلاَّ بِخَمْـسِ خِصَـالِ

بِسَمَـاعِ الأَذَىٰ وَعَـذْلِ نَصِيـحٍ وَعِتَـابٍ وَكَـاشِـحٍ وَمِطَـالِ[1]

وقالَ ابنُ النبيهِ [في « ديوانه » ١٤٩] : [مِنَ الكامل]

مَـنْ لَـمْ يَـذُقْ ظُلْـمَ الْحَبِيـبِ كَظَلْمِـهِ حُلْـواً . فَقَـدْ جَهِـلَ الْمَحَبَّـةَ وَادَّعَـىٰ[2]

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٧٢] : [مِنَ المنسرحِ]

زِيـدِي أَذَىٰ مُهْجَتِـي أَزِدْكِ هَـوىً فَـأَجْهَـلُ النَّـاسِ عَـاشِـقٌ حَـاقِـدْ

---

(١) الكاشحُ : الذي يضمِرُ لكَ الأَذىٰ . المِطالُ : التسويفُ والمدافعةُ بالعِدَةِ .

(٢) الظَّلْمُ : الريقُ .

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٠٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وأَحْلَى الْهَوَىٰ مَا شَكَّ فِي الْوَصْلِ رَبُّهُ وَفِي الْهَجْرِ فَهْوَ الدَّهْرَ يَخْشَىٰ وَيَتَّقِي[1]

وقالَ غيرُهُ : [مِنَ الكاملِ]

شَرْطُ الْمَحَبَّةِ عِنْدَ أَرْبَابِ الْهَوَىٰ أَنَّ الْمَلِيحَ عَلَى التَّجَنِّي يُعْشَقُ

وقالَ ابنُ الفارضِ [في « ديوانه » ١٥٦] : [مِنَ الخفيفِ]

وَبِمَا شِئْتَ فِي هَوَاكَ اخْتَبِرْنِي فَاخْتِيَارِي مَا كَانَ فِيهِ رِضَاكَا

وقالَ [في « ديوانه » ١٤٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وإِنْ هُدِّدُوا بِالْهَجْرِ مَاتُوا مَخَافَةً وَإِنْ أُوعِدُوا بِالْقَتْلِ حَنُّوا إِلَى الْقَتْلِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٥٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَهَا أَنَا مُسْتَدْعٍ قَضَاكَ وَمَا بِهِ رِضَاكَ وَلاَ أَخْتَارُ تأْخِيرَ مُدَّتِي

وقالَ بعضُ الأعرابِ : [مِنَ الطَّويلِ]

شَكَوْتُ فَقَالَتْ : كُلُّ هَذَا تَبَرُّماً بِحُبِّي . . أَرَاحَ اللهُ قَلْبَكَ مِنْ حُبِّي
وَلَمَّا كَتَمْتُ الْحُبَّ قَالَتْ : لَشَدَّ مَا صَبَرْتَ وَمَا هَذَا بِفِعْلِ شَجٍ صَبِّ
وَأَدْنُو فَتُقْصِينِي فَأَبْعُدُ طَالِباً رِضَاهَا فَتَعْتَدُّ التَّبَاعُدَ مِنْ ذَنْبِي
فَشَكْوَايَ تُؤْذِيهَا وَصَبْرِي يَسُوءُهَا وَتَغْضَبُ مِنْ بُعْدِي وَتَنْفِرُ مِنْ قُرْبِي

وقالَ ابنُ الدُّمَينةِ [في « ديوانهِ » ١٣ـ١٥ـ١٦ـ١٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

قِفِي قَبْلَ وَشْكِ الْبَيْنِ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ وَلاَ تَحْرِمِينَا نَظْرَةً مِنْ جَمَالِكِ
قِفِي يَا أُمَيْمَ الْقَلْبِ نَقْضِ لُبَانَةً وَنَشْكُو الْهَوَىٰ ثُمَّ افْعَلِي مَا بَدَا لَكِ
تَعَالَلْتِ كَيْ أَشْجَىٰ وَمَا بِكِ عِلَّةٌ تُرِيدِينَ قَتْلِي قَدْ ظَفِرْتِ بِذَلِكِ
وَقَوْلُكِ لِلْعُوَّادِ : كَيْفَ تَرَوْنَهُ ؟ فَقَالُوا : قَتِيلاً قُلْتِ : أَيْسَرُ هَالِكِ
لَئِنْ سَاءَنِي أَنْ نِلْتِنِي بِمَسَاءَةٍ فَقَدْ سَرَّنِي أَنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكِ
لِيَهْنَكِ إِمْسَاكِي بِكَفِّي عَلَى الْحَشَا وَرَقْرَاقُ دَمْعِي رَهْبَةً مِنْ مِطَالِكِ
فَلَوْ قُلْتِ : طَأْ فِي النَّارِ أَعْلَمُ أَنَّهُ رِضاً لَكِ أَوْ مُدْنٍ لَنَا مِنْ وِصَالِكِ
لَقَدَّمْتُ رِجْلِي نَحْوَهَا فَوَطِئْتُهَا هُدَىً مِنْكِ لِي أَو ضَلَّةً مِنْ ضَلاَلِكِ
أَبِينِي أَفِي يُمْنَىٰ يَدَيْكِ جَعَلْتِنِي فَأَفْرَحَ أَمْ صَيَّرْتِنِي فِي شِمَالِكِ

وقالَ بكرُ بنُ النطّاحِ : [مِنَ الطَّويلِ]

عَرَضْتُ عَلَيْهَا مَا أَرَادَتْ مِنَ الْمُنَىٰ لِتَرْضَىٰ ، فَقَالَتْ : قُمْ فَجِئْنِي بِكَوْكَبِ

---

(١) في « العكبري » : (يَرْجُو) بدل (يَخْشَىٰ) .

فَقُلْتُ لَهَا : مَاذَا التَّعَنُّتُ كُلُّهُ ؟ ... فَلاَ تَذْهَبِي يَا هِنْدُ بِي كُلَّ مَذْهَبِ

وقالَ العبَّاسُ بنُ الأَحنفِ [في « ديوانه » ٢٤٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَحَمَّلْ عَظِيمَ الذَّنْبِ مِمَّنْ تُحِبُّهُ ... وَإِنْ كُنْتَ مَظْلُوماً فَقُلْ : أَنَا ظَالِمُ

فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَحْمِلِ الذَّنْبَ فِي الْهَوَىٰ ... يُفَارِقْكَ مَنْ تَهْوَىٰ وَأَنْفُكَ رَاغِمُ

وقالَ المجنونُ [في « ديوانه » ٤٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

يَقُولُونَ : لَيْلَىٰ عَذَّبَتْكَ بِحُبِّهَا ... أَلاَّ حَبَّذَا ذَاكَ الْحَبِيبُ الْمُعَذِّبُ

وممَّا ينسبُ إِلىٰ أَبي فراسٍ [في « ديوانهِ » ٤٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَسَاءَ فَزَادَتْهُ الإِسَاءَةُ حُظْوَةً ... حَبِيبٌ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْهُ حَبِيبُ

يَعُدُّ لِيَ الْوَاشُونَ فِيهِ ذُنُوبَهُ ... وَمِنْ أَيْنَ لِلْوَجْهِ الْمَلِيحِ ذُنُوبُ ؟!

وقالَ الطُّغرَّائيُّ [في « ديوانهِ » ٣٠٥] : [مِنَ البسيطِ]

لاَ أَكْرَهُ الطَّعْنَةَ النَّجْلاَءَ قَدْ شُفِعَتْ ... بِرَشْقَةٍ مِنْ نِبَالِ الأَعْيُنِ النُّجُلِ

وصدقَ في ذلكَ ؛ إِذ برهنَ بفعالِهِ علىٰ صحَّةِ ما ادَّعىٰ في مقالِهِ .

[الطغرائي يهوىٰ غلاماً فيقتله ذلك الغلام]

وذلكَ : أَنَّهُ أَحبَّ مملوكاً لِمُؤَيَّدِ الدينِ ، كانَ يهواهُ أَيضاً ، فحينَ بلغَهُ . . نقمَ على الطُّغرَّائيِّ ، فأَرادَ قتلَهُ ، وتحيَّنَ لهُ الفرصَ ، وتطلَّب لهُ العثراتِ ؛ كراهيةَ أَنْ يشتهِرَ خبرُ الغلامِ ، فلم يجدْ حيلةً في غيرِ اتِّهامِهِ بالإِلحادِ ، فشدَّهُ إِلىٰ شجرَةٍ ، وأَمرَ بتفويقِ السهامِ إِليهِ ، وكان الغلامُ مِمَّنْ حضَرَ فيهم ، فقالَ [في « ديوانهِ » ٢٤٩ـ٢٥٠] : [مِنَ الكاملِ]

وَلَقَدْ أَقُولُ لِمَنْ يُسَدِّدُ سَهْمَهُ ... نَحْوِي وَأَطْرَافُ الْمَنِيَّةِ شُرَّعُ

وَالْمَوْتُ فِي لَحَظَاتِ أَحْوَرَ طَرْفُهُ ... دُونِي وَقَلْبِي دُونَهُ يَتَقَطَّعُ

بِاللهِ فَتِّشْ فِي فُؤَادِي هَلْ يُرَىٰ ... فِيهِ لِغَيْرِ هَوَى الأَحِبَّةِ مَوْضِعُ ؟

أَهْوِنْ بِهِ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي طَيِّهِ ... عَهْدُ الْحَبِيبِ وَسِرُّهُ الْمُسْتَوْدَعُ

وفيهِ يقولُ قبلَ ذلكَ [في « ديوانهِ » ١٤١] : [مِنَ الكاملِ]

إِنِّي لأَذْكُرُكُمْ وَقَدْ بَلَغَ الظَّمَا ... مِنِّي فَأَشْرَقُ بِالزُّلاَلِ الْبَارِدِ[1]

وأَقُولُ : لَيْتَ أَحِبَّتِي عَايَنْتُهُمْ ... قَبْلَ الْمَمَاتِ وَلَوْ بِيَوْمٍ وَاحِدِ

وقد أَلمَّ في الأَوَّلِ ، بما مضىٰ في غيرِ هـٰذا المجلس مِنْ **قولِ الناظمِ** [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٩٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا شَرَقِي بِالْمَاءِ إِلاَّ تَذَكُّراً ... لِمَاءٍ بِهِ أَهْلُ الْحَبِيبِ نُزُولُ

---

(١) الشَّرَقُ : الاختناقُ بالماءِ أو الريقِ أو بالنفسِ .

وقالَ آخرُ : [مِنَ البسيطِ]

لَقَـدْ صَبَـرْتُ عَلَـى الْمَكْـرُوهِ أَسْمَعُـهُ ... مِـنْ مَعْشَـرٍ فِيكَ لَـوْلاَ أَنْتَ مَـا نَطَقُـوا
وَفِيـكَ دَارَيْـتُ قَـوْمـاً لاَ خَـلاَقَ لَهُـمْ ... لَـوْلاَكَ مَـا كُنْـتُ أَدْرِي أَنَّهُـمْ خُلِقُـوا

[الصدق في الرضا عند الصوفية]

وللسَّادَةِ الصوفيَّةِ الكثيرُ الطَّيِّبُ مِن مثلِ ذلكَ ، حتَّىٰ لقد زعمَ بعضُهم ـ كما ذكرهُ القشيريُّ في « **الرسالةِ** » [١٥٢] ـ : أَنْ بلغَ بهِ صدقُ الرِّضا ، إِلىٰ حدٍّ أَنَّه استوىٰ لديهِ الأَمرُ بدخولِ الجنَّةِ والنارِ ؛ لأَنَّ كلَّ ما يفعلُ المحبوبُ محبوبٌ .

وقدِ استعظَمَها بعضُهُم ، فقالَ ابنُ تيميَّةَ : وهلْ قالَ ذاكَ وهُوَ يساقُ إِلىٰ جهنَّمَ ؟! كلاَّ ، وإِنَّما هِيَ عزيمةٌ قَوِيَتْ في حالةٍ شريفةٍ ، سرعانَ ما تنفسخُ في حالِ الضيقِ .

[فليتك تحلو والحياة مريرة]

وقالَ أَبو فراسٍ [في « ديوانه » ٤١] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلَيْتَـكَ تَحْلُـو وَالْحَيَـاةُ مَـرِيـرَةٌ ... وَلَيْتَـكَ تَـرْضَـىٰ وَالأَنَـامُ غِضَـابُ
وَلَيْـتَ الَّـذِي بَيْنِـي وَبَيْنَـكَ عَـامِـرٌ ... وَبَيْنِـي وَبَيْـنَ الْعَـالَمِيـنَ خَـرَابُ

ولقد أَوفىٰ على الإِجادةِ ، غيرَ أَنَّه أَساءَ الأَدبَ ؛ إِذ لا يليقُ هٰذا إِلاَّ بخطابِ الباري عزَّ وجلَّ ، ومِن ثَمَّ استعملَها في مناجاتِهِ جِلَّةٌ من العلماءِ ، منهُم سلطانُ الدينِ ابنُ عبدِ السلامِ . لمّا اشتدَّ الأَمرُ بينَهُ وبينَ الجراكِسَةِ[1] .

ودخلْتُ مرَّةً علىٰ شيخِنا أَبي بكرِ بنِ شهابٍ في منزلِهِ الخاصِّ بهِ ، فإِذا هُوَ يناجي ربَّهُ بهٰذينِ البيتينِ ، وكانَ ذلكَ بعدَ صلاةِ المغربِ .

وبعضُهُم يزيدُ فيها بيتاً لَيسَ مِنْها ، وإِنَّما هُوَ للنَّاظمِ فيما أَعرفُ ، وهُوَ هٰذا [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٠٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا نِلْـتُ مِنْـكَ الْـوُدَّ فَـالْمَـالُ هَيِّـنٌ ... وَكُـلُّ الَّـذِي فَـوْقَ التُّـرَابِ تُـرَابُ

ثمَّ إِنَّ هٰذا البيتَ . . لا يشبهُ بظاهرِهِ ما عُرِفَ مِن جَشَعِ النَّاظمِ ، وشدَّةِ حرصِهِ ، **وهوَ القائِلُ** في القصيدةِ الَّتي بينَ أَيدينا [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٢٠] : [مِنَ الخفيفِ]

أَيْـنَ فَضْلِـي إِذَا قَنِعْـتُ مِـنَ الـدَّهْـ ... ـرِ بِعَيْـشٍ مُعَجَّـلِ التَّنْكِيـدِ
ضَاقَ صَـدْرِي وَطَـالَ فِـي طَلَـبِ الـرِّزْ ... قِ قِيَـامِـي وَقَـلَّ عَنْـهُ قُعُـودِي
أَبَـداً أَقْطَـعُ الْبِـلاَدَ وَنَجْمِـي ... فِـي نُحُـوسٍ وَهِمَّتِـي فِـي سُعُـودِ
فَلَعَلِّـي مُـؤَمِّـلٌ بَعْـضَ مَـا أَبْـ ... ـلُـغُ بِـاللُّطْـفِ مِـنْ عَـزِيـزٍ حَمِيـدِ

[طلب سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام السجن]

وذكرَ القرطبيُّ [في « تفسيرهِ » ٩/ ١٦١] : أَنَّ يوسُفَ عليهِ السلامُ لمَّا قالَ : ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : ٣٣] أَوحى اللهُ إِليهِ : يا يوسفُ أَنتَ جنيتَ علىٰ نفسِكَ ، ولَو قلتَ : ربِّ العافيةُ أَحبُّ إِليَّ . . لَعوفيتَ ؛ ولذلكَ ردَّ

---

(١) **الجراكِسةُ** : اسمٌ أطلقَه العربُ علىٰ سكانِ إقليمِ القوقازِ المعروفينَ باسمِ : ديغة ، وهم من البطونِ التركية وكان لطبيعةِ البلادِ القوقازيةِ أثر كبير في تاريخهم السياسي والاجتماعي ، بدأ دخولهم في الإسلامِ في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه . وفي بعض المصادر : شراكس .



رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم علىٰ مَن كانَ يسأَلُ الصَّبر ، فقد أخرجَ التِّرمذيُّ [في « سننِهِ » (٣٥٢٤)] : عن معاذِ بنِ جبلٍ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، أنَّه سمعَ رجلاً يقولُ : اللَّهمَّ ، إنِّي أسأَلُكَ الصَّبْرَ ، فَقَالَ لَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : « **سَأَلْتَ اللهَ تَعالى الْبَلاَءَ ، فَسَلْهُ الْعَافِيَةَ** » .

[طلب سيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام البلاء]

وأخرجَ الحاكمُ وصحَّحه [كما في « المستدرك » ٢/٦٤١] : وأقرَّهُ الذهبيُّ « أنَّ أيُّوبَ قالَ : يا ربِّ ، إنَّ الخيرَ كلَّهُ قد ذهبَ بِآبائي الذينَ كانوا من قَبْلي ، فأَعْطِني مِثلَ ما أَعطيتَهُم ، وافعل بي مثلَ ما فعلتَ بهِم ، فأَوحى اللهُ إليهِ : إنَّ آباءَكَ ابتُلوا ببلايا لَم تُبتَلَ بِها أنتَ ، ابتُلِيَ إبراهيمُ بذبحِ ابنهِ ، وابتُلِيَ إسحاقُ بذهابِ بصرهِ ، وابتُلِيَ يعقوبُ بحزنهِ علىٰ يوسفَ ، وإنَّكَ لم تُبْتَلَ بِشَيءٍ من ذلكَ ، قالَ : يا ربِّ ابتَلِني بمثلِ ما ابتليتَهم بهِ ، وأَعطني مثلَ ما أَعطيتَهم ، قالَ : فأَوحى اللهُ إليهِ ، إنَّكَ مبتلىً ، فاحترسْ . . . » وذكرَ حديثاً طويلاً .

[مدة ابتلائه]

وفي آخَرَ : أنَّ مدَّةَ ابتلائِهِ كانَتْ خمسَ عشرَةَ سنةً ، أَوْ ثماني عشرَةَ سنةً .

[حوار بين فرعون وامرأته]

وأَخرجَ الحاكمُ ـ أيضاً ـ وصحَّحَهُ [كما في « المستدرك » ٢/٦٢٨] ، ولم يوافقْهُ الذهبيُّ علىٰ تصحيحِهِ ، قصَّةً طويلةً : يذكرُ فيها أنَّ امرأَةَ فرعونَ لمَّا قالَتْ لَهُ : عَسىٰ أَنْ ينفعَنا ، قالَ لَها : عَسىٰ أَنْ يَنفعَكِ أَنتِ ، فأَمَّا أَنَا . . فلا أُريدُ نفعَهُ ، قالَ وهْبٌ : قالَ ابنُ عبَّاسٍ : لو أَنَّ عدوَّ اللهِ قالَ في موسىٰ كما قالَتِ امرأَتُه : عسىٰ أَنْ ينفعَنا . . لنفعَهُ اللهُ بهِ ، ولكنَّهُ أَبىٰ ؛ للشقاءِ الذي كتبَ اللهُ عليهِ .

[دعاء سيدنا أبي بن كعب علىٰ نفسه]

وصَحَّ أَنَّ أُبيَّ بنَ كعبٍ دَعا علىٰ نفسِهِ أَلاّ يفارقَهُ الوعَكُ ، حتَّىٰ يموتَ ، بعدَ أَلاّ يشغَلَهُ عَن حجٍّ ، ولا جهادٍ في سبيلِ اللهِ ، ولا صلاةٍ مكتوبةٍ في جماعَةٍ ، فما مسَّ رجلٌ جلدَهُ بعدَها . . إلا وَجدَ حرَّهُ ، حتَّىٰ ماتَ ، وذلكَ لمَّا سمعَ مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **إنَّ الأَمْرَاضَ كفَّارَاتٌ ، وإِنْ قَلَّتْ ، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا** »[1] .

[هدي النبي محمد صلى الله عليه وسلم]

ولكنَّ هديَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . غيرُ ذلكَ ، فقدْ صحَّ عنهُ : « **لاَ تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ** »[2] .
وصحَّ أَنَّهُ قالَ لعمِّهِ : « **أَكْثِرِ الدُّعاءَ بِالْعَافِيَةِ** »[3] .

وإِنَّ أَبا بكرٍ أَرادَ أَنْ يخطُبَ . . فخنقَتْهُ العبرَةُ ، ثمَّ قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، علىٰ هٰذا المنبرِ يقولُ عامَ أَوَّلَ : « **سَلُوا اللهَ العَفْوَ والعَافِيَةَ ، واليَقِينَ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ ، فإِنَّهُ مَا أُوتِيَ العَبْدُ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْراً مِنَ الْعَافِيَةِ** »[4] .

---

(١) أخرجه عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه النسائيُّ في « الكبرىٰ » (٧٤٨٩) في الطب ، والحاكم في « المستدرك » (٣٠٨/٤) وصححه ، وابن حبان في « صحيحه » (٢٩٢٨) بإسناد صحيح بلفظ : أن رجلاً من المسلمين قال : يا رسول الله ، أرأيت هٰذه الأمراض التي تصيبنا ماذا لنا منها ؟ فقال : « كفارات » ، فقال : أي رسول الله . . وإن قلَّت ؟ قال : « وإن شوكة فما فوقها » قال ابن حبان : والذي دعا علىٰ نفسه هو أُبي بنُ كعب .

(٢) مرَّ تخريجه .

(٣) أي العباس ، أخرجه بنحوه الترمذي (٣٥٠٩) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٧١١) ، قال الترمذي : حسن صحيح .

(٤) أخرجه أبو عبد الله المقدسي في « الأحاديث المختارة » (١/ ١٥٧) .



[حسن العشرة مع الأهل من هدي النبي صلى الله عليه وسلم وشدة احتماله لأزواجه]

ويتَّصلُ بموضوعِ البيتِ الذي نحنُ بطريقهِ حسنُ العشرةِ معَ الأهلِ ، وقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهلِهِ وأَنَا خَيْرُكُم لأَهْلِي** »[1] .

وفي « **الصحيح** » : فواللهِ إِنَّ أَزاوجَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . ليراجعنَهُ ، وإِنَّ إِحداهُنَّ لتهجُرُهُ اليومَ إِلى الليلِ[2] ، وهـٰذا كافٍ في احتمالِهِ عليهِ السلامُ لتجنِّي أَزواجِهِ ، وهو ما نتحدَّثُ فيهِ .

ومنهُ : أَنَّه صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ خرجَ ذاتَ ليلةٍ من عندِ ميمونَةَ ، فأَغلقَتْ دونَهُ البابَ ، فجاءَ يستفتحُ فأَبَتْ أَنْ تفتحَ لهُ ، حتَّىٰ أَقسمَ عَليها ، فقالَتْ : لِمَ تذهَبُ إِلىٰ بعضِ أَزواجِكَ في لَيلَتي ؟ فقالَ : « **مَا فَعَلْتُ ، وَلَكِنِّي وَجَدْتُ حُقْناً مِنْ بَوْلٍ** »[3] .

ومنهُ : أَنَّه لمَّا نزلَتْ براءَةُ عائِشَةَ . . قالَتْ لَها أُمُّها : قومي إِليهِ ، قالَتْ : واللهِ لا أَقومُ إِليهِ ، وَلا أَحمدُ إِلاَّ اللهَ[4] .

ومنهُ : ما ذكرَ غيرُ واحدٍ ، أَنَّه لما أُتِيَ بالجونيَّةِ[5] . . دخلَتْ عَليها عائِشَةُ وحفصَةُ أَوَّلَ ما قدمَتْ ، فمشطَتَاها وخَضَبَتَاها ، وقالَتْ لَها إِحداهُما : إِنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يعجبُهُ من المرأَةِ إِذا دخلَ عَليها أَنْ تقولَ : أَعوذُ باللهِ مِنكَ ، وذُكرَ ذلكَ لِرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : فتحمَّلَهُ ولَم يَزِدْ علىٰ قولهِ : « **إِنَّهُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ ، وَكَيْدُهُنَّ** »[6] .

وإِلاَّ . . فَما أَعظمَها من جنايةٍ ، لَو لَم تُحِطْ بِها العنايةُ ، قد حَرَمْنَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ زوجَهُ ، وأَعدنَهُ علىٰ أَدراجِهِ ، وكانَ جاءَ ماشياً علىٰ قدميهِ ، فأَحبطْنَ مسعاهُ ، وأَكبرُ مِن ذلكَ الكذبُ عليهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وحِرمانُ الجونيَّةِ مِن سعادةِ الدنيا والآخرةِ في قربهِ ، والاتِّصالِ بهِ ، فأَيُّ قلبٍ يَتحمَّل هـٰذهِ المشقَّاتِ العُظْمَىٰ ؟ لَولا أَخذُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ بمجامعِ الفضائِلِ ، وحلولُ الصدِّيقَةِ رضوانُ اللهِ عَليها بالمحلِّ الأَقصىٰ من محبَّتِهِ ، فالأَمرُ كما قيلَ : [مِنَ الوافرِ]

وَيَقْبُـحُ مِـنْ سِـوَاكَ الْفِعْـلُ عِنْـدِي ... فَتَفْعَلُـهُ فَيَحْسُـنُ مِنْـكَ ذَاكَـا

[تمنع ودلال عائشة بنت طلحة على ابن الزبير]

وبلغَ من تمنُّعِ عائِشَةَ بنتِ طلحةَ علىٰ مصعبِ بنِ الزبيرِ . . أَنَّه وجدَها نائِمةً ضحوةً ، فأَنبهَها بعقدٍ رَماها بهِ مِنَ اللُّؤْلُؤِ ، اشتراهُ بعشرينَ أَلفَ دينارٍ ، فقالَتْ لَهُ : لَقد كانَتْ نومَتي أَحبَّ إِليَّ مِن هـٰذا .

[المعلم الجاهل]

وقالَ بعضُهم : [مِنَ الطَّويلِ]

وعَلَّمْتَنِـي كَيْـفَ الْهَـوَىٰ وَجَهِلْتَـهُ ... وَعَلَّمَكُـمْ صَبْـرِي عَلَـىٰ ظُلْمِكُـمْ ظُلْمِـي

---

(١) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما ابنُ حبان في « صحيحه » (٤١٨٦) بإسناد صحيح .

(٢) أخرجه عن ابن عباس البخاري (٥١٩١) ، ومسلم (١٤٧٩) (٣٤) في الطلاق ، والترمذي (٣٣١٥) ، والنسائي (٤/ ١٣٧) .

(٣) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٤) .

(٤) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٢٦٦١) من حديث الإفك في الشهادات وغيره .

(٥) واسمها : أميمة بنت النعمان بن شراحيل ، وقيل : فاطمة بنت الضحاك كما في « المعارف » لابن قتيبة (ص ١٤٠) وغيره .

(٦) طرف حديث ورد عنه صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ عند وفاته كما في البخاري (٣٣٨٤) في الأنبياء ، والترمذي (٣٦٧٣) في المناقب ، وابن ماجه (١٢٣٢) في إقامة الصلاة .



وأَعْلَمُ مَا لِي عِنْدَكُمْ فَيَرُدُّنِي ... هَوَايَ إِلَىٰ جَهْلِي فَأَرْجِعُ عَنْ عِلْمِي

وهو معنًى عجيبٌ ، وأُسلوبٌ مليحٌ غريبٌ .

وقالَ العبَّاسُ بنُ الأَحنفِ : [مِنَ البسيطِ]

كَمْ قَدْ تَجَرَّعْتُ مِنْ غَيْظٍ وَمِنْ حَنَقٍ ... إِذا تَجَدَّدَ حُزْنٌ هَوَّنَ الْمَاضِي

وَكَمْ سَخِطْتُ وَمَا بَالَيْتُمُ سَخَطِي ... حَتَّىٰ رَجَعْتُ بِقَلْبٍ سَاخِطٍ رَاضِي

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ١/٣١٨] : [مِنَ الخفيفِ]

كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدِّمَاءِ حَرَامٌ ... شُرْبُهُ مَا خَلاَ دَمَ الْعُنْقُودِ

[شرح المطلع]

المرادُ مِنْ (دَمِ الْعُنْقُودِ) : الخمرُ ، وحقيقتُها : المسكرُ مِن عصيرِ العنبِ ، وإِن لَم يقذفْ بالزَّبَدِ .

[ملاحظات على المطلع]

وفي البيتِ أَشياءُ :

[١ـ حكم الخمر]

أَحدُها : إِنَّ الخمرَ حرامٌ بالإِجماعِ ، إِلاَّ أَنْ يرادَ بِها المطبوخُ ، فقد رويَ عن ابنِ الخطَّابِ أَنَّه كتبَ إِلىٰ عبدِ اللهِ بنِ يزيدَ الخطميِّ :

أَمَّا بعدُ : فاطبُخُوا شرابَكم حتَّىٰ يذهبَ مِنْهُ نصيبُ الشيطانِ .

ورويَ : أَنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ ، كتبَ لبعضِ عمَّالِهِ : أَلاَّ تشْرَبوا الطلاءَ حتَّىٰ يذهبَ ثلثاهُ ، ويبقىٰ ثلثُهُ ، وكُلُّ مسكرٍ حرامٌ .

وقدْ علمتَ أَنَّ ما لا يُسْكرُ من ماءِ العناقيدِ لطبخٍ أَو غيرِهِ ، لا يسمَّىٰ خمراً ؛ إِذ لا ينطبقُ عليهِ الحدُّ السابقُ ، وفي « **الصحيحينِ** » : « **كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَرَ . فَهُوَ حَرَامٌ** »[١] . وصحَّ خبرُ « **أَنْهَاكُمْ عَنْ قَلِيلِ مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ** »[٢] ، وخبرُ : « **ما أَسْكَرَ كَثِيرُهُ . قَلِيلُهُ حَرَامٌ** »[٣] ، لكنْ لا يكفرُ مستحلُّ المسكرِ مِن عصيرِ غيرِ العنبِ ؛ للخلافِ فيهِ ، أَيْ : مِن حيثُ الجنسُ ؛ لحلِّ قليلهِ علىٰ قولِ جماعةٍ .

---

(١) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥٥٨٥) ، ومسلم (٢٠٠١) في الأشربة .

(٢) أخرجه أبو عبد الله المقدسي في « الأحاديث المختارة » (٣/١٨٣) ، ونحوه عن عائشة : « ما أسكر منه الفرَق فملء الكف منه حرام » رواه أحمد (٦/٧٢) ، وأبو داوود (٣٦٨٧) ، والترمذي (١٨٦٧) وحسنه .

(٣) أخرجه عن جابر رضي الله عنه أبو داوود (٣٦٨١) ، والترمذي (١٨٦٦) وحسنه ، وابن ماجه (٣٣٩٣) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٣٨٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/٤١٣ و٤٦٦) .

أَمّا المسكرُ بالفعلِ : فإِنَّه حرامٌ إِجماعاً ، كما حكَاهُ الحنفيَّةُ فضلاً عن غيرِهم ، وهـٰذا كلُّه بمعناهُ مِن « التحفةِ » للهيتميِّ .

[حكم الخمر عند أبي نواس]

ولقد ظرفَ أَبو نُوَاسٍ أَو ابنُ الروميِّ ـ قاتلَهُ اللهُ ـ في قولِهِ : [من الطويل]

أَحَـلَّ الْعِـرَاقِـيُّ النَّبِيـذَ وَشُـرْبَـهُ ... وَقَـالَ : الحَـرَامَـانِ الْمُـدَامَـةُ وَالسُّكْـرُ
وَقَـالَ الْحِجَـازِيُّ : الشَّـرَابَـانِ وَاحِـدٌ ... فَحَلَّـتْ لَنَـا بَيْـنَ اخْتِـلاَفِهِمَـا الْخَمْـرُ
سَـآخُـذُ مِـنْ قَـوْلَيْهِمَـا طَـرَفَيْهِمَـا ... وَأَشْـرَبُهَـا حِـلاً وَلِلْـوَازِرِ الْـوِزْرُ

أَرادَ : أَنَّه سيأْخُذُ مِنْ قولِ أَبي حنيفةَ ، قولَهُ : النبيذُ حلالٌ ، ويتركُ قولَهُ : إِنَّ الخمرَ والسُّكرَ حرامٌ ، ويأْخُذُ من قولِ الشافعيِّ : النبيذُ والخمرُ سواءٌ ، ويتركُ قولَهُ في الحرمةِ ، وكذبَ في قولِهِ : [مِنَ البسيطِ]

مَـن ذَا يُحَـرِّمُ مَـاءَ الْمُـزْنِ خَـالَطَـهُ ... فِـي بَطْـنِ خَـابِيَـةٍ مَـاءُ الْعَنَـاقِيـدِ
إِنِّـي لأَكْـرَهُ تَشْـدِيـدَ الـرُّوَاةِ لَنَـا ... فِيهَـا ، وَيُعْجِبُنِـي قَـوْلُ ابْـنِ مَسْعُـودِ

وجاوزَ الغايةَ في التهتُّكِ وخلعِ العذارِ حيثُ يقول [أبو نواس في « ديوانه »] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ فَاسْقِنِي خَمْراً وَقُلْ لِي : هِيَ الْخَمْرُ ... وَلاَ تَسْقِنِـي سِـرّاً إِذَا أَمْكَـنَ الْجَهْـرُ

وقالَ بعضُهم في معناهُ : إِنَّ الغرضَ مِن قولِهِ : (وَقُلْ لِي : هِيَ الْخَمْرُ) التذاذ سمعِهِ بذكرِها .

وقالَ آخرونَ : إِنَّهُ تأْويلٌ باردٌ ثقيلٌ ، وإِنَّما عمدَ إِلى المجاهرَةِ والاستعلانِ وقلَّةِ الحياءِ ، حتَّىٰ لَقد عابَ المَأْمونُ وهوَ على المنبرِ علىٰ أَخيهِ ، وقالَ : إِنَّهُ صحبَ مُدْمِناً سكِّيراً ، بلغَ من استهتارِهِ أَنْ يقولَ : وذكرَ البيتَ .

وعندي : إِنَّه أَرادَ ـ معَ قصدِهِ الاستعلانَ ـ أَنْ يكونَ الحديثُ كلُّهُ في الخمرِ ، كما يفسِّرُهُ قولُهُ مِنَ الأُخرىٰ [في « ديوانه » ٣٣٨] : [مِنَ الكاملِ]

وَإِذَا جَلَسْـتَ إِلَـى الْمُـدَامِ وَشُـرْبِهَـا ... فَـاجْعَـلْ حَـدِيثَـكَ كُلَّـهُ فِـي الْكَـاسِ

[عيينة بن حصن وعمرو بن معد يكرب ومنادمتهما]

وكان عبدُ الملكِ بنُ عميرٍ يحدِّثُ : أَنَّ عيينةَ بنَ حصنٍ الفزاريَّ قدمَ (الكوفةَ) ، فأَقامَ بها أَيَّاماً ، ثمَّ قالَ لغلامِهِ : أَسرجْ لي ، فقدَّمَ لهُ فرساً ، فقالَ : ويحكَ ، أَعَلِمْتَني ركِبتُ أُنثىٰ في الجاهليَّةِ ، فأَركبُها في الإِسلامِ ؟ فأَسرجَ لَه حصاناً أَقبلَ عليهِ إِلىٰ محلَّةِ بني زبيدٍ ، فسأَلَ عن مكانِ عمرِو بنِ معدِ يكربَ ، فأُرشدَ إِليهِ ، فوقفَ ببابهِ ونادىٰ : أَيْ أَبا ثور ، اخرجْ إِلينا ، فخرجَ مُؤْتزراً ، كأَنَّما كُسِرَ ثمَّ جُبِرَ ، وقالَ : أَنعِم صباحاً أَبا مالكٍ ، قالَ عيينةُ : أَوَ ليسَ اللهُ قد أَبدَلَنا بهـٰذا ، قالَ : دَعْنا ممَّا لا نعرفُ ، انزلْ ، فإِنَّ عندي كبشاً ساحّاً[1] ، فنزلَ ، فعمدَ إِلى الكبشِ فذبحَهُ ، ثمَّ كشطَ جلدَهُ عنهُ ، وعضّاهُ[2] ، وأَلقاهُ في قدرٍ جماعٍ ، وطبخَهُ ، حتَّىٰ إِذا أَدركَ . جاءَ بجفنةٍ عظيمَةٍ ، فثرد فيها ، ثمَّ أَلقىٰ عَلَيها القدرَ بما فيهِ ، وقَعَدا فأَكلاَهُ ، ثمَّ قالَ لَه : أَيَّ الشرابِ أَحبُّ إِليكَ ، اللَّبنُ أَم ما كنَّا نتنادَمُ عليهِ في الجاهليَّةِ ؟

---

(١) ساحٌّ : نادرٌ ، سمينٌ .

(٢) عضّاهُ : فرَّقهُ .



قالَ : أَوَ ليسَ قد حرَّمَها اللهُ عزَّ وجلَّ علينا في الإسلامِ ؟ قالَ : أنتَ أكبرُ سناً أم أنا ؟ قالَ : أنتَ ، قالَ : فأنتَ أقدمُ إسلاماً أم أنا ؟ قالَ : أنتَ ، قالَ : فإنِّي قد قرأتُ ما بينَ دَفَّتي المصحفِ ، فواللهِ ما وجدْتُ لَها تحريماً ، إلاَّ أنَّهُ قالَ : ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة : ٩١] قُلنا : لا ، فسكتَ عنَّا وسكتْنا عنهُ .

فجاء بِها ، وجَلسا يتنادمانِ ويشربانِ[١] ، ويذكرانِ أيَّامَ الجاهليَّةِ ، حتَّىٰ أمسَيَا ، فلما أرادَ عُيينةُ الانصراف . . قالَ عمرٌو : لَئِنِ انصرفَ أبو مالكٍ بغيرِ حباءٍ[٢] . . إنَّها لوصمةٌ عليَّ ، فأمرَ بناقةٍ لَه أرحبيَّةٍ[٣] ، كأنَّها جبيرةُ لُجينٍ ، فحملَهُ علَيها ، ثمَّ قالَ : يا غلامُ ، هاتِ المزوَدَ ، فإذا فيهِ أربعةُ آلافِ دِرْهمٍ ، فوضعَها بينَ يديهِ ، فقالَ : أمَّا المالُ فواللهِ لا قبلتُهُ ، قالَ : إنَّه لَمِنْ حِباءِ عمرَ بنِ الخطَّاب ، فلم يقبلْهُ ، وانصرفَ وهُوَ يقولُ : [مِنَ الطَّويلِ]

جُـزِيـتَ أَبَـا ثَـوْرٍ جَـزَاءَ كَـرَامَـةٍ ... فَنِعْـمَ الْفَتَـىٰ الْمُـزْدَارُ وَالْمُتَضَيَّـفُ
قَـرَيْـتَ فَـأَجْـزَلْـتَ الْقِـرَىٰ وَأَفَـدْتَنَـا ... خَبِيئَـةَ عِلْـمٍ لَـمْ تَكُـنْ قَـطُّ تُعْـرَفُ
وَقُلْـتَ : حَـلاَلاً أَنْ نُـدِيـرَ مُـدَامَـةً ... كَلَـونِ انْبِعَـاقِ الْبَـرْقِ وَاللَّيْـلُ مُسْـدِفُ
وَقَـدَّمْـتَ فِيهَـا حُجَّـةً عَـرَبِيَّـةً ... تَـرُدُّ إِلَـى الإِنْصَـافِ مَـنْ كَـانَ يُنْصِـفُ
وَأَنْـتَ لَنَـا وَاللهِ ذِي الْعَـرْشِ قُـدْوَةٌ ... إِذَا صَـدَّنَـا عَـنْ شُـرْبِهَـا الْمُتَكَلِّـفُ
نَقُـولُ : أَبُـو ثَـوْرٍ أَحَـلَّ حَـرَامَهَـا ... وَقَـوْلُ أَبِـي ثَـوْرٍ أَسَـدُّ وَأَعْـرَفُ

[تعليق المؤلف على الخبر]

وفي هٰذا الخبرِ غضٌّ مِن إيمانِ عمرِو بنِ معدِ يكربَ ، ولا سيَّما في إنكارِهِ تحيَّةَ الإسلامِ ، واللهُ أعلمُ بالحقيقةِ .

[نقل السيوطي عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معد يكرب]

وقالَ السيوطيُّ في « الإتقانِ » [٨٨/١] : وحكيَ عن عثمانَ بنِ مظعونٍ وعمرِو بنِ معدِ يكربَ أنَّهُما كانا يقولانِ : الخمرُ مباحةٌ ، ويحتجَّانِ بقولِهِ تعالَىٰ : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية [المائدة : ٩٣] ، ولو علِما سببَ نُزولِها . . لَم يَقولاَ ذلكَ ، وهُوَ : أَنَّ ناساً لمَّا حُرِّمَتِ الخمْرُ . قالوا : كيفَ بِمن قتلَ في سبيلِ اللهِ ، وكانوا يشربونَ الخمرَ وهيَ رجسٌ ؟! فنزلَتْ . أخرجَهُ أحمدُ [٤٤١/٤] والنسائيُّ [في « الكبرىٰ » (١١١٥١) عن ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد حسن] وغيرُهما . اهـ كلامه .

[تعليق المؤلف على السيوطي]

وأَخطأَ في ذلكَ أبو بكرٍ [السيوطي] ؛ إذ إنَّ الذي مرَّ عن عمرِو بن معد يكرب إنما يدلُّ على احتجاجِهِ بغيرِ هٰذهِ الآيةِ .

والأشبهُ أَنْ يكونَ الثاني قُدامةَ بنَ مظعونٍ لا عثمانَ بنَ مظعونٍ كما يعرفُ مِمَّا يأْتي ، وأيضاً فإنَّ عثمانَ بنَ مظعونٍ توفِّيَ قبلَ تحريمِ الخمرِ ؛ لأنَّهُ ماتَ بعقبِ واقعةِ بدرٍ بأشهرٍ ، وهِيَ كانَتْ في السنةِ الثانيةِ للهجرَةِ ، ولم تحرَّمْ الخَمرُ إلاَّ فِي شهرِ ربيعٍ الأوَّلِ من السنةِ الرابعةِ للهجرَةِ ، وأولُ ما نزلَ فيها بـ(مكةَ) : ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل : ٦٧] .

---

(١) القصة غير ثابتة ، والمؤلف نفسه في آخرها تشكك في صحتها .

(٢) الحباءُ : العطاءُ .

(٣) أرحبيَّة : منسوبةٌ إلىٰ أرحبَ ، وهوَ اسمُ قبيلةٍ تنسبُ إليها النجائبُ الأرحبيَّاتُ .



[مراحل تحريم الخمر]

فكانَتِ الصَّحابةُ تشربُها وهِيَ حلٌّ لَهم ، ثمَّ نزلَ فيها بـ(المدينةِ) قولُه تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة : ٢١٩] فتركَها قومٌ للإثمِ ، وشربَها آخرونَ للمنافعِ . . . إلىٰ أَنْ صنعَ عبدُ الرَّحمـٰنِ بنُ عوفٍ طعاماً ، ودَعا ناساً مِن أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وأتاهم بخمرٍ فَسَكِروا ، وحضرَتِ الصَّلاةُ ، فقدَّمُوا واحداً ليصليَ بِهم ، فقرأَ : قلْ يا أيُّها الكافرونَ أَعبدُ ما تعبدونَ ، بحذفِ (لا) فأنزلَ اللهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء : ٤٣] فقالَ ابنُ الخطَّابِ : إنَّ اللهَ جلَّ شأنُهُ . . تقاربَ في النَّهيِ عَنِ الخمرِ ، وما أَراهُ إلاَّ سيُحرِّمُها ، ثمَّ نزلَتْ آيةُ التَّحريمِ البتِّ ، بالتّاريخِ السّابقِ ، وهِيَ قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩١] .

[رواية أخرىٰ في نزول آية تحريم الخمر]

ويُروىٰ : أَنَّ هـٰذهِ الآيَةَ نزلَت في شأنِ حمزةَ بنِ عبدِ المطَّلِبِ[1] ، وكانَ من خبرِهِ ، ما استوفاهُ الشيخانِ في « **الصَّحيحَين** » ، وقد علمتَ ما قالَهُ أَبو ثورٍ في قولِهِ تعالَىٰ : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩١] .

[سؤال عن الخمر وحكمها والإجابة علىٰ ذلك من القرآن والحديث]

ويُذكَرُ : أَنَّ حامِدَ بنَ العبَّاسِ سأَلَ عليَّ بنَ عيسىٰ بمشهدٍ مِنَ النَّاسِ عن دواءِ الخُمَارِ ؟ فأَعرضَ عنهُ ، وقالَ : ما لي ولهـٰذهِ المسأَلةِ ، فخجلَ حامدٌ ، والتفتَ إلىٰ قاضي القضاةِ أَبي عمرٍو المالكيِّ ، وأَعادَ عليهِ السُّؤَالَ ، فتنحنحَ ليصلحَ مِن صوتِهِ وقالَ :

أَمَّا مِن كتابِ اللهِ : فقولُهُ جلَّ ذِكرُهُ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر : ٧] .

وأَمَّا مِنَ السُّنَّةِ : فقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **اسْتَعِينُوا عَلَىٰ كُلِّ صَنْعَةٍ بِصَالِحِي أَهْلِهَا** »[2] ، والمشهورُ بهـٰذا في الجَاهليَّةِ الأَعشىٰ وهُوَ القَائِلُ [كما في « ديوانه » ٣٤] : [مِنَ المتقاربِ]

وَكَــأْسٍ شَــرِبْــتُ عَلَــىٰ لَــذَّةٍ ... وَأُخْـرَىٰ تَـدَاوَيْـتُ مِنْهَـا بِهَـا

وفي الإسلامِ أَبو نُوَاسٍ ، وهوَ الَّذي يقولُ [في « ديوانه » ٢٧] : [مِنَ البسيطِ]

دَعْ عَنْـكَ لَـوْمِـي فَـإِنَّ اللَّـوْمَ إِغْـرَاءُ ... وَدَاوِنِـي بِـالَّتِـي كَـانَـتْ هِـيَ الـدَّاءُ

فأَسفرَ وجهُ حامدٍ ، وقالَ لعليِّ بنِ عيسىٰ : ما ضرَّكَ أَن تجيبَ ببعضِ ما أَجابَ بهِ قاضي القضاةِ ، وقدِ استظهرَ في الجوابِ بكتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ؟ فكانَ خجلُ عليِّ بنِ عيسىٰ وانكسارُهُ مِن هـٰذا الكلامِ . . أَكثرَ مِن خجلِ حامدٍ حينَ ابتدأَهُ بالسُّؤَالِ ، كَذا رُوِيَتِ القصَّةُ عن غيرِ واحدٍ .

---

(١) قال في « الفتح » (٨/٢٧٩) : والوقت الذي وقع فيه ذلك زعم الواحدي : أنه عقب قول حمزة رضي الله عنه : إنما أنتم عبيد لأبي ، وحديث جابر يرد عليه ، والذي يظهر أن تحريمها كان عام الفتح سنة ثمان .

(٢) أورده العجلوني في « كشف الخفاء » (٣٤٠) ونقل عن الأصل للسخاوي : قد يستأنس له بقوله صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « ما كان من أمر دنياكم فإليكم » .



[لا ينبغي الانكسار في الحق]

وما كانَ لعليٍّ بنِ عيسىٰ أَنْ ينكسِرَ لَو تعمَّدَ الحقَّ ، واستظْهَرَ بالصدْقِ ، إِنَّما المؤاخذةُ علىٰ أَبي عمرٍو في تنفُّقِهِ بالباطِلِ ، والتيسيرِ في معاقَرَةِ العُقَارِ ، ولعلَّهُ إِنَّما أَخرجَ ذلكَ الكلامَ مخرجَ التظرُّفِ والتندُّرِ ، وإِلاَّ . . كانَ من المخطئينَ ، ومقامُ أَبي عمرٍو أَجلُّ مِن ذلكَ ، والشيطانُ يَجْري مِن ابنِ آدمَ مجرى الدمِ ، وحبُّ الزلفىٰ لدى الكبراءِ داءٌ عُضَالٌ .

وحامدُ بنُ العباسِ هـٰذا ، هُوَ وزيرُ المقتدرِ ، وهُوَ الذي أَراقَ دمَ الحلاَّجِ بفتوى القاضي أَبي عمرٍو المذكورِ سنةَ : (٣٠٩ هـ) .

[غناء تصغي له الوحوش]

وببيتِ الأَعشى السابقِ ، وهُوَ : (وَكَأْسٍ شَرِبتُ عَلَىٰ لَذَّةٍ) إلخ . . ذكرتُ ما رواهُ غيرُ واحدٍ : من أَنَّ الأَمينَ كانَ لا يشربُ وهُوَ مخمورٌ ، حتَّىٰ غنَّاهُ إبراهيمُ بنُ المهديِّ بهـٰذا ، فشربَ ، وإِبراهيمُ يغنِّي ، حتَّىٰ أَصغتْ إِليهِ الوحشُ ومدَّتْ أَعناقَها ، ولَم تزلْ تَدْنُو منهُ حتَّىٰ وضعَتْ رُؤُوسَها على الدكَّانِ الذي كانوا عليهِ ، والأَمينُ يتعجَّبُ مِن ذلكَ .

[كيفية تداوي شارب الخمر]

وغابَ عَنِ القاضي أَبي عمرٍو أَنَّ المجنونَ يقولُ فيما بينَ الأَعشىٰ وأَبي نُوَاسٍ [في « ديوانه » ١٦٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَـدَاوَيْـتُ مِـنْ لَيْلَـىٰ بِلَيْلَـىٰ مِـنَ الْهـوَىٰ ... كَمَـا يتَـدَاوَىٰ شَـارِبُ الْخَمْـرِ بِـالْخَمْـرِ

[قياس في الخمر]

وفي نظيرِ ما سبقَ مِن قياسِ ابنِ الروميِّ ، أَو أَبي نُوَاسٍ ، يقولُ بعضُهُم : إِنَّ أَهلَ الحرمينِ حرَّمُوا النبيذَ وأَحلُّوا الغناءَ ، وأَهلَ (العراقِ) حرَّموا الغناءَ وأَباحُوا النبيذَ ، فأَوجدونا السبيلَ إِلى الرخصَةِ فيهِمَا عندَ اختلافِهما إِلىٰ أَنْ يقعَ الاتفاقُ ، وقالَ في ذلكَ بعضُ الشُّعراءِ : [مِنَ الخفيفِ]

رَأْيُـــهُ فِـــي السَّمَـــاعِ رَأْيُ حِجَـــازِيٌّ ... وَفِـــي الشُّـرْبِ رَأْيُ أَهْـلِ الْعِـرَاقِ

وقالَ ابنُ الروميِّ : [مِنَ الخفيفِ]

أَنَـا أَهْـوَىٰ ذَاتَ الْخِمَـارِ عَلَـى الْجَيْـــــبِ وَذَاتَ الْـوِشَـاحِ وَالـدُّمْلُجَيْـنِ (١)

وَأَرَىٰ فِـــي النَّبِيـــذِ رَأْيَ صَـــوَابٍ ... لِشُيُـوخِ الْعِـرَاقِ بِـالْكُـوفَتَيْـنِ

وَإِذَا مَـــا الْغِنَـــاءُ خَـاضَ ذَوُو الأَلْـــبَـابِ فِيـهِ اعْتَصَمْـتُ بِـالْحَـرَمَيْـنِ

كُلَّمَـــا جَـــاءَتِ الـرَّخَـائِـصُ فِيـــهِ ... كَـانَ أَخْـذِي لَـــهُ بِكِلْتَـا الْيَـدَيْـنِ

[الإمام النعمان يقطع كلام ابن أبي ليلىٰ]

وقالَ ابنُ أَبي ليلىٰ لأَبي حنيفةَ : أَيحِلُّ النبيذُ ، وشراؤُهُ ، وبيعُهُ ؟ قالَ : نعم ، قالَ : أَفيسرُّكَ أَنَّ أُمَّكَ نَبَّاذَةٌ ؟ فقالَ أَبو حنيفةَ : أَيَحِلُّ الغناءُ وسماعُهُ ، قالَ : نعم ، قالَ : أَفَيَسُرُّكَ أَنَّ أُمَّكَ مغنِّيَةٌ ؟

---

(١) الجيبُ : جيبُ القميصِ ، ومنهُ قولهُ تعالىٰ : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور : ٣١] . الوِشاحُ : من حُليِّ المرأَةِ ، من جوهرٍ ولؤلؤٍ منظومانِ ، مخالفٌ بينهما ، معطوفٌ أَحدهما على الآخرِ . الدملُجُ : المعضدُ من الحليِّ .



[جواب لإياس بن معاوية عن الخمر]

وقيلَ لإياسِ بنِ معاويةَ : ما تقولُ في التمرِ والعنبِ والماءِ ، حلالٌ هِيَ ، أَم حَرامٌ ؟ فقالَ : حلالٌ ، فقيلَ لَهُ : ولمَ يُحَرَّمُ الخمرُ ، وإنَّما هُوَ مِن ذلكَ ؟ فقالَ : أرأيتَ لَو أصابكَ ماءٌ أَو ترابٌ أَو تبنٌ أكانَ يوجعُكَ ؟ قالَ : لاَ ، قالَ : فَلو جمعَ ذلكَ كلُّهُ وجعلَ لَبنةً ، ثُمَّ سقطَ علىٰ رأسِكَ ، أما كانَ يوجعُكَ ؟

[من الذين شربوا الخمر قدامة بن مظعون واستدلاله علىٰ ذلك ورد ابن عباس عليه]

ويروىٰ [بنحوه في « سير أعلام النبلاء » ١/١٦١] : أَنَّ قدامةَ بنَ مظعونٍ سكرَ ، وكانَ عامِلَ عمرَ على (البحرينِ) ، فقالَ لَهُ : إنِّي جالدُكَ ، فقالَ : كيفَ تجلدُني ، وبيني وبينكَ كتابُ اللهِ تعالىٰ ؟ قالَ : وأَيَّهُ تريدُ ؟ قالَ : إنَّه يقولُ : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ [المائدة : ٩٣] وقد شهدْتُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم بدراً وأُحداً والخندقَ والمشاهدَ ، فأَكثِر بذلكَ عملاً صالحاً ، فقالَ عمرُ : ألا تردُّونَ عليهِ قولَهُ ؟ فقالَ ابنُ عبَّاسٍ : إنَّ هـٰؤلاءِ الآياتِ أُنزلْنَ عذراً للماضينَ قبلَ تحريمِ الخمرِ ، وحجَّةً على الباقينَ ، فعُذرُ الماضينَ أَنَّهم لَقُوا اللهَ قبلَ أَنْ تحرَّمَ ، وحجَّةٌ على الباقينَ ؛ لأَنَّه تعالىٰ يقولُ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ . . ﴾ [المائدة : ٩٠] ثمَّ اقترأَ الآيةَ إِلىٰ آخرِها ، وقالَ : إنْ كانَ مِن الذينَ آمَنوا وعمِلوا الصالحاتِ ، ثمَّ اتقَوا وآمَنوا ، ثمَّ اتقوا وأَحسَنوا . . فإنَّ اللهَ قد نهىٰ أَنْ تُشْرَبَ الْخَمْرُ ، فقالَ عمرُ : صدقتَ .

[٢ـ وجود بعض الدماء الحلال]

والثاني : مِن الأَشياءِ التي ذكرناها في البيتِ ، تسويرُهُ القضيَّةَ في حرمةِ الدماءِ بـ(كلُّ) ، والحالُ أَنَّ اللهَ قد أَحلَّ لَنا دَمَيْنِ ، هُما : الكبدُ والطحالُ ، بنصِّ الحديثِ[1] ، إلاَّ أَنْ يُجابَ بأَنَّ كلامهُ مفروضٌ في الدَّمِ المسفوحِ .

[٣ـ أيهما أشد حرمة الخمر أم الدم ؟]

والثالثُ : أَنَّ حرمَةَ الخمرِ أَشدُّ مِن حرمةِ الدَّمِ ؛ ولهـٰذا فُرِضَ فيها الحدُّ ولَم يفرض فيهِ ، وقد حدَّ ابنُ الخطَّابِ قدامَةَ بنَ مظعونٍ [كما في « السِّيَر » ١/ ١٦١] ، وكانَ تحتَهُ صفيَّةُ بنتُ الخطَّابِ أُخْتُ عمرَ ، وكانَ خالَ حفصةَ وعبدِ اللهِ بنِ عمرَ ، وهوَ ممَّن شهدَ بدراً .

[النعيمان من الذين شربوها]

وفي « **الصحيح** » : (أَنَّ النعيمانَ كانَ من أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وقد شهدَ بدراً ، وكانَ يشربُ الخمرَ ، فيؤْتىٰ بهِ فيضربُ بالنِّعالِ والجريدِ ، ولمَّا قالَ بعضُ أَصحابهِ عليه السلامُ : لعنَهُ اللهُ ، ما أَكثرَ ما يؤْتىٰ بهِ . . نهاهُ عَنْ ذلكَ)[2] .

[ومنهم : أبو محجن الثقفي]

وكانَ أَبو مِحْجَنٍ الثقفيُّ شرِّيباً[3] ، حدَّهُ عمرُ بنُ الخطَّابِ فيها مِراراً ، وحدَّهُ سعدُ ابنُ أَبي وقَّاصٍ فيها غيرَ مرَّةٍ ، وكانَ

---

(١) أخرجه عن ابن عمر رضي الله عنهما عبد بن حميد (٨٢٠) ، وابن ماجه (٣٢١٨) و(٣٣١٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١/ ٢٥٤) والدارقطني (٤/ ٢٧٢) .

(٢) أخرجه عن عقبة بن الحارث رضي الله عنه البخاري (٢٣١٦) في الوكالة . بلفظ : (جيء بالنعيمان شارباً ، فأمر رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ من كان في البيت أن يضربوه ، قال : فكنت أنا فيمن ضربه ، فضربناه بالنعال والجريد) وينظر طرفاه : (٦٧٧٤) و(٦٧٧٥) .

(٣) كما في « الإصابة » (٤/ ١٧٣) .



يومَ القادسيَّةِ في سجنِ سعدٍ ، فأَطلَقَتْهُ امرأَةُ سعدٍ وكانَتْ لَه فاركاً ، وأَعطتْهُ فرسَهُ ، فأَبلىٰ بلاءً حسناً ، ظهرَتْ فيهِ علىٰ يدِهِ آثارُ الفتوحِ ، ولَهُ في حديثِهِ أَشعارٌ ، نترُكُها صيانةً لمنصبِ سعدٍ ، فقد أَقذعَ لَهُ في بعضِها .

[توبته عن شربها]

ويروىٰ [كما في « الإصابة » ٤/١٧٤] : أَنَّ ابنَ الخطَّابِ رفعَ الحدَّ عنهُ بعدَ ذلكَ ، فحلفَ أَلاّ يشربَها بعدُ ، وقالَ [في « ديوانه » ٤١ـ٤٢] : [مِنَ البسيطِ]

إِنْ كَانَتِ الْخَمْرُ قَدْ عَزَّتْ وَقَدْ مُنِعَتْ ... وَحَالَ مِنْ دُونِهَا الإِسْلاَمُ وَالْحَرَجُ
فَقَدْ أُبَاكِرُهَا صَهْبَاءَ صَافِيَةً ... طَوْراً فَأَشْرَبُهَا صِرْفاً وَأَمْتَزِجُ
وَقَدْ تَقُومُ عَلَىٰ رَأْسِي مُغَنِّيَةٌ ... فِيهَا إِذَا رَفَعَتْ مِنْ صَوْتِهَا غَنَجُ
فَتَخْفِضُ الصَّوْتَ أَحْيَاناً وَتَرْفَعُهُ ... كَمَا يَطِنُّ ذُبَابُ الرَّوْضَةِ الْهَزِجُ[1]

[إذا مت فادفنوني إلىٰ جنب كرمة]

وأَنشدَ رجلٌ بحضرةِ عبدِ اللهِ بنِ مسلمِ بنِ قتيبةَ قولَ أَبي محجنٍ [في « ديوانهِ » ٢٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا مِتُّ فَادْفِنِّي إِلَىٰ جَنْبِ كَرْمَةٍ ... تُرَوِّي عِظَامِي فِي التُّرَابِ عُرُوقُهَا
وَلاَ تَدْفِنُونِي فِي الْفَلاَةِ فَإِنَّنِي ... أَخَافُ إِذَا مَا مِتُّ أَلاَّ أَذُوقَهَا

فقالَ : حدَّثني مَن رأَىٰ قبرهُ بـ(أَرمينيَّةَ) بينَ شجراتِ كرمٍ يخرجُ إِليهِ الفتيانُ ، ويشربونَ عندَهُ ، ويتناشدونَ الأَشعارَ ، ويَروونَ شِعْرَهُ ، وإِذا جاءَتْ كَأْسُهُ . . صَبُّوها عليهِ ، وهٰذا لا يناقضُ ما سلفَ من توبتهِ ؛ لاحتمالِ أَنَّه قالَ هٰذينِ البيتينِ قبلَها .

وقد استطردنا لتمهيدِ عذرِ التائبينَ عَنِ الطِّلا ، في الحنينِ إِلىٰ أَيَّامِها ، بما فيهِ مقْنعٌ في الفائدةِ (٢٤) مِن « **بلابلِ التغريدِ** » .

[ومن الذين حُدُّوا فيها الوليد بن عقبة]

وممَّن حُدَّ فِيها [كما في « الأغاني » ٥/١٣٤] : الوليدُ بنُ عقبةَ بنِ أَبي مُعَيطٍ ، وكانَ أَخا عثمانَ بنِ عفَّانَ لأُمِّهِ ، شهدَ عليهِ أَهلُ (الكوفةِ) أَنَّه صلَّىٰ بِهمُ الصبحَ ثلاثَ ركعاتٍ[2] ، وهُوَ سكرانُ ، ثُمَّ التفت إِليهِم ، وقالَ : إِنْ شئتُم . . زِدْتُكم ، فجلدَهُ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ بينَ يَدي عثمانَ وعليٌّ حاضرٌ ، وفيه يقولُ الحُطيئَةُ : [مِنَ الكامِلِ]

شَهِدَ الْحُطَيْئَةُ يَوْمَ يَلْقَىٰ رَبَّهُ ... أَنَّ الْوَلِيدَ أَحَقُّ بِالْعُذْرِ
نَادَىٰ وَقَدْ تَمَّتْ صَلاَتُهُمُ ... لِيَزِيدَهُمْ خَيْراً وَلاَ يَدْرِي
كَبَحُوا عِنَانَكَ إِذْ جَرَيْتَ وَلَوْ ... تَرَكُوا عِنَانَكَ لَمْ تَزَلْ تَجْرِي

وكادَ عثمانُ أَن يدرأَ الحدَّ عن أَخيهِ ، ولكنَّ عائِشةَ نادَتْ والناسُ مجتمعونَ لصلاةِ العصرِ : أَلا إِنَّ عثمانَ عطَّلَ الحدودَ ، وتهدَّدَ الشهودَ ، فلم يسعْهُ بعدَ ذلكَ . . إِلاَّ أَنِ استقدَمَهُ ، ثُمَّ أَقامَ عليهِ الحدَّ كما مرَّ .

---

(١) الهَزِجُ : صوتُ الرعد ، وضرب من الأغاني ، وفيه ترنُّم .

(٢) في « الأغاني » أربع ركعات .



[ومنهم : عبيد الله بن عمر بن الخطاب]

ومن المحدودينَ فِيها ـ أيضاً ـ : عبيدُ اللهِ بنُ عمرَ بنِ الخطَّابِ ، شربَ بـ(مِصرَ) ، فحدَّهُ عمرُو بنُ العاصِ سرّاً ، فاستقدمَهُ عمرُ علىٰ قَتَبٍ[1] ، وأَقامَ عليهِ الحدَّ ثانياً علانيةً .

[ومنهم : عبد الرحمٰن بن عمر بن الخطاب]

ومِنهم : عبدُ الرحمٰنِ بنُ عمرَ بنِ الخطَّابِ ويُعرفُ بأَبي شحمةَ ، حدَّهُ أَبوهُ في الخمرِ وفي الزِّنا . . حتَّىٰ ماتَ ، كَما رواهُ الطبرانيُّ .

[ومنهم : عاصم بن عمر بن الخطاب]

ومِنهم [كما في « العقد الفريد » ٦/٣٤٩] : عاصمُ بنُ عمرَ بنِ الخطَّابِ ، وحدَّهُ بعضُ ولاةِ (المدينةِ) .

[ومنهم : العباس بن عبد الله بن عباس]

ومِنْهم : العبَّاسُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُم ، وكانَ مِمَّنِ اشتهرَ بالشَّرابِ ، وحُدَّ فيهِ ، وكانَ ينادِمُ الأَخطلَ ، وفيهِ يقولُ [في « ديوانه » ٣٢٨] : [مِنَ الكامِلِ]

لَبَّـاسُ أَرْدِيَـةِ الْمُلُـوكِ يَـرُوقُـهُ ... مِـنْ كُـلِّ مُـرتَقَـبٍ عُيُـونُ الـرَّبْـرَبِ

[ومنهم : عبد الله بن عروة بن الزبير]

ومِنْهُم : عبدُ اللهِ بنُ عروةَ بنِ الزبيرِ ، وحدَّهُ هشامُ بنُ إِسماعيلَ المخزوميُّ .

[وممن كان يشربها : يزيد بن معاوية]

ومِمَّن كانَ يَشربُها : يزيدُ بنُ معاويةَ ، فعابَهُ المِسْوَرُ بنُ مخرمَةَ ، فأَمرَ بضربِهِ حدَّها ، فقالَ مِسْورٌ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَيَشْـرَبُهَـا صِـرْفـاً بِطِيـنِ دِنَـانِهَـا ... أَبُـو خَـالِـدٍ وَالْحَـدَّ يُضْـرَبُ مِسْـوَرُ

[تهديد الحسن بن زيد لابن هرمة إن شرب الخمر]

ولمَّا وليَ الحسنُ بنُ زيدٍ (المدينةَ) . . قالَ لابنِ هرمَةَ : لستُ كَمن باعَ دينَهُ رَجاءَ مدحِكَ ، أَو خوفاً مِن ذمِّكَ ، فقد رزَقَني اللهُ بولادَةِ نبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ المَمَادِحَ ، وجَنَّبَني المَقَابِحَ ، وإِنَّ مِن حَقِّهِ عليَّ أَلاّ أُغضِيَ علىٰ تقصيرٍ في حقِّ اللهِ ، وأَنا أُقسِمُ : لَئِن أُتِيتُ بِكَ سكراناً . . لأَضربَنَّ للسُّكرِ ، ولأَزيدنَّكَ لموضِعِ حرمتِكَ بي ، فليكُن تركُكَ إِيَّاها للهِ تعالىٰ . . تُعَنْ عليهِ ، وَلا تدعْها للنَّاسِ . . فتُوكَلَ إِلَيهِم ، فقالَ ابنُ هَرمةَ [في « ديوانه » ١٥١ـ١٥٢] : [مِنَ الوافرِ]

نَهَـانِـي ابْـنُ الـرَّسُـولِ عَـنِ الْمُـدَامِ ... وَأَدَّبَنِـي بِـآدَابِ الْكِـرَامِ

وَقَـالَ لِـيَ اصْطَبِـرْ عَنْهَـا وَدَعْهَـا ... لِخَـوْفِ اللهِ لاَ خَـوْفِ الأَنَـامِ

وَكَيْـفَ تَصَبُّـرِي عَنْهَـا وَحُبِّـي ... لَهَـا حُـبٌّ تَمَكَّـنَ فِـي عِظَـامِـي ؟!

---

(١) القتب : الربطُ والشدُّ .



[قدوم ابن هرمة على المهدي]

فضاقَ ذرعُهُ ، وشخَصَ إلى المهديِّ ، وامتدحَهُ بشعرِهِ الذي يقولُ فيهِ [في « ديوانه » ١٦٧ـ١٦٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَـه لَحَظَـاتٌ فِـي حَفَـافِـي سَـرِيـرِهِ ... يُقَلِّبُهَـا فِيهَـا عِقَـابٌ وَنَـائِـلُ[١]

لَهُـمْ طِينَـةٌ بَيْضَـاءُ مِـنْ آلِ هَـاشِـمٍ ... إِذَا اسْـوَدَّ مِـنْ لُـؤْمِ التُّـرَابِ الْقَبَـائِلُ

إِذَا مَـا أَتَـىٰ شَيْئـاً مَضَـىٰ كَـالَّـذِي أَتَـىٰ ... وَإِنْ قَـالَ : إِنِّـي فَـاعِـلٌ فَهُـوَ فَـاعِـلُ

[طلبه من المهدي أن يكتب له كتاباً إلى الحسن ألا يقيم الحد عليه وحيلة المهدي في ذلك]

فاهتزَّ المهديُّ لِشعرِهِ ، وقالَ [في « الأغاني » ٣٦٩/٤] : سلْ حاجتَكَ ، قالَ : تأمُرُ لي بكتابٍ إِلىٰ عاملِ (المدينةِ) أَلاَّ يحدَّني علىٰ شرابٍ ، فقالَ لهُ : ويلَكَ ، كيفَ نأْمرُ بذلكَ ؟! ثمَّ قالَ لوزرائِهِ : ما عندَكم مِن التلطُّفِ في حاجةِ ابنِ هرمةَ ؟ قالوا : إِنَّه يطلبُ ما لا سبيلَ إِليهِ مِن تعطيلِ الحدودِ ، قالَ المهديُّ : إِنَّ عِنْدي حيلةً إذا أَعيتْكُم حيلَتُهُ . . اكتبُوا إِلىٰ عاملِ (المدينةِ) ، مَنْ أَتاكَ بابنِ هرمَةَ سكرانَ . . فاضرِبِ ابنَ هرمةَ ثمانينَ ، واضربِ الذي يأْتيكَ بهِ مئةً ، فكانَ ابنُ هرمَةَ بعدَ ذلكَ يمشي في أَزِقَّةِ (المدينةِ) ، ويقولُ : مَن يشتري مئةً بثمانينَ .

غيرَ أَنَّه لا يليقُ الإِغضاءُ عليهِ بالحَسنِ إِنِ استمَرَّ في ولايتِهِ ، معَ ما سبقَ من تصلُّبِهِ في دينِ اللهِ ، فما عَدا مِمَّا بَدا .

[عتاب لزياد في حارثة بن بدر الغداني]

وكانَ حارثةُ بنُ بدرِ الغدانيُّ مِن المشهورينَ بالشرابِ ، وكان غالباً علىٰ زيادٍ ، فعوتِبَ فيهِ ، فقالَ : كيفَ لي باطِّراحِ رجُلٍ يسايرُني مُذ دخلتُ (العراقَ) ، ولم تصطكَّ رِكَابُهُ بِركابي ، وَلا تَقَدَّمَني . . فنظرتُ إِلىٰ قفاهُ ، ولا تأَخَّرَ عَني . . فلويتُ عُنُقي لهُ ، ولا أَخذَ عليَّ الشمسَ في الشتاءِ ، ولا الظلَّ في الصيفِ ، ولا سأَلْتُهُ عن علمٍ إِلاَّ ظننتُهُ لا يحسنُ غيرَهُ ؟

[جفاء ابن زياد لحارثة وطلبه منه ترك الخمر]

فلمَّا ماتَ زيادٌ . . جفاهُ ابنهُ عبيدُ اللهِ ، فقالَ لهُ : ما هـٰذا الجفاءُ أَيُّها الأَميرُ ، وقد عرفتَ مَكاني من أَبي المغيرَةِ ؟ فقالَ : أَمَّا أَبي . . فقد برعَ بروعاً لم يلحقْهُ معهُ عيبٌ ، وأَمَّا أَنا . . فحَدَثٌ ، ولا آمنُ أَنْ أُتَّهَمَ بمُجالَسَتِكَ ، فاتركِ الخمرةَ ، وكُنْ أَوَّلَ داخلٍ وآخرَ خارجٍ .

[الصدق في الترك أن يكون لله]

فقالَ : أَفأَتْرُكُها لَكَ ، ولَم أَتْرُكْها لِمَن يملِكُ ضَرِّي ونَفْعي ؟ قالَ : فاختَرْ ما شئتَ من أَعمالي ، قالَ : فإِنِّي أَختارُ (سُرَّقَ)[٢] ، فقد وُصِفَت لي بِها الكرومُ ، فولاَّهُ إِيَّاها ، فودَّعَهُ إِياسُ بنُ إِياسٍ بأَبياتِهِ المشهورةِ الَّتي يقولُ لهُ فيها : [مِنَ الطَّويلِ]

أَحَـارِ بْـنَ بَـدْرٍ قَـدْ وَلِيـتَ وِلاَيَـةً ... فَكُـنْ جُـرَذاً فِيهَـا تَخُـونُ وَتَسْـرِقُ

وَلاَ تَحْقِـرَنْ يَـا حَـارِ شَيْئـاً تَخُـونُـهُ ... فَحَظُّـكَ مِـنْ مُلْـكِ الْعِـرَاقَيْـنِ سُـرَّقُ

---

(١) حَفافُ الشيءِ : جانبُهُ .

(٢) سُرَّق : نهرٌ من كوَرِ الأهواز .



وَبَــاهِ تَمِيمــاً بِــالْغِنَــىٰ إِنَّ لِلْغِنَــىٰ ... لِسَــانــاً بِــهِ الْمَــرْءُ الْهُيُــوبَــةَ يَنْطِــقُ
فَــإِنَّ جَمِيــعَ النَّــاسِ إِمَّــا مُكَــذِّبٌ ... يَقُــولُ بِمَــا يهْــوَىٰ وَإِمَّــا مُصَــدِّقُ
يَقُــولُــونَ أَقْــوَالاً وَلاَ يَفْهَمُــونَهَــا ... وَلَــوْ قِيــلَ : هَــاتُــوا حَقِّقُــوا لَــمْ يُحَقِّقُــوا

فقالَ لهُ : لا بَعُدَ عنكَ الرُّشْدُ . وقيلَ : إِنَّه إِنَّما استقبلَه بِها في محلِّ عملِهِ ، وقيلَ : إِنَّ الأَبياتَ لأَبي الأَسودِ الدؤَليِّ يخاطِبُهُ بها[1] .

ومِن شعرِ حارثةَ وقد عذلَهُ مخارِقُ بنُ صخرٍ قولُهُ [في « الأغاني » ٨/ ٤٣٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

غَــدَا نَــاصِحــاً لَــمْ يَــأْلُ جُهْــداً مُخَــارِقٌ ... يَلُــومُ عَلَــىٰ شُــرْبِ السُّــلاَفِ الْمُعَتَّــقِ
فَقُلْــتُ : أَبَــا صَخْــرٍ دَعِ النَّــاسَ يَجْهَلُــوا ... وَدُونَكَهَــا صَهْبَــاءَ ذَاتَ تَــأَلُّــقِ
تَــرَاهَــا إِذَا مَــا الْمَــاءُ خَــالَــطَ جِسْمَهَــا ... تَخَــايَــلُ فِــي كَــفِّ الْــوَصِيــفِ الْمُمَنْطَــقِ
لَهَــا أَرَجٌ كَــالْمِسْــكِ يُــذْهِــبُ رِيحُهَــا ... عَمَــايَــةَ حَــاسِيهَــا بِحُسْــنِ تَــرَفُّــقِ
وَكَــمْ لاَئِــمٍ فِيهَــا بَصِيــرٍ بِفَضْلِهَــا ... رَمَتْــهُ بِسَهْــمٍ صَــائِــبٍ مُتَــزَلِّــقِ
يَعِيــبُ عَلَــيَّ الشُّــرْبَ وَالشُّــرْبُ هَمُّــهُ ... لِيُحْسَــبَ ذَا رَأْيٍ أَصِيــلٍ مُــوَفَّــقِ

وقولُهُ [في « الأغاني » ٨/ ٤٢٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

يَعِيــبُ عَلَــيَّ الــرَّاحَ مَــنْ لَــوْ يَــذُوقُهَــا ... لَجُــنَّ بِهَــا حَتَّــىٰ يُغَيَّــبَ فِــي الْقَبْــرِ
فَــدَعْهَــا أَوِ امْــدَحْهَــا فَــإِنَّــا نُحِبُّهَــا ... صَــرَاحــاً كَمَــا أَغْــرَاكَ رَبُّــكَ بِــالْهَجْــرِ
عَــلاَمَ تَــذُمُّ الــرَّاحَ وَالــرَّاحُ كَــاسْمِهَــا ... تُــرِيــحُ الْفَتَــىٰ مِــنْ هَمِّــهِ آخِــرَ الــدَّهْــرِ
فَلُمْنِــي فَــإِنَّ اللَّــوْمَ فِيهَــا يَــزِيــدُنِــي ... غَــرَامــاً بِهَــا إِنَّ الْمَــلاَمَــةَ قَــدْ تُغْــرِي
وَبِــاللهِ أُولِــي صَــادِقــاً لَــوْ شَــرِبْتَهَــا ... لأَقْصَرْتَ عَنْ عَذْلِي وَمِلْتَ إِلَىٰ عُذْرِي
وَإِنْ شِئْــتَ جَــرِّبْهَــا وَذُقْهَــا عَتِيقَــةً ... لَهَــا أَرَجٌ كَــالْمِسْــكِ مَحْمُــودَةَ الْخُبْــرِ
فَــإِنْ أَنْــتَ لَــمْ تَخْلَــعْ عِــذَارَكَ فَــالْحَنِي ... وَقُــلْ لِــي لَحَــاكَ اللهُ مِــنْ عَــاجِــزٍ غُمْــرِ[2]
وَقَبْلَــكَ مَــا قَــدْ لاَمَنِي فِــي اصْطِبَــاحِهَــا ... وَفِــي شُــرْبِهَــا بَــدْرٌ فَــأَعْــرَضْــتُ عَــن بَــدْرِ

وهُنا فوائدُ :

[قوة الإيمان حتىٰ عند الفساق]

الأُولىٰ : تعرفُ ما عليهِ القومُ حتَّىٰ فُسَّاقُهُم مِن قوَّةِ الإيمانِ ، والبُعدِ عَنِ التصنُّعِ والرِّياءِ والملقِ ، وحسبكَ دَليلاً عليهِ . . ما سبق مِن قولِ حارثةَ بنِ بدرٍ : لو شئْتُ أَن أَتركَها . . لَتركتُها لمالكِ ضَرِّي ونَفْعي ، ومِن قولِ أَبي نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٣٣٨] : [مِنَ الكاملِ]

وَإِذَا جَلَســتَ إِلَــى المُــدَامِ وَشُــرْبِهَــا ... فَــاجْعَــلْ حَــدِيثَــكَ كُلَّــهُ فِــي الْكَــاسِ

---

(١) في « ديوانه » (١٧٧) . والقصة في « معجم البلدان » (٣/ ٢١٤) .
(٢) فالحني : لُمني . لحاكَ اللهُ : قبَّحكَ اللهُ .



وَإِذَا نَـزَعْـتَ عَـنِ الْغِـوَايَـةِ فَلْيَكُـنْ لِلَّـــهِ ذَاكَ النَّـــزْعُ لاَ لِلنَّـــاسِ

وأَدلُّ مِن ذلكَ علىٰ قوَّةِ دينِهِ قولُهُ [في « ديوانه » ٥٢١] : [مِنَ الكامِلِ]

وَلَقَـدْ نَهَـزْتُ مَـعَ الْغُـوَانِ بِـدَلْـوِهِـمْ وَأَسَمْـتُ سَـرْحَ اللَّهْـوِ حَيْـثُ أَسَـامُـوا[1]

وَبَلَغْـتُ مَـا بَلَـغَ امْـرُؤٌ بِشَبَـابِـهِ فَـإِذَا عُصَـارَةُ كُـلِّ ذَاكَ أَثَـامُ[2]

[دع عنك لومي]

الثانيةُ : كنتُ أَتوهَّمُ أَنَّ أَبا نُوَاسٍ هُوَ السابقُ إِلىٰ قولِهِ [في « ديوانه » ٢٧] : [مِنَ البسيطِ]

دَعْ عَنْـكَ لَـوْمِـي فَـإِنَّ اللَّـوْمَ إِغْـرَاءُ وَدَاوِنِـي بِـالَّتِـي كَـانَـتْ هِـيَ الـدَّاءُ

.. حتَّىٰ سمعتُ ما سبقَ مِن قولِ حارثَةَ : (فَلُمْنِي فَإِنَّ اللَّوْمَ فِيهَا يَزِيدُنِي) . . . إِلىٰ آخرِهِ .

[رد المؤلف علىٰ من يطنب في وصف أبيات لابن الرومي]

الثالثةُ : مَا زالوا يتواصفونَ مَعَ الإِطنابِ قولَ ابنِ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٢/٥٥٣] : [مِنَ الكامِلِ]

تَــاللهِ مَــا أَدْرِي بِــأَيَّــةِ عِلَّــةٍ يَـدْعُـونَ هَـٰذَا الـرَّاحَ بِـاسْـمِ الـرَّاحِ

أَلِـرِيحِهَـا وَلِـرَوْحِهَـا تَحْـتَ الْحَشَـا أَمْ لِارْتِيَـاحِ نَـدِيمِهَـا الْمُـرْتَـاحِ

وإذا عادَ الإِنسانُ إِلىٰ نفسِهِ ، وأَنعمَ النظر . . وجَدَ فيها مِن الغثَاثَةِ ما لا تساوي معَهُ حبْلاً مِن شَعْرٍ ، وَلا سيَّما مَا كانَ مِن قافيةِ البيتِ الثاني ، وأَينَها مِن قولِ حارثَةَ السابقِ : (عَلاَمَ تَذُمُّ الرَّاحَ وَالرَّاحُ كَاسْمِهَا) . . . البيتُ ؟

[أجمل ما قيل في رقة الخمر ورقة كؤوسها]

الرابعةُ : لَم يعجبْني شَيءٌ في وصفِ رِقَّتِها ورقَّةِ كُؤُوسِهَا . . مثلُ قولِ البُحتريِّ [في « ديوانه » ١/٧] : [مِنَ الكامِلِ]

يُخْفِـي الـزُّجَـاجَـةَ لَـوْنُهَـا فَكَـأَنَّهَـا فِـي الكَـأْسِ قَـائِمَـةٌ بِغَيْـرِ إِنَـاءِ

وقولِ الناجمِ : [مِنَ البسيطِ]

وَقَهْــوَةٍ كَشُعَــاعِ الشَّمْــسِ صَـافِيَـةٍ مِثْـلَ السَّـرَابِ تُـرَىٰ مِـنْ رِقَّـةٍ شَبَحَـا

إِذَا تَعَــاطَيْتَهَــا لَــمْ تَــدْرِ مِـنْ لُطُـفٍ رَاحـاً بِـلاَ قَـدَحٍ أُعْطِيـتَ أَمْ قَـدَحَـا

وقولِ الصاحبِ [في « ديوانهِ » ٧٦] : [مِنَ الكامِلِ]

رَقَّ الــزُّجَــاجُ وَرَقَّــتِ الْخَمْــرُ وَتَشَــابَهَــا فَتَشَــاكَــلَ الأَمْــرُ

فَكَــأَنَّمَــا خَمْــرٌ وَلاَ قَــدَحٌ وَكَــأَنَّمَــا قَــدَحٌ وَلاَ خَمْــرُ

وقولِ ابنِ الفَارضِ [في « ديوانه » ١٤٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

يقُـولُـونَ لِـي : صِفْهَـا فَـأَنْـتَ بِـوَصْفِهَـا خَبِيـرٌ أَجَـلْ عِنْـدِي بِـأَوْصَـافِهَـا عِلْـمُ

صَفَــاءٌ وَلاَ مَــاءٌ وَلُطْــفٌ وَلاَ هَــوَىً وَنُــورٌ وَلاَ نَــارٌ وَرُوحٌ وَلاَ جِسْــمُ

---

(١) **نهزت بدلوهم** : ضربتُ بها لتمتلىءَ . **السرحُ** : المالُ السائمُ .

(٢) **الأثامُ** : الإثمُ والخطيئةُ .ذ

[ولع يزيد بن عبد الملك بقينتيه وتخلفه عن الجمعة بسبب حبهما]

ولمَّا استهترَ يزيدُ بنُ عبدِ الملكِ بقَيْنتَيهِ[1] ، وتخلَّفَ عن الجمعةِ . . عذَلهُ أَخوهُ مسلمةُ فارعوىٰ ، فبعثَتْ سلاَّمَةُ إلى الأَحوصِ ليضعَ شعراً تغنِّي فيهِ ، فقالَ [الأحوصُ في « ديوانه » ٥٣ـ٥٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا الْعَيْـشُ إِلاَّ مَـا تَلَـذُّ وَتَشْتَهِـي ... وَإِنْ لاَمَ فِيـهِ ذُو إِخَـاءٍ وَفَنَّـدَا

بَكَيْتُ الصِّبَا جُهْدِي فَمَنْ شَاءَ لاَمَنِي ... وَمَـنْ شَاءَ آسَىٰ فِي الْبُكَاءِ وَأَسْعَدَا

وَإِنِّـي لأَهْـوَاهَـا وَأَهْـوَىٰ لِقَـاءَهَـا ... كَمَا يَشْتَهِي الصَّادِي الشَّرَابَ الْمُبَرَّدَا

عَـلاَمَـةُ حُـبٍّ لَـجَّ فِـي سَنَـنِ الصِّبَـا ... فَـأَبْلَـىٰ وَمَـا يَـزْدَادُ إِلاَّ تَجَـدُّدَا

فلمَّا غَنَّتْهُ بهِ . . طربَ ، وفحصَ بِرِجْلِهِ الأَرضَ ، وقالَ : صدقْتِ ، صدقْتِ ، فقبَّحَ اللهُ مسلمةَ وما جاء بهِ ، وعادَ إِلىٰ غيِّهِ[2] .

[إنكار ابن خلدون ما ينسب إلى الرشيد من معاقرة العقار]

وأنكرَ ابنُ خلدونَ [كما في « مقدمته » ١٧] : ما ينسبُ إِلى الرشيدِ مِن مُعاقرَةِ العُقَارِ[3] .

وأَمَّا المأْمونُ . . فإِنَّه مِنَ المشهورينَ بِها ، ولهُ فِيها أَخبارٌ .

[المأمون من المشهورين بها وأخباره فيها]

مِن ذلكَ : أَنَّهُ أَشارَ إِلىٰ رَجُلٍ بِالكأْسِ ، فقالَ الرَّجلُ : يَا أَميرَ المؤمنينَ ، لم أَشربْها ناشئاً ، فلاَ تسقِنيها شيخاً ، فردَّهُ إِلىٰ عمرِو بنِ مسعدةَ ، وقالَ : لقد آليتُ في جوفِ الكعبةِ أَلاَّ أَشربَها ، ففكَّرَ المأْمونُ طويلاً ثُمَّ قالَ [كما في « ديوانِ أبي نواسٍ » ١٨٢] : [مِنَ الكاملِ]

رُدَّا عَلَـيَّ الْكَـأْسَ إِنَّكُمَـا ... لاَ تَعْلَمَـانِ الْكَـأْسَ مَـا تُجْـدِي

لَـوْ ذُقْتُمَـا مَـا ذُقْـتُ مَـا مُـزِجَـتْ ... إِلاَّ بِـدَمْعِكُمَـا مِـنَ الْـوَجْـدِ

مَـا مِثْـلُ نَعْمَـاهَـا إِذَا اشْتَمَلَـتْ ... إِلاَّ اشْتِمَـالَ فَـمٍ عَلَـىٰ خَـدِّ

خَـوَّفْتُمَـانِـي اللهَ رَبَّكُمَـا ... وَكَخِيفَتِيـهِ رَجَـاؤُهُ عِنْـدِي

إِنْ كُنْتُمَـا لاَ تَشْـرَبَـانِ مَعِـي ... خَـوْفَ الْعِقَـابِ شَـرِبْتُهَـا وَحْـدِي

ومِنْها : أَنَّه شربَ ومعَهُ القاضي يحيىٰ بنُ أَكثَمَ وعبدُ اللهِ بنُ طاهرٍ ، فتواطَؤُوا على القاضي . . حتَّىٰ أَسكروهُ ، وعندَهُم رِزَمٌ مِن الورْدِ والريحَانِ دَفنُوهُ فيها ، وعملَ المأْمونُ بيتَينِ ، ودَعا قَيْنَةً تُغَنِّي بِهِما علىٰ رأْسِ يحيىٰ وهُمَا : [مِنَ البسيطِ]

دَعَـوْتُـهُ وَهُـوَ حَـيٌّ لاَ حَيَـاةَ بِـهِ ... مُكَفَّنـاً فِـي ثِيَـابٍ مِـنْ رَيَـاحِيـنِ

فَقُلْتُ : قُمْ ، قَالَ : رِجْلِي لاَ تُطَاوِعُنِي ... فَقُلْتُ : خُذْ ، قَالَ : كَفِّي لاَ تُوَاتِينِي

---

(١) وهما : حبابة وسلاَّمَةُ .

(٢) « الأغاني » (١٥/١٢٩ـ١٣٢) .

(٣) **العُقَارُ** : الخمرُ ، وسُمِّيت بذلكَ لأَنَّها عقرتِ العقلَ ، **والمعاقَرَةُ** : إدمانُ الشربِ من الخمرِ .



فانتبهَ يحيىٰ لصوتِها ولرنَّةِ العودِ ، وقالَ : [مِنَ البسيطِ]

يَـا سَيِّـدِي وَإِمَـامَ النَّـاسِ كُلِّهِـمِ ... قَدْ جَارَ فِي حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْقِينِي
لَقَـدْ غَفَلْـتُ عَـنِ السَّـاقِي فَصَيَّـرَنِـي ... كَمَـا تَـرَانِـي سَلِيـبَ الْعَقْـلِ وَالـدِّيـنِ
فَـانْظُـرْ لِنَفْسِـكَ قَـاضٍ إِنَّنِـي رَجُـلٌ ... اَلـرَّاحُ تَقْتُلُنِـي وَالـرَّوحُ يُحْيِينِـي

والسياقُ يقْتضي : أَنَّ يحيىٰ لا يَتناولُ إِلاَّ القدْرَ الذي لا يسكرُ ، وهُوَ موضِعُ الخِلافِ ، وإِنَّما غَفَلَ تلكَ المرَّةَ . . حتَّىٰ وقعَ فيما وقعَ فيهِ ، فلاَ يَحُطُّ مِن قَدْرِهِ علىٰ جلالَتِهِ .

[الخلاف في يحيى بن أكثم]

وقدِ اختُلِفَ فيهِ[1] ، فأَخرجَ لَهُ الترمذيُّ والبخاريُّ ـ في غيرِ « الصحيح » ـ وذُكِرَ لأَحمدَ ما يرميهِ بهِ الناسُ ، فقالَ [كما في « الأعلام » ٨/١٣٨] : سبحانَ اللهِ ، مَنْ يَقولُ هـٰذا ؟ وأَنكرَهُ إِنكاراً شديداً ، وذكرَ : أَنَّهُ كانَ يُحسَدُ حسداً شديداً ، وذُكِرَ عندَ القاضي إِسماعيلَ بنِ إِسحاقَ فعظَّمَهُ ، وقالَ : كانَ لهُ يومٌ في الإِسلامِ لم يَكُنْ لأَحدٍ مثلُهُ ، وذكرَ هـٰذا اليومَ ، وهُوَ الذي عارضَ المأْمونَ فيهِ ؛ إِذ نادىٰ بتحليلِ المتعةِ ، وما زالَ بهِ حتَّىٰ أَقنعَهُ بحرمتِها ، فذكرَ رجلٌ ما يقالُ فيهِ ، فقالَ إِسماعيلُ : معاذَ اللهِ أَنْ تزولَ عدالَتُهُ بتكْذيبِ باغٍ وحاسدٍ .

[قول يحيىٰ عن نفسه]

وكانَ يحيىٰ يقولُ : كنتُ قاضياً وأَميراً ووَزيراً ، وما ولجَ سَمْعي أَحلىٰ مِن قولِ المستمليِّ : رضيَ اللهُ عنك .

[تحريم بعض أهل الجاهلية الخمر علىٰ أنفسهم]

وحرَّمَ الخمرَ علىٰ نفسِهِ كثيرٌ مِن أَهلِ الجاهليَّةِ ؛ محافظةً علىٰ شرفِ العقلِ :

مِنْهم : عبدُ المطلِّبِ بنُ هاشمٍ ، وعبدُ اللهِ بنُ جدعانَ ، وقيسُ بنُ عاصمٍ ، وعامرُ بنُ الظَّرْبِ العدوانيُّ ، وورقةُ بنُ نوفلٍ ، والوليدُ بنُ المغيرةِ ، وصفوانُ بنُ أُميَّةَ بنِ محرثٍ الكنانيُّ ، وعفيفُ بنُ معدِ يكربَ الكِنْديُّ ، والأَسلومُ بنُ نامي الهمذانيُّ ، ومقيسُ بنُ عديٍّ السهْمِيُّ ، وخلقٌ سواهُم .

[التقرب إلى السلطان بالعقل]

وحضرَ نصيبٌ عندَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ . . فدعاهُ إِلى الشرابِ فقالَ : إِنِّي لَم أَصِلْ إِليكَ بِنَفْسي وَلا بحسنِ صورَتي ، وإِنَّما قَرُبْتُ مِنْكَ بِعَقْلِي ، فإِنْ رأَىٰ أَميرُ المؤمنينَ أَلاّ يحولَ بيني وبينَهُ . . فعَلَ .

[الوليد والحجاج]

وقالَ الوليدُ لِلْحجَّاجِ : هَلْ لَكَ في الشرابِ ؟ قالَ : يا أَميرَ المؤمنين ، ليسَ بحرامٍ ما أَحلَلْتَهُ ، ولكنِّي أَمنعُ أَهلَ عَمَلي مِنْهُ ، وأَخافُ أَن أُخالِفَ قولَ العبدِ الصالحِ : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ ﴾ [هود : ٨٨] فأَعفاهُ .

[أيشرب نساؤكم هـٰذا ؟!!]

ومَرَّتْ أَعرابيَّةٌ بقومٍ يشربونَ نبيذاً ، فسقَوها ، فلمَّا شرِبَتْ أَقداحاً أَخذَتْها هزَّةٌ . . فقالَتْ : أَيشرَبُ نساؤُكم هـٰذا ؟ قالوا : نَعم ، قالَتْ : إِذاً يزنِينَ ، فوَاللهِ ما يَدري أَحدُكم مَنْ أَبوهُ .

---

(١) أي : في يحيى بن أكثم القاضي ، فقيه صدوق إلا أنه رمي بسرقة الحديث ، ولم يقع ذلك له ، وإنما كان يرى الرواية بالإجازة والوجادة ، مات سنة : (٢٤٣ هـ) وله ثلاث وثمانون سنة ، ولم يذكر في « التقريب » روايته عند البخاري .



[اعتراف المتنبي علىٰ نفسه بشربها]

أَمَّا الناظمُ . . فقدِ اعترفَ علىٰ نفسِهِ بشربِها فِي عدَّةِ مواضعَ مِن « **ديوانِهِ** » ، ولا مؤاخذَةَ عليهِ بِما جرىٰ فيهِ علىٰ طريقِ الشعراءِ مِن مدحِها ، كَما في البيتِ الذي بينَ أيدينا ، وإِنَّما نُؤَاخذُهُ بما قالَهُ مِن صريحِ الإِقرارِ ، **كقولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٢/٣٥١] : [مِنَ الوافرِ]

سَقَانِي الْخَمْرَ قَوْلُكَ لِي بِحَقِّي ... وَوُدٌّ لَمْ تَشُبْهُ لِي بِمَذْقِ[1]

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/٣٥٠] : [مِنَ المتقاربِ]

وَقَدْ مُتُّ أَمْسِ بِهَا مَوْتَةً ... ومَا يَشْتَهِي الْمَوْتَ مَنْ ذَاقَهُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٤/٤٦ـ٤٧] : [مِنَ الكاملِ]

وَأَخٍ لَنَا بَعَثَ الطَّلاَقَ أَلِيَّةً ... لأُعَلِّلَنَّ بِهَـٰذِهِ الْخُرْطُومِ[2]

فَجَعَلْتُ رَدِّي عِرْسَهُ كَفَّارَةً ... عَنْ شُرْبِهَا وَشَرِبْتُ غَيْرَ أَثِيمِ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٤/١١٨] : [مِنَ الكاملِ]

وَإِذا طَلَبْتُ رِضَا الأَمِيرِ بِشُرْبِهَا ... وَأَخَذْتُهَا فَلَقَدْ تَرَكْتُ الأَحْرَمَا

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/١٢] : [مِن مخلَّعِ البسيطِ]

مَالَ عَلَيَّ الشَّرَابُ جِدّاً ... وَأَنْتَ بِالْمَكْرُمَاتِ أَهْدَىٰ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/١٤٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

شَرِبْتُ عَلَى اسْتِحْسَانِ ضَوْءِ جَبِينِهِ ... وَزَهْرٍ تَرَىٰ لِلْمَاءِ فِيهِ خَرِيرَا

وكثيراً ما ترَّفَ بِشُربِها مَمْدوحيهِ ، مِن ذلكَ **قولُهُ** عن سيفِ الدولةِ [في « العُكبَريِّ » ٢/١٨٥] : [مِنَ الوافرِ]

أَلاَ أَذِّنْ فَمَا أَذْكَرْتَ نَاسِي ... وَلاَ لَيَّنْتَ قَلْباً وَهْوَ قَاسِي

وَلاَ شُغِلَ الأَمِيرُ عَنِ الْمَعَالِي ... ولاَ عَنْ ذِكْرِ خَالِقِهِ بِكَاسِ

وقولُهُ ـ أيضاً عنهُ ـ [في « العُكبَريِّ » ٢/٣٠١] : [مِنَ الوافرِ]

تَعَجَّبَتِ الْمُدَامُ وَقَدْ حَسَاهَا ... فَلَمْ يَسْكَرْ وَجَادَ فَمَا أَفَاقَا

وقولُهُ لبدرِ بنِ عمَّارٍ [في « العُكبَريِّ » ٢/١٤٠] : [مِنَ الكاملِ]

فَخَرَ الزُّجَاجُ بِأَنْ شَرِبْتَ بِهِ ... وَزَرَتْ عَلَىٰ مَنْ عَافَهَا الْخَمْرُ

وقولُهُ عَن عضدِ الدولَةِ [في « العُكبَريِّ » ٤/٢٧٦] : [مِنَ المنسرحِ]

لاَ تَجِدُ الْخَمْرُ فِي مَكَارِمِهِ ... إِذا انْتَشَىٰ خَلَّةً تَلاَفَاهَا

---

(١) **بمذق** : أي بود غير خالص ، وأصل المذق : المزج .

(٢) **الخرطومُ** : من أسماءِ الخمرِ .



[أبو نواس والخمر]

أمَّا قولُ أبي نُواسٍ [في « ديوانه » ٢٩٧] : [مِنَ الكاملِ]

فِـي مَجْلِـسٍ ضَحِـكَ السُّـرُورُ بِـهِ ... عَـنْ نَـاجِـذَيْـهِ وَحَلَّـتِ الْخَمْـرُ

.. فيمكنُ أن يكونَ جرىٰ فيهِ علىٰ خُبثِ مذهَبِهِ مِن انتهاكِ الحرمَةِ ، وقلَّةِ المبالاةِ ، كما في قولِهِ : [مِنَ البسيطِ]

لاَ تَسْقِنِي الـدَّهْـرَ أَمَّـا كُنْـتِ لِـي سَكَنـاً ... إلاَّ الَّتِـي نَـصَّ بِـالتَّحْـرِيـمِ جِبْـرِيـلُ

إِنْ كَـانَ حَـرَّمَهَـا الْفُـرْقَـانُ بَعْـدُ فَقَـدْ ... أَحَلَّهَـا قَبْـلُ تَـوْرَاةٌ وَإِنْجِيـلُ

[تحريم العرب الخمر علىٰ أنفسها حتىٰ تأخذ بثأرها]

ويُمكنُ أَنْ يكونَ جَرىٰ فيهِ علىٰ سُنَّةِ العربِ مِن تحريمِ الخمرِ علىٰ أَنفسِها إِذا وَتِرت حتَّىٰ تأْخذَ بثأْرِها ، قالَ شاعرُهم : [مِنَ الكاملِ]

اليَـوْمَ حَـلَّ لِـيَ الشَّـرَابُ وَمَـا ... كَـانَ الشَّـرَابُ يَحِـلُّ لِـي قَبْـلُ

وقالَ قيسُ بنُ الخطيمِ [في « ديوانه » ٤٤ـ٤٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمِنَّـا الَّـذِي آلَـىٰ ثَـلاَثِيـنَ حِجَّـةً ... عَـنِ الْخَمْـرِ حَتَّـىٰ زَارَكُـمْ بِـالْكَتَـائِـبِ

وَلَمَّـا هَبَطْنَـا السَّهْـلَ قَـالَ أَمِيـرُنَـا ... حَـرَامٌ عَلَيْنَـا الْخَمْـرُ مَـا لَـمْ نُضَـارِبِ

وقالَ البُحْتريُّ [في « ديوانه » ٢/١٠٤٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

حَـرَامٌ عَلَـيَّ الـرَّاحُ بَعْـدَكَ أَوْ أَرَىٰ ... دَماً بِـدَمٍ يَجْـرِي عَلَـى الأَرْضِ مَـائِـرُهْ[1]

[تحريم إدارة القهوة علىٰ نحو ما تدار الخمر]

وأَفتى ابنُ حجرٍ الهيتميُّ : تَبَعاً لجماعَةٍ مِن علماءِ (اليمنِ) ، بحرمَةِ إِدارَةِ القهوةِ علىٰ نحوِ ما تدارُ الخمرُ بينَ الشَّرَبَةِ .

غيرَ أَنَّهُ قالَ بعدُ : لَم يتحرَّرْ عندَنا في تلكَ العادَةِ المخصوصةِ بِهِم ما يقتَضي التشابُهَ بينَها وبينَ ما يفعَلُهُ الناسُ في القهوَةِ ، ويأْتي بعضُ ما يتعلَّقُ بالشايِ في شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/١٨٦] : [مِنَ البسيطِ]

وَلاَ وَقَفْـتُ بِجِسْـمٍ مُسْـيَ ثَـالِثَـةٍ ... ذِي أَرْسُـمٍ دُرُسٍ فِـي الأَرْبُـعِ الـدُّرُسِ[2]

* * *

---

(١) مَارَ : جرىٰ .

(٢) المسيُ : هوَ المساءُ . الرسْمُ : الأثرُ . الدرُسُ : جمعُ دارسٍ .



[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ١/٣١٨] : [مِنَ الخفيفِ]

شَيْبُ رَأْسِي وَذِلَّتِي وَنُحُولِي وَدُمُوعِي عَلَىٰ هَوَاكَ شُهُودِي ؟!

[شهود الحب كُثُر]

هُوَ مِن قولِ أَبي عُبادةَ [في « ديوانهِ » ٤/٢٢٥٢] : [مِنَ الكاملِ]

أَوَمَا كَفَاكَ بِدَمْعِ عَيْنِي شَاهِداً بِصَبَابَتِي ومُخَبِّراً عَنْ شَانِي ؟!

وقولِهِ [في « ديوانهِ » ٣/١٥٠٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَبْثَثْتُهَا شَكْوَىٰ أَبَانَتْ عَنِ الْجَوَىٰ وَدَمْعاً مَتَىٰ يَشْهَدْ بِبَتٍّ يُصَدَّقِ

وقولِهِ [في « ديوانهِ » ١/٧٢] : [مِنَ الكاملِ]

سَأُعِدُّ مَا أَلْقَىٰ فَإِنْ كَذَّبْتِنِي فَسَلِي الدُّمُوعَ فَإِنَّهَا لاَ تَكْذِبُ

وقالَ أَبو تمَّامٍ : [مِن مخلّعِ البسيطِ]

أَلَيْسَ دَمْعِي وَفَرْطُ شَوْقِي وَطُولُ سُقْمِي شُهُودَ حُبِّي ؟

[هل تقبل شهادة الدموع ؟]

ثمَّ كيفَ تُقبَلُ شهادَةُ الدمعِ معَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴾ [يوسف : ١٦] ؟!

وأَخرجَ ابنُ المنذرِ عنِ الشعبيِّ قالَ : جاءَتِ امرأَةٌ إِلىٰ شُريحٍ تخاصِمُ في شيءٍ ، فجعلَت تبْكي ، فَقَالوا : يَا أَبا أُميَّةَ ، أَما تَراها تبْكي ؟ قالَ : قَد جاءَ إِخوَةُ يوسفَ أَباهُم عشاءً يبكونَ .

وقالَ الأَعمشُ : لا يصدَّقُ باكٍ بعدَ إِخوانِ يوسفَ .

وقد يجابُ بأَنَّ بُكاءَهُم كانَ ليلاً مِن غيرِ دمعٍ ، ولَو جاؤُوا بالعَشِيِّ . لافتضحوا ، وإِنَّما اعتمدوا الليلَ لِيُمَوِّهوا علىٰ أَبيهِم بتِلكَ الحيلَةِ التي لم تنطلِ عليهِ ، ولم يصدِّقْهُم فيها .

وقد قالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٢/٣٩٤] : [مِنَ الوافرِ]

إِذَا اشْتَبَكَتْ دُمُوعٌ فِي خُدُودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَىٰ مِمَّنْ تَبَاكَىٰ

غيرَ أَنَّهُ يأْتي إِشكالٌ آخرُ بما جاءَ في الأَثرِ ـ أَوِ الخبَرِ ـ مِن أَنَّهُ : « **إِذا تَمَّ فُجُورُ الْمَرْءِ . . بَدَرَتْ دَمْعَتُهُ** »[1] .

[التعنت في الحب]

وقد قالَ سِبطُ ابنِ التعاويذيِّ يمدَحُ الوزيرَ عونَ الدينِ يحيىٰ بنَ هبيرةَ [في « ديوانه » ٣٤٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا قُلْتُ : قَدْ أَنْحَلْتِ جِسْمِي صَبَابَةً تَقُولُ : وَهَلْ حُبٌّ بِغَيْرِ نُحُولِ

(١) أورده في « كنز العمال » (٨٤٧) عن عقبة بن عامر بلفظ : « إذا تم فجور العبد . . ملك عينيه ، فبكىٰ منهما متىٰ شاء » . وعزاه لابن عدي في « الكامل » .

وَإِنْ قُلْتُ : دَمْعِي بِالأَسَىٰ فِيكِ شاهِدٌ تقُـولُ : شُهُـودُ الـدَّمْـعِ غَيْـرُ عُـدُولِ

[ارحم شبابك من عدو . . ترحم]

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٢٥] : [مِنَ الكاملِ]

لاَ يَخْـدَعَنَّـكَ مِـنْ عَـدُوٍّ دَمْعُـهُ وَارْحَـمْ شَبَابَـكَ مِـنْ عَـدُوٍّ تُـرْحَـمِ

[تعليق المؤلف على الحديث]

ويُجابُ أَوَّلاً : بأَنْ لاَ أَصْلَ لِلخَبَرِ ، كَما في « فتاوى الجمالِ الرمْلِيِّ » .

[تعليقه على المتنبي]

وثانياً : بأَنَّ الناظمَ لَمْ يكتفِ بالدمعِ وحدَهُ حتَّىٰ ضمَّهُ إِلى الذِّلَّةِ والنحولِ ، وفي اجتماعِها ما يكفِي لِلْحُجَّةِ ، وقد قالوا : لا يُحتجُّ بِمَراسيلِ كبارِ التابعينَ . . حتَّىٰ تنعَضِدَ بضعيفٍ ، أَو قياسٍ ، أَو عملٍ ، أَوْ مرسَلٍ ، فيكونُ المجموعُ حُجَّةً عندَ الشافعيِّ ، لا مجرَّدُ المرسَلِ ، وَلا العاضِدِ ، وهٰذا نظيرُهُ .

[دموع الحب]

ومِنْ لَطيفِ شعرِ أَبي الشِّيصِ الخزاعيِّ [في « ديوانهِ » ٢٤ـ٢٥] : [مِنَ الوافرِ]

وَقَـائِلَـةٍ وَقَـدْ بَصُـرَتْ بِـدَمْـعٍ عَلَـى الْخَـدَّيْـنِ مُنْحَـدِرٍ سَكُـوبِ
أَتَكْـذِبُ فِـي الْبُكَـاءِ وَأَنْـتَ خِلْـوٌ ؟! قَـدِيمـاً مَـا جَسَـرْتَ عَلَـى الـذُّنُـوبِ
قَمِيصُـكَ وَالـدُّمُـوعُ تَجُـولُ فِيـهِ وَقَلْبُـكَ لَيْـسَ بِـالْقَلْـبِ الْكَئِيـبِ
نَظِيـرُ قَمِيـصِ يُـوسُـفَ حِيـنَ جَاؤُوا عَلَـىٰ لَبَّـاتِـهِ بِـدَمٍ كَـذُوبِ[1]
فَقُلْـتُ لَهَـا : فِـدَاكِ أَبِـي وَأُمِّـي رَجَمْـتِ بِسُـوءِ ظَنِّـكِ فِـي الْغُيُـوبِ
أَمَـا وَاللهِ لَـوْ فَتَّشْـتِ قَلْبِـي لَسَـرَّكِ بِـالْعَـوِيـلِ وَبِـالنَّحِيـبِ
دُمُـوعُ الْعَـاشِقِيـنَ إِذَا تَـلاَقَـوْا بِظَهْـرِ الْغَيْـبِ أَلْسِنَـةُ الْقُلُـوبِ

وقالَ جميلُ بنُ مَعْمَرٍ [في « ديوانه » ٦٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

خَلِيلَـيَّ مَـا أُخْفِـي مِـنَ الْـوَجْـدِ بَـاطِـنٌ وَدَمْعِـي بِمَـا قُلْـتُ الْغَـدَاةَ شَهِيـدُ

وقالَ قيسُ بنُ الملوِّحِ [في « ديوانهِ » ٧٩ـ٨٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَشَـاهِـدُ وَجْـدِي دَمْـعُ عَيْنِـي وَحُبُّهَـا بَـرَى اللَّحْـمَ عَنْ أَحْنَـاءِ عَظْمِـيْ وَمَنْكِبِي[2]
أَلاَ إِنَّمَـا غَـادَرْتِ يَـا أُمَّ مَـالِـكٍ صَـدَىً أَيْنَمَـا تَـذْهَـبْ بِـهِ الـرِّيـحُ يَـذْهَـبِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢٩٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـإِنَّ الَّـذِي أَمَّلْـتُ مِـنْ أُمِّ مَـالِـكٍ أَشَـابَ قَـذَالِـي وَاسْتَهَـامَ فُـؤَادِيَـا[3]

---

(١) اللَّبَّةُ : موضعُ المَنْحَرِ .
(٢) أحناءُ الجسمِ : أطرافُهُ ونواحيهِ .
(٣) القذالُ : جِماعُ مؤخَّرِ الرأسِ .

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢٩٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا مَا شَكَوْتُ الْحُبَّ قَالَتْ : كَذَبْتَنِي ... فَمَا لِي أَرَى الأَعْضَاءَ مِنْكَ كَوَاسِيَا

فَلاَ حُبَّ حَتَّىٰ يَلْصَقَ الْجِلْدُ بِالْحَشَا ... وَتَخْرَسَ حَتَّىٰ لاَ تُجِيبَ الْمُنَادِيَا

وقالَ ديكُ الجِنِّ [في « ديوانهِ » ١٨٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

زَعَمْتُمْ بِأَنِّي قَدْ سَلَوْتُ وِصَالَكُمْ ... فَلِمْ ذَرَفَتْ عَيْنِي ؟ وَلِمْ شَابَ مَفْرِقِي ؟

وقالَ [في « ديوانهِ » ٧٩٣] : [مِنَ الكاملِ]

سِمَةُ الصَّبَابَةِ زَفْرَةٌ أَوْ عَبْرَةٌ ... مُتَكَفِّلٌ بِهِمَا حَشاً وَشُؤُونُ[1]

وقالَ خالدٌ الكاتبُ : [مِنَ البسيطِ]

مَا زِلْتُ أُنْكِرُ مَا أَلْقَىٰ وَأَجْحَدُهُ ... فَاسْتَشْهَدَ الْعَاذِلُونَ الدَّمْعَ وَالنَّفَسَا

وقالَ آخرُ : [مِنَ الكاملِ]

لِي فِي مَحَبَّتِهِ شُهُوْدٌ أَرْبَعٌ ... وَشُهُودُ كُلِّ قَضِيَّةٍ إِثْنَانِ

خَفَقَانُ قَلْبٍ وَاضْطِرَابُ جَوَارِحٍ ... وَنُحُولُ جِسْمٍ وَاعْتِقَالُ لِسَانِ

وقالَ ابنُ جابرٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَرَادَتْ عَلَىٰ دَعْوَى الْمَحَبَّةِ شَاهِداً ... فَقُلْتُ لَهَا : هَـٰذِي دُمُوعِيَ فَاسْأَلِي

وقالَ كُثَيِّرٌ [في « ديوانه » ٤٣٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَقُولُ لِدَمْعِ الْعَيْنِ أَمْعِنْ لأَنَّهُ ... بِمَا لاَ يَرَىٰ مِنْ غَائِبِ الْحُزْنِ يَشْهَدُ

وقالَ غيرُهُ : [مِنَ الكاملِ]

خَبَرِي خُذُوهُ عَنِ الضَّنَا وَعَنِ الأَسَىٰ ... لَيْسَ اللِّسَانُ وَإِنْ تَلِفْتُ بِمُخْبِرِ

[قلة الدمع . . من شدة الوله وجور الصبابة]

وجاءَ : أَنَّ قِلَّةَ الدمعِ قد تكونُ من شدَّةِ الوَلَهِ وجَورِ الصبابةِ ، ولا يبعدُ أَن يكونَ منهُ قولُ عائِشةَ [كما في حديث الإفك عند « البخاري » ٢٦٦١] : فَقَلَصَ دمْعي حتَّىٰ ما أُحِسُّ منهُ قطرةً .

ومنهُ ما يعزىٰ إِلىٰ يزيدَ [في « ديوانهِ » ٥٧] : [مِنَ البسيطِ]

لا تَرْحَلَنَّ فَمَا أَبْقَيْتَ مِنْ جَلَدِي ... مَا أَسْتَطِيعُ بِهِ تَوْدِيعَ مُرْتَحِلِ

وَلاَ مِنَ النَّوْمِ مَا أَلْقَى الْخَيَالَ بِهِ ... وَلاَ مِنَ الدَّمعِ مَا أَبْكِي عَلَى الطَّلَلِ

وقولُ بعضِهِم [في « ديوانِ أَبي حيَّةَ النميريِّ » ١٤٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلاَ مُقْلَتِي مِنْ غَابِرِ الْمَاءِ تَنْجَلِي ... وَلاَ دَمْعَتِي مِنْ مَكْمَدِ الْوَجْدِ تَقْطُرُ

---

(١) الشؤونُ : مجرى الدمع .

وهٰذا البيتُ ، ثالثُ بيتينِ لأبي حيَّةَ النميريِّ مِن خالصِ القولِ ، وهما [في « ديوانهِ » ١٤٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

نَظَـرْت كَـأَنِّـي مِـنْ وَرَاءِ زُجَـاجَـةٍ ... إِلَـى الـدَّارِ مِـنْ فَـرْطِ الصَّبَـابَـةِ أَنْظُـرُ
بِعَيْنَيْـنِ طَـوْراً يَغْـرَقَـانِ مِـنَ الْبُكَـا ... فَـأَعْشَـىٰ وَطَـوْراً يُحْسَـرَانِ فَـأُبْصِـرُ

وهو مثلُ قولِ ذي الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » ١/ ٤٦٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنْسَـانُ عَيْنِـي يَحْسِـرُ الْمَـاءَ تَـارَةً ... فَيَبْـدُو وَأَحْيَـانـاً يَجُـمُّ فَيَغْـرَقُ[1]

وقالَ العبَّاسُ بنُ الأَحنفِ [في « ديوانهِ » ١١٦] : [مِنَ الكاملِ]

نَـزَفَ الْبُكَـاءُ دُمُـوعَ عَيْنِـكَ فَـاسْتَعِـرْ ... عَيْنـاً لِغَيْـرِكَ دمْعُهَـا مِـدْرَارُ

وقالَ الأَبلَهُ : [مِنَ الكاملِ]

قَـدْ كُنْـتُ ذَا دَمْـعٍ وَذَا جَلَـدٍ ... فبَقِيـتُ لاَ جَلَـداً وَلاَ دَمْعَـا

وقالَ ابنُ الفارضِ : [مِنَ الرَّمَلِ]

ذَابَـتِ الـرُّوحُ اشْتِيَـاقـاً فَهِـيَ بَعْـ ... ـدَ نَفَـادِ الـدَّمْـعِ أَجْـرَىٰ عَبْـرَتَـيْ
فَهَبُـو عَيْنَـيَّ مَـا فِهِـيَ إِحْـدَىٰ مُنْيَتَـيْ ... عَيْـنَ مَـاءٍ فهِـيَ إِحْـدَىٰ مُنْيَتَـيْ

[الإشارات والكناية في الحب]

وقالَ بعضُهُم : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَـائِلَـةٍ : مَـا بَـالُ دَمْعِـكَ أَخْضَـراً ... فَقُلْتُ لَهَـا : هَـلْ تَفْهَمِيـنَ إِشَـارَتِـي ؟
أَلَـمْ تَعْلَمِـي أَنَّ الـدُّمُـوعَ تَجَفَّفَـتْ ... فَـأَجْـرَيْتُهَـا يَـا مُنْيَتِـي مِـنْ مَـرَارَتِـي

وَلا يخفىٰ ما في هٰذينِ مِنَ الانحطاطِ ، ولكنْ قد يقبلُ قولُ الآخرِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَـائِلَـةٍ : مَـا بَـالُ دَمْعِـكَ أَسْـوَداً ... وَقَـدْ كَـانَ مُحْمَـرّاً وَأَنْـتَ نَحِيـلُ ؟
فَقُلْـتُ لَهَـا : إِنَّ الـدُّمُـوعَ تَصَـرَّمَـتْ ... وَهَـٰذَا سَـوَادُ الْعَيْـنِ فَهُـوَ يَسِيـلُ

[أجمل ما قيل في الدموع]

وأمَّا الَّذي تُعقَدُ الخَناصِرُ عَلَيهِ . . فإنَّما هُوَ قولُهُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَـائِلَـةٍ : مـا بَـالُ دَمْعِـكَ أَبْيَضـاً ؟ ... فَقُلْـتُ لَهَـا : يَـا عُلْـوُ هَـٰذَا الَّـذِي بَقِـي
أَلَـمْ تَعْلَمِـي أَنَّ الْبُكَـا طَـالَ عُمْـرُهُ ... فَشَابَتْ دُمُوعِي مِثْلَ مَا شَابَ مَفْرِقِي
وَعَمَّـا قَلِيـلٍ لاَ دُمُـوعِـي وَلاَ دَمِـي ... تَـرَيْـنَ وَلَكِـنْ لَـوْعَتِـي وَتَحَـرُّقِـي

وقولُ ابنِ الخيَّاطِ [في « ديوانهِ » ٤٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكُنْتُ إِذا مَا اشْتَقْتُ عَوَّلْتُ فِي الْبُكَا ... عَلَـىٰ لُجَّـةٍ إِنسَـانُ عَيْنِـي غَـرِيقُهَـا

---

(١) يجمُّ : يكثرُ ويجتمعُ .

فَلَـمْ يَبْـقَ مِـنْ ذَا الـدَّمْـعِ إِلاَّ نَشِيجُـهُ　　وَمِـنْ كَبِـدِ الْمُشْتَـاقِ إِلاَّ خُفُـوقُهَـا
فَيَـا لَيْتَنِـي أَبْقَـىٰ لِـيَ الـدَّهْـرُ عَبْـرَةً　　فَـأَقْضِـي بِهَـا حَـقَّ النَّـوَىٰ وأُرِيقُهَـا

وقالَ ابنُ اللَّبَّانَةِ [في « نفح الطيب » ٤/٢٥٨] :　　[مِنَ الطَّويلِ]

بَكَيْتُـكِ حَتَّـىٰ لَـمْ يُخَـلِّ لِـيَ الأَسَـىٰ　　دُمُـوعـاً بِهَـا أَبْكِـي عَلَيْـكِ وَلاَ دَمَـا

ومِن محاسنِ الباروديِّ [في « ديوانه » ٤٩] :　　[مِنَ الوافرِ]

فَـزِعْـتُ إِلـى الـدُّمُـوعِ فَلَـمْ تُجِبْنِـي　　وَفَقْـدُ الـدَّمْـعِ عِنْـدَ الْحُـزْنِ دَاءُ
وَمَـا قَصَّـرْتُ فِـي جَـزَعٍ ولَكِـنْ　　إِذا غَلَـبَ الأَسَـىٰ ذَهَـبَ الْبُكَـاءُ

ويأتي عند ذكرِ بكاءِ الحمامِ بعضُ ما يتَّصِلُ بهِ .

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٥٤] :　　[مِنَ الطَّويلِ]

وَرُبَّ كَئِيـبٍ لَيْـسَ تَنْـدَىٰ جُفُـونُـهُ　　وَرُبَّ كَثِيـرِ الـدَّمْـعِ غَيْـرُ كَئِيـبِ

[أجود بدمعي والدموع على الخد]

وقالَ القطبُ الحدَّادُ [في « ديوانه » (١٥٦)] :　　[مِنَ الطَّويلِ]

أَجُـودُ بِـدَمْعِـي وَالـدُّمُـوعُ عَلَـى الْخَـدِّ　　شُهُودٌ عَلَى الأَشْوَاقِ وَالْحُزْنِ وَالْوَجْدِ
أُحِـسُّ بِقَلْبِـي حَسْـرَةً وَكَـآبَـةً　　لِمَـا نَـالَنِـي مِـنْ وَحْشَـةِ الْبَيْـنِ وَالصَّـدِّ
إِذَا رُمْـتُ مِـنْ نَجْـدٍ دُنُـوّاً تَـزَاحَمَـتْ　　عَلَـيَّ أُمُـورٌ تَقْتَضِـي الْبُعْـدَ عَـنْ نَجْـدِ
وَعَـنْ جِيـرَةِ الْحَـيِّ الأُلَـىٰ حَـلَّ حُبُّهُـمْ　　فُـؤَادِي فَـأَلْهَـانِـي عَـنِ الْقَبْـلِ وَالْبَعْـدِ
مَحَبَّتُهُـمْ دِينِـي وَفَـرْضِـي وَسُنَّتِـي　　وَعُـرْوَتِـيَ الْـوُثْقَـىٰ وَأَفْضَـلُ مَـا عِنْـدِي
وَمَهْمَـا سَـرَتْ لِـي نَسْمَـةٌ مِـنْ رُبُـوعِهِـمْ　　يُخَـالِطُهَـا عَـرْفُ الْبَشَـامَـاتِ وَالـرَّنْـدِ[1]
وَرِيـحُ الْخُـزَامَـىٰ وَالأَرَاكِ يُهِيـجُ لِـي　　شُجُـونِـيَ حَتَّـىٰ لاَ أُعِيـدُ وَلاَ أُبْـدِي
فَمَـا حِيلَتِـي وَالْعُمْـرُ وَلَّـىٰ وَلَـمْ أَنَـلْ　　لِقَـاهُـمْ وَمَـا لِلْعُمْـرِ إِنْ فَـاتَ مِـنْ رَدِّ
وَإِنِّـي مُقِيـمٌ فِـي مَـوَاطِـنِ غُـرْبَـةٍ　　عَلَـىٰ كَثْـرَةِ الأُلاَّفِ فِـي جَانِـبٍ وَحْـدِي
قَـرِيـبٌ بَعِيـدٌ بَـائِـنٌ غَيْـرُ بَـائِـنٍ　　وَحِيـدٌ فَـرِيـدٌ فِـي طَـرِيقِـي وَفِـي قَصْـدِي
أُمُـورٌ وَأَحْـوَالٌ تَعِـنُّ وَلَـمْ أَجِـدْ　　عَلَيْهَـا مُعِينـاً وَهْـيَ تَقْعُـدُ بِـالْفَـرْدِ

وهٰذهِ الأبياتُ وإن لَم تتَّصِلْ كُلُّها بِالموضوعِ . . فَإِنَّ رقَّتَها وانسجامَهَا ، ووخزها للأكبادِ ، وتحريكَها للأشجانِ ، وصدورَها عَن قلبٍ وامِقٍ ، وحبٍّ صادِقٍ ، كلُّ ذلكَ . . هزَّ البنانَ ، وأَطلقَ العنانَ ، ويعجبني فيما يتَّصِلُ بِالموضوعِ قولُه ـ أَيضاً ـ [في « ديوانه » ٣٩٩] :　　[مِنَ الطَّويلِ]

سَـأَبْكِـي عَلَيْهِـمْ مَـا حَيِيـتُ بِعَبْـرَةٍ　　لَهَـا مَـدْمَـعٌ فِـي الْخَـدِّ تَشْهَـدُ بِـالثُّكْـلِ

---

(١)　البشاماتُ : شجرٌ عَطِرُ الرائحةِ ، وَرَقُهُ يسوِّدُ الشَّعرَ ، ويُستاكُ بقضُبِهِ . الرَّندُ : عودٌ لطيفٌ ، طيِّبُ الرائحةِ .

وقد سبقَ قبيلَ شرحِ قولِهِ : (فَثِبْ وَاثِقاً بِاللهِ وَثْبَةَ مَاجِدِ) .

وفي شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٦٣] : [من البسيط]

وَالْوَجْدُ يَقْوَىٰ كَمَا يَقْوَى النَّوَىٰ أَبَداً وَالصَّبْرُ يَنْحَلُ فِي جِسْمِي كَمَا نَحِلاَ

[البكاء من خشية الله مطلوب]

. . بعضُ ما يتعلَّقُ بالبُكاءِ ، وهو مِن خشيةِ اللهِ مطلوبٌ ، وما لا يتجاوزُ الدمعَ غيرُ محظورٍ مطلقاً ، ولكنْ قالَ ابنُ الفارضِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَيَحْسُنُ إِظْهَارُ التَّجَلُّدِ لِلعِدَا وَيَقْبُحُ غَيْرُ الْعَجْزِ عِنْدَ الأَحِبَّةِ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٦٨ـ٢٦٩] : [مِنَ الكاملِ]

اَلْحُزْنُ يُقْلِقُ وَالتَّجَمُّلُ يَرْدَعُ وَالدَّمْعُ بَيْنَهُمَا عَصِيٌّ طَيِّعُ
إِنِّي لأَجْبُنُ مِنْ فِرَاقِ أَحِبَّتِي وَتُحِسُّ نَفْسِي بِالْحِمَامِ فَأَشْجُعُ
وَيَزِيدُنِي غَضَبُ الأَعَادِي قَسْوَةً وَيُلِمُّ بِي عَتْبُ الصَّدِيقِ فَأَجْزَعُ

وقالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانه » ١/ ٢٩٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

جَلِيدٌ عَلَىٰ عَتْبِ الْخُطُوبِ إِذا عَرَتْ وَلَسْتُ عَلَىٰ عَتْبِ الأَخِلاَّءِ بِالْجَلْدِ

[أسباب الشيب كثيرة]

ثمَّ إنَّ في البيتِ الذي نتكلَّمُ عليهِ . . إشارةً إِلَىٰ أَنَّ الذي شَيَّبَهُ هُو الهوىٰ ، ومثلُهُ لاَ يُحصىٰ كثرةً في أَشعارِ الناسِ .

أَمَّا سيِّدُ البشَرِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . فقد قالَ : « شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا »[1] .

وأَمَّا عبدُ الملكِ بنُ مروانَ فقالَ [في « الكامل » ٤/ ٢٣٩] : شَيَّبَنِي ارْتقاءُ المنابرِ ، واتِّقاءُ اللَّحْنِ .

وأَمَّا البُحتريُّ : فقد أَهانَ نفسَهُ ؛ إِذِ اعترفَ بأَنَّ شيبَهُ مِن كثرةِ السؤَالِ في قولِهِ [في « ديوانه » ٤/ ٢٠٩٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَشَيَّبَنِي أَلاَّ أَزَالَ مُجَدِّداً سَرَابِيلَ تَسْآلٍ كَثِيرَ الْمَغَارِمِ

وكلُّ ذلكَ داخلٌ تحتَ قولِ الناظمِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٢٤] : [مِنَ الكاملِ]

وَالْهَمُّ يَخْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ

وزعمَ بعضُ الأَقدمينَ : أَنَّ الذي شيَّبَهُ الطِّيبُ فقالَ : [من مجزوء الرمل]

إِنَّمَا شَيَّبَنِي الطِّيبُ وَأَنْفَاسُ الْغَوَانِي
وَاهْتِمَامِي بِنَزِيلٍ أَوْ بِضَيْفٍ أَوْ بِعَانِ[2]
قَصُرَتْ عَنْ جَانِبِ الْحَقِّ لَهُ مِنِّي الْيَدَانِ

---

(١) أخرجه عن عقبة بن عامر الطبراني في « المعجم الكبير » (٦/ ١٤٨) ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما رواه الترمذي (٣٢٩٣) في التفسير ، وقال : غريب . وأورده العجلوني في « كشف الخفاء » (١٥٧٢) وسرد أقوال أهل العلم فيه .

(٢) العاني : الأسيرُ .

وقالَ الآخرُ : [مِنَ الطَّويلِ]

جَلاَ الأَذْفَرُ الأَحْوَىٰ مِنَ الطِّيبِ فَرْقَهُ وَطِيبِ الدِّهَانِ رَأْسَهُ فَهْوَ أَنْزَعُ[1]

[أكثر العرب علىٰ أن الشيب من الوقائع]

وأَكثرُ العَربِ . . تزعُمُ الشيبَ مِنَ الأَهوالِ والوقائعِ ، وقالَ شاعرُهُم [كما في « شذرات الذهب » ١/١١٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَا شَابَ رَأْسِي مِنْ سِنِينَ تَتَابَعَتْ عَلَيَّ وَلَكِنْ شَيَّبَتْنِي الْوَقَائِعُ

وقالَ الرضيُّ [في « ديوانه » ٩٨٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا شِبْتُ مِنْ طُولِ السِّنِينَ وَإِنَّمَا غُبَارُ حُرُوبِ الدَّهْرِ غَطَّىٰ سَوَادِيَا

وقد قالَ عزَّ اسمُهُ : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۞ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾ [المزمّل : ١٧ـ ١٨] . ولِلشَّيبِ وما يتعلَّقُ بهِ غيرُ هـٰذا المكانِ .

* * *

[قالَ أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ١/٣١٩] : [مِنَ الخفيفِ]

أَيَّ يَوْمٍ سَرَرْتَنِي بِوِصَالِ لَمْ تَرُعْنِي ثَلاَثَةً بِصُدُودِ ؟!

[مسكين المتنبي يبتغي الربح من الحبيب!! إن هـٰذا لشيء عجاب]

يقولُ : لَم تسُرَّني بالوصالِ يوماً ، إلاَّ رُعْتَني بالصدودِ ثلاثاً . فـ (أَيَّ) : استفهاميَّةٌ ، يرادُ مِنها النفيُ ، وهـٰذا طمعٌ شديدٌ مِنَ الناظمِ ، وإلاَّ . . فالعشَّاقُ ـ كما سبقَ في عدَّةِ مواضعَ ، مِنها المجلسُ الثاني ، ومِنْها ما قُبَيلَ الكلامِ علىٰ **قولِهِ** : (عَلَّ الأَمِيرَ يَرَىٰ ضَعْفِي فَيَشْفَعَ لِي . . إلخ) ـ كانوا يَقْتَنِعونَ باليَسيرِ مِن أَنواعِ الوِصَالِ .

[لم تكن راحة القلب يوماً بدون القناعة باليسير من المحبوب والشعراء تشهد بذلك]

قالَ قيسٌ [في « ديوانه » ٩٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

عِدِينِي ـ بِنَفسِي أَنْتِ ـ وَعْداً فَرُبَّمَا جَلاَ كُرْبَةَ الْمَحْزُونِ عَنْ قَلْبِهِ الْوَعْدُ

وقالَ ابنُ الفارضِ [في « ديوانهِ » ١٣٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

عِدِينِي بِوَصْلٍ وَامْطُلِي بِنَجَازِهِ فَعِنْدِي إِذَا صَحَّ الْهَوَىٰ حَسُنَ الْمَطْلُ

وقالَ قيسٌ [في « ديوانه » ١٠٢ـ١٠٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنْ تَكُ لُبْنَىٰ قَدْ أَتَىٰ دُونَ قُرْبِهَا حِجَابٌ مَنِيعٌ مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ
فَإِنَّ نَسِيمَ الْجَوِّ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَنُبْصِرُ قَرْنَ الشَّمْسِ حِينَ تَزُولُ

---

(١) **الأذفَرُ** : النتنُ الرائحةِ . **الأحوىٰ** : الأسود . **النزعَةُ** : الموضعُ من رأسِ الأنزعِ ، وهما نزعتان ترتفعان في جانبي الناصية .

وَأَرْوَاحُنَـا بِـاللَّيْـلِ فِـي النَّـوْمِ تَلتَقِـي وَنَعْلَـمُ أَنَّـا بِـالنَّهَـارِ نَقِيـلُ
وَتَجْمَعُنَـا الأَرْضُ الْقَـرَارُ وَفَـوْقَنَـا سَمَـاءٌ نَـرَىٰ فِيهَـا النُّجُـومَ تَجُـولُ
إِلَـىٰ أَنْ يَعُـودَ الـدَّهْـرُ سِلْمـاً وَتَنْقَضِـي تِـرَاتٌ يَـرَاهَـا عِنْـدَنَـا وَذُحُـولُ[1]

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٩٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا طَلَعَـتْ شَمْـسُ النَّهَـارِ فَسَلِّمِـي فَـإِنِّـي يُسَلِّينِـي عَلَيْـكِ طُلُـوعُهَـا

ألا وإنَّ اجتماعَ الأَبصارِ علىٰ رؤْيَةٍ نحوِ الهلالِ . . لَنَوْعٌ مِنَ الوِصالِ ، غيرَ أنَّه لا يتيسَّر لِكلِّ مُفارقٍ معَ بُعدِ الشقَّةِ ، وتفارُطِ البعدِ ؛ إذ لا يحصُلُ كلُّهُ لِمَن كانَ مثلاً بـ(جاوا)[2] وأَهلُهُ بـ(حضرموت) ، غيرَ أنَّهم شركاءُ بعدُ في التمنِّي ، الذي يعوِّلُ بعضُهُم عليهِ في بَلِّ غُلَّةِ الجَوىٰ ، وتَسكينِ حرِّ النوىٰ .

قالَ أَبو حيَّةَ النميريُّ [في « ديوانهِ » ١٥٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَدَاوَيْـتُ جُـرْحَ الْقَلْـبِ مِنْهُـنَّ بِـالْمُنَـىٰ وَبِـاللَّحْـظِ ـ لَـوْ يَبْـذُلْنَـهُ ـ الْمُتَسَـرِّقِ

وقالَ ابنُ سارةَ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَمَـانِـيَّ مِـنْ لَيْلَـىٰ حِسَـانٌ كَـأَنَّمَـا سَقَتْنِـي بِهَـا لَيْلَـىٰ عَلَـىٰ ظَمَـأٍ بَـرْدَا
مُنـىً إِنْ تَكُـنْ حَقّـاً تَكُـنْ أَحْسَـنَ الْمُنَـىٰ وَإِلاَّ فَقَـدْ عِشْنَـا بِهَـا زَمَنـاً رَغْـدَا

وقالَ غيرُهُ [وهوَ البستيُّ كما في « النجوم الزاهرة » ٤/ ٢٢٩] : [مِنَ الوافرِ]

وَأَعْلَـمُ أَنَّ وَصْلَـكِ لاَ يُـرَجَّـىٰ وَلَكِـنْ لاَ أَقَـلَّ مِـنَ التَّمَنِّـي

وقالَ مِهْيارٌ [في « ديوانهِ » ٤/ ١٨٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَهَبْكُـمْ مَنَعْتُـمْ أَنْ أَرَاهَـا بِنَـاظِـرِي فَهَـلْ تَمْنَعُـونَ الْقَلْـبَ أَنْ يَتَمَنَّـاهَـا ؟!

وهُو قريبٌ مِمَّا أَملاهُ أَبو بكرٍ الأَنباريُّ عَن بعضِ العربِ [وهوَ توبةُ الخفاجيُّ] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَهَـلاَّ مَنَعْتُـمْ إِذْ مَنَعْتُـمْ كَـلاَمَهَـا خَيَـالاً يُـوَافِينِـي عَلَـى النَّـأْيِ هَـادِيَـا
سَقَـى اللهُ أَطْـلاَلاً بِـأَكْثِبَـةِ الْحِمَـىٰ وَإِنْ كُـنَّ قَـدْ أَبْـدَيْـنَ لِلنَّـاسِ مَـا بِيَـا[3]
مَنَـازِلُ لَـوْ مَـرَّتْ بِهِـنَّ جَنَـازَتِـي لَقَـالَ الصَّـدَىٰ يَـا صَاحِبَـيَّ انْـزِلاَ بِيَـا

وغنَّتْ إِحدىٰ حَظَايا محمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ بما يلي [في « الأغاني » ٢٣/ ١٩٤] : [مِنَ الخفيفِ]

حَجَبُـوهَـا عَـنِ الـرِّيَـاحِ لأَنِّـي قُلْـتُ : يَـا رِيـحُ بَلِّغِيهَـا السَّـلاَمَـا
لَـوْ رَضُـوا بِـالْحِجَـابِ هَـانَ وَلَكِـنْ مَنَعُـوهَـا يَـوْمَ الـرِّيَـاحِ الْكَـلاَمَـا
فَتَنَفَّسْـتُ ثُـمَّ قُلْـتُ لِطَيْفِـي : وَيْـكَ إِنْ زُرْتَ طَيْفَهَـا إِلْمَـامَـا

---

(١) الذحُولُ : الثأرُ والعداوةُ والحقدُ .
(٢) جاوا : من بلاد (أندونيسيا) .
(٣) الأَكثِبةُ : جمع كثيب ؛ وهو : ما اجتمع مِنَ الرَّملِ .

حَيِّهَـــا بِـــالسَّـــلاَمِ سِـــرّاً وَإِلاَّ مَنَعُـوهَـا لِشِقْـوَتِـي أَنْ تَنَـامَـا

وقالَ ابن قاضي (مَيلَةَ) مِن قصيدَةٍ لَهُ شائقة ـ أوردَها ابنُ خَلِّكَانَ[1] في ترجمةِ يَحيىٰ بنِ أَكْثَمَ ـ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَآيَسَنِــي مِـــنْ وَصْلِـــهِ أَنَّ دُونَـــهُ مَتَـالِـفَ تَسْـرِي الـرِّيـحُ فِيهَـا فَتَتْلَـفُ

وَغَيْـرَانُ يَجْفُـو النَّـوْمَ كَـيْ لاَ يَـرَىٰ لَنَـا إِذَا نَـامَ شَمْـلاً فِـي الْكَـرَىٰ يَتَـأَلَّـفُ

والأَوَّلُ مِن قولِ مروانَ ابنِ أبي حفصةَ السابقِ في شرحِ قولِهِ [في « العكبَريّ » ٣/١٧٠] : [مِنَ البسيطِ]

عَقَـدْتُ بِـالنَّجْـمِ طَـرْفِـي فِـي مَفَـاوِزِهِ وَحُـرَّ وَجْهِـي بِحَـرِّ الشَّمْـسِ إِذْ أَفَـلاَ

مِن المجلسِ الثامن ، وهُوَ قولُهُ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِلَـىٰ وَاحِـدِ الـدُّنْيَـا تَخَطَّـتْ رِكَـابُنَـا تَنَـائِـفَ فِيمَـا بَينَهَـا الـرِّيـحُ تَلْغُـبُ

وقالَ ابنُ زيدونَ : [مِنَ الكاملِ]

يُـدْنِـي مَـزَارَكِ حِيـنَ شَـطَّ بِـهِ النَّـوَىٰ أَمَـلٌ أَكَـادُ بِـهِ أُقَبِّـلُ فَـاكِ

وقالَ ابنُ الفارضِ [في « ديوانه » ١٤٩] : [مِنَ الكاملِ]

يُــدْنِـي الْحَبِيــبَ وَإِنْ تَنَــاءَتْ دَارُهُ طَيْـفُ المَـلاَمِ لِطَـرْفِ سَمْعِي السَّـاهِـرِ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريّ » ٢/٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

مُمَثَّلَــةٌ حَتَّــىٰ كَــأَنْ لَــمْ تُفَــارِقِــي وَحَتَّـىٰ كَـأَنَّ الْيَـأْسَ مِـنْ وَصْلِـكِ الْـوَعْـدُ

وَحَتَّــىٰ تَكَــادِي تَمْسَحِيــنَ مَــدَامِعِــي وَيَعْبَـقُ فِـي ثَـوْبَـيَّ مِـنْ رِيحِـكِ النَّـدُّ

هـٰذا بعضُ ما يقالُ في تمنِّي الوصَالِ ، وأَمَّا مطلَقُ التمَنِّي ، وما قيلَ فيهِ مدحاً وذمّاً : فله مكانٌ آخرُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ.

[الرضا والسخط والكلام علىٰ ذلك]

ويُعجِبُني قولُ بعضِ المغاربةِ [وهو الحافظ أبو الربيع ابن سالم كما في « نفح الطيب » ٤/٣٣٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا بَـرِمَـتْ نَفْسِـي بِحَـالٍ أَحَلْتُهَـا عَلَـىٰ أَمَـلٍ نَـاءٍ فَقَـرَّتْ بِـهِ النَّفْـسُ

وَإِنْ أَوْحَشَتْنِـي مِـنْ أَمَـانِـيَّ جَفْـوَةٌ فَلِـي فِـي الـرِّضَـا بِـاللهِ وَالْقَـدَرِ الأُنْـسُ

وصدقَ واللهِ ، فالمتسخِّطُ ضيِّقُ العطَنِ[2] ، جويٌّ[3] الوطَنِ ، كثيرُ الهمومِ ، مَنْزورُ السروْرِ ، لا يلَذُّ لَهُ النومُ ، ولا يصفو لهُ اليومُ [قال الناظم في « العُكبَري » ٢/٣٦٠] : [مِنَ البسيطِ]

كَـرِيشَــةٍ بِمَهَـبِّ الـرِّيـحِ سَـاقِطَـةٍ لاَ تَسْتَقِـرُّ عَلَـىٰ حَـالٍ مِـنَ الْقَلَـقِ

بخلافِ الراضي . . فإنَّه رَابطُ الجأشِ ، ذاهبُ الإيحاشِ ، رَخيُّ البالِ ، سعيدُ الحالِ ، جَمُّ الانشراحِ ، كثيرُ الارتياحِ .

---

(١) في « وفياتِ الأعيانِ » ٦/١٥٩ .

(٢) **العطَنُ** : مبركُ الإبلِ ، وهوَ كنايةٌ عن ضيقِ الأرضِ على اتساعها في عيني المتسخِّط .

(٣) **الجويُّ** : ضيِّقُ الصدرِ .

ولله درُّ القطبِ الحدَّادِ في قولِهِ [في « ديوانه » ٥٠٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنْ تَـرْضَ بِـالْمَقْسُـومِ عِشْـتَ مُنَعَّمَـا ... وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرْضَىٰ بِهِ عِشْتَ فِي حَزَنْ

وقولِهِ [في « ديوانه » ٤٨٩] :

أَنْـتَ وَالْخَـلاَئِـقْ كُلُّهُـمْ عَبِيـدْ ... وَالإِلَـٰـهُ فِينَـا يَفْعَـلْ مَـا يُـرِيـدْ

فِكْـرُكْ وَاخْتِيَـارُكْ وَيْحَـكْ مـا يُفِيـدْ ... اَلْقَضَـا تَقَـدَّمْ فـاغْنَـمِ السُّكُـونَ

لا يَكْثُرْ هَمُّكْ ما قُدِّرْ يَكُونْ

اَلَّـذِي لِغَيْـرِكْ لاَ يَصِـلْ إِلَيْـكْ ... وَالَّـذِي قُسِـمْ لَـكْ حَـاصِلٌ لَـدَيْـكْ

فَـاشْتَغِـلْ بِـرَبِّـكْ وَالَّـذِي عَلَيْـكْ ... فِـي فَـرْضِ الْحَقِيقَـهْ والشَّـرْعِ الْمَصُـونْ

لاَ يَكْثُرْ هَمُّكْ مَا قُدِّرْ يَكُونْ

[التوكل والتواكل والفرق بينهما]

ومِن قولِهِ : (فاشتغِلْ بربِّكَ والذي علَيكَ) . . تعرِفُ أَنَّهُ لا يصحُّ التوكُّلُ إلاَّ بعزْمٍ صحيحٍ ، ورأْيٍ رَجيحٍ ، وسَعيٍ نَجيحٍ ، وَحَزمٍ وَثيقٍ ، وَتَدبيرٍ دَقيقٍ ، فقد جاءَ رجلٌ إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم وقالَ لهُ : أَعقِلُ ناقتي ، أَمْ أَتوَكَّلُ ؟ قالَ : « **اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ** »[1] .

ومرَّ الشعبيُّ برجُلٍ في إِبِلٍ لهُ فَشَا فيها الجَربُ ، فقالَ لَهُ : أَمَا تُداوي إِبلَكَ ؟ قالَ : إِنَّ مَعَنا عجوزاً نَتَّكِلُ علىٰ دعائِها ، قالَ : اجعل معَ دُعائِها شيئاً مِنَ القطرانِ .

وما أَحسنَ قولَ أَبي عُبادةَ يمدحُ [في « ديوانه » ١/١٩٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَتَـىً لَـمْ يُضَيِّـعْ وَقْـتَ حَـزْمٍ وَلَـمْ يَبِـتْ ... يُـلاَحِـظُ أَعْجَـازَ الأُمُـورِ تَعَقُّبَـا

وقالَ غيرُهُ : [مِنَ البسيطِ]

وَالْمَـرْءَ تَلْقَـاهُ مِضْيَـاعـاً لِفُـرْصَتِـهِ ... حَتَّـىٰ إِذَا فَـاتَ أَمْـرٌ عَـاتَـبَ الْقَـدَرَا

وقالَ [أَبو] عبيدةَ [ابنُ الجرَّاحِ] لعمرَ ـ رضي الله عنهما ـ لمَّا كرِهَ طاعونَ (الشّامِ) [كما في « تاريخ الطبري » ٢/٤٨٦] : أَتفِرُّ مِن قَدَرِ اللهِ ؟ قالَ : نعم ، إِلىٰ قَدَرِ اللهِ ، فقالَ لَهُ : أَينفعُ الحذرُ مِن القَدَرِ ؟ فقالَ : لَسنا هناكَ ، ولكنَّ اللهَ لا يأْمرُ بما لا ينفعُ ، ولا ينهىٰ عمَّا لا يضُرُّ ، وقد قالَ : ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، وقالَ : ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء : ٧١] .

وليسَ هـٰذا موضعَ البحثِ حتَّىٰ نفيضَ فيهِ ، ولَنا إِليهِ عودةٌ عندَ إِفضاءِ النوبةِ ، نتناوَلُهُ فيها مِن أَطرافِهِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

ويُعجبني قولُ عمرَ بنِ ذرٍّ ـ منصرفَهُ مِن دفنِ ابنِهِ ذرٍّ ـ : ما بنا بعدَكَ من خصاصةٍ ، ولا إِلىٰ أَحدٍ معَ اللهِ حاجةٌ ، ومَن توكَّلَ على اللهِ . . كفاهُ ، ومَنِ اتَّكلَ علىٰ غيرِهِ . . وَكَلَهُ إِليهِ .

---

(١) أخرجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه الترمذي (٢٥١٩) وقال : هـٰذا حديث غريب ، وعن عمرو بن أمية الضمري عند ابن حبان في « صحيحه » (٧٣١) بإسناد حسن .

وفي حِفْظي عَن « **مفاتيحِ الغيبِ** » للرّازيِّ أَنَّهُ يقولَ ـ ما معناهُ ـ : اعلم أَنَّني وَقد نيَّفْتُ الآنَ على الخمسينَ ، جرَّبْتُ نَفسي ، فما مِن أَمرٍ اعتمدْتُ فيهِ على اللهِ وحدَهُ . . إلاَّ انفتحَتْ أَبوابُهُ ، وتيسَّرَتْ أَسبابُهُ ، وما مِن أَمرِ التفَتُّ فيهِ إلىٰ غيرِ اللهِ . . إلاَّ التوَتْ أُمورُهُ ، واعصَوْصَبَتْ أَحوالُهُ .

[قصة للغزالي في الرضا]

ومِن خيرِ ما جاءَ في الرِّضا : ما ذكرَهُ الإمامُ الغزاليُّ ـ أَو غيرُهُ[1] ـ عَنِ امرأَةٍ حسَّانَةٍ رُئيَتْ تطوفُ ، وتكادُ يقطرُ مِن وجنتَيْهَا ماءُ النِّعمةِ والشَّبابِ ، فقيلَ لَها : ما هـٰذهِ النَّضارةُ ؟ قالَتْ : ما سَمَّنَنِي إلاَّ حبُّهُ عزَّ وجلَّ ، والرِّضا بقضائِهِ ، وإلاَّ . . فلو علِمتُم حَديثي ؟! قالوا : ما هُوَ ؟ قالَتْ : كنتُ وصاحِبي في يوم عيدٍ علىٰ ذبحِ شاةٍ ، فبَيْنَا نَحْنُ في فرَحِنا . . إذ خرجَ ابْنانا يَلْعَبانِ ، فقالَ أَحدُهما للآخرِ : أَتحبُّ أَن أُريكَ كيفَ ذَبحَ أَبي الشاةَ قالَ : نعم ، فذبحَهُ ، ولمَّا رآهُ يتشحَّطُ في دمِهِ[2] . . هربَ فأَكلَهُ الذئبُ ، وكانَ زَوجي ذهَبَ في أَثرِهِ ليردَّهُ ، فماتَ من العَطشِ ، وعلمَتْ بذلكَ ابنةٌ لَنا عندَ زوجِها . . فأَلقَتْ نفسَها من رأْسِ الدارِ ، ومَا أَمسَيْتُ إلاَّ وقد خَرِبَ بَيتي ، وهَلَكَ زَوجي ، واصطَلَيتُ بنارِ الثَّكَلِ ، ولكنَّني صبرْتُ علىٰ بلائِهِ ، ورضيتُ بقَضائِهِ .

[حكمة للجنيد في الرضا]

وقالَ الجنيدُ : أَصَّلْتُ في نفسي أَلاّ أَنتظِرَ مِن الأَيَّامِ غيرَ المكارهِ ، فَإِنْ جاءَتْ . . كنتُ وطَّنْتُ عليها نفسي ، وإن جاءَ غيرُها . . عددْتُهُ مِن الأَرباحِ والصُّدَفِ .

[الشعر والرضا]

وهوَ مثلُ قولِ أَبي ذؤيبٍ [في « جمهرة خطب العرب » ٣/٣٥٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلاَ خَيْـرَ فِيمَـنْ لاَ يُـوَطِّـنُ نَفْسَـهُ ... عَلَـىٰ نـائِبَـاتِ الـدَّهْـرِ حِيـنَ تَنُـوبُ

وقولِ كثيِّرٍ [في « ديوانه » ٩٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَقُلْـتُ لَهَـا : يَـا عَـزُّ كُـلُّ مُصِيبَـةٍ ... إِذا وُطِّنَـتْ يَـوْمـاً لَهَـا النَّفْـسُ ذَلَّـتِ

وقالَ ابنُ الروميِّ [في « ديوانه » ٦/ ٢٢٥٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا أَحْـدَثَ الْعَصْـرانِ شَيْئاً نَكِـرْتُـهُ ... هُمَـا السَّـالِبَـانِ الْـوَاهِبَـانِ هُمَـا هُمَـا

وقالَ ابنُ الراونديِّ : [مِنَ الكامِلِ]

مِحَـنُ الـزَّمَـانِ كَثِيـرَةٌ مَـا تَنْقَضِـي ... وَسُــرُورُهُ يَــأْتِيـكَ كَــالأَعْيَــادِ

وقالَ أَبو العتاهِيَةِ [في « البيان والتبيين » ١/ ٤٩٠] : [مِنَ الكامِلِ]

تَـأْتِـي الْمَكَـارِهُ حِيـنَ تَـأْتِـي جُمْلَـةً ... وَأَرَى السُّـرُورَ يَجِـيءُ فِـي الْفَلَتَـاتِ

---

(١) بل الغزالي بنحوها كما في « الإحياء » (٤/٤٨٩) .
(٢) يتشحَّطُ : يضطربُ .

وقال البُحتريُّ [في « ديوانه » ٢/ ١٣٢٥] : [مِنَ البسيطِ]

تنكَّرَ الْعَيْشُ حَتَّىٰ صَارَ أَكْدَرُهُ ... يَأْتِي نِظَاماً وَيَأْتِي صَفْوُهُ لُمَعَا[1]

وَآنَسَتْ مِنْ خُطُوبِ الدَّهْرِ كَثْرَتُهَا ... فَلَيْسَ يُرْتَاعُ مِنْ خَطْبٍ إذا طَلَعَا

صُعُوبَةُ الرُّزْءِ تُلْغَىٰ فِي تَوَقُّعِهِ ... مُسْتَقْبَلاً وَانْقِضَاءُ الرُّزْءِ أَنْ يَقَعَا

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٢٧٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَجِدَّكَ مَا الْمَكْرُوهُ إِلاَّ ارْتِقَابُهُ ... وَأَبْرَحُ مِمَّا حَلَّ مَا يُتَوَقَّعُ[2]

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٩٦٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

أُسىً كَثُرَتْ حَتَّى اطْمَأَنَّ لَهَا الْجَوَىٰ ... وَأَرْزَاءُ فَجْعٍ قَدْحُهَا فِي الضَّمَائِرِ

وقالَ الخُزَيميُّ [في « ديوانهِ » ٤١] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَقَدْ وَقَّرَتْنِي الْحَادِثَاتُ فَمَا أُرَىٰ ... لِنَازِلَةٍ مِنْ رَيْبِهَا أَتَوَجَّعُ[3]

وقالَ آخرُ : [مِنَ الخفيفِ]

أَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ أَعْجَبَ أَمْراً ... إِنْ تَفَكَّرْتَ مِنْ صُرُوفِ الزَّمَانِ ؟

عَارِضَاتُ السُّرُورِ تُوزَنُ فِيهِ ... وَالْبَلاَيَا تُكَالُ بِالْقُفْزَانِ

[أبو العتاهية في السجن]

ويروىٰ [كما في « الأغاني » ٤/ ٩٦] : أَنَّ أَبا العتاهيةِ لمَّا حُبسَ علىٰ تركِ الشِّعْرِ . سمعَ إنساناً في السِّجنِ ينشدُ [كما في « ديوانِ أَبي العتاهيةِ » ١٧٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَعَوَّدْتُ مَسَّ الضُّرِّ حَتَّىٰ أَلِفْتُهُ ... وَأَسْلَمَنِي حُسْنُ الْعَزَاءِ إِلَى الصَّبْرِ

وَصَيَّرَنِي يَأْسِي مِنَ النَّاسِ رَاجِياً ... لِحُسْنِ صَنِيعِ اللهِ مِنْ حَيْثُ لاَ أَدْرِي

فقالَ لَهُ : أَعِدها أَعزَّكَ اللهُ ، فقالَ لَهُ : ويلكَ ما أَسوأَ أَدبَكَ ، وأَقلَّ عقلَكَ ، دَخلْتَ عليَّ فمَا سلَّمتَ تسليمَ المسلِمِ على المسلمِ ، ولا سأَلتَ مسأَلةَ الحرِّ للحرِّ ، ولا توجَّعتَ توجُّعَ المبتلىٰ للمبتلَىٰ ، حتَّىٰ إذا سمعتَ بيتينِ مِن الشعرِ ـ الذي لا فضلَ لكَ غيرُهُ ـ لم تصبرْ عنِ استعادتِهما ، ولم تقدِّم عذراً فيما فعلْتَ ، فقالَ : يَا أَخي ، إني دُهشتُ لِهٰذا الحالِ ، فاعذِرْني متفضِّلاً مُمتنّاً ، فقالَ : أَنا أَولَىٰ مِنكَ بالحَيرَةِ والدهشَةِ ؛ لأَنَّكَ حُبستَ على الشعرِ ، وإِذا قلتَهُ . . أَمنتَ ، أَمَّا أَنا . . فمأْخوذٌ بأَن أَدلَّ على ابنِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ليُقتَلَ أَو أُقتلَ دونَهُ ، وواللهِ لا أَدلُّ عليهِ ، فقالَ لهُ أَبو العتاهيةِ : لأَنتَ أَولىٰ ، ولو علمتُ أَنَّ هٰذهِ حالُكَ . . ما سأَلتُكَ ، فقالَ : لا نبخَلُ عليكَ إذن ، فأَعادهُنَّ عليهِ حتَّىٰ حفظَهُما ، ثمَّ سأَلَهُ عنِ اسمِهِ فقالَ : أَنَا خاص داعيةِ عيسىٰ بنِ زيدٍ ، وابنِهِ أَحمدَ ، ولم نلبَثْ أَنْ سَمِعْنا صوتَ السجنِ يفتَحُ ، فقامَ ، وتوضَّأَ ، ولبسَ أَحسنَ ثيابِهِ ، ودخلَ الحرسُ . . فأَخرجونا جميعاً ، وقدِّمَ قبلي

---

(١) اللُّمعُ : يأتي خلسةً ، أو كوميضِ البرقِ .

(٢) أَبرحُ : أفعل تفضيلٍ من البرحاءِ ، وهي شدَّةُ الأذىٰ والمشقَّةُ .

(٣) وقَّرتني : جعلتني وقوراً لا أَضجُّ ولا أَتضجَّرُ .

إلى الرشيدِ ، فسألَهُ عن أحمدَ بنِ عيسىٰ ، فقالَ : لا تسألْني عنهُ ، وافعلْ ما بَدا لَكَ ، فوَاللهِ لَو كانَ تحتَ ثَوبي ما كشفتُ عنهُ ، فأمرَ بهِ . . فضربَتْ عنقُهُ ، ثمَّ قالَ لأبي العتاهِيَةِ : أَظنُّكَ ارتعتَ يا إسماعيلُ ، فقالَ : مِن دونِ ما رأيتُهُ تسيلُ النفوسُ ، فقالَ : ردُّوهُ إلىٰ محبَسِهِ ، فانتحلَ البيتينِ وزادَ فيهما [في « ديوانه » ١٧٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

إذا أنَا لَمْ أَقْبَلْ مِنَ الدَّهْرِ كُلَّ مَا ... تَكَرَّهْتُ مِنْهُ طَالَ عَتْبِي عَلَى الدَّهْرِ

[كم صفا من أيام المأمون ؟!]

وحسبكَ أَنَّ المأْمونَ العباسيَّ ـ على اتساعِ ملكِهِ ـ لم يَصفُ لهُ عيشُهُ إلاَّ أَيَّاماً معدودَةً ، قَضاها في فمِ الصلحِ حينمَا أَعرسَ فيها بـ (بورانَ) .

[توجيه السؤال إلىٰ عبد الرحمـٰن الناصر]

وإنَّ عبدَ الرحمـٰنِ الناصرَ كتبَ في وصيَّتِهِ : حكمتُ (الأَندلسَ) خمسينَ سنةً ، لم أتنسَّمْ فيها روحَ الحياةِ ، وأَتذوَّقْ طعمَ العيشِ . . إلاَّ في أَربعةَ عَشَرَ يوماً فقطْ ، مِنها يومُ استِرْجاعي (سَمُّورةَ) ؛ بِما حَفِظْتُ على المسيحيَّةِ البائِسَةِ رَضيعَها ، بعدَ أَنْ نفضَتْ يدَها منْهُ ، فكادَتْ تَقْضي مِن فرْطِ السرورِ والفَرحِ بهِ .

[المتنبي القنوع الراضي !!]

والمعنىٰ متكرِّرٌ عندَ الناظمِ منهُ **قولُهُ** [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٥٤] : [مِنَ الكاملِ]

جَمَحَ الزَّمَانُ فَمَا لَذِيذٌ خَالِصٌ ... مِمَّا يَشُوبُ وَلاَ سُرُورٌ كَامِلُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٠٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

عَرَفْتُ اللَّيَالِي قَبْلَ مَا صَنَعَتْ بِنَا ... فَلَمَّا دَهَتْنِي لَمْ تَزِدْنِي بِهَا عِلْمَا

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٣٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا اسْتَغْرَبَتْ عَيْنِي فِرَاقاً رَأَيْتُهُ ... وَلاَ عَلَّمَتْنِي غَيْرَ مَا الْقَلْبُ عَالِمُهْ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢١٢] : [مِنَ البسيطِ]

قَدْ هَوَّنَ الصَّبْرُ عِنْدِي كُلَّ نَائِبَةٍ ... وَهَوَّنَ الْعَزْمُ حَدَّ الْمَرْكَبِ الْخَشِنِ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٩] : [مِنَ الوافرِ]

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالأَرْزَاءِ حَتَّىٰ ... فُؤَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ[1]
فَصِرْتُ إذا أَصَابَتْنِي سِهَامٌ ... تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ[2]

[عودة إلى الشعراء والرضا والتسليم]

قالَ ابنُ خَلِّكَانَ [في « وفيات الأعيان » ٥/ ٣٠٤] : وممَّا أَنشدَهُ ابنُ المنجِّمِ لِمُؤَرِّجٍ السدوسيِّ قولُهُ : [مِنَ البسيطِ]

رُوِّعْتُ بِالْبَيْنِ حَتَّىٰ مَا أُرَاعُ لَهُ ... وَبِالْمَصَائِبِ مِنْ أَهْلِي وَجِيرَانِي

---

(١) **الأرزاءُ** : المصيبات . **الغشاءُ** : ما يغطِّي الشيءَ ويشملهُ .

(٢) **النصال** : جمع نصلٍ ، وهوَ الحديدةُ التي في السهمِ .

لَـمْ يَتْـرُكِ الـدَّهْـرُ لِـي عِلْقـاً أَضِـنُّ بِـهِ ... إِلاَّ اصْطَفَـاهُ بِنَـأْيٍ أَوْ بِهِجْـرَانِ[1]

قالَ ابنُ المنجِّمِ : وهٰذا من أَملحِ ما قيلَ في معناهُما ، ومثلُهما قولُ بعضِ المحدَثينَ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَفَـارَقْـتُ حَتَّـىٰ مَـا أُرَاعُ مِـنَ النَّـوَىٰ ... وإِنْ غَـابَ جِيـرَانٌ عَلَـيَّ كِـرَامُ

فَقَـدْ جعَلَـتْ نَفْسِـي عَلَـى النَّأْيِ تَنْطَوِي ... وَعَيْنِـي عَلَـىٰ فَقْـدِ الصَّـدِيـقِ تَنَـامُ

ومِن هُنا ، أَخذَ ابنُ التعاويذيِّ قولَهُ [في « ديوانه » ٧٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَهَـا أَنَـا قَلْبِـي لاَ يُـرَاعُ لِغَـائِـبٍ ... فَيَـأْسَـىٰ وَلاَ يُلْهِيـهِ حَـظٌّ فَيَفْـرَحُ

[توجع ابن التعاويذي علىٰ ذهاب بصره]

وهُو مِن قصيدَةٍ طويلَةٍ ، يتوجَّعُ فيها لِذهابِ بصرِهِ ، فَمِنها يشيرُ إِلىٰ زوجتِهِ [في « ديوانه » ٧٩ـ٨٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَبَـاكِيَـةٍ لَـمْ تَشْـكُ فَقْـداً وَلاَ رَمَـىٰ ... بِجِيـرَتِهَـا الأَدْنَيْـنَ بَيْـنٌ مُطَـوِّحُ[2]

رَمَتْهَـا يَـدُ الأَيَّـامِ فِـي لَيْـثِ غَـابِهَـا ... بِفَـادِحِ خَطْـبٍ وَالْحَـوَادِثُ تَفْـدَحُ

رَأَتْ جَلَـلاً لاَ الصَّبْـرُ يَجْمُـلُ بِـالْفَتَـىٰ ... عَلَـىٰ مِثْلِـهِ يَـوْمـاً وَلاَ الْحُـزْنُ يَقْبُـحُ

فَـلاَ غَـرْوَ أَنْ تَبْكِـي الـدِّمَـاءَ لِكَـاسِـبٍ ... لَهَـا كَـانَ يَسْعَـىٰ فِـي الْبِـلاَدِ وَيَكْـدَحُ

عَـزِيـزٌ عَلَيْهَـا أَنْ تَـرَانِـيَ جَـاثِمـاً ... وَمَـا لِـيَ فِـي الأَرْضِ الْبَسِيطَـةِ مَسْـرَحُ

وأَلاَّ أَقُـودَ الْعِيـسَ تَنْفَـحُ فِـي الْبُـرَىٰ ... وَجُـرْدُ الْمَـذَاكِـي فِـي الأَعِنَّـةِ تَمْـرَحُ[3]

أَظَـلُّ حَبِيسـاً فِـي قَـرَارَةِ مَنْـزِلٍ ... رَهِيـنَ أَسـىً أُمْسِـي عَلَيْـهِ وَأُصْبِـحُ

مَقَـامِـيَ مِنْـهُ مُظْلِـمُ الْجَـوِّ قَـاتِـمٌ ... وَمَسْعَـايَ ضَنْـكٌ وَهْـوَ صَمْحَـانُ أَفْيَـحُ[4]

أُقَـادُ بِـهِ قَـوْدَ الجَنِيبَـةِ مُسْمِحـاً ... وَمَـا كُنْـتُ لَـوْلاَ غَـدْرَةُ الـدَّهْـرِ أَسْمَـحُ[5]

كَـأَنِّـيَ مَيْـتٌ لاَ ضَـرِيـحَ لجَنْبِـهِ ... وَمَـا كُـلُّ مَيْـتٍ ـ لاَ أَبَـا لَـكَ ـ يُضْـرَحُ

وَهَـا أَنَـا قَلْبِـي لاَ يُـرَاعُ لِفَـائِـتٍ ... فَيَـأْسَـىٰ وَلاَ يُلْهِيـهِ حَـظٌّ فَيَفْـرَحُ

فَلِلَّـهِ نَصْـلٌ فُـلَّ مِنِّـي غِـرَارُهُ ... وَعُـودُ شَبَـابٍ عَـادَ وَهْـوَ مُصَـوِّحُ[6]

وَسَقْيـاً لأَيَّـامٍ رَكِبْـتُ بِهَـا الْهَـوَىٰ ... جَمُوحاً وَمِثْلِي فِي هَوَى الْغِيدِ يَجْمَحُ

ومَـاضِـي صِبـاً قَضَّيْـتُ مِنْـهُ لُبَـانَتِـي ... خِـلاَسـاً وَعَيْـنُ الـدَّهْـرِ زَرْقَـاءُ تَلْمَـحُ[7]

لَيَـالِـيَ لِـي عِنْـدَ الْغَـوَانِـي مَكَـانَـةٌ ... وَأَلْحَـاظُهَـا تَـرْنُـو إِلَـيَّ وَتَطْمَـحُ

---

(١) العِلقُ : النفيسُ من كلِّ شيءٍ .

(٢) مطوِّحٌ : مهلِكٌ .

(٣) الجُردُ : جمع أجرد ؛ وهو : الفرس القصير الشعر . المذاكي مِنَ الخيلِ : التي أتىٰ عليها بعدَ قروحِها سنةٌ أو سنتانِ .

(٤) صمحانُ : واسعٌ غليظٌ . الأفيَحُ : كلُّ موضعٍ واسعٍ .

(٥) الجنيبُ : الغريبُ . مسمحاً : موافقاً .

(٦) المصوِّحُ : اليابسُ المتشقِّقُ .

(٧) لُبَانَتي : حاجتي . وخصَّ العينَ الزرقاءَ بالذكرِ لأنَّ زرقةَ العينِ ممَّا يتشاءَمُ منهُ العربُ .

وَلَيْلَىٰ بِهَا أَضْعَافُ مَا بِي مِنَ الْهَوَىٰ ... أُعَـرِّضُ بِـالشَّكْـوَىٰ لَهَـا فَتُصَـرِّحُ[1]

ولا لومَ في الإطالةِ بهٰذهِ القطعةِ مِنْها ؛ فإنَّ عذوبتَهَا ، وحسنَ انسجامِها ، وبديعَ اتساقِها ، وأَخذَها بمجامعِ القلوبِ . . تمهِّدُ العذرَ في ذلكَ .

[رد قول المتنبي بقوله]

ومَعَ ما أَطَلْنا فيهِ الجولَ ، واخترْنا لَهُ مِن أَفانينِ القولِ ، كيفَ يَليقُ بالناظمِ أَلاّ يقنَعَ بالوِصالِ في كلِّ أَربعةِ أَيَّامٍ يوماً ؟ وهُوَ من أَكبَرِ الشعراءِ بَلوىٰ ، وأَكثرِهِم مِن زَمانِهِ شَكوىٰ ، أَوَ لَيْسَ **القائِلَ** [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٨٠ـ١٨١] ؟! : [مِنَ الطَّويلِ]

لَحَا اللهُ ذِيْ الدُّنْيَا مُنَاخاً لِرَاكِبٍ ... فَكُلُّ بَعِيدِ الْهَمِّ فِيهَا مُعَذَّبُ

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَقُولُ قَصِيدَةً ... وَلاَ أَشْتَكِي فِيهَا وَلاَ أَتَعَتَّبُ

وَبِي مَا يَذُودُ الشِّعْرَ عَنِّي أَقَلُّهُ ... وَلَكِنَّ قَلْبِي يَا ابْنَةَ الْقَوْمِ قُلَّبُ

أَوَلَيْسَ يقولُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٩] ؟! : [مِنَ الطَّويلِ]

أَوَدُّ مِنَ الأَيَّامِ مَا لاَ تَوَدُّهُ ... وَأَشْكُو إِلَيْهَا بَيْنَنَا وَهْيَ جُنْدُهُ

يُبَاعِدْنَ حِبّاً يَجْتَمِعْنَ وَوَصْلُهُ ... فَكَيْفَ بِحِبٍّ يَجْتَمِعْنَ وَصَدُّهُ[2] ؟!

أَبَىٰ خُلُقُ الدُّنْيَا حَبِيباً تُدِيمُهُ ... فَمَا طَلَبِي مِنْهَا حَبِيباً تَرُدُّهُ ؟!

أَمَا واللهِ : لَقد اشتطَّ في الرغبَةِ ، وأَبعَدَ في النجْعَةِ ، وإِلاَّ . . فما دونَ ذلكَ يعدُّ مِن حسنِ الحَظِّ ، وتبسُّمِ الدهرِ الفَظِّ .

[التماس العذر للمتنبي]

إِلاَّ أَنْ يقالَ : إِنَّهُ لم يطلبِ المطلَبَ الجَسِيمَ إِلاَّ وقتَما كانَتِ الأَيَّامُ سِلماً لهُ ، لم تسقِهِ بعدُ أُجاجَها ، ولا أَرتْهُ اعوجاجَها ، علىٰ أَنِّي ما أَظنُّ الدهرَ سالَمَهُ وقتاً ، ولا أَراهُ إِلاَّ مقتاً ، والرجْعُ في ذلكَ إِلىٰ تاريخِ حياتِهِ ، والإنسانُ ـ كما ذَكرنا غيرَ مرَّةٍ ـ كثيرُ التقلُّبِ ، ولقد أَلطفَ التهامِيُّ في سؤَالِهِ ، مَعَ نظرِهِ إِلىٰ بيتِ الناظمِ ، فقالَ وأَجادَ [في «ديوانه» ١٦٥] : [مِنَ الخفيفِ]

لا تَقُولِي لِقَاؤُنَا بَعْدَ عَشْرٍ ... لَسْتُ مِمَّنْ يَعِيشُ بَعْدَكِ عَشْرَا

[الذكاء منه في بيته]

ثمَّ في بيتِ الناظمِ سرٌّ ، يظهَرُ مِنْهُ أَنَّ مَحبوبَهُ علىٰ جانِبٍ مِن العِلمِ بالسنَّةِ ، والعمَلِ بها ، فمتىٰ وصلَهُ قبلَ انتهاءِ اليومِ الثالثِ . . خرجَ عمَّا جاءَ في الوعيدِ على الهجرةِ فوقَ الثلاثِ ، ولقد ظرُفَ بعضُهُم في قولِهِ : [مِنَ السريعِ]

يَا سَيِّدِي عِنْدَكَ لِي مَظْلَمَهْ ... فَاسْتَفْتِ فِيهَا ابْنَ أَبِي خَيْثَمَهْ

فَإِنَّهُ يَرْوِيهِ عَنْ جَدِّهِ ... وَجَدُّهُ يَرْوِيهِ عَنْ عِكْرِمَهْ

---

(١) إلىٰ هنا من « وفيات الأعيان » (٥/ ٣٠٥) .

(٢) **وصلُه وصدُّه** : اسمان معطوفان على الضمير من (يجتمعن) علىٰ رأي الكوفيين ، وهو عند البصريين ممتنع إلا إذا ذكر ضمير الرفع ظاهراً .

عَـنِ ابْـنِ عَبَّـاسٍ عَـنِ الْمُصْطَفَـىٰ نَبِيِّنَـا الْمَبْعُـوثِ بِـالمَـرْحَمَـهْ

إِنَّ انْقِطَـاعَ الْخِـلِّ عَـنْ خِلِّـهِ فَـوْقَ ثَـلاَثٍ رَبُّنَـا حَـرَّمَـهْ

وَأَنْـتَ مُـذْ شَهْـرٍ لَنَـا هَـاجِـرٌ أَمَـا تَخَـافُ اللهَ فِينَـا فَمَـهْ

ومِنْ قُبيلَ قولِهِ [في «العُكبَريّ» ٣/ ١٦٣] : [مِنَ البسيطِ]

لَـوْلاَ مُفَـارَقَـةُ الأَحْبَـابِ مَـا وَجَـدَتْ لَهَـا الْمَنَـايَـا إِلَـىٰ أَرْوَاحِنَـا سُبُـلاَ

ما لَهُ بهِ تعلُّقٌ .

* * *



المجلس العاشر

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣١٩] : [مِنَ الخفيفِ]

مَـا مُقَـامِـي بِـأَرْضِ نَخْلَـةَ إلاَّ كَمُقَـامِ الْمَسِيـحِ بَيْـنَ الْيَهُـودِ

[هل تنبَّأَ أبو الطيب حقيقة ؟]

يقولُ : إنَّ أَهلَ (نَخْلَةَ) ـ وهيَ قريَةٌ بقربِ (بعلبَكَّ) ـ أَعداءٌ لي ، كعداوَةِ اليَهودِ للمَسيحِ ، قالَ الواحديُّ : وبهَٰذا مَعَ تَشْبيهِهِ نفسَهُ بصالحٍ ـ عليهِ السلامُ ـ لُقِّبَ المتنبِّي .

وليسَ بِصَحيحٍ . . وَلَكِنَّهُ تنبَّأَ حقيقَةً في باديةِ (السماوَةِ) . . حتَّىٰ حُبِسَ ، ثُمَّ أُطلِقَ بعدَ الاستِتَابَةِ .

[الكلام داء الحسد]

وما ذكرَهُ لَيسَ بغريبٍ ؛ إِذْ لا يَخْلو عَظيمٌ عَنِ الحَسَدِ والامتحانِ ، فإِنْ خَلا عَنْ ذلِكَ . . فليسَ بعظيمٍ ، إلاَّ علىٰ سبيلِ الفلَتاتِ والشذوذِ ، وأَصلُهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا ﴾ [الأنعام : ١١٢] .

وللهِ دَرُّ أَبي تمَّامٍ في قولِهِ [في « ديوانه » ١/ ٢٢٣] : [مِنَ الكامِلِ]

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْـرَ فَضِيلَـةٍ خَفِيَـتْ أَتَـاحَ لَهَـا لِسَـانَ حَسُـودِ
لَـوْلاَ اشْتِعَـالُ النَّـارِ فِيمَـا جَـاوَرَتْ مَـا كَـانَ يُعْـرَفُ طِيـبُ نَفْـحِ الْعُـودِ

وقالَ الغزاليُّ في بعضِ كتبهِ : إِنِّي لأَستحقِرُ مَن لم يُتَّهَمْ بالكفرِ ، وأَستصغِرُ مَن لَم يُلْمَزْ بِالفُسوقِ ، أَو ما يشبِهُ هَٰذا القولَ .

وقالَ المنصورُ لِمعنِ بنِ زائِدةَ [في « وفيات الأعيان » ٥/ ٢٤٧] : ما أَكثَرَ وقوعَ الناسِ فيكَ وفي قومِكَ ، فأَنشدَ : [مِنَ البسيطِ]

إِنَّ الْعَـرَانِيـنَ تَلْقَـاهَـا مُحَسَّـدَةً وَلَـنْ تَـرَىٰ لِلِئَـامِ النَّـاسِ حُسَّـادَا[١]

وقالَ قيسٌ [في « ديوانه » ١١٧] : [مِنَ الكامِلِ]

مَـوْسُـومَـةٌ بِـالْحُسْـنِ ذَاتُ حَـوَاسِـدِ إِنَّ الْجَمَـالَ مَظِنَّـةٌ لِلْحُسَّـدِ

وقالت أُمُّ رومانَ[٢] لِعائِشَةَ ـ كما في « **الصحيحِ** » ـ : هوِّني عليكِ يا بنيَّةُ ، فَقَلَّما كانَتِ امرأَةٌ وضيئَةٌ قَطُّ عندَ رجلٍ ولَها ضرائِرُ . . إلاَّ أَكثرْنَ عَلَيها[٣] .

---

(١) العَرانينُ : سادةُ الناسِ وأَشرافُهُم ، والعرنين : الأنف .

(٢) أم رُومانَ : زوجةُ سيِّدِنا أَبي بكرٍ الصديقِ ، وأُمُّ السيدةِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهُم .

(٣) أخرجه البخاري (٤١٤١) من حديث الإفك في المغازي .

وانتهىٰ إلىٰ أَبي حنيفةَ أَنَّ ابنَ شُبرُمَةَ وابنَ أَبي لَيلىٰ ينالانِ منهُ ، فأَنشَدَ [كما في « طبقات الحنفية » ١/ ٤٩٨] : [مِنَ البسيطِ]

إِنْ يَحْسُدُونِي فَإِنِّي غَيْرُ لائِمِهِمْ ... قَبْلِي مِنَ النَّاسِ أَهْلُ الْفَضْلِ قَدْ حُسِدُوا

فَدَامَ لِي وَلَهُمْ مَا بِي وَمَا بِهِمُ ... وَمَاتَ أَكْثَرُنَا غَيْظاً بِمَا يَجِدُ

وقالَ غيرُهُ [محمد بن الحسن في « طبقات الحنفية » ١/ ٤٩٨] : [مِنَ البسيطِ]

مُحَسَّدُونَ وَشَرُّ النَّاسِ مَنْزِلَةً ... مَنْ عَاشَ يَوماً سَلِيماً غَيْرَ مَحْسُودِ

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ١/ ٦٢٥] : [مِنَ الطويلِ]

وَلَنْ تَسْتَبِينَ الدَّهْرَ مَوْضِعَ نِعْمَةٍ ... إِذَا أَنْتَ لَمْ تُدْلَلْ عَلَيْهَا بِحَاسِدِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٥٥٧] : [مِنَ البسيطِ]

مُحَسَّدٌ ، وَكَأَنَّ الْمَكْرُمَاتِ أَبَتْ ... أَنْ تُوجَدَ الدَّهْرَ إِلاَّ عِنْدَ مَحْسُودِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٤٩٦] : [مِنَ البسيطِ]

مُحَسَّدٌ بِخِلاَلٍ فِيهِ فَاضِلَةٍ ... وَلَيْسَ تَفْتَرِقُ النَّعْمَاءُ وَالْحَسَدُ

وقالَ [في « ديوانه » ١/ ٦٠٠] : [مِنَ الخفيفِ]

حَسَدٌ فِي الْعُلَىٰ وَمَا فِي جَمِيعِ النَّـ ... ـاسِ أَبْلَىٰ بِذِي عُلاً مِنْ حَسُودِهْ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٦١١] : [مِنَ البسيطِ]

[وَكَمْ] أَنَافَتْ مِنَ الأَبْنَاءِ مَكْرُمَةً ... مَشْهُورَةً تَدَعُ الآبَاءَ حُسَّادَا!

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٧٦٦] : [مِنَ الخفيفِ]

وَكَفَانِي عَلَى الَّذِي يُوجَدُ الْفَضْـ ... ـلُ لَدَيْهِ بِالْحَاسِدِينَ دَلِيلاَ

[الأئمة والعلماء والافتراء عليهم]

وما أُتِيَ الْخليفَةُ الرابعُ وأَهلُ بيتهِ . . إلاَّ مِنْ هَـٰذَا البابِ .

ولا يخفىٰ ما قاساهُ أَبو حنيفةَ .

وما كانَ مِن اختفاءِ الإِمامِ مالكٍ في بيتهِ رُبُعَ قرنٍ .

وما جرىٰ علىٰ أَبي عبدِ اللهِ ابنِ حنبَلٍ مِنَ الضَّرْبِ والحبْسِ والإِهَانَةِ .

وما عاناهُ البخاريُّ حَتَّىٰ ضاقَتْ بهِ الأَرضُ فَدَعَا بالموتِ .

ونُفِيَ أَبو يزيدَ البسطاميُّ سبعَ مرَّاتٍ بِوِشَايَاتِ علماءِ السوءِ .

وسُيِّعوا ذَا النونِ المصريَّ مقيَّداً مغلولاً مِن (مصرَ) إلىٰ (بغدادَ) ، وسارَ معهُ جماعَةٌ مِن المصريينَ يشهدونَ بالزندَقَةِ عليهِ .

وكانَ آخرُ سهمٍ في كنائنِ الحسَّادِ لِسُحْنونَ أَنِ اسْتَأْجَروا بغيّاً تدَّعي عليهِ أَنَّهُ يَأْتيها هوَ وأَصحابُهُ ، حَتَّى اضطُرَّ إلى الانجماعِ في بيتِهِ .

وكفَّروا سهْلاً التُّسْتَريَّ ، ونسبُوهُ إِلى القبائحِ حَتَّىٰ طَرَدوهُ مِن بلادِهِ .

ورَموا أَبا سَعيدٍ الخرَّازَ بالدَّواهي .

وشَهِدوا على الجُنيدِ بالإِلحادِ ذاتَ المرَّاتِ .

ولم ينجُ الشبليُّ مِن التَّكفيرِ إِلاَّ بعدَ أَن أَدخلَهُ أَصحابُهُ البيمارستانَ[1] مدَّةً ، ريثَما انكفَّ عنهُ الناسُ ، وحرَّشوا سلطانَ (مِصرَ) علىٰ أَبي بكرٍ النابلسيِّ . . حَتَّىٰ أَمرَ بسلخِ جلدِهِ حيّاً ، فصارَ يقرأُ القرآنَ بتدبُّرٍ وخشوعٍ ، وَهُم يسلخونَهُ ، حَتَّىٰ كادَتْ تَقَطَّعُ القُلوبُ مِن مَرآهُ علىٰ تلكَ الحالِ .

وأَخرَجوا أَبا مَدينَ مِن (بجاية) بتهمَةِ الزَّندقَةِ .

وشَهِدوا بها علىٰ أَبي الحسنِ الشاذِليِّ ، حَتَّىٰ نُفِيَ من (مِصرَ) .

وأَخرَجوا واحدَ عصرِهِ وسيِّدَ وقتِهِ ، أَبا عثمانَ المغربيَّ مِن (مكَّةَ) ، وضربوهُ ضرباً مبرِّحاً ، وطَافوا بهِ علىٰ جملٍ ، فأَقامَ بـ(بغدادَ) إِلىٰ أَنْ ماتَ .

وهيَّجوا السلطانَ علىٰ عزِّ الدينِ بنِ عبدِ السَّلامِ ، وعَقَدوا مجلِساً لرميِهِ بالكفْرِ ؛ مِن أَجلِ كلمَةٍ قالَها في عقيدَتِهِ .

وكتَبوا [كما في « وفيات الأعيان » ٣/ ٢٩٤] محضراً بـ(مِصْرَ) علىٰ أَبي الحسنِ الآمديِّ ، ينسبونَهُ إِلى التعطيلِ وفسادِ العقيدَةِ ، وَوَضَعُوا عليهِ خُطوطَهم ، حَتَّى انتهىٰ إِلىٰ رَجلٍ منهُم فيهِ عقلٌ ودينٌ ، فكتَبَ : [مِنَ الكامِلِ]

حَسَدُوا الْفَتَىٰ إِذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ ... فَالْقَوْمُ أَعْدَاءٌ لَهُ وَخُصُومُ

كتبهُ فلانُ بنُ فلانٍ .

ورَمَوا عبدَ الوهَّابِ السبكيَّ بالكفرِ ، وشرْبِ الخمْرِ ، والفواحِشِ ، ولبْسِ الزنَّارِ بالليلِ ، وجاؤُوا بهِ مقيَّداً مغلولاً مِن (الشَّامِ) إِلىٰ (مصرَ) ، حَتَّىٰ خرجَ جمالُ الدينِ الإِسنويُّ يتلقَّاهُ في الطريقِ ، ولولاهُ لأُريقَ دمُهُ .

والبابُ واسعٌ ، والشوطُ بطينٌ[2] .

[أول ذنب عُصِيَ به الله تعالىٰ هو الحسد]

ومِنَ الناسِ مَن يعدُّ الحَسَدَ أَولَ ذنبٍ عُصِيَ بهِ الباري عزَّ وجلَّ ؛ لأَنَّ إِبليسَ لَم يمتَنعْ عَنِ السجودِ لآدمَ . . إِلاَّ مِن أَجلِ ما اشتملَ عليهِ منهُ لهُ .

[الجدار المنخفض تقفز عليه الكلاب]

ثُمَّ لم يكنْ ما كانَ مِنِ ابنِ آدَمَ إِلىٰ أَخيهِ . . إِلاَّ عن نتيجتِهِ ، وسوءِ مغبَّتِهِ ، وللهِ في خلقِهِ شؤونٌ ، فإِنَّ مدنيَّةَ الإِنسانِ

---

(١) **البيمارستان** : لفظٌ فارسيٌّ مركَّبٌ مِن : (بيمار) ومعناها مريضٌ ، و(استان) بمعنىٰ محلٌّ . وتعني هـٰذهِ الكلمةُ : المكانَ المعدَّ لمعالجةِ المرضىٰ ، وأَوَّلُ مَنْ أَقامَ البيمارستانَ مِنَ الخلفاءِ : الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ ، وجاءَ ذكرُها في بعضِ المصادرِ بلفظِ (مارستان) .

(٢) **البطينُ** : الملآن .



بطبعِهِ.. تقتضي التآلفَ والتراحُمَ ؛ إذ لا يستتِبُّ للإنسانِ أَمرُهُ إلاَّ ببقاءِ نوعِهِ ، ولا يمكنُ لهُ قضاءُ رغباتِهِ إلاَّ بمساعدَتِهم ، فكانَ من حقِّهِ أن يحبَّهم ويأْلَفهم ؛ لِمَا لَهُ مِنَ المصلحَةِ في بقائِهم ، فلنْ يحبَّ نفسَهُ إلاَّ بحبِّهم ؛ لأنَّ صلاحَهُ في صلاحِهم ، غيرَ أَنَّ حُبَّ الذاتِ قد يزيدُ فيخرجُ عَن حدِّهِ ، وكلُّ ما خرجَ عَن حدِّهِ.. رجَعَ إِلىٰ ضدِّهِ ، فسادَ التخاصُمُ عَن منبتِ التراحُمِ ، ووقَعَ التناهُبُ في موضِعِ التواهُبِ ، ومنهُ تتبُّعُ الملوكِ عثراتِ رجالاتِهم ، وابتغاؤُهم الغوائِلَ لِعظماءِ أَتباعِهم ؛ لأنَّ أُولئكَ الفحولَ لا بُدَّ وأَنْ يُدْلوا بِعَظائِمِ أعمالِهم ، ويعصمَهُم الشرفُ والأَنَفُ عن المَلَقِ والخُضوعِ ، وتأْبىٰ نفوسُ المستبدِّينَ أَن ترىٰ لأَحدٍ فضلاً ، وإنَّما تميلُ بطبيعتِها للمتصاغِرينَ المطبوعينَ على الخيانَةِ ، الذينَ لا ينفعونَ عندَ ارتباكِ الأَحوالِ ، واضطرابِ الأَهوالِ ؛ ولِهَـٰذا يسرعُ تقوُّضُ ممالِكِهم في الأَوساطِ الحرَّةِ ، وإنَّما تطولُ في الأُمَمِ الميْتَةِ التي أَلِفَتِ الذلَّ وأَخذَتْ عليهِ ، ورَئِمَتِ الْهَوَانَ[1] واستنامَتْ إِليهِ ، فهٰؤلاءِ الساقطونَ نعمةٌ على المستبدِّينَ مِن ملوكِ الجَورِ ، ولقمةٌ سائغةٌ لكلِّ آكلٍ .

[الذي ألف الذل والهوان مذموم ، ذمه في الشرع]

ولكنَّهُم مذمومونَ في عينِ الشرعِ والعقلِ .

أمَّا الشرعُ : فالباري جلَّ شأْنُهُ يقولُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشورىٰ : ٣٩] .

ويقولُ أَيضاً : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ٩٧] .

[ذمه في العقل وعزة الشعراء]

وأمَّا العقلُ : فقد قالَ المتلمِّسُ [في « ديوانه » ١٤٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكُنَّـــا إِذَا الْجَبَّـــارُ صَعَّـــرَ خَـــدَّهُ ... أَقَمْنَـــا لَـــهُ مِـــنْ خَـــدِّهِ مَـــا تَصَعَّـــرَا

وقالَ الفرزدَقُ [في « ديوانه » ١/ ٢٤٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكُنَّـــا إِذَا الْجَبَّـــارُ صَعَّـــرَ خَـــدَّهُ ... ضَـــرَبْنَـــاهُ حَتَّـــىٰ تَسْتَقِيـــمَ الأَخَـــادِعُ[2]

وقالَ بشَّارٌ [في « ديوانه » ١/ ٣١٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا الْمَلِـــكُ الْجَبَّـــارُ صَعَّـــرَ خَـــدَّهُ ... مَشَيْنَـــا إِلَيْـــهِ بِـــالسُّيُـــوفِ نُخَـــاطِبُـــهْ

وقالَ ابنُ ظَبيانَ [في « الكامل » ٤/ ١٠٧] : [مِنَ الطويلِ]

نُعَـــاطِـــي الْمُلُـــوكَ الْحَـــقَّ مَـــا قَسَطُـــوا لَنَـــا ... وَلَيْـــسَ عَلَيْنَـــا قَتْلُهُـــمْ بِمُحَـــرَّمِ

وقالَ نهارُ بنُ توسعةَ [في « الكامل » ٤/ ٣٠٣] : [مِنَ الوافرِ]

إذا لَـــمْ يُعْطِنَـــا نِصْفـــاً أَمِيـــرٌ ... مَشَيْنَـــا نَحْـــوَهُ مَشْـــيَ الأُسُـــودِ[3]

---

(١) رَئِمَ الهوانَ : أَلِفَهُ وأَحبَّه ولزِمهُ .

(٢) الأَخادِعُ ، هُما الأَخدعانِ : عرقانِ في صفحةِ العنقِ .

(٣) النِّصْفُ : شقُّ الشيءِ ، أَي تعطي من نفسِكَ ما يستحقُّ من الحقِّ كما تأخذُهُ .

وقالَ الشدَّاخُ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَبَيْنَـا فَـلاَ نُعْطِـي مَلِيكـاً ظُـلاَمَـةً ... وَلاَ سُـوقَـةً إِلاَّ الْـوَشِيـجَ الْمُقَـوَّمَـا[1]

وَإِلاَّ حُسَـامـاً يَبْهَـرُ الْعَيْـنَ لَمْحُـهُ ... كَصَـاعِقَـةٍ مِـنْ عَـارِضٍ قَـدْ تبَسَّمَـا

وقالَ آخرُ [عبيدُ بنُ الأَبرصِ في « ديوانه » ٨٦] : [مِنَ البسيطِ]

إِذَا تَخَمَّـطَ جَبَّـارٌ ثَنَـوْهُ إِلَـىٰ ... مَـا يَشْتَهُـونَ وَلاَ يُثْنَـوْنَ إِنْ خَمِطُـوا[2]

وقالَ الضبِّيُّ ـ أبو الشعْرِ ـ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكُنَّـا إِذَا الْجَبَّـارُ بِـالْجَيْـشِ ضَـافَنَـا ... جَعَلْنَـا الْقَنَـا وَالْمُـرْهَفَـاتِ لَـهُ نُـزْلاَ

وأَخرجَ مسلمٌ [في « صحيحه » ٢٨٩٨] : عن المستورد القرشيِّ أَنَّهُ قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يقولُ : « **تَقُومُ السَّاعَةُ والرومُ أَكثرُ الناسِ** » . فقالَ لهُ عمرو بنُ العاصِ : أَبصِرْ ما تقولُ ، قالَ : أَقولُ ما سمعتُهُ مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، قالَ : لئِنْ قلْتَ ذلِكَ . . إِنَّ فيهم لَخصالاً أَربعاً : إِنَّهُم لأَحلَمُ الناسِ عندَ فتنةٍ ، وأَسرعُهُم إِفاقَةً بعدَ مصيبَةٍ ، وأَوشكُهُم كَرَّةً بعدَ فَرَّةٍ ، وخيرُهم لمسكينٍ ويتيمٍ وَضَعيفٍ ، وخامسةٌ حسنةٌ جميلةٌ ، وأَمنعُهم مِن ظلمِ الملوكِ . وهَـٰذا هُو موضعُ الشاهدِ .

[لا يجلس تحت المحمِل إلا الجَمَل ولا يرضىٰ بالدون إلا الدون]

وقالَ بعضُ العرَبِ : [مِنَ السريعِ]

يُعْطِـي زِمَـامَ الطَّـوْعِ إِخْـوَانَـهُ ... وَيَلْتَـوِي بِـالْمَلِـكِ الْقَـادِرِ

وقالَ بشَّارٌ [في « ديوانه » ٤/١٧٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَحَـارِبْ إِذَا لَـمْ تُعْـطَ إِلاَّ ظُـلاَمَـةً ... شَبَـا الْحَرْبِ خَيْـرٌ مِـنْ قَبُـولِ الْمَظَـالِمِ[3]

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٤/٩٢ـ٩٤] : [مِنَ الخفيفِ]

لاَ افْتِخَـارٌ إِلاَّ لِمَـنْ لاَ يُضَـامُ ... مُـدْرِكٌ أَوْ مُحَـارِبٌ لاَ يَنَـامُ

وَاحْتِمَـالُ الأَذَىٰ وَرُؤْيَـةُ جَـانِيـهِ ... غِـذَاءٌ تَضْـوَىٰ بِـهِ الأَجْسَـامُ[4]

ذَلَّ مَـنْ يَغْبِـطُ الـذَّلِيـلَ بِعَيْـشٍ ... رُبَّ عَيْـشٍ أَخَـفُّ مِنْـهُ الْحِمَـامُ[5]

مَـنْ يَهُـنْ يَسْهُـلِ الْهَـوَانُ عَلَيْـهِ ... مَـا لِجُـرْحٍ بِمَيِّـتٍ إِيـلاَمُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/٢١٣] : [مِنَ البسيطِ]

لاَ يُعْجِبَـنَّ مَضِيمـاً حُسْـنُ بِـزَّتِـهِ ... وَهَـلْ تَـرُوقُ دَفِيناً جَـوْدَةُ الْكَفَـنِ[6] ؟!

والكلامُ فيهِ يَطولُ ، فلنقِفْ بهِ عندَ حدِّهِ .

---

(١) **الوشيجُ** : شجرُ الرِّماحِ .
(٢) **خمطَ الرجلُ** : غضبَ وتكبَّرَ وثارَ .
(٣) **شبا** : جمعُ شباةٍ ، وهيَ طرفُ السيفِ .
(٤) **تضوىٰ** : تهزلُ .
(٥) **الغبطةُ** : تمني أن يكونَ لك مثلُ الخير الذي عندَ الغير من غير أَن تتمنَّىٰ زواله عنه ، **والمعنىٰ** : أنه يتمنىٰ مثل حاله . **الحِمامُ** : الموت .
(٦) **المضيمُ** : المظلوم . **البِزَّةُ** : اللباسُ الحسنُ .

ولنعُدْ على البَدْءِ ، فنقولُ : ما أَشدَّ ضياعَ العالِمِ بينَ الجُهَّالِ ، حَتَّىٰ قالَ بعضُهم في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل : ٢١] : لأَحبسنَّه معَ غيرِ جنْسِهِ ، والفاضلُ بينَ الحسَّادِ والمستبدِّينَ . . أَضيعُ مِن العالِمِ بينَ الجهَّالِ بكثيرٍ ، فَلا حرجَ علىٰ أَبي الطيِّبِ ؛ إذا تألَّم من أَهلِ زمانهِ إلىٰ هـٰذا الحدِّ ، ثُمَّ إِنَّكَ لا تجدُ أَذِيَّةَ الأَحرارِ في الأَكثرِ الأَغلَبِ . . إلاَّ مِن أُولي قرابَتِهم ، وعبيدِ نعمتِهم ، وللهِ درُّ الناظِمِ في **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٨٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَظْلَمُ أَهْلِ الظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِداً ... لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

[أصل العداوة اصطناع المعروف إلىٰ غير أهله]

ويُؤَيِّدُهُ ما يُروىٰ عن سفيانَ مِنْ قولِهِ : ما وجدْنا أَصلَ كلِّ عداوةٍ . . إلاَّ فِي اصطِناعِ المعروفِ إِلى اللئَامِ ، ومرَّ بعضُ ما يتَّصِلُ بهـٰذَا البحثِ أَواخِرَ المجلسِ الثاني ، وسيعادُ ذَرْوٌ منهُ أَواخرَ المجلسِ السادسَ عشرَ .

[الحكم الشرعي في التشبيه الذي في بيت المطلع]

والحاصلُ : أَنْ لا أُشنوعَةَ على الناظِمِ في تشبيهِهِ مُقامَهُ ـ بأَرضِ قومِهِ على الهضيمة والاضطهادِ ـ بمُقامِ المسيحِ بينَ اليهودِ ، ومُقامِ صالحٍ في ثمودَ ؛ لأَنَّ المشبَّهَ لا يكونُ مثلَ المشبَّهِ بهِ من سائرِ جهاتهِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ لعائشَةَ : « **كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لأُمِّ زَرْعٍ** »[1] مَعَ أَنَّهُ لَم يُحمد بينَ الأَخيرَينِ المآلُ .

وجزمَ ابنُ حجرٍ الهيتميُّ : بأَنَّهُ لا يكفُرُ معلِّمُ صبيانٍ قال : اليهودُ خيرٌ مِن المسلمينَ بكثيرٍ ؛ لأَنَّهم يَقْضونَ حقوقَ معلِّمي صِبْيانِهم ، إلاَّ إِنْ أَرادَ الخيريَّةَ المطلقَةَ ، واستقربَ عدمَ الكفرِ في حالَةِ الإِطلاقِ .

وذكرَ في « **تحفته** » : أَنَّ الكتابيَّةَ أَولىٰ بالتزوُّجِ مِن الْمسلِمَةِ التي لا تصلِّي .

وثبتَ [كما في « البداية والنهاية » ٧/ ١٥٣] : أَنَّ عثمانَ [بن عفان رضي الله عنه] تزوَّجَ [نائلة] بنتَ الفرافصَةِ الكلبيَّةَ ـ وهيَ علىٰ نصرانيَّتِها ـ ثُمَّ أَسلمَتْ وحسنَ إِسلامُها ، وكانَ مِن وفائِها لَهُ ما يحفَظُهُ التاريخُ .

قالَ ابنُ جريرٍ [في « تفسيره » ٢/ ٣٧٨] : وأَمَّا القولُ الذي رُوِيَ عَن شهرِ بنِ حَوشَبٍ ، عَنِ ابنِ عبَّاسٍ ، عنْ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم : مِن تفريقِهِ بينَ طلحةَ وامرأَتِهِ اليهوديَّةِ ، وبينَ حذيفةَ بنِ اليمانِ وامرأَتِهِ النصرانيَّةِ . . فقولٌ لا معنىٰ لَهُ ؛ لخلافِهِ ما أَجمعَتْ علىٰ تحليلِهِ الأُمَّةُ بكتابِ اللهِ تعالىٰ ، وحديثِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وقد رُوِيَ عَن عمرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ مِن القولِ بخلافِهِ ما هُوَ أَصحُّ منْهُ إِسناداً .

ويأْتي أَواخِرَ المجلسِ الثالثَ عشرَ ما يصحُّ أَنْ يُتمثَّل بهِ هُنا ؛ لِما فيهِ مِن اختيارِ الوحشِ على البَشَرِ ، فمِنْ أَيْنَ يَنفذُ الانتقادُ على الناظِمِ بعدَ ما ثبَتَ بلسانِ الفقَهاءِ تفضيلُ بعضِ الكتابيَّاتِ علىٰ بعضِ المسلماتِ ؟ فَلا يتسرَّع بمعاتبتهِ في ذلِكَ . . إلا مَن لا حجَّةَ لَهُ ، ولا رويّة عندَهُ .

ثُمَّ أَلاَ ترىٰ أَنَّ القاضي عبدَ الوهَّابِ المالكيَّ : لَمَّا نَبَا بهِ (العراقُ) ، وجفتْهُ (بغدادُ) ، وضاقَتْ حالُهُ فيهِ ، وبكَأَتْ[2] عليهِ مَجاري الرِّزقِ بهِ . . قالَ [في « وفيات الأعيان » ٣/ ٢٢١] : [مِنَ البسيطِ]

بَغْدَادُ دَارٌ لأَهْلِ الْمَالِ طَيِّبَةٌ ... وَلِلْمَفَالِيسِ دَارُ الضَّنْكِ وَالضِّيقِ

---

(١) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥١٨٩) في النكاح ، ومسلم (٢٤٤٨) في فضائل الصحابة .

(٢) **بكأت** : ضاقت وقلَّتْ .



ظَلِلْتُ حَيْرَانَ أَمْشِي فِي أَزِقَّتِهَا ... كَأَنَّنِي مُصْحَفٌ فِي بَيْتِ زِنْدِيقِ

فتشبيهُهُ إِيَّاها بدارِ الزنديقِ ، معَ مَن فيها مِن العلَماءِ والأَولياءِ والصالحينَ . . لاَ يخرجُ عمَّا قالَهُ الناظمُ .

ويروىٰ : أَنَّ القاضِيَ المذكورَ اجتازَ في وجهِهِ ذٰلِكَ إِلىٰ (مصرَ) بـ(معرَّةِ النعمانِ) ، فقالَ فيهِ صديقُهُ أَبو العلاءِ [في « سقطِ الزندِ » ٢٩١_٢٩٢] : [مِنَ البسيطِ]

وَالْمَالِكِيُّ ابْنُ نَصْرٍ زَارَ فِي سَفَرٍ ... بِلاَدَنَا فَحَمِدْنَا النَّأْيَ وَالسَّفَرَا

إِذَا تَفَقَّهَ أَحْيَا مَالِكاً جَدَلاً ... وَيَنْشُرُ الْمَلِكَ الضِّلِّيلَ إِنْ شَعَرَا[1]

وذكرهُ أَيضاً في غيرِ هٰذَا الموضعِ مِن « **ديوانِهِ** » . ويُذكَرُ أَنَّهُ لمَّا وردَ (مصرَ) . . انثالَتْ[2] عليهِ البَرَكاتُ ، ودرّتْ لَهُ الخيراتُ ، ولٰكِنْ لَم يلبثْ أَنْ عاجَلَتْهُ المنيَّةُ ، مِنْ أَكْلَةٍ أَكلَها .

وَهُوَ صَاحِبُ الجوابِ عَن سؤَالِ صاحبِهِ المعريِّ ، ونصُّ السؤَالِ : [مِنَ البسيطِ]

يَدٌ بِخَمْسِ مِئِينٍ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ ... مَا بَالُهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارِ[3]

ونصُّ الجوابِ : [مِنَ البسيطِ]

عِزُّ الأَمَانَةِ أَغْلاَهَا ، وَأَرْخَصَهَا ... ذُلُّ الْخِيَانَةِ ، فَافْهَمْ حِكْمَةَ الْبَارِي[4]

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/٣١٩] : [من الخفيف]

مَفْرَشِي صَهْوَةُ الْحِصَانِ وَلٰكِـ ... ـنَّ قَمِيصِي مَسْرُودَةٌ مِنْ حَدِيدِ

[حكم المدح بما يشبه الذم عند المؤلف]

يقولُ : موضعُ فِرَاشي ظهرُ الحصانِ ، و(**الصَّهْوَةُ**) : مقعدُ الفارسِ مِن ظهْرِ الفَرَسِ ، و(**المَسْرودَةُ**) : الدِّرعُ ، والاستدراكُ لا يَخلو مِن البُرودَةِ ؛ لأَنَّهُ لا يَحلو مكانُهُ إِلاَّ إِذا كانَ ظاهِرُهُ عدمَ التناسُبِ بما قبلَهُ ، وركوبُ الحِصانِ يناسِبُ لُبسَ الدِّرعِ ، فانتفىٰ عنْهُ البديعُ بانتفاءِ ما يشبهُ مِنهُ الذمَّ ، وبعضُهم لا يشترطُ ذلِكَ ، مستدلاً بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ : « **أَنا أَفْصَحُ الْعَرَبِ ، بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ** »[5] .

---

(١) **مالكاً** : أي مالكَ بنَ أنسٍ إمام دارِ الهجرةِ صاحب المذهب المشهور ، **الملكُ الضِّلِّيلُ** : امرؤُ القيسِ .

(٢) **انثالت** : انصبَّت .

(٣) **العسجدُ** : الذهبُ . ومعنى السؤال : لو أنَّ إنساناً قطعَ يدَ إنسانٍ . . كان عليه نصف الديةِ ، فيكونُ ثمنُ اليدِ خمس مئة دينارٍ . ولو أَنَّ إنساناً سرقَ ربع دينارٍ لآخرَ ـ وهو نصاب السرقة ـ قُطعت يدُهُ ، فيكونُ الثمنُ لليدِ ربع دينارٍ ؟ ويعادل قيمة غرام ذهبي خالص .

(٤) وقد لخَّص بعض الفضلاء ذلك بقوله :
لمّا كانت أمينةً . . كانت ثمينةً ؛ فلمّا خانَتْ . . هَانَتْ .

(٥) قال العجلوني في « كشف الخفاء » (٦٠٩) : أورده أصحاب الغرائب ، ولا يعلم من أخرجه ولا إسناده ، وإن ذكره المحلي في شرح « جمع الجوامع » والآخذون منه .



والصحيحُ [كما في « مغني اللَّبيب » ١/١٥٥] : أَنَّ (بيدَ) هُنا . لَيستْ بمعنىٰ (غيرَ) ، وإنَّما هيَ بمعنىٰ مِنْ أَجلِ ، فلا شاهِدَ لذلكَ البعضِ فيهِ ، فالمقبولُ في الموضوعِ ـ كما سيأتي توضيحُهُ في المجلسِ السَّادسَ عَشَرَ ـ إنَّما هوَ ما كانَ مِنْ جنسِ قولِ النَّابغَةِ [الذُّبياني في « ديوانه »] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

وقولِ ابنِ الروميِّ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلاَ عَيْبَ فِينَا غَيْرَ أَنَّ سَمَاحَنَا ... أَضَرَّ بِنَا وَالْبَأْسُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

فَأَفْنَى الرَّدَىٰ أَرْوَاحَنَا غَيْرَ ظَالِمٍ ... وَأَفْنَى النَّدَىٰ أَمْوَالَنَا غَيْرَ عَائِبِ

أَبُونَا أَبٌ لَوْ كَانَ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ ... أَبٌ مِثْلُهُ أَغْنَاهُمُ بِالْمَنَاقِبِ

وقولِ الآخرِ [في « خزانة الأدب » ٢/٣٩٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ ضُيُوفَهُمْ ... تُعَابُ بِنِسْيَانِ الأَحِبَّةِ وَالْوَطَنْ

وقولِ بعضِهِم فيما يُشبِهُ المدحَ مِنْ تأكيدِ الذَّمِّ ، وقد أَلطفَ فيهِ وهوَ : [مِنَ الطَّويلِ]

هُوَ الْكَلْبُ إِلاَّ أَنَّ فِيهِ مَلاَلَةً ... وَسُوءَ مُرَاعَاةٍ وَمَا ذَاكَ فِي الْكَلْبِ

[أصل بيت المتنبي]

وبيتُ النَّاظمِ ناظرٌ إِلىٰ قولِ عنترة [في « ديوانه » ٥٨] : [مِنَ الكاملِ]

تُمْسِي وَتُصْبِحُ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةٍ ... وَأَبِيتُ فَوْقَ سَرَاةِ أَدْهَمَ مُلْجَمِ (١)

وَحَشِيَّتِي سُرُجٌ عَلَىٰ عَبْلِ الشَّوَىٰ ... نَهْدٌ مَرَاكِلُهُ نَبِيلُ الْمِحْزَمِ (٢)

[الخيل والمديح فيها]

وقد ذكرنا في غيرِ هٰذا المجلسِ كَثرةَ ما يفتخِرُ النَّاظِمُ بالفروسيَّةِ والخَيلِ ؛ لِمَا لَها مِن الهَيبةِ ، وما فيها مِنَ الجَمالِ ، وهيَ أَفضلُ ذواتِ الأَربَعِ صورةً ، وأَشبَهُهَا بالإنْسانِ في كرمِ الطبعِ ، وعلوِّ النفسِ .

وقد أَثنى اللهُ عليها في القرآنِ فقالَ : ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

قيلَ : عَنىٰ بهِ الشَّياطينَ ، وأَنَّها لا تدخُلُ بيتاً فيهِ فرسٌ ، كما لا تدخلُ الملائِكَةُ بيتاً فيهِ كلْبٌ .

وأَقسمَ اللهُ بخيلِ الغُزاةِ فقالَ : ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۞ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۞ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ [العاديات : ١ـ٣] . وكَفاها بذلِكَ شرفاً .

ونسيتُ ـ وما أَنسانيِ إلاَّ الشيطانُ ـ أَن أذكُرَ قولَهُ عزَّ اسمُهُ : ﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴾ [العاديات : ٢] عندما تكلَّمْتُ علىٰ

---

(١) الحشيَّةُ : الفراشُ . سَراةُ كُلِّ شيءٍ : أعلاهُ .

(٢) عبل الشوىٰ : غليظ القَوام والعِظام ، ملتفُّ العصبِ . الشوىٰ : القوائم . النهدُ : النافرُ الضخمُ . المراكلُ ، جمع مركلٍ وهوَ : حيثُ تبلغُ رِجلُ الرجلِ من الدابة . المِحزمُ : موضعُ الحزام .

قولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ١٧١] : [مِنَ البسيطِ]

أَنْكَحْتُ صُمَّ حَصَاهَا خُفَّ يَعْمَلَةٍ تَغَشْمَرَتْ بِي إِلَيْكَ السَّهْلَ وَالْجَبَلاَ

فإِنَّهُ أَشرفُ مِنْ كلِّ معنىً سُقناهُ هُناكَ .

وصحَّ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « اَلْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَواصِيهَا الْخَيْرُ ـ الأَجْرُ وَالمَغْنَمُ ـ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ »[١] .

وهٰهنا دقيقةٌ ، وهيَ أَنَّهُ عليهِ السلامُ : قد أَنبأَ عَنِ اختراعِ الطَّيَّاراتِ والسَّيَّاراتِ ، بما أَخرجَهُ عنهُ مسلمُ بنُ الحجَّاجِ في « صحيحِهِ » [(١٥٥) (٢٤٣)] : مِن طَوافِ المَسيحِ فِي الأَرضِ ، معَ استغنائِهِ عَنِ القِلاصِ[٢] ، ولكنَّهُ أَشارَ بالحديثِ السابقِ إِلىٰ أَنْ لا غِنىٰ عَنِ الخيلِ ما اختلفَ المَلَوانِ[٣] ، وذلكَ مِمَّا يزيدُ الإِيمانَ ، لأَنَّهُ المؤَكَّدُ بالحِسِّ والعِيانِ .

ومن فضيلةِ الخيلِ . أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أَسْهَمَ لَها سهمينِ ، ولَم يجعلْ للمُسلِمِ إِلاَّ سَهماً واحِداً[٤] .

ويروىٰ : أَنَّهُ ـ صلواتُ اللهِ عليهِ وعلىٰ آلهِ ـ أَمْرَغَ[٥] فرساً لَهُ ، ثُمَّ جعلَ يمسحُهُ بردائِهِ ، فقيلَ لَهُ في ذلِكَ . . فقالَ : « بِتُّ الْبَارِحَةَ وَجِبْرِيلُ يُعَاتِبُنِي فِي سِيَاسَةِ الْخَيْلِ »[٦] .

وصحَّ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قالَ : « مَنِ احْتَبَسَ فَرَساً فِي سَبِيلِ اللهِ إِيمَاناً بِاللهِ ، وَتَصْدِيقاً بِمَوْعُودِ اللهِ . . كَانَ شِبَعُهُ وَرِيُّهُ وَرَوْثُهُ وَبَوْلُهُ حَسَناتٍ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[٧] .

وصحَّ عنهُ أَنَّهُ قالَ : « مَا مِنْ فَرَسٍ عَربيٍّ ، إِلاَّ يُؤْذَنُ لَهُ كُلَّ يومٍ بِدَعْوَتَيْنِ ، يقولُ : اللَّهُمَّ ، كَمَا خَوَّلْتَنِي مَنْ خَوَّلْتَنِي ، فاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ »[٨] .

وكانَتِ العَرَبُ لا تُهنِّئُ إِلاَّ بالولدِ ، فيقولونَ : لِيَهْنِكَ الفَارِسُ .

وبالشاعِرِ : يقولونَ : لِيَهْنِكَ مَن يذُبُّ عَن عرضِكَ .

وبالمُهرِ : يقولونَ : لِيَهْنِكَ ما تدركُ بهِ الثأْرَ .

ولهم في تربيتِها ومزيدِ الاعتناءِ بها في الجاهليَّةِ والإِسلامِ ما تنطقُ بهِ صوادِقُ الأَشعارِ .

---

(١) أخرجه عن عروة البارقي رضي الله عنه البخاري (٣١١٩) في الخمس . قال الخطابي : فيه إشارة إلىٰ أن المال الذي يكتسب باتخاذ الخيل من خير وجوه الأموال وأطيبها . وقال عياض : في الحديث مع وجيز لفظه من البلاغة والعذوبة ما لا مزيد عليه في الحسن ، مع الجناس السهل بين الخيل والخير .

(٢) ولفظه عند مسلم : « ولتتركن القِلاصُ فلا يُسعىٰ عليها . . » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . والقلاص : جمع قلوص ، وهي من الإبل كالفتاة من النساء .

(٣) المَلَوانِ : الليلُ والنهارُ .

(٤) أخرج عن ابن عمر رضي الله عنهما البخاري (٢٨٦٣) ، ومسلم (١٧٦٢) في الجهاد : (أن رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قسم في النَّفَل للفرس سهمين ولصاحبه سهماً) . النَّفَل : الغنيمة .

(٥) أَمرَغَ : قلَّبَهُ في التُّرابِ .

(٦) الخبر لم نقف عليه ، والسياسة : القيام على الشيء بما يصلحهُ .

(٧) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٠١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ١٦) في السبق ، وبنحوه عند البخاري (٢٣٧١) في المساقاة ، ومسلم (٩٨٧) في الزكاة ، وطرفه : « الخيل ثلاثة : هي لرجل . . » .

(٨) أخرجه عن أبي ذر رضي الله عنه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٠١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ٣٣٠) .

قالَ طفيلٌ الغنويُّ [في « ديوانه » ٤٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلِلْخَيْـلِ أَيَّـامٌ فَمَـنْ يَصْطَبِـرْ لَهَـا ... وَيَعْـرِفْ لَهَـا أَيَّـامَهَـا الْخَيْـرَ يُعْقَـبِ

وقالَ رجلٌ مِن قريشٍ : [مِنَ الخفيفِ]

أَتَّقِـي دُونَـهُ الْمَنَـايَـا بِنَفْسِـي ... وَهُـوَ يَغْشَـىٰ بِنَـا صُـدُورَ الْعَـوَالِـي

فَـإِذَا مِـتُّ كَـانَ ذَاكَ تُـرَاثِـي ... وَسِخَـالاً مَحْمُـودَةً مِـنْ سِخَـالِـي

وقالَ بعضُ بني عامرٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

بَنِـي عَـامِـرٍ ، إِنَّ الْخُيُـولَ وِقَـايَـةٌ ... لأَنْفُسِكُـمْ وَالْمَـوْتُ وَقْـتٌ مُـؤَجَّـلُ

أَهِينُـوا لَهَـا مَـا تُكْـرِمُـونَ وَبَـاشِـرُوا ... صِيَـانَتَهَـا فَـالصَّـوْنُ لِلْخَيْـلِ أَجْمَـلُ

مَتَـىٰ تُكْـرِمُـوهَـا يُكْـرِمِ الْمَـرْءُ نَفْسَـهُ ... وَكُـلُّ امْـرِىءٍ مِـنْ قَـوْمِـهِ حَيْـثُ يَنْـزِلُ

وقالَ لبيدٌ [في « ديوانه » ٣٥١] : [مِنَ الوافرِ]

مَعَـاقِلُنَـا الَّتِـي نَـأْوِي إِلَيْهَـا ... بَنَـاتُ الأَعْـوَجِيَّـةِ وَالسُّيُـوفُ(١)

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ مُنْشِئاً أَوْ مُتَمَثِّلاً [كما في « المستطرف » ٢/ ٢٤٠] : [مِنَ الوافرِ]

أَحِبُّـوا الْخَيْـلَ وَاصْطَبِـرُوا عَلَيْهَـا ... فَـإِنَّ الْعِـزَّ فِيهَـا وَالْجَمَـالاَ

إِذَا مَـا الْخَيْـلُ ضَيَّعَهَـا أُنَـاسٌ ... حَفِظْنَـاهَـا فَـأَشْـرَكَـتِ الْعِيَـالاَ

وقالَ أعشىٰ بكرِ بنِ وائلٍ ـ يصفُ حسنَ اعتنائِهِ بفرسِهِ ـ : [مِنَ الخفيفِ]

وَقِيَـامِـي عَلَيْـهِ غَيْـرُ مَضِيـعٍ ... دَائِمـاً بِـالْغُـدُوِّ وَالآصَـالِ

ومِمَّا قالَهُ كعبٌ يومَ الخندقِ : [مِنَ الوافرِ]

خُيُـولٌ لاَ تُضَـاعُ إِذَا أُضِيعَـتْ ... خُيُـولُ النَّـاسِ فِـي السَّنَـةِ الْجَمَـادِ

يُنَـازِعْـنَ الأَعِنَّـةَ مُصْغِيَـاتٍ ... إِذَا نَـادَىٰ إِلَـى الْفَـزَعِ الْمُنَـادِي

وقالَ حسَّانُ يذكرُ الحارثَ بنَ هشامٍ ، وفرارَهُ عَن أخيهِ في يومِ بدرٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَرَاكَضَنَـا تَحْـتَ الْعَجَـاجَـةِ حَـارِثٌ ... عَلَـىٰ ظَهْـرِ جَـرْدَاءٍ كَبَـاسِقَـةِ النَّخْـلِ

يُقَلِّبُهَـا طَـوْراً وَطَـوْراً يَحُثُّهَـا ... وَيَعْـدِلُهَـا بِـالنَّـاسِ وَالْمَـالِ وَالأَهْـلِ

ولم ينسَ حظَّهُ الناظمُ مِن مثلِ هٰذا المعنىٰ ، **فقالَ** [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٩٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَـوْ لَـمْ تَسِـرْ سِـرْنَـا إِلَيْـكَ بِـأَنْفُسٍ ... غَـرَائِـبَ يُـؤْثِـرْنَ الْجِيَـادَ عَلَـى الأَهْـلِ(٢)

---

(١) الخيلُ الأعوجيَّةُ : منسوبةٌ إلىٰ فرسٍ كانَ في الجاهليَّةِ .

(٢) غرائبُ : جمع غريبةٍ ؛ وهيَ : الغريبةُ مِنَ الناسِ بما حازت مِنَ الأخلاقِ التي لاتوجدُ في سواها .

وقالَ القحيفُ العجليُّ ـ أو رجلٌ مِن بني تميمٍ ـ وقد سألَهُ فرسَهُ بعضُ الملوكِ [كما في « ديوان الحماسة » ١/ ٦٧] : [مِنَ الوافرِ]

أَبَيْـتَ اللَّعْـنَ إِنَّ سَكَـابِ عِلْـقٌ نَفِيسٌ لاَ يُعَارُ وَلاَ يُبَاعُ[1]
مُفَـدَّاةٌ مُكَـرَّمَـةٌ عَلَيْنَـا تُجَـاعُ لَهَـا الْعِيَـالُ وَلاَ تُجَـاعُ
سَلِيلَـةُ سَـابِقَيْـنِ تَنَـاجَـلاَهَـا إِذَا نُسِبَـا يَضُمُّهُمَـا الْكُـرَاعُ[2]
فَـلاَ تَطْمَـعْ ـ أَبَيْـتَ اللَّعْـنَ ـ فِيهَـا وَمَنْعُكَهَـا بِشَـيْءٍ مُسْتَطَـاعُ

وقالَ شاعرُ المعرَّةِ [في « سقطِ الزند » ٢٣٧] : [مِنَ الوافرِ]

وَيَغْبِـقُ أَهْلَـهُ لَبَـنَ الصَّفَـايَـا وَيَمْنَـحُ قُـوتَ مُهْجَتِـهِ الْجَـوَادَا[3]

وقالَ أيضاً [في « سقطِ الزند » ١٥٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

غَـذَاهُـنَّ مُحْمَـرَّ النَّجِيـعِ قَـوَارِحـاً كَمَـا كُـنَّ يُغْـذَيْـنَ الضَّـرِيـبَ مِهَـارَا[4]

وقال [في « سقطِ الزند » ١٢٠] : [مِنَ الوافرِ]

ذَكِـيُّ الْقَلْـبِ يَخْضِبُهَـا نَجِيعـاً بِمَـا جَعَـلَ الْحَـرِيـرَ لَهَـا جِـلاَلاَ

وقالَ [في « سقطِ الزند » ١٢٠] : [مِنَ الوافرِ]

وَأَعْظَـمُ حَـادِثٍ فَـرَسٌ كَـرِيـمٌ يَكُـونُ مَلِيكُـهُ رَجُـلاً شَحِيحَـا

وهي أشرفُ المراكِبِ .

وأخرجَ النَّسائِيُّ [في « سننه » ٦/ ٢١٤] مِن حديثِ سلمةَ بنِ نُفيلٍ السَّكُونيِّ : (أَنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ نَهَىٰ عَن إِذَالَةِ الخيلِ) ؛ وهوَ امتهانُها في الحَملِ عَليها .

وقالَ بعضُهُم : [مِنَ الخفيفِ]

أَطْيَـبُ الطَّيِّبَـاتِ قَتْـلُ الأَعَـادِي وَرُكُـوبٌ عَلَـىٰ ظُهُـورِ الْجِيَـادِ
وَرَسُـولٌ يَـأْتِـي بِـوَعْـدِ حَبِيـبٍ وَحَبِيـبٌ يَـأْتِـي بِـلاَ مِيعَـادِ

وقالَ ابنُ عقبَةَ : [مِنَ الكاملِ]

وَقَسَمْـتُ حَـالاَتِـي ثَـلاَثـاً مِثْلَمَـا قَـدْ كَـانَ قَسَّمَهَـا أَبِـي الشَّهْـمُ السَّـرِي
كَـرَمٌ تَـدِيـنُ لَـهُ الأَنَـامُ وَحَـالَـةٌ ظَهْـرُ الْحِصَـانِ وَحَـالَـةٌ لِلْمِنْبَـرِ
وَتَخِـذْتُ أَصْحَـابـاً إِذَا نَـادَمْتُهُـمْ لَـمْ أَخْـشَ مِنْهُـمْ مَـنْ يَنُـمُّ وَيَفْتَـرِي

---

(١) أبيتَ اللعنَ : تحيَّةٌ كانت تقالُ للملوكِ في الجاهليَّةِ . سَكابِ : اسمُ فرسِهِ . العلقُ : الشيءُ النفيسُ . يقولُ : إنَّ فرسي متاعٌ نفيسٌ لا يعرَّضُ للبيعِ ولا يبذلُ للإعارَةِ .

(٢) الكراعُ : هوَ في الأصلِ أنفٌ يتقدَّمُ في الجبلِ ، فسمِّيَ بِهِ هٰذا الفحلُ لعظمِهِ .

(٣) الغَبوقُ : الشرابُ بالعشيِّ . الصفايا : جمع صفيَّةٍ ، وهيَ الناقةُ الغزيرةُ اللبنِ . والمعنىٰ : يؤثرُ فرسَهُ علىٰ نفسِهِ بالقوتِ .

(٤) النجيع : دم الجوف . القوارحُ : المنتهيةُ أسنانُها . الضَّريبُ : اللبنُ الذي يُخلطُ حلوهُ بحامضِهِ . يقولُ : إنَّما غذاها بالضريبِ بسببِ قلَّةِ اللبنِ .

عِلْمِي وَحِلْمِي وَالْحِصَانُ وَصَارِمِي ... وَنَدَىٰ يَمِينِي وَالْعَفَافُ وَدَفْتَرِي

وقالَ **الناظِمُ** [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١٧٥] : [مِنَ الكاملِ]

تَخِذُوا الْمَجَالِسَ فِي الْبُيُوتِ وَعِنْدَهُ ... أَنَّ السُّرُوجَ مَوَاضِعُ الْفِتْيَانِ

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٢٣٠] : [مِنَ الكاملِ]

فَكَأَنَّهَا نُتِجَتْ قِيَاماً تَحْتَهُمْ ... وَكَأَنَّهُمْ وُلِدُوا عَلَىٰ صَهَوَاتِهَا

وَقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ١٩٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَعَزُّ عَزِيزٍ فِي الدُّنَىٰ سَرْجُ سَابِحٍ ... وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

وَلا يبعُدُ عنهُ **قولُهُ** [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١٧٩] : [مِنَ الكاملِ]

مُتَفَيِّئِينَ ظِلالَ كُلِّ مُطَهَّمٍ ... أَجَلِ الظَّلِيمِ وَرِبْقَةِ السِّرْحَانِ[1]

وَرَأَيتُ بعضَ أَهلِ (اليمنِ) يقولُ : [مِنَ الطَّويلِ]

رَكِبْنَا الْمَطَايَا وَالْجِيَادَ فَلَمْ نَجِدْ ... أَلَذَّ وَأَشْهَىٰ مِنْ رُكُوبِ الْمَوَاتِرِ[2]

وفيهِ أَشياءُ :

أَحدُها : أَنَّهُ بيتٌ قَديمٌ يعزىٰ للجنِّ بلفظِهِ ، إلاَّ المواترَ ، فَفي بيتِ الجنِّ مكانَها الأَرانِبُ ، وهُو مشكلٌ بأَنَّ الجنَّ تجتنِبُها من أَجلِ الحيضِ ، ولهَـٰذَا كانَتْ العربُ تعلِّقُ كعبَها فِي رِجلِ الطفْلِ ، كالمَعاذَةِ ، ثم رأَيتُه في « **شرحِ القاموسِ** » ـ رواهُ عَن ثعلبٍ ـ بإِبدالِ الأَرانِبِ بالثعالِبِ ، وهُوَ ظاهرٌ إِذَن .

ثانيها : أَنَّ مراجيحَ الأَبطالِ والعجائزِ سواءٌ في ركوبِ المواترِ ، ولا كذلِكَ في عتاقِ الخيلِ ، وقد **قالَ الناظِمُ** [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٣٧٣] : [مِنَ البسيطِ]

وَشَرُّ مَا قَنَصَتْهُ رَاحَتِي قَنَصٌ ... شُهْبُ الْبُزَاةِ سَوَاءٌ فِيهِ وَالرَّخَمُ[3]

وقد يجابُ عنهُ : بأَنَّ اليمانيَّ قالَ : أَلَذَّ وأَشهىٰ ، وهَـٰذَا قد يكونُ ، وإِنَّما يأْتي الانتقادُ لو قالَ : أَعزَّ وأَعلىٰ .

ثالثُها : أَنَّ هَـٰذِهِ الملاحظةَ مِن جنسِ ملاحظتِنا على الإمامِ العينيِّ قولَهُ ـ في حديثِ : « فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَىٰ سَائِرِ الطَّعَامِ »[4] ، ما معناهُ ـ : إِنَّ هـٰذا بالنسبَةِ لذلكَ العهدِ ، أَمَّا الآنَ . . فقدْ أَحدَثُوا من الأَخبصَةِ ، والحلويَّاتِ ، والمطاعِمِ ، ما قد يُستَقَلُّ معَها الثريدُ . وقُلنا : داخلتْهُ عجمَةٌ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ وإِلاَّ فالبُرُّ أَفضلُ

---

(١) **المطهَّم** : الفرسُ التام ، كلُّ شيءٍ منه علىٰ حدتهِ ، فهوَ بارعُ الجمالِ . **الظليمُ** : ذكرُ النعامِ . **السرحانُ** : الذئبُ . **الرِّبقةُ** : ما يكونُ في رقبةِ الشاةِ تحبسُها من التصرُّفِ .

(٢) **المَواتِرُ** : كلمةٌ عاميَّةٌ يمنيَّةٌ ؛ المقصودُ بها السياراتُ .

(٣) **الرخمُ** : طائرٌ أبقعُ ، يشبهُ النسرَ في الخلقةِ ، وهو طائر دنيء .

(٤) أخرجه عن أنس رضي الله عنه البخاري (٥٤١٨) في الأطعمة ، ومسلم (٢٤٤٦) في فضائل عائشة . وفي الباب : عن أبي موسىٰ رضي الله عنه أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٤) ، والبخاري (٣٤١١) ، ومسلم (٢٤٣١) ، والنسائي (٧/ ٦٨) .

الطعامِ ، واللَّحمُ أَفضلُ الإدامِ ، لا يزالانِ كذلكَ إلىٰ يومِ القِيامِ ، وَما الثريْدُ غيرُ البُرِّ مأْدوماً باللحْمِ ؟! قالَ الشاعِرُ [في « تحفة الأحوذي » ١٠/ ٢٦١] : [مِنَ الوافرِ]

إِذَا مَـا الْبُـرُّ تَـأْدِمُـهُ بِلَحْـمٍ ... فَـذَاكَ أَمَـانَـةُ اللهِ الثَّـرِيـدُ

وكانَ البُرُّ يلبكُ لبابه بالشِّهاد[1] في عَهدِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ . . فلَم يفضِّلْهُ على الثريدِ، فلا فضلَ في المَوَاترِ علىٰ عَناجِيجِ الخَيلِ[2] . . إلاَّ عندَ مَن أَعشى التمدُّنُ الممقوتُ بصرَهُ، وغطَّىٰ علىٰ بصيرتِهِ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ .

[قول الجاحظ في الكتاب]

وعلىٰ ذكرِ مجالسةِ الكِتابِ في بعضِ ما جاءَ عَنِ الناظِمِ . . ذكرْتُ قولَ الجاحِظِ : ما أَعلمُ جاراً أَبرَّ ، ولا خليطاً أَنصفَ ، ولا رفيقاً أَطوعَ ، ولا معلِّماً أَخضعَ ، ولا صاحِباً أَظهَرَ كفايةً ، وأَقلَّ جنايَةً ، ولا أَقلَّ إِبراماً ، ولا أَنزرَ إِملالاً ، ولا أَنزَهَ عَن رِيبَةٍ ، ولا أَبعدَ عَن غِيبَةٍ ، ولا أَكثرَ تصرُّفاً ، ولا أَقلَّ تكلُّفاً ، ولا أَتركَ للشَّغبِ ، ولا أَزهَدَ في الجدالِ ، ولا أَحسنَ مواتاةً ، ولا أَعجَلَ مكافَأَةً ، ولا أَحضَرَ معونَةً ، ولا أَيسرَ مُؤنَةً . . . مِن كِتابٍ .

[قول المؤلف في الكتاب]

وصدقَ واللهِ فيما قالَ ، فلقد جرَّبتُهُ في نَفْسي ، ووجدْتُ مِن الأُنسِ بِهِ تعلَّةً عَنِ الذاهِبِ ، وسلوةً من الغائِبِ ، وزهداً في الخائِنِ ، وعزاءً عَنِ الحائِنِ ، وقلتُ من قصيدةٍ [في « ديوان المؤلف » ٣٨٨] : [مِنَ البسيطِ]

لِـي غُنْيَـةٌ بِمُنَـاجَـاةِ الـدَّفَـاتِـرِ عَـنْ ... مَـنْ لاَ يُنَـاسِبُنِـي مِـنْ جُمْلَـةِ النَّـاسِ
قَـدْ قُلْـتُ نَـاسـاً وَلَكِـنْ رُبَّمَـا مُسِخُـوا ... فِـي عَيْـنِ كُـلِّ بَصِيـرٍ جِيـلَ نَسْنَـاسِ

وقالَ غيري : [مِنَ الكامِلِ]

نِعْـمَ الْمُحَـدِّثُ وَالْجَلِيـسُ كِتَـابُ ... تَلْهُـو بِـهِ إِنْ خَـانَـكَ الأَصْحَـابُ
لاَ مُفْشِيـاً سِـرّاً إِذَا اسْتَـوْدَعْتَـهُ ... وَتُفَـادُ مِنْـهُ حِكْمَـةٌ وَصَـوَابُ

وقالَ الجرجانيُّ : [مِنَ الخفيفِ]

لَـمْ أَجِـدْ لَـذَّةَ السَّـلاَمَـةِ حَتَّـىٰ ... صِـرْتُ لِلْبَيْـتِ وَالْكِتَـابِ جَلِيسَـا

وقد سبقَ بعضُ ما يتعلَّقُ بالخيلِ في المجلسِ الرابعِ ، عندَ الكلامِ علىٰ **قولِهِ** [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٦٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَذَرْنِـي وَإِيَّـاهُ وَطِـرْفِـي وَذَابِلِـي ... نَكُنْ وَاحِداً يَلْقَى الْوَرَىٰ وَانْظُرَنْ فِعْلِي[3]

ويأْتي ـ بحسَبِ كلِّ فرصَةٍ ـ ما يليقُ بِها مِن أَحوالِها إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

ولِتَقِيِّ الدينِ السبكيِّ جوابٌ عَن زَمانِ خلقِها ، وما يتعلَّقُ بهِ ، أَضربْتُ عنهُ ؛ لأَنَّ صدري لَم ينشرِحْ لما ذكرَ في أَدلَّتِهِ ، وهُوَ موجودٌ برمَّتِهِ في « **حياةِ الحيوانِ** » [١/ ٢٨٠ـ٢٨٦] للدميريِّ .

* * *

---

(١) **الشِّهاد** : العسلُ ما دامَ لَم يُعصَر مِن شمعِهِ .
(٢) **عناجيجُ الخيلِ** : جيادُها .
(٣) **الطِّرفُ** : الفرسُ الكريمُ ، وجمعهُ ، طروفٌ . **الذابلُ** : ما اهتزَّ ولانَ من الرماحِ .

[قالَ أبو الطَّيبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٢١] : [مِنَ الخفيفِ]

عِشْ عَزِيزاً أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ ... بَيْنَ طَعْنِ الْقَنَا وَخَفْقِ الْبُنُودِ

[الحياة السعيدة أو الموت العزيز]

(البنود) : الأعلامُ الكبيرَةُ ، والباقي معروفٌ ، والمعنىٰ متداوَلٌ بينَ الشعَراءِ ، جاهليَّةً وإسلاماً ، فمِنْهُ قولُ الحُصينِ بنِ حُمامٍ المُريِّ ، وقد سبقَ في غيرِ هَـٰذَا المجلسِ [كما في « الأغاني » ١٤/ ١١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَسْتُ بِمُبْتَاعِ الْحَيَاةِ بِذِلَّةٍ ... وَلاَ مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ سُلَّمَا

وقالَ ابنُ ميَّادَةَ [في « ديوانه » ٢١٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ ذَمِيمَةٍ ... وَلَلْبُخْلُ خَيْرٌ مِنْ عَنَاءٍ مُطَوَّلِ

وقالَ سليمانُ بنُ قتةَ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنَّ الأُلَىٰ بِالطَّفِّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... تَأَسَّوْا فَسَنُّوا لِلْكِرَامِ التَّأَسِّيَا[1]

وقد تمثَّلَ بهِ مصعبُ بنُ الزبيرِ يومَ زاحفَهُ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ[2] ، وكانَ من حديثِهِ [كما في « الكامل » ٤/ ١٠٧ بنحوه] : أنَّهُ لمَّا خذلَهُ أصحابُهُ ، وتقاعدَ عنهُ عسكرُهُ ، وخفَّ عنهُ رجالُهُ . . أرسلَ إليهِ عبدُ الملكِ أخاهُ محمَّد بنَ مروانَ يعرضُ عليهِ الأمانَ ، وولايةَ (العِراقَينِ) أبداً ما دامَ حيّاً ، وألفَي ألفِ درهمٍ صلَةً ، فأبىٰ ، وقالَ : إنَّ مِثْلي لا ينصرفُ عن هَـٰذَا المكانِ إلاَّ غالباً ، أو مقتولاً ، فشدَّ عليهِ أهلُ الشامِ ، حَتَّىٰ طعنَهُ زائدةُ بنُ قيسِ بنِ قدامةَ السعديُّ ، ونادىٰ يا لَثاراتِ المختارِ ، فنزلَ إليهِ ابنُ ظبيانَ ، واحتزَّ رأسَهُ ، وحملَهُ إلىٰ عبدِ الملكِ ، فبكىٰ ، وقالَ : لقد كانَ أحبَّ الناسِ إليَّ ، وأشدَّهُم مودَّةً لي ، ولَكِنَّ المُلْكَ عقيمٌ .

وقالَ عبدُ الملكِ مرَّةً لجلسائِهِ : مَن أشجعُ الناسِ ؟ فقالَ بعضُهم : قطريٌّ ، وقالَ بعضٌ : شبيبٌ ، وقالَ آخرُ : فلانٌ ، قالَ عبدُ الملكِ : بَلْ رجلٌ جمَعَ بينَ سُكينةَ بنتِ الحسينِ ، وعائشةَ بنتِ طلحَةَ ، وأَمَةِ الحميدِ بنتِ عبدِ اللهِ بنِ عامرِ بنِ كريزٍ ، وقِلابَةَ ابنةِ ريَّانَ بنِ أُنيفٍ الكلبيِّ ، وعُرِضَ عليهِ الأمانُ ، وولايةُ (العِراقَينِ) ما دامَ حيّاً ، وما في بيتِ المَالِ كلُّهُ فأبىٰ ، ومشىٰ بسيفِهِ إلى الموتِ ، حَتَّىٰ قتِلَ ، ذاكَ مصعبُ بنُ الزبيرِ ، لا مَن قَطَعَ الجسورَ مرَّةً إلىٰ هُنا ، وأُخرىٰ إلىٰ هُناكَ .

ولمَّا وُضعَ رأسُهُ بينَ يديهِ . . أنشدَ [كما في « تاريخ بغداد » ١٣/ ١٠٧] : [مِنَ الوافرِ]

لَقَدْ أَرْدَى الْفَوَارِسُ يَوْمَ حِسِّي ... غُلاَماً غَيْرَ مَنَّاعِ الْمَتَاعِ[3]

---

(١) الطَّفُّ : موضع قرب (الكوفة) ، فيه قتل سيدنا الحسين رضي الله عنه .

(٢) في وقعة (دير الجاثليق) .

(٣) حِسِّي : اسم موضع .

وَلاَ فَــرِحٍ بِخَيْــرٍ إِنْ أَتَــاهُ ... وَلاَ هَلِــعٍ مِــنَ الْحَــدَثَــانِ لاَعِ[1]
وَلاَ وَقَّــافَــةٍ وَالْخَيْــلُ تُــرْدِي ... وَلاَ خَــالٍ كَــأُنْبُــوبِ الْيَــرَاعِ[2]

[بالهاشميين الأبطال تشجع أنفسها]

وحسبُكَ بالهاشميِّينَ ذِكراً وشرفاً وفخراً . أَنَّ الأَبطالَ تشجِّعُ بهم نفوسَها ، وتتذكَّرُ أَحوالَهم ؛ لتفرِّجَ بِهم بؤسَها ، وممَّا يستدرُّ إِعْجابي ، ويمتلِىءُ به إِهَابي ، قولُ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانه » ٣/ ١٩٥٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمِــنْ إِرْثِكُــمْ أَعْطَــتْ صَفِيَّــةُ مُصْعَبــاً ... جَمِيــلَ الأَسَــىٰ لَمَّــا اسْتُحِلَّــتْ مَحَــارِمُــهْ
وَثُكْــلُ ابْنِــهِ مُــوفٍ عَلَــىٰ ثُكْــلِ نَفْسِــهِ ... فَمَــا كَــانَ إِلاَّ صَبْــرُهُ وَعَــزَائِمُــهْ
وَعُــرْوَةُ إِذْ لاَ رِجْلُــهُ انصَــرَفَــتْ بِــهِ ... وَقَــدْ خَــرِمَتْــهُ فِــي بَنِيــهِ خَــوَارِمُــهْ[3]
بَكَــىٰ أَقْــرَبُــوهُ شَجْــوَهُ وَهْــوَ ضَــاحِــكٌ ... يُعَــزِّيهِــمُ حَتَّــىٰ تَحَيَّــرَ لاَئِمُــهْ

وللهِ درُّهُ في قولِهِ [في « ديوانه » ٣/ ١٩٤٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

دَعَــاهَــا الــرَّدَىٰ بَعْــدَ الــرَّدَىٰ فَتَتَــابَعَــتْ ... تَتَــابُــعَ مُنْبَــتِّ الْفَــرِيــدِ الْمُنَظَّــمِ[4]

وهو مثلُ قولِ كثيِّرِ ابنِ أَبي وداعَةَ [في « أخبار مكة » ٤/ ٦٠] : [مِنَ الخفيفِ]

أَهْــلُ بَيْــتٍ تَتَــابَعُــوا لِلْمَنَــايَــا ... مَــا عَلَــى الْمَــوْتِ بَعْــدَهُــمْ مِــنْ عِتَــابِ

[صور من شجاعة الشجعان علىٰ مر الزمان]

وكانَ أَنسُ بنُ النضرِ مِمَّن وَفَّىٰ للهِ ، فـ[قد أخرج « البخاري » (٢٨٠٥) في (الجهاد) أنه] : ثبتَ في يومِ أُحدٍ حَتَّى استُشْهِدَ ، وأَصابَهُ يومئذٍ بضعٌ وستُّونَ ـ ما بينَ طعنَةٍ برمْحٍ وضربَةٍ بسيفٍ ـ ولم يعرفْهُ إِلاَّ أُختُهُ ببَنانِهِ .

ويعجبُني قولُ بعْضِهم ـ وأَظنُّني قد سقتُهُ فيما سبقَ مِن الْمَجالِسِ ـ : [مِنَ الكاملِ]

يَلْقَــى السُّيُــوفَ بِــوَجْهِــهِ وَبِنَحْــرِهِ ... وَيُقِيــمُ هَــامَتَــهُ مَقَــامَ الْمِغْفَــرِ
وَيَقُــولُ لِلطِّــرْفِ : اصْطَبِــرْ لِشَبَــا الْقَنَــا ... فَعَقَــرْتَ رُكْــنَ الْمَجْــدِ إِنْ لَــمْ تُعْقَــرِ
وَإِذَا تَــأَمَّــلَ شَخْــصَ ضَيْــفٍ مُقْبِــلٍ ... مُتَسَــرْبِــلٍ أَثْــوَابَ عَيْــشٍ مُقْفِــرِ
أَوْمَــا إِلَــى الْكَــدْمَــاءِ هَــٰذَا طَــارِقٌ ... نَحَــرَتْنِــيَ الأَعْــدَاءُ إِنْ لَــمْ أَنْحَــرِ[5]

وذكرتُ بِهِ أَنَّ عتبَةَ بنَ ربيعَةَ التَمسَ يومَ بدرٍ بيضَةً يدخلُها في رأْسِهِ ، فلم يوجَدْ في الجَيشِ ـ معَ كثرتِهِ ـ بيضَةٌ تَسَعُ هامتَهُ مِن كِبَرِهَا ، فأَقامَ هامتَهُ مقامَ المِغْفَرِ ، واعتجَرَ[6] ببردٍ لَهُ علىٰ رأْسِهِ ، وخرجَ إِلىٰ ميدانِ المبارَزَةِ .

---

(١) **لاعِ** : متوجِّعٌ .
(٢) **الوقّافة** : المحجم عن القتال . **واليراع** : مفردها يراعة ، وهي القصبة التي يكتب بها قبل القلم .
(٣) **خوارمه** : خوارم الدهر مصائبه .
(٤) **المنبتُّ** : المقطوعُ . **الفريدُ المنظَّمُ** : العِقْدُ .
(٥) **الكَدْماءُ** : النعجةُ كثيرةُ اللحمِ .
(٦) **اعتجرَ** : لفَّ العمامةَ علىٰ رأسِهِ .

ويعجبُني قولُ الشَّريفِ الرَّضيِّ فيما يتعلَّقُ بمصعبِ بنِ الزُّبيرِ [في « ديوانه » ٢/٨٥٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَدْ حَلَّقَتْ خَوْفَ الْهَوَانِ بِمُصْعَبٍ قَوَادِمُ آبَاءٍ كِرَامِ الْمَقَادِمِ[1]

عَلَىٰ حِينَ أَعْطَوْهُ الأَمَانَ فَعَافَهُ وَخُيِّرَ فَاخْتَارَ الرَّدَىٰ غَيْرَ نَادِمِ

وقالَ يزيدُ بنُ المهلَّبِ يذمُّ بعضَ الهاربينَ : هَبُوهُ غُلبَ على المُلكِ ، فمَن غلبَهُ على الموتِ ؟ فلمَّا كانَ يومُ العقر ، وامترى الناسُ في قتلِهِ . . قالَ مسلمَةُ بنُ عبدِ الملكِ : ما كانَ واللهِ ليفرَّ يزيدُ ، فالتمَسوهُ في القَتْلىٰ ، وما كادوا يعرفُونَهُ إلاَّ بعدَ لأْيٍ مّا مِن كثرَةِ ما أَصابَهُ .

ولمَّا قيلَ لهُ : هلاَّ تَبني لَكَ قصراً . . قالَ : هو مَبْنِيٌّ ، قَالوا : أَينَهُ ؟ قالَ : إمَّا دارُ الإمارَةِ ، وإمَّا السِّجْنُ ، وإمَّا القبرُ .

فأخذَهُ أَبو فراسٍ الحمدانيُّ في قولِهِ [في « ديوانه » ١٤٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنَّا أُنَاسٌ لاَ تَوَسُّطَ عِنْدَنَا لَنَا الصَّدْرُ فِي كُلِّ الأُمُورِ أَوِ الْقَبْرُ

ويعجبُني فيهِ قولُ الرَّضيِّ [في « ديوانه » ٢/٨٥٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَهَـٰذَا يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ نَافَرَتْ بِهِ الذُّلَّ أَعْرَاقُ الْجُدُودِ الأَكَارِمِ

فَقَالَ وَقَدْ عَنَّ الْفِرَارُ أَوِ الرَّدَىٰ لَحَا اللهُ أَخْزَىٰ ذُكْرَةٍ فِي الْمَوَاسِمِ

وَمَا غَمَرَاتُ الْمَوْتِ إِلاَّ انْغِمَاسَةٌ وَلاَ ذِي الْمَنَايَا غَيْرُ تَهْوِيمِ نَائِمِ

رَأَىٰ أَنَّ ضَرْبَ السَّيْفِ أَهْوَنُ مَحْمَلاً مِنَ الْعَارِ يَبْقَىٰ وَسْمُهُ فِي الْمَخَاطِمِ[2]

فَعَافَ الدَّنَايَا وَامْتَطَى الْمَوْتَ شَامِخاً بِمَارِنِ عِزٍّ لاَ يَذِلُّ لِخَاطِمِ[3]

وللهِ قولُ بعضِهم : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلاَ بُدَّ أَنْ أَسْعَىٰ لأَشْرَفِ رُتْبَةٍ وَأَمْنَعَ عَيْنِي عَنْ لَذِيذِ مَنَامِي

وَأَقْتَحِمَ الأَمْرَ الْجَسِيمَ بِحَيْثُ أَنْ أَرَى الْمَوْتَ خَلْفِي تَارَةً وَأَمَامِي

فَإِمَّا مُقَاماً يَضْرِبُ الْمَجْدُ وَسْطَهُ سُرَادِقَهُ أَوْ بَاكِياً لِحِمَامِ

وَإِنْ أَنَا لَمْ أَبْلُغْ مَقَاماً أَرُومُهُ فَكَمْ حَسَرَاتٍ فِي نُفُوسِ كِرَامِ

وقولُ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانه » ٢/٧٤٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

سَأَحْمِلُ نَفْسِي عِنْدَ كُلِّ مُلِمَّةٍ عَلَىٰ مِثْلِ حَدِّ السَّيْفِ أَخْلَصَهُ الْهِنْدُ

فَإِنْ عِشْتُ مَحْمُوداً فَمِثْلِي بَغَى الْغِنَىٰ لِيَكْسِبَ مَالاً أَوْ يَنُثَّ لَهُ حَمْدُ[4]

وَإِنْ مِتُّ لَمْ أَظْفَرْ فَلَيْسَ عَلَى امْرِىءٍ غَدَا طَالِباً إِلاَّ تَقَصِّيهِ وَالْجُهْدُ

---

(١) المقادم : جمعُ مَقْدَم ، وهوَ مصدرُ (قَدِمَ) .

(٢) المَخاطِمُ : الأنوفُ .

(٣) المارنُ : ما لانَ مِنَ الأنفِ . الخاطِمُ : القائدُ .

(٤) النثُّ : نشرُ الحديثِ .

وقد سبقَ في غيرِ هَـٰذَا المجلِسِ ذكرُ هدبةَ بنِ الخشرَمِ ، وأَنَّهُ قالَ للسجَّانِ ـ لَمَّا جاءَ يؤْذِنُهُ بعزمِهم علىٰ قتْلِهِ ـ : رويدَكَ حَتَّىٰ أُتِمَّ لُعبَتِي ، وكانَ يلعَبُ الشطرَنجَ ، فما انزعَجَ ، ولاَ اندهَشَ ، ولاَ تغيَّرَ .

وكانَ من حديثِهِ : أَنَّهُ قتلَ زيادَةَ بنَ زيدٍ العذريَّ ؛ لأَنَّهُ شبَّبَ بأُختِهِ فاطمةَ ، وقالَ : [مِنَ الرجز]

عُـوجِـي عَلَيْنَـا وَارْبَعِـي يَـا فَـاطِمَـا ... أَمَـا تَـرَيْـنَ الـدَّمْـعَ مِنِّـي سَـاجِمَـا

فرُفِعَ إِلىٰ سعيدِ بنِ العاصِ ، وكانَ أميرَ (المدينَةِ) ، وكانَ الذي رفعَهُ عبدُ الرحمـٰنِ أَخو زيادَةَ ، فكرِهَ الحُكمَ في القضيَّةِ سعيدٌ ، وأرسلَهُما إِلىٰ معاويَةَ ، فلمَّا صارا بينَ يديهِ . . قالَ عبدُ الرحمـٰنِ : يا أَميرَ المؤمنينَ ، أَشكو إِليكَ مظْلَمَتي ، وقتلَ أَخي ، فقالَ معاويَةُ : قلْ يا هدبَةُ ، قالَ : إِنْ شئْتَ أَنْ أَقُصَّ عَلَيْكَ كلاماً ، أَو شعراً ؟ قالَ : لاَ ، بَلْ شِعراً ، فقالَ [في « ديوانه » ٩٥ـ٩٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ يَـا لَقَـوْمِـي لِلنَّـوائِـبِ وَالـدَّهْـرِ ... وَلِلْمَـرْءُ يُـرْدِي نَفْسَـهُ وَهْـوَ لاَ يَـدْرِي
وَلِـلأَرْضِ كَـمْ مِـنْ صَـالِـحٍ قَـدْ تَـلاَءَمَـتْ ... عَلَيْـــهِ وَوَارَتْـــهُ بِلَمَّـــاعَـــةٍ قَفْـــرِ
فَـــلا ذَا جَـــلاَلٍ هِبْنَـــهُ لِجَـــلاَلِـــهِ ... وَلاَ ذَا ضَيَـــاعٍ هُـــنَّ يُتْـــرَكْـــنَ لِلْفَقْـــرِ(١)

إِلىٰ أَنْ قالَ [في « ديوانه » ٩٧ـ٩٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلَمَّـــا رَأَيْـــتُ أَنَّمَـــا هِـــيَ ضَـــرْبَـــةٌ ... مِـنَ السَّيْـفِ أَوْ إِغْضَـاءُ عَيْـنٍ عَلَـىٰ وِتْـرِ
عَمَـــدْتُ لأَمْـــرٍ لاَ يُعَيِّـــرُ وَالِـــدِي ... خِـــزَايَتُـــهُ حَيّـــاً وَلاَ وَهْـــوَ فِـــي الْقَبْـــرِ
رُمِينَـــا فَـــرَامَيْنَـــا فَصَـــادَفَ سَهْمُنَـــا ... مَنِيَّـــةَ نَفْـــسٍ فِـــي كِتَـــابٍ عَلَـــىٰ قَـــدْرِ
وَأَنْـــتَ أَمِيـــرُ الْمُـــؤْمِنِيْـــنَ فَمَـــا لَنَـــا ... وَرَاءَكَ مِـــنْ مَعْـــدٍ وَلاَ عَنْـــكَ مِـــنْ قَصْـــرِ(٢)
فَـــإِنْ تَـــكُ فِـــي أَمْـــوَالِنَـــا لَـــمْ تَضِـــقْ بِهَـــا ... ذِرَاعـــاً وَإِنْ صَبْـــرٌ فَنَصْبِـــرُ لِلصَّبْـــرِ

فقالَ لهُ معاويَةُ : أَراكَ قد أَقرَرْتَ يا هدبَةُ ، فقالَ عبدُ الرحمـٰنِ : أَقِدْني ، فكرِهَ ذلِكَ معاويَةُ ، وضنَّ بهدبَةَ عنِ القتلِ ، وقالَ : أَلِزيادَةَ وَلدٌ ؟ قالَ : نعم ، قالَ : أَصغيرٌ أَم كبيرٌ ؟ قالَ : بَل صغيرٌ ، قالَ : يحبسُ هدبَةُ إِلىٰ أَن يبلغَ ابنُ زيادَةَ ، فأَرسلَهُ إِلى (المدينَةِ) . . فحُبِسَ بها سبعَ سنينَ ، فلمَّا بلغَ ابنُ زيادَةَ . . عُرِضَ عليهِ عشرُ دِياتٍ ، فكادَ أَنْ يرضىٰ ، فقالَتْ أُمُّهُ : أُعطِي اللهَ عهداً ، لئِنْ لم تقتلْهُ . . لأَتزوجنَّهُ ، فيكونُ قد قتلَ أَباكَ ، ونكحَ أُمَّكَ ، وكانَ مِمَّن عرضَ عليهِ الدياتِ : الحسينُ بنُ عليٍّ ، وعبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ ، وعبَيدُ اللهِ بنُ العبَّاسِ ، وسعيدُ بنُ العاصِ ، ومروانُ بنُ الحكَمِ ، وغيرُهم ، ولمَّا ذُهِبَ بهِ إِلى (الحرَّةِ) ليُقتلَ . . لقيَهُ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ حسَّانَ ، فقالَ لهُ : أَنشدْني ، فقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَسْـــتُ بِمِفْـــرَاحٍ إِذا الـــدَّهْـــرُ سَـــرَّنِـــي ... وَلاَ جَـــازِعٍ مِـــنْ صَـــرْفِـــهِ الْمُتَقَلِّـــبِ
وَلاَ أَتَمَنَّـــى الشَّـــرَّ وَالشَّـــرُّ تَـــارِكِـــي ... وَلَكِـــنْ مَتَـــىٰ أُحْمَـــلْ عَلَـــى الشَّـــرِّ أَرْكَـــبِ

---

(١) الضياعُ : العيالُ ، وهو في الأصلِ : مصدرُ ضاعَ الشيءُ ، فسمَّاهم بهِ .

(٢) من مَعْدٍ : من متجاوَزٍ إِلىٰ غيرِكَ .



وقالَ [الأبياتُ لأَبي الطمحانِ القينيِّ كما في « ديوان الحماسة » ٢/ ٨٣] : [من الطويل]

أَلاَ عَلِّلاَنِي قَبْلَ نَوْحِ النَّوَائِحِ وَقَبْلَ ارْتِقَاءِ النَّفْسِ فَوْقَ الْجَوانِحِ
وَقَبْلَ غَدٍ يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَىٰ غَدٍ إِذَا رَاحَ أَصْحَابِي وَلَسْتُ بِرَائِحِ
إِذَا رَاحَ أَصْحَابِي تَفِيضُ عُيُونُهُمْ وَغُودِرْتُ فِي لَحْدٍ ثَقِيلِ الصَّفَائِحِ
يَقُولُونَ هَلْ أَصْلَحْتُمُ لأَخِيكُمُ ؟ وَمَا الْقَبْرُ فِي الأَرْضِ الْفَضَاءِ بِصَالِحِ

ونظرَ إلى امرأَتِهِ وهيَ تَبْكي . . فقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَقِلِّي عَلَيَّ اللَّوْمَ يَا أُمَّ بَوْزَعَا وَلاَ تَجْزَعِي مِمَّا أَصَابَ فَأَوْجَعَا
وَلاَ تَنْكِحِي إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا أَغَمَّ الْقَفَا وَالرَّأْسِ لَيْسَ بِأَنْزَعَا[(١)]

فسأَلَتِ القومَ أَنْ يمهلوهُ ، ثُمَّ أَتَتْ جزَّاراً ، فأَخذَتْ منهُ مُديَةً ، فجدعَتْ أَنفها ، ثُمَّ أَتَتْهُ مجدوعَةَ الأَنفِ ، وقالَتْ : أَهٰذَا فعلُ مَن لها حاجةٌ بالرِّجالِ ؟ قالَ : أَمَّا الآنَ . . فقد طابَ الموتُ ، والتفتَ إِلىٰ أَبويهِ وهُما يبكيانِ ، فقالَ : [مِنَ الرَّمَلِ]

أَبْلِيَانِي الْيَوْمَ صَبْراً مِنْكُمَا إِنَّ حُزْنَاً مِنْكُمَا الْيَوْمَ لَشَرّ
مَا أَظُنُّ الْمَوْتَ إِلاَّ هَيِّناً إِنَّ بَعْدَ الْمَوْتِ دَارَ الْمُسْتَقَرّ

ثُمَّ قالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَذَا الْعَرْشِ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مُؤْمِنٌ مُقِرٌّ بِزَلاَّتِي إِلَيْكَ فَقِيرُ
وَإِنِّي وَإِنْ قَالُوا : أَمِيرٌ مُسَلَّطٌ وَحَجَّابُ أَبْوَابٍ لَهُنَّ صَرِيرُ[(٢)]
لأَعْلَمُ أَنَّ الأَمْرَ أَمْرُكَ إِنْ تُدِنْ فَعَدْلٌ وَإِنْ تَغْفِرْ فَأَنْتَ غَفُورُ

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلى ابنِ زيادَةَ وقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَإِنْ تَقْتُلُونِي فِي الْحَدِيدِ فَإِنَّنِي قَتَلْتُ أَبَاكُمْ مُطْلَقاً لَمْ يُقَيَّدِ

ثُمَّ ضُربَتْ عنقُهُ ، وكانَ أَرسَلَ إِلىٰ أُمِّ سلمَةَ ـ زوجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ـ أَن تستغفِرَ لهُ ، فلمَّا قُتلَ . . استغفرَتْ لهُ .

وكانَتْ دِرْعُ عليِّ ابنِ أَبي طالبٍ صدراً لاَ ظهْرَ لَها ، فقيلَ لَهُ : أَمَا تخافُ أَنْ تُؤْتَىٰ مِنْ قِبَلِ ظهرِكَ ؟ قالَ : إِذا أَمكنْتُ عدوِّي مِن ظَهري . . فَلا أَبقى اللهُ عليَّ ، فهو الأَحقُّ ، بقولِ الحُصينِ بنِ الحُمامِ [في « ديوان الحماسة » ١/ ٦١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَسْنَا عَلَى الأَعْقَابِ تَدْمَىٰ كُلُومُنَا وَلَكِنْ عَلَىٰ أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدِّمَا

وقالَ البُحتريُّ أَو الببَّغا [الببغا في « قرى الضيف » ١/ ٣٢٧] : [مِنَ البسيطِ]

يَلْقَى الرِّمَاحَ بِصَدْرٍ مِنْهُ لَيْسَ لَهُ ظَهْرٌ وَهَادِي جَوَادٍ مَا لَهُ كَفَلُ

---

(١) أغمّ القفا ـ من الغمّ ـ : وهو سيلانُ الشعرِ للجبهةِ . الأنزعُ : هوَ الذي انحسَر شعره عَن جانبَيْ جبهتِهِ وموضعِهِ .

(٢) الصَّريرُ : صوتُ البابِ ، وهوَ كنايةٌ عنِ البخلِ ؛ لأَنَّ البابَ الذي لا يُفتَحُ إِلاَّ بينَ الحينِ والآخرِ يكونُ لهُ هٰذا الصريرُ ، أَمَّا الكريمُ . . فلا صوتَ لبابِهِ .

وقالَ العلويُّ : [مِنَ الطَّويلِ]

مُحَـرَّمَـةٌ أَكْفَـالُ خَيْلِـي عَلَـى الْقَنَـا ... وَتَنْـدَقُّ مِنْـهُ فِـي الصُّـدُورِ صُـدُورُهَـا

وأَخذَهُ الناظمُ فقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٧١] : [مِنَ الطَّويلِ]

مُحَـرَّمَـةٌ أَكْفَـالُ خَيْلِـي عَلَـى الْقَنَـا ... مُحَلَّلَــةٌ لَبَّــاتُهَــا وَالْقَــلائِــدُ

وقالَ [في « العُكبريِّ » ١/١٥٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

رَمَـوْا بِنَـواصِيهَـا الْقِسِـيَّ فَجِئْنَهَـا ... دَوَامِـي الْهَـوَادِي سَـالِمَـاتِ الْجَـوَانِـبِ[١]

[جحدر بن مالك وأسد الحجاج ورباطة جأشه]

و[ذكر ابن كثير في « البداية والنهاية » ٩/ ١٢٥ أنه] : كانَ جَحدَرُ بنُ مالِكٍ فتَّاكاً شجاعاً ، فأَغارَ علىٰ أَهلِ (حجرٍ) وناحيتِها ، فبلغَ ذٰلِكَ الحجَّاجَ ، فكتبَ إلىٰ عامِلِهِ باليمامَةِ يوبِّخُهُ بتلاعُبِ جحدرٍ عليهِ ، ويأْمرُهُ بالاجتهادِ في طلبهِ ، فلمَّا وصَلَ إليهِ الكتابُ . . أَرسلَ إلىٰ فتيَةٍ مِن بني يربوع ، وجعلَ لَهم جُعْلاً عظيماً . . إنْ هُم قَدروا عليهِ ، فأَرسلوا إليهِ يُظهرونَ أَنَّهم خارجونَ لاحقونَ بهِ ، فاطمأَنَّ إليهم ، وَوَثِقَ بِهم ، فلمَّا أَصابوا منهُ غِرَّةً . . شدُّوه كِتافاً ، وقدِموا بهِ على العامِلِ ، فوجَّهَ بهِ معهم إلى الحجَّاجِ ، فلمَّا أُدخِلَ عليهِ . . قالَ لهُ : مَن أَنتَ ؟ قالَ : جَحدَرُ بنُ مالِكٍ ، قالَ : ما حملَكَ علىٰ ما كانَ مِنْكَ ؟ قالَ : جفاءُ السُّلطانِ ، وجرأَةُ الجَنَانِ ، وكَلَبُ الزمانِ ، قالَ : وما بلغَ من جرأَتِكَ ؟ قالَ : لو بَلاني الأَميرُ . . لَوَجدَني مِن صالِحي الأَعْوانِ ، قالَ لَهُ : فإنَّا قاذفونَ بكَ في حائرٍ فيهِ أَسَدٌ ضارٍ عاقِرٌ ، فإن هُوَ قتلَكَ . . فقد كفانا مؤُونتَكَ ، وإنْ أَنتَ قتلتَهُ . . خلَّينا سبيلَكَ ، قالَ : لقد عظُمَتِ المنَّةُ ، وقوِيتِ المحنةُ ، وأَرسلَ وهُوَ في محنتِهِ إلى (اليمَنِ) بقصيدتِهِ النونيَّةِ المشهورةِ ، التي يقولُ فيها ـ كما سبقَ ـ : [مِنَ الوافرِ]

أَلَيْـسَ اللَّيْـلُ يَجْمَـعُ أُمَّ عَمْـرٍو ... وَإِيَّـانَـا فَـذَاكَ لَنَـا تَـدَانِـي

ثُمَّ إنَّ الحجَّاجَ أَجاعَ الأَسدَ أَيَّاماً ، وأَرسلَ إلىٰ جَحدَرٍ ، فأُتِيَ بهِ مِن السجْنِ ، ويدُهُ اليمنىٰ مغلولَةٌ إلىٰ عنقِهِ ، وأُعطِيَ سيفاً ، وقُذِفَ بهِ إلىٰ حائرِ الأَسَدِ[٢] ، والحجَّاجُ وجلساؤُهُ في منظرةٍ لَهم تشرفُ عليهِ ، فلمَّا نظرَ جَحدَرٌ إلى الأَسَدَ . . قالَ : [مِنَ الرجَزِ]

لَيْـثٌ وَلَيْـثٌ فِـي مَجَـالٍ ضَنْـكِ ... كِــلاَهُمَــا ذُو شِـدَّةٍ وَمَحْـكِ[٣]

وَقُــوَّةٍ فِــي نَفْسِــهِ وَفَتْــكِ ... إِنْ يَكْشِــفِ اللهُ قِنَــاعَ الشَّــكِّ

فَهُوَ أَحقُّ مَنْزِلٍ بِتَرْكِ

فلمَّا نَظَرَ إليهِ الأَسدُ . . زأَرَ زأْرَةً شديدةً ، وتمطَّىٰ ، وأَقبلَ عليهِ حَتَّىٰ صارَ علىٰ قيدِ الرُّمْحِ ، فوثَبَ وثبَةً هائِلَةً ، تلقَّاها جَحدَرٌ بالسيفِ ، فضربَهُ حَتَّىٰ خالَطَ ذُبابُ السيفِ لَهواتِهِ ، فخرَّ الأَسدُ كأَنَّهُ فُسطَاطٌ تردَّىٰ بالريحِ ، وسقطَ جَحدَرٌ علىٰ

---

(١) **القسيُّ** : جمع قوس . **الهواديُّ** : الأعناقُ . **النواصي** : جمع ناصيةٍ ، وهو مقدَّم شعرِ الرأسِ ، ونواصي الناس : أشرافهم .

(٢) **الحائرُ** : الحوضُ الذي يُسيَّبُ إليهِ مسيلُ الماءِ .

(٣) **المحكُ** : التمادي في اللجاجةِ عند المساومةِ والغضبِ .

قفاهُ من شدَّةِ وثبَةِ الأَسَدِ ، وثِقَلِ الكُبولِ ، فكبَّرَ الحجَّاجُ والناسُ أَجمعونَ ، وأَطلَقَ جحدَراً ، وأَحسنَ جائِزتَهُ ، وخلَّىٰ سبيلهُ .

وقيلَ : إِنَّهُ اصطفاهُ ، وجعلَهُ مِن سُمَّارِهِ ، ثُمَّ لم يلبثْ أَنْ ولاَّهُ (اليمامَةَ) .

ونظرَ بعضُهم إِلى المهلَّبِ بنِ أَبي صُفرةَ راكِباً في أَبنائِهِ ، وكلُّهم فارسٌ ، فقالَ : آنسَ اللهُ الإِسلامَ بتلاحقِكُم ، أَشهدُ باللهِ لئِنْ لَمْ يَكُنْ هـٰؤُلاءِ أَسباطَ نُبُوَّةٍ . . فإِنَّهُم أَسباطُ حربٍ ، وماتَ المهلَّبُ بعدَ تعرُّضِهِ للحتوفِ علىٰ فراشِهِ ، وكذلِكَ كانَتْ وفاةُ ابنِهِ المغيرةِ ، وهُوَ الذي يقولُ فيهِ زيادٌ الأَعجمُ [في « ديوانه » ٨٩] : [مِنَ الكامل]

مَـاتَ الْمُغِيـرَةُ بَعْـدَ طُـولِ تَعَـرُّضٍ ... لِلْقَتْـلِ بَيْـنَ أَسِنَّـةٍ وَصَفَـائِـحِ

وأَمَّا يزيدُ . . فقد سبقَ أَنَّهُ قُتِلَ ، وكانَ قتلُهُ في جماعَةٍ مِن أَهلِهِ يومَ العَقرِ ؟ ولهـٰذا كانَ يقالُ [كما في « وفيات الأعيان » ٣٠٨/٦] : ضَحَّىٰ بَنو أُميَّةَ بالدِّينِ يومَ كَرْبَلاءَ ، وبالشجاعَةِ يومَ العَقْرِ ، وقُتِلَ تسعةٌ مِنهم في واقعَةِ قندابيل ، وقُتلَ باقيهِمْ صبراً بـ (الشام) ، وما أَحسنَ ما قالَهُ كعبٌ الأَشقريُّ في المهلَّبِ وبنيهِ [كما في « الأغاني » ٢٧٨/١٤] : [مِنَ الوافرِ]

بَـرَاكَ اللهُ حِيـنَ بَـرَاكَ بَحْـراً ... وَفَجَّـرَ مِنْـكَ أَنْهَـاراً غِـزَارَا

بَنُـوكَ السَّـابِقُـونَ إِلَـى الْمَعَـالِـي ... إِذَا مَـا أَعْظَـمَ النَّـاسُ الْخِطَـارَا

كَـأَنَّهُـمُ نُجُـومٌ حَـوْلَ بَـدْرٍ ... تَكَمَّـلَ إِذْ تَكَمَّـلَ فَـاسْتَـدَارَا

مُلُـوكٌ يَنْـزِلُـونَ بِكُـلِّ ثَغْـرٍ ... إِذَا مَـا الهَـامُ يَـوْمَ الـرَّوْعِ طَـارَا

رِزَانٌ فِـي الْخُطُـوبِ تَـرَىٰ عَلَيْهِـمْ ... مِـنَ الشَّيْـخِ الشَّمَـائِـلَ وَالْـوَقَـارَا

نُجُـومٌ يُهْتَـدَىٰ بِهِـمُ إِذَا مَـا ... أَخُـو الْغَمَـرَاتِ فِـي الظُّلُمَـاتِ حَـارَا

ونظرَ عبدُ اللهِ بنُ عليِّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ العبَّاسِ [كما في « الأغاني » ٣٣٨/٤] : إِلىٰ فتىً عليهِ أُبَّهَةُ الشرفِ ، يحاربُ مستقتلاً ، فناداهُ : يا فتىٰ ، لَكَ الأَمانُ ولَو كُنتَ مروانَ بنَ محمَّدٍ ، فقالَ : إِلاَّ أَكُنْهُ . . فلستُ بدونِهِ ، فقالَ لَهُ : لكَ الأَمانُ كائِناً مَن كُنتَ ، فأَطرقَ ثُمَّ أَنشدَ : [مِنَ المتقاربِ]

أَذُلُّ الْحَيَـاةِ وَكُـرْهُ الْمَمَـاتْ ؟! ... وَكُـلاًّ أَرَاهُ طَعَـامـاً وَبِيـلاَ[1]

وَإِنْ لَـمْ يَكُـنْ غَيْـرُ إِحْـدَاهُمَـا ... فَسَيْـراً إِلَـى الْمَـوْتِ سَيْـراً جَمِيـلاَ

ثُمَّ لمْ يزَلْ يقاتِلُ حَتَّىٰ قتِلَ ، فإِذا هُوَ ابنُ مسلمَةَ بنِ عبدِ الملِكِ .

[متىٰ يكون الإقدام نافعاً ؟]

ثُمَّ إِنَّ الإِقدامَ ليسَ بمحمودٍ إِلاَّ حيثُ كانَ نافعاً ، وإِلاَّ كانَ مِن التهوُّرِ المذمومِ ، وقد سبقَ رأْيُ معاويَةَ حينَما سأَلَهُ ابنُ العاصِ عَن حالِهِ في قولِهِ [في « ديوانه » ١٣٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

شُجَـاعٌ إِذَا مَـا أَمْكَنَتْنِـيَ فُـرْصَـةٌ ... فَـإِنْ لَـمْ تَكُـنْ لِـي فُـرْصَـةٌ فَجَبَـانُ

وقالَ بعضُهم : جِسمُ الحربِ الشجاعَةُ ، وقلبُها التدْبيرُ ، ولسانُها المكيدَةُ ، وجناحُها الانقيادُ للقائِدِ ، ورائِدُها الرِّفقُ ، وسائِقُها النصرُ .

---

(١) وبيلٌ : ثقيلٌ وَخِمٌ .



وقالَ الناظمُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١٧٤_١٧٥] : [مِنَ الكامِلِ]

الـرَّأْيُ قَبْـلَ شَجَـاعَـةِ الشُّجْعَـانِ ... هُـوَ أَوَّلٌ وَهِـيَ الْمَحَـلُّ الثَّـانِـي
فَـإِذَا هُمَـا اجْتَمَعَـا لِنَفْـسٍ مَـرَّةً ... بَلَغَـتْ مِـنَ الْعَلْيَـاءِ كُـلَّ مَكَـانِ
وَلَـرُبَّمَـا طَعَـنَ الْفَتَـىٰ أَقْـرَانَـهُ ... بِـالـرَّأْيِ قَبْـلَ تَطَـاعُـنِ الأَقْـرَانِ
لَـوْلاَ الْعُقُـولُ لَكَـانَ أَدْنَـىٰ ضَيْغَـمٍ ... أَدْنَـىٰ إِلَـىٰ شَـرَفٍ مِـنَ الإِنْسَـانِ[1]
وَلَمَـا تَفَـاضَلَـتِ النُّفُـوسُ وَدَبَّـرَتْ ... أَيْـدِي الْكُمَـاةِ عَـوَالِـيَ الْمُـرَّانِ[2]

وقد مرَّ في المجلسِ السادسِ بعضُ ما يناسِبُ البيتَ الذي نتكلَّمُ فيهِ ، مِمَّا تتمادَحُ بهِ العربُ مِن الْمَوتِ تحتَ بارقَةِ السيوفِ ، وذلِكَ في الكَلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٣٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنْ لاَ تَمُـتْ تَحْـتَ السُّيُـوفِ مُكَـرَّمـاً ... تَمُـتْ وَتُقَـاسِـي الـذُّلَّ غَيْـرَ مُكَـرَّمِ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٢٢] : [مِنَ الخفيفِ]

فَـاطْلُـبِ الْعِـزَّ فِـي لَظَـىٰ وَدَعِ الـذُّ ... لَّ وَلَـو كَـانَ فِـي جِنَـانِ الْخُلُـودِ

[شرح المطلع]

(لَظَىٰ) : مِن أَسماءِ جهنَّمَ ، نسأَلُ اللهَ منها السلامَةَ ، والبيتُ من قولِ عنترَةَ [في « ديوانه » ١٧٨] : [مِنَ الكامِلِ]

مَـاءُ الْحَيَـاةِ بِـذِلَّـةٍ كَجَهَنَّـمٍ ... وَجَهَنَّـمٌ بِـالْعِـزِّ أَطْيَـبُ مَنْـزِلِ

[لا يجوز تحقير ما عظَّم اللهُ]

وفيهِ تَصغيرٌ لِمَا عظَّمَ اللهُ مِن أَمرِها ، فقد قالَ جلَّ شأْنُهُ : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٥] ، وقالَ : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٤١] .

ويُعجبُنِي قولُ ابنِ حجرٍ الهيتميِّ في « زواجرِهِ » : ولمَّا بَعُدَ عَنِ الْعِلمِ أَقوامٌ . . لاحظوا أَعمالَهم ، واتفقَ لِبعضِهم مِن الأَلطافِ ما يشبِهُ الكَراماتِ ، فانبَسَطوا في الدعاوَىٰ ، وخالَفوا سيرةَ السلفِ في الابتعاد عَنْها ، حَتَّىٰ نُقِلَ عَن بعضِهم أَنَّهُ قالَ : وَدِدْتُ أَنَّ القيامَةَ قَدْ قامَتْ ؛ حَتَّىٰ أَنصبَ خيمَتِي علىٰ جهنَّمَ ، فقالَ لَهُ رجلٌ : ولِمَ ذلِكَ ؟ قالَ : إِنِّي أَعلَمُ أَنَّ جهنَّمَ إِذا رأَتْني تخمُدُ ، فأَكونُ رحمةً للخلقِ ، وهَـٰذا من أَقبحِ الكلامِ وأَفحشِهِ ؛ لأَنَّهُ يتضمَّنُ تحقيرَ ما عظَّمَ اللهُ شأْنَهُ مِن أَمرِ النَّارِ ، فإِنَّهُ تعالىٰ بالَغَ في وصفِها فقالَ : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة : ٢٤] وقال : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [الفرقان : ١٢] .

وفي الحَديثِ الصحيحِ عندَ مُسْلِمٍ [٢٨٤٣] وغيرِهِ [الترمذي (٢٥٨٩) بلفظ : « جزءٌ واحدٌ »] : « نَارُكُمْ هَـٰذِهِ الَّتِي تُوقِدُونَ ،

---

(١) الضيغمُ : السبعُ .

(٢) المرَّان : القنا اللينة .

جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ جَهَنَّمَ » قَالُوا : وَاللهِ إِنْ كَانَتْ نَارُنَا لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللهِ ، قالَ : « فَإِنَّهَا فَضُلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءاً ، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا » .

وفي « الصحيحِ » [عند « مسلم » ٢٨٤٢] أيضاً : « يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا » .

ثُمَّ إِنَّ ما جاءَ عَنْ النَّاظِمِ ، وَعَن عنترةَ العبسيِّ في بَيْتَيْهِما ـ كَما قد أَشَرْنا إِليهِ قُبيلَ الكلامِ ـ عَلَىٰ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣٤/٤] :

فَثِبْ ـ وَاثِقاً بِاللهِ ـ وِثْبَةَ مَاجِدٍ يَرَى الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فِي الْفَمِ

.. كلامُ مَن لَم يعرفْ مِنْ الإسلامِ سرَّهُ ، وإلاَّ . . فإنَّهُ لا عِزَّ إلاَّ فيهِ ، ولاَ شرفَ إلاَّ بهِ ، فهوَ سنامُ المَجْدِ ، ومعراجُ السعْدِ ، وقد قالَ عمرُ ـ رضي الله عنه ـ لِلعَربِ : أَلم تكونوا أَذَلَّ الناسِ ، وأَحقرَ الناسِ ، وأَفقرَ الناسِ . . فأعزَّكُم اللهُ ، ورفعَكُمْ ، وأَغناكُمْ بالإسلام ؟ فإذا طلَبْتُم ذلكَ بغيرِهِ . . ذَلَلْتُمْ ، وهُوَ مِن قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال : ٢٦] ، ومنهُ تَعرفُ أَنَّ النَّاظِمَ لا يعشقُ إلاَّ مظاهِرَ الزِّينةِ الكاذِبَةِ ، ولا يرغَبُ إلاَّ في عزِّ الباطِلِ المموَّهِ .

[المجد المموَّه المزعوم]

نظيرَ ذلِكَ المغرورِ الَّذي سمعَ واعظاً يقولُ : من تركَ الصلاةَ متعمِّداً . . كانَ في النَّارِ مع فِرعونَ وهامانَ وأُبيِّ بنِ خلَفٍ ، فقالَ : ومَن لَنا بمجالَسَةِ هـٰؤُلاءِ الملوكِ ، ومجاورَتِهم في دارٍ واحدَةٍ .

ويُحكىٰ [في « الأغاني » ٢٦٧/١١] : أَنَّ بعضَ المجوسِ أَعانَ الأُقَيْشِرَ ـ الشاعرَ ـ علىٰ مَؤُونَةِ نِكاحِهِ ، فقالَ [في « ديوانه » ١١٦ـ١١٧] : [مِنَ المتقارب]

كَفَانِي الْمَجُوسِيُّ مَهْرَ الرَّبَابْ فِداً لِلْمَجُوسِيِّ خَالٌ وَعَمّ
شَهِدْتُ عَلَيْكَ بِطِيبِ الأُرُومْ وَأَنَّكَ بَحْرٌ جَوَادٌ خِضَمّ
وَأَنَّكَ سَيِّدُ أَهْلِ الْجَحِيمْ إِذَا مَا تَرَدَّيْتَ فِيمَنْ ظَلَمْ
تُجَاوِرُ هَامَانَ فِي قَعْرِهَا وَفِرْعَوْنَ وَالْمُكْتَنَىٰ بِالْحَكَمْ

فقالَ لَهُ : منعَكَ قومُكَ ، وأَعطيتُكَ ، ثُمَّ تجعلُني في الجحيمِ ؟! قالَ لَهُ : أَمَا ترضَىٰ أَنْ جعلتُكَ مِن أَصحابِ المُلوكِ والرؤَساءِ .

[لم ولن ولا يكون العز إلا في الإسلام والشواهد علىٰ ذلك]

فالعزُّ الذي يتوهَّمُهُ أبو الطيِّبِ . . ليسَ إلاَّ مِن جنسِ ما دعا بهِ الأُقَيْشِرُ للمجوسيِّ ، ورَغِبَ فيهِ المائقُ قبلَهُ ، وإلاَّ فالعزُّ كلُّهُ ليسَ إلاَّ فِي الإسلامِ ، الذي رفعَ السُّوقَةَ إلى المُلوكِ ، وقايَسَ الغنيَّ بالصعْلوكِ ، وأَجرىٰ كلَّ إِنسانٍ في حرِّيَّتِهِ مِلْءَ رسنِهِ ، لا يُشرَطُ عليه إلاَّ تسمُّتُ الأنظمَةِ العادلَةِ ، ومراعاةُ القوانينِ الصالحَةِ ، التي تسوِّغُ لأدنى الناسِ منزلةً أَنْ يطلُبَ حقَّهُ من أَعظمِهم قدراً ، وإِنَّ في خبرِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ معَ سوادِ بن غزيَّةَ ـ يومَ بدرٍ[1] ـ ومعَ عُكَّاشَةَ بنِ

---

(١) وكانَ مِن خَبرِ سيِّدِنا سَوادِ بنِ غَزيَّةَ ـ رضيَ اللهُ عنهُ ـ كما رواهُ ابنُ هشامٍ (٦٢٦/٢) : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ عَدَّلَ صفوفَ أَصحابهِ يومَ بدرٍ ، =



مِحْصَنٍ قبيلَ موتِهِ . . لَمَا يَمْلأُ الأُنوفَ شَمَماً ، ويأْخُذُ بأَعنَّتِها إِلىٰ عنانِ السماءِ ؛ إِذ يجعلُ كلَّ إِنسانٍ ملكاً في نفسهِ ، لا سلطانَ فوقَهُ إِلاَّ للعدْلِ ـ يحرسُهُ حُماتُهُ من خدَّامِ الأُمَّةِ كما قرَّرْنَا ـ وإِلاَّ للهِ الذي لا عزَّ إِلاَّ فِي الذُّلِّ لَه ، ولا غنىً إِلاَّ في الفقرِ إِليهِ .

وللهِ درُّ القائِلِ : [مِنَ الكاملِ]

وَإِذَا الـرِّجَـالُ تَـذَلَّلَـتْ بِـرِقَـابِهَـا طَمَعـاً إِلَيْـكَ فَعِـزُّهَـا فِـي ذُلِّهَـا

ودَرُّ أَبي عُبادَةَ ـ لو أَرادَ ربَّهُ ـ في قولِهِ [في « ديوانه » ٢/٨٤٧] : [من الطويل]

وَيُعْجِبُنِـي فَقْـرِي إِلَيْـكَ وَلَـمْ يَكُـنْ لِيُعْجِبَنِـي لَـوْلاَ مَحَبَّتُـكَ الْفَقْـرُ

وقولُ تقيِّ الدينِ ابن تيميَّةَ : [من البسيط]

فَـالْفَقْـرُ لِـي وَصْـفُ ذَاتٍ لاَزِمٌ أَبَـداً كَمَـا الْغِنَـىٰ لَـكَ وَصْـفٌ لاَزِمٌ ذَاتِـي

ويُروىٰ [كما في « نفح الطِّيبِ » ١/٢٤] : أَنَّ منذِرَ بنَ سعيدٍ البلوطيَّ ـ وَاعِظَ (الأَندلُسِ) ـ قامَ خطيباً في الناسِ يومَ الاستسقاءِ ، وقالَ : يا أَيُّها الناسُ ، وأَخذَ يكرِّرُها ، حَتَّىٰ ظَنَّ بعضُهم أَنَّهُ أُرتجَ عليهِ ، وما هِيَ لَهُ بعادَةٍ ؛ إِذْ قلَّمَا قامَ إِلاَّ تفتَّحَ عَنْ ثجٍّ[1] بَحْرٍ زاخرٍ ، وفي الثالثةِ أَوْ الرَّابعةِ قالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [فاطر : ١٥ـ١٧] ، ثُمَّ اندفعَ في مضمارِهِ كالماءِ يجري في انْحدارِهِ ، فلا تسلْ عمَّا سالَ مِنَ الْعبَراتِ ، وارتفعَ مِنَ الزَّفَراتِ ، وحريٌّ بذلِكَ ، والمُلكُ عظيمٌ ، والمالِكُ حكيمٌ ، والرجْعُ إِليهِ لازِمٌ ، وهوَ بالخفيَّاتِ عالِمٌ .

وما أَحسنَ ما كانَ يَدْعو بهِ أَبو المظفَّرِ السَّمعانيُّ من قولِهِ : اللَّهُمَّ اجعل قلوبَنا خزائِنَ توحيدِكَ ، وأَلسنتَنا مفاتيحَ تمجيدِكَ ، وجوارِحَنا خدَمَ طاعتِكَ ، فإِنَّهُ لا عزَّ إِلاَّ في الذُّلِّ لَكَ ، ولا غنىٰ إِلاَّ في الفقرِ إِليكَ ، ولا أَمْنَ إِلاَّ في الخوفِ منكَ ، ولا قرارَ إِلاَّ في القَلَقِ نحوَكَ ، ولا رُوحَ إِلاَّ في النظرِ إِلىٰ وجهِكَ ، ولا راحَةَ إِلاَّ في الرضا بِقَسْمِكَ ، ولا عيشَ إِلاَّ في جوارِ المقرَّبينَ عندَكَ .

وبمناسبَةِ ما أَشرنا إِليهِ من عزِّ التقوىٰ ، وارتفاعِ التمايُزِ بينَ الناسِ إِلاَّ بهِ . . نذكرُ قولَ ابنِ الخطَّابِ لعامِلِهِ بـ(مصرَ) : متى استعبدتُمُ النَّاسَ ، وقد ولدتْهُم أُمَّهاتهم أَحراراً ؟

وحديثَهُ مع جبلَةَ بنِ الأَيهمِ : فقد عزمَ أَنْ يُقِيدَ الفَزاريَّ منهُ في لطمةٍ لطمهُ إِيَّاها ، فقالَ : أَتُقِيدُهُ مِنِّي ، وأَنا مَلِكٌ ، وهوَ سوقَةٌ ؟ قالَ : قد جمعَكَ وإِيَّاهُ الإِسلامُ ، فَمَا تفضُلُهُ إِلاَّ بالعافيَةِ .

= وفي يدِهِ سهمٌ يُعدِّلُ بهِ القومَ ، فمرَّ بسوادِ بنِ غَزِيَّةَ ـ وهوَ متقدِّمٌ مِنَ الصفِّ ـ فطعنَ في بطنهِ بالسهمِ ، وقالَ : « اسْتَوِ يَا سَوَادُ » ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ، أَوجعْتَنِي ، وقد بعثكَ اللهُ بالحقِّ والعدلِ . . فأَقدني ـ دَعني أَقتصُّ منكَ ـ فكشفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ عَن بطنهِ ، وقالَ : « اسْتَقِدْ » ، قالَ : فاعتنقَهُ ، فقبَّلَ بطنَهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ هَـٰذَا يَا سَوَادُ ؟ » قالَ : يا رسولَ اللهِ ، حضرَ ما ترىٰ ، فأَردتُ أَن يكونَ آخرَ العهدِ بكَ . . أَنْ يمسَّ جلدي جلدُكَ ، فدعا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ لهُ بخيرٍ ، وقالَهُ لهُ .

(١) الثَّجُّ : السيلانُ .



ويعجبُني ما ذكرَه الطرطوشِيُّ وغيرُهُ ، عن الفضْلِ بنِ الربيعِ ، قالَ [كما في « حلية الأولياء » ٨/١٠٦] : حجَّ الرشيدُ ، فبينا أنا نائمٌ ذاتَ لَيلَةٍ . . سمعتُ قرعَ البابِ ، فقلتُ : مَن ؟ فقيلَ : أَجِبْ أَميرَ المؤمنينَ ، فخرجْتُ مسرعاً ، فوجدْتُ الرشيدَ ، فقلْتُ : لو أَرسلْتَ إِليَّ ، قالَ : ويحَكَ ، قد حاكَ في نفسي ما لا يخرجُهُ إِلاَّ عالِمٌ فانظرْهُ لي ، فقلتُ : هـٰهُنا سفيانُ بنُ عيينةَ ، قالَ : فامضِ بنا إِليهِ ، فأَتيناهُ . . فقرَعْنا عليهِ بابَهُ ، فقالَ : مَن هـٰذا ؟ قلتُ : أَجِبْ أَميرَ المؤمنينَ ، فخرجَ مسرعاً ، وقالَ : لو أَرسلتَ إِليَّ . . أَتيتُكَ ، قالَ : جِدَّ لِمَا جئْنا لَهُ ، فحادَثَهُ ساعةً ، ثُمَّ قالَ لَهُ : أَعليكَ دينٌ ؟ قالَ : نعم ، قالَ : اقضِ دينَهُ يا فضلُ .

ثُمَّ انصرَفْنا ، فقالَ الرشيدُ : ما أَغنىٰ عنِّي شيئاً صاحبُكَ ، فانظُرْ لي غيرَهُ ، قلتُ : هـٰهنا عبدُ الرزّاقِ واعظُ (العِراقِ) ، فقالَ : امضِ بنا إِليهِ ، فجرىٰ لَنا معَهُ مثلُ الأَوَّلِ .

فقالَ الرَّشيدُ : انظُرْ ليْ غيرَهُ ، فقلتُ : هـٰهُنا فضيلُ بنُ عياضٍ ، قالَ : امضِ بنا إِليهِ ، فأَتيناهُ . . فإِذا هُوَ قائمٌ يصلِّي ، يردِّدُ آيَةً مِن كتابِ اللهِ ، فقرعْتُ البَابَ . . فقالَ : مَنْ هـٰذا ؟ فقلتُ : أَجِبْ أَميرَ المؤمنينَ ، فقالَ : ما لي ولأَميرِ المؤمنينَ ؟ فقلتُ : سبحانَ اللهِ! أَما تجبُ عليكَ طاعتُهُ ، فقالَ : أَوَ ليسَ قد رويَ عَنْ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قالَ : « لَيْسَ لِمؤْمِنٍ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ »[(١)] .

وفتحَ البابَ ، ثُمَّ ارتقىٰ مسرعاً إِلىٰ أَعلى الغرفَةِ ، وأَطفأَ السراجَ ، والتجأَ إِلىٰ زاويةٍ مِن زوايا الغرفَةِ ، فجعلْنا نجولُ عليهِ بأَيدينا ، حَتَّىٰ سبقَتْ إِليهِ كفُّ الرشيدِ ، فقالَ : أَوّاهُ ما أَلينَها مِن يدٍ . . إِنْ نَجَتْ مِن عذابِ اللهِ ، فقلْتُ في نَفْسي : ليكلِّمنَّهُ الليلَةَ بكلامٍ نقِيٍّ ، مِن قلبٍ تقيٍّ ، فقالَ : جِدَّ لِمَا جئْنَاكَ لَهُ ، قالَ : وفيمَ جئتَ ؟ حمَلْتَ علىٰ نفسِكَ ، وجميعُ مَن معَكَ حَمَلوا عليكَ ، حَتَّىٰ لَو سأَلْتَهم عندَ انكشافِ الغِطاءِ أَنْ يَحمِلوا عَنْكَ شِقْصاً مِن ذَنبٍ . . ما فَعلوا ، ولَكانَ أَشدُّهم حبّاً لَكَ . . أَشَدَّ هرَباً منكَ .

إِنَّ عُمَرَ بنَ عبدِ العزيزِ ، لمَّا وَلِيَ الخلافَةَ . . دَعَا سالِمَ بنَ عبدِ اللهِ ، ومحمَّدَ بنَ كعبٍ القرظيَّ ، ورجاءَ بنَ حيوَةَ ، وقالَ لَهم : قد ابتليتُ بِهـٰذا البلاءِ ، فأَشيروا عليَّ ، فعدَّهُ بلاءً ، وعددْتَهُ أَنتَ وأَصحابُكَ نعمَةً .

فقالَ لَهُ سالمٌ : إِنْ أَرَدْتَ النَّجاةَ مِن عذابِ اللهِ غداً . . فَصُمْ عَنِ الدُّنْيا ، وليكُنْ إِفطارُكَ على الموتِ .

وقالَ لَهُ محمَّدُ بنُ كعبٍ : إِنْ أَردْتَ النجاةَ . . فليكُنْ كبيرُ المسلمينَ لَكَ أَباً ، وأَوسطُهم لكَ أَخاً ، وأَصغرُهم لكَ ابناً ، فبرَّ أَباكَ ، وارحَمْ أَخاكَ ، وَتَحَنَّنْ علىٰ ولدِكَ .

وقالَ لَهُ رجاءُ بنُ حيوَةَ : إِنْ أَرَدْتَ النجاةَ غداً . . فأَحبَّ للمسلمينَ ما تحبُّ لنفسِكَ ، واكرَهْ لَهم ما تكرَهُ لنفسِكَ ، ثُمَّ متىٰ شئْتَ فَمُتْ ، وإِني لأَقولُ لَكَ هـٰذا ، وإِني لأَخافُ عليكَ أَشدَّ الخوفِ ، يومَ تزِلُّ الأَقدامُ ، فهلْ معكَ مَن يأْمرُكَ بمثلِ هـٰذا ؟ فبكى الرشيدُ بكاءً شديداً ، فقلْتُ لَهُ : ارفُقْ بأَميرِ المؤمنينَ .

فقالَ : يا ابنَ الربيعِ ، قتلتَهُ أَنتَ وأَصحابُكَ ، وأَرفُقُ بهِ أَنَا ، ثُمَّ أَفاقَ الرشيدُ ، فقالَ : زِدْني ، قالَ : بلغَني أَنَّ عاملاً

---

(١) أخرجه عن حذيفة رضي الله عنه الترمذي (٢٢٥٥) بلفظ : « لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه ، قالوا : وكيف يذل نفسه ، قال : يتعرض من البلاء لما لا يطيق » وقال الترمذي : هـٰذا حديث حسن ، وابن ماجه (٤٠١٦) في الفتن .



لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ . . شكا إليهِ السهرَ ، فكتَبَ إليهِ عمرُ يقولُ : اذكُر يا أخي سَهَر أَهلِ النارِ في النارِ ، وخلودَ الآبادِ فيها ، فإنَّ ذلكَ يطرُدُ بكَ إلىٰ ربِّكَ نائماً ويقظانَ ، وإيَّاكَ أَنْ تزلَّ قدمُكَ عَن هـٰذَا السبيلِ ، فيكونَ آخرَ العهدِ بكَ ، ومنقطعَ الرَّجاءِ منكَ ، والسلامُ ، فلمَّا قرأَ كتابَهُ . . طَوىٰ إليهِ البلادَ ، فقالَ لهُ عمرُ : ما أَقدمَكَ ؟ قالَ : خلعتَ قلْبي بكتابِكَ ، لاَ وَلِيتُ لَكَ وِلايةً أبداً ، حتَّىٰ أَلقى اللهَ .

فبكىٰ هارونُ ، ثُمَّ قالَ : زِدْني ، فقالَ : إنَّ جدَّكَ العبَّاسَ جاءَ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وقالَ : أَمِّرني علىٰ إمارةٍ ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **يَا عَمُّ ، نَفْسٌ تُنْجِيهَا . . خَيْرٌ مِنْ إِمَارَةٍ لاَ تُحْصِيهَا ، إِنَّ الإِمَارَةَ حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لاَ تَكُونَ أَمِيراً . . فَافْعَلْ** »[1] .

فبكىٰ هارونُ بكاءً شديداً ، ثُمَّ قالَ : زِدْني يرحَمُكَ اللهُ . فقالَ : يا حسنَ الوجْهِ ، أَنتَ الذي يسأَلُكَ اللهُ عَن هـٰذَا الخَلْقِ ، فإنْ اسْتَطَعتَ أَنْ تقيَ هـٰذَا الوجْهَ مِنْ النَّارِ . . فافعَلْ . وإيَّاكَ أَن تُصبِحَ أَو تُمْسيَ وفي قلبِكَ غشٌّ لرعيَّتِكَ ، فقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **مَنْ أَصْبَحَ لَهُمْ غَاشّاً . . لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ** »[2] ، فبكَىٰ هارونُ ، ثُمَّ قالَ : أَعليكَ دَينٌ ؟ قالَ : نعم ، لِرَبي يحاسِبُني عليهِ فالويلُ لي إن سأَلَني ، والويلُ لي إنْ لَم يُلْهِمْني حُجَّتي ، فقالَ هارونُ : إنَّما أَعْني دينَ العبادِ ، فقالَ : إنَّ ربِّي لم يأْمُرْني بهـٰذَا ، وإنَّما أَمَرَني أَنْ أُصدِّقَ وعدَهُ ، وأُطيعَ أَمرَهُ ، فقالَ جلَّ اسمُهُ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٦ـ٥٨] ، فقالَ لهُ الرشيدُ : هـٰذِهِ أَلفُ دينارٍ . . أَنفقْها علىٰ عيالِكَ ، وتقوَّ بها علىٰ عبادةِ ربِّكَ ، فقالَ فضيلٌ : أَنا أَدلُّكَ على النجاةِ وتكافِئُني بِمِثْلِ هـٰذَا ، ثُمَّ صمتَ ، فلم يكلِّمْنا ، فخرجْنا من عندِهِ ، فقالَ الرشيدُ : إنْ دَلَلْتَني علىٰ رجُلٍ . . فدُلَّني علىٰ مثلِ هـٰذَا ؛ فإنَّ هـٰذَا سيِّدُ المؤمنينَ اليومَ .

ويروىٰ [في « الحلية » ٨/١٠٧] : أَنَّ امرأَةً مِن نسائِهِ دخلَتْ عليهِ بعدَ خروجِهم ، وقالَتْ لهُ : يا هـٰذَا ، أَلا ترىٰ ما نحنُ فيهِ ، ثُمَّ تردُّ المالَ ، فقالَ لَها : إنَّ مَثَلي ومَثَلَكم . . كمثَلِ قومٍ كانَ لهم بعيرٌ ، يأْكُلونَ مِن كسبِهِ ، فلمَّا كبرَ . . نحروهُ ، مُوتوا جوعاً ولا تنحرُوا فُضَيْلاً ، فلمَّا سمعَ الرشيدُ مراجعَتَها لَهُ . . طمعَ في قَبُولِهِ ، فجاءَ فجلسَ إلىٰ جنبِهِ ، فلم يكلِّمهُ ، فبينَما نحنُ كذلِكَ . . إذ جاءَتْ جاريةٌ سوداءُ فقالَتْ : يا هـٰذَا ، لقد آذيتَ الشيخَ منذُ أَتيتَهُ ، فانصرِفْ يرحمُكَ اللهُ ، فانصرَفْنا ، هـٰذَا آخرُ القصَّةِ .

وكَمْ مِن شاهدٍ فيها لِمَا تقرَّرَ مِن عزِّ الإسلامِ ، ومساواتِهِ ، معَ السلامَةِ مِن غشِّ الأَحبارِ والرُّهْبانِ ، الذي اجتثَّهُ اللهُ مِن أَصلِهِ ، بمثْلِ قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٣١] .

ومعلومٌ أَنَّهم لمْ يعبدوهُم ، ولَكِنَّهُ يحذِّرُ مِن تقليدِهِم في كلِّ ما يَقولونَ ، ومِنَ الْمُغالاةِ في الاعتقادِ بِهِم ، ومِن تصديقِهِم فيما يدَّعونَ مِن غُفْرانِ الذنوبِ ، وتكفيرِ الخَطايا ، وما أَشبهَ ذلِكَ ، مِن الضَّلالاتِ التي لا يزالُ يترسَّمُها

---

(١) أخرجه عن العباس رضي الله عنه مختصراً البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/٩٦) . وقال : هـٰذا هو المحفوظ مرسل . وقيل : إنه عن ابن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال العباس : يا رسول الله ، ألا توليني ؟ فذكره ، ثم ذكره موصولاً ، والأول أصح ، تفرد به هـٰذا السلمي البصري . وقال العراقي في « تخريج الإحياء » (٢/٣٤٤) : رواه ابن أبي الدنيا هـٰكذا معضلاً بغير إسناد .

(٢) أخرج نحوه عن معقل بن يسار أحمدُ (٥/٢٧) ، والبخاري (٧١٥٠) في الأحكام ، ومسلم (١٤٢) (٢٢٩) في الإمارة (٥) باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر بلفظ : « ما من أمير يلي أمور المسلمين ، ثم لا يجهد لهم وينصح لهم . . إلا لم يدخل معهم الجنة » .



مَن اتبعَ هَواهُ مِن أَهلِ ملّتِنا ، تصديقاً لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ : « **لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ ، وذِراعاً بِذِراعٍ ، حَتَّىٰ لَو دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ** » ، **فَقَالُوا : الْيَهُودَ والنَّصارىٰ ؟! قالَ : « فَمَنْ إِذَنْ »**[1] .

[الإمام زين العابدين في الطواف]

ولا يتجافىٰ عن الموضوعِ الذي نتكلَّمُ فيهِ ، ما ذكرَهُ صاحِبُ « **المستطرَفِ** » [١/١٤٩] عن الأَصمعيِّ ، قالَ : بينا أنا أَطُوفُ لَيْلَةً بِالبيتِ . . إذ رأَيتُ شاباً متعلِّقاً بأَستارِهِ ، يقولُ : [مِنَ البسيطِ]

يَا مَنْ يُجِيبُ دُعَا الْمُضْطَرِّ فِي الظُّلَمِ	يَا كَاشِفَ الضُّرِّ وَالْبَلْوىٰ مَعَ السَّقَمِ
قَدْ نَامَ وَفْدُكَ حَوْلَ الْبَيْتِ وَانْتَبَهُوا	وَأَنْتَ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ لَمْ تَنَمِ
أَدْعُوكَ رَبِّي حَزِيناً خَائِفاً قَلِقَا	فَارْحَمْ بُكَائِي بِحَقِّ الْبَيْتِ وَالْحَرَمِ
إِنْ كَانَ جُودُكَ لاَ يَرْجُوهُ ذُو سَفَهٍ	فَمَنْ يَجُودُ عَلَى الْعَاصِينَ بِالنِّعَمِ

ثُمَّ ارتفعَ نحيبُهُ ، وطافَ أُسبوعاً آخرَ ، ثُمَّ أَمسكَ بوصائلِ البيتِ ، وتضرَّعَ بأَبياتٍ أُخرىٰ ـ لا أَذكرُها الآنَ[2] ـ ثُمَّ سقطَ مغشيّاً عليهِ إِلى الأَرضِ ، فدنوتُ منهُ ، فإِذا هُوَ زينُ العابِدِينَ : عليُّ بنُ الحسينِ ، فوضعتُ رأْسَهُ علىٰ حِجْري ، وبكيْتُ ، فقطَّرَتْ مِنِّي دمعَةٌ علىٰ خدِّهِ ، ففتحَ عينَيهِ وقالَ : مَن هَـٰذا الذي يتهجَّمُ عَلَينا ؟ قلتُ : عبيدُكَ الأَصمعيُّ ، يا سيِّدي ما هَـٰذا البكاءُ والجزعُ ، وأَنتَ من أَهلِ بيتِ النبوَّةِ ؟ أَليسَ اللهُ تعالىٰ يقولُ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣] ؟ فقالَ لي : هَيْهاتَ هَيْهاتَ ، إِنَّ اللهَ خلقَ الجنَّةَ لِمَنْ أَطاعَهُ ، ولَو كانَ عبداً حبشيّاً ، وخلَقَ النارَ لِمَنْ عصاهُ ، ولَو كانَ حرّاً قرشياً ، أَليسَ اللهُ جلَّ شأْنُهُ يقولُ : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١] ؟

كَذا فِي حِفْظي عَن « **المستطرف** » ، ولا يصِحُّ أَن يكونَ صاحِبَ القصَّةِ الأَصمعيُّ ؛ لتأَخُّرِ زمانِهِ ، فلعلَّهُ الفرزدقُ ، أَو غيرُهُ ، ثُمَّ إِنَّ في الشعرِ الذي رواهُ ـ وبالأَخصِّ ما نسيتُهُ منهُ ـ انحلالاً قد يُشَمُّ مِنْهُ الافتعالُ ، أَمَّا موضِعُ الشاهِدِ منهُ . . فشدَّةُ تواضُعِ زَينِ العابدينَ ، وخوفِهِ مِنْ اللهِ تعالىٰ ـ كما هو المَعروفُ من حالِهِ ـ معَ أَنَّهُ أَعزُّ الناسِ نفساً ، وأَشمخُهُم أَنفاً ، وأَبعدُهُم همَّةً ، حَتَّىٰ لقد كانَ يخرُجُ أَيَّامَ الموسِمِ ، في جَمالِ شارَتِهِ ، وحسنِ هيئَتِهِ ، وفاخِرِ لباسِهِ . . فلا يزيدُ جموعَ الأَعيانِ على السلامِ ، ولقد قالَ لَهُ قائلٌ : ما هَـٰذا التيهُ يا ابن بنتِ رَسولِ اللهِ ؟ قالَ : ليسَ بتيهٍ ترىٰ ، وَلَـٰكنَّها العِزَّةُ التي يقولُ اللهُ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

ويروىٰ مثلُ هَـٰذا عَن الحسنِ ، كما سيأْتي في المجلسِ السّادسَ عشرَ .

---

(١) أخرجه عن أبي سعيد رضي الله عنه البخاريُّ (٣٤٥٦) في الأنبياء ، وفيه : « سَلَكُوا ، سَلَكْتموهُ » ، وفي مسلمٍ (٢٦٦٩) في العلم بلفظ : « في جحرِ ضبٍّ لاتَّبعتمُوهُم » .

(٢) والأبياتُ هيَ :

أَلاَ أَيُّهَا المَقْصُودُ فِي كُلِّ حَاجَةٍ	شَكَوْتُ إِلَيْكَ الضُّرَّ . . فَارْحَمْ شِكَايَتِي
أَلاَ يَا رَجَائِي أَنْتَ تَكْشِفُ كُرْبَتِي	فَهَبْ لِي ذُنُوبِي كُلَّهَا وَاقْضِ حَاجَتِي
أَتَيْتُ بِأَعْمَالٍ قِبَاحٍ رَدِيئَةٍ	وَمَا فِي الْوَرَىٰ عَبْدٌ جَنَىٰ كَجِنَايَتِي
أَتُحْرِقُنِي بِالنَّارِ يَا غَايَةَ الْمُنَىٰ	فَأَيْنَ رَجَائِي ؟ ثُمَّ أَيْنَ مَخَافَتِي

[تواضع السلطان سليم العثماني]

وبلغني عَنِ السُّلطانِ سليمِ العثمانيِّ ، ما ذكَّرَني بقولِ **النّاظمِ** [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٧٩] : [مِنَ الكامل]

مُتَصَعْلِكِيـنَ عَلَـىٰ ضَخَـامَـةِ مُلْكِهِـمْ　　　مُتَــوَاضِعِيــنَ عَلَــىٰ عُلُــوِّ الشَّــانِ

إذ كتبَ ـ في محلِّهِ الخاصِّ علىٰ قطعةٍ مِنَ الرُّخَامِ ـ هَـٰذَينِ البيتينِ [في « شذرات الذهب » ٤/ ١٤٤] : [مِنَ البسيطِ]

الْمُلْـكُ للهِ مَـنْ يَظْفَـرْ بِنَيْـلِ مُنـىً　　　يَـرْدُدْهُ قَهْـراً وَيَضْمَـنْ بَعْـدَهُ الـدَّرَكَـا
لَـوْ كَـانَ لِـي أَوْ لِغَيْـرِي قِيـدُ أُنْمُلَـةٍ　　　فَـوْقَ التُّـرَابِ لَكَـانَ الأَمْـرُ مُشْتَـرَكَـا

[تواضع السلطان عبد الحميد]

وأَخبرني السَّيِّدُ الثِّقَةُ عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرَّحمـٰنِ بن طاهرٍ ، عَنْ السُّلطانِ عبدِ الحميدِ ، أَنَّهُ قلَّما خرجَ في مواكبِهِ الرَّسميَّةِ الضَّخمَةِ ، الَّتي يتنافَسُ النَّاسُ فيها على استطلاعِ غرَّتِهِ ، ويسافرونَ لذلِكَ مِنَ الْجِهاتِ البعيدَةِ ـ علىٰ حدِّ قولِ الموميِّ ـ : [مِنَ الوافرِ]

وَكَـمْ عَيْـنٍ تُـؤَمِّـلُ أَنْ تَـرَانِـي　　　وَتَفْقِــدُ بَعْــدَ رُؤْيَتِــيَ السَّــوَادَا

. . إلاَّ وقامَ في صدرِ عربتِهِ أَحدُ العلماءِ ، يُنادي بأَعلىٰ صوتِهِ ، مِن حينِ يركَبُ إِلىٰ حينِ ينزِلُ : الملكُ للهِ الواحدِ القهَّارِ ، لاَ تتكَبَّر ، ومَن فوقَكَ أَكبَرُ . وهَـٰذَا ـ واللهِ في ذلِكَ الموقِفِ الذي يملأُ العيونَ بجمَالِهِ ، ويملِكُ الأَفئدَةَ بجلالِهِ ـ لَمِمَّا تَتَنَدَّىٰ لَهُ الخدودُ ، وتتفطَّرُ منهُ القلوبُ .

ويعجبُني فيما يشبهُ بيتَ الناظمِ الذي نتكلَّمُ عليهِ ، قولُ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانه » ٣/ ١٩٤٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَمَّـا رَأَوْا بَعْـضَ الْحَيَـاةِ مَـذَلَّـةً　　　عَلَيْهِـمْ وَعِـزَّ الْمَـوْتِ غَيْـرَ مُحَـرَّمِ
أَبَـوْا أَنْ يَـذُوقُـوا الْعَيْشَ وَالـذَّمُّ وَاقِـعٌ　　　عَلَيْـهِ وَمَـاتُـوا مِيتَـةً لَـمْ تُـذَمَّـمِ

[أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وشهاب بن جمرة!!]

ولا بأْسَ علىٰ ذكرِ (لَظَىٰ) في البيتِ . . أَنْ نذكُرَ حديثَ ابنِ الخطَّابِ معَ الجهنيِّ ، وذلِكَ أَنَّهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ [في « الإصابة » ٣/ ٣٨٨ بنحوها] : خرجَ إِلىٰ (حرَّةِ وَاقِمٍ) ، فلقيَ رجلاً من جهينةَ ، فقالَ لهُ : ما اسمكَ ؟ قالَ : شهابٌ ، قالَ : ابنُ مَن ؟ قالَ : جمرَةَ ، قالَ : ومِمَّن أَنتَ ؟ قالَ : مِن الحَرِقَةِ ، قالَ : ثم مِمَّن ؟ قالَ : مِن بَني ضِرام ، قالَ وأَينَ منزلُكَ ؟ قالَ : بـ(حرَّةِ لَيلىٰ) ، قالَ : وأَينَ تريدُ ؟ قالَ : (ذَاتَ لَظَىٰ) ، فقالَ عمرُ : أَدرِكْ أَهلَكَ ، فما أَراكَ تدرِكُهم إِلاَّ وقَد احترَقوا ، قالَ الراوي : فأَدْرَكَهم وقد أَحاطَتْ بِهِم النارُ .

[التشاؤم بالاسم القبيح]

ونظيرُها : أَنَّهُ لمَّا وقعَ الطاعونُ بـ(مصْرَ) في ولايةِ عبدِ العزيزِ بنِ مروانَ . . هرَب مِنها ، فنزلَ قريةً من الصعيدِ ، فقدمَ عليهِ رَسولٌ مِن أَخيهِ حينَ نزلَها ، فقالَ لهُ : ما اسمُكَ ؟ قالَ : طالِبُ بنُ مدرِكٍ ، فقالَ : أَوَّهْ ، ما أَراني راجعاً إِلى (الفُسطَاطِ) ، وماتَ في تِلكَ القريَةِ .



ولمَّا خرجَ صلاحُ الدينِ بنُ أيُّوبَ مِن (مصْرَ) . . سمعَ قوَّالاً ينشِدُ [في «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين» ٣/ ١٠٤] : [مِنَ الوافرِ]

تَمَتَّـعْ مِـنْ شَمِيـمِ عَـرَارِ نَجْـدٍ فَمَـا بَعْـدَ الْعَشِيَّـةِ مِـنْ عَـرَارِ (١)

فتطيَّرَ مِن ذلِكَ ، وكانَ كَما تطيَّرَ ، فإنَّهُ اشتغلَ بـ(الشامِ) ، وقتالِ الإفرنْجِ ، ولم يعدْ إلىٰ (مصرَ) حَتَّىٰ ماتَ بعدَ طولِ المدَّةِ . والحكاياتُ في مثلِهِ كثيرَةٌ .

[التفاؤل بالاسم الحسن]

وعكسُهُ : أَنَّ سعدَ ابنَ أَبي وقَّاصٍ وجَّهَ إِلى ابنِ الخطَّابِ برَسُولٍ ، فقالَ لَهُ [كما في « المنتظم حتىٰ سنة (٢٥٧ هـ) » ٤/٢٧٠] : ما اسمكَ ؟ قالَ : ظَفَرٌ ، قالَ : ابنُ مَن ؟ قالَ : ابنُ قَرِيبٍ ، فقالَ عُمرُ : ظَفَرٌ قريبٌ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

ولمَّا هاجرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ وقاربَ (المدينةَ) . . سمعَ منادياً يُنادي أَخاهُ ويقولُ : يا سالِمُ ، يا سالِمُ ، فقالَ لأَصحابِهِ : « سَلِمْنَا » ، فلمَّا دخلَها . . سمعَ آخرَ يُنادي : يا غانِمُ ، قالَ : « غَنِمْنَا » ، فلمَّا نزلَ . . أُتيَ برُطَبٍ ، قالَ : « حَلاَ لَنَا الْبَلَدُ » (٢) .

وفي يومِ الحديبيَةِ لمَّا أَقبلَ سهيلٌ . . قالَ : « سَهُلَ لَنا الأَمْرُ » (٣) .

وربَّما يَأْتي موضعٌ آخرُ يقتضي استيفاءَ ما يُقالُ في الطِّيرَةِ والفألِ (٤) ، أَمَّا هـٰذا . . فلا أَكثرَ لَهُ مِمَّا ذُكرَ .

واللهُ أَعلمُ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٢٢] : [مِنَ الخفيفِ]

لاَ بِقَـوْمِـي شَـرُفْـتُ بَـلْ شَـرُفُـوا بِـي وَبِنَفْسِـي فَخَـرْتُ لاَ بِجُـدُودِي

[فخر الإنسان بقومه ، ولن يكون غير ذلك وإن أبىٰ]

لو اقتصرَ الناظِمُ علىٰ هـٰذَا البيتِ . . لكانَ أَلأَمَ الناسِ نسباً ، غيرَ أَنَّهُ شفعَهُ بقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٢٣] :

وَبِهِـمْ فَخْـرُ كُـلِّ مَـنْ نَطَـقَ الضَّـا دَ وَعَـوْذُ الْجَـانِـي وَغَـوْثُ الطَّـرِيـدِ

إلا أَنَّ هـٰذَا كانَ بارِداً ، فانحطَّ وخمَلَ ، حَتَّىٰ كأَنْ لم يكُنْ بخلافِ الأَوَّلِ ، فقد كانَ حُلْوَ اللفظِ ، مليحَ المعنىٰ في

---

(١) الشَّميم : مصدرُ (شمَّ) . والمعنىٰ : تمتَّعْ مِن طيبِ رائحةِ عرارِ (نجدٍ) ؛ فهـٰذا أَوانُهُ ، وهوَ لا يوجدُ بعدَ العشيَّةِ .

(٢) لم نجده .

(٣) أخرجه عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه البخاري (٢٧٣١) و(٢٧٣٢) في الشروط بلفظ : « سهل لكم من أمركم » ، وعند أحمد في « المسند » (٤/ ٣٣٠) بلفظ : « سهل من أمركم » .

(٤) لِمَا أخرج عن أنس رضي الله عنه أحمد (٣/ ١٥٤) ، والبخاري (٥٧٥٦) في الطب ، ومسلم (٢٢٢٤) (١١٢) في السلام ، وأبو داوود (٣٩١٦) في الطب ، والترمذي (١٦١٥) في السِّيَر ، وابن ماجه (٣٥٣٧) في الطب أنه صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قال : « لا عدوىٰ ولا طيرة وأحب الفأل » قيل : يا رسول الله ، وما الفأل ؟ قال : « الكلمة الطيبة » . وفي الباب : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عند أبي داوود (٣٩١٠) في الطب ، والترمذي (١٦١٤) في السير وقال : حسن صحيح ، وغيره : « الطيرة شرك ـ وما منا ـ ولكن الله يذهبه بالتوكل » وهو معدود من الكبائر .



بابِهِ ، فسارَ وانتشرَ ، وهُوَ من قولِ الفرزدَقِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنَّ تَمِيماً كُلَّهَا غَيْرَ سَعْدِهَا زَعَانِفُ لَوْلاَ عِزُّ سَعْدٍ لَذَلَّتِ

ومثلُهُ قولُ عليِّ بنِ جبلَةَ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا سَوَّدَتْ عِجْلاً مَآثِرُ غَيْرِهِمْ وَلَكِنْ بِهِمْ سَادَتْ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ عِجْلُ

وكثيراً ما يشفُّ كلامُ الناظِمِ عَنْ انحطاطِ نَسَبِهِ وَزَمانَةِ حسَبِهِ ، كما في **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ١/ ٦٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَسْتُ أُبَالِي بَعْدَ إِدْرَاكِيَ الْعُلاَ أَكَانَ تُرَاثاً مَا تَنَاوَلْتُ أَمْ كَسْبَا

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٦٧] : [مِنَ المنسرحِ]

وَإِنَّمَا يَذْكُرُ الْجُدُودَ لَهُمْ مَنْ نَفَرُوهُ وَأَنْفَدُوا حِيَلَهْ[1]

[تفضيل الفرع على الأصل عند المتنبي]

وتراهُ مِن أَجْلِ ما يَجِدُ مِن ذلِكَ في نفسِهِ . . يفضِّلُ الفرعَ دائماً على الأَصلِ ، لا في نفسِهِ فقط ، بلْ حَتَّىٰ في مَمْدوحيهِ ، **أَلا تَراهُ يقولُ لسيفِ الدولَةِ** [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٠] : [مِنَ الوافرِ]

وَإِنْ تَفُقِ الأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

ويقولُ لهُ ـ أيضاً ـ [في « العُكبريِّ » ٣/ ١١١] : [مِنَ الرَّجَزِ]

[وَالْعَاذِلِينَ فِي النَّدَى الْعَوَاذِلاَ] قَدْ فَضَلُوا بِفَضْلِكَ الْقَبَائِلاَ

ومن ذلِكَ **قولُهُ** [في « العُكبري » ٢/ ١٧٩] : [مِنَ الخفيفِ]

نَفْسُهُ فَوْقَ كُلِّ أَصْلٍ شَرِيفٍ وَلَوَ انِّيْ لَهُ إِلَى الشَّمْسِ عَازِي

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٧٨] : [مِنَ الخفيفِ]

كُلُّ آبَائِهِ كِرَامُ بَنِي الدُّنْـ يَا وَلَكِنَّهُ كَرِيمُ الْكِرَامِ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٨٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَإِنْ يَكُ سَيَّارُ بْنُ مُكْرَمٍ انْقَضَىٰ فَإِنَّكَ مَاءُ الْوَرْدِ إِنْ ذَهَبَ الْوَرْدُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٩١] : [مِنَ البسيطِ]

وَإِنْ تَكُنْ تَغْلِبُ الْغَلْبَاءُ عُنْصُرَهَا فَإِنَّ فِي الْخَمْرِ مَعْنىً لَيْسَ فِي الْعِنَبِ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٠٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَتِيهاً وَفَخْراً تَغْلِبَ ابْنَةَ وَائِلٍ فَأَنْتِ لِخَيْرِ الْفَاخِرِينَ قَبِيلُ

---

(١) **نافرني فنفرتُهُ** : أصلُ المنافرةِ أَنَّ الرجلينِ منَ العربِ كانا يحتكمانِ في الجاهليَّةِ إلىٰ من عرفَ بالرِّياسةِ والفضلِ والصدقِ ، فيقولانِ لهُ : أيُّ نفرينا أفضلُ ؟ فإذا فضَّل أحدهما على الآخرِ ، فالمغلوبُ منفورٌ ، والغالبُ نافرٌ . **أنفدوا** : أفنَوا .

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٧٠] : [مِنَ الوافرِ]

وَمَـا أَنَـا مِنْهُـمُ بِـالْعَيْشِ فِيهِـمْ وَلَكِـنْ مَعْـدِنُ الـذَّهَـبِ الـرَّغَـامُ[1]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٠٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَـو لَـمْ تَكُـونِـي بِنْـتَ أَكْـرَمِ وَالِـدٍ لَكَـانَ أَبَـاكِ الضَّخْـمَ كَـوْنُـكِ لِـي أُمَّـا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٣١] : [مِنَ البسيطِ]

تَمْشِـي الْكِـرَامُ عَلَـىٰ آثَـارِ غَيْـرِهِـمِ وَأَنْـتَ تَخْلُـقُ مَـا تَـأْتِـي وَتَبْتَـدِعُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٨٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَيُغْنِيـكَ عَمَّـا يَنْسُـبُ النَّـاسُ أَنَّـهُ إِلَيْـكَ تَنَـاهَـى الْمَكْـرُمَـاتُ وَتُنْسَـبُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٩١] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَشَـرَّفَ عَـدْنَـانٌ بِـهِ لاَ رَبِيعَـةٌ وَتَفْتَخِـرُ الـدُّنْيَـا بِـهِ لاَ الْعَـوَاصِـمُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٨٥] : [مِنَ الكاملِ]

أَنْسَـابُ فَخْـرِهِـمُ إِلَيْـكَ وَإِنَّمَـا أَنْسَـابُ أَصْلِهِـمُ إِلَـىٰ عَـدْنَـانِ

وكذبَ واللهِ وافترىٰ ، إِنَّما ذلِكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، ولَكِنْ مَا أَحسنَ قولَ ابنِ الروميِّ [في « ديوانه » ٦/٢٤٢٥] : [مِنَ البسيطِ]

قَالُوا أَبُو الصَّقْرِ مِنْ شَيْبَانَ قُلْتُ لَهُمْ : كَـلاَّ لَعَمْـرِي وَلَكِـنْ مِنْـهُ شَيْبَـانُ
كَـمْ مِنْ أَبٍ قَدْ عَلاَ بِابْنٍ ذُرَىٰ شَرَفٍ كَمَـا عَـلا بِـرَسُـولِ اللهِ عَـدْنَـانُ

[لم تذق حلاوة الآباء]

ويُذكَرُ : أَنَّ هاشمياً دخلَ على المنصورِ ، فسأَلَهُ عن أَبيهِ ، فقالَ : ماتَ رحمةُ اللهُ ، وتركَ كذا رحمَهُ اللهُ ، وفعلَ كَذا رحمَهُ اللهُ ، وأَوصىٰ بِكذا رحمَهُ اللهُ ، فقالَ لَهُ الربيعُ ـ وكانَ قائماً علىٰ رأْسِ المنصورِ ـ : أَخِّرْ عَن أَميرِ المؤمنينَ ، فقد أَضجرْتَهُ بأَبيكَ ، قالَ لَهُ : لا لَومَ عَليكَ ، فإِنَّكَ لَم تَذُقْ حلاوَةَ الآباءِ ، وكانَ الربيعُ دَعِيّاً ، فاستلقى المنصورُ من كثرَةِ الضحِكِ .

[مَن بيتُهُ من زجاج . . لا يرمي الناس بالحجار]

ويروىٰ [بنحوه في « بغية الطلب في تاريخ حلب » ٦/ ٨٣٠] : أَنَّ قتيبةَ بنَ مسلمٍ الباهليَّ ، لمَّا فتحَ (سمرقنْدَ) . . أَفضىٰ إِلىٰ أَثاثٍ لم يعرفْ مثلُهُ ، فأَمرَ بدارٍ ففرشَتْ ، وفي صحنِها قدورٌ لا يرتقىٰ إِليها إِلاَّ بالسلالِمِ ، فأَقبلَ الحصينُ[2] بنُ المنذِرِ بنِ الحارثِ بنِ وَعْلَةَ الرقاشيُّ ـ والناسُ علىٰ مراتِبهم ـ وهو شيخٌ كبيرٌ ، فلمَّا رآهُ عبدُ اللهِ بنُ مسلمٍ ـ أَخو قتيبَةَ ـ قالَ لقتيبَةَ : أَتأْذَنُ لي في معاتبَتِهِ ؟

---

(١) الرَّغامُ : الترابُ .

(٢) في « بغيةِ الطلبِ » : (الحُضَينُ) بدل (الحُصَينِ) .



قالَ : إنَّهُ خبيثٌ لا يُطاقُ ، فَأَبىٰ عبدُ اللهِ إلاَّ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ ، وكانَ عبدُ اللهِ قد تسوَّرَ حائطاً إلى امرأةٍ ، فقالَ للحُصَينِ : أَمِنَ الْبَابِ دَخَلْتَ يَا أَبَا سَاسَانَ ؟

قالَ : نعم ، أَسَنَّ عمُّكَ[1] عَن تسُورِ الحيطَانِ .

قالَ : أرأَيْتَ هَـٰذِهِ القدورَ ؟

قالَ : هيَ أَعظمُ من أَنْ لا تُرىٰ .

قالَ : ما أَحسبُ بكرَ بنَ وائِلٍ رأَىٰ مثلَها ، قالَ : لاَ ولا عيلانُ ، ولَو رَآها . . لسمِّيَ شَبعانَ ، فقالَ لَهُ : يا أَبَا ساسانَ ، أَتعرِفُ الذي يقولُ : [مِنَ الطَّويلِ]

عَـزَلْنَـا وَأَمَّـرْنَـا وَبَكْـرُ بْـنُ وَائِـلٍ تَجُـرُّ خُصَـاهَـا تَبْتَغِـي مَـنْ تُحَـالِـفُ

قالَ : نعم ، أَعرفُهُ ، وأَعرفُ الذي يقولُ : [مِنَ الوافرِ]

وَخَيْبَـةُ مَـنْ يَخِيـبُ عَلَـىٰ غَنِـيٍّ وَبَـاهِلَـةَ بْـنِ يَعْصُـرَ وَالـرِّبَـابِ

قالَ : أَفتعرفُ الذي يقولُ : [مِنَ الطَّويلِ]

كـأَنَّ فِقَـاحَ الأَزْدِ حَـوْلَ ابْـنِ مَسْمَـعٍ وَقَـدْ عَـرِقَـتْ أَفْـوَاهُ بَكْـرِ بْـنِ وَائِـلِ[2]

قالَ : أَعرفُهُ ، وأَعرفُ الذي يقولُ : [مِنَ الكاملِ]

قَـوْمٌ قُتَيْبَـةُ أُمُّهُـمْ ، وَأَبُـوهُـمُ لَـوْلاَ قُتَيْبَـةُ أَصْبَحُـوا فِـي مَجْهَـلِ

قالَ أَمَّا الشِّعْرُ فأَراكَ ترويهِ ، ولَكِنْ هَلْ تقرأُ شيئاً مِنَ الْقُرآنِ ؟ قالَ : الكثيرَ الطيِّبَ : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان : ١] ، فغضبَ عبدُ اللهِ بنُ مسلمٍ ، وقالَ : لقد بلغني أَنَّ امرأَةَ الحصينِ تزوَّجَت بهِ وهِيَ حبلَىٰ من غيرِهِ ، فلم يتحرَّكِ الشيخُ عَن هيئَتِهِ ، وقالَ ـ علىٰ رسلِهِ ـ : وما يكونُ تلِدُ غلاماً علىٰ فِراشي ؟! فيقالُ : ابنُ الحصينِ ، كَما يقالُ : عبدُ اللهِ بنُ مسلمٍ ؟!! فأَقبلَ قتيبةُ علىٰ أَخيهِ وقالَ : لا يبعدُ اللهُ غيرَكَ ، ليتَكَ سكتَّ ؛ إذ لَمْ تقدِرْ .

[أتكون باهلياً خليفة ؟!]

ويُذكرُ [كما في « سير أعلام النبلاء » ٤/٤١١] : أَنَّ قتيبةَ هَـٰذَا مازحَ أَعرابيّاً فقالَ : أَيسرُّكَ أَنْ تكونَ باهليّاً خليفةً ؟ قالَ : لا واللهِ ، ولو أَنَّ لي ما طلعَتْ عليهِ الشَّمْسُ ، قالَ : أَفَيَسُرُّكَ أَنْ تكونَ باهليّاً في الجنَّةِ ؟ فأَطْرَقَ ثُمَّ قالَ : نعم ، علىٰ شرْطِ أَنْ لا يعلَمَ أَهلُ الجنَّةِ أَنِّي باهليٌّ .

[لا يعبأ الله بالباهلي أبداً!!!]

ولمَّا حجَّ أَبو جَزْءٍ ـ وكانَ قومُهُ يعظِّمونَهُ ـ سأَلَهُ عن نسبِهِ بعضُ بني سعدٍ ؟ فذكَرَ أَنَّهُ باهليٌّ ، فاقتحمَتْهُ عينُهُ[3] ، فقالَ

---

(١) **أَسَنَّ** : كبِرَ وصَارَ مُسِناً .

(٢) **الفقاحُ** : جمعُ فَقْحَةَ ، وهيَ حَلقةُ الدُّبُرِ .

(٣) **اقتحمتهُ عينُهُ** : ازدرتهُ .



لهُ قائِلٌ : إنَّهُ أَميرٌ ابنُ أَميرِ ابنُ أميرٍ . . حَتَّىٰ عدَّ خمسةً بأسمائِهم ، فقالَ السعديُّ : واللهِ لَو عددْتَ لَهُ مِن بيتِ النبوَّةِ أَضعافَ ما عددْتَ لَهُ في الإِمارَةِ ، ثمَّ كانَ باهلياً . . ما كانَ الله ليعبأَ بِهِ .

[ما كانت إهانة الله لك بجعلك باهلياً في الدنيا . . إلا ليعوضك يوم القيامة]

ويُحكىٰ [كما في « سير أعلام النبلاء » ٤/٤١١] : أَنَّ أَعرابياً لَقِيَ شخصاً فسأَلَهُ مَنْ أَنتْ ؟ فقالَ : من باهلَةَ ، فرقَّ لَهُ ، فقالَ ذلِكَ الشخصُ : وأَزيدُكَ أَنِّي لَستُ من صميمِهم ، ولكِنْ مِن مَواليهم ، فأَقبلَ الأعرابيُّ يقبِّلُ يدَيهِ ورجليهِ ، فقالَ لَهُ : ولِمَ هَـٰذَا ؟ فقالَ : لأَنَّ اللهَ جلَّ شأْنُهُ ما ابتلاكَ بهَـٰذِهِ المهانَةِ في الدنيا . . إلاَّ ليعوِّضَكَ في الآخرَةِ .

[السبب في اتضاع باهلة]

وما كانَ السببُ في اتضاعِ غَنِيٍّ وباهلَةَ ـ علىٰ ما لهما مِن الغَنَاءِ والشرَفِ ـ إلاَّ شفوفَ أَخوَيهما فزارةَ وذُبيانَ ، وتقدُّمُهما عليهما بالمآثِرِ ، فانحطَّا بالنسبَةِ لذلِكَ ، كَما ذكرهُ ابنُ خَلِّكانَ [في « وفيات الأعيان » ٤/٩١] وغيرُهُ .

وفي المَثَلِ [كما في « مجمع الأمثال » ٢/٣٣١] : كُن عِصامياً ، ولا تكُنْ عِظامياً .

[أعصامي أم عظامي ؟!]

ويحكىٰ [كما في « مجمع الأَمثالِ » ٢/٣٣١] : أَنَّ الحجَّاجَ أَرادَ أَن يختبرَ رَجلاً . . فقالَ لَهُ : أَعصاميٌّ أَنتَ أَمْ عِظاميٌّ ؟ فقالَ : أَنا عصاميٌّ وعظاميٌّ ، فقضىٰ حوائِجَهُ ، ثمَّ استنطقَهُ ، فوجدَهُ مِنْ أَجهلِ النَّاسِ ، فقالَ : لتَصْدُقَنِّي ، أَو لأَقتلنَّكَ ، كيفَ أَجبتَني بِما قلتَ لَمَّا سَأَلتُكَ ؟ فإِنِّي لَم أَجدْكَ حيثُ زعمْتَ ، قالَ : إِنِّي واللهِ لا أَعرفُ العصاميَّ ولا العظامِيَّ ما هوَ ، فخشيتُ أَن أَقولُ أَحدَهُما فيضُرَّني . . فقلْتُ : كِلَيهما ، وتوكَّلتُ على اللهِ ، فقالَ الحجَّاجُ : أَلا إِنَّ المقاديرَ تجعَلُ العِيَّ خَطيباً .

وكانَتِ الْعَربُ تُسمِّي مَن كرُمَ أَبواهُ : طَرفاً ، ومَنْ شَرُفَ أَبوهُ ولَم تكُنْ أُمُّهُ هُناكَ هَجيناً ، ومَنْ شَرُفَتْ أُمُّهُ ولَمْ يشرُفْ أَبوهُ مُذَرَّعاً ، وهُوَ والمقرِفُ شيءٌ واحدٌ .

وأَنشدَ الأَزهريُّ في « **التهذيبِ** » : [مِنَ الطَّويل]

إِذَا بَـــاهِلِـــيٌّ عِنْـــدَهُ حَنْظَلِيَّـــةٌ لَهَـــا وَلَـــدٌ مِنْـــهُ فَـــذَاكَ الْمُـــذَرَّعُ

وقالَ ذو الرُّمَّةِ [في « ديوانه » ١/٢٩] : [مِنَ البسيطِ]

تُـــرِيـــكَ سُنَّـــةَ وَجْـــهٍ غَيْـــرَ مُقْـــرِفَـــةٍ مَلْسَـــاءَ لَيْـــسَ بِهَـــا خَـــالٌ وَلاَ نُـــدَبُ

[من هو العصامي ؟ ومن هو العظامي ؟]

وحيثُما قالوا عصاميٌّ . . فإِنَّما يريدونَ قولَ النابغَةِ [الذُّبيانيِّ] يمدحُ عصاماً حاجبَ النعمانِ [كما في « مجمع الأمثال » ٢/٣٣١] : [مِنَ الرَّجزِ]

نَفْـــسُ عِصَـــامٍ سَـــوَّدَتْ عِصَـــامَـــا وَعَلَّمَتْـــــهُ الْكَـــرَّ وَالإِقْـــدَامَـــا

وحيثُما قالوا عظاميٌّ . . فقد أَرادوا قولَ الآخرِ [كما في « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » ١/١٣٨] : [مِنَ الوافرِ]

إِذَا مَـــا الْحَـــيُّ عَـــاشَ بِعَظْـــمِ مَيْـــتٍ فَـــذَاكَ الْعَظْـــمُ حَـــيٌّ وَهْـــوَ مَيْـــتُ

[الفخر بالنفس]

وقالَ بعضُهم [كما في « المثل السائر » ١/١٠٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَعَمْرُكَ مَا الإِنْسَانُ إِلاَّ ابْنُ يَوْمِهِ ... عَلَىٰ مَا تَجَلَّىٰ يَوْمُهُ لاَ ابْنُ أَمْسِهِ

وَمَا الْفَخْرُ بِالْعَظْمِ الرَّمِيمِ وَإِنَّمَا ... فَخَارُ الَّذِي يَبْغِي الْفَخَارَ بِنَفْسِهِ

وقالَ أَبو نعمانَ [كما في « المستطرف » ١/٨٠] : [مِنَ الكاملِ]

لاَ تَنْظُرَنَّ إِلَى امْرِىءٍ مَا أَصْلُهُ ... وَانظُرْ إِلَىٰ أَفْعَالِهِ ثُمَّ احْكُمِ

ويحسُنُ أَن يستأْنِسَ بقولِ الناظِمِ [كما في « العُكبَريِّ » ٣/٨١] : [مِنَ البسيطِ]

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ ... فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيك عَنْ زُحَلِ

[الفخر بالنفس والآباء]

وممَّا اجتمعَ فيهِ الطريفُ والتالِدُ ، والتقىٰ عليهِ الولَدُ والوالِدُ . . قولُ أُميَّةَ [في « ديوانهِ » ٥٠٥] : [مِنَ الوافرِ]

وَرِثْنَا الْمَجْدَ عَنْ كُبْرَىٰ نِزَارٍ ... وَأَوْرَثْنَا مَآثِرَهُ بَنِينَا

وقولُ عامرِ بنِ الطُّفَيلِ [في « ديوانهِ » ١٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنَ سَيِّدِ عَامِرٍ ... وَفَارِسَهَا الْمَشْهُورَ فِي كُلِّ مَرْكَبِ

فَمَا سَوَّدَتْنِي عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةٍ ... أَبَى اللهُ أَنْ أَسْمُو بِأُمٍّ وَلاَ أَبِ

وَلَكِنَّنِي أَحْمِي حِمَاهَا وَأَتَّقِي ... أَذَاهَا وَأَرْمِي مَنْ رَمَاهَا بِمَنْكِبِ

وقولُهُ ـ أَو هِيَ للمتوكِّلِ الليثيِّ ـ [في « ديوان الحماسة » ٢/٢٦٥] : [مِنَ الكاملِ]

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ ... يَوْماً عَلَى الأَحْسَابِ نَتَّكِلُ

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا ... تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

ويقربُ منهُ قولُ زهيرٍ ـ وهُوَ ممَّا أَجمعَ أَهلُ العلمِ علىٰ تقديمِهِ ـ [في « ديوانهِ » ٤٢ـ٤٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهَا ... وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ

إِذَا جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ ... مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَىٰ بِأَحْلاَمِهَا الْجَهْلُ

عَلَىٰ مُكْثِرِيهِمْ حَقُّ مَنْ يَعْتَرِيهِمُ ... وَعِنْدَ الْمُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ

وَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا ... تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ

وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِّيَّ إِلاَّ وَشِيجُهُ ؟ ... وَتُغْرَسُ إِلاَّ فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ ؟[1]

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٢٢٨] : [مِنَ البسيطِ]

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ ... قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

---

(١) **الخطيُّ** : الرمحُ . **الوشيجُ** : القنا الملتفُّ في منبتِهِ . **يقولُ** : لا تنبتُ القناةَ إلا القناةُ ، ولا تُغرسُ النخلُ إلا بحيثُ تنبتُ وتصلحُ ، وكذلكَ لا يولدُ الكرامُ إلا في موضعٍ كريمٍ .

قَـوْمٌ سِنَـانٌ أَبُـوهُـمْ حِيـنَ تَنْسُبُهُـمْ طَـابُـوا وَطَـابَ مِـنَ الأَوْلاَدِ مَـا وَلَـدُوا
إِنْـسٌ إِذَا أَمِنُـوا جِـنٌّ إِذَا فَـزِعُـوا مُـرَزَّؤُونَ بَهَـالِيـلٌ إِذَا جُهِـدُوا(١)

[الإعطاء عند القلة . . أمدح ما يكون بالجود]

وبعدُ : فقولُهُ في القطعةِ الأُولىٰ : (وَعِنْدَ الْمُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ والْبَذْلُ) وقولُهُ في الثانيَةِ : (بَهَالِيلٌ إِذا جُهِدُوا) . . أَمدَحُ ما يكونُ بالجودِ ، وأَبلَغُ ما يمكِنُ من الثناءِ بالسخاءِ ؛ لأَنَّ معناهُ : أَنَّهم يبذلونَ ويجودونَ على الفاقَةِ والجهْدِ .

ومنْهُ قولُ عقيلِ بنِ العَرَنْدَسِ يمدَحُ بني عمروٍ الغنويِّ [كما في « ديوان الحماسة » ٢/٢٦٩] : [مِنَ البسيطِ]

إِنْ يُسْـأَلُـوا الْخَيْـرَ أَعْطَـوْهُ وَإِنْ جُهِـدُوا فَـالْجَهْـدُ يُخْـرِجُ مِنْهُـمْ طِيـبَ أَخْبَـارِ

وقولُ المقنَّع الكنديِّ [كما في « ديوان الحماسة » ٢/٣٤٣] : [مِنَ الكاملِ]

لَيْـسَ الْعَطَـاءُ مِـنَ الْفُضُـولِ سَمَـاحَـةً حَتَّـىٰ تَجُـودَ وَمَـا لَـدَيْـكَ قَلِيـلُ

وقالَ عمرُو بنُ الأَهتمِ(٢) [كما في « لسان العرب » ٩/٢٥٣] : [مِنَ البسيطِ]

إِنَّـا بَنُـو مِنْقَـرٍ قَـوْمٌ ذَوُو حَسَـبٍ فِينَـا سَـرَاةُ بَنِـي سَعْـدٍ وَنَـادِيهَـا(٣)
جُـرْثُـومَـةٌ أُنُـفٌ يَعْتَـفُّ مُقْتِـرُهَـا عَـنِ الْخَبِيـثِ وَيُعْطِـي الْخَيْـرَ مُثْـرِيهَـا(٤)
وَالْبَـذْلُ مِـنْ مُعْـدِمِيهَـا إِنْ أَلَـمَّ بِهَـا حَـقٌّ وَلاَ يَشْتَكِيهَـا مَـنْ يُنَـادِيهَـا

وهُوَ دونَ الأَوَّلَينِ ؛ إِذْ تَجودُ فقراؤُهم بِلا شرطٍ ولا قيدٍ ، وهـٰؤلاءِ إِنَّما يبذُلُ مُقْتِروهُم إِذَا وجبَتِ الحقوقُ ، فَهم أَقربُ إِلىٰ قولِ أَبي الجويريَةِ العنزيِّ : [مِنَ الطَّويلِ]

عَلَـىٰ مُـوسِـرِيهِـمْ حَـقُّ مَـنْ يَعْتَـرِيهِـمُ وَعِنْـدَ الْمُقِلِّيـنَ اتِّسَـاعُ الْخَـلاَئِـقِ

فَهُوَ داخِلٌ تَحتَ السَّعَةِ التي أَشارَ إِليها الناصِحُ الحكيمُ [صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ] في قولِهِ : « **إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَرْزَاقِكُمْ ، ولَكِنْ تَسَعُونَهُم بِأَخلاقِكُم** »(٥) . وخيرُ ما في الأَوَّلِ . قولُهُ تقدَّسَتْ أَسماؤُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .

[الفخر بالآباء]

ولنعُدْ إِلىٰ حيثُ انحرَفَ بنا الاستطرادُ ، فنقولُ : ذكرَ ابنُ خَلِّكانَ [في « وفيات الأعيان » ٥/١٩١] عن شراحيلَ بنِ معنِ بنِ زائدَةَ ، أَنَّهُ قالَ : إِنِّي لأَسيرُ تحتَ قبَّةِ يحيىٰ بنِ خالدٍ البرمكيِّ ، وعديلُهُ فيها القاضي أَبو يوسُفَ . . إِذْ عرضَ لَهُ رَجُلٌ

---

(١) **البُهلولُ** : العزيزُ الجامعُ لكلِّ خيرٍ .
(٢) واسمه عمرو بن سنان ، توفي سنة : (٥٧ هـ) .
(٣) **السَّراةُ** : وسطُ الشيءِ وأَعلاهُ .
(٤) **الجرثومةُ** : الأَصلُ . **أُنُفٌ** : أَبِيُّونَ ، مِنَ الأَنَفَةِ .
(٥) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الحاكم في « المستدرك » (١/١٢٤) وصححه بلفظ : « وَلْيَسَعْهُم مِنْكُمْ بَسْطُ الوَجْهِ ، وَحُسْنُ الخُلُقِ » ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٥٥٠) بلفظ : « وَلَكِنْ يَسَعُهُمْ مِنكُم بَسْطُ الوَجْهِ » .

مِن بني أَسَدٍ في شارَةٍ حسنَةٍ ، وأَنشدَهُ شعراً لم يرضَهُ ، ثُمَّ قالَ لَهُ : يا أَخا بني أَسدٍ ، إِذا قلتَ الشعرَ . . فقُل مِثلَ هَـٰذَا ، وأَنشدَ قولَ مروانَ بنِ أَبي حفصةَ [في « ديوانِهِ » ٨٨ـ٨٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

بَنُـو مَطَـرٍ يَـوْمَ اللِّقَـاءِ كَـأَنَّهُـمْ أُسُـودٌ لَهُـمْ فِـي بَطْـنِ خُفَّـانَ أَشْبُـلُ
بَهَالِيـلُ فِـي الإِسـلاَمِ سَـادُوا وَلَـمْ يَكُـنْ كَـأَوَّلِهِـمْ فِـي الْجَـاهِلِيَّـةِ أَوَّلُ
هُمُ الْقَوْمُ ، إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا أَجَابُـوا وَإِنْ أَعْطَـوْا أَطَـابُـوا وَأَجْـزَلُـوا
وَمَـا يَسْتَطِيـعُ الْفَـاعِلُـونَ فِعَـالَهُـمْ وَإِنْ أَحْسَنُـوا فِـي النَّـائِبَـاتِ وَأَجْمَلُـوا

فاهتز القاضي ، وأَعجبتْهُ الأَبياتُ كثيراً ، وقالَ : مَن قائلُها يا أَبا الفضلِ ؟ قالَ : مروانُ بنُ أَبي حفصَةَ في والدِ هَـٰذَا الفتىٰ . قالَ شراحيلُ : فرمقَني أَبو يوسفَ بعينَيهِ ـ وأَنا علىٰ فرسٍ لي عتيقٍ ـ وقالَ لي : مَن أَنْتَ يا فتىٰ ـ حيَّاكَ اللهُ تعالىٰ وقرَّبَكَ ؟ ـ قلتُ : أَنا شراحيلُ بنُ معنِ بنِ زائدَةَ الشيبانيُّ ، ثُمَّ قالَ شراحيلُ : وَاللهِ ما أَتَتْ عليَّ ساعةٌ قطُّ . . كانَتْ أَقرَّ لِعَيني مِن تلْكَ الساعةِ ارتياحاً وسُروراً .

وقالَ ابنُ ميَّادَةَ [في « ديوانِهِ » ٢٧٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

بَنُـو الصَّـالِحِيـنَ الصَّـالِحُـونَ وَمَـنْ يَكُـنْ لآبَـاءِ سُـوءٍ يَلْقَهُـمْ حَيْـثُ سَيَّـرَا
فَمَـا الْعُـودُ إِلاَّ نَـابِـتٌ فِـي أَرُومَـةٍ أَبَـىٰ شَجَـرُ الْعَيْـدَانِ أَنْ يَتَغَيَّـرَا[١]

وقالَ الكُميتُ [في « ديوانِهِ » ١/١٤٧] : [مِنَ البسيطِ]

تَجْـرِي أَصَـاغِـرُهُـمْ مَجْـرَىٰ أَكَـابِـرِهِـمْ وَفِـي أَرُومَتِـهِ مَـا يَنْبُـتُ الشَّجَـرُ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانِهِ » ٢/٨٣] : [مِنَ الوافرِ]

فُـرُوعٌ لاَ تَـرِفُّ عَلَيْـكَ إِلاَّ شَهِـدْتَ بِهَـا عَلَـىٰ طِيـبِ الأُرُومِ
وَفِـي الشَّـرَفِ الْحَـدِيـثِ دَلِيـلُ صِـدْقٍ لِمُخْتَبِـرٍ عَلَـى الشَّـرَفِ الْقَـدِيـمِ

وقالَ أَبو عُبادَةَ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا بِـيَ مِـنْ خَيْـرٍ وَشَـرٍّ فَـإِنَّهَـا سَجِيَّـةُ آبَـائِـي وَفِعْـلُ جُـدُودِي
هُـمُ الْقَـوْمُ فَـرْعِـي مِنْهُـمْ مُتَفَـرِّعٌ وَعُـودُهُـمُ عِنْـدَ الْحَـوَادِثِ عُـودِي

وقالَ [في « ديوانِهِ » ٣/٨٣٦] : [مِنَ الكاملِ]

نَسَـبٌ كَمَـا اطَّـرَدَتْ كُعُـوبُ مُثَقَّـفٍ لَـدْنٍ يَـزِيـدُكَ بَسْطَـةً فِـي الطُّـولِ[٢]

وقالَ [في « ديوانِهِ » ١/٢٤٧ـ٢٤٨] : [مِنَ الكاملِ]

شَـرَفٌ تَتَـابَـعَ كَـابِـراً عَـنْ كَـابِـرٍ كَـالـرُّمْـحِ أُنْبُـوبـاً عَلَـىٰ أُنْبُـوبِ
وَأَرَى النَّجَـابَـةَ لاَ يَكُـونُ تَمَـامُهَـا لِنَجِيـبِ قَـوْمٍ لَيْـسَ بِـابْـنِ نَجِيـبِ

---

(١) العَيدانُ : جمع عيدانةٍ ، وهي أَطولُ ما يكونُ من النخلِ ، ولا تكونُ عيدانةٌ حتىٰ يسقطَ كَرَبُها كلُّهُ ويصيرُ جذعها أَجردَ من أَعلاهُ إِلىٰ أَسفلهِ .
(٢) اللدْنُ : الليِّنُ .

وقالَ [في « ديوانِهِ » ١/ ٥١٠] : [مِنَ الخفيفِ]

وَهُـوَ الْمَجْـدُ لَيْسَ يَحْـوِيـهِ مَـنْ لَـمْ ... يَتَقَـــدَّمْ فِيـــهِ أَبُـــوهُ وَجَـــدُّهْ

وقالَ [في « ديوانِهِ » ٤/ ٢٤٠٥] : [مِنَ الكاملِ]

لاَ عُــذْرَ لِلشَّجَـرِ الَّـذِي طَـابَـتْ لَـهُ ... أَعْــرَاقُــهُ أَنْ لاَ يَطِيــبَ جَنَــاهُ

وفي أصدقِ الكلامِ : ﴿قَالُواْ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۞ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم : ٢٧ـ٢٨] .

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ١٥٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَتَـــىً عَلَّمَتْـــهُ نَفْسُـــهُ وَجُـــدُودُهُ ... قِـرَاعَ الأَعَـادِي وَابْتِـذَالَ الـرَّغَـائِـبِ

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٢٩٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـلاَ قَطَـعَ الـرَّحْمَـٰـنُ أَصْـلاً أَتَـىٰ بِـهِ ... فَـإِنِّـي رَأَيْـتُ الطَّيِّـبَ الطَّيِّـبَ الأَصْـلِ

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١٣٢] : [مِنَ الكاملِ]

أَفْعَــالُ مَــنْ تَلِـدُ الْكِـرَامُ كَـرِيمَـةٌ ... وَفِعَــالُ مَــنْ تَلِـدُ الأَعَـاجِـمُ أَعْجَـمُ[1]

[صلاح الآباء يسري إلى الأبناء]

ولاَ شَكَّ أَنَّ لأَحوالِ الآباءِ علاقَةً قويَّةً بأَحوالِ الأَبناءِ ـ صلاحاً وفساداً ـ مِنْ الأَبِ السابعِ فمنْ دونَهُ ، كما فصَّلْتُ ذلِكَ ودلَّلْتُ عليهِ بالشَّرْعِ وأَقوالِ أَهلِ الأَدبِ في رسالَةٍ لي في علْمِ الأَخلاقِ ، غيرَ أَنَّ ذلِكَ كثيراً ما يتخلَّفُ لأَسبابٍ عاديَّةٍ ، وأُمورٍ خارجيَّةٍ ، فكَمْ مِن جليلٍ ذهبَ أَبناؤُهُ في غيرِ طريقِهِ ، كما يحكىٰ عن بعضِ أَولادِ سيِّدي عبدِ القادرِ الجيلانيِّ .

وخرجَ أَحدُ أَبناءِ إمامِ دارِ الهجرَةِ ومعهُ الحَمامُ يلعبُ بِهِ ـ وقد طرَّ عِذارُهُ ـ فتغامَزَ أَصحابُ الإمامِ . . ففطنَ لذلِكَ وقالَ [في « الديباجِ المذهَّبِ » ١٨] : الأَدبُ أَدبُ اللهِ لا آدابُ الآباءِ والأُمَّهاتِ .

ويحكىٰ : أَنَّ ابنَ عرفَةَ حضَرَ عقدَ نكاحِ شيخِهِ ابنِ عبدِ السلامِ لولدِهِ ، وكُتِبَ خطُّ الصَّداقِ ، ووضَعَ أَهلُ المجلِسِ شهادَتَهُم فيهِ ، فلمَّا وصلَ إلى ابنِ عرفَةَ ليكتُبَ شهادَتَهُ . . وجَدَ فيهِ : تزوَّجَ العالِمُ الفاضِلُ ، فامتنَعَ من كتابَةِ شهادَتِهِ ، وقالَ : لَم أَعرفْ لَهُ علماً حَتَّىٰ أَشهدَ بِهِ ، فقالَ لَهُ شيخُهُ : إِنَّكَ جاهِلٌ ، إِنَّما أَنتَ تشهدُ على النكاحِ لا العلمِ .

ويستنتَجُ منهُ : أَنَّ ابنَ الشيخِ لَم يكنْ عالِماً ، وهو موضعُ الشاهِدِ ، وأَنَّهم تسامَحوا بذكرِ العلْمِ في الوثيقَةِ معَ عدمِ وجودِهِ ، وأَنَّ الشيخَ أَغضبَهُ انتزاعُ صفةِ العلمِ عَن ولدِهِ ، وإلاَّ . . فما كانَ لَهُ أَنْ يخاطِبَ الإمامَ ابنَ عرفَةَ بقولِهِ : يا جاهِلُ ، وإِنْ كانَ تلميذاً لَهُ .

أَمَّا حكمُ المسأَلَةِ : فقدْ قرَّرْناهُ في المسأَلَةِ (٩٤٠) من كتابِنا « صَوبِ الركامِ » .

---

(١) الأَعجمُ عندَ العربِ : هوَ اللئيمُ .

وعبارَةُ « **الجَمْع** » لابنِ السبكيِّ : وموردُ الصدْقِ والكذبِ النسبةُ التي تضمَّنَها ؛ أَي : الخبرُ لَيسَ غيرُ ، كقائِمٍ في (زيدُ بنُ عمروٍ قائمٌ) لا بنوَّةُ زيدٍ ، ومِن ثمَّ قالَ مالكٌ وبعضُ أَصحابِنا : الشهادَةُ بتوكيلِ فلانِ بنِ فلانٍ فلاناً ، شهادةٌ بالوكالَةِ فقط ، والمذهَبِ بالنَّسَبِ ضِمناً ، والوكالَةِ أَصلاً . انتَهت . وما ذكرهُ آخِراً هُو الذي لاحظَهُ ابنُ عرفَةَ ، واعتمدَهُ ابنُ حجرٍ في « **تحفَتِهِ** » .

[وقبل كل شيء السعادة الأزلية]

وفي « **تفسيرِ البَغَوِيِّ** » [٣/ ٢٢٩] : أَنَّ السامريَّ ـ الذي عبدَ العجلَ ـ كانَ اسمُهُ موسىٰ ، وأَنَّهُ لمَّا ولدتْهُ أُمُّهُ في السنَةِ التي يقتَلُ فيها الأَبْنَاءُ . . وضعَتْهُ في كَهْفٍ مِن خَوفِها عليهِ ، فأَمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ جِبْرائِيلَ بتَربيَتِهِ ؛ لما سبقَ في الأَزَلِ لَهُ وبِهِ مِنَ الْفِتْنَةِ ، انتهىٰ بمعناهُ .

[قد تخلف الوردة شوكاً]

وفي ذلِكَ يقولُ بعضُهُم : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا الطِّفْلُ لَمْ يُكْتَبْ سَعِيداً تَخَلَّفَتْ ... ظُنُونُ مُرَبِّيهِ وَخَابَ الْمُؤَمَّلُ

فَمُوسَى الَّذِي رَبَّاهُ جِبْرِيلُ كَافِرٌ ... وَمُوسَى الَّذِي رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلُ

وقالَ حسَّانُ بنُ ثابتٍ ـ في هِجاءِ أَبي سفيانَ بنِ الحارثِ ـ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَبُوكَ أَبٌ حُرٌّ وَأُمُّكَ حُرَّةٌ ... وَقَدْ يَلِدُ الْحُرَّانِ غَيْرَ نَجِيبِ

وقالَ بعضُهُم يهجو شَقيقَهُ [كما في « الأغاني » ١٣/ ١١١] : [مِنَ الوافرِ]

أَبُوكَ أَبِي وَأَنْتَ أَخِي وَلَكِنْ ... تَفَاضَلَتِ الطَّبَائِعُ وَالظُّرُوفُ

وَأُمُّكَ حِينَ تُنْسَبُ أُمُّ صِدْقٍ ... وَلَكِنَّ ابْنَهَا طَبِعٌ سَخِيفُ[(١)]

وقالَ آخرُ : [مِنَ البسيطِ]

لَئِنْ فَخَرْتَ بِآبَاءٍ لَهُمْ نَسَبٌ ... لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِئْسَمَا وَلَدُوا

وقالَ غيرُهُ : [مِنَ الوافرِ]

إِذَا انْتَسَبُوا فَفَرْعٌ مِنْ قُرَيْشٍ ... وَلَكِنَّ الْفِعَالَ فِعَالُ عُكْلِ

وقالَ الحارثيُّ : [مِنَ الطَّويلِ]

شَرِيفٌ بِجَدَّيْهِ وَضِيعٌ بِنَفْسِهِ ... لَئِيمٌ مُحَيَّاهُ كَرِيمُ الْمُرَكَّبِ[(٢)]

وقالَ أَبو تَمَّامٍ [في « ديوانه » ٢/ ٢٢٩] : [مِنَ البسيطِ]

يَا أَكْرَمَ النَّاسِ آبَاءً وَمُفْتَخَراً ... وَأَلأَمَ النَّاسِ مَبْلُوّاً وَمُخْتَبَرَا

---

(١) **الطَّبِعُ** : الكَسِلُ .

(٢) **المُحيَّا** : الوجهُ . المُرَكَّبُ : الأصلُ ، تقولُ : فلانٌ كريم المُرَكَّبِ ؛ أي : كريمُ أَصلِ مَنْصِبِهِ في قومِهِ .

ونظرَ خالدُ بنُ صفوانَ إلىٰ لَئِيم نفسٍ كريمِ الأبوينِ . . فقالَ : سبحانَ مَن قالَ : يُخرجُ الخبيثَ من الطَّيِّبِ ، ثُمَّ أنشدَ لِحسَّانَ في أَبي سفيانَ ـ أيضاً ـ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـلاَ يَعْجَبَـنَّ النَّـاسُ مِنْـكَ وَمِنْهُمَـا فَمَـا خَبَـثٌ مِـنْ فِضَّـةٍ بِعَجِيـبِ

وقالَ النَّاظِمُ [في « العكْبَريِّ » ٤/ ١٤٤] : [مِنَ الوافرِ]

أَرَى الأَجْـدَادَ تَغْلِبُهَـا كَثِيـراً عَلَـى الأَوْلاَدِ أَخْـلاَقُ اللِّئَـامِ

ويقالُ فيمنْ لَؤُمَ أَبواهُ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَبٌ غَيْـرُ مَحْمُـودِ السَّجِيَّـاتِ سَفْلَـةٌ وَوَالِـدَةٌ فِيهَـا الْحَـدِيـثُ يَطُـولُ

وسمعَ بعضُ الصّالحينَ ولدَهُ يفتخرُ ، فقالَ لَهُ : أَمَّا أُمُّكَ : فقد اشتريتُها بثلاثينَ درهماً ، وأَمَّا أَبوكَ : فلا أَكثرَ اللهُ مثلَهُ في المسلمينَ .

[أبو دلامة وبنته]

وقالَ أَبو دُلامَةَ ـ في بنتٍ لَهُ بالَتْ عليهِ ـ [في « ديوانهِ » ٩٥] : [مِنَ الوافرِ]

بَلَلْـتِ عَلَـيَّ ـ لاَ حُيِّيـتِ ـ ثَـوْبِـي فَبَـالَ عَلَيْـكِ شَيْطَـانٌ رَجِيـمُ

ثُمَّ قالَ للسَّيِّدِ الحميريِّ : أَجزْ ، فقالَ من غيرِ تلبُّثٍ [كما في « ديوانِ أَبي دُلامةَ » ٩٥] : [مِنَ الوافرِ]

صَـدَقْـتَ أَبَـا دُلاَمَـةَ لَـمْ تَلِـدْهَـا مُطَهَّـرَةٌ وَلاَ فَحْـلٌ كَـرِيـمُ
وَلَكِـنْ قَـدْ حَـوَتْهَـا أُمُّ سُـوءٍ إِلَـىٰ لَبَّـاتِهَـا وَأَبٌ لَئِيـمُ

فقالَ أَبو دُلامَةَ : لَعنَةُ اللهِ عليكَ ، ما دعاكَ إلىٰ هـٰذا كلِّهِ .

[خسة الأم تودي بالأبناء إلى الحضيض]

أَمَّا خِسَّةُ الأُمِّ . . فكثيراً ما تأخذُ بأَبنائِها إلى الحضيضِ ، وإِنْ كرمَتِ الآباءُ ، قالَ بعضُ العربِ [وهو رافعُ بنُ هُرَيمٍ في « لسان العرب » ٦/ ٢٠١] : [مِنَ الوافرِ]

وَلَـوْ كُنْتُـمْ لِمُكْيِسَـةٍ لَكِسْتُـمْ وَكَيْـسُ الأُمِّ يَظْهَـرُ فِـي الْبَنِينَـا[1]

وقالَ آخرُ [وهو أَوسُ بن حجرٍ في « ديوانه » ٥٦] : [مِنَ الوافرِ]

وَرِثْنَـا الْمَجْـدَ عَـنْ آبَـاءِ صِـدْقٍ أَسَـأْنَـا فِـي دِيَـارِهِـمُ الصَّنِيعَـا
إِذَا الْحَسَـبُ الصَّمِيـمُ تَـدَاوَلَتْـهُ بَنَـاتُ السُّـوءِ أَوْشَـكَ أَنْ يَضِيعَـا

وقالَ خفافُ بنُ ندبَةَ [في « ديوانه » ١٠٨] : [مِنَ المتقاربِ]

كِـلاَنَـا يُسَـوِّدُهُ قَـوْمُـهُ عَلَـىٰ ذَلِـكَ النَّسَـبِ الْمُظْلِـمِ

يَعني : أَنَّهُ هُوَ والعبَّاسُ بنُ مرداسٍ يسوِّدُهما قومهُما ، مع أَنَّهما مِن جاريتَينِ .

---

(١) مُكْيِسَةٌ : تلدُ الأكياسَ ، والأكياسُ : همُ الأذكياءُ المتوقِّدونَ .

وقالَ الأعورُ الشنيُّ [كما في « لسان العرب » ١٠/٤٤٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا يَسْتَوِي الْمَرْآنِ هَـٰذَا ابْنُ حُرَّةٍ ... وَهَـٰذَا هَجِينٌ بَضْعَةٌ مُتَشَرَّكُ[١]
قَعَدْنَ بِهِ خَالاتُهُ فَخَذَلْنَهُ ... أَلاَ إِنَّ عِرْقَ السُّوءِ لاَ بُدَّ يُدْرَكُ

وقالَ الحصينُ بنُ الحُمامِ [بل يزيد بن الحكم كما في « ديوان الحماسة » ١/٧٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

دَفَعْنَاكُمُ بِالْحِلْمِ حَتَّىٰ بَطِرْتُمُ ... وَبِالْكَفِّ حَتَّىٰ كَانَ دَفْعُ الأَصَابِعِ[٢]
فَلَمَّا رَأَيْنَا جَهْلَكُمْ غَيْرَ مُنْتَهٍ ... وَمَا قَدْ مَضَىٰ مِنْ حِلْمِكُمْ غَيْرَ رَاجِعِ
مَسَسْنَا مِنَ الآبَاءِ شَيْئاً وَكُلُّنَا ... إِلَىٰ حَسَبٍ فِي قَوْمِهِ غَيْرُ وَاضِعِ
فَلَمَّا بَلَغْنَا الأُمَّهَاتِ وَجَدْتُمُ ... بَنِي عَمِّكُمْ كَانُوا كِرَامَ الْمَضَاجِعِ[٣]

[اختيار الأم من الدين]

فتَخَيُّرُ الأُمَّهاتِ مِن وَاجباتِ الشرْعِ ، وقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ ؛ فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَّاسٌ** »[٤] .

وقالَ الشاعرُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَوَّلُ إِحْسَانِي إِلَيْكُمْ تَخَيُّرِي ... لِمَاجِدَةِ الأَعْرَاقِ بَادٍ عَفَافُهَا

وقالَ أبو عبيدَةَ العنبريُّ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَوَّلُ خُبْثِ الْمَرْءِ خُبْثُ تُرَابِهِ ... وَأَوَّلُ لُؤْمِ الْقَوْمِ لُؤْمُ الْحَلاَئِلِ

وقالَ الزُّبيرُ بنُ العوَّامِ [متمثلاً بكلام سيدنا أبي بكر رضي الله عنه كما في « المنتظم حتىٰ سنة : (٢٥٧ هـ) » ٤/٣٤٥] : مَن أَرادَ أَنْ يتزوَّجَ امرأَةً . . فلينظُرْ إلىٰ أبيها وأَخيها ، فإنَّها تجيءُ لَهُ بمثْلِ أَحدِهما .

ويروىٰ [كما في « لسان العرب » ١/٩١] : أَنَّ قيسَ بنَ عاصمٍ المنقريَّ ـ سيِّدَ أَهلِ الوبَرِ ـ : قامَ يُرَقِّصُ وَلداً لَهُ مِن نفُوسَةَ ابنةِ زيدِ الفوارسِ . . فقالَ لَهُ : [مِنَ الرجَزِ]

أَشْبِهْ أَبَا أُمِّكَ أَوْ أَشْبِهْ حَمَلْ ... وَارْقَأْ إِلَى الْخَيْرَاتِ زَنْأً فِي الْجَبَلْ[٥]

---

(١) البَضعَةُ : القطعةُ والجزءُ . مُتَشَرَّكُ : اشتركَ فيهِ كثيرونَ .

(٢) البَطَرُ : قلَّةُ احتمالِ النعمة .

(٣) المضاجع : كناية عن الأزواج ، أي : نظرنا فإذا نحن وأنتم سواء في شرف الآباء ، ولكننا أكرم أمهات منكم .

(٤) هـٰذا طرفٌ من حديثين : عن عائشة رضي الله عنها أخرجَ الشطرَ الأوَّل منه ابنُ ماجه (١٩٦٨) والحاكمُ في « المستدرك » (٢٦٨٧) ، بلفظ : « تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ ، وَأَنْكِحُوا الأَكْفَاءَ . . » .
وأخرجَ الشطرَ الثاني منه أبو عبد الله القُضاعي في « مسندِ الشهاب » (٦٣٨) بلفظ : « . . . وَانْظُرْ فِي أَيِّ نِصَابٍ تَضَعُ وَلَدَكَ ، فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَّاسٌ » .

(٥) الزنأُ : الصعودُ . ولكن هـٰذا البيت متداخل من بيتين وهما :

أَشْبِهْ أَبَا أُمِّكَ أَوْ أَشْبِهْ حَمَلْ ... وَلاَ تَكُونَنَّ كَهِلَّوْفٍ وَكَلْ
يُصْبِحُ فِي مَضْجَعِهِ قَدِ انْجَدَلْ ... وَارْقَأْ إِلَى الْخَيْرَاتِ زَنْأً فِي الْجَبَلْ

فأخذتْهُ نفُوسَةُ ، وقالَتْ : [مِنَ الرجَزِ]

أَشْبِــهْ أَخِــي أَوْ أَشْبِهَــنْ أَبَــاكَــا ... أَمَّــا أَبِــي فَلَــنْ تنَــالَ ذَاكَــا

تَقْصِرُ أَنْ تنَالَهُ يَدَاكَا

ومِن أَمدَحِ ما يكونُ بالخؤُولَةِ . . قولُ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانه » ١/ ٢١] : [مِنَ الكامِلِ]

وَخُــؤُولَــةٍ فــي هَــاشِــمٍ وَدَّ الْعِـدَا ... أَنْ لَــمْ تَكُــنْ وَلَهُــمْ بِهَــا مَــا شَــاؤُوا

بَيْــنَ الْعَــوَاتِــكِ وَالْفَــوَاطِــمِ مُنْتَمَــىٰ ... تَــزْكُــوا بِــهِ الأَخْــوَالُ وَالآبَــاءُ

[أخت لقمان تأتي بولد منه]

ويُذكرُ [كما في « البيان والتبيين » ١/ ١٠٨] : أَنَّ أُختَ لقمانَ كانَتْ تحتَ رجُلٍ لا يُنجِبُ ، فالتمَسَتْ مِن زَوجِهِ أَنْ تدَعَ لَها فراشَ أَخيها ليلَةً ـ مِن حيثُ لاَ يشعُرُ ـ فاشتملَتْ منهُ علىٰ ولدٍ باسقَةٍ ، يقولُ فيهِ النمرُ بنُ تولَبَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ [في « ديوانه » ١٠٦ـ١٠٧] : [مِنَ المتقارِبِ]

لُقَيْــمُ بْــنُ لُقْمَــانَ مِــنْ أُخْتِــهِ ... وَكَــانَ ابْــنَ أُخْــتٍ لَــهُ وَابْنَمَــا

لَيَــالِــيَ حُمِّــقَ فَــاسْتَحْصَنَــتْ ... إِلَيْــهِ فَجَــامَعَهَــا مُظْلِمَــا

فَــأَحْبَلَهَــا رَجُــلٌ نَــابِــهٌ ... فَجَــاءَتْ بِــهِ رَجُــلاً مُحْكَمَــا

و(حُمِّقَ) : مَبْنِيٌّ لِلْمفعولِ مشدَّدٌ ، والمرادُ : لَيالي شَربَ الخمرَ ، وليسَ هَـٰذَا بلقمانَ الحكيمِ ، وإِنَّما هُوَ غيرُهُ على الأَشهرِ .

[حاتم الطائي يخطب امرأة فترده]

ويروىٰ : أَنَّ حاتِماً الطائِيَّ خطَبَ هِندَ ابنةَ عتبَةَ . . فرغبتْ عَنْهُ ، ولَمَّا عَذلَها أَهلُها . قالَتْ : إِنَّهُ لا ينجِبُ ، فتزوَّجَ أُخرىٰ وولدَتْ لَهُ غُلاماً ، حَتَّىٰ إِذا بلَغَ سِنَّ التمييزِ . . خرجَ بِهِ أَبوهُ يستعرِضُ النَّعَمَ ، فرأَىٰ عِجْلَةً صغيرةً أَعجبَتْهُ ، فقالَ : يا أَبتِ مِن أَيِّ الخَيلِ هَـٰذِهِ ؟ قالَ : صدقَتْ هِندٌ إِذْ زَعمَتْ أَنِّي لا أُنجبُ .

وقد أَنكرَ بعضُ المتحذلِقينَ هَـٰذَا مرَّةً عَلَيَّ ، وقالَ : فيهِ حطٌّ مِن مقامِ عديِّ بنِ حاتِمٍ رِضْوانُ اللهِ عليهِ ، فقلْتُ لَهُ :

أَوَّلاً : إِنَّهُ لَم يتعيَّن في الروايَةِ ، وَإِنْ كانَ أَكثرَ الظنِّ أَنَّهُ المرادُ .

وأَمَّا ثانياً : فَإِنَّهُ غيرُ مدافِعٍ في شَرَفِ صحبتِهِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ ، وحسنِ وفائِهِ لعليٍّ رِضوانُ اللهِ عَلَيْهِم أَجمعينَ ، ومعَ ذلِكَ . . فقدْ دفعَهُ عنِ النَّجابَةِ مَنْ لا ينطِقُ عَنِ الْهَوىٰ ، وقالَ لَهُ : « **إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا** »(١) .

وَأَمَّا شرفُ الأُمِّ : فقلَّمَا يفيدُ إِلاَّ بمساعَدَةٍ مِن جهَةِ الأَبِ .

قالَ غسانُ بنُ وَعْلَةَ [في « ديوان الحماسة » ١/ ٢٠١] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا كُنْــتَ فِــي سَعْــدٍ وَأُمُّــكَ مِنْهُــمُ ... شَطِيــراً فَــلا يَغْــرُرْكَ خَــالُــكَ مِــنْ سَعْــدِ

وَإِنَّ ابْــنَ أُخْــتِ الْقَــوْمِ مُصْغــىً إِنَــاؤُهُ ... إِذَا لَــمْ يُــزَاحِــمْ خَــالُــهُ بِــأَبٍ جَلْــدِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٥١٠) في التفسير ، **عريضُ القفا** : كثيرُ النومِ ، وذلكَ دليلُ الغباوَةِ .

[قد يستفرغ الآباء الشرف والمجد ولا يبقون لأعقابهم شيئاً]

وكثيراً ما يستفرغُ الآباءُ فروعَ المجدِ والشرفِ ، ولا يبقونَ لأعقابِهم منْهُ إلاَّ النزْرَ الحقيرَ ، كما رأيتُهُ في « **شرح النهج** » [١٢/٤٥] عَن حالِ سيِّدِنا عمرَ بنِ الخطَّابِ ، وقد ذُكِرَ لآبائِنا مِنَ الْعِلْمِ والعبادَةِ والورَعِ والزهادَةِ . . ما تكادُ تنخرِقُ بهِ العادَةُ ، يشهَدُ ببعضِهِ النقلُ ، ويدلُّ لَهُ العِيانُ ، وإِنْ دَفَعَ العقلُ ، وقد حصلَ لأَعقابِهِم مِنَ الانْحِطَاطِ ما أَخشىٰ أَن يكونَ مصداقَ ما أُثِرَ عنِ ابنِ الخطَّابِ .

[متىٰ ينفع الحسب والنسب الابن]

ثُمَّ إِنَّ شرفَ الآباءِ لاَ ينتفِعُ بهِ الأبناءُ إِلاَّ إِذا كانوا منهُ علىٰ طرَفٍ صالحٍ ، بشهادَةِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الطور : ٢١] .

وقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا** »(١) .

وللهِ درُّ سيِّدِنا الحدَّادِ في قولِهِ : [مِنَ المديدِ]

لاَ وَلاَ تَقْنَــعْ بِكَــانَ أَبِــي ... وَاتَّبِـعْ فِـي الْهَـدْيِ خَيْـرَ نَبِـي

وقالَ عديُّ بنُ زيدٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَوَارِثِ مَجْـدٍ لَـمْ يَنَلْـهُ وَمَـاجِـدٍ ... أَصَـابَ بِمَجْـدٍ طَـارِفٍ غَيْـرِ مُتْلَـدِ
فَـلا تَغْفِـرَنْ عَـنْ سَعْـيِ مَـنْ قَـدْ وَرِثْتَـهُ ... وَمَـا اسْطَعْـتَ مِـنْ خَيْـرٍ لِنَفْسِـكَ فَازْدَدِ

وقالَ كشاجمُ [في « ديوانه » ٢٨٥] : [مِنَ الكاملِ]

وَإِذَا افْتَخَـرْتَ بِـأَعْظُـمٍ مَقْبُـورَةٍ ... فَـالنَّـاسُ بَيْـنَ مُكَـذِّبٍ وَمُصَـدِّقِ
فَـأَقِـمْ لِنَفْسِـكَ فِـي انْتِسَابِـكَ شَـاهِـداً ... بِحَـدِيـثِ مَجْـدٍ لِلْقَـدِيـمِ مُحَقِّـقِ

وقالَ آخرُ [الفرزدقُ في « ديوانه » ٢/٣٥٠] : [مِنَ الكاملِ]

زَانُـوا قَـدِيمَهُـمُ بِحُسْـنِ حَـدِيثِهِـمْ ... وَكَـرِيْـمَ أَخْـلاَقٍ بِحُسْـنِ وُجُـوهِ

وقالَ غيرُهُ : [مِنَ الكاملِ]

قَـدْ زَيَّنُـوا أَحْسَـابَهُـمْ بِسَمَـاحِهِـمْ ... لاَ خَيْـرَ فِـي حَسَـبٍ بِغَيْـرِ سَمَـاحِ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانه » ١/٢٧٩] : [مِنَ المنسرحِ]

وَلَسْـتُ أَعْتَـدُّ لِلْفَتَـىٰ حَسَبـاً ... حَتَّـىٰ يُـرَىٰ فِـي فِعَـالِـهِ حَسَبُـهْ

وقالَ ابنُ الروميِّ [في « ديوانه » ١/١٥٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا الْحَسَـبُ الْمَـوْرُوثُ لاَ دَرَّ دَرُّهُ ... لَمُحْتَسَـبٌ إِلاَّ بِـآخَـرَ مُكْتَسَـبْ(٢)
إِذَا الْغُصْـنُ لَـمْ يُثْمِـرْ وَإِنْ كَـانَ شُعْبَـةً ... مِنَ الْمُثْمِرَاتِ اعْتَدَّهُ النَّاسُ فِي الْحَطَبْ

---

(١) أخرجهُ البخاري (٣٤٩٣) في المناقب .

(٢) مُحتَسَبٌ : مِن العدِّ ؛ أي : محسوبٌ ومعدودٌ في مَفاخِرِك .

وقالَ الببَّغا : [مِنَ الطَّويلِ]

إذَا الْمَـرْءُ لَـمْ يَبْـنِ افْتِخَـاراً لِنَفْسِـهِ تَضَـايَـقَ عَنْـهُ مَـا بَنَتْـهُ جُـدُوْدُهُ
وَلاَ خَيْـرَ فِيمَـنْ لاَ يَكُـونُ طَـرِيقُـهُ دَلِيـلاً عَلَـىٰ مَـا شَـادَ قِـدْمـاً تَلِيـدُهُ

وقالَ آخرُ [كما في « سير أعلام النبلاء » ٤/٤١١] : [مِنَ المتقاربِ]

وَمَـا يَنْفَـعُ الأَصْـلُ مِـنْ هَـاشِـمٍ إِذَا كَـانَـتِ النَّفْـسُ مِـنْ بَـاهِلَـهْ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ١/١٥٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا عَلَـوِيٌّ لَـمْ يَكُـنْ مِثْـلَ طَـاهِـرٍ فَمَـا هُـوَ إِلاَّ حُجَّـةٌ لِلنَّـوَاصِـبِ(١)

وقال الخزَيميُّ [في « ديوانِهِ » ٥٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا أَنْـتَ لَـمْ تَحْـمِ الْقَـدِيـمَ بِحَـادِثٍ مِنَ الْمَجْدِ لَمْ يَنْفَعْكَ مَا كَانَ مِنْ قَبْلُ

وما أَكثَرَ ما يقولُ المهلَّبُ ابنُ أَبي صفرَةَ لبنيهِ : لا تتَّكِلوا علىٰ ما سبقَ من فِعْلي ، وافعَلوا ما يُنسَبُ إِليَّ ، ثُمَّ ينشدُ متمثِّلاً [البيت لقيس بن عاصم كما في « الأغاني » ١٤/٨٢] : [مِنَ الخفيفِ]

إِنَّمَـا الْمَجْـدُ مَـا بَنَـىٰ وَالِـدُ الصِّـدْ قِ وَأَحْيَـا فِعَـالَـهُ الْمَـوْلُـودُ(٢)

وسَمعَ ابنُ أَبي ربيعَةَ إِنساناً يقولُ : [مِنَ المنسرحِ]

كُـنِ ابْـنَ مَـنْ شِئْـتَ وَاكْتَسِـبْ أَدَبـاً يُغْنِيـكَ مَحْمُـودُهُ عَـنِ النَّسَـبِ

فقالَ لَهُ : اسكتْ ، لاَ فخرَ لَكَ في ذلِكَ ، ثُمَّ أَنشأَ يقولُ : [مِنَ المنسرحِ]

لاَ فَخْـرَ إِلاَّ فَخَـارُ مُنْتَخَـبِ يَسْمُـو بِـأُمٍّ كَـرِيمَـةٍ وَأَبِ

وقالَ الشريفُ الرضيُّ [في « ديوانِهِ » ١/١٦٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَخَـرْتُ بِنَفْسِـي لاَ بِقَـوْمِـي مُـوَفِّـراً عَلَـىٰ نَـاقِصِـي قَـوْمِـي مَـآثِـرَ أُسْرَتِـي

---

(١) النواصبُ : الخوارجُ ، وسُمُّوا بذلك لنصبهمُ العداوة لعليٍّ رضي الله عنه .

(٢) هـٰذا البيتَ قالهُ قيسُ بنُ عاصمٍ حين كان يُحتَضَرُ ، وهوَ مِن ضِمنِ وَصيَّةٍ لهُ وهيَ :
يا بَنيَّ إِذا مِتُّ . . فَسُودوا كبارَكُم ، ولا تَسُودوا صغارَكُم ؛ فيُسَفِّهَ الناسُ كبارَكم ، وعليكم بإِصلاحِ المالِ ؛ فإِنَّهُ مَنْبَهَةٌ للكريمِ ، وبهِ يُستغنىٰ عَنِ اللئيمِ ، وإِذا مِتُّ . . فادفنوني في ثيابي التي كنتُ أُصلِّي فيها وأَصومُ . . . ثُمَّ جمعَ ثمانينَ سَهماً وربطَها بوترٍ ، ثُمَّ قالَ : اكسِروها فلَمْ يستطيعوا ، ثُمَّ قالَ : فرِّقوا ، فَفرَّقوا ، فقالَ : اكسِروها سَهماً سَهماً فَكَسروها ، ثُمَّ قالَ : هَكذا أَنتم في الاجتماعِ وفي الفُرقَةِ ، ثُمَّ قالَ :

إِنَّمَـا الْمَجْـدُ مَـا بَنَـىٰ وَالِـدُ الصِّـدْ قِ وَأَحْيَـا فِعَـالَـهُ الْمَـوْلُـودُ
وَتَمَـامُ الْفَضْـلِ الشَّجَـاعَـةُ وَالْحِلْـ ـمُ إِذَا زَانَـهُ عَفَـافٌ وَجُـودُ
وَعَلَيْكُـمْ حِفْـظُ الأَصَـاغِـرِ حَتَّـىٰ يَبْلُـغَ الْحِنْـثَ الأَصْغَـرُ الْمَجْهُـودُ

ثُمَّ ماتَ ، فقالَ عَبدةُ بنُ الطيِّبِ يرثيهِ :

عَلَيْـكَ سَـلاَمُ اللهِ قَيْـسَ بْـنَ عَـاصِـمٍ وَرَحْمَتُـهُ مَـا شَـاءَ أَنْ يَتَـرَحَّمَـا
تَحِيَّـةَ مَـنْ أَوْلَيْتَـهُ مِنْـكَ نِعْمَـةً إِذَا زَارَ عَـنْ شَحْـطٍ بِـلاَدَكَ سَلَّمَـا
فَمَـا كَـانَ قَيْـسٌ هُلْكُـهُ هُلْـكُ وَاحِـدٍ وَلَكِنَّـهُ بُنْيَـانُ قَـوْمٍ تَهَـدَّمَـا

إلاَّ أَنَّهُ واللهِ أَساءَ الأَدبَ ؛ إِذ الانتسابُ إِلىٰ سادَةِ الكونِ لا يوازيهِ فخرٌ ، ولاَ يدانيهِ مجدٌ ، ولو أَنَّهُ افترشَ الثريَّا ، وأَوطأَ قدمَهُ السَّماءَ .

وقالَ أَبو عُبادةَ [كما في « ديوانه » ١/٨] : [مِنَ الكاملِ]

أَغْنَىٰ جَمَاعَةَ طَيِّءٍ عَمَّا ابْتَنَتْ ... آبَاؤُهَا الْقُدَمَاءُ لِلأَبْنَاءِ
فَإِذَا هُمُ افْتَخَرُوا بِهِ لَمْ يَبْجَحُوا ... بِقَدِيمِ مَا وَرِثُوا مِنَ الْعَلْيَاءِ[١]

وقالَ لبعضِ العلويَّةِ وقد أَكرمَهُ [كما في « ديوانه » ٣/١٩٦٣] : [مِنَ الكاملِ]

لاَ تُوجِبَنْ لِكَرِيمِ أَصْلِكَ مِنَّةً ... لَوْ كُنْتَ مِنْ عُكْلٍ لَكُنْتَ كَرِيمَا

وقالَ دِعْبلٌ [في « ديوانه » ٦٨] : [مِنَ البسيطِ]

لَوْ لَمْ تَكُنْ لَكَ أَجْدَادٌ تَنُوءُ بِهِمْ ... إِلاَّ بِنَفْسِكَ نِلْتَ النَّجْمَ مِنْ كَثَبِ

وكانَ الأَحرىٰ بالرضيِّ أَن يقولَ ما قالَ أَبو المظفَّرِ الأَبْيَوَرْدِيُّ ، الفقيهُ الشافعيُّ ؛ لأَنَّهُ الأَحقُّ بهِ ، وهوَ [في « طبقات ابن السبكي » ٦/٨٣] : [مِنَ الكاملِ]

يَا مَنْ يُسَاجِلُنِي وَلَيْسَ بِمُدْرِكٍ ... شَأْوِي وَأَيْنَ لَهُ جَلاَلَةُ مَنْصِبِي ؟!
لاَ تَتْعَبَنَّ فَدُونَ مَا حَاوَلْتَهُ ... خَرْطُ الْقَتَادَةِ وَامْتِطَاءُ الْكَوْكَبِ
وَالْمَجْدُ يَعْلَمُ أَيُّنَا خَيْرٌ أَباً ... فَاسْأَلْهُ يَعْلَمْ أَيَّ ذِي حَسَبٍ أَبِي ؟
جَدِّي مُعَاوِيَةُ الأَغَرُّ سَمَتْ بِهِ ... جُرْثُومَةٌ مِنْ طِينِهَا خُلِقَ النَّبِي
وَوَرِثْتُهُ شَرَفاً رَفَعْتُ مَنَارَهُ ... فَبَنُوا أُمَيَّةَ يَفْخَرُونَ بِهِ وَبِي

[الفخار والمجد الذي لا يبيد]

ويروىٰ : أَنَّ الحسينَ دخلَ علىٰ يزيدَ بنِ معاويَةَ ، فجعلَ يزيدُ يفتخرُ ويقولُ : نحنُ ونحنُ ، والحسينُ ساكتٌ ، حَتَّىٰ أَذَّنَ المؤذِّنُ ، فلمَّا قالَ : أَشهدُ أَنَّ محمداً رسولُ اللهِ . . قالَ لَهُ : أَبو مَن هـٰذَا يا يزيدُ ؟ ولعلَّ الداخِلَ غيرُ الحسينِ مِن أَهلِ البيتِ ، أَو الْمَدخولَ عليهِ معاويَةُ .

ومِنْ هـٰذهِ القصَّةِ أَخذَ عليُّ بنُ محمَّدِ بنِ جعفرٍ قولَهُ : [مِنَ الطَّويلِ]

لَقَدْ فَاخَرَتْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عِصَابَةٌ ... بِمَطِّ خُدُودٍ وَامْتِدَادِ أَصَابِعِ
فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْفَخَارَ . . قَضَىٰ لَنَا ... عَلَيْهِمْ بِمَا نَهْوَىٰ نِدَاءُ الصَّوَامِعِ

وهوَ القائِلُ ـ أَيضاً ـ : [مِنَ المتقاربِ]

بَلَغْنَا السَّمَاءَ بِأَنْسَابِنَا ... وَلَوْلاَ السَّمَاءُ لَجُزْنَا السَّمَا
يَطِيبُ الثَّنَاءُ لآبَائِنَا ... وَذِكْرُ عَلِيٍّ يَزِينُ الثَّنَا

---

(١) يَبجحوا : يفخروا .

وقالَ ابنُ مَيَّادَةَ [في « ديوانهِ » ٢٠٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا حَـلَّ بَيْتِـي بَيْـنَ بَـدْرٍ وَمَـازِنٍ ... وَمُـرَّةَ نِلْـتُ الشَّمْـسَ وَاشْتَـدَّ كَـاهِلِـي

وقالَ إسحاقُ الموصليُّ [في « صبح الأعشىٰ » ١/٤٣٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا مُضَـرُ الْحَمْـرَاءُ كَـانَـتْ أَرُومَتِـي ... وَقَـامَ بِنَصْـرِي خَـازِمٌ وَابْـنُ خَـازِمِ

عَطَسْـتُ بِـأَنْفِـي شَـامِخـاً وَتَنَـاوَلَـتْ ... يَـدَايَ الثُّـرَيَّـا قَـاعِـداً غَيْـرَ قَـائِـمِ

وقالَ زُهيرٌ [في « ديوانهِ » ٢٢٨] : [مِنَ البسيطِ]

لَـوْ كَـانَ يَقْعُـدُ فَـوْقَ الشَّمْـسِ مِـنْ كَـرَمٍ ... قَـوْمٌ بِـأَوَّلِهِـمْ أَوْ مَجْـدِهِـمْ . . قَعَـدُوا

وقالَ النابغةُ الجعديُّ [في « ديوانهِ » ٧١] : [مِنَ الطَّويلِ]

بَلَغْنَـا السَّمَـاءَ مَجْـدُنَـا وَجُـدُودُنَـا ... وَإِنَّـا لَنَـرْجُـو فَـوْقَ ذَلِـكَ مَظْهَـرَا(١)

وقالَ الفرزدَقُ : [مِنَ الوافرِ]

فَلَـوْ أَنَّ السَّمَـاءَ دَنَـتْ لِمَجْـدٍ ... وَمَكْـرُمَـةٍ دَنَـتْ لَهُـمُ السَّمَـاءُ

وقالَ تميمُ بنُ مقبلٍ : [مِنَ الكاملِ]

نَـالُـوا السَّمَـاءَ فَـأَمْسَكُـوا بِعِنَـانِهَـا ... حَتَّـىٰ إِذَا كَـانُـوا هُنَـاكَ اسْتَمْسَكُـوا

وقالَ ابنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٦/٢٢٦٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَـدَلَّـوْا عَلَـىٰ هَـامِ الْمَعَـالِـي إِذَا ارْتَقَـىٰ ... إِلَيْهَـا أُنَـاسٌ غَيْـرُهُـمْ بِـالسَّـلاَلِـمِ

فأغارَ عليهِ صاحبُنَا فقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/٣١٠] : [مِنَ الكاملِ]

فَـوْقَ السَّمَـاءِ وَفَـوْقَ مَـا طَلَبُـوا ... فَـإِذَا أَرَادُوا غَـايَـةً نَـزَلُـوا

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/٢٢٨] : [مِنَ الوافرِ]

وَقَـالُـوا : هَـلْ يُبَلِّغُـكَ الثُّـرَيَّـا ؟ ... فَقُلْـتُ : نَعَـمْ ، إِذَا شِئْـتُ اسْتِفَـالاَ !!

ومِن غلوِّهِ قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/٣٥] : [مِنَ البسيطِ]

وَعَـزْمَـةٌ بَعَثْتَهَـا هِمَّـةٌ ، زُحَـلٌ ... مِـنْ تَحْتِهَـا بِمَكَـانِ التُّـرْبِ مِـنْ زُحَـلِ(٢)

---

(١) قال صاحبُ « العقدِ الفريد » (١/٢٥٦) :
وفدَ الشاعرُ علىٰ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ فأنشدَهُ البيتَ ، فقالَ له النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « إِلَىٰ أَيْنَ يَا أَبَا لَيْلَىٰ ؟ » قال : إلى الجنَّةِ . قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « إِنْ شَاءَ اللهُ » . فلما انتهىٰ إلىٰ قولهِ : [من الطويل]

وَلاَ خَيْـرَ فِـي حِلْـمٍ إِذَا لَـمْ تَكُـنْ لَـهُ ... بَـوَادِرُ تَحْمِـي صَفْـوَهُ أَنْ يُكَـدَّرَا

. . قالَ له النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « لاَ يَفْضُضِ اللهُ فَاكَ » فعاشَ مئةً وثلاثين سنةً لم تُفضَضْ له سنٌّ .

(٢) زحل : اسم كوكبٍ .

وسمعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ رجلاً يُنشِدُ [كما في « خزانة الأدب » ١/٨٦] : [مِنَ البسيطِ]

إنِّـي امْـرُؤٌ حِمْيَـرِيٌّ حِيـنَ تَنْسِبُنِـي ... لاَ مِـنْ رَبِيعَـةَ آبَـائِـي وَلاَ مُضَـرِ

.. فقالَ لَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **ذٰلِكَ أَلأَمُ لَكَ ، وأَبْعَدُ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ** »[1] .

ومِمَّا يروىٰ للعبَّاسِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ [كما في « المستطرف » ١/٢٩٠] : [مِنَ الكاملِ]

إِنَّ الْقَبَـائِـلَ مِـنْ قُـرَيْـشٍ كُلَّهَـا ... لَيَـرَوْنَ أَنَّـا هَـامُ أَهْـلِ الأَبْطَـحِ

وَتَـرىٰ لَنَـا فَضْـلاً عَلَـىٰ سَـادَاتِهَـا ... فَضْـلَ الْمَنَـارِ عَلَـى الطَّـرِيـقِ الأَوْضَـحِ

[لا يجوز الافتخار بأهل الشرك]

ثُمَّ النهيُ عَنْ الْفَخرِ بالأَنسابِ إِنَّما ينحطُّ علىٰ مَنِ افتخرَ بأَهلِ الشركِ أَو الفسقِ ، أَو أَرادَ الباطلَ ، أَو أَفضىٰ إِلى الغلوِّ ، وإِلاَّ . . لَما اعتُبِرَتِ الأَنسابُ في نحوِ الإِمامَةِ والكفاءَةِ .

ويروىٰ : أَنَّ العبَّاسَ مرَّ بنفرٍ من قريشٍ ، يقولونَ : إِنَّما مثَلُ محمَّدٍ في أَهلِهِ كمثَلِ نخلَةٍ نبتَتْ في كُناسَةٍ ، فبلَّغَهُ ذلكَ ، وأَحفظَهُ حَتَّىٰ قامَ خطيباً ، وقالَ : « **أَيُّها النَّاسُ ، مَنْ أَنَا ؟** » قالوا : أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ، قالَ : « **فَأَنَا رَسُولُ اللهِ ، وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ خَلْقَهُ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ خَلْقِهِ ، ثُمَّ جَعَلَ الْخَلْقَ الَّذِي أَنَا مِنْهُم فِرْقَتَيْنِ ، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ الْفِرْقَتَيْنِ ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ شُعُوباً ، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ شَعْباً ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بُيُوتاً ، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ بَيْتاً ، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتاً وَوَالِداً ، وَإِنِّي مُبَاهٍ ، قُمْ يَا عَبَّاسُ** » فقامَ عَنْ يَمينِهِ ، ثُمَّ قالَ : « **قُمْ يَا سَعْدُ** » فقامَ عَنْ يَسارِهِ ، ثُمَّ قالَ : « **هَـٰذَا عَمِّي فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ عَمّاً مِثْلَهُ ، وَهَـٰذَا خَالِي فَلْيُرِنِي امرؤٌ خَالاً مِثْلَهُ** »[2] . أَوْ ما هَـٰذَا معناهُ .

وقد افتخرَ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يومَ تقاصرَتِ الْخُطىٰ ، وتقلَّصَتِ الخُصىٰ في حنينٍ ، بقولِهِ : « **أَنا النبيُّ لاَ كَذِبْ ، أَنا ابنُ عَبْدِ الْمَطَّلِبْ** »[3] .

واحتجَّ بِهِ الإِمامُ الرازيُّ : علىٰ إِيمانِ عبدِ المطلبِ ؛ لأَنَّهُ عليهِ السلامُ لَم يكُن لينتسِبَ في موضِعِ الفخْرِ إِلىٰ غيرِ مؤْمِنٍ .

وقد أَخرجَ البيهقيُّ في « **شُعَبِ الإِيمانِ** » [بنحوه (٥١٣٣) و(٥١٣٤)] : من حديث أُبيِّ بنِ كعبٍ ومعاذِ بنِ جبلٍ : أَنَّ رجلَين انتَسَبا علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، فقالَ أَحدُهما : أَنا فلانُ بنُ فلانٍ ، وقالَ الآخرُ : أَنا فلانُ بنُ فلانٍ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **انْتَسَبَ رَجُلاَنِ عَلَىٰ عَهْدِ مُوسَىٰ ، فقالَ أَحَدُهُمَا : أَنَا فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ إِلَىٰ تِسْعَةٍ ، وقَالَ الآخَرُ : أَنَا فُلانُ بْنُ فُلاَنِ بْنِ الإِسْلاَمِ ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَىٰ مُوسَىٰ : أَنْ قُلْ لِهَـٰذَيْنِ الْمُنْتَسِبَيْنِ : أَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا الْمُنْتَسِبُ إِلَىٰ تِسْعَةِ آبَاءٍ فِي النَّارِ . . فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ فِي النَّارِ ، وَأَمَّا أَنْتَ أَيُّها الْمُنْتَسِبُ إِلَى اثْنَيْنِ . . فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا فِي الْجَنَّةِ** » .

---

(١) لم نعثر عليه .

(٢) أورد نحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه في « كنز العمال » (٣٧٣٢٣) عند ابن النجار ، وعن جابر رضي الله عنه (٣٣٣٣١) ، ونسبه للترمذي والحاكم ، وعن أنس رضي الله عنه (٣٧٠٨٤) عند الطبراني والحاكم ، وعن جابر رضي الله عنه (٣٧٠٨٥) عند الترمذي والطبراني والحاكم وأبي نعيم .

(٣) أخرجهُ عن البراء البخاريُّ (٢٨٦٤) في الجهاد .



وأخرجَ البيهقيُّ ـ أيضاً ـ [بنحوه في «الشعب» ٥١٣٢] عن أبي ريحانةَ، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قالَ: «مَنِ انْتَسَبَ إِلَىٰ تِسْعَةِ آبَاءٍ كُفَّارٍ يُرِيدُ بِهِمْ عِزّاً وَشَرَفاً.. فَهُوَ عَاشِرُهُمْ فِي النَّارِ».

وأخرجَ ـ أيضاً ـ [بنحوه في «الشعب» ٥١٢٩] عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قالَ: «لاَ تَفْتَخِرُوا بِآبَائِكُمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَمَا يُدَهْدِهُ الْجُعَلُ[1] بِأَنْفِهِ خَيْرٌ مِنْ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ».

وأخرجَ ـ أيضاً ـ [بنحوه في «الشعب» ٥١٢٦] عن أبي هريرةَ، عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قالَ: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ، لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْخَرُونَ بِرِجَالٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ.. أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجُعْلاَنِ الَّتِي تَدْفَعُ النَّتَنَ بِأَنْفِهَا».

فما وردَ مِنَ النَّهيِ عَن مطلَقِ الافتخارِ محمولٌ علىٰ هٰذا التقييدِ، أو علىٰ ما سبقَ مِنَ الْغُلوِّ، أو إرادةِ الباطِلِ، ولَسنا بصددِ البحثِ عمَّا تقتضيهِ الأحاديثُ المذكورةُ مِن عذابِ أهلِ الفترةِ؛ لأنَّ لهُ موضعاً يخصُّهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ، نجمَعُ بهِ أطرافَ الكلامِ فيهِ، ولا أُطيلُ بما لي في مَعْتَبَةِ قومي على التخلُّفِ عَن آبائِهم ومبايَنَتِهم في أعمالِهم، ولا بما لي مِنَ الْفَخرِ بِنِسْبَتي الَّتي ينقطِعُ عنها النظيرُ، كما قلْتُ لولَدي [في «ديوان المؤلف» ٢٨٤]: [مِنَ البسيطِ]

وَأَنْتَ يَا ابْنِي لِجِذْمٍ طَابَ مَغْرِسُهُ ... يُسْقَىٰ بِمَاءٍ مِنَ الْفُرْقَانِ دَفَّاقِ[2]

أَرُومَةٌ لَوْ تَجَلَّىٰ نُورُ عُنْصُرِهَا ... فِي جُنْحِ دَاجِيَةٍ هَمَّتْ بِإِشْرَاقِ

وَنِسْبَةٌ كَالنُّجُومِ الزُّهْرِ مُنْقَطِعٌ ... عَنْهَا النَّظِيرُ ـ يَدُ الْمَوْلَىٰ ـ بِإِطْلاَقِ[3]

ويُعجِبُني قولُ الناظمِ [في «العُكبَريِّ» ٣/ ١٢١]: [مِنَ الطَّويلِ]

وَكُلُّ أَنَابِيبِ الْقَنَا مَدَدٌ لَهُ ... وَمَا يَنْكُتُ الْفُرْسَانَ إِلاَّ الْعَوَامِلُ[4]

وقولُهُ [في «العُكبَريِّ» ٣/ ٢٢٦]: [مِنَ الوافرِ]

سِنَانٌ فِي قَنَاةِ بَنِي مَعَدٍّ ... بَنِي أَسَدٍ إِذَا دَعَوُا النِّزَالاَ

وهُوَ مِن قولِ أَبي عُبادَةَ [في «ديوانه» ١/ ٥٤٨]: [مِنَ الكاملِ]

كَالرُّمْحِ فِيهِ بِضْعَ عَشْرَةَ فِقْرَةً ... مُنْقَادَةً تَحْتَ السِّنَانِ الأَصْيَدِ

وقالَ النامِيُّ [في «قرى الضيف» ١/ ٢٨٥]: [مِنَ الطَّويلِ]

قَنَاةٌ مِنَ الْعَلْيَاءِ أَنْتَ سِنَانُهَا ... وَتِلْكَ أَنَابِيبٌ إِلَيْكَ وَأَكْعُبُ

والمعنىٰ موجودٌ في قولِ بشارٍ [في «ديوانه» ٤/ ٢١٢]: [مِنَ الخفيفِ]

خُلِقُوا سَادَةً فَكَانُوا سَوَاءً ... كَكُعُوبِ الْقَنَاةِ تَحْتَ السِّنَانِ

* * *

---

(١) يدهدِهُ: يدحرِجُ.

(٢) الجذمُ والأرومةُ: الأصلُ. دفَّاقٌ: عظيمُ الدفقِ والاندفاعِ لكثرتِهِ.

(٣) يد المولىٰ: أي هي يد المولىٰ ونعمته علينا، والجملة معترضة.

(٤) النكتُ: الوخزُ. الأنابيبُ: جمعُ أنبوبٍ، وهوَ العُقدةُ الناشزةُ في القنا. العواملُ: جمعُ عاملٍ، وهو صدرُ الرمحِ، وهوَ ما يلي السنانَ.

وأَهدىٰ إِليهِ بعضُهُم هديَّةً فيها صورَةُ سَمَكٍ مِن لَوزٍ وسكَّرٍ في عسَلٍ ، فقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٢٥] : [مِنَ الكامِلِ]

أَقْصِرْ فَلَسْتَ بِزَائِدِي وُدّاً	بَلَغَ الْمَدَىٰ وَتَجَاوَزَ الْحَدَّا

[شرح المطلع]

(أَقْصَرَ عَنِ الشَّيْءِ) : إِذا كفَّ عنهُ معَ القدرَةِ عليهِ ، وقَصُرَ عَنْهُ : إِذا عجزَ ، وقَصَّرَ فيهِ : إِذا لَم يبالغْ .

يقولُ : إِنَّ التودُّدَ لاَ يزيدُ في ودِّي لَكَ ؛ لأَنَّهُ قد بلغَ الغايَةَ ، فهُوَ يصفُ ودَّ نفسِهِ للممدوحِ ، لا ودَّ الممدوحِ لَهُ ، وفي البيتِ أَشياءُ :

[ما زاد علىٰ حده انقلب إلىٰ ضده]

أَحدُها : أَنَّ ما جاوزَ حدَّهُ انقلَبَ إِلىٰ ضدِّهِ ؛ ولِهَـٰذَا جاءَ الأَمرُ بالاقتصادِ في المحبَّةِ ، ففي الخبَرِ : « **أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَا ، فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا ، وأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْناً مَا ، فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْماً مَا** »[١] .

وقالَ أَرُسْطَاطَالِيسُ : لاَ يَملأَنَّ قلبَكَ محبَّةُ شيءٍ ، ولاَ يستولِيَنَّ عليكَ بغضُهُ ، واجعلهُما قصداً ، فإِنَّ القلبَ كاسمِهِ يتقلَّبُ . وفي النفْسِ شيءٌ مِن صحَّةِ هَـٰذَا ؛ لأَنَّ النكتَةَ التي ذكرَها مِن تقلُّبِ القلبِ كَاسمِهِ إِنَّما تتمُّ لَو كانَ القائِلُ يتكلَّم بالعربيَّةِ ، أَو كانَ اسمُهُ في لغَتِهِ يدلُّ علَىٰ ما يدلُّ عليهِ بلسانِ العرَبِ ، فَلْيُتَأَمَّلْ .

[هل يقف الحب عند حد معين ؟!]

ثانيها : اختلفَ أَهلُ الأَدبِ والمحبَّةِ في حدِّهَا ، أَيَقِفُ عندَ غايةٍ ، أَم تجري إِلىٰ مَا لا نهايَةَ ؟

وبيتُ الناظِمِ مِنَ الأَوَّلِ ، وهوَ من قولِ ذي الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٢٣٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا زَالَ يَعْلُو حُبُّ مَيَّةَ عِنْدَنَا	وَيَزْدَادُ حَتَّىٰ لَمْ نَجِدْ مَا يَزِيدُهَا

وقد قالَ كُثَيِّرٌ [في « ديوانهِ » ٤٤١] : [مِنَ الكامِلِ]

اللهُ يَعْلَمُ لَوْ أَرَدْتُ زِيَادَةً	فِي حُبِّ عَزَّةَ مَا وَجَدْتُ مَزِيدَا

وقالَ عمرُ ابنُ أَبي ربيعَةَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٢٧٩] : [مِنَ الرمَلِ]

لَيْسَ حُبٌّ فَوْقَ مَا أَحْبَبْتُكُمْ	غَيْرَ أَنْ أَقْتُلَ نَفْسِي أَوْ أُجَنّ

وقالَ عبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عتبَةَ [في « الأغاني » ٩/ ١٧٦] : [مِنَ الوافرِ]

أَكَادُ إِذَا ذَكَرْتُ الْعَهْدَ مِنْهَا	أَطِيرُ لَوَ انَّ إِنْسَاناً يَطِيرُ
غَنِيُّ النَّفْسِ أَنْ أَزْدَادَ حُبّاً	وَلَكِنِّي إِلَىٰ وَصْلٍ فَقِيرُ

وقالَ أَبو العتاهيَةِ [في « ديوانه » ٦٥٢] : [مِنَ البسيطِ]

مَا فَوْقَ حُبِّكِ حُبّاً لَسْتُ أَعْلَمُهُ	فَلاَ يَضُرُّكِ أَنْ لاَ تَسْتَزِيدِينِي

---

(١) أَخرجهُ عن أَبي هريرة رضي الله عنه الترمذيُّ (١٩٩٨) وقال : حديث غريب .

وقالَ الحيْصَ بيصَ : [مِنَ الوافرِ]

تَقَـرْطَـقْ أَوْ تَمَنْطَـقْ أَوْ تقَبَّـا فَلَـنْ تَـزْدَادَ عِنْـدِيَ قَـطُّ حُبَّـا[1]
تَمَلَّـكَ بَعْـضُ حُبِّـكَ كُـلَّ قَلْبِـي فَـإِن تُـرِدِ الـزِّيَـادَةَ هَـاتِ قَلْبَـا

وقالَ بالثاني آخرونَ : منهم جميلُ بنُ معمَرٍ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٦٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

عَلِقْـتُ الْهَـوَىٰ مِنْهَـا وَلِيـداً وَلَـمْ يَـزَلْ إِلَـى الْيَـوْمِ يَنْمُـو حُبُّهَـا وَيَـزِيـدُ

وقد مرَّ هـٰذا ـ معَ جملةٍ مِنَ الشَّواهِدِ تصلُحُ لهُ ولسابقِهِ ـ في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العكبري » ٣/ ١٦٣] : [مِنَ البسيطِ]

وَالْـوَجْـدُ يَقْـوَىٰ كَمَا يَقْـوَى النَّـوَىٰ أَبَـداً [وَالصَّبْـرُ يَنْحَـلُ فـيْ جِسْمِـي كَمَـا نَحِـلاَ]

مِنْ الْمجلسِ السابعِ .

ويتعلَّقُ بهِ بعضُ ما يأْتي آخرَ الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبريّ » ٢/ ٣٣٢] : [مِنَ الكاملِ]

[أَرَقٌ عَلَـىٰ أَرَقٍ وَمِثْلِـيَ يَـأْرَقُ] وَجَـوىً يَـزِيـدُ وَدَمْعَـةٌ تَتَـرَقْـرَقُ

مِنْ المَجلسِ الثاني عشرَ .

والثاني هُوَ الأنسبُ بما ذكرهُ الإمامُ الغزاليُّ وابنُ مسكويه عَنِ الروحِ ، وقد سبقَ عن الأَوَّلِ ما يناسبُ ذلكَ في المجلسِ الرابعِ ، وقالَ الثاني ـ ما معناهُ ـ : إِنَّا نجدُ النفوسَ تقبلُ الصورَ المختلفةَ مِنَ الْمحسوساتِ والمعقولاتِ علىٰ وجهِ النمامِ ، من غيرِ مفارقةٍ ولا معاقبَةٍ ، ولا انمحاءِ رسمٍ ، بلْ لا تزالُ تقبلُ الرسومَ بعدَ الرسومِ ، والصورَ بعدَ الصورِ ، بلْ تزدادُ قوَّةً على القَبولِ ، كلَّما ارتاضت بكثرَةِ المعلوماتِ ، ولهَـٰذهِ العلَّةِ يزدادُ الإنسانُ فَهماً كلَّما ازدادَ علماً ، فليسَتِ النَّفْسُ إِذاً جسماً ـ إلىٰ آخرِ ما أطالَ فيهِ ـ ولخَّصناهُ في « **رسالةِ الأخلاقِ** » ، ولا شَكَّ أَنَّ هَـٰذَا هو مذهبُ السادَةِ الصوفيَّةِ ، وما أَحسنَ ما قالَ بعضُهم : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكُنْـتُ أَرَىٰ أَنْ قَـدْ تنَاهَـىٰ بِـيَ الْهَـوَىٰ إِلَـىٰ غَـايَـةٍ مَـا فَـوْقَهَـا لِـيَ مَطْلَـبُ
فَلَمَّـا تَـلاَقَيْنَـا وَعَـايَنْـتُ حُسْنَهَـا تَبَيَّنْـتُ أَنِّـي إِنَّمَـا كُنْـتُ أَلْعَـبُ

[فوائد الهدية تثبيت وتقوية المحبة]

ثالثُها : أَنَّ في البيتِ ما لا غايَةَ بعدَهُ في المناسَبَةِ لجوابِ الهديَّةِ ؛ إِذ قد جاءَ في حديثِ عائِشَةَ : يا نساءَ المؤمنينَ ، تَهادوا وَلَو فِرسِنَ شَاةٍ[2] ؛ فَإِنَّهُ يُنْبِتُ المودَّةَ ، ويُذهِبُ الضغائِنَ ، ذكرَهُ الحافِظُ في « **الفتحِ** » [باب الهبة : ٥/ ١٩٨] وغيرُهُ .

ووجهُهُ : أَنَّهُ لمَّا أَشارَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ إِلىٰ أَنَّ الغرضَ مِنَ الْهَدِيَّةِ تثبيتُ المحبَّةِ في القلوبِ . . قالَ الناظِمُ : إِنَّ محبَّتي لَكَ لا تحتاجُ إِلىٰ تثبيتٍ ؛ لأَنَّها مِنَ الْقُوَّةِ بحيثُ لم تعُدْ تقبلُ الزيادَةَ بعدُ ، فلِلَّهِ درُّهُ ما أَدقَّ نظرَهُ ، وأَبعدَ غورَهُ ، إِنْ أرادَ هَـٰذَا .

---

(١) تَقرطَقْ : البس القُرْطَقَ ، وهو القباءُ . تمنطق : ضع النطاق علىٰ وسطك .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الهندي في « كنز العمال » (٢٤٨٩٠) ونسبه لأحمد والبخاري ومسلم بلفظ : « يا نساء المسلمات ، لا تحقرنَّ جارة لجارتها ولو فِرسِن شاةٍ » . الفِرسِنُ : العَظْمُ القليلُ اللحمِ ، وهوَ خُفُّ الشاةِ .

وذكرَ غيرُ واحدٍ : أَنَّ المنصورَ قالَ يوماً للربيع بنِ يونسَ : سَلْ حاجتَكَ ، قالَ : حاجَتي أَنْ تُحبَّ الفضلَ ابني ، فقالَ لهُ : ويحَكَ إِنَّ لِلْمَحَبَّةِ أسباباً ، فقالَ لَهُ : قد أَمكنكَ اللهُ مِن إِيقاعِ سَببِها ، قالَ : وما ذاكَ ؟ قالَ : تُنعِمُ عليهِ ، فإِنَّكَ إذا أَنعمتَ عليهِ . . أَحبَّكَ ، وإِذا أَحبَّكَ . . أَحْبَبْتَهُ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٢٥] : [مِنَ الكاملِ]

أَرْسَلْتَهَا مَمْلُوءَةً كَرَماً فَرَدَدْتُهَا مَمْلُوءَةً حَمْدَا

[أصل معنىٰ بيت المطلع وشرحه]

أَصلُ المعنىٰ : أَنَّ إِحدىٰ نساءِ الأَنصارِ بعثَتْ معَ ابنتِها طَبَقاً لِرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ مملوءاً مِنَ الخضراتِ ، فردَّهُ مملوءاً حُلِيّاً .

وكذلكَ فعلَ اللَّيثُ بنُ سعدٍ [كما في « شذراتِ الذَّهبِ » ١/ ٢٨٥] : فقد أَهدىٰ إِليهِ إِمامُ دارِ الهجرةِ صِينيَّةً مملوءَةً تمراً ، فأَعادَها مملوءَةً ذهباً .

وقولُهُ : (**فَرَدَدْتُهَا مَمْلُوءَةً حَمْدَا**) إِمَّا أَن يُريدَ ما كتبَهُ مِنَ الأَبياتِ اللَّواتي مِنها هـٰذانِ ، وإِمَّا أَن يُريدَ ما يَظهرُ مِنْ أَثرِها بينَ النَّاسِ ؛ لأَنَّها لا تخفىٰ صنيعتُهُ إِليهِ معَ نباهَتِهِ وبُعْدِ صِيتِهِ ، فَلا بُدَّ وأَنْ تسيرَ أَخبارُها ، ولا سيَّما إذا تحدَّثَ بها ، فيكونُ قد أَدمَجَ التَّمدُّحَ بالنَّباهَةِ وانتشارِ الذِّكرِ في جَوابِ الهديَّةِ ، وهوَ إِذاً قريبٌ مِنْ **قولِهِ في** الأُخرىٰ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٦٤] : [مِنَ المنسرحِ]

تُنْشِدُ أَثْوَابُنَا مَدَائِحَهُ بِأَلْسُنٍ مَا لَهُنَّ أَفْوَاهُ

وقولِ نصيبٍ [في « البيانِ والتَّبيين » ١/ ٥٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَعَاجُوا فَأَثْنَوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

وقولِ الأَعشىٰ [في « ديوانِهِ » ٢٥٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنَّ عِتَاقَ الْعِيسِ سَوْفَ تَزُورُكُمْ ثَنَاءٌ عَلَىٰ أَعْجَازِهِنَّ مُعَلَّقُ

لأَنَّ المرادَ مِنَ الثَّناءِ المعلَّقِ على الأَعجازِ . . هوَ الغِناءُ الَّذي يترنَّمُ بهِ الرُّدَّافُ مِنْ أَشعارِ الشُّكرِ والثَّناءِ على المَزورِ ، علىٰ حدِّ قولِ الرَّاعي : [مِنَ الطَّويلِ]

وَخَوْدٍ مِنَ اللَّائِي تَسَمَّعْنَ بِالضُّحَىٰ قَرِيضَ الرَّدَافِي بِالْغِنَاءِ الْمُهَوَّدِ

ولا يَبعدُ أَنْ يقومَ ما يتعالَمُ بهِ النَّاسُ ـ مِنْ خبرِ الهديَّةِ لشيوعِها ـ مقامَ ما يُشاهَدُ مِنِ امتلاءِ الحقائبِ في بيتِ نصيبٍ ، فلا إِشكالَ ، وقدْ قالَ الشَّمَرْدَليُّ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَيَادِيكَ لاَ يَخْفَىٰ مَوَاقِعُ صَوْبِهَا فَتَعْفُو إِذَا مَا ضُيِّعَ الحَمْدُ وَالشُّكْرُ



وَهَلْ تَسْتَطِيعُ الأَرْضُ مِنْ بَعْدِ مَا انْطَوَتْ ... عَلَىٰ رَيِّهَا إِنْكَارَ مَا فَعَلَ الْقَطْرُ ؟

وقالَ الرَّضيُّ [في « ديوانهِ » ٢/ ٩٢٦] : [مِنَ الكاملِ]

وَلِسَانُ نِعْمَتِكَ الَّتِي قَلَّدْتَنِي ... بِالشُّكْرِ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِ بَيَانِي

فَإِذَا سَكَتُّ فَإِنَّ أَنْطَقَ مِنْ فَمِي ... عَنِّي يَدُ الْمَعْرُوفِ وَالإِحْسَانِ

[الثناء يبقىٰ وتذهب الهدية]

وفي البيتِ رائحَةُ تعاظُمٍ وامتنانٍ على المُهدي ؛ إِذِ الحمدُ أَفضلُ مِن تلكَ الهديَّةِ ، بَلْ وممَّا هوَ أَكبرُ منها ؛ فقد قالَ ابنُ الخطَّابِ لأَحدِ بني هَرِمِ بنِ سِنانَ [بنحوِهِ في « مجمعِ الأَمثالِ » ١/ ١٨٩] : ما فعلتُمْ بزُهيرٍ ؟ قالوا : حَمَّلْنا ، وكَسَونا ، وأَكْرَمْنا ، وأَفضَلنا ، فقالَ : لكنَّ ما كَساكُمْ بهِ زهيرٌ لا يفنى الدَّهرَ .

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٥٤٤] : [مِنَ الكاملِ]

حُفِظَ الْقَرِيضُ فَلَمْ يُضَيَّعْ حَقُّهُ ... أَبَداً وأَنْتَ لَهُ مِنَ الْعُشَّاقِ

هَا إِنَّهُ وَعَطَاءَكَ الْجَمَّ اللُّهَىٰ ... أَخَوانِ : ذَا فَانٍ ، وَهَـٰذَا بَاقِي(١)

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٠٦٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَلْطَفُ مِنْهُ فِي الْفُؤَادِ مَحَلَّةً ... ثَنَاءٌ تُبَقِّيهِ الْقَصَائِدُ أَوْ شُكْرُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٦٢٥ـ٦٢٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكَائِنْ لَهُ فِي سَاحَتِي مِنْ صَنِيعَةٍ ... قَطَعْتُ لَهَا عُقْلَ الْقَوَافِي الشَّوَارِدِ(٢)

وَإِنِّي لَمَحْقُوقٌ بِأَنْ لاَ يَطُولَنِي ... نَدَاهُ إِذَا طَاوَلْتُهُ بِالْقَصَائِدِ

يُحَكْنَ لَهُ حَوْكَ الْبُرُودِ لِزِينَةٍ ... وَيُنْظَمْنَ عَنْ جَدْوَاهُ نَظْمَ الْقَلاَئِدِ

وَحَسْبُ أَخِي النُّعْمَىٰ جَزَاءً إِذَا امْتَطَىٰ ... سَوَائِرَ مِنْ شِعْرٍ عَلَى الدَّهْرِ خَالِدِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ١٣٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَمْ يُبْقِ كَرُّ الدَّهْرِ غَيْرَ عَلاَئِقٍ ... مِنَ الْقَوْلِ تُرْضِي سَامِعِينَ وَتُغْضِبُ

ويروىٰ [كما في « المعجمِ الأَوسطِ » للطَّبرانيِّ ٤/ ٥٠] : أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ كثيراً ما يقولُ لعائشَةَ ـ رضوانُ اللهِ عليها ـ : « كَيْفَ بَيْتُكِ ؟ » ، فتُنشِدُهُ : [مِنَ الكاملِ]

يَجْزِيكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإِنَّ مَنْ ... أَثْنَىٰ عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَىٰ

فيصدِّقُها .

وقالَ محمودٌ الورَّاقُ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَا بَلَغَتْ أَيْدِي الْمُنِيلِينَ بَسْطَةً ... مِنَ الطَّوْلِ إِلاَّ مِنَّةُ الشُّكْرِ أَطْوَلُ

---

(١) اللُّهىٰ : العطايا .

(٢) العُقُلُ : جمع عِقالٍ ، وهو الحبلُ الذي يشدُّ بهِ البعيرُ في وسطِ ذراعهِ .

وَلاَ رَجَحَتْ فِي الْوَزْنِ يَوْماً صَنِيعَةٌ ... عَلَى الْمَرْءِ إِلاَّ مِنَّةُ الشُّكْرِ أَثْقَلُ

وقالَ ابنُ الجزَّارِ السرقسطيُّ [كما في « نفح الطيب » ٣/ ٤٤٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

ثَنَاءُ الْفَتَىٰ يَبْقَىٰ وَيَفْنَىٰ ثَرَاؤُهُ ... فَلا تَكْتَسِبْ بِالْمَالِ شَيْئاً سِوَى الذِّكْرِ

فَقَدْ أَبْلَتِ الأَيَّامُ كَعْباً وَحَاتِماً ... وَذِكْرُهُمَا غَضٌّ جَدِيدٌ إِلَى الْحَشْرِ

[كفران النعم يستوجب الوعيد]

وما أَكثرَ ما وردَ في كفرانِ النِّعمِ مِنَ الوَعيدِ ، وقد قالَ جلَّ شأنُهُ : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ [عبس : ١٧] ، وقالَ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] ، وقالَ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

وفي الفائدَةِ السَّابعَةِ مِن « **بلابلِ التَّغريدِ** » مبحثٌ جميلٌ ، ما أَظنُّني سُبقْتُ إليهِ .

[لم يشكر الله . . من لم يشكر الناس]

ويقالُ : « **مَن لَم يَشْكُرِ الناسَ . . لَمْ يَشْكُرِ اللهَ** »[1] فأَخذَهُ البُحتريُّ وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ١٦٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَنْ لاَ يُؤَدِّي شُكْرَ نِعْمَةِ خِلِّهِ ... فَأَنَّىٰ يُؤَدِّي شُكْرَ نِعْمَةِ رَبِّهِ

وخطبَ نصرُ بنُ سيَّار فقالَ [في « المستطرف » ١/ ٥٠٧] : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **مَنْ أَنْعَمَ عَلَىٰ قَوْمٍ فَلَمْ يَشْكُرُوهُ ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ . . اسْتُجِيبَ لَهُ فِيهِمْ** »[2] . وَإِنِّي قَدْ أَحْسَنْتُ إِلَىٰ آلِ سَامٍ ، فَلَمْ يَشْكُرُونِي ، فَأَذَاقَهُمُ اللهُ حَرَّ الْحَدِيدِ ، فَمَا دَارَ عَلَيْهِمُ الْحَوْلُ حَتَّىٰ قُتِلُوا جميعاً .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر : ٧] .

[كفران النعم من اللؤم]

وقالَ زهيرٌ : [مِنَ الكاملِ]

والْكُفْرُ مَخْبَثَةٌ لِنَفسِ الْمُنْعِمِ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ١١٥] : [مِنَ البسيطِ]

لَئِنْ جَحَدْتُكَ مَا أَوْلَيْتَ مِنْ نِعَمٍ ... إِنِّي لَفِي اللُّؤْمِ أَحْظَىٰ مِنْكَ فِي الْكَرَمِ

[شكران النعم من الكرم]

وقالَ يزيدٌ المهلَّبيُّ : [مِنَ البسيطِ]

إِنْ يُعْجِزِ الدَّهْرُ كَفِّي عَنْ جَزَائِكُمُ ... فَإِنَّنِي بِالْهَوَىٰ وَالشُّكْرِ مُجْتَهِدُ

أَخذهُ الناظمُ فقالَ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢٧٦] : [مِنَ البسيطِ]

لاَ خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلاَ مَالُ ... فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ

---

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الترمذي في « سننه » (١٩٥٥) ، وأحمد في « مسنده » (١٨٤٧٢) .

(٢) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه أبو شجاع الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٣/ ٥٧١) ، وهو في « كنز العمال » (٦٤٤٩) ، (٦٤٧٥) ونسبه للعقيلي وابن لال والشيرازي في « الألقاب » بلفظ : « من أنعم علىٰ أخيه نعمة فلم يشكرها فدعا عليه . . استجيب له » . وفي الأول : « من أسدىٰ » .

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانهِ » ٢/ ٩٢٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـإِنْ أَنَـا لَـمْ أَشْكُـرْكَ نُعْمَـاكَ جَـاهِـداً ... فَلاَ نِلْتُ نُعْمَىٰ بَعْدَهَا تُوجِبُ الشُّكْرَا

وقالَ بعضُهُم [كما في « المستطرف » ١/ ٥٠٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَـوْ أَنَّ لِـي فِـي كُـلِّ مَنْبِـتِ شَعْـرَةٍ ... لِسَـانـاً يُطِيـلُ الشُّكْـرَ كُنْـتُ مُقَصِّـرَا

وقالَ أَبو الوفا : [مِنَ الطَّويلِ]

أَيَـادِيَ لاَ أَسْطِيـعُ كُنْـهَ صِفَـاتِهَـا ... وَلَـوْ أَنَّ أَعْضَـائِـي جَمِيعـاً تَكَلَّـمُ

وقالَ آخرُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَسْكَتَنِـي نُعْمَـىٰ كَـأَنِّـيَ مُفْحَـمٌ ... وَلَـمْ أَرَ مِثْلِـي مُفْحَمـاً وَهُـوَ مُقْـوِلُ[1]

وقالَ بعضُهُم [وهو ابن سُرَيج كما في « الأغاني » ١/ ٢٥٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

شَكَـرْتُـكَ إِنَّ الشُّكْـرَ دَيْـنٌ عَلَـى الْفَتَـىٰ ... وَمَـا كُـلُّ مَـنْ أَوْلَيْتَـهُ نِعْمَـةً يَقْضِـي

وقالَ أَبو نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٣٩١] : [مِنَ الكاملِ]

أَنْـتَ امْـرُؤٌ جَلَّلْتَنِـي نِعَمـاً ... أَوْهَـتْ قُـوَىٰ شُكْـرِي فَقَـدْ ضَعُفَـا
لاَ تُسْـدِيَـنَّ إِلَـيَّ عَـارِفَـةً ... حَتَّـىٰ أَقُـومَ بِشُكْـرِ مَـا سَلَفَـا

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ٤٣٥] : [مِنَ البسيطِ]

كَـمْ مِـنْ يَـدٍ لَـكَ لَـوْلاَ مَـا أُخَفِّفُهَـا ... بِـهِ مِـنَ الشُّكْـرِ لَـمْ تُحْمَـلْ وَلَـمْ تُطَـقِ
فَـادْفَـعْ بِـرَبِّـكَ عَنِّـي ثِقْـلَ فَـادِحِهَـا ... فَـإِنَّنِـي خَـائِـفٌ مِنْهَـا عَلَـىٰ عُنُقِـي[2]

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٠ـ٢١] : [مِنَ الكاملِ]

أَخجَلْتَنِـي بِنَـدَىٰ يَـدَيْـكَ فَسَـوَّدَتْ ... مَـا بَيْنَنَـا تِلْـكَ الْيَـدُ الْبَيْضَـاءُ
وقَطَعْتَنِـي بِـالْجُـودِ حَتَّـىٰ إِنَّنِـي ... مُتَخَـوِّفٌ أَنْ لاَ يَكُـونَ لِقَـاءُ
صِلَـةٌ غَـدَتْ فِـي النَّـاسِ وَهْـيَ قَطِيعَـةٌ ... عَجَـبٌ وَبِـرٌّ عَـادَ وَهْـوَ جَفَـاءُ

وقالَ [في « ديوانه » ١/ ١٢٠ـ١٢١] : [مِنَ البسيطِ]

إِيهاً أَبَا الْفَضْلِ شُكْرِي مِنْكَ فِي نَصَبٍ ... أَقْصِرْ فَمَـا لِـيَ فِـي جَـدْوَاكَ مِـنْ أَرَبِ
لاَ أَقْبَـلُ الـدَّهْـرَ نَيْـلاً لاَ يَقُـومُ بِـهِ ... شُكْـرِي وَلَـوْ كَـانَ مُسْدِيـهِ إِلَـيَّ أَبِـي
لأَشْكُـرَنَّـكَ إِنَّ الشُّكْـرَ نَـائِلُـهُ ... أَبْقَـىٰ عَلَـىٰ حَـالِـهِ مِـنْ حَـالَـةِ النَّشَـبِ

والأَخيرُ يشبهُ ما سبقَ ممَّا سقناهُ لهُ .

---

(١) المُفْحَمُ : الذي لا يستطيعُ قولَ الشعرِ .

(٢) أمرٌ فادحٌ : صعبٌ ثقيلٌ .

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ٤/١٣٣] : [مِنَ الوافرِ]

وَلَـمْ نَمْلَـلْ تَفَقُّـدَكَ الْمَـوَالِـي وَلَـمْ نَـذْمُـمْ أَيَـادِيـكِ الْجِسَـامَـا
وَلَكِـنَّ الْغُيُـوثَ إِذَا تَـوَالَـتْ بِـأَرْضِ مُسَـافِـرٍ كَـرِهَ الْغَمَـامَـا

وقالَ العثمانيُّ في الصاحبِ بنِ عبَّادٍ : [مِنَ المتقاربِ]

وَفَـدْنَـا لِنَشْكُـرَ كَـافِـي الْكُفَـاةِ وَنَسْـأَلُـهُ الْكَـفَّ عَـنْ بِـرِّنَـا

فقالَ لهُ العلويُّ ـ وكان حاضراً ـ : قد كُفيتَ المؤنَةَ ، فإنَّ الصاحِبَ صارَ لا يعطي شيئاً . وسيُعادُ الكلامُ في مثلِ هَـٰذَا أوائلَ المجلسِ الخامسَ عشرَ .

[اشكر لمن أنعم عليك ، وأنعم علىٰ من شكرك]

ويُروىٰ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « اشْكُرْ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ ، وَأَنْعِمْ عَلَىٰ مَنْ شَكَرَكْ ، فَإِنَّهُ لاَ زَوالَ لِلنِّعْمَةِ إِذَا شُكِرَتْ ، ولاَ بَقَاءَ لَهَا إِذَا كُفِرَتْ »[١] .

وقالَ ابنُ سقلابٍ : رأيتُ البُحتريَّ فقلْتُ لهُ : ما الخبرُ ؟ فأنشدَ بديهاً : [مِنَ الوافرِ]

يَـزِيـدُ تَفَضُّـلاً وَأَزِيـدُ شُكْـراً فَـذَلِـكَ دَأْبُـهُ أَبَـداً وَدَأْبِـي

[سيد الشاكرين صلى الله عليه وسلم]

وقامَ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ حَتَّىٰ تفطَّرَتْ قدماهُ ، فقيلَ لهُ في ذلِكَ ؟ فقالَ : « **أفلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً ؟** »[٢] .

[إذا صنعت معروفاً . . فليكن إلىٰ مثل هـٰؤلاء]

و[روى الأبشيهي في « المستطرف » ١/٥٠٩ أنه] جاءَ رجلٌ من الأنصارِ إلى ابنِ الخطَّابِ وقالَ : [مِنَ البسيطِ]

أُذْكُـرْ صَنِيعِـيَ إِذْ فَـاجَـاكَ ذُو سَفَـهٍ يَـوْمَ السَّقِيفَـةِ وَالصِّـدِّيـقُ مَشْغُـولُ

فقالَ عمرُ بأعلىٰ صوتِهِ : ادنُ منِّي ، فدَنا منهُ ، فأخذَ بذراعِهِ حَتَّى استشرفَهُ الناسُ ، وقالَ : أَلا إِنَّ هَـٰذَا ردَّ عنِّي سفيهاً مِن قومِهِ يومَ السقيفةِ ، ثُمَّ حملَهُ علىٰ نجيبٍ ، وزادَ في عطائِهِ ، وولاَّهُ صَدَقاتِ قومِهِ ، وقالَ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

وقالَ رجلٌ [كما في « المستطرف » ١/٥٠٩] لسعيدِ بنِ العاصِ وهوَ أميرُ (الكوفَةِ) : لي عندَكَ يدٌ ، قالَ : وما هِيَ ؟ قالَ : كَبَتْ بِكَ فَرَسُكَ ، فتقدَّمْتُ إليكَ قبلَ غلمانِكَ ، فأخذْتُ بيدِكَ وأَعَنْتُكَ على الركوبِ ، قالَ : فأَينَ كنتَ حَتَّى الآنَ ؟ قالَ : حُجبتُ عَنْ الوصولِ إليكَ ، قالَ : قد أمرنا لَكَ : بِمئَتَي أَلفِ درهَمٍ ، وبما يملِكُهُ الحاجِبُ ، عقوبَةً لَهُ علىٰ حجبِكَ عنَّا .

---

(١) هـٰذا ليس حديثاً ، بل هو حكمة كما في كتاب « الزهد » لابن أبي عاصم (٣٦٨) ، وبمعناه الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه : « من لم يشكر الناس لا يشكر الله » . أيضاً عن الأشعث وأسامة وابن مسعود .
وفي كنز العمال : (٦٤١٣) بلفظ « أَشْكَرُ الناس لله أشكرهم للناس » عند أحمد والطبراني والبيهقي والضياء وغيرهم . كما في « كنز العمال » (٦٤٤٣) عند أحمد والترمذي .

(٢) أخرجه البخاري (١١٣٠) في التهجد .

وكانَ الحجَّاجُ مَنَّ علىٰ عمرانَ بنِ حطَّانَ ـ أبعدَهُ اللهُ ـ فقالَ لهُ قطريُّ بنُ الفجاءَةِ : عُدْ إلىٰ قتالِ عدوِّ اللهِ ، فقالَ :

[مِنَ الكاملِ]

أَأُقَاتِلُ الْحَجَّاجَ عَنْ سُلْطَانِهِ ... بِيَدٍ تُقِرُّ بِأَنَّهَا مَوْلاَتُهُ
مَاذَا أَقُولُ إذا وَقَفْتُ إزَاءَهُ ... فِي الصَّفِّ وَاحْتَجَّتْ لَهُ فَعَلاَتُهُ ؟
أَأَقُولُ جَارَ عَلَيَّ لاَ إِنِّي إذاً ... لأَحَقُّ مَنْ جَارَتْ عَلَيْهُ وُلاَتُهُ
وَتَحَدَّثَ الأَقْوَامُ أَنَّ صَنَائِعاً ... غُرِسَتْ لَدَيَّ فَحَنْظَلَتْ نَخَلاَتُهُ[1]

ومرَّ أَبو دُلَفٍ ـ الشاعرُ ـ بقومٍ فقالَ بعضُهم : هَـٰذَا الذي يقولُ فيهِ الشاعِرُ : [مِنَ المديدِ]

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلَفٍ ... بَيْنَ بَادِيهِ وَمُحْتَضَرِهْ
فَإِذَا وَلَّىٰ أَبُو دُلَفٍ ... وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَىٰ أَثَرِهْ

فبكىٰ حَتَّىٰ جَرَتْ دموعُهُ ، فقالَ لَهُ بعضُ أَصحابِهِ : لِماذا ؟ قالَ [كما في « المنتظم » حتىٰ سنة (٢٥٧ هـ) ٢٥٧/١٠] : لأَنِّي لَم أَقضِ حقَّ هَـٰذَا الشاعرِ ، قالوا : أَوَلَمْ تعطِهِ مئَةَ أَلفِ درهمٍ ؟ قالَ : واللهِ ما في نفسي إلاَّ أَنَّها لَمْ تكُن مئَةَ أَلفِ دينارٍ .

[المتنبي والشكر]

وللناظِمِ في مطلَقِ الشُّكْرِ **قولُهُ** [في « العُكبريّ » ١٢٦/٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَهُ مِنَنٌ تُفْنِي الثَّنَاءَ كَأَنَّمَا ... بِهِ أَقْسَمَتْ أَنْ لاَ يُؤَدَّىٰ لَهَا شُكْرُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٧٨/١] : [مِنَ الوافرِ]

أُثِيبُكَ بِالَّذِي أَوْلَيْتَ شُكْراً ... وَأَيْنَ مِنَ الَّذِي تُولِي الثَّوَابُ ؟!

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣٨٨/٢] : [مِنَ الوافرِ]

وَقَدْ حَمَّلْتَنِي شُكْراً طَوِيلاً ... ثَقِيلاً لاَ أُطِيقُ بِهِ حِرَاكَا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٨٥/٣] : [مِنَ البسيطِ]

يَا أَيُّهَا الْمُحْسِنُ الْمَشْكُورُ مِنْ جِهَتِي ... وَالشُّكْرُ مِنْ قِبَلِ الإِحْسَانِ لاَ قِبَلِي

[الشعراء والشكر]

ويعجبُني قولُ بعضِهم [كما في « تاريخ بغداد » ٢٥٨/١٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

سَأَشْكُرُ مَا عِشْتُ السَّدُوسِيَّ بِرَّهُ ... وَأُوصِي بِشُكْرٍ لِلسَّدُوسِيِّ مِنْ بَعْدِي

وَأَطالَ بعضُهم في شكرِ الصاحِبِ بنِ عبَّادٍ ولَم تكُنْ لَهُ عليهِ إلاَّ منَّةٌ يسيرَةٌ ، فقالَ : [مِنَ الكاملِ]

وَإِذَا الصَّدِيقُ أَدَامَ شُكْرِيَ لِلَّتِي ... لَمْ آتِهَا إلاَّ عَلَى التَّقْدِيرِ
أَيْقَنْتُ أَنَّ الْعُتْبَ بَاطِنُ أَمْرِهِ ... فَسَكَتُّ مُحْتَشِماً عَلَى التَّقْصِيرِ

---

(١) « المستطرف » (٥٠٩/١) .

وقالَ دِعْبِلٌ [في « ديوانهِ » ١٨٤] : [مِنَ الكامل]

لاَ يَقْبَلُـونَ الشُّكْـرَ مَـا لَـمْ يُنْعِمُـوا نِعَمـاً يَكُـونُ لَهَـا الثَّنَـاءُ تَبِيعَـا

وقالَ أنوشُروانَ : مَنْ أَثنَىٰ عليكَ بِما لَم توله . . فغيرُ بعيدٍ أَنْ يذمَّكَ بما لم تفعَلْهُ .

[يباح ذم المقصر . . كما يجب شكر المنعم]

وكما يجبُ شكرُ المنعِمِ . . فإنَّهُ قدْ يباحُ ذَمُّ المقصِّرِ ؛ إذ [روى القرطبي في « تفسيره » ٦/١ أنه] : جاءَ في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ [النساء : ١٤٨] ، إِنَّها في الضيفِ ينزِلُ بالقومِ فلا يحسنونَ قِراهُ ، فيجوزُ لهُ أَن يأْخذَ مِن أَعراضِهِم بِقَدْرِ ما قصَّروا فيهِ من حقِّهِ ، وقد سبقَ ـ في غيرِ هَـٰذا المجلسِ ـ ذكرُ قولِ حاتِمٍ : [مِنَ الكامل]

وَاعْلَـمْ بِـأَنَّ الضَّيْـفَ مُخْبِـرُ أَهْلِـهِ بِمَبِيـتِ لَيْلَتِـهِ وَإِنْ لَـمْ يُسْـأَلِ

معَ ما يناسبُهُ مِنَ الْكَلامِ .

[المتوكل يريد أن يختص أبا العيناء للمنادمة]

واعتزَمَ المتوكِّلُ على اختصاصِ أَبي العيناءِ للمنادمَةِ ، ثُمَّ قالَ لهُ : لَولا حِدَّةٌ في لسانِكَ ، فقالَ : إنْ توهَّم الخليفَةُ أَنِّي مثْلُ العقرَبِ تلدَغُ النبيَّ والذميَّ . . فقدْ صانَ اللهُ عبدَهُ عن ذلِكَ ، وإنْ لَامَ علىٰ ذمِّ المُسيءِ ، وَشَكَرَ المحسنَ ؛ فالباري جلَّ شأْنُهُ يقولُ في المدحِ : ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤٤] . ويقولُ في الذمِّ : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم : ١١ـ١٣] .

ثُمَّ أَنشأَ يقولُ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا أَنَـا لَـمْ أَشْكُـرْ عَلَـى الْخَيْـرِ أَهْلَـهُ وَلَـمْ أَشْتُـمِ الْجِبْسَ اللَّئِيـمَ الْمُـذَمَّمَـا[1]

فَفِيـمَ عَـرَفْـتُ الْخَيْـرَ وَالشَّـرَّ بِـاسْمِـهِ وَشَـقَّ لِـيَ اللهُ الْمَسَـامِـعَ وَالْفَمَـا

[مُدحَ سعيد بن سلم ببيتين ولا أجمل منهما]

ويروىٰ عنْ سعيدِ بنِ سلمِ بنِ قتيبةَ بنِ مسلمٍ الباهليِّ قالَ : مدَحني رجلٌ مِنَ العربِ ببيتينِ لم أَسمعْ لَهما نظيراً في المدْحِ ، فقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَقُولُ لِسَارِي اللَّيْلِ : لاَ تَخْشَ ظُلْمَةً سَعِيـدُ بْـنُ سَلْـمٍ ضُـوءُ كُـلِّ بِـلاَدِ

لَنَـا مُقْـرَمٌ أَرْبَـىٰ عَلَـىٰ كُـلِّ مُقْـرَمٍ جَـوادٌ حَثَـا فِـي وَجْـهِ كُـلِّ جَـوَادِ[2]

[ثم هجي ببيتين ولا أمضَّ منهما]

ثُمَّ هَجاني بعدَ ذلِكَ ببيتَينِ لم أَرَ أَمَضَّ مِنْهُما ، فقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

لِكُـلِّ ثَنَـاءٍ مَـا عَلِمْـتَ كَـرَامَـةٌ وَلَيْـسَ لِمَـدْحِ الْبَـاهِلِـيِّ ثَـوَابُ

مَـدَحْـتُ ابْـنَ سَلْـمٍ وَالْمَـدِيـحُ مَهَـزَّةٌ فَكَـانَ كَصَفْـوَانٍ عَلَيْـهِ تُـرَابُ

---

(١) **الجِبسُ** : الجامدُ الثقيلُ الروحِ ، والفاسقُ ، والرديءُ ، والجبانُ واللئيمُ .

(٢) **المُقْرَمُ** : السيِّدُ الجوادُ المعظَّمُ ، يعني : أَنَّهُ سبقَ في الجودِ ، والسابقُ يحثو الترابَ بحافرِ فرَسِهِ في وجهِ المسبوقِ .

[ابن الرومي يُمطَل بعد مديحه فما الرد ؟!]

وامتدَحَ ابنُ الروميِّ بعضَ الكتَّابِ فماطلَهُ بالجائزَةِ ، ثُمَّ ردَّ إليهِ مدحَهُ وقالَ : امدَحْ بهِ مَنْ شئْتَ غيري ، فقالَ [في «ديوانه» ٢/ ٦٠٣ـ٦٠٤] : [مِنَ الوافرِ]

رَدَدْتَ عَلَـيَّ شِعْـرِي بَعْـدَ مَطْـلٍ ... وَقَـدْ دَنَّسْـتَ مَلْبَسَـهُ الْجَـدِيـدَا
وَقُلْتَ : امْـدَحْ بِـهِ مَـنْ شِئْتَ غَيْـرِي ... وَمَـنْ ذَا يَقْبَـلُ الْمَـدْحَ الـرَّدِيـدَا
وَمَـا لِلْحَـيِّ فِـي أَكْفَـانِ مَيْـتٍ ... لَبُـوسٌ بَعْـدَ مَـا امْتَـلأَتْ صَـدِيـدَا

وقالَ لآخرَ ـ وقدْ حرمَهُ ـ [كما في «ديوانه» ٤/ ١٦٢٩] : [مِنَ الكاملِ]

رُدُّوا عَلَـيَّ صَحَـائِفـاً سَـوَّدْتُهَـا ... فِيكُـمْ بِـلاَ حَـقٍّ وَلاَ اسْتِحْقَـاقِ

وقالَ [في «ديوانهِ» ١/ ٢٤٤] : [مِنَ البسيطِ]

إِنْ كُنْـتَ مِـنْ جَهْلِ حَقِّي غَيْـرَ مُعْتَـذِرٍ ... وَكُنْـتَ مِـنْ رَدِّ مَـدْحِـي غَيْـرَ مُتَّئِـبِ[1]
فَـأَعْطِنِـي ثَمَـنَ الطِّـرْسِ الَّـذِي كُتِبَـتْ ... فِيـهِ الْقَصِيـدَةُ أَوْ كَفَّـارَةَ الْكَـذِبِ[2]

[هن بناتي أزوجهن من أريد]

ويُذكَرُ : أَنَّ الناظِمَ كانَ أعدَّ قصيدَتَهُ ـ التي يقولُ في مطلَعِهَا [في «العُكبَرِيّ» ٢/ ١٦٠] : [مِنَ الكاملِ]

بَـادٍ هَـوَاكَ صَبَـرْتَ أَمْ لَـمْ تَصْبِـرَا ... وَبُكَـاكَ إِنْ لَـمْ يَجْـرِ دَمْعُـكَ أَوْ جَـرَىٰ

لابنِ الفراتِ، ثُمَّ لَمَّا لَم يُرضِهِ . قلبَها لابنِ العميدِ، ولمَّا عوتِبَ في ذلِكَ . . قالَ: هُنَّ بناتي أُزَوِّجُهنَّ علىٰ من شئْتُ.

[صور من الهجاء لمن لم يشكر النعم]

وكانَ عيسىٰ بنُ فرخانَ يتيهُ علىٰ أَبي العيناءِ في أَيَّامِ وزارَتِهِ ، فلمَّا صُرِفَ عَنها . . لقي أبا العيناءِ في بعضِ السِّكَكِ ، فسَلَّمَ عليهِ سلاماً خفيفاً ، فقالَ لقائِدِهِ : مَنْ هَـٰذَا ؟ قالَ : أَبُو موسىٰ ، فدَنا منهُ حَتَّىٰ أَخذَ بعِنانِ بغلتِهِ ، وقالَ : لقد كنتُ أَقنَعُ بإِمائِكَ دونَ بناتِكَ ، وبلحظِكَ دُونَ لفظِكَ ، فالحَمدُ للهِ علىٰ ما آلَتْ إِليهِ حالُكَ ، فلئِنْ أَخطأَتْ فيكَ النعمةُ . . فلقد أَصابَتْ فيكَ النِّقمَةُ ، ولئِنْ كانَتْ الدُّنيا أَبدتْ صفحاتِها بالإِقبالِ عليكَ . . لقدْ أَظهرَتْ محاسِنَها بالإِدبارِ عنكَ ، وللهِ المِنَّةُ إِذ أَغنانا عَنِ الكَذِبِ عليكَ ، ونزَّهَنا عَنْ قولِ الزُّورِ فيكَ ، وقد ـ واللهِ ـ أَسأْتَ حملَ النِّعمَةِ ، وما شكَرتَ حقَّ المنعِمِ ، ثُمَّ أَطلَقَ يدَهُ من عنَانِهِ ، ورجعَ إِلىٰ مكانِهِ ، فقيلَ لَهُ : يا أَبا عبدِ اللهِ ، لقد بالغتَ في السَّبِّ ، فَما كانَ الذَّنبُ ؟ قالَ : سأَلتُهُ حاجَةً أَقلَّ مِن قيمتِهِ . . فردَّني عَنها بقولٍ أَقبحَ مِن خِلْقَتِهِ .

ويروىٰ [بنحوه في «الأغاني» ١٦/ ٢٧٢] : أَنَّ ربيعةَ الرقيَّ امتدَحَ يزيدَ بنَ أُسيدٍ السلميَّ ، فقصَّرَ يزيدُ في حقِّهِ ، ثُمَّ امتدحَ يزيدَ بنَ حاتِمِ بنِ قبيصةَ المهلَّبيَّ ، فلم يلتفتْ إِليهِ ، فقالَ [في «شعرِه» ٩٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَرَانِـي ـ وَلاَ كُفْـرَانَ للهِ ـ رَاجِعـاً ... بِخُفَّـيْ حُنَيْـنٍ مِـنْ نَـوَالِ ابْـنِ حَـاتِـمِ[3]

---

(١) متَّئِبٌ : راجعٌ .
(٢) الطرسُ : الصحيفةُ .
(٣) حُنينٌ : اسمُ رجلٍ . وهـٰذا مَثَلٌ أَصلُهُ : كما ذكره الميداني في «مجمع الأمثال» (١/ ٢٥٧) : أَنَّ حنيناً كانَ مِن أهلِ (دَوْمةِ الكوفةِ) فَدَعاهُ قومٌ إِلى =

فعادَ فعطفَ عليهِ وأَرضاهُ ، وبالَغَ في الإحسانِ إِليهِ ، فقالَ يمدحُ يزيدَ بنَ حاتِمٍ ، ويَذُمُّ يَزيدَ بنَ أُسيدٍ [في « شعره » ٩٧ـ٩٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الْيَزِيدَيْنِ فِي النَّدَىٰ ... يَزِيدَ سُلَيْمٍ وَالأَغَرِّ ابْنِ حَاتِمِ
فَهَمُّ الْفَتَى الأَزْدِيِّ تَفْرِيقُ مَالِهِ ... وَهَمُّ الْفَتَى الْقَيْسِيِّ جَمْعُ الدَّرَاهِمِ
فَلا يَحْسَبِ التَّمْتَامُ أَنِّي هَجَوْتُهُ ... وَلَكِنَّنِي فَضَّلْتُ أَهْلَ الْمَكَارِمِ(١)

ويزيدُ ابنُ حاتِمٍ هَـٰذا هُوَ جَدُّ الوزيرِ أَبي محمدٍ المهلَّبيِّ المشهورِ .

وشبيهٌ بهَـٰذَا الحديثِ [كما في « شذرات الذهب » ٢/ ٣١٢] : أَنَّ ابنَ عِنَيْنَ الدمشقيَّ قَدِمَ (الْيَمَنَ) عَلَى الملِكِ العزيزِ طغتكينَ بنِ أَيُّوبَ وامتدَحَهُ بغُرَرِ القصائِدِ ، فأجزَلَ صلَتَهُ ، وأَكسبَهُ أَموالاً طائِلَةً ، فلمَّا وصلَ الديارَ المصريَّةَ ـ وسلطانُها يومَئِذٍ ابنُ أَخيهِ العزيزُ عثمانُ بنُ صلاحِ الدينِ بنِ أَيُّوبَ ـ أَلزمَهُ أَربابُ دِيوانِ الزكاةِ بدفْعِ صدقَةِ التجارَةِ عَنْها ، فقالَ : [مِنَ البسيطِ]

مَا كُلُّ مَنْ يَتَسَمَّىٰ بِالْعَزِيزِ لَهَا ... أَهْلٌ ، وَلاَ كُلُّ بَرْقٍ سُحْبُهُ غَدِقَهْ(٢)
بَيْنَ الْعَزِيزَيْنِ بَوْنٌ فِي فِعَالِهِمِ ... هَـٰذَاكَ يُعْطِي ، وَهَـٰذَا يَأْخُذُ الصَّدَقَهْ

وذكرَ غيرُ واحدٍ [منهم الأصفهاني في « الأغاني » ١٦/ ٢٧٤] : أَنَّ ربيعةَ الرقيَّ ـ الآنِفَ الذِّكْرِ ـ امتدحَ العبَّاسَ بنَ محمَّدِ بنِ عليِّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ العبَّاسِ بقولِهِ [في « شعره » ٨٧] : [مِنَ الكامِلِ]

لَوْ قِيلَ لِلْعَبَّاسِ : يَا ابْنَ مُحَمَّدٍ ... قُلْ : لاَ وَأَنْتَ مُخَلَّدٌ مَا قَالَهَا
مَا إِنْ أَعُدُّ مِنَ الْمَكَارِمِ خَصْلَةً ... إِلاَّ وَجَدْتُكَ عَمَّهَا أَوْ خَالَهَا
وَإِذَا الْمُلُوكُ تَسَايَرَتْ فِي بَلْدَةٍ ... كَانُوا كَوَاكِبَهَا وَكُنْتَ هِلاَلَهَا
إِنَّ الْمَكَارِمَ لَمْ تَزَلْ مَعْقُولَةً ... حَتَّىٰ حَلَلْتَ بِرَاحَتَيْكَ عِقَالَهَا

فلمْ يُرضِهِ ، فقالَ [في « شعره » ٦٧] : [مِنَ الوافرِ]

هَزَزْتُكَ هِزَّةَ السَّيْفِ الْمُحَلَّىٰ ... فَلَمَّا أَنْ ضَرَبْتُ بِكَ انْثَنَيْتُ
فَهَبْهَا مِدْحَةً ذَهَبَتْ ضَيَاعاً ... كَذَبْتُ عَلَيْكَ فِيهَا وَافْتَرَيْتُ
فَأَنْتَ الْمَرْءُ لَيْسَ لَهُ وَفَاءٌ ... كَأَنِّي إِذْ مَدَحْتُكَ قَدْ زَنَيْتُ

فرفعَهُ إِلى الرشيدِ ـ وكانَ أَثيراً(٣) عندَهُ ، وقد همَّ أَنْ يخطُبَ إِليهِ ابنتَهُ ـ فأَحضرَ ربيعةَ ، وقالَ : يا ماصَّ بَظْرِ أُمِّهِ ، تَهْجو عَمِّي ؟ قالَ : لقد مدحتُهُ بشعرٍ ما قيلَ مثلُهُ في الخُلَفاءِ ، وأَنشدَهُ لَهُ ، فاستجادَهُ ، وقالَ لِلْعَبَّاسِ : كَمْ أَثبتَهُ ؟

= الصحراءِ ليغنِّيَهم ، فمضىٰ مَعَهم ، فلمَّا سَكِرَ . . سلبوهُ ثيابَهُ ، وتركوهُ عُرياناً في خُفَّيهِ ، رجعَ إِلىٰ أَهلِهِ ، وأَبصروهُ بتلكَ الحالَةِ . . قالوا : جاءَ حنينٌ بخُفَّيهِ . فغدَتْ مثلاً لكُلِّ إِنسانٍ خائِبٍ وخاسِرٍ .

(١) **التمتامُ** : إِشارةٌ إِلىٰ تمتمةٍ كانت في لسانِ يزيدَ بن أُسيدٍ .

(٢) **غدِقَةٌ** : مُمطِرَةٌ .

(٣) **الأَثيرُ** : التابعُ ، وفلانٌ أَثيري : أي مِنْ خُلَصائي .

فواللهِ ما قيلَ في أَحدٍ مثلُهُ ، فسكَتَ العبَّاسُ وغصَّ بريقِهِ ، فقالَ ربيعةُ : أَثابَني عليهِ بدينارَينِ ، قالَ الرشيدُ : بِحَياتي لا تكذبُ ، فقالَ : وحياتِكَ لا أَكثَرَ مِنهُما ، فغضِبَ الرشيدُ أَشَدَّ الغضَبِ على العبَّاسِ ، وأَوجعَهُ تأنيباً ، ثُمَّ اشترىٰ عرضَهُ مِنْ ربيعةَ بثلاثينَ أَلفَ درهمٍ ، وخلعَهُ ، وحملَهُ علىٰ بغلَةٍ ، ورجَعَ عمَّا كانَ همَّ بهِ مِنَ الْخِطْبَةِ إِليهِ .

وفي العبَّاسِ هَـٰذَا يقولُ بشَّارٌ [في « ديوانه » ٣/ ١٢٧ـ١٢٨] : [مِنَ البسيطِ]

ظَـلَّ الْيَسَـارُ عَلَـى الْعَبَّـاسِ مَمْـدُودُ ... وَقَلْبُـهُ أَبَـداً بِـالْبُخْـلِ مَعْقُـودُ
إِنَّ الْكَـرِيـمَ لَيُخْفِـي عَنْـكَ عُسْـرَتَـهُ ... حَتَّـىٰ تَـرَاهُ غَنِيّـاً وَهْـوَ مَجْهُـودُ
وَلِلْبَخِيـلِ عَلَـىٰ أَمْـوَالِـهِ عِلَـلٌ ... زُرْقُ الْعُيُـونِ عَلَيْهَـا أَوْجُـهٌ سُـودُ[1]
إِذَا تَكَـرَّمْـتَ عَـنْ بَـذْلِ الْقَلِيـلِ وَلَـمْ ... تَقْـدِرْ عَلَـىٰ سَعَـةٍ لَـمْ يَظْهَـرِ الْجُـودُ
أَوْرِقْ بِخَيْـرٍ تُـرَجَّـىٰ لِلنَّـوَالِ فَمَـا ... تُـرْجَـى الثِّمَـارُ إِذَا لَـمْ يُـورِقِ الْعُـودُ

وقد أَلَمَّ في الأَخيرِ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ : « **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَىٰ أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ** »[2] .

[عبث ربيعة الرقي بالعباس بن محمد في حضرة الرشيد]

وفي حِفْظي عَنْ بَعْضِ الكُتُبِ [كما في « الأغاني » ١٦/ ٢٧٤] : أَنَّ ربيعَةَ الرَّقِّيَّ مَا زالَ يعبثُ بالعبَّاسِ ـ ولم يكُن ذلِكَ إِلاَّ عن رضىً من الرشيدِ في باطن الأَمْرِ ، كَما هِيَ عادةُ المُلوكِ ، وكما يُعرَفُ جليّاً مِنَ الْقِصَّةِ الآتيةِ ، فلقد جاءَ العبَّاسُ بغاليَةٍ أَهْداها للرشيدِ[3] ، وطفِقَ يُطْنِبُ في وصفِها ، فاعترضَهُ ربيعَةُ وقالَ : تصِفُها بحضرَةِ أَميرِ المُؤْمِنينَ ، الذي تُجبىٰ لَهُ نَفَائِسُ الدنيا مِن شرقِها إِلىٰ غربِها ، وما قَدْرُ غاليتِكَ هَـٰذِهِ عندَها ؟ ثُمَّ التفَتَ إِلى الرَّشيدِ وقالَ : بحياتِكَ إِلاَّ ما جعَلْتَها لي بنَصيبي مِنَ الْعَطاءِ إِلىٰ سَنةٍ ، فقالَ : خُذْها ، فدَهَنَ إِبْطَيْهِ وَاستَهُ ومَذاكيرَهُ ، ثُمَّ اسْتأْذَنَ لغلامِهِ فدخَلَ ، فقالَ لَهُ : اذهَبْ إِلىٰ فلانَةَ ، وقُلْ لَها : ادهَني بما بقِيَ في الحُقِّ استكِ وإِبْطَكِ وسائِرَ بدنِكِ ، فلآتِيَنَّكِ الساعَةَ ، فضحِكَ الرشيدُ حَتَّى استلقىٰ .

وما كانَ ربيعَةُ ليفعلَ هَـٰذَا . . إِلاَّ عَن إِشارَةٍ مِنَ الرَّشيدِ ، أو عنْ عِلمٍ بطبيعتِهِ ومواقِعِ رضاهُ ، ولا يُنكَرُ هَـٰذَا معَ ركانَةِ الرشيدِ ، فإِنَّ طِباعَ الملوكِ أَشبَهُ بطباعِ الصبيانِ ، وكثيراً ما تركَبُ الصعْبَ والذَّلولَ في سبيلِ شهواتِ الانتقامِ ، وقد تعذَّرَ عليهِ ؛ لِمَكانِ قربِ العبَّاسِ منْهُ ، واحترامِهِ لَهُ في الظاهِرِ ، إِلاَّ مِنْ هَـٰذَا الطريقِ .

[من أخبار العباس مع الرشيد]

ومِنْ أَخبارِهِ مَعَ العبَّاسِ هَـٰذَا ـ ولا إِخالُهُ إِلاَّ قبلَ نفرَتِه عنْهُ ـ أَنَّهُ قالَ لَهُ [كما في « الأغاني » ١٨/ ٢٣٧] : لقد أَكثرَ الشعراءُ في الأَمينِ ، وأُحبُّ أَنْ أَسمعَ في المَأمونِ ، فذكَرَ العبَّاسُ ذلكَ لأَشجَعَ ، فقالَ [في « شعرِه » ٢٣٨] : [مِنَ المديدِ]

بَيْعَـةُ الْمَـأْمُـونِ آخِـذَةٌ ... بِعِنَـانِ الْحَـقِّ فِـي أُفُقِـهْ
لَـنْ يَفُـكَّ الْمَـرْءُ رِبْقَتَهَـا ... أَوْ يَفُـكَّ الـدِّيـنَ مِـنْ عُنُقِـهْ
وَلَـهُ مِـنْ وَجْـهِ وَالِـدِهِ ... صُـورَةٌ تَمَّـتْ وَمِـنْ خُلُقِـهْ

---

(١) خصَّ العيونَ الزرقاءَ بالذِّكرِ هنا ؛ لأَنَّها ممَّا تكرهُهُ العربُ وتتشاءَمُ بهِ ، ولأَنَّ صاحبَها يكونُ مليئاً بالأَضغانِ .
(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٥٠) .
(٣) **الغاليةُ** : وِعاءٌ يوضعُ فيهِ الطِّيبُ ، وأَوَّلُ مَن سمَّاها بذلكَ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ .



فَأتىٰ بها العبَّاسُ إلى الرشيدِ ، فاستحسنَهَا ، وقالَ : لِمَنْ ؟ قالَ : هِيَ لي ، قالَ : الآنَ سرَّتْني مِنْ جِهَتينِ ؛ لإصابَتِها ما في نَفْسي ، ولأَنَّها لَكَ ، وأَعْطَاهُ ثلاثينَ أَلفَ دينارٍ ، فاحتقَبَها ولَمْ يُعْطِ أَشْجَعَ مِنْها إلاَّ خمسَةَ آلافٍ ، علىٰ أَنَّ الخَمسةَ كثيرٌ بالنسبةِ إِلىٰ ما سبقَ مِن لؤْمِهِ .

[حبس أمير المؤمنين ابن الخطاب للحطيئة]

و[روى الأصفهاني في « الأغاني » ٢/ ١٧٨ أنه] : لَمَّا أَكثرَ الحُطَيئَةُ مِنَ الْهِجَاءِ ، واستعدىٰ عليهِ الزِّبْرِقَانُ ابنَ الخطَّابِ رضي الله عنه . . حَبَسَهُ ، فكتَبَ إليهِ مِنَ السِّجْنِ [في « ديوانه » ١٩١] : [مِنَ البسيطِ]

مَــاذَا تَقُــولُ لأَفْــرَاخٍ بِــذِي مَــرَخٍ ... حُمْــرِ الْحَــوَاصِــلِ لاَ مَــاءٌ وَلاَ شَجَــرُ

أَلْقَيْــتَ كَــاسِبَهُــمْ فِــي قَعْــرِ مُظْلِمَــةٍ ... فَــامْنُــنْ عَلَيْهِــمْ هَــدَاكَ اللهُ يَــا عُمَــرُ

فأَطلقَهُ ، وشرطَ عليهِ أَنْ يكُفَّ لسانَهُ عَنِ النَّاسِ ، فتقدَّمَ إِلىٰ عمرَ بالأَبياتِ التي سبقَ بعضُها في غيرِ هـٰذَا المجلسِ ومِنْهَا قولُهُ [في « ديوانه » ٢٧٧] : [مِنَ الكاملِ]

أَشْكُــو إِلَيْــكَ بَلِيَّتِــي مِــنْ صِبْيَــةٍ ... لاَ يَشْبَعُــونَ وَأُمُّهُــمْ لاَ تَشْبَــعُ

وَبُعِثْــتَ لِلشُّعَــرَاءِ مَبْعَــثَ دَاحِــسٍ ... أَوْ كَــالْبَسُــوسِ بِــرُدْعِهَــا تتَكَــوَّعُ

يقولُ لَهُ : لقد كُنتَ شُؤْماً على الشعراءِ كشُؤْمِ داحسٍ علىٰ عبْسٍ وذبيانَ ، وكشؤْمِ البَسوسِ علىٰ بني وائِلٍ .

[ذهاب الحطيئة إلىٰ علقمة بن علاثة بعد خروجه من السجن وإذا به قد مات!!]

وبِعَقِبِ مراجعاتٍ طويلَةٍ كتبَ لَهُ إِلىٰ علقمَةَ بنِ علاثَةَ ، فصادفَهُ قد ماتَ والناسُ منصرفونَ من قبرِهِ ، وابنُهُ حاضِرٌ ، فأَنشدَ قصيدَتَهُ اللاَّميَّةَ المشهورَةَ ، التي يقولُ فيها [في « ديوانه » ٣٥ـ٣٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِلَــى الْقَــائِــلِ الْفَعَّــالِ عَلْقَمَــةَ النَّــدَىٰ ... رَحَلْــتُ قَلُــوصِــي تَجْتَــوِيهَــا الْمَنَــاهِــلُ

يَــدَاهُ خَلِيــجُ الْبَحْــرِ إِحْــدَاهُمَــا دَمــاً ... تَفِيــضُ وَأُخْــرَىٰ بَحْــرُ جُــودٍ وَنَــائِــلُ

فَــإِنْ تَحْــيَ لاَ أَمْلُــلْ حَيَــاتِــي وَإِنْ تَمُــتْ ... فَمَــا فِــي حَيَــاةٍ بَعْــدَ مَــوْتِــكَ طَــائِــلُ

وَمَــا كَــانَ بَيْنِــي لَــوْ لَقِيتُــكَ سَــالِمــاً ... وَبَيْــنَ الْغِنَــىٰ إِلاَّ لَيَــالٍ قَــلاَئِــلُ

فقالَ ابنهُ : كم تظنُّ أَبي يعطيكَ لو وجدْتَهُ حيّاً ؟ فقالَ : مئَةَ ناقَةٍ يتبعُها أَولادُها ، فقالَ لَهُ : هِيَ لَكَ[1] .

ويروىٰ : أَنَّ علقمَةَ كانَ أَوصىٰ لَهُ بمثْلِ نصيبِ أَحدِ أَولادِهِ .

[جود الأبناء]

قالَ ابنُ خَلِّكَانَ [في « وفيات الأعيان » ٥/ ١٩١] : ومثْلُ قصَّةِ الحُطَيئَةِ معَ ابنَ علقَمَةَ ، أَنَّ ابْنَ مروانَ ابنِ أَبي حفصَةَ دخلَ علىٰ شراحيلَ بنِ معنِ بنِ زائدَةَ ، فقالَ لَهُ : [مِنَ البسيطِ]

أَيَــا شُــرَاحِيــلُ بْــنَ مَعْــنِ بْــنِ زَائِــدَةٍ ... يَــا أَكْــرَمَ النَّــاسِ مِــنْ عُجْــمٍ وَمِــنْ عَــرَبِ

أَعْطَــىٰ أَبُــوكَ أَبِــي مَــالاً فَعَــاشَ بِــهِ ... فَــأَعْطِنِــي مِثْــلَ مَــا أَعْطَــىٰ أَبُــوكَ أَبِــي

---

(١) « الأغاني » (١٦/ ٣١٨) ، وكنا قد ذكرنا هـٰذه القصة في حاشية غير هـٰذا المجلس برواية تقرب من هـٰذه فليتنبه .

مَـا حَـلَّ قَـطُّ أَبِـي أَرْضـاً أَبُـوكَ بِهَـا ... إِلاَّ وَأَعْطَـاهُ قِنْطَـاراً مِـنَ الـذَّهَـبِ

فأعطاهُ شراحيلُ بنُ معنٍ قنطاراً مِنَ الذهَبِ .

[هـٰذا الشبل من ذاك الأسد]

وإنِّي لأَتعجَّبُ مِنَ القاضي إِذْ نَسِيَ أَنْ يُشيرَ إِلىٰ قصَّةِ ابنِ حَيُّوسٍ ـ مَعَ أَنِّي لَمْ أَعْرِفْها إِلاَّ مِنْهُ ـ وحاصِلُها [كما في « وفيات الأعيان » ٤/٤٣٩] : أَنَّ ابنَ حَيُّوسٍ هـٰذَا امتدَحَ الأَميرَ محمودَ بنَ نصرِ بنِ صالحِ بنِ مرداسٍ الكِلابيَّ صاحِبَ (حلبٍ) ، ثُمَّ امتدَحَ ابنَهُ نصراً بعدَهُ بقصيدَةٍ يقولُ فيها [في « ديوانه » ١/٢٤٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَبَـاعَـدْتُ عَنْكُـمْ حِـرْفَـةً لاَ زَهَـادَةً ... وَجِئْـتُ إِلَيْكُـمْ حِيـنَ مَسَّنِـيَ الضُّـرُّ

فَـلاَقَيْتُ ظِـلَّ الأَمْـنِ مَـا عَنْـهُ حَـاجِـزٌ ... يَصُـدُّ وَبَـابَ الْعِـزِّ مَـا دُونَـهُ سِتْـرُ

وَطَـالَ مُقَـامِـي فِـي إِسَـارِ جَمِيلِكُـمْ ... فَـدَامَـتْ مَعَـالِيكُـمْ وَدَامَ لِـيَ الأَسْـرُ

وَجَـادَ ابْـنُ نَصْـرٍ لِـي بِـأَلْـفٍ تَصَـرَّمَـتْ ... وَإِنِّـي عَلِيـمٌ أَنْ سَيُخْلِفُهَـا نَصْـرُ

فقالَ : أَمَا واللهِ ، لَو قالَ : سيُضْعِفُها نَصْرُ . لأَضْعَفْتُهَا لَهُ ، وأَعطاهُ أَلفَ دينارٍ في طبقٍ مِن فِضَّةٍ ، وكانَ اجتمعَ علىٰ بابِ نصرٍ جماعةٌ مِنَ الشعَراءِ ، فتأَخَّرَتْ جوائِزُهُم ، فاتَّفقُوا علىٰ تقديمِ وَرَقَةٍ إِليهِ كَتَبوا فيها : [مِنَ الطَّويلِ]

عَلَـىٰ بَـابِـكَ الْمَحْـرُوسِ مِنَّـا عِصَـابَـةٌ ... مَفَـالِيسُ فَـانْظُـرْ فِـي أُمُـورِ الْمَفَـالِيسِ

وَقَـدْ قَنِعَـتْ مِنْـكَ الْجَمَـاعَـةُ كُلُّهَـا ... بِعُشْـرِ الَّـذِي أَطْلَقْتَـهُ لابْـنِ حَيُّـوسِ

وَمَـا بَيْنَنَـا هَـٰـذَا التَّفَـاوُتُ كُلُّـهُ ... وَلَكِـنْ سَعِيـدٌ لاَ يُقَـاسُ بِمَنْحُـوسِ

فلَمَّا وقفَ عليها الأَميرُ نَصْرٌ . أَطلقَ لَهُم مِئَةَ دينارٍ ، وقالَ : واللهِ لَو قالوا : بمثْلِ الَّذي أَطلقْتَه لابْنِ حَيُّوسٍ . . لأَعطيتُهم مثلَهُ .

[كرم سيف الدولة]

أَمَّا سيفُ الدولَةِ بنُ حمدانَ : فقد زادَ علىٰ ما صنعَ هـٰؤلاءِ إِذ [روى ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ٣/٤٠٤ أنه] : دخلَ عليهِ القاضي أبو نَصرٍ محمَّدُ بنُ محمَّدٍ النيسابوريُّ فطرحَ مِن كُمِّهِ كِيساً فارغاً ، وأَنشدَ قصيدَةً يقولُ مِنْها : [مِنَ الطَّويلِ]

وَعَبْـدُكَ مُحْتَـاجٌ إِلَـىٰ أَلْـفِ دِرْهَـمِ ... حِبَـاؤُكَ مُعْتَـادٌ وَأَمْـرُكَ نَـافِـذٌ

فضحكَ سيفُ الدولَةِ حَتَّى استغرَبَ[1] ، وأَمرَ لَه بأَلفِ دينارٍ[2] ، جُعِلَتْ في الكيسِ .

وإِقرارُ القاضي بالعبوديَّةِ لسيفِ الدولَةِ أَكبرُ ممَّا كانَ يتعاظَمُ أَبو حيَّانَ [كما في « طبقات ابن السبكي » ٥/٢٠٩] مِن قولِ إِمامِ الحرمَينِ في خُطْبَةِ بَعْضِ كُتُبِهِ يخاطِبُ نظامَ المُلْكِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا أَنَـا إِلاَّ دَوْحَـةٌ قَـدْ غَـرَسْتَهَـا ... وَسَقَّيْتَهَـا حَتَّـىٰ تَمَـادَىٰ بِهَـا الْمَـدَىٰ

فَلَمَّـا اقْشَعَـرَّ الْعُـودُ مِنهَـا وَصَـوَّحَـتْ ... أَتَتْـكَ بِـأَغْصَـانٍ لَهَـا تَطْلُـبُ النَّـدَىٰ[3]

---

(١) استغربَ : سالَ دمعُهُ .

(٢) وفي « وفيات الأعيان » : ألف درهم .

(٣) صوَّحَتْ : يبِسَتْ أغصانُها .



وقد كانَ أَبو حيَّانَ يقولُ : كيفَ يرضى الإِمامُ أَنْ يخاطِبَ النظامَ بهَـٰذَا الخطابِ ؟ ثُمَّ يذُمُّ الدنيا التي تحوِجُ مِثْلَ الإِمامِ إِلىٰ ذلِكَ .

ومَرَّ ما يناسِبُ هَـٰذَا ـ مَعَ الإِحالَةِ علَىٰ ما هُنَا ـ في المجلسِ الخامسِ في الكلامِ علَىٰ **قولِ الناظِمِ** [في « العُكبَرِيِّ » ٤/٢٩] :

[مِنَ الطَّويلِ]

كَصِفَـاتِ مَـوْلاَنَـا أَبِـي الْفَضْـلِ الَّتِـي ... بَهَـرَتْ فَـأَنْطَـقَ وَاصِفِيـهِ وَأَفْحَمَـا

* * *



المجلس الحادي عشر

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٧٢] : [مِنَ المنسرحِ]

تَمَثَّلُوا حَاتِماً وَلَوْ عَقَلُوا ... لَكُنْتَ فِي ٱلْجُودِ غَايَةَ ٱلْمَثَلِ

[شرح المطلع]

يقولُ : إنَّ النَّاسَ يضربونَ المثلَ في الجودِ بحاتِمٍ ، ولَو عقلوا . . لَتمثَّلوا بكَ ؛ لأَنَّكَ أكرمُ وأجودُ منهُ ، أَو لأنَّه غائبٌ وأنتَ حاضرٌ ، فيكونُ حينئذٍ **كقولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٨١] [مِنَ : البسيطِ]

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ ... فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

[لو سبقت حاتماً بيوم لما ذكره الناس!!]

ويروىٰ [في « المستطرف » ١/ ٣٥٠] : أَنَّ رجلاً مِنَ الأَنصارِ جاءَ إِلىٰ عبيدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ ـ رضيَ اللهُ عنهُما ـ فقالَ لهُ : يا ابنَ عمِّ الرسولِ ، وُلِدَ لي في هٰذه الليلةِ مولودٌ ، سمَّيتُهُ باسمِكَ تيمُّناً بكَ ، وإِنَّ أُمَّهُ ماتَتْ ، فقالَ لَهُ : باركَ اللهُ لكَ في الهِبَةِ ، وآجرَكَ في المصيبَةِ ، ثمَّ دَعا بوكيلِهِ وقالَ لَهُ : انطلِقِ الساعَةَ فاشترِ للمولودِ جاريَةً تحضنُهُ ، وادفعْ لأَبيهِ مِئتَي دينارٍ لِيُنفِقَها علىٰ تربيتِهِ ، وقالَ للأَنصاريِّ : عُدْ إِلينا بعد أَيَّامٍ ، فقد جِئْتَنا وفي العيشِ يَبَسٌ ، وفي المالِ قلَّةٌ ، فقالَ الأَنصاريُّ : جُعِلْتُ فِداكَ ، أَما واللهِ لَو سبقْتَ حاتِماً بيومٍ . . لَمَا ذكرتهُ العربُ .

وكَم مِن كريمٍ ينحرُ البُدْنَ النضارَ لِمَنِ استجداهُ ، غير أَنَّ الوُجدَ يُعدي على الجودِ ، وكانَ حاتِمٌ يُعطي المجهودَ ، وقد قالَ جلَّ شأنُهُ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ [التوبة : ٧٩] . وفي الحديثِ : « **دِرْهَمٌ سَبَقَ أَلْفَ دِرْهَمٍ** »[1] .

وممَّا يروىٰ عن أَبي ذرٍّ مرفوعاً : « **إِنَّ أَفْضَلَ الصَّدَقَةِ جُهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ ، يَمْشِي بِهِ إِلَىٰ فَقِيرٍ** »[2] .

[صُوَرٌ من أخبار الكرماء]

ووقفَ أَعرابيٌّ علىٰ محمَّدِ بنِ معْمَرٍ ، وكانَ سخيّاً ، فسأَلَهُ ، فنزعَ لَهُ خاتَمَهُ ، وقالَ : لا تُخدَعْ عن فُصِّهِ ؛ فقد قامَ بمئَةِ دينارٍ ، فقلعَهُ وقالَ : دونكَهُ ، فإِن الفضَّةَ تَكْفيني لحاجَتي ، فقالَ ابنُ مَعْمَرٍ : هٰذا أَكرمُ منِّي .

وسُئِلَ حاتِمٌ وقيلَ لَهُ : هلْ غلبَكَ أَحدٌ في الكرمِ ؟ قالَ : لا ، إِلاَّ غلامٌ يتيمٌ نزلْتُ بفنائِهِ ، فذبحَ لي رأْسَ غنَمٍ ، وكانَ لا يملكُ إِلاَّ عَشَرَةً ، فلمَّا رآني استطيَبْتُ دِماغَهُ . . ذَبحَها بأَسْرِها ، وقدَّمَ إِليَّ أَدْمِغَتَها ، ولمَّا عاتَبْتُهُ . . قالَ :

---

(١) أخرج نحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه النسائي (٥/ ٥٩) في الزكاة ، وابن خزيمة (٢٤٤٣) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٣٤٧) بلفظ : « سبق درهمٌ مئةَ ألفِ درهمٍ . . . » بإسناد صحيح من طريقين .

(٢) أخرجه بنحوه الإمام أحمد في « مسنده » (٥/ ١٧٨ و١٧٩) وفيه : « جهد من مقل أو سرٌّ إلىٰ فقير » وإسنادهما ضعيف .

سبحانَ اللهِ! تستطيبُ شيئاً أَقدِرُ عليهِ فأَبخَلُ بهِ ، إنَّ ذلكَ لسبَّةٌ . قيلَ لَهُ : فما الذي عوَّضْتَهُ ؟ قالَ : ثلاثَ مئَةِ ناقةٍ ، وخمسَ مئَةِ رأسٍ مِنَ الغنَمِ ، فقيلَ لَهُ : أَنْتَ أكرمُ منهُ إذاً ، قالَ : هيهاتَ! جادَ بكلِّ ما يملكُ ، ولَم أَجُدْ إلاَّ بقليلٍ مِن كثيرٍ . غيرَ أَنَّه لا يُسَلَّمُ الكرَمُ لِلْغلامِ إلاَّ إنْ فعلَ ذلكَ معَ عدَمِ المعرفةِ بحاتِمٍ ، وإلاَّ كانَ فعلُهُ متاجرَةً .

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٨٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلِلنَّفْسِ أَخْلاَقٌ تَدُلُّ عَلَى ٱلْفَتَىٰ ... أَكَانَ سَخَاءً مَا أَتَىٰ أَمْ تَسَاخِيَا

[حبيبي!! فات الأوان]

ويُروىٰ [كما في « الأغاني » ٢/ ١٦٠] : أَنَّ الحُطيئَةَ انحدرَ علىٰ عتيبةَ بنِ النهَّاسِ العجليِّ ـ وكانَ مُثْرِياً من وجوهِ بكرِ بنِ وائلٍ ـ فدخلَ عليهِ الحُطيئَةُ في عباءَةٍ ، وقالَ : أَعطِني ، فاعتذَرَ بكثرَةِ الحقوقِ ، ولَم يعرفْهُ ، ولَمَّا خرَجَ . . قالَ لَهُ بعضُ أَصحابِهِ : لقد عرَّضْتَنا للشرِّ بجفَائِكَ لِلْحُطَيئَةِ ، فقالَ : أَهُوَ هُوَ ؟ قالوا : نعَم ، فردَّهُ واعتذَرَ إِليهِ ، وقالَ لهُ : ليسَ عِندَنا إلاَّ ما يسرُّكَ ، فأَنتَ أَشعرُ العرَبِ ، قالَ : كلاَّ ، ولكِنَّ أَشعرَهم الذي يقولُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ ... يَفِرْهُ وَمَنْ لاَ يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ

فقالَ عتيبةُ : أَمَا إنَّها لأَولُ أَفاعيكَ[1] ، ثمَّ أَكرمهُ ، وقالَ لهُ : اشترِ ما شِئْتَ وعليَّ ثمنُهُ ، وبعثَ معَهُ خادمَهُ ، فاشترىٰ ما أَرادَ مِنَ السُّوقِ ثمَّ قالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

سُئِلْتَ فَلَمْ تَبْخَلْ وَلَمْ تُعْطِ نَائِلاً ... فَسِيَّانِ ، لاَ ذَمٌّ عَلَيْكَ وَلاَ حَمْدُ

وَأَنْتَ ٱمْرُؤٌ مَا ٱلْجُودُ مِنْكَ سَجِيَّةٌ ... وَلَكِنَّهُ يُعْدِي عَلَى النَّائِلِ الْوُجْدُ

فأَخذَهُ أَبو بكرٍ الخوارزميُّ وقالَ في الصاحب بنِ عبَّادٍ [في « ديوانهِ » ٤٠٩ـ٤١٠] : [مِنَ البسيطِ]

لاَ تَحْسَبَنَّ ٱبْنَ عَبَّادٍ وَإِنْ هَطَلَتْ ... كَفَّاهُ بِالْجُودِ سَحّاً يُشْبِهُ الدِّيَمَا

فَإِنَّهَا خَطَرَاتٌ مِنْ وَسَاوِسِهِ ... يُعْطِي وَيَمْنَعُ لاَ بُخْلاً وَلاَ كَرَمَا

فأَمهلَهُ الصاحبُ حتَّىٰ مات . . فقالَ [في « ديوانهِ » ٢٨٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَقُولُ لِرَكْبٍ مِنْ خُرَاسَانَ مُقْبِلٍ ... أَمَاتَ خَوَارِزْمِيُّكُمْ ؟ قِيلَ لِي : نَعَمْ

فَقُلْتُ : ٱكْتُبُوا بِالْجِصِّ مِنْ فَوْقِ قَبْرِهِ ... أَلاَ لَعَنَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَنْ يَكْفُرُ ٱلنِّعَمْ

وكانَ ابنُ العميدِ وَصلَ الناظمَ عِندَما وردَ عليهِ بثلاثةِ آلافِ دينارٍ ، وثلاثةِ أَفراسٍ مُسرَجَةٍ محلاَّةٍ ، وثيابٍ فاخرَةٍ ، ودَسَّ مَن يسأَلُهُ عَنْهُ وعَن سيفِ الدولةِ ، فقالَ : هَٰذا أَجزَلُ عطاءً إلاَّ أَنَّهُ متكلِّفٌ ، وسيفُ الدولَةِ يُعْطِي طبعاً ، فاحتقدَها عليهِ ، وسعىٰ في قتلِهِ .

وبعدَ هَٰذا كلِّهِ فَلا إِسرافَ في مَضْرِبِ المثَلِ بجودِ حاتِمٍ .

[بعض عجائب حاتم]

وقد قيلَ لماويَّةَ [كما في « الأغاني » ١٧/ ٣٩٠] : حدِّثينا ببعضِ عجائبِ حاتِمٍ ، فقالَتْ : أَعجبُ ما رأَيتُ منهُ أَنَّها أَصابتِ

---

(١) أي : حيلك .

النَّاسَ سَنَةٌ ، أَذهبَتِ الخُفَّ والحافِرَ ، وأَخذَني وإِيَّاهُ الجوعُ ، وعَلَّلْنا العيالَ حتَّىٰ ناموا علىٰ ما بِهِم ، فَبَينا نحنُ كذلكَ . . إذا بامرأَةٍ تقولُ : يا أَبا عديٍّ . . جِئتُكَ عَن صِبيَةٍ يَتعاوَوْنَ مِثلَ الكلابِ جوعاً ، فقالَ لَها : أَحضِريهِم ، فرفعْتُ إليهِ رَأْسي ، وقلتُ لَهُ : مِن أَينَ لكَ إِشباعُهُم ، وما نامَ أَولادُكَ إلاَّ بالتَّعليلِ ؟! فلَمَّا جاءَتِ المرأَةُ بأَولادِها . . عَمَدَ إلىٰ فرسِهِ فذَبَحَها ، ثمَّ نبَّهَ أَولادَهُ ، وسارَ في الحيِّ بيتاً بيتاً يدعوهُم ، وتقنَّعَ بكسائِهِ ، وجلسَ ناحيةً ، فواللهِ ما أَصبحوا وعلىٰ ظَهْرِ الأَرضِ غيرُ العِظامِ ، ولا واللهِ ما ذاقَ شيئاً مِنها ، وإِنَّهُ لأَشدُّهم جوعاً .

[الشهامة والجود العربي]

ونظيرُ هٰذهِ القصَّةِ : ما أَخبرني بهِ السَّيِّدُ عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرَّحمٰنِ بنِ طاهرٍ : أَنَّ إسماعيلَ باشا ـ خَديويَّ (مِصرَ) ـ سمعَ بفَرسٍ معَ بعضِ العَرَبِ بـ(نجدٍ) ، وكانَ محبّاً للخيلِ ، فأَرسلَ وفداً لِشرائِها بِما بلغَتْ ، فنزَلَ وفدُهُ علىٰ ضيافةِ العربيِّ صاحبِ الفرسِ ، ورأَوا مِنَ اللَّباقَةِ أَنْ لا يفاتِحوهُ بشأْنِها إلاَّ بعدَ الاستئناسِ ، فأَمهلوهُ حتَّى اللَّيلِ ، فسأَلوهُ عنها ؟ وأَخبروهُ بأَنَّ مجيئَهُم مِن أَجلِها ، ومَنَّوهُ فيها ما شاءَ ، فقالَ لَهُم : إِنَّها غيرُ موجودَةٍ ، فقالوا : لقد سأَلْنا عنها بعضَ عبيدِكُمْ ساعَةَ ما وصلنا ، فأَرَونا إِيَّاها ، فَلا تُخفِها عنَّا ، وسَلْ ما تُريدُ ، فلمَّا أَلحُّوا عليهِ . . أَخبرَهُم بأَنَّهُ لَم يَجِدْ ما يذْبَحُهُ لَهُم غيرَها ، وأَنَّهُ ذبَحَها لَهُم ، فَدَفعوا لَهُ كميَّةً وافرَةً مِنَ الدَّنانيرِ ، وأَكبَروا صنيعَهُ وعروبيَّتَهُ ، ثمَّ عَادوا أَدراجَهُم ، فصادَفوا الخديويَّ قد خرجَ لاستقبالِهِم إلى (الإسكندريَّةِ) ، مِن حرصِهِ على الفرَسِ ، ولمَّا بقروا لَهُ الحديثَ . . ارتاحَ مِن جهَةٍ ، بقدرِ ما استاءَ مِنَ الأُخرىٰ ، واستقلَّ ما دَفَعوا لَهُ ، وأَضعَفَهُ لَهُ .

[هل يذبح الحطيئة ابنه للضيفان ؟!]

وما رأَيتُ في الجودِ أَحسنَ ممَّا نظمَهُ الحُطيئَةُ في قولِهِ [كما في « ديوانه » ٢٧١ـ٢٧٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَطَاوِي ثَلاَثٍ عَاصِبِ ٱلْبَطْنِ مُرْمِلٍ ... بِبَيْدَاءَ لَمْ يَعْرِفْ بِهَا نَاظِرٌ رَسْمَا (١)

وَأَفْرَدَ فِي شِعْبٍ عَجُوزاً حِيَالَهَا ... ثَلاَثَةُ أَفْرَاخٍ تَخَالُهُمُ بُهْمَا (٢)

حُفَاةً عُرَاةً مَا ٱغْتَذَوْا خُبْزَ مَلَّةٍ ... وَلاَ عَرَفُوا لِلْبُرِّ مُذْ خُلِقُوا طَعْمَا (٣)

رَأَىٰ شَبَحاً وَسْطَ ٱلظَّلاَمِ فَهَالَهُ ... فَلَمَّا بَدَا ضَيْفاً تَشَمَّرَ وَٱهْتَمَّا

وَقَالَ : هَيَا رَبَّاهُ ضَيْفٌ وَلاَ قِرَىٰ ... بِحَقِّكَ لاَ تَحْرِمْهُ تَا ٱللَّيْلَةَ ٱللَّحْمَا

فَقَالَ ٱبْنُهُ لَمَّا رَآهُ بِحَيْرَةٍ : ... أَيَا أَبَتِ ٱذْبَحْنِي وَيَسِّرْ لَهُمْ طُعْمَا

وَلاَ تَعْتَذِرْ بِٱلْعُدْمِ عَلَّ ٱلَّذِي طَرَا ... يَظُنُّ لَنَا مَالاً فَيُوسِعُنَا شَتْمَا (٤)

فَرَوَّىٰ قَلِيلاً ثُمَّ أَحْجَمَ بُرْهَةً ... وَإِنْ هُوَ لَمْ يَذْبَحْ فَتَاهُ فَقَدْ هَمَّا

فَبَيْنَا هُمَا عَنَّتْ عَلَى ٱلْبُعْدِ عَانَةٌ ... قَدِ ٱنْتَظَمَتْ مِنْ خَلْفِ مِسْحَلِهَا نَظْمَا (٥)

عِطَاشاً تُرِيدُ ٱلْمَاءَ فَٱنْسَابَ نَحْوَهَا ... عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْهَا إِلَىٰ دَمِهَا أَظْمَا

---

(١) الطاوي : الجائعُ . عاصبُ البطن : يشدُّ العصائبَ علىٰ بطنهِ تسكيناً للجوعِ . مرملٌ : الذي نفدَ زادهُ .

(٢) البُهم : جمعُ بهمةٍ ، وهوَ ولدُ الضأنِ .

(٣) الملَّةُ : الرمادُ الحارُّ والجمرُ .

(٤) طرا : جاءَ طارئاً .

(٥) العانةُ : قطيعُ الأُتُنِ . المِسْحَلُ : حمارُ الوحشِ .



فَلَبَّثَ حَتَّىٰ يَرْتَوِينَ عِطَاشُهَا ... وَفَوَّقَ فِيهَا مِنْ كِنَانَتِهِ سَهْمَا[1]
فَخَرَّتْ نُحُوصٌ ذَاتُ جُحْشٍ سَمِينَةٌ ... قَدِ اكْتَنَزَتْ لَحْماً وَقَدْ طَبَّقَتْ شَحْمَا[2]
فَيَا بِشْرَهُ إِذْ قَدْ جَرَىٰ نَحْوَ قَوْمِهِ ... وَيَا بِشْرَهُمْ لَمَّا رَأَوْا كَلْمَهَا يَدْمَىٰ
فَبَاتُوا كِرَاماً قَدْ قَضَوْا حَقَّ ضَيْفِهِمْ ... وَمَا غَرِمُوا غُرْماً وَقَدْ غَنِمُوا غُنْمَا
وَبَاتَ أَبُوهُمْ مِنْ بَشَاشَتِهِ أَباً ... لِضَيْفِهِمُ وَٱلأُمُّ مِنْ بِشْرِهَا أُمَّا

[أيهم أشد كرماً عبد الله بن جعفر ، أم قيس بن سعد بن عبادة ، أم عرابة ٱلأوسي ؟]

ويُحكىٰ [في « المستطرف » ١/٣٦٦] : أَنَّهُ تمارىٰ ثلاثةُ نفرٍ في عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ ، وقيسِ بنِ سعدِ بنِ عُبادَةَ ، وعَرَابَةَ الأَوسيِّ ، ثمَّ قضَوا لعَرابَةَ بعدَ التَّجربةِ ؛ وذلكَ أَنَّ صاحبَهُ وجدَهُ خرجَ مِن منزلِهِ يريدُ الصَّلاةَ ، ومعهُ عبدانِ ، فقالَ : ابنُ سبيلٍ منقطعٌ بهِ ، فصفَّقَ بيديهِ ، وقالَ : أَوَّاهُ أَوَّاهُ ، ما أَصبحَ ولا أَمسى اللَّيلةَ عندَ عَرابَةَ شيءٌ ، ولَمْ تترُكْ لَهُ الحقوقُ غيرَ هـٰذينِ العبدَينِ ، فخذْهُما ، فقالَ الرَّجلُ : واللهِ ما كنتُ بالَّذي يقصُّكَ جناحَيكَ ، فقالَ : إِنْ أَخذْتَهما . . وإِلاَّ فهُما حُرَّانِ لوجْهِ اللهِ تعالىٰ ، فخُذ إِن شئْتَ ، أَو أَعتِقْ ، فأَخذَهُما ـ كما هوَ في حِفْظي مِن قديمٍ عَنْ « مجمَعِ الأحبابِ »[3] ـ والصَّحيحُ أَنَّ عَرابَةَ لا يُداني عبدَ اللهِ بنَ جعفرٍ ، ولا يَسعىٰ بقدمِهِ ، ولا يَمتحُ بغربِهِ[4] ، وما شهرَهُ إِلاَّ قولُ الشَّمَّاخِ فيهِ [كما في « ديوانِهِ » ٣٣٥ـ٣٣٦] : [مِنَ الوافرِ]

رَأَيْتُ عَرَابَةَ ٱلأَوْسِيَّ يَسْمُو ... إِلَى ٱلْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ ٱلْقَرِينِ
إِذا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِٱلْيَمِينِ

وغايةُ ما أَثابهُ علىٰ ذلكَ وَسْقَ بعيرٍ تمراً ، في عامٍ شديدٍ ، فصارَ هـٰذا الشِّعرُ مثلاً سائِراً ، وأَثراً باقياً ، لا تبلىٰ جِدَّتُهُ ، ولا تتغيَّرُ محاسنُهُ ، وقدَحَ في مروءَةِ الشَّمَّاخِ ، وحطَّ في قدرِهِ ؛ لسقوطِ هِمَّتِهِ عن درجَةِ مثلِهِ ، وتبذُّلِهِ معَ صحبتِهِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ ، حتَّىٰ قالَ ابنُ دأْبٍ [كما في « الأغاني » ٩/١٩٦] : عجباً للشَّمَّاخِ يمدحُ عَرابَةَ بهـٰذا الشِّعْرِ ، وبقولِهِ في القصيدَةِ الأُخرىٰ [كما في « ديوانِهِ » ٢٥٦ـ٢٥٧] : [مِنَ البسيطِ]

أَشْكُو إِلَيْكَ عَرَابُ الْيَوْمَ خَلَّتَنَا ... يَا ذَا الْعَلاَءِ وَيَا ذَا السُّؤْدَدِ الْبَاقِي[5]
أَنْتَ الأَمِيرُ الَّذِي تَحْنُو الرُّؤُوسُ لَهُ ... قَمَاقِمُ الْقَوْمِ مِنْ بَرٍّ وَآفَاقِ[6]
مِنْ بَيْتِ مَأْثُرَتَيْ عِزٍّ وَمَكْرُمَةٍ ... سَبَّاقُ غَايَاتِ مَجْدٍ وَابْنُ سَبَّاقِ
ضَخْمُ الدَّسِيعَةِ مِتْلاَفٌ أَخُو ثِقَةٍ ... جَزْلُ الْمَوَاهِبِ ذُو قِيلٍ وَمِصْدَاقِ[7]

---

(١) **لبَّث** : انتظر ، والرواية في « الديوان » : (فَأَمْهَلَهَا) بدل : (فَلَبَّثَ) .
(٢) **النحوصُ** : الأتانُ السمينةُ الفتيَّةُ . **طبَّقت** : امتلأتْ .
(٣) « مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب » للشريف السيد محمد بن الحسن الواسطي (٧٧٦هـ) : هو كتاب اختصر فيه مصنفه « حلية الأولياء » ، وسلك في اختصاره مسلكاً وسطاً ، مع زيادة تراجم أئمة من « صفوة الصفوة » ، وكذلك تراجم رجال زاهدين ، وكذلك أرَّخ وترجم للدولتين (النورية والصلاحية) . وهو من منشورات دار المنهاج .
(٤) **يمتحُ بغربه** : ينزع بدلوه الكبيرة ، وفي الحديث عن رؤياه صلى الله عليه وسلم لعمر : « ثم استحالت في يده غَرباً ، فلم أرَ عبقرياً يَفْري فريَّه » .
(٥) **الخَلَّةُ** : الحاجة والفقرُ .
(٦) **القماقمُ** : هو السيِّدُ الكثير الخير الواسعُ الفضلِ .
(٧) **ضخمُ الدسيعة** : أي عظيمُ العطيَّةِ . **القِيلُ** : الوعدُ بالخير .



ويقولُ لعبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ [في « الأغاني » ٩/ ١٩٦] :

إِنَّـكَ يَـا ابْـنَ جَعْفَـرٍ نِعْـمَ الْفَتَـىٰ ... وَنِعْـمَ مَـأْوَىٰ طَـارِقٍ إِذَا أَتَـىٰ

وَجَـارُ ضَيْـفٍ طَـرَقَ الْحَـيَّ سُرَىٰ ... صَـادَفَ زَاداً وَحَـدِيثـاً مَـا اشْتَهَـىٰ

إِنَّ الْحَدِيثَ طَرَفٌ مِنَ الْقِرَىٰ

لَعبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ كانَ أَحقَّ بذلكَ الشعرِ الجزْلِ مِن عَرابَةَ ، ثمَّ ذكرتُ أَنْ قد أَسلفتُ بعضَ هـٰذا في المجلسِ الثالثِ عندَ الكلامِ علىٰ **قولِهِ** [« العُكبَرِيّ » ١/ ٣١٠] : [مِنَ المنسرحِ]

قَـدْ أَجْمَعَـتْ هـٰـذِهِ الْخَلِيقَـةُ لِـي ... أَنَّـكَ يَـا ابْـنَ النَّبِـيِّ أَوْحَـدُهَـا

وأَنَّهُ سيُعادُ بعضُهُ قبيلَ الخاتِمَةِ ، فَلا مؤاخَذَةَ .

[أجواد العرب في الإسلام عشرة]

وقالَ ابنُ عبدِ البَرِّ في « **الاستيعَابِ** » [٢/ ٢٦٧] : يقولونَ : إِنَّ أَجوادَ العربِ في الإِسلامِ عَشَرَةٌ :

فأَجوادُ أَهلِ (الحجازِ) : عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ ، وعُبيدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ ، وسعيدُ بنُ العاصِ .

وأَجوادُ أَهْلِ (الكوفةِ) : عتَّابُ بنُ وَرْقاءَ الرياحيُّ ، وأَسماءُ بنُ خارجَةَ بنِ حصنٍ الفزاريُّ ، وعكرمَةُ بنُ ربعيٍّ الفيَّاضُ أَحدُ بني تيمِ اللهِ بنِ ثعلبَةَ .

وأَجوادُ أَهلِ (البَصرَةِ) : عمرُو بنُ عُبيدِ اللهِ بنِ معمَرٍ ، وطلحةُ بنُ عبدِ اللهِ ابنِ خلَفٍ الخزاعيُّ ـ المُلقَّبُ بِطَلْحةِ الطَّلَحَاتِ ـ وعُبيدُ اللهِ ابنُ أَبي بكرَةَ .

وأَجوادُ أَهلِ (الشامِ) : خالدُ بنُ عُبيدِ اللهِ بنِ خالدِ بنِ أَسدِ ابنِ أَبي العاصِ بنِ أُمَيَّةَ بنِ عبدِ شمسٍ ، ولَيْسَ في هـٰؤلاءِ كلِّهم أَجودُ مِن عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ ، ولَمْ يكنْ مسلمٌ يبلغُ مبلغَهُ فِي الجودِ . انتهىٰ كلامُ « **الاستيعابِ** » بمعناهُ وأَكثرِ لفظِهِ . فترىٰ أَنَّهُ لَمْ يذكُرْ عَرابَةَ بجانبِهِ أَصلاً ، فضلاً عَن أَنْ يقايسَهُ بهِ ، أَوْ يفضِّلَهُ عليهِ .

ولَولا أَنَّني أَحفظُ القصَّةَ التي ذكرتُها قبلُ ، مِن سابقِ قراءَتي علىٰ والدِي يرحمُهُ اللهُ في « **مجمعِ الأَحبابِ** ».. لمَا التفتُّ إِليها ، ولا أَلْقَيتُ بالاً لَها .

[لكل دولة كرماؤها]

وقالَ أَبو العيناءِ [كما في « المستطرف » ١/ ٣٥٤] : تَذاكروا السخاءَ ، فاتفقوا علىٰ آلِ المهلَّبِ في الدولَةِ المروانيَّةِ ، وعلى البرامِكَةِ في الدولَةِ العبَّاسيَّةِ ، ثمَّ اتَّفقوا علىٰ أَنَّ أَحمدَ بنَ أَبي دُؤَادٍ أَسخىٰ مِنهم أَجمعيْنَ .

وفي الأَوَّلِينَ يقولُ الشاعِرُ [كما في « المثل السائر » ٢/ ١٦٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

نَـزَلْـتُ عَلَـىٰ آلِ الْمُهَلَّـبِ شَـاتِيـاً ... غَـرِيباً عَـنِ الأَوْطَـانِ فِـي زَمَـنِ الْمَحْـلِ

فَمَـا زَالَ بِـي إِكْـرَامُهُـمْ وَافْتِقَـادُهُـمْ ... وَإِنْعَـامُهُـمْ حَتَّـىٰ حَسِبْتُهُـمُ أَهْلِـي

وفي يحيىٰ بنِ خالدٍ يقولُ الشاعِرُ [كما في « المستطرف » ١/ ٣٥٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

سَأَلْتُ النَّدَىٰ هَلْ أَنْتَ حُرٌّ ؟ فَقَالَ : لاَ ... وَلَكِنَّنِـي عَبْـدٌ لِيَحْيَـىٰ بْـنِ خَـالِـدِ

فَقُلْـتُ : شِـرَاءً ؟ قَـالَ : لاَ بَـلْ وِرَاثَـةً ... تَـوَارَثَنِـي مِـنْ وَالِـدٍ بَعْـدَ وَالِـدِ

وقالَ ابنُ مناذرٍ فيهِ وفي بنيهِ ـ وأَجادَ ولا سيَّما في الأَخيرِ ـ [كما في « الأغاني » ١٨/٢٠٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَتَانَا بَنُو الأَمْلاَكِ مِنْ أَرْضِ بَرْمَكٍ ... فَيَا طِيبَ أَخْبَارٍ وَيَا حُسْنَ مَنْظَرِ

لَهُمْ رِحْلَةٌ فِي كُلِّ عَامٍ إِلى الْعِدَا ... وَأُخْرَىٰ إِلى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ الْمُعَطَّرِ

إِذا نَزَلُوا بَطْحَاءَ مَكَّةَ أَشْرَقَتْ ... بِيَحْيَىٰ وَبِالْفَضْلِ بْنِ يَحْيَىٰ وَجَعْفَرِ

فَتُظْلِمُ بَغْدَادٌ وَتَجْلُو لَنَا الدُّجَىٰ ... بِمَكَّةَ مَا حَجُّوا ثَلاَثَةُ أَقْمُرِ

فَمَا خُلِقَتْ إِلاَّ لِجُودٍ أَكُفُّهُمْ ... وَأَقْدَامُهُمْ إِلاَّ لأَعْوَادِ مِنْبَرِ

ولا يُحصىٰ ما تَجدُ للفريقينِ من أَنواعِ الثناءِ في هـٰذهِ المجموعةِ وفاءً بحقِّ الأَمانَةِ ، واعترافاً بالفضْلِ لأَهلِهِ ، وقالَ بعضُهم في ابنِ أَبي دُؤَادٍ [أبو تمَّام في « ديوانهِ »] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَقَدْ أَنْسَتْ مَسَاوِىءَ كُلِّ دَهْرٍ ... مَحَاسِنُ أَحْمَدَ ابْنِ أَبِي دُؤَادِ

[بماذا يكون فخر العرب ؟]

وصدقَ واللهِ لِسَانُ الدينِ ابنُ الخطيبِ في قولِهِ [في « نفح الطيب » ٦/٤٠٢] : لَم تفتخرِ العَربُ قطُّ بذَهَبٍ يُجمَعُ ، ولا ذُخْرٍ يُرفَع ، ولا قصرٍ يُبنىٰ ، ولا غَرْسٍ يُجنىٰ ، إِنَّما فخرُها . . عدوٌّ يُغلَبُ ، وثناءٌ يُجلَبُ ، وَجُزُرٌ تُنْحَرُ ، وحَديثٌ يُذكَرُ ، وَجُودٌ في الفاقةِ ، وسماحٌ فوقَ الطاقةِ ، ولَقد ذهبَ الذهَبُ ، وفَنِيَ النَّشَبُ ، وتمزَّقَتِ الثِّيابُ ، وهَلَكَتِ الخيلُ العِرابُ ، وكلُّ الذي فوقَ الترابِ ، وبقيَتِ المَحاسِنُ تُروىٰ وتنقلُ ، والأَعراضُ تُجلىٰ وتُصقَلُ ، والأَخبارُ في مكارِمِهم تطولُ .

[صور رائعة من الجود الحضرمي]

ومن أَجوادِ متأخري الحضارمَةِ سيِّدُنا الإمامُ حسنُ بنُ صالحٍ البحرُ ، بلغَ من سماحِهِ وإيثارِهِ ، أَنَّهُ أَعدَّ ضيافةً لجدي المحسنِ ليلةَ بنائِهِ ببنتِهِ ، ولَمَّا أَطلَّ مِنَ النَّافذَةِ . . رأَىٰ زُمَرَ المكدِّينَ محيطينَ بالدارِ ، فقالَ : افتحوا لَهُم ، وقدِّموا لَهم الطعامَ ، فلم يسعهُم إِلاَّ امتثالُ أَمرِهِ ، ولم يكنْ غيرَ بعيدٍ حتَّىٰ أَقبلَ جدِّي في موكبِهِ ، فاستأنفوا لهم ضيافةً أُخرىٰ تليقُ بِحشمتِهِم وكثرتِهم ، وكم لَهُ مِن مثلِ هـٰذا النوعِ .

وسارَ مرَّةً إِلىٰ (تريمَ) ، واتَّبعَهُ مَن عَلِمَ بهِ من محبِّيهِ ، وما أَصحابُهُ إِلاَّ أَتباعُ الأَنبياءِ ، مِن ضعفاءِ الخلقِ وفقرائِهم ، فأَضافَهُ السيِّدُ حسينُ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ سهلٍ غداءً ، واستدعىٰ سادةَ (تريمَ) وأَعيانَها لِحُضورِ مجلسِهِ ، فاستأْثروا بالمنزِلِ الذي كانَ فيهِ الحبيبُ حَسَنٌ ، ولم يتَّسعْ لأَحدٍ مِن أَتباعِهِ ؛ إِذْ لَم يكُن إِلاَّ علىٰ عمودَينِ ، وكانَ في بصرِهِ شيءٌ ، فكانَ كلَّ ساعَةٍ يضَعُ يديْهِ علىٰ حاجبَيهِ يتأَمَّلُ في وجوهِ الناسِ ، ليرىٰ أَحداً مِن أَصحابِهِ ، فشعرَ بذلكَ صاحبُ المنزِلِ ـ وكانَ العَشاءُ عندَهُ أَيضاً ـ فلمَّا انتَهَوا مِنَ الغداءِ . . قالَ لِلْحبيبِ : أَرىٰ أَنْ تقيلُوا في بيتِ السيِّدِ أَحمدَ الجنيدِ ، ثمَّ ترجعوا مِنَ العشيِّ ، فقالَ لَهُ : نعم ، ثمَّ لَم يكنْ مِن صاحبِ المنزلِ وهُوَ السيِّدُ حسينُ بنُ سهلٍ إِلاَّ أَنِ استدعى العُمَّالَ ، ورفعَ حاجزاً كانَ بينَ المنزلِ الذي تغدَّىٰ فيهِ الحبيبُ ومنزِلٍ آخرَ مثلِهِ في السعَةِ ، ولم يمسيا إِلاَّ وَهُما منزلٌ واحدٌ ، يسعُ ستَّةَ أَعمدَةٍ ، فتعشَّىٰ وهُوَ قريرُ العَينِ برؤْيَةِ أَتباعِهِ المساكينِ ، مع حِظَةِ أَعيانِ (تريمَ) بمؤَاكلتِهِ ومجالَستِهِ ، فاستحقَّ ذلكَ الصنيعُ إِعجابَ الخلقِ أَجمعينَ .



وقرأَ مرَّةً قولَهُ تعالىٰ : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] فقالَ : لا أُحبُّ في الدنيا إلاَّ وَلدي وحِصاني ، ولا سبيلَ إلىٰ بيعِ الولدِ ، ولكِنْ بِيعوا الحصانَ ، وتصدَّقَ بثمنِهِ في الحالِ .

وكانَ من عادتِهِ أَنْ لا يبيت عندَهُ دينارٌ ولا دِرهمٌ ، بلْ كلُّ ما كان يدخلُ عليهِ مِنَ الْفُتوحِ على اتساعِ جاهِهِ ، ينفقُهُ علىٰ أَهلِهِ ، وفي الأَكبادِ الجائِعَةِ ، والأَجسامِ العاريَةِ ، وتحمُّلِ المغارِمِ ، وبذلِ المكارِمِ ، فهوَ الأَحقُّ بقولِ زيادِ الأَعجمِ ـ أَو زينبَ بنتِ الطثريَّةِ ترثي بهِ أَخاها يزيدَ ـ أَو أَبي تمَّامٍ ، فقد وُجدَ في شعرِ كلٍّ منهُم ـ وهُوَ [في « ديوانِ أَبي تمَّام » ٢/١٥] :

[مِنَ الطَّويلِ]

وَلَـوْ لَـمْ تَكُـنْ فِـي كَفِّـهِ غَيْـرُ رُوحِـهِ   لَجَـادَ بِهَـا فَلْيَتَّـقِ اللهَ سَـائِلُـهْ

وقد أَغارَ عليهِ صاحبُنا ؛ إذ كانَ كَما قُلنا : يتلقَّفُ كلَّ ما صنعَ المُجيدونَ من أَهلِ الشعرِ ، ولكنَّهُ لم يأْتِ إلاَّ ببيتٍ ملزقٍ ، هُوَ قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/٢٣٢] :

[مِنَ الكاملِ]

لاَ خَلْـقَ أَكْـرَمُ مِنْـكَ إلاَّ عَـارِفٌ   بِـكَ رَاءَ نَفْسَـكَ لَـمْ يَقُـلْ لَـكَ هَـاتِهَـا

وقاربَ في قولِهِ [في العُكبَريِّ ٢/٥٥] :

[مِنَ الخفيفِ]

مَـا سَمِعْنَـا بِمَـنْ أَحَـبَّ الْعَطَـايَـا   فَـاشْتَهَـىٰ أَنْ يَكُـونَ فِيهَـا فُـؤَادُهْ

وكانَ ـ أَعني سيِّدَنا البحْرَ ـ صادِقَ التوكُّلِ على اللهِ والاعتمادِ عليهِ ، حتَّىٰ إنَّه بما في خزائِنِ ربِّهِ أَوثَقُ منْهُ بما في يدِهِ ، وكلَّما حزبَهُ أَمرٌ . فَزِعَ إلى الصلاةِ ، مقتفياً هدْيَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم في ذلكَ[1] ، حتَّىٰ إذا لَمْ يَجدِ الضَّيفُ شيئاً عندَهُ . ذهَبَ بعدَ تأْهيلِهِ يصلي ، فيُفتَحُ لَهُ بوافِرِ الكرامَةِ .

ولقد أَرادَ بعضُ السادَةِ آلِ الحبشيِّ امتحانَهُ ، فقالوا لوكيلِهِ : متىٰ علمْتَ فراغَ جيبِهِ ، ونفادَ ما في بيتِهِ . فأَخبِرْنا ، فظَنَّ بهِم أَنَّهم لم يقولوا ذلكَ إلاَّ ليتشرَّفوا بإعانتِهِ علىٰ فِعْلِ المعروفِ ، فأَخبرَهُم ، فجاؤُوا بقضِّهم وقضيضِهم ، وخيلِهِم ورَجِلِهِم[2] ، عندَما وجبَتْ صلاةُ المغربِ ، ذلكَ الوقتُ الذي لاَ يتفرَّغُ فيهِ لغيرِ مولاهُ ، فقابَلَهُم بما جُبِلَ عليهِ مِنَ البَشاشَةِ ، وبعقبِ الصلاةِ استأْذنَهُم وفزِعَ إلىٰ وِردِهِ ، يستفتِحُ به أَبوابَ القِرىٰ مِن فائِضِ الجودِ ، فما كانَ بأَسرعَ مِنْ أَنْ جَاءَ خادِمُهُ يقولُ لهُ : أَهدىٰ إليكَ آلُ فلانٍ كبشاً ، فقالَ لَهُ : أَصلِحوهُ ، ثمَّ جاءَهُ واحدٌ مِن جيرانِهِ وقالَ : إنَّ عِندي آصُعاً مِنَ البُرِّ ، إنْ كانَتْ لَكَ في شرائِها حاجَةٌ . . وإلاَّ بعتُها لغيرِكَ ، فقالَ : وأَيُّ الحاجةِ ؟! هاتِها ، وفرِّقوها علىٰ أَبياتٍ من أَهلِ قريَتِنا يُوافونا بها مخبوزَةً مَعَ العِشاءِ ، وما كادَ يفرغُ مِن حزبِهِ . . حتَّىٰ حلَّتِ العِشاءُ ، فصلَّىٰ بهِم ، ثمَّ أَخذَ في مُؤَانَستِهِم إلىٰ أَنْ حَضَر ذلكَ الطَّعامُ ، فتولَّىٰ بنفسِهِ قسمَةَ اللَّحمِ بينَهُم ـ كَما هِيَ العادةُ عِندَنا ـ فبارَكَ اللهُ فيهِ حتَّىٰ كَفاهُم أَجمعينَ .

وعُشَّاقُ الخُرافاتِ يكذبونَ في روايَةِ هـٰذه القصَّةِ ، ويدَّعونَ أَنَّهُ أَخرجَ الطعامَ بعْدَ صلاةِ العشاءِ مِن مَخْدَعِهِ ، وأَنَّهُ جاءَ

---

(١) لما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند مسلم (٢٧٣٠) : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمرٌ . قال : « لا إلـٰه إلا الله رب العرش الكريم » . **حزبه أمرٌ** : نزل به أمر مهمٌّ أو أصابه غمٌّ .

وأورده عن حذيفة ، الهنديُّ في « كنز العمال » (٨٠٠١) بلفظه المراد وهو : (كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر . . صلَّىٰ) وعزاه إلىٰ أحمد وأبي داوود .

(٢) رَجِلهم : مشاتهم .



بِهِ من مطبخِ الإمامِ الجيلانيِّ بـ(بغدادَ) ، والواقعُ إِنَّما هُوَ ما ذكرناهُ ، وإِذ قد ذكرنا ابنَ سَهلٍ فهُوَ مِن أَجوادِ الحضارمَةِ المُتأخِّرينَ ـ أيضاً ـ والمجلسُ أَضيَقُ مَنْ أَنْ يتَّسعَ لذِكْرِ مكارمِهِ ؛ فإِنَّها البحْرُ الذي لا يدرَكُ مَقرُّهُ ، ولا يُبْلَغُ عَبْرُهُ .

ولَقد كانَ العلاَّمَةُ الجليلُ الوالدُ علويُّ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ المشهورِ يخِفُّ طَرَباً كلَّما ذَكَرَهُ ، ويتفتَّحُ عَن ثَجِّ بَحْرٍ[1] مُضْطَرِبِ الأَمواجِ مِن أَخبارِ جودِهِ ، وإِذ كانَتِ العِبَارَةُ أَضيَقَ مِنَ الإِحاطةِ بهِ . . فلا بدَّ مِن واحِدَةٍ يُعرفُ بِهَا جَنَىٰ تلكَ الشجرَةِ ، أَخبرَنا شيخُنا أَبو بكرٍ ابنُ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ شهابِ الدينِ : أَنَّ والدَهُ كانَ مديناً للسيِّدِ حسينٍ ، ثمَّ عزَمَ علىٰ تزويجِ ابنتينِ لَهُ ، ولم يكُنْ عندَهُ شَيْءٌ ممَّا يجهِّزُهُما بهِ ، فاضطرَّ مَعَ خجلِهِ مِنَ السيِّدِ حسينٍ أَنْ يأْتيَ إِليهِ بنفائِسِ كتبِهِ ليرهَنَها ، أَو يبيعَها منه ، حتَّىٰ يَخْصِمَ الذي لَهُ ، ويستعينَ هُوَ بالفاضِلِ علىٰ أَمرِ البنتينِ ، وما كادَ يصلُ عندَهُ حتَّىٰ تلقَّاهُ بالرحْبِ والسعَةِ ، فأَخبرهُ بحاجتِهِ ، فقالَ لَهُ : مقضيَّةٌ ، فَطِبْ نفساً ، وقَرَّ عيناً ، علىٰ شرطِ أَنْ نتَّخِذَ هـٰذا اليومَ عيداً ، وندعوَ مَنْ تَأْنَسُ بِهِم مِمَّنْ تَعتادُ مطارَحَتَهم الأَشعارَ ، فأَجابَ إِلىٰ ذلكَ ، وقضَوا سحابَةَ اليومِ في أَنعمِ بالٍ ، وأَسعدِ حالٍ ، ولمَّا عزَمَ على الانصرافِ . . قالَ لهُ : أَمَّا كتبُكَ : فأَنتَ أَحوجُ إِليها منِّي ، وأَمَّا الذي عندَكَ : فقد أَبرأْتُكَ مِنْهُ ، وهـٰذِهِ مئَةُ ريالٍ تبلَّغْ بِها لبعضِ ما تريدُ ، فأَثنىٰ عليهِ خيراً ، وانصرَفَ مجبورَ الْخاطِرِ ، يستحثُّ خُطا أَتانِهِ ليفضِيَ إِلىٰ أَهلِهِ بالبشارةِ ، وما كادَ يصِلُ دارَهُ إِلاَّ وزوجُهُ يضيءُ وجهُها مِن الْفرحِ ، ويتهلَّلُ جبينُها مِنَ السرورِ ، تفديه بالنفسِ والأَهلِ ، وتقولُ لَهُ : جزاكَ اللهُ خيراً علىٰ ما أَرسلتَ مِنَ الخيراتِ ، التي ما كنتُ أَظنُّ أَنْ يتيسَّرَ لكَ بعضُها ، فضلاً عَن كلِّها ، إِلاَّ بسفرَةٍ طويلةٍ إِلىٰ شيءٍ مِن أَقاصي البلادِ ، قالَ : وما الذي أَرسلْتُهُ ؟! قالتْ : كلُّ ما نحتاجُهُ في جهازِ البنتينِ من ذَهَبٍ وفضَّةٍ في أَحسنِ صياغَةٍ ، ومِنْ ثيابٍ حريريَّةٍ وقطنيَّةٍ في أَجملِ تطريزٍ وخياطَةٍ ، ومِنْ أَثاثٍ ورياشٍ أَكثرَ مِنَ الحاجَةِ ، ومِنْ أَغنامٍ وطعامٍ فوقَ الكفايَةِ ، حتَّىٰ ما لا بُدَّ مِنه مِنَ الخزَفِ كُنْتَ قد تفطَّنْتَ لَهُ ، فاندهشَ في عقلِهِ ، واضطرَبَ في أَمرِه ، وكادَ يشكُّ في نفسِهِ ، وجرىٰ علىٰ قلبِهِ كثيرٌ مِمَّا ذكرناهُ في شرحِ **قولِهِ** [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٣٢] : [مِنَ الكامِلِ]

كَبُـرَ الْعِيَـانُ عَلَـيَّ حَتَّـىٰ إِنَّـهُ ... صَـارَ الْعِيَـانُ مِـنَ الْيَقِيـنِ تَـوَهُّمَـا[2]

ولا حاجةَ للتنبيهِ إِلىٰ أَنَّ السيِّدَ حُسيناً هُوَ الذي بعث بجميعِ ذلكَ إِلىٰ بيتِ السيِّدِ عبدِ الرحمـٰنِ بدونِ علمِهِ ، وقالَ لأَهلِهِ : إِنَّهُ مُرْسَلٌ مِنَ السيِّدِ عبدِ الرحمـٰنِ ، وإِنَّما قُلنا : لا حاجةَ للتنبيهِ علىٰ ذلكَ ؛ لأَنَّهُ معلومٌ مِنَ المَقامِ ، وللهِ دَرُّ الناظمِ في **قولِهِ** [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٣٤] : [مِنَ الخفيفِ]

ذِي الْمَعَالِـي فَلْيَعْلُـوَنْ مَـنْ تَعَـالَـىٰ ... هٰكَـــذَا هٰكَـــذَا وَإِلاَّ فَـــلاَلاَ

وقولِ الآخرِ [وهو أمية ابن أبي الصلت كما في « طبقات فحول الشعراء » ١/ ٢٦٢] : [مِنَ البسيطِ]

هَـٰذِي الْمَكَـارِمُ لاَ قَعْبَـانِ مِـنْ لَبَـنٍ ... شِيبَـا بِمَـاءٍ فَعَـادَا بَعْـدُ أَبْـوَالاَ

هَـٰذِي الْمَكَـارِمُ لاَ ثَـوْبَـانِ مِـنْ عَـدَنٍ ... خِيطَـا قَمِيصـاً فَعَـادَا بَعْـدُ أَسمَـالاَ

---

(١) الثجُّ : علوُّ وسطِ البحرِ إِذا تلاقَت أَمواجهُ .

(٢) في « العكبري » : (صَارَ الْيَقِينُ مِنَ الْعِيَانِ تَوَهُّماً) ولعلَّهُ الصوابُ .

ولكَمْ فِي الخَلَفِ مِنْ نُسخَةٍ لِلْسَلَفِ ، وفي الزوايا من خبَايا ، وفِي الخزائِنِ من ضنائِنَ ، غير أَنَّ الأَسفَ كلَّ الأَسفِ ، أَنَّ كلَّ من نَظَمَ أَو خطَبَ ، أَو تكلَّمَ أَو كتَبَ ، لم ينصحْ للحقيقةِ ، وإِنَّما يقولُ تنفُّقاً ، ويكتُبُ تملُّقاً ، يَبْتَغي مرضاةَ الحسَّادِ بما يبيعُ مِن ذمَّةٍ ، ويُرضِيْ عُبَّادَ الخرافاتِ بما يمكُثُ بِهِ الفسادُ في الأُمَّةِ ، وما أَفحشَ ذَنْبَ مَن يتقاضىٰ نزراً حقيراً ، ثمَّ يترُكُ وراءَهُ وِزراً كبيراً ، وإِنَّما انتشرَتِ الخرافاتُ ، وخفيَتِ الفضائِلُ ؛ لأَنَّهُ لا يُحسَدُ أَربابُ الأُولىٰ ، بلْ تتوفَّرُ الدواعي على التوسُّعِ بها بينَ عشَّاقِ الأَغرابِ مِن صغارِ النُّهَىٰ وسُفَهاءِ الأَحلامِ ، بخلافِ المجدِ الحقِّ ، والفضْلِ الصحيحِ ؛ فإِنَّهُ يُقْذِي العيونَ ، ويَحِزُّ في الأَكبادِ ، فتتوفَّرُ الدواعي لهضمِهِ ، ويستجيْشُ الحُسَّادُ لِكَتْمِهِ ، ولهـٰذا كانَتِ الفَضيلَةُ الصادقةُ أَخفىٰ ما تكونُ عندَ الحضارمَةِ [في « ديوان المؤلف » ق ٨] : [مِنَ البسيطِ]

وَلَيْتَ شِعْرِي أَقَوْمِي بِالْخُصُوصِ هَوَوْا … إِلَى الْحَضِيضِ كَذَا ، أَمْ كُلُّهَا الْعَرَبُ ؟!

[الشهامة أن تشهد لعدوك بما هو فيه]

لقد زَمِنَتِ المروءَةُ ، وقلَّ الحياءُ ، وفاضَ الكذبُ ، وغاضَ الصدْقُ ، وانقلَبَ المعروفُ منكراً ، والمنكرُ معروفاً ، وتوكَّنَتْ في هشيمِ الصدورِ غربانُ الإِحسادِ ، بلا وازعٍ من الدينِ ، ولا رادِعٍ مِنَ المروءَةِ ، ولا ننكرُ ما عليهِ العَربُ مِنَ التَّحاسُدِ ، لكنْ معَ شهامَةٍ وفَضْلٍ ، وإِنصافٍ وعدْلٍ ، أَعانَ علىٰ ظهورِ الحقائِقِ ناصعةً ، واتصالِ الأَخبارِ صافيَةً ، أَلا ترىٰ صدقَ أَبي سفيانَ في صفتِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ مَعَ كونِهِ أَعدىٰ عدوِّهِ[1] ؟!

[صور من ذلك]

وجاءَ مِحفنُ ابنُ أَبي محفنٍ إِلىٰ معاويَةَ ليتملَّقَهُ ، فقالَ لَهُ [في « شرح النهج » ١/٢٢] : مِن أَينَ أَقبلتَ ؟ قالَ : مِنْ عنْدِ أَجبنِ الناسِ ، وأَفْهَهِ الناسِ ، وأَبخَلِ الناسِ ، قالَ : مَن تَعني ؟ قالَ : عليَّ بنَ أَبي طالبٍ ، فقالَ لَهُ : اسكتْ ، فَضَّ اللهُ فاكَ ، أَمَّا قولُكَ : إِنَّه أَجبنُ الناسِ ، فواللهِ إِنَّا لَنَعُدُّ مَنْ مَاتَنَهُ ساعةً ثمَّ انهزَمَ أَشجعَ الناسِ ، وأَمَّا قولُكَ : إِنَّه أَفْهَهُ الناسِ ، فواللهِ ما سَنَّ الفصاحَةَ لقريشٍ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ غيرُهُ ، وأَمَّا قولُكَ : إِنَّهُ أَبخلُ الناسِ ، فواللهِ لو كانَ لَهُ بيتٌ مِن تِبْنٍ ، وبيتٌ مِن تِبْرٍ . لَنفدَ بيتُ تبرِهِ قبلَ أَن ينفدَ بيتُ تبنِهِ .

ويروىٰ : أَنَّ النعمانَ بنَ المنذرِ سأَلَ حاتماً عَن نفسِهِ وعَن الزبرقانِ بنِ بدرٍ فقالَ : أَمَا واللهِ إِنَّ آلَ حاتِمٍ لا يبلغونَ أَصغرَ ولدِ الزبرقانِ ، ثمَّ سأَلَ الزبرقانَ عَن حاتِمٍ وعَنْ نفسِهِ ؟ فقالَ : أَمَا واللهِ لو كُنتُ ومالي وآلي لِحاتِمٍ . لَغرِقْنا في غداةٍ واحدَةٍ في وجوهِ المعروفِ ، أَو ما يقربُ من هـٰذا السياقِ .

وقد أَخذَهُ الكميتُ في قولِهِ لخالدِ بنِ عبدِ اللهِ القسريِّ [في « الأغاني » ١٧/٣٧] : [مِنَ المنسرحِ]

لَــوْ أَنَّ كَعْبــاً وَحَــاتِمــاً نُشِــرَا … كَــانَـا جَمِيعــاً مِــنْ بَعْـضِ مَـا تَهَـبُ

ثمَّ أَلَمَّ بهِ البحتريُّ في قولِهِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـنْ لَـوْ تُـرَىٰ فِـي مُلْكِـهِ كُنْتَ نَـائِلاً … لأَوَّلِ عَــافٍ مِــنْ مُــرَجِّيــهِ مُقْتِــرُ

وربَّما يكونُ موضعَ الزبرقانِ أَوسُ بنُ حارثَةَ بنِ لامٍ أَو غيرُهُ مِنَ العربِ .

---

(١) وذلكَ في الحديثِ الَّذي رواهُ البُخاريُّ (٢٩٤٠) و(٢٩٤١) عن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما .

ويشبهُ ذلكَ قولُ أَوسٍ المذكورِ ، وقدِ انتدبَ هُوَ وحاتمٌ وزيدُ الخيلِ لخطبَةِ ماويَّةَ ، حينَ اشتطَّتْ واشترطَتْ أَنْ لا تتزوَّجَ إلاَّ كريما ، وآلتْ علىٰ نفسِها أَنْ تجدَعَ أَنفَ مَنْ خطبَها غيرَ كريمٍ ، فتَحاماها الخُطَّابُ ، حتَّى انتدبَ لَها هٰؤُلاءِ ، فقالَتْ لَهُم ـ في حديثٍ طويلٍ أَشرنا مرَّةً إِليهِ ـ : لِيَصِفْ كلُّ واحدٍ مِنكم نفسَهُ في شعرِهِ ، فكانَ في جملَةِ ما قالَهُ أَوسُ بنُ حارِثَةَ ـ وهُوَ موضِعُ الشاهِدِ ـ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـإِنْ تَنْكِحِـي زَيْـداً فَفَـارِسُ قَـوْمِـهِ ... إِذا الْحَـرْبُ يَـوْمـاً أَقْعَـدَتْ كُـلَّ قَـائِـمِ
وَإِنْ تَنْكِحِـي مَـاوِيَّـةَ الْخَيْـرِ حَـاتِمـاً ... فَمَـا مِثْلُـهُ فِينَـا وَلاَ فِـي الأَعَـاجِـمِ
فَتـىً لاَ يَـزَالُ الـدَّهْـرَ أَكْبَـرَ هَمِّـهِ ... فِكَـاكُ أَسِيـرٍ أَوْ مَعُـونَـةُ غَـارِمِ
وَإِنْ تَنْكِحِينِـي تَنْكِحِـي غَيْـرَ فَـاجِـرٍ ... وَلاَ نَهْنَـهٍ عِنْـدَ الأُمُـورِ الْعَظَـائِـمِ

وذُكِرَ في مجلسِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ قولُ قَيسِ بنِ الخطيمِ [في « ديوانه » ٤٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

أُجَـالِـدُهُـمْ يَـوْمَ الْحَـدِيقَـةِ حَـاسِـراً ... كَـأَنَّ يَـدِي بِـالسَّيْـفِ مِخْـرَاقُ لاَعِـبِ[١]

ولَم يكُنْ ثَمَّ غيرُ خزرجيٍّ ، وهُم أَلَدُّ خصومِهِ ، فقالَ لَهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ : « **أَكذلِكَ هُوَ ؟** » فقالَ ثابتُ بنُ قيسِ بنِ شمَّاسٍ : والذي بعثَكَ بالحقِّ يا رسولَ اللهِ ، لقد خرجَ إِلينا سابعَ عُرسِهِ عليهِ غلاَلَةٌ وملحفَةٌ مورَّسَةٌ ، فجالَدَنا حتَّىٰ قتَلَ مِنَّا سبعةً ، أَو ما يقربُ مِن هٰذا ، فارتاحَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ وتهلَّلَ وجهُهُ .

ومرَّ عليٌّ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ بطلحَةَ قتيلاً يومَ الجملِ ، فتمثَّلَ بقولِهِ [كما في « ديوانِ » النابغةِ الجعديِّ] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَتـىً كَـانَ يُـدْنِيـهِ الْغِنَـىٰ مِـنْ صَـدِيقِـهِ ... إِذا مَـا هُـوَ اسْتَغْنَـىٰ وَيُبْعِـدُهُ الْفَقْـرُ

أَو سمعَ إِنساناً ينشدُ هٰذا البيتَ ، فقالَ : ذاكَ طلحةُ بنُ عُبيدِ اللهِ[٢] .

وقد سبقَ في غيرِ هٰذا المجلسِ قولُ القطاميِّ [في « ديوانه » ٨٤] : [مِنَ البسيطِ]

إِنِّـي وَإِنْ كَـانَ قَـوْمِـي لَيْـسَ بَيْنَهُـمُ ... وَبَيْـنَ قَـوْمِـكَ إِلاَّ ضَـرْبَـةُ الْهَـادِي[٣]
مُثْـنٍ عَلَيْـكَ بِمَـا اسْتَبْقَيْـتَ مَعْـرِفَتِـي ... وَقَـدْ تَعَـرَّضَ مِنِّـي مَقْتَـلٌ بَـادِي

وقالَ عمرُو بنُ معدِ يكَرِبَ الزبيديُّ ، يصفُ بني سُلَيمٍ ، وكانَتْ بينَهُم إِحَنٌ[٤] في الجاهليَّةِ [في « أدب الكاتب » ١/ ٤٣٤] : للهِ بنو سُلَيمٍ ما أَشدَّ لقاءَها ، وأَكرمَ عطاءَها ، وأَثبتَ بِناءَها ، لقد قاتَلْناكم يا بني سُلَيمٍ فما أَجبْناكُمْ ، وهَاجَيْناكُمْ فما أَفحمناكُمْ ، واستَرْفَدْناكُمْ فما أَبخلناكُمْ .

وقلَّ مَن رثىٰ عمرَو بنَ عبدِ ودٍّ إِلاَّ تعرَّضَ للثناءِ علىٰ قاتلِهِ ، الإِمامِ الغالِبِ عليِّ ابنِ أَبي طالِبٍ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ حتَّىٰ

---

(١) **الحديقةُ** : قريةٌ من أعراضِ (المدينةِ) في طريقِ (مكَّةَ) ، كانت بها وقعةٌ بين الأَوسِ والخزرجِ قبلَ الإسلامِ ، وإياها أراد قيسٌ في قوله . **المخراقُ** : ما تلعبُ به الصبيانُ من الخرقِ المفتولةِ .

(٢) « الأغاني » (١٨/ ٣٣١) .

(٣) **الهادي** : العنقُ ؛ لأنها تتقدم على البدنِ ، **وهادي السهمِ** : نصلُهُ .

(٤) **إحنٌ** : جمع أَحنَةٍ ، وهيَ الحقدُ والغضبُ .

قالَت أُختُ عمرٍو [كما في « ثمار القلوب » (١/٤٩٦) ، ولكن فيه أن القائل ابنته] : [من البسيط]

لَـوْ كَـانَ قَـاتِـلُ عَمْـرٍو غَيْـرَ قَـاتِلِـهِ   مَـا زِلْـتُ أَبْكِـي عَلَيْـهِ دَائِـمَ الأَبَـدِ
لَكِـنَّ قَـاتِلَـهُ مَـنْ لاَ يُعَـابُ بِـهِ   مَـنْ كَـانَ يُـدْعَـىٰ أَبُـوهُ بَيْضَـةَ الْبَلَـدِ

وقد سبقَ ما قالَهُ عبدُ الملِكِ بنُ مروانَ ، مِنْ بالغِ الثناءِ على المصعَبِ بنِ الزبيرِ ، وبينَهُما ما لا تبرُكُ عليهِ الإبلُ من الأشلاءِ الممزَّقَةِ ، والأرحامِ المقطَّعَةِ .

ولقد كانَ الجوُّ أَشدَّ ظُلمَةً مِن ذلكَ بينَ يزيدَ بنِ المهلَّبِ ويزيدَ بنِ عبدِ الملِكِ ، ولمَّا حُمِلَ رأسُ الأوَّلِ إلى الثاني . . نالَ منهُ بعضُ جلسائِهِ ، فقالَ لَهُ : مَهْ ، إن يزيدَ طلَبَ جسيماً ، وركِبَ عظيماً ، وماتَ كريماً ، وصدَقَ ابنُ دُريدٍ في قولِهِ يعنيهِ [في « وفيات الأعيان » ٦/٣٠٥] : [مِنَ الرَّجَزِ]

وَقَـدْ سَمَـا قَبْلِـي يَـزِيـدُ طَـالِبـاً   شَـأْوَ الْعُـلاَ فَمَـا وَهَـىٰ وَلاَ وَنَـىٰ

ومرَّ مثلُهُ فيهِ عَنِ الشريفِ الرضيِّ أَوائِلَ المجلسِ قبلَ هـٰذا .

ولَمَّا وردَ كعبٌ الأَشقريُّ على الحجَّاجِ موفَداً من قِبَلِ المهلَّبِ ابنِ أَبي صفرَةَ ، وسأَلَهُ عَن قتالِ الخوارجِ . . أنشدَ قصيدتَهُ التي يقولُ فيها : [مِنَ البسيطِ]

كُنَّـا نُهَـوِّنُ قَبْـلَ الْيَـوْمِ شَـأْنَهُـمُ   حَتَّـىٰ تَفَـاقَـمَ أَمْـرٌ كَـانَ يُحْتَقَـرُ
لَمَّـا وَهَنَّـا وَقَـدْ حَلُّـوْا بِسَـاحَتِنَـا   وَاسْتُنْفِـرَ النَّـاسُ مَـرَّاتٍ فَمَـا نَفَـرُوا
نَـادَى امْـرُؤٌ لاَ يُمَـارَىٰ فِـي عَشِيـرَتِـهِ   فِيـهِ وَلَيْـسَ بِهَـا عَـنْ مِثْلِـهِ قِصَـرُ
بَـاتَـتْ كَتَـائِبُنَـا تُـرْدَىٰ مُسَـوَّمَـةً   حَـوْلَ الْمُهَلَّـبِ حَتَّـىٰ نَـوَّرَ الْقَمَـرُ
هُنَـاكَ وَلَّـوْا خَـزَايَـا بَعْـدَمَـا هُـزِمُـوا   وَحَـالَ دُونَهُـمُ الأَنْهَـارُ وَالْجُـدُرُ
تَـأْبَـىٰ عَلَيْنَـا حَـرَارَاتُ النُّفُـوسِ فَمَـا   نُبْقِـي عَلَيْهِـمْ وَلاَ يُبْقُـونَ إِنْ قَـدِرُوا[1]

ويدخلُ فيهِ كلُّ ما يأتي في شرحِ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/٢٣٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلاَ ثَـوْبَ مَجْـدٍ غَيْـرَ ثَـوْبِ ابْـنِ أَحْمَـدٍ   عَلَـىٰ أَحَـدٍ إِلاَّ بِلُـؤْمٍ مُـرَقَّـعُ

ويُذكَرُ : أَنَّ تيمورْلَنْكَ أَبصرَ السيِّدَ الجرجانيَّ علىٰ فرسٍ لهُ عتيقٍ ، يمرحُ خيلاءَ وكِبراً ، فقالَ للسعدِ : أَلا ترىٰ إِلىٰ ما عَليهِ السيِّدُ وحصانُهُ مِنَ الزهُوِّ ؟! فقالَ لَهُ : لا عجبَ ، حتَّىٰ لَو أَنَّهُ طارَ إِلى السماءِ . . لكانَ محقوقاً لذلكَ الشرفِ ، ثمَّ دنا مِن السيِّدِ وقالَ لَهُ : أَلا ترىٰ إِلىٰ ما عليهِ السعدُ وبغلُهُ مِنَ الضَّعفِ والقطافِ[2] ؟ فقالَ السيدُ : وكيفَ لا ؟! وعليهِ جبلٌ مِن جبالِ العلمِ ، فحريٌّ أَنْ تتَفَسَّخَ ببغلِهِ القوائِمُ ، وكأَنَّما أَخذَهُ مِن قولِ المعريِّ [في « سقط الزند » ٢١٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذا حَمَلَتْـكَ الْعِيـسُ أَوْدَىٰ بِـأَيْـدِهَـا   جَـلاَلُـكَ حَتَّـىٰ مَـا تَكَـادُ بِـهِ تَخْطُـو[3]

---

(١) « الأغاني » (١٤/٢٧٦) .
(٢) القطاف : ضيق مشي الدابة .
(٣) أودىٰ : هلكَ . الأيدُ : القوَّةُ . الجلالُ : العُظْمُ .

هـٰذا علىٰ ما بينَ الرجلينِ مِنَ التَّباعُدِ ، ثُمَّ لا ننكرُ أَنَّ ما يتكلَّمُ بهِ الأَعداءُ من الثناءِ علىٰ خصومِهِم بعدَ انتصارِهِم عليهِمْ لا يصلُحُ أَنْ يكونَ شاهداً لِمَا نقرِّرُهُ مِن تناصُفِ العربِ في أَقوالِهِم .

أَمَّا أَوَّلاً : فلأَنَّ مَن شفىٰ غيظَهُ مِن خصومِهِ ، واستفرَغَ حزازةَ نفسِهِ بِما انتقمَ مِنهُم ، لا يبقىٰ في صدرِهِ ما يمنعُهُ مِن ذكرِهِم بالخيرِ في الأَغلبِ ، إِلاَّ عِندَ مَنِ اشتدَّ خبثُهُ ، ونغِلَ قلبُهُ .

وأَمَّا ثانياً : فلأَنَّ المرادَ مِن مثلِ ذلكَ إِنَّما هُوَ التوصُّلُ إِلىٰ تعظيمِ النفسِ ؛ لأَنَّ الانتصارَ على الحقيرِ لا يعدُّ شيئاً مذكوراً ، إِنَّما يُمتدَحُ بالانتصارِ على العظيمِ ، كَما سيأْتي أَثناءَ المجلسِ السادسَ عشرَ ، غيرَ أَنَّ شيئاً مِن ذلكَ لا يغيِّرُ في وَجْهِ ما ذكرناهُ ، إِذ كثيرٌ منهُ كانَ مِن غيرِ انتصارٍ ، وكانَ في أَيَّامِ الحياةِ والمساماةِ ، وهُوَ بينَ العَربِ الطريقُ المَهْيَعُ[1] ، والغالِبُ المطَّرِدُ ، ثمَّ إِنَّا لا نريدُ مِنَ الثَّناءِ إِلاَّ ما يكونُ حَقّاً مطابقاً للواقعِ ، بِلا إِفراطٍ ولا تفريطٍ ، وإِلاَّ . . كانَ مِنَ المَذمومِ الممقوتِ ، الداخلِ تحتَ قولِ القائِلِ : [مِنَ الكاملِ]

ذَهَـبَ الَّـذِيـنَ يُعَـاشُ فِـي أَكْنَـافِهِـمْ ... وَالْمُنْكِـرُونَ لِكُـلِّ أَمْـرٍ مُنْكَـرِ

وَبَقِيـتُ فِـي خَلْـفٍ يُـزَكِّـي بَعْضُهُـمْ ... بَعْضـاً لِيَـدْفَـعَ مُعْـوِرٌ عَـنْ مُعْـوِرِ

وهـٰذا لونٌ آخرُ مِنَ الحَديثِ ، لاَ بُدَّ وأَنْ نوفِّيَهُ حقَّهُ في محلِّهِ ، إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٧٣] : [مِنَ المنسرحِ]

هَـدِيَّـةٌ مَـا رأَيْـتُ مُهْـدِيَهَـا ... إِلاَّ رَأَيْـتُ ٱلْعِبَـادَ فِـي رَجُـلِ

[هل يجمع رجل واحد جميع محاسن الناس ؟!]

(**هَدِيَّةٌ**) : خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ ، تقديرُهُ : هديَّتُكَ هديَّةٌ مَا رأَيتُ الَّذي أَهداها . . إِلاَّ رأَيتُ الناسَ كلَّهم في شخصِهِ ؛ لأَنَّ فيهِ جميعَ ما في الناسِ مِن معاني الفضْلِ والسؤْدَدِ والكرَمِ ، لا يُقالُ : إِنَّ في الناسِ الأَخِسَّاءُ ، فإِذا رأَىٰ فيهِ ما فيهِم . . كانَ عينَ الذمِّ ؛ لأَنَّهُ لم يُرد بالعبادِ إِلاَّ الكرامَ منهُم ، فـ(**أَل**) فيهِ للعهدِ الذهنيِّ ، والمعنىٰ متكرِّرٌ في ديوانِهِ ، **مِنهُ قولُهُ** [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٦٦] : [مِنَ المتقاربِ]

أَحُلْمـاً نَـرَىٰ أَمْ زَمَـانـاً جَـدِيـدَا ... أَمِ الْخَلْـقُ فِـي شَخْـصِ حَـيٍّ أُعِيـدَا

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٤٠] : [مِنَ الكاملِ]

أَنَّـىٰ يَكُـونُ أَبَـا الْبَـرِيَّـةِ آدَمٌ ... وَأَبُـوكَ ـ وَالثَّقَـلاَنِ أَنْـتَ ـ مُحَمَّـدُ ؟!

ومعناهُ : كيفَ يكونُ آدمُ أَبا الورىٰ ، وأَبوكَ محمَّدٌ ، وأَنتَ الثقلانِ ، قد جمعَ اللهُ فيكَ ما فرَّقَهُ فيهِم من أَنواعِ الفضلِ

---

(١) **المَهْيَعُ** : الواسعُ الواضحُ .

والكمالِ ؟! وهُوَ من قصيدَةٍ لَهُ فائقةٍ[١] ، غيرَ أَنَّ هـٰذا البيتَ مذمومٌ مِنْها ، ومعيبٌ عندَ أَهلِ البيانِ بالتشويشِ[٢] .

ومِنَ المعنىٰ ـ أَيضاً ـ قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٠٥] : [مِنَ الكاملِ]

إِنِّــي أَرَاكَ مِــنَ الْمَكَــارِمِ عَسْكَــراً فِــي عَسْكَــرٍ وَمِــنَ الْمَعَــالِـي مَعْـدِنَـا

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٦٤] : [مِنَ الكاملِ]

اَلْجَيْــشُ جَيْشُــكَ غَيْــرَ أَنَّــكَ جَيْشُــهُ فِــي قَلْبِــهِ وَيَمِينِــهِ وَشِمَــالِــهِ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٩٩] : [مِنَ الكاملِ]

لَمَّــا سَمِعْــتُ بِــهِ سَمِعْــتُ بِــوَاحِـدٍ وَرَأَيْتُــهُ فَــرَأَيْــتُ مِنْــهُ خَمِيسَــا

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٠٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلَمَّـــا رَأَوْهُ وَحْــدَهُ قَبْــلَ جَيْشِــهِ دَرَوْا أَنَّ كُــلَّ الْعَــالَمِيــنَ فُضُــولُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٧١] : [مِنَ الكاملِ]

نُسِقُــوا لَنَــا نَسْــقَ الْحِسَــابِ مُقَدَّمــاً وَأَتَــىٰ فَــذَلِــكَ إِذْ أَتَيْــتَ مُــؤَخَّــرَا[٣]

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٧٦] : [مِنَ الوافرِ]

إِذَا عُــدَّ الْكِــرَامُ فَتِلْــكَ عِجْــلٌ كَمَــا الأَنْــوَاءُ حِيــنَ تُعَــدُّ عَــامُ[٤]

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٨٧] : [مِنَ البسيطِ]

غَـدَرْتَ يَـا مُـوتُ كَـمْ أَفْنَيْـتَ مِـنْ عَـدَدٍ بِمَــنْ أَصَبْــتَ وَكَــمْ أَسْكَــتَّ مِــنْ لَجَــبِ[٥]

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٥٠] : [مِنَ البسيطِ]

لَمَّــا وَزَنْــتُ بِــكَ الــدُّنْيَـا وَزَنْـتَ بِهَــا وَبِــالْــوَرَىٰ قَــلَّ عِنْــدِي كَثْــرَةُ الْعَــدَدِ[٦]

وقد أَساءَ الأَدبَ في هـٰذا ؛ لأَنَّهُ انتزعَهُ ممَّا جرىٰ لَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ليلةَ الإِسراءِ ، مِن أَنَّ الملائِكَةَ وزنتْهُ فرجَحَ بأَلفٍ من أُمَّتِهِ[٧] .

---

(١) قصيدة مدح بها شجاع بن محمد الطائي المنبجي ومطلعها :

اليَــوْمَ عَهْــدُكُــمُ فــأَيْــنَ المَــوْعِــدُ هَيْهَــاتَ لَيْــسَ لِيَــوْمِ عَهْــدِكُــمُ غَــدُ

وهي من أربعين بيتاً .

(٢) وذلك لأنه فصل في هـٰذا البيت بين المبتدأ والخبر بجملة من مبتدأ وخبر وهـٰذا تعسف .

(٣) المعنىٰ : قالَ الواحديُّ : جُمعَ لنا الفضلاءُ في الزمانِ ، ومَضوا متتابعينَ ، متقدمينَ عليكَ في الوجودِ ، فلما أتيت بعدهم . . كانَ فيكَ مِنَ الفضلِ ما كانَ فيهم ، مثل الحساب يذكر تفاصيلُهُ أولاً ، ثم تجمع تلك التفاصيلُ ، فيُكتبُ في آخرِ الحسابِ ، كذلك أنت . . . جمع فيك ما تفرّق فيهم مِنَ الفضائِلِ والعلمِ والحكمةِ .

(٤) الأنواءُ : جمعُ نَوْءٍ ، وهوَ سقوطُ نجمٍ مِن منازِلِ القمرِ في المغربِ معَ الفجرِ ، وطلوعُ رقيبِهِ من المشرقِ يقابلهُ .

(٥) اللجَبُ : الصوتُ والجلبةُ ، وجيشٌ لَجِبٌ : عرمرمٌ .

(٦) في « العكبري » : (رَجَحْتَ) بدل : (وَزَنْتَ) .

(٧) ليسَ ذلكَ في الإِسراءِ والمعراجِ ، فقد روى الدَّارِميُّ في « سُننهِ » (١٤) عنَ أَبي ذرٍّ ـ رَضيَ اللهُ عنهُ ـ قالَ : قُلتُ : يا رسولَ اللهِ . . كَيفَ عَلِمْتَ أَنَّكَ نَبيٌّ حينَ =

ومِنَ المَعنىٰ ـ أيضاً ـ **قولُهُ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٥٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَكَ الْخَيْرُ ، غَيْرِي رَامَ مِنْ غَيْرِكَ الْغِنَىٰ وَغَيْــرِي بِغَيْــرِ الــلاَّذِقِيَّــةِ لاَحِــقُ
هِيَ الْغَرَضُ الأَقْصَىٰ ، وَرُؤْيَتُكَ الْمُنَىٰ مَنْــزِلُــكَ الــدُّنْيَــا ، وَأَنْــتَ الْخَــلاَئِــقُ

وهـٰذا عِندي أبدعُها وأفخَمها ، وأملؤُها للفمِ ، ولقد أخطأَ مَنْ فضَّلَ عليهِ قولَ السلاميِّ [كما في « قرى الضيف » ١/ ١٦٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَبَشَّـرْتُ آمَـالِـي بِمَلْـكٍ هُـوَ الْـوَرَىٰ وَدَارٍ هِـيَ الـدُّنْيَـا وَيَـوْمٍ هُـوَ الـدَّهْـرُ

ولئِن كانَ في بيتِ المتنبي ضميرٌ يتعلَّق بما قبلَهُ ، وهـٰذا قائِمٌ بذاتِهِ ، وفيهِ زيادةُ وصفِ اليومِ ؛ فإنَّ فيهِ جزالةً وفخامةً ، وحلاوةً وطلاوةً ، لا يوازيها شيءٌ مِمَّا جاءَ في بيتِ السلاميِّ ، ولئِنْ كانَ السلاميُّ هُوَ السابقَ . . فأَصلُ المعنىٰ قولُ عبدَة يَرثي قيسَ بنَ عاصِمٍ المنقريَّ [كما في « المستطرف » ١/ ١٤٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا كَـانَ قَيْـسٌ هُلْكُـهُ هُلْـكُ وَاحِـدٍ وَلَكِنَّـــهُ بُنْيَـــانُ قَـــوْمٍ تَهَـــدَّمَـــا

وقولُ ابنِ المقفَّع [في « البيان والتبيين » ١/ ٣٨٧] : [مِنَ الوافرِ]

أَتَقْتُلُنِــي فَتَقْتُــلَ بِــي كَــرِيمــاً يَمُــوتُ بِمَــوْتِــهِ بَشَــرٌ كَثِيــرُ

ويروىٰ [في « المثل السائر » ٢/ ٣٦٤] : أَنَّ أبا تمَّام جاءَ إِلىٰ أَحمدَ ابنِ أَبي دؤادٍ يعتذرُ إِليهِ ، ويقولُ لَهُ : أنتَ جميعُ النَّاسِ ، ولا طاقةَ لي بغضبِ جميعِ النَّاسِ ، فقالَ لَهُ : ما أَحسنَ هـٰذا المعنىٰ! فَمِنْ أَينَ أَخذْتَهُ ؟! قالَ مِن قولِ أَبي نُواسٍ [في « ديوانه » ٢٠٢] : [مِنَ السَّريعِ]

لَيْـــسَ عَلَـــى اللهِ بِمُسْتَنْكَـــرٍ أَنْ يَجْمَـــعَ الْعَـــالَـــمَ فِـــي وَاحِـــدِ

وقالَ ابنُ دُرَيدٍ [في « المستطرف » ١/ ٤٦٦] : [مِنَ الرَّجزِ]

وَالنَّـــاسُ أَلْـــفٌ مِنْهُـــمُ كَـــوَاحِـــدٍ وَوَاحِـــدٌ كَـــالأَلْـــفِ إِنْ أَمْـــرٌ عَـــرَا

وقالَ ابنُ الروميِّ : [مِنَ البسيطِ]

فَــرْدٌ وَحِيــدٌ يَــرَاهُ النَّــاسُ كُلُّهُــمُ كَــأَنَّــهُ النَّــاسُ طُــرّاً وَهْــوَ إِنْسَــانُ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ١٠٠] : [مِنَ البسيطِ]

لَـوْ لَـمْ يَقُـدْ جَحْفَـلاً يَـوْمَ الْـوَغَـىٰ لَغَـدَا مِـنْ نَفْسِـهِ وَحْـدَهَـا فِـي جَحْفَـلٍ لَجِـبِ

وقالَ [في « البيان والتبيين » ١/ ٥١٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَعَمْــرُكَ مَــا كَــانُــوا ثَــلاَثَــةَ إِخْــوَةٍ وَلَكِنَّهُــمْ كَــانُــوا ثَــلاَثَ قَبَــائِــلِ

= اسْتُنْبِئْتَ ؟ فقالَ : « يَا أَبَا ذَرٍّ . . أَتَانِي مَلَكَانِ وَأَنَا بِبعضِ بَطْحَاءِ (مَكَّةَ) ، فَوَقَعَ أَحَدُهُمَا عَلَى الأَرْضِ ، وَكَانَ الآخَرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : أَهُوَ هُوَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَزِنْهُ بِرَجُلٍ ، فَوُزِنْتُ بِهِ فَوَزَنْتُهُ ، ثُمَّ قَالَ : زِنْهُ بِعَشَرَةٍ ، فَوُزِنْتُ بِهِمْ فَرَجَحْتُهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : زِنْهُ بِمِئَةٍ ، فَوُزِنْتُ بِهِمْ فَرَجَحْتُهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : زِنْهُ بِأَلْفٍ ، فَوُزِنْتُ بِهِمْ فَرَجَحْتُهُمْ ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَنْتَثِرُونَ عَلَيَّ مِنْ خِفَّةِ الْمِيزَانِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : لَوْ وَزَنْتَهُ بِأُمَّتِهِ لَرَجَحَهَا » .

ونظرَ إليهِ أَبو عبادةَ في قولِهِ [في « ديوانه » ٢/ ١٠٣٢] : [مِنَ الكاملِ]

كَـانُـوا ثَـلاَثَـةَ أَبْحُـرٍ أَفْضَىٰ بِهَـا رَيْـبُ الْمَنُـونِ إِلَـىٰ ثَـلاَثَـةِ أَقْبُـرِ

وقالَ في أَصلِ المعنىٰ [في « ديوانه » ١/ ٦٢٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَـمْ أَرَ أَمْثَـالَ الـرِّجَـالِ تَفَـاوَتَـتْ لَـدَى المَجْـدِ حَتَّـىٰ عُـدَّ أَلْـفٌ بِـوَاحِـدِ

وقالَ قبلَ ذلكَ جَريرٌ [في « ديوانه » ٢/ ٦٤٩] : [مِنَ الوافرِ]

إِذَا غَضِبَـتْ عَلَيْـكَ بَنُـو تَمِيـمٍ رَأَيْـتَ النَّـاسَ كُلَّهُـمُ غِضَـابَـا

وأَخذ البوصيريُّ المعنىٰ لِمدحِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم، فكانَ أَحقَّ بِهِ مِنَ الجميعِ ، وذلكَ حيثُ يقولُ : [مِنَ البسيطِ]

كَـأَنَّـهُ وَهُـوَ فَـرْدٌ مِـنْ جَـلاَلَتِـهِ فِـي عَسْكَـرٍ حِيـنَ تَلْقَـاهُ وَفِـي حَشَـمِ

ومصداقُهُ ما يروىٰ عن قَيْلَةَ بنتِ مخرمَةَ : أَنَّها جاءَتْ تطلبُهُ ، فأَلفتْهُ في مسجدِهِ قد توسَّدَ ذراعَهُ ، وعليهِ الجلالُ الإلهيُّ ، والوقارُ السماويُّ ، والعظمَةُ الربانيَّةُ ، فأَكبرتْهُ ، وأَخذَتْها رعدةٌ مِنَ الفرَقِ ، فقالَ لَها صلى الله عليه وسلم : « **هوِّني عَلَيْكِ السَّكِينَةَ ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ وَلاَ جَبَّارٍ ، وَلَكِنِّي ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ بِمَكَّةَ** »[1] .

فما أَشرفَ هٰذا التواضعَ الكريمَ علىٰ ذلكَ المقدارِ العظيمِ!

وللهِ درُّ الناظمِ في قولِهِ ـ الذي قدْ ذكرناهُ مرَّةً ـ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٧٩] : [مِنَ الكاملِ]

مُتَصَعْلِكِيـنَ عَلَـىٰ ضَخَـامَـةِ مُلْكِهِـمْ مُتَـوَاضِعِيـنَ عَلَـىٰ عُلُـوِّ الشَّـانِ

بل ما أَحلىٰ قولَ سبطِ ابنِ الفارضِ [في « ديوان ابن الفارضِ » ٢١٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَيَـا رَبُّ بِـالْخِـلِّ الْحَبِيـبِ مُحَمَّـدٍ نَبِيِّـكَ وَهُـوَ السَّيِّـدُ الْمُتَـوَاضِـعُ
أَنِلْنَـا مَـعَ الأَحْبَـابِ رُؤْيَتَـكَ الَّتِـي إِلَيْهَـا قُلُـوبُ الأَوْلِيَـاءِ تُسَـارِعُ
فَبَـابُـكَ مَقْصُـودٌ وَفَضْلُـكَ زَائِـدٌ وَجُـودُكَ مَـوْجُـودٌ وَعَفْـوُكَ وَاسِـعُ

ومرِضَ أَبو الفرجِ الدارِميُّ صاحبُ « **الاستذْكارِ** » فزارَهُ أَبو حامدٍ الإسفرايينيُّ ، فقالَ[في « طبقات ابن السبكي » ٤/ ٦٥] :

[مِنَ السَّريعِ]

مَـرِضْـتُ فَـاحْتَجْـتُ إِلَـىٰ عَـائِـدٍ فَعَـادَنِـي الْعَـالَـمُ فِـي وَاحِـدِ
ذَاكَ الإِمَـامُ ابْـنُ أَبِـي طَـاهِـرٍ أَحْمَـدُ ذُو الْفَضْـلِ أَبُـو حَـامِـدِ

وأَبو حامدٍ هٰذا : هُوَ ممدوحُ المعريِّ بقصيدَتِهِ التي مستهلُّها هٰذا [في « سقطِ الزندِ » ١٦٥] : [مِنَ البسيطِ]

لاَ وَضْـعَ لِلـرَّحْـلِ إِلاَّ بَعْـدَ إِيضَـاعِ فَكَيْـفَ شَـاهَـدْتَ إِمْضَـائِي وَإِزْمَـاعِي ؟[2]

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٣١٢) وقال في « الزوائد » : إسناده صحيح ورجاله ثقات ، بلفظ : « هون عليك فإني لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » .

(٢) **لا وضعَ** : كنايةٌ عنِ النزولِ . **الإيضاعُ** : وضع البعيرِ في السيرِ .

وكانوا يصلُّونَ الظهرَ بعدَ الجمعةِ في مسجدِ (المسيلَةِ) ، فقالَ لَهم بدويٌّ : لِماذا ؟ قالوا : لأَنَّ الجمعَةَ لا تصِحُّ إلاَّ بأربعينَ ، والعددُ ناقصٌ عندَنا ؛ فلهـٰذا نصلِّي الظهرَ احتياطاً ، قالَ لَهم : أَوَليسَ الحبيبُ طاهرٌ[1] وحدَهُ يعدلُ بأربعينَ ؟ ولا يبعدُ أَن يكونَ منْهُ قولُهُ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل : ١٢٠] .

وقالَ الأَرَّجانيُّ [في « وفيات الأعيان » ٤/٤٠٧] : [مِنَ البسيطِ]

لَـوْ زُرْتَـهُ لَـرَأَيْـتَ النَّـاسَ فِـي رَجُـلٍ ... وَالـدَّهْـرَ فِـي سَـاعَـةٍ ، وَالأَرْضَ فِـي دَارِ

* * *

وقالَ يمدحُ عبيدَ اللهِ بنَ خراسانَ الطرابُلسيَّ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٨٥] : [مِنَ البسيطِ]

أَظَبْيَـةَ الْـوَحْـشِ لَـوْلاَ ظَبْيَـةُ الإِنْـسِ ... لَمَـا غَـدَوْتُ بِجِـدٍّ فِـي الْهَـوَىٰ تَعِـسِ

[شرح المطلع]

(**الإنسُ**) : جماعَةُ النَّاسِ ، و(**الجَدُّ**) : الحظُّ والبَخْتُ ، و(**التَّعْسُ**) : العثورُ ضدُّ الانتعاشِ :

ومنهُ الحديثُ : « **تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشْ** »[2] .

وكانَتِ العربُ إِذا عثرَتْ . . دعتْ بالتعسِ لِمَنْ تكرَهُ .

ومِنه قولُ أُمِّ مِسطَحٍ في حديثِ الإفكِ الطويلِ : (**تعسَ مِسطَحٌ**)[3] .

[قد يألف الإنسان الوحوش ويخاف من الناس]

والحاصِلُ : أَنَّهُ يخاطِبُ الظبيَةَ الوحشيَّةَ ، ولَم يخاطِبها إلاَّ لإِلفِهِ إِيَّاها ، وسكونِها إِليهِ ؛ مِن كثرَةِ ما يسلُكُ مِنَ البوادي لتطلُّبِ الأُنسِ ، ومناجاةِ النفسِ ، علىٰ حدِّ قولِ المجنونِ [في « ديوانه » ٢٩٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وأَخْـرُجُ مِـنْ بَيْـنِ الْبُيُـوتِ لَعَلَّنِـي ... أُحَـدِّثُ عَنْـكِ النَّفْـسَ فِـي السِّرِّ خَـالِيَـا

وقولِ ذي الرُّمَّةِ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَخُـطُّ وأَمْحُـو الْخَـطَّ ثُـمَّ أُعِيـدُهُ ... بِكَفِّـيَ وَالْغِـزْلاَنُ حَـوْلِـيَ رُتَّـعُ

عَشِيَّـةَ مَـا لِـي حِيلَـةٌ غَيْـرَ أَنَّنِـي ... بِلَقْطِ الْحَصَىٰ وَالْخَطِّ فِي الأَرْضِ مُولَعُ

وقولِ الآخرِ : [مِنَ الطَّويلِ]

عَوَى الذِّئْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذِّئْبِ إِذْ عَوَىٰ ... وَصَـوَّتَ إِنْسَـانٌ فَكِـدْتُ أَطِيـرُ

---

(١) يعني الإمام المجاهد ، طاهر بن حسين بن طاهر العلوي الحسيني ، ولد سنة : (١١٨٤هـ) وتوفي سنة : (١٢٤١هـ) ، أحد الأئمة الأعيان ، صاحب الشخصية القوية ، الشجاع ، الغيور ، صاحب المؤلفات النافعة ، ومنها « إتحاف النبيل ببعض معاني حديث جبريل » .

(٢) طرف حديث أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٢٨٨٧) في الجهاد ، وابن ماجه (٤١٣٦) في الزهد وأوله : « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة ، إن أعطي رضي ، وإن لم يعط سخط » .

(٣) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري في حديث الإفك (٤٧٥٠) في التفسير .

وقولِ سلطانِ العاشقينَ [في « ديوانهِ » ٤٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلِـي بَعْـدَ أَوْطَـانِـي سُكُـونٌ إِلـى الْفَـلاَ وَبِالْوَحْشِ أُنْسِي إِذْ مِنَ الإِنْسِ وَحْشَتِي[١]

[أحببت من أجلكم من كان يشبهكم]

يقولُ للظبيَةِ : لَولا شبيهتُكِ مِنَ الإنسِ . . لَمَا غدوتُ تاعسَ الجَدِّ ، منكودَ الحظِّ ، مُبلبَلَ البالِ ، هائِماً علىٰ وَجهي مِنَ الهوىٰ ، ولَيسَ في البيتِ ما توضَعُ عليهِ اليدُ ، أَو ينشرحُ لَهُ الصدْرُ ، أَو ينفَتِحُ لَهُ السمعُ ، بَلْ أَنكروا عليهِ قولَهُ : (تَعِسِ) وقالوا : إنَّما صوابُهُ تاعِسَ كما عبَّرنا ، والعرَبُ كثيراً ما تشبِّهُ الغِيدَ الحِسانَ بروائعِ الغزلانِ ، والوجْهُ حُسْنُ الأَجيادِ[٢] .

ويروىٰ [في « الأغاني » ٢/ ٧٥] : أَنَّ المجنونَ اشترىٰ ظبيَةً بناقَةٍ ، وأَخذَ يمسحُ عَنْها الترابَ ويقبِّلُها ، ويقولُ [في « ديوانهِ » ٢٠٦ـ٢٠٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَيَـا شِبْـهَ لَيْلَـىٰ لاَ تُـرَاعِـي فَـإِنَّنِـي لَـكِ الْيَـوْمَ مِـنْ وَحْشِيَّـةٍ لَصَـدِيـقُ
فَعَيْنَـاكِ عَيْنَـاهَـا وَجِيـدُكِ جِيـدُهَـا وَلَكِـنَّ عَظْـمَ السَّـاقِ مِنْـكِ دَقِيـقُ

ومرَّ مرَّةً أُخرىٰ برجلينِ اصطادا ظبْيَةً وربَطاها ، فعزَمَ عليهِما أَنْ يُطْلِقاها ، فأَبيا عليهِ ، فاشترَاها بكبشٍ مِن غنمِهِ ، وأَطلقَهَا ، وفي ذلكَ يقولُ [في « ديوانهِ » ١١١] : [مِنَ الطَّويلِ]

شَـرَيْـتُ بِكَبْـشٍ شِبْـهَ لَيْلَـىٰ وَلَـوْ أَبَـوْا لأَعْطَيْـتُ مَـالِـي مِـنْ طَـرِيـفٍ وَتَـالِـدِ
وَلَـوْ كُنْتُمَـا حُـرَّيْـنِ مَـا بِعْتُمَـا فَتـىً شَبِيهـاً بِلَيْلَـىٰ بَيْعَـةَ الْمُتَـزَايِـدِ
وأَعْتَقْتُمَـاهَـا رَغْبَـةً فِـي ثَـوَابِهَـا وَلَـمْ تَـرْغَبَـا فِـي نَـاقِـصٍ غَيْـرِ زَائِـدِ

وقيلَ : إنَّ الرجلينِ أَخوهُ وابنُ عمِّه ، وإنَّهُ أَنشدَهُما[في « ديوانه » ٢٨٥] : [مِنَ البسيطِ]

يَـا صَـاحِبَـيَّ اللَّـذَيْـنِ الْيَـوْمَ قَـدْ رَبَطَـا شِبْهـاً لِلَيْلَـىٰ بِحَبْـلٍ ثُـمَّ غَـلاَّهَـا
إِنِّـي أَرَى الْيَـوْمَ فِـي أَعْطَـافِ شَـاتِكُمَـا مَشَـابِهـاً أَشْبَهَـتْ لَيْلَـىٰ فَخَـلاَّهَـا

ولَمَّا أَبَيا . . تهدَّدَهُما بالقتْلِ ، وكانَ أَجلدَ مِنهُما قبلَ أَنْ يشتَدَّ بِهِ الهوىٰ ، فأَطْلَقاها .

ويحكىٰ عَنِ الأَصمعيِّ : أَنَّهُ رأَىٰ أَعرابيّاً صنعَ ما هُوَ أَكبرُ مِن ذلكَ ، وأَنشدَ ـ ومِنْ شعرِهِ تُعرَفُ قِصَّتُهُ ـ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَذَكَّـرَنِـي مَـنْ لا أَبُـوحُ بِحُبِّـهِ مَحَـاجِـرَ ظَبْـيٍ فِـي حُبَـالَـةِ قَـانِـصِ
فَقُلْـتُ وَأَسْـرَابُ الـدُّمُـوعِ سَـوَافِـحٌ وَعَيْنِـي إِلـىٰ عَيْنَيْـهِ نَظْـرَةُ شَـاخِـصِ
أَلاَ أَيُّهَـذَا الْقَـانِـصُ الظَّبْـيِ خَلِّـهِ فَـإِنَّـا فَـدَيْنَـاهُ بِسَبْـعِ قَـلاَئِـصِ
خَـفِ اللهَ لا تَحْبِسْـهُ إِنَّ شَبِيهَـهُ حَبِيبِـي وَقَـدْ أَرْعَـدَتْ مِنْـهُ فَـرَائِصِـي

أَو ما يقربُ مِن هـٰذا .

---

(١) سكونٌ : استئناس . أُنسي : نقيض وحشتي . الإِنس : الناسُ .

(٢) الأجياد : الأعناق .

ومِن أكاذيبِ أَبي حيَّةَ النميريِّ ـ وهُوَ مِمَّن يروي عَنِ الفرزدَقِ ـ : أَنَّهُ قالَ [كما في « البيان والتبيين » ١/ ٣٢٧] : رميتُ يوماً ظبيَةً ، فلمَّا خرجَ السهْمُ . . ذكرْتُ بالظبيَةِ حبيبةً لي ، فشدَدْتُ خَلْفَ السَّهمِ حتَّىٰ أَدركتُهُ قبلَ أَن يصيبَها ، وأَخذْتُ بقَذَذِهِ ، وما تركتُهُ يَمَسُّها .

ومَعَ خسَّةِ هـٰذهِ الأُكذوبةِ ، وسقوطِ قدْرِها ، فقد نظرَ إِليها الناظمُ بعينِ الاستحسانِ ، وشنَّ الغارةَ عَلَيها ، حتَّىٰ أَخذَها في **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٧٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

يَكَـادُ يُصِيـبُ الشَّـيْءَ مِـنْ قَبْـلِ رَمْيِـهِ ... وَيُمْكِنُـهُ فِـي سَهْمِـهِ الْمُـرْسَـلِ الـرَّدُّ

وليستْ هـٰذهِ بأَقبحَ مِن **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٥٣] : [مِنَ الوافرِ]

أُحِبُّـكَ أَوْ يَقُـولُـوا : جَـرَّ نَمْـلٌ ... ثَبِيـراً ، وَابْـنُ إِبْـرَاهِيـمَ رَيْعَـا[١]

فما أَخذَ هـٰذا المعنىٰ إلاَّ مِن أُكذوبةٍ كذبَها أَبو العنبسِ الصيمريُّ عَنْ لسانِ رجُلٍ مِنَ العرَبِ ، زعمَ أَنَّهُ قالَ : رأيتُ رجلاً نامَ ، وفي يدِهِ غَمْرٌ ، فَجَرَّهُ النملُ ثلاثةَ فراسخَ ، فأُعجبَ بها أَبو الطيِّبِ ، ورأَىٰ أَن لا يُخلِّي ديوانَهُ عن مثلِها ، ولم يَكْفِهِ حتَّىٰ جعلَ موضِعَ الرجلِ جبلاً ، ولئِن أَشارَ إِلى استحالتِهِ . . فقد أَعادَهُ في قصيدَةٍ أُخرىٰ **يقولُ** [في « العُكبريِّ » ٣/ ٢٦٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَمَـاتَكُـمُ مِـنْ قَبْـلِ مَـوْتِكُـمُ الْجَهْـلُ ... وَجَـرَّكُـمُ مِـنْ خِفَّـةٍ بِكُـمُ النَّمْـلُ

فما كانَ أَثقلَ روحَهُ ، وأَقلَّ فتوحَهُ ، في أَمثالِ هـٰذا الكلامِ الباردِ السخيفِ ، ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : ٨] .

وعلىٰ ذكرِ إِرسالِ الظباءِ ، لا بدَّ مِن أَن نشيرَ إِلىٰ ما قالَهُ فقهاؤُنا : مِن حرمَةِ إِطلاقِ الصيدِ ؛ لأَنَّهُ يشبهُ سوائِبَ الجاهليَّةِ ، قالَ ابنُ حجرٍ : نعم ، إِنْ قالَ عندَ إِرسالِها : أَبحتُهُ لِمَن يأْخذُهُ . . أُبيحَ لآخذِهِ أَكلُهُ فقط . اهـ .

وظاهرُهُ : أَنَّ ذلكَ القولَ لا يبيحُ الإِرسالَ ، ونظرَ الرمليُّ في الجوازِ حينئِذٍ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٨٦] : [مِنَ البسيطِ]

وَلاَ سَقَيْـتُ الثَّـرَىٰ وَالْمُـزْنُ مُخْلِفُـهُ ... دَمْعـاً يُنَشِّفُـهُ مِـنْ لَـوْعَـةٍ نَفَسِـي

[شرح المطلع]

يقول لِلظَّبيَةِ ـ أَيضاً ـ : لَولا شبيهَتُكِ . . لَـمَا سقيتُ الثَّرىٰ عندَ أَخلافِ المُزنِ دمعاً ، تتبعُهُ حرارةُ الأَنفاسِ فتنشِّفُهُ .

---

(١) **الثبيرُ** : جبلٌ معروفٌ بـ(الحجازِ) ، قيل فيه : أشرق ثبير كيما نغير .

ولله درُّ ابنِ الفارضِ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ١٤٤] : [مِنَ البسيطِ]

وَأَدْمُـعٌ هَمَلَـتْ لَـوْلاَ التَّنَفُّـسُ مِـنْ ... نَـارِ الْهَـوَىٰ لَـمْ أَكَـدْ أَنْجُـو مِـنَ اللُّجَجِ(١)

ففي البيتِ نوعٌ مِنَ الطِّباقِ في الجمعِ بينَ الماءِ والنارِ .

وقد قالَ ابنُ الروميِّ : [مِنَ البسيطِ]

لا تَعْجَبَـا أَنَّ دَمْعـاً فَـاضَ مِـنْ حُـرَقٍ ... مَـاءٌ أَفَـاضَتْـهُ نَـارٌ مِـنْ مَـرَاجِلِـهِ

وَمِمَّا جَاءَ في احتراقِ القلبِ ، وشدَّةِ النَّفَسِ ، قولُ أَبي الطَّمحَانِ [في « ديوان الحماسة » ٢/ ٨٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

هَـلِ الْـوَجْـدُ إِلاَّ أَنَّ قَلْبِـيَ لَـوْ دَنَـا ... مِنَ الْجَمْرِ قِيدَ الرُّمْحِ لاحْتَرَقَ الْجَمْرُ ؟

وقولُ ابنِ الأَحنفِ [في « ديوانه » ١٥٨] : [مِنَ البسيطِ]

يَـا قَـابِسَ النَّـارِ قَـدْ أَعْيَـتْ قَـوَادِحُـهُ ... اِقْبِـسْ إِذا شِئْـتَ مِـنْ قَلْبِـي بِمِقْبَـاسِ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٣٣] : [مِنَ الكاملِ]

جَـرَّبْـتُ مِـنْ حَـرِّ الْهَـوَىٰ مَـا تَنْطَفِـي ... نَـارُ الْغَضَـىٰ وتَكِـلُّ عَمَّـا تُحْـرِقُ

وقالَ الخابزأَرزيُّ : [مِنَ الطَّويلِ]

بِقَلْبِـيَ جَمْـرٌ مِـنْ هَـوَاهُ فَـإِنْ أَكُـنْ ... شَكَوْتُ فَهٰذَا الْوَجْدُ مِنْ ذَلِكَ الْجَمْرِ

وقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَحَـقِّ الْهَـوَىٰ إِنِّـي أُحِـسُّ مِـنَ الْهَـوَىٰ ... عَلَـىٰ كَبِـدِي جَمْـراً وفِـي أَعْظُمِـي رَضَّـا

وقالَ ذو الرُّمَّةِ ـ وهُوَ مما سبقَ لنا ذكرُهُ ـ [في « ديوانهِ » ١/ ٣٨١] : [مِنَ البسيطِ]

تَعْتَـادُنِـي زَفَـرَاتٌ حِيـنَ أَذْكُـرُهَـا ... تَكَـادُ تَنْقَـدُّ مِنْهُـنَّ الْحَيَـازِيـمُ

وقالَ مسلمُ بنُ الوليدِ : [مِنَ الكاملِ]

وَإِذَا بَعَثْـتَ إِلَـى الْهَـوَىٰ بَعْـثَ الْهَـوَىٰ ... نَفَسـاً يَكُـونُ عَلَـى الضَّمِيـرِ دَلِيـلاَ

وقالَ غيرُهُ [وهو الصِمَّةُ بن عبد اللهِ في « الأغاني » ٦/ ٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا زَفَـرَاتُ الْحُـبِّ صَعَّـدْنَ فِـي الْحَشَـا ... وَرَدْنَ وَلَـمْ يُـوجَـدْ لَهُـنَّ طَـرِيـقُ

وقالَ أَبو تمَّام [في « ديوانهِ » ١/ ٢١٩] : [مِنَ الكاملِ]

أَجْـدِرْ بِجَمْـرَةِ لَـوْعَـةٍ إِطْفَـاؤُهَـا ... بِـالـدَّمْـعِ أَنْ تَـزْدَادَ طُـولَ وُقُـودِ

---

(١) هملت : انصبَّت . **اللُّجج** : الواحدة لُجَّةٌ ، معظمُ الماءِ .

وهُوَ مخالِفٌ لبعضِ ما سبقَ ، أَواخرَ المجلسِ السادسِ ، قبيلَ **قولِ الناظمِ** [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٣٤] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

فَثِــبْ وَاثِقــاً بِـــاللهِ وِثْبَـةَ مَـاجِــدٍ ... يَرَى الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فِي الْفَمِ

وقالَ بعضُهُم : [مِنَ الكاملِ]

فَبَـدَتْ تُشِـبُّ بِـدَمْعِهَـا نَـارَ الْهَـوَىٰ ... مَــنْ ذَا رَأَىٰ نَــاراً تُشَـــبُّ بِمَــاءِ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٥٠] : [مِنَ البسيطِ]

وَكُلَّمَـا فَـاضَ دَمْعِـي غَـاضَ مُصْطَبَـرِي ... كَـأَنَّ مَـا فَـاضَ مِـنْ جَفْنَـيَّ مِـنْ جَلَـدِي

وقالَ [في « العُكبريِّ » ٢/ ٢٧٤] : [مِنَ الكاملِ]

وَإِذَا حَصَلْـتَ مِـنَ السِّـلَاحِ عَلَـى الْبُكَـا ... فَحَشَــاكَ رُعْــتَ بِــهِ وَقَلْبَــكَ تُفْــزِعُ

[سكينة بنت الحسين تسأل عروة بن أذينة]

ويحكىٰ [بنحوه في « المستطرف » ٢/ ٣٢١] : أَنَّ سُكينةَ ابنةَ الحسينِ وقفَتْ علىٰ عروةَ بنِ أُذينَةَ ، وكانَ ثقةً في الحديث ، أَخرجَ لَهُ مالِكُ ابنُ أَنسٍ ، فقالَتْ لَهُ : أَنتَ الذي يقالُ فيكَ الرجلُ الصالحُ ، أَلستَ القائِلَ [في « ديوانهِ » ٢٩] : [مِنَ البسيطِ]

إِذَا وَجَــدْتُ أُوَارَ الْحُــبِّ فِـي كَبِـدِي ... ذَهَبْــتُ نَحْــوَ سِقَــاءِ المَــاءِ أَبْتَــرِدُ

هَبْنِــي بَـرَدْتُ بِمَــسِّ الْمَــاءِ ظَـاهِـرَهُ ... فَمَــنْ لِنَـارٍ عَلَـى الأَحْشَـاءِ تَتَّقِـدُ ؟!

قالَ لَها : بلىٰ ، فأَشارَتْ إِلىٰ جواريها ، وقالَتْ : هُنَّ حرائِرُ إِن خرجَ هـٰذا مِن قلبٍ سليمٍ .

[الرشيد وعقد الجارية]

ويروىٰ [بنحوه في « المستطرف » ٢/ ٣٣١] : أَنَّ هاشمَ بنَ سليمانَ مولىٰ بني أُميَّةَ ، غنَّىٰ للرشيدِ مرَّةً بما سبقَ من قولِ جميلٍ [في « ديوانهِ » ١٧٦ـ١٧٧] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

إِذَا مَــا تَــرَاجَعْنَــا الَّــذِي كَــانَ بَيْنَنَــا ... جَرَى الـدَّمْعُ مِنْ عَيْنَـيْ بُثَيْنَـةَ بِـالْكُحْـلِ

فَيَا وَيْحَ نَفْسِي حَسْبَ نَفْسِي الَّذِي بِهَا ... وَيَـا وَيْـحَ عَقْلِـي مَـا أُصِيـبُ بِـهِ أَهْلِـي

خَلِيلَــيَّ فِيمَــا عِشْتُمَــا هَــلْ رَأَيْتُمَــا ... قَتِيـلاً بَكَـىٰ مِـنْ حُـبِّ قَـاتِلِـهِ مِثْلِـي ؟

فطربَ الرشيدُ ، وقلَّدَ هاشماً عِقداً نفيساً ، فاغرورَقَتْ عيناهُ بالدموعِ ، فقالَ لَهُ الرشيدُ : ما يبكيكَ ؟ فتلَجْلَجَ حتَّىٰ أَلَحَّ عليهِ ، فقالَ : إِنَّ لهـٰذا العقدِ قصَّةً ، قالَ : ما هِيَ ؟ قالَ : أَحضرَني الوليدُ يوماً ، غنَّتْهُ فيهِ إِحدىٰ حَظاياهُ فأَصلحْتُ غناءَها ، فدفعَتْ لي هـٰذا العقْدَ ، وظَلْنَا بِأَسعدِ يومٍ وأَهناهُ ، ولَمَّا قدموا السفينةَ في العشيِّ ليركبوا عَلَيها . . سقطتِ الجاريَةُ ، ولَمْ يَقدِروا عَلَيها ، فاشتدَّ جزَعُ الوليدِ ، واستردَّ العِقدَ مِنِّي ؛ ليتذكَّرَها بهِ ، ويشمَّها فيهِ ، ودفعَ لي ثلاثينَ أَلفاً عوضاً عنهُ ، فقالَ لهُ الرشيدُ : لا تعجَبْ ؛ فإِنَّ اللهَ كَما ورَّثَنا مُلْكَهم ، ورَّثَنا أَموالَهم ، فسبحانَ مَنْ لا يزولُ مُلكُهُ!

ويُذكرُ [بنحوه في « المستطرف » ٢/ ٣٣١] : أَنَّ إسحاقَ الموصلِّيَّ غنَّى الواثقَ بنَ المعتصِمِ بهـٰذه الأَبياتِ : [مِنَ البسيطِ]

مَاكُنْتُ أَعْلَمُ مَا فِي الْبَيْنِ مِنْ شَجَنِ حَتَّىٰ تَنَادَوْا بِأَنْ قَدْ جِيءَ بِالسُّفُنِ
قَامَتْ تُوَدِّعُنِي وَالدَّمْعُ يَغْلِبُهَا فَهَمْهَمَتْ بَعْضَ مَا قَالَتْ وَلَمْ تُبِنِ
مَالَتْ إِلَيَّ وَضَمَّتْنِي لِتَرْشُفَنِي كَمَا يَمِيلُ نَسِيمُ الرِّيحِ بِالْغُصُنِ
وَأَعْرَضَتْ ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ بَاكِيَةٌ يَا لَيْتَ مَعرِفَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَكُنِ

فكادَ الواثقُ أَنْ يطيرَ مِنَ الطَّرَبِ والارتياحِ ، ثمَّ غنَّىٰ إسحاقُ بالأَبياتِ الآتيةِ : [مِنَ الطَّويلِ]

[قفي ودعينا يا سعاد]

قِفِي وَدِّعِينَا يَا سُعَادُ بِنَظْرَةٍ فقَدْ حَانَ مِنَّا يَا سُعَادُ رَحِيلُ
فَيَا جَنَّةَ الدُّنْيَا وَيَا غَايَةَ الْمُنَىٰ وَيَا سُؤْلَ نَفْسِي هَل إِلَيْكِ سَبِيلُ
وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ جِئْتُ لِعِلَّةٍ فَأَفْنَيْتِ عِلَّاتِي فَكَيْفَ أَقُولُ ؟
فَمَا كُلُّ يَوْمٍ لِي بِأَرْضِكِ حَاجَةٌ وَلاَ كُلُّ يَوْمٍ لِي إِلَيْكِ وُصُولُ

فما تركَ الواثِقُ دمعَةً إِلاَّ ذراها ، ولا عَبرَةً إِلاَّ أَجراها .

[هل تعار العين للبكاء ؟!]

وربَّما تقِلُّ مناسَبَةُ البيتِ للحِكايتينِ ، غيرَ أَنَّهُ يَكفي اجتماعُهما في إرسالِ العَبَراتِ التي من لازِمِها تصاعُدُ الزفرَاتِ ، وللهِ درُّ العبَّاسِ بنِ الأَحنفِ في قولِهِ [في « ديوانه » ١١٦] : [مِنَ الكاملِ]

نَزَفَ الْبُكَاءُ دُمُوعَ عَيْنِكَ فَاسْتَعِرْ عَيْناً لِغَيْرِكَ دَمْعُهَا مِدْرَارُ
مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنَهُ تَبْكِي بِهَا أَرَأَيْتَ عَيْناً لِلْبُكَاءِ تُعَارُ ؟!

وقالَ الحسينُ بنُ مطيرٍ [في « ديوانه » ٨١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلِي كَبِدٌ مَقْرُوحَةٌ مَنْ يَبِيعُنِي بِهَا كَبِداً لَيْسَتْ بِذَاتِ قُرُوحِ
أَبَى النَّاسُ وَيْبَ النَّاسُ لاَ يَشْتَرُونَهَا وَمَنْ يَشْتَرِي ذَا عِلَّةٍ بِصَحِيحِ ؟[1]

وقالَ آخرُ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَهَلْ مِنْ مُعِيرٍ طَرْفَ عَيْنٍ خَلِيَّةٍ فَإِنْسَانُ عِينِ الْعَامِرِيِّ كَلِيمُ ؟

* * *

---

(١) وَيْبَ : أي ويأبَ .

[قالَ أبو الطَّيبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٨٦] : [مِنَ البسيطِ]

وَلاَ وَقَفْـتُ بِجِسْـمٍ مُسْـيَ ثَـالِثَـةٍ ... ذِي أَرْسُـمٍ دُرُسٍ فِـي الأَرْبُـعِ الـدُّرُسِ

[شرح المطلع]

(**المُسْيُ**) : المساءُ ، كالصبحِ والصباحِ ، و(**الأَرْسُمُ**) : جمعُ رَسمٍ ، وهوَ أثرُ الديارِ ، و(**الدُّرُسُ**) : جمع دارسٍ ، وهُوَ الذي انمحىٰ ، يقولُ : لولا هـٰذِهِ الظبيَةُ . . لَما وقفتُ برسومِ دارِها مساءَ الليلةِ الثالثةِ مِن ظَعنِها ؛ أي : لَمَا وقفتُ بربْعِها مَعَ قربِ العهدِ بلقائِها ، وكانَ وقوفي علىٰ رسومِها بجسمٍ دارسٍ ناحلٍ ، قد أبلاهُ الحزنُ ، وأنحلَهُ حتَّىٰ عادَ مثلَ تلكَ الرسومِ ، إلاَّ أنَّهُ قد يشكِلُ انمحاءُ الآثارِ مع قربِ الوقتِ ، فهلاَّ قالَ مثلَ ما قالَ النابغةُ [الذبيانيُّ في « ديوانه » ٤٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَـوَهَّمْـتُ آيَـاتٍ لَهَـا فَعَـرَفْتُهَـا ... لِسِتَّـةِ أَعْـوَامٍ وَذَا الْعَـامُ سَـابِـعُ

أَو [مثلَ] ما قالَ زهيرٌ [في « ديوانه » ٩ـ١٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَدَارٌ لَهَـا بِـالـرَّقْمَتَيْـنِ كَـأَنَّهَـا ... مَـرَاجِـعُ وَشْـمٍ فِـي نَـوَاشِـرِ مِعْصَـمِ
وَقَفْـتُ بِهَـا مِـنْ بَعْـدِ عِشْـرِيـنَ حِجَّـةً ... فَـلأْيـاً عَـرَفْـتُ الـدَّارَ بعْـدَ تَـوَهُّـمِ

[الاشتياق قبل الفراق]

أَمَّا فَرْطُ الاشتياقِ معَ قربِ مدَّةِ الفراقِ : فإنَّهُ ليسَ ببِدْعٍ ؛ إذْ قالَ الأعرابيُّ [في « جمهرة الأمثال » ٢/ ٣٦٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَشَـوْقـاً وَلَمَّـا تَمْـضِ لِـي غَيْـرُ لَيْلَـةٍ ... فَكَيْـفَ إِذَا جَـدَّ الْمَطِـيُّ بِنَـا عَشْـرَا ؟

وقالَ أحدُ بني العنبرِ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَهَـٰـذَا وَلَمَّـا تَمْـضِ لِلبَيْـنِ لَيْلَـةٌ ... فَكَيْـفَ إِذَا مَـرَّتْ عَلَيْـكَ شُهُـورُ ؟

وفي عكسِهِ : يقولُ شاعرُ المعرَّةِ [في « نفح الطيب » ٦/ ٩٣] : [مِنَ البسيطِ]

أَبَعْـدَ حَـوْلٍ تُنَـاجِـي الشَّـوْقَ نَـاجِيَـةٌ ... هَـلاَّ وَنَحْـنُ عَلَـىٰ عَشْـرٍ مِـنَ الْعَشْـرِ ؟

إنَّما البِدْعُ انمحاءُ الآثارِ بعقِبِ وقْتِ الارتحالِ ، إلاَّ أنْ يُقالَ : إنَّ بيوتَهم كانَتْ مِن شَعْرٍ ، يُعَفِّي أَثَرَها أَوَّلُ ريحٍ تَهُبُّ ، وكيفَما كانَ الأمرُ . . فالأَولىٰ في المعنىٰ ما قالَهُ الواحديُّ : إنَّهُ وقفَ عليها ثلاثةَ أيَّامٍ يناجي الدِّيَارَ ، ويتشَّمُ الآثارَ ، علىٰ حدِّ قولِ أبي نواسٍ ، الذي بالَغَ الجاحِظُ في الثَّنَاءِ عليهِ [في « المثل السائر » ٢/ ١١٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَدَارِ نَـدَامَـىٰ عَطَّلُـوهَـا وَأَدْلَجُـوا ... بِهَـا أَثَـرٌ مِنْهُـمْ جَـدِيـدٌ وَدَارِسُ[1]
مَسَـاحِـبُ مِـنْ جَرِّ الزِّقَـاقِ عَلَـى الثَّرَىٰ ... وَأَضْغَـاثُ رَيْحَـانٍ جَنِـيٌّ وَيَـابِـسُ[2]

---

(١) **أدلجوا** : ساروا من أوَّلِ الليلِ .

(٢) **الزقاقُ** : أوعيةُ الخمرِ . **أضغاثُ ريحانٍ** : جمعُ ضِغْثٍ ، والضغثُ : القبضةُ منهُ .

وَقَفْنَا بِهَا يَوْماً وَيَوْماً وَثَالِثاً ... وَيَوْماً لَهُ يَوْمُ التَّرَحُّلِ خَامِسُ
تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسْجَدِيَّةٍ ... حَبَتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ[1]
قَرَارَتُهَا كِسْرَىٰ وَفِي جَنَبَاتِهَا ... مَهاً تَدَّرِيها بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسُ[2]
فَلِلرَّاحِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا ... وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

وقدِ اختُلِفَ في مدَّةِ الإقامةِ المرادَةِ مِنَ البيتِ الثالث ، فقيلَ : سبعةُ أيَّامٍ ؛ لأنَّ اليومَ الذي يكونُ لَهُ يومَ الترحُّلِ خامساً هُوَ الرابعُ ، وقيلَ : خمسةٌ ، والمرادُ يومُ الترحُّلِ خامسَ الأيَّامِ ، وقد نُسِبَ إلى الرابعِ لالتصاقِهِ بهِ ، وسنتكلَّمُ علىٰ هاذهِ الأبياتِ فيما بعدُ .

[التعلل بآثار الحبيب لإطفاء ما في القلب من اللهيب . . سنَّة العرب]

أمَّا الآنَ : فسنبدأُ بما يناسِبُ البيتَ مِنَ التَّعلُّلِ بالآثارِ ، وزيارةِ الأطلالِ ، فما زالَتْ تلكَ سنَّةُ العرَبِ ، والحكمَةُ فيها أنَّهم معَ سلامَةِ الفطرَةِ ، ورقَّةِ الطبْعِ ، وغلبَةِ الحُبِّ ، وصدْقِ الهوىٰ ، وتمكُّنِ الأُلفَةِ . . كانوا رحَّالَةً في الأغلبِ ، ينتجعونَ كلَّ حينٍ غيثاً ، ويرتادونَ كلَّ وقتٍ شِعْباً ، فإذا جاءَ أَحبابُهم وقد تحمَّلوا . . عَكَفوا علىٰ آثارِهِم ، وتعلَّلُوا بما يتنسَّمونَ مِن روائِحِهم في آثارِهِم ، ويَجِدونَ في ذلكَ نوعاً مِنَ الوِصالِ ، ولِهاذا أكثروا في أشعارِهِم مِن ذِكرِ الأطلالِ والديارِ ، قالَ امرؤُ القيسِ [في « ديوانهِ » ١٤٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَىٰ حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَىٰ بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ[3]

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٧٢] : [مِنَ السَّريعِ]

صُمَّ صَدَاهَا وَعَفَا رَسْمُهَا ... وَاسْتَعْجَمَتْ مِنْ مَنْطِقِ السَّائِلِ

وقالَ حميدُ بنُ ثورٍ [في « ديوانهِ » ٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

سَلِ الرَّبْعَ أَنَّىٰ يَمَّمَتْ أُمُّ سَالِمٍ ... وَهَلْ عَادَةٌ لِلرَّبْعِ أَنْ يَتَكَلَّمَا ؟!

وقالَ أعشىٰ وائِلٍ [في « ديوانهِ » ٢٨٣] : [مِنَ الخفيفِ]

مَا بُكَاءُ الْكَبِيرِ بِالأَطْلَالِ ... وَسُؤَالِي وَمَا تُجِيبُ سُؤَالِي

وقالَ النابغَةُ [الذبيانيُّ في « ديوانهِ » ٢٣٣] : [مِنَ البسيطِ]

وَاسْتَعْجَمَتْ دَارُ نُعْمٍ مَا تُكَلِّمُنَا ... وَالدَّارُ لَوْ كَلَّمَتْنَا ذَاتُ أَخْبَارِ

وقالَ بعضُ العربِ : [مِنَ الطَّويلِ]

يَقَرُّ لِعَيْنِي أَنْ أَرَىٰ مِنْ مَكَانِهَا ... ذُرَىٰ عُقُدَاتِ الأَبْرَقِ الْمُتَقَاوِدِ
وَأَنْ أَرِدَ الْمَاءَ الَّذِي شَرِبَتْ بِهِ ... سُلَيْمَىٰ إذا مَلَّ السُّرَىٰ كُلُّ وَاحِدِ
وَأُلْصِقَ أَحْشَائِي بِبَرْدِ تُرَابِهِ ... وَإِنْ كَانَ مَمْزُوجاً بِسُمِّ الأَسَاوِدِ

---

(١) عسجديَّةٌ : ذهبيَّةٌ .
(٢) تدَّريها : تختِلُها لتصطادَها مِن دونِ أنْ تشعرَ .
(٣) سقطُ اللِّوىٰ : اسمُ موضعٍ ، وكذلك الدخول وحومل .



وقالَ الصِّمَّةُ بنُ عبدِ اللهِ القُشيريُّ [في « ديوانهِ » ٧٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَمَّا نَـزَلْنَـا شِيحَـةَ الـرَّمْـلِ أَعْـرَضَـتْ ... وَلاَحَـتْ لَنَـا حُـزْوَىٰ وَأَعْـلاَمُهَـا الْغُبْـرُ

شَـرِبْنَـا بِمَـاءِ الشَّـوْقِ حَتَّـىٰ كَـأَنَّمَـا ... سَـرَتْ فَـاسْتَقَـرَّتْ فِـي مَفَـاصِلِنَـا الْخَمْـرُ

وَظَـلَّ بِعَيْنَيْـكَ اللَّجُـوجَيْـنِ وَاكِـفٌ ... مِـنَ الـدَّمْـعِ أَنْ لا يَنْطِـقَ الطَّلَـلُ الْقَفْـرُ

عَلاَمَ تَقُولُ الْهَجْرُ يَشْفِي مِنَ الْجَوَىٰ ؟! ... أَلاَ لاَ وَلَكِـــنْ أَوَّلُ الْكَمَـــدِ الْهَجْـــرُ

وقالَ بعضُ أَهلِ الجاهليَّةِ [في « طبقات ابن السبكي » ٣/٣١٨] : [مِنَ الوافرِ]

أَمُـــرُّ عَلَـــى الـــدِّيَـــارِ دِيَـــارِ لَيْلَـــىٰ ... أُقَبِّـــلُ ذَا الْجِـــدَارَ وَذَا الْجِـــدَارَا

وَمَـــا حُـــبُّ الـــدِّيَـــارِ شَغَفْـــنَ قَلْبِـــي ... وَلَكِـــنْ حُـــبُّ مَـــنْ سَكَـــنَ الـــدِّيَـــارَا

وقالَ أَبو حيَّةَ [في « ديوانهِ » ١٠٠ـ١٠١] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ حَـيِّ مِـنْ أَجْـلِ الْحَبِيـبِ الْمَغَـانِيَـا ... لَبِسْـنَ الْبِلَـىٰ مِمَّـا لَبِسْـنَ اللَّيَـالِيَـا

إِذَا مَـا تَقَـاضَـى الْمَـرْءَ يَـوْمٌ وَلَيْلَـةٌ ... تَقَـاضَـاهُ شَـيْءٌ لاَ يَمَـلُّ التَّقَـاضِيَـا

وقالَ آخرُ مِنَ العَرَبِ [في « ديوان الحماسة » ٢/١١٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَرَىٰ كُـلَّ أَرْضٍ أَوْطَنْتَهَـا وَإِنْ خَلَـتْ ... لَهَـا حِجَـجٌ يَنْـدَىٰ بِمِسْـكٍ تُـرَابُهَـا

وخيرُ ما في البابِ على الإِطلاقِ قولُ كُثيِّرِ عزَّةَ [في « ديوانهِ » ٩٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

خَلِيلَـيَّ هَـٰذَا رَبْـعُ عَـزَّةَ فَـاعْقِـلاَ ... قَلُـوصَيْكُمَـا ثُـمَّ احْلُـلاَ حَيْـثُ حَلَّـتِ

وَمُسَّـا تُـرَاباً طَـالَمَـا مَـسَّ جِلْـدَهَـا ... وَبِيتَـا وَظَـلاً حَيْـثُ بَـاتَـتْ وَظَلَّـتِ

وَلاَ تَيْـأَسَـا أَنْ يَقْبَـلَ اللهُ مِنْكُمَـا ... إِذَا أَنْتُمَـا صَلَّيْتُمَـا حَيْـثُ صَلَّـتِ

وما سبق أَوائِلَ المجلسِ التاسع من قولِ بعضِهم [وهو البحتري كما في « المثل السائر » ٢/ ٢٩١] : [مِنَ الخفيفِ]

قِـفْ مَشُـوقـاً أَوْ مُسْعِـداً أَوْ حَـزِينـاً ... أَوْ مُعِينـاً أَوْ عَـاذِراً أَوْ عَـذُولاَ

وقالَ العكوَّكُ : [مِنَ البسيطِ]

خَلَّفْتِنِـي نِضْـوَ أَحْـزَانٍ أُعَـالِجُهَـا ... بِـالْجَـزْعِ أَنْـدُبُ فِـي أَنْضَـاءِ أَطْـلاَلِ

وقالَ ذو الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٤٥١ـ١٤٥٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

قِـفِ الْعِيسَ فِـي أَطْـلاَلِ مَيَّـةَ وَاسْـأَلِ ... رُسُـومـاً كَـأَخْـلاَقِ الـرِّدَاءِ الْمُسَلْسَـلِ

وَمَـا يَـوْمُ حُـزْوَىٰ إِنْ بَكَيْـتُ صَبَـابَـةً ... لِعِـرْفَـانِ رَبْـعٍ أَوْ لِعِـرْفَـانِ مَنْـزِلِ[(١)]

بِـأَوَّلِ مَـا هَـاجَـتْ لَـكَ الشَّـوْقَ دِمْنَـةٌ ... بِـأَجْـرَعَ مِقْفَـارٍ مُـرِبٍّ مُحَلَّـلِ[(٢)]

---

(١) **حُزوىٰ** : موضعٌ بالباديةِ .

(٢) **الدِّمنة** : آثارُ الناسِ وأطلالُهم . **الأَجرعُ** : الكثيبُ الليِّنُ . **المقفارُ** : الخالي من الأمكنةِ . **مُربٌّ محلَّلٌ** : يرُبُّ الناسَ ويجمعُهم .

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٧١١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا استَحْلَبَـتْ عَيْنَيْـكَ إلاَّ مَحَلَّـةٌ ... بِجُمْهُـورِ حُـزْوَىٰ أَوْ بِجَـرْعَـاءِ مَـالِـكِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٨٢١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَفْـتُ عَلَـىٰ رَبْـعٍ لِمَيَّـةَ نَـاقَتِـي ... فَمَـا زِلْـتُ أَبْكِـي عِنْـدَهُ وَأُخَـاطِبُـهْ

وَأَسْقِيــهِ حَتَّـىٰ كَـادَ مِمَّـا أَبُثُّـهُ ... تُكَلِّمُنِـي أَحْجَـارُهُ وَمَـلاَعِبُـهْ

ويروىٰ [في « الأغاني » ١/ ٦١] : أَنَّ الوليدَ استقدَمَ معبداً على البريد ، وأَمَرَهُ أَن يغنِّيه بهٰذِهِ الأَبياتِ : [مِنَ الكاملِ]

يَـا رَبْـعُ مَـا لَـكَ لاَ تُجِيـبُ مُتَيَّمَـا ؟ ... قَـدْ عَـاجَ نَحْـوَكَ زَائِـراً وَمُسَلِّمَـا

جَـادَتْـكَ كُـلُّ سَحَـابَـةٍ هَطَّـالَـةٍ ... حَتَّـىٰ تُـرَىٰ عَـنْ زَهْـرَةٍ مُتَبَسِّمَـا

لَـوْ كُنْـتَ تَـدْرِي مَـنْ دَعَـاكَ أَجَبْتَـهُ ... وَبَكَيْـتَ مِـنْ حُـرَقٍ عَلَيْـهِ إِذاً دَمَـا

فغنَّاهُ ، ووصلَهُ بعشرةِ آلافِ دينارٍ[(١)] ، وردَّهُ إلى (المدينَةِ) من وقتِهِ .

وقالَ أبو تمَّام [في « ديوانهِ » ١/ ٣٢١] : [مِنَ الكاملِ]

لاَ أَنْـتَ أَنْـتَ وَلا الـدِّيَـارُ دِيَـارُ ... خَـفَّ النَّـوىٰ وَتَقَضَّـتِ الأَوْطَـارُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٢٧١] : [مِنَ الطَّويلِ]

قِفُـوا جَـدِّدُوا مِـنْ عَهْـدِكُـمْ بِـالْمَعَـاهِـدِ ... وَإِنْ لَـمْ تَكُـنْ تَسْمَـعْ لِنِشْـدَانِ نَـاشِـدِ[(٢)]

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٨١] : [مِنَ الوافرِ]

أَظُـنُّ الـدَّمْـعَ فِـي خَـدِّي سَيَبْقَـىٰ ... رُسُـومـاً مِـنْ بُكَـائِـي فِـي الـرُّسُـومِ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانهِ » ٣/ ٢٠٠٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَعَـنْ سَفَـهٍ يَـوْمَ الأُبَيْـرِقِ أَمْ حِلْـمِ ... وُقُـوفٌ بِـرَبْـعٍ أَوْ بُكَـاءٌ عَلَـىٰ رَسْـمِ[(٣)] ؟

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٤٦] : [مِنَ الكاملِ]

تَـأْبَـى الْمَنَـازِلُ أَنْ تُجِيـبَ وَمِـنْ جَـوىً ... يَـوْمَ الْفِـرَاقِ دَعَـوْتُ غَيْـرَ مُجِيـبِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٩٢٣ـ١٩٢٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا شِئْـتُ أُجْـرِي أَدْمُعِـي مِـنْ شُـؤُونِهَـا ... رُبُـوعٌ لَهَـا بِـالأَبْـرَقَيْـنِ وَأَرْسُـمُ

وَقَفْـتُ بِهَـا وَالـرَّكْـبُ شَتَّـىٰ سَبِيلُهُـمْ ... يُفِيضُـونَ ، مِنْهُـمْ : عَـاذِرُونَ وَلُـوَّمُ

هِـيَ الـدَّارُ إِلاَّ أَنَّهَـا لاَ تَكَلَّـمُ ... عَفَـا مَعْلَـمٌ مِنْهَـا وَأَقْفَـرَ مَعْلَـمُ[(٤)]

---

(١) وفي « الأغاني » (١/ ٦١) خمسة عشر ألفاً .

(٢) المعاهد : المنازلُ يُرجَعُ إليها بعدَ فراقِها .

(٣) الأُبيرقُ : موضعٌ .

(٤) المَعْلَمُ : ما يُستدلُّ بهِ على الطريقِ . عَفَا : انمحىٰ وذهبَ . أَقْفَرَ : خلا .

تُقَيِّضُ لِي ـ مِنْ حَيْثُ لاَ أَعلَمُ ـ النَّوَىٰ وَيَسْرِي إِلَيَّ الشَّوْقُ مِنْ حَيْثُ أَعْلَمُ

وقالَ أَبو هنَّانَ [في « خزانة الأدب » ٢/ ٣٩١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَوْ لَمْ تُصَافِحْ رِجْلُهَا صَفْحَةَ الثَّرَىٰ لَمَا كُنْتُ أَدْرِي عِلَّةً لِلتَّيَمُّمِ

وقد أَغارَ علىٰ هٰذا شيخُنا أَبو بكرِ ابنُ شهابٍ في رثائِهِ لسيِّدِنا الحسينِ .

وأَوَّلُ من بكىٰ على الآثارِ رجلٌ مِنَ العربِ ، يقالُ لَهُ : ابنُ حِذامٍ ، بشهادةِ قولِ امرىءِ القيسِ [في « ديوانه » ٢٠٠] :

[مِنَ الكاملِ]

عُوجَا عَلَى الطَّلَلِ الْمُحِيلِ لَعَلَّنَا نَبْكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابْنُ حِذَامِ[1]

وقد تكرَّرَ في « **ديوانِ الناظمِ** » ذكرُها ، والبكاءُ عليها ، والاستشْفاءُ بِها ، والوقوفُ عندَها ، **فقالَ** [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٣٢٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

بَلِيتُ بِلَى الأَطْلاَلِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فِي التُّرْبِ خَاتَمُهْ

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٧٧] : [مِنَ البسيطِ]

بَكَيْتُ يَا رَبْعُ حَتَّىٰ كِدْتُ أَبْكِيكَا وَجُدْتُ بِي وَبِدَمْعِي فِي مَغَانِيكَا[2]

فَعِمْ صَبَاحاً فَقَدْ هَيَّجْتَ لِي شَجَناً وَارْدُدْ تَحِيَّتَنَا إِنَّا مُحَيُّوكَا

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٩٢] : [مِنَ الخفيفِ]

قِفْ عَلَى الدِّمْنَتَيْنِ بِالدَّوِّ مِنْ رَيَّا كَخَالٍ فِي وَجْنَةٍ جَنْبَ خَالِ

بِطُلُولٍ كَأَنَّهُنَّ نُجُومٌ فِي عِرَاصٍ كَأَنَّهُنَّ لَيَالِي

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٦ ـ ٧] : [مِنَ الكاملِ]

ذِكْرُ الصِّبَا وَمَرَابِعُ الآرَامِ جَلَبَتْ حِمَامِي قَبْلَ وَقْتِ حِمَامِي

دِمَنٌ تَكَاثَرَتِ الْهُمُومُ عَلَيَّ فِي عَرَصَاتِهَا كَتَكَاثُرِ اللُّوَّامِ

وَكَأَنَّ كُلَّ سَحَابَةٍ وَكَفَتْ بِهَا تَبْكِي بِعَيْنَيْ عُرْوَةَ بْنِ حِزَامِ[3]

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠] : [مِنَ الكاملِ]

أَثْلِثْ فَإِنَّا أَيُّهَا الطَّلَلُ نَبْكِي وَتُرْزِمُ تَحْتَنَا الإِبِلُ[4]

لَوْ كُنْتَ تَنْطِقُ قُلْتَ مُعْتَذِراً بِي غَيْرُ مَا بِكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ

---

(١) قيل لأبي عبيدةَ : هل قالَ أحدٌ الشعرَ قبلَ امرىءِ القيسِ ؟ قال : نعم ، قدم علينا رجالٌ من باديةِ بني جعفرِ بن كلابٍ فكنَّا نأتيهم فنكتبُ عنهم ، فقالوا : من ابن خدام ؟ قلنا : ما سمعنا به! قالوا : بلىٰ قد سمعنا به ورجونا أن يكونَ عندكم منهُ علمٌ ؛ لأنكم أهلُ أمصارٍ ، ولقد بكىٰ في الرملِ قبل امرىءِ القيسِ ، وقد ذكرهُ في شعرهِ حيث يقول : وأنشدوا بيتهُ . وابن حِذَامٍ وخِدامٍ وخَذَامٍ واحدٌ .

(٢) **المغاني** : جمعُ مغنىً ، وهوَ المنزلُ الذي كانَ بهِ أهلُهُ .

(٣) **عروة بن حزام** : هو صاحب عفراء ، وهو أحد العشاق المشهورين ؛ **والمعنىٰ** : أن كثرة الأمطار التي أشبهت دموع هٰذا العاشق أذهبت آثار الديار .

(٤) **الإرزامُ** : حنينُ الإبلِ .

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٥٠] :   [مِنَ الوافرِ]

أُسَـائِلُهَـا عَـنِ الْمُتَـدَيِّـرِيهَـا   فَمَـا تَـدْرِي وَلاَ تُـذْرِي دُمُـوعَـا

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٦٩] :   [مِنَ الطَّويلِ]

مَـرَرْتُ عَلَـىٰ دَارِ الْحَبِيـبِ فَحَمْحَمَـتْ   جَوَادِي وَهَلْ تُشْجِي الْجِيَادَ الْمَعَاهِدُ[1] ؟

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١١١] :   [مِنَ الطَّويلِ]

وَدُسْنَـا بِـأَخْفَـافِ الْمَطِـيِّ تُـرَابَهَـا   فَمَـا زِلْـتُ أَسْتَشْفِـي بِلَثْـمِ الْمَنَـاسِـمِ[2]

وهـٰذا شبيهٌ بقولِهِ مِنَ الأُخرىٰ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٩٧] :   [مِنَ الخفيفِ]

فَخُـذَا مَـاءَ رِجْلِـهِ وَانْضَحَـا فِـي الْـ   ـمُـدْنِ تَـأْمَـنْ بَـوَائِـقَ الـزِّلْـزَالِ
وَامْسَحَـا ثَـوْبَـهُ الْبَقِيـرَ عَلَـىٰ دَا   ئِكُمَـا تُشْفَيَـا مِـنَ الأَعْـلاَلِ[3]

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٥٦ ـ ٥٧] :   [مِنَ الطَّويلِ]

وَكَيْـفَ عَـرَفْنَـا رَسْـمَ مَـنْ لَـمْ يَـدَعْ لَنَـا   فُـؤَاداً لِعِـرْفَـانِ الـرُّسُـومِ وَلا لُبَّـا ؟
نَـزَلْنَـا عَـنِ الأَكْـوَارِ نَمْشِـي كَـرَامَـةً   لِمَـنْ بَـانَ عَنْـهُ أَنْ نُلِـمَّ بِـهِ رَكْبَـا[4]
نَـذُمُّ السَّحَـابَ الْغُـرَّ فِـي فِعْلِهَـا بِـهِ   وَنُعْـرِضُ عَنْهَـا كُلَّمَـا طَلَعَـتْ عَتْبَـا

وقولُهُ : (نَزَلْنَا عَنِ الأَكْوَارِ . . . إِلىٰ آخرِهِ) : مأْخوذٌ مِن صنيعِ إمامِ دارِ الهجرَةِ ، فقد رويَ أَنَّ الإمامَ الشافعيَّ كانَ عندَهُ ، فرأَىٰ علىٰ بابِهِ خيلاً وكراعاً أُهديَتْ لَهُ ، فجعلَ يحدُّ النظرَ إِليها ، ويكثرُ التأَمُّلَ ؛ استحساناً لَها ، واغتباطاً بها ، ولَمَّا عرفَ الإمامُ مالكٌ امتدادَ عينِهِ إِليها . . قالَ لَهُ : هِيَ كلُّها لكَ ، قالَ لَهُ : لَو أَبقيتَ لِنفسِكَ مِنها دابَّةً ، قالَ : أَستَحْيِي أَن أَطأَ تربةً سارَ فيها سيِّدُ البشرِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ بحافِرِ دابَّةٍ .

وتعلَّقَ بِهِ السريُّ الرفَّاء فأَحسنَ الاتِّباعَ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « ديوانهِ » ٣٤٨] :   [مِنَ الكاملِ]

حُيِّيْـتَ مِـنْ طَلَـلٍ أَجَـابَ دُثُـورُهُ   يَـوْمَ الْعَقِيـقِ سُـؤَالَ دَمْـعٍ سَـائِـلِ
نَحْفَـىٰ وَنَنْـزِلُ وَهْـوَ أَعْظَـمُ حُـرْمَـةً   مِـنْ أَنْ يُـذَالَ بِـرَاكِـبٍ أَوْ نَـاعِـلِ

وللهِ درُّ شيخِنا ابنِ شهابٍ إِذْ يقولُ عَن مدينَةِ (تريمَ) :   [مِنَ الطَّويلِ]

إِذا نَحْـنُ زُرْنَـاهَـا وَجَـدْنَـا تُـرَابَهَـا   يَفُـوحُ لَنَـا عَـنْ عَنْبَـرٍ مُتَنَفِّـسِ
وَنَمْشِـي حُفَـاةً فِـي ثَـرَاهَـا تَـأَدُّبـاً   نَـرَىٰ أَنَّنَـا نَمْشِـي بِـوَادٍ مُقَـدَّسِ

---

(١) **الحَمحمةُ** : دونَ الصهيلِ . **الجوادُ** : الفرسُ الذكرُ والأُنثىٰ .
(٢) **المَنْسِمُ** : الخُفُّ .
(٣) **البقيرُ** : ثوبٌ لا كُمَّ له ، وهو الذي يلبسُهُ الصبيانُ ، ويُلبَسُ للأموات عندَ التكفين .
(٤) **الأكوار** : جمعُ كُورٍ ، وهو رحلُ الناقةِ .

ومرَّ بعضُ ما يتَّصِلُ بهِ أَواخِرَ المجلسِ الثاني في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٠١] : [مِنَ المنسرحِ]

لاَ نَــاقَتِــي تَقْبَــلُ الــرَّدِيــفَ وَلاَ بِــالسَّــوْطِ يَــوْمَ الــرِّهَــانِ أُجْهِــدُهَــا

وقالَ المعريُّ [في « سقطِ الزندِ » ٦٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَمُــرُّ بِــرَبْــعٍ كُنْــتَ فِيــهِ كَــأَنَّمَــا أَمُــرُّ مِــنَ الإِكْــرَامِ بِـالْحِجْـرِ وَالــرُّكْــنِ

وقالَ الإمامُ الشِّبْليُّ [في « نفحِ الطِّيبِ » ١/ ٤١ـ٤٢] : [مِنَ الخفيفِ]

قُلْــتُ لِلْقَلْــبِ مُــذْ تَــرَاءَىٰ لِعَيْنِــي رَسْــمُ آثَــارِهِــمْ فَهَــاجَ اشْتِيَــاقِــي
هَـٰـذِهِ دَارُهُــمْ وَأَنْــتَ مُحِــبٌّ مَــا بَقَــاءُ الــدُّمُــوعِ فِــي الآمَــاقِ
فَــالْمَغَــانِــي لِلْصَــبِّ فِيهَــا مَعَــانٍ وَهْــيَ تُــدْعَــىٰ مَصَــارِعَ الْعُشَّــاقِ
حُــلَّ عَقْــدَ الــدُّمُــوعِ وَاحْلُــلْ رُبَــاهَــا وَاتْــرُكِ الصَّبْــرَ وَاقْــضِ حَــقَّ الْفِــرَاقِ

وقالَ بعضُ شعراءِ الأندلُسِ [وهو محمد بن سفر كما في « نفح الطيب » ٣/ ٢١١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَجَاءَتْ كَمَا يَمْشِي سَنَا الصُّبْحِ فِي الدُّجَىٰ وَطَــوْراً كَمَــا يَمْشِــي النَّسِيــمُ عَلَــى النَّهْــرِ
فَتَــابَعْــتُ بِــالتَّقْبِيــلِ آثَــارَ مَشْيِهَــا كَمَــا يَتَقَصَّــىٰ كَــاتِــبٌ أَحْــرُفَ السَّطْــرِ

وما أَحسنَ قولَ بعضِ المتأَخِّرينَ ! : [مِنَ الطَّويلِ]

بَكَــى النَّــاسُ أَطْــلاَلَ الــدِّيَــارِ وَلَيْتَنِــي وَجَــدْتُ دِيَــاراً لِلــدُّمُــوعِ السَّــوَاكِــبِ

وهوَ مِن قولِ عبدِ المحسنِ الصوريِّ : [مِنَ الطَّويلِ]

رَهِينَــةُ أَحْجَــارٍ بِبَيْــدَاءَ دَكْــدَكٍ تَــوَلَّــتْ فَحَلَّــتْ عُــرْوَةَ الْمُتَهَتِّــكِ(١)
وَقَــدْ كُنْــتُ أَبْكِــي إِنْ تَشَكَّــتْ وَإِنَّمَــا أَنَــا الْيَــوْمَ أَبْكِــي أَنَّهَــا لَيْــسَ تَشْتَكِــي

وقد لاذَ فيهِ بقولِ الناظمِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ١٤] : [مِنَ الكاملِ]

وَشَكِيَّتِــي فَقْــدُ السَّقَــامِ لأَنَّــهُ قَــدْ كَــانَ لَمَّــا كَــانَ لِــي أَعْضَــاءُ

[شدة احترام السلطان عبد الحميد لآثار النبي صلى الله عليه وسلم]

ويُعجبُني ما أَخبرني بهِ السيِّدُ الثقةُ عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ طاهرٍ ، عَنِ السُّلطانِ عبدِ الحميدِ : أَنَّهُ كانَ عندَهُ فردُ نعلٍ مِن نِعالِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ ، فذُكِرَتْ لَهُ أُختُها عندَ رجلٍ مِن أَهلِ (المغربِ) ، فَثامَنَهُ بها حتَّى استقرَّ الثمنُ ، وتمَّ الكلامُ علىٰ ما يتمنَّاهُ البائعُ ، فأَرسَلَ لَهُ عِدَّةَ مراكِبَ ، ولمَّا جاءَ . . استقبلَهُ في موكبِهِ الضخمِ الفخمِ الشائقِ ، حافيَ القدَمِ ، حاسِرَ الرأْسِ ، وقد فرشَ الطريقَ بالسجادِ ، فقيلَ لَهُ : إِنَّكَ لم تتحقَّقْ صِحَّةَ النسبةِ بعدُ ، فقالَ : قد قيلَ : إِنَّها نعلُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ ، وحاشىٰ أَنْ أَستقبِلَ ما نُسِبَ إِليهِ إِلاَّ علىٰ أَبلغِ ما يكونُ من شاراتِ الإِجْلالِ والتعْظيمِ .

---

(١) **الدكدكُ** : الرملُ المتلبِّدُ .

لم لا أدري ، هَلْ كانَت حَذْوَ التي عندَهُ فتمَّ البيْعُ ، أَمْ لا .

وحسبُكَ أَنَّ جِلدَ المصحَفِ يحرمُ مسُّهُ مَعَ الحدثِ ، ويبقىٰ لَهُ شرفُهُ حتَّىٰ بعدَ الانفصالِ ، علىٰ خلافٍ ليسَ هٰذا موضِعَ ذكرِهِ ، وقد وفَّينا مبحثَ الآثارِ والتبرُّكِ بِها حقَّهُ في كتابِنا : « **بَلابِل التَّغْرِيد** » .

[كيفية شرب الخمر وجلساتها]

أمَّا قولُ أَبي نواسٍ السابقُ : (قَرارَتُها كِسْرَىٰ . . . إِلىٰ آخرِ البيتين) . . فمعناهُ : أَنَّ في قرارةِ الكأْسِ صورةَ كسرىٰ ، وأَنَّ في جوانبِها صوَرَ بقرٍ وحشيَّةٍ مِن جهَةٍ ، وصوَرَ فرسانٍ تصوِّبُ قِسِيَّهَا إِلىٰ تلكَ البقرِ في الجهَةِ الأُخرىٰ ، وأَنَّ صِرفَ الرَاحِ يبلغُ إِلىٰ جيوبِ الفرسانِ ، وأَنَّ الماءَ الذي يرادُ للمزجِ بمقدارِ ما يواري رؤُوسَهم ، وقد سبقَ إِلىٰ بعضِ ذلكَ الملِكُ الضِّلِّيلُ [امرؤُ القيسِ] في قولِهِ [في « ديوانهِ »] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلَمَّا اسْتَطَابُوا صُبَّ فِي الْكَأْسِ نِصْفُهُ ... وَجَـاؤُوا بِمَـاءٍ لاَ بِطَـرْقٍ وَلاَ كَـدْرِ

وَلَنا أَنْ نتساءَلَ : أَيُّ الشيخينِ أَكبرُ حالاً ، وأَبعدُ همَّةً ؟ أَأَبو مدينَ في قولِهِ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَدِرْهَـا لَنَـا صِـرْفـاً وَدَعْ مَـزْجَهَـا عَنَّـا ... فَـإِنَّـا أُنَـاسٌ لاَ نَـرَى الْمَـزْجَ مُـذْ كُنَّـا

أَمْ سلطانُ العاشقينَ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ١٤٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَدِرْهَـا لَنَـا صِـرْفـاً وَإِنْ شِئْـتَ مَـزْجَهَـا ... فَعَـدْلُـكَ عَـنْ ظَلْـمِ الْحَبِيـبِ هُـوَ الظُّلْـمُ

فللإِحْتِمالاتِ مَجالٌ ، ولكلِّ مقامٍ رجالٌ ، فلنقِفْ عندَ الحدِّ ، وَلْنَرْبَعْ على الضِّلَعِ ، وَلْنَتَأَخَّرْ حيثُ أَخَّرَنا القدرُ ، أَمَّا الباري جلَّ شأْنُهُ : فقد أَخبرَ بأَنَّ المقرَّبينَ يشربونَ سِلافَها صِرفاً ، وأَنَّ الأَبرارَ يتناولونَها مزيجَةً ، فقالَ تقدَّسَتْ أَسماؤُهُ :

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسان : ٥ـ٦] .

وقالَ : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ * وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين : ٢٢ـ٢٨] .

ومن المطربِ ـ فيما يتعلَّقُ بأَبياتِ أَبي نُواسٍ ـ قولُ بعضِ شعراءِ الأَندلُسِ [وهو غالب بن رباح كما في « نفح الطيب » ٣/ ٤٠٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكَـأْسٍ يُـرَىٰ كِسْـرَىٰ بِهَـا فِـي قَـرارَةٍ ... غَـرِيقـاً وَلَكِـنْ فِـي زُلاَلٍ مِـنَ الْخَمْـرِ

وَمَـا صَـوَّرَتْـهُ الْفُـرْسُ عَـنْ عَبَـثٍ بِهَـا ... وَلَكِـنْ لِمَعْنـىً فِيـهِ أَخْفَـىٰ مِـنَ السِّحْـرِ

أَرَادُوا لَـهُ مَـا اعْتَـادَهُ فِـي حَيَـاتِـهِ ... فَنُـومِـي إِلَيْـهِ بِـالسُّجُـودِ وَلاَ نَـدْرِي

وقالَ أَبو نواسٍ [في « ديوانهِ » ٥٢٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

بَنَيْنَـا عَلَـىٰ كِسْـرَىٰ سَمَـاءَ مُـدَامَـةٍ ... مَكَلَّلَـةٍ حَـافَـاتُهَـا بِنُجُـومِ[1]

فَلَـوْ رُدَّ فِـي كِسْـرَىٰ بْـنِ سَـاسَانَ رُوحُـهُ ... إِذاً لاصْطَفَـانِـي دُونَ كُـلِّ نَـدِيـمِ

---

(١) المرادُ بالنجومِ : الفقاقيعُ التي تعلو الكأْسَ .

وممَّا يُعزىٰ إليهِ [كما في « خزانة الأدب » ١/ ٣٩٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَحَمْـرَاءَ قَبْـلَ الـمَـزْجِ صَفْـرَاءَ بَعْـدَهُ ... أَتَـتْ بَيْـنَ ثَـوْبَـيْ نَـرْجِـسٍ وَشَقَـائِـقِ
حَكَتْ وَجْنَةَ الْمَعْشُوقِ صِرْفاً فَسَلَّطُوا ... علَيْهَـا مِـزَاجـاً فَـاكْتَسَـتْ لَـوْنَ عـاشِـقِ

والأَكثرُ يعزونَها إلى ابنِ دريدٍ ، ولبعضِهم فيها منامٌ طويلٌ ، حاصلُهُ [بنحوه في « وفيات الأعيان » ٤/ ٣٢٧] : أَنَّ بعضَهم انتقدَ فيهِ علىٰ قائِلِها التشويشَ[1] ؛ إذ قدَّمَ الحمرةَ على الصفرةِ أَوَّلاً ، ثمَّ قدَّمَ الصفرةَ على الحمرةِ في ذكرِ النرجسِ قبلَ الشقائقِ ، وأَنَّ قائِلَها قالَ للمعترِضِ : إلىٰ هـٰذا الحدِّ تحاسِبُني يا بغيضُ ؟

وقالَ السريُّ الرَّفَّاءُ [في « ديوانه » ٣٣١] : [مِنَ الطَّويلِ]

ومَـوْسُـومَـةٍ كَـاسَـاتُهَـا بِفَـوَارِسٍ ... مِنَ الْفُرْسِ تَطْفُـو فِـي الْمُدَامِ وَتَغْـرَقُ
أُقَبِّـلُ مِنْـهُ كُـلَّ شَـاكٍ سِـلاَحَـهُ ... وَفِـي يَـدِهِ سَهْـمٌ إِلَـيَّ مُفَـوَّقُ

[وصف المؤلف لمجالس شرب الشاي]

وقد سبقَ في المجلسِ التاسعِ بعضُ ما يتعلَّقُ بالرَّاحِ ، ولأَهلِ بلادِنا ولَعٌ شديدٌ بشربِ الشايِ ، وتأَنُّقٌ كثيرٌ في طبخِهِ وإدارتِهِ ، وأَنا وإِنْ كنْتُ لا أُحبُّهُ . . فإِنَّني أُجاريهم في استعمالِهِ ، وأَنبسطُ كثيراً بمجلسِهِ ، ولي فيهِ عدةُ مقاطيعَ ؛ إذ قلَّ ما يُقترَحُ عليَّ في وصفِهِ إلاَّ بادرْتُ بِمَا يفتحُ اللهُ بهِ ، فمِنْ ذلكَ قَولي في صفةِ يومٍ غامَتْ شَمْسُهُ ، وذهَبَ نحسُهُ ، وطابَ لَنا علىٰ طبخِهِ أُنْسُهُ [في « ديوانِ المؤلف » ٣٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

ويَـوْمٍ كَـإِبْهَـامِ الْحُبَـارَىٰ مِـنَ الأُنْـسِ ... قَضَيْتُ بِهِ فِي الطِّيبِ مَا تَشْتَهِي نَفسِي[2]
عَلَىٰ قَهْـوَةٍ تَنْفِـي الْهُمُـومَ وَتَجْلِـبُ السُّـ ... ـرُورَ وَلاَ تَجْنِـي عَلَـى الْعَقْـلِ وَالْحِسِّ
لَهَـا صَبْغَـةٌ مِـنْ عَنْـدَمٍ قَبْـلَ مَـزْجِهَـا ... بِمَـاءٍ وَبَعْـدَ الْمَـزْجِ صَفْـرَاءُ كَـالْـوَرْسِ[3]
زُجَـاجَـاتُهَـا كَـالْمَـاءِ صَفْـواً وَرِقَّـةً ... وَلُطْفـاً أَتَـتْ مِـنْ صَنْعَـةِ الـرُّومِ وَالْفُـرْسِ
تَشُـقُّ عَجَـاجَ الْمُـوجِعَـاتِ بِـأَدْهَـمٍ ... وَوَرْدٍ يُطَـارِدْنَ الْكُـرُوبَ فَـلاَ تُمْسِـي
وَمِـنْ لَبَـنٍ حِينـاً يَكُـونُ مِـزَاجُهَـا ... لَـهُ رَغْـوَةٌ مِثْـلَ النَّـدِيـفِ مِـنَ الْبُـرْسِ[4]
عَلَـى الْيُمْـنِ وَالإِقْبَـالِ فِـي ظِـلِّ رَوْضَـةٍ ... وَعَيْنِـي مِـنَ النُّـدْمَـانِ فِيهَـا إِلَـىٰ خَمْـسِ
كِتَـابٍ وَبُسْتَـانٍ وَكَـأْسٍ وَقَيْنَـةٍ ... وَسَيِّـدَةٍ مِـن دُونِهَـا طَلْعَـةُ الشَّمْـسِ

ومنهُ في يومٍ قضيناه غِبَّ سماءٍ في روضَةٍ مِن النخْلِ دانيةِ الجَنَىٰ [في « ديوان المؤلف » ق ١٨٤] : [مِنَ الخفيفِ]

فِـي مَـرَاحِ الصِّبَـا وَمَـرعَـى الأَمَـانِـي ... وابتِسَـامِ الْهَـوَىٰ وَطِيـبِ الـزَّمَـانِ
هَـاتِهَـا تَطْـرُدُ الهُمُـومَ وَتَسْتَـدْ ... عِـي الْمَسَـرَّاتِ وَرْدَةً كَـالـدِّهَـانِ

---

(١) التَّشويشُ : التَّخليطُ ، لكنْ قالَ في « القاموس » : والتَّشويشُ والمشوَّشُ والتشوُّشُ كلُّها لحنٌ ووهمٌ ، الجوهريُّ : والصَّوابُ التَّهويشُ . اهـ . ولذا قال في « المعجَم الوسيط » : التَّشويشُ : التَّخليطُ ، وقيلَ : التَّشويشُ مِنْ كلامِ المولَّدينَ . .

(٢) إبهامُ الحبارىٰ : كنايةٌ عَن قِصَرِ الوقتِ .

(٣) العندمُ : الدمُ . الورسُ : نبتٌ أصفرُ يكونُ في (اليمن) ، تُتَّخذُ منه طلاء للوجهِ .

(٤) البُرسُ : القطنُ .



فِي رِيَاضٍ مِنَ النَّخِيلِ تَلاَقَى الـ ... ـسَّمَاءُ فِيهَا مِنَ السَّمَا وَالسَّوَانِي[1]

بَاسِمَاتٍ ثُغُورُهَا تَتَبَارَىٰ ... فِي حَفِيفٍ مُعَبِّرٍ عَنْ تَهَانِي

تَمْلأُ الْعَيْنَ قُرَّةً بِاجْتِلاَهَا ... فِي جَنَاهَا كَحَالِيَاتِ الْغَوَانِي[2]

يُشْبِهُ الأَصْفَرُ الْمُنَاصِفُ مِنْهَا ... مَنْظَرَ الشَّايِ فِي انْتِصَافِ الدِّنَانِ

وَنُهُودُ الدُّمَى الْمُذَنَّبُ يَحْكِيـ ... ـهَا فَكَمْ مِنْ تَنَاسُبٍ وَافْتِنَانِ

وَتَكَادُ الْقُلُوبُ تَنْشَقُّ مِمَّا ... فِي تَدَلِّي قِنْوَانِهَا مِنْ حَنَانِ

هٰكَذَا الأُمَّهَاتُ يَفْعَلْنَ بِالأَبْـ ... ـنَاءِ فَالسِّرُّ غَيْرُ خَافِي الْمَعَانِي

كُلَّمَا حَرَّكَ النَّسِيمُ غُصُوناً ... زَادَ طِيباً أَرِيجُ تِلْكَ الْمَغَانِي

وَإِذَا حَاكَتِ الْمِيَاهُ نَسِيجاً ... يَتَلاشَى التَّأَنُّقُ الْخُسْرُوَانِي

طِبْنَ مَرأىً وَمَسْمَعاً وَمَذَاقاً ... وَخَيَالاً بِذِكْرَيَاتٍ حِسَانِ

مَلْعَبُ اللَّهْوِ مَسْقَطُ الرَّأْسِ مجْنَىٰ ... ثَمَرَاتِ النُّهَى الشَّهِيِّ الْمَجَانِي

مَهْبَطُ النُّورِ مَرْبَعُ الْحُورِ مَأْوَى السَّـ ... ـعْدِ مِنْ هَاشِمٍ سِبَاطِ البَنَانِ

سَادَةٌ يَمْلأُ الزَّمَانَ سَنَاهُمْ ... بَهجَةً مِنْ فُلاَنَةٍ وَفُلاَنِ

فَاسْقِنِيهَا بِغَيْرِ إِثْمٍ شَمُولاً ... تُطْلِقُ الْعَقْلَ فِي رَقِيقِ الأَوَانِي

بَيْنَ سِحْرٍ مِنَ الْحَدِيثِ حَلاَلٍ ... وأَغَارِيدِ بُلْبُلٍ وَأَغَانِي

صِرْفَةً أَوَّلاً وَلاَ بَأْسَ بِالْمَزْ ... جِ وَلاَ سِيَّمَا لِتَعْجِيلِ ثَانِي

هَاتِهَا مِنْ شَقَائِقٍ ثُمَّ إِنْ مَا ... لَتْ بِرَأْسِي فَمِنْ خُدُودِ القِيَانِ

إِنَّمَا الْعَيْشُ رَوْضَةٌ وَمُدَامٌ ... وَكَلاَمٌ عَلَىٰ بِسَاطِ الأَمَانِ

وَشِوَاءٌ بِجَنْبِهِ رُطَبٌ غَـ ... ـضٌّ لَذِيذٌ مُنَوَّعُ الأَلْوَانِ

وَإِذَا زَادَ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئاً ... فَدَلاَلُ الدُّمَىٰ وَشَجْوُ الْمَثَانِي

فِي صُعُودٍ مِنَ السُّعُودِ اخْتَلَسْنَا ... لَذَّةَ الْيَوْمِ مِنْ نَعِيمِ الجِنَانِ

ومنهُ أيضاً في صفةِ يومٍ آخرَ [في « ديوان المؤلف » ق ٣٧] : [مِنَ البسيطِ]

مَا كَادَ يَلْتَفُّ فِي ذَيْلِ الدُّجَى الْقَبَسُ ... إِلاَّ وَصَحْبِي إِلَىٰ حَيِّ الدُّمَىٰ لَبِسُوا

إِلَىٰ رِيَاضٍ قَدِ التَفَّتْ خَمَائِلُهَا ... يَكَادُ فِيهَا خَرِيقُ الرِّيحِ يَحْتَبِسُ

يُسَافِرُ الطَّرْفُ فِي أَقْطَارِهِنَّ عَلَىٰ ... تَأَشُّبٍ فَهُنَاكَ الضَّوْءُ وَالْغَلَسُ[3]

شَجْرَاءُ رَقَّتْ حَوَاشِيهَا وَزَيَّنَهَا ... زَهْرُ الرَّبِيعِ وَعَذْبُ الْمَاءِ يَنْبَجِسُ

---

(١) السواني : جمع سانية ، وهي آلة تستعمل لرفع الماء من منخفض بواسطة دابة تديرها ، وهي موجودة إلى الآن بريف (مصر) .

(٢) الحاليات : لابساتُ الحُلِيِّ .

(٣) التأشُّبُ : التجمُّعُ .

فَلِلْجَـدَاوِلِ فِـي حَـافَـاتِهَـا زَجَـلٌ ... وَلِلْفَـوَاخِـتِ فِـي أَفْنَـانِهَـا جَـرَسُ[1]
يَبْكِـي الْحَمَـامُ وَيَـرْفَـضُّ الْغَمَـامُ وَتُسْـ ... ـتَجْلَـى الْمُـدَامُ وَلاَ وَاشٍ وَلاَ حَـرَسُ
عَلَـى الأَغَـانِـي وَشَـيْءٍ مِـنْ خَصَـائِصِـهِ ... جَلْـبُ السُّـرُورِ وتَنْبِيـهِ الْهَـوَىٰ جَلَسُـوا
كَمَـا يُـذَابُ النُّضَـارُ الصِّـرْفُ رَوْنَقُـهُ ... وَلاَ صُـدَاعٌ وَلاَ إِثْـمٌ وَلاَ هَـوَسُ
يُـذْكِـي الْجَـوَىٰ بِلَهِيـبٍ فِـي الزُّجَـاجِ لَـهُ ... أَشِعَّـةٌ فِـي وُجُـوهِ الْقَـوْمِ تَنْعَكِـسُ
ظَلُّـوا عَلَيْـهِ نَشَـاوَىٰ وَالْكَـوَاعِـبُ يَسْـ ... ـحَبْـنَ الـذُّيُـولَ وَلَـمْ يَعْلَـقْ بِهِـمْ دَنَـسُ[2]
تَجْلَـى الْكُـؤُوسُ وَتَهْتَـزُّ النُّفُـوسُ وَإِنْ ... نَـالَ السُّـرُورُ وَقَـاراً بَيْنَهُـمْ حَمَسُـوا
مَيْـلٌ إِلَـىٰ كُـلِّ لَهْـوٍ فِيـهِ فَـائِـدَةٌ ... يَثْنِـي الْعِـدَا وَبِهِـمْ مِـنْ حِلِّـهِ خَـرَسُ
فِـي غَفْلَـةٍ مِـنْ زَمَـانِ الْمِحْنَـةِ اخْتَلَسُـوا ... سَحَـابَـةَ الْيَـوْمِ وَاللَّـذَّاتُ تُخْتَلَـسُ
فِـي مَرْبَـعِ النُّـورِ مَثْـوَى الْحُـورِ يَشْمَلُهُـمْ ... مَـعَ الْجَمَـالِ الَّـذِي يَسْبِـي النُّهَـى الْقُـدُسُ

وإنَّما أَطلتُ ببعضِ ما لي في الموضوعِ ؛ لأنِّي لَم أَرَ فيهِ ما توضَعُ عليهِ اليدُ سواهُ ، وما تركْتُ منهُ أكثرُ وأكثرُ ، ولَولا خشيةُ الإملالِ والإثقالِ . . لذكرْتُ أُرْجوزةً كانَ اقترحَها عليَّ والدي ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ سنةَ : (١٣١٩ هـ) في صفةِ يوم طابَ لَهُ فيهِ الأُنسُ ؛ ليمتحنَ شاعريَّتي ، فكنْتُ عندَ ظنِّهِ ، وقرَّةَ عينِهِ ، وإنَّما وددتُ ذكرَها ، وإن لم تكُن هناكَ ، بلْ كما شاءَتِ الحداثةُ والبَديهَةُ ؛ لِما تبعَثُ لي مِنَ الذِّكرياتِ ؛ ولِما استوجبتُ بِها من صالحِ الدعواتِ ، التي أكبرُ ظَنِّي بها أَن تكونَ قد لا مستْ سماءَ القَبولِ .

[تفنن أهل اليمن في استعمال الشاي]

وبعدُ : فقد أَفضىٰ بأَهلِ بلادِنا الافتنانُ في استعمالِ الشايِ ، والتأنُّق فيهِ ، إِلى الاختلافِ في كيفيَّةِ صبِّهِ ، فاختارَ بعضُهُم أَن يكونَ إِلىٰ نصفِ الكأسِ ، وأَنْ يبقىٰ أَعلاهُ فارغاً ، وفي ذلكَ يقولُ شاعرُهُم : [مِنَ الخفيفِ]

وَامْتِـلاَءُ الْكُـؤُوسِ قَـالُـوا مَعِيـبٌ ... وَرَأَوْا أَنَّـهُ علَـى النِّصْـفِ زَاهِـي

وبمجردِ ما سمعتُ هٰذا البيتَ ، نقضْتُهُ علىٰ صاحبِهِ من طرفِ اللسانِ بقولي : [مِنَ الخفيفِ]

قَـالَ رَبُّ الأَنَـامِ كَـأْسـاً دِهَـاقـاً ... وَهُـوَ رَدٌّ لِقَـوْلِ أَهْـلِ الْمَـلاَهِـي

ثمَّ رأَيتُ أَنَّ الشعراءَ اختلفوا مِن قبلِنا في نظيرِ ذلكَ ، فقالَ بعضُهم في موافقتي : [مِنَ الكاملِ]

وَكَـأَنَّمَـا الأَقْـدَاحُ مُتْـرَعَـةَ الْحَشَـا ... بَيْـنَ الشُّـرُوبِ كَـوَاكِـبُ الْجَـوْزَاءِ

وقالَ الآخَرُ في ما يشبهُ قولَ الأوَّلِ [وهو السري الرفاء في « قرى الضيف » ٢/ ١٩٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

يُعَـاطِيكَ كَـأْسـاً غَيْـرَ مَـلأَىٰ كَـأَنَّهَـا ... إِذا مُـزِجَـتْ أَحْـدَاقُ دِرْعٍ مُـزَرَّدِ
كَـأَنَّ أَعَـالِيهَـا بَيَـاضُ سَـوَالِـفٍ ... يَلُـوحُ عَلَـىٰ تَـوْرِيـدِ خَـدٍّ مُـوَرَّدِ

---

(١) **الفواخِتُ** : نوعٌ من الحمام المطوَّق . **الجرْس** : صوت مناقير الطير ، وأجرس الطائر إذا سمع صوت جرسه مرة ، والجَرَس معروف ، والمراد أنغامه .
(٢) **نشاوىٰ** : جمعُ نشوانَ ، وهوَ السكرانُ .



غيرَ أَنَّ هـٰذا التشبيهَ ، لا ينطبقُ إِلاَّ على امرأَةٍ قائمةٍ علىٰ رأْسِها ؛ لأَنَّ السوالِفَ التي هي صفحاتُ العُنقِ لا تكونُ فوقَ الخدودِ ، وإِنَّما تكونُ تحتَها ، وقد يمكنُ التمحُّلُ في التأْويلِ ، بأَنَّ المرادَ مجرَّدُ التشبيهِ بالحمرَةِ والبياضِ ، ومَهْما يكنْ مِنَ الأَمرِ . . فقد ذكرتُ قولَ ناصحِ الدينِ الأَرَّجانيِّ [في « ديوانه » ٢/ ٣٧٧] : [مِنَ البسيطِ]

هَـٰذَا الـزَّمَـانُ عَلَـىٰ مَـا فِيـهِ مِـنْ كَـدَرٍ ... حَكَـىٰ انْقِـلاَبَ لَيَـالِيـهِ بِـأَهْلِيـهِ
غَـدِيـرُ مَـاءٍ تَـرَاءَىٰ فِـي أَسَـافِلِـهِ ... خَيَـالُ قَـوْمٍ تَمَشَّـوْا فِـي نَـوَاحِيـهِ
فَـالـرَّأْسُ يُنْظَـرُ مَنْكُـوسـاً أَسَـافِلُـهُ ... وَالـرِّجْـلُ يُنْظَـرُ مَـرْفُـوعـاً أَعَـالِيـهِ

وللإِمامِ السيوطيِّ في إِعرابِ البيتِ الأَخيرِ كلامٌ طويلٌ .

* * *

ومِنها في المديحِ [قولُ أَبي الطَّيبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٨٩] : [مِنَ البسيطِ]

مِـنْ كُـلِّ أَبْيَـضَ وَضَّـاحٍ عِمَـامَتُـهُ ... كَـأَنَّمَـا اشْتَمَلَـتْ نُـوراً عَلَـىٰ قَبَـسِ

[شرح المطلع]

(**الأَبْيَضُ**) : النقيُّ الوضِيءُ ، و(**الوَضَّاحُ**) : المشرقُ ، و(**القَبَسُ**) : الشعلةُ من النارِ ، و(**عِمَامَتُهُ**) : مبتدأٌ ، خبرُهُ : الجملةُ بعدَهُ .

قالَ الشارحُ : والمعنىٰ أَنَّه يقولُ : كلُّ كريمٍ لنورِ وجهِهِ ، وإِشراقِ جبينِهِ . . كأَنَّ عمامتَهُ علىٰ شعلَةِ نارٍ ، فشبَّهَ وجهَهُ لنورِ جبينِهِ بالقبَسِ ، وهو منقولٌ مِن قولِ قيسِ الرقياتِ [في « ديوانه » ٤٤] : [مِنَ الخفيفِ]

إِنَّمَـا مُصْعَـبٌ شِهَـابٌ مِـنَ اللّـ ... ـهِ تَجَلَّـتْ عَـنْ وَجْهِـهِ الْعَتْمَـاءُ

انتهىٰ باختصارٍ .

وعندي : أَنَّه ناقصٌ ؛ لأَنَّ النورَ بناءً عليه يذهَبُ ضياعاً ، والذي أَراهُ أَنَّهُ شبَّهَ العمامَةَ بالنورِ لبياضِها ؛ ولما انعكسَ فيها من إِشراقِ الوجهِ عَليها ، وشبَّهَ الوجْهَ بضياءِ النارِ لِلَمعانِهِ وتبلُّجِهِ ، أَو أَنَّه شبَّهَ الجبينَ بالنورِ ، والخدَّ بالقبَسِ ، قريباً مِن قولِ ابنِ عَنْقاءَ [في « الإِيضاح في علوم البلاغة » ١/ ٣٢٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

كَـأَنَّ الثُّـرَيَّـا عُلِّقَـتْ فِـي جَبِينِـهِ ... وَفِـي خَـدِّهِ الشِّعْـرَىٰ وَفِـي نَحْـرِهِ الْقَمَـرْ

أَمَّا قولُهُ : إِنَّه منقولٌ من قولِ قيسِ الرقيَّاتِ . . فلا ننكرُ احتمالَ نظرِهِ إِليهِ ، غيرَ أَنَّ الأَكثرَ بهِ شَبَهاً قولُ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانه »] : [مِنَ البسيطِ]

إِذا صَـدَعْنَـا الـدُّجَـىٰ عَنَّـا بِغُـرَّتِـهِ ... خِلْنَـا بِهَـا قَبَسـاً نَجْلُـوهُ أَوْ ضَـرَمَـا

وقد سبقَ كثيرٌ ممَّا يتعلَّقُ بمعنى البيتِ عندَ الكلامِ علىٰ **قولِهِ** [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٦٧] : [مِنَ البسيطِ]

يَلُـوحُ بَـدْرُ الـدُّجَـىٰ فِـي صَحْـنِ غُـرَّتِـهِ ... وَيَحْمِـلُ الْمَـوْتَ فِـي الْهَيْجَـاءِ إِنْ حَمَـلاَ



ونزيدُ هُنا قولَ أَبي نُوَاسٍ [في « المستطرف » ٤٢/٢] : [مِنَ المتقاربِ]

نَظَــرْتُ إِلَــىٰ وَجْهِــهِ مَــرَّةً فَــأَبْصَــرْتُ وَجْهِــيَ فِــي وَجْهِــهِ

وقولَ ابنِ الروميِّ : [مِنَ البسيطِ]

كَـأَنَّـهُ الشَّمْـسُ إِذْ وَافَـى الْمُنِيـفَ بِهَـا عَلَـى الْبَـرِيَّـةِ لا نَـارٌ عَلَـىٰ عَلَـمِ[١]

وللناظِمِ ما لا يُحصىٰ كثرةً في المعنىٰ ، منهُ **قولُهُ** [في « العُكبَريِّ » ٣٩٨/٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلَيْـسَ لِشَمْـسٍ مُـذْ أَنَـرْتَ إِنَـارَةٌ وَلَيْـسَ لِبَـدْرٍ مُـذْ تَمَمْـتَ تَمَـامُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢٩٨/٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

عَفِيـفٌ تَـرُوقُ الشَّمْـسَ صُـورَةُ وَجْهِـهِ وَلَـوْ نَـزَلَـتْ شَـوْقـاً لَحَـادَ إِلَـى الظِّـلِّ

وفي صفتهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : (كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجرِي في وَجْهِهِ)[٢] .

يَقُولُ وَاصِفُهُ : (لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ)[٣] .

[إشراق وجه مصعب بن الزبير]

و[جاء في « المستطرف » (٢٩/٢) أنه] : كانَ مصعبُ بنُ الزبيرِ مشهوراً بالجمالِ ، فبَيْنا هُوَ بفناءِ دارِهِ ليلَةً بالبصرَةِ . . إذ جاءَتْهُ امرأَةٌ أَقَامَتْ مَلِيّاً تنظرُ إِليهِ ، فقالَ : ما شأنُكِ يرحمُكِ اللهُ ؟ قالَتْ : انطفأَ مصباحُنا ، فجئْتُ أَستصبحُ علىٰ وجهكَ . وهِيَ شبيهَةٌ بما سبقَ مِن قصَّةِ زينِ العابدِينَ .

ويذكُرُ بعضُهم قريباً مِنها للمتوكِّلِ العباسيِّ[٤] .

و[روى ابن قيم الجوزية في « روضة المحبين » ٢٠١ أنه] كانَ مصعبُ معَ فرطِ جمالِهِ يَحْسُدُ الناسَ على الجمالِ ، فَبَينا هُو يخطُبُ يوماً . . إذ دخَلَ ابنُ جودانَ مِن ناحيةِ الأَزدِ ـ وكانَ جميلاً ـ فأَعرضَ بوجهِهِ عَن تلكَ الجهَةِ ، فجاءَ ابنُ حُمْرانَ ـ وكانَ جميلاً أَيضاً ـ مِنَ النَّاحيَةِ التي أَقبلَ عَلَيها ، فرمىٰ ببصرِهِ إِلىٰ مؤخِّرِ المسجِدِ ، فدخلَ الحسنُ البصريُّ ـ وكانَ من أَجملِ الناسِ ـ فنزلَ مصعبٌ عَنِ المنبَرِ .

وكانَ لَهُ ابنٌ يدعىٰ : زَينُ المواكِبِ ، كانَ ابنُ أَبي ربيعةَ مفتوناً بالنظَرِ إِلىٰ جمالِهِ .

وكانتْ عائشةُ بنتُ طلحةَ من أَجملِ أَهلِ زمانِها ، أَو أَجمَلَهم ، فقالَ لَها أَنسُ بنُ مالكٍ[٥] [كما في « الأغاني » ١٩٧/١١] : واللهِ ما رأَيتُ أَحسنَ منْكِ ، إلاَّ معاويَةَ علىٰ منبرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، فقالَتْ : واللهِ لأَنا أَحسنُ مِنَ النَّارِ في عينِ المقرورِ ، في الليلَةِ الباردَةِ .

---

(١) **المنيفُ والعَلَمُ** : الجبلُ الطويلُ .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه ابن سعد في « الطبقات » (٤١٥/١) ، وأحمد (٣٨٠/٢) ، والترمذي (٣٦٤٨) وفي « الشمائل » (١٢٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٣٠٩) بإسناد صحيح .

(٣) وردت هـٰذه الجملة في حديث علي رضي الله عنه عند الترمذي في « الشمائل » (٥) ، وفي « السنن » (٣٦٣٧) ، وأحمد (٩٦/١) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٣١١) بإسناد صحيح .

(٤) أيضاً في « المستطرف » (٢٩/٢) .

(٥) وفي « الأغاني » (١٩٧/١١) أبو هريرة بدلاً من أَنسِ بنِ مالكٍ رضي اللهُ عنهما .

[إشراق وجه لبابة بنت عبيد الله]

وكانتْ لُبابَةُ بنتُ عُبيدِ اللهِ بنِ العبَّاسِ عندَ الوليدِ بنِ عتبَةَ ابنِ أَبي سفيانَ ، فكانَتْ تقولُ : ما نظرْتُ وَجهي معَ وَجْهِ إنسانٍ في مرآةٍ إلاَّ رحمتُهُ ؛ لافتضاحِهِ بحسنِ وَجهي ، ما عَدا الوليدَ ، فكنتُ إذا نظرتُ إليهِ مَعَ وجهي . . تصاغرَتْ إليَّ نفسي ؛ مِن فَرْطِ جمالِهِ[1] .

[الأصمعي وصاحبة البرقع]

وقالَ الأَصمعيُّ [في « روضة المحبين » ٢٠٣] : بَينا أَنا علىٰ بعضِ مياهِ العرب . . إذ سمعتُ الناسَ يقولونَ : جاءَتْ ، جاءَتْ ، فإذا امرأَةٌ لَم أَرَ مثلهَا في حسنِ الوَجهِ ، وتَمامِ الخَلْقِ ، فلمَّا رأَتْ كثرةَ التشوُّقِ إليها . . أَرسلَتْ برقُعَها ، فكأَنَّما هُوَ غمامَةٌ سترَتْ شمساً ، فقلْتُ : لَو متَّعتِينا بالنظرِ إلىٰ وجهِكِ . . فقالَتْ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنَّـكَ إِنْ أَرْسَلْـتَ طَـرْفَـكَ رَائِـداً ... لِقَلْبِـكَ يَـوْمـاً أَتْعَبَتْـكَ الْمَنَـاظِـرُ
رَأَيْـتَ الَّـذِي لاَ كُلُّـهُ أَنْـتَ قَـادِرٌ ... عَلَيْـهِ وَلاَ عَـنْ بَعْضِـهِ أَنْـتَ صَـابِـرُ

فقالَ أعرابيٌّ : أَنا واللهِ مِمَّنْ قلَّ صبرُهُ ، وأَنشأَ يقولُ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَوَحْشِيَّـةَ الْعَيْنَيْـنِ أَيْـنَ لَـكِ الأَهْـلُ ... أَبِـالْحَـزْنِ حَلُّـوا أَمْ مَحَلُّهُـمُ السَّهْـلُ ؟
وأَيَّـةُ أَرْضٍ أَخْـرَجَتْـكِ ؟ فَـإِنَّنِـي ... أَرَاكِ مِـنَ الْفِـرْدَوْسِ إِنْ فُتِّـشَ الأَصْـلُ
قِفِـي خَبِّـرِينَـا مَـا طَعِمْـتِ وَمَـا الَّـذِيْ ... شَـرِبْـتِ وَمِـنْ أَيْـنَ اسْتَقَـلَّ بِـكِ الـرَّحْـلُ
تَنَـاهَيْـتِ حُسْنـاً فِـي النِّسَـاءِ فَـإِنْ يَكُـنْ ... لِبَـدْرِ الـدُّجَـىٰ نَسْـلٌ فَـأَنْـتِ لَـهُ نَسْـلُ

ويُعجبُني قولُ الأَعشىٰ ، وهُوَ الذي أَحلتُ عليهِ مرَّةً فيما سلفَ [في « ديوانه » ١٣٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَتـىً لَـوْ يُنَـادِي الشَّمْـسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَـا ... أَوِ الْقَمَـرَ السَّـارِي لأَلْقَـى القَـلاَئِـدَا

ومعنىٰ (يُنَادِي) : يفاخِرُ ، والمرادُ مِن (قِنَاعِ الشَّمْسِ) : حسنُها .

ومِن قطعةٍ لإبراهيمَ بنِ المهديِّ فِيها غناءٌ : [مِنَ البسيطِ]

نُـوْرٌ تَـوَلَّـدَ مِـنْ شَمْـسٍ وَمِـنْ قَمَـرٍ ... حَتَّـىٰ تَكَـاسَـلَ فِيـهِ الـرُّوحُ وَالْبَـدَنُ

وقالَ الكسائيُّ يمدحُ الأَمينَ والمأْمونَ [كما في « المستطرف » ٢/٢٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَرَىٰ قَمَـرَيْ أُفْـقٍ وَفَـرْعَـيْ بَشَـامَـةٍ ... يَـزِينُهُمَـا عِـرْقٌ كَـرِيـمٌ وَمَحْتِـدُ[2]
سَلِيلَـيْ أَمِيـرِ الْمُـؤْمِنِيـنَ وَحَـائِـزَيْ ... مَـوَارِيـثَ مَـا أَبْقَـى النَّبِـيُّ مُحَمَّـدُ

[الحجر الذي لا يعجبك . . يشجُّك]

وبهٰذينِ ، ذكرتُ أَنَّ بعضَ العربِ تقدَّمَ إلى الرشيدِ بأَبياتٍ استكثرَها عليهِ ؛ لرثاثَةِ هيئَتِهِ ، فقالَ لَهُ [في « تاريخ الطبري » ٢٥/٥] : إن كان الشعرُ لَكَ كَما تقولُ . . فقُلْ : في هٰذين ، فقالَ : يا أَميرَ المؤمنينَ ، وحشةُ الغربَةِ ، وروعةُ

---

(١) « المستطرف » (٢/٢٩) .

(٢) البَشامةُ : شجرٌ طيِّبُ الرائحةِ يُستاكُ بهِ . المحتِدُ : الخالصُ الأصل والأرومة من كُلِّ شيءٍ .

المفاجأةِ ، وبهرُ الدرجَةِ ، وجلالةُ المقام ، وصعوبةُ البديهَةِ ، تحولُ بينَ المرْءِ وبينَ لسانِهِ ، فليمهلْني أَميرُ المؤمنينَ ريثَما يعودُ النافِرُ ، فقالَ لَهُ الرشيدُ : ما أَحسنَ جوابَكَ! وقد جعلْنا فيهِ عذرَكَ ، فقالَ : يا أَميرَ المؤمنينَ ، لقد نَفَّسْتَ الخِناقَ ، وسهَّلْتَ مَيدانَ السباقِ ، وأَنشأَ يقولُ : [مِنَ الطَّويلِ]

بَنَيْتَ بِعَبْدِ اللهِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ذُرَىٰ قُبَّةِ الإِسْلَامِ فَاخْضَرَّ عُودُهَا
هُمَا طُنُبَاهَا بَارَكَ اللهُ فِيهِمَا وَأَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَمُودُهَا[1]

فقالَ لهُ الرشيدُ : وأَنتَ بارَكَ اللهُ فيكَ ، سَلْ حاجتَكَ ، ولتكُنْ علىٰ قدرِ إِحسانِكَ .

[أيجوز للرجال أن يتزوجوا على النساء ؟!]

ولنعُدْ إِلىٰ ما يتعلَّقُ بحسنِ الصورةِ ، قالَ عبدُ اللهِ بنُ شوذَبٍ : دخلَتِ امرأَةٌ جميلةٌ على الحَسَنِ البصريِّ ، فقالَتْ [في « روضة المحبين » ٢٠٣] : يا أَبا سعيدٍ ، أَيحلُّ لِلرِّجالِ أَنْ يتزوَّجوا على النساءِ ؟ قالَ : نَعم ، قالَت : وعلىٰ مِثْلي ؟ ثمَّ أَسفرَت عَن وجهٍ استجْهَرَنا بجمالِهِ ، وقالَتْ : يا أَبا سعيدٍ ، لا تُفْتوا الرجالَ بهٰذا ، ثمَّ ولَّتْ ، فقالَ الحسنُ : ما علىٰ رجلٍ كانَتْ هٰذِهِ في زاويةِ بيتِهِ ما فاتَهُ مِنَ الدُّنيا .

[الصورة الحسنة والشعراء]

وللهِ درُّ بعضِهم في قولِهِ [كما في « المستطرف » ٢/ ٢٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَوْ أَنَّهَا فِي عَهْدِ يُوسُفَ قَطَّعَتْ قُلُوبَ رِجَالٍ لاَ أَكُفَّ نِسَاءِ

وقالَ الآخرُ [في « روضة المحبين » ٢٠٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَنِيرِي مَكَانَ الْبَدْرِ إِنْ أَفَلَ الْبَدْرُ وَقُومِي مَقَامَ الشَّمْسِ مَا اسْتَأْخَرَ الفَجْرُ
فَفِيكِ مِنَ الشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ ضَوْؤُهَا ولَيْسَ لَهَا مِنْكِ التَّبَسُّمُ وَالثَّغْرُ

وما أَحسنَ قولَ شوقيٍّ [في « ديوانه » ٢/ ١٥٩] : [مِنَ البسيطِ]

صُونِي جَمَالَكِ عَنَّا إِنَّنَا بَشَرٌ مِنَ التُّرَابِ وَهَـٰذَا الْحُسْنُ رُوحَانِي

وهُوَ وإِنْ كانَ قد أَلَمَّ في بعضِهِ بقولِ الناظِمِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٤٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

خَفِ اللهَ وَاسْتُرْ ذَا الْجَمَالَ بِبُرْقُعٍ فَإِنْ لُحْتَ ذَابَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ

وفي البعضِ الآخَرِ بقولِ خالدٍ الكاتِبِ : [مِنَ البسيطِ]

لَوْ كَانَ مِنْ بَشَرٍ لَمْ يَفْتِنِ الْبَشَرَا وَلَمْ يَفُقْ فِي الضِّيَاءِ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَا
نُورٌ تَجَسَّمَ مُنْحَلاً وَمُنْعَقِداً سِلْكٌ تَضَمَّنَ فِي تَنْسِيقِهِ دُرَرَا

.. فقد أَحسنَ متنهُ ، وأَجادَ سبكَهُ ، وأَبدعَ معناهُ ، وأَحكَمَ لفظَهُ ، واستنزلَهُ مِن سماءِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : ٣١] .

---

(١) الطنَبُ : حبلُ الخباءِ والخيمة والفسطاط .

ثمَّ إنَّ جمالَ الظاهرِ بالأغلَبِ ، مقرونٌ بجمالِ الباطنِ ، وما بعثَ اللهُ مِن نبيٍّ إلاَّ حسنَ الصورَةِ ؛ ولأنَّ اللهَ تعالىٰ ـ بلطيفِ حكمتِهِ ، وبديعِ صنعتِهِ ـ لم يخلقِ الصُّورَةَ مختارَةَ الصفاتِ ، سليمةً مِنَ الآفاتِ ، إلاَّ عَن فضلِ الإبداعِ ، ولَنْ نكونَ علىٰ ذلكَ ، إلاَّ إِذا كانَتْ علىٰ ما يلائِمُ حسنَها ، من أَحاسنِ الطباعِ ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **اطْلُبُوا الْخَيْرَ عِنْدَ صِبَاحِ الْوُجُوهِ** »[1] .

وكانَ عليهِ السلامُ : يَسْتَحِبُّ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ ـ الَّذِي يُرْسَلُ إِلَيْهِ ـ حَسَنَ الْوَجْهِ ، حَسَنَ الاسْمِ ، كَمَا أَخرجهُ البزارُ وغيرُهُ[2] .

وكانَ يرشدُ مَن رأَىٰ جمالَ صورتِهِ إلىٰ إصلاحِ باطنِهِ ، فقد أَخرجَ الديلميُّ ، عَن جريرِ بنِ عبدِ اللهِ ـ الذي كانَ يسمِّيهِ ابنُ الخطَّابِ [في « روضة المحبين » ١٩٩] : (يوسُفَ هٰذهِ الأُمَّةِ)[3] ـ أَنَّهُ قالَ : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **أَنْتَ امْرُؤٌ قَدْ أَحسَنَ اللهُ خَلْقَكَ ، فَأَحْسِنْ خُلُقَكَ** »[4] .

وقالَ جلهمَةُ بنُ عرفطَةَ ـ وقد بَصُرَ بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ في طفوليَّتِهِ ، يَستسقي بِهِ أَبو طالِبٍ ـ : كأَنَّهُ قَمَرُ دِجَنَّةٍ ، تَجَلَّتْ عَنْهُ سَحَابَةٌ قَتْمَاءُ .

[الشعراء والجمال]

وقالَ قيسُ بنُ الخطيمِ [في « ديوانهِ » ١٧] : [مِنَ الكاملِ]

فَـرَأَيْـتُ مِثْـلَ الشَّمْسِ عَنْـدَ طُلُـوعِهَـا ... فِـي الْحُسْـنِ أَوْ كَـدُنُـوِّهَـا لِغُـرُوبِ

وقالَ غيرُهُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَدْ خَجِلَتْ شَمْسُ الضُّحَىٰ مِنْكَ غُدْوَةً ... فَكَادَتْ كَمَا جَاءَتْ إِلى الشَّرْقِ تَرْجِعُ

وقالَ عليُّ بنُ الجَهْمِ [في « ديوانهِ » ١٤٨] : [مِنَ الكاملِ]

يَـا بَـدْرُ كَيْـفَ صَنَعْـتَ بِـالْبَـدْرِ ... وَفَضَحْتَـهُ مِـنْ حَيْـثُ لا يَـدْرِي ؟
الـدَّهْـرُ أَنْـتَ بِـأَسْـرِهِ قَمَـرٌ ... وَلَـذَاكَ لَيْلَتُـهُ مِـنَ الشَّهْـرِ

وقالَ بعضُهم [وهو جميل بثينة كما في « ديوان الحماسة » ٢/١٧٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَهَـا النَّظْـرَةُ الأُولَـىٰ عَلَيْهِـمْ وَبَسْطَـةٌ ... وَإِنْ كَـرَّتِ الأَبْصَارُ كَـانَـتْ لَهَـا الْعُقْبَىٰ

---

(١) أورده السخاوي في « المقاصد الحسنة » (١٦١) بلفظ : « التمسوا الخير عند حسان الوجوه » ، وقال : رواه الطبراني من حديث يزيد بن خصيفة عن أبيه عن جده مرفوعاً ، وكذا عند أبي يعلىٰ وهو مشهور ، له طريق عن أنس وجابر وعائشة وابن عباس وابن عمر ويزيد القسملي وأبي بكرة وأبي هريرة ولفظ أكثرهم : « اطلبوا الخير . . . » وأطال فيه .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (١/٨٥) بلفظ : « **إِذَا بَعَثْتُمْ إِلَيَّ رَسُولاً . . فَاجْعَلُوهُ حَسَنَ الْوَجْهِ حَسَنَ الاسْمِ** » ، وانظر « كنز العمال » (١٤٧٧٥) .

(٣) أورد الخبر ابن الأثير في « أسد الغابة » (٧٣٠) ، وابن حجر في « الإصابة » (١١٣٦) .

(٤) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (١/٣٣٦) .



وهُوَ مثلُ ما أظنُّني قد ذكرتُهُ في غيرِ هـٰذا المجلسِ ، من قولِ أَبي نُواسٍ [في « ديوانه » ٣٠٩] : [مِنَ الهَزَجِ]

يَـزِيـدُكَ وَجْهُـهُ حُسْنـاً إِذَا مَـا زِدْتَـهُ نَظَـرَا

وقولِهِ [في « ديوانه » ٦٠٤] : [مِنَ الكاملِ]

لِلْحُسْـنِ فِـي وَجَنَـاتِـهِ بِـدَعٌ مَـا أَنْ يَمَـلَّ الـدَّرْسَ قَـارِيهَـا

وقولِ ابنِ المعتزِّ : [من السريع]

مَنْظَـرُهُ قَيْـدُ عُيُـونِ الْـوَرَىٰ فَلَيْـسَ خَلْـقٌ يَتَعَـدَّاهُ

وقالَ أَبو فراسٍ : [مِنَ الكاملِ]

فَـإِذَا بَـدَا اقْتَـادَتْ مَحَـاسِنُـهُ قَسْـراً إِلَيْـهِ أَعِنَّـةَ الْحَـدَقِ

وقالَ محمَّدُ بنُ وهيبٍ [في « الأغاني » ١٩/ ٩٢] : [مِنَ الكاملِ]

مَـا لِمَـنْ تَمَّـتْ مَحَـاسِنُـهُ أَنْ يُعَـادِي طَـرْفَ مَـنْ رَمَقَـا
لَـكَ أَنْ تُبْـدِي لَنَـا حَسَنـاً وَلَنَـا أَنْ نُعْمِـلَ الْحَـدَقَـا

وكانَ بعضُ الحكماءِ يقولُ [في « روضة المحبين » ٢٠٠] : يَنبَغي للعبدِ أَنْ ينظُرَ كلَّ يومٍ إِلى المرآةِ ، فإِن رأَىٰ حُسْناً . . لَم يَشِنْهُ بفعلٍ قبيحٍ ، وإِنْ رأَىٰ قبيحاً . . لَم يجمَعْ بينَ قبيحَينِ .

وقالَ بعضُهُم [كما في « روضة المحبين » ١٩٩] : [مِنَ السَّريعِ]

يَـا حَسَـنَ الْـوَجْـهِ تَـوَقَّ الْخَنَـا لا تُبْـدِلَـنَّ الـزَّيْـنَ بِـالشَّيْـنِ
وَيَـا قَبِيـحَ الْـوَجْـهِ كُـنْ مُحْسِنـاً لا تَجْمَعَـنْ بَيْـنَ قَبِيحَيْـنِ

وقامَ رجلٌ وسيمٌ ينظرُ وجهَهُ في المرآةِ ، فقالَ : اللَّهمَّ كما حسَّنْتَ خَلْقي ، فحَسِّنْ خُلُقي ، وقامَ فِي أَثَرِهِ رجلٌ دَميمٌ ، وكأَنَّهُ كانَ غافلاً ، فأُسقِطَ في يدِهِ ؛ لأَنَّهُ إِنْ قالَ : مثلَ الأَوَّلِ . . تضاحَكوا عليهِ ، وإِن سكَتَ . . كانَ اعترافاً بالعِيِّ والنقيصَةِ ، فلَم يكُنْ مِنْهُ ، إِلاَّ أَن تخلَّصَ مِن ذلكَ المأزِقِ الحرجِ بأَحسنِ ما يتخلَّصُ بهِ الأَريبُ[1] ، فقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

لَئِـنْ لَـمْ تَـكُ الْمَـرْآةُ أَبْـدَتْ وَسَـامَـةً فَقَـدْ أَبْـدَتِ الْمَـرْآةُ جَبْهَـةَ ضَيْغَـمِ

[قد يتخلف جمال الباطن عن جمال الظاهر وبالعكس]

وقد يتخلفُ جمالُ الباطِنِ عَنْ جمالِ الظاهِرِ ، وعكسُهُ ، فمِنَ الأَوَّلِ **قولُ الناظِمِ** [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٢٢] : [مِنَ البسيطِ]

لَيْـسَ الجَمَـالُ لِـوَجْـهٍ صَـحَّ مَـارِنُـهُ أَنْـفُ الْعَـزِيـزِ بِقَطْـعِ الْعِـزِّ يُجْتَـدَعُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٢٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا الْحُسْـنُ فِـي وَجْـهِ الْفَتَـىٰ شَـرَفـاً لَـهُ إِذَا لَـمْ يَكُـنْ فِـي فِعْلِـهِ وَالْخَـلائِـقِ

---

(١) **الأَريبُ** : العاقِلُ .

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٥١] :　　　　　　　　　　　　　　　　[مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا كُلُّ وَجْهٍ أَبْيَضٍ بِمُبَارَكٍ　　　وَلاَ كُلُّ جَفْنٍ ضَيِّقٍ بِنَجِيبِ

وقولُ غيرِهِ [كما في « قرى الضيف » ٢/ ٤٥٧] :　　　　　　　　　　　　　　　　[مِنَ الطَّويلِ]

وَهَلْ يَنْفَعُ الْفِتْيَانَ حُسْنُ وُجُوهِهِمْ　　　إِذا كَانَتِ الأَعْرَاضُ غَيْرَ حِسَانِ ؟

ومِن الثاني : أَنَّ الحجَّاجَ بعثَ برأسِ ابنِ الأشعثِ ، معَ رجلٍ دميمٍ ، حامضِ الوجْهِ ، فاستخفَّ بهِ عبدُ الملكِ بادياً ، ولكنَّهُ لمَّا استنطَقَهُ . تنقَّىٰ وكفَّىٰ ، وحدَّثَهُ عَنِ الواقعةِ كأَنَّهُ يَراها ، فأَنشدَ عبدُ الملكِ متمثِّلاً [بشِعرِ عمروِ بنِ شأسٍ في « ديوانه » ١٠٢] :　　　　　　　　　　　　　　　　[مِنَ الطَّويلِ]

أَرَادَتْ عِرَاراً بِالْهَوَانِ وَمَنْ يُرِدْ　　　عِرَاراً لعَمْري بِالْهَوَانِ فَقَدْ ظَلَمْ

فضحِكَ الرجلُ ، حتَّىٰ كادَ يَجِدُ منهُ عبدُ الملكِ ، وقالَ لَهُ : مِمَّ تضحَكُ ؟ قالَ : تعرفُ عِراراً هٰذا ؟ قالَ : لا ، وإِنَّما بلغَني الشعرُ فتمثَّلْتُ بهِ ، قالَ : أَنا هُوَ ، وقائِلُهُ أَبي : عمروُ بنُ شأْسٍ ، وكانَتْ زوجُهُ تبغِضُني ، وجَهدَ أَنْ يُصلِحَ بينَنا ، فلَم يقدِرْ ، فقالَ البيتَ ، وبعدَهُ :　　　　　　　　　　　　　　　　[مِنَ الطَّويلِ]

فَإِنْ كُنْتِ مِنِّي أَوْ تُرِيدِينَ صُحْبَتِي　　　فَكُونِي لَهُ كَالشَّمْسِ رَبَّتْ بِهِ الأُدَمْ[1]

وَإِلاَّ فَسِيرِي سَيْرَ رَاكِبِ نَاقَةٍ　　　تَيَمَّمَ غَيْثاً لَيْسَ فِي سَيْرِهِ أَمَمْ[2]

وَإِنَّ عِرَاراً إِنْ يَكُنْ غَيْرَ وَاضِحٍ　　　فَإِنِّي أُحِبُّ الْجُونَ ذَا الْمَنْكِبِ الْعَمَمْ[3]

وطلَّقَها بعدَ ذلكَ ، وندمَ علىٰ فراقِها ، فأَخذَ عبدُ الملكِ ، يكرِّرُ البيتَ الأخيرَ . وقالَ ابن خَلِّكانَ [في « وفيات الأعيان » ٤/ ٤١٨] : إِنَّهُ كانَ مرسلاً مِن قِبَلِ المهلَّبِ إِلىٰ عندِ الحجَّاجِ ، واللهُ أَعلمُ أَيُّ ذلكَ الأَصحُّ .

وذكرَ القاضي [في « وفيات الأعيان » ٤/ ٤١٧] : قصَّتينِ تشبهُها ، لا حاجةَ بنا إِليها .

[الفرزدق وخفة دمه]

وقالَ خالدُ بنُ صفوانَ للفرزدَقِ : ما أَنتَ بالذي أَكبرنَهُ لمَّا رأَينَهُ ، وقطَّعْنَ أَيدِيَهُنَّ ! ! فقالَ الفرزدَقُ : وَلا أَنتَ بِالذي قالَتِ الفتاةُ لأَبيها : ﴿ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] .

وكانَ الفرزدَقُ قبيحاً مِن آثارِ الجدريِّ بوجهِهِ ، حتَّىٰ لقد قالَ لَهُ بعضُهم [كما في « وفيات الأعيان » ٦/ ٩٩] : كأَنَّ وجهَكَ أَحراحٌ مجتمعةٌ ، قالَ : تأَمَّلْ هَل تجدُ فيها حِرَ أُمِّكَ .

وقالَ نضلَةُ السلميُّ [في « مجمع الأمثال » ١/ ٤١٤] :　　　　　　　　　　　　　　　　[مِنَ الوافرِ]

رَأَوْهُ فَازْدَرَوْهُ وَهْوَ خَرْقٌ　　　وَيَنْفَعُ أَهْلَهُ الرَّجُلُ الْقَبِيحُ[4]

---

(١) الأُدَمُ : جمع أُدمةٍ ، وهيَ شربةٌ من سوادٍ في وجهِ الرجلِ .

(٢) الأَمَمُ : الاعوجاجُ .

(٣) الجون : الأَسوَدُ . العَمَمُ : التامُّ .

(٤) الخرقُ : الدَّميمُ الأسودُ .

فَلَـمْ يَخْشَـوْا مَصَـالَتَـهُ عَلَيْهِـمْ وَتَحْـتَ الـرَّغْـوَةِ اللَّبَـنُ الصَّـرِيـحُ[1]

ودخلَ بعضُهم على المأْمونِ فأَكرمَهُ ، وأَخذَ يعمِّمُهُ بنفسِهِ ، وكانَتْ بقربِهِ جاريةٌ تتبسَّمُ ، وكانَ الرجلُ دَميماً ، فقالَ لَها المأْمونُ [كما في « المستطرف » ١/٢٥٩] : مِمَّ تضحَكينَ ؟ قالَ الرجلُ : أَنا أُخبرُكَ يا أَميرَ المؤْمنينَ ، تضحَكُ مِن دمامَتي ، وإِكرامِكَ .

[من أخبار الظرفاء والقبحاء]

ودخلَ بعضُهم في شَمْلَةٍ ، مَعَ قبحِ منظرَةٍ فيهِ ، علىٰ معاويَةَ ، فازدراهُ ، واقتحمتهُ عينُهُ ، ففطِنَ الرجلُ ، وقالَ [بنحوه في « جمهرة خطب العرب » ٣/٢٥١] : إِنَّ الشملَةَ لا تكلِّمُكَ ، وإِنَّما يكلمُكَ مَنْ فيها ، والْمَرءُ بأَصغريْهِ ، فاستسناهُ عندَ ذلكَ ، ثمَّ أَحمدَ مخبرتَهُ .

وقالَ ابنُ مكرَّمٍ لأَبي العيناءِ : يا قِرْدُ ، فقالَ أَبو العيناءِ : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ [يس : ٧٨] .

وقالَ حمَّادُ يهجو بشَّاراً [كما في « الأغاني » ١٤/٣٢١] : [مِنَ الهَزَجِ]

شَبِيـهُ الْـوَجْـهِ بِـالْقِـرْدِ إِذَا مَـا عَمِـيَ الْقِـرْدُ

فبكىٰ ، وقالَ : ما كفاهُ أَن جعلَني قرداً ، حتَّىٰ أَعماهُ ، وَيْلي مِنهُ ، يراني فيشبِّهُني ، ولاَ أَراهُ ، فكيفَ أُشبِّهُهُ ؟!

وكانَ الجاحِظُ أَقبحَ خلقِ اللهِ ، حتَّىٰ إِنَّ امرأَةً قادتْهُ إِلىٰ رَسَّامٍ ، وقالَتْ لَهُ [بنحوه في « نفح الطيب » ٤/٢٩٧] : مثلَ هـٰذا ، فقالَ للرسَّامِ : ماذا تَعني ؟ قالَ : لا تسأَلْ ، قالَ : لاَ بدَّ ، قالَ : إِنَّها طلبَتْ مِنِّي صورةَ الشيطانِ ، فقلْتُ : لا أَقدِرُ حتَّىٰ أَرى المثالَ ، فجاءَتْ بكَ الآن ، وقالَتْ : ما سَمِعتَهُ .

وكانَ يقالُ : إِنَّهُ لم يوجَدْ للمُعَيديِّ نظيرٌ في القبحِ ، حتَّىٰ كانَ الجاحظُ ، ثمَّ لم يكنْ لهُ شبيهٌ ، حتَّىٰ جاءَ الحريريُّ ، فتناسى الناسُ الماضيَ مِن أَبي عثمانَ ، ولَهِجُوا بالحاضرِ مِن قبحِ الحريريِّ .

والناسُ كثيراً ما يتوسَّعونَ في خبثِ الحاضرِ وقبحِهِ ، ويرمونَهُ بأَكثرَ ممَّا فيهِ ، بمقدارِ ما يضيِّقونَ مِن خيرِهِ ، ويقلِّلونَهُ ، فهم إِزاءَ مساوىءِ معاصِريهم عاملونَ بقولِ الناظِمِ [في « العكبريّ » ٣/٨١] : [مِنَ البسيطِ]

خُـذْ مَـا تَـرَاهُ وَدَعْ شَيْئـاً سَمِعْـتَ بِـهِ [فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ ما يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ]

وأَما إِزاءَ محاسِنِهم . . فآخذونَ بقولِ الحماسيِّ [قَعْنبِ بنِ أمِّ صاحبٍ في « شرحِ حماسةِ أَبي تمَّام » ٢/١٨٧] : [مِنَ البسيطِ]

إِنْ سَمِعُـوا رِيبَـةً طَـارُوا بِهَـا فَـرَحـاً مِنِّـي وَمَـا سَمِعُـوا مِـنْ صَـالِـحٍ دَفَنُـوا[2]
صُـمٌّ إِذَا سَمِعُـوا خَيْـراً ذُكِـرْتُ بِـهِ وَإِنْ ذُكِـرْتُ بِسُـوءٍ عِنْـدَهُـمْ أَذِنُـوا[3]

وقولِ غيرِهِ : [مِنَ البسيطِ]

مُسْتَنْجِـدٌ بِجَمِيلِ الصَّبْـرِ مُكْتَئِـبٌ عَلَـىٰ بَنِـي زَمَـنٍ أَفْعَـالُهُـمْ عَجَـبُ

---

(١) المصالَةُ : ما سال من الأقط إذا طُبخ ثم عصرَ ، رديءُ الكيموسِ ، ضارٌّ بالمعدةِ ، وهو مَصلُ اللبن .
(٢) طَارُوا بها : أي أَسْرَعوا إلى الناس يبعثُونها وينشُرونها .
(٣) أَذِنُوا : استَمَعوا .



إِنْ يَعْلَمُوا خَيْراً اخْفَوْهُ وَإِنْ عَلِمُوا شَرّاً أَذَاعُوا وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا كَذَبُوا

ومن محاسنِ الحريريِّ : أَنَّ طالباً قدمَ عليهِ ، فازدراهُ ، فعرفَ ما في نفسِهِ ، فأَنشدَهُ [كما في « وفيات الأعيان » ٤/٦٦] :

[مِنَ البسيطِ]

مَا أَنْتَ أَوَّلَ سَارٍ غَرَّهُ قَمَرُ وَرَائِدٍ أَعْجَبَتْهُ خُضْرَةُ الدِّمَنِ

فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ غَيْرِي إِنَّنِي رَجُلٌ أَنَا الْمُعَيْدِيُّ فَاسمَعْ بِي وَلاَ تَرنِي

فيروى : أَنَّ الطالبَ ارعوىٰ حينئذٍ ، وأَنشدَ متمثِّلاً بقولِ محمَّدِ بنِ هانىءٍ الأَندلسيِّ ، علىٰ ما صوَّبَهُ ابنُ خلِّكانَ [في « ديوانِ ابن هانىءٍ » ٣/ ٣٦١ـ٣٦٢] :

[مِنَ البسيطِ]

كَانَتْ مُسَاءَلَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنِي عَنْ جَعْفَرِ بْنِ فَلاَحٍ أَطْيَبَ الْخَبَرِ

حَتَّى الْتَقَيْنَا فَلاَ وَاللهِ مَا سَمِعَتْ أُذْنِي بِأَكْبَرَ مِمَّا قَدْ رَأَىٰ بَصَرِي

وعلىٰ ذكرِ هٰذين البيتين ، يُحكىٰ [كما في « وفيات الأعيان » ٦/٤٦] : أَنَّ الزمخشريَّ لمَّا قدم (بغدادَ) للحجِّ . . مضىٰ لزيارتِهِ ابنُ الشجريِّ ، فتمثَّلَ لهُ بهٰذين البيتينِ ، وبقولِ الناظمِ أَيضاً [كما في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٥٥] :

[مِنَ الطَّويلِ]

وَأَسْتَعْظِمُ الأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ فَلَمَّا الْتَقَيْنَا صَغَّرَ الْخَبَرَ الْخُبْرُ[1]

وتمثَّلَ الزمخشريُّ للشريفِ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّم لزيدِ الخيلِ : « **مَا وُصِفَ لِي أَحَدٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَرَأَيْتُهُ فِي الإِسْلاَمِ . . إِلاَّ رَأَيْتُهُ دُونَ مَا وُصِفَ لِي ، غَيْرَكَ** »[2] فتعجَّبَ النَّاسُ مِنَ الشَّريفِ يتمثَّلُ بالشِّعرِ ، ومِنَ الزَّمخشريِّ ـ وهُوَ أَعجميٌّ ـ يستشهدُ بالحديثِ! .

وقد سبقَ أَولَ المجلسِ الثالثِ ، ذكرُ بيتِ قيسِ الرقياتِ ، الذي ذكرَهُ الشارحُ مَعَ اختصارِ قصَّةٍ فيهِ ، ولا بأْسَ بالاستطرادِ هُنا لحديثِ قيسٍ :

فإِنَّهُ لمَّا أُحيطَ بابنِ الزبيرِ . . دعاهُ وقالَ لَهُ [بنحوه في « الأغاني » ٥/٨٧] : خُذْ مِن هٰذ المالِ ما أَطقتَ ، وانجُ بنفسِكَ ، فقالَ : ما كُنْتُ لأَسأَلَ عنكَ الركبانَ أَبداً ، وبقيَ يقاتِلُ مَعَ المصعبِ ، حتَّىٰ قُتِلَ ، فهربَ هُوَ إِلى (الكوفةِ) ، ووقفَ علىٰ بابِ عليهِ امرأَةٌ ، عرفتْ أَنَّهُ خائفٌ ، فقالَتْ لَهُ : ادخُلْ ، فأَقام عندَها أَربعةَ أَشهرٍ ، في أَرغدِ عيشٍ ، لا يتساءَلانِ ، وكانَ عبدُ الملكِ قد أَهدرَ دمَهُ ، وجعَلَ فيه ديَتَهُ ، وهيَ تسمعُ الجَعيلَةَ فيهِ ، كلَّ مَمْسىً ومَصْبَحٍ ، فلمَّا طالَ الثواءُ . . قالَ لَها : يا هٰذهِ ، إِنِّي قد طربْتُ إِلىٰ أَهلي ، قالَتْ : فلا تعجَلْ ، فلَمَّا كانَ الليلُ . . قالَت لَهُ : إِذا شئْتَ . . فانزلْ ، فإِذا راحلتانِ ، إِحداهُما الزامِلَةُ ، وعلى الأُخرى الرَّحلُ ، ومعَهُما عبدانِ يدلاَّنِهِ الطريقَ ، ويقومانِ بما عناهُ ، عندَ ذلكَ قالَ لَها : مَنْ أَنْتِ ؟ فواللهِ ما رأَيْتُ أَكرمَ مِنْكِ ، قالَتْ : أَولاَ تعرفُني ؟ قالَ : لا واللهِ ، قالَتْ : أَنا التي قلْتَ فيها [في « ديوانه » ٧٠] :

[مِنَ المنسرحِ]

عَادَ لَهُ مِنْ كَثِيرَةَ الطَّرَبُ فَعَيْنُهُ بِالدُّمُوعِ تَنْسَكِبُ

---

(١) أورد الأبيات ياقوت الحموي في « معجم الأدباء » (١٩/ ١٢٨) ، و« المستفاد من تاريخ بغداد » (ص٢٢٨) .

(٢) أورده ابن سعد في « الطبقات » (١/ ٣٢١) بلفظ : « ما ذكر لي رجل من العرب إلا رأيته دون ما ذكر لي إلا ما كان من زيد » ، وبلفظه ذكره الحافظ في « الإصابة » (١/ ٥٧٣) في ترجمة زيد الخيل (٢٩٤١) .

وهيَ : أُمُّ عبدِ الصمدِ بنِ عليٍّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ العبَّاسِ ، ثمَّ مضىٰ ، وأتىٰ أَهلَهُ طَروقاً بـ(المدينةِ) ، فبكَوا ، وقالوا : ما خرجَ الطَّلَبُ مِن عندِنا إلاَّ بالأمسِ ، فانْجُ بنفسِكَ ، فنزلَ علىٰ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ ، وقالَ لَهُ : جئتُكَ مستجيراً ، فركبَ إلىٰ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ ، وقالَ : حاجَةٌ يا أميرَ المؤمنينَ ، فقالَ : كلُّ حاجَةٍ لَكَ مقضيَّةٌ ، ما لم تكُن عبيدَ اللهِ ابنَ قيسٍ ، قالَ : ما كُنْتُ أَراكَ تحجرُ عليَّ شيئاً ، قالَ : فكلُّ حاجَةٍ لَكَ مطلقَةٌ ، قالَ : هِي عبيدُ اللهِ بنُ قيسٍ ، تَهَبُ لي ذنوبَهُ ، ثمَّ غدا عليهِ ، فأنشدَهُ القصيدةَ المستهلَّةَ بذلكَ البيتِ ، ومِن مديحِها [في « ديوانهِ » ٧٣] : [مِنَ المنسرحِ]

يَعْتَـدِلُ التَّـاجُ فَـوقَ مَفْـرِقِـهِ ... عَلَـىٰ جَبِيـنٍ كَـأَنَّـهُ الـذَّهَـبُ

فقالَ تمدحُني بما يُمدَحُ بِهِ الأَعاجِمُ ، وتقولُ في مصعبٍ : [مِنَ الخفيفِ]

إنَّمَـا مُصْعَـبٌ شِهَـابٌ مِـنَ اللّـ ... ـهِ تَجَلَّـتْ عَـنْ وَجْهِـهِ الظَّلْمَـاءُ

ثمَّ أَمرَ بِعِسَاسٍ مِن الخَلَنْجِ ، تُملأُ بأَلبانِ البُخْتِ ، يَحملُ العِسَّ جماعةٌ ، بِحِلَقٍ فيهِ ، فوضِعَتْ بينَ يدَيْ عبيدِ اللهِ ، وقالَ لَهُ عبدُ الملكِ : أَينَ هـٰذهِ من عساسِ المصعبِ ؟ التي تقولُ فيها [في « ديوانهِ » ٢٢٩] : [مِنَ الخفيفِ]

يَلْبِـسُ الْجَيْـشَ بِـالْجُيُـوشِ وَيَسْقِـي ... لَبَـنَ الْبُخْـتِ فِـي عِسَـاسِ الْخَلَنْـجِ[1]

قالَ : بونٌ يا أَميرَ المؤمنينَ ، قالَ : ولِمَ ؟ قالَ : لَو طُرِحَتْ عِسَاسُكَ هـٰذه كلُّها في عسٍّ مِن عِسَاسِ المصعبِ.. لتقلقلَتْ فيهِ ، قالَ لَهُ عبدُ الملكِ : أَبيتَ إلاَّ كَرماً ، قاتَلَكَ اللهُ ، اخرجْ لا خيرَ لَكَ عندي أبداً ، فخرَجَ مِنْ عندِهِ ، ولَحقَ بعبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ ، فأخبرَهُ ، فقالَ : عمِّرْ نفسَكَ ، فعمَّرَ نفسهُ أَربعينَ سنةً ، فأَعطاهُ ما يكفيهِ لتلكَ المدَّةِ ، فقالَ في ذلكَ [في « ديوانهِ » ١١٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَقَـدَّتْ بِـيَ الشَّهْبَـاءُ نَحْـوَ ابْـنِ جَعْفَـرٍ ... سَـوَاءٌ عَلَيْهَـا لَيْلُهَـا وَنَهَـارُهَـا[2]

وفي القصَّةِ أَشياءُ :

أَحدُها : ما سبقَ مِنَ التَّشبيبِ في القصيدةِ بأُمِّ عبدِ الصمدِ بنِ عليٍّ ، فإِنَّهُ لا يتَّفِقُ مع تقدُّمِ قصَّتها معَهُ ، وتأَخُّرِ مدحِهِ بِها لعبدِ الملكِ ، إلاَّ أن يقالَ : لا مانِعَ مِن تفَارُطِ المدحِ عنِ النسيبِ .

ثانيها : أَنَّ الأَليقَ بالمعهودِ ، أَنْ لا يكونَ امتداحُهُ لعبدِ الملكِ إلاَّ بحضرَةِ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ ؛ إذ كيفَ يتجشَّمُ السفرَ مِن أَجلِهِ إلى (الشَّامِ) ، ثم يدعُهُ يدخلُ وحدَهُ علىٰ عبدِ الملكِ ، بعدَ قَبولِ شفاعَتِهِ فيهِ ، وهُما حاضرانِ بـ(دمشْقَ) معاً ؟ أَمَّا جرأَةُ ابنِ الرقياتِ علىٰ عبدِ الملكِ : فلا تستنكَرُ ، مَعَ ما سبقَ من إِيثارِهِ الموتَ في الوفاءِ للمصعَبِ ، على الاستئثارِ بالأَموالِ .

[بحث فقهي حول العمامة]

وفي البيتِ الذي نتكلَّمُ عليهِ إشارَةٌ إِلىٰ فضلِ العمائمِ البيضِ ، يُؤخَذُ مِن استعارتِهِ لها النورَ كما قرَّرْناهُ ، وهُوَ ما عليهِ فقهاؤُنا ، قالَ ابنُ حجَرٍ في « **تحفتِهِ** » : والأَفضلُ في لونِها البياضُ ، وصحَّةُ لُبسِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ لِعمامَةٍ

---

(١) **الخَلنجُ** : شجرٌ تُتخذُ من خشبِهِ الأواني .

(٢) **تقدَّت** : سارت سيراً ليسَ بعَجِلٍ ولا مبطِىءٍ .



سوداءَ ، ونزولُ أكثرِ الملائكةِ يومَ بدرٍ بعمائمَ صفرٍ ، وقائعُ محتمِلَةٌ ، فَلا تنافي عمومَ الخبرِ الصحيحِ ، الآمرِ بِلُبْسِ البياضِ[1] ، وأنَّهُ خيرُ الألوانِ ، في الموتِ والحياةِ . كذا قالَ الشيخُ .

وللباحثِ أنْ يقلِبَ عليهِ الموضوعَ ، فيقولَ : إنَّ الأمرَ بلبسِ البياضِ عامٌّ ، ولبسُ العمامةِ السوداءِ ، والعمائمِ الصفرِ ، مخصِّصٌ لذلكَ العمومِ ، ويؤيِّدُهُ ما ذَكَرَهُ الشيخُ نفسُهُ في بابِ القضاءِ ، حيثُ قالَ : ويدخُلُ القاضي ، وعليهِ عمامةٌ سوداءُ ، كما فعلَ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، لَمَّا دخلَ (مكَّةَ) يومَ الفتحِ[2] .

ثمَّ العمامةُ سنَّةٌ للصلاةِ ، وللتجمُّلِ خارجَها ، قالَ ابنُ حَجَرٍ : لِلأحاديثِ الكثيرَةِ فيها ، واشتدادُ ضعفِ كثيرٍ منها يجبرُهُ كثرةُ الطُّرُقِ ، وتحصلُ السنَّةُ بكونِها على الرأسِ ، أو نحوِ قلنسوَةٍ تحتَها ، وفي حديثٍ ما يدلُّ علىٰ أفضليَّةِ كِبَرِهَا ، لكنَّهُ لا يحتجُّ بهِ ، حتَّىٰ في فضائلِ الأعمالِ ؛ لشدَّةِ ضعفِهِ .

وينبغي ضبطُ طولِها وعَرضِها ، بما يليقُ بلابسِها عادَةً في زمانِهِ ومكانِهِ ، فإنْ زادَ فيها علىٰ ذلكَ . . كُرِهَ ، ومِن هديهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ أنَّهُ كانَ يلبَسُها ، ويلبَسُ القلنسوَةَ تحتَها ، ويلبَسُ القلنسوَةَ بغيرِ عمامَةٍ ، ويلبسُ العمامَةَ بغيرِ قلنسوَةٍ ، ولم يتحرَّرْ شيءٌ في طولِ عمامَتِهِ وعرضِها ، فالحقُّ ما ذكرَهُ الشيخُ مِنَ الرُّجوعِ إلىٰ ما يليقُ بالزمانِ والمكانِ .

وهلْ تكفي القلنسوَةُ عَنِ العمامَةِ في أَصلِ السُّنَّةِ ؟

الجوابُ ما ذكرهُ ابنُ حَجَرٍ ـ أيضاً ـ مِن قولِهِ : ولا بَأْسَ بلبْسِ القلنسوَةِ اللاَّطِئَةِ بالرأْسِ ، والمرتفِعَةِ تحتَ العمامَةِ ، وبلا عمامَةٍ ؛ لأنَّ كلَّ ذلكَ جاءَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، وقد يتأيَّدُ بهِ ما اعتادَهُ بعضُ أهلِ النواحي ، مِن تركِ العمامَةِ ، وتميُّزِ علمائِهم بطيلسَانَ علىٰ قلنسوةٍ بيضاءَ لاصقَةٍ بالرأْسِ ، لكِنْ بتسليمِ ذلكَ . . فإنَّ الأفضلَ لُبْسُ العمامَةِ بِعَذَبَتِها ، وما وقعَ لصاحِبِ « **القاموسِ** » ، مِن أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، لَم يفارِقِ العَذَبَةَ . . مردودٌ ، والصوابُ : أنَّهُ كانَ يتركُها أحياناً . انتهىٰ باختصارٍ ، ولفظُهُ من « **التحفَةِ** » ، ولكنَّهُ يقولُ في « **فتاويهِ** » : حدُّ العمامَةِ ـ التي تحصلُ بِها الفضيلَةُ ، المشارُ إليها بحديثِ : « **صَلاَةٌ بِعِمَامَةٍ ، خَيْرٌ مِنْ سَبْعِينَ صَلاَةٍ بِلاَ عِمَامَةٍ** »[3] ـ **العرفُ ، فما سمَّاهُ العرفُ عمامةً ، قلَّ أَو كثُرَ . . حصلَتْ بِهِ الفضيلَةُ ، وما لا . . فلا .**

ونَحْوُ القلنسوَةِ لا يُحَصِّلُ فضيلَةَ العمامَةِ المذكورَةِ ؛ لأنَّها لا تسمَّىٰ عمامَةً . انتهىٰ .

وفي « **دَرِّ الغَمَامَةِ** » لَهُ ، ما يوافِقُ ما سبَقَ عَنِ « **التُّحْفَةِ** » ، ونصُّهُ بعدَ نحوِ ما سبقَ عنها : (ويؤْخَذُ مِن ذلكَ : أنَّ لُبْسَ القلنسوَةِ البيضَاءِ يُغْني عَنِ العمامَةِ ، وبهِ يتأيَّدُ ما اعتادَهُ بعضُ مدنِ (اليمَنِ) من تركِ العمامَةِ مِن أَصلِها) . اهـ .

---

(1) لحديث ابن عباس رضي الله عنهما : « البسوا البياض فإنها خير ثيابكم » ، أخرجه أبو داوود (٣٨٧٨) في الطب ، والترمذي (٩٩٤) وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه (١٤٧٢) في الجنائز .

(2) قال العلامة السيد محمد جعفر الكتاني في كتابه « الدِّعامة لمعرفة أحكام العِمامة » (ص/٨٦) : فصل : ولبس عليه الصلاة والسلام العمامة السوداء في عدة مواطن كما ورد التصريح بذلك في عدة أحاديث ، أخرج أحمد ومسلم والأربعة والترمذي في « الشمائل » وابن سعد وابن أبي شيبة ، والحارث ابن أبي أسامة وأبو القاسم البغوي وابن عدي وغيرهم عن جابر بن عبد الله الأنصاري ، وابن أبي شيبة عن ابن عمر ، وأبو بكر بن أبي الحارث عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مكة ، وفي رواية : دخل يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء .

(3) أخرج الحافظ في « لسان الميزان » (٣/ ٢٤٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما : « صلاة بعمامة تعدل خمساً وعشرين صلاة بلا عمامة . . » .



وكانتِ الكُبَراءُ تمتازُ بعمائِمِها ، وما سمِّيَ الزِّبْرِقانُ إلاَّ لامتيازِهِ بصفرةِ العمامَةِ .

وكانَ سعيدُ بنُ العاصِ ، المكتني بأَبي أُحيحَةَ ، إِذا اعتمَّ بـ(مكَّةَ) . . لم يعتمَّ أَحدٌ بلونِ عمامَتِهِ ؛ إِعظاماً لَهُ ، وفيهِ يقولُ أَبو قيسِ بنِ الأَسْلَتِ [في « ديوانه » ٨٨ـ٨٩] : [منَ الوافر]

وَكَـانَ أَبُـو أُحيحَـةَ قَـدْ عَلِمْتُـمْ ... بِمَكَّـةَ غَيْـرَ مُهْتَضَـمٍ ذَمِيـمِ

إِذَا شَـدَّ الْعِصَـابَـةَ ذَاتَ يَـوْمٍ ... وَقَـامَ إِلـى الْمَجَـالِـسِ وَالْخُصُـومِ

فَقَـدْ حَـرُمَـتْ عَلَـىٰ مَـنْ كَـانَ يَمْشِي ... بِمَكَّـةَ غَيْـرَ مُـدَّخَـلٍ سَقِيـمِ (١)

وكانتِ الفرسانُ تتقنَّعُ ، ما عدا أَبي تميمِ بنِ طريفٍ ، فإِنَّهُ لا يبالي أَنْ يُعرفَ .

وكانَ التقنُّعُ مِن شِيَمِ الأَشرافِ ، يقصدونَ بذلكَ مبايَنَةَ العامَّةِ ، ويقولونَ : إِنَّ من وطئَتْهُ الأَعينُ . . وطئَتْهُ الأَرجُلُ .

والأَصحُّ عندَنا : عدمُ ندبِ التحنيكِ في العمامَةِ .

وذُكِرَتِ العِمَامَةُ لأَبي الأَسودِ ، فقالَ [في « البيان والتبيين » ١/ ٤٣٦] : هِيَ جُنَّةٌ في الحربِ ، ومكنَةٌ في الحرِّ ، ومدفأَةٌ في القرِّ ، ووقارٌ في النديِّ ، وزيادَةٌ في القامَةِ ، وتعظيمٌ للهامَةِ .

وكانَتْ عمائِمُ الأَكثرينَ من مشايخِنا ، إِلى الكبَرِ أَقربُ مِنها إِلى الصغَرِ ، ولا معابَةَ في شيءٍ مِن ذلكَ ؛ لأَنَّ العادَةَ قدِ اضطربَتْ ، والأَحوالَ قدِ اختلفَتْ ، فما بشيءٍ مِنَ الحالينِ إِزراءٌ ، ولا خروجَ عَنِ العادَةِ ، وإِنِّني واللهِ قلَّما أَذكر غُرَرَهُم الباهرةَ ، وعمائِمَهُم الزاهرَةَ . . إِلاَّ خطرَ بذِهْني ما هُمُ الأَحقُّ بهِ ، مِن قولِ الشاعرِ [في « المستطرف » ١/ ٤٩٦] : [مِنَ الوافر]

إِذا لَبِسُـوا عَمَـائِمَهُـمْ طَـوَوْهَـا ... عَلَـىٰ كَـرَمٍ وَإِنْ سَفَـرُوا أَنَـارُوا

أَمَّا اليومُ : فتكبيرُ العمامَةِ يكادُ يعدُّ مِنَ الإِزراءِ المكروهِ ، أَوِ المحرَّمِ ، علىٰ ما في ذلكَ مِنَ التفصيلِ المذكورِ في أَبوابِ الشهاداتِ مِنَ الفقهِ ، وما رأَتْ عَيني أَحسنَ لَفّاً لَها ، مِن أَهلِ (تريم) حرسَها اللهُ تعالىٰ .

وأَنكرَ بعضُهم لفظ (العِمَّةِ) بمعنى العمامةِ ، وقالَ : إِنَّما هُوَ اسمٌ للهيئَةِ فقط ، وإِنِّي لأَتعجَّبُ مِن ذلكَ ، معَ شهرَةِ استعمالِهِ بينَ العلماءِ ، ومِنْهم الجاحظُ ، والظَّنُّ بهم أَنْ لا يتواتَروا على الغلَطِ ، بلْ كثيراً ما طرَقَ سَمْعي ، لفظ (العِمَّةِ) بمعنى العِمامَةِ في شيءٍ مِن أَشعارِ القدماءِ ، لا يحضُرُني مِنها الآنَ إِلاَّ قولُ دريدٍ [في « ديوانه » ١١٠] : [مِنَ البسيط]

عَـارِي الأَشَـاجِـعِ مَعْصُـوبٌ بِعِمَّتِـهِ ... أَمْـرُ الـزَّعَـامَـةِ ، فِـي عُـرْنِينِـهِ شَـمَـمُ

علىٰ أَنِّي لستُ متأَكِّداً من كونِهِ بهٰذا اللفظِ ؛ لأَنَّ الحفظَ يخونُ .

وقالَ الفرزدَقُ يَهْجو : [مِنَ الرَّجَز]

قُبِّحَتِ الْعَيْنَانِ تَحْتَ الْعِمَّهْ

فقالَ المهجوُّ : [مِنَ الرَّجَز]

بَلْ قُبِّحَ الْهَاجِي وَنَاكَ أُمَّهْ

* * *

(١) « البيان والتبيين » (١/ ٤٣٥) ، المدَّخَل : الدعيُّ الذي يدخلُ في القومِ .

أَكَـــارِمٌ حَسَـــدَ الأَرْضَ السَّمَـــاءُ بِهِـــمْ وَقَصَّـــرَتْ كُـــلُّ مِصْـــرٍ عَـــنْ طَـــرَابُلُـــسِ

[شرح المطلع]

(**أكارِمٌ**) : جَمْعُ أَكْرمَ ، كأَفاضِل جمعُ الأَفضلِ ، يقولُ : بوجودِهِم في الأَرضِ حسدَتْها السماءُ ، ولَو أَنَّهُ قالَ : (**حسدَتْ**) بالتأْنيثِ ، و(**قصرَ**) بالتذكيرِ . . لكانَ أَولىٰ ؛ لأَنَّ التأْنيثَ في السماءِ أَكثرُ فيها مِنَ التَّذكيرِ ، وفي « **شمسِ العلومِ** » للقاضي نشوانَ بن سعيدٍ : كلُّ مؤنَّثٍ بلا علامَةِ تأْنيثٍ ، يَجوزُ تذكيرُهُ ، كالسماءِ ، والأَرضِ ، والشمسِ ، والنارِ ، والقوسِ ، وهِيَ فائدَةٌ جليلةٌ . قالَ شارحُ « **القاموسِ** » : وردَّ عليهِ شيخُنا ، وقالَ : هـٰذا كلامٌ غيرُ معوَّلٍ عليهِ ، عندَ أَربابِ التحقيقِ ، ولْيرجعِ النَّاظِرُ إِلىٰ مادَّةِ (سَمَا) مِنْهُ ؛ ليحيطَ بما فيهِ مِنَ البحثِ .

[أيهما أفضل الأرض أم السماء ؟]

وقدِ اختُلِفَ في المفاضلَةِ بينَ الأَرضِ والسماءِ ، ففضَّلَ الأُولىٰ قومٌ ؛ لأَنَّها مستقرُّ الأَنبياءِ ، ومدفَنُهُم ، وفَضَّلَ الثانيةَ الأَكثرونَ ؛ لأَنَّهُ لم يُعْصَ اللهُ فِيها ، ومعصيَةُ إِبليسَ نادرَةٌ ، أَو لم تكُنْ فيها ، **معَ الاتفاقِ علىٰ أَفضليَّةِ البقعَةِ التي ضمَّتْ جسدَ نبيِّنا** صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، بَلِ ادَّعى ابنُ حجرٍ : الإِجماعَ علىٰ أَفضليَّتِها على العرشِ والكرسيِّ .

والحقُّ : أَنَّهُ قولٌ مولَّدٌ ، فَادِّعاءُ الإِجماعِ عليهِ ، مِن أَظهرِ الأَغلاطِ ، كما نبَّهَ عليهِ الكرديُّ ، وقرَّرتُهُ في كتابي : « **الفوائدُ الجَنيَّةُ** » ، وأُلْحِقَ بمدفَنِهِ عليهِ السلامُ سائرُ مدافِنِ الأَنبياءِ صلواتُ اللهِ عَليهِم أَجمعينَ ، كَمَا قرَّرَهُ بعضُهم ، وأَكثرُ العلماءِ يفضِّلُونْ (مكَّةَ) على (المدينةِ) ، خَلا تلكَ البقعةِ الشريفَةِ ، وخالفَهُم إِمامُ دارِ الهجرَةِ ، **فجزمَ** بتَفْضيلِ (المدينةِ)[1] . وبيتُ الناظِمِ ناظِرٌ إِلىٰ بعضِ ذلكَ ، وإِلىٰ قولِ زهيرٍ : [مِنَ البسيطِ]

تَنَـافَـسُ الأَرْضُ مَـوْتَـاهُـمْ إِذَا دُفِنُـوا كَمَـا تَنَـافَـسَ عِنْـدَ الْبَـاعَـةِ الْـوَرَقُ
كَـأَنَّ آخِـرَهُـمْ فِـي الْجُـودِ أَوَّلُهُـمْ إِنَّ الشَّمَـائِـلَ فِـي الأَخْـلاَقِ تَتَّفِـقُ

[تفاخر الأماكن والأعضاء علىٰ بعضها]

وقد تكرَّرَ نظيرُهُ عندَ الناظمِ ، فمِنْهُ **قولُهُ** [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٠٦] : [مِنَ المتقاربِ]

وَإِنَّ الْفِئَـــامَ الَّتِـــي حَـــوْلَـــهُ لَتَحْسُـــدُ أَرْجُلَهَـــا الأَرْؤُسُ[2]

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٩٩] : [مِنَ الخفيفِ]

خَيْـــرُ أَعْضَـــائِنَـــا الـــرُّؤُوسُ وَلَكِـــنْ فَضَلَتْهَـــا بِقَصْـــدِكَ الأَقْـــدَامُ

---

(١) أي : مالكٌ مستدلاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « المدينة خير البقاع » و« المدينة خير من مكة » رواه عن رافع بن خديج الطبراني والدارقطني في « الأفراد » كما في « الجامع الصغير » (٩١٨٥) .

(٢) **الفئامُ** : الجماعاتُ .



وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٤٨] : [مِنَ الخفيفِ]

عَظَّمَتْهُ مَمَالِكُ الْفُرْسِ حَتَّىٰ كُلُّ أَيَّامِ عَامِهِ حُسَّادُهْ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٣٤] : [مِنَ الكاملِ]

أَرْضٌ لَهَا شَرَفٌ سِوَاهَا مِثْلُهَا لَوْ كَانَ مِثْلُكَ فِي سِوَاهَا يُوجَدُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٧٥] : [مِنَ الوافرِ]

فَإِنِّيَ قَدْ وَصَلْتُ إِلَىٰ مَكَانٍ عَلَيهِ تَحْسُدُ الْحِدَقَ الْقُلُوبُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١١٥] : [مِنَ البسيطِ]

وَتَغْبِطُ الأَرْضُ مِنْهَا حَيْثُ حَلَّ بِهِ وَالْخيْلُ تَحْسُدُ مِنْهَا أَيَّهَا رَكِبَا

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٤٦] : [مِنَ البسيطِ]

الْمَجْلِسَانِ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَهُمَا مُقَابِلاَنِ ولَكِنْ أَحْسَنَا الأَدَبَا

إِذَا صَعِدْتَ إِلَىٰ ذَا . . مَالَ ذَا رَهَباً وَإِنْ صَعِدْتَ إِلَىٰ ذا . . مَالَ ذَا رَغَبَا

فَلِمْ يَهَابُكَ مَا لاَ حِسَّ يَرْدَعُهُ ؟! إِنِّي لأُبْصِرُ مِنْ شَأْنَيْكُمَا عَجَبَا

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٤٦] : [مِنَ الوافرِ]

لَقَدْ ظَلَّتْ أَوَاخِرُهَا الْعَوَالِي مَعَ الأُولَىٰ بِجِسْمِكَ فِي قِتَالِ[1]

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٨٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَحَاسَدَتِ الْبُلْدَانُ حَتَّىٰ لَوَ انَّهَا نُفُوسٌ لَسَارَ الشَّرْقُ وَالْغَرْبُ نَحْوَكَا

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٦٨] : [مِنَ البسيطِ]

إِذَا حَلَلْتَ مَكَاناً بَعْدَ صَاحِبِهِ جَعَلْتَ فِيهِ عَلَىٰ مَا قَبْلَهُ تِيهَا[2]

ولا يبعُدُ عنهُ أيضاً قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٨٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

هُوَ الْحَظُّ حَتَّىٰ تَفْضُلَ الْعَيْنُ أُخْتَهَا وَحَتَّىٰ يَكُونَ الْيَوْمُ لِلْيَوْمِ سَيِّدَا

وقالَ حبيبُ بنُ أَوسٍ [وهو أبو تمَّامٍ في « ديوانهِ » ٢/ ٩٩] : [مِنَ الكاملِ]

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الدِّيَارَ رَأَيْتَهَا تُثْرِي كَمَا تُثْرِي الرِّجَالُ وَتُعْدِمُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٣٦٢] : [مِنَ المنسرحِ]

يَشْتَاقُهُ مِنْ كَمَالِهِ غَدُهُ وَيُكْثِرُ الْوَجْدَ نَحْوَهُ الأَمْسُ

---

(١) المعنىٰ : أقامت أعالي ثيابكَ التي تظهرُ للناسِ تَحسُدُ الأقربَ من جسدكَ وهيَ التي تباشرُ جسدكَ ، فبينهما قتالٌ لذلك .

(٢) التيهُ : التكبُّرُ والفخر .

وقالَ البُحتريُّ لَمَّا جاءَ وفدُ الرومِ إِلىٰ عندِ المتوكِّلِ [في « ديوانهِ » ٣/١٥٩٨] : [مِنَ الكاملِ]

وَيَـوَدُّ قَـوْمُهُـمُ الأُلَـىٰ بَعَثُـوا بِهِـمْ ... لَـوْ ضَمَّهُـمْ بِـالأَمْـسِ ذَاكَ الْمَحْفَـلُ
قَـدْ نَـافَسَ الْغَيْـبَ الْحُضُـورُ عَلَـى الَّـذِي ... شَهِدُوا ، وَقَدْ حَسَدَ الرَّسُولَ الْمُرْسِلُ

وقالَ ابنُ الروميِّ : [مِنَ البسيطِ]

تنَـافَـسَ النَّـاسُ فِـي أَيَّـامِ دَوْلَتِـهِ ... فَمَـا يَبِيعُـونَ سَـاعَـاتٍ بِـأَعْـوَامِ

وقالَ آخرُ : [مِنَ الطَّويلِ]

تنَـافَسَـتِ الأَيَّـامُ فِـيَّ وَلَـمْ تَـزَلْ ... عَلَـىٰ حَسَـدٍ مِـنْ أَجْـلِ ذَاكَ وَأَحْقَـادِ

وقالَ المعريُّ [في « سقطِ الزندِ » ٢٢١] : [مِنَ الطَّويلِ]

يُنَـافِـسُ يَـوْمِـي فِـيَّ أَمْسِـي تَشَـرُّفـاً ... وَتَحْسُـدُ أَبْكَـارِي عَلَـيَّ الأَصَـائِـلُ[1]

وقالَ ابنُ الفارضِ [في « ديوانهِ » ١٤٩] : [مِنَ الكاملِ]

يَـا سَـائِـراً بِـالْقَلْـبِ غَـدْراً كَيْـفَ لَـمْ ... تُتْبِعْـهُ مَـا غَـادَرْتَـهُ مِـنْ سَـائِـرِي ؟
بَعْضِـي يَغَـارُ عَلَيْـكَ مِـنْ بَعْضِـي وَيَحْـ ... ـسُـدُ بَـاطِنِـي إِذْ أَنْـتَ فِيـهِ ظَـاهِـرِي

وقلتُ في رثاءِ العلاَّمَةِ الجليلِ ، السيِّدِ أَحمدَ بنِ حسنِ العَطَّاسِ ، ما هوَ الغايَةُ في الموضوعِ ، وهُوَ [كما في « ديوان المؤلف » ق ٧٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأُدْرِجَ فِـي ثَـوْبٍ مِـنَ الْقُطْـنِ أَضْمَـرَتْ ... لَـهُ حَسَـداً فِـي نَفْسِهَـا الْحُلَـلُ الْخُضْـرُ

علىٰ أَنَّهُ فوقَ ذلكَ ، مثالٌ مِنْ أَمثلةِ الاتِّساعِ البَديعيِّ ؛ إِذ يحتمِلُ أَنْ يُرادَ بـ (الحُلَلُ الخُضْرُ) الَّتي كانَ يلبَسُها في الدُّنيا ، أَوِ الَّذي تنتظرُهُ في الجنَّةِ ، أَوِ القِسمانِ ؛ إِذ لا مانِعَ مِن حملِ المشترَكِ علىٰ معنيَيْهِ .

[ذكاء الفضل بن الربيع وهو صغير]

ويُحكىٰ : أَنَّ الرَّشيدَ قالَ للفضلِ بنِ الرَّبيعِ ـ وهوَ صغيرٌ ـ : دارُنا أَحسنُ أَمْ دارُكُم ؟ فقالَ لَهُ : إِذا كنتَ في دارِنا . . فدارُنا أَحسنُ ، وإِذا كنتَ في دارِكَ . . فهيَ أَحسنُ ، وكانَ في يدِهِ خاتَمٌ ، فقالَ لَهُ : أَرأَيتَ أَحسنَ مِن هٰذا ؟ قالَ : الأُصبعُ الَّذي هوَ فيهِ .

ويروىٰ نظيرُهُ للفتحِ بنِ خاقانَ .

وقالَ بعضُهُم : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَـا أَحْسَـنَ الـدُّنْيَـا وَفِـي الـدَّارِ خَـالِـدٌ ... وَأَقْبَحَهَـا لَمَّـا تَجَهَّـزَ خَـالِـدُ

وقالَ العلويُّ : [مِنَ الخفيفِ]

إِنَّمَـا الـدَّارُ بِـالْحُلُـولِ فَـإِنْ هُـمْ ... فَـارَقُـوهَـا فَحَيْـثُ حَلُّـوا الـدِّيَـارَا

---

(١) **الأصائل** : جمع أصيل ، وهوَ آخرُ النهارِ .

وقالَ سليمانُ الحاربيُّ : [مِنَ الطَّويلِ]

إذا لَـمْ تكُـنْ لَيْلَـىٰ بِنَجْـدِ تغَيَّـرَتْ مَحَـاسِـنُ دُنْيَـا أَهْـلِ نَجْـدِ وَطِيبُهَـا

وأَلَمَّ صاحبُنا ببعضِ ذلكَ فقالَ [في «العُكبَريِّ» ١/ ٣٤] [مِنَ : الخفيفِ]

نَـزَلَـتْ إِذْ نَـزَلْتَهَـا الـدَّارُ فِـي أَحْـسَـنَ مِنْهَـا مِـنَ السَّنَـا وَالسَّنَـاءِ[1]

* * *

(١) السنا : الضياءُ والنورُ . السناءُ : العلوُّ والرفعةُ .

المجلس الثاني عشر

[قالَ أبو الطَّيِّب المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٢] : [مِنَ الكاملِ]

أَرَقٌ عَلَىٰ أَرَقٍ وَمِثْلِي يَأْرَقُ ... وَجَوىً يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ

[شرح المطلع]

(**الأَرَقُ**) : امتناعُ النومِ ، و(**الجَوَىٰ**) : الحُزْنُ الذي يستبطنُ الإنسانَ ، فيكونُ في حشاهُ ، و(**العَبْرَةُ**) : تردُّدُ الدمعِ في العينِ .

يقولُ : لي سُهادٌ بعدَ سهادٍ ، ومَن كانَ مِثلي . . فلاَ بدَّ لَهُ من السهادِ ، إلاَّ أَنَّهُ قصَّرَ هنا ، بما يُفْهِمُهُ سياقُ كلامِهِ مِنِ انحصارِ سهادِهِ على الهوىٰ ، ولو أَنَّهُ جعلَهُ لَهُ ولِلْمجدِ . . لكانَ أَشرفَ وأَجملَ .

[السهر والأرق من أجل الهوىٰ ومن أجل المجد]

وقد قالَ حافظٌ : [مِنَ الطَّويلِ]

لِحَاظُكَ وَالأَيَّامُ جَيْشٌ أُغَالِبُهْ ... فَهَٰذِي مَوَاضِيهِ وَهَٰذِي كَتَائِبُهْ

وَهَمَّيْنِ ضَاقَ الْقَلْبُ وَالصَّدْرُ عَنْهُمَا ... غَرَامٌ أُعَانِيهِ وَعَيْشٌ أُغَالِبُهْ

غيرَ أَنَّهُ لَو أَبدلَ لفظةَ (العيشِ) ، بلفظةِ الدهرِ . . لكانَ أَفخرَ وأَكبرَ ؛ لِما تجتلبُهُ الأُولىٰ مِنَ الضَّعَةِ ، والمعنىٰ مأْخوذٌ مِن قولِ سهلِ بنِ هارونَ : [مِنَ الطَّويلِ]

تَقَاسَمَنِي هَمَّانِ قَدْ كَسَفَا بَالِي ... وَقَدْ تَرَكَا قَلْبِي مَحَلَّةَ بَلْبَالِ[1]

فِرَاقُ خَلِيلٍ مِثْلُهُ يَبْعَثُ الأَسَىٰ ... وَحَاجَةُ خِلٍّ لا يَقُومُ بِهَا مَالِي

ولي في مثلِهِ الكثيرُ الطيِّبُ ، غيرَ أَنِّي لا أُثقلُ بِهِ .

[منشأ الهموم وترادف الغموم من كبر الهمة]

وقد تكرَّرَ في « **ديوانِ الناظمِ** » ما يشيرُ إِلىٰ نشأَةِ الهمومِ ، وترادُفِ الغمومِ ، عَن كُبْرِ الهمَّةِ ، وطموحِ النفسِ في طلبِ العُلا ، **كقولِهِ** [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ١٨٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَحَا اللهُ ذِي الدُّنْيَا مُنَاخاً لِرَاكِبٍ ... فَكُلُّ بَعِيدِ الْهَمِّ فِيهَا مُعَذَّبُ[2]

---

(١) **البلبالُ** : الهمُّ الذي يَعْتلجُ الصَّدرَ .

(٢) **لحا الله** : قَبَّحَ ولعنَ ، وأَصلُهُ من لَحوتُ العودَ إِذا قشَّرتَهُ .



وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٤٥] : [مِنَ الخفيفِ]

وَإِذَا كَـانَـتِ النُّفُـوسُ كِبَـاراً ... تَعِبَـتْ فِـي مُـرَادِهَـا الأَجْسَـامُ

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

وأَتْعَـبُ خَلْـقِ اللهِ مَـنْ زَادَ هَمُّـهُ ... وَقَصَّـرَ عَمَّـا تَشْتَهِـي النَّفْـسُ وُجْـدُهُ[1]

إلاَّ أَنَّهُ خَضعَ في هٰذا لِبعضِ القولِ ؛ إذ صرَّحَ بأنَّهُ لم يتعبْ مِن كُبْرِ الهمَّةِ إلاَّ لقلَّةِ المالِ ، وقضيَّتُهُ أَنْ لا مطمحَ لَهُ وراءَ حصولِهِ ، فهوَ نقيضُ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا رَغْبَتِـي فِـي عَسْجَـدٍ أَسْتَفِيـدُهُ ... وَلَكِنَّهَـا فِـي مَفْخَـرٍ أَسْتَجِـدُّهُ

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ٢٠٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

إذا نِلْـتُ مِنْـكَ الْـوُدَّ فَـالْكُـلُّ هَيِّـنٌ ... وَكُـلُّ الَّـذِي فَـوْقَ التُّـرَابِ تُـرَابُ

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٧٤] : [مِنَ البسيطِ]

تَهْـوِي بِمُنْجَـرِدٍ لَيْسَـتْ مَـذاهِبُـهُ ... لِلُبْـسِ ثَـوْبٍ ومَـأْكُـولٍ ومَشْـرُوبِ

وما أكثرَ ما يتناقَضُ قولُهُ ، كما ذكرنا غيرَ مرَّةٍ ، وكلَّما ادَّعىٰ غيرَ ما في نفسِهِ . . ظهرَ علىٰ فلتاتِ لسانِهِ ، وقد صرَّحَ المخضُ[2] عنِ الزبدِ ، في مثلِ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٨٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

إذا لَـمْ تَنُـطْ بِـي ضَيْعَـةً أَوْ وِلاَيَـةً ... فَجُـودُكَ يَكْسُـونِـي وَفَضْلُـكَ يَسْلُـبُ[3]

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١١٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

هُمَـا خَلَّتَـانِ : ثَـرْوَةٌ أَوْ مَنِيَّـةٌ ... لَعَلَّـكَ أَنْ تُبْقِـي بِـوَاحِـدَةٍ ذِكْـرَا[4]

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٢٠] : [مِنَ الخفيفِ]

ضَـاقَ صَـدْرِي وَطَـالَ فِـي طَلَـبِ الـرِّزْ ... قِ قِيَـامِـي وَقَـلَّ عَنْـهُ قُعُـودِي

[اضحك على الحريص!!]

فتجلَّىٰ في غيرِ شبهةٍ ، أَنَّهُ لا يريدُ مِنَ الإمارةِ غيرَ المالِ ، وبهِ يتأكَّدُ ما أُثِرَ عنهُ مِن شدَّةِ الحرصِ ، إلىٰ حدٍّ أَنَّ بعضَ الأُمراءِ أَجازهُ بمالٍ كثيرٍ ، فنشبَ منهُ دانقٌ في الحصيرِ ، فما زالَ يعالِجُهُ ، ويتمثَّلُ بقولِ قيسِ بنِ الخطيمِ [في « ديوانه » ٣٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَبَـدَّتْ لَنَـا كَـالشَّمْـسِ تَحْـتَ غَمَـامَـةٍ ... بَـدَا جَـانِـبٌ مِنْهَـا وَضَنَّـتْ بِجَـانِـبِ

ولم ينفكَّ حتَّىٰ دميَت أَظافرُهُ .

---

(١) الوُجدُ : السَّعةُ .

(٢) المخضُ : تحريك اللبنِ في المِخضَّةِ . وهيَ وعاءٌ يوضعُ فيهِ اللبنُ ويحرَّكُ كي يستخرج زُبداً .

(٣) تنُط : تعلِّق . الضيعَةُ : البلدةُ أو القريةُ ، والمعنىٰ : إذا لم تُقطعني ضيعةً . فجودكَ يكسوني ، وشغلُكَ عني يُذهبُ ويَسلبُ عني تلك الكسوةَ .

(٤) المعنىٰ : هما خصلتانِ : إمّا الغنىٰ أو الموتُ ، فانهض إمَّا لتكسِبَ المالَ أو لتقتلَ الأعداء .

ورأيتُ في بعضِ الكتبِ : أَنَّ كسرىٰ أكرمَ بعضَ رعيَّتِهِ بمالٍ طائلٍ ، ولمَّا احتملَهُ ، وما كادَ إلاَّ بجهدٍ . . سقطَ منهُ درهمٌ ، فتكلَّفَ أخذَهُ مِنَ الأرضِ بعناءٍ ومشقَّةٍ ، فعاتبَهُ الملكُ ، وقالَ لَهُ : أَلم يغنكَ الذي معكَ ؟ فهلاّ تركتَهُ ينتفعُ بهِ أحدُ الخدَمِ ، وتسلمُ مِن تعبِ القُعودِ والقيامِ ، معَ الحِمْلِ الثقيلِ ؟ قالَ : يا مولايَ ، ما بي حرصٌ علىٰ شيءٍ مَعَ بقائِكَ ، ولكن لم تطبْ نفسي بامتهانِهِ على الأرضِ ساعةً ما ، وعليهِ اسمُ الملكِ ، فاستحسنَها وأضعفَ الجائزَةَ ، وأمرَ من يحمِلُها مَعَهُ .

[تعليل المتنبي لسبب حرصه]

ويذكرُ عَنِ الناظمِ : أنَّهُ كانَ يعلِّلُ حرصَهُ بقصَّةٍ ، حاصلها : أنَّهُ وردَ (الكوفةَ) في صباهُ ، ومعَهُ خمسةُ دراهمَ في منديلٍ ، فرأىٰ باكورةَ بِطِّيخٍ ينادىٰ عَليها ، فدفعَ فيها الخمسةَ الدراهمِ ، فلم يرضَها البائعُ ، حتَّىٰ مرَّ أحدُ الوجهاءِ ذاهباً إلىٰ دارِهِ ، فوثَبَ إليهِ صاحبُ البطيخِ ، وقالَ : ياMولاي ، باكورةُ بطيخٍ ، أحملهُ بإجازتِكَ إلىٰ داركَ ، قالَ : بكَم ؟ قالَ : بخمسةِ دراهمَ ، فقالَ الوجيهُ : بل بثلاثةٍ ، فباعَ عليهِ ، وحملَها إلىٰ دارِهِ ، ودَعا لهُ ، وانقلبَ مسروراً مِن نفسِهِ بما فعلَ ، قالَ المتنبي : فقلتُ لَهُ : يا هـٰذا ، ما رأيتُ أحمقَ منكَ ، أعطيتكَ فيهِ خمسةَ دراهمَ ، ثمَّ تبيعُهُ بثلاثةٍ ، وتحملُهُ فوقَ ذلكَ إلىٰ منزلِ المشتري ، فقالَ : اسكتْ ، أَما تَدْري أنَّهُ يملكُ مِئةَ أَلفِ دينارٍ ؟! فَلا أزالُ علىٰ ما ترونَ مِنَ الحرصِ ، حتَّىٰ يسمعَ الناسُ بأنَّ عِندي مئةَ أَلفٍ ، هـٰذا ما يذكرونَ عنهُ ، وهُوَ لا يشرِّفُهُ ، ولا يبرِّرُ عملَهُ ، وإنَّما يدلُّ علىٰ أنَّهُ صاحبُ زهوٍ وبأوٍ ، يحاولُ أنْ يتحصَّلَ على المنزلَةِ الجوفاءِ مِن قلوبِ السقَّاطِ والغوغَاءِ ، وإنَّما يظهرُ بُعدُ الهمَّةِ ، وشرفُ النفسِ ، مِن مثلِ قولِ امرىءِ القيسِ [في « ديوانه » ١٦٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَــوْ أَنَّمَــا أَسْعَــىٰ لأَدْنَــىٰ مَعِيشَــةٍ   كَفَانِي ـ وَلَمْ أَطْلُبْ ـ قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ
وَلَكِنَّمَــا أَسْعَــىٰ لِمَجْــدٍ مُــؤَثَّــلٍ   وَقَــدْ يُـدْرِكُ الْمَجْـدَ الْمُـؤَثَّـلَ أَمْثَـالِـي

وقولِ جُرثومَةَ بنِ مالكٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَتــىً إنْ تَجِــدْهُ مُعْــوِزاً مِــن تِــلاَدِهِ   فَلَيْــسَ مِــنَ الــرَّأْيِ الأَصِيــلِ بِمُعْــوِزِ

والناظمُ كثيراً ما يرعىٰ غيرَ ماشيتِهِ ، ويحطِبُ في حبلِ غيرِهِ ، ويتظاهَرُ ببعدِ الهمَّةِ ، والاستهانةِ بالمالِ ، فيقولُ [في « العُكبَريّ » ٣/٢٧٨] : [مِنَ البسيطِ]

وَمَــا شَكَــرْتُ لأَنَّ الْمَــالَ فَــرَّحَنِــي   سِيَّــانِ عِنْــدِيَ إِكْثَــارٌ وَإِقْــلاَلُ[1]

لكنَّ الطبعَ أغلبُ ، والعادةَ أملكُ ، وهوَ القائلُ [في « العُكبَريّ » ٢/١٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَسْــرَعُ مَفْعُــولٍ فَعَلْــتَ تَغَيُّــراً   تَكَلُّــفُ شَــيْءٍ فِــي طِبَــاعِــكَ ضِــدُّهُ

فهوَ متكلِّفٌ في دعواهُ طلبَ المجدِ الصحيحِ ، والشرفِ الصريحِ ، صادقٌ إذا أشارَ إلىٰ أنَّ معقدَ العزِّ ، ومطمحَ المجدِ عندَهُ ، حيازةُ مئةِ أَلفٍ ، وتلكَ سبيلٌ لَيسَ فيها بأوحدٍ ، كما بيَّنّاهُ في المجلسينِ السادسِ والثالثَ عشرَ ، ومنهُ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/٢٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَــلاَ مَجْــدَ فِــي الــدُّنْيَــا لِمَــنْ قَــلَّ مَــالُــهُ   وَلاَ مَــالَ فِــي الــدُّنْيَــا لِمَــنْ قَــلَّ مَجْــدُهُ

---

(١) السيانِ : المثلانِ .



وقولُ هرم بنِ عميرِ التغلبيِّ [في « البيان والتبيين » ١/ ٤٢] : [مِنَ البسيطِ]

إِنِّـي امْـرُؤٌ هَـدَمَ الإِقْتَـارُ مَـأْثُـرَتِـي ... وَاجْتَـاحَ مَـا بَثَّـتِ الأَيَّـامُ مِـنْ خَطَـرِي

أَرُومَـــةٌ عَطَّلَتْنِـــي مِـــنْ مَكَـــارِمِهَـــا ... كَـالْقَـوْسِ عَطَّلَهَـا الـرَّامِـي مِـنَ الْـوَتَـرِ

وقولُ الأَحنفِ [في « البيان والتبيين » ١/ ٣٥٧] : [مِنَ المتقاربِ]

وَإِنَّ الْمُـــــرُوءَةَ لاَ تُسْتَطَـــــاعُ ... لِمَـنْ لَـمْ يَكُـنْ مَـالُـهُ فَـاضِـلاَ

وقولُ غيرِهِ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِلَـى اللهِ أَشْكُـو لاَ إِلَـى النَّـاسِ أَنَّنِـي ... أَرَىٰ صَـالِـحَ الأَخْـلاَقِ لاَ أَسْتَطِيعُهَـا

أَرَىٰ خَلَّـةً فِـي إِخْـوَةٍ وَقَـرَابَـةٍ ... وَذِي رَحِـمٍ مَـا كُنْـتُ مِمَّـنْ يُضِيعُهَـا

وفي هٰذينِ شَبَهٌ من ناحيةٍ بما سبقَ عنْ سهلِ بنِ هارونَ[1] .

[للأرق سبب آخر وهو : الخوف]

ثمَّ إِنَّ الأَرقَ **تارةً يكونُ** عَن مجردِ الهوىٰ ، كما في البيتِ الذي نتكلَّمُ عليهِ ، وكما مرَّ الإِطنابُ فيهِ من المجلسِ الأَوَّلِ .

وإِمَّا أَن يكونَ من الخوفِ ، كما سبقَ في شرحِ **قولِهِ** [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٠٨] : [مِنَ المنسرحِ]

أَصْبَـــحَ حُسَّـــادُهُ وَأَنْفُسُهُـــمْ ... يُحْـدِرُهَـا خَـوْفُـهُ وَيُصْعِـدُهَـا

[أو المجد]

وإِمَّا أَنْ يكونَ في سبيلِ المجدِ ، كما ذكرنا بعضَهُ أَواخرَ المجلسِ السابعِ .

[أو غير ذلك]

وإِمَّا لغيرِ ذلكَ ، فالأَسبابُ كثيرةٌ ، ويدخلُ في القسمِ الأَوَّلِ قولُ ابنِ الأَحنفِ [في « ديوانهِ » ٢٨٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

قِفَـا خَبِّـرَانِـي أَيُّهَـا الـرَّجُـلاَنِ ... عَـنِ النَّـوْمِ إِنَّ الْهَجْـرَ عَنْـهُ نَهَـانِـي

وَكَيْفَ يَكُونُ النَّوْمُ ، أَمْ كَيْفَ طَعْمُهُ ؟ ... صِفَـا النَّـوْمَ لِـي إِنْ كُنْتُمَـا تَصِفَـانِ

وَإِنِّـي لَمُشْتَـاقٌ إِلَـى النَّـوْمِ فَـاعْلَمَـا ... وَلاَ عَهْـدَ لِـي بِـالنَّـوْمِ مُنْـذُ زَمَـانِ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ١٣٣] : [مِنَ الخفيفِ]

حَـدِّثُـونِـي عَـنِ النَّهَـارِ حَـدِيثـاً ... أَوْ صِفُـوهُ فَقَـدْ نَسِيـتُ النَّهَـارَا

وقيلَ لأُمِّ الهيثمِ ابنةِ الأَسودِ : ما حالُكِ ؟ فقالَتْ : [مِنَ الوافرِ]

تَجَـافَـىٰ مَضْجَعِـي وَنَبَـا رُقَـادِي ... وَلَيْلِـي مَـا يَقَـرُّ مِـنَ السُّهَـادِ

أُرَاقِـبُ فِـي السَّمَـاءِ بَنَـاتِ نَعْـشٍ ... وَلَـوْ أَسْطِيـعُ كُنْـتُ لَهُـنَّ حَـادِي[2]

---

(١) في بداية هٰذا المجلس .

(٢) بناتُ نعشٍ : سبعةُ كواكبَ ، أَربعةٌ منها نعشٌ ، وثلاثٌ بناتٌ .

وقالَ ابنُ دريدٍ [في « ديوانهِ » ٧٤] : [مِن الطَّويلِ]

لَقَـدْ أَلِفَـتْ دُهْـمُ النُّجُومِ رِعَـايَتِـي ... فَـإِنْ غِبْـتُ عَنْهَـا فَهْـيَ عَنِّـي تُسَـائِـلُ
يُقَـابِـلُ بِـالتَّسْلِيـمِ مِنْهُـنَّ طَـالِـعٌ ... وَيُـومِـىءُ بِـالتَّـوْدِيـعِ مِنْهُـنَّ آفِـلُ

ولي في الموضوعِ الجمُّ المباركُ ، الذي لا بأسَ أَنْ أذكرَ منهُ مطلعَ قصيدةٍ نبويَّةٍ ، وهُوَ[في «ديوانِ المؤلِّف» ١٥٨] : [مِنَ الكاملِ]

طَفِقَـتْ تُعَيِّـرُ أَدْهَمِـي بِحِـرَانِـهِ ... وَهِـيَ الَّتِـي أَمَـرَتْ بِغَـضِّ عِنَـانِـهِ[(١)]
أَنَّـىٰ يَشِيـبُ غُـرَابُ لَيْـلِ مُتَيَّـمٍ ... ظَلَعَـتْ جِيَـادُ الشُّهْـبِ فِـي مَيْـدَانِـهِ[(٢)]

ويدخلُ في الثالثِ كلُّ ما جاءَ في فضيلةِ قيامِ الليلِ ، ومنهُ قولهُ تعالىٰ : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات : ١٧] .

وقولُهُ : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء : ٧٩] .

وقولُهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل : ١-٢] .

وقولُهُ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة : ١٦] .

وقولُ ابنِ رواحةَ [في « ديوانهِ » ٩٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَفِينَـا رَسُـولُ اللهِ يَتْلُـو كِتَـابَـهُ ... إِذَا انْشَـقَّ مَعْـرُوفٌ مِـنَ الْفَجْـرِ سَـاطِـعُ
يَبِيـتُ يُجَـافِـي جَنْبَـهُ عَـنْ فِـرَاشِـهِ ... إِذَا اسْتَثْقَلَـتْ بِـالْمُشْـرِكِيـنَ الْمَضَـاجِـعُ

وقالَ ابنُ المعتزِّ [في « ديوانهِ » ١/ ١٠٤] : [مِنَ الخفيفِ]

أَنَـا مَـنْ تَعْلَمُـونَ أَسْهَـرُ لِلْمَجْـ ... ـدِ إِذَا غَـطَّ فِـي الْفِـرَاشِ اللَّئِيـمُ

وقالَ كُشاجمُ [في « ديوانهِ » ٤٨٦] : [مِنَ الهزَجِ]

تَـرَكْـتُ النَّـوْمَ لِلنُّـوَّا ... مِ إِشْفَـاقـاً عَلَـىٰ عُمْـرِي

وقالَ غيرُهُ [ابن نباتة في « قرى الضيف » ٢/ ٤٥٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـنْ سَهِـرَتْ فِـي الْمَكْـرُمَـاتِ جُفُـونُـهُ ... رَعَـىٰ طَـرْفُـهُ فِـي جَـوْفِهَـا أَنْجُـمَ الْعُـلاَ

[هجاء المتقاعسين عن المجد والسمو]

ولا يتجافىٰ عنِ المبحَثِ الذي نخوضُ فيهِ ، قولُ أَبي دُلَفٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَيْـسَ فَـرَاغُ الْقَلْـبِ مَجْـداً وَرِفْعَـةً ... وَلَكِـنَّ شُغْـلَ الْقَلْـبِ لِلْمَـرْءِ رَافِـعُ
وَذُو الْمَجْـدِ مَحْمُـولٌ عَلَـىٰ كُـلِّ آلَـةٍ ... وَكُـلُّ قَصِيـرِ الْهَـمِّ فِـي الْحَـيِّ وَادِعُ[(٣)]

---

(١) الغضُّ : التنقيصُ . والعِنانُ : حبلٌ يثبت في اللجام .

(٢) ظلعَ : عرجَ في مشيهِ . الشهبُ : النجومُ . والمعنىٰ : لا أملَ في انقضاءِ الليلِ إذا كانت نجومهُ لا تتحرَّكُ إلا ببطءٍ كأنَّها لا تريدُ السيرَ ، أو كأنَّ جيادَها عرجت في الميدانِ فلا تستطيعُ السبقَ .

(٣) وادعُ : لم يُكلِّف نفسَهُ أدنىٰ مشقَّةٍ .

وقولُ الصاحبِ [في « ديوانهِ » ٢٨٠] : [مِنَ المتقاربِ]

وَقَــائِلَــةٍ : لِــمْ عَــرَتْــكَ الْهُمُــومْ وَأَمْــرُكَ مُمْتَثَــلٌ فِــي الأُمَــمْ ؟
فَقُلْــتُ : اتْــرُكِينِــي عَلَــىٰ حَــالَتِــي فَــإِنَّ الْهُمُــومَ بِقَــدْرِ الْهِمَــمْ

وقالَ آخرُ : [مِنَ الكاملِ]

لَيْــسَ الْمُــرُوءَةُ أَنْ تَبِيــتَ مُنَعَّمــاً وَتَظَــلَّ مُعْتَكِفــاً عَلَــى الأَقْــدَاحِ
مَــا لِلــرِّجَــالِ وَلِلتَّنَعُّــمِ إِنَّمَــا خُلِقُــوا لِيَــوْمِ كَــرِيهَــةٍ وَكِفَــاحِ

وسمعَ بعضُهم أَعرابيَّةً ، تحثُّ ابنَها على الدعةِ والإقامةِ ، فقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا مَــا الْفَتَــىٰ لَــم يَبْــغِ إِلاَّ لِبَــاسَــهُ وَمَطْعَمَــهُ فَــالْخَيْــرُ مِنْــهُ بَعِيــدُ

وقالَ حاتِمٌ [في « ديوانه » ٨٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَحَــا اللهُ صُعْلُــوكــاً مُنَــاهُ وَهَمُّــهُ مِــنَ الْعَيْــشِ أَنْ يَلْقَــىٰ لَبُــوســاً وَمَطْعَمَــا

ولمَّا قالَ الحطيئَة في الزبرقانِ بنِ بدرٍ [في « ديوانه » ٥٠] : [مِنَ البسيطِ]

دَعِ الْمَكَــارِمَ لاَ تَــرْحَــلْ لِبُغْيَتِهَــا وَاقْعُــدْ فَــإِنَّــكَ أَنْــتَ الطَّــاعِــمُ الْكَــاسِــي

.. شكاهُ إِلىٰ عمرَ بنِ الخطَّابِ ، فقالَ [في « الأغاني » ٢/١٧٨] : ما أَرىٰ بذلكَ بأْساً ، فقالَ : يا أَميرَ المؤمنينَ ، إِنَّهُ جحدَني ما ابتنيتُهُ من المفاخرِ ، فسأَلَ حسَّاناً ـ لا عن قلَّةِ معرفةٍ بمغزى الكلامِ ، ولكنَّهُ يحاولُ أَنْ يدرأَ العقابَ للشبهةِ ـ فقالَ لَهُ حسَّانُ : ما هجاهُ ، ولكنَّهُ سلحَ عليه[1] ، فاعتقلَهُ بعقِبِ ذلكَ ، كما هو مشهورٌ .

وقالَ أَبو تمَّامٍ في الهجاءِ [في « ديوانهِ » ٢/١٤٦] : [مِنَ الوافرِ]

بَنُــو الْهِمَــمِ الْهَــوامِــدِ وَالنُّفُــوسِ الْــ ـــخَــوَامِــدِ وَالْمُــرُوَّاتِ النِّيَــامِ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَرْضَىٰ بِمَيْسُورِ عِيشَةٍ وَمَــرْكُــوبُــهُ رِجْــلاَهُ وَالثَّــوْبُ جِلْــدُهُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٥٥] : [مِنَ الوافرِ]

إِلَــىٰ كَــمْ ذَا التَّخَلُّــفُ وَالتَّــوَانِــي وَكَــمْ هَــٰـذَا التَّمَــادِي فِــيْ التَّمَــادِي
وَشُغْــلُ النَّفْــسِ عَــنْ طَلَــبِ الْمَعَــالِــي بِبَيْــعِ الشِّعْــرِ فِــي سُــوقِ الْكَسَــادِ[2]

وقالَ ابن حيُّوسٍ [في « ديوانهِ » ٣٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَسْــتُ كَمَــنْ أَخْنَــىٰ عَلَيْــهِ زَمَــانُــهُ فَظَــلَّ عَلَــىٰ أَحْــدَاثِــهِ يَتَعَتَّــبُ[3]
تَلَــذُّ لَــهُ الشَّكْــوَىٰ وَإِنْ لَــمْ يُفِــدْ بِهَــا صَــلاَحــاً كَمَــا يَلْتَــذُّ بِــالْحَــكِّ أَجْــرَبُ

---

(١) سَلَح عليهِ : تنجَّىٰ عليه وتغوَّطَ .
(٢) بيعُ الكسادِ : هوَ أَن يعرضَ البائعُ السلعةَ لمشترٍ كارهٍ لها ، فلا يبذلُ فيها ثمنَ مثلِها .
(٣) أخنىٰ عليه الزمان : إذا مالَ عليهِ وأَهلكَهُ .

وَلكِنَّنِـي أَحْمِـي ذِمَـارِي بِعَـزْمَـةٍ ... تنُوبُ مَنَابَ السَّيْفِ وَالسَّيْفُ مِقْضَبُ[1]

وقالَ عروةُ بنُ الوردِ [في « ديوانه » ٧٠ـ٧٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَحَـا اللهُ صُعْلُـوكـاً إذا جَـنَّ لَيْلُـهُ ... مَشَىٰ عَـارِيَ الْمَتْنَيْـنِ فِـي كُـلِّ مَجْـزَرِ[2]

يَعُـدُّ الْغِنَـىٰ مِـنْ نَفْسِـهِ ، كُـلَّ لَيْلَـةٍ ... أَصَـابَ قِـرَاهَـا مِـنْ صَـدِيـقٍ مُيَسَّـرِ[3]

يَنَـامُ عِشَـاءً ثُـمَّ يُصْبِـحُ نَـاعِسـاً ... يَحُـتُّ الْحَصَـىٰ عَـنْ جَنْبِـهِ الْمُتَعَفِّـرِ

وَلَكِـنَّ صُعْلُـوكـاً صَفِيحَـةُ وَجْهِـهِ ... كَضَـوْءِ شِهَـابِ الْقَـابِـسِ الْمُتَنَـوِّرِ[4]

مُطِـلاً عَلَـىٰ أَعْـدَائِـهِ يَـزْجُـرُونَـهُ ... بِسَـاحَتِهِـمْ زَجْـرَ السَّنِيـحِ الْمُشَهَّـرِ[5]

وَإِنْ قَعَـدُوا لاَ يَـأْمَنُـونَ اقْتِـرَابَـهُ ... تَشَـوُّفَ أَهْـلِ الْغَـائِـبِ الْمُتَنَظَّـرِ

فَـذَلِـكَ إِنْ يَلْـقَ الْمَنِيَّـةَ يَلْقَهَـا ... حَمِيداً وَإِنْ يَسْتَغْـنِ يَـوْمـاً فَـأَجْـدِرِ

[العاقل تعب والجاهل مستريح]

وما زالَتْ رجالاتُ العزِّ مقسَّمةَ الأفكارِ ، مبلبَلةَ الخواطرِ ، منغَّصةَ العيشِ ، مِن حيثُ استراحَ صغارُ النفوسِ ، وتنسَّمَ العيشَ سفلَةُ الخلقِ ، وقد قلتُ مِن قصيدةٍ [في « ديوانِ المؤلف » ٣٢] : [مِنَ البسيطِ]

وَهٰـكَـذَا كُـلُّ صِنْـدِيـدٍ تُعَـاكِسُـهُ ... أَيَّـامُـهُ وَيَفُـوزُ الْفَسْـلُ بِـالطِّيـبِ[6]

فَاضْرِبْ بِطَرْفِكَ أَنَّىٰ شِئْتَ تَلْقَ أُولِي الـ ... ـأَخْطَـارِ فِـي مِحَـنٍ هُـوجٍ وَتَعْـذِيـبِ

تَلْـقَ اللِّئَـامَ اللَّيَـالِـي وَهِـيَ بَـاسِمَـةٌ ... وَالأَكْـرَمِيـنَ بِتَعْبِيـسٍ وَتَقْطِيـبِ

وَانْظُـرْ إِلـىٰ حَـالِ خَيْـرِ الْمُرْسَلِيـنَ وَمَـا ... لاَقَـاهُ فِـي اللهِ مِـنْ حَـرْبٍ وَتَكْـذِيـبِ

وَإِثْـرَهُ بِنْتُـهُ مَـاتَـتْ بِغُصَّتِهَـا ... سُحَّـتْ عَلَيْهَـا الأَذَايَـا بِـالشَّـآبِيـبِ[7]

وَالْمُـرْتَضَـىٰ بَعْـدَهُ مَـا زَالَ فِـي مِحَـنٍ ... وَمُـوجِعَـاتٍ وَأَيَّـامٍ غَـرَابِيـبِ[8]

[أشد الناس بلاءً من هم ؟]

وقد سبقَ في غيرِ هٰذا المجلسِ كثيرٌ من أَنينِهِ ، كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ، وعتبِهِ علىٰ زمانِهِ وأَهلِهِ ، وما كانَتِ الشَّهادَةُ التي فاز بها مِن يدِ أَشقى الآخِرينَ . إلاَّ نعمةً لَهُ مِنَ اللهِ وكرامةً ، وخلاصاً مِن المحنةِ ، وعافيةً مِن البلاءِ ، فالزمانُ عادتُهُ امتحانُ الأَحرارِ ؛ لِمَا في ذلكَ مِن صالحِهِم ، وعلوِّ درجَتِهم ، ومِن ثَمَّ كانَ : « أَشدُّ الناسِ بلاءً الأَنبياءُ ، ثُمَّ الأَمثَلُ

---

(١) ذمارُ الرجلِ : كلُّ شيءٍ يلزمهُ الدفعُ عنهُ ، وإن ضيَّعهُ . لزمهُ الذمَرُ ؛ أي : اللومُ . **مقضبٌ** : قاطعٌ .

(٢) **المجزرُ** : الموضعُ الذي تجزرُ فيهِ الإبلُ ، فهو الدهرَ في موضعِ مأكلٍ .

(٣) **الميسَّرُ** : الذي أقبلَ خيرُ شانِهِ . **والمعنىٰ** : إذا ملأَ بطنَهُ عدَّهُ غنىً ولم يبالِ ما وراءَهُ من عيالِهِ وقرابتِهِ .

(٤) **وجهٌ مُصْفَحٌ** : سهلٌ حسنٌ .

(٥) **السَّنيحُ** : طيرٌ كانَتْ تتشاءَمُ العربُ منهُ .

(٦) **الفَسلُ** : الرديءُ الرَّذلُ .

(٧) **سحَّ الماءُ** : اشتدَّ انصبابُهُ . **الشُّؤبوبُ** : الدفعةُ القويةُ من المطرِ .

(٨) **المرتضىٰ** : سيدنا عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ . **الغرابيبُ** : جمعُ غربيبٍ ، وهوَ شديدُ السوادِ .

فالأَمثَلُ »[1] ، وللهِ درُّ البوصيريِّ في قولِهِ [في همزيته وفي « ديوانه » ٨] : [مِنَ الخفيفِ]

لاَ تَخَـلْ جَـانِـبَ النَّبِـيِّ مُضَـامـاً حِيـنَ مَسَّتْـهُ مِنْهُـمُ الأَهْـوَاءُ
كُـلُّ أَمْـرٍ نَـابَ النَّبِيِّيـنَ فَـالشِّـدَّةُ فِيـهِ مَحْمُـودَةٌ وَالـرَّخَـاءُ
لَـوْ يَمَـسُّ النُّضَـارَ هُـونٌ مِـنَ النَّـارِ لَمَـا اخْتِيـرَ لِلنُّضَـارِ الصِّـلاَءُ[2]

وقد : (كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يوعَكُ كَما يوعَكُ الرجلانِ من سائِرِ الناسِ)[3] ، وفي « **الصحيح** » : « **إِنَّ الْمُؤْمِنَ مِثْلُ الْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ ، تُفِيئُهَا الرِّيحُ يَمِيناً وَشِمَالاً ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ مِثْلُ الأَرْزَةِ ، لاَ يَضُرُّهَا شَيْءٌ حَتَّىٰ تَنْجَعِفَ مَرَّةً** »[4] .

وجاءَ : أَنَّهُ خطبَ امرأَةً مِن (حَضرموتَ) ، كانَت مشهورَةً بالجمالِ ، فقالَ لَهُ أَبوهَا : وأَزيدُكَ أَنَّها لم تتوجَّعْ في عمرِها أَبداً ، قالَ : « **لاَ حَاجَةَ لِي بِهَا** »[5] ، وأَرادَ عاملُ أَبي بكرٍ بـ(حضرموتَ) أَن يتزوَّجَها ، فنهاهُ عَن ذلكَ .

وأَخرجَ الحاكمُ [في « المستدرك » ١/٤٨٨] علىٰ شرطِ مسلمٍ ، وصحَّحَهُ ، ووافقَهُ الذهبيُّ ، عن أَبي هريرةَ : أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قالَ لأَعْرَابيٍّ : « **هَلْ أَخَذَتْكَ أُمُّ مِلْدَمٍ ؟** »[6] ، قالَ : مَا وَجَدْتُ حَرَّها قَطُّ ، قالَ : « **فَهَلْ أَخَذَكَ الصُّدَاعُ ؟** » ، قالَ : مَا وَجَدْتُهُ قَطُّ ، فَلَمَّا ولَّىٰ . قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ . فَلْيَنْظُرْ هَـٰذَا** » .

ومثلُهُ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **لاَ يَزَالُ الْبَلاَءُ بِالْمُؤْمِنِ ، فِي نَفْسِهِ ، وَمَالِهِ ، وَوَلَدِهِ ، حَتَّىٰ يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ** »[7] .

وقالَ أَبو تمَّام [في « ديوانهِ » ٢/١٤٧] : [مِنَ البسيطِ]

فَـإِنْ يَكُـنْ وَصَـبٌ قَـاسَيْـتُ سَـوْرَتَـهُ فَـالْـوِرْدُ حِلْـفٌ لِلَيْـثِ الغَـابَـةِ الأَضِـمِ[8]

وقالَ [البُحتريُّ في « ديوانه »] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا الْكَلْـبُ مَحْمُـوماً وَإِنْ طَـالَ عُمْـرُهُ وَلَكِنَّمَـا الْحُمَّـىٰ عَلَـى الأَسَـدِ الْـوَرْدِ

---

(١) أخرج نحوه عن سعد رضي الله عنه الترمذي (٢٤٠٠) في الزهد ، وابن ماجه (٤٠٢٣) في الفتن وفيه : قلت : يا رسول الله ، أي الناس أشدُّ بلاء ؟ قال : « الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . . . » قال الترمذي : هـٰذا حديث حسن صحيح . وفي الباب عن أبي هريرة وأخت حذيفة وفاطمة .

(٢) **الصِّلاءُ** : الوضعُ على النارِ . **النُّضارُ** : الخالصُ من جوهرِ التبرِ والخشبِ .

(٣) أخرجه عن ابن مسعود رضي الله عنه البخاري (٥٦٤٨) في المرضىٰ ، ومسلم (٢٥٧١) في البر والصلة وفيه : « أجل ، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم . . . » .

(٤) **تنجعفُ** : تَنْقَلِعُ . وأخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مسلم (٢٨٠٩) ، وعن كعب بن مالك (٢٨١٠) في صفات المنافقين بألفاظ متقاربة .

(٥) وجاء في « السيرة » : أنَّ القائل له ذلك عائشة رضي الله عنها ويدل عليه : حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند ابن حبان في « صحيحه » (٢٩٠٧) : « من يرد الله به خيراً يُصب منه » بإسناد صحيح وقوله عنه عند البخاري (٥٦٤١) في (المرضىٰ) : « لا يصيب المرء المؤمن من نصب ولا هم ولا حزن ولا أذىً حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله عنه بها خطاياه » .

(٦) **أُمُّ مِلدَم** : الحُمَّىٰ ، وهو أيضاً في « كنز العمال » (٦٧١٤) و(٨٦٤٢) عند ابن جرير من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٧) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الحاكم في « المستدرك » (١/٤٩٧) ، وذكره في « كنز العمال » (٦٨٤٦) ، وزاد نسبته لأحمد وهناد وابن حبان والبيهقي .

(٨) **الوصبُ** : المرض . **سَورتُهُ** : حِدَّتُهُ . **الوِردُ** : الحُمَّىٰ . **الأَضِمُ** : الغضبانُ .

[لمن يبتسم الزمان ؟]

إنَّما يتبسَّمُ الزمانُ لصغارِ الهمَمِ ، وباعَةِ الذمَمِ ، وزمناءِ المروءَةِ ، وخُبثاءِ النفوسِ .

ولله درُّ بعضِهِم في قولِهِ : [مِنَ السَّريع]

مَـنْ يَـرْجُ بِـالْفَضْـلِ نَجَـاحـاً يَمُـتْ ... جُـوعـاً وَلَـوْ كَـانَ بَـدِيـعَ الـزَّمَـانْ[1]

وَمَـــنْ يَقُـــدْ أَوْ يَتَمَسْخَـــرْ يَعِـــشْ ... عَيْشـــاً رَخِيّـــاً فِـــي ظِـــلاَلِ الأَمَـــانْ

وقالَ الناظمُ فيما يشبهُهُ مِن ناحيَةٍ، وهوَ يتعلَّقُ بما سبقَ، مِن اقترانِ التعبِ بعلوِّ الهمَّةِ [في «العُكبَريِّ» ٢/ ٢٦٩]: [مِنَ الكاملِ]

تَصْفُـــو الْحَيَـــاةُ لِجَـاهِـلٍ أَوْ غَـافِـلٍ ... عَمَّـــا مَضَـــىٰ مِنْهَـــا وَمَـــا يُتَـــوَقَّـــعُ

وَلِمَـــنْ يُغَـالِـطُ فِـي الْحَقَـائِـقِ نَفْسَـهُ ... وَيَسُـــومُهَـــا طَلَـــبَ الْمُحَـــالِ فَتَطْمَـــعُ

هٰذا ، والمَيْدانُ واسعٌ ، والشوطُ بطينٌ ، ويكفي مِن العِقْدِ ما أَحاطَ بالجيدِ ، والمناسباتُ لأَمثالِهِ كثيرٌ ، فَلْنَدَعْ لكلِّ موضعِ ما يناسبُهُ ، ممَّا يفتحُ اللهُ بِهِ عَلينا فيهِ .

[زيادة الحب!!]

أَمَّا قولُهُ : (وَجَوىً يَزِيدُ) . . فيَكادُ أَن يكونَ عكسَ قولِهِ الماضي [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٢٥] : [مِنَ الكاملِ]

أَقْصِـــرْ فَلَسْـــتَ بِـــزَائِـــدِي وُدًّا ... بَلَـــغَ الْمَـــدَىٰ وَتَجَـــاوَزَ الْحَـــدَّا

إذِ الودُّ والجوىٰ مِن بابٍ واحدٍ يدخلانِ، وإلىٰ متعلَّقٍ واحدٍ يرجعانِ، ولكنَّهُ مثلُ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَكِـنَّ حُبّـاً خَـامَـرَ الْقَلْـبَ فِـي الصِّبَـا ... يَـزِيـدُ علَـىٰ مَـرِّ الـزَّمَـانِ وَيَشْتَـدُّ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٧٢] : [مِنَ المنسرحِ]

زِيـــدِي أَذَىٰ مُهْجَتِـــي أَزِدْكِ هَـــوىً ... فَـــأَجْهَـــلُ النَّـــاسِ عَـــاشِـــقٌ حَـــاقِـــدْ

وقالَ في مدحِ أَبي العشائِرِ وهُوَ ممَّا يقرُبُ مِمَّا نحنُ فيهِ [في « العُكبريِّ » ٤/ ٢٦٥] : [مِنَ المنسرحِ]

إِنْ كَـــانَ فِيمَـــا نَـــرَاهُ مِـــنْ كَـــرَمٍ ... فِيـــكَ مَـــزِيـــدٌ فَـــزَادَكَ اللهُ

وقولُهُ عن سيفِ الدولةِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٤٨] : [مِنَ الخفيفِ]

كُلَّمَـــا قِيـــلَ قَـــدْ تنَـــاهَـــىٰ أَرَانَـــا ... كَـــرَمـــاً مَـــا اهْتَـــدَىٰ إِلَيْـــهِ الْكِـــرَامُ

وهوَ مِن قولِ البُحتريِّ [في « ديوانه » ٢/ ٦٧٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

طَلُـــوبٌ لأَقْصَـــىٰ غَـــايَـــةٍ بَعْـــدَ غَـــايَـــةٍ ... إِذَا قِيـــلَ يَـــوْمـــاً قَـــدْ تنَـــاهَـــىٰ تَـــزَيَّـــدَا

وقولِ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانه » ٢/ ١٣١] : [مِنَ الكاملِ]

خَـــدَمَ الْعُـــلاَ فَخَـــدَمْنَـــهُ وَهِـــيَ الَّتِـــي ... لاَ تَخْـــدُمُ الأَقْـــوَامَ مَـــا لَـــمْ تُخْـــدَمِ

---

(١) بديع الزمان : هو أحمد بن الحسين الهمذاني ، أبو الفضل ، أحد الأئمة الكتَّاب ، وهو صاحب « المقامات » توفي سنة : (٣٩٨)هـ .

فَـإِذَا ارْتَقَـىٰ فِـي قُلَّـةٍ مِـنْ سُـؤْدَدٍ قَـالَـتْ لَـهُ الأُخْـرَىٰ : بَلَغْـتَ تَقَـدَّمِ[1]

وهوَ من قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۞ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ [الانشراح : ٧ـ٨] .

[حتى الجود يزداد]

وأَفضلَ عبيدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ علىٰ بعضِ العربِ مِن حيثُ لا يعرفُهُ ، فقالَ لَهُ : إِنْ لم تكنِ ابنَ العبَّاسِ . . فإِنَّكَ خيرٌ منهُ ، وإِن كنتَهُ . . فأَنتَ اليومَ خيرٌ منكَ أَمسِ .

وللهِ درُّ أَعشىٰ هَمْدانَ في قولِهِ لبعضِ بني أُميَّةَ [كما في « الأغاني » ١٨/ ١٤٠] : [مِنَ الوافرِ]

وَجَـدْتُـكَ أَمْـسِ خَيْـرَ بَنِـي مَعَـدٍّ وَأَنْـتَ الْيَـوْمَ خَيْـرٌ مِنْـكَ أَمْـسِ
وَأَنْـتَ غَـداً تَـزِيـدُ الْخَيْـرَ ضِعْفـاً كَـذَاكَ تَـزِيـدُ سَـادَةُ عَبْـدِ شَمْـسِ

غيرَ أَنَّ الناظمَ عكس هـٰذا المعنىٰ في قولِهِ البارِدِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٦٨] : [مِنَ المتقاربِ]

وَيُقْـدِمُ إِلاَّ عَلَـىٰ أَنْ يَفِـرّ وَيَقْـدِرُ إِلاَّ عَلَـىٰ أَنْ يَـزِيـدَا

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٢] : [مِنَ الكاملِ]

مَـا لاَحَ بَـرْقٌ أَوْ تَـرَنَّـمَ طَـائِـرٌ إِلاَّ انْثَنَيْـتُ وَلِـي فُـؤَادٌ شَيِّـقُ

[تذكر الأحباب عند كل ما تقع عليه العين فيعجبها . . من عادة العرب]

(الشَّيِّقُ) : المشتاقُ ، يقولُ : إِنَّهُ يزيدُ شوقُهُ لِلَمَعَانِ البرْقِ ، وتغريدِ الطائرِ ، وتلكَ عادةُ العربِ ، وقلَّما تقعُ عينُ الإِنسانِ علىٰ ما يعجبُهُ ، أَو علىٰ ما يشنؤُهُ . . إِلاَّ تذكَّرَ من يحبُّهُ ؛ ولهـٰذا كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم يقولُ : « اللَّهُمَّ لاَ عَيشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَة »[2] كلَّما رأَىٰ ما يعجبُهُ ، أَو يسوؤُهُ ، فقد قالَها في أَسرِّ أَحوالِهِ يومَ عرفةَ ، في حَجَّةِ الوداعِ ، حينَما رأَىٰ كثرَةَ المسلمينَ ، واجتماعَهم على التوحيدِ ، وقالَها يومَ الخندَقِ ، وقد رأَىٰ شدَّةَ ما بهم مِن الجَهْدِ والجوعِ .

وللهِ درُّ القائلِ [أبو شغب السعدي في « البيان والتبيين » ١/ ٥٣٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

يُـذَكِّـرُنِيهِـمْ كُـلُّ خَيْـرٍ رَأَيْتُـهُ وَشَـرٌّ فَمَـا أَنْفَـكُّ مِنْهُـمْ عَلَـىٰ ذُكْـرِ

[أحب شيء للعرب الغيث . . فلذا يتذكرون به الأحباب]

وأَحَبُّ ما يكونُ إِلى العربِ الغيثُ ؛ فلهـٰذا يتذكرونَ بهِ الأَحبابَ ، ويحِنُّونَ عندَهُ إِلى الأَوطانِ ، ويتمنَّونَهُ حتَّىٰ لِرَمَمِهِم وأَمواتِهم ، وإِنْ كانَ لا يُسْمِنُهم ولا يُغنيهم من جوعٍ ، غيرَ أَنَّهم يحبُّونَ لَهم ما يحبونَ لأَنفسِهم ، وذلكَ بهِم

(١) القُلَّةُ : رأْسُ كُلِّ شيءٍ . السؤدَدُ : المجدُ والسيادةُ .

(٢) أخرجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه مسلم (١٨٠٥) ، وعن سهل بن سعد رضي الله عنه عند مسلم (١٨٠٤) في (الجهاد) .



منتهى الأماني ، وقد قالَ شاعرُهُم [في « ديوان الشريف الرضي » ١/٢٩١] : [مِنَ الوافرِ]

وَمَـا السُّقْيَـا لِتَبْلُغَـهُ وَلَكِـنْ أُحِسُّ لَهَـا بَـرَاداً فِـي فُـؤَادِي

فأمَّا أَهلُ الحاضرةِ إذا وَصفوا الرعودَ والبروقَ ، وذَكروا الأَغوارَ والنجودَ . . فإنَّما هُوَ التكلُّفُ والاجتلابُ ، ولعلَّ أحدَهم لا يحفَلُ بِالمَطرِ ، ولا يبالي بالغيثِ ، ولا يسأَلُ عَنِ الأَنواءِ ، ولا ينظرُ إِلى السحابِ ، ولا يعرفُ ركوبَ الجملِ .

[ومن عادتهم التذكر عند لمح البرق]

ومِن أَحسنِ مافي التذكُّرِ بالبرقِ قولُ نصيبٍ [في « الأغاني » ١/٢٢٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَدِدْتُ ـ وَلَـمْ أُخْلَـقْ مِـنَ الطَّيْـرِ ـ كُلَّمَـا بَـدَا بَـارِقٌ نَحْـوَ الْحِجَـازِ أَطِيـرُ

وقالَ أَحدُ بني كلابٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

هَـوَىٰ نَـاقَتِـي خَلْفِـي وَقُـدَّامِـيَ الْهَـوَىٰ فَـإِنِّـي وَإِيَّـاهَـا لَمُخْتَلِفَـانِ

هَـوَايَ حِجَـازِيٌّ وَتَثْنِـي زِمَـامَهَـا لِبَـرْقٍ إِذَا أَدْجَـى الظَّـلاَمُ يَمَـانِـي

تَحِـنُّ فَتُبْـدِي مَـا بِهَـا مِـنْ صَبَـابَـةٍ وَأُخْفِـي الَّـذِي لَـوْلاَ الأَسَـىٰ لَقَضَـانِـي

وقالَ أَعرابيٌّ آخرُ : [مِنَ الطَّويلِ]

رَمَـىٰ قَلْبَـهُ الْبَـرْقُ الْيَمَـانِـيُّ رَمْيَـةً بِجَنْـبِ الْحِمَـىٰ وَهْنـاً فَكَـادَ يَهِيـمُ

فَهَـلْ مِـنْ مُعِيـرٍ طَـرْفَ عَيْـنٍ خَلِيَّـةٍ ؟ فَـإِنْسَـانُ طَـرْفِ الْعَـامِـرِيِّ كَلِيـمُ

وقد سبقَ ذكرُ البيتِ الثاني منهُما ، في غيرِ هٰذا المجلسِ .

وقالَ آخرُ [في « البيان والتبيين » ١/٣٧٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

سَرَى الْبَرْقُ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ فَشَاقَنِي وَكُـلُّ حِجَـازِيٍّ لَـهُ الْبَـرْقُ شَـائِـقُ

فَـوَاكَبِـدِي مِمَّـا أُلاَقِـي مِـنَ الْهَـوَىٰ إِذَا حَـنَّ إِلْـفٌ أَوْ تَـلأْلأَ بَـارِقُ

وقالَ الأَحوصُ [في « ديوانه » ١٢٤ـ١٢٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَقُـولُ بِعَمَّـانَ وَهَـلْ طَـرَبِـي بِـهِ إِلَـىٰ أَهْـلِ سَلْـعٍ إِنْ تَشَـوَّفْـتُ نَـافِـعُ[1]

وَلِلْعَيْـنِ أَسْـرَابٌ تَفِيـضُ كَـأَنَّمَـا تُعَـلُّ بِكُحْـلِ الصَّـابِ مِنْهَـا الْمَـدَامِـعُ[2]

أَصَـاحِ أَلَـمْ تُحْـزِنْـكَ رِيـحٌ مَـرِيضَـةٌ وَبَـرْقٌ تَـلاَلاَ بِـالْعَقِيقَيْـنِ لاَمِـعُ[3]

فَـإِنَّ الْغَـرِيـبَ الـدَّارِ مِمَّـا يَشُـوقُـهُ نَسِيـمُ الـرِّيَـاحِ وَالْبُـرُوقُ اللَّـوَامِـعُ

---

(١) طربي : اهتزازي شوقاً . سلعٌ : جبلٌ بـ(المدينةِ) . تشوَّفتُ : تطاولتُ ناظراً إلى البعيدِ . والمعنىٰ : أَسأَلُ نفسي وأنا في (عمَّانَ) هل ينفعني مدُّ نظري نحوَ جبلِ سلع ، مهتزاً من الشوقِ إلىٰ أهلِهِ ؟! .

(٢) نُعَلُّ : يقدَّم لَها الشرابُ ثانيةً . تنهلُ : يقدَّم لها للمرَّةِ الأولىٰ . الصابُ : عصارةُ شجرٍ مرٍّ .

(٣) العقيقانِ : موضعانِ بـ(المدينةِ) ، العقيقُ الأكبرُ فيه بئرُ عروةَ ، والعقيقُ الأصغرُ فيه بئرُ رومَةَ التي اشتراها عثمانُ بنُ عفَّانَ رضي اللهُ عنهُ وأوقفها على المسلمين .

لَعَمْـرُ ابْنَـةِ الـزَّيْـدِيِّ إِنَّ ادِّكَـارَهَـا عَلَـىٰ كُـلِّ حَـالٍ لِلْفُـؤَادِ لَـرَائِـعُ
وَقَـدْ كُنْـتُ أَبْكِـي ـ وَالنَّـوَىٰ مُطْمَئِنَّـةٌ بِنَـا وَبِكُـمْ ـ مِنْ عِلْـمِ مَـا الْبَيْنُ صَـانِـعُ

وقالَ آخرُ [وهو مجنون ليلىٰ في « ديوانه » ٣٠٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

خَلِيلَـيَّ إِنِّـي قَـدْ أَرِقْـتُ وَنِمْتُمَـا لِبَـرْقٍ يَمَـانٍ فَـاقْعُـدَا عَلِّـلاَنِيَـا
خَلِيلَـيَّ لَـوْ كُنْـتُ الصَّحِيـحَ وَكُنْتُمَـا سَقِيمَيْـنِ لَـمْ أَفْعَـلْ كَفِعْلِكُمَـا بِيَـا

وقالَ يعلىٰ بنُ مسلمٍ الأزديُّ ، وقد طالَ مكثُهُ بـ(مكَّةَ) عندَ أميرِها ، نافعِ بنِ علقمَةَ الكنانيِّ [في « الأغاني » ٢٢/١٥٢-١٥٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ لَيْـتَ حَـاجَـاتِـي اللَّـوَاتِـي حَبَسْنَنِـي لَـدَىٰ نَـافِـعٍ قُضِّيـنَ مُنْـذُ زَمَـانِ
وَمَـا بِـيَ بُغْـضٌ لِـلأَمِيـرِ وَلاَ قِلـىً وَلَكِـنَّ بَـرْقـاً بِـالْحِجَـازِ دَعَـانِـي
فَبِـتُّ لَـدَى الْبَيْـتِ الْحَـرَامِ أَشِيمُـهُ وَنِضْـوَايَ مِـنْ شَـوْقٍ بِهَـا أَرِقَـانِ[1]
فَلَيْـتَ لَنَـا مِـنْ مَـاءِ حَمْنَـانَ شَـرْبَـةً مُبَـرَّدَةً بَـاتَـتْ عَلَـىٰ طَهَيَـانِ[2]

وقالَ ابنُ دريدٍ [في « ديوانهِ » ٩٠] : [مِنَ الوافرِ]

أَيَـا بَـرْقَ الْعَقِيـقِ أَقِـمْ فَمَـا لِـي سِـوَاكَ عَلَـى الصَّبَـابَـةِ مِـنْ مُعِيـنِ
أَحِـنُّ إِلَـى الْعَقِيـقِ وَسَـاكِنِيـهِ وَمَـا يَخْلُـو الْمُتَيَّـمُ مِـنْ حَنِيـنِ

وقالَ جريرٌ [في « ديوانهِ » ٢/٨١٣] : [مِنَ الوافرِ]

وَهَـاجَ الْبَـرْقُ لَيْلَـةَ أَذْرِعَـاتٍ هَـوىً مَـا تَسْتَطِيـعُ لَـهُ طِـلاَبَـا

وقالَ أَبو عبادَةَ [في « ديوانهِ » ٢/٨٤٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

مَتَـىٰ لاَحَ بَـرْقٌ أَوْ بَـدَا طَلَـلٌ قَفْـرُ جَـرَىٰ مُسْتَهِـلٌّ لاَ بَكِـيءٌ وَلاَ نَـزْرُ[3]

والمعنىٰ متكرِّرٌ عندَ الناظمِ ، منهُ قولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/٢٢٢] : [مِنَ البسيطِ]

تُهْـدِي الْبَـوَارِقُ أَخْـلاَفَ الْمِيَـاهِ لَكُـمْ وَلِلْمُحِـبِّ مِـنَ التَّـذْكَـارِ نِيـرَانَـا[4]

وقالَ المعرِّيُّ [في « سقطِ الزندِ » ٢٨٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

طَـرِبْـنَ لِضَـوْءِ الْبَـارِقِ الْمُتَعَـالِـي بِبَغْـدَادَ وَهْنـاً مَـا لَهُـنَّ ومَـالِـي ؟[5]

---

(١) **أشيمهُ** : أنظرهُ ، وأصلُ الشَّيمِ : النظرُ إلى البرقِ .
(٢) **الحَمنانُ** : عنبٌ طائفيٌّ صغيرُ الحبِّ وأرضٌ مَحْمَنَةٌ كثيرتُهُ . **الطهيانُ** : قُلَّةُ الجبلِ ، أي : رأسُه .
(٣) **المستهِلُّ** : الدمعُ الفياضُ . **البكيءُ** : القليلُ الماءِ .
(٤) **الأخلافُ** : الضروعُ ، واستعارَ لها أخلافاً ؛ لأنَّها تُغذي النباتَ كما تغذي الأمُّ بالإرضاعِ ولدها .
(٥) **الوهنُ** : مقدارُ ثلثِ الليلِ الأوَّلِ . **ما لهنَّ ومالي** : استفهامٌ غرضهُ التوجُّعُ .

وقالَ [في « سقطِ الزندِ » ١٠٣] : [مِنَ الوافرِ]

سَـرَىٰ بَـرْقُ الْمَعَـرَّةِ بَعْـدَ وَهْـنٍ ... فَبَـاتَ بِـرَامَـةٍ يَصِـفُ الْكَـلاَلاَ[(١)]
شَجَـا رَكْبـاً وَأَفْـرَاسـاً وَإِبْـلاً ... وَزَادَ فَكَـادَ أَنْ يَشْجُـو الـرِّحَـالاَ

وقالَ [في « سقطِ الزندِ » ١٠٦] : [مِنَ البسيطِ]

يَـا سَـاهِـرَ الْبَـرْقِ أَيْقِـظْ رَاقِـدَ السَّمُـرِ ... لَعَـلَّ بِـالْجِـزْعِ أَعْـوَانـاً عَلَـى السَّهَـرِ[(٢)]

[البكاء لسجع الحمائم]

وأمَّا البكاءُ لسَجْعِ الحَمَامِ . . فلأنَّها كما قيلَ : تندبُ جدّاً لِمَا هلكَ في غابرِ الزمانِ ، قالَ النابغَةُ : [مِنَ الوافرِ]

بُكَـاءَ حَمَـامَـةٍ تَـدْعُـو هَـدِيـلاً ... مُفَجَّعَـةً عَلَـىٰ فَنَـنٍ تُغَنِّـي

وقالَ المعرِّيُّ [في « سقطِ الزندِ » ٥٢] : [مِنَ الخفيفِ]

إِيـهِ للهِ دَرُّكُـنَّ فَـأَنْتُـنَّ اللَّـوَاتِـي تَصُـنَّ عَهْـدَ الْـوِدَادِ[(٣)]
مَـا نَسِيتُـنَّ هَـالِكـاً فِـي الأَوَانِ الْـخَـالِ أَوْدَىٰ مِـنْ قَبْـلِ هُلْـكِ إِيَـادِ

ومنَ المعلومِ أَنَّ الشَّجا يبعثُ الشَّجا ، وأَنَّ كلَّ حزينٍ ينتسبُ إلى الحزينِ ، وقد قالَ متمِّمُ بنُ نويرةَ [في « ديوان الحماسة » ٣٣١/١] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَقَـدْ لاَمَنِـي عِنْـدَ الْقُبُـورِ عَلَـى الْبُكَـا ... رَفِيقِـي لِتَـذْرَافِ الـدُّمُـوعِ السَّـوَافِـكِ
وَقَـالُـوا : أَتَبْكِـي كُـلَّ قَبْـرٍ رَأَيْتَـهُ ... لِقَبْـرٍ ثَـوَىٰ بَيْـنَ اللِّـوَىٰ وَالـدَّكَـادِكِ
فَقُلْتُ لَهُـمْ : إِنَّ الأَسَىٰ يَبْعَـثُ الأَسَىٰ ... دَعُـونِـي فَهَـٰـذَا كُلُّـهُ قَبْـرُ مَـالِـكِ

وقالَ حميدُ بنُ ثورٍ [في « ديوانهِ » ٢٤ـ٢٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا هَـاجَ هَـٰـذَا الشَّـوْقَ إِلاَّ حَمَـامَـةٌ ... دَعَـتْ سَـاقَ حُـرٍّ تَـرْحَـةً وتَنَـدُّمَـا[(٤)]
بَكَـتْ شَجْـوَ ثُكْلَـىٰ قَـدْ أُصِيبَ حَمِيمُهَـا ... مَخَـافَـةَ بَيْـنٍ يَتْـرُكُ الْحَبْـلَ أَجْـذَمَـا[(٥)]
عَجِبْـتُ لَهَـا أَنَّـىٰ يَكُـونُ غِنَـاؤُهَـا ... فَصِيحـاً وَلَـمْ تَفْغَـرْ بِمَنْطِقِهَـا فَمَـا
وَلَـمْ أَرَ مِثْلِـي شَـاقَـهُ صَـوْتُ مِثْلِهَـا ... وَلاَ عَـرَبِيّـاً شَـاقَـهُ صَـوْتُ أَعْجَمَـا

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٤٦٣] : [مِنَ الوافرِ]

وَلَـمْ أَفْهَـمْ مَعَـانِيهَـا وَلَكِـنْ ... شَجَـتْ قَلْبِـي فَلَـمْ أَجْهَـلْ شَجَـاهَـا

---

(١) المعرَّةُ : معرَّةُ النعمانِ وهيَ بلدةُ أبي العلاءِ . رامة : اسم موضعٍ . الكلالُ : التعبُ والضعفُ .
(٢) البرقُ الساهرُ : البرقُ الذي يُسْهَرُ عليهِ ، وهـٰذا من بابِ المجازِ . الجزعُ : موضعٌ .
(٣) إيهِ : اسمُ فعلٍ للاستزادةِ من حديثٍ أو فعلٍ . يقولُ : إن بناتِ الهديلِ ـ التي أشارَ إليهن بقولهِ : أنتنَّ ؛ أي : الحَمَامِ ـ معروفٌ بالودادِ ؛ لقولِ الرواةِ : بأنَّ فرخَ حمامٍ هلكَ علىٰ عهدِ نوحٍ ، فالحمامُ تبكي عليه إلى اليومِ ، بل إلىٰ يومِ القيامةِ .
(٤) ساقُ الحرِّ : صوتُ الحمامةِ ، أو هو ذكرها .
(٥) الأجذَمُ : المقطوعُ .



فَكُنْتُ كَأَنِّي أَعْمَىٰ مُعَنَّىً يُحِبُّ الغَانِيَاتِ وَلاَ يَرَاهَا

وقالَ غيرُهُ [في « المدهش » ٢٥٧ـ٢٥٨] : [مِنَ الرَّمَلِ]

وَلَقَدْ تَشْكُو فَمَا أَفْهَمُهَا وَلَقَدْ أَشْكُو فَمَا تفْهَمُنِي
غَيْرَ أَنِّي بِالْجَوَىٰ أَعْرِفُهَا وَهِيَ أَيْضاً بِالْجَوَىٰ تَعْرِفُنِي

وقالَ الشَّمَّاخُ يصفُ ناقتَهُ [في « ديوانه » ٢٥٦] : [مِنَ البسيطِ]

تَخْدِي يَدَاهَا وَرِجْلاَهَا عَلَىٰ شَرَكٍ سَحَّ النَّجَاءِ بِهِ مِنْ بَارِقٍ بَاقِ(١)
كَادَتْ تُسَاقِطُنِي وَالرَّحْلَ إِذْ نَطَقَتْ حَمَامَةٌ فَدَعَتْ سَاقاً عَلَىٰ سَاقِ(٢)

ومكثَ عوفُ بنُ مُحَلِّمٍ ثلاثينَ سنةً عندَ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ ، لا يُؤْذَنُ لهُ في العودِ إِلىٰ أَهلِهِ ، فبينا هُوَ معَ عبدِ اللهِ . . إذ سمعَ حمامَةً ، فقالَ [القصة بنحوها في « وفيات الأعيان » ٣/٨٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَرَّقَنِي بِالرَّيِّ صَوْتُ حَمَامَةٍ فَنُحْتُ وَذُو الشَّوْقِ الْقَدِيمِ يَنُوحُ
عَلَىٰ أَنَّهَا نَاحَتْ وَلَمْ تَذْرِ دَمْعَةً وَنُحْتُ وَأَسْرَابُ الدُّمُوعِ سُفُوحُ
وَنَاحَتْ وَفَرْخَاهَا بِحَيْثُ تَرَاهُمَا وَمِنْ دُونِ أَفْرَاخِي مَهَامِهُ فِيحُ

فرقَّ لهُ عبدُ اللهِ ، وقالَ لهُ : واللهِ لا أَعملتَ خفّاً ، ولا حافراً ، إِلاَّ راجعاً إِلىٰ أَهلِكَ ، وزوَّدَهُ بثلاثينَ أَلفاً ، غيرَ أَنَّهُ ماتَ قبلَ أَنْ يصِلَ إِلىٰ منزِلِهِ .

وممَّا يروىٰ لعروةَ بنِ حزامٍ [في « ديوانه » ٣٣] : [مِنَ الوافرِ]

أَحَقّاً يَا حَمَامَةَ بَطْنِ وَجٍّ بِهَٰذَا النَّوْحِ أَنَّكِ تَصْدُقِينَا
غَلَبْتُكِ بِالْبُكَاءِ لأَنَّ لَيْلِي أُوَاصِلُهُ وَأَنَّكِ تَهْجَعِينَا
وَإِنِّي إِنْ بَكَيْتُ بَكَيْتُ حَقّاً وَإِنَّكِ فِي بُكَائِكِ تَكْذِبِينَا
فَلَسْتِ ـ وَإِنْ بَكَيْتِ ـ أَشَدَّ شَوْقاً وَلَكِنِّي أُسِرُّ وَتُعْلِنِينَا
فَنُوحِي يَا حَمَامَةَ بَطْنِ وَجٍّ فَقَدْ هَيَّجْتِ مُشْتَاقاً حَزِينَا

وقالَ قيسُ بنُ الملوَّحِ [في « ديوانه » ٢٣٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

كَذَبْتُ ـ وَبَيْتِ اللهِ ـ لَوْ كُنْتُ صَادِقاً لَمَا سَبَقَتْنِي بِالْبُكَاءِ الْحَمَائِمُ

وهوَ مِن قولِ الأَوَّلِ(٣) [في « شرح مقامات الحريري » ١/٣٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً بِسُعْدَىٰ شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَ لِي الْبُكَا بُكَاهَا فَقُلْتُ : الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

---

(١) تخدي : تسرعُ . سحُّ النجاء : سريعةٌ كأنها تصبُّ الجريَ صباً ، على التشبيهِ بالمطرِ في شدَّته وسرعةِ انصبابه .
(٢) الساقُ الأولىٰ : ذَكَرُ الحمام . الساقُ الثانية : ساقُ الشجرة .
(٣) قالَ الشريشيُّ في « شرحِ مقاماتِ الحريريِّ » (١/٣٤) : البيتانِ لعديِّ بنِ الرِّقاعِ ، انظر « الكامل » للمبرِّد (٣/١٢٥) . ولكنْ قالَ أَبو الحسنِ الأَخفشُ : الصحيحُ أَنَّ الشِّعرَ لنصيبٍ .

وقالَ ابنُ الدمينَةِ [في « ديوانه » ١٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ يَـا حَمَـامَـاتِ اللِّـوَىٰ عُـدْنَ عَـوْدَةً ... فَـإِنِّـي إِلَـىٰ أَصْـوَاتِكُـنَّ حَـزِيـنُ

فَعُــدْنَ فَلَمَّــا عُــدْنَ كِــدْنَ يُمِتْنَنِـي ... وَكِــدْتُ بِــأَشْجَــانِـي لَهُــنَّ أُبِيــنُ

فَلَــمْ تَــرَ عَيْنِـي مِثْلَهُــنَّ بَــوَاكِيــاً ... بَكَيْــنَ وَلَــمْ تَــذْرِفْ لَهُــنَّ عُيُــونُ

وقالَ أَيضاً [في « ديوانهِ » ٢٨ـ٢٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ يَـا صَبَـا نَجْـدٍ مَتَّىٰ هِجْتِ مِـنْ نَجْـدِ ... لَقَـدْ زَادَنِـي مَسْـرَاكِ وَجْـداً عَلَـىٰ وَجْـدِ

أَإِنْ هَتَفَـتْ وَرْقَـاءُ فِـي رَوْنَـقِ الضُّحَـىٰ ... عَلَـىٰ فَنَـنٍ غَـضِّ النَّبَـاتِ مِـنَ الـرَّنْـدِ[1]

بَكَيْـتُ كَمَـا يَبْكِـي الْـوَلِيـدُ وَلَـمْ أَكُـنْ ... جَلِيـداً وَأَبْـدَيْـتُ الَّـذِي لَـمْ أَكُـنْ أُبْـدِي

وَقَــدْ زَعَمُــوا أَنَّ الْمُحِــبَّ إِذَا دَنَــا ... يَمَـلُّ وَأَنَّ النَّـأْيَ يَشْفِـي مِـنَ الْـوَجْـدِ

بِكُـلٍّ تَـدَاوَيْنَـا فَلَـمْ يُشْـفَ مَـا بِنَـا ... عَلَـىٰ أَنَّ قُـرْبَ الـدَّارِ خَيْـرٌ مِـنَ الْبُعْـدِ

ولهٰذهِ الأَبياتِ قصَّةٌ ، حاصلُها [كما في « الأغاني » ١٧/١٠٩] : أَنَّهُ كانَ بينَ إِسحاقَ الموصليِّ ، والعبَّاسِ بنِ الأَحنفِ ، وِدٌّ وإِخاءٌ ، فكلَّما سمعَ أَحدُهما بعجيبٍ . . أَتحفَ بهِ الآخَرَ ، فجاءَ العبَّاسُ يوماً ، وأَنشدَ الأَبياتَ هٰذهِ بينَ الناسِ ، ثمَّ ترنَّحَ ترنُّحَ النشوانِ ، وقالَ : أَنطَحُ العمودَ برأْسِي ، فقالوا لَهُ : ارفُقْ بنفسِكَ .

[صد الدلال من الكمال]

وقد تعلَّقَ بأَذيالِهِ في قولِهِ [من شعر العبَّاس بن الأحنف في « ديوانه » ٣٦] : [مِنَ الكاملِ]

لَــوْ كُنْـتِ عَــاتِبَـةً لَسَكَّـنَ خَـاطِـرِي ... أَمَلِــي رِضَــاكِ وَزُرْتُ غَيْــرَ مُــرَاقِـبِ

لَكِــنْ صَـدَدْتِ فَلَـمْ تَكُـنْ لِـي حِيلَـةٌ ... صَـدُّ الْمَلُـولِ خِـلاَفُ صَـدِّ الْعَـاتِـبِ

وقالَ أَبو تمَّامٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَخَلَّصَنِـي مِـنْ غَمْـرَةِ الْمَـوْتِ أَنَّـهُ ... صُـــدُودُ دَلاَلٍ لاَ صُــدُودَ مَــلاَلِ

[مرض الحب لا دواء له]

وقالَ بعضُ الأَعرابِ ، فيما يشبهُ قولَ ابنِ الدمينَةِ : (بِكُلٍّ تَدَاوَيْنَا . .) إِلىٰ آخرِ البيتِ : [مِنَ الطَّويلِ]

خَلِيلَيَّ هَلْ يَشْفِي مِنَ الشَّوْقِ وَالْجَوَىٰ ... دُنُـوٌّ مِـنَ الأَوْطَـانِ ؟ لاَ بَـلْ يَشُـوقُهَـا

وَيَـزْدَادُ فِـي قُـرْبٍ إِلَيْهَـا صَبَـابَـةً ... وَيَبْعُـدُ مِـنْ فَـرْطِ اشْتِيَـاقٍ طَـرِيقُهَـا

[العاشق تعب علىٰ كل حال]

وهوَ مثلُ قولِ الآخرِ [في « خزانة الأدب » ١/٥١] : [مِنَ الوافرِ]

وَأَبْـرَحُ مَـا يكُـونُ الشَّـوْقُ يَـوْمـاً ... إِذَا دَنَـتِ الـدِّيَـارُ مِـنَ الـدِّيَـارِ

---

(١) الرندُ : نباتٌ طيبُ الرائحةِ من شجرِ الباديةِ .

ومنهُ : أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : « **كَانَ إِذَا أَبْصَرَ دَرَجَاتِ الْمَدِينَةِ . حَرَّكَ دَابَّتَهُ ؛ مِنْ حُبِّهَا** »[1] .

وقالَ كُثَيِّرٌ : [مِنَ الطَّويلِ]

لَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي وَالْمَزَارُ قَرِيبُ ... وَلَيْسَ عَلَىٰ شَحْطِ النَّوَىٰ أُكْثِرُ الْبُكَا

وقالَ النظَّارُ الفقْعسيُّ [في « المستطرف » ٢/ ٣٩١] : [مِنَ الطَّويلِ]

يَقُولُونَ : هَـٰذِي أُمُّ عَمْرٍو قَرِيبَةٌ ... دَنَتْ بِكَ أَرْضٌ نَحْوَهَا وَسَمَاءُ

أَلاَ إِنَّمَا بُعْدُ الْحَبِيبِ وَقُرْبُهُ ... إِذَا هُوَ لَمْ يُوصَلْ إِلَيْهِ سَوَاءُ

وقالَ أَبو عبادةَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٦٥٦] : [مِنَ المتقاربِ]

لَعَمْرِي لَقَدْ كَانَ هِجْرَانُهُ ... عَلَى الصَّبِّ أَيْسَرَ مِنْ فَقْدِهِ

وَقَدْ كُنْتُ أَظْمَا إِلَىٰ وَصْلِهِ ... فَقَدْ صِرْتُ أَظْمَا إِلَىٰ صَدِّهِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٧٢٥] : [مِنَ الوافرِ]

وَهَجْرُ الْقُرْبِ مِنْهَا كَانَ أَشْهَىٰ ... إِلَى الْمُشْتَاقِ مِنْ وَصْلِ البِعَادِ

وقالَ وأَجادَ [في « ديوانهِ » ٣/ ٢٠٤٣] : [مِنَ البسيطِ]

مَتَىٰ جَرَى الدَّمْعُ عَنْ بَيْنٍ تَقَدَّمَهُ الْـ ... ـهِجْرَانُ كَانَ خَلِيقاً أَنْ يَكُونَ دَمَا

وقالَ ابنُ عنينٍ [في « نفح الطيب » ٢/ ٨٦٣] : [مِنَ الكاملِ]

عِبْءُ الصُّدُودِ أَخَفُّ مِنْ عِبْءِ النَّوَىٰ ... لَوْ كَانَ لِي فِي الْحُبِّ أَنْ أَتَخَيَّرَا

وقالَ ابنُ الخيَّاطِ [في « ديوانه » ٢٥٥] : [مِنَ الكاملِ]

يَا عَمْرُو أَيُّ خَطِيرِ خَطْبٍ لَمْ يَكُنْ ... خَطْبُ الْفِرَاقِ أَشَدَّ مِنْهُ وَأَوْبَقَا

كِلْنِي إِلَىٰ كَلَفِ الصُّدُودِ فَرُبَّمَا ... كَانَ الصُّدُودُ مِنَ النَّوَىٰ بِي أَرْفَقَا

وقالَ الناظمُ في عكسِهِ [في « العُكبريِّ » ٤/ ٨١] : [مِنَ الطَّويلِ]

نَرَىٰ عِظَماً بِالْبَيْنِ وَالصَّدُّ أَعْظَمُ ... [وَنَتَّهِمُ الْوَاشِينَ وَالدَّمْعُ مِنْهُمُ]

وقالَ في قريبٍ مِن موافقتِهِ [في « العُكبريِّ » ١/ ١٩٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَرَىٰ لِي بِقُرْبِي مِنْكَ عَيْناً قَرِيرَةً ... وَإِنْ كَانَ قُرْباً بِالْبِعَادِ يُشَابُ

وَهَلْ نَافِعِي أَنْ تُرْفَعَ الْحُجْبُ بَيْنَنَا ... وَدُونَ الَّذِي أَمَّلْتُ مِنْكَ حِجَابُ

وقالَ [في « العُكبريِّ » ١/ ٢٤٥] : [مِنَ الكاملِ]

قَرُبَ الْمَزَارُ وَلاَ مَزَارَ وَإِنَّمَا ... يَغْدُو الْجَنَانُ فَنَلْتَقِي وَيَرُوحُ

---

(١) أخرجه عن أنس رضي الله عنه بنحوه البخاري (١٨٠٢) في (العمرة) .

أمّا ابن الخيّاطِ . . فإنَّه يقولُ : [مِنَ الطَّويلِ]

غَـرَامٌ عَلَـىٰ يَـأْسِ الْهَـوَىٰ وَرَجَـائِـهِ وَحُـبٌّ عَلَـىٰ قُـرْبِ الْمَـزَارِ وَبُعْـدِهِ

وقالَ قيسٌ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنَّ مُقِيمَـاتٍ بِمُنْعَـرَجِ اللِّـوَىٰ لأَقْـرَبُ مِـنْ لُبْنَـىٰ وَهَـاتِيـكَ دَارُهَـا

[عودة إلىٰ بكاء الحمائم]

ولنعدْ إلىٰ ما نحنُ بسبيلِهِ ، ممَّا يتعلَّقُ ببكاءِ الحَمام ، قالَ الصمَّةُ بنُ عبيدِ اللهِ القشيريُّ [في « ديوانه » ١١٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَإِنْ سَجَعَـتْ فِـي بَطْـنِ وَادٍ حَمَـامَـةٌ تُجَـاوِبُ أُخْـرَىٰ مَـاءُ عَيْنَيْـكَ دَافِـقُ(١)
كَـأَنَّـكَ لَـمْ تَسْمَـعْ بُكَـاءَ حَمَـامَـةٍ بلَيْـلٍ وَلَـمْ يَحْـزُنْـكَ إِلْـفٌ مُفَـارِقُ
بَلَـىٰ فَـأَفِـقْ مِـنْ ذِكْـرِ لَيْلَـىٰ فَـإِنَّمَـا أَخُو الصَّبْرِ مَنْ كَفَّ الْهَوَىٰ وَهْوَ تَائِقُ(٢)

وقالَ آخرُ : [مِنَ الكاملِ]

أَبَكَيْـتَ مِـنْ حُـزْنٍ لِنَـوْحِ حَمَـائِـمٍ دعَـتِ الْهَـدِيـلَ وَظَـلَّ غَيْـرَ مُجِيبِهَـا
نُحْنَـا وَنَـاحَـتْ غَيْـرَ أَنَّ بُكَـاءَنَـا بِعُيُـونِنَـا وَبُكَـاءَهَـا بِقُلُـوبِهَـا

وقالَ النظَّارُ الفقْعَسيُّ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ يَـا لَقَـوْمِـي بَـرَّحَـتْ بِـي حَمَـامَـةٌ مُفَجَّعَـةٌ قَـدْ غَـابَ عَنْهَـا قَـرِينُهَـا
تُغَنِّـي بِصَـوْتٍ أَعْجَمِـيٍّ فَهَيَّجَـتْ شَـآبِيـبَ عَيْـنٍ مُسْتَهِـلٍّ مَعِينُهَـا
وَجَـدَّدَ قَـرْحَ الْقَلْـبِ فِيـهِ انْـدِمَـالُـهُ تَـرَنُّـمُ أَلْحَـانٍ بِـهِ لاَ تَبِينُهَـا

وقالَ أبو جعفرٍ المهلَّبيُّ : [مِنَ الطَّويلِ]

لَقَـدْ هَيَّـجَ الشَّـوْقَ الْقَـدِيـمَ حَمَـامَـةٌ مُطَـوَّقَـةٌ وَرْقَـاءُ بَـانَ قَـرِينُهَـا(٣)
تَغَنَّـتْ بِصَـوْتٍ أَعْجَمِـيٍّ فَهَيَّجَـتْ وَسَـاوِسَ نَفْـسٍ مَـا تَقَضَّـتْ شُجُـونُهَـا

وقالَ محمَّدُ بنُ جَهمٍ : [مِنَ الكاملِ]

أَبَكَيْـتَ إِنْ غنَّـتْ حَمَـامَـةُ أَيْكَـةٍ وَرْقَـاءُ تَهْتِـفُ فِـي الْغُصُـونِ وَتَسْجَـعُ
مَـأْلُـوفَـةُ الأَلْحَـانِ مِطْـرَابُ الضُّحَـىٰ تَبْكِـي بِشَجْـوٍ دَائِـمٍ وَتَـوَجُّـعُ
مَـا تَسْتَفِيـقُ مِـنَ الْبُكَـاءِ وَنَـوْحُهَـا يَجْـوِي الْحَـزِيـنَ وَعَيْنُهَـا لاَ تَـدْمَـعُ
عَجَبـاً لِمَبْكَـىٰ عَيْنِهَـا وَجُمُـودِهَـا وَلِعَـوْلَـةٍ فِـي قَلْبِهَـا مَـا تُقْلِـعُ

---

(١) سجعُ الحمام : موالاةُ صوتهِ علىٰ طريقٍ واحدٍ .
(٢) تائقٌ : مشتاقٌ ، وتاقتِ النفسُ إلى الشيءِ : نزعَتْ واشتاقت .
(٣) الوُرْقةُ : سوادٌ في غبرةٍ كلونِ الرمادِ .

وقالَ أحدُ بني الصَّيداءِ [في « بغية الطلب في تاريخ حلب » ٢/ ٩٧٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

دَعَتْ فَوْقَ أَغْصَانٍ مِنَ الأَيْكِ غَدْوَةً ... مُطَوَّقَةٌ وَرْقَاءُ فِي إِثْرِ آلِفِ
فَهَاجَتْ عَقَابِيلَ الْجَوَىٰ إِذْ تَرَنَّمَتْ ... وَشَبَّتْ ضِرَامَ الشَّوْقِ بَيْنَ الشَّرَاسِفِ[١]
بَكَتْ بِجُفُونٍ دَمْعُهَا غَيْرُ ذَارِفٍ ... فَأَغْرَتْ جُفُونِي بِالدُّمُوعِ الذَّوَارِفِ

وللأَبياتِ قصَّةٌ ، لا يتَّسعُ لها الوقتُ[٢] .

وقالَ الطغرائِيُّ [في « ديوانِهِ » ٣٨٩] : [مِنَ البسيطِ]

أَيْكِيَّةٌ صَدَحَتْ شَجْواً عَلَىٰ فَنَنٍ ... فَأَشْعَلَتْ مَا خَبَا مِنْ نَارِ أَشْجَانِي[٣]
نَاحَتْ وَمَا فَقَدَتْ إِلْفاً وَلاَ فُجِعَتْ ... فَذَكَّرَتْنِيَ أَوْطَارِي وَأَوْطَانِي
طَلِيقَةٌ مِنْ إِسَارِ الْهَمِّ نَاعِمَةٌ ... أَضْحَتْ تُجَدِّدُ وَجْدَ الْمُوثَقِ الْعَانِي
مَا فِي حَشَاهَا وَلاَ فِي جَفْنِهَا أَثَرٌ ... مِنْ نَارِ قَلْبِي وَلاَ مِنْ مَاءِ أَجْفَانِي

وهيَ بالمكانِ الأَعلىٰ مِن إِثارةِ الأَشجانِ ، لولا التغايرُ بينَ قولِهِ : (شجواً) وقولِهِ : (طليقةٌ وما بعدَهُ) .

وممَّا ينسبُ لبدرِ الدينِ يوسُفَ بنِ لؤلؤٍ : [مِنَ الكاملِ]

أَحَمَامَةَ الْوَادِي بِشَرْقِيِّ الْحِمَىٰ ... إِنْ كُنْتِ مُسْعِدَةَ الْحَزِينِ . . فَرَجِّعِي
فَلَقَدْ تَقَاسَمْنَا الْغَضَا فَغُصُونُهُ ... فِي رَاحَتَيْكِ وَجَمْرُهُ فِي أَضْلُعِي

ولَهُ [في « خزانة الأدب » ٢/ ٨٨] : [مِنَ الكاملِ]

وَتنبَّهَتْ ذَاتُ الْجَنَاحِ بِسَحْرَةٍ ... بِالْوَادِيَيْنِ فَهَيَّجَتْ أَشْوَاقِي

---

(١) الشرسوفُ : غضروفٌ معلَّقٌ بكلِّ ضِلَعٍ ، مثلُ غضروفِ الكتفِ .

(٢) روى الأَصمعيُّ عن مُنتجعِ بنِ نبهانَ الصيداويِّ قالَ : أَخبرني رجلٌ مِن بني الصَّيداءِ مِن أَهلِ الصَّريمِ قالَ : كنتُ أَهوىٰ جاريةً مِن باهلةَ ، وكانَ أَهلُها قد أَخافوني ، وأَخذوا عليَّ المسالِكَ ، فخرجتُ ذاتَ يومٍ ، فإِذا حماماتٌ يسجعنَ علىٰ أَفنانِ أَيكاتٍ ، متناوحاتٍ في سرارةِ وادٍ ، فاستنفرني الشَّوقُ ، فركبتُ وأَنا أَقولُ : دَعَتْ فَوْقَ أَغْصَانٍ . . . الأبيات ، لكنِّي سِرْتُ ، فآواني اللَّيلُ إِلىٰ حَيٍّ ، فلمَّا رنَقَتْ في عيني سِنةٌ . . إِذا بقائلٍ يقولُ :

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عِرَارِ نَجْدٍ ... فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عِرَارِ

فَتَشاءَمتُ مِنها ، ثُمَّ غلبتني عينايَ ، فإِذا آخرُ يقولُ :

لَنْ يَلْبَثَ الْقُرَنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا ... لَيْلٌ يَكُرُّ عَلَيْهِمُ وَنَهَارُ

فقُمتُ ، وَعَبَرتُ ، وركبْتُ متنكِّباً عَنِ الطَّريقِ ، فإِذا راعٍ معَ الشُّروقِ وقد سرحَ غنماً لهُ وهوَ يتمثَّلُ :

كَفَىٰ بِاللَّيَالِي الْمُخْلِقَاتِ لِجِدَّةٍ ... وَبِالْمَوْتِ قَطَّاعاً حِبَالَ الْقَرَائِنِ

فأَظلَمَتْ عَلَيَّ ـ واللهِ ـ الأَرضُ ، فتأَمَّلتُهُ فعرفتُهُ ، قلتُ : فلانٌ ؟ قالَ : فلانٌ .
قلتُ : ما وراءَكَ ؟ قالَ : ماتَتْ ـ واللهِ ـ رملةُ ، فما تمالَكتُ أَن سقطْتُ عَن بعيري ، فما أَيقظني إِلاَّ حرُّ الشَّمسِ ، فقمتُ وقد عَقَلَ الغُلامُ ناقتي ومضىٰ ، فركبتُ إِلىٰ أَهلي وقلتُ :

يَا رَاعِيَ الضَّأْنِ قَدْ أَبْقَيْتَ لِي كَمَداً ... يَبْقَىٰ وَيُتْلِفُنِي يَا رَاعِيَ الضَّانِ
نَعَيْتَ نَفْسِي إِلَىٰ جِسْمِي فَكَيْفَ إِذاً ... أَبْقَىٰ وَنَفْسِيَ فِي أَثْنَاءِ أَكْفَانِ
لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا أَسْأَرْتَ فِي كَبِدِي ... بَكَيْتَ مِمَّا تَرَاهُ الْيَوْمَ أَبْكَانِي

(٣) الأيكَةُ : الشجرُ الكثير الملتفُّ . والأَيكِيَّةُ : التي مِن شأنها وعادتِها سُكْنى الأَيكِ ، وهيَ الحمامةُ .

وَرْقَاءُ قَدْ أَخَذَتْ فُنُونَ الْحُزْنِ عَنْ ... يَعْقُوبَ وَالأَلْحَانَ عَنْ إِسْحَاقِ
أَنَّىٰ تُبَارِينِي أَسىً وَصَبَابَةً ... وَكَآبَةً وَجَوىً وَفَيْضَ مَآقِي ؟!
وَأَنَا الَّذِي أُمْلِي الْهَوَىٰ مِنْ خَاطِرِي ... وَهِيَ الَّتِي تُمْلِي مِنَ الأَوْرَاقِ

وكانَ ابنُ أَبي طاهرٍ ، يستحسنُ هٰذِهِ الأَبياتِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَبْلِيَ أَبْكَىٰ كُلَّ مَنْ كَانَ ذَا هَوىً ... هُتُوفُ الْبَوَاكِي وَالدِّيَارُ الْبَلاَقِعُ
وَمَرَّ عَلَى الأَطْلاَلِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ... نَوَائِحُ مَا تَخْضَلُّ مِنْهَا الْمَدَامِعُ[1]
مُزَبْرَجَةُ الأَعْنَاقِ نِمْرٌ بُطُونُهَا ... مُخَطَّمَةٌ بِالدُّرِّ خُضْرٌ رَوَائِعُ[2]
تَرَىٰ طِرَراً بَيْنَ الْخَوَافِي كَأَنَّهَا ... حَوَاشِي بُرُودٍ أَحْكَمَتْهَا الْوَشَائِعُ[3]
وَمِنْ قِطَعِ اليَاقُوتِ صِيغَتْ عُيُونُهَا ... خَوَاضِبُ بِالحِنَّاءِ مِنْهَا الأَصَابِعُ

وقالَ آخرُ : [مِنَ البسيطِ]

يَا وَيْحَ قُمْرِيَّةٍ غَنَّتْ لَنَا هَزَجاً ... مِمَّا تُغَنِّي بِنَظْمٍ جِدُّ مُتَّزِنِ
قَدْ كُنْتِ وَاقِعَةً دَهْراً عَلَىٰ فَنَنٍ ... فَصِرْتِ فِي جَوْفِ مَنْحُوتٍ مِنَ القِنَنِ[4]
فَخَبِّرِينَا وَمَا أَلْفَاكِ مُخْبِرَةً ... أَتَسْجَعِينَ لِلَهْوٍ مِنْكِ أَمْ شَجَنِ ؟
وَفِي فُؤَادِي هُمُومٌ لَسْتُ أُظْهِرُهَا ... خَوْفَ الْوُشَاةِ وَإِشْفَاقاً مِنَ الزَّمَنِ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانِهِ » ٣/١٩٦٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَوُرْقٍ تَدَاعَىٰ بِالْبُكَاءِ فَهِجْنَ لِي ... كَمِينَ أَسىً بَيْنَ الْحَشَا وَالْحَيَازِمِ
وَصَلْتُ بِدَمْعِي نَوْحَهُنَّ وَإِنَّمَا ... بَكَيْتُ لِشَجْوِي لاَ لِشَجْوِ الْحَمَائِمِ

وقالَ المعرِّيُّ [في « سقطِ الزندِ » ٢٦٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَغَنَّتْ لَنَا فِي دَارِ سَابُورَ قَيْنَةٌ ... مِنَ الْوُرْقِ مِطْرَابُ الأَصَائِلِ مِيهَالُ[5]
فَقُلْتُ : تَغَنَّيْ كَيْفَ شِئْتِ فَإِنَّمَا ... غِنَاؤُكِ عِنْدِي ـ يَا حَمَامَةُ ـ إِعْوَالُ[6]

وقالَ المنازيُّ ـ وأَهلُ الأَندلسِ يزعمونَ أَنَّهما لحمدةَ الأَندلسيَّةِ ـ : [مِنَ الوافرِ]

لَقَدْ عَرَضَ الْحَمَامُ لَنَا بِسَلْعٍ ... إِذَا غَنَّىٰ لَهُ رَكْبٌ أَلاَحَا
شَجَا قَلْبَ الْخَلِيِّ فَقَالَ : غَنَّىٰ ... وَبَرَّحَ بِالشَّجِيِّ فَقَالَ : نَاحَا

---

(١) تخضلُّ : تبتلُّ . المدامعُ : العيونُ .
(٢) الزِّبْرِجُ : الزينةُ من وشيٍ أو جوهرٍ أو غيرِهِ . طائرٌ أنمرُ : منقطٌ بالأسود .
(٣) الوشائع : جمع وشيعةٍ ، وهي الطريقةُ في البُرْدِ .
(٤) القِنَنُ : جمع قِنَّةٍ ، وهيَ قوَّةٌ من قوىٰ حبلِ الليفِ .
(٥) دار سابور : دارُ العلمِ بـ(بغدادَ) . القينةُ : المغنيةُ . الوُرْقُ : الحمامُ . الميهالُ : من الوَهَلِ ، أي الفزعُ ، أوِ النازلةُ بينَ أهلها .
(٦) الإعوالُ : العويلُ وهوَ رفعُ الصوتِ بالبكاءِ . يقولُ : إن صوت هٰذِهِ الحمامةِ عندي ليس غناءً يبعثُ على اللهوِ والطربِ ، وإنما هوَ عويلٌ يثيرُ الشجا والكربَ .

ونَعم واللهِ ، فكلٌّ يقفُ عندَ حدِّهِ ، وينتهي لِمقدارِ مدِّهِ ، وكثيراً ما تشتبهُ النوائحُ والأغاني ، وتتَّفِقُ الصورُ لا المَعاني .

وللهِ درُّ الناظِمِ في قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٥٥] : [مِنَ الوافرِ]

وَقَـدْ يَتَقَـارَبُ الْـوَصْفَـانِ جِـدّاً ... وَمَـوْصُـوفَـاهُمَـا مُتَبَـاعِـدَانِ

ويُطربني قولُ الآخرِ ، وقد تمثَّلتُ بهِ مرَّةً ، وعِندي صَديقي الجليلُ السيِّدُ شيخُ بنُ محمَّدٍ الحبشيُّ ، فصعقَ حتَّىٰ كادَ يُغشىٰ عليهِ ، وهُوَ : [مِنَ الخفيفِ]

يَنْـدُبُـونَ اللِّـوَا وَأَنْـدُبُ سَلْعـاً ... كُـلُّ عَيْـنٍ تَبْكِـي عَلَـىٰ مَـا شَجَـاهَـا

وحدَّثوا [في « بغية الطلب » ٧/ ٣٢١١] : أَنَّ خالدَ بنَ يزيدَ الكاتبَ ، كانَ يهوىٰ جاريةً لبعضِ أعيانِ (بغدادَ) ، فلم يقدِرْ عَليها ، ثمَّ إنَّ محمَّدَ بنَ عبدِ الملكِ ولاَّهُ عملاً بالثغورِ ، فشخصَ ، فسمعَ في طريقِهِ منشداً يقولُ : [مِنَ البسيطِ]

مَـنْ كَـانَ ذَا شَجَـنٍ بِـالشَّـامِ يَطْلُبُـهُ ... فَفِي سِوَى الشَّامِ أَضْحَى الأَهْلُ وَالشَّجَنُ

فبكىٰ حتَّىٰ سقطَ علىٰ وجهِهِ ، ثمَّ أَفاقَ ، ولم يفارقْهُ الوسواسُ حتَّىٰ ماتَ .

ولا غرابَةَ ؛ فإنَّ مَن وَعىٰ سمعُهُ ، وكرُمَ طبعُهُ ، وعذُبَ مشربُهُ . . لا صادِحَةَ إلاَّ تُطرِبُهُ .

ولقد أَسهبَ والدي ـ رحمَهُ اللهُ ـ في الموضوعِ بلسانِ القومِ ، وذكرَ حديثَ الثلاثةِ الذينَ سَمِعوا المناديَ على السَّعْتَرِ البرِّيِّ[1] ، وحديثَ سامعِ المنادي على الخيارِ عَشَرَةٌ بدرهَمٍ . . وماكانَ مِن تغيُّرِهِ وقولِهِ : إذا كانَ الخيارُ عشرةٌ بدِرهمٍ . . فما بالُ الأشرارِ ؟!

وذكرَ الأُستاذَ الأبرَّ سيِّدَنا الإمامَ عيدروسَ بنَ عمرَ : سَمِعَ الناعورَةَ يوماً . . فاهتاجَ واشتاقَ ، وفاضَتْ حكمتُهُ ، وتفجَّرتْ ينابيعُ معانيهِ ، ودرَّتْ شآبيبُ معارفِهِ ، فقلتُ لوالدي : إنَّ عِندي في ذلكَ لحديثاً يناسِبُ بعضَ ما ذكرتُم قالَ : هاتِ ، قلتُ : ذكرَ بعضُ أَهلِ الأدبِ ، أَنَّ أعرابيّاً نزلَ بالفتحِ بنِ خاقانَ ، وزيرِ المتوكِّلِ العبَّاسيِّ ، وباتَ في سطحٍ يشرفُ علىٰ بستانٍ لَهُ ، فلمَّا أَسحرَ ، وسمعَ أَصواتَ النواعيرِ . . حَنَّ وأَنَّ ، وجاشَتْ بلابِلُهُ ، وهاجَتْ خواطِرُهُ ، وقالَ [في « الأغاني » ٥/ ٣٨١] : [مِنَ الكاملِ]

بَكَـرَتْ تَحِـنُّ وَمَـا بِهَـا وَجْـدِي ... وَأَحِـنُّ مِـنْ شَـوْقٍ إِلَـىٰ نَجْـدِ

وَدُمُـوعُهَـا تَحْـيِ الـرِّيَـاضُ بِهَـا ... وَدُمُـوعُ عَيْنِـي أَحْـرَقَـتْ خَـدِّي

فأَصابتْ مِن أَبي محزّاً ، وصادَفَتْ لَهُ مهزّاً ، فاهتاجَ حزناً ، وأَرسلَ دموعَهُ فُرادىٰ ومثنىً ، ووَدَّ أَن لَو كانَ الأُستاذُ حيّاً . . فأَتحفَهُ بالقصَّةِ والبيتينِ ، ودَعا لي حينئذٍ بما أَرجو ذُخرَهُ وبركتَهُ .

---

(١) الحاصل منها : أن كلَّ سامع يسرع فهمه إلىٰ ما يشغل فكره ، فأحدهم سمعه يبيع زعتر الطعام والثاني سمعه يقول : اسْعَ ترَ برِّي ، والثالث سمع : الساعة ترىٰ بري ، فانهض وبادر قبل فوات الأوان .



وقالَ نصيبٌ أَو غيرُهُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَدْ كِدْتُ يَوْمَ الْحُزْنِ لَمَّا تَرَنَّمَتْ هَتُوفُ الضُّحَىٰ مَحْزُونَةً بِالتَّرَنُّمِ
أَمُوتُ لِمَبْكَاهَا أَسىً إِنَّ لَوْعَتِي وَوَجْدِي بِسَعْدَىٰ شَجْوُهُ غَيْرُ مُنْجَمِ

وقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَيَوْمَ اللِّوَىٰ أَبْكَاكَ نَوْحُ حَمَامَةٍ هَتُوفِ الضُّحَىٰ بِالنَّوْحِ ظَلَّتْ تَفَجَّعُ
فَقُلْتُ : أَتَبْكِي ذَاتُ طَوْقٍ تَذَكَّرَتْ هَدِيلاً وَقَدْ أَوْدَىٰ وَمَا كَانَ تُبَّعُ[(١)]
وَأَدْرِي وَلاَ أَبْكِي وَتَبْكِي وَمَا دَرَتْ بِعَوْلَتِهَا غَيْرَ الْبُكَا كَيْفَ تَصْنَعُ
وَلَمْ تَرَ مَا تَبْكِي وَأَتْرُكُ مَا أَرَىٰ وَتَحْفَظُ مَا تَبْكِي لَهُ وَأُضَيِّعُ

وقد سبقَ في غيرِ هٰذا المجلسِ ، ما قالَهُ أَبو فراسٍ في مناجاةِ الحمامةِ .

وقالَ ابنُ الفارضِ [في « ديوانه » ٣٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَوْلاَكَ مَااسْتَهْدَيْتُ بَرْقاً ، وَلاَ شَجَتْ فُؤَادِي فَأَبْكَتْ إِذْ شَدَتْ وُرْقُ أَيْكَةِ[(٢)]
فَذَاكَ هُدَىً أُهْدِي إِلَيَّ وَهَـٰذِهِ عَلَى الْعُودِ إِذْ غَنَّتْ عَنِ الْعُودِ أَغْنَتِ[(٣)]

ولي في الموضوعِ الكثيرُ الطيِّبُ ، غيرَ أَنِّي لا أُمِلُّ بشيءٍ منهُ ، إلاَّ ما أُراني لَم أُسبَقْ إِليهِ مِن قولي : [مِنَ البسيطِ]

جَفَّتْ دُمُوعِي لِفَرْطِ الْوَجْدِ وَالحُرَقِ وَبِتُّ أَرْعَىٰ نُجُومَ اللَّيْلِ مِنْ أَرَقِ
كَذَلِكَ الْوُرْقُ لاَ تَذْرِي الدُّمُوعَ إِذَا نَاحَتْ بِأَكْبَادِهَا الْحَرَّىٰ عَلَى الْوَرَقِ

[العرب تحفظ المستجير ولو كان حيواناً]

ويتَّصِلُ بالموضوعِ [أن أبا الفرج روىٰ في « الأغاني » ١٥/ ٣٧٥] : أَنَّ زياداً الأَعجمَ ، قدمَ على المهلَّبِ ابنِ أَبي صفرَةَ ، فبينا هُوَ يشربُ يوماً معَ ابنِهِ حبيبٍ . . إِذِ اقتربَتْ منهُما حمامَةٌ تغنِّي ، فقالَ زيادٌ [في « ديوانه » ١٢٠ـ ١٢١] : [من الوافر]

تَغَنَّيْ أَنْتِ فِي ذِمَمِي وَعَهْدِي وَذِمَّةِ وَالِدِي أَنْ لاَ تُطَارِي
إِذَا غَنَّيْتِنِي وَشَرِبْتُ كَأْساً ذَكَرْتُ أَحِبَّتِي وَذَكَرْتُ دَارِي
فَإِمَّا يَقْتُلُوكِ طَلَبْتُ ثَأْراً لَهُ نَبَأٌ لأَنَّكِ فِي جِوَارِي

فما كانَ بأَسرعَ مِن أَن شَكَّ فُؤَادَها بالسهْمِ حبيبٌ ، فغضِبَ زيادٌ ، وذهبَ يشكو إِلى المهلَّبِ ، فقالَ حبيبٌ : إِنَّما كنتُ مازحاً ، فقالَ لَهُ أَبوهُ : أَما علمْتَ أَنَّ جارَةَ أَبي أُمامَةَ لا ترُوَّعُ ؟ وقضىٰ فِيها بأَلفِ دينارٍ ديَةَ المسلمِ ، فقبضَها زيادٌ ، وقالَ [في « ديوانه » ٦٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلِلَّهِ عَيْناً مَنْ رَأَىٰ كَقَضِيَّةٍ قَضَىٰ لِي بِهَا شَيْخُ الْعِرَاقِ الْمُهَلَّبُ

---

(١) تُبَّع : هو تبع بن حسان بن تبان ، ويقال : اسمه مرثد ، وهو تبع الأصغر آخر التبابعة من ملوك حمير في اليمن .

(٢) **استهداهُ** : طلبَ منهُ أن يَهديَهُ . **شجت** : أَحزنت . **شَدَت** : غنَّت . **الأيكةُ** : الشجرة الملتفَّةُ .

(٣) **فذاك** : أي البرقُ . **وهٰذه** : أي الحمائمُ . **العودُ الأوَّلُ** : الغصنُ . **العودُ الثاني** : آلة الطرب .

رَمَاهَا حَبِيبُ بْنُ الْمُهَلَّبِ رَمْيَةً ... فَأَقْصَدَهَا وَالسَّهْمُ يُخْطِي وَيَغْرُبُ[1]
فَأَلْزَمَهُ عَقْلَ الْقَتِيلِ ابْنُ حُرَّةٍ ... وَقَالَ حَبِيبٌ : إِنَّمَا كُنْتُ أَلْعَبُ
فَقَالَ : زِيَادٌ لاَ يُرَوَّعُ جَارُهُ ... وَجَارَةُ جَارِي مِثْلُ جَارِي وَأَقْرَبُ

[من الأماكن التي تحن فيها العرب . . عند حنين الإبل]

وكما تحنُّ العربُ لنوحِ الحمامِ ، وتبوحُ بِرَوْقِ الغمامِ . . كذلكَ عندَ حنينِ الإبلِ ، يضطَرِمُ أُوارُها ، ويهتاجُ تذكارُها .

قالَتِ امرأَةٌ مِن بني عقيلٍ ـ تزوَّجَتْ في بني كلابٍ ـ : [مِنَ الطَّويلِ]

خَلِيلَيَّ قَدْ هَاجَتْ عَلَيَّ صَبَابَةً ... قَلُوصُ الْعِبَادِيِّينَ لَيْلَةَ حَنَّتِ
بَرَزْتُ لَهَا وَاللَّيْلُ مُلْقٍ رُوَاقَهُ ... فَجَاوَبْتُهَا حَتَّىٰ مَلَلْتُ وَمَلَّتِ

وتزوَّجَتْ أُخرىٰ ، فنقَلُوها عَن أَهلِها علىٰ بَكرٍ[2] ، فجعلَتْ تَبكي علىٰ أُلَّافها ، وَيَحِنُّ البَكرُ إِلىٰ عطنِهِ[3] ، فقالَتْ [في « معجم البلدان » ١/ ٦٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ أَيُّهَا الْبَكْرُ الأَبَانِيُّ إِنَّنِي ... وَإِيَّاكَ فِي كَلْبٍ لَمُغْتَرِبَانِ
تَحِنُّ وَأَبْكِي إِنَّ ذَا لَبَلِيَّةٌ ... وَإِنَّا عَلَى الْبَلْوَىٰ لَمُصْطَحِبَانِ
وَإِنَّ زَمَاناً أَيُّهَا الْبَكْرُ ضَمَّنِي ... وَإِيَّاكَ فِي وَادٍ لَشَرُّ زَمَانِ

وقالَ آخرُ [في « وفيات الأعيان » ٦/ ٣٧٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَحَنَّتْ قَلُوصِي آخِرَ اللَّيْلِ حَنَّةً ... فَيَا رَوْعَةً مَا رَاعَ قَلْبِي حَنِينُهَا
تَحِنُّ إِلَىٰ أَهْلِ الْحِجَازِ صَبَابَةً ... وَقَدْ بِتُّ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ قَرِينُهَا

ويحكىٰ [بنحوها في « معجم البلدان » ١/ ١٣٥] : أَنَّ بعضَ أُمراءِ (المدينَةِ) ، استدعىٰ أَعرابيّاً مِن أُولي ودِّهِ ؛ لِيكتبَ لَهُ في الديوانِ ما يكفيهِ عَن انتجاعِ البوادي ، فتحمَّلَ بأَهلِهِ ومالِهِ ، حتَّىٰ إِذا كانَ علىٰ مَقْرُبَةٍ مِن (المدينَةِ) . سقىٰ إِبلَهُ ، ولَمَّا ضُرِبَتْ بالعطَنِ . . انفلَتَتْ واحدةٌ منهُنَّ ، وحنَّتْ إِلىٰ وطنِها ، فنفرَتِ البَواقي ، وأَمعنَتْ في آثارِها ، فاهتاجَتِ امرأَتُهُ ـ وكانَتْ مِن غطَفانَ ـ وقالَتْ : أَتكونُ الإِبلُ أَعقلَ مِنَّا وأَرقَّ عواطِفَ ؟! واللهِ لا تبعتُكَ إِلى (المدينةِ) ، وقالَتْ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا حَنَّتِ الشَّقْرَاءُ هَاجَتْ لِيَ الْهَوَىٰ ... وَذَكَّرَنِي أَهْلَ الأَرَاكِ حَنِينُهَا

ولا مؤاخذَةَ إِن كانَتِ القصَّةُ بغيرِ هٰذا اللونِ .

وقالَ المعريُّ يصفُ إِبلَهُ [في « سقط الزند » ٢٨٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَلَوْنَ زَبُوراً فِي الْحَنِينِ مُنَزَّلاً ... عَلَيْهِنَّ فِيهِ الصَّبْرُ غَيْرُ حَلاَلِ
وَأَنْشَدْنَ مِنْ شِعْرِ الْمَطَايَا قَصِيدَةً ... وَأَوْدَعْنَهَا فِي الشَّوْقِ كُلَّ مَقَالِ

---

(١) يغربُ السهمُ : يأتي مِن حيثُ لا يدري ، وهوَ مِن قولِهم : سهمٌ غربٌ .
(٢) البَكرُ من الإبلِ : غيرُ البالغ .
(٣) العطنُ للإبلِ : كالوطنِ للناسِ .



وإنَّما كثُرَ حنينُ العربِ لشَيمِ البروقِ ، ولبكاءِ الحمائمِ ، وحنينِ الإبلِ ؛ لكثرَةِ ما يمارسونَ مِن ذلكَ ، وإلاَّ . . فإنَّهم برِقَّةِ طباعهمْ لاَ يَنسونَ أَحبابَهم ، وكثيراً ما يهتاجُ لَهمُ الجوىٰ لأَدنىٰ حادثٍ ، ممَّا سوىٰ تلكَ :

[قد يهيِّج شوقَ العربي غيرُ الذي ذكر]

كهبوبِ الرياحِ : ومرَّ ذرْوٌ منهُ أَثناءَ الكلامِ ، وقالَ عبدُ اللهِ بنُ أُميَّةَ [في « ديوان الحماسة » ٢/ ١١٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا هَـبَّ عُلْـوِيُّ الـرِّيَـاحِ وَجَـدْتُنِـي كَـأَنِّـي لِعُلْـوِيِّ الـرِّيَـاحِ نَسِيـبُ

وكظهورِ النارِ : قالَ بعضُهُم [في « الأغاني » ١٥/ ١٢٧] : [مِنَ البسيطِ]

يَـا مُـوقِـدَ النَّـارِ أَوْقِـدْهَـا فَـإِنَّ بِهَـا سَنـاً يُهِيـجُ فُـؤَادَ الْعَـاشِـقِ السَّـدِمِ(١)

وقالَ ابنُ الخطَّابِ لمتمِّمِ بنِ نويرَةَ [في « وفيات الأعيان » ٦/ ١٩] : ما بلغَ مِن حزنِكَ علىٰ أَخيكَ ؟ قالَ : لقد مكثْتُ سنةً لا أَنامُ بليلٍ حتَّىٰ أصبحَ ، ولا رأَيْتُ ناراً بليلٍ . . إلاَّ ظَنَنْتُ نَفْسي تخرجُ ، أَذكرُ بِها نارَ أَخي لِلضِّيفانِ .

وكاختلاجِ الرِّجْلِ أَوِ العينِ : قالَ ابنُ أَبي ربيعةَ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا مَـذِلَـتْ رِجْلِـي دَعَـوْتُـكَ أَشْتَفِـي بِـذِكْـرَاكَ مِـنْ مَـذْلٍ بِهَـا فَيَهُـونُ(٢)

وقالَ العبَّاسُ بنُ الأَحنفِ : [مِنَ البسيطِ]

ظَلَّـتْ تُبَشِّـرُنِـي عَيْنِـي إِذِ اخْتَلَجَـتْ بِـأَنْ أَرَاكَ وَمَـا زَالَـتْ عَلَـىٰ خَطَـرِ
فَقُلْـتُ لِلْعَيْـنِ : إِمَّـا كُنْـتِ صَـادِقَـةً إِنِّـي بِبُشْـرَاكِ لِـي مِـنْ أَسْعَـدِ الْبَشَـرِ
فَمَـا جَـزَاؤُكِ عِنْـدِي لَسْـتُ أَعْـرِفُـهُ بَلَـىٰ جَـزَاؤُكِ أَنْ تَخْلَيْـنَ بِـالنَّظَـرِ
وَأَحْجُـبُ الْمُقْلَـةَ الأُخْـرَىٰ وَأَمْنَعُهَـا وَجْـهَ الْحَبِيـبِ كَمَـا لَـمْ تَـأْتِ بِـالْخَبَـرِ

ومنهُ قولي مِن قصيدةٍ نبويَّةٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا لِـيَ إِلاَّ حُبُّـهُ مِـنْ وَسِيلَـةٍ أُصَلِّـي عَلَيْـهِ كُلَّمَـا الْعَيْـنُ تَخْلَـجُ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٣] : [مِنَ الكاملِ]

وَعَـذَلْـتُ أَهْـلَ الْعِشْـقِ حَتَّـىٰ ذُقْتُـهُ فَعَجِبْـتُ كَيْـفَ يَمُـوتُ مَـنْ لاَ يَعْشَـقُ

[كيف يكون الموت بلا عشق ؟!]

يُعظِّمُ أَمرَ العشقِ ، ويقولُ : كيفَ يكونُ الموتُ مِن غيرِ عشقٍ ؟ إذ لا ينبَغي أَن يموتَ مَن لَم يعشَقْ ؛ لأَنَّهُ لَم يُقاسِ

(١) السَدَمُ : الندمُ ، السادم : النادمُ .
(٢) مَذِلَتْ : لم تستقرَّ في مكانِها .

ما يوجبُ الموتَ مِن المشاقِّ ، وألمِ الفراقِ ، وإنَّما يعالجُ ذلكَ العاشقُ ، فتسرعُ إليهِ بالهلاكِ ، فهوَ قريبٌ من **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٣/١٦٣] : [مِنَ البسيطِ]

لَـوْلاَ مُفَـارَقَـةُ الأَحْبَـابِ مَـا وَجَـدَتْ لَهَـا الْمَنَـايَـا إِلَـىٰ أَرْوَاحِنَـا سُبُـلاَ

[العشق من طبائع النفوس الكريمة]

والعشقُ مِن طبائعِ النفوسِ ، لا يخْلو عَنها شيءٌ مِن المواليدِ الثلاثةِ ، فضلاً عَن الإنسانِ ، الذي هُوَ سرُّها ومتخيَّرُها ، غيرَ أَنَّهُ لا يُورىٰ فيهِ زندُهُ ، إلاَّ عندَ كرمِ النحيزةِ[1] ، وصفاءِ السريرةِ ، ورقَّةِ الطبْعِ ، وسلامَةِ الخاطِرِ ؛ ولهـٰذا سُئِلَ أَحدُ بني عُذرةَ ـ كما سلفتِ الإشارةُ إلىٰ مثلِهِ ـ عَن تبيُّغِ العشْقِ بهم[2] ؟ فقالَ [بنحوه في « مصارع العشاق » ٢/١٨٦] : إنَّ لَنا أَخلاقاً شريفةً ، وأَنفساً عفيفةً .

وإذا كانَ العشقُ يهذِّبُ الطباعَ ، ويشجِّعُ الجبانَ ، ويطلِقُ يدَ البخيلِ . . فأَحرىٰ أَنْ لا تكونَ نشأَتُهُ إلاَّ عمَّا يناسِبُهُ مِن شرائفِ تلكَ الطباعِ .

وقد قالَ ابنُ أَبي مليكَةَ [في « الأغاني » ١/١٣٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

إذا أَنْـتَ لَـمْ تَعْشَـقْ وَلَـمْ تَعْـرِفِ الْهَـوَىٰ فَكُـنْ حَجَـراً مِـنْ يَـابِسِ الصَّخْـرِ جَلْمَـدَا

وقالَ ابنُ أَبي رزينٍ [في « الأغاني » ١٩/١٦٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

إذا أَنْـتَ لَـمْ تَعْشَـقْ وَلَـمْ تَتْبَـعِ الْهَـوَىٰ فَكُـنْ صَخْـرَةً بِـالْحِجْـرِ مِـنْ حَجَـرٍ أَصَـمّ

والثاني عينُ الأَوَّلِ في المعنىٰ ، وأَكثرِ اللفظِ ، وما أَدري أَيُّهما الأَوَّلَ ؟ ومازالتِ الخواطِرُ تتواردُ ، والشعراءُ تتناهَبُ ، والأُدباءُ تتخالَسُ ، والقضاءُ لِلسَّابقِ ، وهوَ ابنُ أَبي مليكَةَ فيما أَظُنُّ .

[المحب يرىٰ بعين غير عيون الناس]

وبيتُ الناظِمِ ناظرٌ إلىٰ **قولِهِ** في الأُخرىٰ [في « العُكبَريِّ » ١/٦] : [مِنَ الكاملِ]

لاَ تَعْـذُلِ الْمُشْتَـاقَ فِـي أَشْـوَاقِـهِ حَتَّـىٰ تَكُـونَ حَشَـاكَ فِـي أَحْشَـائِـهِ

وهُوَ قريبٌ من قولِ عزَّةَ : وقد قالَ لَها عبدُ الملِكِ بنُ مروانَ بعدَ ما خلا مِنهاالشبَابُ [كما في « المستطرف » ٢/٣٥٠] : أَنْتِ التي أَنفقَ فيكِ شعرَهُ وعمرَهُ كثيِّرٌ ؟! قالَتْ لَهُ : إنَّهُ كانَ يَراني بعينينِ ليستَا في رأْسِكَ ، وصدقَ ابنُ أَبي ربيعةَ في قولِهِ :

حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مَنْ تَوَدْ

وأَخرجَ ابنُ عساكرَ وغيرُهُ : أَنَّ جميلاً قدِمَ (مصرَ) علىٰ عبدِ العزيزِ بنِ مروانَ يمدحُهُ ، فرآهُ رجلٌ ، فقالَ : ما رأَيتَ في بُثينَةَ حتَّىٰ تتيمتَ بِها ؟ فواللهِ لقدْ رأَيتُها ولو ذُبحَ بعرقوبِها طائرٌ لانْذَبَحَ ، فقالَ لهُ جميلٌ : إنَّكَ لم ترَها بِعَينيَّ ، ولو نظرتَ إليها بعَينيَّ . . لأَحبَبْتَ أَنْ لا تلقى اللهَ تعالىٰ إلاَّ وأَنتَ زانٍ .

ثمَّ إنَّهُ مرضَ ، فدخلَ عليهِ العبَّاسُ بنُ سهلٍ الساعديُّ ، فذكرَ لَهُ [كما في « روضة المحبين » ٢٩٩] من عفَّةِ نفسِهِ

---

(١) النَّحيزَةُ : الأَصلُ والطبيعَةُ .

(٢) تَبَيَّغَ : اشتدَّ على الإنسانِ ولم يقدرْ دفعَهُ ، والمقصود هنا : الفتكُ .

ما اقتصَصْناهُ في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٢] : [مِنَ البسيطِ]

أَحْيَا وَأَيْسَرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلاَ وَالْبَيْنُ جَارَ عَلَىٰ ضَعْفِي وَمَا عَدَلاَ

ويشبهُ قولَ عزَّةَ وجميلٍ ، ما ذكرَهُ المبرِّدُ : أَنَّ يزيدَ ابنَ أَبي مسلمٍ ، وزيرَ الحجَّاجِ ـ وكانَ دميماً ـ دخلَ علىٰ سليمانَ بنِ عبدِ الملِكِ ، فقالَ لَهُ سليمانُ : قبَّحَ اللهُ رجلاً أَجرَّكَ رَسَنَهُ ، وأَشركَكَ في أَمانتِهِ ، فقالَ : لا تقُلْ هٰذا ، قالَ : ولِمَ ؟ قالَ : لأَنَّكَ رأَيتَني والأَمرُ عنِّي مدبرٌ ، ولو رأَيتَني وهُوَ مقبلٌ . . لاستحسَنْتَ منِّي ما استقبحتَ ، واستعظمْتَ ما استصغَرْتَ ، فقالَ لَهُ سليمانُ : ويحَكَ ، أَوَقَدِ استقرَّ الحجَّاجُ في قعرِ جهنَّمَ ، أَم لا ؟ قالَ : لا تقلْ ذلكَ ؛ فإِنَّ الحجَّاجَ وطَّأَ لكمُ المنابرَ ، وأَذلَّ لكمُ الجبابرَةَ ، وإِنَّهُ يأْتي يومَ القيامَةِ عَن يمينِ أَبيكَ ، ويسارِ أَخيكَ ، فحيثُما كانَا . . كانَ .

ولا يبعدُ عنهُ أَيضاً ما ذكرَ بعضُهم : أَنَّ رجلاً نشدَ طفلاً كالدينارِ[1] ، فقالَ لَهُ الناسُ : ما رأَيناهُ ، ثمَّ أَقبلَ بعدَ زمانٍ بحملِهُ ، ومرَّ علىٰ مَنْ نشدَهم ، فقالوا : ما هٰذا مِنكَ ؟ قالَ : ابني الذي كنتُ أَنشدُهُ ، فقالوا لَهُ : لَم نزلْ مُذِ اليومَ نراهُ جائياً رائحاً ، ولو قلتَ كالجُعَلِ[2] . . لدَلَلْناكَ عليهِ مِن أَوَّلِ وهلَةٍ ، ولكنَّكَ لمَّا قلتَ كالدينارِ . . ذهبَ وَهْمُنا إِلىٰ أَنَّ المنشودَ سواهُ ، فقالَ لَهم : رأَيتموهُ بعينٍ ، ورأَيتُهُ أَنا بأُخرىٰ .

ولَقَد أَنصفَ كثيِّرٌ في قولِهِ [في « ديوانه » ٤٤٢] : [مِنَ الكاملِ]

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلاَمَهَا خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعاً وَسُجُودَا

وقالَ عليُّ بنُ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ : [مِنَ المُجتثِّ]

وَلاَئِمٍ لاَمَ فِيهِ يَبْغِي بِبَذْلِكَ شَيْنِي
فَقُلْتُ إِذْ صَدَّ عَنْهُ هَلاَّ نَظَرْتَ بِعَيْنِي

[إذا رأيت عاشقاً . . فارحمه]

ولنعدْ لذكرِ ما يناسبُ البيتَ ، فمنْهُ قولُ البُحتريِّ [في « ديوانه » ٣/ ١٦١٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَيَأْمُرُنِي بِالصَّبْرِ مَنْ لَيْسَ وَجْدُهُ كَوَجْدِي وَلاَ إِعْلاَنُ حَالِي كَحَالِهِ

وقولُهُ [في « ديوانه » ٣/ ١٥٠٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا شِئْتَ أَنْ لاَ تَعْذُلَ الدَّهْرَ عَاشِقاً عَلَىٰ كَمَدٍ مِنْ لَوْعَةِ الْبَيْنِ فَاعْشَقِ

وقولُهُ [في « ديوانه » ٣/ ١٥٣٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

بِوِدِّيَ لَوْ يَهْوَى الْعَذُولُ وَيَعْشَقُ لِيَعْلَمَ أَسْبَابَ الْهَوَىٰ كَيْفَ تَعْلَقُ

وقالَ البُرَعيُّ : [مِنَ البسيطِ]

عَذَلْتَهُ حِينَ لَمْ تَنْظُرْ بِنَاظِرِهِ وَلاَ عَلِمْتَ الَّذِي فِي الْحُبِّ يَعْلَمُهُ

---

(١) طفلٌ كالدينار : أي وجههُ مشرقٌ متلأْلِئٌ .

(٢) الجُعَلُ : دابَّةٌ من هوامِّ الأَرضِ .

وأَصلُ المعنىٰ : أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم مرَّ بامرأَةٍ تبكي علىٰ قبرٍ ، فقالَ : « **اصْبِرِي وَاحْتَسِبِي** » ، **فقالَتْ لَهُ** : إليكَ عنِّي ، فإنَّكَ لم تصَب بمُصيبَتي ، فسارَ عَنها ، فقالَ لَها رجلٌ مرَّ بها بعدَهُ : ما قالَ لكِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ؟ قالَتْ : أَوَذاكَ رسولُ اللهِ ؟ وأَخذَها المقيمُ المقعِدُ مِن ردِّها عليهِ ، وانطلقَتْ إليهِ لتعتذِرَ ، قالَتْ : فلَم أَجد بوَّاباً ولاَ حجَّاباً ، فقالَ لَها : « **إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَىٰ** »[1] . وموضعُ المناسبةِ قولُها : إِنَّكَ لَم تُصَبْ بمُصيبَتي .

[المتنبي يعترف علىٰ نفسه بالجمود]

ثمَّ إنَّا نرى الناظِمَ يعترفُ علىٰ نفسهِ تارةً بالجمودِ **فيقولُ** [في « العُكبَريّ » ٢/ ٤٠] : [مِنَ البسيطِ]

لَـمْ يَتْـرُكِ الـدَّهْـرُ مِـنْ قَلْبِـي وَلاَ كَبِـدِي ... شَيْئـاً تُتَيِّمُـهُ عَيْـنٌ وَلاَ جِيـدُ
أَصَخْـرَةٌ أَنَـا ؟ مَـالِـي لاَ تُحَـرِّكُنِـي ... هَـٰذِي الْمُـدَامُ وَلاَ هَـٰذِي الأَغَـارِيـدُ ؟

ويقولُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٩٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

عَـدِمْـتُ فُـؤَاداً لَـمْ تَبِـتْ فِيـهِ فَضْلَـةٌ ... لِغَيْـرِ الثَّنَـايَـا الغُـرِّ وَالْحِـدَقِ النُّجـلِ[2]

ويقولُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٩٢ـ١٩٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلِلْخَـوْدِ مِنِّـي سَـاعَـةٌ ثُـمَّ بَيْنَنَـا ... فَـلاَةٌ إِلَـىٰ غَيْـرِ اللِّقَـاءِ تُجَـابُ[3]
وَمَـا الْعِشْـقُ إِلاَّ غِـرَّةٌ وَطَمَـاعَـةٌ ... يُعَـرِّضُ قَلْـبٌ نَفْسَـهُ فَتُصَـابُ
وَغَيْـرُ فُـؤَادِي لِلْغَـوَانِـي رَمِيَّـةٌ ... وَغَيْـرُ بَنَـانِـي لِلـزُّجَاجِ رِكَـابُ[4]
تَـرَكْنَـا لأَطْـرَافِ الْقَنَـا كُـلَّ شَهْـوَةٍ ... فَلَيْـسَ لَنَـا إِلاَّ بِهِـنَّ لِعَـابُ[5]

[هـٰذه هي الشجاعة يا أبا الطيب]

وأَينَ هـٰذا مِن قولِ أَخي عبْسٍ : [مِنَ الكاملِ]

وَلَقَـدْ ذَكَـرْتُـكِ وَالـرِّمَـاحُ نَـوَاهِـلٌ ... مِنِّـي وَبِيـضُ الْهِنْـدِ تَقْطُـرُ مِـنْ دَمِـي
فَـوَدِدْتُ تَقْبِيـلَ السُّيُـوفِ لأَنَّهَـا ... لَمَعَـتْ كَبَـارِقِ ثَغْـرِكِ الْمُتَبَسِّـمِ

وقولِ الآخرِ [في « البيان والتبيين » ١/ ٥٨٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَسِجْنـاً وَقَيْـداً وَاشْتِيَـاقـاً وَغُـرْبَـةً ... وَنَـأْيَ حَبِيـبٍ إِنَّ ذَا لَعَظِيـمُ
وَإِنَّ امْـرَأً دَامَـتْ مَـوَاثِيـقُ عَهْـدِهِ ... عَلَـىٰ مِثْـلِ مَـا قَـاسَيْتُـهُ لَكَـرِيـمُ

---

(١) أخرجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه البخاري (١٢٨٣) في (الجنائز) .
(٢) **الغُرُّ** : البيضُ . **النجلُ** : الواسعةُ .
(٣) **تُجابُ** : تُقطعُ .
(٤) **الغواني** : جمع غانيةٍ ، وهيَ التي استغنت بجمالها عن الحلي . **رميّةٌ** : طريدةٌ .
(٥) **اللعابُ** : من اللعبِ .

وقولِ بعضِ الصوفيّة : [مِنَ الكاملِ]

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ ـ وَالَّذِي أَنَا عَبْدُهُ ـ وَالسَّيْفُ عِنْدَ ذُؤَابَتِي مَسْلُولُ

وقولِ الآخرِ [وهو صفيُّ الدين الحليُّ في « ديوانه » ٤٨٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

ذَكَرْتُكِ وَالْخَطِّيُّ يَخْطُرُ بَيْنَنَا وَقَدْ نَهِلَتْ مِنِّي الْمُثَقَّفَةُ السُّمْرُ

فَوَاللهِ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لَصَادِقٌ بِنَا فَتَكَتْ تِلْكَ الرِّمَاحُ أَمِ السِّحْرُ

وقالَ الشريفُ البياضيُّ : [مِنَ الكاملِ]

وَلَقَد ذَكَرْتُكِ فِي السَّفِينَةِ وَالرَّدَىٰ مُتَوَقَّعٌ بِتَلَاطُمِ الأَمْوَاجِ

وَالْجَرُّ يَهْطُلُ وَالرِّيَاحُ عَوَاصِفٌ وَاللَّيْلُ مُسْوَدُّ الذَّوَائِبِ دَاجِي[1]

وَعَلَتْ لأَصْحَابِ السَّفِينَةِ ضَجَّةٌ وَأَنَا وَذِكْرُكِ فِي أَلَذِّ تَنَاجِي

وقالَ غيرُهُ : [مِنَ الكاملِ]

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالسُّيُوفُ لَوَامِعٌ وَالْمَوْتُ يُرْقَبُ تَحْتَ حِصْنِ الْمُرْقَبِ

وَالْمَوْتُ يَلْمَعُ بِالنُّفُوسِ وَخَاطِرِي يَلْهُو بِطَيِّبِ ذِكْرِكِ الْمُسْتَعْذَبِ

وقولُ الصفيِّ الحلِّيِّ [في « ديوانه » ٣٤٤] : [مِنَ الكاملِ]

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالْعَجَاجَ كَأَنَّهُ مَطْلُ الْغَنِيِّ وَسُوءُ عَيْشِ الْمُعْسِرِ[2]

فَظَنَنْتُ أَنِّي فِي صَبَاحٍ مُسْفِرٍ بِضِيَاءِ وَجْهِكِ أَوْ مَسَاءٍ مُقْمِرِ

وَتَعَطَّرَتْ أَرْضُ الْكِفَاحِ كَأَنَّمَا فُتِقَتْ لَنَا أَرْضُ الْجِلَادِ بِعَنْبَرِ

ومرَّ ما يناسبُهُ عن الطغرائيِّ ، في شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣١٧] : [مِنَ الخفيفِ]

هَـٰذِهِ مُهْجَتِي لَدَيْكِ لِحَيْنِي فَانْقُصِي مِنْ عَذَابِهَا أَوْ فَزِيدِي[3]

[المتنبي صاحب أحوال متقلبة]

ويقولُ الناظمُ أيضاً فيما نحنُ فيهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٧٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

بِقَلْبِي ـ وَإِنْ لَمْ أَرْوَ مِنْهَا ـ مَلَالَةٌ وَبِي عَنْ غَوَانِيهَا وَإِنْ وَصَلَتْ صَدُّ

ويقولُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٥٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَطَعْتُ الْغَوَانِي قَبْلَ مَطْمَحِ نَاظِرِي إِلَىٰ مَنْظَرٍ يَصْغُرْنَ عَنْهُ وَيَعْظُمُ[4]

وما ذلكَ المنظرُ الذي يطمَحُ إليهِ ناظرُهُ ، غيرَ المالِ ، الذي شُغِفَ بذكرِهِ ، وغطَّىٰ هواهُ علىٰ بصرِهِ ، وأطالَ قيامَهُ

---

(١) **الجرُّ** : السيل ، وهو هنا مجاز عن شدَّةِ المطرِ .

(٢) **العجاجُ** : الغبارُ . والمرادُ : أرضُ المعركةِ .

(٣) **الحَينُ** : الهلاكُ والموت .

(٤) **طمحَ** : إذا أبعدَ النظر ببصرِهِ .

وسعيَهُ مِن أَجلِهِ ، كما قالَ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٢٠] : [مِنَ الخفيفِ]

ضَاقَ صَدْرِي وَطَالَ فِي طَلَبِ الرِّزْ ... قِ قِيَامِي وَقَلَّ عَنْهُ قُعُودِي

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ١٢٤] : [مِنَ الكاملِ]

أَظْمَتْنِيَ الدُّنْيَا فَلَمَّا جِئْتُهَا ... مُسْتَسْقِياً مَطَرَتْ عَلَيَّ مَصَائِبَا

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ١٢٠] : [مِنَ البسيطِ]

فَجِئْتُ نَحْوَكَ لاَ أَلْوِي عَلَىٰ أَحَدٍ ... أَحُثُّ رَاحِلَتَيَّ الْفَقْرَ وَالأَدَبَا

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١١١] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَا لِي وَلِلدُّنْيَا طِلاَبِي نُجُومُهَا ... وَمَسْعَايَ مِنْهَا فِي شُدُوقِ الأَرَاقِمِ[١]

فأَينَ ذلكَ المنظرُ الذي عظَّمَ مِن شأْنِهِ ، وقصَّرَ بمجامعِ أَهواءِ القلوبِ من أَجلِهِ ، من قولِ لسانِ الدينِ ابنِ الخطيبِ : [مِنَ الطَّويلِ]

جَزَى اللهُ عَنِّي زَاجِرَ الشَّيْبِ خَيْرَ مَا ... جَزَىٰ نَاصِحاً فَازَتْ يَدَاهُ بِخَيْرِهِ

سَلَكْتُ طَرِيقَ الْحُبِّ حَتَّىٰ إِذَا انْتَهَىٰ ... تَعَوَّضْتُ حُبَّ اللهِ عَنْ حُبِّ غَيْرِهِ

أَمَا لقد أَخطأَ الناظِمُ من جهاتٍ ، نعدُّ مِنها ولا نعدِّدُها :

مِنها : تشبيهُهُ نفسَهُ بالحَجَرِ ، كماسمعْتَ مِن بعضِ أَبياتِهِ التي سُقْناها ، بجامعِ البراءَةِ مِنَ العشقِ في زعمِهِ ، وذلكَ عينُ الغلَطِ ؛ لأَنَّ لسائرِ المنطرقاتِ أَحجاراً ، تجذبُها إِليها المشاكلَةُ بينَهما في بعضِ الأَجزاءِ ، وإِنَّما اشتهر المغناطيسُ والحديدُ ؛ لأَنَّهُ في الحجَرِ كعروةَ بنِ حزامٍ في البشَرِ .

ومِنها : توهُّمُهُ براءَةَ قلبِهِ مِنَ العِشقِ ، وهُوَ غلَطٌ أَيضاً ؛ إِذ لا يتصوَّرُ خُلوُّ قلبٍ أَبداً مِن الهوىٰ ، وإِنَّما انصرفَ هواهُ إِلىٰ ما لا طائِلَ تحتَهُ ، ولا خيرَ فيهِ ، وهوَ مجرَّدُ المالِ ، كما قرَّرْنا ، فهوَ إِذَنْ مِنَ العُشَّاقِ ، الذينَ أَكثرَ في مذمَّتِهم ، وبالغَ في نعيِ حالتِهم ، بمثلِ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٢٣٤] : [مِنَ البسيطِ]

مِمَّا أَضَرَّ بِأَهْلِ الْعِشْقِ أَنَّهُمُ ... هَوَوْا وَمَا عَرَفُوا الدُّنْيَا وَلاَ فَطِنُوا

تَفْنَىٰ عُيُونُهُمُ دَمْعاً وَأَنْفُسُهُمْ ... فِي إِثْرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجْهُهُ حَسَنُ

بل لقد أَقرَّ بأَنَّ الشغَفَ بالمالِ ارتفعَ بهِ عَن حدِّ العشقِ إِلىٰ حدِّ الهَيَمانِ ، كما سبقَ في قولِهِ [في « العُكبرِيِّ » ١/ ١٢٤] : أَظْمَتْنِيَ الدُّنْيَا . . . إِلىٰ آخِرِهِ .

وقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ ، وَإِذا شِيكَ . . فَلاَ انْتَقَشَ** »[٢] .

فأَخشىٰ أَنْ يكونَ شرُّ هٰذهِ الدعوَةِ ممَّا أَصابَ الناظِمَ ، أَو أَلَمَّ بهِ ، نسأَلُ اللهَ العافيَةَ والسلامَةَ .

---

(١) **الأَراقمُ** : نوعٌ من الحيَّاتِ .

(٢) سلف أنه أخرجه البخاري وابن ماجه .

وما أَحسنَ قولَ يحيىٰ بنِ معاذٍ الرازيِّ : حبُّ الدينارِ رأسُ كلِّ خطيئةٍ ! ؛ فلَقد جمعَ علماً كثيراً ، وأَدباً غزيراً ، حتَّىٰ لَقد قالَ بعضُ علماءِ (اليمَنِ) : أَحسَسْتُ بمرضٍ مِن نَفسي ، فحرصْتُ علىٰ علاجِهِ ، وأَيقنْتُ أَن لا يمكنَ ذلكَ إلاَّ بعدَ تشريحِهِ ، فلَم أَزَلْ أُفتِّشُ عَن أُصولِهِ ، حَتَّىٰ وجدْتُها في كلمةِ يحيىٰ ، ثمَّ لَم أَنفكَّ في البحثِ عَنِ الدَّواءِ ، حتَّىٰ وجدتُهُ في قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « **أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ** . . . »[1] الحديثُ .

وبعدُ : فالناظِمُ يناقِضُ نفسَهُ ذاتَ المرَّاتِ ، فيما ادَّعاهُ آنفاً مِنَ الجمودِ والتنصُّلِ مِنَ الهوىٰ ، **فيقولُ** [في « العُكبَريِّ » ٤٨/١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنِّـي لَمَمْنُـوعُ الْمَقَـاتِـلِ فِـي الْـوَغَـىٰ ... وَإِنْ كُنْـتُ مَبْـذُولَ الْمَقَـاتِـلِ فِـي الْحُـبِّ

ويقولُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٢٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا أَنَـا إِلاَّ عَـاشِـقٌ ، كُـلُّ عَـاشِـقٍ ... أَعَــقُّ خَلِيلَيْــهِ الصَّفِيَّيْــنِ لاَئِمُــهْ

ويقولُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٩٣] : [مِنَ الخفيفِ]

لاَ تَلُمْنِــي فَــإِنَّنِــي أَعْشَــقُ الْعُــشَّــاقِ فِيهَــا يَــا أَعْــذَلَ الْعُــذَّالِ

ويقولُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٣٤] : [مِنَ الكاملِ]

حِدَقُ الْحِسَانِ مِنَ الْغَوَانِي هِجْنَ لِي ... يَــوْمَ الْفِــرَاقِ صَبَــابَــةً وَغَلِيــلاَ[2]

فيما لا يحصىٰ مِن تلكَ المُثُلِ في « ديوانِهِ » ، غيرَ أَنَّهُ يَظهَرُ عليهِ أَثرُ التكلُّفِ في هـٰذا ، بخلافِهِ فِي الأَوَّلِ ، مصداقُ ما قيلَ في ترجمتِهِ : إِنَّهُ عِزْهَاةٌ[3] .

ونراهُ طوراً يصفُ نفسَهُ بالقسوَةِ ؛ للإِغراقِ في وصفِ الحبيبَةِ بالحسنِ ، وهوَ بينَ بينَ ، كما في **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٣٠٤/٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا كُنْـتُ مِمَّـنْ يَـدْخُـلُ الْعِشْـقُ قَلْبَـهُ ... وَلَكِـنَّ مَـنْ يُبْصِـرْ جُفُـونَـكِ يَعْشَـقِ

وأَلَمَّ في هـٰذا بقولِ مسلمِ بنِ الوليدِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَـدْ كَـانَ لاَ يَصْبُـو وَلَكِـنَّ عَيْنَـهُ ... رَأَتْ مَنْظَـراً يُضْنِـي الْقُلُـوبَ فِـرَاقُهَـا

[لا تنافر بين الشجاعة والمحبة]

وهـٰهنا بحثٌ ؛ إِذ توهَّم بعضُ مَن لا رويَّةَ عندَهُ التنافرَ بينَ الشجاعةِ والمحبَّةِ ، والحالُ أَنَّ المحبَّةَ ليسَتْ إلاَّ مِن أَوثَقِ أَسبابِ الشجاعَةِ ، ومازالَتِ الرُّؤَساءُ تطالِبُ أَبناءَها بعشْقِ سروات البيوتِ[4] ؛ لأَنَّهُ وسيلةُ الانْتِباهِ مِنَ الخمولِ ،

---

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الترمذي (٢٣٠٧) ، وابن ماجه (٤٢٥٨) في الزهد ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١/ ٦٠٠) ، وفي « المجتبىٰ » (٤/٤) وابن حبان في « صحيحه » (٢٩٩٢) في الجنائز بإسناد حسن ، وله شواهد .

(٢) **الصبابَةُ** : رقَّةُ الشوقِ . **الغليلُ والغُلَّةُ** : حرارة العطشِ . وفي المخطوط : وعويلا .

(٣) **العزهاةُ** : هوَ الرجُلُ الذي لا يكلِّم النساءَ ولا يريدُهُنَّ ولا يلهو .

(٤) **سَرَواتُ البيوتِ** : اللاتي يسكُنَّ البيوتَ ولا يَخرُجنَ إلى الطَّريقِ .



والارتفاعِ عَنِ النزولِ ، كما في حديثِ ذي الرئاستَينِ[1] المشهورِ ، وغيرِهِ .

وقد سبقَ قولُ الأَحوصِ أَو غيرِهِ : [مِنَ الكامِلِ]

اَلْحُبُّ شَجَّعَ قَلْبَ كُلِّ فَرُوقَةٍ وَالْحُبُّ حَمَّلَ عَاجِزاً فَأَطَاقَا

[الحب يصنع المعجزات ويقوي الجبان]

ويُروىٰ : أَنَّ توبةَ بنَ حُمَيِّرٍ مرَّ بجميلٍ ، فأَنزلَهُ وأَحسنَ خدمتَهُ ، وأَسبغَ قِراهُ ، ثمَّ تداعَيا الصِّراعَ ، وكانا في موقفٍ تُشْرِفُ منهُ عَلَيهما بُثينَةُ ، فما كانَ مِن جميلٍ ، إلاَّ أَنْ صَرعَ توبةَ علىٰ شدَّةِ أَسرِهِ ، ثمَّ نضلَهُ[2] ، ثمَّ قهرَهُ علىٰ ظهرِ الفرَسِ ، ولَم يكُنْ جميلٌ كُفُؤاً لتوبةَ شجاعةً وشدَّةَ بأْسٍ ، فقالَ لَهُ توبَةُ : كأَنَّكَ تحسبُ ذلكَ منكَ ، ولَم تدرِ أَنَّهُ بريحِ تلكَ المشرفَةِ عَلَينا ، وأَشارَ إِلىٰ بُثينَةَ ، ثمَّ دعاهُ إِلىٰ وادٍ يخفىٰ عَنها ، وتصارَعا فيهِ ، فصرَعَهُ توبَةُ مِراراً ، ولم يكُنْ شيئاً عندَهُ ، ثمَّ مضىٰ ، وقالَ هُوَ ، أَو غيرُهُ [في « ديوان » المجنون ٢٣٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

إذا مَا انْتَضَلْنَا فِي الْخَلاَءِ نَضَلْتُهُ وَإِنْ يَرْمِ رَشْقاً عِنْدَهَا فَهُوَ نَاضِلِي

ولَولا الهوىٰ . . لَما جَادَتِ البِخَالُ بالأُلوفِ ، ولا تكرَّمَتِ الأَبطالُ بالنحورِ للسيوفِ ، ولكنَّهم يقتحمونَ المهالِكَ ، وينغمسونَ في المعارِكِ ؛ لتُحمدَ شمائِلُهُم عندَ ربَّاتِ الحِجالِ ، وتتغنَّىٰ بأَماديحِهم أُولاتُ الغَنَجِ والدلالِ ، قالَ الأَحوصُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَيَرْتَاحُ لِلْمَعْرُوفِ فِي طَلَبِ الْعُلاَ لِتُحْمَدَ يَوْماً عِنْدَ لَيْلَىٰ شَمَائِلُهْ

ثمَّ انظرْ إِلىٰ نساءِ العربِ ، كيفَ تتدفَّقُ على المآزِقِ ، وتترنَّمُ بأَهازيجها في أَشدِّ المضايقِ ، فتَسُنُّ الفاتِرَ[3] ، وتردُّ الشارِدَ ، وتهيِّجُ البطلَ المُشيحَ ، وتثيرُ الحفائِظَ ، وتغنِّي ما لا تغنِّيهِ الموسيقا الحربيَّةُ اليومَ .

وما ذُكرَ عَن بعضِ القرشيِّينَ مِن توهينِ أَمرِ العشقِ . . فإِنَّما يَعني بهِ ما ينتهي إِلى الخبَلِ ، ويُفْضي إِلى الجنونِ ، وإِلاَّ . . فهُم رؤُوسُ هـٰذا الشأْنِ ، وقد مرَّ ويأْتي في تضاعيفِ الكلامِ ما يدلِّلُ عليهِ .

[أحوال سيد الوجود صلى الله عليه وسلم مع النساء]

وحسبُكَ بسيِّدِ أَهلِ السماءِ والأَرضِ ، والشافعِ والمشفَّعِ يومَ العَرْضِ ، وما ذاقَهُ مِنَ الحُزنِ علىٰ خديجَةَ حتَّىٰ قالَتْ عائشةُ : (ما غِرتُ على امرأَةٍ قطُّ ما غرتُ علىٰ خديجةَ مِن كثرةِ ما يذكرُها)[4] . وإِنْ كانَ ليذبَحُ الشاةَ فيبعَثُ بِها في خَلاَئِلِها ، وتأْتي العجوزُ فيتفتَّحُ لَها ، ويُنْعِمُ الإِقبالَ عَليها ، ويسأَلُها عَن كلِّ شيءٍ مِن أَمرِها ، ويقولُ : « **إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينا أَيَّامَ خدِيجَةَ ؛ وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ** »[5] .

---

(١) ذو الرياستين : هو محمد بن محمد بن بنان ، أبو الفضل الأنباري المصري الفاضل الأثير الكاتب . ولد بالقاهرة سنة : (٥٠٧ هـ) . قدم بغداد رسولاً من صاحب اليمن سيف الإسلام طغتكين فحدث بالسيرة عن والده عن الحبال ، وبعد أن توجه إلى اليمن فوزر بها ، ثم إلىٰ بغداد وترسل فعظم وبجل ، ثم صار إلىٰ مصر وكان ضنك شديد بها ، وتوفي فيها سنة : (٥٩٦ هـ) .

(٢) نضلهُ : غلبهُ في رمي السهام .

(٣) تَسُنُّ الفاتِرَ : تقوِّمُ وتشجِّعُ الذي انهزمَ وضَعُفَ .

(٤) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها مسلم (٢٤٣٥) في الفضائل وفيه يقول أيضاً صلى الله عليه وسلم : « إني قد رزقت حبها » .

(٥) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها الحاكم في « المستدرك » (١/٦٢) ، وأورده الهندي في « كنز العمال » (٣٤٣٤٤) ونسبه إليه .



وكانَ هديُهُ مَعَ أَزواجهِ موافقتَهُ لِهواهُنَّ ما لم يكن إثماً ، وكانَ يتعمَّدُ موضعَ شربِ عائشةَ مِنَ الإناءِ[1] ، ويحملُها لتنظرَ إلى اللُّعبِ[2] ، ويُسابقُها ، ولمَّا سبقَها بالآخرةِ . . قالَ لها : « هَـٰذِهِ بِتِلْكَ »[3] ، مُذَكِّراً لَها بما سلَفَ مِن سبقِها لَهُ ، كيلا ينكسِرَ خاطرُها ، وكانَ يدافِعُها لدى البابِ ، وكانَ أَزواجُهُ يهجُرنَهُ إِلى الليلِ ، وقد ذكرنا في غيرِ هـٰذا المجلسِ صنيعَ حفصةَ وعائِشَةَ بالجونيَّةِ ، وتمثَّلْنا بقولِ الشاعرِ : [مِنَ الوافرِ]

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي ... فَتَفْعَلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَا

وإِنَّ عائشةَ رضي الله عنها كانَتْ تكتُبُ في إِمضائِها : من حبيبَةِ رسولِ اللهِ ، المبرَّأَةِ في كتابِ اللهِ ، عائِشَةَ بنتِ أَبي بكرٍ .

فيا لَه مِن إِمضاءٍ تهتزُّ لَهُ النفوسُ ، وتقِفُّ[4] الشعورُ ، وتتندَّى الخدودُ ، ويكادُ يذوبُ منهُ الجلمودُ .

[الحب في ساحة الوغىٰ]

وقالَ خالدُ بنُ يزيدَ ـ وقد بنىٰ برملَةَ ابنةِ الزبيرِ ، والسيوفُ تسيلُ دماً ، والأَسِنَّةُ تقاطَرُ مُهَجاً [كما في « الأغاني » ١٧/٣٤٠] ـ : [مِنَ الطَّويلِ]

أُحِبُّ بَنِي الْعَوَّامِ طُرّاً لِحُبِّهَا ... وَمِنْ أَجْلِهَا أَحْبَبْتُ أَخْوَالَهَا كَلْبَا

تَجُولُ خَلاَخِيلُ النِّسَاءِ وَلاَ أَرَىٰ ... لِرَمْلَةَ خَلْخَالاً يَجُولُ وَلاَ قُلْبَا

وقالَ عليُّ بنُ محمَّدٍ العلويُّ أَو غيرُهُ : [مِنَ الخفيفِ]

نَحْنُ قَوْمٌ تُذِيبُنَا الأَعْيُنُ النُّجْـ ... ـلُ عَلَىٰ أَنَّنَا نُذِيبُ الْحَدِيدَا

وَتَرَانَا لَدَى الْكَرِيهَةِ أَحْرَا ... راً وَفِي السِّلْمِ لِلْغَوَانِي عَبِيدَا

وهوَ مثلُ قولِ العطويِّ : [مِنْ مجزوءِ الوافرِ]

أَخَافُ الرِّيمَ أَرْمُقُهُ ... وَأَضْرِبُ هَامَةَ الأَسَدِ

وَيَجْرَحُنِي بِمُقْلَتِهِ ... وَيَنْبُو السَّيْفُ عَنْ جَسَدِي

وقالَ محمَّدُ بنُ صالحِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ موسى الجونِ العلويُّ ، وهُوَ في السجنِ : [مِنَ الكاملِ]

وَبَدَا لَهُ مِنْ بَعْدِ مَا انْدَمَلَ الْهَوَىٰ ... بَرْقٌ تَأَلَّقَ مَوْهِناً لَمَعَانُهُ

يَبْدُو كَحَاشِيَةِ الرِّدَاءِ وَدُونَهُ ... صَعْبُ الذُّرَىٰ مُتَمَنِّعاً أَرْكَانُهُ

فَمَضَىٰ لِيَنْظُرَ أَيْنَ لاَحَ فَلَمْ يُطِقْ ... نَظَراً إِلَيْهِ وَصَدَّهُ سَجَّانُهُ

فَالنَّارُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ضُلُوعُهُ ... وَالْمَاءُ مَا سَمَحَتْ بِهِ أَجْفَانُهُ

---

(١) أخرجه عن عائشة المبرأة رضي الله عنها ابن ماجه (٦٤٣) في الطهارة وفيه : (فيضع فمه حيث كان فمي وأنا حائض) .

(٢) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥٢٣٦) في النكاح ، ومسلم (٨٩٢) ، والنسائي (٣/ ١٩٥) وغيرهم .

(٣) أورده عن عائشة رضي الله عنها في « كنز العمال » (٤٠٦١٤) ونسبه إلىٰ أحمد وأبي داوود .

(٤) يقِفُّ : قام من الفزع .

وكانَ مِن حديث الأبياتِ : أَنَّهُ خرجَ على المتوكِّلِ وأخذَ قافلةَ الحجيجِ ، قالَ : فَبينا أصحابي يجمعونَ الأموالَ ، وأنا علىٰ كرسيٍّ . . إذا بامرأةٍ رفعَتْ سِجَافَ هودَجٍ ، فأضَاءَ مِنها المكانُ ، ولا إضاءتُهُ بالشمسِ ، فقالَتْ : أَينَ الشريفُ صاحبُ الكتيبَةِ ؟ فإنَّ لي إليهِ حاجَةً ، قلْتُ : هُوَ يسمعُ كلامَكِ ، قالَتْ : أَنا حمدونيَّةُ بنتُ عيسىٰ بنِ موسىٰ ، تعلَمُ مكانَنَا عندَ الخليفَةِ ، وأَنا أَسأَلُكَ أن تأْخُذَ مِنِّي ثلاثينَ ألفَ دينارٍ ، معَ ما قد قبضتموهُ ، وأَسأَلُكَ بفضلِكَ أَن لا يكشِفَ لي أَحدٌ سِتراً ، فناديْتُ أَصحابي ، ولَمَّا اجتمَعوا . . قلْتُ : مَن أَخذَ مِن هـٰذِهِ القافلَةِ عِقالاً . . آذنتُهُ بحربٍ ، فرَدُّوا حتَّى الأَطعمَةَ ، وخفرتهُم إلى المأْمَنِ ، فلمَّا ظفرَ بي المتوكِّلُ ، وحبَسَني بـ(سرَّ مَن رأَىٰ) . . دخلَ عليَّ السجَّانُ يوماً ، فقالَ لي : إنَّ بالبابِ امرأَتينِ مِن أَهلِكَ ، تريدانِ الدخولَ عليكَ ، وكانَ الخليفَةُ قَد منعَ مِنَ الدُّخولِ عليَّ ، ولكنَّهما أَعطتاهُ دُملُجاً مِنَ الذَّهبِ ، فأَدخلَهما ، فإذا أَنا بِها معَ امرأَةٍ أُخرىٰ ، وجاريَةٍ تحملُ شيئاً ، فلمَّا بَصُرَتْ بي . . قالَتْ : إي واللهِ إنَّهُ لَهُو ، وبكَتْ لِمَا أَنا فيهِ ، ثمَّ قبَّلَتْ قدَمي ، وقالَتْ : لَوِ استطعْتُ لفديتُكَ بنَفْسي ، ولكنِّي لا أُقصِّرُ في خلاصِكَ ، ودونكَ هـٰذِهِ النفقَةُ ، ورسولي يأْتيكَ في كلِّ يومٍ بما تريدُ ، حتَّىٰ يفرِّجَ اللهُ عنكَ ، ودفعَتْ إليَّ خمسَ مِئَةِ دينارٍ ، وثياباً ، وطيباً ، وطعاماً ، وانصرفَتْ ، وقد أَضرمَت بقلبيَ ناراً ، أَورثتْها النظرَةُ الأُولىٰ ، فقلْتُ : الأَبياتَ . . . أَعني السابقَةَ ، ولَم يزلْ رسولُها يعاودُني بالإحسانِ ، وملاطَفَةِ السجَّانِ ، إلىٰ أَنْ خرجْتُ ، وعظُمَ شأْني عندَ الخليفَةِ ، فخطبتُها ، فامتنَعَ أَبوها ، فكانَ لي سجنُ هَواها أَعظمَ مِنَ السِّجْنِ السابقِ ، فلمْ أَرَ إلاَّ أَنْ أَتيتُ إبراهيمَ بنَ المقتدرِ ، فأَخبرتُهُ بذلكَ ، وكانَ أَبوها صنيعتَهُ ، فركِبَ إليهِ ، ولم يفارقْهُ حتَّىٰ عقدَ لي بِها ، ولابنِ صالحٍ فيها عدَّةُ قصائِدَ ، وفي ابنِ المقتَدِرِ عدَّةُ مدائحَ ، ولهـٰذِهِ الأَبياتِ قصَّةٌ أُخرىٰ ، كَما لِبَيْتَيْ عليِّ بنِ محمَّدٍ حديثٌ ممتِعٌ ، غيرَ أَنَّا لا نُطيلُ بِهما ، وربَّما تأْتي لَهما فرصةٌ أُخرىٰ ، وما كانَ أَحقَّ ابنِ الجونِ بقولِ أَبي فراسٍ [في « ديوانه » ١٤٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَيَـا رُبَّ دَارٍ لَـمْ تُخِفْنِـي مَنِيعَـةٍ ... طَلَعْـتُ عَلَيْهَـا بِـالـرَّدَىٰ أَنَـا وَالْفَجْـرُ

وَسَـاحِبَـةِ الأَذْيَـالِ نَحْـوِي لَقِيتُهَـا ... فَلَـمْ يَلْقَهَـا جَـافِـي الْجَنَـابِ وَلاَ وَعْـرُ

وَهَبْـتُ لَهَـا مَـا حَـازَهُ الْجَيْـشُ كُلَّـهُ ... وَرُحْـتُ وَلَـمْ يُكْشَـفْ لأَبْيَـاتِهَـا سِتْـرُ

بل ما أَرى الحمدانيَّ إلاَّ ناظراً إلىٰ هـٰذِهِ القصَّةِ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٣] : [مِنَ الكاملِ]

وَعَـذَرْتُهُـمْ وَعَـرَفْـتُ ذَنْبِـيَ أَنَّنِـي ... عَيَّـرْتُهُـمْ فَلَقِيـتُ فِيـهِ مَـا لَقُـوا

[من عيَّب . . ابتلي]

يقولُ : إنَّهُ عذرَ العُشَّاقَ لمَّا ذاقَ ما ذاقوهُ مِنَ الامْتِحانِ ، وجهدِ البلاءِ ، وعرفَ أَنَّ ذنبَهُ الذي أَوقعَهُ في العشقِ هُوَ



تعييرُهُ إِيَّاهُم ، فكانَ جزاءُ ذلكَ أَنِ ابتلاهُ اللهُ بِما ابتلاهُم ، وقد أَخرجَ الترمذيُّ وحسَّنَهُ : « **لاَ تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ بِأَخِيكَ ، فَيَرْحَمُهُ اللهُ وَيَبْتَلِيكَ** »[1] .

وأخرجَ السيوطيُّ في « **جامِعِهِ** » مرفوعاً : « **اَلْبَلاَءُ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ** »[2] ، « فَلَوْ أَنَّ رَجُلاً عَيَّرَ رَجُلاً بِرَضَاعِ كَلْبَةٍ . . لَرَضَعَهَا »[3] .

ويؤثَرُ عَنِ ابنِ الخطَّابِ أَنَّهُ كانَ يقولُ : لَو عيَّرتُ امرأَةً بالحَبَلِ . . لَخشيتُ أَنْ أَحبَلَ .

ويمكنُ أَنْ يدخلَ تحتَ قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ [الحجرات : ١١] .

وقولِهِ تقدَّسَتْ أَسماؤُهُ : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠] .

وقولِهِ تبارَكَ ثناؤُهُ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين : ٣٤ـ٣٦] .

وقالَ ابنُ مَطيرٍ [في « ديوانه » ٥٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

أُحِبُّـكَ حُبّـاً لَـنْ أُعَنِّـفَ بَعْـدَهُ ... مُحِبّـاً وَلَكِنِّـي إِذَا لِـمَ عَـاذِرُهُ

وقالَ عليُّ بنُ الجهمِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَـدْ كُنْـتُ بِـالْعُشَّـاقِ أَهْـزَأُ مَـرَّةً ... فَهَـا أَنَـا لِلْعُشَّـاقِ أَصْبَحْـتُ بَـاكِيَـا

وقالَ أَبو الشيصِ : [مِنَ الوافرِ]

وَكُنْـتُ إِذا رَأَيْـتُ فَتـىً يُبَكِّـي ... عَلَـىٰ شَجَـنٍ هَـزَأْتُ إِذا خَلَـوْتُ

وَأَحْسِبُنِـي أَدَالَ اللهُ مِنِّـي ... فَصِـرْتُ إِذا بَصُـرْتُ بِـهِ بَكَيْـتُ[4]

وقالَ الأَضبطُ بنُ قريعٍ : [مِنَ الخفيفِ]

لاَ تُهِيـنَ الْفَقِيـرَ عَلَّـكَ أَنْ تَـرْ ... كَـعَ يَـوْمـاً وَالـدَّهْـرُ قَـدْ رَفَعَـهْ

وقالَ عليُّ بنُ عبدِ اللهِ بنِ جعفرِ بنِ إِبراهيمَ بنِ محمَّدِ بنِ عليِّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ جعفرِ ابنِ أَبي طالبٍ ، رضوانُ اللهِ عليهم [في « صبح الأعشىٰ » ٢/ ٣٣٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَمَّـا بَـدَا لِـي أَنَّهَـا لاَ تُحِبُّنِـي ... وَأَنَّ هَـوَاهَـا لَيْـسَ عَنِّـي بِمُنْجَلِـي

تَمَنَّيْـتُ أَنْ تَهْـوَىٰ سِـوَايَ لَعَلَّهَـا ... تَـذُوقُ صَبَـابَـاتِ الْهَـوَىٰ فَتَـرِقَّ لِـي

فَمَـا كَـانَ إِلاَّ عَـنْ قَلِيـلٍ وَأُشْغِفَـتْ ... بِحَـبِّ غَـزَالٍ أَدْعَـجِ الطَّـرْفِ أَكْحَـلِ

وَعَـذَّبَهَـا حَتَّـىٰ أَذَابَ فُـؤَادَهَـا ... وَجَـرَّعَهَـا مُـرَّ الْهَـوَىٰ وَالتَّـذَلُّـلِ

---

(١) أخرجه عن واثلة رضي الله عنه الترمذي (٢٥٠٨) وقال : حسن غريب .

(٢) أخرج عن حذيفة رضي الله عنه شطره القضاعي كما في « كنز العمال » (٧٨٤٥) ، وذكره العجلوني عن جماعة في « كشف الخفاء » (٩٢٦) مع جميع شواهده ، فأفاد وأجاد .

(٣) أخرجه عن ابن مسعود رضي الله عنه بتمامه الخطيب في « تاريخ بغداد » كما في « كنز العمال » (٧٨٦٧) .

(٤) أدالَ : قَلَبَ عليَّ الزمانَ .

فَقُلْتُ لَهَا : هَـٰذا بِـذاكَ فَـأَطْـرَقَـتْ حَيَاءً وَقَـالَـتْ : كُـلُّ مَـنْ عَـايَـبَ ابْتُلِي

[يجب أن تكون غيوراً]

وفي الأبياتِ مِنَ التديُّثِ والسخافةِ ، وقلَّةِ الغَيرَةِ ، وهتكِ السترِ ، ما لا غاية بعدَهُ ، فهُوَ أقبحُ مِن قولِ جميلٍ [في « البيان والتبيين » ١/ ٥٦٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَهِيـمُ بِـدَعْـدٍ مَـا حَيِيـتُ وَإِنْ أَمُـتْ فَيَـا لَيْـتَ شِعْـرِي مَـنْ يَهِيمُ بِهَـا بَعْـدِي

وقولِ الفرزدَقِ [في « ديوانه » ١/ ٢١١ـ ٢١٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

هُمَـا دَلَّتَـانِـي مِـن ثَمَـانِيـنَ قَـامَـةً كَمَا انْقَضَّ بَـازٍ أَكْتَمُ الرِّيشِ كَـاسِرُهْ

فَلَمَّا اسْتَوَتْ رِجْلاَيَ فِي الأَرْضِ قَالَتَا : أَحَـيٌّ فَيُـرْجَـىٰ أَمْ قَتِيـلٌ نُحَـاذِرُهْ ؟

فَقُلْتُ : ارْفَعُوا الأَسْبَابَ لاَ يَشْعُرُوا بِنَا وَأَسْـرَعْـتُ فِـي أَطْـرَافِ لَيْـلٍ أُبَـادِرُهْ

مَخَـافَـةَ بَـوَّابَيْـنِ أَنْ يَشْعُـرَا بِنَـا وَأَحْمَـرَ مِـنْ سَـاجٍ تَصُـرُّ مَسَـامِـرُهْ[1]

وقولِ عبدِ المحسنِ الصوريِّ [في « قرى الضيف » ١/ ٣٦٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَعَلَّقْتُـهُ سَكْـرَانَ مِـنْ خَمْـرَةِ الصِّبَـا بِـهِ غَفْلَـةٌ عَـنْ لَـوْعَتِـي وَنَحِيبِـي

وَشَـارَكَنِـي فِـي حُبِّـهِ كُـلُّ مَـاجِـدٍ يُشَـارِكُنِـي فِـي مُهْجَتِـي بِنَصِيـبِ

فَـلاَ تُلْـزِمُـونِـي غَيْـرَةً مَـا أَلِفْتُهَـا فَـإِنَّ حَبِيبِـي مَـنْ أَحَـبَّ حَبِيبِـي

وقولِ الناظمِ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٥٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَذَاقَ الْغَـوَانِـي حُسْنُـهُ مَـا أَذَقْنَنِـي وَعَـفَّ فَجَـازَاهُـنَّ عَنِّـي عَلَـى الصَّـرْمِ[2]

فإِنَّهُ كالصريحِ ، في أَنَّ حبائِبَهُ لَولا عفافُ الممدوحِ . لهتكْنَ الأعراضَ ، وكأَنَّهُ استحسَنَ كلامَ عليٍّ ، فأَحَبَّ أَن لا يخلُوَ ديوانُهُ عَن مثلِهِ ، وقد بالغَ ابنُ الجعبريِّ في الردِّ علىٰ عليِّ بنِ عبدِ اللهِ إذ قالَ [في « المثل السائر » ٢/ ٣٥٩] : [مِنَ الخفيفِ]

وَلَقَـدْ سَـرَّنِـي صُـدُودُكِ عَنِّـي فِـي طِـلاَبِيـكِ وَامْتِنَـاعُـكِ مِنِّـي

حَـذَراً أَنْ أَكُـونَ مِفْتَـاحَ غَيْـرِي وَإِذَا مَـا خَلَـوْتِ كُنْـتِ التَّمَنِّـي

وقالَ ابنُ مطروحٍ [في « المستطرف » ٢/ ٤٠١] : [مِنَ الوافرِ]

فلَـوْ أَضْحَـىٰ عَلَـىٰ تَلَفِـي مُصِـرّاً لَقُلْـتُ : مُعَـذِّبِـي بِـاللهِ زِدْنِـي

وَلاَ تَسْمَـحْ بِـوَصْلِـكَ لِـي فَـإِنِّـي أَغَـارُ عَلَيْـكَ مِنْـكَ فَكَيْـفَ مِنِّـي ؟!

وهوَ مِن قولِ البُحتريِّ : [مِنَ الكاملِ]

إِنِّـي لأَحْسُـدُ نَـاظِـرَيَّ عَلَيْكَـا حَتَّـىٰ أَغُـضَّ إِذَا نَظَـرْتُ إِلَيْكَـا

وَأَرَاكَ تَخْطُـرُ فِـي شَمَـائِلِـكَ الَّتِـي هِـيَ فِتْنَتِـي فَـأَغَـارُ مِنْـكَ عَلَيْكَـا

---

(١) أحمر من ساج : أي بابٌ من خشبِ الساجِ .

(٢) الصَّرمُ : الانقطاعُ .

وَلَـوِ استَطَعْـتُ مَنَعْـتُ لَفْظَـكَ غَيْـرَةً ... كَــيْ لاَ أَرَاهُ مُقَبِّـــلاً شَفَتَيْكَـــا

خَلُـصَ الْهَـوَىٰ لَـكَ وَاصْطَفَتْـكَ مَـوَدَّتِي ... حَتَّــىٰ أَغَــارُ عَلَيْــكَ مِــنْ مَلَكَيْكَــا

وفيهِ غلوٌّ لا يقبل ، إنَّما المقبولُ ما كانَ مِن مثلِ قولِ كُشاجمٍ [في « ديوانه » ٦٨] : [مِنَ الوافرِ]

وَعَــذَّبَنِــي قَضِيــبٌ فِــي كَثِيــبٍ ... تَشَــارَكَ فِيــهِ لِيــنٌ وَانْـدِمَــاجُ

أَغَــارُ إِذَا دَنَـتْ مِــنْ فِيــهِ كَــأْسٌ ... عَلَــــىٰ دُرٍّ يُقَبِّلُــــهُ زُجَــــاجُ

وقدِ استحسنهُ الناظِمُ فنقلهُ إلىٰ غيرِ موضعِهِ ، ولم يقعْ إلاَّ في سوءِ الأدبِ ، إذ جاءَ في ممدوحِهِ بما لا يحتمَلُ إلاَّ في ربَّاتِ الخدورِ ، حيثُ قالَ [في « العُكبَريّ » ٤/١٩٣] : [مِنَ الوافرِ]

أَغَــارُ مِـنَ الـزُّجَـاجَـةِ حِيـنَ تَجْـرِي ... عَلَـىٰ شَفَـةِ الأَمِيـرِ أَبِـي حُسَيْـنِ

وما أحسنَ قولَ كثيِّرٍ [في « ديوانهِ » ١٠١ـ١٠٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَسِيئِـي بِنَـا أَوْ أَحْسِنِـي لاَ مَلُـومَـةً ... لَــدَيْنَـا وَلاَ مَقْلِيَّـــةً إِنْ تَقَلَّـــتِ

وَإِنِّـي وَإِنْ صَـدَّتْ لَمُثْـنٍ وَصَـادِقٌ ... عَلَيْهَــا بِمَــا كَـانَـتْ إِلَيْنَـا أَزَلَّـتِ[1]

وَمَـا أَنَـا بِـالـدَّاعِـي لِعَـزَّةَ بِـالْجَـوَىٰ ... وَلاَ شَـامِـتٌ إِنْ نَعْـلُ عَـزَّةَ زَلَّـتِ

وقولَ ديكِ الجنِّ ، وقد ذكرناهُ في غيرِ هـٰذا المجلسِ [في « ديوانه » ١٨٨] : [مِنَ البسيطِ]

كَيْـفَ الـدُّعَـاءُ عَلَـىٰ مَنْ جَـارَ أَوْ ظَلَمَـا ... وَمَـالِكِـي ظَـالِـمٌ فِـي كُـلِّ مَـا حَكَمَـا ؟

لاَ آخَــذَ اللهُ مَــنْ أَهْـوَىٰ بِجَفْـوَتِـهِ ... عَنِّـي وَلاَ اقْتَـصَّ لِـي مِنْـهُ وَلاَ انْتَقَمَـا

[ذو النون المصري والفتيات الطائفات]

ويروىٰ عَن ذي النونِ المصريِّ أنَّهُ قالَ : رأيتُ فتاةً علىٰ غايةٍ مِنَ الجمالِ ، متعلِّقَةً بأَستارِ البيتِ ، تقولُ[2] :

أَمَــا لِفَتَــاةٍ بَــاعَــدَ الْهَجْــرُ بَيْنَهَــا ... وَبَيْـنَ الَّـذِي تَهْـوَاهُ يَـا رَبِّ مِـنْ وَصْـلِ

حَجَجْــتُ وَلَـمْ أَحْجُـجْ لِسُـوءِ عَمِلْتُـهُ ... وَلَكِـنْ لِتُعْـدِينِـي عَلَـىٰ قَـاطِـعِ الحَبْـلِ

ذَهَبْــتُ بِعَقْلِـي فِــي هَــوَاهُ صَغِيـرَةً ... فَرُدَّ بِطِيبِ الْوَصْلِ مَا ضَاعَ مِنْ عَقْلِي

وَإِلاَّ فَسَــاوِ الْحُــبَّ بَيْنِــي وَبَيْنَــهُ ... فَـإِنَّـكَ يَـا مَـوْلاَيَ تُـوصَـفُ بِـالْعَـدْلِ

قالَ : فصحتُ بها ، فقالَتْ : إليكَ عنِّي ، فلَو علمْتَ ما بي ، وَبينا أنا أُراجِعُها الكلامَ ، وأَرميها بالملامِ . . إذ جاءَتْ أُخرىٰ ، وقالَتْ : لَشأني أَغربُ ، وقولِي أَعجَبُ ، وأَنشأَتْ تقولُ : [مِنَ الطَّويلِ]

صَبَـرْتُ وَكَــانَ الصَّبْــرُ خَيْــرَ مَغَبَّــةٍ ... وهَــلْ جَــزَعٌ يُجْـدِي عَلَـيَّ فَـأَجْـزَعُ ؟

صَبَـرْتُ عَلَـىٰ مَـا لَـوْ تُحَمَّـلُ بَعْضُـهُ ... جِبَــالُ شَـرُورَىٰ أَوْشَكَــتْ تَتَصَـدَّعُ[3]

---

(١) أَزَلَّتْ إليهِ نعمةً : أَسدَتْها .

(٢) الأبيات من الطويل ، وهي للمجنون في « ديوانه » (٢٣٢) .

(٣) شَرُورَىٰ : واد بالشام ، محاط بسلسلة جبلية ، وقال ياقوت الحموي في « معجم البلدان » (٣/ ٣٣٩) : هو جبل مطل علىٰ تبوك في شرقيها .

[اعتراض المؤلف على نفسه]

وبعدُ : فللأديبِ أن يعترضَ قولي : إنَّ أبياتَ عليٍّ بنِ عبدِ اللهِ ، أقبحُ مِن أبياتِ عبدِ المحسنِ الصوريِّ ، ولا سبيلَ غيرُ الاعترافِ ؛ لأنَّ الأوَّلَ لم يرضَ بالاشتراكِ إلاَّ بعدَ يأسِهِ ، ونفضِ يدِهِ مِن محبوبِهِ ، بخلافِ الثاني ، فهُوَ في التديُّثِ أظهرُ ، وفي الخساسَةِ أدخلُ .

[الغيرة والأنفة العربية]

وللهِ درُّ أبي ذُؤَيبٍ في قولِهِ [في « الأغاني » ٦/٢٨٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

تُـرِيْـدِيـنَ كَيْمَـا تَجْمَعِينِـي وَخَـالِـداً ... وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَيْحَكِ فِي غِمْدِ ؟!

وقالَ امرؤُ القيسِ [في « ديوانه » ١٦٩] : [مِنَ الكاملِ]

إِنِّـي بِحَبْلِـكِ وَاصِـلٌ حَبْلِـي ... وَبِـرِيـشِ نَبْلِـكِ رَائِـشٌ نَبْلِـي[١]

مَـا لَـمْ أَجِـدْكِ عَلَـىٰ هُـدَىٰ أَثَـرٍ ... يَقْـرُو مِقَصَّـكِ قَـائِـفٌ قَبْلِـي[٢]

[أبيات جميلة في الحب]

وذَكَرْتُ هُنا أَبياتاً لِعُروَةَ بنِ أُذينَةَ ، لا تتَّصِلُ بالموضوعِ إلاَّ من حيثُ الاشتراكُ في الحبِّ الذي تمنَّتْهُ المرأةُ في حديثِ ذِي النونِ ، ولا بأسَ بإيرادِها ؛ لرقَّتِها وعذوبتِها ، وهيَ [في « ديوانه » ٧٠] : [مِنَ الكاملِ]

إِنَّ الَّتِـي زَعَمَـتْ فُـؤَادَكَ مَلَّهَـا ... خُلِقَـتْ هَـوَاكَ كَمَـا خُلِقْـتَ هَـوىً لَهَـا

فَبِـكَ الَّـذِي زَعَمَـتْ بِهَـا فِكِـلاَكُمَـا ... أَبْـدَىٰ لِصَـاحِبِـهِ الصَّبَـابَـةَ كُلَّهَـا

حَتَّـامَ تَكْتُـمُ فِـي الْحَشَـا مِـنْ حُبِّهَـا ... وَجْـداً لَـوَ اصْبَـحَ فَـوْقَهَـا لأَظَلَّهَـا

وَيَبِيـتُ تَحْـتَ جَـوَانِحِـي حُـبٌّ لَهَـا ... لَـوْ كَـانَ فَـوْقَ فِـرَاشِهَـا لأَقَلَّهَـا[٣]

وَإِذَا وَجَـدْتُ لَهَـا وَسَـاوِسَ سَلْـوَةٍ ... شَفَـعَ الضَّمِيـرُ إِلَـى الْفُـؤَادِ فَسَلَّهَـا

بَيْضَـاءُ بَـاكَـرَهَـا النَّعِيـمُ فَصَـاغَهَـا ... بِلَبَـاقَـةٍ فَـأَدَقَّهَـا وَأَجَلَّهَـا

لَمَّـا عَـرَضْـتُ مُسَلِّمـاً فِـي حَـاجَـةٍ ... أَخْشَـىٰ صُعُـوبَتَهَـا وَأَرْجُـو ذُلَّهَـا

مَنَعَـتْ تَحِيَّتَهَـا فَقُلْـتُ لِصَـاحِبِـي ... مَـا كَـانَ أَكْثَـرَهَـا لَنَـا وَأَقَلَّهَـا

فَـدَنَـا وَقَـالَ : لَعَلَّهَـا مَعْـذُورَةٌ ... مِـنْ بَعْـضِ رِقْبَتِهَـا فَقُلْـتُ : لَعَلَّهَـا[٤]

[أبو السائب المخزومي يطلب العلم]

وقد أنشدها لعبيدِ اللهِ بن عروةَ بنِ الزبيرِ في منزلِهِ بـ(العقيقِ) ، قالَ عروةُ بنُ عبيدِ اللهِ [في « الأغاني » ١٨/٣٤٠] : جاءَني أبو السائِبِ المخزوميُّ يوماً ، وقالَ : لي إليكَ حاجةٌ ، قلتُ : ماهيَ ؟ قالَ : أَبياتُ ابنِ أُذينَةَ ، فأمرتُ بطعامٍ فأُحضِرَ ، فقالَ : لاَ واللهِ حتَّىٰ أَروِيَ الأَبياتَ ، فما زلْتُ أُردِّدُها عليهِ حتَّىٰ حفِظَها ، ثمَّ وثَبَ ، فقلْتُ لَهُ : كما أنتَ

---

(١) ريشُ النبلِ : ما يوضعُ في جانبي السهمِ من الريشِ ، وهوَ هنا كنايةٌ عن مجاراتها فيما لا يمسُّ الكرامة .

(٢) يقرو مقصَّكِ : يستقري أثركِ . قائفٌ : الذي يقصُّ الأثرَ ويتتبَّعُهُ . قبلي : أي أنَّه يريدها لنفسِه دون غيرِه ، وأنَّه يرجو ألاَّ تكونَ قد نالَ حبَّها أحدٌ قبلهُ .

(٣) الجوانحُ : أوائل الضلوع تحت الترائب ممّا يلي الصدرَ ، كالضلوع ممّا يلي الظهرَ سميت بذلك ؛ لجنوحها على القلب . أقلّها : هزّها .

(٤) الرِّقْبَةُ : الحذرُ والخوفُ .



حتَّىٰ تأْكُلَ ، قالَ : واللهِ لا أَخلِطُ بروايتِها شيئاً غيرَها ، وقالَ : هـٰذا واللهِ الودُّ الصادِقُ ، والعهدُ الدائِمُ ، لا ما كانَ مِنَ الهُذَلِيِّ في قولِهِ : [مِنَ الكامل]

إِنْ كَـانَ أَهْلُـكِ يَمْنَعُـونَـكِ رَغْبَـةً عَنِّـي فَـأَهْلِـيَ بِـي أَضَـنُّ وَأَرْغَـبُ

إِنِّي لأَرجو مِنَ اللهِ أَن يغفِرَ لابنِ أُذينَةَ بتطلُّبِهِ لحبيبتِهِ المعاذيرَ ، ثمَّ انصرَفَ ولم يتناوَلْ شيئاً .

وحرصُ أَبي السائبِ عَليها إِلىٰ هـٰذا الحدِّ ، ممَّا يمهِّدُ العذرَ لَنا في سوقِها ، معَ ضَعفِ المناسَبَةِ ، ومرَّ أَوائِلَ المجلسِ التاسعِ ما يشبهُ قولَ ابنِ أُذينَةَ : (لأَظَلَّهَا) ، وقولَهُ : (لأَقَلَّهَا) ، فيما جرىٰ بينَ نصرِ بنِ حجَّاجٍ ، وزوجِ مجاشعِ بنِ مسعودٍ .

وكانَ أَبو السائبِ هـٰذا من كبارِ الصالحينَ ، إِلاَّ أَنَّهُ كانَ فَكِهاً ، خفيفَ الظلِّ ، كما هوَ الأَغلبُ علىٰ أَهلِ الحجازِ ، ولَهُ ما لا يُحصىٰ مِنَ النَّوادِرِ .

فمِمَّا يتَّصِلُ مِنها ببعضِ ما تقدَّمَ أَنَّهُ كانَ يسايرُ الحسنَ بنَ زيدٍ أَميرَ (المدينَةِ) ، فمرَّ وإِيَّاهُ بنساءٍ ، فسلَّمَ عليهِنَّ أَبُو السائِبِ ، فنهاهُ الحَسَنُ ، فلَم ينتهِ ، فتمثَّلَ الأَميرُ لتغازُلِ أَبي السائبِ بقولِهِ [في « ديوانِ المجنون » ٢٧٠] : [مِنَ البسيطِ]

أَرَى الإِزَارَ عَلَـىٰ لَيْلَـىٰ فَـأَحْسُـدُهُ إِنَّ الإِزَارَ عَلَـىٰ مَـا ضَـمَّ مَحْسُـودُ

فقالَ لَهُ : لِمَنْ هـٰذا ، بأَبي أَنتَ وأُمِّي ؟ قالَ : يقولُهُ قيسٌ ، فتخلَّفَ عَن مسايرتِهِ ، ثمَّ عادَ وهُوَ حاسِرُ الرأْسِ ، فقالَ لَهُ : أَينَ عمامتُكَ ؟ قالَ : تصدَّقْتُ بِها على الشيطانِ الذي أَلقىٰ بهـٰذا البيتِ علىٰ لسانِهِ .

وقد أَغارَ منصورُ النميريُّ على البيتِ الأَخيرِ مِن أَبياتِ عروةَ بنِ أُذينَةَ ، فقالَ [في « ديوانِ صريعِ الغواني » ٣٤٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَعَـلَّ لَهَـا عُـذْراً وَأَنْـتَ تَلُـومُ وَرُبَّ امْـرِىءٍ قَـدْ لامَ وَهُـوَ مَلِيـمُ

* * *

المجلس الثالث عشر

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٤] : [مِنَ الكاملِ]

أَبَنِـي أَبِينَـا نَحْـنُ أَهْـلُ مَنَـازِلٍ ... أَبَـداً غُـرَابُ الْبَيْـنِ فِيهَـا يَنْعِـقُ
نَبْكِـي عَلَـى الـدُّنْيَـا وَمَـا مِـنْ مَعْشَـرٍ ... جَمَعَتْهُـمُ الـدُّنْيَـا فَلَـمْ يَتَفَـرَّقُـوا

[مسكين المتنبي لا يعرف السعادة]

(أَبَنِي أَبِينَا) : نِداءٌ لجميعِ الناسِ ؛ لأَنَّ أَباهُم آدمُ ، ويجوزُ أَنْ يريدَ بهِ قوماً مخصوصينَ ، يقولُ : نحنُ نازلونَ في ديارٍ يتفرَّقُ أهلُها بالموتِ ، وإنَّما ذكرَ الغرابَ كنايةً عنهُ ؛ لأَنَّ العربَ لا تتشاءَمُ بشيءٍ تشاؤُمَها بالغربانِ .

[كثير عزة الغراب الناعق]

حكيَ [في « الأغاني » ٩/ ٤٤] : أنَّ كُثيِّراً تعشَّقَ امرأةً مِن خزاعةَ يقالُ لها : أُمُّ الحويرثِ ، فشبَّبَ بها ، فكرِهَتْ أَن يفضَحَها كَما فضَحَ عَزَّةَ ، فقالَتْ لَهُ : إِنَّكَ فقيرٌ ، فابتَغِ لكَ مالاً ، ثمَّ ارجعْ وَاخْطُبني ، وأَعطتْهُ عهدَها أَن لا تتزوَّجَ حتَّىٰ يرجعَ ، فمدَحَ عبدَ الرحمٰنِ الأَزديَّ ، وأصابَ منهُ ما يريدُ ، وبعقِبِ انصرافِهِ مِن عندِهِ سنَحَتْ لَهُ الظباءُ ، ورأَىٰ غراباً يفحَصُ الترابَ بوجهِهِ فتطيَّرَ مِن ذلكَ ، واستفتىٰ بعضَ اللِّهْبِيِّينَ فأَجابَهُ بما لا يسرُّهُ ، فقالَ [في « ديوانه » ٥٩ـ٦٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَيَمَّمْـتُ لِهْبـاً أَبْتَغِـي الْعِلْـمَ عِنْـدَهُـمْ ... وَقَـدْ رُدَّ عِلْـمُ الْعَـائِفِيـنَ إِلَـىٰ لِهْـبِ[1]
فَقُلْـتُ لَهُـمْ : مَـاذَا تَـرَوْا فِـي سَـوَانِـحٍ ... وَصَوْتِ غُرَابٍ يَفْحَصُ الْوَجْهَ بِالتُّرْبِ ؟[2]
فَقَـالُـوا : جَـرَى الظَّبْـيُ السَّنِيـحُ بِبَيْنِهَـا ... وَنَـادَىٰ غُـرَابٌ بِـالْفِـرَاقِ وَبِـالسَّلْـبِ[3]
فَـإِلاَّ تَكُـنْ مَـاتَـتْ فَقَـدْ حَـالَ دُونَهَـا ... خِبَـاءُ خَلِيـلٍ بَـاطِـنٍ مِـنْ بَنِـي كَعْـبِ[4]

فأَلفاها ـ كَما قالوا ـ تزوَّجَت بِابنِ عمٍّ لَها ، فأَخذَهُ الهُلاسُ ، فكُوِيَ مِن أَجلِها جَنْباهُ .

[ليس كل غراب يُتَشاءم منه]

وَخرَجَ لِهبيٌّ في حاجتِهِ [كما في « صبح الأعشىٰ » ١/ ٤٥٦] ومعَهُ سقاءٌ ، فلمَّا عطِشَ . أَناخَ راحلَتَهُ ليشرَبَ ، فإِذا غرابٌ ينعَبُ ، فأَثارَ راحلَتَهُ ومضىٰ ، فلمَّا جهدَهُ العطَشُ . أَناخَ راحلَتَهُ ليشرَبَ ، فنعَبَ الغرابُ وتمرَّغَ في الترابِ ، فضربَ الرجُلُ سقاءَهُ بسيفِهِ ، فإِذا فيهِ أَسودُ سالخٌ[5] ، فقتلَهُ ، ثمَّ سارَ فإِذا غرابٌ واقعٌ علىٰ سدرَةٍ ، فصاحَ بهِ ، فوقَعَ علىٰ

---

(١) العائفُ : الذي يزجرُ الطيرَ ، فيتشاءَمُ إِن طارت يساراً ، ويتفاءَل إِن طارَت يميناً مِنَ اليُمنِ . بنو لهبٍ : هم قبيلةٌ مشهورةٌ بالعيافةِ والزجرِ .
(٢) فحصَ الترابَ : حَفَرَهُ باحثاً فيهِ .
(٣) السوانحُ : جمعُ سانحٍ ، وهوَ الطيرُ الذي يمرُّ عن يسارِ المسافرِ .
(٤) الخليلُ الباطنُ : الصديقُ الخفيُّ .
(٥) أَسود سالخ : اسم الأسود من الحيَّات .

سلَّةٍ ، فصاحَ بهِ ، فوقعَ علىٰ صخرةٍ ، فانتهىٰ إليها ، فأثارَ كنزاً ، فاحتملَهُ إلىٰ أهلِهِ ، ولمَّا أخبرَ أباهُ . . وجَدَ عندَهُ مِنَ الْعِلمِ مثلَ الذي عمِلَ بهِ .

ومنهُ تَعْرِفُ أَنَّ التشاؤمَ بالغرابِ ليسَ علىٰ إطلاقِهِ ، بل فيهِ تفصيلٌ يطولُ بيانُهُ ، وأظنُّ أَنْ قَدِ استوفاهُ أبو عثمانَ الجاحِظُ في كتابِهِ « **الحيوانُ** » ، وقد زَجَرْتُ الْغِربانَ لِلتيامُنِ في عدَّةِ قصائِدَ ، فكانَ الأمرُ كما تفاءَلْتُ مِنَ الْخَيرِ ، ومرَّ بعضُ ما يتعلَّقُ بالفألِ في المجلسِ العاشِرِ .

[العيب على المتنبي]

وقد عابوا على الناظِمِ انتقالَهُ مِنَ الغَزَلِ إلى الوعظِ ، ثمَّ توثُّبَهُ مِنَ الْوَعظِ إلى المديحِ ، وقالوا : إنَّما يحسنُ مثلُهُ في الرَّثائي ، كَما انتقدوا علىٰ أبي تمَّامٍ في قولِهِ [في « ديوانه » ١/ ١٣٤] : [مِنَ الخفيفِ]

غَـرَّبَتْـهُ الْعُـلاَ عَلَـىٰ كَثْـرَةِ الأَهْـ ... ـلِ فَـأَضْحَـىٰ فِـي الأَقْـرَبِيـنَ جَنِيبَـا[1]
فَلْيَطُـلْ عُمْـرُهُ فَلَـوْ مَـاتَ فِـي طُـو ... سِ مُقِيمـاً لَمَـاتَ فِيهَـا غَـرِيبَـا

وقالوا : لَم يوقعْهُ في ذِكرِ الموتِ إلاَّ عثْرَةُ اللِّسانِ ، التي أفضَتْ بهِ إلى التنْكيدِ والتنْغيصِ .

[الحلم على الجاهل]

وإنِّي لأَتعجَّبُ من حلمِ معاويَةَ وسعَةِ صدرِهِ ، وتَغابيهِ عَن سيِّئاتِ قاصديهِ ، فقد ذُكِرَ أَنَّ الأَخطلَ قَدِمَ عليهِ مادحاً ، فقالَ لَهُ : إنْ كنتَ شبَّهتَني بالحيَّةِ أَوِ الأسدِ . . فلا حاجةَ لي في ذلكَ ، وإنْ كُنتَ قلْتَ كما قالَتِ الْخنساءُ [في « ديوانها » ١١٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا بَلَغَـتْ كَـفُّ امْـرِىءٍ مُتَنَـاوَلاً ... مِـنَ الْمَجْـدِ إلاَّ وَالَّـذِي نِلْـتَ أَطْـوَلُ
وَلاَ بَلَـغَ الْمُهْـدُونَ فِـي الْقَـوْلِ مِـدْحَـةً ... وَإِنْ صَـدَقُـوا إلاَّ الَّـذِي فِيـكَ أَفْضَـلُ

. . فهاتِ ، فقالَ : لَقد قلتُ بيتينِ ها هُما ، بدونِ ما قالتْ ، قالَ : أَنشِدْ ، فقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا مِـتَّ مَـاتَ الْعُـرْفُ وَانْقَطَـعَ النَّـدَىٰ ... وَلَـمْ يَبْـقَ إلاَّ مِـنْ قَلِيـلٍ مُصَـرَّدِ
وَرُدَّتْ أَكُـفُّ الـرَّاغِبِيـنَ وَأَمْسَكُـوا ... عَـنِ الـدِّيـنِ وَالـدُّنْيَـا بِخُلْـفٍ مُجَـرَّدِ

فوصلَهُ وأَحسنَ إليهِ ، معَ أَنَّهُ لم يتركْ شيئاً مِن القحَةِ والنَّغاصَةِ إلاَّ وأَخذَ بنواحيهِ ، فَهما شرٌّ مِمَّا سبقَ عن أَبي تمَّامٍ ؛ لزيادَتِهما عليهِ بالإنذارِ ، بانقطاعِ الأثَرِ ، فحقُّ صاحبِهما أَنْ يُضرَبَ في القَذالِ[2] ، أو يسجنَ مَعَ الأَنذالِ ، إلاَّ أَنَّهُ لا يُستنكَرُ مِن معاويَةَ ـ إنْ كانَ صاحِبَ القصَّةِ ـ مثلُ ذلكَ ، فقدْ كانَ مَضرِبَ المثَلِ فيهِ ، وإِنْ كانَ مروانَ . . فما غضَّ جفنَهُ عمَّا فيهما مِنَ الخِذلانِ غيرُ تعصُّبِهِ للأَخطلِ ، فقد كانَ معروفاً بذلِكَ .

[التشاؤم والطِّيَرة]

وكانَ عبدُ اللهِ بنُ الحسنِ بنِ الحسنِ بن عليٍّ يسايرُ السفَّاحَ ، وبينا هُما ينظرانِ إلىٰ بناءٍ فرغَ منْهُ السفَّاحُ . . قالَ

---

(١) الجنيبُ : الغريبُ ، يقولُ : جَعَلَتِ المكارمُ والعُلاَ هـٰذا الممدوحَ غريباً في الناسِ ، فلا يوجدُ له نظيرٌ فيهم .
(٢) القَذالُ : مُؤَخَّرُ الرأسِ .



لعبدِ اللهِ : هاتِ ما عندَكَ ، فقالَ : [مِنَ الوافرِ]

أَلَـمْ تَـرَ مَـالِكـاً لَمَّـا تَبَنَّـىٰ ... بِنَـاءً نَفْعُـهُ لِبَنِـي بَقِيلَـهْ
بِـرُجْجَـانٍ يُعَمَّـرُ عُمْـرَ نُـوحٍ ... وَأَمْـرُ اللهِ يَحْـدُثُ كُـلَّ لَيْلَـهْ

فأبدى السفَّاحُ نواجِذَهُ لغيرِ تبسُّمٍ ، فقالَ عبدُ اللهِ : عفواً يا أميرَ المؤمنينَ ؛ فإنَّها غفلَةُ الشيوخِ ، وبوادِرُ الخواطِرِ ، قالَ : صدقْتَ ، فخُذ في غيرِهِ .

وأنشدَ بعضُهم لأبي مسلمٍ الخراسانيِّ ، في يومِ قتلِهِ [كما في « سير أعلام النبلاء » ٦/ ٧١] : [مِنَ الطَّويلِ]

سَيَأْتِيكَ مَا أَفْنَى الْقُرُونَ الَّتِي مَضَتْ ... وَمَا حَلَّ فِي أَكْنَافِ عَادٍ وَجُرْهُمِ
وَمَنْ كَانَ أَدْنَىٰ مِنْكَ عِزّاً وَمَفْخَراً ... وَأَنْهَضَ بِالْجَيْشِ اللُّهَامِ الْعَرَمْرَمِ

فقالَ أبو مُسلمٍ : هَـٰذَا معَ الأمانِ الذي مَعي ؟ فقالَ ذلكَ المنشدُ : كلُّ عبدٍ لي حرٌّ إن كانَ هـٰذا الشيءُ مِن أمرِكَ ، وإنَّما هُوَ خاطرٌ جرىٰ علىٰ لساني ، فقالَ : بئْسَ واللهِ الخاطِرُ ، فما غابَتْ شمسُهُ حتَّىٰ تحكَّمَ في رأسِهِ الحُسامُ ، والأشبَهُ أَنْ يكونَ صاحِبَ القصَّةِ هُوَ ابنُ هبيرَةَ ؛ إذ هُوَ الذي يحملُ الأمانَ الضخْمَ .

وكثيراً ما جرَتْ نظائرُ هـٰذِهِ الأقاصيصِ للنَّاسِ في الطِّيَرَةِ .

مِن ذلكَ حديثُ مروانَ بنِ محمَّدٍ الجعديِّ ، وحديثُ الأمينِ مع قينتِهِ .

[التذكير بالموت وقت اللذات]

وقالَ بعضُ الملوكِ : ما لهـٰؤلاءِ الشعراءِ ـ قاتلَهم اللهُ ـ ربَّما ذكَّرونا شيئاً نحنُ أكثَرُ لَهُ ذكراً مِنهم ، فينغِّصونَ علينا ، وما يعني إلاَّ الموتَ .

وخرجَ النعمانُ بنُ المنذرِ مرَّةً يتنزَّهُ ومعَهُ عديُّ بنُ زيدٍ العبَّاديُّ ، فلمَّا اطمأَنَّ بهمُ المَجلسُ في ظلِّ شجرَةٍ . . قالَ عديٌّ [بنحوه في « بغية الطلب » ١٠/ ٤٥٠٣] : أتدري ما تقولُ هـٰذِهِ الشجرَةُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فإنَّها تقولُ : [مِنَ الرَّمَلِ]

رُبَّ نَـاسٍ قَـدْ أَنَـاخُـوا قَبْلَنَـا ... يَشْـرَبُـونَ الْخَمْـرَ بِـالْمَـاءِ الـزُّلاَلْ
عَصَـفَ الـدَّهْـرُ بِهِـمْ فَـانْقَلَبُـوا ... وَكَـذَاكَ الـدَّهْـرُ حَـالاً بَعْـدَ حَـالْ

فانقبضَ الملكُ ، وانكسفَ بالُهُ ، وتنغَّصَ عيشُهُ ، وعادَ من فورِهِ إلىٰ منزلِهِ .

وخرجَ مرَّةً أُخرىٰ للصيدِ ومعَهُ عديٌّ ، فمرُّوا بِآرَامٍ ـ وهيَ القبورُ ـ فقالَ عديٌّ [بنحوه في « بغية الطلب » ١٠/ ٤٥٠٣] : أَبيتَ اللَّعنَ ، تدري ما تقولُ هـٰذِهِ الآرامُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : إنَّها تقولُ : [مِنَ مجزوءِ الرَّمَلِ]

أَيُّهَـا الـرَّكْـبُ الْمُخِبُّـو ... نَ عَلَـى الأَرْضِ تَمُـرُّونْ
فَكَمَـا كُنْتُـمْ فَكُنَّـا ... وَكَمَـا كُنَّـا تَكُـونُـونْ

قالَ : أَعِدْهُ ، فأَعادَهُ ، فانكسَرَ لَهُ ، وتركَ صيدَهُ .

وقد أثنى ابنُ جنيٍّ على الناظِمِ في هـٰذا الاقتضابِ ، وقالَ : إنَّهُ مِن حسنِ التصرُّفِ ، ولم يظْهَر لي وجهُ ذلكَ ، وكانَ عليهِ أَن يبيِّنَهُ ، إلاَّ أَن يقالَ في مناسبَةِ الوعظِ للغزَلِ : إنَّ الجمالَ زهرةُ ربيعٍ ، سرعانَ ما يلحقُها الذبولُ ، وفي

مناسبَتِهِ لِلمديح : إنَّ الدنيا خَبَرٌ ، ولا يبقىٰ إلاَّ الأثَرُ ، والعيشُ حقيرٌ ، والعمرُ قصيرٌ ، ولكنَّ مَن يدَّخِرُ المَكْرُماتِ . . يعيشُ بالذكرِ الجميلِ وإنْ فاتَ ، وهـٰذا ما لا أظنُّهُ يخطرُ ببالِ الناظمِ ، حتَّىٰ يوجِّهَ بهِ لكلامِهِ ، ثمَّ إنَّ الدنيا قد دلَّتْ علىٰ عيبِها بنفسِها ، قالَ مسلمُ بنُ الوليدِ [صريعُ الغواني في « ديوانه » ١٢٢] : [مِنَ البسيطِ]

دَلَّـتْ عَلَـىٰ عَيْبِهَـا الـدُّنْيَـا وَصَـدَّقَهَـا ... مَـا اسْتَـرْجَـعَ الـدَّهْـرُ مِمَّـا كَـانَ أَعْطَـانِـي

[حقارة الدنيا والكلام على الموت وذكر قصص في ذلك]

وقالَ ابنُ أَبي طالبٍ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ [في « نهج البلاغة » ٧٣] : ما أَصِفُ من دارٍ ! ! أَوَّلُها عناءٌ ، وآخرُها فناءٌ ، حلالُها حسابٌ ، وحرامُها عقابٌ ، من أَمِنَ فيها . . سَقِمَ ، ومَن مرضَ فيها . . ندِمَ ، ومن استغنىٰ فيها . . فُتِنَ ، ومَنِ افتقرَ فيها . . حَزِنَ .

وقالَ بعضُهم : انصرفْتُ مِن مجلسِ حمَّادٍ الراويةِ[1] ، فقيلَ لي : ما حدَّثكم ؟ قلتُ : حدثَنا عَنِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قالَ : « **لَوْ لَمْ يَكْسَبِ ابْنُ آدَمَ إلاَّ الصِّحَّةَ وَالسَّلامَةَ . . لَكَفَىٰ بِهِمَا دَاءً** »[2] ، فقيلَ : قاتلَ اللهُ حميداً حيثُ قالَ [في « ديوانهِ » ٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَرَىٰ بَصَـرِي قَـدْ رَابَنِـي بَعْـدَ صِحَّـةٍ ... وَحَسْبُـكَ دَاءً أَنْ تَصِـحَّ وَتَسْلَمَـا

وقالَ [في « ديوانِ عمرو بنِ قَمئة » ٧٧] [مِنَ الكاملِ] .

وَدَعَـوْتُ رَبِّـي بِـالسَّـلاَمَـةِ جَـاهِـداً ... لِيُصِحَّنِـي فَـإذَا السَّـلاَمَـةُ دَاءُ

وقالَ [في « ديوانه » ١٣٤] : [مِنْ مجزوءِ الكاملِ]

لَـوْ لَـمْ يُـوَكَّـلْ بِـالفَتَـىٰ ... إلاَّ السَّـلاَمَـةُ وَالنِّعَـمْ
وَتَـدَاوَلاَهُ لأَوْشَكَـا ... أَنْ يُسْلِمَـاهُ إلَـىٰ الْهَـرَمْ

ونظرَ أعرابيٌّ إلى الهلالِ فقالَ : ما لي ولَهُ ؟ مُحِلُّ دَينٍ ، ومقرِّبُ حَينٍ .

وقالَ عبدَةُ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا مَـا سَلَخْـتُ الشَّهْـرَ أَهْلَلْـتُ مِثْلَـهُ ... كَفَـىٰ قَـاتِـلاً سَلْخِي الشُّهُـورَ وَإِهْـلاَلِـي

وقالَ أَبو العتاهيَةِ [في « ديوانهِ » ٦٢٨] : [مِنَ البسيطِ]

تَظَـلُّ تَفْـرَحُ بِـالأَيَّـامِ تَقْطَعُهَـا ... وكُـلُّ يَـوْمٍ مَضَـىٰ يُـدْنِي مِـنَ الأَجَـلِ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٣٠ـ١٣١] : [مِنَ الخفيفِ]

أَبَـداً تَسْتَـرِدُّ مَـا تَهَـبُ الـدُّنْـيَـا فَيَـا لَيْـتَ جُـودَهَـا كَـانَ بُخْـلاَ

---

(١) **حماد الراوية** : هو حماد بن سابور بن مبارك الشيباني العلامة الإخباري ، المكين النديم للوليد بن عبد الملك مات في دولة المهدي سنة : (١٦٠)هـ وسمِّي الراوية لأنه قال للخليفة : إني لأروي لكل شاعر تعرفه أو لا تعرفه ، وأنشدك علىٰ كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة للجاهلية ، ثم سرد (٢٩٠٠) قصيدة فأعطاه مئة ألف درهم .

(٢) ذكره عن ابن عباس رضي الله عنهما المتقي الهندي في « كنز العمال » (٦٧٢٢) وعزاه إلى ابن عساكر ، ولفظه : « لو لم يكن لابن آدم إلا الصحة والسلامة لكفاه بهما داء قاتلاً » .



وَهِـيَ مَعْشُـوقَـةٌ عَلَـى الغَـدْرِ لاَ تَحْـ ـفَـظُ عَهْـداً وَلاَ تُتَمِّـمُ وَصْـلاَ
شِيَـمُ الغَـانِيَـاتِ فِيهَـا فَـلاَ أَدْ رِي لِـذَا أَنَّـثَ اسْمَهَـا النَّـاسُ أَمْ لاَ

وقالَ [في « العُكبَرِيّ » ١/ ٤٩] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

لَقَـدْ فَـارَقَ النَّـاسُ الأَحِبَّـةَ قَبْلَنَـا وَأَعْيَـىٰ دَوَاءُ المَـوْتِ كُـلَّ طَبِيـبِ

وقالَ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ٨ـ٩ـ١٨] : [مِنَ الوافرِ]

نُعِـدُّ الْمَشْـرَفِيَّـةَ وَالْعَـوَالِـي وَتَقْتُلُنَـا المَنُـونُ بِـلاَ قِتَـالِ[1]
وَنَـرْتَبِـطُ السَّـوَابِـقَ مُقْـرَبَـاتٍ وَمَـا يُنْجِيـنَ مِـنْ خَبَـبِ اللَّيَـالِـي[2]
وَمَـنْ لَـمْ يَعْشَـقِ الـدُّنْيَـا قَـدِيمـاً وَلٰكِـنْ لاَ سَبِيـلَ إِلَـى الـوِصَـالِ
نَصِيبُـكَ فِـي حَيَـاتِـكَ مِـنْ حَبِيـبٍ نَصِيبُـكَ فِـي مَنَـامِـكَ مِـنْ خَيَـالِ
يُـدَفِّـنُ بَعْضُنَـا بَعْضـاً وَتَمْشِـي أَوَاخِـرُنَـا عَلَـىٰ هَـامِ الأَوَالِـي

وقد لاذَ في الأخيرِ بقولِ أَبي نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٤٢٥] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

وَمَـا النَّـاسُ إِلاَّ هَـالِـكٌ وَابْـنُ هَـالِـكٍ وَذُو نَسَـبٍ فِـي الْهَـالِكِيـنَ عَـرِيـقُ

وقولِهِ أَيضاً : [مِنَ الوافرِ]

أَلاَ يَـا ابْـنَ الَّـذِيـنَ فَنُـوا وَبَـادُوا أَمَـا وَاللهِ مَـا بَـادُوا لِتَبْقَـىٰ

وقولِ أَبي العتاهيَةِ [في « ديوانهِ » ٦٠١] : [مِنْ مخلَّعِ البسيطِ]

كَيْـفَ بَقَـاءُ الْفُـرُوعِ يَـوْمـاً وَقَـدْ ذَوَتْ قَبْلَهَـا الأُصُـولُ ؟!

وقد قالَ متمِّمُ بنُ نويرَةَ : [مِنَ الكاملِ]

وَعَـدَدْتُ آبَـائِـي إِلَـىٰ عِـرْقِ الثَّـرَىٰ فَـدَعَـوْتُهُـمْ وَعَلِمْـتُ أَنْ لَـمْ يَسْمَعُـوا
وَلَقَـدْ عَلِمْـتُ وَلاَ مَحَـالَـةَ أَنَّنِـي لِلْحَـادِثَـاتِ فَهَـلْ تَـرَانِـي أَجْـزَعُ ؟

وقد سبقَ إليهِ الإمامُ الغالِبُ في قولِهِ [في « شرح النهج » ٩/ ٩١] :

(وقد مضت أصول نحن فروعها وما بقاء الفرعِ بعد ذهاب أصلِهِ) وقد قالَ الأَوَّلُ [في « ديوانِ لبيد » ٢٥٥] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَصْدُقْكَ نَفْسُكَ فَانْتَسِبْ لَعَلَّـكَ تَهْـدِيـكَ الْقُـرُونُ الأَوَائِـلُ
فَـإِنْ لَـمْ تَجِـدْ مِـنْ دُونِ عَـدْنَـانَ وَالِـداً وَدُونِ مَعَـدٍّ فَلْتَـرُعْـكَ الْعَـوَائِـلُ

وقالَ أَبو عبادَةَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٥٧٦] : [مِنَ الكاملِ]

وَمَتَـىٰ وَجَـدْتَ النَّـاسَ إِلاَّ تَـارِكـاً لِحَمِيمِـهِ فِـي التُّـرْبِ أَوْ مَتْـرُوكَـا

---

(١) **المشرفيَّةُ** : السيوفُ . **العوالي** : الرماحُ .
(٢) **المقرباتُ من الخيلِ** : الكرامُ التي تربطُ لكرامتها علىٰ أصحابِها ، أو لفرطِ الحاجةِ إليها .

وقالَ [في « ديوانه » ٣/ ١٨٦٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

يُسَارُ بِنَا قَصْدَ الْمَنُونِ وَإِنَّنَا ... لَنُشْغَفُ أَحْيَاناً بِطَيِّ الْمَرَاحِلِ
عِجَالاً مِنَ الدُّنْيَا بِأَسْرَعِ سَيْرِنَا ... إِلَىٰ آجَلٍ مِنْهَا شَبِيهٍ بِعَاجِلِ
أَوَاخِرُ مِنْ عَيْشٍ إِذَا مَا امْتَحَنْتَهَا ... تَأَمَّلْتَ أَمْثَالاً لَهَا فِي الأَوَائِلِ

وقالَ الأَصمعيُّ : قدِمَ علينا أعرابيٌّ ، فأَقامَ عندنا أَيَّاماً ، ثمَّ رجعَ إلى الباديَةِ ، فسأَلَ عَن إخوانِهِ وأَترابِهِ ، فقيلَ لهُ : ماتوا ، فاسترجَعَ وبكىٰ ، وأَنشأَ يقولُ [في « ديوان أبي العتاهيةِ » ٣٣] : [مِنَ الوافرِ]

أَلاَ يَا مَوْتُ لَمْ أَرَ مِنْكَ بُدًّا ... أَبَيْتَ فَمَا تَحِيدُ وَلاَ تُحَابِي
كَأَنَّكَ قَدْ هَجَمْتَ عَلَىٰ مَشِيبِي ... كَمَا هَجَمَ الْمَشِيبُ عَلَىٰ شَبَابِي

وقالَ آخرُ [في « المدهش » ٤٨١] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا مَا الْمَنَايَا أَخْطَأَتْكَ وَصَادَفَتْ ... حَبِيبَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهَا سَتَعُودُ

وقالَ لبيدٌ [في « ديوانهِ » ٣٠٨] : [مِنَ الكاملِ]

صَادَفْنَ مِنْهَا غِرَّةً فَأَصَبْنَهَا ... إِنَّ الْمَنَايَا لاَ تَطِيشُ سِهَامُهَا

ولمَّا دخلَ عليٌّ ابنُ أَبي طالِبٍ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ مدائِنَ كسرىٰ . . نظرَ إِلى الإِيوانِ ، فأَنشدَهُ بعضُ مَن حضرَ قولَ الأَسودِ بنِ يعفرَ [في « الأغاني » ١٣/ ٢١] : [مِنَ الكاملِ]

مَاذَا أُؤَمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ ... تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيَادِ
أَهْلِ الْخَوَرْنَقِ وَالسَّدِيرِ وَبَارِقٍ ... وَالْقَصْرِ ذِي الشُّرُفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ
جَرَتِ الرِّيَاحُ عَلَىٰ مَحَلِّ دِيَارِهِمْ ... فَكَأَنَّمَا كَانُوا عَلَىٰ مِيعَادِ
فَأَرَى النَّعِيمَ وَكُلَّ مَا يُلْهَىٰ بِهِ ... يَوْماً يَصِيرُ إِلَىٰ بِلًى وَنَفَادِ

فقالَ عليٌّ [في « الأغاني » ١٣/ ٢١] : أبلغُ من ذلكَ قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان : ٢٥ـ٢٩] .

وقالَ بعضُهم في رِثاءِ الزهراءِ بـ(الأَندلسِ) [في « نفح الطيب » ١/ ٥٢٧] : [مِنَ السَّريعِ]

وَقَفْتُ بِالزَّهْرَاءِ مُسْتَعْبِراً ... مُعْتَبِراً أَنْدُبُ أَشْتَاتَا
فَقُلْتُ : يَا زَهْرَا أَلاَ فَارْجِعِي ... قَالَتْ : وَهَلْ يَرْجِعُ مَنْ مَاتَا ؟!
فَلَمْ أَزَلْ أَبْكِي وَأَبْكِي بِهَا ... هَيْهَاتَ يُغْنِي الدَّمْعُ هَيْهَاتَا
كَأَنَّمَا آثَارُ مَنْ قَدْ مَضَىٰ ... نَوَائِحٌ يَنْدُبْنَ أَمْوَاتَا

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٧٠] : [مِنَ الكاملِ]

أَيْنَ الَّذِي الهَرَمَانِ مِنْ بُنْيَانِهِ ... مَا حَالُهُ مَا يَوْمُهُ مَا المَصْرَعُ ؟[1]

---

(١) **الهَرَمانِ** : بناء عظيم بأرضِ (مصرَ) ، واختلف بهما اختلافاً كثيراً ، ارتفاعُ كلِّ واحدٍ منهما أربعُ مئةِ ذراعٍ ، وهما ثابتانِ ، ولا يُعرفُ الباني لهما ، وقال الواحديُّ : أَحدُهُما : قبرُ شدَّادِ بنِ عادٍ ، والآخرُ : قبرُ إرمَ ذاتِ العمادِ .

تَتَخَلَّـفُ الآثَـارُ عَـنْ أَصْحَـابِهَـا ... حِينـاً وَيُـدْرِكُهَـا الْفَنَـاءُ فَتَتْبَـعُ

وقالَ سلمَةُ بنُ زيدٍ الفهميُّ يصفُ حالَ قومِهِ : [مِنَ الخفيفِ]

دَرَجَ اللَّيْـلُ وَالنَّهَـارُ عَلَـىٰ فَهْـ ... ـمِ بْنِ عَمْرٍو فَأَصْبَحُوا كَالرَّمِيمِ

وَخَلَتْ دَارُهُـمْ فَـأَضْحَـتْ يَبَـاباً ... بَعْـدَ عِـزٍّ وَثَـرْوَةٍ وَنَعِيـمِ

وَكَـذَاكَ الـزَّمَـانُ يَـذْهَـبُ بِـالنَّـا ... سِ وَتَبْقَـىٰ دِيَارُهُـمْ كَـالرُّسُـومِ

وقالَ آخرُ [وهو أبو العتاهيةِ في «ديوانه» ٢٩٧] : [مِنَ الوافرِ]

هَـبِ الـدُّنْيَـا تُسَـاقُ إِلَيْـكَ عَفْـواً ... أَلَيْـسَ مَصِيـرُ ذَلِـكَ لِلـزَّوَالِ

فَمَـا تَـرْجُـو بِشَـيْءٍ لَيْـسَ يَبْقَـىٰ ... وَشِيكـاً مَـا تُغَيِّـرُهُ اللَّيَـالِـي

ولقد أَجادَ طرفَةُ بنُ العبدِ في قولِهِ [في «ديوانه» ٣٦ـ٣٧ـ١٥٠ـ١٥١] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَرَى الْعُمْـرَ كَنْـزاً نَـاقِصـاً كُـلَّ لَيْلَـةٍ ... وَمَـا تَنْقُـصُ الأَيَّـامُ وَالْعُمْـرُ يَنْفَـدِ

لَعَمْـرُكَ إِنَّ الْمَـوْتَ مَـا أَخْطَـأَ الْفَتَـىٰ ... لَكَـالطِّـوَلِ الْمُـرْخَـىٰ وَثِنْيَـاهُ فِـي الْيَـدِ[1]

إِذَا شَـاءَ يَـوْمـاً قَـادَهُ بِـزِمَـامِـهِ ... وَمَـنْ كَـانَ فِـي حَبْـلِ الْمَنِيَّـةِ يَنْقَـدِ

أَرَى الْمَوْتَ لاَ يَرْعَىٰ عَلَىٰ ذِي جَلاَلَةٍ ... وَإِنْ كَـانَ فِـي الـدُّنْيَـا عَـزِيـزاً بِمَقْعَـدِ

لَعَمْـرُكَ مَـا أَدْرِي وَإِنِّـي لَـوَاجِـلٌ ... أَفِـي الْيَـوْمِ إِقْـدَامُ الْمَنِيَّـةِ أَوْ غَـدِ

لَعَمْـرُكَ مَـا الأَيَّـامُ إِلاَّ مُعَـارَةٌ ... فَمَـا اسْطَعْـتَ مِـنْ مَعْـرُوفِهَـا فَتَـزَوَّدِ

وقالَ أعشىٰ وائِلٍ : [مِنَ الخفيفِ]

ذَاكَ عَيْـشٌ شَهِـدْتُـهُ ثُـمَّ وَلَّـىٰ ... كُـلُّ عَيْـشٍ مَصِيـرُهُ لِلـزَّوَالِ

وخرَجَ الإمامُ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ مرَّةً إلى الجبَّانَةِ ، ووقفَ علىٰ المقابرِ ، ثمَّ قالَ [في «المستطرف» ٢/٦١٠] : يا أَهلَ التُّربَةِ ، يا أَهلَ الكُربَةِ ، يا أَهلَ الغُربَةِ ، أَمَّا الأَزواجُ . . فقد نكَحَتْ ، وأَمَّا الأموالُ . . فقد قُسِمَتْ ، وأَمَّا الدُّورُ . . فقدْ سُكِنَتْ ، هـٰذا خبرُ ما عندَنا ، فما خبرُ ما عندَكُمْ ؟ ثمَّ قالَ : أَمَا لَو أُذِنَ لَهم في المقالِ . . لَقالُوا : إن خيرَ الزادِ التقوىٰ .

ويروىٰ : أَنَّ المتوكِّلَ العبَّاسيَّ بلغَهُ عَنِ الهادي الدعاءُ إلىٰ نفسِهِ ، وأَنَّهُ يكاتِبُ في ذلكَ ، فأَمرَ بكبْسِ دارِهِ وإشخاصِهِ علىٰ حالِهِ ، فأَلفَوهُ يتهجَّدُ ، فجاؤوا بهِ ، وعرَّفوهُ براءَتَهُ ، فلاطفَهُ وقضىٰ حاجتَهُ ، والتمسَ منهُ أَن يرويَ لهُ شعراً ، فاعتذرَ بقلَّةِ روايتِهِ فأَلحَّ عليهِ ، فقالَ [الأبيات في «المستطرف» ٢/٦٠٥] : [مِنَ البسيطِ]

بَـاتُـوا عَلَـىٰ قُلَـلِ الأَجْبَـالِ تَحْـرُسُهُـمْ ... غُلْـبُ الـرِّجَـالِ فَمَـا أَغْنَتْهُـمُ الْقُلَـلُ

وَاسْتُنْـزِلُـوا بَعْـدَ عِـزٍّ عَـنْ مَعَـاقِلِهِـمْ ... وَاسْتُـودِعُـوا حُفَـراً يَـا بِئْـسَ مَـا نَـزَلُـوا

نَـادَاهُـمُ صَـارِخٌ مِـنْ بَعْـدِ مَـا قُبِـرُوا : ... أَيْـنَ الأَسِـرَّةُ وَالتِّيجَـانُ وَالْحُلَـلُ ؟

---

(١) الطولُ : الحبلُ . ثِنْياهُ : ما انثنىٰ منهُ .

أَيْنَ الْـوُجُـوهُ الَّتِـي كَـانَـتْ مُنَعَّمَـةً ... مِـنْ دُونِهَـا تُضْـرَبُ الأَسْتَـارُ وَالْكُلَـلُ ؟
فَـأَفْصَـحَ الْقَبْـرُ بِـالْمَعْنَـىٰ وَقَـالَ لَـهُ : ... تِلْـكَ الْـوُجُـوهُ عَلَيْهَـا الـدُّودُ يَقْتَتِـلُ
يَـا طَـالَمَـا أَكَلُـوا دَهْـراً وَمَـا شَـرِبُـوا ... فَـأَصْبَحُـوا بَعْـدَ ذَاكَ الأَكْـلِ قَـدْ أُكِلُـوا

وقالَ القطبُ الحدَّادُ [في « ديوانه » ٥٠٦] : [مِنَ البسيطِ]

تِلْـكَ الْقُصُـورُ وَتِلْـكَ الـدُّورُ خَـاوِيَـةٌ ... يَصِيـحُ فِيهَـا غُـرَابُ الْبَيْـنِ بِـالْـوَهَـنِ
فَلَـوْ مَـرَرْتَ بِهَـا وَالْبُـومُ يَنْـدُبُهَـا ... فِـي ظُلْمَـةِ اللَّيْـلِ لَـمْ تَلْتَـذَّ بِـالْـوَسَـنِ

وقالَ مِن أُخرىٰ [في « ديوانه » ٤٤٦] : [مِنَ البسيطِ]

يَـا صَـاحِبِـي إِنَّ دَمْعِـي الْيَـوْمَ يَنْهَمِـلُ ... عَلَـى الْخُـدُودِ حَكَـاهُ الْعَـارِضُ الْهَطِـلُ
وَفِـي الْفُـؤَادِ وَفِـي الأَحْشَـاءِ نَـارُ أَسَـىً ... إِذَا أَلَـمَّ بِهَـا التَّـذْكَـارُ تَشْتَعِـلُ
عَلَـى الأَحِبَّـةِ وَالإِخْـوَانِ إِذْ رَحَلُـوا ... إِلَـى الْمَقَـابِـرِ وَالأَلْحَـادِ وَانْتَقَلُـوا
كُنَّـا وَكَـانُـوا وَكَـانَ الشَّمْـلُ مُجْتَمِعـاً ... وَالـدَّارُ آهِلَـةٌ وَالْحَبْـلُ مُتَّصِـلُ
حَـدَا بِهِـمْ هَـاذِمُ اللَّـذَّاتِ فِـي عَجَـلٍ ... فَلَـمْ يَـرِيمُـوا وَعَـنْ أَحْبَـابِهِـمْ شُغِلُـوا
وَغَـافِـلٍ لَيْـسَ بِـالْمَغْفُـولِ عَنْـهُ وَإِنْ ... طَـالَ الْمَـدَىٰ غَـرَّهُ الإِمْهَـالُ وَالأَمَـلُ
قُـلْ لِلْحَـزِيـنِ الَّـذِي يَبْكِـي أَحِبَّتَـهُ ... اِبْـكِ لِنَفْسِـكَ إِنَّ الأَمْـرَ مُقْتَبَـلُ

وماتَ لبعضِ الخلفاءِ ولدٌ ، كانَ أَلذَّ لَهُ مِنَ المُنىٰ ، وأَعجبَ إليهِ مِنَ الْعَافيَةِ ، وأَعذبَ لديهِ مِن صوبِ الغمامِ ، فتنكَّرَ حالُهُ ، وامتنعَ عَنِ الشَّرابِ والطعامِ ، حتَّىٰ دخلَ عليه بعضُهم ، فقالَ لَهُ [بنحوها في « البيان والتبيين » ١/٦٠٥] : إِنَّ القُرآنَ عَليكم نزلَ ، فأَنتمْ أعرفُ بتأْويلِهِ ، وإنَّ النبيَّ مِنكم ابتُعِثْ ، فأَنتم أَعرفُ بسنَّتِهِ ، وإنَّا لا نُعلِمُكَ شيئاً [نراكَ] جهلتَهُ ، وإنَّما نذكِّرُكَ بما لعلَّ المصيبَةَ أَنستْكَ إيَّاهُ ، وهـٰذهِ الأبياتُ قالَها بعضُ مَن أصابَهُ مثلُ ما أَصابَكَ ، وأَنشدَ : [مِنَ الطَّويلِ]

هَـلِ الـدَّهْـرُ إِلاَّ لَيْلَـةٌ وَنَهَـارُهَـا ... وَيَـوْمٌ إِلَـىٰ يَـوْمٍ وَشَهْـرٌ إِلَـىٰ شَهْـرِ
سَـرَيْنَـا وَأَدْلَجْنَـا فَكَـانَـتْ رِكَـابُنَـا ... تَسِيـرُ بِنَـا فِـي غَيْـرِ بَحْـرٍ وَلاَ بَـرِّ
مَنَـايَـا يُقَـرِّبْـنَ الْبَعِيـدَ إِلَـى الْبِلَـىٰ ... وَيُـدْنِيـنَ أَشْـلاَءَ الْكِـرَامِ إِلَـى الْقَبْـرِ
وَيَتْـرُكْـنَ أَزْوَاجَ الْغَيُـورِ لِغَيْـرِهِ ... وَيَقْسِمْـنَ مَـا بَقَّـى الشَّحِيـحُ مِـنَ الْـوَفْـرِ[1]
لَعَمْـرِي لَئِـنْ أَتْبَعْـتَ عَيْنَيْـكَ مَـا مَضَـىٰ ... مَـعَ الـدَّهْـرِ أَوْ سَـاقَ الْحِمَـامُ إِلَـى الْقَبْـرِ
لَتَسْتَنْفِـدَنْ مَـاءَ الشُّـؤُونِ بِـأَسْـرِهَـا ... وَلَـوْ كُنْـتَ تُمْـرِيهِـنَّ مِـنْ ثَبَـجِ الْبَحْـرِ
تَبَيَّـنْ فَـإِنْ كَـانَ الْبُكَـا رَدَّ هَـالِكـاً ... عَلَـىٰ أَحَـدٍ فَـاجْهَـدْ بُكَـاكَ عَلَـىٰ عَمْـرِو
وَلاَ تَبْـكِ مَيْتـاً بَعْـدَ مَيْـتٍ أَجَنَّـهُ ... عَلِـيٌّ وَعَبَّـاسٌ وَآلُ أَبِـي بَكْـرِ[2]

---

(١) الوفر من المال والمتاع : الكثير الواسع .

(٢) الأبياتُ الأربعُ الأُوَلُ لأبي العتاهيَةِ في « ديوانه » (٥٥٢ـ٥٥٣) ، وكذا في « أمالي الزجاجي » (ص/١٠١) ، وآخرُ بيتين للحُطيئَةِ في « ديوانه » (١٦٣) ، بل قال محقق « أمالي الزجاجي » (ص/٨ـ٩) عبد السلام هارون : هو عبد الله بن أراكة الثقفي وعزاه لـ : « أمالي المرتضىٰ » و« حماسة » ابن الشجري ، وقال في « العقد » (٣/٣٠٦) لأراكة الثقفي ويبدو أنه الصواب . =

وأظنُّ الأبياتَ تداخلَتْ على الزجَّاجِ ؛ فإنِّي أَحفظُها من « أَماليهِ » ، مَعَ أني رأيتُها بعدَ ذلكَ متفرِّقَةً لِغيرِ واحِدٍ ، ثمَّ قالَ لِلْخليفَةِ وهٰذا بيتٌ واحدٌ أُعزِّيكَ بهِ وهُوَ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَهَـوَّنَ بَعْـضَ الْـوَجْـدِ عَنِّـيَ أَنَّنِـي أُجَـاوِرُهُ فِـي دَارِهِ الْيَـوْمَ أَوْ غَـدَا[1]

وقد سبقَ لَنا في المجلسِ السابعِ أَنْ ذكرْنا هٰذا البيتَ ، معَ ما يناسبُهُ في الكلامِ علىٰ **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٣/١٦٣] :

[مِنَ البسيطِ]

لَـوْلاَ مُفَـارَقَـةُ الأَحْبَـابِ مَـا وَجَـدَتْ لَهَـا الْمَنَـايَـا إِلَـىٰ أَرْوَاحِنَـا سُبُـلاَ

ويروىٰ : أَنَّ الفضلَ بنَ سهلٍ أُصيبَ بِابنٍ يقالُ لَهُ العبَّاسُ ، فاشتدَّ جزَعُهُ عليهِ ، فدخَلَ عليهِ إِبراهيمُ بنُ موسىٰ بنِ جعفرٍ العلويُّ يعزِّيهِ ، وأَنشدَهُ : [مِنَ الكامِلِ]

اصْبِرْ نَكُـنْ بِـكَ صَـابِـرِيـنَ فَـإِنَّمَـا صَبْـرُ الـرَّعِيَّـةِ بَعْـدَ صَبْـرِ الـرَّاسِ
خَيْـرٌ مِـنَ الْعَبَّـاسِ رَبُّـكَ بَعْـدَهُ وَاللهُ خَيْـرٌ مِنْـكَ لِلْعَبَّـاسِ

وما أَحسنَ ما قالَهُ إِبراهيمُ بنُ مهديٍّ ، وهوَ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنِّـي وَإِنْ قُـدِّمْـتِ قَبْلِـي لَعَـالِـمٌ بِـأَنِّـي وَإِنْ أَبْطَـأْتُ عَنْـكِ قَـرِيـبُ
وَإِنَّ صَبَـاحـاً نَلْتَقِـي فِـي مَسَـائِـهِ صَبَـاحٌ إِلَـىٰ قَلْبِـي الْغَـدَاةَ حَبِيـبُ

وقالَ سلمةُ بنُ يزيدَ في رثائِهِ لمسلمَةَ بنِ مغراءَ ، وكانَ أَخاً لهُ مِن أُمِّهِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكُنْـتُ إِذَا يَنْـأَىٰ بِـهِ بَيْـنُ لَيْلَـةٍ يَبِيـتُ عَلَـى الأَحْشَـاءِ مِـنْ بَيْنِـهِ جَمْـرُ
فَهٰـذَا لِبَيْـنٍ قَـدْ عَلِمْنَـا إِيَـابَـهُ فَكَيْـفَ لِبَيْـنٍ كَـانَ مَـوْعِـدَهُ الْحَشْـرُ ؟
وَهَـوَّنَ وَجْـدِي أَنَّنِـي سَـوْفَ أَغْتَـدِي عَلَـىٰ إِثْـرِهِ يَـوْمـاً وَإِنْ نُفِّـسَ الْعُمْـرُ

وممَّا جاءَ في مجرَّدِ التفجُّعِ ، المنادي بحقارَةِ الدنيا ، وسرعَةِ فراقِها ، ما حكاهُ الأَصمعيُّ قالَ : رأيتُ امرأَةً بالباديَةِ تطوفُ علىٰ راحلتِها بقبرٍ ، وهِيَ تبكي وتنشدُ : [مِنَ الكامِلِ]

يَـا قَبْـرَ سَيِّـدِنَـا الْمِجَـنَّ سَمَـاحَـةً صَلَّـى الإِلَـٰهُ عَلَيْـكَ يَـا قَبْـرُ
مَـا ضَـرَّ لَحْـداً أَنْـتَ سَـاكِنُـهُ أَنْ لاَ يَمُـرَّ بِـأَرْضِـهِ الْقَطْـرُ
فَلْيَنْبُعَـنَّ سَمَـاحُ جُـودِكَ فِـي الثَّـرَىٰ وَلْيُـورِقَـنَّ بِقُـرْبِـكَ الصَّخْـرُ
وَإِذَا غَضِبْـتَ تَصَـدَّعَـتْ فَـرَقـاً مِنْـكَ الْجِبَـالُ وَخَـافَـكَ الـذُّعْـرُ[2]
وَإِذَا رَقَـدْتَ فَـأَنْـتَ مُنْتَبِـهٌ وَإِذا انتبَهْـتَ فَـوَجْهُـكَ الْبَـدْرُ

= وزادها بيتاً وهو ثالثها فصارت خمسة :

فقلـت لعبـد الله إذ حـنَّ بـاكيـاً تعـزَّ ، ومـاء العيـن منهمـرٌ يجـري

(١) جاء في « البيان والتبيين » (٤/ ٩٧) أن منشد الشعر يحيى بن منصور ، ولم يصرح بنسبته إليه .
(٢) الذعرُ : الفزعُ .

قالَ : فأَعجبَني شِعرُها ، ودنوتُ لأسأَلَها ، فسقطَتْ مَيْتَةً ، وقد طرقَ سَمعي بعضُ هٰذِهِ الأَبياتِ أَوْ كلُّها باللفظِ أو بالمعنىٰ ، في رثاءِ الإمامِ الغالبِ سيِّدِنا عليِّ ابنِ أَبي طالِبٍ .

ويروىٰ : عَنِ الأَصمعيِّ ـ أيضاً ـ أَو عَن غيرِهِ : أَنَّ امرأَةً وقفَتْ علىٰ قبرٍ ، فبكَتْ وأَبكَتْ ، ثمَّ أَنشأَتْ تقولُ : [مِنَ الكامل]

مَا حَالُ مَنْ سَكَنَ الثَّرىٰ مَا حَالُهُ ... مَا حَالُهُ انْقَطَعَتْ هُنَاكَ حِبَالُهُ ؟
أَمْسَىٰ وَلاَ رَوْحُ الْحَيَاةِ يُصِيبُهُ ... يَوْماً وَلاَ لُطْفُ الْحَبِيبِ يَنَالُهُ
أَمْسَىٰ قَدِ امْتَحَشَتْ مَحَاسِنُ وَجْهِهِ ... وَتَقَطَّعَتْ فِي لَحْدِهِ أَوْصَالُهُ
أَمْسَىٰ غَرِيباً مُفْرَداً فِي حُفْرَةٍ ... وَتَشَتَّتَتْ بَعْدَ النِّظَامِ عِيَالُهُ
وَتَبَدَّلَتْ مِنْهُ الْمَجَالِسُ غَيْرَهُ ... وَتَقَسَّمَتْ مِنْ بَعْدِهِ أَمْوَالُهُ

ويروىٰ : أَنَّ فاطمةَ بنتَ الحسنِ بنِ عليٍّ ، نظرَتْ إِلىٰ جنازَةِ الحسنِ بنِ الحسينِ ، فأُغْشِيَ عَلَيها ، ولمَّا أَفاقَتْ . . قالَتْ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكَانُوا رَجَاءً ثُمَّ عَادُوا رَزِيَّةً ... لَقَدْ عَظُمَتْ تِلْكَ الرَّزَايَا وَجَلَّتِ[1]

ثمَّ ضربَتْ علىٰ قبرِهِ فسطاطاً ، أَقامَت فيهِ سنَةً ، ثمَّ انصرفَتْ ، فيقالُ : إِنَّها سمعَتْ هاتفاً يقولُ : هل وَجدوا ما طَلَبوا ؟ فقالَ لهُ آخرُ : بل أَيِسوا فانقلبُوا .

وحجَّتِ امرأَةٌ مِنَ العرَبِ ، معَها ابنٌ لَها أُصيبَتْ بهِ ، ولمَّا دفَنوهُ . . قامَتْ علىٰ قبرِهِ وهيَ موجَعةٌ تقولُ [في « جمهرة خطب العرب » ٣/ ٢٧٣] : يا بُنَيَّ ، واللهِ لقد غذوتُكَ رضيعاً ، وفقدتُكَ سريعاً ، وكأَنْ لم تكنْ بينَ الحالتينِ مدةٌ أَلتذُّ فيها بعيشِكَ ، وأَتمتَّعُ فيها بالنظرِ إِليكَ ، وما بقيَ من عمري أَذوبُ فيهِ كمداً عليكَ ، ثمَّ قالَتْ :

اللَّهُمَّ : منكَ العدلُ ، ومِن خلقكَ الجَورُ ، وهبتَهُ قُرَّةَ عينٍ لي ، فلم تمتِّعني بهِ كثيراً ، بل سلبتَنِيهِ وشيكاً ، ثمَّ أَمرتَني بالصبرِ ، ووعدتَني عليهِ بالأجرِ ، فصدَّقْتُ وعدَكَ ، ورضيتُ قضاءَكَ ، فارحمِ اللهمَّ غربتَهُ ، واسْتُرْ عورَتَهُ يومَ تنكشفُ العوراتُ ، وتظهرُ السَّوْءَاتُ ، ورحمَ اللهُ مَن ترحَّمَ علىٰ مَنِ استودعتُهُ الردمَ ، ووسَّدْتُهُ الثرىٰ ، ثم قالَت :

أَيْ بُنَيَّ ، لقد تزودْتُ مِنَ الدُّنيا لسفَري ، فليتَ شعريَ! ما زادُكَ لسفرِكَ ويومِ معادِكَ ؟

---

(١) الرَّزايا : المصائبُ . والمعنىٰ : أَنَّ بني هاشمٍ كانوا ملجأً للنَّاسِ في حوائجِهم ، وغوثاً لهم في شدائِدِهم ، فلمَّا استشهدوا . . صاروا مصيبةً عليهم ، فما أَشدَّ تلكَ المصيبةَ وأَعظمَها .
وهٰذا البيتُ أَحدُ أَبياتٍ لسليمانَ بنِ قتَّةَ قالَهُ في الحُسينِ ـ رَضيَ اللهُ عنهُ ـ وفي أَصحابهِ حينَ استُشهِدوا ، ومنَ الأَبياتِ كما في « ديوان الحماسة » (٣٩٩/١) :

مَرَرْتُ عَلَىٰ أَبْيَاتِ آلِ مُحَمَّدٍ ... فَلَمْ أَرَهَا أَمْثَالَهَا يَوْمَ حُلَّتِ
فَلاَ يُبْعِدِ اللهُ الدِّيَارَ وَأَهْلَهَا ... وَإِنْ أَصْبَحَتْ مِنْهُمْ بِرَغْمِي تَخَلَّتِ
أَلاَ إِنَّ قَتْلَى الطَّفِّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... أَذَلَّتْ رِقَابَ الْمُسْلِمِينَ فَذَلَّتِ

ويروى البيت أيضاً بلفظ :

وَكَانُوا غِيَاثاً ثُمَّ أَضْحَوْا رَزِيَّةً ... أَلاَ عَظُمَتْ تِلْكَ الرَّزَايَا وَجَلَّتِ .

اللّهُمَّ : إني أَسأَلكَ الرضا عنهُ برضايَ عنْهُ ، ثمَّ قالَتِ :

استودَعتُكَ اللهَ الذي استودَعَنِيكَ جنيناً في الأحشاءِ ، وأَذاقني عليكَ غصَّةَ الثكلىٰ ، واثْكلَ الأُمَّهاتِ ، وحرارةَ قلوبِهنَّ ، وأَطولَ سهرِهِنَّ وكثرةَ عنائِهنَّ .

وذكرَ غيرُ واحدٍ : أَنَّهُ لمَّا هلكَ حنظلةُ بنُ نهدِ بنِ زيدٍ . . لم يدفَنْ ثلاثةَ أَيَّامٍ ، حتَّىٰ أَتاهُ مِن كلِّ حيٍّ وجوهُهُم ، فقامَتِ الخُطباءُ بالتعزيَةِ ، وقيلَتْ فيهِ الأَشعارُ ، حتَّىٰ عُدَّ ذلكَ اليومُ من أكبرِ مواسمِ العرَبِ ، فلمَّا وُورِيَ في حفرتِهِ . . قامَ جديلَةُ بنُ أَسدِ بنِ ربيعَةَ فقالَ :

أَيُّها الناسُ ، هـٰذا حنظلَةُ بنُ نهدٍ ، فَكَّاكُ الأَسيرِ ، وطارِدُ العسيرِ ، فهل منكُمُ اليَومَ مجازٍ بفعلِهِ ، أو حاملٌ عنهُ من ثقلِهِ ؟ كلاَّ ، وأَجل ، إنَّ معَ كلِّ جرعَةٍ لكم شرَقاً ، وفي كلِّ أَكلَةٍ لَكم غُصصاً ، لا تنالونَ نعمةً إلاَّ بفراقِ أُخرىٰ ، ولا يَستقبلُ معمَّرٌ يوماً مِن عمرِهِ إلاَّ بهدْمِ آخرَ مِن أَجلِهِ ، ولا يجدُ زيادَةً في أكلِهِ إلاَّ بنفادِ ما قبلَهُ مِن رزقِهِ ، ولا يحيا لَهُ أَثَرٌ إلاَّ ماتَ أَثَرٌ ، إنَّ في هـٰذا لعبراً ومزدجراً لِمَن نظرَ ، لو أَصابَ أَحدٌ سُلَّماً إلى البقاءِ ، ووجدَ سبيلاً عَن الفَناءِ . . لكانَ ابنَ داوودَ المقرونَ لهُ بالنبوَّةِ ، ملكَ الإنسِ والجنِّ[1] ، ثمَّ ذكرَ شعراً طويلاً لا حاجَةَ بنا إليهِ .

وقامَ بعدَهُ ابنُ كُثيِّرِ بنِ عذرَةَ بنِ سعدِ بنِ تميمٍ فقالَ :

أَيُّها الناسُ ، هـٰذا حنظلَةُ بنُ نهدٍ معدنُ الحُكماءِ ، وعزُّ الضعَفاءِ ، معطي اليانِعَ ، ومطعمُ الجائعَ ، فهل منكُم لهُ مانعٌ ، أَو لِمَا حلَّ بهِ دافعٌ ؟!

أَيُّها الناسُ ، إنَّما البقاءُ بعدَ الفناءِ ، وقد خُلِقنا ولم نَكُ شيئاً ، وسنعودُ إلىٰ ذلكَ ، إنَّ العواريَ اليومَ ، والهباتِ غداً ، وَرِثنا مَن قَبلنا ، ولَنا وارثونَ ، ولاَ بُدَّ من رحيلٍ عَن محلٍّ نازلٍ ، وقد أَصبَحتُم في منزلٍ لا يستَتِبُّ فيهِ سرورٌ بيُسرٍ . . إلاَّ تبعَهُ حصيرٌ بعسرٍ ، ولا تطولُ فيهِ حياةٌ مَرجُوَّةٌ . . إلاَّ اخترمَها موتٌ مخيفٌ ، ولا يوثَقُ فيهِ بخلْقٍ باقٍ . . إلاَّ وسيتبعُهُ سابقٌ ماضٍ ، فأَنتم أَعوانٌ لِلْحتوفِ علىٰ أَنفسِكم ، لَها بكلِّ سبسبٍ[2] مِنكم صريعٌ مجتزَرٌ ، معازبٌ[3] منتظرٌ ، هـٰذهِ أَنفسكُم تسوقُكُم إلى العَناءِ ، فَلِمَ تطلبونَ البقاءَ ؟ اطلبوا الخيرَ ومُوليَهُ ، واحذَروا الشَّرَّ ومُبديَهُ ، واعلموا أَنَّ خيراً مِنَ الخيرِ معطيهِ ، وشراً مِنَ الشرِّ فاعلُهُ ، ثم أَنشأَ يقولُ شعراً لا نُكثِرُ بهِ[4] .

وكتبَ القاضي الفاضلُ لأَحدِ أَبناءِ صلاحِ الدينِ الأَيوبيِّ ، حينَما ماتَ بطاقَةً يقولُ فيها [في « السير » ٢١/٢٩٠] : كتبتُ إلىٰ مَولانا الظاهرِ ، أَحسنَ اللهُ عزاءَهُ ، وجبرَ مصابَهُ ، وجعلَ فيهِ الخَلَفَ في الساعَةِ التي زُلزِلَ المسلمونَ فيها زلزالاً شديداً ، وقد حَفَرتِ الدموعُ المحاجرَ ، وبلغَتِ القلوبُ الحناجرَ ، وقد ودَّعْتُ أَباكَ ومَخدومِيَ وداعاً لا لقاءَ بعدَهُ ، وأَسلمتُهُ إلى اللهِ ، مغلوبَ الحيلَةِ ، ضعيفَ القوَّةِ ، راضياً عَنِ اللهِ تعالىٰ ، وبالبابِ من الجنودِ المجنَّدَةِ ، والأَسلحَةِ المغمَّدَةِ ، ما لا يدفَعُ بلاءً ، ولا يرُدُّ قضاءً ، وتدْمَعُ العينُ ، ويخشعُ القلبُ ، ولا نقولُ إلاَّ ما يُرضي الربَّ : وإنَّا

---

(١) أي : سليمان بن داوود عليهما السلام .

(٢) السبسبُ : المفازةُ .

(٣) المعازبُ : البعيدُ .

(٤) ذكرَ الشيخُ أَبو نُعيمٍ في « الحليَةِ » (٤/٣١) وابنُ كثيرٍ في « البدايَةِ والنهايَةِ » (٩/٢٨٢) : هـٰذا الكلامَ الذي تقدَّمَ كُلَّهُ الذي عزاهُ الشيخُ لابنِ جديلةَ ، والذي عزاهُ إلى ابنِ كثيرٍ علىٰ أَنَّهُ موعظةٌ لوهبِ بنِ منبِّهٍ اهـ .



عليكَ يا يوسفُ لمحزونونَ ، وأمَّا ما يحتاجُ إليهِ من الوَصايا . . فقد شغلَني عنهُ المصابُ ، ولائِحُ الأَمرِ إنَّهُ إن وقَعَ اتفاقٌ . . فما عدمتُم إلاَّ شخصَهُ الكريمَ ، وإنْ كانَ غيرَ ذلكَ . . فالمصائِبُ المستقبلَةُ أَهونُها موتُهُ ، وهوَ الهَولُ العظيمُ .

وبعضُ هٰذا ـ معَ ما سبقَ ـ ناظِرٌ إلىٰ ما صنعَ عمرُو بنُ العاصِ ، فقد رويَ : أَنَّهُ لمَّا حضرَهُ الموتُ . . استدعىٰ عساكرَهُ ، وأمرَهم بأَنْ يستَلْئِمُوا ، وأمرَ بالفرسانَ فركِبوا ، ولمَّا اجتمَعوا علىٰ بَكرَةِ أَبيهِم . . قالَ : لقد نزلَ بي مَن الأمرِ ما ترونَ ، فهَل تملكونَ لي نفعاً ، أو تغنُونَ عنِّي دفعاً ؟ وهوَ يعرفُ أَنَّهم لا يقدرونَ علىٰ شيءٍ ، ولكنَّهُ أَرادَ استخراجَ العبرَةِ مِنْهم ، وأَنْ يريَهم حقارَةَ الدُّنيا ، وأَنَّ ما حُشِرَ لَهُ مِنْ جنودِ (مصرَ) الفيحاءِ لا يُغني فتيلاً ولا نقيراً مِن أَمرِ اللهِ ، فسبحانَ مَن لا يدومُ إلاَّ ملكُهُ .

وألمَّ بهِ الناظِمُ في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٧٣ـ ٢٧٤] : [مِنَ الكامِلِ]

مَـا زِلْـتَ تَـدْفَـعُ كُـلَّ أَمْـرٍ فَـادِحٍ ... حَتَّـىٰ أَتَـى الأَمْـرُ الَّـذِي لاَ يُـدْفَـعُ
فَظَلِلْـتَ تَنْظُـرُ لاَ رِمَـاحُـكَ شُـرَّعٌ ... فِيمَـا عَـرَاكَ وَلاَ سُيُـوفُـكَ قُطَّـعُ
بِـأَبِـي الْـوَحِيـدُ وَجَيْشُـهُ مُتَكَـاثِـرٌ ... يَبْكِـي وَمِـنْ شَـرِّ السِّلاَحِ الأَدْمُـعُ

ومِن كلامٍ قالَهُ الإمامُ ، وهُوَ يجهِّزُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم [في « نهج البلاغة » ٢٧٢] : بأَبي أَنتَ وأُمِّي يا رَسولَ اللهِ ، لقدِ انقطَعَ بموتِكَ ما لا ينقطِعُ بموتِ غيرِكَ من النُّبوَّةِ والأَنباءِ وأَخبارِ السماءِ ، وخُصِّصْتَ حتَّىٰ صِرْتَ مسلِّياً عمَّن سواكَ ، وعُمِّمْتَ حتَّىٰ صارَ الناسُ فيكَ سواءً ، ولولا أَنَّكَ أَمرتَ بالصبرِ ، ونهيتَ عَنِ الجزَعِ . . لأَنفدْنا عليكَ ماءَ الشؤونِ ، ولكانَ الداءُ مماطلاً ، والكمدُ محالفاً ، وقِلاًّ لكَ ، ولكنَّهُ ما لا يُملَكُ ردُّهُ ، ولا يُستَطاعُ دفعُهُ ، بأَبي أَنتَ وأُمي ، اذكرْنا عندَ ربِّكَ ، واجعَلْنا مِن بالِكَ .

ولمَّا دُفِنَ صلى الله عليه وسلم . . قامَ علىٰ قبرِهِ فقالَ [في « نهج البلاغة »] : إنَّ الصبرَ لجميلٌ إلاَّ عنكَ ، وإنَّ الجزعَ لقبيحٌ إلاَّ عليكَ ، وإنَّ المُصابَ بكَ لجليلٌ ، وإنَّهُ بعدَكَ لقليلٌ .

وإنَّهُ وايمُ اللهِ لَمِن أَفصحِ الكلامِ ، أَمَّا قولُهُ : إنَّ الصبرَ لجميلٌ إلاَّ عنكَ : فقد تلَقَّفَهُ الشعراءُ مِنهُ ، قالَ أَبو تمَّام [في « ديوانه » ٢/ ٣٣٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَـدْ كَـانَ يُـدْعَـىٰ لاَبِسُ الصَّبْـرِ حَـازِماً ... فَقَـدْ صَـارَ يُـدْعَـىٰ حَـازِماً حِيـنَ يَجْـزَعُ

وقالَ [في « ديوانه » ٢/ ٣١] : [مِنَ الكامِلِ]

الصَّبْـــرُ أَجْمَـــلُ غَيْـــرَ أَنَّ تَلَـــذُّذاً ... فِـي الْحُـبِّ أَوْلَـىٰ أَنْ يَكُـونَ جَمِيـلاَ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٣٣] : [مِنَ الكامِلِ]

أَجِـدُ الْجَفَـاءَ عَلَـىٰ سِـوَاكِ مُـرُوءَةً ... وَالصَّبْـــرَ إلاَّ فِـــي نَـــوَاكِ جَمِيـــلاَ[1]

---

(١) الجفاءُ : الامتناعُ . النوىٰ : البعدُ .

وقالَ غيرُهُ [ـ وهو السري الرفاء ـ في « المستطرف » ٢/ ٣٩٨] : [مِنَ الكاملِ]

وَالصَّبْـرُ يُحْمَـدُ فِـي الْمَـوَاطِـنِ كُلِّهَـا ... إلاَّ عَلَيْـــكَ فَـــإِنَّـــهُ مَـــذْمُـــومُ

وقالتِ الخنساءُ قبلَ ذلكَ [في « ديوانها » ١٢٥] : [مِنَ الوافرِ]

أَلاَ يَـــا صَخْـــرُ إِنْ أَبْكَيْـــتَ عَيْنِـــي ... فَقَـــدْ أَضْحَكْتَنِـــي دَهْـــراً طَـــوِيـــلاَ

بَكَيْتُـــكَ فِـــي نِسَـــاءٍ مُعْـــوِلاَتٍ ... وَكُنْـــتُ أَحَـــقَّ مَـــنْ أَبْـــدَى الْعَـــوِيـــلاَ

دَفَعْـــتُ بِـــكَ الْجَلِيـــلَ وَأَنْـــتَ حَـــيٌّ ... فَمَـــنْ ذَا يَـــدْفَـــعُ الْخَطْـــبَ الْجَلِيـــلاَ ؟

إِذَا قَبُـــحَ الْبُكَـــاءُ عَلَـــىٰ قَتِيـــلٍ ... رَأَيْـــتُ بُكَـــاءَكَ الْحَسَـــنَ الْجَمِيـــلاَ

وأمَّا قولُهُ[1] : وإنَّهُ بعدَكَ لقليلٌ . . فقد سبقَ ما يناسبُهُ عندَ شرحِ **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٣] : [من البسيط]

بِمَـــا بِجَفْنَيْـــكِ مِـــنْ سِحْـــرٍ صِلِـــي دَنِفـــاً ... يَهْـــوَى الحَيَـــاةَ وَأَمَّـــا إِنْ صَـــدَدْتِ فَـــلاَ

ومِن ذلكَ قولُ زيادٍ في رِثاءِ حبيبِ بنِ المهلَّبِ : [مِنَ الطَّويلِ]

سَأَبْكِيكَ مَا فَاضَتْ دُمُوعِي فَإِنْ تَغِضْ ... فَحَسْبُـكَ مِنِّـي مَـا تَجُـنُّ الْجَـوَانِـحُ

كَـأَنْ لَـمْ يَمُـتْ حَـيٌّ سِـوَاكَ وَلَـمْ تَقُـمْ ... عَلَـىٰ أَحَـدٍ إِلاَّ عَلَيْـكَ النَّـوَائِـحُ

لَئِـنْ حَسُنَـتْ فِيـكَ الْمَـرَاثِـي وَصَـوْغُهَـا ... لَقَـدْ حَسُنَـتْ مِـنْ قَبْـلُ فِيـكَ الْمَـدَائِـحُ

فَمَـا أَنَـا مِـنْ رُزْءٍ وَإِنْ جَـلَّ جَـازِعٌ ... وَلاَ بِسُـرُورٍ بَعْـدَ مَـوْتِـكَ فَـارِحُ[2]

وقولُهُ : (سأَبكيكَ ما فاضَت دُموعي . . إلىٰ آخرِ البيتِ) مناسِبٌ لِما سبقَ عندَ شرحِ **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣١٨] :

[مِنَ الخفيفِ]

شَيْـــبُ رَأْسِـــي وَذِلَّتِـــي وَنُحُـــولِـــي ... وَدُمُـــوعِـــي عَلَـــىٰ هَـــوَاكَ شُهُـــودِي

وقامَ بعضُهُم عندَ قبرٍ ، فبكىٰ واستبكىٰ ، ثمَّ قالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

لِمَـــنْ جَـــدَثٌ أَبْصَـــرْتُـــهُ فَشَجَـــانِـــي ... وأَرْسَـــلَ فِـــي شَـــأْوِ الْهُمُـــومِ عِنَـــانِـــي

وَقَفْـــتُ بِـــهِ حَيْـــرَانَ وَقْفَـــةَ هَـــائِـــمٍ ... أُعَـــالِـــجُ قَلْبـــاً دَائِـــمَ الْخَفَقَـــانِ

وَمَـــا بِـــيَ مَـــنْ فِـــي الْقَبْـــرِ لَكِـــنْ رَأَيْتُـــهُ ... عَلَـــىٰ كَمَـــدٍ لاَ بُـــدَّ فِيـــهِ أَرَانِـــي

وقد لَهِجَ أَبو الفضلِ ابنُ العميدِ ، قبلَ نكبتِهِ التي قتلَ فيها ، بهٰذينِ البيتينِ : [مِنَ الرَّمَلِ]

سَكَـــنَ الـــدُّنْيَـــا أُنَـــاسٌ قَبْلَنَـــا ... رَحَلُـــوا عَنْهَـــا وَخَلَّـــوْهَـــا لَنَـــا

وَنَـــزَلْنَـــاهَـــا كَمَـــا قَـــدْ نَـــزَلُـــوا ... وَنُخَلِّيهَـــا لِقَـــوْمٍ بَعْـــدَنَـــا

---

(١) أي : الإمام في رثائِهِ صلى الله عليه وسلم .

(٢) الأبيات لأشجع السلمي في « ديوان الحماسة » (١/ ٣٥٥) .

وهي شبيهَةٌ بما سبقَ أَوائِلَ المجلسِ ، عَن عديٍّ بنِ زيدٍ بلسانِ الآرامِ . ولي في الموضوعِ الكثيرُ الطيِّبُ ، منهُ قولي [في « ديوان المؤلف » ق ١١٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَقَـدْ أَبْلَغَـتْ دُنْيَـاكُـمُ فِـي عِظَـاتِهَـا ... إِلَيْكُـمْ فَهَـلاَّ يَسْتَجِيـبُ سَمِيـعُ

فَكَـمْ قَلَبَـتْ ظَهْـرَ الْمِجَـنِّ لأُمَّـةٍ ؟ ... وَيَـا رُبَّ شَمْـلٍ عَـادَ وَهُـوَ صَدِيـعُ

وَسَبْـعُ الثُّـرَيَّـا آيِـلاَتٌ إِلَـى النَّـوَىٰ ... وَإِنْ طَـالَـتِ الأَيَّـامُ وَهِـيَ جَمِيـعُ

والكلامُ في ذمِّ الدنيا ، وسرعَةِ فنائِها ، وكثرَةِ عنائِها ، والتواءِ أُمورِها ، وترادُفِ شرورِها ، ووشيكِ انحلالِها ، وتقارُبِ زوالِها . . ما تئِطُّ منهُ بطونُ الأَسفارِ[1] ، ويتذكَّرُ لأَقلِّهِ أُولوا الأَبصارِ ، ومِن كونِهِ موضعَ اتفاقٍ بينَ الأُمَمِ . . لَم يكفِ الاقتصارُ عليهِ في الخُطَبِ الجُمَعِيَّةِ ، كَما هُوَ مذكورٌ في المتونِ ، وربَّما يكونُ بعضُ ما سقناهُ في الكلامِ علىٰ بيتِ المَطْلعِ أَليَقَ بما يلي ، غيرَ أَنَّ الأَبياتَ آخذَةٌ برقابِ بعضِها بعضاً ، فلا بِدْعَ أَنْ كانَ الكلامُ عَليها مِن نوعٍ واحِدٍ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٤] : [مِنَ الكاملِ]

أَيْـنَ الأَكَـاسِـرَةُ الجَبَـابِـرَةُ الأُلَـىٰ ... كَنَـزُوا الْكُنُـوزَ فَمَـا بَقِيـنَ وَلاَ بَقُـوا

[سبحان الدائم الباقي]

توضيحٌ لسابقِهِ وتفريعٌ عليهِ ، وفي وَهمي أَنْ قد أَشرتُ مرَّةً إِلىٰ حديثِ ابنِ الخطَّابِ ، وما تمثَّلَ بهِ مِنَ الأَبياتِ ، ولا بأْسَ بإِعادتِهِ ؛ إِذ لم أَكُنْ علىٰ يقينٍ مِن ذكرِهِ ، فضلاً عَنِ استيفائِهِ ، وحاصلُهُ : أَنَّهُ حجَّ . . فلمَّا كانَ بـ(ضَجْنَانَ)[2] قالَ : لا إِلـٰهَ إِلاَّ اللهُ العليُّ العظيمُ ، المعطي ما يشاءُ لِمَن يشاءُ ، لَقد كنتُ أَرعىٰ للخطَّابِ بهـٰذا الوادي مع أُخَيَّةٍ لي ، في مدارعِ الصوفِ ، وكانَ فظّاً ، يُتعِبُنا إِذا عمِلنا ، ويضربُنا إِذا قصَّرنا ، وقد أَمسيتُ اليومَ وما بَيني وبينَ اللهِ أَحدٌ ، ثُمَّ أَنشدَ متمثِّلاً [الأبيات في « الأغاني » ٣/ ١٢١ وهي لورقة بن نوفل] : [مِنَ البسيطِ]

لاَ شَـيْءَ مِمَّـا تَـرَىٰ تَبْقَـىٰ بَشَـاشَتُـهُ ... يَبْقَـى الإِلَـٰهُ وَيُـودَى الْمَـالُ وَالْـوَلَـدُ

لَـمْ تُغْـنِ عَـنْ هُـرْمُـزٍ يَـوْمـاً خَـزَائِنُـهُ ... وَالْخُلْـدَ قَـدْ حَـاوَلَـتْ عَـادٌ فَمَـا خَلَـدُوا

وَلاَ سُلَيْمَـانَ إِذْ تَجْـرِي الـرِّيَـاحُ لَـهُ ... وَالإِنْـسُ وَالجِـنُّ فِيمَـا بَيْنَهَـا بَـرَدُ[3]

أَيْـنَ الْمُلُـوكُ الَّتِـي كَـانَـتْ مَنَـازِلُهَـا ... مِـنْ كُـلِّ أَوْبٍ إِلَيْهَـا رَاكِـبٌ يَفِـدُ ؟

حَـوْضٌ هُنَـالِـكَ مَـوْرُودٌ بِـلاَ كَـذِبٍ ... لاَ بُـدَّ مِـنْ وُرْدِهِ يَـوْمـاً كَمَـا وَرَدُوا

---

(١) الأَطيطُ : صوتُ الرِّحالِ إِذا ثقُلَ عليها الرُّكبانُ ، وهوَ هنا كنايةٌ عَن وفرة الكلام في ذم الدنيا في كتب الأقدمين .

(٢) جبلٌ بناحيةِ (تهامةَ) .

(٣) البيت في « الأغاني » :

ولا سليمـــــان إذ دان الشعـــــوب لـــــه ... والجـــنُّ والإنـــسُ تجـري بينهـا البُـرُدُ



وقالَ ابنُ أَبي طالِبٍ [في « نهج البلاغة » ٢٦٦] : واعلَموا أنّكم علىٰ سبيلِ مَن مضىٰ قبلَكم ، مِمَّن كانَ أطولَ أعماراً ، وأَعْمَرَ دياراً ، وأبعدَ آثاراً ، أَصبحَتْ أَصواتُهم هامدةً ، ورياحُهُم راكدَةً ، وديارُهم خاليَةً ، وأَجسامُهم باليَةً ، قَدِ استبدَلوا القصورَ بالقبورِ ، والنمارِقَ بالصخورِ ، وكأنْ قَد صِرتُم إلىٰ ما صاروا إليهِ ، فارتهنَكُم ذلكَ المضجَعُ ، وضمَّكُم ذلكَ المستودَعُ ، فكيفَ لَو تناهَتِ الأُمورُ ، وبُعثِرَتِ الْقبورُ ، ورُدُّوا إلى اللهِ مولاهم الحقِّ ، وضَلَّ عَنْهم ما كانوا يفترونَ .

واللهُ جلَّ شأنُهُ يقولُ : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ [السجدة : ٢٦] .

ويقولُ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم : ٩٨] .

ويقولُ : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٠] .

ويقولُ : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام : ٦] .

ويقولُ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص : ٥٨] .

ويقولُ : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [يس : ٣١] .

والآياتُ في الاعتبارِ بالقرونِ الماضيةِ أكثرُ مِن أَنْ تحصرَ .

وقالَ الشريفُ الرضيُّ [في « ديوانه » ٢/ ٨٧٧-٨٨٠] : [مِنَ الخفيفِ]

مَـا أَقَـلَّ اعتِبَـارَنَـا بِـالـزَّمَـانِ ... وَأَشَـدَّ اغْتِـرَارَنَـا بِـالأَمَـانِـي

وَقَفَـاتٌ عَلَـىٰ غُـرُورٍ وَأَقْـدَا ... مٌ عَلَـىٰ مَـزْلَـقٍ مِـنَ الْحَـدَثَـانِ

كُـلُّ يَـوْمٍ رَزِيَّـةٌ بِفُـلاَنِ ... وَوُقُـوعٌ مِـنَ الـرَّدَىٰ بِفُـلاَنِ

قَـدْ مَـرَرْنَـا عَلَـى الـدِّيَـارِ خُشُـوعـاً ... وَرَأَيْنَـا الْبِنَـا فَـأَيْـنَ الْبَـانِـي ؟

أَيْـنَ رَبُّ السَّـدِيـرِ فَـالْحِيـرَةِ الْبَيْـ ... ـضَـاءِ أَمْ أَيْـنَ صَـاحِـبُ الإِيـوَانِ ؟!

وَالسُّيُـوفُ الْحِـدَادُ مِـنْ آلِ بَـدْرٍ ... وَالْقَنَـا الصُّـمُّ مِـنْ بَنِـي الـرَّيَّـانِ

وَالْمَـوَاضِـي مِـنْ آلِ جَفْنَـةَ أَرْسَـىٰ ... طُنُبـاً مُلْكُهُـمْ عَلَـى الْجَـوْلاَنِ[1]

تَتَـرَاءَاهُـمُ الْـوُفُـودُ بَعِيـداً ... ضَـارِبِيـنَ الصُّـدُورَ بِـالأَذْقَـانِ

فِـي رِيَـاضٍ مِـنَ السَّمَـاحِ غَـوَانٍ ... وَجِبَـالٍ مِـنَ الْحُلُـومِ رِزَانِ

---

(١) الطُّنُبُ : حَبلُ الخباءِ . الجَوْلانُ : جبل بالشام معروف يقع جنوب غرب سورية .



وَهُـمُ الْمَـاءُ لَـذَّ لِلنَّـاهِـلِ الظَّمْــــآنِ بَـرْداً وَالنَّـارُ لِلْحَيْـرَانِ

مَـا ثَنَـتْ عَنْهُـمُ الْمَنُـونُ يَـداً شَـوْ كَـاءَ أَطْـرَافُهَـا مِـنَ الْمُـرَّانِ[1]

عَطَـفَ الـدَّهْـرُ فَـرْعَهُـمْ فَـرَآهُ بَعْـدَ بُعْـدِ الـذُّرَىٰ قَـرِيبَ الْمَجَانِي

وَثَنَتْهُـمْ بَعْـدَ الْجِمَـاحِ الْمَنَـايَـا فِـي عِنَـانِ التَّسْلِيـمِ وَالإِذْعَـانِ

لَيْـسَ يَبْقَـىٰ عَلَـى الـزَّمَـانِ جَـرِيءٌ فِـي إِبَـاءٍ أَوْ عَـاجِـزٌ فِـي هَـوَانِ

وقالَ [في « ديوانه » ٢/ ٣٨١ـ٣٨٢] : [مِنَ الكاملِ]

أَوَ مَـا رَأَيْـتَ وَقَـائِـعَ الـدَّهْـرِ أَفَـلاَ تُسِـيءُ الظَّـنَّ بِـالْعُمْـرِ

بَيْنَـا الْفَتَـىٰ كَـالطَّـوْدِ تَكْنُفُـهُ هَضَبَـاتُـهُ وَالْعَضْـبُ ذُو الأَثْـرِ

يَـأْبَـى الـدَّنِيَّـةَ فِـي عَشِيـرَتِـهِ وَيُجَـاذِبُ الأَيْـدِي عَلَـى الْفَخْـرِ

زَلَّ الـزَّمَـانُ بِـوَطْءِ أَخْمَصِـهِ وَمَـوَاطِـىءُ الأَقْـدَامِ لِلْعَثْـرِ

ثُـمَّ انْثَنَـتْ كَـفُّ الْمَنُـونِ بِـهِ كَـالضِّغْـثِ بَيْـنَ النَّـابِ وَالظُّفْـرِ[2]

جَمَـعَ الْجُنُـودَ وَرَاءَهُ وَكَـأَنَّمَـا لاَقَتْـهُ وَهُـوَ مُضَيَّـعُ الظَّهْـرِ

وَبَنَـى الْحُصُـونَ تَمَنُّعـاً فَكَـأَنَّمَـا أَمْسَـىٰ بِمَضْيَعَـةٍ وَلاَ يَـدْرِي

ويروىٰ عَن **أَبي الدرداءِ** [بنحوه في « حلية الأولياء » ١/ ٢١٣] : **أَنَّهُ قامَ علىٰ درجِ المسجدِ ، فقالَ : يا أَهلَ (دمشقَ) ، أَلا تسمعونَ مِن أَخٍ ناصحٍ لكُم ؟ إِنَّ مَن كانَ قبلَكم جَمَعوا كثيراً ، وبَنَو مشيداً ، وأَمَّلوا بعيداً ، فأَصبحَ جمعُهم بُوراً ، وبنيانُهم قبوراً ، وأَملُهم غروراً ، وملكُهم هباءً منثوراً ، هٰذهِ عادٌ قد ملأَتِ البلادَ أَهلاً ومالاً ، وخيلاً ورجالاً ، فمَن يشتري تركاتِهم اليومَ بدرهمينِ ؟!**

[لا يدوم إلا الحيُّ القيوم]

وكم رأَينا في تصاريفِ الأَيَّامِ مِن والٍ عَزلَتْ ، وعالٍ أَنزلَتْ ، وحكيمٍ زَلزلَتْ ، ولَو أَردنا أن نُفيضَ فيمَن سقاهُمُ الدهرُ كأْسَهُ ، وجرَّعَهُم بأْسَهُ ، وضربَ علَيهم جرانَهُ ، وأَنزلَ بِهم حدثانَهُ . . لأَحْوَجَ ما رأَيناهُ بعيونِنا ، وسمعناهُ من قريبِ زمانِنا ، إِلىٰ تأْليفٍ مخصوصٍ .

ومرَّ في أَواخرِ المجلسِ الثاني ما يتصِلُ بالموضوعِ ، مع الإِحالَةِ علىٰ ما هنا .

[تقلُّب أحوال الدنيا في الناس]

وقد فتحَ (الأَندلُسَ) موسىٰ بنُ نُصَيْرٍ ، فكانَتِ الْغَنائِمُ تُحمَلُ إِليهِ ، فيَرمي بالذهَبِ رميه الحجارَةَ ، ولا يلتقِطُ إِلاَّ ما كانَ مِن خالصِ الجوهَرِ ، ثمَّ لَم تطلِ الأَيَّامُ . . حتَّىٰ ماتَ يسأَلُ النَّاسَ بمنىً ، علىٰ ما في بعضِ الرواياتِ .

ولمَّا زرتُ (قيدونَ) في سنةِ : (١٣٢٩هـ) دخلَ عليَّ جماعَةٌ مِن آلِ العموديِّ ، لا يقِلُّونَ عَن خمسينَ ، في غررٍ مليحَةٍ ، ووجوهٍ صبيحَةٍ ، وقاماتٍ مديدَةٍ ، وأَجسامٍ شديدَةٍ ، وأَفكارٍ بعيدَةٍ ، ولمَّا سأَلتُهم عَن حالِهم . . ذكَروا

---

(١) **المُرَّانُ** : الرماحُ الصلبةُ .

(٢) **الضِّغثُ** : قبضةُ حشيشٍ مختلطةُ الرطبِ باليابسِ .



ما كانَ لَهم من بسطَةِ وصولَةِ الملكِ في سائرِ بلادِ (دوعَنَ) ، ثمَّ ما ضرَبَ علىٰ أيديهِمُ الدَّهْرُ ، واستردَّتْ ما أعطتْهم الأيَّامُ ، وما زالوا يشرحونَ لي الحالَ ، ويكثرونَ مِنَ التَّألُّمِ ، ويلتمسونَ مني الدعاءَ . . حتَّى اغرورقَتْ عينيَّ ، وتندَّىٰ خَدِّي ، ولمَّا رَآني أَحدُهم بتلكَ الرِّقَةِ . . قالَ : لا تحزَنْ ، فقد كنَّا واللهِ أهلاً لِمَا نزلَ بِنا ، وما أصابَنا إنَّما هوَ بما كسبتْهُ أيدينا ، فقد ولاَّنا اللهُ ولايةً لم نُحسِنْ سياستَها ، بل أَبدَلْنا العدلَ جوراً ، والحِلْمَ جهلاً ، ولم نشكرِ النعمةَ ، فسُلِبَتْ عنَّا .

وما أَخذَها إلاَّ من قولِ يحيى البرمكيِّ ، وقد سأَلَهُ الفضلُ في محبسِهِ عن أَسبابِ نكبتِهم ، فإنَّهُ قالَ [بنحوه في « السير » ٩/٦١] : ليسَتْ إلاَّ دعوةَ مظلومٍ سرَتْ بليلٍ ونحنُ نائمونَ .

وقدِ اتفقَ أَن تقوَّضَ علىٰ يدِ فحلِ (حضرموتَ) ـ السلطانِ عوضِ بنِ عمرَ القعيطي ـ عدَّةُ دولٍ في عهدٍ قريبٍ :

مِنها : دولَةُ آلِ العموديِّ المذكورينَ ، ودولَةُ آلِ بُرَيكٍ ، ودولَةُ النقيبِ الكساديِّ ، ودولَةُ آلِ عمرَ باعمرَ ، ودولَةُ العولقيِّ ، ودولَةُ بنِ مساعدٍ ، ودولَةُ منصورِ بنِ عمرَ الكثيريِّ ، وغيرُهم .

[الدنيا دولاب يدور]

وما أَحسنَ قولَ بعضِهم وقد مرَّ بديارِ قومٍ كرامٍ ، كانوا . . فبانوا [كما في « المستطرف » ٢/٦٠٧] : [مِنَ البسيطِ]

هَـٰـذِي مَنَـازِلُ أَقْـوَامٍ عَهِـدْتُهُـمُ ... يُـوفُـونَ بِـالْعَهْـدِ مُـذْ كَـانُـوا وَبِـالـذِّمَـمِ
تَبْكِـي عَلَيْهِـمْ دِيَـارٌ كَـانَ يُطْـرِبُهَـا ... تَـرَنُّـمُ الْمَجْـدِ بَيْـنَ الْجُـودِ والْكَـرَمِ

وقالَ أَحدُ بني أُميَّةَ ، وهوَ الأَبيورديُّ [في « ديوانه » ٥٨٦ـ٥٨٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

مَلَكْنَـا أَقَـالِيـمَ الْبِـلاَدِ فَـأَذْعَنَـتْ ... لَنَـا رَغْبَـةً أَوْ رَهْبَـةً عُظَمَـاؤُهَـا
فَلَمَّـا انْتَهَـتْ أَيَّـامُنَـا عَلِقَـتْ بِنَـا ... شَـدَائِـدُ أَيَّـامٍ قَلِيـلٌ رَخَـاؤُهَـا
وَكَـانَ إِلَيْنَـا فِـي السُّـرُورِ ابْتِسَـامُهَـا ... فَصَـارَ عَلَيْنَـا فِـي الْهُمُـومِ بُكَـاؤُهَـا
وَصِـرْنَـا نُـلاَقِـي النَّـائِبَـاتِ بِـأَوْجُـهٍ ... رِقَـاقِ الْحَـوَاشِـي كَـادَ يَقْطُـرُ مَـاؤُهَـا
إِذَا مَـا هَمَمْنَـا أَنْ نَبُـوحَ بِمَـا جَنَـتْ ... عَلَيْنَـا اللَّيَـالِـي لَـمْ يَـدَعْنَـا حَيَـاؤُهَـا

وأَشهدُ باللهِ إنَّهُ لَمِن صريحِ القولِ ، ونادرِ الشعرِ ، ومنقَّحِ الكلامِ .

ويُحكىٰ : أَنَّهُ لمَّا فرغَ فخرُ الدولَةِ بنُ بُويْهِ مِنَ القلعَةِ التي استحدثَها علىٰ جبلِ طبرَكَ . . نزلَ بها مرتاحاً ، فاشتهىٰ طرائِحَ لحمِ البقرِ ، فنُحِرَتْ واحدَةٌ مِنها بينَ يديهِ ، وطَفِقَ أَصحابُهُ يطبخونَ لَهُ مِن أَطائبِها ، وهوَ ينالُ مِنها ، ويأْكُلُ مِن عناقيدِ الكرمِ ، ويشرَبُ مِنَ الكؤُوسِ ، فلم يلبَثْ أَنْ لَوىٰ عليهِ جوفُهُ ، واتصلَ على الأَلَمِ صوتُهُ ، إلىٰ أَن جثَمَ عليهِ موتُهُ ، فقالَ أبو الفرجِ الساويُّ [في « قرى الضيف » ٣/٤٥٨] : [مِنَ الوافرِ]

هِـيَ الـدُّنْيَـا تَقُـولُ بِمِـلْءِ فِيهَـا ... حَـذَارِ حَـذَارِ مِـنْ بَطْشِـي وَفَتْكِـي
وَلاَ يَغْـرُرْكُـمُ حُسْـنُ ابْتِسَـامِـي ... فَقَـوْلِـي مُضْحِـكٌ ، وَالْفِعْـلُ مُبْكِـي
بِفَخْـرِ الـدَّوْلَـةِ اعْتَبِـرُوا فَـإِنِّـي ... أَخَـذْتُ الْمُلْـكَ مِنْـهُ بِسَيْـفِ هُلْـكِ
فَـأَمْسَـىٰ بَعْـدَ مَـا قَـرَعَ الْبَـرَايَـا ... أَسِيـرَ الْقَبْـرِ فِـي ضِيـقٍ وَضَنْـكِ

أُقَـدِّرُ أَنَّـهُ لَـوْ عَـادَ يَـوْمـاً ... إِلَـى الـدُّنْيَـا تَسَـرْبَـلَ ثَـوْبَ نُسْـكِ
دَعِـي يَـا نَفْـسُ فِكْـرَكِ فِـي مُلُـوكٍ ... مَضَـوْا وَعَلَـى الَّـذِي قَـدَّمْـتِ فَـابْكِـي
هِـيَ الـدُّنْيَـا كَمِثْـلِ الطِّفْـلِ بَيْنَـا ... يُقَهْقِـهُ إِذْ بَكَـىٰ مِـنْ بَعْـدِ ضِحْـكِ
أَلاَ يَـا قَـوْمَنَـا انْتَبِهُـوا فَـإِنَّـا ... نُحَـاسَـبُ فِـي الْقِيَـامَـةِ دُونَ شَـكِّ

ألا أَينَ أَربابُ الحصونِ ، والمالِ المصونِ ؟

أينَ مَن مَلَؤُوا الخزائِنَ ، وشَيَّدُوا المدائِنَ ، وراضوا الصِّعابَ ، وأَخضعوا الرقابَ ؟

لَقد أَسرهُم هاذِمُ اللذَّاتِ ، ومفرِّقُ الجماعاتِ ، فأَيَّموا[1] النسوانَ ، وأَيتموا الولدانَ ، ودَخلوا في خبرِ كانَ [قيل] :

[مِنَ البسيطِ]

أَمَـا سَمِعْـتَ بِـأَمْـلاَكٍ مَضَـوْا أَمَمـاً ... شُمِّ الأُنُوفِ بِرَوْضِ الْمُلْكِ قَدْ عَرَشُوا
إِنْ دُوفِعُـوا دَفَعُـوا أَوْ زُوحِمُـوا زَحَمُـوا ... أَوْ غُـولِبُـوا غَلَبُـوا أَوْ بُـوطِشُـوا بَطَشُـوا
جَـاءَتْهُـمْ وَجُنُـودُ اللهِ غَـالِبَـةٌ ... كَتَـائِـبُ لِلْمَنَـايَـا مَـا بِهَـا دَهَـشُ

وما أَحسنَ قولَ كثيِّرٍ أَو غيرِهِ [كما في « البيان والتبيين » ١/ ٤٧٧] :

[مِنَ الطَّويلِ]

وَنُحْـدِثُ رَوْعَـاتٍ لَـدَىٰ كُـلِّ فَـزْعَـةٍ ... وَنُسْـرِعُ نِسْيَـانـاً وَمَـا جَـاءَنَـا أَمْـنُ
كَـأَنَّـا ـ وَلاَ كُفْـرَانَ للهِ رَبِّنَـا ـ ... لَكَالْبُدْنِ ، لاَ تَدْرِي مَتَىٰ يَوْمُهَا الْبُدْنُ

وقالَ أَبو عبادَةَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٥٧٤] :

[مِنَ الكاملِ]

نَلْقَـى الْمَنُـونَ حَقَـائِقـاً وَكَـأَنَّنَـا ... مِـنْ غِـرَّةٍ نَلْقَـىٰ بِهِـنَّ شُكُـوكَـا[2]

وفي سياقٍ لِلسانِ الدينِ بنِ الخطيبِ ـ ما معناهُ إن أخطأْتُ لفظَهُ ـ [في « نفح الطيب » ٦/ ٣٢٤] : يا مشتغلاً بدارِهِ ، ورَمِّ جدارِهِ عَنْ إِسراعِهِ إِلى النجاةِ وبِدارِهِ ، يا مَن أَنذرَهُ شيبُ عذارِهِ ، وأثقلَهُ حمْلُ أَوزارِهِ ، يا مُعتَلِفاً ينتظِرُ هجومَ جزَّارِهِ ، يا مختلِساً يهابُ تفتيشَ ما تحتَ إِزارِهِ ، كأَنِّي بكَ قد أَوثقَكَ الشدُّ ، وجزرَ منْكَ المدُّ ، واليمينُ تنقبضُ ، والأُخرىٰ تُمَدُّ ، واللسانُ يَقولُ : يا لَيتَنا نُرَدُّ .

وقالَ أَبو العاليَةِ :

[مِنَ الكاملِ]

أَيْـنَ الأُولَـىٰ كَنَـزُوا الـذَّخَـائِـرَ وَابْتَنَـوْا ... تِلْـكَ الْمَصَـانِـعَ وَالْقُصُـورَ الْعَـالِيَـهْ ؟
دَرَجُـوا فَـأَصْبَحَـتِ الْمَنَـازِلُ مِنْهُـمُ ... عُطْـلاً وَأَصْبَحَـتِ الْمَسَـاكِـنُ خَـالِيَـهْ

وقالَ بعضُهُم :

[مِنَ الطَّويلِ]

مَضَـىٰ قَبْلَنَـا قَـوْمٌ رَجَـوْا أَنْ يُقَـوِّمُـوا ... بِـلاَ تَعَـبٍ عَيْشـاً فَلَـمْ يَتَقَـوَّمَـا

---

(١) الأَيِّمُ مِنَ النساءِ : من لا زوجَ لها ، بكراً كانت أم ثيباً .
(٢) الغِرَّةُ : الغفلةُ .



وقالَ آخرُ : [مِنَ السَّريعِ]

عِـشْ مُـوسِـراً فِـي النَّـاسِ أَوْ مُعْسِـراً   لاَ بُـدَّ فِـي الـدُّنْيَـا مِـنَ الْغَـمِّ
وَكُلَّمَـــا زَادَكَ مِـــنْ نِعْمَـــةٍ   زَادَ الَّـــذِي زَادَكَ فِـــي الْهَـــمِّ

وقالَ آخرُ : [مِنَ السَّريعِ]

أُفٍّ مِـــنَ الـــدُّنْيَـــا وَأَسْبَـــابِهَـــا   فَـــإِنَّهَـــا لِلْهَـــمِّ مَخْلُـــوقَـــهْ
هُمُـــومُهَـــا مَـــا تَنْقَضِـــي سَـــاعَـــةً   عَـــنْ مَلِـــكٍ فِيهَـــا وَلا سُـــوقَـــهْ

ويعجبُني في الموضوعِ رثاءُ أبي البقاءِ لـ(الأندلُسِ) ، وابنُ اللَّبَّانَةِ لِبَني عبَّادٍ ، وأَصلُهُ شعرُ عديِّ بنِ زيدٍ العباديِّ ، الذي يقولُ فيهِ يونسُ بنُ حبيبٍ النحويُّ [في « طبقات فحول الشعراء » ١/ ١٤١] : لو تمنَّيتُ أَن أَقولَ الشعرَ . لَما تمنَّيتُ أَنْ أَقولَ إلاَّ مثلَ قولِ عديِّ بنِ زيدٍ العباديِّ : [مِنَ الخفيفِ]

أَيُّهَـا الشَّـامِـتُ الْمُعَيِّـرُ بِـالـدَّهْـــرِ أَأَنْـتَ الْمُبَـرَّأُ الْمَـوْفُـورُ ؟
أَمْ لَـدَيْـكَ الْعَهْـدُ الْقَـدِيـمُ مِـنَ الأَيَّـــامِ بَـلْ أَنْـتَ جَـاهِـلٌ مَغْـرُورُ
مَـنْ رَأَيْـتَ الْمَنُـونَ جَـازَتْـهُ أَمْ مَـنْ   ذَا عَلَيْـهِ مِـنَ أَنْ يُضَـامَ خَفِيـرُ[1] ؟
أَيْـنَ كِسْـرَىٰ كِسْـرَى الْمُلُـوكِ أَنُـوشَـرْ   وَانَ بَـلْ أَيْـنَ قَبْلَـهُ سَـابُـورُ ؟
وَبَنُـو الأَصْفَـرِ الْكِـرَامُ مُلُـوكُ الـــرُّومِ لَـمْ يَبْـقَ مِنْهُـمُ مَـذْكُـورُ
وَأَخُـو الْحَضْـرِ إِذْ بَنَـاهُ وَإِذْ دِجْـــلَـةُ تُجْبَـىٰ إِلَيْـهِ وَالْخَـابُـورُ
شَـادَهُ مَـرْمَـراً وَجَلَّلَـهُ كِلْـــساً فَلِلطَّيْـرِ فِـي ذُرَاهُ وُكُـورُ[2]
لَـمْ يَهَبْـهُ رَيْـبُ الـزَّمَـانِ فَبَـادَ الْـــمُلْـكُ عَنْـهُ فَبَـابُـهُ مَهْجُـورُ
وَتَـذَكَّـرْ رَبَّ الْخَـوَرْنَـقِ إِذْ أَشْـــرَفَ يَـوْمـاً وَلِلْهُـدَىٰ تَـذْكِيـرُ[3]
سَـرَّهُ مُلْكُـهُ وَكَثْـرَةُ مَـا يَمْـــلِـكُ وَالْبَحْـرُ مُعْـرِضـاً وَالسَّـدِيـرُ[4]
فَـارْعَـوَىٰ قَلْبُـهُ فَقَـالَ وَمَـا غِبْـــطَـةُ حَـيٍّ إِلَـى الْمَمَـاتِ يَصِيـرُ
ثُـمَّ بَعْـدَ الْفَـلاَحِ وَالْمُلْـكِ وَالإِمَّـــةِ وَارَتْهُـمُ هُنَـاكَ الْقُبُـورُ[5]
ثُـمَّ صَـارُوا كَـأَنَّهُـمْ وَرَقٌ جَـفَّ   فَـأَلْـوَتْ بِـهِ الصَّبَـا وَالـدَّبُـورُ[6]

وقالَ الشعبيُّ : ما أَرىٰ لَنا ولِلدنيا مثلاً . . إلاَّ قولَ كثيِّرٍ [في « ديوانه » ٦٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَسِيئِـي بِنَـا أَوْ أَحْسِنِـي لاَ مَلُـومَـةً   لَـدَيْنَـا وَلاَ مَقْلِيَّـةً إِنْ تَقَلَّـتِ

---

(١) **الخفيرُ** : المجيرُ .

(٢) **المرمَرُ** : الرُّخامُ .

(٣) **الخورنقُ** : اسمُ قصرٍ في (العراقِ) ، فارسيٌّ مُعَرَّبٌ ، بناهُ النُّعمانُ الأكبرُ الذي يقالُ لهُ : الأعورُ ، وهوَ الذي لبسَ المسوحَ ، فساحَ في الأرضِ .

(٤) **البحرُ** : يراد به هنا الفراتُ . **السَّديرُ** : نهر بـ(الحيرةِ) .

(٥) **الإِمَّةُ** : الحالةُ .

(٦) **ألوَتْ به** : ذهبتْ بهِ . **الصَّبا** : ريحٌ ومهبُّها المستوي أن تهبَّ من مطلعِ الشمسِ إذا استوى الليلُ والنهارُ . **الدَّبُورُ** : هي الريحُ التي تقابلُ الصَّبا .

وقالَ أَبو العتاهيَةِ [في « ديوانه » ٣٧٣] : [مِنَ الخفيفِ]

كُلُّنَا يُكْثِرُ الْمَذَمَّةَ لِلدُّنْيَا وَكُلٌّ بِحُبِّهَا مَفْتُونُ

وقالَ أَبو نواسٍ [وهو لسليمان بن يزيد العدوي من قصيدة له شائعة ، كما في « روضة العقلاء » ٢٧٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

يَذُمُّونَ دُنْيَا لاَ يُرِيحُونَ دَرَّهَا وَلَمْ أَرَ كَالدُّنْيَا تُذَمُّ وَتُحْلَبُ

وقالَ سابقٌ البربريُّ [في « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » ١/ ٣٢٣] : [مِنَ البسيطِ]

النَّفْسُ تَكْلَفُ بِالدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّ السَّلاَمَةَ مِنْهَا تَرْكُ مَا فِيهَا

وقد سبقَ في شرحِ البيتِ الذي قبلَ ما نحنُ فيهِ قولُ الناظِمِ [في « العُكبريّ »] : [مِنَ الخفيفِ]

وَهِيَ مَعْشُوقَةٌ عَلَى الْغَدْرِ لاَ تَحْفَظُ عَهْداً وَلاَ تُتَمِّمُ وَصْلاَ

وقالَ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٣٤] : [مِنَ المتقاربِ]

تَفَانَى الرِّجَالُ عَلَىٰ حُبِّهَا وَمَا يَحْصُلُونَ عَلَىٰ طَائِلِ

وقالَ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٨] : [مِنَ الوافرِ]

وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيماً ؟! وَلَكِنْ لاَ سَبِيلَ إِلَى الْوِصَالِ

[تجمع الدنيا بإرادتك وتتركها رغم أنفك]

أمّا قولُ الناظِمِ : (كَنَزُوا الْكُنُوزَ فَمَا بَقِينَ) . . فمعناهُ : أَنَّها لَم تبقَ لَهُم ، ولَم تنفعْهُم ، وإلاَّ . . فَلا يزالُ كثيرٌ من دفائنِ السابقينَ مطموراً تحتَ الترابِ ، باقياً علىٰ حالِهِ حتَّى اليومِ ، ولا سيَّما في البلادِ التي لم تطأْها أَقدامُ الأَجانبِ ، كالأكثرِ من ذخائرِ ملوكِ حِمْيَرَ في (مأربَ) و(الهجَرِ) و(شَبْوَةَ)[1] ؛ بدليلِ ما يظهَرُ من نماذجِها كلَّما جرفَتِ السيولُ ، وقد قلتُ في سينيَّتِي ، أُخاطِبُ الديارَ ، لَمَّا كثُرَ ما رأَيتُ مِن اختلافِ رواةِ الأخبارِ [في « ديوانِ المؤلف » ٢٣٢] : [مِنَ الخفيفِ]

حَدِّثِينَا عَنِ التَّبَابِعِ إِذْ كُنْتِ عَلَىٰ عَهْدِهِمْ بِحُلَّةِ عُرْسِ[2]
وَلِمَنْ تُخَبِّئَنَّ مَا ادَّخَرُوهُ مِنْ كُنُوزٍ مُغَطَّيَاتٍ بِكَبْسِ[3] ؟
وَصِفِي كِنْدَةَ الْمُلُوكَ فَيَا رُبَّ كَرِيمٍ فِيهِمْ وَيَا رُبَّ جِبْسِ[4]
قَادَةُ الْحَرْبِ وَالْكَلاَمِ وَلَكِنْ لاَ يُبَالُونَ فِي الْمَلاَمِ بِغَمْسِ[5]

[مسألة أصولية حول الدنيا]

وبعدُ : فها هنا مسأَلةٌ مِن أُمَّهاتِ المسائلِ ، لولا ضيقُ الوقتِ ، وضعفُ المناسبَةِ للأَبحاثِ الأُصوليَّةِ . . لكانَ الواجبُ

---

(١) (مأرِبُ) و(هَجَرُ) و(شبوَةُ) : أَسماءُ أَماكِنَ في (اليمن) .

(٢) التبابعُ : ملوك (اليمنِ) ـ واحدُهم تُبَّع ـ وسمُّوا كذلكَ لأَنهم كان يتبعُ بعضهم بعضاً .

(٣) بكبسٍ : بترابٍ .

(٤) الجبسُ : اللئيمُ .

(٥) بغمسٍ : أي بغمسِ أنفسهم فيما يلامُ عليهِ .

أن نتوسَّعَ فيها كثيراً ، ولكنَّا نطلِقُ مِنَ العَنَانِ بقدرِ ما تحصُلُ بهِ الفائِدَةُ ، وينحلُّ منهُ الإشكالُ الذي أشَرْنا إليهِ أوائِلَ المجلسِ السادسِ ، وذلكَ أنَّهُ ما مِنْ نبيٍّ ، ولا حكيمٍ ، ولا شاعرٍ ، ولا خطيبٍ . . إلاَّ ذمَّ الدنيا ، واشتكىٰ مِن توالي آفاتِها ، وترادُفِ حسراتِها ، وتتابُعِ مُوجِعاتِها ؛ إذ لا لَذَّةَ فيها إلاَّ مصحوبَةٌ بأَلَمٍ ، ولا راحَةَ إلاَّ ممزوجَةٌ بنكَدٍ ، لَمْ تَصْفُ لِشَقيٍّ ولا تقيٍّ ، ولا مأمورٍ ولا أميرٍ ، ولا غنيٍّ ولا فقيرٍ ، ومعَ هـٰذا فدَهْمَاءُ النَّاسِ[1] مصفقونَ علىٰ حبِّها[2] ، والتكالُبِ عَليها ، ومِن ذلكَ نشأَ التخاصُمُ والتقاطُعُ ، فزادَ النكَدُ ، وكثُرَ التعبُ ، وتشوَّشَتِ الْحَياةُ ، وتكدَّرَ العيشُ ، وتضاعفَتِ الشُّرورُ والآلامُ ، والقليلُ مِنَ الصُّوفيَّةِ والفلاسفَةِ اطَّرَحوها جملةً ، وأَعرَضوا عَنها رأساً ، وليسَ هـٰذا في شيءٍ مِنَ الصَّوابِ ؛ إذ لو تأَثَّرَهُمُ الناسُ . . لأَفضىٰ إلى الخرابِ ، وانتهىٰ إلى الانقراضِ ، ولكنَّ الذكرَ الذي لا يأتيهِ الباطلُ مِن بينِ يديهِ ولا مِن خلفِهِ . . قامَ بحلِّ هـٰذهِ العقدَةِ ، وكشَفَ هـٰذا الإشكالَ ، فبيَّنَ في أَكثرِ الآياتِ مذامَّ الدنيا وحقارَتَها ، وقلَّةَ خطرِها ؛ كبحاً لِجماحِ الشهوَةِ المذمومِ ، وغضّاً لعنانِ الحِرْصِ الْممقوتِ ، ونبَّهَ علىٰ أن لا بُدَّ مِنها ، بَلْ أَلزمَ القيامَ بعمارتِها ، وأَوجَبَ مراعاةَ أَسبابِها في مثلِ قولِهِ : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص : ٧٧] . والأَصلُ في الأَمرِ الجازمِ الوجوبُ .

وقولِهِ : ﴿ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

وإنَّما أَطنبَ في الأَولِ ، واكتفىٰ بالإيجازِ في الثاني ؛ وُكُولاً إلى الطبعِ ، وإحالَةً على الداعيَةِ ، كما رتَّبَ الحدَّ علىٰ شربِ الخمرِ ، ولم يرتِّبْهُ علىٰ شربِ البولِ ، وهـٰذا كلُّهُ مِن بدائعِ القرآنِ ، الذي لا تفنىٰ عجائِبُهُ ، ولا تُطفأُ مصابيحُهُ ، ولا يخمُدُ برهانُهُ ، ولا تهدَمُ أَركانُهُ ، وقد نصُّوا في المتونِ علىٰ أَنَّ الحِرَفَ والصنائعَ ، وكلَّ ما يتمُّ بهِ المعاشُ . . معدودٌ من فروضِ الكفاياتِ ، والذي اعتمدَهُ ابنُ حجرٍ الهيتميُّ ، تبعاً لإمامِ الحرمينِ ، تفضيلُ فرضِ الكفايَةِ علىٰ فرضِ العينِ ، إلاَّ أَنَّ في « **التحفَةِ** » ما نصُّهُ : (تنبيهٌ : لا يحتاجُ في هـٰذهِ ـ والضميرُ عائدٌ إلى الحِرَفِ والصنائعِ وما يتمُّ بهِ أمرُ المعاشِ ـ لأَمْرِ الناسِ بِها ؛ لأَنَّ فِطرَهُم مجبولَةٌ عَلَيها ، ولكنْ لَو تمالَؤُوا علىٰ تركِ واحدَةٍ مِنها . . أَثِموا ، وقُوتِلُوا كما هُوَ قياسُ بقيَّةِ فروضِ الكفايَةِ) . انتهىٰ .

* * *

[قالَ أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٥] : [مِنَ الكامِلِ]

مِـنْ كُـلِّ مَـنْ ضَـاقَ الفَضَـاءُ بِجَيْشِـهِ	حَتَّـىٰ قَضَـىٰ ، فَحَـوَاهُ لَحْـدٌ ضَيِّـقُ

[شرح المطلع]

معناهُ ظاهرٌ ، وهُوَ مِن قولِ أَشجَعَ [في « ديوانِهِ » ١٩٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَصْبَـحَ فِـي لَحْـدٍ مِـنَ الأَرْضِ ضَيِّـقٍ ... وَكَـانَـتْ بِـهِ حَيّـاً تَضِيـقُ الصَّحَـاصِـحُ[3]

---

(١) دَهْمَاءُ الناسِ : الجماعةُ منهم .

(٢) مصفقونَ : مجتمعونَ .

(٣) الصحاصِحُ : الأَراضي المستويةُ .

وعمَّا قليلٍ يأْتي معَ ما يناسبُهُ في شرحِ قولِهِ [في « العُكبريِّ » ٢/ ٢٤٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وأَنَّـكَ فِـي ثَـوْبٍ وَصَـدْرُكَ فِيكُمَـا ... [عَلَىٰ أَنَّـهُ مِـنْ سَاحَـةِ الأَرْضِ أَوْسَـعُ]

ويتَّصِلُ بِهِ ما سبقَ أَوائِلَ المجلسِ عَنِ ابنِ العاصِ ، وعَنِ القَاضي الفاضلِ ، وغيرُ ذلكَ .

وللقاضي أَبي يعلىٰ في رثاءِ مخلِّصِ الدَّولَةِ ما نصُّهُ [كما في « وفيات الأعيان » ٥/ ٢٧٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

قَضَـى اللهُ أَنْ يَـرْدَى الأَمِيـرُ وَهَـٰذِهِ ... صَـوَافِنُـهُ مَـوْقُـورَةٌ وَصَـوَاهِلُـهْ

وَكُـلُّ فَتـىً كَـالْبَـرْقِ إِبْـرِيـقُ غِمْـدِهِ ... إِذَا شَـامَـهُ أَوْ كَـالـذُّبَـالَـةِ ذَابِلُـهْ

فَلَيْـتَ ظِبَـاهُ صَلَّـتِ الْيَـوْمَ خَلْفَـهُ ... فَظَلَّـتْ عَلَـىٰ غَيْـرِ الصِّيَـامِ صَـوَاهِلُـهْ

وهيَ من قصيدَةٍ شاعرَةٍ ، استوفاها ابنُ خَلِّكانَ [في « وفيَّاتِ الأَعيانِ » ٥/ ٢٧٠ـ٢٧٢] في ترجمةِ مخلِّصِ الدولَةِ ، واسمهُ مقلَّدُ بنُ نصرِ بنِ منقذٍ .

[مَلَك الموت وسيدنا داود عليهما الصلاة والسلام]

ويروىٰ [في « المستطرف » ٢/ ٥٧٤] : أَنَّ مَلَكَ الْمَوتِ دخلَ عَلَىٰ داوودَ ـ عليهِ السلامُ ـ فقالَ لهُ : مَن أَنتَ ؟ قالَ : أَنا الذي لا يهابُ الملوكَ ، ولا تَمنَعُ منهُ القصورُ ، ولا يقبَلُ الرِّشَا . قالَ : إِذَنْ أَنتَ ملكُ الموتِ ، ولكنِّي لَم أَستعدَّ بعدُ ، فقالَ لهُ : يا داوودُ ، أَينَ جارُكَ فلانٌ ؟ أَينَ قريبُكَ فلانٌ ؟ قالَ : ماتا ، قالَ : أَما كانَ لكَ فيهِم عبرَةٌ ؟ ثمَّ قبَضَهُ .

وفيهِ : أَنَّ الأَنبياءَ لاَ يُقبَضونَ مَا لَمْ يُخيَّروا ، ففيهِ إِشكالٌ ، وقد وضَّحنا ما كانَ من نوعِهِ في صكَّةِ موسىٰ عليهِ السلامُ لملَكِ الموتِ ، من كتابِنا « **بَلابِلُ التَّغْرِيْدِ** » .

[الملكُ ومَلَك الموت]

وذكرَ الغزاليُّ : أَنَّ بعضَ الملوكِ خرجَ علىٰ قومِهِ في زينتِهِ ، وركبَ معَهُ عساكرُهُ ، فنفَخَ الشيطانُ في أَنفِهِ ، حتَّىٰ كادَ أَن يطيرَ كِبراً وتعاظُماً ، وبينا هُوَ في موكبِهِ . . إِذ أَخذَ بلجامِهِ رجلٌ عليهِ آثارُ الفقْرِ والضعْفِ ، فاستشاطَ غضباً ، وقالَ : خلِّ اللجامَ ، فقالَ لهُ : لا بدَّ من مسارَّتِكَ ، فانزعَجَ وانكَسَرَ ، ولَمَّا علمَ أَنَّهُ ملكُ الموتِ . . استخذىٰ ، وخارَت قواهُ ، واستمهَلَهُ فلم يمهِلْهُ ، بل أَخذَهُ علىٰ هيئَتِهِ .

[لا تدري أين تكون المنية]

ويروىٰ [في « المستطرف » ٢/ ٥٧٤] : أَنَّهُ كانَ لحسَّانَ ابنٌ ، يطعمُهُ الزُّبْدَ بالعَسَلِ ، فشرَقَ وماتَ ، فقالَ : [مِنَ البسيطِ]

اِعْمَـلْ وَأَنْـتَ صَحِيـحٌ مُطْلَـقٌ فَـرِحٌ ... مَـا دُمْـتَ وَيْحَـكَ يَـا مَغْـرُورُ فِـي مَهَـلِ

يَـرْجُـو الْحَيَـاةَ صَحِيـحٌ رُبَّمَـا كَمَنَـتْ ... لَـهُ الْمَنِيَّـةُ بَيْـنَ الـزُّبْـدِ وَالْعَسَـلِ

[أبو دلف يتزود لموته]

ويروىٰ [في « المستطرف » ٢/ ٥٧٣] : أَنَّ أَبا دلفٍ العجليَّ ـ الذي سبقَ ذكرُهُ غيرَ مرَّةٍ ـ قدمَ عليهِ في علَّتِهِ عشرَةٌ مِن آلِ عليٍّ ، فحُجبوا مدَّةً ، حتَّىٰ رأَىٰ رؤْيا فأَذِنَ لَهم ، فقالَ لَهُ أَحدُهم : نحنُ مِن أَهلِ بيتِ رسولِ اللهِ ، وقد حطَّمَتْنا المصائِبُ ، وأَجْحَفَتْ بِنا النوائِبُ ، فإِنْ رأَيتَ أَن تجبرَ كسيراً ، وتغنيَ فقيراً . . فافعَلْ ، فقالَ لخادِمِهِ : أَجلسني ،

وأَقبلَ يلاطفُهم ، ويعتذِرُ إليهم ، وقالَ : لِيَكتُبْ كلٌّ مِنكم بيدِهِ أَنَّهُ قبضَ مِنِّي أَلفَ دينارٍ ، ثمَّ أَعطاهُم ذلكَ ، وحمَّلَهم ، وكساهُم ، وزوَّدَهم ، ودفعَ لكلِّ واحدٍ أَلفَ درهمٍ[1] ؛ حتَّىٰ يصِلوا بالدنانيرِ كاملةً إلىٰ أهاليهِم ، ثمَّ قالَ لخادِمِهِ : إذا أَنا مِتُّ . . فاجعَلْ هـٰذهِ الرقاعَ في كَفَني ؛ لأَلقىٰ بِها محمَّداً صلى الله عليه وسلم .

ومعَ هـٰذا فقد رُؤِيَ في دارٍ ضيِّقَةٍ موحشَةٍ ، فقيلَ لَهُ : ما حالُكَ ؟ فأَنشدَ [الأبيات في « نفح الطيب » ٦/ ٣٢٦] : [مِنَ الوافرِ]

وَلَـــوْ أَنَّـــا إِذَا مِتْنَـــا تُـــرِكْنَـــا ... لَكَـــانَ الْمَـــوْتُ رَاحَـــةَ كُـــلِّ حَـــيِّ

وَلَكِنَّـــا إِذَا مِتْنَـــا بُعِثْنَـــا ... وَنُسْـــأَلُ بَعْـــدَهَـــا عَـــنْ كُـــلِّ شَـــيِّ

[تموت ولا ينفعك إلا عملك]

ويذكرُ : أَنَّهُ قدمَ (الكوفةَ) أَميرٌ ، لم يبقَ صغيرٌ ولا كبيرٌ إلاَّ خرجَ لمقابلتِهِ ، ومشاهدَةِ موكبِهِ يومَ دخولِهِ ، فطُعِنَ بعدَ أَيَّامٍ ، ومعَ دفنِهِ أَقبلَ ثلاثةُ نفرٍ لا رابعَ لَهم ، يحملونَ جنازَةَ فقيرٍ ، دفَنوها علىٰ مقربَةٍ منهُ ، فما هِيَ إلاَّ أَيامٌ قليلَةٌ . . حتَّىٰ لَم يعُد أَحدٌ يميِّزُ ما بينَ القبرينِ .

وزهدَ بعضُ أَبناءِ الملوكِ فيما عليهِ والدُهُ ، ولزِمَ المقابِرَ ، فقيلَ لَهُ في ذلكَ ، فقالَ : إِنَّ لي زمناً أُريدُ أَن أُفرِّقَ بينَ عظامِ الفقراءِ والملوكِ فلم أَقدرْ .

وفي « **النهج** » [٣٥٨] : وما أَصنعُ بفَدَكَ[2] وغيرِ فَدَكَ ، والنفْسُ مظانُّها فِي غدٍ جَدَثٌ ، تنقطِعُ في ظلمتِهِ آثارُها ، وتغيبُ أَخبارُها ، وحفرةٌ لو زيدَ في فسحتِها ، وأَوسَعَتْ يَدَا حافِرِها . . لأَضغطَها الحجَرُ والمدَرُ ، وسدَّ فُرَجَها الترابُ المتراكِمُ ، وإِنَّما هيَ نَفْسي أُروِّضُها بالتقوىٰ ؛ حتَّىٰ تأْتيَ آمنةً يومَ الفَزعِ الأَكبرِ ، أو ما يقربُ مِن هـٰذا .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٥] : [مِنَ الكاملِ]

خُـــرْسٌ إِذَا نُـــودُوا كَـــأَنْ لَـــمْ يَعْلَمُـــوا ... أَنَّ الْكَـــلاَمَ لَهُـــمْ حَـــلاَلٌ مُطْلَـــقُ

[الميت يسمع . . ولكنه لا يستطيع الكلام]

معناهُ ظاهرٌ ، والغالبُ أَنَّ الأَخرسَ لا يكونُ إلاَّ أَصمَّ ، ولكنَّ الميْتَ بخلافِ ذلكَ ، ففي « **الصحيحِ** » : أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم قامَ علىٰ قتلىٰ قريشٍ في القليبِ يناديهِمْ بأَسمائِهِم ، فقالَ لَهُ عمرُ : ما تخاطِبُ مِن أَقوامٍ قد جَيَّفُوا ، قَالَ : « **والَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْجَوابَ** »[3] .

---

(١) إضافةً إلى الألف دينار .

(٢) فَدَك : اسم مكان قريب من خيبر ، تركه صلى الله عليه وسلم ولم يقسمه أبو بكر بين ورثته ، وأبلغهم قوله صلى الله عليه وسلم : « لا نورث ما تركناه صدقة » و« نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » رواه بألفاظ متعددة عدد من الصحابة . انظر البخاري (٤٠٣٣) و(٥٦٥٨) و(٦٧٢٨) و« الإحسان » (٦٦٠٧) و(٦٦٠٨) و(٦٦٠٩) وإلىٰ (٦٦١٢) .

(٣) أخرجه عن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه البخاري (٣٩٧٦) في المغازي ، ومسلم (٢٨٧٥) في الجنة . وعن أنس رضي الله عنه عند مسلم (٢٨٧٣) و(٢٨٧٤) .



وقالَ ابنُ عبدِ البَرِّ : ثبتَ عَنِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قالَ : « **مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُرُّ عَلَىٰ قَبْرِ أَخِيهِ ، كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنيا ، فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ . . وَإِلاَّ رَدَّ اللهُ عَلَيهِ رُوحَهُ حَتَّىٰ يَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلاَمَ** »(١) .

وثبتَ عنهُ : أَنَّ الميْتَ يسمَعُ قرعَ نعالِ المشيعينَ إِذَا انصرَفوا عنهُ(٢) .

وقالَ : « **مَا مِنْ رَجُلٍ يَزُورُ قَبْرَ أَخِيهِ ، وَيَجْلِسُ عِنْدَهُ . . إِلاَّ اسْتَأْنَسَ بِهِ حَتَّىٰ يَقُومَ** »(٣) .

وفي المسألَةِ الأُولىٰ مِن كتابِ « **الروح** » للعلاَّمَةِ ابنِ القيِّمِ . . ما لا يُحصىٰ مِن ذلكَ ، وشيءٌ مِن ذلكَ لا يعارِضُ أمثالَ قولِهِ تعالَىٰ : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ [النمل : ٨٠] ؛ لأَنَّ المرادَ مِنَ الآيَةِ أَنَّ أمواتَ القلوبِ لا يسمعونَ سماعَ الاهتداءِ ، ولا ينتفعونَ بالتذكيرِ .

وقد رويَ عَنِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : أَنَّهُ لَمَّا دفنَ وَلدَهُ إبراهيمَ . . وَقَفَ عَلَىٰ قَبْرِهِ وَقَالَ : « **يَا بُنَيَّ ، الْقَلْبُ يَحْزَنُ ، وَالْعَيْنُ تَدْمَعُ ، وَلاَ نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ ، وَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، يَا بُنَيَّ : قُلْ : اللهُ رَبِّي ، وَالإِسْلاَمُ دِينِي ، وَرَسُولُ اللهِ أَبِي** »(٤) ، فبكتِ الصحابَةُ ، وبكىٰ عمرُ بنُ الخطَّابِ بكاءً ارتفعَ لهُ صوتُهُ ، فالتفتَ إليهِ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقالَ : « **ما يبكيكَ يا عمرُ ؟** » فقالَ : يا رسولَ اللهِ ، هـٰذا ولدُكَ ، وما بلغَ الحُلُمَ ، ولا جرىٰ عليهِ القلَمُ ، فما حالُ من ماتَ وليسَ لَهُ ملقِّنٌ مثلَكَ يلقِّنُهُ التوحيدَ ؟ فنزلَ علىٰ إِثْرِ ذلكَ قولُهُ تعالَىٰ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

وفيهِ دليلٌ علىٰ سؤَالِ الصبيانِ ، وهُوَ أَحدُ قولينِ ، اختارَ النوويُّ في « **الروضَةِ** » و« **شَرْحِ الْمُهَذَّبِ** » الثاني .

وعبارَةُ « **التحفَةِ** » لابنِ حجرٍ : ويستحبُّ تلقينُ بالغٍ عاقلٍ ، أَو مجنونٍ سبقَ لَهُ تكليفٌ ، ولَو شهيداً ، كَما اقتضاهُ إِطلاقُهم بعدَ تمامِ الدفنِ ؛ لخبرٍ فيهِ ، وضَعْفُهُ اعتُضِدَ بشواهِدَ علىٰ أَنَّهُ مِنَ الفضائِلِ(٥) ، فاندفعَ قولُ ابنِ عبدِ السلامِ : إِنَّهُ بدعَةٌ . انتهىٰ .

[قبر المعتمد بن عباد قبلة لبعض الشعراء]

وذكرَ ابنُ خَلِّكانَ [« وفيَاتُ الأَعيانِ » ٥/٣٧] وغيرُهُ : أَنَّهُ اجتمَعَ نفرٌ عندَ قبرِ المعتمدِ بنِ عبادٍ ، مِنَ الشعراءِ الذينَ كانوا يقصدونَهُ بالمدائحِ ، فيجزِلُ لهمُ المَنائحَ ، فرثَوْهُ بقصائِدَ أَنشدوها عندَ قبرِهِ ، من أَحسنِها قولُ بعضِهِم [وهو أبو بحرٍ عبدُ الصمد] : [مِنَ الكاملِ]

مَلِكَ الْمُلُوكِ أَسَامِعٌ فَأُنَادِي ... أَمْ قَدْ عَدَتْكَ عَنِ السَّمَاعِ عَوَادِي ؟

---

(١) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما في « التمهيد » ، والشوكاني في « نيل الأوطار » (٣/٢) ، ونحوه في « كنز العمال » عن أبي هريرة رضي الله عنه (٤٢٦٠١) و(٤٢٦٠٢) وعزاه إلىٰ أبي الشيخ والديلمي وتمام والخطيب وابن عساكر وابن النجار .

(٢) وذلكَ في الحديثِ الذي أخرجه عن أنس رضي الله عنه البخاريُّ (١٢٧٣) في الجنائز ، وبنحوه : مسلم (٢٨٧٠) في الجنة قال : « الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ . . أَتَاهُ مَلَكَانِ فَأَقْعَدَاهُ ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَـٰذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ؟ فَيَقُولُ : أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، فَيُقَالُ : انْظُرْ إِلَىٰ مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَداً مِنَ الْجَنَّةِ » .

(٣) أورده عن عائشة رضي الله عنها العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (٤/٤٧٥) : أخرجه ابن أبي الدنيا في « القبور » وقال : فيه عبد الله بن سمعان لم أقف علىٰ حاله .

(٤) أخرج عن أنس رضي الله عنه نحوه البخاري (١٣٠٣) .

(٥) أخرجه عن أبي أمامة رضي الله عنه الطبراني في « الدعاء » (١٢١٤) وفي « الكبير » (٨/٢٩٨) وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٣/٤٥) وقال : في إسناده جماعة لم أعرفهم ، وقال ابن القيم : لا يصح رفعه ، وقال النواوي في « الأذكار » (ص/٢٧٤) : ليس بالقائم إسناده ، ثم قال : ولكن اعتضد بشواهد وبعمل أهل الشام به قديماً .



لَمَّـا نُقِلْـتَ عَـنِ الْقُصُـورِ وَلَـمْ تَكُـنْ فِيهَـا كَمَـا قَـدْ كُنْـتَ فِـي الأَعْيَـادِ
أَقْبَلْـتُ نَحْـوَكَ فِـي الثَّـرىٰ لَـكَ خَاضِعـاً وَجَعَلْـتُ قَبْـرَكَ قِبْلَـةَ الإِنْشَـادِ

ولمَّا فرغَ مِن إنشادِها . . قبَّلَ الثرىٰ ، ومرَّغَ جسمَهُ ، وعفَّرَ خدَّهُ ، وبكىٰ وأبكىٰ مَن حضرَ ، والشاهدُ في قولِهِ : (أَسَامِعٌ فَأُنَادِي) .

[مسألة فقهية حول البرزخ]

وأَمَّا قولُ الناظِمِ : (**مُطْلَقُ**) . . فقالَ قومٌ إنَّهُ حشوٌ لاَ حاجَةَ إليهِ إلاَّ اجتلابُ القافيَةِ ، علىٰ أَنَّهُ يمكنُ أَن تتأَوَّلَ لَهُ بما ليسَ في حسابِهِ ، وذلكَ أَنَّ الكلامَ بعدَ الموتِ لو قدروا عليهِ . . لكانَ حلالاً مطلقاً ؛ لارتفاعِ التكليفِ ، فلا حرمَةَ فيهِ إذَنْ قطُّ ، بخلافِهِ أَيَّامَ الحياةِ . . فإنَّ منهُ الحلالَ ، ومنهُ الحرامَ ، وهـٰذا إنَّما يتمُّ على القولِ بأَنْ لا تكليفَ في البرزَخِ ، وهو ما يشملُهُ إطلاقُهم .

وزعمَ العلامَةُ ابنُ القيِّمِ أَنَّ البرزَخَ دارُ تكليفٍ ، وأَنَّهُ لا يترفعُ بالموتِ ، ولوِ ارتفعَ . . لم يكُن للسؤَالِ حاجَةٌ ، وقد يجابُ عنهُ : بأَنَّ حكمةَ السؤَالِ أَنْ يظهَرَ بعدَ الموتِ عنوانُ ما كانَ عليهِ الإنسانُ في أَيَّامِ الحياةِ ؛ لأَنَّ اللهَ جلَّ شأْنُهُ أَجرىٰ أَمرَ العبادِ على المتعارَفِ بينَهم في دارِ الدنيا ، وإلاَّ . . فأَيُّ حاجَةٍ إلى المحاسَبَةِ والمراقَبَةِ ، ووزنِ الأَعمالِ والصحائفِ ؟ معَ أَنَّهُ أَعلمُ بكلِّ شيْءٍ : ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ٥ـ٦] .

ويمكنُ الجوابُ ـ أَيضاً ـ عمَّا وردَ من عبادَةِ أَهلِ الجنَّةِ ، وصلاةِ الأَنبياءِ في قبورِهِم ، وما أَشبهَ ذلكَ . . بأَنَّهُ لا يلزمُ منْهُ التكليفُ ؛ لظهورِ أَنَّهُ مجردُ تعبُّدٍ ، أَو خالصُ تلذُّذٍ ؛ بدليلِ ما أَخرجَهُ مسلمٌ [في (الجنة وصفة نعيمها) (٢٨٣٥)] : أَنَّهُم « **يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ** » وقولِ الفقهاءِ : أَنَّ سجودَ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم يومَ القيامَةِ . . كانَ بطهارَةِ غسلِ الموتِ . . لا يلزمُهُ القولُ بالتكليفِ ؛ لأَنَّنا إنَّما نمنعُ منْهُ ما يترتَّبُ عليهِ العقابُ .

والأَسلَمُ : تفويضُ العلمِ إلى اللهِ جلَّ شأْنُهُ ، ما لم يَرِدِ النصُّ الصريحُ ، وقدِ استشكَلَ ابنُ الفاكهانيِّ المالكيُّ حديثَ الترمذيِّ : « **مَا مِنْ أَحَدٍ سَلَّمَ عَلَيَّ . . إِلاَّ رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّىٰ أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلامَ** »(1) ، معَ استحالَةِ خلوِّ الوجودِ مِن مسلِّمٍ عليهِ في ليلٍ أَو نهارٍ ، وعدمِ السَّآمَةِ معَ ديمومَةِ حياتِهِ . ثمَّ أَجابَ : بأَنَّ الروحَ مَجازٌ عَنِ النطقِ ، واستبعدَهُ الإمامُ السيوطيُّ ، وقالَ : إنَّه مدفوعٌ بالنقلِ والعقلِ .

أَمَّا النقلُ : فالأَخبارُ الواردَةُ عَن أَحوالِ الأَنبياءِ في البرزَخِ مصرِّحَةٌ بأَنَّهم ينطقونَ ، كيف شاؤوا ، بَل والشهداءُ وسائِرُ المؤمنينَ كذلِكَ ، إلاَّ مَن ماتَ مِن غيرِ وصيَّةٍ ، فقد أَخرجَ أَبو الشيخِ في كتابِ (**الوصايا**) : « **مَنْ لَمْ يُوصِ . . لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فِي الْكَلامِ مَعَ الْمَوْتَىٰ** » ، قِيلَ : يا رسولَ اللهِ ، وهَل تتكلَّمُ الموتىٰ ؟ قالَ : « **نَعَمْ ، وَيَتَزَاوَرُونَ** »(2) .

وأَمَّا العقلُ : فلأَنَّ الحبسَ عَنِ النطقِ في بعضِ الأَوقاتِ نوعُ حصرٍ وتعذيبٍ ، ولهـٰذا عُذِّبَ بهِ تاركُ الوصيَّةِ ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم مُنزَّهٌ عن ذلكَ ، ولا يلحقُهُ حصرٌ بعدَ وفاتِهِ أَصلاً بوجهٍ مِنَ الوجوهِ ، وأَجابَ عَنِ الحديثِ بأَجوبَةٍ

---

(1) بل أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أبو داوود (٢٠٤١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ٢٤٥) قال عنه النواوي في « المجموع » (٨/ ٢٠٠) : رواه أبو داوود بإسناد صحيح .

(2) أورده عن قيس بن وابصة رضي الله عنه الهندي في « كنز العمال » (٤٦٠٨٠) و(٤٦٠٨٦) وعزاه إلىٰ أبي الشيخ في « الوصايا » .



كبيرة ، أقواها عندهُ : أنَّ المعنىٰ ما مِنْ أحدٍ سلَّم عليَّ . . إلاَّ قد ردَّ اللهُ عليَّ روحي قبلَ ذلكَ فأردَّ عليهِ ، وإنَّما جاءَ الإشكالُ من ظنِّ أنَّ جملةَ (رَدَّ اللهُ عَلَيَّ) بمعنى الحالِ أوِ الاستقبالِ ، وظنِّ أنَّ (حتَّىٰ) تعليليَّةٌ ، وليسَ كذلكَ ، وبهـٰذا يندفعُ مِن أصلِهِ الإشكالُ ، ويتأكَّدُ هـٰذا بورودِ الحديثِ عندَ البيهقيِّ في كتابِ « حياةِ الأنبياءِ » [ص/١٣] بلفظِ : « إلاَّ وقد رَدَّ اللهُ عليَّ رُوحِي »[1] فصرَّحَ فيهِ بلفظِ : « وَقَدْ » ، فحمدْتُ اللهَ كثيراً . انتهىٰ كلامُهُ بلقطٍ واختصارٍ .

[الموت . . آه من الموت كم فعل الأعاجيب]

وبعدُ : فطالَما أخرسَتِ الْمَنايا مِن فصيحِ لسانٍ ، وأميرِ بيانٍ ، وغزيرِ بدائعَ ، وكثيرِ روائعَ : [مِنَ البسيطِ]

وَذِي بَيَــانٍ إِذَا مَــا قَــالَ أَوْ خَطَبَــا ... يَــأْتِـي بِسِحْـرٍ يَـزِيـنُ الْقَـوْلَ وَالأَدَبَـا

يَــأْتِـي بِسَهْـلٍ مِـنَ الأَلْفَـاظِ مُمْتَنِـعٍ ... جَـزْلٍ يُصِيـبُ الْمَعَـانِـي آيَـةً عَجَبَـا

رَمَتْـهُ هَـٰذِي الْمَنَـايَـا وَهْـيَ صَـائِبَـةٌ ... سَهْمـاً فَمَـا هُـوَ إِلاَّ أَنْ رَمَـتْ فَكَبَـا

فَـأَخْـرَسَتْـهُ فَمَـا يُبْـدِي بِضَـاحِكَـةٍ ... وَلاَ يَـرُدُّ جَـوَابـاً هَــانَ أَوْ صَعُبَـا

فالموتُ أمرٌ عظيمٌ ، وخَطبٌ جسيمٌ ، وشيءٌ مهولٌ ، لَولا كثرَةُ الأَعراضِ والذُّهولُ ، ولئِنْ سكتَ الميْتُ بجوارِحِهِ . . فقد نطَقَ حالُهُ بعظيمِ جوائِحِهِ ، فقد جاءَ عَن أميرِ المؤمنينَ أنَّهُ قالَ بعدَما طُعِنَ [كما في « نهج البلاغة » ١٦٨ـ١٦٩] : إنَّما كنتُ لكُم جاراً ، جاورَكم بدَني أيَّاماً ، وستُعقِبون منِّي جثَّةً خلاءَ ، ساكنةً بعدَ حراكٍ ، صامتةً بعدَ نطوقٍ ، فليعِظْكُم هُدوِّي ، وسكونُ أطرافي ، وخفوتُ إطراقي ؛ فإنَّهُ أوعظُ للمعتبرينَ مِن المنطقِ البليغِ ، والقولِ المسموعِ ، وداعي لَكُم وداعُ امرىءٍ مُرصَدٍ لِلتَّلاقي ، غداً ترونَ أيَّامي ، ويكشف لَكُم عن سرائِري ، وتعرفوني إذا خَلا مَكاني ، وقامَ غَيري مَقامي .

وقالَ أبو العتاهيَةِ ، فيما يناسِبُ شِقَّ كلامِ الإمامِ الأوَّلِ ، يرثي عليَّ بنَ ثابتٍ [في « ديوانهِ » ٤٤٢] : [مِنَ الوافرِ]

بَكَيْتُـكَ يَـا أُخَـيَّ بِـدَمْـعِ عَيْنِـي ... فَلَـمْ يُغْـنِ الْبُكَـاءُ عَلَيْـكَ شَيَّـا

طَـوَتْـكَ خُطُـوبُ دَهْـرِكَ بَعْـدَ نَشْـرٍ ... كَـذَاكَ خُطُـوبُـهُ نَشْـراً وَطَيَّـا

وَلَـوْ نَشَـرَتْ قُـوَاكَ لِـيَ الْمَنَـايَـا ... شَكَـوْتُ إِلَيْـكَ مَـا صَنَعَـتْ إِلَيَّـا

وَكَـانَـتْ فِـي حَيَـاتِـكَ لِـي عِظَـاتٌ ... وَأَنْـتَ الْيَـوْمَ أَوْعَـظُ مِنْـكَ حَيَّـا

---

(١) قال محققه محمد بن محمد الخانجي البوسنوي : حديث أبي هريرة أخرجه أحمد وأبو داوود والمصنف في كتابه « شعب الإيمان » وكتابه « الدعوات الكبير » وفي الحديث إشكال : وهو أن ظاهرهُ مفارقة روح النبي صلى الله عليه وسلم لبدنه الشريف في بعض الأوقات وهو مخالف للأحاديث الدالة علىٰ حياة الأنبياء ، وقد أجاب العلماء عن هـٰذا بأجوبة كثيرة فأجاب السيوطي في كتابه « إنباه الأذكياء » بخمسة عشر جواباً يراجعها من شاء . ومال البيهقي إلىٰ أن قوله صلى الله عليه وسلم « ردَّ الله إليَّ روحي » جملة حالية يقدَّر فيها قد وقاعدة العربية : أن جملة الحال إذا وقعت فعلاً ماضياً قدرت فيها قد كقوله تعالىٰ : ﴿ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ أي : وقد حصرت ، ويبقى الإشكال في حتىٰ لأن الظاهر أنها للتعليل ، فأجاب السيوطي أنها لمجرد العطف فصار تقدير الحديث : ما من أحد يسلم علي إلا قد ردَّ الله علي روحي قبل ذلك ، وأرد عليه ، وأجاب الشهاب الخفاجي بأن الأنبياء والشهداء أحياء ، وحياة الأنبياء أقوىٰ ، وإذا لم يسلط عليهم الأرض فهم كالنائمين ، والنائم لا يسمع ولا ينطق حتىٰ يتنبه ؛ لحديث : أنه صلى الله عليه وسلم إذا صلىٰ عليه يستيقظ من النوم ، فالمراد برد الروح الإرسال الذي في قوله تعالىٰ : ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ الآية ، لأن روحه صلى الله عليه وسلم تقبض قبض الممات ثم تنفخ وتعاد كموت الدنيا وحياتها . اهـ .

ولي في المعنىٰ [في « ديوان المؤلف » ١١٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَغَرَّكَ مِنْ هَـٰذِي الْقُبُورِ صُمُوتُهَا ... وَأَبْلَغُ وَعْظٍ لَوْ عَلِمْتَ سُكُوتُهَا
تَقُوتُكَ هَـٰذِي الأَرْضُ مِنْ فَضْلِ قُوتِهَا ... لأَنَّكَ مَهْمَا طَالَ عُمْرُكَ قُوتُهَا

وتعلَّقَ بآخرِ كلامِ الإِمامِ ، أَبو تمَّامٍ في قولِهِ [في « ديوانِهِ » ٢/ ٢٨٤] : [مِنَ السَّريعِ]

رَاحَتْ وُفُودُ الأَرْضِ عَنْ قَبْرِهِ ... فَارِغَةَ الأَيْدِي مِلاَءَ الْقُلُوبْ
قَدْ عَلِمَتْ مَا رُزِئَتْ إِنَّمَا ... يُعْرَفُ قَدْرُ الشَّمْسِ بَعْدَ الْغُرُوبْ

والناظِمُ في قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٢] : [مِنَ الكاملِ]

وَنَذُمُّهُمْ وَبِهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُمْ ... وَبِضِدِّهَا تَتَمَيَّزُ الأَشْيَاءُ

وأَبو فراسٍ في قولِهِ [في « ديوانه » ١٤٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

سَيَفْقِدُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ ... وَفِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ الْبَدْرُ

والمعريُّ في قولِهِ [في « سقطِ الزندِ » ٧١] : [مِنَ السَّريعِ]

وَالشَّيْءُ لاَ يُعْرَفُ مِقْدَارُهُ ... إِلاَّ إِذَا قِيسَ إِلَىٰ ضِدِّهِ

ويعجبني في سكوتِ الأَمواتِ ، وانقطاعِ أَخبارِهِم . . قولُ التهاميِّ [في « ديوانه » ٤٦٨] : [مِنَ الكاملِ]

وَالشَّرْقُ نَحْوَ الْغَرْبِ أَقْرَبُ شُقَّةً ... مِنْ بَعْدِ هَـٰذِي الْخَمْسَةِ الأَشْبَارِ[1]

وقولُ المعريِّ [في « سقطِ الزندِ » ٦٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا غُيِّبَ الْمَرْءُ اسْتَسَرَّ حَدِيثُهُ ... وَلَمْ تُخْبِرِ الأَفْكَارُ عَنْهُ بِمَا يُغْنِي
تَضِلُّ الْعُقُولُ الْهِبْرِزِيَّاتُ رُشْدَهَا ... وَلَمْ يَسْلَمِ الرَّأْيُ السَّدِيدُ مِنَ الأَفْنِ[2]

وهوَ ممَّا قد ذكرناهُ عَن قيسٍ ، أَو عَنِ المجنونِ ، في قولِهِ : [مِنَ الطَّويلِ]

دَنَتْ بِأُنَاسٍ عَنْ تَنَاءٍ زِيَارَةٌ ... وَشَطَّ بِلَيْلَىٰ عَنْ دُنُوٍّ مَزَارُهَا
وَإِنَّ مُقِيمَاتٍ بِمُنْقَطَعِ اللِّوَىٰ ... لأَقْرَبُ مِنْ لَيْلَىٰ وَهَاتِيكَ دَارُهَا

وقلتُ في بعضِ المراثيِّ [في « ديوان المؤلف » ق ٧٠] : [مِنَ الكاملِ]

سَفَرٌ عَلَىٰ قُرْبِ الْمَسَافَةِ مَا لَهُ ... خَبَرٌ وَلَٰكِنَّ السُّكُوتَ كَلاَمُ

ويؤثَرُ عنِ ابنِ الخطَّابِ ـ أَو عَن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ـ كلامٌ طويلٌ عمَّا يقولُهُ الميْتُ بعدَ أَيَّامٍ مِن دفنِهِ ، يُطيشُ العقولَ ، ويزعِجُ القلوبَ .

---

(١) الشُّقَّةُ ـ بالضمِّ والفتحِ ـ : الناحيةُ يقصدُها المسافرُ .

(٢) الهبزريَّاتُ : العقولُ القويَّةُ المحكمةُ ، جمعُ هبزريٍّ ، وهو : الرجلُ القويُّ . الأَفْنُ : ضعفُ الرأيِ ، والمأفونُ الذي لا عقلَ لهُ .

وما أَحسنَ قولَ صلةَ بنِ أَشيَمَ لأَخيهِ وقد دفنَهُ [كما في « جمهرة خطب العرب » ٢/٤٩٩] : [مِنَ الطَّويل]

فَـإِنْ تَنْجُ مِنْهَـا تَنْجُ مِـنْ ذِي عَظِيمَـةٍ وَإِلاَّ فَـإِنِّـي لاَ إِخَـالُـكَ نَـاجِيَـا

وقولَ الآخرِ [كما في « نفح الطيب » ٤/٢٥٩] : [مِنَ الرَّمَلِ]

كَـمْ أُنَـاسٍ فِـي نَعِيـمٍ عُمِّـرُوا فِـي ذُرَىٰ مُلْـكٍ تَعَـالَـىٰ وَسَبَـقْ

سَكَـتَ الـدَّهْـرُ زَمَـانـاً عَنْهُـمُ ثُـمَّ أَبْكَـاهُـمْ دَمـاً حِيـنَ نَطَـقْ

* * *

[قالَ أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/٣٣٦] : [مِنَ الكامِلِ]

وَلَقَـدْ بَكَيْـتُ عَلَـى الشَّبَـابِ وَلِمَّتِـي مُسْـوَدَّةٌ وَلِمَـاءِ وَجْهِـيَ رَوْنَـقُ

[شرح المطلع والكلام على المتنبي]

يقولُ : إِنَّهُ يبكي علىٰ شبابِهِ في حينِ وجودِهِ ؛ خشيَةَ ما يتوقَّعُهُ مِن فراقِهِ ، وقد تكرَّرَ في « ديوانِهِ » الأَسفُ على الشبابِ ، معَ زعمِهِ أَنَّهُ كانَ يتمنَّاهُ ، بشهادَةِ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/١٨٨ـ١٩٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

مُنـىً كُـنَّ لِـي أَنَّ البَيَـاضَ خِضَـابُ فَيَخْفَـىٰ بِتَبْيِيـضِ الْقُـرُونِ شَبَـابُ

لَيَـالِـيَ عِنْـدَ البِيـضِ فَـوْدَايَ فِتْنَـةٌ وَفَخْـرٌ وَذَاكَ الْفَخْـرُ عِنْـدِيَ عَـابُ[1]

فَكَيْـفَ أَذُمُّ الْيَـوْمَ مَـا كُنْـتُ أَشْتَهِـي وَأَدْعُـو بِمَـا أَشْكُـوهُ حِيـنَ أُجَـابُ ؟!

جَلاَ اللَّوْنُ عَنْ لَوْنٍ هَدَىٰ كُلَّ مَسْلَكٍ كَمَـا انْجَـابَ عَـنْ لَـوْنِ النَّهَـارِ ضَبَـابُ[2]

غيرَ أَنَّهُ لا ينكرُ مع ما نقرِّرُهُ كلَّ حينٍ مِن تناقضِهِ ، وتقلُّبِ أَطوارِهِ ، فهُوَ تارةً يغايرُ الناسَ بمثْلِ ما سمعْتَ مِن هـٰذهِ الأَبياتِ ، وأُخرىٰ يوافقُهم فيقولُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٣٤ـ٣٥] : [مِنَ البسيطِ]

ضَيْـفٌ أَلَـمَّ بِـرَأْسِـي غَيْـرَ مُحْتَشِـمٍ [وَالسَّيْـفُ أَحْسَـنُ فِعْـلاً مِنْـهُ بِـاللِّمَـمِ]

[إِبْعَـدْ بَعِـدْتَ بَيَـاضـاً لاَ بَيَـاضَ لَـهُ] لأَنْـتَ أَسْـوَدُ فِـي عَيْنِـي مِـنَ الظُّلَـمِ

ويقولُ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/١٣٠] : [مِنَ الخفيفِ]

آلَـةُ الْعَيْـشِ صِحَّـةٌ وَشَبَـابُ فَـإِذَا وَلَّيَـا عَـنِ الْمَـرْءِ وَلَّـىٰ

ويقولُ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/٧٧] : [مِنَ البسيطِ]

وَقَـدْ أَرَانِـي شَبَـابِي الـرُّوحَ فِـي بَـدَنِـي وَقَـدْ أَرَانِـي مَشِيبِـي الـرُّوحَ فِـي بَـدَلِـي

---

(١) الفَودان : جانبا الرأس يميناً وشمالاً .

(٢) انجابَ : انكشفَ .



ويقولُ [في «العُكبريّ» ١/ ١٧٠] : [مِنَ البسيطِ]

لَيْتَ الْحَوَادِثَ أَعْطَتْنِي الَّذِي أَخَذَتْ ... مِنِّي بِحِلْمِي الَّذِي أَعْطَتْ وَتَجْرِيبِي

ويقولُ [في «العُكبريّ» ١/ ٣٥٦] : [مِنَ الوافرِ]

مَتَىٰ لَحَظَتْ بَيَاضَ الشَّيْبِ مِنِّي ... فَقَدْ وَجَدَتْهُ مِنْهَا فِي السَّوَادِ

[الكلام على الشيب]

والأخيرُ من قولِ أَبي دُلَفٍ العجليِّ [في «الأغاني» ٨/ ٢٥٧] : [مِنَ البسيطِ]

فِي كُلِّ يَوْمٍ أَرَىٰ بَيْضَاءَ قَدْ طَلَعَتْ ... كَأَنَّمَا طَلَعَتْ فِي نَاظِرِ الْبَصَرِ

ونظرَ إليهِ البُحتريُّ في قولِهِ [في «ديوانهِ» ٣/ ١٥٠٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَدِدْتُ بَيَاضَ السَّيْفِ يَوْمَ لَقِينَنِي ... مَكَانَ بَيَاضِ الشَّيْبِ لاَحَ بِمَفْرِقِي

وقالَ أَبو تمَّامٍ : [مِنَ الخفيفِ]

إِنَّ قُبْحَ الْبَيَاضِ فِي شَعَرِ الرَّأْ ... سِ كَقُبْحِ الْبَيَاضِ فِي الأَحْدَاقِ

فأَخذَهُ التهاميُّ وقالَ [في «ديوانهِ» ١٧٨] : [مِنَ البسيطِ]

سَوَادُ رَأْسِكَ عِنْدَ الْهَائِمَاتِ بِهِ ... مُعَادِلٌ لِسَوَادِ الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ

وقالَ أَيضاً [في «ديوانه» ٣٣٣ـ٣٣٤] : [مِنَ البسيطِ]

عَبَسْنَ مِنْ شَعَرٍ فِي الرَّأْسِ مُرْتَسِمٍ ... لاَ يُنْفِرُ الْبِيضَ مِثْلُ الْبِيضِ فِي اللِّمَمِ(١)

ظَنَّتْ شَبِيبَتَهُ تَبْقَىٰ وَمَا عَلِمَتْ ... أَنَّ الشَّبِيبَةَ مَرْقَاةٌ إِلَى الْهَرَمِ(٢)

وَكُلَّمَا اعْتَاضَ رَأْسِي غَيْرَ صِبْغَتِهِ ... فَالشَّيْبُ فِي الرَّأْسِ دُونَ الشَّيْبِ فِي الشِّيَمِ

مَا خَانَ عَزْمِي وَلاَ حَزْمِي وَلاَ خُلُقِي ... وَلاَ وَفَائِي وَلاَ دِينِي وَلاَ كَرَمِي

والأَخيرانِ ينظرانِ إلىٰ قولِ الناظمِ [في «العُكبريّ» ١/ ١٩٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَفِي الجِسْمِ نَفْسٌ لاَ تَشِيبُ بِشَيْبِهِ ... وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْوَجْهِ مِنْهُ حِرَابُ

لَهَا ظُفُرٌ إِنْ كَلَّ ظُفْرٌ أُعِدُّهُ ... وَنَابٌ إِذَا لَمْ يَبْقَ فِي الفَمِ نَابُ

يُغَيِّرُ مِنِّي الدَّهْرُ مَا شَاءَ غَيْرَهَا ... وَأَبْلُغُ أَقْصَى الْعُمْرِ وَهْيَ كَعَابُ

والأَصلُ قولُ غيلانَ بنِ سلمَةَ الثقفيِّ ـ رضيَ اللهُ عنهُ ـ [كما في «الأغاني» ٥/ ٤١٧] : [مِنَ الكاملِ]

لَمْ يَنْتَقِصْ مِنِّي الْمَشِيبُ قُلاَمَةً ... الآنَ حِينَ بَدَا أَلَبُّ وَأَكْيَسُ

وَالشَّيْبُ إِنْ يَحْلُلْ فَإِنَّ وَرَاءَهُ ... عُمُراً يَكُونُ خِلاَلَهُ مُتَنَفَّسُ

---

(١) عبسن : انقبضت وجوههنَّ .

(٢) المرقاةُ : السُّلَّمُ .

وقولُ الحارثِ بنِ السُّلَيكِ الأزديِّ [في « مجمع الأمثال » ١/ ١٢٣] : [مِنَ البسيطِ]

وَعَيَّـرَتْ أَنْ رَأَتْنِـي لاَبِسـاً كِبَـراً ... وَغَـايَـةُ النَّفْـسِ بَيْـنَ الْمَـوْتِ وَالْكِبَـرِ
فَـإِنْ بَقِيـتِ رَأَيْـتِ الشَّيْـبَ رَاغِمَـةً ... وَفِـي التَّفَـرُّقِ مَـا يَقْضِـي مِـنَ الْغِيَـرِ
وَإِنْ يَكُـنْ قَـدْ عَـلاَ رَأْسِـي وَغَيَّـرَهُ ... صَـرْفُ الـزَّمَـانِ وَتَغْيِيـرٌ مِـنَ الشَّعَـرِ
فَقَـدْ أَرُوحُ لِلَـذَّاتِ الْفَتَـىٰ جَـذِلاً ... وَهِمَّتِـي لَـمْ تَشِـبْ فَـاسْتَخْبِـرِي أَثَـرِي

ولهٰذهِ الأَبياتِ حديثٌ ظريفٌ ، يغلبُ علىٰ ظنِّي أَنَّهُ في (ثكلتْكَ أُمُّكَ ، قد تجوعُ الحرَّةُ ولا تأْكُلُ بثديَيْها)[١] مِنْ « أمثالِ الميدانيِّ » [١/ ١٢٣] .

قالَ ابنُ المعتزِّ : [مِنْ مُخلَّعِ البسيطِ]

قَـالَـتْ وَقَـدْ رَاعَهَـا مَشِيبِـي : ... كُنْـتَ ابْـنَ عَـمٍّ فَصِـرْتَ عَمَّـا
وَاسْتَهْـزَأَتْ بِـي فَقُلْـتُ أَيْضـاً : ... قَـدْ كُنْـتِ بِنْتـاً فَصِـرْتِ أُمَّـا
كُفِّـي وَلاَ تُكْثِـرِي مَـلاَمِـي ... وَلاَ تَـزِيـدِي الْعَلِيـلَ سُقْمَـا
مَـنْ شَـابَ أَبْصَـرْنَـهُ الْغَـوَانِـي ... بِعَيْـنِ مَـنْ قَـدْ عَمِـي وَصَمَّـا
لَـوْ قِيـلَ لِـي : اخْتَـرْ عَمـىً وَشَيْبـاً ... أَيَّهُمَـا شِئْـتَ لَقُلْـتُ : أَعْمَـىٰ

نسأَلُ اللهَ العافيةَ ؛ فلقدْ أَسرفَ علىٰ نفسِهِ بما لَنْ يسلمَ مِن سوءِ مغبَّتِهِ ، كَما لَم ينجُ العبدُ الصالحُ عليهِ السلامُ من نتيجَةِ قولِهِ : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ ﴾ [يوسف : ٣٣] .

وقد ذكرناهُ في غيرِ هٰذا المجلسِ ، ولَئِنْ سَلِم هٰذا الشاعرُ . فَلا لكرامَةٍ على اللهِ ؛ ولكنَّهُ الاستدراجُ ، والتأْجيلُ إِلى اليومِ الذي يشتدُّ فيهِ الجزاءُ علىٰ مَن أَساءَ الأَدبَ ، وأَوَّلُ أَبياتِهِ ناظرٌ إِلىٰ قولِ الأخطلِ [في « ديوانه » ٣٨٦] : [مِنَ الكاملِ]

وَإِذَا دَعَـوْنَـكَ عَمَّهُـنَّ فَـإِنَّـهُ ... نَسَـبٌ يَـزِيـدُكَ عِنْـدَهُـنَّ خَبَـالاَ
وَإِذَا دَعَـوْنَـكَ يَـا أُخَـيَّ فَـإِنَّـهُ ... أَدْنَـىٰ وَأَقْـرَبُ خُلَّـةً وَوِصَـالاَ

وهوَ مِن قولِ النمرِ بنِ تولَبٍ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ [في « ديوانه » ٨٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

دَعَـانِـي الْغَـوانِـي عَمَّهُـنَّ وَخِلْتُنِـي ... لِـيَ اسْـمٌ فَمَـا أُدْعَـىٰ بِـهِ وَهْـوَ أَوَّلُ

وقالَ ابنُ زهرٍ الأَندلسيُّ [في « نفح الطيب » ٢/ ٧٢٩] : [مِنَ البسيطِ]

كَـانَـتْ سُلَيْمَـىٰ تُنَـادِي يَـا أُخَـيَّ وَقَـدْ ... أَضْحَـتْ سُلَيْمَـىٰ تُنَـادِي الْيَـوْمَ يَـا أَبَتَـا

وقد غايرَتْ في ذلكَ أُمُّ الضحَّاكِ حيثُ تقولُ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَيَـا رَبِّ لاَ تَجْعَـلْ حَيَـاتِـي وَبَهْجَتِـي ... لِشَيْـخٍ يُعَنِّيـنِـي وَلاَ لِغُـلاَمِ
فَنُبِّئْـتُ أَنَّ الشَّيْـخَ يَعْـذِلُ أَهْلَـهُ ... وَفِـي شِـرَّةٍ حَـالُ الفَتَـىٰ وَعُـرَامِ[٢]

---

(١) القصةُ قد ذكرناها فيما مضىٰ تعليقاً .

(٢) العُرامُ : الشديدُ القويُّ الشرسُ .

وَلَكِنْ صُمُلٌّ قَدْ عَلاَ الشَّيْبُ رَأْسَهُ   فَرُوجٍ لأَحْرَاحِ النِّسَاءِ هُمَامِ[1]

وجارَاها ، وأحسنَ ما شاءَ أَبو الأَسودِ حيثُ يقولُ [في « ديوانه » ١١٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَبَى الْقَلْبُ إِلاَّ أُمَّ عَمْرٍو وَحُبَّهَا   عَجُوزاً وَمَنْ يَعْشَقْ عَجُوزاً يُفَنَّدِ

كَبُرْدِ الْيَمَانِي قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ   وَرُقْعَتُهُ مَا شِئْتَ فِي العَيْنِ وَالْيَدِ

[البكاء على الشباب]

أَمَّا البكاءُ على الشبابِ . . فمِن أحسنِ ما فيهِ قولُ منصورٍ النُّميريِّ [في « الأغاني » ١٣/ ١٦٣] : [مِنَ البسيطِ]

مَا تَنْقَضِي حَسْرَةٌ مِنِّي وَلاَ جَزَعُ   إِذَا ذَكَرْتُ شَبَاباً لَيْسَ يُرْتَجَعُ

بَانَ الشَّبَابُ وَفَاتَتْنِي بِشِرَّتِهِ   صُرُوفُ دَهْرٍ وَأَيَّامٌ لَهَا خِدَعُ

مَا كِدْتُ أُوفِي شَبَابِي كُنْهَ غُرَّتِهِ   حَتَّى انْقَضَىٰ فَإِذَا الدُّنْيَا لَهُ تَبَعُ

مَا كَانَ أَقْصَرَ أَيَّامَ الشَّبَابِ وَمَا   أَبْقَىٰ حَلاَوَةَ ذِكْرَاهُ الَّتِي يَدَعُ

فلقد بكى الرشيدُ مِن هٰذهِ الأبياتِ ، وقالَ [في « الأغاني » ١٣/١٦٣] : صدقْتَ يا نُميريُّ ، لا خيرَ في دنيا لا يُستمتَعُ فيها بحلاوةِ الشبابِ وأيَّامِهِ .

[المعتصم يعجب بقصيدة للنميري]

وهٰذا البيتُ مِن قصيدةٍ لَهُ جزلَةٍ مختارَةٍ ، حتَّىٰ لَقد اجتمَعَ الشعراءُ ببابِ المعتصِمِ ، فبعَثَ إليهِمْ [كما في « الأغاني » ١٩/ ٨١] : مَن كانَ مِنكُم يحسنُ أن يقولَ مثلَ قولِ منصورٍ النُّميريِّ في الرشيدِ : [مِنَ البسيطِ]

إِنَّ الْمَكَارِمَ وَالْمَعْرُوفَ أَوْدِيَةٌ   أَحَلَّكَ اللهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ

أَيُّ امْرِىءٍ بَاتَ مِنْ هَارُونَ فِي سَخَطٍ ؟   فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَنْتَفِعُ

إِنْ أَخْلَفَ الْغَيْثُ لَمْ تُخْلِفْ أَنَامِلُهُ   أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ

. . فليدخُل ، فيقالُ [كما في « الأغاني » ١٩/ ٨١] : إنَّ محمَّدَ بنَ وهيبٍ دخَلَ يومئذٍ ، وأنشدَ المعتصمَ قصيدتَهُ التي يقولُ فيها : [مِنَ البسيطِ]

ثَلاَثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهِمْ   شَمْسُ الضُّحَىٰ وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ

فاهتزَّ لَها ، وأَحسنَ جائزَتَهُ . وما هُوَ بالحَكَمِ التُّرضىٰ حكومَتُهُ في المساواةِ بينَ القصيدتينِ ؛ فإنَّ بينَهما بُعدَ المشرقينِ .

وقد أغارَ الناظِمُ علىٰ قولِ منصورٍ : (فإذا الدنيا لَهُ تبعٌ) فيما سبقَ من قولِهِ : (فإذا ولَّيا عَنِ الْمَرءِ وَلَّىٰ) ، وأغارَ أيضاً علىٰ قولِهِ : (أَو ضاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فيَتَّسِعُ) حيثُ قالَ [في « العُكبَريّ » ٣/٣٠٣] : [مِنَ الكاملِ]

مَلِكٌ إِذَا مَا الرُّمْحُ أَدْرَكَهُ   طَنَبٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَعْتَدِلُ

---

(١) الصُّمُلُّ : الشديدُ الخُلُقِ العظيمُ . فروجٌ : صيغةُ مبالغةٍ مِن فارجٍ ، والمعنىٰ : أنَّها تدعو اللهَ عز وجلَّ أنْ يرزقَها زوجاً يكفيها مُؤْنَةَ النِّكاحِ ، ولا يقصِّرُ في حقِّها فيه .

ولاذَ بهِ المعريُّ في قولِهِ [في « سقطِ الزندِ » ١٢١] : [مِنَ الوافرِ]

وَلَــوْ كَتَــبَ اسْمَــهُ مَلِــكٌ هَــزِيــمٌ عَلَــىٰ رَايَــاتِــهِ وَالَــى الْفُتُــوحَــا

[دواء عجيب لتسهيل الولادة . . اقرأه ولا تطبقه]

ولبيتِ النميريِّ قصَّةٌ ، حاصلُها [كما في « الأغاني » ١٣/١٦٧] : أَنَّهُ جاءَ إِلىٰ صديقٍ لَهُ وهوَ قلقُ الخاطِرِ ، منزعِجُ الْفكرِ ، مُبَلْبَلُ البَالِ ، فسأَلَهُ صاحبُهُ عَنْ موجِبِ ذلكَ ، فقالَ لَهُ : تركْتُ زوجتي في المخاضِ ، وقد عسُرَ عَلَيها الولادُ ، وهيَ يَدي ورِجلي ، ورُوحي وراحَتي ، قالَ لَهُ : أَلستَ القائِلَ : (أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ) ؟ قالَ : بلىٰ ، قالَ : فاذهبْ ، فاكتبْ علىٰ فرجِها : هارونُ الرشيدُ ؛ حتَّىٰ يحصلَ الفرَجُ ، ويتَّسِعَ المضيَّقُ ، فبلغَتِ الرَّشيدَ ، واختلفَتِ الروايَةُ ، **فمِن قائِلٍ** : إِنَّهُ استطرفَها ، **ومِن قائِلٍ** : إِنَّهُ عاقَبَ الرجلَ ، **وقيلَ** [في « الأغاني » ١٣/١٦٧] : إِنَّ الرجُلَ نمَّ على النميريِّ عندَ الرشيدِ بميلِهِ إِلى العلويِّينَ ، وأَنَّهُ لا يريدُ بهارونَ إِلاَّ عليَّ بنَ أَبي طالِبٍ ، مِن قولِهِ عليهِ السلامُ : « **أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَىٰ** »[1] ، وأَنشدَ لَهُ : [مِنَ البسيطِ]

آلُ الــرَّسُــولِ خِيَــارُ النَّــاسِ كُلِّهِــمِ وَخَيْــرُ آلِ رَسُــولِ اللهِ هَــارُونُ

وأَنَّ الرشيدَ أَرسلَ بعدَ ذلكَ إِلى النميريِّ من يبعَجُ بطنَهُ ، فأَلفاهُ منصَرَفَ الناسِ مِن جنازَتِهِ ، وكانَ النميريُّ متمكِّناً عندَ الرشيدِ بنفاقِهِ ، الذي مِن أَظهرِ آياتِهِ قولُهُ : [مِنَ الوافرِ]

بَنِــي حَسَــنٍ وَقُــلْ لِبَنِــي حُسَيْــنٍ عَلَيْكُــمْ بِــالسَّــوَاءِ مِــنَ الأُمُــورِ
أَمِيطُــوا عَنْكُــمُ كَــذِبَ الأَمَــانِــي وَأَحْــلاَمــاً يَعُــدْنَ عِــدَاتِ زُورِ
إِنَّ النَّبِــــيَّ أَبـــاً وَيَـــأْبَـــىٰ مِــنَ الأَحْــزَابِ سَطْــرٌ فِــي سُطُــورِ[2]

يريدُ قولَهُ : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ، حتَّىٰ لَيُقالُ : إِنَّ الرشيدَ حكمَهُ في بيتٍ بما أَرضىٰ لِهواهُ في هٰذا الشعْرِ .

[مِنَ المشيب والشباب والبكاء عليهما]

ومِن بدائعِ الفرزدَقِ قولُهُ يبكي الشبابَ [في « ديوانِهِ » ١/ ٣٧٢] : [مِنَ الكاملِ]

قَــالَــتْ : وَكَيْــفَ يَمِيــلُ مِثْلُــكَ لِلصِّبَــا وَعَلَيْــكَ مِــنْ سِمَــةِ الْحَلِيــمِ وَقَــارُ ؟
وَالشَّيْــبُ يَنْهَــضُ فِــي السَّــوَادِ كَــأَنَّــهُ لَيْـــلٌ يَصِيــحُ بِجَــانِبَيْــهِ نَهَــارُ

وقالَ العربيُّ [أبو العتاهيةِ في « ديوانِهِ » ٣٢] : [مِنَ الوافرِ]

أَلاَ لَيْــتَ الشَّبَــابَ يَعُــودُ يَــوْمــاً فَــأُخْبِــرَهُ بِمَــا فَعَــلَ الْمَشِيــبُ

---

(١) أخرجه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مسلم (٢٤٠٤) في (فضائل الصحابة) وفيه : « أما ترضىٰ أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسىٰ » .

(٢) البيتُ مكسورٌ عروضياً ولعل صوابَهُ كما في « زهر الآداب » (٢/ ٦١) :

تسمُّــون النَّبِــيَّ أَبــاً ، وَيَــأْبَــىٰ مِــنَ الأَحْــزَابِ سَطْــرٌ فِــي سُطُــورِ

وقالَ دِعبلٌ [في « ديوانهِ » ٢٠٣] [مِنَ الكامِلِ]

أَيْـنَ الشَّبَـابُ ؟ وَأَيَّـهُ سَلَكَـا ؟ لاَ ، أَيْـنَ يُطْلَـبُ ؟ ضَـلَّ ، بَـلْ هَلَكَـا
لاَ تَعْجَبِـي يَـاسَلْـمُ مِـنْ رَجُـلٍ ضَحِـكَ الْمَشِيـبُ بِـرَأْسِـهِ فَبَكَـىٰ

وقد أَخذ أَصلَ المعنىٰ مِن قولِ مسلمِ بنِ الوليدِ [صريعُ الغواني في « ديوانهِ » ٣٠٦] : [مِنَ السَّريعِ]

مُسْتَعْبِـرٌ يَبْكِـي عَلَـىٰ دِمْنَـةٍ وَرَأْسُـهُ يَضْحَـكُ فِيـهِ الْمَشِيـبْ

أَو مِن قولِ ابنِ مطيرٍ [في « ديوانهِ » ٢٧] : [مِنَ الخفيفِ]

[كُـلَّ يَـوْمٍ بِـأُقْحُـوَانٍ جَـدِيـدٍ] تَضْحَـكُ الأَرْضُ مِـنْ بُكَـاءِ السَّمَـاءِ

ومِن أَبكىٰ ما يكونُ على الشبابِ . . قولُ أَبي الغُصْنِ الأَسديِّ : [مِنَ الوافرِ]

أَتَـأْمَـلُ رَجْعَـةَ الـدُّنْيَـا سَفَـاهـاً وَقَـدْ صَـارَ الشَّبَـابُ إِلَـى الـذَّهَـابِ
فَلَيْـتَ الْبَـاكِيَـاتِ بِكُـلِّ أَرْضٍ جُمِعْـنَ لَنَـا فَنُحْـنَ عَلَـى الشَّبَـابِ

وقالَ محمَّدُ بنُ أَبي حازمٍ [في « ديوانهِ » ٨٧] : [مِنَ البسيطِ]

لاَ حِيـنَ صَبْـرٍ فَخَـلِّ الـدَّمْـعَ يَنْهَمِـلُ فَقْـدُ الشَّبَـابِ بِيَـوْمِ الْمَـرْءِ مُتَّصِـلُ
لاَ تَكْـذِبَـنَّ فَمَـا الـدُّنْيَـا بِـأَجْمَعِهَـا مِـنَ الشَّبَـابِ بِيَـوْمٍ وَاحِـدٍ بَـدَلُ
كَفَـاكَ بِـالشَّيْـبِ ذَنْبـاً عِنْـدَ غَـانِيَـةٍ وَبِـالشَّبَـابِ شَفِيعـاً أَيُّهَـا الـرَّجُـلُ

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ الحسنِ بنِ الحسنِ السبطِ ـ رضوانُ اللهِ عليهم ـ : [مِنَ الكاملِ]

لَـوْ أَنَّ أَسْـرَابَ الـدُّمُـوعِ ثَنَـتْ شَـرْخَ الشَّبَـابِ عَلَـى امْـرِئٍ قَبْلِـي[1]
لَبَكَيْتُـهُ دَهْـرِي بِـأَرْبَعَـةٍ فَسَفَحْتُهَـا سَجْـلاً عَلَـىٰ سَجْـلِ

وقالَ ابنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٦/ ٢٣٤٣ـ٢٣٤٤] : [مِنَ الكاملِ]

لاَ تَلْـحَ مَـنْ يَبْكِـي شَبِيبَتَـهُ إِلاَّ إِذَا لَـمْ يَبْكِهَـا بِـدَمٍ[2]
لَسْنَـا نَـرَاهَـا حَـقَّ رُؤْيَتِهَـا إِلاَّ زَمَـانَ الشَّيْـبِ وَالْهَـرَمِ
وَلَـرُبَّ شَـيْءٍ لاَ يُبَيِّنُـهُ وُجْـدَانُـهُ إِلاَّ مَـعَ الْعَـدَمِ
كَـالشَّمْـسِ لاَ تَبْـدُو فَضِيلَتُهَـا حَتَّـىٰ تَغَشَّـى الأَرْضُ بِـالظُّلَـمِ

وقالَ آخرُ [وهو أبو العتاهيةِ في « ديوانهِ » ٣٥٣] : [مِنَ الكاملِ]

الشَّيْـبُ إِحْـدَى الْمِيتَتَيْـنِ تَقَـدَّمَـتْ إِحْـدَاهُمَـا وَتَـأَخَّـرَتْ إِحْـدَاهُمَـا

---

(١) شرخُ الشباب : أَوّلُهُ وقوّتُهُ ونضارتُهُ .
(٢) لاحَ : أشفق وبكىٰ .

وقالَ أَبو تمَّام [في « ديوانهِ » ١/١٣٣] : [مِنَ الخفيفِ]

لَـوْ رَأَى اللهُ أَنَّ فِـي الشَّيْـبِ فَضْـلاً ... جَـاوَرَتْـهُ الأَبْـرَارُ فِـي الْخُلْـدِ شِيبَـا

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/١١٧] : [مِنَ الخفيفِ]

شُعْلَـةٌ فِـي الْمَفَـارِقِ اسْتَـوْدَعَتْنِـي ... فِـي صَمِيـمِ الْفُـؤَادِ ثُكْـلاً صَمِيمَـا(١)

تَسْتَثِيـرُ الْهُمُـومُ مَـا اكْتَـنَّ مِنْهَـا ... صُعُـداً وَهِـيَ تَسْتَثِيـرُ الْهُمُـومَـا(٢)

دِقَّـةٌ فِـي الْحَيَـاةِ تُـدْعَـىٰ جَـلاَلاً ... مِثْـلَ مَـا سُمِّـيَ اللَّـدِيـغُ سَلِيمَـا

حَلَّمَتْنِـي زَعَمْتُـمُ وَأَرَانِـي ... قَبْـلَ هَـٰذَا التَّحْلِيـمِ أُدْعَـىٰ حَلِيمَـا(٣)

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/٣٩٨ـ٣٩٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

غَـدَا الشَّيْـبُ مُخْتَطّـاً بِفَـوْدَيَّ خِطَّـةً ... سَبِيـلُ الْفَتَـىٰ فِيهَـا إِلَـى الْمَـوْتِ مَهْيَـعُ(٤)

هُـوَ الـزَّوْرُ يُجْفَـىٰ ، وَالْمُعَـاشَـرُ يُجْتَـوَىٰ ... وَذُو الإِلْـفِ يُقْلَـىٰ ، وَالْجَـدِيـدُ يُـرَقَّـعُ(٥)

لَـهُ مَنْظَـرٌ فِـي الْعَيْـنِ أَبْيَـضُ نَـاصِـعٌ ... وَلَكِنَّـهُ فِـي الْقَلْـبِ أَسْـوَدُ أَسْفَـعُ(٦)

وَنَحْـنُ نُـزَجِّيـهِ عَلَـى الْكُـرْهِ وَالـرِّضَـا ... وَأَنْـفُ الْفَتَـىٰ مِـنْ وَجْهِـهِ وَهْـوَ أَجْـدَعُ(٧)

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/١١٥ـ١١٦] : [مِنَ البسيطِ]

سِـتٌّ وَعِشْـرُونَ تَـدْعُـونِـي فَـأَتْبَعُهَـا ... إِلَـى الْمَشِيـبِ وَلَـمْ تَظْلِـمْ وَلَـمْ تَحُـبِ(٨)

يَـوْمِـي مِـنَ الـدَّهْـرِ مِثْـلُ الـدَّهْـرِ تَجْـرِبَـةً ... حَـزْمـاً وَعَـزْمـاً وَسَـاعِـي مِنْـهُ كَـالْحِقَـبِ(٩)

وَأَصْغِـرِي أَنَّ شَيْبـاً لاَحَ بِـي حَـدَثـاً ... وَأَكْبِـرِي أَنَّنِـي فِـي الْمَهْـدِ لَـمْ أَشِـبِ(١٠)

وَلاَ يُـؤَرِّقْـكِ إِيمَـاضُ الْقَتِيـرِ بِـهِ ... فَـإِنَّ ذَاكَ ابْتِسَـامُ الـرَّأْيِ وَالأَدَبِ(١١)

وقالَ أَبو عبادَةَ [في « ديوانهِ » ٢/١١٩٨] : [مِنَ الكاملِ]

تَـرَكَ السَّـوَادَ لِـلاَبِسِيـهِ وَبَيَّضَـا ... وَنَضَـا مِـنَ السِّتِّيـنَ عَنْـه مَـا نَضَـا

---

(١) الصميمُ : الخالصُ .

(٢) تستثيرُ : تحرِّكُ ، والضميرُ يعودُ إلى الثُّلَّةِ منَ الشيبِ . اكتنَّ : استترَ . صُعُداً : ارتفاعاً .

(٣) حلَّمَتني : صيَّرتني حليماً .

(٤) الفودُ : جانبُ الرأسِ . الخطَّةُ : الطريقةُ . المَهْيَعُ : الطريقُ الواسعُ .

(٥) الزَّورُ : الزائرُ . يُجفىٰ : يُهجرُ . يُجتوىٰ : يكرهُ . يُقلىٰ : يبغضُ .

(٦) أسفعُ : خالصُ السوادِ .

(٧) نزجِّيهِ : نسوقهُ . أَجدعُ : مقطوع الأنف .

(٨) لم تحُبِ : لم تأثمْ .

(٩) الساعُ : مفردها الساعةُ . الحِقَبُ : مفرده حِقبةٌ ، وهي المدَّةُ الطويلةُ منَ الوقتِ .

(١٠) أَصغِري وأَكبِري : فِعْلا أمرٍ معناهما ليصغُر وليكبُر .

(١١) إيماضُ : لمعانُ . القتيرُ : الشيبُ .

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٢٠٧-١٢٠٩] : [مِنَ الخفيفِ]

لاَبِـسٌ مِـنْ شَبِيبَـةٍ أَمْ نَـاضِـي ؟ وَمُلِيـحٌ مِـنْ شَيْبَـةٍ أَمْ رَاضِـي ؟[1]
فَهَـلِ الْحَـادِثَـاتُ يَـابْـنَ عُـوَيْـفٍ تَـارِكَـاتِـي وَلُبْـسَ هَـٰذَا الْبَيَـاضِ ؟

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٥٥٦] : [مِنَ البسيطِ]

وَجِـدَّةُ الشَّعَـرَاتِ السُّـودِ يُـرْجِعُهَـا بِيضـاً تَتَـابُـعُ مَـرِّ الْبِيـضِ وَالسُّـودِ[2]
لَوْ كَانَ فِي الْحِلْمِ مِنْ جَهْلٍ مَضَىٰ عِوَضٌ لَـمْ أَذْمُـمِ الشَّيْـبَ فِـي قَـوْلِي وَمَعْقُـودِي

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٥٥٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا مَـا لَقِينَـاهُـنَّ وَالشَّيْـبُ شَفْعُنَـا تَغَـابَيْـنَ أَوْ كَلَّمْنَنَـا بِـالسَّـوَالِـفِ[3]

وقالَ [في « ديوانه » ١/ ٩٩] : [مِنَ الوافرِ]

أَقُـولُ لِلِمَّتِـي إِذْ أَسْـرَعَـتْ بِـي إِلَـى الشَّيْـبِ : اخْسَـرِي فِيـهِ وَخِيبِـي!

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٣٩٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

ثَنَتْ طَرْفَهَا دُونَ الْمَشِيبِ ، وَمَنْ يَشِبْ فَكُـلُّ الْغَـوَانِـي عَنْـهُ مُثْنِيَـةُ الطَّـرْفِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٥٠٩] : [مِنَ الخفيفِ]

غَلَّـسَ الشَّيْـبُ أَوْ تَعَجَّـلَ وِرْدُهْ وَاسْتَعَـارَ الشَّبَـابَ مَـنْ لاَ يَـرُدُّهْ[4]
لاَ تَلُمْنِـي عَلَـى الضَّنَـا بَعْـدَمَـا صَـوَّحَ رَوْضُ الصِّبَـا وَأَنْهَـجَ بُـرْدُهْ[5]

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ١١٩] : [مِنَ البسيطِ]

وَالشَّيْـبُ مَهْـرَبُ مَـنْ جَـارَىٰ مَنِيَّتَـهُ وَلاَ نَجَـاءَ لَـهُ مِـنْ ذَلِـكَ الْهَـرَبِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٩٥٣-٩٥٤] : [مِنَ البسيطِ]

فِي الشَّيْبِ زَجْرٌ لَـهُ لَـوْ كَـانَ يَنْـزَجِرُ وَبَـالِـغٌ مِنْـهُ لَـوْلاَ أَنَّـهُ حَجَـرُ
اِبْيَضَّ مَا اسْوَدَّ مِنْ فَوْدَيَّ وَارْتَجَعَتْ جَلِيَّـةُ الصُّبْـحِ مَـا قَـدْ أَغْفَـلَ السَّحَـرُ
وَلِلْفَتَـىٰ مُهْلَـةٌ فِـي الْحُـبِّ وَاسِعَـةٌ مَـا لَـمْ يَمُتْ فِي نَـوَاحِي رَأْسِهِ الشَّعَرُ

وقالَ المعرِّيُّ [في « سقط الزند » ٢٤٦] : [مِنَ البسيطِ]

وَقَـدْ تَعَـوَّضْـتُ عَـنْ كُـلٍّ بِمُشْبِهِـهِ فَمَـا وَجَـدْتُ لأَيَّـامِ الصِّبَـا عِـوَضَـا

---

(١) **المُلِيحُ** : المشفقُ الخائفُ الحذرُ .
(٢) **الجِدَّةُ** : كونُ الشيءِ جديداً .
(٣) **الشيبُ شفعنا** : أي ثانينا . **السوالفُ** : جمع سالفةٍ ، وهيَ العنق . **والمقصودُ** : أنهنَّ يُعرضنَ عنهُ .
(٤) **الغَلَسُ** : ظلمةُ آخرِ الليلِ .
(٥) **أنهجَ الثوبُ** : بليَ .

وقالَ [البُحتريُّ في « ديوانهِ » ٣/ ١٤٨١] : [من الخفيفِ]

هَــا هُــوَ الشَّيْــبُ لائِمــاً فَــأَفِيقِــي! وَاتْــرُكِيــهِ إِذْ كَــانَ غَيْــرَ مُفِيــقِ

وقالَ [المعريُّ في « سقطِ الزندِ » ١١٢] : [مِنَ الوافرِ]

وَعِيشَتِــيَ الشَّبَــابُ وَلَيْــسَ مِنْهَــا صِبَــايَ وَلاَ ذَوَائِبِــيَ الْهِجَــانُ[١]

[وقيل] : [مِنَ الوافرِ]

وَكَــالنَّــارِ الْحَيَــاةُ فَمِــنْ دُخَــانٍ أَوَائِلُهَــا وَآخِــرُهَــا رَمَــادُ

وقالَ صردرٌ : [مِنَ الكاملِ]

لَــمْ أَبْــكِ أَنْ رَحَــلَ الشَّبَــابُ وَإِنَّمَــا أَبْكِــي لأَنْ يَتَقَــارَبَ الْمِيعَــادُ

شَعْــرُ الْفَتَــىٰ أَوْرَاقُــهُ فَــإِذَا ذَوَىٰ جَفَّــتْ عَلَــىٰ آثَــارِهِ الأَعْــوَادُ

[الشيب قبل الأوان مؤلم]

وفي بعضِ ما سبقَ ـ خصوصاً عَن أَبي تمَّامٍ ـ شكايَةٌ مِن نزولِ الشيبِ قبلَ أَوانِهِ ، وأَصلُهُ قولُ أَبي نواسٍ [في « ديوانِهِ » ٣٣٠] : [مِنَ الكاملِ]

وَإِذَا عَــدَدْتُ سِنِــيَّ عُمْــرِيَ لَــمْ أَجِــدْ لِلشَّيْــبِ عُــذْراً فِــي النُّــزُولِ بِــرَاسِــي

وقالَ كُشاجمٌ [في « ديوانِهِ » ٤٩٨] : [مِنَ الوافرِ]

إِذَا فَكَّــرْتُ فِــي شَيْبِــي وَسِنِّــي عَتَبْــتُ عَلَيْــهِ فِيمَــا نَــالَ مِنِّــي

كَــأَنَّ الشَّيْــبَ غَــارَ عَلَــى الْغَــوَانِــي فَعَــرَّضَهُــنَّ لِــلإِعْــرَاضِ عَنِّــي

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبريِّ » ٤/ ١٢٣ ـ ١٢٤] : [مِنَ الكاملِ]

لَــوْ كَــانَ يُمْكِنُنِــي سَفَــرْتُ عَــنِ الصِّبَــا فَــالشَّيْــبُ مِــنْ قَبْــلِ الأَوَانِ تَلَثُّــمُ[٢]

وَلَقَــدْ رَأَيْــتُ الحَــادِثَــاتِ فَــلاَ أَرَىٰ شَيْبــاً يُمِيــتُ وَلاَ سَــوَاداً يَعْصِــمُ

وقالَ آخرُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَهَــلْ أَنَــا إِلاَّ ابْــنُ الثَّــلاَثِيــنَ لَــمْ تَشِــبْ لِــدَاتِــي وَلَكِــنَّ الْخُطُــوبَ تُضِيــمُ

وقالَ آخرُ : [مِنَ الخفيفِ]

قَــدْ رَأَيْنَــاهُ بِــالْعَشِــيِّ غُــلاَمــاً فَغَــدَوْنَــا نَعُــدُّهُ فِــي الْكُهُــولِ

وقالَ الموسَويُّ [وهو الشريفُ الرضيُّ في « ديوانِهِ » ٦٨٨] : [مِنَ السَّريعِ]

عَجَّلْــتَ يَــا شَيْــبُ عَلَــىٰ مَفْــرِقِــي وَأَيُّ عُــــذْرٍ لَــــكَ أَنْ تَعْجَــــلاَ

---

(١) **الذوائبُ الهجانُ** : البيضُ .

(٢) **سفرتُ** : أظهرتُ وكشفتُ ، وسفرَ وجهُ زيدٍ : أشرقَ . **التلثُّمُ** : سترُ الوجهِ .

وَكَيْـفَ أَقْـدَمْـتَ عَلَـىٰ عَـارِضٍ ... مَـا اسْتَغْـرَقَ النَّبْـتَ وَلاَ اسْتَكْمَـلاَ ؟
يَـا زَائِـراً مَـا جَـاءَ حَتَّـىٰ مَضَـىٰ ... وعَـارِضـاً مَـا غَـامَ حَتَّـى انْجَلَـىٰ
وَمَـا رَأَى الـرَّاؤُونَ مِـنْ قَبْلِهَـا ... زَرْعـاً ذَوَىٰ مِـنْ قَبْـلِ أَنْ يُبْقِـلاَ

وقالَ أبو فراسٍ الحمدانيُّ [في « ديوانه » ١٥١] : [مِنَ الوافرِ]

وَمَـا أَرْبَـتْ عَلَـى الْعِشْـرِيـنَ سِنِّـي ... فَمَـا عُـذْرُ الْمَشِيـبِ إِلَـىٰ عِـذَارِي ؟!

وقالَ ابنُ دريدٍ [في « ديوانه » ٤٥] : [مِنَ البسيطِ]

ثَـوْبُ الشَّبَـابِ عَلَـيَّ الْيَـوْمَ بَهْجَتُـهُ ... وَسَـوْفَ تَنْـزِعُـهُ عَنِّـي يَـدُ الْكِبَـرِ
أَنَـا ابْنُ عِشْـرِيـنَ مَـا زَادَتْ وَلاَ نَقَصَـتْ ... إِنَّ ابْـنَ عِشْـرِيـنَ مِـنْ شَيْـبٍ عَلَـىٰ خَطَـرِ

[ما عذر المشيب في المجيء قبل أوانه]

وقد سبقَ ـ ولا سيَّمَا فيما سقناهُ عَن أَبي عبادَةَ ـ عذرُ المشيبِ إذا جاءَ في وقتِهِ ، ومنْهُ قولُ ابنِ الروميِّ [في « ديوانه »] : [مِنَ الكاملِ]

أَدْرَىٰ غُـرَابَ الشَّيْـبِ فَـوْقَ مَفَـارِقِـي ... رَكْـضُ السِّنِيـنَ الـرَّاكِضَـاتِ أَمَـامِـي

ولعلَّهُ أَرادَ الغرابَ الأَبقعَ ، أو مِن حيثُ إِنذارُهُ بالرحيلِ ، وإلاَّ . . فلونُهُ غيرُ مناسبٍ للشيبِ ، وقولُهُ أَيضاً ، وهو ما يُعْجِبُنِي ؛ لموافقتِهِ لسنِّي [وهو في « ديوانه » ١/ ٣٦٠ـ٣٦١] : [مِنَ السَّريعِ]

فَكَّـرْتُ فِـي خَمْسِيـنَ عَـامـاً مَضَـتْ ... كَـانَـتْ أَمَـامِـيَ ثُـمَّ خَلَّفْتُهَـا
لَـوْ أَنَّ عُمْـرِي مِئَـةٌ هَـدَّنِـي ... تَـذَكُّـرِي أَنِّـي تنَصَّفْتُهَـا

وقولُ أَبي عبادَةَ أَيضاً [في « ديوانه » ١/ ١٣٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَـدْ رَدَّتِ الْخَمْسُـونَ رَدَّ صَـرِيمَـةٍ ... إِلَى الشَّيْبِ ما وَلَّىٰ عَنِ الشَّيْبِ يَهْرُبُ

وقولُهُ : [مِنَ الكاملِ]

إِنْ كَـانَ قَـدْ عَبَـثَ الْمَشِيـبُ بِلِمَّتِـي ... فَلَقَـدْ أَخَـذْتُ مِـنَ الشَّبَـابِ نَصِيبِـي

وقولُهُ [في « ديوانه » ١/ ١٥٠] : [مِنَ المتقاربِ]

وَمَـنْ يَطَّلِـعْ شَـرَفَ الأَرْبَعِيـنَ يُحَـيِّ مِـنَ الشَّيْـبِ زَوْراً غَـرِيبـاً

وقولُ آخرَ [وهو أبو الأسود الدؤلي في « الأغاني » ١٢/ ٣٧٣] : [مِنَ البسيطِ]

أَفْنَـى الشَّبَـابَ الَّـذِي حَـاوَلْـتُ جِـدَّتَـهُ ... مَـرُّ الْجَـدِيـدَيْـنِ مِـنْ آتٍ وَمُنْطَلِـقِ
لَـمْ يُبْقِيَـا لِـيَ مِـنْ طُـولِ اخْتِـلاَفِهِمَـا ... شَيْئـاً أَخَـافُ عَلَيْـهِ لَـذْعَـةَ الْحِـدَقِ

وقالَ المعريُّ [في « سقط الزند » ٢٦١] : [مِنَ الكاملِ]

وَلَقَـدْ سَلَـوْتُ عَـنِ الشَّبَـابِ كَمَـا سَـلاَ ... غَيْـرِي وَلَكِـنْ لِلْحَـزِيـنِ تَـذَكُّـرُ

وكتبَ الحجَّاجُ إِلىٰ قتيبةَ بنِ مسلمٍ [في « الأغاني » ٢٠/ ٦٤] :

أمَّا بعدُ : فإِنِّي نظرتُ في سنِّي ، فإِذا أنا قد بلَغْتُ الخمسينَ ، وأَنتَ نحوٌ منِّي في السنِّ ، وإِنَّ امرأً قد سارَ خمسينَ حِجَّةً إِلىٰ منهَلٍ . . لقمينٌ أَنْ يَرِدَهُ .

فأخذَهُ بعضُهم فقالَ [أبو العتاهيةِ في « ديوانهِ » ٢١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنَّ امْـرَأً قَـدْ سَـارَ خَمْسِيـنَ حِجَّـةً ... إِلَـىٰ مَنْهَـلٍ مِـنْ وِرْدِهِ لَقَـرِيـبُ

فَـإِنْ كَـانَـتِ السِّتُّـونَ سِنَّـكَ لَـمْ يَكُـنْ ... لِـدَائِـكَ إِلاَّ أَنْ تَمُـوتَ طَبِيـبُ

وقالَ ابنُ المعتزِّ : [مِنَ البسيطِ]

إِحْدَىٰ وَخَمْسُونَ لَوْ مَرَّتْ عَلَىٰ حَجَرٍ ... لَكَـانَ مِـنْ حُكْمِهَـا أَنْ يَقْلَـقَ الْحَجَـرُ

أمَّا المشيبُ : فإِنَّهُ مكروهٌ لقاؤُهُ ، محبوبٌ بقاؤُهُ ، وأَنشدَ ابنُ دريدٍ [في « ديوانهِ » ٢٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلِـي صَـاحِـبٌ مَـا كُنْـتُ أَهْـوَىٰ لِقَـاءَهُ ... فَلَمَّـا الْتَقَيْنَـا كَـانَ أَكْـرَمَ صَـاحِـبِ

عَـزِيـزٌ عَلَيْنَـا أَنْ يُفَـارِقَ بَعْـدَ مَـا ... تَمَنَّيْـتُ دَهْـراً أَنْ يَكُـونَ مُجَـانِبِـي

وقالَ مسلمُ بنُ الوليدِ [في « ذيلِ ديوانهِ » ٣١١] : [مِنَ البسيطِ]

الشَّيْـبُ كُـرْهٌ وَكُـرْهٌ أَنْ يُفَـارِقَنِـي ... فَـاعْجَبْ لِشَـيْءٍ عَلَى الْبَغْضَـاءِ مَـوْدُودِ

يَمْضِـي الشَّبَـابُ وَيَـأْتِـي بَعْـدَهُ خَلَـفٌ ... وَالشَّيْـبُ يَـذْهَـبُ مَفْقُـودٌ بِمَفْقُـودِ

وقيلَ لأَبي العيناءِ : كيفَ أَنتَ ؟ قالَ : في الداءِ الذي يتمنَّى الناسُ بقاءَهُ .

وقيلَ لأَعرابيٍّ ضعيفٍ مِنَ الكِبَرِ : لقد أَذنبَ إِليكَ الدهرُ ، فقالَ : أَطالَ اللهُ بقاءَ ذنبهِ إِليَّ .

وقالَ البحتريُّ [في « ديوانه » ١/ ٩٩] : [مِنَ الوافرِ]

يَعِيـبُ الْغَـانِيَـاتُ عَلَـيَّ شَيْبِـي ... وَمَـنْ لِـي أَنْ أُمَتَّـعَ بِـالْمَعِيـبِ

[بغض النساء الشيب]

أمَّا كرهُ النساءِ للشيبِ : فلَم يخرجْ منهُنَّ إِلاَّ ما سبقَ عَن أُمِّ الضحَّاكِ ؛ ولهٰذا صانَ اللهُ نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم عَن كثرتهِ ، وماتَ وما في لحيتِهِ ورأْسِهِ منهُ عشرونَ شعرةً[1] ، على اختلافٍ في الرواياتِ ، قرَّرناهُ مَعَ ما يتعلَّقُ بهِ ، وما اخْتُلِفَ فيهِ مِن أَسبابهِ في « **حاشيتِنا على الشمائِلِ** » .

ويحكىٰ [في « المستطرف » ٢/ ٦٩] : أَنَّهُ مرَّ أَشمَطُ[2] بامرأَةٍ بديعَةِ الجمَالِ ، فقالَ : يا هٰذهِ ، إِنْ كانَ لكِ زوجٌ . . فبارَكَ اللهُ لكِ فيهِ ، وإِلاَّ . . فأَخبرينا ، قالَتْ : كأَنَّكَ تخطبُني ، قالَ : نعم ، قالَتْ : إِنَّ فِيَّ عيباً ما أَراكَ ترضاهُ ،

---

(١) أخرجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما الترمذي في « الشمائل » (٤٠) ، وابن ماجه (٣٦٣٠) قال عنه في « الزوائد » : هٰذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات . وفيه : (إنما كان شيب رسول الله صلى الله عليه وسلم نحواً من عشرين شعرة بيضاء) .

(٢) **الشَّمَطُ** : بياضُ شعرِ الرأسِ واختلاطهُ بسوادهِ .



قالَ : وما هوَ ؟ قالَتْ : شَيبٌ غلبَ علىٰ سوادِ رأْسي ، فثنىٰ عِنَانَ فرسِهِ ، فقالَتْ : علىٰ رسلِكَ ، وكشفَتْ لَهُ عَنِ الفاحِمِ الأَثْيَثِ ، وقالَتْ لَهُ : أَشيباً ترىٰ ؟ قالَ : لا واللهِ ، قالَت : وأَزيدُكَ علىٰ ذلكَ أَنِّي لَم أَبلُغِ العشرينَ ، ولكن أَحببتُ إعلامَكَ علىٰ أَنِّي أَكرهُ منكَ ما تكرهُ منِّي .

فتنوَّعَ الشعراءُ في معناهُ ، قالَ ابنُ الروميِّ [في « ديوانه » ٣/١٠٨٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَعِـرْ طَـرْفَـكَ الْمِـرْآةَ وَانْظُـرْ فَـإِنْ نَبَـا ... بِعَيْنِـكَ عَنْـهُ الشَّيْـبُ فَـالْبِيـضُ أَعْـذَرُ
إِذَا شَنِئَـتْ عَيْـنُ الْفَتَـىٰ عَيْـبَ نَفْسِـهِ ... فَعَيْـنُ سِـوَاهُ بِـالشَّنَـاءَةِ أَعْـذَرُ

وقالَ ابنُ المعتزِّ [في « ديوانهِ » ٢/٣٥٨] : [مِنَ الوافرِ]

لَقَـدْ أَبْغَضْـتُ نَفْسِـي فِـي مَشِيبِـي ... فَكَيْـفَ تُحِبُّنِـي الْبِيـضُ الْكِعَـابُ ؟

وقالَ الناظِمُ : [مِنَ الوافرِ]

أَرَىٰ شَيْـبَ الـرِّجَـالِ مِـنَ الْغَـوَانِـي ... بِمَـوْقِـعِ شَيْبِهِـنَّ مِـنَ الـرِّجَـالِ

ومِنَ الْمُغالطاتِ في الموضوعِ . . قولُ أَبي العلاءِ المعريِّ [في « سقطِ الزندِ » ٢٩٦] : [مِنَ الخفيفِ]

خَبِّـرِينِـي مَـاذَا كَـرِهْـتِ مِـنَ الشَّيْـــ ... ـــبِ فَـلاَ عِلْـمَ لِـي بِـذَنْـبِ الْمَشِيـبِ
أَضِيَـاءُ النَّهَـارِ أَمْ وَضَـحُ اللُّـؤْ ... لُـؤِ أَمْ كَـوْنُـهُ كَثَغْـرِ الْحَبِيـبِ
وَاذْكُـرِي لِـي فَضْـلَ الشَّبَـابِ وَمَـا يَجْـــ ... ـــمَـعُ مِـنْ مَنْظَـرٍ يَـرُوقُ وَطِيـبِ
غَـدْرُهُ بِـالْخَلِيـلِ أَمْ حُبُّـهُ لِلْـــ ... ـــغَـيِّ أَمْ أَنَّـهُ كَـدَهْـرِ الأَرِيـبِ

وقالَ آخرُ [في « المستطرف » ٢/٦٩] : [مِنَ البسيطِ]

قَالَتْ : أَرَىٰ مِسْكَةَ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ وَفَتْ ... كَـافُـورَةً أَخْلَقَتْهَـا رَاحَـةُ الـزَّمَـنِ
فَقُلْـتُ : طِيـبٌ بِطِيـبٍ والتَّبَـدُّلُ فِـي ... رَوَائِـحِ الطِّيـبِ أَمْـرٌ غَيْـرُ مُمْتَهَـنِ
قَـالَـتْ : صَـدَقْـتَ وَلَكِـنْ لاَ سَـوَاءَ فَـإِ ... نَّ الْمِسْـكَ لِلْعُـرْسِ وَالْكَـافُـورَ لِلْكَفَـنِ

وبهٰذا ذكرتُ قولَ الآخرِ [في « المستطرف » ٢/٦٩] : [مِنَ البسيطِ]

سَـأَلْتُهَـا قُبْلَـةً يَـوْمـاً وَقَـدْ نَظَـرَتْ ... شَيْبِـي وَقَـدْ كُنْـتُ ذَا مَـالٍ وَذَا نِعَـمِ
فَـأَعْـرَضَـتْ وَتَـوَلَّـتْ وَهْـيَ قَـائِلَـةٌ ... لاَ وَالَّـذِي أَوْجَـدَ الأَشْيَـاءَ مِـنْ عَـدَمِ
مَا كَانَ لِي فِي بَيَاضِ الشَّيْبِ مِنْ أَرَبٍ ... أَفِي حَيَاتِي يَكُونُ الْقُطْنُ حَشْوَ فَمِي

ومِنَ المغالطاتِ فيهِ ، ما سبقَ عَن أَبي تمَّام مِن قولِهِ [في « ديوانهِ » ١/١١٦] : [مِنَ البسيطِ]

[وَلاَ يُـؤَرِّقْـكَ إِيمَـاضُ الْقَتِيـرِ بِـهِ] ... فَـإِنَّ ذَاكَ ابْتِسَـامُ الـرَّأْيِ وَالأَدَبِ

وقد قالَ أَبو الحسنِ عليُّ بنُ طاهرِ بنِ منصورٍ : [مِنَ الخفيفِ]

أَعْـرَضَـتْ حِيـنَ أَبْصَـرَتْ شَعَـرَاتٍ ... فِـي عِـذَارِي كَـأَنَّهُـنَّ الثَّغَـامُ[1]

---

(١) الثغام : نبتٌ علىٰ شكلِ الحليِّ ، يكونُ في الجبلِ أَخضرَ ثم يبيضُّ إذا يبسَ .

قُلْتُ : هَٰذا تَبَسُّمُ الدَّهْرِ ، قَالَتْ : قَـدْ سَعَـىٰ فِـي صُـدُودِكَ الإِبْتِسَـامُ

ويعجبني بمناسبةِ الشيبِ قولُ ابنِ الفارضِ [في « ديوانه » ٤٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَبْعَـدَنِـي عَـنْ أَرْبُعِـي بُعْـدُ أَرْبَـعٍ شَبَـابِـي وَعَقْلِـي وَارْتِيَـاحِـي وَصِحَّتِـي

فَلِـي بَعْـدَ أَوْطَـانِـي سُكُـونٌ إِلَـى الْفَـلاَ وَبِالْوَحْشِ أُنْسِي إِذْ مِنَ الإِنْسِ وَحْشَتِي

وَزَهَّـدَ فِـي وَصْلِـي الْغَـوَانِـيَ إِذْ بَـدَا تَبَلُّـجُ صُبْـحِ الشَّيْـبِ فِـي جُنْـحِ لِمَّتِـي

فَـرُحْـنَ بِحُـزْنٍ جَـازِعَـاتٍ بُعَيْـدَ مَـا فَـرِحْـنَ بِحَـزْنِ الْجَـزْعِ بِـي لِشَبِيبَتِـي

وقد سبقَ ـ في غيرِ هٰذا المجلسِ ـ بعضُ هٰذهِ ، غيرَ أَنَّ كلامَ الشيخِ لا يُملُّ ، وقولُهُ : (وَبِالْوَحْشِ أُنْسِي) هوَ مِن قولِ تأبَّطَ شرّاً ، وقد مرَّ أَيضاً : [مِنَ الطَّويلِ]

عَوَى الذِّئْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذِّئْبِ إِذْ عَوَىٰ وَصَـوَّتَ إِنْسَـانٌ فَكِـدْتُ أَطِيـرُ

وكانَ الربيعُ كثيراً ما ينشدُ : [مِنَ الكاملِ]

لَيْـتَ الْكِـلاَبَ لَنَـا كَـانَـتْ مُجَـاوِرَةً وَإِنَّنَـا لاَ نَـرَىٰ مِمَّـنْ نَـرَىٰ أَحَـدَا

إِنَّ الْكِـلاَبَ لَتَهْـدَا فِـي مَـرَابِضِهَـا وَالنَّـاسُ لَيْـسَ بِهَـادٍ شَـرُّهُـمْ أَبَـدَا

[وقال آخر في « قِرى الضيف » ٤/ ٣٨٣] : [من البسيط]

شَـرُّ السِّبَـاعِ الضَّـوَارِي دُونَـهُ وَزَرٌ وَالنَّـاسُ أَشْـرَارُهُـمْ مَـا دُونَهَـا وَزَرُ

كَـمْ مَعْشَـرٍ سَلِمُـوا لَـمْ يُـؤْذِهِـمْ سَبُـعٌ وَمَـا نَـرَىٰ بَشَـراً لَـمْ يُـؤْذِهِ بَشَـرُ

[قصائد للمؤلف في الموضوع]

ولي فيما يتعلَّقُ بالمشيبِ ما لا ينحطُّ إِلى التقصيرِ ، إِن لم يرتفِعْ إِلى الإِجادَةِ ، منهُ [في « ديوانِ المؤلف » ٣٥٣ـ٣٥٤] :

[مِنَ الكاملِ]

لاَ تُنْكِـرِي أَنْ رَيْـتِ فَـوْدِيَ أَشْيَبَـا أَوَلَيْـسَ أَوْقَـرَ فِـي النُّفُـوسِ وَأَهْيَبَـا

مَـا شِبْـتُ مِـنْ كِبَـرٍ وَلَكِـنْ هِمَّـةٌ مِـنْ شَـأْنِ حَـامِـلِ مِثْلِهَـا أَنْ يَتْعَبَـا

وَسَلِـي الـزَّمَـانَ يُفِـدْكِ عَـنْ صَبْـرِي لَـهُ وَسَتَعْـذُرِينِـي إِنْ سَـأَلْـتِ عَـنِ النَّبَـا

مَـا زِلْـتُ أَعْـرِكُ أُذْنَـهُ وَغَنِمْـتُ إِذْ أَخَـذَ الْغُـرَابَ عَلَـيَّ بَـازٍ أَشْهَبَـا

يَجْلُـو دُجَـىٰ شَعْـرِي صَبَـاحُ تَجَـارِبِـي وَكَـذَاكَ ضَـوْءُ الصُّبْـحِ يَجْلُـو الْغَيْهَبَـا

مَـا فَـلَّ مِنْ عَـزْمِي الْمَشِيبُ وَلَمْ يَكُـنْ لِيَـزِيـدَنِـي إِلاَّ مَضَـاءً فِـي إِبَـا

فَـلأُجْـرِيَـنَّ الْعَـزْمَ مِـلْءَ عِنَـانِـهِ حَتَّـىٰ يُبَلِّغَنِـي سُـرَاهُ الْمَطْلَبَـا

وَلأَنْفُضَـنَّ الْعَجْـزَ فِـي نَصْـرِ الْهُـدَىٰ عَنِّـي فَـإِنَّ السَّيْـلَ قَـدْ بَلَـغَ الـزُّبَـىٰ[1]

(١) هٰذا مثل أورده الميداني في « مجمع الأمثال » (٤٣٦) ويضرب لما جاوز الحدَّ .

ومن أُخرىٰ تقدمْتُ بِها يومَ لاقيتُ الإمامَ[1] ـ حفظَهُ اللهُ تعالىٰ ـ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكَـابَـدْتُ فِـي سَيْـرِي إِلَيْـكَ مَصَـاعِبـاً ... بِهَا قَبْلَ وَقْتِ الشَّيْبِ مِنِّي وَهَى الْعَظْمُ
وَإِنْ قُمْـتُ فِـي وَجْـهِ الـوَذِيلَـةِ لاَحَ لِـي ... بَيَـاضٌ بِـهِ اغْتَـاصَـتْ غَـدَائِـرِيَ السُّحْـمُ[2]

ولمَّا بلغَتْ مطيَّتي ذروَةَ العقدِ الخامسِ ، ورأَيتُ ما رأَيتُ من عوارضِ المشيبِ ، جاشَتِ الجائشَةُ ، **فقلتُ في** معارضَةِ الشريفِ الرضيِّ [في « ديوانِ المؤلف » ٢٠٧ـ٢١٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

عَـذِيـرِي مِـنَ الْخَمْسِينَ حَلَّـتْ بِعَقْـوَتِـي ... وَمِـنْ مُـوجِعَـاتِ الـدَّهْـرِ تَنَقَـضُ قُـوَّتِـي[3]
وَبِيضٍ بِمَـرْأَى الْعَيْنِ سُـودٌ لَـدَى النُّهَـىٰ ... تَحَكَّمْـنَ فِـي رَأْسِـي وَوَجْهِـي بِسَطْـوَةِ
وَفَضْـلِ أَدِيـمٍ لاَحَ لِـي مِـنْ وَذِيلَـةٍ ... ضُحىً فَاسْتَحَالَتْ ظُلْمَةً مِنْهُ صَحْوَتِي
فُضُـولٌ بِـلاَ فَضْـلٍ وَنُـورٌ بِـلاَ بَهَـا ... وَرَكْـضٌ عَلَـىٰ شَهْبَـاءَ تَجْـرِي لِهُـوَّةِ
عَلَـىٰ أَنَّنِـي لَـمْ أُعْـطِ فَضْـلَ مَقَـادَتِـي ... لِضَعْفٍ وَلَمْ تَقْصُرْ عَنِ الْمَجْدِ خُطْوَتِي
فَـلاَ يَشْمَـتِ الأَعْـدَاءُ فَـالْضَّـرْعُ حَـافِـلٌ ... وَمَـا فَـاتَ مِمَّـا فِـي الإِنَـا غَيْـرُ رِغْـوَةِ
لَقَـدْ طَـارَ عَـنْ فَـوْدِي الْغُـرَابُ وَإِنَّمَـا الْـعِـرَابُ تَـرَانِـي وَاثِبـاً كُـلَّ صَهْـوَةِ[4]
فَمَـا خَـانَنِـي صُنْـعُ الْمَشِيـبِ بِلِمَّتِـي ... وَلاَ فَـلَّ مِـنْ عَـزْمِـي وَلاَ مِـنْ فُتُـوَّتِـي
وَلاَ غَـضَّ حَتَّـىٰ مِـنْ عِنَـانِ صَبَـابَتِـي ... وَلاَ رَيْـتُ مَـنْ بِيضِ الـدُّمَـىٰ نَـوْعَ جَفْـوَةِ[5]
وَلاَ ذَلَّلَـتْ هُـوجُ الْخُطُـوبِ مَطَـامِحِـي ... وَلاَ قَـرَّعَـتْ سُـودُ الْمَصَـائِـبِ مَـرْوَتِـي[6]
حُسَـامٌ يَمَـانِـيٌّ يَـزِيـدُ مَضَـاؤُهُ ... إِذَا رَقَّ جِسْمـاً عَـادَ مَـأْمُـونَ نَبْـوَةِ
قُيُـونُ امْتِحَـانٍ زِنَّ مَـرْأَىٰ فِـرِنْـدِهِ ... وَأَعْـدَدْنَـهُ لِلْفَتْـكِ فِـي كُـلِّ هَبْـوَةِ[7]
تَقَلَّبْتُ فِـي خِصْـبِ الـزَّمَـانِ وَبُـؤْسِـهِ ... فَمَـا عَلِقَـتْ مِنِّـي اللَّيَـالِـي بِهَفْـوَةِ
قَـرِيـبٌ لَـدَى السَّـرَّاءِ لَيِّـنُ جَـانِـبٍ ... وَفِـي حَـالَـةِ الضَّـرَّاءِ تَشْتَـدُّ نَخْـوَتِـي
فَلَـمْ يَنْتَقِصْنِـي الْفَقْـدُ حَبَّـةَ خَـرْدَلٍ ... وَلاَ زَادَ فِـيَّ الْـوَجْـدُ آثَـارَ نَشْـوَةِ
وَرَاجَعْـتُ أَعْمَـالِـي فَلَـمْ أَرَ نُقْطَـةً ... تَمَـسُّ بِتَـارِيخِـي النَّقِـيِّ لِصَبْـوَةِ
وَلَكِنَّهَـا فَضْـلٌ وَنُبْـلٌ وَعِفَّـةٌ ... صَعِـدْتُ بِهَـا فِـي الْمَجْـدِ أَمْنَـعَ ذِرْوَةِ
وَقُـورٌ إِذَا خَـفَّ الْحَلِيـمُ وَرَابِـطٌ ... لَـدَى الْهَـوْلِ لاَ تَنْحَلُّ لِلْخَطْبِ حَبْـوَتِي
وَإِنْ نَـالَـتِ الأَيَّـامُ مِنِّـي بِحَـرْبِهَـا ... أَذَاةً فَفِـي خَيْـرِ النَّبِيِّـنَ أُسْـوَتِـي

---

(١) لعله الإمام : يحيىٰ حميد الدين إمام اليمن . . حيث كانت له صلة ومواصلة بالمؤلف .
(٢) **الوَذيلَةُ** : المرآةُ .
(٣) **عذيري من الخمسينَ** : هاتِ للخمسينَ سنةً عذراً فيما فعلَتْ بي . **حلَّت بعَقوتي** : نزلت بساحتي .
(٤) **طارَ عن فَوديَّ الغرابُ** : ذهبَ عن رأسي الشعرُ الأسودُ . **العِرابُ** : الخيلُ التي ليسَ فيها عِرقٌ هجينٌ .
(٥) **الدُّمىٰ** : يريدُ بها النساءَ .
(٦) **هوجُ الخطوب** : الأحدَاثُ الشديدةُ . **مَروتي** : صخرتي ، وأَصلُ المروِ الصخرُ الأملسُ .
(٧) **قُيُونٌ** : جمعُ قينٍ ، وهو الحدَّادُ . **الهبوَةُ** : الغبارُ ، يريدُ الحربَ .

وَفِيمَا جَرَىٰ لِلْمُرْتَضَىٰ وَلِزَوْجِهِ وَأَوْلَادِهِ فِي سَاعَةِ الْكَرْبِ سَلْوَتِي
فَلاَ تَضْحَكُ الأَيَّامُ إِلاَّ لِسَفْلَةٍ وَلاَ تَلْتَقِي الأَبْطَالُ إِلاَّ بِعُنْوَةِ
فَكَمْ كَابَدُوا فِي الْحَقِّ مِنْ مِحْنَةٍ وَكَمْ لَقُوا مِنْ بَلاَيَا كُلَّ مُمْسٍ وَغُدْوَةِ
وَلَوْلاَهُمُ لِلدِّينِ مَا قَامَ قَائِمٌ وَلاَ أَصْبَحَ الإِسْلاَمُ رَوْضاً بِرَبْوَةِ
وَلَكِنْ جِهَادٌ فِيهِ تَسْتَبِقُ الطُّلاَ وَأَجْسَادُهَا بَعْدَ احْتِجَاجٍ وَدَعْوَةِ[1]
حُرُوبٌ إِذَا عَضَّتْ رَحَاهَا ثِفَالُهَا فَمَا ثَمَّ إِلاَّ الْهَامُ فِي كُلِّ لَهْوَةِ[2]
أَذَالُوا لَهَا تَحْتَ الْقَسَاطِلِ أَوْجُهاً تَشُقُّ الدُّجَا ، فِيهَا ضِيَاءُ النُّبُوَّةِ[3]
أُولَئِكَ آبَائِي وَعِزِّي وَسُؤْدُدِي وَفَخْرِي وَذُخْرِي وَاعْتِصَامِي وَقُدْوَتِي
جَرَىٰ فِي عُرُوقِي حُبُّهُمْ وَبِجَاهِهِمْ لِيَ الأَمْنُ فِي الدَّارَيْنِ مِنْ كُلِّ شَقْوَةِ
إِذَا زَارَنَا مِنْهُمْ خَيَالٌ تَضَوَّعَتْ رُبَانَا بِأَزْكَىٰ مِنْ أَرِيجِ الأُلُوَّةِ[4]
سَأَمْضِي عَلَىٰ آثَارِهِمْ جُهْدَ طَاقَتِي وَإِنْ صَدَّنِي شَعْبِي وَقَوْمِي وَإِخْوَتِي
فَفِينَا خُلُوفٌ مِنْ بَنِيهِمْ تَنَكَّبُوا طَرِيقَتَهُمْ ظُلْماً لِحَقِّ الأُبُوَّةِ
مَذَامِيمُ لاَ بَغْياً أَهَانُوا ، وَلاَ هُدىً أَعَانُوا ، وَلَكِنْ فِي رِضَا كُلِّ شَهْوَةِ
وَيَا لَيْتَهُمْ كَانُوا كَفَافاً وَلاَ اعْتَدَوْا وَلاَ فَتَحُوا لِلشَّرِّ أَشْأَمَ كُوَّةِ
مَنَاسِبُ عَنْ مَرْقَاتِهَا الطَّعْنُ يَرْتَمِي وَلَكِنَّمَا الأَعْمَالُ ضِدُّ الْبُنُوَّةِ[5]
يَعُدُّونَ إِعْلاَنِي الصَّوَابَ جَرِيمَةً وَيَفْرُونَنِي إِنْ كُنْتُ عَنْهُمْ بِنَجْوَةِ
تَغَرَّبْتُ عُقْرَ الدَّارِ فِيهِمْ فَجُلُّهُمْ يَقُولُونَ : تَعْساً لاَ لَعاً عِنْدَ كَبْوَتِي[6]
وَكَمْ فَتَلُوا لِي فِي الْغَوَارِبِ وَالذُّرَىٰ وَكَمْ رَوَّجُوا مَيْناً لِكَيْدِي بِرِشْوَةِ
فَلَمْ يَجِدُوا بِالْعَجْمِ فِي الْعُودِ مَغْمَزاً وَلاَ هِمَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ بِرَخْوَةِ[7]
وَكَمْ قَدْ تَحَدَّيْتُ الْمُرَابِينَ فَانْثَنَوْا وَهَابُوا كِفَاحِي فِي الْجِدَالِ بِجَلْوَةِ
وَكَمْ بِدْعَةٍ أَحْيَوْا وَكَمْ سُنَّةٍ مَحَوْا فَقَدْ لَبِسُوا الإِسْلاَمَ مَقْلُوبَ فَرْوَةِ
وَمَا لِي سِوَىٰ حُسْنِ انْتِظَارِي عِنَايَةً مِنَ اللهِ لِي مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ وَقُوَّةِ
وَوَعْدٍ مِنَ الْمَوْلَى الإِمَامِ بِنَجْدَةٍ غَدَا نَجْزُهَا مِنِّي عَلَىٰ قَابِ غَلْوَةِ[8]

---

(١) **الطُّلا** : الأعناقُ .

(٢) **ثِفالُها** : جمعُ ثِفالٍ ككتابٍ ، وهوَ جلدٌ يوضعُ تحت الرحىٰ يقعُ عليهِ الدقيقُ ، وهو مثلٌ لشدَّةِ الحربِ ، وفي حديث عليٍّ رضي الله عنه : « وتدقُّهم الفتنُ دقَّ الرحىٰ بثفالِها » ، أي : تدقُّهم دقَّ الرحىٰ للحبِّ إذا كانت مثفَّلة ، ولا تثفلُ إلا عندَ الطحنِ . **اللهوةُ** : ما يُلقىٰ في فمِ الرحىٰ من الحبوبِ للطحنِ .

(٣) **أذالوا** : أماتوا واسترخصوا في سبيلها . **القساطلُ** : غبارُ الحربِ .

(٤) **تضوَّعت** : فاحت . **أريجُ** : رائحة . **الألُوَّةُ** : العودُ الذي يتبخَّرُ به .

(٥) **المَناسبُ** : أنسابهم شريفةٌ عاليةٌ ، ولكنَّ أعمالَهم سيئةٌ ضدَّ ما ينتسبونَ إليهِ .

(٦) **لا لعاً** : لا انتعاشَ لك من كبوتكَ ، يقولُ العربُ في الدعاءِ عليهِ : تعساً لا لَعاً لهُ .

(٧) **العَجمُ في العودِ** : يقالُ : عجمَ العودَ ، إذا لاكهُ للاختبارِ .

(٨) **الغَلوةُ** : قدرُ رميةِ السهمِ .



وَبِـالْخَمْسَـةِ الأَرْوَاحِ أَسْتَجْلِـبُ الْمُنَـىٰ   وَأَسْتَـدْفِـعُ الْبَلْـوَىٰ فَهُـمْ خَيْـرُ عُـرْوَةِ

ولمَّا تقاطرتِ الفصولُ ، واتسقتِ المواضيعُ ، وأخذَ الكلامُ برقابِ بعضِهِ . . لم يُمكِنَّا قطعهُ ، معَ رقَّةِ الانسجام ، وخفَّةِ النسيمِ ، وجمالِ الديباجَةِ ، وقلَّةِ الفضولِ ، وعدمِ الحشوِ ، وكنتُ أكرهُ أن أُثقلَ بمثلِها مِن شعري ، ثمَّ رأيتُ أنَّ المنصفَ لَن يزيدَ بها إلاَّ ارتياحاً ، وأمَّا البغيضُ . . فكلُّ ما أقولُ ثقيلٌ عليهِ ، ولو من بعيدٍ ، فأَجرَرْتُها رسنَ القلمِ ، لتزيدَ المقيتَ غيظاً ، وتفيضَ الإحسانَ فيضاً ، وممَّا لي أيضاً في الموضوعِ قولي [في « ديوانِ المؤلفِ » ٢٩٤] :   [مِنَ البسيطِ]

رُدُّوا عَلَـىٰ لِمَّتِـي الْحِبْـرَ الَّـذِي نَصَـلاَ   حَتَّـىٰ أُطَـالِـعَ مَـا فِـي عَهْـدِهِ حَصَـلاَ[١]

فَـإِنَّهَـا ذِكْـرَيَـاتٌ كُلَّمَـا ابْتَسَمَـتْ   لِلْقَلْـبِ آنَـسَ مِنْهَـا نَشْـوَةً فَسَـلاَ

مَـرْسُـومَـةٌ فِـي ضَمِيـرِي وَهْـيَ جَـالِيَـةٌ   مِـنَ الْمَحَاسِـنِ يَكْسُوهَـا الْهَـوَىٰ حُلَـلاَ

مَـرَّ الـزَّمَـانُ بِهَـا عَجْلَـىٰ وَعَـوَّضَنِـي   عَنْهَـا حُلُـومـاً فَلَـمْ أَقْنَـعْ بِهَـا بَـدَلاَ

كَـأَنَّ قَـادِمَتَـيْ نَسْـرٍ تَعَلَّقَتَـا   فِيهَـا فَـوَلَّـتْ سِـرَاعـاً بَيْـنَ لاَ وَبَلَـىٰ[٢]

أَلْفَيْـتُ كُـلَّ مُصَـابٍ جَـلَّ مَـوْقِعُـهُ   فِي جَنْبِ مَا فَاتَنِي مِنْ صَفْوِهَا جَلَلاَ

فِيهَـا أَرَى الْبَـالَ رِخْـواً ، وَالزَّمَـانَ رِضـاً   وَالْعَيْـشَ غَضّـاً ، وَأَسْبَـابَ الْمُنَـىٰ ذُلُـلاَ

وَالْجَـوَّ طَلْقـاً ، وَشَمْـلَ الأُنْـسِ مُجْتَمِعـاً   وَالْحَـظَّ يَبْسُـطُ فِـي إِقْبَـالِـهِ الأَمَـلاَ

وهيَ مِن نوعِ السابقَةِ ، علىٰ أنَّهَا أَشدُّ متناً ، وأَكثرُ حسناً ، وأَجملُ شارَةً ، وأَحلىٰ إشارَةً .

[من فوائد الشيب أنه يردع عن الغي]

والكلامُ يطولُ في فوائِدِ الشيبِ ، ومنها : ردعهُ عَنِ الْغيِّ .

قالَ مسلمَةُ بنُ عبدِ الملكِ : ما وعظَني شِعْرٌ ما وعظَني قولُ عمرانَ بنِ حِطَّانَ [في « ديوانِ دريدِ بنِ الصمةِ » ٥٠] :   [مِنَ الطَّويلِ]

صَبَـا مَـا صَبَـا حَتَّـىٰ عَـلاَ الشَّيْـبُ رَأْسَـهُ   فَلَمَّـا عَـلاَهُ قَـالَ لِلْبَـاطِـلِ : ابْعَـدِ

وقالَ دِعْبِلٌ [في « ديوانه » ١٠٢ـ١٠٣] :   [مِنَ الكاملِ]

أَهْـلاً وَسَهْـلاً بِـالْمَشِيـبِ فَـإِنَّـهُ   سِمَـةُ الْعَفِيـفِ وَحِلْيَـةُ الْمُتَحَـرِّجِ

ضَيْـفٌ أَلَـمَّ بِمَفْـرِقِـي فَقَـرَيْتُـهُ   رَفْـضَ الْغَـوَايَـةِ وَاقْتِصَـادَ الْمَنْهَـجِ

وقالَ الببغا :   [مِنَ البسيطِ]

لاَ عُـذْرَ بَعْـدَ عِـذَارٍ شَـابَ أَكْثَـرُهُ   فَـالشَّيْـبُ أَوْعَـظُ إِعْـذَارٍ وَإِنْـذَارِ

وقالَ ابنُ أَبي طاهرٍ :   [مِنَ الطَّويلِ]

رَكِبْتُ الصِّبَـا حَتَّـىٰ إِذَا مَـا وَنَـى الصِّبَـا   نَـزَلْـتُ مِـنَ التَّقْـوَىٰ بِـأَكْـرَمِ مَنْـزِلِ

وَدِيـنُ الْفَتَـىٰ بَيْـنَ التَّنَسُّـكِ وَالنُّهَـىٰ   وَدُنْيَـا الْفَتَـىٰ بَيْـنَ الصِّبَـا وَالتَّغَـزُّلِ

---

(١) اللِّمَّةُ : الشَّعرُ المجاورُ شحمةَ الأُذنِ . الحبرُ : المقصودُ به هنا سوادُ الشَّعرِ الذي ذهبَ وحلَّ مكانهُ الشيبُ .

(٢) قادِمَتَيْ نسرٍ : ريشاتٌ في مقدَّمِ جناحيهِ .

وما أَحسنَ قولَ الإمامِ ابنِ دقيقِ العيدِ [في « شذرات الذهب » ٣/٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَمَنَّيْتُ أَنَّ الشَّيْبَ عَاجَلَ لِمَّتِي ... وَقَرَّبَ مِنِّي فِي صِبَايَ مَزَارَهُ
لآخُذَ مِنْ عَصْرِ الشَّبَابِ نَشَاطَهُ ... وَآخُذَ مِنْ عَصْرِ الْمَشِيبِ وَقَارَهُ

ونظرَ إياسُ بنُ معاويةَ إلىٰ شعرةٍ بيضاءَ لاحَتْ في لحيتِهِ . . فقالَ : واللهِ لا أَراني سميراً بعدَها لحاجاتِ بني تميمٍ ، فلزمَ بيتَهُ ، ولَم يدخُلْ بعدَ ذلكَ على السلطانِ .

وكانَ الواحدُ مِنَ السلفِ الطيِّبِ إذا بلغَ الأَربعينَ . . حمَلَ عَصا السفرِ ، وطوىٰ فراشَ النومِ ، وأَقبلَ علىٰ عملِ الآخرَةِ ، ومَن لَم يردعْهُ الشيبُ عَنِ الغوايَةِ ، ولم يأخذْ بعَنَانِهِ إلىٰ طُرُقِ الهدايَةِ . . فقد تُوُدِّعَ مِنهُ ، ومِنْ هـٰؤلاءِ أَبو نواسٍ ؛ بشهادَةِ قولِهِ [في « ديوانه » ٢٨٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

يَقُولُونَ فِي الشَّيْبِ الْوَقَارُ بِأَهْلِهِ ... وَشَيْبِي بِحَمْدِ اللهِ غَيْرُ وَقَارِ[1]

وفي « صحيحِ مسلمٍ » : « **إِنَّ أَبْغَضَ الخلقِ إِلَى اللهِ . . شَيْخٌ زَانٍ** »[2] .

وقالَ بعضُ المتهوِّرينَ : [مِنَ الطَّويلِ]

لَعَمْرِي لَئِنْ حَلَّ الْمَشِيبُ بِلِمَّتِي ... لَقَدْ كَانَ مَا أَحْلَلْتُ بِالشَّيْبِ أَعْظَمَا
سَلِ الشَّيْبَ عَنِّي هَلْ عَرَفْتُ وَقَارَهُ ... وَهَلْ عِفْتُ حَوْباً أَوْ تَجَنَّبْتُ مَأْثَمَا ؟

وقالَ آخرُ : [مِنَ الكاملِ]

إِنْ يَكْتَهِلْ مِنِّي الْقَذَالُ فَإِنَّنِي ... فِي الْغَانِيَاتِ وَحُبِّهِنَّ غُلاَمُ

ومِنهم من يرتدعُ نوعاً ، ومِنْ هـٰؤلاءِ بشَّارٌ في قولِهِ [في « ديوانه » ١٨٩ـ١٩٠] : [مِنَ الكاملِ]

إِنَّ الْمَشِيبَ وَمَا تَرَىٰ بِمَفَارِقِي ... صَرَفَ الْغَوَايَةَ فَانْصَرَفْتُ كَرِيمَا
وَصَحَوْتُ إِلاَّ مِنْ لِقَاءِ مُحَدِّثٍ ... حَسَنِ الْحَدِيثِ يَزِيدُنِي تَعْلِيمَا

والبُحتريُّ في قولِهِ [في « ديوانه » ٢/١٠٧١] : [مِنَ الكاملِ]

إِنِّي وَإِنْ جَانَبْتُ بَعْضَ بِطَالَتِي ... وَتَوَهَّمَ الْوَاشُونَ أَنِّيَ مُقْصِرُ
لَيَشُوقُنِي سِحْرُ الْعُيُونِ الْمُجْتَلَىٰ ... وَيَرُوقُنِي وَرْدُ الْخُدُودِ الأَحْمَرُ

---

(١) قالوا : إنَّ الرشيدَ لمَّا سمعَ هـٰذهِ القصيدةَ . . أنكرَ هـٰذا البيتَ ، وقالَ للفضلِ : قل لهـٰذا الماجنِ : أتقولُ : إنَّ الشيبَ غيرُ وقارٍ وهـٰذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : « **لا يشيبُ المؤمنُ في الإسلامِ إلا كانَ ذلكَ حجاباً لهُ من النارِ ؟!** » فلمَّا أُحضِرَ وسئِلَ . . قالَ : لا أُنكرُ الوقارَ في الشيبِ ، ولا ما جاءَ الخبرُ بهِ ، ولكنِّي قلتُ : وشيبيْ أنا غيرُ وقارٍ ؛ لِما أجاوزُ به من تعجيلِ الذنوبِ وتأخيرِ التوبةِ ، والبيتُ الذي بعدهُ يشهدُ لي ، فلمَّا أُخبرَ الرشيدُ بقولِهِ . . ضحكَ ، وقالَ : هوَ أعلمُ بسريرتِهِ وقبحِ عملِهِ .
والبيتُ الذي بعده :

إِذَا كُنْتُ لاَ أَنْفَكُّ عَنْ طَاعَةِ الْهَوَىٰ ... فَإِنَّ الْهَوَىٰ يَرْمِي الْفَتَىٰ بِبَوَارِ

(٢) طرف حديث أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مسلم (١٠٧) في الإيمان وهو قوله : « **ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر** » .

ولَولا ما عُرِفَ مِن حالِ بشَّارٍ ، وتهتُّكِهِ. . لَمَا كانت بيتاهُ إلاَّ دليلاً كافياً علىٰ صحَّةِ توبتِهِ ، وصدقِ أَوبتِهِ ، ولكنَّا توسَّطْنا في الحكمِ عليهِ ؛ إِذ جعلناهُ مِنَ الْمُذبذَبينَ .

ومعَ ما أَكثرَ الناسُ مِنَ الْبكاءِ على الشبابِ ، والتأَسُّفِ علىٰ أَيَّامِهِ ، حتَّىٰ قالَ بعضُهُم [في «قرى الضيف» ٤/ ٨٤] : [مِنَ الكاملِ]

شَيْئَانِ لَوْ بَكَتِ الدِّمَاءَ عَلَيْهِمَا ... عَيْنَاكَ حَتَّىٰ يُؤْذِنَا بِذَهَابِ

لَمْ يَبْلُغَا الْمِعْشَارَ مِنْ حَقَّيْهِمَا ... فَقْدُ الشَّبَابِ وَفُرْقَةُ الأَحْبَابِ

[من لطف الله بالعباد أنهم لا يحسون للشيب ألماً]

. . فإِنَّ مِن لُطفِ اللهِ بعبادِهِ أَنَّهم لا يُحِسُّونَ لَه أَلماً ؛ لأَنَّهُ لا يجيءُ إِلاَّ تدريجاً ؛ ولهـٰذا قالوا [ومنهم الشعبيُّ في « المستطرف » ٢/ ٦٩] : إِنَّ الشيبَ علَّةٌ لا يعادُ مِنها ، ومصيبةٌ لا يعزَّىٰ علَيها .

قالَ محمودٌ الورَّاقُ [في « البيان والتبيين » ١/ ٤٨٤] : [مِنَ المتقاربِ]

أَلَيْسَ عَجِيباً بِأَنَّ الْفَتَىٰ ... يُصَابُ بِبَعْضِ الَّذِي فِي يَدَيْهْ

فَمِنْ بَيْنِ بَاكٍ لَهُ مُوجَعٍ ... وَبَيْنِ مُعَنًّىٰ مُعَزٍّ إِلَيْهْ

وَيَسْلُبُهُ الدَّهْرُ سَلْخَ الشَّبَا ... بِ وَلَيْسَ يُعَزِّيهِ خَلْقٌ عَلَيْهْ

وقالَ محمَّدُ بنُ الحسنِ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَرَى الشَّيْبَ مُذْ جَاوَزْتُ خَمْسِينَ حِجَّةً ... يَدِبُّ دَبِيبَ الصُّبْحِ فِي غَسَقِ الظُّلَمْ

هُوَ السُّقْمُ إِلاَّ أَنَّهُ غَيْرُ مُؤْلِمٍ ... وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الشَّيْبِ سُقْماً بِلاَ أَلَمْ

[البكاء خوفاً من الشيء قبل وقوعه]

أَمَّا بكاءُ الناظِمِ لشيبِهِ في أَيَّامِ شبابِهِ. . فعلىٰ حدِّ **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٢٤] : [مِنَ الوافرِ]

أَشَدُّ الغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ ... تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالاَ

وقد تكرَّرَ في « **ديوانِهِ** » ، فمنْهُ **قولُهُ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٦٢] : [مِنَ الكاملِ]

قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُ بَيْنَهُمْ مِنْ قَبْلِهِ ... لَوْ كَانَ يَنْفَعُ حَائِناً أَنْ يَحْذَرَا

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٨٩] : [مِنَ الوافرِ]

أَرَىٰ أَسَفِي وَمَا سِرْنَا بَعِيداً ... فَكَيْفَ إِذَا غَدَا السَّيْرُ ابْتِرَاكَا ؟

وقولُهُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَنْ كَانَ فِي السَّرَّاءِ فِي حَالِ مُعْجَبٍ ... فَمَحْصُولُهُ مِنْهَا عَلَىٰ حَالِ نَادِمِ

وبعضُهُ مِن قولِ سُحيمٍ [في « ديوانِهِ » ٥٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَشَوْقاً وَلَمَّا يَمْضِ لِي غَيْرُ لَيْلَةٍ ؟ ... فَكَيْفَ إِذَا جَدَّ الْمَطِيُّ بِنَا عَشْرَا ؟!

وقالَ أَشجعُ [في « ديوانهِ » ٢٢٦] : [مِنَ المتقاربِ]

فَهَـا أَنْـتَ تَبْكِـي وَهُـمْ جِيـرَةٌ ... فَكَيْـفَ تَكُـونُ إِذَا وَدَّعُـوا ؟!

وقالَ آخرُ : [مِنَ الطَّويلِ]

لَقَـدْ كُنْـتُ أَبْكِـي خِيفَـةً لِفِـرَاقِـهِ ... فَكَيْـفَ إِذَا بَـانَ الْحَبِيـبُ وَوَدَّعَـا

وقالَ قيسٌ [ابن ذريح في « الأغاني » ٩/ ٢٥٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَـدْ كُنْـتُ أَبْكِـي وَالنَّـوَىٰ لاَ أَظُنُّـهُ ... بِنَـا وَبِكُـمْ لَـمْ نَـدْرِ مَـا هُـوَ صَـانِـعُ[١]

وقالَ أبو المطاعِ ذو القرنينِ بنُ حمدانَ : [مِنَ الطَّويلِ]

لَقَـدْ كَـانَ شَكِّـي فِـي الْفِـرَاقِ يَـرُوعُنِـي ... فَكَيْـفَ يَكُـونُ الْيَـوْمَ وَهْـوَ يَقِيـنُ ؟

وقالَ قيسٌ أيضاً [المجنونُ في « ديوانهِ » ٢٧٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنِّـي لأَبْكِـي الْيَـوْمَ مِـنْ حَـذَرِي غَـداً ... فِـرَاقَـكِ وَالْحَيَّـانِ مُجْتَمِعَـانِ

وقالَ الأَحوصُ [في « ديوانهِ » ١٢٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَـدْ كُنْـتُ أَبْكِـي وَالنَّـوَىٰ مُطْمَئِنَّـةٌ ... بِنَا وَبِكُمْ ؛ مِنْ خَوْفِ مَا الْبَيْنُ صَانِعُ[٢]

وقالَ كُثَيِّرُ بنُ عبدِ الرحمٰنِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَيْـسَ عَلَـىٰ شَحْـطِ النَّـوَىٰ كَثْـرَ الْبُكَـا ... لَقَـدْ كُنْـتُ أَبْكِـي وَالْمَـزَارُ قَـرِيـبُ

وأنشدَ ثعلبٌ للعبَّاسِ بنِ الأَحنفِ [في « ديوانه » ٣٣] : [مِنَ المنسرحِ]

قَـدْ كُنْـتُ أَبْكِـي وَأَنْـتِ رَاضِيَـةٌ ... حِـذَارَ هَـٰذَا الصُّـدُودِ وَالْغَضَـبِ

وقالَ الحماسيُّ [في « ديوان الحماسة » ٢/ ١٢٤] : [مِنَ الوافرِ]

فَيَبْكِـي إِنْ نَـأَوْا شَـوْقـاً إِلَيْهِـمْ ... وَيَبْكِـي إِنْ دَنَـوْا خَـوْفَ الْفِـرَاقِ

ولا يَبعدُ عمَّا نحنُ فيهِ قولُ عروةَ بنِ أُذينةَ [في « ديوانهِ » ١٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

كَـأَنَّ خُـزَامَـىٰ طَلَّـةٍ صَـاغَهَـا النَّـدَىٰ ... وَفَـأْرَةَ مِسْـكٍ ضَمَّنَتْهَـا ثِيَـابُهَـا[٣]

إِذَا اقْتَـرَبَـتْ سَعْـدَىٰ لَهِجْـتَ بِحُبِّهَـا ... وَإِنْ تَغْتَـرِبْ يَـوْمـاً يَـرُعْـكَ اغْتِـرَابُهَـا

وَكِـدْتَ لِـذِكْـرَاهَـا تَطِيـرُ صَبَـابَـةً ... وَغَـالَبْـتَ نَفْسـاً زَادَ شَـوْقـاً غِـلاَبُهَـا

فَفِـي أَيِّ هَـٰذَا رَاحَـةٌ لَـكَ عِنْـدَهَـا ؟! ... سَـوَاءٌ لَعَمْـرِي نَـأْيُهَـا وَاقْتِـرَابُهَـا

---

(١) النَّوىٰ هنا : البُعدُ .

(٢) النَّوىٰ هنا : الدارُ .

(٣) الخُزامىٰ : نباتٌ طيِّبُ الرائحةِ ، من فصيلةِ الزنبقيّاتِ . طلَّةٌ : المطرُ الخفيفُ الضعيفُ . فأرةُ المسكِ : وعاء المسكِ .

وقد مرَّ بعضُ ما يشبهُ هـٰذا في المجلسِ الثاني ، قبيلَ قولِ الناظمِ [في « العُكبَريِّ » ١/٢٩٧] : [مِنَ المنسرحِ]

بَـانُـوا بِخُـرْعُـوبَـةٍ لَهَـا كَفَـلٌ ... يَكَـادُ عِنْـدَ الْقِيَـامِ يُقْعِـدُهَـا[1]

وفي المجلسِ الثاني عشرَ في الكلام علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/٣٣٢] : [مِنَ الكاملِ]

مَـا لاَحَ بَـرْقٌ أَوْ تَـرَنَّـمَ طَـائِـرٌ ... إلاَّ انْثَنَيْـتُ وَلِـي فُـؤَادٌ شَيِّـقُ

[لله در الأمل ما أعظمه]

هـٰذا ، والشوطُ بطينٌ ، والدنيا تعَبٌ ، والافتراقُ نكَدٌ ، والعيشُ ضيِّقٌ ، والراحَةُ مُحالٌ ، ولكنْ ما أَحسنَ قولَ الطغرائيِّ [في « ديوانهِ » ٣٠٦] : [مِنَ البسيطِ]

أُعَلِّـلُ النَّفْـسَ بِـالآمَـالِ أَرْقُبُهَـا ... مَـا أَضْيَـقَ الْعَيْـشَ لَـوْلاَ فُسْحَـةُ الأَمَـلِ

وكانَ ابنُ الخطَّابِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ يستحسنُ قولَ عبدَةَ بنِ الطيِّبِ [في « ديوانهِ » ٧٥] : [مِنَ البسيطِ]

وَالْمَـرْءُ سَـاعٍ لأَمْـرٍ لَيْـسَ يُـدْرِكُـهُ ... وَالْعَيْـشُ شُـحٌّ وَإِشْفَـاقٌ وَتَـأْمِيـلُ[2]

وقد مرَّ ـ في غيرِ هـٰذا المجلسِ ـ بعضُ ما يتعلَّقُ بالأَمانيِّ ، ونزيدُ هُنا أَنَّ العمادَ الكاتِبَ أَغارَ علىٰ بيتِ الطغرائيِّ فقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا هَـٰذِهِ الأَيَّـامُ إلاَّ صَحَـائِـفٌ ... نُـؤَرِّخُ فِيهَـا ثُـمَّ نُمْحَـىٰ وَنُمْحَـقُ
وَلَـمْ أَرَ عَيْشـاً مِثْـلَ دَائِـرَةِ الْمُنَـىٰ ... تُـوَسِّعُهَـا الآمَـالُ وَالْعَيْـشُ ضَيِّـقُ

وقالَ آخرُ [أبو الفتح البُستي كما في « النجوم الزاهرة » ٤/٢٢٩] : [مِنَ الوافرِ]

أُعَلِّـلُ بِـالْمُنَـىٰ قَلْبِـي لأَنِّـي ... أُفَـرِّجُ بِـالأَمَـانِـي الْهَـمَّ عَنِّـي
وَأَعْلَـمُ أَنَّ وَصْلَـكِ لاَ يُـرَجَّـىٰ ... وَلَكِـنْ لاَ أَقَـلَّ مِـنَ التَّمَنِّـي

وقالَ أَبو الحسينِ الجزَّارُ : [مِنَ الخفيفِ]

لَيْتَ شِعْـرِي مَـا الْعُـذْرُ لَـوْلاَ قَضَـاءُ الـ ... ـلَّـهِ فِـي رِزْقِـهِ وَفِـي حِـرْمَـانِـي
وَلَقَـدْ كِـدْتُ أَنْ أَهِيـمَ بِحَمْـلِ الـسَّـ ... ـهْـمِ لَـوْلاَ تَعَلُّلِـي بِـالأَمَـانِـي

وقالَ أَبو عبادَةَ : [مِنَ الكاملِ]

لَـوْلاَ الـرَّجَـاءُ لَمِـتُّ مِـنْ أَلَـمِ النَّـوَىٰ ... لَكِـنَّ قَلْبِـيَ بِـالـرَّجَـاءِ مُـوَكَّـلُ

[تأمل الدنيا ولا تركنن إليها]

ومَنِ اعتقَدَ حالَ الدنيا ، وأَنَّها تغرُّ ثُمَّ تمرُّ . يفرحُ بحُلوِها ، ولم يجزَعْ لمُرِّها ، قالَ أَبو عمرٍو ابنِ العلاءِ [في « وفيات الأعيان » ٣/٣١٨] : كنتُ أَدورُ في ضيعَةٍ لي ، معَ شدَّةِ الحرِّ ، فسمعْتُ هاتفاً يقولُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنَّ امْـرَأً دُنْيَـاهُ أَكْبَـرُ هَمِّـهِ ... لَمُسْتَمْسِـكٌ مِنْهَـا بِحَبْـلِ غُـرُورِ

---

(١) الخرعوبةُ : المرأةُ الشابةُ اللينةُ الطويلةُ الطريَّةُ ، وقالَ الجوهريُّ : الدقيقةُ العظامِ الناعمةُ .
(٢) « البيان والتبيين » (١/١٣٣) .

[فالتفتُ فلَم أَرَ أَحداً فجعلتُهُ نقشَ خاتَمي].

وقالَ الأَصمعيُّ : وجدْتُ لسعيدِ بنِ وهيبٍ بيتينِ كأَنَّما أخذَهما من قولِهِ تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ [الأنعام : ٤٤] ، وهُما قولُهُ [بل الأبيات لأبي العتاهية في « ديوانه » ٥٣٦] : [مِنَ البسيطِ]

أَحْسَنْـتَ ظَنَّـكَ بِـالأَيَّـامِ إِذْ حَسُنَـتْ ... وَلَـمْ تَخَـفْ غِـبَّ مَـا يَـأْتِي بِـهِ الْقَـدَرُ

وَسَـالَمَتْـكَ اللَّيَـالِـي فَـاغْتَـرَرْتَ بِهَـا ... وَعِنْـدَ صَفْـوِ اللَّيَـالِـي يَحْصُـلُ الْكَـدَرُ

وما أَحسنَ قولَ البُحتريِّ [بل القائل أبو علي المسبِّحي كما في « قرى الضيف » ٤/١٦٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

هَـلِ الـدَّهْـرُ إِلاَّ سَـاعَـةٌ ثُـمَّ تَنْقَضِـي ... بِمَا كَانَ فِيهَا مِنْ بَلاَءٍ وَمِنْ خَفْضِ ؟!

فَهَـوْنَـكَ لاَ تَحْفَـلْ إِسَـاءَةَ عَـارِضٍ ... وَلاَ فَـرْحَـةً تَـأْتِـي فَكِلْتَـاهُمَـا تَمْضِـي

وقالَ آخرُ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَـا اكْتَـأَبَـتْ نَفْـسٌ فَـدَامَ اكْتِئَـابُهَـا ... وَلاَ ابْتَهَجَـتْ نَفْـسٌ فَـدَامَ ابْتِهَـاجُهَـا

وقالَ آخرُ [البُحتريُّ في « ديوانه » ١/٥٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـنْ عَـرَفَ الأَيَّـامَ لَـمْ يَـرَ خَفْضَهَـا ... نَعِيمـاً ، وَلَـمْ يَعْـدُدْ تَصَـرُّفَهَـا بَلْـوَىٰ

وقال الرضيُّ أَوِ المرتضىٰ [المرتضىٰ في « ديوانه » ٣/٤٩٤] : [مِنَ البسيطِ]

وَكَيْـفَ آنَـسُ بِـالـدُّنْيَـا وَلَسْـتُ أَرَىٰ ... إِلاَّ امْـرَأً قَـدْ تَعَـرَّىٰ مِـنْ عَـوَارِيهَـا ؟

نَصْبُـوا إِلَيْهَـا بِـآمَـالٍ مُخَيَّبَـةٍ ... كَـأَنَّنَـا مَـا نَـرَىٰ عُقْبَـىٰ أَمَـانِيهَـا

فِـي وَحْشَـةِ الـدَّارِ مِمَّـنْ كَـانَ يَسْكُنُهَـا ... كُـلُّ اعْتِبَـارٍ لِمَـنْ قَـدْ ظَـلَّ يَـأْوِيهَـا

لاَ تَكْـذِبَـنَّ فَمَـا قَلْبِـي لَهَـا وَطَـنٌ ... وَقَـدْ رَأَيْـتُ طُلُـولاً مِـنْ مَغَـانِيهَـا

وقالَ أَبو عبادةَ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٣١-٢٣٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

مَتَـىٰ تَسْتَـزِدْ فَضْـلاً مِـنَ الْعُمْـرِ تَغْتَـرِفْ ... بِسَجْلَيْـكَ مِـنْ شَهْـدِ الْخُطُـوبِ وَصَـابِهَـا[1]

تُشَـذِّبُنَـا الـدُّنْيَـا بِـأَخْفَـضِ سَعْيِهَـا ... وَغَـوْلُ الأَفَـاعِـي لِمَّـةٌ مِـنْ لُعَـابِهَـا[2]

يُسَـرُّ بِعُمْـرَانِ الـدِّيَـارِ مُضَلَّـلٌ ... وَعُمْـرَانُهَـا مُسْتَـأْنَـفٌ مِـنْ خَـرَابِهَـا

وَلَـمْ أَرْتَـضِ الـدُّنْيَـا أَوَانَ مَجِيئِهَـا ... فَكَيْـفَ ارْتِضَـائِيهَـا أَوَانَ ذَهَـابِهَـا ؟!

أَقُـولُ لِمَكْـذُوبٍ مِـنَ الـدَّهْـرِ زَاغَ عَـنْ ... تَخَيُّـرِ آرَاءِ الْحِجَـا وَانْتِخَـابِهَـا

سَيُـرْدِيـكَ أَوْ يُثْـوِيـكَ أَنَّـكَ مُحْلِـسٌ ... إِلَـىٰ شُقَّـةٍ يُبْكِيـكَ بُعْـدُ مَـآبِهَـا[3]

وَهَـلْ أَنْـتَ فِـي مَـرْمُـوسَـةٍ طَـالَ أَخْذُهَـا ... مِـنَ النَّـاسِ إِلاَّ حَفْنَـةٌ مِـنْ تُـرَابِهَـا[4]

---

(١) السجلُ : الدلوُ العظيمةُ . الصابُ : العلقمُ .

(٢) شذَّبَ الشجرَ : أَسقط ما عليهِ منَ الأغصانِ .

(٣) محلسٌ : متخذٌ حِلساً ، وهوَ ما يوضعُ فوقَ الرحلِ ، والمعنىٰ : أنكَ متهيِّئٌ للرحيلِ .

(٤) المرموسةُ : مشتقَّةٌ من رمسَ ، غطَّىٰ ودفنَ .

ومِنها والضميرُ فيهِ عائِدٌ إِلى الحبيبَةِ [البحتريُّ في « ديوانه » ١/ ٢٣١] : [مِنَ الطَّويلِ]

يُفَـاوِتُ مِـنْ تَـأْلِيـفِ شَعْبِـي وَشَعْبِهَـا　　تنَـاهِـي شَبَـابِـي وَابْتِـدَاءُ شَبَـابِهَـا

ثُمَّ إِنَّ قولَهُ : (إِلاَّ حَفْنَةٌ مِنْ تُرَابِهَا) شبيهٌ بقولي مِن قطعةٍ مرَّ بعضُها [في « ديوان المؤلف » ق : ١١٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا النَّـاسُ إِلاَّ الطِّيـنُ وَالْعَكْسُ صَالِـحٌ　　فلِلَّـــهِ ذَاتٌ عَـــدَّدَتْهَـــا نُعُـــوتُهَـــا

ويشهدُ اللهُ والرقيبُ الأَدنىٰ عليَّ ، أَنِّي لَم أَكن وقفتُ علَىٰ ما قالَهُ البُحتريُّ إِلاَّ بعدَ مدَّةٍ مِن إِنشائِي لتلكَ القطعَةِ ، التي من جملتِها البيتُ ، وللهِ الحمدُ ؛ إِذ دلتِ المواردَةُ علىٰ إِصابَةِ المرمىٰ ، وتطبيقِ المحزِّ ؛ فقد حكيَ [في « الإيضاح في علوم البلاغة » ١/ ٣٨٠] : أَنَّ ابنَ ميَّادَةَ أَنشدَ لنفسِهِ : [مِنَ الطَّويلِ]

مُفِيــدٌ وَمِتْــلاَفٌ إِذَا مَــا أَتَيْتُــهُ　　تَهَلَّـــلَ وَاهْتَـــزَّ اهْتِـــزَازَ الْمُهَنَّـــدِ

فَقالوا لَهُ : أَينَ يُذْهَبُ بكَ ؟ هـٰذا البيتُ موجودٌ في « ديوانِ **الحُطيئَةِ** » [٥١] ، فقالَ : الآنَ علمتُ أَنِّي شاعرٌ ؛ إِذ وافقتُهُ علىٰ قولِهِ ولَم أَسمعْهُ .

* * *

المجلس الرّابع عشر

[قالَ أَبو الطَّيِّب المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٧] : [مِنَ الكاملِ]

وَعَجِبْـتُ مِـنْ أَرْضٍ سَحَـابُ أَكُفِّهِـمْ ... مِـنْ فَـوْقِهَـا وَصُخُـورُهَـا لاَ تُـورِقُ

[الجود الذي تورق منه الصخور]

يقولُ : إنَّهُ يتعجَّبُ مِنْ صخورِ أَرضِهم ، كَيْفَ لاَ تُورِقُ ، وقد شملَها جودُهُم ، وأَنعشَها وُجودُهُم ، وهوَ مِنْ قولِ العربيِّ : [مِنَ البسيطِ]

لَـوْ أَنَّ رَاحَتَـهُ مَـرَّتْ عَلَـىٰ حَجَـرٍ ... صَلْـدٍ . . لأَوْرَقَ فِيهَـا ذَلِـكَ الْحَجَـرُ

وقالَ أَبو صخرٍ الهُذليُّ ، أَو قيسٌ ، على اختلافٍ في الرِّوايةِ [بل قيسٌ في « ديوانه » ١٣٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَكَـادُ يَـدِي تَنْـدَىٰ إِذَا مَـا لَمَسْتُهَـا ... وَتَنْبُتُ فِـي أَطْـرَافِهَـا الْـوَرَقُ الْخُضْـرُ

وقالَ مسلمُ بنُ الوليدِ : [مِنَ الكاملِ]

لَـوْ أَنَّ كَفّـاً أَعْشَبَـتْ لِسَمَـاحَـةٍ ... لَبَـدَا بِـرَاحَتِـهِ النَّبَـاتُ الأَخْضَـرُ

وقالَ أَبو الشَّمَقْمَقِ ـ وكانَ معَ طاهرِ بنِ الحسينِ في حَرَّاقَةٍ بـ(دِجلة) ـ [في « البدايةِ والنِّهايةِ » ١٠/ ٣٦٠] : [مِنَ المتقاربِ]

عَجِبْـتُ لِحَـرَّاقَـةِ ابْـنِ الْحُسَيْـنِ ... كَيْـفَ تَعُـومُ وَلاَ تَغْـرَقُ ؟
وَبَحْـرَانِ مِـنْ فَـوْقِهَـا وَاحِـدٌ ... وَآخَـرُ مِـنْ تَحْتِهَـا مُطْبِـقُ
وَأَعْجَـبُ مِـنْ ذَاكَ عِيـدَانُهَـا ... وَقَـدْ مَسَّهَـا كَيْـفَ لاَ تُـورِقُ ؟

وقالَ أَبو عُبادةَ [في « ديوانه » ٣/ ١٥٣١] [مِنَ الطَّويلِ]

ـ وأَظُنُّنِيْ قد سقتُهُ فِي الكلامِ علىٰ قولِهِ : (يُعْطِي فَلاَ مَطْلُهُ يُكَدِّرُهَا . . . . .) ـ :

مَـوَاهِـبُ أَعْـدَادُ الأَمَـانِـي وَخَلْفَهَـا ... عِـدَاتٌ يَكَـادُ الْعُـودُ مِنْهُـنَّ يُـورِقُ

وقالَ [في « ديوانه » ٣/ ١٣٧] : [من الطويل]

لَـهُ هِـزَّةٌ مِـنْ أَرْيَحِيَّـةِ جُـودِهِ ... تَكَـادُ لَهَـا الأَرْضُ الْجَـدِيبَـةُ تُعْشِـبُ

ومرَّ أَيضاً عَنِ الأَصمعيِّ قولُ الأَعرابيَّةِ : [مِنَ الكاملِ]

فَلَيَنْبُعَـنَّ سَمَـاحُ جُـودِكَ فِـي الثَّـرَىٰ ... وَلَيُـورِقَـنَّ بِقُـرْبِـكَ الصَّخْـرُ

وقالَ بعضُهم يمدحُ أَبا دلفٍ العجليَّ : [مِنَ البسيط]

وَلَـوْ يَجُـوزُ لَقَـالَ النَّـاسُ كُلُّهُـمُ ... لَـوْلاَ أَبُـو دُلَـفٍ لَـمْ يُـورِقِ الشَّجَـرُ
قَـرْمٌ إِذَا مَـا حَـوَىٰ فِـي كَفِّـهِ حَجَـراً ... يَفِيضُ فِـي كَفِّـهِ مِـنْ جُـودِهِ الْحَجَـرُ

وقالَ شاعرُ (المعرَّةِ) [في « سقط الزند » ٢٦٠] : [مِنَ الكامِلِ]

مِـنْ كُـلِّ مَـنْ لَـوْلاَ تَسَعُّـرُ بَـأْسِـهِ ... لاخْضَـرَّ فِـي يُمْنَـىٰ يَـدَيْـهِ الأَسْمَـرُ[١]

وقد سبقَ ذكرُ البيتِ المختلَفِ في نسبتِهِ وهوَ [في « ديوان أبي تمّام » ٢/١٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَـوْ لَـمْ تَكُـنْ فِـي كَفِّـهِ غَيْـرُ رُوحِـهِ ... لَجَـادَ بِهَـا فَلْيَتَّـقِ اللهَ سَـائِلُـهْ

وقبلَهُ ـ وهوَ موضعُ الشاهِدِ ـ :

يَمُـرُّ عَلَـى الْـوَادِي فَتَبْكِـي رِمَـالُـهُ ... عَلَيْـهِ وَبِـالنَّـادِي فَتَبْكِـي أَرَامِلُـهْ

ولن تبكيَ الرمالُ . . إلاَّ وقدِ استعيرَتْ لَها الحياةُ التي تنمو بجودِ الممدوحِ .

وقالَ ابنُ حيُّوسٍ يمدحُ الصاحبَ بنَ عبَّادٍ [في « وفيات الأعيان » ٤/٤٤١] : [مِنَ الطَّويلِ]

مِنَ النَّفَرِ الْعَالِينَ فِي السِّلْمِ وَالْوَغَىٰ ... وَأَهْـلِ الْمَعَـالِـي وَالْعَـوَالِـي وَآلِهَـا
إِذَا نَـزَلُـوا اخْضَـرَّ الثَّرَىٰ مِـنْ نُـزُولِهِـمْ ... وَإِنْ نَـازَلُـوا احْمَـرَّ الْقَنَـا مِـنْ نِـزَالِهَـا

قالَ ابنُ خلِّكانَ [في « وفياتِ الأعيانِ » ٤/٤٤١] : هـٰذا واللهِ الشعرُ الخالصُ ، الذي لا يشوبُهُ شيءٌ مِنَ الحشوِ .

وإنِّي لأتعجَّبُ مِنَ القاضي في مبالغتِهِ بمدحِ ذَينِ البيتينِ إِلىٰ هـٰذا الحدِّ ، مَعَ أَنَّهُ النَّاقدُ البصيرُ ، غيرُ مدافَعٍ ، والحالُ أَنَّ عليهِما ملاحظتينِ :

الأُولىٰ : في قافيةِ البيتِ الأَوَّلِ ؛ فإِنَّهُ لا داعيَ لَها بعدَ سبقِ الأَهلِ غيرَ الاجتلابِ .

والثانيةُ : في تأْنيثِ الضَّميرِ مِن ضربِ البيتِ الثَّاني معَ تذكيرِهِ في عروضِهِ ، وكلُّ ذلكَ ممَّا يتنزَّهُ عنهُ أَهلُ الإِحسانِ .

[مسألة بلاغية في الغلو]

وفي بعضِ الأَبياتِ الَّتي سُقناها غلوٌّ لا يُقبَلُ ، ولَو جرىٰ أَبو الطَّيِّبِ علىٰ عادتِهِ مِنَ الإِغراقِ . . لادَّعَىٰ إِيراقَ الشَّجَرِ ، ومِنَ المقرَّرِ أَنَّهُ لا يقبلُ مِنَ المبالغَةِ إِلاَّ :

١ـ ما أَمكنَ وجودُهُ عقلاً وعادَةً ، كقولِهِ صلى الله عليه وسلم : « لَخَلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ . . أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ »[٢] ؛ فإِنَّهُ ممكنٌ عادةً وعقلاً .

وكقولِ امْرِىءِ القيسِ [في « ديوانه » ١٥٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَعَـادَىٰ عِـدَاءً بَيْـنَ ثَـوْرٍ وَنَعْجَـةٍ ... دِرَاكـاً وَلَـمْ يَنْضَـحْ بِمَـاءٍ فَيُغْسَـلِ[٣]

---

(١) **التسعُّرُ** : الالتهابُ . **الأسمرُ** : الرُّمحُ .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) في الصوم .

(٣) **عادىٰ** : والى الجريَ حتىٰ جمعَ بين الثورِ والبقرِ ، علىٰ تباعدِ ما كان بينهما .

وقولِ النَّاظِمِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ١٨٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَصْرَعُ أَيَّ الْوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ ... وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ[1]

وهوَ ما يسمُّونَهُ : (**التَّبليغَ**) .

٢ـ **أو ما أمكنَ عقلاً لا عادةً** ، ومثَّلوا لَهُ بقولِ عَمرِو بنِ الأَهتمِّ [بل القائل عمير بن كريم التغلبي كما في « خزانة الأدب » ٢/ ٨] : [مِنَ الوافرِ]

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا ... وَنُتْبِعُهُ الْكَرَامَةَ حَيْثُ مَالاَ

وفيهِ نظرٌ ؛ لإمكانِ أَنَّ المعنىٰ تزويدُهُ بما يكونُ معهُ في كلِّ جهةٍ ينتحي إليها ، وهٰذا موجودٌ بكثرةٍ في أحوالِ الكِرامِ ، وأربابِ المروءاتِ ، فلا يستحيلُ عادةً كما زعموا ، وذلكَ ما يسمُّونَهُ : (**الإغراقَ**) .

٣ـ **أو ما لا يمكنُ عقلاً ولا عادةً** ، كقولِ أَبي نُوَاسٍ [في « ديوانه » ٤١٣] : [مِنَ الكاملِ]

وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حَتَّىٰ إِنَّهُ ... لَتَخَافُكَ النُّطَفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ

وكلِّ ما سبقَ في المجلسِ الأَوَّلِ ، مِن مثلِ قولِ النَّاظِمِ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١٨٦] : [مِنَ البسيطِ]

كَفَىٰ بِجِسْمِي نُحُولاً أَنَّنِي رَجُلٌ ... لَوْلاَ مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِي

وهوَ ما يسمُّونَهُ : (**الغلوَّ**) وهوَ مردودٌ ما لَمْ يقترنْ بهِ ما يُخرِجُهُ عَنِ الامتناعِ ، كقولِهِ جلَّ شأنُهُ في النُّورِ المبينِ ، والحبلِ المتينِ : ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ [البقرة : ٢٠] .

وقولِهِ : ﴿ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾ [النور : ٤٠] .

وقولِهِ : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم : ٩٠] .

وقولِهِ : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور : ٣٥] .

وكَما يروىٰ عنهُ صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ وَإِنْ كَانَ الْمَاءَ الْقَرَاحَ »[2] .

فإسكارُ الماءِ الخالصِ مستحيلٌ ، وإنَّما كساهُ القَبولَ اقترانُهُ بـ (إِنْ) الموجودَةِ ؛ لفرضِ المحالِ وقوعُهُ .

ومثَّلوا لَهُ أَيضاً بقولِ المعرِّيِّ [في « سقط الزند » ١٠٣] : [مِنَ الوافرِ]

شَجَا رَكْباً وَأَفْرَاساً وَإِبْلاً ... وَزَادَ فَكَادَ أَنْ يَشْجُو الرِّحَالاَ

وقولِ حَمديسٍ [في « ديوانه » ٣٢٩] : [مِنَ الكاملِ]

وَيَكَادُ يَخْرُجُ سُرْعَةً عَنْ ظِلِّهِ ... لَوْ كَانَ يَرْغَبُ فِي فِرَاقِ رَفِيقِ

---

(١) قفَّيتُهُ : تبعتُهُ .

(٢) القَراحُ : الخالصُ . والحديثُ أخرجهُ الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٣/ ٢٥٠) ، والجملة الأولىٰ منه ثابتة في « الصحيحين » وغيرهما عن أبي موسىٰ ، بل وثابتة عن جماعة من الصحابة عند غيرهما من أصحاب السنن والمسانيد . انظر صحيح الجامع الصغير رقم (٤٥٥٠) .

وعندي أَنَّهُ ليسَ مِنَ المقبولِ ، وإِنَّما المقبولُ ما قالَهُ المعرّيُّ في معناهُ ، وهوَ [في « سقطِ الزَّندِ » ١٠٠] : [مِنَ الوافرِ]

وَلَمَّـا لَـمْ يُسَـابِقْهُـنَّ شَـيْءٌ ... مِـنَ الْحَيَـوَانِ سَـابَقْـنَ الظِّـلاَلاَ

[البخل الذي تجف منه البحار]

وفي عكسِ ما يمدحُ بهِ النَّاظِمُ مِن سماحَةِ الكفِّ . . يقولُ جريرٌ [الأبياتُ في « روضةِ العقلاء » (١/ ٢٤١) غير معزوةٍ لقائلٍ] :

[مِنَ البسيطِ]

كَـأَنَّمَـا خُلِقَـتْ كَفَّـاهُ مِـنْ حَجَـرٍ ... فَلَيْـسَ بَيْـنَ يَـدَيْـهِ وَالنَّـدَىٰ عَمَـلُ
يَـرَىٰ تَيَمُّمَـهُ بِـالشَّـطِّ نَـافِلَـةً ... مَخَـافَـةَ أَنْ يُـرَىٰ فِـي كَفِّـهِ بَلَـلُ

ويقولُ الأَخطلُ [في « ديوانهِ » ٢٤٩] : [مِنَ الكاملِ]

كَـفُّ الْيَـدَيْـنِ مِـنَ الْعَطِيَّـةِ مُمْسِـكٌ ... مَـا إِنْ تَبِـضُّ صِفَـاتُـهُ بِبَـلاَلِ

وقالَ ابنُ عبدِ ربِّهِ [في « ديوانهِ » ١١٠] : [مِنَ البسيطِ]

يَـرَاعَـةٌ غَـرَّنِـي مِنْهَـا وَمِيـضُ سَنـاً ... حَتَّـىٰ مَـدَدْتُ إِلَيْـهِ الْكَـفَّ مُقْتَبِسَـا[1]
فَصَـادَفَـتْ حَجَـراً لَـوْ كُنْـتَ تَضْـرِبُـهُ ... مِـنْ لُـؤْمِـهِ بِعَصَـا مُـوسَـىٰ لَمَـا انْبَجَسَـا!
كَـأَنَّمَـا صِيـغَ مِـنْ لُـؤْمٍ وَمِـنْ كَـذِبٍ ... فَكَـانَ ذَاكَ لَـهُ رُوحـاً وَذَا نَفَسَـا

[عود علىٰ بدء في الكرم]

وفيما يوافقُهُ يقولُ حجبَةُ بنُ المضربِ : [مِنَ الطَّويلِ]

أُنَـاسٌ إِذَا مَـا الـدَّهْـرُ أَظْلَـمَ وَجْهُـهُ ... فَـأَيْـدِيهِـمُ بِيـضٌ وَأَوْجُهُهُـمْ غُـرُّ
يَصُـونُـونَ أَحْسَـابـاً وَمَجْـداً مُـؤَثَّـلاً ... بِبَـذْلِ أَكُـفٍّ دُونَهَـا الْمُـزْنُ وَالْبَحْـرُ
فَلَـوْ لاَمَـسَ الصَّخْـرُ الأَصَـمُّ أَكُفَّهُـمْ ... أَفَـاضَ يَنَـابِيـعَ النَّـدَىٰ ذَلِـكَ الصَّخْـرُ

ويقولُ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَعَـوَّدَ بَسْـطَ الْكَـفِّ حَتَّـىٰ لَـوَ انَّـهُ ... ثَنَـاهَـا لِقَبْـضٍ لَـمْ تُطِعْـهُ أَنَـامِلُـهْ

ويقولُ ابنُ الرُّوميِّ [في « ديوانهِ » ٥/ ٢٠٩٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

مُقَبَّـلُ ظَهْـرِ الْكَـفِّ وَهَّـابُ بَطْنِهَـا ... لَـهُ رَاحَـةٌ فِيهَـا الْحَطِيـمُ وَزَمْـزَمُ

ولقد أَخطأَ ابنُ الرُّوميِّ ، إِذ توهَّمَ أَنَّ المقبَّلَ الحطيمُ ، وإِنَّما يُقبَّلُ الرُّكنُ الأَسودُ ، وليسَ بهِ .

ويقولُ النَّاظِمُ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٢٣١] : [مِنَ الكاملِ]

عَجَبـاً لَـهُ حِفْـظُ الْعِنَـانِ بِـأَنْمُـلٍ ... مَـا حِفْظُهَـا الأَشْيَـاءَ مِـنْ عَـادَاتِهَـا

وفي العجُزِ ما لا يخفىٰ مِن سوءِ الأَدبِ .

---

(١) اليراعةُ : حشرةٌ صغيرةٌ يكون منها شبيهُ الضوءِ بالليلِ .

[قالَ أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/٣٣٨] : [مِنَ الكاملِ]

وَتَفُــوحُ مِــنْ طِيــبِ الثَّنَــاءِ رَوَائِــحٌ   لَهُــمُ بِكُــلِّ مَكَــانَــةٍ تُسْتَنْشَــقُ

[شرح المطلع]

بقولُ : إنَّ الثَّناءَ عليهِم موجودٌ في كلِّ مكانٍ ، ومنهُ تفوحُ الرَّوائحُ الطَّيِّبَةُ ، وللهِ درُّ القائِلِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَيْـسَ أَرِيـجُ الْمِسْـكِ مَـا تَجِـدُونَـهُ   وَلَكِنَّــهُ ذَاكَ الثَّنَــاءُ الْمُخَلَّــفُ

[الطيب الفائح من المحبوب لا يمكن أن يخفىٰ]

وهوَ معنىً شائعٌ ذائعٌ ، يتَّصِلُ بهِ كثيرٌ ممَّا سبقَ في شرحِ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٦٤] : [مِنَ البسيطِ]

يُجَــنُّ شَــوْقــاً فَلَــوْلاَ أَنَّ رَائِحَــةً   تَـزُورُهُ مِــنْ رِيَــاحِ الشَّـرْقِ مَـا عَقَـلاَ

وقد أَحلنا علىٰ ما هُنا قبيلَ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/٣١٧] : [مِنَ الخفيفِ]

هَــٰذِهِ مُهْجَتِــي لَــدَيْــكِ لِحَيْنِــي   فَـانْقُصِـي مِـنْ عَـذَابِهَـا أَوْ فَـزِيـدِي

وقالَ المجنونُ ، أَو مسلمُ بنُ الوليدِ [بل مسلمٌ في « ديوانهِ » ٣٢٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَرَادُوا لِيُخْفُــوا قَبْـرَهَـا عَـنْ مُحِبِّهَـا   وَلَكِــنَّ طِيــبَ الْقَبْــرِ دَلَّ عَلَـى الْقَبْـرِ

وقالَ ابنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٤/ ١٧١٤] : [مِنَ السَّريعِ]

إِنْ جَـاءَ مَــنْ يَبْغِــي لَنَـا مَنْـزِلاً   قُــولُــوا لَــهُ يَمْشِــي وَيَسْتَنْشِــقُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٤/ ١٤٩٠] : [مِنَ الكاملِ]

أَعْبَقْتَــهُ مِــنْ رِيــحِ طِيبِــكَ عَبْقَــةً   كَــادَتْ تَكُــونُ ثَنَــاءَكَ الْمَسْمُــوعَــا

وقالَ ابنُ عِمارَةَ السُّلَميُّ [في « الأغاني » ١/ ٢٨٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

يَبِيــنُ ظَـلاَمُ اللَّيْـلِ مِـنْ حُسْـنِ وَجْهِهَـا   وَتَهْدِي بِطِيبِ الرِّيحِ مَنْ جَاءَ مِنْ نَجْدِ

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٢٦٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَحَـاوَلْـنَ كِتْمَـانَ التَّـرَحُّـلِ فِـي الـدُّجَـىٰ   فَنَــمَّ بِهِــنَّ الْمِسْــكُ لَمَّــا تَضَــوَّعَــا

وقالَ آخرُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَخْفَـوْا عَلَـىٰ تِلْـكَ الْمَطَـايَـا مَسِيرَهُـمْ   فَنَــمَّ عَلَيْهِــمْ فِــي الظَّــلاَمِ التَّنَسُّــمُ

وقالَ آخرُ [وهوَ عبدُ اللهِ بنُ محمدِ بنِ البوَّابِ كما في « الأغاني » ٢٣/ ٤٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَــوْ أَنَّ رَكْبــاً يَمَّمُــوكَ لَقَـادَهُــمْ   أَرِيجُــكَ حَتَّــىٰ يَسْتَـدِلَّ بِـكَ الـرَّكْـبُ

وقالَ الطغرائيُّ [في « ديوانه » ٣٠٤] : [مِنَ البسيطِ]

فَسِرْ بِنَا فِي ذِمَامِ اللَّيْلِ مُعْتَسِفاً فَنفْحَةُ الطِّيبِ تَهْدِينَا إِلَى الْحُلَلِ[١]

وقالَ بعضُهُم يمدحُ أهلَ البيتِ : [مِنَ الكاملِ]

لَوْ كَانَ يُوجَدُ رِيحُ مَجْدٍ فَائِحاً لَوَجَدْتَهُ مِنْهُمْ عَلَىٰ أَمْيَالِ
نُورُ النُّبُوَّةِ وَالْمَكَارِمِ فِيهِمُ مُتَوَقِّدٌ فِي الشِّيبِ وَالأَطْفَالِ

وقد تمثَّلَ بهِما مسلمُ بنُ بلالٍ لجعفرِ بنِ سليمانَ حينَما خطَبَ خُطبةً لم يعرفِ الناسُ أهيَ أحسنُ أم وجهُهُ ؟

والمعنىٰ متكرِّرٌ عندَ الناظمِ ، منهُ **قولُهُ** [في « العُكبَرِيّ » ٢/٢٩٧] : [مِنَ الوافرِ]

أَدِلَّتُهَا رِيَاحُ الْمِسْكِ مِنْهُ إِذَا فَتَحَتْ مَنَاخِرَهَا انْتِشَاقَا

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٢/٣٩٣] : [مِنَ الوافرِ]

وَذَاكَ النَّشْرُ عِرْضُكَ كَانَ مِسْكَا وَهٰذَا الشِّعْرُ فِهْرِي وَالْمَدَاكَا[٢]

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٤/٢٠٢] : [مِنَ الكاملِ]

أَرِجَ الطَّرِيقُ فَمَا مَرَرْتَ بِمَوْضِعٍ إِلاَّ أَقَامَ بِهِ الشَّذَا مُسْتَوْطِنَا[٣]

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ١/٤٥] : [مِنَ الوافرِ]

تنَفَّسُ وَالْعَوَاصِمُ مِنْكَ عَشْرٌ فَنَعْرِفُ طِيبَ ذَلِكَ فِي الْهَوَاءِ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٢/٢٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا سَارَتِ الأَحْدَاجُ فَوْقَ نَبَاتِهِ تَفَاوَحَ مِسْكُ الْغَانِيَاتِ وَرَنْدُهُ[٤]

وقولُهُ : (أَقَامَ بِهِ الشَّذَا مُسْتَوْطِنَا) مأخوذٌ ممَّا جاءَ في صفتِهِ صلى الله عليه وسلم . . أنَّهُ إذا مرَّ في مكانٍ . . عُرِفَ مِن طيبِهِ مرورُهُ بِهِ ، وإذا جلسَ بموضِعٍ . . بقيَ عَرفُهُ[٥] فيهِ أيَّاماً بعدَهُ ، وإذا صافَحَهُ إنسانٌ ، أو وضعَ يدَهُ علىٰ رأسِ صبيٍّ . . عُرِفَ ذلكَ ؛ لطيبِ ريَّاهُ .

وإنَّما سُمِّيَتْ دارُهُ (طيبَةَ) ؛ لكثرَةِ ما يفوحُ بها من روائحِ الطيبِ .

[أكذب الشعر]

وقولُهُ : (تنَفَّسُ وَالْعَوَاصِمُ مِنْكَ عَشْرٌ) . . . إلىٰ آخرِهِ أَلَمَّ فيهِ بقولِ مهلهل [في « الأغاني » ٥/٥٨] : [مِنَ الوافرِ]

فَلَوْلاَ الرِّيحُ أُسْمِعَ مَنْ بِحِجْرٍ صَلِيلَ الْبِيضِ تُقْرَعُ بِالذُّكُورِ

---

(١) **العسفُ** : ركوبُ المفازةِ وقطعُها بغيرِ قصدٍ ولا هدايةٍ ولا توخّي طريقٍ مسلوكٍ .

(٢) **النشرُ** : الرائحةُ الطيبةُ . **الفهرُ** : الحجرُ الذي يسحقُ بهِ الطيبُ . **المداكُ** : الصلابةُ التي يداكُ عليها ، **والدوكُ** : الدقُّ والطحنُ .

(٣) **أرِجَ الطيبُ** : فاحَ . **الشذا** : حدَّةُ الرائحةِ .

(٤) **الأحداجُ** : مراكبُ النساءِ . **تفاوَحَ** : تفاعَلَ من فاحَ يفوحُ . **الرندُ** : نبتٌ طيِّبُ الرائحةِ .

(٥) **العَرفُ** : الرائحةُ الطيبةُ . قال الشيخ عبد الله سراج الدين في كتاب «محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم» (ص/ ٣٠): رواه أبو يعلىٰ والبراز بإسناد صحيح.

فبينَ (حجرٍ) وبينَ موضعِ الواقعةِ عَشَرَةُ أيَّامٍ ، وأكثرُ ما يسمعُ الصوتُ في العادةِ معَ سكونِ الهواءِ من مقدارِ ميلٍ ؛ ولهٰذا قالَ بعضُهم : إنَّ هٰذا أكذبُ بيتٍ قالتْهُ العرَبُ ، ومعَ ذلكَ فقد نظرَ إليهِ صاحبُنا بعينِ الاستحسانِ ؛ لأنَّهُ يتصيَّدُ الإغرابَ مِن حيثُما كانَ ، فنقلَ المسموعَ إلى المشمومِ ، غيرَ أنَّ الحازميَّ ذكرَ عَنِ العبَّاسِ بنِ عبدِ المطَّلبِ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/ ٢٧٧] : أنَّهُ كانَ يقفُ علىٰ (سَلْعٍ) ـ وهوَ جبلٌ عندَ (المدينةِ) ـ فينادي غلمانَهُ وهُم بالغابَةِ ، وذلكَ مِن آخرِ الليلِ ، وبينَ الغابَةِ و(سَلْعٍ) . . ثمانيَةُ أميالٍ .

وذكرَ المبرِّدُ : أنَّ غارَةً جاءَتْ وقتَ الصبْحِ . . فصاحَ العبَّاسُ بأعلىٰ صوتِهِ : واصباحاهُ ، فلم تسمعْهُ حامِلٌ في الحيِّ إلاَّ وضعَتْ .

[طيب الثناء تابع لطيب الذات]

ولئِن قيلَ : إنَّ أكثرَ الشواهِدِ التي سقْنا ليسَتْ في طيبِ الثناءِ ، وإنَّما هيَ في طيبِ الذاتِ ، وبينهُما بَونٌ ، فالجوابُ : أن لا مشاحَّةَ ؛ لأنَّ طيبَ الذاتِ متبوعٌ بطيبِ الثناءِ لا محالَةَ ، والجامعُ مجرَّدُ الطيبِ .

ويعجبُني قولُ ذي الرُّمَّةِ [في « ديوانه » ٢/ ١٠٤٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

يَطِيبُ تُرَابُ الأَرْضِ إِنْ نَزَلُوا بِهَا ... وَيَخْتَالُ أَنْ تَعْلُو عَلَيْهَا الْمَنَابِرُ

وممَّا يتعلَّقُ بطيبِ الثناءِ قولُ أبي تمَّامٍ : [مِنَ الكاملِ]

عَذُبَتْ مَمَادِحُهُ بِأَفْوَاهِ الْوَرَىٰ ... فَثَنَاؤُهُ يَنْتَابُ كُلَّ مَكَانِ

بل ربَّما كانَ أصلاً لبيتِ الناظِمِ الذي نتكلَّمُ فيهِ .

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٨٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلَذُّ مِنَ الصَّهْبَاءِ بِالْمَاءِ ذِكْرُهُ ... وَأَحْسَنُ مِنْ يُسْرٍ تَلَقَّاهُ مُعْدِمُ[1]

وقد سبقَ ـ في غيرِ هٰذا المجلسِ ـ قولُ الحماسيِّ [خلف بن خليفة كما في « ديوان الحماسة » ٢/ ٣٦٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

عِذَابٌ عَلَى الأَكْبَادِ مَا لَمْ يَذُقْهُمُ ... عَدُوٌّ وَفِي الأَفْوَاهِ أَسْمَاؤُهُمْ تَحْلُو

وقالَ آخرُ [وهو شرف الدين القيرواني كما في « خزانة الأدب » ٢/ ٣٨٨] : [مِنَ البسيطِ]

جَاوِرْ عَلِيّاً وَلاَ تَحْفَلْ بِحَادِثَةٍ ... إِذَا ادَّرَعْتَ فَلاَ تَسْأَلْ عَنِ الأَسَلِ

سَلْ عَنْهُ وَاسْمَعْ بِهِ وَانْظُرْ إِلَيْهِ تَجِدْ ... مِلْءَ الْمَسَامِعِ وَالأَفْوَاهِ وَالْمُقَلِ

وأهدى الصاحبُ بنُ عبَّادٍ قارورَةَ عطرٍ لبعضِ القضاةِ ، وكتبَ عليها [في « ديوانه » ٢٥٣] : [مِنَ الكاملِ]

يَا أَيُّهَا الْقَاضِي الَّذِي نَفْسِي لَهُ ... مَعْ قُرْبِ عَهْدِ لِقَائِهِ أَشْتَاقُهُ

أُهْدِيهِ عِطْراً مِثْلَ طِيبِ ثَنَائِهِ ... فَكَأَنَّمَا أُهْدِي لَهُ أَخْلاَقَهُ

---

(١) الصهباء : من أسماءِ الخمرِ .

وقالَ ابنُ هانيءِ الأندلسيُّ [في « ديوانه » ٥١] : [مِنَ الكاملِ]

قَـدْ طَيَّـبَ الأَفْـوَاهَ طِيـبُ ثَنَـائِـهِ ... مِـنْ أَجْـلِ ذَا تَجِـدُ الثُّغُـورَ عِـذَابَـا

وقالَ يزيدُ بنُ الطَّثَرِيَّةِ [في « ديوانه » ٤٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنِّـي وَإِنْ أَحْمَـوْا عَلَـيَّ كَـلاَمَهَـا ... وَحَـالَـتْ أَعَـادٍ دُونَنَـا وَحُـرُوبُ
لَمُثْـنٍ عَلَـىٰ لَيْلَـىٰ ثَنَـاءً تُـزِينُـهُ ... قَـوَافٍ بِـأَفْـوَاهِ الـرِّجَـالِ يَطِيـبُ

[الذكر الجميل والثناء الحسن . . جدير بأن يطلب من الله]

ولا شكَّ أَنَّ الذكرَ الجميلَ . . يهزُّ الرؤُوسَ ، ويخلبُ النفوسَ ؛ ولهٰذا سأَلَهُ الخليلُ عليهِ السلامُ ، فقالَ : ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء : ٨٤] ، وممَّا يتَّصلُ بذلكَ قولُ ذي الرُّمَّةِ [في « ديوانه » ٢/ ١٢١٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا مَـاتَ فَـوْقَ الـرَّحْـلِ أَحْيَيْتُ رُوحَـهُ ... بِـذِكْـرَاكِ ، وَالْعِيسُ الْمَـرَاسِيـلُ جُنَّـحُ

يقولُ : إنَّ طِيبَ ذكرِهِ يوقظُ النائِمَ ، وينعِشُ الساكِنَ ، ويحرِّكُ الجامِدَ ، وهوَ من كلمةٍ لهُ جزلَةٍ ، منقَّحَةِ المعنىٰ واللفظِ ، يقولُ فيها [في « ديوانه » ٢/ ١١٩٢ـ١٢١٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

عَلَـىٰ حِيـنَ رَاهَقْـتُ الثَّـلاَثِيـنَ وَارْعَـوَتْ ... لِـدَاتِـي وَكَـادَ الْحِلْـمُ بِـالْجَهْـلِ يَـرْجَـحُ
إِذَا خَطَـرَتْ مِـنْ حُـبِّ مَيَّـةَ خَطْـرَةٌ ... عَلَى الْقَلْـبِ كَـادَتْ فِـي فُـؤَادِيَ تَجـرَحُ
تَصَـرَّفُ أَهْـوَاءُ الْقُلُـوبِ وَلاَ أَرَىٰ ... نَصِيبَـكِ مِـنْ قَلْبِـي لِغَيْـرِكِ يُمْنَـحُ
إِذا غَيَّـرَ النَّـأْيُ الْمُحِبِّيـنَ لَـمْ يَكَـدْ ... رَسِيسُ الْهَوَىٰ مِـنْ حُـبِّ مَيَّـةَ يَبْـرَحُ
أَنِيـنٌ وَشَكْـوَىٰ بِـالنَّهَـارِ طَـوِيلَـةٌ ... عَلَـيَّ وَمَـا يَـأْتِـي بِـهِ اللَّيْـلُ أَبْـرَحُ
ذَكَـرْتُـكِ إِذْ مَـرَّتْ بِنَـا أُمُّ شَـادِنٍ ... أَمَـامَ الْمَطَـايَـا تَشْـرَئِـبُّ وَتَسْنَـحُ[(١)]

مِنْهَا :

هِجَـانُ الثَّنَـايَـا مُغْـرِبـاً لَـوْ تَبَسَّمَـتْ ... لأَخْـرَسَ عَنْـهُ كَـادَ بِـالْقَـوْلِ يُفْصِـحُ
لَئِـنْ كَـانَـتِ الـدُّنْيَـا عَلَـيَّ كَمَـا أَرَىٰ ... تَبَـارِيـحَ مِـنْ مَـيٍّ فَلَلْمَـوْتُ أَرْوَحُ[(٢)]

هٰذا واللهِ الشعرُ الخالصُ ، والكلامُ المنقَّحُ ، والقولُ المختارُ ، وقد كانَتْ عندَنا نونيَّةُ ابنِ زيدونَ . في الاعتبارِ الأَولِ . . حتَّىٰ وجدْناها عالَةً علىٰ هٰذهِ في كثيرٍ مِن مَعانيها المختارَةِ .

[مسألة نحوية حول « كاد »]

وهٰهنا نكتَةٌ ، وهيَ : قيلَ : إنَّ نفيَ كادَ للإثباتِ مطلقاً :

ماضياً كانَ : بشهادَةِ قولِهِ : ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة : ٧١] . وقد فعَلوا فذَبحوها .

أَو مضارِعاً : فقد رويَ عَن عنبسةَ أَنَّهُ قالَ [في « الأغاني » ١٨/ ٣٩] : قدمَ ذو الرُّمةِ الكوفَةَ فاعترَضَ عليهِ ابنُ شبرمَةَ قولَهُ : (لَمْ يَكَدْ رَسِيسُ الْهَوَىٰ) ، وقالَ : إِنَّهُ يدلُّ علىٰ زوالِ رسيسِ الهوىٰ ، فلم ينفصل ذو الرُّمَّةِ بلِ اعترفَ بالغلَطِ ،

---

(١) **أمُّ شادنٍ** : ظبيةٌ معها ولدُها حينَ شدنَ وقويَ ومشىٰ . **تشرئِبُّ** : تشرف . **تسنحُ** : تعرضُ .

(٢) **تباريحُ** : عذابٌ ومشقَّةٌ .

وغيَّرَهُ بقولِهِ : (لَمْ أَجِدْ رَسِيسَ الْهَوَىٰ) ، ولكن قالَ عنبسةُ : حدَّثتُ أَبي بذلكَ . . فقالَ أخطأَ ابنُ شبرمَةَ في إنكارِهِ علىٰ ذي الرُّمَّةِ ، وأخطأَ ذُو الرُّمةِ في اعترافِهِ وتغييرِهِ ، إنَّما هوَ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾ [النور : ٤٠] ، والمعنىٰ : أنَّهُ لم يرَها ؛ ولهـٰذا قالَ ابنُ الحاجبِ : إذا دخلَ النفيُ علىٰ كادَ . . كانَ كالنفي الداخِلِ علىٰ سائرِ الأفعالِ ، وفي البحثِ طولٌ يتعلَّقُ بهِ مِنَ الفقهِ قولُ ابنِ حجرٍ في « **تحفتِهِ** » :

قالَ البغويُّ : ولَو قالَ : ما كدتُ أَن أطلِّقَكِ . . كانَ إقراراً بالطلاقِ ، وسكتَ عليهِ ، وإنَّما يتأَتَّىٰ علىٰ ما سبقَ مِنَ القيلِ ، وقدِ اعتمَدَ الرمليُّ في « **النهايةِ** » : أَنْ لاَ يكونَ إقراراً ؛ لأَنَّ كادَ كغيرِها ، وهوَ الجاري كما سبقَ عَنِ ابنِ الحاجبِ ، وعليهِ الأكثرونَ في الاعتمادِ ، واللهُ أعلمُ .

[ثناء المؤلف على المتنبي]

وبما أَنَّ العلمَ أَمانةٌ ، والإنصافَ واجبٌ . . فَلا بُدَّ مِنَ الاعترافِ للنَّاظِمِ بحسنِ الاتباعِ ، فيما تعلَّقَ بهِ مِن بيتِ ذي الرُّمَّةِ الأوَّلِ ، وذلكَ حيثُ **يقولُ** [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٤٥ـ٣٤٦ـ٣٤٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

شَدَوْا بِابْنِ إِسْحَاقَ الْحُسَيْنِ فَصَافَحَتْ ... ذَفَارِيَهَا كِيرَانُهَا وَالنَّمَارِقُ[(١)]

بِمَنْ تَقْشَعِرُّ الأَرْضُ خَوْفاً إِذَا مَشَىٰ ... عَلَيْهَا وَتَرْتَجُّ الْجِبَالُ الشَّوَاهِقُ

فَتىً كَالسَّحَابِ الْجُوْنِ يُخْشَىٰ وَيُتَّقَىٰ ... يُرَجَّى الْحَيَا مِنْهَا ، وَتُخْشَى الصَّوَاعِقُ

خَفِ اللهَ وَاسْتُرْ ذَا الْجَمَالَ بِبُرْقُعٍ ... فَإِنْ لُحْتَ ذَابَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ[(٢)]

أَمَا إِنَّهُ لَشِعرٌ تقفُ لَهُ الشعورُ ، وتنشرِحُ الصدورُ ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النورُ : ٤٠] .

والأوَّلُ : هُوَ الذي تعلَّقَ فيهِ بأذيالِ ذي الرُّمَّةِ ، وقد أَجادَ ، ولئِنْ أَجادَ فيهِ . . فلقَد أَربىٰ على الإجادَةِ في نظيرِهِ ، إذ **يقولُ** [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٢٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

نَضَحْتُ بِذِكْرَاكُمْ حَرَارَةَ قَلْبِهَا ... فَسَارَتْ وَطُولُ الأَرْضِ فِي عَيْنِهَا شِبْرُ[(٣)]

هـٰذا ما لا يقدرُ أَحدٌ أَن يقولَ مِثلَهُ ، فهوَ مِن مواضعِ السجودِ في الشعْرِ ، وفي بعضِ معناهُ ولفظِهِ **قولُهُ** السابقُ في المجلسِ الثامنِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَنْ كَانَ عَزْمِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ حَثَّهُ ... وَخُيِّلَ طُولُ الأَرْضِ فِي عَيْنِهِ شِبْرَا

والثاني : ناظرٌ إلىٰ قولِ الكنديِّ يمدَحُ عمرَو بنَ هندٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

تَكَادُ تَمِيدُ الأَرْضُ بِالنَّاسِ إِنْ رَأَوْا ... لِعَمْرِو بنِ هِندٍ غَضْبَةً وَهُوَ عَاتِبُ

وأمَّا الثالثُ : فما أَخذَهُ إلاَّ مِن قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ [الرعد : ١٢] ،

---

(١) شدَوا : غنَّوا . **الذفرَىٰ** : الموضعُ الذي يعرَقُ من البعيرِ خلفَ الأذنينِ . **النمارقُ** : جمعُ نُمرُقَةٍ ، وهيَ الوسادةُ تكونُ تحت الراكبِ ، والذي أرادهُ أبو الطيبِ هنا : هيَ التي تكونُ قُدَّامَ الرحلِ ، يجعلُ الراكبُ عليها ساقهُ للاستراحةِ إذا أخرجَها منَ الغرزِ . **وكيرانُها** : جمعُ كورٍ ، وهوَ الرَّحلُ .

(٢) **البرقعُ** : نقابٌ للعربِ ، يغطَّىٰ بهِ الجبينُ والوجهُ ، ولا يكونُ فيهِ إلا ثقبانِ للعينينِ تنظرانِ منهما . **العواتقُ** : جمعُ عاتقٍ ، وهيَ الجاريةُ المقاربةُ للاحتلامِ . **الخدورُ** : جمعُ خِدرٍ ، وهوَ الكِنُّ والبيتُ الذي يستُرُ فيهِ العواتقُ .

(٣) **المعنىٰ** : أُبرِّدُ بذكراكُم ، وبشعري الذي فيكمُ . . حرارةَ قلبِ هـٰذهِ الناقةِ ، فتسرعُ ويقربُ عنها البعدُ ؛ لنشاطِها بذكراكُم ومدحِكُم .

ولئِن سبقَهُ إليهِ البُحتريُّ بقولِهِ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٩٩٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

سَمَاحاً وَبَأْساً كَالصَّوَاعِقِ وَالْحَيَا إِذَا اجْتَمَعَا فِي الْعَارِضِ الْمُتَرَاكِمِ[1]

.. فبينَ البيتينِ شأْوٌ بعيدٌ ، وفرقٌ كبيرٌ ، والذوقُ حاكِمٌ ، والصنعةُ شاهدٌ ، وقدِ اتفقَ لي أَن أَخذْتُ بنصيبي مِن هٰذا المعنىٰ ، **فقلْتُ** مِن قصيدَةٍ [في « ديوانِ المؤلِّفِ » ٤٠١] : [مِنَ البسيطِ]

قُدُومُكُمْ كَالْحَيَا لَكِنْ صَوَاعِقُهُ عِنْدَ الْعِدَا ، وَالنَّدَىٰ يَغْشَى الْمَسَاكِينَا[2]

وَلا أُنكِرُ أَنَّ بيتَ المتنبي أَجزلُ وأَفخمُ ، غيرَ أَنَّ في هٰذا توازيَ العِدا والندىٰ ، والإِفصاحُ بغشيانِهِ المساكينَ ، وهُمُ الَّذينَ يراقبونَ الأَنواءَ ، ويستمطرونَ الغمامَ ، بخلافِ غيرِهِم مِنَ المترفينَ ، وقد سبقَ بعضُ أَبياتِ ذي الرُّمَّةِ وأَبياتِ الناظِمِ في غيرِ هٰذا المجلسِ ، فَلا مؤاخذَةَ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٩] : [مِنَ الكاملِ]

لَمْ يَخْلُقِ الرَّحْمَٰنُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ أَبَداً وَظَنِّي أَنَّهُ لاَ يَخْلُقُ

[المديح والمغالاة فيه والقصص في ذلك]

معناهُ ظاهرٌ : وفيهِ مِن الغلوِّ والمجازفَةِ ما لا غايَةَ وراءَهُ ، والأَمرُ في مثلِهِ إِلى النيّةِ ، فإِنْ أَرادَ حقيقَةَ العمومِ ، والترجيحَ علىٰ حضراتِ الأَنبياءِ .. فقد وقَعَ في صريحِ الكفرِ ، وإِلاَّ .. فلا ، أَلا ترىٰ لقولِ بعضِهِم في مدحِ خالدِ بنِ عبدِ اللهِ القسريِّ [في « ديوان الحماسة » ١/ ٣٨٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ حَيّاً وَمَيِّتاً أَسِيرُ ثَقِيفٍ عِنْدَهُمْ فِي السَّلاَسِلِ

.. فإِنَّهُ لا يقلُّ عَن بيتِ الناظِمِ في العمومِ ، ولم يكفِّروهُ معَ ذلكَ ، ولَم يقولوا : إِنَّهُ فضَّلَ ممدوحَهُ علىٰ سيِّدِ البشَرِ صلى الله عليه وسلم ؛ لأَنَّ كلَّ مَن ذكرَ الناسَ لا يريدُهم بجملتِهِم ، وإِنَّما يريدُ قوماً مخصوصينَ بالعهدِ ، أَوِ القرينَةِ ، ومَعَ هٰذا .. فإِنَّها إِساءَةُ أَدبٍ ، ومجاوزَةُ حدٍّ ، وقلَّةُ مبالاةٍ ، وَقِحَةُ وجهٍ .

[أبو الأسد وموسى الهادي]

وما أَحسنَ ما فعلَ موسى الهادي معَ أَبي الأَسدِ وقد مدحَهُ بقولِهِ [كما في « تاريخ الخلفاء » ١/ ٢٨٢] : [مِنَ البسيطِ]

يَا خَيْرَ مَنْ عَقَدَتْ كَفَّاهُ حُجْزَتَهُ وَخَيْرَ مَنْ قَلَّدَتْهُ أَمْرَهَا مُضَرُ

فإِنَّهُ قالَ لَهُ : إِلاَّ مَن ، يا بائِسُ ، فقالَ قبلَ أَن يبلعَ ريقَهُ : [مِنَ البسيطِ]

إِلاَّ النَّبِيَّ رَسُولَ اللهِ إِنَّ لَهُ فَخْراً وَأَنْتَ بِذَاكَ الْفَخْرِ تَفْتَخِرُ

---

(١) الحيا : المطرُ . العارضُ : السحابُ .

(٢) صواعقُهُ عند العدا تصيبهُم بمرماها .

فعرفَ أنَّهُ ارتجلَهُ ، وفتَّشَ صحيفتَهُ فلمْ يجدْهُ فيها ، فأَسنىٰ جائزَتَهُ ، وأَكرَمَ وِفادَتَهُ .

[سلم الخاسر والمهدي]

ودخلَ سَلْمٌ الخاسرُ على المهديِّ فقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلَيْسَ أَحَقَّ النَّاسِ أَنْ يُدْرِكَ الْغِنَىٰ ... مُرَجِّي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَائِلُهْ
لَقَدْ بَسَطَ الْمَهْدِيُّ عَدْلاً وَنَائِلاً ... كَأَنَّهُمَا عَدْلُ النَّبِيِّ وَنَائِلُهْ

قالَ المهديُّ : أَمَّا ما ذكرتَ مِنَ الجودِ . . فواللهِ إنَّ الدنيا لا تعدلُ عِنْدي هٰذا الخاتَمَ ، وأَمَّا العدلُ . . فإنَّهُ لا يقاسُ برسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَحَدٌ ، وإنِّي لأَتحرَّاهُ جهدِيَ ، ثُمَّ أَمرَ لَهُ بعشَرَةِ آلافِ دينارٍ ، وعشَرَةِ أثوابٍ ، وقَدِمَ عليهِ في السنَةِ الثانيةِ فقالَ : [مِنَ الكاملِ]

إِنَّ الْخِلاَفَةَ لَمْ تَكُنْ بِخِلاَفَةٍ ... حَتَّىٰ اسْتَقَرَّتْ فِي بَنِي الْعَبَّاسِ
شُدَّتْ مَنَاكِبُ مُلْكِهِمْ بِخَلِيفَةٍ ... كَالدَّهْرِ يُخْلَطُ لِينُهُ بِشِمَاسِ

فأَمرَ لَهُ بعشرينَ أَلفَ دينارٍ ، ولمَّا كانَ العامُ الثالثُ . . قدمَ عليهِ وقالَ : [مِنَ الكاملِ]

أَفْنَىٰ سُؤَالَ السَّائِلِينَ بِجُودِهِ ... مَلِكٌ مَوَاهِبُهُ تَرُوحُ وَتَغْتَدِي
هَٰذَا الْخَلِيفَةُ جُودُهُ وَنَوَالُهُ ... نَفَدَ السُّؤَالُ وَجُودُهُ لَمْ يَنْفَدِ

فأَمرَ لهُ بثلاثينَ أَلفاً ، وثلاثينَ ثوباً .

وأَقولُ : إنَّ المهديَّ أَنصفَ في اعترافِهِ بمرجوحيَّتِهِ في العدْلِ ، وأَخطأَ في مسأَلةِ الجودِ . ومَن ذا الذي يُباري البحرَ الباردَ العذبَ ، أَمسىٰ زاخراً ؟! وهلْ يستطيعُ أَحدٌ في العالَمِ أَنْ يقولَ : « **مَنْ تَرَكَ مالاً . . فَلِوَرَثَتِهِ ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْناً أَوْ ضَيَاعاً . . فَعَلَيْنَا** »[1] غيرُ سيِّدِ الأَنامِ ، وخيرُ مَن يشربُ صوبَ الغمامِ ؟ وكانَ الأَولىٰ بالمهديِّ . . أَن يؤَدِّبَ سَلْماً علىٰ ما تهضَّمَ مِن محاسنِ الخلفاءِ الراشدينَ في القطعَةِ الثانيَةِ ، أَو ينبِّهَهُ ، أَو يستفصِلَهُ ، على الأَقلِّ .

أَمَّا الرشيدُ . . فقد سبقَ أَوائِلَ المجلسِ الخامسِ أَنَّهُ سكتَ علىٰ قولِ عليِّ بنِ الخليلِ [في « زهرة الآداب » ٢/٨٤١] :

[مِنَ الكاملِ]

خَيْرُ الْبَرِيَّةِ أَنْتَ كُلِّهِمِ ... فِي يَوْمِكَ الْغَادِي وَفِي أَمْسِ

وأَمَّا المأْمونُ . . فلم يغضب على ابنِ جبلَةَ لقولِهِ في أَبي دُلَفٍ [في « ديوانه » ٦٨] : [مِنَ المديدِ]

كُلُّ مَنْ فِي الأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ ... بَيْنَ بَادِيهِ إِلَىٰ حَضَرِهْ
مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرُمَةً ... يَكْتَسِيهَا يَوْمَ مُفْتَخَرِهْ

وإنَّما حقدَ عليهِ بديعَ مدائِحِهِ ، كما سيأْتي أَوائِلَ المجلسِ السادسَ عشرَ ، وإلاَّ . . فقدْ قالَ في الاعتذارِ عنهُ : أَنتمُ

---

(١) أخرجه عن جابر مسلم (٨٦٧) في الجمعة . وعن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٢٣٩٨) في الاستقراض ، ومسلم (١٦١٩) ، وأبو داوود (٢٩٥٥) .

أَهلُ بيتٍ لا يقاسُ بِكُم ؛ لأَنَّ اللهَ اختصَّكُمْ علىٰ عبادِهِ ، وإِنَّمَا ذهبتُ إِلىٰ أَقرانِ القاسِمِ وَأَشكالِهِ مِنَ النَّاسِ[١] .

[الفرزدق وعبد الملك بن مروان وشهامة نفس الفرزدق]

ويروىٰ [بنحوه في « الأغاني » ١٠/٣٥١] : أَنَّ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ أَكرمَ الفرزدَقَ حَتَّىٰ أَرضاهُ علىٰ مدحَةٍ مدحَهُ بِها ، ولمَّا انصرَفَ الفرزدَقُ . أَخذَ يتغنَّىٰ ويقولُ [في « ديوانهِ » ٢١٤] : [مِنَ البسيطِ]

لَـمْ تَحْتَمِـلْ نَـاقَـةٌ مِـنْ مَعْشَـرٍ رَجُـلاً … مِثْلِي ، إِذَا الـرِّيحُ أَلْقَتْنِي عَلَـى الْكُـورِ

وكانَ عليهِ عينٌ أَسرعَ بِها إِلىٰ عبدِ الملكِ ، فاستردَّهُ وقالَ لَهُ : لئِن لَمْ تخرُج مِنها . . لآتينَّ عليكَ ، فأَنشدَ من فورِهِ [في « ديوانه » ٢١٥] : [مِنَ البسيطِ]

إِلاَّ قُـرَيْشـاً فَـإِنَّ اللهَ فَضَّلَهُـمْ … مَـعَ النُّبُـوَّةِ بِـالإِسْـلاَمِ وَالنُّـورِ
تَـرَىٰ وُجُـوهَ بَنِـي مَـرْوَانَ مُشْـرِقَـةً … يَـوْمَ النَّـدَىٰ كَمَشُـوفَـاتِ الـدَّنَـانِيـرِ

فقالَ عبدُ الملكِ : أَولىٰ لَكَ .

والظاهرُ مِن حالِ عبدِ الملكِ أَنَّهُ لَم يكنْ في ذلكَ مدفوعاً مِن جهَةِ الدينِ ، وإِلاَّ . . فكيفَ يقنَعُ بمدحِ بني مروانَ ، مَعَ أَولويَّةِ بني هاشِمٍ بذلكَ النورِ والنبوَّةِ ؟

وكيفَ يقرُّ الحجَّاجَ ـ كما رويَ ـ علىٰ قولِهِ أَنَّ الخلفاءَ أَفضلُ مِنَ الرُّسُلِ ؟!

و [روى الأصفهاني بنحوه في « الأغاني » ٨/ ٧١ أنه] : قدِمَ عليهِ جريرٌ ، وكانَ ساخطاً عليهِ ؛ لانقطاعِهِ إِلى الحجَّاجِ ، حَتَّىٰ همَّ أَن يُركِبَ الأَخطلَ ـ وهوَ نصرانيٌّ ـ علىٰ ظهرِهِ[٢] ، لَولا مراجعَةُ جلسائِهِ لَهُ في ذلكَ ، ولكنَّهُ لمَّا امتدحَهُ بقصيدتِهِ التي يقولُ فيها [في « ديوانهِ » ١/ ٨٩] : [مِنَ الوافرِ]

أَلَسْتُـمْ خَيْـرَ مَـنْ رَكِـبَ الْمَطَـايَـا … وَأَنْـدَى الْعَـالَمِيـنَ بُطُـونَ رَاحِ ؟

. . تطلَّقَ لهُ ، ورضيَ عنهُ ، وأَعطاهُ مئةً مِنَ الإِبلِ ، وصحفَةً مِنَ الفضَّةِ ـ أَو مِنَ الذَّهَبِ فكُلُّ ذلكَ رويَ ـ فتعيَّنَ أَنَّ الذي دعاهُ إِلى الإِنكارِ على الفرزدَقِ . . إِنَّما هوَ الموجدَةُ عليهِ ، لحاجَةٍ في نفسِهِ :

إِمَّا لاستكثارِ ما أَعطاهُ علىٰ حدِّ قولِ الناظِمِ [في « العُكبَريِّ » ٤/٢٣٦] : [مِنَ البسيطِ]

وَيَغْضَبُـونَ عَلَـىٰ مَـنْ نَـالَ رِفْـدَهُـمُ … حَتَّـىٰ يُكَـدِّرَهُ التَّنْغِيـصُ وَالمِنَـنُ[٣]

وإِمَّا لأَنَّ الفرزدَقَ كانَ شريفَ الهمَّةِ ، قويَّ النفْسِ ، والمستبدُّونَ لا يميلونَ إِلاَّ إِلى المتصاغرينَ المتملِّقينَ الأَخسَّاءِ ، كذلكَ الذي قالَ لَهُ : جَبِّ[٤] ، ليُركِبَ الأَخطلَ علىٰ ظهرِهِ ، فجبَّىٰ ، وهوَ جريرٌ كما سبقَ ، بخلافِ الفرزدَقِ ، فقد بلغَ مِن تعاظمِهِ أَنَّهُ لا ينشدُ قائِماً ، وقد مرَّ قولُ خالدٍ القسريِّ فيهِ [بل القائل ابن هبيرة كما في « طبقات فحول الشعراء » ٢/٣٤٦] : ما رأَيتُ أَشرفَ مِنَ الفرزدَقِ ، هَجاني ملكاً ، ومدحَني سوقةً .

---

(١) بَلْ هـٰذانِ البيتانِ هُما اللذانِ أَغضبا المأمونَ وأَحفظاهُ علىٰ عليِّ بنِ جَبَلَةَ حتَّىٰ سَلَّ لسانَهُ مِن قفاهُ . انظر « الأغاني » (٨/٢٦٣) .

(٢) أي : كادَ أَنْ يُركِبَ الأَخطلَ علىٰ ظهرِ جرير .

(٣) في « العكبري » البيت بلفظ المخاطب : (تَغْضَبُونَ) (رِفْدَكُمُ) .

(٤) **الناقَةُ الجبَّاءُ** : هي التي لا سنامَ لها ، ومعنىٰ جَبِّ هنا كأنه مأخوذ منها ؛ أي اقعد القرفصاء ، كالناقة التي لا سنامَ لها .

ولمَّا قالَ لَهُ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ [في « الأغاني » ١/٣٢٣] : أنشدني . . أنشدَهُ قولَهُ [في « ديوانه » ١/٢٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَرَكْبٌ كَأَنَّ الرِّيحَ تَطْلُبُ عِنْدَهُمْ ... لَهَا تِرَةً مِنْ جَذْبِهَا بِالْعَصَائِبِ[1]

سَرَوْا يَخْبِطُونَ اللَّيْلَ وَهْيَ تَلُفُّهُمْ ... إِلَىٰ شُعَبِ الأَكْوَارِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ[2]

إِذَا أَبْصَرُوا نَاراً يَقُولُونَ : لَيْتَهَا ـ ... وَقَدْ خَصِرَتْ أَيْدِيهِمُ ـ نَارُ غَالِبِ[3]

وكانَ يظنُّ أَنَّهُ ينشدُهُ مدحاً فيهِ ، فلمَّا لَم يَجِيءْ إلاَّ بذلكَ الفخرِ . . اسودَّ وجهُهُ ، ولجأَ إلىٰ شعرٍ قالَهُ نصيبٌ ، لا يوزَنُ بشيءٍ ممَّا قالَهُ الفرزدقُ ، ولا توضعُ اليدُ علىٰ شيءٍ منهُ ، عَدا قولَهُ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَعَاجُوا فَأَثْنَوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ ... وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

وليسَ هَـٰذا ببدعٍ ، إذ كلُّ مَن كانَ كبيرَ القدْرِ ، جليلَ الخطَرِ . . تحومُ عليهِ غربانُ الأحسادِ ، وتُفَوِّقُ إليهِ نبلانُ الأحقادِ ، كما سبقَ تقريرُهُ في موضعِهِ ، وكَما قالَ عليُّ بنُ محمَّدٍ الأفوهُ : [مِنَ البسيطِ]

مُحَسَّدُونَ وَمَنْ يَعْلَقْ بِحَبْلِهِمِ ... مِنَ الْبَرِيَّةِ يُصْبِحْ وَهْوَ مَحْسُودُ

وما أَرىٰ حادثةَ الخوارزميِّ معَ بديعِ الزمانِ إلاَّ مِن هَـٰذا النوعِ ، فقد كانَ الأوَّلُ فريدَ دهرِهِ ، منقطعَ النظيرِ في عصرِهِ ، ولم يأتِ البديعُ إلاَّ والخاصَّةُ كلُّهم أعداؤُهُ ، فصغَّروا مِن أَمرِهِ ما عظُمَ ، وكبَّروا مِن أَمرِ البديعِ ما صغُرَ ، حتَّىٰ كانَ ما كانَ ، ممَّا لم يأتِ إلاَّ بروايةِ البديعِ وحدَهُ ، ولأَقلَّ مِنْ تلكَ التهمَةِ . . يعلَّلُ بل يردُّ الحديثُ .

وقدِ اتفقَ لي من هـٰذا النوعِ أَنْ ورَدَ (حضرموتَ) رجلٌ مِن (اليمنِ) ، منذُ خمسةِ شهورٍ ، أَخذَ يتفنَّجُ ويتحدَّىٰ ، حتَّىٰ أكبرَهُ بعضُ الناسِ ، وفي الليلةِ الأُولىٰ مِنْ محرَّم هـٰذِهِ السنَةِ اجتمعْنا بهِ ، في لفيفٍ مِنْ أَهلِ الوجاهَةِ والأَدبِ ، فاقترحوا علينا المباراةَ في الشعْرِ ، معَ تعيينِ الموضوعِ والقافيَةِ والبحرِ ، فانتبذْتُ عنهُم قليلاً في المجلسِ ، ولَم نمضِ ساعةٌ وربعٌ . . حتَّىٰ جهَّزْتُ قصيدَةً لا تقلُّ عَن أَربعينَ بيتاً ، وجاءَ هُوَ في نفسِ المدَّةِ بنحوٍ مِن أَربعةٍ وعشرينَ بيتاً ، لا ترتفعُ إلى الإجادَةِ ، ولا تنحطُّ إلى التقصيرِ ، غيرَ أَنَّها انعقدَتْ بعدَ ذلكَ عدَّةُ مجالسَ ، يُقترَحُ علينا فيها النضالُ ، فنقولُ ويُفحَمُ، كما سبقَ لنا ذكرُ ذلكَ في المجلسِ الثاني عندَ شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/٢٩٧] : [مِنَ المنسرحِ]

بَانُوا بِخُرْعُوبَةٍ لَهَا كَفَلٌ ... يَكَادُ عِنْدَ الْقِيَامِ يُقْعِدُهَا

ولَولا انفراجُ الأَمرِ عمَّا لا يقبلُ الأَوهامَ والشكوكَ . . لَمثَّلوا ما جرىٰ على الخوارزميِّ مِنَ البديعِ ، فما أشدَّ حرصَهم على انهزامِنا وانتصارِهِ ، ولَو وَجدوا أدنىٰ منفذٍ إلى التمويهِ والتشويهِ . . لَفَتلوا في كلِّ غاربٍ ، وذروةٍ ؛ لغمطِ فضلِنا وترجيحِهِ ، غيرَ أَنَّهُ بفضلِهِ تعالىٰ أَبىٰ أَنْ يردَّهُم إلاَّ بغيظِهِم ، هَـٰذا مَعَ أَنَّ الشعرَ لا يتيسَّرُ لي في كلِّ وقْتٍ ، بَل قَد يكونُ الشروعُ فيهِ أَحياناً أَصعبَ عليَّ مِن قلعِ الأَسنانِ ، وأَنا أُحيلُ كلَّ ما يحصلُ لي مِنَ الانتصارِ بالحجَّةِ على الخصومِ ـ معَ قلَّةِ البضاعَةِ ، وتوفُّرِ الدواعي لاضطهادي ـ علىٰ بركَةِ دُعاءِ المشايخِ ، الذي لا يُحجَبُ عَن سماءِ الإجابَةِ ،

---

(١) التِرَةُ : الثأرُ . العصائبُ : العمائمُ .

(٢) شعبُ الأكوارِ : نواحيها . والكور : رحلُ البعيرِ .

(٣) خصرت : بردت . غالب : أي أبيهِ .



وذكرْتُ عندَ هـٰذا قولَ الأميرِ تميمِ بنِ المعزِّ [في « ديوانِهِ » ٢٠٤] : [مِنَ السَّريعِ]

أَرَىٰ أُنَاساً سَاءَنِي ظَنُّهُمْ ... فِي كُلِّ مَا قُلْتُ مِنَ الشِّعْرِ
فَنَاظِرُونِي فِيهِ أَوْ فَاشْرَحُوا ... شِعْرِيَ إِنْ أَنْكَرْتُمُ أَمْرِي
أَوْ لاَ ، فَقُولُوا : حَسَدٌ قَاتِلٌ ... مُسْتَمْكِنٌ فِي الْقَلْبِ وَالصَّدْرِ

وقولَهُ أيضاً [في « ديوانِهِ » ١٨٧] : [مِنَ الخفيفِ]

نَحْنُ أَهْلُ التُّقَىٰ وَأَهْلُ الْمُوَاسَا ... ةِ وَأَهْلُ النَّوَالِ وَالإِيثَارِ
فَدَعُوا خُطَّةَ الْعُلاَ لِذَوِيهَا ... مِنْ بَنِي بَيْتِ أَحْمَدَ الأَبْرَارِ
أَوْ فَلُومُوا الإِلَـٰهَ فِي أَنْ بَرَانَا ... فَوْقَكُمْ وَاغْضَبُوا عَلَى الْمِقْدَارِ

[هل يجوز التسمي بـ : ملك الملوك وما شابهه ؟]

هـٰذا : وقدِ اختلفَ العلماءُ في التسمِّي بملكِ الملوكِ [في « طبقات ابن السبكي » ٥/ ٢٧١] : **فأجازَهُ كثيرٌ** ، مِنهُم : القاضي أَبو الطيِّبِ الطبريُّ .

ومنعَهُ آخرونَ ، مِنهم : الماورديُّ ، **وهُوَ الذي اعتمدَهُ ابنُ حجرٍ في « تحفتِهِ »** ؛ لأَنَّهُ الأَسعدُ بالدليلِ ؛ إِذ جاءَ في « **الصحيحِ** » : « **أَخْنَعُ الأَسْمَاءِ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّىٰ بِمَلِكِ الأَمْلاَكِ** »[1] .

وأَولُ مَن تسمَّىٰ بذلكَ ـ فيما أَظنُّ ـ عضدُ الدولَةِ ، وكانَ صديقَ الماورديِّ ، فعزمَ اللهُ لَهُ بالثباتِ ، وجزَمَ بالحرمَةِ ، وأَمَّا بقيَّةُ العلماءِ . فَصانعوا ، وأَفتَوا بالجوازِ ، بناءً علىٰ ما سبقَ مِن التأْويلِ بإرادَةِ التخصيصِ ، فلم يكُن مِنَ الأَميرِ إِلاَّ أَن زادَ في احترامِ الماورديِّ ؛ لتصلُّبِهِ في الدينِ ، وقالَ : لو حابىٰ أَحداً . لَحاباني ، وأَخذَ في اطِّراحِ المقاربينَ لَه ، وهانَ قدرُهُم عليهِ ، قالَ ابنُ السبكيِّ [في « طبقاته » ٥/ ٢٧٢] : ولم تطلْ مدَّةُ العضُدِ بعدَ ذلكَ .

والظنُّ بالعضُدِ أَنَّهُ هوَ الذي امتدحَهُ الناظمُ بقصيدتِهِ التي يقولُ فيها [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥] : [مِنَ المنسرحِ]

وَقَدْ رَأَيْتُ الْمُلُوكَ قَاطِبَةً ... وَسِرْتُ حَتَّىٰ رَأَيْتُ مَوْلاَهَا
وَمَنْ مَنَايَاهُمُ بِرَاحَتِهِ ... يَأْمُرُهَا فِيهِمُ وَيَنْهَاهَا
أَبَا شُجَاعٍ بِفَارِسٍ عَضُدَ الدَّوْ ... لَةِ فَنَّاخُسْرَ وشَهَنْشَاهَا[2]

وله فيه القصيدةُ المستهلَّةُ بقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٨٥] : [مِنَ الوافرِ]

فِدىً لَكَ مَنْ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاكَا ... فَلاَ مَلِكٌ إِذاً إِلاَّ فَدَاكَا

وممَّا ينسبُ لعضُدِ الدولَةِ ـ كما ذكرَهُ أَبو منصورٍ الثعالبيُّ ، وغيرُهُ ـ قولُهُ [في « قرى الضيف » ٢/ ٢٥٩] : [مِنَ الرَّمَلِ]

لَيْسَ شُرْبُ الرَّاحِ إِلاَّ فِي الْمَطَرْ ... وَغِنَاءٌ مِنْ جَوَارٍ فِي السَّحَرْ

---

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٦٢٠٥) ، ومسلم (٢١٤٣) في الآداب . أَخنع : أوضع وأذل وأرذل .

(٢) **أبا شجاع** : بدلٌ من قولِهِ : مولاها . قال في « العُكبَري » : قالَ أَبو الفتحِ : هـٰذا البيتُ علىٰ أَنَّهُ قصيرُ الوزنِ ، قد جمعَ فيهِ كنيةَ الممدوحِ ، وبلدَهُ ، واسمهُ ، ولقبَهُ ، وسمَّاهُ ملكَ الملوكِ ، وهوَ مِن أَحسنِ الجمعِ والمدحِ .
فنَّاخُسْرُ : اسمٌ مِن أَسماءِ الأَسَدِ ، وهوَ اسمُ عَضُدِ الدَّولَةِ .

غَــانِيَــاتٍ سَــالِبَــاتٍ لِلنُّهَــىٰ نَــاغِمَــاتٍ فِــي تَضَــاعِيفِ الْــوَتَــرْ
مُبْــرِزَاتِ الْكَــأْسِ مِــنْ مَطْلَعِهَــا سَــاقِيَــاتِ الــرَّاحِ مَــنْ فَــاقَ الْبَشَــرْ
عَضُــدَ الــدَّوْلَــةِ وَابْــنَ رُكْنِهَــا مَلِــكَ الأَمْــلاَكِ غَــلاَّبَ الْقَــدَرْ

نعوذُ باللهِ مِنَ التعرُّضِ لغضَبِ اللهِ ومقتِهِ ، ومنازعتِهِ في أسمائِهِ وجبروتِهِ ، ثُمَّ أَشكلَ عليَّ الأَمرُ : بأَنَّ وفاةَ عضدِ الدولَةِ كانت سنةَ : (٣٧٢هـ) ، ووفادَةَ الناظمِ عليهِ ، كانَتْ سنةَ : (٣٥٤هـ) ، وابنُ السبكيِّ يقولُ : إنَّ أولَ مَن نسمَّىٰ (بشهنشاه) مِن آلِ بُوَيْهِ كانَ في سنَةِ : (٤٢٩هـ) ، وأَنَّىٰ تكونُ الأَوَّلِيَّةُ فِي الاسمِ وقد أطلقَها المتنبي على العضُدِ قبلَ هـٰذا التاريخِ بزمانٍ ؟ فليُتأَمَّلْ .

ويستحيلُ أَن يكونَ الماورديُّ هو صاحبَ عضدِ الدولَةِ ؛ إِذ كانَتْ وفاةُ الماورديِّ سنةَ : (٤٥٠هـ) عَن ستَّةٍ وثمانينَ عاماً ، فسنُّهُ يومَ وفاةِ العضدِ لا يتجاوزُ التسعَ .

ودونَ التسمي بملِكِ الأَملاكِ التسمِّي بحاكِمِ الحكَّامِ ؛ فإنَّهُ فظيعٌ ، وَلَكِنَّهُ ليسَ بحرامٍ ؛ لأَنَّهُ ليسَ بصريحٍ بل محتمِلٌ ، أمَّا قاضي القضاةِ . فقد أَطبَقَ العلماءُ على استعمالِهِ ، ثمَّ لا يبعدُ أَن يكونَ الناظمُ أَرادَ التوريَةَ في البيتِ الذي نتكلَّمُ عليهِ بسيِّدِ البشَرِ صلى الله عليه وسلم ، لا بممدوحِهِ محمَّدِ بنِ أَوسٍ ، وبذلكَ يكونُ مِنَ الصادقينَ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ كُورِهَا أَبَــرَّ وَأَوْفَــىٰ ذِمَّــةً مِــنْ مُحَمَّــدِ[1]

وقد سبقَ عن منصورٍ النميريِّ نظيرَهُ في الكنايَةِ بهارونَ عن عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ، وقد مرَّ بعضُ ما يتَّصِلُ بهـٰذا الكلامِ في شرحِ قولِه : [في « العُكبريِّ » ٣/ ١٦١] : [مِنَ الطَّويلِ]

[أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِي بِمَا وَكَأَنَّهُ] فَمَــا أَحَــدٌ فَــوْقِي وَلاَ أَحَــدٌ مِثْلِــي

[الغلو في المديح]

وقالَ أَبو العلاءِ المعريُّ [في « سقطِ الزند » ١٧٧] : [مِنَ الكاملِ]

لَــوْلاَ انْقِطَــاعُ الْــوَحْــيِ بَعْــدَ مُحَمَّــدٍ قُلْنَــا مُحَمَّــدُ مِــنْ أَبِيــهِ بَــدِيــلُ
هُــوَ مِثْلُــهُ فِــي الْفَضْــلِ إلاَّ أَنَّــهُ لَــمْ يَــأْتِــهِ بِــرِسَــالَــةٍ جِبْــرِيــلُ

قالَ القاضي عياضٌ : فصدرُ البيتِ الثاني شديدٌ ؛ لتشبيهِ غيرِ النبيِّ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وأَمَّا العجُزُ . . فمحتمِلٌ لوجهينِ :

أَحدِهما : أَنَّ هـٰذه الفضيلَةَ نقصَتِ الممدوحَ .

والآخرِ : استغناؤُهُ عَنها ، وهـٰذهِ أَشَدُّ . انتهىٰ .

ولا شكَّ أَنَّ الاحتمالَ الثاني زيادَةٌ في الكفْرِ ، وهُوَ غيرُ مستنكَرٍ مِنَ المعريِّ معَ تهجُّمِهِ على الأَنبياءِ ، وقِلَّةِ احترامِهِ لَهُم ، كما في قولِهِ : [مِنَ الخفيفِ]

كُنْــتَ مُــوسَــىٰ وَافَتْــهُ بِنْــتُ شُعَيْــبٍ غَيْــرَ أَنْ لَيْــسَ فِيكُمَــا مِــنْ فَقِيــرِ

---

(١) قالَهُ ساريةُ الديليُّ في « المستطرف » ١/ ٤٩١ وهو الذي ناداهُ سيِّدُنا عمرُ رضي اللهُ عنهُ بقولِهِ : يا ساريةُ ؛ الجبلَ الجبلَ .

فإنَّ الاستدراكَ في الشطرِ الثاني لا يحتملُ غيرَ التحقيرِ والازدراءِ بالأنبياءِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِم أجمعينَ .

وقالَ الناظمُ في مديحِ طاهرِ بنِ الحسينِ العلويِّ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٥٤ـ١٥٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَبْهَـرُ آيَـاتِ التِّهَـامِـيِّ أَنَّـهُ ... أَبُـوكُـمْ وَأَجْدَىٰ مَا لَكُـمْ مِـنْ مَنَاقِـبِ[1]

هُـوَ ابْـنُ رَسُـولِ اللهِ وَابْـنُ وَصِيِّـهِ ... وَشِبْهُهُمَـا شَبَّهْـتُ بَعْـدَ التَّجَـارِبِ

غيرَ أَنَّ البلاغَةَ شيءٌ ، والدِّينَ شيءٌ آخرُ ، وهَـٰؤلاءِ الشعراءُ ـ بالأغلَبِ ـ لا وازعَ لَهم مِنَ الدِّينِ ، بل يمرُّونَ مَعَ خواطِرِهِم ، وينفثونَ بكلِّ ما توحي لَهُم ضمائِرُهُم ، ومِن ثَمَّ ضعفَ شعرُ بعضِ الصحابَةِ ، بما عقدَ من أَلسنتِهِم الحقُّ ، بقدرِ ماأَطلقَ من أَلسنَةِ مَن سواهُمُ الباطِلُ ؛ ولهـٰذا قالوا : أَظرفُ الناسِ الزنادقَةُ ؛ إذ لا يتقيَّدونَ بشيءٍ مِن حرمَةِ الدينِ ، بل يضحَكونَ بما يحِلُّ وما لا يحِلُّ ، وقد قيلَ [القائل أبو نواس كما في « مجمع الأمثال » (٦٢٧)] : تيهُ مُغَنٍّ ، وظُرْفُ زِنْدِيقٍ[2] .

ومِن محاسنِ الحجَّاجِ قولُهُ : وددْتُ لَو أَنِّي أَدركْتُ أَربعةً فقتَلْتُهم شرَّ القتلِ ، أَحدُهم عبيدُ اللهِ بنُ زيادِ بنِ ظبيانَ ، قالَ لَهُ ابنُ مسمعٍ : كثَّرَ اللهُ في العشيرَةِ مثلَكَ ، فقالَ : لقد سأَلْتَ ربَّكَ شططاً[3] .

ثُمَّ إِنَّ بيتَ الناظِمِ الذي نتكلَّمُ فيهِ . . متداوَلُ المعنىٰ بينَ الشعراءِ ، قالَ أبو الشيصِ الخزاعيُّ : [مِنَ الكامِلِ]

مَـا كَـانَ مِثْلَـكَ فِـي الْـوَرَىٰ فِيمَـنْ مَضَـىٰ ... أَحَـدٌ وَظَنِّـي أَنَّـهُ لاَ يُخْلَـقُ

وقالَ أَيضاً : [مِنَ البسيطِ]

لَـوْ تَبْتَغِـي مِثْلَهُـمْ فِـي النَّـاسِ كُلِّهِـمِ ... طَلَبْـتَ مَـا لَيْـسَ فِـي الـدُّنْيَـا بِمَـوْجُـودِ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٣١٤] : [مِنَ الكامِلِ]

هَيْهَـاتَ أَنْ يَـأْتِـي الـزَّمَـانُ بِمِثْلِـهِ ... إِنَّ الـزَّمَـانَ بِمِثْلِـهِ لَبَخِيـلُ

فأَخذَهُ الناظِمُ وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٣٦] : [مِنَ الكامِلِ]

أَعْـدَى الـزَّمَـانَ سَخَـاؤُهُ فَسَخَـا بِـهِ ... وَلَقَـدْ يَكُـونُ بِـهِ الـزَّمَـانُ بَخِيـلاَ

وفي هـٰذا البيتِ دورٌ يفسدُهُ ، لأَنَّهُ كيفَ يعدي الزمانَ بسخائِهِ قبلَ وجودِهِ ؟ وكيفَ يجودُ بِهِ الزمانُ قبلَ العدوىٰ ، وهوَ بخيلٌ ؟ إلاَّ أَن يجابَ : بأَنَّ العدوىٰ كانَت في الأَزَلِ ، وهوَ حينئذٍ شبيهٌ بما نقرِّرُهُ مِن أَنَّ خلقَ النفسِ الناطقَةِ . . يكونُ

---

(١) قال الواحدي في شرح ديوان المتنبي ص ٣٣١ : قال أبو الفضل العروضي فيما أملاه عليّ : هـٰذا بيتٌ حسن المعنىٰ مستقيم اللفظ حتىٰ لو قلت : إنه أمدح بيت في شعره لم أبعد عن الصواب ولا ذنب له [أي المتنبي] إذا جهل الناس غرضه واشتبه عليهم ؛ أما معناه :
إن قريشاً وأعداء النبيِّ صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون : إن محمداً صنبورٌ ـ أي منفرد أبتر لا عقب له فإذا مات استرحنا منه فأنزل الله تعالىٰ : ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ أي العدد الكثير ولست بالأبتر الذي قالوا : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ ؛ فقال المتنبي : أنتم من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وآيات لتصديقه وتحقيق قول الله تعالىٰ . . وذلك أجدىٰ ما لكم من مناقب .

(٢) وأراد بقوله : (ظرْف زنديق) : مطيعَ بن إياس ، ولقبه بشار بن برد ، وكان إذا وصف إنساناً بالظرف قال : أظرف من الزنديق ؛ لأن من تزندق كان له ظرف يباين به الناس .

(٣) « مجمع الأمثال » (٤٥٨٠) .



قبلَ استعدادِ النطفةِ لقبولِها بزمَانٍ بعيدٍ ، وهُوَ الحَقُّ ، خلافاً للغزاليِّ ، وابنِ سينا ، والحكيمِ السهرورديِّ المقتولِ .

وقالَ البُحتريُّ : [مِنَ الكاملِ]

وَلَئِنْ طَلَبْتُ شَبِيهَهُ إِنِّي إِذَنْ ... لَمُكَلِّفٌ طَلَبَ الْمَحَالِ رِكَابِيَ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/١٦٥٩] : [مِنَ الكاملِ]

لاَ تَطْلُبَنَّ لَهُ الشَّبِيهَ فَإِنَّهُ ... قَمَرُ التَّأَمُّلِ مُزْنَةُ التَّأْمِيلِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/٢٠٤٤] : [مِنَ البسيطِ]

إِلَىٰ مُقِلٍّ مِنَ الأَكْفَاءِ لَوْ طَلَبُوا ... مَكَانَ مُشْبِهِهِ فِي الأَرْضِ مَا عُلِمَا

وقالَ [في « ديوانهِ » ٤/٢٤٠٦] : [مِنَ الكاملِ]

فَتىً كَانَ يَأْبَىٰ قَدْرُهُ أَنْ يُرَىٰ لَهُ ... نَظِيرٌ مُسَاوٍ أَوْ شَبِيهٌ مُشَاكِلُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٤/٢٤٠٦] : [مِنَ الكاملِ]

مَا زَالَ مُنْقَطِعَ الْقَرِينِ وَقَدْ أَرَىٰ ... مَنْ لاَ يَزَالُ مُشَاكِلٌ يَلْقَاهُ
لَيْسَ التَّفَرُّدُ بِالسِّيَادَةِ عِنْدَهُمْ ... أَنْ يُوجَدَ الأَمْثَالُ وَالأَشْبَاهُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/٢٤٨ـ٢٤٩] : [مِنَ الكاملِ]

دَانٍ عَلَىٰ أَيْدِي الْعُفَاةِ وَشَاسِعٌ ... عَنْ كُلِّ نِدٍّ فِي النَّدَىٰ وَضَرِيبِ[1]
كَالْبَدْرِ أَفْرَطَ فِي الْعُلُوِّ وَضَوْؤُهُ ... لِلْعُصْبَةِ السَّارِينَ جِدُّ قَرِيبِ

وقالَ ابنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٤/١٦٨٨] : [مِنَ المتقاربِ]

فَهَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَىٰ مِثْلِهِ ؟ ... أَبَى اللهُ ذَاكَ عَلَىٰ مَنْ خَلَقْ

وقالَ : [مِنَ السَّريعِ]

لَيْسَ لَهُ عَيْبٌ سِوَىٰ أَنَّهُ ... لاَ تَقَعُ الْعَيْنُ عَلَىٰ مِثْلِهِ

وما زالَ الناظِمُ يحومُ علىٰ هٰذا المعنىٰ . . حتَّى انقضَّ عليهِ في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/١٨٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا عَزَّهُ فِيهَا مُرَادٌ أَرَادَهُ ... وَإِنْ عَزَّ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ

وقالَ الحصنيُّ : [مِنَ الخفيفِ]

لَمْ يَكُنْ فِي خَلِيقَةِ اللهِ نِدٌّ ... لَكَ فِيمَا مَضَىٰ وَلَيْسَ يَكُونُ

وقالَ آخرُ ـ وغالِبُ ظَنِّي أَنَّهُ عُمَارَةُ اليمنيُّ يمدَحُ شاوِراً ـ [ظنُّ الشيخ المؤلف صحيح كما في « السير » ١٥/٢١١] : [مِنَ الكاملِ]

ضَجِرَ الحَدِيدُ مِنَ الحَدِيدِ وَشَاوِرٌ ... مِنْ نَصْرِ دِينِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَضْجَرِ

---

(١) العفاةُ : كلُّ طالبِ فضلٍ أو رزقٍ . الشاسعُ : البعيدُ .

حَلَفَ الزَّمَانُ لَيَأْتِيَنَّ بِمِثْلِهِ ... حَنِثَتْ يَمِينُكَ يَا زَمَانُ فَكَفِّرِ

ويروىٰ [في « وفيات الأعيان » ٣/ ٢٨٩] : أَنَّهُ لمَّا ماتَ إِلكْيا الهرَّاسيُّ . . حضرَهُ قاضي القضاةِ ابنُ الدامغانيِّ ، وأَبو طالبٍ الزينبيُّ ، وقد انتهَت إِليهما رئاسَةُ الحنفيّةِ ، وكانَ بينَهُ وبينَهُما تنافسٌ وتنافُرٌ في أَيّامِ الحياةِ ، فوقَفَ أَحدُهما [وهو الدامغاني] عندَ رأْسِهِ ، وتمثَّلَ بقولِ الشاعرِ : [مِنَ الوافرِ]

وَمَا تُغْنِي النَّوَادِبُ وَالْبَوَاكِي ... وَقَدْ أَصْبَحْتَ مِثْلَ حَدِيثِ أَمْسِ

فأَنشدَ الثاني متمثِّلاً بما يناسِبُ المقامَ ، وهوَ قولُ الآخرِ : [مِنَ الكاملِ]

عَقِمَ النِّسَاءُ فَلا يَلِدْنَ شَبِيهَهُ ... إِنَّ النِّسَاءَ بِمِثْلِهِ عُقْمُ

وأَكثرُ أُولئكَ الشعراءِ مُغالٍ فيما قالَ ، ومَن ذا الذي يوقِظُ مروءَتَهُ ، ويُنيمُ هواهُ ، ويزِنُ كلامَهُ ، وينظُرُ بعينِ الإِنصافِ والمعدلَةِ فيما يقولُ ، ويترسَّمُ قانونَ المعريِّ في قولِهِ [في « سقطِ الزند » ١٥٧] : [مِنَ البسيطِ]

وَرَتِّبِ النَّظْمَ تَرْتِيبَ الْحُلِيِّ عَلَى الشَّـ ... ـخْصِ الْجَلِيِّ بِلاَ مَيْنٍ وَلاَ خَرَقِ[1]

فَالْحِجْلُ لِلْرِجْلِ وَالتَّاجُ الْمُنِيفُ لِمَا ... فَوْقَ الْحِجَاجِ وَعِقْدُ الدُّرِّ لِلْعُنُقِ[2]

وما علمتُ أَحداً وضعَ هـٰذا المعنىٰ في موضعِهِ سوى ابنِ عبَّاسٍ ؛ إِذ يقولُ [في « جمهرة خطب العرب » ١/ ٣٤٧] : عقمَتِ النساءُ أَن تأتيَ بمثلِ عليِّ بنِ أَبي طالبٍ ؛ لَعَهدي بهِ في (صِفِّينَ) عليهِ عمامَةٌ بيضاءُ ، يقفُ على الناسِ شرذمَةً شرذمَةً حَتَّى انتهىٰ إِليَّ ، وأَنا في كنفٍ مِنَ النَّاسِ ، حولي غلمَةٌ مِن بني عبدِ المطَّلِبِ ، فقالَ : يا معشَرَ المسلمينَ تجلبَبُوا السكينَةَ ، وكَمِّلوا اللَّأْمَةَ ، وأَقلِقوا السيوفَ ، وكافِحوا بالظُّبَا ، وصِلوا السيوفَ بالخُطَا ، فإِنَّكم بعينِ اللهِ ، ومعَ ابنِ عمِّ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم . . وذكرَ خطبَةً جزلَةً طويلَةً .

[وصل السيوف بالخطا عند العرب]

وقولُهُ : صِلوا السيوفَ بالخُطا موجودٌ بكثرَةٍ عندَ العرَبِ ، منهُ قولُ كعبِ بنِ مالكٍ [في « ديوانه » ١٩٤] : [مِنَ الكاملِ]

نَصِلُ السُّيُوفَ إِذَا قَصُرْنَ بِخَطْوِنَا ... قُدُماً وَنُلْحِقُهَا إِذَا لَمْ تَلْحَقِ

وقولُ ودَّاكِ بنِ ثميلٍ [في « ديوان الحماسة » ١/ ٣٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

مَقَادِيمُ وَصَّالُونَ فِي الرَّوْعِ خَطْوَهُمْ ... بِكُلِّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ يَمَانِي

إِذَا اسْتُنْجِدُوا لَمْ يَسْأَلُوا مَنْ دَعَاهُمُ ... لأَيَّةِ حَرْبٍ أَمْ بِأَيِّ مَكَانِ

وقالَ آخرُ [وهو الأخنس بن شهاب كما في « المثل السائر » ٢/ ٣٦٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا قَصُرَتْ أَسْيَافُنَا كَانَ وَصْلُهَا ... خُطَانَا إِلَىٰ أَعْدَائِنَا فَنُضَارِبُ

وقالَ نابغَةُ بني الحارثِ بنِ كعبٍ : [مِنَ الكاملِ]

إِنْ تَسْأَلِي عَنَّا سُمَيَّ فَإِنَّهُ ... يَسْمُو إِلَىٰ فَخْمِ الْعُلاَ نَارَانَا

---

(١) **الجليُّ** : العروس . يقولُ : إِنَّ الشعرَ أَشبهُ بالحُليِّ ، وكلُّ نوعٍ منهُ يليقُ بعضوٍ من أعضاءِ البدنِ ، وكلُّ نوعٍ من الشعرِ يليقُ بواحدٍ من الممدوحينَ .

(٢) **الحجلُ** : هو الخَلخالُ .

وَتَبِيتُ جَارَتُنَا حَصَاناً عِفَّةً ... تَرْضَىٰ وَيَأْخُذُ حَقَّهُ مَوْلاَنَا
وَنَقُومُ إِنْ طَرَقَ الْمَنُونُ بِسَحْرَةٍ ... لِوَصَاةِ وَالِدِنَا الَّذِي أَوْصَانَا
أَنْ لاَ نَفِرَّ عَنِ الْكَتِيبَةِ أَقْبَلَتْ ... حَتَّىٰ تَدُورَ رَحَاهُمُ وَرَحَانَا
وَتَعِيشُ فِي أَحْلاَمِنَا أَشْيَاعُنَا ... مُرْداً وَمَا وَصَلَ الْوُجُوهَ لِحَانَا
وَإِذَا السُّيُوفُ قَصُرْنَ طَوَّلَهَا لَنَا ... حَتَّىٰ نَنَالَ مِنَ الْكُمَاةِ خُطَانَا

وقالَ حميدُ بنُ ثورٍ [في « ديوانه » ٨٨ـ٨٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِلَىٰ أَنْ نَزَلْنَا بِالْفَضَاءِ وَمَا لَنَا ... بِهِ مَعْقِلٌ إِلاَّ الرِّمَاحُ الشَّوَاجِرُ[1]
وَوَصْلُ الْخُطَا بِالسَّيْفِ وَالسَّيْفِ بِالْخُطَا ... إِذَا ظَنَّ أَنَّ الْمَرْءَ ذَا السَّيْفِ قَاصِرُ

وقالَ أبو سعيدٍ المخزوميُّ : [مِنَ الخفيفِ]

وَإِذَا مَا الْحُسَامُ كَانَ قَصِيراً ... طَوَّلَتْهُ إِلَى الْعَدُوِّ بَنَانِي

وقالَ السموءَلُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنْ قَصُرَتْ أَسْيَافُنَا كَانَ وَصْلُهَا ... خُطَانَا إِلَىٰ أَعْدَائِنَا فَتَطُولُ

وقالَ بشامةُ بنُ حزنٍ [في « البيان والتبيين » ١/٤٠٣] : [مِنَ البسيطِ]

إِذَا الْكُمَاةُ تَنَحَّوْا أَنْ يَنَالَهُمُ ... حَدُّ السُّيُوفِ وَصَلْنَاهَا بِأَيْدِينَا

وقالَ غيرُهُ [في « البيان والتبيين » ١/٤٠٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَصَلْنَا الرِّقَاقَ الْمُرْهَفَاتِ بِخَطْوِنَا ... عَلَى الْهَوْلِ حَتَّىٰ أَمْكَنَتْنَا الْمَضَارِبُ

[شر الشعراء من يناقض نفسه بنفسه]

قُلنا : إنَّ في كثيرٍ ممَّا سبقَ غُلُوّاً ، وقد علمْتَ ممَّا مرَّ أَنَّ الغلوَّ لا يُقبَلُ ، وشرٌّ مِن الغلوِّ أَن يقعَ فيهِ الشاعِرُ وهوَ يعتقِدُ خلافَهُ ، وفي مقدمةِ هـٰؤلاءِ . . الناظِمُ ؛ بشهادةِ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٤/٢٩٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَوْلاَ فُضُولُ النَّاسِ جِئْتُكَ مَادِحاً ... بِمَا كُنْتُ فِي سِرِّي بِهِ لَكَ هَاجِيَا

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٤/٢١٣] : [مِنَ البسيطِ]

مَدَحْتُ قَوْماً وَإِنْ عِشْنَا نَظَمْتُ لَهُمْ ... قَصَائِداً مِنْ إِنَاثِ الْخَيْلِ وَالْحُصُنِ[2]

في كثيرٍ مِن تلكَ الأَمثالِ .

وقالَ من قبلِهِ الكميتُ [في « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » ١/١٩١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَرَّظْتُكُمْ لَوْ أَنَّ تَقْرِيظَ مَادِحٍ ... يُوَارِي عُوَاراً مِنْ أَدِيمِكُمُ النَّغْلِ[3]

---

(١) **المعقِلُ** : الملجأُ . **الرماحُ الشواجرُ** : المختلفةُ المتداخِلةُ .

(٢) قالَ العُكبَريُّ : المعنىٰ : مدحتُ قوماً لَم يستحقُّوا المدحَ ؛ لبخلِهم وجهلِهم ، ولكن إنْ عشتُ . . غزوتُهم بخيلٍ إناثٍ وذكورٍ ، وجعلَ الخيلَ كالقصائدِ المؤلَّفةِ التي مدحَهُم بها .

(٣) **النَّغَلُ** : فسادُ الجلدِ في دِباغهِ . وأديمكم النغلُ : جلدكم الفاسد .

وقالَ بشَّارٌ [في « ديوانه » ٤/ ٢٣] [مِنَ الكاملِ]

إِنِّـي مَـدَحْتُـكِ كَـاذِبـاً فَـأَثَبْتِنِـي لَمَّـا مَـدَحْتُـكِ مَـا يُثَـابُ الْكَـاذِبُ

وقالَ سَلْمٌ الخاسِرُ : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـإِنْ تُعْطِنِـي جِـرْمٌ لأَنِّـي امْتَـدَحْتُهَـا فَمَـا عَلِمَـتْ جِـرْمٌ لَهَـا مَـادِحـاً قَبْلِـي

وفي جِرمٍ ـ هـٰؤلاءِ ـ يقولُ الآخرُ [وهو زيادُ الأعجم كما في « طبقات فحول الشعراء » ٢/ ٦٩٨] : [مِنَ البسيطِ]

إِنِّـي لأُكْـرِمُ نَفْسِـي أَنْ أُكَلِّفَهَـا هِجَـاءَ جِـرْمٍ وَمَـا يَهْجُـوهُـمُ أَحَـدُ

مَـاذَا يَقُـولُ لَهُـمْ مَـنْ كَـانَ هَـاجِيَهُـمْ لاَ يَبْلُـغُ النَّـاسُ مَـا فِيهِـمْ وَإِنْ جَهِـدُوا

وعكسَ المعنىٰ علىٰ سَلْمٍ الخاسرِ أبو تمَّامٍ في قولِهِ [في « ديوانه » ١/ ٢٩١] : [مِنَ الطَّويلِ]

كَـرِيـمٌ مَتَـىٰ أَمْـدَحْـهُ أَمْـدَحْـهُ وَالْـوَرَىٰ مَعِـي وَإِذَا مَـا لُمْتُـهُ لُمْتُـهُ وَحْـدِي

وقالَ أَبو نُواسٍ [بنحوه في «المستطرف» ٢/ ٤]: ما رأَيتُ أكرمَ مِن جعفرِ بنِ يحيىٰ، لقد قلتُ فيهِ [في «ديوانه» ١٠٢]: [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَسْـتُ وَإِنْ أَطْنَبْـتُ فِـي مَـدْحِ جَعْفَـرٍ بِـأَوَّلِ إِنْسَـانٍ خَـرَىٰ فِـي ثِيَـابِـهِ

فأَمر لي بعَشَرَةِ آلافِ درهَمٍ ، وقالَ : اغسلْ بهـٰذا الخَرَا مِن ثيابِكَ .

وَلَكِنَّ أَبا نواسٍ لَم يتحدَّثْ بهـٰذا . . إلاَّ بعدَ أَن مضىٰ على البرامكَةِ زمانٌ طويلٌ ، وإِلاَّ . . فقدْ كانَ جاحداً لفضلِهم .

وقد سبقَ معنُ بنُ زائدَةَ إِلىٰ مثلِ هـٰذه الفضيلَةِ ، فقدِ استُؤْجِرَ أَعرابيٌّ علىٰ إِغضابِهِ ، فتلقَّاهُ بقصيدَةٍ أَقذَعَ له فيها ، حتَّىٰ قالَ : [مِنَ الوافرِ]

أَتَـذْكُـرُ إِذْ قَمِيصُـكَ جِلْـدُ شَـاةٍ وَإِذْ نَعْـلاَكَ مِـنْ جِلْـدِ الْبَعِيـرِ[1]

فقالَ لَهُ : نعم ، أَذكرُ ذلكَ ولا أَنساهُ يا أَخا العربِ ، والحمدُ للهِ علىٰ ما تفضَّلَ وأَجملَ ، فقالَ لهُ : [مِنَ الوافرِ]

فَعَجِّـلْ يَـا ابْـنَ نَـاقِصَـةٍ بِمَـالٍ فَـإِنِّـي قَـدْ عَـزَمْـتُ عَلَـى الْمَسِيـرِ

فلم يَثُرْ لَهُ غضَبٌ ، ولا تحرَّكَ لَهُ عرقٌ ، بل أَمرَ لَهُ بمالٍ ، فقالَ : [مِنَ الوافرِ]

قَلِيـلٌ مَـا أَمَـرْتَ بِـهِ وَإِنِّـي لأَطْمَـعُ مِنْـكَ فِـي الشَّـيْءِ الْكَثِيـرِ

فأَضعفَهُ لَهُ حَتَّىٰ أَرضاهُ ، فتخلَّصَ إِلىٰ مدحِهِ ، كذا رأَيتُ القصَّةَ مِن زمانٍ طويلٍ في « **أعلامِ النَّاسِ** » ، وما رأيتُها في غيرِهِ ، واللهُ أَعلمُ بصحَّتِها[2] .

---

(١) البيت في « جمهرة الأمثال » (٢/ ٣٩) بإبدال (جلد شاة) بـ : (جلدُ تَيسٍ) .

(٢) روى القصة صاحبُ « المنتظم حتىٰ سنة [٢٥٧ هـ] » (٦/ ٢٨٠) عَنِ الأَصمعيِّ قصَّةً تشبهُها حيثُ قالَ : كانَ أَعرابيَّانِ متواخيينِ ، غيرَ أَنَّ أَحدَهُما استوطَنَ الرِّيفَ والآخرَ اختلفَ إِلى الحجَّاج فاستعملَهُ علىٰ (أصفهانَ) ، فسمعَ بهِ أَخوهُ الذي بالباديَةِ ، فضربَ إِليهِ ، فأَقامَ ببابِهِ حيناً لا يصلُ إِليهِ ، ثُمَّ أَذِنَ لَهُ بالدُّخولِ ، وأَخذَهُ الحاجبُ ، فمشىٰ بهِ وهوَ يقولُ : سلامٌ على الأَميرِ ، فلَم يلتفتْ إِلىٰ قولِهِ ، ثُمَّ قالَ :

فَلَسْـتُ مُسَلِّمـاً مَـا دُمْـتُ حَيّـاً عَلَـىٰ زَيْـدٍ بِتَسْلِيـمِ الأَمِيـرِ

فَقالَ زيدٌ : لا أُبالي . فقالَ الأَعرابيُّ :

وقالَ ابنُ الروميِّ فيما نحنُ بسبيلِهِ [في « ديوانه » ٤/١٤٢٢] : [مِنَ الوافرِ]

أَتَيْتُكَ مَادِحاً فَهَجَوْتَ شِعْرِي فَكَانَتْ هَفْوَةً مِنِّي وَغَلْطَهْ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانه » ٣/١٨٦٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

هُمُ سَرَقُوا طِرْفِي وَقَدْ جِئْتُ مَادِحاً لَهُمْ ، إِنَّ بَعْضَ الْمَدْحِ إِثْمٌ وَبَاطِلُ(١)

[ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً]

ومِن هٰذا البابِ [بنحوه في « المستطرف » ٢/١٨] : أَنَّ الأَحنفَ بنَ قيسٍ كانَ عندَ معاويَةَ بالموسمِ ، بعدَ عقدِهِ البيعَةَ ليزيدَ ، وقد نُصِبَ له قبَّةٌ ، وليزيدَ أُخرىٰ ، فكانَ الناسُ يسلِّمونَ عليهِ ، ويُثْنُونَ إِلىٰ يزيدَ ، فسلَّمَ عليهِ أَحدُ العربِ ثمَّ ذهبَ إِلىٰ يزيدَ ، ثمَّ رجَعَ إِلىٰ معاويَةَ ، وقالَ : أَشهدُ باللهِ أَنَّكَ لو لم تولِّ هٰذا عهدَ المسلمينَ . لكنتَ أَضعتَهم ، فارتاحَ لَها معاويَةُ ، وقالَ للأَحنفِ : ما تقولُ يا أَبا بحرٍ ؟ قالَ : نخافُ اللهَ إِن كذَبنا ، ونخافُكُم إِن صدَقْنا ، قالَ : يَكْفينا منكَ السكوتُ ، ثُمَّ خرجَ الأَحنفُ ولاقى الرجُلَ ، فقالَ له : أَرأَيتَ ما قلتَهُ لمعاويَةَ آنفاً أَعَن صحَّةِ اعتقادٍ ؟ قالَ : لا واللهِ ، ولكنهم أَخذوا أَموالَ اللهِ ، وجَعلوا علَيها أَقفالَ الحديدِ ، فلَسنا نَستخرِجُها مِنهم إِلاَّ بمِثلِ ما سمعتَ مِنَ الكلامِ ، فقالَ لَهُ : وَلَكِنَّ رسولَ للهِ صلى الله عليه وسلم يقولُ : « **أَخْلِقْ بِذِي الْوَجْهَيْنِ أَنْ لاَ يَكُونَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً** »(٢) .

[الدنيا مصالح ! ! رحم الله أباك كان وكان . . . ولم يكن]

وكانَ العبَّاسُ بنُ سهلِ بنِ سعدِ الأَنصاريُّ عاملَ ابنِ الزبيرِ على (المدينَةِ) ، ثمَّ وُلِّيَ عَلَيها عثمانُ بنُ حيَّانَ بنِ معبدٍ المريُّ ، وآلىٰ ليقتلَنَّ العبَّاسَ ، فتغيَّبَ حَتَّىٰ أَضرَّ بِهِ التغيُّبُ ، ورغِبَ إِلىٰ أَصحابِ الأَميرِ أَن يشفَعوا لهُ ، فقالوا : لا نقدِرُ ؛ لأَنَّهُ لا يذكرُكَ إِلاَّ تغيَّظَ حَتَّىٰ كادَ يتفسخُ جلدُهُ ، غيرَ أَنَّهُ يتبسَّطُ ساعةَ الطعامِ ، ويرتاحُ عندَهُ للحديثِ ، قالَ العبَّاسُ : فتنكَّرْتُ ، وحضرْتُ علىٰ طعامِهِ ، وجيءَ بجفنَةٍ علَيها اللحمُ والثريدُ ، فقلْتُ :

واللهِ لكأَنِّي أَنظرُ إِلىٰ جفنَةِ حيَّانَ بنَ معبدٍ يتكاوَسُ الناسُ علَيها ، وهوَ يطوفُ في أَرديَةِ الخزِّ ، يتفقَّدُ مصالحَهم ، حَتَّىٰ إِنَّ الحَسَكَ ليتعلَّقُ بِهِ فلا يُميطُهُ ؛ مِن شدَّةِ اهتمامِهِ بضيفِهِ ، ولا يَكِلُ ذلكَ إِلىٰ حاشيتِهِ ، بَل يراقبُهُم بنفسِهِ ، ثمَّ يؤتىٰ بجفنَةٍ يحملُها أَربعةٌ ما يستقلُّونَ بحملِها إِلاَّ بمشقَّةٍ وعناءٍ ، وهٰذا بعدَ ما يفرغُ الناسُ مِنَ الطعامِ ، يجلِسُ عليها هوَ والطارِئُ مِن أَشرافِ قومِهِ ، وما بأَكثرِهم مِن حاجَةٍ إِلى الأَكلِ ، ولكنْ يحبُّونَ الفخرَ بالدنوِّ مِن طعامِهِ ، ومشارَكَةِ يدِهِ .

= أَتَذْكُرُ إِذْ لِحَافُكَ جِلْدُ شَاةٍ وَإِذْ نَعْلاَكَ مِنْ جِلْدِ الْبَعِيرِ

فقالَ : نَعم . فقالَ الأَعرابيُّ :

فَسُبْحَانَ الَّذِي أَعْطَاكَ مُلْكاً وَعَلَّمَكَ الْجُلُوسَ عَلَى السَّرِيرِ

(١) **الطِّرْفُ** : الكريمُ من الخيلِ .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مسلم (٢٥٢٦) في الفضائل : « وتجدون من شرار الناس ذا الوجهين الذي يأتي هٰؤلاء بوجه وهٰؤلاء بوجه » و(٢٦٠٤ م) وفيه : « إن شر الناس ذو الوجهين » . وفي الباب : عن عمار عند الدارمي (٢٦٦٢) : « من كان ذا وجهين في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار » .

قالَ : هيهِ ، أَنتَ رأيتَهُ كذلكَ ، قلتُ : إِي وربِّ الكعبَةِ ، قالَ : ومَن أَنتَ ؟ قلتُ : وَأنا آمِنٌ ، قالَ : نعم ، قلتُ : أَنا العبَّاسُ بنُ سهلِ بنِ سعدٍ ، قالَ : لا تثريبَ عليكَ ، وأهلاً بكَ ، ولقد أَبطأْتَ علينا ، وإِنَّا إِلىٰ مثلِكَ لمحتاجونَ .

قالَ : فلقد رأَيتُني وما بـ(المدينَةِ) آثَرُ ولا أَوجَهُ عندَهُ منِّي .

قالوا لهُ : وأَنتَ رأَيتَ حيَّانَ كذلكَ ؟ قالَ : لا واللهِ ، لقد نزلْنا مرَّةً علىٰ بعضِ المياهِ ، فغشِيَنا وعليهِ عباءَةٌ باليَةٌ ، فجعلْنا نذودُهُ عَن رحالنا ؛ مخافَةَ أَن يسرقَها ، وأَعطيناهُ تمراً أَكثرُهُ حشَفٌ ، ففرِحَ بهِ ، وكانَ قد مسَّ عثمانَ هـٰذا ـ أَو والدَهُ حيانَ ـ أَسْرٌ ، ولهـٰذا ردَّهُ عقيلُ بنُ علفَةَ لمَّا خطَبَ إِليهِ ابنتَهُ ، وقالَ لهُ [في « الأغاني » ١٢/٢٩٨] : تريدُ ناقتي ؟ فظنَّ عثمانُ أَنَّهُ لم يسمَعْ ، فرفعَ صوتَهُ وقالَ : زوِّجني بنتَكَ ، فقالَ : أَناقَتي أَصلحكَ اللهُ ؟ فجفاهُ ، وأَمرَ بإِخراجِهِ ، وكانَ ابنَ عمٍّ لهُ ، فقالَ : [مِنَ الطَّويل]

وَكُنَّـا بَنِـي غَيْـظٍ رِجَـالاً فَـأَصْبَحَـتْ ... بَنُـو مَـالِـكٍ غَيْظـاً وَصِـرْنَـا لِمَـالِـكِ
لَحَـى اللهُ دَهْـراً ذَعْـذَعَ الْمَـالَ كُلَّـهُ ... وَسَـوَّدَ أَبْنَـاءَ الإِمَـاءِ الْعَـوَارِكِ[1]

[وهل أنا إلا مهرة عربية]

وذاك شبيهٌ بما قالَتْهُ ابنةُ النعمانِ بنِ بشيرٍ لزوجِها روحِ بنِ زنباعٍ [في « وفيات الأعيان » ٣/٩٥] ، وكانَ سيِّدَ (اليمنِ) وخطيبَهم ، وقائدَهم بـ(الشامِ) ، غيرَ أَنَّهُ قد مسَّهُ الأَسرُ يومَ الرجِّ ، فلم تزَل تعيِّرُهُ بذلكَ ، حتَّىٰ قالَتْ : [مِنَ الطَّويل]

وَهَـلْ أَنَـا إِلاَّ مُهْـرَةٌ عَـرَبِيَّـةٌ ... سَلِيلَـةُ أَفْـرَاسٍ تَجَلَّلَهَـا بَغْـلُ
فَـإِنْ نَتَجَـتْ مَهْـراً كَـرِيمـاً فَبِـالْحَرَىٰ ... وَإِنْ يَـكُ أَقْـرَافٌ فَمَـا أَنْجَـبَ الْفَحْـلُ

وبعضُهُم ينسبُ هـٰذينِ البيتينِ لهندٍ زوجِ الحجَّاجِ ، وهو خطأٌ ، وإِنَّما تمثَّلَت بهِما ؛ لمناسبتِهما لحالِها ، في حديثٍ لَها معَ الحجَّاجِ طريفٍ ، غيرَ أَنَّا لا نطيلُ بهِ[2] .

[وجعل من الجبان بطلاً من أجل المصلحة]

وقالَ الشعبيُّ : حضرْتُ مجلسَ زيادٍ ، فجاءَ رجلٌ وقالَ : إِنَّ لِي حرمَةً أَيُّها الأَميرُ ، أَفأَذكُرُها ؟ قالَ : نعم ، قالَ : رأَيتُكَ بالطائِفِ وأَنتَ غليمٌ ذو ذؤَابَةٍ ، وقد أَحاطَتْ بكَ جماعَةٌ مِنَ الغِلمانِ ، وأَنتَ تركُضُ هـٰذا ، وتنطَحُ هـٰذا ، وتكدِمُ هـٰذا ، وهُم يَنْثالونَ عليكَ مرَّةً ، ويندونَ عنكَ أُخرىٰ ، وأَنتَ تَتْبَعُهم ، حتَّىٰ كاثروكَ ، فحجزْتُ بينَكَ وبينَهم ، وأَنتَ سليمٌ ، وكلُّهم جريحٌ ، قالَ : صدقْتَ ، أَنتَ ذلكَ الرجلُ ؟ قالَ : أَنا ذاكَ ، قالَ : حاجَتُكَ ؟ قالَ : الغنىٰ عَنِ الطَّلَبِ ، فقالَ : يا غلامُ ، أَعطِهِ كلَّ صفراءَ وبيضاءَ عندَكَ ، فلم ينصرِفْ إِلاَّ بأَربعةٍ وخمسينَ أَلفَ درهَمٍ ، فقيلَ لهُ بعدَ ذلكَ : أَنتَ رأَيتَ زياداً وهوَ غلامٌ علىٰ تلكَ الحالِ ؟ قالَ : لا واللهِ ، ولكن رأَيتُهُ وقد اكتنفَهُ صبيَّانِ صغيرانِ ، كأَنَّهما من سِخالِ المعْزِ ، فلولا أَنِّي أَدركتُهُ . . لأَتَيا عليهِ .

---

(١) ذعذع : فرَّق وبدَّد .
(٢) والقصَّةُ رواها الأَبشيهيُّ في « المستطرف » (١/١٢٣) .



ولمَّا استلحَقَ معاويَةُ زياداً . قالَ الجاحِظُ : مرَّ وهوَ والي (البصرَةِ) بأَبي العريانِ العدويِّ ، وكانَ شيخاً مكفوفاً ، ذا لِسانٍ وعارضَةٍ شديدَةٍ ، فقالَ أَبو العريانِ : ما هٰذهِ الجَلَبَةُ ؟ قالوا : زيادُ ابنُ أَبي سفيانَ في موكبِهِ ، قالَ : واللهِ ما تركَ أَبو سفيانَ إلاَّ يزيدَ ، ومعاويَةَ ، وعتبَةَ ، وعنبَسَةَ ، وحنظلَةَ ، ومحمَّداً ، فمِن أَينَ جاءَ زيادٌ ؟ فبلغَ الكلامُ زياداً ، وقالَ لهُ قائِلٌ : لو سددْتَ عنكَ فمَ هٰذا الكلْبِ ؟ فأَرسَلَ إِليهِ بمئتَي دينارٍ . فقالَ لَهُ رسولُ زيادٍ : إِنَّ الأَميرَ زياداً ابنَ عمِّكَ قد بعثَ إِليكَ بمئتَي دينارٍ ؛ لتستعينَ بها علىٰ نفقتِكَ ، قالَ : وصَلَتْهُ رحِمٌ ، أَي واللهِ ابنُ عمي حقاً ، ثمَّ مرَّ بهِ زيادٌ مِنَ الغَدِ في موكبِهِ ، فوقَفَ عليهِ ، وسلَّمَ ، فبكىٰ أَبو العريانِ ، فقيلَ لَهُ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : حنَّ في أُذني صوتُ أَبي سفيانَ من لسانِ زيادٍ ؟ فبلغَ ذلكَ معاويَةَ ، فكتبَ إِلىٰ أَبي العريانِ [في « ديوانه » ١٢٢] : [مِنَ البسيطِ]

مَـا أَلْبَثَتْـكَ الـدَّنَـانِيـرُ الَّتِـي بُعِثَـتْ ... أَنْ لَـوَّنَتْـكَ أَبَـا الْعُـرْيَـانِ أَلْـوَانَـا
أَمْسَـىٰ إِلَيْـكَ زِيَـادٌ فِـي أَرُومَتِـهِ ... نُكْـراً فَـأَصْبَـحَ مَـا أَنْكَـرْتَ عِـرْفَـانَـا
للهِ دَرُّ زِيَـــادٍ لَـــوْ تَعَجَّلَهَـــا ... كَـانَـتْ لَـهُ دُونَ مَـا يَخْشَـاهُ قُـرْبَـانَـا!

فلمَّا قُرِىءَ كتابُ معاويَةَ علىٰ أَبي العُريانِ . . قالَ : اكتب في جوابِهِ يا غلامُ : [مِنَ البسيطِ]

أَحْـدِثْ لَنَـا صِلَـةً تُحْيِـي النُّفُـوسَ بِهَـا ... قَـدْ كِـدْتَ يَـا ابْـنَ أَبِـي سُفْيَـانَ تَنْسَـانَـا
أَمَّـا زِيَـادٌ فَقَـدْ صَحَّـتْ مَنَـاسِبُـهُ ... عِنْـدِي فَـلا أَبْتَغِـي فِـي الْحَـقِّ بُهْتَـانَـا
مَـنْ يُسْـدِ خَيْـراً يُصِبْـهُ حِيـنَ يَفْعَلُـهُ ... أَوْ يُسْـدِ شَـرّاً يُصِبْـهُ حَيْثُمَـا كَـانَـا

[يغيِّر رأيه في الرجل . . بمجرد هدية]

ولمَّا وليَ الحسنُ بنُ عمارَةَ المظالِمَ . . قالَ الشعبيُّ : ظالِمٌ ابنُ ظالِمٍ يتولَّى المظالِمَ ، فاتصلَتْ بالحسَنِ ، وثقلَ عليهِ أَنْ يحطَّ مِنْ قدرِهِ عالِمُ المصرِ ، فأَهدىٰ إِليهِ رِزْمَةً مِنَ الثِّيابِ ، فيها صُرَّةٌ مِنَ الذَّهَبِ ، ودسَّ من يُجْري ذكرَهُ بمجلِسِهِ ، فقالَ : أَمَا واللهِ لَقد زانَ الوظيفَةَ ، ولم تزِنْهُ ، فقالوا لَهُ : بالأَمسِ تقولُ كَذا ، واليومَ هٰذا قولُكَ ؟! فقالَ : إِنَّهُ أَهدىٰ إِلينا ، وقد جُبِلَتِ الْقلوبُ علىٰ حُبِّ مَن أَحسنَ إِليها ، فقالوا : الهديَّةُ مشترَكَةٌ ، قالَ : ذاكَ حيثُ كانَتِ الهَدايا اللَّبَنَ والجبنَ والأَقِطَ . ذكرَها الغزاليُّ في « **الإِحياءِ** » وغيرُهُ .

[النفاق والمداهنة ليس أمراً حديثاً]

وما زالتِ الدنيا مملوءَةً نِفاقاً ، إِلاَّ أَنْ يخِفَّ وطأَةً بما يداخلُهُ مِنَ التَّظَرُّفِ ، كما في أَحاديثِ هٰؤلاءِ ، بخلافِ المتصنعينَ الذينَ يخادعونَ اللهَ وعبادَهُ ، بل يخادعونَ حَتَّىٰ أَنفسَهم ، وقد صانَ اللهُ قريشاً فيما سلفَ عَنِ النفاقِ ، فَلا تجدُ عندَهم إِلاَّ كفراً صريحاً ، أَو إِيماناً صحيحاً ، أَمَّا اليومَ . فلا تجدُ الكذبَ والغدرَ ، وسوءَ المعاملَةِ ، وإِظهارَ الصداقَةِ ، وإِضمارَ العداوَةِ . . أَكثرَ ما يكونُ إِلاَّ عندَهم ، ومعاذَ اللهِ أَن أَقولَ ما ليسَ لي بهِ عِلْمٌ ، فأَعُمَّ سائِرَهم في مشارِقِ الأَرضِ ومغارِبِها ، وإِنَّما أَخُصُّ بحُكْمي من جرَّبتُهُ مِن أَهلِ بلادِنا ، ولا أَقولُ هٰذا إِلاَّ مَعَ احتراقِ الضميرِ ، وحسرَةِ القلبِ ، ولكنَّ الحقيقَةَ فوقَ كلِّ شيءٍ ، وَهَبْني وارِبْتُ ، فلن أَستفيدَ إِلاَّ التكذيبَ بعدَ انكشافِ الأَمرِ واتضاحِ الحالِ .



ومِنَ النوادِرِ عندَنا ، أَنَّهم وقتَما كانوا يعمِّرونَ الرباطَ بـ(تريمَ) ، كانَ السيِّدُ عبدُ القادرِ بنُ أَحمدَ الحدَّادُ مِن جملةِ القائمينَ فيهِ ، وكانَ السيِّدُ عليُّ بنُ حسنٍ الحدَّادُ ـ صاحبُ المقامِ لذلكَ العهدِ ـ مِنَ الْمنكرينَ ، قالَ : لأَنَّهُ ليسَ مِن فعلِ السلفِ ، ولأَنَّهُ ممَّا لا تخلصُ النيَّةُ فيهِ لطلبِ العلمِ ، فوردَ السيِّدُ عبدُ اللهِ بنُ محسنِ بنِ جعفرٍ الحبشيُّ إِلىٰ (تريمَ) ، وباتَ عندَ السيِّدِ عبد القادرِ ، فقالَ لَهُ : لقد رأَيتُ الفقيهَ المقدَّمَ ، والسقَّافَ ، والمحضَارَ ، والعيدَروسَ ، كلُّ واحدٍ حاملٌ لَبِنَةً يضعُها علىٰ ركنٍ مِن أَركانِ الرباطِ ، ثمَّ عاجَ[1] إِلىٰ عندِ السيِّدِ عليِّ بنِ حسنٍ ، وقالَ لَهُ : لَقد رأَيتُ البارحَةَ أَربعةً مِنَ الشياطينِ ، كلُّ واحدٍ يبولُ إِلىٰ زاويَةٍ من زوايا الرباطِ .

[عودة إلى المديح]

ولنعد إِلىٰ ما يتعلَّقُ بالبيتِ ، فنقولُ : لقد قصَّرَ حسَّانُ في مدحِهِ صلى الله عليه وسلم إِذ يقولُ [في « ديوانهِ » ١/٤٤١] :

[مِنَ الوافرِ]

وَأَحْسَــنَ مِنْــكَ لَــمْ تَــرَ قَــطُّ عَيْنِــي ... وَأَجْمَــلَ مِنْــكَ لَــمْ تَلِــدِ النِّسَــاءُ

خُلِقْــتَ مُبَــرَّأً مِــنْ كُــلِّ عَيْــبٍ ... كَــأَنَّــكَ قَــدْ خُلِقْــتَ كَمَــا تَشَــاءُ

ولكنَّهُ جهدُ المقلِّ ، إِذ كلُّ مدحٍ تقصيرٌ فيهِ ، غيرَ أَنَّ ما لا يستطاعُ كلُّهُ . . لا يترَكُ كلُّهُ ، وما أَسوأَ أَدبَ أَبي تمَّامٍ في نقلِهِ معنى البيتِ الأَخيرِ إِلىٰ مَن لا يستحِقُّ ، حيثُ قالَ [في « ديوانه » ١/٤٠٦] : [مِنَ الوافرِ]

فَلَــوْ صَــوَّرْتَ نَفْسَــكَ لَــمْ تَــزِدْهَــا ... عَلَــىٰ مَــا فِيــكَ مِــنْ كَــرَمِ الطِّبَــاعِ

ولئِن وقعتُ في قريبٍ منهُ ، إِذ رثيتُ ولَدي بصريَّ . . فعذريَ فيهِ أَنَّهُ مِن تلكَ النبعَةِ ؛ وَأَنَّهُ لم يبلغِ الحلُمَ ، مع شهادَةِ العيانِ والحسِّ بما قلْتُ فيهِ مِنَ الطهارَةِ .

وقالَ بعضُهم : يمدحُ أَوسَ بنَ حارثَةَ بنِ لأْمٍ [في « ثمار القلوب » ١/١١٩] : [مِنَ الوافرِ]

إِلَــىٰ أَوْسِ بْــنِ حَــارِثَــةَ بْــنِ لأْمٍ ... لِيَقْضِــيَ حَــاجَتِــي فِيمَــنْ قَضَــاهَــا

فَمَـا وَطِـىءَ الْحَصَـىٰ مِثْـلُ ابْـنِ سَعْدَىٰ ... وَلاَ لَبِــسَ النِّعَــالَ وَلاَ احْتَــذَاهَــا

وكانَ قد ظفرَ بِهِ بعدَ هجاءٍ لهُ منهُ ، فأَطلقَهُ بإِشارةِ أُمِّهِ ؛ إِذ قالَ [كما في « المثل السائر » ٢/١١١] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَهَــبْ لِــي حَيَــاتِــي وَالْحَيَــاةُ لِقَــائِــمٍ ... يَسُــرُّكَ فِيهَــا حِيــنَ مَــا أَنْــتَ وَاهِــبُ

سَــأَمْحُــو بِمَــدْحٍ فِيــكَ إِذْ أَنَــا صَــادِقٌ ... كِتَــابَ هِجَــاءٍ سَــارَ إِذْ أَنَــا كَــاذِبُ

وما أَدريْ بصاحبِ الشعرِ ، أَهوَ الحطيئَةُ ، أَم بشرُ بنُ أَبي خازمٍ ؟ فقد جرىٰ لَهُ معَ كلٍّ نحوٌ ممَّا ذكرناهُ .

وقلَّما تقدَّمَ الناظِمُ لأَحدٍ بمدحَةٍ . . إِلاَّ أَقطَعَهُ جانبَ التفرُّدِ ، كما سبقَت الإِشارَةُ إِلىٰ بعضِ شعرِهِ في مثلِهِ عندَ الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/٣١٠] : [مِنَ المنسرحِ]

قَــدْ أَجْمَعَــتْ هَــٰذِهِ الْخَلِيقَــةُ لِــي ... أَنَّــكَ يَــا ابْــنَ النَّبِــيِّ أَوْحَــدُهَــا

---

(١) عاجَ : عطفَ ومالَ إِليهِ .

مِنَ المجلسِ الثالثِ ، وأَفظَعُ ما فيهِ قولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٤/١١] : [مِنَ الكاملِ]

إِنْ كَـانَ مِثْلُـكَ كَـانَ أَوْ هُـوَ كَـائِـنٌ فَبَـرِئْـتُ حِينَئِـذٍ مِـنَ الإِسْـلَامِ

وإِنِّي لأَعجبُ مِن سكوتِ سيفِ الدولَةِ علىٰ مثلِ هـٰذا ، ولكِنْ قد عرَّفناكَ أَحوالَ الملوكِ .

[موقف رجولي للمأمون]

وقدِ اتفقَ للمأْمونِ العبَّاسيِّ [كما في « الأغاني » ١١/٣٤١] أَنْ عزَلَ قاضيَ (دمشقَ) [وهو عبد الله بن محمد الخلنجي] لمَّا غنَّاهُ عَلُّويَه بقولِهِ [أي الخلنجي] : [مِنَ الطَّويلِ]

بَـرِئْـتُ مِـنَ الإِسْـلَامِ إِنْ كَـانَ ذَا الَّـذِي أَتَـاكَ بِـهِ الْـوَاشُـونَ عَنِّـي كَمَـا قَـالُـوا

وَلَكِنَّهُـمْ لَمَّـا رَأَوْكَ سَـرِيعَـةً إِلَـيَّ تَـوَاصَـوْا بِـالنَّمِيمَـةِ وَاحْتَـالُـوا

فحلفَ القاضي أَنَّهُ [قاله مذ كان حدثاً وأنه] منذُ ثلاثينَ[1] سنَةً لم ينظِم إِلاَّ في الزهدِ ، قالَ المأْمونُ : مَهما يكُن مِنَ الأَمْرِ . . فلن أَجعلَ علىٰ رقابِ المسلمينَ مِن يبدأُ في هزلِهِ بالبراءَةِ مِنَ الإِسلامِ .

ولعلَّهُ لم يثِقْ مِن حسنِ نيَّتِهِ ، وإِلاَّ . . فالتوبَةُ الصادقَةُ تغسلُ ما قبْلَها ، ولا سيَّما بعدَ انقضاءِ مدَّةِ الاستبراءِ ، أَو جرىٰ علىٰ عادَةِ الملوكِ مِنَ التَّجنِّي علىٰ عظماءِ الرجالِ ، وافتجارِ العيوب لَهم ، لتشفيَ ضَبابَ حقدِها عليهِم ، بما يقولونَ مِنَ الحقِّ ، مِن حيثُ تظنُّ أَنَّ الناسَ لا يطَّلِعونَ علىٰ سوءِ نواياهم ، وخبثِ غوائِلِهم ، ولا يعدَمونَ مِن علماءِ السوءِ مَن يزيِّنُ لَهم ذلكَ ، ويساعدُهم عليهِ .

[شرُّ العلماء . . علماء الملوك]

وكانَ يقالُ [كما في « المستطرف » ١/٥٠ من قول الفضيل بن عياض] : شرُّ العلماءِ علماءُ الملوكِ .

وقلَّما ذهبَ عظيمٌ مع شفراتِ سيوفِهِم إِلاَّ مظلوماً ، يجبُ أَن نتحرَّىٰ في كلامِ المؤرِّخينَ عنهُ ؛ لأَنَّهم لا يكتبونَ إِلاَّ تحتَ الرَّغبَةِ والرَّهبَةِ ، أَو مقلِّدونَ لِمَن يكتبُ تحتَ ذلكَ التأْثيرِ ، وهوَ ممَّا تُعَلَّلُ بهِ رواياتُ الثقاتِ ، فضلاً عمَّن لَم يَرَحْ رائِحَةَ العَدالَةِ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٩] : [مِنَ الكاملِ]

يَـا ذَا الَّـذِي يَهَـبُ الْجَـزِيـلَ وَعِنْـدَهُ أَنِّـي عَلَيْـهِ بِـأَخْـذِهِ أَتَصَـدَّقُ

[شرح المطلع]

يقولُ : إِنَّ ممدوحَهُ يعطي العطاءَ الجزيلَ ، ويرى المنَّةَ للآخِذِ ، وقالوا [في « العكبري » ٢/٣٣٩] : إِنَّ أَصلَهُ قولُ زهيرٍ [في « ديوانه » ٥٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَـرَاهُ إِذَا مَـا جِئْتَـهُ مُتَهَلِّـلاً كَـأَنَّـكَ تُعْطِيـهِ الَّـذِي أَنْـتَ سَـائِلُـهْ

---

(١) في « الأغاني » : (منذ عشرين سنةً) .

والفرقُ واضحٌ ، فبيتُ الناظِمِ أبلغُ مدحاً ، وأشرفُ معنىً ، وأراهم يطنبونَ في الثناءِ علىٰ بيتِ زهيرٍ ، ويدَّعي بعضُهم أنَّهُ أمدحُ بيتٍ قالتهُ العربُ ، وعندي أنَّهُ ليسَ هناكَ ؛ لأنَّ الفرحَ بالأخذِ ليسَ في شيءٍ مِنَ الشرفِ ، ففي ذكرِهِ حطٌّ مِنَ المقامِ، وتقصيرٌ بالممدوحِ ، فالبيتُ بالذمِّ أشبهُ منهُ بالمدحِ ، ويقربُ منهُ **قولُ الناظِمِ** [في « العُكبَريّ » ٣/٨١] : [مِنَ البسيطِ]

تُمْسِي الأَمَانِيُّ صَرْعَىٰ دُونَ مَبْلَغِهِ ... فَمَا يَقُولُ لِشَيْءٍ : لَيْتَ ذٰلِكَ لِي

أمّا قولُ الناظِمِ : (**وَعِنْدَهُ أَنِّي عَلَيْهِ بِأَخْذِهِ أَتَصَدَّقُ**) . . فمِن أبلغِ المدحِ ؛ إذ يشهدُ بانطباعِ الممدوحِ على الجودِ ، فكأنَّهُ لِمَا يجدُ مِن عظيمِ لذَّةِ الإحسانِ . . يرى المنَّةَ للآخِذِ ؛ إذ لَولاهُ لَمَا حصلَتْ لَهُ تلكَ اللَّذَّةُ ، وفي الموضوعِ أبياتٌ لأبي دُلَفٍ العجليِّ ، تأتي إن شاءَ اللهُ أَوَّلَ المجلسِ الخامسَ عشرَ عندَ **قولِ الناظِمِ** [في « العُكبَريّ » ٢/٣٣٩] : [مِنَ الكاملِ]

أَمْطِرْ عَلَيَّ سَحَابَ جُودِكَ ثَرَّةً ... وَانْظُرْ إِلَيَّ بِرَحْمَةٍ لاَ أَغْرَقُ

ومنهُ **قولُهُ** عن سيفِ الدولَةِ [في « العُكبريّ » ١/٩٩] : [مِنَ المتقاربِ]

[إِذَا حَازَ مَالاً فَقَدْ حَازَهُ] ... فَتىً لاَ يُسَرُّ بِمَا لاَ يَهَبْ

ولو أَنَّ زهيراً قالَ عن ممدوحِهِ : إنَّهُ يفرحُ بالبذْلِ ، كَما يفرحُ المحتاجُ بالأخذِ . . لأصابَ ، وقد قالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانِهِ » ١/٢٧٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَسَائِلَ نَصْرٍ لاَ تَلُمْهُ فَإِنَّهُ ... أَحَنُّ إِلَى الإِرْفَادِ مِنْكَ إِلَى الرِّفْدِ[1]

وقالَ أبو نوفلٍ عمرو بنُ محمَّدٍ الثقفيُّ : [مِنَ الكاملِ]

وَلَئِنْ فَرِحْتَ بِمَا يُنِيلُكَ إِنَّهُ ... لَبِمَا يُنِيلُكَ مِنْ نَدَاهُ أَفْرَحُ

مَا زَالَ يُعْطِي نَاطِقاً أَوْ صَامِتاً ... حَتَّىٰ ظَنَنْتُ أَبَا عَقِيلٍ يَمْزَحُ

[صور رائعة من الجود والإيثار على النفس]

وذُكِرَ [في « وفيات الأعيان » ٤/٣٤٩] : أَنَّ الواقديَّ المفسِّرَ كانَ لَهُ صديقانِ ، أَحدُهما هاشميٌّ ، فجاءَ عيدٌ ولَم يكنْ عندَهُ إلاَّ خمسُ مئةِ درهمٍ ، فبينا هوَ يتآمَرُ وامرأتُهُ فيما يأخذونَ بها للعيدِ . . جاءَهُ كتابٌ مِن صديقِهِ الهاشميِّ يستسلفُهُ ، ويخبرُهُ بحاجتِهِ ، فقالَ لامرأتِهِ : إنْ أعطيناهُ إيَّاها . . بقينا بلا شيءٍ ، وإن قسمْناها . . لم تنفَعنا ولم تنفعهُ ، قالَتْ : بَل أعطِهِ إيَّاها ، ويَكفينا التلذُّذُ بالإيثارِ ، فدفعَها لخادِمِهِ ، وما كانَ بأسرعَ مِن أن رجعَتْ لَهُ الصرَّةُ بختمِها ، وذلكَ أنَّهُ بعدَ ما بعثَ بها للهاشميِّ ، كتبَ لصديقِهِ الآخرِ يستميحُهُ ويستعينُهُ ، فكتبَ ذاكَ للهاشميِّ ، فبلغَت القصَّةُ إلى المأمونِ ، فأعظمَ مروءَتَهم ، وبعثَ إليهم بسبعةِ آلافِ دينارٍ ، للمرأةِ ألفٌ ، ولكلٍّ ألفانِ ، وعنديَ أنَّهُ قصَّرَ في حقِّ المرأةِ التي هيَ أصلُ تلكَ الأُكرومَةِ ، وموضعُ المناسبَةِ في قولِها : تَكفينا لذَّةُ الإيثارِ .

وهٰذهِ لا تبعدُ عمَّا يروىٰ عَن حذيفَةَ العدويِّ [في « المستطرف » ١/٣٤٣] : فإنَّهُ انطلقَ يومَ اليرموكِ يطلبُ ابنَ عمٍّ لَهُ في القتلىٰ ، ومعَهُ شيءٌ مِنَ الماءِ ، وقالَ : إن كانَ بهِ رَمَقٌ . . سقيتُهُ ، فأدركَهُ بينَ الشهداءِ ، فلمَّا أرادَ سقيَهُ . . إذا برجلٍ يئنُّ ، فأشارَ إليهِ ابنُ عمِّهِ أن يؤثرَهُ بالماءِ ، فانطلقَ إليهِ فإذا هوَ الحارثُ بنُ هشامٍ ، فقالَ لَهُ : أَسقيكَ ، فأشارَ عليهِ أن

(١) الإرفادُ : الإعطاءُ . الرِّفدُ : العطاءُ .

يؤثرَ بهِ عكرمةَ بنَ أَبي جهلٍ وكانَ يتشحَّطُ في دمِهِ ، فجاءَ إلىٰ عكرمةَ فوجدَهُ قد ماتَ ، فرجَعَ إلى الحارثِ بنِ هشامٍ فإذا هوَ قد فاضَ ، وعادَ إلى ابنِ عمِّهِ فإذا هُوَ باردٌ .

ومِن هٰذا القبيلِ كانَتْ أُكرومَةُ كعبِ بنِ مامَةَ ، التي كتبَها لَهُ الشرفُ علىٰ جبهَةِ الزمانِ بحروفٍ مِنَ النورِ[١] .

وقالَ الأَصمعيُّ : قصدْتُ يوماً رجلاً كنتُ أَغشاهُ لكرمِهِ ، فأَلفيتُهُ قدِ احتجبَ وانقطعَ ؛ لرقَّةِ حالِهِ ، ويبوسَةِ عيشِهِ ، فكتبتُ إليهِ رقعةً أَقولُ فيها : [مِنَ الوافرِ]

إِذَا كَـانَ الْكَـرِيـمُ لَـهُ حِجَـابٌ فَمَـا فَضْـلُ الْكَـرِيـمِ عَلَـى اللَّئِيـمِ

فعادَ بها الحاجبُ ، وقد وقَّعَ عَليها : [مِنَ الوافرِ]

إِذَا كَـانَ الْكَـرِيـمُ قَلِيـلَ مَـالٍ تَسَتَّـرَ بِـالْحِجَـابِ عَـنِ الْغَـرِيـمِ

ومعهُ صرَّةٌ فيها خمسُ مئةِ دينارٍ ، فقلتُ : واللهِ لأُتحفنَّ بهٰذا الحديثِ المأْمونَ ، فما مرَّ بهِ مثلُهُ ، فلمَّا رآني . . قالَ : مِن أَينَ أَقبلتَ ؟ قلتُ : مِن عندِ أَكرمِ الأَحياءِ بعدَ أَميرِ المؤمنينَ ، وشرحتُ لَهُ الحديثَ ، ولمَّا أَطلعتُهُ على الصرَّةِ . . اربدَّ وجهُهُ ، وقالَ : خاتمُ بيتِ مالي ، ولا بدَّ لي مِنَ الرجلِ الذي دفعَها إِليكَ ، فقلتُ : علىٰ شريطَةِ أَن لا يروَّعَ ، فلمَّا حضرَ بينَ يديهِ . . عرفَهُ ، وقالَ لهُ : أَلستَ أَنتَ الذي تعرَّضتَ ليَ بالأَمسِ ، وشكوتَ رقَّةَ حالِكَ ، فدفعتُ إِليكَ هٰذهِ الصرَّةَ لتُصلِحَ بها شأْنَكَ ، فقصدَكَ الأَصمعيُّ ببيتٍ مِنَ الشِّعْرِ فدفعتَها إِليهِ ؟! فقالَ : واللهِ يا أَميرَ المؤمنينَ ، ما كذبتُ فيما شكوتُهُ مِن رقَّةِ الحالِ ، وصعوبَةِ الزمانِ ، ولكنِ استحيَيْتُ أَنْ أُعيدَ قاصِدي إِلاَّ بما جُبلَ عليهِ طَبعي ، فقالَ لَهُ المأْمونُ : للهِ أَبوكَ ، ما ولدتِ العربُ مثلَكَ ، وأَمرَ لَهُ بأَلفِ دينارٍ ، قالَ الأَصمعيُّ : فقلتُ لهُ : أَلحقْني بهِ يا أَميرَ المؤمنينَ ، فتبسَّمَ وأَمرَ بأَن يكمِّلَ لِيَ الأَلفُ ، ولعلَّ هٰذا الحديثَ كانَ قبلَ قصَّةِ الواقديِّ ، وإِلاَّ . . ضاعَ قولُ الأَصمعيِّ : فما مرَّ بهِ مثلُهُ .

[حكم الفقهاء في الإيثار]

وإِذ قدِ انتهىٰ بِنا الكلامُ إِلىٰ هُنا . . فلنذكُرْ كلامَ الفقهاءِ في الإِيثارِ ، فإِنَّ لَهم عبارتينِ :

الأُولىٰ قولُهم : يجوزُ للمضطرِّ إِيثارُ مضطرٍّ آخرَ مسلمٍ .

والثانيةُ قولُهم : يحرمُ علىٰ عطشانَ إِيثارُ عطشانَ آخرَ .

قالَ ابنُ حجرٍ : **والأُولىٰ** محمولَةٌ علىٰ مَن يصبر على الإضاقة . **والثانية** محمولة علىٰ من لا يصبرُ عليها ، وأَمَّا ما يحتاجُهُ الإِنسانُ لنفقَةِ مَن تلزمُهُ نفقتُهُ ، أَو لدَينٍ لا يرجو لَهُ وفاءً . . فإِنَّهُ لاَ يجوزُ التصدُّقُ بهِ ، ولِمن خرجَ مِنَ السلفِ عَن جميعِ مالِهِ في سبيلِ اللهِ مَحامِلُ ، لا حاجَةَ لأَنْ نطيلَ فيها ، وأَحسنُها عنديَ الثقَةُ بقربِ الخَلَفِ ، وقد وفَّيتُ البحثَ حقَّهُ في « **حاشيتي على الشمائِلِ** » حينَما تكلَّمتُ في الأَنصاريِّ الذي آثرَ ضيفَ رسولِ اللهِ علىٰ عيالِهِ[٢] ، ونزلَ فيهِ : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] .

---

(١) والمأْثَرَةُ : هي أَنَّهُ كانَ يسيرُ في الصحراءِ معَ رفيقٍ لَهُ ، وكانَ معَهُ سقاءٌ فيهِ ماءٌ لا يفضُلُ عنهُ ، ولهُ رفيقٌ ، فسقاهُ ، وماتَ عطشاً . انظر « صبح الأعشىٰ » (١/٣٩٠) .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة البخاري (٣٧٩٨) في مناقب الأنصار . وأورد السيوطي في « أسباب النزول » (ص/ ٢٣٠) أنه أخرجه مسدد في « مسنده » وابن =



[الجود المطبوع في النفس]

وممَّا يتعلَّقُ بالجودِ المطبوعِ قولُ الفقيهِ عُمارَةَ اليمنيِّ : [مِنَ الطَّويلِ]

لَــهُ رَاحَــةٌ يَنْهَــلُّ جُــوداً بَنَــانُهَــا ... وَوَجْــهٌ إِذَا قَــابَلْتَــهُ يَتَهَلَّــلُ

يَــرَى الْحَــقَّ لِلضِّيفَــانِ حَتَّــىٰ كَــأَنَّــهُ ... عَلَيْهِــمْ - وَحَــاشَــا قَــدْرُهُ - يَتَطَفَّــلُ

وقالَ عليُّ بنُ جبلَةَ [في « ديوانهِ » ٩٩] : [مِنَ الكاملِ]

أَعْطَيْــتَ حَتَّــىٰ لَــمْ تَــدَعْ لَــكَ سَــائِــلاً ... وَبَــدَأْتَ إِذْ قَطَــعَ الْعُفَــاةُ سُــؤَالَهَــا(١)

فسرقَهُ أبو عُبادَةَ سرقَةً مكشوفَةً علىٰ ضوءِ الشمسِ . . حيثُ يقولُ [في « ديوانهِ » ١/ ١٥] : [مِنَ الخفيفِ]

جَــادَ حَتَّــىٰ أَفْنَــى السُّــؤَالَ وَلَمَّــا ... بَــادَ مِنَّــا السُّــؤَالُ أَعْطَــى ابْتِــدَاءَ

ولقد أحسنَ ابن نباتَةَ السعديُّ في قولِهِ لسيفِ الدولَةِ [في « ديوانهِ » ٤١١] : [مِنَ البسيطِ]

لَــمْ يُبْــقِ جُــودُكَ لِــي شَيْئــاً أُؤَمِّلُــهُ ... تَــرَكْتَنِــي أَصْحَــبُ الــدُّنْيَــا بِــلاَ أَمَــلِ

وقالَ ابنُ بابكَ في الصاحِبِ بنِ عبَّادٍ : [مِنَ البسيطِ]

فَحُسْــنُ ظَنِّــكَ بِــي اسْتَــوْفَــىٰ مَــدَىٰ أَمَلِــي ... وَحُسْــنُ رَأْيِــكَ بِــي لَــمْ يُبْــقِ لِــي أَمَــلاَ

وقالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٦٧] : [مِنَ الكاملِ]

لَــوْ يَعْلَــمُ الْعَــافُــونَ مَــا لَــكَ فِــي النَّــدَىٰ ... مِــنْ لَــذَّةٍ وَقَــرِيحَــةٍ لَــمْ تُحْمَــدِ

وهوَ مِن قولِ بشَّارٍ [في « ديوانهِ » ١/ ١١١] : [مِنَ الخفيفِ]

لَيْــسَ يُعْطِيــكَ لِلــرَّجَــاءِ وَلِلْخَــوْ ... فِ وَلَكِــنْ يَلَــذُّ طَعْــمَ الْعَطَــاءِ

وقالَ أشجعُ السلميُّ يمدَحُ الفضلَ بنَ الربيعِ [في « ديوانهِ » ٢٠٢] : [مِنَ الكاملِ]

أَوْصَلْتَنِــي وَرَفَــدْتَنِــي وَكِــلاَهُمَــا ... شَــرَفٌ فَقَــأْتُ بِــهِ عُيُــونَ الْحُسَّــدِ

وَكَفَيْتَنِــي مِنَــنَ الــرِّجَــالِ بِنَــائِــلٍ ... أَغْنَــىٰ يَــدِي عَــنْ أَنْ تُمَــدَّ إِلَــىٰ يَــدِ

[نعمته قلادة في عنقي لا ينزعها إلا غاسلي . . رجل وفي]

وبالبيتِ الأخيرِ ذكرتُ أنَّ المنصورَ العبَّاسيَّ وجَّهَ إلىٰ شيخٍ كانَ مِن بطانَةِ هشام بنِ عبدِ الملكِ ، فسألَهُ عَن تدبيرِهِ ؟ فوصَفَ حالَهُ ، وأكثرَ مِنَ الترحُّمِ عليهِ ، كلَّما جرى اسمُهُ ، فقالَ لَهُ المنصورُ [في « المستطرف » ١/ ٤٣٩] : قُمْ عليكَ لعنةُ اللهِ ، تطأُ بساطي وتترحَّمُ علىٰ عدوِّي ، قالَ الشيخُ : إنَّ نعمتَهُ قلادَةٌ في عُنُقي ، لا ينزعُها إلاَّ غاسِلي ، فقالَ لَهُ المنصورُ : ارجعْ ، أشهدُ أنَّكَ لنهيضُ حرةٍ ، وغِراسُ شريفٍ ، عُدْ إلىٰ حديثِكَ ، فعادَ إلىٰ ما كانَ استطعمَهُ مِن سيرَةِ

= المنذر عن أبي المتوكل الناجي أن الذي أضاف هو ثابت بن قيس . وفي « الفتح » (٧/ ١١٩) عن ابن التين كذلك ، وابن بشكوال مرسلاً كما أنه ذكر أنه عبد الله بن رواحة من غير مستند ، وجزم الخطيب أنه أبو طلحة ، وليس هو لرواية مسلم له ولكنه قال : أظنه غير أبي طلحة زيد بن سهل ؛ لأنه كان من أكثر الصحابة مالاً ، والله أعلم .

(١) العُفاةُ : المحتاجونَ المُعوزونَ .

هشامٍ ، حَتَّىٰ إِذا فرغَ . . دَعا لهُ بمالٍ ، فقالَ : واللهِ يا أَميرَ المؤمنينَ ما بي حاجَةٌ إِليهِ ، ولقد ماتَ عنّي مَن كنتُ في ذكرِهِ ، وما أَحوجَني إِلىٰ أَحدٍ بعدَهُ ، ولَولا جلالَةُ أَميرِ المؤمنينَ . . ما لبستُ لأَحدٍ بعدَهُ نعمَةً ، فقد أَغنىٰ يديَ عَن أَن نُمدَّ إِلىٰ يدٍ ، فقالَ المنصورُ : مُت إِذا شِئْتَ ، فللَّهِ أَنتَ ، لَو لَمْ يَكُن لقومِكَ غيرُكَ . . لكنْتَ قد أَبقيتَ لَهم مجداً متلَّداً مخلَّداً .

[المرثية التائية لابن الأنباري . . قمة في الوفاء]

ويتَّصِلُ بهـٰذه الحكايَةِ ما ذكرَهُ ابنُ عساكرَ في « تاريخ دمشق » [وابن عماد الحنبلي في « شذرات الذهب » ٢/ ٦٣ـ٦٤] : أَنَّ ابنَ الأنبارِيِّ لَمَّا صنعَ المرثِيَّةَ التائيَّةَ[1] في الوزيرِ ابنِ بقيَّةَ . . رماها بشوارِعِ (بغدادَ) ، فتداولَتْها الأَيدي ، حَتَّىٰ وصلَتْ إِلىٰ عضُدِ الدولَةِ ، فلمَّا أُنشدَتْ بينَ يديهِ . . تمنَّىٰ أَن يكونَ هوَ المصلوبَ دونَهُ ، وقالَ : عليَّ بهـٰذا الرجُلِ ، فطلبوهُ سنةً كاملَةً ، حَتَّىٰ رسَمَ لَهُ الصاحِبُ بنُ عبَّادٍ بالأَمانَ ، فلمَّا سمعَ بذكرِ الأَمانِ . . قصدَ حضرَةَ الصاحِبِ ، فقالَ لَهُ : أَنتَ قائِلُ القصيدَةِ ؟ قالَ : نعم ، قالَ لهُ : أَنْشِدْنيها مِن فيكَ ، فلمَّا بلغَ قولَهُ مِنها : [مِنَ الوافرِ]

وَلَمْ أَرَ قَبْلَ جِذْعِكَ قَطُّ جِذْعاً ... تَمَكَّنَ مِنْ عِنَاقِ الْمَكْرُمَاتِ

.. قامَ إِليهِ الصاحِبُ وعانقَهُ ، وقبَّلَ فاهُ ، وأَنفذَهُ إِلىٰ عضُدِ الدولَةِ ، فلمَّا مثلَ بينَ يديهِ . . قالَ لَهُ : ما الذي حملكَ علىٰ مرثِيَّةِ عدوِّي ؟ فقالَ : حقوقٌ سلَفَتْ ، وأَيادٍ مضَتْ ، فجاشَ الحزنُ في قلبي ، فرثيتُهُ ، واستنشدَهُ فيهِ غيرَها فأَنشدَهُ ، فخلَعَ عليهِ ، وأَكرمَهُ ، ورضيَ عنهُ .

وقد سبقَ حديثُ ابنِ الرقيَّاتِ معَ المصعَبِ ، ويأتي عمَّا قريبٍ ما لا يقلُّ عَن هـٰذا في أَخبارِ البرامِكَةِ ، وأَرىٰ كثيراً يُطنبونَ في بيتِ ابنِ الأَنبارِيِّ السابقِ ، ولو أَنَّ ابنَ بقيَّةَ كانَ أَوَّلَ مصلوبٍ في الإِسلامِ . . لاعترضَهُ ما صحَّ مِن ضمِّهِ صلى الله عليه وسلم للجذعِ حينَ حنَّ لفراقِهِ[2] ، فذلكَ الجذْعُ بالحقيقَةِ هوَ الذي تمكَّنَ مِن عناقِ المكرُماتِ غيرَ مدافَعٍ ، فكيفَ ؟ وقد قالَ في نفسِ القصيدَةِ : [مِنَ الوافرِ]

رَكِبْتَ مَطِيَّةً مِنْ قَبْلُ زَيْدٌ ... عَلاَهَا فِي السِّنِينِ الْمَاضِيَاتِ

أَفترىٰ جِذْعَ زيدٍ لمَّا يتمكَّن مِن عناقِ المكرُماتِ ؟! كَلاَّ ، غيرَ أَنَّهُ على الجَواد ، والبديعُ فيهِ لأَبي تمَّامٍ [في « ديوانه » ١/ ٣٤٠] : [مِنَ الكامِلِ]

رَمَقُوا أَعَالِيَ جِذْعِهِ فَكَأَنَّمَا ... رَمَقُوا الْهِلاَلَ عَشِيَّةَ الإِفْطَارِ

[الحر لا يكذب ولو قُتِل]

ولمَّا قُتلَ يزيدُ بنُ المهلَّبِ . . جمعَ الشعراءَ مسلمَةُ بنُ عبدِ الملكِ ؛ ليقولوا فيهِ ، فلَم يأْلوا أَنْ يذكروهُ بأَقبحِ ما قَدَروا عليهِ ، ما خَلا رجلاً مِن (دارمٍ) ، فإِنَّهُ قالَ : لا أَذُمُّ مَن لا أَملِكُ رَيعاً ولا أَثاثاً إِلاَّ مِنْهُ ، ولو قطَّعْتُموني إِرْباً فإِرْباً ،

---

(١) وهي القصيدة التي مطلعها : [من الوافر]

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ ... لَحَقٌّ تِلْكَ إِحْدَى الْمُعْجِزَاتِ

(٢) أورد حديث حنين الجذع العلامة جعفر الكتاني في « نظم المتناثر » عن نحو عشرين صحابياً . فهو من الأحاديث المتواترة .



ولقد رثيتُهُ بما يليقُ بهِ ، وأنشدَ أبياتاً جزلَةً ، أُعجِبَ بِها مسلمَةُ ، فأنعمَ عليهِ وقالَ : مَن أرادَ أن يصطنِعَ . فليصطنِعْ مِثلَ هـٰذا .

ويأْتي ما يقربُ منهُ عَن عُمارَةَ اليمنيِّ قبيلَ شرحِ قولِ الناظِمِ [في « العُكبَريّ » ٢/٢٤٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا عَــرَضَــتْ حَــاجٌ إِلَيْــهِ فَنَفْسُــهُ ... إِلَــىٰ نَفْسِــهِ فِيهَــا شَفِيــعٌ مُشَفَّــعُ

[الذروة في الشجاعة والوفاء]

ومِنَ الغايةِ في الوفاءِ ، والذُّروَةِ في الشجاعَةِ ، ما كانَ مِن أخي مسلمِ بنِ الوليدِ في رثائهِ لجعفرِ بنِ يحيىٰ ، وقولُهُ [في « الأغاني » ١٦/٢٦٥] : [مِنَ الوافرِ]

أَمَــا وَاللهِ لَــوْلاَ خَــوْفُ وَاشٍ ... وَعَيْــنٌ لِلْخَلِيفَــةِ لاَ تَنَــامُ

لَطُفْنَــا حَــوْلَ قَبْــرِكَ وَاسْتَلَمْنَــا ... كَمَــا لِلنَّــاسِ بِــالْحَجَــرِ اسْتِــلاَمُ

[السائل عن الإمام أحمد وقت محنته]

وخيرٌ مِن هـٰذا كلِّهِ : أنَّ بقيَّ بنَ مَخْلَدٍ قدم في طلبِ الحديثِ مِنَ (الأندلُسِ) إلى (العراقِ) ، فوافَقَ الامتحانَ بأبي عبدِ اللهِ[1] ، وكانَ لا يذكرُهُ ذاكرٌ إلاَّ تناولتْهُ الأيدي ، ونزلَ بهِ العقابُ ، فلم يكُن مِنْ بقيٍّ إلاَّ أَن وقَفَ بحلَقةِ يحيىٰ بنِ معينٍ ، وهوَ يكشِفُ الرجالَ ، يوثِّقُ هـٰذا ، ويُوهِّنُ الآخرَ ، فقالَ لهُ : أَسأَلُكَ عَن أحمدَ ابنِ حنبلٍ ؟ فأَرمَ القومُ ، وضربَ يَحيىٰ صدرَهُ بذَقَنِهِ ، يتروَّىٰ بينَ أن يؤثِرَ الحياةَ الدنيا باتِّباعِ مرضاةِ السلطانِ ، وبينَ أَن يؤثِرَ الأُخرىٰ ويصبرَ على الأذىٰ في جنبِ اللهِ ، فأَيَّدَهُ اللهُ بعزمٍ مِن عندِهِ ، فرفعَ رأْسَهُ وقالَ لَهُ : ذاكَ سيِّدُ المسلمينَ ، وإِمامُ أَهلِ العلمِ اليومَ ، أو ما يقربُ مِن هـٰذا ، رضوانُ اللهِ عليهم أجمعينَ .

[البحتري شديد الوفاء للمتوكل]

وممَّا يكتبُ علىٰ جَرائدِ الوفا ، بمدادِ الشرَفِ ، ما كانَ مِنَ البُحتريِّ وكثرَةِ رثائِهِ للمتوكِّلِ ، وقد قتلَهُ ابنُهُ المنتصرُ ، وقولُهُ [في « ديوانه » ٢/١٠٤٨ـ١٠٤٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

حَــرَامٌ عَلَــيَّ الــرَّاحُ بَعْــدَكَ أَوْ أَرَىٰ ... دَمــاً بِــدَمٍ يَجْــرِي عَلَـى الأَرْضِ مَــائِـرُهْ

وَهَــلْ يُــرْتَجَــىٰ أَنْ يَطْلُــبَ الــدَّمَ طَــالِــبٌ ... مَدَى الدَّهْرِ وَالْمَوْتُورُ بِالدَّمِ وَاتِرُهْ ؟![2]

فَــلاَ مُلِّــيَ الْبَــاقِــي تُــرَاثَ الَّــذِي مَضَــىٰ ... وَلاَ حَمَلَــتْ ذَاكَ الــدُّعَــاءَ مَنَــابِــرُهْ[3]

[أبلغ ما يكون من الجود أن تكون كلك من أيادي معطيك]

ولنعد لِمَا كنَّا فيهِ ، فنقولُ : قالَ أَبو تمَّامٍ : [مِنَ الخفيفِ]

لَــمْ يَــدَعْنِــي وَفِــي يَمِينِــيَ فَضْــلٌ ... لِنَــدَىٰ غَيْــرِهِ وَلاَ فِــي شِمَــالِــي

---

(١) يعني : أحمد ابن حنبل رحمهُ اللهُ تعالىٰ .

(٢) الواترُ : الظالمُ ، الموتورُ : من قتلَ له قتيلٌ فلم يدركْ دمَهُ .

(٣) مُلِّيَ : مُتِّعَ .

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/٤٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا يَلْحَـظُ الْعَـافِـي جَـدَاكَ مُـؤَمِّـلاً ... سِـوَىٰ لَحْظَـةٍ حَتَّـىٰ يَـؤُوبَ مُـؤَمَّـلاَ[١]

وقالَ : [مِنَ الكاملِ]

أَلْبَسْتَنِـي حُلَـلَ الثَّنَـا فَلَبِسْتُهَـا ... وَجَعَلْـتَ آمَـالِـي لَهُـنَّ ذُيُـولاَ

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ٢/٩٥٦] : [مِنَ البسيطِ]

لاَ يُتْعِـبُ النَّـائِـلُ الْمَبْـذُولُ هِمَّتَـهُ ... وَكَيْـفَ يُتْعِـبُ عَيْـنَ النَّـاظِـرِ النَّظَـرُ ؟!

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/١٢٠٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

ثَنَـىٰ أَمَلِـي فَـاحْتَـازَهُ عَـنْ مَعَـاشِـرٍ ... يَبِيتُـونَ وَالآمَـالُ فِيهِـمْ مَطَـامِـعُ[٢]

وقالَ الناظِمُ في معنىٰ ما سبقَ عَن بشّارٍ وعَن غيرِ بشّارٍ [في « العُكبَريّ » ٤/٢٧٩] : [مِنَ المنسرحِ]

لَـوْ كَفَـرَ الْعَـالَمُـونَ نِعْمَتَـهُ ... لَمَـا عَـدَتْ نَفْسُـهُ سَجَـايَـاهَـا

وقالَ الخزاعيُّ [في « ديوانهِ » ٣٣٤] : [مِنَ الكاملِ]

شَفَعَـتْ مَكَـارِمُهُـمْ لَهُـمْ فَكَفَتْهُـمُ ... جَهْـدَ السُّـؤَالِ وَلُطْـفَ قَـوْلِ الْمَـادِحِ

[المديح لا يكون إلا عن رغبة]

وفيهِ إشارةٌ إلىٰ أَنَّ المديحَ لا يكونُ إلاَّ عن رغبةٍ ، ومنهُ قولُ أُميَّةَ [ابن أبي الصلت في « ديوان الحماسة » ٢/٣٧٣] : [مِنَ الوافرِ]

إِذَا أَثْنَـىٰ عَلَيْـكَ الْمَـرْءُ يَـوْمـاً ... كَفَـاهُ مِـنْ تَعَـرُّضِـهِ الثَّنَـاءُ

[الحر تكفيه الإشارة]

وإذا كانَ كذلكَ . . فلَن تكونَ الإطالَةُ فيهِ إلاَّ لضعفِ أَريحيّةِ الممدوحِ ، أَمَّا الحرُّ . . فتكفيهِ الإشارَةُ ، وأَمَّا الجوادُ . . فتحرِّكُهُ الغمزَةُ ، وقد سبقَ قولُ بعضِهم [في « روضة العقلاء » ٢٥١] : [مِنَ الكاملِ]

وَإِذَا طَلَبْـتَ إِلَـىٰ كَـرِيـمٍ حَـاجَـةً ... فَلِقَـاؤُهُ يَكْفِيـكَ وَالتَّسْلِيـمُ

ووضَّحَ المعنى ابنُ الروميِّ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ١/١١١] : [مِنَ الكاملِ]

وَإِذَا امْـرُؤٌ مَـدَحَ امْـرَأً لِنَـوَالِـهِ ... وَأَطَـالَ فِيْـهِ فَقَـدْ أَرَادَ هِجَـاءَهُ

لَـوْ لَـمْ يُقَـدِّرْ فِيـهِ بُعْـدَ الْمُسْتَقَـىٰ ... عِنْـدَ الْـوُرُودِ لَمَـا أَطَـالَ رِشَـاءَهُ

[متىٰ ينفع الجود وأين محله]

وما زلتُ في إشكالٍ من حالِ أَغنيائِنا ؛ إذ تفيضُ أَكُفُّهم فيما لا ينفَعُ ، ويضنُّونَ بالتافِهِ اليسيرِ لدىٰ حسنِ الموقعِ ، حتَّى انحلَّ الإشكالُ بما سبقَ عَنِ الخوارزميِّ في غيرِ هٰذا المكانِ ، وجلُّهم لا يبذُلُ إلاَّ رغبةً ، أَو رهبةً ، أَوِ

---

(١) جداكَ : عطاكَ .

(٢) احتازهُ : أدخلهُ في حوزتهِ .

استصلاحاً ، أو إرضاءَ شهوةٍ ، وذلكَ غيرُ مجزىءٍ حتَّىٰ في فريضةِ الزكاةِ ـ علىٰ رأيِ بعضِهم ـ وإنْ رجَّحَ ابنُ حجرٍ [في « تحفته »] الجوازَ متىٰ كانَ المدفوعُ إليهِ بصفةِ الاستحقاقِ ، وما أَحسنَ **قولَ الناظمِ** [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٨٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلِلنَّفْسِ أَخْلاَقٌ تَدُلُّ عَلَى الفَتَىٰ أَكَانَ سَخَاءً مَا أَتَىٰ أَمْ تَسَاخِيَا

وقولَ الآخرِ [وهو ابن عبد ربه الأندلسيُّ في « قرى الضيف » ٢/ ٨٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا الْجُودُ مَنْ يُعْطِي إِذَا مَا سَأَلْتَهُ وَلَكِنَّ مَنْ يُعْطِي بِغَيْرِ سُؤَالِ

وقولَ المقنعِ الكنديِّ [في « ديوان الحماسة » ٢/ ٣٤٣] : [مِنَ الكامِلِ]

لَيْسَ الْعَطَاءُ مِنَ الْفُضُولِ سَمَاحَةً حَتَّىٰ تَجُودَ وَمَا لَدَيْكَ قَلِيلُ

وقولَ زهيرٍ [في « ديوانه » ٢٢٨] : [مِنَ البسيطِ]

[إِنْسٌ إِذَا أَمِنُوا ، جِنٌّ إِذَا فَزِعُوا] مُرَزَّؤُونَ بَهَالِيلٌ إِذَا جَهِدُوا

وقولَ بشامَةَ بنِ حزنٍ : [مِنَ البسيطِ]

فَرْضٌ عَلَىٰ مُكْثِرِينَا بَذْلُ نَيْلِهِمُ وَالْجُودُ وَالْبَذْلُ فِي طَبْعِ الْمُقِلِّينَا

وقد سبقَ أكثرهُ في غيرِ هٰذا المجلسِ ، وكانَ السلفُ الطيِّبُ ـ رضوانُ اللهِ عليهِم ـ يحاملونَ ، ويستقونَ ، ويتصدَّقونَ ، وقد قيلَ [القائل محمد بن يسير كما في « الأغاني » ١٤/ ٣٥] : [مِنَ البسيطِ]

جُهْدُ الْمُقِلِّ إِذَا أَعْطَاكَ نَائِلَهُ وَمُكْثِرٌ مِنْ غِنىً سِيَّانِ فِي الْجُودِ

[الحلم على الجاهلين]

وأَكلَ بعضُ العربِ علىٰ مائدةِ معاويَةَ ، ولمَّا أَرادَ أَن يبتلِعَ لقمةً . . قالَ لَهُ معاويَةُ [كما في « المستطرف » ١/ ٣٨٩] : علىٰ رسلِكَ ، فإنَّ فيها شعرةً ، قالَ : أَوَتُراقبُني مراقبَةَ مَن يرى الشعرَةَ في لقمَتي ؟! واللهِ لا آكلُ لَكَ زاداً بعدَها ما حَيِيتُ .

وما كانَ معاويَةُ هناكَ ، ولا ينبغي لابنِ عبدِ منافٍ أَن يشتمِلَ علىٰ شيءٍ مِنَ اللُّؤْمِ ، لكنَّها حانَتِ الْتِفاتَةٌ ، فحمَلَها العربيُّ علىٰ أَسوأ ما يُظَنُّ ، وذهَبَ بها إِلىٰ قولِ قيسِ بنِ عاصمٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَاخِلٍ يُلاَحِظُ أَطْرَافَ الأَكِيلِ عَلَىٰ عَمْدِ

ويحكىٰ [كما في « المستطرف » ١/ ٣٨٩] : أَنَّ الحسنَ بنَ عليٍّ كانَ علىٰ طعامِ معاويَةَ ، فقُدِّمَتْ دجاجَةٌ ، أَمعنَ الحسنُ في الأَكلِ مِنها ، فقالَ لهُ معاويَةُ : هل بينَكَ وبينَها عداوَةٌ ؟ فقالَ الحسنُ : وهل بينَك وبينها قرابَةٌ ؟ قالَ الجاحظُ : وما أَنكرَ معاويَةُ على الحسنِ إلاَّ تقصيرَهُ في توقيرِ الخلافَةِ بإظهارِ النَّهَمِ معَ المؤاكلَةِ ، وأَشارَ إِلىٰ مثلِ ذلكَ صاحبُ « **المستطرَف** » وهوَ من أَفحشِ الغلطِ ، فما كانَ التصنُّعُ لهُم بعادَةٍ ، وسنَّةُ العربِ معروفَةٌ في اطِّراحِهِ ، وقد عرفَ الناسُ لمعاويَةَ احتمالَهُ ما لا تبرُكُ الإِبلُ عليهِ مِنَ الْجفاءِ ؛ لِمَن لا يوزنُ بنعلِ الحسنِ ، فضلاً عنهُ .

إِنَّما جنحَ إِلى المداعبَةِ ، وعمَدَ إِلى المطايبَةِ ؛ ليستحِبَّ الحسنَ علىٰ ملكِهِ ، ويتبسَّطَ علىٰ سلطانِهِ ، ويزولَ تحفُّظُهُ ، وتذهَبَ حشمتُهُ ، ويفضي بحوائِجِهِ ، وقد قالَ عليهِ السلامُ : « **إِنَّ لِلدَّاخِلِ حِشْمَةً ، فَأَبْسِطُوهُ بِأُنْسٍ** »(١) .

---

(١) لم أجده .

فإن قيلَ : إنَّ معاويَةَ إنَّما يتعرَّضُ لجفاءِ مَن لا يُؤبَهُ لهُ ؛ ليشتهرَ بالحلْمِ إذا سكتَ عَن جوابِهِ ، وعقابِهِ ، ولا يطيبُ نفساً بملاينَةِ أَمثالِ الحسنِ على الملأ ؛ لأَنَّها تَسِمُهُ بالعجزِ ، وتدخلُ عليهِ الوهنَ ، والإِنسانُ قد يحتملُ للحقيرِ والأَجنبيِّ ، ما لا يحتملُهُ للقريبِ والعظيمِ . . قلتُ : لا يُنكَرُ اندماجُ النفوسِ علىٰ مثلِهِ ، غيرَ أَنَّهُ لا يكونُ إِلاَّ عندَ أَهلِ الأَخلاقِ المنحطَّةِ ، والطباعِ السافلَةِ ، أَمَّا قريشٌ . . فما زالَت حَتَّىٰ في جاهليَّتِها معروفَةً بحسنِ التناصُفِ ، وكثيراً ماترى الواحدَ منهم يحترمُ الآخرَ ، ويقولُ : إنَّهُ سيِّدُ الوادي ، وإن كانَ في جوفِهِ ما يكادُ يقتلُهُ سِلاًّ مِنَ الحسدِ لَهُ ، وهـٰذا مسكينٌ الدارميُّ ـ أَو أَبو الجهمِ العدويُّ ـ يقولُ في معاويَةَ نفسِهِ [كما في « البيان والتبيين » ١/ ٥٠٠] : [مِنَ الوافرِ]

نُقَلِّبُـــــهُ لِنَخْبُـــــرَ حَـــــالَتَيْـــــهِ فَنَخْبُـــرُ مِنْهُمَـــا كَـــرَمـــاً وَلِينَـــا

نَمِيـــلُ عَلَـــىٰ جَـــوَانِبِـــهِ كَـــأَنَّـــا نَمِيـــلُ إِذَا نَمِيـــلُ عَلَـــىٰ أَبِينَـــا

وأَنا ذاكرٌ ما أَخرجَهُ المدائنيُّ ، وغيرُهُ [كما في « جمهرة خطب العرب » ٢/ ١٢٨] : مِنْ قدومِ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ عليهِ ، ومجلسُهُ غاصٌّ بأَصحابِهِ ، فنالَ ابنُ العاصِ مِن عليٍّ جهراً ، فحسرَ عبدُ اللهِ عن ذراعيهِ ، وقالَ لمعاويَةَ : حَتَّامَ نتجرَّعُ غيظَكَ ، ونصبرُ علىٰ مكروهِ قولِكَ ، وسَيِّىءِ أَدبِكَ ، وذميمِ أَخلاقِكَ ؟ أَما يزجرُكَ ذمامُ المجالَسَةِ عَنِ الإِقذاعِ لجليسِكَ ، إِذ لم تكُن لَكَ حرمَةٌ تنهاكَ مِن دينِكَ ؟ أَما واللهِ ، لو عطفتْكَ أَواصرُ الأَرحامِ ، أَو حاميْتَ علىٰ سهمِكَ مِنَ الإِسلامِ . . لَما أَرعيتَ بني الإِماءِ المُتْكِ[1] أَعراضَ قومِكَ ، وما يجهلُ موضِعَ الصفوَةِ إِلاَّ أَهلُ الجفوَةِ ، فلا يدعونَّكَ استقامةُ خَطَئِكَ إِلى التمادي في الغَيِّ ، فقد طالَ عَمَهُكَ عَنِ الرشْدِ ، وخبطُكَ في ظلمَةِ الجهلِ ، فإِن أَبيتَ إِلاَّ أَن تبقىٰ علىٰ سوءِ اختيارِكَ . . فاعفِنا عَن سوءِ القالَةِ فينا إِذا ضمَّنا وإِيَّاكَ النديُّ ، وشأْنَكَ وما تريدُ إِذا خلوتَ بنفسِكَ ، واللهُ حسيبُكَ ، فواللهِ لولا مالَنا عندَكَ . . ما جِئْناكَ ، فقالَ معاويَةُ : نغيِّرُ الخطأَ يا أَبا جعفرٍ ، وأُقسِمُ عليكَ لتجلسَنَّ ، لَعنَ اللهُ مَن أَخرجَ ضبَّ صدرِكَ مِنْ وجارِهِ ، محمولٌ لكَ ما قلتَ ، ولكَ عندنا ما أَمِلتَ ، وأُقسِمُ عليكَ لَمَا ذكرتَ حاجةً إِلاَّ قضيتُها لكَ ، كائنَةً ما كانَت ، ولو ذهبَتْ بجميعِ ما أَملكُ ، فقالَ عبدُ اللهِ : أَمَّا في هـٰذا المجلسِ . . فلا ، ثمَّ انصرفَ ، فأَتبعهُ بصرَهُ ، وقالَ : لكأَنَّهُ رسولُ اللهِ في مشيِهِ ، وخَلْقِهِ ، وخُلُقِهِ ، وإِنَّهُ لَمِن مشكاتِهِ ، لوددْتُ أَنَّهُ أَخي بنفيسِ ما أَملِكُ ، ثمَّ قالَ لابنِ العاصِ : ما مَنَعَهُ مِن خطابِكَ ؟ قالَ : ما تعرِفُ ، قالَ : لا واللهِ ، وَلَكِنَّهُ استحقرَكَ وازدراكَ .

هـٰذا ما بقيَ بحفظي منهُ ، ولا معابَةَ إِن أَخطأْتُ اللفظَ ، معَ إِصابَةِ الأَكثرِ مِنَ المعنىٰ .

[التودد والتقرب من المساكين]

أَمَّا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وقربُهُ مِنَ الناسِ ، وتودُّدُهُ إِلى المساكينِ ، فحدِّثْ عنهُ ولا حرجَ ، وهوَ القائِلُ ـ كما سبقَ في غيرِ هـٰذا المجلسِ ـ لِمَنْ هَابَهُ : « **هَوِّنِي عَلَيْكِ ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ وَلاَ جَبَّارٍ ، وَإِنَّما أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ بِمَكَّةَ** »[2] .

وأَمَّا أَخوهُ وصهرُهُ ووصيُّهُ : فهوَ القائلُ مِن أَثناءِ كلامٍ لهُ [في « نهج البلاغة »] : لا تكلِّموني بما تُكلَّم بهِ الجبابرَةُ ،

---

(١) يقالُ في السبِّ : يا ابنَ المتكاءِ ؛ أي : عظيمةَ المتكِ وهوَ عرقُ البظرِ من المرأَةِ ، ومن الرجلِ العرقُ الذي في باطنِ الذكرِ عند أسفلِ حقوهِ .

(٢) سلف في مجلس سابق .



ولا تتحفَّظوا منِّي بما يتحفَّظُ بهِ عندَ أَهلِ البادِرَةِ ، ولا تخالِطُوني بالمصانَعَةِ ، ولا تظُنُّوا بيَ استثقالاً في حقٍّ قيلَ لي ، ولا التماسَ إعظامٍ لِنفسي ، فَلا تكفُّوا عَن مقالَةٍ بحقٍّ ، أَو مشورَةٍ بعدْلٍ ، فإِنِّي لَستُ في نَفْسي بِفَوقِ أَنْ أُخطِىءَ ، ولا آمنُ ذلكَ مِنْ فِعلي ، إِلاَّ أَن يكفيَ اللهُ مِن نفسيَ ما هوَ أَملَكُ بهِ مِنِّي ، وإِنَّما أَنا وأَنْتُم عبيدٌ مملوكونَ لربٍّ لا ربَّ غيرُهُ .

وقالَ ابنُ أَبي الحديدِ في « شرحِهِ » : أحسنُ ما سمعتُهُ ـ في سلطانٍ لا تخافُ الرعيَّةُ بادرتَهُ ، ولا يتلجلَجُ المتحاكونَ عندَهُ ، معَ سطوتِهِ وقوَّتِهِ ؛ لإيثارِهِ العدلَ ـ قولُ أَبي تمَّامٍ في محمَّدِ بنِ عبدِ الملِكِ [في « ديوانه » ١/١٦٣] : [مِنَ البسيطِ]

وَزِيـرُ حَـقٍّ وَوَالِـي شُـرْطَـةٍ وَرَحَـىٰ   دِيـوَانِ مُلْـكٍ وَشِيعِـيٌّ وَمُحْتَسِـبُ
كَـالأَرْحَبِـيِّ الْمُـذَكِّـي سَيْـرُهُ الْمَـرَطَـىٰ   وَالْـوَخْـدُ وَالْمَلْـعُ وَالتَّقْـرِيـبُ وَالْخَبَـبُ(١)
عَـوْدٌ تُسَـاجِلُـهُ أَيَّـامُـهُ فَبِهَـا   مِـنْ مَسِّـهِ وَبِـهِ مِـنْ مَسِّهَـا جُلَـبُ(٢)
ثَبْتُ الْخِطَـابِ إِذَا اصْطَكَّـتْ بِمَظْلَمَـةٍ   فِـي رَحْلِـهِ أَلْسُـنُ الأَقْـوَامِ وَالـرُّكَـبُ
لاَ الْمَنْطِـقُ اللَّغْـوُ يُـذْكَـرُ فِـي مَقَـاوِمِـهِ   يَـوْمـاً وَلاَ حُجَّـةُ الْمَلْهُـوفِ تُسْتَلَـبُ
كَـأَنَّمَـا هُـوَ فِـي نَـادِي قَبِيلَتِـهِ   لاَ الْقَلْـبُ يَهْفُـو وَلاَ الأَحْشَـاءُ تَضْطَـرِبُ

ويعجبُني فيما يتعلَّقُ بذلكَ : أَنَّ المأْمونَ ناظرَ محمَّدَ بنَ القاسِمِ النوشنجانيَّ في مسأَلَةٍ كلاميَّةٍ ، فجعلَ النوشنجانيُّ يخضَعُ في الكلامِ ، فقالَ لَهُ : يا محمَّدُ ، أَراكَ تنقادُ إِلىٰ ما أَقولُهُ قبلَ وجوبِ الحجَّةِ ، وقد ساءَني ذلكَ مِنكَ ، ولو شئتُ أَن أُفسِّرَ الأُمورَ بعزَّةِ الخلافَةِ ، وهيبَةِ الرئاسَةِ . لصدقْتُ وإِنْ كنتُ كاذباً ، وعدَلْتُ وإِن كنتُ جائِراً وصوِّبْتُ وإِن كنتُ مخطِئاً ، وَلٰكنِّي لا أَقنعُ إِلاَّ بإِقامَةِ الحجَّةِ ، وإِزالَةِ الشبهَةِ ، وإِنَّ أَنقصَ الملوكِ عقلاً ، وأَسخفَهُم رأْياً ، مَن رضيَ بقولِهم : صدقَ الأَميرُ . ذكرَهُ ابنُ أَبي الحديدِ أَيضاً في شرحِ ما سقناهُ آنفاً مِن كلامِ الإِمامِ [في « شرحِ نهجِ البلاغةِ »] .

ولنعُد مِنَ الاستطرادِ إِلىٰ حيثُ خرجنا ، فنقولُ : قد سبقَ ذروٌ مِن حديثِ ابنِ الطيَّارِ أَوائِلَ المجلسِ الحادِي عشرَ في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٧٢] : [مِنَ المنسرحِ]

تَمَثَّلُـوا حَـاتِمـاً وَلَـوْ عَقَلُـوا   لَكُنْـتَ فِـي الجُـودِ غَـايَـةَ المَثَـلِ

وفي غيرِهِ .

[إذا أعطيت هٰذا الرجل . . فقد أعطيت جميع أهل المدينة]

ونَزيدُ هُنا ما ذكرَهُ ابنُ أَبي الحديدِ [في « شرحِ نهجِ البلاغةِ »] وغيرُهُ ـ [في « المستطرف » ١/٣٤٨] : معَ تمهيدِ العذرِ للزيادَةِ والنقْصِ ببعدِ العهْدِ ـ أَنَّ عبدَ اللهِ بنَ جعفرٍ قدمَ علىٰ يزيدَ بنِ معاويَةَ ، فأَنزلَهُ بحيثُ كانَ ينزلُهُ أَبوهُ ، مِن عليٍّ القدْرِ ، ورعايَةِ الجانِبِ ، ولمَّا اعتزَمَ الانصرافَ . قالَ لهُ : كَم كانَ يعطيكَ أَبي ؟ قالَ : كانَ يُعطيني أَلفَ أَلفٍ ـ رحمَهُ اللهُ ـ

---

(١) الأرحبيُّ : النجيبُ من الإبلِ . المذكِّي : الذي تمَّتْ سنُّهُ وذكاؤهُ . المرَطىٰ وما بعدهُ من الأسماءِ : ضروبٌ من السيرِ . أَرادَ هنا أنَّ ممدوحَهُ يجمعُ ضروبَ إصلاحِ الملكِ كما يجمعُ هٰذا الأرحبيُّ جميع ضروبِ السيرِ .

(٢) العَودُ : المسنُّ من الإبلِ ، وأراد بهِ هنا الرجلَ المجرَّبَ . تُساجلهُ : تناظرهُ . جُلَبُ : جمعُ جلبةٍ ، وهيَ الأثرُ في ظهرِ البعيرِ وغيرِهِ من مسِّ حملٍ ونحوهِ .



فقالَ يزيدُ : قَد زِدناكَ أَلفَ أَلفٍ أُخرىٰ لترحُّمِكَ عليهِ ، فقالَ عبدُ اللهِ : فداكَ أَبي وأُمِّي ، قالَ : وهـٰذهِ لَها أَلفُ أَلفٍ ، فقالَ عبدُ اللهِ : واللهِ لا أُقولُها لأَحدٍ بعدَكَ ، قالَ يزيدُ : ولهـٰذهِ أَيضاً أَلفُ أَلفٍ ، فقيلَ ليزيدَ : أَعطيتَ هـٰذا القدرَ كلَّهُ لرجلٍ واحدٍ من بيتِ المالِ ، قالَ : واللهِ ما أَعطيتُهُ إلاَّ لجميعِ أَهلِ (المدينَةِ) ، ووكَّلَ بهِ عيناً يطالِعُهُ بخبرِهِ ، فلم يزَل يفرِّقُها في أَنواعِ المعروفِ . . حتَّى احتاجَ بعدَ شهرينِ إِلى الاستدانَةِ ، فهوَ الأَحقُّ مِن عبدِ الواحدِ بنِ سليمانَ بقولِ القطاميِّ [في « ديوانهِ » ٢٩] : [مِنَ البسيطِ]

أَهْـلُ الْمَـدِينَـةِ لاَ يَحْـزُنْـكَ حَـالُهُـمُ ... إِذَا تَخَطَّـأَ عَبْـدَ الْـوَاحِـدِ الأَجَـلُ

[العذل في الجود]

وعُذِلَ عبدُ اللهِ علىٰ كثرةِ الإنفاقِ فقالَ [في « المستطرف » ٣٤٨/١] : إِنَّهُ عزَّ وجلَّ عوَّدني أَن يتفضَّلَ عليَّ ، وعوَّدتهُ أَن أَتفضَّلَ علىٰ عبادِهِ ، فأَخافُ أَن أَقطعَ العادةَ ، فيقطَعَ [عنِّي] المادَّةَ .

[جود المأمون]

وذكرتُ بهـٰذا أَنَّ الواقديَّ ـ السالفَ الذكرِ ـ كتبَ إِلى المأمونِ في دَينٍ ارتكبَهُ ، فكتبَ لَهُ المأمونُ [كما في « وفيات الأعيان » ٣٤٩/٤] : إِنَّ فيكَ لكرماً أَطلَقَ ما في يدِكَ ، وحياءً منعَكَ أَن تذكرَ كلَّ حاجتِكَ ، غيرَ أَنَّكَ حدَّثتني وأَنتَ علىٰ قضاءِ الرشيدِ : أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قالَ للزبيرِ : « **يا زُبَيْرُ ، إِنَّ مَفَاتِيحَ الرِّزْقِ فِي خِزَانَةٍ بِإِزَاءِ الْعَرْشِ ، فَمَنْ كَثَّرَ . . كُثِّرَ لَهُ ، وَمَنْ قَلَّلَ . . قُلِّلَ لَهُ** »[1] . قالَ الواقديُّ : فلأَنا بمراجعَةِ المأمونِ الحديثَ لي أَفرحُ منِّي بالصلَةِ ، أَو ما يقربُ مِن هـٰذا المعنىٰ .

[جود الفرزدق]

وبَينا طلحةُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عوفٍ بالسوقِ . . وافقَ الفرزدقَ ، فقالَ لَهُ [في « المستطرف » ٣٥٩/١] : اختر عشراً مِنَ الإبلِ ، ففعلَ ، فقالَ لهُ الفرزدقُ : ضمَّ إِليها مثلَها ، ففعلَ ، ولم يزَل يقولُ لهُ : ضمَّ إِليها مثلَها . . حتَّىٰ صارَت مئةً ، فأَثنىٰ عليهِ بأَبياتٍ ، منها قولُهُ : [مِنَ الكاملِ]

إِنَّ النَّـدَىٰ أَلْقَـىٰ إِلَيْـكَ رِحَـالَـهُ ... فَبِحَيْـثُ بِـتَّ مِـنَ الْمَنَازِلِ بَـاتَـا

فأَخذهُ أَبو الشيصِ الخزاعيُّ حيثُ يقولُ [في « أشعارهِ » ٩٢] : [مِنَ الكاملِ]

وَقَفَ الْهَوَىٰ بِي حَيْثُ أَنْتَ فَلَيْسَ لِي ... مُتَـأَخَّـرٌ عَنْـهُ وَلاَ مُتَقَـدَّمُ

وتعدَّىٰ عليهِ أَبو نواسٍ مجاهرَةً فقالَ [في « ديوانهِ » ٢٩٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَـا جَـازَهُ جُـودٌ وَلاَ حَـلَّ دُونَـهُ ... وَلَكِـنْ يَسِيـرُ الْجُـودُ حَيْـثُ يَسِيـرُ

ثُمَّ اعتورَتْهُ الأَيدي ومنهُ قولُ البُحتريِّ [في « ديوانهِ » ٥٧٤/١] : [مِنَ البسيطِ]

تَحَيَّـرَ الْجُـودُ وَالإِحْسَـانُ بَيْنَهُـمُ ... فَمَـا يَجُـوزُهُـمُ جُـودٌ إِلَـىٰ أَحَـدِ

---

(١) أخرجه عن الزبير رضي الله عنه بنحوه الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٥/٤٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » كما في « كنز العمال » (٦٢٨) بلفظ : « يا زبير إن الرزق مفتوح من لدن العرش إلىٰ قرار بطن الأرض ، يرزق الله كل عبد علىٰ قدر همته ونهمته » .



وذكرتُ بعدَ هٰذا عَن بعضِ الأَوائِلِ ما معناهُ ـ إنْ أخطأْتُ لفظَهُ ـ [قولَ البُحتريِّ في « ديوانه » ٣/ ١٨٤٥] : [مِنَ الكامل]

إنَّ السَّمَاحَ الْعِدَّ أَلْقَىٰ رَحْلَهُ   فِي آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوَّلِ[1]

ولا نُدحَةَ عَن ذكرِ مثالَينِ مِن جودِ البرامِكَةِ تتَّصِلُ بما ذكرناهُ سابقاً ولاحقاً :

[صور من جود البرامكة]

أَحدُهُما : أَنَّ محمَّدَ بنَ عبدِ اللهِ كانَ متَّصلاً بهِم ، ولهُ نعمَةٌ واسعةٌ ، وضِياعٌ كثيرَةٌ ، صودرَت فيما كانَ للبرامِكَةِ وأَتباعِهِم ، فرفعَ فِيها قصَّةً إلى المأمونِ ، يمتُّ فيها بحرمَةٍ ، فدفعَها المأمونُ إلىٰ أَحمدَ ابنِ أَبي خالدٍ ، وأَمرَهُ أَن يضمَّ الرجلَ إِلىٰ نفسِهِ ، ويحسنَ إِليهِ ، فصلحَتْ حالُهُ ، وتماسكَتْ أُمورُهُ ، واتخذَهُ ابنُ أَبي خالدٍ نديماً ، لا يصبرُ عنهُ ، فانقطعَ يوماً لمولودٍ وُهِبَهُ ، ولم يأْتِ بعدَ استدعائِهِ مراراً ، فغضبَ عليهِ ، وسجنَهُ ، وقيَّدَهُ ، وزعمَ للمأمونِ أَنَّهُ كثيرُ المصارفِ والتيهِ والافتخارِ بالبرامكَةِ ، فأَمرَ بإِحضارِهِ علىٰ قيدِهِ ، وأَقبلَ عليهِ مسفِّهاً لرأيِهِ ، وأَخذَ يطعَنُ على البرامكَةِ ، ويضعُ مِنهم ، ويطنبُ في ذلكَ .

فعارضَهُ وقالَ : كانوا شفاءَ دهرِهم ، وغياثَ عصرِهِم ، وإِنْ أَذِنَ لي أَميرُ المؤمنينَ . . حدَّثتُهُ عَن أَخبارِهم ، قالَ : هاتِ ، قالَ : محدِّثٌ ومقيَّدٌ ؟! فأَمرَ بإِطلاقِهِ ، فقالَ : اقترحَ الفضلُ عليَّ مرَّةً أَن أَدعوَهُ وأَباهُ وأَخاهُ ، قلتُ : داري وحَالي يصغرُ عَن ذلكَ ، قالَ : لا حشمَةَ ولا كلفَةَ ، فأَقعِدْنا علىٰ أَثاثِ بيتِكَ ، وأَطعِمنا مِن طبيخِ أَهلِكَ ، فلمَّا رأَيتُ إِلحاحَهُ . . استمهلْتُهُ سنَةً ؛ لأَستعِدَّ ، فقالَ : وهَل مَعَنا أَمانٌ مِنَ الموتِ إِلىٰ سنةٍ ، إِنَّكَ لَطويلُ الأَملِ ، فأَصلحَ بيننا جعفرٌ علىٰ شهرينِ ، أَصلحتُ فيها داريَ ، وبذلْتُ ما بلغَتْ يديْ مِن تزيينِهِ ، وتأْثيثِهِ ، وترتيبِهِ ، وفعلتُ ما قدرتُ عليهِ مِنَ الطعامِ ، وجاءَ هوَ وأَبوهُ وجعفرٌ وأَولادُهم وفتيانُهم ، فقالَ : إِنَّ أَوَّلَ ما أَبدأُ بهِ النظرُ إِلىٰ جليلِ نعمتِكَ وصغيرِها ، فدارَ علىٰ سائرِ المنازِلِ ، وقالَ : مَن جيرانُكَ ؟ قلتُ : فلانٌ وفلانٌ ، وفي جانِبِ داري بالملاصقَةِ قصرٌ ضخْمٌ مَشيدٌ ، قالَ : لِمَن هٰذا ؟ قلتُ : لا أَعرفُهُ ، قالَ : ما كانَ ينبغي لأَحدٍ أَنْ يستطيلَ عليكَ ، فهلمَّ بنجّارٍ يفتَحُ لَنا باباً إِلىٰ تلكَ الدارِ مِن ناحيتِكَ المتَّصلَةِ بهِ ، فناشدتُهُ أَن لا يفعلَ ، فصمَّمَ وفتحَ البابَ ، فإِذا برجُ إِصطبلِ دوابِّهِ خيرٌ مِن داري بسبعينَ مرَّةً ، وقالَ : هٰذا الدارُ بما فيهِ لكَ ، فكدْتُ أُجَنُّ مِن ذلكَ ، ولَم أَدرِ أَنا في يقظَةٍ أَو منامٍ ، ولمَّا سمعَ أَخوهُ وأَبوهُ بما جرىٰ . . رأَيتُ الانمغاضَ بادياً علىٰ وجهِ جعفرٍ ، وأَقبلَ علىٰ أَبيهِ يشكو من تفرُّدِ الفضلِ بهٰذهِ المكرُمَةِ ، فقالَ الفضلُ : يا أَخي ، بقيَ لكَ القطْبُ مِنها ، قالَ : وما هوَ ؟ قالَ : إِنَّهُ لا يتهيَّأُ ضبطُ هٰذهِ الدارِ بما فيها . . إِلاَّ بدخْلٍ جليلٍ ، قالَ : فرَّجْتَ عنِّي يا أَخي ، وكتبَ لي بصكاكِ عقارٍ ، صرتُ بهِ مِن أَيسرِ أَهلِ زَماني ، قالَ المأمونُ : صدقَ واللهِ ، ذهبَ القومُ بالمكارِمِ ، وردَّ عليهِ ضياعَهُ ، وأَحسنَ معاملَتَهُ .

ثانيهما [عند الأبشيهي في « المستطرف » ١/ ٤٣٦] : حديثُ المغيرَةِ بنِ المنذرِ فقد كانَ يُسحِرُ كلَّ ليلَةٍ إِلىٰ دورِ البرامِكَةِ وآثارِهم ، ويندُبُهم بشعرٍ منهُ : [مِنَ الطَّويل]

وَلَمَّا رَأَيْتُ السَّيْفَ جَلَّلَ جَعْفَراً   وَنَادَىٰ مُنَادٍ لِلْخَلِيفَةِ : يَا يَحْيَىٰ

---

(١) البيتُ في « الديوان » :

أَوَمَا رَأَيْتَ المَجْدَ أَلْقَىٰ رَحْلَهُ



بَكَيْتُ عَلَى الدُّنْيَا وَزَادَ تَأَسُّفِي عَلَيْهِمْ ، وَقُلْتُ : الآنَ لاَ تَنْفَعُ الدُّنْيَا

فرصدَهُ المأمونُ حتَّىٰ أَمسكَهُ ، ولمَّا مَثَلَ بينَ يدهِ متحنِّطاً متكفِّناً مستعدّاً للقتلِ . . أَخذَ المأمونُ بتوبيخِهِ ، فقالَ : إِنَّ للقومِ عندي لأَيادِيَ لا تزالُ خضراءَ ، إِنْ شئتَ . . حدثتُكَ عَنها ، قالَ : قُلْ ، فقالَ : أَنا مِن أَولادِ الملوكِ ، فزالَتْ نِعمَتي ، وبعتُ ما علىٰ رأسِي ، ورؤُوسِ أَولادِي وأَهلي ، وما بقيَ لَنا شيءٌ يوهَبُ ولا يباعُ ، حَتَّىٰ دخلنا (بغدادَ) ، ونزلنا في بعضِ المساجدِ ، فذهبتُ أَسأَلُ عَنِ البرامكَةِ ـ وتركتُهُم جياعاً ـ وأَخذتُ أَتصبَّبُ مِنَ العرقِ ؛ لأَنَّها لم تكنْ صناعَتي ، فإِذا جماعَةٌ جلوسٌ في مسجدٍ ، ينتظرونَ داعياً لحضورِ إِملاكٍ في دارِ يحيىٰ ، ولمَّا دَخلوا . . دخلتُ معَهُم ، وما معيَ مِنَ الرَّمَقِ إِلاَّ ما يحملُ رجليَّ مِن الاستحياءِ ، وفرَّقَ الخدَمُ صوانيَ الفضَّةِ ، في كلِّ صينيَّةٍ أَلفُ دينارٍ ، فلم أَجْسِرْ علىٰ أَخذِ التي هيَ ليْ . . حتَّىٰ غمزني الخادِمُ فأَخذتُها ، وقمْتُ أَتلفَّتُ مخافَةَ الردِّ ، فلحَظَني يحيىٰ ، واستدعاني ، وقالَ : ممَّ تتلفَّتُ ؟ فبدرتْني عيني ، ثمَّ شرحتُ لهُ قصَّتي ، فأَمرَ ولدَهُ موسىٰ بضمِّي إِليهِ ، وإِكرامي ، ولم يزَلْ يتبادَلُني القومُ عشرَةَ أَيَّامٍ ، وأَنا لا أَدري بخبرِ عيالي وأَهلي ، غيرَ أَنِّي آمنُ مِن ضياعِهِم بعدَ أَن علمَ يحيىٰ بحالِهِم ، ولم أَدرِ أَينَ تركتُ الصينيَّةَ بما فيها ، ولمَّا كانَ اليومُ الحادي عشرَ . . قالوا لي : قُمْ إِلىٰ عيالِكَ ، فقلتُ في نفسي : واويلاهُ ، وقد فقدتُ الصينيَّةَ بما فيها مِنَ الدنانيرِ ، فقمتُ إِلىٰ دارٍ لَم أَرَ مثلَها أَيَّامَ نعمَتي ، وإِذا بِصِبْياني وأَهلي يتقلَّبونَ في الحريرِ والديباجِ ، وحمَلوا إِليَّ مئةَ أَلفِ درهمٍ ، وعَشَرَةَ آلافِ دينارٍ[1] ، ومنشوراً بضيعتينِ ، وتلكَ الصينيَّةَ بما فيها ، وأَقمتُ غَذيَّ نعمتِهِم ثلاثَ عَشْرَةَ سنةً ، فلمَّا جاءَتهم البليَّةُ . . أُخِذَتْ أَموالي فيما أُخذَ من أَموالِهِم ، فقالَ المأمونُ : رُدُّوا عليهِ جميعَ ما أُخذَ مِنْهُ ، فَعَلاَ نحيبُهُ عندَ ذلكَ ، فقالَ المأمونُ : كيفَ تبكي وقد أَحسنَّا إِليكَ ؟ قالَ : وهـٰذا أَيضاً من صنيعِ البرامكَةِ ، فلَو لم آتِ آثارَهُم ، وأَندبَهم . . ما اتصلَ بكَ خبري .

قالَ إِبراهيمُ بنُ ميمونٍ : فرأَيتُ المأمونَ تذرفُ عيناهُ ، ويقولُ : إِنَّ هـٰذا لَعَمري مِن صنيعِ البرامكَةِ ، فعليهم فابْكِ ، وإِيَّاهُم فاشكر ، ولهم فأَوفِ ، ولإِحسانِهم فاذكُر ، وصدقَ واللهِ ، فهُمُ القومُ الذينَ يفيضُ جودُهُم ، ويهتزُّ عودُهُم ، وتتزيَّنُ المجالسُ بذكرِهِم ، وتتعطَّرُ الآنافُ بنشرِهِم .

لمَّا نزلَتِ المحنَةُ بابنِ الزيَّاتِ . . قالَ لَهُ خادِمُهُ : صرتَ إِلىٰ ما صرْتَ إِليهِ ، ومالَكَ حامِدٌ في الناسِ ؟! قالَ : وكَم للبرامِكَةِ مِن صنيعٍ ، فهَل نفعَهُم شيءٌ مِن ذلكَ ؟ قالَ لَهُ : نعم ، لو لَم يكُن منهُ إِلا ذكرُكَ لَهم في هـٰذهِ الساعَةِ ، قالَ : صدقْتَ .

وأَثنيتُ مرَّةً على الأَميرِ منصورِ بنِ عمرَ الكثيريِّ صاحبِ (شبامَ) ، وكانَ عرضَةَ ذلكَ ، فحولَةً وبطولةً ، وزعامةً وشهامةً ، وشدَّةَ بأسٍ في لينِ جانبٍ ، فقالَ لي أَحدُ الرؤساءِ : إِنَّ شجاعتَهُ انتهَتْ بهِ إِلى القتلِ ، فقلتُ لَهُ : وَلَكِنَّ مَن خلَّفَ ذلكَ الثناءَ العاطِرَ لم يمُت ، وأَمَّا الموتُ . . فإِنَّهُ لا بدَّ منهُ علىٰ كلِّ حالٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ تَعَدَّدَتِ الأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدُ

---

(١) في « المستطرف » : (أَلف أَلف درهم وعشرة آلاف دينار) .

أمَّا اليومَ . فقد ماتَ الجودُ ، وشملَ الجمودُ ، وإنَّكَ لترى المتَّسِمَ بسَمتِهِ ، والمدّعيَ أنَّهُ مِن أُمَّتِهِ . لجديرٌ بقولِ جريرٍ [في « ديوانه » ٢/ ٥٢] : [مِنَ الكاملِ]

وَالتَّغْلِبِـــيُّ إِذَا تَنَحْنَـــحَ لِلْقِـــرَىٰ ... حَـــكَّ اسْتَـــهُ وَتَمَثَّـــلَ الأَمْثَـــالاَ

والبيتُ الذي نتكلَّمُ عليهِ متكرِّرُ المعنىٰ في « ديوانِهِ » ، منهُ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٥٤] : [مِنَ الوافرِ]

قَبُـــولُـــكَ مَنَّـــهُ مَـــنٌّ عَلَيْـــهِ ... وَإِلاَّ يَبْتَـــدِي يَـــرَهُ فَظِيعَـــا

[يقضي دين صديقه ويبكي]

وذكرتُ بشطرِهِ الأخيرِ [ما ذكره الأبشيهي في « المستطرف » (١/ ٣٤٦) وهو] : أنَّ بعضَهم شكا إلىٰ صديقٍ لَهُ ديناً ، فقضاهُ عنهُ ، ثمَّ عادَ باكياً ، فقالَت لَهُ امرأتُهُ : هلاَّ تعلَّلْتَ إذ علمت أنَّ الإجابَةَ تشقُّ عليكَ ، قالَ لَها : ما بي ذلكَ ، وإنَّما أَبكي ؛ لأنَّني لَم أتفقَّدْ حالَهُ قبلَ سُؤَالِهِ . والقصَّةُ في « الإحياءِ » للإمامِ الغزاليِّ ، وفي غيرِها من كتبِ الأخبارِ .

[التلذذ بالجود والإعطاء]

وفي مثلِهِ يقولُ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٩٦] : [مِنَ الخفيفِ]

وَالْجِـــرَاحَـــاتُ عِنْـــدَهُ نَغَمَـــاتٌ ... سَبَقَـــتْ قَبْـــلَ سَيْبِـــهِ بِسُـــؤَالِ[1]

وهوَ ناظرٌ إلىٰ قولِ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانه » ١/ ٤٠٥] : [مِنَ الوافرِ]

وَنَغْمَـــةُ مُعْتَـــفٍ يَـــرْجُـــوهُ أَحْلَـــىٰ ... عَلَـــىٰ أُذُنَيْـــهِ مِـــنْ نَغَـــمِ السَّمَـــاعِ[2]

وأخذهُ الناظِمُ غيرَ أنَّهُ أفرغَهُ في قالبٍ آخرَ ، فقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٧٢] : [مِنَ البسيطِ]

كَـــأَنَّ كُـــلَّ سُـــؤَالٍ فِـــي مَسَـــامِعِـــهِ ... قَمِيـــصُ يُـــوسُـــفَ فِـــي أَجْفَـــانِ يَعْقُـــوبِ

وقد أَلمَّ بهِ البُحتريُّ مِن قبلِهِ ، فقالَ [في « ديوانه » ١/ ٦٢٩] : [مِنَ الكاملِ]

نَشْـــوَانُ يَطْـــرَبُ لِلسُّـــؤَالِ كَـــأَنَّمَـــا ... غَنَّـــاهُ (مَـــالِـــكُ طَـــيِّءٍ) أَوْ (مَعْبَـــدُ)[3]

وقالَ الجزَّارُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَيَهْتَـــزُّ لِلْجَـــدْوَىٰ إِذَا [مَـــا] مَـــدَحْتَـــهُ ... كَمَا اهْتَزَّ ـ حَاشَا وَصْفَهُ ـ شَارِبُ الْخَمْرِ

وقد ذكرنا مرَّةً قولَ عكرشةَ بنِ أُريدٍ [في « قرى الضيف » ٢/ ٢٩٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَتَـــأْخُـــذُهُ عِنْـــدَ المَكَـــارِمِ نَشْـــوَةٌ ... كَمَا اهْتَزَّ تَحْتَ البَارِحِ الْغُصْنُ الرَّطْبُ

---

(١) السيبُ : العطاءُ .

(٢) المعتفي : السائلُ .

(٣) مالك طيء : هو أبو الوليد مالكُ بنُ أبي السمحِ جابر بنِ ثعلبةَ الطائي ، كان من مغنّيِ العصرين : الأمويّ والعباسيّ ، أخذ صناعةَ الغناءِ عن معبد توفي نحو سنة (١٤٠ هـ) .

معبد : هو معبدُ بنُ وهبٍ ، أصلُه مِن الموالي نشأَ في (المدينةِ) يرعى الغنمَ لمواليهِ وربَّما اشتغلَ بالتجارةِ ولمَّا ظهرَ نبوغهُ في الغناءِ . أقبلَ عليهِ كبراءُ (المدينةِ) ؛ ثم رحلَ إلى (الشامِ) فاتصل بأمرائِها وعلا شأنُه .



وما أَحسنَ قولَ ابنِ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٦/٢٤٣٩] : [مِنَ الكاملِ]

ذَهَبَ الَّذِينَ تَهُزُّهُمْ مُدَّاحُهُمْ ... هَزَّ الْكُمَاةِ عَوَالِيَ الْمُرَّانِ

كَانُوا إِذَا مُدِحُوا رَأَوْا مَا فِيهِمُ ... فَالأَرْيَحِيَّةُ مِنْهُمُ بِمَكَانِ

[من أجواد الحضارمة]

وكانَ لِلْحَضَارِمَةِ النصيبُ الأَوفىٰ مِنَ السماحِ ، ومِن متأَخِّريهم : البحرُ الطافحُ ، الإمامُ الهمامُ ، **الحسنُ بنُ صالحٍ** ، وخيرُ كلِّ فتىً وكهلٍ ، المنهلُ العذبُ ، **الحسينُ بنُ سهلٍ** ، وقد مرَّتْ نسمَةٌ مِن عرفِهِم الشميمِ ، وقطرَةٌ مِن مكارمِ جودِهم الصميمِ ، ولا يخلو (اليمنُ) عَن كرامٍ ، تجدُ سعَةً في مناقِبِهم الأَقلامُ ، **مِنهم أَخي وصديقي محمَّدُ سيفُ الإسلامِ** ، وهوَ القائِلُ لمَّا عذلوهُ في كثرَةِ الإنفاقِ : [مِنَ الطَّويلِ]

يَقُولُونَ : إِنِّي مُسْرِفٌ إِذْ يَرَوْنَنِي ... أُطَوِّقُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ بِإِحْسَانِي

فَقُلْتُ لَهُمْ : مُوتُوا لِئَاماً بِغَيْظِكُمْ ... فَإِنِّي شَرَيْتُ الْمَجْدَ بِالتَّافِهِ الدَّانِي

إِذَا جِئْتُمُ يَوْمَ الْحِسَابِ بِكَنْزِكُمْ ... أَجِيءُ بِعَفْوٍ مِنْ إِلَٰهِي وَغُفْرَانِ

[يلومون الراضي العباسي على الجود]

ويُشبِهُها : أَنَّ الراضيَ العبَّاسيَّ وَصلَ الشعراءَ بصلاتٍ جزلَةٍ ، لامَهُ فيها كثيرٌ مِنَ النَّاسِ ، ونسبوهُ إِلى الإسرافِ ، فقالَ [في « البداية والنهاية » ١١/١٩٧] : [مِنَ الكاملِ]

لاَ تَعْذِلُوا كَرَمِي عَلَى الإِسْرَافِ ... رِبْحُ الْمَحَامِدِ مَتْجَرُ الأَشْرَافِ

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ أَكُفُّهُمْ ... مُعْتَادَةُ الإِتْلاَفِ وَالإِخْلاَفِ

إلاَّ أَنَّ هٰذا قاصرُ النظرِ علىٰ ما في الدنيا ، وذاكَ طامحُهُ إِلىٰ ما في الآخرَةِ ، فهنيئاً لهُما ، كلُّ امرىءٍ يأخذُ زادَهُ : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء : ١٨-١٩] .

[نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح]

وسأَلَ سائِلٌ عَنِ الْفرقِ ما بينَ أَموالِ السابقينَ مِنَ الحضارِمةِ ، حيثُ أُقيمَت بِها الدولُ ، وبنيَتِ المساجدُ ، وعمِّرتِ المدارسُ ، وأُصلحَتِ الْمساقي ، وأُكرمتِ الضُّيوفُ ، وتوزَّعَت في طرقِ المعروفِ ، وبينَ أَموالِ المتأَخِّرينَ ، لم تظهَر إلاَّ في إِثارَةِ الشرورِ ، وعمارَةِ القصورِ ، وتحليةِ النُّحورِ ، فأُجيبَ : بأَنَّ الثروَةَ السابقَةَ لم تكُن إلاَّ في أَيدي أَهلِها ، وأَكثرُها هدايا مِن ملوكِ الهندِ لأَعاظِمِ الرجالِ ، بخلافِ أَموالِ المتأَخِّرينَ ، وإِذا أَرادَ اللهُ بقومٍ خيراً . . جعلَ أَغنياءَهم خيارَهم ، والعكسُ بالعكسِ ، وللهِ درُّ الناظِمِ في قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/٣٧٠] : [مِنَ الخفيفِ]

وَالْغِنَىٰ فِي يَدِ اللَّئِيمِ قَبِيحٌ ... قَدْرَ قُبْحِ الْكَرِيمِ فِي الإِمْلاَقِ

أَمَّا الموجودونَ . . فكما وَصَفْناهُم قبلُ ، وكما قالَ جحظَةُ [في « ديوانهِ » ٦٤] : [مِنَ الوافرِ]

تَسَاوَى النَّاسُ فِي فِعْلِ الْمَسَاوِي ... فَمَا يَسْتَحْسِنُونَ سِوَى الْقَبِيحِ

وَصَارَ الْجُودُ عِنْدَهُمُ جُنُوناً ... فَمَا يَسْتَعْقِلُونَ سِوَى الشَّحِيحِ
وَكَانُوا يَهْرُبُونَ مِنَ الأَهَاجِي ... فَصَارُوا يَهْرُبُونَ مِنَ الْمَدِيحِ

ومعلومٌ أَنَّ مَن يهربُ مِنَ المديحِ خشيةَ المكافأَةِ عليهِ . . خيرٌ أَلفَ مرَّةٍ ممَّن يتمنَّاهُ مجَّاناً ، ويطلبُهُ بِلا ثمنٍ ، وقالَ غيرُهُ ـ وأَحسنَ ما شاءَ ـ : [مِنَ البسيطِ]

كَانَ الْكِرَامُ وَأَبْنَاءُ الْكِرَامِ إِذَا ... تَسَامَعُوا بِكَرِيمٍ مَسَّهُ عَدَمُ
تَسَابَقُوا فَيُوَاسِيهِ أَخُو كَرَمٍ ... مِنْهُمْ وَيَرْجِعُ بَاقِيهِمْ وَقَدْ نَدِمُوا
وَالْيَوْمَ مَا بَيْنَهُمْ صَارَ النَّدَىٰ سَفَهاً ... فَيُنْكِرُونَ عَلَى الْمُعْطِي إِذَا عَلِمُوا

وقالَ أَبو العتاهيَةِ [في « ديوانهِ » ٣١٣] : [مِنْ مجزوءِ الكاملِ]

اِضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ فَلَنْ تَرَىٰ إِلاَّ بَخِيلاَ

فقيلَ لهُ [كما في « الأغاني » ٤/٨١] : لقد بَخَّلْتَ الناسَ أَجمعينَ ، قالَ : كذِّبوني ولَو بواحدٍ .

وهٰذا جورٌ منهُ ، وقلَّةُ حياءٍ ، وإِلاَّ . . فَمِن أَينَ لَهُ الأَموالُ الطائلَةُ التي جمعَها ؟ وَلَكِنَّهُ كانَ شحيحاً خبيثاً ، وكانَ يتخنَّثُ في أَوَّلِ أَمرِهِ ، ولِذا صنعَ معَهُ ابن معنٍ ما ذكرناهُ أَوَّلَ المجلسِ الرابعِ[1] ، وإِنَّما ينطبقُ بيتُهُ علىٰ أَهلِ بلادِنا ، أَمَّا العصْرُ الذي تزيَّنَ بالبرامِكَةِ . . فلا يجوزُ أَنْ يقالَ فيهِ مِثْلُ هٰذا ، وَلَكِنَّهُ مِن أَعدائِهم ، وجاحدي فضائِلِهم .

ويروىٰ : أَنَّ لَهُ يداً في نكبَتِهم ، قاتَلَهُ اللهُ ، وأَرضاهُمْ .

* * *

(١) وهو أنَّهُ أَمَرَ عبيدَهُ أَنْ يلوطوا بهِ أَمامَ عينيهِ .

المجلس الخامس عشر

[قالَ أبو الطَّيِّبِ المتنبّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٩] : [مِنَ الكاملِ]

أَمْطِرْ عَلَيَّ سَحَابَ جُودِكَ ثَرَّةً ... وَانْظُرْ إِلَيَّ بِرَحْمَةٍ لاَ أَغْرَقُ

[متىٰ ينفع الغيث ؟!]

يقولُ : أَمطِر سحابَ جودِكَ عليَّ مطراً غزيراً ، ثُمَّ ارفقْ بي ؛ لاَ أَغرقُ مِن كثرتِها ، وفيهِ تناقضٌ ؛ إِذ كيفَ يطلُبُ الغزيرَ ، ثُمَّ يسأَلُ السلامَةَ مِنَ الغرَقِ ؟ ولَو أَنَّهُ لَم يطلبْ إِلاَّ القليلَ بادئاً . لَما احتاجَ إِلى الاحتراسِ ، فهوَ كطرفَةَ بنِ العبدِ في قولِهِ [في « ديوانه » ٩٧] : [مِنَ الكاملِ]

فَسَقَىٰ دِيَارَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا ... صَوْبُ الرَّبِيعِ وَدِيمَةٌ تَهْمِي

إِذ لا تناسبَ بينَ قولِهِ : (غَيْرَ مُفْسِدِهَا) وقولِهِ : (تَهْمِي) ، وقد وقعَ جريرٌ في شرٍّ مِن ذلكَ ؛ إِذ فاتَهُ الاحتراسُ جملةً في قولِهِ [في « ديوانه » ٢/ ٩١١] : [مِنَ الكاملِ]

فَسَقَاكِ حَيْثُ حَلَلْتِ غَيْرَ فَقِيدَةٍ ... هَزِجُ الرَّوَاحِ وَدِيمَةٌ لاَ تُقْلِعُ[١]

إِذ لَو دامَ ما يتمنَّاهُ علىٰ أَهرامِ مصرَ . . لَمَا صارَتْ إِلاَّ أَثراً بعدَ عينٍ ، ومثلُهُ قولُ الناظمِ [في «العُكبَرِيِّ» ٢/ ٨٦] : [مِنَ الكاملِ]

وَإِذَا ارْتَحَلْتَ فَشَيَّعَتْكَ سَلاَمَةٌ ... حَيْثُ اتَّجَهْتَ وَدِيمَةٌ مِدْرَارُ[٢]

وقد علمَ أَنَّ المسافِرَ لا يكرَهُ شيئاً كرهَهُ لِلْمطرِ ، وهوَ القائِلُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١٣٣] : [مِنَ الوافرِ]

وَلَكِنَّ الْغُيُوثَ إِذَا تَوَالَتْ ... بِأَرْضِ مُسَافِرٍ كَرِهَ الْغَمَامَا

وأَقبحُ منهُ قولُ مهيارِ الديلميِّ ـ في مطلعِ قصيدَةٍ [في « ديوانه » ٤/ ١٨٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

سَقَىٰ دَارَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ وَحَيَّاهَا ... مُلِثٌّ يُعِيدُ التُّرْبَ فِي الدَّارِ أَمْوَاهَا[٣]

أَمَّا قولُ ذِي الرُّمَّةِ [في « ديوانه » ١/ ٥٥٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ يَا اسْلَمِي يَا دَارَ مَيَّ عَلَى الْبِلَىٰ ... وَلاَ زَالَ مُنْهَلاً بِجَرْعَائِكِ الْقَطْرُ

. . فَلا يخرجُ عَن بيتِ طرفَةَ ، وبيتِ الناظِمِ الذي نتكلَّمُ فيهِ ، إِلاَّ أَن يجابَ بأَنَّهُ دَعا للدارِ بالسلامَةِ ، وللجرعاءِ حولَها

---

(١) هزِجُ الرواحِ : يريدُ غيماً برعدٍ فيكثرُ ماؤهُ . وفي المخطوط : (الرِّياح) بدل (الرواح) .

(٢) الديمةُ : المَطرُ الذي ليسَ فيهِ رعدٌ ولا برقٌ .

(٣) الملثُّ : المطرُ يدومُ أيّاماً ولم يقلع .

لاَ لَهَا بتوالي الغيوثِ ، فيكونُ مِن قولِهِ عليهِ السلامُ : « **اَللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلاَ عَلَيْنَا** »[١] .

وسمعَ أَعرابيٌّ خطيباً يقولُ : اللَّهُمَّ اسقِنا غيثاً مغيثاً ، مجلِّلاً ، سحّاً ، طبقاً ، عامّاً ، دائِماً[٢] ، فقالَ لَهُ : رويدَكَ ؛ حتَّىٰ آويَ إِلىٰ جبلٍ يعصمُني مِنَ الماءِ ، فإِنَّكَ لا تطلُبُ إِلاَّ طُوفانَ نوحٍ .

[للجود . . حدود وكل ما زاد علىٰ حده . . انقلب إلىٰ ضده علىٰ رأيٍ!!]

وقالَ أَبو نواسٍ [في « ديوانِهِ » ٣٩١] : [مِنَ الكاملِ]

أَنْـــتَ امْــرُؤٌ جَلَّلْتَنِـــي نِعَمــاً ... أَوْهَــتْ قُــوَىٰ شُكْــرِي فَقَــدْ ضَعُفَـا

وقالَ دِعْبِلٌ [في « ديوانِهِ » ٤٢٥] : [مِنَ الكاملِ]

أَصْلَحْتَنِـي بِـالْبِـرِّ بَـلْ أَفْسَـدْتَنِـي ... وَتَـرَكْتَنِـي أَتَسَخَّـطُ الإِحْسَـانَـا[٣]

ولمَّا انتهىٰ مروانُ ابنُ أَبي الجنوبِ في مدحِهِ للمتوكِّلِ إِلىٰ قولِهِ : [مِنَ الكاملِ]

فَـأَمْسِـكْ نَـدَىٰ كَفَّيْـكَ عَنِّـي وَلاَ تَـزِدْ ... فَقَـدْ خِفْـتُ أَنْ أَطْغَـىٰ وَأَنْ أَتَجَبَّـرَا

. . قالَ [في « الأغاني » ١٢/٩٩] : لاَ واللهِ حتَّىٰ أُغرقَكَ بجودي ، ولا تبرَحْ حتَّىٰ تسأَلَ حاجَةً ، فسأَلَهُ ضيعَةً ، فأَعطاهُ إِيَّاها .

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانِهِ » ١/٢١ـ٢٢] : [مِنَ الكاملِ]

أَخْجَلْتَنِـي بِنَـدَىٰ يَـدَيْـكَ فَسَـوَّدَتْ ... مَـا بَيْنَنَـا تِلْـكَ الْيَـدُ الْبَيْضَـاءُ
صِلَـةٌ غَـدَتْ فِـي النَّـاسِ وَهْـيَ قَطِيعَـةٌ ... عَجَـبٌ وَبِـرٌّ عَـادَ وَهْـوَ جَفَـاءُ

وكثيراً ما نقولُ : إِنَّ الناظِمَ لا يدعُ شاذَّةً ولا فاذَّةً ، وممَّا يؤَكِّدُ ذلكَ أَنَّهُ أَغارَ علىٰ هـٰذا المعنىٰ ، فلم يحسنِ الاتِّباعَ ، بل سقطَ علىٰ أُمِّ رأْسِهِ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « العُكبَريِّ » ١/٢٩] : [مِنَ الكاملِ]

وَلَجُـدْتَ حَتَّـىٰ كِـدْتَ تَبْخَـلُ حَـائِـلاً ... لِلْمُنْتَهَـىٰ ، وَمِـنَ السُّـرُورِ بُكَـاءُ

إِذ لا يُتَصوَّرُ أَن ينتهيَ الجودُ إِلىٰ ضدِّهِ مِنَ الْبخلِ إِلاَّ بالمَعْسرَةِ ، ولا يمكنُ إِرادَةُ ذلكَ ، إِنَّما يُتصوَّرُ مثلُ ما أَجادَهُ المعريُّ في قولِهِ [في « سقطِ الزندِ » ١٠٦] : [مِنَ البسيطِ]

لَـوِ اخْتَصَـرْتُـمْ مِـنَ الإِحْسَـانِ زُرْتُكُـمُ ... وَالْعَـذْبُ يُهْجَـرُ لِـلإِفْـرَاطِ فِـي الْخَصَـرِ[٤]

[من المبالغة في الإحسان قصة هرم بن سنان وزهير]

ومِنَ المبالغَةِ في الإِحسانِ ، ما كانَ مِن هَرِمِ بنِ سنانٍ إِلىٰ زهيرٍ ، فلقد آلىٰ علىٰ نفسِهِ أَنْ لا يسلِّمَ عليهِ إِلاَّ أَعطاهُ غرَّةً

---

(١) طرف حديث أخرجه عن أنس رضي الله عنه البخاري (١٠١٤) ، ومسلم (٨٩٧) ، وأبو داوود (١١٧٤) و(١١٧٥) ، والنسائي (١٥١٥) في الاستسقاء .

(٢) بعض حديث أخرجه عن ابن عمر رضي الله عنهما الشافعي في « الأم » (١/٢٢٢) وعنه البيهقي في « معرفة السنن » (٢٠١٥) و« السنن الكبرىٰ » (٣/٣٥٥ و٣٥٦) في الصلاة .

(٣) **أتسخَّطُ** : أستقلُّ .

(٤) **العذبُ** : الماءُ الباردُ . **الإفراطُ** : الإسرافُ . **الخَصَرُ** : البرودةُ .



مِن مالِهِ ، فكانَ زهيرٌ بعدَ ذلكَ يمرُّ بالقومِ فيهِم هَرِمٌ ، فيقولُ [في « وفيات الأعيان » ٦/ ٢٦٤] : عِموا صباحاً خَلا هَرِماً ، وخيرَكُمْ تركْتُ .

[أبو دلف وعلي بن جبلة]

ويروىٰ [في « الأغاني » ٨/ ٢٦٥] : أَنَّ أَبا دُلَفٍ العجليَّ أَخجلَ عليَّ بنَ جبلَةَ بتوالي العَطايا ، وإِفاضَةِ الندىٰ ، فانقطَعَ عنهُ ، فأَرسَلَ إِليهِ يستزيرُهُ ، فكتبَ إِليهِ : [مِنَ الطَّويلِ]

هَجَرْتُكَ لَمْ أَهْجُرْكَ مِنْ كُفْرِ نِعْمَةٍ ... وَهَلْ يُرْتَجَىٰ نَيْلُ الزِّيَادَةِ بِالْكُفْرِ ؟
وَلَكِنَّنِي لَمَّا أَتَيْتُكَ زَائِراً ... فَأَفْرَطْتَ فِي بِرِّي عَجَزْتُ عَنِ الشُّكْرِ
فَمِ الآنَ لاَ آتِيكَ إِلاَّ مُسَلِّماً ... أَزُورُكَ فِي الشَّهْرَيْنِ يَوْماً أَوِ الشَّهْرِ
فَإِنْ زِدْتَنِي بِرّاً تَزَايَدْتُ جَفْوَةً ... وَلَمْ تَلْقَنِي طُولَ الْحَيَاةِ إِلَى الْحَشْرِ

فأُعجبَ بِها أَبو دُلَفٍ ، وكانَ حاضرَ الجوابِ ، شديدَ العارضَةِ ، فأَجابَهُ مِن ساعتِهِ بقولِهِ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ رُبَّ ضَيْفٍ طَارِقٍ قَدْ بَسَطْتُهُ ... وَآنَسْتُهُ قَبْلَ الضِّيَافَةِ بِالْبِشْرِ
أَتَانِي يُرَجِّينِي فَمَا حَالَ دُونَهُ ... وَدُونَ الْقِرَىٰ وَالْعُرْفِ مِنْ نَائِلِي سَتْرِي
وَجَدْتُ لَهُ فَضْلاً عَلَيَّ بِقَصْدِهِ ... إِلَيَّ وَبِرّاً زَادَ فِيهِ عَلَىٰ بِرِّي
فَزَوَّدْتُهُ مَا لاَ يَدُومُ بَقَاؤُهُ ... وَزَوَّدَنِي مَدْحاً يَدُومُ عَلَى الدَّهْرِ

هٰؤُلاءِ واللهِ طوالُ الباعِ ، وبمثلِ أَخبارِهم تشنَّفُ الأَسماعُ ، ولا غروَ ؛ فالمأْمونُ معَ سعَةِ حلمِهِ قد اغتاظَ مِن أَماديحِ ابنِ جبلَةَ لأَبي دُلَفٍ [كما في « الأغاني » ٢٠/ ٢١] وما زالَ يتحيَّنُ لهُ الفرصَ ، حتَّى استلَّ لسانَهُ مِن قفاهُ ؛ حسداً علىٰ ما خلَّفَهُ لأَبي دلفٍ مِن صادقِ المدْحِ الذي لا يَبْلَىٰ ، وقد سبقَ قبيلَ المجلسِ الحادي عشرَ ما يتَّصلُ بهٰذا الكلامِ .

[لا إسراف في الخير]

ومِنَ المعلومِ أَنَّ البسطَةَ محمودَةٌ في كلِّ حالٍ ، وقد قالَ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقالَ عزَّ ثناؤُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقالَ بعضُهم [في « خِزانة الأدب » ١/ ٣٥٥] : لا خيرَ في السرفِ ، فقالَ آخرُ : لا إِسرافَ في الخيرِ . وفي العكْسِ نظرٌ .

وقد سبقَ ـ في المجلسينِ السادسِ والثالثَ عشرَ ـ بعضُ ما جاءَ في المفاضلَةِ بينَ الفقرِ والغنىٰ ، مَعَ الاتفاقِ علىٰ مدحِ الكفافِ ، لأَنَّ اللهَ ـ جلَّ شأْنُهُ ، كما في سورةِ الفجرِ ـ سمَّىٰ كِلا الأَمرينِ بلاءً .

وتكلَّمَ الناسُ في مجلسِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ عَنِ الأَنْعَمِ عيناً ، الأَرغدِ عيشاً ، فأَفاضوا في القولِ ، وذَهبوا المذاهبَ ، وسلَكوا الوِهادَ واليَفاعَ ، حتَّىٰ سَكَتوا ، فقالَ عبدُ الملِكِ : أَسعدُ الناسِ حالاً ، وأَنعمُهُم بالاً ، مَن لهُ دارٌ تؤيهِ ، وزوجٌ ترضيهِ ، ومالٌ يكفيهِ ، ولا يأْتينا ، ولا نأْتيهِ .

وبعثَ زيادُ ابنُ سميَّةَ ليلةً بـ(البصرَةِ) ـ بعدَ هداةٍ مِنَ الليلِ ـ إِلىٰ جماعَةٍ مِن أَهلِ العلمِ ، فيهِم الأَحنفُ بنُ قيسٍ ، فقالَ : حدِّثوني عَن جهدِ العربِ ؛ حتَّىٰ أَشكُرَ اللهَ علىٰ ما أَنعمَ ، فقد كانَ عندي جماعَةٌ مِنَ الفرسِ يتواصفونَ ما كانَتِ الأَكاسرَةُ فيهِ مِنَ النعيمِ ، حتَّىٰ كدْتُ أَستصْغِرُ ما مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَينا .

[الجود العربي في سنة القحط]

قالَ أَحدُهم : حدَّثني ابنُ عمٍّ لي صدوقٌ ، قالَ : خرجْتُ في عامٍ أَصابَ العربَ فيهِ قحطٌ شديدٌ ، حتَّىٰ أَكلوا العِظامَ ، فطفقْتُ ثلاثاً لا أَطعَمُ إلاَّ مِنْ جنسِ ما يأْكُلُهُ بَعيري مِنْ حشراتِ الأَرضِ ، حتَّىٰ دفعْتُ إلىٰ حيٍّ ، فقالوا : مَن ؟ قُلْتُ : ضيفٌ ، قالَتِ امرأَةٌ منهم : واللهِ ما تركَ لَنا الدهرُ مِن قِرىً ، ولكنِ اذهَبْ إلىٰ تلكَ القبَّةِ ، فتيمَّمتُها ، فنادىٰ رَئيسُها غلامَهُ : هَل تجدُ رِسْلاً[1] ؟ قالَ : لاَ ، إلاَّ قدرَ ما يمسِكُ رمقَكَ في فلانَةٍ ـ لناقَةٍ سمَّاها ـ قالَ : هاتِهِ لضيفِنا ، فأَخذَ يحلُبُ ، قالَ ابنُ عمِّي : فواللهِ لقد سمعْتُ الأَغاني ، والمثاني ، وأَحاديثَ الأَحبابِ في التَّلاقي علىٰ طولِ البعادِ ، فما كانَ شيءٌ أَلذَّ في سَمعي . . مِن صوتِ الشَّخَبِ في تلكَ الليلَةِ ، فلمَّا هويتُ لأَخذِ الصحفَةِ . . سقطَتْ مِن يدي ، وذهبَ ما فيها ، فواللهِ لقد ذُقْتُ فقدَ الأَهلِ ، ومرارَةَ الثُّكْلِ ، وخسارَةَ المالِ ، فلَم أَرَ مصيبَةً أَعظَمَ مِنِ انكفاءِ تلكَ العلبَةِ علىٰ مثلِ حالَتي ، فلمَّا عرَفَ صاحبُ القبَّةِ جهدَ ما بي . . عمَدَ إلىٰ ناقَةٍ ، فكشَفَ عَن عرقوبِها ، وقالَ : دونَكَ السَّنامُ ، فلمَّا امتلأَتْ بَطني مِنَ الشواءِ ، وشربْتُ عليهِ مِن ماءٍ في شنٍّ . . خررْتُ مغشيّاً عليَّ ، وما أَيقظَني إلاَّ بردُ السحَرِ ، فقالَ زيادٌ : قطني[2] ، فالحمدُ للهِ الذي مَنَّ عَلَينا بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم ، وهَدانا إلى الإِسلامِ ، فمَنْ صاحِبُ القبَّةِ ؟ قلتُ : عامرُ بنُ الطفيلِ ، فقالَ : كانَ واللهِ أَهلاً لَها أَبو عليٍّ ، فَلا أَشُكُّ أَنَّهُ الأَحقُّ بقولِهِ [في « ديوانِ ذي الرُّمَّة » ١/١٥٦] : [مِنَ الطَّويل]

إِذَا اعْتَذَرَتْ بِالْمَحْلِ عَنْ ذِي ضُرُوعِهَا ... إِلَى الضَّيْفِ يَجْرَحْ فِيْ عَرَاقِيبِهَا نَصْلِي[3]

[من ليس له حظ . . لا يتعب ولا يشقىٰ]

وذكرتُ بها : أَنَّ يحيىٰ بنَ خالدٍ البرمكيَّ اشتهى اللَّحمَ في محبسِهِ ، فبعدَ جهدٍ قَدَرَ الفضلُ علىٰ أَنْ يشتريَ لَهُ بدرهَمٍ ، وطبخَهُ علىٰ ضوءِ السراجِ ، يمسكُهُ تارةً بيمينِهِ ، وبيسراهُ أُخرىٰ ، حتَّىٰ إذا انتهىٰ وتناولَهُ والدُهُ . . انكفأَ عليهِ ، فكادَتْ تتبعُهُ نفسُهُ .

[ألا موت يباع فأشتريه]

و[روى ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ٢/١٢٤ أنه] كانَ الوزيرُ المهلَّبيُّ علىٰ غايَةٍ مِنَ الضيقِ ، حتَّىٰ كانَ في سفَرٍ معَ صاحبٍ لَهُ[4] ، فاشتهى اللَّحمَ ، ولَم يَكُن معَهُ إلاَّ درهَمٌ ، فاشتروهُ ، وبعدَ أَن نضجَ . . انكفأَ عليهِم ، فتبرَّمَ المهلَّبيُّ بالحياةِ ، وقالَ : [مِنَ الوافر]

أَلاَ مَـــوْتٌ يُبَـــاعُ فَـــأَشْتَـرِيــهِ ... فَهَـٰـذَا الْعَيْـشُ مَـــا لاَ خَيْـرَ فِيــهِ

إِذَا أَبْصَــرْتُ قَبْـــراً مِــــن بَعِيـــدٍ ... وَدِدْتُ لَـــوَ انَّنِـــي فِيمَــــا يَلِيـــهِ

أَلاَ رَحِـــمَ الْمُهَيْمِـــنُ رُوحَ عَبْـــدٍ ... تَصَـدَّقَ بِـــالْـوَفَــاةِ عَلَــىٰ أَخِيـــهِ

---

(١) الرِّسْلُ : اللبَنُ .

(٢) قطني : أي حسبي .

(٣) أي : وإن تعتذر إبلي بالمحلِ فلم يكن في ضروعِها لبنٌ . . نحرتُها للضيفِ . عن ذي ضروعِها : أي اللبن .

(٤) وهو أبو الحسين العسقلاني .



[الدهر دولاب والحر لا ينسى الأصحاب]

ثمَّ افترقا ، وضربَ الدهرُ ضرباتِهِ ، وترقَّتْ حالُ المهلَّبيِّ إِلىٰ أَعظمِ درجةٍ مِنَ الوزارَةِ ، فرضيَ عَنِ الأَيَّامِ ، وقالَ : [مِنَ الكاملِ]

رَقَّ الـــزَّمَــانُ لِفَــاقَتِــي ... وَرَثَــىٰ لِطُــولِ تَحَــرُّقِــي
وَأَنَــالَنِــي مَــا أَشْتَهِــي ... وَأَقَــالَنِــي مَــا أَتَّقِــي
فَــلأَغْفِــرَنَّ لَــهُ الْكَثِيــرَ مِــنَ الــذُّنُــوبِ السُّبَّــقِ
حَتَّــىٰ جِنَــايَتَــهُ لِمَــا ... فَعَــلَ الْمَشِيــبُ بِمَفْــرِقِــي

وبقيَ رفيقُهُ مِنَ الدهرِ في بؤسٍ ، وطالعٍ منحوسٍ ، وحالٍ موجِعٍ ، وفقرٍ مدقعٍ ، حتَّىٰ سمعَ بما انتهىٰ إِليهِ صاحبُهُ ، فقصدَهُ وأنهىٰ إِليهِ : [مِنَ الوافرِ]

أَلاَ قُــلْ لِلْــوَزِيــرِ فَــدَتْــهُ نَفْسِــي ... مَقَــالَــةَ مُــذْكِــرٍ مَــا قَــدْ نَسِيــهِ
أَتَــذْكُــرُ إِذْ تَقُــولُ لِضِيــقِ عَيْــشٍ ... أَلاَ مَــوْتٌ يُبَــاعُ فَــأَشْتَــرِيــهِ

فأمرَ لهُ في عاجلِ الحالِ بسبعِ مئةِ درهمٍ ، وكتبَ في رقعتِهِ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٦١]، ثمَّ دعاهُ، وخلعَ عليهِ، وقلَّدَهُ عملاً يرتزقُ منهُ.

ويشبهُ ذلكَ : أَنَّ بعضَ أُمراءِ (مصرَ) كانَ معَ تاجرٍ جلبَهُ إِليها ، فارتقَتْ بهِ الأَحوالُ ، وانحطَّت بذلكَ التاجرِ ، حتَّى افتقرَ ، فكتبَ إِليهِ رقعَةً ، فيها [الأبيات في « الإيضاح في علوم البلاغة » ٣٨٥] : [مِنَ البسيطِ]

كُنَّــا جَمِيعَيْــنِ فِــي كَــدٍّ نُكَــابِــدُهُ ... وَالْقَلْــبُ وَالطَّــرْفُ مِنَّــا فِــي أَذىً وَقَــذَىٰ
وَالآنَ أَقْبَلَــتِ الــدُّنْيَــا عَلَيْــكَ بِمَــا ... تَهْــوَىٰ فَــلاَ تَنْسَنِــي إِنَّ الْكِــرَامَ إِذَا

وقولُهُ : (إِنَّ الكِرَامَ إِذَا) هوَ أَوَّلُ بيتٍ لأَبي تمَّامٍ ، أُولعَ الشعراءُ بتضمينِهِ ، وهوَ [في « ديوانه »] : [مِنَ البسيطِ]

إِنَّ الْكِــرَامَ إِذَا مَــا أَيْسَــرُوا ذَكَــرُوا ... مَــنْ كَــانَ يَــأْلَفُهُــمْ فِــي الْمَنْزِلِ الْخَشِــنِ

ثم رأيتُهُ معزوّاً عندَ ابنِ خلِّكانَ [في « وفيَاتِ الأعيانِ » ٤٦/١] لإبراهيمَ بنِ العبَّاسِ الصوليِّ ، وقبلَهُ : [مِنَ البسيطِ]

أَوْلَــى الْبَــرِيَّــةِ طُــرّاً أَنْ تُــوَاسِيَــهُ ... عِنْــدَ السُّــرُورِ الَّــذِي وَاسَــاكَ فِــي الْحَــزَنِ

[استطراد على المتنبي]

ولو أَنَّ الناظِمَ كانَ مِن رجالِ التقوىٰ والصلاحِ . . لَمَا فسَّرنا **قولَهُ** : (**لاَ أَغْرَقُ**) إِلاَّ بإيثارِ الكَفافِ ؛ لأَنَّ من تدسَّسَ في الشهواتِ وانغمَسَ في الشُبهاتِ . . لَم يكَد يتخلَّصُ عَنِ الآفاتِ ، ومعلومٌ أَنَّ رجالَ الأَعمالِ ، وكبارَ الآمالِ ، لا يكونُ قُصاراهُمُ[1] المالُ ، وقد عرفْتَ حالَ الناظمِ ممَّا أَطنَبنا فيهِ غيرَ مرَّةٍ ، ويعجبُني قولُ لِسانِ الدينِ بن الخطيبِ : [مِنَ الكاملِ]

مَــنْ مُبْلِــغٌ قَــوْمِــي عَلَــىٰ بُعْــدِ الْمَــدَىٰ ... وَالْبَيْــنُ بَيْنَهُــمْ وَبَيْنِــي حَــالاَ

---

(١) **قصاراهُم** : غايتُهم وطلبتُهم .



إِنِّـي قَطَعْـتُ الْبَحْـرَ لِلْبَحْـرِ الَّـذِي أَغْنَـىٰ وَأَقْنَـىٰ وَاجْتَبَـىٰ وَأَنَـالاَ
فَـإِذَا نَفَضْـتُ جَـوَانِحِـي عَـنْ مَطْمَـعٍ لَـمْ أُلْـفِ لِلطَّمَـعِ الْمُخِـلِّ مَجَـالاَ
إِلاَّ رِضَـا اللهِ الَّـذِي هُـوَ غَـايَـةٌ لأُولِـي النُّهَـىٰ سُبْحَـانَـهُ وَتَعَـالَـىٰ
وَزِيَـارَةَ اللَّحْـدِ الَّـذِي أَنْـوَارُهُ أَبَـداً بِمِشْكَـاةِ الْهُـدَىٰ تَتَـلاَلاَ

وهوَ مناسبٌ لِمَا سبقَ في غيرِ هٰذا المجلسِ من تدرُّجِ الأرواحِ العاليَةِ ، في معارجِ الشوقِ ، حتَّىٰ تصلَ إِلى الغايَةِ ، واستأْنسنا لهُ بما كانَ من حالِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، ودلَّلنا عليهِ بقولِ أفضلِ البشَرِ : « **اللَّهُمَّ الرَّفيقَ الأَعْلَىٰ** »[1] وقرَنَّا إِليهِ حالَ العبدِ الصالحِ في قولِهِ : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] .

وللهِ دَرُّ لسانِ الدينِ بنِ الخطيبِ أَيضاً في قولِهِ : [مِنَ الكاملِ]

كَـمْ مَـرْكَـبٍ أَنْضَيْـتُ فِـي طَلَـبِ الْهَـوَىٰ وَظَـلاَمِ مَسْعَـىً تِهْـتُ فِيـهِ ضَـلاَلاَ
وَقَفَـتْ بِـهِ قَـدَمِـي عَلَـىٰ نَـدَمِـي أَسـىً مَـنْ رَامَ غَيْـرَ اللهِ رَامَ مُحَـالاَ

* * *

[قالَ أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٤٠] : [مِنَ الكاملِ]

كَـذَبَ ابْـنُ فَـاعِلَـةٍ يَقُـولُ بِجَهْلِـهِ مَـاتَ الْكِـرَامُ وَأَنْـتَ حَـيٌّ تُـرْزَقُ

[شرح المطلع وفيه مباحث]

كنَّىٰ بالفاعِلَةِ عَنِ الزانيَةِ ، يقولُ : مَن قالَ : إِنَّ الكرامَ مَاتوا ، وأَنتَ حيٌّ . . فهوَ كاذِبٌ ، وأُمُّهُ زانيَةٌ ، ويروىٰ (تَرْزُقُ) بالبناءِ للفاعِلِ ، وفيهِ مباحِثُ :

[المبحث الأول على المطلع : هل يصح القول بموت الكرام مع وجود بعضهم ؟]

الأَولُ : أَنَّهُ لا اعتراضَ علىٰ مَن يقولُ : ماتَ الكرامُ ، معَ وجودِ الأَفرادِ مِنهم ؛ لأَنَّ الحكمَ على الغالِبِ ، وإِلاَّ . . فالزمانُ لاَ يخلو ـ وإِن فسدَ ـ عَنِ الخيرِ ، كما لا يسلَمُ ـ وإِن صلُحَ ـ عَنِ الشَّرِّ ، ولَوِ اختلَّ ذلكَ . . لَفَسَدَ النظامُ ، وسقطَ الامتحانُ ، وخرجتِ الدنْيا عَن طبيعتِها ، وصارَتْ إِمَّا خيراً محضاً كالجنَّةِ ، أَو شرّاً محضاً كالنارِ ، وما عمدَ أَبو الطيِّبِ إِلاَّ إِلىٰ ما اعتادَهُ مِنَ الغلوِّ ، وإِلاَّ . . فالناسُ تشكو قلَّةَ الكرامِ مِن لدنْ آدمَ عليهِ السَّلامُ ، وكلٌّ يذمُّ زمانَهُ ؛ لأَنَّهُ لا يصفو إِلاَّ لسفلَةِ الناسِ ، ولئَامِ الخلْقِ ، فَهم الذينَ يستريحونَ ، مِن حيثُ يتعَبُ الكرامُ ، ولئِن قالَ أَبو نواسٍ ـ ما معناهُ إِنْ أَخطأْتُ لفظَهُ[2] ـ :

---

(١) مر الحديث وتخريجه في غير هٰذا المجلس .

(٢) البيتُ في « الديوانِ » مِن قصيدتِهِ التي مطلعُها : [مِنَ البسيطِ]

دَعْ عَنْـكَ لَـوْمِـي فَـإِنَّ اللَّـوْمَ إِغْـرَاءُ وَدَاوِنِـي بِـالَّتِـي كَـانَـتْ هِـيَ الـدَّاءُ =

صَفَتْ لَهُمُ الأَيَّامُ مِنْ مُوجِعَاتِهَا ... فَمَا تَتَلَقَّاهُمْ بِغَيْرِ الَّذِي شَاؤُوا

.. فإنَّما يصفُ سقَّاطاً مثلَهُ ، أَو هوَ مِنَ الشاذِّ الذي لا يعلَقُ عليهِ الحكْمُ ، وقد جاءَ في الحديثِ ما يقربُ مِن ذلكَ في صفاتِ الأَبدالِ ، غيرَ أَنَّهُ لا يصحُّ ، ولا تنهضُ بهِ حجَّةٌ ، ولَو ذهبْنا معَ الناظمِ إلى المشاحَّةِ . . لَرَميناهُ بحَجَرِهِ ؛ إذ هوَ أكثرُ الناسِ قولاً بموتِ الكرامِ ، وتغيُّرِ الأَيَّامِ ، أَليسَ هوَ **القائِلَ** [في « العُكبَرِيِّ » ٤/٢٠٩] : [مِنَ البسيطِ]

وَإِنَّمَا نَحْنُ فِي جِيلٍ سَوَاسِيَةٍ ... شَرٍّ عَلَى الْحُرِّ مِنْ سُقْمٍ عَلَى الْبَدَنِ[1]

وقولُهُ : (سَوَاسِيَةٍ) أَي : متساوينَ في اللؤمِ والخسَّةِ ؛ إذ لا يقالُ : سواسيةٌ في الخيرِ ، وقالَ بعضُهم : ما عنى اللهُ إلاَّ أَهلَ زمانِنا بقولِهِ : ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك : ٣] . فإنَّهم سواسيةٌ في الدناءَةِ والانحطاطِ .

وهوَ **القائِلُ أَيضاً** [في « العُكبريِّ » ٤/٧٣] : [مِنَ الوافرِ]

بِأَرْضٍ مَا اشْتَهَيْتُ رَأَيْتُ فِيهَا ... فَلَيْسَ يَفُوتُهَا إِلاَّ الْكِرَامُ

وقالَ [في « العُكبري » ٤/١٥١] : [مِنَ الوافرِ]

أَمَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا كَرِيمٌ ... تَزُولُ بِهِ عَنِ الْقَلْبِ الْغُمُومُ

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/٢٦] : [مِنَ البسيطِ]

لاَ تَطْلُبَنَّ كَرِيماً بَعْدَ رُؤْيَتِهِ ... إِنَّ الْكِرَامَ بِأَسْخَاهُمْ يَداً خُتِمُوا

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٢٨١_٢٨٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

كَفَىٰ بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِياً ... وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

تَمَنَّيْتَهَا لَمَّا تَمَنَّيْتَ أَنْ تَرَىٰ ... صَدِيقاً فَأَعْيَا ، أَوْ عَدُوّاً مُدَاجِيَا[2]

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/٩] : [مِنَ الكاملِ]

وَتَعَذُّرُ الأَحْرَارِ صَيَّرَ ظَهْرَهَا ... إِلاَّ إِلَيْكَ عَلَيَّ فَرْجَ حَرَامِ[3]

فبعضُ هٰذا يقتضي أَنْ يكونَ كاذِباً ، وأُمُّهُ فاعلَةٌ ، إلاَّ أَن يجابَ : بأَنَّ البيتَ الذي نتكلَّمُ فيهِ كانَ في صباهُ ، ولعلَّ الكرامَ إذ ذاكَ كثيرٌ ، ثمَّ تفانَوا بعدَهُ ، كما جرىٰ علىٰ عهدِنا نظيرُهُ ، حسبَما يعرفُ مِن أَماديحِنا للأَشياخِ الكرامِ ، ثمَّ اسودَّ ظنُّنا ؛ إذ أجلناهُ في هٰذا السوادِ المظلمِ ، بعدَ انتثارِ عقودِهم ، رضوانُ اللهِ تعالىٰ ورحماتُهُ عليهِم .

وما أَحسنَ قولَ المعريِّ [في « سقطِ الزند » ١٣٣] : [مِنَ الخفيفِ]

كَمْ أَرَدْنَا ذَاكَ الزَّمَانَ بِمَدْحٍ ... فَشُغِلْنَا بِذَمِّ هَٰذَا الزَّمَانِ

= والبيتُ هوَ :

دَارَتْ عَلَىٰ فِتْيَةٍ دَانَ الزَّمَانُ لَهُمْ ... فَمَا يُصِيبُهُمُ إِلاَّ بِمَا شَاؤُوا

(١) **الجيلُ** : الجماعةُ من الناسِ .

(٢) **أعيا** : صعبَ وعزَّ . **المداجي** : الساترُ للعداوةِ ، وهوَ من الدجىٰ ، وهيَ الظلمةُ .

(٣) **أي** : تعذُّر وجودِ الأَحرارِ وقلَّتُهم صيَّرَ ظهرَ هٰذهِ الناقةِ عليَّ في ركوبِها إلىٰ قصدِ سواكَ حراماً ، كركوبِ الفرجِ الحرامِ ، يريدُ الزنا .

[المبحث الثاني على المطلع]

الثاني : لا تغايرَ بينَ قولِ القطبِ الحدَّادِ : [مِنَ الطَّويلِ]

مَضَى الصِّدْقُ وَاهْلُ الصِّدْقِ يَا سَعْدُ قَدْ مَضَوْا ... فَلاَ تَطْلُبَنَّ الصِّدْقَ فِي أَهْلِ ذَا الزَّمَنْ

وقولِ أَبي مديَنَ : [مِنَ البسيطِ]

وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَ الْقَوْمِ دَارِسَةٌ ... وَحَالُ مَنْ يَدَّعِيهَا الْيَوْمَ كَيْفَ تَرَىٰ

وبينَ قولِ سيِّدنا عبدِ الرحمـٰنِ بنِ عبدِ اللهِ بلفقيهِ : [مِنَ الرَّجزِ]

يَقُولُ قَوْمٌ عَنْ هُدَاهُمْ ضَلُّوا ... قَدْ عُدِمُوا فِي عَصْرِنَا أَوْ قَلُّوا

فَقُلْ لَهُمْ كَلاَّ وَلَكِنْ جَلُّوا ... عَنْ أَنْ تَرَاهُمْ أَعْيُنُ الْجُهَّالِ

لأَنَّ الأَوَّلَ هوَ الأَغلبُ الأَكثرُ الذي يناطُ بهِ الحكمُ ، ولله في حكمِ العمومِ خصوصٌ ، كَما أَجابَ بهِ بعضُ القضاةِ ، وقد قيلَ : جميعُ قضاةِ المسلمينَ لصوصٌ ، في شعرٍ ذكرَهُ ابنُ السبكيِّ في « طبقاتِهِ » [٣/١٤٣] ونسيتُهُ[١] .

وأَمَّا الثاني . . فإِنَّهُ نظرٌ خاصٌّ إِلى المعنىٰ ، لا إِلى الصورةِ ، فأَهلُ الحقِّ في الصورةِ قليلٌ ، لكنَّهم في المعنىٰ كثيرٌ ، قالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانه » ١/ ٣٣٠] : [مِنَ البسيطِ]

إِنَّ الْكِرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلاَدِ وَإِنْ ... قَلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قُلٌّ وَإِنْ كَثُرُوا[٢]

فَلا تَخالُفَ بينَ القولينِ ، هـٰذا مِن جهَةٍ ، والأُخرىٰ أَنَّ أَهلَ الجهلِ والفسادِ مُولَعونَ بإِنكارِ فضائِلِ العلماءِ والصلحاءِ ، وغمطِ فضائِلِهم ، وكتمِ مناقبِهم ، فهمُ الذينَ اعتمدَهم الثاني بتوبيخِهِ وتقريعِهِ ، بدليلِ ما وسمَهُم بهِ مِنَ الجهالَةِ ، وهـٰؤلاءِ هُمُ الذينَ إِذا قالَ أَحدُهم : هَلكَ الناسُ . . فهوَ أَشدُّهم هلاكاً[٣] ، أَمَّا أَهلُ الفضلِ والعلمِ . . فلا معابَةَ عليهِم في تشكِّي الزمانِ ، وتنقُّصِ أَهلِهِ ؛ لأَنَّهم لا يقولونَ إِلاَّ الحقَّ في ذلكَ .

وأَيضاً : فالحكمُ بالشيءِ فرعُ تصوُّرِهِ ، ومِن أَينَ لِلجاهلِ أَن يحكمَ علىٰ أَحدٍ بالفسادِ أَوِ الصلاحِ ، وهوَ لا يعرفُ حدَّهُ ، ولا ماهيَّتَهُ ؟! وقد صرَّحوا في بابِ التزكيَةِ مِنَ الفقهِ ، وبابِ الجرحِ والتعديلِ مِنَ الحديثِ ، أَنْ لا بدَّ للمزكِّي والجارحِ من معرفَةِ الأَسبابِ ، والخبرَةِ بها ، وإِلاَّ . . كانَ مِنَ التقوُّلِ على اللهِ ، والقولِ في دينِهِ بغيرِ علمٍ ، بخلافِ العالِمِ ، فإِنَّهُ لا يتكلَّمُ إِلاَّ عَن برهانٍ ، ولا ينطِقُ إِلاَّ عَن حجَّةٍ ، فاعلَم هـٰذا كلَّهُ ، وَإِلاَّ . . ارتدَّ على العلماءِ ما مَلَؤوا

---

(١) قَدِمَ أَبو جعفرٍ البحَّاثُ على الصَّاحبِ بنِ عبَّادٍ ، فارتضىٰ تصرُّفَهُ في العلمِ ، وتفنُّنَهُ في أَنواعِ الفضلِ ، وعرضَ عليهِ القضاءَ ، علىٰ شرطِ انتحالِ مذهبِهِ ـ يعني الاعتزالَ ـ فامتنعَ وقالَ : لا أَبيعُ الدِّين بالدُّنيا ، فتمثَّلَ الصاحبُ بقولِ القائِلِ :

فَلاَ تَجْعَلَنِّي لِلْقَضَاءِ فَرِيسَةً ... فَإِنَّ قُضَاةَ الْعَالَمِينَ لُصُوصُ

مَجَالِسُهُمْ فِينَا مَجَالِسُ شُرْطَةٍ ... وَأَيْدِيهِمُ دُونَ الشُّصُوصِ شُصُوصُ

فأَجازَهُ البحَّاثُ بديهةً بقولِهِ :

سِوَىٰ عُصْبَةٍ مِنْهُمْ تُخَصُّ بِعِفَّةٍ ... وَللهِ فِي حُكْمِ الْعُمُومِ خُصُوصُ

خُصُوصُهُمُ زَانَ الْبِلاَدَ وَإِنَّمَا ... يَزِينُ خَوَاتِيمَ الْمُلُوكِ فُصُوصُ

(٢) أي : إِنَّ الكرامَ وإِن قلَّ عددُهم . . فإِنَّ فعلَهم كبير كما أن غيرهُم مِنَ اللئام وإِن كانوا كثيري العدد . . لا وجود لهم .

(٣) لما في حديث أَبي هريرة رضي الله عنه « إِذا قال الرجل هلك الناس فهو أَهْلَكَهُم » . وعزاه في « الفتح الكبير » (١/ ١٣٣) إِلىٰ أحمد ومسلم وأَبي داوود .



بِكتبِهُم مِنَ الحطِّ علىٰ أَبناءِ زمانِهِم ، والتشهيرِ بهِم ، وفي طليعتِهِم الإمامُ الغزاليُّ ؛ فإِنَّهُ مِن أَكثرِهم زرايةً علىٰ أَهلِ زمانِهِ .

[المبحث الثالث على المطلع : المتنبي لا يزن كرم الناس ولؤمهم إلا بمعاملتهم له]

والثالثُ : أَنَّ الناظِمَ لا يزنُ كرمَ الناسِ ولؤمَهُم إلاَّ بمعاملتِهِم لَهُ ، ولا يقايِسُ أَحوالَهم إلاَّ بما يصنعونَ إليهِ ، فمَن عرفَ لَه حقَّهُ . . فهوَ الكريمُ عندَهُ ، ومَن لا . . فلا ، كَما **قالَ** [في « العُكبَرِيِّ » ٣/٢٦٨] : [مِنَ المنسرحِ]

أَنَـا الَّـذِي بَيَّـنَ الإِلَـٰهُ بِـهِ الْـأَقْـدَارَ وَالْمَـرْءُ حَيْثُمَـا جَعَلَـهْ
جَـوْهَـرَةٌ يَفْـرَحُ الْكِـرَامُ بِهَـا وَغُصَّـةٌ لاَ تُسِيغُهَـا السَّفَلَـهْ

وقد أَخذهُ ولَم يحسنِ الاتباعَ مِن قولِ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانِهِ » ١/٦٢٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنَّ مُقَـامِـي حَيْـثُ خَيَّمَـتُ مِحْنَـةٌ تَـدُلُّ عَلَـىٰ فَهْـمِ الْكِـرَامِ الأَجَـاوِدِ

وصدقَ من جهةٍ ؛ فإِنَّ الفضلَ إِنَّما يعرفُهُ ذووهُ ، وقد قيلَ : إِنَّ الفاضلَ لا يَحْسُنُ حالُهُ إلاَّ بينَ الفضلاءِ ، أَو أَشباهِ الفضلاءِ .

وقالَ أَبو هلالٍ العسكريُّ [في « ديوانِه » ١٥٣ـ١٥٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا ضَـاعَ مِثْلِـي حَيْـثُ حَلَّـتْ رِكَـابُـهُ بَلَـىٰ حَيْـثُ ضَـاعَ الْمَجْـدُ مِثْلِـيَ ضَـائِـعُ
وَمِثْلِـيَ مَخْضُـوعٌ لَـهُ غَيْـرَ أَنَّـهُ إِذَا كَـانَ مَجْهُـولَ الْفَضَـائِـلِ خَـاضِـعُ
وَمِثْلِـيَ مَتْبُـوعٌ عَلَـىٰ كُـلِّ حَـالَـةٍ فَـإِنْ يَنْقَلِـبْ وَجْـهُ الـزَّمَـانِ فَتَـابِـعُ

ولَو أَنَّهُ كانَ كبيرَ النفسِ . . لكانَ لهُ مندوحَةٌ عمَّا ذكرهُ في البيتينِ الأَخيرينِ ، إِمَّا بالانجماعِ عَنِ الناسِ ، وإِمَّا بالارتحالِ عَنِ الْمَقرِّ ، واللهُ جلَّ شأْنُهُ يقولُ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ﴾ [النساء : ٩٧] .

وقدِ اختُلفَ في الغِنىٰ ، وخفَّةِ الروحِ ، أَيُّهما أَرفقُ بالإِنسانِ . ؟ فقالَ قومٌ : بالأَوَّلِ ؛ لأَنَّ الغنيَّ محبوبٌ كيفَما كانَ ، وقالَ آخرونَ : بالثاني ؛ لأَنَّ الخفيفَ الظلِّ مسلَّطٌ ، بخلافِ الثقيلِ ، فإِنَّهُ مبغوضٌ حتَّىٰ عندَ أَهلِهِ ، فماذا يفيدُهُ الغِنىٰ ، معَ البغاضَةِ ؟

والحقُّ : أَنَّهُ لا بدَّ مِن التفصيلِ ، فإِنْ كانَ في وسَطٍ فاضلٍ . . فقد يصحُّ قولُ الآخرينَ ، وإِلاَّ . . فَلا معدِلَ عَنِ الأَوَّلِ ، وإِذا نحنُ أَمعنَّا النظرَ في حالِ الناظِمِ ، واستقرأْنا أَشعارَهُ . . لم ننكر دعواهُ ، ولَم نقدِرْ علىٰ دفعِهِ عَنِ الكرَمِ ، أَوَلا ترىٰ إِلىٰ شدَّةِ إِبائِهِ ، وتعاظُمِهِ على الرؤَساءِ ، وترفُّعِهِ عَنِ الأَذنابِ والسقَّاطِ ، **فهوَ القائِلُ** لابنِ كنداجَ ـ وقد أَهدىٰ إِليهِ هديَّةً هوَ إِليها محتاجٌ إِذ كانَ معتقَلاً بسجنِ (حمصَ) ـ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/٢٨١] : [مِنَ المنسرحِ]

غَيْـرَ اخْتِيَـارٍ قَبِلْـتُ بِـرَّكَ بِـي وَالْجُـوعُ يُـرْضِـي الأُسُـودَ بِـالْجِيَـفِ

فتراهُ معَ شدَّةِ الضيقِ ، وقلَّةِ الريقِ ، يتظاهَرُ بثباتِ الجأْشِ ، وذهابِ الإِيحاشِ ، لم يثنِ السجنُ مِن شأْوِهِ ، ولم يَغُضَّ الامتحانُ مِن بأْوِهِ ، ولَم يكَدْ يقبَلُ تلكَ الصلةَ إِلاَّ على التكرُّهِ والاشمئْزازِ ، وليسَ بالقليلِ ما أَصابَهُ مِنَ الوزيرِ

المهلَّبيّ ؛ فقد أغرىٰ بهِ شعراءَ (العراقِ) يزدرونَهُ ، ويتهضَّمونَهُ ، ويمزِّقونَ عرضَهُ ، وحرَّشَ عليهِ مَن قدرَ مِنَ العلماءِ ـ كصاحبِ « **الأغاني** » ـ ينتقصونَهُ ، ويشهِّرونَ بهِ ، وليسَ بالهيِّنِ ما لاقاهُ مِنَ الصاحبِ بنِ عبَّادٍ ؛ إذ حَذا حذوَ سابقِهِ ، فأغرىٰ بهِ كلَّ مَن قدرَ عليهِ مِن طلاَّبِ معروفِهِ ـ وهُم كثيرٌ ـ وأَلَّفَ كتاباً في الكشفِ عَن مَعايبِهِ ، معَ كثرَةِ ما يُغِيرُ في العلانيَةِ علىٰ بدائِعِ معانيهِ ، وما ذلكَ إلاَّ نتيجةَ ترفُّعِهِ عَن مدحِهِما ، وضَنِّهِ بكلامِهِ عنهُما ، وشيءٌ مِن هـٰذا لا يخالِفُ ما سبقَ لَنا ذكرُهُ أَواخِرَ المجلسِ الثاني ، في الكلامِ علىٰ **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٠١] : [مِنَ المنسرح]

لاَ نَـاقَتِـي تَقْبَـلُ الـرَّدِيـفَ وَلاَ ... بِـالسَّـوْطِ يَـوْمَ الـرِّهَـانِ أُجْهِـدُهَـا[1]

علىٰ فرقِ ما بينَ حاليهِ في بدءِ أمرِهِ ؛ إذ يبيعُ المديحَ بالشيءِ التافهِ ، وبينَ آخرِ أمرِهِ ؛ وقد أَنِفَ وامتلأَ شمماً وكرماً ، لا يقالُ إنَّهُ يدورُ حيثُما دارَتِ الزجاجَةُ ، إن أُعطِيَ . . رضيَ ، وإن لَم يُعطَ . . سخطَ ؛ لأَنَّهُ لَو كانَ كذلكَ . . لَما توقَّفَ عَن هجاءِ سيفِ الدولَةِ بكلِّ ما تصِلُ إليهِ بلاغَتُهُ ، فإنْ قيلَ : إنَّهُ إنَّما أَمسكَ عنهُ احتفاظاً بخطِّ الرجعَةِ . . قلنا : مَحالٌ ، ولا سيَّما عندَ سَوْرةِ الغضَبِ ، وكِبْرِهِ في نفسِهِ ، وتشبُّعِهِ بالآمالِ ، وإنَّما يكونُ لَهُ وجهٌ مِنَ الاحتمالِ لَو كانَ بعدَ فشلِهِ ، وخيبَةِ رجائِهِ مِن كلِّ ناحيَةٍ ، علىٰ أَنَّهُ لا يصدُّهُ ذلكَ وهوَ **القائِلُ** [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢١٢] : [مِنَ المنسرح]

فِـي سَعَـةِ الْخَـافِقَيْـنِ مُضْطَـرَبٌ ... وَفِـي بِـلاَدٍ مِـنْ أُخْتِهَـا بَـدَلُ[2]

ويقولُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٩١] : [مِنَ الطَّويلِ]

غَنِـيٌّ عَـنِ الأَوْطَـانِ لاَ يَسْتَفِـزُّنِـي ... إِلَـىٰ بَلَـدٍ سَـافَـرْتُ عَنْـهُ إِيَـابُ[3]

وأَنشدَ الأَصمعيُّ لبعضِ الأَعرابِ [دعبل في « ديوانهِ » ١٩٥] : [مِنَ الكاملِ]

أَحَسِبْـتَ أَرْضَ اللهِ ضَيِّقَـةً ... عَنِّـي وَأَرْضُ اللهِ لَـمْ تَضِـقِ
مَـا أَطْـوَلَ الـدُّنْيَـا وَأَعْـرَضَهَـا ... وَأَدَلَّنِـي بِمَسَـالِـكِ الطُّـرُقِ

وكانَ منصورُ بنُ باذانَ ـ أَو بكرُ بنُ النطاحِ ـ امتدحَ القاسمَ العجليَّ المعروفَ بأَبي دُلَفٍ ، فلم يحصلْ لَهُ منهُ ما في نفسِهِ ، فانفصَلَ عنهُ وهوَ يقولُ [القائل منصور بن باذان كما في « وفيات الأعيان » ٤/ ٧٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

دَعِينِـي أَجُوبُ الأَرْضَ فِـي فَلَـوَاتِهَـا ... فَمَـا الْكَـرَجُ الـدُّنْيَـا وَلاَ النَّـاسُ قَـاسِمُ[4]

وقال السمعانيُّ [في كتاب « الذيل » كما في « وفيات الأعيان » ٤/ ٧٦] : أَنشدني القاضي عليُّ بنُ محمَّدٍ البلخيُّ ـ متمثِّلاً ـ للأَميرِ أَبي الحسنِ عليِّ بنِ المنتخبِ : [مِنَ البسيطِ]

فَـإِنْ رَجَعْتُـمْ إِلَـى الإِحْسَـانِ فَهُـوَ لَكُـمْ ... عَبْـدٌ كَمَـا كَـانَ مِطْـوَاعٌ وَمِـذْعَـانُ
وَإِنْ أَبَيْتُـمْ فَـأَرْضُ اللهِ وَاسِعَـةٌ ... لاَ النَّـاسُ أَنْتُـمْ وَلاَ الـدُّنْيَـا خُـرَاسَـانُ

ولَم نسمعِ الناظِمَ يتكلَّمُ في سيفِ الدولَةِ بهجاءٍ ممضٍ ، وكلامٍ جارحٍ قطُّ ، وغايةُ ما يكونُ منهُ التبرُّمُ بنفثاتٍ لا يصِلُ

---

(١) **الرديفُ** : هو ما يرتدفُ خلفَ الراكبِ . **الرهانُ** : السباقُ . **والناقةُ هنا** : نعلُهُ .

(٢) **الخافقان** : الشرقُ والغربُ لأَنَّ الريحَ تخفقُ فيهما . **المضطربُ** : موضعُ الاضطرابِ ، وهوَ الذهابُ والمجيءُ .

(٣) **يستفزُّني** : يستخفُّني ويحرِّكني .

(٤) **الكرَجُ** : بلدُ أبي دلفٍ .

بها إلى التصريحِ ، ولا يخرجُ فيها إلى الطعنِ القبيحِ ، **كقولِهِ** [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٣٦] : [مِنَ البسيطِ]

رَأَيْتُكُمْ لاَ يَصُونُ الْعِرْضَ جَارُكُمُ ... وَلاَ يَدِرُّ عَلَىٰ مَرْعَاكُمُ اللَّبَنُ

جَزَاءُ كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمُ مَلَلُ ... وَحَظُّ كُلِّ مُحِبٍّ مِنْكُمُ ضَغَنُ

وَتَغْضَبُونَ عَلَىٰ مَنْ نَالَ رِفْدَكُمُ ... حَتَّىٰ يُعَاقِبَهُ التَّنْغِيصُ وَالْمِنَنُ

وهوَ في ذلكَ غيرُ ملومٍ ، فما الذي نالَهُ في تلكَ الحضرةِ بالقليلِ ، ومعَ ذلكَ . . فإنَّهُ **يقولُ** في نفسِ القصيدَةِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٣٧] : [مِنَ البسيطِ]

سَهِرْتُ بَعْدَ رَحِيلِي وَحْشَةً لَكُمُ ... ثُمَّ اسْتَمَرَّ مَرِيرِي وَارْعَوَى الْوَسَنُ[1]

ويقولُ لهُ أيضاً [في « العُكبَريّ » ١/ ٢٩٣] : [مِنَ البسيطِ]

فَارَقْتُكُمْ فَإِذَا مَا كَانَ عِنْدَكُمُ ... قَبْلَ الْفِرَاقِ أَذىً بَعْدَ الْفِرَاقِ يَدُ

إِذَا تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمُ ... أَعَانَ قَلْبِي عَلَى الشَّوْقِ الَّذِي أَجِدُ

فلم يزَلْ يعتلِجُ في صدرِهِ الأَمْرَانِ ، وإِنْ لَقِيَه مِنهُ الأَمرَّانِ .

وقالَ أبو الفتحِ ابنُ جنّيٍّ : قرأْتُ على المتنبي « **ديوانَهُ** » . . حتَّى انتهيتُ إلىٰ **قولِهِ** [في « العُكبَريّ » ١/ ١٨١] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَقُولُ قَصِيدَةً ... فَلاَ أَشْتَكِي فِيهَا وَلاَ أَتَعَتَّبُ

وَبِي مَا يَذُودُ الشِّعْرَ عَنِّي أَقَلُّهُ ... وَلَكِنَّ قَلْبِي يَا بْنَةَ الْقَوْمِ قُلَّبُ

قلتُ لهُ : يعزُّ عليَّ أَن يكونَ هٰذا الشعرُ في غيرِ سيفِ الدولةِ ، فقالَ : أَلَم ترَني حذَّرتُه ، وأَنذرتُهُ ، **في قولي لَهُ** [في « العُكبريّ » ٣/ ١١٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَخَا الْجُودِ أَعْطِ النَّاسَ مَا أَنْتَ مَالِكٌ ... وَلاَ تُعْطِيَنَّ النَّاسَ مَا أَنَا قَائِلُ

فهوَ الذي فرَّطَ فيهِ بسوءِ تدبيرِهِ ، وقد سبقَ في المجلسِ السابعِ علىٰ **قولِهِ** : [في « العُكبريّ » ٣/ ١٦٣] : [مِنَ البسيطِ]

وَالْوَجْدُ يَقْوَىٰ كَمَا تَقْوَى النَّوَىٰ أَبَدَا ... [وَالصَّبْرُ يَنْحَلُ فِي جِسْمِي كَمَا نَحِلا]

بيتٌ للأَميرِ تميمِ بنِ المعزِّ ، **يشبهُ قولَ الناظمِ** [في « العكبري » ١/ ١٨١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَبِي مَا يَذُودُ الشِّعْرَ عَنِّي أَقَلُّهُ ... [وَلَكِنَّ قَلْبِي يَا ابْنَةَ الْقَوْمِ قُلَّبُ]

وقد أَدركَ الأَميرُ تميمٌ نحواً مِن ثمانيةَ عشرَ عاماً مِن عصرِ المتنبي ، فالأَقربُ أَنَّ الناظِمَ هوَ السابقُ إلى المعنىٰ .

وقد ذكرنا مرَّةً قضاءَ الناظمِ لسيفِ الدولةِ على ابنِ العميدِ بالانطباعِ على الكرَمِ .

ثُمَّ ما أَكثرَ ما يتأَلَّمُ مِن فراقِهِ ، فتراهُ **يقولُ** ـ ودمُ جرحِهِ يسيلُ ، لَمْ يجفَّ بعدُ ـ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٣٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرُ مُذَمَّمِ ... وَأَمٌّ وَمَنْ يَمَّمْتُ خَيْرُ مُيَمَّمِ[2]

---

(١) **استمرَّ** : استقامَ . **المريرُ** : القوَّةُ من الحبلِ . **ارعوىٰ** : انزجرَ . **الوسنُ** : النعاسُ .

(٢) **الأَمُّ** : القصدُ .

ويقولُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَفَـارَقْـتُ خَيْـرَ النَّـاسِ قَـاصِـدَ شَـرِّهِـمْ ... وَأَكْـرَمَهُـمْ طُـرّاً لأَنْـذَلِهِـمْ طُـرَّا

ويلومُ قلبَهُ في الحنينِ إليهِ ، **فيقولُ** [في « العُكبَريِّ » ٤/٢٨٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

حَبَبْتُـكَ قَلْبِـي ، قَبْـلَ حُبِّـكَ مَـنْ نَـأَىٰ ... وَقَـدْ كَـانَ غَـدَّاراً فَكُـنْ لِـيَ وَافِيَـا

وَأَعْلَـمُ أَنَّ الْبَيْـنَ يُشْكِيـكَ بَعْـدَهُ ... فَلَسْـتَ فُـؤَادِي إِنْ رَأَيْتُـكَ بَـاكِيَـا

فَـإِنَّ دُمُـوعَ الْعَيْـنِ غُـدْرٌ بِـرَبِّهَـا ... إِذَا كُـنَّ إِثْـرَ الْغَـادِرِيـنَ جَـوَارِيَـا

ويقولُ [في « العُكبَريِّ » ١/١٧٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

عَشِيَّـةَ أَحْفَـى النَّـاسِ بِـي مَـنْ جَفَـوْتُـهُ ... وَأَهْـدَى الطَّـرِيقَيْـنِ الَّتِـي أَتَجَنَّـبُ[1]

أَمَّا ذكرهُ الغدرَ ، وما أَشبهَ ذلكَ عَن سيفِ الدولَةِ . . فما هوَ إِلاَّ لقوَّةِ نفسِهِ ، لا يرىٰ للملوكِ فمَن دونَهُم فضلاً عليهِ ، وإِنَّما يخاطبُهُم مخاطبَةَ اللِّدَاتِ والأَقرانِ[2] ، في الكثيرِ الأَغلبِ ، ولا بدَّ مِن مثلِ ذلكَ للعتابِ ، فهوَ مضطرٌّ إِليهِ ، بدافعِ الشهامَةِ والمَوجدَةِ ، ومَن نظرَ إِلىٰ قصيدتِهِ المستهلَّةِ **بقولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٦٢] : [مِنَ البسيطِ]

وَا حَـرَّ قَلْبَـاهُ مِمَّـنْ قَلْبُـهُ شَبِـمُ ... وَمَـنْ بِجِسْمِـي وَحَـالِـي عِنْـدَهُ سَقَـمُ[3]

. . أَلفاها تتدفَّقُ بلاغةً ، وجزالةً ، وشهامةً ، وفخراً ، ونخوةً ، تُسجِّلُ لهُ في صفحاتِ التاريخِ ما لا تسجِّلُهُ كبارُ الفتوحِ لأَربابِ الدوَلِ ، فحصيلَةُ البحثِ : الاعترافُ لهُ بالكرمِ وحفظِ العهدِ ، وإِنِّي لأَرجو أَن يغفرَ اللهُ لهُ كلَّ خطيئَةٍ زلفَها **بقولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٨٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

خُلِقْـتُ أَلُـوفـاً لَـوْ رُدِدْتُ إِلَـى الصِّبَـا ... لَفَـارَقْـتُ شَيْبِـي مُـوجَـعَ الْقَلْـبِ بَـاكِيَـا

ولئِن قيلَ : إِنَّهُ لم يبقَ متعلِّقاً بمحاسنِ سيفِ الدولَةِ إِلاَّ سياسةً في حفظِ الهيبَةِ والمروءَةِ ؛ لأَنَّهُ لا يأمَنُ السقوطَ مِن عينِ كافورَ إِذا تعالَمَ الناسُ بِأَنَّهُ مطرودٌ . . فالجوابُ عنهُ أَنَّ ذلكَ لا يكونُ :

أَمَّا أَوَّلاً : فلأَنَّهُ لَم يتكتَّم بشيءٍ ممَّا صارَ بينَهُ وبينَ سيفِ الدولَةِ .

وأَمَّا ثانياً : فلأَنَّهُ لم يخرجْ مطروداً ، وإِنَّما خرجَ مغاضباً ؛ لأَنَّهُ يرىٰ أَن قد قصَّروا في بعضِ حقِّهِ ، معَ حرصِهِم علىٰ بقائِهِ ، والاستئثارِ بهِ ، أَلا تسمعُ إِلىٰ **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٧٢] : [مِنَ البسيطِ]

لَئِـنْ تَـرَكْـنَ ضُمَيْـراً عَـنْ مَيَـامِنِنَـا ... لَيَحْـدُثَـنَّ لِمَـنْ وَدَّعْتُهُـمْ نَـدَمُ[4]

وأَمَّا ثالثاً : فلأَنَّ مثلَ ذلكَ لا يحصلُ إِلاَّ في الأَوساطِ السافلَةِ ، والأُمَمِ المنحطَّةِ ، فهيَ التي تبني إِهانتَها أَو إِكرامَها علىٰ مجرَّدِ التقليدِ ، بخلافِ الحيَّةِ ، فإِنَّها لا تضعُ الرجالَ إِلا بحيثُ وضعَهُم اللهُ مِن الفضيلَةِ ، بَل كلَّما استحكمتِ

---

(١) أحفىٰ : أَبلغُ الناسِ مسأَلَةً عنِّي ، من الحفاوةِ وهي : المبالغةُ في السؤالِ عن الرجلِ والعنايةِ في أَمرِهِ .

(٢) اللِّدَات : الأقران الذين ولدوا معه ، أو من هم في سنِّهِ .

(٣) الشبِمُ : البارِدُ ، والشبَمُ : البردُ .

(٤) ضُمَيْرٌ : جبلٌ علىٰ يمينِ طالبِ (مصرَ) من (الشامِ) وهوَ قريبٌ من (دمشقَ) .

النفرَةُ بينَ فاضلٍ وأَحدِ الملوكِ . . اشتدَّ حرصُ الآخرينَ على الاستئثارِ بهِ ، أَمَّا سُقَّاطُ الحُسَّادِ . . فإِنَّهُ لا يُبالىٰ بِهم ، وإن توجَّهَت أَنظارُهم إِلىٰ مثلِ ذلكَ بشاهِدِ **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـلا زِلْـتُ أَلْقَـى الْحَـاسِـدِيـنَ بِمِثْلِهَـا ... وَفِـي يَـدِهِـمْ غَيْـظٌ وَفِـي يَـدِيَ الـرِّفْـدُ[1]

وَعِنْــدِي قَبَــاطِــيُّ الأَمِيــرِ وَمَــالُــهُ ... وَعِنْـدَهُــمُ مِمَّــا ظَفِـرْتُ بِـهِ الْجَحْـدُ[2]

وأَمَّا رابعاً : فإِنَّهُ لو نظرَ إِلىٰ شيءٍ مِن ذلكَ . . لَمَا تظاهَرَ بمعاداةِ الملوكِ ، ولَمَا حَشَا « **ديوانَهُ** » بهجاءِ كافورَ وغيرِهِ ، ولَمَا استعلَنَ بهربِهِ مِن عندِهِ .

وأَمَّا خامساً : فلأَنَّهُ لا يرىٰ للملوكِ فضلاً عليهِ كَما قدَّمنا ، ومَا كانَ ينشدُهم إِلاَّ قاعداً ، مثلَ الفرزدَقِ ، ولقد أُريدَ مرَّةً على الإِنشادِ قائماً ، فقالَ : **أَوَلَسْتُ القائِلَ** [في « العُكبَري » ١/ ٢٨١] : [مِنَ الطَّويلِ]

لِكُـلِّ امْـرِىءٍ مِـنْ دَهْـرِهِ مَـا تعَـوَّدَا ... [وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي الْعِدَا]

وأَمَّا سادساً : فلأَنَّهُ لَم يتحفَّظْ بالمودَّةِ معَ الاستيَاءِ . . إِلاَّ لِمَن زادَ اختصاصُهُ بهِ ، كسيفِ الدولَةِ ، وأَبي العشائِرِ ، وإِلاَّ . . فما أَكثرَ تشكِّيهِ مِن هضائِمِ الملوكِ وجورِهم .

[المبحث الرابع على المطلع : أصل هٰذا المطلع من قصة جرت لأبي تمام]

والرابعُ مِنَ المباحِثِ التي في البيتِ : أَنَّهُ نظرَ فيهِ إِلىٰ قصَّةٍ جَرَت لأَبي تمَّامٍ معَ أَميرٍ ، طفِقَ يتأَلَّمُ لِفسادِ الزمانِ ، وقلَّةِ الكرامِ ، فقالَ لَهُ أَبو تمَّامٍ : لا ذَنْبَ لِلزَّمانِ معَ وجودِكَ ، ولا قلَّةَ في الكرامِ معَ جودِكَ ، وإِنَّكَ لَكما قالَ أَبو جويريَةَ العبديُّ : [مِنَ الطَّويلِ]

طَـوِيـلُ نِجَـادِ السَّيْـفِ حَتَّـىٰ كَـأَنَّـهُ ... بِـأَعْلَـىٰ سَنَـامَـيْ فَـالِـجٍ يَتَطَـوَّحُ

إِذَا اعْتَـمَّ بِـالبُـرْدِ الْيَمَـانِـيِّ خِلْتَـهُ ... هِـلاَلاً بَـدَا مِـنْ جَـانِـبِ الأُفْـقِ يُلْمَـحُ

يَـزِيـدُ عَلَـىٰ فَضْـلِ الـرِّجَـالِ فَضِيلَـةً ... وَيَقْصُـرُ عَنْـهُ مَـدْحُ مَـنْ يَتَمَـدَّحُ

وَيُـدْلِـجُ فِـي حَـاجَـاتِ مَـنْ هُـوَ نَـائِـمٌ ... وَيُـورِي كَـرِيمَـاتِ النَّـدَىٰ حِيـنَ يَقْـدَحُ

فاهتزَّ الأَميرُ ارتياحاً ، وامتلأَ أَنفُهُ أَريحيَّةً ، وصدرُهُ انشراحاً ، وقالَ لأَبي تمَّامٍ : بورِكَ فيهِ شاعراً ، وراويةً ، فأَكثرَ أَبو تمَّامٍ بعدُ في « **ديوانِهِ** » مِنَ المعنىٰ ، فقالَ في أَحمدَ ابنِ أَبي دؤَادٍ [في « ديوانه » ١/ ٢١٤] : [مِنَ الوافرِ]

لَقَـدْ أَنْسَـتْ مَسَـاوِىءَ كُـلِّ دَهْـرٍ ... مَحَـاسِـنُ أَحْمَـدَ بْـنِ أَبِـي دُؤَادِ

ومنهُ أَخذَ الناظِمُ **قولَهُ** [في « العُكبريِّ » ٢/ ١٥٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَزَالَـتْ بِـكَ الأَيَّـامُ عَتْبِـي كَـأَنَّمَـا ... بَنُـوهَـا لَهَـا ذَنْـبٌ وَأَنْـتَ لَهَـا عُـذْرُ

وقد سبقَ بعضُ هٰذا ، معَ ما يناسبُهُ مِن كلامِ أَميرِ المؤمنينَ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ في أَواخرِ المجلسِ السابعِ .

---

(١) **الرِّفْدُ** : العطاءُ .

(٢) **القباطيُّ** : جمعُ قبطيَّةٍ ، وهيَ ثيابٌ بيضٌ تُصنعُ في (مصرَ) .

والخامسُ : قالَ بعضُهم : في قولِهِ مِنَ القافيَةِ (ترْزَقُ) إِنَّهُ مِنَ الحشوِ القبيحِ ، الواقعِ مثلُهُ في قولِ بعضِهم [وهو أبو العيال الهذلي في « الأغاني » ٢٤/ ١٦٠] : [مِنَ مجزوء الوافر]

[ذَكَـرْتُ أَخِـي] فَعَـاوَدَنِـي صُـدَاعُ الـرَّأْسِ وَالْـوَصَـبُ

والحقُّ أَنَّهُ ليسَ كذلكَ ، وَلٰكِنَّهُ ناظرٌ إِلىٰ قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : ٢٦] ، وقولِهِ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، وقولِهِ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] ، بَل ربَّما أَرادَ التلميحَ فيهِ إِلىٰ قولِهِ جلَّ شأْنُهُ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

وإِن كانَ الفرقُ ظاهراً ، باحتياجِ الحياةِ البرزخيَّةِ إِلى التأْكيدِ بذكرِ الرزقِ ، ما لا تحتاجُهُ الحياةُ الدنيا .

وبما جاءَ في الحشوِ . . ذكرتُ أَنَّ بعضَهم أَنشأَ قصيدَةً ، عَرَضَها علىٰ سبعينَ شاعراً ، كلُّهُم يُثْني عَلَيها ، وبيتُ المطلعِ مِنها هٰذا : [مِنَ الرَّجَزِ]

دَعْهَـا وَلاَ تَحْبِـسْ زِمَـامَ الْمِقْـوَدِ تَطْـوِي بِـأَيْـدِيهَـا بِسَـاطَ الْفَـدْفَـدِ

ثُمَّ عرضَها بعدَ ذلكَ علىٰ مَن لا يؤبَهُ لَهُ ، فقالَ لَهُ : هٰذا المطلعُ كاسفٌ ، قالَ : ولِمَ ؟ قالَ : أَرَأَيتَ لو اطَّلعَ عليها الممدوحُ ، وبمجرَّدِ ما رأَىٰ ، أَو سمِعَ ، قولَكَ : دَعها . . رَماها ، وأَحالَ عليكَ في الذنْبِ ، وقالَ : إِنَّما أَخذنا بقولِكَ في تركِها .

وأَقولُ : إِنَّ فِيها نقداً آخرَ لَمْ يذكرهُ راوِي القصَّةِ ، وهوَ أَنْ لا حاجَةَ لذكرِ المقوَدِ معَ الزمامِ ؛ لأَنَّ الزمامَ لا يكونُ إِلاَّ فيهِ ، وليسَ المقامُ مقامُ إِطنابٍ ، أَو تقريرٍ ، حتَّىٰ يغتفر فيهِ أَو يقبَلَ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٣٥] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

حُشَـاشَـةُ نَفْـسٍ وَدَّعَـتْ يَـوْمَ وَدَّعُـوا فَلَـمْ أَدْرِ أَيَّ الظَّـاعِنَيْـنِ أُشَيِّـعُ

[شرح المطلع]

يقولُ : لي بقيَّةُ نفسٍ فارقَتني يومَ ودَّعني الأَحبابُ ، فبقيتُ حائِراً ، لا أَدري ، أُودِّعُ الحشاشَةَ ، أَمْ أُودِّعُ الأَحبابَ ؟ و(**الظَّاعِنَيْنِ**) يروىٰ بالتثنيَةِ ويروىٰ بالجمعِ ، وكِلاهما صالحٌ ، كما لا يخفىٰ ، وقالوا : إِنَّهُ مأْخوذٌ مِن قولِ بشَّارٍ [في « ديوانه » ٤/ ١٠١] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

حَـدَىٰ بَعْضُهُـمْ ذَاتَ الْيَمِيـنِ وَبَعْضُهُـمْ شِمَـالاً وَقَلْبِـي بَيْنَهُـمْ مُتَـوَزَّعُ

وشتَّانَ ما بينَهما ، فبيتُ بشَّارٍ متوقِّدُ الزُّجاجَةِ ، ناصعُ الديباجَةِ ، أَمَّا بيتُ الناظِمِ . فيؤخذُ عليهِ فيهِ أَنَّ الحشاشَةَ

ذهبَت معَ الأَحبابِ لجهةٍ واحدَةٍ ، فالتوديعُ لأَحدِهما توديعٌ للآخرِ ، فلا مجالَ للتَّردُّدِ ، ولا موضعَ للحيرَةِ ، فإِنْ قيلَ : إِنَّهُ تحيُّرٌ مِن حيثُ الكيفيَّةُ ، لا من حيثُ الأَينيَّةُ . . قلنا : فيهِ بعدٌ كثيرٌ ، ثُمَّ إِنَّهُ يتوجَّهُ إِليهِ ـ أَيضاً ـ ما انتقدَتْهُ سيِّدَتُنا سكينَةُ علىٰ قولِهِ [في « ديوانِ جميلٍ » ١٧٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلَـوْ تَـرَكَـتْ عَقْلِـي مَعِـي مَـا طَلَبْتُهَـا ... وَلَكِـنْ طِـلاَبِيهَـا لِمَـا فَـاتَ مِـنْ عَقْلِـي

ولو كانَ صادقَ المحبَّةِ ، صحيحَ الهوىٰ . . لَمَا قالَ إِلاَّ مثلَ قولِ العبَّاسِ بنِ الأَحنفِ : [مِنَ الكاملِ]

أَبْكِـي وَقَـدْ ذَهَـبَ الْفُـؤَادُ وَإِنَّمَـا ... أَبْكِـي لِفَقْـدِكِ لاَ لِفَقْـدِ الـذَّاهِـبِ

فالتكلُّفُ إِذن ظاهرٌ من كلامِهِ ، والتشبُّعُ بما لَم يُعطَ مِنَ المحبَّةِ معروفٌ مِن حالِهِ ، ومعَ ذلكَ . . فهوَ **القائِلُ** [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٢٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَـدْ يَتَـزَيَّـا بِـالْهَـوَىٰ غَيْـرُ أَهْلِـهِ ... وَيَسْتَصْحِـبُ الإِنْسَـانُ مَـنْ لاَ يُـلاَئِمُـهْ[1]

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٢١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَجَـائِـزَةٌ دَعْـوَى الْمَحَبَّـةِ وَالْهَـوَىٰ ... وَإِنْ كَـانَ لاَ يَخْفَـىٰ كَـلاَمُ الْمُنَـافِـقِ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٩٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا أَنَـا مِمَّـنْ يَـدَّعِـي الْحُـبَّ قَلْبُـهُ ... وَيَحْتَـجُّ فِـي تَـرْكِ الـزِّيَـارَةِ بِـالشُّغْـلِ

ولو أَحفيناهُ المسأَلَةَ ، وناقشناهُ الحسابَ . . لأَلزمناهُ ما يَرجُمُ بِهِ سواهُ ، بما يظهَرُ علىٰ شِعرِهِ مِن فلتاتِ لسانِهِ حسَبَما رأَيتَ .

[القلب والروح مع الأحباب أينما ذهبوا وأينما ارتحلوا]

والبيتُ الذي نتكلَّمُ فيهِ متكرِّرُ المعنىٰ في « **ديوانِهِ** » ، منهُ **قولُهُ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٤١] : [مِنَ الطَّويلِ]

هُـوَ الْبَيْـنُ حَتَّـىٰ مَـا تَـأَنَّـى الْحَـزَائِـقُ ... وَيَـا قَلْـبُ حَتَّـىٰ أَنْـتَ مِمَّـنْ أُفَـارِقُ !![2]

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٦٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَجُـدْ لِـي بِقَلْـبٍ إِنْ رَحَلْـتُ فَـإِنَّنِـي ... مُخَلِّـفُ قَلْبِـي عِنْـدَ مَـنْ فَضْلُـهُ عِنْـدِي

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٦٥] : [مِنَ الوافرِ]

وَإِنِّـي عَنْـكَ بَعْـدَ غَـدٍ لَغَـادٍ ... وَقَلْبِـي مِـنْ فِنَـائِـكَ غَيْـرُ غَـادِي[3]

وقالَ ابنُ هانِىءٍ الأَندلسيُّ [في « ديوانِهِ » ١١٤] : [مِنَ الرَّمَلِ]

اِمْسَحُـوا عَـنْ نَـاظِـرِي كُحْـلَ السُّهَـادْ ... وَانْفُضُـوا عَـنْ مَضْجَعِـي شَـوْكَ الْقَتَـادْ

---

(١) **تزيَّا** : تكلَّفَ الزيَّ . **يلائمه** : يوافقه .

(٢) **تأنَّى** : تمهَّلَ وترفَّقَ . **الحزائِقُ** : الجماعاتُ . **والمعنىٰ** : يقولُ مخاطباً قلبَهُ : كلُّ أحدٍ يفارقني حتَّىٰ أنت ؛ لأنَّ الأحبَّةَ فارقوني ، فذهبتَ معهم .

(٣) **الفِناءُ** : المنزلُ .

أَوْ خُــذُوا مِنِّــيَ مَــا أَبْقَيْتُــمُ　　　لاَ أُرِيــدُ الْجِسْــمَ مَسْلُــوبَ الْفُــؤَادْ

وقالَ الباخرزيُّ : [مِنَ الكامل]

قَـالَـتْ ـ وَقَـدْ فَتَّشْتُ عَنْهَـا كُـلَّ مَنْ　　　لاَقَيْتُـهُ مِـنْ حَـاضِـرٍ أَوْ بَـادِي ـ :

أَنَـا فِـي فُـؤَادِكَ فَـارْمِ لَحْظَـكَ نَحْـوَهُ　　　تَـرَنِـي فَقُلْـتُ لَهَـا : وَأَيْـنَ فُـؤَادِي ؟

إلاَّ أَنَّ فيهِ مؤاخذةً ؛ إذ كيفَ يراجعُها وهوَ لا يعرفُ مكانَها ؟ وكيفَ يخاطِبُها خطابَ الحاضِرِ ، وإنَّما هيَ في قلبِهِ الغائِبِ ؟ ولكنَّ المطرِبَ قولُ الآخرِ : [مِنَ الخفيفِ]

يَـا مُقِيمـاً فِـي خَـاطِـرِي وَجَنَـانِـي　　　وَبَعِيــداً عَــنْ نَـاظِـرِي وَعِيَـانِـي

أَنْـتَ رُوحِـي إِنْ كُنْـتُ لَسْـتُ أَرَاهَـا　　　فَهِـيَ أَدْنَـىٰ إِلَـيَّ مِـنْ كُـلِّ دَانِـي

وقالَ بعضُ المتأخِّرينَ : [مِنَ الكامل]

لِـي فِـي الْحِجَـازِ وَدِيعَـةٌ خَلَّفْتُهَـا　　　أَوْدَعْتُهَـا يَـوْمَ الْـوَدَاعِ مُـوَدِّعِـي

وَأَظُنُّهَـا ـ لاَ بَـلْ يَقِينِـي ـ أَنَّهَـا　　　قَلْبِـي فَـإِنِّـي لَـمْ أَجِـدْ قَلْبِـي مَعِـي

وتلاعبَ بهِ الشرفُ ابنُ الفارضِ ، فقالَ [في « ديوانه » ٢٤] : [مِنَ الرَّمَلِ]

كَـانَ لِـي قَلْـبٌ بِجَـرْعَـاءِ الْحِمَـىٰ　　　ضَـاعَ مِنِّـي ، هَـلْ لَـهُ رَدٌّ عَلَـيّ[(١)]

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٢٦] : [مِنَ الكاملِ]

وَاسْـأَلْ غَـزَالَ كِنَاسِـهِ : هَـلْ عِنْـدَهُ　　　عِلْـمٌ بِقَلْبِـي فِـي هَـوَاهُ وَحَـالِـهِ[(٢)]

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٤٩] : [مِنَ الكاملِ]

يَـا سَـائِـراً بِـالْقَلْـبِ غَـدْراً كَيْـفَ لَـمْ　　　تُتْبِعْـهُ مَـا غَـادَرْتَـهُ مِـنْ سَـائِـرِي ؟

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَخَـذْتُـمْ فُـؤَادِي وَهْـوَ بَعْضِـي فَمَـا الَّـذِي　　　يَضُـرُّكُـمُ أَنْ تُتْبِعُـوهُ بِجُمْلَتِـي

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٣٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَخَـذْتُـمْ فُـؤَادِي وَهْـوَ بَعْضِـي فَمَـا الَّـذِي　　　يَضُـرُّكُـمْ لَـو كَـانَ عِنْـدَكُـمُ الْكُـلُّ

وقالَ الخابزارزيُّ : [مِنَ الكاملِ]

أَنَـا غَـائِـبٌ وَالْقَلْـبُ عِنْـدَكَ حَـاضِـرٌ　　　سَـافَـرْتُ عَنْـكَ وَمَـا الْفُـؤَادُ مُسَـافِـرُ

---

(١) **الجرعاءُ** : الأرضُ الطيبةُ .

(٢) **الكِناسُ** : بيتُ الغزالِ . والضمير فيه يعود إلى العقيق في البيت قبلهُ ، وهو :

يَـا صَـاحِبِـي هَـٰذَا العَقِيـقُ فَقِـفْ بِـهِ　　　مُتَـوَالِهـاً إِنْ كُنْـتَ لَسْـتَ بِـوَالِـهِ .

وقالَ آخرُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنْ يَرْتَحِلْ جِسْمِي مَعَ الرَّكْبِ مُكْرَهاً ... يُقِمْ عِنْدَهُ قَلْبِي وَأَمْضِي بِلاَ قَلْبِ

وقالَ الروذباريُّ : [مِنَ البسيطِ]

وَلَوْ مَضَى الْكُلُّ مِنِّي لَمْ يَكُنْ عَجَباً ... وَإِنَّمَا عَجَبِي لِلْبَعْضِ حِينَ بَقِي

أَدْرِكْ بَقِيَّةَ نَفْسٍ فِيكَ قَدْ تَلِفَتْ ... قَبْلَ الْفِرَاقِ فَهٰذَا آخِرُ الرَّمَقِ

وقالَ مِهْيارٌ [في « ديوانهِ » ٣/٣٢٨] : [مِنَ الرَّمَلِ]

وَبِجَرْعَاءِ الْحِمَىٰ قَلْبِي فَعُجْ ... بِالْحِمَىٰ وَاقْرَأْ عَلَىٰ قَلْبِي السَّلاَمَا

وَتَرَجَّلْ فَتَحَدَّثْ عَجَباً : ... أَنَّ قَلْباً سَارَ عَنْ جِسْمٍ أَقَامَا!!

قُلْ لِجِيرَانِ الْغَضَا : آهاً عَلَىٰ ... طِيبِ عَيْشٍ بِالْغَضَا : لَوْ كَانَ دَامَا

حَمِّلُوا رِيحَ الصَّبَا مِنْ نَشْرِكُمْ ... قَبْلَ أَنْ تَحْمِلَ شِيحاً وَخُزَامَا

وَابْعَثُوا أَشْبَاحَكُمْ لِي فِي الْكَرَىٰ ... إِنْ أَذِنْتُمْ لِجُفُونِي أَنْ تَنَامَا

ويعجبُني قولُ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ٢/٨٩٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَإِنْ بِنْتُ عَنْكُمْ مُصْبِحاً حَضَرَ الْهَوَىٰ ... وَإِنْ غِبْتُ عَنْكُمْ سَائِراً شَهِدَ الشِّعْرُ

سَأَشْكُرُ لاَ أَنِّي أُجَازِيكَ نِعْمَةً ... بِأُخْرَىٰ ، وَلَكِنْ كَيْ يُقَالَ لَهُ شُكْرُ

وَأَذْكُرُ أَيَّامِي لَدَيْكَ وَحُسْنَهَا ... وَآخِرُ مَا يَبْقَىٰ مِنَ الذَّاهِبِ الذِّكْرُ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٤/٢٢٣٨] : [مِنَ الكاملِ]

وَتَعَلَّمِي أَنَّ اعْتِلاَقِي حُبَّكُمْ ... ذُلِّي ، وَأَنَّ هَوَايَ فِيكِ هَوَانِي

إِمَّا أَقَمْتُ فَإِنَّ لُبِّيَ ظَاعِنٌ ... أَوْ سِرْتُ مُنْطَلِقاً فَقَلْبِيَ عَانِي

وقالَ جميلُ بنُ معمَرٍ [في « ديوانهِ » ١١٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَئِنْ يَكُ جُثْمَانِي بِأَرْضٍ سِوَاكُمُ ... فَإِنَّ فُؤَادِي عِنْدَكِ الدَّهْرَ أَجْمَعُ

وقالَ بعضُ العربِ [في « لسان العرب » ١/٥٠٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَسِرْتُ وَفِي نَجْرَانَ قَلْبِي مُخَلَّفٌ ... وَجِسْمِي بِبَغْدَادِ الْعِرَاقِ مُشَاعِبُ(١)

وقالَ آخرُ [هو جعفرُ بن عُلْبَةَ الحارثي في « ديوان الحماسة » ١/١١] : [مِنَ الطَّويلِ]

فُؤَادِي مَعَ الرَّكْبِ الْيَمَانِينَ مُصْعِدٌ ... جَنِيبٌ وَجُثْمَانِي بِمَكَّةَ مُوثَقُ(٢)

---

(١) **المشاعبُ** : الذي يباعِدُ صاحبَهُ .

(٢) **الركبُ** : رُكبانُ الإبلِ خاصَّةً . **المصعِدُ** : المبعدُ . **جنيبٌ** : مُسْتَتْبَعٌ . **الجُثمانُ** : البدنُ . **الموثقُ** : المقيَّدُ .
يقول : هوَ معَ رُكبانِ الإبلِ القاصدينَ نحوَ (اليمنِ) مقودٌ ، وبدنُه مقيَّدٌ مأسورٌ بـ(مكة) .

وقالَ عمرُ ابنُ أَبي ربيعَةَ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٣٧] : [مِنَ الخفيفِ]

أَيُّهَا الرَّائِحُ الْمُجِدُّ ابْتِكَارَا ... قَدْ قَضَى مِنْ تِهَامَةَ الأَوْطَارَا[(١)]

مَنْ يَكُنْ قَلْبُهُ سَلِيماً مُقِيماً ... فَفُؤَادِي بِالْخَيْفِ أَضْحَىٰ مُعَارَا

وممَّا يروىٰ لصقرِ قريشٍ ـ وهوَ عبدُ الرحمٰنِ بنُ معاويَةَ بنِ هشامِ بنِ عبدِ الملِكِ ـ [في « نفح الطيب » ٣/ ٤١] : [مِنَ الخفيفِ]

أَيُّهَا الرَّاكِبُ الْمُيَمِّمُ أَرْضِي ... أَقْرِ مِنْ بَعْضِيَ السَّلاَمَ لِبَعْضِي

إِنَّ جِسْمِي كَمَا رَأَيْتَ بِأَرْضٍ ... وَفُؤَادِي وَمَالِكِيهِ بِأَرْضِ

وقالَ كثيِّرٌ [في « ديوان الحماسة » ٢/ ٩٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَنْتِ الَّتِي حَبَّبْتِ شَغْباً إِلَىٰ بَدَا ... إِلَيَّ وَأَوْطَانِي بِأَرْضٍ سِوَاهُمَا[(٢)]

حَلَلْتِ بِهَـٰذَا حَلَّةً ثُمَّ حَلَّةً ... بِهَـٰذا ، فَطَابَ الْوَادِيَانِ كِلاَهُمَا

إِذَا ذَرَفَتْ عَيْنَايَ أَعْتَلُّ بِالْقَذَىٰ ... وَعَزَّةُ لَوْ يَدْرِي الطَّبِيبُ قَذَاهُمَا

والأَخيرُ مِن قولِ الحطيئَةِ [في « ديوانهِ » ٩١] : [مِنَ الوافرِ]

إِذَا مَا الْعَيْنُ فَاضَ الدَّمْعُ مِنْهَا ... أَقُولُ : بِهَا قَذىً وَهُوَ الْبُكَاءُ

وقالَ الفرزدقُ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِلَى اللهِ أَشْكُو بِالْمَدِينَةِ حَاجَةً ... وَبِالشَّامِ أُخْرَىٰ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ ؟!

وقالَ [جريرٌ في « ديوانهِ » ٢/ ٨٥٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

أُحِبُّ ثَرَىٰ نَجْدٍ وَبِالْغَوْرِ حَاجَةٌ ... أَغَارَ الْهَوَىٰ يَا عَبْدَ قَيْسٍ وَأَنْجَدَا

وقالَ أَبو العتاهيَةِ : [مِنَ الطَّويلِ]

تَفَرَّقَ أَهْلاَنَا مُقِيماً وَظَاعِناً ... فَلِلَّهُ أَدْرَىٰ أَيَّ قَوْمَيَّ أَتْبَعُ

يُنَازِعُنِي شَوْقِي أَمَامِي وَحَاجَتِي ... وَرَائِي فَمَا أَدْرِي بِهَا كَيْفَ أَصْنَعُ

وقالَ آخرُ [وهو أبو تمَّامٍ في « ديوانهِ » ٢/ ١٦١] : [مِنَ البسيطِ]

فِي الشَّامِ أَهْلِي ، وَبَغْدَادُ الْهَوَىٰ ، وَأَنَا ... بِالرَّقْمَتَيْنِ ، وَبِالْفُسْطَاطِ إِخْوَانِي

وَمَا أَظُنُّ النَّوَىٰ تَرْضَىٰ بِمَا صَنَعَتْ ... حَتَّىٰ تُبَلِّغَنِي أَقْصَىٰ خُرَاسَانِ

وقالَ أَبو العبَّاسِ المبرِّدُ [في « مصارع العشاق » ١/ ٢٢] : اجتزتُ بديرِ هرقلَ ، فقلتُ لأَصحابي : اصعدوا بنا إِليهِ ، فرأَينا منظراً حسناً ، وإِذا كهلٌ مشدودٌ ، عليهِ آثارُ النعمَةِ ، قالَ : ما أَقدمَكُم هـٰذا البلدَ ، الثقيلَ ماؤُهُ ، الغليظَ هواؤُهُ ،

---

(١) **الرائحُ** : الذاهبُ ليلاً . **المجدُّ ابتكاراً** : المبالغُ في تبكيرِهِ . **الأَوطارُ** : الغاياتُ والمآربُ .

(٢) **شغبٌ** : منهلُ ماءٍ . **بدا** : موضعٌ .

الجفاةَ أَهلُهُ ؟ قُلنا : طلبُ الحديثِ والأَدَبِ ، قالَ حبَّذا تُنْشِدوني أَو أُنْشِدُكم ، فقلنا : بل أَنتَ ، فقالَ : [مِنَ الكاملِ]

اللهُ يَعْلَـــــمُ أَنَّنِـــــي كَمِــــدُ | لاَ أَسْتَطِيـــــعُ أَبُـــثُّ مَــــا أَجِــدُ
رُوحَـــانِ لِــــي : رُوحٌ تَضَمَّنَهَـــا | بَلَـــدٌ وَأُخْـــرَىٰ حَـــازَهَـــا بَلَـــدُ
وَإِذَا الْمُقِيمَــــةُ لَيْـــسَ يَنْفَعُهَـــا | صَبْـــرٌ وَلَيْـــسَ يَضُـــرُّهَـــا جَلَـــدُ
وَأَظُـــنُّ غَـــائِبَتِـــي كَشَـــاهِـدَتِـــي | بِمَكَـــانِهَـــا تَجِـدُ الَّـــذِي أَجِـدُ

ثمَّ أُغمِيَ عليهِ ، فتركناهُ وانصرَفنا ، فأَفاقَ ، وقالَ : بأَبي ما أَسرعَ ذهابَكما ، أَعيراني سمعَكُما ، فعدنا إِليهِ فأَنشدَ :

[مِنَ البسيطِ]

لَمَّـــا أَنَـــاخُـــوا قُبَيْـــلَ الصُّبْـــحِ عِيسَهُـــمُ | وَرَحَّلُـــوهَـــا وَسَـــارَتْ بِـــالْهَـــوَى الإِبِـــلُ
وَقَلَّبَـــتْ مِـــنْ خِـــلاَلِ السَّجْـــفِ نَـــاظِـرَهَـــا | تَـــرْنُـــو إِلَـــيَّ وَدَمْـــعُ الْعَيْـــنِ مُنْهَمِـــلُ[1]
فَـــوَدَّعَـــتْ بِبَنَـــانٍ عِقْـــدُهَـــا عَنَـــمٌ | . . نَـادَيْتُ لاَ حَمَلَـتْ رِجْـلاَكَ يَـا جَمَـلُ[2]
وَيْلِـي مِـــنَ الْبَيْـــنِ مَـــاذَا حَـــلَّ بِـــي وَبِهَـــا | يَـــا نَـــازِحَ الـــدَّارِ حَـــلَّ الْبَيْـــنُ وَارْتَحَلُـــوا
إِنِّـــي عَلَـــى الْعَهْـــدِ لَـــمْ أَنْقُـــضْ مَـــوَدَّتَهُـــمْ | فَلَيْـــتَ شِعْـــرِي وَطَـــالَ الْعَهْـــدُ مَـــا فَعَلُـــوا

فقالَ لهُ بغيضٌ مِنَّا : ماتوا ، فقالَ : وأَنا أَيضاً أَموتُ ، فلم يزَل يتجذَّبُ مِن قيدِهِ حتَّىٰ فارقَ الحياةَ :

والشعرُ الأَوَّلُ لخالدِ الكاتِبِ ، ولا يمكنُ أَن يكونَ صاحبَ القصَّةِ ؛ لأَنَّ خالداً لَم يحبَسْ ، وإِنَّما وسوسَ وهامَ علىٰ وجهِهِ ، وقالَ ابنُ دقيقِ العيدِ ، وأَجادَ [في « نفح الطيب » ١/٦٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا كُنْـتُ فِـي نَجْـدٍ وَطِيـبِ نَعِيمِهَـا | تَـذَكَّـرْتُ أَهْلِـي بِـاللِّـوَا وَمُحَجَّـرِ
وَإِنْ كُنْـتُ فِـي أَهْلِـي عَـرَتْنِـي صَبَـابَـةٌ | إِلَـىٰ سَـاكِنِـي نَجْـدٍ وَعِيـلَ تَصَبُّـرِي
فَمَـا زَالَ لِـي بَيْـنَ الْفَـرِيقَيْـنِ وَقْفَـةٌ | فَمَـنْ لِـي بِنَجْـدٍ بَيْـنَ أَهْلِـي وَمَعْشَـرِي

وقالَ آخرُ [في « نفح الطيب » ١/٦٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلِـي بِـالْحِمَـىٰ أَهْـلٌ وَبِـالْبَـانِ جِيرَةٌ | وَفِي حَاجِرٍ خِلٌّ وَفِي الْمُنْحَنَىٰ صَحْبُ
تَقَسَّـــمَ ذَا الْقَلْـــبُ الْمُتَيَّـــمُ بَيْنَهُـــمْ | أُسَـائِلُكُـمْ بِـاللهِ هَـلْ يُقْسَـمُ الْقَلْـبُ ؟

وقالَ أَبو محمَّدٍ عليُّ بنُ حزمٍ الظاهريُّ [في « شذرات الذهب » ٢/٣٠٠] : [مِنَ الوافرِ]

لَئِـــنْ أَصْبَحْـــتُ مُـــرْتَحِـــلاً بِجِسْمِـــي | فَـــرُوحِـــي عِنْـــدَكُـــمْ أَبَـــداً مُقِيـــمُ
وَلَكِـــنْ لِلْعِيَـــانِ لَطِيـــفُ مَعْنـــىً | لَـــهُ سَـــأَلَ الْمُعَـــايَنَـــةَ الْكَلِيـــمُ

وقالَ [في « وفيات الأعيان » ٣/٣٢٧] : [مِنَ الوافرِ]

يَقُـــولُ أَخِـــي : شَجَـــاكَ رَحِيـــلُ جِسْـــمٍ | وَرُوحُـــكَ مَـــا لَـــهُ عَنَّـــا رَحِيـــلُ

---

(١) السَّجْفُ : السِّتْرُ .

(٢) العَنَمُ : أَرادَ بِهِ البنانَ المخضوبَ ؛ لأَنَّهُ يُشَبَّهُ بالعنمِ وهوَ نبتٌ أَحمرُ .

فَقُلْتُ لَهُ : الْمُعَايِنُ مُطْمَئِنٌّ ... لِذَا طَلَبَ الْمُعَايَنَةَ الْخَلِيلُ

وقالَ صدرُ الدينِ بنُ المرحلِ [في « طبقات ابن السبكي » ٩/ ٢٦٠] : [مِنَ الكاملِ]

يَا رَبِّ فِي الأَظْعَانِ سَارَ فُؤَادُهُ ... وَبِوِدِّهِ لَوْ كَانَ سَارَ جَمِيعُهُ

وقالَ ابنُ خَلِّكَانَ [في « وفيَات الأعيانِ » ٤/ ٢٧٥] : كانَ الشهرستانيُّ يَروي بإسنادِهِ المتَّصلِ للدريديِّ أَنَّهُ قالَ : [مِنَ المنسرحِ]

وَدَّعْتُهُ حِينَ لاَ تُوَدِّعُهُ ... رُوحِي وَلَكِنَّهَا تَسِيرُ مَعَهْ

ثُمَّ افْتَرَقْنَا وَفِي الْقُلُوبِ لَنَا ... ضِيقُ مَكَانٍ وَفِي الدُّمُوعِ سَعَهْ

ويطربُني ـ فيما يقربُ مِنَ الموضوعِ ـ قولُ الإمامِ الشبليِّ، نَسأَلُ اللهَ أَن ينفعَنا بهِ [كما في «قرى الضيف» ٤/ ٢٤٠]: [مِنَ الكاملِ]

مَضَتِ الشَّبِيبَةُ وَالْحَبِيبَةُ فَانْبَرَىٰ ... دَمْعَانِ فِي الأَجْفَانِ يَزْدَحِمَانِ

مَا أَنْصَفَتْنِي الْحَادِثَاتُ رَمَيْنَنِي ... بِمُوَدَّعَيْنِ وَلَيْسَ لِي قَلْبَانِ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٣٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَشَارُوا بِتَسْلِيمٍ فَجُدْنَا بِأَنْفُسٍ ... تَسِيلُ مِنَ الآمَاقِ وَالسَّمُ أَدْمُعُ

[شرح المطلع]

يقولُ : أَشاروا علينا بالسلامِ . . فجُدْنَا لَهم بالأَرواحِ تسيلُ مِنَ الآماقِ ، يحسبُها الناسُ دموعاً ، و(**السَّمُ**) لغَةٌ في الاسمِ ، واستعمالُها ليسَ بِجَيِّدٍ ؛ لأَنَّها مهجورةٌ .

[الروح الراحلة وليس هم!! فينبغي التفريق]

والمعنىٰ متكرِّرٌ في شعرِهِ ، منهُ **قولُهُ** [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٤٩] : [مِنَ الكاملِ]

رَحَلَ الْعَزَاءُ بِرِحْلَتِي فَكَأَنَّنِي ... أَتْبَعْتُهُ الأَنْفَاسَ لِلتَّشْيِيعِ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٨] : [مِنَ الكاملِ]

لَيْسَ الْقِبَابُ عَلَى الرِّكَابِ وَإِنَّمَا ... هُنَّ الْحَيَاةُ تَرَحَّلَتْ بِسَلاَمِ[1]

أَرْوَاحُنَا انْهَمَلَتْ وَعِشْنَا بَعْدَهَا ... مِنْ بَعْدِ مَا قَطَرَتْ عَلَى الأَقْدَامِ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٢٢١] : [مِنَ الوافرِ]

بَقَائِي شَاءَ لَيْسَ هُمُ ارْتِحَالاَ ... وَحُسْنَ الصَّبْرِ زَمُّوا لاَ الْجِمَالاَ[2]

---

(١) **القِبابُ** : الهوادجُ . **الركابُ** : الإبلُ .

(٢) **زمُّوا الجمالَ** : خطموها بالأَزِمَّةِ ، وزمَّ : تقدَّمَ في السيرِ ، وأَصلهُ من زمُّوها : إذا قادوها بالأَزمَّةِ للسيرِ .

وقالَ غيرهُ : [مِنَ الطَّويلِ]

خَلِيلَـيَّ مَـا دَمْعـاً بَكَيْـتُ وَإِنَّمَـا هِيَ الرُّوحُ مِنْ عَيْنِي تَسِيلُ عَلَىٰ خَدِّي

وقالَ بشَّارٌ [في « ديوانه » ٤/٤٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَيْسَ الَّذِي يَجْرِي مِنَ الْعَيْنِ مَاؤُهَا وَلَكِنَّهَـا رُوحِـي تَـذُوبُ فَتَقْطُـرُ

وقالَ ديكُ الجنِّ [في « ديوانهِ » ٢١١] : [مِنَ الخفيفِ]

لَيْسَ ذَا الـدَّمْعُ دَمْعَ عَيْنِـي وَلَكِـنْ هِـيَ نَفْسِـي تُـذِيبُهَـا أَنْفَـاسِـي

وقالَ ابنُ دريدٍ [في « ديوانهِ » ٤٥] : [مِنَ الكاملِ]

لاَ تَحْسَبُـوا دَمْعِـي تَحَـدَّرَ إِنَّهَـا نَفْسِـي جَـرَتْ فِـي دَمْعِيَ الْمُتَحَـدِّرِ

وقالَ [في « ديوانه » ٥٦] : [مِنَ الكاملِ]

قَلْـبٌ تَقَطَّـعَ فَـاسْتَحَـالَ نَجِيعَـا فَجَـرَىٰ وَصَـارَ مَـعَ الـدُّمُـوعِ دُمُـوعَـا

وكلُّهُ مِنَ المبالغَةِ المقبولَةِ ؛ إذ يُتصوَّرُ عقلاً وعادَةً ، ولئِن خرجَ عَنها . . فلَن يجاوزَ الإغراقَ ، وهوَ مقبولٌ أيضاً .

والافتراقُ لهُ احتراقٌ ، يفضي بكثيرٍ مِنَ القلوبِ إلى الانفطارِ والانشقاقِ ، قالَ النميريُّ : [مِنَ الكاملِ]

إِنَّ الْمَنِيَّـةَ وَالْفِـرَاقَ لَـوَاحِـدٌ أَوْ تَـوْأَمَـانِ تَـرَاضَعَـا بِلَبَـانِ

فِـي فُـرْقَـةِ الأَحْبَـابِ شُغْـلٌ شَـاغِـلٌ وَالثُّكْـلُ أَجْمَـعُ فُـرْقَـةَ الإِخْـوَانِ

وقالَ آخرُ [في « المستطرف » ٢/٨٧] : [مِنَ الكاملِ]

جَـاءَ الـرَّحِيـلُ فَحِيـنَ جَـدَّ تَـرَحَّلَـتْ مُهَـجُ النُّفُـوسِ لَـهُ عَـنِ الأَجْسَـادِ

مَـنْ لَـمْ يَبِـتْ وَالْبَيْـنُ يَصْـدَعُ قَلْبَـهُ لَـمْ يَـدْرِ كَيْـفَ تَفَتُّـتُ الأَكْبَـادِ

وقالَ ابنُ دراجٍ القسطليُّ [في « ديوانه » ٧٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا كَـانَ هَـٰذَا الْبَيْـنُ بَيْـنَ أَحِبَّـةٍ وَلَكِـنْ قُلُـوبٌ فَـارَقَتْهُـنَّ أَبْـدَانُ

وأنشدَ الماجشونُ للمهديِّ [كما في « المستطرف » ٢/٨٦] : ما قالَهُ يومَ فارقَ أحبابَهُ حتَّىٰ أبكاهُ ، وهوَ : [مِنَ البسيطِ]

للهِ بَـاكٍ عَلَـىٰ أَحْبَـابِـهِ جَـزِعـاً قَـدْ كُنْـتُ أَحْـذَرُ هَـٰذَا قَبْـلَ أَنْ يَقَعَـا

مَـا كَـانَ وَاللهِ شُـؤْمُ الـدَّهْـرِ يَتْـرُكُنِـي حَتَّـىٰ يُجَـرِّعَنِـي مِـنْ بَعْـدِهِـمْ جُـرَعَـا

إِنَّ الـزَّمَـانَ رَأَىٰ إِلْـفَ السُّـرُورِ لَنَـا فَـدَبَّ بِـالْبَيْـنِ فِيمَـا بَيْنَنَـا وَسَعَـىٰ

فَلْيَصْنَـعِ الـدَّهْـرُ بِـي مَـا شَـاءَ مُجْتَهِـداً فَـلاَ زِيَـادَةَ شَـيْءٍ بَعْـدَ مَـا صَنَعَـا

وأبكاهُ أيضاً آخرُ بما أنشدَهُ مِن قولِهِ : [مِنَ الطَّويلِ]

رَمَـى الْحُـبُّ مِـنْ قَلْبِـي السَّـوَادَ فَـأَوْجَعَـا وَصَـاحَ فَصِيـحٌ بِـالـرَّحِيـلِ فَـأَسْمَعَـا

وَغَـرَّدَ حَـادِي الْبَيْـنِ فَـانْشَقَّـتِ الْعَصَـا فَـأَصْبَحْـتُ مَسْلُـوبَ الْفُـؤَادِ مُفَجَّعَـا

كَفَىٰ حَزَنَاً مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ أَنَّنِي ... أَرَى الْبَيْنَ لاَ أَسْطِيعُ لِلْبَيْنِ مَدْفَعَا
وَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ بِالْيَوْمِ جَاهِلاً ... فَيَا لَكَ بَيْنَاً مَا أَمَرَّ وَأَوْجَعَا

ومثلُ هٰذا كثيرٌ في هٰذهِ الأماليِّ ، فَلا نحيلُ علىٰ مجلسٍ بعينِهِ ؛ لأنَّ في كثيرٍ مِنها ما يشبهُهُ ويتعلَّقُ بهِ ، ولا سيَّما الثاني .

* * *

[قالَ أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٣٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

حَشَايَ عَلَىٰ جَمْرٍ ذَكِيٍّ مِنَ الْهَوَىٰ ... وَعَيْنَايَ فِي رَوْضٍ مِنَ الْحُسْنِ تَرْتَعُ

[شرح المطلع]

(الحَشَا) : ما داخلَ الجوفَ ، وأكثرُ ما يرادُ بهِ القلبُ .

[القلب في النار والعيون في الجنان]

يقولُ : قلبي من فراقِهم يومَ الوداعِ علىٰ جمرٍ يتوقَّدُ ، وعينايَ ترتعانِ مِن وجهِ الحبيبِ في روضٍ مِنَ الحسنِ ، وإنَّما قالَ : (ترتَعُ) ؛ لأنَّ العينينِ في حكمِ الواحدِ ، إذ هُما حاسَّةٌ واحدَةٌ ، وهوَ مِن قولِ أبي تمَّامٍ [في « ديوانه » ٢/ ٤٣٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَفِي الْحَقِّ أَنْ يَضْحَىٰ بِقَلْبِيَ مَأْتَمٌ ... مِنَ الشَّوْقِ وَالْبَلْوَىٰ وَعَيْنَايَ فِي عُرْسِ

وأبو تمَّامٍ أخذهُ عمَّن قبلَهُ ، فقد قالَ ابن الدمينَةِ : [مِنَ الطَّويلِ]

غَدَتْ مُقْلَتِي فِي جَنَّةٍ مِنْ جَمَالِهَا ... وَقَلْبِي غَدَا مِنْ هَجْرِهَا فِي جَهَنَّمِ

ونقلَهُ التهاميُّ إلىٰ ما ترىٰ ، فأحسنَ ، حيثُ قالَ [في « ديوانه » ٤٧٢] : [مِنَ الكاملِ]

إِنِّي لأَرْحَمُ حَاسِدِيَّ لِحَرِّ مَا ... ضَمَّتْ صُدُورُهُمُ مِنَ الأَوْغَارِ[1]
نَظَرُوا صَنِيعَ اللهِ بِي فَعُيُونُهُمْ ... فِي جَنَّةٍ وَقُلُوبُهُمْ فِي نَارِ

وقالَ خالدٌ الكاتبُ : [مِنَ المجتثِّ]

قَالُوا نَرَاكَ سَقِيماً ؟ ... فَقُلْتُ : مِنْ وَجْنَتَيْهِ
فِي النَّارِ قَلْبِي ، وَعَيْنِي ... فِي الرَّوْضِ مِنْ مُقْلَتَيْهِ

وهٰذا أشبهُ ببيتِ الناظمِ ممَّا تقدَّمَ ، بل هوَ بعينِهِ ، لا اختلافَ إلاَّ في بعضِ الألفاظِ .

وقالَ الحسينُ بنُ الضحَّاكِ الخليعُ : [مِنَ الطَّويلِ]

لَقَدْ مَلأَتْ عَيْنِي بِغُرٍّ مَحَاسِنٍ ... مَلأْنَ فُؤَادِي لَوْعَةً وَهُمُومَا

---

(١) الأوغارُ : الأحقادُ .

وللناظِمِ فيما لا يخرجُ مِن معناهُ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٧٢] : [مِنَ الوافرِ]

وَمَـنْ خَبَـرَ الْغَـوَانِـي فَـالْغَـوَانِـي ... ضِيَـاءٌ فِـي بَـوَاطِنِـهِ ظَـلاَمُ

وهوَ ناظرٌ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحديد : ١٣] .

ولا يخرُجُ عنهُ قولُ شاعرِ المعرَّةِ [في « سقط الزند » ١١٨] : [مِنَ الخفيفِ]

حَلَـبٌ لِلْـوَلِـيِّ جَنَّـةُ عَـدْنٍ ... وَهْـيَ لِلْغَـادِرِيـنَ نَـارُ الْجَحِيـمِ

وهوَ مِن قولِ صديقِهِ عبدِ الوهَّابِ المالكيِّ ، الذي سبقَ لَنا ذكرُهُ [في « وفيات الأعيان » ٣/ ٢٢١] : [مِنَ البسيطِ]

بَغْـدَادُ دَارٌ لأَهْـلِ الْمَـالِ طَيِّبَـةٌ ... وَلِلْمَفَـالِيسِ دَارُ الضَّنْـكِ وَالضِّيـقِ

ظَلَلْـتُ حَيْـرَانَ أَمْشِـي فِـي أَزِقَّتِهَـا ... كَـأَنَّنِي مُصْحَـفٌ فِـي بَيْـتِ زِنْـدِيـقِ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٣٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَـوْ حُمِّلَـتْ صُـمُّ الْجِبَـالِ الَّـذِي بِنَـا ... غَـدَاةَ افْتَـرَقْنَـا أَوْشَكَـتْ تَتَصَـدَّعُ

[ألم البعاد يهد الجبال]

وهوَ مِن قولِ البُحتريِّ [في « ديوانه » ١/ ٢٥٧] : [مِنَ الوافرِ]

وَلَـوْ أَنَّ الْجِبَـالَ فَقَـدْنَ إِلْفـاً ... لأَوْشَـكَ جَـامِـدٌ مِنْهَـا يَـذُوبُ

وقولِهِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَكْتُـمُ مَـا بِـي مِـنْ هَـوَاكِ وَلَـوْ يُـرَىٰ ... عَلَـىٰ جَبَـلٍ صَلْـدٍ إِذاً لَتَصَـدَّعَـا

وقد سبقَ ـ فيما رُوِيَ عَن ذي النونِ المصريِّ ـ قولُ المرأَةِ : [مِنَ الطَّويلِ]

صَبَـرْتُ عَلَـىٰ مَـا لَـوْ تُحَمَّـلُ بَعْضَـهُ ... جِبَـالُ شَـرُورَىٰ أَوْشَكَـتْ تَتَصَـدَّعُ

وقالَ ذُو الرُّمَّةِ [بل الصمة بن عبد الله في « الأغاني » ٦/ ١١] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَمَـا وَجَـلاَلِ اللهِ لَـوْ تَـذْكُـرِينَنِـي ... كَـذِكْـرَاكِ مَـا نَهْنَهْـتُ لِلْعَيْـنِ مَـدْمَعَـا

فَقَـالَـتْ : بَلَـىٰ وَاللهِ ذِكْـراً لَـوَ انَّـهُ ... تَضَمَّنَـهُ صُـمُّ الصَّفَـا لَتَصَـدَّعَـا

وقالَ آخرُ [وهو مجنونُ ليلىٰ في « ديوانه » ٥٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلَـوْ أَنَّ مَـا بِـي بِـالْحَصَـىٰ فَلَـقَ الْحَصَـا ... وَبِـالـرِّيـحِ لَـمْ يُسْمَـعْ لَهُـنَّ هُبُـوبُ

وكلُّهُ ناظرٌ إلىٰ قولِهِ تعالَىٰ ، تبارَكَ اسمُهُ : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم : ٩٠]، وقولِهِ جلَّ ثناؤُهُ : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ [الحشر : ٢١] .

[لوعة الفراق تذيب الآماق]

وقالَ أَبو دهبلٍ الجمحيُّ ، يصفُ لوعَةَ الفراقِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَيَـــوْمَ وَقَفْنَـــا لِلْـــوَدَاعِ وَكُلُّنَـــا ... يَعُـدُّ مُطِيعَ الشَّـوْقِ مَـنْ كَـانَ أَحْـزَمَـا

فَصِـرْتُ بِقَلْـبٍ لاَ يُعَنَّـفُ فِـي الْهَـوَىٰ ... وَعَيْـنٍ مَتَـى اسْتَمْطَـرْتُهَـا مَطَـرَتْ دَمَـا

وقالَ الأَميرُ تميمُ بنُ المعزِّ بنِ المنصورِ بنِ القائِمِ بنِ المهديِّ [في « ديوانهِ » ٤٦٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا أُمُّ خِشْـفٍ طُـولَ يَـوْمٍ وَلَيْلَـةٍ ... بِبَلْقَعَـــةٍ بَيْـدَاءَ ظَمْـــآنَ صَـــادِيَـــا

تَهِيـمُ وَلاَ تَـدْرِي إِلَـىٰ أَيْـنَ تَنْتَهِـي ... مُـوَلَّهَـةً حَيْـرَىٰ تَجُـوبُ الْفَيَـافِيَـا

أَضَـرَّ بِهَـا حَـرُّ الْهَجِيـرِ فَلَـمْ تَجِـدْ ... لِغُلَّتِهَـا مِـنْ بَـارِدِ الْمَـاءِ شَـافِيَـا

إِذا بَعُـدَتْ عَـنْ خِشْفِهَـا انْعَطَفَـتْ لَـهُ ... فَـأَلْفَتْـهُ مَلْهُـوفَ الْجَـوَانِـحِ طَـاوِيَـا

بِـأَوْجَـعَ مِنِّـي يَـوْمَ شَـدُّوا حُمُـولَهُـمْ ... وَنَـادَىٰ مُنَـادِي الْبَيْـنِ أَنْ لاَ تَـلاَقِيَـا

وبعضُ المعنىٰ مأخوذٌ مِن قولِ عمروِ بنِ كلثوم [في « ديوانهِ » ٨١] : [مِنَ الوافرِ]

فَمَـا وَجَـدَتْ كَـوَجْـدِي أُمُّ سَقْـبٍ ... أَضَلَّتْـــهُ فَـــرَجَّعَـــتِ الْحَنِينَـــا[١]

وَلاَ شَمْطَـاءُ لَـمْ يَتْـرُكْ شَقَـاهَـا ... لَهَـــا مِـــنْ تِسْعَـــةٍ إِلاَّ جَنِينَـــا[٢]

وفي المجلسِ الأَوَّلِ ما يشبهُهُ ، مِن كلامِ متمِّمِ بنِ نويرةَ ، ومثلُهُ قولُ الأَبيورديِّ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا أُمُّ سَـاجِي الطَّـرْفِ مَـالَ بِـهِ الْكَرَىٰ ... عَلَـىٰ عَـذَبَـاتِ الْجِـزْعِ تَحْسَبُـهُ قَلْبَـا

تُـرَاعِـي بِـإِحْـدَىٰ مُقْلَتَيْهَـا كِنَـاسَهَـا ... وَتَـرْمِـي بِـأُخْـرَىٰ نَحْـوَهُ نَظَـراً غَـرْبَـا

رَأَتْ مَرْتَعاً مِنْ جَانِبِ الرَّمْلِ فَانْتَهَتْ ... إِلَيْـهِ وَذُو الأَطْمَـاعِ لاَ يُحْمَـدُ الْعُقْبَـىٰ

فَلَمَّـا قَضَـتْ مِنْـهُ اللُّبَـانَـةَ رَاجَعَـتْ ... خِبَاهَـا فَـأَلْفَـتْ خِشْفَهَـا قَـدْ قَضَـىٰ نَحْبَـا

أُتِيـحَ لَـهُ عَـارِي السَّـوَاعِـدِ لَـمْ يَـزَلْ ... يَخُـوضُ إِلَـىٰ أَوْطَـارِهِ مَطْلَبـاً صَعْبَـا

فَـوَلَّـتْ عَلَـىٰ ذُعْـرٍ وَبِـالنَّفْـسِ مَـا بِهَـا ... مِنَ الْكَـرْبِ لاَ لُقِّيـتِ فِـي حَـادِثٍ كَـرْبَـا

بِـأَوْجَـدَ مِنِّـي يَـوْمَ عَجَّـتْ رِكَـابُهَـا ... لِبَيْـنٍ فَلَـمْ تَتْـرُكْ لِـذِي صَبْـوَةٍ لُبَّـا

وهيَ أَبياتٌ رائعةٌ ، وإِن أَخطأَ المثلُ محلَّهُ مِنها ؛ إِذ لم تزد على النجاة بنفسِها مِن عاري السواعِدِ ، ولَو أَنَّها بقيَتْ رابضَةً . . لَبدأَ بها ، ثمَّ ثنَّىٰ بطِلاَهَا ، فالعاقِبَةُ عندَها محمودَةٌ ، لا مذمومَةٌ ، ولَو قدرَ لَه أَن يتَسَنَّمَ الذروَةَ مِنَ الروعَةِ . . لأَشارَ إِلىٰ أَنَّهُ افترسَ طِلاها بمرأىً مِنها ، فإِنَّ ذلكَ أَوجعُ وأَفجعُ .

[صلاح الدين يُعزِّي في والده]

وذكرتُ بهِ كتاباً سَيَّرَهُ صلاحُ الدينِ الأَيوبيُّ ، تعزيَةً في والدِهِ لبعضِ قرابتِهِ ، مِن إِنشاءِ القاضي الفاضلِ[٣] [في « الروضتين

---

(١) السقبُ : ولدُ الناقةِ . الترجيعُ : ترديدُ الصوتِ .

(٢) الشمطاءُ : العجوزُ المسنَّةُ ، وهوَ أَشدُّ لحزنها . الجنينُ : الولدُ ما دامَ في بطنِ أُمِّهِ ، والميتُ ؛ لأَنَّ القبرَ يجنُّهُ ؛ أَي : يسترُه وهوَ المرادُ هنا .

(٣) قالَ القاضي ابنُ شدَّادٍ : لَمَّا عادَ صلاحُ الدِّينِ مِن بعضِ غزواتِهِ . . بلغَهُ ـ قبلَ وصولِهِ إِلىٰ (مصرَ) ـ وفاةُ أَبيهِ نجمِ الدِّينِ ، فشقَّ ذلكَ عليهِ ؛ حيثُ لَم يحضُرْ وفاتَهُ ، فبعثَ إِلىٰ أَقاربهِ بالكتابِ المذكورِ أَعلاهُ .



في أخبار الدولتين » ٢/ ٢٥٠] : لقد عظمتِ اللَّوعَةُ ، واشتدَّتِ الرّوعَةُ ، وتضاعفَت لِغيبتِنا عنهُ الحسرَةُ ، واستنجدْنا بالصبرِ فأَبىٰ ، وأَجابَتِ العبْرَةُ ، فيا لَهُ فقيداً فَقَدْنا بِهِ العَزاءَ ، وهانَتْ بعدَهُ الأَرزاءُ :

وَتَخَطَّفَتْـهُ يَـدُ الـرَّدَىٰ فِـي غَيْبَتِـي ... هَبْنِي حَضَـرْتُ لَـدَيْـهِ ، مَـاذَا أَصْنَـعُ ؟

[آه . . من الفراق]

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٨٤] : [مِنَ البسيطِ]

لَمَّا اسْتَحَرَّ الْوَدَاعُ الْمَحْضُ وَانْصَرَمَتْ ... أَوَاخِـرُ الصَّبْـرِ وَلَّـىٰ كَـاظِمـاً وَجِمَـا[1]

رَأَيْـتُ أَحْسَـنَ مَـرْئِـيٍّ وَأَقْبَحَـهُ ... مُسْتَجْمِعَيْـنِ لِـيَ التَّـوْدِيـعَ وَالْعَنَمَـا[2]

وأَهلُ المعاني ينتقدونَ عليهِ عطفَ العَنَمِ على التوديعِ ؛ إِذ لا مناسبَةَ بينَهُما ، كَما ينتقدونَ عليهِ مثلَ ذلكَ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٥٢] : [مِنَ الكاملِ]

لاَ وَالَّـذِي هُـوَ عَـالِـمٌ أَنَّ النَّـوَىٰ ... مُـرٌّ وَأَنَّ أَبَـا الْحُسَيْـنِ كَـرِيـمُ

غيرَ أَنَّ التأْويلَ للأَوَّلِ أَقربُ منهُ للثاني .

وقالَ أَبو تمَّامٍ أَيضاً [في « ديوانهِ » ٢/ ٣١] : [مِنَ الكاملِ]

قَـالُـوا الـرَّحِيـلُ فَمَـا شَكَكْـتُ بِـأَنَّهَـا ... نَفْسِـي عَـنِ الـدُّنْيَـا تُـرِيـدُ رَحِيـلاَ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٦] : [مِنَ البسيطِ]

تَكَـادُ تَنْتَقِـلُ الأَرْوَاحُ لَـوْ تُـرِكَـتْ ... مِـنَ الْجُسُـومِ إِلَيْهَـا حِيـنَ تَنْتَقِـلُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٤٢٨] : [مِنَ الخفيفِ]

إِنَّ يَـوْمَ الْفِـرَاقِ يَـوْمٌ عَبُـوسٌ ... أَيُّ سَيْـلٍ تَسِيـلُ فِيـهِ النُّفُـوسُ

وقد أَخذَ البغداديُّ بأَطرافِ المحاسنِ في قولِهِ [في « المستطرف » ٢/ ٨٩] : [مِنَ البسيطِ]

قَـالَـتْ وَقَـدْ نَـالَهَـا لِلْبَيْـنِ أَوْجَعُـهُ ... وَالْبَيْـنُ صَعْـبٌ عَلَـى الأَحْبَـابِ مَـوْقِعُـهُ

اجْعَـلْ يَـدَيْـكَ عَلَـىٰ قَلْبِي فَقَدْ ضَعُفَتْ ... قُـوَاهُ عَـنْ حَمْـلِ مَـا فِيـهِ وَأَضْلُعُـهُ

وَاعْطِـفْ عَلَـيَّ الْمَطَـايَـا سَـاعَـةً فَعَسَـىٰ ... مَـنْ شَـتَّ شَمْـلَ الْهَـوَىٰ بِـالْبَيْـنِ يَجْمَعُـهُ

كَـأَنَّنِـي يَـوْمَ بِنَّـا حَسْـرَةً وَأَسَـىً ... غَـرِيـقُ بَحْـرٍ يَـرَى الشَّـاطِـي فَيُمْنَعُـهُ

وقالَ آخرُ [وهو ابن البديري في « المستطرف » ٢/ ٨٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَـمْ أَسْتَطِـعْ يَـوْمَ النَّـوَىٰ رَدَّ عَبْـرَةٍ ... وَقَلْبِـي أَسـىً مِـنْ حَـرِّهَـا يَتَقَطَّـعُ

---

(١) **استحرَّ** : اشتدَّ . **المحضُ** : الخالصُ . **الكاظمُ** : الكاتمُ الغيظ . **الوجِمُ** : الساكتُ حزناً .

(٢) **العَنَمُ** : أرادَ بهِ البنانَ المخضوبَ ، لأنَّهُ يشبهُ بالعنمِ وهو نبتٌ أحمرُ .
أي : حينَ أزِفَ الوداعُ ونفدَ الصبرُ فسكتَ العاشقُ حزناً . . حصلتْ علىٰ أقبحِ شيءٍ وهوَ التوديعُ ، وعلىٰ أجملِ شيءٍ وهوَ إشارةُ الأناملِ الحمرِ بالفراقِ .

فَقَـالَ خَلِيلِـي إِذْ رَأَى الـدَّمْـعَ دَائِمـاً ... يَفِيضُ دَماً مِـنْ مُقْلَتِـي لَيْـسَ يُـدْفَـعُ
لَئِـنْ كَـانَ هَـٰذا الـدَّمْـعُ يَجْـرِي صَبَـابَـةً ... عَلَـىٰ غَيْـرِ لَيْلَـىٰ فَهُـوَ دَمْـعٌ مُضَيَّـعُ

[الأذواق في الفراق]

ثمَّ إِنَّ الأَذواقَ مختلفةٌ في شأْنِ التوديعِ ، كما سبقتِ الإِشارَةُ إِليهِ في المجلسِ الثاني .

[القسم الأول يحبه لأنه يُخرِج مكنون الحب]

فمِنهُم : مَن يؤثِرُهُ ؛ لِمَا فيهِ مِن قربِ البعيدِ ، وانكشافِ مكنونِ الحبِّ ، فقد كتبَ مصعبُ بنُ الزبيرِ مِن ميدانِ الحربِ [كما في « المنتظم حتىٰ (٢٥٧ هـ) » ٦/ ١١٤] : لسُكَينَةَ بنتِ الحسينِ ، بعدَ ليالٍ مِن فراقِها بهـٰذهِ الأَبياتِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكَـانَ عَـزِيـزاً أَنْ أَبِيـتَ وَبَيْنَنَـا ... حِجَابٌ فَقَدْ أَصْبَحْتِ مِنِّي عَلَىٰ عَشْرِ
وَأَبْكَـاهُمَـا وَاللهِ لِلْعَيْـنِ فَـاعْلَمِـي ... إِذَا ازْدَدْتِ مِثْلَيْهَـا فَصِرْتِ عَلَـىٰ شَهْـرِ
وَأَنْكَـىٰ لِقَلْبِـي مِنْهُمَـا الْيَـوْمَ أَنَّنِـي ... أَخَـافُ بِـأَنْ لاَ نَلْتَقِـي آخِـرَ الـدَّهْـرِ

ثمَّ أَشخصَها إِليهِ ، فشهدَت معهُ الحربَ ، ودخلَ عليها يومَ قُتِلَ ، وقد نزعَ ثيابَهُ ، ثمَّ لبسَ غلالَةً ، وتوشَّحَ بثوبٍ وهوَ محتضِنٌ سيفَهُ ، فعلمَت أَنَّهُ غيرُ راجعٍ ، فصاحَتْ : وا حزناهُ عليكَ يا مصعَبُ ، فالتفَتَ إِليها ، وقالَ : أَوَكُلُّ هـٰذا لي في قلبِكِ ؟ قالَت : وما أُخفي عنكَ أَكثرُ ، قالَ : لَو كنتُ أَعلَمُ أَنَّ لي عندكِ هـٰذا كلَّهُ . . لَكانَ لي ولَكِ شأْنٌ ، ثمَّ خرجَ ولَم يرجِعْ ، وقد سبقَ خبرُهُ في غيرِ هـٰذا المجلسِ .

وقالَ جريرٌ [في « ديوانه » ٢/ ٩٤٠] : [مِنَ الكامل]

لَـوْ كُنْـتُ أَعْلَـمُ أَنَّ آخِـرَ عَهْـدِكُـمْ ... بِـالـرَّقْمَتَيْـنِ فَعَلْـتُ مَـا لَـمْ أَفْعَـلِ

فقيلَ لحفيدِهِ [كما في « المستطرف » ٢/ ٨٦]: ما كانَ جدُّكَ صانعاً لو علِمَ أَنَّهُ آخرُ العهدِ؟ قالَ: كانَ يقلَعُ عينَهُ حتَّىٰ لا يرىٰ مظعنَ أَحبابِهِ ، فهوَ حينئذٍ أَليَقُ بحالِ مَن يكرَهُ الوداعَ ، لا بما نحنُ فيهِ مِمَّن يؤثِرُهُ ، ومنهُ قولُ بعضِهِم : [مِنَ السَّريعِ]

وَسَهَّـلَ التَّـوْدِيـعَ يَـوْمَ النَّـوَىٰ ... مَـا كَـانَ قَـدْ وَعَّـرَهُ الْهَجْـرُ

وقالَ : [مِنَ الخفيفِ]

لَيْـسَ عِنْـدِي خَطْـبُ النَّـوَىٰ بِعَظِيـمِ ... فِيـهِ رَوْحٌ وَفِيـهِ كَشْـفُ غُمُـومِ
إِنَّ فِيـهِ اعْتِنَـاقَـةً لِـوَدَاعٍ ... وَانْتِظَـارَ اعْتِنَـاقَـةٍ لِقُـدُومِ

وقولُ أَبي عُبادَةَ المارُّ بعضُهُ آخرَ المجلسِ الخامسِ [في « ديوانه » ٣/ ١٥٣١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَـوْ عَـرَفَ النَّـاسُ التَّـلاَقِـي وَحُسْنَـهُ ... لَحُبِّـبَ مِـنْ أَجْـلِ التَّـلاَقِـي التَّفَـرُّقُ
فَيَـا حُسْنَـهُ وَالـدَّمْـعُ بِـالـدمْـعِ وَاشِـجٌ ... يُمَـازِجُـهُ وَالْخَـدُّ بِـالْخَـدِّ مُلْصَـقُ[1]
وَقَـدْ ضَمَّنَـا وَشْـكُ التَّـلاَقِـي وَلَفَّنَـا ... عِنَـاقٌ عَلَـىٰ أَعْنَـاقِنَـا ثُـمَّ ضَيِّـقُ
فَلَـمْ تَـرَ إِلاَّ مُخْبِـراً عَـنْ صَبَـابَـةٍ ... بِشَكْـوَىٰ ، وَإِلاَّ عَبْـرَةً تَتَـرَقْـرَقُ

---

(١) واشجٌ : مشتبكٌ .

وَمِـنْ قُبَـلٍ قَبْـلَ التَّـلاَقِـي وَبَعْـدَهُ نَكَـادُ بِهَـا مِـنْ شِـدَّةِ اللَّثْـمِ نَشْـرَقُ

وقد أرادَ ابنُ درَّاجٍ ـ شاعرُ الأندلسِ ـ أَن يتعلَّقَ بهٰذه الأذيالِ في قولِهِ [في « ديوانه » ٩٠] : [مِنَ الكاملِ]

قَـالَـتْ وَقَـدْ مَـزَجَ الْفِـرَاقُ مَـدَامِعـاً بِمَـدَامِـعٍ وَتَـرَائِبـاً بِتَـرَائِـبِ
أَتَفَـرُّقٌ حَتَّـىٰ بِمَنْـزِلِ غُـرْبَـةٍ ؟ كَـمْ نَحْـنُ لِـلأَيَّـامِ نُهْبَـةُ نَـاهِـبِ!
وَلَئِـنْ جَنَيْـتُ عَلَيْـكَ تَـرْحَـةَ رَاحِـلٍ فَـأَنَـا الـزَّعِيـمُ لَهَـا بِفَـرْحَـةِ آيِـبِ
هَـلْ أَبْصَـرَتْ عَيْنَـاكَ بَـدْراً طَـالِعـاً فِـي الأُفْـقِ إِلاَّ مِـنْ هِـلاَلٍ عَـازِبِ[(١)]

وأخرجَ ابنُ السبكيِّ [في « طبقاته » ٤/٢٣٣] : بسندِهِ إِلىٰ أَبي إِسحاقَ الشيرازيِّ ، قالَ : أَنشدَ المطرِّزُ لنفسِهِ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَمَّـا وَقَفْنَـا بِـالصَّـرَاةِ عَشِيَّـةً حَيَـارَىٰ لِتَـوْدِيـعٍ وَرَدِّ سَـلاَمِ[(٢)]
وَقَفْنَـا عَلَـىٰ رَغْـمِ الْحَسُـودِ وَكُلُّنَـا نَفُـضُّ عَـنِ الأَشْـوَاقِ كُـلَّ خِتَـامِ
وَسَـوَّغَنِـي عِنْـدَ الْـوَدَاعِ عِنَـاقُـهُ وَلَمَّـا رَأَىٰ وَجْـدِي بِـهِ وَغَـرَامِـي
. . تَلَثَّـمَ مُـرْتَـابـاً بِفَضْـلِ رِدَائِـهِ فَقُلْـتُ : هِـلاَلٌ بَعْـدَ بَـدْرِ تَمَـامِ ؟!
وَقَبَّلْتُـهُ فَـوْقَ اللِّثَـامِ فَقَـالَ لِـي : هِـيَ الْخَمْـرُ إِلاَّ أَنَّهَـا بِفِـدَامِ[(٣)]

ومرضَ عبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ طاهرِ بنِ الحسينِ ، فعادَهُ الأَميرُ ، فلمَّا انصرفَ . . كتبَ إِليهِ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/١٢٢] : ما أَعرفُ أَحداً جزى العلَّةَ خيراً غيري ، فقد شكرْتُ نعمتَها ؛ إِذ أَفاضَت بي إِلىٰ رؤيتِكَ ، فأَنا كالأَعرابيِّ الذي جزى البينَ خيراً حيثُ قالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

جَـزَى اللهُ يَـوْمَ الْبَيْـنِ خَيْـراً فَـإِنَّـهُ أَرَانَـا عَلَـىٰ عِـلاَّتِـهِ أُمَّ ثَـابِـتِ
أَرَانَـا رَبِيبَـاتِ الْخُـدُورِ وَلَـمْ نَكُـنْ نَـرَاهُـنَّ إِلاَّ بِـانْتِعَـاتِ النَّـوَاعِـتِ[(٤)]

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريّ » ٢/٦٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـنْ لِـي بِيَـوْمٍ مِثْـلِ يَـوْمٍ كَـرِهْتُـهُ قَـرُبْـتُ بِـهِ عِنْـدَ الْـوَدَاعِ مِـنَ الْبُعْـدِ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٢/٢٤٨ـ٢٤٩] : [مِنَ الكاملِ]

مَـا زِلْـتُ أَحْـذَرُ مِـنْ وَدَاعِـكَ جَـاهِـداً حَتَّـى اغْتَـدَىٰ أَسَفِـي عَلَـى التَّـوْدِيـعِ
رَحَـلَ الْعَـزَاءُ بِـرِحْلَتِـي فَكَـأَنَّمَـا أَتْبَعْتُـهُ الأَنْفَـاسَ لِلتَّشْيِيـعِ
أَوَ مَـا رَأَيْتُـمْ فِـي الصَّـرَاةِ مُلُـوحَـةً مِمَّـا أُرَقْـرِقُ فِـي الْفُـرَاتِ دُمُـوعِـي

والبيتُ الأَوسطُ قد سبقَ عمَّا قريبٍ ، وقالَ [في « العُكبَري » ١/٢٤٦ـ٢٤٧] : [مِنَ الكاملِ]

وَجَـلاَ الْـوَدَاعُ مِـنَ الْحَبِيـبِ مَحَـاسِنـاً حُسْـنُ الْعَـزَاءِ وَقَـدْ جُلِيـنَ قَبِيـحُ

---

(١) العازبُ : البعيدُ .
(٢) الصَّراةُ : نهرٌ يأخذ من الفراتِ ، فينسكبُ في دجلةَ ، بينه وبين (بغداد) مسيرة يوم .
(٣) الفِدامُ : شيءٌ تشدُّهُ الأَعاجمُ علىٰ أفواهِها عند السَّقيِ ، يكونُ كالمصفاةِ للشَّرابِ .
(٤) أي : لم نكن نرىٰ تلك الفتيات الجميلات إلا بوصف الواصفات .

فَيَدٌ مُسَلِّمَةٌ وَطَرْفٌ شَاخِصٌ   وَحَشىً تَذُوبُ وَمَدْمَعٌ مَسْفُوحُ
يَجِدُ الْحَمَامُ وَلَوْ كَوَجْدِي لانبَرَىٰ   شَجَرُ الأَرَاكِ مَعَ الْحَمَامِ يَنُوحُ

وقالَ بَشَّارٌ :   [مِنَ البسيطِ]

إِنَّ الْوَدَاعَ مِنَ الأَحْبَابِ نَافِلَةٌ   لِلظَّاعِنِينَ إِذَا مَا يَمَّمُوا بَلَدَا
وَلَسْتُ أَدْرِي إِذَا شَطَّ الْمَزَارُ بِهِمْ   هَلْ تَجْمَعُ الدَّارُ أَمْ لاَ نَلْتَقِي أَبَدَا ؟

وقالَ آخرُ :   [مِنَ الوافرِ]

تَمَتَّعْ مِنْ حَبِيبِكَ بِالْوَدَاعِ   فَمَا بَعْدَ الْفِرَاقِ مِنِ اجْتِمَاعِ
فَلَمْ أَرَ فِي الَّذِي لاَقَيْتُ شَيْئاً   أَمَرَّ مِنَ الْفِرَاقِ بِلاَ وَدَاعِ

[القسم الثاني يكرهه ويقول درء المفاسد مقدم علىٰ جلب المصالح]

ومنهم مَنْ يكرهُهُ ؛ لِمَا يقدَحُ مِنَ الزِّنادِ ، ويفتِّتُ مِنَ الأَكْبادِ ، قالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانه » ٣/ ١٤٩٥-١٤٩٦] :

[مِنْ مجزوءِ الكاملِ]

لاَ تَعْذُلِينِي فِي مَسِيرِيَ يَوْمَ سِرْتُ وَلَمْ أُلاَقِكْ
فَلَقَدْ خَشِيتُ مَوَاقِفاً   لِلْبَيْنِ تَسْفَحُ غَرْبَ مَاقِكْ[1]
وَذَكَرْتُ مَا يَجِدُ الْمُوَدِّ   عُ عِنْدَ ضَمِّكِ وَاعْتِنَاقِكْ
فَتَرَكْتُ ذَاكَ تَعَمُّداً   وَخَرَجْتُ أَهْرُبُ مِنْ فِرَاقِكْ

وقالَ آخرُ [في « قرى الضيف » ٣/ ٣٤٤] :   [مِن مجزوءِ الكاملِ]

لاَ تَرْكَنَنَّ إِلَى الْوَدَاعْ   وَإِنْ سَكَنْتَ إِلَى الْعِنَاقِ
فَالشَّمْسُ عِنْدَ غُرُوبِهَا   تَصْفَرُّ مِنْ خَوْفِ الْفِرَاقِ

وهـٰذا هوَ الأَحرىٰ بالقَبولِ ، والأَسعدُ بالدليلِ ؛ إذ لهُ أَصلٌ يتمشَّىٰ عليهِ مِن قواعدِ العِلْمِ عندَنا ، وهوَ : أَنَّ دَرْءَ المفاسدِ أَولىٰ مِن جلبِ المصالحِ ، فتعيَّنَ دفعُ الأَرجحِ مِن مفاسدِ الاضطرابِ والاحتراقِ ، علىٰ ما لا يبلُّ لوعةً ، ولا يَشْفي غليلاً ، مِن آثارِ اللثمِ والعناقِ ، وهـٰذا كلُّهُ عندَ الرِّضا ، أَمَّا مَن لَم يقرُب مِنَ البعدِ ، إلاَّ عِنْدَ الوداعِ . . فأَولىٰ بِهِ أَن يحرصَ عليهِ ، ومنهُ يتبيَّنُ أَنَّ ما سقناهُ مِن كلامِ الشعراءِ لم يتواردْ أَكثرُهُ علىٰ نقطةٍ واحدةٍ .

[ما جاء في الوداع]

وممَّا جاءَ في مطلَقِ الوداعِ ، **قولُهُ ـ أَعني الناظمَ ـ** [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٠٧-٣٠٨] :   [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَمْ أَرَ كَالأَلْحَاظِ يَوْمَ رَحِيلِهِمْ   بَعَثْنَ بِكُلِّ الْقَتْلِ مِنْ كُلِّ مُشْفِقِ
أَدَرْنَ عُيُوناً حَائِرَاتٍ كَأَنَّهَا   مُرَكَّبَةٌ أَحْدَاقُهَا فَوْقَ زِئْبَقِ
عَشِيَّةَ يَعْدُونَا عَنِ النَّظَرِ الْبُكَا   وَعَنْ لَذَّةِ التَّوْدِيعِ خَوْفُ التَّفَرُّقِ

---

(١) **الغَرْبُ** : الدمعُ . **الماقُ** : مجرى الدمعِ من العينِ أَي من طرفِها مما يلي الأَنفَ .

وغالبُ ظني أن قد ذكرتُ في غيرِ هٰذا المجلسِ ، أَنَّ الأَخيرَ مِن قولِ النميريِّ [كما في «ديوان الحماسة» ٢/ ١٤٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

نَظَرْتُ كَأَنِّي مِنْ وَرَاءِ زُجَاجَةٍ ... إِلَى الرَّبْعِ مِنْ فَرْطِ الصَّبَابَةِ أَنْظُرُ

وقالَ الناظِمُ أَيضاً [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٩٥] : [مِنَ الوافرِ]

نَظَرْتُ إِلَيْهِمُ وَالعَيْنُ شَكْرَىٰ ... فَصَارَتْ كُلُّهَا لِلدَّمْعِ مَاقَا[1]

وَقَدْ أَخَذَ التَّمَامَ الْبَدْرُ فِيهِمْ ... وَأَعْطَانِي مِنَ السَّقَمِ الْمَحَاقَا

وَبَيْنَ الْفَرْعِ وَالْقَدَمَيْنِ نُورٌ ... يَقُودُ بِلاَ أَزِمَّتِهَا النِّيَاقَا

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٤٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَفْنَا وَمِمَّا زَادَ بَثّاً وُقُوفُنَا ... فَرِيقَيْ هَوىً : مِنَّا مَشُوقٌ وَشَائِقُ

وَقَدْ صَارَتِ الأَجْفَانُ قَرْحَىٰ مِنَ الْبُكَا ... وَصَارَ بَهَاراً فِي الْخُدُودِ الشَّقَائِقُ[2]

وقالَ بعضُهم : [مِنَ البسيطِ]

غَداً أُوَدِّعُ قَوْماً أَوْدَعُوا كَبِدِي ... نَاراً وَعَهْدِي بِهِمْ بَرْداً عَلَى الْكَبِدِ

أُبْدِي التَّجَلُّدَ أَحْيَاناً فَيَنْهَزُنِي ... رِيقٌ يَجِفُّ وَخَدٌّ بِالدُّمُوعِ نَدِي

لاَ أَنْسَ يَوْمَ تَنَازَعْنَا حَدِيثَ نَوىً ... وَقَوْلَهَا وَهْيَ تَبْكِي : خَانَنِي جَلَدِي

فَدَمْعُهَا بَرَدٌ فَوْقَ الْعَقِيقِ جَرَىٰ ... وَرِيقُهَا ضَرَبٌ قَدْ شِيبَ بِالْبَرَدِ[3]

كُنَّا إِلَى الْوَصْلِ قَدْ مِلْنَا فَنَغَّصَهُ ... هَٰذَا الرَّحِيلُ الَّذِي مَا دَارَ فِي خَلَدِي

وقالَ آخرُ [في « المستطرف » ٢/ ٤٦] : [مِنَ الكاملِ]

لَمَّا الْتَقَيْنَا لِلْوَدَاعِ وَأَعْرَبَتْ ... عَبَرَاتُنَا عَنَّا بِدَمْعٍ نَاطِقِ

فَرَّقْنَ بَيْنَ مَحَاجِرٍ وَمَعَاجِرٍ ... وَجَمَعْنَ بَيْنَ بَنَفْسَجٍ وَشَقَائِقِ

وقالَ أَبو بكرٍ الزبيديُّ الإِشبيليُّ [في « نفح الطيب » ٤/ ٧] : [مِنْ مخلَّعِ البسيطِ]

لَمْ يَخْلُقِ اللهُ مِنْ عَذَابٍ ... أَشَدَّ مِنْ وَقْفَةِ الْوَدَاعِ

مَا بَيْنَهَا وَالْحِمَامِ فَرْقٌ ... لَوْلاَ الْمُنَاحَاةُ وَالنَّوَاعِي

إِنْ يَفْتَرِقْ شَمْلُنَا وَشِيكاً ... مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ ذَا اجْتِمَاعِ

فَكُلُّ شَمْلٍ إِلَىٰ فِرَاقٍ ... وَكُلُّ شَعْبٍ إِلَى انْصِدَاعِ

[قصائد للمؤلف في الوادع]

وَلي في الوداعِ ما تُشنِّفُ بهِ الأَسماعُ ، منهُ قولي : [مِنَ الكاملِ]

وَدَّعْتُهُمْ وَكَتَمْتُهُمْ خَبَرَ النَّوَىٰ ... وَالْحَالُ أَنِّي بِالتَّكَتُّمِ وَاثِقُ

---

(١) العينُ الشكرىٰ : الممتلئةُ بالدمعِ .

(٢) البَهارُ : زهرٌ أَصفرُ . الشقائقُ : جمعُ شقيقةٍ ، وهيَ زهرٌ أَحمرُ ينسبُ إلى النعمانِ .

(٣) الضَّرَبُ : العسلُ الأبيض .

لَكِـنْ ضَعُفْـتُ عَـنِ الْهَـوَىٰ فَتبَـادَرَتْ ... مِـنْ مَحْجِـرَيَّ عَلَـى الْخُـدُودِ سَـوَابِـقُ ؟

قَـالُـوا : تُفَـارِقُنَـا وَأَنْـتَ حَيَـاتُنَـا ... مَـاذَا يَكُـونُ الْحَـالُ حِيـنَ تُفَـارِقُ

فَعَيِيـتُ عَــنْ رَدِّ الْجَـوَابِ لأَنَّـهُ ... قَـدْ كَـادَ يَفْضَحُنِـي نَشِيـجٌ خَـانِـقُ

وَأَرَابَهُـمْ وَجَلِـي وَلَكِنِّـي وَإِنْ ... خَـارَتْ قُـوَىٰ جَلَـدِي بَقِيـتُ أُسَـارِقُ

فَعَصَـرْتُ عَيْنِـي مُـوهِمـاً فِيهَـا قَـذىً ... وَأَرَيْتُهُـمْ أَنِّـي بِـرِيقِـي شَـارِقُ

وَقَولي [كما في « ديوانِ المؤلف » ق ٣٩ـ٤٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

قِفُـوا رَيْثَمَـا تُـرْوَى الْمَطَـايَـا عَلَـىٰ مَهْـلِ ... وَتَـرْتَـاحُ فِـي الأَعْطَـانِ مِـنْ ذَلِـكَ السَّهْـلِ

وَمَـا غَـرَضِـي نَفْـعُ الـرِّكَـابِ وَإِنَّمَـا ... لأُطْفِـىءَ مِـنْ بَثِّـي بِـرَائِحَـةِ الأَهْـلِ

فَلَـمْ تُجْـدِنِـي نَفْعـاً وَمَـا بَـرْدُ نَسْمَـةٍ ... عَلَـىٰ كَبِـدٍ حَـرَّىٰ مَـرَاجِلُهَـا تَغْلِـي

وَأُمُّ رِئَـالٍ سَبَّحَـتْ بِـدُمُـوعِهَـا ... وَلاَ قَطْـرَةٌ إِلاَّ تَصُـوبُ عَلَـىٰ طَفْـلِ[1]

وَلَمَّـا رَأَوْ مَـا قَـدْ عَـرَاهَـا تَحَـدَّرَتْ ... مَـدَامِعُهُـمْ مِـنْ لَـوْعَـةِ الْبَيْـنِ كَـالْـوَبْـلِ

وَلاَ دَمْعَـةٌ إِلاَّ لَهَـا بِفُـؤَادِهَـا ... عَلَـىٰ مَـا بِهَـا وَخْـزُ الأَسِنَّـةِ وَالنَّبْـلِ

يُـذِيـبُ الْجَـوَىٰ أَحْشَـاءَهَـا فَتَكَـادُ مِـنْ ... لَوَاعِجِهَا تَجْرِي عَلَى الدَّمْعِ فِي الْكُحْلِ

وَمَـا عِنْـدَهَـا مِـنْ حَسْـرَةٍ وَصَبَـابَـةٍ ... كَمِثْـلِ الَّـذِي بِي حَـذْوَكَ النَّعْـلَ بِـالنَّعْـلِ

أُوَدِّعُهُـمْ وَالْعَيْـنُ شَكْـرَىٰ وَرُبَّمَـا ... تَنَـدَّىٰ بَهَـارُ الْخَـدِّ مِنِّـي عَلَـى الْبُخْـلِ

عَـدَانِـي الْبُكَـا تِلْـكَ الْغَـدَاةَ عَـنِ الْحَيَـا ... وَكَـانَ عَلَـىٰ رَأْيِـي حَـرَامـاً عَلَـىٰ مِثْلِـي

صَلِيـبُ حَصَـاةٍ فِـي الْخُطُـوبِ وَإِنَّمَـا ... رَأَيْـتُ مَـذَاقَ الْبَيْـنِ أَشْـوَىٰ مِـنَ الْقَتْـلِ

فَمَـا أَنْـسَ م الأَشْيَـاءِ لَـمْ أَنْـسَ سَـاعَـةً ... عَـرَفْنَـا الْهَـوَىٰ فِيهَـا عَلَـىٰ غُصَّـةِ الثُّكْـلِ

تَنَـاسَبَـتِ الأَضْـدَادُ حَتَّـىٰ تَمَـازَجَـتْ ... مَـرَارَةُ ذَاكَ الثُّكْـلِ فِـي لَـذَّةِ الْـوَصْـلِ

تُـرَاجِعُنِـي عَـذْبَ الْكَـلاَمِ بِلَهْجَـةٍ ... يَمِيـلُ بِهَـا فِيهَـا النَّشِيـجُ إِلَـى الْمَطْـلِ

لَهَـا غَـايَـةٌ مِنِّـي تُـرِيـدُ بُلُـوغَهَـا ... فَيَقْطَعُهَـا عَنْهَـا إِذَا شَـرَعَـتْ تُمْلِـي

وَمِـنْ بَعْـدِ جُهْـدٍ غُيِّضَـتْ عَبَـرَاتُهَـا ... وَمَـا فَعَلَـتْ إِلاَّ وَقَـدْ سَلَبَـتْ عَقْلِـي

تَقُـولُ : وَفَـدَّتْنِـي أَتَتْـرُكُنَـا كَـذَا ... فُـرَادَىٰ لَـدَى الأَعْـدَاءِ فِي الْبَلَـدِ الْمَحْـلِ

فَقُلْـتُ : ثِقِـي بِـاللهِ فَهْـوَ حَسِيبُنَـا ... وَحَـافِظُنَـا سُبْحَـانَـهُ الْجَـامِـعُ الشَّمْـلِ

قَطَعْنَـا مِـنَ النَّـاسِ الـرَّجَـا فَتَـأَكَّـدَتْ ... رَوَابِطُنَـا بِـالْفَـائِـضِ الْجُـودِ وَالْفَضْـلِ

وَلاَ شَـيْءَ كَـالإِيمَـانِ بِـاللهِ وَحْـدَهُ ... يُعَزِّي لَـدَىٰ سُـودِ النَّـوَائِـبِ بَـلْ يُسْلِـي

وهيَ طويلةٌ ، وكلُّها مِن هـٰذا النوعِ ، وفي هـٰذا القدرِ منها الكفايةُ .

* * *

(١) **رئال** : جمع الرأل ، وهو فرخ النعام حتىٰ يأتي عليه حول . **الطَّفل** : الرخص الناعم الرقيق ، وطَفلَت الشمس : مالت للغروب .

[قالَ أبو الطيِّب المتنبي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٣٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَتَتْ زَائِراً مَا خَامَرَ الطِّيبُ ثَوْبَهَا وَكَالْمِسْكِ مِنْ أَرْدَانِهَا يَتَضَوَّعُ

[رائحة الحبيب أجمل من الطيب ويشهد بذا البعيد والقريب]

يصفُ خيالَها السَّاري إليهِ ؛ بدليلِ البيتِ الَّذي لَمْ نذكرْهُ قبلَهُ ، ويقولُ : إنَّهُ جاءَ ، فنمَّ بهِ العِطرُ ، وتأرَّجَ بهِ المكانُ ، معَ أنَّها لَمْ تتعطَّر ، ولَو أنَّهُ كانَ يصِفُ زيارتَها بنفسِها . . لصحَّ أَن يقولَ : ما خامرَ الطِّيبُ ثوبَها ، فأمَّا والحالُ أنَّهُ لا يصِفُ إلاَّ خيالَها ، فلا وجهَ لذكرِ الثَّوبِ ، لكنَّهُ اختلطَ عليهِ العملُ ، واستنوَقَ لديهِ الجَمَلُ ، وامتزجَتِ اليقظةُ بالْمنامِ ، واشتبَهَتِ الحَقائِقُ بالأَحلامِ ، وأَصلُ المعنىٰ . . قولُ امرىءِ القيسِ [في « المستطرف » ١/ ١٢٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلَمْ تَرَيَانِي كُلَّمَا جِئْتُ زَائِراً وَجَدْتُ بِهَا طِيباً وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ

وخرجَ كثيِّرٌ ـ عَلَيهِ مُطْرَفُ خزٍّ[1] ـ مِن عندِ عبدِ الملكِ ، فاعترضَتْهُ عجوزٌ ، معَها نارٌ في روثَةٍ ، فتأَفَّفَ مِنها ، فقالَت لَهُ ألستَ القائِلَ [كما في « ديوانه » ١٤٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَا رَوْضَةٌ بِالْحَزْنِ دَبَّجَهَا الْحَيَا يَمُجُّ النَّدىٰ جَثْجَاثُهَا وَعَرَارُهَا[2]

بِأَطْيَبَ مِنْ أَرْدَانِ عَزَّةَ مَوْهِناً إِذَا أُوقِدَتْ بِالْمَنْدَلِ الرَّطْبِ نَارُهَا[3]

فقالَ لَها : نعم ، فقالَت : لو وضعت المندلَ علىٰ ميمونَةَ الزنجيَّةِ ، أَو هـٰذهِ الروثَةِ . . لظهرَ لَها عرفُ طِيبٍ ، هلاَّ قلتَ : كما قالَ امرؤُ القيسِ : ـ تعني بيتَهُ السابقَ ـ فانكسرَ ، وأَعطاها المُطْرَفَ[4] .

ويروىٰ [في « الأغاني » ١٥/ ٢٧٥] : أَنَّهُ انصرفَ وهو يقولُ : [مِنَ الكاملِ]

اَلْحَقُّ أَبْلَجُ لاَ يَخِيلُ سَبِيلُهُ وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ أُولُوا الأَحْلاَمِ

وقالَ بعضُ العقلاءِ في قولِهِ : (إِذَا أُوقِدَتْ بِالْمَنْدَلِ الرَّطْبِ) : إِنَّما هوَ مِن تمامِ وصفِ الروضَةِ ، وقد حصلَ بينَ القسمينِ التقديمُ والتأْخيرُ ؛ لضيقِ الوزنِ ، وهوَ تأويلٌ بغيضٌ ، لا يقولُهُ ولا يقبلُهُ إلاَّ مَن ختَمَ اللهُ علىٰ بصرِهِ وبصيرتِهِ ، ولَئِنْ عيبَ عليهِ في هـٰذا . . فقدْ قالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا نُطْفَةٌ كَانَتْ سُلاَلَةَ بَارِقٍ نَمَتْ عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ ثُمَّ اسْتَقَلَّتِ

بِأَطْيَبَ مِنْ أَنْيَابِ عَزَّةَ بَعْدَ مَا حَدَا اللَّيْلُ أَعْقَابَ النُّجُومِ فَوَلَّتِ

---

(١) المُطْرَفُ : رداءٌ من خزٍّ .

(٢) الحزنُ : الأَرضُ الغليظةُ . يمجُّ : يرمي . الجَثْجَاثُ : ريحانةٌ طيبةُ الريحِ بَرِّيَّةٌ . العرارُ : البَهارُ البريُّ ، طيِّبُ الرائحةِ .

(٣) الأَردانُ : أَطرافُ الأَكمامِ ، كانت تضعُ العربُ فيها الدراهِمَ . مَوهناً : الطرفُ الأَخيرُ مِنَ الليلِ . المندَلُ : العودُ الطَّيِّبُ الرائِحَةِ .
والمعنىٰ : فما روضَةٌ بالأَرضِ الغليظَةِ الصَّخريَّةِ ، طيِّبَةِ الزرعِ ، يفوحُ ندىٰ ريحانِها البَريِّ ، وطيبِ رائحةِ بهارِها ، بأَطيبَ وأَزكىٰ مِن رائِحةِ أَطرافِ أَكمامِ عَزَّةَ في آخرِ الليلِ وقد أَشعلَتْ نارَها بأَعوادِ المندَلِ الطَّيِّبِ الرائِحَةِ .

(٤) « الأغاني » (١٥/ ٢٧٥) .

ومعنى البيتِ الذي نحنُ فيهِ متكرِّرٌ عندَ الناظِمِ ، منهُ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٣] : [مِنَ الكاملِ]

قَلَقُ الْمَلِيحَةِ وَهْيَ مِسْكٌ هَتْكُهَا ... وَمَسِيرُهَا بِاللَّيْلِ وَهْيَ ذُكَاءُ[1]

وقالَ النميريُّ [الماكيُّ في « ديوانهِ » ٥٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا مُزْنَةٌ جَاءَتْ فَأَسْبَلَ وَدْقُهَا ... عَلَىٰ رَوْضَةٍ رَيْحَانُهَا قَدْ تَخَضَّدَا

كَأَنَّ تِجَارَ الْهِنْدِ حَلُّوا رِحَالَهُمْ ... عَلَيْهَا طَرُوقاً ثُمَّ حَلُّوا بِهَا الْغَدَا

بِأَطْيَبَ مِنْ ثَوْبَيْنِ تَأْوِي إِلَيْهِمَا ... سُعَادُ إِذَا نَجْمُ السِّمَاكَيْنِ غَرَّدَا[2]

وقالَ آخرُ : [مِنَ الخفيفِ]

دُرَّةٌ كَيْفَ مَا أُدِيرَتْ أَضَاءَتْ ... وَمَشَمٌّ مِنْ حَيْثُ مَا شُمَّ فَاحَا

وقالَ بشَّارٌ : [مِنَ المديدِ]

وَتَوَقَّ الطِّيبَ لَيْلَتَنَا ... إِنَّهُ وَاشٍ إِذَا سَطَعَا

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ١/ ١٥٠] : [مِنَ المتقاربِ]

وَكَانَ الْعَبِيرُ بِهَا وَاشِياً ... وَجَرْسُ الْحُلِيِّ عَلَيْهَا رَقِيبَا

وقد سبقَ في المجلسِ الأَوَّلِ بعضُ قولِ عليِّ بنِ جبلَةَ [في « ديوانهِ » ٧٦] : [مِنَ الرَّمَلِ]

بِأَبِي مَنْ زَارَنِي مُكْتَتِماً ... حَذِراً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَزِعَا

طَارِقٌ نَمَّ عَلَيْهِ نُورُهُ ... كَيْفَ يُخْفِي اللَّيْلُ بَدْراً طَلَعَا ؟!

رَصَدَ الْخَلْوَةَ حَتَّىٰ أَمْكَنَتْ ... وَرَعَى السَّاهِرَ حَتَّىٰ هَجَعَا

كَابَدَ الأَهْوَالَ فِي زَوْرَتِهِ ... ثُمَّ مَا سَلَّمَ حَتَّىٰ وَدَّعَا

ولَئِن لَم تتَّصِل هٰذهِ ببيتِ البحثِ . . فإِنَّها متَّصلةٌ ببيتهِ الَّذي سقناهُ شاهداً لَهُ ، وقد كانَ سالمُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ بنِ الخطَّابِ ـ رضيَ اللهُ عنهم ـ يطربُ كثيراً كلَّما غنَّاهُ أَشعبُ بهٰذينِ [كما في « البداية والنهاية » ١٠/ ١١٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلَمَّتْ بِنَا وَاللَّيْلُ دَاجٍ كَأَنَّهُ ... جَنَاحُ غُرَابٍ عَنْهُ قَدْ نَفَضَ الْقَطْرَا

فَقُلْتُ : أَعَطَّارٌ ثَوَىٰ فِي رِحَالِنَا ؟ ... وَمَا احْتَمَلَتْ لَيْلَىٰ سِوَىٰ عَرْفِهَا عِطْرَا

وقالَت إِحدىٰ صواحبِ أُمِّ زرعٍ [كما في « البخاري » (٥١٨٩)] : [مِنْ مجزوءِ الرَّجَزِ]

اَلْمَسُّ مَسُّ أَرْنَبِ ... وَالرِّيحُ رِيحُ زَرْنَبِ

وقالَ أَبو المطاعِ ابنُ ناصرِ الدولَةِ [في « نفح الطيب » ٣/ ٤١٥] : [مِنَ البسيطِ]

ثَلَاثَةٌ مَنَعَتْهَا مِنْ زِيَارَتِهَا ... وَقَدْ دَجَى اللَّيْلُ خَوْفَ الْكَاشِحِ الْحَنِقِ

---

(١) ذُكاءُ : اسمٌ من أسماءِ الشمسِ .

(٢) السماكانِ : نجمانِ نيّرانِ . غرَّدَ النجمُ : إذا ارتفعَ .

ضَوْءُ الْجَبِينِ وَوَسْوَاسُ الْحُلِيِّ وَمَا ... يَفُوحُ مِنْ عَرَقٍ كَالْعَنْبَرِ الْعَبِقِ
هَبْهَا الْجَبِينَ بِفَضْلِ الْكُمِّ تَسْتُرُهُ ... وَالْحُلْيَ تَنْزِعُهُ مَا الشَّأْنُ فِي الْعَرَقِ ؟

وقلتُ ـ أنا ـ في مطلعِ قصيدَةٍ نبويَّةٍ [كما في « ديوانِ المؤلف » ٦٩] : [مِنَ الكاملِ]

زَارَتْ وَقَدْ جَنَحَ الظَّلاَمُ بِلاَ حِذَا ... عُطْلاً مُنَقَّبَةً فَنَمَّ بِهَا الشَّذَا[1]

فتراني استوفيتُ ما في الثلاثةِ الأبياتِ ، وزدتُ عَلَيها ، في بيتٍ واحدٍ ، بلا إعناتِ فكرٍ ، ولا إرهاقِ رويَّةٍ ، معَ صعوبَةِ القافيَةِ ، ورقَّةِ الانسجامِ .

وقلتُ فِي مطلعِ قصيدَةٍ إماميَّةٍ [كما في « ديوانِ المؤلف » ٤٩٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَرَكْنَ الْحُلَىٰ وَاجْتَزْنَ وَاللَّيْلُ جَانِحُ ... فَنَمَّتْ بِمَا تَحْتَ السُّتُورِ الرَّوَائِحُ
نَوَاعِمُ لَوْلاَ الْخُمْرُ لاَنْكَشَفَ الدُّجَىٰ ... مَرَرْنَ حَوَالَيْنَا وَهُنَّ سَوَانِحُ
سَلَبْنَ النُّهَىٰ لَمَّا تَمَايَلْنَ وَانْثَنَىٰ ... بِحَسْرَتِهِ مِنْهُنَّ غَادٍ وَرَائِحُ
وَمَا صَانَنَا عَنْ سِحْرِهِنَّ سِوَىٰ هَوىً ... بِهِ مُلِئَتْ مِنْ قَبْلِهِنَّ الْجَوَانِحُ

[طيب النكهة يدخل في الموضوع]

وممَّا يتعلَّقُ بطيبِ النَّكهَةِ قولُ جريرٍ [في « ديوانهِ » ٩٩٠] : [مِنَ الكاملِ]

تُجْرِي السِّوَاكَ عَلَىٰ أَغَرَّ كَأَنَّهُ ... بَرَدٌ تَحَدَّرَ مِنْ مُتُونِ غَمَامِ

وقولُ ابنِ الرُّوميِّ وقدِ ادَّعىٰ أَنَّ محبوبَهُ رَوْضُ الحُسْنِ ، وهوَ منقطعُ النَّظيرِ [في « ديوانهِ » ٩٠٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

كَذلِكَ أَنْفَاسُ الرِّيَاضِ بِسَحْرَةٍ ... تَطِيبُ وَأَنْفَاسُ الْوَرَىٰ تَتَغَيَّرُ

وقالَ التِّهاميُّ : [مِنَ البسيطِ]

لَوْ لَمْ يَكُنْ أُقْحُوَاناً ثَغْرُ مَبْسِمِهَا ... مَا كَانَ يَزْدَادُ طِيباً سَاعَةَ السَّحَرِ

وقالَ المعريُّ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَدْ بَلَغَتْ سِنَّ الْكَعَابِ وَقَابَلَتْ ... بِنَكْهَةِ مَعْقُودِ السِّخَابَيْنِ مُرْضَعُ

[من يدق الباب . . يسمع الجواب]

ويذكرُ عَن بعضِ بني أُميَّةَ : أَنَّهُ عابَ على الحسنِ بنِ عليٍّ شيبَ شاربِهِ ، وقالَ إِنَّهُ دليلُ النَّزَقِ[2] ، فقالَ لهُ الحسنُ : كَلاَّ ، ولكنِ النساءُ تتعلَّلُ بأنفاسِنَا ، فيسرعُ إلىٰ شوارِبنا الشيبُ ، وتنصرِفُ نساؤُكُم بأُنوفِها إلىٰ أَصداغِكم ؛ لِبَخَرِكُم ، فيكونُ شيبُكم هناكَ .

---

(١) **جَنَح الظلامُ** : أقبل . **بلا حذا** : حافيةٌ حتىٰ لا يفطنَ إليها أحد . **العُطْل من النساء** : الخالية من الحُلي ، إمَّا لأنها استغنت بجمالها عن الحُلي ، وإمَّا للخوف من أَنْ يُسمَعَ صوتُ الحُلي . **منقبةٌ** : ذاتُ نقاب . **نمَّ** : أعلنَ وباحَ . **الشذا** : ذكاءُ الرائحةِ الطيبةِ .

(٢) **النَّزَقُ** : الخفة والطيش .

[عبد الملك بن مروان كان أبخر يسقط الذباب عن فمه]

وكانَ عبدُ الملكِ أبخرَ ، يسقطُ الذبابُ عَن فمِهِ ؛ ولهـٰذا يُسمَّىٰ [كما في « ثمار القلوب » ٧٥] : أَبَا الذِّبَّانِ .

وكانَت عندَهُ لبابَةُ بنتُ عبدِ اللهِ بنِ جعفرِ ابنِ أَبي طالِبٍ ، فأَكلَ مِن تفَّاحَةٍ ، ورمىٰ بها إِليها ، فأَخرجَت مكانَ فيهِ بالسِّكِّينِ ، وأَكلَتِ الباقِيَ ، فقالَ : ما شأْنُكِ ؟ قالَت : أَلقيتُ عَنها الأذىٰ ، فطلَّقَها ، وتزوَّجَت بعدَهُ بعليِّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ العبَّاسِ ، وكانَ أَصلعَ ، فبعثَ عبدُ الملكِ امرأَةً تكشِفُ رأْسَهُ بحضرتِها ، ففعلَت ، فعرفَت لبابَةُ الْخَبْءَ ، فقالَت لِلْمرأَةِ : قولي لَهُ : أَصلعُ مِنْ بَني عمِّي . . خَيْرٌ مِن أَبْخَرَ مِن بَني أُمَيَّةَ ، فما زالَ يتطلَّبُ العثراتِ لعليٍّ حتَّىٰ جلدَهُ ، وطافَ بهِ علىٰ جَمَلٍ ، ورأْسُهُ مما يلي الذنَبَ .

[البَخَر وما يتعلق به]

وبينا عمرُ بنُ الخطَّابِ يعسُّ ليلةً . . إِذ سمعَ امرأَةً تقولُ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمِنْهُــنَّ مَــنْ تُسْقَــىٰ بِعَــذْبٍ مُبَـرَّدٍ ... نُقَــاخٍ فَتِلْكُــمْ عِنْــدَ ذَلِــكَ قَــرَّتِ[1]

وَمِنْهُــنَّ مَــنْ تُسْقَــىٰ بِـأَخْضَـرَ آجِـنٍ ... أُجَــاجٍ فَلَــوْلاَ خَشْيَــةُ اللهِ فَــرَّتِ

فاستدعىٰ زوجَها ، فإِذا هوَ أَبخرُ ، فخلَعَها منهُ .

وقالَ ابنُ المعتزِّ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنَّ امْــرَأً يَقْــوَىٰ عَلَــىٰ لَثْـمِ ثَغْـرِهِ ... عَلَى الضَّغْطِ وَالتَّعْذِيبِ فِي قَبْرِهِ يَقْوَىٰ

وقالَت أُخرىٰ [كما في « ديوان الحماسة » ٢/٢٢٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَـا جِيفَـةُ الْخِنْـزِيـرِ عِنْـدَ ابْـنِ مُقْـرِبٍ ... قَتَــادَةَ إِلاَّ رِيــحُ مِسْــكٍ وَغَــالِيَــهْ

[ليس كل ما يلمع ذهباً]

وذكرَ ابنُ خلِّكانَ [في « وفيَاتِ الأعيانِ » ٥/ ٣٨٠] : أَنَّهُ كانَ بـ(أَصبهانَ) رجلٌ حسنُ النعمَةِ ، واسعُ النفسِ ، كاملُ المروءَةِ ، يقالُ لَهُ : سِماكُ بنُ النعمانِ ، وكانَ يهوىٰ مغنِّيَةً مِن أَهلِ (أَصبهانَ) ، لَها قَدْرٌ ، تعرفُ بأُمِّ عمرٍو ، فلإفراطِ صبابَتِهِ بِها ، وحبِّهِ لَها . . وهبَها عدَّةً مِن ضِياعِهِ ، وكتَبَ علىٰ نفسِهِ كتباً بذلكَ ، حمَلَها إِليها علىٰ بغلٍ ، فشاعَ الخبرُ ، وتحدَّثَ بهِ الناسُ ، وكَبَّروا الخبرَ ، وكانَ بـ(أَصبهانَ) رجلٌ متجلِّفٌ بيِّنُ الركاكةِ ، يهوىٰ مغنِّيَةً أُخرىٰ ، فلمَّا اتَّصلَ بهِ ذلكَ . . ظنَّ بجهلِهِ وقلَّةِ عقلِهِ أَنَّ سماكاً إِنَّما أَهدىٰ لأُمِّ عمرٍو جلوداً بيضاءَ ، لا كتابَةَ فيها ، وأَنَّ هـٰذا مِنَ الهدايا التي تستحسَنُ ويجلُّ موقعُها عندَ مَن تهدىٰ إِليهِ ، فابتاعَ جلوداً كثيرَةً ، وحملَها إِلىٰ عشيقتِهِ علىٰ بغلينِ ، فلمَّا وصلتْها ووقفَت علىٰ جليَّةِ الأَمرِ . . تغيَّظَتْ عليهِ ، وكتبَت إِليهِ رقعَةً تشتُمُهُ ، وتحلِفُ أَنَّها لا تكلِّمُهُ ، وسأَلَت بعضَ الشعراءِ أَن يعمَلَ لَها أَبياتاً فِي المعنىٰ ، ففعلَ ، وهـٰذِهِ هيَ الأَبياتُ : [مِنْ مجزوءِ الكاملِ]

لاَ عَــادَ طَــوْعُــكَ مَــنْ عَصَــاكَــا ... وَحُــرِمْــتُ مِــنْ وَصْلِــي مُنَــاكَــا

فَلَقَــدْ فَضَحْــتَ الْعَــاشِقِيــنَ ... بِقُبْــحِ مَــا فَعَلَــتْ يَــدَاكَــا

---

(١) النُّقَاخُ : الماءُ الباردُ العذبُ الصافي الخالص ، الذي يَكادُ يَنقخُ الفؤاد ويكسرُهُ ببرده .

أَرَأَيْـتَ مَـنْ يُهْـدِي الْجُلُـو ... دَ إِلَـىٰ عَشِيقَتِـهِ سِـوَاكَـا
وَأَظُـنُّ أَنَّـكَ رُمْـتَ أَنْ ... تَحْكِـي بِفِعْلِـكَ ذَا سِمَـاكَـا
ذَاكَ الَّـذِي أَهْـدَى الضِّيَـا ... عَ لأُمِّ عَمْـرٍو وَالصِّكَـاكَـا
فَبَعَثْـتَ مُنْتِنَـةً كَـأَ ... نَّـكَ قَدْ مَسَحْتَ بِهِـنَّ فَـاكَـا
مَـنْ لِـي بِقُـرْبِـكَ يَـا رَقِيـ ... ـعُ وَلَسْـتُ أَهْـوَىٰ أَنْ أَرَاكَـا
لَكِـنْ لَعَلِّـي أَنْ أُقَـطِّـ ... ـعَ مَـا بَعَثْـتَ عَلَـىٰ قَفَـاكَـا

وأَنشدَ الجوهريُّ لامرأَةٍ مِنَ العرَبِ : [مِنَ البسيطِ]

إِنِّـي بُلِيـتُ بِعِـذْيَـوْطٍ لَـهُ بَخَـرٌ ... يَكَـادُ يَقْتُـلُ مَـنْ نَـاجَـاهُ إِنْ كَشَـرَا[1]

وقالَ آخرُ [كما في « لسان العرب » ٣/١٢٨] : [مِنَ البسيطِ]

نَكِهْـتُ مُجَـالِـداً فَشَمَمْـتُ مِنْـهُ ... كَـرِيـحِ الْكَلْـبِ مَـاتَ قَـرِيـبَ عَهْـدِ[2]
فَقُلْـتُ لَـهُ : مَتَـى اسْتَحْـدَثْـتَ هَـٰذَا ؟ ... فَقَـالَ : أَصَـابَنِـي فِـي جَـوْفِ مَهْـدِي

وقد مرَّ كثيرٌ ممَّا يتَّصِلُ بموضوعِ النكهَةِ والطيبِ ، عندَ الكلامِ علىٰ **قولِهِ** [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٦٤] : [مِنَ البسيطِ]

يُجَـنُّ شَـوْقـاً فَلَـوْلاَ أَنَّ رَائِحَـةً ... تَـزُورُهُ مِـنْ رِيَـاحِ الشَّـرْقِ مَـا عَقَـلاَ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٨] :

وَتَفُـوحُ مِـنْ طِيـبِ الثَّنَـاءِ رَوَائِـحٌ ... لَهُـمُ بِكُـلِّ مَكَـانَـةٍ تُسْتَنْشَـقُ

* * *

---

(١) **العِذْيُوطُ** : الذي إذا أتىٰ أهلَه أبْدَىٰ ، أي : سَلَحَ أو أَكْسَلَ .
(٢) **نكِهْتُه** : أي تشَمَّمْتُ ريحه .



المجلس السادس عشر

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٣٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَا جَلَسَتْ حَتَّى انْثَنَتْ تُوسِعُ الْخُطَا　　كَفَاطِمَةٍ عَنْ دَرِّهَا قَبْلَ تُرْضِعُ

[السرعة في التوديع]

المعنىٰ ظاهرٌ[١] ، وقد سبقَ ما يتعلَّقُ بهِ في المجلسِ الأَوَّلِ ، عندَ **قولِهِ** [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٧٩] : [مِنَ الخفيفِ]

فَافْتَرَقْنَا حَوْلاً وَلَمَّا الْتَقَيْنَا　　كَانَ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ وَدَاعَا

[الطباع البشرية غريبة]

ونقولُ هُنا : إنَّ الزائرَ ربَّما يتعمَّدُ تركَ الإطالَةِ ؛ لإفضائِها إلى الملالَةِ ، وقد قالَ الخوارزميُّ [في « ديوانه » ٣٨٢] :

[مِنَ الوافرِ]

وَمَا بِي فِيكَ مِنْ زُهْدٍ وَلَكِنْ　　أُخَفِّفُ عَنْكَ أَعْبَاءَ الْمَلاَلِ

وقالَ ابنُ المقفَّعِ ـ ما معناهُ ـ : إذا أَقبلَ عليكَ إنسانٌ ، فسرَّكَ أَن لا يدبرَ عنكَ يوماً ما . . فَلا تُنعِمِ الإقبالَ عليهِ ، والتفتُّحَ لَهُ ، فإِنَّ الناسَ قد اندمجوا علىٰ طبائعِ لُؤْمٍ ، يفرُّونَ عمَّن قَرُبَ مِنهم ، ويلصقونَ بِمن هَرَبَ عَنهم .

[كثرة إلف الإنسان للشيء . . تذهب هيبته من قلبه]

وكانَ ابنُ الخطَّابِ يضرِبُ الناسَ على الإِقامَةِ بعدَ الحجِّ ، ويقولُ : أَخافُ أَن يأْنَسَ الناسُ بهٰذا البيتِ ، فتسقطَ هيبَتُهُ مِن قلوبِهِم .

وما اتخذَتِ الملوكُ الحجَّابَ . . إلاَّ حفظاً للهيبَةِ ؛ فإِنَّ أَجرأَ الناسِ على السباعِ الرعاةُ ؛ لِكثرَةِ ما يرونَها .

وكانَ ابنُ عمرَ يَطوي السهوبَ ، ويقطَعُ العُقابَ[٢] إلى (المدينَةِ) ثم ينيخُ راحلتَهُ نضواً ببابِ المسجِدِ ، ويحيِّيهِ ، ثمَّ يقومُ تجاهَ القبرِ الأَعطرِ ، ويقولُ [بنحوه في « الطبقات الكبرىٰ » ٤/ ١٥٦] : السلامُ عليكَ يا رسولَ اللهِ ، السلامُ عليكَ يا أَبا بكرٍ ، السلامُ عليكَ يا أَبَتِ ، ثمَّ ينصرفُ ، ويركَبُ مِن فورِهِ .

[من نوادر الأعمش]

ومرضَ الأَعمشُ فجاءَهُ أَبو حنيفَةَ يعودُهُ ، ثمَّ قالَ لهُ : نخشىٰ أَن نكونَ ثقَّلْنا عليكَ ، قالَ لَهُ : واللهِ لأَنْتَ ثقيلٌ عليَّ وأَنتَ في دارِكَ ، وما بِأَحدِ الإمامَين بغضَةٌ ولا ثقلُ ظلٍّ ، وَلَكِنَّ الأَعمشَ ذهبَ إِلى التندُّرِ والتظرُّفِ ، والإِشارَةِ إِلىٰ

---

(١) أي هي في سرعة توديعها كمن فطمت ولدها قبل أن ترضعه .

(٢) **العُقابُ** : المرقىٰ في عرضِ الجبلِ .



تفرُّدِ أَبي حنيفَةَ بالفضْلِ تفرُّداً يثقلُ علىٰ أَقرانِهِ ـ وهوَ مِنهُم ـ احتمالُهُ .

ويذكرُ : أَنَّهُ حلفَ بطلاقِ امرأَتِهِ إِن أَخبرَتْهُ بنفادِ الدقيقِ ، أَو كَتَبَتْ إِليهِ ، أَو بعثَتِ الخادِمَ يخبرُهُ ، فاستَفْتَتْ أَبا حنيفَةَ ؟ فقالَ لَها : إِذا نامَ . فاربطِي بذيلِهِ كيسَ الدقيقِ ؛ حتَّىٰ يعرفَ أَنَّهُ فرغَ ، مِن غيرِ أَن تطلقي ، ففعلَت ، فعرفَ أَنَّها مِن كيسِ أَبي حنيفَةَ ، فقالَ : قاتلَهُ اللهُ ، لقد فضَحَنا حتَّىٰ عندَ أَزواجِنا .

[من نوادر الشعبي]

وقد ذكرنا في غيرِ هٰذا المجلسِ عَنِ الشَّعبيِّ : أَنَّهُ مرَّ برجلٍ في إِبلٍ لَهُ جَرباءَ ، فقالَ لَه : أَلا تعالِجُها ؟ قالَ : لاَ ، وإِنَّما لَنا عجوزٌ نتكِلُ علىٰ دعائِها ، فقالَ : اجعلْ مَعَ دعائِها شيئاً مِنَ القَطِرانِ .

ومرَّ بقصَّارٍ يقولُ [في « المستطرف » ١/ ٢٢٣] : (فُتِنَ الشَّعْبيُّ لَمَّا) ويقفُ ، فجاءَ إِليهِ ، وما زالَ يكرِّرُ عليهِ الأَبياتَ حتَّىٰ حفظَها .

ومِن نوادِرِهِ : أَنَّهُ مرضَ ، فأَبرمَهُ العوَّادُ بالسؤَالِ عَن مرضِهِ وسببِهِ ، فلَم يكنْ منهُ إِلاَّ أَن كتَبَ رقعةً ، شرحَ فيها القصَّةَ ، وعلَّقَها فوقَ رأْسِهِ ، فإِذا سُئِلَ بعدَ ذلكَ . قالَ للسائِلِ : اقرأْ ما في الورَقَةِ .

[زيارة المريض]

ويروىٰ : أَنَّ سلمَةَ بنَ عاصمٍ دخلَ على الفرَّاءِ يعودُهُ ، فأَبرمَهُ ، وأَلحفَ في السؤَالِ ، فأَنشَدَ الفرَّاءُ [الأبيات في « المستطرف » ٢/ ٥٧١] : [مِنَ البسيطِ]

حَــقُّ الْعِيَــادَةِ يَــوْمٌ بَيْــنَ يَــوْمَيْــنِ وَخِلْسَــةٌ مِثْــلُ لَحْـظِ الطَّـرْفِ بِـالْعَيْـنِ
لاَ تُبْـرِمَــنَّ مَــرِيضـاً فِـي مُسَـاءَلَـةٍ يَكفِيـكَ مِــنْ ذَاكَ تَسْـآلٌ بِحَـرْفَيْـنِ

[الكُلْفة تُذهب الألفة]

ومِن أَمثالِهِ تعرفُ اطِّراحَ السلفِ للحشمَةِ ، وبراءَتَهم مِن التكلُّفِ والتنطُّعِ ، وسيرَهُم بسَوقِ الطبيعَةِ ، وإِنَّ أَحدَهم لخليقٌ بقولِ الناظِمِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٨٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَفَكُّــرُهُ عِلْــمٌ وَسِيــرَتُــهُ هُــدىً وَبَــاطِنُــهُ دِيــنٌ وَظَــاهِــرُهُ ظَــرْفُ[1]

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٧٥] : [مِنَ الوافرِ]

يَــرُوعُ رَكَــانَــةً وَيَــذُوبُ ظَــرْفـاً فَمَــا تَــدْرِي : أَشَيْــخٌ أَمْ غُــلاَمٌ ؟[2]

وترى المترسمينَ مِن أَبناءِ زمانِنا يتوقَّرونَ في مجالِسِهم ، ويتنزَّهونَ عَن كثيرٍ ممَّا يفعلُهُ السلفُ الطَّيِّبُ ، وقلوبُهم أَفاحيصُ الأَحقادِ ، وأَوكانُ الأَحسادِ[3] .

وسُئِلَ النَّخعيُّ [بنحوه في « المستطرف » ٢/ ٥٠٢] : أَكانَ أَصحابُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يمزحونَ ؟ قالَ : نعم ،

---

(١) بفتح الظاء الكياسة قال في « تاج العروس » : وبعض المتشدقين يضمون الظاء فرقاً بينه وبين الظَّرف للوعاء ، وهو غلطٌ محضٌ لا قائل به .

(٢) يروعُ : يفزعُ ، الركانةُ : الوقارُ .

(٣) المفحصُ : هو مجثمُ القطاةِ ؛ لأنَّها تفحصهُ . والوَكْنُ : عشُّ الطائرِ .

والإيمانُ في قلوبِهِم مثلُ الجبالِ الرواسي ، وكانُوا يتمازحونَ[1] ، فإذا خاضوا في الدِّينِ . . انقلبَتْ حماليقُهُم .

وقالَ بعضُهم : لَنا في الدعابَةِ مذهَبٌ جميلٌ ، يخرجُ بِنا مِن العبوس ، ويلحِقُنا بأَحرارِ الناسِ ، الذينَ ارتفقوا عَنْ لَبسةِ الرياءِ ، وأَنفوا مِنَ التشوُّفِ بالتصنُّعِ .

وللهِ درُّ الناظِمِ في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٢٠] : [مِنَ المنسرحِ]

أَفْضَلُ مَا يُطْلَبُ النَّجَاحُ بِهِ الطَّبْـ ـعُ وَعِنْدَ التَّعَمُّقِ الزَّلَلُ[2]

وقالَ محمَّدُ بنُ كناسَةَ [في « البيان والتبيين » ١/ ٥٤٦] : [مِنَ المنسرحِ]

فِيَّ انْقِبَاضٌ وَحِشْمَةٌ فَإِذَا | لَقِيتُ أَهْلَ الْوَفَاءِ وَالكَرَمِ
أَرْسَلْتُ نَفْسِي عَلَىٰ سَجِيَّتِهَا | وَقُلْتُ مَا قُلْتُ غَيْرَ مُحْتَشِمِ

وهما بيتانِ يغبطُهُ عليهِما إِسحاقُ بنُ إِبراهيمَ الموصليُّ ، والغبطَةُ مِن حيثُ المعنىٰ لا مِن حيثُ اللفظُ ؛ فإِنَّهما ليسا منهُ في الذروَةِ .

[زر غباً . . تزدد حباً]

ويتَّصلُ بالموضوعِ قولُهُ صلى الله عليه وسلم : « زُرْ غِبّاً . . تَزْدَدْ حُبّاً »[3] .

وقيلَ [في « مجمع الأمثال » ١/ ٣٢٢] : إِنَّ أَوَّلَ مَن قالَهُ معاذُ بنُ صرمٍ الخزاعيُّ ، وكانَت أُمُّهُ مِن علكَّ ، وكانَ فارسَ خزاعَةَ ، وكانَ يكثرُ زيارَةَ أَخوالِهِ ، فاستعارَ منهم فرساً سابقَ عليهِ جحيشَ بنَ سودَةَ على المخاطرَةِ ، فسبقَهُ وأَخذَ فرسَهُ ، ولمَّا أَخذَهُ . . أَرادَ أَن يزيدَ في إِغاظَةِ جحيشٍ ـ وكانَ لَهُ عدوّاً ـ فنحرَهُ ، فقالَ لَه جحيشٌ : قتلْتَ ـ لاَ أُمَّ لَكَ ـ فَرساً خيراً مِنكَ ومِن أَبيكَ ، فقتلَهُ ، ولحقَ بأَخوالِهِ ، فركبَ في طلبِهِ أَخو جحيشٍ وابنُ عمِّهِ ، فقتلَهُما ، وقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

قَتَلْتُ جُحَيْشاً بَعْدَ قَتْلِ جَوَادِهِ | وَكُنْتُ قَدِيماً فِي الْحَوَادِثِ ذَا فَتْكِ
وَجُدْتُ لِعَمْرٍو بَعْدَ بَدْرٍ بِضَرْبَةٍ | فَخَرَّا كَمَا خَرَّ الْعَقِيرُ مِنَ النُّسْكِ[4]

وأَقامَ في أَخوالِهِ زماناً ، ثمَّ اختصمَ معَ بعضِهِم في صيدٍ اصطادوهُ ، فقالَ لَهُ ابنُ خالِهِ : لَو كانَ فيكَ خيرٌ . . لَمَا تركَكَ قومُكَ ، فقالَ معاذٌ : زُرْ غِبّاً . . تَزدَدْ وِدّاً ، ثمَّ أَتىٰ قومَهُ ، فأَرادَ أَهلُ القتلىٰ أَن يأْخذوا منهُ بثأْرِهِم ، فقالَ لَهم قومُهم : لا تقتُلوا فارسَكُم وإِنْ ظَلَم ، فقبِلوا منهُ الدياتِ .

وقد قيلَ [في « مجمع الأمثال » ١/ ٢٢٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا شِئْتَ أَنْ تُقْلَىٰ فَزُرْ مُتَوَاتِراً | وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَزْدَادَ حُبّاً فَزُرْ غِبَّا

---

(١) والمعروف : أنهم كانوا يتبادحون ؛ أي : يترامَون . والرواية عن بكر بن عبد الله : « يتمازحون ويتبادحون بالبطيخ ، فإذا جاءت الحقائق كانوا هم الرجال » اهـ « النهاية » ابن الأثير .

(٢) المعنىٰ : إذا فعلَ الإنسانُ الشيءَ بعادتِهِ وجدَ النجاحَ فيهِ ، وإذا بالغَ وتعمَّقَ . . أخطأَ وزلَّ .

(٣) أخرجه عن حبيب بن مسلمة الفهري الحاكمُ في « المستدرك » (٣/ ٣٩٠) وفي الباب :
عن أبي هريرة رضي الله عنه عند البزار والطبراني في « الأوسط » والبيهقي في « الشعب » ، وعن ابن عمرو عند الطبراني في « الكبير » و« الأوسط » وعن عائشة عند الخطيب في « التاريخ » .

(٤) العقيرُ : المعقورُ ، وهوَ المذبوحُ مِنَ النَّعَم التي تُهْدَىٰ في مناسكِ الحجِّ .

وقالَ آخرُ [في « مجمع الأمثال » ١/٢٢٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

عَلَيْـكَ بِـإِغْبَـابِ الـزِّيَـارَةِ إِنَّهَـا ... إِذَا كَثُـرَتْ كَـانَـتْ إِلَـى الْهَجْـرِ مَسْلَكَـا
أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الْغَيْـثَ يُسْـأَمُ دَائِمـاً ... وَيُسْـأَلُ بِـالأَيْـدِي إِذَا هُـوَ أَمْسَكَـا

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/٢٤٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَطُـولُ مُقَـامِ الْمَـرْءِ فِـي الْحَـيِّ مُخْلِـقٌ ... لِـدِيبَـاجَتَيْـهِ فَـاغْتَـرِبْ تَتَجَـدَّدِ
فَـإِنِّـي رَأَيْـتُ الشَّمْـسَ زِيـدَتْ مَحَبَّـةً ... إِلَـى النَّـاسِ أَنْ لَيْسَـتْ عَلَيْهِـمْ بِسَـرْمَـدِ

[المحبون أقسام]

ثمَّ المحبونَ علىٰ أَقسامٍ :

[١ـ قسم ساقط]

أَمَّا أَهلُ الدعاوي الساقطَةِ ، والأَغراضِ السافلَةِ ، والشهوات البهيميَّةِ : فلا يحصلُ منهمُ الميلُ إلاَّ قبلَ النيلِ ، ثمَّ يحدُثُ عندَهمُ الْمللُ لأَدنىٰ عارِضٍ يخالِفُ الهوىٰ ، وقد قالَ أَسماءُ بنُ خارجَةَ الفزاريُّ ـ وتمثَّلَ بهِ القاضي شريحٌ ، وأَخطأَ مَن ينسبُهُما للشافعيِّ ـ [في « جمهرة خطب العرب » ٢/٥٠٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

خُـذِي الْعَفْـوَ مِنِّـي تَسْتَـدِيمِـي مَـوَدَّتِـي ... وَلاَ تَنْطِقِـي فِـي سَـوْرَتِـي حِيـنَ أَغْضَـبُ
فَـإِنِّـي رَأَيْـتُ الْحُـبَّ فِـي الْقَلْـبِ وَالأَذَىٰ ... إِذَا اجْتَمَعَـا لاَ يَلْبَـثُ الْحُـبُّ يَـذْهَـبُ

[٢ـ قسم متوسط]

وأَمَّا أَهلُ السِّطَةِ في المحبَّةِ[١] : فكَما قالَ ابنُ المرحِّلِ الأَندلسيُّ : [مِنَ الرَّمَلِ]

لَـوْ يَكُـونُ الْحُـبُّ وَصْـلاً كُلُّـهُ ... لَـمْ تكُـنْ غَـايَتُـهُ إِلاَّ الْمَلَـلْ
أَوْ يَكُـونُ الْحُـبُّ هَجْـراً كُلُّـهُ ... لَـمْ تكُـنْ غَـايَتُـهُ إِلاَّ الْكَلَـلْ
إِنَّمَـا الْـوَصْـلُ كَمِثْـلِ الْمَـاءِ لاَ ... يُسْتَطَـابُ الْمَـاءُ إِلاَّ بِـالْعَلَـلْ[٢]

[٣ـ قسم صادق]

وأَمَّا أَهلُ المحبَّةِ الصادقَةِ : فإِنَّهم كَما قالَ الأَحوصُ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا قُلْـتُ : إِنِّـي مُشْتَـفٍ بِلِقَـائِهَـا ... فَمِـمَّ التَّـلاَقِـي زَادَ مَـا بَيْنَنَـا وَجْـدَا ؟!

[المحب دائماً جائع لا يشبع من محبوبه ولا من وصله]

وقالَ عروةُ بنُ أُذينَةَ [في « ديوانهِ » ١٢٣] : [مِنَ البسيطِ]

لاَ بُعْدُ سَعْدَىٰ مُرِيحِي مِنْ جَوَىٰ سَقَمٍ ... يَـوْمـاً وَلاَ قُـرْبُهَـا إِنْ حُـمَّ يَشْفِينِـي

---

(١) **السِّطَةُ** : التوسط .

(٢) **العَلَلُ** : محركة الشَّربة الثانية ، أو الشرب بعد الشرب تباعاً .

ووضَّحَهُ ابنُ الرُّوميِّ في قولِهِ [في « ديوانه » ٦/ ٢٤٧٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

أُعَانِقُهُ وَالنَّفْسُ بَعْدُ مَشُوقَةٌ ... إِلَيْهِ وَهَلْ بَعْدَ الْعِنَاقِ تَدَانِي ؟
وَأَلْثُمُ فَاهُ كَيْ تَزُولَ حَرَارَتِي ... فَيَشْتَدُّ مَا أَلْقَىٰ مِنَ الْهَيَمَانِ
كَأَنَّ فُؤَادِي لَيْسَ يَشْفِي غَلِيلَهُ ... سِوَىٰ أَنْ تَرَى الرُّوحَانِ يَمْتَزِجَانِ

وقالَ آخرُ : [مِنَ البسيطِ]

وَكِدْتُ وَهْوَ ضَجِيعِي أَنْ أَقُولَ لَهُ ... مِنْ شِدَّةِ الْحُبِّ : قَدْ أَبْعَدْتَ فَاقْتَرِبِ

وقالَ قاضي القضاةِ ابنُ جماعَةٍ [في « طبقات ابن السبكي » ٩/ ١٤٢] : [مِنَ الوافرِ]

أَحِنُّ إِلَىٰ زِيَارَةِ حَيِّ لَيْلَىٰ ... وَعَهْدِي مِنْ زِيَارَتِهَا قَرِيبُ
وَكُنْتُ أَظُنُّ قُرْبَ الْعَهْدِ يُطْفِي ... لَهِيبَ الشَّوْقِ فَازْدَادَ اللَّهِيبُ

ويقربُ مِن هـٰذا قليلاً **قولُ الناظمِ** [في « العُكبَريّ » ١/ ١٣٦] : [مِنَ الوافرِ]

سَأَمْضِي وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ مِنِّي ... مَغِيبِي لَيْلَتِي وَغَداً إِيَابِي

وقالَ بشَّارٌ يصفُ شدَّةَ العناقِ [في « ديوانه » ٤/ ٧٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

خَلَوْتُ بِهَا لاَ يَخْلُصُ الْمَاءُ بَيْنَنَا ... إِلَى الصُّبْحِ دُونِي حَاجِبٌ وَسُتُورُ

فأَخذهُ ابنُ الجهمِ فقالَ [في « ديوانه » ٩٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ رُبَّ لَيْلٍ ضَمَّنَا بَعْدَ هَجْعَةٍ ... وَأَدْنَىٰ فُؤَاداً مِن فُؤَادٍ مُعَذَّبِ
وَبِتْنَا جَمِيعاً لَوْ تُرَاقُ زُجَاجَةٌ ... مِنَ الرَّاحِ فِيمَا بَيْنَنَا لَمْ تَسَرَّبِ

وقالَ آخرُ : [مِنَ البسيطِ]

لاَ وَالْمَنَازِلِ مِنْ نَجْدٍ وَلَيْلَتِنَا ... بِالْغَوْرِ إِذْ جَسَدَانَا بَيْنَنَا جَسَدُ
كَمْ رَامَ فِينَا الْكَرَىٰ مِنْ لُطْفِ مَسْلَكِهِ ... نَوْماً فَمَا انْفَكَّ لاَ خَدٌّ وَلاَ عَضُدُ

[لا توصِ حريصاً في تخفيف الزيارة]

ويحكىٰ : أَنَّ يحيىٰ بنَ معاذٍ الرازيَّ كتبَ إِلىٰ أَبي يزيدَ البسطاميِّ يقولُ لهُ : سكرتُ مِن كثرَةِ ما شربْتُ مِن كأْسِ محبَّتِهِ، فكتبَ إِليهِ أَبو يزيدَ : قد شربَ غيرُكَ البحارَ مِنها ، فلَم يَرْوَ ، ولَم يزَل لسانُهُ مندلعاً ، يقولُ : هَل مِن مزيدٍ ؟

وأَنشدوا : [مِنَ الوافرِ]

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ : ذَكَرْتُ إِلْفِي ... وَهَلْ أَنْسَىٰ فَأَذْكُرُ مَا نَسِيتُ ؟
أَمُوتُ إِذَا ذَكَرْتُكِ ثُمَّ أَحْيَا ... فَكَمْ أَحْيَا عَلَيْكِ وَكَمْ أَمُوتُ
شَرِبْتُ الْحُبَّ كَأْساً بَعْدَ كَأْسٍ ... فَمَا نَفِدَ الشَّرَابُ وَلاَ رَوِيتُ

وقولُهُ (أَمُوتُ إِذَا ذَكَرْتُكِ . . . إِلىٰ آخر البيت) قد يشبهُ قولَ امرىءِ القيسِ [في « ديوانه » ١١٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلَـوْ أَنَّهَـا نَفْـسٌ تَمُـوتُ سَـوِيَّـةً ... وَلَكِنَّهَـا نَفْـسٌ تَسَـاقَـطُ أَنْفُسَـا

لكنَّ الفرقَ كبيرٌ ، والبونَ بعيدٌ ، وقد علمَ كُلُّ أُناسٍ مشربَهم ، وما قرَّرناهُ مِن انقسامِ الأَحبابِ إِلىٰ ثلاثةِ أَقسامٍ هوَ ما جاءَ في قولِ بعضِهم [في « لسان العرب » ١٠/٣٤٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

ثَـلاَثَـةُ أَحْبَـابٍ : فَحُـبُّ عَـلاَقَـةٍ ... وَحُـبُّ تِمِـلاَّقٍ وَحُـبٌّ هُـوَ الْقَتْـلُ

ويحكىٰ : أَنَّ شيخاً وقفَ ببابِ المهديِّ ، فقالَ لحاجبهِ : انظرْ مَن بِالبابِ ، وما حاجتُهُ ؟ قالَ : لا أَذكُرُ حاجَتي إِلاَّ بينَ يدي أَميرِ المؤْمنينَ ، فطالَعَهُ بقولِهِ ، فقالَ : أَدخِلْهُ ، ومُرهُ فليخفِّفْ ، فدخلَ ، وسلَّمَ ، ثمَّ قالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا شِئْـتَ خَفَّفْنَـا فَكُنَّـا كَـرِيشَـةٍ ... مَتَىٰ تُلْقِهَا الأَنْفَاسُ فِي الْجَوِّ تَـذْهَـبُ

وَإِنْ شِئْـتَ سَلَّمْنَـا فَكُنَّـا كَـرَاكِـبٍ ... مَتَىٰ يَقْـضِ حَقّـاً مِـنْ سَـلاَمِـكَ يَعْـزُبُ[1]

وَإِنْ شِئْـتَ ثَقَّلْنَـا فَكُنَّـا كَصَخْـرَةٍ ... مَتَىٰ تُلْقِهَـا فِـي حَـوْمَـةِ الْبَحْـرِ تَـرْسُـبُ

فضحكَ المهديُّ ، وقالَ لهُ : بَل تكرمُ وتقضىٰ حاجتُكَ ، ووصلَهُ بعشَرَةِ آلافِ درهَمٍ .

وقد أَلَمَّ بِهِ النّاظِمُ في قولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ١/١٩٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

أُخِـفُّ سَـلاَمِـي حُـبَّ مَـا خَـفَّ عِنْـدَكُـمْ ... وَأَسْكُـتُ كَيْمَـا لاَ يَكُـونَ جَـوَابُ

وَفِـي النَّفْـسِ حَـاجَـاتٌ وَفِيـكَ فَطَـانَـةٌ ... سُكُـوتِـي بَيَـانٌ عِنْـدَهَـا وَخِطَـابُ

[أبو عبيدة النحوي والفضل بن الربيع]

وقدمَ أَبو عبيدةَ النحويُّ على الفضلِ بنِ الربيعِ ، فقالَ لهُ [في « وفيات الأعيان » ٥/٢٤٠] : مَن أَشعرُ النّاسِ ؟ قالَ : الراعي . قالَ : وكيفَ فضَّلْتَهُ علىٰ غيرِهِ ؟ قالَ : لأَنَّهُ وردَ علىٰ سعيدِ بنِ عبدِ الرحمـٰنِ الأُمويِّ ، فوصلَهُ في يومِهِ ، وصرفَهُ فيهِ ، فقالَ يصفُ حالَهُ معَهُ [في « ديوانه » ٨١] : [مِنَ الوافرِ]

وَأَنْضَـاءٍ تَحِـنُّ إِلَـىٰ سَعِيـدٍ ... طَـرُوقـاً ثُـمَّ عَجَّلْـنَ ابْتِكَـارَا

حَمِـدْنَ مَنَـاخَـهُ وَأَصَبْـنَ مِنْـهُ ... عَطَـاءً لاَ قَلِيْـلَ وَلاَ ضِمَـارَا[2]

فقالَ لهُ الفضلُ : ما أَحسنَ ما اقتضيتَنا ، ثمَّ استخرَجَ لَهُ صلَةً مِنَ الرشيدِ ، وشيئاً مِن مالِهِ ، وصرفَهُ مِن يومِهِ .

[أهنأ البر عاجله]

وهيَ شبيهَةٌ بِما فعلَ مروانُ بنُ أَبي حفصَةَ [في « وفيات الأعيان » ٥/١٨٩] فقد وردَ على المهديِّ بقصيدَةٍ يقولُ لهُ فيها ـ ما قد ذكرناهُ في غيرِ هـٰذا المجلسِ وهوَ ـ [في « ديوانه » ٩٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِلَيْـكَ قَصَـرْنَـا النِّصْـفَ مِـنْ صَلَـوَاتِنَـا ... مَسِيـرَةَ شَهْـرٍ بَعْـدَ شَهْـرٍ نُـوَاصِلُـهْ

وَمَـا نَحْـنُ نَخْشَـىٰ أَنْ يَخِيـبَ مَسِيـرُنَـا ... إِلَيْـكَ وَلَكِـنْ أَهْنَـأُ الْبِـرِّ عَـاجِلُـهْ

---

(١) يعزُبُ : يبعُدُ .

(٢) الضمارُ : ما يرجىٰ من الدينِ والوعدِ وكلُّ ما لا تكونُ منهُ علىٰ ثقةٍ .

فضحكَ المهديُّ ، وأَمرَ لكلِّ بيتٍ بأَلفِ درهَمٍ ، فبلَغت سبعينَ .

وقالَ أَبو عبادَةَ : [مِنَ الكامل]

عَجَّلْتَ رِفْدَهُمُ وَأَفْضَلُ نَائِلٍ ... حُيِّيَ الْوُفُودُ بِهِ الْهَنِيءُ الْمُعْجَلُ

[عبد الله بن علي العولقي وأحد الشيوخ]

وقدمَ أَحدُ مشايخِ القبائِلِ على الأَميرِ عبدِ اللهِ بنِ عليٍّ العَولَقِيِّ في مجلسِ حفلِهِ ، فقالَ لهُ : ما شأْنُكَ ؟ قالَ : شيبَهْ ، قصدَ شيبَهْ ، بغىٰ شيبهْ ، قالَ لهُ : قد أَمرتُ لكَ بثلاثةٍ ، أَحدُها : طلبُكَ ، والثاني : هديَّتُكَ ، والثالثُ : نفقةُ الطريقِ ، وصرَفَهُ مِن يومِهِ ، و(الشيبَةُ) في عرفِهم هوَ الأَلفُ .

[لا تتدلل علىٰ أحبابك فتخسر يا ملك الزمان]

ويروىٰ [بنحوه في « الأغاني » ٥/٢٥٢] : أَنَّ الرشيدَ غاضَبَ إِحدىٰ حظاياهُ ، وهيَ ماردةٌ ، واتسعَت شقَّةُ الخلافِ ، وأَعيَا التدارُكُ ، حتَّىٰ جاءَ يحيىٰ بنُ خالدٍ إِلى العبَّاسِ بنِ الأَحنفِ ، وبقرَ لَهُ الحديثَ ، وقالَ لَهُ : إِنَّ الأَمرَ أَعياني مِنْ قِبَلِهما ، هـٰذا يعتزُّ بالمُلكِ ، وتلكَ تتشبَّثُ بدلالِ الجمالِ ، والرشيدُ أَولىٰ بأَنْ تستخفَّهُ الصبابَةُ ، فقلْ ما تسهِّلُ بهِ طريقَ الصلحِ ، فقالَ [في « ديوانه » ٢٨] : [مِنَ الكامل]

صَدَّتْ مُغَاضِبَةً وَصَدَّ مُغَاضِباً ... فَكِلاَهُمَا مِمَّا تَجَنَّىٰ مُغْضَبُ

إِنَّ التَّجَنُّبَ إِنْ تَطَاوَلَ مِنْكُمَا ... دَبَّ السُّلُوُّ لَهُ فَعَزَّ الْمَطْلَبُ

رَاجِعْ أَحِبَّتَكَ الَّذِينَ هَجَرْتَهُمْ ... إِنَّ الْمُتَيَّمَ قَلَّمَا يَتَجَنَّبُ

فَأَلقاها يحيىٰ إِلى الرشيدِ ، فقالَ : ما رأَيتُ شعراً أَشبَهَ منهُ بحالِنا ، ولكأَنِّي مقصودٌ بهِ ، قالَ يحيىٰ : نعم ، قالَها العبَّاسُ بنُ الأَحنفِ : في شأْنِكَ ، فقالَ الرشيدُ : هاتِ نَعلي يا غلامُ ، واستخفَّهُ الأَمرُ أَن يأْمُرَ بشيءٍ للعبَّاسِ ، ولمَّا دخلَ علىٰ ماردَةَ . سأَلتْهُ عَنْ سببِ رضاهُ ، فأَخبرَها ، فقالَت : بِماذا كوفِىءَ العبَّاسُ ؟ قالَ : ما فعلْتُ شيئاً ، قالَتْ : واللهِ لا جلَسْتَ حتَّىٰ تعجِّلَ لَهُ جائزتَهُ ، فأَمر لَهُ بمالٍ جزيلٍ ، تأَثَّلَ بهِ عقاراً ، في حديثٍ طويلٍ ، وموضعُ الشاهِدِ مِنَ البيتِ الثاني ، معَ تعجيلِ الجائزَةِ .

[لا تتشبث بالملك]

وذكرتُ بهـٰذا ما لا يتعلَّقُ بالموضوعِ ، ولكنْ لا بأْسَ بذكرِهِ ؛ تمهيداً للبيتِ الآتي ، وهوَ أَنَّ امرأَةَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ غضبَتْ عليهِ ، فتبعتْها نفسُهُ ، ولَم ينتفِعْ بأَمرِهِ ، وأَعياهُ رِضاها ، وأَخذتْهُ العزَّةُ أَن يخضَعَ لَها ، فقالَ لَهُ أَحدُ العرَبِ : أَتأْذَنُ لي أَنْ أُكلِّمَها ؟ فقالَ : نعم ، فاستأْذَنَ عليها وهوَ يبكي ، قالَت لَهُ : ما شأْنُكَ ؟ قالَ : إِنَّ لِيَ ابنينِ ، عَدا أَحدُهما على الآخرِ فقتلَهُ ، فزعمَ الخليفةُ أَنَّهُ قاتلٌ القاتِلَ ، فقلتُ : أَنا وليُّ الدَّمِ ، وقد عفوتُ ، فلم يجبْ إِلىٰ شيءٍ ممَّا قلتُ لَهُ ، وما بقيَتْ لِيَ حيلَةٌ سواكِ ، ثم أَخذَ في النحيبِ حتَّىٰ رقَّت لَهُ ، وبكَت من بكائِهِ ، وقالَت : إِنِّي لا أُكلِّمُهُ منذُ أَيَّامٍ ، فقالَ لَها : وَلَكِنَّها نفوسٌ ستُحْيِينها ، واللهُ يقولُ : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] ، فتهيَّأَتْ ، ولَم يشعُرْ إِلاَّ والخُصُّ يؤذِنُهُ بدخولِها ، فكانَ ما كانَ . ومنهُ تعرفُ حالَةَ القومِ ، وتستطلِعُ عوائِدَهم ، وتستقرِىءُ طباعَهم .





[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٣٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَىٰ عَلَى الْقُرْبِ وَالنَّوَىٰ ... فَمَا عَاشِقٌ مَنْ لاَ يَذِلُّ وَيَخْضَعُ

[التذلل للحبيب هو العز والسعادة]

سنَّةُ العشَّاقِ الخضوعُ ، وإِرسالُ الدموعِ ؛ ولهـٰذا قالَ النابغَةُ الجَعْديُّ ـ أَو زفرُ بنُ الحارثِ ، على اختلافِ الروايَةِ ـ [النابغة الجعديُّ في « ديوانهِ » ٨٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَرَدَّيْتُ ثَوْبَ الذُّلِّ يَوْمَ لَقِيتُهَا ... وَكَانَ رِدَائِي نَخْوَةً وَتَجَبُّرَا

وقالَ أَبو نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٥٨٠] : [مِنَ المديدِ]

سُنَّةُ الْعُشَّاقِ وَاحِدَةٌ ... فَإِذَا أَحْبَبْتَ فَاسْتَكِنِ

وقالَ ابنُ الأَحنفِ [في « ديوانهِ » ٢٥١] : [مِنَ المنسرحِ]

لاَ بُدَّ لِلْعَاشِقِ مِنْ وَقْفَةٍ ... تَكُونُ بَيْنَ الْوَصْلِ وَالصَّرْمِ

حَتَّىٰ إِذَا الْهَمُّ تَمَادَىٰ بِهِ ... رَاجَعَ مَنْ يَهْوَىٰ عَلَىٰ رُغْمِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢٤٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَحَمَّلْ عَظِيمَ الذَّنْبِ مِمَّنْ تُحِبُّهُ ... وَإِنْ كُنْتَ مَظْلُوماً . . فَقُلْ : أَنَا ظَالِمُ!

فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَحْمِلِ الذَّنْبَ فِي الْهَوَىٰ ... يُفَارِقْكَ مَنْ تَهْوَىٰ وَأَنْفُكَ رَاغِمُ!

وقالَ عروةُ [بن حزام في « ديوانهِ » ٢٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ قَدْ أَضَرَّ بِهِ الْهَوَىٰ ... فَعَوَّدَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَتَعَوَّدُ

وقالَ مسعودُ بنُ الحسنِ البياضيُّ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَنَ الْهَوَىٰ صَعْبِي وَذَلَّلَ جَانِبِي ... وَأَلْقَىٰ إِلَىٰ أَيْدِيكُمَا بِعِنَانِي

وقد سبقَ مرَّةً قولُ ابنِ الدمينَةِ [في « ديوانه » ١٥ـ١٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلَوْ قُلْتِ : طَأْ فِي النَّارِ أَعْلَمُ أَنَّهُ ... رِضاً لَكِ أَوْ مُدْنٍ لَنَا مِنْ وِصَالِكِ

لَقَدَّمْتُ رِجْلِي نَحْوَهَا وَوَطِئْتُهَا ... هُدىً مِنْكِ لِي أَوْ ضَلَّةً مِنْ ضَلاَلِكِ

وقالَ البحتريُّ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٦٥٢] : [مِنَ الخفيفِ]

وَتَذَلَّلْتُ خَاضِعاً لِمَلِيكِي ... وَقَلِيلٌ مِنْ عَاشِقٍ أَنْ يَذِلاَّ

وقالَ المرتضىٰ [في « ديوانهِ » ٣/ ٢١٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكَمْ مِنْ جَلِيدٍ لاَ يُخَامِرُهُ الْهَوَىٰ ... شَنَنَّ عَلَيْهِ الْوَجْدَ حَتَّىٰ تَتَيَّمَا

أَهَـانَ لَهُـنَّ النَّفْـسَ وَهْـيَ كَـرِيمَـةٌ   وَأَلْقَـىٰ إِلَيْهِـنَّ الْحَـدِيـثَ الْمُكَتَّمَـا

وقالَ أَخوهُ الرضيُّ [في « ديوانهِ » ١/ ٤٩٧] : [مِنَ الكامِلِ]

لَـوْ حَيْـثُ يُسْتَمَـعُ السِّـرَارُ وَقَفْتُمَـا   لَعَجِبْتُمَـا مِـنْ عِـزِّهِ وَخُضُـوعِـي

وقالَ أَبو فراسٍ الحمْدانيُّ [في « ديوانهِ » ١٤٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـإِنْ شِئْـتُ أَنْ لاَ عِـزَّ بَعْـدِي لِعَـاشِـقٍ   وَأَنَّ يَـدِي مِمَّـا عَلِقْـتُ بِـهِ صِفْـرُ

وقالَ آخرُ [وهو أحمد بن محمد الطوسي كما في « وفيات الأعيان » ١/ ٩٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَهَـانَ عَلَـيَّ اللَّـوْمُ فِـي جَنْـبِ حُبِّهَـا   وَقَـوْلُ الأَعَـادِي : إِنَّـهُ لَخَلِيـعُ
أَصَـمُّ إِذَا نُـودِيـتُ بِـاسْمِـي وَإِنَّنِـي   إِذَا قِيـلَ لِـي : يَـا عَبْـدَهَـا لَسَمِيـعُ

وقالَ الوَأْواءُ الدمشقيُّ [في « ديوانهِ » ٢٦٦ـ٢٦٧] : [مِنَ البسيطِ]

قَـالَـتْ لِطَيْـفِ خَيَـالٍ زَارَنِـي وَمَضَـىٰ :   بِـاللهِ صِفْـهُ وَلاَ تَنْقُـصْ وَلاَ تَـزِدِ
فَقَـالَ : خَلَّفْتُـهُ لَـوْ مَـاتَ مِـنْ ظَمَـأ   وَقُلْتِ : قِفْ عَنْ وُرُودِ الْمَاءِ لَمْ يَرِدِ
قَالَتْ : صَدَقْتَ الْوَفَا فِي الْحُبِّ شِيمَتُهُ   يَـا بَـرْدَ ذَاكَ الَّـذِي قَـالَـتْ عَلَـىٰ كَبِـدِي

وقد ذكرنا هٰذه الأبياتَ أو بعضَها في غيرِ هٰذا المكانِ .

[قد ينصعق من يرى الحبيب]

ومتىٰ وصلَ المحبُّ مِنَ الانقيادِ لأَوامرِ المحبوبِ إِلىٰ هٰذِهِ الغايَةِ . . امتلأَتْ نفسُهُ بهيبتِهِ ، وأَخذهُ البهتُ ، والروعَةُ مِن مفاجأَةِ طلعتِهِ ، ومنهُ قولُ بعضِهِم [وهو أبو الفرج بن هند كما في « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ١/ ٤٣٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَمَنَّيْتُـهُ حَتَّـىٰ إِذَا مَـا رَأَيْتُـهُ   بُهِـتُّ فَلَـمْ أُعْمِـلْ لِسَـانـاً وَلاَ طَـرْفَـا
وَأَطْـرَقْـتُ إِجْـلاَلاً لَـهُ وَمَهَـابَـةً   وَحَاوَلْتُ أَنْ يَخْفَى الَّذِي بِي فَلَمْ يَخْفَىٰ[1]

وهُما ناظرانِ إِلىٰ قولِ المجنونِ [في « ديوانهِ » ٥٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَـا هُـوَ إِلاَّ أَنْ أَرَاهَـا فُجَـاءَةً   فَـأُبْهَـتُ حَتَّـىٰ مَـا أَكَـادُ أُجِيـبُ
وَأُصْـرَفُ عَـنْ رَأْيِـي الَّـذِي كُنْـتُ أَرْتَئِـي   وَأَنْسَـى الَّـذِي أَعْـدَدْتُ حِيـنَ تَغِيـبُ

وقولِهِ [في « ديوانِ جميلٍ » ٢٢٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنِّـي لَيُنْسِينِـي لِقَـاؤُكِ كُلَّمَـا   لَقِيتُـكِ يَـوْمـاً أَنْ أَبُثَّـكِ مَـا بِيَـا

وقولِهِ [أي : المجنونِ في « ديوانهِ » ١٦٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَدَاعٍ دَعَـا إِذْ نَحْـنُ بِـالْخَيْـفِ مِـنْ مِنـىً   فَهَيَّـجَ أَشْجَـانَ الْفُـؤَادِ وَمَـا يَـدْرِي

---

(١) وبعد هٰذين البيتين :

وَقَـدْ كَـانَ فِـي قَلْبِـي دَفَـاتِـرُ عَتْبِـهِ   فَلَمَّـا الْتَقَيْنَـا مَـا وَجَـدْتُ وَلاَ حَـرْفَـا

دَعَـا بِـاسْـمِ لَيْلَـىٰ غَيْـرَهَـا فَكَـأَنَّمَـا أَطَـارَ بِلَيْلَـىٰ طَـائِـراً كَـانَ فِـي صَـدْرِي

وقولِ أَبي صخرِ الهذليِّ [في « ديوان الحماسة » ٢/٦٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَــا هُــوَ إِلاَّ أَنْ أَرَاهَــا فُجَــاءَةً فَــأُبْهَــتُ لاَ عُــرْفٌ لَــدَيَّ وَلاَ نُكْــرُ

وقالَ عُتَيُّ بنُ مالكٍ العقيليُّ [في « لسان العرب » ١٤/٢٣٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَتَيْـتُ مَـعَ الْحُـدَّاثِ لَيْلَـىٰ فَلَـمْ أَبِـنْ فَـأَخْلَيْـتُ فَـاسْتَعْجَمْـتُ عِنْـدَ خَـلاَئِيَـا

وقالَ يزيدُ بنُ الطثريَّةِ [في « ديوانهِ » ٩٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

بِنَفْسِـيَ مَـنْ لَـوْ مَـرَّ بَـرْدُ بَنَـانِـهِ عَلَـىٰ كَبِـدِي كَـانَـتْ شِفَـاءً أَنَـامِلُـهْ
وَمَـنْ هَـابَنِـي فِـي كُـلِّ شَـيْءٍ وَهِبْتُـهُ فَـلاَ هُـوَ مُعْطِينِـي وَلاَ أَنَـا سَـائِلُـهْ

وقالَ ابنُ أَبي ربيعَةَ [بل المجنونُ في « ديوانهِ » ٧١] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَهَـابُـكِ إِجْـلاَلاً وَمَـا بِـكِ قُـدْرَةٌ عَلَـيَّ وَلَكِـنْ مِـلْءُ عَيْـنٍ حَبِيبُهَـا

وقالَ بشَّارٌ [في « ديوانهِ » ٢/٣١٩] : [مِنَ البسيطِ]

تُلْقَـىٰ بِتَسْبِيحَـةٍ مِـنْ حُسْـنِ مَـا خُلِقَـتْ وَتَسْتَفِـزُّ حَشَـا الـرَّائِـي بِـإِرْعَـادِ

وقالَ آخرُ [كما في « مصارع العشاق » ١/٢٩٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَـا هِـيَ إِلاَّ لَحْظَـةٌ بِتَبَسُّـمٍ وَتَصْطَـكُّ رِجْـلاَهُ وَيَسْقُـطُ لِلْجَنْـبِ

[المبرد والجارية المغنية النحوية]

وفي هـٰذا قصَّةٌ لاَ بأْسَ بذكرِها ؛ لِطلاوتِها ، وهيَ [كما في « وفيات الأعيان » ٤/٣١٧] : أَنَّ بعضَهم صنعَ وليمةً ، دَعا إِليها الأَعيانَ ، ثمَّ أَمرَ جاريتَهُ فغنَّتْ : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَـالُـوا لَهَـا : هَـٰذَا حَبِيبُـكِ مُعْـرِضٌ فَقَـالَـتْ : أَلاَ إِعْـرَاضُـهُ أَيْسَـرُ الْخَطْـبِ
فَمَـا هِـيَ إِلاَّ لَحْظَـةٌ بِتَبَسُّـمٍ وَتَصْطَـكُّ رِجْـلاَهُ وَيَسْقُـطُ لِلْجَنْـبِ

فاهتزَّ القومُ ارتياحاً وطرباً ، ما خَلا أَبي العبَّاسِ المبرِّدِ ـ وكانَ حاضراً ـ فانكسرَ صاحبُ المنزِلِ ، وقالَ لَهُ : أَوَلم يعجبْكَ الغناءُ ؟ قالَتِ الجاريَةُ : بلىٰ ، وإِنَّما أَرادَ منِّي أَن أَقولَ هـٰكَذا :

(وَقَالُوا لَهَا : هـٰذَا حَبِيبُكِ مُعْرِضاً) ، ولم يدرِ أَنَّ ابنَ مسعودٍ قرأَ : (وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخٌ) فطربَ حينئذٍ أَبو العبَّاسِ ، حتَّىٰ شقَّ ثوبَهُ .

[ما السبب في اندهاش المحب عند رؤية المحبوب ؟]

وقد اختلفَ في سبيلِ ما يعرضُ للمحبِّ مِنَ الْهَيْبَةِ ، وما يحدُثُ لَهُ عندَ المفاجأَةِ مِن الروعَةِ ؛ فقيل : لأَنَّ القلبَ ينفرجُ مِن الشوقِ إِلى اللقاءِ ، فيهربُ الدمُ ، وقد يبرُدُ ويضطَرِبُ ، فتحدُثُ الرعدَةُ ، وربَّما كانَ الموتُ .

وقيلَ : إنَّ لِلْمحبوبِ سلطاناً علىٰ قلوبِ المحبينَ ، أَعظَمَ مِن سلطنَةِ الملوكِ على الرعيَّةِ ، فإذا رأَوهُ ـ ولا سيَّما معَ المفاجأَةِ ـ ارتاعوا كَما يرتاعُ ناظِرُ الملكِ الكبيرِ ، وللهِ درُّ الذي يقولُ : [مِنَ المُجتثِّ]

الْمُلْـــــكُ للهِ وَحْـــــدَهْ ... وَلِلْخَليفَـــــةِ بَعْـــــدَهْ

وَلِلْمُحِـــــبِّ إِذَا مَـــــا ... حَبِيبُـــــهُ بَـــــاتَ عِنْـــــدَهْ

وقالَ سلطانُ العاشقينَ [في « ديوانه » ١٦٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَبِتْنَا كَمَا شَاءَ اقْتِرَاحِي عَلَى الْهَوَىٰ ... أَرَى الْمُلْكَ مُلْكِي وَالزَّمَانَ غُلاَمِي[1]

وقد سبقَ في غيرِ هٰذا المجلسِ قولُ المهديِّ للخَيزُرانِ : [من الوافر]

أَمَـا يَكْفِيـكِ أَنَّـكِ تَمْلِكِينِـي ... وَأَنَّ النَّـاسَ كُلَّهُـمُ عَبِيـدِي

وَأَنَّـكِ لَـوْ قَطَعْـتِ يَـدِي وَرِجْلِـي ... لَقُلْـتُ مِـنَ الرِّضَـا : أَحْسَنْتِ زِيـدِي

وقالَ المأمونُ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَيَا رَبَّةَ الْحُسْنِ الَّتِي هَتَكَتْ نُسْكِي ... عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ أَنْتِ لاَ بُدَّ لِي مِنْكِ

فَـإِمَّا بِـذُلٍّ وَهْـوَ أَلْيَـقُ بِـالْهَـوَىٰ ... وَإِمَّـا بِعِـزٍّ وَهْـوَ أَلْيَـقُ بِـالْمُلْـكِ

وقولُ الرشيدِ [في « ديوانه » ٤٨] : [مِنَ الكاملِ]

مَلَـكَ الثَّـلاَثُ الآنِسَـاتُ عِنَـانِـي ... وَحَلَلْـنَ مِـنْ قَلْبِـي بِكُـلِّ مَكَـانِ

مَـا لِـي تُطَـاوِعُنِـي الْبَـرِيَّـةُ كُلُّهَـا ... وَأُطِيعُهُـنَّ وَهُـنَّ فِـي عِصْيَـانِـي

مَـا ذَاكَ إِلاَّ أَنَّ سُلْطَـانَ الْهَـوَىٰ ... ـ وَبِـهِ قَـوِيـنَ ـ أَشَـدُّ مِـنْ سُلْطَـانِـي

وللثلاثِ المشارِ إليهنَّ في الأبياتِ حديثٌ طريفٌ ، لا يتَّسعُ لإيرادِهِ الوقتُ .

وقالَ بعضُ ملوكِ المغربِ مِنْ بني مروانَ ، وما أَدري أَهُوَ أَخذَ عَنِ الرشيدِ أَمِ الرشيدُ هوَ الذي أَخذَ عنهُ [وهو المستعين بالله ، الذي أخذ عن الرشيد كما في « نفح الطيب » ٢/٢٢٧] : [مِنَ الكاملِ]

وَتَمَلَّكَتْ نَفْسِي ثَلاَثٌ كَالدُّمَىٰ ... زُهْـرُ الْـوُجُـوهِ نَـوَاعِـمُ الأَبْـدَانِ

كَكَـوَاكِـبِ الظَّلْمَـاءِ لُحْـنَ لِنَـاظِـرِي ... مِـنْ فَـوْقِ أَغْصَـانٍ عَلَـى الْكُثْبَـانِ

هَـٰذِي الْهِـلاَلُ وَتِلْـكَ بِنْـتُ الْمُشْتَـرِي ... حُسْنـاً وَهَـٰذِي أُخْـتُ غُصْـنِ الْبَـانِ

حَـاكَمْـتُ فِيهِـنَّ الْهَـوَىٰ فَقَضَـىٰ لَهَـا ... سُلْطَـانُهَـا السَّـامِـي عَلَـىٰ سُلْطَـانِـي

مَـا ضَـرَّ أَنِّـي عَبْـدُهُـنَّ صَبَـابَـةً ... وَبَنُـو الـزَّمَـانِ وَهُـنَّ مِـنْ عُبْـدَانِـي

إِنْ لَـمْ أُطِـعْ فِيهِـنَّ سُلْطَـانَ الْهَـوَىٰ ... كَلَفـاً بِهِـنَّ فَلَسْـتُ مِـنْ مَـرْوَانِ

---

(١) اقتراحي : مطلبي .

وقالَ آخرُ : [مِنَ الطَّويلِ]

يَلَــذُّ لَــهُ ذُلُّ الْهَــوَىٰ وَخُضُــوعُــهُ ... وَلَـوْلاَ الْهَـوَىٰ مَـا لَـذَّ لِلْعَـاقِـلِ الـذُّلُّ

وقالَ آخرُ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا كُنْتَ تَهْـوَىٰ مَـنْ تُحِـبُّ وَلَـمْ تَكُـنْ ... ذَلِيـلاً لَـهُ فَـاقْـرَ السَّـلاَمَ عَلَـى الْـوَصْـلِ

تَـذَلَّـلْ لِمَـنْ تَهْـوَىٰ لِتَكْسَـبَ عِـزَّةً ... فَكَـمْ عِـزَّةٍ قَـدْ نَـالَهَـا الْمَـرْءُ بِـالـذُّلِّ

وفي « ديوانِ الشرفِ ابنِ الفارضِ » ما لا يوجدُ مثلُهُ عندَ غيرِهِ ، منهُ [في « ديوانه » ١٥٣] : [مِنَ الكاملِ]

مِنِّـي لَـهُ ذُلُّ الْخُضُـوعِ وَمِنْـهُ لِـي ... عِـزُّ الْمَنُـوعِ وَقُـوَّةُ الْمُسْتَضْعِـفِ[1]

لَوْ قَالَ : تِيهاً قِفْ عَلَىٰ جَمْرِ الْغَضَىٰ ... لَـوَقَفْـتُ مُمْتَثِـلاً وَلَـمْ أَتَـوَقَّـفِ

أَوْ كَـانَ مَـنْ يَـرْضَـىٰ بِخَـدِّيَ مَـوْطِئـاً ... لَـوَضَعْتُـهُ أَرْضـاً وَلَـمْ أَسْتَنْكِـفِ

ثمَّ ما لَبِثَ أَنِ امتثَلَ ما أَشارَ بهِ ابنُ أَبي عتيقٍ على ابنِ أَبي ربيعةَ كَما سلفَ ، وكَما قد زعَمَ ابنُ المعتزِّ مِن قبلُ ، ففرشَ خدَّهُ ، وقالَ [ابن الفارض في « ديوانه » ١٦٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَمَّـا تَـوَافَيْنَـا عِشَـاءً وَضَمَّنَـا ... سَـوَاءُ سَبِيلَـيْ دَارِهَـا وَخِيَـامِـي

وَمِلْنَـا كَـذَا عَـنْ سَاحَـةِ الْحَيِّ حَيْثُ لاَ ... رَقِيـبَ وَلاَ وَاشٍ بِـزُورِ كَـلاَمِ

فَـرَشْتُ لَهَـا خَـدِّي غِطَـاءً عَلَـى الثَّـرَىٰ ... فَقَـالَـتْ : لَـكَ الْبُشْـرَىٰ بِلَثْـمِ لِثَـامِـي

وقالَ [في « ديوانه » ١٥٦] : [مِنَ الخفيفِ]

وَكَفَـانِـي عِـزّاً بِحُبِّـكَ ذُلِّـي ... وَخُضُـوعِـي وَلَسْـتُ مِـنْ أَكْفَـاكَـا

وقالَ [في « ديوانه » ١٧٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَـمْ يَبْـقَ مِنِّـي مَـا يُنَـاجِـي تَـوَهُّمِـي ... سِـوَىٰ عِـزِّ ذُلِّـي فِـي مَهَـانَـةِ إِجْلاَلِـي

وقالَ [في « ديوانه » ١٣٦ـ١٣٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَـالَ نِسَـاءُ الْحَـيِّ عَنَّـا بِـذِكْـرِ مَـنْ ... جَفَـانَـا : وَبَعْـدَ الْعِـزِّ لَـذَّ لَـهُ الـذُّلُّ

فَحَـالِـي وَإِنْ سَـاءَتْ فَقَـدْ حَسُنَـتْ بِهـا ... وَمَـا حَـطَّ قَـدْرِي فِـي هَـوَاهَـا بِـهِ أَعْلُـو

وَلِـي هِمَّـةٌ تَعْلُـو إِذَا مَـا ذَكَـرْتُهَـا ... وَرُوحٌ بِـذِكْـرَاهَـا إِذَا رَخُصَـتْ تَغْلُـو

وقالَ [في « ديوانه » ٥٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

ذَلَلْـتُ بِهَـا فِـي الْحَـيِّ حَتَّـىٰ وَجَـدْتُنِـي ... وَأَدْنَـىٰ مَنَـالٍ عِنْـدَهُـمْ فَـوْقَ هِمَّتِـي

وَمِـنْ دَرَجَـاتِ الْعِـزِّ أَمْسَيْـتُ مُخْلَـداً ... إِلَـىٰ دَرَكَـاتِ الـذُّلِّ مِـنْ بَعْـدِ نَخْـوَتِـي

فَـلاَ بَـابَ لِـي يُغْشَـىٰ وَلاَ جَـاهَ يُـرْتَجَـىٰ ... وَلاَ جَـارَ لِـي يُحْمَـىٰ لِفَقْـدِ حَمِيَّتِـي

---

(١) المَنوعُ : الشَّديدُ المنعِ . المستضعِفُ : الذي يراني ضعيفاً أمامهُ .

وقالَ [في « ديوانه » ٥٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَحُسْنٌ بِهِ تُسْبَىٰ النُّهَىٰ دَلَّنِي عَلَىٰ ... هَوىً حَسُنَتْ فِيهِ لِعِزِّكَ ذِلَّتِي

وقالَ سبطُهُ [في « ديوان ابن الفارض » ٢٠٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَوَاضَعْتُ ذُلاًّ وَانْخِفَاضاً لِعِزِّهَا ... فَشَرَّفَ قَدْرِي فِي هَوَاهَا التَّوَاضُعُ

لَئِنْ صِرْتُ مَخْفُوضَ الْجَنَابِ فَحُبُّهَا ... لِقَدْرِ مَقَامِي فِي الْمَحَبَّةِ رَافِعُ

وقالَ ابنُ الجعبريِّ : زرتُ معَ والِدي قبرَ ابنِ الفارِضِ ، فوجدنا عندَهُ تراباً كثيراً ، فصرخَ الشيخُ وقالَ : [مِنَ الطَّويلِ]

مَسَاكِينُ أَهْلُ الْعِشْقِ حَتَّىٰ قُبُورُهُمْ ... عَلَيْهَا تُرَابُ الذُّلِّ بَيْنَ الْمَقَابِرِ

ثمَّ حملَ الشيخُ الترابَ في ثوبِهِ ، وحملناهُ معَهُ إِلىٰ أَن كَنَسْنا القبرَ وما حولَهُ .

[حال النبي صلى الله عليه وسلم وتواضعه مع أهله]

وأكبرُ مِمَّا ذكرناهُ كلِّهِ . . حالُهُ صلى الله عليه وسلم معَ أَزواجِهِ ، فقد كانَ ـ كما ذكرنا لوناً مِنهُ في المجلسِ الثاني عشرَ عندَ قولِهِ [في « العُكبريِّ » ٢/ ٣٣٣] : [مِنَ الكامِلِ]

وَعَذَلْتُ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّىٰ ذُقْتُهُ ... فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لاَ يَعْشَقُ ؟!

ـ حسنَ العشرةِ لَهُنَّ ، وكُنَّ يهجرنَهُ إِلى الليلِ ، وكانَ يقولُ : « **خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي** »[1] .

وكانَ (إِذا صلَّى العصرَ . . دارَ عليهِنَّ كلِّهِنَّ ، ودَنا مِنهُنَّ مِن غيرِ مسيسٍ ، وكانَ يسرِّبُ إِلىٰ عائِشَةَ بناتِ الأَنصارِ يلعبنَ مَعَها ، ويمكِّنُها مِنَ اللَّعِبِ ، ويحمِلُها لتنظرَ إِلى الحبشَةِ وهُم يلعبونَ في مسجدِهِ وهيَ متَّكِئَةٌ علىٰ منكبيهِ ، وكانَ إِذا هَوِيَتْ شيئاً لا محذورَ فيهِ . . تابعَها عليهِ ، وكانَ إِذا شربَتْ مِنَ الإِناءِ . . أَخذَهُ فوضَعَ فمَهُ علىٰ موضعِ فَمِها وشربَ ، وإِذا تعرَّقَت عَرْقاً ـ وهوَ العظمُ الذي عليهِ لحمٌ ـ أَخذَهُ واعتمَدَ موضِعَ فَمِها)[2] .

ولَمَّا نزلَت براءَتُها . . قالَت لَها أُمُّها : قومي إِليهِ ، فقالَت : واللهِ لا أَقومُ إِليهِ ، ولا أَحمدُ إِلاَّ اللهَ ، وهيَ التي تواطَأَتْ معَ حفصَةَ علىٰ غِشِّ الجونيَّةِ حتَّىٰ فرَّقَتا بينَها وبينَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، كَما قد ذَكرنا في غيرِ هٰذا المجلسِ ، فلَم يُثَرِّبْ[3] .

وللهِ درُّ القائِلِ : [مِنَ الوافرِ]

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي ... فَتَفْعَلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَا

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٥٥] : [مِنَ الوافرِ]

وَقَدْ يَتَقَارَبُ الْوَصْفَانِ جِدّاً ... وَمَوْصُوفَاهُمَا مُتَبَاعِدَانِ

---

(١) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما ابن حبان في « صحيحه » (٤١٩٤) ، وهو في « كشف الأستار » (١٤٨٣) .

(٢) تقدَّمت هٰذه الأَحاديثُ معَ تخريجها في غير هٰذا المجلس .

(٣) التثريب : التعيير والاستقصاء في اللوم ، وثرَّب عليه : قبَّح عليه فعله .

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٦٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَيَخْتَلِفُ الـرِّزْقَـانِ وَالْفِعْـلُ وَاحِـدٌ ... إِلَـىٰ أَنْ يُـرَىٰ إِحْسَـانُ هَـٰذَا لِـذَا ذَنْبَـا

[الحكمة في ميل الرجل للمرأة]

وبعدُ : فمعاذَ اللهِ أَن يكونَ جميعُ ذلكَ إلا لحكمَةٍ عاليَةٍ ، لَم أَرَ مَن نبَّهَ علَيها ، وكأَنَّها ـ والعلمُ لَهُ جلَّ شأْنُهُ ـ راجعَةٌ إِلىٰ صفَةِ العدلِ .

وتوضيحُها : أَنَّ الكونَ ـ كَما قُلنا غيرَ مرَّةٍ ـ لم يتَّسِقْ نظامُهُ إلاَّ بناموسِ الجاذبيَّةِ ، وهوَ المحبَّةُ الصادقَةُ ليسَ غيرُ ، والإنسانُ سرُّ هـٰذا الكونِ ، فبالحريِّ أَن لا يستقيمَ شأْنُهُ إلاَّ بها ، فهيَ المقصودُ الأَكبرُ مِن الحياةِ الزوجيَّةِ ، بشهادَةِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] ، فذلكَ السكونُ والرحمَةُ والمودَّةُ هيَ التي بِها تُتطعَّمُ الحياةُ ، ويُستعجَلُ النعيمُ ، وتُتناسىٰ الآلامُ ؛ إِذ كلُّ لذَّةٍ في الدنيا دفعُ أَلمٍ ، سوىٰ ما كانَ مِن أَمثالِها ، فهيَ التي بها يسهُلُ احتمالُ مشاقِّ الكونِ المظلمَةِ ، وقطعُ عقباتِهِ الكأْداءِ ، والصبرُ علىٰ موجعاتِهِ الكبرىٰ ، ويتبعُ ذلكَ استبقاءُ النسلِ ؛ ضرورةَ بقاءِ العالَمِ إِلىٰ أَمدِهِ المحدودِ لَهُ .

فمِن أَلطافِهِ ـ جلَّ شأْنُهُ ـ تركيبُ الشهوَةِ التي تستبي الغيورَ ، وتستنزلُ الوقورَ ، ولا يخفىٰ ما في طريقِ إِرضائِها الذي لا بدَّ منهُ مِن الذلِّ الفاحشِ ، الواقعِ على المرأَةِ ، فعوِّضَت عنهُ برجحانِ الكفَّةِ لدىٰ ميزانِ الهوىٰ ، وإِعلاءِ الدرجَةِ عندَ سلطانِ الحبِّ ، ورفعِ المنزلَةِ في دولَةِ الجمالِ ، فهوَ إِذن سرٌّ لطيفٌ محسوسٌ مِن أَسرارِ العدلِ الإِلهيِّ ، الذي قامَتِ الأَرضُ والسماءُ عليهِ .

ولئِن قيلَ : إِنَّهُ لا يظهَرُ أَثرُهُ إلاَّ عندَ أَهلِ الكرَمِ ، وقليلٌ ما هُم . . قُلنا : هُمُ الْمَقصودونَ وإِن قَلُّوا ، ولا عبرَةَ بِمَن سِواهُم وإِن جَلُّوا ؛ إِذ هُم بالعجماواتِ أَشبَهُ ، لا يعرفونَ العزَّ ولا الهونَ ، ولا العاليَ ولا الدونَ ، وقد أَسلفنا مرَّةً قولَ حبيبٍ [أبي تمّامٍ في « ديوانه » ١/ ٣٣٠] : [مِنَ البسيطِ]

إِنَّ الْكِـرَامَ كَثِيـرٌ فِـي الْبِـلاَدِ وَإِنْ ... قَلُّـوا كَمَـا غَيْـرُهُـمْ قُـلٌّ وَإِنْ كَثُـرُوا[١]

وقَد يُشبِهُهُ قولُ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانه » ٢/ ٩٧٦] : [مِنَ الكاملِ]

قَـلَّ الْكِـرَامُ فَصَـارَ يَكْثُـرُ فَـذُّهُـمْ ... وَلَقَـدْ يَقِـلُّ الشَّـيْءُ حَتَّـىٰ يَكْثُـرَا[٢]

وقولُ الناظمِ [« في العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٥٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَجَـاءَتْ بِـهِ صَلْـتَ الْجَبِيـنِ مُعَظَّمـاً ... تَـرَى النَّـاسَ قُـلاًّ حَـوْلَـهُ وَهُـمُ كُثْـرُ[٣]

فيتلخَّصُ منهُ : أَنَّ المحبَّةَ سرُّ الأَسرارِ ، وأَنَّ أَفضلَ مظاهِرِها الحياةُ الزوجيَّةُ ، وأَنَّ ما يلحَقُ المرأَةَ مِن المهانَةِ

---

(١) **يعني** : أن للكرام شأناً عظيماً يكثرُ بهمُ الخيرُ وإن قلَّ عددُهمْ ، كذلكَ غيرُ الكرام كثيرو العددِ قليلو الشأنِ .

(٢) **الفذُّ** : الفردُ .

(٣) **الصلتُ** : الجبينُ الواضحةُ .

بالصورةِ فيما يتولَّدُ مَن بعضِ دَواعي الحبِّ لبقاءِ التناسُلِ. . تُعوَّضُ عنهُ في شرعِ الهوىٰ ، بأَن تكونَ مالِكَةً لا مملوكَةً ، وحاكِمَةً لا محكومَةً ، وغالبةً لا مغلوبَةً ، والكرامُ في ذلكَ مساقونَ بِسَوقِ الطبيعَةِ ، وموكولونَ فيهِ إلى الداعيَةِ ، ومَن سواهُم وإِن كانوا دَهماءَ الناسِ ، والسوادَ الأَعظمَ. . فإِنَّهم لا عبرَةَ بِهم ، وفي الأَحكامِ الشرعيَّةِ ما يكفي للتناصُفِ بينَهُم ، وتوفيةِ المرأَةِ ما امتازَتْ بهِ مِن حقوقِ الخدمَةِ ، والمؤْنَةِ ، والنَّفقَةِ ، والكفالَةِ ، وغيرِ ذلكَ .

ثمَّ إِذَا كانَ هـٰذا الخضوعُ للجمالِ الحادِثِ. . فما بالُكَ بهِ لمظهَرِ كلِّ جمالٍ أَقدَسَ ، وكمالٍ أَنفسَ ، وكثيراً ما تكونُ المحبَّةُ البشريَّةُ وسيلةً للحبِّ الإِلهيِّ ، وللهِ درُّ لسانِ الدينِ بنِ الخطيبِ في قولِهِ ـ الذي قلَّما أَذكرُهُ إِلاَّ وخنقَني النشيجُ ، وتبادَرَتْ مِن محجري القطراتُ ـ وهوَ [في « نفح الطيب » ٦/ ٢٨٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

جَـزَى اللهُ عَنِّـي زَاجِـرَ الشَّيْـبِ خَيْـرَ مَـا ... جَـزَىٰ نَـاصِحـاً فَـازَتْ يَـدَاهُ بِخَيْـرِهِ
سَلَكْـتُ طَـرِيـقَ الْحُـبِّ حَتَّـىٰ إِذَا انْتَهَـىٰ ... تَعَـوَّضْـتُ حُـبَّ اللهِ عَـنْ حُـبِّ غَيْـرِهِ

[تواضعه صلى الله عليه وسلم]

ومِن هُنا كانَ صلى الله عليه وسلم سيِّدَ المتواضعينَ ، يعلِفُ بعيرَهُ ، ويقُمُّ بيتَهُ ، ويخصِفُ نعلَهُ[1] ، ويرقِّعُ ثوبَهُ ، ويحلِبُ شاتَهُ ، ويطحَنُ مَعَ خادِمِهِ ، ويأْكُلُ معَهُ ، ويحمِلُ بضاعتَهُ مِنَ السوقِ بيدِهِ ، ويصافِحُ الفقيرَ ، ويتركُ لَهُ يدَهُ حتَّىٰ يكونَ هوَ الذي يُلْقيها ، ولا يحتقِرُ ما دُعيَ إِليهِ ، ولَو إِلىٰ حَشَفِ التمرِ .

وحالُهُ معروفٌ معَ أَهلِ الصُّفَّةِ ، وآخرُ ما نزلَ عليهِ في شأْنِهم قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف : ٢٨] ، فكانَ بعدَ ذلكَ لا يقومُ عنهم حتَّىٰ يكونوا هُمُ البادئِينَ بالقيامِ ، غيرَ أَنَّهم لَم يكونوا بلداءَ ، ولا ثُقَلاءَ كأَهلِ زمانِنا ، ولكنَّهم كَما قالَ ابنُ أَبي ربيعَةَ [في « ديوانه » ١٦٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلَمَّـا اقْتَصَـرْنَـا دُونَهُـنَّ حَـدِيثَنَـا ... وَهُـنَّ خَبِيـرَاتٌ بِحَـاجَـاتِ ذِي التَّبْـلِ[2]
عَـرَفْـنَ الَّـذِي نَهْـوَىٰ فَقُلْـنَ : ائْـذَنِـي لَنَـا ... نَطُـفْ سَـاعَـةً بَيْـنَ الْبَسَـاتِيـنِ وَالنَّخْـلِ

فَكانوا إِذا عَرَفوا أَنَّهُ يريدُ القيامَ. . انصرفوا عنهُ ، وقد جوَّدْتُ الكلامَ فيهِ بما أَظنُّني لَم أُسبق إِليهِ في « **حاشيَتي على الشمائِلِ** » فتواضُعُهُ عليهِ السلامُ أَثرُ صدقِ محبَّتِهِ ، واتساعِ معرفتِهِ .

[تواضع سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام]

ولقد كانَ سليمانُ ـ على اتساعِ ملكِهِ ـ يتفقَّدُ الْحِلَقَ في المسجدِ الأَقصىٰ ، ثمَّ لاَ يجلِسُ إِلاَّ معَ المساكينِ ، وكانَ لا يتغدَّىٰ حتَّىٰ يترحَّلَ النهارُ ؛ لِيذوقَ طعمَ الجوعِ ؛ حتَّىٰ لا ينساهُم .

ومِن شريفِ تواضُعِهِ ما قصَّ اللهُ عَلَينا مِن خبرِهِ معَ الهدهُدِ ؛ إِذ قالَ لهُ ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [النمل : ٢٧] ، فإِنَّهُ كانَ يفتحُ القلوبَ الغلفَ ، والآذانَ الصمَّ ؛ إِذ لا تجدُ أَرَقَّ ولا أَبدعَ ولا أَبلغَ مِنَ الإِفصاحِ بنسبَةِ الصدقِ إِليهِ ، حتَّىٰ كأَنَّهُ الصادِقُ وحدَهُ في عسكرِهِ ، ولمَّا كانَ الكذبُ. . لم يجرِ فيهِ علىٰ مقتضى السياقِ مِنَ الْخطابِ ، بل

---

(١) قال الحافظ العراقي : رواه أحمد في « المسند » من حديث عائشة . يخصف : يخرزه بيده ليصلحه .

(٢) **المعنىٰ** : حينَ آنسْنَ منَّا تكتُّماً وقصراً للحديثِ . . شعرنَ بحاجةِ المحبينَ للخلوةِ ، وهنَّ بذلكَ عارفاتٌ خبيراتٌ .



التفتَ وقالَ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل : ٢٧] ولَم يقُل أَم كذبْتَ ؛ رفقاً بهِ ، وحُنُوّاً عليهِ ؛ كَي لا ينفطِرَ قلبُهُ ، وتنشَقَّ مرارَتُهُ مِن هولِ نسبَةِ الكذبِ إِليهِ ، ولكنَّهُ قالَ لَه ما معناهُ : إن صدقْتَ . . فهيَ فضيلَةٌ ، كأَنَّكَ المنفردُ بها ، وإِن كذبْتَ . . فكثيرٌ مثلُكَ ، وهـٰذا واللهِ ما يهزُّ النفوسَ ، ويقيمُ الشعورَ ، وينفُذُ في القلوبِ ، ويستهوي الْخواطِرَ ، ويذيبُ الحجارَةَ ، وإِنَّهُ لَمِن المعجزِ الذي تزلُّ الفصحاءُ عَن مَرقاتِهِ ، ولا بِدْعَ ؛ فالالتفاتُ هوَ المقامُ الذي تتفاوَتُ بهِ الطبقاتُ ، وقد ذكَرنا منهُ في تفسيرِ الفاتحَةِ مِن كتابِنا « **بلابِلُ التغريدِ** » ما تنشرحُ بهِ صدورُ المؤمنينَ إِن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

[ينبغي التفريق بين العز والكبر والتواضع والملق]

ومِنَ الجهلاءِ مَن يلتبسُ عليهِ العِزُّ بالكِبْرِ ، والتَّواضعُ بالمَلَقِ ، فتجِدُ صاحبَ العزَّةِ يكلِّمُ الفقيرَ ، ويلاطِفُ الصغيرَ ، ويجالِسُ المساكينَ ، ويخضَعُ للحَقِّ ، ويستكينُ حتَّىٰ إِذا جالسَ الأُمراءَ . . فهوَ أَميرٌ ، وإِذا حضرَ الكبراءُ . . فهوَ كبيرٌ . وقد قالَ ابنُ الخطَّابِ : أُريدُ رجلاً إِذا كانَ أَميرَ القومِ . . كانَ كبعضِهِم ، وإِن لم يكُن أَميرَهم . . فكأَنَّهُ أَميرُهم .

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٠١] : [مِنَ الكامل]

مُتَبَـــذِّلٌ فِـــي الْقَـــوْمِ وَهْـــوَ مُبَجَّـــلٌ   مُتَـــوَاضِـــعٌ فِـــي الْحَـــيِّ وَهْـــوَ مُعَظَّـــمُ[1]

وقالَ الآخرُ : [مِنَ الكامل]

مُتَـــوَاضِـــعٌ وَالنُّبْـــلُ يَحْـــرُسُ قَـــدْرَهُ   وَأَخُـــو التَّـــوَاضُـــعِ بِـــالنَّبَـــاهَـــةِ يَنْبُـــلُ

لا يتردَّدُ على الأَبوابِ ، ولا يُدهِنُ ، ولا يَهابُ ، ولا يَجري خلفَ الآمالِ ، ولا يتبعُ مراضيَ أَهلِ المالِ ، وآيتُهُ أَنْ تجدَهُ مبغوضاً لدىٰ أَهلِ النخوَةِ والشرَفِ ، محبوباً عندَ أَهلِ الضعفِ والعقلِ .

[الكلام على المتكبر]

وأَمَّا صاحبُ الكِبْرِ : فتجدُهُ غامطاً للحقوقِ ، غارقاً في العقوقِ ، لا يقابِلُ الناسَ إِلاَّ بالأَنَفَةِ ، ولا يكلِّمهم إِلاَّ مِن أَطرافِ الشفَةِ ، لا يعرفُ لأَحدٍ قدرَهُ ، ولا يقبَلُ مِن مسيءٍ عذرَهُ ، لكنَّهُ يتواضَعُ لِمَن فوقَهُ بمقدارِ ذلكَ ووزنِهِ ، فإِذا مُثِّلَ أَمامَ الكُبَراءِ ، أَو حضرَ عندَ الأُمراءِ . . نزلَ عَن سماءِ تلكَ الرفعَةِ ، وانحدرَ عَن قلَّةِ تلكَ العظمَةِ ، وذلكَ دليلٌ علىٰ أَنَّهُ مِن أَلأَمِ الناسِ نفساً ، وأَسقطِهِم همَّةً ، وأَزمَنِهم ذمَّةً .

ومنهم مَن يكونُ الكِبْرُ معجوناً في طينَتِهِ ، لا يظْهَرُ أَثرُهُ فيهِ إِلاَّ لِمَن ساعدَهُ الطمَعُ على الترفُّعِ عليهِ ، حتَّىٰ إِذا ما ضحِكَ لَهُ الزمانُ . . ورىٰ ذلِكَ الزندُ ، وانفجرَ ذلكَ الجرحُ ، وقد قالَ سفيانُ ـ رحمهُ اللهُ ـ : إِنَّ اللِّئامَ إِذا تموَّلوا . . استطالوا ، وإِذا افتقروا . . تواضعوا ، والكرامَ إِذا تموَّلوا . . تواضَعوا ، وإِذا افتقروا . . استطالوا .

ومتىٰ رسخَ الكِبرُ في نفسِ الإِنسانِ . . استخدَمَ مَن قدرَ عليهِ مِن الخلقِ في قضاءِ شهوتِهِ ، وتنفيذِ إِرادتِهِ ، ورأَىٰ أَنَّ الصوابَ ما تُمثِّلُ لهُ نفسُهُ ، وأَنَّ العقولَ لم ترجِّحْ إِلاَّ لِموافقَةِ مشربِهِ ، وهـٰذهِ حالُ سائرِ المستبدِّينَ ، ومِن علامتِهم أَنْ تجِدَ أَهلَ العلمِ أَبغضَ ما يكونُ إِليهم :

---

(١) **المتبذِّلُ** : تاركُ التصوُّنِ والاحتشامِ . **مبجَّلٌ** : معظَّمٌ .

[أسباب بغض المستبدين لأهل العلم]

أمّا أولاً : فلأنَّ العلمَ يهدُّ مِن بنائِهم ، ويحطُّ مِن كبريائِهم ، ويغضُّ من عِنانِهم ، ويعرِّفُ بطُغيانِهم .

وأمّا ثانياً : فإنَّهم يبغضونَهم بالطبعِ لذاتِهِ ؛ حيثُ إنَّ لَهُ سلطاناً أَقوىٰ مِن كلِّ سلطانٍ ، ولا بدَّ للمستبدِّ أَن يستحقِرَ نفسَهُ ولَو في سرِّهِ كلَّما وقَعت عينُهُ علىٰ مَن هوَ أَرفعُ سلطاناً منْهُ ، فتراهُ لا يحبُّ أَن يرىٰ وجهَ عالِمٍ شريفٍ حرٍّ قطُّ ، بل يسعىٰ جهدَهُ في إسقاطِ قدرِهِ ، والتقوُّلِ عليهِ ، وإلصاقِ المعايبِ بهِ ، وابتغاءِ العثراتِ في طريقِهِ ، فإنِ اضطرَّ إلى العلمِ أَحياناً . . اختارَ المتصاغرَ المتحذلقَ الدنيءَ :

لأنَّهُ أَوَّلاً : يعرفُ نقصَهُ وانحطاطَهُ ، فلا يجدُ فيهِ مِن طلائعِ المجدِ ما ينغِّصُ عليهِ ، ولا ما يثيرُ حسدَهُ .

ولأنَهُ ثانياً : يملأُ رضاهُ ، ويسارِعُ في هواهُ ، بخلافِ الأَوَّلِ .

ولأنهُ ثالثاً : يتَّخِذُ منهُ مثالاً لتحقيرِ العلماءِ إذا تظاهرَ بعدمِ المبالاةِ بهِ ، وأَلحقَهُ بحاشيتِهِ ، وأَدخلَهُ في غمرَةِ أَتباعِهِ ، وأَمثالُ هؤلاءِ المستبدِّينَ والمتكبِّرينَ واجبٌ علىٰ أَهلِ الإيمانِ احتقارُهم وهجرُهم ، والتكبُّرُ عليهِم ؛ فقد سُئِلَ الحسنُ عَنِ التواضعِ[1] ؟ فقالَ : هوَ التكبُّرُ على الأَغنياءِ .

[الكلام في الكبر والعز]

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ الرازيُّ : التكبُّرُ علىٰ مَن تكبَّرَ عليك بمالِهِ تواضُعٌ . ومصداقُهُ قولُهُ صلى الله عليه وسلم : « **مَنْ تَوَاضَعَ لِغَنِيٍّ . . ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ** »[2] .

ولمَّا سأَلَهُ مسيلمَةُ الكذَّابُ المُلكَ بعدَهُ . . قالَ لَهُ : « وَاللهِ لَوْ سَأَلْتَنِي هَـٰذَا الْعُودَ ـ لِعودٍ في يدِهِ ـ لَمْ أُعْطِكَهُ »[3] .

ولمَّا جاءَهُ نصارىٰ (نجرانَ) ، وعَلَيهِم الحُلَلُ ، وأَزرارُ الذهَبِ . . أَوقفَهم طائفةً مِن النهارِ في الشمسِ .

وأَنشدَ السرخسيُّ [في « نفح الطيب » ٣/ ١١٠] : [من البسيط]

لَـمْ أَلْـقَ مُسْتَكْبِـراً إلاَّ تَحَـوَّلَ لِـي	عِنْـدَ اللِّقَـاءِ لَـهُ الْكِبْـرُ الَّـذِي فِيـهِ
وَلاَ حَـلاَ لِـي مِـنَ الـدُّنْيَـا وَلَـذَّتِهَـا	إلاَّ مُقَـابَلَتِـي لِلتِّيـهِ بِـالتِّيـهِ

وقالَ بعضُ عظماءِ الدنيا للحسنِ : ما أَعظمكَ في نفسكَ! فقالَ : لستُ بعظيمٍ في نفسي ، ولكنِّي عزيزٌ . مِن قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

ومرَّ في المجلسِ الحادي عشرَ ما يشبهُهُ عَن زينِ العابدينَ عليِّ بنِ الحسينِ .

وقالَ بعضُهُم : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا أَنَـا مَـزْهُـوٌّ وَلَكِنَّنِـي فَتـىً ... أَبَـتْ لِـيَ نَفْـسٌ عَـزَّةٌ لَـنْ أُزِيلَهَـا

---

(١) في « صفة الصفوة » (٤/ ١٣٩) : ابن المبارك بدلُ (الحسن) .

(٢) أخرجهُ بنحوه عن وهب البيهقيُّ في « الشعب » (١٠٠٤٣) ، وأورد نحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه الديلمي كما في « كنز العمال » (٦٢٨٩) بلفظ : « من تضرع لصاحب دنيا وضع بذلك نصف دينه » وعن أنس عند الديلمي كما في « الكنز » (٦٢٩٠) « من تضعضع لذي سلطان إرادة دنياه أعرض الله عنه بوجهه في الدنيا والآخرة » .

(٣) أخرجه عن عُبَيدِ اللهِ بن عبدِ اللهِ بنِ عُتبةَ البخاريُّ (٤٣٧٨) ، في (المغازي) بلفظ : « **لَوْ سَأَلْتَنِي هَـٰذَا الْقَضِيبَ مَا أَعْطَيْتُكَهُ** » .



وقالَ عديُّ بنُ أرطاةَ ـ وهوَ على الإمارةِ ـ لوكيعِ بنِ أبي الأسودِ : سَوِّ عليَّ ثيابي ، قالَ : في خُفِّي ضِيقٌ ، فلْيَنْزِعْهُ الأميرُ ؛ حتَّىٰ أتفرَّغَ لِمُساواةِ ثيابِهِ عليهِ ، فقالَ عديٌّ : إنَّ الجليسَ لَيَلي مِن جليسِهِ أكثرَ ممَّا قلتُ لكَ ، قالَ : يا عديُّ إذا عُزِلْتَ عَنَّا . . فكَلِّفنا أكثرَ مِن هـٰذا ، وأمَّا وأنتَ ترىٰ لكَ علينا بسطةً بالإمارةِ . . فلا .

وأتىٰ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ إلىٰ طاوُوسٍ فلم يكلِّمْهُ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : أَرَدْتُ أن يعلمَ أَنَّ في عبادِ اللهِ مَن يستصغِرُ ما يستعظِمُهُ مِن نفسِهِ .

وفي « الإحياءِ » جملةٌ صالِحَةٌ مِن هـٰذا النوعِ .

وكانَ الأغنياءُ ـ [كما في « الحلية » ٦/ ٣٦٥] ـ يتمنَّونَ أن لَو كانوا فقراءَ في مجلسِ سفيانَ الثوريِّ .

[ما من يوم إلا والذي يليه شر منه]

وكذلكَ كانوا في مجالسِ آبائِنا ومشايخِنا ، فما بالعهدِ مِن قِدَمٍ ، ولَم يعظُمْ في بلادِنا الفرقُ ، ويتَّسِعِ الخرقُ إلاَّ عمَّا قريبٍ ؛ إذ تصدَّىٰ للزعامةِ مَن أَغْنيهم بمثلِ قولي ـ من قصيدةٍ كانَ إنشاؤُها في أيَّامِ الحَداثةِ ـ [في « ديوان المؤلف » ق ١٧٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَنَشْـأَةُ هَـٰذَا الشَّـرِّ مِـنْ صُنْـعِ قَـادَةٍ ... إِلَيْهِـمْ أَكُـفُّ الأَغْبِيَـاءِ تُشِيـرُ
لَقَـدْ آثَـرُوا الـدُّنْيَـا فَكُـلُّ أَخِـي غِنـىً ... لَـدَيْهِـمْ وَلَـوْ جَـمَّ الـذُّنُـوبِ أَثِيـرُ
فَـأَصْبَـحَ حَـالُ الْعِلْـمِ مِـنْ شُـؤْمِ فِعْلِهِـمْ ... كَحَـالِ غَـرِيـبٍ خَـانَ فِيـهِ خَفِيـرُ
نَكَـرْتُ عَلَيْهِـمْ فِعْلَهُـمْ فَـوَقَعْـتُ فِـي ... مَعَـامِـعَ ، فِيهِـنَّ الْمَكَـرُّ عَسِيـرُ

وما بنا أن نذكرَ تواضُعَ الصدرِ الأولِ للحقِّ ؛ لأنَّهُ البحرُ الذي لا يُدرَكُ قعرُهُ ، ولا يُبصَرُ عبرُهُ ، وقد رأينا بعيونِ رؤوسِنا مِمَّن أشرْنا إليهِم ما يُغني عَنِ الْخَبَرِ [قال البديع الهمذاني في « قرى الضيف » ٤/ ٣٤٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَحَـادِيـثُ يَـرْوِيهَـا الْعِيَـانُ كَمَـا تَـرَىٰ ... وَإِنْ نَحْـنُ حَـدَّثْنَـا بِهَـا دَفَـعَ الْعَقْـلُ

وإلاَّ . . فلو لَم نرَ شيئاً مِن ذلكَ . . لاختلَطَ علَينا الأمرُ ، وتشكَّكنا فيما يروىٰ مِن تلكَ الأخلاقِ الفاضلةِ عَنِ السلفِ الطيبِ ، ولكنَّ العِيانَ قطعَ كلَّ شكٍّ ، وأزالَ كلَّ تردُّدٍ ، فلَنا بحقٍّ أن نتمثَّلَ وقتَما كُنَّا نشاهِدُ مشايخَنا **بقولِ الناظِمِ** [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٢٧] : [مِنَ البسيطِ]

مَـا شَيَّـدَ اللهُ مِـنْ مَجْـدٍ لِسَـالِفِهِـمْ ... إلاَّ وَنَحْـنُ نَـرَاهُ فِيهِـمُ الآنَـا

[لا شيء ينفع سوى الانكسار بين يدي الله]

وممَّا يروىٰ عَن أَبي يزيدَ البسطاميِّ أَنَّهُ قالَ : رأيتُ كأَنَّ القيامةَ قد قامَت ، وتجلَّى الحَكَمُ العدْلُ لفَصلِ القضاءِ بينَ عبادِهِ ، وأخذَ الملائكةُ يأتونَ الناسَ واحداً واحداً ، ينتفضونَ مِن الفَرَقِ[1] ، حتَّىٰ حضرَتْ نوبَتي ، فَجِيْءَ بي ترعَدُ فرائصي ، فقالَ لي الجبَّارُ : ماذا جئْتَ بهِ ؟ قلْتُ : الثقةُ بكَ ، قالَ : وهل مِن شكٍّ حتَّىٰ تمنَّ بالثقةِ بي ؟! قلْتُ : جئتُكَ بالزهْدِ ، قالَ : وهَل لِلدنيا مِن قدرٍ حتَّىٰ تمنَّ بالزهدِ فيها ؟! قلْتُ : انقطَعَتْ حجَّتي يا ربِّ ، فألهِمْني رُشدي ، قالَ : قُلْ : جئتُ بالانكسارِ بينَ يديكَ ، أو ما يقربُ مِن هـٰذا المعنىٰ .

---

(١) الفرَقُ : الخوفُ .

ولئِن كانَت مناماً . فمصداقُها قولُهُ عزَّ وجلَّ في الحديثِ القدسيِّ : « **أَنا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي** »(١) .

وفي « **الصحيح** » : « **أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ** »(٢) .

وفي لزوميَّاتي : [مِنَ الطَّويلِ]

يَـذِلُّ لِـرَبَّـاتِ الْحِجَـالِ أَخُـو الْهَـوَىٰ ... وَإِنْ كَـانَـتِ الـدُّنْيَـا إِذَا سَـارَ تَهْتَـزُّ
وَمَـا عَفَّـرَ الإِنْسَـانُ فِـي التُّـرْبِ وَجْهَـهُ ... لِمَـوْلاَهُ إِلاَّ كَـانَ فِـي ذَلِـكَ الْعِـزُّ

❊ ❊ ❊

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٣٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلاَ ثَـوْبَ مَجْـدٍ غَيْـرَ ثَـوْبِ ابْـنِ أَحْمَـدٍ ... عَلَـىٰ أَحَـدٍ إِلاَّ بِلُـؤْمٍ مُـرَقَّـعُ

[شرح المطلع والعيوب التي فيه]

يقولُ : إنَّهُ لم يسلَمِ المجدُ لأَحدٍ خالصاً غيرَ مشوبٍ بشيءٍ مِنَ اللُّؤْمِ . . إلاَّ للممدوحِ ، وقدِ انتقلَ من النسيبِ إلى المديحِ مِن غيرِ مناسبَةٍ ، وذلكَ ما يسمُّونَهُ : الوثبَ ، والقطْعَ ، والاقتضابَ ، كلُّ ذلكَ يطلقونَهُ عليهِ ، وهوَ الأَكثرُ في الجاهليَّةِ ، واشتهرَ بهِ مِن المتأَخِّرينَ البُحتريُّ ، وأَبو نُواسٍ ، حتَّىٰ قالَ بعضُهم : [مِنْ مجزوءِ الكاملِ]

وَثْبـاً كَـوَثْـبِ الْبُحْتُـرِيِّ ... مِـنَ النَّسِيـبِ إِلَـى الْمَـدِيـحِ

[المخالص الفائقة للمتنبي]

وللناظِمِ مِن المخالِصِ الفائِقَةِ ما لا يستهانُ بقدرِهِ ، ولا يُجهَلُ مكانُهُ ، **كقولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٧١] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـلاَ تَعْجَبَـا إِنَّ السُّيُـوفَ كَثِيـرَةٌ ... وَلَكِـنَّ سَيْـفَ الـدَّوْلَـةِ الْيَـوْمَ وَاحِـدُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٥٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَغَيْـثٍ ظَنَنَّـا تَحْتَـهُ أَنَّ عَـامِـراً ... عَـلاَ لَـمْ يَمُـتْ أَوْ فِـي السَّحَـابِ لَـهُ قَبْـرُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٢٨] : [مِنَ الكاملِ]

أَقْبَلْتُهَـا غُـرَرَ الْجِيَـادِ كَـأَنَّمَـا ... أَيْـدِي بَنِـي عِمْـرَانَ فِـي جَبَهَـاتِهَـا(٣)

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٠٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

نُـوَدِّعُهُـمْ وَالْبَيْـنُ فِينَـا كَـأَنَّـهُ ... قَنَـا ابْـنِ أَبِـي الْهَيْجَـاءِ فِـي قَلْـبِ فَيْلَـقِ(٤)

---

(١) ذكره المناوي في « فيض القدير » (١/ ٥١٩) ، والعجلوني في « كشف الخفاء » (٦١٤) عن القاري فقال : لا أصل له .

(٢) أخرجه عَن أَبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ مسلم (٤٨٢) في (الصلاة) .

(٣) **المعنىٰ** : جعلت قبلة خيلي المناقبَ والمحامدَ منكم ، كما لو كانت نعمكم علىٰ جبهاتها .

(٤) **أبو الهيجاء** : والدُ سيفِ الدولةِ . **القنا** : الرماحُ . **الفيلقُ** : الجيشُ .

وقولِه [في « العُكبَريّ » ٢/١٧٧] : [مِنَ الخفيفِ]

وَتَمَنَّيْــــتُ مِثْلَـــهُ فَكَـــأَنِّــــي طَـالِـبٌ لابـنِ صَـالِـحٍ مَـنْ يُـوازِي[1]

أمّا قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/٢٥٣] : [مِنَ الوافرِ]

أُحِبُّــكَ أَوْ يَقُــولُــوا : جَــرَّ نَمْــلٌ ثَبِيــراً وَابْــنُ إِبْــرَاهِيــمَ رَيْعَــا[2]

.. فلا يستحسنُهُ إلاّ مَن ختمَ اللهُ علىٰ بصيرتِهِ ، كما أسلفناهُ ، وإن خفيَ ذلكَ على الشارحِ ، والعلمُ شاهِدٌ ؛ إذ لا مناسبةَ في العطفِ بينَ الجملتَين ، ومثلُهُ مردودٌ عندَ أهلِ المعاني .

[الشعراء والمخالص]

ومِن أحسنِ المخالِصِ قولُ مسلمِ بنِ الوليدِ [في « ديوانهِ » ٣٤٠] : [مِنَ البسيطِ]

أَمُطْلَـعَ الشَّمْـسِ تبْغِـي أَنْ تَـؤُمَّ بِنَـا فَقُلْـتُ : كَـلاَّ وَلَكِـنْ مَطْلَـعَ الْكَـرَمِ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٣١٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَجِـدَّكِ هَـلْ تَـدْرِيـنَ يَـا رُبَّ لَيْلَـةٍ كَـأَنَّ دُجَـاهَـا مِـنْ قُـرُونِـكِ يُنْشَـرُ[3]

لَهَـوْتُ بِهَـا حَتَّـىٰ تَجَلَّـتْ بِغُـرَّةٍ كَغُـرَّةِ يَحْيَـىٰ حِيـنَ يُمْـدَحُ جَعْفَـرُ

وقولُ أَبي نُواسٍ [في « ديوانهِ » ٢٩٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

دَعِينِـي أُكَثِّـرْ حَـاسِدِيـكِ بِـرِحْلَـةٍ إِلَـىٰ بَلَـدٍ فِيهَـا الْخَصِيـبُ أَمِيـرُ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٣٣٠] : [مِنَ الكاملِ]

وَإِذَا أَرَدْتَ مَـدِيـحَ قَـوْمٍ لَـمْ تَمِـنْ فِـي مَـدْحِهِـمْ فَـامْـدَحْ بَنِـي الْعَبَّـاسِ[4]

وقولُ الفرزدَقِ [في « خِزانة الأدب » ١/٣٣٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا آنَسُـوا نَـاراً يَقُـولُـونَ : لَيْتَهَـا وَقَـدْ خَصِـرَتْ أَيْـدِيهِـمُ نَـارُ غَـالِـبِ

وقولُ البُحتريِّ [في « ديوانهِ » ١/٦٢٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

رِيَـاضٌ تَـرَدَّتْ بِـالنَّبَـاتِ مَجُـودَةً بِكُـلِّ جَـدِيـدِ الْمَـاءِ عَـذْبِ الْمَـوَارِدِ[5]

إِذَا رَاوَحَتْهَـا مُـزْنَـةٌ بَكَّـرَتْ لَهَـا شَـآبِيـبُ مُجْتَـازٍ عَلَيْهَـا وَقَـاصِـدِ[6]

كَـأَنَّ يَـدَ الْفَتْـحِ بْـنِ خَـاقَـانَ أَقْبَلَـتْ عَلَيْهَـا بِتِلْـكَ السَّـائِـرَاتِ الـرَّوَاعِـدِ

---

(١) يوازي : يعادلُ ويماثلُ . ابن صالح : هو الممدوحُ . وهٰذا البيت من أحسنِ المخالصِ التي للمتنبي وقد أحسنَ فيهِ ، وله في المخالصِ اليدُ الطولىٰ .

(٢) الثبيرُ : جبلٌ عظيمٌ معروفٌ بالحجازِ .

(٣) أَجِدَّكِ : كلمةٌ منصوبةٌ على المصدرية ، وهي كلمة تستعمل بمعنىٰ قولك : أجدٌّ منكَ . قرونُكِ : خِصَالُ شعركِ .

(٤) لم تمن : لم تكذبْ .

(٥) مجودَةٌ : أصابها الجَوْدُ ، وهوَ المطرُ الغزيرُ .

(٦) شآبيبُ : جمعُ شُؤْبوبٍ ، وهوَ الدفعةُ من المطرِ .

وقالَ البهاءُ زهيرٌ [في « ديوانهِ » ٢٢٢] : [مِنَ الكاملِ]

أَهْوَى التَّذَلُّلَ فِي الْغَرَامِ وَإِنَّمَا ... يَأْبَىٰ صَلاَحُ الدِّينِ أَنْ أَتَذَلَّلاَ
مَهَّدْتُ بِالْغَزَلِ الرَّشِيقِ لِمَدْحِهِ ... أَرَدْتُ قَبْلَ الْفَرْضِ أَنْ أَتنفَّلاَ

[بعض الشعراء يدعي النقص في الناس ليرفع ممدوحه]

ثمَّ إنَّ دعوى النقصِ في الخلقِ تمهيداً لتفضيلِ الممدوحِ عليهِم لا يخلو عنهُ شعرٌ قطُّ ، حتَّىٰ كادَ أن يقعَ بهِ الشيخُ عبدُ الرحيمِ البرعيُّ في إساءَةِ الأَدبِ على الأنبياءِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِم أجمعينَ ، ولا سيَّما في قصيدتِهِ التي استهلَّها بقولِهِ : [مِنَ الوافرِ]

سَمِعْتُ سُوَيْجِعَ الأَثْلاَتِ غَنَّىٰ ... عَلَىٰ مَطْلُولَةِ الْعَذَبَاتِ رَنَّا[1]

أمَّا الغضُّ مِن قومٍ معيَّنينَ ، لتفضيلِ الممدوحِ عليهِم . . فليسَ بالحقيقةِ إلاَّ تقصيراً بهِ ؛ إذ لا كبيرَ فائدَةٍ في الفضلِ على السُّقَّاطِ ، والارتفاعِ على السفلَةِ [قالَ الخليلُ بنُ أحمدَ القاضِي السَّجزي في « قِرَى الضَّيفِ » ٥/ ٢٩٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرُهُ ... إِذَا قِيلَ : هَـٰذَا السَّيْفُ خَيْرٌ مِنَ الْعَصَا

وقد وقعَ فيهِ البُحتريُّ إذ يقولُ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٠٠] : [مِنَ الكاملِ]

شَهِدْتُ لَقَدْ أَنْصَفْتَهُ حِينَ تَنْبَرِي ... لَهُ مُصْلِتاً عَضْباً مِنَ الْبِيضِ مِقْضَبَا[2]
فَلَمْ أَرَ ضِرْغَامَيْنِ أَصْدَقَ مِنْكُمَا ... عِرَاكاً إِذَا الْهَيَّابَةُ النِّكْسُ كَذَّبَا![3]

والحماسيُّ [إياس بن الأرت] في قولِهِ [في « ديوان الحماسة » ٢/ ٢٥١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنِّي لَمِمَّنْ أَبْسُطُ الْكَفَّ بِالنَّدَىٰ ... إِذَا شَنِجَتْ كَفُّ الْبَخِيلِ وَسَاعِدُهْ[4]

[أبلغ ما يكون المديح أن ترفع شأن عدو ممدوحك ثم تفضله عليه ؛ لأنه لا فخر بالتقدم علىٰ رعاع الناس]

وإنَّما صادقُ المدحِ مثلُ قولِ مسلمِ بنِ الوليدِ [في « ديوانهِ » ١٦٤] : [مِنَ البسيطِ]

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ الْجَوَادُ بِهَا ... وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَىٰ غَايَةِ الْجُودِ

وما سبقَ في المجلسِ السادسِ مِن قولِ أبي تمَّامٍ وما يناسبُهُ [في « ديوانهِ » ٢/ ٣١١] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَتىً كُلَّمَا ارْتَادَ الشُّجَاعُ مِنَ الرَّدَىٰ ... مَفَرّاً غَدَاةَ الْمَأْزِقِ ارْتَادَ مَصْرَعَا[5]

وقدِ اتُّفِقَ أنَّ شاعرينِ تقدَّما في تهنئةٍ بفتْحٍ ، فأمَّا أحدُهما : فعمدَ إلىٰ تحقيرِ أمرِ العدوِّ ، وتوهينِ شأنِهِ ، وأمَّا الآخرُ : فعظَّمَ مِن قدرِهِ ، وكبَّرَ مِن أمرِهِ ، فاستحقَّ الجائزَةَ الضخمَةَ ؛ إذ ذهبَ بالممدوحِ إلىٰ أبعدِ شأوٍ في المديحِ .

---

(١) **الأثل** : شجر من الطَّرْفاء واحدته أثلة ، والجمع أثلات . **والتأثل** : أصل مال .
(٢) **العضبُ** : السيفُ القاطعُ .
(٣) **الضرغامُ** : من أسماءِ الأسدِ . **النِّكسُ** : الرجلُ الضعيفُ والمقصرُ عن غايةِ النجدة .
(٤) **شَنِجَتْ** : يبسَتْ .
(٥) **ارتادَ** : طلبَ . **المأزقُ** : المضيقُ . **المصرعُ** : مكانُ الصرع ، الموتُ .
والمعنىٰ : أنَّ هـٰذا القائدَ يُقدِمُ حين يعجزُ الشجعانُ ، وكلَّما اشتدَّ القتالُ ثبتَ في موقعهِ ليكسبَ حسنَ الثناءِ .

ووقعَ ليْ : أَنِ اعْترضَ غبيٌّ علىٰ كلامٍ لي ، فنقَضْتُ قولَهُ في رسالَةٍ سمَّيْتُها « **تأْديبَ المجتَري وتكذيبَ المفتَري** » وانعقدَ مجلسٌ لذلكَ ، ولمَّا انقطعَ ، وأَعياهُ الانفصالُ . . قُلتُ في آخرِها : عندَ ذلكَ انكشفَتِ العجاجَةُ ، ولا فخرَ ؛ فالرميَةُ دجاجَةٌ ، **وأَعطاني الناظِمُ شاهداً ذكرتُهُ وهوَ** [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٧٣] : [مِنَ البسيطِ]

وَشَـرُّ مَـا قَنَصَتْـهُ رَاحَتِـي قَنَـصٌ ... شُهْـبُ الْبُـزَاةِ سَـوَاءٌ فِيـهِ وَالـرَّخَـمُ

وفيما يتَّصِلُ بما نحنُ فيهِ قولُ مهلهلِ ابنِ ربيعَةَ [في « ديوانه » ٤٢] : [مِنَ الوافرِ]

كَـأَنَّـا غَـدْوَةً وَبَنِـي أَبِينَـا ... بِجَنْـبِ عُنَيْـزَةٍ رَحَيَـا مُـدِيـرِ(١)

وقالَ عمرُو بنُ كلثوم [في « ديوانه » ٨٦] : [مِنَ الوافرِ]

كَـأَنَّ ثِيَـابَنَـا مِنَّـا وَمِنْهُـمْ ... خُضِبْـنَ بِـأُرْجُـوَانٍ أَوْ طُلِينَـا(٢)

كَـأَنَّ سُيُـوفَنَـا فِينَـا وَفِيهِـمْ ... مَخَـارِيـقٌ بِـأَيْـدِي لاَعِبِينَـا(٣)

وقالَ عمرُو بنُ العاصِ في صِفِّينَ : [مِنَ الطَّويلِ]

كَـأَنَّ الْتِمَـاعَ الْبِيـضِ فِينَـا وَفِيهِـمُ ... تَبَـوُّجُ بَـرْقٍ فِـي تِهَـامَـةَ ثَـاقِـبُ

وقالَ أَيضاً فيها : [مِنَ الطَّويلِ]

أَجِئْتُـمْ إِلَيْنَـا تَسْفِكُـونَ دِمَـاءَنَـا ... وَمَـا رُمْتُـمُ وَعْـرٌ مِـنَ الأَمْـرِ أَعْسَـرُ

لَعَمْـرِي لِمَـا فِيـهِ يَكُـونُ احْتِجَـاجُنَـا ... إِلَـى اللهِ أَدْهَـىٰ لَـوْ عَقَلْتُـمْ وَأَنْكَـرُ

تَعَـاوَرْتُـمُ ضَـرْبـاً بِكُـلِّ مُهَنَّـدٍ ... إِذَا شَـدَّ وَرْدَانٌ تَقَـدَّمَ قُنْبُـرُ

كَتَـائِبُكُـمْ طَـوْراً تَشُـدُّ وَتَـارَةً ... كَتَـائِبُنَـا فِيهَـا الْقَنَـا وَالسَّنَـوَّرُ(٤)

إِذَا مَـا الْتَقَـوْا يَـوْمـاً تَـدَارَكَ بَيْنَهُـمْ ... طِعَـانٌ وَمَـوْتٌ فِـي الْمَعَـارِكِ أَحْمَـرُ

وقالَ العبَّاسُ بنُ مِرداسٍ [في « ديوانهِ » ٩٢-٩٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَـمْ أَرَ مِثْـلَ الْحَـيِّ حَيّـاً مُصَبَّحـاً ... وَلاَ مِثْلَنَـا يَـوْمَ الْتَقَيْنَـا فَـوَارِسَـا(٥)

أَكَـرَّ وَأَحْمَـىٰ لِلْحَقِيقَـةِ مِنْهُـمُ ... وَأَضْـرَبَ مِنَّـا بِـالسُّيُـوفِ الْقَـوَانِسَـا(٦)

إِذَا مَـا شَـدَدْنَـا شَـدَّةً نَصَبُـوا لَنَـا ... صُـدُورَ الْمَـذَاكِي وَالـرِّمَـاحَ المـدَاعِسَـا(٧)

---

(١) **عنيزةٌ** : موضعٌ بعينهِ ، به جرى اليومُ الثالثُ بينَ تغلبَ وبكرٍ . **رَحَيَا** : مثنىٰ رحىٰ ، وهيَ الأداةُ التي يطحنُ بها ، ذكرهما الشاعر ليدلَّ علىٰ توازنِ تغلبَ وبكرٍ في هـٰذا اليوم ، أي : كانا سواءً .

(٢) **الأرجوانُ** : صبغٌ أحمرُ اللونِ .

(٣) **المخاريقُ** : جمعُ مخراقٍ ، وهوَ ثوبٌ يُلفُّ ويَضربُ بهِ الصبيانُ بعضهم بعضاً .

(٤) **السَّنَوَّرُ** : بقيةُ السلاحِ ، وقيل : الدروعُ خاصَّةً .

(٥) **المصبَّحُ** : الذي يؤتىٰ صبحاً للغارةِ .

(٦) **أكرَّ** : أكثرُ كرّاً . **الحقيقةُ** : ما يحقُّ على المرءِ أن يحميَهُ . **القوانسُ** : جمعُ قونسٍ ، وهو أعلىٰ بيضةِ الرأسِ .

(٧) **المذاكي** : جمعُ مذكٍ ، وهوَ ما جاوزَ القُروحَ بسنةٍ ، وقد قرحَ الفرسُ إذا دخلَ في السادسةِ . **المدعسُ من الرماحِ** : الغليظ الشديدُ الذي لا يثني ، ودعسهُ بالرمحِ طعنهُ .

=

إِذَا الْخَيْلُ جَالَتْ عَنْ صَرِيعٍ نُكِرُّهَا عَلَيْهِمْ فَمَا يَرْجِعْنَ إِلاَّ عَوَابِسَا[١]

وقالَ عبدُ الشارقِ بنُ عبدِ العزَّى الجهنيُّ [في « ديوان الحماسة » ١/١٦٩] : [مِنَ الوافرِ]

أَلاَ حُيِّيتِ عَنَّا يَا رُدَيْنَا نُحَيِّيهَا وَإِنْ كَرُمَتْ عَلَيْنَا

رُدَيْنَةُ لَوْ رَأَيْتِ غَدَاةَ جِئْنَا عَلَىٰ أَحْقَادِنَا وَقَدِ اخْتَوَيْنَا[٢]

فَأَرْسَلْنَا أَبَا عَمْرٍو رَبِيئاً فَقَالَ : أَلاَ انْعَمُوا بِالْقَوْمِ عَيْنَا[٣]

وَدَسُّوا فَارِساً مِنْهُمْ عِشَاءً فَلَمْ نَغْدُرْ بِفَارِسِهِمْ لَدَيْنَا

فَجَاؤُوا عَارِضاً بَرِداً وَجِئْنَا كَمِثْلِ السَّيْفِ نَرْكَبُ وَازِعِيْنَا[٤]

تَنَادَوْا يَالَبُهْثَةَ إِذْ رَأَوْنَا فَقُلْنَا : صَوِّبِي رَمْياً جُهَيْنَا[٥]

سَمِعْنَا دَعْوَةً عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ فَجُلْنَا جَوْلَةً ثُمَّ ارْعَوَيْنَا

فَلَمَّا أَنْ تَوَاقَفْنَا قَلِيلاً أَنَخْنَا لِلْكَلاَكِلِ وَارْتَمَيْنَا

فَلَمَّا لَمْ نَدَعْ قَوْساً وَسَهْماً مَشَيْنَا نَحْوَهُمْ وَمَشَوْا إِلَيْنَا

شَدَدْنَا شَدَّةً فَقَتَلْتُ مِنْهُمْ ثَلاَثَةَ فِتْيَةٍ وَقَتَلْتُ قَيْنَا

وَشَدُّوا شَدَّةً أُخْرَىٰ فَجَرُّوا بِأَرْجُلِ مِثْلِهِمِ وَرَمَوْا جُوَيْنَا

وَكَانَ أَخِي جُوَيْنٌ ذَا حِفَاظٍ وَكَانَ الْقَتْلُ لِلْفِتْيَانِ زَيْنَا

فَآبُوا بِالرِّمَاحِ مُكَسَّرَاتٍ وَأُبْنَا بِالسُّيُوفِ قَدِ انْحَنَيْنَا

وَبَاتُوا بِالصَّعِيدِ لَهُمْ أُحَاحٌ وَلَوْ خَفَّتْ لَنَا الْكَلْمَىٰ سَرَيْنَا[٦]

وقالَ بعضُ العربِ ينصِفُ خصومَهُ [في « ديوانِ العباسِ بن مرداسٍ » ١١٨] : [مِنَ الوافرِ]

وَلَيْسَ الْجُبْنُ عَادَتَهُمْ وَلَكِنْ رَمَيْنَاهُمْ بِثَالِثَةِ الأَثَافِي

وقالَ النابغةُ الجعديُّ ، أَو زفرُ بنُ الحارثِ [في « ديوانِ النابغةِ » ٨٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلَمَّا قَرَعْنَا النَّبْعَ بِالنَّبْعِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ أَبَتْ عِيدَانُهُ أَنْ تَكَسَّرَا[٧]

سَقَيْنَاهُمُ كَأْساً سَقَوْنَا بِمِثْلِهَا وَلَكِنَّنَا كُنَّا عَلَى الْمَوْتِ أَصْبَرَا

وقالَ معاويةُ لدغفلٍ [في « جمهرة خطب العرب » ٢/٣٦٧] : أَخبِرني عَن قومِك بكرِ بنِ وائِلٍ ، قالَ : كانوا أَهلَ عزٍّ قاهرٍ ،

= **يقولُ** : إذا حملنا عليهم ثبتوا في وجوهنا ونصبوا صدورَ الخيلِ القرحِ والرماحَ المعدَّة لذلكَ .

(١) **يقولُ** : إذا الخيلُ دارت عن مصروعٍ منَّا . . كررنا عليهم ؛ لنصرعَ مثلَ ما صرعوا منَّا ، وإن كرهت الخيلُ الكرَّ لشدَّةِ البأسِ فلم ترجع إلا عوابس .

(٢) **وقدِ اختوَينا** : أي لَم نطعَم شيئاً ، وكانوا يكرهونَ الطَّعامَ عندَ الحربِ ؛ مخافةَ أن يُطعَنَ أَحدُهُم في بطنِهِ فيَخرُجَ منهُ الطَّعامُ ، فيكونُ ذلكَ عاراً .
وجوابُ (لو) محذوفٌ ؛ لأَنَّ الأبياتَ مقصورةٌ علىٰ بيانِ القصَّةِ ، والتقديرُ : لو رأَيتِ غداةَ جئنا علىٰ أَحقادِنا ، لَم نطعَمْ شيئاً . . لرأَيتِ أَمراً عظيماً .

(٣) **الربيئة** : العين الذي يطلع علىٰ أخبار العدو .

(٤) **العارض** : السحاب المعترض في الأفق . **الوازع** : الذي يرتب الجيش ويقدم ويؤخر ، ومعنىٰ نركب وازعينا : لا نَنقادُ لمن يريد ضبطنا من الجيشين .

(٥) **تنادوا بالبُهثة** : أي دعوا بهثة ، وبُهْثَةُ وجُهينَةُ : بطنٌ مِنَ العربِ .

(٦) **الأُحاحُ** : العطش والغيظ ، وشدّة الغمِّ .

(٧) **النبعُ** : شجرٌ أخضرُ العودِ صلبُ الخشبِ ، إذا تقادمَ . . احمرَّ لونُهُ ، يستخدم في صناعةِ القسيِّ والسهامِ ، والنبعُ كنايةٌ عن كرمِ الأَصلِ وشرفِ النسبِ .

وشرَفٍ ظاهِرٍ ، قالَ : فأخبرني عَن إخوانِهم تغلِبَ ، قالَ : كانوا أُسوداً تُرهَبُ ، وسماماً لا تقربُ ، قالَ : فكَم أُديلوا عليكُم ؟ قالَ : أَربعينَ سنَةً ، لا ننتصِفُ مِنهم في موطنٍ نلقاهُم فيهِ .. حتَّىٰ كانَ يومَ تحلاقِ اللِّمَمِ ، وقد غضبَ الحارثُ بنُ عُبادٍ لقتلِ ابنهِ بِشِسْعِ نَعْلِ كُليبٍ ، فحميَ ، وقالَ : [مِنَ الخفيفِ]

قَـرِّبَـا مَـرْبَـطَ النَّعَـامَـةِ مِنِّـي ... لَقِحَـتْ حَـرْبُ وَائِـلٍ عَـنْ حِيَـالِ

قَـرِّبَـا مَـرْبَـطَ النَّعَـامَـةِ مِنِّـي ... إِنَّ بَيْـعَ الْكِـرَامِ بِـالشِّسْـعِ غَـالِـي

لَـمْ أَكُـنْ مِـنْ جُنَـاتِهَـا عَلِـمَ اللّٰـهُ وَإِنِّـي بِحَـرِّهَـا الْيَـوْمَ صَـالِـي

وقالَ أبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ١/ ٧٥] : [مِنَ الكاملِ]

ضَـرَبَ الْجِبَـالَ بِمِثْلِهَـا مِـنْ عَـزْمِـهِ ... غَضْبَـانَ يَطْعَـنُ فِـي الْحِمَـامِ وَيَضْـرِبُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٢١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَـمْ أَرَ كَـالْمَلْعُـونِ أَثْـرَىٰ ذَخِيـرَةً ... وَأَبْقَـىٰ دَمـاً وَالْحَـادِثَـاتُ تُجَـانِبُـهْ

إِذَا قُلْـتُ : بِيـضُ الْمَشْـرِفِيَّـةِ أَهْمَـدَتْ ... حُشَـاشَتَـهُ .. كَـرَّتْ تَثُـوبُ ثَـوَائِبُـهْ[1]

يَبُـثُّ الْمَنَـايَـا وَالْمَنَـايَـا يَحُـزْنَـهُ ... وَيَكْمُـنُ مِنْـهُ الْحَتْـفُ وَالْحَتْـفُ كَـارِبُـهْ

إِذَا ازْدَادَ شَغْبـاً كَـانَ وَالِـي قِـرَاعِـهِ ... مَلِيّـاً لَـهُ بِـالْفَضْـلِ حِيـنَ يُشَـاغِبُـهْ[2]

كَمَـا اللَّيْـلُ إِنْ تَـزْدَدْ لِعَيْنَيْـكَ ظُلْمَـةً ... حَنَـادِسُـهُ تَـزْدَادُ ضَـوْءاً كَـوَاكِبُـهْ

وقالَ مِن قصيدتِهِ التي يصفُ بِها ملاقاةَ الفتحِ بنِ خاقانَ للأسدِ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٠١] : [مِنَ الطَّويلِ]

هِـزَبْـرٌ مَشَـىٰ يَبْغِـي هِـزَبْـراً وَأَغْلَـبٌ ... مِـنَ الْقَـوْمِ يَغْشَـىٰ بَـاسِلَ الـوَجْـهِ أَغْلَبَـا[3]

أَدَلَّ بِشَغْـبٍ ثُـمَّ هَـالَتْـهُ صَـوْلَـةٌ ... رَآكَ لَهَـا أَمْضَـىٰ جَنَـانـاً وَأَشْغَبَـا[4]

فَـأَحْجَـمَ لَمَّـا لَـمْ يَجِـدْ فِيـكَ مَطْمَعـاً ... وَأَقْـدَمَ لَمَّـا لَـمْ يَجِـدْ عَنْـكَ مَهْـرَبَـا

فَلَـمْ يُغْنِـهِ أَنْ كَـرَّ نَحْـوَكَ مُقْبِـلاً ... وَلَـمْ يُنْجِـهِ أَنْ حَـادَ عَنْـكَ مُنَكِّبَـا

حَمَلْـتَ عَلَيْـهِ السَّيْـفَ لاَ عَـزْمُـكَ انْثَنَـىٰ ... وَلاَ يَـدُكَ ارْتَـدَّتْ وَلاَ حَـدُّهُ نَبَـا

والأخيرُ مِن عيونِ الشعرِ ، وفرائِدِهِ ، ومختارِهِ ، وخالصِهِ ، وإِن قالَ المرتضىٰ في « **أماليهِ** » : إِنَّهُ مِن شعرِ لبعضِ الجاهليينَ ، ذكرهُ ونسيتُهُ .

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٨٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا عَـدِمَ الـلاَّقُـوكَ بَـأْسـاً وَشِـدَّةً ... وَلَكِـنَّ مَـنْ لاَقَـوْا أَشَـدُّ وَأَنْجَـبُ

---

(١) **أهمدت** : سكنت . **الثوائبُ** : الريحُ الشديدةُ التي تكونُ في أوَّلِ المطرِ .
(٢) **الشغبُ** : كثرةُ الجلبةِ المؤديةُ إلى الشرِّ . **القِراعُ** : التطاحنُ .
(٣) **الهزبرُ** : من أسماءِ الأسدِ . **الأغلبُ** : الأسدُ الغليظُ الرقبةِ وهوَ من صفاتِ المدحِ .
(٤) **أدلَّ** : اجترأَ .

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٨٣ـ٨٤] : [مِنَ الوافرِ]

وَلَـوْ غَيْـرُ الأَمِيـرِ غَـزَا كِـلاَبـاً ... ثَنَـاهُ مِـنْ شُمُـوسِهِـمُ ضَبَـابُ[1]

وَلاَقَـىٰ دُونَ ثَـايِهِـمُ طِعَـانـاً ... يُـلاَقِـي عِنْـدَهُ الـذِّئْـبَ الْغُـرَابُ[2]

وَخَيْـلاً تَغْتَـذِي رِيـحَ الْمَـوَامِـي ... وَيَكْفِيهَـا عَـنِ الْمَـاءِ السَّـرَابُ[3]

وَلَكِـنْ رَبُّهُـمْ أَسْـرَىٰ إِلَيْهِـمْ ... فَمَـا نَفَـعَ الْـوُقُـوفُ وَلاَ الـذَّهَـابُ[4]

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٣٩] : [مِنَ الخفيفِ]

وَهُـمُ الْبَحْـرُ ذُو الْغَـوَارِبِ إِلاَّ ... أَنَّـهُ صَـارَ عِنْـدَ بَحْـرِكَ آلاَ[5]

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٦٢] : [مِنَ الوافرِ]

لَقُـوكَ بِـأَكْبُـدِ الإِبِـلِ الأَبَـايَـا ... فَسُقْتَهُـمُ وَحَـدُّ السَّيْـفِ حَـادِ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٠٠] : [مِنَ الوافرِ]

وَمَـا انْقَـادَتْ لِغَيْـرِكَ فِـي زَمَـانٍ ... فَتَعْـرِفَ مَـا الْمَقَـادَةُ وَالصَّغَـارُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٣٥] : [مِنَ الخفيفِ]

حَـالُ أَعْـدَائِنَـا عَظِيـمٌ وَسَيْـفُ الـدَّ ... وْلَـةِ ابْـنُ السُّيُـوفِ أَعْظَـمُ حَـالاَ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٧] : [مِنَ الوافرِ]

يَحِيـدُ الـرُّمْـحُ عَنْـكَ وَفِيـهِ قَصْـدٌ ... وَيَقْصُـرُ أَنْ يَنَـالَ وَفِيـهِ طُـولُ[6]

ولمَّا انقرضَت دولَة بني رزيكٍ علىٰ يدِ أَبي شجاع شاوِر بنِ مجيرٍ . . جلسَ ذاتَ يومٍ وحولَهُ جماعَةٌ مِن صنائعِ بني رُزَّيكٍ ، فوقعوا فيهم ؛ تملُّقاً لأَبي شجاعٍ ، ومقاربَةً لَهُ ، فقالَ عمارَةُ اليمنيُّ : [مِنَ البسيطِ]

زَالَـتْ لَيَـالِـي بَنِـي رُزَّيْـكٍ وَانْصَـرَمَـتْ ... وَالْمَـدْحُ وَالـذَّمُّ فِيهَـا غَيْـرُ مُنْصَـرِمِ

كُنَّـا نَظُـنُّ وَبَعْـضُ الظَّـنِّ مَـأْثَمَـةٌ ... بِـأَنَّ ذَلِـكَ جَمْـعٌ غَيْـرُ مُنْهَـزِمِ

وَلَـمْ يَكُـونُـوا عَـدُواً ذَلَّ جَـانِبُـهُ ... لَكِنَّهُـمْ غَـرِقُـوا فِـي سَيْلِـكَ الْهَمِـمِ

وَمَـا قَصَـدْتُ بِتَعْظِيمِـي عِـدَاكَ سِـوَىٰ ... تَعْظِيـمَ شَـأْنِـكَ فَـاعْـذُرْنِـي وَلاَ تَلُـمِ

وَلَـوْ شَكَـرْتُ لَيَـالِيهِـمْ مُحَـافَظَـةً ... لِعَهْـدِهَـا لَـمْ يَكُـنْ بِـالْعَهْـدِ مِـنْ قِـدَمِ

---

(١) **الضبابُ** : جمعُ ضبابةٍ ، وهيَ سحابةٌ تغشى الأَرضَ كالدخانِ ، يقالُ منهُ : أضبَّ نهارُنا .

(٢) **الثاي** : جمعُ ثايةٍ ، وهيَ الحجارةُ التي تجعلُ حولَ البيتِ ، يأوي إليها الراعي ليلاً ، وهيَ مباركُ الإبلِ ومرابضُ الغنمِ .

(٣) **الموامي** : جمعُ موماةٍ ، وهيَ المفازةُ .

(٤) **ربُّهم** : هوَ اللهُ تعالىٰ ، ولا يُقالُ لغيرِهِ إِلاَّ بالإِضافةِ . **أَسرَىٰ** : سارَ ليلاً .
والمعنىٰ : لَم تنفعْهُمُ الحربُ ؛ لأَنَّهم أُدركوا ، ولا الوقوفُ لو وقفوا في ديارِهم للدِّفاعِ والمحاماةِ ؛ لأَنَّهم لَو وقفوا قُتِلوا .

(٥) **الغواربُ** : أَعالي الموجِ . **الآلُ** : السرابُ .

(٦) **يحيدُ** : يرجعُ . **القصدُ** : الاستقامةُ ، يريدُ : أَنَّ الرمحَ مستقيمٌ غيرُ معوجٍّ .

وَلَـوْ فَتَحْـتُ فَمِـي يَـوْمـاً بِـذَمِّهِـمُ لَـمْ يَـرْضَ فَضْلُـكَ إِلاَّ أَنْ يَسُـدَّ فَمِـي

فشكرَهُ شاورُ وأولادُهُ على الوفاءِ ، وحفظِ العهدِ[1] .

وقد سبقَ نظائِرُهُ في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ٢/ ٣٣٩] : [مِنَ الكاملِ]

يَـا ذَا الَّـذِي يَهَـبُ الْجَـزِيـلَ وَعِنْـدَهُ أَنِّـي عَلَيْـهِ بِـأَخْـذِهِ أَتَصَـدَّقُ

[دعوىٰ براءة الحبيب من العيب . . لا تليق إلا . .]

أَمَّا دعواهُ لممدوحِهِ براءَةَ الجيبِ مِنَ العيبِ . . فأَولى الناسِ بذلكَ سيِّدُ الوجودِ ، وأَفضلُ مولودٍ ، فقد أَخذَ ابنُ الفارضِ في خلوتِهِ يردِّدُ قولَ الحريريِّ [في « وفيات الأعيان » ٣/ ٢٥٥] : [مِنْ مجزوءِ الرَّجَزِ]

مَـنْ ذَا الَّـذِي مَـا سَـاءَ قَـطّ وَمَـنْ لَـهُ الْحُسْنَـىٰ فَقَـطْ

حتَّىٰ سَمعَ هاتفاً يقولُ : [مِنْ مجزوءِ الرَّجَزِ]

مُحَمَّـدُ الْهَـادِي الَّـذِي عَلَيْـهِ جِبْـرِيـلُ هَبَـطْ

[الكلام حول عصمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين]

وللعلماءِ في عصمَةِ الأَنبياءِ كلامٌ ، **حاصِلُهُ الذي ذهبَ إليهِ الأَشعريُّ** : عصمتُهم مِنَ الكبائِرِ وصغائِرِ الخسَّةِ فقطْ .

وقالَتِ الرافضَةُ ، وطائِفَةٌ مِن متأَخِّري الشافعيَّةِ : بعصمَتِهِم مِن الكبائِرِ والصغائِرِ مطلقاً ، قبلَ النبوَّةِ وبعدَها ، وتلزمُ عليهِ إِشكالاتٌ طويلَةٌ ، يلزَمُ لَها تأويلُ طائفةٍ مِنَ القرآنِ .

[لا تجد إنساناً كاملاً ولكن العبرة بالأغلب]

وما أَحسنَ قولَ النابغَةِ [الذبياني في « ديوانه » ٧٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَسْـتَ بِمُسْتَبْـقٍ أَخـاً لاَ تَلُمُّـهُ عَلَـىٰ شَعَـثٍ ، أَيُّ الـرِّجَـالِ الْمُهَـذَّبُ ؟

وقالَ بشَّارٌ [البيت غير منسوب في « قرى الضيف » ١/ ١٨١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـنْ ذَا الَّـذِي تُـرْضَـىٰ سَجَـايَـاهُ كُلُّهـا كَفَـى الْمَـرْءَ نُبْـلاً أَنْ تُعَـدَّ مَعَـايِبُـهْ

وصدقَ فإِنَّما العبرَةُ بالأَكثرِ الغالبِ مِن أَحوالِ الإِنسانِ ، فمَن غلَبَ عليهِ الخيرُ والفضلُ . . عُدَّ مِن الأَخيارِ الفضلاءِ ، وتُنُوسِيَتْ مساويهِ في جَنْبِ محاسنِهِ ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود : ١١٤] .

وقد ذكَرنا في كتابِنا « **بلابلُ التغريدِ** » : حديثَ معاويَةَ معَ ابنِ جعفرٍ ، وزبدتُهُ : أَنَّ إِحدىٰ أَزواجِهِ أَنبهتْهُ ليسمَعَ ما عندَ ابنِ جعفرٍ مِنَ الأَغاني ؛ لتحُطَّ مِن قدرِهِ عندَهُ بذلكَ ، فلَمَّا كانَ مِن آخرِ الليلِ . . أَنبَهَها ؛ لتسمَعَ ما كانَ مِن تهجُّدِ ابنِ جعفرٍ وتلاوتِهِ ، وقالَ : هـٰذا مكانَ ما أَسمَعْتِيني .

وللهِ قولُ بعضِهِم [البيت في « نفح الطيب » ٦/ ٢٥ غير منسوب لقائل] : [مِنَ الكاملِ]

وَإِذَا الْحَبِيـبُ أَتَـىٰ بِـذَنْـبٍ وَاحِـدٍ جَـاءَتْ مَحَـاسِنُـهُ بِـأَلْـفِ شَفِيـعِ

---

(١) « وفيات الأعيان » (٢/ ٤٤٢) .

وقولُ الناظِمِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٩٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـإِنْ يَكُـنِ الْفِعْـلُ الَّـذِي سَـاءَ وَاحِـداً فَـأَفْعَـالُـهُ الـلاَّتِـي سَـرَرْنَ أُلُـوفُ

وكثيراً ما تمثَّلنا بهٰذينِ البيتينِ ، ولا ملامَةَ ؛ فالمناسباتُ كثيرةٌ .

وأَمَّا مَن غلبَت سيِّئَاتُهُ ، وكثُرَتْ سقطاتُهُ ، ورجحَت تبعاتُهُ . . فَلا شكَّ أَنَّهُ مِن الساقطينَ ، وللهِ درُّ القائِلِ : [مِنَ الكامل]

وَلَئِـنْ تَسُـرُّكَ مِـنْ تَمِيـمٍ خَلَّـةٌ فَلَمَـا يَسُـوؤُكَ مِـنْ تَمِيـمٍ أَكْثَـرُ

وما يقرِّرُهُ الفقهاءُ في بابِ الشهادَةِ مِن حدِّ العدالَةِ لا يخرجُ عمَّا ذكرناهُ ، وقد قالَ صلى الله عليه وسلم : « **وأَمَّا أَبُو جَهْمٍ : فَلاَ يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ** »[1] اعتباراً بالأكثرِ مِن غلبَةِ الأَسفارِ عليهِ ، وإلاَّ . . فهوَ يضعُها في كثيرٍ مِن أَحوالِهِ .

وتجدُ كثيراً مِمَّن يكتُبُ في التراجِمِ يجاوزُ الحدودَ ، ويتقوَّلُ على اللهِ ، ومثلُ أُولئِكَ لا يكونُ ما يكتبونَ إلاَّ حجَّةً علىٰ سقوطِهِم واطِّراحِهِم ، واندفاعِ سائِرِ مرويَّاتِهِم عَنِ القَبولِ ، ومِن هُنا أَخطأَ كثيرٌ في تقديسِ السلَفِ الصالحِ ، والذهابِ بِهِم إلىٰ عصمَةِ الملائكَةِ ، أَو إلىٰ ما يقربُ مِنها ، ونشأَ عَن ذلكَ فسادٌ كبيرٌ في الدينِ ، يزولُ إن شاءَ اللهُ بِما أَشبعنا القولَ في تحقيقِهِ مِن « **بَلابلِ التغريدِ** » .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٤٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا عَـرَضَـتْ حَـاجٌ إِلَيْـهِ فَنَفْسُـهُ إِلَـىٰ نَفْسِـهِ فِيهَـا شَفِيـعٌ مُشَفَّـعُ

[الجود ليس وراثة عن الجدود . . ولكنه حساسية في الجلود]

معناهُ ظاهِرٌ ، وهوَ مِمَّا تداولَهُ الشعراءُ طارفاً وتليداً ، قالَ الحطيئَةُ [في « ديوانه » ٣١٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَذَاكَ امْـرُؤٌ إِنْ تَـأْتِـهِ فِـي نَفِيسَـةٍ إِلَـىٰ مَـالِـهِ لاَ تَـأْتِـهِ بِشَفِيـعِ

وقالَ الفرزدَقُ : [مِنَ الطَّويلِ]

لِكُـلِّ امْـرِىءٍ نَفْسَـانِ : نَفْـسٌ كَـرِيمَـةٌ وَأُخْـرَىٰ يُعَـاصِيهَـا الْفَتَـىٰ وَيُطِيعُهَـا

وَنَفْسُـكَ مِـنْ نَفْسَيْـكَ تَشْفَـعُ لِلنَّـدَىٰ إِذَا قَـلَّ مِـنْ أَحْـرَارِهِـنَّ شَفِيعُهَـا

وقالَ أَبو العتاهيَةِ : [مِنَ الطَّويلِ]

أَيَا جُـودَ مُـوسَىٰ نَـادِ مُوسَىٰ لِحَاجَتِي فَلَيْـسَ إِلَـىٰ مُـوسَـىٰ سِـوَاهُ شَفِيـعُ[2]

---

(١) أخرجه عن فاطمة بنت قيس مسلم (١٤٨٠) في (الطلاق) ، وأحمد (٦/ ٤١٢) ، وأبو داوود (٢٢٨٥) وما بعده ، والترمذي (١١٨٠) ، والنسائي (٦/ ٧٤) في الطلاق .

(٢) البيت غير منسوب في « المستطرف » (١/ ٣٥١) ، وفيه :

أَيَـا جُـودَ مَعْـنٍ نَـادِ مَعْنـاً لِحَـاجَتِـي فَلَيْـسَ إِلَـىٰ مَعْـنٍ سِـوَاكَ شَفِيـعُ

وقالَ ابنُ الروميِّ [في « ديوانه » ٤/١٤٦٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَبَـا الصَّقْـرِ مَـنْ يَشْفَـعْ إِلَيْـكَ بِشَـافِـعٍ فَمَـا لِـي سِـوَىٰ شِعْـرِي وَجُـودِكَ شَـافِـعُ

وقالَ الخزيميُّ [في « ديوانهِ » ٢١] : [مِنَ الكاملِ]

شَفَعَـتْ مَكَـارِمُهُـمْ لَهُـمْ فَكَفَتْهُـمُ جُهْـدَ السُّـؤَالِ وَلُطْـفَ قَـوْلِ الْمَـادِحِ

وقالَ أَبو العبَّاسِ المبرِّدُ [في « المستطرف » ١/٢٨١] : أَتاني رجلٌ يستشفعُ بي في حاجَةٍ ، وأَنشدني لنفسِهِ : [مِنَ البسيطِ]

إِنِّـي قَصَـدْتُـكَ لاَ أُدْلِـي بِمَعْـرِفَـةٍ وَلاَ بِقُـرْبِـي وَلَكِـنْ قَـدْ فَشَـتْ نِعَمُـكْ

فَبِـتُّ حَيْـرَانَ مَكْـرُوبـاً يُـؤَرِّقُنِـي ذُلُّ الْغَرِيـبِ وَيُغْشِينِـي الْكَرَىٰ كَـرَمُـكْ

وَلَـوْ هَمَمْـتَ بِغَيْـرِ الْعُـرْفِ مَـا عَلِقَـتْ بِـهِ يَـدَاكَ وَلاَ انْقَـادَتْ لَـهُ شِيَمُـكْ

مَـا زِلْـتُ أَنْكَـبُّ حَتَّـىٰ زُلْـزِلَـتْ قَـدَمِـي فَـاحْتَـلْ لِتَثْبِيتِهَـا لاَ زُلْـزِلَـتْ قَـدَمُـكْ

قالَ : فشفعْتُ لَهُ ، وقمتُ بأَمرهِ ، حتَّىٰ بلغْتُ لهُ ما أَحبَّ .

وقالَ أَيضاً : قلتُ لعبدِ اللهِ بنِ يحيىٰ بنِ خاقانَ : أَنا أَشفعُ إِليكَ ـ أَصلَحَكَ اللهُ ـ في أَمرِ فلانٍ ، فقالَ لي : قد سمعْتُ ، وأَطعْتُ ، وسأُعطيه كَذا ، فما كانَ مِن نقصٍ . . فعَلَيَّ ، وما كانَ مِن زيادَةٍ . . فلَهُ ، فقلْتُ لَهُ : أَنتَ ـ أَطالَ اللهُ بقاءَكَ ـ كَما قالَ زهيرٌ [في « ديوانهِ » ١٤٠] : [مِنَ الوافرِ]

وَجَـارٍ سَـارَ مُعْتَمِـداً عَلَيْنَـا أَجَـاءَتْـهُ الْمَخَـافَـةُ وَالـرَّجَـاءُ

ضَمِنَّـا مَـالَـهُ فَغَـدَا سَلِيمـاً عَلَيْنَـا نَقْصُـهُ وَلَـهُ النَّمَـاءُ

[الشفاعة في الحب]

وقالَ المجنونُ [في « ديوانهِ » ١٩٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

مَضَـىٰ زَمَـنٌ وَالنَّـاسُ يَسْتَشْفِعُـونَ بِـي فَهَـلْ لِـي إِلَـىٰ لَيْلَـى الْغَـدَاةَ شَفِيـعُ ؟

وفي البيتِ رائحَةُ تديُّثٍ وقيادَةٍ ، لَولا ما يمهِّدُ لَهُ بهِ العذرُ مِن أَنَّهُ لا يرادُ ظاهرُهُ .

وقالَ الصوليُّ [بل المجنون في « ديوانه » ١٩٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَنُبِّئْـتُ لَيْلَـىٰ أَرْسَلَـتْ بِشَفَـاعَـةٍ إِلَـيَّ فَهَـلاَّ نَفْـسُ لَيْلَـىٰ شَفِيعُهَـا

أَأَكْـرَمُ مِـنْ لَيْلَـىٰ عَلَـيَّ فَتَبْتَغِـي بِـهِ الْجَـاهَ أَمْ كُنْـتُ امْـرَأً لاَ أُطِيعُهَـا

[الشفاعة عند الناس من الجود]

وقالَ بعضُهُم [وهو أبو بكر ابن هارون المهلبي في « خزانة الأدب » ٢/٣٧٦] : كنَّا في حلقَةِ دعبلٍ الخزاعيِّ ، فذُكرَ أَبو تمَّامٍ ، فقالَ دعبلٌ : إِنَّهُ يتتبَّعُ معانِيَّ فيأخذُها ، فقالَ لهُ رجلٌ : هاتِ صورةَ ذلكَ ، قالَ : قلْتُ [في « ديوانهِ » ١٩٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنَّ امْـرَأً أَسْـدَىٰ إِلَـيَّ بِشَـافِـعٍ إِلَيْـهِ ، وَيَـرْجُـو الشُّكْـرَ مِنِّـي لأَحْمَـقُ

فأَخذَهُ وقالَ [في « ديوانِهِ » ٢/ ٢٩] : [مِنَ الكامِلِ]

وَإِذَا امْــرُؤٌ أَسْــدَىٰ إِلَيْــكَ صَنِيعَــةً مِــنْ جَــاهِــهِ فَكَــأَنَّهَــا مِــنْ مَــالِــهِ

فقالَ الرجلُ : لَقد أَحسنَ أَبو تمَّام ، فإن كانَ سبقَكَ . . فقد قصَّرتَ ، وإِن كنتَ سبقتَهُ . . فقد أَحسنَ الاتِّباعَ ، وصارَ أَحقَّ بالمعنىٰ مِنكَ ، فغضبَ دعبلٌ وقامَ .

ثمَّ إِنَّ ما قالَه أَبو تمَّامٍ عينُ الصوابِ ؛ لأَنَّهُ أَردَمَ بشكرِ الشافعِ ، ولم يبخَسِ المعطي حقَّهُ مِن الصنيعِ ، بخلافِ دعبلٍ ؛ فإِنَّهُ اهتضَمَ حقَّ المشفوعِ إِليهِ جملةً ، كما في قولِهِ [في « ديوانه » ١٩٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

شَفِيعَــكَ فَــاشْكُــرْ فِــي الْحَــوَائِــجِ إِنَّــهُ يَصُــونُــكَ عَــنْ مَكْــرُوهِهَــا وَهْــوَ يَخْلُــقُ

بشهادَةِ فعليَّةِ الخبرِ ، وتقديمِ المسنَدِ إِليهِ ، ومثلُ ذلكَ لا يجوزُ .

وهٰذا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقولُ : « **ارْفَعُوا إِلَيَّ حَوَائِجَ النَّاسِ ، وَاشْفَعُوا . . تُؤْجَرُوا ، وَيَقْضِي اللهُ عَلَىٰ لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ** »[1] .

وقد وقعَ البُحتريُّ في قريبٍ ممَّا وقعَ فيهِ دعبلٌ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « ديوانه » ١/ ٣٨] : [مِنَ الكامِلِ]

وَعَطَــــاءُ غَيْــــرِكَ إِنْ بَــــذَلْـــــــتَ عِنَــايَــةً فِيـــهِ عَطَــاؤُكْ

غيرَ أَنَّهُ لَم يصرِّحْ باهتضامِ المشفوعِ إِليهِ ، وإِنَّما قد يؤْخَذُ مِن فحوىٰ كلامِهِ ، معَ احتمالِهِ لغيرِ ذلكَ ، فهوَ مثلُ قولِ الآخرِ : [مِنَ الكامِلِ]

وَإِذَا امْــرُؤٌ أَسْــدَىٰ إِلَيْــكَ بِشَــافِــعٍ خَيْــراً فَــذَاكَ الْخَيْــرُ خَيْــرُ الشَّــافِــعِ

وقالَ عليُّ بنُ قريشٍ الجرجانيُّ [في « صبح الأعشىٰ » ٩/ ١٧٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا أَنْــتَ لَــمْ تَعْطِفْــكَ إِلاَّ شَفَــاعَــةٌ فَــلا خَيْــرَ فِــي وِدٍّ يَكُــونُ بِشَــافِــعِ

وما أَحسنَ في دفعِ المذمَّةِ عمَّن أَعطىٰ بالشفاعَةِ من قولِ ابنِ الروميِّ [في « ديوانه » ٥/ ٢٠٦٨] : [مِنَ الخفيفِ]

لَــنْ يَعِيــبَ السَّحَــابَ أَنْ تَتَــوَلَّــىٰ مِنْــهُ أَيْــدِي الــرِّيَــاحِ حَــلَّ الْعَــزَالِــي

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانِهِ » ٢/ ١٠٠٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلِــي حَــاجَــةٌ لَــمْ آلُ فِيهَــا وَسِيلَــةً إِلَــى الْقَمَــرِ الْــوَضَّــاحِ وَالسَّيِّــدِ الْغَمْــرِ[2]
شَفَعْــــتُ إِلَيْـــهِ بِـــالإِمَـــامِ وَإِنَّمَـــا تَشَفَّعْــتُ بِــالشَّمْــسِ انْتِصَــاراً إِلَــى الْبَــدْرِ
فَلَــمْ أَرَ مَشْفُــوعــاً إِلَيْــهِ وَشَــافِعــاً يُــدَانِيهِمَــا فِــي مُنْتَهَــى الْجُــودِ وَالْفَخْــرِ
فَعَــالُ كَــرِيــمِ الْفِعْــلِ مُطَّلَــبِ الْجَــدَا وَقَــوْلُ مُطَــاعِ الْقَــوْلِ مُتَّبَــعُ الأَمْــرِ

---

(١) أخرجه عن أبي موسىٰ رضي الله عنه أحمد (٤/ ٤١٣) ، والبخاري (١٤٣٢) ، ومسلم (٢٦٢٧) ، وأبو داوود (٥١٣١) ، والترمذي (٢٦٧٤) ، والنسائي (٥/ ٧٨) .

(٢) الغمرُ : الكريمُ الواسعُ الخُلُقِ . لم آلُ : لم أُقصِّرْ ولم أُبطِئْ .

[إذا تعذرت الأمور من أعاليها . . أتيناها من أسافلها]

وكانَ لعبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ حاجَةٌ إلىٰ معاويَةَ لَواهُ فيها ، فاستعانَ عليهِ ببعضِ نسائِهِ ، فقضىٰ حاجتَهُ ، فعُيِّرَ ابنُ الزبيرِ بذلكَ ، فقالَ : إذا تعذَّرَتِ الأُمورُ مِن أَعاليها . . طَلَبْناها مِن أَسافِلِها ، فأَخذَهُ البُحتريُّ وقالَ [في « ديوانه » ٣/ ١٩٠٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا مَا أَعَالِي الأَمْرِ لَمْ تُعْطِكَ الْمُنَىٰ ... فَلا بَأْسَ فِي اسْتِنْجَاحِهَا بِالأَسَافِلِ

[ما يصلح الرجل بالنهار . . تفسده المرأة بالليل]

واتَّفقَ لابنِ الزبيرِ بعدَ ذلكَ مثلُهُ[1] ، فقدِ اختصَمَ إليهِ الفرزدَقُ وعِرْسُهُ النَّوارُ ، ونزلَ الفرزدَقُ على ابنِهِ حمزةَ ، ونزلَتِ النوارُ علىٰ زوجهِ ، فكانَ ما يصلِحُ حمزَةُ مِن أَمرِ الفرزدَقِ نهاراً ، تفسدُهُ المرأَةُ ليلاً ، حتَّىٰ أَيقنَ الفرزدَقُ بالفشَلِ ، فقالَ : [مِنَ البسيطِ]

أَمَّا بَنُوهُ فَلَمْ تُقْبَلْ شَفَاعَتُهُمْ ... وَشُفِّعَتْ بِنْتُ مَنْظُورِ بنِ زَبَّانَا

لَيسَ الشَّفِيعُ الَّذِي يَأْتِيكَ مُتَّزِراً ... مِثْلَ الشَّفِيعِ الَّذِي يَأْتِيكَ عُرْيَانَا

ولا حاجةَ لاستيفاءِ القصَّةِ ؛ لأَنَّها طويلَةٌ ، ولَها أَذنابٌ .

وقالَ صائِنُ الدينِ الموصليُّ [في « وفيات الأعيان » ٥/ ٢٧٩] : [مِنَ الوافرِ]

إِذَا احْتَاجَ النَّوَالُ إِلَىٰ شَفِيعٍ ... فَلاَ تَقْبَلْهُ تُضْحِ قَرِيرَ عَيْنِ

إِذَا عِيفَ السُّؤَالُ لِفَرْدِ مَنٍّ ... فَأَوْلَىٰ أَنْ يُعَافَ لِمِنَّتَيْنِ

[كتاب عروة بن الزبير في الشفاعة إلى الوليد بن عبد الملك]

ومِن أَبدعِ ما رأَيتُ في الشفاعاتِ : ما كتبهُ عروةُ بنُ الزبيرِ إلى الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ معَ كعبٍ العبسيِّ ، يسكِّنُهُ مِن غضبةٍ غضبَها عليهِ في جُرْمٍ كانَ مِنهُ .

ونصُّهُ : لَو لَم يكُن لِكعبٍ مِن قديمِ حرمتِهِ ما يغفِرُ لَهُ عظيمَ جريرَتِهِ . . لوجبَ أَن لا تحرِمَهُ التفيُّؤَ بظلِّ عفوِكَ ، الذي تأْمَلُهُ القلوبُ ، ولا تعلَقُ بهِ الذنوبُ ، وقدِ استشفَعَ بي إليكَ ، فوثِقْتُ لَهُ منكَ بعفوٍ لا يخلُطُهُ سخَطٌ ، فحقِّقْ أَملَهُ فِيَّ ، وصدِّقْ ثِقَتي بكَ ، مغتنماً لِلشُّكرِ ، مبتدئاً بالنعمَةِ .

فكتبَ إليهِ الوليدُ : قد شكرتُ رغبتَهُ إليكَ وعفوتُ عنهُ ؛ لمعوَّلِهِ عليكَ ، ولَهُ عِندي الذي تحبُّ ، إن لم تقطَعْ كتبَكَ عَنِّي في أَمثالِهِ وفي سائِرِ أُمورِكَ .

[المنصور يطلب من محمد بن جعفر أن يخفف من كتب شفاعاته]

وذكرتُ بِها [ما روى الأبشيهي في « المستطرف » ١/ ٢٨٠] : أَنَّ المنصورَ كانَ معجباً بمحادَثَةِ محمَّدِ بنِ جعفرِ بنِ عبيدِ اللهِ بنِ العبَّاسِ ، وكانَ الناسُ يفزعونَ إليهِ في الشفاعاتِ ، حتَّىٰ أَثقلَ على المنصورِ ، فحبَسهُ مدَّةً ، ثمَّ اشتاقَ إليهِ ، وقالَ للربيعِ : إنَّهُ لا صبرَ لي عنهُ ، ولكنِّي استثقلْتُ شفاعاتِهِ ، فشرطَ عليهِ الربيعُ أَن لا يعودَ إليها ، فمكثَ أَيَّاماً لا يشفَعُ لأَحدٍ ، ثمَّ وقفَ لَهُ قومٌ مِن قريشٍ وغيرِهم برقاعٍ مدخَلهُ عندَ المنصورِ ، فسأَلوهُ أَن يأخذَها مِنهم ، فقصَّ عليهم خبرَهُ

---

(١) انظر : « وفيات الأعيان » (٦/ ٩٩) .



فضَرعوا إليهِ ، فقالَ : أَمَّا إذا أَبيتُم قَبولَ العذرِ . . فإنِّي لا أَقبَضُها عنكُم ، ولكِنِ اجعَلُوها في كمِّي ، فقذَفُوها في كمِّهِ ، ودخلَ على المنصورِ ، وهوَ في الخضراءِ المشرفَةِ علىٰ (مدينةِ السلام) وما حولَها مِنَ الضياعِ ، فقالَ لَهُ : أما ترىٰ إلىٰ حسنِها ؟! قالَ : بلىٰ يا أَميرَ المؤمنينَ ، فباركَ اللهُ فيما آتاكَ ، وهنَّأَكَ بإتمامِ نعمتِهِ عليكَ فيما أَعطاكَ ، فلَم تبنِ العربُ في الإسلامِ ، ولا العجَمُ في سالِفِ الأَيَّامِ ، مثلَ مدينتِكَ هٰذِهِ ، إلاَّ أَنَّهُ يُسمِّجُها في نظري أَن لا ضيعَةَ لي فيها ، فضحِكَ ، وقالَ : نَزيدُها حسناً في عينَيكَ بثلاثِ ضياعٍ ، قد أَقْطَعْتُكَهَا ، فدعا لَهُ ، وبَينا هوَ يكلِّمُهُ . . بدرَتِ الرِّقاعُ من كُمِّهِ ، وانتثرَت على الأَرضِ ، فقالَ لَهُ المنصورُ : ما هٰذهِ ؟ فسكتَ ، فقالَ : بحقِّي إلاَّ أخبرتَني ، فشرحَ لَهُ الأَمرَ ، فضحكَ ، وقالَ : أَبيتَ يا ابنَ معلِّمِ الخيرِ إلاَّ كرماً وجوداً ، ثمَّ أَخذَها ، وتصفَّحَ ما فيها ، ووقَّعَ علَيها كلِّها بما طَلَبَ أَصحابُها .

ومنهُ تَعْرِفُ الفرقَ ما بينَ بني أُميَّةَ وبني العبَّاسِ ، **فالأَولُ** : يستزيدُ عروَةَ في الشفاعاتِ ، **والثاني** : يستقصِرُ ابنَ عمِّهِ عَنها ، إلا أَن يقالَ : إنَّ هٰذا قد أَبرمَ وأَضجَرَ ، بخلافِ الأَوَّلِ .

[جعفر بن يحيىٰ يزوج بنت الرشيد من غير علمه . . فيجيزه]

أَمَّا شفاعَةُ جعفرِ بنِ يحيىٰ إلى الرشيدِ في عبدِ الملكِ بنِ صالحٍ . . فشيءٌ يدفَعُهُ العقلُ ، لولا ما تواتَرَ مِنَ النقلِ[1] .

[إذلال النفس في حاجات الناس هو العز في الدنيا والآخرة]

وقيلَ لشعبَةَ : أَفنيتَ مالَكَ ، وأَخلقْتَ جاهَكَ في حوائجِ الناسِ ، فقالَ : أَصونُهما ليومِ فَاقَتي .

وقالَ الخابزأرزيُّ : [مِنَ الكاملِ]

خَــرِقٌ يَجُــودُ بِمَــالِــهِ وَبِجَــاهِــهِ وَالْجُــودُ كُــلُّ الْجُــودِ بَــذْلُ الْجَــاهِ

ويروىٰ : « **إِنَّ العَبْدَ يُسْأَلُ عَنْ جَاهِهِ ، كَمَا يُسْأَلُ عَنْ عُمُرِهِ فَيَقُولُ اللهُ لَهُ : جَعَلْتُ لَكَ جَاهاً ، فَهَلْ نَصَرْتَ بِهِ مَظْلُوماً ، أَوْ قَمَعْتَ بِهِ ظَالِماً ، أَوْ أَغَثْتَ بِهِ مَكْرُوباً ؟** »[2] واللهُ جلَّ شأْنُهُ يقولُ : ﴿ **مَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا** ﴾ [النساء : ٨٥] .

[اللهم ؛ لا تذل عزيزاً]

ودخلَ ابنُ السَّمَّاكِ ـ الزاهدُ المشهورُ ـ علىٰ بعضِ الرؤَساءِ يشفعُ إليهِ في رجلٍ ، فقالَ لَهُ : أَتيتُكَ في حاجَةٍ ، الطالِبُ والمطلوبُ فيها شريفانِ إن قضيتَ ، ذليلانِ إن لَم تقضِ ، فاختَرْ لنفسِكَ عزَّ البذْلِ علىٰ ذُلِّ المنعِ ، واختَرْ لي عزَّ النُجْحِ علىٰ ذُلِّ الردِّ ، فقضىٰ حاجتَهُ ، وشفَّعَهُ فيما أَرادَ .

[الرجل يزوِّر كتاباً علىٰ لسان ابن الفرات فيصححه له ويمضيه عليه]

وذكرَ ابنُ خَلِّكانَ [في « وفيَات الأعيان » ٣/٤٢٨] : أَنَّ رجلاً اتصلَت عطلتُهُ ، فزوَّرَ كتابَ شفاعَةٍ مِن أَبي الحَسَنِ الفراتِ إلىٰ عاملِ (مصرَ) أَبي زنبورِ الماردانيِّ ، فارتابَ في أَمرِهِ ، لخروجِ الخطَابِ عَنِ المعهودِ ، فعلَّلَهُ بعُلالَةٍ[3] ، واحتبَسَهُ علىٰ ضياءِ وعدٍ ، ريثَما كتبَ إلى ابنِ الفراتِ ، وأَنفذَ إليهِ بعينِ الكتابِ المزوَّرِ ، فشاورَ أَصحابَهُ ، فكانَ

---

(١) القصَّةُ باختصارٍ في « المستطرف » (٢/ ٣٣٢) .

(٢) أخرجه بنحوه عن ابن عمر رضي الله عنه الطبراني في « الصغير » (١٨) ولفظه : « إذا كان يوم القيامة دعا الله عبداً من عبيده ، فيوقف بين يديه فيسأله عن جاهه كما يسأله عن ماله » .

(٣) أي : أَعطاهُ الشيءَ القليلَ الذي يتعلَّلُ به .



أجملُهم محضراً مَن أشارَ بكشفِ خبرِهِ ؛ ليفضيَ إلىٰ حرمانِهِ ، فلم يكُن مِن ابنِ الفراتِ إلاَّ أن أَخذَ القلَمَ ، وأيَّدَ الكتابَ ، وأكَّدَ الشفاعَةَ ، فبعدَ أُمَّةٍ مِن الزمانِ دخلَ على ابنِ الفراتِ رجلٌ ذو هيئَةٍ مقبولَةٍ ، وبزَّةٍ فاخرَةٍ ، وأقبلَ يَدْعو ، ويَبْكي ، ويقبِّلُ الأَرضَ ، فقالَ لَهُ ابنُ الفراتِ : مَن أَنتَ بارَكَ اللهُ فيكَ ؟ ـ وكانَتْ هـٰذِهِ كلمتَهُ ـ فقالَ : صاحِبُ الكتابِ المزوَّرِ إلىٰ أبي زنبورٍ ، الذي صحَّحَهُ كرَمُ الوزيرِ ، وشمَلَهُ حِلمُهُ ، فضحكَ ابنُ الفراتِ ، وقالَ : كم وصلَ إليكَ منهُ ؟ فقالَ : وَصَلَ إليَّ مِن مالِهِ وممَّا قَسَّطَهُ علىٰ عمَّالِهِ وأصحابِهِ عشرونَ أَلفِ دينارٍ ، فقالَ لَهُ ابنُ الفراتِ : ولا تَغِبْ عَنَّا ، فإنَّا نعرِّضُكَ لِما يزدادُ بهِ صلاحُ حالِكَ ، ثمَّ استخدَمَهُ ، وأكسبَهُ مالاً جزيلاً .

[وكذلك يمضي يحيى البرمكي]

ومثلُها ما ذكرهُ البيهقيُّ في « **المحاسنِ** » مِنَ أنَّ رجلاً ضاقَت بهِ الحالُ ، وتعذَّرتْ عليهِ المطالِبُ ، فافتعَلَ كتاباً مِن يحيىٰ بنِ خالدٍ البرمكيِّ ، وشخصَ بهِ إلىٰ (أَذَرْبيجانَ) لعبدِ اللهِ بنِ مالكٍ الخزاعيِّ ، ولَم يعلَم ما بينَ الأَميرينِ مِن فرطِ التعادي والتحاسُدِ ، فقالَ لَهُ عبدُ اللهِ : إنَّ كتابَكَ هـٰذا مفتعَلٌ ، سأُزيلُ علَّتَكَ ، وأَحبسُكَ حتَّىٰ أَستَطلِعَ الأَمرَ ، وأَتعرَّفَ بخبرِ الكتابِ ، فبعثَ إلىٰ وكيلِهِ بـ(العراقِ) ليستفهِمَ عَنِ القصَّةِ ، فجاءَ الوكيلُ إلىٰ يحيىٰ ، وأنهىٰ إليهِ الخبرَ ، فكتبَ بخطِّهِ : فلانٌ مِن أَخصِّ مَن يَليني ، وأَوْجَبِهم حقّاً عَلَيَّ ، وقدْ أَخبرَني صاحبُكَ بتَشكُّكِكَ في أَمرِهِ ، فليُنزَلْ عنكَ الشَّكُّ فديتكَ ، وليعُدْ معجّلاً بما يشبهُكَ ، فلمَّا خرجَ الوكيلُ . . قالَ يحيىٰ لأَصحابِهِ : ما تقولونَ في رجلٍ افتعَلَ عليَّ كتابَ شفاعَةٍ إلىٰ عبدِ اللهِ بنِ مالكٍ ، وصلَ بهِ إلىٰ (أَذربيجانَ) ؟ فقالوا جميعاً : نرىٰ أَن تفضَحَهُ ، وتعلنَ أَمرَهُ ؛ ليرتدِعَ بهِ غيرُهُ ، فقالَ : قبَّحَ اللهُ هـٰذا مِن رأيٍ ، ما أَنذلَهُ ، هـٰذا رجلٌ ضاقَ بِهِ الرزقُ ، فوثِقَ بي ، وشخَصَ إلىٰ (أذربيجانَ) معَ بعدِ شقَّتِها ، وصعوبَةِ طريقِها ، أَفتشيرونَ عليَّ أَن أَقطَعَ أَملَهُ ؟ وأُخيِّبَ رجاءَهُ ؟ وقد عرفتُم قدرَ عبدِ اللهِ ومكانَتِهِ مِن قلبِ أَميرِ المؤمنينَ ، وما بيني وبينَهُ مِنَ الْعداوَةِ التي سعىٰ في إزالتِها هـٰذا الرجلُ ، أَفتريدونَ أَن أَرُدَّ الأَمرَ بيني وبينَهُ بعدَ هـٰذا التقارُبِ ، إلىٰ ما كانَ عليهِ مِنَ الْبُعدِ ؟ إنَّهُ لنكَدُ الأَبدِ .

ثمَّ أَخبرَهُم بما كَتَبَ بهِ إلىٰ عبدِ اللهِ ، فتعجَّبوا مِن كَرَمِهِ ، وسعَةِ احتمالِهِ ، ولَمَّا وردَ الكتابُ بخطِّهِ علىٰ عبدِ اللهِ . . استحضَرَ الرجُلَ ، وقد سُقِطَ في يدِهِ ؛ لاعتراضِ سوءِ الظَّنِّ بقلبِهِ ، فقالَ : قد وردَ عليَّ كتابُ أَخي بصحَّةِ أَمرِكَ ، وسأَلني تعجيلَ صرفِكَ ، ودعا لَهُ بمئتَي أَلفِ دِرهَمٍ ، وبما يليقُ بِها مِنَ الدوابِّ والخُلَعِ والآلَةِ ، فلمَّا حضرَ بابَ يحيىٰ . . أَدخلَ ذلكَ برمَّتِهِ إليهِ ، فأَمرَ لَهُ يحيىٰ بمثلِهِ ، وأَثبتَهُ في خاصَّتِهِ .

[نماذج من كتب الشفاعات]

وكتبَ عبدُ الحميدِ بالوصايَةِ في رَجُلٍ إلىٰ بعضِ الرؤساءِ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/٢٢٩] : حقُّ مُوصِلِ هـٰذا عليكَ كَحقِّهِ علَيَّ ؛ إذ رآكَ موضعاً لأَملِهِ ، كما رآني أَهلاً لحاجَتِهِ ، وقد أَنجزتُ حاجتَهُ ، فحقِّقْ أَمَلَهُ ، والسلامُ .

وكتبَ رجلٌ إلىٰ يحيىٰ بنِ خالدٍ رقعةً يقولُ لَهُ فيها : [مِنَ الطَّويلِ]

شَفِيعِــي إلَيْــكَ اللهُ لاَ شَــيْءَ غَيْــرُهُ   وَلَيْــسَ إلَــىٰ رَدِّ الشَّفِيــعِ سَبِيــلُ

فأَمرَهُ بلزومِ البيتِ ، وكانَ يعطيهِ عندَ الصباحِ كلَّ يومٍ أَلفَ درهمٍ ، فلمَّا استوفىٰ ثلاثينَ أَلفاً . . ذهبَ الرجلُ ، فقالَ خالدٌ : أَمَا واللهِ لقد عزمْتُ علىٰ إجرائِها لَهُ إلىٰ آخرِ العمرِ[1] .

---

(١) « المستطرف » (١/٢٨١) .



وقالَ رجلٌ لجعفرِ بنِ يحيىٰ : أَمُتُّ إليكَ بذمامِ الأملِ ، وحسنِ الظنِّ ، وقرابةِ العلمِ ، قالَ : إنَّ ما ذكرْتَ ليوجِبُ الحقَّ ، ويعقِدُ الفرضَ ، ورَحِمُ العِلمِ أَمَسُّ قرابَةً ، وأَلطَفُ ضُؤْرَةً[1] .

واستأذنَ بعضُهم على الفضلِ بنِ يحيىٰ ، وزعمَ أَنَّ له مَاتَةً إلى الأميرِ ، ولمَّا سأَلَهُ عَن حاجتِهِ . . قالَ : قد أَعرَبَتْ عَنها رثاثةُ الهيئَةِ ، وضعفُ الطاقَةِ ، قالَ الفضلُ : فما الذي تمُتُّ بهِ ؟ قالَ : ولادَةٌ تقربُ مِن ولادتِكَ ، وجوارٌ يدنو مِن جوارِكَ ، واسمٌ مشتقٌّ من اسمك ، قالَ : أَمَّا الجوارُ . . فقد يكونُ ، والأسماءُ تتَّفِقُ ، فما علمُكَ بالولادَةِ ؟ قالَ : أَخبرتني أُمِّي : بأَنَّها لَمَّا وضعَتني . . قالوا : ولدَ ليحيىٰ غلامٌ سمَّوْهُ الفضلَ ، فصغَّرَتني ؛ إعظاماً لاسمِكَ ، وسمَّتْني فُضيلاً ، قالَ : كَم أَتىٰ عليكَ ؟ قالَ : خمسٌ وثلاثونَ سنَةً ، قالَ : صدقْتَ ، وأَعطاهُ لِكُلِّ سنَةٍ أَلفاً[2] .

[الشعراء والشفاعات]

وقالَ بعضُهم يمدحُ مَعْناً : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمِــنْ هَــوَاكَ شَفِيــعٌ لِــي يُغَفِّلُنِــي ... وَإِنْ نَــأَيْــتُ وَإِنْ قَلَّــتْ بِــيَ الــذِّكَــرُ

وقالَ مروانُ بنُ أَبي حفصةَ يمدحُ المهديَّ [في « ديوانه » ٦٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا لِي إِلَى الْمَهْدِيِّ لَوْ كُنْتُ مُذْنِباً ... سِوَىٰ حِلْمِهِ الضَّافِي عَلَى النَّاسِ شَافِعُ

وهوَ مِن قصيدَةٍ لَهُ شاعرَةٍ يقولُ فيها [في « ديوانه » ٦٦] :

وَلاَ هُوَ عِنْدَ السُّخْطِ مِنْهُ وَلاَ الرِّضَا ... بِغَيْرِ الَّذِي يَرْضَىٰ بِهِ اللهُ قَانِعُ
تَغُضُّ لَهُ النَّاسُ الْعُيُونَ وَطَرْفُهُ ... عَلَىٰ غَيْرِهِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ خَاشِعُ

وقد أَغارَ على الثاني ابنُ أَيوبَ التميميُّ ، فقالَ يمدحُ الفضلَ بنَ سهلٍ [في « وفيات الأعيان » ٤/٤٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَرَىٰ عُظَمَاءَ النَّاسِ لِلْفَضْلِ خُشَّعاً ... إِذَا مَا بَدَا وَالْفَضْلُ للهِ خَاشِعُ
تَوَاضَعَ لَمَّا زَادَهُ اللهُ رِفْعَةً ... وَكُلُّ جَلِيلٍ عِنْدَهُ مُتَوَاضِعُ

ومعنى البيتِ المشروحِ متكرِّرٌ عندَ الناظِمِ منهُ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/١٤٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمِثْلُكَ مَنْ كَانَ الْوَسِيطَ فُؤَادُهُ ... فَكَلَّمَهُ عَنِّي وَلَمْ أَتَكَلَّمِ

وقالَ جحظَةُ [في « ديوانه » ١٤٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا لِيَ حَقٌّ وَاجِبٌ غَيْرَ أَنَّنِي ... إِلَيْكُمْ بِكُمْ فِي حَاجَتِي أَتَوَسَّلُ

وقالَ آخرُ [في « صبح الأعشىٰ » ٩/١٤٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي حَاجَتِي أَلْفَ شَافِعٍ ... لَمَا كَانَ فِيهِمْ مِثْلُ جُودِكَ شَافِعُ

وقالَ أَبو الحسنِ السُّلاميُّ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا زُرْتَهُ لَمْ تَلْقَ مِنْ دُونِ بَابِهِ ... حِجَاباً وَلَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهِ بِشَافِعِ

---

(١) الضُّؤْرَة : الرجل الصغير الشأن الحقير الذليل الفقير .
(٢) من الدراهم ، انظر « وفيات الأعيان » (٤/٣٢) .

كَمَـاءِ الْفُـرَاتِ الْجَـمِّ أَعْـرَضَ وِرْدُهُ لِكُـلِّ أُنَـاسٍ فَهْـوَ سَهْـلُ الشَّـرَائِـعِ
تَـرَاهُ إِذَا مَـا جِئْتَـهُ مُتَهَلِّـلاً تَهَلُّـلَ أَبْكَـارِ الْغُيُـوثِ الْهَـوَامِـعِ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٤٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَصِيحٌ مَتَىٰ يَنْطِـقْ تَجِـدْ كُـلَّ لَفْظَـةٍ أُصُـولَ الْبَـرَاعَـاتِ الَّتِـي تَتَفَـرَّعُ

[مبحث بلاغي حول الفصاحة]

يصفُ قلمَ ممدوحِهِ ، ويقولُ : إِنَّ كلَّ لفظَةٍ مِن ألفاظِهِ أصلٌ مِن أُصولِ البراعَةِ ، والبراعةُ هِيَ كمالُ الفصاحَةِ .

وفصاحَةُ المفردِ : سلامتُهُ مِنَ التنافرِ ، والغرابَةِ ، والكراهَةِ ، والخروجِ عن القياسِ .

وفصاحَةُ المركَّبِ ـ بعدَ سلامَةِ مفردِهِ ممَّا ذُكِرَ ـ : أَنْ لا يكونَ مكرّراً ، ولا معقَّداً ، ولا متنافِراً ، ولا ضعيفَ التأليفِ ، ولا متتابعَ الإضافاتِ ، كما هوَ مقرَّرٌ في علمِ المعاني .

[الافتخار بالقلم وحسن البيان]

وحسبُ القلمِ شرفاً أَنَّ اللهَ نوَّهَ بذكرِهِ ، وامتَنَّ بتعليمِهِ في قولِهِ : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ [العلق : ٣ـ٤] ، وأَقسمَ بهِ فقالَ : ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : ١] ، وهـٰذا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ما رأيناهُ يفتخِرُ بعلمٍ قطُّ سوىٰ حسنِ البيانِ ، فقالَ : « **أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ** »[1] . وقالَ : « **أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ ، بَيْدَ أَنِّي مِنْ قريشٍ ، واسْتُرْضِعْتُ فِي بَنِي سَعْدٍ** »[2] .

وقد سبقَ في غيرِ هـٰذا المجلسِ أَنَّ (بيدَ) هُنا بمعنىٰ مِن أَجلِ ؛ لأَنَّ الاستدراكَ لا يحلو ما لم يشتَمِلْ علىٰ رونقٍ وحسنٍ ، ولأَنَّ الأَصلَ في الاستثناءِ الاتصالُ ، فإذا لم يلِ أداتَهُ إلاَّ صفَةُ مدحٍ . تحوَّلَ إلى الانقطاعِ ، فكأَنَّهُ لم يجدْ صفَةً تناسِبُ الاستثناءَ ، فاضطَرَّ إلىٰ ما لا يناسِبُهُ ، واستشهادُ بعضِ أَهلِ المعاني لاستحسانِ ما كانَ مِن قَبيلِ ذلكَ بقولِ النابغَةِ الجعديِّ [في « ديوانه » ١٨٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَتـىً كَمُلَـتْ أَخْـلاَقُـهُ غَيْـرَ أَنَّـهُ جَـوَادٌ فَمَـا يُبْقِـي مِـنَ الْمَـالِ بَـاقِيَـا

إِنَّما يتمُّ لَو سكتَ علىٰ قولِهِ : (جوادٌ) أَمَّا وقد عقَّبَهُ بقولِهِ : (فَمَا يُبْقِي مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا) . . فقد خرجَ الاستثناءُ فيهِ عَنِ الانقطاعِ ، وبقيَ علىٰ ما كانَ عليهِ مِنَ الاتصالِ ؛ لأَنَّ إِتلافَ المالِ بأَسرِهِ في الجودِ ممَّا يحتملُ الذمَّ ، وهـٰذا شيءٌ واضحٌ لا غبارَ عليهِ ، ففي تمسُّكِ الكثيرِ بهِ مِن العلماءِ موضعٌ فسيحٌ للعَجَبِ .

وقد قالَ كُشاجِمُ [في « ديوانه » ٢٤٦] : [مِنْ مجزوءِ الكامل]

مَـا فِيهِـمُ عَيْـبٌ سِـوَى الْـإِفْـرَاطِ فِـي الْجُـودِ فَقَـطْ

---

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٦٩٩٨) بلفظ : « بعثت بجوامع الكلم » ، ومسلم (٥٢٣) في المساجد ، والترمذي (١٥٥٣) ، والنسائي (٦/ ٣ـ٤) .

(٢) أورده في « كشف الخفاء » (٦٠٩) وقال عنه السيوطي في « اللآلىء » معناه صحيح ، ولكن لا أصل له ، وأطال فيه الكلام وأجاد .



وقالَ أبو هفَّانَ : [مِنَ المنسرحِ]

عَيْـبُ بَنِـي مَخْلَـدِ سَمَـاحَتُهُـمْ وَأَنَّهُـمْ يُتْلِفُـونَ مَـا وَجَـدُوا

[الشعراء وتقديم القلم على السيف]

وممَّا أَجمعَ علىٰ تقديمِهِ أَهلُ العلمِ في مدحِ القَلَمِ قولُ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانه » ٢/ ٥٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

لَـكَ الْقَلَـمُ الأَعْلَـى الَّـذِي بِشَبَـاتِـهِ تُصَـابُ مِـنَ الأَمْـرِ الْكُلَـىٰ وَالْمَفَـاصِـلُ[١]

لَـهُ الْخَلَـوَاتُ الـلاَّءِ لَـوْلاَ نَجِيُّهَـا لَمَـا احْتَفَلَـتْ لِلْمُلْـكِ تِلْـكَ الْمَحَـافِلُ[٢]

لُعَـابُ الأَفَـاعِـي الْقَـاتِـلاَتِ لُعَـابُـهُ وَأَرْيُ الْجَنَـى اشْتَـارَتْـهُ أَيْـدٍ عَـوَاسِـلُ[٣]

لَـهُ رِيقَـةٌ طَـلٌّ وَلَكِـنَّ وَقْعَهَـا بِـآثَـارِهِ فِـي الشَّـرْقِ وَالْغَـرْبِ وَابِـلُ[٤]

فَصِيـحٌ إِذَا اسْتَنْطَقْتَـهُ وَهْـوَ رَاكِـبٌ وَأَعْجَـمُ إِنْ خَـاطَبْتَـهُ وَهْـوَ رَاجِـلُ[٥]

وبيتُ الناظِمِ ناظرٌ إِلى القسيمِ الأَولِ مِن الأَخيرِ .

وقالَ ابنُ الروميِّ [في « ديوانه » ٢/ ٥٠٨] : [مِنَ البسيطِ]

فِـي كَفِّـهِ قَلَـمٌ نَـاهِيـكَ مِـنْ قَلَـمٍ نُبْـلاً ، وَنَـاهِيـكَ مِـنْ كَـفٍّ بِـهِ اتَّشَحَـا

يَمْحُـو وَيَكْتُـبُ أَرْزَاقَ الْعِبَـادِ بِـهِ فَمَـا الْمَقَـادِيـرُ إِلاَّ مَـا مَحَـا وَوَحَـىٰ

وقالَ [في « ديوانه » ٦/ ٢٢٩٤] : [مِنَ البسيطِ]

إِنْ يَخْـدُمِ الْقَلَـمَ السَّيْـفُ الَّـذِي خَضَعَـتْ لَـهُ الـرِّقَـابُ وَدَانَـتْ خَـوْفَـهُ الأُمَـمُ

فَالْمَوْتُ ـ وَهْوَ الَّذِي لاَ شَيْءَ يَعْدِلُهُ ـ مَـا زَالَ يَتْبَـعُ مَـا يَجْـرِي بِـهِ الْقَلَـمُ

فَقَـدْ قَضَـى اللهُ لِـلأَقْـلاَمِ مُـذْ بُـرِيَـتْ أَنَّ السُّيُـوفَ لَهَـا مُـذْ أُرْهِفَـتْ خَـدَمُ

وقالَ [في « ديوانه » ١/ ١٧٣ـ١٧٤] : [مِنَ المتقاربِ]

لَعَمْـرُكَ مَـا السَّيْـفُ سَيْـفُ الْكَمِـيِّ بِـأَخْـوَفَ مِـنْ قَلَـمِ الْكَـاتِـبِ

لَـهُ شَـاهِـدٌ إِنْ تَـأَمَّلْتَـهُ ظَهَـرْتَ عَلَـىٰ سِـرِّهِ الْغَـائِـبِ

أَدَاةُ الْمَنِيَّـةِ فِـي جَـانِبَيْـهِ فَمِـنْ مِثْلِـهِ رَهْبَـةُ الـرَّاهِـبِ

أَلَـمْ تَـرَ فِـي صَـدْرِهِ كَـالسِّنَـانْ وَفِـي الـرِّدْفِ كَـالْمُرْهَـفِ الْقَـاضِـبِ ؟

---

(١) **شباتُهُ** : حدُّهُ ، أي رأسُ القلمِ ، شبَّهَ حدَّ قلمِهِ بحدِّ السيفِ وجعلهُ يفتكُ بالأمرِ المعضلِ فيقتلهُ ويذلِّلُ صعابَهُ وينالُ منه ما لا ينالُ الحسامُ .

(٢) **نجيُّها** : حديثها السريُّ . **احتفلت** : أحسنت القيامَ بالأمور . **المحافلُ** : المجالسُ . **يقولُ** : لولا سرُّ هٰذه الأقلامِ لما انتظمَ الملكُ .

(٣) **لعابُ الأفاعي** : سمها . **لعابُه** : ريقهُ ؛ أي : مدادهُ . **الأَرْيُ** : العسلُ . **الجنىٰ** : كل ما يجتنىٰ ويقطف . **اشتارتهُ** : جنتهُ . **عواسلُ** : التي تجني العسلَ . **يقول** : إن مداد قلمهِ في تهديدِ الأعداءِ قاتلٌ كسمِّ الأفاعي ، وفي التلطُّفِ للإخوانِ كالعسلِ .

(٤) **الطلُّ** : الندىٰ أو المطرُ الخفيفُ . **يقولُ** : إنَّ ما يجري من ريق هٰذا القلمِ على القرطاسِ تافهٌ يحكي الندىٰ في قلَّتِهِ ولكنَّهُ يشبهُ المطرَ الغزيرَ بقوَّتِهِ إذا نظرتَ إلىٰ خيرِه ووقع آثارِه في الشرقِ والغربِ .

(٥) **راكبٌ** : أي راكبٌ علىٰ أصابعِ الكاتبِ . **الأعجمُ** : ضدُّ الفصيحِ .

وقالَ : [مِنَ البسيطِ]

إِذَا جَـرَى الأَرْقَـشُ النَّضْنَـاضُ فِـي يَـدِهِ ... جَـرَىٰ شُجَـاعٌ يَمُـجُّ السُّـمَّ وَالْعَسَـلاَ[١]

خَـطٌّ إِذَا قَـابَلَتْـهُ الْعَيْـنُ قَـابَلَهَـا ... رَوْضُ الـرَّبِيـعِ إِذَا مَـا طَـلَّ أَوْ وَبَـلاَ

وقالَ ابنُ الدهَّانِ [في « ديوانِهِ » ٥١ـ٥٢] : [مِنَ الكاملِ]

تُـرْدِي الْكَتَـائِـبَ كُتْبُـهُ فَـإِذَا انْبَـرَتْ ... لَـمْ تَـدْرِ أَنْفَـذَ أَسْطُـراً أَمْ عَسْكَـرَا

لَـمْ يَحْسُـنِ الأَتْـرَابُ فَـوْقَ سُطُـورِهَـا ... إِلاَّ لأَنَّ الْجَيْـشَ يَعْقِـدُ عِثْيَـرَا[٢]

والأوّلُ ناظِرٌ إِلىٰ قولِ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/٤٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَـا إِنْ تُبَـالِـي إِذْ يُجَهِّـزُ رَأْيَـهُ ... إِلَـىٰ نَـاكِـثٍ أَنْ لاَ يُجَهِّـزَ جَحْفَـلاَ[٣]

والثاني من قولِ الطغرائيِّ [في « ديوانِهِ » ٩٣ـ٩٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا مَـا دَجَـا لَيْـلُ الْعَجَـاجَـةِ لَـمْ يَـزَلْ ... بِـأَيْـدِيهِـمُ جَمْـرٌ إِلَـى الْهِنْـدِ مَنْسُـوبُ

عَلَيْهَـا سُطُـورُ الضَّـرْبِ يُعْجِمُهَـا الْقَنَـا ... صَحَـائِـفُ يَغْشَـاهَـا مِنَ النَّقْـعِ تَتْـرِيبُ

وقالَ آخرُ [الأبيات للبستي وهي في « طبقات ابن السبكي » ٨/ ٢٦٥] : [مِنَ البسيطِ]

قَـوْمٌ إِذَا أَخَـذُوا الأَقْـلاَمَ مِـنْ قَصَـبٍ ... ثُـمَّ اسْتَمَـدُّوا بِهَـا مَـاءَ الْمَنِيَّـاتِ

نَـالُـوا بِهَـا مِـنْ أَعَـادِيهِـمْ وَإِنْ بَعُـدُوا ... مَـا لَـمْ يَنَـالُـوا بِحَـدِّ الْمَشْـرَفِيَّـاتِ[٤]

ورأَيتُ ابنَ السبكيِّ[٥] عزا هـٰذين البيتين للناظِمِ ، وما رأَيتُها في « **ديوانِهِ** » .

وقالَ المعريُّ [في « سقطِ الزندِ » ١٦٤] : [مِنَ الكاملِ]

يَـا مَـنْ لَـهُ قَلَـمٌ حَكَـىٰ فِـي فِعْلِـهِ ... أَيْـمَ الْغَضَـىٰ لَـوْلاَ سَـوَادُ لُعَـابِـهِ[٦]

عُـرِفَـتْ جُـدُودُكَ إِذْ نَطَقْـتَ وَرُبَّمَـا ... لَغَـطَ الْقَطَـا فَـأَبَـانَ عَـنْ أَنْسَـابِـهِ[٧]

وَهَـزَزْتَ أَعْطَـافَ الْمُلُـوكِ بِمَنْطِـقٍ ... رَدَّ الْمُسِـنَّ إِلَـى اقْتِبَـالِ شَبَـابِـهِ

وقالَ البُستيُّ [في « قِرى الضيف » ٤/ ٣٥٤] : [مِنَ البسيطِ]

إِنْ هَـزَّ أَقْـلاَمَـهُ يَـوْمـاً لِيُعْلِمَهَـا ... أَنْسَـاكَ كُـلَّ كَمِـيٍّ هَـزَّ عَـامِلَـهُ

وَإِنْ أَقَـرَّ عَلَـىٰ رَقٍّ أَنَـامِلَـهُ ... أَقَـرَّ بِـالـرِّقِّ كُتَّـابُ الأَنَـامِ لَـهُ

---

(١) يقال حية نضناضةٌ : لا تستقر في مكان ، أو إذا نهشت قتلت من ساعتها ، أو التي أخرجت لسانها تنضنِضُهُ أي تحركه .

(٢) **العِثْيَرُ** : الغبارُ .

(٣) **الناكثُ** : ناقضُ العهدِ ، أي إنَّ رأيَ الخليفةِ يغني عن تجهيزِ الجيوشِ لحسنِ سياستهِ .

(٤) وجاء أيضاً برواية : لا ينالُ .

(٥) طبقات السبكي (٨/ ٢٦٥) .

(٦) **الأَيْمُ** : الحيّةُ .

(٧) **اللَّغَط** : الصوت والجلبة ، وقيل : من كثر لغطه كثر غلطه .

وقالَ المؤيَّدُ الألوسيُّ [في « وفيات الأعيان » ٥/٣٤٧] : [مِنَ الكامِلِ]

وَمُثَقَّــفٍ يُغْنِــي وَيُفْنِــي دَائِمــاً فِــي حَـالَــي الْمِيعَــادِ وَالإِيعَــادِ
قَلَــمٌ يَفُــلُّ الْجَيْــشَ وَهْــوَ عَـرَمْـرَمٌ وَالْبِيضُ مَــا سُلَّــتْ مِــنَ الأَغْمَــادِ
وَهَبَــتْ لَــهُ الآجَــامُ حِيــنَ نِشَــابِهَــا كَــرَمَ السُّيُــولِ وَهَيْبَــةَ الآسَــادِ

وهو معنىً بديعٌ ، قالَ ابنُ خَلِّكانَ [في « وفيَاتِ الأعيانِ » ٥/٣٤٧] : إِنَّهُ لم يُقَلْ أَحسنُ منهُ في القلَمِ .

[ومن الشعراء من يفضل السيف على القلم]

وفي عكسِ ذلكَ مِن تفضيلِ السيفِ على القلمِ ، يقولُ أَبو مسلمٍ متمثِّلاً وقد جاءَهُ كتابُ مروانَ بنِ محمَّدٍ : [مِنَ الطَّويلِ]

مَحَـا السَّيْـفُ أَسْطَـارَ الْبَـلاَغَـةِ وَالتَحَـىٰ عَلَيْـكَ لُيُـوثُ الْغَـابِ مِـنْ كُـلِّ جَـانِـبِ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانهِ » ٣/٢٠٤٤] : [مِنَ البسيطِ]

تَعْنُــو لَــهُ وُزَرَاءُ الْمُلْــكِ رَاغِبَــةً وَعَــادَةُ السَّيْــفِ أَنْ يَسْتَخْــدِمَ الْقَلَمَــا[1]

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/٤٦٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَــلاَ غَــرَّنِــي مِــنْ بَعْــدِهِ عِــزُّ كَــاتِــبٍ إِذَا هُــوَ لَــمْ يَــأْخُــذْ بِحُجْــزَةِ رَامِــحِ[2]

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٤/١٥٩] : [مِنَ البسيطِ]

حَتَّـىٰ رَجَعْـتُ وَأَقْـلاَمِـي قَـوَائِـلُ لِـي : اَلْمَجْـدُ لِلسَّيْـفِ لَيْـسَ الْمَجْـدُ لِلْقَلَـمِ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٢/٣٠٢] : [مِنَ الوافرِ]

وَهَــلْ تُغْنِــي الــرَّسَــائِــلُ فِــي عَــدُوٍّ إِذَا مَــا لَــمْ يَكُــنَّ ظُبــاً رِقَــاقَــا ؟

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/٣٥٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلاَ كُتْــبَ إِلاَّ الْمَشْــرَفِيَّــةُ عِنْــدَهُ وَلاَ رُسُــلٌ إِلاَّ الْخَمِيــسُ الْعَــرَمْــرَمُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/٣٦] : [مِنَ البسيطِ]

تَتْلُــو أَسِنَّتُــهُ الْكُتْــبَ الَّتِــي نَفَــذَتْ وَيَجْعَــلُ الْخَيْــلَ أَبْــدَالاً مِــنَ الــرُّسُــلِ

ويحكىٰ [في « وفيات الأعيان » ٧/٧] : أَنَّ ملكَ الإفرنْجِ كتبَ إلى الأَميرِ يعقوبَ بنِ يوسفَ بنِ عبدِ المؤمنِ صاحبِ (المغربِ) يتهدَّدُهُ ، فكتبَ يعقوبُ إليهِ معَ رسولِهِ : ارجعْ إليهِم فلنأتينَّهم بجنودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بها ، ولَنُخْرِجَنَّهُم مِنها أَذِلَّةً وهُم صاغرونَ ، اَلْجوابُ مَا تَرىٰ لا ما تسمع ، ثم تجهز وعبر (الأندلس) ودخلَ بلادَ الإفرنجِ فأَثخنَ فيهِم ، حتَّىٰ كادَ يستأْصِلَهم ، ولَم يسمَع أَهلُ (الأندلسِ) بكسرة فيهِم مثلِها ، وكانَ ذلكَ سنةَ (٥٩٥هـ)[3] .

---

(١) تعنو : تخضعُ وتذلُّ .

(٢) الحُجزةُ : معقدُ الإزار . الرامحُ : صاحبُ الرمح .

(٣) ولكن في « وفيات الأعيان » (٧/٧) كان ذلك سنة : (٥٩٢هـ) .

وقالَ المعريُّ [في « سقط الزند » ١١٠] : [مِنَ البسيطِ]

دَعِ الْيَـرَاعَ لِقَـوْمٍ يَفْخَـرُونَ بِـهِ وَبِـالطِّـوَالِ الـرُّدَيْنِيَّـاتِ فَـافْتَخِـرِ
فَهُـنَّ أَقْـلامُـكَ الَّـلاتِـي إِذَا كَتَبَـتْ سَطْـراً أَتَـتْ بِمِـدَادٍ مِـنْ دَمٍ هَـدَرِ

وقالَ الناظِمُ فيما يشبهُ الطَرَفَ الأوَّلَ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٦٦] : [مِنَ الكاملِ]

يَـا مَـنْ إِذَا وَرَدَ الْبِـلاَدَ كِتَـابُـهُ قَبْـلَ الْجُيُـوشِ ثَنَـى الْجُيُـوشَ تَحَيُّـرَا

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٦٦] : [مِنَ الكاملِ]

يَتَكَسَّـبُ الْقَصَـبُ الضَّعِيـفُ بِخَطِّـهِ شَـرَفـاً عَلَـىٰ صُـمِّ الـرِّمَـاحِ وَمَفْخَـرَا

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٥٦] : [مِنَ الكاملِ]

كَلِمَـاتُـهُ قُضُـبٌ وَهُـنَّ فَـوَاصِـلٌ كُـلُّ الضَّـرَائِـبِ تَحْتَهُـنَّ مَفَـاصِـلُ

والمفاخرَةُ بينَ السيفِ والقلَمِ تطولُ ، وقد أُلِّفَتْ لَها الرسائِلُ الضافيَةُ الذيولِ .

[الصواب التفصيل في المسألة فالسيف في محله أفضل من القلم وكذلك العكس]

والصوابُ التفصيلُ : فعندَ القوَّةِ والنفوذِ . . فالسيوفُ هيَ الخدَمُ ، وأمَّا عندَ الضعفِ والعجزِ . . فلا خُفَّ لِلأقلامِ وَلا قَدَمَ ، وفي قريبٍ من ذلكَ يقولُ الناظِمُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٩٨] : [مِنَ الخفيفِ]

وَكَفَتْـكَ الصَّفَـائِـحُ النَّـاسَ حَتَّـىٰ قَـدْ كَفَتْـكَ الصَّفَـائِـحَ الأَقْـلاَمُ[1]

وقالَ في المدحِ بالمفخرَتَينِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣١٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

ضَـرُوبٌ بِـأَطْـرَافِ السُّيُـوفِ بَنَـانُـهُ لَعُـوبٌ بِـأَطْـرَافِ الْكَـلاَمِ الْمُشَقَّـقِ[2]

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١١٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا صُلْـتُ لَـمْ أَتْـرُكْ مَصَـالاً لِصَـائِـلٍ وَإِنْ قُلْـتُ لَـمْ أَتْـرُكْ مَقَـالاً لِعَـالِـمِ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٦٩] : [مِنَ البسيطِ]

اَلْخَيْـلُ وَاللَّيْـلُ وَالْبَيْـدَاءُ تَعْـرِفُنِـي وَالضَّـرْبُ وَالطَّعْـنُ وَالْقِرْطَـاسُ وَالْقَلَـمُ[3]

وتعالموا بعدَ الحربِ العظمىٰ بحديثٍ أَعجبَني ، وإِن لَم أَكُن علىٰ يقينٍ مِن صحَّتِهِ ، وهوَ : أَنَّ أَحدَ قوَّادِ الإِنكليزِ زارَ بعضَ مدارسِ المستعمراتِ ، فألقى الأسئِلَةَ على التلاميذِ عَن شأنِ القلمِ والسيفِ ، فأَجابوهُ بِما هوَ معروفٌ ومشهورٌ .

فقالَ أَحدُهم : أَمَّا لَو سأَلَني القائِدُ . . لسمعَ مِنِّي غيرَ ما قالوا ، قالَ : وما هوَ ؟

---

(١) **الصفائحُ** : السيوفُ .

(٢) **الكلامُ المشقَّقُ** : العويصُ الغامضُ الذي شُقَّ بعضُهُ من بعضٍ .

(٣) **القرطاسُ** : الكتابُ فيهِ الكتابةُ . وقد ورد البيت بلفظ : والسيفُ والرمحُ والقرطاس والقلم ، والله أعلم بالصواب .

قالَ : أَمَّا سعدُ زغلولٍ : فلَمَّا لَم يكُن عندَهُ غيرُ القلمِ . . شَرَّدْتُمُوهُ كلَّ مشرَّدٍ ، وطردْتُمُوهُ كلَّ مُطَرَّدٍ ، وأَمَّا مصطفىٰ كمالٌ : فإِنَّهُ لمَّا كانَ عندَهُ السيفُ . . عمدَ إلى المعاهدَةِ التي أَبرَمْتُها دولتُكُم معَ خمسٍ وعشرينَ دولَةً سِواها ، فداسَها بنعالِهِ ، ولم ينتَطِحْ في ذلكَ عنزانِ ، فأَمرَ بإِخراجِهِ مِنَ المدرسَةِ ، وقالَ : إِنَّهُ مِسْعَرُ حربٍ .

وكلُّ ما سبقَ مِنَ الْمفاضَلَةِ بينَ الأَداتينِ إِنَّما هوَ بالنسبَةِ لمجرَّدِ النفوذِ والتشرُّفِ ، فأَمَّا إِذا نظَرنا إِلىٰ ما يتبَعُ القلَمَ مِن موادِّ العِلمِ . . انقطعَتِ النسبَةُ ، واتضحَ الفرقُ .

ويعجبُني قولُ التهاميِّ [في « قرى الضيف » ٥/٥٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـنْ فَـاتَـهُ نَيْـلُ الْعُـلاَ بِعُلُـومِـهِ ... وَأَقْـلاَمِـهِ فَلْيَبْغِهَـا بِحُسَـامِـهِ
فَمَـوْتُ الْفَتَـىٰ فِـي الْعِـزِّ مِثْـلُ حَيَاتِـهِ ... وَعِيشَتُـهُ فِـي الـذُّلِّ مِثْـلُ حِمَـامِـهِ

[الإنسان مخبوء خلف لسانه]

وحدُّ البلاغَةِ كما قالَ الإِمامُ الرازيُّ [في « المستطرف » ١/٩٥] : أَن يبلغَ الرجلُ كنْهَ ما في خاطرِهِ بأَفصَحِ عبارَةٍ .

وقالَ يحيىٰ بنُ خالِدٍ [في « المستطرف » ١/٩٦] : ما رأَيتُ رجلاً إِلاَّ هِبتُهُ حتَّىٰ يتكلَّمَ ، فإِن كانَ فصيحاً . . عظُمَ في صدْري ، وإِلاَّ . . سقطَ مِن عَيني .

[المديح بالبلاغة]

ولا يزالُ الناظِمُ يمدَحُ بالبلاغَةِ ، ويُثْني بالفصاحَةِ واللَّسَنِ ، كَما في **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٤/١٠٠] : [مِنَ الخفيفِ]

قُـلْ فَكَـمْ مِـنْ جَـوَاهِـرٍ بِنِظَـامٍ ... وَدُّهَـا أَنَّهَـا بِفِيـكَ كَـلاَمُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٤/٢٢٧ـ٢٢٨] : [مِنَ البسيطِ]

مَـا شَيَّـدَ اللهُ مِـنْ مَجْـدٍ لِسَالِفِهِـمْ ... إِلاَّ وَنَحْـنُ نَـرَاهُ فِيهِـمُ الآنَـا
إِنْ كُـوتِبُوا أَوْ لُقُـوا أَوْ حُـورِبُوا وُجِدُوا ... فِـي الْخَـطِّ وَاللَّفْظِ وَالْهَيْجَـاءِ فُـرْسَـانَـا[1]
كَـأَنَّ أَلْسُنَهُـمْ فِـي النُّطْـقِ قَـدْ جُعِلَـتْ ... عَلَـىٰ رِمَـاحِهِـمُ فِـي الطَّعْـنِ خُـرْصَـانَـا[2]

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/٥٥] : [مِنَ الخفيفِ]

خَلَـقَ اللهُ أَفْصَـحَ النَّـاسِ طُـرّاً ... فِـي مَكَـانٍ أَعْـرَابُـهُ أَكْـرَادُهْ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/١٢٣] : [مِنَ الخفيفِ]

وَبِـأَلْفَـاظِـكَ اهْتَـدَىٰ فَـإِذَا عَـزَّ ... اكَ قَـالَ الَّـذِي لَـهُ قُلْـتَ قَبْـلاَ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/٢٣٥] : [مِنَ الكامِلِ]

نَطِـقٌ إِذَا حَـطَّ الْكَـلاَمُ لِثَـامَـهُ ... أَعْطَـىٰ بِمَنْطِقِـهِ الْقُلُـوبَ عُقُـولاَ[3]

---

(١) في البيتِ لفٌّ ونشرٌ مرتَّبٌ .
(٢) الخرصانُ : الأسنَّةُ .
(٣) **النَّطِقُ** : جَيِّدُ القولِ والنُّطقِ . **اللثامُ** : ما يجعلُ على الوجهِ من العمامةِ ، كانتِ العربُ تفعلهُ لأجلِ حرِّ الشمسِ ، وإذا أرادوا أن يتكلموا كشفوا اللثامَ .

وقولِهِ وقد أَساءَ فيهِ الأَدَبَ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٢٤٤] : [مِنَ الكاملِ]

لَوْ كَانَ لَفظُكَ فِيهِمُ مَا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلاَ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٦٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

عَلِيمٌ بِأَسْرَارِ الدِّيَانَاتِ وَاللُّغَىٰ لَهُ خَطَرَاتٌ تَفْضَحُ النَّاسَ وَالْكُتُبَا

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٨٠ـ١٨٣] : [مِنَ الخفيفِ]

بَلَّغَتْهُ الْبَلاَغَةُ الْجُهْدَ بِالْعَفْوِ وَنَالَ الإِسْهَابَ بِالإِيجَازِ
مَلِكٌ مُنْشِدُ الْقَرِيضِ لَدَيْهِ يَضْنَعُ الثَّوْبَ فِي يَدَيْ بَزَّازِ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ١٨٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَتىً يَمْلأُ الأَفْعَالَ رَأْياً وَحِكْمَةً وَبَادِرَةً أَحْيَانَ يَرْضَىٰ وَيَغْضَبُ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ »] : [مِنَ الوافرِ]

إِذَا مَا صَافَحَ الأَبْصَارَ يَوْماً تَبَسَّمَتِ الضَّمَائِرُ وَالْقُلُوبُ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٦٥] : [مِنَ الكاملِ]

بِأَبِي وَأُمِّي نَاطِقٌ فِي لَفْظِهِ ثَمَنٌ تُبَاعُ بِهِ الْقُلُوبُ وَتُشْتَرَىٰ

وما أكثَرَ ما أَصابَ الناظِمُ الهدَفَ في إكبارِهِ الفصاحَةَ ؛ لأَنَّ حدَّ الإِنسانِ ـ بعدَ الحيوانيَّةِ ـ الناطقيَّةُ ، وبمقدارِ ما تتفاوتُ الناسُ في الحدِّ . . تتفاوَتُ في المحدودِ .

وما أَحسنَ قولَ الخنساءِ : [مِنَ الطَّويلِ]

كَأَنَّ كَلاَمَ النَّاسِ جُمِّعَ حَوْلَهُ فَأُطْلِقَ فِي إِحْسَانِهِ يَتَخَيَّرُ

وكانَ يقالُ في الصدرِ الأَوَّلِ : إِنَّ الفصاحَةَ انتهَت إِلىٰ أَربعةٍ : عليٍّ ، وابنِ عبَّاسٍ ، وعائشَةَ ، ومعاويَةَ .

وقالَ بعضُ العلويِّينَ : سُئِلَ الشعبيُّ ـ وَأَنا حاضِر ـ عَن أَفصحِ الناسِ ؟ فقالَ : معاويَةُ وابنُهُ ، وسعيدُ ابنُ العاصِ وابنُهُ ، فتغيَّرَ وَجهي ، وقلْتُ لَهُ : أَينَكَ مِنْ عليٍّ ؟ قالَ : إِنَّ هـٰذا يسأَلُ عَن فصحاءِ البشَرِ ، ولَم يسأَلْ عَن فصحاءِ الملائكَةِ .

وشبيهٌ بهـٰذا قولُ الواقديِّ : سُئِلَ المهلَّبُ عنِ الشجعانِ ؟ فقالَ : ابنُ الكلبيَّةِ ـ يعني مصعبَ بنَ الزبيرِ ـ وعمرُ بنُ عبيدِ اللهِ بنِ معمرٍ ، وعبادُ بنُ الحصينِ الحبطيُّ ، قيلَ لهُ : فأَينَ أَنتَ مِنْ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ ، وعبدِ اللهِ بنِ حازمٍ ؟ فقالَ : إِنَّما كنَّا في ذكرِ الإِنسِ ، ولم نكن في ذكرِ الجنِّ .

وقالَ الشعبيُّ : ما سمعتُ أَحداً يتكلَّمُ إِلاَّ وَدِدْتُ أَنَّهُ سكتَ وإِن أَحسنَ ، إِلاَّ زياداً . . فإِنَّهُ لم يخرجْ قطُّ مِن حَسَنٍ إِلاَّ إِلىٰ أَحسنَ منهُ .

وجاءَ أَعرابيٌّ إِلىٰ حلقةِ الحسنِ وسمعَهُ يتكلَّمُ ، فقالَ : هوَ فصيحٌ إِذا لَفظَ ، نصيحٌ إِذا وعظَ : [مِنَ البسيطِ]

مُلَقَّنٌ مُلْهَمٌ فِيمَا يُحَاوِلُهُ جَمٌّ خَوَاطِرُهُ جَوَّابُ آفَاقِ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٧٣] : [مِنَ الوافرِ]

مِـنَ السِّحْـرِ الْحَـلاَلِ لِمُجْتَنِيـهِ وَلَـمْ أَرَ قَبْلَـهُ سِحْـراً حَـلاَلاَ

وهوَ مِن قولِهِ صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا »(١) .

وقالَ الرضيُّ [في « ديوانه » ٤٨١] : [مِنَ الكاملِ]

إِلاَّ تَكُـنْ فِـي الْجَمْـعِ أَمْضَـىٰ طَعْنَـةً فَـلأَنْـتَ أَمْضَـىٰ خُطْبَـةً فِـي الْمَجْمَـعِ

وإِنِّي لأُحِسُّ بانكسارٍ عظيمٍ في نفسي كلَّما نظرتُ في كتبِ الجاحظِ ، أَوِ ابنِ المقفَّعِ ، أَو رسائلِ القدماءِ ومراجعاتِهم ، أَو ترسُّلِ لسانِ الدينِ بنِ الخطيبِ ، أَو عِباراتِ السعدِ ، أَوِ الغزاليِّ .

كَما لا أَخلو عَن شيءٍ مِنَ النخوَةِ وقتَ ما كنتُ أُدرِّسُ في « **مفاتيحِ الغيب** » للإِمامِ الرازيِّ ؛ إِذ كنتُ أُعلِّقُ المعنىٰ بذِهني ثمَّ أُلقيهِ في عبارَةٍ ، يشهَدُ العارفُ بمقاديرِ الكلامِ أَنَّها على البديهَةِ خيرٌ مِن عبارتِهِ التي يتروىٰ فيها ، فللهِ الحمدُ والمنَّةُ ، ولأَبي ولسائرِ مشايخي الرضوانُ والرحمَةُ .

* * *

[قالَ أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٤٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ أَيُّهَـا الْقَيْـلُ الْمُقِيـمُ بِمَنْبِـجٍ وَهِمَّتُـهُ فَـوْقَ السِّمَـاكَيْـنِ تُـوضِـعُ

[شرح المطلع]

(**القَيلُ**) في الأَصلِ : ملكُ حِميَرٍ ، وقد سبقَ في غيرِ هٰذا المجلسِ كلامٌ يتعلَّقُ بهِ . و(**منبجٌ**) : بلدٌ بـ(الشامِ) ، و(**السماكانِ**) : نجمانِ ، هُما : السماكُ الرامحُ ، والسماكُ الأَعزلُ . و(**الإِيضاعُ**) : الإِسراعُ .

[المديح بكبر النفس وعلو الهمة]

وما أَكثَرَ ما يثني الناظِمُ علىٰ مَن يمدَحُ بكبرِ النفسِ ، وعلوِّ الهمَّةِ ؛ لِما يجدُ في صدرِهِ مِن ذلكَ ، فمنْهُ **قولُهُ** : [مِنَ الطَّويلِ]

لَـهُ هِمَـمٌ لاَ مُنْتَهَـىٰ لِكِبَـارِهَـا وَهِمَّتُـهُ الصُّغْـرَىٰ أَجَـلُّ مِـنَ الـدَّهْـرِ(٢)

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٧١] : [مِنَ البسيطِ]

حَتَّـىٰ أَصَـابَ مِـنَ الـدُّنْيَـا نِهَـايَتَهَـا وَهَمُّـهُ فِـي ابْتِـدَاءَاتٍ وَتَشْبِيـبِ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٧٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَتـىً يَشْتَهِـي طُـولَ الْبِـلاَدِ وَوَقْتُـهُ تَضِيـقُ بِـهِ أَوْقَـاتُـهُ وَالْمَقَـاصِـدُ

---

(١) سلف وأخرجه عن ابن عمر رضي الله عنهما البخاري (٥١٤٦) في (النكاح) .

(٢) البيت لبكر بن النَّطَّاح في « ديوانه » .

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٧٧] : [مِنَ المنسرحِ]

تَجَمَّعَتْ فِي فُؤَادِهِ هِمَمٌ ... مِلْءُ فُؤَادِ الزَّمَانِ إِحْدَاهَا

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٧٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

عَلَىٰ قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ ... وَتَأْتِي عَلَىٰ قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٨٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَهَبْتَ عَلَىٰ مِقْدَارِ كَفَّيْ زَمَانِنَا ... وَنَفْسِي عَلَىٰ مِقْدَارِ كَفَّيْكَ تَطْلُبُ

وقالَ العطويُّ فيما يشبهُ بيتَ القصيدِ مِن طرفٍ خفيٍّ : [مِنَ المنسرحِ]

إِنْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ لاَبِساً خَلَقاً ... فَهِمَّتِي فَوْقَ هَامَةِ الْمَلِكِ

وقالَ التنوخيُّ : [مِنَ الرَّجَزِ]

وَأَنْفُسٍ مَسْكَنُهَا بَيْنَنَا ... وَهَمُّهَا فَوْقَ السِّمَاكِ وَالسُّهَا

وقالَ النعيميُّ الفقيهُ [في « طبقات الشافعية » ٥/ ٢٣٨] : [مِنَ المتقاربِ]

إِذَا أَعْطَشَتْكَ أَكُفُّ اللِّئَامِ ... كَفَتْكَ الْقَنَاعَةُ شِبْعاً وَرِيَّا

فَكُنْ رَجُلاً رِجْلُهُ فِي الثَّرَىٰ ... وَهَامَةُ هِمَّتِهِ فِي الثُّرَيَّا

وقالَ بعضُ الصوفيَّةِ : [مِنْ مُخلَّعِ البسيطِ]

يَا رُبَّ شَخْصٍ تَرَىٰ قَرِيباً ... وَرُوحُهُ فِي الْعُلاَ تَجُولُ

[أقسام الصوفية عند انبعاق الأنوار]

وما زالَ أُولئكَ الفريقُ ، وسالِكوا تلكَ الطريقِ ، متعلِّقوا الأرواحِ بالجمالِ الأَقدَسِ ، والملأِ العليِّ الأنفسِ ، إلاَّ أنَّهم يتفاوتونَ عندَ انبعاقِ الأنوارِ[1] ، وانكشافِ الأَسرارِ .

فمِنهم : مَن يغترُّ بمجرَّدِ ما يشمُّ نفحَهُ ، ويَشيمُ لَمحَهُ ، ويسكَرُ مِن زَبيبَهْ ، ويتوهَّمُ الخادِمَ حبيبَهُ ، فيسفلُ به الغرضُ ، وينتكِسُ عليهِ المرضُ ، وينقلِبُ وَرَا ، ويفتتِنُ بِما يرىٰ : ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا ﴾ [الأعراف : ١٧٥] .

ومنهُم : مَن تنكسِرُ زجاجَتُهُ إِذا انكشفَت عَجاجَتُهُ ، ويبوحُ بسرِّهِ ، ويضطربُ في أَمرِهِ ، ويعتريهِ خبلٌ ، وربَّما اختلَّ عليهِ العقلُ : [مِنَ الطَّويلِ]

سَقَوْنِي وَقَالُوا : لاَ تُغَنِّي وَلَوْ سَقَوْا ... جِبَالَ حُنَيْنٍ مَا سَقَوْنِي لَغَنَّتِ

ومنهُم : مَن يأخذُهُ الهُيامُ ، ويغلِبُهُ الاصطلامُ[2] ، فتراهُ حاضِراً وهوَ غائبٌ ، وجامداً وهوَ ذائبٌ ، ﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل : ٨٨] ، وهـٰذا سرٌّ غيرُ مطويٍّ ، ولهُ فيما يُتعارَفُ شاهدٌ مرويٌّ ، هوَ [فيما رواه الأصفهاني

---

(١) **الانبعاقُ** : أن ينبعق عليك الشيء فجأة وأنت لا تشعر . وانبعق المزن : انبعج بالمطر وفي الكلام : اندفع .

(٢) **الاصطلامُ** : الاستئصالُ . والمراد غياب الحس والفكر . .

في « الأغاني » ٦٥/٢] أَنَّ المجنونَ جاءَهُ بعضُ قرابتِهِ يلومُهُ ، ويعذلُهُ ، ويستكفُّهُ ، ويسليهِ ، وهوَ مصغٍ لكلامِهِ ، غيرَ أَنَّهُ لم يردَّ عليهِ ، فقالَ لَهُ : ما عندكَ ؟ قالَ لَهُ : وما قلْتَ ؟! فإنِّي لَم أَفقهْ خطابَكَ ، وإنِّي لمنهوبُ الفكرِ ، مذهوبُ العقلِ ، مُبَلْبَلُ البالِ ، وأنشأَ يقولُ [في « ديوانه » ٢٣٤] : [مِنَ الكاملِ]

وَأُدِيمُ لَحْظَ مُحَدِّثِي حَتَّىٰ يَرَىٰ ... أَنْ قَدْ فَهِمْتُ وَعِنْدَكُمْ عَقْلِي

وشُغِلْتُ عَنْ فَهْمِ الْحَدِيثِ سِوَىٰ ... مَا كَانَ مِنْكِ فَإِنَّهُ شُغْلِي

وللهِ درُّ الذي يقولُ [في « المدهش » ٢٥٠] : [مِنَ البسيطِ]

وَاللهِ لَوْ حَلَفَ الْعُشَّاقُ أَنَّهُمُ ... صَرْعَىٰ مِنَ الْحُبِّ أَوْ مَوْتَىٰ لَمَا حَنِثُوا

وما أَحسنَ قولَ رابعَةَ العدويَّةِ [في « ديوانها » ٧٨ـ٧٩] : [مِنَ الكاملِ]

إِنِّي جَعَلْتُكَ فِي الْفُؤَادِ مُحَدِّثِي ... وَأَبَحْتُ جِسْمِي مَنْ أَرَادَ جُلُوسِي

فَالْجِسْمُ مِنِّي لِلْجَلِيسِ مُؤَانِسٌ ... وَحَبِيبُ قَلْبِي فِي الْفُؤَادِ أَنِيسِي

ومنهُم : الزاكي نباتُهُ ، الراسخُ ثباتُهُ ، الكاملةُ صفاتُهُ ، أُولئكَ هُم حججُ اللهِ وبيِّناتُهُ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريّ » ٢٤٧/٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلَيْسَ عَجِيباً أَنَّ وَصْفَكَ مُعْجِزٌ ... وَأَنَّ ظُنُونِي فِي مَعَالِيكَ ظُلَّعُ

[كل ما يقال وكل ما يكتب دون قدر الممدوح]

هوَ شبيهٌ بقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢٦٦/٢] : [مِنَ الكاملِ]

أَكَلَتْ مَفَاخِرُكَ الْمَفَاخِرَ وَانْثَنَتْ ... عَنْ شَأْوِهِنَّ مَطِيُّ وَصْفِي ظُلَّعَا(١)

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣٤٠/١] : [مِنَ الكاملِ]

يَفْنَى الْكَلَامُ وَلاَ يُحِيطُ بِوَصْفِكُمْ ... أَيُحِيطُ مَا يَفْنَىٰ بِمَا لاَ يَنْفَدُ ؟!

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ١١٩/١] : [مِنَ البسيطِ]

مَحَامِدٌ نَزَفَتْ شِعْرِي لِيَمْلأَهَا ... فَآلَ مَا امْتَلأَتْ مِنْهُ وَلاَ نَضَبَا

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢٨٧/٢ـ٢٨٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا حَارَتِ الأَفْهَامُ فِي عُظْمِ شَأْنِهِ ... بِأَكْثَرَ مِمَّا حَارَ فِي حُسْنِهِ الطَّرْفُ

---

(١) **شأوهنَّ** : سبقهنَّ . **ظُلَّعٌ** : جمعُ ظالعٍ ، وهوَ الغامزُ من يدٍ أو رجلٍ ، أي : الأعرج .



فَــوَاعَجَبــاً مِنِّــي أُحَــاوِلُ نَعْتَــهُ ... وَقَـدْ فَنِيَـتْ فِيـهِ الْقَـرَاطِيسُ وَالصُّحْـفُ

وقولِه [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٩٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَجَــاوَزَ قَـدْرَ الْمَـدْحِ حَتَّـىٰ كَـأَنَّـهُ ... بِــأَبْلَــغِ مَـا يُثْنَـىٰ عَلَيْـهِ يُعَـابُ

والأخيرُ مِن قولِ البُحتريِّ ، وقد مرَّ في غيرِ هٰذا المكانِ [في « ديوانه » ١/ ١٥] : [مِنَ الخفيفِ]

جَـلَّ عَـنْ مَـذْهَـبِ الْمَـدِيحِ فَقَـدْ كَـا ... دَ يَكُـونُ الْمَـدِيـحُ فِيـهِ هِجَـاءَ

وقالَ الناظِمُ أيضاً [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٨١] : [مِنَ البسيطِ]

وَقَـدْ وَجَـدْتَ مَكَـانَ الْقَـوْلِ ذَا سَعَـةٍ ... فَـإِنْ وَجَـدْتَ لِسَـانـاً قَـائِـلاً فَقُـلِ

وقالَ أَشجعُ [في « ديوانه » ٢٤٨] : [مِنَ الوافرِ]

مَـدَحْنَـاهُـمْ فَلَـمْ نُـدْرِكْ بِمَـدْحٍ ... مَـآثِـرَهُـمْ وَلَـمْ نَتْـرُكْ مَقَـالاَ

وقالَ ابنُ الحجَّاجِ : [مِنَ الطَّويلِ]

هُـوَ الْبَحْـرُ إِنْ حَـدَّثْـتَ عَـنْ مُعْجِـزَاتِـهِ ... ضَعُفْـتَ عَـنِ اسْتِغْـرَاقِ تِلْـكَ الْعَجَـائِـبِ

وَإِنْ رَامَ شِعْـرِي أَنْ يُحِيـطَ بِـوَصْفِـهِ ... أَحَـاطَ بِشِعْـرِي الْعَجْـزُ مِـنْ كُـلِّ جَـانِـبِ

وقالَ الماكيُّ [بل النامي في « قِرى الضيف » ١/ ٢٨٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

جَهِـدْتُ وَلَـمْ أَبْلُـغْ مَـدَاكَ بِمِـدْحَـةٍ ... وَلَيْـسَ مَـعَ التَّقْصِيـرِ عِنْـدِي سِـوَى الْعُـذْرِ[1]

وقالَ الرشيدُ لبعضِ الشعراءِ : هَل أَحدثْتَ فينا شيئاً ؟ قالَ : يا أَميرَ المؤمنينَ ، المديحُ كلُّهُ دونَ قدرِكَ ، والشعرُ فيكَ فوقَ قَدري ، ولكنِّي أَستحسِنُ قولَ العتَّابيِّ : [مِنَ البسيطِ]

مَـاذَا عَسَـىٰ مَـادِحٌ يُثْنِـي عَلَيْـكَ وَقَـدْ ... نَـادَاكَ فِـي الْـوَحْـيِ تَقْـدِيـسٌ وَتَطْهِيـرُ

فُــتَّ الْمَمَــادِحَ إِلاَّ أَنَّ أَلْسُنَنَــا ... مُسْتَنْطَقَـاتٌ بِمَـا تُخْفِـي الضَّمَـايِـرُ

وقد أَخذهُ البوصيريُّ ، أَو غيرهُ في مدحِ سيِّدِ الوجودِ فقالَ : [مِنَ البسيطِ]

مَــاذَا عَسَـى الشُّعَـرَاءُ الْيَـوْمَ قَـائِلَـةً ... مِـنْ بَعْـدِ مَـا مَـدَحَـتْ حَـمُ تَنْـزِيـلُ

وقالَ ابنُ هانىءٍ الأَندلسيُّ ـ وقد أَساءَ الأَدبَ على اللهِ ؛ إِذ قالَ هٰذا في مخلوقٍ ـ [في « ديوانه » ٩١] : [مِنَ البسيطِ]

أَتبَعْتُــهُ فِكَــرِي حَتَّــىٰ إِذَا بَلَغَــتْ ... غَـايَـاتِهَـا بَيْـنَ تَصْـوِيـبٍ وَتَصْعِيـدِ

أَبْصَـرْتُ مَـوْضِـعَ بُـرْهَـانٍ يَلُـوحُ وَمَـا ... أَبْصَـرْتُ مَـوْضِـعَ تَكْيِيـفٍ وَتَحْـدِيـدِ

وقالَ الشريفُ الرضيُّ فيما يمكنُ أَن يعدَّ مِن هٰذا القبيلِ [في « ديوانه » ٧٩٥] : [مِنَ المنسرحِ]

يَـا مُخْـرِسَ الـدَّهْـرِ عَـنْ مَقَـالَتِـهِ ... كُــلُّ زَمَــانٍ عَلَيْــكَ مُتَّهَــمُ

---

(١) في « قرى الضيف » : (سوىٰ جهدي) بدل : (سوى العُذر) .

شَخْصُـــكَ فِـــي وَجْـــهِ كُـــلِّ دَاجِيَـــةٍ ضُحــــىً وَفِـــي كُـــلِّ مَجْهَـــلٍ عَلَـــمُ

وقد مرَّ بعضُ ما هُنا في الكلامِ علىٰ **قولِهِ** [في « العُكبريِّ » ٤/ ٢٩] : [مِنَ الكامِلِ]

[كَصِفَـاتِ مَـوْلاَنَـا أَبِـيْ الْفَضْـلِ الَّتِـي بَهَـرَتْ] فَـأَنْطَـقَ وَاصِفِيـهِ وَأَفْحَمَـا

مِن المجلسِ الخامِسِ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٤٧] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

وَأَنَّـكَ فِـي ثَـوْبٍ وَصَـدْرُكَ فِيكُمَـا عَلَـىٰ أَنَّـهُ مِـنْ سَـاحَـةِ الأَرْضِ أَوْسَـعُ

[شرح المطلع والانتقاد عليه]

يقولُ : أَليسَ عجيباً أَنَّ صدرَكَ هوَ أَوسعُ مِنَ الأَرضِ ؟! قد اشتملَ عليهِ ثوبٌ ، وتأْليفُ البيتِ فيهِ ضعفٌ ، وقولُهُ : (**وصدرُكَ فيكما**) مِنَ الكلامِ الغثِّ البارِدِ ، وهوَ مثلُ **قولِهِ** [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٢٠] : [مِنَ البسيطِ]

تَضِيـقُ عَـنْ جَيْشِـهِ الـدُّنْيَـا وَلَـوْ رَحُبَـتْ كَصَـدْرِهِ لَـمْ تَبِـنْ فِيهَـا عَسَـاكِـرُهُ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٦٦ـ٦٧] : [مِنَ المتقارِبِ]

أَيَقْـــدَحُ فِـــي الْخَيْمَـــةِ الْعُـــذَّلُ وَتَشْمَـــلُ مَـــنْ دَهْـــرَهَـــا يَشْمَـــلُ
تَضِيـــقُ بِشَخْصِـــكَ أَرْجَـــاؤُهَـــا وَيَـــرْكُـــضُ فِـــي الْـوَاحِـدِ الْجَحْفَـلُ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٥٤] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

فَتـىً لاَ يَضُـمُّ الْقَلْـبُ هِمَّـاتِ قَلْبِـهِ وَلَـوْ ضَمَّهَـا قَلْـبٌ لَمَـا ضَمَّـهُ صَـدْرُ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٧٩] : [مِنَ البسيطِ]

ضَـاقَ الـزَّمَـانُ وَوَجْـهُ الأَرْضِ عَـنْ مَلِـكٍ مِـلْءِ الـزَّمَـانِ وَمِـلْءِ السَّهْـلِ وَالْجَبَـلِ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١٥٤] : [مِنَ المتقارِبِ]

وَمَـــنْ ضَـــاقَـــتِ الأَرْضُ عَـــنْ نَفْسِـــهِ حَـــرىً أَنْ يَضِيـــقَ بِهَـــا جِسْمُـــهُ[1]

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٢٧٧ـ٢٧٨] : [مِنَ المنسرحِ]

تَجَمَّعَـــتْ فِـــي فُـــؤَادِهِ هِمَـــمٌ مِـــلْءُ فُـــؤَادِ الـــزَّمَـــانِ إِحْـــدَاهَـــا
فَـــإِنْ أَتَـــىٰ حَظُّهَـــا بِـــأَزْمِنَـــةٍ أَوْسَـــعَ مِـــنْ ذَا الـــزَّمَـــانِ أَبْـــدَاهَـــا

---

(١) حَرىً : خليقٌ وحقيقٌ .

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٧٠] : [مِنَ الكاملِ]

لَـمْ يُـرْضِ قَلْـبَ أَبِـي شُجَـاعٍ مَبْلَـغٌ   قَبْـلَ الْمَمَـاتِ وَلَـمْ يَسَعْـهُ مَـوْضِـعُ

[تعظيم شأن الممدوح وأن ما في صدره أكبر من الدنيا]

وقالَ ابنُ مطيرٍ ، أَو مروانُ بنُ أَبي حفصَةَ ، في رثاءِ معنٍ [ابن مطير في « ديوانه » ٦٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَيَـا قَبْـرَ مَعْـنٍ كَيْـفَ وَارَيْـتَ جُـودَهُ   وَقَـدْ كَـانَ مِنْـهُ البَـرُّ وَالْبَحْـرُ مُتْـرَعَـا ؟[1]

بَلَـىٰ قَـدْ وَسِعْـتَ الْجُـودَ وَالْجُـودُ مَيِّـتٌ   وَلَـوْ كَـانَ حَيّـاً ضِقْـتَ حَتَّـىٰ تَصَـدَّعَـا

وقالَ أَشجعُ السلميُّ في رثاءِ عمرَ بنِ سعيدِ بنِ سلمِ بنِ قتيبَةَ بنِ مسلمٍ [في « ديوان الحماسة » ١/ ٣٥٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَصْبَـحَ فِـي لَحْـدٍ مِـنَ الأَرْضِ ضَيِّـقٍ   وَكَـانَـتْ بِـهِ حَيّـاً تَضِيـقُ الصَّحَـاصِـحُ[2]

في مرثيَّةٍ جزلَةٍ ، تعدُّ مِن محاسنِ المراثي ، وهيَ في « **ديوانِ الحماسَةِ** » [١/ ٣٥٥] ، مرَّ بعضُها في غيرِ هٰذا المجلسِ ، وقد ذكرنَا البيتَ في شرحِ **قولِهِ** [في « العُكبريِّ » ٢/ ٣٣٥] : [مِنَ الكاملِ]

مِـنْ كُـلِّ مَـنْ ضَـاقَ الْفَضَـاءُ بِجَيْشِـهِ   حَتَّـىٰ قَضَـىٰ . . فَحَـوَاهُ لَحْـدٌ ضَيِّـقُ

وقالَ آخرُ [وهو عبد الله بن أيوب التميمي في « ديوان الحماسة » ١/ ٣٩٦] : [مِنَ الكاملِ]

عَجَبـاً لأَرْبَـعِ أَذْرُعٍ فِـي خَمْسَـةٍ   فِـي جَـوْفِـهِ جَبَـلٌ أَشَـمُّ كَبِيـرُ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانه » ٢٤٣] : [مِنَ البسيطِ]

وَرَحْـبُ صَـدْرٍ لَـوَ انَّ الأَرْضَ وَاسِعَـةٌ   كَـوُسْعِـهِ لَـمْ يَضِـقْ عَـنْ أَهْلِـهِ بَلَـدُ

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانه » ١/ ١٠٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

كَـرِيـمٌ إِذَا ضَـاقَ الـزَّمَـانُ فَـإِنَّـهُ   يَضِلُّ الْفَضَاءُ الرَّحْبُ فِي صَدْرِهِ الرَّحْبِ

وقالَ [في « ديوانه » ٢/ ١٣١٩ـ١٣٢٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَلَـنْ تَكْبُـرَ الـدُّنْيَـا عَلَيْـهِ بِـأَسْرِهَـا   وَقَـدْ وَسِعَتْهَـا سَـاحَـةٌ مِـنْ رِبَـاعِـهِ

تَضِيـعُ صُـرُوفُ الـدَّهْـرِ فِـي بُعْـدِ هَمِّـهِ   وَتَثْـوَى الـرَّزَايَـا فِـي اتِّسَـاعِ ذِرَاعِـهِ[3]

وقالَ [في « ديوانه » ١/ ٧٤] : [مِنَ الكاملِ]

يَحْمِلْـنَ كُـلَّ مُفَـرَّقٍ فِـي هِمَّـةٍ   فُضُـلٍ يَضِيـقُ بِهَـا الْفَضَـاءُ السَّبْسَـبُ[4]

وقالَ السريُّ الرَّفاءُ يرثي مصلوباً [في « ديوانه » ٣٥٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

يَعِـزُّ عَلَـى الْعَلْيَـاءِ أَنْ حِيـلَ بَيْنَـهُ   وَبَيْـنَ ظُبَـا أَسْيَـافِـهِ وَالْعَـوَامِـلِ

---

(١) مترعٌ : مملوءٌ .

(٢) **الصحاصِحُ** : جمعُ صحصحٍ ، وهوَ الأرضُ الجرداءُ المستويةُ .

(٣) **تتوىٰ** : تهلكُ .

(٤) **السبسبُ** : المفازةُ . **الفُضُلُ** : الثوبُ الواحدُ يقسرُ عليه الرجلُ والمرأةُ وتبذلهُ للأعمالِ .

وَلَيْـسَ بِعَـارٍ مَـا عَـرَاكَ وَإِنَّمَـا حَمَـاكَ اتِّسَـاعُ الصَّـدْرِ ضِيقَ الْمَنَـازِلِ
أَحَلَّـكَ مِـنْ أَعْلَـى الْهَـوَاءِ مَحَلَّـةً نَـأَتْ بِـكَ عَـنْ ضِيـقِ الثَّـرَىٰ وَالْجَنَادِلِ

وقالَ [في « ديوانِه » ٣١٤] : [مِنَ الكاملِ]

رَحْـبُ الْمَنَـازِلِ مَـا أَقَـامَ فَـإِنْ سَـرَىٰ فِـي جَحْفَـلٍ تَـرَكَ الْفَضَـاءَ مَضِيقَـا

وقالَ أبو الحسنِ ابنُ الأنباريِّ في قصيدتِهِ ، التي أجادَ فيها ، وسبقَ لَنا ذكرُها [في « قِرى الضيف » ٢/٤٣٩] : [مِنَ الوافرِ]

وَلَمَّـا ضَـاقَ بَطْـنُ الأَرْضِ عَـنْ أَنْ تَضُـمَّ عُـلَاكَ مِـنْ بَعْـدِ الْمَمَـاتِ
أَصَـارُوا الْجَـوَّ قَبْـرَكَ وَاسْتَنَـابُـوا عَـنِ الأَكْفَـانِ ثَـوْبَ السَّـافِيَـاتِ

[سعة الصدر من آيات السؤدد]

ولا يخفىٰ أَنَّ سعةَ الصدرِ آيَةُ السؤدَدِ ، وسُلَّمُ الشرفِ ، واللهُ جلَّ شأنُهُ يقولُ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

وانتهت بموسىٰ عليه السلام الأمانيُّ عندَ قولِهِ : ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴾ [طه : ٢٥ـ٢٧] .

وما طلبَهُ موسىٰ أُعطيهُ نبيُّنا صلواتُ اللهِ عليهِم مِن غيرِ سُؤَالٍ ، فقد قالَ لَهُ ربُّهُ : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح : ١] .

وجعلَهُ معَ ذلكَ أَفصحَ الناسِ .

[أمثلة من سعة صدر معاوية وحلمه]

وذكرَ ابنُ أَبي الحديدِ [في « شرح النهج »] أَمثلَةً مِن سعَةِ صدرِ معاويَةَ :

أَحدُها : أَنَّهُ وفدَ عليهِ أَهلُ الكوفَةِ حينَما خطبَ لابنهِ يزيدَ بولايَةِ العهْدِ مِن بعدِهِ ، وفي أَهلِ (الكوفَةِ) هاني بنُ عروَةَ المراديُّ ، وكانَ سيِّداً شريفاً ، فقالَ ـ والناسُ حولَهُ في مسجدِ (دمشقَ) ـ : عجباً لمعاويَةَ يوطِّىءُ الأَمرَ لابْنِهِ ، وحالُهُ معلومٌ ، يريدُ أَن يَقسِرَنا عليهِ ، وما ذلكَ بكائِنٍ واللهِ .

فأَسرعَ بها غلامٌ مِن قريشٍ إِلىٰ معاويَةَ ، فقالَ : ارجعْ إِليهِ ، وانصحْهُ إِذا خفَّ عنهُ الناسُ ، وقُل ما شئْتَ ، فقالَ لَهُ : قد وصلَت كلمتُكَ إِلىٰ معاويَةَ ، وما لَكَ والمجاهَرَةَ بهـٰذا ، وأَنتَ في أَيديهم ، وهُم بنو أُميَّةَ لا يخافونَ إِلاًّ ، ولا يرقبونَ ذمَّةً ، وما دعاني لهـٰذا غيرُ النصحِ لكَ ، والإِشفاقِ عليكَ ، فقالَ هاني : يا بنَ أَخي ، واللهِ ما خرجَ هـٰذا إِلاَّ مِن صدرِ معاويَةَ ، فقالَ الفتىٰ : وما أَنا ؟ ومعاويَةُ لا يعرفُني ولا أَعرفُهُ ، فقالَ لَهُ : وما عليكَ ، إِذا لقيتَهُ . فقُل لَهُ : يقولُ لكَ هاني : واللهِ ما إِلىٰ ذلكَ مِن سبيلٍ ، فدخلَ الفتىٰ علىٰ معاويَةَ ، فأَخبرَهُ ، فقالَ : نستعينُ عليهِ باللهِ ، ثمَّ قالَ بعدَ أَيَّامٍ للوفدِ : ارفعوا حوائِجَكُم ـ وهاني فيهِم ـ فرفَعوا إِليهِ حوائِجَهم ، فقضاها ، ولمَّا رفَعَ إِليهِ هاني حاجتَهُ . رَماها إِليهِ ، وقالَ : كنتُ أَرىٰ لكَ شأْناً ، ثمَّ تسأَلُ هـٰذا النزرَ الحقيرَ ، فاطلُب علىٰ قدرِ همَّتِكَ ، فزادَ في الرقعَةِ ما زادَ ، فرماها إِليهِ ثانيةً ، ولم يزَل يردُّها عليهِ ، ويستزيدُهُ ، حتَّى انقطَعَتْ بهِ الأَمانيُّ ، واستعبَدَهُ الإِحسانُ ، فقالَ : لا واللهِ ما بقيَ في نفسي إِلاَّ حاجةٌ واحدةٌ ، قالَ : ما هيَ ؟ قالَ : أَن تولِّيني الأَخذَ بالبيعَةِ ليزيدَ مِن أَهلِ (العراقِ) ، قالَ : دونَكَ ذلكَ . فأَحكَمَ أَمرَها ، وَوَثَّقَ عهدَها ، بمعونَةٍ مِنَ المغيرَةِ بنِ شعبَةَ ، وكانَ إِذ ذاكَ واليَ (العراقِ) .

والثاني : مرّتْ قافلةٌ مِنَ اليمَنِ لمعاويَةَ بـ(المدينَةِ) ، فوثَبَ عليها الحسينُ بنُ عليٍّ فأخذَها ، وكتبَ إلىٰ معاويَةَ :

أمّا بعدُ : فإنَّ عيراً مرّت بنا مِن (اليمَنِ) ، تحمِلُ مالاً ، وحُلَلاً ، وعنبراً ، وإنِّي احتجتُ إليها ، فأخذتُها ، والسلامُ .

فكتبَ إليهِ معاويَةُ كتاباً يقولُ فيهِ : وايمُ اللهِ ، لَو تركتَ ذلكَ حتَّىٰ يصيرَ إلينا ، ثمَّ طلبتَهُ . . لَم نمنعْهُ دونكَ ، وإنِّي لأرىٰ في رأسِكَ يا بنَ أخي نزوَةً ، وبودِّي أن أكونَ صاحبَها ؛ لأغفرَها لكَ وكتبَ أسفلَ الكتابِ [في « ديوانه » ١٠٠] : [مِنَ الرَّمَلِ]

يَـا حُسَيْـنُ بْـنَ عَلـيٍّ لَيْـسَ مَـا ... جِئْـتَ بِـالسَّـائِـغِ يَـوْمـاً فِـي الْعِلَـلْ

أَخْـذُكَ الْمَـالَ وَلَـمْ تُـؤْمَـرْ بِـهِ ... إِنَّ هَـٰـذَا مِـنْ حُسَيْـنٍ لَعَجَـلْ

قَـدْ أَجَـزْنَـاهَـا وَلَـمْ نَغْضَـبْ لَهَـا ... وَاحْتَمَلْنَـا مِـنْ حُسَيْـنٍ مَـا فَعَـلْ

والثالثُ : أنَّهُ كانَ لهُ بستانٌ بـ(الطائفِ) ، إلىٰ جانبِهِ بستانٌ آخرُ لابنِ الزبيرِ ، فطفِقَ غلمانُهُ يعيثونَ في بستانِ ابنِ الزبيرِ ، فكتبَ إليهِ يستكفُّهُم ، ويقولُ : إن دفعتَهم عنِّي . . وإلاَّ كانَ لي ولكَ شأنٌ ، فاستشارَ أصحابَهُ في الجوابِ ، فقالَ لَهُ أحدُهم ـ وأظنُّهُ ابنُهُ يزيدُ ـ : أرىٰ أنْ تبعثَ لَهُ بجيشٍ ، أوَّلُهُ عندَهُ ، وآخرهُ عندكَ ، حتَّىٰ يعرفَ مكانَهُ ، فقالَ : أوَخيرٌ مِن ذلكَ ، فكتبَ إليهِ يعترفُ بفضلِهِ ، وفضلِ أبيهِ ، وسابقتِهِ ، وأضافَ بستانَهُ وغلمانَهُ إلىٰ بستانِ ابنِ الزبيرِ وغلمانِهِ .

[لا يفيد الكرم والعفو إلا مع أهله]

ثمَّ إنَّهُ لا يفيدُ الكرَمُ والعفوُ إلاَّ مَعَ أهلِهِ ، مِمَّنْ يقودُهُم الإحسانُ بخُزامِهِ ، ويقتُلُهم العفوُ بحسامِهِ ، **قالَ الناظِمُ** [في « العُكبَريّ » ١/٢٨٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا قَتَـلَ الأَحْـرَارَ كَـالْعَفْـوِ عَنْهُـمُ ... وَمَـنْ لَـكَ بِـالْحُـرِّ الَّـذِي يَحْفَـظُ الْيَـدَا

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/١٣٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَحْلُـمُ عَـنْ خِلِّـي وَأَعْلَـمُ أَنَّـهُ ... مَتَىٰ أَجْزِهِ حِلْمـاً عَلَـى الْجَهْـلِ يَنْـدَمِ

[كل نكبات التاريخ أصلها اصطناع المعروف إلىٰ غير أهله]

أمّا إذا كانَ معَ غيرِ أهلِهِ . . فإنَّهُ لا يعودُ إلاَّ بسوءِ المغبَّةِ ، وقد فكَّرتُ مرَّةً في اصطناعِ المعروفِ إلى اللئامِ ، فلم أرَ نكبَةً لَها في التاريخِ ذكرٌ إلاَّ كانَ أصلُها مِن هـٰذا القبيلِ ، حتَّىٰ لقد ذكرتُ في مقالٍ نافعٍ أكثرَ مِن أربعينَ واقعَةً ، كلُّها يصلُحُ شاهداً لِمَا أقولُ ، مِنها : قولُهُ جلَّ شأنُهُ : ﴿ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴾ [القصص : ١٩] ؛ إذ لَم يَغشَّ علىٰ موسىٰ إلاَّ الإسرائيليُّ الذي نصرَهُ بالأمسِ ، وقد جرَّبتُ ذلكَ في نفسي ، وَقانا اللهُ شرَّ مَن أحسنَّا إليهِ .

وصدَقَ سفيانُ [الثوريُّ] في قولِهِ [في « حلية الأولياء » ٦/٣٩٠] : ما وَجدنا أصلَ كُلِّ عَداوَةٍ . . سِوَى اصطِناعِ المَعروفِ إلىٰ غيرِ أهلِهِ .

وقد قالَ زهيرٌ [في « ديوانهِ » ٢٦] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـنْ يَفْعَـلِ الْمَعْـرُوفَ فِـي غَيْـرِ أَهْلِـهِ ... يَعُـدْ حَمْـدُهُ ذَمّـاً عَلَيْـهِ وَيَنْـدَمِ

وقالَ بعضُ الأعرابِ [في « مجمع الأمثال » ٢/ ١٤٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـنْ يَفْعَـلِ الْمَعْـرُوفَ فِـي غَيْـرِ أَهْلِـهِ ... يُجَـازَىٰ كَمَـا جُـوزِي مُجِيـرُ امِّ عَـامِـرِ[1]

بَـرَاهَـا وَرَبَّـاهَـا فَلَمَّـا تَمَكَّنَـتْ ... فَـرَتْـهُ بِـأَنْيَـابٍ لَهَـا وَأَظَـافِـرِ

و[روى الميداني في « مجمع الأمثالِ » ٢٣٧١ أنه] ربَّىٰ أَحدُهم جروَ ذئبٍ يرضعُهُ مِن شاتِهِ ، فلمَّا قويَ . . افترسَها ، فقالَ : [مِنَ الوافرِ]

بَقَـرْتَ شُـوَيْهَتِـي وَفَجَعْـتَ أَهْلِـي ... فَمَـنْ أَنْبَـاكَ أَنَّ أَبَـاكَ ذِيـبُ

إِذَا كَـانَ الطِّبَـاعُ طِبَـاعَ سُـوءٍ ... فَـلا لَبَـنٌ يُفِيـدُ وَلاَ حَلِيـبُ

وما أَحسنَ قولَ المهلَّبيِّ : [مِنَ البسيطِ]

لَمَّـا اعْتَقَـدْتُـمْ أُنَـاسـاً لاَ حُلُـومَ لَهُـمْ ... ضِعْتُـمْ وَضَيَّعْتُـمُ مَـنْ كَـانَ يَعْتَقِـدُ

وَلَـوَ جَعَلْتُـمْ عَلَـى الأَحْـرَارِ نِعْمَتَكُـمْ ... حَمَتْكُـمُ السَّـادَةُ الْمَـذْكُـورَةُ الْحُشُـدُ

قَـوْمٌ هُـمُ الْجِـذْمُ وَالأَنْسَـابُ تَجْمَعُهُـمْ ... وَالْمَجْـدُ وَالـدِّيـنُ وَالأَرْحَـامُ وَالْبَلَـدُ[2]

إِذَا قُـرَيْـشٌ أَرَادُوا شَـدَّ مُلْكِهِـمُ ... بِغَيْـرِ قَحْطَـانَ لَـمْ يَبْـرَحْ بِـهِ أَوَدُ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٨٧ـ١٨٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا قِيـلَ : رِفْقـاً قَـالَ : لِلْحِلْـمِ مَـوْضِـعٌ ... وَحِلْـمُ الْفَتَـىٰ فِـي غَيْـرِ مَـوْضِعِـهِ جَهْـلُ

وَلَـوْلاَ تَـوَلِّـي نَفْسِـهِ حَمْـلَ حِلْمِـهِ ... عَـنِ الأَرْضِ لانْهَـدَّتْ وَنَـاءَ بِهَـا الْحِمْـلُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١١٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

مِـنَ الْحِلْـمِ أَنْ تَسْتَعْمِـلَ الْجَهْـلَ دُونَـهُ ... إِذَا اتَّسَعَـتْ بِـالْحِلْـمِ طُـرْقُ الْمَظَـالِـمِ

وقالَ سعدُ بنُ ناشبٍ [في « جمهرة الأمثال » ١/ ٢٧٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَفِـي اللِّيـنِ ضَعْـفٌ وَالشَّـرَاسَـةِ هَيْبَـةٌ ... وَمَنْ لاَ يُهَبْ يُحْمَلْ عَلَىٰ مَرْكَبٍ وَعْرِ

وقالَ أَوسُ بنُ حبناءَ [كما في « البيان والتبيين » ١/ ٣٨٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا الْمَـرْءُ أَوْلاَكَ الْهَـوَانَ فَـأَوْلِـهِ ... هَـوَانـاً وَإِنْ كَـانَـتْ قَـرِيبـاً أَوَاصِـرُهْ[3]

---

(١) مجيرُ أُمِّ عامرٍ : وهيَ الضَّبُعُ ، مثلٌ عربيٌّ قصَّتُهُ هي : طَرَدَ قومٌ ضَبُعاً حتَّىٰ أَلجؤوها إلىٰ خيمَةِ أَعرابيٍّ ، فأَجارَها ، فقالوا لهُ : صيدُنا وطريدتُنا ، فقالَ : كلاَّ ، والذي نفسي بيدِهِ ؛ لا تَصلونَ إليها ما ثَبَتَ قائمُ سيفي بيدي ، فتركوهُ ، فقرَّبَ إليها لبناً ، فأَقبلَتْ تَلغُ فيهِ . حتَّىٰ شبعَتْ ، وبينما هو نائمٌ في جوفِ بيتِهِ . . إذ وثبَتْ عليهِ ، فبقَرَتْ بطنَهُ ، وذهبَتْ ، فأَخَذَ ابنُ عمٍّ لهُ قوسَهُ وكنانتَهُ ، فلم يزل في طلبها حتَّىٰ قتلَها ، وأَنشأَ يقولُ :

ومـن يصنـعِ المعـروفَ فـي غيـرِ أَهلـه ... يـلاقِ الـذي لاقـىٰ مجيـر ام عـامـر

في أربعة أبيات انظر في « المستقصىٰ في أمثال العرب » (٢/ ٢٣٣) .

(٢) الجذم ـ بالكسر ـ : الأصل ، وبالفتح : القطع .

(٣) وتتمة الأبيات :

فَـإِنْ أَنْـتَ لَـمْ تَقْـدِرْ عَلَـىٰ أَنْ تُهِينَـهُ ... فَـذَرْهُ إِلَـى الْيَـوْمِ الَّـذِي أَنْـتَ قَـادِرُهْ

وقدِ ارتاحَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم مِن قولِ النابغَةِ الجعديِّ [في « ديوانه » ٨٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَلاَ خَيْـرَ فِـي حِلْـمٍ إِذَا لَـمْ تَكُـنْ لَـهُ بَـوَادِرُ تَحْمِـي صَفْـوَهُ أَنْ يُكَـدَّرَا

وقالَ قيسُ بنُ زهيرٍ ـ [في « مجمع الأمثال » ١١٦/٢] يرثي حَمَلَ بنَ بدرٍ ، وهوَ ممَّا تمثَّلَ بهِ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ [في « جمهرة خطب العرب » ١٢٧/٢] ـ : [مِنَ الوافرِ]

أَظُـنُّ الْحِلْـمَ دَلَّ عَلَـيَّ قَـوْمِـي وَقَـدْ يُسْتَجْهَـلُ الـرَّجُـلُ الْحَلِيـمُ

ومِن مراثي قيسٍ في حَمَلِ بنِ بدرٍ وأَخيهِ عيينَةَ ـ وكانَ هوَ الذي قتلَهما يومَ جفرِ الهباءَةِ ـ قولُهُ [في « ديوان الحماسة » ٦٤/١] : [مِنَ الوافرِ]

شَفَيْـتُ النَّفْـسَ مِـنْ حَمَـلِ بْـنِ بَـدْرٍ وَسَيْفِـي مِـنْ عُيَيْنَـةَ قَـدْ شَفَـانِـي
وَإِنْ أَكُ قَـدْ شَفَيْـتُ غَلِيـلَ صَـدْرِي فَلَـمْ أَقْطَـعْ بِهِـمْ إِلاَّ بَنَـانِـي

وقالَ الحصينُ بنُ الحمامِ في مثلِهِ [في « الأغاني » ١٦٢/١٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

نُفَلِّـقُ هَـامـاً مِـنْ رِجَـالٍ أَعِـزَّةٍ عَلَيْنَـا وَهُـمْ كَـانُـوا أَعَـقَّ وَأَظْلَمَـا

وقالَ العديلُ بنُ الفُرْخِ [في « ديوان الحماسة » ٢٠٨/١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنِّـي وَإِنْ عَـادَيْتُهُـمْ أَوْ جَفَـوْتُهُـمْ لَتَـأْلَـمُ مِمَّـا عَـلَّ أَكْبَـادَهُـمْ كَبْـدِي

وقالَ منصور النميريُّ للرشيدِ ، حينَما شدَّ وطأَتَهُ على العلويِّينَ [في « الأغاني » ١٦٢/١٣] : [مِنَ الوافرِ]

وَإِنَّـكَ حِيـنَ تُبْلِغُهُـمْ أَذَاهُـمْ وَإِنْ ظَلَمُـوا لَمُحْتَـرِقُ الضَّمِيـرِ

من قطعةٍ سبقَ بعضُها أَواخرَ المجلسِ الثالثَ عشرَ ، وغايةُ الغاياتِ في الموضوعِ . . قولُ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانِهِ » ١٢٩٩/٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا احْتَـرَبَـتْ يَـوْمـاً فَفَـاضَـتْ دِمَـاؤُهَـا تَـذَكَّـرَتِ الْقُـرْبَـىٰ فَفَـاضَـتْ دُمُـوعُهَـا

ولَم ينسَ حظَّهُ الناظِمُ منهُ ، **فقالَ** [في « العُكبَريّ » ٧٩/١] : [مِنَ الوافرِ]

وَكَيْـفَ يَتِـمُّ بَـأْسُـكَ فِـي أُنَـاسٍ تُصِيبُهُـمُ فَيُـؤْلِمُـكَ الْمُصَـابُ ؟!

وقالَ [في « العُكبَريّ » ١١١/٢ـ١١٢] : [مِنَ الوافرِ]

بَنُـو كَعْـبٍ وَمَـا أَثَّـرْتَ فِيهِـمْ يَـدٌ لَـمْ يُـدْمِهَـا إِلاَّ السِّـوَارُ
بِهَـا مِـنْ قَطْعِـهِ أَلَـمٌ وَنَقْـصٌ وَفِيهَـا مِـنْ جَـلاَلَتِـهِ افْتِخَـارُ
لَهُـمْ حَـقٌّ بِشِـرْكِـكَ فِـي نِـزَارٍ وَأَدْنَـى الشِّـرْكِ فِـي أَصْـلٍ جِـوَارُ
لَعَـلَّ بَنِيهِـمُ لِبَنِيـكَ جُنْـدٌ فَـأَوَّلُ قُـرَّحِ الْخَيْـلِ الْمِهَـارُ(١)

= وَقَـارِبْ إِذَا لَـمْ تَكُـنْ لَـكَ قُـدْرَةٌ وَصَمِّـمْ إِذَا أَيْقَنْـتَ أَنَّـكَ عَـاقِـرُهْ

(١) **القُرَّحُ** : الخيل إذا استوت وصارَ لها خمسُ سنينَ . **المِهارُ** : جمعُ مهرٍ ، وهوَ الصغيرُ من الخيلِ .

وَأَنْتَ أَبَرُّ مَنْ لَوْ عُقَّ أَفْنَىٰ وَأَعْفَىٰ مَنْ عُقُوبَتُهُ الْبَوَارُ
وَأَقْدَرُ مَنْ يُهَيِّجُهُ انْتِصَارٌ وَأَحْلَمُ مَنْ يُحَلِّمُهُ اقْتِدَارُ

وقد سبقَ أَواخرَ المجلسِ الثاني بعضُ ما يتعلَّقُ بالعفوِ ، وحكمةُ انتقامِهِ صلى الله عليه وسلم مِنَ اليهودِ ، ومَنِّهُ علىٰ قريشٍ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/٢٤٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَلاَ كُلُّ سَمْحٍ غَيْرَكَ الْيَوْمَ بَاطِلٌ وَكُلُّ مَدِيحٍ فِي سِوَاكَ مُضَيَّعُ

[كل مديح في غير الممدوح . . ضياع]

معناهُ مِن قولِ ابنِ الروميِّ [في « ديوانه » ٤/١٤٢٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَكُلُّ مَدِيحٍ لَمْ يَكُنْ فِي ابْنِ صَاعِدٍ وَلاَ فِي أَبِيهِ صَاعِدٍ فَهْوَ هَابِطُ

[مروان بن أبي حفصة وغضب المهدي عليه]

ويروىٰ [في « تاريخ بغداد » ١٣/١٤٤] : أَنَّ مروانَ ابنَ أَبي حفصَةَ دخلَ على المهديِّ بعدَ موتِ معنِ بنِ زائدَةَ في جماعَةٍ مِنَ الشعراءِ ، فيهم سلْمٌ الخاسرُ وغيرُهُ ، فأنشدَهُ مديحاً فيهِ ، فقالَ : مَن هٰذا ؟ قالَ : شاعرُكَ مروانُ ابنُ أَبي حفصَةَ ، فقالَ لَهُ المهديُّ : أَوَلستَ القائِلَ ؟ [في « ديوانه » ٨٣] : [مِنَ الوافرِ]

أَقَمْنَا بِالْيَمَامَةِ إِذْ يَئِسْنَا مُقَاماً لاَ نُرِيدُ بِهِ زِيَالاَ
وَقُلْنَا : أَيْنَ نَرْحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ ؟ وَقَدْ ذَهَبَ النَّوَالُ فَلاَ نَوَالاَ!

فكيفَ جِئْتَ تطلُبُ نوالَنا، وقد ذهبَ النوالُ في زعمِكَ؟! لا شيءَ لكَ عندَنا، جُرُّوا برجلِهِ، فجرُّوا برجلِهِ حتَّىٰ أَخرجوهُ.

فلمَّا كانَ العامُ المقبلُ . . تلطَّفَ حتَّىٰ دخلَ معَ الشعراءِ ، وإِنَّما كانَتِ الشعراءُ تدخُلُ على الخلفاءِ في يومٍ واحدٍ مِن كلِّ عامٍ ، وأَنشدَهُ قصيدَتَهُ التي استهلَّها بقولِهِ : [مِنَ الكاملِ]

(طَرَقَتْكَ زَائِرَةً فَحَيِّ خَيَالَهَا)

يقولُ فيها [في « ديوانه » ٩٧ـ٩٩] : [مِنَ الكاملِ]

مَلِكٌ تَفَرَّعَ نَبْعُهُ مِنْ هَاشِمٍ مَدَّ الإِلَهُ عَلَى الأَنَامِ ظِلاَلَهَا
جَبَلٌ لأُمَّتِهِ تَلُوذُ بِرُكْنِهِ رَادَىٰ جِبَالَ عِدَاتِهِ فَأَزَالَهَا
هَلْ تَعْلَمُونَ خَلِيفَةً مِنْ قَبْلِهِ أَجْرَىٰ لِغَايَتِهِ الَّتِي أَجْرَىٰ لَهَا ؟
أَفَتَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومَهَا بِأَكُفِّكُمْ أَمْ تَسْتُرُونَ هِلاَلَهَا ؟
أَمْ تَجْحَدُونَ مَقَالَةً مِنْ رَبِّكُمْ جِبْرِيلُ بَلَّغَهَا النَّبِيَّ فَقَالَهَا

[رضاه عنه وجلوسه بين يديه ليسمع مديح نفسه]

فأنصتَ لها المهديُّ ، ولَم يزلْ يزحَفُ شيئاً فشيئاً ، كلَّما سمعَ شيئاً مِنها . . حتَّىٰ صارَ علىٰ البساطِ ؛ إعجاباً بِها ، وارتياحاً مِنها ، ثمَّ قالَ لَهُ : كَم بيتٌ هيَ ؟ قالَ : مئةُ بيتٍ ، فأَمرَ لَهُ بمئةِ أَلفِ درهَمٍ ، **وهيَ أَوَّلُ مئةِ أَلفٍ أُعطيَها شاعرٌ في خلافةِ بَني العبَّاسِ** [كما في « تاريخ بغداد » ١٣/ ١٤٥] .

[الخلفاء تطلب من مروان بن أبي حفصة سماع مرثيته لمعن]

ويروىٰ : أَنَّ مروانَ ابنَ أَبي حفصَةَ دخلَ علىٰ جعفرٍ البرمكيِّ ، فقالَ لَهُ : أَنشدني مرثيَّتَكَ في معنٍ ، فأَنشدَهُ ، حتَّىٰ فرغَ مِنَ القصيدَةِ ، ودموعُ جعفرٍ تتحادَرُ علىٰ خدَّيهِ ، فلمَّا فرغَ . . قالَ لَهُ جعفرٌ : هَل أَثابَكَ عَليها أَحدٌ مِن ولدِهِ ؟ قالَ : لا ، قالَ لَهُ : فَلَو كانَ معنٌ حيّاً . . كَم كانَ يثيبُكَ علَيها ؟ قالَ : أَربَعَ مِئَةِ دينارٍ ، قالَ لَهُ : قد أَضعفْناها لكَ عنهُ ، وزِدْناكَ مثلَ ذلكَ ، فاقبضْ مِنَ الخازِنِ أَلفاً وستَّ مِئَةِ دينارٍ قبلَ أَن تنصرِفَ إِلىٰ رَحلِكَ ، فامتدَحَ جعفراً بأَبياتٍ ، وتسَلَّمَ المالَ .

ويقالُ [في « الأغاني » ٢٠/ ٥٦] : إِنَّهُ دخلَ على الرشيدِ ـ أَيضاً ـ فاستنشدَهُ المرثيَّةَ المذكورَةَ ، وبينَ يدي الرشيدِ سُكُرُجَّةٌ ، فملأَها مِن دموعِهِ[1] ، وهيَ عرضَةُ ذلكَ ، ولَولا خشيَةُ الإملالِ . . لذكرْتُها ، ولكنَّها موجودَةٌ في كتبِ التواريخِ ؛ لأَنَّها ومرثيَّةَ الحسينِ بنِ مطيرٍ[2] أَحسنُ ما قيلَ في رثاءِ معنٍ ، ولقلَّما ذكرتُ قصيدَةَ مروانَ السابقَةَ . . إلاَّ تمثَّلتُ بقولِ أَبي تمَّام : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـإِنْ أَنَـا لَـمْ يَمْـدَحْـكَ عَنِّـيَ صَـاغِـراً ... عَـدُوُّكَ فَـاعْلَـمْ أَنَّنِـي غَيْـرُ شَـاعِـرِ

وقولِ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانه » ١١٦٩] : [مِنَ الكاملِ]

لَيُـوَاصِلَنَّـكَ رَكْـبُ شِعْـرِيَ دَائِمـاً ... يَـرْوِيـهِ فِيـكَ لِحُسْنِـهِ الأَعْـدَاءُ

وقولِ الناظِمِ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٥٣] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَسْمَـعُ مِـنْ أَلْفَـاظِـهِ اللُّغَـةَ الَّتِـي ... يَلَـذُّ بِهَـا سَمْعِي وَإِنْ ضُمِّنَـتْ شَتْمِـي

وقولِ ابنِ نباتَةَ السعديِّ [في « المثل السائر » ٢/ ٣٢٩] : [مِنَ البسيطِ]

خُذْهَا إِذَا أُنْشِدَتْ فِي الْحَيِّ مِنْ طَرَبٍ ... صُـدُورُهَـا عُـرِفَـتْ مِنْهَـا قَـوَافِيهَـا
يَنْسَـىٰ لَهَـا الـرَّاكِـبُ الْعَجْلاَنُ حَـاجَتَـهُ ... وَيُصْبِـحُ الْحَـاسِـدُ الظَّمْـآنُ يَـرْوِيهَـا

فإِنِّي بِها جِدُّ معجَبٌ ، علىٰ مخالفتِها لمذهَبي ومشرَبي .

[رثاء أبي دلامة لأبي العباس السفاح وغضب المنصور عليه ثم رضاه عنه]

ولمَّا ماتَ أَبو العبَّاسِ السفَّاحُ . . دخَلَ أَبو دلامَةَ على المنصورِ ، والناسُ يعزُّونَهُ ، فأَنشدَهُ [في «ديوانه» ٦٨] : [مِنَ الكاملِ]

أَمْسَيْـتَ بِـالأَنْبَـارِ يَـا بْـنَ مُحَمَّـدٍ ... لَـمْ تَسْتَطِـعْ عَـنْ غَيْـرِهَـا تَحْـوِيـلاَ

---

(١) قالَ في « الأغاني » ٢٠/ ٥٦ : فلَمَّا انتهىٰ مِن إنشادِها . . بكىٰ هارونُ الرشيدُ ، ولو كانَ بينَ يديهِ سُكُرُجَّةٌ لملأَها مِن دموعِهِ .

(٢) التي يقول فيها :

فَيَـا قَبْـرَ مَعْـنٍ كَيْـفَ وَارَيْـتَ جُـودَهُ ... وَقَـدْ كَـانَ مِنْـهُ الْبَـرُّ وَالْبَحْـرُ مُتْـرَعَـا

فَلتَبْكِيَنَّ لَكَ النِّساءُ بِعَبْرَةٍ   وَلَتَبْكِيَنَّ لَكَ الرِّجالُ عَوِيلاَ

مَاتَ النَّدَىٰ إِذْ مِتَّ يا بْنَ مُحَمَّدٍ   فَجَعَلْتَهُ لَكَ فِي التُّرابِ عَدِيلاَ

إِنِّي سَأَلْتُ النَّاسَ بَعْدَكَ كُلَّهُمْ   فَوَجَدْتُ أَسْمَحَ مَنْ سَأَلْتُ بَخِيلاَ

أَلِشِقْوَتِي أُخِّرْتُ بَعْدَكَ لِلَّتِي   تَدَعُ الْعَزِيزَ مِنَ الرِّجالِ ذَلِيلاَ

فَلأَحْلِفَنَّ يَمِينَ حَقٍّ بَرَّةٍ   تَاللهِ مَا أُعْطِيتُ بَعْدَكَ سُولاَ

فأبكى الناسَ ، وأغضبَ المنصورَ ، حتَّىٰ قالَ لَهُ : لئِن سمعتُكَ تنشدُها مرَّةً أُخرىٰ . . لأقطعَنَّ لسانَكَ ، فقالَ أَبو دلامَةَ : إنَّهُ كانَ لي مكرِماً ، وقد جاءَني مِنَ البدوِ كَما جاءَ اللهُ بإخوةِ يوسفَ إليهِ ، فقُل أَنْتَ كما قالَ يوسفُ : لا تثريبَ عليكَ ، فسرِّيَ عَنِ المنصورِ ، وقالَ : قد أَقَلْناكَ يا أَبا دلامَةَ ، فسلْ حاجتَكَ ، فقالَ : قد أَمر لي أبو العبَّاسِ بعشرَةِ آلافِ درهمٍ ، وخمسينَ ثوباً ، وهوَ مريضٌ ، فلَم أَقبِضْها ، فقالَ المنصورُ : مَن يعلَمُ ذلكَ ؟ فشهدَ لَهُ سليمانُ بنُ مجالدٍ ، وأَبو الجهمِ ، فقالَ المنصورُ : ادفعَها إِليهِ ، وسيِّرْهُ إِلىٰ هٰذا الطاغيَةِ ـ يعني عمَّهُ عبدَ اللهِ بنَ عليٍّ ، وكانَ قد أَظهرَ الخلافَ ، وخرجَ بناحيةِ (الشام) ـ فوثبَ أَبو دلامَةَ ، وقالَ : أُعيذُكَ باللهِ أَنْ أَخرجَ معَهُم ، فإنِّي واللهِ لمشؤُومٌ ، فقالَ لَهُ المنصورُ : امضِ فإنَّ يُمْننَا يغلِبُ شؤمَكَ ، فقالَ : ما أُحِبُّ لكَ أَن تجرِّبَ منِّي ذلكَ علىٰ هٰذا العسكَرِ ؛ فإنِّي لا أَدري أَيُّهما يغلِبُ ، يُمنُكَ أَو شُؤْمي ، غيرَ أَنِّي بنفسي أَدرىٰ وأَعرَفُ وأَطولُ تجربَةً ، فقالَ المنصورُ : دَعني مِن هٰذا ، فما لَكَ بدٌّ مِنَ الخروجِ ، قالَ : فإنِّي أَصدُقُكَ الآنَ ، شهدْتُ واللهِ تسعَةَ عشرَ عسكراً ، هُزِمَت كلُّها ، وكنتُ أَنا سببَ هزيمتِها ، فإنْ شئتَ الآنَ علىٰ بصيرَةٍ أَن يكونَ عسكرُكَ تمامَ العشرينَ . . فافعَل ، فاستفرغَ المنصورُ ضحكاً ، وأَذِنَ لَهُ أَن يتخلَّفَ .

[الحر تكفيه الإشارة]

وما زالَ الشِّعرُ وأَهلُهُ في الاعتبارِ الأَوَّلِ عندَ الأُمويِّينَ والعباسيِّينَ يتأَثَّرونَ بأَقوالِهم ، ويقبلونَ شفاعاتِهم ، ويُغْضُونَ عَن هفواتِهم ، ويتنافسونَ في اصطناعِهم ، ويتحاسَدونَ علىٰ بناتِ أَفكارِهم ، وما ذلكَ إِلاَّ لكرَمِ طباعِهم ؛ فالكريمُ هوَ الذي يتأَثَّرُ بالكلامِ ، ويهربُ مِن الملامِ ، وقد قالَ جلَّ شأْنُهُ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٥٥] .

وذلكَ أَنَّ المؤمنَ لا يكونُ إِلاَّ كريماً ، والكريمُ ينفعِلُ بالكلامِ ، ولا سيَّما إِذا كانَ بليغاً ، ولهٰذا استحبُّوا البلاغَةَ في الخطابَةِ ، وحسبُكَ أَنَّ كثيراً مِن ظَلَمَتِهم وجبَّاريهم يحقِنُ الدماءَ الغزيرَةَ لِكَلِمَةٍ تملأُ سمعَهُ مِنَ الشاعِرِ ، فأَمَّا الآنَ . . فقد ذهبَتْ العروبيَّةُ ، بلِ انمسخَتِ الإنسانيَّةُ ، قالَ ابنُ الروميِّ [في « ديوانه » ٢/ ٦٨٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

أَرَى النَّاسَ مَخْسُوفاً بِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ   عَلَى الأَرْضِ لَمْ يُقْلَبْ عَلَيْهِمْ صَعِيدُهَا

[أمثلة علىٰ تأثير الشعر ونفوذه عند أصحاب النفوس الأبية]

ومِنَ الأَدلَّةِ علىٰ تأْثيرِ الشِّعرِ ونفوذِهِ [كما في « الكامل في أسماء الرجال » ١/ ٤٣٠] : ما فعلَهُ الحارثُ ابنُ أَبي شمرٍ الغسانيُّ ، فلَقد أَسر شَاسَ بنَ عبدَةَ في تسعينَ مِن بني تميمٍ وغيرِهم مِنَ العَربِ ، فقدِمَ عليهِ علقمَةُ الفحلُ واستعطفَهُ بقصيدتِهِ لَهُ التي يقولُ منها [في « ديوانه » ٣٩ـ٤٠ـ٤٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِلَى الْحَارِثِ الْوَهَّابِ أَعْمَلْتُ نَاقَتِي   لِكَلْكَلِهَا وَالْقُصْرَيَيْنِ وَجِيبُ[1]

---

(١) القصريانِ : ضلعانِ قصيرانِ تليانِ الخاصرتينِ . الوجيبُ : الرعدةُ والاضطرابُ من شدَّةِ السيرِ .



هَـدَانِـي إِلَيْـكَ الْفَـرْقَـدَانِ وَلاَحِـبٌ ... لَـهُ فَـوْقَ إِعْـلاَمِ الْمِتَـانِ عُلُـوبُ[1]

فَـلاَ تَحْـرِمَنِّـي نَـائِـلاً عَـنْ جَنَـابَـةٍ ... فَـإِنِّـي امْـرُؤٌ وَسْـطَ الْقِبَـابِ غَـرِيـبُ[2]

وَفِـي كُـلِّ حَـيٍّ قَـدْ خَبَطْـتَ بِنِعْمَـةٍ ... فَحُـقَّ لِشَـأْسٍ مِـنْ نَـدَاكَ ذَنُـوبُ[3]

فقالَ الحارثُ لَهُ : نعم ، ونعمةُ عينٍ ، وأطلقَ لَهُ أخاهُ شأساً ، وأسرىٰ تميمٍ بأسرِهِم ، ومَن سألَهُ فيهِم مِن غيرِهِم .

وشفعَ الفرزدقُ إلىٰ تميمِ بنِ مرٍّ[4] بقولِهِ [في « الأغاني » ١٠/ ٣٥٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

تَمِيـمُ بْـنُ مُـرٍّ لاَ تَكُـونَـنَّ حَـاجَتِـي ... بِظَهْـرٍ فَـلاَ يَعْـيَ عَلَـيَّ جَـوَابُهَـا

فَهَـبْ لِـي خُنَيْسـاً وَاحْتَسِـبْ فِيـهِ مِنَّـةً ... لِعَبْـرَةِ أُمٍّ مَـا يَسُـوغُ شَـرَابُهَـا

أَتَتْنِـي فَعَـاذَتْ يَـا تَمِيـمُ بِغَـالِـبٍ ... وَبِـالْحُفْـرَةِ السَّـافِـي عَلَيْهَـا تُـرَابُهَـا

وَقَـدْ عَلِـمَ الأَقْـوَامُ أَنَّـكَ مَـاجِـدٌ ... وَلَيْـثٌ إِذَا مَـا الْحَـرْبُ شَـبَّ شِهَـابُهَـا

فأطلقَ لَهُ مَن في الجيشِ مِن خنيسٍ وحبيشٍ ؛ لاشتباهِ الاسمِ عليهِ ، فأخذَ بالاحتياطِ .

وشفعَ أبو تمَّامٍ إلى المعتصِمِ في عقدِ البيعَةِ للواثِقِ بولايَةِ العهْدِ ، فأطلبَهُ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « ديوانه » ١/ ٣٤٤ـ٣٤٥] : [مِنَ الكاملِ]

فَـاشْـدُدْ بِهَـارُونَ الخِـلاَفَـةَ إِنَّـهُ ... سَكَـنٌ لِـوَحْشَتِهَـا وَدَارُ قَـرَارِ

بِفَتَـىٰ بَنِـي الْعَبَّـاسِ وَالْقَمَـرِ الَّـذِي ... حَفَّتْـهُ أَنْجُـمُ يَعْـرُبٍ وَنِـزَارِ[5]

هُـوَ نَـوْءُ يُمْـنٍ مِنْكُـمُ وَسَعَـادَةٍ ... وَسِـرَاجُ لَيْـلٍ عِنْـدَكُـمْ وَنَهَـارِ[6]

فَـاقْمَـعْ شَيَـاطِيـنَ النِّفَـاقِ بِمُهْتَـدٍ ... تَـرْضَـى الْبَـرِيَّـةُ هَـدْيَـهُ وَالْبَـارِي[7]

لِيَسِيـرَ فِـي الآفَـاقِ سِيـرَةَ رَأْفَـةٍ ... وَيَسُـوسَهَـا بِسَكِينَـةٍ وَوَقَـارِ

---

(١) هداني إليكَ الفرقدانِ : يعني أنهُ سرىٰ بالليلِ في سيرِهِ إليهِ فاهتدىٰ بالنجوم . اللاحبُ : الطريقُ الواضحُ . المتانُ : جمعُ متنٍ ، وهوَ المكانُ الصلبُ المستوي . العُلوبُ : جمعُ علبٍ ، وهوَ الأثرُ ، وإنما أرادَ أن يصفَ هـٰذا الطريقَ بأنه متصلٌ بالوعورِ والأماكنِ الغليظةِ ، وإنما تجشَّمَ ركوبَهُ إليهِ . لِما يرجو من معروفِهِ وفضلِهِ .

(٢) الجنابةُ : الغُربةُ .

(٣) قد خبطتَ بنعمةٍ : أي أنعمتَ وتفضَّلتَ . الذَّنوبُ : الدلوُ العظيمة ، وضربَها مثلاً للحظِّ والنصيبِ .

(٤) في « الأغاني » : تميم بن زيد ، وللأبياتِ قصَّةٌ حاصلُها :
أنَّ تميمَ بنَ زيدٍ غزا (الهندَ) في جيشٍ ، فجمَّرَهُم ، وفي جيشِهِ رجلٌ يقالُ لهُ : حُبَيْشٌ ، فلمَّا طالَتْ غيبَتُهُ علىٰ أُمِّهِ . اشتاقَتْهُ ، فسألَتْ عمَّن يُكَلِّمُ لها تميمَ بنَ زيدٍ أن يُقْفِلَ ابنَها ، فقيلَ لها : عليكِ بالفرزدَقِ فاستجيري بقبرِ أبيهِ ـ وكانَ قبرُ أبيهِ مَعَاذاً للنَّاسِ ـ فأتَتْ قبرَ غالبٍ بكاظمَةِ ، حتَّىٰ علمَ الفرزدقُ مكانَها .
ثُمَّ أتتْهُ وطلبَتْ إليهِ حاجتَها ؛ فكتبَ إلىٰ تميمِ بنِ زيدٍ هـٰذهِ الأبياتِ . وتمامُ القصَّةِ مذكورةٌ فوقَ .

(٥) يَعربُ : أبو اليمانيةِ القحطانيَّةِ . نزارٌ : أبو النزاريَّةِ العدنانيَّةِ . والواثقُ قحطانيٌّ من جهةِ أخوالِهِ ، ونزاريٌّ من جهةِ آبائِهِ ؛ لأن هاشمَ بن عبدِ منافٍ أبا العبَّاسيِّينَ الأعلىٰ تزوَّجَ سلمىٰ بنتَ يزيدَ من بني النَّجار ، ثم من الخزرجِ قبيلةٌ يمانيةٌ كانت في يثربَ ، وهم والأوسُ أنصارُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في الإسلامِ .

(٦) النوءُ : طلوعُ نجمٍ بعد غروبِ آخرَ . سراجُ الليلِ والنهارِ : القمرُ والشمسُ .

(٧) اقمعْ : اقهرْ . شياطينَ النفاقِ : لعلَّهُ أرادَ بهم الذين أظهروا الإسلامَ ثم ثاروا عليه ، أو لعلَّهُ يشيرُ إلى المكيدَةِ التي دبَّرها في أثناءِ الزحفِ علىٰ (عمورية) بعضُ القوَّادِ المسلمينَ لاغتيالِ المعتصمِ ومبايعةِ العبَّاسِ بن المأمونِ ، فأخفقَ تدبيرُهم ، وانتقمَ المعتصمُ منهم ، وحبسَ العبّاسَ بن المأمونِ .



وتشفَّعَ بنو تغلبَ بأَبي تمَّامٍ إِلىٰ مالكِ بنِ طوقٍ ، وكانوا قد أَفسدوا ، وعاثُوا ، فتقدَّمَ بقصيدَةٍ يقولُ فيها [في « ديوانهِ » ١/١٠٦ـ١٠٧] : [مِنَ الكاملِ]

وَرَأَيْتَ قَوْمَكَ وَالإِسَاءَةُ مِنْهُمُ   جَرْحَىٰ بِظُفْرِ لِلزَّمَانِ وَنَابِ
هُمْ صَيَّرُوا تِلْكَ الْبُرُوقَ صَوَاعِقاً   فِيهِمْ وَذَاكَ الْعَفْوَ سَوْطَ عَذَابِ
فَأَقِلْ أُسَامَةَ جُرْمَهَا وَاصْفَحْ لَهَا   عَنْهُ وَهَبْ مَا كَانَ لِلْوَهَّابِ
فَهُمُ بِعَيْنِ أُبَاغَ رَاشُوا لِلْوَغَىٰ   سَهْمَيْكَ عِنْدَ الْحَارِثِ الْحَرَّابِ[1]
فَمَضَتْ كُهُولُهُمُ وَدَبَّرَ أَمْرَهُمْ   أَحْدَاثُهُمْ تَدْبِيرَ غَيْرِ صَوَابِ
لاَ رِقَّةُ الْحَضَرِ اللَّطِيفِ غَذَتْهُمُ   وَتَبَاعَدُوا عَنْ فِطْنَةِ الأَعْرَابِ
فَإِذَا عَجَمْتَهُمُ وَجَدْتَ لَدَيْهِمُ   كَرَمَ النُّفُوسِ وَقِلَّةَ الآدَابِ[2]
لَكَ فِي رَسُولِ اللهِ أَعْظَمُ أُسْوَةٍ   وَأَجَلُّهَا فِي سُنَّةٍ وَكِتَابِ
أَعْطَى الْمُؤَلَّفَةَ الْقُلُوبِ رِضَاهُمُ   كَرَماً وَرَدَّ أَخَايِذَ الأَحْزَابِ[3]

فوقعَت مِن مالكٍ أَحسنَ موقعٍ ، فأَجزلَ ثوابَهُ ، وقبِلَ شفاعتَهُ ، وردَّ القومَ إِلىٰ منازِلِهم ، بعدَ اليأْسِ المستحكِمِ ، والعداوَةِ الهائِلَةِ .

وقالَ أَبو عبادَةَ [في « ديوانهِ » ١/ ٣٦٥] : [مِنَ الكاملِ]

إِنْ أَبْقَ أَوْ أَهْلِكْ فَقَدْ نِلْتُ الَّتِي   مَلأَتْ صُدُورَ أَقَارِبِي وَعِدَائِي
وَغَدَوْتُ نَدْمَانَ الْخَلاَئِفِ نَابِهاً   ذِكْرَىٰ وَنَاعِمَةً بِهِمْ نَشَوَاتِي
وَشَفَعْتُ فِي الأَمْرِ الْجَلِيلِ إِلَيْهِمُ   بَعْدَ الْجَلِيلِ فَأَنْجَحُوا طَلَبَاتِي
وَصَنَعْتُ فِي الْعَرَبِ الصَّنَائِعَ عِنْدَهُمْ   مِنْ رِفْدِ طُلاَّبٍ وَفَكِّ عُنَاةِ

[قل للمليحة في الخمار الأسود]

والأَمرُ في ذلكَ أَكثرُ مِن أَن يتناولَهُ الضبطُ ، أَو يحصيَهُ القلَمُ ، ومِن الغايةِ فيهِ ما ذكرهُ ابنُ خَلِّكانَ [في « وفيات الأعيان » ١٦١/٤] وغيرُهُ : أَنَّ أَحدَ التجَّارِ قدمَ (المدينةَ) المشرَّفَةَ بحملٍ مِن الخُمُرِ السودِ ، فكسدَت ، فضاقَ صدرُهُ ، وأَتىٰ مسكينَ الدارميَّ ، فقصَّ عليهِ القصَّةَ ، فقالَ : كيفَ أَعملُ وأَنا قد تركتُ الشعرَ ؟ ـ وكانَ تزهَّدَ ، وانقطعَ في المسجدِ الشريفِ ـ فقالَ التاجرُ : أَنا غريبٌ ، وما لي بضاعَةٌ سوىٰ هـٰذا الحِملِ ، وقد دلَّني الناسُ عليكَ ، وقالوا : ما يُنَفِّقُها لي غيرُكَ ، ولَم يزَل يتضرَّعُ إِليهِ . . حتَّىٰ خرجَ مِن المسجدِ ، وقالَ : [مِنَ الكاملِ]

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ فِي الْخِمَارِ الأَسْوَدِ   مَاذَا أَرَدْتِ بِنَاسِكٍ مُتَعَبِّدِ

---

(١) عينُ أُباغ : وادٍ علىٰ طريقِ الشامِ إِلى الفراتِ . راشوا : أَلزقوا عليها الريشَ . وقولُهُ : راشوا سهميك : أَرادَ أَعانوكَ ؛ لأَنَّ السهمَ لا يُنتفَعُ بهِ حتىٰ يُراشَ . الحارثُ الحرَّابُ : وصفٌ لكلِّ ملكٍ يقالُ لهُ الحارثُ ، وقد جاءَ الحارثُ بنُ أَبي شمرٍ الغسَّانيُّ إِلىٰ (عينِ أَباغٍ) لمحاربةِ النعمانِ بن المنذرِ الذي ناصرَهُ بنو تغلبَ فانتصرَ على الحارثِ وهزمَهُ .

(٢) عجمتَهُم : عركتَهم لتختبرَهُم .

(٣) المؤلَّفة القلوب : قومٌ دخلوا في الإِسلامِ رغبةً في الغنائِمِ والعطاءِ ، وكان منهم جماعةٌ من قريش ، وجماعةٌ من غيرهم . الأَخايذُ : ما يؤخذُ من العدوِّ في الحربِ . الأَحزابُ : كلُّ من تحزَّبَ علىٰ الإِسلامِ من مشركينَ ويهودَ .

قَـدْ كَـانَ شَمَّـرَ لِلْصَلاَةِ ثِيَابَـهُ ... حَتَّـىٰ قَعَـدْتِ لَـهُ بِبَـابِ الْمَسْجِـدِ

فشاعَ بين الناسِ ، وتغالتِ النساءُ في الخُمُرِ السودِ ولم تبقَ بـ(المدينةِ) ظريفةٌ إلاَّ طلبَتْ خماراً أَسود ، فباعَها بأَضعافِ أثمانِها ، ورجعَ مسكينُ إِلىٰ ما كانَ انقطعَ إِليهِ مِن التعبُّدِ .

[المديح لا يليق إلا بك]

والبيتُ الذي نتكلَّمُ فيهِ يشبهُ قولَ عليِّ بنِ عبدِ العزيزِ : [مِنَ الكاملِ]

وَأَرَى الْمَـدِيـحَ إِذَا عَـدَاكَ نَقِيصَـةً ... فَـأَعَـافُـهُ وَلَـوَ انَّـهُ فِـي حَـاتِـمِ

فَـإِذَا امْتَـدَحْـتُ سِـوَاكَ قَـالَ الشِّعْـرُ لِـي ... لَـمْ تَـرْعَ حَقِّـي إِذْ أَبَحْـتَ مَحَـارِمِـي

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٢٥٥] : [مِنَ الكاملِ]

إِنَّ الْقَـرِيـضَ شَـجٍ بِعِطْفِـيَ عَـائِـذٌ ... أَنْ لاَ يَكُـونَ سِـوَاءَكَ الْمَمْـدُوحُ

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٦٥] : [مِنَ الوافرِ]

وَظَنُّـونِـي مَـدَحْتُهُـمُ قَـدِيمـاً ... وَأَنْـتَ بِمَـا مَـدَحْتُهُـمُ مُـرَادِي

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٧٨] : [مِنَ البسيطِ]

أَحْيَيْـتَ لِلشُّعَـرَاءِ الشِّعْـرَ فَـامْتَـدَحُـوا ... جَمِيـعَ مَـنْ مَـدَحُـوهُ بِـالَّـذِي فِيكَـا

وقالَ كثيِّرٌ [في « ديوانِهِ » ٣٠٢] : [مِنَ الطَّويلِ]

مَتَىٰ مَـا أَقُـلْ فِي آخِرِ الـدَّهْـرِ مِـدْحَـةً ... فَمَـا هِـيَ إِلاَّ لاِبْـنِ لَيْلَـى الْمُكَـرَّمِ

وقالَ أَبو نُواسٍ [في « ديوانِهِ » ٥٨١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَإِنْ جَـرَتِ الأَلْفَـاظُ مِنَّـا بِمِـدْحَـةٍ ... لِغَيْـرِكَ إِنْسَـانـاً فَـأَنْـتَ الَّـذِي نَعْنِـي

[من كبائر الذنوب وضع المديح في غير محله]

ثمَّ إِنَّ وضعَ المدحِ في غيرِ محلِّهِ مِن كبائرِ الذنوبِ ، وقبائحِ العيوبِ ، جنايةٌ على العلمِ ، وإِهانةٌ للأَدبِ ، وانغماسٌ في المهانَةِ ، وتدسُّسٌ في النذالَةِ ، وتعلُّقٌ بالكذبِ ، وأَخذٌ بمجامعِ النفاقِ .

وقد قالَ زهيرٌ : [مِنَ البسيطِ]

وَإِنَّ أَصْـدَقَ بَيْـتٍ أَنْـتَ قَـائِلُـهُ ... بَيْـتٌ يُقَـالَ إِذا أَنْشَـدْتَـهُ : صَـدَقَـا[1]

ومِن قضاءِ ابنِ الخطَّابِ في تفضيلِ زهيرٍ [في « طبقات فحول الشعراء » ١/ ٦٣] : أَنَّهُ لا يمدحُ أَحداً إِلاَّ بما فيهِ ، كما سبقَ في كثيرٍ مِمَّا يتعلَّقُ بهِ في المجلسِ الثالثِ ، عندَ **قولِهِ** [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣١٠] : [مِنَ المنسرحِ]

قَـدْ أَجْمَعَـتْ هَـٰذِهِ الْخَلِيقَـةُ لِـي ... أَنَّـكَ يَـا بْـنَ النَّبِـيِّ أَوْحَـدُهَـا

وقد قالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانِهِ » ٢/ ٢٦٢] : [مِنَ الكاملِ]

عَيَّـاشُ إِنَّـكَ لَلَّئِيـمُ وَإِنَّنِـي ... إِذْ صِـرْتَ مَـوْضِـعَ مَطْلَبِـي لَلَئِيـمُ

---

(١) نسبَ صاحبُ « العقدِ الفريد » (٥/ ٣٢٦) البيتَ لزهيرٍ ، وليسَ في « ديوانِهِ » ، وإِنَّما هوَ في « ديوانِ حسان بنِ ثابتٍ » (٤٣٠) .

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريِّ » ٢/١٤٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا الْفَضْلُ لَمْ يَرْفَعْكَ عَنْ شُكْرِ نَاقِصٍ ... عَلَىٰ هِبَةٍ فَـالْفَضْـلُ فِيمَـنْ لَـهُ الشُّكْـرُ

ومعناهُ : إذا لم يرفعْكَ الأدبُ عَن شكرِ الناقصِ . فذلكَ الناقصُ هوَ أفضلُ منكَ .

ولله دَرُّ أَبي عُبادَةَ في قولِهِ [في « ديوانه » ١/٢٩] : [مِنَ الكاملِ]

خَطَبَ الْمَدِيحَ فَقُلْتُ : خَلِّ طَرِيقَهُ ... لِيَجُوزَ عَنْكَ فَلَسْتَ مِنْ أَكْفَائِهِ

وقالَ غيرُهُ : [مِنَ الطَّويلِ]

مَدَحْتُهُمُ فَاسْتُقْبِحَ الْمَدْحُ فِيهِمُ ... وَيَا رُبَّ جِيدٍ لاَ يَلِيقُ بِهِ الْعِقْدُ

فعلى الحرِّ أَن يحترمَ نفسَهُ ، ويربأَ بها عَن الخسَّةِ ؛ فقد قالَ حاتِمٌ [في « شرحِ ديوانه » ٨١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَنَفْسَكَ أَكْرِمْهَا فَإِنَّكَ إِنْ تَهُنْ ... عَلَيْكَ فَلَنْ تَلْقَىٰ لَهَا الدَّهْرَ مُكْرِمَا

وقالَ الحسينُ بنُ مطيرٍ [في « ديوانه » ٥٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَنَفْسَكَ أَكْرِمْ عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ ... فَمَا لَكَ نَفْسٌ بَعْدَهَا تَسْتَعِيرُهَا

وقالَ آخرُ [وهو منقر بن فروة المنقري في « البيان والتبيين » ١/٤٩٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَا الْمَرْءُ إِلاَّ حَيْثُ يَجْعَلُ نَفْسَهُ ... فَفِي صَالِحِ الأَخْلاَقِ نَفْسَكَ فَاجْعَلِ

وقالَ الحماسيُّ : [مِنَ الوافرِ]

نُحِبُّ الشَّيْءَ ثُمَّ نَصُدُّ عَنْهُ ... مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ بِهِ مَقَالُ

مَخَافَةَ أَنْ يُقَالَ لَنَا فَنَخْزَىٰ ... وَنَعْرِفُ مَا تُسَبُّ بِهِ الرِّجَالُ

وقد انحطَّ مقدارُ الشمَّاخِ، وهوَ مِن أَصحابِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بقولِهِ لعرابَةَ [في « ديوانه » ٣٣٦] : [مِنَ الوافرِ]

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِالْيَمِينِ

وقولِه[1] : [من الوافر]

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... وَقَصَّرَ مُبْتَغُوهَا عَنْ مَدَاهَا

وَضَاقَتْ أَذْرُعُ الْمُثْرِينَ عَنْهَا ... سَمَا أَوْسٌ إِلَيْهَا فَاحْتَوَاهَا

وقد مرَّ في المجلسينِ الثالثِ ، والحادي عشرَ شيٌ مِن حديثِ الشمَّاخِ .

[الشعر عند العرب غالي القيمة لا يوضع إلا عند من يستحقه]

ولقد كانَ الشعرُ غاليَ القيمَةِ عندَ العربِ ، لا تضعُهُ إلاَّ عندَ مَن يستحقُّهُ ، ولا تجودُ بالمدحِ منهُ إلاَّ عَن دافعٍ قويٍّ ، كَأَنْ لا تجدَ ما يقومُ بالمكافأةِ سواهُ علىٰ جلائِلِ الصنائعِ ، فقد أَحسنَ المعلَّىٰ إلى امرىءِ القيسِ حينَما أَجارَهُ مِنَ المنذرِ بنِ ماءِ السماءِ ؛ إذ طلبَهُ ليثأَرَ منهُ بأَخويهِ الذينَ قتلَهما بـ(ديرِ مَرينا) ، فلم يجدْ لمجازاتِهِ أكبرَ مِن أَن يمدحَ

---

(١) البيت من شواهد « الإيضاح في علوم البلاغة » ١٩٩ لبشر بن حازم .

رهطَهُ بقولِهِ [في « شرحِ ديوانِهِ » ٢٠٤] : [مِنَ الوافرِ]

أَقَـرَّ حَشَـا امْـرِئِ الْقَيْـسِ بْـنِ حِجْـرٍ   بَنُــو تَيْــمٍ مَصَــابِيــحُ الظَّــلاَمِ

ومِن نفوذِ الشعرِ إلى القلوبِ ، وسلطانِهِ على النفوسِ ، وسيرورتِهِ في البلادِ ، صارَ ذلكَ الوصفُ لقباً راسخاً لهم مِن ذلكَ اليومِ .

وقالَ أيضاً لسعدِ بنِ الضبابِ [في « شرحِ ديوانِهِ » ١٠٩] : [مِنَ الوافرِ]

سَـأَجْـزِيـكَ الَّـذِي دَافَعْـتَ عَنِّـي   وَمَـا يَجْـزِيـكَ عَنِّـي غَيْـرُ شُكْـرِي

فأفادَ أَنَّ شكرَهُ النهايَةُ في المجازاةِ ، والغايةُ التي لا فوقَها للمكافأةِ ، وكثيراً ما نجدُ الشاعرَ يشتكي تقصيرَ ممدوحِهِ بهِ ، وفي طيِّ ذلكَ الاعترافُ بدناءَةِ الهِمَّةِ ، وزمانَةِ المروءَةِ ، وإلاَّ . . فلو كانَ حرّاً . . لأكرمَ نفسَهُ وأدبَهُ عَنِ امتداحِ مَن لا يعرفُ مقاديرَ الكلامِ . إذن ، فلمْ يفعلْ بهِ الممدوحُ إلاَّ ما هوَ أهلٌ لهُ مِنَ الاحتقارِ ، والاطِّراحِ .

[وصية الحطيئة عند وفاته]

وفي خبرِ الحطيئةِ المشهورِ : أَنَّهُ قالَ وهوَ يجودُ بنفسِهِ[(١)] [كما في « الأغاني » ٢/١٨٩] : لا أجزَعُ علىٰ شيءٍ ، جَزَعِي علىٰ جيِّدِ المديحِ يوضَعُ فيمَن ليسَ لهُ بأهلٍ .

---

(١) لمَّا حضرَتِ الحطيئةَ الوفاةُ . . اجتمعَ إليهِ قومُهُ ، فقالوا : يا أبا مُلَيكَةَ ؛ أَوْصِ .
قالَ : ويلٌ للشِّعرِ مِنَ الرُّواةِ السُّوءِ . قالوا : أَوصِ يرحمُكَ اللهُ .
قالَ : مَنِ الذي يقولُ :

إِذَا أَنْبَـضَ الـرَّامُـونَ عَنْهَـا تَـرَنَّمَـتْ   تَـرَنُّـمَ ثَكْلَـىٰ أَوْجَعَتْهَـا الْجَنَـائِـزُ

قالوا : الشمَّاخُ . قالَ : أَبلغوا غطفانَ أنَّهُ أشعر العربِ .
قالوا : ويحكَ أهٰذهِ وصيَّةٌ ؟!
قالَ : أَبلغوا أهلَ ضابىءٍ أنَّهُ شاعرٌ حيثُ يقولُ :

لِكُـلِّ جَـدِيـدٍ لَـذَّةٌ غَيْـرَ أَنَّنِـي   وَجَـدْتُ جَـدِيـدَ الْمَـوْتِ غَيْـرَ لَـذِيـذِ

قالوا : اتَّقِ اللهَ ، ودَعْ عنكَ هٰذا . قالَ :

اَلشِّعْـرُ صَعْـبٌ وَطَـوِيـلٌ سُلَّمُـهْ   إِذَا ارْتَقَـىٰ فِيـهِ الَّـذِي لاَ يَعْلَمُـهْ
زَلَّـتْ بِـهِ إِلَـىٰ الْحَضِيـضِ قَـدَمُـهْ   يُـرِيـدُ أَنْ يُعْـرِبَـهُ فَيُعْجِمُـهْ

قيلَ : يا أبا مُلَيكَةَ . . أَلَكَ حاجةٌ ؟ قالَ : لا واللهِ ، ولكن أجزعُ على المديحِ الجيِّدِ يُمدَحُ بهِ مَن ليسَ لَهُ أهلاً .
قالوا : فَمن أشعرُ الناسِ ؟ فأومأَ إلىٰ فيهِ ، وقالَ : هٰذا الجُحَيْرُ إذا طَمِعَ .
قالوا : قُلْ : لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ . فقالَ :

قَـالَـتْ وَفِيهَـا حِيـدَةٌ وَذُعْـرُ   عَـوْذٌ بِـرَبِّـي مِنْكُـمْ وَحِجْـرُ

قيلَ لهُ : فما تقولُ في عبيدِكَ ؟ قالَ : هُم عبيدٌ قِنٌّ ما عاقَبَ الليلُ والنهارُ .
قيلَ : فأوصِ للفقراءِ بشيءٍ . قالَ : أُوصيهم بالإلحافِ في المسألَةِ ؛ فإنَّها تجارةٌ لا تبورُ ، واستُ المسؤولِ أضيقُ .
وتعاقَبَ القولُ مع الحطيئةِ إلىٰ أنْ قالوا : فهلْ لكَ شيءٌ تعهدُ فيهِ غيرَ هٰذا ؟ قالَ : تحملوني علىٰ أتانٍ ، وتتركوني راكبها حتَّىٰ أموتَ ؛ فإنَّ الكريمَ لا يموتُ علىٰ فراشِهِ ، والأتانُ مركبٌ لم يَمُتْ عليهِ كريمٌ قطُّ .
فحملوهُ علىٰ أتانٍ ، وجعلوا يذهبونَ بهِ ويجيؤونَ . . حتَّىٰ ماتَ وهوَ يقولُ :

لاَ أَحَـدٌ أَلْأَمُ مِـنْ حُطَيْئَـهْ   هَجَـا بَنِيـهِ وَهَجَـا الْمُـرَيْئَـهْ
مِـنْ لُـؤْمِـهِ مَـاتَ عَلَـىٰ فُـرَيْئَـهْ

انظر « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » (١/٣٢٣) .

وفي غيرِ موضعٍ مِن هـٰذهِ المجموعَةِ أَفضنا في مذمَّةِ الدناءَةِ ، ومعابَةِ التصنُّعِ ، ومقتِ الرياءِ ، وتقبيحِ التلوُّنِ ، وقد قالَ جلَّ ثناؤُهُ : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٤ـ٢٢٧] .

وقالَ بعضُ الشعراءِ [في « المستطرف » ٢/١٧] : [مِنَ البسيطِ]

لاَ يَكْـذِبُ الْمَـرْءُ إِلاَّ مِـنْ مَهَـانَتِـهِ ... أَوْ عَـادَةِ السُّـوءِ أَوْ مِـنْ قِلَّـةِ الْـوَرَعِ

ولمَّا انتهىٰ قارىءُ « الديوانِ » علينا إلىٰ هُنا . أَخذَهُ الحرانُ[1] ، واشتغلَ بالقِرانِ[2] ، وعسىٰ أن يعودَ عسىٰ ، وقديماً قيلَ : ذُبِحَ العلمُ علىٰ أفخاذِ النِّسا[3] ، فساقَ اللهُ الخيرَ إِليهِ ، وباركَ لَهُ ، وباركَ عليهِ ، وجمعَ لَهُ التَّهاني ، وبلَّغَهُ غاياتِ الأَماني ، وإِيَّانَا ، وأَولادَنا ، آمينَ ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيدِنا محمَّدٍ وعلىٰ آلهِ وصحبهِ وسلَّم .

* * *

(١) الحِران : يستعمل في الأصل للدواب إذا صعب انقيادها ، والمراد هنا : التقصير عن مسابقة غيره .

(٢) القِرانُ : التزويج ، كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتىٰ يومُ الجمعة . . قال للسيدة عائشة : « اليوم يوم تَبَعُّلٍ وقِرانٍ » أي : تزويج .

(٣) قال العجلوني في « كشف الخفاء » (١٣٣٢) ليس بحديث ، وفي معناه : ضاع العلم وهو من نحو كلام بشر الحافي .



خاتمة المجالس

[مبحث هام حول الشعر والشعراء والكلام في نقد الشعر]

كثيراً ما يجولُ البحثُ في المفاضلَةِ بينَ الشعرِ والشعراءِ ، فيذهبُ بي العجَبُ أَقصاهُ مِن إدلاءِ كلٍّ برَأْيِهِ ، ورجمِهِ بظنِّهِ ، وتعصُّبِهِ لهواهُ ، دونَ قَبَسٍ مِن هُدىً ، ولا بصيرَةٍ مِن علمٍ ، كأَنَّهم أَولُ مَن يتكلَّمُ في الفنِّ ، وكأَنْ لم تؤلَّفْ فيهِ الكتبُ ، وتُقرَّرِ المباحثُ ، ويَغترُّ بعضُهم بمَن يتلقَّىٰ علمَهُ عنِ الصحفِ ، ويستوردُهُ مِن أَطرافِ المجلاَّتِ ، ويجعلُ ذوقَهم ميزاناً ، وأَقوالَهم برهاناً ، والحالُ : أَنْ لا اجتهادَ معَ وجودِ النصِّ ، وقلَّما نجدُ بيتاً إلاَّ لنظرِ العلمِ فيهِ مجالٌ مِن سائرِ نواحيهِ ، فليزنْهُ بقواعدِ الفنِّ التي تطيشُها مثاقيلُ الذرِّ مَن يلمُّ بهِ ، وإلاَّ . . فليقفْ عندَ حدِّهِ ، وليربَعْ علىٰ ظَلْعِهِ ، وليتأَخَّرْ حيثُ أَخَّرهُ القدرُ ، ﴿ وَلَا نَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

ومِن أَكبرِ المحنَةِ في هٰذا العلمِ ادِّعاءُ الرقيعِ شأْنَ الرفيعِ ، وانتحالُ الضالعِ شأْوَ الضليعِ ، وإلاَّ . . فما قرَّرَهُ علماءُ المعاني والبيانِ والبديعِ لا يصحُّ أَن يُرجعَ إلاَّ إليهِ ، وأَن لا يعوَّلَ إلاَّ عليهِ .

وكانَت هٰذهِ العلومُ تسمَّىٰ صنعةَ الشعرِ ، وتسمَّىٰ نقدَ الشعرِ ، ونقدَ الكلامِ ، كلُّ ذلكَ يقالُ ، ثمَّ طرأَتْ لَها تلكَ الأَسماءُ ، كَما أَشارَ إليهِ ابنُ الأَنباريِّ ، والسكريُّ .

ثمَّ تمييزُ الكلامِ ، ووزنُهُ ، ومعرفَةُ سمينِهِ مِن غثِّهِ ، لا تكونُ إلاَّ بالتمرُّنِ علىٰ تلكَ القواعدِ ، وإدمانِ النظرِ إليها ، حتَّىٰ إذا وُضِعَ للنقدِ . . عرضَهُ الباحِثُ علىٰ نواميسِها ، وما لا تصلُهُ يصارُ فيهِ إلى الذوقِ .

وأَهلُ الذوقِ هُم أَهلُ الطباعِ السليمَةِ ، والأَفكارِ المستقيمَةِ ، والقرائحِ النقيَّةِ ، والأَفهامِ الذكيَّةِ ، ممَّن راضَ نفسَهُ علىٰ تلكَ العلومِ ، ومارسَ الخطابَةَ ، وداومَ الكتابَةَ ، وأَكثرَ السهَرَ ، وركبَ الضجَرَ ، وجَنىٰ على القلبِ والبصرِ ، في مزاولَةِ الكلامِ ، ومجاولَةِ الأَقلامِ ، ومحاورَةِ الأَعلامِ ، ومعالَجَةِ النثرِ والنظامِ ، فأولئكَ صيارفتُهُ ونقَّادُهُ ، وأُمراؤُهُ وأَسيادُهُ ، فهوَ إذن مثلُ الجمالِ :

مِنهُ : ما له قانونٌ خاصٌّ تشملُهُ العبارَةُ ، ويأتي عليهِ الضبطُ .

ومنهُ : ما لا يُعرَفُ إلاَّ بالذوقِ كالملاحَةِ ، فقد تتقاربُ الجاريتانِ وصفاً وجمالاً ، ثمَّ تُقوَّمُ هٰذهِ بأَلفٍ ، وتلكَ بأَلفينِ ، ولو سئِلَ الناقدُ البصيرُ عَن سببِ ذلكَ . . لم يقدِرْ على الإفصاحِ عنهُ ؛ لأَنَّ المعاني أَكثرُ مِنَ الأَلفاظِ ، غيرَ أَنَّهُ لا يُقبلُ ذلكَ إلاَّ ممَّن أَحاطَ بسائرِ صفاتِ الجمالِ المحدودَةِ ، وتلكَ الملكَةُ التي تحصُلُ لِمن مارسَ الفنونَ شبيهةٌ بالاستحسانِ ، وهوَ انقداحُ الدليلِ في نفسِ المجتهِدِ مِن دونِ أَن يجدَ عبارةً تستوفي كُنْهَ ما في خاطرِهِ منهُ .

ومعَ الاتفاقِ علىٰ أَنَّهُ لا يكونُ إلاَّ لمَن بلغَ درجَةَ الاجتهادِ ، فهم فيهِ على اختلافٍ ، تمنعُهُ الشافعيَّةُ ، وتقولُ بِهِ الحنفيَّةُ .

وكيفَما كانَ الأَمرُ ، فنقدُ الشعرِ درجَةٌ عاليَةٌ ، ومركبٌ ليسَ بالذلولِ ، ثمَّ نجدُ كلَّ غبيٍّ يضرِبُ فيهِ بسهمٍ ، ويتهجَّمُ

عليهِ بلا فهمٍ ، وذلكَ مِن غيرِ الحضارمَةِ أَعجبُ ، أَمَّا هُم . . فليسَ مِنهم بغريبٍ ؛ لأَنَّهُ ليسَ بأَكبرَ مِن تسوُّرِهم على الطبِّ ؛ إذ قلَّما يمرضُ بينَهم إنسانٌ إلاَّ وصفَ لَهُ كلُّ مَن يعودُهُ دواءً ، وكلَّفَهُ أَخذَهُ ، حتَّىٰ يقتلوهُ شاءَ أَم أَبىٰ .

وقَد سمعتُم ما قلناهُ في ردِّ كلامِ الغبيِّ الذي استهانَ بقدرِ اللفظِ ، وزَعَمَ أَنْ لا معوَّلَ إلاَّ على المعاني ، مِن أَنَّ الكلامَ مفروغٌ منهُ ، وأَنَّ أَوَّلَ مسأَلةٍ في الفنِّ هيَ أَنَّ الفصاحَةَ خاصَّةٌ بالأَلفاظِ ، وأَنَّ البلاغَةَ مطابَقَةُ الكلامِ لمقتضى الحالِ معَ الفصاحَةِ ، هـٰذهِ هيَ أَولُ قدمٍ يضعُها الطالبُ في طريقِ هـٰذا العلمِ ، وكيفَ يخوضُ في غوامضِهِ مَن لَم يعرِفْ مبادئَهُ بعدُ ؟! إنَّ هـٰذا لشيءٌ عجابٌ!

وجلُّ معوَّلِ أَهلِ هـٰذا الشأْنِ على اللفظِ ، أَكثرَ منهُ على المعنىٰ ، أَلا ترىٰ أَنَّكَ تسمعُ مِن حينٍ إلىٰ آخرَ قولَ العامَّةِ : فلانٌ وكيلُ آدمَ علىٰ عيالِهِ، فلا تجدُ لَها روعَةً، ولا تلقي لَها بالاً؟ ولمَّا قالَ عليُّ بنُ جبلَةَ [في « ديوانِهِ » ٩٢] : [مِنَ الوافرِ]

تَكَفَّلَ سَاكِنَ الدُّنْيَا حُمَيْدٌ ... فَقَدْ أَضْحَتْ لَـهُ الدُّنْيَا عِيَالاَ

كَأَنَّ أَبَـاهُ آدَمَ كَـانَ أَوْصَـىٰ ... إلَيْـهِ أَنْ يَعُـولَهُـمُ فَعَـالاَ

. . طنطَنَ لَهُ أَهلُ الأَدبِ ، وقالوا إنَّهُ المعنى الذي كانَتِ الشعراءُ تحومُ حولَهُ ، ولم تقدِرْ عليهِ ، علىٰ أَنَّ يزيدَ بنَ مفرِّغٍ قد قالَ قبلَهُ يمدحُ مروانَ [في « ديوانِهِ » ١٨٢] : [مِنَ الكاملِ]

وَأَقَمْتُـمُ سُـوقَ الثَّنَـاءِ وَلَـمْ تَكُـنْ ... سُـوقُ الثَّنَـاءِ تُقَـامُ فِـي الأَسْـوَاقِ

فَكَـأَنَّمَـا جَعَـلَ الإِلَـٰهُ إِلَيْكُـمُ ... قَبْـضَ النُّفُـوسِ وَقِسْمَـةَ الأَرْزَاقِ

وقالَ بعضُ العربِ [في « ديوان الحماسة » ١/٨٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

كَـأَنَّ أَبِـي أَوْصَـىٰ بِكُـمْ أَنْ أَضُمَّكُـمْ ... إِلَـيَّ وَأُوجِـي عَنْكُـمُ كُـلَّ ظَـالِـمِ[1]

وما في شيءٍ مِن هـٰذا زائدٌ علىٰ ما تقولُهُ العامَّةُ ، سوىٰ روعَةِ اللفظِ ، وحسنِ الشارَةِ ، وجمالِ الديباجَةِ ، وفصاحَةِ التركيبِ ، ولَئِنْ قيلَ : إنَّها لَم تتداولْهُ العامَّةُ إلاَّ بعدَ أَن حصَّلَهُ لَهمُ ابنُ جبلَةَ ، وأَلقاهُ إلى الساحِلِ . . قُلنا مستحيلٌ ؛ لأَنَّهم لا يعرفونَ ابنَ جبلَةَ ، ولا من لفَّهُ ، ولا يسمعونَ مِمَّنْ يعرفُهم ، وإنَّما أَلقتْهُ إليهمُ الطبيعَةُ التي أَلقتهُ عليهِ .

وقد قالَ شاعرُ المعرَّةِ : [مِنَ الوافرِ]

ضَـرِيبُـكَ فِـي بَنِـي الدُّنْيَـا كَثِيـرُ ... وَعَـزَّ اللهُ رَبُّـكَ مِـنْ ضَـرِيـبِ

وَمَـا الْعُلَمَـاءُ وَالْجُهَـلاَءُ إِلاَّ ... قَـرِيـبٌ مِـنْ قَـرِيـبٍ مِـنْ قَـرِيـبِ

ومعَ ذلكَ فهناكَ أَمثلَةٌ أُخرىٰ ، مِنها : أَنَّ قولَ شوقي : [مِنَ الخفيفِ]

نَظْـرَةٌ فَـابْتِسَـامَـةٌ فَسَـلاَمٌ ... فَكَـلاَمٌ فَمَـوْعِـدٌ فَلِقَـاءُ

معدودٌ مِن محاسنِهِ ، وما فيهِ زائدٌ علىٰ ما فعلَهُ زنجيٌّ وُكِّلَ بحراسَةِ بستانٍ ، فسلَّمَ عليهِ إنسانٌ ، فلَم يردَّ ، فشكاهُ إلىٰ مولاهُ ، فعاتبَهُ ، فقالَ لهُ : إنَّ السلامَ يُفضي إلى الكلامِ ، والكلامَ يفضي إلى الملامِ ، والملامَ يُفضي إلىٰ بطيخَةٍ ، فإن شئْتَ أَن أُقسِّمَ لكَ بطاطيخَ بستانِكَ . . رَدَدْتُ علىٰ مَن سلَّمَ عليَّ ، وإلاَّ . . فلا .

---

(١) أي ادفع وأنحّي .

وسَمِعْتُ مرَّةً عجوزاً تصفُ بضاضَةَ فتاةٍ ، وتقولُ : لَو أَصابَتْها نارٌ . . لانطفأَتْ مِن ماءِ وجهِهَا . بينَما أَهلُ المغربِ يرقُصونَ طرباً ، ويحجلونَ عجباً ، مِن قولِ شاعرِهِم [ابن حمديس في « المثل السائر » ١/ ٣٢١] : [مِنَ الكاملِ]

أَضْـرَمْـتِ قَلْبِـي فَـارْتَمَـىٰ بِشَـرَارَةٍ وَقَعَـتْ بِخَـدِّكِ فَـانْطَفَـتْ مِـنْ مَـائِـهِ

وهوَ معَ ذلكَ مِن قولِ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانِهِ » ١/ ٢٤] : [مِنَ الكاملِ]

وَضِيَـاءُ وَجْـهٍ لَـوْ تَـأَمَّلَـهُ امْـرُؤٌ صَـادِي الْجَـوَانِـحِ لارْتَـوَىٰ مِـنْ مَـائِـهِ

فهلْ تجدُ في شيءٍ مِنْهما زائداً علىٰ كلامِ العجوزِ ؟ لَولا شدَّةُ المتنِ ، وقوَّةُ الأَسرِ ، وجمالُ التَّأليفِ ، وروعَةُ الترصيفِ ، والشواهدُ علىٰ مثلِهِ كثيرَةٌ .

وقد ذكرنا مرَّةً : أَنَّ أَبا تمَّامٍ لم يأْخُذِ الْقِسمَ الأَخيرَ مِن ثاني البيتينِ الآتيينِ ، علىٰ ما سبقَ فيهِ أَوائِلَ المجلِسِ الخامسِ . . إلاَّ عَن لسانِ سائِلٍ ، وهُما [في « ديوانه » ١/ ١٤٨ـ١٤٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

يَـرَىٰ أَقْبَـحَ الأَشْيَـاءِ أَوْبَـةَ آمِـلٍ كَسَتْـهُ يَـدُ الْمَـأْمُـولِ حُلَّـةَ خَـائِـبِ
وَأَحْسَـنُ مِـنْ نَـوْرٍ يُفَتِّحُـهُ الصَّبَـا بَيَـاضُ الْعَطَـايَـا فِـي سَـوَادِ الْمَـوَاهِـبِ

وإِنْ تَعَجَّبْتَ . . فاعجَبْ مِمَّنْ سوَّلَ لهُ الهوىٰ ، واستخفَّهُ الجهلُ ، وذهبَ بِهِ التعصُّبُ الناشىءُ عَن مجرَّدِ التقليدِ إِلىٰ غايَةٍ مطوَّحَةٍ مِن الغرورِ ، بالقصيدَةِ المستهلَّةِ بهٰذا : [مِنْ مجزوءِ الرَّمَلِ]

حَـفَّ كَـأْسَهَـا الْحَبَـبُ فَهْـيَ فِضَّـةٌ ذَهَـبُ

وقد قُلنا : إِنَّهُ بيتٌ تافِهٌ ، طلعَتْ بِهِ القصيدَةُ كاسِفَةً ، وحسبُكَ مِنَ الانتقادِ عليهِ مخالفتُهُ للقواعِدِ العربيَّةِ ؛ إِذ لا يجوزُ تركُ العطفِ في الخبرِ إِذا تعدَّدَ صاحبُهُ ، **ولو حُكْماً** كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ ﴾ [الحديد : ٢٠] ، **بخلافِ ما تعدَّدَ لفظاً فقط** ، بأَنْ كانَ لا يصحُّ الاقتصارُ علىٰ بعضِهِ ، فإِنَّ العطفَ يمتنِعُ فيهِ ، كـ (الرمانُ حلوٌ حامِضٌ) وهٰذا البيتُ إِنَّما هوَ مِن الأَوَّلِ .

ثمَّ إِنَّهُ معنىً مرميٌّ في مدارجِ الطُّرقِ ، ممتهَنٌ علىٰ أَلسنَةِ الشعراءِ إِلىٰ حدِّ الابتذالِ ، وقلَّ مَن وصفَ الراحَ إِلاَّ جاءَ في تشبيهِ الفقاقيعِ بما هوَ خيرٌ منهُ ، قالَ المتلمِّسُ [في « ديوانه » ٨٠] : [مِنَ الوافرِ]

عُقَـارٌ عُتِّقَـتْ فِـي الـدَّنِّ حَتَّـىٰ كَـأَنَّ حَبَـابَهَـا حَـدَقُ الْجَـرَادِ[1]

وقالَ أَبو نُواسٍ [في « ديوانه » ٥٢٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

بَنَيْنَـا عَلَـىٰ كِسْـرَىٰ سَمَـاءَ مُـدَامَـةٍ مُكَلَّلَـةً حَـافَـاتُهَـا بِنُجُـومِ[2]

وقالَ [في « ديوانِهِ » ٥٧] : [مِنَ البسيطِ]

كَـأَنَّ صُغْـرَىٰ وَكُبْـرَىٰ مِـنْ فَـوَاقِعِهَـا حَصْبَـاءُ دُرٍّ عَلَـىٰ أَرْضٍ مِـنَ الـذَّهَـبِ

---

(١) **العُقارُ** : الخمرُ .

(٢) **مكللةٌ** : محفوفةٌ ومحاطةٌ . **النجومُ** : المرادُ بها الحببُ ، أَي الفقاقيعُ التي تعلو الكأْسَ .

وقالَ ابنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٤/ ١٦٥٥] : [مِنَ المنسرحِ]

لَهَـا صَـرِيـحٌ كَـأَنَّـهُ ذَهَـبٌ وَرَغْـوَةٌ كَـالَّـلآلِـي الْفِلَـقِ

وقالَ الأَوَّلُ : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا سَحَّهَـا السَّـاقِـي حَسِبْـتَ حُبَـابَهَـا عُيُونَ الـدُّبَىٰ مِـنْ تَحْـتِ أَجْنِحَـةِ النَّحلِ[1]

وقالَ ابنُ المعتزِّ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٨٩] : [مِنَ الطَّويلِ]

خَلِيلَـيَّ قَـدْ طَـابَ الشَّـرَابُ الْمُبَـرَّدُ وَقَـدْ عُـدْتُ بَعْـدَ النُّسْـكِ وَالْعَـوْدُ أَحْمَـدُ

فَهَـاتِ عُقَـاراً مِـنْ قَمِيـصِ زُجَاجَـةٍ كَيَـاقُـوتَـةٍ فِـي دُرَّةٍ تَتَـوَقَّـدُ

يَصُـوغُ عَلَيْهَـا الْمَـاءُ شُبَّـاكَ فِضَّـةٍ لَـهُ حَلَـقٌ بِيـضٌ تُحَـلُّ وَتُعْقَـدُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٨٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَنَـارٍ قَـدَحْنَـاهَـا سِـرَاعـاً بِسَحْـرَةٍ مَتَـىٰ مَـا يُـرَقْ مَـاءٌ عَلَيْهَـا تَـوَقَّـدِ

يَجُـولُ حُبَـابُ الْمَـاءِ فِـي جَنَبَـاتِهَـا كَمَـا جَـالَ دَمْـعٌ فَـوْقَ خَـدٍّ مُـوَرَّدِ

وقالَ [آخرُ في « المستطرف » ٢/ ٤١٥] : [مِنَ البسيطِ]

كَـأَنَّ فِـي كَـأْسِهَـا وَالْمَـاءُ يَقْـرَعُهَـا أَكَـارِعَ النَّمْـلِ أَوْ نَقْـشَ الْخَـوَاتِيـمِ

وقالَ ابنُ وَكيعٍ [في « المستطرف » ٢/ ٤١٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَحَمْـرَاءَ مِـنْ مَـاءِ الْكُـرُومِ كَـأَنَّهَـا فِـرَاقُ عَـدُوٍّ أَوْ لِقَـاءُ صَـدِيـقِ

كَـأَنَّ الْحُبَـابَ الْمُسْتَـدِيـرَ بِطَـوْقِهَـا كَـوَاكِـبُ دُرٍّ فِـي سَمَـاءِ عَقِيـقِ

وقالَ الآخرُ : [مِنَ المديدِ]

وَاكْتَسَـتْ مِـنْ فِضَّـةٍ دُرَرَا خِلْتَهَـا مِـنْ تَحْتِهَـا ذَهَبَـا

كَكُمَيْـتِ اللَّـوْنِ قَلَّـدَهَـا فَـارِسٌ مِـنْ لُـؤْلُـؤٍ حَبَبَـا

وقالَ أبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ١/ ٧] : [مِنَ الكاملِ]

وَفَـوَاقِـعٌ مِثْـلُ الـدُّمُـوعِ تَـرَدَّدَتْ فِـي صَحْـنِ خَـدِّ الْكَـاعِـبِ الْحَسْنَـاءِ

وإِنَّهُ لَمِن أَكبرِ العارِ أَن يكونَ مثلُ هٰذا البيتِ حصيلَةَ استقراءِ الأَشعارِ الثمينَةِ ، والتشبيهاتِ السمينَةِ ، فما للجهلاءِ والتمييز بينَ طبقاتِ الشعراءِ ، وترتيبِ درجاتِهم ، وتعريفِ طبقاتِهم ، هيهاتَ . . لَقد حَنَّ قِدْحٌ ليسَ مِنها .

وللهِ درُّ المعريِّ في قولِهِ [في « سقطِ الزندِ » ٢٢٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمُـذْ قَـالَ إِنَّ ابْـنَ اللَّئِيمَـةِ شَـاعِـرٌ أُولُـو الْجَهْـلِ مَـاتَ الشِّعْـرُ وَالشُّعَـرَاءُ

أَلم يعرفوا أَنَّ الحكم بالشيءِ فرعُ تصوُّرِهِ ؟ فهَل حقَّقوا تلكَ المعارفَ ، وتفيَّئُوا ظلالَها الوارفَ ؟ أَم يَجرونَ كما يَجري

(١) الدُّبىٰ : الجرادُ .

في الديماسِ السيلُ ، ويَخبطونَ كَما تخبطُ العشواءُ بالليلِ ، وقد قالوا : إنَّ الشعرَ كالبحرِ ، أَهونُ ما يكونُ على الجاهِلِ ، أَهولُ ما يكونُ على العالِمِ .

وقيلَ للمفضَّلِ الضبيِّ [في « صبح الأعشىٰ » ٢/ ٣٤٥] : لِمَ لا تقولُ الشعرَ ، وأَنتَ أَعلَمُ الناسِ بهِ ؟ قالَ : عِلمي بهِ هوَ الذي يمنعُني مِن قولِهِ .

ثمَّ إِنَّ لِكُلِّ لفظَةٍ خاصَّةً تُعرفُ بِها حسناً وقبحاً ، ثقلاً وقَبولاً ، ومَن ذا الذي لا يفرِّقُ بينَ الإِسفنْطِ[1] والمُدامِ ، والخنشليلِ[2] والسيفِ ؟ وما أَشبهَ ذلكَ ـ وكلُّهُ مِن الأَوليَّاتِ التي لَم يحوجْ إِلى التنبيهِ إِليها إِلاَّ جَهلُ المتأَخِّرينَ المُرَكَّبُ .

ومرقاةُ البلاغَةِ التي تزلُّ عَنها الفصحاءُ ، وَقَذَفاتُهُ التي تختلجُ دونَها البلغاءُ هيَ وضعُ كلِّ كلمةٍ في الموضِعِ الذي يليقُ بِها ، حتَّىٰ تجيءَ خفيفَةً على اللسانِ ، مثالُهُ قولُهُ جلَّ شأنُهُ : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف : ١٣٣] .

فَفي لفظتَي : (الضفادِعِ) و (القُمَّلِ) ما لا ينكرُ مِن الاستثقالِ ، لكنَّهُما لَمَّا توسَّطَتا الأَلفاظَ السهلَةَ المقبولَةَ . . حَسُنَ موقعُهُما ، وأَشرقَ عليهِما ضوءُ الجمالِ ، وإِلاَّ . . فقد كَرهوا قولَ الفرزدَقِ [في «صبح الأعشىٰ» ٢/ ٢٨٤] : [مِنَ الكاملِ]

مِـنْ عِـزِّهِ احْتَجَـرَتْ كُلَيْـبٌ عِنْـدَهُ ... زُمَـراً كَـأَنَّهُـمُ لَـدَيْـهِ الْقُمَّـلُ

والقرآنُ مِن فاتِحتِهِ إِلىٰ خاتمتِهِ مثالُ تَمَكُّنِ الأَلفاظِ مِن مواقِعِها ، لا يمكِنُ فيهِ تحويرٌ قطُّ ، ولا يحتاجُ إِلىٰ تمثيلٍ ، وهوَ كلُّهُ مِن هـٰذا النَّمَطِ ، إِلاَّ أَنَّهُ قد يتجلَّىٰ أَثَرُ ذلكَ في بعضِ نقطٍ ، وهوَ الأَمرُ يُتَظنَّىٰ نيلُهُ ، فَلا يدرَكُ ذيلُهُ : [مِنَ الطَّويلِ]

تَـراهُ عُيُـونُ النَّـاظِـريـنَ إِذَا بَـدَا ... قَـريبـاً ، وَلاَ يَسْطِيعُـهُ مَـنْ يَـرُوقُـهُ

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١١١] : [مِنَ البسيطِ]

كَـأَنَّـهُ الشَّمْـسُ يُعْيِـي كَـفَّ قَـابِضِـهِ ... شُعَـاعُهَـا وَيَـرَاهُ الطَّـرْفُ مُقْتَـرِبَـا

وممَّا يدلُّ لصحَّةِ ما نقولُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس : ٢٤ـ٣٢] .

وقولُهُ جلَّ ذكرُهُ : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام : ٨٤ـ٨٦] .

فلَم يخرُجِ الأُسلوبُ فيها عَنِ التعلِّي والتدلِّي . . إِلاَّ لينساقَ علىٰ أَعذَبِ ما يكونُ ، وأَخفِّهِ على الأَلسنَةِ .

وقولُهُ تبارَكَ اسمُهُ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ

---

(١) **الإسفنط** : المطيب من عصير العنب ، أو ضرب من الأشربة ، أو أعلى الخمر ؛ لأن الدنان تسفطتها أي تشربت أكثرها .

(٢) **الخنشليل** : الجيِّدُ الضربِ بالسيفِ .

﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء : ٢٣] ، فإنَّهُ لَم يلتفتْ عَنِ الخطابِ في بناتِ الأخِ والأُختِ ، ولَم يخالِف بينَ إسنادِ الرَّضاعِ للأُمَّهاتِ والأخواتِ . . إلاَّ لذلكَ ، واللهُ أعلَمُ بحكمتِهِ ، إلاَّ أنَّ هٰذا هوَ الذي ينقدِحُ بخاطرِ هٰذا المتطفِّلِ .

ويتَّصِلُ بهٰذا . . اختيارُ الألفاظِ ، ووضْعُ كلِّ شيءٍ فيما لا يتجافىٰ عنهُ ، أرأيتَ لَو أنَّ اللهَ جلَّ شأنُهُ أبدلَ العَسَلَ مِن قولِهِ : ﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ [محمد : ١٥] بالشهْدِ لانتقصَتِ العذوبَةُ الحاصلَةُ مِن تحريكِ الوسَطِ في العَسلِ ؟

وتدبَّرْ قولَهُ : ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ﴾ [الأعراف : ٤٠] .

وقولَهُ : ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ [يوسف : ٧٢] ، فإنَّ كُلاًّ مِنَ الجمَلِ في الأُولىٰ ، والبعيرِ في الثانيَةِ ، واقعٌ في موضعِهِ الذي يطلبُهُ ، ولا يصلُحُ علىٰ سواهُ ، وكم رأيناهُ يتجاوزُ ما يستثقَلُ مِن اللفظِ إلى الكنايَةِ عنهُ كقولِهِ : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وما ذاكَ ـ والعلمُ لهُ جلَّ شأنُهُ ـ إلاَّ لكراهةِ استعمالِ الأرضِ مجموعَةً .

ولا يبعُدُ أن يكونَ منهُ قولُهُ : ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت : ١٤] .

وقولُهُ : ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ [الكهف : ٧٩] ، أمَّا الأُولىٰ : فواضحٌ ، وأمَّا الثانيَةُ : فلِمَا في همزَةِ القطعِ في لفظَةِ الأَمامِ لَو جعلَها مكانَها مِنَ الاستثقالِ .

فأفضلُ أنواعِ الإعجازِ فيما أرىٰ خفَّةُ الذكرِ الحكيمِ علىٰ أسَلَةِ[1] اللِّسانِ ، بحيثُ يتمكَّنُ القارىءُ أن يتلوَ مِنهُ ما لا يمكنُهُ أن يقرأَ مِن غيرِهِ في الزمَنِ الواحدِ ، باعتبارِ الحروفِ ، وهٰذا أمرٌ لَمْ أُجرِّبْهُ ، ولَم أرَ مَن نبَّهَ عليهِ ، غيرَ أنِّي أعتقِدُهُ اعتقاداً جازماً يسعُني أنْ أستشهدَ عليهِ بقولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر : ١٧] ، ولئِنْ توهَّمَ متوهِّمٌ أنَّهُ ليسَ إلاَّ نتيجةَ صقالِ الألسنِ ، وكثرَةِ التلاوَةِ . . فليجرِّبْ فيهِ وفيما يمرُّ فيهِ مِنْ غيرِهِ مرورَ السهمِ مِنَ المحفوظاتِ ، فسيصِحُّ لَهُ إن شاءَ اللهُ ما نقولُ ، والكلامُ في أمثالِهِ يطولُ ، وكلُّهُ مفروغٌ منهُ ، مقرَّرٌ في مواضعِهِ ، لم نَجِئْ بشيءٍ منهُ ، غيرَ ما ذكرناهُ مِن عندِنا ، ولَم نخترعْهُ من قبلِ أنفسِنا ، ولكنَّهُ طريقٌ واضِحٌ ، ومهيعٌ واسعٌ ، لَم نحتَجْ للإشارةِ إليهِ إلاَّ للكفِّ مِن جماحِ هؤلاءِ الذينَ يحسبونَ أنَّهم في العلالي ، ولَم يدخلوا بعدُ في الدهليزِ .

وأقولُ لكَ واحدةً يصحُّ أن تعملَ بِها في نفسِكَ دونَ أن تقايسَ بِها سواكَ ، وهيَ : أنَّهُ إذا هزَّ الكلامُ شعورَكَ ، ونفخَ دماغَكَ ، وهيَّجَ خواطرَكَ ، وحرَّكَ ساكنَكَ ، وأظهرَ كامنَكَ ، ودخلْتَ لسماعِهِ بلونٍ ، وخرجْتَ بلونٍ آخرَ مِنَ الانفعالِ منهُ ، والتأثُّرِ بهِ . . فاعرفْ أنَّهُ كلامٌ جزلٌ ، وجِدٌّ ليسَ بالهزلِ ، ولا بأسَ أن تقتنِعَ بالطلِّ مِن هٰذا إن أعوزَكَ الوابلُ ، مِن غيرِ أن تتخذَهُ حكماً ، أو تقطَعَ بهِ جزماً ، فدونَ ذلكَ خرطُ القتادِ مِن سلامَةِ الفطرَةِ ، وثقوبِ الفهمِ ، وصفاءِ الطبعِ ، وأصالَةِ السليقَةِ ، أو ما ذكرنا مِنَ استكمالِ الأدواتِ بكثرَةِ المجالِ ، والأخذِ عَنِ الرجالِ ، وممارسَةِ الصناعَةِ ، ومحاورَةِ الجماعَةِ ، ثم لا بدَّ معَ تلكَ المتاعِبِ أن يتاحَ لكَ رفيقٌ يقالُ لَهُ التوفيقُ ، وإلاَّ . . ضللتَ عَن سواءِ الطريقِ ، كَما أشارَ إلىٰ مثلِهِ بديعُ الزمانِ [في « مقاماته »] في مقالٍ لَهُ أغلىٰ مِن عقدِ الجمانِ .

* * *

(١) أسَلَةُ اللسان : طرفه .



تنبيهات

[المعاني الظاهرة مشاع بين الناس ولا يقضىٰ فيها لأحد بالسبق]

أَحدُهَا : كثيراً ما نقولُ في هـٰذهِ المجالسِ : هـٰذا مأخوذٌ مِن هـٰذا ، وهـٰذا ناظرٌ إلىٰ هـٰذا ، وبعضُهُ لا يمكنُ إطلاقُ السرقَةِ عليهِ ؛ لأَنَّ المعانيَ الظاهرةَ تعتورها الأفهامُ ، وتتواردُ عَلَيها الخواطرُ ، فهيَ مشاعَةٌ بينَ الناسِ ، كالتشبيهِ بالبحرِ ، والقمرِ ، والأسدِ ، وما في حكمِها ، مِن المختَرَعَةِ في البَدْءِ ، المنتشرَةِ فيما بعدُ ، كقولِ قيسِ بنِ الأَسلَتِ أَوِ ابنِ الخطيمِ [في « ديوانِ ابن الخطيمِ » ١٦] : [مِنَ الكاملِ]

مَـا تَمْنَعِـي يَقْظَـىٰ فَقَـدْ تُـؤْتِينَـهُ ... فِـي النَّـوْمِ غَيْـرَ مُصَـرَّدٍ مَحْسُـوبِ

وقولِ المعرِّيِّ : [مِنَ الطَّويلِ]

تُسِـيءُ بِنَـا يَقْظَـىٰ فَـأَمَّـا إِذَا سَـرَتْ ... رُقَـاداً فَـإِحْسَـانٌ إِلَيْنَـا وَإِجْمَـالُ

وقولِ مهيارِ [في « ديوانه » ٤/ ١٨٤] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَهَبْكُـمْ مَنَعْتُـمْ أَنْ أَرَاهَـا بِنَـاظِـرِي ... فَهَـلْ تَمْنَعُـونَ الْقَلْـبَ أَنْ يَتَمَنَّـاهَـا

وقولِ عبدَةَ بنِ الطيِّبِ في رثاءِ قيسِ بنِ عاصمٍ [في « ديوانهِ » ١٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَـا كَـانَ قَيْـسٌ هُلْكُـهُ هُلْـكُ وَاحِـدٍ ... وَلَكِنَّـهُ بُنْيَـانُ قَـوْمٍ تَهَـدَّمَـا

وقولِ ابنِ المقفَّعِ [في « ديوان الحماسة » ١/ ٣٥٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَقَـدْ جَـرَّ نَفْعـاً فَقْـدُنَـا لَـكَ أَنَّنَـا ... أَمِنَّـا عَلَـىٰ كُـلِّ الـرَّزَايَـا مِـنَ الْجَـزَعْ

وما جرىٰ هـٰذا المجرىٰ ممَّا تجاذبتْهُ الأيدي ، وتعاورتْهُ الأفكارُ .

[المتنبي بحق . . يشبه عصا سيدنا موسىٰ . . يلقف كل ما يأتي به الشعراء فيجيد أحياناً ويسيء أخرىٰ]

ثانيها : أَشرنا غيرَ مرَّةٍ إلىٰ أَنَّ الناظِمَ لا يدَعُ لأَحدٍ شاذَّةً ولا فاذَّةً إلاَّ اطَّرَدَها ، وكثيراً ما يَسْتَسْمِنُ الورمَ ، كما مثَّلنا **بقولِهِ** : [في « العُكبريِّ » ١/ ٣٧٨] [مِنَ الطَّويلِ]

[يَكَـادُ يُصِيـبُ الشَّـيْءَ مِـنْ قَبْـلِ رَمْيِـهِ] ... وَيُمْكِنُـهُ فِـي سَهْمِـهِ الْمُـرْسَـلِ الـرَّدُّ

ويَستحسنُ القبيحَ كما في **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٥٣] : [مِنَ الوافرِ]

أُحِبُّـكِ أَوْ يَقُـولُـوا جَـرَّ نَمْـلٌ ... ثَبِيـراً وَابْـنُ إِبْـرَاهِيـمَ رَيْعَـا

ولَم نجازفْ في شيءٍ مِن ذلكَ ، فكذلكَ كانَ الرجلُ ، غيرَ أَنَّهُ ـ والحقُّ يقالُ ـ كثيراً ما يعمَدُ إلىٰ ما رخصَ فيُغْلِيهِ ، وإلىٰ ما امتُهنَ فيُعْلِيهِ ، ويعيدُ لَهُ جِدَّتَهُ ، وينشرُ لَهُ رفاتَهُ ، ويبعثُهُ في خلقٍ جديدٍ ، أَبهىٰ مِن سابقِهِ ، أَلا ترىٰ إلى

المعنى الآتي ؟ فأَوَّلُ مَن وقعَ عليهِ فيما أَظنُّ الأَفوهُ الأُوديُّ ، حيثُ قالَ [في « ديوانهِ » ٧٧] : [مِنَ الرَّمَلِ]

وَتَــرَى الطَّيْــرَ عَلَــىٰ آثَــارِنَــا ... ثِقَــةً مِــنْ غَــزْوِنَــا أَنْ سَتُمَــارْ[١]

وقالَ نابغةُ ذبيانَ [في « ديوانهِ » ٥٧] : [مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا مَـا غَـزَا بِـالْجَيْـشِ حَلَّـقَ فَـوْقَـهُ ... عَصَـائِـبُ طَيْـرٍ تَهْتَـدِي بِعَصَـائِـبِ
جَـوَانِـحَ قَـدْ أَيْقَـنَّ أَنَّ قَبِيلَـهُ ... إِذَا مَـا الْتَقَـى الْجَمْعَـانِ أَوَّلُ غَـالِـبِ[٢]

وقالَ مسلمُ بنُ الوليدِ [في « ديوانهِ » ١٢] : [مِنَ البسيطِ]

قَـدْ عَـوَّدَ الطَّيْـرَ عَـادَاتٍ وَثِقْـنَ بِهَـا ... فَهُـنَّ يَتْبَعْنَـهُ فِـي كُـلِّ مُـرْتَحَـلِ

وقالَ أَبو نواسٍ [في « ديوانهِ » ٢٨٣] : [مِنَ المديدِ]

تَتَـأَيَّـا الطَّيْـرُ غَـزْوَتَـهُ ... ثِقَـةً بِـاللَّحْـمِ مِـنْ جُـزُرِهْ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٤٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَقَـدْ ظُلِّلَـتْ عِقْبَـانُ رَايَـاتِـهِ ضُحـىً ... بِعِقْبَـانِ طَيْـرٍ بِـالـدِّمَـاءِ نَـوَاهِـلِ
أَقَـامَـتْ مَـعَ الـرَّايَـاتِ حَتَّـىٰ كَـأَنَّهَـا ... مِـنَ الْجَيْـشِ إِلاَّ أَنَّهَـا لَـمْ تُقَـاتِـلِ

ولَم يبقَ مِن شاعرٍ إِلاَّ أَفرغَهُ في قالَبٍ ، وأَدرجَهُ في مثالٍ ، حتَّىٰ أَذالُوهُ ، فلمَّا انتهىٰ إِلىٰ صاحبِنا . أَطلعَ يُوحَهُ[٣] ، وردَّ روحَهُ ، وأَذكىٰ ريَّاهُ ، وأَظهرَ محيَّاهُ ، **فقالَ** [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٧٩-٣٨٠] : [مِنَ الطَّويلِ]

يُفَـدِّي أَتَـمُّ الطَّيْـرِ عُمْـراً سِـلاَحَـهُ ... نُسُـورُ الْمَـلاَ أَحْـدَاثُهَـا وَالْقَشَـاعِـمُ[٤]
وَمَـا ضَـرَّهَـا خَلْـقٌ بِغَيْـرِ مَخَـالِـبٍ ... وَقَـدْ خُلِقَـتْ أَسْيَـافُـهُ وَالْقَـوَائِـمُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٣٨] : [مِنَ الطَّويلِ]

سَحَـابٌ مِـنَ الْعِقْبَـانِ يَـزْحَـفُ تَحْتَهَـا ... سَحَـابٌ إِذَا اسْتَسْقَـتْ سَقَتْهَـا صَـوَارِمُـهْ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١١٣-١١٤] : [مِنَ الكاملِ]

وَذِي لَجَـبٍ لاَ ذُو الْجَنَـاحِ أَمَـامَـهُ ... بِنَـاجٍ وَلاَ الْـوَحْـشُ الْمُثَـارُ بِسَـالِـمِ
تَمُـرُّ عَلَيْـهِ الشَّمْـسُ وَهْـيَ ضَعِيفَـةٌ ... تُطَـالِعُـهُ مِـنْ بَيْـنِ رِيـشِ الْقَشَـاعِـمِ
إِذَا ضَـوْءُهَـا لاَقَـىٰ مِـنَ الطَّيْـرِ فُـرْجَـةً ... تَـدَوَّرَ فَـوْقَ الْبَيْـضِ مِثْـلَ الـدَّرَاهِـمِ

وما كانَ لأَبي الطيِّبِ أن يموتَ بحسرةٍ على الإمارةِ وقد فتحَ هٰذي القلاعَ ، ووُفِّقَ لِهٰذا الإبداعِ ، وإِنِّي لكثيراً ما أَمرُّ

---

(١) **سَتُمارُ** : أي ستأتيها الميرةُ وهوَ الغذاءُ والطعامُ . .

(٢) **جوانحُ** : مائلةٌ في أَحدِ شقَّيها للوقوعِ ، ومنهُ قولهم : جنحَ الليلُ ، إذا مالَ .

(٣) يوح : اسمٌ مِن أَسماءِ الشمسِ .

(٤) **القشاعمُ** : النسورُ الطويلاتُ العمرِ ، ومنهُ سمِّيت المنيَّةُ (أمَّ قشعم) لطولِ عمرِها . **الملا** : وجهُ الأرضِ . **الأحداثُ** : الشابَّةُ ، **والمعنىٰ** : يَفدي أَطولُ الطيرِ عُمْراً سلاحَ سيفِ الدولَةِ ، وإِنَّما يفديهِ لوجودِ الجُثَثِ في وقائعِهِ ، والاستبشارِ بكثرةِ ملاحِمِه .

بهٰذهِ القصيدَةِ فيحدُثُ لي عندَ كلِّ مرَّةٍ مِن روعَةِ حسنِها ، ورونقِ جمالِها ، ما لَم أَجِدْهُ مِن قبلُ ، فسبحانَ المانحِ ، هٰذا واللهِ السحرُ الحلالُ ، والعذبُ الزلالُ ، والحديثُ الذي لا تزيدُهُ الإعادَةُ إلاَّ جِدَّةً ، ولا التكرارُ إلاَّ لذَّةً .

[اعتذار المؤلف إلى المتنبي إن كان قسا عليه واعترافه بالفضل له وذكر أمثلة من بدائعه]

ثالثُها : ربَّما انتقدنا عليهِ بعضَ قولِهِ بحدَّةٍ ، وحكَمنا عليهِ أحياناً بشدَّةٍ ، فَلا يذهبْ وهمُكَ أَنَّا نبخَسُهُ حقَّهُ ، ونهضِمُ عليهِ فضلَهُ ، وإنَّما هيَ حالَةٌ مِنَ الحالاتِ ، وجائِشَةٌ مِنَ الْجَوائِشِ ، يضطرُّنَا إليها غرورُهُ بنفسِهِ ، وإعجابُهُ بشعرِهِ ، وإعراضُهُ ـ كما يروىٰ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٣٨١] ـ عَن كلِّ نقدٍ يورَدُ عليهِ ، إلاَّ ما أَشارَ بهِ عليهِ سيفُ الدولَةِ مِن إبدالِ (الجيَفِ) بـ (الجثَثِ) مِن **قولِهِ** [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٣٨١] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَكَـانَ بِهَـا مِثْـلُ الْجُنُـونِ فَـأَصْبَحَـتْ ... وَمِـنْ جِيَـفِ الْقَتْلَـىٰ عَلَيْهَـا تَمَـائِـمُ

وقد جاءَ بأشياءَ ظاهرةِ النكارَةِ والقبحِ ، مثلِ **قولِهِ** [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٨٣] : [مِنَ الخفيفِ]

وَمِـنَ النَّـاسِ مَـنْ تَجُـوزُ إِلَيْهِـمُ ... شُعَـرَاءٌ كَـأَنَّهَـا الْخَـازِبَـازِ[1]

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٤٠] : [مِنَ الكاملِ]

أَنَّـىٰ يَكُـونُ أَبَـا الْبَـرِيَّـةِ آدَمٌ ... وَأَبُـوكَ ـ وَالثَّقَلانِ أَنْتَ ـ مُحَمَّـدُ!

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٢٠٧] : [مِنَ الكاملِ]

خَلَـتِ الْبِـلادُ مِـنَ الْغَـزَالَـةِ لَيْلَهَـا ... فَـأَعَـاضَهَـاكَ اللهُ كَـيْ لاَ تَحْـزَنَـا[2]

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٢٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

وَمَلْمُـومَـةٌ سَيْفِيَّـةٌ رَبَعِيَّـةٌ ... يَصِيحُ الْحَصَىٰ فِيهَـا صِيَاحَ اللَّقَـالِـقِ[3]

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٨٥] : [مِنَ الطَّويلِ]

فَـلا يُبْـرَمُ الأَمْـرُ الَّـذِي هُـوَ حَـالِـلٌ ... وَلاَ يُحْلَـلُ الأَمْـرُ الَّـذِي هُـوَ مُبْـرِمُ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٢٥٨] : [مِنَ الكاملِ]

جَخَفَـتْ وَهُـمْ لاَ يَجْخَفُـونَ بِهَـا بِهِـمْ ... شِيَـمٌ عَلَـى الْحَسَـبِ الأَغَـرِّ دَلاَئِـلُ[4]

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٢٢٤] : [مِنَ البسيطِ]

لَـوِ اسْتَطَعْـتُ رَكِبْـتُ النَّـاسَ كُلَّهُـمُ ... إِلَـىٰ سَعِيـدِ بْـنِ عَبْـدِ اللهِ بُعْـرَانَـا[5]

فهٰذا ـ واللهِ ـ كَما قالَ هوَ نفسُهُ : القولُ الهُراء ، والشعْرُ الذي لا يتقدَّمُ إلاَّ إلى الوراءِ ، ثم إنَّها قلَّما تتساوىٰ

---

(١) **الخازباز** : حكايةُ صوتِ الذبابِ .
(٢) **الغزالَةُ** : الشمسُ .
(٣) **الملمومةُ** : الكتيبةُ المجتمعةُ . **سيفيَّةٌ** : منسوبةٌ إلىٰ سيفِ الدولةِ . **رَبَعيَّةٌ** : منسوبةٌ إلىٰ ربيعةَ ، وهيَ قبيلةُ سيفِ الدولةِ .
(٤) **الجخفُ** : الفخرُ . وفي البيتِ تقديمٌ وتأخيرٌ ، إِذِ الأَصلُ : جَخَفَتْ بهم شِيَمٌ وفخرَتْ ، وهُم لا يفخرونَ بها . وهو من شواهد علم البلاغة .
(٥) **البُعرانُ** : جمعُ بعيرٍ .

أغراضُهُ ، وتتقاطَرُ فصولُهُ ، ويطَّرِدُ نظامُهُ ، إلاَّ فيما كانَ مِن وصفِ الحروبِ ، وبعضِ قصائِدَ كالتي **أَوَّلُها** [في « العُكبَريِّ » ١/٧٥] : [مِنَ الوافرِ]

بِغَيْــرِكَ رَاعِيــاً عَبِــثَ الــذِّئَــابُ ... وَغَيْــرَكَ صَــارِمــاً ثَلَــمَ الضِّــرَابُ(١)

والتي أَوَّلُها [في « العُكبَريِّ » ٢/١٠٠] : [مِنَ الوافرِ]

طِــوَالُ قَنــاً ، تُطَــاعِنُهَــا قِصَــارُ ... وَقَطْــرُكَ فِــي نَــدىً وَوَغــىً بِحَــارُ

وإلاَّ . . فإِنَّهُ بالأَغلبِ لا يكونُ إلاَّ مشتَّتَ السياقِ ، مبعثَرَ الكلامِ ، مفرَّقَ الأغراضِ ، قليلَ التشابُهِ ؛ ولِذا تجدُ في البيتِ لَهُ تتمثَّلُ بهِ وحدَهُ رواءً ورونقاً ، لا تجدُهُ فيهِ عندَما تنشدُهُ بينَ إخوانِهِ ، ولقلَّما سنحَ بذهني أَحدُ أَبياتِهِ السائِرَةِ في مناسبَةٍ أَصارَتْ إِليهِ . . إلاَّ نزلَ الرجلُ بأَقصىٰ منزلَةٍ مِنَ الإعظامِ في نفسي ، حتَّىٰ إذا حملَني الإكبارُ لَهُ على التزيُّدِ ، ورجعتُ إلى « **الديوانِ** » . . انحطَّ مِن عيني ـ بالأَغلبِ ـ انحطاطاً يتبيَّنُ بهِ البونُ البعيدُ ، والفرقُ الكبيرُ ، ولا أَراكَ إلاَّ توافقُني علىٰ هـٰذا ، فإِنَّهُ ملموسٌ باليدِ ، وهوَ مِن أَسرارِ قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] ، ثمَّ إن كانَ رَدِيئُهُ في الدركِ الأَسفلِ مِنَ الاتضاعِ . . فإِنَّ جيِّدَهُ في الأَوجِ الأَعلىٰ مِنَ الارتفاعِ ، وهل يقدِرُ أَحدٌ أَن يقولَ مثلَ **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ١/٧٨] : [مِنَ الوافرِ]

إِذَا مَــا سِــرْتَ فِــي آثَــارِ قَــوْمٍ ... تَخَــاذَلَــتِ الْجَمَــاجِــمُ وَالــرِّقَــابُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/١٠٤] : [مِنَ الوافرِ]

مَضَــوْا مُتَسَــابِقِــي الأَعْضَــاءِ فِيــهِ ... لأَرْؤُسِهِــمْ بِــأَرْجُلِهِــمْ عِثَــارُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٤/٢٣ـ٢٤] : [مِنَ البسيطِ]

صَــدَمْتَهُــمْ بِخَمِيــسٍ أَنْــتَ غُــرَّتُــهُ ... وَسَمْهَــرِيَّتُــهُ فِــي وَجْهِــهِ غَمَــمُ

فَكَــانَ أَثْبَــتَ مَــا فِيهِــمْ جُسُــومُهُــمُ ... يَسْقُطْــنَ حَــوْلَــكَ وَالأَرْوَاحُ تَنْهَــزِمُ

وقد ذكرَ الشارحُ جملةً صالحةً مِن بدائعِ شعرِهِ الذي بذَّ بِهِ الشعراءَ ، وتركَ الطوائِفَ مِن معاصريهِ ، ومَن بعدَهم ، ومَن قبلَهم منبوذينَ بالعراءِ ، وذلكَ عندَ شرحِ **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ١/١٦١] : [مِنَ البسيطِ]

أَزُورُهُــمْ وَسَــوَادُ اللَّيْــلِ يَشْفَــعُ لِــي ... وَأَنْثَنِــي وَبَيَــاضُ الصُّبْــحِ يُغْــرِي بِــي

فتُغنينــا الإحــالَــةُ عَــنِ الإطــالَــةِ(٢) ، وظنِّــي أَنَّ اللهَ لــم يــوفِّقــهُ لــذلــكَ الإبــداعِ ، الــذي شــاءَ بــهِ النــاسَ

---

(١) المعنىٰ : إذا كنتَ الحافظَ للرعيَّةِ لم يقدر عليهم أَحدٌ بضرٍّ ؛ لخوفهم منكَ ، وبغيركَ يعبثُ الذئابُ في حالِ رعيِهِ وسياستِهِ ، ويثلمُ الضرابُ غيرَكَ في حالِ قطعِهِ ، وإذا كنتَ أَنتَ الراعي لم يعبثِ الذئابُ بسوامِكَ ، وإذا كنتَ أَنتَ الضاربَ لم يثلمكَ الضربُ .

(٢) وإتماماً للفائدة نذكرُ الأَبياتَ التي أَشارَ إليها الشيخُ المؤلِّف ـ رحمه الله تعالىٰ ـ وهي قولُ الشارحِ :
قد أَجمعَ الحذَّاقُ بمعرفةِ الشِّعْرِ والنُّقَّادُ أَنَّ لأبي الطيبِ نوادرَ لم تأْتِ في شعرِ غيرِهِ ، وهيَ مِمَّا تخرقُ العقولَ ، منها في كافور :

فَجَــاءَت بِنَــا إِنسَــانَ عيــنِ زَمــانِــهِ ... وَخَلَّــتْ بَيَــاضــاً خَلْفَهــا وَمَــآقِيــاً

وما مُدِحَ أَسودُ بأَحسنَ من هـٰذا .
ومنها : =

=

فَــذِي الــدَّارُ أَخْــوَنُ مِــنْ مُــومِــسٍ وَأَخْـــدَعُ مِــــنْ كِفَّـــةِ الْحَـــابِـــلِ

ومنها :

إِنْ كَــانَ سَــرَّكُــمُ مَــا قَــالَ حَــاسِــدُنَــا فَمَـــا لِجُـــرْحٍ إِذَا أَرْضَــاكُـــمُ أَلَــمُ

ومنها :

أَرْجُـــو نَــدَاكَ وَلاَ أَخْشَـــى الْمِطَـــالَ بِـــهِ يَـــا مَــنْ إِذَا وَهَــبَ الــدُّنْيَــا فَقَــدْ بَخِــلاَ

وهـٰذا من أبلغ الوصف بالجود .

ومنها :

وَذَاكَ أَنَّ الْفُحُـــولَ الْبِيـــضَ عَـــاجِـــزَةٌ عَـــنِ الْجَمِيـــلِ فَكَيْـــفَ الْخِصْيَـــةُ السُّـــودُ

هـٰذا أشد ما هُجِيَ به أسود .

ومنها :

إِذَا مَـــا سِـــرْتَ فِـــي آثَـــارِ قَـــوْمٍ تَخَـــاذَلَـــتِ الْجَمَـــاجِـــمُ والـــرِّقَـــابُ

قال ابن نباتة : نحسن أن نقول ، ولكن مثل هـٰذا لا نقول .

ومنها :

إِذَا غَـــزَتْـــهُ أَعَـــادِيـــهِ بِمَسْـــأَلَـــةٍ فَقَـــدْ غَـــزَتْـــهُ بِجَيْـــشٍ غَيْـــرِ مَغْلُـــوبِ

وبعده :

كَـــأَنَّ كُـــلَّ سُـــؤَالٍ فِـــي مَسَـــامِعِـــهِ قَمِيـــصُ يُـــوسُـــفَ فِـــي أَجْفَـــانِ يَعْقُـــوبِ

ومنها :

وَجُـــرْمٍ جَـــرَّهُ سُفَهَـــاءُ قَـــوْمٍ وَحَـــلَّ بِغَيْـــرِ جَـــارِمِـــهِ الْعَـــذَابُ

ومنها :

وَمَـــا الْحُسْـــنُ فِـــي وَجْـــهِ الْفَتَـــىٰ شَـــرَفـــاً لَـــهُ إِذَا لَـــمْ يَكُـــنْ فِـــي فِعْلِـــهِ وَالْخَـــلاَئِـــقِ

ومنها :

وَإِنَّ قَلِيـــلَ الْحُـــبِّ بِـــالْعَقْـــلِ صَـــالِـــحٌ وَإِنَّ كَثِيـــرَ الْحُـــبِّ بِـــالْجَهْـــلِ فَـــاسِـــدُ

ومنها :

إِذَا رَأَيْـــتَ نُيُـــوبَ اللَّيْـــثِ بَـــارِزَةً فَـــلاَ تَظُنَّـــنَّ أَنَّ اللَّيْـــثَ يَبْتَسِـــمُ

ومنها :

وَمَـــا انْتِفَـــاعُ أَخِ الـــدُّنْيَـــا بِنَـــاظِـــرِهِ إِذَا اسْتَـــوَتْ عِنْـــدَهُ الأَنْـــوَارُ وَالظُّلَـــمُ

ومنها :

خُـــذْ مَـــا تَـــرَاهُ وَدَعْ شَيْئـــاً سَمِعْـــتَ بِـــهِ فِـــي طَلْعَـــةِ الشَّمْـــسِ مَـــا يُغْنِيـــكَ عَـــنْ زُحَـــلِ

ومنها :

لَعَـــلَّ عَتْبَـــكَ مَحْمُـــودٌ عَـــوَاقِبُـــهُ فَـــرُبَّمَـــا صَحَّـــتِ الأَجْسَـــامُ بِـــالْعِلَـــلِ

ومنها :

آلَـــةُ الْعَيْـــشِ صِحَّـــةٌ وَشَبَـــابُ فَـــإِذَا وَلَّيَـــا عَـــنِ الْمَـــرْءِ وَلَّـــىٰ

= وفيها :

أَبَــداً تَسْتَــرِدُّ مَــا تَهَــبُ الــدُّنْــيَــا فَيَــا لَيْــتَ جُــودَهَــا كَــانَ بُخْــلاَ

ومنها :

وَمَــا الــدَّهْــرُ أَهْــلٌ أَنْ تُــؤَمَّــلَ عِنْــدَهُ ... حَيَــاةٌ وَأَنْ يُشْتَــاقَ فِيــهِ إِلَــى النَّسْــلِ

ومنها :

إِذَا مَــا النَّــاسُ جَــرَّبَهُــمْ لَبِيــبٌ ... فَــإِنِّــي قَــدْ أَكَلْتُهُــمُ وَذَاقَــا

ومنها :

أَبَــىٰ خُلُــقُ الــدُّنْيَــا حَبِيبــاً تُــدِيمُــهُ ... فَمَــا طَلَبِــي مِنْهَــا حَبِيبــاً تَــرُدُّهُ

ومنها :

وَأَسْــرَعُ مَفْعُــولٍ فَعَلْــتَ تَغَيُّــراً ... تَكَلُّــفُ شَــيْءٍ فِــي طِبَــاعِــكَ ضِــدُّهُ

ومنها :

مَــا كُــلُّ مَــا يَتَمَنَّــى الْمَــرْءُ يُــدْرِكُــهُ ... تَجْــرِي الــرِّيَــاحُ بِمَــا لاَ تَشْتَهِــي السُّفُــنُ

ومنها :

وَمُــرَادُ النُّفُــوسِ أَصْغَــرُ مِــنْ أَنْ ... نَتَعَــادَىٰ فِيــهِ وَأَنْ نَتَفَــانَــىٰ

وفيها :

غَيْــرَ أَنَّ الْفَتَــىٰ يُــلاَقِــي الْمَنَــايَــا ... كَــالِحَــاتٍ وَلاَ يُــلاَقِــي الْهَــوَانَــا

وفيها :

وَلَــوَ انَّ الْحَيَــاةَ تَبْقَــىٰ لِحَــيٍّ ... لَعَــدَدْنَــا أَضَلَّنَــا الشُّجْعَــانَــا

وفيها :

وَإِذَا لَــمْ يَكُــنْ مِــنَ الْمَــوْتِ بُــدٌّ ... فَمِــنَ الْعَــارِ أَنْ تَمُــوتَ جَبَــانَــا

ومنها :

وَصِــرْتُ أَشُــكُّ فِيمَــنْ أَصْطَفِيــهِ ... لِعِلْمِــي أَنَّــهُ بَعْــضُ الأَنَــامِ

وفيها :

وَآنَــفُ مِــنْ أَخِــي لأَبِــي وَأُمِّــي ... إِذَا مَــا لَــمْ أَجِــدْهُ مِــنَ الْكِــرَامِ

وفيها :

وَلَــمْ أَرَ فِــي عُيُــوبِ النَّــاسِ شَيْئــاً ... كَنَقْــصِ الْقَــادِرِيــنَ عَلَــى التَّمَــامِ

ومنها :

لَــوْلاَ الْمَشَقَّــةُ سَــادَ النَّــاسُ كُلُّهُــمُ ... الْجُــودُ يُفْقِــرُ وَالإِقْــدَامُ قَتَّــالُ

وفيها :

إِنَّــا لَفِــي زَمَــنٍ تَــرْكُ الْقَبِيــحِ بِــهِ ... مِــنْ أَكْثَــرِ النَّــاسِ إِحْسَــانٌ وَإِفْضَــالُ

ومنها :

إِنِّــي لأَجْبُــنُ مِــنْ فِــرَاقِ أَحِبَّتِــي ... وَتُحِــسُّ نَفْسِــي بِــالْحِمَــامِ فَــأَشْجُــعُ

= إلىٰ قوله :

تَصْفُو الْحَيَاةُ لِجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ ... عَمَّا مَضَىٰ فِيهَا وَمَا يُتَوَقَّعُ
وَلِمَنْ يُغَالِطُ فِي الْحَقِيقَةِ نَفْسَهُ ... وَيَسُومُهَا طَلَبَ الْمُحَالِ فَتَطْمَعُ

ومنها :

تَوَهَّمَ النَّاسُ أَنَّ الْعَجْزَ قَرَّبَنَا ... وَفِي التَّقَرُّبِ مَا يَدْعُو إِلَى التُّهَمِ

وفيها :

وَلَمْ تَزَلْ قِلَّةُ الإِنْصَافِ قَاطِعَةً ... بَيْنَ الرِّجَالِ وَلَوْ كَانُوا ذَوِي رَحِمِ

وفيها :

هَوِّنْ عَلَىٰ بَصَرٍ مَا شَقَّ مَنْظَرُهُ ... فَإِنَّمَا يَقَظَاتُ الْعَيْنِ كَالْحُلُمِ

وفيها :

وَكُنْ عَلَىٰ حَذَرٍ لِلنَّاسِ تَسْتُرُهُ ... وَلاَ يَغُرُّكَ مِنْهُمْ ثَغْرُ مُبْتَسِمِ

وفيها :

غَاضَ الْوَفَاءُ فَمَا تَلْقَاهُ فِي عِدَةٍ ... وَأَعْوَزَ الصِّدْقُ فِي الإِخْبَارِ وَالْقَسَمِ

ومنها :

تُرِيدِينَ لُقْيَانَ الْمَعَالِي رَخِيصَةً ... وَلاَ بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبَرِ النَّحْلِ

ومنها :

نَحْنُ بَنُو الْمَوْتَىٰ فَمَا بَالُنَا ... نَعَافُ مَا لاَ بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ

إلىٰ قوله :

يَمُوتُ رَاعِي الضَّأْنِ فِي جَهْلِهِ ... مَوْتَةَ جَالِينُوسَ فِي طِبِّهِ

ومنها :

وَإِنَّ الْمَاءَ يَخْرُجُ مِنْ جَمَادٍ ... وَإِنَّ النَّارَ تَخْرُجُ مِنْ زِنَادِ

ومنها :

تَغَيَّرَ حَالِي وَاللَّيَالِي بِحَالِهَا ... وَشِبْتُ وَمَا شَابَ الزَّمَانُ الْغَرَانِقُ

ومنها :

فُؤَادٌ مَا تُسَلِّيهِ الْمُدَامُ ... وَعُمْرٌ مِثْلُ مَا تَهَبُ اللِّئَامُ

وفيها :

وَدَهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صِغَارٌ ... وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَثٌ ضِخَامُ

وفيها :

وَمَا أَنَا مِنْهُمُ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ ... وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ

وفيها :

خَلِيلُكَ أَنْتَ لاَ مَنْ قُلْتَ خِلِّي ... وَإِنْ كَثُرَ التَّجَمُّلُ وَالْكَلاَمُ

= وفيها :

وَشِبْـــــهُ الشَّـــــيْءِ مُنْجَـــــذِبٌ إِلَيْـــــهِ وَأَشْبَهُنَـــا بِـــدُنْيَـــانَـــا الطَّغَـــامُ

وفيها :

وَمَـــنْ خَبَـــرَ الْغَـــوَانِـــي فَـــالْغَـــوَانِـــي ضِيَـــاءٌ فِـــي بَـــوَاطِنِـــهِ ظَـــلاَمُ

وفيها :

وَمَـــا كُـــلٌّ بِمَعْـــذُورٍ بِبُخْـــلٍ وَلاَ كُـــلٌّ عَلَـــىٰ بُخْـــلٍ يُـــلاَمُ

وفيها :

بِـــأَرْضٍ مَـــا اشْتَهَيْـــتَ رَأَيْـــتَ فِيهَـــا فَلَيْـــسَ يَفُـــوتُهَـــا إِلاَّ الْكِـــرَامُ

وفيها :

فَهَـــلاَّ كَـــانَ نَقْـــصُ الأَهْـــلِ فِيهَـــا وَكَـــانَ لأَهْلِهَـــا مِنْهَـــا التَّمَـــامُ

ومنها :

وَاحْتِمَـــالُ الأَذَىٰ وَرُؤْيَـــةُ جَـــانِيـــهِ غِـــذَاءٌ تَضْـــوَىٰ بِـــهِ الأَجْسَـــامُ

وفيها :

ذَلَّ مَـــنْ يَغْبِـــطُ الذَّلِيـــلَ بِعَيْـــشٍ رُبَّ عَيْـــشٍ أَخَـــفُّ مِنْـــهُ الْحِمَـــامُ

وفيها :

مَـــنْ يَهُـــنْ يَسْهُـــلِ الْهَـــوَانُ عَلَيْـــهِ مَـــا لِجُـــرْحٍ بِمَيِّـــتٍ إِيـــلاَمُ

ومنها :

أَفَـــاضِـــلِ النَّـــاسِ أَغْـــرَاضٌ لِـــذَا الـــزَّمَـــنِ يَخْلُـــو مِـــنَ الْهَـــمِّ أَخْـــلاَهُـــمْ مِـــنَ الْفِطَـــنِ

وفيها :

فَقْـــرُ الْجَهُـــولِ بِـــلاَ عَقْـــلٍ إِلَـــىٰ أَدَبٍ فَقْـــرُ الْحِمَـــارِ بِـــلاَ رَأْسٍ إِلَـــىٰ رَسَـــنِ

وفيها :

لاَ يُعْجِبَـــنَّ مُضِيمـــاً حُسْـــنُ بِـــزَّتِـــهِ وَهَـــلْ يَـــرُوقُ دَفِينـــاً جَـــوْدَةُ الْكَفَـــنِ

ومنها :

عَـــرَفْـــتُ اللَّيَـــالِـــي قَبْـــلَ مَـــا صَنَعَـــتْ بِنَـــا فَلَمَّـــا دَهَتْنِـــي لَـــمْ تَـــزِدْنِـــي بِهَـــا عِلْمـــاً

وفيها :

وَإِنِّـــي لَمِـــنْ قَـــوْمٍ كَـــأَنَّ نُفُـــوسَنَـــا بِهَـــا أَنَـــفٌ أَنْ تَسْكُـــنَ اللَّحْـــمَ وَالْعَظْمَـــا

وفيها :

فَـــلاَ عَبَـــرَتْ بِـــي سَـــاعَـــةٌ لاَ تُعِـــزُّنِـــي وَلاَ صَحِبَتْنِـــي مُهْجَـــةٌ تَقْبَـــلُ الظُّلْمَـــا

ومنها :

وَأَنَـــا الَّـــذِي اجْتَلَـــبَ الْمَنِيَّـــةَ طَـــرْفُـــهُ فَمَـــنِ الْمُطَـــالَـــبُ وَالْقَتِيـــلُ الْقَـــاتِـــلُ

وفيها :

وَإِذَا أَتَتْـــكَ مَـــذَمَّتِـــي مِـــنْ نَـــاقِـــصٍ فَهِـــيَ الشَّهَـــادَةُ لِـــي بِـــأَنِّـــي كَـــامِـــلُ =

= ومنها :

وَلاَ تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زِقّاً وَقَيْنَةً   وَمَا الْمَجْدُ إِلاَّ السَّيْفُ وَالْفَتْكَةُ الْبِكْرُ

وفيها :

وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ   مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ

ومنها :

فَمَا فِي سَجَايَاكُمْ مُنَازَعَةُ الْعُلاَ   وَلاَ فِي طِبَاعِ التُّرْبَةِ الْمِسْكُ وَالنَّدُّ

ومنها :

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومِ   فَلاَ تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ

وفيها :

فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ حَقِيرٍ   كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمِ

وفيها :

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيحاً   وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

ومنها :

والظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ   ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لاَ يَظْلِمُ

وفيها :

وَالذُّلُّ يُظْهِرُ فِي الذَّلِيلِ مَوَدَّةً   وَأَوَدُّ مِنْهُ لِمَنْ يَوَدُّ الأَرْقَمُ

وفيها :

وَمِنَ الْبَلِيَّةِ عَذْلُ مَنْ لاَ يَرْعَوِي   عَنْ غَيِّهِ وَخِطَابُ مَنْ لاَ يَفْهَمُ

ومنها :

يُدَفِّنُ بَعْضُنَا بَعْضاً وَيَمْشِي   أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الأَوَالِي

ومنها :

وَمَا الْمَوْتُ إِلاَّ سَارِقٌ دَقَّ شَخْصُهُ   يَصُولُ بِلاَ كَفٍّ وَيَسْعَى بِلاَ رِجْلِ

ومنها :

أَرَى كُلَّنَا يَبْغِي الْحَيَاةَ لِنَفْسِهِ   حَرِيصاً عَلَيْهَا مُسْتَهَاماً بِهَا صَبَّا

وفيها :

وَيَخْتَلِفُ الرِّزْقَانِ وَالْفِعْلُ وَاحِدٌ   إِلَى أَنْ يُرَى إِحْسَانُ هَذَا لِذَا ذَنْبَا

ومنها :

رُبَّ أَمْرٍ أَتَاكَ لاَ تَحْمَدُ الْفَعَّالَ فِيهِ وَتَحْمَدُ الأَفْعَالاَ

وفيها :

وَإِذَا مَا خَلاَ الْجَبَانُ بِأَرْضٍ   طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَهُ وَالنِّزَالاَ

وفيها :

مَنْ أَطَاقَ الْتِمَاسَ شَيْءٍ غِلاَباً   وَاغْتِصَاباً لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالاَ

في الأُولىٰ . إلاَّ وهوَ يريدُ أَن يتجاوزَ عَن سيِّئاتِهِ في الأُخرىٰ ، وهوَ عندَ ظنِّ عبدِهِ بهِ .

[العمل كان في الكتاب علىٰ مبدأ الانتقال من زهرة إلىٰ زهرة دون تعمد ترتيب]

رابعُها : أَنَّنا نجري في هٰذهِ المجموعَةِ ـ كَمَا كرَّرْنا القولَ ـ بسوقِ الخاطِرِ ، وسيرِ البديهَةِ ، ونتسقَّطُ تداعي الأَفكار ، ونذكُرُ في كلِّ موضِعٍ ما تنتهي بِنا إِليهِ الذاكرَةُ ، وقد اشتملَتْ مِن الأَشعارِ علىٰ طرائِفَ ، ومِنَ النوادِرِ علىٰ ظَرائِفَ ، لَو وُفِّقَ أَديبٌ لترتيبِها ، وإِلحاقِ كلِّ فرعٍ بأَصلِهِ ، وكلِّ ضالٍّ بأَهلِهِ . . لجاءَ كتاباً موفورَ الفائِدَةِ ، مذكورَ العائِدَةِ ، معدومَ النظيرِ .

وكأَنِّي بلائِمٍ يلومُ علىٰ ما أَشرتُ إِليهِ مِن تشتيتِ المواضيعِ ، وتفريقِ الشواهِدِ ، وجوابُهُ ـ فوقَ ما عرفَ مِمَّا سَلَفَ ـ : اعتمادُ أَن ينالَ كلُّ مجلسٍ نصيبَهُ مِنَ الجدِّ ، والهزلِ ، والوقْشِ ، والجزْلِ ؛ حتَّىٰ يقومَ بذاتِهِ ، ويستقلَّ بنفسِهِ ، ويُمتعَ علىٰ حدتِهِ ، وذلكَ مِن أَفضلِ فنونِ البلاغَةِ ، وهيَ طريقَةُ الذكرِ الحكيمِ ، إِذ ترىٰ آياتِ الطلاقِ والبيوعِ مقرونَةً بالوعظِ المبكي ، والوعدِ المِسكيِّ ، والوعيدِ المُنكي ، ولَو كانَت كما تقرؤُها في داووينِ الفقهِ . . لَما أَعوزَ الملحدَ لها جحوداً ، ولَما خضعَ لَها المَصاقِعُ سجوداً .

ثمَّ إِنَّ أُمَّهاتِ كتبِ الأَدبِ ـ كـ« **البيانِ والتبيينِ** » للجاحظِ ـ لا تخلو عَنِ الأَغلاطِ ، والتحريفِ ، والتكريرِ ، والتصريفِ ، فكثيراً ما أَرى الأَبياتَ فيها مختلفَةَ العزوِ ، مَعَ تقاربِ المواضِعِ ، وذلكَ أَنصَعُ لوجهِ عذرِنا ، فيما يكونُ مِن مثلِهِ عندَنا أَنزرُ منهُ عندَهُم ، إِن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

[خواطر الانتهاء من الكتاب]

خامسُها : لَمَّا أَلقيتُ القلمَ عِشاءَ مساءِ الليلَةِ ١٧ مِن جمادى الأُولىٰ سنةَ : (١٣٥٢هـ) كَما هيَ العادَةُ ، تكونُ القراءَةُ والكلامُ عَلَيها بما يحضُرُ عشيَّةً ، ثمَّ أَخلو بنفسي ساعةً مِنَ المساءِ ، أُقيِّدُ فيها ما يكونُ ، وحينئِذٍ وقد قرأْتُ وِردي ، وأَخذْتُ مضجَعي ، ووقعَ نظَري على السماءِ ، وزينتِها بالنجومِ الزاهِرَةِ ، وما فيها من الآياتِ الباهِرَةِ . . استغرقَ فِكري ، واستجمعَ ذِكري ، وانطلقَتْ لِساني ببيتٍ مرَّ ذكرُهُ في المجلسِ العاشرِ ، لتقيِّ الدينِ بنِ تيميَّةَ ، وهوَ قولُهُ : [مِنَ البسيطِ]

وَالْفَقْـرُ لِـي وَصْـفُ ذَاتٍ لاَزِمٌ أَبَـداً كَمَـا الْغِنَـىٰ لَـكَ وَصْـفٌ لاَزِمٌ ذَاتِـيّ

وأَحسستُ مِن الوقتِ بطيبٍ ، ومن الإِلهامِ بخطيبٍ ، فاستكانَ القلبُ ، وانشرحَ الصدرُ ، وقفَّ الشَّعَرُ ، واهتزَّ البدَنُ ، وانبسطَتِ الرُّوحُ ، وقرَّتِ العينُ ، وعظُمَتِ الأَريحةُ[1] ، واغتنمتُ الفرصَةَ بالمناجاةِ والدعاءِ ، وجاشَتْ في الخاطِرِ أَبياتٌ ضمَّنْتُها ذلكَ البيتَ ، توجَدُ في موضعِها مِنَ « **الديوان** » ، غيرَ أَنَّها حالَةٌ جاءَت فمَرَّتْ ، واحلولَت ساعةً ثمَّ أَمرَّت[2] ، واللهُ المحمودُ أَولاً وآخراً ، ونبيُّه المصلَّىٰ عليهِ وعلىٰ آلهِ وأَصحابِهِ ، والمسلَّمُ عليهِم سلاماً عاطراً .

* * *

= إِذَا أَنْـتَ أَكْـرَمْـتَ الْكَـرِيـمَ مَلَكْتَـهُ وَإِنْ أَنْـتَ أَكْـرَمْـتَ اللَّئِيـمَ تَمَـرَّدَا

وَوَضْـعُ النَّـدَىٰ فِـي مَـوْضِـعِ السَّيْـفِ بِـالْعُـلاَ مُضِـرٌّ كَـوَضْـعِ السَّيْـفِ فِـي مَـوْضِـعِ النَّـدَىٰ

فهٰذا الذي لم يأت شاعر بمثله . وإنما ذكرناه مجملاً ليسهل أخذه وحفظه ، ولو تصفحت دواوين المجيدين المولدين والمحدثين . . لم نجد لأحد منهم بعض هٰذا نادراً ، ولكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، ويؤتي الحكمة من يشاء .

(١) هٰكذا في الأصل ، ولعلها الرويحة وهي : وجدانك السرور الحادث من اليقين ، والله أعلم .

(٢) أَمرَّت : صارت مُرَّةً .



محتوى الكتاب

المجلس الأول

بِــأَبِــيْ مَــــنْ وَدِدْتُــــــــهُ فَــافْــتَــرَقْــنَــا ... وَقَــضَــــى اللهُ بَــعْــــدَ ذَاكَ اجْــتِــمَــاعَــا
فَــافْــتَــرَقْــنَــا حَــوْلاً وَلَــمَّــا الْــتَــقَــيْــنَــا ... كَــانَ تَــسْــلِــيْــمُــهُ عَــلَــيَّ وَدَاعَــا

أَبْــلَــى الْهَــــوَى أَسَــفــاً يَــوْمَ الــنَّــوَى بَــدَنِيْ ... وَفَــرَّقَ الْهَــجْــرُ بَــيْنَ الْجَــفْــنِ وَالْــوَسَــنِ



المجلس الثاني





لاَ نَـاقَـتِـيْ تَـقْـبَـلُ الـرَّدِيْـفَ وَلاَ بِـالـسَّـوْطِ يَـوْمَ الـرِّهَـانِ أُجْـهِـدُهَـا

المجلس الثالث

لَـهُ أَيَـادٍ عَـلَـيَّ سَـابِـقَـةٌ أُعَـدُّ مِـنْـهَـا وَلاَ أُعَـدِّدُهَـا



يُعْطِيْ فَلاَ مَطْلُهُ يُكَدِّرُهَا

بِهَا وَلاَ مَنُّهُ يُنَكِّدُهَا

أَصْبَحَ حُسَّادُهُ وَأَنْفُسُهُمْ

يُحْدِرُهَا خَوْفُهُ وَيُصْعِدُهَا



قَدْ أَجْمَعَتْ هَذِهِ الْخَلِيقَةُ لِي أَنَّكَ يَا ابْنَ النَّبِيِّ أَوْحَدُهَا
وَأَنَّكَ بِالأَمْسِ كُنْتَ مُحْتَلِماً شَيْخَ مَعَدٍّ وَأَنْتَ أَمْرَدُهَا

المجلس الرابع

مُحِبِّيْ قِيَامِيْ مَا لِذَلِكُمُ النَّصْلِ بَرِيّاً مِنَ الْجَرْحَى سَلِيْماً مِنَ الْقَتْلِ



المجلس الخامس





وَإِلاَّ تَمُتْ تَحْتَ السُّيُوفِ مُكَرَّماً

تَمُتْ وَتُقَاسِيَ الذُّلَّ غَيْرَ مُكَرَّمِ

فَثِبْ وَاثِقاً بِاللهِ وِثْبَةَ مَاجِدٍ

يَرَى الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فِي الْفَمِ



المجلس السابع

أَحْـيَـا! وَأَيْـسَـرُ مَـا قَـاسَـيْـتُ مَـا قَـتَـلَا

وَالْـبَـيْـنُ جَـارَ عَـلَـى ضَـعْـفِـيْ وَمَـا عَـدَلَا

وَالْـوَجْـدُ يَـقْـوَى كَـمَـا تَـقْـوَى الـنَّـوَى أَبَـدَا

وَالـصَّـبْـرُ يَـنْـحَـلُ فِـيْ جِـسْـمِـيْ كَـمَـا نَـحِـلَا



لَــوْلاَ مُـفَـارَقَـةُ الأَحْـبَـابِ مَـا وَجَـدَتْ

لَـهَـا الْـمَـنَـايَـا إِلَـى أَرْوَاحِـنَـا سُـبُـلاَ

بِـمَـا بِـجَـفْـنَـيْـكِ مِـنْ سِـحْـرٍ صِـلِـيْ دَنِـفَـا

يَـهْـوَى الْـحَـيَـاةَ، وَأَمَّـا إِنْ صَـدَدْتِ فَـلاَ

إِلاَّ يَـشِـبْ فَـلَـقَـدْ شَـابَـتْ لَـهُ كَـبِـدٌ

شَـيْـبـاً إِذَا خَـضَّـبَـتْـهُ سَـلْـوَةٌ نَـصَـلاَ

يُـجَـنُّ شَـوْقـاً فَـلَـوْلاَ أَنَّ رَائِـحَـةً

تَـزُوْرُهُ فِـيْ رِيَـاحِ الـشَّـرْقِ مَـا عَـقَـلاَ

عَـلَّ الأَمِـيْـرَ يَـرَى ضَـعْـفِـيْ فَـيَـشْـفَـعَ لِـيْ

إِلَـى الَّـتِـيْ تَـرَكَـتْـنِـيْ فِـيْ الْـهَـوَى مَـثَـلاَ



المجلس الثامن



كَمْ مَهْمَهٍ قُذُفٍ قَلْبُ الدَّلِيلِ بِهِ

قَلْبُ الْمُحِبِّ، قَضَانِيْ بَعْدَمَا مَطَلَا

عَقَدْتُ بِالنَّجْمِ طَرْفِيْ فِيْ مَفَاوِزِهِ

وَحُرَّ وَجْهِيْ بِحَرِّ الشَّمْسِ إِذْ أَفَلَا

أَنْكَحْتُ صُمَّ حَصَاهَا خُفَّ يَعْمَلَةٍ

تَغَشْمَرَتْ بِيْ إِلَيْكَ السَّهْلَ وَالْجَبَلَا



المجلس التاسع



تَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِيْ رَشَفَاتِ

هُنَّ فِيْهِ أَحْلَى مِنَ التَّوْحِيْدِ

هَذِهِ مُهْجَتِيْ لَدَيْكَ لِحَيْنِيْ

فَانْقُصِيْ مِنْ عَذَابِهَا أَوْ فَزِيْدِيْ

كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدِّمَاءِ حَرَامٌ

شُرْبُهُ مَا خَلَا دَمَ الْعُنْقُوْدِ



شَيْبُ رَأْسِيْ وَذِلَّتِيْ وَنُحُوْلِيْ

ودُمُوْعِيْ عَلَى هَوَاكَ شُهُوْدِيْ؟!

أَيَّ يَوْمٍ سَرَرْتَنِيْ بِوِصَالٍ

لَمْ تَرُعْنِيْ ثَلاَثَةً بِصُدُوْدِ؟!

المجلس العاشر

مَا مُقَامِيْ بِأَرْضِ نَخْلَةَ إلاَّ

كَمُقَامِ الْمَسِيْحِ بَيْنَ الْيَهُوْدِ







المجلس الثاني عشر



المجلس الثالث عشر



المجلس الرابع عشر



المجلس الخامس عشر

المجلس السادس عشر



تَـذَلَّـلْ لِـمَـنْ تَـهْـوَى عَـلَـى الْـقُـرْبِ وَالـنَّـوَى

وَلاَ ثَـوْبَ مَـجْـدٍ غَـيْـرَ ثَـوْبِ ابْـنِ أَحْـمَـدٍ

فَـمَـا عَـاشِـقٌ مَـنْ لاَ يَـذِلُّ وَيَـخْـضَـعُ

عَـلَـى أَحَـدٍ إِلاَّ بِـلُـؤْمٍ مُـرَقَّـعُ

إِذَا عَـرَضَـتْ حَـاجٌ إِلَـيْـهِ فَـنَـفْـسُـهُ

إِلَـى نَـفْـسِـهِ فِـيْـهَـا شَـفِـيْـعٌ مُـشَـفَّـعُ

فَـصِـيْـحٌ مَـتَـى يَـنْـطِـقْ تَـجِـدْ كُـلَّ لَـفْـظَـةٍ

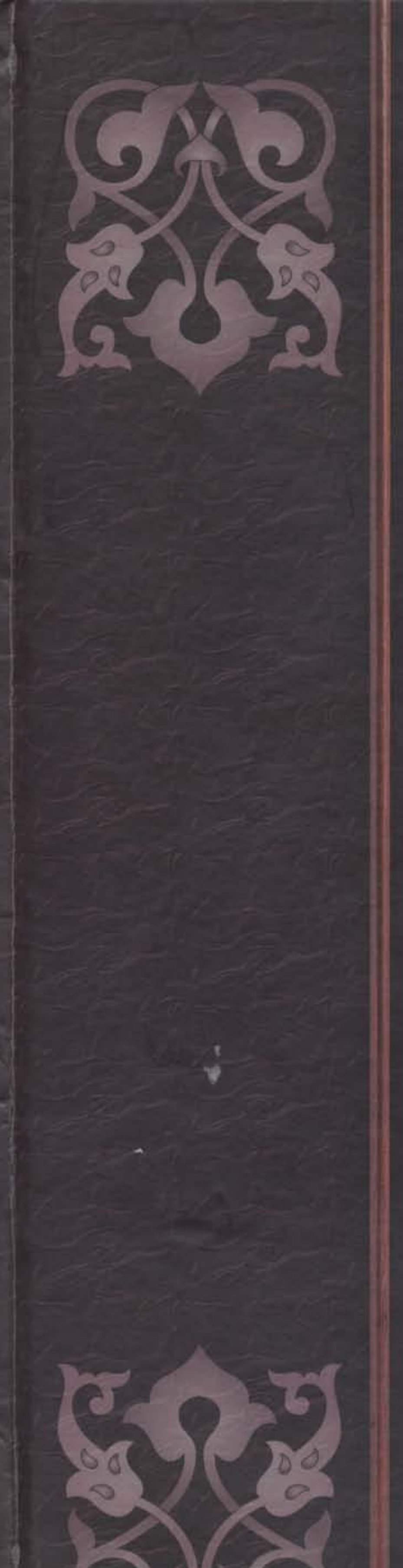
أُصُـوْلَ الْـبَـرَاعَـاتِ الَّـتِـيْ تَـتَـفَـرَّعُ

أَلاَ أَيُّـهَـا الْـقَـيْـلُ الْـمُـقِـيْـمُ بِـمَـنْـبِـجٍ

وَهِـمَّـتُـهُ فَـوْقَ الـسِّـمَـاكَـيْـنِ تُـوْضَـعُ







العُودُ الهِنديُّ

عَنْ أَمَالِيَّ في دِيوَانِ الكِنْدِيِّ

عشتُ معَ السَّقَّافِ في «عودِهِ الهنديِّ» فنسيتُ كلَّ كتابٍ أدبيٍّ أوْ ديوانٍ شعريٍّ قرأْتُهُ، معَ العلم أنَّني مِنَ الصِّبا وأنا أبدي وأعيدُ في الموسوعاتِ الأَدبيَّةِ، حتَّى صِرتُ بمعالِمها أهدى مِنْ سربِ القطا إلى عشِّهِ، فلمَّا طالعتُ «العودَ الهنديَّ».. صحتُ :

مَحا حُبُّها حُبَّ الأُلَى كُنَّ قَبْلَهَا
وَحَلَّتْ مَحَلّاً لَمْ يَكُنْ حُلَّ مِنْ قَبْلُ

إنَّني أُرشِّح كتابَ «العودِ الهنديِّ» للسَّقَّافِ منهجاً دراسيّاً في الأدبِ، ومورداً عذباً في النَّوادي والجامعاتِ والمدارسِ، ونهراً صافياً لروَّادِ البيانِ ورموزِ الفصاحةِ وصنَّاعِ الحرفِ الجميلِ، ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

وسوفَ أجعلُ كتابَ «العود الهندي» بمشيئةِ الله مادتي في دروسِ الأدبِ والشِّعرِ؛ لأنَّني وجدتُ فيهِ ضالتي بعدَ ثلاثينَ سنةً مِنَ التِّرحالِ في شعابِ الأدبِ وأوديةِ الشِّعرِ، ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا﴾.

ISBN: 978 - 9953 - 498 - 48 - 5
9789953498485